التيسير

في

اختصار تفسير ابن كثير

اختصار وتحقيق

صلاح بن محمد عرفات   محمد بن عبد الله الشنقيطي

خالد بن فوزي عبد الحميد

إشراف

الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد

إمام وخطيب المسجد الحرام وعضو هيئة كبار العلماء

دار الهداة للنشر

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ

دار الهــداة للنشــر ـ جـدة

تليفون : ٦٦٨٩٨٩٢

فاكـس : ٦٦٨٩٨٩٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل كتابه قرآناً عربياً غير ذي عوج، واضح البينات والحجج، أنزله بحسب المصالح منجماً، كلاماً مثاني متشابها محكماً. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، خص هذا القرآن بكونه ساطعاً بيانه، قاطعاً برهانه. وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله النبي الأمي المكتوب في التوارة والإنجيل، المؤيد بالسنة والتنزيل. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار، من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان ما تعاقب الليل والنهار.

أما بعد فلم يحظ كتاب بالعناية على مدار التاريخ منذ أن عرف الإنسان القراءة والكتابة كما حظي القرآن الكريم، فلقد تركزت العناية به وبسوره وترتيبها، وآياته بألفاظها وحروفها، وقراءاته بوجوهها وأنواعها، ورسمه الخاص، ونقطه، وأجزائه، وأعشاره، وأحزابه، وتجويده، وحفظه وتدبره، وتفسيره، وتأويله، وفهمه، والاستنباط منه.

كما حبب الله إلى أهل الإسلام تلاوته ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته**﴾، وحثهم على قراءته وقراءة ما تيسر منه ﴿**فاقرأوا ما تيسر من القرآن**﴾. وأمرهم بالاستماع له والانصات عند قراءته ﴿**وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا**﴾ في خصائص ومزايا ليست لكتاب غيره على وجه الدنيا. إنه كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، ونور الأبصار والبصائر. أمثاله عِبَر لمن تدبرها، وأحكامه هدى لمن استبصرها.

كما جعل سبحانه كتابه العزيز أصلاً، وجعل سنة نبيه محمداً ﷺ له بياناً ﴿**وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾، وجعل استنباطات أهل العلم له ايضاحا وتبيانا. ثم قيض الله من اصطفاه ليكونوا أوعية لكتابه، وجعل هممهم مصروفة إلى تعلمه وتعليمه، والبحث في معانيه ودقائقه. فخير ما تصرف فيه الهمم كتاب الله قراءة وتعلماً وتعليماً وحفظاً وتدبراً وتفسيراً وشرحاً واستنباطاً. فعلوم القرآن خير العلوم، وخير علوم القرآن علم التفسير الذي يعرف به مراد الله وأحكامه وأوامره ونواهيه وزواجره وعبره، وخير أنواع التفسير التفسير بالمأثور فهو مستقى المعين الأول من رسول الله ﷺ، تفسير القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة. ثم آثار الصحابة رضوان الله عليهم ثم تابعيهم من أهل القرون المفضلة. ومن كل ذلك يأتي تفسير الإمام الحافظ المحدث الناقد البارع المفسر المؤرخ إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤) نموذجا من هذا النوع العالي من التفسير، فهو من أفضل تفاسير السلف، وأنقى كتب أهل العلم التي تعنى بالقرآن وعلومه، فقد جمع فيه المؤلف رحمه الله الفوائد الجمة، والفرائد العدة، من التوحيد والفقه والحديث واللغة والتاريخ وغيرها.

ومن كتبت له مطالعة لأقوال أهل العلم وآثارهم في شأن هذا التفسير، استبان له فضله

فكيف بمن من الله عليه بالاشتغال به تدريسا وعناية وتحقيقا، ناهيك بما عرف به هذا الإمام الفذ من التبريز في العلم والفضل والسبق، فقد كتب الله له ذكراً حسناً، وأحدوثة متميزة بين أهل العلم، كما كتب الله القبول لكتبه ومؤلفاته ولاسيما تفسيره هذا فاشتغل به أهل العلم وسمعه الخاصة والعامة، وحظي من الخاصة بعناية فائقة، قراءة، وتدريسا، واختصاراً، وتعليقاً، وتهذيباً، وقد بدأ يذيع صيت الكتاب وينتشر منذ حياة مؤلفه رحمه الله، وعده كثير من العلماء أفضل تفاسير السلف.

ونظراً لما غلب على الكتاب من الصفة الحديثية، إذ جرى المؤلف رحمه الله على سوق الأسانيد وجمع الروايات ونقدها والحكم عليها مع التعليل والترجيح، وهو جهد تجلى فيه مقام هذا الإمام ومنزلته، وكان محل الاحتفاء من أهل العلم، إلا أن هذا كان سببا في طول الكتاب وكبر حجمه مما كان مانعا لبعض ذوي الاهتمام والمطالعة والرغبة في اتساع المعرفة في معاني كتاب الله عز وجل من الاستفادة من هذا الكتاب العظيم والسفر الجليل. من أجل هذا ظهرت مختصرات عدة لهذا الكتاب، لكل واحد منها منهجه في الاختصار وأسلوبه في الحذف. غير أن لجنة من بعض فضلاء مدرسي دار الحديث الخيرية بمكة المشرفة توجهت همتهم لوضع مختصر سلكوا فيه منهجاً مغايراً لمن سبقهم سوف يأتي وصفه إن شاء الله في المقدمة.

ولقد أحسنوا الظن بي جزاهم الله خيراً، فرغبوا مني مشاركتهم ولو من طريق المتابعة والإشراف فشكر الله لهم حسن ظنهم، وما وسعني إلا إجابة رغبتهم لاسيما وإننا نعمل هذه الأيام على تحقيق الكتاب كله وسوف يخرج قريباً إن شاء الله.

واللجنة أثابها الله أنجزت عملها حسب الطريقة المرسومة والمنهج الذي تم التخطيط له. ومن المحزن المفرح أن أحد أعضائها وهو فضيلة الشيخ صلاح محمد عرفات وافته المنية صبيحة الليلة التي أتم فيها إنجازَ عمله من الكتاب. فهو محزن لأننا فقدنا شيخاً كريماً فاضلاً عالماً بحاثة محباً للعلم وأهله ولا نقول إلا ما يرضي ربنا. وهو مفرح فلعل ذلك من المبشرات في تمام إنجاز هذا العمل المبارك الذي الاشتغال بمثله من أشرف العلوم والأعمال بإذن الله. ولاسيما اتصاله بكلام الله وكلام رسوله ﷺ ثم آثار أهل العلم من السلف الصالح.

وليعلم القارىء الفاضل أن هذا العمل استغرق من اللجنة الموقرة وقتاً طويلاً حرصت فيه على الالتزام بعبارة الحافظ ابن كثير رحمه الله فكان أن حذفت الأسانيد والأحاديث الضعيفة على ما يأتي وصفه في مقدمة اللجنة. والله من وراء القصد وكفى به ولياً وكفى به نصيراً وصلى الله وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

صالح بن عبد الله بن حميد
مكة المكرمة
١٤٢١/٧/٢٣هـ

مقدمة لجنة اختصار تفسير ابن كثير

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أما بعد. .

فهذا (مختصر تفسير ابن كثير) نقدمه لطلبة العلم بعد جهد طويل، وعمل دؤوب، فلقد بدأت فكرة هذا المختصر إبان عمل اللجنة في تحقيق تفسير ابن كثير الذي سيصدر قريباً إن شاء الله، وقد شعرنا أثناء ذلك أن الكتاب ـ وقد كتب له من القبول ما لا يخفى ـ لا يتسنى للكثيرين من غير المتخصصين الاستفادة منه لكثرة ما فيه من المباحث التخصصية والصناعة الحديثية المتمثلة في سرد الأسانيد وبيان العلل والحكم على الرجال وغير ذلك مما يهتم به طلاب العلم المتخصصون إلا أن وجود هذه المباحث المتعمقة المتخصصة في التفسير يجعل غير المتخصصين لا يصلون إلى خلاصة التفسير التي يتوقون إليها.

ومن هنا كانت الحاجة الملحة لاختصار هذا الكتاب المبارك، ولقد شعر بهذا الكثير من الطلاب، وقد ظهرت عدة مختصرات لتفسير ابن كثير، وكان لكل منها أسلوبه ومنهجه غير أننا شعرنا بالحاجة إلى وجود مختصر لا يخرج في الجملة عما كتبه الحافظ ابن كثير، بحيث تكون العبارة هي عبارته، مع حذف ما لا يتوقف عليه التفسير، فاجتمعت اللجنة واتخذت لنفسها منهجاً خلصت منه إلى الاتفاق على اختصار تفسير ابن كثير على النحو الذي اختصر به الإمام الذهبي منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية، وبعد عدة لقاءات تم وضع المنهج الخاص بالاختصار، وتم عرضه على فضيلة الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد المشرف العام على العمل، وقد كانت اللجنة تجتمع مرتين في الأسبوع وتقرأ ما اختصر، مقابلاً بمخطوطة (الأزهر المصرية)، وببعض النسخ المطبوعة، ويتخلل ذلك مناقشات فيما يبقى وفيما يحذف، واستمر الأمر بضعة أسابيع حتى استقر المنهج على ما سوف يتم وصفه، وبحمد الله انتهت من أعمالها بعد صلاة العشاء ليلة الثلاثاء ١٨/ ١٠/ ١٤٢٠هـ ، وفي صبيحة هذه الليلة توفي فجأة عضو اللجنة الشيخ صلاح محمد عرفات رحمه الله تعالى وغفر له وأجزل له المثوبة.

وأما المنهج الذي اتخذته اللجنة في الاختصار فيتمثل فيما يلي:

أولاً: حذف الأسانيد التي ذكرها المؤلف في الكتاب، وترتب على ذلك تغيير في أول كلمة فإن الحافظ ابن كثير عند إيراده للإسناد يقول: قال فلان فتم تغييره بـ(روى فلان أو أخرج فلان)، ونحو ذلك. ولأجل الربط بين العبارات احتاجت اللجنة إلى إضافة أحرف وكلمات نحو: (عن ـ و ـ أيضا ـ وغيره ـ وغيرهم. . .) ونضع ما عدا الأحرف بين قوسين هكذا [ ].

ثانياً: حذف الأحاديث الضعيفة التي نص الشيخ على تضعيفها، أو نص أئمة العلم على ذلك،

أو ظهر للجنة عدم صلاحيتها للحجية، وأما الأحاديث التي صححها الشيخ أو حسنها وكذا ما نص على تصحيحه أو تحسينه بعض أهل العلم فقد أبقيناه مع حذف المكرر منه، وأثبتنا في نهاية كل منها من أخرجها إن لم يخرجها المصنف مع الحكم عليها وجعلنا ذلك بين قوسين أيضا. وربما لا يصل الحديث إلى درجة الاحتجاج، لكن الشيخ أورده تفسيراً ولم يورد غيره، فهذا نبقيه مع التنبيه على ضعفه، وهذا قليل.

ومنهجنا في ذلك لا يخرج عن منهج الحافظ ابن كثير الذي نص عليه عند تفسير قوله: ﴿**وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات**﴾ [البقرة:١٢٤] حيث قال: إنه لا تجوز رواية الضعيف إلا مع بيان الضعف.

وأما الأحاديث التي أوردها ابن كثير بطولها، فإن لم تكن لها فائدة مباشرة في التفسير فإننا نقتصر على ايراد محل الشاهد منها.

أما الآثار التي نقلت عن السلف في التفسير فقد أبقيناها كلها في الجملة، لم نحذف منها إلا القليل وإن كان بعض أسانيدها ضعيفاً، إلا ما نص الشيخ على رده وتضعيفه، أو كان منكراً مخالفاً للصحيح، أو مخالفاً لأصول الشريعة مع ضعف إسناده فإننا نحذفه، وقد يحكي الشيخ القول عن كثير من مفسري السلف فنختار ثلاثة أو أربعة من أشهرهم بمراعاة المدارس التفسيرية المختلفة ويشار للآخرين بين قوسين بلفظ [وغيرهم]، ونحو ذلك.

ثالثاً: نص الكتاب كله من كلام ابن كثير وإذا احتجنا إلى اثبات عبارات من عندنا للربط فإننا نضعها بين قوسين [ ] تمييزاً لها عن نص الكتاب.

رابعاً: الظاهر أن الحافظ ابن كثير رحمه كان يعتمد قراءة غير قراءة حفص، ويغلب على الظن أنها قراءة أبي عمرو فإنه كثيراً ما يفسر عليها ثم يذكر القراءة الأخرى، وهذا الأمر لم ينتبه له بعض من اختصر الكتاب فاختصر القراءة الثانية، وأثبت الأولى، مع أنه أثبت الآيات على القراءة التي حذفها وهي قراءة حفص، وقد تنبهنا إلى هذا وراعيناه، والأصل أننا لا نذكر من القراءات إلا ما كان يتوقف فهم التفسير عليها، حيث قد نص الحافظ ابن كثير في تفسيره لآية البقرة ﴿**من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال...**﴾ [آية:٩٨] على أنه لم يسرد من القراءات إلا ما يدور فهم المعنى عليه أو يرجع الحكم في ذلك إليه. وقد أثبتنا قراءة حفص في جميع الآيات. وما أبقيناه من القراءات الشاذة نبهنا على شذوذه.

خامسا: لم نحذف الأقوال الفقهية التي أوردها الشيخ، إلا أننا ربما حذفنا الأقوال الضعيفة وأثبتنا الراجح بدليله، وننبه القارىء إلى أن مراد المصنف بالأصحاب: الشافعية.

سادساً: ربما وقعت أوهام في النسخ التي بين أيدينا في عزو أو تخريج فإننا نصحح مثل هذا ونضعه بين قوسين، وهو قليل.

سابعاً: كثيرا ما يستدل المصنف على التفسير باللغة ويورد أبياتاً من الشعر، فأبقينا بعضها

وحذفنا أكثرها مع الإبقاء على المعنى اللغوي الذي يخدم التفسير مع عزوه لقائله.

وأخيراً فإن من لا يشكر الناس لا يشكر الله، واعترافاً بالحق والفضل لأهله، فإننا لا ننسى أن نشكر معالي الشيخ الدكتور صالح بن عبد الله بن حميد على موافقته على الإشراف العلمي على هذا المشروع، وحثه الدائم على ضرورة الانتهاء منه في أفضل صورة ممكنة، والاجتماع به عند وضع المنهج وتعديله، ثم الإشراف على طباعة المشروع بعد الانتهاء منه، فهذا كله كان له الأثر الكبير في صدور هذا الكتاب على هذه الصورة التي نأمل أن تكون مشرفة مقبولة.

وسبحانك اللهم وبحمدك ونشهد ألا إله إلا أنت ونستغفرك ونتوب إليك.

لجنة التحقيق

فضيلة الشيخ صلاح بن محمد بن عرفات المتوفى في ١٨/ ١٠/ ١٤٢٠هـ

محمد عبد الله بن الشيخ محمد الشنقيطي

خالد بن فوزي بن عبد الحميد

(المدرسون بدار الحديث الخيرية بمكة المكرمة)

الحافظ ابن كثير وكتابه التفسير

أولاً: ابن كثير: هو الإمام الحافظ المؤرخ المفسر أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي، ولد في حدود سنة سبعمائة من الهجرة، ونشأ في بيت علم ودين، فأبوه من الأئمة الذين أخذوا عن فقهاء الشافعية في عصرهم كالنووي، والفركاح، وكان خطيب قريته، إلا أن ابن كثير لم يأخذ عنه إذ توفي أبوه وهو صغير، وقد انتقلت الأسرة بعد موته إلى دمشق، وقام بالأسرة أخوه عبد الوهاب الذي تولى تربية المصنف وكانت بداية دراسته عليه.

وقد أخذ ابن كثير عن أعلام عصره، ونجد في ثبت أسماء شيوخه أمثال: ابن تيمية، والحافظ المزي وقد صاهره فتزوج بابنته، والحافظ الذهبي، والفقيه إبراهيم الفركاح، والمؤرخ المحدث البرزالي، والحافظ الدمياطي، والمقرىء محمد بن جعفر اللباء وغير هؤلاء كثير.

كما تتلمذ على يديه جملة من الأئمة من أبرزهم شيخ علم القراءات في عصره محمد بن محمد بن الجزري، وابن أبي العز الحنفي شارح الطحاوية، والحافظ أبو المحاسن الحسني، وجمع كثير.

وقد بارك الله لابن كثير في مؤلفاته، فوضع كتابه التفسير ووضع جملة من الكتب في الحديث وعلومه لعل من أشهرها: (جامع المسانيد والسنن) و(اختصار علوم الحديث)، وعدداً من الأجزاء الحديثية، كما وضع في الفقه على المذهب الشافعي كتابه الكبير الأحكام الكبرى، وأجزاء فقهية كثيرة، ويعد كتابه في التاريخ (البداية والنهاية) من أجل كتب التاريخ لما فيه من تحقيقات عديدة وتحليل فريد للوقائع.

وقد أثنى عليه معاصروه ومن جاء بعده، ووصفه الذهبي وهو معاصره وشيخ له بأنه الإمام المفتي المحدث البارع فقيه متفنن متقن مفسر نقال، ووصفه ابن حجر بأنه كثير الاستحضار حسن المفاكهة، سارت تصانيفه في البلاد في حياته وانتفع بها الناس بعد وفاته، وذكر ابن حبيب أنه طارت أوراق فتاويه إلى البلاد واشتهر بالضبط والتحرير وأنه انتهى إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير وبنحو ذلك وصفه العيني.

وقد توفي في يوم الخميس السادس والعشرين من شهر شعبان عام٧٧٤هـ، وكانت له جنازة حافلة مشهودة، ودفن حسب وصيته في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية بمقبرة الصوفية بدمشق.

ثانياً: كتابه (تفسير القرآن العظيم): وهو من أجل كتب التفسير قال عنه السيوطي: إنه «لم يؤلف على نمط مثله»، وقال الشوكاني عن ابن كثير: «وله تصانيف، منها التفسير المشهور وهو في مجلدات وقد جمع فيه فأوعى، ونقل المذاهب والأخبار والآثار، وتكلم بأحسن كلام وأنفسه وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها» اهـ.

وقد جمع تفسيره من عشرات الكتب المؤلفة في التفسير والحديث والفقه ولعل من أشهرها

في **التفسير** تفسير ابن جرير، وابن أبي حاتم، والرازي، والبغوي، وابن عطية، وغيرها. وأما في **الحديث**، فقد أكثر من العزو إلى الكتب الستة واعتنى عناية فائقة بالنقل من مسند الإمام أحمد، كما كانت له عناية بكتاب صهره الحافظ المزي (تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف)، وكذلك المختارة للضياء المقدسي، وكثيراً ما يحيل على كتابه جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن، **وفي الفقه** اعتمد على كتب الإمام الشافعي، وعلى كتاب حافظ المغرب ابن عبد البر الاستذكار ونقل عنه كثيراً عند ذكره لمذاهب العلماء، كما أكثر من النقل عن النووي وغيره.

وفي **التاريخ والتراجم** كان من ضمن مصادره أسد الغابة لابن الأثير، وطبقات ابن سعد، وأحال على كتابه البداية والنهاية. وأما في **اللغة** فأكثر ما اعتمد عليه الصحاح للجوهري، والغريب لأبي عبيد القاسم بن سلام، وقد نقل جملاً من كتب متفرقة في علوم شتى.

وقد **تميز منهجه** في التفسير بمميزات عدة لعل من أهمها أنه يفسر **القرآن بالقرآن وبالسنة** ويستوعب الأحاديث التي تدل على التفسير، أو يتطابق لفظ منها مع لفظ الآية فيجعلها عمدته في فهم النص القرآني، ويسرد **الأحاديث** غالباً مسندة، ويقدم في الجملة الأحاديث بإسنادها من كتب التفاسير كابن أبي حاتم وابن جرير، ثم يذكر من أخرجها من علماء الحديث وأئمته، ويقدم المسند في الذكر على الصحيحين، ولا يكاد يذكر حديثاً إلا ويبين صحته، وأما إن كان ضعيفاً يمكن أن ينجبر ضعفه فإنه يحشد له شواهد ومتابعات كثيرة، كما نبه على ضعف كثير من الأحاديث وله في ذلك لفتات مميزة، وضوابط وقواعد كثيرة كتحسين حديث ابن لهيعة من طريق العبادلة، والأخذ بحديث الحارث الأعور في الحساب والفرائض خاصة وغير ذلك كثير.

وقد اختلف منهج الحافظ ابن كثير في سرد التفسير **طولاً وقصراً**. وأما **القراءات** فقد بين أن منهجه أن يذكر منها ما يتعلق بالتفسير أو الأحكام دون استطراد في ذكرها، كما بين منهجه في الإسرائيليات وأنه لا يقبل منها إلا ما وافق الشريعة أو لم يخالفها في غير ما موضع من كتابه، وشنع على كثير منها.

وقد أدخل بعضاً من أجزائه **الفقهية** في التفسير كالجزء الذي كتبه في الصيد بالكلاب المعلمة وغير ذلك، وقد اعتنى بسرد **معتقد** أهل السنة والجماعة في التوحيد بأنواعه، وله اهتمام بالآثار في ذلك والتنبيه على البدع المختلفة.

وقد اشتمل تفسيره كذلك على جمل لطيفة من **اللغة والرقائق والآداب**، واعتنى بحشد **النصوص والآثار** في كثير من المسائل كالنصوص في عذاب القبر، وفي أحاديث الإسراء، والصلاة على النبي ﷺ، وفضل المساجد، والأحاديث الواردة في فضائل أهل البيت وغير ذلك كثير.

وقد اعتمدنا في عملنا على مخطوطة دار الكتب المصرية مع المقابلة بطبعة دار طيبة بتحقيق سامي سلامة، وبالنسخة التي طبعتها دار المعرفة وفيها زيادات عن نسخة دار طيبة، وربما استعنا ببعض النسخ المطبوعة الأخرى، وقد اجتهدنا في إخراج الكتاب بهذه الصورة التي حافظنا فيها

على عيون التفسير ولم نحذف منه إلا ما لا يحتاج إليه إلا المتخصص، والله حسبنا ونعم الوكيل وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

لجنة التحقيق

مقدمة الإمام ابن كثير (رحمه الله)

الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد فقال: ﴿**الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين**﴾ [الفاتحة: ٢-٤]، وقال تعالى: ﴿**الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا. قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا. ماكثين فيه أبدا. وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا. ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا**﴾ [الكهف: ١-٥]، وافتتح خلقه بالحمد، فقال تعالى: ﴿**الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون**﴾ [الأنعام: ١]، واختتمه بالحمد، فقال بعد ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار: ﴿**وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين**﴾ [الزمر: ٧٥]؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿**وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون**﴾ [القصص: ٧٠]، كما قال: ﴿**الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير**﴾ [سبأ: ١]. فله الحمد في الأولى والآخرة، أي في جميع ما خلق وما هو خالق، هو المحمود في ذلك كله كما يقول المصلي: «**اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد**» [رواه مسلم]؛ ولهذا يُلهم أهل الجنة تسبيحه وتحميده كما يُلهمون النَّفَس، أي يسبحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم لما يرون من عظيم نعمه عليهم، وكمال قدرته وعظيم سلطانه، وتوالي منته وإحسانه، كما قال تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم. دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين**﴾ [يونس: ٩-١٠]. والحمد لله الذي أرسل رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وختمهم بالنبي الأمي العربي المكي الهادي لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن، من لدن بعثته إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون**﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿**لأنذركم به ومن بلغ**﴾ [الأنعام: ١٩]. فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم، وأسود وأحمر، وإنس وجان، فهو نذير له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده**﴾ [هود: ١٧]. فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده، بنص الله تعالى، وكما قال تعالى: ﴿**فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم**﴾ [القلم: ٤٤-٤٥]. وقال رسول الله ﷺ: «**بعثت إلى الأحمر والأسود**» [رواه مسلم]. قال مجاهد: يعني: الإنس والجن فهو

صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، مبلغاً لهم عن الله ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه ندبهم إلى تَفَهُّمه، فقال تعالى: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب**﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾ [محمد: ٢٤]. فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلُّم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق الذي أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون**﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿**إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**﴾ [آل عمران: ٧٧]. فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله. فعلينا ـ أيها المسلمون ـ أن ننتهي عما ذمَّهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به، من تَعلُّم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهيمه، قال الله تعالى: ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون. اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون**﴾ [الحديد: ١٦ـ١٧]. ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا ذلك، إنه جواد كريم.

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب: أن أصح الطرق في ذلك أن يُفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فُسر في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال تعالى: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما**﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿**وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾ [النحل: ٦٤]. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه**» [رواه أبوداود والترمذي وحسنه] يعني: السنة. وحينئذ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم

الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبدالله بن مسعود رض الله عنه، والحبر البحر عبدالله بن عباس، ابن عم رسول الله ﷺ، وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: «**اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل**» [رواه أحمد والبخاري بمعناه]. وغالب ما يرويه إسماعيل بن عبدالرحمن السدي الكبير في تفسيره، عن عبدالله بن مسعود وابن عباس، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب، التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: «**بلغوا عنى ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**» [رواه البخاري؛ ولهذا كان عبدالله بن عمرو يوم اليرموك قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك.

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام: **أحدها**: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح. **والثاني**: ما علمنا كذبه بماعندنا مما يخالفه. **والثالث**: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز، كما قال تعالى: ﴿**سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحدا**﴾ [الكهف: ٢٢]، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذاالمقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فقال في مثل هذا: ﴿**قل ربي أعلم بعدتهم**﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال: ﴿**فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا**﴾ أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسالهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم.

فإذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية في التفسير، وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مُزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في

الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالا، وليس كذلك، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليتفطن اللبيب لذلك، والله الهادي، وإذا اجتمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، لما رواه ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**من قال في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار**» [رواه الترمذي وقال: حسن]، وفي لفظ «**من قال في كتاب الله برأيه، فأصاب، فقد أخطأ**» أي: لأنه قد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به، فلو أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر، والله أعلم، وهكذا سمى الله القَذَفة كاذبين، فقا: ﴿**فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون**﴾ [النور:١٣]، فالقاذف كاذب، ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر؛ لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به، ولو كان أخبر بما يعلم؛ لأنه تكلف ما لا علم له به، والله أعلم. ولهذا تحَرَّج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، فعن إبراهيم التَّيمي أن أبابكر الصديق سئل عن قوله: ﴿**وفاكهة وأبّا**﴾ [عبس: ٣١]، فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني؟ إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم. وعن أنس قال: كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي ظهر قميصه أربع رقاع، فقرأ: ﴿**وفاكهة وأبّا**﴾ فقال: ما الأب؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف، فما عليك ألا تدريه. وهذا كله محمول على أنهما رضي الله عنهما إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل، لقوله: ﴿**فأنبتنا فيها حبا. وعنبا**﴾ الآية[عبس:٢٧ـ٢٨]. وعن ابن أبي مُلَيْكَة: أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها. وعن سعيد بن المسيب: أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن. وعن عبيدالله بن عمر قال: لقد أدركت فقهاء المدينة، وإنهم ليعظِّمون القول في التفسير، منهم: سالم بن عبدالله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع.

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم له به؛ فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً، فلا حرج عليه؛ ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم به، فكذلك يجب القول فيما سئل مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿**لتبيننه للناس ولا تكتمونه**﴾ [آل عمران:١٨٧]، ولما جاء في الحديث : «**من سئل عن علم فكتمه، أُلجم يوم القيامة بلجام من نار**» [رواه أهل السنن وقال الترمذي: حسن]، والله أعلم بالصواب.

فضائل القرآن

ذكر البخاري رحمه الله، كتاب «فضائل القرآن» بعد كتاب التفسير؛ لأن التفسير أهم ولهذا بدأ به، ونحن قدمنا الفضائل قبل التفسير وذكرنا فضل كل سورة قبل تفسيرها ليكون ذلك باعثا على حفظ القرآن وفهمه والعمل بما فيه والله المستعان.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إليَّ، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»** [متفق عليه]. في هذا الحديث فضيلة عظيمة للقرآن المجيد على كل معجزة أعطيها نبي من الأنبياء، وعلى كل كتاب أنزله، وذلك أن معنى الحديث: ما من نبي إلا أعطى من المعجزات ما آمن عليه البشر، أي: ما كان دليلا على تصديقه فيما جاءهم به واتبعه من اتبعه من البشر، ثم لما مات الأنبياء لم يبق لهم معجزة بعدهم إلا ما يحكيه أتباعهم عما شاهده في زمانه، فأما الرسول الخاتم للرسالة محمد ﷺ فإنما كان معظم ما آتاه الله وحيا منه إليه منقولا إلى الناس بالتواتر، ففي كل حين هو كما أنزل، فلهذا قال: «فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعا»، وكذلك وقع، فإن أتباعه أكثر من أتباع الأنبياء لعموم رسالته ودوامها إلى قيام الساعة، واستمرار معجزته؛ ولهذا قال الله وتعالى: **﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾** [الفرقان: ١]، وقال تعالى: **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾** [الإسراء: ٨٨].

أنزل القرآن على سبعة أحرف

عن عمر بن الخطاب قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إن سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها! فقال رسول الله ﷺ: **«أرسله، اقرأ يا هشام»**، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: **«كذلك أنزلت»**، ثم قال: **«اقرأ يا عمر»**فقرأت القراءة التي أقرأني،فقال رسول الله ﷺ: **«كذلك أنزلت. إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه»** [متفق عليه].

وقد اختلف العلماء في معنى هذه السبعة الأحرف وما أريد منها على أقوال: قول أكثر أهل العلم: أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة نحو: أقبل وتعال وهلم.

قلت: وإنما كان الذي جمعهم على قراءة واحدة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، أحد الخلفاء الراشدين المهديين المأمور باتباعهم، وإنما جمعهم عليها لما رأى من

اختلافهم في القراءة المفضية إلى تفرق الأمة وتكفير بعضهم بعضا، فرتب لهم المصاحف الأئمة على العرضة الأخيرة التي عارض بها جبريل رسول الله ﷺ في آخر رمضان من عمره، عليه الصلاة والسلام، وعزم عليهم ألا يقرؤوا بغيرها، وألا يُتعاطا الرخصة التي كانت لهم فيها سعة، ولكنها أفضت إلى الفرقة والاختلاف.

وقال القرطبي: قال كثير من علمائنا: هذه القراءات السبع التي تنسب للقراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من السبعة وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف.

تأليف القرآن

عن يوسف بن ماهك قال: إني لعند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، إذ جاءها عراقي فقال: أي الكفن خير؟ قالت: ويحك! وما يضرك، قال: يا أم المؤمنين، أريني مصحفك، قالت: لم؟ قال: لعلي أؤلف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرك أيه قرأت قبل... الحديث. [أخرجه البخاري]، والمراد من التأليف ههنا ترتيب سوره. وكان هذا قبل أن يبعث أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه إلى الآفاق بالمصاحف الأئمة المؤلفة على هذا الترتيب المشهور اليوم، وقبل الإلزام به، والله أعلم. ولهذا أخبرته: أنك لا يضرك بأي سوره بدأت.

فأما ترتيب الآيات في السور فليس في ذلك رخصة، بل هو أمر توقيفي عن رسول الله ﷺ؛ ولهذا لم ترخص له في ذلك، بل أخرجت له مصحفها، فأملت عليه آي السور، والله أعلم.

وروى الإمام أحمد عن أوس بن حذيفة قال: كنت في الوفد الذين أتوا النبي ﷺ فذكر حديثا فيه: أن رسول الله ﷺ كان يسمر معهم بعد العشاء فمكث عنا ليلة لم يأتنا، حتى طال ذلك علينا بعد العشاء. قال: قلنا: ما أمكثك عنا يا رسول الله؟ قال: «**طرأ علي حزب من القرآن، فأردت ألا أخرج حتى أقضيه**». قال: فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا، قال: قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من قاف حتى يختم» [وهو حسن].

فأما نقط المصحف وشكله، فيقال: إن أول من أمر به عبدالملك بن مروان، فتصدى لذلك الحجاج وهو بواسط، فأمر الحسن البصري ويحيى بن يعمر ففعلا ذلك. وأما كتابة الأعشار على الحواشي فينسب إلى الحجاج أيضا، وعن ابن مسعود أنه كره التعشير في المصحف، وقال مالك: لا بأس به بالحبر، فأما بالألوان المصبغة فلا.

نزول السكينة والملائكة عند القراءة

عن أسيد بن الحضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، فرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها، فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى

ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: «اقرأ يا ابن حضير، اقرأ يا ابن حضير». قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريبا، فرفعت رأسي وانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظُّلَّة، فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها. قال: «أو تدري ما ذاك». قال: لا، قال: «الملائكة دَنتْ لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم». [متفق عليه].

وفي الحديث المشهور الصحيح: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه فيما بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» رواه مسلم عن أبي هريرة.

لم يترك النبي ﷺ إلا ما بين الدفتين

عن عبد العزيز بن رفيع قال: دخلت أنا وشداد بن معقل على ابن عباس، فقال له شداد بن معقل: أترك النبي ﷺ من شيء؟ قال: ما ترك إلا ما بين الدفتين. قال: ودخلنا على محمد بن الحنفية فسألناه فقال: ما ترك إلا ما بين الدفتين. [أخرجه البخاري]. ومعناه: أنه عليه السلام، ما ترك مالا ولا شيئا يورث عنه، كما قال عمرو بن الحارث أخو جويرية بنت الحارث: ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً. وفي حديث أبي الدرداء: «إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر» [رواه أبوداود وابن ماجه وصححه ابن حبان]. ولهذا قال ابن عباس: وإنما ترك ما بين الدفتين يعني: القرآن، والسنة مفسرة له ومبينة وموضحة له، فهي تابعة له، والمقصود الأعظم من كتاب الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ [فاطر:٣٢]، فالأنبياء عليهم السلام، لم يخلقوا للدنيا يجمعونها ويورثونها، وإنما خلقوا للآخرة يدعون إليها ويرغبون فيها؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا نورث ما تركنا صدقة» [متفق عليه]، وكان أول من أظهر هذه المحاسن من هذا الوجه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، لما سئل عن ميراث النبي ﷺ فأخبر عنه بذلك، ووافقه على نقله عنه، عليه السلام، غير واحد من الصحابة؛ منهم عمر وعثمان وعلي والعباس وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبو هريرة وعائشة وغيرهم، وهذا ابن عباس يقوله ـ أيضا ـ عنه عليه السلام، رضي الله عنهم أجمعين.

فضل القرآن على سائر الكلام

عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مثل الذي يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجة، طعمها طيب وريحها طيب. والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة، طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها» [متفق عليه]. ووجه المناسبة: أن طيب الرائحة دار مع القرآن وجوداً وعدماً، فدل على شرفه على ما سواه من الكلام الصادر من البر والفاجر،

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس، ومثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالا، فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود، فقال: من يعمل لي من نصف النهار إلى العصر؟ فعملت النصارى، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين قيراطين، قالوا: نحن أكثر عملا وأقل عطاءاً! قال: هل ظلمتكم من حقكم؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلي أوتيه من شئت» [أخرجه البخاري]. والمناسبة: أن هذه الأمة مع قصر مدتها فضلَتْ الأمم الماضية مع طول مدتها، كما قال تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ [آل عمران: ١١٠]، وإنما فازوا بهذا ببركة الكتاب العظيم الذي شرفه الله تعالى على كل كتاب أنزله.

الوصاة بكتاب الله

عن طلحة بن مُصَرِّف قال: سألت عبدالله بن أبي أوفى: أوصى النبي ﷺ؟ قال: لا. فقلت: كيف كتب على الناس الوصية، أمروا بها ولم يوص؟ قال: أوصى بكتاب الله عز وجل. [متفق عليه]، وهذا نظير ما تقدم عن ابن عباس: «ما ترك إلا ما بين الدفتين»، وذلك أن الناس كتب عليهم الوصية في أموالهم كما قال تعالى: ﴿**كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموتُ إن تركَ خيراً الوصية للوالدين والأقربين**﴾ [البقرة: ١٨٠]. وأما هو ﷺ فلم يترك شيئا يورث عنه، وإنما ترك ماله صدقة جارية من بعده، فلم يحتج إلى وصية في ذلك ولم يوص إلى خليفة يكون بعده على التنصيص؛ لأن الأمر كان ظاهراً من إشاراته وإيماءاته إلى الصديق؛ ولهذا لما هم بالوصية إلى أبي بكر ثم عدل عن ذلك فقال: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر» [متفق عليه]، وكان كذلك، وإنما أوصى الناس باتباع كتاب الله تعالى.

من لم يتغنَّ بالقرآن وقول الله تعالى
﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ [العنكبوت: ٥١]

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «لم يأذِن الله لشيء، ما أذِن لنبي أن يتغنى بالقرآن»، وقال صاحب له: يريد يجهر به، ومعناه: أن الله ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبي يجهر بقراءته ويحسنها، وذلك أنه يجتمع في قراءة الأنبياء طيب الصوت لكمال خلقهم وتمام الخشية، وذلك هو الغاية في ذلك. وهو سبحانه وتعالى، يسمع أصوات العباد كلهم برهم وفاجرهم، كما قالت عائشة رضي الله عنها: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات. ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم، كما قال تعالى: ﴿**وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه**﴾ [يونس: ٦١]، ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ كما دل عليه هذا الحديث العظيم، والأَذَن: الاستماع؛ لدلالة السياق عليه، وكما قال تعالى: ﴿**إذا السماء انشقت. وأذنت لربها وحقت. وإذا الأرض مُدَّت. وألقتْ ما فيها وتخلت. وأذنت لربها وحُقَّت**﴾ [الانشقاق: ١ـ٥] أي: وحق لها أن تستمع أمره

وتطيعه، فالأَذَن هو الاستماع؛ ولهذا جاء في حديث رواه ابن ماجه بسند جيد عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد أَذَنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن [يجهر به] من صاحب القينة إلى قينته»، وقال سفيان بن عيينة: إن المراد بالتغني: يستغني به، فالتغني بالقرآن: تحسين الصوت به أو الاستغناء به عما عداه من أمور الدنيا.

فصل

والغرض أن المطلوب شرعاً إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة، فأما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان والأوضاع الملهية والقانون الموسيقائي، فالقرآن ينزه عن هذا ويجل ويعظم أن يسلك في أدائه هذا المذهب، وقد جاءت السنة بالزجر عن ذلك.

عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الكتاب فقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالا فهو يتصدق به آناء الليل والنهار» [متفق عليه]، وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جار له فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل»، ومضمون هذين الحديثين: أن صاحب القرآن في غبطة وهو حسن الحال، فينبغي أن يكون شديد الاغتباط بما هو فيه، ويستحب تغبيطه بذلك، والحسد الشرعي الممدوح هو تمني مثل حال ذلك الذي هو على حالة سارة؛ ولهذا قال عليه السلام: «لا حسد إلا في اثنتين»، فذكر النعمة القاصرة وهي تلاوة القرآن آناء الليل والنهار، والنعمة المتعدية وهي إنفاق المال بالليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿**إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور**﴾ [فاطر: ٢٩].

خيركم من تعلم القرآن وعلمه

عن عثمان بن عفان، عن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» [أخرجه البخاري]. والغرض أنه عليه الصلاة والسلام، قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وهذه من صفات المؤمنين المتبعين للرسل، وهم الكُمل في أنفسهم، المكملون لغيرهم، وذلك جمع بين النفع القاصر والمتعدي وهذا بخلاف صفة الكفار الجبارين الذين لا ينفعون ولا يتركون أحدا ممن أمكنهم أن ينتفع، كما قال تعالى: ﴿**الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب**﴾ [النحل: ٨٨]، فهذا شأن الكفار، كما أن شأن خيار الأبرار أن يكمل في نفسه وأن يسعى في تكميل غيره.

القراءة عن ظهر قلب

عن سهل بن سعد «أن امرأةً جاءت رسولَ الله ﷺ فقالت: يا رسول الله جئت لأهبَ لك

نفسي. فنظر إليها رسولُ الله ﷺ فصعَد النظر إليها وصوبه، ثم طأطأ رأسَهُ. فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئا جلست. فقام رجلٌ من أصحابه فقال: يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوِّجنيها. فقال له: هل عندك من شيء؟ فقال: لا والله يا رسول الله. قال: اذهب إلى أهلِكَ فانظر هل تَجِد شيئاً. فذهب ورجع فقال: لا والله يا رسول الله، ما وجدت شيئا. قال: انظر ولو خاتما من حديد. فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله ولا خاتما من حديد، ولكن هذا إزاري. قال سهل: ماله رداءٌ فلها نصفُه، فقال رسول الله ﷺ: ما تصنع بإزارك؟ إن لَبستَه لم يكن عليها منه شيءٌ، وإن لبستْهُ لم يكن عليك شيء، فجلس الرجل حتى طال مجلسه، ثم قام، فرآه رسول الله ﷺ مولّياً، فأمر به فَدُعِيَ. فلما جاء قال: ماذا معك من القرآن؟ قال: معي سورة كذا وسورة كذا عدَّها. قال: أتقرؤهنَّ عن ظهر قلبك؟ قال: نعم. قال: اذهب فقد ملكتُكَها بما معك من القرآن» [أخرجه البخاري]. وهذه الترجمة من البخاري رحمه الله، مشعرة بأن قراءة القرآن عن ظهر قلب أفضل، والله أعلم. ولكن الذي صرح به كثيرون من العلماء أن قراءة القرآن من المصحف أفضل؛ لأنه يشتمل على التلاوة والنظر في المصحف وهو عبادة، كما صرح به غير واحد من السلف، وكرهوا أن يمضي على الرجل يوم لا ينظر في مصحفه. فعن ابن مسعود قال: أديموا النظر في المصحف، وعن ابن عمر قال: إذا رجع أحدكم من سوقه فلينشر المصحف وليقرأ.

فهذه الآثار تدل على أن هذا أمر مطلوب لئلا يعطل المصحف فلا يقرأ منه، ولعله قد يقع لبعض الحفظة نسيان فيتذكر منه، أو تحريف كلمة أو آية أو تقديم أو تأخير، فالاستثبات أولى، والرجوع إلى المصحف أثبت من أفواه الرجال، فأما تلقين القرآن فمن فم الملقن أحسن؛ لأن الكتابة لا تدل على كمال الأداء، كما أن المشاهد من كثير ممن يحفظ من الكتابة فقط يكثر تصحيفه وغلطه، وإذا أدى الحال إلى هذا منع منه إذا وجد شيخا يوقفه على لفظ القرآن، فأما عند العجز عمن يلقن فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها، فيجوز عند الضرورة ما لا يجوز عند الرفاهية، فإذا قرأ في المصحف ـ والحالة هذه ـ فلا حرج عليه، ولو فرض أنه قد يحرف بعض الكلمات عن لفظها على لغته ولفظه. وقال بعض العلماء: المدار في هذه المسألة على الخشوع في القراءة، فإن كان الخشوع عند القراءة على ظهر القلب فهو أفضل، وإن كان عند النظر في المصحف فهو أفضل، فإن استويا فالقراءة نظراً أولى؛ لأنها أثبت وتمتاز بالنظر في المصحف.

استذكار القرآن وتعاهده

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقَّلة، إن عاهد عليها أمكسها، وإن أطلقها ذهبت» [رواه مسلم]. وعن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «بئس ما لأحدهم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل نُسِيَ، واستذكروا القرآن فإنه

أشد تفصياً من صدور الرجال من النَّعم» [متفق عليه]. وعن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده، لهو أشد تَفصياً من الإبل في عُقُلها» [متفق عليه]. ومضمون هذه الأحاديث الترغيب في كثرة تلاوة القرآن واستذكاره وتعاهده؛ لئلا يعرضه حافظه للنسيان، فأن ذلك خطر كبير، نسأل الله العافية منه، وقد أدخل بعض المفسرين هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ومن أعرَضَ عن ذكري فإن له معيشةً ضنكاً ونحشرهُ يومَ القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كُنتُ بصيراً. قال كذلك أتتك آيتنا فنسيتها وكذلك اليومَ تُنسى﴾ [طه: ١٢٤ـ١٢٦]، وهذا الذي قاله هذا ـ وإن لم يكن هو المراد جميعه ـ فهو بعضه، فإن الإعراض عن تلاوة القرآن وتعريضه للنسيان وعدم الاعتناء به فيه تهاون كثير وتفريط شديد، نعوذ بالله منه؛ ولهذا قال عليه السلام: «تعاهدوا القرآن»، وفي لفظ: «استذكروا القرآن، فإنه أشد تفصياً من صدور الرجال من النعم». التَّفَصِّي: التخلص يقال: تَفَصَّى فلان من البلية: إذا تخلص منها، ومنه تفصى النوى من التمرة: إذا تخلص منها، أي: إن القرآن أشد تفلتا من الصدور من النعم إذا أرسلت من غير عقال.

القراءة على الدابة

عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وهو يقرأ على راحته سورة الفتح» [متفق عليه]، وهذا أيضا له تعلق بما تقدم من تعاهد القرآن وتلاوته سفراً وحضراً، ولا يكره ذلك عند أكثر العلماء إذا لم يتله القارىء في الطريق، وقد نقله ابن أبي داود عن أبي الدرداء أنه كان يقرأ في الطريق، وقد روي عن عمر بن عبد العزيز أنه أذن في ذلك.

تعليم الصبيان القرآن

عن ابن عباس قال: «توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين وقد قرأت المحكم» [أخرجه البخاري]، وفيه دلالة على جواز تعلم الصبيان القرآن؛ لأن ابن عباس أخبر عن سنه حين موت الرسول ﷺ، وقد كان جمع المفصل، وهو من الحجرات، وعمره آنذاك عشر سنين، ففيه دلالة على جواز تعليمهم القرآن في الصبا وهو ظاهر، بل قد يكون مستحباً أو واجبا؛ لأن الصبي إذا تعلم القرآن بلغ وهو يعرف ما يصلي به، وحفظه في الصغر أولى من حفظه كبيراً، وأشد علوقاً بخاطره وأرسخ وأثبت، كما هو المعهود من حال الناس، وقد استحب بعض السلف أن يترك الصبي في ابتداء عمره قليلاً للعب، ثم توفر همته على القراءة، لئلا يُلزم أولا بالقراءة فيملها ويعدل عنها إلى اللعب، وكره بعضهم تعليمهم القرآن وهو لا يعقل ما يقال له، ولكن يترك حتى إذا عقل وميز علم قليلاً قليلاً، بحسب همته ونهمته وحفظه وجودة ذهنه، واستحب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن يلقن خمس آيات خمس آيات.

نسيان القرآن

وهل يقول: نسيت آية كذا وكذا، وقول الله تعالى: ﴿سنقرئك فلا تنسى. إلا ماشاء الله﴾ [الأعلى:٦-٧]

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع رسول الله ﷺ رجلا يقرأ في سورة الليل فقال: «يرحمه الله، فقد أذكرني آية كذا وكذا كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا» [متفق عليه]، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بئس ما لأحدهم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نُسِّي» [متفق عليه]. وفي هذا الحديث والذي قبله دليل على أن حصول النسيان للشخص ليس بنقصٍ له إذا كان بعد الاجتهاد والحرص، وفي حديث ابن مسعود أدب في التعبير عن حصول ذلك، فلا يقول: نسيت آية كذا، فإن النسيان ليس من فعل العبد، وقد يصدر عنه أسبابه من التناسي والتغافل والتهاون المفضي إلى ذلك، فأما النسيان نفسه فليس بفعله؛ ولهذا قال: «بل هو نُسي»، مبني لما لم يسم فاعله، وأدب أيضا في ترك إضافة ذلك إلى الله تعالى، وقد أسند النسيان إلى العبد في قوله: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ [الكهف:٢٤]، وهو والله أعلم من باب ذكر المسبب وإرادة السبب؛ لأن النسيان إنما يكون عن سبب قد يكون ذنبا، فأمر الله تعالى بذكره ليذهب الشيطان عن القلب كما يذهب عند النداء بالأذان، والحسنة تذهب بالسيئة، فإذا زال السبب للنسيان انزاح، فحصل الذكر للشيء بسبب ذكر الله تعالى، والله أعلم.

الترتيل في القراءة

وقول الله عز وجل: ﴿ورَتل القرآن ترتيلا﴾ [المزمل:٤]، وقوله: ﴿وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث﴾ [الإسراء:١٠٦]، وما يكره أن يهذ كهذ الشعر، قال ابن عباس: ﴿فرقناه﴾ فصلناه. عن أبي وائل قال غدونا على عبد الله [بن مسعود]، فقال رجل: قرأت المفصل البارحة، فقال: هذا كهذِّ الشعر، إنا قد سمعنا القراءة، وإني لأحفظ القرناء التي كان يقرأ بهن النبي ﷺ ثمان عشرة سورة من المفصل، وسورتين من آل حم. [متفق عليه]. وفيه دليل على استحباب ترتيل القراءة والترسل فيها من غير هَذْرَمَة ولا سرعة مفرطة، بل بتأمل وتفكر، قال الله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته﴾ [ص:٢٩].

وعن إبراهيم قال: قرأ علقمة على عبد الله، فكأنه عجل، فقال عبد الله: فداك أبي وأمي، رتل القرآن فإنه زين القرآن. قال: وكان علقمة حسن الصوت بالقرآن. وعن أبي جمرة قال: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة وإني أقرأ القرآن في ثلاث، فقال: لأن أقرأ البقرة في ليلة فأدبرها وأرتلها أحب إليَّ من أن أقرأ كما تقول. [وفي رواية عنه]: أحب إلي من أن أقرأ القرآن أجمع هذرمة. ثم قال البخاري رحمه الله:

مد القراءة ـ الترجيع

عن قتادة قال: سألت أنس بن مالك عن قراءة النبي ﷺ فقال: كان يمد مدا. [أخرجه البخاري]. وعن قتادة قال سئل أنس بن مالك كيف كانت قراءة النبي ﷺ فقال: كانت مداً، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم. يمد بسم الله، ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم. انفرد به البخاري من هذا الوجه. وعن عبد الله بن مغفل قال: رأيت النبي ﷺ وهو على ناقته أو جمله وهي تسير به، وهو يقرأ سورة الفتح قراءة لينة وهو يرجع. [أخرجه البخاري]. أما الترجيع: فهو الترديد في الصوت كما جاء أيضا في البخاري أنه جعل يقول: آآآ، وكأن ذلك صدر من حركة الدابة تحته، فدل على جواز التلاوة عليها، وإن أفضى إلى ذلك ولا يكون ذلك من باب الزيادة في الحروف، بل ذلك مغتفر للحاجة، كما يصلي على الدابة حيث توجهت به، مع إمكان تأخير ذلك والصلاة إلى القبلة، والله أعلم.

من أحب أن يسمع القرآن من غيره ـ قول المقرىء للقارىء حسبك ـ البكاء في القراءة

وعن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أبا موسى، لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة». فقال: أما والله لو أعلم أنك تستمع قراءتي لحبَّرْتها لك تحبيراً. [أخرجه مسلم]. وقال الزهري عن أبي سلمة: كان عمر إذا رأى أبا موسى قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسى. فيقرأ عنده. وقال أبو عثمان النهدي: كان أبو موسى يصلي بنا، فلو قلت: إني لم أسمع صوت صنج قط ولا بربط قط، ولا شيئا قط أحسن من صوته. [الصنج والبربط من آلات المعازف في وقتهم]. عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ» قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أشتهي أن أسمعه من غيري». قال: فقرأت عليه النساء حتى إذا بلغت: ﴿**فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا**﴾ [النساء: ٤١]، قال لي: «كفّ أو أمسك [أو حسبك]» فرأيت عينيه تذرفان. [متفق عليه].

في كم يقرأ القرآن

وقول الله تعالى: ﴿فاقرءوا ما تيسر منه﴾ [المزمل: ٢٠]

عن عبد الله بن عمرو قال: أنكحني أبي امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كَنَّتَه فيسألها عن بعلها فتقول: نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشا، ولم يفتش لنا كنفا منذ أتيناه، فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي ﷺ، فقال: «القني به»، فلقيته بعد، فقال: «كيف تصوم؟». قلت: كل يوم. قال: «وكيف تختم؟». قال: كل ليلة. قال: «صم [من] كل شهر ثلاثة، واقرأ القرآن في كل شهر» قال: قلت: إني أطيق أكثر من ذلك. قال: «صم ثلاثة أيام في الجمعة» قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: «أفطر يومين وصم يوما». قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: «صم أفضل الصوم صوم داود، صيام يوم وإفطار يوم، واقرأ في كل سبع ليال مرةً» فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ، وذلك أني كبرت وضعفت، فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار

والذي يقرأ يعرضه بالنهار ليكون أخف عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياما وأحصى وصام مثلهن، كراهية أن يترك شيئا فارق عليه النبي ﷺ. ثم روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ القرآن في شهر». قلت: إني أجد قوة. قال: «فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك». فهذا السياق ظاهره يقتضى المنع من قراءة القرآن في أقل من سبع. فلو تركنا ومجرد هذا لكان الأمر في ذلك جلياً، ولكن دلت أحاديث أخر على جواز قراءته فيما دون ذلك، كما رواه الإمام أحمد في مسنده عن سعد بن المنذر الأنصاري أنه قال: يا رسول الله أقرأ القرآن في ثلاث؟ قال: «نعم». فكان يقرؤه حتى توفي. وهذا إسناد جيد قوي حسن. وقد كره غير واحد من السلف قراءة القرآن في أقل من ثلاث. وترخص جماعة من السلف في تلاوة القرآن في أقل من ذلك، منهم أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله [وتميم الداري وسعيد بن جبير وعلقمة وهذه مروية عنهم بأسانيد صحيحة]. وهذا محمول إما على أنه ما بلغهم في ذلك حديث مما تقدم، أو أنهم كانوا يفهمون ويتفكرون فيما يقرؤونه مع هذه السرعة والله أعلم.

قال الشيخ أبو زكريا النووي في كتابه التبيان بعد ذكر طرف مما تقدم: (والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر يحصل له كما فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولا بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهَذْرَمَة).

من راءى بقراءة القرآن
أو تأكَّل به أو فخر به

عن علي رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّميَّة، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة» [متفق عليه]. وعن أبي موسى رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر أو خبيث وريحها مر». ومضمون هذه الأحاديث التحذير من المراءاة بتلاوة القرآن التي هي من أعظم القرب. والمذكورون في حديث علي هم الخوارج، وهم الذين لا يجاوز إيمانُهم حناجَرهم، وقد قال في الرواية الأخرى: «يحقر أحدكم قراءته مع قراءتهم، وصلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم». ومع هذا أمر بقتلهم لأنهم مراؤون في أعمالهم في نفس الأمر، وإن كان بعضهم قد

لا يقصد ذلك، إلا أنهم أسسوا أعمالهم على اعتقاد غير صالح، فكانوا في ذلك كالمذمومين في قوله: ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [التوبة:١٠٩]. والمنافق المشبه بالريحانة التي لها ريح ظاهر وطعمها مر هو المرائي بتلاوته، كما قال تعالى: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يُراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾ [النساء:١٤٢].

اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه». ومعنى الحديث أنه عليه السلام أرشد وحض أمته على تلاوة القرآن إذا كانت القلوب مجتمعة على تلاوته، متفكرة فيه، متدبرة له، لا في حال شغلها وملالها، فإنه لا يحصل المقصود من التلاوة بذلك كما ثبت في الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام: «اكلفوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا» [متفق عليه]، وقال: «أحب الأعمال إلى الله ما دوام عليه صاحبه» [متفق عليه، وفي اللفظ الأخر: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» [رواه مسلم].

كتاب الجامع لأحاديث شتى تتعلق بتلاوة القرآن وفضائله وفضل أهله

عن أبي سعيد قال قال نبي الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة، حتى يقرأ آخر شيء معه» [أخرجه بلفظه أحمد وابن ماجه وبنحوه الترمذي وقال: حسن صحيح]. وعن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى من شغله قراءة القرآن عن دعائي أعطيته أفضل ثواب السائلين». وقال رسول الله ﷺ: «إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» [أخرجه الترمذي والبزار وهو حسن لغيره]. وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «إن لله أهلين من الناس». قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته» [أخرجه النسائي وابن ماجه وأحمد وصححه الحاكم]. وروى الطبراني عن أنس رضي الله عنه: كان إذا ختم القرآن جمع أهله وولده فدعا لهم. [وهو صحيح]. وعن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: «أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» ثم يرفع صوته وتحمر وجنتاه، ويشتد غضبه إذا ذكر الساعة، كأنه منذر جيش. قال: ثم يقول: «أتتكم الساعة [بعثت أنا والساعة] هكذا ـ وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى ـ صبحتكم الساعة ومستكم، من ترك مالا فلأهله، ومن ترك دَيْنا أو ضياعاً فإلي وعليّ» [أخرجه مسلم وأحمد وغيرهما واللفظ لأحمد]. وعن جابر بن عبدالله قال:

دخل رسول الله ﷺ المسجد، فإذا قوم يقرؤون القرآن، فقال: «اقرؤوا القرآن وابتغوا به وجه الله عز وجل من قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القِدْح، يتعجلونه ولا يتأجلونه» [أخرجه أحمد وهو صحيح بشواهده، والقدح: السهم، والمراد: يتعجلون أجره كما في رواية أبي عبيد]. وعن عبد الله بن مسعود قال: إن هذا القرآن شافع مشفع، من اتبعه قاده إلى الجنة، ومن تركه أو أعرض عنه ـ أو كلمة نحوها ـ زجّ في قفاه إلى النار» [صحيح]. وعن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «مثل القرآن مثل الإبل المعقَّلة إن تعاهدها صاحبها أمسكها، وإن تركها ذهبت» [أخرجه أحمد وهو صحيح]. وعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي ربِّ منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه» قال: «فيشفعان» [أخرجه أحمد وهو صحيح بشواهده]. وعن عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أكثر منافقي أمتي قراؤها» [أخرجه أحمد وهو صحيح بشواهده].

وهكذا أذكر آثاراً مرويةً عن ابن أم عَبْد [عبد الله بن مسعود] أحد قُرَّاء القرآن من الصحابة المأمور بالتلاوة على نحوهم: قال ابن مسعود: من أراد العلم فلْيَتَبَوَّأ من القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين. وعن أبي وائل قال: كان ابن مسعود يقل الصوم، فيقال له في ذلك، فيقول: إني إذا صُمْتُ ضَعُفْتُ عن القراءة والصلاة، والقراءة والصلاة أحبُّ إلي.

مقدمة مفيدة

عن قتادة قال: نزل في المدينة من القرآن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والحديد والرحمن والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والمنافقون والتغابن والطلاق ويأيها النبي لمَ تُحرِّم وإلى رأس العشر، وإذا زلزلت وإذا جاء نصر الله. هؤلاء السور نزلت بالمدينة، وسائر القرآن نزل بمكة. فأما عدد آيات القرآن فستة آلاف آية، ثم اختلف فيما زاد على ذلك، وأما كلماته فعن عطاء بن يسار: سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة، وأما حروفه فعن مجاهد قال: هذا ما أحصينا من القرآن وهو ثلاثمائة ألف حرف وواحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفا.

وأما التحزيب والتجزئة فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين، وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد في تحزيب الصحابة للقرآن، والحديث في مسند أحمد وسنن أبي داود وابن ماجه وغيرهما عن أوس بن حُذيفة أنه سأل أصحاب رسول الله ﷺ في حياته: كيف يُحَزِّبون القرآن؟ قالوا: ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرةَ وثلاث عشرة، وحزب المُفَصَّل من قاف حتى يختم. قال القرطبي: أجمعوا أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية؟ وأجمعوا أن فيه أعلاما من الأعجمية كإبراهيم ونوح ولوط، واختلفوا هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية؟

فأنكر ذلك الباقلاني والطبري وقالا: ما وقع فيه ما يوافق الأعجمية، فهو من باب ما توافقت عليه اللغات.

فصل

واختلفوا في معنى السورة: ممَّ هي مشتقة؟ فقيل من الإبانة والارتفاع. فكأن القارىء يتنقل بها من منزلة إلى منزلة. وقيل لشرفها وارتفاعها كسور البلد. قلت: ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها كما سُمِّي سورُ البلد لإحاطته بمنازلِهِ ودُورِه، والله أعلم. وجمع السورة سُوَرٌ بفتح الواو. وأما الآية فمن العلامة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصاله، أي: هي بائنة عن أختها. قال الله تعالى: ﴿**إن آية ملكه**﴾ [البقرة:٢٤٨]، وقيل: لأنها جماعةُ حروفٍ من القرآن وطائفة منه، وقيل: سميت آية لأنها عجبٌ يَعْجِز البشر عن التكلم بمثلها. وأما الكلمة فهي اللفظ الواحد، وقد تكون على حرفين مثل: ما ولا وله ولك، وقد يكون أكثر. وأكثر ما يكون عشرة أحرف: ﴿**ليستخلفنهم**﴾ [النور:٥٥]، ﴿**أنلزمكموها**﴾ [هود:٢٨]، ﴿**فأسقيناكموه**﴾ [الحجر:٢٢]، وقد تكون الكلمة آية مثل: والفجر، والضحى، والعصر، وكذلك: ألم، وطه، ويس، وحم - في قول الكوفيين - و ﴿حم. عسق﴾ عندهم كلمتان. وغيرهم لا يسمى هذه آيات بل يقول: هي فواتح السُّوَرِ. وقال أبو عمرو الداني: لا أعلم كلمةً هي وحدها آيةٌ إلا قوله: ﴿**مدهامتان**﴾ [الرحمن:٦٤].

سورة الفاتحة(مكية)

يقال لها: الفاتحة، أي فاتحة الكتاب خطا، وبها تفتتح القراءة في الصلاة، ويقال لها أيضاً أم الكتاب، وقد ثبت في الحديث الصحيح عند الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم» ويقال لها (الحمد) ويقال لها: (الصلاة) لقوله ﷺ عن ربه «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله: حمدني عبدي» الحديث [أخرجه مسلم]. فسميت الفاتحة صلاة لأنها شرط فيها، ويقال لها (الرقية) لحديث أبي سعيد في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم فقال له رسول الله ﷺ «وما يدريك أنها رقية» ؟ [متفق عليه].

وهي مكية قاله ابن عباس وهو أشبه لقوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾ [الحجر:٨٧]، والله أعلم. وهي سبع آيات بلا خلاف، وإنما اختلفوا في البسملة هل هي آية مستقلة من أولها، أو بعض آية أو لا تعد من أولها.

قالوا وكلماتها خمس وعشرون كلمة وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفاً. قال البخاري في أول كتاب التفسير وسميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف ويبدأ بقراءتها في الصلاة، وقيل: إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته.

ويقال لها أيضاً: الفاتحة لأنها تفتتح بها القراءة وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام، وصح تسميتها بالسبع المثاني قالوا: لأنها تثنى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة.

ذكر ما ورد في فضل الفاتحة

عن أبي سعيد بن المُعَلَّى، رضي الله عنه قال: كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه حتى صليت، قال: وأتيته فقال: «مامنعك أن تأتيني» ؟ قال قلت: يا رسول الله إني كنت أصلي قال: ألم يقل الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ [الأنفال:٢٤] ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد» قال: فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قال: «نعم ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» [أخرجه البخاري وأحمد واللفظ له].

وعن عبد الله بن جابر قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد أهراق الماء فقلت: السلام عليك يا رسول الله فلم يرد علي، قال فقلت: السلام عليك يا رسول الله فلم يرد علي، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله فلم يرد علي، قال: فانطلق رسول الله ﷺ يمشي وأنا خلفه حتى دخل رحله ودخلت أنا المسجد فجلست كئيباً حزيناً فخرج عليّ رسول الله ﷺ وقد تطهر فقال: «عليك السلام ورحمة الله وعليك السلام ورحمة الله وعليك السلام ورحمة الله ثم قال:

ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بأخْيَر سورة في القرآن» قلت: بلى يا رسول الله، قال «اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختمها» [أخرجه أحمد وإسناده جيد].

واستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض كما هو المحكي عن كثير من العلماء، منهم إسحاق بن راهويه، وذهبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل في ذلك؛ لأن الجميع كلام الله، ولئلا يوهم التفضيل نقص المفضل عليه، وإن كان الجميع فاضلاً.

وعن ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبرائيل، إذ سمع نقيضاً فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: «هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لم تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته» [أخرجه مسلم والنسائي واللفظ له].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج ثلاثاً غير تمام» فقيل لأبي هريرة إنا نكون خلف الإمام، فقال: اقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله عز وجل: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل فإذا قال: ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ قال الله حمدني عبدي، وإذا قال ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ قال الله أثنىٰ عليّ عبدي، فإذا قال ﴿**مالك يوم الدين**﴾ قال الله: مجدني عبدي، وقال مرة: فوض إلي عبدي، فإذا قال: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال ﴿**اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾ قال الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل» [أخرجه مسلم].

ثم الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة من وجوه:

(أحدها) أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة، والمراد القراءة كقوله تعالى: ﴿**ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً**﴾[الإسراء: ١١٠] أي بقراءتك كما جاء مصرحاً به في الصحيح عن ابن عباس [متفق عليه]، وهكذا قال في هذا الحديث «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل» ثم بين تفصيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة فدل على عظمة القراءة في الصلاة، وأنها من أكبر أركانها إذ أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها. هو القراءة كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله: ﴿**وقرآن الفجر، إن قرآن الفجر كان مشهوداً**﴾[الإسراء: ٧٨] والمراد صلاة الفجر كما جاء مصرحاً به في الصحيحين: «أنه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار» فدل هذا كله على أنه لا بد من القراءة في الصلاة وهو اتفاق من العلماء، ولكن اختلفوا في مسأله نذكرها في الوجه الثاني، وذلك أنه هل يتعين للقراءة في الصلاة فاتحة الكتاب أم تجزىء هي أو غيرها؟ على قولين مشهورين فعند أبي حنيفه ومن وافقه من أصحابه وغيرهم، أنها لا تتعين بل مهما قرأ من القرآن أجزأه في الصلاة واحتجوا بعموم قوله تعالى: ﴿**فاقرءوا ما تيسر من القرآن**﴾[المزمل: ٢٠].

(والقول الثاني) أنه تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة ولا تجزىء الصلاة بدونها، وهو قول بقية الأئمة مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وجمهور العلماء، واحتجوا على ذلك بما ثبت في الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»، والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

(والوجه الثالث) هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء (أحدها) أنه تجب عليه قراءتها كما تجب على إمامه لعموم الأحاديث المتقدمة.

(والثاني) لا تجب على المأموم قراءة بالكلية لا الفاتحة ولا غيرها ولا في صلاة الجهرية ولا في صلاة السرية، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة» ولكن في إسناده ضعف، وقد روي هذا الحديث من طرق ولا يصح شيء منها عن النبي ﷺ والله أعلم.

(والقول الثالث) أنه تجب القراءة على المأموم في السرية لما تقدم، ولا يجب ذلك في الجهرية لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا» وهو قول قديم للشافعي، ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل.

والغرض من ذكر هذه المسائل ههنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور والله أعلم.

الكلام على تفسير الاستعاذة

قال الله تعالى: ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم**﴾[الأعراف: ١٩٩ـ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿**ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون. وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون**﴾[المؤمنون: ٩٦ـ٩٨]، وقال تعالى: ﴿**ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم. وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم**﴾[فصلت: ٣٤ـ٣٦] فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى المودة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة، إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل كما قال تعالى: ﴿**يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة**﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿**إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير**﴾[فاطر: ٦]، وقال: ﴿**أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا**﴾[الكهف: ٥٠]، وقد أقسم لآدم عليه السلام أنه له لمن الناصحين وكذب فكيف معاملته لنا

وقد قال: ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين﴾ وقال تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ الله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾[النحل: ٩٨ـ٩٩].

قالت طائفة من القراء وغيرهم: نتعوذ بعد القراءة واعتمدوا على ظاهر سياق الآية ولدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة، والمشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة لدفع الوسواس فيها؛ إنما تكون قبل التلاوة، ومعنى الآية عندهم ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾[النحل: ٩٨] أي: إذا أردت القراءة كقوله تعالى ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم﴾الآية[المائدة: ٦] أي: إذا أردتم القيام، والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك. فعن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبَّر قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدك، ولا إله غيرك ويقول: لا إله إلا الله ثلاثاً ـ ثم يقول: ـ أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونَفْخِه ونَفْثه» [أخرجه أهل السنن واللفظ لأحمد وهو حسن]. وقد فسر الهمز بالموتة وهي الخنق، والنفخ بالكبر، والنفث بالشعر.

وعن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس فأحدهما يسب صاحبه مغضَباً قد احمر وجهه فقال النبي ﷺ «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقالوا للرجل ألا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ قال: إني لست بمجنون[متفق عليه].

(مسألة) وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمتحتمة يأثم تاركها، وحكي عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة، واحتج لعطاء بظاهر الآية ﴿فاستعذ﴾ وهو أمر ظاهره الوجوب وبمواظبة النبي ﷺ عليها، ولأنها تدرأ شر الشيطان وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ولأن الاستعاذة أحوط وهو أحد مسالك الوجوب.

(مسألة) يجهر بالتعوذ وإن أسر فلا يضر، لأنه أسر ابن عمر وجهر أبو هريرة، وفيما عدا الركعة الأولى هل يستحب التعوذ فيها؟ على قولين، ورُجِّح عدم الاستحباب، والله أعلم، فإذا قال المستعيذ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك عند الشافعي وأبي حنيفة.

(مسألة) ثم الاستعاذة في الصلاة إنما هي للتلاوة، [وقيل] بل للصلاة فعلى هذا يتعوذ المأموم وإن كان لا يقرأ ويتعوذ في العيد بعد الإحرام وقبل تكبيرات العيد والجمهور بعدها قبل القراءة، ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث وتطييب له وتهيؤ لتلاوة كلام الله وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه.

(فصل) والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر والعياذة

تكون لدفع الشر واللياذ يكون لطلب جلب الخير. ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أي أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله.

والشيطان في لغة العرب مشتق من شَطَن إذا بعد فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر وبعيد بفسقه عن كل خير وقيل مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار، والشيطان مشتق من البعد على الصحيح ولهذا يسمون كل ما تمرد من جني وإنسي وحيوان شيطاناً قال الله تعالى: ﴿**وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً**﴾[الأنعام: ١١٢]، وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ «يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود» فقلت يا رسول الله ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر؟ فقال: «الكلب الأسود شيطان» وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه ركب برْذوناً فجعل يتبخْتر به فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبختراً فنزل عنه وقال ما حملتموني إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي. إسناده صحيح [أخرجه ابن جرير].

والرجيم فعيل بمعنى مفعول أي أنه مرجوم مطرود عن الخير كله كما قال تعالى: ﴿**ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين**﴾[الملك: ٥].

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾

افتتح بها الصحابة كتاب الله واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل، ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة، أو من أول كل سورة كتبت في أوّلها، أو أنها بعض آية من أوّل كل سورة، أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها، أو أنها إنما كتبت للفصل لا أنها آية. على أقوال للعلماء سلفاً وخلفاً، وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ وممن حكي عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة ابن عباس وابن عمر وعلي، ومن التابعين عطاء، وسعيد بن جبير، وبه يقول الشافعي وأحمد بن حنبل في رواية عنه، وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور. هذا ما يتعلق بكونها آية من الفاتحة أم لا.

فأما ما يتعلق بالجهر بها فمفرّع على هذا، فمن رأى أنها ليست منها فلا يجهر بها، وكذا من قال إنها آية من أولها، وأما من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا فذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفاً وخلفاً، والحجة في ذلك أنها بعض الفاتحة فيجهر بها كسائر أبعاضها، وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة النبي ﷺ فقال كانت قراءته مدّاً ثم قرأ ببسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم.

وذهب آخرون إلى أنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة، وطوائف من سلف التابعين والخلف، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل.

وعند الإمام مالك أنه لا يقرأ البسملة بالكلية لا جهراً ولا سراً واحتجوا بما في الصحيحين عن أنس بن مالك قال: صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين. ولمسلم: لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها. فهذه مآخذ الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة وهي قريبة لأنهم أجمعوا على صحة من جهر بالبسملة ومن أسر ولله الحمد والمنة.

فصل في فضلها

عن عاصم قال: سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف النبي ﷺ قال عثر بالنبي ﷺ، فقلت: تعس الشيطان فقال النبي ﷺ: «لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت باسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب» [أخرجه أحمد وجوده المنذري] فهذا من تأثير بركة بسم الله، ولهذا تستحب في أول كل عمل وقول، فتستحب في أول الخطبة، وتستحب البسملة عند دخول الخلاء، وتستحب في أول الوضوء، وكذا تستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي وجماعة، وهكذا تستحب عند الأكل، وكذلك تستحب عند الجماع.

(الله) عَلَمٌ على الرب تبارك وتعالى يقال إنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى: **﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هوالرحمن الرحيم . هو الله الذي لا إله إلا هو هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾**[الحشر: ٢٢-٢٤] فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له كما قال تعالى: **﴿و لله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾** [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: **﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾** [الإسراء: ١١٠]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة».

وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى ولهذا لا يعرف في كلام العرب له اشتقاق من فعل يفعل فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له، وقيل إنه مشتق، وقد استُدل على كونه مشتقاً بقوله تعالى: **﴿وهو الله في السموات وفي الأرض﴾**[الأنعام: ٣] أي المعبود في السموات والأرض،كما قال تعالى **﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾**[الزخرف: ٨٤]، (الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا، وفي تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك، وقد زعم بعضهم أنه غير مشتق إذ لو كان كذلك لاتصل بذكر المرحوم وقد قال: **﴿وكان**

بالمؤمنين رحيماً﴾[الأحزاب:٤٣] وقال القرطبي: والدليل على أنه مشتق ما خرّجه الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته» قال: وهذا نص في الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق، قال: وإنكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له، قال أبو علي الفارسي: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين قال الله تعالى: **﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾**[الأحزاب: ٤٣] وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر أي أكثر رحمة. قالوا ولهذا قال **﴿ثم استوى على العرش الرحمن﴾**[الفرقان:٥٩]، وقال **﴿الرحمن على العرش استوى﴾**[طه:٥]، فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته وقال **﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾**[الأحزاب:٤٣] فخصهم باسمه الرحيم قالوا فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه والرحيم خاصة بالمؤمنين، وعلى هذا فيكون تقديم اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره ووصفه أولاً بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره كما قال تعالى: **﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾**[الإسراء:١١٠]، وإنما تجهرم مسيلمة اليمامة في التسمي به ولم يتابعه على ذلك إلا من كان معه في الضلالة وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره حيث قال: **﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾**[التوبة:١٢٨] كما وصف غيره بذلك من أسمائه في قوله **﴿إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾**[الإنسان:٢]. والحاصل أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره ومنها ما لا يسمى به غيره كاسم الله والرحمن والخالق والرزاق ونحو ذلك فلهذا بدأ باسم الله ووصفه بالرحمن لأنه أخص وأعرف من الرحيم، لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشهر الأسماء فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص.

وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن حتى رد الله عليهم ذلك بقوله **﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾**[الإسراء:١١٠] والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جُحود وعناد وتعنت في كفرهم فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله بالرحمن.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾

القراء السبعة على ضم الدال من قوله **﴿الحمدُ لله﴾** وهو مبتدأ وخبر. قال أبوجعفر بن جرير معنى **﴿الحمد لله﴾**الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد

على ذلك كله أولاً وآخراً. وقد اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية ويكون بالجنان واللسان والأركان كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

ولكنهم اختلفوا أيهما أعمّ الحمد أو الشكر على قولين والتحقيق أن بينهما عموماً وخصوصاً فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه وهو أخص، لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه لأنه يكون بالقول والفعل والنية كما تقدم وهو أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية لا يقال شكرته لفروسيته وتقول شكرته على كرمه وإحسانه إليّ. هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين والله أعلم.

وأما المدح فهو أعم من الحمد لأنه يكون للحي وللميت وللجماد أيضاً كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك ويكون قبل الإحسان وبعده، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضاً فهو أعم.

والألف واللام في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى.

﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ والرب هو: المالك المتصرف ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح وكل ذلك صحيح في حق الله، ولا يستعمل الرب لغير الله بل بالإضافة تقول: رب الدار، رب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل، وقد قيل إنه الاسم الأعظم. والعالمين جمع عالم وهو كل موجود سوى الله عز وجل، والعوالم أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر وكل قرن منها وجيل يسمى عالماً أيضاً. وعن ابن عباس: **﴿الحمد لله رب العالمين﴾** رب الجن والإنس، وكذلك قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن جريج، واستدل القرطبي لهذا القول بقوله تعالى: **﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾**[الفرقان: ١] وهم الجن والإنس. وقال قتادة: رب العالمين كل صنف عالم.

﴿ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ ﴾

وقوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ تقدم الكلام عليه في البسملة بما أغنى عن إعادته قال القرطبي: إنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله رب العالمين ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب كما قال تعالى: **﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾** [الحجر: ٤٩-٥٠]، وقوله تعالى: **﴿إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾** [الأنعام: ١٦٥] قال: فالرب فيه ترهيب والرحمن الرحيم ترغيب وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «ولو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد».

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾

قرأ بعض القراء (ملك يوم الدين) وقرأ آخرون (مالك) وكلاهما صحيح متواتر في السبع، ومالك مأخوذة من المِلك كما قال تعالى: ﴿**إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون**﴾[مريم:٤٠]، وقال: ﴿**قل أعوذ برب الناس ملك الناس**﴾[الناس:١ـ٢]، وملك مأخوذ من المُلك كما قال تعالى: ﴿**لمن الملك اليوم لله الواحد القهار**﴾[غافر:١٦]، وقال ﴿**قوله الحق وله الملك**﴾[الأنعام:٧٣]، وقال: ﴿**الملك يومئذ الحق للرحمن وكان على الكافرين عسيراً**﴾[الفرقان:٢٦]، وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين وذلك عامّ في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعي أحد هنالك شيئاً ولا يتكلم أحد إلا بإذنه كما قال تعالى: ﴿**يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً**﴾[النبأ:٣٨]، وقال تعالى: ﴿**وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً**﴾[طه:١٠٨]، وقال تعالى: ﴿**يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد**﴾[هود:١٠٥]، وعن ابن عباس ﴿**مالك يوم الدين**﴾ يقول: لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكماً كملكهم في الدنيا، قال: ويوم الدين يوم الحساب للخلائق وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر إلا من عفا عنه، وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف وهو ظاهر.

والدين الجزاء والحساب كما قال تعالى: ﴿**يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق**﴾ [النور:٢٥] وقال: ﴿**أئنا لمدينون**﴾ [الصافات:٥٣] أي مجزيون محاسبون، وفي الحديث «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت» أي حاسب نفسه كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم ﴿**يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية**﴾ [الحاقة:١٨].

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾

العبادة في اللغة من الذلة يقال طريق مُعَبّد وبعير مُعَبّد أي مذلل، وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف. وقدم المفعول وهو إياك وكرر للاهتمام والحصر أي لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك وهذا هو كمال الطاعة، والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله عز وجل، وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى: ﴿**فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون**﴾[هود:١٢٣]، ﴿**قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا**﴾[الملك:٢٩]، ﴿**رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا**﴾[المزمل:٩] وكذلك هذه الآية الكريمة ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب وهو مناسب،

لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى فلهذا قال ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى وإرشاد لعباده أن يثنوا عليه بذلك ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك وهو قادر عليه كما جاء في الصحيحين عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»، وعن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿**إياك نعبد**﴾ يعني إياك نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك ﴿**وإياك نستعين**﴾ على طاعتك وعلى أمورنا كلها، وقال قتادة ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أمركم وإنما قدم ﴿**إياك نعبد**﴾ على ﴿**وإياك نستعين**﴾ لأن العبادة له هي المقصودة والاستعانة وسيلة إليها والاهتمام والحزم تقديم ما هو الأهم فالأهم والله أعلم. فإن قيل: فما معنى النون في قوله تعالى: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ فإن كانت للجمع فالداعي واحد وإن كانت للتعظيم فلا تناسب هذا المقام؟ وقد أجيب بأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد والمصلي فرد منهم ولا سيما إن كان في جماعة أو إمامهم فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التي خلقوا لأجلها وتوسط لهم بخير، ومنهم من قال يجوز أن تكون للتعظيم كأن العبد قيل له إذا كنت في العبادة فأنت شريف وجاهك عريض فقل ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ وإذا كنت خارج العبادة فلا تقل نحن ولا فعلنا ولو كنت في مائة ألف أو ألف ألف لافتقار الجميع إلى الله عز وجل. ومنهم من قال إياك نعبد ألطف في التواضع من إياك أعبد لما في الثاني من تعظيمه نفسه من جعله نفسه وحده أهلاً لعبادة الله تعالى الذي لا يستطيع أحد أن يعبده حق عبادته ولا يثني عليه كما يليق به، والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى.

وقد سمى الله رسولهﷺ بعبده في أشرف مقاماته فقال: ﴿**الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب**﴾[الكهف: ١] ﴿**وأنه لما قام عبد الله يدعوه**﴾[الجن: ١٩]، ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً**﴾[الإسراء: ١] فسماه عبداً عند إنزاله عليه وقيامه في الدعوة وإسرائه به وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول: ﴿**ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين. واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾[الحجر: ٩٧-٩٩].

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾

قراءة الجمهور بالصاد وقرئ السراط وقرئ بالزاي.

لما تقدم الثناء على المسؤول تبارك وتعالى ناسب أن يعقب بالسؤال كما قال: «فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل» [من حديث أخرجه مسلم وتقدم قريبا] وهذا أكمل أحوال السائل أن يمدح مسؤوله ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ لأنه أنجح للحاجة وأنجع للإجابة، ولهذا أرشد الله إليه لأنه الأكمل وقد يكون

السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه كما قال موسى عليه السلام ﴿رب إنّي لما أنزلت إلي من خير فقير﴾[القصص: ٢٤] وقد يتقدمه مع ذلك وصف المسؤول كقول ذي النون ﴿لاإله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾[الأنبياء: ٨٧].

والهداية ههنا الإرشاد والتوفيق، وقد تُعدى الهداية بنفسها كما هنا ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ فتضمن معنى ألهمنا أو وفقنا أو ارزقنا أو أعطنا ﴿وهديناه النجدين﴾[البلد: ١٠] أي بينا له الخير والشر، وقد تعدى بإلى كقوله تعالى: ﴿اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم﴾[النحل: ١٢١] ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾[الصافات: ٢٣] وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة وكذلك قوله ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾[الشورى: ٥٢] وقد تُعدى باللام كقول أهل الجنة ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾[الأعراف: ٤٣] أي وفقنا لهذا وجعلنا له أهلاً.

وأما الصراط المستقيم فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه وذلك في لغة جميع العرب.

قال: والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر، قال ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل وصف باستقامة أو اعوجاج فتصف المستقيم باستقامته والمعوج باعوجاجه. ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد وهو المتابعة لله وللرسول، فروي أنه كتاب الله، وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ قال ذاك الإسلام، وقال ابن الحنفية في قوله تعالى ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ قال هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره، وقال مجاهد اهدنا الصراط المستقيم قال: الحق وهذا أشمل ولا منافاة بينه وبين ما تقدم، وعن أبي العالية ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ قال هو النبي ﷺ وصاحباه من بعده. قال عاصم فذكرنا ذلك للحسن فقال: صدق أبو العالية ونصح. وكل هذه الأقوال صحيحة وهي متلازمة فإن من اتبع الإسلام فقد اتبع النبي ﷺ واقتدى باللذين من بعده أبي بكر وعمر فقد اتبع الحق ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن وهو كتاب الله وحبله المتين وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضاً، و لله الحمد.

فإن قيل: فكيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها وهو متصف بذلك؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟

فالجواب أن لا، ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى إلى ذلك فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية ورسوخه فيها وتبصره وازدياده منها واستمراره عليها فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمده بالمعونة والثبات والتوفيق، فالسعيد من وفقه الله تعالى

لسؤاله فإنه قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار، وقد قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا آمِنوا با لله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل**﴾الآية[النساء: ١٣٦] فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان وليس في ذلك تحصيل الحاصل لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك والله أعلم. فمعنى قوله تعالى ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره. اهـ.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾

قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ إلى آخرها أن الله يقول «هذا لعبدي ولعبدي ما سأل» وقوله تعالى: ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم**﴾ مفسر للصراط المستقيم وهو بدل منه عند النحاة ويجوز أن يكون عطف بيان والله أعلم. و﴿**الذين أنعمت عليهم**﴾ هم المذكورون في سورة النساء حيث قال تعالى: ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النّبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. ذلك الفضل من الله وكفى با لله عليماً**﴾[النساء: ٦٩-٧٠]، وقال ابن عباس: صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك، من ملائكتك، وأنبيائك، والصديقين، والشهداء، والصالحين؛ وذلك نظير ما قال ربنا تعالى: ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم**﴾الآية[النساء: ٦٩].

وقوله تعالى: ﴿**غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾ المعنى: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة لله ورسله وامتثال أوامره وترك نواهيه وزواجره غير صراط المغضوب عليهم وهم الذين فسدت إرادتهم فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق. وأكد الكلام بلا ليدل على أن ثَمّ مسلكين فاسدين وهما طريقتا اليهود والنصارى.

وإنما جيء بها لتأكيد النفي لئلا يتوهم أنه معطوف على ﴿**الذين أنعمت عليهم**﴾ وللفرق بين الطريقتين لتجتنب كلاً منهما فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به واليهود فقدوا العمل والنصارى فقدوا العلم ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى، لأن من علم وترك استحق الغضب خلاف من لم يعلم، والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الرسول الحق، ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم ﴿**من لعنه الله وغضب عليه**﴾[المائدة: ٦٠] وأخص أوصاف النصارى الضلال كما قال تعالى عنهم ﴿**قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل**﴾[المائدة: ٧٧] وبهذا جاءت

الأحاديث والآثار وذلك واضح بين.

وعن عبد الله بن شقيق أنه أخبره من سمع رسول الله ﷺ وهو بوادي القُرَى على فرسه وسأله رجل من بني القين فقال يا رسول الله من هؤلاء؟ قال: «المغضوب عليهم وأشار إلى اليهود والضالون هم النصارى»[صحيح].

وعن ابن عباس، وعن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿**غير المغضوب عليهم**﴾ هم اليهود ﴿**ولا الضالين**﴾ هم النصارى، وكذلك قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد، وقال ابن أبي حاتم ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافاً. وشاهد ما قاله هؤلاء الأئمة من أن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون، الحديث المتقدم، وقوله تعالى في خطابه مع بني إسرائيل في سورة البقرة ﴿**بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين**﴾[البقرة: ٩٠]، وقال في المائدة ﴿**قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل**﴾[المائدة: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون**﴾[المائدة: ٧٨-٧٩]. والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء لقرب مخرجيهما، وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ولأن كلا من الحرفين من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك والله أعلم، وأما حديث أنا أفصح من نطق بالضاد فلا أصل له والله أعلم.

فصل

اشتملت هذه السورة الكريمة وهي سبع آيات على حمد الله وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبيده إلى سؤاله، والتضرع إليه، والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يفضي بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسّيّ يوم القيامة، المفضي بهم إلى جنات النعيم في جوار النبيين والصديقين والشهداء الصالحين، واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة وهم المغضوب عليهم والضالون وما أحسن إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم**﴾ وحذف

الفاعل في الغضب في قوله تعالى ﴿**غير المغضوب عليهم**﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة كما قال تعالى ﴿**ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم**﴾الآية[المجادلة: ١٤]، وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به وإن كان هو الذي أضلهم بقدره كما قال تعالى ﴿**من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً**﴾الكهف: ١٧]، وقال ﴿**من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون**﴾[الأعراف: ١٨٦]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال لا كما تقول الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلون ويحتجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن ويتركون ما يكون فيه صريحاً في الرد عليهم: وهذا حال أهل الضلال والغي، فليس بحمد الله لمبتدع في القرآن حجة صحيحة لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقاً بين الهدى والضلال وليس فيه تناقض ولا اختلاف لأنه من عند الله تنزيل من حكيم حميد.

فصل

يستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها آمين مثل يس، ويقال أمين بالقصر أيضاً مثل اليمين ومعناه اللهم استجب والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن وائل بن حجر قال: سمعت النبي ﷺ قرأ ﴿**غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾ فقال آمين مد بها صوته، ولأبي داود رفع بها صوته، وقال الترمذي هذا حديث حسن، وروي عن علي وابن مسعود وغيرهم. وقال الجوهري: معنى آمين كذلك فليكن، وقال الترمذي معناه لا تخيب رجاءنا. وقال الأكثرون معناه اللهم استجب لنا.

وقد اختلف أصحابنا[أي الشافعية] في الجهر بالتأمين للمأموم في الجهرية وحاصل الخلاف أن الإمام إن نسي التأمين جهر المأموم به قولاً واحداً وإن أمن الإمام جهراً فالجديد أن لا يجهر المأموم وهو مذهب أبي حنيفة ورواية عن مالك لأنه ذكر من الأذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة، والقديم أنه يجهر به وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل والرواية الأخرى عن مالك، ولنا قول آخر ثالث أنه إن كان المسجد صغيراً لم يجهر المأموم لأنهم يسمعون قراءة الإمام وإن كان كبيراً جُهر ليبلغ التأمين من في أرجاء المسجد والله أعلم.

وفي قوله تعالى: ﴿**وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون**﴾[يونس: ٨٨-٨٩] ذكر الدعاء عن موسى وحده ومن سياق الكلام ما يدل على أن هارون أمّن فنزل منزلة من دعا لقوله تعالى ﴿**قد أجيبت دعوتكما**﴾ فدل ذلك على أن من أمّن على دعاء فكأنما قاله.

تفسير سورة البقرة

ذكر ما ورد في فضلها

في مسند أحمد وصحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان».

ذكر ما ورد في فضلها مع آل عمران

عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن فإنه شافع لأهله يوم القيامة اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلهما»، ثم قال: «اقرؤوا البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة» [رواه أحمد ومسلم]. الزهراوان: المنيران، والغياية: ما أظلك من فوقك، والفِرْقُ: القطعة من الشيء، والصواف: المصطفة المتضامة، والبطلة: السحرة، ومعنى «لا تستطيعها» أي لا يمكنهم حفظها، وقيل لا تستطيع النفوذ في قارئها والله أعلم.

فصل

والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف، قال بعض العلماء وهي مشتملة على ألف خبر وألف أمر وألف نهي، وعن ابن عباس نزلت بالمدينة سورة البقرة، وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء والمفسرين ولا خلاف فيه.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ ①﴾

قد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور فمنهم من قال هي مما استأثر الله بعلمه فردّوا علمها إلى الله، ولم يفسروها حكاه القرطبي في تفسيره عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم، وقاله الشعبي والثوري والربيع بن خثيم واختاره أبو حاتم بن حبان، ومنهم من فسَّرها، واختلف هؤلاء في معناها فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم إنما هي أسماء السور. ويعتضد هذا بما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة الم السجدة وهل أتى على الإنسان، وعن مجاهد أنه قال: آلم، وحَم، والمص، وص. فواتح افتتح الله بها القرآن، وعنه أنه قال: الم اسم من أسماء القرآن، وهكذا قال قتادة وزيد بن أسلم ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد أنه اسم من أسماء السورة فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن فإنه يبعد أن يكون «المص» اسماً للقرآن كله لأن المتبادر إلى فهم سامع من يقول: قرأت «المص» إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف لا لمجموع القرآن والله أعلم.

وقيل: هي اسم من أسماء الله تعالى. فقال الشعبي فواتح السور من أسماء الله تعالى، وعن ابن عباس: هو قسم أقسم الله به وهو من أسماء الله تعالى، وعن عكرمة أنه قال: الم: قسم،

وعن ابن عباس: الم قال أنا الله أعلم، وكذا قال سعيد بن جبير، وعن ابن عباس وعن ابن مسعود وناس من أصحاب النبي ﷺ قالوا: أما الم فهي حروف استفتحت من حروف هجاء أسماء الله تعالى.

وعن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى الم قال: هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفاً دارت فيها الألسن كلها ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه، وليس منها حرف إلا وهو من آلائه، وبلائه: وليس منها حرف إلا وهو في مدة أقوام وآجالهم. ورواه ابن جرير [بنحوه] ثم شرع يوجه كل واحد من هذه الأقوال ويوفق بينها وأنه لا منافاة بين كل واحد منها وبين الآخر وأن الجمع ممكن فهي أسماء للسور ومن أسماء الله تعالى يفتتح بها السور فكل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من صفاته كما افتتح سوراً كثيرة بتحميده وتسبيحه وتعظيمه، قال ولا مانع من دلالة الحرف منها على اسم من أسماء الله وعلى صفة من صفاته وعلى مدة وغير ذلك كما ذكره الربيع بن أنس عن أبي العالية لأن الكلمة الواحدة تطلق على معانٍ كثيرة كلفظة الأمة فإنها تطلق ويراد به الدين كقوله تعالى ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمة**﴾[الزخرف: ٢٢، ٢٣] وتطلق ويراد بها الرجل المطيع لله كقوله تعالى ﴿**إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين**﴾[النحل: ١٢٠] وتطلق ويراد بها الجماعة، كقوله تعالى ﴿**وجد عليه أمة من الناس يسقون**﴾[القصص: ٢٣]، وقوله تعالى ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً**﴾[النحل: ٣٦] وتطلق ويراد بها الحين من الدهر، كقوله تعالى ﴿**وقال الذي نجا منهما وادَّكر بعد أمة**﴾[يوسف: ٤٥] أي بعد حين على أصح القولين قال فكذلك هذا.

هذا حاصل كلامه موجهاً ولكن هذا ليس كما ذكره أبو العالية فإن أبا العالية زعم أن الحرف دل على هذا، وعلى هذا وعلى هذا معاً، ولفظة الأمة وما أشبهها من الألفاظ المشتركة في الإصطلاح، إنما دل في القرآن في كل موطن على معنى واحد دل عليه سياق الكلام. ثم إن لفظة الأمة تدل على كل من معانيه في سياق الكلام بدلالة الوضع فأما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن أن يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أولى من الآخر في التقدير أو الإضمار بوضع ولا بغيره فهذا مما لا يفهم إلا بتوقيف، والمسألة مختلف فيها وليس فيها إجماع حتى يحكم به. وما أنشدوه من الشواهد على صحة إطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة فإن في السياق ما يدل على ما حذف بخلاف هذا.

وقال خصيف عن مجاهد فواتح السور كلها (ق وص وحم وطسم والر) وغير ذلك هجاء موضوع.

قلت مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهي: ا ل م ص ر ك هـ ي ع ط س ح ق ن يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر. وهي نصف الحروف عدداً والمذكور منها أشرف من المتروك وبيان ذلك من صناعة التصريف.

ومن ههنا لحظ بعضهم في هذا المقام كلاماً فقال: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثاً ولا سدى، ومن قال من الجهلة إن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأً كبيراً، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر فإن صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به وإلا وقفنا حيث وقفنا وقلنا ﴿**آمنا به كل من عند ربنا**﴾[آل عمران:٧]، ولم يجمع العلماء فيها على شيء معين وإنما اختلفوا فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه وإلا فالوقف حتى يتبين. هذا مقام.

المقام الآخر في الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور ما هي مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها، فقال بعضهم إنما ذكرت لنعرف بها أوائل السور حكاه ابن جرير وهذا ضعيف لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه وفيما ذكرت فيه بالبسملة تلاوة وكتابة، وقال آخرون بل ابتدئ بها لتُفْتَحَ لاستماعها أسماعُ المشركين إذ تواصوا بالإعراض عن القرآن حتى إذا استمعوا له تلى عليهم المؤلَّف منه حكاه ابن جرير أيضاً وهو ضعيف؛ لأنه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السور لا يكون في بعضها بل غالبها ليس كذلك، ولو كان كذلك ـ أيضاً ـ لانبغىٰ الابتداء بها في أوائل الكلام معهم سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك ثم إن هذه السورة والتي تليها أعني البقرة وآل عمران مدنيتان ليستا خطاباً للمشركين فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه.

وقال آخرون بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه تركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها.

ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة؛ ولهذا يقول تعالى ﴿**الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين**﴾[البقرة:١ـ٢] ﴿**الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه**﴾[آل عمران:١ـ٣]. ﴿**المص. كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه**﴾[الأعراف:١ـ٢] وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر والله أعلم.

وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ما ليس له، وطار في غير مطاره.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾

قال ابن عباس: ﴿**ذلك الكتاب**﴾: هذا الكتاب. وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم: أن ذلك بمعنى هذا والعرب تقارض بين هذين الاسمين من أسماء الإشارة فيستعملون كلًا منهما مكان الآخر وهذا معروف في كلامهم.

و﴿الكتاب﴾: القرآن. ومن قال: إن المراد بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والإنجيل كما حكاه ابن جرير وغيره فقد أبعد النُّجْعَة وأغرَق في النزع وتكلف ما لا علم له به. والريب الشك، فعن ابن عباس وابن مسعود وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿لا ريب فيه﴾ لا شك فيه.

ومعنى الكلام: أن هذا الكتاب ـ وهو القرآن ـ لا شك فيه أنه نزل من عند الله كما قال تعالى في السجدة ﴿الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ [السجدة: ١ـ٢]. وقال بعضهم هذا خبر ومعناه النهي أي لا ترتابوا فيه. ومن القراء من يقف على قوله تعالى ﴿لا ريب﴾ ويبتدئ بقوله تعالى ﴿فيه هدى للمتقين﴾ والوقف على قوله تعالى ﴿لا ريب فيه﴾ أولى للآية التي ذكرناها ولأنه يصير قوله تعالى ﴿هدى﴾ صفة للقرآن، وذلك أبلغ من كون فيه هدى. وخصت الهداية للمتقين كما قال ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾[فصلت: ٤٤]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن؛ لأنه هو في نفسه هدى ولكن لا يناله إلا الأبرار كما قال تعالى ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾[يونس: ٥٧]. وعن ابن عباس، وابن مسعود، وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿هدى للمتقين﴾ يعني: نوراً للمتقين. وقال الشعبي: هدى من الضلالة. وقال سعيد بن جبير: تبيان للمتقين. وكل ذلك صحيح.

وعن ابن عباس ﴿للمتقين﴾ أي: الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به. وعن الحسن البصري قوله تعالى ﴿للمتقين﴾ قال: اتَّقوا ما حرّم الله عليهم، وأدّوا ما افترض عليهم، وقال قتادة ﴿للمتقين﴾ هم الذين نعتهم الله بقوله: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾ الآية والتي بعدها[البقرة: ٣ـ٤]، واختار ابن جرير أن الآية تعم ذلك كله وهو كما قال. وأصل التقوى التوقي مما يكره لأن أصلها وقوى من الوقاية. قال النابغة:

سقط النصيف ولم ترد إســقاطه ... فتناولتــه واتقتنا باليــد

وقد قيل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبي بن كعب عن التقوى فقال له أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟ قال بلى، قال فما عملت قال شمرت واجتهدت قال فذلك التقوى. وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال:

خــل الــذنــوب صـغيرهـــا ... وكــبيرهـــا ذاك التــقـى
واصــــنع كمـــاش فـــوق أر ... ض الشـوك يحذر ما يرى
لا تحقـــرن صــــغيرة ... إنّ الجـبال مـن الحصـى

وأنشد أبو الدرداء يوماً:

يريـد المرء أن يؤتى مناه ويأبى الله إلا مـــا أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾

عن ابن عباس رضي الله عنهما يؤمنون يصدّقون، وقال معمر عن الزهري: الإيمان العمل، وعن الربيع بن أنس ﴿**يؤمنون**﴾ يخشون.

قال ابن جرير وغيره: والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً وعملاً واعتقاداً، قال: وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل قلت: أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك كما قال تعالى ﴿**يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين**﴾[التوبة: ٦١] وكما قال إخوة يوسف لأبيهم ﴿**وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين**﴾[يوسف: ١٧]، وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال كقوله تعالى ﴿**إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾[الانشقاق: ٢٥]، فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً. هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعاً: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث.

ومنهم من فسره بالخشية كقوله تعالى: ﴿**إن الذين يخشون ربهم بالغيب**﴾[الملك: ١٢]، وقوله: ﴿**من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب**﴾[ق: ٣٣]، والخشية خلاصة الإيمان والعلم كما قال تعالى: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماءُ**﴾[فاطر: ٢٨]. وأما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد، فعن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿**يؤمنون بالغيب**﴾ قال: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وجنته وناره ولقائه، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث، فهذا غيب كله. وكذا قال قتادة، وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب النبي ﷺ: أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذكر في القرآن. وعن زر قال: الغيب القرآن. وقال عطاء بن أبي رباح: من آمن بالله فقد آمن بالغيب. وقال إسماعيل بن أبي خالد يؤمنون بالغيب قال: بغيب الإسلام. وقال زيد بن أسلم: بالقدر. فكل هذه متقاربة في معنى واحد لأن جميع المذكورات من الغيب الذي يجب الإيمان به.

وعن عبد الرحمن بن يزيد قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً فذكرنا أصحاب النبي ﷺ وما سبقونا به فقال عبد الله: إن أمر محمد ﷺ كان بيّناً لمن رآه والذي لا إله غيره ما آمن أحد

قط إيماناً أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ ﴿**الم، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب** إلى قوله ﴿**المفلحون**﴾[البقرة: ١-٥]،[رواه سعيد بن منصور والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه]. وفي معنى هذا الحديث الذي رواه أحمد عن أبي جمعة قال: تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح، قال: يا رسول الله هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك. قال: «نعم قوم من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني»[حسنه الحافظ].

﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾

قال ابن عباس ويقيمون الصلاة أي: يقيمون الصلاة بفروضها، وعن ابن عباس [أيضا] إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها، وقال قتادة إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها، وعن ابن عباس ﴿**ومما رزقناهم ينفقون**﴾ قال زكاة أموالهم، وعن ابن عباس وعن ابن مسعود وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿**ومما رزقناهم ينفقون**﴾ قال: هي نفقة الرجل على أهله وهذا قبل أن تنزل الزكاة، واختار ابن جرير أنّ الآية عامة في الزكاة والنفقات؛ لأن الله تعالى عم وصفهم ومدحهم بذلك وكل من الإنفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه.

قلت: كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال فإن الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتهال إليه ودعائه والتوكل عليه، والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: ﴿**ومما رزقناهم ينفقون**﴾ ولهذا ثبت في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت» والأحاديث في هذا كثيرة وأصل الصلاة في كلام العرب الدعاء.

ثم استعملت الصلاة في الشرع في ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة في الأوقات المخصوصة، بشروطها المعروفة، وصفاتها، وأنواعها المشهورة. وقال ابن جرير وأرى أن الصلاة سميت صلاة لأن المصلي يتعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله، مع ما يسأل ربه من حاجاته.

وأما الزكاة فسيأتي الكلام عليها في موضعه إن شاء الله تعالى.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾

قال ابن عباس: ﴿**والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك**﴾ أي: يصدّقون بما جئت به من الله وما جاء به من قبلك من المرسلين لا يفرّقون بينهم ولا يجحدون ما جاؤوهم به من

ربهم ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ أي بالبعث والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان، وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا، وقد اختلف المفسرون في الموصوفين هاهنا، هل هم الموصوفون بما تقدّم من قوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ ومن هم؟ على ثلاثة أقوال حكاها ابن جرير: **أحدها**: أن الموصوفين أولاً هم الموصوفون ثانياً وهم كل مؤمن، مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم قاله مجاهد وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة، **والثاني**: هما واحد، وهم مؤمنو أهل الكتاب، وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفات على صفات كما قال تعالى: ﴿سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدّر فهدى والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى﴾[الأعلى: ١-٥]، فعطف الصفات بعضها على بعض والموصوف واحد. **والثالث**: أن الموصوفين أوّلاً مؤمنو العرب والموصوفون ثانياً بقوله ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ مؤمنوا أهل الكتاب نقله السدي في تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة واختاره ابن جرير، ويُستشهَد لما قال بقوله تعالى: ﴿وإنّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله﴾ الآية[آل عمران: ١٩٩]، وبما ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بي ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه ورجل أدب جاريته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها». قلت: والظاهر قول مجاهد، [فعنه] أنه قال: أربع آيات من أوّل سورة البقرة في نعت المؤمنين وآيتان في نعت الكافرين وثلاث عشرة في المنافقين.

فهذه الآيات الأربع عامة في كل مؤمن اتصف بها من عربي وعجمي وكتابي من إنسي وجني وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها فلا يصح الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ وما جاء به من قبله من الرسل والإيقان بالآخرة كما أنّ هذا لا يصح إلا بذاك وقد أمر الله المؤمنين بذلك كما قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ الآية [النساء: ١٣٦]، وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك فقال تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وغير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالإيمان بالله ورسله وكتبه لكن لمؤمني أهل الكتاب خصوصية وذلك أنهم مؤمنون بما بأيديهم مفصلاً، فإذا دخلوا في الإسلام وآمنوا به مفصلاً كان لهم على ذلك الأجر مرتين، وأما غيرهم فإنما يحصل له الإيمان بما تقدّم مجملاً.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

يقول الله تعالى: ﴿أولئك﴾ أي: المتصفون بما تقدم: من الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة،

والإنفاق من الذي رزقهم الله، والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومَنْ قبله من الرسل، والإيقان بالدار الآخرة، وهو يستلزم الاستعداد لها من العمل بالصالحات وترك المحرمات. ﴿على هدى﴾ أي على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي في الدنيا والآخرة، عن ابن عباس ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ أي على نور من ربهم، واستقامةٍ على ما جاءهم، ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي: الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿إن الذين كفروا﴾ أي: غطوا الحق وستروه، وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك، سواء عليهم إنذارك وعدمه فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به. كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس:٩٦-٩٧] أي إن من كتب الله عليه الشقاوة فلا مُسْعِد له، ومن أضلَّه فلا هادي له، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وبلغهم الرسالة فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر، ومن تولى فلا تحزن عليهم ولا يهمنك ذلك؛ ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ [الرعد:٤٠]. ﴿إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾[هود:١٢]، وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول.

وعن أبي العالية قال: نزلت هاتان الآيتان في قادة الأحزاب، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار. جهنم يصلونها﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩]، والمعنى الذي ذكرناه أولاً عن ابن عباس أظهر، ويفسر ببقية الآيات التي في معناها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لا يؤمنون﴾ محله من الإعراب أنه جملة مؤكدة للتي قبلها ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ أي هم كفار في كلا الحالين فلهذا أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿لا يؤمنون﴾ ويحتمل أن يكون لا يؤمنون خبراً لأن تقديره إن الذين كفروا لا يؤمنون ويكون قوله تعالى: ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ جملة معترضة، والله أعلم.

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

قال السدي: ختم الله أي: طبع الله، وقال قتادة في هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه؛ فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون. وعن مجاهد قال: الرّانُ أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الأقفال، والأقفال أشد ذلك كله.

وقال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما معنى قوله: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ إخبار من الله عن

تكبرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دُعُوا إليه من الحق، كما يقال إن فلاناً لأصَمّ عن هذا الكلام، إذا امتنع من سماعه، ورفع نفسه عن تفهمه تكبراً. قال وهذا لا يصح؛ لأن الله تعالى قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم، قلت: وقد أطنب الزمخشري في تقرير ما رده ابن جرير ههنا وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جداً وما جرأه على ذلك إلا اعتزاله لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده يتعالى الله عنه في اعتقاده ولو فهم قوله تعالى: ﴿**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم**﴾ [الصف:٥] وقوله: ﴿**ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون**﴾ [الأنعام:١١٠] وما أشبه من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقاً على تماديهم في الباطل وتركهم الحق وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح فلو أحاط علماً بهذا لما قال ما قال والله أعلم.

قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن الله عز وجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال: ﴿**بل طبع الله عليها بكفرهم**﴾ [النساء:١١٥] وذكر حديث تقليب القلوب «ويا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك» وذكر حديث حذيفة الذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ. قال «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً» الحديث.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونَزَع واستعتب صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الرّان الذي قال الله تعالى: ﴿**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾ [المطففين:١٤] [رواه النسائي، والترمذي وقال: حسن صحيح].

قال ابن جرير فأخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها وإذا أغلقتها أتاها حينئذٍ الختم من قبل الله تعالى والطبع فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص فذلك هو الختم والطبع الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿**ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم**﴾ نظير الختم والطبع على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلها فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلا بعد فض خاتمه وحل رباطه عنها.

واعلم أن الوقف التام على قوله تعالى: ﴿**ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم**﴾ وقوله: ﴿**وعلى أبصارهم غشاوة**﴾ جملة تامة فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع، والغشاوة وهي الغطاء يكون على البصر كما قال ابن عباس، وابن مسعود، وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ

في قوله ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ فلا يعقلون ولا يسمعون، وجعل ﴿على أبصارهم غشاوة﴾ على أعينهم فلا يبصرون.

لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات، ثم عرَّف حال الكافرين بهاتين الآيتين، شرع تعالى في بيان حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق، كما أنزل سورة براءة فيهم، وسورة المنافقين فيهم، وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور، تعريفاً لأحوالهم لتجتنب، ويجتنب من تلبس بها أيضاً فقال تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾

النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي، وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب، وهذا كما قال ابن جريج: المنافق يخالف قَوْلُه فِعْلَهُ، وسِرّه علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مَغِيبه

وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه من الناس من كان يظهر الكفر مُستكرَهاً، وهو في الباطن مؤمن، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام، على طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل بنو قَيْنُقَاع حلفاء الخزرج، وبنوالنَّضِير، وبنو قُرَيْظَة حلفاء الأوس، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقلّ من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام رضي الله عنه، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة، فلما كانت وقعة بدر وأظهر الله كلمته، وأعلى الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أبي بن سلول، وكان رأساً في المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم فجاءهم الخير وأسلموا، واشتغلوا عنه فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعت بدر قال: هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثَمّ وُجِد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد نافق، لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهاً، بل يهاجر فيترك ماله، وولده، وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة. قال ابن عباس ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ يعني المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم. وكذا فسرها بالمنافقين أبو العالية والحسن وقتادة والسدي. ولهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون،

فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار أن يظُن بأهل الفجور خَيْر، فقال تعالى: ﴿**ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين**﴾ أي يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شيء آخر، كما قال تعالى: ﴿**إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله**﴾ [المنافقون:١] أي: إنما يقولون ذلك إذا جاؤوك فقط لا في نفس الأمر، ولهذا يؤكدون الشهادة بإن ولام التأكيد في خبرها. كما أكدوا قولهم: ﴿**آمنا بالله وباليوم الآخر**﴾ وليس الأمر كذلك كما أكْذبهم الله في شهادتهم، وفي خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم، بقوله: ﴿**والله يشهد إن المنافقين لكاذبون**﴾ [المنافقون:١] وبقوله: ﴿**وما هم بمؤمنين**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**يخادعون الله والذين آمنوا**﴾ أي بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون**﴾ [المجادلة:١٨]؛ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿**وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون**﴾ يقول وما يَغُرُّون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿**إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم**﴾ [النساء:١٤٢] ومن القراء من قرأ ﴿**وما يخادعون إلا أنفسهم**﴾ وكلا القراءتين ترجع إلى معنى واحد.

وعن ابن جُرَيْج في قوله تعالى ﴿**يخادعون الله**﴾ قال: يظهرون «لا إله إلا الله» يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم وفي أنفسهم غير ذلك. وعن قتادة: نعت المنافق عند كثير: خَنعُ الأخلاق يصدّق بلسانه وينكر بقلبه ويخالف بعمله، ويصبح على حال ويمسي على غيره، ويمسي على حال ويصبح على غيره، ويتكفأ تكفؤَ السفينة كلما هبَّت ريح هبَّ معها.

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ في هذه الآية ﴿**في قلوبهم مرض**﴾ قالوا: شك، فزادهم الله مرضاً، قالوا: شكاً.

وكذلك قال مجاهد والحسن وغيرهما. وعن عكرمة وطاوس: ﴿**في قلوبهم مرض**﴾ يعني: الرياء. وعن ابن عباس ﴿**في قلوبهم مرض**﴾ قال: نفاق، ﴿**فزادهم الله مرضاً**﴾ قال: مرضاً وهذا كالأول. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿**في قلوبهم مرض**﴾ قال: هذا مرض في الدين، وليس مرضاً في الأجساد، وهم المنافقون. والمرض: الشك الذي دخلهم في الإسلام ﴿**فزادهم الله مرضاً**﴾ قال: زادهم رجساً، وقرأ: ﴿**فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم**﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥]. قال: شراً إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم، وهذا الذي قاله عبد الرحمن رحمه الله حسن،

وهو الجزاء من جنس العمل، وكذلك قاله الأولون، وهو نظير قوله تعالى أيضاً: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ [محمد:١٧] وقوله ﴿بما كانوا يكذبون﴾ وقرئ «يكذِّبون»، وقد كانوا متصفين بهذا وهذا، فإنهم كانوا كذبة يكذبون بالغيب يجمعون بين هذا وهذا.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من أصحاب النبي ﷺ قالوا: الفساد هو الكفر، والعمل بالمعصية. وعن أبي العالية قال: يعني لا تعصوا في الأرض. وكان فسادهم ذلك معصية الله؛ لأنه من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله، فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة. وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة وغيرهم. وعن سلمان الفارسي ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾ قال سلمان لم يجئ أهل هذه الآية بعد.

قال ابن جرير: فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكهم في دينه الذي لا يُقْبَلُ من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والرّيب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً. فذلك إفساد المنافقين في الأرض، وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها. وهذا الذي قاله حسن، فإن من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء كما قال تعالى ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ [الأنفال:٧٣] فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين. فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين، فكأن الفساد من جهة المنافق حاصل لأنه هو الذي غر المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له، ووالى الكافرين على المؤمنين ولو أنه استمر على حاله الأولى لكان شره أخف، ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح وأنجح، ولهذا قال تعالى ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾ أي: نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء كما قال ابن عباس ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾ أي: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. يقول الله ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ يقول: ألا إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يقول الله تعالى وإذا قيل للمنافقين ﴿آمنوا كما آمن الناس﴾ أي: كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك مما أخبر المؤمنين به وعنه،

وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر وترك الزواجر ﴿قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم، قاله ابن عباس، وابن مسعود، وأبو العالية، وغيرهم، يقولون: أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء !! والسفهاء: جمع سفيه كما أن الحكماء جمع حكيم، والسفيه: هو الجاهل الضعيف الرّأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار، وقد تولى الله سبحانه جوابهم في هذه المواطن كلها فقال ﴿ألا أنهم هم السفهاء﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم.

﴿ولكن لا يعلمون﴾ يعني: ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى، والبعد عن الهدى.

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول الله تعالى وإذا لقى هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: ﴿آمنا﴾ أي: أظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة، ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ يعني: وإذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم، وعن ابن عباس وابن مسعود وأناس من أصحاب النبي ﷺ ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ يعني: هم رؤساؤهم في الكفر. وعن ابن عباس [أيضاً] ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول ﷺ، وقال مجاهد: ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين. وقال قتادة ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ قال: إلى رؤوسهم وقادتهم في الشرك والشر، وبنحو ذلك فسّره غير واحد.

وقوله تعالى: ﴿قالوا إنا معكم﴾ عن ابن عباس: أي إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ أي: إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم، وكذلك قال الربيع بن أنس وقتادة.

وقوله تعالى ﴿الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ قال ابن جرير: أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة، في قوله تعالى ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ الآية [الحديد:١٣]، قال فهذا وما أشبهه من استهزاء الله، تعالى ذكره، وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين، وأهل الشرك به عند قائل هذا القول ومتأول هذا التأويل.

قال: وقال آخرون: إن معنى ذلك: أن الله أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلوا إلى مَرَدَتِهم قالوا إنا معكم على دينكم في تكذيب محمد ﷺ وما جاء به، وإنما نحن بما يظهر لهم من قولنا لهم صدقنا بمحمد عليه السلام وما جاء به مستهزئون، فأخبر الله تعالى أنه يستهزئ بهم فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا يعني من عصمة دمائهم وأموالهم خلاف الذي لهم عنده في الآخرة يعني من العذاب والنكال. ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره لأن المكر

والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله عز وجل بالإجماع وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك. قال وبنحو ما قلنا فيه روي الخبر عن ابن عباس في قوله ﴿ **الله يستهزئ بهم**﴾ قال: يسخر بهم للنقمة منهم، وقوله تعالى ﴿**ويمدهم في طغيانهم يعمهون**﴾ عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة قالوا: يمدهم: يملي لهم. وقال مجاهد: يزيدهم. قال ابن جرير: والصواب يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عُتُوِّهم وتَمَرّدهم، كما قال تعالى ﴿**ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون**﴾ [الأنعام: ١١٠]. والطغيان: هو المجاوزة في الشيء. كما قال تعالى: ﴿**إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية**﴾ [الحاقة: ١١]، وعن ابن عباس: ﴿**في طغيانهم يعمهون**﴾: في كفرهم يترددون، وكذا فسره أبو العالية، وقتادة، ومجاهد، وغيرهم: في كفرهم وضلالتهم. قال ابن جرير: والعَمَه: الضلال، يقال: عمه فلان يَعْمَه عَمَهاً وعُمُوهاً: إذا ضل. قال: وقوله: ﴿**في طغيانهم يعمهون**﴾ في ضلالتهم، وكفرهم الذي غمرهم دَنَسُه، وعَلاهم رِجْسُه، يترددون حيارى ضُلَّالاً، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً؛ لأن الله تعالى قد طبع على قلوبهم وختم عليها وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها، فلا يبصرون رُشداً، ولا يهتدون سبيلاً.

وقال بعضهم: العمى في العين، والعمه في القلب، وقد يستعمل العمى في القلب ـ أيضاً قال تعالى: ﴿**فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ [الحج: ٤٦].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

قال السدي في تفسيره عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة: ﴿**أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى**﴾ قال: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى. وقال مجاهد: آمنوا ثم كفروا، وقال قتادة: استحبوا الضلالة على الهدى، وهذا الذي قاله قتادة يشبهه في المعنى قوله تعالى في ثمود: ﴿**فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى**﴾ [فصلت: ١٧].

وحاصل قول المفسرين فيما تقدم أن المنافقين عَدَلوا عن الهدى إلى الضلال، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿**أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى**﴾ أي: بذلوا الهدى ثمناً للضلالة، وسواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الايمان ثم رجع عنه إلى الكفر، كما قال تعالى فيهم: ﴿**ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم**﴾ [المنافقون: ٣]، أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى، كما يكون حال فريق آخر منهم، فإنهم أنواع وأقسام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين**﴾ أي: ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة، وما كانوا مهتدين أي: راشدين في صنيعهم ذلك.

﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

تقرير هذا المثل: أن الله سبحانه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد

التبصرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتَأَنَّس بها فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يُبصر ولا يهتدي، وهو مع ذلك أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياءٌ لما أبصر؛ فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغَيّ على الرشد. وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر عنهم تعالى في غير هذا الموضع، وا لله أعلم.

وزعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل ههنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات، ولم يستحضر ابن جرير رحمه الله هذه الآية ههنا وهي قوله تعالى ﴿**ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون**﴾ [المنافقون:٣].

قال: وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد، كما قال ﴿**رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت**﴾ [الأحزاب:١٩] أي: كدوران عيني الذي يغشى عليه من الموت.

قلت: وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع في قوله تعالى: ﴿**فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون. صم بكم عمي فهم لا يرجعون**﴾ وهذا أفصح في الكلام، وأبلغ في النظام، وقوله تعالى: ﴿**ذهب الله بنورهم**﴾ أي: أذهب عنهم ما ينفعهم وهو النور، وأبقى لهم ما يضرهم، وهو الإحراق والدخان ﴿**وتركهم في ظلمات**﴾ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق ﴿**لا يبصرون**﴾ لا يهتدون إلى سبيل خير ولا يعرفونها، وهم مع ذلك ﴿**صم**﴾ لا يسمعون خيراً ﴿**بكم**﴾ لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿**عمي**﴾ في ضلالة وعماية البصيرة، كما قال تعالى: ﴿**فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ [الحج:٤٦] فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة.

ذكر أقوال المفسرين من السلف بنحو ما ذكرناه

عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة في قوله تعالى ﴿**فلما أضاءت ما حوله**﴾ زعم أن ناساً دخلوا في الإسلام مَقْدَم نبيّ الله ﷺ المدينة، ثم إنهم نافقوا فكان مثلهم كمثل رجُل كان في ظلمة، فأوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله من قذى أو أذى، فأبصره حتى عرف ما يتقي منه، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره، فأقبل لا يدري ما يتقي من أذى، فكذلك المنافق: كان في ظلمة الشرك فأسلم، فعرف الحلال والحرام، والخير والشر، فبينما هو كذلك إذ كفر، فصار لا يعرف الحلال من الحرام ولا الخير من الشر. وقال عطاء الخراساني في قوله تعالى ﴿**مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً**﴾ قال: هذا مثل المنافق يبصر أحياناً ويعرف أحياناً، ثم يدركه عمى القلب. وروي عن عكرمة والحسن والسدي والربيع بن أنس نحو قول عطاء الخراساني [وبنحوه قال ابن زيد].

﴿وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ عن ابن عباس: يقول في عذاب إذا ماتوا، وقال ابن عباس [أيضا]: ﴿وتركهم في ظلمات﴾ أي يبصرون الحق ويقولون به، حتى إذا خرجوا من ظلمة الكفر أطفؤوه بكفرهم ونفاقهم فيه، فتركهم الله في ظلمات الكفر فهم لا يبصرون هدى، ولا يستقيمون على حق.

وعن ابن عباس: ﴿صم بكم عمي﴾ يقول: لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه، ولا يعقلونه، وكذا قال أبو العالية وقتادة.

﴿فهم لا يرجعون﴾ قال ابن عباس: أي لا يرجعون إلى هدى، وقيل: ﴿صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾ إلى الإسلام. وقال قتادة: ﴿فهم لا يرجعون﴾ أي لا يتوبون، ولا هم يذكرون.

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة، ويشكّون تارة أخرى، فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم ﴿كصيب﴾، والصيب: المطر، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وناس من الصحابة، وأبو العالية، ومجاهد، وغيرهم، وقال الضحاك: هو السحاب، والأشهر هو المطر نزل من السماء في حال ظلمات، وهي الشكوك والكفر والنفاق. ﴿ورعد﴾ وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع، كما قال تعالى: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾ [المنافقون: ٤].

والبرق: هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان؛ ولهذا قال: ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين﴾ أي: ولا يُجْدي عنهم حذرهم شيئاً؛ لأن الله محيط بهم بقدرته، وهم تحت مشيئته وإرادته، كما قال: ﴿هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود بل الذين كفروا في تكذيب والله من ورائهم محيط﴾ [البروج: ١٧-٢٠].

والصواعق: جمع صاعقة، وهي نار تنزل من السماء وقت الرعد الشديد. ثم قال: ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾ أي: لشدته وقوته في نفسه، وضعف بصائرهم، وعدم ثباتها للإيمان، وعن ابن عباس: ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾ يقول: يكاد مُحْكَمُ القرآن يدل على عورات المنافقين. وعن ابن عباس: ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾ يقول: كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه، وإن أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر، كقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه﴾ الآية[الحج: ١١]، وعن ابن عباس ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ أي: يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم من قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر

﴿قاموا﴾ أي: متحيرين، وهكذا قال أبو العالية والحسن البصري وقتادة والربيع بن أنس والسدي بسنده عن الصحابة وهو أصح وأظهر والله أعلم، وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم، فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ، وأكثر من ذلك وأقل من ذلك، ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضيء أخرى، فيمشي على الصراط تارة ويقف أخرى، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخُلَّص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم: ﴿**يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً**﴾ [الحديد: ١٣].

فإذا تقرر هذا صار الناس أقساماً، مؤمنون خلص وهم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة وكفار خلص وهم الموصوفون بالآيتين بعدها ومنافقون وهم قسمان: خلص وهم المضروب لهم المثل الناري، ومنافقون يترددون تارة يظهر لهم لمع من الإيمان وتارة يخبو وهم أصحاب المثل المائي وهم أخف حالاً من الذين قبلهم، وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذكر في سورة النور. وقد قسم الله المؤمنين في أول الواقعة وفي آخرها، وفي سورة الإنسان إلى قسمين: سابقون وهم المقربون وأصحاب يمين وهم الأبرار.

فتلخّص من مجموع هذه الآيات الكريمات أن المؤمنين صنفان: مقربون وأبرار، وأن الكافرين صنفان: دعاة ومقلدون، وأن المنافقين أيضاً صنفان: منافق خالص، ومنافق فيه شعبة من نفاق، كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ «ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان». استدلوا به على أن الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان وشعبة من نفاق. إما عَمَلي لهذا الحديث، أو اعتقادي كما دلت عليه الآية، كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض العلماء.

وقوله تعالى: ﴿**ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم**﴾ عن ابن عباس قال: لِمَا تركوا من الحق بعد معرفته. ﴿**إن الله على كل شيء قدير**﴾ قال ابن عباس: أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمةٍ أو عفوٍ قديرٌ، وقال ابن جرير: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع؛ لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط، وأنه على إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير. ومعنى قدير: قادر كما أن معنى عليم: عالم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته، بأنه تعالى هو المنعم على عبيده، بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة بأن جعل لهم الأرض فراشاً، أي: مهداً كالفراش موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات ﴿**والسماء بناء**﴾ وهو السقف، كما قال في

الآية الأخرى ﴿**وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون**﴾ [الأنبياء: ٣٢] وأنزل من السماء ماء ـ والمراد به السحاب ههنا ـ في وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد؛ رزقاً لهم ولأنعامهم كما قرر هذا في غير موضع من القرآن. ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى: ﴿**الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين**﴾ [غافر: ٦٤] ومضمونه: أنه الخالق الرازق، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يُشْرَك به غيره؛ ولهذا قال: ﴿**فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾. وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» الحديث. وكذا حديث معاذ أتدري ما حق الله على عباده ؟ «أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» الحديث [متفق عليه]، وفي الحديث الآخر «لا يقولن أحدكم ما شاء الله وشاء فلان، ولكن ليقل ما شاء الله ثم شاء فلان». [رواه أبوداود وصححه النووي]. وهذا كله صيانة، ورعاية لجناب التوحيد والله أعلم.

وعن ابن عباس قال: قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم**﴾ للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين، أي: وحدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم. وعن ابن عباس ﴿**فلا تجعلوا لله انداداً وأنتم تعلمون**﴾ أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه، وهكذا قال قتادة. وعن ابن عباس أيضا في قول الله عز وجل: ﴿**فلا تجعلوا لله أنداداً**﴾ قال: الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صَفَاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي، ويقول لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها «فلان» هذا كله به شرك.

قال أبو العالية فلا تجعلوا لله أنداداً أي: عدلاء شركاء. وهكذا قال قتادة وغيره. روى الإمام أحمد عن الحارث الأشعري أن نبي الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وكان يبطئ بها، فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن، فقال يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي». قال: «فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد، فقعد على الشرف، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهنَّ وآمركم أن تعملوا بهن، أولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك مَثَل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بوَرِق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأمركم

بالصلاة» الحديث. فهذا حديث حسن والشاهد منه في هذه الآية قوله: «وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً»، وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع فقال: وهي دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب، وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله إن البعرة لتدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾

ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو، فقال مخاطباً للكافرين: **﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾** يعني محمداً ﷺ **﴿فأتوا بسورة﴾** من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله فعارضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله، فإنكم لا تستطيعون ذلك، قال ابن عباس: **﴿شهداءكم﴾** أعوانكم، أي قوما آخرين يساعدونكم على ذلك، وعن أبي مالك: شركاءكم أي استعينوا بآلهتكم في ذلك يمدونكم وينصرونكم، وقال مجاهد: **﴿وادعوا شهداءكم﴾** قال: ناس يشهدون به يعني حكام الفصحاء، وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن، فقال في سورة يونس: **﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾** [يونس: ٣٧-٣٨] وهي مكية.

ثم تحداهم الله تعالى بذلك أيضاً في المدينة فقال في هذه الآية: **﴿وإن كنتم في ريب﴾** أي شك **﴿مما نزلنا على عبدنا﴾** يعني محمداً ﷺ **﴿فأتوا بسورة من مثله﴾** يعني من مثل هذا القرآن، قاله مجاهد وقتادة، واختاره ابن جرير. وبدليل قوله تعالى: **﴿فأتوا بعشر سور مثله﴾** [هود: ١٣] وقال بعضهم من مثل محمد ﷺ، يعني من رجل أمي مثله. والصحيح الأول؛ لأن التحدي عام لهم كلهم، مع أنهم أفصح الأمم، وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة، مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك؛ ولهذا قال تعالى: **﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾** ولن: لنفي التأبيد، أي: ولن تفعلوا ذلك أبداً. وهذه أيضاً معجزة أخرى، وهو أنه أخبر أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبدا، وكذلك وقع الأمر، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأنَّىٰ يَتَأَتَّى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شيء؟

وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين؟!

ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: ﴿**الر. كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير**﴾ [هود: ١]، فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يجارى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية وآتية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر كما قال تعالى: ﴿**وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً**﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشعر: إن أعذبه أكذبه، وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر، ثم تجد له فيه بيتاً أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد وسائرها هذر لا طائل تحته، وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواء كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرر حَلا وعَلا، لا يَخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن كما قال في الترغيب ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون**﴾ [السجدة: ١٧]، وقال في الترهيب: ﴿**أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر**﴾ [الإسراء: ٦٨]، وقال في الزجر: ﴿**فكلاً أخذنا بذنبه**﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال في الوعظ: ﴿**أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون**﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]، إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة، وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف، إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ فأرعها سمعك فإنها خير يأمر به أو شر ينهى عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿**يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم**﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم، بشرت به وحذرت وأنذرت، ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهدت في الدنيا ورغبت في الأخرى، وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان

الرجيم. ولهذا ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» لفظ مسلم. وقوله ﷺ: «وإنما كان الذي أوتيته وحياً» أي: الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه، بخلاف غيره من الكتب الإلهية، فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء والله أعلم. وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿**فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين**﴾ أما الوَقُود، بفتح الواو، فهو ما يلقى في النار لإضرامها كالحطب ونحوه، كما قال: ﴿**وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً**﴾ [الجن:١٥]، والمراد بالحجارة ههنا: هي حجارة الكبريت، وهي أشد الأحجار حراً إذا حميت أجارنا الله منها، فعن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿**وقودها الناس والحجارة**﴾ قال: هي حجارة من كبريت، خلقها الله يوم خلق السموات والأرض في السماء الدنيا، يعدها للكافرين. وبنحوه قال مجاهد وابن جريج وغيرهما، وقيل المراد بها حجارة الأصنام والأنداد التي كانت تعبد من دون الله كما قال ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم...**﴾ الآية [الأنبياء:٩٨].

وقوله تعالى: ﴿**أعدت للكافرين**﴾ الأظهر أن الضمير في أعدت عائد إلى النار التي وقودها الناس والحجارة، ويحتمل عوده إلى الحجارة كما قال ابن مسعود، ولا منافاة بين القولين في المعنى لأنهما متلازمان، وأعدت أي: أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله كما قال ابن عباس ﴿**أعدت للكافرين**﴾ أي: لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر، وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله تعالى: ﴿**أعدت**﴾ أي: أرصدت وهيئت وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها حديث ابن مسعود سمعنا وجبة فقلنا ما هذه؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا حجر ألقي به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها» وهو عند مسلم، وحديث صلاة الكسوف وليلة الإسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى وقد خالفت المعتزلة بجهلهم في هذا.

تنبيه ينبغي الوقوف عليه

قوله تعالى: ﴿ **فأتوا بسورة من مثله**﴾ وقوله في سورة يونس: ﴿**بسورة مثله**﴾ [يونس:٣٨] يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت أم قصيرة؛ لأنها نكرة في سياق الشرط فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه، فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين الناس سلفاً وخلفاً، فكل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة.

قال الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ [سورة العصر].

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٥)﴾

لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب، عَطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله، الذين صَدَّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة؛ فلهذا قال تعالى: ﴿**وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ فوصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار، من تحت أشجارها وغرفها، وعن عبد الله بن مسعود: أنهار الجنة تفجر من جبل مسك.

وقوله تعالى: ﴿**كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل**﴾ عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من الصحابة: ﴿**قالوا هذا الذي رزقنا من قبل**﴾ قال إنهم أُتُوا بالثمرة في الجنة، فلما نظروا إليها قالوا هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، وهكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد، ونصره ابن جرير، وقال عكرمة: ﴿**قالوا هذا الذي رزقنا من قبل**﴾ قال: معناه مثل الذي كان بالأمس، وكذا قال الربيع بن أنس. وقال: مجاهد يقولون: ما أشبهه به قال ابن جرير: وقال آخرون: بل تأويل ذلك هذا الذي رزقنا من ثمار الجنة من قبل هذا لشدة مشابهة بعضه بعضاً لقوله تعالى: ﴿**وأتوا به متشابهاً**﴾ وعن يحيى بن أبي كثير، قال عشب الجنة الزعفران وكثبانها المسك، ويطوف عليهم الولدان بالفواكه فيأكلونها، ثم يؤتون بمثلها، فيقول لهم أهل الجنة: هذا الذي أتيتمونا آنفاً به، فيقول لهم الولدان: كلوا فإن اللون واحد، والطعم مختلف، وهو قول الله تعالى: ﴿**وأتوا به متشابهاً**﴾ وروي عن ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد، وأبي العالية، والسدي وعكرمة نحو ذلك وهذا اختيار ابن جرير. وعن ابن عباس لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء، وفي رواية: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء.

وقوله تعالى: ﴿**ولهم فيها أزواج مطهرة**﴾ عن ابن عباس: مطهرة من القذر والأذى، وقال مجاهد، من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمني والولد، وقال قتادة مطهرة من الأذى والمأثم، وفي رواية عنه لا حيض ولا كلف، وروي عن عطاء والحسن والسدي نحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿**وهم فيها خالدون**﴾ هذا هو تمام السعادة فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام، والله المسؤول أن يحشرنا في زمرتهم، إنه جواد كريم بر رحيم.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين يعني قوله تعالى: **﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾** [البقرة:١٧]، وقوله: **﴿أو كصيب من السماء﴾** [البقرة:١٩] الآيات الثلاث، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله هذه الآية إلى قوله تعالى: **﴿هم الخاسرون﴾** . وعن قتادة أي إن الله لا يستحيي من الحق أن يذكر شيئاً ما، قل أو كثر، وإن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا ؟ فأنزل الله **﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها﴾** وعن الربيع بن أنس في هذه الآية قال: هذا مثل ضربه الله للدنيا؛ إذ البعوضة تحيا ما جاعت، فإذا سمنت ماتت. وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل في القرآن، إذا امتلؤوا من الدنيا رياً أخذهم الله تعالى عند ذلك ثم تلا: **﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾** [الأنعام:٤٤]. وعن أبي العالية بنحوه، فهذا اختلافهم في سبب النزول. وقد اختار ابن جرير الأول؛ لأنه أمس بالسورة، وهو مناسب، ومعنى الآية: أنه تعالى أخبر أنه لا يستحيي، أي لا يستنكف، وقيل لا يخشى أن يضرب مثلاً ما، أي: أيّ مثل كان، بأي شيء كان صغيراً أو كبيراً.

وقوله: **﴿فما فوقها﴾** فيه قولان: أحدهما فما دونها في الصغر والحقارة، كما إذا وصف رجل باللؤم والشح، فيقول السامع: نعم، وهو فوق ذلك يعني فيما وصفت. وهذا قول الكسائي وأبي عبيدة، قال الرازي: وأكثر المحققين، والثاني: فما فوقها فما هو أكبر منها؛ لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة. وهذا قول قتادة واختيار ابن جرير. ويؤيده ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتب له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة» فأخبر أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، كما لم يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في قوله **﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾** [الحج: ٧٣] وقال: **﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾** [العنكبوت:٤١]، وفي القرآن أمثال كثيرة.

قال بعض السلف: إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي؛ لأن الله تعالى يقول: **﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾** وقال مجاهد قوله **﴿إن الله**

لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها﴾ الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنها الحق من ربهم ويهديهم الله بها. وقال قتادة **﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾** أي يعلمون أنه كلام الرحمن وأنه من عند الله، وروي عن مجاهد والحسن والربيع بن أنس نحو ذلك. وقال أبو العالية **﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾** يعني هذا المثل **﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾** كما قال في سورة المدثر **﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾** [المدثر: ٣١]، وكذلك قال ههنا: **﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين﴾** وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة: **﴿يضل به كثيراً﴾** يعني المنافقين، **﴿ويهدي به كثيراً﴾** يعني المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالهم لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقيناً، من المثل الذي ضربه الله بما ضربه لهم، وأنه لما ضرب له موافق، فذلك إضلال الله إياهم به، **﴿ويهدي به﴾** يعني بالمثل كثيراً من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيماناً إلى إيمانهم، لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق لما ضربه الله له مثلاً وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به **﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾** قال: هم المنافقون. وقال أبو العالية: هم أهل النفاق. وكذا قال الربيع بن أنس، وعن ابن عباس يقول يعرفه الكافرون فيكفرون به. وقال قتادة: فسقوا فأضلهم الله على فسقهم.

والفاسق في اللغة هو الخارج عن الطاعة، وتقول العرب فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرتها، ولهذا يقال للفأرة: فويسقة لخروجها عن جُحْرها للفساد، وثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور».

فالفاسق يشمل الكافر والعاصي، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش، والمراد من الآية الفاسق الكافر، والله أعلم بدليل أنه وصفهم بقوله: **﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون﴾** وهذه الصفات صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين كما قال تعالى في سورة الرعد **﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾** الآيات إلى أن قال **﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾** [الرعد: ١٩-٢٥]، وقد اختلف أهل التفسير في معنى العهد الذي وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه، فقال بعضهم: هو وصية الله إلى خلقه وأمره

إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه، وعلى لسان رسله. ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به.

وقال آخرون: بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وعهد الله الذي نقضوه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد ﷺ إذا بعث والتصديق به، وبما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك هو جحودهم به، وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله وقول مقاتل بن حيان.

وقال آخرون: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق. وعهده إلى جميعهم في توحيده ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثلها، قالوا: ونقضهم ذلك تركهم الإقرار بما قد تبينت لهم صحته بالأدلة، وتكذيبهم الرسل والكتب. وروي عن مقاتل بن حيان أيضاً نحو هذا وهو حسن، وقال آخرون: العهد الذي ذكره تعالى هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصف في قوله ﴿**وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا**﴾ الآيتين [الأعراف: ١٧٢-١٧٣]، ونقضهم ذلك تركهم الوفاء به، وهكذا روي عن مقاتل بن حيان أيضاً، حكى هذه الأقوال ابن جرير في تفسيره. وعن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿**الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** إلى قوله **أولئك هم الخاسرون**﴾ قال: هي ست خصال من المنافقين إذا كانت فيهم الظَّهْرَة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا. وكذا قال الربيع بن أنس أيضاً.

وقوله: ﴿**ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل**﴾ قيل: المراد به صلة الأرحام والقرابات كما فسره قتادة كقوله تعالى ﴿**فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم**﴾ [محمد: ٢٢] ورجحه ابن جرير، وقيل: المراد أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله وفعله قطعوه وتركوه. وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿**أولئك هم الخاسرون**﴾ قال: في الآخرة، وهذا كما قال تعالى: ﴿**أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار**﴾ [الرعد: ٢٥]، وعن ابن عباس: كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر، فإنما يعني به الكفر، وما نسبه إلى أهل الاسلام، فإنما يعني به الذنب. وقال ابن جرير في قوله ﴿**أولئك هم الخاسرون**﴾ الخاسرون: جمع خاسر وهم الناقصون أنفسهم وحظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته، كما يخسر الرجل في تجارته بأن يوضع من رأس ماله في بيعه، وكذلك المنافق والكافر خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته.

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته، وأنه الخالق المتصرف في عباده **﴿كيف تكفرون بالله﴾** أي: كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره! **﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾** أي: قد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود، كما قال تعالى **﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾** [الطور:٣٥]، وقال تعالى: **﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾** [الإنسان: :١] والآيات في هذا كثيرة، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه **﴿قالوا ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا﴾** [غافر:١١] قال: هي التي في البقرة **﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾** وعن ابن عباس في قوله تعالى **﴿ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾** قال: كنتم تراباً قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى، فهذه ميتتان وحياتان فهو كقوله **﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾** وهكذا روي عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة وعن الحسن ومجاهد نحو ذلك، وعن أبي صالح **﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾** قال: يحييكم في القبر ثم يميتكم، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: خلقهم في ظهر آدم ثم أخذ عليهم الميثاق ثم أماتهم ثم خلقهم في الأرحام ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة. وذلك كقول الله تعالى **﴿قالوا ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾** وهذا غريب والذي قبله. والصحيح ما تقدم عن ابن مسعود وابن عباس وأولئك الجماعة من التابعين وهو كقوله تعالى **﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** [الجاثية:٢٦]، وعبر عن الحال قبل الوجود بالموت بجامع ما يشتركان فيه من عدم الإحساس، كما قال في الأصنام **﴿أموات غير أحياء﴾** [النحل:٢١]، وقال: **﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون﴾** [يس:٣٣].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه في أنفسهم ذكر دليلاً آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض فقال: **﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء﴾** أي قصد إلى السماء. والاستواء ههنا تَضمّن معنى القصد والإقبال؛ لأنه عدّي بإلى **﴿فسواهن﴾** أي: فخلق السماء سبعاً. والسماء ههنا اسم جنس، فلهذا قال: **﴿فسواهن﴾**. **﴿وهو بكل شيء عليم﴾** أي وعلمه محيط بجميع ما خلق، كما قال: **﴿ألا يعلم من خلق﴾** [الملك:١٤] وتفصيل هذه الآية في سورة حم السجدة وهو قوله تعالى **﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من**

فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾ [فصلت:٩ـ١٢]. ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتدأ بخلق الأرض أولاً، ثم خلق السموات سبعاً، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك. وقد صرح المفسرون بذلك.

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ قال: خلق الله الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان فذلك حين يقول: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾ ﴿فسواهن سبع سموات﴾ قال: بعضهن فوق بعض وسبع أرضين يعني بعضهن تحت بعض، وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء وكذا في آية حم السجدة، فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض، وقد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ [النازعات:٣٠] قالوا: فذكر خلق السماء قبل الأرض وفي صحيح البخاري أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه، فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديماً وحديثاً، وقد قررنا ذلك في تفسير سورة النازعات وحاصل ذلك أن الدحي مفسر بقوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها﴾ [النازعات:٣٠ـ٣٢] ففسر الدحي بإخراج ما كان مودعاً فيها بالقوة إلى الفعل لما اكتملت صورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية دحى بعد ذلك الأرض، فأخرجت ما كان مودعاً فيها من المياه فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾ أي: واذكر إذ قال ربك للملائكة، واقصص على قومك ذلك. ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل كما قال تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ [الأنعام:١٦٥]، وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط، كما يقوله طائفة من المفسرين، وعزاه القرطبي إلى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل، وفي ذلك نظر بل الخلاف في ذلك كثير حكاه فخر الدين الرازي في تفسيره وغيره والظاهر أنه لم يرد آدم عيناً إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة:

﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾ فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس فيما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم، قاله القرطبي: أو أنهم قاسوهم على من سبق.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، كما قد يتوهمه بعض المفسرين، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه، وههنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقاً. قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها، فقالوا: ﴿**أتجعل فيها**﴾ الآية، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك أي نصلي لك. أي ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهلا وقع الاقتصار علينا ؟ قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال: ﴿**إني أعلم مالا تعلمون**﴾ أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها مالا تعلمون أنتم فإني جاعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد منهم الصديقون والشهداء، والصالحون والعباد، والزهاد والأولياء، والأبرار والمقربون، والعلماء والعاملون والخاشعون، والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله، صلوات الله وسلامه عليهم، وقد ثبت في صحيح مسلم أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده سألهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون. وذلك لأنهم يتعاقبون فينا ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر، فيمكث هؤلاء ويصعد أولئك بالأعمال كما قال عليه الصلاة والسلام: «يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل» [أخرجه مسلم] فقولهم: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم هم يصلون من تفسير قوله لهم: ﴿**إني أعلم ما لا تعلمون**﴾، وقيل معنى قوله تعالى جواباً لهم: ﴿**إني أعلم ما لا تعلمون**﴾ إنّ لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء والحالة ما ذكرتم لا تعلمونها، وقيل إنه جواب لقولهم: ﴿**ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**﴾ فقال: ﴿**إني أعلم ما لا تعلمون**﴾ أي: من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به. وقيل: بل تضمن قولهم: ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**﴾ طلباً منهم أن يسكنوا الأرض بدل بني آدم، فقال الله تعالى لهم: ﴿**إني أعلم ما لا تعلمون**﴾ من أن بقاءكم في السماء أصلح لكم وأليق بكم. ذكرها فخر الدين الرازي مع غيرها من الأجوبة، والله أعلم.

وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة أن الله تعالى قال للملائكة: ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾. قالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض

ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً. قال ابن جرير: فكان تأويل الآية على هذا إني جاعل في الأرض خليفة مني يخلفني في الحكم بالعدل بين خلقي وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه، وأما الافساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه: قال ابن جرير وإنما معنى الخلافة التي ذكرها الله، إنما هي خلافة قرن منهم قرناً، قال: والخليفة الفعيلة من قولك خلف فلان فلاناً في هذا الأمر إذا قام مقامه فيه بعده كما قال تعالى: ﴿**ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون**﴾ [يونس: ١٤]، ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم: خليفة لأنه خلف الذي كان قبله، فقام بالأمر مقامه، فكان منه خلفاً. قال: وكان محمد بن إسحاق يقول في قوله تعالى: ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾ يقول: ساكناً وعامراً يعمرها ويسكنها خلفاً ليس منكم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال الله للملائكة: إني أريد أن أخلق في الأرض خلقاً وأجعل فيها خليفة وليس لله عز وجل خلق إلا الملائكة، والأرض وليس فيها خلق، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء. وعن عبد الله بن عمرو، قال: كان الجن بنو الجان في الأرض قبل أن يخلق آدم بألفي سنة، فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء، فبعث الله جنداً من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوهم بجزائر البحور، فقال الله للملائكة: ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾ قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون. وعن الحسن قال: قال الله للملائكة: ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾ قال لهم: إني فاعل. فآمنوا بربهم فعلمهم علماً وطوى علماً علمه ولم يعلموه، فقالوا بالعلم الذي علمهم: ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾ ﴿**قال إني أعلم ما لا تعلمون**﴾. وعن قتادة في قوله: ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها**﴾ كان الله أعلمهم أنه إذا كان في الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فذلك حين قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها.

قال ابن جريج: وإنما تكلموا بما أعلمهم الله أنه كائن من خلق آدم، فقالوا: ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾. وقال ابن جرير وقال بعضهم إنما قالت الملائكة ما قالت: ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾ لأن الله أذن لهم في السؤال عن ذلك، بعد ما أخبرهم أن ذلك كائن من بني آدم، فسألته الملائكة فقالت على التعجب منها: وكيف يعصونك يا رب وأنت خالقهم ؟ فأجابهم ربهم ﴿**إني أعلم ما لا تعلمون**﴾ يعني أن ذلك كائن منهم وإن لم تعلموه أنتم، ومن بعض ما ترونه لي طائعاً. قال: وقال بعضهم ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموه من ذلك، فكأنهم قالوا يا رب خبرنا، مسألة الملائكة استخبار منهم، لا على وجه الإنكار واختاره ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿**ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**﴾ عن قتادة، قال: التسبيحُ: التسبيح، والتقديس: الصلاة، وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة يقولون: نصلي لك،

وقال مجاهد: قال نعظمك ونكبرك. وقال الضحاك: التقديس: التطهير، وقال محمد بن إسحاق: لا نعصي ولا نأتي شيئاً تكرهه. وقال ابن جرير: التقديس: هو التعظيم والتطهير. ومنه قولهم سُبُّوح قُدُّوس، يعني بقولهم: سبوح، تنزيه له، وبقولهم: قدوس، طهارة وتعظيم له. وكذلك قيل للأرض أرض مقدسة يعني بذلك المطهرة، فمعنى قول الملائكة إذاً **﴿ونحن نسبح بحمدك﴾** ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهلُ الشرك بك **﴿ونقدس لك﴾** ننسبك إلى ما هو من صفاتك، من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك. وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل أي الكلام أفضل ؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده».

وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ويقطع تنازعهم وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ويقيم الحدود ويزجر عن تعاطي الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا يمكن إقامتها إلا بالإمام وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة في أبي بكر، أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب، أو بتركه شورى في جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور وحكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع، والله أعلم. أو بقهر واحد الناس على طاعته فتجب لئلا يؤدي ذلك إلى الشقاق والاختلاف. وقد نص عليه الشافعي.

ويجب أن يكون ذكراً حراً بالغاً عاقلاً مسلماً عدلاً مجتهداً بصيراً سليم الأعضاء خبيراً بالحروب والآراء قرشياً على الصحيح، ولا يشترط الهاشمي ولا المعصوم من الخطأ خلافاً للغلاة الروافض، ولو فسق الإمام هل ينعزل أم لا ؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينعزل لقوله عليه الصلاة السلام: «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان» [رواه البخاري]، وهل له أن يعزل نفسه فيه خلاف، وقد عزل الحسن بن علي رضي الله عنه نفسه وسلم الأمر إلى معاوية لكن هذا لعذر وقد مدح على ذلك، فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام: «من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائناً من كان» [أخرجه مسلم] وهذا قول الجمهور، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد منهم إمام الحرمين، وقالت الكرامية يجوز اثنان فأكثر كما كان علي و معاوية إمامين واجبي الطاعة، قالوا وإذا جاز بعث نبيين في وقت واحد وأكثر جاز ذلك في الإمام لأن النبوة أعلى رتبة بلا خلاف، وحكى إمام الحرمين عن الأستاذ أبي إسحاق أنه جوز نصب إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطار واتسعت الأقاليم بينهما، وتردد إمام الحرمين في ذلك، قلت وهذا يشبه حال خلفاء بني العباس بالعراق والفاطميين بمصر والأمويين بالمغرب.

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه من عِلم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له، وإنما قدم هذا الفصل على ذلك لمناسبة ما بين المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون؛ ولهذا ذكر الله تعالى هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم فقال تعالى: **﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾** عن ابن عباس: **﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾** قال: عرض عليه أسماء ولده إنساناً إنساناً والدواب فقيل: هذا الحمار، هذا الجمل، هذا الفرس. وقال مجاهد: **﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾** قال علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شيء، كذلك روي عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف: أنه علمه أسماء كل شيء، وقال الربيع في رواية عنه أسماء الملائكة، وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته كلهم.

والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وأفعالها، كما قال ابن عباس حتى الفسوة والفسية. يعني أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر؛ ولهذا روى البخاري في تفسير هذه الآية في كتاب التفسير من صحيحه: عن أنس عن النبي ﷺ قال «يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لستُ هُناكُم، ويذكر ذنبه فيستحيي. [الحديث]، وقد رواه مسلم، ووجه إيراده ههنا والمقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام: «**وعلمك أسماء كل شيء**». فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات؛ ولهذا قال: **﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾** يعني: المسميات، كما قال قتادة: ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة **﴿فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾**، وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة: **﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾** ثم عرض الخلق على الملائكة، وعن مجاهد: **﴿ثم عرضهم﴾** عرض أصحاب الأسماء على الملائكة، وعن الحسن وقتادة قالا: علمه اسم كل شيء، وجعل يسمي كل شيء باسمه عرضت عليه أمة أمة، وعن الحسن وقتادة في قوله: **﴿إن كنتم صادقين﴾** إني لم أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه، فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة: إن كنتم صادقين أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء.

وقال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك تأويل ابن عباس ومن قال بقوله، ومعنى ذلك فقال: أنبئوني بأسماء من عَرَضْتُه عليكم أيها الملائكة القائلون: أتجعل في الأرض من يفسد

فيها ويسفك الدماء، من غيرنا أم منا، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟. إن كنتم صادقين في قيلكم: إني إن جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني ذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين.

وقوله **﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلآ ما علمتنا﴾** هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى؛ ولهذا قالوا: **﴿إنك أنت العليم الحكيم﴾** أي: العليم بكل شيء، الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء، لك الحكمة في ذلك والعدل التام. عن ابن عباس سبحان الله قال: تنزيه الله نفسه عن السوء، وعن ميمون بن مهران قال: سبحان الله: اسم يُعَظَّم الله به، ويُحَاشَى به من السوء.

وقوله تعالى: **﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾** قال زيد بن أسلم قال: أنت جبريل، أنت ميكائيل، أنت إسرافيل، حتى عدد الأسماء كلها، حتى بلغ الغراب، وقال مجاهد في قول الله: **﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾** قال: اسم الحمامة والغراب واسم كل شيء، وروي عن سعيد بن جبير والحسن وقتادة نحو ذلك. فلما ظهر فضل آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام في سَرْدِهِ ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة: **﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾** أي: ألم أتقدم إليكم إني أعلم الغيب الظاهر والخفي، كما قال تعالى: **﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾** [طه:٧]، وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة قال: قولهم: **﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾** فهذا الذي أبدوا **﴿وما كنتم تكتمون﴾** يعني ما أسر إبليس في نفسه من الكبر. وكذلك قال سعيد بن جبير ومجاهد والسدي والضحاك والثوري. واختار ذلك ابن جرير. وقال أبو العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة: هو قولهم: لن يخلق ربنا خلقاً إلا كُنّا أعلم منه وأكرم عليه منه. وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قصة الملائكة وآدم، فقال الله للملائكة: كما لم تعلموا هذه الأسماء فليس لكم علم، إنما أردت أن أجعلهم ليفسدوا فيها، هذا عندي قد علمته، ولذلك أخفيت عنكم أني أجعل فيها من يعصيني ومن يُطيعني، قال: وقد سَبَقَ من الله **﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾** [هود:١١٩] قال: ولم تعلم الملائكة ذلك ولم يدروه قال: فلما رأوا ما أعطى الله آدم من العلم أقروا له بالفضل.

وقال ابن جرير وأولى الأقوال في ذلك قولُ ابن عباس، وهو أن معنى قوله تعالى: **﴿وأعلم**

ما تبدون﴾ وأعلم ـ مع علمي غيب السموات والأرض ـ ما تظهرونه بألسنتكم وما كنتم تخفون في أنفسكم، فلا يخفى عَلَيّ أي شيء، سواء عندي سرائركم، وعلانيتكم. والذي أظهروه بألسنتهم قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها، والذي كانوا يكتمون ما كان عليه منطوياً إبليس من الخلاف على الله في أوامره والتكبر عن طاعته. قال: وصح ذلك كما تقول العرب: قُتِل الجيش وهُزموا، وإنما قتل الواحد أو البعض، وهزم الواحد أو البعض، فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم، كما قال تعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾ [الحجرات: ٤] ذكر أن الذي نادى إنما كان واحداً من بني تميم، قال: وكذلك قوله: ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم. وقد دل على ذلك أحاديث أيضاً كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم، وقال السدي في تفسيره عن أبي مالك، وعن ابن عباس وابن مسعود وأناس من أصحاب النبي ﷺ: لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش. فجعل إبليس على مُلْك السماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن، وإنما سموا الجن لأنهم خزان الجنة، وكان إبليس مع مُلْكه خازناً، فوقع في صدره كبر وقال ما أعطاني الله هذا إلا لميزة لي على الملائكة، فلما وقع ذلك الكبر في نفسه اطلع الله على ذلك منه. فقال الله للملائكة ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ فقالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً، قالوا: ربنا ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها، ويسفك الدماء، ونحن نسبحّ بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ يعني من شأن إبليس. فبعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: إني أعوذ با لله منك أن تنقص مني أو تشينني، فرجع ولم يأخذ، وقال: رب مني عاذت بك فأعذتها، فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها، فرجع فقال كما قال جبريل، فبعث مَلَك الموت فعاذت منه. فقال: وأنا أعوذ با لله أن أرجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض، وخَلَط ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين، فَصعد به فَبَلَّ التراب حتى عاد طيناً لازباً، واللازب هو الذي يلتزق بعضه ببعض، ثم قال للملائكة: ﴿إني خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [ص: ٧١-٧٢] فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه، ليقول له: تتكبر عما عملتُ بيدي، ولم أتكبر أنا عنه. فخلقه بشراً، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه، فكان أشدهم فزعاً منه إبليس، فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة، فذلك حين يقول: ﴿من صلصال كالفخار﴾ [الرحمن: ١٤] ويقول: لأمر ما خُلقت،

ودخل من فيه فخرج من دبره، وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف، لئن سُلطت عليه لأهلكنه، فلما بلغ الحين الذي يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح، قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه، عَطِسَ، فقالت الملائكة: قل الحمد لله. فقال: الحمد لله، فقال له الله: «رحمك ربك». فلما دخلت الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل الروح إلى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة، فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿**خلق الإنسان من عجل**﴾ [الأنبياء: ٣٧] ﴿**فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين**﴾ [الحجر: ٣٠-٣١]، أبى واستكبر وكان من الكافرين، قال الله له: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك لما خلقت بيدي؟ قال: أنا خير منه، لم أكن لأسجد لمن خلقته من طين. قال الله له: اخرج منها فما يكون لك، يعني ما ينبغي لك ﴿**أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين**﴾ [الأعراف: ١٣] والصغار: هو الذل. قال: ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها**﴾ ثم عرض الخلق على الملائكة ﴿**فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين**﴾ أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، فقالوا: ﴿**سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم**﴾ قال الله: ﴿**يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون**﴾ قال: قولهم: ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها**﴾ فهذا الذي أبدوا ﴿**وأعلم ما تكتمون**﴾ يعني ما أسر إبليس في نفسه من الكبر. فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السُّدِّي، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوا من بعض الكتب المتقدمة. والله أعلم. والحاكم يروي في مستدركه بهذا الإسناد بعينه، ويقول هو على شرط البخاري.

والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم، دخل إبليسُ في خطابهم؛ لأنه ـ وإن لم يكن من عنصرهم ـ إلا أنه كان قد تَشَبَّه بهم وتوسم بأفعالهم؛ فلهذا دخل في الخطاب لهم، وذم في مخالفة الأمر. وعن ابن عباس: إن من الملائكة قبيلاً يقال لهم: الجن، وكان إبليس منهم، وكان يسوس ما بين السماء والأرض، فعصى، فمسخه الله شيطاناً رجيماً. وقال سعيد بن المسيب: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا، وعن الحسن، قال: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قَطْ، وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس، وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد سواء. وقال قتادة في قوله: ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم**﴾ فكانت الطاعة لله، والسجدة أكرم الله آدم بها أن أسجد له ملائكته. وقال في قوله تعالى: ﴿**فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين**﴾ حسد عدو الله إبليسُ آدمَ، عليه السلام، على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا ناري وهذا طيني. وكان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم، عليه السلام. وعن عبد الله بن بُرَيدة: قوله تعالى: ﴿**وكان من الكافرين**﴾ من الذين أبوا فأحرقتهم

النار، وعن أبي العالية: ﴿**وكان من الكافرين**﴾ يعني من العاصين، وقال السدي: ﴿**وكان من الكافرين**﴾ الذين لم يخلقهم الله يومئذ، يكونون بعد، وقال محمد بن كعب القُرَظِيُّ: ابتدأ الله خلق إبليس على الكفر والضلالة، وعمل بعمل الملائكة، فصيره الله إلى ما أبدى عليه خلقه من الكفر، قال الله تعالى: ﴿**وكان من الكافرين**﴾ وقال بعض الناس: كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام، كما قال تعالى: ﴿**ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا**﴾ [يوسف: ١٠٠] وقد كان هذا مشروعاً في الأمم الماضية ولكنه نسخ في ملتنا، قال معاذ: قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك، فقال: «لا، لو كنت آمراً بشراً أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها» [أخرجه الإمام أحمد وهو صحيح]، والسجدة لآدم إكراماً وإعظاماً واحتراماً وسلاماً، وهي طاعة لله عزّ وجلّ؛ لأنها امتثال لأمره تعالى، وقد قواه الرازي في تفسيره وضعف ما عداه.

قلت وقد ثبت في الصحيح: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر» وقد كان في قلب إبليس من الكبر ـ والكفر ـ والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس.

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾

يقول الله تعالى إخباراً عما أكرم به آدم: بعد أن أمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس إنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما شاء. ﴿**رغداً**﴾ أي هنيئاً واسعاً طيباً. وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم أهي في السماء أم في الأرض؟ والأكثرون على الأول، وسياق الأية يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة، وقد صرح بذلك محمد بن إسحاق، حيث قال: لما فرغ الله من معاتبة إبليس، أقبل على آدم وقد عَلَّمه الأسماء كلها، فقال: ﴿**يا آدم أنبئهم بأسمائهم**﴾ إلى قوله: ﴿**إنك أنت العليم الحكيم**﴾. قال: ثم ألقيت السِّنَةُ على آدم ـ فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم، عن ابن عباس وغيره ـ ثم أخذ ضِلعاً من أضلاعه من شِقه الأيسر، ولأم مكانه لحماً، وآدم نائم لم يهب من نومه حتى خلق الله من ضِلعه تلك زوجته حواء، فسواها امرأة ليسكن إليها. فلما كُشِفَ عنه السِّنَةُ وهَبَّ من نومه رآها إلى جنبه، فقال: ـ فيما يزعمون والله أعلم ـ «لحمي ودمي وزوجتي» فسكن إليها، فلما زوَّجَه الله، وجعل له سكناً من نفسه، قال له قبَلاً: ﴿**يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾ وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة: أخرج إبليس من الجنة، وأسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشاً ليس له زوج يسكن إليه، فنام نومة فاستيقظ، وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها: ما أنت؟ قالت امرأة، قال: ولم خلقت؟ قالت لتسكن إلي.

قالت له ـ الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه ـ: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء، قالوا: ولِمَ سميت حواء ؟ قال: إنها خلقت من شيء حي. قال الله: ﴿**يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما**﴾.

وأما قوله: ﴿**ولا تقربا هذه الشجرة**﴾ فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم وقد اختلف في هذه الشجرة ما هي؟ قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: والصواب في ذلك أن يقال إن الله عز وجل ثناؤه: نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة، دون سائر أشجارها، فأكلا منها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة.

وقوله تعالى: ﴿**فأزلهما الشيطان عنها**﴾ يصح أن يكون الضمير في قوله: ﴿**عنها**﴾ عائداً إلى الجنة، فيكون معنى الكلام كما قرأ حمزة: **فأزالهما** أي فنحَّاهما. ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين، وهو **الشجرة**، فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادة: ﴿**فأزلهما**﴾ أي: من قَبِيل الزلل، فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿**فأزلهما الشيطان عنها**﴾ أي بسببها، كما قال تعالى: ﴿**يؤفك عنه من أفك**﴾ [الذاريات:٩] أي: يصرف بسببه من هو مأفوك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**فأخرجهما مما كانا فيه**﴾ أي: من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنيء والراحة.

﴿**وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين**﴾ أي: قرار وأرزاق وآجال ﴿**إلى حين**﴾ أي: إلى وقت مؤقت ومقدار معين، ثم تقوم القيامة، وعن ابن عباس، قال: ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، وعن الحسن، قال: لبث آدم في الجنة ساعة من نهار، تلك الساعة ثلاثون ومائة سنة من أيام الدنيا. وعن أبي موسى، قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض عَلَّمه صنعة كل شيء، وزوده من ثمار الجنة، فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير، وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها**» رواه مسلم.

قال فخر الدين الرازي عن فتح الموصلي أنه قال: كنا قوماً من أهل الجنة فسبانا إبليس إلى الدنيا، فليس لنا إلا الهم والحزن حتى نرد إلى الدار التي أخرجنا منها. فإن قيل: فإذا كانت جنة آدم التي أسكنها في السماء كما يقوله الجمهور من العلماء، فكيف تمكن إبليس من دخول الجنة، وقد طرد من هنالك طرداً قدرياً، والقدري لا يخالف ولا يمانع ؟ فالجواب: أن هذا بعينه استدل به من يقول: إن الجنة التي كان فيها آدم في الأرض لا في السماء، وقد بسطنا هذا في أول كتاب البداية والنهاية، وأجاب الجمهور بأجوبة، أحدها: أنه منع من دخول الجنة مكرماً، فأما على وجه الردع والإهانة، فلا يمتنع، وقد قال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة، وقال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو في الأرض، وهما في السماء.

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

قيل إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى: **﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾** [الأعراف:٢٣]، روي هذا عن مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، [وغيرهم]، أنه قال: قال آدم: يا رب خطيئتي التي أخطأت شيء كتبته علي قبل أن تخلقني، أو شيء ابتدعته من قبل نفسي ؟ قال «بل شيء كتبته عليك قبل أن أخلقك» قال: فكما كتبته علي فاغفره لي. قال: فذلك قوله تعالى: **﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾** وعن ابن عباس بنحوه. وعن أبي العالية في قوله تعالى: **﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾** قال: إن آدم لما أصاب الخطيئة قال: يا رب، أرأيت إن تبت وأصلحت ؟ قال الله «إذن أرجعك إلى الجنة» فهي من الكلمات، ومن الكلمات أيضاً **﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾** [الأعراف:٢٣]. وعن مجاهد أنه كان يقول في قول الله تعالى: **﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾** قال: الكلمات: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فارحمني إنك خير الراحمين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم.

وقوله تعالى **﴿إنه هو التواب الرحيم﴾** أي إنه يتوب على من تاب إليه وأناب، كقوله: **﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾** [التوبة:١٠٤]، وقوله: **﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيماً﴾** [النساء:١١٠]، وقوله: **﴿ومن تاب وعمل صالحاًفإنه يتوب إلى الله متاباً﴾** [الفرقان:٧١]، وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب، ويتوب على من يتوب، وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبيده، لا إله إلا هو التواب الرحيم.

﴿ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة؛ والمراد: الذرية، أنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل؛ كما قال أبو العالية: الهدى: الأنبياء والرسل والبينات والبيان. وقال مقاتل بن حَيَّان: الهدى: محمد ﷺ، وقال الحسن: الهدى: القرآن، وهذان القولان صحيحان، وقول أبي العالية أعم. **﴿فمن تبع هداي﴾** أي: من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل **﴿فلا خوف عليهم﴾** أي: فيما يستقبلونه من أمر الآخرة **﴿ولا هم يحزنون﴾** على ما فاتهم من أمور الدنيا، كما قال في سورة طه: **﴿قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتّبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾** [طه:١٢٣] قال ابن عباس: فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة **﴿ومن أعرض عن ذكري**

فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ [طه: ١٢٤] كما قال ههنا: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي: مخلدون فيها، لا محيد لهم عنها ولا محيص. وعن أبي سعيد الخُدْري، قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أقوام أصابتهم النار بخطاياهم، أو بذنوبهم فأماتتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحماً أُذن في الشفاعة» رواه مسلم. وذكر هذا الإهباط الثاني لما تعلق به ما بعده من المعنى المغاير للأول، وزعم بعضهم: أنه تأكيد وتكرير، كما تقول: قم قم، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى آمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومُهيجاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل، وهو نبي الله يعقوب عليه السلام، وتقديره: يا بني العبد الصالح المطيع لله، كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق، كما تقول: يا ابن الكريم، افعل كذا، يا ابن الشجاع بارز الأبطال، يا ابن العالم اطلب العلم، ونحو ذلك. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾ [الإسراء: ٣] فإسرائيل هو يعقوب عليه السلام، وعن عبد الله بن عباس: أن إسرائيل كقولك: عبد الله.

وقوله تعالى: ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ قال مجاهد: نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمى، وفيما سِوَى ذلك؛ فَجَّر لهم الحجر، وأنزل عليهم المن والسلوى، وأنجاهم من عبودية آل فرعون، وقال أبو العالية: نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل، وأنزل عليهم الكتب، قلت: وهذا كقول موسى عليه السلام لهم: ﴿يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ [المائدة: ٢٠] يعني في زمانهم، وعن ابن عباس في قوله: ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ أي: بلائي عندكم وعند آبائكم لِمَا كان نجاهم من فرعون وقومه ﴿وأوفوا بعهدي﴾ قال: بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي محمد ﷺ إذا جاءكم. ﴿أوف بعهدكم﴾ أي: أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من إحداثكم. وقال الحسن البصري: هو قوله تعالى ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً، وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ الآية [المائدة: ١٢]، وقال أبو العالية: ﴿وأوفوا بعهدي﴾ قال: عهده إلى عباده: دينه الإسلام أن يتبعوه، وعن ابن عباس: ﴿أوف بعهدكم﴾ قال: أرْضَ عنكم وأدخلكم الجنة، وكذا قال السدي، وأبو العالية، [وغيرهما]، وقوله: ﴿وإياي فارهبون﴾ أي: فاخشون؛

قاله أبو العالية، [وغيره]، وقال ابن عباس في قوله تعالى: **﴿وإياي فارهبون﴾** أي: أنزل بكم ما أُنزِل بمن كان قبلكم من آبائكم من النَّقِمَات التي قد عرفتم من المسخ وغيره، وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب، فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة، لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول ﷺ والاتعاظ بالقرآن وزواجره، وامتثال أوامره، وتصديق أخباره، والله الهادي لمن يشاء إلى صراطه المستقيم؛ ولهذا قال: **﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم﴾** يعني به: القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ النبي الأمي العربي بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً مشتملاً على الحق من الله تعالى، مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل، قال أبو العالية رحمه الله في قوله: **﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم﴾** يقول: يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم، يقول: لأنهم يجدون محمداً ﷺ مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، وروي عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك، وقوله: **﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾** قال ابن عباس: ولا تكونوا أول كافر به وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم، وقال أبو العالية: يقول: ولا تكونوا أول من كفر بمحمد ﷺ، يعني من جنسكم أهل الكتاب بعد سماعكم بمبعثه، وكذا قال الحسن، [وغيره]، واختار ابن جرير أن الضمير في قوله به عائد على القرآن الذي تقدم ذكره في قوله **﴿بما أنزلت﴾** وكلا القولين صحيح؛ لأنهما متلازمان، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ، ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن، وأما قوله: **﴿أول كافر به﴾** فيعني به أول من كفر به من بني إسرائيل؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بَشر كثير، وإنما المراد أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن، فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم، وقوله: **﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾** يقول: لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية. سُئل الحسن البصري عن قوله تعالى: **﴿ثمناً قليلاً﴾** قال: الثمن القليل الدنيا بحذافيرها، وعن ابن جبير نحوه، وقال السدي: لا تأخذوا طمعاً قليلاً، ولا تكتموا اسم الله، لذلك الطمع وهو الثمن، وعن أبي العالية: لا تأخذوا عليه أجراً، قال: وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول: يا ابن آدم عَلِّم مجاناً كما عُلِّمتَ مجاناً. وقيل: معناه لا تعتاضوا عن البيان والإيضاح ونشر العلم النافع في الناس بالكتمان واللبس لتستمروا على رياستكم في الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب، وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من تعلم علماً مما يبتغىٰ به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة» [صححه النووي والألباني]، وأما تعليم العلم بأجرة، فإن كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة، ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله، فإن لم يحصل له منه شيء وقطعه التعليم عن التكسب، فهو كما لم يتعين عليه، وإذا لم يتعين عليه فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء كما

في صحيح البخاري عن أبي سعيد في قصة اللديغ «إن أحق ماأخذتم عليه أجراً كتاب الله»، وقوله في قصة المخطوبة «زوجتكها بما معك من القرآن» [أخرجه البخاري]، فأما حديث عبادة بن الصامت، أنه علم رجلاً من أهل الصفة شيئاً من القرآن فأهدى له قوساً فسأل عنه رسول الله ﷺ فقال له: «إن أحببت أن تطوق بقوس من نار فاقبله» فتركه، رواه أبو داود، وروي مثله عن أبي ابن كعب مرفوعاً، فإن صح إسناده فهو محمول عند كثير من العلماء منهم: أبو عمر بن عبد البر، على أنه لما علمه الله لم يجز بعد هذا أن يعتاض عن ثواب الله بذلك القوس، فأما إذا كان من أول الأمر على التعليم بالأجرة فإنه يصح كما في حديث اللديغ وحديث سهل في المخطوبة، والله أعلم.

﴿**وإياي فاتقون**﴾ عن طلق بن حبيب، قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله، والتقوى أن تترك معصية الله مخافة عذاب الله على نور من الله. ومعنى قوله: ﴿**وإياي فاتقون**﴾ أنه تعالى يتوعدهم فيما يعتمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه، ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

يقول تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يعتمدونه من تلبيس الحق بالباطل، وتمويهه به، وكتمانهم الحق، وإظهارهم الباطل: ﴿**ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون**﴾ فنهاهم عن الشيئين معاً، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به؛ ولهذا قال ابن عباس: ﴿**ولا تلبسوا الحق بالباطل**﴾: لا تخلطوا الحق بالباطل، والصدق بالكذب. وقال أبو العالية: ﴿**ولا تلبسوا الحق بالباطل**﴾ يقول: ولا تخلطوا الحق بالباطل، وأدوا النصيحة لعباد الله من أمر محمد ﷺ. ويروى عن سعيد بن جبير والربيع بن أنس نحوه، وقال قتادة: ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام؛ إن دين الله الإسلام، واليهودية والنصراينة بدعة ليست من الله، وروي عن الحسن البصري نحو ذلك، وعن ابن عباس ﴿**وتكتموا الحق وأنتم تعلمون**﴾ أي: لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم فيما **تعلمون** من الكتب التي بأيديكم، وروي عن أبي العالية نحو ذلك، وقال مجاهد، والسدي، وقتادة، والربيع بن أنس ﴿**وتكتموا الحق**﴾ يعني: محمداً ﷺ، ويجوز أن يكون المعنى: وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس من إضلالهم عن الهدى المفضي بهم إلى النار إلى أن سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لتروّجوه عليهم، والبيان الإيضاح وعكسه الكتمان وخلط الحق بالباطل.

﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين**﴾ قال مقاتل: قوله تعالى لأهل الكتاب ﴿**وأقيموا الصلاة**﴾ أمرهم أن يصلوا مع النبي ﷺ ﴿**وآتوا الزكاة**﴾ أمرهم أن يؤتوا الزكاة، أي يدفعونها إلى النبي ﷺ ﴿**واركعوا مع الراكعين**﴾ أمرهم أن يركعوا مع الراكعين من أمة

محمد ﷺ، يقول: كونوا منهم ومعهم، وعن ابن عباس: ﴿وآتوا الزكاة﴾ يعني بالزكاة: طاعة الله والإخلاص، وعن الحسن في قوله تعالى ﴿وآتوا الزكاة﴾ قال: فريضة واجبة، لا تنفع الأعمال إلا بها وبالصلاة، وعن الحارث العُكلي في قوله تعالى ﴿وآتوا الزكاة﴾ قال: صدقة الفطر.

وقوله تعالى: ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أي: وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم، ومن أخص ذلك وأكمله الصلاة، وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة.

﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالى: كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير، أن تنسوا أنفسكم، فلا تأتمروا بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قَصر في أوامر الله ؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم، فتنتبهوا من رَقدتكم، وتتبصروا من عمايتكم، وهذا كما قال قتادة في قوله تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ قال: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبر، ويخالفون، فَعَيّرهم الله عز وجل، وكذلك قال السدي. وقال ابن جريج: ﴿أتأمرون الناس بالبر﴾ أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة، ويدَعُونَ العملَ بما يأمرون به الناس، فعيرهم الله بذلك، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة، وعن ابن عباس: ﴿وتنسون أنفسكم﴾ أي: تتركون أنفسكم ﴿وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ أي: تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعَهْد من التوراة، وتتركون أنفسكم، أي: وأنتم تكفرون بما فيها من عَهْدي إليكم في تصديق رسولي، وتنقضون ميثاقي، وتجحدون ما تعلمون من كتابي، وعنه أيضا: في هذه الآية يقول: أتأمرون الناس بالدخول في دين محمد ﷺ وغير ذلك مما أمرتم به من إقام الصلاة وتنسون أنفسكم. قال أبو الدرداء رضي الله عنه: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقُت الناس في ذات الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية: هؤلاء اليهود إذا جاء الرجل يسألهم عن الشيء ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحق، فقال الله تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾.

والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع، ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع أمرهم به، ولا يتخلف عنهم كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ [هود:٨٨]. فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف، وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي

لا ينهى غيره عنها وهذا ضعيف، وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية؛ فإنه لا حجة لهم فيها. والصحيح: أن العالم يأمر بالمعروف، وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه. قال مالك عن ربيعة: سمعت سعيد بن جبير يقول: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر. وقال مالك: وصدق من ذا الذي ليس فيه شيء؟ قلت: لكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية، لعلمه بها ومخالفته على بصيرة، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم؛ ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك، روى البخاري ومسلم وأحمد واللفظ له عن أسامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجَاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق به أقتابه، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهلُ النار فيقولون: يا فلان ما أصابك، ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه». وقال إبراهيم النخعي: إني لأكره القصص لثلاث آيات: قوله تعالى: ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم**﴾ وقوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون**﴾ [الصف: ٢-٣]، وقوله إخباراً عن شعيب: ﴿**وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب**﴾ [هود: ٨٨].

وقال أبو الأسود الدؤلي:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى ... بالقول منك وينفع التعليم

﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً عبيده فيما يؤمّلون من خير الدنيا والآخرة، بالاستعانة بالصبر والصلاة، كما قال مقاتل بن حَيَّان في تفسير هذه الآية: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة، فأما الصبر فقيل: إنه الصيام، نص عليه مجاهد، قال القرطبي وغيره: ولهذا يُسمى رمضان شهر الصبر. وقيل: المراد بالصبر الكف عن المعاصي؛ ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها: فعل الصلاة. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله. وروي عن الحسن البصري نحو قول عمر، وعن سعيد بن جبير، قال: الصبر: اعتراف العبد لله بما أصيب فيه، واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يُرى منه إلا الصبر. وقال أبو العالية في قوله: ﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة**﴾ على مرضاة الله، واعلموا أنها من طاعة الله، وأما قوله: ﴿**والصلاة**﴾: فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر، كما قال تعالى: ﴿**اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر**﴾ الآية [العنكبوت: ٤٥].

وعن ابن عباس أنه نُعي إليه أخوه قُثَم وهو في سفر، فاسترجع، ثم تنحّى عن الطريق فأناخ، فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة على الخاشعين**﴾ وعن ابن جريج: ﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة**﴾ قال: إنهما مَعُونتان على رحمة الله. والضمير في قوله: وإنها عائد إلى الصلاة، نص عليه مجاهد، واختاره ابن جرير، ويحتمل أن يكون عائداً على ما يدل عليه الكلام، وهو الوصية بذلك، كقوله تعالى: ﴿**ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم**﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥] أي: وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا، ﴿**وما يلقاها**﴾ أي: يؤتاها ويلهمها ﴿**إلا ذو حظ عظيم**﴾. وعلى كل تقدير فقوله تعالى: ﴿**وإنها لكبيرة**﴾. أي: مشقة ثقيلة إلا على الخاشعين. قال ابن عباس: يعني المصدّقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: المؤمنين حقاً، وقال أبو العالية: إلا على الخاشعين الخائفين، وقال مقاتل بن حيان: إلا على الخاشعين يعني به المتواضعين. وقال الضحاك: ﴿**وإنها لكبيرة**﴾ قال: إنها لثقيلة إلا على الخاضعين لطاعته، الخائفين سطواته، المصدقين بوعده ووعيده. وهذا يشبه ما جاء في الحديث «لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه» [أخرجه أحمد من حديث معاذ، والترمذي وقال: حسن صحيح]، وقال ابن جرير: معنى الآية: واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر المقربة من رضا الله، العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين لله المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته. هكذا قال: والظاهر أن الآية وإن كانت خطاباً في سياق إنذار بني إسرائيل، فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص، وإنما هي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون**﴾ هذا من تمام الكلام الذي قبله، أي: وإن الصلاة أو الوصاة لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم، أي: يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة، معروضون عليه، وأنهم إليه راجعون، أي: أمورهم راجعة إلى مشيئته، يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سَهُل عليهم فعلُ الطاعات وترك المنكرات. فأما قوله ﴿**يظنون أنهم ملاقوا ربهم**﴾ قال ابن جرير، رحمه الله: العرب قد تسمي اليقين ظناً، والشك ظناً، نظير تسميتهم المغيث صارخاً، والمستغيث صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمى بها الشيء وضده. قال: والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن في معنى اليقين أكثر من أن تحصر، ومنه قول الله تعالى: ﴿**ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها**﴾ [الكهف: ٥٣]. وعن مجاهد، قال: كل ظن في القرآن يقين أي: ظننت وظنوا، وعنه قال: كل ظن في القرآن فهو علم، وعن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿**الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم**﴾ قال: الظن ههنا يقين،

وروي عن مجاهد، والسدي، والربيع بن أنس، وقتادة نحو قول أبي العالية، وعن ابن جريج: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم﴾ علموا أنهم ملاقوا ربهم، كقوله: ﴿إني ظننت أني ملاق حسابيه﴾[الحاقة: ٢٠] يقول: علمت. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

قلت: وفي الصحيح: أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة «ألم أزوّجك، ألم أكرمك، ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتَرْبَع ؟ فيقول بلى. فيقول الله تعالى: «أفظننت أنك ملاقي ؟» فيقول: لا فيقول الله: «اليوم أنساك كما نسيتني» وسيأتي مبسوطاً عند قوله ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ [التوبة: ٦٧] إن شاء الله والله تعالى أعلم.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يذكرهم تعالى سَالفَ نعمه على آبائهم وأسلافهم، وما كان فَضَّلهم به من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: ﴿ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾ [الدخان: ٣٢]، وعن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾ قال: بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان؛ فإن لكل زمان عالماً، ورُوي عن مجاهد، [وغيره] نحوُ ذلك. ويجب الحمل على هذا؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم، لقوله تعالى، خطاباً لهذه الأمة ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم﴾ [آل عمران: ١١٠]، وفي المسانيد والسنن عن معاوية بن حَيْدَة القُشَيري، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم تُوفُونَ سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»، والأحاديث في هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾.

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

لما ذكرهم تعالى بنعمه أولا، عطف على ذلك التحذير من حُلُول نقمه بهم يوم القيامة، فقال: ﴿واتقوا يوماً﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾ أي: لا يغني أحد عن أحد، كما قال: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً﴾ [لقمان: ٣٣] فهذا أبلغ المقامات: أن كلا من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئاً، وقوله تعالى: ﴿ولا يقبل منها شفاعة﴾ يعني من الكافرين، كما قال: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ [المدثر: ٤٨]، وقوله: ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ أي: لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾ [آل عمران: ٩١]. فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به، ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه، فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاه، ولا يقبل منهم فداء، ولو بملء الأرض ذهباً، كما قال تعالى: ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال ابن عباس: ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ قال: بدل،

والبدل: الفدية، وقال السدي: أما عدل فيعدلها من العذاب يقول: لو جاءت بملء الأرض ذهباً تفتدي به ما تقبل منها، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وعن أبي العالية في قوله: ﴿**ولا يؤخذ منها عدل**﴾ يعني: فداء، وروي عن الحسن، وسعيد بن جبير، [وغيرهما] نحو ذلك. وعن علي رضي الله عنه قال: والصرف والعدل: التطوع والفريضة. وهذا القول غريب ههنا، والقول الأول أظهر في تفسير هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿**ولا هم ينصرون**﴾ أي: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه، ولا يقبل منهم فداء، هذا كله من جانب التلطف، ولا لهم ناصر من أنفسهم، ولا من غيرهم، كما قال: ﴿**فما له من قوة ولا ناصر**﴾ [الطارق: ١٠] أي: أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدْيَة ولا شفاعة، ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذ، ولا يجيره منه أحد، كما قال تعالى: ﴿**وهو يجير ولا يجار عليه**﴾ [المؤمنون:٨٨]. وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**مالكم لا تناصرون**﴾ مالكم اليوم لا تَمانَعُون منا؟ هيهات ليس ذلك لكم اليوم. قال ابن جرير: وتأويل قوله: ﴿**ولا هم ينصرون**﴾ يعني: أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية. بطلت هنالك المحاباة، واضمحلت الرِّشى والشفاعات، وارتفع من القوم التعاون والتناصر، وصار الحكم إلى الجبار العدل الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فيجزي بالسيئة مثلها، وبالحسنة أضعافها، وذلك نظير قوله تعالى: ﴿**وقفوهم إنهم مسئولون * ما لكم لا تناصرون ؟ بل هم اليوم مستسلمون**﴾ [الصافات: ٢٤-٢٦].

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول تعالى: اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم ﴿**إذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب**﴾ أي: خلصتكم منهم، وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام، وقد كانوا يسومونكم، أي: يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب. وذلك أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر، إلا بيوت بني إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، ويقال: بعد تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة، وهكذا جاء في حديث الفتون كما سيأتي في موضعه في سورة طه إن شاء الله تعالى، فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذَكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأرذلها. وههنا فسر العذاب بذبح الأبناء، وفي سورة إبراهيم عطف عليه كما قال: ﴿**يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم**﴾ [إبراهيم: ٦]، وسيأتي تفسير ذلك في أول سورة القصص إن شاء الله تعالى، به الثقة والمعونة والتأييد. ومعنى يسومونكم أي يولونكم، قاله أبو عبيدة.

وقيل معناه: يديمون عذابكم، كما يقال سائمة الغنم من إدامتها الرعي، نقله القرطبي، وإنما قال ههنا: ﴿**يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم**﴾ ليكون ذلك تفسيراً للنعمة عليهم في قوله: ﴿**يسومونكم سوء العذاب**﴾ ثم فسره بهذا لقوله ههنا: ﴿**اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم**﴾، وأما في سورة إبراهيم فلما قال: ﴿**وذكرهم بأيام الله**﴾ [إبراهيم:٥] أي: بأياديه ونعمه عليهم فناسب أن يقول هناك: ﴿**يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم**﴾، فعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم والأيادي على بني إسرائيل. وفرعون عَلَمٌ على كل مَن مَلَكَ مصر، كافراً من العماليق وغيرهم، كما أن قيصر عَلَمٌ على كل من ملك الروم مع الشام كافراً، وكسرى لمن ملك الفرس، وتُبَّع لمن ملك اليمن كافراً، والنجاشي لمن ملك الحبشة.

وقوله تعالى: ﴿**وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم**﴾ قال ابن جرير: وفي الذي فعلنا بكم من إنجائنا إياكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم. أي: نعمة عظيمة عليكم في ذلك، وعن ابن عباس: في قوله: ﴿**بلاء من ربكم عظيم**﴾ قال: نعمة، ونحوه عن مجاهد، وكذا قال أبو العالية وأبو مالك والسدي وغيرهم. وأصل البلاء الاختبار وقد يكون بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿**ونبلوكم بالشر والخير فتنة**﴾ [الأنبياء:٣٥]، وقال: ﴿**وبلوناهم بالحسنات والسيئات**﴾ [الأعراف:١٦٨]. قال ابن جرير: وأكثر ما يقال في الشر: بلوته أبلوه بَلاءً، وفي الخير أبليه إبلاء وبلاء. وقيل: المراد بقوله: ﴿**وفي ذلكم بلاء**﴾ إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء واستحياء النساء، قال القرطبي: وقال الجمهور: الإشارة إلى الذبح ونحوه، والبلاء ههنا في الشر، والمعنى في الذبح مكروه وامتحان، وقوله تعالى: ﴿**وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون**﴾ معناه وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون، وخرجتم مع موسى عليه السلام، خرج فرعون في طلبكم، ففرقنا بكم البحر، كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلاً كما سيأتي في مواضعه ومن أبسطها ما في سورة الشعراء إن شاء الله، ﴿**فأنجيناكم**﴾ أي: خلصناكم منهم وحجزنا بينكم وبينهم وأغرقناهم وأنتم تنظرون؛ ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ في إهانة عدوكم. عن عمرو بن ميمون الأودي في قوله تعالى: ﴿**وإذ فرقنا بكم البحر** ـ إلى قوله ـ **وأنتم تنظرون**﴾ قال: لما خرج موسى ببني إسرائيل، بلغ ذلك فرعون، فقال: لا تتبعوهم حتى تصيح الديكة، قال: فوالله ما صاح ليلتئذ ديك حتى أصبحوا، فدعا بشاة فذبحت، ثم قال: لا أفرغ من كبدها حتى يجتمع إليّ ستمائة ألف من القبط. فلم يفرغ من كبدها حتى اجتمع له ستمائة ألف من القبط ثم سار، فلما أتى موسى البحر قال له رجل من أصحابه، يقال له يوشع بن نون: أين أمَرَ ربك ؟ قال: أمامك، يشير إلى البحر، فأقحم يوشع فرسه في البحر حتى بلغ الغَمْرَ، فذهب به الغمر، ثم رجع فقال: أين أمَرَ ربك يا موسى ؟ فوالله ما كذبت ولا كُذبت. فعل ذلك ثلاث مرات

ثم أوحى الله إلى موسى ﴿أن اضرب بعصاك البحر﴾، فضربه ﴿فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ [الشعراء:٦٣] يقول: مثل الجبل. ثم سار موسى ومن معه، واتبعهم فرعون في طريقهم، حتى إذا تتاموا فيه أطبقه الله عليهم، فلذلك قال: ﴿وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾. وكذلك قال غير واحد من السلف، وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء، كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومون؟» قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله عز وجل فيه بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى عليه السلام، فقال رسول الله ﷺ: «أنا أحق بموسى منكم» فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصومه، وروى هذا الحديث البخاري ومسلم.

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم، لَمَّا عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمَد المواعدة، وكانت أربعين يوماً، وهي المذكورة في الأعراف، في قوله تعالى: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر﴾ [الأعراف:١٤٢] قيل إنها: ذو القعدة بكماله وعشر من ذي الحجة، وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر.

وقوله تعالى: ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب﴾ يعني التوراة ﴿والفرقان﴾ وهو ما يَفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلالة ﴿لعلكم تهتدون﴾. وكان ذلك أيضاً بعد خروجهم من البحر، كما دل عليه سياق الكلام في سورة الأعراف. ولقوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون﴾ [القصص:٤٣].

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾

هذه صفةُ توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل، قال الحسن البصري رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل﴾ فقال: ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حين قال تعالى: ﴿ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا﴾ الآية [الأعراف:١٤٩]. قال: فذلك حين يقول موسى: ﴿يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل﴾. وقال أبو العالية، وسعيد بن جبير، والربيع بن أنس: ﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾ أي: إلى خالقكم. قلت: وفي قوله ههنا: ﴿إلى بارئكم﴾ تنبيه على عظم جرمهم، أي فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره. وروى النسائي عن ابن عباس، قال: قال الله تعالى: إن توبتهم أن يقتل كل واحد منهم من لقي من ولد ووالد، فيقتله بالسيف، ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن. فتاب أولئك الذين كانوا خفي على موسى وهارون ما اطلع الله على ذنوبهم، فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا به

فغفر الله للقاتل والمقتول. وهذا قطعة من حديث الفُتون وسيأتي في سورة طه بكماله إن شاء الله. وبنحوه عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والحسن، والزهري.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما رجع موسى إلى قومه وكان سبعون رجلاً قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه. فقال لهم موسى: انطلقوا إلى موعد ربكم، فقالوا: يا موسى. ما من توبة، قال: بلى، ﴿**فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم**﴾ الآية: فاخترطوا السيوف والجرزَة والخناجر والسكاكين. قال: وبعث عليهم ضبابة، قال: فجعلوا يتلامسون بالأيدي، ويقتل بعضهم بعضاً. قال: ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله وهو لايدري. قال: ويتنادون فيها رحم الله عبداً صبر نفسه حتى يبلغ الله رضاه، قال: فقتلاهم شهداء، وتيب على أحيائهم ثم قرأ ﴿**فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم**﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق، إذْ سألتم رؤيتي جهرة عياناً، مما لا يستطاع لكم ولا لأمثالكم، كما قال ابن عباس في هذه الآية: ﴿**وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**﴾ قال: علانية. وعن الربيع بن أنس قال: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه. قال: فسمعوا كلاماً، فقالوا: ﴿**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**﴾ قال: فسمعوا صوتاً فصعقوا، يقول ماتوا. وقال مروان بن الحكم: الصاعقة صيحة من السماء، وقال السدي الصاعقة: نار، وقال عروة بن رُوَيْم في قوله ﴿**وأنتم تنظرون**﴾ قال: صعق بعضهم وبعضهم ينظرون، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء، وقال السدي: ﴿**فأخذتكم الصاعقة**﴾ فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله، ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿**لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا**﴾ فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذواالعجل، ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا رجل رجل، ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون؟ قال: فذلك قوله تعالى: ﴿**ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون**﴾. وقال الربيع بن أنس: كان موتُهم عقوبة لهم، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم. وكذا قال قتادة. وقال محمد بن إسحاق: لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامري ما قال، وحَرّق العجل وذراه في اليم، اختار موسى منهم سبعين رجلاً الخَيِّرَ فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله وتوبوا إلى الله مما صنعتم، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقّته له ربّه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فقال له السبعون فيما ذكر لي حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا للقاء الله، قالوا: يا موسى، اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله،

ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل، فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى ﴿**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**﴾ فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة، فماتوا جميعاً، وقام موسى يناشد ربه، ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: ﴿**رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي**﴾ [الأعراف: ١٥٥] قد سفهوا، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل بما يفعل السفهاء منا؟ أي إن هذا لهم هلاك. اخترتُ منهم سبعين رجلاً الخَيِّر فالخير، أرجع إليهم وليس معي منهم رجل واحد! فما الذي يصدقوني به ويأمنوني عليه بعد هذا؟ ﴿**إنا هدنا إليك**﴾ [الأعراف: ١٥٦] فلم يزل موسى يناشد ربه عز وجل، ويطلب إليه، حتى ردّ إليهم أرواحهم، وطلب إليه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا، إلا أن يقتلوا أنفسهم.

والقول الثاني: عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير هذه الآية: قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح، قد كتب فيها التوراة، فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا، فتاب الله عليهم، فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، فيه أمركم الذي أمركم به ونهيكم الذي نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابي فخذوه، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى! وقرأ قول الله ﴿**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**﴾. قال: فجاءت غضبة من الله، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة، فصعقتهم فماتوا أجمعون. قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم، وقرأ قول الله: ﴿**ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون**﴾ فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله، فقالوا: لا، فقال: أي شيء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أنا متنا ثم حيينا، قال: خذوا كتاب الله، قالوا: لا، فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾

لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم، فقال: ﴿**وظللنا عليكم الغمام**﴾ وهو جمع غمامة، سمي بذلك لأنه يَغُمّ السماء، أي: يواريها ويسترها. وهو السحاب الأبيض ظُلّلوا به في التيه ليقيهم حر الشمس، كما رواه النسائي وغيره عن ابن عباس في حديث الفُتُون، قال: ثم ظلل عليهم في التيه بالغمام. قال ابن أبي حاتم وروي عن ابن عمر والربيع بن أنس، والسدي [وغيرهم] نحو قول ابن عباس، وقال الحسن وقتادة: ﴿**وظللنا عليكم الغمام**﴾ كان هذا في البرية، ظلل عليهم الغمام من الشمس، وقال ابن جرير: قال آخرون: وهو غمام أبرد من هذا وأطيب. وعن مجاهد قال: ليس بالسحاب،

هو الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة، ولم يكن إلا لهم. وكأنه يريد، والله أعلم، أنه ليس من زِيّ هذا السحاب، بل أحسن منه وأطيب وأبهى منظراً، وعن ابن عباس أيضا قال: غمام أبرد من هذا وأطيب، وهو الذي يأتي الله فيه في قوله: ﴿**هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة**﴾ [البقرة:٢١٠] وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر. قال ابن عباس وكان معهم في التّيه.

وقوله تعالى: ﴿**وأنزلنا عليكم المن**﴾ اختلفت عبارات المفسرين في المن ما هو ؟ فعن ابن عباس قال: كان المن ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه، فيأكلون منه ما شاؤوا. وقال مجاهد: المن: صمغة، وقال عكرمة: المن: شيء أنزله الله عليهم مثل الطل، شبه الرِّبِ الغليظ، وقال السدي، قالوا: يا موسى، كيف لنا بما ههنا، أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن، فكان يسقط على شجر الزنجبيل، وقال قتادة: كان المن ينزل عليهم في محلِّتهم سُقُوطَ الثلج، أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك؛ فإذا تعدى ذلك فسد ولم يبق، حتى كان يوم سادسه، ليوم جمعته، أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عيد لا يشخَص فيه لأمر معيشته ولا يطلبه لشيء، وهذا كله في البرّية. وقال الربيع بن أنس: المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه. وقال وهب بن منبه، وسئل عن المن، فقال: خُبز الرَقاق مثل الذرة أو مثل النَقيّ. وعن عامر الشعبي، قال: عسلكم هذا جزء من سبعين جزءاً من المن، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنه العسل.

والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة في شرح المن، فمنهم من فسره بالطعام، ومنهم من فسره بالشراب، والظاهر والله أعلم، أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك، مما ليس لهم فيه عمل ولا كد، فالمن المشهور إن أُكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مزج مع الماء صار شراباً طيباً، وإن ركب مع غيره صار نوعاً آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ: «الكمأة من المَنّ، وماؤها شفاء للعين» [متفق عليه]. وأما السلوى، فعن ابن عباس: السلوى طائر شبيه بالسُّمَّاني، كانوا يأكلون منه. وعن ابن مسعود وناس من الصحابة نحوه. وكذا قال مجاهد، والشعبي، والحسن، [وغيرهم] رحمهم الله تعالى، وعن عكرمة: أما السلوى فطير كطير يكون بالجنة أكبر من العصفور أو نحو ذلك. وقال قتادة: السلوى من طير إلى الحمّرة [وهو طائر كالعصفور أكبر منه] تحشرها عليهم الريح الجَنوبُ. وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشيء ولا يطلبه. وقال وهب بن منبه: السلوى طير سمين مثل الحمام كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت.

وقال السدي لما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى عليه السلام: كيف لنا بما ههنا؟ أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المَنّ فكان يسقط على شجر الزنجبيل، والسلوى وهو طائر يشبه السمَّان أكبر منه، فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير، فإن كان سميناً ذبحه وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه، فقالوا: هذا الطعام. فأين الشراب؟ فأُمِر موسى فضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، فشرب كل سِبْط من عين، فقالوا: هذا الشراب فأين الظل؟ فَظَلَّل عليهم الغمام. فقالوا: هذا الظل فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما يطول الصبيان، ولا يَنْخرق لهم ثوب، فذلك قوله تعالى ﴿**وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى**﴾، وقوله: ﴿**وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾ [البقرة: ٦٠].

وروي عن وهب بن منبه وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ما قاله السدي، وعن ابن عباس: خُلق لهم في التيه ثياب لا تخرق ولا تدرن، قال ابن جريج: فكان الرجل إذا أخذ من المن والسلوى فوق طعام يوم فسد، إلا أنهم كانوا يأخذون في يوم الجمعة طعام يوم السبت فلا يصبح فاسداً.

وقوله تعالى: ﴿**كلوا من طيبات ما رزقناكم**﴾: أمر إباحة وإرشاد وامتنان، وقوله: ﴿**وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ [البقرة: ٥٧] أي أمرناهم بالأكل مما رزقناهم، وأن يعبدوا كما قال: ﴿**كلوا من رزق ربكم واشكروا له**﴾ [سبأ: ١٥] فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات، وخوراق العادات، ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم، على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم، كما كانوا معه في أسفاره وغزواته، منها عام تبوك، في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد، لم يسألوا خرق عادة، ولا إيجادُ أمر، مع أن ذلك كان سهلاً على الرسول ﷺ، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم، فجاء قدر مَبْرك الشاة، فدعا الله فيه، وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم، وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى، فجاءت سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا الإبل وملؤوا أسقيتهم. ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر. فهذا هو الأكمل في الاتباع: المشي مع قدر الله مع متابعة الرسول ﷺ.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

يقول تعالى لائماً لهم على نكولهم عن الجهاد ودخولهم الأرض المقدسة، لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام، فأمروا بدخول الأرض المقدسة، وقتال من فيها من العماليق الكفرة، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا، فرماهم الله في التيه عقوبة لهم،

كما ذكره تعالى في سورة المائدة؛ ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس، كما نص على ذلك السدي، والربيع بن أنس، وقتادة، وأبو مسلم الأصبهاني وغير واحد وقد قال الله: ﴿**يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا**﴾ الآيات [المائدة: ٢١-٢٤]. وقال آخرون: هي أريحا، ويحكى عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد وهذا بعيد؛ لأنها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحا، وأبعد من ذلك قول من ذهب إلى أنها مصر، والصحيح الأول. وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام، وفتحها الله عليهم عشية جمعة، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح، وأما أريحا فقرية ليست مقصودة لبني إسرائيل، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب - باب البلد - ﴿**سجداً**﴾ أي: شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردّ بلدهم عليهم وإنقاذهم من التيه والضلال. عن ابن عباس في قوله ﴿**وادخلوا الباب سجداً**﴾ قال: ركعاً من باب صغير، فدخلوا من قبل استاههم، وقال ابن عباس: كان الباب قبل القبلة، وقال مجاهد، والسدي، وقتادة، والضحاك: هو باب الحطة من باب إيلياء بيت المقدس. وعن ابن عباس فدخلوا على شق. وعن عبد الله بن مسعود: قيل لهم ادخلوا الباب سجّداً، فدخلوا مقنعي رؤوسهم، أي: رافعي رؤوسهم خلاف ما أمروا. وقوله تعالى: ﴿**وقولوا حطة**﴾ عن ابن عباس قال: مغفرة، استغفروا. وروي عن عطاء، [وغيره] نحوه، وعن ابن عباس: قولوا: هذا الأمر حق، كما قيل لكم، وقال عكرمة: قولوا لا إله إلا الله. وقال الحسن وقتادة: أي: احطط عنا خطايانا. ﴿**نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين**﴾: هذا جواب الأمر، أي: إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضاعفنا لكم الحسنات.

وحاصل الأمر أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً**﴾ [سورة النصر] فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر، وفسره ابن عباس بأنه نُعي إلى رسول الله ﷺ أجله فيها، وأقره على ذلك عمر رضي الله عنه، ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك، ونعى إليه روحه الكريمة أيضاً، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يظهر عليه الخضوع جداً عند النصر، كما روى أنه كان يوم الفتح - فتح مكة - داخلاً إليها من الثنية العليا، وإنّه الخاضع لربه حتى أن عُثْنونه ليمس مَوْرِكَ رَحله شكراً لله على ذلك [أخرجه البيهقي، وهو مرسل وله شاهد موصول عند البيهقي عن أنس بسند صحيح]، ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثماني ركعات وذلك ضُحى، فقال بعضهم: هذه صلاة الضحى، وقال آخرون: بل هي صلاة الفتح، فاستحبوا للإمام وللأمير إذا فتح بلداً أن يصلي فيه ثماني ركعات عند أول دخوله، كما فعل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه،

لما دخل إيوان كسرى صلى فيه ثماني ركعات، والصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بتسليم، وقيل: يصليها كلها بتسليم واحد، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم**﴾ روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «قيل لبني اسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ـ فدخلوا يزحفون على استاههم، فبدّلوا وقالوا: حنطة: حبة في شعرة». وهكذا روي عن ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، والحسن، وقتادة، [وغيرهم].

وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجداً، فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعي رؤوسهم، وأمروا أن يقولوا: حطة، أي: أحطط عنا ذنوبنا وخطايانا، فاستهزؤوا فقالوا حنطة في شعيرة، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته. ولهذا قال: ﴿**فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون**﴾. وعن ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من «الرِّجْز» يعني به العذاب. وهكذا روي عن مجاهد، والحسن، [وغيرهم]، وقال أبو العالية: الرجز الغضب، وقال الشعبي: الرجز إما الطاعون، وإما البرد، وقال سعيد بن جبير: هو الطاعون. وعن سعد بن مالك [بن أبي وقاص]، وأسامة بن زيد، وخزيمة بن ثابت رضي الله عنهم، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز عذاب عُذِّب به من كان قبلكم» رواه النسائي، وأصل الحديث في الصحيحين بلفظ «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها».

﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى عليه السلام، حين استسقاني لكم، وتيسيري لكم الماء، وإخراجه لكم من حجر يُحمل معكم، وتفجيري الماء لكم منه من اثنتي عشرة عيناً لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها، فكلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم بلا سعي منكم ولاكد، واعبدوا الذي سخر لكم ذلك: ﴿**ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾ ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها. قال ابن عباس: وجُعِل بين ظهرانيهم حجر مربَّع وأمر موسى عليه السلام فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، في كل ناحية منه ثلاث عيون، وأعلم كل سبط عينهم يشربون منها لا يرتحلون من مَنْقَلَة إلا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول. وهذا قطعة من حديث الفتون الطويل. وقال عطية العوفي: وجُعل لهم حجراً مثل رأس الثور يحمل على ثور، فإذا نزلوا منزلاً وضعوه فضربه موسى عليه السلام بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً فإذا ساروا حملوه على ثور، فاستمسك الماء. وعن عطاء الخراساني: كان لبني اسرائيل حجر، فكان

يضعه هارون ويضربه موسى بالعصا. وقال قتادة: كان حجراً طورياً، من الطور يحملونه معهم حتى إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه. وعن الحسن لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه، قال: وهذا أظهر في المعجزة وأبين في القدرة فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ثم يضربه فييبس، فقالوا إن فقد موسى هذا الحجر عطشنا، فأوحى الله إليه أن يكلم الحجارة فتنفجر ولا يمسها بالعصا لعلهم يقرون. وقال يحيى بن النضر: قلت لجويبر: كيف علم كل أناس مشربهم؟ قال: كان موسى يضع الحجر ويقوم من كل سبط رجل ويضرب موسى الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً فينتضح من كل عين على رجل، فيدعو ذلك الرجل سبطه إلى تلك العين، وعن ابن عباس: لما كان بنو اسرائيل في التيه شق لهم من الحجر أنهاراً. وعن ابن عباس أيضا: قال ذلك في التيه، ضرب لهم موسى الحجر فصار منه اثنتا عشرة عيناً من ماء، لكل سِبْط منهم عين يشربون منها. وقال مجاهد نحو قول ابن عباس. وهذه القصة شبيهة بالقصة المذكورة في سورة الأعراف، ولكن تلك مكية، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب؛ لأن الله تعالى يقص على رسوله ﷺ عما فعل بهم. وأما في هذه السورة ـ وهي البقرة ـ فهي مدنية؛ فلهذا كان الخطاب فيها متوجهاً إليهم. وأخبر هناك بقوله: ﴿**فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً**﴾ [الأعراف: ١٦٠] وهو أول الانفجار، وأخبر ههنا بما آل إليه الأمر آخراً وهو الانفجار فناسب ذكر الانفجار ههنا، وذاك هناك، والله أعلم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المن والسلوى، طعاماً طيباً نافعاً هنيئاً سهلاً، واذكروا ضجركم مما رزقتكم وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيّة من البقول ونحوها مما سألتم. قال الحسن البصري رحمه الله: فبطروا ذلك ولم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه، وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل وبقول وفوم، فقالوا: ﴿**ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها**﴾ وهم يأكلون المن والسلوى؛ لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم، فهو كأكل واحد. فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة. وأما الفوم، فقد اختلف السلف في معناه، فوقع في قراءة ابن مسعود وثومها بالثاء، وكذا فسره مجاهد في رواية بالثوم. وكذا الربيع بن أنس، وسعيد بن جبير، وحكاه الحسن عن ابن عباس. وقال آخرون: الفوم الحنطة، وهو البر الذي يعمل منه الخبز. وعن ابن عباس قال: الفوم الحنطة بلسان بني هاشم، وكذا عن مجاهد وعطاء. وهو قول عكرمة، والسدي، والحسن البصري، وغيرهم، والله أعلم.

وقال البخاري: وقال بعضهم: الحبوب التي تؤكل كلها فوم.

وقوله تعالى: ﴿**قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير**﴾ فيه تقريع لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيّة مع ما هم فيه من العيش الرغيد، والطعام الهنيء الطيب النافع، وقوله تعالى: ﴿**اهبطوا مصراً**﴾ هكذا هو منون مصروف، مكتوب بالألف في المصاحف الأئمة العثمانية، وهو قراءة الجمهور بالصرف. وقال ابن جرير: ولا أستجيز القراءة بغير ذلك لإجماع المصاحف على ذلك. وقال ابن عباس ﴿**اهبطوا مصراً**﴾ قال: مصراً من الأمصار. وروي عن السدي [وغيره] نحو ذلك، وقال ابن جرير: وقع في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود ﴿**اهبطوا مصرَ**﴾، من غير إجراء، يعني من غير صرف. ثم رَوَى عن أبي العالية، والربيع بن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون، وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية، وعن الأعمش أيضاً. وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد: مصر فرعون على قراءة الإجراء أيضاً. ويكون ذلك من باب الإتباع لكتابة المصحف، كما في قوله تعالى: ﴿**قواريراً قواريرا**﴾[الإنسان: ١٥-١٦] ثم توقف في المراد ما هو أمصر فرعون أم مصر من الأمصار ؟ وهذا الذي قاله فيه نظر، والحق أن المراد: مصر من الأمصار كما روي عن ابن عباس وغيره، والمعنى على ذلك لأن موسى عليه السلام، يقول لهم: هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار؛ أن أسأل الله فيه. ولهذا قال: ﴿**أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم**﴾ أي: ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم.

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿**وضربت عليهم الذلة والمسكنة**﴾ أي: وضعت عليهم وألزموا بها شرعاً وقدراً، أي: لا يزالون مستذلين، من وجدهم استذلهم وأهانهم، وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء. وعن ابن عباس في قوله: ﴿**وضربت عليهم الذلة والمسكنة**﴾ قال: هم أصحاب النيالات، يعني أصحاب الجزية. وعن الحسن، وقتادة في قوله تعالى: ﴿**وضربت عليهم الذلة**﴾ قال: يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، وقال الضحاك: ﴿**وضربت عليه الذلة**﴾ قال: الذل. وقال الحسن: أذلهم الله فلا منعة لهم، وجعلهم الله تحت أقدام المسلمين، ولقد أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجبيهم الجزية. وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، والسدي: المسكنة الفاقة، وقال العوفي: الخراج، وقال الضحاك: الجزية.

وقوله تعالى: ﴿**وباؤوا بغضب من الله**﴾ قال الضحاك: استحقوا الغضب من الله، وقال الربيع بن أنس: فحدَثَ عليهم غضب من الله، وقال سعيد بن جبير: ﴿**وباؤوا بغضب من الله**﴾ يقول: استوجبوا سخطاً، وقال ابن جرير: يعني بقوله: ﴿**وباؤوا بغضب من الله**﴾ انصرفوا

ورجعوا، ولا يقال: باؤوا إلا موصولاً: إما بخير وإما بشر، يقال من: باء فلان بذنبه يبوء به بَوْءاً وبواء، ومنه قوله تعالى: ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك﴾ [المائدة: ٢٩] يعني: تنصرف متحملهما وترجع بهما، قد صارا عليك دوني. فمعنى الكلام إذاً: فرجعوا منصرفين متحملين غضب الله قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم من الله سخط.

وقوله تعالى: ﴿**ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق**﴾ يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة، وإحلال الغضب بهم بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع، وهم الأنبياء وأتباعهم، فانتقصوهم حتى أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم، فلا كِبْر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياء الله بغير الحق؛ ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «الكبر بَطَر الحق، وغَمْط الناس» [رواه مسلم] يعني: رد الحق، وانتقاص الناس، والازدراء بهم، والتعاظم عليهم، ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه من الكفر بآيات الله، وقتل أنبيائهم، أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وكساهم ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة جزاء وفاقاً. وقد روى الإمام أحمد عن ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتله نبي، أوقتل نبياً، وإمام ضلالة، وممثل من الممثلين» [سنده جيد]، وقوله تعالى: ﴿**ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**﴾: وهذه علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به أنهم كانوا يعصون ويعتدون فالعصيان فعل المناهي، والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه والمأمور به، والله أعلم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

لما بيَّن الله تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره، وتعدى في فعل ما لا إذن فيه وانتهك المحارم، وما أحلّ بهم من النكال، نبه تعالى على أن مَنْ أحسن من الأمم السالفة وأطاع، فإن له جزاء الحسنى، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة؛ كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه، كما قال تعالى: ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ [يونس: ٦٢] وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**﴾ [فصلت: ٣٠].

وعن ابن عباس: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر**﴾ الآية فأنزل الله بعد ذلك: ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ [آل عمران: ٨٥]. فهذا الذي قاله ابن عباس إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملا، إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة، فاليهود أتباع موسى عليه السلام، الذين

كانوا يتحاكمون إلى التوارة في زمانهم. واليهود من الهوادة وهي المودة، أو التهود وهو التوبة، كقول موسى عليه السلام ﴿إنا هدنا إليك﴾ [الأعراف:١٥٦] أي: تبنا، فكأنهم سموا بذلك في الأصل لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض، وقيل: لنسبتهم إلى يهوذا أكبر أولاد يعقوب عليه السلام، وقال أبو عمرو بن العلاء: لأنهم يتهودون أي يتحركون عند قراءة التوراة، فلما بعث عيسى ﷺ وجب على بني إسرائيل اتباعه والانقياد له، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى، وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال لهم أنصار أيضاً، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ [آل عمران:٥٢] وقيل: إنهم إنما سموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة، قاله قتادة وابن جُرَيج، وروي عن ابن عباس أيضاً، والله أعلم. فلما بعث الله محمداً ﷺ خاتماً للنبيين، ورسولاً إلى بني آدم على الإطلاق، وجب عليهم تصديقُه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانكفاف عما عنه زجر. وهؤلاء هم المؤمنون حقاً. وسميت أمة محمد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم، وشدة إيقانهم ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية. وأماالصابئون فقد اختلف فيهم، فقال مجاهد: الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى، ليس لهم دين، وروي عن عطاء وسعيد بن جبير نحو ذلك. وقال أبو العالية، والسدي، والضحاك، [وغيرهم]: الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور، ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق: لا بأس بذبائحم ومناكحتهم. وقال أبو جعفر الرازي: بلغني أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة، ويقرؤون الزبور ويصلون إلى القبلة، وكذا قال قتادة، ونحوه عن الحسن وأبي الزناد. وسئل وهب بن منبه عن الصابئين فقال: الذي يعرف الله وحده وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفراً، وقال عبد الرحمن بن زيد: الصابئون أهل دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل، يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول لا إله إلا الله، قال: ولم يؤمنوا برسول، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ وأصحابه هؤلاء الصابئون يشبهونهم بهم، يعني في قول لا إله إلا الله، وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن وابن نجيح، أنهم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس، ولا تؤكل ذبائحهم،قال ابن عباس: ولا تنكح نساؤهم، قال القرطبي: والذي تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم، وأنها فاعلة، ولهذا أفتى أبو سعيد الإصطخري بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم، واختار فخر الدين الرازي أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب؛ بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء، أو بمعنى أن الله فوض تدبير أمر هذا العالم إليها، قال وهذا القول هو المنسوب إلى الذين جاءهم إبراهيم الخليل عليه السلام، راداً عليهم ومبطلاً لقولهم.

وأظهر الأقوال والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر

لهم يتبعونه ويقتفونه؛ ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئي، أي: أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك. وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي، والله أعلم.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

يقول تعالى مذكراً بني إسرائيل ما أخد عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل فوق رؤوسهم ليقروا بما عوهدوا عليه، ويأخذوه بقوة وحزم وهمة وامتثال، كما قال تعالى: **﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾** [الأعراف:١٧١] فالطور هو الجبل، كما فسر بآية الأعراف، ونص على ذلك ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، والضحاك، والربيع بن أنس وغير واحد، وهذا ظاهر، في رواية عن ابن عباس: الطور ما أنبت من الجبال، وما لم يُنْبِتْ فليس بطور، وفي حديث الفتون عن ابن عباس: أنهم لما امتنعوا عن الطاعة رفع عليهم الجبل ليسمعوا فسجدوا. قال السدي: فلما أبوا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يقع عليهم، فنظروا إليه وقد غشيهم، فسقطوا سجداً فسجدوا على شق، ونظروا بالشق الآخر، فرحمهم الله فكشفه عنهم، فقالوا والله ما سجدة أحب إلى الله من سجدة كشف بها العذاب عنهم، فهم يسجدون كذلك، وذلك قول الله تعالى **﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾**. وقال الحسن في قوله **﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾** يعني التوراة. وقال أبو العالية، والربيع بن أنس: بقوة أي بطاعة، وقال مجاهد: بقوة: بعمل بما فيه، وقال قتادة **﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾** القوة: الجد وإلا قذفته عليكم، قال: فأقروا بذلك: أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة. ومعنى قوله: وإلا قذفته عليكم، أي أسقطته عليكم، يعني الجبل، وقال أبو العالية والربيع **﴿واذكروا ما فيه﴾** يقول: اقرؤوا ما في التوارة واعملوا به، وقوله تعالى **﴿ثم توليتم من بعد ذلك﴾** يقول تعالى: ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانثنيتم ونقضتموه **﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته﴾** أي: توبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم **﴿لكنتم من الخاسرين﴾** بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة.

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

يقول تعالى: **﴿ولقد علمتم﴾** يا معشر اليهود، ما حلّ من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره، إذ كان مشروعاً لهم، فتحيَّلُوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت، بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يومَ السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل

والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك، مسخهم الله إلى صورة القردة، وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة. فكذلك أعمال هؤلاء وحيَلهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم، وهذه القصة مبسوطة في سورة الأعراف، حيث يقول تعالى: ﴿**واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون**﴾ [الأعراف:١٦٣] القصة بكمالها. وقال السدي: أهل هذه القرية هم أهل أيله، وكذا قال قتادة، وسنورد أقوال المفسرين هناك مبسوطة إن شاء الله وبه الثقة.

وقوله: ﴿**كونوا قردة خاسئين**﴾ عن مجاهد: قال: مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله ﴿**كمثل الحمار يحمل أسفاراً**﴾ [الجمعة:٥]. وهذا قول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره، قال الله تعالى: ﴿**قل هل أنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت**﴾ الآية [المائدة:٦٠]، وعن ابن عباس: ﴿**فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين**﴾ فجعل الله منهم القردة والخنازير. فزعم أن شباب القوم صاروا قردة وأن المشيخة صاروا خنازير. وعن قتادة: ﴿**فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين**﴾ فصار القوم قروداً تَعَاوَى لها أذناب بعد ما كانوا رجالاً ونساءً. وقال عطاء الخراساني: نودوا يا أهل القرية ﴿**كونوا قردة خاسئين**﴾ فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان، ألم ننهكم؟ فيقولون برؤوسهم: أي بلى. وعن ابن عباس: فمسخهم الله قردة بمعصيتهم، يقول: إذ لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام، قال: ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل. وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخَلْق في الستة الأيام التي ذكرها الله في كتابه، فمسخ الله هؤلاء القوم في صورة القِرَدة، وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء، ويحوله كما يشاء. وعن أبي العالية في قوله: ﴿**كونوا قردة خاسئين**﴾ قال: يعني أذلة صاغرين، وروي عن مجاهد، وقتادة، والربيع، وأبي مالك نحوه.

قلت: والغرض بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رحمه الله، من أن مسخهم إنما كان معنوياً لا صورياً، بل الصحيح أنه معنوي وصوري، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين**﴾ قال بعضهم: الضمير في فجعلناها عائد على القردة، وقيل: على الحيتان، وقيل: على العقوبة، وقيل: على القرية، حكاها ابن جرير. والصحيح أن الضمير عائد على القرية، أي: فجعل الله هذه القرية، والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم ﴿**نكالاً**﴾ أي: عاقبناهم عقوبة، فجعلناها عبرة كما قال الله عن فرعون: ﴿**فأخذه الله نكال الآخرة والأولى**﴾ [النازعات:٢٥]، وقوله: ﴿**لما بين**

يديها وما خلفها﴾ أي: من القرى، قال ابن عباس: يعني جعلناها بما أحللنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى. كما قال: **﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾** [الأحقاف:٢٧]، فالمراد: لما بين يديها وما خلفها في المكان، كما قال ابن عباس: لما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى. وكذا قال سعيد بن جبير: من بحضرتها من الناس يومئذٍ. وروي عن قتادة، والعوفي قالا: ما كان قبلها من الماضين في شأن السبت، وقال أبو العالية، والربيع، وعطية: **﴿وما خلفها﴾** لما بقي بعدهم من الناس من بني إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم، وكأن هؤلاء يقولون: المراد لما بين يديها وما خلفها في الزمان. وهذا مستقيم بالنسبة إلى من يأتي بعدهم من الناس أن يكون أهل تلك القرية عبرة لهم، وأما بالنسبة إلى من سلف قبلهم من الناس فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به، وهو أن تكون عبرة لمن سبقهم؟ وهذا لعل أحداً من الناس لا يقوله بعد تصوره، فتعين أن المراد بما بين يديها وما خلفها في المكان، وهو ما حولها من القرى، كما قاله ابن عباس وسعيد بن جبير، والله أعلم. وعن أبي العالية **﴿فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها﴾** أي: عقوبة لما خلا من ذنوبهم. وروي عن عكرمة، ومجاهد، والسدي، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس نحو ذلك. وحكى القرطبي عن ابن عباس، والسدي، والفراء، وابن عطية **﴿لما بين يديها﴾** بين ذنوب القوم **﴿وما خلفها﴾** لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب. وقيل: إنه جعلها تعالى عقوبة لجميع ما ارتكبوه من قبل هذا الفعل وما بعده، وهذا قول الحسن.

قلت: وأرجح الأقوال المراد بما بين يديها وما خلفها: من بحضرتها من القرى التي يبلغهم خبرها، وما حل بها، فجعلها عبرة ونكالاً لمن في زمانهم، وعبرة لمن يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عنهم، ولهذا قال **﴿وموعظة للمتقين﴾**. وعن ابن عباس: **﴿وموعظة للمتقين﴾** الذين من بعدهم إلى يوم القيامة، وقال الحسن وقتادة: **﴿وموعظة للمتقين﴾** بعدهم فيتقون نقمة الله، ويحذرونها. وقال السدي، وعطية العوفي: **﴿وموعظة للمتقين﴾** قال: أمة محمد ﷺ.

قلت: المراد بالموعظة ههنا الزاجر، أي: جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله، وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم، كما روى الإمام أبو عبد الله بن بطة عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل» وإسناده جيد، والله أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة، وبيان القاتل من هو بسببها، وإحياء الله المقتول، ونصه على من قتله منهم.

عن عبيدة السلماني، قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له، وكان له مال كثير،

وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلاً، فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبحَ يَدعيه عليهم حتى تسلحوا، وركب بعضهم على بعض. فقال ذوو الرأي منهم والنُّهَى: علام يقتل بعضكم بعضا، وهذا رسول الله فيكم ؟ فأَتَوْا موسى عليه السلام، فذكروا ذلك له، فقال ﴿**إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين**﴾ قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا، فشدّد عليهم، حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً، فأخذوها بملء جلدها ذهباً فذبحوها، فضربوه ببعضها، فقام: فقالوا: من قتلك ؟ فقال: هذا ـ لابن أخيه. ثم مال ميتاً، فلم يعط من ماله شيئاً، فلم يُوَرَّث قاتل بعد. وهذا السياق عن عبيدة، ونحوه بأبسط منه عن أبي العالية، والسدي، وغيرهم، وفيها اختلاف ما، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقلها، ولكن لا تصدق ولا تكذب، فلهذا لا نعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا، والله أعلم.

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانُۢ بَيْنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم. ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيّق عليهم، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقعت الموقعَ عنهم، ولكنهم شددوا فشدِّد عليهم، فقالوا: ﴿**ادع لنا ربك يبين لنا ما هي**﴾ ما هذه البقرة؟ وأي شيء صفتها؟ عن ابن عباس، قال: لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم. وكذا قال عبيدة، والسدي، ومجاهد، وعكرمة، وأبو العالية وغير واحد. قال: ﴿**إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر**﴾ أي لا كبيرة هَرِمة ولا صغيرة لم يلقحها الفحل، كما قاله أبو العالية، والسدي، ومجاهد، والحسن، [وغيرهم]، وقاله ابن عباس أيضاً. وعن ابن عباس: ﴿**عوان بين ذلك**﴾ يقول: نَصَف بين الكبيرة والصغيرة، وهي أقوى ما يكون من الدواب والبقر وأحسن ما تكون، وروي عن عكرمة، ومجاهد، وأبي العالية، [وغيرهم] نحو ذلك. وقال السدي: العوان: النَّصَف التي بين ذلك التي قد ولدت، وولد ولدها، وعن الحسن في البقرة: كانت بقرة وحشية. وعن ابن عباس ومجاهد ووهب ابن منبه: أنها كانت صفراء، وعن ابن عمر: كانت صفراء الظِّلف. وعن سعيد بن جبير: كانت صفراء القرن والظلف، وعن الحسن قال: سوداء شديدة السواد، وهذا غريب، والصحيح الأول ولهذا أكد صفرتها بأنه ﴿**فاقع لونها**﴾. وقال عطية العوفي: ﴿**فاقع لونها**﴾ تكاد تسود من صفرتها. وقال سعيد بن جبير قال: صافية اللون.

وروي عن أبي العالية، والربيع بن أنس، والسدي، والحسن، وقتادة نحوه. وعن ابن عمر: ﴿فاقع لونها﴾ قال: صاف. وعن ابن عباس: ﴿فاقع لونها﴾ شديدة الصفرة، تكاد من صفرتها تبيض، وقال السدي ﴿تسر الناظرين﴾ أي تعجب الناظرين، وكذا قال أبو العالية، وقتادة، والربيع بن أنس. وقال وهب بن منبه: إذا نظرت إلى جلدها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها.

وقوله تعالى: ﴿إن البقر تشابه علينا﴾ أي: لكثرتها، فميز لنا هذه البقرة وصفها وحِلّها لنا ﴿وإنا إن شاء الله﴾ إذا بينتها لنا ﴿لمهتدون﴾ إليها.

﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث﴾ أي: إنها ليست مذللة بالحراثة ولا معدة للسقي في السانية، بل هي مكرمة، حسنة، صبيحة ﴿مسلمة﴾ صحيحة لا عيب فيها﴿لاشية فيها﴾ أي: ليس فيها لون غير لونها. وقال قتادة: ﴿مسلمة﴾ لا عيب فيها، وكذا قال أبو العالية، والربيع، وقال مجاهد: ﴿مسلمة﴾ من الشية. وقال عطاء الخراساني ﴿مسلمة﴾ القوائم والخلق، ﴿لا شية فيها﴾ قال مجاهد: لا بياض ولا سواد، وقال أبو العالية والربيع، والحسن وقتادة: ليس فيها بياض، وقال عطاء الخراساني: لا شية فيها، قال لونها واحد بهيم. وروي عن عطية العوفي ووهب بن منبه وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك. وقال السدي: ﴿لا شية فيها﴾ من بياض ولا سواد ولا حمرة، وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى.

﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ قال قتادة: الآن بَيَّنْتَ لنا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وقبل ذلك والله قد جاءهم الحق. ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ قال ابن عباس: كادوا ألا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذي أرادوا، لأنهم أرادوا أن ألا يذبحوها. يعني أنهم مع هذا البيان، وهذه الأسئلة والأجوبة، والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت، فلهذا ما كادوا يذبحونها. وقال محمد بن كعب، ومحمد بن قيس: ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ لكثرة ثمنها. وفي هذا نظر، لأن كثرة الثمن لم يثبت إلا من نقل بني إسرائيل كما تقدم. ثم قيل في ثمنها غير ذلك فعن عكرمة، قال: ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير، وهذا إسناده جيد عن عكرمة، والظاهر أنه نقله عن أهل الكتاب أيضاً. قال ابن جرير: وقال آخرون: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة، إن اطلع الله على قاتل القتيل الذي اختصموا فيه. ولم يسنده عن أحد، ثم اختار أن الصواب في ذلك أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها وللفضيحة. وفي هذا نظر بل الصواب، والله أعلم، ما تقدم عن ابن عباس على ما وجهناه، وبالله التوفيق.

مسألة: استدل بهذه الآية في حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت أو تم تقييدها بعد الإطلاق على صحة السلم في الحيوان، كما هو مذهب مالك والأوزاعي والليث والشافعي وأحمد وجمهور من العلماء سلفاً وخلفاً بدليل ما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ: «لا تنعت المرأةُ

المرأةَ لزوجها كأنه ينظر إليها». وكما وصف النبي ﷺ إبل الدية في قتل الخطأ، وشبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث، وقال أبو حنيفة والثوري والكوفيون: لا يصح السلم في الحيوان لأنه لا تنضبط أحواله، وحكي مثله عن ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعبد الرحمن بن سمرة وغيرهم.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

قال البخاري: ﴿**فادّارأتم فيها**﴾ اختلفتم، وهكذا قال مجاهد. وقال عطاء الخراساني، والضحاك: اختصمتم فيها، وقال ابن جريج: قال بعضهم أنتم قتلتموه، وقال آخرون: بل أنتم قتلمتموه، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

﴿**والله مخرج ما كنتم تكتمون**﴾ قال مجاهد: ما تُغَيبُون، وعن المسيب بن رافع يقول: ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك في كلام الله ﴿**والله مخرج ما كنتم تكتمون**﴾.

﴿**فقلنا اضربوه ببعضها**﴾ هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة، فالمعجزة حاصلة به، وخرق العادة به كائن، وقد كان معيناً في نفس الأمر، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى لنا، ولكنه أبهمه، ولم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانه، فنحن نبهمه كما أبهمه الله، ولهذا قال ابن عباس: فذبحوها، فضربوه - يعني القتيل - بعضو منها، فقام تَشْخُب أوداجه دماً، فسألوه، فقالوا له من قتلك ؟ قال: قتلني فلان، وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنه ضرب ببعضها، وفي رواية عن ابن عباس: إنهم ضربوه بالعظم الذي يلي الغضروف، وعن عبيدة: ضربوا القتيل ببعض لحمها، وقال قتادة: ضربوه بلحم فخذها فعاش، فقال: قتلني فلان، وعن عكرمه قال: فضرب بفخذها، فقام فقال: قتلني فلان، وروي عن مجاهد، وقتادة نحو ذلك. وقال السدي: فضربوه بالبَضعْة التي بين الكتفين، فعاش، فسألوه، فقال: قتلني ابن أخي، وقال أبو العالية: أمرهم موسى عليه السلام، أن يأخذوا عظماً من عظامها فيضربوا به القتيل، ففعلوا فرجع إليه روحه، فسمى لهم قاتله، ثم عاد ميتاً كما كان، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: فضربوه ببعض آرابها، وقيل: بلسانهاوقيل بعجب ذنبها.

وقوله: ﴿**وكذلك يحيي الله الموتى**﴾ أي: فضربوه فحيي، ونبَّه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل، جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد، وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والفساد، والله تعالى قد ذكر في هذه السورة مما خلقه من إحياء الموتى، في خمسة مواضع: ﴿**ثم بعثناكم من بعد موتكم**﴾ [البقرة:٥٦]. وهذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية

على عروشها، وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة.

ونبه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميماً، كما روى أبو داود الطيالسي: عن أبي رزَين العُقَيلي، قال: قلت يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: «أما مررت بواد مُمْحِل، ثم مررت به خضراً»؟ قال بلى. قال: «كذلك النشور». أو قال: «كذلك يحيي الله الموتى» [إسناده حسن]. وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿**وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون**﴾ [يس: ٣٣-٣٥].

مسألة: استدل لمذهب مالك في كون قول الجريح: فلان قتلني لوثاً بهذه القصة، لأن القتيل لما حيي سئل عمن قتله، فقال قتلني فلان، فكان ذلك مقبولاً منه، لأنه لا يخبر حينئذ إلا بالحق، ولا يتهم والحالة هذه، ورجحوا ذلك بحديث أنس: أن يهودياً قتل جارية على أوضاح لها، فرضخ رأسها بين حجرين، فقيل: من فعل بك هذا، أفلان؟ أفلان؟ حتى ذكروا اليهودي، فأومأت برأسها، فأخذ اليهودي، فلم يزل به حتى اعترف، فأمر رسول الله ﷺ أن يرض رأسه بين حجرين [رواه البخاري]، وعند مالك: إذا كان لوثاً، حلف أولياء القتيل قسامة، وخالف الجمهور في ذلك ولم يجعلوا قول القتيل في ذلك لوثا.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى، وإحيائه الموتى: ﴿**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك**﴾ كله ﴿**فهي كالحجارة**﴾ التي لا تلين أبداً، ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال: ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون**﴾ [الحديد: ١٦]. وعن ابن عباس: لما ضُرب المقتول ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط، فقيل له: من قتلك؟ قال: بنو أخي قتلوني. ثم قبض، فقال بنو أخيه حين قبضه الله: والله ما قتلناه فكذبوا بالحق بعد إذا رأوا. فقال الله: ﴿**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك**﴾ يعني بني أخي الشيخ ﴿**فهي كالحجارة أو أشد قسوة**﴾ فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات، فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة، فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون الجارية بالأنهار، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء، وإن لم يكن جارياً، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله، وفيه إدراك لذلك بحسبه، كما قال: ﴿**تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً**﴾ [الإسراء: ٤٤]. وعن مجاهد أنه كان يقول: كل حجر يتفجر منه الماء: أو يتشقق عن

ماء، أو يتردى من رأس جبل لمن خشية الله نزل بذلك القرآن. وعن ابن عباس ﴿**وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار**﴾ أي وإن من الحجارة لألين من قلوبكم عَمَّا تدعون إليه من الحق ﴿**وما الله بغافل عما تعملون**﴾.

تنبيه: اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى: ﴿**فهي كالحجارة أو أشد قسوة**﴾ بعد الاجماع على استحالة كونها للشك، فقال بعضهم: أو: ههنا بمعنى الواو، تقديره: فهي كالحجارة وأشد قسوة، كقوله تعالى: ﴿**ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً**﴾ [الإنسان: ٢٤].

وحكى القرطبي قولاً: إنها للتخيير في مفهومها بهذا أو بهذا مثل جالس الحسن أو ابن سيرين، وكذا حكاه فخر الدين الرازي في تفسيره وزاد قولاً آخر وهو: أنها للإبهام وبالنسبة إلى المخاطب، كقول القائل: أكلت خبزاً أو تمراً وهو يعلم أيهما أكل، وقولاً آخر وهو أنها بمعنى قول القائل: أكلي حلو أو حامض، أي: لا يخرج عن واحد منهما، أي: وقلوبكم صارت في قسوتها كالحجارة أو أشد قسوة منها لا يخرج عن واحد من هذين الشيئين والله تعالى أعلم. وقال آخرون أو ههنا بمعنى بل، تقديره: فهي كالحجارة بل أشد قسوة، وكقوله: ﴿**إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية**﴾ [النساء: ٧٧]. وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿**فهي كالحجارة أو أشد قسوة**﴾ عندكم. حكاه ابن جرير. وقال بعضهم: معنى ذلك فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين، إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة، وإما أن تكون أشد منها في القسوة. قال ابن جرير: ومعنى ذلك على هذا التأويل: فبعضها كالحجارة قسوة، وبعضها أشد قسوة من الحجارة. وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره.

قلت: وهذا القول الأخير يبقى شبيهاً بقوله تعالى: ﴿**مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً**﴾ [البقرة: ١٧] مع قوله: ﴿**أو كصيب من السماء**﴾ [البقرة: ١٩] وكقوله: ﴿**والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة**﴾ [النور: ٣٩] مع قوله: ﴿**أو كظلمات في بحر لجي**﴾ الآية [النور: ٤٠]، أي إن منهم من هو هكذا، ومنهم من هو هكذا، والله أعلم.

﴿ ۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿**أفتطمعون**﴾ أيها المؤمنون ﴿**أن يؤمنوا لكم**﴾ أي ينقاد لكم بالطاعة، هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿**وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه**﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله ﴿**من بعد ما عقلوه**﴾ أي: فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة ﴿**وهم يعلمون**﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله؟ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه**﴾[المائدة: ١٣].

عن ابن عباس أنه قال: ثم قال الله تعالى لنبيه ﷺ، ولمن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم: ﴿**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله**﴾ وليس قوله: ﴿**يسمعون كلام الله**﴾ يسمعون التوراة. كلهم قد سمعها. ولكنهم الذي سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها.

قال محمد بن إسحاق، فيما حدثني بعض أهل العلم: أنهم قالوا لموسى: يا موسى، قد حيل بيننا وبين رؤية الله تعالى، فأسمعنا كلامه حين يكلمك، فطلب ذلك موسى إلى ربه تعالى، فقال: نعم، مَرْهم فليتطهروا، وليطهروا ثيابهم ويصوموا ففعلوا، ثم خرج بهم حتى أتوا الطور، فلما غشيهم الغمام، أمرهم موسى أن يسجدوا، فوقعوا سجوداً، وكلمه ربه تعالى، فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم حتى عقلوا عنه ما سمعوا. ثم انصرف بهم إلى بني إسرائيل، فلما جاؤوهم، حَرَّف فريق منهم ما أمرهم به، وقالوا: حين قال موسى لبني إسرائيل: إن الله قد أمركم بكذا وكذا. قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله: إنما قال كذا وكذا خلافاً لما قال الله عز وجل لهم فهم الذين عنى الله لرسوله ﷺ. وقال السدي: ﴿**وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه**﴾ قال: هي التوراة حرفوها. وهذا الذي ذكره السدي أعم مما ذكره ابن عباس وابن إسحاق، وإن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق، فإنه ليس يلزم من سماع كلام الله أن يكون منه، كما سمعه الكليم موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وقد قال الله تعالى: ﴿**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله**﴾ أي: مبلغاً إليه؛ ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿**ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون**﴾ قال: هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه، وقال مجاهد: الذين يحرفونه والذين يكتمونه هم العلماء منهم، وقال أبو العالية: عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم، من نعت محمد ﷺ، فحرفوه عن مواضعه. وقال السدي ﴿**وهم يعلمون**﴾ أي: أنهم أذنبوا، وقال ابن زيد في قوله: ﴿**يسمعون كلام الله ثم يحرفونه**﴾ قال: التوراة التي أنزلها الله عليهم يحرفونها، يجعلون الحلال فيها حراماً، والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً، والباطل فيها حقاً؛ إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محق، وإن جاءهم أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق، ولا رشوة، ولا شيء، أمروه بالحق، فقال الله لهم: ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون**﴾ [البقرة: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا**﴾ الآية. عن ابن عباس: أي بصاحبكم محمد رسول الله، ولكنه إليكم خاصة، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم، فأنزل الله ﴿**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم**﴾ أي تقرون بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا

ننتظر ونجد في كتابنا، اجحدوه ولا تقروا به. يقول الله تعالى ﴿أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ .

وقال أبو العالية ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ يعني: بما أنزل عليكم في كتابكم من نعت محمد ﷺ. وقال قتادة: ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم﴾ قال: كانوا يقولون: سيكون نبي فخلا بعضهم إلى بعض، فقالوا: ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾. وعن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ قال: قام النبي ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم، فقال: يا إخوان القردة والخنازير، ويا عبدة الطاغوت»، فقالوا: من أخبر بهذا الأمر محمداً؟ ما خرج هذا القول إلا منكم ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ بما حكم الله، للفتح ليكون لهم حجة عليكم، قال ابن جريج عن مجاهد: هذا حين أرسل إليهم علياً فآذوا محمداً ﷺ، وقال السدي: ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ من العذاب ﴿ليحاجوكم به عند ربكم﴾ هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا، وكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عُذّبوا به. فقال بعضهم لبعض: ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ من العذاب، ليقولوا: نحن أحب إلى الله منكم، وأكرم على الله منكم. وقال عطاء الخراساني: ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ يعني بما قضى الله لكم وعليكم. وقال الحسن البصري: هؤلاء اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم: لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما في كتابكم، فيحاجوكم به عند ربكم فيخصموكم.

وقوله تعالى: ﴿أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ قال أبو العالية: يعني ما أسروا من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به، وهم يجدونه مكتوباً عندهم، وكذا قال قتادة. وقال الحسن: ﴿أن الله يعلم ما يسرون﴾ قال: كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد ﷺ وخلا بعضهم إلى بعض، تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمد ﷺ بما فتح الله عليهم مما في كتابهم خشية أن يحاجهم أصحاب محمد ﷺ بما في كتابهم عند ربهم ﴿وما يعلنون﴾ يعني حين قالوا لأصحاب محمد ﷺ: آمنا. وكذا قال أبو العالية والربيع وقتادة.

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ومنهم أميون﴾ أي: ومن أهل الكتاب، قاله مجاهد، والأميون جمع أمي، وهو: الرجل الذي لا يحسن الكتابة، قال أبو العالية، والربيع، وقتادة، وإبراهيم النخعي وغير واحد، وهو ظاهر في قوله تعالى ﴿لا يعلمون الكتاب﴾ أي: لا يدرون ما فيه. ولهذا في صفات النبي ﷺ: أنه أمِّيٌّ؛ لأنه لم يكن يحسن الكتابة، كما قال تعالى ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾ [العنكبوت:٤٨] وقال عليه الصلاة السلام: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا وهكذا» الحديث [متفق عليه]،

أي: لا نفتقر في عباداتنا ومواقيتها إلى كتاب ولا حساب، وقال تعالى: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم**﴾ [الجمعة:٢] وقال ابن جرير: نسبت العرب من لا يكتب ولا يَخُط من الرجال إلى أمِّه في جهله بالكتاب دون أبيه.

وقوله تعالى: ﴿**إلا أماني**﴾ عن ابن عباس قال: إلا قولاً يقولون بأفواههم كذباً. وعن مجاهد: ﴿**ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني**﴾ قال: أناس من اليهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئاً، وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله، ويقولون: هو من الكتاب، أمانيّ يتمنونها. وعن الحسن البصري نحوه. وقال أبو العالية، والربيع، وقتادة: ﴿**إلا أماني**﴾: يتمنون على الله ما ليس لهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿**إلا أماني**﴾ قال: تمنوا فقالوا: نحن من أهل الكتاب وليسوا منهم، قال ابن جرير: والأشبه بالصواب قول ابن عباس، وقول مجاهد: إن الأميين الذين وصفهم الله تعالى أنهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزل الله تعالى على موسى شيئاً، ولكنهم يَتَخَرَّصُون الكذب ويتخرصون الأباطيل كذباً وزوراً. والتمني في هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه. وعن ابن عباس: ﴿**لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون**﴾ ولا يدرون ما فيه، وهم يجحدون نبوتك بالظن. وقال مجاهد: ﴿**وإن هم إلا يظنون**﴾ يكذبون. وقال قتادة، وأبو العالية، والربيع: يظنون بالله الظنون بغير الحق.

وقوله: ﴿**فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً**﴾ الآية، هؤلاء صنف آخر من اليهود، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور، والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل. والويل: الهلاك والدمار، وهي كلمة مشهورة في اللغة، وقال أبو عياض: ويل: صديد في أصل جهنم. وقال عطاء بن يسار: الويل: واد في جهنم لو سيرت فيه الجبال لماعت. وعن ابن عباس: الويل: السعير من العذاب، وقال الخليل بن أحمد: الويل: شدة الشر، وقال سيبويه: ويل: لمن وقع في الهلكة، وويح لمن أشرف عليها، وقال الأصمعي: الويل: تفجع، والويح: ترحم، وقال غيره: الويل: الحزن، وقال الخليل: وفي معنى ويل: ويح وويش وويه وويك وويب، ومنهم من فرق بينها، وقال بعض النحاة: إنما جاز الابتداء بها وهي نكرة؛ لأن فيها معنى الدعاء، وعن ابن عباس: ﴿**فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم**﴾ قال: هم أحبار اليهود. وكذا قال قتادة: هم اليهود. وعن ابن عباس قال: نزلت في المشركين وأهل الكتاب، وقال السدي: كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم، يبيعونه من العرب، ويحدثونهم أنه من عند الله ليأخذوا به ثمناً قليلاً، وعن ابن عباس أنه قال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه أحدث أخبار الله تقرؤونه محضاً لم يُشَب؟ وقد حَدَّثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أنزل

إليكم، رواه البخاري، وقال الحسن البصري: الثمن القليل: الدنيا بحذافيرها.

وقوله تعالى: ﴿**فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون**﴾ أي: فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان، والافتراء، وويل لهم مما أكلوا به من السحت، كما قال ابن عباس: ﴿**فويل لهم**﴾ يقول: فالعذاب عليهم، من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب، ﴿**وويل لهم مما يكسبون**﴾ يقول: مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم.

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينجون منها، فرد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿**قل أتخذتم عند الله عهداً**﴾ أي: بذلك، فإن كان قد وقع عهد فهو لا يُخْلِف عهده، ولكن هذا ما جرى ولا كان، ولهذا أتى بـ«أم» التي بمعنى: بل، أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه. عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يقولون: أن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نُعَذَّب بكل ألف سنة يوماً في النار وإنما هي سبعة أيام معدودة. فأنزل الله تعالى: ﴿**وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة**﴾ إلى قوله: ﴿**خالدون**﴾ وعن ابن عباس أيضاً: ﴿**وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة**﴾ اليهود قالوا: لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة، وعن ابن عباس أيضاً: زعمت اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوباً: أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة، إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم، التي هي نابتة في أصل الجحيم، وقال أعداء الله: إنما نعذب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك. فذلك قوله تعالى: ﴿**وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة**﴾ وعن قتادة ﴿**وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة**﴾ يعني الأيام التي عبدنا فيها العجل. وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه رحمه الله: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ، شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لي من كان من اليهود ههنا» فقال لهم رسول الله ﷺ «من أبوكم» ؟ قالوا: فلان، قال «كذبتم بل أبوكم فلان» فقالوا: صدقت وبَرِرْت، ثم قال لهم «هل أنتم صادقّي عن شيء إن سألتكم عنه» ؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَنْ أهل النار » ؟ فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسؤوا والله لا نخلفكم فيها أبداً» ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه ؟» قالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: «هل جعلتم في هذه الشاة سما ؟» فقالوا: نعم، قال «فما حملكم على ذلك ؟» فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرّك» ورواه الإمام أحمد والبخاري.

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم، ولا كما تشتهون، بل الأمر: أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته، وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة، بل جميع أعماله سيئات، فهذا من أهل النار، والذين آمنوا بالله ورسله وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة فهم من أهل الجنة، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿**ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجزبه ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً**﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٤] عن ابن عباس: ﴿**بلى من كسب سيئة**﴾ أي: عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط به كفره، فماله من حسنة، وفي رواية عن ابن عباس، قال: الشرك، وروي عن أبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، [وغيرهم] نحوه، وقال الحسن أيضاً والسدي: السيئة: الكبيرة من الكبائر، وعن مجاهد: ﴿**وأحاطت به خطيئته**﴾ قال: بقلبه، وقال أبو هريرة، وأبو وائل، وعطاء، والحسن: ﴿**وأحاطت به خطيئته**﴾ قال: أحاط به شركه، وعن الربيع بن خُثَيم ﴿**وأحاطت به خطيئته**﴾ قال: الذي يموت على خطايا من قبل أن يتوب، وعن السدي وأبي رزين نحوه، وقال أبو العالية، ومجاهد، والحسن في رواية عنهما، وقتادة، والربيع بن أنس: ﴿**وأحاطت به خطيئته**﴾ الكبيرة الموجبة، وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، والله أعلم. ويذكر ههنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهنَّ مثلاً، كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعُود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، وأججوا ناراً فأنضجوا ما قذفوا فيها» [وروي موقوفاً وهو أشبه وصح مرفوعاً من حديث عائشة وسهل بن سعد وآخرين]. وعن ابن عباس ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون**﴾ أي من آمن بما كفرتم به، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها. يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله، لا انقطاع له أبداً.

﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

يُذّكر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر، وأخذ ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصداً وعمداً وهم يعرفونه ويذكرونه، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم كما قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾ [الأنبياء: ٢٥] وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تبارك وتعالى، أن يعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين

وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن الله تعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى: ﴿أن شكر لي ولوالديك إلي المصير﴾ [لقمان: ١٤]، وفي الصحيحين عن ابن مسعود، قلت: يا رسول الله أيّ العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رجلاً قال: يا رسول الله من أبر؟ قال «أمك» قال: ثم من؟ قال «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أباك»؟ ثم أدناك أدناك».

وقوله تعالى: ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ قال الزمخشري: خبر بمعنى الطلب وهو آكد، وحكي عن أبيّ وابن مسعود رضي الله عنهما أنهما قرآها: ﴿لا تعبدوا إلا الله﴾ وقيل: ﴿لا تعبدون﴾ مرفوع على أنه قسم، أي: والله لا تعبدون إلا الله، ونقل هذا التوجيه القرطبي في تفسيره عن سيبويه، وقال: اختاره الكسائي والمبرد والفراء. قال ﴿واليتامى﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء، وقال أهل اللغة: اليتيم في بني آدم من الآباء وفي البهائم من الأم. ﴿والمساكين﴾: الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم.

وقوله تعالى ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ أي: كلموهم طيباً، ولينوا لهم جانباً، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف، كما قال الحسن البصري في قوله: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ فالحُسْن من القول: يأمُر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحلم، ويعفو، ويصفح، ويقول للناس حسناً كما قال الله، وهو كل خُلُق حسن رضيه الله. وقرأ بعضهم (حَسَنا): أي قولاً حسناً، وقرأ آخرون (حسنىٰ) مثل فِعلى. نقله القرطبي.

وروى الإمام أحمد: عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال «لا تحقرن من المعروف شيئاً، وإن لم تجد فالق أخاك بوجه منطلق» وأخرجه مسلم في صحيحه. وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسناً، بعدما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفي الاحسان الفعلي والقولي، ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمُعيّن من ذلك، وهو الصلاة والزكاة، فقال ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله، أي تركوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به، إلا القليل منهم، وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء بقوله: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم، إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾ [النساء: ٣٦] فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها، ولله الحمد والمنة.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ

مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾

يقول تبارك وتعالى منكراً على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج، وهم الأنصار، كانوا في الجاهلية عُبَّاد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاثَ قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير: حلفاء الخزرج، وبنو قريظة: حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم، قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يَقْتل اليهودي من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكّوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة، ولهذا قال تعالى: ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض**﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿**وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم**﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يخرجه من منزله، ولا يظاهر عليه، جاء معنى هذا عن ابن عباس، وقال تعالى: ﴿**فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم**﴾ [البقرة: ٥٤] وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» [متفق عليه] وقوله تعالى: ﴿**ثم أقررتم وأنتم تشهدون**﴾ أي: ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به. ﴿**ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم**﴾ الآية، وعن السدي: كانت قريظة حلفاء الأوس، وكانت النضير حلفاء الخزرج، فكانوا يقتتلون في حرب سُمَير، فتقاتل بنو قريظة مع حلفائها النضيرَ وحلفائهم، وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها، ويغلبونهم، فيخربون ديارهم ويخرجونهم منها، فإذا أسر رجل من الفريقين كليهما، جمعوا له حتى يفدوه، فتعيرهم العرب بذلك يقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم، قالوا: إنا أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم، قالوا فلم تقتلونهم؟ قالوا: إنا نستحيي أن تستذل حلفاؤنا، فذلك حين عيرهم الله تبارك وتعالى فقال تعالى: ﴿**ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم**﴾. وعن أبي العالية: أن عبد الله بن سلام مر على رأس الجالوت بالكوفة، وهو يفادي من النساء من لم يقع عليها العرب، ولا يفادي من وقع عليها العرب، فقال عبد الله بن سلام: أما إنه مكتوب عندك في كتابك أن تفاديهن كلهن. والذي أرشدت إليه الآية الكريمة، وهذا السياق ذم اليهود في قيامهم بأمر التوارة التي يعتقدون صحتها، ومخالفة شرعها، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة، فلهذا لا يؤتمنون على ما فيها ولا على نقلها، ولا يُصَدَّقون فيما يكتمونه من صفة رسول الله ﷺ ونعته، ومبعثه ومخرجه، ومهاجره، وغير ذلك من شؤونه التي قد أخبرت بها الأنبياء قبله.

واليهود عليهم لعائن الله يتكاتمونه بينهم، ولهذا قال تعالى: ﴿**فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا**﴾ أي: بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿**ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب**﴾ جزاء على ماكتموه من كتاب الله الذي بأيديهم ﴿**وما الله بغافل عما تعلمون * أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة**﴾ أي: استحبوها على الآخرة واختاروها ﴿**فلا يخفف عنهم العذاب**﴾ أي: لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿**ولا هم ينصرون**﴾ أي: وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي، ولا يجيرهم منه.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة، والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب ـ وهو التوراة ـ فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأوّلوها. وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته كما قال تعالى: ﴿**إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتابِ الله وكانوا عليه شهداء**﴾ الآية [المائدة: ٤٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿**وقفينا من بعده بالرسل**﴾ قال أبو مالك: أتبعنا، وقال غيره: أردفنا والكل قريب، حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البينات، وهي المعجزات، «قاله ابن عباس»؛ من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، وإبرائه الأسقام، وإخباره بالغيوب، وتأييده بروح القدس، وهو جبريل عليه السلام ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له، وحسَدهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض، كما قال تعالى إخباراً عن عيسى: ﴿**ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم**﴾ الآية [آل عمران: ٥٠]. فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء عليهم السلام أسوأ المعاملة، ففريقاً يكذبونه، وفريقاً يقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم، وبإلزامهم بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها، فلهذا كان ذلك يشق عليهم فيكذبونهم، وربما قتلوا بعضهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون**﴾.

والدليل على أن روح القدس هو جبريل، كما نص عليه ابن مسعود في تفسير هذه الآية، وتابعه على ذلك ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة [وغيرهم] مع قوله تعالى: ﴿**نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين**﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥] ماجاء عن عائشة: أن رسول الله ﷺ، وضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد، فكان ينافح عن رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ «اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك»

[أخرجه أبوداود والترمذي، وقال: حسن صحيح، وعلقه البخاري مجزوماً به]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة: أن عمر بن الخطاب مر بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد، فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال أنشدك الله، أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجب عني، اللهم أيده بروح القدس؟» فقال: اللَّهُم نعم. وفي بعض الروايات: أن رسول الله ﷺ، قال لحسان «اهجهم ـ أو هاجهم ـ وجبريل معك». وقال ابن أبي نَجيح: الروح هو حفظة على الملائكة، وعن الربيع بن أنس: القدس هو الرب تبارك وتعالى، وهو قول كعب. وقال السدي: القدس البركة. وقال ابن عباس: القدس: الطهر. وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن البصري أنهما قالا: القدس: هو الله تعالى، وروحه: جبريل. فعلى هذا يكون القول الأول، ، وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿**وأيدناه بروح القدس**﴾ قال: أيد الله عيسى بالإنجيل روحاً كما جعل القرآن روحاً، كلاهما روح من الله، كما قال تعالى: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا**﴾ [الشورى: ٥٢]. ثم قال ابن جرير: وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال: الروح في هذا الموضع: جبرائيل، لأن الله عز وجل، أخبر أنه أيد عيسى به كما أخبر في قوله: ﴿**إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل**﴾ الآية [المائدة: ١١٠]. فذكر أنه أيده به، فلو كان الروح الذي أيده به هو الإنجيل، لكان قوله: ﴿**إذ أيدتك بروح القدس * وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل**﴾ تكرير قول لا معنى له، والله سبحانه وتعالى أعز وأجل أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به.

قلت: ومن الدليل على أنه جبرائيل ما تقدم من أول السياق، و لله الحمد. وقال الزمخشري ﴿**بروح القدس**﴾: بالروح المقدسة، كما يقول: حاتم الجود ورجل صدق ووصفها بالقدس كما قال: ﴿**وروح منه**﴾ فوصفه بالاختصاص والتقريب تكرمة، وقيل: لأنه لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث، وقيل: بجبريل، وقيل: بالإنجيل، كما قال في القرآن: ﴿**روحاً من أمرنا**﴾ [الشورى: ٥٢] وقيل باسم الله الأعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره فتضمن كلامه قولاً آخر، وهو أن المراد روح عيسى نفسه المقدسة المطهرة. وقال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿**ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون**﴾ إنما لم يقل: وفريقاً قتلتم؛ لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل ـ أيضاً ـ لأنهم حاولوا قتل النبي ﷺ بالسم والسحر، وقد قال عليه السلام في مرض موته: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري» وهذا الحديث في صحيح البخاري وغيره.

عن ابن عباس ﴿**وقالوا قلوبنا غلف**﴾ أي: في أكنة، وعنه أيضا: أي: لا تفقه: وعنه أيضاً: هي القلوب المطبوع عليها، وقال مجاهد: ﴿**وقالوا قلوبنا غلف**﴾ عليها غشاوة.

وقال عكرمة: عليها طابع. وقال أبو العالية: أي لا تفقه، وقال السدي يقولون عليها غلاف، وهو الغطاء. وعن قتادة: ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ هو كقوله ﴿وقالوا قلوبنا في أكنةٍ مما تدعوننا إليه﴾ [فصلت: ٥]. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله غلف، قال: يقول قلبي في غلاف فلا يخلص إليه مما تقول، وقرأ ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ وهذا هو الذي رجحه ابن جرير، واستشهد مما روي عن حذيفة قال: «القلوب أربعة» فذكر منها: «وقلب أغلف مَغْضُوب عليه، وذاك قلب الكافر» وعن الحسن في قوله: ﴿قلوبنا غلف﴾ قال: لم تُخْتَن، هذا القول يرجع معناه إلى ما تقدم من عدم طهارة قلوبهم، وأنها بعيدة من الخير.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ قال: يقولون قلوبنا مملوءة لا تحتاج إلى علم محمد ولا غيره. وقال عطية العوفي: ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ أي: أوعية للعلم. وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار فيما حكاه ابن جرير، وقالوا: قلوبنا غُلُف، بضم اللام، أي: جمع غلاف، أي: أوعية، بمعنى أنهم ادعوا أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر. كما كانوا يَمُنّون بعلم التوراة، ولهذا قال تعالى: ﴿بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون﴾ أي: ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها، كما قال في سورة النساء: ﴿وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ [النساء: ١٥٥]. وقد اختلفوا في معنى قوله: ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ وقوله: ﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾، فقال بعضهم: فقليل من يؤمن منهم، واختاره فخر الدين الرازي وحكاه عن قتادة وغيره، وقيل: فقليل إيمانهم. بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب، ولكنه إيمان لا ينفعهم لأنه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمد ﷺ، وقال بعضهم: إنهم كانوا غير مؤمنين بشيء، وإنما قال: فقليلاً ما يؤمنون وهم بالجميع كافرون، كما تقول العرب: قلما رأيت مثل هذا قط، تريد ما رأيت مثل هذا قط. حكاه ابن جرير رحمه الله، والله أعلم.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ولما جاءهم﴾ يعني اليهود، ﴿كتاب من عند الله﴾ وهو: القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ﴿مصدق لما معهم﴾ يعني: من التوراة، وقوله: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ أي: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم. فعن ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور، أخو بني سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته،

فقال سَلَام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿**ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين**﴾. وقال قتادة: ﴿**وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا**﴾ قال: وكانوا يقولون: إنه سيأتي نبي. ﴿**فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به**﴾ وقال مجاهد: هم اليهود.

وروى الإمام أحمد عن سلمة بن سلامة بن وقش، وكان من أهل بدر قال: كان لنا جار يهودي في بني عبد الأشهل قال: فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث رسول الله ﷺ بيسير، حتى وقف على مجلس بني عبد الأشهل. قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيهم سناً على بردة مضطجعاً فيها بفناء أصلي. فذكر البعث والقيامة والحسنات والميزان والجنة والنار. قال ذلك لأهل شرك أصحاب أوثان لا يرون بعثاً كائناً بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان، ترى هذا كائنا أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يجزون فيها بأعمالهم؟ فقال: نعم، والذي يحلف به، لود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدنيا يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبق به عليه، وأن ينجو من تلك النار غداً. قالوا له: ويحك وما آية ذلك؟ قال: نبي يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن. قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إليَّ وأنا من أحدثهم سناً، فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه. قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسولهﷺ وهو بين أظهرنا، فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً.

فقلنا: ويلك يا فلان، ألست بالذي قلت لنا؟ قال: بلى وليس به. تفرد به أحمد. [وسنده جيد وصححه الحاكم، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير ابن اسحاق وقد صرح بالسماع].

﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

قال مجاهد ﴿**بئسما اشتروا به أنفسهم**﴾ يهودُ شَرَوُا الحقَّ بالباطل، وكتمانَ ما جاءَ به محمد ﷺ بأن يبينوه، وقال السدي ﴿**بئسما اشتروا به أنفسهم**﴾ يقول: باعوا به أنفسهم، يقول: بئسما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ إلى تصديقه ومؤازرته ونصرته، وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية ﴿**أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده**﴾ ولا حسد أعظم من هذا، وعن ابن عباس: ﴿**بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده**﴾ أي: أن الله جعله من غيرهم ﴿**فباءوا بغضب على غضب**﴾ قال ابن عباس: فالغضب على الغضب، فغضب عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي بعث الله إليهم. قلت: ومعنى ﴿**باءوا**﴾: استوجبوا واستحقوا واستقروا بغضب على غضب،

وقال أبو العالية: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى، ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد ﷺ وبالقرآن، وعن عكرمة وقتادة مثله، قال السدي: أما الغضب الأول، فهو حين غضب عليهم في العجل، وأما الغضب الثاني، فغضب عليهم حين كفروا بمحمد ﷺ، وعن ابن عباس مثله. وقوله: ﴿**وللكافرين عذاب مهين**﴾ لما كان كفرهم سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿**إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾ [غافر:٦٠] أي صاغرين حقيرين ذليلين راغمين. وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبي ﷺ، قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له: بُولَس فيعلوهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار» [وإسناده حسن].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا
مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ
ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يقول تعالى: ﴿**وإذا قيل لهم**﴾ أي: لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب ﴿**آمنوا بما أنزل الله**﴾ أي: على محمد ﷺ وصدقوه واتبعوه ﴿**قالوا نؤمن بما أنزل علينا**﴾ أي: يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلا بذلك ﴿**ويكفرون بما وراءه**﴾ يعني بما بعده ﴿**وهو الحق مصدقاً لما معهم**﴾ أي: وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ الحق ﴿**مصدقاً**﴾ منصوب على الحال، أي: في حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل، فالحجة قائمة عليهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾ [البقرة:١٤٦] ثم قال تعالى: ﴿**فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين**﴾ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم، فلم قتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها، وأنتم تعلمون صدقهم؟ قتلتموهم بغياً وعناداً وحسداًواستكباراً على رسل الله، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهي، كما قال تعالى: ﴿**أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون**﴾ [البقرة:٨٧]. وقال السدي: في هذه الآية يعيرهم الله تبارك وتعالى: ﴿**قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين**﴾ وقال أبو جعفر بن جرير: قل يا محمد ليهود بني إسرائيل الذين إذا قلت لهم آمنوا بما أنزل الله، قالوا: ﴿**نؤمن بما أنزل علينا**﴾: لم تقتلون - إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم - أنبياءه وقد حرم الله في الكتاب الذي أنزل عليكم قتلهم، بل أمركم فيه باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم، وذلك من الله تكذيب لهم في قولهم: ﴿**نؤمن بما أنزل علينا**﴾، وتعيير لهم.

﴿**ولقد جاءكم موسى بالبينات**﴾ أي: بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات على أنه رسول الله، وأنه لا إله إلا الله. والبينات هي: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم،

والعصا، واليد، وفَلْق البحر، وتظليلهم بالغمام، والمن والسلوى، والحجر، وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ أي: معبوداً من دون الله في زمان موسى وأيامه، وقوله: ﴿من بعده﴾ أي: من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله، كما قال تعالى: ﴿**واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار**﴾ [الأعراف:١٤٨]، ﴿**وأنتم ظالمون**﴾ أي: وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل، وانتم تعلمون أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿**ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين**﴾ [الأعراف:١٤٩].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

يعدد تبارك وتعالى عليهم خطأهم، ومخالفتهم للميثاق، وعتوهم وإعراضهم عنه، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه؛ ولهذاقال: ﴿**قالوا سمعنا وعصينا**﴾. وقد تقدم تفسير ذلك. وعن قتادة: ﴿**وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم**﴾ قال: أشربوا في قلوبهم حبه، حتى خلص ذلك إلى قلوبهم، وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس. وقال السدي: أخذ موسى عليه السلام، العجل فذبحه ثم حرقه بالمبرد، ثم ذراه في البحر، فلم يبق بحر يجري يومئذ إلا وقع فيه شيء منه، ثم قال لهم موسى: اشربوا منه، فشربوا، فمن كان يحبه خرج على شاربيه الذهب، فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿**وأشربوا في قلوبهم العجل**﴾. وعن علي بن أبي طالب، قال: عمد موسى إلى العجل، فوضع عليه المبارد فبرده بها، وهو على شاطىء نهر، فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب، وقال سعيد بن جبير: ﴿**وأشربوا في قلوبهم العجل**﴾ قال: لما أحرق العجل، بُرِدَ ثم نسف، فحسوا الماء حتى عادت وجوههم كالزعفران، وقال القرطبي: وهذا شيء غير ما ههنا؛ لأن المقصود من هذا السياق، أنه ظهر على شفاههم ووجوههم، والمذكور ههنا: أنهم أشربوا في قلوبهم العجل، يعني في حال عبادتهم له، ثم أنشد قول النابغة في زوجته عثمة:

تغلغل حب عثمة في فؤادي فباديه مع الخافي يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور

وقوله: ﴿**قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين**﴾ أي: **بئسما** تعتمدونه في قديم الدهر وحديثه، من كفركم بآيات الله، ومخالفتكم الأنبياء، ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد ﷺ وهذا أكبر ذنوبكم، وأشد الأمر عليكم إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين، المبعوث إلى الناس أجمعين، فكيف تدّعون لأنفسكم الإيمان، وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة، من نقضكم المواثيق، وكفركم بآيات الله، وعبادتكم العجل من دون الله ؟.

يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

عن ابن عباس رضي الله عنهما: يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿**قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين**﴾ أي: ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ ﴿**ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم، والله عليم بالظالمين**﴾ أي: بِعِلْمِهم بما عندهم من العلم بك، والكفر بذلك، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات. وعن ابن عباس أيضا: فتمنوا الموت: فسلوا الموت. وعنه قال: لو تمنى يهود الموت لماتوا. وعنه أيضا، قال: لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه، وهذه أسانيدها صحيحة إلى ابن عباس، وعن ابن عباس: أن النبي ﷺ، قال «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا» [أخرجه أحمد، وابن جرير، والبزار ورجال البزار رجال الصحيح]، وعن الحسن، قال: قول الله: ما كانوا ليتمنوه بما قدمت أيديهم، قلت: أرأيتك لو أنهم أحبوا الموت حين قيل لهم تمنوا الموت أتراهم كانوا ميتين، قال: لا والله ما كانوا ليموتوا ولو تمنوا الموت، وما كانوا ليتمنوه، وقد قال الله ما سمعت ﴿**ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين**﴾ وهذا غريب عن الحسن، ثم هذا الذي فسر به ابن عباس الآية هو المتعين، وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، ونقله ابن جرير عن قتادة، وأبي العالية، والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿**قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون**﴾ [الجمعة: ٦ـ٨] فهم ـ عليهم لعائن الله ـ لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كانوا يهوداً أو نصارى، دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين، فلما نكلوا عن ذلك، علم كل أحد أنهم ظالمون؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه، لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا، علم كذبهم. وهذا كما دعا رسول الله ﷺ وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة، وعتوّهم وعنادهم إلى المباهلة، فقال تعالى: ﴿**فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين**﴾ [آل عمران: ٦١] فلما رأوا ذلك، قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف، فعند ذلك جنحوا للسلم، وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فضربها عليهم، وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه أميناً، ومثل هذا المعنى أو قريب منه قوله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿**قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً**﴾ أي: من كان في الضلالة منا

أو منكم، فزاده الله مما هو فيه ومَدّ له، واستدرجه، كما سيأتي تقريره في موضعه، إن شاء الله.

فأما من فسر الآية على معنى: ﴿**قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين**﴾ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم، فتمنوا الآن الموت، ولم يتعرض للمباهلة، كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم، ومال إليه ابن جرير بعد ما قارب القول الأول. فلا تظهر به الحجة عليهم على هذا التأويل، إذ يقال: لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون في دعواهم، أنهم يتمنون الموت، فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمني الموت، وكم من صالح لا يتمنى الموت، بل يود أن يعمر ليزداد خيراً وترتفع درجته في الجنة، كما جاء في الحديث «خيركم من طال عمره، وحسن عمله» [أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح]. وجاء في الصحيح النهي عن تمني الموت وفي بعض ألفاظه: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسناً فلعله أن يزداد وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب» [متفق عليه]. ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا: فها أنتم تعتقدون ـ أيها المسلمون ـ أنكم أصحاب الجنة، وأنتم لا تتمنون في حال الصحة الموت، فكيف تلزموننا بما لا نُلزمكم؟ وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى، فأما على تفسير ابن عباس المروي بأسانيد صحيحة: فلا يلزم عليه شيء من ذلك، بل قيل لهم كلام نَصَف: إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحبّاؤه، وأنكم من أهل الجنة ومن عداكم من أهل النار، فباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة، فلما تيقّنوا ذلك وعرفوا صدقه، نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافترائهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول ﷺ ونعته، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه، فعلم كل أحد باطلهم، وخزيهم، وضلالهم، وعنادهم عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. وسميت هذه المباهلة تمنياً؛ لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له في بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت؛ لأن الحياة عندهم عظيمة عزيزة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت. ولهذا قال تعالى: ﴿**ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة**﴾ أي: أحرص الخلق عل حياة أي: على طول عُمْر، لما يعلمون من مآلهم السيء، وعاقبتهم عند الله الخاسرة، لأن الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم، وما يحذرون منه واقع بهم لا محالة، حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم، وهذا من باب عطف الخاص على العام. عن ابن عباس ﴿**ومن الذي أشركوا**﴾ قال: الأعاجم. وقال الحسن البصري: ﴿**ولتجدنهم أحرص الناس على حياة**﴾. قال: المنافق أحرص الناس على الحياة، وهو أحرص على الحياة من المشرك.

﴿**يود أحدهم**﴾ أي: أحد اليهود كما يدل عليه نظم السياق، وقال أبو العالية: ﴿**يود**

أحدهم﴾ يعني المجوس، وهو يرجع إلى الأول. عن ابن عباس: **﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾** قال: هو كقول الفارسي «زه هزارسال» يقول: عشرة آلاف سنة. وكذا روي عن سعيد بن جبير أيضاً. وقال مجاهد: **﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾** قال: حببت إليهم الخطيئة طول العمر. وعن ابن عباس: **﴿وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر﴾** أي: وما هو بمنجيه من العذاب، وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة، وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي، بما صنع بما عنده من العلم. وعن ابن عباس أيضا: **﴿وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر﴾** قال: هم الذين عادوا جبريل. وقال أبو العالية وابن عمر: فما ذاك بمغيثه من العذاب، ولا منجيه منه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية: يهود أحرص على الحياة من هؤلاء، وقد ودّ هؤلاء أن **يعمر** أحدهم **ألف** سنة، وليس بمزحزحه من **العذاب لو** عمر، كما أن عمر إبليس لم ينفعه إذ كان كافراً. **﴿والله بصير بما يعملون﴾** أي: خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر، وسيجازي كل عامل بعمله.

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً على أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدوٌّ لهم، وأن ميكائيل ولي لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك، فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك، من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ في أمر نبوته.

قال البخاري: قوله تعالى: **﴿من كان عدواً لجبريل﴾** قال عكرمة: جبر، وميك، وإسراف: عبد. وإيل: الله. وعن أنس بن مالك، قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ وهو في أرض يخترف، فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الوالد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال: «أخبرني بهن جبريل آنفاً» قال: جبريل ؟ قال: «نعم» قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: **﴿من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك﴾**. «أما أول أشراط الساعة، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب. وأما أول طعام يأكله أهل الجنة، فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت». قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهُت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود، فقال رسول الله ﷺ: «أي رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. قال: «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام» قالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. قالوا: هو شرنا وابن شرنا فانتقضوه. فقال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله [متفق عليه].

وعن علي بن الحسين: اسم جبريل عبد الله، واسم ميكائيل عبيد الله. ومن الناس من يقول: «إيل» عبارة عن عبد، والكلمة الأخرى هي اسم الله؛ لأن كلمة إيل لا تتغير في الجميع، فوزانه: عبد الله، عبد الرحمن، عبد الملك، عبد القدوس، عبد السلام، عبد الكافي، عبد الجليل، فعبد موجودة في هذا كله، واختلفت الأسماء المضاف إليها، وكذلك جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ونحو ذلك، وفي كلام غير العرب يقدمون المضاف إليه على المضاف، والله أعلم.

ثم قال ابن جرير: وقال آخرون: بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين عمر بن الخطاب في أمر النبي ﷺ، [روي ذلك عن الشعبي، وقتادة، والسدي، وابن أبي ليلى وفيها انقطاع].

فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى: أن يهودياً أتى عمر بن الخطاب، فقال: إن جبرائيل الذي يذكر صاحبكم عدو لنا، فقال عمر ﴿**من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين**﴾ قال: فنزلت على لسان عمر رضي الله عنه، وعنه أيضاً قال: قالت اليهود للمسلمين: لو أن ميكائيل كان هو الذي ينزل عليكم اتبعناكم، فإنه ينزل بالرحمة والغيث، وإن جبرائيل ينزل بالعذاب والنقمة، فإنه لنا عدو، قال: فنزلت هذه الآية. وعن قتادة في قوله: ﴿**قل من كان عدواً لجبريل**﴾ قال: قالت اليهود: إن جبرائيل عدو لنا، لأنه ينزل بالشدة والسَّنَة، وإن ميكائيل ينزل بالرخاء والعافية والخصب، فجبريل عدونا. فقال الله تعالى: ﴿**من كان عدواً لجبريل**﴾ الآية.

وأما تفسير الآية فقوله تعالى: ﴿**قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله**﴾ أي: من عادى جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له في ذلك، فهو رسول من رسل الله ملكي عليه وعلى سائر إخوانه من الملائكة السلام، ومن عادى رسولاً فقد عادى جميع الرسل، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿**إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً**﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١]، فحكم عليهم بالكفر المحقّق، إذْ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم، وكذلك من عادى جبرائيل فإنه عدو لله؛ لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه، كما قال: ﴿**وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا**﴾ [مريم: ٦٤]. وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب». ولهذا غضب الله لجبريل على من عاداه، فقال: ﴿**من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه**﴾

أي: من الكتب المتقدمة: ﴿وهدى وبشرى للمؤمنين﴾ أي: هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة، وليس ذلك إلا للمؤمنين. كما قال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ [فصلت: ٤٤]. ثم قال تعالى: ﴿من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو الكافرين﴾ يقول تعالى: من عاداني وملائكتي ورسلي، ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالى ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ [الحج: ٧٥]. ﴿وجبريل وميكال﴾ وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا في الملائكة ثم في عموم الرسل، ثم خصصا بالذكر؛ لأن السياق في الانتصار لجبريل، وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم وميكائيل وليهم، فأعلمهم أنه من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً؛ لأنه أيضاً ينزل على أنبياء الله بعض الأحيان، كما قُرن برسول الله ﷺ في ابتداء الأمر، ولكن جبريل أكثر، وهي وظيفته، وميكائيل موكل بالنبات والقطر، هذا بالهدى وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكل بالنفخ في الصور للبعث يوم القيامة؛ ولهذا جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: «اللهم رب جبريل وإسرافيل وميكائيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلِف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم». وعن ابن عباس، قال: إنما كان قوله: جبريل كقوله: عبد الله، وعبد الرحمن. وقيل: جبر: عبد، وإيل: الله. وعن علي بن الحسين، قال: أتدرون ما اسم جبرائيل من أسمائكم؟ قلنا: لا. قال: اسمه عبد الله، قال: فتدرون ما اسم ميكائيل من أسمائكم؟ قلنا: لا قال اسمه عبيد الله. وكل اسم مرجعه إلى إيل فهو إلى الله. وفي جبرائيل وميكائيل لغات وقراءات، تذكر في كتب اللغة والقراءات، ولم نطوّل كتابنا هذا بسرد ذلك إلا أن يدور فهم المعنى عليه، أو يرجع الحكم في ذلك إليه، وبالله الثقة وهو المستعان.

وقوله تعالى: ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾ فيه إيقاع المظهر مكان المضمر حيث لم يقل: فإنه عدو للكافرين. وإنما أظهر لله هذا الاسم ههنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره، وإعلامهم أن من عادى ولياً لله فقد عادى الله، ومن عادى الله فإن الله عدو له، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة، كما في الحديث الصحيح «ومن كنت خصمه خصمته» [أخرجه ابن خزيمة، وابن حبان في صحيحهما، وأصله في الصحيح من حديث أبي هريرة].

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ
كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ
سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ

وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾ أي: أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات، دلالات على نبوتك، وتلك الآيات هي ماحواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكنونات سرائر أخبارهم، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارُهم وعلماؤهم، وما حرّفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم، التي كانت في التوراة. فأطلع الله في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف من نفسه، ولم يَدْعُه إلى هلاكها الحسد والبغي، إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ماجاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التي وَصَفَ من غير تعلم تعلمه من بَشَرِيٍّ، ولاأخذ شيئاً منه عن آدمي. كما قال ابن عباس: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾ يقول: فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غدوة وعشية، وبين ذلك، وأنت عندهم أمي لا تقرأ كتاباً، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه. يقول الله تعالى في ذلك لهم عبرة وبيان، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون. وعن ابن عباس أيضا، قال: قال ابن صُوريا الفِطْيُويني لرسول الله ﷺ: يامحمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك، فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾. وقال مالك بن الصيف حين بُعث رسولُ الله ﷺ وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق، وما عهد إليهم في محمد ﷺ: والله ما عهد إلينا في محمد ﷺ، ولا أخذ له علينا ميثاقاً، فأنزل الله: ﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾. وقال الحسن البصري: في قوله: ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ قال: نعم، ليس في الأرض عَهْدٌ يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه، يعاهدون اليوم وينقضون غداً. وقال السدي: لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ. وقال قتادة: ﴿نبذه فريق منهم﴾ أي: نقضه فريق منهم. وقال ابن جرير: أصل النبذ: الطرح والإلقاء، ومنه سمي اللقيط: منبوذاً، ومنه سمي النبيذ، وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء.

قلت: فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التي تقدم اللهُ إليهم في التمسك بها والقيام بحقها. ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، الذي في كتبهم نعتُه وصفتُه وأخبارُه، وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ومناصرته، كما قال: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ الآية [الأعراف:١٥٧]، وقال ههنا: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ أي: اطَّرَح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم،

مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم، أي: تركوها كأنهم لا يعلمون ما فيها، وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه، ولهذا أرادوا كيْداً برسول الله ﷺ وسحروه، وكان الذي تولى ذلك منهم رجل يقال له: لبيد بن الأعصم لعنه الله؛ فأطلع الله على ذلك رسوله ﷺ وشفاه منه وأنقذه، كما ثبت ذلك مبسوطاً في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. قال السدي ﴿**ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم**﴾ قال: لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة، فخاصموه بها، فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف، وسحر هاروت وماروت، فلم يوافق القرآن، فذلك قوله: ﴿**كأنهم لايعلمون**﴾. وقال قتادة في قوله: ﴿**كأنهم لايعلمون**﴾ قال: إن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم نبذوا علمهم وكتموه وجحدوا به.

وعن ابن عباس، قال: كان آصف كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجه الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها. قال: فأكفره جُهَّالُ الناس وسبّوه، ووقف علماؤهم فلم يزل جهالهم يسبونه، حتى أنزل الله على محمد ﷺ: ﴿**واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا**﴾.

وقال السدي في قوله تعالى: ﴿**واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان**﴾أي: على عهد سليمان. قال: كانت الشياطين تصعد إلى السماء، فتقعد منها مقاعد للسمع، فيستمعون من كلام الملائكة مما يكون في الأرض من موت أو غيب أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم، فتحدِّث الكهنة الناسَ فيجدونه كما قالوا، حتى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم وأدخلوا فيه غيره، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة، فاكتتب الناسُ ذلك الحديث في الكتب، وفشا ذلك في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب، فبعث سليمان في الناس، فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق، ثم دفنها تحت كرسيه ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلا احترق، وقال: لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه، فلما مات سليمان عليه السلام، وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان، وخلف من بعد ذلك خَلْف، تمثل الشيطان في صورة إنسان، ثم أتى نفراً من بني إسرائيل، فقال لهم: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً؟ قالوا: نعم، قال: فاحفروا تحت الكرسي، فذهب معهم وأراهم المكان، وقام ناحية، فقالوا له: فَادْنُ، فقال: لا ولكنني ههنا في أيديكم، فإن لم تجدوه فاقتلوني، فحفروا فوجدوا تلك الكتب، فلما أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر. ثم طار وذهب. وفشا في الناس أن سليمان كان ساحراً، واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب، فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها؛ فذلك حين يقول الله تعالى ﴿**وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا**﴾ [ونحوه عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما].

وعن الحسن: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين﴾ قال: ثلث الشعر، وثلث السحر، وثلث الكهانة. وعن الحسن ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ واتبعته اليهود على ملكه وكان السحر قبل ذلك في الأرض لم يزل بها، ولكنه إنما اتبع على ملك سليمان.

فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف في هذا المقام، ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها، وأنه لا تعارض بين السياقات على اللبيب الفهم، والله الهادي. وقوله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ أي: واتبعت اليهود الذين أوتوا الكتاب بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ومخالفتهم لرسول الله محمد ﷺ ما تتلو الشياطين، أي: ما ترويه وتخبر به وتُحدثه الشياطين على ملك سليمان، وعداه بعلى؛ لأنه ضمن تتلو: تكذب، وقال ابن جرير: «على» ههنا بمعنى «في»، أي: تتلوا في ملك سليمان، ونقله عن ابن جريج وابن إسحاق. قلت: والتضمين أحسن وأولى، والله أعلم. وقول الحسن البصري رحمه الله: «قد كان السحر قبل زمان سليمان بن داود» صحيح لا شك فيه؛ لأن السحرة كانوا في زمان موسى عليه السلام، وسليمان بن داود بعده، كما قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله﴾ الآية [البقرة:٢٤٦]، ثم ذكر القصة بعدها وفيها: ﴿وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة﴾ [البقرة:٢٥١]، وقال قوم صالح وهم قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، لنبيهم صالح ﴿إنما أنت من المسحرين﴾ [الشعراء:١٥٣] أي: المسحورين على المشهور.

وقوله تعالى ﴿وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾: اختلف الناس في هذا المقام، فذهب بعضهم إلى أن «ما» نافية أعني التي في قوله: ﴿ وما أنزل على الملكين﴾ قال القرطبي: ما نافية ومعطوف على قوله: ﴿وما كفر سليمان﴾ ثم قال: ﴿ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل﴾ أي: السحر ﴿على الملكين﴾ وذلك أن اليهود لعنهم الله كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل وميكائيل فأكذبهم الله في ذلك وجعل قوله: ﴿هاروت وماروت﴾ بدلاً من الشياطين، قال: وصح ذلك، إما لأن الجمع قد يطلق على الاثنين كما في قوله تعالى: ﴿فإن كان له إخوة﴾ [النساء:١١] أو لكونهما لهما أتباع أو ذُكِرا من بينهم لتمردهما، فتقدير الكلام عنده: تعلمون الناس السحر ببابل، هاروت وماروت. ثم قال: وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ولا يلتفت إلى ما سواه. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾ الآية، يقول: لم ينزل الله السحر. وعن الربيع بن أنس في قوله: ﴿وما أنزل على الملكين﴾ قال: ما أنزل الله عليهما السحر. قال ابن جرير فتأويل الآية على هذا واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل، هاروت وماروت،

فيكون قوله: ﴿ببابل هاروت وماروت﴾ من المؤخر الذي معناه المقدم قال: فإن قال لنا قائل: كيف وجه تقديم ذلك؟ قيل وجه تقديمه أن يقال: ﴿**واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان**﴾ من السحر وما كفر سليمان وما أنزل الله السحر على الملكين، ﴿**ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر**﴾ ببابل، هاروت وماروت، فيكون معنياً بالملكين جبريل وميكائيل عليهما السلام؛ لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك، أخبر نبيه محمداً ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان: اسم أحدهما هاروت، واسم الآخر ماروت، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس ورداً عليهم. وعن عبد الرحمن بن أبزى أنه كان يقرؤها «وما أنزل على الملِكين داود وسليمان». وقال أبو العالية: لم ينزل عليهما السحر، يقول: عَلِما الإيمان والكفر، فالسحر من الكفر، فهما ينهيان عنه أشد النهي، ثم شرع ابن جرير في رد هذا القول، وأن «ما» بمعنى الذي، وأطال القول في ذلك، وادعى أن هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله إلى الأرض، وأذن لهما في تعليم السحر اختباراً لعباده وامتحاناً، بعد أن بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على ألسنة الرسل، وادعى أن هاروت وماروت مطيعان في تعليم ذلك؛ لأنهما امتثلا ما أمرا به. وهذا الذي سلكه غريب جداً، وأغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن، كما زعمه ابن حزم. وَوَجَّه أصحاب هذا القول الإنزال بمعنى الخَلْق، لا بمعنى الايحاء كما في قوله تعالى ﴿**وما أنزل على الملكين**﴾، كما قال تعالى: ﴿**وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج**﴾ [الزمر:٦]، ﴿**وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد**﴾ [الحديد:٢٥]، ﴿**وينزل لكم من السماء رزقاً**﴾ [غافر:١٣]. وفي الحديث: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء». وكما يقال: أنزل الله الخير والشر. وحكى القرطبي عن ابن عباس [وجماعة]: أنهم قرؤوا: «وما أنزل على الملِكين» بكسر اللام. قال ابن أبزى: وهما داود وسليمان. قال القرطبي: فعلى هذا تكون «ما» نافية أيضاً. وذهب آخرون إلى الوقف على قوله: ﴿**يعلمون الناس السحر**﴾ وما نافية، فعن القاسم بن محمد وسأله رجل عن قول الله تعالى ﴿**يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت**﴾ قال: الرجل: يعلمان الناس السحر، ما أنزل عليهما، أو يعلمان الناس ما لم ينزل عليهما؟ فقال القاسم: ما أبالي أيتهما كانت.

وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملَكين من السماء، وأنهما أنزلا إلى الأرض، فكان من أمرهما ما كان، وقد ورد في ذلك حديث مرفوع [غريب] رواه الإمام أحمد في مسنده رحمه الله، وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق في علم الله لهما هذا، فيكون تخصيصاً لهما فلا تعارض حينئذ، كما سبق في علمه

من أمر إبليس ما سبق، وفي قول: إنه كان من الملائكة، لقوله تعالى: ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى**﴾ [طه:١١٦]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. مع أن شأن هاروت وماروت ـ على ما ذكر ـ أخف مما وقع من إبليس لعنه الله. وقد حكاه القرطبي عن علي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، [وغيرهم].

وأما الحديث المرفوع الوارد في ذلك فالأقرب أنه من رواية عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار، لا عن النبي ﷺ، كما رواه عبد الرزاق في تفسيره عن ابن عمر عن كعب الأحبار قال: ذكرت الملائكة أعمال بني آدم، وما يأتون من الذنوب، فقيل لهم: اختاروا منكم اثنين، فاختاروا هاروت وماروت. فقال لهما: إني أرسل إلى بني آدم رسلاً، وليس بيني وبينكم رسول، انزلا لا تشركا بي شيئاً ولا تزنيا ولا تشربا الخمر. قال كعب: فوالله ما أمسيا من يومهما الذي أهبطا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه.

فهذا أصح وأثبت إلى عبد الله بن عمر، فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار عن كتب بني إسرائيل، والله أعلم.

وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين، كمجاهد والسدي والحسن البصري وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال.

وبابل المذكورة في القرآن هي بابل العراق، كما قاله السدي وغيره.

وقوله تعالى: ﴿**وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر**﴾ عن ابن عباس قال: فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهياه أشد النهي وقالا له: إنما نحن فتنة فلا تكفر، وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر. قال: فإذا أبى عليهما أمراه أن يأتي مكان كذا وكذا، فإذا أتاه عاين الشيطان فَعلمه، فإذا تعلمه خرج منه النور، فنظر إليه ساطعاً في السماء، فيقول: يا حسرتاه! يا ويله! ماذا أصنع؟ [ونحوه الحسن البصري وقتادة والسدي]. وعن ابن جريج في هذه الآية: لا يجترىء على السحر إلا كافر، وأما الفتنة فهي المحنة والاختبار.

قال تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام أنه قال: ﴿**إن هي إلا فتنتك**﴾ أي: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك ﴿**تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء**﴾ [الأعراف:١٥٥].

وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر، ويُستشهد له بالحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الله [بن مسعود] قال: «من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ». وهذا إسناده صحيح وله شواهد أخر.

وقوله تعالى: ﴿**فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه**﴾ أي: فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر وما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة، ما إنهم ليفَرِّقُون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف. وهذا من صنيع الشياطين، كما رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه في الناس، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة، يجيء أحدهم فيقول: ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا، فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً! ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال: فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول: نِعْم أنت». وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر، أو خُلُق أو نحو ذلك أو عَقد أو بَغْضة، أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة. والمرء عبارة عن الرجل وتأنيثه امرأة، ويثنى كل منهما ولا يجمعان والله اعلم.

وقوله تعالى: ﴿**وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله**﴾: قال سفيان الثوري: إلا بقضاء الله. وقال محمد بن إسحاق: إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد. وقال الحسن البصري: ﴿**وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله**﴾ قال: نَعَم، من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط، ولا يستطيعون ضر أحد إلا بإذن الله، كما قال الله تعالى. وفي رواية عن الحسن أنه قال: لا يضر هذا السحر إلا من دخل فيه.

وقوله تعالى: ﴿**ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم**﴾ أي يضرهم في دينهم وليس له نفع يوازي ضرره. ﴿**ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق**﴾ أي: ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول ﷺ لَمَنْ فعل فعلهم ذلك، أنه ما له في الآخرة من خلاق. قال ابن عباس ومجاهد والسدي: من نصيب، وقال الحسن: ليس له دين، وعن قتادة: ﴿**ما له في الآخرة من خلاق**﴾ قال: ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿**ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون * ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون**﴾ يقول تعالى: ﴿**ولبئس**﴾ البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان، ومتابعة الرسل، لو كان لهم علم بما وعظوا به ﴿**ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير**﴾ أي: ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم، لكان مثوبةُ الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به، كما قال تعالى: ﴿**وقال الذين أوتوا العلم: ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون**﴾ [القصص: ٨٠].

وقد يَسْتَدلّ بقوله: ﴿**ولو أنهم آمنوا واتقوا**﴾ من ذَهَب إلى تكفير الساحر، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وقول طائفة من السلف. وقيل: بل لا يكفر، ولكن حَده ضَرْبُ عنقه، لما رواه الشافعي وأحمد بن حنبل، رحمهما الله عن بجالة بن عَبَدَةَ قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر. وقد أخرجه البخاري

في صحيحه أيضاً، وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها، فأمرت بها فقتلت، قال الإمام أحمد بن حنبل: صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ أذنو في قتل الساحر. وروى الترمذي عن جُنْدَب الأزدي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حد الساحر ضربه بالسيف». قال الترمذي: والصحيح عن الحسن عن جندب موقوفاً.

وقد روي من طرق متعددة أن الوليد بن عقبة: كان عنده ساحر يلعب بين يديه فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله! يحيي الموتى! ورآه رجل من صالحي المهاجرين، فلما كان الغد جاء مشتملاً على سيفه وذهب يلعب لعبه ذلك، فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر، وقال: إن كان صادقاً فليحي نفسه، وتلا قوله تعالى: ﴿**أفتأتون السحر وأنتم تبصرون**﴾ [الأنبياء:٣]، فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك، فسجنه ثم أطلقه، والله أعلم. وعن حارثة قال: كان عند بعض الأمراء رجل يلعب فجاء جندب مشتملاً على سيفه فقتله، قال: أراه كان ساحراً، وحمل الشافعي رحمه الله قصة عمر وحفصة على سحر يكون شركاً والله أعلم.

وفي هذه الآية الكريمة تبشيع لتعلم السحر، وفي الصحيح: «من أتى عرافاً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد». وفي السنن: «من عَقَدَ عُقْدَة ونفث فيها فقد سحر» [وهو حسن بشواهده].

[وذهب الرازي] إلى وجوب تَعَلّم [السحر]، وأنه لا يحصل العلم بالمعجز إلا به. [وهو] ضعيف بل فاسد؛ لأن أعظم معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام هي القرآن العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. ثم إن العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلاً، ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم، كانوا يعلمون المعجز، ويفرّقُون بينه وبين غيره، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ولا علموه، والله أعلم.

[وأما] التصرف بالحال، فهو على قسمين، تارة تكون حالاً صحيحة شرعية يتصرف بها فيما أمر الله ورسوله ﷺ، ويترك ما نهى الله ورسوله ﷺ، فهذه الأحوال مواهب من الله تعالى وكرامات للصالحين من هذه الأمة، ولا يسمى هذا سحراً في الشرع. وتارة تكون الحال فاسدة لا يمتثل صاحبها ما أمر الله ورسوله ﷺ، ولا يتصرف بها في ذلك، فهذه حال الأشقياء المخالفين للشريعة، ولا يدل إعطاء الله إيَّاهم هذه الأحوال على محبته لهم، كما أن الدجَّال ـ لعنه الله ـ له من الخوارق للعادات ما دلَّت عليه الأحاديث الكثيرة، مع أنه مذموم شرعاً لعنه الله، وكذلك من شابهه من مخالفي الشريعة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وبسط هذا يطول جداً وليس هذا موضعه.

[وذكر الرزاي من أنواع] السحر: الاستعانة بالأرواح الأرضية، وهم الجن، خلافاً للفلاسفة والمعتزلة: وهم على قسمين: مؤمنون، وكفار وهم الشياطين. وهذا النوع هو المسمى بالعزائم

وعمل التسخير.

[وذكر من أنواعه أيضاً] التخييلات، والأخذ بالعيون والشعبذة، ومبناه على أن البصر قد يخطىء ويشتغل بالشيء المعين دون غيره، ألا ترى أن المشعبذ الحاذق يظهر عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به، ويأخذ عيونهم إليه، حتى إذا استفرغهم الشغل بذلك الشيء بالتحديق ونحوه، عمل شيئاً آخر عَمَلاً بسرعة شديدة، وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه، فيتعجبَّون منه جداً، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمله، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه، لفطن الناظرون لكل ما يفعله. قال: وكلما كانت الأحوال التي تفيد حسن البصر نوعاً من أنواع الخلل أشدّ، كان العمل [أشد]، مثل أن يجلس المشعبذ في موضع مضيء جداً، أو مظل، فلا تقف القوة الناظرة على أحوالها بكلالها والحالة هذه.

قلت: وقد قال بعض المفسرين: إن سحر السحرة بين يدي فرعون إنما كان من باب الشعبذة ولهذا قال تعالى: ﴿**فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم**﴾ [الأعراف:١١٦]، وقال تعالى: ﴿**يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى**﴾ [طه:٦٦] قالوا: ولم تكن تسعى في نفس الأمر، والله أعلم.

ثم ذكر الرازي من أنواعه: الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب الآلات المركبة من النسب الهندسية، كفارس على فرس في يده بوق، كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق، من غير أن يمسه أحد. إلى أن قال: فهذه الوجوه من لطيف أمور المخاييل. قال: وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل قلت: يعني ما قاله بعض المفسرين: إنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصي، فحشوها زئبقاً فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزئبق، فيخيل إلى الرائي أنها تسعى باختيارها. قال: وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يعد من باب السحر؛ لأن لها أسباباً معلومة يقينية، من اطلع عليها قدر عليها. قلت: ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم، بما يُرُونَهم إياه من الأنوار، كقضية قُمَامة الكنيسة التي لهم ببلد المقدس، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة، وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على العوام منهم. وأما الخواص فهم يعترفون بذلك، ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم فيرون ذلك سائغاً لهم.

ثم ذكر الرازي: من أنواعه: الاستعانة بخواص الأدوية يعني في الأطعمة والدهانات. قال: واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص فإن تأثير المغناطيس مشاهد.

قلت: يدخل في هذا القبيل كثير ممن يَدّعي الفقر ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص، مدعياً أنها أحوال له، من مخالطة النيران ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحالات.

[ثم ذكر منه: تعليق القلب، وهو أن يدعي الساحرُ أنه عرف الاسم الأعظم، وأن الجن

يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور، فإذا اتفق أن يكون السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز اعتقد أنه حق، وتعلق قلبه بذلك وحصل في نفسه نوع من الرهب والمخافة، فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة، فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء.

قلت: هذا النمط يقال له التنبلة، وإنما يروج على ضعفاء العقول من بني آدم. وفي علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه، فإذا كان المُتَنْبِلُ حاذقاً في علم الفراسة عرف من ينقاد له مِنَ الناس من غيره.

ثم ذكر آخر الأنواع وهو: السعيُ بالنميمة والتضريب، من وجوه خفيفة لطيفة، وذلك شائع في الناس.

قلت: النميمة على قسمين، تارة تكون على وجه التحريش بين الناس وتفريق قلوب المؤمنين، فهذا حرام متفق عليه. فأما إذا كانت على وجه الإصلاح بين الناس وائتلاف كلمة المسلمين، كما جاء في الحديث: «ليس بالكذاب من يَنمي خيراً» [متفق عليه]، أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة فهذا أمر مطلوب، كما جاء في الحديث «الحرب خُدْعة» [متفق عليه]. وكما فعل نُعَيم بن مسعود في تفريقه بين كلمة الأحزاب وبين قريظة، وجاء إلى هؤلاء فنمى إليهم عن هؤلاء كلاماً، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئاً آخر، ثم لأم بين ذلك، فتناكرت النفوس وافترقت، وإنما يحذو على مثل هذا الذكي ذو البصيرة النافذة والله المستعان.

وإنما أدخل [الرزاي] كثيراً من هذه الأنواع المذكورة في فن السحر، للطافة مداركها؛ لأن السحر في اللغة عبارة عما لطُف وخفي سببه. ولهذا جاء في الحديث: «إن من البيان لسحراً» [متفق عليه]، وسمي السحور لكونه يقع خفياً آخر الليل، والسَّحْر: الرئة، وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن وغضونه، وقال تعالى: ﴿**سحروا أعين الناس**﴾ [الأعراف: ١١٦] أي: أخفوا عنهم عملهم، والله أعلم.

فصل: وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن محمد بن هُبيرة في كتابه «الإشراف على مذاهب الأشراف» باباً في السحر، فقال: أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة، فإنه قال: لا حقيقة له عنده. واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد: يكفر بذلك. ومن أصحاب أبي حنيفة من قال: إنْ تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر، ومن تعلمه معتقداً جوازه أو أنه ينفعه كَفَر. وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر. وقال الشافعي رحمه الله: إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحرك. فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر. وإن كان لايوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر، قال ابن هبيرة: وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله؟ فقال مالك وأحمد: نعم. وقال الشافعي وأبو حنيفة: لا. فأما إن قتل بسحره

إنساناً فإنه يُقتل عند مالك والشافعي وأحمد. وقال أبو حنيفة: لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك، أو يقر بذلك في حَقّ شخص معين. وإذا قُتل فإنه يُقْتَل حداً عندهم إلا الشافعي، فإنه قال: يقتل ـ والحالة هذه قصاصاً ـ قال: وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد في المشهور عنهم: لا تقبل، وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى: تقبل. وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبي حنيفة أنه يقتل، كما يقتل الساحر المسلم. وقال مالك والشافعي وأحمد: لايقتل يعني لقصة لبيد بن الأعصم. واختلفوا في المسلمة الساحرة، فعند أبي حنيفة: لا تقتل، ولكن تحبس. وقال الثلاثة: حكمها حكم الرجل، والله أعلم. وعن الزهري: قال يقتل ساحر المسلمين، ولا يقتل ساحر المشركين؛ لأن رسول الله ﷺ سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها. وقد نقل القرطبي عن مالك رحمه الله، أنه قال في الذمي إذا سحر يقتل إن قتل سحره، وحكى ابن خويز منداد عن مالك روايتين في الذمي إذا سحر: إحداهما: أنه يستتاب فإن أسلم وإلا قتل، والثانية: أنه يقتل وإن أسلم، وأما الساحر المسلم فإن تضمن سحره كفراً كفر عند الأئمة الأربعة وغيرهم لقوله تعالى: **﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولا: إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾**. لكن قال مالك إذا ظُهِرَ عليه [أي قُدِرَ عليه] لم تقبل توبته لأنه كالزنديق، فإن تاب قبل أن يُظَهر عليه وجاءنا تائباً قبلناه ولم نقتله، فإن قتل سحرُه قتل. قال الشافعي: فإن قال: لم أتعمد القتل فهو مخطىء تجب عليه الدية.

مسألة: وهل يُسأل الساحر حل سحره؟ فأجازه سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخاري، وقال عامر الشعبي: لا بأس بالنشرة، وكره ذلك الحسن البصري، وفي الصحيح عن عائشة أنها قالت: يارسول الله هلا تنشرت، فقال: «أما الله فقد شفاني وخشيت أن أفتح على الناس شراً» [متفق عليه]. وأنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله ﷺ في إذهاب ذلك وهما المعوذتان، وفي الحديث «لم يتعوذ المتعوذون بمثلهما» [أخرجه النسائي عن عقبة وهو حسن]، وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشيطان.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يُعَانُون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقص، عليهم لعائن الله، فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا. يقولون: راعنا. يورون بالرعونة، كما قال تعالى: **﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾** [النساء:٤٦]، وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم

كانوا إذا سَلَّموا إنما يقولون: السامُ عليكم، والسام هو: الموت. ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ «وعليكم». وإنه يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا. والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً، فقال: ﴿**ياأيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم**﴾. وروى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف، حتى يُعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم» [وروى أبوداود آخره وإسناده حسن]. ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد، على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم، وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولم نُقَر عليها. وعن عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿**ياأيها الذين آمنوا**﴾ فأرعها سمْعك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه. وعن خَيْثَمة قال ما تقرؤون في القرآن: ﴿**ياأيها الذين آمنوا**﴾ فإنه في التوراة ياأيها المساكين. وعن ابن عباس: ﴿**راعنا**﴾ أي أرعنا سمعك. وعن ابن عباس [أيضاً]: ﴿**ياأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا**﴾ قال: كانوا يقولون للنبي ﷺ: أرعنا سمعك. وإنما راعنا كقولك: عاطنا. وروي عن أبي العالية، وأبي مالك، والربيع بن أنس، والعوفي، وقتادة نحو ذلك. وقال مجاهد: ﴿**لا تقولوا راعنا**﴾ لا تقولوا خلافاً. وفي رواية لا تقولوا: اسمع منا ونسمع منك. وقال عطاء: ﴿**لا تقولوا راعنا**﴾: كانت لغة تقولها الأنصار فنهى الله عنها، وقال الحسن: ﴿**لا تقولوا راعنا**﴾، قال: الراعن من القول السخري منه، نهاهم الله أن يسخروا من قول محمد ﷺ، وما يدعوهم إليه من الإسلام. وكذا روي عن ابن جُرَيج أنه قال مثله. وقال السدي: كان رجل من اليهود من بني قينقاع، يدعى رفاعة بن زيد، يأتي النبي ﷺ، فإذا لقيه فكلمه قال: أرعني سمعك واسمع غير مُسْمع. وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تُفَخم بهذا، فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مسمع: غَيْرَ صاغر، وهي كالتي في سورة النساء، فتقدم الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا: راعنا. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بنحو من هذا. قال ابن جرير: والصواب من القول في ذلك عندنا: أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ: راعنا؛ لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولوها لنبيه ﷺ، نظير الذي ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقولوا للعنب الكرم، ولكن قولوا الحَبَلَة. ولا تقولوا عبدي ولكن قولوا فتاي» [أخرجاه في الصحيحين] وما أشبه ذلك.

وقوله تعالى: ﴿**مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم**﴾ يبين تعالى بذلك شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، الذين حذر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين؛ ليقطع المودة بينهم وبينهم، وينبِّه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل، الذي شرعه لنبيهم محمد ﷺ، حيث يقول تعالى: ﴿**والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾.

﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

قال: نثبت خطها ونبدل حكمها، حَدَّث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم. وروي عن أبي العالية ومحمد بن كعب القرظي نحو ذلك، وقال الضحاك: **﴿ما ننسخ من آية﴾** ما نُنْسِكَ. وقال عطاء: أما **﴿ما ننسخ﴾**: فما نترك من القرآن. وقال ابن أبي حاتم: يعني: تُرِكَ فلم ينزل على محمد ﷺ. وقال السدي: **﴿ما ننسخ من آية﴾** نسخها: قبضها. وقال ابن أبي حاتم: يعني قبضَها رفعُها، مثل قوله «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»، وقوله «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً». وقال ابن جرير: **﴿ما ننسخ من آية﴾**: ما ننقل من حُكْم آية إلى غيره، فنبدله ونغيره، وذلك أن نحول الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً، ولا يكون ذلك، إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة، فأماالأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب وهو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره، إنما هو تحويله ونقل عبارة إلى غيرها. وسواء نسخ حكمها أو خطها، وهي في كلتا حالتيها منسوخة. وأما علماء الأصول، فاختلفت عباراتهم في حد النسخ، والأمر في ذلك قريب، لأن معنى النسخ الشرعي معلوم عند العلماء ولخّص بعضهم أنه رفع الحكم بدليل شرعي متأخر. فاندرج في ذلك نسخ الأخف بالأثقل، وعكسه، والنسخ لا إلى بدل. وأما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه فمبسوطة، في فنّ أصول الفقه.

وقوله تعالى: **﴿أو ننسها﴾**: قريء على وجهين، ننسأها، ونُنْسها، فأما من قرأها: نَنْسأها، بفتح النون والهمزة بعد السين فمعناه: نؤخرها. قال ابن عباس: **﴿ما ننسخ من آية أو ننسأها﴾** يقول: ما نبدل من آية، أو نتركها لا نبدلها. وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود: أو نُنسأها: نثبت خطها ونبدل حكمها، وقال عُبَيد بن عمير، ومجاهد، وعطاء: أو نُنسأها: نؤخرها ونرجئها. وقال عطية العوفي: نؤخرها فلا ننسخها. وقال السدي: مثله أيضاً، وكذا الربيع بن أنس. وقال الضحاك: يعني الناسخ والمنسوخ. وقال أبو العالية: نؤخرها عندنا. وعن ابن عباس قال: خطبنا عمر رضي الله عنه، فقال: يقول الله عز وجل: **﴿ما ننسخ من آية أو ننسأها﴾** أي: نؤخرها، وأما على قراءة: **﴿أو نُنسها﴾** قال قتادة: كان الله عز وجل: ينسي نبيه ﷺ ما يشاء، وينسخ ما يشاء.

وعن الحسن أنه قال: في قوله: **﴿أو ننسها﴾** قال: إن نبيكم ﷺ، أقريء قرآناً ثم نسيه. وقال عبيد بن عمير: نرفعها من عندكم. وعن ابن عباس، قال: قال عمر: أقرؤنا أُبيّ، وأقضانا علي، وإنا لندع من قول أُبي، وذلك أن أبيا يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ، وقد

قال الله: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ [رواه البخاري].

وقوله: ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ أي: في الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين، كما قال ابن عباس: ﴿نأت بخير منها﴾ يقول: خير لكم في المنفعة وأرفق بكم. وقال أبو العالية: ﴿ما ننسخ من آية﴾ فلا نعمل بها، ﴿أو ننسأها﴾ أي: نرجئها عندنا، نأت بها أو نظيرها، وقال السدي: ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ يقول: نأت بخير من الذي نسخناه، أو مثل الذي تركناه. وقال قتادة: ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ يقول: آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهي.

وقوله: ﴿**ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير * ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير**﴾ يرشد تعالى عباده بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما يخلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويصح من يشاء ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه. ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى. فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا، وامتثال ما أمروا، وترك ما عنه زجروا. وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم لعنهم الله، في دعوى استحالة النسخ، إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً، وإما نقلاً كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكا.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمد، أن لي ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيري، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وآمر فيهما وفيما فيهما بماأشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدِّل وأغير، من أحكامي التي أحكم بها في عبادي، بما أشاء إذا أشاء، وأقرُّ فيهما ما أشاء. ثم قال: وهذا الخبر وإن كان خطاباً من الله تعالى، لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه تكذيب لليهود الذين أنكروا نَسْخَ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة السلام، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله، بتغيير ما غَير الله من حكم التوراة، فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما، وأن الخلق أهل مملكته، وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء، ونهيهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه.

قلت: الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ، إنما هو الكفر والعناد، فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى؛ لأنه يحكم ما يشاء كما يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته

من بنيه، ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح، بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حِلُّ بعضها، وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها، وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، ثم نسخه قبل الفعل، وأمر جمهور بني إسرائيل بقتل مَن عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل، وأشياء كثيرة يطول ذكرها وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه. وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية، فلا تصرف الدلالة في المعنى، إذ هو المقصود، كما في كتبهم من البشارة بمحمد ﷺ والأمر باتباعه، فإنه يفيد وجوب متابعته عليه السلام، وأنه لا يقبل عمل إلا على شريعته. وسواء قيل إن الشرائع المتقدمة مُغَيَّاة إلى بعثته عليه السلام، فلا يسمى ذلك نسخاً كقوله: ﴿**ثم أتموا الصيام إلى الليل**﴾ [البقرة: ١٨٧]، أو قيل: إنها مطلقة، وإن شريعة محمد ﷺ نسختها، فعلى كل تقدير فوجوب اتباعه متعين، لأنه جاء بكتاب وهو آخر الكتب عهداً با لله تبارك وتعالى.

ففي هذا المقام بين تعالى جواز النسخ، رداً على اليهود عليهم لعائن الله، حيث قال تعالى: ﴿**ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ؟ * ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض**﴾ الآية، فكما أن له الملك بلا منازع، فكذلك له الحكم بما يشاء، ﴿**ألا له الخلق والأمر**﴾ [الأعراف: ٥٤] وقرىء في سورة آل عمران، التي نزل في صدرها خطاباً مع أهل الكتاب، وقوع النسخ عند اليهود في قوله تعالى: ﴿**كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه**﴾ الآية [آل عمران: ٩٣] كما سيأتي تفسيرها، والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى، لما له في ذلك من الحكم البالغة، وكلهم قال بوقوعه، وقال أبو مسلم الأصبهاني المفسر: لم يقع شيء من ذلك في القرآن، وقوله ضعيف مردود مرذول، وقد تعسف في الأجوبة عما وقع من النسخ، فمن ذلك قضية العدة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول، لم يجب عن ذلك بكلام مقبول، وقضية تحويل القبلة إلى الكعبة، عن بيت المقدس لم يجب بشيء، ومن ذلك نسخ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة إلى مصابرة الاثنين، ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ وغير ذلك، والله أعلم.

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة، عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل وقوعها، كما قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم**﴾ [المائدة: ١٠١] أي: وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشيء قبل [وقوعه]؛ فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة. ولهذا جاء في الصحيح: «إن أعظم المسلمين جُرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته» [متفق عليه]. ولما سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد مع امرأته رجلاً، فإن تكلم

تكلم بأمر عظيم، وإن سكت سكت عن مثل ذلك، فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها، ثم أنزل الله تعالى حكم الملاعنة [متفق عليه]. ولهذا ثبت في الصحيحين، من حديث المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ كان ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال. وعن ابن عباس، قال: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ، ما سألوه إلا عن ثنْتَي عشرة مسألة، كلها في القرآن: ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر**﴾ [البقرة:٢١٩]، و ﴿**يسألونك عن الشهر الحرام**﴾ [البقرة:٢١٧]، و ﴿**ويسألونك عن اليتامى**﴾ [البقرة:٢٢٠] يعني هذا وأشباهه.

وقوله تعالى: ﴿**أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل**﴾ أي: بل تريدون، أو هي على بابها في الاستفهام، وهو إنكاري، وهو يعمّ المؤمنين والكافرين، فإنه عليه السلام رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى: ﴿**يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا: أرنا الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم**﴾ [النساء:١٥٣]. وعن ابن عباس، قال: قال رافع بن حُرَيْمَلة أو وهب بن زيد: يا محمد، ائتنا بكتاب تُنَزِّلُه علينا من السماء نقرؤه، وفَجر لنا أنهاراً نتَّبعك ونُصدِّقْك. فأنزل الله من قولهم: ﴿**أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ؟ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل**﴾.

وقال مجاهد: ﴿**أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل**﴾: أن يريهم الله جهرة، قال: سألت قريش محمداً ﷺ أن يجعل لهم الصَّفَا ذهباً، قال: «نعم وهو لكم كالمائدة لبني إسرائيل إن كفرتم»، فأبوا ورجعوا، وعن السدي وقتادة نحو هذا، والله أعلم. والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنُّت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتاً وتكذيباً وعناداً، قال الله تعالى: ﴿**ومن يتبدل الكفر بالإيمان**﴾ أي: ومن يَشْتَرِ الكفر بالإيمان ﴿**فقد ضل سواء السبيل**﴾ أي: فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال، وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء، واتباعهم والانقياد لهم، إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنت والكفر، كما قال تعالى: ﴿**ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار**﴾ وقال أبو العالية: يتبدل الشدة بالرخاء.

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

يحذر تعالى: عباده المؤمنين من سلوك طَرَائق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال، حتى يأتي أمر الله من النصر

والفتح، ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه، كما قال ابن عباس: كان حُيَيُّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب، من أشد يهودَ للعرب حسداً، إذ خصهم الله برسوله ﷺ، وكانا جاهدين في ردِّ الناس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿**ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم**﴾ الآية. وعن الزهري قال: هو كعب بن الأشرف. وعن ابن عباس، أن رسولاً أمياً يخبرهم بما في أيديهم من الكتب والرسل والآيات، ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم، ولكنهم جحدوا ذلك كفراً وحسداً وبغياً؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿**كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق**﴾ يقول: من بعد ما أضاء لهم الحق، لم يجهلوا منه شيئاً، ولكن الحسد حملهم على الجحود، فعيَّرهم ووبخهم ولامهم أشد الملامة، وشرع لنبيه ﷺ وللمؤمنين، ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل الله عليهم وما أنزل من قبلهم، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم. وقال الربيع بن أنس ﴿**من عند أنفسهم**﴾: من قبل أنفسهم، وقال أبو العالية: ﴿**من بعد ما تبين لهم الحق**﴾: من بعد ما تبين لهم أن محمداً رسول الله، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فكفروا به حسداً وبغياً؛ إذ كان من غيرهم، وكذا قال قتادة، والسدي.

وقوله: ﴿**فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره**﴾ مثل قوله تعالى: ﴿**ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور**﴾ [آل عمران:١٨٦].

عن ابن عباس في قوله، ﴿**فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره**﴾ نَسَخَ ذلك قوله: ﴿**فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم**﴾ [التوبة:٥]، وقوله: ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر**﴾ إلى قوله ﴿**وهم صاغرون**﴾ [التوبة:٢٩] فنَسَخَ هذا عفوه عن المشركين، وكذا قال أبو العالية، وقتادة، والسدي: إنها منسوخة بآية السيف، ويرشد إلى ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿**حتى يأتي الله بأمره**﴾. وروى ابن أبي حاتم عن أسامة بن زيد قال: كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى. قال الله تعالى: ﴿**فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير**﴾ وكان رسول الله ﷺ، يتأوَّل من العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم بقتل، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش، وهذا إسناده صحيح.

وقوله تعالى: ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله**﴾ يحثُّ تعالى على الاشتغال بما ينفعهم، وتَعُودُ عليهم عاقبتُه يوم القيامة، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، حتى يمكن لهم الله النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴿**يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار**﴾ [غافر:٥٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**إن الله بما تعملون بصير**﴾ يعني: أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل، ولا يضيع لديه سواء كان خيراً أو شراً،

فإنه سيجازي كل عامل بعمله.

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى، أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة، أنهم قالوا: ﴿**نحن أبناء الله وأحباؤه**﴾ [المائدة: ١٨]. فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا، لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم، أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة، وردَّ عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة، فقال: ﴿**تلك أمانيهم**﴾. وقال أبو العالية: أماني تمنوها على الله بغير حق. وكذا قال قتادة. ثم قال تعالى ﴿**قل**﴾ أي: يا محمد، ﴿**هاتوا برهانكم**﴾ قال أبو العالية ومجاهد: حجتكم، وقال قتادة بينتكم على ذلك: ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ فيما تدعونه.

ثم قال تعالى: ﴿**بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن**﴾ أي: من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿**فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن**﴾ الآية [آل عمران: ٢٠]. وقال أبو العالية والربيع: ﴿**بلى من أسلم وجهه لله**﴾ يقول: من أخلص لله. وقال سعيد بن جبير: ﴿**بلى من أسلم**﴾ أخلص، ﴿**وجهه**﴾ قال دينه، ﴿**وهو محسن**﴾ أي: متبع فيه الرسول ﷺ. فإن للعمل المتقبل شرطين: أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة. فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ». رواه مسلم. فعمل الرهبان ومن شابههم، وإن فرض أنهم يخلصون فيه لله، فإنه لا يتقبل منهم، حتى يكون ذلك متابعاً للرسول [محمد] ﷺ، المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم، قال الله تعالى: ﴿**وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً**﴾ [الفرقان: ٢٣].

وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة، في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو أيضاً مردود على فاعله، وهذا حال المنافقين والمرائين، كما قال تعالى: ﴿**إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً**﴾ [النساء: ١٤٢].

وقوله: ﴿**فله أجره عن ربه ولا خوف علهيم ولاهم يحزنون**﴾: ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور، وآمنهم مما يخافونه من المحذور ﴿**فلا خوف عليهم**﴾ فيما يستقبلونه،

﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما مضى مما يتركونه، كما قال سعيد بن جبير: **﴿فلا خوف عليهم﴾** يعني: في الآخرة **﴿ولا هم يحزنون﴾** يعني: لا يحزنون للموت.

وقوله تعالى: **﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب﴾** يبين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم. عن ابن عباس، قال: لما قدم أهل نجران من النصارى، على رسول الله ﷺ، أتتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حُرَيْملة: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى وبالإنجيل. وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد بنبوة موسى وكفر بالتوراة. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما: **﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب﴾**. قال: إن كلا يتلو في كتابه تصديق من كفر به، أي: يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة، فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما في يد صاحبه. وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شيء، وقال قتادة **﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾** قال: بلى قد كانت أوائل النصارى على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا، وعنه رواية أخرى كقول أبي العالية، والربيع بن أنس في تفسير هذه الآية: **﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾**: هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، وهذا القول يقتضي أن كلا من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى. ولكن ظاهر سياق الآية يقتضي ذمهم فيما قالوه، مع علمهم بخلاف ذلك؛ ولهذا قال تعالى: **﴿وهم يتلون الكتاب﴾** أي: وهم يعلمون أن شريعة التوراة والإنجيل، كل منهما قد كانت مشروعة في وقت، ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً ومقابلة للفاسد بالفاسد، كما تقدم عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة في الرواية الأولى عنه في تفسيرها، والله أعلم.

وقوله: **﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾** يُبَيِّن بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا به من القول، وهذا من باب الإيماء والإشارة. وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى: **﴿الذين لا يعلمون﴾** فقال الربيع بن أنس وقتادة: قالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم، وقال ابن جريج: قلت لعطاء: من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال: أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل. وقال السدي: هم العرب، قالوا ليس محمد على شيء. واختار أبو جعفر بن جرير أنها عامة تصلح للجميع، وليس ثمَّ دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال، فالحمل على الجميع أولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: **﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾** أي: أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد، ويفصل بينهم بقضائه العدل الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة.

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحج: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد**﴾ [الحج:١٧]. وكما قال تعالى: ﴿**قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم**﴾.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسَعَوا في خرابها على قولين: **أحدهما**: عن ابن عباس، في قوله: ﴿**ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه**﴾ قال: هم النصارى. وقال مجاهد: هم النصارى، كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه، وبنحوه عن قتادة والسدي.

القول الثاني: عن ابن زيد، قال: هؤلاء المشركون حين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وبين أن يدخل مكة، حتى نحر هديه بذي طُوَى وهادنهم، وقال لهم: «ما كان أحد يَصُد عن هذا البيت، وقد كان الرجل، يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده». فقالوا: لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق. [وعن ابن عباس نحوه]. وفي قوله: ﴿**وسعى في خرابها**﴾ قال: إذ قطعوا من يَعْمُرُها بذكره ويأتيها للحج والعمرة. ثم اختار ابن جرير القول الأول، واحتج بأن قريشاً لم تسعَ في خراب الكعبة، وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس.

قلت: الذي يظهر، والله أعلم، القول الثاني كما قاله ابن زيد. وروي عن ابن عباس؛ لأن النصارى إذ منعت اليهود الصلاة في البيت المقدس، كان دينهم أقوم من دين اليهود، وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولاً إذ ذاك؛ لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. وأيضاً فإنه تعالى، لما وَجه الذم في حق اليهود والنصارى، شرَع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام، وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسعَ في خراب الكعبة، فأي خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿**وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ [الأنفال:٣٤]. فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها مصدوداً عنها، فأي خراب لها أعظم من ذلك؟ وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك. وقوله تعالى: ﴿**أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين**﴾: هذا خبر معناه الطلب، أي لا تُمَكِّنوا هؤلاء ـ إذ قَدَرتُم عليهم ـ من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية. ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة، أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادى برحاب منى: «ألا لا يَحُجَّن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عُريان، ومن كان له

أجل فأجله إلى مدته». [متفق عليه إلا الجملة الأخيرة ففي الترمذي والنسائي والمسند بلفظ «عهد»]، وهذا كان تصديقاً وعملاً بقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا**﴾ [التوبة:٢٨].

وقال بعضهم: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين، على حال التهيب، وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها أو يمنعوا المؤمنين منها، والمعنى: ما كان الحق والواجب إلا ذلك، لولا ظلم الكفرة وغيرهم.

وقيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين، أنه سيُظْهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم، حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم، إلا خائفاً، يخاف أن يُؤخذ فيعاقب أو يقتل، إن لم يسلم. وقد أنجز الله هذا الوعد، كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، وأوصى رسول الله ﷺ أن لا يَبْقى بجزيرة العرب دينان، وأن تُجْلىَ اليهود والنصارى منها، ولله الحمد والمنة. وما ذاك إلا تشريف أكناف المسجد الحرام وتطهير البقعة المباركة التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة، بشيراً ونذيراً، صلوات الله وسلامه عليه، وهذا هو الخزي لهم في الدنيا؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صُدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة، أُجْلُوا منها. ﴿**ولهم في الآخرة عذاب عظيم**﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتهنوه من نصب الأصنام حوله، والدعاء إلى غير الله عنده، والطواف به عَرْياً، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسولهﷺ.

وأما من فَسَّر ببيت المقدس، فقال كعب الأحبار: إن النصارى لما ظهروا على بيت المقدس خرَّبوه، فلما بعث الله محمداً ﷺ أنزل عليه: ﴿**ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين**﴾ الآية، فليس في الأرض نصراني يدخل بيت المقدس إلا خائفاً، وقال السدي: فليس في الأرض رومي يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يُضْرَب عنقه، أو قد أخيف بأداء الجزية، فهو يؤديها. وقال قتادة: لا يدخلون المساجد إلا مسارقة.

قلت: وهذا لا ينفي أن يكون داخلاً في معنى عموم الآية فإن النصارى لما ظلموا بيت المقدس، بامتهان الصخرة، التي كانت يصلي إليها اليهود، عوقبوا شرعاً وقدراً بالذلة فيه، إلا في أحيان من الدهر امتحن بهم بيت المقدس وكذلك اليهود لما عَصَوا الله فيه أيضاً، أعظم من عصيان النصارى، كانت عقوبتهم أعظم، والله أعلم. وفسر هؤلاء الخزي في الدنيا، بخروج المهدي عند السدي، وعكرمة، ووائل بن داود. وفسره قتادة بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون. والصحيح أن الخزي في الدنيا أعم من ذلك كله، وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، كما روى الإمام أحمد عن بُسْر بن أرطاة، قال: كان رسول الله ﷺ

يدعو: «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة» وهذا حديث حسن.

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

وهذا، والله أعلم، فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه، الذين أخرجوا من مكة، وفارقوا مسجدهم ومُصَلاهم، وقد كان رسول الله ﷺ، يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبةُ بين يديه، فلما قدم المدينة، وُجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعدُ، ولهذا يقول تعالى: **﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾**. عن ابن عباس، قال: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة. وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وكان أهلها اليهود، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عَشَر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يُحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله: **﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾** إلى قوله: **﴿فولوا وجوهكم شطره﴾** فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، فأنزل الله: **﴿قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾**، وقال: **﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾**. وعن ابن عباس: **﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾** قال: قبلة الله أينما توجهت شرقاً أو غرباً. وقال مجاهد: **﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾** قال: قبله الله: حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة. وروي عن أبي العالية، والحسن، وعكرمة، [وغيرهم] نحو ذلك، وقال ابن جرير: وقال آخرون: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة، وإنما أنزلها ليعلم نبيه ﷺ وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة، حيث شاؤوا من نواحي المشرق والمغرب؛ لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهاً من ذلك وناحية، إلا كان جل ثناؤه في ذلك الوجه وتلك الناحية؛ لأن له تعالى المشارق والمغارب. قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ، إذناً من الله أن يصلي التطوع حيث توجه من شرق أو غرب، في مسيره في سفره، وفي حال المسايفة وشدة الخوف. فعن ابن عمر، أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته، ويذكر أن رسول الله ﷺ، كان يفعل ذلك، ويتأول هذه الآية **﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾** [رواه مسلم وأصله في الصحيحين].

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت الآية في قوم عُمِّيَتْ عليهم القبلة، فلم يعرفوا شطرها، فصلوا على أنحاء مختلفة، فقال الله: لي المشارق والمغارب فأين وليتم وجوهكم فهنالك وجهي، وهو قبلتكم فيعلمكم بذلك أن صلاتكم ماضية.

وأما إعادة الصلاة لمن تبين له خطؤه ففيها قولان للعلماء، والله أعلم.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في سبب النجاشي، قال قتادة: قالوا: إنه كان لا يصلي إلى القبلة. فأنزل الله: **﴿ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله﴾**.

وقد قيل: إنه كان يصلي إلى بيت المقدس قبل أن يبلغه الناسخ إلى الكعبة، كما حكاه القرطبي عن قتادة، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة» رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقال الترمذي: وقد روي عن غير واحد من الصحابة: «ما بين المشرق والمغرب قبلة» منهم عمر بن الخطاب، وعلي، وابن عباس. وقال ابن عمر: إذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك فما بينهما قبلة، إذا استقبلت القبلة. قال ابن جرير: ويحتمل فأينما تولوا وجوهكم في دعائكم لي فهنالك وجهي أستجيب لكم دعاءكم، وعن مجاهد: لما نزلت: ﴿**ادعوني أستجب لكم**﴾ [غافر: ٦٠] قالوا: إلى أين؟ فنزلت: ﴿**فأينما تولوا فثم وجه الله**﴾. قال ابن جرير: ويعني بقوله: ﴿**إن الله واسع عليم**﴾: يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال والجود. وأما قوله: ﴿**عليم**﴾ فإنه يعني: عليم بأعمالهم، ما يغيب عنه منها شيء، ولا يعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة، على الرد على النصارى عليهم ـ لعائن الله ـ وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب، ممن جعل الملائكة بنات الله، فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم إن لله ولداً. فقال تعالى: ﴿**سبحانه**﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً ﴿**بل له ما في السموات والأرض**﴾ أي: ليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملك السموات والأرض، وهوالمتصرف فيهم، وهو خالقهم ورازقهم، ومقدِّرهم ومسخِّرهم، ومسيِّرهم ومصرِّفهم، كما يشاء والجميع عبيد له وملك له، فكيف يكون له ولد منهم، والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير، ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد! كما قال تعالى: ﴿**بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم**﴾ [الأنعام: ١٠١]. وقال تعالى: ﴿**قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد**﴾ [سورة الإخلاص]. فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم، الذي لا نظير له ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة، فكيف يكون له منها ولد! ولهذا روى البخاري في تفسير هذه الآية من البقرة: عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى كَذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إيَّاي فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد. فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً». وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبرَ على أذى سمعه من الله؛ إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم». وقوله: ﴿**كل له قانتون**﴾ عن ابن عباس قال: قانتين: مصلين، وقال عكرمة وأبو مالك: ﴿**كل له قانتون**﴾: مقرون له بالعبودية، وقال سعيد بن جبير: ﴿**كل**

له قانتون﴾: يقول الإخلاص، وقال الربيع بن أنس: يقول كل له قائم يوم القيامة. وقال السدي: مطيعون يوم القيامة، وعن مجاهد قال: مطيعون، قال كن إنساناً فكان، وقال: كن حماراً فكان، وعن مجاهد قال: طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره، وهذا القول عن مجاهد وهو اختيار ابن جرير يجمع الأقوال كلها وهو أن القنوت: هوالطاعة والاستكانة إلى الله، وذلك شرعي وقَدري، كما قال الله تعالى: **﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾** [الرعد: ١٥].

وقوله تعالى: **﴿بديع السموات والأرض﴾** أي: خالقهما على غير مثال سبق، قاله مجاهد والسدي: وهو مقتضى اللغة، ومنه يقال للشيء المحدث: **بدعة**، كما جاء في صحيح مسلم: «فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة». والبدعة على قسمين: تارة تكون بدعة شرعية، كقوله: «فإن كل محدثة **بدعة**، وكل بدعة ضلالة»، وتارة تكون بدعة لغوية، كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن جَمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم: نعْمَت البدعةُ هذه. وقال ابن جرير: **﴿بديع السموات والأرض﴾**: مبدعهما. ومعنى المبدع: المنشيء والمحدث ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد، قال: ولذلك سمي المبتدع في الدين مبتدعاً؛ لإحداثه فيه، ما لم يسبق إليه غيره، وكذلك كل محدث فعلاً أو قولاً، لم يتقدمه فيه متقدم، فإن العرب تسميه مبتدعاً. قال ابن جرير: فمعنى الكلام: فسبحان الله أنى يكون لله ولد، وهو مالك ما في السموات والأرض، تشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوحدانية، وتقر له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه. وهذا إعلام من الله عباده أن ممن يشهد له بذلك المسيح، الذي أضافوا إلى الله بُنُوَّته؛ وإخبار منه لهم أن الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل، وعلى غير مثال، هو الذي ابتدع المسيح من غير والد بقدرته. وهذا من ابن جرير رحمه الله كلام جيد وعبارة صحيحة.

وقوله تعالى: **﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾**: يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه إذا قَدَّر أمراً وأراد كونه، فإنما يقول له: كن. أي: مرة واحدة فيكون، أي: فيوجد، على وفق ما أراد كما قال تعالى: **﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾** [يس: ٨٢].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

قال مجاهد: النصارى تقوله، وهو اختيار ابن جرير، قال: لأن السياق فيهم، وفي ذلك نظر، وحكى القرطبي: **﴿لولا يكلمنا الله﴾** أي: يخاطبنا بنبوتك يا محمد. قلت: وظاهر السياق أعم، والله أعلم، وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي في تفسير هذه الآية: هذا قول كفار العرب **﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم﴾**، قال: هم اليهود والنصارى،

ويؤيد هذا القول، وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب، قوله تعالى: ﴿**وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون**﴾ [الأنعام:١٢٤]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به، إنما هو الكفر والمعاندة، كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿**يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة**﴾ [النساء:١٥٣]، وقوله: ﴿**تشابهت قلوبهم**﴾ أي: أشبهت قلوب مشركي العرب قلوبَ من تقدمهم في الكفر والعناد والعتو، كما قال تعالى: ﴿**كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون**﴾ [الذاريات:٥٢، ٥٣]، وقوله: ﴿**قد بينا الآيات لقوم يوقنون**﴾ أي: قد وَضَّحْنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى، لمن أيقن وصدّق واتبع الرسل، وفهم ما جاؤوا به عن الله تبارك وتعالى، وأما من ختم الله على قلبه وسمعه، وجعل على بصره غشاوة فأولئك الذين قال الله فيهم: ﴿**إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم**﴾ [يونس:٩٦، ٩٧].

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾

قراءة أكثرهم: «ولا تُسْأَل» بضم التاء على الخبر. وفي قراءة ابن مسعود: «ولن تسأل عن أصحاب الجحيم» نقلها ابن جرير، أي: لا نسالك عن كفر من كفر بك، ﴿**فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب**﴾ [الرعد:٤٠]، وكقوله تعالى: ﴿**فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر**﴾ الآية [الغاشية:٢١-٢٢]. وأشباه ذلك من الآيات، وقرأ آخرون: «ولا تَسْأَلْ عن أصحاب الجحيم» بفتح التاء على النهي، أي: لا تسأل عن حالهم.

وعن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميّين، وأنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل، لا فظ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح به أعيناً عُمياً وآذاناً صُماً وقلوباً غُلفاً. أخرجه البخاري.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

قال ابن جرير: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع**

ملتهم﴾: وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبداً، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق. وقوله تعالى: **﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾** أي: قل يا محمد إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى، يعني: هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل، قال قتادة في قوله: **﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾** قال: خصومة عَلَّمها الله محمداً ﷺ وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلالة، وكان رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقتتلون على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله» [متفق عليه]، **﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾**: فيه تهديد ووعيد شديد للأمة، عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة، عياذاً بالله من ذلك، فإن الخطاب مع الرسول، والأمر لأمته؛ وقد استدل كثير من الفقهاء بقوله: **﴿حتى تتبع ملتهم﴾** حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة كقوله تعالى: **﴿لكم دينكم ولي دين﴾** [الكافرون:٦]. وقوله تعالى: **﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾** قال قتادة: هم اليهود والنصارى. وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير، وقال قتادة أيضا: هم أصحاب رسول الله ﷺ. وعن عمر بن الخطاب **﴿يتلونه حق تلاوته﴾** قال: إذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار، وقال ابن مسعود: والذي نفسي بيده، إن حق تلاوته أن يُحِلَّ حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله، وعن ابن عباس في هذه الآية قال: يحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ولا يحرفونه عن مواضعه. وقال الحسن البصري: يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، يَكِلُون ما أشكل عليهم إلى عالمه، وعن ابن عباس في قوله: **﴿يتلونه حق تلاوته﴾** قال: يتبعونه حق اتباعه، ثم قرأ: **﴿والقمر إذا تلاها﴾** [الشمس:٢] يقول: اتبعها. قال: وروي عن ابن مسعود وعكرمة ومجاهد [وغيرهم] نحو ذلك.

وقوله: **﴿أولئك يؤمنون به﴾** خَبَر عن **﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾** أي: من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد، كما قال تعالى: **﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾** [المائدة:٦٨] أي: إذا أقمتموها حق الإقامة، وآمنتم بها حق الإيمان، وصدقتم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونَعْتِه وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته، قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: **﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾** الآية [الأعراف:١٥٧]، وقال تعالى: **﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾** [آل عمران:٢٠] ولهذا قال تعالى: **﴿ومن يكفر به فأولئك هم**

الخاسرون﴾ كما قال تعالى: **﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾** [هود:١٧]. وفي صحيح مسلم: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار».

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة، وكررت ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم ونعتَه واسمه وأمره وأمته. يحذرهم من كتمان هذا، وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم، ولا يحملهم ذلك الحسدُ على مخالفته وتكذيبه، والحيدة عن موافقته، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

يقول تعالى مُنبهاً على شرف إبراهيم خليله عليه السلام، وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به في التوحيد، حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي، ولهذا قال: **﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات﴾** أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها، وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم أي: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي **﴿فأتمهن﴾** أي: قام بهن كلهن، كما قال تعالى: **﴿وإبراهيم الذي وفى﴾** [النجم:٣٧] أي: وَفَّى جميعَ ما شرع له، فعمل به صلوات الله عليه، وقال تعالى: **﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾** [النحل: ١٢٠-١٢٣].

وقوله تعالى: **﴿بكلمات﴾** أي: بشرائع وأوامر ونواه، فإن الكلمات تطلق، ويراد بها الكلمات القدرية، كقوله تعالى عن مريم عليها السلام: **﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾** [التحريم:١٢]. وتطلق، ويراد بها الشرعية، كقوله تعالى: **﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾** [الأنعام:١١٥] أي: كلماته الشرعية، وهي إما خبر صدق، وإما طلب عدل إن كان أمراً أو نهياً، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: **﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾** أي: قام بهن قال: **﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾** أي: جزاء على ما فعل، كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة، وإماماً يقتدى به ويحتذى حذوه.

وقد اختلف العلماء في تفسير الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام، فروي عن ابن عباس في ذلك روايات، فعن ابن عباس: ابتلاه الله بالمناسك. وعن ابن عباس أيضا قال: ابتلاه بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد، في الرأس قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفَرْق الرأس، وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء. وروي عن سعيد بن المسيب، ومجاهد، والشعبي، [وغيرهم] نحو ذلك، قلت: وقريب من هذا ما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البرَاجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء، ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة». قال وكيع: انتقاص الماء يعني الاستنجاء، وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ قال: «الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط»». ولفظه لمسلم. وعن ابن عباس أيضا أنه قال: ما ابتلي بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿**وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن**﴾ قلت له: وما الكلمات التي ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن ؟ قال: الإسلام ثلاثون سهماً منها عشر آيات في براءة: ﴿**التائبون العابدون الحامدون**﴾ إلى آخر الآية [التوبة:١١٢]، وعشر آيات في أول سورة: ﴿**قد أفلح المؤمنون**﴾، و ﴿**سأل سائل بعذاب واقع**﴾ وعشر آيات في الأحزاب: ﴿**إن المسلمين والمسلمات**﴾ [الآية:٣٥] إلى آخر الآية، فأتمهن كلهن فكتبت له براءة، قال الله: ﴿**وإبراهيم الذي وفى**﴾ [النجم:٣٧].

وعن الحسن قال: أي والله لقد ابتلاه بأمر فصبر عليه، ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر، فأحسن في ذلك وعرف أن ربه دائم لا يزول، فوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفاً، وما كان من المشركين، ثم ابتلاه بالهجرة، فخرج من بلاده وقومه، حتى لحق بالشام مهاجراً إلى الله، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة، فصبر على ذلك، وابتلاه بذبح ابنه والختان، فصبر على ذلك. وعن ابن عباس: ﴿**وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن**﴾ فمنهن ﴿**إني جاعلك للناس إماماً**﴾، ومنهن ﴿**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل**﴾، ومنهن الآيات في شأن المنسك والمقام الذي جعل لإبراهيم والرزق الذي رزق ساكنوا البيت، ومحمد بعث في دينهما. وعن مجاهد، ﴿**وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن**﴾ قال: ابتلي بالآيات التي بعدها ﴿**إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين**﴾ وعن الربيع بن أنس: ﴿**وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن**﴾ قال: الكلمات ﴿**إني جاعلك للناس إماماً**﴾، وقوله: ﴿**وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً**﴾، وقوله: ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾، وقوله: ﴿**وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل**﴾ الآية، وقوله: ﴿**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل**﴾ الآية، قال: فذلك كله من الكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم.

وقال السدي: الكلمات التي ابتلى بهن إبراهيم ربُّه: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾، ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك﴾.

قال أبو جعفر بن جرير ما حاصله: إنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميعُ ما ذُكر، وجائز أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزمُ بشيء منها أنه المرادُ على التعيين إلا بحديث أو إجماع، قال: ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له.

ثم قال ابن جرير: ولو قال قائل: إن الذي قاله مجاهد والربيع بن أنس أولى بالصواب من القول الذي قاله غيرهم كان مذهباً فإن قوله: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾، وقوله: ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين﴾ وسائر الآيات التي هي نظير ذلك، كالبيان عن الكلمات التي ذكر الله أنه ابتلى بهن إبراهيم، قلت: والذي قاله أولاً من أن الكلمات تشمل جميع ما ذكر، أقوى من هذا الذي جوزه من قول مجاهد ومن قال مثله؛ لأن السياق يعطي غير ما قالوه، والله أعلم.

وقوله: ﴿قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾: لما جعل الله إبراهيم إماماً، سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته، فأجيب إلى ذلك، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون، وأنه لا ينالهم عهد الله، ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم. والدليل على أنه أجيب إلى طَلِبَتِهِ قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ [العنكبوت:٢٧]، فكل نبي أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه. وأما قوله تعالى: ﴿قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ فقد اختلفوا في ذلك. فقال مجاهد: إنه سيكون في ذريتك ظالمون. وعن مجاهد أيضا في قوله: ﴿ومن ذريتي﴾ قال: أما من كان منهم صالحاً فسأجعله إماماً يقتدى به، وأما من كان ظالماً فلا ولا نُعْمَةَ عَيْنٍ. وقال سعيد بن جبير: ﴿لاينال عهدي الظالمين﴾: المراد به المشرك، لا يكون إماماً ظالماً. وعن عطاء قال: ﴿إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي﴾ فأبى أن يجعل من ذريته إماماً ظالماً. قلت لعطاء: ما عهده؟ قال أمره. وعن ابن عباس ﴿قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾: يخبره أنه كائن في ذريته ظالم لا ينال عهده ولا ينبغي له أن يوليه شيئاً من أمره، وإن كان من ذرية خليله، ومحسن ستنفذ فيه دعوته، وتبلغ له فيه ما أراد من مسألته. وروي عن مجاهد [وغيره] نحو ذلك، وعن قتادة في قوله: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ قال: لا ينال عهد الله في الآخرة الظالمين، فأما في الدنيا فقد ناله الظالم فأمن به وأكل وعاش، وكذا قال النخعي، وعطاء، والحسن، وعكرمة، وقال الربيع بن أنس: عهد الله الذي عهد إلى عباده: دينه، يقول لا ينال دينه الظالمين، ألا ترى أنه قال: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ [الصافات:١١٣]، يقول: ليس كل ذريتك ياإبراهيم على الحق. وكذا روي عن أبي العالية،

وعطاء، ومقاتل بن حيان. وعن الضحاك: لا ينال طاعتي عدوّ لي يعصيني، ولا أنحلها إلا ولياً لي يطيعني. وقال السدي: ﴿**لا ينال عهدي الظالمين**﴾ يقول: عهدي نبوتي.

فهذه أقوال مفسري السلف في هذه الآية، على ما نقله ابن جرير وابن أبي حاتم رحمهما الله تعالى واختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة في الخبر، أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً، ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل عليه السلام، أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه كما تقدم عن مجاهد وغيره. والله أعلم.

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى . . . . الآية ﴿١٢٥﴾ ﴾

عن ابن عباس: قوله تعالى: ﴿**وإذ جعلنا البيت مثابة للناس**﴾ يقول: لا يقضون منه وطراً، يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم، ثم يعودون إليه. وروي عن أبي العالية، وعطاء، ومجاهد، والحسن، [وغيرهم] نحو ذلك، وقال عكرمة، وقتادة، [وغيرهما] ﴿**مثابة للناس**﴾ أي: مجمعاً، ﴿**وأمناً**﴾ عن ابن عباس: أي أمناً للناس. وعن أبي العالية: ﴿**وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً**﴾ يقول: أمناً من العدو، وأن يُحْمَل فيه السلاح، وقد كانوا في الجاهلية يُتَخَطَّف الناس من حولهم وهم آمنون لايُسْبَون. وروي عن مجاهد، والسدي، وقتادة، [وغيرهم] قالوا: من دخله كان آمناً.

ومضمون ما فسر به هؤلاء الأئمة هذه الآية: أن الله تعالى يذكر شرف البيت، وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدراً، من كونه مثابة للناس، أي جعله مَحِلاً تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه، ولا تقضي منه وطراً ولو ترددَت إليه كلَّ عام، استجابة من الله تعالى، لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام، في قوله: ﴿**فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم**﴾ إلى أن قال: ﴿**ربنا وتقبل دعاء**﴾ [إبراهيم:٣٧ـ٤٠]. ويصفه تعالى بأنه جعله آمناً، من دخله أمن، ولو كان قد فعل ما فَعل ثم دخله كان آمناً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه، فلا يَعْرض له، كما وصف في سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿**جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس**﴾ [المائدة:٩٧] أي: يُرْفَع عنهم بسبب تعظيمها السوء، كما قال ابن عباس: لو لم يحج الناسُ هذا البيت، لأطبق الله السماء على الأرض، وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولاً، وهو خليل الرحمن، كما قال تعالى: ﴿**وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لاتشرك بي شيئاً**﴾ [الحج:٢٦]. وفي هذه الآية الكريمة نبَّه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده، فقال: ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾. وقد اختلف المفسرون في المراد بالمقام ما هو؟ فعن ابن عباس: ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾ قال: مقام إبراهيم: الحرم كله. وروي عن مجاهد وعطاء مثل ذلك. وعن ابن جريج، قال: سألت عطاء عن ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾ فقال: سمعت ابن عباس قال: أما مقام إبراهيم الذي ذكر هاهنا، فمقام إبراهيم هذا الذي في المسجد، ثم قال: ومقام إبراهيم يُعَدُّ كثيرٌ، «مقام إبراهيم»: الحج كله. ثم فسره لي عطاء

فقال: التعريف، وصلاتان بعرفة، والمشعر، ومنى، ورمي الجمار، والطواف بين الصفا والمروة. فقلت: أفسره ابن عباس؟ قال: لا. ولكن قال: مقام إبراهيم: الحج كله. قلت: أسمعت ذلك؟ لهذا أجمع قال: نعم سمعته منه. وعن سعيد بن جبير: ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾ قال: الحَجر مقام إبرهيم نبي الله، قد جعله الله رحمة، فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة.

وقال البخاري: باب قوله: ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾: مثابة: يثوبون يرجعون، [ثم روى] عن أنس بن مالك، قال: قال عمر بن الخطاب: وافقتُ ربي في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث، قلت: يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾. وقلت: يارسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب. قال: وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن فقلت: إن انتهيتن أو ليبدلَن الله رسوله خيراً منكن حتى أتيت إحدى نسائه، فقالت: ياعمر، أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟! فأنزل الله ﴿**عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات**﴾ الآية [التحريم: ٥]. وعن جابر، قال: استلم رسول الله ﷺ الركن فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم، فقرأ: ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾. فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين، وهذا قطعة من الحديث الطويل الذي رواه مسلم في صحيحه. وروى البخاري عن ابن عمر قال: قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين. فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحَجَرُ الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقومَ فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، وكلما كَمَّل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى، يطوف حول الكعبة، وهو واقف عليه، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها، وهكذا حتى تم بناء جدران الكعبة، كما سيأتي بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت، من رواية ابن عباس عند البخاري. وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب في جاهليتها؛ ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية:

ومَوطىءُ إبراهيم في الصخر رطبة		على قدميه حافياً غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضاً. فعن أنس بن مالك قال: رأيت المقام فيه أثر أصابعه عليه السلام، وأخْمَص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم، وعن قتادة: ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾: إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه. وقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها، ولقد ذُكِرَ لنا من رأى أثر عَقِبِه وأصابعه فيه، فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلولق وانمحى، قلت: وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنة الداخل من الباب في البقعة

المستقلة هناك، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك؛ ولهذا ـ والله أعلم ـ أمر بالصلاة هناك عند فراغ الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أُمِرْنا باتباعهم، وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصلاة عنده؛ ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابه رضي الله عنهم أجمعين. وعن مجاهد، قال: أول من أخر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وعن عائشة رضي الله عنها: أن المقام كان في زمان رسول الله ﷺ، وزمان أبي بكر رضي الله عنه، ملتصقاً بالبيت، ثم أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهذا إسناده صحيح.

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾

قال الحسن البصري: قوله ﴿**وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل**﴾ قال: أمرهما الله أن يطهراه من الأذى والنَّجس، ولا يصيبه من ذلك شيء. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿**وعهدنا إلى إبراهيم**﴾ أي: أمرناه. كذا قال. والظاهر أن هذا الحرف إنما عُدِّيَ بإلى لأنه في معنى: تقدمنا وأوحينا، وعن ابن عباس قوله: ﴿**أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين**﴾ قال: من الأوثان، وقال مجاهد وسعيد بن جُبَير: ﴿**طهرا بيتي للطائفين**﴾: أن ذلك من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس. وروي عن عبيد بن عمير، وأبي العالية، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء، وقتادة ﴿**أن طهرا بيتي**﴾ أي: بلا إله إلا الله من الشرك، وأما قوله تعالى: ﴿**للطائفين**﴾ فالطواف بالبيت معروف، وعن سعيد بن جبير أنه قال في قوله تعالى: ﴿**للطائفين**﴾ يعني: من أتاه من غُرْبة، ﴿**والعاكفين**﴾: المقيمين فيه، وهكذا روي عن قتادة، والربيع بن أنس، أنهما فسرا العاكفين بأهله المقيمين فيه، ونحوه عن عطاء. وعن ثابت، قال: قلت لعبد الله بن عبيد بن عمير: ما أراني إلا مُكَلِّم الأمير أن أمنع الذين ينامون في المسجد الحرام، فإنهم يجنبون ويحدثون. قال: لا تفعل، فإن ابن عمر سئل عنهم فقال: هم العاكفون، قلت: وقد ثبت في الصحيح أن ابن عمر كان ينام في مسجد الرسول ﷺ وهو عَزَب.

وأما قوله تعالى: ﴿**والركع السجود**﴾ فعن عطاء عن ابن عباس قال: إذا كان مصلياً فهو من الركع السجود، وكذا قال عطاء وقتادة. وقال ابن جرير رحمه الله: فمعنى الآية، وأمَرْنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين، والتطهير الذي أمرهما به في البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك. [أو] أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يبنيا

الكعبة على اسمه وحده لا شريك له، للطائفين به والعاكفين عنده، والمصلين إليه من الركع السجود، كما قال تعالى: ﴿**وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود**﴾ الآيات [الحج: ٢٦ـ٢٧].

والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته، المؤسس على عبادته وحده لا شريك له، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه، كما قال تعالى: ﴿**إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم**﴾ [الحج: ٢٥]. ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له، إما بطواف أو صلاة، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة: قيامها، وركوعها، وسجودها، ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم ﴿**سواء العاكف فيه والباد**﴾ وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين، واجتزأ بذكر الركوع والسجود عن القيام؛ لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام، وفي ذلك أيضاً رد على من لا يحجه من أهل الكتابين اليهود والنصارى؛ لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وعظمته، ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة وغير ذلك، وللاعتكاف والصلاة عنده، وهم لا يفعلون شيئاً من ذلك، فكيف يكونون مقتدين بالخليل، وهم لا يفعلون ما شرع الله له! وقد حج البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء عليهم السلام، كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿**إن هو إلا وحي يوحى**﴾ [النجم: ٤].

وتقدير الكلام إذاً: ﴿**وعهدنا إلى إبراهيم**﴾ أي تقدمنا بوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴿**أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود**﴾ أي: طهراه من الشرك والريب، وابنياه خالصاً لله، معقلاً للطائفين والعاكفين والركع السجود. وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة، ومن قوله تعالى: ﴿**في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال**﴾ [النور: ٣٦]، ومن السنة من أحاديث كثيرة، من الأمر بتطهيرها وتطييبها وغير ذلك، من صيانتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك. ولهذا قال عليه السلام «إنما بنيت المساجد لما بنيت له» [رواه مسلم].

وقد اختلف الناس في أول من بنى الكعبة، فقيل: الملائكة قبل آدم، وقيل: آدم عليه السلام، وقيل إن أول من بناه شيث عليه السلام، وغالب من يذكر هذه إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب، وهي مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجردها، وأما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين.

وقوله تعالى: ﴿**وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر**﴾. روى الإمام أبو جعفر بن جرير عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حَرَّم بيت الله وأَمَّنه، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها فلا يُصاد

صيدها ولا يقطع عضاهها» [أخرجه مسلم]. وعن رافع بن خديج، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة، وإني أحرم ما بين لابتيها» [أخرجه مسلم]، وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبي طلحة: «التمس لي غلاماً من غلمانكم يخدمني» فخرج بي أبو طلحة يردفني وراءه، فكنت أخدم رسول الله ﷺ كلما نزل، وقال في الحديث: ثم أَقْبَلَ حتى إذا بدا له أُحد قال: «هذا جبل يُحبُّنا ونحبه» فلما أشرف على المدينة قال: «اللهم إني أحرم ما بين جبليها، مثلما حرم به إبراهيم مكة، اللهم بارك لهم في مُدِّهم وصاعهم» وفي لفظ لهما «اللهم بارك لهم في مكيالهم، وبارك لهم في صاعهم، وبارك لهم في مدهم» زاد البخاري يعني أهل المدينة ولهما أيضاً عن أنس أن رسول الله ﷺ، قال: «اللهم اجعل بالمدينة ضِعْفَي ما جعلته بمكة من البركة».

والأحاديث في تحريم المدينة كثيرة، وإنما أوردنا منها ما هو متعلق بتحريم إبراهيم عليه السلام لمكة، لما في ذلك من مطابقة الآية الكريمة. وتمسك بها من ذهب إلى أن تحريم مكة إنما كان على لسان إبراهيم الخليل، وقيل: إنها محرمة منذ خلقت مع الأرض، وهذا أظهر وأقوى، وقد وردت أحاديث أخر تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض، كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة «إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة». وعن أبي شريح العدوي أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: إئذن لي أيها الأمير أن أحدثَك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغَد من يوم الفتح، سَمِعَته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به: إنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد تَرَخَّص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم. وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب». فقيل لأبي شريح: ما قال لك عمرو ؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدمٍ ولا فاراً بخَرَبَة، رواه البخاري ومسلم وهذا لفظه.

فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها، لأن إبراهيم بَلَّغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها، وأنها لم تزل بلداً حراماً عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها، كما أنه قد كان رسول الله ﷺ مكتوباً عند الله خاتم النبيين، وإن آدم لمنجَدل في طينته، ومع هذا قال إبراهيم عليه السلام ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم﴾ الآية، وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه وقدره.

وقوله تعالى إخباراً عن الخليل أنه قال: ﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ أي: من الخوف،

أي لا يَرْعَبُ أهله، وقد فعل الله ذلك شرعاً وقدراً. كقوله تعالى: ﴿**ومن دخله كان آمناً**﴾ [آل عمران:٩٧]، وقوله: ﴿**أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم**﴾ [العنكبوت:٦٧] إلى غير ذلك من الآيات، وقد تقدمت الأحاديث في تحريم القتال فيها. وفي صحيح مسلم عن جابر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح». وقال في هذه السورة ﴿**رب اجعل هذا بلداً آمناً**﴾ أي اجعل هذه البقعة بلداً آمناً، وناسب هذا؛ لأنه قبل بناء الكعبة. وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿**وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً**﴾ [إبراهيم:٣٥] وناسب هذا هناك لأنه، والله أعلم، كأنه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت واستقرار أهله به، وبعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سناً من إسماعيل بثلاث عشرة سنة، ولهذا قال في آخر الدعاء: ﴿**الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق، إن ربي لسميع الدعاء**﴾ [إبراهيم:٣٩].

وقوله تعالى: ﴿**وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير**﴾ عن أبي بن كعب قال: هو قول الله تعالى، وهذا قول مجاهد وعكرمة، وهو الذي صوبه ابن جرير رحمه الله. قال: وقرأ آخرون: ﴿**قال ومن كفر فأَمْتِعْهُ قليلاً ثم اضْطَرَّهُ إلى عذاب النار وبئس المصير**﴾ فجعلوا ذلك من تمام دعاء إبراهيم، فعن أبي العالية قال: كان ابن عباس يقول ذلك قول إبراهيم، يسأل ربه أن من كفر فأمتِعه قليلاً، وعن مجاهد أيضاً: ﴿**ومن كفر فأمتعه قليلاً**﴾ يقول: ومن كفر فأرزقه أيضاً ﴿**ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير**﴾. وعن ابن عباس: كان إبراهيم يحجُرها على المؤمنين دون الناس، فأنزل الله: ومن كفر أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين، أأخلق خلقاً لا أرزقهم ؟ أمتعهم قليلاً ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير، ثم قرأ ابن عباس: ﴿**كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً**﴾ [الإسراء:٢٠]. وروي عن عكرمة ومجاهد [وابن اسحاق] نحو ذلك أيضاً، وهذا كقوله تعالى: ﴿**ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور * نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ**﴾ [لقمان:٢٣-٢٤].

وقوله: ﴿**ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير**﴾ أي: ثم ألجئه بعد متاعه في الدنيا وبسطنا عليه من ظلها إلى عذاب النار وبئس المصير. ومعناه: أن الله تعالى يُنظرهم ويُمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كقوله تعالى: ﴿**وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير**﴾ [الحج:٤٨]، وفي الصحيحين: «لاأحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم» وفي الصحيحين أيضاً: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلته». ثم قرأ قوله تعالى: ﴿**وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد**﴾ [هود:١٠٢].

وأما قوله تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾: فالقواعد جمع قاعدة، وهي السارية والأساس، يقول تعالى: واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت ورفْعَهما القواعدَ منه، وهما يقولان ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾، فهما في عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما، فعن وُهَيب بن الوَرد أنه قرأ: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا﴾ ثم يبكي ويقول: يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مُشْفق أن لا يتقبل منك. وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين المخلصين في قوله: ﴿والذين يؤتون ما آتوا﴾ أي: يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات ﴿وقلوبهم وجلة﴾ [المؤمنون:٦٠] أي: خائفة ألاّ يتقبل منهم، كما جاء به الحديث الصحيح عن عائشة عن رسول الله ﷺ كما سيأتي في موضعه. وقد روى البخاري ههنا حديثا عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: أول ما اتخذ النساء المِنْطَق من قبل أم إسماعيل عليها السلام. اتخذت مِنْطَقاً ليعفّي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قَفَّى إبراهيم عليه السلام منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: ياإبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم: قالت: إذاً لا يضيعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه، قال: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ [إبراهيم:٣٧]، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل عليهما السلام، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نَفد ماء السقاء عَطِشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى ـ أو قال: يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي: رفعت طرف درعها، ثم سعت سَعْيَ الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي. ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما». فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تَسَمَّعت فسمعَت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غُوَاث فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضُه، وتقول بيدها

هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال: لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عيناً معيناً». قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة، فإن ههنا بيتاً لله عز وجل يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله عز وجل لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرْهُم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كَدَاء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لَعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جَرِيّاً أو جَرِيَّين، فإذا هم بالماء. فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ:«فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس». فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم. حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلامُ، وتعلم العربية منهم، وأنْفَسَهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل عليهما السلام، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيلُ ليطالع تَرْكَتَه. فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه. فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشَرٍّ، نحن في ضيق وشدة، وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له: يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل، كأنه أنس شيئاً. فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسأل عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أننا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك. قال: ذاك أبي. وقد أمرني أن أفارقك، فالحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم بأخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد، فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم. فقالت: نحن بخير وسعة. وأثنت على الله عز وجل. قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء، قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَب ولو كان لهم لدعا لهم فيه». قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومُريه يُثَبِّت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل عليه السلام، قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، وهو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك، ثم لَبِثَ عنهم ما شاء الله عز وجل، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يَبْرِي نَبْلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد، ثم قال: ياإسماعيل،

إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك عز وجل. قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً، وأشار إلى أكَمَةٍ مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رَفَعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾، قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾. وعن ابن عباس: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت﴾ قال: القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك. وعن مجاهد وغيره من أهل العلم: إن الله لما بَوَّأ إبراهيم مكان البيت خرج إليه من الشام، وخرج معه بإسماعيل وبأمه هاجر، وإسماعيل طفل صغير يرضع، وحملوا فيما حدثني على البُرَاق، ومعه جبريل يَدُلُّه على موضع البيت ومعالم الحَرم، خرج معه جبريل، فكان لايمر بقرية إلا قال: أبهذه أمرت ياجبريل؟ فيقول جبريل: امضه، حتى قدم به مكة، وهي إذ ذاك عضَاه سَلَم وَسَمُر، وبها أناس يقال لهم: العماليق خارج مكة وما حولها، والبيت يومئذ ربوة حمراء مَدِرَة، فقال إبراهيم لجبريل: أههنا أمرت أن أضعهما؟ قال: نعم، فعمد بهما إلى موضع الحِجْر فأنزلهما فيه، وأمر هاجر أم إسماعيل أن تتخذ فيه عريشاً، فقال: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾ إلى قوله: ﴿لعلهم يشكرون﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقال البخاري رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ الآية، القواعد: أساسه، واحدها قاعدة، والقواعد من النساء واحدتها قاعدة. [وساق الإسناد] عن عائشة زوج النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تري أن قومك حين بنوا البيت اقتصروا على قواعد إبراهيم؟» فقلت: يارسول الله، ألا تَرُدَّها على قواعد إبراهيم؟ قال: «لولا حِدْثان قومك بالكفر». فقال عبد الله بن عمر: لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر، إلا أن البيت لم يُتَمَّم على قواعد إبراهيم عليه السلام. ورواه مسلم [ولفظه] عن عائشة، عن النبي ﷺ، قال «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية أو قال: بكفر ـ لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها الحجر».

ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل عليه السلام بمدد طويلة وقبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين

وقد نقل معهم في الحجارة وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين. قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة، وكانوا يَهُمُّون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها، [قال] فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنيانها، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد

ابن عمران بن مخزوم، فتناول من الكعبة حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال: يامعشر قريش، لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيبا، لا يدخل فيها مهر بَغِي، ولابيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس. [قال] ثم إن الناس هابوا هدمها وفَرِقُوا منه، فقال الوليد بن المغيرة، أنا أبدؤكم في هَدْمها، فأخذ المعْوَل ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم تَرعْ، اللهم إنا لا نريد إلا الخير. ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عَمَله، فهدم وهدم الناس معه، حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس، أساس إبراهيم عليه السلام، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة آخذ بعضها بعضاً. قال ابن إسحاق: ثم إن القبائل من قريش جَمَعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن، يعني الحجر الأسود، فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتخالفوا وأعدوا للقتال، فزعم بعض أهل الرواية: أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكان عامئذ أسن قريش كلهم، قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضي بينكم فيه. ففعلوا فكان أول داخل رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد. فلما انتهى اليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: «هَلُمَّ إليَّ ثوباً» فأتى به، فأخذ الركن، يعني الحجر الأسود، فوضعه فيه بيده، ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً»، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ﷺ ثم بني عليه.

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثمانية عشر ذراعاً، وكانت تكسى القباطي، ثم كُسِيت بعدُ البُرود، وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف. قلت: ولم تزل على بناء قريش حتى احرقت في أول إمارة عبدالله بن الزبير بعد سنة ستين. وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية، لما حاصروا ابن الزبير، فحينئذٍ نقضها ابن الزبير إلى الأرض وبناها على قواعد إبراهيم عليه السلام، وأدخل فيها الحجر، وجعل لها باباً شرقياً وباباً غربياً ملصقين بالأرض كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ. ولم تزل كذلك مدة إمارته حتى قتله الحجاج، فردها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مَرْوان له بذلك، كما روى ذلك مسلم وغيره. [وقد روى مسلم] عن أبي قَزَعَة أن عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال: قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين، يقول: سمعتها تقول: قال رسول الله ﷺ «يا عائشة لولا حِدْثان قومك بالكفر لنقضت الكعبة حتى أزيد فيها من الحجر. فإن قومك قصروا في البناء». فقال الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين، فأنا سمعت أم المؤمنين تحدث هذا. قال: لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير، فهذا الحديث كالمقطوع به إلى عائشة أم المؤمنين. فدل هذا

على صواب ما فعله ابن الزبير. فلو ترك لكان جيداً. ولكن بعدما رجع الأمر إلى هذا الحال، فقد كَرِه بعض العلماء أن يغيَّر عن حاله، كما ذكر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد أو أبيه المهدي أنه سأل الإمام مالكاً عن هدم الكعبة وردِّها إلى ما فعله ابن الزبير. فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا تجعل كعبة الله مَلْعَبَة للملوك، لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها، فترك ذلك الرشيد. نقله عياض والنووي، ولا تزال ـ والله أعلم ـ هكذا إلى آخر الزمان، إلى أن يخرِّبها ذو السُّويقتين من الحبشة، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة» أخرجاه، وعن ابن عباس عن النبي ﷺ «كأني به أسود أفحَجَ، يقلعها حجراً حجراً» رواه البخاري. وهذا ـ والله أعلم ـ إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج، لما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «ليُحَجَّنَّ البيتُ وليُعْتَمَرَنَّ بعد خروج يأجوج ومأجوج».

وقوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿**ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم**﴾ قال ابن جرير: يعنيان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غيرك. وعن سلام بن أبي مطيع في هذه الآية ﴿**واجعلنا مسلمين**﴾ قال: كانا مسلمين، ولكنهما سألاه الثبات. وقال عكرمة: ﴿**ربنا واجعلنا مسلمين لك**﴾ قال الله: قد فعلت. ﴿**ومن ذريتنا أمة مسلمة لك**﴾ قال الله: قد فعلت. وقال السدي: ﴿**ومن ذريتنا أمة مسلمة لك**﴾: يعنيان العرب. قال ابن جرير: والصواب أنه يعمُّ العرَب وغيرَهم؛ لأن من ذرية إبراهيم بني إسرائيل، وقد قال الله تعالى: ﴿**ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾ [الأعراف:١٥٩]، قلت: وهذا الذي قاله ابن جرير لا ينفيه السدي؛ فإن تخصيصهم بذلك لا ينفي من عداهم، والسياق إنما هو في العرب؛ ولهذا قال بعده: ﴿**ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم**﴾ الآية، والمراد بذلك محمد ﷺ، وقد بعث فيهم كما قال تعالى: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم**﴾[الجمعة:٢] ومع هذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود لقوله تعالى ﴿**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً**﴾[الأعراف:١٥٨] وغير ذلك من الأدلة القاطعة. وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما أخبرنا الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين في قوله: ﴿**والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذريتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً**﴾[الفرقان:٧٤]. وهذا القدر مرغوب فيه شرعاً، فإن من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يُحب أن يكون من صُلْبه من يعبد الله وحده لا شريك له؛ ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿**إني جاعلك للناس إماماً**﴾ قال: ﴿**ومن ذريتي**﴾ وهو قوله: ﴿**واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام**﴾[إبراهيم:٣٥]. وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا

من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». ﴿وأرنا مناسكنا﴾ عن عطاء: أخرجها لنا، عَلِّمْنَاها، وقال مجاهد: ﴿وأرنا مناسكنا﴾: مذابحنا. وروي عن عطاء أيضاً وقتادة نحو ذلك. وعن مجاهد، قال: قال إبراهيم ﴿أرنا مناسكنا﴾ فأتاه جبرائيل فأتى به البيت، فقال: ارفع القواعد، فرفع القواعد وأتم البنيان، ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا، قال: هذا من شعائر الله، ثم انطلق به إلى المروة، فقال: وهذا من شعائر الله، ثم انطلق به نحو مِنَى، فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم، فقال: كَبِّر وارمه، فكبر ورماه، ثم انطلق إبليس فقام عند الجمرة الوسطى، فلما جاز به جبريل وإبراهيم قال له: كبر وارمه، فكبر ورماه، فذهب الخبيث إبليس وكان الخبيث أراد أن يُدخل في الحج شيئاً فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام. فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات، قال: قد عرفت ما أريتك ؟ قالها: ثلاث مرات، قال: نعم. وروي عن [ابن عباس] وأبي مجلز وقتادة نحو ذلك.

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولا منهم، أي من ذرية إبراهيم، وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قَدَرَ الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً في الأميين إليهم، وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن، عن أبي أمامة قال: قلت: يا رسول الله، ما كان أول بَدْء أمرك ؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بي» [صححه ابن حبان والحاكم]. والمراد أن أول من نَوّه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام، ولم يزل ذكره في الناس مذكوراً مشهوراً سائراً حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسباً، وهو عيسى بن مريم عليه السلام، حيث قام في بني إسرائيل خطيباً، وقال ﴿إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾[الصف:٦]؛ ولهذا قال في هذا الحديث دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى بن مريم. وعن أبي العالية، في قوله: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم﴾ يعني: أمة محمد ﷺ، فقيل له: قد استجيبت لك، وهو كائن في آخر الزمان. وكذا قال السدي وقتادة. وقوله تعالى: ﴿ويعلمهم الكتاب﴾ يعني: القرآن، ﴿والحكمة﴾ يعني: السنة، قاله الحسن وقتادة ومقاتل بن حيان وأبو مالك وغيرهم، وقيل: الفهم في الدين. ولا منافاة، ﴿ويزكيهم﴾ قال ابن عباس: يعني طاعة الله، والإخلاص. وقال محمد بن إسحاق: ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ قال: يعلمهم الخير فيفعلوه، والشر فيتقوه، ويخبرهم برضاه عنهم إذا أطاعوه واستكثروا من طاعته، وتجنبوا ما سخط من معصيته. وقوله: ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي: العزيز الذي لا يعجزه شيء، وهو قادر على كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله،

فيضع الأشياء في محالها؛ لعلمه وحكمته وعدله.

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

يقول تبارك وتعالى رداً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء، فإنه جَرد توحيد ربه تبارك وتعالى، فلم يَدْع معه غيره، ولا أشرك به طرفة عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه حتىٰ تبرأ من أبيه. قال تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين﴾[الزخرف:٢٦ـ٢٧]، ولهذا وأمثاله قال تعالى: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم﴾ أي: عن طريقته ومنهجه فيخالفها ويرغب عنها ﴿إلا من سفه نفسه﴾ أي: ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال، حيث خالف طريق من اصطُفي في الدنيا للهداية والرشاد، من حدَاثة سنّه إلى أن اتخذه الله خليلاً، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته، واتبع طُرُقَ الضلالة والغيّ، فأي سفه أعظم من هذا ؟ وأي ظلم أكبر من هذا ؟ كما قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾، وقال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود، أحدثوا طريقاً ليست من عند الله، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾ [آل عمران:٦٧ـ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿إذا قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ أي: أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدراً، وقوله: ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب﴾ أي: وصى بهذه الملة، وهي الاسلام لله، أو يعود الضمير على الكلمة وهي قوله: ﴿أسلمت لرب العالمين﴾ لحرصهم عليها ومحبتهم لها، حافظوا عليها إلى حين الوفاة، ووصوا أبناءهم بها من بعدهم؛ كقوله تعالى: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ [الزخرف:٢٨] وقد قرأ بعض السلف «ويعقوبَ» بالنصب عطفاً على بنيه، كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضراً ذلك، والظاهر، والله أعلم، أن إسحاق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة، لأن البشارة وقعت بهما في قوله: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ [هود:٧١] وقد قرىء بنصب يعقوب ههنا على نزع الخافض، فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحاق كبير فائدة، وأيضاً فقد قال الله تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾ [الأنبياء:٧٢]، وهذا يقتضي أنه وجد في حياته، وأيضاً فإنه باني بيت المقدس، كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة، وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر قلت:

يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال «بيت المقدس»، قلت: كم بينهما؟ قال «أربعون سنة» الحديث، وأيضاً فإن ذكر وصية يعقوب لبنيه سيأتي ذكرها قريباً، وهذا يدل على أنه ههنا من جملة الموصَين.

وقوله: ﴿**يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾ أي: أحسنوا في حال الحياة، والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه. فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته بأنه من قصد الخير وُفّق له ويسره عليه، ومن نوى صالحاً ثُبتَّ عليه. وقد قال الله تعالى: ﴿**فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى**﴾ [الليل: ٥-١٠].

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

يقول تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل، وعلى الكفار من بني إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام - بأن يعقوب لما حضرته الوفاة، وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال لهم: ﴿**ما تعبدون من بعدي؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق**﴾ وهذا من باب التغليب، لأن إسماعيل عمه، قال النحاس: والعرب تسمي العم أباً، نقله القرطبي، وقد استدل بهذه الآية الكريمة من جعل الجد أباً وحجب به الإخوة، كما هو قول الصديق - رضي الله عنه - حكاه البخاري عنه من طريق ابن عباس وابن الزبير، ثم قال البخاري: ولم يختلف عليه، وإليه ذهبت عائشة أم المؤمنين، وبه يقول الحسن البصري وطاوس وعطاء، وهو مذهب أبي حنيفة وغير واحد من السلف والخلف، وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه أنه يقاسم الإخوة، وحكى مالك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت وجماعة من السلف والخلف، واختاره صاحبا أبي حنيفة القاضي أبو يوسف ومحمد بن الحسن، ولتقريرها موضع آخر.

وقوله: ﴿**إلهاً واحداً**﴾ أي: نوحده بالألوهية، ولا نشرك به شيئاً غيره ﴿**ونحن له مسلمون**﴾ أي: مطيعون خاضعون، كما قال تعالى: ﴿**وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون**﴾ [آل عمران: ٨٣] والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله ألا أنا فاعبدون**﴾ [الأنبياء: ٢٥]. والآيات في هذا كثيرة والأحاديث، فمنها قوله ﷺ: «نحن مَعشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» [متفق عليه]. وقوله تعالى: ﴿**تلك أمة قد خلت**﴾ أي: مضت ﴿**لها ما كسبت ولكم ما كسبتم**﴾ أي: إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها

ولكم أعمالكم ﴿**ولا تسألون عما كانوا يعملون**﴾ وقال أبو العالية والربيع وقتادة: ﴿**تلك أمة قد خلت**﴾ يعني: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط.

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

عن ابن عباس، قال: قال عبد الله بن صُوريا الأعورُ لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد. وقالت النصاري مثل ذلك، فأنزل الله عز وجل ﴿**وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا**﴾ وقوله: ﴿**قل بل ملة إبراهيم حنيفا**﴾ أي: لا نريد ما دعوتم إليه من اليهودية والنصرانية، بل نتبع ﴿**ملة إبراهيم حنيفا**﴾ أي: مستقيما. قاله محمد بن كعب القرظي، وعيسى بن جارية. وعن مجاهد: مخلصاً، وعن ابن عباس: حاجاً، وكذا روي عن الحسن، والضحاك، وعطية، والسدي. وقال أبو العالية: الحنيف الذي يستقبل البيت بصلاته، ويرى أن حَجَّه عليه إن استطاع إليه سبيلا. وقال مجاهد، والربيع بن أنس: حنيفاً أي: متبعاً. وقال أبو قلابة: الحَنيف الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم، وقال قتادة: الحنيفية: شهادة أن لا إله إلا الله. يدخل فيها تحريمُ الأمهات والبنات والخالات والعمات وما حرم الله عز وجل والختان.

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلا، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملا، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿**ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا**﴾ الآية [النساء: ١٥٠-١٥١]. وروى البخاري: عن أبي هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبْرَانيّة ويُفَسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تُكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا». وقد روى مسلم عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر بـ ﴿**آمنا بالله وما أنزل إلينا**﴾ الآية، والأخرى بـ ﴿**آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون**﴾ [آل عمران: ٥٢]. وقال أبو العالية، والربيع، وقتادة: الأسباط: بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً، ولد كل رجل منهم أمة من الناس، فسمّوا الأسباط. وقال الخليل بن أحمد [والبخاري] وغيرهما: الأسباط في بني إسرائيل، كالقبائل في بني إسماعيل. وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل، وما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم: ﴿**اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين**﴾ [المائدة: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿**وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً**﴾ [الأعراف: ١٦٠]

وقال القرطبي: وسموا الأسباط من السبط، وهو التتابع، فهم جماعة متتابعون. وقيل: أصله من السَبَط، بالتحريك، وهو الشجر، أي هم في الكثرة بمنزلة الشجر الواحدة سبطة. فعن ابن عباس، قال: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام، قال القرطبي: والسبط: الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد. وقال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به ويصدقوا بكتبه كلها وبرسله. وقال سليمان بن حبيب: إنما أمرنا أن نؤمن بالتوارة والإنجيل، ولا نعمل بما فيهما.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

يقول تعالى: فإن آمنوا، يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، **﴿بمثل ما آمنتم به﴾** أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم **﴿فقد اهتدوا﴾** أي: فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه **﴿وإن تولوا﴾** أي: عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم **﴿فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله﴾** أي: فسينصرك عليهم ويُظفِرُك بهم **﴿وهو السميع العليم﴾**.

وروى ابن أبي حاتم: عن نافع بن أبي نعيم، قال: أرسل إليَّ بعض الخلفاء مصحفَ عثمان بن عفان ليصلحه. قال زياد: فقلت له: إن الناس يقولون: إن مصحفه كان في حجره حين قتل فوقع الدم على **﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾** فقال نافع: بصرت عيني بالدم على هذه الآية، وقد قَدُم. وقوله: **﴿صبغة الله﴾**: قال الضحاك عن ابن عباس: دين الله، وكذا روي عن مجاهد وغيره نحو ذلك. وانتصاب ﴿صبغة الله﴾ إما على الإغراء كقوله **﴿فطرة الله﴾** [الروم: ٣٠] أي: الزموا ذلك عليكموه. وقال بعضهم: بدل من قوله: **﴿ملة إبراهيم﴾** وقال سيبويه: هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله **﴿آمنا بالله﴾** كقوله **﴿واعبدوا الله﴾** [النساء: ٣٦].

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

يقول الله تعالى مرشداً نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين: **﴿قل أتحاجوننا في الله﴾** أي: أتناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والإنقياد، واتباع أوامره وترك زواجره **﴿وهو ربنا وربكم﴾** المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له! **﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾** أي: نحن برآء منكم ومما تعبدون وأنتم بُرآء منا، كما قال في الآية الأخرى: **﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾** [يونس: ٤١]. [وغير ذلك من الآيات] وقال في هذه الآية الكريمة: **﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون﴾** أي: نحن براء منكم كما أنتم براء منا،

ونحن له مخلصون، أي في العبادة والتوجه. ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومَنْ ذكر بعده من ألأنبياء والأسباط، كانوا على ملتهم، إما اليهودية وإما النصرانية، فقال: ﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾ يعني: بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى، كما قال تعالى: ﴿وما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ الآية والتي بعدها. [آل عمران: ٦٧ـ٦٨]. وقوله: ﴿من أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾: قال الحسن البصري: كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي أتاهم: إن الدين عند الله الإسلامُ، وإن محمداً رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، كانوا براء من اليهودية والنصرانية، فشهد الله بذلك، وأقروا به على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك، وقوله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾: فيه تهديد ووعيد شديد، أي: أن علمه محيط بعملكم وسيجزيكم عليه. ثم قال تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت﴾ أي: قد مضت، ﴿لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ أي: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ وليس يغني عنكم انتسابُكم إليهم من غير متابعة منكم لهم، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله واتباع رسله، الذين بعثوا مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبي واحد، فقد كفر بسائر الرسل، ولا سيما من كفر بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من سائر المكلفين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

قيل: المراد بالسفهاء ـ ههنا مشركوا العرب، قاله الزجاج، وقيل: أحبار يهود، قاله مجاهد، وقيل: المنافقون، قاله السدي، والآية عامة في هؤلاء كلهم، والله أعلم. روى البخاري [واللفظ له ومسلم]: عن البراء رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبَل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبَل مكة، فداروُا كما هم قبل البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل ان تحول قبل البيت رجالا قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾. وعن ابن عباس: إن رسول الله ﷺ لَّما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً وكان رسول الله ﷺ يُحب

قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله عز وجل: ﴿**فولوا وجوهكم شطره**﴾ أي: نحوه. فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: ﴿**قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾. وقد جاء في هذا الباب أحاديثُ كثيرة، وحاصلُ الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أُمِرَ باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يصلي بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، فاستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهراً وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يُوجَّه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم عليه السلام، فأجيب إلى ذلك وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق، فخطب رسول الله ﷺ الناس وأعلمهم بذلك، وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر، كما تقدم في الصحيحين من رواية البراء. وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر اليوم الثاني، كما جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة. وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدم نزوله وإبلاغه، لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء، والله أعلم. ولما وقع هذا، حصل لبعض الناس ـ من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ـ ارتياب، وزيغ عن الهدى، وقالوا: ﴿**ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها**﴾ أي: قالوا: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم في قوله: ﴿**قل لله المشرق والمغرب**﴾ أي: الحكم والتصرف والأمر كله لله، وحيثما تولوا فثم وجه الله، و ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله**﴾ [البقرة: ١٧٧] أي: الشأن كله في امتثال أوامر الله، فحيثما وجَّهنا توجَّهنا، فالطاعة في امتثال أمره، ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة، فنحن عبيده وفي تصريفه وخُدَّامُه، حيثما وجهنا توجهنا، وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه وأمته عناية عظيمة؛ إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن، وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرف بيوت الله في الأرض، إذ هي بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ولهذا قال: ﴿**قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾: يقول تعالى: إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شُهَداء على الأمم، لأن الجميع معترفون لكم بالفضل. والوسط ههنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسطُ العرب نسباً وداراً، أي خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى التي هي

أفضل الصلوات وهي العصر، كما ثبت في الصحاح وغيرها: ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً، خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: **﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾** [الحج:٧٨]. وروى الإمام أحمد: عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ «يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان وأكثر من ذلك، فيدعى قومه، فيقال: هل بلغكم هذا ؟ فيقولون: لا فيقال له: هل بلغت قومك ؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك ؟ فيقول: محمد وأمته، فيدعى محمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم ؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا، فذلك قوله عز وجل **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾** قال: عدلاً **﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾** [وإسناده صحيح وهو في البخاري بأخصر منه]. وروى الإمام أحمد عن أبي الأسود أنه قال: أتيت المدينة فوافقتها، وقد وقع بها مرض فهم يموتون موتاً ذريعاً. فجلست إلى عمر بن الخطاب فمرت به جنازة فأُثنِيَ على صاحبها خير، فقال: وجبت وجبت، ثم مر بأخرى فأثني عليها شر، فقال عمر: وجبت. فقال أبو الأسود: ما وجبت يا أمير المؤمنين قال، قلت كما قال رسول الله ﷺ «أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة» قال: فقلنا وثلاثة قال: فقال «وثلاثة» قال: فقلنا واثنان: قال «واثنان». ثم لم نسأله عن الواحد. وكذا رواه البخاري.

وقوله تعالى: **﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله﴾** يقول تعالى: إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه، أي: مُرْتداً عن دينه **﴿وإن كانت لكبيرة﴾** أي: هذه الفعلة، وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي: وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة، والحجة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكاً، كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق، كما قال الله تعالى: **﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾** [التوبة:١٢٤-١٢٥]، ولهذا كان مَن ثَبَت على تصديق الرسول ﷺ واتباعه في ذلك، وتوجه حيثُ أمره الله من غير شك ولا رَيْب من سادات الصحابة، وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا إلى القبلتين. عن ابن عمر قال: بينا الناس

يصلون الصبح في مسجد قباء إذ جاء رجل فقال: قد أنزل على النبي ﷺ قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، فتوجهوا إلى الكعبة. [متفق عليه]. وعند مسلم أنهم كانوا ركوعاً فاستداروا كما هم إلى الكعبة وهم ركوع. وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ورسوله، وانقيادهم لأوامر الله عز وجل رضي الله عنهم أجمعين.

وقوله: ﴿**وما كان الله ليضيع إيمانكم**﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك لا يضيع ثوابها عند الله، وفي الصحيح عن البراء قال: مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس، فقال الناس: ما حالهم في ذلك ؟ فأنزل الله تعالى: ﴿**وما كان الله ليضيع إيمانكم**﴾. وعن ابن عباس ﴿**وما كان الله ليضيع إيمانكم**﴾ أي: بالقبلة الأولى وتصديقكم نبيكم، واتباعه إلى القبلة الأخرى، أي: ليعطيكم أجرهما جميعاً. ﴿**إن الله بالناس لرؤوف رحيم**﴾. وقال الحسن البصري ﴿**وما كان الله ليضيع إيمانكم**﴾ أي: ما كان الله ليضيع محمداً ﷺ وانصرافكم معه حيث انصرف، ﴿**إن الله بالناس لرؤوف رحيم**﴾. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها، فجعلت كلما وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقته بصدرها، وهي تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها، فقال رسول الله ﷺ « أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على ألا تطرحه» ؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: «فوالله، لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

عن ابن عباس قال: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ، لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان يحب قبلة إبراهيم فكان ينظر إلى السماء فأنزل الله ﴿**قد نرى تقلب وجهك في السماء**﴾ إلى قوله: ﴿**فولوا وجوهكم شطره**﴾ فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ﴿**ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب**﴾ وقال: ﴿**فأينما تولوا فثم وجه الله**﴾ [البقرة: ١١٥] وقال الله تعالى: ﴿**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه**﴾ وروى الحاكم عن يحيى بن قمطة قال: رأيت عبد الله بن عمر جالساً في المسجد الحرام بإزاء الميزاب فتلا هذه الآية، ﴿**فلنولينك قبلة ترضاها**﴾ قال نحو ميزاب الكعبة. ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وهكذا قال غيره وهو أحد قولي الشافعي رضي الله عنه، إن الغرض إصابة عين الكعبة، والقول الآخر وعليه الأكثرون: أن المراد الوجهة، كما رواه الحاكم. عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وهذا قول أبي العالية ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم. وكما تقدم في الحديث الآخر «ما بين المشرق والمغرب قبلة». وقوله: ﴿**وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره**﴾ أمَرَ

تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر، فإنه يصليها حيثما توجه وقَلْبُه نحو الكعبة. وكذا في حال المسايفة في القتال يصلي على كل حال، وكذا من جهل جهة القبلة يصلي باجتهاده، وإن كان مخطئاً في نفس الأمر، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

وقد استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما ذهب إليه الشافعي وأحمد وأبو حنيفة، قال المالكية بقوله: ﴿**فول وجهك شطر المسجد الحرام**﴾ فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء وهو ينافي كمال القيام.

وقوله: ﴿**وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم**﴾ أي: واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس، يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته، وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً ولهذا تهددهم تعالى بقوله: ﴿**وما الله بغافل عما يعملون**﴾.

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم، كما قال تعالى: ﴿**إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم**﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]. ولهذا قال ههنا: ﴿**ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل أية ما تبعوا قبلتك**﴾. وقوله: ﴿**وما أنت بتابع قبلتهم**﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم، فهو أيضاً مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله وما كان متوجهاً إلى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى. ثم حذر الله تعالى عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى، فإن العالم الحجّةُ عليه أقوم من غيره، ولهذا قال مخاطباً للرسول والمراد الأمة ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين**﴾ [البقرة: ١٤٥].

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب، يعرفون صِحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا، كما جاء في الحديث. أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير «ابنك هذا» ؟ قال: نعم يا رسول الله أشهد به، قال «أما أنه لا يَجْنِي عليك ولا تجْنِي عليه» [أخرجه أحمد وأبوداود والنسائي وهو صحيح].

قال القرطبي: ويروى أن عمر قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً ﷺ كما تعرف ابنك؟ قال: نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته، وإني لا أدري ما كان من أمره. قلت: وقد يكون المراد ﴿**يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾ من بين أبناء الناس، لا يشك أحد ولا يتمارى في معرفة ابنه إذا رآه من بين أبناء الناس كلهم. ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمي ﴿**ليكتمون الحق**﴾ أي ليكتمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ ﴿**وهم يعلمون**﴾. ثم ثبت تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فقال: ﴿**الحق من ربك فلا تكونن من الممترين**﴾.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

عن ابن عباس: ﴿**ولكل وجهة هو موليها**﴾ يعني بذلك أهل الأديان، يقول: لكل قبلة يرضونها، ووجهة الله حيث تَوَجه المؤمنون. وقال أبو العالية: لليهودي وجهة هو موليها، وللنصراني وجهة هو موليها، وهداكم أنتم أيتها الأمة الموقنون للقبلة التي هي القبلة. وروي عن مجاهد وعطاء [وغيرهما] نحو هذا. وقال مجاهد في الرواية الأخرى، ولكن أَمَرَ كلَّ قوم أن يصلوا إلى الكعبة. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً**﴾ [المائدة:٤٨] وقال ههنا: ﴿**أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير**﴾ أي هو قادر على جمعكم من الأرض، وإن تفرّقت أجسادكم وأبدانكم.

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض، وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات، فقيل، تأكيد لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام على ما نص عليه ابن عباس وغيره، وقيل: بل هو منزل على أحوال، فالأمر الأول لمن هو مشاهد الكعبة، والثاني لمن هو في مكة غائباً عنها، والثالث لمن هو في بقية البلدان، هكذا وجهه فخر الدين الرازي، وقال القرطبي: الأول لمن هو بمكة، والثاني لمن هو في بقية الأمصار، والثالث لمن خرج في الأسفار، وقيل غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار، وقد بسطها فخر الدين الرازي وغيره، والله أعلم. وقوله: ﴿**لئلا يكون للناس عليكم حجة**﴾ أي: أهل الكتاب فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين، أو لئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس، وهذا أظهر. قال أبو العالية: ﴿**لئلا يكون للناس عليكم حجة**﴾ يعني به أهل الكتاب حين قالوا: صُرف محمد إلى الكعبة. وقالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه وكان حجتهم على النبي ﷺ

انصرافه إلى البيت الحرام، أن قالوا، سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا. وروي عن مجاهد وعطاء والضحاك والربيع بن أنس وقتادة والسدي نحو هذا، وقال هؤلاء في قوله: ﴿**إلا الذين ظلموا منهم**﴾ يعني مشركي قريش. وقوله: ﴿**فلا تخشوهم واخشوني**﴾ أي لا تخشوا شُبَهَ الظلمة المتعنتين وأفرِدُوا الخشية لي، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه، وقوله: ﴿**ولأتم نعمتي عليكم**﴾ عطف على ﴿**لئلا يكون للناس عليكم حجة**﴾ أي ولأتم نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها ﴿**ولعلكم تهتدون**﴾ أي إلى ما ضَلت عنه الأمم هديناكم إليه وخصصناكم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها.

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات الله مبينات، ويزكيهم، أي يطهرهم من رذائل الأخلاق ودَنَس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويعلمهم الكتاب، وهو القرآن، والحكمة وهي السنة، ويعلمهم مالم يكونوا يعلمون، فكانوا في جاهلية جهلاء، فانتقلوا ببركة رسالته، ويُمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء. فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة. وقال تعالى: ﴿**لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم**﴾ الآية [آل عمران:١٦٤]. وذّم من لم يعرف قدر هذه النعمة، فقال تعالى: ﴿**ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار**﴾ [إبراهيم:٢٨]. قال ابن عباس: يعني بنعمة الله محمداً ﷺ؛ ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره، فقال: ﴿**فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون**﴾. قال مجاهد في قوله: ﴿**كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم**﴾ يقول: كما فعلت فاذكروني، وعن زيد بن أسلم: أن موسى عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك؟ قال له ربه: «تذكرني ولا تنساني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني» قال الحسن وأبو العالية [وغيرهما]: إن الله يذكر من ذكره ويزيد من شكره ويعذب من كفره. وقال الحسن البصري في قوله: ﴿**فاذكروني أذكركم**﴾ قال: اذكروني فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي، وعن سعيد بن جبير: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، وفي رواية، برحمتي. وعن ابن عباس قال: ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إيَّاه. وفي الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه» [متفق عليه]. وروى الإمام أحمد: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: يا ابن آدم، إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ من الملائكة ـ أو قال، في ملأ خير منه ـ وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً،

وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة»، صحيح الإسناد وأخرجه البخاري من حديث قتادة، وعنده قال قتادة: الله أقرب بالرحمة، وقوله: ﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾ أمر الله تعالى بشكره، ووعد على شكره بمزيد الخير فقال: ﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر، شرع في بيان الصبر والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمة فيصبر عليها كما جاء في الحديث «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له: إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له» [أخرجه مسلم]، وبين تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة كما تقدم في قوله: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ [البقرة: ٤٥]، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى. [رواه أبوداود وهو حسن]، و [أما] الصبر، فصبر على ترك المحارم والمآثم، وصبر على فعل الطاعات والقربات، والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود. وأما الصبر الثالث وهو الصبر على المصائب والنوائب، فذلك أيضاً واجب كالاستغفار من المعايب، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الصبر في بابين: الصبر لله بما أحب وإن ثقل على الأنفس والأبدان، والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء، فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم إن شاء الله. وقال تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ [الزمر: ١٠]. وقال سعيد بن جبير: الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه، واحتسابه عند الله رجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو مُتَجَلِّد لا يرى منه إلا الصبر.

وقوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء﴾: يخبر تعالى أن الشهداء في بَرْزَخِهم أحياء يرزقون، كما جاء في صحيح مسلم: «أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى قناديل مُعَلَّقة تحت العرش، فاطَّلع عليهم ربك إطِّلاعة، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا وأي شيء نبغي، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا فلما رأوا أنهم لا يُتْرَكُون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل في سبيلك حتى نقتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى؛ لما يرون من ثواب الشهادة ـ فيقول الرب جل جلاله: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون».

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن الإمام الشافعي عن الإمام مالك عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نَسَمَةُ المؤمن طائر تَعْلَقُ في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه» ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً وإن كان

الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

أخبر تعالى أنه يبتلي عباده المؤمنين، أي يختبرهم ويمتحنهم، كما قال تعالى: ﴿**ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم**﴾ [محمد:٣١] فتارة بالسرّاء، وتارة بالضراء من خوف وجوع، كما قال تعالى: ﴿**فأذاقها الله لباس الجوع والخوف**﴾ [النحل:١١٢] فإن الجائع والخائف كلّ منهما يظهر ذلك عليه؛ ولهذا قال لباس الجوع والخوف. وقال ههنا: ﴿**بشيء من الخوف والجوع**﴾ أي بقليل من ذلك ﴿**ونقص من الأموال**﴾ أي ذهاب بعضها ﴿**والأنفس**﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ﴿**والثمرات**﴾ أي لا تُغِلّ الحدائق والمزارع كعادتها. كما قال بعض السلف: فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة، وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده فمن صبر أثابه الله، ومن قنط أحل به عقابه، ولهذا قال تعالى: ﴿**وبشر الصابرين**﴾. وقد حكى بعض المفسرين أن المراد من الخوف ههنا: خوف الله، وبالجوع: صيام رمضان، وبنقص الأموال: الزكاة، والأنفس: الأمراض، والثمرات: الأولاد، وفي هذا نظر، والله أعلم. ثم بَيَّن تعالى مَن الصابرون فقال: ﴿**الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾ أي تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم وعلموا أنهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة. ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك، فقال: ﴿**أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة**﴾ أي ثناء من الله عليهم ورحمة. قال سعيد بن جبير: أي أَمَنَةٌ من العذاب ﴿**وأولئك هم المهتدون**﴾. وقد ورد في ثواب الاسترجاع، وهو قول: ﴿**إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة. فمن ذلك ما في صحيح مسلم عن أم سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: ﴿**إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾ اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها، إلا آجره الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها» قالت: فلما تُوُفي أبو سلمة قلت: كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيراً منه رسول الله ﷺ. وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ «قال الله: يا ملك الموت قبضت ولد عبدي؟ قبضت قرّة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم. قال: فما قال؟ قال: حَمِدَك واسترجع. قال: ابنو له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد» [أخرجه أحمد والترمذي وقال: حسن غريب].

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

روى الإمام أحمد: عن عروة عن عائشة، قال: قلت أرأيت قول الله تعالى. ﴿**إن الصفا**

والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ قلت: فوالله ما على أحد جناح أن لا يطَّوف بهما؟ فقالت عائشة: بئسما قلت يا ابن أختي إنها لو كانت على ما أوّلتَها عليه كانت: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت أنّ الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يُهِلّون لمناة الطاغية، التي كانوا يعبدونها عند المُشَلَّل. وكان من أهلَّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرج أن نطَّوف بالصفا والمروة في الجاهلية. فأنزل الله عز وجل: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ إلى قوله: ﴿فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ قالت عائشة: ثم قد سنّ رسول الله ﷺ الطواف **بهما** فليس لأحد أن يَدع الطواف بهما. أخرجاه في الصحيحين. وروى البخاري: عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنساً عن الصفا والمروة، قال: كنا نرى ذلك من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله عز وجل: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾.

وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل، وفيه أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من باب الصفا وهو يقول: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ ثم قل: «أبدأ بما بدأ الله به». وعن حبيبة بنت أبي تَجْرَاة قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة، والناس بين يديه وهو وراءهم، وهو يسعى، حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره وهو يقول: «اسعَوا فإن الله كتب عليكم السعي». [أخرجه أحمد وضعفه قابل للانجبار وقواه الشنقيطي]. وقد استُدلّ بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج، كما هو مذهب الشافعي ومن وافقه، ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك. وقيل: إنه واجب وليس بركن، فإن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم، وهو رواية عن أحمد وبه تقول طائفة. وإليه ذهب أبو حنيفة. وقيل: بل هو مستحب. والقول الأول أرجح لأنه عليه السلام طاف بينهما، وقال: «لتأخذوا عني مناسككم». فكل ما فعله في حجته تلك واجب لا بد من فعله في الحج، إلا ما خرج بدليل، والله أعلم. فقد بين الله تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من **شعائر الله**، أي مما شرع الله تعالى لإبراهيم الخليل في مناسك الحج، وفي حديث ابن عباس، أن أصل ذلك مأخوذ من تطواف هاجر وتَرْدادها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها لما نَفد ماؤها وزادُها، حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك، وليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك، ونفد ما عندها، قامت تطلب الغوث من الله عز وجل، فلم تزل تردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة، متذللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى الله عز وجل، حتى كشف الله كربتها، وآنس غربتها، وفرج شدتها، وأنبع لها زمزم التي ماؤها «طعام طُعْم، وشفاء سُقْم» فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذُلَّه وحاجته إلى الله، في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه. وأن يلتجىء إلى الله عز وجل، لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب،

وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يثبته عليه إلى مماته وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي، إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام.

وقوله: ﴿**ومن تطوع خيراً**﴾ قيل يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة تطوع، وقيل: المراد تطوع خيراً في سائر العبادات، حكى ذلك فخر الدين الرازي، والله أعلم. وقوله: ﴿**فإن الله شاكر عليم**﴾ أي يثيب على القليل بالكثير، عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحداً ثوابه، و ﴿**لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً**﴾ [النساء: ٤٠].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاء به الرسلُ من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة، والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده من كتبه التي أنزلها على رسله، قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب، كتموا صِفَةَ محمد ﷺ. ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء، والطير في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، وقد ورد في الحديث المسند من طرق يشد بعضها بعضاً عن أبي هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ، قال: «من سُئِل عن علم فكتمه، أُلْجِم يوم القيامة بلجام من نار» [ورواه الحاكم وقال: صحيح الاسناد]. والذي في الصحيح عن أبي هريرة أنه قال: لولا آية في كتاب الله، ما حدثتُ أحداً شيئاً: ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى**﴾ الآية. وقال عطاء بن أبي رباح: كل دابة والجن والإنس، وقال مجاهد: إذا أجدبت الأرض، قال البهائم: هذا من أجل عصاة بني آدم، لعن الله عصاة بني آدم، وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة: ﴿**ويلعنهم اللاعنون**﴾ يعني تلعنهم الملائكة والمؤمنون. ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه، فقال: ﴿**إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا**﴾ أي رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وأحوالهم وبيّنوا للناس ما كانوا كتموه ﴿**فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم**﴾ وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر، أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه. وقد ورد أن الأمم السابقة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم، ولكن هذا من شريعة نبي التوبة ونبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه. ثم أخبر تعالى عمن كفر به واستمرّ به الحالُ إلى مماته بأنّ ﴿**عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها**﴾ أي في اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة، ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التي ﴿**لا يخفف عنهم العذاب**﴾ فيها، أي لا ينقص عَمَّا هم فيه ﴿**ولا هم ينظرون**﴾ أي لا يُغَيَّر عنهم ساعة واحدة، ولا يفتَّر بل هو متواصل دائم فنعوذ بالله من ذلك. وقال أبو العالية وقتادة:

إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله، ثم تلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناس أجمعون.

فصل: لا خلاف في جواز لعن الكفار، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعده من الأئمة، يلعنون الكفرة في القنوت وغيره، فأما الكافر المعين، فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن لأنا لا ندري بما يختم له، واستدل بعضهم بهذه الآية ﴿**إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**﴾ وقالت طائفة أخرى: بل يجوز لعن الكافر المعين، واختاره الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي ولكنه احتج بحديث فيه ضعف، واستدل غيره بقوله عليه السلام في قصة الذي كان يؤتى به سكران فيحده، فقال رجل: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله ﷺ: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله» قالوا: فعلّة المنع من لعنه بأنه يحب الله وسوله ﷺ فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن، والله أعلم.

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

يُخبِرُ تعالى عن تَفَرده بالإلهية، وأنه لاشريك له ولا عديل له، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا إله إلا هو، وأنه الرحمن الرحيم. وقد تقدم تفسير هذين الاسمين في أول الفاتحة. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ، أنه قال «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿**وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم**﴾ و﴿**الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم**﴾ [آل عمران: ١-٢]» [أخرجه أبوداود والترمذي وقال: حسن صحيح]. ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بتفرده بخلق السموات والأرض وما فيهما، وما بين ذلك مما ذَرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته، فقال:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**إن في خلق السموات والأرض**﴾ تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها وعمرانها وما فيها من المنافع، ﴿**واختلاف الليل والنهار**﴾ هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿**لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون**﴾ [يس: ٤٠] وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: ﴿**يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل**﴾ [الحج: ٦١] أي يزيد من هذا في هذا، ومن هذا في هذا، ﴿**والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس**﴾ أي في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعاش الناس، والانتفاع بما عند أهل ذلك الأقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء، وما عند أولئك إلى هؤلاء ﴿**وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها**﴾ كما قال تعالى: ﴿**وآية لهم**

الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾[يس: ٣٣-٣٦]. ﴿وبث فيها من كل دابة﴾ أي على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه، لا يخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ [هود:٦] ﴿وتصريف الرياح﴾ أي تارة تأتي بالرحمة، وتارة تأتي بالعذاب، تارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمعه، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه. ﴿والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾ أي سائر بين السماء والأرض، يُسَخَر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن، كما يصرفه تعالى: ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ أي في هذه الأشياء دَلالات بينة على وحدانية الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١]. عن عطاء، قال: نزلت على النبي ﷺ بالمدينة: ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾. فقال كفار قريش بمكة: كيف يَسَعُ الناسَ إله واحد؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ إلى قوله: ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ فبهذا يعلمون أنه إله واحد، وأنه إله كل شيء، وخالق كل شيء. وعن أبي الضحى، قال: لما نزلت ﴿وإلهكم إله واحد﴾ إلى آخر الآية، قال المشركون: إن كان هكذا، فليأتنا بآية، فأنزل الله عز وجل ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾ إلى قوله: ﴿يعقلون﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾.

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا ومالهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أنداداً، أي أمثالاً ونظراء، يعبدونهم معه ويحبونم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له، ولا ندَّ له، ولا شريك معه. وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود، قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». وقوله: ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ ولحبهم لله وتمام معرفتهم به، وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه، ويلجأون في جميع أمورهم إليه. ثم تَوَعَّدَ تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال: ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً﴾ قال بعضهم: تقدير الكلام:

لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعاً، أي أن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه ﴿**وأن الله شديد العذاب**﴾ كما قال: ﴿**فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد**﴾ [الفجر: ٢٥ـ٢٦] يقول: لو علموا ما يعاينونه هنالك، وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم، لانتهوا عما هم فيه من الضلال. ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرؤ المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿**إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب**﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في دار الدنيا، فتقول الملائكة: ﴿**تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون**﴾ [القصص: ٦٣] ويقولون: ﴿**سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون**﴾ [سبأ: ٤١]. والجن أيضاً تتبرأ منهم، ويتنصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿**ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾ [الأحقاف: ٥ـ٦].

وقوله: ﴿**ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب**﴾ أي عاينوا عذاب الله، وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار مَعْدِلا ولا مَصْرِفا. عن ابن عباس: ﴿**وتقطعت بهم الأسباب**﴾ قال: المودة، وكذا قال مجاهد. وقوله: ﴿**وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا**﴾ أي لو أن لنا عَوْدة إلى الدار الدنيا حتى نَتَبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم بل نوحد الله وحده بالعبادة، وهم كاذبون في هذا، بل لو ردوا لعادوا لما نهو عنه، كما أخبر تعالى عنهم بذلك؛ ولهذا قال: ﴿**كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم**﴾ أي تذهب وتضمحل كما قال تعالى: ﴿**وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً**﴾ [الفرقان: ٢٣]. ولهذا قال تعالى: ﴿**وما هم بخارجين من النار**﴾.

﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾** ﴾.

لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقل بالخلق، شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه، فذكر ذلك في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله طيباً، أي مستطاباً في نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان وهي طرائقه ومسالكه فيما أضلّ أتباعه فيه من تحريم البَحَائر والسوائب والوصائل ونحوها، مما زَينه لهم في جاهليتهم، كما في حديث عياض بن حِمَار الذي في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال «يقول الله تعالى: إن كل مال نحلته عبادي فهو لهم حلال» وفيه «وإني خلقت عبادي حُنَفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم».

وقوله: ﴿**إنه لكم عدو مبين**﴾ تنفير عنه وتحذير منه، كما قال: ﴿**إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير**﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى:

﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوّ بئس للظالمين بدلاً﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال قتادة والسدي في قوله: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾: كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان، وقال عكرمة: هي نزغات الشيطان، وقال مجاهد: خطاه أو قال: خطاياه، وقال أبو مِجْلَز: هي النذور في المعاصي، وقال الشعبي: نذر رجل أن ينحر ابنه، فأفتاه مسروق بذبح كبش، وقال: هذا من خطوات الشيطان، وعن مسروق أتى عبد الله بن مسعود بضَرْع [أي ثدي] وملح، فجعل يأكل فاعتزل رجل من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم، فقال: لا أريده، فقال: أصائم أنت؟ قال: لا، قال: فما شأنك ؟ قال: حرمت أن آكل ضَرْعاً أبداً، فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فاطْعَمْ وكفِّر عن يمينك. وعن ابن عباس، قال: ما كان من يمين أو نذر في غضب، فهو من خطوات الشيطان، وكفارته كفارة يمين. وعن عكرمة في رجل قال لغلامه: إن لم أجلدك مائة سوط فامرأته طالق. قال: لا يجلد غلامه، ولا تطلق امرأته هذا من خطوات الشيطان. وقوله: ﴿إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ أي إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم، فيدخل في هذا كل كافر وكل مبتدع أيضاً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء الكفرة من المشركين: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل، قالوا في جواب ذلك: ﴿بل نتبع ما ألفينا﴾ أي وجدنا ﴿عليه آباءنا﴾ أي من عبادة الأصنام والأنداد، قال الله تعالى منكراً عليهم: ﴿أولو كان آباؤهم﴾ أي الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ أي ليس لهم فهم ولا هداية. وعن ابن عباس: أنها نزلت في طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، فأنزل الله هذه الآية. ثم ضرب لهم تعالى مثلاً. كما قال تعالى: ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء﴾ [النحل: ٦٠] فقال: ﴿ومثل الذين كفروا﴾ أي فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها بل إذا نعق بها راعيها، أي دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط. هكذا روي عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد والحسن [وغيرهم] نحو هذا. وقيل: إنما هذا مثل ضرب لهم في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً واختاره ابن جرير، والأول أولى، لأن الأصنام لا تسمع شيئاً ولا تعقله ولا تبصره ولا بطش لها ولا حياة فيها. وقوله: ﴿صم بكم عمي﴾ أي صم عن سماع الحق، بكم لا يتفوهون به، عمي عن رؤية طريقه

ومسلكه ﴿فهم لا يعقلون﴾ أي لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه. كما قال تعالى: ﴿والذين كذبوا بآيتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾ [الأنعام: ٣٩].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه على ذلك، إن كانوا عبيده، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبولَ الدعاء والعبادة. كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعلمون عليم﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾. ثم ذكر الرجل يطيلُ السفر أشعث أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام، وغُذي بالحرام فأنىٰ يستجاب لذلك». ورواه مسلم في صحيحه. ولما امتن تعالى عليهم برزقه وأرشدهم إلى الأكل من طيبه، ذكر أنه لم يُحرم عليهم من ذلك إلا الميتة، وهي التي تموت حَتْف أنفها من غير تذكية، وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو مُتَرَدِّية أو نطيحة أو قد عدا عليها السبُع، وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى: ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة﴾ [المائدة: ٩٦] على ما سيأتي، وحديث العنبر في الصحيح.

ولبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره؛ لأنه جزء منها. وقال مالك في رواية: هو طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة، وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف والمشهور عندهم أنها نجسة، وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس، فقال القرطبي في التفسير ههنا: يخالط اللبن منها يسير، ويعفى عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المائع. وكذلك حرم عليهم لحم الحنزير، سواء ذُكِّي أم مات حتف أنفه، ويدخلُ شَحمه في حكم لحمه، إما تغليباً أو أن اللحم يشمل ذلك، أو بطريق القياس على رأي. وكذلك حَرَّم عليهم ما أُهِلَّ به لغير الله، وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له. وذكر القرطبي عن ابن عطية أنه نقل عن الحسن البصري: أنه سئل عن امرأة عملت عرساً للعبها فنحرت فيه جزوراً، فقال: لا تؤكل لأنها ذبحت لصنم، وأورد القرطبي عن عائشة رضي الله عنها: أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين فقالت: ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه، وكلوا من أشجارهم [أي من ثمارهم وحبوبهم]. ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها، عند فقد غيرها من

الأطعمة، فقال: ﴿**فمن اضطر غير باغ ولا عاد**﴾ أي في غير بغي ولا عدوان وهو مجاوزة الحد ﴿**فلا إثم عليه**﴾ أي في أكل ذلك ﴿**إن الله غفور رحيم**﴾. وقال مجاهد: فمن اضطر غير باغ ولا عاد، قاطعاً للسبيل أو مفارقاً للأئمة، أو خارجاً في معصية الله، فله الرخصة، ومن خرج باغياً أو عادياً أو في معصية الله، فلا رخصة له وإن اضطر إليه، وكذا روي عن سعيد، بن جبير. وقال سعيد في رواية عنه ومقاتل بن حيان: غير باغ يعني غير مستحله، وقال السدي: غير باغ، يبتغي فيه شهوته، وقال عطاء الخراساني، في قوله ﴿غير باغ﴾ لا يشوي من الميتة ليشتهيه، ولا يطبخه، ولا يأكل إلا العَلْقَة، ويحمل معه ما يبلغه الحلال، فإذا بلغه ألقاه، وهو قوله ﴿**ولا عاد**﴾ ويقول لا يعدو به الحلال، وعن ابن عباس: لا يشبع منها، وفسره السدي بالعدوان، وعن ابن عباس ﴿**غير باغ ولا عاد**﴾ قال ﴿**غير باغ**﴾ في الميتة ولا عاد في أكله، وقال قتادة: فمن اضطر غير باغ ولا عاد، قال: غير باغ في الميتة أي في أكله أن يتعدى حلالا إلى حرام وهو يجد عنه مندوحة، وحكى القرطبي عن مجاهد في قوله: فمن اضطر، أي أكره على ذلك بغير اختياره.

مسألة: إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذى، فإنه لا يحل له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير بغير خلاف ـ كذا قال ـ ثم قال: وإذا أكله، والحالة هذه، هل يضمنه أم لا؟ فيه قولان هما روايتان عن مالك، ثم أورد من سنن ابن ماجه من حديث عباد العنزي قال: أصابتنا عاماً مخمصة، فأتيت المدينة، فأتيت حائطاً، فأخذت سنبلاً ففركته وأكلته، وجعلت منه في كسائي، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال للرجل: «ما أطعمته إذ كان جائعاً أو ساعياً، ولا علمته إذ كان جاهلاً». فأمره فرد إليه ثوبه، وأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق، إسناد صحيح قوي جيد [ورواه أبوداود والنسائي]، وله شواهد كثيرة: من ذلك حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: سئل رسول الله ﷺ عن الثمر المعلق، فقال «من أصاب منه من ذي حاجة بفيه غير متخذ خُبْنَة، فلا شيء عليه» الحديث [أخرجه الترمذي وحسنه]، وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿**فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم**﴾: فيما أكل من اضطرار، وبلغنا، والله أعلم. أنه لا يزاد على ثلاث لقم، وقال سعيد بن جبير: غفور لما أكل من الحرام، رحيم إذ أحل له الحرام في الاضطرار، وعن مسروق، قال: من اضطُرَّ فلم يأكل ولم يشرب، ثم مات دخل النار، وهذا يقتضي أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب**﴾ يعني اليهود الذين كتموا صفة

محمد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم، مما تشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم إياهم، فخشوا ـ لعنهم الله ـ إن أظهروا ذلك أن يتَّبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك وهو نزر يسير، فباعوا أنفسهم بذلك واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النزر اليسير، فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإن الله أظهر لعباده صِدْقَ رسوله بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عوناً له على قتالهم، وباؤوا بغضب على غضب، وذمهم الله في كتابه في غير موضع ومن ذلك هذه الآية الكريمة ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلا**﴾ وهو عرض الحياة الدنيا ﴿**أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار**﴾ أي إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق، ناراً تأَجَّجُ في بطونهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا**﴾ [النساء: ١٠]، وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال، «الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم» [متفق عليه].

وقوله: ﴿**ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**﴾ وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم، لأنهم كتموا وقد علموا، فاستحقوا الغضب فلا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، أي لا يثني عليهم بل يعذبهم عذاباً أليماً. عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر» [أخرجه مسلم]. ثم قال تعالى مخبرا عنهم: ﴿**أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى**﴾ أي اعتاضوا عن الهدى، وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه بالضلالة، وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم ﴿**والعذاب بالمغفرة**﴾ أي اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب، وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة. وقوله تعالى: ﴿**فما أصبرهم على النار**﴾ يخبر تعالى أنهم في عذاب شديد عظيم هائل، يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك، مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال، عياذاً بالله من ذلك، وقيل معنى قوله: ﴿**فما أصبرهم على النار**﴾ أي فما أدومهم لعمل المعاصي التي تفضي بهم إلى النار. وقوله تعالى: ﴿**ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق**﴾ أي إنما استحقوا هذا العذاب الشديد لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزوا، فكتابهم أمرهم بإظهار العلم ونشره، فخالفوه وكذبوه. وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه ويكتمون صفته، فاستهزؤوا بآيات الله المنزلة على رسله، فلهذا استحقوا العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿**ذلك**

بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾.

﴿ ۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على جمل عظيمة وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة، فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل، وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجّه واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه؛ ولهذا قال: **﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر﴾** الآية، كما قال في الأضاحي والهدايا: **﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾** [الحج:٣٧]. وعن ابن عباس في هذه الآية: ليس البر أن تصلوا ولا تعملوا، فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض والحدود، فأمر الله بالفرائض والعمل بها. وروي عن الضحاك ومقاتل نحو ذلك. وقال أبو العالية: كانت اليهود تقبل قبل المغرب، وكانت النصارى تقبل قبل المشرق، فقال الله تعالى: **﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾** يقول: هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل، وروي عن الحسن والربيع بن أنس مثله؛ وقال مجاهد ولكن البر ما ثبت في القلوب من طاعة الله عز وجل، وقال الضحاك ولكن البر والتقوىٰ أن تؤدوا الفرائض على وجوهها، وقال الثوري: **﴿ولكن البر من آمن بالله﴾** الآية قال: هذه أنواع البر كلها. وصدق رحمه الله، فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في عُرَى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله وأنه لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله **﴿والكتاب﴾** وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب الذي انتهى إليه كل خير، واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله: **﴿وآتى المال على حبه﴾** أي أخرجه وهو مُحب له راغب فيه، نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر». قال تعالى: **﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾** [الإنسان:٨-٩].

وقوله: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ [الحشر: ٩] نمط آخر أرفع من هذا، وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له، وقوله: ﴿ذوي القربى﴾ وهم قرابات الرجل وهم أولى من أعطي من الصدقة، كما ثبت في الحديث: «الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة» [أخرجه النسائي وابن ماجه والترمذي وقال: حديث حسن] فهم أولى الناس بك وببرك وإعطائك، وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير ما موضع من كتابه العزيز ﴿واليتامى﴾ هم الذين لا كاسب لهم، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب، ﴿والمساكين﴾ وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناهم، فيعطون ما تُسَدُّ به حاجتهم وخلتهم، وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ، قال: «ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه»، ﴿وابن السبيل﴾ وهو المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته فيعطىٰ ما يوصله إلى بلده، وكذا الذي يريد سفراً في طاعة، فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه، ويدخل في ذلك الضيف، كما قال ابن عباس: ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن [وغيرهم]. ﴿والسائلين﴾ وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات. ﴿وفي الرقاب﴾ وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم، وسيأتي الكلام على كثير من هذه الأصناف في آية الصدقات من براءة إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ أي وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها وسجودها، وطمأنينتها، وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي. وقوله: ﴿وآتى الزكاة﴾ يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس، وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة كقوله: ﴿قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها﴾ [الشمس: ٩-١٠]، ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال، كما قاله سعيد بن جبير، ومقاتل بن حيان، ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين، إنما هو التطوع والبر والصلة. وقوله: ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾، كقوله: ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾ [الرعد: ٢٠] وعكس هذه الصفة النفاق كما صح في الحديث «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» [متفق عليه]، وفي الحديث الآخر: «إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» [متفق عليه]. وقوله: ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾ أي في حال الفقر وهو البأساء، وفي حال المرض والأسقام وهو الضراء. ﴿وحين البأس﴾ أي في حال القتال والتقاء الأعداء قاله ابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والحسن، وغيرهم، وإنما نُصب ﴿والصابرين﴾ على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال لشدته وصعوبته والله أعلم، وهو المستعان وعليه التكلان. وقوله: ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه

الصفات هم الذين صَدَقوا في إيمانهم، لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿وأولئك هم المتقون﴾ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

يقول تعالى: كتب عليكم العدلُ في القصاص أيها المؤمنون، حُرّكم بحركم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدي من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم، وسبب ذلك قريظة والنضير، كانت بنو النضير قد غزت قريظة في الجاهلية وقَهَروهم، فكان إذا قتل النضري القرظي لا يقتل به، بل يُفَادي بمائة وسْق من التمر، وإذا قتل القرظي النضري قتل به، وإن فادوه فدوه بمائتي وسق من التمر ضعف دية القرظي، فأمر الله بالعدل في القصاص، ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم، كفراً وبغياً، فقال تعالى: ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى، الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾. [وقوله]: ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ منها منسوخة نسختها ﴿النفس بالنفس﴾ [المائدة: ٤٥]. وقال ابن عباس في قوله: ﴿والأنثى بالأنثى﴾ وذلك أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة، ولكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، فأنزل الله: النفس بالنفس والعين بالعين، فجعل الأحرار في القصاص سواء فيما بينهم من العمد رجالهم ونساؤهم في النفس وفيما دون النفس، وجعل العبيد مستوين فيما بينهم من العمد في النفس وفيما دون النفس رجالهم ونساؤهم، وكذلك روي عن أبي مالك أنها منسوخة بقوله النفس بالنفس.

مسألة: مذهب أبي حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة، وإليه ذهب الثوري، وهو مروي عن علي، وابن مسعود، [وجماعة]، وقال البخاري، وإبراهيم النخعي، [وغيرهما]: ويقتل السيد بعبده، لعموم حديث الحسن عن سمرة «ومن قتل عبده قتلناه، ومن جدعه جدعناه، ومن خصاه خصيناه» [أخرجه أبوداود والترمذي وقال: حسن غريب]، وخالفهم الجمهور فقالوا: لا يقتل الحر بالعبد، لأن العبد سلعة لو قتل خطأ لم تجب فيه دية، وإنما تجب فيه قيمته، وأنه لا يقاد بطرفه ففي النفس بطريق أولى.

وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر، لما ثبت في البخاري عن علي، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر» ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا، وأما أبو حنيفة فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة.

مسألة: قال الحسن وعطاء: لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية، وخالفم الجمهور لآية المائدة، ولقوله عليه السلام: «المسلمون تتكافأ دماؤهم» [أخرجه أبوداود والنسائي وابن ماجه وهو حسن]، وقال الليث: إذا قتل الرجل امرأته لا يقتل بها خاصة.

مسألة: ومذهب الأئمة الأربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد، قال عمر بن الخطاب في غلام قتله سبعة فقتلهم، وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة، وذلك كالإجماع. وقوله: ﴿**فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان**﴾ قال ابن عباس: فالعفو أن يَقبل الدية في العمد، وكذا روي عن أبي العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، [وغيرهم]، وقال ابن عباس أيضا: فمن ترك له من أخيه شيء يعني بعد أخذ الدية بعد استحقاق الدم، وذلك العفو، ﴿**فاتباع بالمعروف**﴾ يقول: فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قَبِل الدية، ﴿**وأداء إليه بإحسان**﴾ يعني من القاتل من غير ضرر، وعن ابن عباس: ويؤدي المطلوب بإحسان. وكذا قال سعيد بن جبير، والحسن، [وغيرهما].

مسألة: قال مالك رحمه الله في رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور، وأبو حنيفة وأصحابه، والشافعي في أحد قوليه: ليس لولي الدم أن يعفو على الدية إلا برضا القاتل: وقال الباقون: له أن يعفو عليها وإن لم يرض القاتل، وذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو، منهم الحسن، وقتادة، [وغيرهما]، وخالفهم الباقون. وقوله: ﴿**ذلك تخفيف من ربكم ورحمة**﴾ يقول تعالى: إنما شرع لكم أخذ الدية في العمد تخفيفاً من الله عليكم ورحمة بكم، مما كان محتوماً على الأمم قبلكم من القتل أو العفو، كما قال ابن عباس: كتب على بني إسرائيل القصاص في القتلى، ولم يكن فيهم العفو، فقال الله لهذه الأمة: ﴿**كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى، فمن عفى له من أخيه شيء**﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد ذلك تخفيف من ربكم ورحمة مما كتب على من كان قبلكم، فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان. وقال قتادة: ﴿**ذلك تخفيف من ربكم**﴾ رحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية، ولم تحل لأحد قبلهم فكان أهل التوراة إنما هو القصاص وعفو ليس بينهم أرش، وكان أهل الانجيل إنما هو عفو أمروا به، وجعل لهذه الأمة القصاصُ والعفو والأرش. وهكذا روي عن سعيد بن جبير، [وغيره] نحو هذا. وقوله: ﴿**فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم**﴾ يقول تعالى: فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها، فله عذاب من الله أليم موجع شديد، وكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، [وغيرهم]: أنه هو الذي يقتل بعد أخذ الدية. وقوله: ﴿**ولكم في القصاص حياة**﴾ يقول تعالى: وفي شَرْع القصاص لكم، وهو قتل القاتل حكمة عظيمة لكم، وهي بقاء المُهَج وصوَنْها؛ لأنه إذا علم القاتلُ أنه يقتل انكفّ عن صنيعه، فكان في ذلك حياة للنفوس، وفي الكتب المتقدمة: القتلُ أنْفَى للقتل. فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز. ﴿**ولكم في القصاص حياة**﴾ قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يُقتل. وكذا روي عن مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، [وغيرهم]، ﴿**يا أولي الألباب لعلكم تتقون**﴾ يقول: يا أولي العقول والأفهام والنّهى،

لعلكم تنزجرون فتتركون محارم الله ومآثمه، والتقوى: اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين، وقد كان ذلك واجباً على أصح القولين قبل نزول آية المواريث، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه، وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتماً من غير وصية ولا تحمل منَّة الموصي، ولهذا جاء في الحديث الذي في السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث» [أخرجه النسائي والترمذي وقال: حسن صحيح وابن ماجه]. وعن ابن عباس في قوله: ﴿الوصية للوالدين والأقربين﴾ قال: كان لا يرث مع الوالدين غيرهما إلا وصية للأقربين، فأنزل الله آية الميراث، فبيَّن ميراث الوالدين، وأقر وصية الأقربين في ثلث مال الميت، وروي عن ابن عمر، وأبي موسى، وسعيد بن المسيب، والحسن، ومجاهد، [وغيرهم]: أن هذه الآية منسوخة، نسختها آية الميراث. قال [الرزاي ومن المفسرين] من قال: إنها منسوخة فيمن يرث، ثابتة فيمن لا يرث، وهو مذهب ابن عباس، والحسن، ومسروق، وطاوس، والضحاك، ومسلم بن يسار، والعلاء بن زياد. قلت: وبه قال أيضاً سعيد بن جبير، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان. ولكن على قول هؤلاء لا يسمى هذا نسخاً في اصطلاحنا المتأخر، لأن آية الميراث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية، لأن الأقربين أعم ممن يرث وممن لا يرث، فرفع حكم من يرث بما عُينَ له، وبقي الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى. وهذا إنما يتأتى على قول بعضهم: إن الوصاية في ابتداء الإسلام إنما كانت نَدْباً حتى نُسخت. فأما من يقول: إنها كانت واجبة وهو الظاهر من سياق الآية، فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث كما قاله أكثرُ المفسرين والمعتبرين من الفقهاء، فإن وجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين منسوخ بالإجماع، بل منهي عنه للحديث المتقدم «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث» فآية الميراث حكم مستقل، ووجوب من عند الله لأهل الفروض والعصبات، رفع بها حُكْمُ هذه بالكلية، وبقي الأقارب الذين لا ميراث لهم، يستحب له أن يُوصى لهم من الثلث استئناساً بآية الوصية وشمولها، ولما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ «ما حق امرىء مسلم له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده». قال ابن عمر: ما مرت عليَّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندي وصيتي. والآيات والأحاديث بالأمر ببرّ الأقارب والإحسان إليهم كثيرة جداً. وقوله: ﴿إن ترك خيراً﴾ أي مالاً، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والسدي، وغيرهم، ثم منهم من قال: الوصية

مشروعة سواء قل المال أو كثر كالوراثة، ومنهم من قال: إنما يُوصي إذا ترك مالاً جزيلاً، ثم اختلفوا في مقداره، روى ابن أبي حاتم: عن عروة قال: قيل لعلي رضي الله عنه: إن رجلاً من قريش قد مات وترك ثلثمائة دينار أو أربعمائة ولم يوص؟ قال: ليس بشيء إنما قال الله ﴿إن ترك **خيراً**﴾. وعن ابن عباس: ﴿**إن ترك خيراً**﴾ قال ابن عباس: من لم يترك ستين ديناراً لم يترك خيراً، وقال طاوس: لم يترك خيراً من لم يترك ثمانين ديناراً، وقال قتادة: كان يقال: ألفاً فما فوقها. وقوله: ﴿**بالمعروف**﴾ أي بالرفق والإحسان. عن الحسن، قوله: ﴿**كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت**﴾ فقال: نَعَم، الوصية حق على كل مسلم أن يوصي إذا حضره الموت بالمعروف غير المُنكَر، والمراد بالمعروف: أن يوصي لأقربيه وصية لا تجحف بورثته، من غير إسراف ولا تقتير، كما ثبت في الصحيحين أن سعداً قال: يا رسول الله، إن لي مالاً ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأوصي بثلثي مالي؟ قال: «لا» قال: فبالشطر؟ قال «لا» قال: فالثلث؟ قال: «الثلث والثلث كثير، إنك إن تَذَرَ ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يكففون الناس». وفي صحيح البخاري أن ابن عباس قال: لو أن الناس غَضوا من الثلث إلى الربع، فإن رسول الله ﷺ قال «الثلث والثلث كثير». وقوله: ﴿**فمن بدله بعد ما سمعته فإنما إثمه على الذين يبدلونه**﴾ يقول تعالى: فمن بدّل الوصية وحرّفها، فغير حكمها وزاد فيها أو نقص، ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى ﴿**فإنما إثمه على الذين يبدلونه**﴾ قال ابن عباس وغير واحد: وقد وقع أجر الميت على الله، وتعلق الإثم بالذين بدلوا ذلك ﴿**إن الله سميع عليم**﴾ أي قد اطلع على ما أوصى به الميت وهو عليم بذلك وبما بدّله الموصى إليهم. وقوله تعالى: ﴿**فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً**﴾ قال ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، [وغيرهم]: الجَنَف: الخطأ، وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها بأن زاد وارثاً بواسطة أو وسيلة، كما إذا أوصى ببيعه الشيء الفلاني محاباة، أو أوصى لابن ابنته ليزيدَها أو نحو ذلك من الوسائل، إما مخطئاً غير عامد، بل بطبعه وقوة شفقته من غير تبصر، أو متعمداً آثماً في ذلك، فللوصي والحالة هذه، أن يصلح القضية ويعدلَ في الوصية على الوجه الشرعي، ويعدلَ عن الذي أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء إليه وأشبه الأمور به، جمعاً بين مقصود الموصي والطريق الشرعي، وهذا الإصلاح والتوفيق، ليس من التبديل في شيء، ولهذا عطف هذا على النهي عن ذلك، ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل، والله أعلم. وأحسن ما ورد في هذا الباب ما جاء عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعملُ بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف في وصيته، فيختم له بشر عمله، فيدخل النار. وإن الرجل ليعملُ بعَمَل أهل الشر سبعين سنة، فيعدل في وصيته، فيختم له بخير عمله، فيدخل الجنة». قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿**تلك** حدود الله فلا تعتدوها﴾ [البقرة: ٢٢٩] [رواه أبوداود والترمذي وقال: حسن صحيح غريب].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخاطباً للمؤمنين من هذه الأمة وآمراً لهم بالصيام، وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله عز وجل، لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة، وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم فلهم فيه أسوة، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك، كما قال تعالى: **﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات﴾** الآية [المائدة:٤٨]؛ ولهذا قال ههنا: **﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾** لأن الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان، ولهذا ثبت في الصحيحين: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءَة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» ثم بين مقدار الصوم وأنه ليس في كل يوم، لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه، بل في أيام معدودات. وقد كان هذا في ابتداء الإسلام، يصومون من كل شهر ثلاثة أيام، ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان كما سيأتي بيانه. وقد روي أن الصيام كان أولاً كما كان عليه الأمم قبلنا من كل شهر ثلاثة أيام عن معاذ، وابن مسعود، وابن عباس، وعطاء، وقتادة، والضحاك بن مزاحم. وزاد: لم يزل هذا مشروعاً من زمان نوح إلى أن نَسَخَ الله ذلك بصيام شهر رمضان. [وروي] عن الحسن البصري: **﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أياماً معدودات﴾** فقال: نعم، والله لقد كُتب الصيام على كل أمة قد خلت، كما كتب علينا شهراً كاملاً، وأياماً معدودات: عدداً معلوماً، وروي عن السدي نحوه. وعن ابن عباس: **﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾** يعني بذلك أهل الكتاب، وروي عن الشعبي والسدي وعطاء الخراساني مثله. ثم بين حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام فقال: **﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾** أي المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر، لما في ذلك من المشقة عليهما بل يفطران ويقضيان بعد ذلك من أيام أخر، وأما الصحيح المقيم الذي يُطيق الصيام فقد كان مخيراً بين الصيام وبين الإطعام، إن شاء صام وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير، وإن صام فهو أفضل من الإطعام، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وطاوس ومقاتل بن حيان وغيرهم من السلف، ولهذا قال تعالى: **﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾**. وروى الإمام أحمد: عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: أحيل الصيام ثلاثة أحوال؛ فإن رسول الله ﷺ، قدم المدينة

فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وصام عاشوراء، ثم إن الله فرض عليه الصيام، وأنزل الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم**﴾ إلى قوله ﴿**وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين**﴾ فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكينا، فأجزأ ذلك عنه، ثم إن الله عز وجل أنزل الآية الأخرى ﴿**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن**﴾ إلى قوله ﴿**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾ فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورخص فيه للمريض والمسافر، وثبت الإطعام للكبير الذي لايستطيع الصيام، فهذان حالان، قال: وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا، ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له صِرْمة، كان يعمل صائماً حتى أمسى فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام، فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح فأصبح صائماً، فرآه رسول الله وقد جهد جهداً شديداً، فقال «ما لي أراك قد جهدت جهداً شديداً؟» قال: يا رسول الله، إني عملت أمس فجئت حين جئت، فألقيت نفسي فنمت، فأصبحت صائماً، قال: وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿**أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم - إلى قوله - ثم أتموا الصيام إلى الليل**﴾ وأخرجه أبو داود في سننه، والحاكم في مستدركه [وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ولهذه الأحوال ما يؤيدها في الصحيح]، وقد أخرج البخاري ومسلم عن عائشة أنها قالت: كان عاشوراء يصام، فلما نزل فرض رمضان، كان من شاء صام ومن شاء أفطر، وروى البخاري عن ابن عمر وابن مسعود مثله.

وقوله تعالى: ﴿**وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين**﴾ كما قال معاذ رضي الله عنه: كان في ابتداء الأمر من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً، وهكذا روى البخاري عن سلمة بن الأكوع أنه قال: لما نزلت ﴿**وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين**﴾: كان من أراد أن يفطر يفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها. ورَوَى أيضاً عن ابن عمر قال: هي منسوخة، وعن عبد الله، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿**وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين**﴾ قال: يقول: ﴿**وعلى الذين يطيقونه**﴾ أي يتجشمونه، قال عبد الله: فكان من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً ﴿**فمن تطوع**﴾ قال: يقول: أطعم مسكيناً آخر ﴿**فهو خير له وأن تصوموا خير لكم**﴾ فكانوا كذلك حتى نسختها ﴿**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾. وروى البخاري عن ابن عباس: [أنه كان] يقرأ ﴿**وعلى الذين يطوَّقونه فدية طعام مسكين**﴾ قال ابن عباس: ليست منسوخة، هو للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً. وعن ابن أبي ليلى، قال: دخلت على عطاء في رمضان وهو يأكل، فقال: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية ﴿**وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين**﴾ فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً، ثم نزلت هذه الآية فنسخت الأولى، إلا الكبير الفاني إن شاء أطعم عن كل يوم مسكيناً وأفطر.

فحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله **﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾** وأما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام، فله أن يفطر ولاقضاء عليه، لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء، ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكيناً إذا كان ذا جدة؟ فيه قولان للعلماء: أحدهما لا يجب عليه إطعام لأنه ضعيف عنه لسنّه، فلم يجب عليه فدية كالصبي، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها وهو أحد قولي الشافعي. والثاني، وهو الصحيح وعليه أكثر العلماء: أنه يجب عليه فدية عن كل يوم، كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ **﴿وعلى الذين يطوقونه﴾** أي يتجشمونه، كما قاله ابن مسعود وغيره، هو اختيار البخاري فإنه قال: وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم أنس بعد أن كبر عاماً أو عامين كل يوم مسكيناً خبزاً ولحماً، وأفطر. ومما يلتحق بهذا المعنى: الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما، ففيهما خلاف كثير بين العلماء، فمنهم من قال: تفطران وتفديان وتقضيان، وقيل: يفديان فقط ولا قضاء، وقيل: يجب القضاء بلا فدية، وقيل: تفطران ولا فدية ولاقضاء.

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾.

يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم فيه، وكما اختصه بذلك قد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء. وأما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل، فنزل كل منها على النبي الذي أنزل عليه جملة واحدة، وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه، كما قال تعالى: **﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾** [القدر: ١]. ثم نزل بعده مفرقاً بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ. هكذا روي من غير وجه عن ابن عباس. ففي رواية عكرمة عن ابن عباس، قال: نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر، إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة، وكان الله يُحْدثُ لنبيه ما يشاء، ولا يجيء المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه، وذلك قوله: **﴿وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾** [الفرقان: ٣٢ـ٣٣]. وقوله: **﴿هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾** هذا مدح للقرآن الذي أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه **﴿وبينات﴾** أي دلائل وحُجَج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبّرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال، والرشد المخالف للغي، ومفرقاً بين الحق والباطل والحلال والحرام. وقوله: **﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾** هذا إيجاب حَتْم على من شهد استهلال الشهر، أي كان مقيماً في

البلد حين دخل شهر رمضان، وهو صحيح في بدنه أن يصوم لا محالة، ونَسَخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيماً أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم كما تقدم بيانه، ولما حتَّم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر في الإفطار بشرط القضاء، فقال ﴿**ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر**﴾ معناه: ومن كان به مرض في بدنه يَشُقّ عليه الصيام معه أو يؤذيه، أو كان على سفر، أي في حال سفر، فله أن يفطر، فإذا أفطر فعليه بعدة ما أفطره في السفر من الأيام؛ ولهذا قال: ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾ أي إنما رَخَّص لكم في الفطر في حال المرض والسفر مع تحتمه في حق المقيم الصحيح، تيسيراً عليكم ورحمة بكم.

وههنا مسائل تتعلق بهذه الآية:

[منها]: ذهب [جمع] من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار في السفر لقوله ﴿**فعدة من أيام أخر**﴾ والصحيح قول الجمهور أن الأمر في ذلك على التخيير وليس بحتم، لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان، قال: «فَمنا الصائم ومنا المفطر، فلم يعب الصائمُ على المفطر، ولا المفطر على الصائم» [أخرجه مسلم]. لو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام، بل الذي ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان في مثل هذه الحالة صائماً لما ثبت في الصحيحين عن أبي الدرداء، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة.

[ومنها]: قالت طائفة منهم الشافعي: الصيام في السفر أفضل من الإفطار لفعل النبي ﷺ كما تقدم، وقالت طائفة: بل الإفطار أفضل أخذاً بالرخصة، ولما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن الصوم في السفر، فقال: «من أفطر فحسن، ومن صام فلا جناح عليه» [أخرجه مسلم]. وقالت طائفة: هما سواء لحديث عائشة: أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال: يا رسول الله، إني كثير الصيام أفأصوم في السفر؟ فقال: «إن شئت فصم، وإن شئت فأفطر» وهو في الصحيحين. وقيل: إن شق الصيام فالإفطار أفضل، لحديث جابر: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد ظُلِّلَ عليه فقال: «ما هذا»؟ قالوا: صائم، فقال «ليس من البر الصيام في السفر» أخرجاه، فأما إن رغب عن السنة ورأى أن الفطر مكروه إليه، فهذا يتعين عليه الإفطار، ويحرم عليه الصيام، والحالة هذه.

[ومنها]: القضاء هل يجب متتابعاً أو يجوز فيه التفريق، فيه قولان: أحدهما: أنه يجب التتابع، لأن القضاء يحكى الأداء. والثاني: لا يجب التتابع بل إن شاء فرق وإن شاء تابع، وهذا قول جمهور السلف والخلف، وعليه ثبتت الدلائل لأن التتابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر، فأما بعد انقضاء رمضان، فالمراد صيام أيام عدَّةَ ما أفطر. ولهذا قال

تعالى: ﴿فعدة من أيام أخر﴾ ثم قال تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾. عن أنس بن مالك يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «يسروا ولا تعسروا، وسكِّنُوا ولا تُنفِّروا» أخرجاه في الصحيحين. ومعنى قوله: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة﴾ أي إنما أرْخَصَ لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر، وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم. وقوله: ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ أي ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال: ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقال ﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعوداً وعلى جنوبكم ...﴾ [النساء: ١٠٣]. ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات، وقال ابن عباس: «ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير» [متفق عليه]، ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية: ﴿ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ حتى ذهب داود بن علي الأصبهاني الظاهري إلى وجوبه في عيد الفطر لظاهر الأمر في قوله: ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ وفي مقابلته مذهب أبي حنيفة رحمه الله أنه لا يُشْرَع التكبير في عيد الفطر، والباقون على استحبابه، على اختلاف في تفاصيل بعض الفروع بينهم. وقوله: ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده، فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

عن عطاء أنه بلغه لما نزلت: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ [غافر: ٦٠] قال الناس: لو نعلم أي ساعة ندعو؟ فنزلت: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ﴾. وروى الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غَزَاة، فجعلنا لا نصعد شَرَفاً ولا نعلو شرفاً، ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير. قال: فدنا منا، فقال: «يا أيها الناس، اربعُوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته، يا عبد الله بن قيس، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله» أخرجاه في الصحيحين. وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة: أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: «قال الله أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه» [وسنده ثقات وعلقه البخاري مجزوماً به].

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ [النحل: ١٢٨]، وكقوله لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾ [طه: ٤٦]. والمراد من هذا: أنه تعالى لا يخيب دعاء داع، ولا يشغله عنه شيء، بل هو سميع الدعاء. وفيه ترغيب في الدعاء، وأنه لا يضيع لديه تعالى. وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد[الخدري]: أن

النبي ﷺ، قال: «ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجِّل له دعوته، وإما أن يَدَّخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها» قالوا: إذاً نكثر؟ قال: «الله أكثر» [رجاله ثقات]، وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «يُستجاب لأحدكم مالم يَعْجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي» أخرجاه في الصحيحين. وهذا لفظ البخاري رحمه الله وأثابه الجنة، وروى مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، أنه قال: «لا يزال يستجاب للعبد مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم مالم يستعجل» قيل: يا رسول الله، وما الاستعجال؟ قال: «يقول: قد دعوت، وقد دعوت، فلم أرَ يستجابُ لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء». وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء، متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلى الإجتهاد في الدعاء عند إكمال العِدّة، بل وعندَ كل فطر. روى ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو، قال: قال النبي ﷺ: «إن للصائم عند فطره دعوة ما تُرَد». قال عبد الله بن أبي مليكة: سمعت عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر: اللهم إني أسألك برحمتك التي وَسِعَتْ كل شيء أن تغفر لي. [وهو حسن بشواهده]، وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم، يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة ويفتح لها أبواب السماء، يقول: بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين» [وقال الترمذي: حسن].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)﴾.

هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين، ورَفْع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة. فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة. والرفث هنا هو: الجماع. قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن وقتادة، [وغيرهم]، وقوله: ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، [وغيرهم]: يعني هن سكن لكم وأنتم سكن لهن، وقال الربيع بن أنس: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن، وحاصله: أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه، فناسب أن يرخص لهم في المجامعة في ليل رمضان لئلا يشق ذلك عليهم ويحرجوا.

وكان السبب في نزول هذه الآية كما تقدم في حديث معاذ الطويل. وروى البخاري عن البراء، قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون

أنفسهم، فأنزل الله: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم﴾ وعن ابن عباس، قال: كان المسلمون في شهر رمضان إذا صلوا العشاء، حُرِم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم إن أناساً من المسلمين أصابوا من النساء والطعام في شهر رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن﴾. وهكذا روي عن مجاهد، وعطاء، [وغيرهما] في سبب نزول هذه الآية في عمر بن الخطاب ومن صنع كما صنع، وفي صِرْمة بن قيس، فأباح الجماعَ والطعام والشراب في جميع الليل رحمة ورخصة ورفقاً.

وقوله: ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ قال أبو هريرة، وابن عباس، وأنس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وغيرهم: يعني الولد: وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ يعني: الجماع، وعن ابن عباس: قال: ليلة القدر. وقال قتادة: ابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم. وعن عطاء بن أبي رباح، قال: قلت لابن عباس: كيف تقرأ هذه الآية ﴿وابتغوا﴾ أو «اتبعوا»؟ قال: أيتهما شئت، عليك بالقراءة الأولى، واختار ابن جرير أن الآية أعم من هذا كله.

وقوله: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ أباح تعالىٰ الأكل والشرب مع ما تقدم من إباحة الجماع في أي الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل، وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود، ورفع اللبس بقوله: ﴿من الفجر﴾، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الله البخاري عن سهل بن سعد، قال: أنزلت ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ ولم ينزل ﴿من الفجر﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد ﴿من الفجر﴾ فعلموا أنما يعني الليل والنهار. وروى الإمام أحمد عن عدي بن حاتم قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ عمدت إلى عقالين: أحدهما أسود والآخر أبيض، قال: فجعلتهما تحت وسادتي، قال: فجعلت أنظر إليهما، فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله فأخبرته بالذي صنعت، فقال: «إن وسادك إذا لعريض إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل» أخرجاه في الصحيحين. ومعنى قوله: «إن وسادك إذا لعريض» أي إن كان ليسع لوضع الخيطين: الخيط الأسود والخيط الأبيض المرادين من هذه الآية تحتها، فإنهما بياض النهار وسواد الليل، فيقتضي أن يكون بعرض المشرق والمغرب. وفي إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل عى استحباب السُّحور لأنه من باب الرخصة والأخذ بها محبوب؛ ولهذا وردت السنة

الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السحور ففي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «تسحروا فإن في السُّحور بركة». وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «إن فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السَّحَر». وقد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة ماء تشبهاً بالآكلين، ويستحب تأخيره إلى وقت انفجار الفجر، كما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك، عن زيد بن ثابت قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة، قال أنس: قلت لزيد: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية. وقد رُوي عن طائفة كثيرة من السلف، أنهم تسامحوا في السحور عند مقاربة الفجر. روي مثل هذا عن أبي بكر، وعمر، وعلي، وعن طائفة كثيرة من التابعين. وقد ورد في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمنعكم أذان بلال عن سَحُوركم، فإنه ينادي بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر». وعن عطاء: سمعت ابن عباس يقول: هما فجران، فأما الذي يسطع في السماء فليس يحل ولا يحرم شيئاً، ولكن الفجر الذي يستبين على رؤوس الجبال هو الذي يحرم الشراب، وقال عطاء: فأما إذا سطع سطوعاً في السماء، وسطوعه أن يذهب في السماء طولاً، فإنه لا يحرم به شراب الصائم ولا صلاة، ولا يفوت به الحج، ولكن إذا انتشر على رؤوس الجبال، حرم الشراب للصيام وفات الحج. وهذا إسناده صحيح إلى ابن عباس وعطاء، وهكذا روي عن غير واحد من السلف رحمهم الله.

مسألة: ومِن جَعْلِهِ تعالى الفجرَ غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام، يُسْتَدل على أنه من أصبح جُنُباً فليغتسل، وليتم صومه ولا حرج عليه. وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً، لما رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أنهما قالتا: كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً من جماع غير احتلام ثم يغتسل ويصوم وفي حديث أم سلمة عندهما: ثم لا يفطر ولا يقضي.

وقوله: ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ يقتضي الإفطار عند غروب الشمس حكماً شرعياً، كما جاء في الصحيحين عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من ههنا، وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم». وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر» أخرجاه أيضا، وروى الإمام أحمد والترمذي وحسنه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «يقول الله عز وجل: إن أحب عبادي إليّ أعجلهم فطراً».

ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة النهي عن الوصال، وهو أن يصل يوم بيوم آخر ولا يأكل بينهما شيئاً، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تواصلوا» قالوا: يارسول الله إنك تواصل، قال: «فإني لست مثلكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني». قال: فلم

ينتهوا عن الوصال، فواصل بهم النبي ﷺ يومين وليلتين ثم رأوا الهلال، فقال: «لو تأخر الهلال لزدتكم» كالمُنَكِّل بهم. وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل، قال: «إني لست كهيئتكم إني يطعمني ربي ويسقيني» [متفق عليه]. فقد ثبت النهي عنه من غير وجه وثبت أنه من خصائص النبي ﷺ وأنه كان يقوى على ذلك ويعان، والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنوياً لا حسياً، وإلا فلا يكون مواصلاً مع الحسي، ولكن كما قال الشاعر:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد

وأما من أحب أن يُمْسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر». أخرجاه في الصحيحين أيضاً. وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن الزبير وغيره من السلف: أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة، وحمله منهم على أنهم كانوا يفعلون ذلك رياضة لأنفسهم، لا أنهم كانوا يفعلونه عبادة، والله أعلم. ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهي أنه إرشاد أي من باب الشفقة، كما جاء في حديث عائشة: «رحمة لهم»، فكان ابن الزبير وابنه عامر ومن سلك سبيلهم يتجشمون ذلك ويفعلونه، لأنهم كانوا يجدون قوة عليه، وقد ذكر عنهم أنهم كانوا أول ما يفطرون على السمن والصَّبِر لئلا تتخرق الأمعاء بالطعام أولاً. وقد رُوي عن ابن الزبير أنه كان يواصل سبعة أيام ويصبح في اليوم السابع أقواهم وأجلدهم. وقال أبو العالية: إنما فرض الله الصيام بالنهار، فإذا جاء بالليل فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل.

وقوله تعالى: ﴿**ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد**﴾ عن ابن عباس: هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان، فحرّم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً حتى يقضي اعتكافه. وقال الضحاك: كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد، جامع إن شاء، فقال الله تعالى: ﴿**ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد**﴾ أي لا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجد ولا في غيره. وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد: أنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت هذه الآية، قال ابن أبي حاتم: روي عن ابن مسعود، ومحمد بن كعب، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وقتادة، والضحاك، والسدي، والربيع بن أنس، ومقاتل قالوا: لا يقربها وهو معتكف. وهذا الذي حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء: أن المعتكف يحرمُ عليه النساء ما دام معتكفاً في مسجده، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يتلبَّث فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك، من قضاء الغائط أو أكل، وليس له أن يقبل امرأته ولا يضمها إليه، ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه، ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مار في طريقه. والفقهاء المصنفون يُتْبِعون كتابَ الصيام بكتاب الاعتكاف اقتداء بالقرآن العظيم، فإنه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم. وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام

إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر الصيام، كما ثبتت في السنة عن رسول الله ﷺ أنه كان يعتكف العشرَ الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله عز وجل، ثم اعتكف أزواجه من بعده، أخرجاه من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. ثم المراد بالمباشرة: إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل ومعانقة ونحو ذلك، فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به، فقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يدني إلي رأسه فأرجله وأنا حائض، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان، قالت عائشة: ولقد كان المريض يكون في البيت، فما أسأل عنه، إلا وأنا مارة. وقوله: ﴿**تلك حدود الله**﴾ أي هذا الذي بيناه، وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه، وما أبحنا فيه وما حرمنا، وذِكْر غاياته ورخصه وعزائمه. حدود الله: أي شرعها الله وبيَّنها بنفسه، ﴿**فلا تقربوها**﴾ أي لا تجاوزوها وتعتدوها. وكان الضحاك ومقاتل يقولان في قوله: ﴿**تلك حدود الله**﴾ أي المباشرة في الاعتكاف، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني هذه الحدود الأربعة، ويقرأ ﴿**أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ـ حتى بلغ ـ ثم أتموا الصيام إلى الليل**﴾ قال: وكان أبي وغيره من مَشْيَختنا يقولون هذا ويتلونه علينا. ﴿**كذلك يبين الله آياته للناس**﴾ أي كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله، كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿**للناس لعلهم يتقون**﴾ أي يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون، كما قال تعالى: ﴿**هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم**﴾ [الحديد: ٩].

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

قال ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بَيِّنة، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام. وكذا روي عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسدي، [وغيرهم] أنهم قالوا: لا تُخاصم وأنت تعلمُ أنَّك ظالم. وقد ورد في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إنما أنا بشر وإنما يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من نار فَلْيَحملْها أو ليذَرْها». فدلت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يحل في نفس الأمر حراماً هو حرام، ولا يحرم حلالاً هو حلال، وإنما هو يلزم في الظاهر، فإن طابق في نفس الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**ولا تأكلوا أمولكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون**﴾ أي تعلمون بطلان ما تدعونه وتروجونه في كلامكم، قال قتادة: اعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضي لا يحل لك حراماً

ولا يُحقُّ لك باطلاً، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرى ويشهد به الشهود، والقاضي بَشَر يخطىء ويصيب، واعلموا أن من قُضي له بباطل أنَّ خصومته لم تَنْقَض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضي على المبطل للمحق بأجودَ مما قضى به للمبطل على المحق في الدنيا.

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾.

عن ابن عباس: سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة، فنزلت هذه الآية: ﴿**يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج**﴾ يعلمون بها حِلَّ دَيْنِهم، وعدة نسائهم، ووقت حَجِّهم، وعن أبي العالية: بلغنا أنهم قالوا: يا رسول الله ﷺ لم خُلِقت الأهلة ؟ فأنزل الله: ﴿**يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس**﴾ يقول: جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نسائهم ومحل دَيْنهم، كذا رُوي عن عطاء، وقتادة، [وغيرهما] نحو ذلك؛ وعن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ «جعل الله الأهلة مواقيت للناس، فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فعُدُّوا ثلاثين يوماً» رواه الحاكم في مستدركه وهو صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقوله: ﴿**وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها**﴾ روى البخاري عن البراء، قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية، أتَوْا البيت من ظهره فأنزل الله: ﴿**وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها**﴾. وعن البراء، قال: كانت الأنصار إذا قدموا من سَفَر، لم يدخل الرجل من قبل بابه، فنزلت هذه الآية، وعن جابر: كانت قريش تدعى الحُمْس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينا رسول الله ﷺ في بستان، إذ خرج من بابه، وخرج معه قطبة بن عامر من الأنصار فقالوا: يا رسول الله، إن قطبة بن عامر رجل تاجر، وإنه خرج معك من الباب، فقال له: ما حملك على ما صنعت ؟ قال: رأيتك فعلته، ففعلت كما فعلت، فقال: إني أحمس، قال له: فإن ديني دينك. فأنزل الله ﴿**وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها**﴾ [أخرجه الحاكم وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي]. وكذا روي عن مجاهد، والزهري، وقتادة، وإبراهيم النخعي، والسدي، والربيع بن أنس. وقوله: ﴿**واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾ أي اتقوا الله، فافعلوا ما أمركم به، واتركوا ما نهاكم عنه ﴿**لعلكم تفلحون**﴾غداً إذا وقفتهم بين يديه فيجازيكم بأعمالكم على التمام والكمال.

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾.

عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم**﴾ قال: هذه أول آية

نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عمن كف عنه، حتى نزلت سورة براءة، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، حتى قال: هذه منسوخة بقوله: ﴿**فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم**﴾ [التوبة:٥] وفي هذا نظر، لأن قوله ﴿**الذين يقاتلونكم**﴾ إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله، أي كما يقاتلونكم فقاتلوهم أنتم، كما قال: ﴿**وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة**﴾ [التوبة:٣٦]؛ ولهذا قال في هذه الآية: ﴿**واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم**﴾ أي لتكون همتكم منبعثة على قتالهم، كما أن همتهم منبعثة على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصاً. وقد حكي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن أول آية نزلت في القتال بعد الهجرة ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا**﴾ [الحج:٣٩] وهو الأشهر وبه ورد الحديث. وقوله: ﴿**ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**﴾ أي قاتلوا في سبيل الله، ولا تعتدوا في ذلك ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي، كما قاله الحسن البصري: من المُثلة، والغُلُول، وقتل النساء والصبيان والشيوخ، الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم، ولهذا جاء في صحيح مسلم، عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اغزوا في سبيل الله ،قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلّوا ولا تَغْدروا ولا تُمَثِّلوا ولا تقتلوا وليداً ولا أصحاب الصوامع». وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: وجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان. وروى الإمام أحمد عن حذيفة قال: ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالاً: واحداً وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر، فضرب لنا رسول الله ﷺ منها مثلاً وترك سائرَها، قال: «إن قوماً كانوا أهل ضَعْف ومسكنة قاتلهم أهلُ تجبر وعداء، فأظهر الله أهل الضعف عليهم، فعمدوا إلى عَدُوهم فاستعملوهم وسلطوهم، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه» هذا حديث حسن الإسناد، ومعناه أن هؤلاء الضعفاء لما قدروا على الأقوياء فاعتدوا عليهم واستعملوهم فيما لا يليق بهم، أسخطوا الله عليهم بسبب هذا الاعتداء، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً.

ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتلُ الرجال، نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم وأطَم من القتل؛ ولهذا قال: ﴿**والفتنة أشد من القتل**﴾ قال أبو مالك: أي ما أنتم مقيمون عليه أكبر من القتل. وقال أبو العالية ومجاهد وقتادة [وغيرهم]: الشرك أشد من القتل. وقوله: ﴿**ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام**﴾ كما جاء في الصحيحين «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار وإنها ساعتي هذه، حَرَام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعْضَد شجره، ولا يختلى خلاه، فإن أحد ترخص بقتال

رسول الله ﷺ، فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم». يعني بذلك صلوات الله وسلامه عليه قتاله أهلها يوم فتح مكة، فإنه فتحها عنوة. وقوله: ﴿**حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين**﴾ يقول تعالى: ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدؤوكم بالقتال فيه، فلكم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعاً للصيال، كما بايع النبي ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال، لما تألبت عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحابيش عامئذ، ثم كف الله القتال بينهم فقال: ﴿**وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم**﴾ [الفتح: ٢٤]. وقوله: ﴿**فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم**﴾ أي فإن تركوا القتال في الحرم، وأنابوا إلى الإسلام والتوبة، فإن الله يغفر ذنوبهم ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله، فإنه تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه، ثم أمر تعالى بقتال الكفار ﴿**حتى لا تكون فتنة**﴾ أي: شرك قاله ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والحسن، [وغيرهم] ﴿**ويكون الدين لله**﴾ أي يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». وفي الصحيحين «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله».

وقوله: ﴿**فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين**﴾ يقول تعالى: فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين، فكُفُّوا عنهم، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين، وهذا معنى قول مجاهد: أن لا يُقَاتَل إلا من قاتل. أو يكون تقديره فإن انتهوا فقد تَخَلَّصوا من الظلم وهو الشرك، فلا عدوان عليهم بعد ذلك، والمراد بالعدوان ههنا المعاقبة والمقاتلة كقوله: ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم**﴾. ولهذا قال عكرمة وقتادة: الظالم الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله، وروى البخاري عن ابن عمر قال: أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس ضيعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبي ﷺ فما يمنعك أن تخرج ؟ قال: يمنعني أن الله حرم دم أخي، قالا: ألم يقل الله: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة**﴾ ؟ قال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله.

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾.

عن ابن عباس، والسدي، وقتادة وغيرهم: لما سار رسول الله ﷺ، معتمراً في سنة ست من الهجرة، وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت وصدّوه بمن معه من المسلمين، في ذي القعدة وهو شهر حرام، حتى قاضاهم على الدخول من قابل، فدخلها في السنة الآتية

هو ومن كان معه من المسلمين، وأقَصه الله منهم، فنزلت في ذلك هذه الآية: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾ وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله، قال: لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام، إلا أن يُغْزى ويُغْزَوا، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ. هذا إسناده صحيح؛ ولهذا لما بلغ النبي ﷺ، وهو مُخَيِّم بالحديبية أن عثمان قد قتل، وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين، بايع أصحابه وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة، على قتال المشركين، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل، كف عن ذلك، وجنح إلى المسالمة والمصالحة، فكان ما كان. وكذلك لما فرغ من قتال هَوازِن يوم حنين، وتَحَصَّن فَلُّهُم بالطائف، عَدَل إليها فحاصرها، ودخل ذو القعدة وهو محاصرها بالمنجنيق، واستمر عليها إلى كمال أربعين يوماً كما ثبت في الصحيحين عن أنس. فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تُفْتَح، ثم كر راجعاً إلى مكة واعتمر من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين، وكانت عُمْرته هذه في ذي القعدة أيضاً، عام ثمان صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ أمر بالعدل حتى في المشركين، كما قال: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ [النحل:١٢٦]. وقال: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ [الشورى:٤٠]. وعن ابن عباس أن قوله: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ نزلت بمكة حيث لا شوكة ولا جهاد، ثم نسخ بآية القتال بالمدينة، وقد رَدَّ هذا القول ابن جرير، وقال: بل الآية مدنية بعد عمرة القَضِيَّة وعزا ذلك إلى مجاهد رحمه الله، وقد أطلق هٰهنا الإعتداء على الإقتصاص من باب المقابلة. وقوله: ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أمْرٌ لهم بطاعة الله وتقواه، وإخبارٌ بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة.

﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

روى البخاري عن حذيفة: ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ قال: نزلت في النفقة. وروي عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن [وغيرهم] نحو ذلك، وعن أسلم أبي عمران قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرَقه، ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب نحن أعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا، صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر، اجتمعنا معشر الأنصار نَجِياً، فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونَصْرِه، حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا، فنقيم فيهما. فنزل فينا: ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾، فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد. رواه أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم في مستدركه، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، وقال الحاكم على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وعن أبي إسحاق السبيعي، قال: قال رجل للبراء بن عازب،

إن حملت على العدو وحدي فقتلوني، أكنت ألقيت بيدي إلى التهلكة ؟ قال: لا، قال الله لرسوله: **﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾** [النساء:٨٤]، وإنما هذه في النفقة. وعن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: أن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، أخبره: أنهم حاصروا دمشق، فانطلق رجل من أزد شنوءة، فأسرع إلى العدو وحده ليستقبل، فعاب ذلك عليه المسلمون، ورفعوا حديثه إلى عمرو بن العاص، فأرسل إليه عمرو فَرَدّه، وقال عمرو: قال الله: **﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** وعن ابن عباس، في قوله تعالى: **﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾**، قال: ليس ذلك في القتال، إنما هو في النفقة أن تمسك بيدك عن النفقة في سبيل الله، ولا تلق بيدك إلى التهلكة. وقال الحسن البصري: **﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** قال: هو البخل، وعن النعمان بن بشير، في قوله: **﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** أن يذنب الرجل الذنب فيقول: لا يغفر لي، فأنزل الله: **﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾**. ورُوي عن عَبيدَة السلماني والحسن وابن سيرين وأبي قلابة نحو ذلك، يعني: نحو قول النعمان بن بشير، إنها في الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يغفر له، فيلقي بيده إلى التهلكة، أي يستكثر من الذنوب فيهلك. ولهذا رَوَى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: التهلكة عذاب الله. وعن القُرَظي، أنه كان يقول في هذه الآية: **﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** قال: كان القوم في سبيل الله، فيتزود الرجل، فكان أفضل زاداً من الآخر، أنفق البائس من زاده حتى لا يبقى من زاده شيء، أحب أن يواسي صاحبه فأنزل الله: **﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** وعن زيد بن أسلم في قول الله: **﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** وذلك أن رجالاً يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله ﷺ، بغير نفقة، فإما أن يُقْطَعُ بهم وإما كانوا عيالاً، فأمرهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، والتهلكة أن يهلك رجال من الجوع أو العطش أو من المشي. وقال لمن بيده فضل: **﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾**. ومضمون الآية: الأمر بالإنفاق في سبيل الله، في سائر وجوه القُرُبات ووجوه الطاعات، وخاصة صرفَ الأموال في قتال الأعداء، وبذلَها فيما يَقْوَى به المسلمون على عدوهم، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار إن لزمه واعتاده، ثم عطف بالأمر بالإحسان، وهو أعلى مقامات الطاعة، فقال: **﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾**.

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى أحكام الصيام، وعَطَفَ بذكر الجهاد، شَرَعَ في بيان المناسك فأمر بإتمام

الحجّ والعمرة، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما، ولهذا قال بعده: ﴿فإن أحصرتم﴾ أي صُدِدْتم عن الوصول إلى البيت، ومنعتم من إتمامهما، ولهذا اتفق العلماء، على أن الشروع في الحج والعمرة مُلْزِمٌ، وعن علي أنه قال في هذه الآية: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ قال: أن تُحْرِم من دويرة أهلك، وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس، وعن سفيان الثوري أنه قال في هذه الآية: إتمامهما أن تحرم من أهلك، لا تريد إلا الحج والعمرة وتهل من الميقات، ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة، حتى إذا كنت قريباً من مكة، قلت لو حججت أو اعتمرت، وذلك يجزيء، ولكن التمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره، وقال مكحول: إتمامهما إنشاؤهما جميعاً من الميقات، وعن الزهري، قال: بلغنا أن عمر قال في قول الله: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ من تمامهما أن تُفرد كل واحد منهما من الآخر، وأن تعتمر في غير أشهر الحج، إن الله تعالى يقول: ﴿الحج أشهر معلومات﴾. وعن القاسم بن محمد قال: إن العمرة في أشهر الحج ليست بتامة، فقيل له: فالعمرة في المحرم ؟ قال: كانوا يرونها تامة، وكذا روي عن قتادة بن دعامة رحمهما الله. وهذا القول فيه نظر؛ لأنه قد ثبت أن رسول الله ﷺ، اعتمر أربع عُمَرٍ، كلها في ذي القعدة، عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ست، وعمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، وعمرة الجعرّانة في ذي القعدة سنة ثمان وعمرته التي مع حجته أحرم بهما معاً في ذي القعدة سنة عشر، وما اعتمر قَطّ في غير ذلك بعد هجرته، ولكن قال لأم سنان: «عمرة في رمضان تعدل حجة معي»، وما ذاك إلا لأنها قد عزمت على الحج معه عليه السلام، فاعتاقت عن ذلك، كما هو مبسوط في الحديث عند البخاري.

وقال السدي في قوله: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ أي أقيموا الحج والعمرة، وعن ابن عباس في قوله: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾، يقول: من أحرم بحج أو بعمرة، فليس له أن يحل، حتى يتمهما تمام الحج، يوم النحر إذا رمى جمرة العقبة، وطاف بالبيت وبالصفا والمروة فقد حل. وقرأ الشعبي: ﴿وأتموا الحج والعمرةُ لله﴾ برفع العمرة، وقال: ليست بواجبة. وروي عنه خلاف ذلك. وقد وردت أحاديث كثيرة من طرق متعددة، عن أنس وجماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ، جَمَع في إحرامه بحج وعمرة، وثبت عنه في الصحيح [أي صحيح مسلم] أنه قال لأصحابه: «من كان معه هَدْي فليهل بحج وعمرة»، وقال في الصحيح أيضاً: «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة».

وقوله: ﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي﴾ ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست، أي عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت، وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكمالها، وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدي، وكان سبعين بدنة، وأن يتحللوا من إحرامهم، فعند ذلك أمرهم عليه السلام أن يحلقوا رؤوسهم وأن يتحللوا، فلم يفعلوا انتظاراً للنسخ حتى خرج فحلق رأسه ففعل الناس، وكان منهم من قَصّر

رأسه ولم يحلقه، فلذلك قال ﷺ «رَحِم الله المُحَلِّقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله ؟ فقال في الثالثة: «والمقصرين»، وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك كُلُّ سبعة في بَدَنة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم، وقيل بل كانوا على طَرف الحرم، فالله أعلم. ولهذا اختلف العلماء: هل يختص الحصر بالعدو فلا يتحلل إلا من حصره عدو، لا مرض ولا غيره؟ على قولين: فعن ابن عباس، أنه قال: لا حصر إلا حصرُ العدو، فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شيء، إنما قال الله تعالى: ﴿فإذا أمنتم﴾ فليس الأمن حصراً، وروي عن ابن عمر والزهري وغيرهما نحو ذلك، والقول الثاني: أن الحصر أعم من أن يكون بعدو أو مرض أو ضلال، وهو التَّوَهان عن الطريق أو نحو ذلك، لما روى الإمام أحمد عن عكرمة عن الحجاج بن عمرو الأنصاري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «من كُسِر أو عَرِج فقد حل، وعليه حجة أخرى» قال: فذكرت ذلك لابن عباس وأبي هريرة فقالا: صدق، وأخرجه أصحاب الكتب الأربعة. وروي عن ابن مسعود وابن الزبير وعلقمة وسعيد بن المسيب ومجاهد والنخعي وغيرهم أنهم قالوا: الإحصار من عدو أو مرض أو كسر. وقال الثوري: الإحصار من كل شيء آذاه. وثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ دخل على ضُبَاعة بنت الزبير بنِ عبد المطلب، فقالت: يا رسول الله إني أريد الحج وأنا شاكية، فقال «حُجِّي واشترطي أنَّ مَحِلِّي حيثُ حَبَسْتَنِي». فذهب من ذهب من العلماء إلى صحة الاشتراط في الحج لهذا الحديث. وقوله: ﴿فما استيسر من الهدي﴾ عن علي بن أبي طالب، أنه كان يقول: ﴿فما استيسر من الهدي﴾ شاة. وقال ابن عباس: الهَدْي من الأزواج الثمانية: من الإبل والبقر والمعز والضأن. وعن ابن عباس أيضا في قوله: ﴿فما استيسر من الهدي﴾ قال: شاة، وكذا قال عطاء ومجاهد والنخعي والحسن وغيرهم مثل ذلك، وهو مذهب الأئمة الأربعة.

والدليل على صحة قول الجمهور فيما ذهبوا إليه من إجْزَاء ذبح الشاة في الإحصار: أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدي أي مهما تيسر مما يسمى هدياً، والهَدْي من بهيمة الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، كما قاله الحَبْر البحر ترجمان القرآن وابن عم رسول الله ﷺ، وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: أهدى النبي ﷺ مرة غنماً.

وقوله: ﴿ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله﴾ معطوف على قوله ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ وليس معطوفاً على قوله: ﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي﴾ كما زعمه ابن جرير رحمه الله، لأن النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم، حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم، فأما في حال الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق ﴿حتى يبلغ الهدي محله﴾ ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارناً، أو من فعل أحدهما إن كان منفرداً أو متمتعاً، كما ثبت في الصحيحين عن حفصة أنها قالت: يا رسول الله، ما شأن الناس حلوا من العمرة، ولم تحل أنت من عمرتك ؟ فقال «إني لَبَّدْتُ

رأسي وقلَّدت هَدْيي، فلا أحلّ حتى أنحر».

وقوله: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ عن كعب بن عجرة قال: حُملْتُ إلى النبي ﷺ، والقملُ يتناثر على وجهي. فقال: «ما كنتُ أرَى أن الجَهد بلغ بك هذا، أما تجد شاة»؟ قلت: لا، قال: «صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك» فنزلت فيّ خاصة وهي لكم عامة. [أخرجه البخاري]. وعن ابن عباس في قوله: ﴿ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ قال: إذا كان «أو» فأيه أخذت أجزأ عنك. وروي عن مجاهد وعكرمة وعطاء والنخعي [وغيرهم] نحو ذلك. قلت: وهو مذهب الأئمة الأربعة، وعامة العلماء أنه يُخَيَّر في هذا المقام، إن شاء صام وإن شاء تصدّق بفَرق، وهو ثلاثة آصع لكل مسكين نصفُ صاع وهو مدان، وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الفقراء أيّ ذلك فعل أجزأه. ولَمَّا أمر النبي ﷺ كعب بن عجرة بذلك، أرشده إلى الأفضل، فقال: انسك شاة، أو أطعم ستة مساكين، أو صم ثلاثة أيام، فكل حسن في مقامه، ولله الحمد والمنة. وعن طاوس أنه كان يقول: ما كان من دم أو طعام فبمكة، وما كان من صيام فحيث شاء، وكذا قال عطاء ومجاهد والحسن.

وقوله: ﴿فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي﴾ أي إذا تمكنتم من أداء المناسك فمن كان منكم متمتعاً بالعمرة إلى الحج، وهو يشمل من أحرم بهما، أو أحرم بالعمرة أولاً، فلما فرغ منها أحرم بالحج، وهذا هو التمتع الخاص، وهو المعروف في كلام الفقهاء. والتمتع العام يشمل القسمين، كما دلت عليه الأحاديث الصحاح، فإن من الرُواة من يقولُ: تمتع رسول الله ﷺ وآخر يقول: قَرَن ولا خلاف أنه ساق الهدي. وقال تعالى: ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي﴾ أي فليذبح ما قدر عليه من الهدي، وأقله شاة، وله أن يذبح البقر، لأن رسول الله ﷺ ذبح عن نسائه البقر، وفي هذا دليل على مشروعية التمتع، كما جاء في الصحيحين عن عمران بن حُصين، قال: نزلت آية المتعة في كتاب الله، وفعلناها مع رسول الله ﷺ، ثم لم يَنْزل قرآن يُحَرِّمها، ولم يُنْهَ عنها، حتى مات. قال رجل برأيه ما شاء. قال البخاري: يقال إنه عمر. وهذا الذي قاله البخاري قد جاء مصرحاً به أن عمر كان ينهى الناس عن التمتع ويقول: إن نأخذ بكتاب الله فإن الله يأمر بالتمام، يعني قوله: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ وفي نفس الأمر لم يكن عمر رضي الله عنه ينهى عنها مُحَرِّماً لها، إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين، كما قد صرح به رضي الله عنه.

وقوله: ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة﴾ يقول تعالى: فمن لم يجد هَدْياً فليصم ثلاثة أيام في الحج، أي في أيام المناسك، قال العلماء: والأولى أن يصومها قبل يوم عَرَفة في العشر، قاله، عطاء، أو من حين يحرم قاله ابن عباس وغيره لقوله ﴿في الحج﴾ ومنهم من يجوز صيامها من أول شوال، قاله طاوس ومجاهد وغير

واحد، وجوز الشعبي صيام يوم عرفة وقبله يومين، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والسدي وعطاء [وغيرهم]، وعن ابن عباس: إذا لم يجد هدياً فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة، فإذا كان يومُ عرفة الثالث، فقد تم صومه، وسبعة إذا رجع إلى أهله، وكذا جاء عن ابن عمر قال: يصوم يوماً قبل التروية، ويوم التروية، ويوم عرفة. فلو لم يَصُمْها أو بعضها قبل العيد، فهل يجوز أن يصومها في أيام التشريق؟ فيه قولان للعلماء وهما للإمام الشافعي أيضاً، القديم منهما: أنه يجوز له صيامها لقول عائشة وابن عمر في صحيح البخاري: لم يرخص في أيام التشريق أن يُصمن إلا لمن لم يجد الهدي. إنما قالوا ذلك لعموم قوله: ﴿**فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم**﴾ وعن علي أنه كان يقول: من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج، صامهن أيام التشريق. والجديد من القولين: أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق. لما رواه مسلم عن نُبَيْشة الهذلي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب، وذكر الله عز وجل».

وقوله: ﴿**وسبعة إذا رجعتم**﴾ فيه قولان: **أحدهما**: إذا رجعتم في الطريق، ولهذا قال مجاهد: هي رخصة إذا شاء صامها في الطريق، وكذا قال عطاء بن أبي رباح. **والقول الثاني**: إذا رجعتم إلى أوطانكم. قال ابن عمر: إذا رجع إلى أهله، وكذا روي عن سعيد بن جبير ومجاهد والحسن [وغيرهم]، وحكى على ذلك أبو جعفر بن جرير الإجماع. وروى البخاري [ومسلم] عن ابن عمر قال: لما قدم النبي ﷺ مكة قال للناس: «من كان منكم أهدىٰ فإنه لا يَحل بشيء حَرُم منه حتى يقضي حجه، ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة ولْيُقَصِّر وليَحلْل، ثم ليُهلّ بالحج، فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع إلى أهله». وذكر تمام الحديث. وقوله: ﴿**تلك عشرة كاملة**﴾ قيل: تأكيد. وقيل: معنى كاملة الأمرُ بإكمالها وإتمامها، اختاره ابن جرير، وقيل معنى كاملة أي مجزئة عن الهدي، وعن الحسن البصري في قوله: ﴿**تلك عشرة كاملة**﴾ قال: من الهَدْي.

وقوله: ﴿**ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام**﴾ قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل فيمن عُني بقوله: ﴿**لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام**﴾ بعد إجماع جميعهم على أن أهل الحرم معنيون به، فقال بعضهم: عنى بذلك أهل الحرم خاصة دون غيرهم، قال: ابن عباس ومجاهد: هم أهل الحرم. وقال قتادة: ذُكر لنا أن ابن عباس كان يقول: يا أهل مكة، لا متعة لكم، أحلت لأهل الآفاق وحُرِّمت عليكم، إنما يقطع أحدكم وادياً، أو قال: يجعل بينه وبين الحرم وادياً، ثم يهل بعمرة، [ونحوه لطاووس]. وقال آخرون: هم أهل الحرم ومن بَيْنه وبين المواقيت. فعن عطاء، قال: من كان أهله دون المواقيت فهو كأهل مكة لا يتمتع، [وعن مكحول مثله]. وقال الزهري: من كان أهله على يوم أو نَحْوه تَمتَّع، وفي رواية عنه: اليوم واليومين. واختار ابن جرير في ذلك مذهب الشافعي أنهم أهل الحرم، ومن

كان منه على مسافة لا تُقْصَر منها الصلاة، لأن من كان كذلك يعد حاضراً لا مسافراً، والله أعلم.

وقوله: ﴿**واتقوا الله**﴾ أي فيما أمركم وما نهاكم ﴿**واعلموا أن الله شديد العقاب**﴾ أي لمن خالف أمره وارتكب ما عنه زجره.

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾.

اختلف أهل العربية في قوله: ﴿**الحج أشهر معلومات**﴾ فقال بعضهم: تقديره الحج حَجُّ أشهر معلومات، فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام به فيما عداها، وإن كان ذاك صحيحاً والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، وبه يقول إبراهيم النخعي والثوري والليث بن سعد واحتج لهم بقوله تعالى: ﴿**يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج**﴾ وبأنه أحد النسكين، فصح الإحرام به في جميع السنة كالعمرة. وذهب الشافعي رحمه الله، إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به، وهل ينعقد عمرة؟ فيه قولان عنه. والقول بأنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره مروي عن ابن عباس وجابر، وبه يقول عطاء وطاوس ومجاهد رحمهم الله، والدليل عليه قوله تعالى ﴿**الحج أشهر معلومات**﴾ وظاهره التقدير الآخر الذي ذهب إليه النحاة، وهو أن وقت الحج أشهر معلومات، فخصصه بها من بين سائر شهور السنة، فدلّ على أنه لا يصح قبلها كميقات الصلاة. وعن ابن عباس، قال: لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج، فإن من سنة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج. وهذا إسناد صحيح، وقول الصحابي: «من السنة كذا» في حكم المرفوع عند الأكثرين، ولا سيما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن وهو ترجمانه.

وقوله: ﴿**أشهر معلومات**﴾ قال ابن عمر: هي شوال وذو القَعْدة وعشر من ذي الحجة. قلت: وهو مروي عن عمر وعلي وابن مسعود وعبد الله بن الزبير وابن عباس وعطاء وطاوس ومجاهد وإبراهيم النخعي [وغيرهم]، وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل رحمهم الله، واختار هذا القول ابن جرير، قال: وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب، قال الله تعالى: ﴿**فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه**﴾ [البقرة:٢٠٣] وإنما تعجل في يوم ونصف يوم. وقال الإمام مالك بن أنس والشافعي في القديم: هي شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله، وهو رواية عن ابن عمر أيضاً. وقد حكى هذا أيضاً عن طاوس ومجاهد. وفائدة مذهب مالك أنه إلى آخر ذي الحجة بمعنى أنه مختص بالحج، فيكره الاعتمار في بقية ذي الحجة، لا أنه يصح الحج بعد ليلة النحر. قال ابن جرير: وإنما أراد من ذهب إلى أن أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة أن هذه الأشهر ليست أشهر العمرة،

إنما هي للحج، وإن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام منى، كما قال محمد بن سيرين: ما أحد من أهل العلم يشك في أن عمرة في غير أشهر الحجّ أفضل من عمرة في أشهر الحج. قلت: وقد ثبت عن عمر وعثمان رضي الله عنهما، أنهما كان يحبان الاعتمار في غير أشهر الحج وينهيان عن ذلك في أشهر الحج، والله أعلم.

وقوله: ﴿فمن فرض فيهنّ الحج﴾ أي أوجب بإحرامه حجاً، فيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج والمضي فيه، قال ابن جرير: أجمعوا على أن المراد من الفرض ههنا الإيجاب والإلزام، وعن ابن عباس: ﴿فمن فرض فيهنّ الحج﴾ يقول: من أحرم بحَجّ أو عمرة. وقال عطاء: الفرضُ الإحرامُ. وكذا قال إبراهيم والضحاك وغيرهم. وعن ابن عباس أيضا أنه قال: ﴿فمن فرض فيهنّ الحج﴾ فلا ينبغي أن يلبي بالحج ثم يقيم بأرض. ورُوي عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم نحو ذلك، وقال طاوس والقاسم بن محمد: هو التلبية. وقوله: ﴿فلا رفث﴾ أي من أحرم بالحج أو العمرة فليجتنب الرفث، وهو الجماع، كما قال تعالى: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ [البقرة:١٨٧]، وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك، وكذا التكلم به بحضرة النساء. وعن ابن عمر كان يقول: الرفثُ إتيانُ النساء، والتكلم بذلك، للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم. وعن محمد بن كعب مثله. وعن ابن عباس، أنه كان يحدو وهو محرم، وهو يقول:

وهنَّ يمشين بنا هَمِيسا إن يصدُق الطَّيْرُ ننك لَميسَا.

قال أبوالعالية: فقلت: تَكَلّمُ بالرفث وأنت محرم؟ قال: إنما الرفث ما قيل عند النساء. وعن ابن عباس [أيضا]: الرفث غشيان النساء والقبلة والغَمْز، وأن يُعَرّض لها بالفحش من الكلام ونحو ذلك. وكذا قال عطاء وطاووس ومجاهد والنخعي والحسن وغيرهم.

وقوله: ﴿فلا فسوق﴾ قال ابن عباس: هي المعاصي، وكذا قال عطاء ومجاهد والحسن وغيرهم. وعن عبد الله بن عمر: الفسوق إتيان معاصي الله في الحرم. وقال آخرون: الفسوقُ ههنا السباب، قاله ابن عباس وابن عمر وابن الزبير ومجاهد والسدي وإبراهيم النخعي والحسن. وقد يتمسك لهؤلاء بما ثبت في الصحيحين: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر». وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الفسوق ههنا الذبح للأصنام، قال الله تعالى: ﴿أو فسقاً أهل لغير الله به﴾ [الأنعام:١٤٥]، وقال الضحاك: الفسوق: التنابز بالألقاب، والذين قالوا: الفسوق ههنا هو جميع المعاصي، معهم الصواب. كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم، وإن كان في جميع السنة منهياً عنه، إلا أنه في الأشهر الحرم آكَدُ، ولهذا قال ﴿منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ [التوبة:٣٦]، وقال في الحرم: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ [الحج:٢٥]. وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة، قال قال رسول الله ﷺ: «من حج هذا البيت، فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه

كيوم ولدته أمه».

وقوله: ﴿**ولا جدال في الحج**﴾ فيه قولان: **أحدهما**: ولا مجادلة في وقت الحج وفي مناسكه، وقد بينه الله أتم بيان. كما قال مجاهدٌ: قد بين الله أشهر الحج فليس فيه جدال بين الناس. وعن ابن عباس: ﴿**ولا جدال في الحج**﴾ قال: المراء في الحج. وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا يقفون مواقف مختلفة يتجادلون كلهم يدعي أن موقفه موقف إبراهيم، فقطعه الله حين أعلم نبيه بالمناسك، [وعن محمد بن كعب نحوه]. وعن القاسم بن محمد أنه قال: الجدال في الحج أن يقول بعضهم: الحج غداً، ويقول بعضهم: الحج اليوم، وقد اختار ابن جرير مضمون هذه الأقوال، وهو قطع التنازع في مناسك الحج، والله أعلم.

والقول الثاني: أن المراد بالجدال ههنا المخاصمة. فعن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿**ولا جدال في الحج**﴾ قال: أن تماري صاحبك حتى تغضبه، وعن التميمي، سألت ابن عباس، عن الجدال، قال: المراء تماري صاحبك حتى تغضبه، وكذا قال أبو العالية وعطاء ومجاهد وغير واحد، وعن عكرمة: ﴿**ولا جدال في الحج**﴾ والجدال الغضب، أن تغضب عليك مسلماً، إلا أن تستعتب مملوكاً فتغضبه من غير أن تضربه، فلا بأس عليك إن شاء الله. قلت: ولو ضربه لكان جائزاً سائغاً. وقوله: ﴿**وما تفعلوا من خير يعلمه الله**﴾ لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً وفعلاً، حثهم على فعل الجميل وأخبرهم أنه عالم به، وسيجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة. وقوله: ﴿**وتزودوا فإن خير الزاد التقوى**﴾ عن ابن عباس: كان أناس يخرجون من أهليهم ليست معهم أزودة، يقولون: نحج بيت الله ولا يطعمنا ؟ فقال الله: تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس. وعن عكرمة نحوه.

وفي البخاري عن ابن عباس، قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فأنزل الله: ﴿**وتزودوا فإن خير الزاد التقوى**﴾. وعن ابن عمر، قال: كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها، واستأنفوا زاداً آخر، فأنزل الله تعالى: ﴿**وتزودوا فإن خير الزاد التقوى**﴾ فَنُهوا عن ذلك وأمِرُوا أن يتزودوا الكعك والدقيق والسويق، وكذا قال ابن الزبير وأبو العالية ومجاهد وعكرمة والشعبي [وغيرهم].

وقوله: ﴿**فإن خير الزاد التقوى**﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها، كما قال: ﴿**وريشاً ولباس التقوى ذلك خير**﴾ [الأعراف:٢٦]. لما ذكر اللباس الحسي نبّه مرشداً إلى اللباس المعنوي، وهوالخشوع والطاعة والتقوى، وذكر أنه خير من هذا وأنفع، قال عطاء الخراساني في قوله: ﴿**فإن خير الزاد التقوى**﴾ يعني زاد الآخرة. وقوله: ﴿**واتقون يا أولي الألباب**﴾ يقول: واتقوا عقابي ونكالي وعذابي لمن خالفني ولم يأتمر بأمري، يا ذوي العقول والأفهام.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ

عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ .

روى البخاري عن ابن عباس، قال: كانت عكاظ ومَجَنَّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في الموسم، فنزلت: ﴿**ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم**﴾ في مواسم الحج. وعن ابن عباس في هذه الآية: لا حرج عليكم في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده. وعن ابن عباس أنه كان يقرأ: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج»، وكذا عن ابن الزبير. وهكذا فسرها ابن عمر ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والنخعي وغيرهم. وعن أبي أمامة التيمي، قال: قلت لابن عمر: إنا أناس نُكْرَى في هذا الوجه إلى مكة، وإن أناساً يزعمون أنه لا حج لنا، فهل ترى لنا حجاً؟ قال: ألستم تحرمون، وتطوفون بالبيت وتقفون المناسك؟ قال: قلت: بلى، قال «فأنتم حجاج». ثم قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن مثل الذي سألت فلم يدر ما يعود عليه، أو قال: فلم يَرُدّ عليه شيئاً حتى نزلت: ﴿**ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً** من ربكم﴾ فدعا الرجل فتلاها عليه، وقال «أنتم حجاج». [أخرجه ابن أبي حاتم وابن خزيمة وأبوداود وأحمد وسنده جيد]. وقوله تعالى: ﴿**فإذا أفضتم** من عرفات **فاذكروا الله عند المشعر الحرام**﴾ إنما صُرِفَ «عرفات» وإن كان علَمَاً على مؤنث؛ لأنه في الأصل جَمْع كمسلمات ومؤمنات، سمي به بقعة معينة فروعي فيه الأصل فصرف، اختاره ابن جرير. وعرفة: موضع الوقوف في الحج، وهي عمدة أفعال الحج؛ ولهذا روى الإمام أحمد وأهل السنن بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحج عرفات ـ ثلاثاً ـ فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك، وأيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه». ووقت الوقوف من الزوال يومَ عرفة إلى طُلُوع الفجر الثاني من يوم النحر؛ لأن النبي ﷺ وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس، وقال «لتأخذوا عني مناسككم». [أخرجه مسلم]. وقال في هذا الحديث: «فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك» وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي، رحمهم الله، وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة، وحجته حديث عروة بن مُضَرِّس الطائي، قال: أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة، فقلت: يا رسول الله، إني جئت من جبل طيء، أكللت راحلتي، وأتعبت نفسي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لي من حَج؟ فقال رسول الله ﷺ: «من شهد صلاتنا هذه، فوقف معنا حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً، فقد تم حجه وقضى تَفَثَه» رواه الإمام أحمد وأهل السنن، وصححه الترمذي. ثم قيل: إنما سميت عرفات لماجاء عن علي بن أبي طالب: بعث الله جبريل عليه السلام إلى إبراهيم ﷺ فحج به، حتى إذا أتى عرفة قال: عرفت، وكان قد أتاها مرة قبل ذلك، فلذلك سميت عَرَفة. وروي نحوه عن ابن عباس وابن عمر وعطاء وأبي مجلز، فالله أعلم، وتسمى

عرفات المشعر الحرام، والمشعر الأقصى، وإلال على وزن هلال.

وعن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال كأنها العمائم على رؤوس الرجال دفعوا، فأخر رسول الله ﷺ الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس. ثم وقف بالمزدلفة، وصلى الفجر بغَلَس، حتى إذا أسفر كلّ شيء، وكان في الوقت الآخر، دفع. وهذا حَسَنُ الإسناد، وعن المسور بن مخرمة، قال: خطبنا رسول الله ﷺ وهو بعرفات، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد ـ وكان إذا خطب خطبة قال: أما بعد ـ فإن هذا اليوم الحجُ الأكبر، ألا وإن أهلَ الشرك والأوثان كانوا يدفعون في هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس، إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجهها، وإنا ندفع بعد أن تغيب الشمس، وكانوا يدفعون من المشعر الحرام بعد أن تطلع الشمس إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوهها، وإنا ندفع قبل أن تطلع الشمس مُخَالفاً هَدْيُنَا هَدْي أهل الشرك». [أخرجه ابن مردويه وصححه الحاكم].

وفي حديث جابر بن عبد الله الطويل، الذي في صحيح مسلم، قال فيه: «فلم يزل واقفاً ـ يعني بعرفة ـ حتى غربت الشمس، ووذهبت الصُّفْرَة قليلاً حتى غاب القُرْصُ، وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ وقد شَنَقَ للقصواء الزّمام حتى إن رأسها ليصيب مَوْرك رحله، ويقول بيده اليمنى: «أيها الناس السكينة السكينة» كلما أتى حبلاً من الحبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد حتى أتىٰ المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يُسَبِّح بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفجرُ فصلى الفجر، حين تَبَيَّن له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعا الله وكبره وهَلَّله ووحَّده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس». وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه سئل: كيف كان يسير رسول الله ﷺ حين دَفَع؟ قال: كان يسير العَنَق، فإذا وجد فجوة نَص. والعنق: هو انبساط السير، والنص فوقه. وعن سفيان بن عيينة قوله: ﴿**فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام**﴾ وهي الصلاتين جميعاً، وعن عمرو بن ميمون: سألت عبد الله بن عمرو عن المشعر الحرام، فسكت حتى إذا هبطت أيدي رواحلنا بالمزدلفة، قال: أين السائل عن المشعر الحرام، هذا المشعر الحرام، وعن ابن عمر: المشعر الحرام المزدلفة كلها. وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد [وغيرهم] أنهم قالوا: هو ما بين الجبلين. قلت: والمشاعر هي المعالم الظاهرة، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام؛ لأنها داخل الحرم، وهل الوقوف بها ركن في الحج لا يصح إلا به، كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض أصحاب الشافعي منهم القفال وابن خُزَيمة لحديث عروة بن مضرس؟ أو واجب كما هو أحد قولي الشافعي يُجَبْر بدم؟ أو مستحب لا يجب بتركه شيء كما هو القول الآخر؟ في ذلك ثلاثة أقوال للعلماء لبسطها موضع آخر غير هذا، والله أعلم. عن جبير بن مطعم،

عن النبي ﷺ، قال: «كل عرفات موقف، وارفعوا عن عُرَنة، وكل مزدلفة موقف، وارفعوا عن مُحَسِّر، وكل فجاج مكة مَنْحر، وكل أيام التشريق ذبح» [أخرجه أحمد ويصح بطرقه].

وقوله: ﴿واذكروه كما هداكم﴾ تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج على ما كان عليه من الهداية إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا قال: ﴿وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ قيل: من قبل هذا الهدى: وقيل: القرآن، وقيل: الرسول، والكل متقارب ومتلازم وصحيح.

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾.

«ثم» ههنا لعطف خبر على خبر وترتيبه عليه، كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يَدْفَع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات، كما كان جمهور الناس يصنعون، يقفون بها إلا قريشاً، فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحِل، ويقولون: نحن أهل الله في بلدته وقُطَّان بيته. [أخرج] البخاري عن عائشة، قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسَمّون الحُمْس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها، فذلك قوله: ﴿من حيث أفاض الناس﴾ وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والسدي وغيرهم، واختاره ابن جرير وحكى عليه الإجماع. وروى البخاري من حديث ابن عباس: ما يقتضي أن المراد بالإفاضة ههنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار. فالله أعلم، وحكاه ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم فقط. قال: والمراد بالناس إبراهيم عليه السلام، قال ابن جرير: ولولا إجماع الحجة على خلافه لكان هو الأرجح.

وقوله: ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات؛ ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر ثلاثاً. وفي الصحيحين أنه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير، ثلاثاً وثلاثين، ثلاثاً وثلاثين. وروى البخاري عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة».

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾.

يأمرُ تعالى بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها. وقوله: ﴿كذكركم آباءكم﴾

اختلفوا في معناه، فقال ابن جُرَيج عن عطاء: هو كقول الصبي: أَبَهْ أَمَّهْ، يعني كما يلهج الصبي بذكر أبيه وأمه، فكذلك أنتم فالهجوا بذكر الله بعد قضاء النسك، وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس، وروي عن ابن عباس نحوه، وعن ابن عباس أيضاً: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحَمَالات [ويحمل الديات]. ليس لهم ذكر غير فَعَال آبائهم، فأنزل الله على محمد ﷺ: **﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾**. وروي عن أنس بن مالك وأبي وائل وعطاء بن أبي رباح في أحد قوليه وسعيد بن جبير وعكرمة في أحد رواياته، ومجاهد [وغيرهم] نحو ذلك، والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله عز وجل؛ ولهذا كان انتصاب قوله، **﴿أو أشد ذكراً﴾** على التمييز، تقديره كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً، و«أو» ههنا لتحقيق المماثلة في الخبر كقوله: **﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾** [البقرة: ٧٤]، وقوله: **﴿يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾** [النساء: ٧٧]. فليست ههنا للشك قطعاً، وإنما هي لتحقيق المخبر عنه بأنه كذلك أو أزْيَد منه. ثم إنه تعالى أرشد إلى دُعَائه بعد كثرة ذكره فإنه مظنة الإجابة، وذَمَّ من لا يسأله إلا في أمر دنياه وهو معرض عن أخراه، فقال: **﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق﴾** أي من نصيب، وتضمن هذا الذم والتنفير عن التشبه بمن هو كذلك، فعن ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم: **﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق﴾** وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون: **﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾** فأنزل الله: **﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب﴾** ولهذا مدح من يسأله الدنيا والأخرى، فقال: **﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾** فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا وصرفت كل شر، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيٌ، وثناء جميل إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا، وأما الحسنة في الآخرة، فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام. وقال القاسم بن عبد الرحمن: من أعطي قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وجسداً صابراً، فقد أوتي في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووقي عذاب النار، ولهذا وردت السنة بالترغيب في هذا الدعاء، فروى البخاري عن أنس بن مالك، قال: كان النبي ﷺ يقول: «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار». ورواه مسلم والإمام أحمد [واللفظ له]

عن أنس، قال: كان أكثر دعوة يدعو بها النبي ﷺ قال: يقول «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار». وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها، وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه. وأخرج الحاكم عن سعيد بن جبير، قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال. إني أجرت نفسي من قوم على أن يحملوني، ووضعت لهم من أجرتي على أن يدعوني أحج معهم، أفيجزي ذلك؟ فقال: أنت من الذين قال الله: ﴿**أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب**﴾. ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

﴿ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) ﴾.

قال ابن عباس: الأيام المعدودات أيام التشريق، والأيام المعلومات أيام العشر، وقال عكرمة: ﴿**واذكرو الله في أيام معدودات**﴾ يعني التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات الله أكبر الله أكبر. وروى مسلم والإمام أحمد [واللفظ له] عن نُبيشة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله». وعن عائشة قالت: نهى رسول الله ﷺ عن صوم أيام التشريق، قال: «هي أيام أكل وشرب وذكر الله». وقال مِقْسَم عن ابن عباس: الأيام المعدودات أيام التشريق أربعة أيام: يوم النحر، وثلاثة أيام بعده، ورُوي عن ابن عمر وعطاء ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والنخعي والحسن وقتادة وغيرهم مثل ذلك. وقال علي بن أبي طالب: هي ثلاثة: يوم النحر ويومان بعده اذبح في أيهن شئت، وأفضلها أولها، والقول الأول هو المشهور، وعليه دلَّ ظاهر الآية الكريمة حيث قال: ﴿**فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه**﴾ فدل على ثلاثة بعد النحر. ويتعلق بقوله: ﴿**واذكروا الله في أيام معدودات**﴾ ذكر الله على الأضاحي، والراجح في ذلك مذهب الشافعي رحمه الله وهو أن وقت الأضحية من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق. ويتعلق به أيضا الذكر المؤقت خلف الصلوات، والمطلق في سائر الأحوال. وفي وقته أقوال للعلماء أشهرها الذي عليه العمل أنه من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق، وهو آخر النَّفْر الآخر، وقد جاء فيه حديث رواه الدارقطني لكن لا يصح مرفوعاً، والله أعلم. وقد ثبت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يكبر في قبته، فيكبر أهل السوق بتكبيره حتى ترتج منىٰ تكبيراً. ويتعلق بذلك أيضاً التكبير وذكر الله عند رمي الجمرات كل يوم من أيام التشريق. وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: «إنما جعل الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة، ذكر الله عز وجل». [صحيح]. ولما ذكر الله تعالى النَّفْر الأول والثاني، وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والموقف، قال: ﴿**واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون**﴾ [أي تجتمعون يوم القيامة]، كما قال: ﴿**وهوالذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون**﴾ [المؤمنون: ٧٩].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ .

قال السدي: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، جاء إلى رسول الله ﷺ، وأظهر الإسلام وفي باطنه خلاف ذلك. وعن ابن عباس: أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خُبَيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم، فأنزل الله في ذم المنافقين ومدح خبيب وأصحابه: **﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾** وقيل: بل ذلك عام في المنافقين كلهم وفي المؤمنين كلهم. وهذا قول قتادة ومجاهد والربيع بن أنس وغير واحد، وهو الصحيح. وعن أبي معشر نَجِيح، قال: سمعت سعيداً المقبري يذاكر محمد بن كعب القرظي، فقال سعيد: إن في بعض الكتب: إن لله عباداً ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أَمَرّ من الصّبر، لبسوا للناس مُسُوك الضأن من اللين، يَجْتَرّون الدنيا بالدين. قال الله تعالى: عليّ تجترئون وبي تغترون!. وعزتي لأبعثنّ عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران. فقال محمد بن كعب: هذا في كتاب الله، فقال سعيد: وأين هو من كتاب الله ؟ قال: قول الله **﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾** الآية، فقال سعيد: قد عرفت فيمن أنزلت هذه الآية ؟ فقال محمد بن كعب، إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد، وهذا الذي قاله القرظي، حسن صحيح. وأما قوله **﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾** فمعناه أنه يظهر للناس الإسلام ويبارزُ الله بما في قلبه من الكفر والنفاق، كقوله تعالى: **﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله﴾** الآية [النساء:١٠٨] هذا معنى ما روى ابن ابن عباس. وقيل: معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام حَلَف وأشهد الله لهم: أن الذي في قلبه موافق للسانه، وهذا المعنى صحيح، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير وعزاه إلى ابن عباس وحكاه عن مجاهد، والله أعلم.

وقوله: **﴿وهو ألد الخصام﴾** الألد في اللغة الأعوج، **﴿وتنذر به قوماً لداً﴾** [مريم:٩٧] أي عُوجاً. وهكذا المنافق في حال خصومته، يكذب ويَزْوَرُّ عن الحق ولا يستقيم معه، بل يفتري ويفجر، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». وروى البخاري عن عائشة ترفعه، قال «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم». وقوله: **﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾** أي هو أعوج المقال سيّء الفعال، فذلك قوله وهذا فعله، كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة. والسعي ههنا هو القصد، كما قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله﴾** [الجمعة:٩] أي اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة، فإن السعي الحسي إلى الصلاة منهي عنه بالسنة النبوية: «إذا أتيتم الصلاة

فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة والوقار». [متفق عليه]. فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد في الأرض، وإهلاك الحرث، وهو مَحل نماء الزروع والثمار والنسل، وهو نتاج الحيوانات الذين لا قوَام للناس إلا بهما. وقال مجاهد: إذا سُعي في الأرض فساداً، منع الله القَطْرَ، فهلك الحرث والنسل. ﴿والله لا يحب الفساد﴾ أي لا يحب من هذه صفته، ولا من يصدر منه ذلك.

وقوله: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ أي إذا وُعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله، وقيل له: اتق الله وانزع عن قولك وفعلك وارجع إلى الحق، امتنع وأبى وأخذته الحمية والغضب بالإثم، أي بسبب ما اشتمل عليه من الآثام، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا، قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير**﴾ [الحج:٧٢]؛ ولهذا قال في هذه الآية: ﴿**فحسبه جهنم ولبئس المهاد**﴾ أي هي كافيته عقوبة في ذلك. وقوله: ﴿**ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله**﴾ لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة، ذَكَر صفات المؤمنين الحميدة، فقال ﴿**ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله**﴾ قال ابن عباس وأنس وعكرمة وجماعة: نزلت في صُهيب بن سنَان الرومي وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فَعَل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرّة. فقالوا له: ربح البيع. فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية، ويروى أن رسول الله ﷺ قال له «ربح البيع صهيب، ربح البيع صهيب». [أخرجه ابن سعد وأبو نعيم والحاكم وابن مردويه من طرق يشد بعضها بعضا].

وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مُجاهد في سبيل الله كما قال تعالى: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله، فيقتلون ويقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾ [التوبة:١١١]. ولما حمل هشام بن عامر بين الصفين أنكر عليه بعض الناس، فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما، وتلوا هذه الآية: ﴿**ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد**﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين به المصدّقين برسوله أن يأخذوا بجميع عُرَى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره، ما استطاعوا من ذلك. عن ابن عباس ومجاهد وطاوس والضحاك وعكرمة وقتادة والسدي وابن زيد في قوله: ﴿**ادخلوا في السلم**﴾

يعني الإسلام. وعن ابن عباس وأبي العالية والربيع بن أنس ﴿**ادخلوا في السلم**﴾ يعني الطاعة. وقال قتادة أيضاً: الموادعة. وقوله: ﴿**كافة**﴾ قال ابن عباس وأبو العالية والضحاك [وغيرهم]: جميعاً، وقال مجاهد: أي اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر.

ومن المفسرين من يجعل قوله: ﴿**كافة**﴾ حالاً من الداخلين أي ادخلوا في الإسلام كلكم والصحيح الأول وهو أنهم أمروا كلهم أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام وهي كثيرة جداً ما استطاعوا منها. وعن عكرمة عن ابن عباس: ﴿**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة**﴾ كذا قرأها بالنصب، يعني مؤمني أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمور التوراة والشرائع التي أنزلت فيهم، فقال الله: ﴿**ادخلوا في السلم كافة**﴾ يقول: ادخلوا في شرائع دين محمد ﷺ ولا تدعوا منها شيئاً وحسبكم الإيمان بالتوراة وما فيها. وقوله: ﴿**ولاتتبعوا خطوات الشيطان**﴾ أي اعملوا بالطاعات واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان فـ ﴿**إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾ [البقرة:١٦٩]، و ﴿**إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير**﴾ [فاطر:٦]؛ ولهذا قال: ﴿**إنه لكم عدوّ مبين**﴾. قال مطرف: أغش عباد الله لعبيد الله الشيطان. وقوله: ﴿**فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات**﴾ أي عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحُجَجُ، فاعلموا أن الله عزيز أي في انتقامه، لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب. حكيم في أحكامه ونقضه وإبرامه؛ ولهذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس: عزيز في نقمته، حكيم في أمره. وقال محمد بن إسحاق: العزيز في نصره ممن كفر به إذا شاء، الحكيم في عذره وحجته إلى عباده.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مهدداً للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿**هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة**﴾ يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولهذا قال تعالى: ﴿**وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور**﴾ كما قال تعالى: ﴿**هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك**﴾ الآية [الأنعام:١٥٨].

وعن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم، قياماً شاخصة أبصارهم إلى السماء، ينتظرون فصل القضاء، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي». [حسّن الذهبي إسناده]. وعن مجاهد: ﴿**في ظلل من الغمام**﴾ قال: هو غير السحاب ولم يكن قَطّ إلا لبني إسرائيل في تيههم حين تاهوا. وعن أبي العالية: ﴿**هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة**﴾ يقول: والملائكة يجيئون في ظلل من الغمام، والله تعالى يجيء فيما يشاء، وهي في بعض القراءات: «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة في ظُلَل من الغمام» وهي كقوله: ﴿**ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً**﴾ [الفرقان:٢٥].

﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾.

يقول تعالى مُخبراً عن بني إسرائيل: كم قد شاهدوا مع موسى من آية بينة أي حجة قاطعة على صدقه فيما جاءهم به، كيده وعصاه وفَلْقه البحر وضَرْبه الحجر، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر، ومن إنزال المَنّ والسلوى وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار، وصِدق من جرت هذه الخوارق على يديه، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها، وبدلوا نعمة الله كفراً، أي استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها. **﴿ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾** كما قال تعالى إخباراً عن كفار قريش: **﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار﴾** [إبراهيم:٢٨-٢٩].

ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها واطمأنوا إليها، وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها، مما يُرضي الله عنهم، وسخروا من الذين آمنوا وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد يوم معادهم، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومَنْشَرهم، فاستقروا في الدرجات في أعلى علّيين، وخلد أولئك في الدركات في أسفل السافلين؛ ولهذا قال تعالى: **﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾** أي يرزق من يشاء من خلقه، ويعطيه عطاء كثيراً جزيلاً بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة، كما جاء في الحديث: «ابن آدم أنفق أنفق عليك» [متفق عليه]، وقال النبي ﷺ: «أنفق بلالاً ولا تخش من ذي العرش إقلالاً» [أخرجه الطبراني وحسنه المنذري وابن حجر]. وقال تعالى: **﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾** [سبأ:٣٩]، وفي الصحيح: «أن مَلَكين ينزلان من السماء صَبيحة كل يوم، يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً» [متفق عليه]، وفي صحيح [مسلم]: «يقول ابن آدم: مالي مالي! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، وما لَبِسْتَ فابليتَ، وما تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس».

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾.

عن ابن عباس، قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبين مبشرين ومنذرين. قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا». وعن أبي بن كعب أنه كان يقرؤها «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين». وعن قتادة في قوله: **﴿كان الناس أمة واحدة﴾** قال: كانوا على الهدى جميعاً، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، فكان أول نبي بعث نوح.

وهكذا قال مجاهد، كما قال ابن عباس أولاً. وروي عن ابن عباس: ﴿**كان الناس أمة واحدة**﴾ يقول: كانوا كفاراً ﴿**فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين**﴾ والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى، لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

ولهذا قال تعالى: ﴿**وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعدما جاءتهم البينات بغياً بينهم**﴾ أي من بعد ما قامت الحجج عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض ﴿**فهدى الله الذي آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾. وعن أبي هريرة في قوله: ﴿**فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه**﴾ قال: قال النبي ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهدانا له، فالناس لنا فيه تبع فغداً لليهود وبعد غد للنصارى» [متفق عليه]. وعن زيد بن أسلم في قوله: ﴿**فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه**﴾ فاختلفوا في يوم الجمعة، فاتخذ اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد. فهدى الله أمة محمد ﷺ ليوم الجمعة. واختلفوا في القبلة فاستقبلت النصارى المشرق، واليهود بيت المقدس، فهدى الله أمة محمد للقبلة. واختلفوا في الصلاة، فمنهم من يركع ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلي وهو يتكلم، ومنهم من يصلي وهو يمشي، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا في الصيام، فمنهم من يصوم بعض النهار، ومنهم من يصوم عن بعض الطعام، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا في إبراهيم عليه السلام، فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت: النصارى كان نصرانياً، وجعله الله حنيفاً مسلماً، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا في عيسى عليه السلام، فكذبت به اليهود وقالوا لأمه بهتاناً عظيماً، وجعلته النصارى إلهاً وولداً، وجعله الله روحه وكلمته، فهدى الله أمة محمد ﷺ للحق من ذلك. وقال الربيع بن أنس في قوله: ﴿**فهدى الله الذي آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه**﴾ أي عند الاختلاف أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف، أقاموا على الإخلاص لله عز وجل وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف، واعتزلوا الاختلاف وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون، أنَّ رسلهم قد بلغوهم، وأنهم قد كذبوا رسلهم، وفي قراءة أبي بن كعب: «وليكونوا شهداء على الناس يوم القيامة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم». وكان أبو العالية يقول في هذه الآية: المخرج من الشبهات والضلالات والفتن.

وقوله: ﴿بإذنه﴾ أي بعلمه بهم وبما هداهم له، قاله ابن جرير: ﴿والله يهدي من يشاء﴾ أي من خلقه ﴿إلى صراط مستقيم﴾ أي وله الحكمة والحجة البالغة، وفي صحيح مسلم عن عائشة: أن رسول الله ﷺ، كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم». وفي الدعاء المأثور: «اللهم أرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، ووفقنا لاجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل، واجعلنا للمتقين إماماً».

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ قبل أن تُبتَلوا وتختبروا وتمتحنوا كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم، ولهذا قال: ﴿ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنوائب. قال ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير ومُرّة الهَمْداني والحسن وقتادة والضحاك والربيع والسدي ومقاتل بن حيان ﴿البأساء﴾ الفقر. قال ابن عباس: ﴿والضراء﴾ السّقم. ﴿وزلزلوا﴾ خوفاً من الأعداء زلزالاً شديداً، وامتحنوا امتحاناً عظيماً، كما جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الأرَتّ، قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ فقال: «إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفْرَق رأسه فيخلص إلى قدميه، لا يَصْرفه ذلك عن دينه، ويُمْشَطُ بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه». ثم قال: «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون» [أخرجه البخاري]. وقال الله تعالى: ﴿آلم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [العنكبوت:١-٣]. وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة رضي الله تعالى عنهم في يوم الأحزاب، كما قال الله تعالى: ﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً * وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ الآيات [الأحزاب:١٠-١٢]. ولما سأل هرقل أبا سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال: سجالاً، يدال علينا وندال عليه. قال: كذلك الرسل تُبتَلى ثم تكون لها العاقبة. [أخرجه البخاري]. وقوله: ﴿مثل الذين خلوا من قبلكم﴾ أي سنتهم. كما قال تعالى: ﴿فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين﴾ [الزخرف:٨]. وقوله: ﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ أي يستفتحون على

أعدائهم ويدعون بقُرْب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة، قال الله تعالى: ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ كما قال ﴿فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً﴾ [الشرح: ٥-٦]. وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلُها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾.

قال مقاتل بن حَيّان: هذه الآية في نفقة التطوع. وقال السدي: نسختها الزكاة. وفيه نظر ومعنى الآية: يسألونك كيف ينفقون؟ قاله ابن عباس ومجاهد فبين لهم تعالى ذلك، فقال: ﴿قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ أي اصرفوها في هذه الوجوه. كما جاء الحديث: «أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك» [أخرجه النسائي وأبوداود وأحمد وسنده صحيح]. وتلا ميمون بن مِهْرَان هذه الآية، ثم قال: هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبلاً ولا مزماراً ولا تصاوير الخشب ولا كُسوة الحيطان. ثم قال تعالى: ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾ أي مهما صَدَرَ منكم من فعل معروف، فإن الله يعلَمُه، وسيجزيكم على ذلك أوفرَ الجزاء، فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكُفُّوا شر الأعداء عن حَوْزة الإسلام، وقال الزهري: الجهاد واجب على كل أحد غزا أوقعد، فالقاعد عليه إذا استعين أن يُعين، وإذا استُغيث أن يُغيث، وإذا استُنفرَ أن ينفر، وإن لم يحتج إليه قعد. قلت: ولهذا ثبت في صحيح [مسلم]: «من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بغزو، مات ميتة جاهلية». وقال عليه السلام يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا» [متفق عليه]، وقوله: ﴿وهو كره لكم﴾ أي شديد عليكم ومشقة. وهو كذلك، فإنه إما أن يُقتل أو يجرح مع مشقة السفر ومجالدة الأعداء. ثم قال تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ أي لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء، والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذراريهم وأولادهم. ﴿وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾ وهذا عام في الأمور كلها قد يحب المرء شيئاً وليس له فيه خيرة ولا مصلحة، ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم. ثم قال تعالى: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي هو أعلم بعواقب الأمور منكم، وأخبَرُ بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم، فاستجيبوا له وانقادوا لأمره، لعلكم ترشدون.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ

وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

عن ابن عباس وعن ابن مسعود: ﴿**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير**﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ بعث سرية، وكانوا سبعة نفر عليهم عبد الله بن جَحْش الأسدي، وفيهم عمار بن ياسر، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان السلمي حليف لبني نوفل، وسهيل بن بيضاء، وعامر بن فهيرة، وواقد بن عبد الله اليربوعي حليف لعمر بن الخطاب، وكتب لابن جحش كتاباً وأمره أن لا يقرأه حتى ينزل بطن ملل فلما نزل بطن ملل فتح الكتاب فإذا فيه «أن سر حتى تنزل بطن نخلة» فقال لأصحابه: من كان يريد الموت فليمض وليوص، فإنني موص وماض لأمر رسول الله ﷺ، فسار، فتخلف عنه سعد بن أبي وقاص وعتبة، أضلا راحلة لهما فتخلفا فأتيا بحران يطلبانها، سار ابن جحش إلى بطن نخلة، فإذا هو بالحكم بن كيسان والمغيرة بن عثمان وعمرو بن الحضرمي وعبد الله بن المغيرة، وانفلت ابن المغيرة فأسروا الحكم بن كيسان والمغيرة وقتل عمرو، قتله واقد بن عبد الله، فكانت أول غنيمة غنمها أصحاب رسول الله ﷺ. فلما رجعوا إلى المدينة بأسيرين وما أصابوا من المال، أراد أهل مكة أن يفادوا الأسيرين. فقال النبي ﷺ: «حتى ننظر ما فعل صاحبانا» فلما رجع سعد وصاحبه، فادى بالأسيرين، ففجر عليه المشركون وقالوا: إن محمداً يزعم أنه يتبع طاعة الله وهو أول من استحل الشهر الحرام وقتل صاحبنا في رجب، فقال المسلمون: إنما قتلناه في جمادى، وقتل في أول ليلة من رجب وآخر ليلة من جمادى، وغمد المسلمون سيوفهم حين دخل شهر رجب، وأنزل الله يُعَيِّرُ أهل مكة: ﴿**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير**﴾ لا يحل، وما صنعتم أنتم يا معشر المشركين أكبر من القتل في الشهر الحرام حين كفرتم بالله وصددتم عنه محمداً ﷺ وأصحابه، وإخراج أهل المسجد الحرام منه حين أخرجوا محمداً ﷺ وأصحابه أكبر من القتل عند الله. [إسناده حسن]، [ونحوه عن ابن عباس وابن إسحاق مطولاً].

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾.

روى الإمام أحمد عن عمر أنه قال: لما نزل تحريم الخمر، قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية التي في البقرة: ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير**﴾ فدعي عمر، فقرئت عليه فقال. اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في النساء: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى**﴾ [النساء: ٤٣]، فكان

منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: أن لا يقربن الصلاة سكرانُ، فدعي عمر، فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر، فقرئت عليه فلما بلغ ﴿فهل أنتم منتهون﴾ [المائدة: ٩١] قال عمر: انتهينا انتهينا. وهكذا رواه أبو داود والترمذي وصححه والنسائي.

فقوله: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ أما الخمر، فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه كل ما خامر العقل، كما سيأتي بيانه في سورة المائدة، وكذا الميسر وهو القمار.

وقوله: ﴿قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس﴾ أما إثمهما فهو في الدين، وأما المنافع فدنيوية من حيث إن فيها نفع البدن وتهضيم الطعام وإخراج الفضلات وتشحيذ بعض الأذهان ولذة الشدّة المطربة التي فيها، وكذا بيعها والانتفاع بثمنها، وما كان يُقَمِّشه بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله، ولكن هذه المصالح لا توازي مضرّته ومفسدته الراجحة، لتعلقها بالعقل والدين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾، ولهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر على البتات، ولم تكن مصرحة بل معرضة، ولهذا قال عمر رضي الله عنه لما قرئت عليه: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العدواة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ [المائدة: ٩٠-٩١] وسيأتي الكلام على ذلك في سورة المائدة إن شاء الله تعالى وبه الثقة. قال ابن عمر والشعبي ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن هذه أول آية نزلت في الخمر: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾، ثم نزلت الآية التي في سورة النساء، ثم نزلت الآية التي في المائدة فحرمت الخمر.

قوله: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون﴾ عن ابن عباس ﴿قل العفو﴾ قال: ما يفضل عن أهلك، وكذا روي عن ابن عمر ومجاهد وعطاء والحسن والربيع بن أنس وغير واحد، أنهم قالوا في قوله ﴿قل العفو﴾ يعني الفضل. وعن طاوس: اليسير من كل شيء. وعن الربيع أيضاً: أفضل مالك وأطيبه. والكل يرجع إلى الفضل. وعن الحسن قال: ذلك ألا تجهد مالك ثم تقعد تسأل الناس. ويدل على ذلك ما رواه ابن جرير عن أبي هريرة، قال: قال رجل: يا رسول الله، عندي دينار؟ قال: «أنفقه على نفسك» قال: عندي آخر؟ قال: «أنفقه على أهلك» قال: عندي آخر؟ قال: «أنفقه على ولدك» قال: عندي آخر؟ قال: «فأنت أبصر». وقد رواه مسلم في صحيحه، وأخرج مسلم أيضاً عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فَضَل شيء فلأهلك، فإن فضل شيء عن أهلك فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي

قرابتك شيء فهكذا وهكذا». وعنده عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول». وفي الحديث أيضاً «ابن آدم إنك إن تبذُل الفضل خيرٌ لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تُلام على كفاف» [أخرجه مسلم]. ثم قد قيل إنها منسوخة بآية الزكاة، كما روي عن ابن عباس، وقاله عطاء الخراساني والسدي، وقيل: مبينة بآية الزكاة، قاله مجاهد وغيره، وهو أوجه.

وقوله: ﴿**كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة**﴾ أي كما فصَّل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها، كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعده ووعيده، لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة. عن ابن عباس: يعني في زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها. وعن الحسن قال: هي والله لمن تفكر فيها، ليعلم أن الدنيا دار بلاء ثم دار فناء، وليعلم أن الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء. وهكذا قال قتادة وابن جريج وغيرهما. وعن قتادة: لتعلموا فضل الآخرة على الدنيا. فآثروا الآخرة على الأولى.

وقوله: ﴿**ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم**﴾ الآية: روى ابن جرير عن ابن عباس، قال: لما نزلت ﴿**ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هى أحسن**﴾ [الإسراء: ٣٤] و ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً**﴾ [النساء: ١٠] انطلق من كان عنده يتيم فعزَل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيُحبَس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿**ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم**﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم. ورواه أبو داود والنسائي والحاكم في مستدركه [وصححه]. وهكذا ذكر غير واحد في سبب نزول هذه الآية كمجاهد وعطاء والشعبي وابن أبي ليلى وقتادة وغير واحد من السلف والخلف. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي عُرّة، حتى أخلط طعامه بطعامي، وشرابه بشرابي. فقوله: ﴿**قل إصلاح لهم خير**﴾ أي على حدة، ﴿**وإن تخالطوهم فإخوانكم**﴾ أي وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم، فلا بأس عليكم، لأنهم إخوانكم في الدين؛ ولهذا قال: ﴿**والله يعلم المفسد من المصلح**﴾ أي يعلم مَنْ قَصْدُه ونيته الإفسادَ أو الإصلاح. وقوله: ﴿**ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم**﴾ أي ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم، ولكنه وَسَّع عليكم، وخفف عنكم، وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن، كما قال تعالى: ﴿**ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن**﴾ [الأنعام: ١٥٢]، بل قد جوز الأكل منه للفقير بالمعروف، إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر، أو مجاناً.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ

ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾.

هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين، أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان، ثم إن كان عمومُها مراداً، وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية، فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: **﴿والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين﴾** [المائدة: ٥]. عن ابن عباس في قوله: **﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾**: استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب، وهكذا قال مجاهد والحسن وزيد بن أسلم وغيرهم. وقيل: بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان، ولم يُرِدْ أهل الكتاب بالكلية، والمعنى قريب من الأول، والله أعلم. قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله: بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات، وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس في المسلمات أو لغير ذلك من المعاني. فعن شقيق، قال: تزوج حذيفة يهودية، فكتب إليه عمر: خلّ سبيلها، فكتب إليه: أتزعم أنها حرام، فأخلي سبيلها؟ فقال: لا أزعم أنها حرام، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن، وهذا إسناده صحيح. وعن زيد بن وهب، قال: قال عمر بن الخطاب: المسلم يتزوج النصرانية، ولا يتزوج النصراني المسلمة، قال: وهذا أصح إسناداً من الأول. وعن ابن عمر، أنه كره نكاح أهل الكتاب. وسئل أحمد بن حنبل عن قول الله: **﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ﴾** قال: مشركات العرب الذين يعبدون الأصنام. وقوله: **﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾** ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك». ولمسلم عن جابر مثله، وله عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة». وقوله: **﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾** أي لا تُزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات، كما قال تعالى: **﴿لا هن حلّ لهم، ولا هم يحلون لهن﴾** [الممتحنة: ١٠]. ثم قال تعالى: **﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾** أي ولرجل مؤمن ـ ولو كان عبداً حبشياً ـ خير من مشرك، وإن كان رئيساً سرياً **﴿أولئك يدعون إلى النار﴾** أي معاشَرتهم ومخالطتهم، تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وخيمة **﴿والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه﴾** أي بشرعه وما أمر به وما نهى عنه **﴿ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾**.

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

روى الإمام أحمد عن أنس، أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يُؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحابُ النبي النبي ﷺ، فأنزل الله عز وجل: **﴿ويسألونك عن**

المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ حتى فرغ من الآية، فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح». فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يَدع من أمرنا شيئاً، إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر، فقالا: يا رسول الله، إن اليهود قالت: كذا وكذا، أفلا نجامعهن ؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجَدَ عليهما، فخرجا فاستقبلتهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ، فأرسل في آثارهما فسقاهما فعرفا أن لم يَجدْ عليهما، ورواه مسلم. فقوله: **﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾** يعني في الفرج، لقوله: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»؛ ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم، إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج. فعن عكرمة، عن بعض أزواج النبي ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئاً ألقي على فرجها ثوباً. [أخرجه أبوداود وهو صحيح الإسناد]. وأخرج ابن جرير عن مسروق أنه قال لعائشة رضي الله عنها: إني أريد أن أسألك عن شيء وأنا أستحيي، فقالت: إنما أنا أمك وأنت ابني. فقال: ما للرجل من امرأته وهي حائض ؟ فقالت له: كل شيء إلا فرجها. وهذا قول ابن عباس ومجاهد والحسن وعكرمة. وعن عائشة [أيضاً] قالت له: ما فوق الإزار. قلت: ويحل مضاجعتها ومؤاكلتها بلا خلاف، قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ، يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض، وكان يتكىء في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن. [متفق عليه]، وفي صحيح [مسلم] عنها، قالت: كنت أتعرّق العَرْق وأنا حائض فأعطيه النبي ﷺ، فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه، وأشرب الشراب فأناوله فيضع فمه في الموضع الذي كنت أشرب منه. وقال آخرون: إنما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الإزار، كما ثبت في الصحيحين عن ميمونة بنت الحارث الهلالية قالت: كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهي حائض، وهذا لفظ البخاري، ولهما عن عائشة نحوه. والتعفف عن ذلك أفضل وهو رواية عن عائشة وابن عباس وسعيد بن المسيب وشريح.

فهذه الأحاديث وما شابهها حجة من ذهب إلى أنه يحل ما فوق الإزار منها، وهو أحد القولين في مذهب الشافعي رحمه الله، الذي رجحه كثير من العراقيين وغيرهم، ومأخذهم أنه حريم الفرج فهو حرام لئلا يتوصل إلى تعاطي ما حرم الله عز وجل الذي أجمع العلماء على تحريمه وهو المباشرة في الفرج، ثم من فعل ذلك فقد أثم، فيستغفر الله ويتوب إليه، وهل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا ؟ فيه قولان:

أحدهما: نعم، لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن عباس عن النبي ﷺ في الذي يأتي امرأته وهي حائض، يتصدق بدينار أو نصف دينار، وفي لفظ للترمذي «إذا كان دماً أحمر فدينار، وإن كان دماً أصفر فنصف دينار» [وقال: قد روى عن ابن عباس موقوفاً ومرفوعاً]، وللإمام أحمد أيضاً عنه أن رسول الله ﷺ، جعل في الحائض تصاب ديناراً، فإن أصابها وقد

أدبر الدم عنها ولم تغتسل، فنصف دينار. **والقول الثاني**: وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعي، وقول الجمهور: أنه لا شيء في ذلك، بل يستغفر الله عز وجل لأنه لم يصح عندهم رفع هذا الحديث، فإنه قد روي مرفوعاً كما تقدم، وموقوفاً وهو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث، فقوله تعالى: **﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾** تفسير لقوله **﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾** ونهى عن قربانهن بالجماع ما دام الحيض موجوداً، ومفهومه حله إذا انقطع.

وقوله: **﴿فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾** فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة، لقوله: **﴿فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾** وليس له في ذلك مستند، لأن هذا أمر بعد الحظر. والذي ينهض عليه الدليل أنه يُرَدّ عليه الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهي، فإن كان واجباً، فواجب كقوله: **﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾** [التوبة: ٥]، أو مباحاً فمباح كقوله **﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾** [المائدة: ٢]، **﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾** [الجمعة: ١٠] وعلى هذا القول تجتمع الأدلة، وقد حكاه الغزالي وغيره، واختاره بعض أئمة المتأخرين وهو الصحيح. وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء. إلا أن أبا حنيفة رحمه الله يقول فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض وهو عشرة أيام عنده: أنها تحل بمجرد الانقطاع ولا تفتقر إلى غسل، والله أعلم.

وقال ابن عباس: **﴿حتى يطهرن﴾** أي من الدم **﴿فإذا تطهرن﴾** أي بالماء، وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن ومقاتل بن حيان والليث بن سعد وغيرهم. وقوله: **﴿من حيث أمركم الله﴾** قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني الفرج. وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة: **﴿من حيث أمركم الله﴾** أي تعتزلوهن، وفيه دلالة حينئذ على تحريم الوطء في الدبر، كما سيأتي تقريره قريباً إن شاء الله تعالى. وقال أبو رَزين وعكرمة والضحاك وغير واحد: **﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾** يعني طاهرات غير حُيَّض، ولهذا قال تعالى: **﴿إن الله يحب التوابين﴾** أي من الذنب وإن تكرر غشيانه **﴿ويحب المتطهرين﴾** أي المتنزهين عن الأقذار والأذى، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض أو في غير المأتى.

وقوله: **﴿نساؤكم حرث لكم﴾** قال ابن عباس: الحرث موضع الولد **﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾** أي كيف شئتم مقبلة ومدبرة في صِمام واحد، كما ثبتت بذلك الأحاديث. روى البخاري عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: **﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾** ورواه مسلم. وفي حديث معاوية بن حَيْدة القشيري، أنه قال: يا رسول الله، نساؤنا ما نأتي منها وما نذر ؟ قال: «حرثك ائت حرثك أنى شئت، غير ألا تضربَ الوجه، ولا تقبح ولا تهجر إلا في المبيت» الحديث، رواه أحمد وأهل السنن [وقال الترمذي: حسن].

وعن عبدالرحمن بن سابط، قال: دخلت على حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، فقلت: إني سائلك عن أمر وإني أستحيي أن أسألك، قالت: فلا تستحي يا ابن أخي، قال: عن إتيان النساء في أدبارهن ؟ قالت: حدثتني أم سلمة أن الأنصار كانوا لا يَجُبّون النساء وكانت اليهود تقول: إنه من جَبَّى امرأته، كان الولد أحول، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا في نساء الأنصار فجبَّوهُنّ، فأبت امرأة أن تطيع زوجها وقالت: لن تفعل ذلك حتى آتي رسول الله ﷺ، فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك، فقالت: اجلسي حتى يأتي رسول الله ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ، استحت الأنصارية أن تسأل رسول الله ﷺ، فخرجت، فحدثت أم سلمة رسول الله ﷺ فقال: ادعي «الأنصارية» فدُعيَتْ، فتلا عليها هذه الآية: ﴿**نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم**﴾ «صماماً واحداً». رواه أحمد والترمذي وقال: حسن. وعن ابن عباس، قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله هلكت، قال: «ما الذي أهلكك» ؟ قال: حولت رحلي البارحة، قال، فلم يرد عليه شيئاً. قال: فأوحى الله إلى رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿**نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم**﴾ أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة. [رواه أحمد والترمذي وقال: حسن غريب].

وعن نافع، قال قرأت ذات يوم: ﴿**نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم**﴾ فقال ابن عمر: أتدري فيم نزلت ؟ قلت: لا. قال: نزلت في إتيان النساء في أدبارهن. وهذا محمول على ما تقدم وهو أنه يأتيها في قبلها من دبرها، لما رواه النسائي عن أبي النضر، أنه أخبره أنه قال لنافع مولى ابن عمر: إنه قد أكثر عليك القول: إنك تقول عن ابن عمر أنه أفتى أن تؤتى النساء في أدبارهن، قال: كذبوا عليّ، ولكن سأحدثك كيف كان الأمر، إن ابن عمر عرض المصحف يوماً وأنا عنده حتى بلغ: ﴿**نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم**﴾ فقال: يا نافع، هل تعلم من أمر هذه الآية ؟ قلت: لا. قال: إنا كنا معشر قريش نُجبِّي النساء، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار، أردنا منها مثل ما كنا نريد، فإذا هن قد كرهن ذلك وأعظمنه، وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود، إنما يؤتين على جنوبهن، فأنزل الله: ﴿**نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم**﴾ وهذا إسناده صحيح. وقد روينا عن ابن عمر خلاف ذلك صريحاً، وأنه لا يباح ولا يحل كما سيأتي، وإن كان قد نسب هذا القول إلى طائفة من فقهاء المدينة وغيرهم، وعزاه بعضهم إلى الإمام مالك في كتاب السر، وأكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عن الإمام مالك رحمه الله. وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعاطيه. فعن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا، إن الله لا يستحيي من الحق، لا يحل مأتى النساء في حشوشهن». [أخرجه الدار قطني وله طرق كثيرة]. وعن طاووس، أن رجلاً سأل ابن عباس عن إتيان المرأة في دبرها، قال: تسألني عن الكفر. إسناده صحيح.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ، قال: «الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى». وقد روى هذا الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص قوله وهذا أصح، والله أعلم.

وعن علي بن طلق، قال: نهى رسول الله ﷺ أن تؤتى النساء في أدبارهن، فإن الله لا يستحيي من الحق. [أخرجه أحمد والترمذي وقال: حسن]. وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها»، [أخرجه أحمد وابن ماجه وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «استحيوا من الله حق الحياء لا تأتوا النساء في أدبارهن» [أخرجه النسائي وهو قابل للتحسين وروي عن عمر مرفوعاً والموقوف أصح].

وعن أبي جويرية، قال: سأل رجل علياً عن إتيان المرأة في دبرها، فقال: سفلت، سَفَّلَ الله بك! ألم تسمع قول الله عز وجل: ﴿**أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين**﴾ [الأعراف: ٨٠]. وهو قول ابن مسعود وأبي الدرداء وأبي هريرة وابن عباس وعبد الله بن عمرو في تحريم ذلك. وهو الثابت بلا شك عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه يحرمه. فعن سعيد بن يسار أبي الحباب، قال: قلت: لابن عمر: ما تقول في الجواري أنحمض لهن؟ قال: وما التحميض؟ فذكر الدُّبر، فقال: وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين؟. [أخرجه الدارمي] وهذا إسناده صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك، فكل ما ورد عنه مما يحتمل فهو مردود إلى هذا المحكم.

وعن إسماعيل بن روح، سألت مالك بن أنس: ما تقول في إتيان النساء في أدبارهن؟ قال: ما أنتم قوم عرب، هل يكون الحرث إلا موضع الزرع، لا تعدوا الفرج. قلت: يا أبا عبد الله، إنهم يقولون إنك تقول ذلك. قال: يكذبون علي يكذبون علي. فهذا هو الثابت عنه، وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة، وهو قول سعيد بن المسيب وأبي سلمة وعكرمة وطاوس وعطاء وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير ومجاهد بن جبر والحسن وغيرهم من السلف، أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار، ومنهم من يطلق على فعله الكفر وهو مذهب جمهور العلماء.

وقد حكي في هذا شيء عن بعض فقهاء المدينة حتى حكوه عن الإمام مالك، وفي صحته عنه نظر.

فقد روى الحاكم والدارقطني والخطيب البغدادي عن الإمام مالك من طرق ما يقتضي إباحة ذلك، ولكن في الأسانيد ضعف شديد، وقد استقصاها شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي في جزء جمعه في ذلك، فالله أعلم. وقال الطحاوي: حكى لنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أنه سمع الشافعي يقول: ما صح عن النبي ﷺ في تحليله ولا تحريمه شيء. والقياس أنه حلال.

قال أبو نصر الصباغ: كان الربيع يحلف بالله الذي لا إله إلا هو، لقد كذب - يعني ابن عبد الحكم - على الشافعي في ذلك، لأن الشافعي نص على تحريمه في ستة كتب من كتبه، والله أعلم.

وقال القرطبي في تفسيره: وممن ينسب إليه هذا القول - هو إباحة وطء المرأة في دبرها - سعيد ابن المسيب ونافع وابن عمر ومحمد بن كعب القرظي وعبد الملك بن الماجشون. قال: وحكى الكيا الهراسي الطبري عن محمد بن كعب القرظي أنه استدل على جواز ذلك بقوله: **﴿أتأتون الذكران من العالمين. وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون﴾** [الشعراء: ١٦٥-١٦٦].

يعني مثله من المباح ثم رده بأن المراد بذلك من خلق الله لهم من فروج النساء لا أدبارهن قلت: وهذا هو الصواب وما قاله القرظي إن كان صحيحاً إليه فخطأ. وقد صنف الناس في هذه المسألة مصنفات منهم أبو العباس القرطبي وسمى كتابه إظهار إدبار من أجاز الوطء في الأدبار.

وقوله تعالى: **﴿وقدموا لأنفسكم﴾** أي من فعل الطاعات مع امتثال ما نهاكم عنه من ترك المحرمات؛ ولهذا قال: **﴿واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه﴾** أي فيحاسبكم على أعمالكم جميعا. **﴿وبشر المؤمنين﴾** أي المطيعين الله فيما أمرهم، التاركين ما عنه زجرهم. وعن ابن عباس: **﴿وقدموا لأنفسكم﴾** قال: يقول: «باسم الله»، التسمية عند الجماع. وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله، قال: باسم الله، اللهم جَنِّبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك، لم يضره الشيطان أبداً».

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتم على تركها، كقوله تعالى: **﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾** [النور: ٢٢]، فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير، كما روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «والله لأن يلجَّ أحدكم بيمينه في أهله آثم له عند الله من أن يُعطي كفارته التي افترض الله عليه». رواه مسلم. وعن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾** قال: لا تجعلن عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير، وكذا قال مسروق ومجاهد ومكحول والحسن والربيع بن أنس [وغيرهم] رحمهم الله. ويؤيد ما قاله الجمهور ما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني والله إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها»، وثبت فيهما أيضاً أن رسول الله ﷺ، قال

لعبد الرحمن بن سمرة: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير، وكفر عن يمينك». وروى ابن جرير عن ابن عباس وسعيد بن المسيب ومسروق والشعبي أنهم قالوا: لا يمين في معصية ولا كفارة عليها.

وقوله: ﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم**﴾ أي لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية، وهي التي لا يقصدها الحالف بل تجري على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ، قال «من حلف فقال في حلفه باللات والعزى، فليقل لا إله إلا الله» فهذا قاله لقوم حديثي عهد بجاهلية، قد أسلموا وألسنتهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد، فأمروا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد لتكون هذه بهذه، ولهذا قال تعالى: ﴿**ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور رحيم**﴾ الآية، وفي الآية الأخرى ﴿**بما عقدتم الأيمان**﴾ [المائدة:٨٩]. وعن عائشة في قوله ﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم**﴾ [المائدة:٨٩] قالت: لا والله، بلى والله. وقالت: هم القوم يتدارؤون في الأمر، فيقول هذا: لا والله، بلى والله، وكلا والله، يتدارؤون في الأمر لا تعقد عليه قلوبهم. ورُوي عن ابن عمر وابن عباس في أحد قوليه، والشعبي وعكرمة في أحد قوليه وعطاء، والقاسم بن محمد، ومجاهد في أحد قوليه، وعروة بن الزبير وأبي صالح والضحاك في أحد قوليه، وأبي قلابة والزهري نحو ذلك.

والوجه الثاني: عن عائشة [أيضاً] أنها كانت تتأول هذه الآية، يعني قوله: ﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم**﴾ وتقول: هو الشيء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه. وروي عن أبي هريرة وابن عباس في أحد قوليه، وسليمان بن يسار وسعيد بن جبير ومجاهد في أحد قوليه، وإبراهيم النخعي في أحد قوليه، والحسن وزرارة بن أوفى وأبي مالك وعطاء الخراساني وبكر بن عبد الله، وأحد قولي عكرمة وحبيب بن أبي ثابت والسدي ومكحول ومقاتل وطاوس وقتادة والربيع بن أنس ويحيى بن سعيد وربيعة نحو ذلك. وعن الحسن بن أبي الحسن قال: مر رسول الله ﷺ بقوم ينتضلون، يعني يرمون، ومع رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، فقام رجل من القوم فقال: أصبت والله، وأخطأت والله، فقال الذي مع النبي ﷺ للنبي ﷺ: حنث الرجل يا رسول الله، قال «كلا أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة» هذا مرسل حسن عن الحسن. وقال ابن أبي حاتم: وروي عن عائشة القولان جميعاً، فعن عائشة، قالت: هو قوله: لا والله، وبلى والله، وهو يرى أنه صادق ولا يكون كذلك.

وهناك أقوال أخر: فعن إبراهيم: هو الرجل يحلف على الشيء ثم ينساه. وقال زيد بن أسلم: هو قول الرجل أعمى الله بصري إن لم أفعل كذا وكذا، أخرجني الله من مالي إن لم آتك

غداً، فهو هذا. وعن ابن عباس، قال: لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان. وعن ابن عباس، قال: لغو اليمين أن تحرم ما أحل الله لك فذلك ما ليس عليك فيه كفارة، وكذا روي عن سعيد بن جبير. وعن سعيد بن المسيب: أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث، فسأل أحدهما صاحبه القسمة، فقال: إن عدت تسألني عن القسمة فكل ما لي في رتاج الكعبة، فقال له عمر: إن الكعبة غنية عن مالك، كفر عن يمينك، وكلم أخاك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب عز وجل، ولا في قطيعة الرحم، ولا فيما لا تملك» [أخرجه أبوداود وسنده صحيح إلا أنه منقطع بين ابن المسيب وعمر].

وقوله: ﴿**ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم**﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب، قال مجاهد وغيره، وهي كقوله تعالى: ﴿**ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان**﴾ الآية [المائدة:٨٩]. ﴿**والله غفور حليم**﴾ أي غفور لعباده حليم عليهم.

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾.

الإيلاء الحلف، فإذا حلف الرجل أن لا يجامع زوجته مدة، فلا يخلو إما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها، فإن كانت أقل، فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته، وعليها أن تصبر وليس لها مطالبته بالفيئة في هذه المدة، وهذا كما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ، آلى من نسائه شهراً فنزل لتسع وعشرين، وقال: «الشهر تسع وعشرون» ولهما عن عمر بن الخطاب نحوه، فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر، إما أن يفيء أي يجامع، وإما أن يطلق فيجبره الحاكم على هذا، وهذا لئلا يضر بها، ولهذا قال تعالى: ﴿**للذين يؤلون من نسائهم**﴾ أي يحلفون على ترك الجماع عن نسائهم، فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء كما هو مذهب الجمهور ﴿**تربص أربعة أشهر**﴾ أي ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف ويطالب بالفيئة أو الطلاق، ولهذا قال ﴿**فإن فاءوا**﴾ أي رجعوا إلى ما كانوا عليه وهو كناية عن الجماع، قاله ابن عباس ومسروق والشعبي وسعيد بن جبير وغير واحد ومنهم ابن جرير رحمه الله ﴿**فإن الله غفور رحيم**﴾ أي لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين، وقوله: ﴿**فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم**﴾ فيه دلالة لأحد قولي العلماء، وهو القديم عن الشافعي أن المولى إذا فاء بعد الأربعة الأشهر أنه لا كفارة عليه. والذي عليه الجمهور وهو الجديد من مذهب الشافعي أن عليه التكفير لعموم وجوب التكفير على كل حالف، كما تقدم في الأحاديث الصحاح، والله أعلم.

وقد ذكر الفقهاء وغيرهم في مناسبة تأجيل المولى بأربعة أشهر الأثر الذي رواه الإمام مالك بن أنس رحمه الله في الموطأ عن عمرو بن دينار قال: خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع

امرأة تقول:

تطاول هذا الليل واسود جانبه ... وأرقنى ألا خـليـل ألاعــبه
فوالله لولا الله أنى أراقـــبه ... لحرك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة، رضي الله عنها: كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: ستة أشهر أو أربعة أشهر. فقال عمر: لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك. وقد روى هذا من طرق، وهو من المشهورات.

وقوله: ﴿**وإن عزموا الطلاق**﴾ فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر، كقول الجمهور من المتأخرين، وذهب آخرون إلى أنه يقع بمضي الأربعة أشهر تطليقة، وكل من قال: إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر أوجب عيها العدة، إلا ما روي عن ابن عباس وأبي الشعثاء: أنها إن كانت حاضت ثلاث حيض فلا عدة عليها، وهو قول الشافعي، والذي عليه الجمهور من المتأخرين أن يوقف فيطالب إما بهذا وإما بهذا ولا يقع عليها بمجرد مضيها طلاق. فعن عبد الله بن عمر أنه قال: إذا آلى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر حتى يوقف، فإما أن يطلق وإما أن يفيء. أخرجه البخاري. وروى الشافعي رحمه الله عن سليمان بن يسار، قال: أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ كلهم يوقف المولى، قال الشافعي: وأقل ذلك ثلاثة عشر، ورواه الشافعي عن علي رضي الله عنه أنه يوقف المولى، ثم قال: وهكذا نقول، وهو موافق لما رويناه عن عمر وابن عمر وعائشة وعثمان وزيد بن ثابت وبضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ، هكذا قال الشافعي رحمه الله. وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم رحمهم الله، وهو اختيار ابن جرير أيضاً، وهو قول الليث بن سعد وإسحاق بن راهويه وأبي عبيد وأبي ثور وداود، وكل هؤلاء قالوا: إن لم يفىء ألزم بالطلاق، فإن لم يطلق طلق عليه الحاكم، والطلقة تكون رجعية، له رجعتها في العدة، وانفرد مالك بأن قال، لا يجوز له رجعتها حتى يجامعها في العدة وهذا غريب جداً.

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) ﴾.

هذا أمر من الله سبحانه وتعالى للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء، بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، أي بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء، ثم تتزوج إن شاءت، وقد أخرج الأئمة الأربعة من هذا العموم الأمة إذا طلقت، فإنها تعتد عندهم بقرءين لأنها على نصف من الحرة، والقُرْء لا يتبعض فكُمّل لها قرءان. قاله ابن عمر، وهكذا روي عن عمر بن الخطاب. قالوا: ولم يعرف بين الصحابة خلاف، وقال بعض السلف: بل عدتها كعدة الحرة لعموم الآية، ولأن هذا أمر جبلي، فكان الحرائر والإماء في هذا سواء والله أعلم،

حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن محمد بن سيرين وبعض أهل الظاهر وضعفه.

وقد اختلف السلف والخلف والأئمة في المراد بالأقراء ما هو على قولين: **أحدهما**: أن المراد بها: الأطهار، رواه مالك في الموطأ عن عائشة. وروى مالك، عن ابن شهاب قال: سمعت أبا بكر بن عبد الرحمن يقول: ما أدركت أحداً من فقهائنا إلا وهو يقول ذلك، يريد قول عائشة، وروى مالك عن نافع، عن عبد الله بن عمر، أنه كان يقول: إذا طلق الرجل امرأته، فدخلت في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرىء منها، وقال مالك: وهو الأمر عندنا ورُوي مثله عن ابن عباس وزيد بن ثابت وسالم والقاسم وعروة وسليمان بن يسار، وأبي بكر بن عبد الرحمن وأبان بن عثمان وعطاء بن أبي رباح وقتادة والزهري وبقية الفقهاء السبعة وهو مذهب مالك والشافعي وغير واحد وداود وأبي ثور، وهو رواية عن أحمد واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿**فطلقوهن لعدتهن**﴾ [الطلاق:١] أي في الأطهار ولما كان الطهر الذي يطلق فيه محتسباً ، دل على أنه أحد الأقراء الثلاثة المأمور بها ولهذا قال هؤلاء: إن المعتدة تنقضي عدتها وتبين من زوجها بالطعن في الحيضة الثالثة، وأقل مدة تصدق فيها المرأة في انقضاء عدتها اثنان وثلاثون يوماً ولحظتان. **والقول الثاني**: أن المراد بالأقراء، الحيض، فلا تنقضي العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة، زاد آخرون: وتغتسل منها، وأقل وقت تصدق فيه المرأة في انقضاء عدتها ثلاثة وثلاثون يوماً ولحظة. وهذا القول رُوي عن أبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت وأنس بن مالك وابن مسعود ومعاذ، وأبي بن كعب وأبي موسى الأشعري وابن عباس وسعيد بن المسيب وعلقمة والأسود وإبراهيم ومجاهد وعطاء وطاوس وسعيد بن جبير وعكرمة ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة والشعبي والربيع ومقاتل بن حيان والسدي ومكحول والضحاك وعطاء الخراساني أنهم قالوا: الأقراء: الحيض. وهذا مذهب أبي حنيفة وأصحابه، وأصح الروايتين عن الإمام أحمد بن حنبل، وحكى عنه الأثرم أنه قال: الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: الأقراء الحيض، وهو مذهب الثوري والأوزاعي وابن أبي ليلى وابن شبرمة والحسن بن صالح وأبي عبيد وإسحاق بن راهويه. وقال ابن جرير: أصلُ القرء في كلام العرب الوقت لمجيء الشيء المعتاد مجيئه في وقت معلوم ولإدبار الشيء المعتاد إدباره لوقت معلوم وهذه العبارة تقتضي أن يكون مشتركاً بين هذا وهذا، وقد ذهب إليه بعض العلماء الأصوليين، فالله أعلم. وهذا قول الأصمعي أن القرء هو الوقت. وقال أبو عمرو بن العلاء: العرب تسمي الحيض قرءاً، وتسمي الطهر قرءاً وتسمي الطهر والحيض جميعاً قرءاً. وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القرء يراد به الحيض، ويراد به الطهر، وإنما اختلفوا في المراد من الآية ما هو على قولين.

وقوله: ﴿**ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن**﴾ أي من حبل أو حيض،

قاله ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وغير واحد، وقوله: **﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾** تهديد لهن على خلاف الحق، ودل هذا على أن المرجع في هذا إليهن لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن ويتعذر إقامة البينة غالباً على ذلك، فرد الأمر إليهن وتوعدن فيه لئلا تخبر بغير الحق، إما استعجالاً منها لانقضاء العدة أو رغبة منها في تطويلها لما لها في ذلك من المقاصد، فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله: **﴿وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً﴾** أي وزوجها الذي طلقها أحق بردها، ما دامت في عدتها، إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير، وهذا في الرجعيات، فأما المطلقات البوائن، فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن، وإنما صار ذلك لما حصروا في الطلقات الثلاث، فأما حال نزول هذه الآية، فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة، فلما قصروا في الآية التي بعدها على ثلاث طلقات، صار للناس مطلقة بائن، وغير بائن.

وقوله: **﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾** أي ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر، ما يجب عليه بالمعروف، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر، أن رسول الله ﷺ، قال في خطبته في حجة الوداع «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يُوطِئْنَ فُرُشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مُبَرِّح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف». وفي حديث معاوية بن حيدة أنه قال: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا ؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمْتَ، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تُقَبِّح، ولا تهجر إلا في البيت» [أخرجه أبوداود وإسناده حسن]، وعن ابن عباس، قال: إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة، لأن الله يقول: **﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾**. وقوله: **﴿وللرجال عليهن درجة﴾** أي في الفضيلة في الخُلُق، والمنزلة، وطاعة الأمر والإنفاق، والقيام بالمصالح والفضل في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: **﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾** [النساء: ٣٤]. وقوله: **﴿والله عزيز حكيم﴾** أي عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، حكيم في أمره وشرعه وقدره.

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾.

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله عز وجل إلى ثلاث طلقات، وأباح الرجعة في المرة والثنتين، وأبانها بالكلّية في الثالثة،

فقال: ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ روى أبو داود عن ابن عباس قال: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ الآية، وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعتها وإن طلقها ثلاثاً، فنسخ ذلك فقال ﴿الطلاق مرتان﴾ الآية. رواه النسائي [وهو حسن]. عن عروة، أن رجلاً قال لامرأته: لا أطلقك أبداً ولا آويك أبداً، قالت: وكيف ذلك ؟ قال: أطلقك حتى إذا دنا أجلك راجعتك، فأتت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فأنزل الله عز وجل: ﴿الطلاق مرتان﴾ [وهو مرسل حسن]، وعن عائشة نحوه. وروي عن قتادة مرسلاً، ذكره السدي وابن زيد وابن جرير كذلك، واختار أن هذا تفسير هذه الآية.

وقوله: ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ أي إذا طلقتها واحدة أو اثنتين، فأنت مخير فيها ما دامت عدتها باقية بين أن تردها إليك ناوياً الإصلاح بها والإحسان إليها، وبين أن تتركها حتى تنقضي عدتها فتبين منك، وتطلق سراحها محسناً إليها، لا تظلمها من حقها شيئاً، ولا تُضَارّ بها. قال ابن عباس: إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين، فليتق الله في ذلك، أي في الثالثة، فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها، أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً. وعن أنس بن مالك، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ذكر الله الطلاق مرتين، فأين الثالثة ؟ قال: «إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» [أخرجه الدار قطني وصححه ابن القطان].

وقوله: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً﴾ أي لا يحل لكم أن تُضَاجروهن وتضيقوا عليهن، ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه، كما قال تعالى: ﴿ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ [النساء:١٩]، فأما إن وهبته المرأة شيئاً عن طيب نفس منها، فقد قال تعالى: ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ [النساء:٤]، وأما إذا تشاقق الزوجان، ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته، فلها أن تفتدي منه بما أعطاها، ولا حرج عليها في بذلها له، ولا حرج عليه في قبول ذلك منها، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ الآية، فأما إذا لم يكن لها عذر، وسألت الافتداء منه، فعن ثوبان، أن رسول الله ﷺ قال: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقها في غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة» [أخرجه الترمذي وحسنه وأبوداود وابن ماجه وأحمد وصححه الألباني].

ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف: إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله﴾ قالوا: فلم يشرع الخلع إلا

في هذه الحالة، فلا يجوز في غيرها إلا بدليل، والأصل عَدَمُه، وممن ذهب إلى هذا ابن عباس وطاوس وإبراهيم وعطاء والحسن والجمهور حتى قال مالك والأوزاعي: لو أخذ منها شيئاً وهو مضار لها، وجب رده إليها، وكان الطلاق رجعياً قال مالك: وهو الأمر الذي أدركت الناس عليه، وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجوز الخلع في حالة الشقاق وعند الاتفاق بطريق الأولى والأحرى، وهذا قول جميع أصحابه قاطبة. وقد ذكر ابن جرير رحمه الله أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شَمَّاس وامرأته فعن ابن عباس: أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس، أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ما أعيب عليه في خلق ولا دين، ولكن أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ «أتردين إليه حديقته»؟ قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ «اقبل الحديقة وطلقها تطليقة» [رواه البخاري وللحديث طرق متعددة].

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في أنه هل يجوز للرجل أن يفاديها بأكثر مما أعطاها، فذهب الجمهور إلى جواز ذلك لعموم قوله تعالى: ﴿**فلا جناح عليهما فيما افتدت به**﴾ فقد أتى عمر بامرأة ناشز، فأمر بها إلى بيت كثير الزبل، ثم دعا بها فقال: كيف وجدت؟ فقالت: ما وجدت راحة منذ كنت عنده إلا هذه الليلة التي كنت حبستني، فقال لزوجها: اخلعها ولو من قرطها. وفي رواية قال: خذ ولو عقاصها. وقال البخاري: وأجاز عثمان الخلع دون عقاص رأسها.

ومعنى هذا: أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير ولا يترك لها سوى عقاص شعرها، وبه يقول ابن عمر وابن عباس ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعي وقبيصة بن ذؤيب والحسن بن صالح وعثمان البتي، وهذا مذهب مالك والليث والشافعي وأبي ثور، واختاره ابن جرير. وقال أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله تعالى : إن كان الإضرار من قبلها، جاز أن يأخذ منها ما أعطاها، ولا تجوز الزيادة عليه، فإن ازداد جاز في القضاء، وإن كان الإضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئاً، فإن أخذ، جاز في القضاء. وقال الإمام أحمد وأبو عبيد وإسحاق بن راهويه: لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاها، وهذا قول سعيد بن المسيب وعطاء وعمرو بن شعيب والزهري وطاوس والحسن والشعبي وحماد بن أبي سليمان والربيع بن أنس، وقال معمر والحكم: كان علي يقول: لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطاها، وقال الأوزاعي: القضاة لا يجيزون أن يأخذ منها أكثر مما ساق إليها. وحملوا معنى الآية على معنى ﴿**فلا جناح عليهما فيما افتدت به**﴾ أي من الذي أعطاها لتقدم قوله: ﴿**ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به**﴾ أي من ذلك، وهكذا كان يقرؤها الربيع بن أنس «فلا جناح عليهما فيما افتدت به منه» رواه ابن جرير؛ ولهذا قال بعده: ﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون**﴾.

فصل

عن ابن عباس: أن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص سأله قال: رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه، أيتزوجها؟ قال: نعم، ليس الخلع بطلاق، ذكر الله الطلاق في أول الآية وآخرها، والخلع فيما بين ذلك، فليس الخلع بشيء، ثم قرأ ﴿**الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان**﴾ وقرأ: ﴿**فإن طلقها فلا تحل له من بعد، حتى تنكح زوجاً غيره**﴾. وهذا الذي ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما من أن الخلع ليس بطلاق وإنما هو فسخ، هو روايه عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان وابن عمر، وهو قول طاوس وعكرمة، وبه يقول أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية وأبو ثور وداود بن علي الظاهري، وهو مذهب الشافعي في القديم، وهو ظاهر الآية الكريمة. والقول الثاني في الخلع: أنه طلاق بائن إلا أن ينوي أكثر من ذلك. فعن جمهان مولى الأسلميين، عن أم بكر الأسلمية: أنها اختلعت من زوجها عبد الله بن خالد بن أسيد فأتيا عثمان بن عفان في ذلك، فقال: تطليقة إلا أن تكون سميت شيئاً فهو ما سميت. [رواه مالك]. قال الشافعي: ولا أعرف جمهان، وكذا ضعف أحمد بن حنبل هذا الأثر، والله أعلم. وقد روي نحوه عن عمر وعلي وابن مسعود وابن عمر، وبه يقول سعيد بن المسيب والحسن وعطاء وشريح والشعبي وإبراهيم وجابر بن زيد، وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي وعثمان البتي والشافعي في الجديد، غير أن الحنفية عندهم أنه متى نوى المخالع بخلعه تطليقة أو اثنتين أو أطلق، فهو واحدة بائنة، وإن نوى ثلاثا فثلاث، وللشافعي قول آخر في الخلع، وهو أنه متى لم يكن بلفظ الطلاق، وعري عن النية، فليس هو بشيء بالكلية.

مسألة: وذهب مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق في رواية عنهما، وهي المشهورة، إلى أن المختلعة عدتها عدة المطلقة بثلاثة قروء، إن كانت ممن تحيض، وروي ذلك عن عمر وعلي وابن عمر، وبه يقول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وعروة وسالم وأبو سلمة وعمر بن عبد العزيز وابن شهاب والحسن والشعبي وإبراهيم النخعي وأبو عياض وجُلاس بن عمرو وقتادة وسفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وأبو عبيد. قال الترمذي: وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم، ومأخذهم في هذا أن الخلع طلاق، فتعتد كسائر المطلقات. والقول الثاني: أنها تعتد بحيضة واحدة تستبرئ بها رحمها. فعن نافع: أن الربيِّع اختلعت من زوجها، فأتى عمُها عثمان رضي الله عنه، فقال: تعتد بحيضة. قال: وكان ابن عمر يقول: تعتد ثلاث حيض، حتى قال هذا عثمان، فكان ابن عمر يفتي به، ويقول: عثمان خيرنا وأعلمنا. وعن ابن عباس، قال: عدتها حيضة، وبه يقول عكرمة وأبان بن عثمان وكل من تقدم ذكره ممن يقول إن الخلع فسخ يلزمه القول بهذا، واحتجوا لذلك بما رواه أبو داود والترمذي وحسنه عن ابن عباس، أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد

النبي ﷺ، فأمرها النبي ﷺ أن تعتد بحيضة. [وروي مرسلاً وله شواهد].

مسألة: وليس للمخالع أن يراجع المختلعة في العدة بغير رضاها عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء، لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء. وروي عن عبد الله بن أبي أوفى وماهان الحنفي وسعيد بن المسيب والزهري أنهم قالوا: إن رد إليها الذي أعطاها جاز له رجعتها في العدة بغير رضاها، وهو اختيار أبي ثور رحمه الله. وقال سفيان الثوري: إن كان الخلع بغير لفظ الطلاق فهو فرقة ولا سبيل له عليها، وإن كان يسمى طلاقاً فهو أملك لرجعتها ما دامت في العدة، وبه يقول داود بن علي الظاهري، واتفق الجميع على أن للمختلع أن يتزوجها في العدة، وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن فرقة: أنه لا يجوز له ذلك كما لا يجوز لغيره، وهو قول شاذ مردود.

مسألة: وهل له أن يوقع عليها طلاقاً آخر في العدة ؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء: **أحدها**: ليس له ذلك، لأنها قد ملكت نفسها وبانت منه، وبه يقول ابن عباس وابن الزبير وعكرمة وجابر بن زيد والحسن البصري والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو ثور. **والثاني**: قال مالك: إن أتبع الخلع طلاقاً من غير سكوت بينهما، وقع، وإن سكت بينهما، لم يقع، قال ابن عبد البر: وهذا يشبه ما روي عن عثمان رضي الله عنه. **والثالث**: أنه يقع عليها الطلاق بكل حال ما دامت في العدة، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي، وبه يقول سعيد بن المسيب وشريح وطاوس وإبراهيم والزهري والحكم وحماد بن أبي سليمان، وروي ذلك عن ابن مسعود وأبي الدرداء، وقال ابن عبد البر: وليس ذلك بثابت عنهما.

وقوله: ﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون**﴾ أي هذه الشرائع التي شرعها لكم. هي حدوده فلا تتجاوزوها، كما ثبت في الحديث الصحيح: «إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم محارم فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها» [أخرجه الحاكم وحسنه النووي في الأربعين]. وقد يستدل بهذه الآية من ذهب إلى أن جمع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام، كما هو مذهب المالكية ومن وافقهم، وإنما السنة عندهم أن يطلق واحدة واحدة لقوله ﴿**الطلاق مرتان**﴾ ثم قال ﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره**﴾ أي أنه إذا طلق الرجل امرأته طلقة ثالثة بعد ما أرسل عليها الطلاق مرتين، فإنها تحرم عليه ﴿**حتى تنكح زوجاً غيره**﴾، أي حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح، فلو وطئها واطىء في غير نكاح ولو في ملك اليمين، لم تحل للأول، لأنه ليس بزوج، وهكذا لو تزوجت ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول.

عن عائشة، قالت: دخلت امرأة رفاعة القرظي وأنا وأبو بكر عند النبي ﷺ، فقالت: إن

رفاعة طلقني البتة، وإن عبد الرحمن بن الزَبِير تزوجني، وإنما عنده مثل الهدبة، وأخذت هدبة من جلبابها، وخالد بن سعيد بن العاص بالباب لم يؤذن له، فقال: يا أبا بكر، ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول الله ﷺ، فما زاد رسول الله ﷺ عن التبسم، قال رسول الله ﷺ: «كأنك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة، لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك» [متفق عليه].

فصل

والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغباً في المرأة، قاصداً لدوام عشرتها، كما هو المشروع من التزويج، واشترط الإمام مالك مع ذلك، أن يطأها الثاني وطأً مباحاً، فلو وطئها وهي مُحْرِمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض أو نفساء أو الزوج صائم أو مُحْرِم أو معتكف لم تحل للأول بهذا الوطء، وكذا لو كان الزوج الثاني ذمياً لم تحل للمسلم بنكاحه، لأن أنكحة الكفار باطلة عنده، واشترط الحسن البصري فيما حكاه عنه الشيخ أبو عمر بن عبد البر أن ينزل الزوج الثاني وكأنه تمسك بما فهمه من قوله عليه السلام «حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك» ويلزم على هذا أن تنزل المرأة أيضاً. فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلها للأول، فهذا هو المحلل الذي وردت الأحاديث بذمه ولعنه [عن جمع من الصحابة]، ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة.

فعن عبد الله [بن مسعود] قال: «لعن رسول الله ﷺ: الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والمحَلِّل والمحَلَّل له وآكل الربا وموكله». رواه أحمد والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. قال: والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة منهم عمر وعثمان وابن عمر، وهو قول الفقهاء من التابعين، ويروى ذلك عن علي وابن مسعود وابن عباس.

وعن عقبة بن عامر، قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بالتيس المستعار» ؟ قالوا: بلى يا رسول ﷺ، قال: «هو المحَلِّل، لعن الله المحَلِّل والمحَلَّل له» تفرد به ابن ماجه [وسنده قوي وله متابع].

وعن نافع أنه قال: جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه، هل تحل للأول ؟ فقال: لا إلا نكاح رغبة كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. [وهذه الأحاديث شواهدها كثيرة].

وقوله: ﴿فإن طلقها﴾ أي الزوج الثاني بعد الدخول بها ﴿فلا جناح عليهما أن يتراجعا﴾ أي المرأة والزوج الأول ﴿إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾ أي يتعاشرا بالمعروف. وقال مجاهد: إن ظنا أن نكاحهما على غير دلسة ﴿وتلك حدود الله﴾ أي شرائعه وأحكامه ﴿يبينها﴾ أي يوضحها ﴿لقوم يعلمون﴾.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فيما إذا طلق الرجل امرأته طلقة أو طلقتين، وتركها حتى انقضت عدتها، ثم تزوجت بآخر، فدخل بها ثم طلقها فانقضت عدتها، ثم تزوجها الأول، هل تعود إليه بما بقي من الثلاث، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل، وهو قول طائفة من الصحابة رضي الله عنهم، أو يكون الزوج الثاني قد هدم ما قبله من الطلاق، فإذا عادت إلى الأول تعود بمجموع الثلاث، كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله، وحجتهم أن الزوج الثاني إذا هدم الثلاث فلأن يهدم ما دونها بطريق الأولى والأحرى، والله أعلم.

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ ﴾.

هذا أمر من الله، عز وجل للرجال، إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة، أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدتها، ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها، فإما أن يمسكها، أي يرتجعها، إلى عصمة نكاحه، بمعروف وهو أن يشهد على رجعتها، وينوي عشرتها بالمعروف، أو يسرحها، أي يتركها حتى تنقضي عدتها ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن، من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح، قال الله تعالى: **﴿ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا﴾** قال ابن عباس، ومجاهد ومسروق والحسن وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان وغير واحد: كان الرجل يطلق المرأة، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها، ضراراً لئلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك، وتوعدهم عليه، فقال: **﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾** أي بمخالفته أمر الله تعالى.

وقوله: **﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾** قال مسروق: هو الذي يطلق في غير كنهه، ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها لتطول عليها العدة، وقال الحسن وقتادة وعطاء الخراساني والربيع ومقاتل بن حيان: هو الرجل يطلق ويقول: كنت لاعباً، أو يعتق أو ينكح ويقول: كنت لاعباً، فأنزل الله **﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾** فألزم الله بذلك. والمشهور في هذا الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث جدهن جد، وهزلهن جد: النكاح والطلاق والرجعة». وقال الترمذي: حسن غريب.

وقوله: **﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾** أي في إرساله الرسول بالهدى والبينات إليكم **﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾** أي السنة **﴿يعظكم به﴾** أي يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم **﴿واتقوا الله﴾** أي فيما تأتون وفيما تذرون **﴿واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾** أي فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية وسيجازيكم على ذلك.

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ

مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾.

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين، فتنقضي عدتها، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها، وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك، فنهى الله أن يمنعوها. وكذا قال مسروق وإبراهيم النخعي والزهري والضحاك: إنها نزلت في ذلك، وهذا الذي قالوه ظاهر من الآية، وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها، وأنه لابد في النكاح من ولي، كما قاله الترمذي وابن جرير عند هذه الآية، وكما جاء في الحديث: «لا نكاح إلا بولي» وفي هذه المسألة نزاع بين العلماء، محرر في موضعه من كتب الفروع.

وقد روي أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار المزني وأخته، فروى البخاري رحمه الله في كتابه الصحيح عند تفسير هذه الآية عن الحسن، أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها، فتركها حتى انقضت عدتها فخطبها، فأبى معقل، فنزلت: ﴿**فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن**﴾ ورواه وصححه الترمذي أيضاً، ولفظه عن معقل بن يسار، أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين، على عهد رسول الله ﷺ فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدتها، فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب، فقال له: يا لكع، أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها، والله لا ترجع إليك إبداً آخر ما عليك، قال: فعلم الله حاجته إليها، وحاجتها إلى بعلها، فأنزل الله: ﴿**وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن**﴾ إلى قوله: ﴿**وأنتم لا تعلمون**﴾ فلما سمعها معقل قال: سَمْعٌ لربي وطاعة ثم دعاه، فقال: أزوجك وأكرمك.

وقوله: ﴿**ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر**﴾ أي هذا الذي نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف، يأتمر به ويتعظ به وينفعل له ﴿**من كان منكم**﴾ أيها الناس ﴿**يؤمن بالله واليوم الآخر**﴾ أي يؤمن بشرع الله، ويخاف وعيد الله وعذابه، في الدار الآخرة، وما فيها من الجزاء ﴿**ذلكم أزكى لكم وأطهر**﴾ أي اتباعكم شرع الله، في رد المولیات إلى أزواجهن، وترك الحمية في ذلك أزكى لكم وأطهر لقلوبكم ﴿**والله يعلم**﴾ أي من المصالح، فيما يأمر به وينهى عنه ﴿**وأنتم لا تعلمون**﴾ أي الخِيَرة فيما تأتون، ولا فيما تذرون.

﴿ ۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾.

هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة، وهي سنتان فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك، ولهذا قال: ﴿**لمن أراد أن يتم الرضاعة**﴾ وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يُحرِّم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يُحرِّم.

روى الترمذي في: (باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر دون الحولين) عن أم سلمة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرِّم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام» وقال: هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، أن الرضاعة لا تحرِّم إلا ما كان دون الحولين، وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرِّم شيئاً. قلت: تفرد الترمذي برواية هذا الحديث ورجاله على شرط الصحيحين، ومعنى قوله: «إلا ما كان في الثدي» أي في محل الرضاعة قبل الحولين، كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن البراء بن عازب، قال: لما مات إبراهيم ابن النبي ﷺ قال: «إن له مرضعاً في الجنة»، وهكذا أخرجه البخاري ، وإنما قال عليه السلام ذلك؛ لأن ابنه إبراهيم عليه السلام، مات وله سنة وعشرة أشهر، فقال: إن له مرضعاً، يعني تكمل رضاعه.

والقول بأن الرضاعة لا تحرِّم بعد الحولين، يروى عن علي وابن عباس وابن مسعود وجابر وأبي هريرة وابن عمر وأم سلمة وسعيد بن المسيب وعطاء والجمهور، وهو مذهب الشافعي وأحمد وإسحاق والثوري وأبي يوسف ومحمد ومالك في رواية، وعنه أن مدته سنتان وشهران، وفي رواية: وثلاثة أشهر. وقال أبو حنيفة: سنتان وستة أشهر. وقال زفر بن الهذيل: ما دام يرضع فإلى ثلاث سنين، وهذا رواية عن الأوزاعي، قال مالك: ولو فطم الصبي دون الحولين، فأرضعته امرأة بعد فصاله، لم يحرم لأنه قد صار بمنزلة الطعام، وهو رواية عن الأوزاعي، وقد روي عن عمر وعلي أنهما قالا: لا رضاع بعد فصال، فيحتمل أنهما أرادا الحولين، كقول الجمهور: سواء فطم أو لم يفطم ويحتمل أنهما أرادا الفعل كقول مالك، والله أعلم.

وقد روي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، أنها كانت ترى رضاع الكبير يُؤثّر في التحريم، وهو قول عطاء بن أبي رباح والليث بن سعد، وكانت عائشة تأمر بمن تختار أن يدخل عليها من الرجال لبعض نسائها، فترضعه، وتحتج في ذلك بحديث سالم مولى أبي حذيفة حيث أمر النبي ﷺ امرأة أبي حذيفة أن ترضعه وكان كبيراً، فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة، وأبى ذلك سائر أزواج النبي ﷺ، ورأين ذلك من الخصائص، وهو قول الجمهور، وحجة الجمهور وهم الأئمة الأربعة، والفقهاء السبعة، والأكابر من الصحابة، وسائر أزواج رسول الله ﷺ، سوى عائشة، ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «انظرن من إخوانكم فإنما الرضاعة من المجاعة».

وقوله: ﴿**وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف**﴾ أي وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أي بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته في يساره، وتوسطه وإقتاره، كما قال تعالى: ﴿**لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر**

يسراً﴾ [الطلاق:٧] قال الضحاك: إذا طلق الرجل زوجته وله منها ولد، فأرضعت له ولده، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف.

وقوله: ﴿**لا تضار والدة بولدها**﴾ أي بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته. كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضّرار لها، ولهذا قال: ﴿**ولا مولود له بولده**﴾ أي بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضراراً بها، قاله مجاهد وقتادة والضحاك والزهري والسدي والثوري وابن زيد وغيرهم.

وقوله: ﴿**وعلى الوارث مثل ذلك**﴾ قيل: في عدم الضرار لقريبه، قاله مجاهد والشعبي والضحاك، وقيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل، والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور، وقد استقصى ذلك ابن جرير في تفسيره، وقد استدل بذلك من ذهب من الحنفية والحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف. وقد ذُكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد إما في بدنه أو عقله. وقال علقمة: لامرأة ترضع بعد الحولين، لا ترضعيه.

وقوله: ﴿**فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما**﴾ أي فإن اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين، ورأيا في ذلك مصلحة له، وتشاورا في ذلك وأجمعا عليه، فلا جناح عليهما في ذلك، فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر، قاله الثوري وغيره، وهذا فيه احتياط للطفل وإلزام للنظر في أمره، وهو من رحمة الله بعباده حيث حجر على الوالدين في تربية طفلهما، وأرشدهما إلى ما يصلحهما ويصلحه، كما قال في سورة الطلاق: ﴿**فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهنّ وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى**﴾ [الطلاق:٦].

وقوله: ﴿**وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف**﴾ أي إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يستلم منها الولد إما لعذر منها أو عذر له، فلا جناح عليهما في بذله، ولا عليه في قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف، قاله غير واحد. وقوله: ﴿**واتقوا الله**﴾ أي في جميع أحوالكم ﴿**واعلموا أن الله بما تعملون بصير**﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾.

هذا أمر من الله للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن، أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع، ومستنده في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة، وهذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي: أن ابن مسعود سُئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها، ولم يدخل بها ولم يفرض لها؟ فترددوا إليه مراراً في ذلك، فقال: أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن

خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه: أرى لها الصداق كاملاً، وفي لفظ: لها صداق مثلها لا وكس ولا شطط، وعليها العدة، ولها الميراث، فقام معقل بن سنان الأشجعي فقال: سمعت رسول الله ﷺ قضى به في بروع بنت واشق ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً. ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها، وهي حامل، فإن عدتها بوضع الحمل ولو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله: ﴿**وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ**﴾ [الطلاق:٤] وكان ابن عباس يرى أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع، أو أربعة أشهر وعشر للجمع بين الآيتين، وهذا مأخذ جيد ومسلك قوي، لولا ما ثبتت به السنة في حديث سُبَيعة الأسلمية المخرج في الصحيحين من غير وجه: أنها توفي عنها زوجها سعد بن خولة وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، وفي رواية: فوضعت حملها بعده بليال، فلما تَعَلَّت من نفاسها، تجملت للخُطَّاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعْكَك، فقال لها: ما لي أراك متجملة لعلك ترجين النكاح. والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك، جمعت عليّ ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزويج إن بدا لي. قال أبو عمر بن عبد البر: وقد روي أن ابن عباس رجع إلى حديث سبيعة، يعني لما احتج عليه به، قال: ويصحح ذلك عنه، أن أصحابه أفتوا بحديث سبيعة كما هو قول أهل العلم قاطبة. وكذلك يستثنى من ذلك الزوجة إذا كانت أمة، فإن عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمس ليال على قول الجمهور، لأنها لما كانت على النصف من الحرة في الحد، فكذلك فلتكن على النصف منها في العدة. ومن العلماء كمحمد بن سيرين وبعض الظاهرية من يسوي بين الزوجات الحرائر والإماء في هذا المقام لعموم الآية، ولأن العدة من باب الأمور الجبلية التي تستوي فيها الخليقة، وقد ذكر سعيد بن المسيب، وأبو العالية وغيرهما: أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً، لاحتمال اشتمال الرحم على حمل، فإذا انتظر به هذه المدة، ظهر إن كان موجوداً، كما جاء في حديث ابن مسعود الذي في الصحيحين وغيرهما: «إن خلق أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح». فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر، والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه، والله أعلم.

ومن ههنا ذهب الإمام أحمد، في رواية عنه، إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة ههنا؛ لأنها صارت فراشاً كالحرائر، وللحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عمرو بن العاص أنه قال: لا تُلْبِسوا علينا سنة نبينا، عدة أم الولد، إذا توفى عنها سيدها أربعة أشهر وعشر. ورواه أبو داود. وقد روي عن الإمام أحمد أنه أنكر هذا الحديث، وقيل إن قبيصة لم يسمع عَمْراً، وقد

ذهب إلى القول بهذا الحديث طائفة من السلف، منهم سعيد بن المسيب ومجاهد، والحسن، وبه كان يأمر يزيد بن عبد الملك بن مروان، وهو أمير المؤمنين، وبه يقول الأوزاعي وإسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل في رواية عنه، وقال طاوس وقتادة: عدة أم الولد إذا توفى عنها سيدها نصف عدة الحرة شهران وخمس ليال. وقال أبو حنيفة وأصحابه، والثوري والحسن بن صالح: تعتد بثلاث حيض، وهو قول علي وابن مسعود وعطاء وإبراهيم النخعي. وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه: عدتها حيضة، وبه يقول ابن عمر والشعبي ومكحول والجمهور، وقال الليث: ولو مات وهي حائض، أجزأتها. وقال مالك: فلو كانت ممن لا تحيض، فثلاثة أشهر. وقال الشافعي والجمهور: شهر، وثلاثة أحب إليّ، والله أعلم.

وقوله: ﴿**فإذا بلغن أجلهنّ فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعلمون خبير**﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها، لما ثبت في الصحيحين عن غير وجه عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أمي المؤمنين، أن رسول الله ﷺ، قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تُحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً». وفي الصحيحين أيضاً عن أم سملة أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابنتي تُوفى عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكْحُلُها؟ فقال: «لا» كل ذلك يقول ـ لا ـ مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إنما هي أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكن في الجاهلية تمكث سنة» قالت زينب بنت أم سلمة: كانت المرأة إذا توفى عنها زوجها، دخلت حفْشاً ولبست شر ثيابها، ولم تمس طيباً ولا شيئاً حتى تمر بها سنة، ثم تخرج فتعطى بَعرة فترمي بها، ثم تؤتى بدابة حمار أو شاة أو طير فتَفْتَض به. فقلما تفتض بشيء إلا مات. ومن ههنا ذهب كثيرون من العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة للآية التي بعدها، وهي قوله: ﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول** غير إخراج﴾ الآية [البقرة: ٢٤٠]، كما قاله ابن عباس وغيره، وفي هذا نظر كما سيأتي تقريره.

والغرض أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحُلي وغير ذلك، وهو واجب في عدة الوفاة قولاً واحداً، ولا يجب في عدة الرجعية قولاً واحداً، وهل يجب في عدة البائن فيه قولان. ويجب الإحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن، سواء في ذلك الصغيرة والآيسة، والحرة والأمة، والمسلمة والكافرة، لعموم الآية، وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه: لا إحداد على الكافرة، وبه يقول أشهب وابن نافع من أصحاب مالك، وحجة قائل هذه المقالة قوله ﷺ: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً». قالوا: فجعله تعبداً، وألحق أبو حنيفة وأصحابه والثوري الصغيرة بها لعدم التكليف، وألحق أبو حنيفة وأصحابه الأمة المسلمة لنقصها، ومحل تقرير ذلك كله في كتب الأحكام والفروع، والله الموفق للصواب.

وقوله: ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ أي انقضت عدتهن، قاله الضحاك والربيع بن أنس، ﴿فلا جناح عليكم﴾ قال الزهري: أي على أوليائها. ﴿فيما فعلن﴾ يعني النساء اللاتي انقضت عدتهن، عن ابن عباس: إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنَّع وتتعرض للتزويج، فذلك المعروف. وروي عن مقاتل بن حيان نحوه، وقال ابن جريج عن مجاهد: ﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف﴾ قال: هو النكاح الحلال الطيب، وروي عن الحسن والزهري والسدي نحو ذلك.

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ولا جناح عليكم﴾ أن تُعَرّضوا بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح. قال ابن عباس: التعريض أن تقول: إني أريد التزويج، وإني أحب امرأة من أمرها ومن أمرها ـ يعرض لها بالقول بالمعروف ـ وفي رواية: وددت أن الله رزقني امرأة، ونحو هذا، ولا يَنْصِبُ للخِطْبة، وفي رواية: إني لا أريد أن أتزوج غيرك إن شاء الله، ولوددت أني وجدت امرأة صالحة، ولا ينصب لها ما دامت في عدتها. رواه البخاري تعليقاً. وهكذا قال مجاهد وطاوس وعكرمة وإبراهيم النخعي والحسن وغير واحد من السلف والأئمة في التعريض: إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة، وهكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات، فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم، وقال لها: «فإذا حَلَلْت فآذنيني». فلما حلَّتْ، خطب عليها أسامة بن زيد مولاه، فزوّجها إياه. فأما المطلقة الرجعية فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها، والله أعلم.

وقوله: ﴿أو أكننتم في أنفسكم﴾ أي أضمرتم في أنفسكم من خطبتهن، وهذا كقوله تعالى ﴿وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾ [القصص:٦٩]، وكقوله: ﴿وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم﴾ [الممتحنة:١]؛ ولهذا قال: ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾ أي في أنفسكم، فرفع الحرج عنكم في ذلك. ثم قال: ﴿ولكن لا تواعدوهنّ سراً﴾ قال أبو مِجْلز، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، والحسن البصري وإبراهيم النخعي وقتادة والضحاك والربيع بن أنس وسليمان التيمي ومقاتل بن حيان والسدي: يعني الزنا، وهو معنى رواية ابن عباس، واختاره ابن جرير. وقال ابن عباس: ﴿ولكن لا تواعدوهن سراً﴾ لا تقل لها: إني عاشق وعاهديني أن لا تتزوجي غيري، ونحو هذا، وكذا رُوي عن سعيد بن جبير والشعبي وعكرمة وأبي الضحى والضحاك والزهري ومجاهد والثوري: هو أن يأخذ ميثاقها أن لا تتزوج غيره، وعن مجاهد: هو قول

الرجل للمرأة: لا تفوتيني بنفسك فإني ناكحك، وقال قتادة: هو أن يأخذ عهد المرأة وهي في عدتها أن لا تنكح غيره، فنهى الله عن ذلك، وقدم فيه وأحل الخِطْبة، والقول بالمعروف. وقال ابن زيد: ﴿ولكن لا تواعدوهن سراً﴾ هو أن يتزوجها في العدة سراً، فإذا حلت أظهر ذلك.

وقد يحتمل أن تكون الآية عامة في جميع ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والسدي والثوري وابن زيد: يعني به ما تقدم من إباحة التعريض كقوله: إني فيك لراغب ونحو ذلك، وقال محمد بن سيرين: قلت لعَبيدة: ما معنى قوله: ﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾ قال: يقول لوليها: لا تسبقني بها، يعني لا تزوجها حتى تعلمني.

وقوله: ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ يعني ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس [وغيرهم]: ﴿حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ يعني حتى تنقضي العدة.

وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة. واختلفوا فيمن تزوج امرأة في عدتها، فدخل بها، فإنه يفرق بينهما، وهل تحرم عليه أبداً؟ على قولين: الجمهور على أنها لا تحرم عليه، بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتها. وذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه على التأبيد، واحتج في ذلك بما رواه عن عمر رضي الله عنه أنه قال: أيما امرأة نكحت في عدتها، فإن كان زوجها الذي تزوج بها لم يدخل بها فرق بينهما، ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول، ثم كان الآخر خاطباً من الخطاب، وإن كان دخل بها فرق بينهما ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول، ثم اعتدت من الآخر، ثم لم ينكحها أبداً. وقالوا: ومأخذ هذا أن الزوج لما استعجل ما أجل الله، عوقب بنقيض قصده، فحرمت عليه على التأبيد كالقاتل يُحرَم الميراثَ. وقد روى الشافعي هذا الأثر عن مالك. قال البيهقي: وذهب إليه في القديم ورجع عنه في الجديد، لقول علي إنها تحل له. ثم هو منقطع عن عمر. وعن مسروق، أن عمر رجع عن ذلك، وجعل لها مهرها وجعلهما يجتمعان.

وقوله: ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾، توعدهم على ما يقع في ضمائرهم من أمور النساء، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر، ثم لم يُؤْيِسْهُم من رحمته، ولم يُقْنطهم من عائدته، فقال: ﴿واعلموا أن الله غفور حليم﴾.

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ ﴾.

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها، وقبل الدخول بها. قال ابن عباس وطاوس وإبراهيم والحسن البصري: المس النكاح. بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها والفرض لها، إن كانت مُفَوّضة وإن كان في هذا إنكسار لقلبها، ولهذا أمر تعالى بإمتاعها، وهو تعويضها عما

فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله، على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره. وقال ابن عباس: متعة الطلاق أعلاه الخادم، ودون ذلك الوَرِق، ودون ذلك الكسوة. وعن ابن عباس [أيضا]: إن كان موسراً متعها بخادم أو نحو ذلك، وإن كان معسراً أمتعها بثلاثة أثواب. وقال الشعبي: أوسط ذلك درع وخمار وملحفة وجلباب، قال: وكان شريح يمتع بخمسمائه. وعن ابن سيرين، قال: كان يُمتَع بالخادم أو بالنفقة أو بالكسوة. قال: ومتع الحسن بن علي بعشرة آلاف، ويروى أن المرأة قالت: متاع قليل من حبيبٍ مُفَارق. وذهب أبو حنيفة إلى أنه متى تنازع الزوجان في مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها. وقال الشافعي في الجديد: لا يجبر الزوج على قدر معلوم، إلا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة، وأحب ذلك إليّ أن يكون أقله ما تجزىء فيه الصلاة. وقال في القديم: لا أعرف في المتعة قدراً، إلا إني أستحسن ثلاثين درهماً؛ لما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما. وقد اختلف العلماء أيضاً: هل تجب المتعة لكل مطلقة أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التي لم يفرض لها، على أقوال:

أحدها: أنها تجب المتعة لكل مطلقة لعموم قوله تعالى: ﴿**وللمطلقات** متاع **بالمعروف حقاً على المتقين**﴾ [البقرة:٢٤١]، ولقوله تعالى: ﴿ **يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكنّ سراحاً جميلاً**﴾ [الأحزاب:٢٨]، وقد كن مفروضاً لهن ومدخولاً بهن، وهذا قول سعيد بن جُبير، وأبي العالية، والحسن البصري، وهو أحد قولي الشافعي ومنهم من جعله الجديد الصحيح، والله أعلم.

والقول الثاني: أنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس، وإن كانت مفروضاً لها، لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً**﴾ [الأحزاب:٤٩]، فعن سعيد بن المسيب، قال: نسخت هذه الآية التي في الأحزاب الآية التي في البقرة. وقد روى البخاري في صحيحه، عن سهل بن سعد وأبي أَسَيد. أنهما قالا: تزوج رسول الله ﷺ أميمة بنت شراحيل، فلما أدخلت عليه، بسط يده إليها، فكأنما كرهت ذلك، فأمر أبا أُسَيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازِقيَّين.

والقول الثالث: أن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ولم يفرض لها، فإن كان قد دخل بها، وجب لها مهر مثلها إذا كانت مفوضة، وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول، وجب لها عليه شطره، فإن دخل بها استقر الجميع، وكان ذلك عوضاً لها عن المتعة، وإنما المصابة التي لم يفرض لها ولم يدخل بها، فهذه التي دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها. وهذا قول ابن عمر ومجاهد.

ومن العلماء من استحبها لكل مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول، وهذا ليس بمنكور، وعليه تحمل آية التخيير في الأحزاب، ولهذا قال تعالى: ﴿**وللمطلقات متاع**

بالمعروف حقاً على المتقين﴾ [البقرة:٢٤١]. ومن العلماء من يقول: إنها مستحبة مطلقاً. فعن الشعبي، قال: ذكروا له المتعة، أيحبس فيها ؟ فقرأ: ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾ قال الشعبي: والله ما رأيت أحداً حبس فيها، والله لو كانت واجبة لحبس فيها القضاة.

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ الَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾.

وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض إذا طلق الزوج قبل الدخول، فإنه لو كان ثم واجب آخر من متعة لبينها، لا سيما وقد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الحالة، والله أعلم. وتشطير الصداق والحالة هذه أمر مجمع عليه بين العلماء، لا خلاف بينهم في ذلك، فإنه متى كان قد سمى لها صداقاً ثم فارقها قبل دخوله بها، فإنه يجب لها نصف ما سمى من الصداق، إلا أن عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج وإن لم يدخل بها، وهو مذهب الشافعي في القديم، وبه حكم الخلفاء الراشدون، لكن روى الشافعي عن ابن عباس أنه قال: في الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسها ثم يطلقها: ليس لها إلا نصف الصداق، لأن الله يقول: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ قال الشافعي: هذا أقوى، وهو ظاهر الكتاب.

وقوله: ﴿إلا أن يعفون﴾ أي النساء، عما وجب لها على زوجها من النصف، فلا يجب لها عليه شيء، عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا أن يعفون﴾ قال: إلا أن تعفو الثيب فتدع حقها. قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم رحمه الله: وروي عن شريح وسعيد بن المسيب وعكرمة ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس والسدي [وغيرهم] نحو ذلك. قال: وخالفهم محمد بن كعب القرظي فقال: ﴿إلا أن يعفون﴾ يعني الرجال، وهو قول شاذ لم يتابع عليه، انتهى كلامه.

وقوله: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ عن شريح قال: سألني علي بن أبي طالب عن الذي بيده عقدة النكاح، فقلت له: هو ولي المرأة، فقال علي: لا، بل هو الزوج، وفي إحدى الروايات عن ابن عباس وسعيد بن المسيب وشريح في أحد قوليه، ومجاهد والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان [وغيرهم]، أنه الزوج. قلت: وهذا هو الجديد من قولي الشافعي، ومذهب أبي حنيفة وأصحابه، واختاره ابن جرير، ومأخذ هذا القول أن الذي بيده عقدة النكاح حقيقة الزوج، فإن بيده عقدَها وإبرامَها ونقضَها وانهدامَها، وكما أنه لا يجوز للوليّ، أن يهب شيئاً من مال المولية للغير، فكذلك في الصداق.

والوجه الثاني: عن ابن عباس ـ في الذي ذكر الله بيده عقدة النكاح ـ قال: ذلك أبوها أو أخوها أو من لا تنكح إلا بإذنه. وروي عن علقمة والحسن وزيد بن أسلم وإبراهيم النخعي أنه الولي. وهذا مذهب مالك، وقول الشافعي في القديم، ومأخذه أن الولي هو الذي أكسبها إياه،

فله التصرف فيه بخلاف سائر مالها. وعن عكرمة، قال: أذن الله في العفو وأمر به، فأي امرأة عفت جاز عفوها، فإن شحت وضنت عفا وليها جاز عفوه، وهذا يقتضي صحة عفو الولي وإن كانت رشيدة، وهو مروي عن شريح، لكن أنكر عليه الشعبي، فرجع عن ذلك وصار إلى أنه الزوج وكان يباهل عليه.

وقوله: ﴿**وأن تعفو أقرب للتقوى**﴾. قال ابن جرير: قال بعضهم: خوطب به الرجال والنساء، عن ابن عباس: ﴿**وأن تعفوا أقرب للتقوى**﴾ قال: أقربهما للتقوى الذي يعفو، وكذا روي عن الشعبي وغيره. وقال مجاهد والنخعي والثوري [وغيرهم]: الفضل ـ ههنا ـ أن تعفوا المرأة عن شطرها أو إتمام الرجل الصداق لها، ولهذا قال: ﴿**ولا تنسوا الفضل بينكم**﴾ أي الإحسان، قاله سعيد، وقال الضحاك وقتادة والسدي وأبو وائل المعروف: يعني لا تهملوه بل استعملوه بينكم، عن عون بن عبدالله قال: صحبت الأغنياء فكنت من أكثرهم هماً حين رأيتهم أحسن ثياباً، وأطيب ريحاً، وأحسن مركباً مني، وجالست الفقراء فاسترحت بهم، وقال: ﴿**ولا تنسوا الفضل بينكم**﴾ إذا أتاه السائل وليس عنده شيء فليدْعُ له.

﴿**إن الله بما تعملون بصير**﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أموركم وأحوالكم، وسيجزي كل عامل بعمله.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود، قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». قلت: ثم أي؟ قال «برّ الوالدين». قال: حدثني بهنّ رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني.

وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى، وقد اختلف السلف والخلف فيها أي صلاة هي؟ فقيل: إنها الصبح، حكاه مالك في الموطأ بلاغاً عن علي وابن عباس، قال مالك: وذلك رأيي. وعن ابن عباس، أنه صلى الغداة في مسجد البصرة، فقنت قبل الركوع، وقال: هذه الصلاة الوسطى التي ذكرها الله في كتابه، فقال: ﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين**﴾. وعن جابر بن عبد الله، قال: الصلاة الوسطى صلاة الصبح، وحكاه ابن أبي حاتم عن ابن عمر وأبي أمامة وأنس وأبي العالية ومجاهد وجابر بن زيد [وغيرهم]، وهو الذي نص عليه الشافعي رحمه الله، محتجاً بقوله: ﴿**وقوموا لله قانتين**﴾ والقنوت عنده في صلاة الصبح. ومنهم من قال: هي الوسطى باعتبار أنها لا تقصر، وهي بين صلاتين ورباعيتين مقصورتين، [أي] وتر المغرب، وقيل: لأنها بين صلاتى ليل جهريتين وصلاتي نهار سريتين، وقيل: إنها صلاة الظهر، روى أبو داود الطيالسي عن زهرة يعني ابن معبد، قال: كنا جلوساً

عند زيد بن ثابت، فأرسلوا إلى أسامة فسألوه عن الصلاة الوسطى، فقال: هي الظهر، كان رسول الله ﷺ يصليها بالهجير. [وإسناده صحيح]. وعن زيد بن ثابت، قال: الصلاة الوسطى: صلاة الظهر. وهو قول عروة بن الزبير وعبد الله بن شداد بن الهاد، ورواية عن أبي حنيفة رحمهم الله.

وقيل: إنها صلاة العصر. قال الترمذي والبغوي رحمهما الله: وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم. وقال القاضي الماوردي: وهو قول جمهور التابعين. وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر. وقال أبو محمد بن عطية في تفسيره. وهو قول جمهور الناس. وقال الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي في كتابه المسمى «كشف المغطى في تبيين الصلاة الوسطى»، وقد نصر فيه: أنها العصر، وحكاه عن عمر وعلي وابن مسعود وعن ابن عباس وعائشة على الصحيح عنهم، وبه قال عبيدة وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وابن سيرين والحسن وقتادة وغيرهم، وهو مذهب أحمد بن حنبل. قال القاضي الماوردي والشافعي قال ابن المنذر: وهو الصحيح عن أبي حنيفة، وأبي يوسف ومحمد، واختاره ابن حبيب المالكي، رحمهم الله.

ذكر الدليل على ذلك

روى الإمام أحمد عن علي، قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً». ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء، وكذا رواه مسلم. وحديث يوم الأحزاب، وشَغْل المشركين رسول الله ﷺ وأصحابه عن أداء صلاة العصر يومئذ، مروي عن جماعة من الصحابة يطول ذكرهم، وإنما المقصود رواية من نص منهم في روايته، أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر. وقد رواه مسلم أيضا من حديث ابن مسعود والبراء بن عازب رضي الله عنهما. فهذه [من] نصوص المسألة لا تحتمل شيئا.

ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها، وقوله ﷺ في الحديث الصحيح عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» [أخرجه مسلم]، وفي صحيح [البخاري] أيضاً من حديث بُرَيدة بن الحُصَيْب، عن النبي ﷺ، قال: «بكروا بالصلاة في يوم الغيم، فإنه من ترك صلاة العصر، فقد حبط عمله». وروى الإمام أحمد عن أبي بصرة الغفاري، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ في واد من أوديتهم، يقال له المخَمَّص، صلاة العصر، فقال: «إن هذه الصلاة صلاة العصر عرضت على الذين من قبلكم فضيعوها، ألا ومن صلاها ضُعِّفَ له أجره مرتين، ألا ولا صلاة بعدها حتى تروا الشاهد». ورواه مسلم. وروى الإمام أحمد ومسلم عن أبي يونس مولىٰ عائشة، قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً، قالت: إذا بلغت هذه الآية ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ فآذني، فلما بلغتها آذنتها،

فأملت عليّ: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين» قالت: سمعتها من رسول الله ﷺ. وقد روى الإمام مالك أيضاً عن عمرو بن رافع، قال: كنت أكتب مصحفاً لحفصة زوج النبي ﷺ، فقالت: إذا بلغت هذه الآية فآذني ﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى**﴾ فلما بلغتها آذنتها، فأملت علي: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين». [وإسناده صحيح].

وتقرير المعارضة أنه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى بواو العطف التي تقتضي المغايرة، فدل ذلك على أنها غيرها، وأجيب عن ذلك بوجوه: أحدها: أن هذا إن روي على أنه خبر، فحديث علي أصح وأصرح منه، وهذا يحتمل أن تكون الواو زائدة، كما في قوله: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾ [الأنعام:٧٥]، أو تكون لعطف الصفات لا لعطف الذوات، كقوله: ﴿**سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوىٰ والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى**﴾ [الأعلى:١-٤] وأشباه ذلك كثيرة.

وقد نص سيبويه شيخ النحاة على جواز قول القائل: مررت بأخيك وصاحبك، ويكون الصاحب هو الأخ نفسه، والله أعلم. وأما إن روي على أنه قرآن، فإنه لم يتواتر فلا يثبت بمثل خبر الواحد قرآن، ولهذا لم يثبته أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في المصحف الإمام، ولا قرأ بذلك أحد من القراء الذين تثبت الحجة بقراءتهم، لا من السبعة ولا من غيرهم. ثم قد روي ما يدل على نسخ هذه التلاوة المذكورة في هذا الحديث، روى مسلم عن البراء بن عازب، قال: نزلت: ﴿**حافظوا على الصلوات وصلاة العصر**﴾ فقرأناها على رسول الله ﷺ ما شاء الله، ثم نسخها الله عز وجل، فأنزل ﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى**﴾ فقال له زاهر رجل كان مع شقيق: أفهي العصر؟ قال: قد حدثتك كيف نزلت، وكيف نسخها الله عز وجل. فعلى هذا تكون هذه التلاوة وهي تلاوة الجادة ناسخة للفظ رواية عائشة وحفصة ولمعناها، إن كانت الواو دالة على المغايرة، وإلا فللفظها فقط، والله أعلم.

وقيل: إن الصلاة الوسطى هي صلاة المغرب. وحكى هذا القول ابن جرير، عن قبيصة بن ذؤيب، وحكى أيضاً عن قتادة على اختلاف عنه، ووجه هذا القول بعضهم بأنها وسطى في العدد بين الرباعية والثنائية، وبأنها وتر المفروضات، وبما جاء فيها من الفضيلة، والله أعلم.

وقيل: إنها العشاء الآخرة، اختاره الواحدي في تفسيره، وقيل: هي واحد من الخمس لا بعينها، وأبهمت فيهن، كما أبهمت ليلة القدر في الحول أو الشهر أو العشر، ويحكى هذا القول عن سعيد بن المسيب وشريح القاضي ونافع مولى ابن عمر، والربيع بن خثيم، ونقل أيضاً عن زيد بن ثابت واختاره إمام الحرمين الجويني.

وقيل: بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس، والعجب أن هذا القول اختاره الشيخ أبو عمرو بن عبد البر النمري إمام ما وراء البحر، وإنها لإحدى الكبر إذا اختاره مع اطلاعه

وحفظه ما لم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا أثر. وقيل: إنها صلاة العشاء وصلاة الفجر. وقيل: بل هي صلاة الجماعة. وقيل: صلاة الجمعة. وقيل صلاة الخوف. وقيل: بل صلاة عيد الفطر. وقيل: بل صلاة عيد الأضحى، وقيل: الوتر. وقيل: الضحى. وتوقف فيها آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة، ولم يظهر لهم وجه الترجيح، ولم يقع الإجماع على قول واحد، بل لم يزل التنازع فيها موجوداً من زمن الصحابة وإلى الآن. روى ابن جرير عن سعيد بن المسيب، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين في الصلاة الوسطى هكذا وشبك بين أصابعه، وقد حكى فخر الدين الرازي في تفسيره قولاً عن جمع من العلماء منهم زيد بن ثابت وربيع بن خثيم أنها لم يرد بيانها وإنما أريد إبهامها كما أبهمت ليلة القدر في شهر رمضان وساعة الإجابة في يوم الجمعة والاسم الأعظم في أسماء الله تعالى ووقت الموت على المكلف ليكون في كل وقت مستعداً، وكذا أبهمت الليلة التي ينزل فيها من السماء وباء ليحذرها الناس ويعطوا الأهبة دائماً وكذا وقت الساعة استأثر الله بعلمه فلا تأتي إلا بغتة.

وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التي قبلها، وإنما المدار ومعترك النزاع في الصبح والعصر، وقد ثبتت السنة بأنها العصر فتعين المصير إليها.

وقوله تعالى: ﴿**وقوموا لله قانتين**﴾ أي خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمنافاته إياها، ففي صحيح مسلم أنه ﷺ قال لمعاوية بن الحكم السلمي حين تكلم في الصلاة: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وذكر الله». وروى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم، قال: كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة، حتى نزلت هذه الآية: ﴿**وقوموا لله قانتين**﴾ فأمرنا بالسكوت، رواه الجماعة سوى ابن ماجه.

وقوله: ﴿**فإن خفتم فرجالاً أوركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾، لما أمر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها، وشدد الأمر بتأكيدها ذكر الحال الذي يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل، وهي حال القتال والتحام الحرب، فقال: ﴿**فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً**﴾ أي فصلوا على أي حال كان رجالاً أو ركباناً يعني مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، فعن نافع: أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها. ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً على أقدامهم، أو ركباناً مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها، قال نافع: لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ، رواه البخاري ومسلم. وفي حديث عبد الله بن أنيس الجهني لما بعثه النبي ﷺ إلى خالد بن سفيان الهذلي ليقتله، وكان نحو عرفة أو عرفات، فلما واجهه حانت صلاة العصر، قال فخشيت أن تفوتني فجعلت أصلي وأنا أومئ إيماء الحديث بطوله رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد، وهذا من رخصة الله التي رخص لعباده ووَضْعِهِ الآصار والأغلال عنهم. وقد روى ابن أبي حاتم

عن ابن عباس، قال: في هذه الآية يصلي الراكب على دابته والراجل على رجليه. قال: وروي عن الحسن ومجاهد ومكحول والسدي والحكم ومالك والأوزاعي والثوري والحسن بن صالح، نحو ذلك ـ وزادوا: يومئ برأسه أينما توجه، ثم روى عن جابر بن عبد الله، قال: إذا كانت المسايفة فليومئ برأسه إيماء حيث كان وجهه، فذلك قوله: ﴿فرجالاً أو ركباناً﴾. وروي عن الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وعطية والحكم وحماد وقتادة نحو ذلك، وقد ذهب الإمام أحمد فيما نص عليه إلى أن صلاة الخوف تفعل في بعض الأحيان ركعة واحدة إذا تلاحم الجيشان، وعلى ذلك ينزل الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس، قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة، وبه قال: الحسن البصري وقتادة والضحاك وغيرهم. وروى ابن جرير عن شعبة، قال: سألت الحكم وحماداً وقتادة عن صلاة المسايفة، فقالوا: ركعة. وروى ابن جرير أيضاً عن جابر بن عبد الله، قال: صلاة الخوف ركعة. واختار هذا القول ابن جرير.

وقال البخاري: «باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو» وقال الأوزاعي: إن كان تهيأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة، صلوا إيماء كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء أخروا الصلاة حتى ينكشف القتال أو يأمنوا فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين، فإن لم يقدروا لا يجزيهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا. وبه قال مكحول، وقال أنس بن مالك: حضرت مناهضة حصن تُسْتَر عند إضاءة الفجر واشتد اشتعال القتال، فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها ونحن مع أبي موسى، ففتح لنا. قال أنس: وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها. هذا لفظ البخاري، ثم استشهد على ذلك بحديث تأخيره ﷺ صلاة العصر يوم الخندق بعذر المحاربة إلى غيبوبة الشمس، وبقوله ﷺ بعد ذلك لأصحابه لما جهزهم إلى بني قريظة: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة»، فمنهم من أدركته الصلاة في الطريق فصلوا، وقالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير، ومنهم من أدركته فلم يصل إلى أن غربت الشمس في بني قريظة، فلم يعنف واحداً من الفريقين. وهذا يدل على اختيار البخاري لهذا القول، والجمهور على خلافه، ويعولون على أن صلاة الخوف على الصفة التي ورد بها القرآن في سورة النساء، ووردت بها الأحاديث، لم تكن مشروعة في غزوة الخندق، وإنما شرعت بعد ذلك، وقد جاء مصرحاً بهذا في حديث أبي سعيد وغيره، وأما مكحول والأوزاعي والبخاري فيجيبون بأن مشروعية صلاة الخوف بعد ذلك لا تنافي جواز ذلك؛ لأن هذا حال نادر خاص، فيجوز فيه مثل ما قلنا بدليل صنيع الصحابة زمن عمر في فتح تستر وقد اشتهر ولم ينكر، و لله أعلم.

وقوله: ﴿فإذا أمنتم فاذكروا الله﴾ أي أقيموا صلاتكم كما أمرتم، فأتموا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها، ﴿كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ أي مثل ما أنعم عليكم

وهداكم وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة، فقابلوه بالشكر والذكر، كقوله بعد صلاة الخوف: **﴿فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾** [النساء: ١٠٣].

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾.

قال الأكثرون: هذه الآية منسوخة بالتي قبلها، وهي قوله: **﴿يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾**. روى البخاري عن ابن الزبير: قلت لعثمان بن عفان **﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً﴾** قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها، قال يا ابن أخي، لا أغير شيئاً منه من مكانه. ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوهم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين، بأن هذا أمر توقيفي، وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها، فأثبتها حيث وجدتها. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾** فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكناها في الدار سنة، فننسخها آية المواريث فجعل لهن الربع أو الثمن مما ترك الزوج. ثم قال: وروي عن أبي موسى الأشعري، وابن الزبير، ومجاهد، وإبراهيم، وعطاء، والحسن، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وزيد بن أسلم، والسدي، ومقاتل بن حيان، وعطاء الخراساني، والربيع بن أنس: أنها منسوخة. وروي عن ابن عباس، قال: كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة في بيته يُنفق عليها من ماله، ثم أنزل الله بعد: **﴿والذي يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾** [البقرة: ٢٣٤]. فهذه عدة المتوفى عنها زوجها، إلا أن تكون حاملاً، فعدتها أن تضع ما في بطنها، وقال: **﴿ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم﴾** [النساء: ١٢] فبين ميراث المرأة، وترك الوصية والنفقة. قال: وروي عن مجاهد والحسن وعكرمة وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان، قالوا: نسختها **﴿أربعة أشهر وعشراً﴾**. قال: وروي عن سعيد بن المسيب، قال: نسختها التي في الأحزاب: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن﴾** الآية [الأحزاب: ٤٩]. قلت: وروي عن مقاتل وقتادة: أنها منسوخة بآية الميراث. وروى البخاري عن مجاهد: **﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً﴾** قال: كانت هذه للمعتدة، تعتد عند أهل زوجها واجب. فأنزل الله: **﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج، فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهم من معروف﴾** قال: جعل الله تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة، وصية إن شاءت سكنت في وصيتها،

وإن شاءت خرجت، وهو قول الله ﴿غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم﴾ فالعدة كما هي واجب عليها، وقال عطاء: قال ابن عباس: نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها، فتعتد حيث شاءت، وهو قول الله تعالى: ﴿غير إخراج﴾ قال عطاء: إن شاءت اعتدت عند أهلها وسكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت، لقول الله: ﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهم﴾ قال عطاء: ثم جاء الميراث، فنسخ السكنى فتعتد حيث شاءت، ولا سكنى لها. فهذا القول الذي عول عليه مجاهد وعطاء، من أن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة، كما زعمه الجمهور، حتى يكون ذلك منسوخاً بالأربعة الأشهر وعشر، وإنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات بأن يمكَّنَّ من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولاً كاملاً، إن اخترن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وصية لأزواجهم﴾ أي يوصيكم الله بهن وصية، كقوله: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ [النساء:١١]، وقوله: ﴿وصية من الله﴾ [النساء:١٢]، وقيل: إنما انتصب على معنى فلتوصوا بهن وصية. وقرأ آخرون بالرفع «وصية» على معنى كتب عليكم وصيةٌ واختارها ابن جرير، ولا يمنعن من ذلك، لقوله: ﴿غير إخراج﴾ فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر، أو بوضع الحمل، واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل، فإنهن لا يمنعن من ذلك، لقوله: ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾ وهذا القول له اتجاه، وفي اللفظ مساعدة له، وقد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس بن تيمية، ورده آخرون منهم الشيخ أبو عمر بن عبد البر. وقول عطاء ومن تابعه، على أن ذلك منسوخ بآية الميراث، إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلم، وإن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر وعشر لا تجب في تركة الميت، فهذا محل خلاف بين الأئمة، وهما قولان للشافعي رحمه الله، وقد استدلوا على وجوب السكنى في منزل الزوج، بما رواه مالك في موطئه أن الفريعة بنت مالك بن سنان وهي أخت أبي سعيد الخدري، رضي الله عنهما، أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خُدرة، فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا حتى إذا كان بطرف القدوم لحقهم فقتلوه. قالت: فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي في بني خدرة، فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة، قالت: فقال رسول الله ﷺ «نعم» قالت: فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ أو أمر بي فنوديت له فقال: «كيف قلت»؟ فرددت عليه القصة التي ذكرت له شأن زوجي، فقال: «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله». قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً، قالت: فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلي فسألني عن ذلك، فأخبرته فاتبعه وقضى به، وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقوله: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما نزل قوله تعالى: ﴿متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾ [البقرة:٢٣٦] قال رجل:

إن شئت أحسنت ففعلت، وإن شئت لم أفعل، فأنزل الله هذه الآية ﴿**وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين**﴾ وقد استدل بهذه الآية، من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة، سواء كانت مفوضة، أو مفروضاً لها، أو مطلقة قبل المسيس، أو مدخولاً بها، وهو قول عن الشافعي رحمه الله، وإليه ذهب سعيد بن جبير، وغيره من السلف، واختاره ابن جرير، ومن لم يوجبها مطلقاً، يخصص من هذا العموم مفهوم قوله تعالى: ﴿**لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهنّ أو تفرضوا لهنّ فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين**﴾ وأجاب الأولون بأن هذا من باب ذكر بعض أفراد العموم، فلا تخصيص على المشهور المنصور، والله أعلم.

وقوله: ﴿**كذلك يبين الله لكم آياته**﴾ أي في إحلاله وتحريمه وفروضه وحدوده، فيما أمركم به ونهاكم عنه، بيَّنه ووضحه وفسره، ولم يتركه مجملاً في وقت احتياجكم إليه ﴿**لعلكم تعقلون**﴾ أي تفهمون وتتدبرون.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾.

روي عن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف، وعنه كانوا ثمانية آلاف وقال أبو صالح: تسعة آلاف، وعن ابن عباس: أربعون ألفاً، وقال وهب بن منبه وأبو مالك: كانوا بضعة وثلاثين ألفاً. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: كانوا أهل قرية يقال لها داوردان. وكذا قال السدي وأبو صالح وزاد: من قبل واسط، وقال سعيد بن عبد العزيز: كانوا من أهل أذرعات، وقال ابن جريج عن عطاء قال: هذا مَثَل. وقال علي بن عاصم: كانوا من أهل داوردان قرية على فرسخ من واسط. وعن ابن عباس: ﴿**ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت**﴾ قال: كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون قالوا: نأتي أرضاً ليس بها موت حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم: ﴿**موتوا**﴾ فماتوا، فمر عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم، فذلك قوله عز وجل: ﴿**ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت**﴾ الآية. وذكر غير واحد من السلف، أن هؤلاء القوم، كانوا أهل بلدة في زمان بني إسرائيل استوخموا أرضهم، وأصابهم بها وباء شديد، فخرجوا فراراً من الموت، هاربين إلى البرية، فنزلوا وادياً أفيح، فملؤوا ما بين عدوتيه، فأرسل الله إليهم ملكين، أحدهما من أسفل الوادي، والآخر من أعلاه، فصاحا بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم موتة رجل واحد، فحيزوا إلى حظائر، وبني عليهم جدران وقبور، وفنوا وتمزقوا وتفرقوا، فلما كان بعد دهر، مرّ بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل، يقال له حزقيل، فسأل الله أن يحييهم على يديه،

فأجابه إلى ذلك، وأمره أن يقول: أيتها العظام البالية، إن الله يأمرك أن تجتمعي، فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنادى: أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً وعصباً وجلداً، فكان ذلك وهو يشاهده، ثم أمره فنادى: أيتها الأرواح، إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره فقاموا أحياءً ينظرون قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة وهم يقولون: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لا إله إلا أنت.

وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ أي فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدامغة، ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم. وفي هذه القصة عبرة ودليل، على أنه لن يغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء فروا من الوباء، طلباً لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم، وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد.

ومن هذا القبيل، الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس، أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ، لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فذكر الحديث، فجاءه عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيباً لبعض حاجته فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه» فحمد الله عمر ثم انصرف، وأخرجاه في الصحيحين.

وقوله: ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ أي كما أن الحذر لا يغني من القدر، كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلا ولا يباعده، بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدر مقنن لا يزاد فيه ولا ينقص منه، كما قال تعالى: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا: لو أطاعونا ما قتلوا، قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ [آل عمران:١٦٨]، وقال تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ [النساء:٧٨]. وروينا عن أمير الجيوش، ومقدم العساكر، وحامي حوزة الإسلام، وسيف الله المسلول على أعدائه: أبي سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه، أنه قال وهو في سياق الموت: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً. وما من عضو من أعضائي إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة، وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء يعني أنه يتألم لكونه ما مات قتيلاً في الحرب، ويتأسف على ذلك، ويتألم أن يموت على فراشه.

وقوله: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ يحث تعالى عباده على الانفاق في سبيل الله، وقد كرر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع.

وقوله: ﴿قرضاً حسناً﴾ روي عن عمر وغيره من السلف: هو النفقة في سبيل الله، وقيل: هو النفقة على العيال، وقيل: هو التسبيح والتقديس. وقوله: ﴿فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾

كما قال تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة﴾ الآية [البقرة: ٢٦١]. وسيأتي الكلام عليها.

عن ابن عمر، قال: لما نزلت ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾ [البقرة: ٢٦١] إلى آخرها، فقال رسول الله ﷺ: «رب زد أمتي»، فنزلت ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾. قال: «رب زد أمتي»، فنزلت: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ [الزمر: ١٠]. [صححه ابن حبان].

وقوله: ﴿والله يقبض ويبسط﴾ أي أنفقوا ولا تبالوا، فالله هو الرازق، يضيق على من يشاء في الرزق، ويوسعه على آخرين، له الحكمة البالغة في ذلك ﴿وإليه ترجعون﴾ أي يوم القيامة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾.

قال قتادة: هذا النبي هو يوشع بن نون. وهذا القول بعيد؛ لأن هذا كان بعد موسى بدهر طويل، وكان ذلك في زمان داود عليه السلام، كما هو مصرح به في القصة، وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة، والله أعلم. وقال السدي ومجاهد: هو شمويل عليه السلام. وقال وهب بن منبه وغيره: كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان، ثم أحدثوا الأحداث، وعبد بعضهم الأصنام، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويقيمهم على منهج التوراة، إلى أن فعلوا ما فعلوا، فسلط الله عليهم أعداءهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا خلقاً كثيراً. [وكانت امرأة منهم] تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلاماً [يكون نبيا]، فسمع الله لها ووهبها غلاماً، فسمته شمويل، أي سمع الله. فشب ذلك الغلام، ونشأ فيهم، وأنبته الله نباتاً حسناً، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بني إسرائيل، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم، وكان المُلْك أيضاً قد باد فيهم، فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً ألا تفوا بما التزمتم من القتال معه ﴿قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أي وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد، قال الله تعالى: ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين﴾ أي ما وفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم، والله عليم بهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾.

أي لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً منهم، فعين لهم طالوت، وكان رجلاً من أجنادهم،

ولم يكن من بيت الملك فيهم، فلهذا قالوا: ﴿أنى يكون له الملك علينا﴾ أي كيف يكون ملكاً علينا ﴿ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾ أي ثم هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء، وقيل: دباغاً، وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف، ثم قد أجابهم النبي قائلاً: ﴿إن الله اصطفاه عليكم﴾ أي اختاره لكم من بينكم، والله أعلم به منكم، يقول: لست أنا الذي عينته من تلقاء نفسي، بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك، ﴿وزاده بسطة في العلم والجسم﴾ أي وهو مع هذا أعلم منكم، وأنبل وأشكل منكم، وأشد قوة وصبراً في الحرب ومعرفة بها، أي أتم علماً وقامة منكم، ومن ههنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة في بدنه ونفسه، ثم قال: ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾ أي هو الحاكم الذي ما شاء فعل، ولا يُسأل عما يفعل، وهم يسألون لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه؛ ولهذا قال: ﴿والله واسع عليم﴾ أي هو واسع الفضل، يختص برحمته من يشاء، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

يقول نبيهم لهم: إن علامة بركة ملك طالوت عليكم، أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم. ﴿فيه سكينة من ربكم﴾ قيل معناه فيه وقار. قاله قتادة. وقال الربيع: رحمة، وكذا روي عن ابن عباس. وعن عطاء قال: ما يعرفون من آيات الله فيسكنون إليه. وقيل: السكينة طست من ذهب، كانت تغسل فيه قلوب الأنبياء، أعطاها الله موسى عليه السلام، فوضع فيها الألواح. رواه السدي عن ابن عباس، وعن علي قال: السكينة لها وجه كوجه الإنسان، ثم هي ريح هفافة. وقال مجاهد: لها جناحان وذنب. وعن وهب بن منبه: السكينة رأس هرة ميتة إذا صرخت في التابوت بصراخ هر، أيقنوا بالنصر، وجاءهم الفتح. وعن وهب بن منبه [أيضا]: السكينة روح من الله تتكلم، إذا اختلفوا في شيء تكلم، فتخبرهم ببيان ما يريدون.

وقوله: ﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾ عن ابن عباس قال: عصاه، ورضاض الألواح، وكذا قال قتادة والسدي والربيع بن أنس وعكرمة وزاد: والتوراة. وقال أبو صالح: ﴿وبقية﴾ يعني عصا موسى، وعصا هارون، ولوحين من التوراة، والمن. وقال عطية بن سعد: عصا موسى، وعصا هارون، وثياب موسى، وثياب هارون، ورضاض الألواح. وعن الثوري قال: منهم من يقول: قفيز من مَنٍّ، ورضاض الألواح، ومنهم من يقول: العصا والنعلان.

وقوله: ﴿تحمله الملائكة﴾ قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون. وقال السدي: أصبح التابوت في دار طالوت، فآمنوا بنبوة شمعون [أو شمويل]، وأطاعوا طالوت. وذُكِرَ أن التابوت كان بأريحا، وكان المشركون لما أخذوه وضعوه في بيت آلهتهم تحت صنمهم الكبير فأصبح التابوت على

رأس الصنم فانزلوه فوضعوه تحته، فأصبح كذلك، فسمروه تحته، فأصبح الصنم مكسور القوائم، ملقى بعيداً، فعلموا أن هذا أمر من الله لا قبل لهم به، فأخرجوا التابوت من بلدهم، فوضعوه في بعض القرى، فأصاب أهلها داء في رقابهم، فأمرتهم جارية من سبي بني إسرائيل أن يردوه إلى بني إسرائيل حتى يخلصوا من هذا الداء، فحملوه على بقرتين فسارتا به، لا يقربه أحد إلا مات، حتى اقتربتا من بلد بني إسرائيل، فكسرتا النِيرين ورجعتا، وجاء بنو إسرائيل فأخذوه، فقيل: إنه تسلمه داود عليه السلام، وإنه لما قام إليهما حجل من فرحه بذلك، وقيل: شابان منهم، فالله أعلم. وقيل: كان التابوت بقرية من قرى فلسطين يقال لها أزدرد.

وقوله: ﴿**إن في ذلك لآية لكم**﴾ أي على صدقي فيما جئتكم به من النبوة، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ أي با لله واليوم الآخر.

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده، ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل، وكان جيشه يومئذ فيما ذكره السدي ثمانين ألفاً، فالله أعلم، أنه قال: ﴿**إن الله مبتليكم بنهر**﴾ قال ابن عباس وغيره: وهو نهر بين الأردن وفلسطين، ﴿**فمن شرب منه فليس مني**﴾ أي فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه ﴿**ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده**﴾، أي فلا بأس عليه، قال الله تعالى: ﴿ **فشربوا منه إلا قليلا منهم**﴾ قال ابن عباس: من اغترف منه بيده روي، ومن شرب منه لم يرو. وكذا رواه السدي عن أبي مالك، عن ابن عباس، وكذا قال قتادة وابن شوذب، وقال السدي: كان الجيش ثمانين ألفاً، فشرب منه ستة وسبعون ألفاً، وتبقى معه أربعة آلاف كذا قال. وعن البراء بن عازب، قال: كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ، الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جازه معه إلا مؤمن، رواه البخاري. ولهذا قال تعالى: ﴿ **فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده**﴾ أي استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم، فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عدد ولا عدد. ولهذا قالوا: ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾.

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾.

أي لما واجه حزب الإيمان، وهم قليل من أصحاب طالوت، لعدوهم أصحاب جالوت، وهم عدد كثير ﴿**قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً**﴾ أي أنزل علينا صبراً من عندك ﴿**وثبت أقدامنا**﴾ أي في لقاء الأعداء، وجنبنا الفرار والعجز ﴿**وانصرنا على القوم الكافرين**﴾.

قال الله تعالى: ﴿**فهزموهم بإذن الله**﴾ أي غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم ﴿**وقتل داود جالوت**﴾ ذكروا في الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان في يده، رماه به فأصابه فقتله، وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته، ويشاطره نعمته، ويشركه في أمره، فوفى له ثم آل الملك إلى دواد عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿**وآتاه الله الملك**﴾ الذي كان بيد طالوت ﴿**والحكمة**﴾ أي النبوة بعد شمويل ﴿**وعلمه مما يشاء**﴾ أي مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به ﷺ ثم قال تعالى: ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض**﴾ أي لولا الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا كما قال تعالى: ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً**﴾ الآية [الحج: ٤٠].

وقوله: ﴿**ولكن الله ذو فضل على العالمين**﴾ أي من عليهم ورحمة بهم، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً، وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله.

ثم قال تعالى: ﴿**تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين**﴾ أي هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل، ﴿**وإنك**﴾ يا محمد ﴿**لمن المرسلين**﴾ وهذا توكيد وتوطئة للقسم.

﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) ﴾.

يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض، كما قال تعالى: ﴿**ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا**﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقال ههنا: ﴿**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله**﴾ يعني موسى ومحمداً ﷺ، وكذلك آدم كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه ﴿**ورفع بعضهم درجات**﴾ كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي ﷺ، الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل.

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودي في قسم يقسمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين. فرفع المسلم يده، فلطم بها وجه اليهودي، فقال: أي خبيث وعلى محمد ﷺ؟ فجاء اليهودي إلى النبي ﷺ، فاشتكى على المسلم، فقال رسول الله ﷺ:

«لا تفضلوني على الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور ؟ فلا تفضلوني على الأنبياء». وفي رواية: «لا تفضلوا بين الأنبياء» فالجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل، وفي هذا نظر. **الثاني**: أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع. **الثالث**: أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر. **الرابع**: لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية. **الخامس**: ليس مقام التفضيل إليكم، وإنما هو إلى الله عز وجل، وعليكم الانقياد والتسليم له، والإيمان به.

وقوله: ﴿**وآتينا عيسى ابن مريم البينات**﴾ أي الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به من أنه عبد الله ورسوله إليهم ﴿**وأيدناه بروح القدس**﴾ يعني أن الله أيده بجبريل عليه السلام، ثم قال تعالى: ﴿**ولو شاء الله مااقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا**﴾ أي بل كل ذلك عن قضاء الله وقدره؛ ولهذا قال: ﴿**ولكن الله يفعل ما يريد**﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾.

يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله، سبيل الخير، ليدّخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكهم، وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا ﴿**من قبل أن يأتي يوم**﴾ يعني يوم القيامة ﴿**لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة**﴾ أي لا يباع أحد من نفسه ولا يفادى بمال لو بذله، ولو جاء بملء الأرض ذهباً، ولا تنفعه خلة أحد، يعني صداقته بل ولا نسابته، كما قال: ﴿**فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون**﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ولا شفاعة: أي ولا تنفعهم شفاعة الشافعين.

وقوله: ﴿**والكافرون هم الظالمون**﴾ مبتدأ محصور في خبره، أي ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذٍ كافراً، وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال ﴿**والكافرون هم الظالمون**﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾.

هذه آية الكرسي، ولها شأن عظيم، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله. روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب، أن النبي ﷺ، سأله: «أي آية في كتاب الله أعظم ؟ قال الله ورسوله أعلم، فرددها مراراً، ثم قال: آية الكرسي، قال: «لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر» وقد رواه مسلم.

وقد ذكر البخاري عن أبي هريرة، قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، أخذته وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، فقال: دعني فإني محتاج وعليّ عيال ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه فأصبحت، فقال النبي ﷺ «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟» قال: قلت يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمته وخليت سبيله، قال «أما إنه قد كذبك وسيعود» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ «إنه سيعود» فرصدته، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال: دعني فأنا محتاج وعليَّ عيال، لا أعود. فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ، «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟» قلت: يا رسول الله، شكا حاجة وعيالاً، فرحمته وخليت سبيله. قال «أما إنه قد كذبك وسيعود»، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود، فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: وما هي ؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ «ما فعل أسيرك البارحة ؟» قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعي الله بها، فخليت سبيله. قال «ما هي ؟» قال قال لي: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وقال لي: لا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص شيء على الخير، فقال النبي ﷺ «أما إنه صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب مُذ ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟» قلت: لا . قال «ذاك شيطان». كذا رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم، وقد رواه النسائي في اليوم والليلة.

وعن أسماء بنت يزيد بن السكن، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ و ﴿ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ [آل عمران: ١-٢] «إن فيهما اسم الله الأعظم». وكذا رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقد ورد في فضلها أحاديث أخر، تركناها اختصاراً لعدم صحتها وضعف أسانيدها.

وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة

فقوله: ﴿الله لا إله إلا هو﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق ﴿الحي القيوم﴾ أي الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً، المقيم لغيره. وكان عمر يقرأ «القيّام»، فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غني عنها، ولا قوام لها بدون أمره، كقوله: ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾ [الروم: ٢٥]، وقوله: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ أي لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه خافية، ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم، فقوله:

﴿لا تأخذه﴾ أي لا تغلبه سنة وهي الوسن والنعاس، ولهذا قال: ولا نوم لأنه أقوى من السنة. وفي صحيح [مسلم] عن أبي موسىٰ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات، فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

وقوله: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه، وتحت قهره وسلطانه، كقوله: ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾ [مريم: ٩٣ـ٩٥].

وقوله: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ كقوله: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ [النجم: ٢٦]، وكقوله: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ [الأنبياء: ٢٨] وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع عنده إلا بإذنه له في الشفاعة، كما في حديث الشفاعة: «آتي تحت العرش فأخر ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني. ثم يقال: ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع» قال: «فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة». [متفق عليه].

وقوله: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، كقوله إخباراً عن الملائكة: ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا، وما بين ذلك، وما كان ربك نسيا﴾ [مريم: ٦٤].

وقوله: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ أي لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلعه عليه. ويحتمل أن يكون المراد لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته، إلا بما أطلعهم الله عليه، كقوله: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ [طه: ١١٠].

وقوله: ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ الكرسي: موضع القدمين، رواه ابن جرير عن أبي موسى، والسدي، والضحاك، ومسلم البطين. وعن ابن عباس، قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره. رواه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وعن أبي مالك: الكرسي تحت العرش. وقال السدي: السموات والأرض في جوف الكرسي، والكرسي بين يدي العرش. وعن ابن عباس: لو أن السموات السبع والأرضين السبع، بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض، ما كن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة.

وقد روى ابن مردويه وغيره أحاديث عن بريدة وجابر وغيرهما في وضع الكرسي يوم القيامة لفصل القضاء، والظاهر أن ذاك غير المذكور في هذه الآية.

والصحيح أن الكرسي غير العرش، والعرش أكبر منه، كما دلت على ذلك الآثار والأخبار.

وقوله: ﴿ولا يؤده حفظهما﴾ أي لا يثقله ولا يُكْرِثُه حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه محتاجة فقيرة وهو الغني الحميد الفعال لما يريد، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم، لا إله غيره، ولا رب سواه، فقوله: ﴿وهو العلي العظيم﴾ كقوله: ﴿وهو العلي الكبير﴾ [سبأ:٢٣]، وكقوله: ﴿الكبير المتعال﴾ [الرعد:٩].

وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح، إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه.

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾ أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيِّن واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً، وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عاماً. عن ابن عباس، قال: كانت المرأة تكون مِقْلاتاً، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾، وقد رواه أبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه، وهكذا ذكر مجاهد وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصري وغيرهم، أنها نزلت في ذلك. وعن ابن عباس قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف، يقال له الحصين، كان له ابنان نصرانيان وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا استكرههما، فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله فيه ذلك. وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء، أن هذه محمولة على أهل الكتاب، ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية. وقال آخرون: بل هي منسوخة بآية القتال، فإنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف، دين الإسلام، فإن أبى أحد منهم الدخول فيه، ولم ينقد له أو يبذل الجزية، قوتل حتى يقتل، وهذا معنى الإكراه، قال الله تعالى: ﴿ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون﴾ [الفتح:١٦]. وفي صحيح [البخاري]: «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل» يعني الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثائق والأغلال والقيود والأكبال، ثم بعد ذلك يسلمون، وتصلح أعمالهم وسرائرهم فيكونون من أهل الجنة. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا يحيى

عن حميد عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال لرجل «أسلم»، قال: إني أجدني كارهاً، قال: «وإن كنت كارهاً» فإنه ثلاثي صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل، فإنه لم يكرهه النبي ﷺ على الإسلام، بل دعاه إليه، فأخبر أن نفسه ليست قابلة له، بل هي كارهة، فقال له: أسلم وإن كنت كارهاً، فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص.

وقوله: ﴿**فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم**﴾ أي من خلع الأنداد والأوثان، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحد الله فعبده وحده، وشهد أنه لا إله إلا هو ﴿**فقد استمسك بالعروة الوثقى**﴾ أي فقد ثبت في أمره، واستقام على الطريقة المثلى، والصراط المستقيم.

وعن عمر رضي الله عنه: إن الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان، وإن الشجاعة والجبن غرائز تكون في الرجال، يقاتل الشجاع عمن لا يعرف، ويفر الجبان عن أمِه، وإن كرم الرجل دينه، وحسبه خلقه، وإن كان فارسياً أو نبطياً. ومعنى قوله في الطاغوت: إنه الشيطان، قوي جداً، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها، والاستنصار بها.

وقوله: ﴿**فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها**﴾ أي فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم، فهي في نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قوي شديد، ولهذا قال: ﴿**فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم**﴾. قال مجاهد: ﴿**فقد استمسك بالعروة الوثقى**﴾ يعني الإيمان، وقال السدي: هو الإسلام، وقال سعيد بن جبير والضحاك: يعني لا إله إلا الله، وعن أنس بن مالك: العروة الوثقى: القرآن. وعن سالم بن أبي الجعد قال: هو الحب في الله، والبغض في الله، وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا تنافي بينها. وقال معاذ بن جبل في قوله: ﴿**لا انفصام لها**﴾ أي لانقطاع لها دون دخول الجنة، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: ﴿**فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها**﴾ ثم قرأ ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ [الرعد: ١١]. وروى الإمام أحمد عن قيس بن عباد، قال: كنت في المسجد، فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع، فدخل فصلى ركعتين أوجز فيهما، فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة، فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله، فدخلت معه فحدثته، فلما استأنس، قلت له: إن القوم لما دخلت قبل المسجد، قالوا: كذا وكذا، قال: سبحان الله، ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لِمَ، إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ، فقصصتها عليه، رأيت كأني في روضة خضراء. قال ابن عون فذكر من خضرتها وسعتها ـ وفي وسطها عمود حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة، فقيل لي اصعد عليه، فقلت: لا أستطيع، فجاءني مِنْصَف ـ قال ابن عون هو الوصيف ـ فرفع ثيابي من خلفي، فقال: اصعد، فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة.

فاستيقظت وإنها لفي يدي، فأتيت رسول الله ﷺ، فقصصتها عليه فقال «أما الروضة، فروضة الإسلام، وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهي العروة الوثقى، أنت على الإسلام حتى تموت» قال: وهو عبد الله بن سلام. أخرجاه في الصحيحين.

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان، يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ﴿**أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾ ولهذا وحد تعالى لفظ النور، وجمع الظلمات، لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة، كما قال: ﴿**وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون**﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿**وجعل الظلمات والنور**﴾ [الأنعام:١]، وقال تعالى: ﴿**عن اليمين والشمائل**﴾ [النحل:٤٨] إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتفرقه وتشعبه.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾.

هذا الذي حاج إبراهيم في ربه هو ملك بابل: نمروذ بن كنعان. كما هو قول مجاهد وغيره. وقال مجاهد: وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان سليمان بن داود، وذو القرنين، والكافران: نمروذ بن كنعان وبختنصر، فالله أعلم. ومعنى قوله: ﴿**ألم تر**﴾ أي بقلبك يا محمد ﴿**إلى الذي حاج إبراهيم في ربه**﴾، أي في وجود ربه، وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره، كما قال بعده فرعون لملئه ﴿**ما علمت لكم من إله غيري**﴾ [القصص:٣٨]، وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة، إلا تجبره، وطول مدته في الملك، وذلك أنه يقال: إنه مكث أربعمائة سنة في ملكه، ولهذا قال: ﴿**أن آتاه الله الملك**﴾ وكأنه طلب من إبراهيم دليلاً، على وجود الرب الذي يدعو إليه، فقال إبراهيم: ﴿**ربي الذي يحيي ويميت**﴾ أي إنما الدليل على وجوده، حدوث هذه الأشياء، المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها. وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة، لأنها لم تحدث بنفسها، فلا بد لها من موجد أوجدها، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له. فعند ذلك قال المحاج ـ وهو النمروذ ـ: ﴿**أنا أحيي وأميت**﴾. قال قتادة ومحمد بن إسحاق والسدي، وغير واحد: وذلك أني أوتى بالرجلين، قد استحقا القتل فآمر

بقتل أحدهما ـ فيقتل، وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء والإماتة ـ والظاهر والله أعلم ـ أنه ما أراد هذا لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم، ولا في معناه لأنه غير مانع لوجود الصانع، وإنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله: ﴿**ما علمت لكم من إله غيري**﴾ ولهذا قال له إبراهيم، لما ادعى هذه المكابرة: ﴿**فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب**﴾ أي إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهاً كما ادعيت تحيي وتميت، فأت بها من المغرب ؟ فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام، بهت، أي أخرس، فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة، قال الله تعالى: ﴿**والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ أي لا يلهمهم حجة ولا برهاناً، بل حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد. وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة. كانت بين إبراهيم ونمروذ بعد خروج إبراهيم من النار، ولم يكن اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم فجرت بينهما هذه المناظرة.

﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾.

تقدم قوله تعالى: ﴿**ألم تر إلى الذين حاج إبراهيم في ربه**﴾ وهو في قوة قوله: هل رأيت مثل الذي حاج إبراهيم في ربه، ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿**أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها**﴾ اختلفوا في هذا المار من هو، فعن علي بن أبي طالب، أنه قال: هو عزير. وحكاه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن وقتادة والسدي وسليمان بن بريدة، وهذا القول هو المشهور. وقال وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد: هو إرميا بن حلقيا. وعن وهب بن منبه، أنه قال: وهو اسم الخضر عليه السلام.

وقال مجاهد بن جبر: هو رجل من بني إسرائيل. وذكر غير واحد أنه مات وهو ابن أربعين سنة، فبعثه الله وهو كذلك، وكان له ابن، فبلغ من السن مائة وعشرين سنة، وبلغ ابن ابنه تسعين وكان الجد شاباً وابنه وابن ابنه شيخان كبيران قد بلغا الهرم.

وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس، مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها ﴿**وهي خاوية**﴾ أي ليس فيها أحد.

وقوله: ﴿**على عروشها**﴾ أي ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة، وقال: ﴿**أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟**﴾ وذلك لما رأى من

دثورها وشدة خرابها وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه، قال الله تعالى: ﴿**فأماته الله مائة عام ثم بعثه**﴾ قالوا: وعمرت البلاد بعد مضي سبعين سنة من موته، وتكامل ساكنوها، وتراجعت بنو إسرائيل إليها، فلما بعثه الله عز وجل بعد موته، كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه: كيف يحي بدنه، فلما استقل سوياً، قال الله له: ﴿**كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم**﴾ قالوا: وذلك أنه مات أول النهار، ثم بعثه الله في آخر النهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم، فقال: ﴿**أو بعض يوم، قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه**﴾ وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير، فوجده كما فقده لم يتغير منه شيء، لا العصير استحال، ولا التين حمض ولا أنتن، ولا العنب تعفن ﴿**وانظر إلى حمارك**﴾ أي كيف يحييه الله عز وجل، وأنت تنظر ﴿**ولنجعلك آية للناس**﴾ أي دليلاً على المعاد ﴿**وانظر إلى العظام كيف ننشزها**﴾ أي نرفعها، فنركب بعضها على بعض. وقرىء ﴿**ننشرها**﴾ أي نحييها، قاله مجاهد ﴿**ثم نكسوها لحماً**﴾. وقال السدي وغيره تفرقت عظام حماره حوله يميناً ويساراً، فنظر إليها وهي تلوح من بياضها، فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة، ثم ركب كل عظم في موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها، ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً، وبعث الله ملكا فنفخ في منخري الحمار، فنهق كله بإذن الله عز وجل، وذلك كله بمرأى من العزير، فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿**قال أعلم أن الله على كل شيء قدير**﴾ أي أنا عالم بهذا، وقد رأيت عيانا، فأنا أعلم أهل زماني بذلك، وقرأ آخرون «قال اعْلم» على أنه أمر له بالعلم.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾.

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام، أسباباً منها أنه لما قال لنمروذ ﴿**ربي الذي يحيي ويميت**﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين في ذلك، إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة، فقال ﴿**رب أرني كيف تحيي الموتى قال: أو لم تؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي**﴾.

وقوله: ﴿**قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك**﴾ اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي، وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان ذلك مهماً لنص عليه القرآن. وقوله: ﴿**فصرهن إليك**﴾ أي: قطعهن، قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو مالك وأبو الأسود الدؤلي ووهب بن منبه والحسن والسدي وغيرهم. وعن ابن عباس ﴿**فصرهن إليك**﴾ أوثقهن، فلما أوثقهن ذبحهن، ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً، فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير، فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن في بعض، ثم جزأهن أجزاء، وجعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل أربعة أجبل، وقيل سبعة، قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير

إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر، يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام، فإذا قدم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جثته بحول الله وقوته، ولهذا قال: ﴿**واعلم أن الله عزيز حكيم**﴾ أي عزيز لا يغلبه شيء، ولا يمتنع منه شيء، وما شاء كان بلا ممانع، لأنه العظيم القاهر لكل شيء، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره. وعن أيوب في قوله: ﴿**ولكن ليطمئن قلبي**﴾ قال: قال ابن عباس: ما في القرآن آية أرجى عندي منها. وعن محمد بن المنكدر أنه قال: التقى عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص: أي آية في القرآن أرجى عندك، فقال عبد الله بن عمرو: قول الله عز وجل: ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله**﴾ الآية، فقال ابن عباس: لكن أنا أقول قول الله عز وجل: ﴿**وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى**﴾ فرضي من إبراهيم قوله ﴿**بلى**﴾ قال فهذا لما يعارض في النفوس ويوسوس به الشيطان. رواه الحاكم في المستدرك.

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال: ﴿**مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله**﴾. قال سعيد بن جبير: يعني في طاعة الله. وقال مكحول: يعني به الإنفاق في الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك. وقال ابن عباس: الجهاد والحج يضعف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف، ولهذا قال تعالى: ﴿**كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة**﴾. وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف. روى الإمام أحمد عن أبي عبيدة بن الجراح قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فبسبعمائة، ومن أنفق على نفسه وأهله أو عاد مريضاً أو أماط أذى، فالحسنة بعشر أمثالها، والصوم جنة ما لم يخرقها، ومن ابتلاه الله عز وجل ببلاء في جسده فهو له حطة» [ورجاله ثقات]. وقد روى النسائي في الصوم بعضه من حديث واصل به، ومن وجه آخر موقوفاً.

وروى الإمام أحمد عن أبي مسعود أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة» ورواه مسلم. وعن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله جعل حسنة ابن آدم بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف

إلا الصوم والصوم لي، وأنا أجزي به، وللصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره، وفرحة يوم القيامة، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك» [ولمسلم عن أبي هريرة نحوه].

وقوله ههنا: ﴿**والله يضاعف لمن يشاء**﴾ أي بحسب إخلاصه في عمله ﴿**والله واسع عليم**﴾ أي فضله واسع كثير أكثر من خلقه، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق.

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾.

يمدح تعالى الذين ينفقون في سبيل الله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات مناً على من أعطوه، فلا يمنون به على أحد، ولا يمنون به لا بقول ولا فعل.

وقوله: ﴿**ولا أذى**﴾ أي لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهاً يحبطون به ما سلف من الإحسان، ثم وعدهم تعالى الجزاء الجزيل على ذلك، فقال: ﴿**لهم أجرهم عند ربهم**﴾ أي ثوابهم على الله لا على أحد سواه. ﴿**ولا خوف عليهم**﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة. ﴿**ولا هم يحزنون**﴾ أي على ما خلفوه من الأولاد، وما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها لا يأسفون عليها، لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿**قول معروف**﴾ أي من كلمة طيبة ودعاء لمسلم ﴿**ومغفرة**﴾ أي غفر عن ظلم قولي أو فعلي ﴿**خير من صدقة يتبعها أذى**﴾. ﴿**والله غني**﴾ أي عن خلقه، ﴿**حليم**﴾ أي يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم، وقد وردت الأحاديث بالنهي عن المن في الصدقة، منها ما في صحيح مسلم عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب». ولهذا قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى**﴾ فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى، ثم قال تعالى: ﴿**كالذي ينفق ماله رئاء الناس**﴾ أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كما تبطل صدقة من راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله، وإنما قصده مِدْحة الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكر بين الناس، أو يقال إنه كريم، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه، ولهذا قال: ﴿**ولا يؤمن بالله واليوم الآخر**﴾، ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه، قال الضحاك: والذي يتبع نفقته مناً أو أذى، فقال ﴿**فمثله كمثل صفوان**﴾ وهو الصخر الأملس، ﴿**عليه تراب فأصابه وابل**﴾ وهو المطر الشديد ﴿**فتركه صلداً**﴾ أي فترك الوابل ذلك الصفوان صلداً أي

أملس يابساً، أي لا شيء عليه من ذلك التراب، بل قد ذهب كله، أي وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب، ولهذا قال: ﴿**لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين**﴾.

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾.

وهذا مثل المؤمنين المنفقين ﴿**أموالهم ابتغاء مرضاة الله**﴾ عنهم في ذلك، ﴿**وتثبيتاً من أنفسهم**﴾ أي وهم متحققون مُثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، ونظير هذا في معنى قوله عليه السلام في الحديث الصحيح المتفق على صحته: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً» أي يؤمن أن الله شرعه ويحتسب عند الله ثوابه. قال الشعبي: ﴿**وتثبيتاً من أنفسهم**﴾ أي تصديقاً ويقيناً، وكذا قال قتادة وأبو صالح وابن زيد، واختاره ابن جرير وقال مجاهد والحسن: أي يتثبتون أين يضعون صدقاتهم.

وقوله: ﴿**كمثل جنة بربوة**﴾ أي كمثل بستان بربوة. وهو عند الجمهور: المكان المرتفع المستوي من الأرض، وزاد ابن عباس والضحاك: وتجري فيه الأنهار.

وقوله: ﴿**أصابها وابل**﴾ وهو المطر الشديد، كما تقدم، فآتت ﴿**أكلها**﴾ أي ثمرتها ﴿**ضعفين**﴾ أي بالنسبة إلى غيرها من الجنان. ﴿**فإن لم يصبها وابل فطل**﴾ قال الضحاك: هو الرَّذَاذ، وهو اللين من المطر. أي هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبداً؛ لأنها إن لم يصبها وابل فطل، وأياً ما كان فهو كفايتها، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً، بل يتقبله الله ويكثره وينميه كل عامل بحسبه، ولهذا قال: ﴿**والله بما تعملون بصير**﴾ أي لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء.

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾.

روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن عمر بن الخطاب أنه قال يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ ﴿**أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب**﴾ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا ابن أخي قل ولا تَحْقِر نفسك، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ضُربت مثلاً لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي، حتى أغرق أعماله. وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية، وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً ثم بعد ذلك انعكس سيره فبدل الحسنات بالسيئات عياذاً بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح،

واحتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال، فلم يحصل منه شيء وخانه أحوج ما كان إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿**وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار**﴾ وهو الريح الشديد ﴿**فيه نار فاحترقت**﴾ أي أحرق ثمارها وأباد أشجارها، فأي حال يكون حاله. وعن ابن عباس، قال: ضرب الله مثلا حسناً وكل أمثاله حسن، قال: ﴿**أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر**﴾ وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره، فجاءه إعصار فيه نار فأحرق بستانه، فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه، وكذلك الكافر يوم القيامة إذا ردّ إلى الله عز وجل، ليس له خير فيستعتب، كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه، ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه، كما لم يغن عن هذا ولده، وحرم أجره عند أفقر ما كان إليه، كما حرم هذا جنته عند ما كان أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون**﴾ أي تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني وتنزلونها على المراد منها. كما قال تعالى: ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون**﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾.

يأمر تعالى: عباده المؤمنين بالإنفاق والمراد به الصدقة ههنا، قاله ابن عباس: من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها، قال مجاهد: يعني التجارة بتيسيره إياها لهم، وقال علي والسدي: ﴿**من طيبات ما كسبتم**﴾ يعني الذهب والفضة، ومن الثمار والزروع التي أنبتها لهم من الأرض، قال ابن عباس: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيه وهو خبيثه، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، ولهذا قال: ﴿**ولا تيمموا**﴾ أي تقصدوا ﴿**الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه**﴾ أي لو أعطيتموه ما أخذتموه، إلا أن تتغاضوا فيه، فالله أغنى عنه منكم، فلا تجعلوا لله ما تكرهون، وقيل معناه: ﴿**ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون**﴾ أي لا تعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه. والصحيح القول الأول، روى ابن جرير عن البراء بن عازب، في قول الله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون**﴾ الآية، قال: نزلت في الأنصار، كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها أقناء البُسْر فعلقوه على حبل، بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعْمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أقناء البسر، يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك ﴿**ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون**﴾. وبنحوه رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه،

والحاكم في مستدركه، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وعن عبد الله بن معقل، في هذه الآية: **﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾** قال: كسب المسلم لا يكون خبيثاً، ولكن لا يصدّق بالحشف والدرهم الزيف وما لا خير فيه. وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: أُتي رسول الله ﷺ بضب، فلم يأكله ولم ينه عنه، قلت: يا رسول الله، نطعمه المساكين؟ قال: «لا تطعموهم مما لا تأكلون» [سنده حسن]. وعن البراء: **﴿ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه﴾** يقول: لو كان لرجل على رجل فأعطاه ذلك، لم يأخذه إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه. وعن ابن عباس: **﴿ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه﴾** يقول: لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقكم، لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه، قال فذلك قوله: **﴿إلا أن تغمضوا فيه﴾** فكيف ترضون لي ما لاترضون لأنفسكم، وحقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه!! وهو قوله: **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾** [آل عمران:٩٢] وكذا ذكر غير واحد.

وقوله: **﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾** أي وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها، فهو غني عنها، وما ذاك إلا أن ليساوي الغني الفقير، كقوله: **﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾** [الحج:٣٧] وهو غني عن جميع خلقه وجميع خلقه فقراء إليه، وهو واسع الفضل، لا ينفد ما لديه، فمن تصدق بصدقة من كسب طيب، فليعلم أن الله غني واسع العطاء، كريم جواد، سيجزيه بها، ويضاعفها له أضعافاً كثيرة، من يقرض غير عديم ولا ظلوم، وهوالحميد أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: **﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم﴾** روى ابن ابي حاتم عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لَلَمّة بابن آدم وللملك لَمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير والتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان». ثم قرأ **﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾** الآية، ورواه الترمذي والنسائي، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي: حسن غريب. ومعنى قوله تعالى: **﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾** أي يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله. **﴿ويأمركم بالفحشاء﴾** أي مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق، قال تعالى: **﴿والله يعدكم مغفرة منه﴾** أي في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء. **﴿وفضلاً﴾** أي في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر **﴿والله واسع عليم﴾**.

وقوله: **﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾** قال ابن عباس: يعني المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله. وقال مجاهد: يعني بالحكمة

الإصابة في القول. وعن مجاهد [أيضا]: ليست بالنبوة، ولكنه العلم والفقه والقرآن، وقال أبو العالية: الحكمة خشية الله، فإن خشية الله رأس كل حكمة. وقال أبو العالية في رواية عنه: الحكمة الكتاب والفهم، وقال إبراهيم النخعي، الحكمة الفهم، وقال أبو مالك: الحكمة السنة، وقال زيد بن أسلم: الحكمة: العقل، وقال مالك: وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله، وأمْرٌ يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلاً في أمر الدنيا إذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفاً في أمر دنياه، عالماً بأمر دينه بصيراً به، يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا، فالحكمة الفقه في دين الله، وقال السدي: الحكمة النبوة، والصحيح أن الحكمة كما قاله الجمهور: لا تختص بالنبوة بل هي أعم منها، وأعلاها النبوة، والرسالة أخص، ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبَع. وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يقول: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هَلَكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها». وهكذا رواه البخاري ومسلم.

وقوله: ﴿**وما يذكر إلا أولوا الألباب**﴾ أي وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لب وعقل، يعي به الخطاب ومعنى الكلام.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾.

يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده، وتوعد من لا يعمل بطاعته، بل خالف أمره، وكذب خبره، وعبد معه غيره، فقال: ﴿**وما للظالمين من أنصار**﴾ أي يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته.

وقوله: ﴿**إن تبدوا الصدقات فنعما هي**﴾ أي إن أظهرتموها فنعم شيء هي.

وقوله: ﴿**وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم**﴾ فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها، لأنه أبعد عن الرياء إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به، فيكون أفضل من هذه الحيثية، وقال رسول الله ﷺ: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة» [رواه أحمد وأبوداود والترمذي وقال: حسن غريب]. والأصل أن الإسرار أفضل لهذه الآية، ولما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب

وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه». وفي الحديث المروي: «صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل» [أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب]. وعن عامر الشعبي في قوله: ﴿**إن تبدو الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم**﴾ قال: أنزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «ما خلفت وراءك لأهلك يا عمر ؟» قال: خلفت لهم نصف مالي، وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه، حتى دفعه إلى النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر ؟» فقال: عدة الله وعدةُ رسوله، فبكى عمر رضي الله عنه وقال: بأبي أنت وأمي يا أبا بكر، والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا كنت سابقاً، وهذا الحديث مروي من وجه آخر عن عمر رضي الله عنه [أخرجه أبوداود والترمذي وقال: حسن صحيح]، وإنما أوردناه ههنا لقول الشعبي: إن الآية نزلت في ذلك، ثم إن الآية عامة في أن إخفاء الصدقة أفضل، سواء كانت مفروضة أو مندوبة، لكن روى ابن جرير عن ابن عباس في تفسيره هذه الآية، قال: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها فقال بسبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها فقال بخمسة وعشرين ضعفاً.

وقوله: ﴿**ويكفر عنكم من سيئاتكم**﴾ أي بدل الصدقات ولا سيما إذا كانت سراً، يحصل لكم الخير في رفع الدرجات ويكفر عنكم السيئات.

وقوله: ﴿**والله بما تعملون خبير**﴾ أي لا يخفى عليه من ذلك شيء وسيجزيكم عليه.

﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾.

عن ابن عباس، قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا فرخص لهم، فنزلت هذه الآية ﴿**ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، وما تنفقوا من خير يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون**﴾.

وقوله: ﴿**وما تنفقوا من خير فلأنفسكم**﴾ كقوله: ﴿**من عمل صالحاً فلنفسه**﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥] ونظائرها في القرآن كثيرة.

وقوله: ﴿**وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله**﴾ قال الحسن البصري: نفقة المؤمن لنفسه، ولا ينفق المؤمن إذا أنفق إلا ابتغاء وجه الله، وقال عطاء الخراساني: يعني إذا أعطيت لوجه الله

فلا عليك ما كان عملَه وهذا معنى حسن، وحاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله، فق وقع أجرُه على الله، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب ألبَرّ أو فاجر أو مستحق أو غيره، وه مثاب على قصده.

ومستند هذا تمام الآية: ﴿**وما تنفقوا من خير يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون**﴾ والحديث المخرج في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل لأتصدقنَّ الليل بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبح الناس يتحدثون: تصدق على زانية فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد غني فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على غني، فقال: اللهم لك الحمد على غني، لأتصدق الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة عل سارق، فقال: اللهم لك الحمد على زانية وعلى غني وعلى سارق، فأتي فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت، أما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زنا، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته».

وقوله: ﴿**للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله**﴾ يعني المهاجرين الذين انقطعوا إلى الله وإل رسوله وسكنوا المدينة، وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم و ﴿**لا يستطيعو ضرباً في الأرض**﴾ يعني سفراً للتسبب في طلب المعاش والضرب في الأرض هو السفر قال الله تعالى: ﴿**وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة**﴾ [النساء: ١٠١] وقال تعالى: ﴿**علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغو من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله**﴾ الآية [المزمل: ٢٠].

وقوله: ﴿**يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف**﴾ أي الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنيا من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم، وفي هذا المعنى الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنىً يغنيه ولا يفطن ل فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً». وقد رواه أحمد من حديث ابن مسعود أيضاً.

وقوله: ﴿**تعرفهم بسيماهم**﴾ أي بما يظهر لذوي الألباب من صفاتهم، كما قال تعالى ﴿**سيماهم في وجوههم**﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿**ولتعرفنهم في لحن القول**﴾ [محمد: ٣٠].

وقوله: ﴿**لايسألون الناس إلحافاً**﴾ أي لا يُلحون في المسألة ويكلفون الناس ما لا يحتاجو إليه، فإن سأل وله ما يغنيه عن المسألة، فقد ألحف في المسألة، روى البخاري عن أبي هرير يقول: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان إنما المسكين الذي يتعفف، اقرؤوا إن شئتم يعني قوله ﴿**لا يسألون الناس إلحافاً**﴾. وروا مسلم.

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيدالخدري، قال: سرحتني أمي إلى رسول الله ﷺ أسأله، فأتيته فقعدت، قال: فاستقبلني فقال: «من استغنى أغناه الله، ومن استعف أعفَّه الله، ومن استكف كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف». قال: فقلت ناقتي الياقوتة خير من أوقية، فرجعت فلم أسأله، وهكذا رواه أبو داود والنسائي نحوه. وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري، قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله قيمة أوقية فهو ملحف» [رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما]. والأوقية: أربعون درهماً، وقال أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن رجل من بني أسد، قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافاً».

قوله: ﴿**وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم**﴾ أي لا يخفى عليه شيء منه وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة أحوج ما يكون إليه.

وقوله: ﴿**الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل ونهار، والأحوال من سر وجهر، حتى إن النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضاً، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص حين عاده مريضاً عام الفتح، وفي رواية عام حجة الوداع: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى ما تجعل في في امرأتك». وروى الإمام أحمد عن أبي مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة» [متفق عليه].

وقوله: ﴿**فلهم أجرهم عند ربهم**﴾ أي يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات ﴿**ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ تقدم تفسيره.

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات، المخرجين الزكوات، المتفضلين بالبر والصدقات لذوي الحاجات والقرابات في جميع الأحوال والأوقات، شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها، إلى بعثهم ونشورهم، فقال: ﴿**الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس**﴾، أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه، وتخبط الشيطان له، وذلك أنه يقوم قياماً منكراً. وقال ابن عباس: آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يُخْنَق، رواه ابن أبي حاتم، قال: وروي عن عوف بن مالك وسعيد بن جبير والسدي والربيع

ابن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك، وحكي عن عبد الله بن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان أنهم قالوا في قوله: ﴿**الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس**﴾ يعني لا يقومون يوم القيامة. وكذا قال ابن أبي نَجيح عن مجاهد والضحاك وابن زيد. وعن عبد الله بن مسعود، أنه كان يقرأ: «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس يوم القيامة». وعن ابن عباس، قال: يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب. وقرأ: ﴿**الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس**﴾ وذلك حين يقوم من قبره.

وقد روى البخاري عن سمرة بن جندب في حديث المنام الطويل: «فأتينا على نهر، حسبت أنه كان يقول: أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح، ما يسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع الحجارة عنده، فيفغر له فاه فيلقمه حجراً، وذكر في تفسيره أنه آكل الربا.

وقوله: ﴿**ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا، وأحل الله البيع وحرم الربا**﴾ أي إنما جُوزُوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه، وليس هذا قياساً منهم للربا على البيع، لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا: ﴿**إنما البيع مثل الربا**﴾ أي هو نظيره، فلم حرم هذا وأبيح هذا؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع، أي هذا مثل هذا، وقد أحل هذا وحرم هذا.

وقوله تعالى: ﴿**وأحل الله البيع وحرم الربا**﴾ يحتمل أن يكون من تمام الكلام رداً عليهم، أي على ما قالوه من الاعتراض، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً، وهو الحكيم العليم الذي لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها وما ينفع عباده فيبيحه لهم، وما يضرهم ينهاهم عنه، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل، ولهذا قال: ﴿**فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله**﴾ أي من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه، فله ما سلف من المعاملة، لقوله: ﴿**عفا الله عما سلف**﴾ [المائدة: ٩٥] وكما قال النبي ﷺ: «وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدميّ هاتين، وأول ربا أضع ربا العباس» [أخرجه أبوداود والترمذي وقال: حسن صحيح] ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية بل عفا عما سلف، كما قال تعالى: ﴿**فله ما سلف وأمره إلى الله**﴾ قال سعيد بن جبير والسدي: فله ما سلف ما كان أكل من الربا قبل التحريم. وعن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت لها أم محبة أم ولد لزيد بن أرقم: يا أم المؤمنين أتعرفين زيد بن أرقم؟ قالت: نعم، قالت: فإني بعته عبداً إلى العطاء بثمانمائة، فاحتاج إلى ثمنه، فاشتريته قبل محل الأجل بستمائة، فقالت: بئس ما شريت وبئس ما اشتريت،

أبلغي زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ، إن لم يتب، قال: فقلت أرأيت إن تركت المائتين وأخذت الستمائة؟ قالت: نعم ﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف﴾ وهذا الأثر مشهور وهو دليل لمن حرم مسألة العينة [وضعفه السهيلي ص٧١٧].

ثم قال تعالى: ﴿ومن عاد﴾ أي إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهي الله له عنه، فقد استوجب العقوبة، وقامت عليه الحجة، ولهذا قال: ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾. وقد روى أبو داود عن جابر، قال: لما نزلت ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ قال رسول الله ﷺ «من لم يذر المخابرة فليؤذن بحرب من الله ورسوله» ورواه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجه.

وإنما حرمت المخابرة وهي: المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض والمزابنة وهي: اشتراء الرطب في رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض، والمحاقلة وهي: اشتراء الحب في سنبله في الحقل بالحب على وجه الأرض، إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها حسماً لمادة الربا، لأنه لا يعلم التساوي بين الشيئين قبل الجفاف، ولهذا قال الفقهاء: الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة، ومن هذا حرموا أشياء بما فهموا من تضييق المسالك المفضية إلى الربا والوسائل الموصلة إليه، وتفاوت نظرهم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم، وقد قال تعالى: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ [يوسف: ٧٦].

وباب الربا من أشكل الأبواب على كثير من أهل العلم، وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه: الجد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا ـ يعني بذلك بعض المسائل التي فيها شائبة الربا ـ والشريعة شاهدة بأن كل حرام فالوسيلة إليه مثله، لأن ما أفضى إلى الحرام حرام، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بين وإن الحرام بين، وبين ذلك أمور مشتبهات، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه». وفي السنن عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» [وقال الترمذي حسن صحيح]. وفي الحديث الآخر: «الإثم ما حاك في القلب وترددت فيه النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس» [رواه مسلم]. وعن ابن عباس، قال: آخر ما نزل على رسول الله ﷺ، آية الربا، رواه البخاري. وروى ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «الربا ثلاثة وسبعون باباً» ورواه الحاكم في مستدركه وزاد: «أيسرها أن ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم» وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا»،

قال: قيل له: الناس كلهم؟ قال«من لم يأكله منهم ناله من غباره» وكذا رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه.

ومن هذا القبيل وهو تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات، الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عائشة، قالت: لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فقرأهن، فحرم التجارة في الخمر، وقد أخرجه الجماعة سوى الترمذي، قال بعض من تكلم على هذا الحديث من الأئمة: لما حرم الربا ووسائله حرم الخمر وما يفضي إليه من تجارة ونحو ذلك، كما قال عليه السلام في الحديث المتفق عليه: «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها وأكلوا أثمانها». وقد تقدم في حديث علي وابن مسعود وغيرهما، عند لعن المحلّل في تفسير قوله: ﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾ [البقرة٢٣٠] قوله ﷺ: «لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه». قالوا: وما يشهد عليه ويكتب إلا إذا أظهر في صورة عقد شرعي، ويكون داخله فاسداً، فالاعتبار بمعناه لا بصورته، لأن الأعمال بالنيات، وفي صحيح [مسلم]: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم، وأعمالكم».

وقد صنف الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية، كتاباً في «إبطال التحليل» تضمن النهي عن تعاطي الوسائل المفضية إلى كل باطل، وقد كفى في ذلك وشفى، فرحمه الله، ورضي عنه.

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾.

يخبر الله تعالى أنه يمحق الربا، أي يذهبه إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه، أو يَحْرَمه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعذبه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وما آتيتم من رباً ليربو في أموال الناس فلا يربوا عند الله﴾ الآية [الروم:٣٩]، وقال ابن جرير: في قوله: ﴿يمحق الله الربا﴾ وهذا نظير الخبر الذي روي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «الربا وإن كثر فإلى قُلّ». وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود عن النبي ﷺ، قال: «إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل»، وقد رواه ابن ماجه [وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات].

وهذا من باب المعاملة، بنقيض المقصود، كما روى الإمام أحمد عن فروخ مولى عثمان، أن عمر وهو يومئذٍ أمير المؤمنين، خرج إلى المسجد فرأى طعاماً منثوراً، فقال: ما هذا الطعام؟ فقالوا: طعام جلب إلينا، قال: بارك الله فيه وفيمن جلبه، قيل: يا أمير المؤمنين إنه قد احتكر، قال: من احتكره؟ قالوا: فروخ مولى عثمان وفلان مولى عمر، فأرسل إليهما فدعاهما، فقال: ما حملكما على احتكار طعام المسلمين؟ قالا: يا أمير المؤمنين نشتري بأموالنا ونبيع!! فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالإفلاس أو بجذام»، فقال فروخ عند ذلك: أعاهد الله وأعاهدك أن لا أعود في طعام

أبداً، وأما مولى عمر فقال: إنما نشتري بأموالنا ونبيع، قال أبو يحيى: فلقد رأيت مولى عمر مجذوماً، ورواه ابن ماجه [قال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله موثقون].

وقوله: ﴿**ويربي الصدقات**﴾ قرئ بضم الياء والتخفيف، من «ربا الشيء يربو» و«أرباه يربيه» أي كثّره ونماه ينميه، وقرئ «يُرَبِّي» بالضم والتشديد من التربية، كما روى البخاري عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله ليتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه، حتى يكون مثل الجبل» ورواه مسلم.

وقوله: ﴿**والله لا يحب كل كفار أثيم**﴾ أي لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل، ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من التكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل. ثم قال تعالى مادحاً للمؤمنين بربهم، المطيعين أمره المؤدين شكره، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مخبراً عما أعد لهم من الكرامة، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون فقال: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، ناهياً لهم عما يقربهم إلى سخطه ويبعدهم عن رضاه، فقال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله**﴾ أي خافوه وراقبوه فيما تفعلون ﴿**وذروا ما بقي من الربا**﴾ أي اتركوا ما لكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال، بعد هذا الإنذار ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ أي بما شرع الله لكم من تحليل البيع وتحريم الربا وغير ذلك، وقد ذكر زيد بن أسلم، وابن جريج ومقاتل بن حيان والسدي، أن هذا السياق نزل في بني عمرو بن عمير من ثقيف، وبني المغيرة من بني مخزوم، كان بينهم ربا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، طلبت ثقيف أن تأخذه منهم، فتشاوروا وقالت بنو المغيرة لا نؤدي الربا في الإسلام، فكتب في ذلك عتاب بن أسيد، نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية، فكتب بها رسول الله ﷺ إليه ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله**﴾ فقالوا نتوب إلى الله، ونذر ما بقي من الربا فتركوه كلهم، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار، قال ابن عباس:

﴿**فأذنوا بحرب**﴾، أي استيقنوا بحرب من الله و رسوله، وتقدم عن ابن عباس، قال: يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب، ثم قرأ: ﴿**فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله و رسوله**﴾ وقال ابن عباس: ﴿**فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله و رسوله**﴾ فمن كان مقيما على الربا لا ينزع عنه، فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه، وعن الحسن وابن سيرين، أنهما قالا: والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلة الربا، وإنهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله، ولو كان على الناس إمام عادل لاستتابهم، فإن تابوا وإلا وضع فيهم السلاح. وقال قتادة: أوعدهم الله بالقتل كما تسمعون، وجعلهم بهرجاً أينما أتوا، فإياكم وما خالط هذه البيوع من الربا، فإن الله قد أوسع الحلال وأطابه، فلا تلجئنكم إلى معصيته فاقة. وقال الربيع بن أنس: أوعد الله آكل الربا بالقتل. وقال السهيلي: ولهذا قالت عائشة لأم محبة مولاة زيد بن أرقم في مسألة العينة: أخبريه أن جهاده مع النبي ﷺ قد بطل إلا أن يتوب، فخصت الجهاد لأنه ضد قوله: ﴿**فأذنوا بحرب من الله ورسوله**﴾ قال: وهذا المعنى ذكره كثير، قال: ولكن هذا إسناده إلى عائشة ضعيف.

ثم قال تعالى: ﴿**وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون**﴾ أي بأخذ الزيادة ﴿**ولاتظلمون**﴾ أي بوضع رؤوس الأموال أيضاً، بل لكم ما بذلتم من غير زيادة عليه ولا نقص منه. وعن سليمان بن عمرو، عن أبيه، قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فقال: «ألا إن كل رباً كان في الجاهلية موضوع عنكم كله، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولاتظلمون، وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبد المطلب، موضوع كله» [رواه أبوداود وابن ماجه].

وقوله: ﴿**وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾ يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء، فقال: ﴿**وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة**﴾ لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين: إما أن تقضي وإما أن تربي، ثم يندب إلى الوضع عنه، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل، فقال: ﴿**وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾ أي وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين، وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبي ﷺ بذلك.

روى الإمام أحمد أن أبا قتادة كان له دين على رجل، وكان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه، فجاء ذات يوم فخرج صبي، فسأله عنه، فقال: نعم هو في البيت يأكل خزيرة، فناداه، فقال: يا فلان، اخرج فقد أخبرت أنك هاهنا، فخرج إليه، فقال: ما يغيبك عني ؟ فقال إني معسر وليس عندي شيء، قال: آلله إنك معسر ؟ قال: نعم، فبكى أبو قتادة، ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نفس عن غريمه، أو محا عنه، كان في ظل العرش يوم القيامة» ورواه مسلم في صحيحه.

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتى الله بعبد من

عبيده يوم القيامة قال: ماذا عملت لي في الدنيا ؟ فقال: ما عملت لك يا رب مثقال ذرة في الدنيا أرجوك بها ـ قالها ثلاث مرات ـ قال العبد عند آخرها: يا رب إنك كنت أعطيتني فضل مال، وكنت رجلاً أبايع الناس، وكان من خلقي الجواز، فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر، قال: فيقول الله عز وجل: أنا أحق من ييسر، ادخل الجنة». وقد أخرجه البخاري ومسلم.

ثم قال تعالى يعظ عباده، ويذكرهم زوال الدنيا، وفناء ما فيها من الأموال وغيرها، وإتيان الآخرة، والرجوع إليه تعالى، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذرهم عقوبته، فقال: ﴿**واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون**﴾ وقد روي أن هذه الآية آخر آية أنزلت من القرآن العظيم، فعن سعيد بن جبير قال: آخر ما نزل من القرآن كله: ﴿**واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون**﴾، وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول.

وعن ابن عباس، قال: آخر آية نزلت ﴿**واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله**﴾ فكان بين نزولها وبين موت النبي ﷺ واحد وثلاثون يوماً. وقال ابن جريج: يقولون: إن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال وبدىء يوم السبت ومات يوم الإثنين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (٢٨٢) ﴾.

هذه الآية الكريمة أطول آية في القرآن العظيم، وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير عن سعيد بن المسيب أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين.

فقوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه**﴾ هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على هذا في آخر الآية حيث قال: ﴿**ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا**﴾. وعن ابن عباس، قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه، ثم قرأ ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى**﴾،

رواه البخاري، وثبت في الصحيحين عن ابن عباس، قال قدم النبي ﷺ المدينة وهم يُسْلفُون في الثمار السنتين والثلاث، فقال رسول الله ﷺ: «من أسلف فليسلف في كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم».

وقوله: ﴿فاكتبوه﴾ أمر منه تعالى بالكتابة والحالة هذه للتوثقة والحفظ، فإن قيل: فقد ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنا أمَّة أمية لا نكتب ولا نحسب»، فما الجمع بينه وبين الأمر بالكتابة ؟ فالجواب أن الدِّين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلاً، لأن كتاب الله قد سهل الله ويسر حفظه على الناس، والسنن أيضاً محفوظة عن رسول الله ﷺ، والذي أمر الله بكتابته إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس، فأمروا أمر إرشاد لا أمر إيجاب كما ذهب إليه بعضهم، قال ابن جريج: من ادّان فليكتب، ومن ابتاع فليُشْهد. وقال قتادة: ذكر لنا أن أبا سليمان المرعشي كان رجلاً صحب كعباً، فقال ذات يوم لأصحابه: هل تعلمون مظلوماً دعا ربه فلم يستجب له ؟ فقالوا: وكيف يكون ذلك ؟ قال: رجل باع بيعاً إلى أجل فلم يشهد ولم يكتب فلما حل ماله جحده صاحبه، فدعا ربه فلم يستجب له، لأنه قد عصى ربه. وقال أبو سعيد والشعبي والحسن وغيرهم: كان ذلك واجباً، ثم نسخ بقوله: ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي ائتمن أمانته﴾. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه «ذكر أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يُسْلفه ألف دينار، فقال: ائتني بشهداء أشهدهم. قال: كفى بالله شهيداً، قال ائتني بكفيل قال: كفى بالله كفيلا. قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها، ثم زَجج موضعها، ثم أتى بها البحر، ثم قال: اللهم إنك قد علمت أني استسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بذلك؛ وسألني شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بذلك؛ وإني قد جَهِدْت أن أجد مركباً أبعث بها إليه بالذي أعطاني فلم أجد مركباً، وإني اسْتَوْدعْتُكَها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً يجيئه بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما كسرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه، فأتاه بألف دينار وقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه قال: هل كنت بعثت إليّ بشيء ؟ قال: ألم أخبرك أني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه ؟ قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة، فانصرف بألفك راشداً». وهذا إسناده صحيح وقد رواه البخاري في سبعة مواضع من طرق صحيحة معلقاً بصيغة الجزم.

وقوله: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ أي بالقسط والحق ولا يَجُرْ في كتابته على أحد،

ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله: ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب﴾ أي ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سُئل أن يكتب للناس، ولا ضرورة عليه في ذلك، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم، فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب، كما جاء في الحديث: «إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق» [أخرجه البخاري]. وقال مجاهد وعطاء: واجب على الكاتب أن يكتب.

وقوله: ﴿وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه﴾ أي وليملل المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين، وليتق الله في ذلك ﴿ولا يبخس منه شيئاً﴾ أي لا يكتم منه شئياً ﴿فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً﴾ محجوراً عليه بتبذير ونحوه، ﴿أو ضعيفاً﴾ أي صغيراً أو مجنوناً ﴿أو لا يستطيع أن يمل هو﴾ إما لعي أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه. ﴿فليملل وليه بالعدل﴾.

وقوله: ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان﴾ وهذا إنما يكون في الأموال، وما يقصد به المال، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، أنه قال: «يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة منهن جَزْلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «تُكثِرْنَ اللعن، وتكفُرْنَ العشير، ما رأيتُ من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لُب منكن». قالت: يا رسول الله ما نقصان العقل والدين؟ قال: «أما نقصان عقلها، فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي لا تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين».

وقوله: ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود، وهذا مقيَّد حَكَم به الشافعي على كل مطلق في القرآن، من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط، وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلاً مرضياً.

وقوله: ﴿أن تضل إحداهما﴾ يعني المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿فتذكر إحداهما الأخرى﴾ أي يحصل لها ذكر بما وقع به من الإشهاد. ومن قال: إن شهادتها معها تجعلها كشهادة ذكر فقد أبعد. والصحيح الأول، والله أعلم.

وقوله: ﴿ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا﴾ قيل: معناه إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة والربيع بن أنس، وهذا كقوله: ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب﴾ ومن ههنا استفيد أن تَحَمّل الشهادة فرض كفاية، وقيل ـ وهو مذهب الجمهور ـ المراد بقوله: ﴿ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا﴾ للأداء، لحقيقة قوله: ﴿الشهداء﴾ والشاهد حقيقة فيمن تحمّل، فإذا دعي لأدائها فعليه الإجابة إذا تعينت وإلا فهو فرض كفاية، والله أعلم،

وقال مجاهد وأبو مِجْلَز وغير واحد: إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار، وإذا شهدت فدعيت فأجب.

وقد ثبت في صحيح مسلم والسنن عن زيد بن خالد، أن رسول الله ﷺ، قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها» فأما الحديث الآخر في الصحيحين: «ألا أخبركم بشر الشهداء؟ الذين يشهدون قبل أن يُستشهدوا»، وكذا قوله: «ثم يأتي قوم تسبق أيمانهم شهادتهم، وتسبق شهادتهم أيمانهم». وفي رواية: «ثم يأتي قوم يَشهدون ولا يُستشهدون». فهؤلاء شهود الزور، وقد روي عن ابن عباس والحسن البصري أنها تعم الحالين التحَمّل، والأداء.

وقوله: ﴿ ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله﴾ هذا من تمام الإرشاد وهو الأمر بكتابة الحق صغيراً كان أو كبيراً، فقال: ﴿ولا تسأموا﴾ أي لا تملوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان من القلة والكثرة ﴿إلى أجله﴾، وقوله: ﴿ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا﴾ أي هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلاً ﴿هو أقسط عند الله﴾ أي أعدل ﴿وأقوم للشهادة أي أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالباً ﴿وأدنى أن لا ترتابوا﴾ وأقرب إلى عدم الريبة بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريبة.

وقوله: ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها﴾ أي إذا كان البيع بالحاضر يداً بيد، فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور في تركها.

فأما الإشهاد على البيع فقد روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، في قوله تعالى: ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ يعني أشهدوا على حقكم إذا كان في أجل أو لم يكن فيه أجل، فأشهدوا على حقكم على كل حال. قال: وروي عن جابر بن زيد ومجاهد وعطاء والضحاك نحو ذلك، وقال الشعبي و الحسن: هذا الأمر منسوخ بقوله: ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي ائتمن أمانته﴾ وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب لا على الوجوب، والدليل على ذلك حديث خُزيمة بن ثابت الأنصاري، وقد رواه الإمام أحمد عن عمارة بن خزيمة الأنصاري أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبي ﷺ. أن النبي ﷺ، ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي ﷺ وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي ﷺ، فنادى الأعرابي النبي ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه وإلا بعته، فقال النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي، قال: أوليس قد ابتعته منك؟ قال الأعرابي: لا والله ما بعتك، فقال النبي ﷺ: «بل قد ابتعته منك» فطفق الناس يلوذون بالنبي ﷺ، والأعرابي، وهما يتراجعان فطفق الأعرابي يقول: هَلُم شهيداً يشهد أني بايعتك، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك إن النبي ﷺ لم يكن يقول إلا حقاً. حتى جاء

خزيمة فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أني بايعتك، قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال «بم تشهد»؟ فقال: بتصديقك يا رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين. وهكذا رواه أبو داود والنسائي [وهو حسن الإسناد إن شاء الله]. ولكن الاحتياط هو الإشهاد لما رواه الإمامان الحافظ أبو بكر بن مردويه، والحاكم في مستدركه عن أبي موسى، عن النبي ﷺ، قال: «ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل دفع مال يتيم قبل أن يبلغ، ورجل أقرض رجلاً مالاً فلم يُشهد». ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين، قال: ولم يخرجاه.

وقوله تعالى: ﴿**ولا يضارّ كاتب ولا شهيد**﴾ قيل: معناه لا يضارّ الكاتب ولا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يملي، ويشهد هذا بخلاف ما سمع أو يكتمها بالكلية، وهو قول الحسن وقتادة وغيرهما. وقيل: معناه لا يضر بهما. كما روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، في هذه الآية: ﴿**ولا يضارّ كاتب ولا شهيد**﴾ قال: يأتي الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة، فيقولان: إنا على حاجة، فيقول إنكما قد أمرتما أن تجيبا، فليس له أن يضارهما. ثم قال: وروي عن عكرمة ومجاهد وطاوس وسعيد بن جبير والضحاك وعطية ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والسدي نحو ذلك.

وقوله: ﴿**وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم**﴾ أي إن خالفتم ما أمرتم به، وفعلتم ما نهيتم عنه، فإنه فسق كائن بكم، أي لازم لكم لا تحيدون عنه ولا تنفكون عنه، وقوله: ﴿**واتقوا الله**﴾ أي خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره، ﴿**ويعلمكم الله**﴾ كقوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا**﴾ [الأنفال:٢٩]، وكقوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به**﴾ [الحديد:٢٨].

وقوله: ﴿**والله بكل شيء عليم**﴾ أي هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها فلا يخفى عليه شيء من الأشياء بل علمه محيط بجميع الكائنات.

﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**وإن كنتم على سفر**﴾ أي مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى ﴿**ولم تجدوا كاتباً**﴾ يكتب لكم، قال ابن عباس: أو وجدوه ولم يجدوا قرطاساً أو دواة أو قلماً، فرهن مقبوضة، أي فليكن بدل الكتابة رِهَان مقبوضة أي في يد صاحب الحق، وقد استدل بقوله: ﴿**فرهان مقبوضة**﴾ على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض كما هو مذهب الشافعي والجمهور، واستدل بها آخرون على أنه لابد أن يكون الرهن مقبوضاً في يد المرتهن، وهو رواية عن الإمام أحمد، وذهب إليه طائفة، واستدل آخرون من السلف بهذه الآية، على أنه لا يكون الرهن

مشروعاً إلا في السفر، قاله مجاهد وغيره، وقد ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ، تُوفِّي ودِرْعُه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير رهنها قوتاً لأهله.

وقوله: ﴿**فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي ائتمن أمانته**﴾ عن أبي سعيد الخدري أنه قال: هذه نسخت ما قبلها. وقال الشعبي: إذا ائتمن بعضكم بعضاً فلا بأس أن لا تكتبوا أو لا تُشهدوا. وقوله: ﴿**وليتق الله ربه**﴾ يعني المؤتَمن كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن من رواية قتادة، عن الحسن عن سَمُرة أن رسول الله ﷺ، قال: «على اليد ما أخذت حتى تؤديه» [وقال الترمذي: حسن صحيح].

قوله: ﴿**ولا تكتموا الشهادة**﴾ أي لا تخفوها وتغلوها ولا تظهروها. قال ابن عباس وغيره: شهادة الزور من أكبر الكبائر وكتمانها كذلك، ولهذا قال: ﴿**ومن يكتمها فإنه آثم قلبه**﴾ قال السدي: يعني فاجر قلبه، وهذا كقوله تعالى: ﴿**ولا نكتم شهادة الله إنا إذاً لمن الآثمين**﴾ [المائدة: ١٠٦].

﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم، كما قال تعالى: ﴿**قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير**﴾ [آل عمران: ٢٩]، وقال: ﴿**يعلم السر وأخفى**﴾ [طه: ٧]، والآيات في ذلك كثيرة جداً، وقد أخبر في هذه بمزيد على العلم، وهو المحاسبة على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة رضي الله عنهم، وخافوا منها، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿**لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير**﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها. فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير». فلما أقَر بها القوم وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها: ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**﴾. فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل: ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت**

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ إلى آخره. ورواه مسلم، وثبت عن ابن عباس وابن عمر. وهكذا روي عن عليّ وابن مسعود والشعبي والنخعي وقتادة [وغيرهم]، أنها منسوخة بالتي بعدها، وقد ثبت بما رواه الجماعة في كتبهم الستة عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها مالم تكلم أو تعمل».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: إذا همّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشراً». لفظ مسلم.

وعن أبي هريرة، قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألوه فقالوا: «إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان». لفظ مسلم. وعن ابن عباس: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ فإنها لم تنسخ، ولكن الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول: إني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم مما لم يطلع عليه ملائكتي، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم، وهو قوله ﴿يحاسبكم به الله﴾ يقول: يخبركم، وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب، وهو قوله: ﴿فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ وهو قوله ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ [البقرة: ٢٢٥] أي من الشك والنفاق. وقد روى العوفي والضحاك عنه قريباً من هذا.

وروى ابن جرير عن مجاهد والضحاك نحوه، وعن الحسن البصري أنه قال: هي مُحْكمة لم تنسخ، واختار ابن جرير ذلك واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر، وقد يحاسب ويعاقب، بالحديث الذي رواه عند هذه الآية عن صفوان بن محرز، قال: بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف، إذ عرض له رجل فقال: يا ابن عمر، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول له: هل تعرف كذا؟ فيقول: رب أعرف، مرتين، حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، قال: فيعطى صحيفة حسناته أو كتابه بيمينه، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد: ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ [هود: ١٨]. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وغيرهما.

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ

ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

ذكر الأحاديث الواردة في فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما

روى البخاري عن أبي مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بالآيتين ـ من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» وقد أخرجه بقية الجماعة.

وروى مسلم عن عبد الله بن مسعود، قال: لما أسري برسول الله ﷺ، انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها، قال: ﴿**إذ يغشى السدرة ما يغشى**﴾ [النجم: ١٦]، قال: فَرَاش من ذهب، قال: وأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المُقْحِمَات.

وروى أحمد عن عقبة بن عامر الجهني قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فإني أعطيتهما من كنز تحت العرش». هذا إسناد حسن.

وعن علي قال: ما أرى أحداً يعقل، بلغه الإسلام، ينام حتى يقرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة، فإنها من كنز تحت العرش [صححه النووي على شرطهما].

وتقدم في فضائل الفاتحة من رواية ابن عباس قال: «بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط . قال: فنزل منه مَلَك فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته». رواه مسلم.

فقوله تعالى: ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه**﴾ إخبار عن النبي ﷺ بذلك.

وقوله: ﴿**والمؤمنون**﴾ عطف على الرسول، ثم أخبر عن الجميع فقال: ﴿**كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله**﴾، فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه. ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارّون راشدون مهديون هادون إلى سُبل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نُسخ الجميع بشرع محمد ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين.

وقوله: ﴿**وقالوا سمعنا وأطعنا**﴾ أي سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه، وقمنا به وامتثلنا العمل بمقتضاه، ﴿**غفرانك ربنا**﴾ سؤال للغَفْر والرحمة واللطف. عن ابن عباس في قول الله: ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون** إلى قوله: **غفرانك ربنا**﴾ قال: قد غفرت لكم، ﴿**وإليك المصير**﴾ أي المرجع والمآب يوم يقوم الحساب.

وقوله: ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾ أي لا يكلف أحداً فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى

بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هي الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة في قوله: ﴿**وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله**﴾ أي هو وإن حاسب وسأل، لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما مالا يملك دفعه من وسوسة النفس وحديثها، فهذا لا يكلف به الإنسان، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان.

وقوله: ﴿**لها ما كسبت**﴾ أي من خير ﴿**وعليها ما اكتسبت**﴾ أي من شر، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف. ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله، وقد تكفل لهم بالإجابة كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا: ﴿**ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا**﴾ أي إن تركنا فرضاً على جهة النسيان، أو فعلنا حراماً كذلك، ﴿**أو أخطأنا**﴾ أي الصواب في العمل جهلاً منا بوجهه الشرعي. وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: «قال الله: نعم» وفي حديث ابن عباس، قال الله «قد فعلت». وروى ابن ماجه في سننه وابن حبان في صحيحه عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» وقد روي من طُرق أُخَرَ وأعله أحمد وأبو حاتم، والله أعلم.

وروى ابن أبي حاتم عن أم الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث: عن الخطأ والنسيان، والاستكراه» قال أبو بكر: فذكرت ذلك للحسن، فقال: أجل، أما تقرأ بذلك قرآناً: ﴿**ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا**﴾.

وقوله: ﴿**ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا**﴾ أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها، كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم، التي بعثت نبيك محمداً ﷺ نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به، من الدين الحنيف السهل السمح.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال: «قال الله: نعم» وعن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ، قال «قال الله قد فعلت». وجاء في الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة» [حسنه الحافظ في الفتح].

وقوله: ﴿**ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به**﴾ أي من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبتلينا بما لا قبل لنا به. وقد قال مكحول في قوله: ﴿**ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به**﴾ قال: الغرْبة والغُلمة، رواه ابن أبي حاتم، قال الله: نعم، وفي الحديث الآخر: قال الله: قد فعلت.

وقوله ﴿**واعف عنا**﴾ أي فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا، ﴿**واغفر لنا**﴾ أي فيما بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة، ﴿**وارحمنا**﴾ أي فيما يُستقبل فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره. وقد تقدم في الحديث أن الله قال: نعم، وفي الحديث الآخر: قال الله: قد فعلت.

وقوله: ﴿أنت مولانا﴾ أي أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك، ﴿فانصرنا على القوم الكافرين﴾ أي الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة، قال الله: نعم. وفي الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس، قال الله: قد فعلت. وروى ابن جرير عن معاذ رضي الله عنه، كان إذا فرغ من هذه السورة ﴿فانصرنا على القوم الكافرين﴾ قال: آمين.

تفسير سورة آل عمران

وهي مدنية، وآياتها مائتا آية، وقد ذكرنا ما ورد في فضلها مع سورة البقرة في أول تفسير البقرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾.

قد ذكرنا الحديث الوارد في أن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ و﴿الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ عند تفسير آية الكرسي وتقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿ألم﴾ في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته، وتقدم أيضا الكلام على قوله: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ في تفسير آية الكرسي.

وقوله تعالى: ﴿نزل عليك الكتاب بالحق﴾ يعني نزل عليك القرآن يا محمد ﴿بالحق﴾، أي لا شك فيه ولا ريب، بل هو منزل من عند الله عز وجل، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً.

وقوله: ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ أي من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله الأنبياء، فهي تصدقه بما أخبرت به، وبشرت في قديم الزمان، وهو يصدّقها؛ لأنه طابق ما أخبرت به، وبشرت، من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن العظيم عليه.

وقوله: ﴿وأنزل التوراة﴾ أي على موسى بن عمران، ﴿والإنجيل﴾ أي على عيسى ابن مريم عليهما السلام، ﴿من قبل﴾ أي من قبل هذا القرآن ﴿هدى للناس﴾ أي في زمانهما. ﴿وأنزل الفرقان﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال. والحق والباطل، والغي والرشاد، بما يذكره الله تعالى من الحجج والبينات والدلائل الواضحات، ويبينه ويوضحه، ويرشد إليه. وقال قتادة والربيع بن أنس: ههنا الفرقان القرآن. واختار ابن جرير أنه مصدر ههنا لتقدم ذكر القرآن في قوله: ﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه﴾ وهو القرآن.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ أي جحدوا بها وأنكروها، وردّوها بالباطل، ﴿لهم عذاب شديد﴾ أي يوم القيامة، ﴿والله عزيز﴾ أي منيع الجناب عظيم السلطان،

﴿ذو انتقام﴾ أي ممن كذب بآياته وخالف رسله الكرام وأنبياءه العظام.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ ﴾.

يخبر تعالى أنه يعلم غيب السموات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك، **﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾** أي يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقي وسعيد، **﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾** أي هو الذي خلق، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له، وله العزة التي لا ترام، والحكمة والأحكام. وهذه الآية فيها تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق، كما خلق الله سائر البشر، لأن الله صوره في الرحم وخلقه كما يشاء، فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصارى، عليهم لعائن الله، وقد تقلب في الأحشاء وتنقل من حال إلى حال؟ كما قال تعالى: **﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾** [الزمر: ٦].

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩ ﴾.

يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات، هن أم الكتاب، أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد من الناس، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن رد ما اشتبه عليه إلى الواضح منه وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى ومن عكس انعكس؛ ولهذا قال تعالى: **﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب﴾** أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه **﴿وأخر متشابهات﴾** أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد. وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه فروي عن السلف عبارات كثيرة فقال ابن عباس: المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وأحكامه وحدوده وفرائضه وما يؤمر به ويعمل به. وكذا روى عن عكرمة، ومجاهد وقتادة [وغيرهم] أنهم قالوا: المحكم الذي يعمل به. وعن ابن عباس أيضاً أنه قال: المحكمات في قوله تعالى: **﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً﴾** [الأنعام: ١٥١] والآيتان بعدها. وقوله تعالى: **﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾** [الإسراء: ٢٣] إلى ثلاث آيات بعدها. ورواه ابن أبي حاتم وحكاه عن سعيد بن جبير ثم روى عن إسحاق بن سويد أن يحيى بن يعمر وأبا فاختة تراجعا في هذه الآية: **﴿هنّ أم الكتاب﴾** فقال أبو فاختة: فواتح السور، وقال يحيى بن يعمر: الفرائض والأمر والنهي والحلال والحرام. وعن سعيد بن جبير ﴿هن أم الكتاب﴾ يقول: أصل الكتاب. وإنما سماهن أم الكتاب؛

لأنهنّ مكتوبات في جميع الكتب، وقال مقاتل بن حيان: لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهنّ.

وقيل في المتشابهات: إنهن المنسوخة والمقدم منه والمؤخر، والأمثال فيه والأقسام، وما يؤمن به ولا يعمل به، [قاله] ابن عباس. وقيل هي الحروف المقطعة في أوائل السور قاله مقاتل بن حيان، وعن مجاهد: المتشابهات يصدق بعضهنَّ بعضاً وهذا إنما هو في تفسير قوله ﴿**كتاباً متشابهاً مثاني**﴾ [الزمر:٢٣]. هناك ذكروا: أن المتشابه هو الكلام الذي يكون في سياق واحد، والمثاني هو الكلام في شيئين متقابلين كصفة الجنة وصفة النار، وذكر حال الأبرار ثم حال الفجار، ونحو ذلك. فأما ههنا فالمتشابه هو الذي يقابل المحكم.

وأحسن ما قيل فيه هو الذي قدمناه وهو الذي نص عليه محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله حيث قال: ﴿**منه آيات محكمات هن أم الكتاب**﴾ فهن حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه. قال: والمتشابهات في الصدق، لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام ألا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق.

ولهذا قال تعالى: ﴿**فأما الذين في قلوبهم زيغ**﴾ أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿**فيتبعون ما تشابه منه**﴾ أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرّفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دامغ لهم وحجة عليهم ولهذا قال الله تعالى: ﴿**ابتغاء الفتنة**﴾ أي الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿**إن هو إلا عبد أنعمنا عليه**﴾ [الزخرف:٥٩] وبقوله: ﴿**إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**﴾ [آل عمران:٥٩] وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله، وعبد ورسول من رسل الله.

وقوله تعالى: ﴿**وابتغاء تأويله**﴾ أي تحريفه على ما يريدون وقال مقاتل بن حيان والسدي يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن. وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات**﴾ إلى قوله: ﴿**أولوا الألباب**﴾ فقال: «فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عَنَى الله فاحذروهم» [وأخرجه البخاري ومسلم].

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿**فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه**﴾ قال: «هم الخوارج». وفي قوله: ﴿**يوم تبيض وجوه وتسود وجوه**﴾ [آل عمران:١٠٦] قال: «هم الخوارج». وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي، ومعناه صحيح، فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج، وكان مبدؤهم

بسبب الدنيا حين قسم النبي ﷺ غنائم حُنَيْن، فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة، ففاجؤوه بهذه المقالة، فقال قائلهم وهو ذو الخُوَيْصرة ـ بقر الله خاصرته ـ: اعدل فإنك لم تعدل، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل، أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني». فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب، وفي رواية خالد بن الوليد ـ ولا بعد في الجمع ـ، رسول الله في قتله، فقال: «دعه فانه يخرج من ضِئْضِيء هذا، أي من جنسه قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يَمْرُقون من الدين كما يَمْرُق السهم من الرَّمِيَّة، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم» [متفق عليه].

ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب وقتلهم بالنَّهْروان، ثم تشعبت منهم شعوب، وقبائل وآراء، وأهواء، ومقالات، ونِحَلٌ كثيرة منتشرة، ثم نبغت القَدَرِيّة، ثم المعتزلة، ثم الجَهْمِيَّة، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ في قوله: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» قالوا: من هم يا رسول الله ؟ قال: «من كان على ما أنا عليه وأصحابي» أخرجه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة. [وصححه الألباني].

وقوله: ﴿**وما يعلم تأويله إلا الله**﴾ اختلف القراء في الوقف ههنا، فقيل: على الجلالة، كما تقدم عن ابن عباس أنه قال: التفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل، ويروى هذا القول عن عائشة وعروة وأبي الشعثاء وأبي نَهيك وغيرهم.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ، قال: «إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به» [إسناده حسن حسنه الألباني في تخريج الطحاوية]. وكان ابن عباس يقرأ: وما يعلم تأويله إلا الله، ويقول الراسخون: آمنا به، وكذا رواه ابن جرير عن عمر بن عبد العزيز، ومالك بن أنس: أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله. وحكى ابن جرير أن في قراءة عبد الله بن مسعود: «إن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به». وكذا عن أبي بن كعب، واختار ابن جرير هذا القول.

ومنهم من يقف على قوله: ﴿**والراسخون في العلم**﴾، وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد، وعن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله، وقال مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به، وكذا قال الربيع بن أنس، وعن محمد بن جعفر بن الزبير: ﴿**وما يعلم تأويله**﴾ الذي أراد ما أراد ﴿**إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به**﴾، ثم ردوا تأويل المتشابه على ما عرفوا من تأويل المُحْكَمَة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فاتسق بقولهم الكتاب وصدق بعضه بعضاً، فنفذت الحجة، وظهر به العذر، وزاح به الباطل، ودفع به الكفر، وفي الحديث أن

رسول الله ﷺ دعا لابن عباس، فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» [أخرجه الترمذي وأصله في البخاري بغير هذا اللفظ].

ومن العلماء من فصل في هذا المقام فقال: التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان: أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً﴾ [يوسف:١٠٠]، وقوله: ﴿وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ وقوله ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله﴾ [الأعراف:٥٣] أي حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا الله عز وجل، ويكون قوله: ﴿والراسخون في العلم﴾ مبتدأ و ﴿يقولون آمنا به﴾ خبره، وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر، وهو التفسير والتعبير فالوقف على ﴿والراسخون في العلم﴾ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا فيكون يكون قوله: ﴿يقولون آمنا به﴾ حالاً منهم، وساغ هذا، وأن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه، كقوله تعالى: ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾ [الفجر:٢٢] أي وجاءت الملائكة صفوفاً صفوفاً.

وقوله إخباراً عنهم أنهم ﴿يقولون: آمنا به﴾، أي بالمتشابه، ﴿كل من عند ربنا﴾ أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له، لأن الجميع من عند الله وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد، لقوله: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [النساء:٨٢] ولهذا قال تعالى: ﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ أي إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولوا العقول السليمة والفهوم المستقيمة.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارؤون، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فَكِلُوه إلى عَالِمِه» [وأخرجه ابن ماجه وقال البوصيري: إسناده صحيح ورجاله ثقات]. وعن نافع بن يزيد، قال: يقال: الراسخون في العلم المتواضعون لله، المتذللون لله في مرضاته، لا يتعاظمون على من فوقهم ولا يحقرون من دونهم.

ثم قال تعالى عنهم مخبراً أنهم دعوا ربهم قائلين: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾، أي لا تملها عن الهدي بعد إذ أقمتها عليه ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبغون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم، ﴿وهب لنا من لدنك﴾ أي من عندك ﴿رحمة﴾ تثبت بها قلوبنا وتجمع بهاشملنا، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً، ﴿إنك أنت الوهاب﴾.

وعن الصنابحي أنه صلى وراء أبي بكر الصديق المغرب، فقرأ أبو بكر في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورتين من قصار المفصل، وقرأ في الركعة الثالثة، قال: فدنوت منه حتى إن ثيابي لتكاد تمس ثيابه، فسمعته يقرأ بأم القرآن وهذه الآية: ﴿**ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتناوهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب**﴾ الآية.

وقوله: ﴿**ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد**﴾ أي يقولون في دعائهم: إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم، وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه، وتجزي كلاً بعمله وما كان عليه في الدنيا من خير وشر.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار، ﴿**يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار**﴾ [غافر: ٥٢]، وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله، ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه، بل كما قال تعالى: ﴿**ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون**﴾ [التوبة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿**لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد**﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧] كما قال ههنا: ﴿**إن الذين كفروا**﴾ أي بآيات الله، وكذبوا رسله، وخالفوا كتابه، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه ﴿**لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار**﴾ أي حطبها الذي تسجر به، وتوقد به، كقوله: ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم**﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وقوله تعالى: ﴿**كدأب آل فرعون**﴾ عن ابن عباس: كصنيع آل فرعون، وكذا روي عن عكرمة ومجاهد وأبي مالك والضحاك وغير واحد، ومنهم من يقول: كسنة آل فرعون، وكفعل آل فرعون، وكشبه آل فرعون، والألفاظ متقاربة، والدَّأْب بالتسكين والتحريك كنَهْر ونَهَر، هو الصنيع والشأن والعادة، كما يقال: لا يزال هذا دأبي ودأبك.

والمعنى في الآية أن الكافرين لا تغني عنهم الأموال ولا الأولاد، بل يهلكون ويعذبون كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاؤوا به من آيات الله وحججه، ﴿**والله شديد العقاب**﴾ أي شديد الأخذ أليم العذاب لا يمتنع منه أحد ولا يفوته شيء، بل هوالفعال لما يريد الذي قد غلب كل شيء وذَلّ له كل شيْ، لا إله غيره ولا رب سواه.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد للكافرين: ﴿**ستغلبون**﴾ أي في الدنيا، ﴿**وتحشرون**﴾ أي

يوم القيامة ﴿**إلى جهنم وبئس المهاد**﴾ قد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار [عن ابن عباس]، أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب، ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قَيْنُقَاع، وقال: «يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً». فقالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله في ذلك قوله: ﴿**قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد** ـ إلى قوله ـ **لعبرة لأولي الأبصار**﴾. ولهذا قال تعالى: ﴿**قد كان لكم**﴾ أي قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم ﴿**آية**﴾ أي دلالة على أن الله معز دينه، وناصر رسوله، ومظهر كلمته، ومعل أمره ﴿**في فئتين**﴾ أي طائفتين ﴿**التقتا**﴾ أي للقتال ﴿**فئة تقاتل في سبيل الله**﴾وهم المسلمون ﴿**وأخرى كافرة**﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر.

وقوله: ﴿ **يرونهم مثليهم رأي العين**﴾ قال بعض العلماء فيما حكاه ابن جرير: يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم في العدد رأي أعينهم، أي جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم، وهذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة، وهي أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذٍ قبل القتال يَحْزِر لهم المسلمين، فأخبرهم بأنهم ثلاثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصون، وهكذا كان الأمر. كانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً، ثم لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم.

والقول الثاني: أن المعنى في قوله تعالى: ﴿**يرونهم مثليهم رأي العين**﴾ أي ترى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم.

والمشهور أنهم كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف، وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين، ووجه ابن جرير هذا وجعله صحيحاً كما تقول: عندي ألف، وأنا محتاج إلى مثليها، وتكون محتاجاً إلى ثلاثة آلاف، كذا قال. لكن بقي سؤال آخر وهو وارد على القولين، وهو أن يقال: ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في قصة بدر: ﴿**وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولا**﴾ [الأنفال: ٤٤]؟ الجواب: أن هذا كان في حال، والآخر كان في حال أخرى، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿**قد كان لكم آية في فئتين التقتا**﴾ الآية، قال: هذا يوم بدر. قال عبد الله بن مسعود: وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يُضعِفُون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً، وذلك قوله تعالى: ﴿**وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم**﴾. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أيضا قال: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة. قال: فأسرنا رجلاً منهم، فقلنا، كم كنتم؟ قال: ألفاً.

فعندما عاين كل من الفريقين الآخر، رأى المسلمون المشركين مثليهم، أي أكثر منهم بالضعف

ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم عز وجل، ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع، ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان، قلل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء، ليقدم كل منهما على الآخر ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ أي ليفرّق بين الحق والباطل، فيظهر كلمة الإيمان على الكفر، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ [آل عمران:١٢٣]، وقال ههنا: ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ أي إن في ذلك لمعتبراً لمن له بصيرة وفهم يهتدي به إلى حكمة الله وأفعاله، وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾.

يخبر تعالى عما زُيِّن للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت في صحيح [البخاري] أنه ﷺ قال: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء». فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه، «وإن خير هذه الأمة كان أكثرها نساء» [أي النبي ﷺ، أخرجه البخاري].

وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة، فهو داخل في هذا، وتارة يكون لتكثير النسل، وتكثير أمة محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح كما ثبت في الحديث: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة» [رواه أبوداود والنسائي وصححه الحاكم].

وحب المال كذلك تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء، فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البر والطاعات، فهذا ممدوح محمود عليه شرعاً. وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال، وحاصلها: أنه المال الجزيل، كما قاله الضحاك وغيره، وقيل: ألف دينار، وقيل: ألف ومائتا دينار وقيل اثنا عشر ألفاً، وقيل: أربعون ألفاً، وقيل: ستون ألفاً، وقيل سبعون ألفاً، وقيل: ثمانون ألفاً، وقيل غير ذلك. وعن معاذ بن جبل وابن عمر، وعن أبي هريرة وأبي الدرداء، أنهم قالوا: القنطار ألف ومائتا أوقية. وعن الحسن البصري: القنطار ألف ومائتا دينار، وكذا عن ابن عباس. وقال الضحاك: من العرب من يقول: القنطار ألف دينار، ومنهم من يقول: اثنا عشر ألفاً. وعن أبي سعيد الخدري، قال: القنطار ملء مسك الثور ذهباً.

وحب الخيل على ثلاثة أقسام: تارة يكون رَبَطها أصحابُها معدَّة لسبيل الله، متى احتاجوا إليها غزَوا عليها، فهؤلاء يثابون، وتارة تربط فخراً ونواء لأهل الإسلام، فهذه على صاحبها وزْر. وتارة للتعفف واقتناء نسلها، ولم ينس حق الله في رقابها فهذه لصاحبها ستْر.

وأما المسومة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: المسومة الراعية، والمُطَهَّمة الحسَان، وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن أبزى والسدي والربيع بن أنس وأبي سِنَان وغيرهم، وقال مكحول: المسومة الغُرَّة والتحجيل. وقيل غير ذلك.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس من فرس عربي إلا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين يقول: اللهم إنك خولتني من بني آدم، فاجعلني من أحب ماله وأهله إليه، أو أحب أهله وماله إليه» [صححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي].

وقوله: ﴿والأنعام﴾ يعني الإبل والبقر والغنم، ﴿والحرث﴾ يعني الأرض المتخذة للغِرَاس والزراعة. روى الإمام أحمد عن سويد بن هبُيَرة، عن النبي ﷺ قال: «خير مال امرىء له مُهْرة مأمورة أو سكَّة مَأبُورة» [قال عنه الهيثمي: رجاله ثقات] المأمورة: الكثيرة النسل، والسّكَّة: النخل المصطف، والمأبورة: الملقحة.

ثم قال تعالى: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ أي إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة ﴿والله عنده حسن المآب﴾ أي حسن المرجع والثواب.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أنزلت: ﴿زين للناس حب الشهوات﴾ قلت: الآن يا رب حين زينتها لنا، فنزلت ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم﴾ أي قل يا محمد للناس: أأخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها الذي هو زائل لا محالة. ثم أخبر عن ذلك فقال: ﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبد الآباد لا يبغون عنها حِوَلا، ﴿وأزواج مطهرة﴾ أي من الدَّنَس والخَبَث والأذى، والحيض والنفاس، وغير ذلك مما يعتري نساء الدنيا.

﴿ورضوان من الله﴾ أي يحل عليهم رضوانه فلا يَسْخَط عليهم بعده أبداً؛ ولهذا قال في الآية الأخرى التي في براءة: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ [التوبة: ٧٢] أي أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم، ثم قال تعالى: ﴿والله بصير بالعباد﴾ أي يعطي كلا بحسب ما يستحقه من العطاء.

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾.

يصف تبارك وتعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل، فقال تعالى: ﴿الذين

يقولون ربنا إننا آمنا﴾ أي بك وبكتابك وبرسولك، ﴿فاغفر لنا ذنوبنا﴾ أي بإيماننا بك وبما شرعته لنا، فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك، ﴿وقنا عذاب النار﴾. ثم قال تعالى: ﴿الصابرين﴾ أي في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات، ﴿والصادقين﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة، ﴿والقانتين﴾ والقنوت الطاعة والخضوع ﴿والمنفقين﴾ أي من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام والقرابات، وسد الخَلات، ومواساة ذوي الحاجات ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ دَلَّ على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار، وقد قيل: إن يعقوب عليه السلام، لما قال لبنيه: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾ [يوسف:٩٨] إنه أخرهم إلى وقت السحر وثبت في الصحيحين وغيرهما من المساند والسنن عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟» الحديث، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ من أوله وأوسطه وآخره، فانتهى وتره إلى السحر. وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل، ثم يقول: يا نافع، هل جاء السَّحَر ؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح.

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

شهد تعالى وكفى به شهيداً وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم، وأصدق القائلين ﴿أنه لا إله إلا هو﴾ أي المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه والفقراء إليه، وهوالغني عما سواه، كما قال تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزل بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا﴾ الآية [النساء:١٦٦]، ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته، فقال: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام. ﴿قائماً بالقسط﴾ منصوب على الحال وهو في جميع الأحوال كذلك ﴿لا إله إلا هو﴾ تأكيد لما سبق، ﴿العزيز الحكيم﴾ العزيز الذي لا يرام جنابه عظمةً وكبرياءً، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

وقوله: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ إخبار منه تعالى بأنه لا دين يقبله من أحد سوى الإسلام، وهواتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثته محمداً ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل. كما قال تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو

في الآخرة من **الخاسرين﴾** [آل عمران: ٨٥]، وقال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾**.

ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول، إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم، فقال: **﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾** أي بغى بعضهم على بعض فاختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم، فحمل بعضهم بُغْض البَعْض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله وإن كانت حقاً، ثم قال: **﴿ومن يكفر بآيات الله﴾** أي من جحد بما أنزل الله في كتابه فإن الله سيجازيه على ذلك ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه.

ثم قال تعالى: **﴿فإن حاجوك﴾** أي جادلوك في التوحيد **﴿فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن﴾** أي فقل: أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له ولا ند له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، **﴿ومن اتبعن﴾** أي على ديني يقولون كمقالتي، كما قال تعالى: **﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾** [يوسف:١٠٨]، ثم قال تعالى آمراً لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه، والدخول في شرعه وما بعثه الله به، فقال تعالى: **﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾** أي والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء وله الحكمة في ذلك، والحجة البالغة ولهذا قال: **﴿والله بصير بالعباد﴾** أي هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة، وهو الذي **﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾** [الأنبياء:٢٣]، وما ذلك إلا لحكمته ورحمته.

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث، فمن ذلك قوله تعالى: **﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾** [الأعراف:١٥٨]، وقال تعالى: **﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾** [الفرقان:١]، وفي الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق، وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم، كتابِيِّهم وأُمِّيِّهم، امتثالاً لأمر الله له بذلك. وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار» رواه مسلم. وقال ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود» [أخرجه مسلم]، وقال: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» [رواه البخاري].

وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه: أن غلاماً يهودياً كان يَضع للنبي ﷺ وَضُوءه ويناوله نعليه، فمرض، فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه فقال له النبي ﷺ:

«يا فلان قل: لا إله إلا الله» فنظر إلى أبيه، فسكت أبوه، فأعاد عليه النبي ﷺ، فنظر إلى أبيه، فقال أبوه: أطع أبا القاسم، فقال الغلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أخرجه بي من النار» رواه البخاري في الصحيح، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب فيما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله، قديماً وحديثاً، التي بلغتهم إياها الرسل إستكباراً عليهم، وعناداً لهم، وتعاظماً على الحق، واستنكافاً عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم، إلا لكونهم دعوهم إلى الحق **﴿ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾** وهذا هو غاية الكبر، كما قال النبي ﷺ: «الكِبْرُ بَطَرُ الحق وغَمْط الناسِ» [رواه مسلم].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار، وأقاموا سوق بَقْلِهم من آخره؛ ولهذا لما أن تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق، قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة، فقال تعالى: **﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾** أي مرجع مهين **﴿أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين﴾**.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

يقول تعالى منكراً على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللذين بأيديهم، وهما التوراة والإنجيل، وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد ﷺ، تولوا وهم معرضون عنهما، وهذا في غاية ما يكون من ذمهم والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد، ثم قال تعالى: **﴿ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾** أي إنما حملهم وجرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام عن كل ألف سنة في الدنيا يوماً. ثم قال تعالى: **﴿وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾** أي ثبتهم على دينهم الباطل، ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياماً معدودات، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم وافتعلوه ولم ينزل الله به سلطاناً، قال الله تعالى متهدداً لهم ومتوعداً **﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾** أي كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله، وكذبوا رسله، وقتلوا أنبياءه، والعلماء من قومهم، الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله ومحاسبهم

عليه ومجازيهم به، ولهذا قال تعالى: ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾ أي لا شك في وقوعه وكونه، ﴿ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد معظماً لربك وشاكراً له ومفوضاً إليه: ﴿اللهم مالك الملك﴾ أي لك الملك كله ﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾ أي أنت المعطي، وأنت المانع، وأنت الذي ما شئت كان، وما لم تشأ لم يكن.

وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة؛ لأن الله تعالى حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي الأمي المكي، خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يعطها نبياً من الأنبياء، ولا رسولاً من الرسل في العلم بالله وشريعته، واطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشفه له عن حقائق الآخرة، ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار. ولهذا قال تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾ أي أنت المتصرف في خلقك، الفعال لما تريد، كما رد تبارك وتعالى على من يتحكم عليه في أمره حيث قال: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: ٣١]. قال الله تعالى رداً عليهم: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ الآية [الزخرف: ٣٢] أي نحن نتصرف في خلقنا كما نريد بلا ممانع ولا مدافع، ولنا الحكمة البالغة، والحجة التامة في ذلك، وهكذا نعطي النبوة لمن نريد، كما قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ أي تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا، فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان، ثم يعتدلان، وهكذا في فصول السنة ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاء.

وقوله: ﴿وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾ أي تخرج الحبة من الزرع، والزرع من الحبة، والنخلة من النواة، والنواة من النخلة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ أي تعطي من شئت من المال ما لا يعده ولا يقدر على إحصائه،

وتقتر على آخرين لما لك في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة والعدل.

﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

نهى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين، ثم توعد على ذلك، فقال تعالى: **﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾** أي من يرتكب نهي الله في هذا، فقد بريء من الله، كما قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾** [النساء: ١٤٤]، وقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾** [المائدة: ٥١].

وقوله: **﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾** أي إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما حكاه البخاري عن أبي الدرداء: أنه قال: «إنا لَنَكْشِرُ في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم». وقال ابن عباس: ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان، وكذا قال أبو العالية وأبو الشعثاء والضحاك والربيع بن أنس. ويؤيد ما قالوه قول الله تعالى: **﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾** [النحل: ١٠٦]. وقال البخاري: قال الحسن: التقية إلى يوم القيامة.

ثم قال تعالى: **﴿ويحذركم الله نفسه﴾** أي يحذركم نقمته أي مخالفته وسطوته في عذابه لمن والى أعداءه، وعادى أولياءه. ثم قال تعالى: **﴿وإلى الله المصير﴾** أي إليه المرجع والمنقلب فيجازي كل عامل بعمله.

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والآنات واللحظات وجميع الأوقات، بجميع ما في السموات والأرض لا يغيب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال، وهو **﴿على كل شيء قدير﴾** أي وقدرته نافذة في جميع ذلك.

وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته وألا يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أنظر من أنظر منهم، فإنه يمهل، ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر، ولهذا قال بعد هذا: **﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراًوما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾** الآية، يعني يوم القيامة يحضر للعبد

جميع أعماله من خير ومن شر، كما قال تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخّر﴾ [القيامة:١٣]، فما رأى من أعماله حسناً سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغاظه، وود لو أنه تبرأ منه وأن يكون بينهما أمد بعيد، كما يقول لشيطانه الذي كان مقترناً به في الدنيا، وهو الذي جرّأه على فعل السوء: ﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾ [الزخرف:٣٨].

ثم قال تعالى مؤكداً ومهدداً ومتوعداً: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ أي يخوفكم عقابه، ثم قال مرجياً لعباده لئلا ييئسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه: ﴿والله رؤوف بالعباد﴾. قال الحسن البصري: من رأفته بهم حذرهم نفسه. وقال غيره: أي رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم وأن يتبعوا رسوله الكريم.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» ولهذا قال: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تُحِب، إنما الشأن أن تُحَب. وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله، فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم﴾ أي باتباعكم للرسول ﷺ، يحصل لكم هذا كله ببركة سفارته، ثم قال تعالى آمراً لكل أحد من خاص وعام: ﴿قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا﴾ أي خالفوا عن أمره ﴿فإن الله لا يحب الكافرين﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب الله ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل ورسول الله إلى جميع الثقلين: الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم في زمانه لما وسعهم إلا اتباعه، والدخول في طاعته، واتباع شريعته، كما سيأتي تقريره عند قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ الآية [آل عمران:٨١] إن شاء الله تعالى.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم عليه السلام خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة،

ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة.

واصطفى نوحاً عليه السلام وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض، لما عبد الناس الأوثان، وأشركوا في دين الله ما لم ينزل به سلطاناً، وانتقم له لما طالت مدته بين ظهراني قومه يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلا فراراً، فدعا عليهم، فأغرقهم الله عن آخرهم، ولم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به.

واصطفى آل إبراهيم، ومنهم سيد البشر وخاتم الأنبياء على الاطلاق محمد ﷺ، وآل عمران والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى ابن مريم عليهم السلام من ذرية إبراهيم، كما سيأتي بيانه في سورة الأنعام إن شاء الله وبه الثقة.

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

امرأة عمران هذه أم مريم عليها السلام، قال محمد بن إسحاق: وكانت امرأة لا تحمل، فرأت يوماً طائراً يَزُقُّ فرخه، فاشتهت الولد، فدعت الله عز وجل أن يهبها ولداً، فاستجاب الله دعاءها، فواقعها زوجها، فحملت منه، فلما تحققت الحمل، نذرته أن يكون ﴿محرراً﴾ أي خالصاً مفرغاً للعبادة ولخدمة بيت المقدس، فقالت: ﴿**رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً، فتقبل مني إنك أنت السميع العليم**﴾ أي السميع لدعائي العليم بنيتي، ولم تكن تعلم ما في بطنها: أذكراً أم أنثى؟ ﴿**فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت**﴾ قرىء برفع التاء، على أنها تاء المتكلم، وأن ذلك من تمام قولها، وقريء بتسكين التاء، على أنه من قول الله عز وجل، ﴿**وليس الذكر كالأنثى**﴾ أي في القوة والجَلَد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى ﴿**وإني سميتها مريم**﴾ فيه دلالة على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق لأنه شرع من قبلنا، وقد حكي مقرراً، وبذلك ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ حيث قال: «ولد لي الليلة ولد سميته باسم أبي إبراهيم» أخرجاه، وكذلك ثبت فيهما: أن أنس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله ﷺ فحنكه وسماه عبد الله، وفي صحيح البخاري: أن رجلاً قال: يا رسول الله ولد لي ولد فما أسميه؟ قال: «أسْمِ ولدك عبد الرحمن».

وقوله إخباراً عن أم مريم أنها قالت: ﴿**وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم**﴾ أي عَوَّذتها بالله عز وجل من شر الشيطان، وعوذت ذريتها وهو ولدها عيسى عليه السلام، فاستجاب الله لها ذلك، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد، فَيَسْتَهِل صارخاً من مسه إياه، إلا مريم وابنها». ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿**وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم**﴾، أخرجاه.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها، وأنه ﴿أنبتها نباتاً حسناً﴾، أي جعلها شكلاً مليحاً ومنظراً بهيجاً، ويسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين، ولهذا قال: ﴿وكَفَلها زكريا﴾ أي جعله كافلاً لها. قال ابن إسحاق: وما ذلك إلا أنها كانت يتيمة. وذكر غيره: أن بني إسرائيل أصابتهم سَنَةُ جَدْب، فكفل زكريا مريم لذلك، ولا منافاة بين القولين؛ والله أعلم. وإنما قدر الله كون زكريا كافلها لسعادتها، لتقتبس منه علماً جماً نافعاً وعملاً صالحاً؛ ولأنه كان زوج خالتها على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما، وقيل: زوج أختها، كما ورد في الصحيح «فاذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة» وقد يطلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضاً توسعاً، فعلى هذا كانت في حضانة خالتها وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب، وقال: «الخالة بمنزلة الأم».

ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلالتها في محل عبادتها، فقال: ﴿**كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً**﴾ قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو الشعثاء وإبراهيم النخعي والضحاك وقتادة والربيع بن أنس وعطية العوفي والسدي: يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف. وعن مجاهد ﴿**وجد عندها رزقاً**﴾ أي علماً، أو قال: صحفاً فيها علم، والأول أصح وفيه دلالة على كرامات الأولياء. وفي السنة لهذا نظائر كثيرة، فإذا رأى زكريا هذا عندها ﴿**قال يا مريم أنى لك هذا**﴾ أي يقول: من أين لك هذا؟ ﴿**قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾.

لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، طمع حينئذ في الولد وكان شيخاً كبيراً قد ضعف ووهن منه العظم واشتعل الرأس شيباً، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقراً، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خَفياً، وقال: ﴿**رب هب لي من لدنك**﴾ أي من عندك ﴿**ذرية طيبة**﴾ أي ولداً صالحاً ﴿**إنك سميع الدعاء**﴾. قال الله تعالى: ﴿**فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب**﴾ أي خاطبته الملائكة شفاهاً خطاباً، أسمعته وهو قائم يصلي في محراب عبادته ومحل خلوته ومجلس مناجاته وصلاته. ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة: ﴿**أن الله يبشرك بيحيى**﴾ أي بولد يوجد لك من

صلبك اسمه يحيى. قال قتادة وغيره: إنما سمي يحيى لأن الله تعالى أحياه بالإيمان.

وقوله: ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ عن ابن عباس، والحسن ومجاهد والضحاك وغيرهم في هذه الآية: أي بعيسى ابن مريم. وقال الربيع بن أنس: هو أول من صدق بعيسى ابن مريم. وقال قتادة: وعلى سننه ومنهاجه. وقال ابن جُرَيْج: قال ابن عباس: كان يحيى وعيسى ابني خالة، وكانت أم يحيى تقول لمريم: إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك، فذلك تصديقه بعيسى تصديقه له في بطن أمه، وهو أول من صدق عيسى، وكلمة الله عيسى، وهو أكبر من عيسى عليه السلام، وهكذا قال السدي أيضاً.

قوله: ﴿وسيداً﴾ قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة وسعيد بن جبير وغيرهم: الحكيم. قال قتادة: سيداً في العلم والعبادة. وقال ابن عباس والثوري والضحاك: السيد الحكيم التقي. وقال سعيد بن المسيب: هو الفقيه العالم. وقال عطية: السيد في خلقه ودينه. وقال عكرمة: هو الذي لا يغلبه الغضب. وقال ابن زيد: هو الشريف. وقال مجاهد وغيره: هو الكريم على الله عز وجل.

وقوله: ﴿وحصوراً﴾ روي عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد [وغيرهم]، أنهم قالوا: هو الذي لا يأتي النساء. وعن أبي العالية والربيع بن أنس: هو الذي لا يولد له وقال الضحاك: هو الذي لا ولد له ولا ماء له.

وعن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن العاص يقول: ليس أحد من خلق الله لا يلقاه بذنب غير يحيى بن زكريا. ثم قرأ سعيد: ﴿وسيداً وحصوراً﴾ ثم أخذ شيئاً من الأرض، فقال: الحصور ما كان ذكره مثل ذي. وأشار يحيى بن سعيد القطان بطرف أصبعه السبابة.

وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء: اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان ﴿حصوراً﴾ ليس كما قاله بعضهم إنه كان هيوباً أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حُذَّاق المفسرين، ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب، ولا تليق بالأنبياء عليهم السلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب، أي لا يأتيها كأنه حُصِر عنها. وقيل مانعاً نفسه من الشهوات. وقيل ليست له شهوة في النساء، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة، ثم قمعها: إما بمجاهدة كعيسى، أو بكفاية من الله عز وجل كيحيى عليه السلام، ثم هي في حق من قدر عليها، وقام بالواجب فيها، ولم تشغله عن ربه درجة علياء، وهي درجة نبينا محمد ﷺ الذي لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة، بتحصينهن وقيامه عليهن واكتسابه لهن وهدايته إياهن، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره، فقال: «حبب إليّ من دنياكم» [رواه أحمد والنسائي وصححه الحاكم].

والمقصود أنه مدح يحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه كما قاله هو وغيره:

أنه معصوم عن الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: ﴿**هب لي من لدنك ذرية طيبة**﴾ كأنه قال: ولداً له ذرية ونسل وعقب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله: ﴿**ونبياً من الصالحين**﴾ هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته، وهي أعلى من الأولى، كقوله تعالى لأم موسى: ﴿**إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين**﴾ [القصص:٧] فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة، أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر ﴿**قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال**﴾ أي الملك ﴿**كذلك الله يفعل ما يشاء**﴾ أي هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء، ولا يتعاظمه أمر، ﴿**قال رب اجعل لي آية**﴾ أي علامة أستدل بها على وجود الولد مني ﴿**قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً**﴾ أي إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوي صحيح، كما في قوله: ﴿**ثلاث ليال سويا**﴾ [مريم:١٠] ثم أمر بكثرة الذكر والشكر والتسبيح في هذه الحال، فقال تعالى: ﴿**واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار**﴾. وسيأتي طرف آخر في بسط هذا المقام في أول سورة مريم، إن شاء الله تعالى.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك: أن الله قد اصطفاها أي اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهارتها من الأكدار والوساوس، واصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده، ولم تركب مريم بنت عمران بعيراً قط» [متفق عليه]. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد» أخرجاه في الصحيحين.

وقد أخرج الجماعة إلا أبا داود عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

ثم أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والخضوع والركوع والسجود والدؤوب في العمل لها، لما يريد الله بها من الأمر الذي قدره وقضاه مما فيه محنة لها، ورفعة في الدارين، بما أظهر الله تعالى فيها من قدرته العظيمة، حيث خلق منها ولداً من غير أب، فقال تعالى: ﴿**يا مريم اقنتي لربك، واسجدي واركعي مع الراكعين**﴾ أما القنوت فهو الطاعة

في خشوع، كما قال تعالى: ﴿**بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون**﴾ [البقرة: ١١٦].

وقال مجاهد: كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تتورم كعباها والقنوت هو طول الذكر في الصلاة، يعني امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**يا مريم اقنتي لربك**﴾ بل قال الحسن: يعني اعبدي لربك، ﴿**واسجدي واركعي مع الراكعين**﴾ أي كوني منهم. وقال الأوزاعي: ركدت في محرابها راكعة وساجدة وقائمة، حتى نزل الماء الأصفر في قدميها رضي الله عنها. وعن ابن شوذب، قال: كانت مريم عليها السلام، تغتسل في كل ليلة.

ثم قال تعالى لرسوله بعد ما أطلعه على جلية الأمر: ﴿**ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك**﴾ أي نقصه عليك ﴿**وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون**﴾ أي ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم عنهم معاينة عما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك كنت حاضراً وشاهداً لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها، وذلك لرغبتهم في الأجر. عن عكرمة، قال: ثم خرجت بها، يعني أم مريم بمريم تحملها، في خِرَقها إلى بني الكاهن بن هارون أخي موسى عليهما السلام، قال: وهم يومئذ يلون في بيت المقدس ما يلي الحَجَبة من الكعبة، فقالت لهم: دُونكم هذه النَّذِيرة، فإني حررتها، وهي ابنتي، ولا تدخل الكنيسة حائض، وأنا لا أردها إلى بيتي، فقالوا: هذه ابنة إمامنا، وكان عمران يؤمهم في الصلاة، وصاحب قرباننا، فقال زكريا: ادفعوها إلي فإن خالتها تحتي، فقالوا: لا تطيب أنفسنا، هي ابنة إمامنا، فذلك حين اقترعوا عليها بأقلامهم التي يكتبون بها التوراة، فقَرَعَهُم زكريا فكفلها. وقد ذكر عكرمة أيضاً والسدي وقتادة والربيع بن أنس وغير واحد، دخل حديث بعضهم في بعض، أنهم ذهبوا إلى نهر الأردن، واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم فأيهم يثبت في جَرْيَة الماء فهو كافلها، فألقوا أقلامهم، فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت. ويقال إنه ذهب صُعُداً يشق جرية الماء، وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم وعالمهم وإمامهم ونبيهم، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين.

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾.

هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأن سيوجد منها ولد عظيم له شأن كبير. قال الله تعالى: ﴿**إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه**﴾ أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أي يقول له: كن فيكون، وهذا تفسير قوله: ﴿**مصدقاً بكلمة من الله**﴾ [آل عمران: ٣٩] كما ذكره الجمهور على ما سبق بيانه ﴿**اسمه المسيح عيسى ابن مريم**﴾ أي يكون مشهوراً بهذا في الدينا، يعرفه المؤمنون بذلك. وسمي المسيح، قال بعض السلف: لكثرة سياحته. وقيل: لأنه كان مسيح القدمين، لا أَخْمَص لهما، وقيل: لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات

بريء، بإذن الله تعالى.

وقوله: ﴿عيسى ابن مريم﴾ نسبة إلى أمه حيث لا أب له. ﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ أي له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا بما يوحيه الله إليه من الشريعة وينزله عليه من الكتاب وغير ذلك مما منحه الله به، وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله: ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلاً﴾ أي يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره، معجزة وآية، وفي حال كهولته حين يوحي الله إليه بذلك ﴿ومن الصالحين﴾ أي في قوله وعمله، له علم صحيح وعمل صالح. وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وصبي كان في زمن جريج، وصبي آخر» [أخرجه البخاري ومسلم وابن أبي حاتم واللفظ له].

فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله عز وجل، قالت في مناجاتها: ﴿رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر؟﴾ تقول كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج، ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بَغياً حاشا لله؟ فقال لها الملك عن الله عز وجل في جواب هذا السؤال: ﴿كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء، وصرح ههنا بقوله: ﴿يخلق ما يشاء﴾ ولم يقل: «يفعل» كما في قصة زكريا، بل نص ههنا على أنه يخلق لئلا يبقى شبهة، وأكد هذا بقوله: ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي فلا يتأخر شيئاً بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة، كقوله تعالى: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ [القمر: ٥٠] أي إنما نأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها فيكون ذلك الشيء سريعاً كلمح بالبصر.

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ
ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السلام: أن الله يعلمه ﴿الكتاب والحكمة﴾، الظاهر أن المراد بالكتاب ههنا الكتابة، والحكمة تقدم الكلام على تفسيرها في سورة البقرة، و﴿التوراة والإنجيل﴾، فالتوراة هو الكتاب الذي أنزله الله على موسى بن عمران، والإنجيل الذي أنزله الله على عيسى ابن مريم عليهما السلام. وقد كان عيسى عليه السلام يحفظ هذا وهذا، وقوله: ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾ أي يجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، قائلاً لهم ﴿أني قد جئتكم بآية من ربكم، أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾ وكذلك كان يفعل، يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه

فيطير عياناً بإذن الله عز وجل، الذي جعل هذا معجزة يدل على أن الله أرسله ﴿وأبرىء الأكمه﴾ قيل: هو الذي يبصر نهاراً ولا يبصر ليلاً، وقيل بالعكس. وقيل: هو الأعشى. وقيل الأعمش. وقيل: هو الذي يولد أعمى وهو أشبه، لأنه أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي ﴿والأبرص﴾ معروف، ﴿وأحيي الموتى بإذن الله﴾ قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سَحّار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام، وصاروا من الأبرار. وأما عيسى عليه السلام، فبُعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه، إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة. فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد؟ وكذلك محمد ﷺ، بعثه الله في زمن الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء، فأتاهم بكتاب من الله عز وجل، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله، لم يستطيعوا أبداً، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وما ذاك إلا لأن كلام الرب لا يشبهه كلام الخلق أبداً.

وقوله: ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم﴾ أي أخبركم بما أكل أحدكم الآن، وما هو مدخر في بيته لغده، ﴿إن في ذلك﴾ أي في ذلك كله ﴿لآية لكم﴾ أي على صدقي فيما جئتكم به ﴿إن كنتم مؤمنين﴾. ﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾ أي مقرر لها ومثبت ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسَخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح من القولين، ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئاً، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطؤوا، فكشف لهم عن المغطى في ذلك، كما قال في الآية الأخرى ﴿ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ [الزخرف: ٦٣] والله أعلم. ثم قال: ﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾ أي بحجة ودلالة على صدقي فيما أقوله لكم ﴿فاتقوا الله وأطيعون، إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ أي أنا وأنتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه ﴿هذا صراط مستقيم﴾.

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿فلما أحسّ عيسى﴾ أي استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال، ﴿قال من أنصاري إلى الله﴾ قال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله؟. وقال سفيان الثوري وغيره: أي من أنصاري مع الله، وقول مجاهد: أقرب. والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر: «مَنْ رجل يُؤْويني حتى

أبلغ كلام ربي. فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» [أخرجه أحمد وسنده جيد ورجاله رجال مسلم] حتى وجد الأنصار، فآووه ونصروه وهاجر إليهم، فآسوه ومنعوه. وهكذا عيسى ابن مريم عليه السلام انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، ولهذا قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿قال الحواريون: نحن أنصار الله آمنّا بالله واشهد بأنا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ الحواريون قيل: كانوا قصارين، وقيل: سموا بذلك لبياض ثيابهم، وقيل: صيادين. والصحيح أن الحواري الناصر، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير ثم ندبهم، فانتدب الزبير، فقال النبي ﷺ: «إن لكل نبي حوارياً، وحواريي الزبير». وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ قال: مع أمة محمد ﷺ، وهذا إسناده جيد.

ثم قال تعالى مخبراً عن ملإ بني إسرائيل، فيما هموا به من الفتك بعيسى عليه السلام، وإرادته بالسوء والصَلب، حين تمالؤوا عليه، ووَشَوا به إلى ملك ذلك الزمان، وكان كافراً فأنهَوا إليه، أن ههنا رجلاً يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك ويُفَنِّد الرعايا، ويفرق بين الأب وابنه، إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم ورموه به من الكذب، وأنه ولد زنية حتى استثاروا غضب الملك، فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه ويُنكّل به، فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظَفروا به، نجاه الله تعالى من بينهم، ورفعه من ذلك البيت إلى السماء، وألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى عليه السلام، فأخذوه وأهانوه وصلبوه، ووضعوا على رأسه الشوك. وكان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجى نبيه ورفعه من بين أظهرهم وتركهم في ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطَلِبتَهم، وأسكن الله في قلوبهم قسوة وعناداً للحق ملازماً لهم، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد، ولهذا قال تعالى: ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾.

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾.

اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿إني متوفيك ورافعك إليّ﴾ فقال قتادة وغيره: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره إني رافعك إلي ومتوفيك، يعني بعد ذلك. وقال مطر الوراق: إني متوفيك من الدنيا، وليس بوفاة موت، وكذا قال ابن جرير: توفيه هو رفعه، وقال الأكثرون: المراد بالوفاة ههنا: النوم، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ [الزمر: ٤٢]، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم: «الحمد الله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»

[أخرجه البخاري ومسلم]، وقال الله تعالى: ﴿**وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم** إلى قوله: **وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً**﴾ [النساء:١٥٦-١٥٩] والضمير في قوله: ﴿**قبل موته**﴾ عائد على عيسى عليه السلام، أي وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة على ما سيأتي بيانه، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم، لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام. وعن الحسن أنه قال في قوله تعالى: ﴿**إني متوفيك**﴾ يعني وفاة المنام، رفعه الله في منامه. قال الحسن: قال رسول الله ﷺ لليهود: «إن عيسى لم يمت، وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة».

وقوله تعالى: ﴿**ومطهرك من الذين كفروا**﴾ أي برفعي إياك إلى السماء ﴿**وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة**﴾ وهكذا وقع؛ فإن المسيح عليه السلام، لما رفعه الله إلى السماء، تفرقت أصحابه شيعاً بعده، فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله، وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة. وقد حكى الله مقالاتهم في القرآن ورد على كل فريق، فاستمروا على ذلك قريباً من ثلثمائة سنة، ثم نَبَغ لهم ملك من ملوك اليونان يقال له قسطنطين، فدخل في دين النصرانية، قيل: حيلة ليفسده، فإنه كان فيلسوفاً، وقيل: جهلاً منه إلا أنه بدل لهم دين المسيح وحرفه، وزاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين، والأمانة الكبيرة التي هي الخيانة الحقيرة، وأحل في زمانه لحم الخنزير، وصلوا له إلى المشرق، وصوروا له الكنائس، وزاد في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون، وصار دين المسيح دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد، وبنى المدينة المنسوبة إليه، واتبعه الطائفة المَلْكِيَّة منهم، وهم في هذا كله قاهرون لليهود، أيدهم الله عليهم، لأنهم أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفاراً عليهم لعائن الله.

فلما بعث الله محمداً ﷺ، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق، كانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض، إذ قد صدقوا الرسول النبي الأمي، خاتم الرسل وسيد ولد آدم، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا أولى بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته، مع ما قد حرفوا وبدلوا، ثم لو لم يكن شيء من ذلك، لكان قد نسخ الله بشريعته شريعة جميع الرسل بما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين الحق الذي لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة، ولا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كل دين، فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واحتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميع الدول، وكسروا كسرى، وقصروا قيصر وسلبوهما كنوزهما، وأنفقت في سبيل الله كما أخبرهم بذلك

نبيهم عن ربهم عز وجل في قوله: ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً**﴾ الآية [النور: ٥٥] ولهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقاً، سلبوا النصارى بلاد الشام وأجلوهم إلى الروم فلجؤوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة. وقد أخبر الصادق الصدوق ﷺ أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ويستفيئون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جداً، لم ير الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها، ولهذا قال تعالى: ﴿**وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إليّ مرجعكم**﴾ أي يوم القيامة ﴿**فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين**﴾ وكذلك فعل تعالى بمن كفر بالمسيح من اليهود، أو غلا فيه وأطراه من النصارى، عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي، وأخذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك، وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق ﴿**وما لهم من الله من واق**﴾ [الرعد: ٣٤] ﴿**وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم**﴾ أي في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالجنات العاليات ﴿**والله لا يحب الظالمين**﴾.

ثم قال تعالى: ﴿**ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم**﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفيه أمره، وهو مما قاله الله تعالى وأوحاه إليك ونزله عليك من اللوح المحفوظ، فلا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿**ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**﴾ [مريم: ٣٤-٣٥] وههنا قال تعالى:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

يقول جل وعلا: ﴿**إن مثل عيسى عند الله**﴾ في قدرة الله حيث خلقه من غير أب ﴿**كمثل آدم**﴾ فإن الله تعالى خلقه من غير أب ولا أم بل ﴿**خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**﴾ فالذي خلق آدم، قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى، وإن جاز ادعاء البنوة في عيسى بكونه مخلوقاً من غير أب، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواها في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً، ولكن الرب عز وجل أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى في سورة مريم: ﴿**ولنجعله**

آية للناس﴾ [مريم:٢١] وقال ههنا: ﴿**الحق من ربك فلا تكن من الممترين**﴾ أي هذا القول هو الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

ثم قال تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان: ﴿**فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم**﴾ أي نحضرهم في حال المباهلة ﴿**ثم نبتهل**﴾ أي نلتعن ﴿**فنجعل لعنة الله على الكاذبين**﴾ أي منا أو منكم. وكان سبب نزول هذه المباهلة في وفد نجران، أن النصارى حين قدموا فجعلوا يُحَاجّون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوة والإلهية، فأنزل الله صدر هذه السورة رداً عليهم.

قال ابن إسحاق في سيرته المشهورة وغيره: قَدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نَجْران ستون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم يؤول أمرهم إليهم. فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحِبَرات: جُبَب وأرْدية، في جمال رجال بني الحارث بن كعب، قال: يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي ﷺ: ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم: وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلون، فقال رسول الله ﷺ: «دَعُوهم» فصلوا إلى المشرق. قال: فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة، والعاقب عبد المسيح، أوالسيّد الأيهم وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف أمرهم يقولون: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. فلما كلمه الحبران، قال لهما رسول الله ﷺ: «أَسْلِمَا» قالا: قد أسلمنا، قال: «إنكما لم تسلما فأسلما». قالا: بلى قد أسلمنا قبلك. قال: «كذبتما يمنعكما من الإسلام ادعاؤكما لله ولداً وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير». قال [ابن إسحاق] : فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك، فقالوا: يا أبا القاسم، دعْنَا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، فانصرفوا عنه، ثم خلوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفَصْل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبياً قط، فبقي كبيرهم ولا نبت صَغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعُوا الرجلَ وانصرفوا إلى بلادكم. فأتوا النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا ألا نلاعنك ونتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا، فإنكم عندنا رضا. فقال رسول الله ﷺ: «ائتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين» فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ما أحببت الإمارة قط حُبي إياها يومئذ، رجاء أن أكون صاحبها، فَرُحْتُ إلى الظهر مُهَجّراً، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر،

سلّم ثم نظر عن يمينه وعن يساره، فجعلت أتطاول له ليراني، فلم يَزَل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عُبَيدة بن الجراح فدعاه: «اخرج معهم، فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه». قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة رضي الله عنه. [وأخرج البخاري ومسلم نحو قصة نكولهم عن المباهلة ونحو قصة بعث أبي عبيدة] . وعن ابن عباس قال: لو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً [ورواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح].

والغرض أن وفودهم كان في سنة تسع، لأن الزهري قال: كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله ﷺ، وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح، وهي قوله تعالى: **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾** [التوبة: ٢٩].

ثم قال الله تعالى: **﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾** أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد **﴿وما من إله إلا الله، وإن الله لهو العزيز الحكيم * فإن تولوا﴾** أي عن هذا إلى غيره **﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾** أي من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء وهو القادر الذي لا يفوته شيء سبحانه وبحمده ونعوذ به من حلول نقمه.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم. **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة﴾** والكلمة تطلق على الجملة المفيدة، كما قال ههنا، ثم وصفها بقوله: **﴿سواء بيننا وبينكم﴾** أي عدل ونَصف نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسرها بقوله: **﴿ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً﴾** لا وثناً، ولا صليباً، ولا صنماً، ولا طاغوتاً، ولا ناراً ولا شيئاً، بل نُفرد العبادة لله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾** [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: **﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾** [النحل: ٣٦].

ثم قال تعالى: **﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾**، قال ابن جريج: يعني يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله، وقال عكرمة: يسجد بعضنا لبعض. **﴿فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾** أي فإن تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة، فَأَشهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم.

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ

إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ
وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل عليه السلام، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم، كما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى: ﴿**يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم**﴾ أي كيف تدّعون أيها اليهود أنه كان يهودياً، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى، وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿**أفلا تعقلون**﴾. ثم قال تعالى: ﴿**ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيماليس لكم به علم**﴾ هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به، فإن اليهود والنصارى تَحاجّوا في إبراهيم بلا علم، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد ﷺ، لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لم يعلموا به، فأنكر الله عليهم ذلك وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها، ولهذا قال تعالى: ﴿**والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾. ثم قال تعالى: ﴿**ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً**﴾ أي متحنفاً عن الشرك قاصداً إلى الإيمان ﴿**وما كان من المشركين**﴾ وهذه الآية كالتي تقدمت في سورة البقرة ﴿**وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين**﴾ [البقرة: ١٣٥].

ثم قال تعالى: ﴿**إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين**﴾ يقول تعالى: أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه وهذا النبي، يعني محمداً ﷺ، والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن بعدهم. وقوله: ﴿**والله ولي المؤمنين**﴾ أي ولي جميع المؤمنين برسله.

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ
تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ
إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن حَسَد اليهود للمؤمنين، وبَغْيهم إياهم الإضلال، وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم وهم لا يشعرون أنهم ممكور بهم. ثم قال تعالى منكراً عليهم: ﴿**يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون**﴾ أي تعلمون صدقها وتتحققون حقها ﴿**يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون**﴾ أي تكتمون ما في كتبكم

من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه. ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره﴾ هذه مكيدة أرادوها ليَلْبسُوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشْتَوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قالوا ﴿لعلهم يرجعون﴾. قال مجاهد في قوله تعالى إخباراً عن اليهود بهذه الآية: يعني يهود صَلَّت مع النبي ﷺ صلاة الفجر، وكفروا آخر النهار مكراً منهم، ليُرُوا الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة بعد أن كانوا اتبعوه. وعن ابن عباس: قالت طائفة من أهل الكتاب: إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا، وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم لعلهم يقولون هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا، وهكذا روي عن قتادة والسدي والربيع وأبي مالك.

وقوله تعالى: ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ أي لا تطمئنوا أو تظهروا سركم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم قال الله تعالى: ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ أي هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات، والدلائل القاطعات، والحجج الواضحات؛ وإن كتمتم أيها اليهود ما بأيديكم من صفة محمد في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين.

وقوله: ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾ يقولون: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين، فيتعلموه منكم، ويساووكم فيه ويمتازوا به عليكم لشدة الإيمان به، أو يحاجوكم به عند الله، أي يتخذوه حجة عليكم مما بأيديكم، فتقوم به عليكم الدلالة، وتَتَركَّب الحجة في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ أي الأمور كلها تحت تصريفه، وهو المعطي المانع، يَمُنّ على من يشاء بالإيمان والعلم والتصور التام، ويضل من يشاء ويُعمي بصره وبصيرته، ويختم على قلبه وسمعه، ويجعل على بصره غشاوة، وله الحجة التامة والحكمة البالغة. ﴿والله واسع عليم * يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ أي اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يُحَد ولا يُوصف، بما شرف به نبيكم محمداً ﷺ على سائر الأنبياء، وهداكم به إلى أكمل الشرائع.

﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن اليهود بأن فيهم الخونة ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم، فإن منهم ﴿من إن تأمنه بقنطار﴾ أي من المال ﴿يؤده إليك﴾ أي وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك

﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً﴾ أي بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقك، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار فما فوقه أولى أن لا يؤديه.

وعن مالك بن دينار، قال: إنما سمي الدينار لأنه دين ونار وقال: معناه أنه من أخذه بحقه فهو دينه، ومن أخذه بغير حقه فله النار.

وقوله: ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾ أي إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حَرَج في أكل أموال الأميّين وهم العرب؛ فإن الله قد أحلها لنا، قال الله تعالى: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أي وقد اختلقوا هذه المقالة، وائتفكوا بهذه الضلالة، فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها وإنما هم قومٌ بُهْتٌ. وعن أبي صعصعة بن يزيد، أن رجلاً سأل ابن عباس، فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة؟ قال ابن عباس: فتقولون ماذا ؟ قال: نقول ليس علينا بذلك بأس، قال هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾، إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بِطِيب أنفسهم.

ثم قال تعالى: ﴿بلى من أوفى بعهده واتقى﴾ أي لكن من أوفى بعهده منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه، من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بُعث، كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك، واتقى محارم الله تعالى، واتبع طاعته وشِرْعَته التي بعث بها خاتم رسله وسيد البشر ﴿فإن الله يحب المتقين﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٧٧) ﴾.

يقول تعالى: إن الذين يعتاضون عما عَهِدهم الله عليه، من اتباع محمد ﷺ وذكر صفته للناس وبيان أمره، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة، وهي عروض هذه الدنيا الفانية الزائلة ﴿أولئك لا خلاق لهم في الآخرة﴾ أي لا نصيب لهم فيها ولا حظ لهم منها﴿ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة﴾ أي برحمة منه لهم، بمعنى لا يكلمهم كلام لطف بهم ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿ولا يزكيهم﴾ أي من الذنوب والأدناس، بل يأمر بهم إلى النار ﴿ولهم عذاب أليم﴾. وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة منها.

ما رواه الإمام أحمد عن أبي ذر، قال قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم» قلت: يا رسول الله، من هم ؟ خابوا وخسروا. قال: وأعاده رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال: «المَسْبِلُ، والمُنفقُ سِلْعته بالحَلِف الكاذب، والمنانُ»، ورواه مسلم وأهل السنن.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين هو فيها فاجر، ليقتطع بها مالَ امرئ مسلم، لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان».

فقال الأشعث: فيّ والله كان ذلك؛ كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني، فقدمته إلى رسول الله ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: «ألك بينة ؟» قلت: لا. فقال لليهودي: «احلف». فقلت: يا رسول الله، إذاً يحلف فيذهب مالي. فأنزل الله عز وجل: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾ الآية أخرجاه.

وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله ابن أبي أوفى، أن رجلاً أقام سلعة له في السوق، فحلف بالله لقد أعطَي بها ما لم يُعْطه، ليُوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت هذه الآية: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا﴾. ورواه البخاري.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده، ورجل حلف على سلعة بعد العصر، يعني كاذباً، ورجل بايع إماماً فإن أعطاه وَفىَ له وإن لم يُعْطِه لم يَفِ له» ورواه أبو داود والترمذي، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله، أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه، ويبدلون كلام الله ويزيلونه عن المراد به، ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله وهو كذب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾. وقال مجاهد والشعبي والحسن وقتادة والربيع بن أنس. ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ يحرفونه، وهكذا روى البخاري عن ابن عباس أنهم يحرفون ويزيدون، وليس أحد من خلق الله يزيل لفظ كتاب من كتب الله، لكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَٰٓئِكَةَ وَالنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله﴾ أي ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحُكْم والنبوة، أن يقول للناس: اعبدوني من دون الله، أي مع الله، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى؛ ولهذا قال الحسن البصري: لا ينبغي هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته. قال: وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً، يعني أهل الكتاب كانوا يعبدون أحبارهم ورهبانهم، كما قال الله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ [التوبة: ٣١]، وفي المسند والترمذي أن عدي بن حاتم قال: يا رسول الله ما عبدوهم. قال: «بلى إنهم

أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم» [وهو حسن بشاهده].

فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنما يأمرون بما أمَرَ الله به، وبلغتهم إياه رسله الكرام، إنما يَنْهَوْنهم عما نهاهم الله عنه وبلغتهم إياه رسله الكرام، فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم قيام، ونصحوا الخلق، وبلغوهم الحق.

وقوله: ﴿**ولكن كونوا ربانيين بماكنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون**﴾ أي ولكن يقول الرسول للناس: كونوا ربانيين، قال ابن عباس وأبو رزين وغير واحد: أي حكماء علماء حلماء. وقال الحسن وغير واحد: فقهاء وكذا روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة [وغيرهم] أيضاً: يعني أهل عبادة وأهل تقوى، وقال الضحاك في قوله: ﴿**بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون**﴾: حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً ﴿**تعلمون**﴾ أي تفهمون معناه، وقرىء ﴿**تُعلِّمون**﴾ بالتشديد من التعليم ﴿**وبما كنتم تدرسون**﴾ تحفظون ألفاظه.

ثم قال الله تعالى: ﴿**ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً**﴾ أي ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله: لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿**أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون**﴾ أي لا يفعل ذلك؛ لأن من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿**واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون**﴾ [الزخرف:٤٥]، وقال تعالى إخباراً عن الملائكة: ﴿**ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين**﴾ [الأنبياء:٢٩].

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام، لَمَهْمَا آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة، وبلغ أي مبلَغ، ثم جاءه رسول من بعده ليؤمننَّ به ولينصرنَّه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته؛ ولهذا قال تعالى وتقدس: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة**﴾ أي لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة ﴿**ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري**﴾ وقال ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس وقتادة والسدي: يعني عهدي، وقال محمد بن إسحاق: (إصري) أي ثقل ما حمّلتم من عهدي أي ميثاقي الشديد المؤكد.

﴿قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك﴾ أي عن هذا العهد والميثاق ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾، قال علي بن أبي طالب وابن عمه عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمِنُنَّ به ولينصرُنَّه، وقال طاوس والحسن البصري وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً، وهذا لا يضاد ما قاله علي وابن عباس ولا ينفيه، بل يستلزمه ويقتضيه. [ولهذا روي عن طاوس مثل قول علي وابن عباس].

وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال، فتغير وجه رسول ﷺ قال عبد الله بن ثابت، قلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله رباً، بالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، قال: فسُرِّي عن رسول الله ﷺ وقال: «والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين» [وحسنه الألباني].

فالرسول محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، وهو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد، لكان هو الواجب الطاعه المقدَّم على الأنبياء كلهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيع في يوم الحشر في إتيان الرب لفَصْل القضاء، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين حتى تنتهي النوبة إليه فيكون هو المخصوص به صلوات الله وسلامه عليه.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

يقول تعالى منكراً على من أراد ديناً سوى دين الله الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسله، وهو عبادته وحده لا شريك له، الذي ﴿له أسلم من في السموات والأرض﴾ أي استسلم له من فيهما طوعاً وكرهاً، كما قال تعالى: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾ [الرعد: ١٥].

فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهاً، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع. وعن مجاهد: ﴿وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ قال: هو كقوله ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ [لقمان: ٢٥]،

وعن ابن عباس ﴿وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ قال: حين أخذ الميثاق. ﴿وإليه يرجعون﴾ أي يوم المعاد فيجازي كلاً بعمله. ثم قال تعالى: ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا﴾ يعني القرآن، ﴿وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب﴾ أي من الصحف والوحي، ﴿والأسباط﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل ـ وهو يعقوب ـ الاثني عشر، ﴿وما أوتي موسى وعيسى﴾ يعني بذلك التوراة والإنجيل، ﴿والنبيون من ربهم﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ يعني: بل نؤمن بجميعهم ﴿ونحن له مسلمون﴾ فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل، وبكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك، بل هم مصدقون بما أنزل من عند الله، وبكل نبي بعثه الله.

ثم قال تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ الآية، أي من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله، فلن يقبل منه ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» [أخرجه مسلم].

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾.

عن ابن عباس، قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله هل لي من توبة؟ فنزلت: ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ـ إلى قوله ـ فإن الله غفور رحيم﴾ فأرسل إليه قومه فأسلم. [وعن مجاهد نحوه].

فقوله تعالى: ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات﴾ أي قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول، ووضح لهم الأمر ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعدما تلبسوا به من العماية، ولهذا قال تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾. ثم قال تعالى ﴿أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ أي يلعنهم الله، ويلعنهم خلقه، ﴿خالدين فيها﴾ أي في اللعنة، ﴿لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ أي لا يفتر عنهم العذاب ولا يخفف عنهم ساعة واحدة ثم قال تعالى: ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه أن من تاب إليه، تاب عليه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

يقول تعالى متوعداً ومتهدداً لمن كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً، أي استمر عليه إلى الممات، ومخبراً بأنه لا يقبل لهم توبة عند مماتهم، كما قال تعالى: ﴿وليست التوبة للذين

يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾ [النساء:١٨]، ولهذا قال ههنا: ﴿لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون﴾ أي الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي.

ثم قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾ أي من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدا، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قُرْبة، كما سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جُدْعان وكان يُقْري الضيف، ويَفُكُّ العاني، ويُطعم الطعام: هل ينفعه ذلك ؟ فقال: «لا، إنه لم يقل يوماً من الدهر: ربي اغفر لي خطيئتي يوم الدين» [رواه مسلم]، وكذلك لو افتدى بملء الأرض ذهباً ما قبل منه، كما قال تعالى: ﴿ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة﴾ [البقرة:١٢٣]؛ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾ فعطف ﴿ولو افتدى به﴾ به على الأول، فدل على أنه غيره، وما ذكرناه أحسن من أن يقال: أن الواو زائدة، والله أعلم، ويقتضي ذلك ألا ينقذه من عذاب الله شيء ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهباً، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض أيضاً ذهباً، بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، أن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء، أكنت مفتدياً به ؟ قال: فيقول: نعم، قال فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك» وهكذا أخرجه البخاري ومسلم.

ولهذا قال: ﴿أولئك لهم عذاب أليم ومالهم من ناصرين﴾ أي وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه.

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾.

عن عمرو بن ميمون ﴿لن تنالوا البر﴾ قال: البر الجنة، وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً، وكان أحبَّ أمواله إليه بيرَحاء، وكانت مُستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾، وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو بِرَّها وذُخرَها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ: «بَخ، ذاكَ مالٌ رَابحٌ، ذاك مال رابح، وقد سمعت، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه، أخرجاه، وعن عمر قال: يا رسول الله، لم أصب مالاً قط هو أنْفَسُ عندي من سهمي الذي هو بخيبر، فما تأمرني به ؟ قال: حَبِّس الأصل وسَبِّلِ الثمرة» [رواه النسائي والدار قطني وأصله في الصحيحين].

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ .

روى الإمام أحمد عن ابن عباس [قال]: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي، قال: «سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتُتابِعُنِّي على الإسلام». قالوا: فذلك لك، قال: فسلوني عما شئتم. قالوا: أخبرنا عن أربع خلال: أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم، ومن وليه من الملائكة؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه، وقال: «أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً وطال سُقْمُه، فنذرَ لله نذراً لئن شفاه الله من سُقْمه ليحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لُحْمان الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها»؟ فقالوا: اللهم نعم: قال: «اللهم اشهد عليهم». وقال «أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد، والشبه بإذن الله إن علا ماء الرجل ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله، وإن علا ماء المرأة ماء الرجل كان أنثى بإذن الله»؟ قالوا: نعم. قال: «اللهم اشهد عليهم». وقال: «أَنْشُدُكُم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه، ولا ينام قلبه»؟ قالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم اشهد» قالوا: وأنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة؟ فعندها نجامعك أو نفارقك قال: «إن وليي جبريل ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه»، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك غيره لتابعناك، فعند ذلك قال الله تعالى: ﴿**قل من كان عدواً لجبريل**﴾ الآية [البقرة:٩٧]. وقد رواه الترمذي والنسائي نحوه، وقال الترمذي: حسن غريب، وعن ابن عباس: كان إسرائيل عليه السلام ـ وهو يعقوب ـ يعتريه عرق النسا بالليل، وكان يقلقه ويزعجه عن النوم، ويقلع الوجع عنه بالنهار، فنذر لله لئن عافاه الله لا يأكل عرقاً ولا يأكل ولد ما له عرق، وهكذا قال الضحاك والسدي، كذا حكاه ورواه ابن جرير في تفسيره، قال: فاتبعه بنوه في تحريم ذلك استناناً به واقتداء بطريقه، قال: وقوله ﴿**من قبل أن تنزل التوراة**﴾ أي حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة.

قلت: ولهذا السياق بعدما تقدم مناسبتان إحداهما: أن إسرائيل عليه السلام حرم أحب الأشياء إليه وتركها لله، وكان هذا سائغاً في شريعتهم فله مناسبة بعد قوله: ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾ فهذا هو المشروع عندنا، وهو الإنفاق في طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهيه، كما قال تعالى: ﴿**وآتى المال على حبه**﴾ [البقرة:١٧٧]، وقال تعالى:

﴿ويطعمون الطعام على حبه﴾ [الإنسان:٨].

المناسبة الثانية: لما تقدم السياق في الرد على النصارى، واعتقادهم الباطل في المسيح وتبيين زَيْف ما ذهبوا إليه وظهور الحق واليقين في أمر عيسى وأمه، وكيف خلقه الله بقدرته ومشيئته وبعثه إلى بني إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تعالى، شرع في الرد على اليهود قبحهم الله تعالى وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله عز وجل قد نص في كتابهم التوراة أن نوحاً عليه السلام لما خرج من السفينة، أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحمان الإبل وألبانها فاتبعه بنوه في ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخر زيادة على ذلك، وكان الله عز وجل قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه، وقد حرم ذلك بعد ذلك، وكان التَّسَرِّي على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة، وقد حرم مثل هذا في التوراة عليهم، وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغاً، وقد فعله يعقوب عليه السلام جمع بين الأختين، ثم حرم عليهم ذلك في التوراة، وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم، فهذا هو النسخ بعينه، فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح عليه السلام، في إحلاله بعض ما حرم في التوراة، فما بالهم لم يتبعوه؟ بل كذبوه وخالفوه؟ وكذلك ما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين القويم، والصراط المستقيم، وملة أبيه إبراهيم، فما بالهم لا يؤمنون؟ ولهذا قال تعالى: **﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة﴾** أي كان حلاً لهم، جميع الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ما حرمه إسرائيل، ثم قال تعالى: **﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾** فإنها ناطقة بما قلناه **﴿فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾** أي فمن كذب على الله وادعى أنه شَرَع لهم السبت والتمسك بالتوراة دائماً، وأنه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله بالبراهين والحجج بعد هذا الذي بيناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرناه **﴿فأولئك هم الظالمون﴾**.

ثم قال تعالى: **﴿قل صدق الله﴾** أي قل يا محمد صدق الله فيما أخبر به وفيما شرعه في القرآن، **﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾** أي اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ولا أوضح، كما قال تعالى: **﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم * ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾** [الأنعام:١٦١].

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

يخبر تعالى أن أول بيت وُضع للناس، أي لعموم الناس لعبادتهم ونُسُكهم، يطوفون به، ويصلون إليه، ويعتكفون عنده **﴿للذي ببكة﴾** يعني الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام،

الذي يزعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه، ولا يحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك ونادى الناس إلى حجه، ولهذا قال تعالى: ﴿مباركاً﴾ أي وضع مباركاً ﴿وهدى للعالمين﴾ وقد روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أوَّلُ ؟ قال «المسجد الحرام». قلت: ثم أي ؟ قال: «المسجد الأقصى». قلت: كم بينهما ؟ قال: «أربعون سنة». قلت: ثم أي ؟ قال: «ثم حيث أدركتك الصلاة فصل فكلها مسجد» وأخرجه البخاري ومسلم. وعن علي في قوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً﴾ قال: كانت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله. وزعم السدي أنه أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقاً، والصحيح قول علي رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿للذي ببكة﴾ بكة من أسماء مكة على المشهور، قيل: سميت بذلك لأنها تَبُكّ أعناق الظلمة والجبابرة بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها، وقيل: لأن الناس يتَبَاكّون فيها، أي يزدحمون. قال قتادة: إن الله بَكَّ به الناس جميعاً، فيصلي النساء أمام الرجال ولا يفعل ذلك ببلد غيرها، وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعمرو بن شعيب ومقاتل بن حيان. وعن ابن عباس قال: مكة من الفج إلى التنعيم، وبكة من البيت إلى البطحاء، وعن إبراهيم: بكة البيت والمسجد، وكذا قال الزهري. وقال عكرمة، في رواية، وميمون بن مهران: البيت وما حوله بكة، وما وراء ذلك مكة. وقال أبو صالح وإبراهيم النخعي وعطية العوفي ومقاتل بن حيان: بكة موضع البيت وما سوى ذلك مكة.

وقوله تعالى: ﴿فيه آيات بينات﴾ أي دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم، وأن الله عظمه وشرفه، ثم قال تعالى: ﴿مقام إبراهيم﴾ يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران، حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل، وقد كان ملتصقاً بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطُّوَّاف، ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف؛ لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقد قدمنا الأحاديث في ذلك فأغنى عن إعادتها ههنا، و لله الحمد والمنة. وعن ابن عباس في قوله: ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ أي فمنهنَّ مقام إبراهيم والمشْاعَر. وقال مجاهد: أثر قدميه في المقام آية بينة، وكذا روى عن عمر بن عبد العزيز والحسن وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقال أبو طالب في قصيدته:

وموطىء إبراهيم في الصخر رَطْبةٌ   على قدميه حافياً غير ناعل

وعن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿مقام إبراهيم﴾ قال: الحرم كله مقام إبراهيم، وفي لفظ: الحِجَر كله مقام إبراهيم، وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: الحج مقام إبراهيم هكذا

رأيت في النسخة، ولعله الحِجَر كله مقام إبراهيم، وقد صرح بذلك مجاهد.

وقوله تعالى: ﴿**ومن دخله كان آمنا**﴾ يعني حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية، كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يُهيِّجْهُ حتى يخرج. وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**ومن دخله كان آمنا**﴾ قال: من عاذ بالبيت أعاذه البيت، ولكن لا يُؤوى ولا يُطعم ولا يُسقى، فإذا خرج أخذ بذنْبه، وقال الله تعالى: ﴿**أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم**﴾ [العنكبوت:٦٧]، وقال تعالى: ﴿**فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**﴾ [قريش:٣-٤] وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها، كما ثبتت الأحاديث والآثار في ذلك عن جماعة من الصحابة مرفوعاً وموقوفاً. ففي الصحيحين واللفظ لمسلم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله، إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها» فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم، فقال «إلا الإذخر».

وعن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح» رواه مسلم. وعن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف بالحَزْوَرَة في سوق مكة، يقول «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت». رواه الإمام أحمد وأهل السنن، وقال الترمذي: حسن صحيح، وكذا صَحَّح من حديث ابن عباس نحوه.

وعن يحيى بن جعدة بن هبيرة في قوله تعالى: ﴿**ومن دخله كان آمنا**﴾ قال: آمناً من النار.

وقوله: ﴿**و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً**﴾ هذه آية وجوب الحج عند الجمهور. وقيل: بل هي قوله: ﴿**وأتموا الحج والعمرة لله**﴾ [البقرة:١٩٦]، والأول أظهر. وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع. وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحُجّوا». فقال رجل: أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم». ثم قال: «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»، ورواه مسلم.

وأما الاستطاعة فأقسام: تارة يكون الشخص مستطيعاً بنفسه، وتارة بغيره كما هو مقرر في كتب الأحكام، روى أبو عيسى الترمذي عن ابن عمر قال قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: ما السبيل يا رسول الله ؟ قال: «الزاد والراحلة». رواه ابن ماجه وقال الترمذي: في كتاب الحج: هذا حديث حسن.

وقد روي هذا الحديث من طرق أخرى من حديث أنس وعبد الله بن عباس وابن مسعود وعائشة كلها مرفوعة، ولكن في أسانيدها مقال، ورواه الحاكم عن أنس ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعَجَّلُوا إلى الحج - يعني الفريضة - فإن أحدكم لا يدري ما يَعْرِضُ له». وروى أحمد أيضاً عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ «من أراد الحج فليتعجل». ورواه أبو داود. وعن ابن عباس في قوله: ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾ قال: من مَلَك ثلثمائة درهم فقد استطاع إليه سبيلاً، وعن عكرمة مولاه أنه قال: السبيل الصِّحَّة. وعن ابن عباس، قال: ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾ قال: الزاد والبعير.

وقوله تعالى: ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أي ومن جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: من أطاق الحج فلم يحج، فسواء عليه يهودياً مات أو نصرانياً، وهذا إسناده صحيح إلى عمر رضي الله عنه.

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

هذا تعنيف من الله تعالى لكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق، وكفرهم بآيات الله، وصدِّهم عن سبيله من أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم، مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله، بما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين، والسادة المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجميعن، وما بَشَّروا به ونوَّهُوا، من ذكر النبي ﷺ الأمي الهاشمي العربي المكي سيد ولد آدم، وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء، وقد توعدهم الله على ذلك، وأخبر بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء ومقابلتهم الرسول المُبشر به بالتكذيب والجحود والعناد، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون، أي وسيجزيهم على ذلك يوم لا ينفعهم مال ولا بنون.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من الذين أوتوا الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله وما مَنَحهم به من إرسال رسوله، كما قال تعالى: ﴿ودَّ كثير من

أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾ [البقرة:١٠٩] وهكذا قال ههنا ﴿إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ ثم قال تعالى: ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ يعني أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه، فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلاً ونهاراً، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين﴾ [الحديد:٨] والآية بعدها. وكما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوماً: «أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟» قالوا: الملائكة. قال: «وكيف لا يؤمنون وهم عند ربهم» ؟ وذكروا الأنبياء، قال: «وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟» قالوا: فنحن. قال: «وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟» قالوا: فأي الناس أعجب إيماناً ؟ قال: «قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها» [رواه الطبراني].

ثم قال تعالى: ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ أي ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعُدَّة في مباعدة الغَواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد وحصول المراد.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله هو ابن مسعود في قوله: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ قال: أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر، وهذا إسناده صحيح موقوف.

ثم قال ابن أبي حاتم: وروي نحوه عن مرة الهمداني والربيع بن خُثيم وعمرو بن ميمون وإبراهيم النخعي وطاوس والحسن وقتادة وأبي سنان والسدي، نحو ذلك. وروي عن أنس أنه قال: لا يتقي الله العبد حق تقاته حتى يخزن من لسانه. وقد ذهب سعيد بن جبير وأبو العالية، والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم والسدي وغيرهم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [التغابن:١٦]، وقال ابن عباس: لم تُنسخ، ولكن ﴿حق تقاته﴾ أن يجاهدوا في سبيله حق جهاده ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا بالقِسْط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم. وقوله تعالى: ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ أي حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعياذاً با لله من خلاف ذلك.

روى الإمام أحمد عن مجاهد: أن الناس كانوا يطوفون بالبيت وابن عباس جالس معه محجن، فقال: قال رسول الله ﷺ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا

وأنتم مسلمون﴾ ولو أن قطرة من الزقوم قُطِرت في دار الدنيا لأَمَرَّتْ على أهل الأرض عيشتهم، فكيف بمن ليس له طعام إلا الزقوم ؟». وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه من طرق عن شعبة به وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقوله: ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا**﴾ قيل ﴿**بحبل الله**﴾ أي بعهد الله، كما قال في الآية بعدها: ﴿**ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس**﴾ أي بعهد وذمة، وقيل: ﴿**بحبل من الله**﴾ يعني القرآن.

وعن عبد الله بن مسعود قال: إن هذا الصراط محتضر تحضره الشياطين. يا عبد الله بهذا الطريق هلم إلى الطريق، فاعتصموا بحبل الله فإن حبل الله القرآن.

وقوله: ﴿**ولاتفرقوا**﴾ أمَرَهم بالجماعة ونهاهم عن الفرقة، وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق، والأمر بالاجتماع والائتلاف، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

وقد ضُمِنت لهم العِصْمةُ عند اتفاقهم من الخطأ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضاً، وخِيفَ عليهم الافتراق والاختلاف، وقد وقع ذلك في هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية إلى الجنة، وهم الذين على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

وقوله تعالى: ﴿**واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً**﴾ إلى آخر الآية، وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن وإحن، طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام، فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخواناً متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى: ﴿**هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم**﴾ [الأنفال:٦٢] وكانوا على شفا حُفرة من النار بسبب كفرهم، فأبعدهم الله منها: أن هداهم للإيمان، وقد امتن عليهم بذلك رسول الله ﷺ يوم قَسَم غنائم حُنَيْن، فعتَبَ من عتب منهم، لما فَضَّل عليهم في القِسمة بما أراه الله، فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلاَّلاً فهداكم الله بي. وكنتم مُتفرقين فألَّفكم الله بي، وعَالَةً فأغناكم الله بي ؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنّ. [أخرجه البخاري].

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة﴾ منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿وأولئك هم المفلحون﴾، قال الضحاك: هم خاصة الصحابة وخاصة الرواة، يعني المجاهدين والعلماء. والمقصود من هذه الآية، أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» وفي رواية «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، مع الآيات الكريمة، كما سيأتي تفسيرها في أماكنها.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾ ينهى تعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضين في افتراقهم واختلافهم وتركهم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، مع قيام الحجة عليهم.

روى الإمام أحمد عن معاوية بن أبي سفيان قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ـ يعني الأهواء ـ كلها في النار إلا واحدة ـ وهي الجماعة». وهكذا رواه أبو داود وقد روي هذا الحديث من طرق. [وهو صحيح].

وقوله تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ يعني يوم القيامة، حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ﴿فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾ قال الحسن البصري: وهم المنافقون ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ وهذا الوصف يعم كل كافر. ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ يعني الجنة ماكثون فيها أبداً لا يبغون عنها حولاً، وقد روى أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية عن أبي غالب، قال: رأى أبو أمامة رؤوساً منصوبة على درج مسجد دمشق، فقال أبو أمامة، كلاب النار شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتلوه، ثم قرأ: ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ إلى آخر الآية، قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله ﷺ ؟: قال: لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا أو أربعاً ـ حتى عد سبعاً ـ ما حدثتكموه، ثم قال: هذا حديث حسن، وقد رواه ابن ماجه وأخرجه أحمد.

ثم قال تعالى: ﴿تلك آيات الله﴾ أي هذه آيات الله وحُجَجُه وبيناته ﴿نتلوها عليك﴾ يا محمد ﴿بالحق﴾ أي نكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة. ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ أي

ليس بظالم لهم بل هو الحَكَم، العدل الذي لا يجور؛ لأنه القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحداً من خلقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**ولله ما في السموات وما في الأرض**﴾ أي الجميع ملك له وعبيد له ﴿**وإلى الله ترجع الأمور**﴾ أي هو المتصرف في الدنيا والآخرة الحاكم في الدنيا والآخرة.

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم، فقال: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ روى البخاري عن أبي هريرة [في قوله]: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ قال: خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام، وهكذا قال ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس [وغيرهم]: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ يعني خَيْرَ الناس للناس، والمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس؛ ولهذا قال ﴿**تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾. عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ قال: هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة. [رواه أحمد والنسائي والحاكم وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم].

والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة كل قَرْن بحسبه، وخير قرونهم الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً**﴾ أي خياراً ﴿**لتكونوا شهداء على الناس**﴾ الآية.

وفي مسند الإمام أحمد وجامع الترمذي وسنن ابن ماجه ومستدرك الحاكم من رواية معاوية بن حيدة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم تُوفُون سبعين أمة، أنتم خَيرُها، وأنتم أكرمُ على الله عز وجل» وهو حديث مشهور، وقد حسنه الترمذي، ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبي سعيد نحوه، وإنما حازت هذه الأمة قَصَبَ السَّبْق إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ، فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يُعطه نبيٌّ قبله ولا رسولٌ من الرسل، فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليلُ منه ما لا يقوم العملُ الكثيرُ من أعمال غيرهم مقامه، كما روى الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء». فقلنا: يا رسول الله ما هو؟ قال: «نصرت بالرعب، وأعطيت مفاتيح الأرض، وسُمِّيتُ أحمدَ وجُعلَ الترابُ لي طَهُوراً، وجُعِلَت أُمَّتي خَيرَ الأمَمِ» تفرد به أحمد، وإسناده حسن.

وقد وردت أحاديث يناسب ذكرها ههنا، روى الإمام أحمد عن ثوبان أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً لا حسابَ عليهم ولا عذابَ، مع كُلِّ ألف سبعون ألفاً» تفرد به أحمد من هذا الوجه، وإسناده رجاله كلهم ثقات، فهو حديث صحيح، ولله الحمد.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن ابن مسعود، قال: أكثرنا الحديث عند رسول الله ﷺ ذات ليلة ثم غدونا إليه، فقال: «عُرضت علي الأنبياء الليلة بأممها، فجعل النبي يمر ومعه الثلاثة، والنبي ومعه العصابة، والنبي ومعه النفر، والنبي وليس معه أحد، حتى مر علي موسى عليه السلام ومعه كَبْكَبَة من بني إسرائيل، فأعجبوني فقلت: من هؤلاء؟ فقيل: هذا أخوك موسىٰ معه بنو إسرائيل. قال: فقلت: فأين أمتي؟ فقيل: انظر عن يمينك، فنظرت فإذا الظراب قد سد بوجوه الرجال ثم قيل لي: انظر عن يسارك. فنظرت فإذا الأفق قد سد بوجوه الرجال، فقيل لي: قد رضيت؟ فقلت، رضيت يا رب ـ قال ـ فقيل لي: إن مع هؤلاء سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب» فقال النبي ﷺ: «فداكم أبي وأمي إن استطعتم أن تكونوا من السبعين ألفاً فافعلوا، فإن قصرتم فكونوا من أهل الظِّرَاب، فإن قصرتم فكونوا من أهل الأفق، فإني قد رأيت ثم أناسا يتهاوشون» فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، أي من السبعين، فدعا له، فقام رجل آخر فقال: ادع الله يا رسول الله أن يجعلني منهم، فقال: «قد سبقك بها عكاشة» قال: ثم تحدثنا فقلنا: من ترون هؤلاء السبعين الألف؟، قوم ولدوا في الإسلام لم يشركوا بالله شيئاً حتى ماتوا فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون» هكذا رواه أحمد وإسناده صحيح، [وأخرجه البخاري ومسلم نحوه عن ابن عباس].

حديث آخر: وروى أبو القاسم الطبراني عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال: «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً ـ أو سبعمائة ألف ـ آخذ بعضهم ببعض حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة، ووجوههم على صورة القمر ليلة البدر» وأخرجه البخاري ومسلم.

روى أبو القاسم الطبراني عن أبي مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أما والذي نفس محمد بيده ليبعثن منكم يوم القيامة إلى الجنة مثل الليل الأسود زمرة جميعها يَخْبِطون الأرض، تقول الملائكة: لِمَ جاء مع محمد أكثر مما جاء مع الأنبياء؟» وهذا إسناده حسن.

نوع آخر من الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة وشرفها وكرامتها على الله، وأنها خير الأمم في الدنيا والآخرة:

ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود، قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «أما ترضون أن تكونوا رُبع أهل الجنة؟» فكبرنا، ثم قال: «أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟» فكبرنا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، الناسُ لنا فيه تبع، غداً لليهود للنصارى بعد غد» رواه البخاري ومسلم.

فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾ فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح لهم، كما قال قتادة: بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجها، رأى من الناس رعة [أي ما يعيب من قلة الاحتشام]، فقرأ هذه الآية: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ ثم قال: من سَرَّه أن يكون من تلك الأمة، فليؤد شرط الله فيها، رواه ابن جرير.

ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله: ﴿**كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه**﴾ [المائدة:٧٩]، ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات، شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم، فقال: ﴿**ولو آمن أهل الكتاب**﴾ أي بما أنزل على محمد ﷺ ﴿**لكان خيراً لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون**﴾ أي قليل منهم من يؤمن با لله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان.

ثم قال تعالى مخبراً عباده المؤمنين ومبشراً لهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين، فقال: ﴿**لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون**﴾ وهكذا وقع، فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم أنوفهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قَيْنُقَاع وبني النَّضِير وبني قُرَيْظَة كلهم أذلهم الله، وكذلك النصارى بالشام كَسَرهم الصحابة في غير ما موطن، وسلبوهم ملك الشام، ولا تزال عِصَابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك، ويحكم بشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فيَكْسر الصليب ويقتل الخنزير ويَضَع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام.

ثم قال تعالى: ﴿**ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس**﴾ أي ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا فلا يأمنون ﴿**إلا بحبل من الله**﴾ أي بذمة من الله، وهو عَقْد الذمة لهم وضَرْب الجزية عليهم وإلزامهم أحكام الملة ﴿**وحبل من الناس**﴾ أي أمان منهم ولهم، كما في المُهَادَن والمعاهَد والأسير إذا أَمَّنَه واحد من المسلمين، ولو امرأة، وكذا عَبْد على أحد قولي العلماء، قال ابن عباس: ﴿**إلا بحبل من الله وحبل من الناس**﴾ أي بعهد من الله وعهد من الناس وهكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي والربيع بن أنس.

وقوله: ﴿**وباؤوا بغضب من الله**﴾ أي أُلزموا فالتزموا بغضب من الله وهم يستحقونه

﴿وضربت عليهم المسكنة﴾ أي أُلزموها قدراً وشرعاً. ولهذا قال: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾ أي وإنما حملهم على ذلك الكبر والبَغْي والحسد فأعقبهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبداً متصلاً بذلة الآخرة، ثم قال تعالى: ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله، وقُيِّضوا لذلك ـ أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله عز وجل والغشيان لمعاصي الله، والاعتداء في شرع الله، فعياذاً بالله من ذلك، والله المستعان.

﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ قال: لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ، وهكذا قال السدي.

والمشهور عند كثير من المفسرين كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، وروي عن ابن عباس ـ أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأَسَد بن عُبَيْد وثعلبة بن سَعْيَة وأَسِيد بن سَعْيَة وغيرهم، أي لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب، وهؤلاء الذين أسلموا، وهكذا قال تعالى: ﴿ليسوا سواء﴾ أي ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم، ولهذا قال تعالى: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ أي قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه، متبعة نبي الله، فهي ﴿قائمة﴾ يعني مستقيمة ﴿يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ أي يقومون الليل ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله﴾ [آل عمران:١٩٩] وهكذا قال ههنا: ﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾ اي لا يضيع عند الله، بل يجزيكم به أوفر الجزاء ﴿والله عليم بالمتقين﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملاً. ثم قال تعالى مخبراً عن الكفرة المشركين بأنه ﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ أي لا يُرَدّ عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أراده بهم ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار في هذه الدار، قاله مجاهد والحسن والسُّدِّي، فقال تعالى: ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر﴾ أي برد شديد، قاله ابن عباس وعكرمة والحسن وغيرهم. وقال عطاء: برد وجليد، وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد

﴿فيها صر﴾ أي نار وهو يرجع إلى الأول، فإن البرد الشديد ولا سيما الجليد يحرق الزروع والثمار، كما يحرق الشيء بالنار ﴿أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته﴾ أي فأحرقته، يعني بذلك السقعة إذا نزلت على حرث قد آن جداده أو حصاده، فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع، فذهبت به وأفسدته، فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه. فكذلك الكفار يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا وثمرتها، كما أذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه. وكذلك هؤلاء بنوها على غير أصل وعلى غير أساس ﴿وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

يقول تبارك وتعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أي يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم، لا يألون المؤمنين خَبَالاً، أي يَسْعَوْن في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعون من المكر والخديعة، ويودّون ما يُعْنتُ المؤمنين ويحرجهم ويَشُقّ عليهم، وقوله تعالى: ﴿لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾ أي من غيركم من أهل الأديان، وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخلة أمره. وقد روى البخاري عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتَحُضّه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله».

وقيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتباً؟، فقال: قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين. ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذِّمَّة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين وإطِّلاع على دواخل أمورهم التي يُخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتم﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾ أي قد لاح على صَفَحات وجوههم، وفلتات ألسنتهم من العداوة، مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل، ولهذا قال تعالى: ﴿قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾ وقوله تعالى: ﴿هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله﴾ أي أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين مما يظهرونه لكم من الإيمان فتحبونهم على ذلك، وهم لا يحبونكم لا باطناً ولا ظاهراً، ﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾ أي ليس عندكم في شيء

منه شك ولا ريب، وهم عندهم الشك والريب والحيرة. وعن ابن عباس: ﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾ أي بكتابكم وكتابهم وبما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحق بالبغضاء لهم، منهم لكم. ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ والأنامل أطراف الأصابع، قاله قتادة. وقال ابن مسعود والسدي والربيع بن أنس: الأنامل الأصابع، وهذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة، وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه، كما قال تعالى: ﴿وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ وذلك أشد الغيظ والحنق. قال الله تعالى: ﴿قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم، فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين ومُكَملٌ دينه، ومُعلٍ كلمته، فموتوا أنتم بغيظكم ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم وتُكِنُّه سرائركم من البغضاء والحسد والغلّ للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤمّلون، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها. ثم قال تعالى: ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين، وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد، وكثروا وعزّ أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سَنَة أي جدب أو أُديل عليهم الأعداء، لما لله في ذلك من الحكمة ـ كما جرى يوم أُحد ـ فرح المنافقون بذلك، قال الله تعالى مخاطباً عباده المؤمنين: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ الآية، يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به. وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل عليه كفاه.

ثم شرع تعالى في ذكر قصة أحد وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين. والتمييز بين المؤمنين والمنافقين وبيان صبر الصابرين، فقال تعالى:

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

المراد بهذه الوقعة يوم أحد عند الجمهور، قاله ابن عباس والحسن وقتادة والسدي وغير واحد. وكانت وقعة أحد يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة. قال قتادة: لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال. وقال عكرمة: يوم السبت للنصف من شوال، فالله أعلم. وكان سببها أن المشركين حين قُتل من قتل من أشرافهم يوم بدر وسَلمَت العير بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان فلما رجع قَفَلُهم إلى مكة قال أبناء من قتل، ورؤساء من بقي

لأبي سفيان: أرصد هذه الأموال لقتال محمد فأنفقوها في ذلك، فجمعوا الجموع والأحابيش، وأقبلوا في قريب من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريباً من أحد تِلْقاء المدينة، فصلى رسول الله ﷺ الجمعة، واستشار الناس: «أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة»؛ فأشار عبد الله بن أبي بالمقام بالمدينة، فإن أقاموا أقاموا بشرٍّ مَحْبس، وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدراً بالخروج إليهم، فدخل رسول الله ﷺ فلبس لأمَتَه وخرج عليهم، وقد نَدم بعضهم وقالوا: لعلنا استكرَهْنَا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله إن شئت أن نمكث، فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يَرجِع حتى يَحْكُم الله له».

فسار ﷺ في ألف من أصحابه، فلما كان بالشوط، رجع عبد الله بن أبي في ثلث الجيش مُغْضَباً لكونه لم يرجع إلى قوله، وقال هو وأصحابه: لو نعلم اليوم قتالاً لاتبعناكم، ولكنا لا نراكم تقاتلون اليوم. واستمر رسول الله ﷺ سائراً حتى نزل الشِّعْب من أحد في عُدْوَةِ الوادي. وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وقال: «لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال». وتهيأ رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه. وأمَّر على الرماة عبد الله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف. والرماة يومئذ خمسون رجلاً، فقال لهم: «انضحوا الخيل عنا ولا نؤتين من قبلكم والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم». وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين، وأعطى اللواء مُصعب بن عُمَير، وتعبَّأت قريش، ومعهم مائتا فرس قد جَنَبوها، فجعلوا على مَيْمَنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، ودفعوا اللواء إلى بني عبد الدار، ثم كان بين الفريقين ما سيأتي تفصيله في مواضعه عند هذه الآيات، إن شاء الله تعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿**وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال**﴾ أي تبين لهم منازلهم، وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم ﴿**والله سميع عليم**﴾ أي سميع لما تقولون، عليم بضمائركم.

وقوله: ﴿**إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا**﴾ روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال: فينا نزلت: ﴿**إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا**﴾ قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سَلِمَة. وما نحب أنها لم تنزل لقوله الله: ﴿**والله وليهما**﴾. وكذا رواه مسلم. وكذا قال غير واحد من السلف: إنهم بنو حارثة وبنو سلمة.

وقوله تعالى: ﴿**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون**﴾ أي يوم بدر، وكان في يوم جمعة وافق السابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغ فيه الشرك، وخرَّب محِله هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فيهم فَرَسان وسبعون بعيراً، والباقون مشاة ليس معهم من العُدَد جميع ما يحتاجون إليه. وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف

في سوابغ الحديد والبَيض والعدة الكاملة والخيول المسومة والخيلاء، فأعز الله رسوله وأظهر وحيه وتنزيله، وبيض وجه النبي وقبيله، وأخزى الشيطان وخيله، ولهذا قال تعالى ممتناً على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: ﴿**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة**﴾ أي قليل عددكم ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العَدَد والعُدد، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿**ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ـ إلى ـ غفور رحيم**﴾ [التوبة: ٢٥ـ٢٧].

وروى الإمام أحمد عن عياض الأشعري قال: شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء: أبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، وابن حَسَنة، وخالد بن الوليد، وعياض وليس عياض هذا الذي حدث به قال: وقال عمر: إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة، قال فكتبنا إليه إنه قد جاش إلينا الموت، واستمددناه، فكتب إلينا إنه قد جاءني كتابكم تستمدونني، وإني أدلكم على من هو أعز نصراً، وأحصن جنداً: الله عز وجل فاستنصروه، فإن محمداً ﷺ قد نُصر يومَ بدر في أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابي هذا، فقاتلوهم ولا تراجعوني، قال: فقاتلناهم فهزمناهم أربعة فراسخ، قال: وأصبنا أموالاً فتشاورنا، فأشار علينا عياض أن نعطي عن كل ذي رأس عشرة، قال: وقال أبو عبيدة: من يراهنني؟ فقال شاب: أنا إن لم تغضب قال: فسبقه فرأيت عقيصتي أبي عبيدة تَنْقُزَان وهو خلفه على فرس عُرْيٍ، وهذا إسناده صحيح. وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه بنحوه. واختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه. وبدر: مَحَلَّة بين مكة والمدينة تُعرف ببئرها، منسوبة إلى رجل حفرها، يقال له: بدر بن النارين، قال الشعبي: بدر بئر لرجل يسمى بدراً. وقوله: ﴿**فاتقوا الله لعلكم تشكرون**﴾ أي تقومون بطاعته.

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

اختلف المفسرون في هذا الوعد، هل كان يوم بدر أو يوم أحد؟ على قولين: **أحدهما**: أن قوله: ﴿**إذ تقول للمؤمنين**﴾ متعلق بقوله: ﴿**ولقد نصركم الله ببدر**﴾ ورُوي هذا عن الحسن البصري وعامر الشعبي والربيع بن أنس وغيرهم، واختاره ابن جرير. فعن عامر الشعبي: أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كُرز بن جابر يُمد المشركين، فشق ذلك عليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿**ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ـ إلى قوله ـ مسومين**﴾ قال: فبلغت كُرزاً الهزيمة، فلم يمد المشركين، ولم يمد الله المسلمين بالخمسة، وقال الربيع بن أنس: أمد الله المسليمن بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف. فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية على هذا القول، وبين قوله تعالى في قصة بدر: ﴿**إذ تستغيثون ربكم**

فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ـ إلى قوله ـ إن الله عزيز حكيم﴾ ؟ فالجواب أن التنصيص على الألف ـ ههنا ـ لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها، لقوله: ﴿**مردَفين**﴾ بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم. وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران. فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم. وقال قتادة: أمد الله المسلمين يوم بدر بخمسة آلاف.

القول الثاني: أن هذا الوعد مَتَعلق بقوله: ﴿**وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال**﴾ وذلك يوم أُحد وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك والزهري وموسى بن عقبة وغيرهم. لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف لأن المسلمين فروا يومئذ، زاد عكرمة: ولا بالثلاثة الآلاف لقوله تعالى: ﴿**بلى إن تصبروا وتتقوا**﴾ فلم يصبروا بل فروا فلم يمدوا بملك واحد.

وقوله: ﴿**بلى إن تصبروا وتتقوا**﴾ يعني: تصبروا على مُصابرة عدوكم، وتتقوني وتطيعوا أمري. وقوله تعالى: ﴿**ويأتوكم من فورهم هذا**﴾ قال الحسن وقتادة والربيع والسدي: أي من وجههم هذا، وقال مجاهد وعكرمة وأبو صالح: أي من غضبهم هذا. وقال الضحاك: من غضبهم ووجههم. وقال ابن عباس: من سفرهم هذا. وقوله تعالى: ﴿**يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين**﴾ أي معلمين بالسيما، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: كان سيما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض، وكان سيماهم أيضاً في نواصي خيلِهم. وعن أبي هريرة في هذه الآية ﴿**مسومين**﴾ قال: بالعهن الأحمر، وقال مجاهد: ﴿**مسومين**﴾ أي مُحَذَّقة أعرافها، مُعَلَّمة نواصيها بالصوف الأبيض في أذناب الخيل. وقال ابن عباس: أتت الملائكة محمداً ﷺ، مسومين بالصوف، فسَوَّم محمد وأصحابه أنفسهم وخيلهم على سيماهم بالصوف. وقال قتادة وعكرمة: ﴿**مسومين**﴾ أي بسيما القتال، وقال مكحول: مسومين بالعمائم. وعن ابن عباس، قال: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر. وعن ابن عباس [أيضا] قال: كان سيما الملائكة يوم بدر، عَمَائِمَ بيض قد أرسَلُوها في ظهورهم، ويوم حنين عمائمَ حُمْرا. ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عَدَداً ومدداً لا يضربون. وعن يحيى بن عباد أن الزبير رضي الله عنه، كان عليه يوم بدر عمامة صفراء مُعْتَجراً بها، فنزلت الملائكة عليهم عمائم صُفْر.

وقوله تعالى: ﴿**وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به**﴾ أي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارةً لكم وتطييباً لقلوبكم وتطميناً، وإلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: ﴿**ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرَّفها لهم**﴾ [محمد: ٤-٦]

ولهذا قال ههنا ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ أي هو ذو العزة التي لا ترام، والحكمة في قَدره والإحكام. ثم قال تعالى: ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا﴾ أي أمركم بالجهاد والجِلادَ لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين، فقال: ﴿ليقطع طرفاً﴾ أي ليهلك أمة ﴿من الذين كفروا أو يكبتهم﴾ أي يخزيهم ويردهم بغيظهم لَمّا لم ينالوا منكم ما أرادوا. ولهذا قال: ﴿أو يكبتهم فينقلبوا﴾ أي يرجعوا ﴿خائبين﴾ أي لم يحصلوا على ما أملوا.

ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له، فقال تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ أي بل الأمر كله إليّ، كما قال: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [القصص:٥٦]. قال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم.

ثم ذكر تعالى بقية الأقسام، فقال: ﴿أو يتوب عليهم﴾ أي مما هم فيه من الكفر ويهديهم بعد الضلالة ﴿أو يعذبهم﴾ أي في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم، ولهذا قال: ﴿فإنهم ظالمون﴾ أي يستحقون ذلك. وروى البخاري عن ابن عمر، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر: «اللهم العن فلاناً وفلاناً» بعدما يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد» فأنزل الله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾.

وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، كسرت رَبَاعيَتُه يوم أحد، وشُجَّ في جبهته حتى سال الدم على وجهه، فقال: «كيف يُفلح قومٌ فَعَلُوا هذا بنبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل». فأنزل الله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾. [ورواه] مسلم.

ثم قال تعالى: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي الجميع ملك له، وأهلهما عبيد بين يديه ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ أي هو المتصرف فلا مُعقّب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿والله غفور رحيم﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ
لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ
ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ
وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ
وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضعافاً مضاعفة كما كانوا في الجاهلية يقولون: إذا حل أجل الدين، إما أن يَقْضي وإما أن يُرْبي، فإن قضاه وإلا زاده في المدة،

وزاده الآخر في القَدْر، وهكذا كل عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً. وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى والأخرى، ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها، فقال تعالى: ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾.

ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارعة إلى نيل القربات، فقال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾ أي كما أعدت النار للكافرين، وقد قيل إن معنى قوله: ﴿عرضها السموات والأرض﴾ تنبيهاً على اتساع طولها، كما قال في صفة فرش الجنة ﴿بطائنها من إستبرق﴾ [الرحمن: ٥٤] أي فما ظنك بالظهائر؟، وقيل: بل عرضها كطولها لأنها قبة تحت العرش، والشيء المُقَبَّب والمستدير عرضه كطوله، وقد دل على ذلك ما ثبت في صحيح [البخاري]: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وسقفها عرش الرحمن». وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحديد: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾ [الحديد: ٢١].

وقد روينا في مسند الإمام أحمد أن هرقل كتب إلى النبي ﷺ إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال النبي ﷺ: «سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار؟» [قال ابن كثير في تاريخه: وإسناده لا بأس به]. وعن طارق بن شهاب: أن ناساً من اليهود سألوا عمر بن الخطاب عن جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال لهم عمر: أرأيتم إذا جاء الليل أين النهار؟ وإذا جاء النهار أين الليل؟ فقالوا: لقد نزعت مثلها من التوراة. وعن يزيد بن الأصم: أن رجلاً من أهل الكتاب قال: يقولون ﴿جنة عرضها السموات والأرض﴾ فأين النار؟ فقال ابن عباس: أين يكون الليل إذا جاء النهار، وأين يكون النهار إذا جاء الليل؟. وقد روي هذا مرفوعاً، رواه البزار عن أبي هريرة، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت قوله تعالى: ﴿جنة عرضها السموات والأرض﴾ فأين النار؟ قال: «أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شيء، فأين النهار؟» قال: حيث شاء الله، قال: «وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل». [وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح].

وهذا يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون المعنى في ذلك: أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان، وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث يشاء الله عز وجل، وهذا أظهر.

الثاني: أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السموات تحت العرش وعرضها، كما قال الله عز وجل ﴿كعرض السماء والأرض﴾ [الحديد: ٢١] والنار في أسفل سافلين فلا تنافي بين كونها كعرض السموات والأرض وبين وجود النار، والله أعلم.

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾ أي في الشدة والرخاء، والمَنْشَط والمَكْرَه، والصحة والمرض وفي جميع الأحوال، كما قال: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية﴾ [البقرة:٢٧٤]. والمعنى: أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مَرَاضيه. والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر. وقوله تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾ أي إذا ثار بهم الغيظ كظموه، بمعنى كتموه فلم يعملوه، وعفوا مع ذلك عمن أساء إليهم. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». وقد رواه الشيخان.

وروى الإمام أحمد عن جارية بن قدامة السعدي، أنه سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، قل لي قولاً ينفعني وأَقْلِل عليّ لعلي أعيه. فقال رسول الله ﷺ: «لا تغضب» فأعاد عليه حتى أعاد عليه مراراً كل ذلك يقول «لا تغضب». [وصححه ابن حبان]. وروى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع». ورواه أبو داود [وصححه الألباني].

روى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنظر معسراً أو وضع له، وقاه الله من فيح جهنم، ألا إن عمل الجنة حَزْنٌ برَبْوَةٍ ـ ثلاثاً ـ ألا إن عمل النار سهل بشهوة. والسعيد من وقي الفتن، وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ما كظمها عبد لله إلا ملأ جوفه إيماناً». انفرد به أحمد، وإسناده حسن ليس فيه مجروح، ومتنه حسن.

فقوله: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ أي لا يُعملون غضبهم في الناس بل يكفون عنهم شرهم، ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل. ثم قال تعالى: ﴿والعافين عن الناس﴾ أي مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: ﴿والله يحب المحسنين﴾ فهذا من مقامات الإحسان، وفي الحديث «ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله». [رواه مسلم].

وقوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ أي إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن رجلاً أذنب ذنباً فقال: رب إني أذنبت ذنباً فاغفره، فقال الله عز وجل: عبدي عمل ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب إني عملت ذنباً فاغفره، فقال تبارك وتعالى: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب إني عملت ذنباً فاغفره لي، فقال الله عز وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم عمل ذنباً آخر

فقال: رب، إني عملت ذنباً فاغفره، فقال عز وجل: عبدي علم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي فليعمل ماشاء». أخرجاه في الصحيحين بنحوه.

ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة لما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن علي رضي الله عنه، قال: إن أبا بكر رضي الله عنه سمع رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ فيُحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين، فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له». ورواه أهل السنن، وقال الترمذي: هو حديث حسن. ومما يشهد لصحة هذا الحديث ما رواه مسلم في صحيحه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيُبْلغَ ـ أو فيُسبغ ـ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء». وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه توضأ لهم وضوء النبي ﷺ، ثم قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه». فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، عن سيد الأولين والآخرين، ورسول رب العالمين، كما دل عليه الكتاب المبين، من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين.

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «قال إبليس: يا رب وعزتك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله: وعزتي وجلالي ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني». [قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح].

وقوله: ﴿**ومن يغفر الذنوب إلا الله**﴾ أي لا يغفرها أحد سواه. وقوله: ﴿**ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون**﴾ أي تابوا من ذنوبهم، ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا عنه، كما روى الحافظ أبو يعلى الموصلي رحمه الله في مسنده عن أبي بكر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة». ورواه أبو داود والترمذي والبزار في مسنده. وهو حديث حسن، والله أعلم.

وقوله: ﴿**وهم يعلمون**﴾ قال مجاهد وعبد الله بن عبيد بن عمير: ﴿**وهم يعلمون**﴾ أن من تاب تاب الله عليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿**ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده**﴾ [التوبة: ١٠٤]، وكقوله: ﴿**ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً**﴾ [النساء: ١١٠] ونظائر هذا كثيرة جداً. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال وهو على المنبر: «ارحموا تُرْحموا، واغفروا يُغفر لكم، ويلٌ لأقْمَاع القَوْل، ويلٌ للمُصِرِّين الذين يُصرونَ على ما فَعَلوا وهم يعلمون» [وقال المنذري بإسناد جيد]. ثم قال تعالى بعد وصفهم بما وصفهم به: ﴿**أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات**﴾ أي جزاؤهم

على هذه الصفات ﴿مغفرة من الله وجنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي من أنواع المشروبات ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها ﴿ونعم أجر العاملين﴾ يمدح تعالى الجنة.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مخاطباً عباده المؤمنين الذين أصيبوا يوم أُحد وقُتل منهم سبعون: ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ أي قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم، والدائرة على الكافرين، ولهذا قال تعالى: ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ ثم قال تعالى: ﴿هذا بيان للناس﴾ يعني القرآن فيه بيان للأمور على جليتها وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم ﴿وهدى وموعظة﴾ يعني القرآن فيه خبر ما قبلكم. و ﴿هدى﴾ لقلوبكم، و ﴿موعظة للمتقين﴾أي زاجر عن المحارم والمآثم. ثم قال تعالى مسلياً للمؤمنين: ﴿ولا تهنوا﴾ أي لا تضعفوا بسبب ما جرى ﴿ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ أي العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون. ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ أي إن كنتم قد أصابتكم جراح وقتل منكم طائفة، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ أي نُديل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت لكم العاقبة لما لنا في ذلك من الحكمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ قال ابن عباس: في مثل هذا لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ يعني يُقتلون في سبيله، ويبذلون مُهَجهم في مرضاته. ﴿والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا﴾ أي يكفر عنهم من ذنوبهم، إن كان لهم ذنوب. وإلا رُفِع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به. وقوله: ﴿ويمحق الكافرين﴾ أي فإنهم إذا ظفروا بَغَوا وبطروا فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم.

ثم قال: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ أي أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾ [البقرة: ٢١٤]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ أي لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تُبْتَلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله والصابرين على مقاومة الأعداء. وقوله: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ أي قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم، تتمنون لقاء العدو

وتتحرّقون عليهم وتودون مناجزتهم ومصابرتهم، فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه، فدونكم فقاتلوا وصابروا، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَمَنَّوْا لقاءَ العَدُو، وسَلُوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظِلال السيوف». ولهذا قال تعالى: ﴿فقد رأيتموه﴾ يعني الموت شاهدتموه في وقت لمعان السيوف وحدّ الأسِنّة واشتباك الرماح وصفوف الرجال للقتال.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقُتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل، ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمداً، وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ فشجه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قُتل، وجَوّزوا عليه ذلك، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام، فحصل وهن وضعف وتأخر عن القتال، ففي ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾** أي له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه.

ثم قال تعالى منكراً على من حصل له ضعف: **﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾** أي رجعتم القهقرى **﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾** أي الذين قاموا بطاعته وقاتلوا عن دينه، واتبعوا رسوله حياً وميتاً. وكذلك ثبت في الصحاح والمسانِد والسنن وغيرها من كتب الإسلام من طرق متعددة تفيد القطع، أن الصديق رضي الله عنه، تلا هذه الآية لما مات رسول الله ﷺ. فروى البخاري عن ابن شهاب قال، أخبرني أبو سلمة أن عائشة رضي الله عنها، أخبرته أن أبا بكر رضي الله عنه، أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنْح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يُكلم الناس حتى دخل على عائشة، فتيمّم رَسُول الله ﷺ وهو مُغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقَبّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتّها. وقال الزهري: حدثني أبو سلمة عن ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يُحَدِّث الناس فقال: اجلس يا عمر فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله تعالى: **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ـ إلى قوله ـ وسيجزي الله الشاكرين﴾** قال: فو الله لكأن الناس

لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم فما سمعها بشر من الناس إلا تلاها، وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فَعَقِرتُ حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هَوَيتُ إلى الأرض.

وقوله: ﴿**وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً**﴾ أي لا يموت أحد إلا بقدر الله وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له، ولهذا قال: ﴿**كتاباً مؤجلاً**﴾ كقوله ﴿**وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب**﴾ [فاطر:١١]. وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه.

وقوله: ﴿**ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها**﴾ أي من كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قَدّره الله له، ولم يكن له في الآخرة نصيب، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له في الدنيا، كما قال: ﴿**من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب**﴾ [الشورى:٢٠]، وهكذا قال هاهنا: ﴿**وسنجزي الشاكرين**﴾ أي سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم، ثم قال تعالى مسلياً للمؤمنين عما كان وقع في نفوسهم يوم أحد ﴿**وكأين من نبيّ قاتل معه ربيون كثير**﴾ عن ابن مسعود قال: ﴿**ربيون كثير**﴾ أي ألوف، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة [وغيرهم]: الربيون الجموع الكثيرة، وعن الحسن: ﴿**ربيون كثير**﴾ أي علماء كثير، وعنه أيضاً: علماء صُبُر أبرار أتقياء، وقال ابن زيد: الربيون: الأتباع والرعية، والربانيون: الولاة.

﴿**فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا**﴾ قال قتادة والربيع بن أنس: ﴿**وما ضعفوا**﴾ بقتل نبيهم ﴿**وما استكانوا**﴾ يقول: فما ارتدوا عن نصرتهم ولا عن دينهم أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله، وقال ابن عباس: ﴿**وما استكانوا**﴾ تَخَشَّعوا، وقال السدي وابن زيد: وما ذلوا لعدوهم، وقال محمد بن إسحاق والسدي وقتادة: أي ما أصابهم ذلك حين قتل نبيهم ﴿**والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين**﴾ أي لم يكن لهم هِجّيرى إلا ذلك ﴿**فآتاهم الله ثواب الدنيا**﴾ أي النصر والظفر والعاقبة ﴿**وحسن ثواب الآخرة**﴾ أي جمع لهم ذلك مع هذا ﴿**والله يحب المحسنين**﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا

عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين، فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿**إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين**﴾ ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكل عليه، فقال: ﴿**بل الله مولاكم وهو خير الناصرين**﴾ ثم بشرهم بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم بسبب كفرهم وشركهم، مع ما ادخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والنكال، فقال: ﴿**سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين**﴾. وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة».

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب**﴾ قال: قذف الله في قلب أبي سفيان الرعب فرجع إلى مكة، فقال النبي ﷺ: «إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً، وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب». وقوله: ﴿**ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه**﴾ قال ابن عباس: وعدهم الله النصر، وقد يستدل بهذه الآية على أحد القولين المتقدمين في قوله تعالى: ﴿**إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين**﴾ أن ذلك كان يوم أحد، لأن عدوهم كان ثلاثة آلاف مقاتل، فلما واجهوهم كان الظفر والنصر أول النهار للإسلام، فلما حصل ما حصل من عصيان الرماة وفشل بعض المقاتلة، تأخر الوعد الذي كان مشروطاً بالثبات والطاعة، ولهذا قال ﴿**ولقد صدقكم الله وعده**﴾ أي أول النهار ﴿**إذ تحسونهم**﴾ أي تقتلونهم ﴿**بإذنه**﴾ أي بتسليطه إياكم عليهم ﴿**حتى إذا فشلتم**﴾ قال ابن عباس: الفشل الجبن ﴿**وتنازعتم في الأمر وعصيتم**﴾ كما وقع للرماة ﴿**من بعد ما أراكم ما تحبون**﴾ وهو الظفر منهم ﴿**منكم من يريد الدنيا**﴾ وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة ﴿**ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم**﴾ ثم أدالهم عليكم ليختبركم ويمتحنكم ﴿**ولقد عفا عنكم**﴾ أي غفر لكم ذلك الصنيع، وذلك، والله أعلم، لكثرة عدد العدو وعُدَدهم وقلة عدد المسلمين وعددهم، قال ابن جريج: قوله ﴿**ولقد عفا عنكم**﴾ قال: لم يستأصلكم، وكذا قال محمد بن إسحاق ﴿**والله ذو فضل على المؤمنين**﴾.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال: ما نصر الله النبي ﷺ في موطن كما نصره

يوم أحد، قال: فأنكرنا ذلك، فقال ابن عباس: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله، إن الله يقول في يوم أحد: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه﴾ يقول ابن عباس والحَسُّ: القتل ﴿حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعدما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ الآية، وإنما عنى بهذا الرماة، وذلك أن النبي ﷺ أقامهم في موضع ثم قال: «احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا» فلما غنم النبي ﷺ، وأباحوا عسكر المشركين، أكب الرماة جميعاً دخلوا في العسكر ينهبون، ولقد التقت صفوف أصحاب رسول الله ﷺ فهم هكذا ـ وشبك بين يديه ـ وانتشبوا، فلما أخل الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله ﷺ، فضرب بعضهم بعضاً، والتبسوا وقُتل من المسلمين، ناس كثير، وقد كان لرسول الله ﷺ وأصحابه أول النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة، وجال المسلمون جولة نحو الجبل، ولم يبلغوا حيث يقول الناس الغار، إنما كانوا تحت المهراس، وصاح الشيطان: قتل محمد، فلم يُشَك فيه أنه حق، فلا زلنا كذلك ما نشك أنه حق حتى طلع رسول الله ﷺ بين السعدين نعرفه بتكفئه إذا مشى، قال: ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا، قال: فَرَقى نحونا وهو يقول: «اشتد غضب الله على قوم دَمَّوْا وجه رسول الله» ويقول مرة أخرى: «اللهم إنه ليس لهم أن يعلونا» حتى انتهى إلينا. وهذا حديث غريب وسياق عجيب، وهو من مرسلات ابن عباس، فإنه لم يشهد أحداً ولا أبوه، وقد أخرجه الحاكم في مستدركه ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها عن ابن مسعود والبراء والزبير بن العوام.

وعن عبد الله بن مسعود: ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ وكذا روي عن عبد الرحمن بن عوف وأبي طلحة.

وقوله تعالى: ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ روى البخاري عن أنس بن مالك أن عمه يعني أنس بن النضر، غاب عن بدر فقال: غبت عن أول قتال النبي ﷺ لئن أشهدني الله مع رسول الله ليرين الله ما أُجدّ، فلقي يوم أحد فهُزم الناس، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ، فقال: أين يا سعد إني أجد ريح الجنة دون أحد، فمضى فقتل، فما عرف حتى عرفته أخته ببنانه بشامة، وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم، هذا لفظ البخاري، وأخرجه مسلم بنحوه.

وقوله: ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد﴾ أي صرفكم عنهم إذ تصعدون أي في الجبل هاربين من أعدائكم. ﴿ولا تلوون على أحد﴾ أي وأنتم لا تلوون على أحد من الدَّهَش والخوف والرعب ﴿والرسول يدعوكم في أخراكم﴾ أي وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى

ترك الفرار من الأعداء، وإلى الرجعة والعودة. قال السدي: لما شدَّ المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم [فوق] الجبل [إلى] الصخرة فقاموا عليها. فجعل الرسول ﷺ يدعو الناس: «إليّ عباد الله، إليّ عباد الله» فذكر الله صعودهم إلى الجبل، ثم ذكر دعاء النبي ﷺ إياهم، فقال ﴿**إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم**﴾ وكذا قال ابن عباس وقتادة والربيع وابن زيد.

وقد كان النبي ﷺ قد أُفرِدَ في اثني عشر رجلاً من أصحابه كما روى الإمام أحمد عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أحد ـ وكانوا خمسين رجلاً ـ عبد الله بن جبير قال: ووضعهم موضعاً، وقال «إن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم وإن رأيتمونا ظهرنا على العدو وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم، قال فهزموهم قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن على الجبل وقد بدت أسؤقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن، فقال: أصحاب عبد الله الغنيمة، أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون ؟ قال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قاله لكم رسول الله ﷺ ؟ فقالوا: إنا والله لنأتين الناس، فلنصيبن من الغنيمة. فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين، فذلك الذي يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع رسول الله إلا اثنا عشر رجلاً، فأصابوا منا سبعين، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر مائة وأربعين، سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً. قال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ أفي القوم محمد ؟ ـ ثلاثاً ـ قال. فنهاهم رسول الله ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ أفي القوم ابن الخطاب ؟ أفي القوم ابن الخطاب ؟ ثم أقبل على أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم، فما ملك عمر نفسه أن قال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوؤك، فقال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال. وإنكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها، ولم تسؤني. ثم أخذ يرتجز يقول: اعل هبل اعل هبل، فقال رسول الله ﷺ «ألا تجيبوه ؟» قالوا: يا رسول الله، وما نقول ؟ قال «قولوا الله أعلى وأجل» قال: لنا العزى ولا عزى لكم. قال رسول الله ﷺ «ألا تجيبوه ؟» قالوا: يا رسول الله، ما نقول ؟ قال «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم». وقد رواه البخاري بأبسط من هذا، والله أعلم.

وفي الصحيحين عن أبي عثمان النهدي، قال: لم يبق مع رسول الله ﷺ، في بعض الأيام التي قاتل فيهن رسول الله ﷺ، غير طلحة بن عبيد الله وسعد عن حديثهما. وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش فلما رهقوه قال: «من يردهم عنا وله الجنة ـ أو ـ وهو رفيقي بالجنة؟» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ثم رهقوه أيضاً فقال: من يردهم عنا وله الجنة؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ثم رهقوه أيضا فقال: من يردهم عنا وله الجنة فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل فلم يزل كذلك

حتى قتل السبعة فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه ما أنصفنا أصحابنا». ورواه مسلم به نحوه. وعن سعد بن أبي وقاص يقول: نَثَل لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد وقال: «ارم فداك أبي وأمي». وأخرجه البخاري.

وثبت في الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص قال: رأيت يوم أحد عن يمين النبي ﷺ، وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشد القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام. وعن عروة بن الزبير، قال: كان أبي بن خلف أخو بني جمح قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله ﷺ، فلما بلغت رسول الله حلفته، قال: «بل أنا أقتله إنْ شاء الله» فلما كان يوم أحد، أقبل أبي في الحديد مقنعاً وهو يقول: لا نجوت إن نجا محمد، فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله، فاستقبله مُصَعب بن عمير، أخو بني عبد الدار، يقي رسول الله ﷺ بنفسه، فقتل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله ﷺ تَرْقُوَة أبي بن خلف، من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة وطعنه فيها بحربته، فوقع إلى الأرض عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أجزعك إنما هو خدش ؟ فذكر لهم قول رسول الله ﷺ: «أنا أقتل أبياً» ثم قال: والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي، بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعين، فمات إلى النار فسحقاً لأصحاب السعير.

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتد غضبُ الله على قوم فعلوا برسول الله ﷺ ـ وهو حينئذ يشير إلى رباعيته ـ اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله». وقال محمد بن إسحاق بن يسار: أصيبت رَبَاعِية رسول الله ﷺ، وشج في وجنته، وكُلِمَت شَفَته، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص.

وقد ثبت في الصحيحين عن سهل بن سعد، أنه سئل عن جُرْح رسول الله ﷺ فقال: جُرح وجه رسول الله ﷺ وكُسِرت رَبَاعيته وهُشِمت البَيْضة على رأسه ﷺ، فكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم وكان علي يسكب عليه الماء بالمِجَنّ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقته حتى إذا صارت رماداً ألصقته بالجُرْح فاستمسك الدم، وقوله: ﴿**فأثابكم غماً بغم**﴾ أي فجزاكم غماً على غم، كما تقول العرب: نزلت ببني فلان، ونزلت على بني فلان. وقال ابن جرير: وكذا قوله: ﴿**ولأصلبنكم في جذوع النخل**﴾ [طه: ٧١] أي على جذوع النخل، قال ابن عباس: الغم الأول بسبب الهزيمة، وحين قيل قتل محمد ﷺ، والثاني حين علاهم المشركون فوق الجبل، وقال النبي ﷺ: «اللهم ليس لهم أن يَعْلُونا» وعن عبد الرحمن بن عوف: الغم الأول بسبب الهزيمة، والثاني حين قيل قتل محمد ﷺ كان ذلك عندهم أشد من الهزيمة، وروي عن عمر بن الخطاب، وعن قتادة نحو ذلك أيضاً. وقال السدي: الغم الأول بسبب ما فاتهم من الغنيمة والفتح، والثاني بإشراف العدو عليهم، وقال محمد بن إسحاق ﴿**فأثابكم غماً بغم**﴾ أي كرباً بعد كرب، قَتْل مَنْ قُتل

من إخوانكم، وعُلو عدوكم عليكم، وما وقع في أنفسكم من قول من قال: قُتل نبيكم، فكان ذلك متتابعاً عليكم غماً بغم، وقال مجاهد وقتادة: الغم الأول سماعهم قتل محمد، والثاني ما أصابهم من القتل والجراح، وعن قتادة والربيع بن أنس عكسه.

قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: ﴿**فأثابكم غماً بغم**﴾ فأثابكم بغمكم أيها المؤمنون بحرمان الله إياكم غنيمة المشركين والظفر بهم والنصر عليهم، وما أصابكم من القتل والجراح، يومئذ بعد الذي كان قد أراكم في كل ذلك ما تحبون بمعصيتكم أمر ربكم، وخلافكم أمر نبيكم ﷺ غم ظنكم أن نبيكم قد قتل وميل العدو عليكم بعد فلولكم منهم. وقوله تعالى: ﴿**لكيلا تحزنوا على ما فاتكم**﴾ أي على ما فاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم ﴿**ولا ما أصابكم**﴾ من القتل والجراح، قاله ابن عباس وعبد الرحمن بن عوف والحسن وقتادة والسدي، ﴿**والله خبير بما تعملون**﴾.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾.

يقول تعالى مُمْتناً على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأَمَنَة، وهو النعاس الذي غشيهم وهم مُسْتَلْئمو السلاح في حال همِّهم وغمهم، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان، كما قال تعالى في سورة الأنفال في قصة بدر: ﴿**إذ يغشيكم النعاس أمنة منه**﴾ [الأنفال: ١١]. وعن عبد الله بن مسعود، قال: النعاس في القتال من الله وفي الصلاة من الشيطان. وروى البخاري عن أبي طلحة، قال: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه. ورواه البيهقي عن قتادة عن أنس بن مالك أن أبا طلحة قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه، قال: والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم أجبن قوم وأرعنه وأخذَله للحق ﴿**يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية**﴾ كَذَبة، أهل شك وريب في الله عز وجل. هكذا رواه بهذه الزيادة، وكأنها من كلام قتادة رحمه الله وهو كما قال، فإن الله عز وجل يقول: ﴿**ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم**﴾ يعني أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق وهم الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله ويُنْجز له مأموله، ولهذا قال: ﴿**وطائفة قد أهمتهم أنفسهم**﴾ يعني لايغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿**يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية**﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿**بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً**﴾ [الفتح: ١٢] إلى آخر الآية، وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا

تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة.

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم ﴿**يقولون**﴾ في تلك الحال: ﴿**هل لنا من الأمر من شيء**﴾ فقال الله تعالى: ﴿**قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك**﴾ ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله ﴿**يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا**﴾ أي يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ. عن عبد الله بن الزبير، قال: قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره، قال: فو الله إني لأسمع قول مُعَتَّب بن قُشَير ما أسمعه إلا كالحلم يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله: ﴿**لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا**﴾ لقول معتب.

قال الله تعالى: ﴿**قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم**﴾ أي هذا قدر مقدر من الله عز وجل وحكم حتم لازم لا محيد عنه ولا مناص منه، وقوله تعالى: ﴿**وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم**﴾ أي يختبركم بما جرى عليكم ليميز الخبيث من الطيب ويظهر أمر المؤمن والمنافق للناس في الأقوال والأفعال ﴿**والله عليم بذات الصدور**﴾ أي بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر. ثم قال: ﴿**إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا**﴾ أي ببعض ذنوبهم السابقة كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها. ثم قال تعالى ﴿**ولقد عفا الله عنهم**﴾ أي عما كان منهم من الفرار ﴿**إن الله غفور حليم**﴾ أي يغفر الذنب ويحلم عن خلقه ويتجاوز عنهم.

روى الإمام أحمد عن شقيق، قال: لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة فقال له الوليد: ما لي أراك جفوت أمير المؤمنين عثمان فقال له عبد الرحمن: أبلغه أني لم أفر يوم حنين، قال عاصم: يقول يوم أحد: ولم أتخلف عن بدر ولم أترك سنة عمر، قال: فانطلق فأخبر بذلك عثمان، قال: فقال عثمان: أما قوله إني لم أفر يوم حنين، فكيف يعيرني بذنب قد عفا الله عنه فقال: ﴿**إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم**﴾ وأما قوله إني تخلفت يوم بدر، فإني كنت أمرض رقية بنت رسول الله ﷺ حتى ماتت وقد ضرب لي رسول الله ﷺ بسهم، ومن ضرب له رسول الله ﷺ بسهم فقد شهد، وأما قوله إني تركت سنة عمر فإني لا أطيقها ولا هو، فأته فحدثه بذلك.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد، الدال عليه قولهم

عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار وفي الحروب، لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم﴾ أي عن إخوانهم ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾ أي سافروا للتجارة ونحوها ﴿أو كانوا غزى﴾ أي في الغزو ﴿لو كانوا عندنا﴾ أي في البلد ﴿ما ماتوا وما قتلوا﴾ أي ما ماتوا في السفر، ولا قتلوا في الغزو. وقوله: ﴿ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم﴾ أي خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتاهم وقتلاهم، ثم قال تعالى رداً عليهم: ﴿والله يحيي ويميت﴾ أي بيده الخلق وإليه يرجع الأمر، ولا يحيا أحد ولا يموت أحد إلا بمشيئته وقدره، ولا يُزَاد في عمر أحد ولا يُنْقَص منه إلا بقضائه وقدره ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي وعلمه وبصره نافذ في جميع خلقه، لا يخفى عليه من أمورهم شيء. وقوله تعالى: ﴿ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾ تضمن هذا أن القتل في سبيل الله والموت أيضاً، وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجَمْع حطامها الفاني. ثم أخبر تعالى بأن كل من مات أو قتل فمصيره ومرجعه إلى الله عز وجل، فيجزيه بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فقال: ﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

يقول تعالى مخاطباً رسوله، ممتناً عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته المتبعين لأمره، التاركين لزجره، وأطاب لهم لفظه: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ أي: أي شيء جعلك لهم ليناً، لولا رحمة الله بك وبهم، قال قتادة: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ يقول فبرحمة من الله لنت لهم، و«ما» صلة، والغربُ تصلها بالمعرفة كقوله: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ [النساء: ١٥٥، المائدة: ١٣]، وبالنكرة كقوله: ﴿عما قليل﴾ [المؤمنون: ٤٠] وهكذا هنا قال: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ أي برحمة من الله. وقال الحسن البصري هذا خُلُقُ محمد ﷺ بعثه الله به، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ [التوبة: ١٢٨].

ثم قال تعالى: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك﴾ والفظ الغليظ، والمراد به هنا غليظ الكلام لقوله بعد ذلك: ﴿غليظ القلب﴾ أي لو كنت سيء الكلام، قاسي القلب عليهم

لا نفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم، كما قال عبد الله بن عمرو: «إنه رأى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة أنه ليس بفظٍّ، ولا غليظ، ولا سَخّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح» [أخرجه البخاري]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر**﴾ ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حَدَث، تطييباً لقلوبهم؛ ليكونوا فيما يفعلونه أنشط لهم، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير، فقالوا: يا رسول الله، لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى بَرْك الغَمَاد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب، فنحن معك، وبين يديك، وعن يمينك، وعن شمالك مقاتلون. وشاورهم أيضاً أين يكون المنزل؟، حتى أشار المنذر بن عمرو، بالتقدم إلى أمام القوم. وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم. وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ، فأبى عليه ذلك السعدان سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فترك ذلك. وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين. فقال له الصديق: إنا لم نجيء لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال، وقال ﷺ في قصة الإفك «أشيروا عليّ معشر المسلمين في قوم أبَنُوا أهلي ورَمُوهُم، وايمُ الله ما علمت على أهلي من سوء، وأبَنُوهم بمن ـ والله ـ ما علمت عليه إلا خيراً». واستشار علياً وأسامة في فراق عائشة رضي الله عنها. فكان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها وقد اختلف الفقهاء هل كان ذلك واجباً عليه أو من باب الندب تطييباً لقلوبهم؟ على قولين.

وقد روى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس في قوله: ﴿**وشاورهم في الأمر**﴾ قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وروى ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «المستشار مُؤتَمن». ورواه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي.

وقوله: ﴿**فإذا عزمت فتوكل على الله**﴾ أي إذا شاورتهم في الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه ﴿**إن الله يحب المتوكلين**﴾. وقوله: ﴿**إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ وهذا كما تقدم من قوله: ﴿**وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم**﴾ [آل عمران:١٢٦] ثم أمرهم بالتوكل عليه، فقال ﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾. وقوله: ﴿**وما كان لنبي أن يغل**﴾، قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد: ما ينبغي لنبي أن يخون. عن ابن عباس قال: نزلت في قطيفة حمراء فُقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعل رسول الله أخذها، فأكثروا في ذلك، فأنزل الله ﴿**وما كان لنبي أن يغلّ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة**﴾ وكذا رواه أبو داود والترمذي،

وقال: حسن غريب. وهذه تبرئة له صلوات الله وسلامه عليه عن جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك. وعن ابن عباس: ﴿**وما كان لنبي أن يغل**﴾ أي بأن يقسم لبعض السرايا ويترك بعضاً. وكذا قال الضحاك. وقال محمد بن إسحاق ﴿**وما كان لنبي أن يغل**﴾ بأن يترك بعض ما أنزل إليه فلا يبلغه أمته. وقرأ الحسن البصري وطاوس ومجاهد والضحاك ﴿**وما كان لنبي أن يغل**﴾ بضم الياء أي يخان. وقال قتادة والربيع بن أنس: نزلت هذه الآية يوم بدر، وقد غَلّ بعض أصحابه. رواه ابن جرير عنهما، ثم حكى عن بعضهم أنه فسر هذه القراءة بمعنى يُتَّهم بالخيانة. ثم قال تعالى: ﴿**ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون**﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، وقد وردت السنة بالنهي عن ذلك أيضاً في أحاديث متعددة.

روى الإمام أحمد عن أبي مالك الأشجعي، عن النبي ﷺ قال: «أعظم الغلول عند الله ذِراعٌ من الأرض، تجدون الرجلين جارين في الأرض ـ أو في الدار ـ فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعاً، فإذا اقتطعه طُوِّقَهُ من سبع أرضين إلى يوم القيامة» [وحسن إسناده الهيثمي].

روى الإمام أحمد عن أبي حميد الساعدي: قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي. فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال «ما بال العامل نبعثه فيجيُ فيقول: هذا لكم وهذا أُهْدي لي: أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا ؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحد منكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته، إن كان بعيراً له رُغَاءٌ، أو بقرة لها خُوَارٌ، أو شاة تَيْعَرُ» ثم رفع يديه حتى رأينا عُفْرَةَ إبْطَيْه: ثم قال «اللهم هل بلغت» ثلاثاً. [أخرجه البخاري ومسلم].

روى الإمام أحمد عن عدي بن عميرة الكندي قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس من عمل لنا منكم عملاً فكتمنا منه مِخْيَطاً فما فوقه، فهو غُلٌّ يأتي به يوم القيامة» قال: فقام رجل من الأنصار أسود فقال: يا رسول الله، اقبل عني عملك. قال: «وما ذاك ؟» قال: سمعتك تقول: كذا وكذا، قال: «وأنا أقول ذاك الآن، من استعملناه على عمل فليجيء بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذه، وما نهي عنه انتهى» وكذا رواه مسلم.

روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من وجدتم في متاعه غُلُولاً فأحرقوه» قال: وأحسبه قال: واضربوه». ورواه أبو داود والترمذي عن أبي واقد الليثي الصغير. وقد قال علي بن المديني والبخاري وغيرهما: هذا حديث منكر من رواية أبي واقد هذا، وقال الدارقطني: الصحيح أنه من فتوى سالم فقط، وقد ذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ومن تابعه من أصحابه، وخالفه أبو حنيفة ومالك والشافعي والجمهور فقالوا: لا يحرق متاع الغال بل يعزر تعزير مثله، وقال البخاري: وقد امتنع رسول الله ﷺ من الصلاة على الغال، ولم يحرق متاعه، والله أعلم.

وقوله: ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ أي لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه، وأجير من وبيل عقابه، ومن استحق غضب الله وألزم به فلا محيد له عنه، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير، وهذه لها نظائر كثيرة في القرآن، كقوله تعالى: ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ [القصص: ٦١].

ثم قال: ﴿هم درجات عند الله﴾ قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق: يعني أهل الخير وأهل الشر درجات، وقال أبو عبيدة والكسائي: منازل، يعني متفاوتون في منازلهم ودرجاتهم في الجنة ودركاتهم في النار، كقوله تعالى: ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ [الأنعام: ١٣٢]؛ ولهذا قال: ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أي وسَيُوفيهم إياها، لا يظلمهم خيراً ولا يزيدهم شراً، بل يجازي كلا بعمله. وقوله: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾ أي من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به، كما قال تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها﴾ [الروم: ٢١] أي من جنسكم. وقال تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه، ولهذا قال: ﴿يتلو عليهم آياته﴾ يعني القرآن ﴿ويزكيهم﴾ أي يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم وتطهر من الدَّنَس والخَبَث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم، ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ يعني القرآن والسنة، ﴿وإن كانوا من قبل﴾ أي من قبل هذا الرسول ﴿لفي ضلال مبين﴾ أي لفي غَيّ وجهل ظاهر جليّ بيّن لكل أحد.

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥
وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ
ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي
قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨ ﴾.

يقول تعالى: ﴿أولمّا أصابتكم مصيبة﴾ وهي ما أصيب منهم يوم أحد من قتل السبعين منهم ﴿قد أصبتم مثليها﴾ يعني يوم بدر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلاً، وأسروا سبعين أسيراً ﴿قلتم أنى هذا﴾ أي من أين جرى علينا هذا ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾.

عن علي رضي الله عنه، قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين: إما أن يُقدموا فتضرب أعناقهم، وبين أن يأخذوا الفداء على أن يُقتل منهم عدّتهم، قال: فدعا رسول الله ﷺ الناس، فذكر ذلك لهم فقالوا: يا رسول الله، عشائرنا وإخواننا ألا نأخذ فداءهم فنتقوى به على

قتال عدونا، ويستشهد منا عدّتهم، فليس في ذلك ما نكره ؟ قال: فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلاً، عدة أسارى أهل بدر». رواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي: حسن غريب. وقال محمد بن إسحاق وابن جريج والربيع بن أنس والسدي: ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ أي بسبب عصيانكم رسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم، يعني بذلك الرماة ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه.

ثم قال تعالى: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله﴾ أي فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين، كان بقضاء الله وقدره، وله الحكمة في ذلك ﴿وليعلم المؤمنين﴾ أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لا تبعناكم﴾ يعني بذلك أصحاب عبد الله بن أبي ابن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق، فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإياب والقتال والمساعدة، ولهذا قال ﴿أو ادفعوا﴾ قال ابن عباس وعكرمة لاوسعيد بن جبير والضحاك وأبو صالح والحسن والسدي: يعني كثروا سواد المسلمين، وقال الحسن بن صالح: ادفعوا بالدعاء، وقال غيره: رابطوا، فتعللوا قائلين ﴿لو نعلم قتالاً لا تبعناكم﴾ قال مجاهد: يعنون لو نعلم أنكم تلقون حرباً لجئناكم، ولكن لا تلقون قتالاً.

قال الله تعالى: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال، فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان، لقوله: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾. ثم قال: ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ يعني أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته، ومنه قولهم هذا: ﴿لو نعلم قتالاً لا تبعناكم﴾ فإنهم يتحققون أن جنداً من المشركين قد جاؤوا من بلاد بعيدة يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سراتهم يوم بدر. وهم أضعاف المسلمين أنه كائن بينهم قتال لا محالة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾ ثم قال: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾ أي لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل. قال الله تعالى: ﴿قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ أي إن كان القعود يَسْلَم به الشخص من القتل والموت، فينبغي أنكم لا تموتون، والموت لا بد آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين. قال مجاهد عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي ابن سلول.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ

وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار، فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار.

روى مسلم في صحيحه عن مسروق، قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾** فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أرواحهم في جوف طير خُضْر، لها قَناديل مُعَلَّقةٌ بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطَّلع إليهم ربهم اطِّلاَعَة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة، تركوا». وقد روي نحوه من حديث أنس وأبي سعيد.

وقد ثبت في الصحيحين عن جابر قال: لما قتل أبي جعلتُ أبكي وأكشف الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينْهَوني، والنبي ﷺ لم ينه، وقال النبي ﷺ: «لا تبكه ـ أو ما تبكيه ـ ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رُفِعَ».

وروى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس، قال: نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾**. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وكذا قال قتادة والربيع والضحاك: أنها نزلت في قتلى أحد.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بَارِقِ نهر بباب الجنة، في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا». تفرد به أحمد. وقد رواه ابن جرير وإسناده جيد.

وكأن الشهداء أقسام: منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر، فيجتمعون هنالك، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح، والله أعلم.

وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها، وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعده الله لها من الكرامة، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة، فإن الإمام أحمد رحمه الله، رواه عن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله، عن مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله، عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «نَسَمةُ المؤمن طَائِرٌ يَعْلق في شجر الجنة حتى يُرجعهُ الله إلى جسده يوم يبعثه». قوله: «يعلق» أي يأكل، وفي هذا الحديث «إن روح المؤمن

تكون على شكل طائر في الجنة».

وأما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين، فإنها تطير بأنفسها، فنسأل الله الكريم المنان أن يميتنا على الإيمان.

وقوله: ﴿**فرحين بما آتاهم الله**﴾ إلى آخر الآية، أي الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند الله، وهم فرحون مما هم فيه من النعمة والغبطة، ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم. قال محمد بن إسحاق: ﴿**ويستبشرون**﴾ أي ويُسَرون بلحوق من خَلْفَهم من إخوانهم على ما مَضَوْا عليه من جهادهم؛ ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم. وقال السدي: يؤتى الشهيد بكتاب فيه: يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا، ويقدم عليك فلان يوم كذا وكذا، فيُسَرُّ بذلك كما يُسَرُّ أهلُ الدنيا بقدوم غُيَّابِهِم». وقال سعيد بن جبير: لما دخلوا الجنة ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء، قالوا: يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة، فإذا شهدوا القتال باشروها بأنفسهم حتى يستشهدوا فيصيبوا ما أصبنا من الخير، فأخبر رسول الله ﷺ بأمرهم وما هم فيه من الكرامة، وأخبرهم، أي ربهم، أني قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم وما أنتم فيه، فاستَبْشروا بذلك، فذلك قوله: ﴿**ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم**﴾ الآية. وقد ثبت في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه في قصة أصحاب بئر مَعُونة السبعين من الأنصار الذين قتلوا في غداة واحدة، وقَنَت رسول الله ﷺ يدعو على الذين قتلوهم ويلعنهم، قال أنس: ونزل فيه قرآن قرأناه حتى رفع: «أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فَرَضِي عنا وأرْضَانا».

ثم قال: ﴿**يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين**﴾ قال محمد بن إسحاق: استبشروا وسُرّوا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم سواء الشهداء وغيرهم، وقلما ذكر الله فضلاً ذكر به الأنبياء وثواباً أعطاهم، إلا ذكر الله ما أعطى المؤمنين من بعدهم. وقوله: ﴿**الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح**﴾ هذا كان يوم حمراء الأسد، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين، كرُّوا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا في سيرهم تندموا لم لا تَمّموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليُرْعِبَهم ويريهم أن بهم قوة وجلداً، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أحد سوى جابر بن عبد الله رضي الله عنه، فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ. عن عكرمة، قال: لما رجع المشركون عن أحد، قالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، بئسما صنعتم، ارجعوا، فسمع رسول الله ﷺ بذلك، فندب المسلمين، فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد ـ أو بئر أبي عيينة

فقال المشركون: نرجع من قابل، فرجع رسول الله ﷺ، فكانت تعد غزوة، فأنزل الله عز وجل: **﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾**.

قال محمد بن إسحاق: كان يوم أحد يوم السبت للنصف من شوال، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذّن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، وأذّن مؤذنه أن لا يخرج معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس، فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، فقال: يا رسول الله، إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع، وقال: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي فتخلف على أخواتك، فتخلفت عليهن، فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه، وإنما خرج رسول الله ﷺ مُرهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يُوهنهم عن عدوهم.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: **﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾** الآية، قالت لعروة: يا ابن أختي كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر رضي الله عنهما لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، فقال «من يرجع في إثْرِهم» فانتدب منهم سبعون رجلاً فيهم أبو بكر والزبير رضي الله عنهما.

وقال الحسن البصري في قوله: **﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾** إن أبا سفيان وأصحابه أصابوا من المسلمين ما أصابوا ورجعوا، فقال رسول الله ﷺ: «إن أبا سفيان قد رجع وقد قذف الله في قلبه الرعب، فمن يَنْتَدِبُ في طَلَبِه ؟ فقام النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وناس من أصحاب رسول الله ﷺ، فاتبعوهم، فبلغ أبا سفيان أن النبي ﷺ يطلبه، فلقي عيراً من التجار فقال: ردوا محمداً ولكم من الجعل كذا وكذا، وأخبروهم أني قد جمعت لهم جموعاً وأني راجع إليهم، فجاء التجار فأخبروا رسول الله ﷺ بذلك، فقال النبي ﷺ: «حسبنا الله ونعم الوكيل». فأنزل الله هذه الآية، وهكذا قال عكرمة وقتادة وغير واحد: إن هذا السياق نزل في شأن حمراء الأسد، وقيل: نزلت في بدر الموعد، والصحيح الأول. وقوله تعالى: **﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً﴾** الآية، أي الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء، فما اكترثوا لذلك بل توكلوا على الله واستعانوا به **﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾**.

روى البخاري عن ابن عباس: **﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾** قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين [قالوا]: **﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكِيل﴾**.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس في قوله: **﴿فإذا نقر في الناقور﴾** [المدثر:٨]، قال: قال رسول الله ﷺ «كيف أَنْعَمُ وصاحبُ القَرْن قد التقم القرن وحَنَى جبهته، يسمع متى يُؤمر فينفخُ ؟»

فقال أصحاب [محمد] ﷺ. فما نقول ؟ قال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا» وقد روي هذا من غير وجه، وهو حديث جيد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء**﴾ أي لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم وردَّ عنهم بأس من أراد كيدهم فرجعوا إلى بلدهم ﴿**بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء**﴾ مما أضمر لهم عدوهم ﴿**واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم**﴾. عن مجاهد في قوله: ﴿**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم**﴾ قال: هذا أبو سفيان، قال لمحمد ﷺ موعدكم بدر حيث قتلتم أصحابنا. فقال محمد ﷺ: «عَسَى»، فانطلق رسول الله ﷺ لموعده حتى نزل بدراً، فوافقوا السوق فيها، فابتاعوا، فذلك قول الله عز وجل: ﴿**فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء**﴾. قال: وهي غزوة بدر الصغرى.

ثم قال تعالى: ﴿**إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه**﴾ أي يخوفكم أولياءه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة، قال الله تعالى: ﴿**فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين**﴾ أي فإذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا علي والجأوا إلي، فأنا كافيكم وناصركم عليهم، كما قال تعالى: ﴿**أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه**﴾ [الزمر: ٣٦].

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر**﴾ وذلك من شدة حرصه على الناس، كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق، فقال تعالى: لا يحزنك ذلك ﴿**إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة**﴾ أي حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة ﴿**ولهم عذاب عظيم**﴾، ثم قال تعالى مخبراً عن ذلك إخباراً مقرراً: ﴿**إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان**﴾ أي استبدلوا هذا بهذا ﴿**لن يضروا الله شيئاً**﴾ أي ولكن يضرون أنفسهم ﴿**ولهم عذاب أليم**﴾، ثم قال تعالى: ﴿**ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين**﴾ كقوله: ﴿**أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون**﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

ثم قال تعالى: ﴿**ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب**﴾ أي لا بد أن يعقد سبباً من المحنة، يظهر فيه وليه، ويفتضح فيه عدوه، يُعرف به المؤمن الصابر،

والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ، وهتك به ستر المنافقين. فظهر مخالفتهم ونُكُولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿**ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب**﴾. قال مجاهد: ميز بينهم يوم أحد، وقال قتادة: مَيَّز بينهم بالجهاد والهجرة، وقال السدي: قالوا: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا عمن يؤمن به منا ومن يكفر، فأنزل الله تعالى: ﴿**ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب**﴾ أي حتى يُخْرج المؤمن من الكافر. ثم قال تعالى: ﴿**وما كان الله ليطلعكم على الغيب**﴾ أي أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه حتى يُميز لكم المؤمن من المنافق لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك. ثم قال: ﴿**ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء**﴾ كقوله: ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً**﴾ [الجن: ٢٦_٢٧]. ثم قال: ﴿**فآمنوا بالله ورسله**﴾ أي أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم ﴿**وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم**﴾. وقوله: ﴿**ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم. بل هو شر لهم**﴾ أي لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه بل هو مضرة عليه في دينه، وربما كان في دنياه. ثم أخبر بمآل أمر ماله يوم القيامة، فقال: ﴿**سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة**﴾، روى البخاري عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يُؤد زكاته مُثِّلَ له شُجَاعاً أقرعَ له زبيبتان، يُطَوَّقُه يوم القيامة، يأخذ بِلِهْزِمَتَيْه ـ يعني بشدقَيْه ـ ثم يقول: أنا مالُك، أنا كَنْزُكَ» ثم تلا هذه الآية: ﴿**ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم**﴾ إلى آخر الآية.

وقوله: ﴿**ولله ميراث السموات والأرض**﴾ أي فأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله عز وجل. فقدموا من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم ﴿**والله بما تعملون خبير**﴾ أي بنياتكم وضمائركم.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾.

عن ابن عباس: لما نزل قوله: ﴿**من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة**﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: يا محمد، افتقر ربك. يسأل عباده القرض؟ فأنزل الله: ﴿**لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء**﴾ الآية.

وقوله ﴿**سنكتب ما قالوا**﴾ تهديد ووعيد؛ ولهذا قرنه تعالى بقوله: ﴿**وقتلهم الأنبياء**

بغير حق﴾ أي هذا قولهم في الله وهذه معاملتهم لرسل الله وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء، ولهذا قال: ﴿ونقول ذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتحقيراً وتصغيراً، وقوله تعالى: ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾ يقول تعالى تكذيباً أيضاً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم، أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته، فتقبلت منه، أن تنزل نار من السماء تأكلها، قاله ابن عباس والحسن وغيرهما. قال الله تعالى: ﴿قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات﴾ أي بالحجج والبراهين، ﴿وبالذي قلتم﴾ أي وبنار تأكل القرابين المتقبلة، ﴿فلم قتلتموهم﴾ أي فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ﴿إن كنتم صادقين﴾ أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل. ثم قال تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ ﴿فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير﴾ أي لا يهدنك تكذيب هؤلاء لك، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل الذين كذبوا مع ما جاءوا به من البينات وهي الحجج والبراهين القاطعة، ﴿والزبر﴾ وهي الكتب المتلقاة من السماء كالصحف المنزلة على المرسلين، ﴿والكتاب المنير﴾ أي البين الواضح الجلي.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ (١٨٥) ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (١٨٦) ﴾.

يخبر تعالى إخباراً عاماً يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله تعالى: ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧] فهو تعالى وحده هو الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخراً كما كان أولاً.

وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة وفَرَغَت النطفة التي قدر الله وجودها في صلب آدم وانتهت البرية، أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾.

وقوله: ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ أي من جنب النار ونجا منها وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز. روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَوْضِعُ سوط في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾» هذا حديث ثابت في الصحيحين بدون هذه الزيادة. عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة

فلتدركه مَنِيَّتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه». [أخرجه أحمد ومسلم].

وقوله: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ تصغير لشأن الدنيا، وتحقير لأمرها، وأنها دنيئة فانية، قليلة زائلة، كما قال تعالى: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾ [الأعلى:١٦ـ١٧]، وقال تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾ [الرعد:٢٦]، وقال تعالى: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾ [النحل:٩٦]، وقال تعالى: ﴿وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى﴾ [القصص:٦٠]، وفي الحديث: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يَغْمِسُ أحدكم أصبعه في اليَمِّ، فلينظر بِمَ تَرْجِع إليه؟». [رواه مسلم]. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ قال: هي متاع هي متاع، متروكة أوشكت ـ والله الذي لا إله إلا هو ـ أن تضمحل عن أهلها، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله.

وقوله: ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم﴾ كقوله: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾ [البقرة:١٥٥ـ١٥٦] إلى آخر الآيتين، أي لا بد أن يبتلى المؤمن في شيْ من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله، ويبتلى المؤمن على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾ يقول تعالى للمؤمنين عند مَقْدمهم المدينة قبل وقعة بدر، مسلياً لهم عما نالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين، وآمراً لهم بالصفح والصبر والعفو حتى يفرج الله، فقال تعالى: ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾.

روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة فَدَكيَّة، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، قال: حتى مر على مجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سَلُول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين، عَبَدَة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رَوَاحة، فلما غَشَيت المجلس عَجَاجةُ الدابة، خَمَّر عبد الله بن أبي أنفه بردائه وقال: لا تُغَبروا علينا، فسلم رسول الله ﷺ، ثم وقف، فنزل فدعاهم إلى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي : أيها المَرْء، إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا. ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله، فاغْشَنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك، فاستَب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتَثَاورون، فلم يزل النبي ﷺ يُخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عُبادة، فقال له النبي ﷺ: «يا سعد ألم تسمع إلى ما قال أبو حُبَاب» يريد عبد الله بن أبي، قال: كذا وكذا، فقال سعد: يا رسول الله،

اعف عنه واصفح، فوالله الذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرَة على أن يُتَوِّجوه ويُعَصبُّوه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ، وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا﴾ الآية وقال تعالى: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾ الآية [البقرة: ١٠٩]، وكان النبي ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً، فقتل الله به صناديد كفار قريش قال عبد الله بن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد تَوَجّه فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام وأسلموا.

فكل من قام بحق أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر فلا بد أن يؤذى فما له دواء إلا الصبر في الله، والاستعانة بالله والرجوع إلى الله عز وجل.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينوهوا بذكره في الناس، ليكونوا على أهْبَة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والحظ الدنيوي السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم، وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويُسْلكَ بهم مَسْلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئاً، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ، أنه قال: «من سُئِل عن علم فكَتَمه أُلْجِم يوم القيامة بلجام من نار». [رواه أحمد وأبوداود والترمذي وقال: حسن وابن ماجه].

وقوله تعالى: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا... إلى قوله: من العذاب﴾، يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يُعْطَوا، كما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ: «من ادعى دعوة كاذبة ليتكثر بها، لم يزده الله إلا قلة».، وفي الصحيح أيضاً: «المتشبع بما لم يُعْطَ كلابس ثَوْبَي زور»، وروى الإمام أحمد عن مروان أنه قال: اذهب يا رافع - لبَوَّابه - إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرىء منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنُعَذبن أجمعون، فقال ابن عباس رضي الله عنه: وما لكم وهذه، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس

ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون﴾ وتلا ابن عباس: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ الآية. وقال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فخرجوا قد أروْه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه. وهكذا رواه البخاري في التفسير، ومسلم. وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ، كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ الآية.

وقوله: ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾ يقرأ بالتاء على مخاطبة المفرد، وبالياء على الإخبار عنهم أي لا تحسبون أنهم ناجون من العذاب بل لا بد لهم منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ولهم عذاب أليم﴾. ثم قال تعالى ﴿ولله ملك السموات والأرض، والله على كل شيء قدير﴾ أي هو مالك كل شيء، والقادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا نقمته وغضبه فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، القدير الذي لا أقدر منه.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾.

معنى الآية أن الله تعالى يقول: ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ أي هذه في ارتفاعها واتساعها، وهذه في انخفاضها و كثافتها واتضاعها، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثوابت وبحار وجبال وقفار وأشجار ونبات، وزروع وثمار، وحيوان ومعادن، ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص، ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ أي تعاقبهما وتقارضهما الطول والقصر، فتارة يطول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيرا، ويقصر الذي كان طويلا. وكل ذلك تقدير العزيز الحكيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لأولي الألباب﴾ أي العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون، الذين قال الله فيهم: ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ [يوسف: ١٠٥-١٠٦].

ثم وصف تعالى أولي الألباب، فقال: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾.

كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حُصَين رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «صَلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنبك» أي لا يقطعون ذِكْره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم، ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ أي يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته. وقال الشيخ أبو سليمان الداراني: إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله علي فيه نعمة أو لي فيه عبرة، وعن الحسن البصري أنه قال: تَفَكُّر ساعة خير من قيام ليلة، وقال وهب بن مُنَبِّه: ما طالت فكرة امرىء قط إلا فهم ولا فهم امرؤ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل. وقال عمر بن عبد العزيز: الكلام بذكر الله عز وجل حسن، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة. وقال عبد الله بن المبارك: مر رجل براهب عند مقبرة ومزبلة، فناداه فقال: يا راهب، إن عندك كنزين من كنوز الدنيا لك فيهما معتبر: كنز الرجال، وكنز الأموال. وعن ابن عمر: أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين، فيقول: أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ [القصص:٨٨]، وعن ابن عباس أنه قال: ركعتان مقتصدتان في تفكر، خير من قيام ليلة والقلب ساه. وقال الحسن: يا ابن آدم، كل في ثلث بطنك، واشرب في ثلثه، ودع ثلثه الآخر تتنفس للفكرة. وقال بشر بن الحارث الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه. وعن عامر بن عبد قيس، قال: سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يقولون: إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكر. وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، أنه بكى يوماً بين أصحابه، فسئل عن ذلك، فقال: فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها، فاعتبرت منها بها ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر إن فيها مواعظ لمن ادّكر.

وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته، فقال: ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ [يوسف:١٠٥-١٠٦]، ومدح عباده المؤمنين: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ قائلين: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾ أي ما خلقت هذا الخلق عبثاً، بل بالحق لتجزي الذين أساؤوا بما عملوا، وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى. ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل، فقالوا: ﴿سبحانك﴾ أي عن أن تخلق شيئاً باطلاً ﴿فقنا عذاب النار﴾ أي يا من خَلَق الخلق بالحق والعدل، يا من هو مُنَزّه عن النقائص والعيب والعبث. قنا من عذاب النار بحولك وقوتك وقَيِّضْنَا لأعمال ترضى بها عنا. ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم، وتجيرنا به من عذابك الأليم.

ثم قالوا: ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ أي أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ أي يوم القيامة لا مجير لهم منك. ولا محيد لهم عما أردت بهم ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ أي داعياً يدعو إلى الإيمان، وهو الرسول ﷺ يقول أن ﴿آمنوا بربكم فآمنا﴾ أي فاستجبنا له واتبعناه ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا﴾ أي بإيماننا واتباعنا نبيك، فاغفر لنا ذنوبنا أي استرها، ﴿وكفر عنا سيئاتنا﴾ فيما بيننا وبينك، ﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ أي ألحقنا بالصالحين، ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ قيل: معناه على الإيمان برسلك، وقيل: معناه على ألسنة رسلك. وهذا أظهر. ﴿ولا تخزنا يوم القيامة﴾ أي على رؤوس الخلائق، ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾ أي لا بد من الميعاد الذي أخبرتْ عنه رسلُك وهو القيام يوم القيامة بين يديك.

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده، فروى البخاري عن ابن عباس، قال: بت عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثُلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء، فقال ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾، ثم قام فتوضأ واستن، فصلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس الصبح. وكذا رواه مسلم.

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ أي فأجابهم ربهم، روى سعيد بن منصور عن أم سلمة قالت: يا رسول الله لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء. فأنزل الله عز وجل: ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ إلى آخر الآية. وقالت الأنصار: هي أول ظعينة قدمت علينا، وقد رواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه.

ومعنى الآية أن المؤمنين ذوي الألباب لما سألوا مما تقدم ذكره فاستجاب لهم ربهم عقب ذلك بفاء التعقيب، كما قال تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان * فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ [البقرة:١٨٦].

وقوله: ﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ هذا تفسير للإجابة، أي قال لهم مجيباً لهم أنه لا يضيع عمل عامل لديه، بل يوفى كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى، وقوله: ﴿بعضكم من بعض﴾ أي جميعكم في ثوابي سواء، ﴿فالذين هاجروا﴾ أي تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والخلان والإخوان والجيران، ﴿وأخرجوا من

ديارهم﴾ أي ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجؤوهم إلى الخروج من بين أظهرهم، ولهذا قال: ﴿وأوذوا في سبيلي﴾ أي إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده، كما قال تعالى: ﴿يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم﴾ [الممتحنة:١]. وقال تعالى: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ [البروج:٨].

وقوله: ﴿وقاتلوا وقتلوا﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله فيُعْقَر جَواده ويعفَّر وجهه بدمه وترابه، وقد ثبت في صحيح [مسلم] أن رجلاً قال: يا رسول الله، أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، أيكفر الله عني خطاياي؟ قال: «نعم» ثم قال: «كيف قلت؟» فأعاد عليه ما قال، فقال: «نعم، إلا الدَّين، قاله لي جبريل آنفاً»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تجري في خلالها الأنهار من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وقوله: ﴿ثواباً من عند الله﴾ أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم، لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جزيلاً كثيراً.

وقوله: ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ أي عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحاً. وعن شداد بن أوس أنه كان يقول: يا أيها الناس، لا تتهموا الله في قضائه، فإنه لا يبغي على مؤمن، فإذا نزل بأحدكم شيءٌ مما يحب، فليحمد الله، وإذا أنزل به شيءٌ مما يكره، فليصبر وليحتسب، فإن الله عنده حسن الثواب.

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

يقول تعالى: لا تنظر إلى ما هؤلاء الكفار مُتْرفون فيه من النِّعمة والغِبْطَة والسرور، فعَمّا قليل يزول هذا كله عنهم ويصبحون مُرتَهنين بأعمالهم السيئة، فإنما نَمُدّ لهم فيما هم فيه استدراجاً، وجميع ما هم فيه ﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد﴾ [غافر:٤]، وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا وذكر أن مآلهم إلى النار، قال بعده: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار﴾. عن ابن عمر، قال: إنما سماهم الله أبراراً لأنهم بَرّوا الآباء والأبناء، كما أن لوالديك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حق. وعن الحسن، قال: الأبرار الذين لا يؤذون الذَّرّ. وعن أبي الدرداء أنه كان يقول: ما من مؤمن إلا والموت خير له، وما من كافر إلا والموت خير له، ومن لم يصدقني فإن الله يقول: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ ويقول: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾. [وعن ابن مسعود نحوه].

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، ويؤمنون بما أنزل على محمد مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله أي مطيعون له، خاضعون متذللون بين يديه، ﴿**لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً**﴾، أي لا يكتمون ما بأيديهم من البشارات بمحمد ﷺ وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هوداً أو نصارى، وقد قال تعالى في سورة القصص: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا**﴾ الآية [القصص: ٥٢-٥٤]، وهذه الصفات توجد في اليهود، ولكن قليلاً كما وجد في عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود، ولم يبلغوا عَشْرَةَ أنفس، وأما النصارى فكثير منهم مهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى: ﴿**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها**﴾ الآية [المائدة: ٨٢-٨٥]، وهكذا قال ههنا: ﴿**أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب**﴾ الآية.

وثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نَعَاه النبي ﷺ إلى أصحابه وقال: «إن أخاً لكم بالحبشة قد مات، فصلوا عليه».

وقد روى الحافظ أبو عبد الله الحاكم في مستدركه عن عبد الله بن الزبير، قال: نزل بالنجاشي عدو من أرضهم، فجاءه المهاجرون فقالوا: إنا نحب أن نخرج إليهم حتى نقاتل معك وترى جرأتنا ونجزيك بما صنعت بنا، فقال: لا، دواء بنصرة الله عز وجل خير من دواء بنصرة الناس. قال: وفيه نزلت: ﴿**وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله**﴾ الآية. ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وعن مجاهد: ﴿**وإن من أهل الكتاب**﴾ يعني مسلمة أهل الكتاب. وقال عباد بن منصور: سألت الحسن البصري عن قول الله تعالى: ﴿**وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله**﴾ الآية، قال: هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ فاتبعوه، وعرفوا الإسلام فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين: للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ وبالذي اتبعوا محمداً ﷺ. وقد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين» فذكر منهم: ورجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي»، وقوله تعالى: ﴿**لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً**﴾ أي لا يكتمون ما بأيديهم من العلم كما فعله الطائفة المرذولة منهم، بل يبذلون ذلك مجاناً؛

ولهذا قال تعالى: ﴿**أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب**﴾. قال مجاهد: ﴿**سريع الحساب**﴾ يعني سريع الإحصاء. وقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا**﴾ قال الحسن البصري رحمه الله: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم وهو الإسلام، فلا يدعوه لسراء ولا لضراء ولا لشدة ولا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء، وكذا قال غير واحد من علماء السلف.

وأما المرابطة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات، وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة، قاله ابن عباس وسهل بن حُنَيف ومحمد بن كعب القُرَظي وغيرهم، وروى ابن أبي حاتم ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط».

وقيل: المراد بالمرابطة ههنا مرابطة الغزو في نُحور العدو وحفظ ثُغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حَوْزَة بلاد المسلمين، وقد وردت الأخبار بالترغيب في ذلك وذكر كثرة الثواب فيه، فروى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها».

وروى مسلم عن سلمان الفارسي، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان». عن ابن عباس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله» ثم قال: حسن غريب.

وعن زيد بن أسلم قال: كتب أبو عبيدة رضي الله عنه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزلة شدة يجعل الله بعدها فرجاً، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك من طريق محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة، قال: أملى علي عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس، وودعته للخروج، وأنشدها معي إلى الفضيل بن عياض في سنة سبعين ومائة، وفي رواية سنة سبع وسبعين ومائة:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... وهج السنابك والغبار الأطيب

ولقـد أتانـا مـن مـقال نـبينا قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي وغبارَ خيل الله في أنف امريء ودخـانَ نـار تلـهب
هـذا كتـاب الله ينطـق بيننا ليس الشهيد بميت لا يكذب

قال: فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه في المسجد الحرام، فلما قرأه ذرفت عيناه وقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قال: قلت: نعم، قال فاكتب هذا الحديث كراء حملك كتاب أبي عبد الرحمن إلينا. وأملى عليّ الفضيل بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله، علمني عملاً أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله، فقال: «هل تستطيع أن تصلي فلا تَفْتُر، وتصوم فلا تُفطر؟» فقال: يا رسول الله، أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبي ﷺ: : «فوالذي نفسي بيده لو طُوِّقْتَ ذلك ما بلغت المجاهدين في سبيل الله، أَوَ ما علمت أن فرس المجاهد ليَسْتَنُّ في طِوَله، فيكتب له بذلك الحسنات». [أخرج البخاري أوله مرفوعا وآخره موقوفاً عن أبي هريرة].

وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله﴾ أي في جميع أموركم وأحوالكم، كما قال النبي ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». [أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح].

﴿لعلكم تفلحون﴾ أي في الدنيا والآخرة. وعن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقول في قول الله عز وجل: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ واتقوا الله فيما بيني وبينكم لعلكم تفلحون غداً إذا لقيتموني.

تفسير سورة النساء وهي مدنية.

عن ابن عباس: نزلت سورة النساء بالمدينة. وكذا روي عن عبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت. وروي عن ابن مسعود قال: خمس آيات من النساء لهن أحب إلي من الدنيا جميعاً: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ [:٣١] وقوله: ﴿وإن تك حسنة يضاعفها﴾ [:٤٠] وقوله: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [:٤٨] وقوله: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ [:١١٠]، وقوله: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً﴾ [:١٥٢]. وعن ابن عباس قال: ثماني آيات نزلت في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت، أولاهن: ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم﴾ [:٢٦] والثانية: ﴿والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ [:٢٧] والثالثة: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم

وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ [:٢٨] ثم ذكر قول ابن مسعود سواء ـ يعني في الخمسة الباقية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً خلقه بتقواه، وهي عبادته وحده لا شريك له، ومنبهاً لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة، وهي آدم عليه السلام **﴿وخلق منها زوجها﴾** وهي حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر، من خلفه وهو نائم، فاستيقظ فرآها فأعجبته، فأنس إليها وأنست إليه، وعن ابن عباس، قال: خلقت المرأة من الرجل فجعل نَهْمَتَها في الرجل، وخلق الرجل من الأرض فجعل نهمته في الأرض، فاحبسوا نساءكم. وفي الحديث الصحيح: «إن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج». [رواه مسلم].

وقوله: **﴿وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾** أي وذرأ منهما أي من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساء، ونَشَرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر. ثم قال تعالى: **﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾** أي واتقوا الله بطاعتكم إياه. قال إبراهيم ومجاهد والحسن: **﴿الذي تساءلون به﴾** أي كما يقال: أسألك بالله وبالرَّحِم، وقال الضحاك: واتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن بروها وصلوها، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن والضحاك والربيع وغير واحد. وقرأ بعضهم: «والأرحامِ» بالخفض على العطف على الضمير في به أي تساءلون بالله وبالأرحام، كما قال مجاهد وغيره.

وقوله: **﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾** أي هو مراقب لجميع أحولكم وأعمالكم، كما قال: **﴿والله على كل شيء شهيد﴾** [البروج:٩]. وفي الحديث الصحيح: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك» [في مسلم بمعناه]. وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب؛ ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة ليعطف بعضهم على بعض، ويحننهم على ضعفائهم. وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جرير بن عبد الله البَجَلي أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مضر وهم مُجْتابو النِّمار ـ أي من عُرِيِّهم وفقرهم ـ قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال في خطبته: **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾**، حتى ختم الآية. وقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾** [الحشر:١٨]، ثم حضهم على الصدقة فقال: «تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من صاع بره، من صاع تمره» وذكر تمام الحديث، وهكذا روى الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود في خطبة الحاجة، وفيها ثم يقرأ ثلاث آيات هذه منها **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾** الآية.

﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةًۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾ .

يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحُلمُ كاملة موفرة، وينهى عن أكلها وضَمِّها إلى أموالهم؛ ولهذا قال: ﴿ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب﴾ عن أبي صالح: لا تعْجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الرزق الحلال الذي قدر لك. وقال سعيد بن جبير: لا تبَدَّلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم، يقول: لا تبذروا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام. وقال سعيد بن المسيب والزهري: لا تُعْط مهزولاً وتأخذ سميناً. وقال إبراهيم النخعي والضحاك: لا تعط زائفاً وتأخذ جيداً. وقال السدي: كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم، ويجعل فيها مكانها الشاة المهزولة ويقول: شاة بشاة، ويأخذ الدرهم الجَيّد ويطرح مكانه الزَّيْف ويقول درهم بدرهم.

وقوله: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والسدي وسفيان بن حسين: أي لا تخلطوها فتأكلوها جميعاً. وقوله: ﴿إنه كان حوباً كبيراً﴾ قال ابن عباس: أي إثماً كبيراً عظيماً. وهكذا رُوي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وابن سيرين وقتادة ومقاتل بن حيان والضحاك وأبي مالك وزيد بن أسلم وأبي سنان مثل قول ابن عباس. والمعنى: إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه.

وقوله: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى﴾ أي إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها فليعدل إلى ما سواها من النساء، فإنهن كثير ولم يضيق الله عليه. روى البخاري عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى﴾، قالت: يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تَشْرَكه في ماله ويعجبُه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يَقْسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن. ويبلغوا بهن أعلى سُنتهنَّ في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن.

وقوله: ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ أي انكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم ثنتين وإن شاء ثلاثاً، وإن شاء أربعاً. كما قال الله تعالى: ﴿جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع﴾ [فاطر:١] أي منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ولا ينفي ما عدا ذلك في الملائكة لدلالة الدليل عليه، بخلاف قصر الرجال على أربع، فمن هذه الآية كما قاله ابن عباس وجمهور العلماء؛ لأن المقام مقام امتنان وإباحة، فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره. قال الشافعي: وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة، وهذا الذي قاله الشافعي رحمه الله مجمع عليه

بين العلماء إلا ما حُكي عن طائفة من الشيعة، أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع إلى تسع. وقال بعضهم: بلا حصر. وقد يتمسك بعضهم بفعل رسول الله ﷺ في جَمعه بين أكثر من أربع إلى تسع كما ثبت في الصحيحين، وإما إحدى عشرة كما جاء في بعض ألفاظ البخاري. وهذا عند العلماء من خصائص الرسول ﷺ دون غيره من الأمة لما سنذكره من الأحاديث الدالة على الحصر في أربع.

ذكر الأحاديث في ذلك:

منها ما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة فقال له النبي ﷺ: «اختر منهن أربعاً» فلما كان في عهد عمر طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه، فبلغ ذلك عمر فقال: إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فقذفه في نفسك، ولعلك لا تمكُث إلا قليلا. وايم الله لتراجعن نساءك ولترجعن في مالك أو لأورثُهن منك، ولآمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبرُ أبي رِغَال. وهكذا رواه الشافعي والترمذي وابن ماجة والدارقطني والبيهقي [وروي مرسلا وصححه ابن كثير بشواهده].

فوجه الدلالة أنه لو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لسوغَ له رسولُ الله ﷺ سائرهن في بقاء العشرة وقد أسلمن معه فلما أمره بإمساك أربع وفراق سائرهن دل على أنه لا يجوز الجمع بين أكثر من أربع بحال، فإذا كان هذا في الدوام، ففي الاستئناف بطريق الأولى والأحرى، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

حديث آخر في ذلك: روى أبو داود وابن ماجه في سننهما عن الحارث بن قيس بن عميرة الأسدي قال: أسلمت وعندي ثماني نسوة فذكرت للنبي ﷺ فقال: «اختر منهن أربعاً»، وهذا إسناده حسن.

حديث آخر في ذلك: روى الشافعي عن نوفل بن معاوية الديلي رضي الله عنه، قال: أسلمت وعندي خمس نسوة فقال لي رسول الله ﷺ: «اختر أربعاً أيتهن شئت وفارق الأخرى» فعمدت إلى أقدمهن صحبة عجوز عاقر معي منذ ستين سنة فطلقتها. فهذه كلها شواهد بصحة ما تقدم من حديث غيلان كما قاله البيهقي رحمه الله.

وقوله: ﴿**فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم**﴾ أي فإن خشيتم من تعداد النساء أن لا تعدلوا بينهن، كما قال تعالى: ﴿**ولن تستطيعو أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم**﴾ [النساء:١٢٩] فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة أو على الجواري السراري فإنه لا يجب قسم بينهن، ولكن يستحب فمن فعل فحسن، ومن لا فلا حرج، وقوله: ﴿**ذلك أدنى ألا تعولوا**﴾ قال بعضهم ذلك أدنى ألا تكثر عائلتكم، قاله زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة والشافعي رحمهم الله، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿**وإن خفتم عيلة**﴾ أي فقراً ﴿**فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء**﴾ [التوبة:٢٨] ولكن في هذا التفسير ههنا نظر، فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر كذلك يخشى من تعداد السراري أيضاً. والصحيح قول الجمهور: ﴿**ذلك أدنى**

ألا تعولوا﴾ أي لا تجوروا، يقال: عال في الحكم: إذا قسط ظلم وجار.

وعن أبي إسحاق قال: كتب عثمان بن عفان إلى أهل الكوفة في شيء عاتبوه فيه: إني ست بميزان لا أعول. وروي عن ابن عباس وعائشة ومجاهد وعكرمة والحسن وأبي مالك وأبي رزين والنخعي والشعبي والضحاك وعطاء الخراساني وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان أنهم قالوا: لا تميلوا.

وقوله: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾ قال ابن عباس: النحلة المهر. وعن عائشة: نحلة فريضة، وقال مقاتل وقتادة وابن جريج: نحلة أي فريضة. زاد ابن جريج: مسماة، وقال ابن زيد: النحلة في كلام العرب: الواجب، يقول: لا تنكحها إلا بشيء واجب لها، وليس ينبغي لأحد بعد النبي ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب، ولا ينبغي أن يكون تسمية الصداق كذباً بغير حق، ومضمون كلامهم: أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتماً، وأن يكون طيب النفس بذلك كما يمنح المنيحة ويعطي النحلة طيباً بها، كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيباً بذلك فإن طابت هي له به بعد تسميته أو عن شيء منه فليأكله حلالاً طيباً؛ ولهذا قال: ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾. عن علي قال: إذا اشتكى أحدكم شيئاً فليسأل امرأته ثلاثة دراهم أو نحو ذلك فليبتع بها عسلاً ثم ليأخذ ماء السماء فيجتمع هنيئاً مريئاً شفاء مباركاً. وعن أبي صالح قال: كان الرجل إذا زوج ابنته أخذ صداقها دونها، فنهاهم الله عن ذلك، ونزل ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾.

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾.

ينهى تعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً، أي تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها. ومن ههنا يُؤخذ الحجر على السفهاء وهم أقسام، فتارة يكون الحَجْرُ للصغر، فإن الصغير مسلوب العبارة، وتارة يكون الحجر للجنون، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل، وتارة يكون الحجر للفَلَس، وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاق ماله عن وفائها، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه، حَجَرَ عليه. وعن ابن عباس في قوله: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ قال: هم بَنُوك والنساء، وكذا قال ابن مسعود والحكم بن عيينة والحسن والضحاك، وقال سعيد بن جبير: هم اليتامى، وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: هم النساء. وعن أبي هريرة: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ قال: هم الخدم، وهم شياطين الإنس.

وقوله: ﴿وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ قال ابن عباس: لا تَعْمَد إلى مالك وما خَوَّلَك الله وجعله معيشة فتعطيه امرأتك أو بَنيكَ، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤونتهم ورزقهم، وعن أبي موسى،

قال: ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم: رجل كانت له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل أعطى ماله سفيهاً، وقد قال: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾، ورجل كان له على رجل دين فلم يُشهِد عليه، وقال مجاهد: ﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾، يعني في البر والصلة، وهذه الآية الكريمة انتظمت الإحسان إلى العائلة، ومن تحت الحَجْر بالفعل من الإنفاق في الكساوي والأرزاق والكلام الطيب وتحسين الأخلاق.

وقوله تعالى: ﴿وابتلوا اليتامى﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن والسدي ومقاتل بن حيان: أي اختبروهم ﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾ قال مجاهد: يعني الحُلُم، قال الجمهور من العلماء: البلوغ في الغلام تارة يكون بالحُلُم، وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه الولد. وفي الحديث عن عائشة وغيرها من الصحابة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال: «رُفِعَ القلمُ عن ثلاثة، عن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستقيظ، وعن المجنون حتى يُفِيق» [أخرجه أبوداود والنسائي وابن ماجه وقواه بطرقه الحافظ ابن حجر].

أو يستكمل خمس عشرة سنة وأخذوا ذلك من الحديث الثابت في الصحيحين عن [عبد الله] بن عمر، قال: عرضت على النبي ﷺ يوم أُحد وأنا ابن أربع عشرة فلم يجزني، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني، فقال عمر بن عبد العزيز لما بلغه هذا الحديث: إن هذا الفرق بين الصغير والكبير. واختلفوا في إنبات الشعر الخشن حول الفرج، هل تدل على بلوغ أم لا ؟ على ثلاثة أقوال، يفرق في الثالث بين صبيان المسلمين فلا يدل على ذلك لاحتمال المعالجة، وبين صبيان أهل الذمة فيكون بلوغاً في حقهم لأنه لا يتعجل بها إلى ضرب الجزية عليه. فلا يعالجها، والصحيح أنها بلوغ في حق الجميع لأن هذا أمر جبلي يستوي فيه الناس واحتمال المعالجة بعيد، ثم قد دلت السنة على ذلك في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عطية القرظي رضي الله عنه، قال: عرضنا على النبي ﷺ يوم قريظة، فكان من أنبت قتل ومن لم ينبت خلى سبيله، فكنت فيمن لم ينبت فخلي سبيلي. وقد أخرجه أهل السنن الأربعة بنحوه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقوله: ﴿فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾ قال سعيد بن جبير: يعني صلاحاً في دينهم وحفظاً لأموالهم. وكذا روي عن ابن عباس والحسن البصري وغير واحد من الأئمة وهكذا قال الفقهاء: متى بلغ الغلام مصلحاً لدينه وماله انفك الحجر عنه فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليه بطريقه، وقوله: ﴿ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا﴾ ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية إسرافاً وبداراً ومبادرة قبل بلوغهم، ثم قال تعالى: ﴿ومن كان غنياً فليستعفف﴾ من كان في غُنْية عن مال اليتيم فليستعفف عنه ولا يأكل منه شيئاً، وقال الشعبي: هو عليه كالميتة والدم ﴿ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ عن عائشة قالت: نزلت في والي اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجاً أن يأكل منه. رواه البخاري.

قال الفقهاء: له أن يأكل أقل الأمرين: أجرة مثله أو قدر حاجته، واختلفوا هل يرد إذا أيسر ؟ على قولين: **أحدهما**: لا، لأنه أكل بأجرة عمله وكان فقيراً، وهذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعي، لأن الآية أباحت الأكل من غير بدل، وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: ليس لي مال ولي يتيم ؟ فقال: «كل من مال يتيمك غير مُسْرف ولا مُبذر ولا متأثِّل مالاً ومن غير أن تقي مالك ـ أو قال ـ تفدي مالك بماله» [وهو صحيح بطرقه] ورواه أبو دواد والنسائي وابن ماجه بنحوه. وبهذا القول ـ وهو عدم أداء البدل ـ يقول عطاء بن أبي رباح وعكرمة وإبراهيم النخعي وعطية العوفي والحسن البصري.

والثاني: نعم، لأن مال اليتيم على الحظْر، وإنما أبيح للحاجة فيرد بدله كأكل مال الغير للمضطر عند الحاجة. فعن البراء قال: قال لي عمر رضي الله عنه: إني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة والي اليتيم، إن احتجت أخذت منه، فإذا أيسرت رددته، وإن استغنيت استعففت، إسناده صحيح وروى البيهقي عن ابن عباس نحو ذلك، قال [ابن أبي حاتم] وروي عن عبيدة وأبي العالية، وأبي وائل، وسعيد بن جبير في إحدى الروايات ومجاهد والضحاك والسدي نحو ذلك، وعن ابن عباس أيضا في قوله: **﴿فليأكل بالمعروف﴾** قال: يأكل بثلاث أصابع، وعنه أيضا: **﴿ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾** قال: يأكل من ماله، يقوت على يتيمه، حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم، قال وروي عن مجاهد وميمون بن مهران في إحدى الروايات والحكم نحو ذلك، وقال عامر الشعبي: لا يأكل منه إلا أن يضطر إليه كما يضطر إلى الميتة فإن أكل منه قضاه. وعن يحيى بن سعيد الأنصاري وربيعة: إن كان فقيراً أنفق عليه بقدر فقره، ولم يكن للولي منه شيء، وهذا بعيد من السياق، لأنه قال: **﴿ومن كان غنيا فليستعفف﴾** يعني من الأولياء. **﴿ومن كان فقيراً﴾** أي منهم **﴿فليأكل بالمعروف﴾** أي بالتي هي أحسن كما قال في الآية الأخرى: **﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾** [الإسراء: ٣٤] أي لا تقربوه إلا مصلحين له، وإن احتجتم إليه أكلتم منه بالمعروف.

وقوله: **﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم﴾** يعني بعد بلوغهم الحلم وإيناس الرشد منهم فحينئذٍ سلموهم أموالهم فإذا دفعتم إليهم أموالهم **﴿فأشهدوا عليهم﴾** وهذا أمر من الله تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم وسلموا إليهم أموالهم لئلا يقع من بعضهم جحود وإنكار لما قبضه وتسلمه، ثم قال: **﴿وكفى بالله حسيباً﴾** أي وكفى بالله محاسباً وشهيداً ورقيباً على الأولياء في حال نظرهم للأيتام وحال تسليمهم للأموال هل هي كاملة موفرة أو منقوصة مبخوسة مدخلة، مروج حسابها، مدلس أمورها ؟ الله عالم بذلك كله ، ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم».

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ

نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا
مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

قال سعيد بن جبير وقتادة: كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً، فأنزل الله: ﴿**للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون**﴾ الآية، أي الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى، يستوون في أصل الوراثة، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدلي به إلى الميت من قرابة، أو زوجية، أو ولاء، فإنه لُحْمَة كلُحمة النسب.

وقوله: ﴿**وإذا حضر القسمة أولو القربى... قولاً معروفا**﴾ قيل: المراد وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث واليتامى والمساكين فلْيُرْضَخْ لهم من التركة نصيب، وأن ذلك كان واجباً في ابتداء الاسلام، وقيل يستحب. واختلفوا هل هو منسوخ أم لا ؟ على قولين، فروى البخاري عن ابن عباس: ﴿**وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين**﴾. قال: هي محكمة وليست بمنسوخة. وعن مجاهد قال: هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم، وهكذا روي عن ابن مسعود وأبي موسى وعبد الرحمن بن أبي بكر وأبي العالية والشعبي والحسن، وابن سيرين وسعيد بن جبير ومكحول وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح والزهري ويحيى بن يعمر: إنها واجبة، وعن محمد بن سيرين قال: ولي عبيدة وصية فأمر بشاة فذبحت فأطعم أصحاب هذه الآية وقال: لولا هذه الآية لكان هذا من مالي، وعن الزهري: أن عروة أعطى من مال مصعب حين قسم ماله، وقال الزهري: وهي محكمة. وعن مجاهد قال: هي حق واجب ما طابت به الأنفس.

وروي عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، أنه قسم ميراث أبيه عبد الرحمن وعائشة حية فلم يدع في الدار مسكيناً ولا ذا قرابة إلا أعطاه من ميراث أبيه، وتلا ﴿**وإذا حضر القسمة أولوا القربى**﴾ قال القاسم بن محمد: فذكرت ذلك لابن عباس، فقال: ما أصاب، ليس ذلك له إنما ذلك إلى الوصية وإنما هذه الآية في الوصية يريد الميت يوصي لهم، رواه ابن أبي حاتم.

وممن قال أن هذه الآية منسوخة بالكلية

عن ابن عباس: ﴿**وإذا حضر القسمة**﴾ قال: نسختها الآية التي بعدها ﴿**يوصيكم الله في أولادكم**﴾. وعنه أيضا: كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض، فأنزل الله بعد ذلك الفرائض فأعطى كل ذي حق حقه، فجعلت الصدقة فيما سَمى المتوفى. وعن سعيد بن المسيب أنه قال: إنها منسوخة، كانت قبل الفرائض، كان ما ترك الرجل من مال أعطى منه اليتيم والفقير والمسكين وذوي القربى إذا حضروا القسمة، ثم نسخ بعد ذلك نسختها المواريث، فألحق الله بكل ذي حق حقه، وصارت الوصية من ماله يوصي بها لذوي قرابته حيث شاء. وهكذا روي عن عكرمة

وأبي الشعثاء والقاسم بن محمد وأبي صالح وأبي مالك وزيد بن أسلم والضحاك وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان وربيعة بن أبي عبد الرحمن أنهم قالوا: إنها منسوخة، وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة وأصحابهم.

والمعنى أنه إذا حضر الفقراء من القرابة الذين لا يرثون واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل، فإن أنفسهم تتوق إلى شيء منه، إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ، وهم يائسون لا شيء يعطون، فأمر الله تعالى وهو الرؤوف الرحيم أن يُرضَخ لهم شيء من الوسَط يكون براً بهم وصدقة عليهم، وإحساناً إليهم وجبراً لكسرهم. كما قال الله تعالى: ﴿**كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده**﴾ [الأنعام: ١٤١]. فمن جحد حق الله عليه عاقبه الله في أعز ما يملكه.

وقوله: ﴿**وليخش الذين لو تركوا من خلفهم... فليتقوا الله**﴾ قال ابن عباس: هذا في الرجل يَحْضُره الموت، فيسمعه رجل يوصي بوصية تَضر بورثته، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله، ويوفقه ويسدده للصواب. ولينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذاخشي عليهم الضيْعَة، وهكذا قال مجاهد وغير واحد، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده، قال: يا رسول الله، إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لا». قال: فالشطر؟ قال: «لا». قال: فالثلث؟ قال: «الثلث، والثلث كثير». ثم قال رسول الله ﷺ: «إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»، وفي الصحيح عن ابن عباس قال: لو أن الناس غَضّوا من الثلث إلى الربع، فإن رسول الله ﷺ قال «الثلث، والثلث كثير» قال الفقهاء: إن كان ورثة الميت أغنياء، استُحب للميت أن يستوفي الثلث في وصيته، وإن كانوا فقراء استُحب أن يَنْقُص الثلث.

وقيل المراد بقوله: ﴿**وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً فخافوا عليهم فليتقوا الله**﴾ في مباشرة أموال اليتامى ﴿**ولا يأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا**﴾، حكاه ابن جرير عن ابن عباس، وهو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد في أكل مال اليتامى ظلماً، أي كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك، فعامل الناس في ذراريهم إذا وليتهم، ثم أعلمهم أن من أكل مال يتيم ظلماً، فإنما يأكل في بطنه ناراً؛ ولهذا قال: ﴿**إن الذين يأكلون مال اليتيم ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً**﴾ أي إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فإنما يأكلون ناراً تأجّج في بطونهم يوم القيامة. وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ

فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ .

هذه الآية الكريمة والتي بعدها والآية التي هي خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث ومن الأحاديث الواردة مما هي كالتفسير لذلك. ولنذكر منها ما هو متعلق بتفسير ذلك. وأما تقرير المسائل ونصب الخلاف والأدلة، والحجاج بين الأئمة، فموضعه كتاب الأحكام، والله المستعان.

روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن جابر بن عبد الله قال: عادني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سَلِمَةَ ماشيين، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئاً، فدعا بماء فتوضأ منه، ثم رش علي فأفقت فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله ؟ فنزلت: ﴿**يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين**﴾. ورواه مسلم.

وروى الإمام أحمد عن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الرَّبيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قُتل أبوهما معك في يوم أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا، ولا ينكحان إلا ولهما مال، قال: فقال : «يقضي الله في ذلك» فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: «أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك». وقد رواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه.

والظاهر أن حديث جابر الأول إنما نزل بسببه الآية الأخيرة من هذه السورة كما سيأتي، فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات، ولم يكن له بنات، وإنما كان يورث كَلالة، ولكن ذكرنا الحديث ههنا تبعاً للبخاري رحمه الله فإنه ذكره ههنا، والحديث الثاني عن جابر أشبه بنزول هذه الآية، والله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿**يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين**﴾ أي يأمركم بالعدل فيهم، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث، وفاوت بين الصنفين، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤونة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسب وتجشم المشقة، فناسب أن يعطى ضعفي ما تأخذه الأنثى، وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى: ﴿**يوصيكم الله في أولادكم**﴾ أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالد بولده، حيث أوصى الوالدين بأولادهم، فعلم أنه أرحم بهم منهم، كما جاء في الحديث الصحيح أنه ﷺ رأى امرأة من السَّبْي فرق بينها وبين ولدها، فجعلت تدور على ولدها، فلما وجدته أخذته فألصقته بصدرها وأرضعته. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تَقْدِرُ على ذلك»؟ قالوا: لا يارسول الله. قال: «فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها» [أخرجه مسلم]. وروى البخاري عن ابن عباس قال: كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، فنَسَخ الله من ذلك ما أحب،

فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث، وجعل للزوجة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع.

وقوله: ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾ قال بعض الناس: قوله ﴿فوق﴾ زائدة، وتقديره فإن كن نساء اثنتين، كما في قوله ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ [الأنفال:١٢]. وهذا غير مُسَلَّم لا هنا ولا هناك. فإنه ليس في القرآن شيء زائد لا فائدة فيه، وهذا ممتنع، ثم قوله ﴿فلهن ثلثا ما ترك﴾ لو كان المراد ما قالوه لقال: فلهما ثلثا ما ترك وإنما استفيد كون الثلثين للبنتين من حكم الأختين في الآية الأخيرة، فإنه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين. وإذا ورثت الأختان الثلثين فلأن ترث البنتان الثلثين بطريق الأولى. وقد تقدم في حديث جابر أن النبي ﷺ، حكم لابنتي سعد بن الربيع بالثلثين، فدل الكتاب والسنة على ذلك، وأيضاً فإنه قال ﴿وإن كانت واحدة فلها النصف﴾ فلو كان للبنتين النصف لنص عليه، فلما حكم به للواحدة على انفرادها، دل على أن البنتين في حكم الثلاث، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ولأبويه لكل واحد منهما السدس...... فلأمه السدس﴾ الأبوان لهما في الميراث أحوال: أحدها: أن يجتمعا مع الأولاد، فيفرض لكل واحد منهما السدس، فإن لم يكن للميت إلا بنت واحدة، فرض لها النصف، وللأبوين لكل واحد منهما السدس؛ وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب، فيجمع له والحالة هذه بين الفرض والتعصيب. **الحال الثاني**: أن ينفرد الأبوان بالميراث، فيفرض للأم والحالة هذه الثلث، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض، ويكون قد أخذ ضعفي ما فرض للأم، وهو الثلثان، فلو كان معهما ـ والحالة هذه ـ زوج أو زوجة أخذ الزوج النصف والزوجة الربع. ثم اختلف العلماء ماذا تأخذ الأم بعد فرض الزوج والزوجة، على ثلاثة أقوال: **أحدها**: أنها تأخذ ثلث الباقي في المسألتين، لأن الباقي كأنه جميع الميراث بالنسبة إليهما. وقد جعل الله لها نصف ما جعل للأب. فتأخذ ثلث الباقي ويأخذ ثلثيه، وهو قول عمر وعثمان، وأصح الروايتين عن علي، وبه يقول ابن مسعود وزيد بن ثابت، وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور العلماء رحمهم الله. **والقول الثاني**: أنها تأخذ ثلث جميع المال لعموم قوله: ﴿فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث﴾ فإن الآية أعم من أن يكون معها زوج أو زوجة أو لا، وهو قول ابن عباس. وروي عن علي ومعاذ بن جبل نحوه. وبه يقول شريح وداود الظاهري. وهذا فيه نظر، بل هو ضعيف؛ لأن ظاهر الآية إنما هو إذا استبد بجميع التركة، وأما هنا فيأخذ الزوج أو الزوجة الفرض ويبقى الباقي كأنه جميع التركة فتأخذ ثلثه كما تقدم. **والقول الثالث**: أنها تأخذ ثلث جميع المال في مسألة الزوجة، فإنها تأخذ الربع وهو ثلاثة من اثني عشر، وتأخذ الأم الثلث وهو أربعة، فيبقى خمسة للأب، وأما في مسألة الزوج فتأخذ ثلث الباقي لئلا تأخذ أكثر من الأب لو أخذت ثلث المال، فتكون المسألة من ستة: للزوج النصف ثلاثة وللأم ثلث الباقي وهو سهم،

وللأب الباقي بعد ذلك وهو سهمان. ويحكى هذا عن ابن سيرين، وهو قول مركب من القولين الأولين، موافق كلاً منهما في صورة وهو ضعيف أيضاً، والصحيح الأول، والله أعلم.

والحال الثالث من أحوال الأبوين: وهو اجتماعهما مع الإخوة، سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس، فيفرض لها مع وجودهم السدس، فإن لم يكن وارث سواها وسوى الأب، أخذ الأب الباقي. وحكم الأخوين فيما ذكرناه كحكم الإخوة عند الجمهور.

عن زيد بن ثابت قال: الأخوان تسمى إخوة، وقد أفردت لهذه المسألة جزءاً على حدة. وعن قتادة قوله: ﴿**فإن كان له إخوة فلأمه السدس**﴾ أضروا بالأم ولا يرثون، ولا يحجبها الأخ الواحد من الثلث ويحجبها ما فوق ذلك، وكان أهل العلم يرون أنهم إنما حجبوا أمهم عن الثلث أن أباهم يلي إنكاحهم، ونفقته عليهم دون أمهم، وهذا كلام حسن. لكن روي عن ابن عباس بإسناد صحيح أنه كان يرى أن السدس الذي حجبوه عن أمهم يكون لهم؛ وهذا قول شاذ. قال ابن جرير: وهذا قول مخالف لجميع الأمة.

وقوله: ﴿**من بعد وصية يوصي بها أو دين**﴾ أجمع العلماء سلفاً خلفاً: أن الدَّيْن مقدم على الوصية وذلك عند إمعان النظر يفهم من فحوى الآية الكريمة. وقد روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وأصحاب التفاسير من حديث علي بن أبي طالب، قال: إنكم تقرؤون ﴿**من بعد وصية يوصي بها أو دين**﴾ وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية، وإن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العَلَّات، يرث الرجل أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه. ثم قال الترمذي: لا نعرفه إلا من حديث الحارث الأعور، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم. قلت: لكن كان حافظاً للفرائض معتنياً بها وبالحساب، فالله أعلم.

وقوله: ﴿**آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً**﴾ أي إنما فرضنا للآباء والأبناء، وساوينا بين الكل في أصل الميراث على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية وعلى خلاف ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من كون المال للولد وللأبوين الوصية، كما تقدم عن ابن عباس، إنما نسخ الله ذلك إلى هذا ففرض لهؤلاء ولهؤلاء بحسبهم، لأن الإنسان قد يأتيه النفع الدنيوي أو الأخروي أو هما من أبيه ما لا يأتيه من ابنه، وقد يكون بالعكس، فلهذا قال ﴿**آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً**﴾ أي كأن النفع متوقع ومرجو من هذا كما هو متوقع ومرجو من الآخر؛ فلهذا فرضنا لهذا ولهذا، وساوينا بين القسمين في أصل الميراث، والله أعلم.

وقوله: ﴿**فريضة من الله**﴾ أي هذا الذي ذكرناه من تفصيل الميراث وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض، هو فرض من الله حكم به وقضاه، والله عليم حكيم الذي يضع الأشياء في محالها، ويعطي كلاً ما يستحقه بحسبه؛ ولهذا قال: ﴿**إن الله كان عليماً حكيماً**﴾.

﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى الثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

يقول تعالى: ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم إذا مُتْن عن غير ولد، فإن كان لهن ولد، فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين. وقد تقدم أن الدين مقدم على الوصية، وبعده الوصية ثم الميراث، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب. ثم قال: ﴿ولهن الربع مما تركتم﴾ وسواء في الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان الاثنتان والثلاث والأربع يشتركن فيه. وقوله: ﴿من بعد وصية﴾ إلخ الكلام عليه كما تقدم، وقوله: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة﴾ الكلالة مشتقة من الإكليل، وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه، والمراد هنا من يرثه من حواشيه لا أصوله ولا فروعه، كما روى الشعبي عن أبي بكر الصديق أنه سئل عن الكلالة، فقال: أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه، الكلالة من لا ولد له ولا والد، فلما ولي عمر قال: إني لأستحي أن أخالف أبا بكر في رأي رآه. وعن ابن عباس قال: كنت آخر الناس عهداً بعمر، فسمعته يقول: القول ما قلت وما قلت وما قلت، قال: الكلالة من لا ولد له ولا والد. وهكذا قال علي وابن مسعود وصح عن غير وجه عن ابن عباس وزيد بن ثابت، وبه يقول الشعبي والنخعي والحسن البصري وقتادة وجابر بن زيد والحكم، وبه يقول أهل المدينة والكوفة والبصرة، وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف، بل جميعهم، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد، قال أبو الحسين بن اللبان وقد روي عن ابن عباس ما يخالف ذلك، وهو أنه من لا ولد له، والصحيح عنه الأول، ولعل الراوي ما فهم عنه ما أراد.

وقوله: ﴿وله أخ أو أخت﴾ أي من أم كما هو في قراءة بعض السلف، منهم سعد بن أبي وقاص، وكذا فسرها أبو بكر الصديق فيما رواه قتادة عنه ﴿فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه **أحدها**: أنهم يرثون مع من أدلوا به، وهي الأم. **الثاني**: أن ذكرهم وأنثاهم سواء. **الثالث**: أنهم لا يرثون إلا إن كان ميتهم يورث كلالة، فلا يرثون مع أب ولا جد ولا ولد ولا ولد ابن. **الرابع**: أنهم لا يزادون على الثلث، وإن كثر ذكورهم وإناثهم. عن الزهري، قال: قضى عمر أن ميراث الإخوة من الأم بينهم، للذكر مثل الأنثى، قال الزهري: ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علم بذلك من رسول الله ﷺ، ولهذه الآية هي التي قال الله تعالى ﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم

شركاء في الثلث﴾.

واختلف العلماء في المسألة المشتركة، وهي زوج وأم أو جدة واثنان من ولد الأم وواحد أو أكثر من ولد الأبوين، فعلى قول الجمهور للزوج النصف، وللأم أو الجدة السدس ولولد الأم الثلث ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو إخوة الأم، وقد وقعت هذه المسألة في زمن أمير المؤمنين عمر، فأعطى الزوج النصف، والأم السدس، وجعل الثلث لأولاد الأم، فقال له أولاد الأبوين: يا أمير المؤمنين، هب أن أبانا كان حماراً، ألسنا من أم واحدة ؟ فشرك بينهم وصح التشريك عنه وعن عثمان، وهو إحدى الروايتين عن ابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس رضي الله عنهم، وبه يقول سعيد بن المسيب وشريح القاضي وإبراهيم النخعي [وغيرهم]، وهو مذهب مالك والشافعي وإسحاق بن راهويه، وكان علي بن أبي طالب لا يشرك بينهم، بل يجعل الثلث لأولاد الأم، ولا شيء لأولاد الأبوين، والحالة هذه لأنهم عصبة. وقال وكيع بن الجراح: لم يختلف عنه في ذلك. وهذا قول أبي بن كعب وأبي موسى الأشعري. وهو المشهور عن ابن عباس. وهو مذهب أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن والإمام أحمد بن حنبل وداود بن علي الظاهري [وغيرهم].

وقوله: ﴿**من بعد وصية يوصَى بها أو دين غير مضار**﴾ أي لتكون وصيته على العدل لا على الإضرار والجور والحيف بأن يحرم بعض الورثة أو ينقصه، أو يزيده على ما قدَّر الله له من الفريضة، فمتى سعى في ذلك، كان كمن ضاد الله في حكمته، وقسمته. عن ابن عباس : الإضرار في الوصية من الكبائر.

ولهذا اختلف الأئمة في الإقرار للوارث، هل هو صحيح أم لا ؟ على قولين أحدهما: لا يصح لأنه مظنة التهمة أن يكون قد أوصى له بصيغة الإقرار. وقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث». [صحيح بطرقه وقيل المتن متواتر]. وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل، والقول القديم للشافعي رحمهم الله، وذهب في الجديد إلى أنه يصح الإقرار. وهو مذهب طاوس وعطاء والحسن وعمر بن عبد العزيز، وهو اختيار أبي عبد الله البخاري في صحيحه، واحتج بأن رافع بن خديج أوصى أن لا تكشف الفَزَارية [زوجته] عما أغلق عليه بابها، قال: وقال بعض الناس لا يجوز إقراره لسوء الظن به للورثة، وقد قال النبي ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث» وقال الله تعالى: ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**﴾ [النساء:٥٨] فلم يخص وارثاً ولا غيره، انتهى ماذكره. فمتى كان الإقرار صحيحاً مطابقاً لما في نفس الأمر، جرى فيه هذا الخلاف، ومتى كان حيلة ووسيلة إلى زيادة بعض الورثة ونقصان بعضهم، فهو حرام بالإجماع وبنص هذه الآية الكريمة ﴿**غير مضار وصية من الله، والله عليم حليم**﴾.

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

أي هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قُربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه، هي حدود الله، فلا تعتدوها ولا تجاوزوها، ولهذا قال: ﴿**ومن يطع الله ورسوله**﴾ أي فيها فلم يزد بعض الورثة ولم ينقص بعضا بحيلة ووسيلة، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته ﴿**يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين**﴾ أي لكونه غير ما حكم الله به وضاد الله في حكمه، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم.

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا زنت وثبت زناها بالبينة العادلة، حُبست في بيت فلا تُمكن من الخروج منه إلى أن تموت، ولهذا قال: ﴿**واللاتي يأتين الفاحشة**﴾ يعني الزنا ﴿**من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم، فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً**﴾ فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك، قال ابن عباس رضي الله عنه: كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور، فنسخها بالجلد أو الرجم، وكذا رُوى عن عكرمة، وسعيد بن جبير والحسن وعطاء الخراساني وأبي صالح وقتادة وزيد بن أسلم والضحاك، أنها منسوخة، وهو أمر متفق عليه. روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت، قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي، أثَّر عليه، وكرب لذلك، وتَرَبَّد وجهه، فأنزل الله عز وجل عليه ذات يوم، فلما سُرِّيَ عنه، قال: «خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً، الثيب بالثيب، والبكر بالبكر، الثيب جلد مائة ورجم بالحجارة، والبكر جلد مائة ثم نفي سنة» رواه مسلم.

وقد ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى القول بمقتضى هذا الحديث، وهو الجمع بين الجلد والجلد في حق الثيب الزاني، وذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما يرجم فقط من غير جلد، قالوا: لأن النبي ﷺ رجم ماعزا والغامدية واليهوديين، ولم يجلدهم قبل ذلك، فدل على أن الرجم ليس بحتم، بل هو منسوخ على قولهم، والله أعلم. وقوله: ﴿**واللذان يأتيانها منكم فآذوهما**﴾ أي واللذان يأتيان الفاحشة فآذوهما، قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما: أي بالشتم والتعيير والضرب بالنعال، وكان الحكم كذلك، حتى نسخه الله بالجلد أو الرجم، وقال عكرمة وعطاء والحسن وعبد الله بن كثير: نزلت في الرجل والمرأة إذا زنيا. وقال السدي: نزلت في الفتيان من قبل أن يتزوجوا. وقال مجاهد: نزلت في الرجلين إذا فعلا

ـ لا يكنى، وكأنه يريد اللواط ـ والله أعلم. وقوله: ﴿فإن تابا وأصلحا﴾ أي أقلعا ونزعا عما كانا عليه وصلحت أعمالهما وحسنت، ﴿فأعرضوا عنهما﴾ أي لا تعنِّفُوهما بكلام قبيح بعد ذلك، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿إن الله كان تواباً رحيماً﴾. وقد ثبت في الصحيحين: «إذا زنت أمة أحدكم، فليجلدها الحد ولا يثرب عليها» أي لا يُعيِّرُها بما صنعت بعد الحد الذي هو كفارة لما صنعت.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

يقول سبحانه وتعالى: إنما يتقبل الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة ثم يتوب ولو قبل معاينة الملك لقبض روحه قبل الغرغرة. قال مجاهد وغير واحد: كل من عصى الله خطأ أو عمداً، فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب، وعن أبي العالية أنه كان يحدث: أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة، رواه ابن جرير. وعن قتادة قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عصي به، فهو جهالة عمداً كان أو غيره. وعن مجاهد، قال: كل عامل بمعصية الله فهو جاهل حين عملها. وعن عطاء بن أبي رباح، نحوه. وعن ابن عباس: مِنْ جَهالته عمل السوء.

وعن ابن عباس ﴿ثم يتوبون من قريب﴾ قال: ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت. وقال الضحاك: ما كان دون الموت فهو قريب. وقال قتادة والسدي: ما دام في صحته، وهو مروي عن ابن عباس. وقال الحسن البصري: ﴿ثم يتوبون من قريب﴾، مالم يغرغر. وقال عكرمة: الدنيا كلها قريب.

روى الإمام أحمد عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر» رواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب. [والأحاديث في هذا المعنى كثيرة].

فقد دل [ذلك] على أن من تاب إلى الله عز وجل وهو يرجو الحياة، فإن توبته مقبولة، ولهذا قال تعالى: ﴿فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً﴾ فأما متى وقع الإياس من الحياة، وعاين الملك، وحشرجت الروح في الحلق وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس فلا توبة مقبولة حينئذ، ولات حين مناص، ولهذا قال: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ وهذا كما قال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده﴾ الآيتين [غافر: ٨٤-٨٥].

وقوله: ﴿ولا الذين يموتون وهم كفار﴾ يعني أن الكافر إذا مات على كفره وشركه لا ينفعه ندمه ولا توبته، ولا يقبل منه فدية ولو بملء الأرض. قال ابن عباس وأبو العالية والربيع بن أنس ﴿ولا الذين يموتون وهم كفار﴾ قالوا: نزلت في أهل الشرك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك

أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ أي موجعاً شديداً مقيماً.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

روى البخاري عن ابن عباس في قوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾** قال: كانوا إذا مات الرجل، كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاؤوا زوجوها، وإن شاؤوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك. وعن ابن عباس أيضا قال: كان الرجل إذا مات وترك جارية، ألقى عليها حميمُه ثوبَه فمنعها من الناس فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها. وبنحوه عن عطاء ومجاهد والسدي.

وقال زيد بن أسلم في الآية: كان أهل يثرب إذا مات الرجل منهم في الجاهلية، ورث امرأته من يرث ماله، وكان يعضُلها حتى يرثها، أو يزوجها من أراد، وكان أهل تُهامة يُسيء الرجل صحبة المرأة حتى يطلقها، ويشترط عليها أن لا تنكح إلا من أراد حتى تفتدي منه ببعض ما أعطاها، فنهى الله المؤمنين عن ذلك.

وقال مجاهد في الآية: كان الرجل يكون في حجره اليتيمة هو يلي أمرها، فيحبسها رجاء أن تموت امرأته فيتزوجها أو يزوجها ابنه، رواه ابن أبي حاتم. ثم [حكى عن] الشعبي وعطاء والزهري [وغيرهم]، نحو ذلك. قلت: فالآية تعم ما كان يفعله أهل الجاهلية وما ذكره مجاهد، ومن وافقه، وكل ما كان فيه نوع من ذلك، والله أعلم.

وقوله: **﴿ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾** أي لا تُضَارّوهن في العشرة، لتترك لك ما أصدقتها أو بعضه أو حقاً من حقوقها عليك، أو شيئاً من ذلك على وجه القهر لها والاضطهاد. وعن ابن عباس في قوله: **﴿ولا تعضلوهن﴾** يقول: ولا تقهروهن **﴿لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾** يعني الرجل، تكون له امرأة وهو كاره لصحبتها، ولها عليه مهر فيضرها لتفتدي، وكذا قال الضحاك وقتادة، واختاره ابن جرير. وعن ابن البَيْلَماني قال: نزلت هاتان الآيتان، إحداهما في أمر الجاهلية، والأخرى في أمر الإسلام. قال عبد الله بن المبارك: يعني قوله: **﴿لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾** في الجاهلية، **﴿ولا تعضلوهن﴾** في الإسلام.

وقوله: **﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾** قال ابن مسعود وابن عباس والحسن البصري ومجاهد [وغيرهم]: يعني بذلك الزنا، يعني إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها،

وتُضَاجرها حتى تتركه لك، وتخالعها، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿**ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله**﴾ الآية [البقرة:٢٢٩]، وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك: الفاحشة المبينة: النشوز والعصيان، واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله: الزنا والعصيان، والنشوز وبَذاء اللسان، وغير ذلك. يعني أن هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تبرئه من حقها أو بعضه ويفارقها، وهذا جيد، والله أعلم. وعن ابن عباس في قوله ﴿**لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبيّنة**﴾ قال: وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته فيعضلها حتى تموت، أو ترد إليه صداقها، فأحكم الله عن ذلك، أي نهى عن ذلك. وهكذا قال عكرمة والحسن البصري. وهذا يقتضي أن يكون السياق كله كان في أمر الجاهلية، ولكن نهي المسلمون عن فعله في الإسلام. قال عبد الرحمن بن زيد: كان العَضْل في قريش بمكة، ينكح الرجل المرأة الشريفة، فلعلها لا توافقه، فيفارقها على أن لا تتزوج إلا بإذنه، فيأتي بالشهود فيكتب ذلك عليها ويشهد، فإذا خطبها الخاطب فإن أعطته وأرضته أذن لها وإلا عَضلها قال: فهذا قوله: ﴿**ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن**﴾ الآية، وقال مجاهد في قوله: ﴿**ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن**﴾ هو كالعضل في سورة البقرة.

وقوله: ﴿**وعاشروهن بالمعروف**﴾ أي طيبوا أقوالكم لهن، وحَسّنُوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿**ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف**﴾ وقال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» [أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب]. وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العِشْرَة دائم البِشْرِ، يُداعِب أهله، ويتلطَّف بهم، ويُوسِّعُهُم نَفَقَته، ويُضاحك نساءه، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين، يتودد إليها بذلك، قالت: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبقني، فقال «هذه بتلك» [أخرجه النسائي في الكبري وابن ماجه وسنده جيد]، ويجتمع نساؤه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها، وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد، يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يَسْمُر مع أهله قليلاً قبل أن ينام، يُؤانسهم بذلك ﷺ. وقد قال الله تعالى: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾ [الأحزاب:٢١].

وقوله: ﴿**فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً**﴾ أي فعسى أن يكون صبركم مع إمساككم لهن وكراهتهن فيه، خير كثير لكم في الدنيا والآخرة، كما قال ابن عباس في هذه الآية: هو أن يعطف عليها فيرزق منها ولداً، ويكون في ذلك الولد خير كثير، وفي الحديث الصحيح: «لا يَفْرَكْ مؤمن مؤمنة إن سَخِطَ منها خُلُقاً رضي منها آخر»[أخرجه مسلم].

وقوله: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ أي إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة ويستبدل مكانها غيرها فلا يأخذ مما كان أصدق الأولى شيئاً ولو كان قنطاراً من مال. وفي هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل، وقد كان عمر بن الخطاب نهى عن كثرة الإصداق، ثم رجع عن ذلك، كما روى الإمام أحمد عن أبي العجفاء السلمي، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: ألا لا تُغْلُوا في صَداق النساء، فإنها لو كانت مَكْرُمَة في الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم بها النبي ﷺ، ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نسائه ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوُقِيَّة، وإن كان الرجل ليبتلى بصدقة امرأته حتى يكون لها عداوة في نفسه وحتى يقول: كَلِفْتُ إليك عَلَق القِرْبة، ثم رواه الإمام أحمد وأهل السنن من طرق عن أبي العجفاء واسمه هرم بن مُسَيب البصري، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

ولهذا قال الله منكراً: ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ أي وكيف تأخذون الصداق من المرأة وقد أفضيت إليها وأفضت إليك. قال ابن عباس ومجاهد والسدي وغير واحد: يعني بذلك الجماع. وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال للمتلاعنين بعد فراغهما من تلاعنهما: «الله يعلم أن أحدكما كاذب. فهل منكما تائب؟» ثلاثاً، فقال الرجل: يا رسول الله مالي - يعني ما أصدقها - قال: «لا مال لك. إن كنت صدقت عليها فهو بما استحللت من فرجها، وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها».

فالصداق في مقابلة البُضع؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾.

وقوله: ﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير، أن المراد بذلك العَقْد. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ قال: قوله: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. قال ابن أبي حاتم: وروي عن عكرمة ومجاهد وأبي العالية والحسن وقتادة ويحيى بن أبي كثير والضحاك والسدي، نحو ذلك. وعن الربيع بن أنس «كلمة الله» هي التشهد في الخِطبة. وفي صحيح مسلم عن جابر في خطبة حجة الوداع أن النبي ﷺ قال فيها: «واستوصوا بالنساء خيراً فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

وقوله: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ الآية، يُحَرم الله تعالى زوجات الآباء تكرمة لهم، وإعظاماً واحتراماً أن توطأ من بعده، حتى إنها لتحرم عن الابن بمجرد العقد عليها، وهذا أمر مجمع عليه.

وعن عكرمة في قوله ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف﴾ قال: نزلت في أبي قيس بن الأسلت خلف على أم عبيد الله بنت صخر، وكانت تحت الأسلت أبيه،

وفي الأسود بن خلف، وكان خلف على ابنة أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، وكانت عند أبيه خلف، وفي فاختة ابنة الأسود بن المطلب بن أسد كانت عند أمية بن خلف، فخلف عليها صفوان بن أمية. وقد زعم السهيلي أن نكاح نساء الآباء كان معمولاً به في الجاهلية، ولهذا قال: ﴿**إلا ما قد سلف**﴾ كما قال ﴿**وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف**﴾ قال: وقد فعل ذلك كنانة بن خزيمة، تزوج بامرأة أبيه، فأولدها ابنه النضر بن كنانة، قال: وقد قال ﷺ: «ولدت من نكاح لا من سِفَاح» قال: فدل على أنه كان سائغاً لهم ذلك، فإن أراد أن ذلك كان عندهم يعدونه نكاحاً فيما بينهم. فقد روى ابن جرير عن ابن عباس، قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فأنزل الله تعالى: ﴿**ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء**﴾ ﴿**وأن تجمعوا بين الأختين**﴾، وهكذا قال عطاء وقتادة، ولكن فيما نقله السهيلي من قصة كنانة نظر، والله أعلم، وعلى كل تقدير فهو حرام في هذه الأمة، مُبَشَّع غاية التبشيع، ولهذا قال: ﴿**إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً**﴾ ولهذا قال: ﴿**ولاتقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن**﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال ﴿**ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً**﴾ [الإسراء: ٣٢]. فزاد ههنا ﴿**ومقتاً**﴾ أي بغضاً أي هو أمر كبير في نفسه، ويؤدي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله؛ ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة لأنهن أمهات لكونهن زوجات النبي ﷺ وهو كالأب، بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه.

وقال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿**ومقتاً**﴾ أي يمقت الله عليه، ﴿**وساء سبيلاً**﴾ أي وبئس طريقاً لمن سلكه من الناس، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه، فيقتل ويصير ماله فيئاً لبيت المال. كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن البراء بن عازب، عن أبي بردة [بن نيار] أنه بعثه رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن يقتله ويأخذ ماله. [وقال الترمذي: حسن غريب].

وقد أجمع العلماء على تحريم من وطئها الأب بتزويج أو ملك أو بشبهة أيضاً، واختلفوا فيمن باشرها بشهوة دون الجماع، أو نظر إلى ما لا يحل له النظر إليه منها لو كانت أجنبية، فعن الإمام أحمد رحمه الله أنها تحرم أيضاً بذلك.

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ

ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤)﴾.

هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب وما يتبعه من الرضاع والمحارم بالصهر، كما روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: حرمت عليكم سبع نسباً وسبع صهراً، وقرأ: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم﴾ الآية.

وقد استدل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه بعموم قوله تعالى: ﴿وبناتكم﴾ فإنها بنت، فتدخل في العموم كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل، وقد حكي عن الشافعي شيء في إباحتها لأنها ليست بنتاً شرعية، فكما لم تدخل في قوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ فإنها لا ترث بالإجماع، فكذلك لا تدخل في هذه الآية، والله أعلم.

وقوله: ﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾ أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك، ولهذا روى البخاري ومسلم عن عائشة أم المؤمنين، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرضاعة تحرّم ما تحرّم الولادة»، وقد قال بعض الفقهاء: كل ما يحرم بالنسب يحرم بالرضاع إلا في صور، مذكورة في كتب الفروع. والتحقيق أنه لا يستثنى شيء من ذلك؛ لأنه يوجد مثل بعضها في النسب، وبعضها إنما يحرم من جهة الصهر، فلا يرد على الحديث شيء أصلاً البتة، ولله الحمد.

ثم اختلف الأئمة في عدد الرضعات المحرمة، فذهب ذاهبون إلى أنه يحرم مجرد الرضاع لعموم هذه الآية، وهذا قول مالك، ويروى عن ابن عمر، وإليه ذهب سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير والزهري. وقال آخرون: لا يحرم أقل من ثلاث رضعات، لما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحرم المصة ولا المصتان». وعن أم الفضل قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تحرم الرضعة ولا الرضعتان، ولا المصة ولا المصتان» رواه مسلم. وممن ذهب إلى هذا القول: الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، وأبو عبيد وأبو ثور، وهو محكي عن علي وعائشة وأم الفضل وابن الزبير وسليمان بن يسار وسعيد بن جبير رحمهم الله.

وقال آخرون: لا يحرم أقل من خمس رضعات، لما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن: «عشر رضعات معلومات يحرمن» ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي النبي ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن. وفي حديث سَهْلة بنت سهيل، أن رسول الله ﷺ أمرها أن تُرْضع مولى أبي حذيفة خمس رضعات، وكانت عائشة تأمر من يريد أن يدخل عليها أن يُرْضع خمس رضعات، وبهذا قال الشافعي رحمه الله تعالى وأصحابه.

ثم ليعلم أنه لا بد أن تكون الرضاعة في سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور.

ثم اختلفوا هل يحرم لبن الفَحْل، كما هو قول جمهور الأئمة الأربعة وغيرهم، أو إنما يختص الرضاع بالأم فقط، ولا ينتشر إلى ناحية الأب، كما هو لبعض السلف ؟ على قولين، تحرير هذا كله في كتاب الأحكام الكبير.

وقوله: **﴿وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾** أما أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على ابنتها، سواء دخل بها أو لم يدخل بها، وأما الربيبة وهي بنت المرأة فلا تحرم بمجرد العقد على أمها حتى يدخل بها، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها؛ ولهذا قال: **﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾** في تزويجهن، فهذا خاص بالربائب وحدهن. وقد فهم بعضهم عود الضمير إلى الأمهات والربائب، فقال: لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها، لقوله: **﴿فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾**. وعن علي رضي الله عنه، في رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها، أيتزوج أمها ؟ قال: هي بمنزلة الربيبة. وعن زيد بن ثابت، قال: إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها فلا بأس أن يتزوج أمها. و[عنه] أنه كان يقول: إذا ماتت عنده وأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها، فإذا طلقها قبل أن يدخل بها فإن شاء فعل. وعن بكر بن كنانة أن أباه أنكحه امرأة بالطائف، قال: فلم أجامعها حتى توفى عَمي عن أمها، وأمها ذات مال كثير، فقال أبي: هل لك في أمها ؟ قال: فسألت ابن عباس وأخبرته الخبر، فقال: انكح أمها ؟ قال: فسألت ابن عمر، فقال: لا تنكحها، فأخبرت أبي ما قال ابن عباس وما قال ابن عمر، فكتب إلى معاوية فأخبره بما قالا، فكتب معاوية: إني لا أحل ما حرم الله، ولا أحرم ما أحل الله، وأنت وذاك والنساء سواها كثير. فلم ينه ولم يأذن لي فانصرف أبي عن أمها فلم ينكحها.

وعن مجاهد قال: **﴿وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم﴾** أراد بهما الدخول جميعاً، فهذا القول كما ترى مروي عن علي وزيد بن ثابت ومجاهد وسعيد بن جبير وابن عباس، وقد توقف فيه معاوية. وذهب إليه من الشافعية أبو الحسن أحمد بن محمد بن الصابوني فيما نقله الرافعي عن العبادي.

وقد خالفه جمهور العلماء من السلف والخلف، فرأوا أن الربيبة لا تحرم بمجرد العقد على الأم، وأنها لا تحرم إلا بالدخول بالأم، بخلاف الإم فإنها تحرم بمجرد العقد على الربيبة.

عن ابن عباس، أنه كان يقول: إذا طلق الرجل امرأة قبل أن يدخل بها أو ماتت لم تحل له أمها، وروي أنه قال: إنها مبهمة، فكرهها. قال [ابن أبي حاتم] وروي عن ابن مسعود والحسن ومكحول [وجماعة] نحو ذلك. وهذا مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة، وجمهور الفقهاء قديماً وحديثاً، ولله الحمد والمنة.

قال ابن جرير: والصواب قول من قال: الأم من المبهمات؛ لأن الله لم يشرط معهن الدخول كما شرط ذلك مع أمهات الربائب، مع أن ذلك أيضاً إجماع من الحجة التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به متفقة عليه.

وأما قوله: ﴿**وربائبكم اللاتي في حجوركم**﴾ فجمهور الأئمة على أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل، أو لم تكن في حجره، قالوا: وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، كقوله تعالى: ﴿**ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا**﴾ [النور:٣٣]. وفي الصحيحين أن أم حبيبة قالت: يا رسول الله أنكح أختي بنت أبي سفيان، وفي لفظ لمسلم عزَة بنت أبي سفيان، قال: «أو تحبين ذلك» ؟ قالت: نعم لست لك بُمخْلِيَة، وأحب من شاركني في خير أختي، قال: «فإن ذلك لا يَحل لي». قالت: فإنا نُحَدثُ أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة، قال «بنت أم سلمة» ؟ قالت: نعم. قال: «إنها لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حَلّت لي، إنها لبنت أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثُوَيْبَة، فلا تَعْرِضْن علي بناتكن ولا أخواتكن» وفي رواية للبخاري «إني لو لم أتزوج أم سلمة ما حلت لي». فجعل المناط في التحريم مجرد تزوجه أم سلمة، وحكم بالتحريم لذلك، وهذا هو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وجمهور الخلف والسلف وقد قيل: بأنه لا تحرم الربيبة إلا إذا كانت في حجر الرجل، فإذا لم تكن كذلك فلا تحرم. وروى ابن أبي حاتم عن مالك بن أوس بن الحدثان، قال: كانت عندي امرأة فتوفيت، وقد ولدت لي. فوجدْت عليها، فلقيني علي بن أبي طالب فقال: مالك ؟ فقلت: توفيت المرأة. فقال علي: لها ابنة ؟ قلت: نعم وهي بالطائف. قال: كانت في حجرك ؟ قلت: لا، هي بالطائف قال: فانكحها، قلت: فأين قول الله: ﴿**وربائبكم اللاتي في حجوركم**﴾ ؟ قال: إنها لم تكن في حجرك إنما ذلك إذا كانت في حجرك، هذا إسناده قوي ثابت إلى علي بن أبي طالب على شرط مسلم، وهو قول غريب جداً، وإلى هذا ذهب داود بن علي الظاهري وأصحابه. وحكاه أبو القاسم الرافعي عن مالك رحمه الله، واختاره ابن حزم، وحكى لي شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي أنه عرض هذا على الشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله، فاستشكله وتوقف في ذلك، والله أعلم. وعن أبي عبيدة قوله: ﴿**اللاتي في حجوركم**﴾، قال: في بيوتكم.

وأما الربيبة في ملك اليمين فعن ابن عباس (سئل): أيقع الرجل على امرأة وابنتها مملوكين له ؟ فقال: أحلتهما آية وحرمتهما آية، ولم أكن لأفعله. وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله: لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة وبنتها من ملك اليمين، لأن الله حرم ذلك في النكاح، قال: ﴿**وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم**﴾ وملك اليمين هم تبع للنكاح، إلا ما روي عن عمر وابن عباس، وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى ولا من تبعهم.

وعن قتادة: بنت الربيبة وبنت ابنتها لا تصلح وإن كانت أسفل ببطون كثيرة، وكذا قال أبو العالية. ومعنى قوله تعالى: ﴿**اللاتي دخلتم بهن**﴾ أي نكحتموهن، قاله ابن عباس وغير واحد. وقال عطاء: هو أن تهدى إليه فيكشف ويعتس [أي يلمس] ويجلس بين رجليها. وقلت: أرأيت إن فعل ذلك في بيت أهلها؟ قال: هو سواء، وحسبه قد حَرَّمَ ذلك عليه ابنتها. وقال ابن جرير: وفي إجماع الجميع على أن خلوة الرجل بامرأة لا يحرّم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها أو قبل النظر إلى فرجها بشهوة ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع.

وقوله: ﴿**وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم**﴾ أي وحرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم، يحترز بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية. كما قال تعالى: ﴿**فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم**﴾ الآية [الأحزاب:٣٧]، وقال ابن جريج: سألت عطاء عن قوله ﴿**وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم**﴾. قال: كنا نُحَدِّث ـ والله أعلم ـ أن النبي ﷺ لما نكح امرأة زيد، قال المشركون بمكة في ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿**وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم**﴾ ونزلت ﴿**وما جعل أدعياءكم أبناءكم**﴾ [الأحزاب:٤]، ونزلت: ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم**﴾ [الأحزاب:٤٠]، وعن الحسن بن محمد: أن هؤلاء الآيات مبهمات: ﴿**وحلائل أبنائكم**﴾ ﴿**وأمهات نسائكم**﴾ ثم قال: وروي عن طاوس وإبراهيم والزهري ومكحول، نحو ذلك.

قلت: معنى مبهمات أي عامة في المدخول بها وغير المدخول، فتحرم بمجرد العقد عليها، وهذا متفق عليه، فإن قيل: فمن أين تحرم امرأة ابنه من الرضاعة كما هو قول الجمهور، ومن الناس من يحكيه إجماعاً وليس من صلبه، فالجواب من قوله ﷺ: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**» [رواه مسلم].

وقوله: ﴿**وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف**﴾ الآية. أي وحرم عليكم الجمع بين الأختين معاً في التزويج، وكذا في ملك اليمين إلا ما كان منكم في جاهليتكم فقد عفونا عن ذلك وغفرناه. فدل على أنه لا مثنوية فيما يستقبل ولا استثناء فيما سلف، كما قال: ﴿**لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى**﴾ [الدخان:٥٦] فدل على أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديماً وحديثاً على أنه يحرم الجمع بين الأختين في النكاح، ومن أسلم وتحته أختان، خيّر فيمسك إحداهما ويطلق الأخرى لا محالة. روى الإمام أحمد عن فيروز الديلمي قال: أسلمت وعندي امرأتان أختان، فأمرني النبي ﷺ أن أطلق إحداهما. رواه الإمام أحمد وأبوداود والترمذي وحسنه وابن ماجه.

وأما الجمع بين الأختين في ملك اليمين فحرام أيضاً لعموم الآية. فعن ابن مسعود أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين، فكرهه فقال له ـ يعني السائل: يقول الله تعالى: ﴿**إلا ما ملكت أيمانكم**﴾

فقال له ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: وبعيرك مما ملكت يمينك. وهذا هو المشهور عن الجمهور والأئمة الأربعة وغيرهم، وإن كان بعض السلف قد توقف في ذلك.

وعن ابن مسعود، قال: يحرم من الإماء ما يحرم من الحرائر إلا العدد، وعن ابن سيرين والشعبي نحو ذلك. قال أبو عمر [ابن عبدالبر]: وقد روي مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عباس، ولكنهم اختلف عليهم، ولم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار والحجاز ولا بالعراق ولا ما وراءهما من المشرق ولا بالشام ولا المغرب، إلا من شذ عن جماعتهم باتباع الظاهر ونفي القياس، وقد ترك من يعمل ذلك ما اجتمعنا عليه، وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء كما لا يحل ذلك في النكاح. وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله: **﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم﴾** إلى آخر الآية، أن النكاح وملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء، فكذلك يجب أن يكون نظراً وقياساً الجمع بين الأختين وأمهات النساء والربائب. وكذلك هو عند جمهورهم، وهم الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها، والله المحمود.

وقوله تعالى: **﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾** أي وحرم عليكم من الأجنبيات المحصنات، وهن المزوجات **﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾**، يعني إلا ما ملكتموهن بالسبي فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن، فإن الآية نزلت في ذلك. روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري، قال: أصبنا نساء من سبي أوطاس، ولهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: **﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾** فاستحللنا بها فروجهن. [ورواه مسلم].

وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن بيع الأمة يكون طلاقاً لها من زوجها أخذاً بعموم هذه الآية. فعن إبراهيم أنه سئل عن الأمة تباع ولها زوج ؟ قال: كان عبد الله يقول: بيعها طلاقها. ويتلو هذه الآية **﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾**. وعن أبي بن كعب وجابر بن عبد الله وابن عباس، قالوا: بيعها طلاقها. وعن ابن عباس، قال: طلاق الأمة: بيعها طلاقها، وعتقها طلاقها، وهبتها طلاقها، وبراءتها طلاقها، وطلاق زوجها طلاقها. وعن ابن المسيب قوله: **﴿والمحصنات من النساء﴾** قال: هُنَّ ذوات الأزواج حرم الله نكاحهن إلا ما ملكت يمينك، فبيعها طلاقها. وقال الحسن مثل ذلك.

فهذا قول هؤلاء من السلف، وقد خالفهم الجمهور قديماً وحديثاً، فرأوا أن بيع الأمة ليس طلاقاً لهما لأن المشتري نائب عن البائع، والبائع كان قد أخرج عن ملكه هذه المنفعة وباعها مسلوبة عنها، واعتمدوا في ذلك على حديث بريرة المخرج في الصحيحين وغيرهما، فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها ونَجَزَّتْ عتقها، ولم ينفسخ نكاحها من زوجها مغيث، بل خيرها رسول الله ﷺ، بين الفسخ والبقاء، فاختارت الفسخ وقصتها مشهورة، فلو كان بيع الأمة

طلاقها كما قال هؤلاء لما خيرها النبي ﷺ، فلما خيرها دل على بقاء النكاح، وأن المراد من الآية المسبيات فقط، والله أعلم. وقد قيل: المراد بقوله: ﴿والمحصنات من النساء﴾ يعني العفائف حرام عليكم حتى تملكوا عصمتهن بنكاح وشهود ومهور وولي، واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً، حكاه ابن جرير عن أبي العالية وطاوس وغيرهما. وقال عبيدة: ﴿والمحصنات من النساء﴾ ما عدا الأربع حرام عليكم إلا ما ملكت أيمانكم.

وقوله تعالى: ﴿كتاب الله عليكم﴾ أي هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم، فالزموا كتابه، ولا تخرجوا عن حدوده، والزموا شرعه وما فرضه. وقال عبيدة وعطاء والسدي في قوله ﴿كتاب الله عليكم﴾ يعني الأربع. وقال إبراهيم ﴿كتاب الله عليكم﴾ يعني ما حرم عليكم. وقوله تعالى: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ أي ما عدا من ذكرن من المحارم، هن لكم حلال، قاله عطاء وغيره. وقال عبيدة والسدي ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ ما دون الأربع، وهذا بعيد، والصحيح قول عطاء كما تقدم. وقال قتادة: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ يعني ما ملكت أيمانكم، وهذه الآية هي التي احتج بها من احتج على تحليل الجمع بين الأختين، وقول من قال: أحلتهما آية وحرمتهما آية.

وقوله: ﴿أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين﴾ أي تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع، أو السراري ما شئتم بالطريق الشرعي؛ ولهذا قال: ﴿محصنين غير مسافحين﴾. وقوله تعالى: ﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة﴾ أي كما تستمتعون بهن فآتوهن مهورهن في مقابلة ذلك، كقوله: ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ [النساء:٢١]، وكقوله: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾ [النساء:٤]، وكقوله: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً﴾ [البقرة:٢٢٩].

وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة، ولا شك أنه كان مشروعاً في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك، وقد ذهب الشافعي وطائفة من العلماء إلى أنه أبيح ثم أبيح ثم نسخ مرتين. وقال آخرون: أكثر من ذلك. وقال آخرون: إنما أبيح مرة ثم نسخ مرة، ثم نسخ، ولم يبح بعد ذلك. وقد روي عن ابن عباس وطائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة، وهو رواية عن الإمام أحمد، وكان ابن عباس وأبي بن كعب وسعيد بن جبير والسدي يقرؤون «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن فريضة»، وقال مجاهد: نزلت في نكاح المتعة، ولكن الجمهور على خلاف ذلك. والعمدة ما ثبت في الصحيحين عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، قال: نهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة، وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر. وفي صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة بن معبد الجهني، عن أبيه، أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، فقال: «يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله،

ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً» وفي رواية لمسلم: في حجة الوداع.

وقوله: ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾ من حمل هذه الآية على نكاح المتعة إلى أجل مسمى، قال: فلا جناح عليكم إذا انقضى الأجل أن تراضوا على زيادة به، وزيادة للجعل، قال السدي: إن شاء أرضاها من بعد الفريضة الأولى، يعني الأجر الذي أعطاها على تمتعه بها قبل انقضاء الأجل بينهما، فقال: أتمتع منك أيضاً بكذا وكذا، فازداد قبل أن يستبرىء رحمها يوم تنقضي المدة، وهو قوله: ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾. قال السدي: إذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل، وهي منه بريئة وعليها أن تستبرىء ما في رحمها، وليس بينهما ميراث، فلا يرث واحد منهما صاحبه، ومن قال بالقول الأول جعل معناه كقوله: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة...﴾ الآية [النساء: ٤]، أي إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو عن شيء منه، فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك. وروى ابن جرير عن المعتمر بن سليمان عن أبيه، قال: زعم الحضرمي أن رجالاً كانوا يفرضون المهر، ثم عسى أن يدرك أحدهم العسرة، فقال: ﴿ولا جناح عليكم﴾ أيها الناس ﴿فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾ يعني إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائغ. واختار هذا القول ابن جرير. وعن ابن عباس: ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾ والتراضي أن يُوَفيها صداقها ثم يخيرها بعدُ في المقام أو الفراق. وقوله: ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات.

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: ومن لم يجد ﴿طولاً﴾ أي سعة وقدرة ﴿أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ أي الحرائر. ﴿فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ أي فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكهن المؤمنون؛ ولهذا قال: ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾، قال ابن عباس وغيره: فلينكح من إماء المؤمنين، وكذا قال السدي ومقاتل بن حيان.

ثم اعترض بقوله: ﴿والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض﴾ أي هو العالم بحقائق الأمور وسرائرها، وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور. ثم قال ﴿فانكحوهن بإذن أهلهن﴾ فدل على أن السيد هو ولي أمته لا تزوج إلا بإذنه، وكذلك هو ولي عبده ليس له أن يتزوج بغير إذنه، كما جاء في الحديث: «أيما عبد تزوج بغير إذن مواليه فهو عاهر» أي زان [رواه أبوداود والترمذي وحسنه]. فإن كان مالك الأمة امرأة زوجها من يزوج المرأة بإذنها.

وقوله: ﴿وآتوهن أجورهن بالمعروف﴾ أي وادفعوا مهورهن بالمعروف، أي عن طيب نفس

منكم، ولا تبخسوا منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات، وقوله: ﴿**محصنات**﴾ أي عفائف عن الزنا لا يتعاطينه، ولهذا قال ﴿**غير مسافحات**﴾ وهن الزواني اللاتي لا يمتنعن من أحد أرادهن بالفاحشة. وقوله: ﴿**ولا متخذات أخدان**﴾، قال ابن عباس: المسافحات هن الزواني المعلنات، يعني الزواني اللاتي لا يمنعن أحداً أرادهن بالفاحشة. و ﴿**متخذات أخدان**﴾ يعني أخلاء، وكذا روي عن أبي هريرة ومجاهد والشعبي والضحاك وعطاء الخراساني ويحيى بن أبي كثير ومقاتل بن حيان والسدي، قالوا: أخلاء. وقال الحسن البصري: يعني الصديق. وقال الضحاك أيضاً ﴿**ولا متخذات أخدان**﴾ ذات الخليل الواحد المقرة به، نهى الله عن ذلك. يعني تزويجها ما دامت كذلك.

وقوله: ﴿**فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب**﴾ واختلفوا فيه على قولين:

أحدهما: أن المراد بالإحصان ههنا الإسلام، وروي ذلك عن عبد الله بن مسعود وابن عمر وأنس وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي [وغيرهم]، وهذا هو القول الذي نص عليه الشافعي في رواية الربيع، قال: وإنما قلنا ذلك، استدلالاً بالسنة، وإجماع أكثر أهل العلم. وقال القاسم وسالم: إحصانها إسلامها وعفافها.

وقيل: المراد به ههنا التزويج، وهو قول ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم. وعن مجاهد أنه قال: إحصان الأمة أن ينكحها الحر، وإحصان العبد أن ينكح الحرة، وكذا روي عن ابن عباس، وذكره ابن أبي حاتم عن الشعبي والنخعي.

والأظهر ـ والله أعلم ـ أن المراد بالإحصان ههنا التزويج، لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿**ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات**﴾ والله أعلم. والآية الكريمة سياقها كلها في الفتيات المؤمنات فتعين أن المراد بقوله: ﴿**فإذا أحصن**﴾ أي تزوجن، كما فسره ابن عباس ومن تبعه.

وقد وردت أحاديث عامة في إقامة الحد على الإماء، فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن علي رضي الله عنه أنه خطب فقال: يا أيها الناس أقيموا على أرقَّائكم الحد من أُحْصَنَ منهم ومن لم يُحْصَن، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت، فأمرني أن أجلدها، فإذا هي حديثة عهد بنفاس فخشيت إن جلدتها أن أقتلها، فذكرت ذلك لنبي الله ﷺ فقال: «أحسنت اتركها حتى تماثل»، وعند عبد الله بن أحمد عن غير أبيه «فإذا تعالت من نفسها حُدّها خمسين». وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها، فليجلدها الحد، ولا يُثَرِّب عليها، ثم إن زنت الثانية، فليجلدها الحد، ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها. فليبعها ولو بحبل من شعر» [أخرجاه].

ويتلخص في الأمة أنها إذا زنت أقوال: أحدها: تجلد خمسين قبل الإحصان وبعده.

وهل تنفى؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدها إنها تنفى عنه. والثاني لا تنفى عنه مطلقاً والثالث أنها تنفى نصف سنة وهو نصف نفي الحرة. وهذا الخلاف في مذهب الشافعي، وأما أبو حنيفة فعنده أن النفي تعزير ليس من تمام الحد، وإنما هو رأي الإمام إن شاء فعله وإن شاء تركه في حق الرجال والنساء، وعند مالك أن النفي إنما هو على الرجال وأما النساء فلا، لأن ذلك مضاد لصيانتهن وما ورد من النفي مخصوص بالمعنى وهو أن المقصود من النفي الصون، وذلك مفقود في نفي النساء، والله أعلم. والثاني: أن الأمة إذا زنت تجلد خمسين بعد الإحصان وتضرب قبله تأديباً غير محدود بعدد محصور، [أو] أنها تجلد قبل الإحصان مائة، وبعده خمسين، كما هو المشهور عن داود. وأضعف الأقوال: أنها تجلد قبل الإحصان خمسين، وترجم بعده، وهو قول أبي ثور وهو ضعيف أيضاً، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

وقوله: ﴿**ذلك لمن خشي العنت منكم**﴾ أي إنما يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا، وشق عليه الصبر عن الجماع، وعنت بسبب ذلك كله، فحينئذ يتزوج الأمة، وإن ترك تزوجها وجاهد نفسه في الكف عن الزنا فهو خير له لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقاء لسيدها.

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم وحرم عليكم مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها، ﴿**ويهديكم سنن الذين من قبلكم**﴾ يعني طرائقهم الحميدة واتباع شرائعه التي يحبها ويرضاها، ﴿**ويتوب عليكم**﴾ أي من الإثم والمحارم، ﴿**والله عليم حكيم**﴾ أي في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله. وقوله: ﴿**ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً**﴾ أي يريد أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة ﴿**أن تميلوا**﴾ عن الحق إلى الباطل ميلاً عظيماً ﴿**يريد الله أن يخفف عنكم**﴾ أي في شرائعه وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم، ولهذا أباح الإماء بشروطه، كما قال مجاهد وغيره: ﴿**وخلق الإنسان ضعيفاً**﴾ فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه وضعف عزمه وهمته. وعن طاوس: ﴿**وخلق الإنسان ضعيفاً**﴾ أي في أمر النساء. وقال وكيع: يذهب عقله عندهن. وقال موسى الكليم عليه السلام لنبينا محمد ﷺ، ليلة الإسراء حين مر عليه، فقال له: ماذا فرض عليكم، فقال: «أمرني بخمسين صلاة في كل يوم وليلة»، فقال له: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فإني قد بلوت الناس قبلك على ما هو أقل من ذلك فعجزوا، وإن أمتك أضعف أسماعاً وأبصاراً وقلوباً، فرجع، فوضع عشراً. ثم رجع إلى موسى فلم يزل كذلك حتى بقيت خمساً، قال الله عز وجل: «هن خمس وهن خمسون، الحسنة بعشر أمثالها» الحديث [متفق عليه].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾.

نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل، أي بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية كأنواع الربا والقمار، وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل، مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا، عن ابن عباس في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول: إن رضيته أخذته، وإلا رددته ورددت معه درهماً، قال: هو الذي قال الله عز وجل: ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**﴾. وعن عبد الله [ابن مسعود] في الآية، قال: إنها محكمة ما نسخت ولا تنسخ إلى يوم القيامة. وعن ابن عباس: لما أنزل الله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**﴾ قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكيف للناس ؟ فأنزل الله بعد ذلك ﴿**ليس على الأعمى حرج**﴾ [النور:٦١] الآية، وكذا قال قتادة.

وقوله تعالى: ﴿**إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم**﴾ وهو استثناء منقطع، كأنه يقول: لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال، ولكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها وتسببوا بها في تحصيل الأموال، كما قال تعالى: ﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق**﴾ [الأنعام:١٥١].

ومن هذه الآية الكريمة احتج الشافعي على أنه لا يصح البيع إلا بالقبول، لأنه يدل على التراضي نصاً، بخلاف المعاطاة، فإنها قد لا تدل على الرضى ولا بد، وخالف الجمهور في ذلك، ورأوا [الجمهور] أن الأقوال كما تدل على التراضي فكذلك الأفعال تدل في بعض المحال قطعاً، فصححوا بيع المعاطاة مطلقاً، ومنهم من قال: يصح في المحقَّرات وفيما يعده الناس بيعاً وهو احتياط نظر من محققي المذهب، والله أعلم. وقال مجاهد: ﴿**إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم**﴾ بيعاً أو عطاء يعطيه أحد أحداً.

ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «البيعان بالخيار مالم يتفرقا». وفي لفظ البخاري: «إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار مالم يتفرقا»، وذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث جمهور السلف والخلف، ومن ذلك مشروعية خيار الشرط بعد العقد إلى ثلاثة أيام، كما هو متفق عليه بين العلماء إلى ما هو أزيد من ثلاثة أيام بحسب ما يتبين فيه مالُ البيع.

وقوله: ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم**﴾ أي بارتكاب محارم الله، وتعاطي معاصيه، وأكل أموالكم بينكم بالباطل ﴿**إن الله كان بكم رحيماً**﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه. روى الإمام أحمد

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل، قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال: فلما قدمت على رسول الله ﷺ، ذكرت ذلك له، فقال: «يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب» قال: قلت: يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فذكرت قول الله عز وجل: ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً**﴾ فتيممت ثم صليت، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً. [ورواه أبوداود وسنده لابأس به بطرقه وعلقه البخاري مجزوماً به].

وعن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل نفسه بشيء عُذِّبَ به يوم القيامة» وأخرجه الجماعة في كتبهم. وفي الصحيحين عن جندب بن عبد الله البجلي، قال: قال رسول الله ﷺ: «كان رجل ممن كان قبلكم وكان به جرح فأخذ سكيناً نحر بها يده، فمارقأ الدم حتى مات، قال الله عز وجل «عبدي بادرني بنفسه، حرمت عليه الجنة». ولهذا قال الله تعالى: ﴿**ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً**﴾ أي ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعدياً فيه ظالماً في تعاطيه أي عالماً بتحريمه متجاسراً على انتهاكه ﴿**فسوف نصليه ناراً**﴾ الآية، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد. وقوله: ﴿**إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم**﴾ الآية، أي إذا اجتنبتم كبائر الآثام التي نهيتم عنها، كفرنا عنكم صغائر الذنوب وأدخلناكم الجنة، ولهذا قال ﴿**وندخلكم مدخلاً كريماً**﴾.

وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة، فلنذكر منها ما تيسر:

في الصحيحين عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

فالنص على هذه السبع بأنهن كبائر، لا ينفي ما عداهن إلا عند من يقول بمفهوم العدد، وهو ضعيف عند عدم القرينة، ولا سيما عند قيام الدليل بالمنطوق على عدم المفهوم، كما سنورده من الأحاديث المتضمنة من الكبائر غير هذه السبع، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك: قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر، أو سئل عن الكبائر، فقال: «الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين»، وقال: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قال: قول الزور ـ أو شهادة الزور » أخرجاه بنحوه.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ وفي رواية أكبر قال: «أن تجعل لله نِداً وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك» ثم قرأ: ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر** ـ إلى قوله ـ **إلا من تاب**﴾ [الفرقان: ٦٨].

حديث آخر: فيه ذكر اليمين الغموس. روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، أو قتل النفس واليمين الغموس» ورواه البخاري والترمذي والنسائي.

وقد أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه» قالوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه ويسب أمه، فيسب أمه».

وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر».

وروى ابن أبي حاتم عن أبي قتادة يعني العدوي، قال: قُرِىء علينا كتاب عمر: من الكبائر جمع بين الصلاتين ـ يعني بغير عذر ـ والفرار من الزحف، والنُّهبة، وهذا إسناده صحيح. والغرض أنه إذا كان الوعيد فيمن جمع بين الصلاتين كالظهر والعصر، تقديماً أو تأخيراً، وكذا المغرب والعشاء هما من شأنه أن يجمع بسبب من الأسباب الشرعية، فإذا تعاطاه أحد بغير شيء من تلك الأسباب يكون مرتكباً كبيرة، فما ظنك بترك الصلاة بالكلية؛ ولهذا روى مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة». وفي السنن عنه عليه السلام أنه قال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، من تركها فقد كفر» [قال الترمذي: حسن صحيح غريب]، وقال: «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله» [رواه البخاري].

ذكر أقوال السلف في ذلك:

عن الحسن، أن ناساً سألوا عبد الله بن عمرو بمصر، فقالوا: نرى أشياء من كتاب الله أمر أن يعمل بها لا يعمل بها، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك، فقدم وقدموا معه، فلقيه عمر رضي الله عنه فقال: متى قدمت؟ فقال: منذ كذا وكذا. قال: أبإذن قدمت؟ قال: فلا أدري كيف رد عليه. فقال: يا أمير المؤمنين، إن ناساً لقوني بمصر فقالوا: إنا نرى أشياء من كتاب الله أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها، فأحبوا أن يلقوك في ذلك. قال: فاجمعهم لي. قال: فجمعتهم له. فأخذ أدناهم رجلاً فقال: أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك، أقرأت القرآن كله؟ قال: نعم. قال: فهل أحصيته في نفسك؟ فقال: اللهم لا. قال: ولو قال: نعم، لخصمه. قال: فهل أحصيته في بصرك؟ فهل أحصيته في لفظك؟ هل أحصيته في أمرك؟ ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم قال: فثكلت عمر أمه، أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله، قد علم ربنا أنه ستكون لنا سيئات، قال: وتلا: ﴿**إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم**﴾ الآية. ثم قال: هل علم أهل المدينة؟ أو قال: هل علم أحد بما قدمتم؟ قالوا: لا. قال: لو علموا لوعظت بكم، إسناد حسن ومتن حسن.

وعن علي رضي الله عنه قال: الكبائر الإشراك بالله، وقتل النفس، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، والفرار من الزحف، والتعرب بعد الهجرة، والسحر، وعقوق الوالدين، وأكل الربا،

وفراق الجماعة، ونكث الصفقة. وعن ابن مسعود أنه قال: أكبر الكبائر الإشراك بالله، واليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله عز وجل. وعن ابن مسعود [أيضا] قال: الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها ثم تلا: ﴿**إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه**﴾. وعن بريدة قال: أكبر الكبائر الشرك بالله، وعقوق الوالدين، ومنع فضول الماء بعد الري، ومنع طروق الفحل إلا بجُعْل.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يُمنَع فضل الماء ليمنع به الكلأ». وفيهما عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه ابن السبيل» وذكر الحديث بتمامه.

وعن عائشة، قالت: ما أُخذَ على النساء من الكبائر، قال ابن أبي حاتم: يعني قوله تعالى: ﴿**على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن...**﴾ الآية [الممتحنة: ١٢].

وعن سعيد بن جبير: أن رجلاً قال لابن عباس: كم الكبائر سبع؟ قال: هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار. وعن ابن عباس [أيضا] في قوله: ﴿**إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه**﴾ قال: الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب، وعن ابن عباس قال: الكبائر كل ماوعد الله عليه النار كبيرة، وكذا قال سعيد بن جبير والحسن البصري. وقال ابن عباس أيضا: هي كل شيء عصي الله فيه فهو كبيرة.

وعن عَبِيدة قال: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرم الله بغير حقها، وفرار يوم الزحف، وأكل مال اليتيم بغير حقه، وأكل الربا، والبهتان. قال: ويقولون: أعرابية بعد هجرة. وعن عبيد بن عمير، قال: الكبائر سبع، ليس منهن كبيرة إلا وفيها آية من كتاب الله، الإشراك بالله منهن: ﴿**ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح**﴾ [الحج: ٣١]، و ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً**﴾ [النساء: ١٠]، و ﴿**الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس**﴾ [البقرة: ٢٧٥]، و ﴿**إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات**﴾ [النور: ٢٣]، والفرار من الزحف ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً**﴾ [الأنفال: ١٥]، والتعرب بعد الهجرة ﴿**إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى**﴾ [محمد: ٢٥]، وقتل المؤمن ﴿**ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها**﴾ [النساء: ٩٣].

وعن عطاء يعني ابن أبي رباح، قال: الكبائر سبع: قتل النفس، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، ورمي المحصنة، وشهادة الزور، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف. وعن مغيرة، قال: كان يقال: شتم أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من الكبائر. قلت: وقد ذهب طائفة من العلماء إلى تكفير من سَبَّ الصحابة، وهو رواية عن مالك بن أنس رحمه الله. وقال محمد بن سيرين:

ما أظن أحداً ينتقص أبا بكر وعمر وهو يحب رسول الله ﷺ. وعن زيد بن أسلم في قول الله عز وجل: ﴿**إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه**﴾ من الكبائر: الشرك بالله، والكفر بآيات الله ورسله، والسحر، وقتل الأولاد، ومن دعى لله ولداً أو صاحبة ـ ومثل ذلك من الأعمال والقول الذي لا يصلح معه عمل. وأما كل ذنب يصلح معه دين، ويقبل معه عمل، فإن الله يغفر السيئات بالحسنات. وعن قتادة: ﴿**إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه**﴾ الآية: إنما وعد الله المغفرة لمن اجتنب الكبائر؛ وذكر لنا أن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا الكبائر، وسددوا، وأبشروا».

وقد اختلف علماء الأصول والفروع في حد الكبيرة، فمن قائل: هي ما عليه حد في الشرع، ومنهم من قال: هي ما عليه وعيد مخصوص من الكتاب والسنة، وقيل غير ذلك.

قلت: وقد صنف الناس في الكبائر مصنفات منها ما جمعه شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي الذي بلغ نحواً من سبعين كبيرة، وإذا قيل: إن الكبيرة ما توعد الشارع عليها بالنار بخصوصها، كما قال ابن عباس وغيره، وتُتُبِّع ذلك، اجتمع منه شيء كثير، وإذا قيل كل ما نهى الله عنه فكثير جداً، والله أعلم.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾.

روى الإمام أحمد عن مجاهد، قال: قالت أم سلمة: يارسول الله، يغزو الرجال ولا نغزو، ولنا نصف الميراث، فأنزل الله عز وجل: ﴿**ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض**﴾. ورواه الترمذي [والحاكم بنحوه، وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين إن كان سمع مجاهد من أم سلمة ووافقه الذهبي].

وقال السدي قوله: ﴿**ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض**﴾: فإن الرجال قالوا: نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء، كما لنا في السهام سهمان، وقالت النساء: نريد أن يكون لنا أجر مثل أجر الرجال الشهداء، فإنا لا نستطيع أن نقاتل، ولو كتب علينا القتال لقاتلنا، فأبى الله ذلك ولكن قال لهم. سلوني من فضلي، قال: ليس بعرض الدنيا، وقد روي عن قتادة نحو ذلك. وقال ابن عباس قوله: ﴿**ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض**﴾ قال: ولا يتمنى الرجل فيقول: ليت لو أن لي مال فلان وأهله، فنهى الله عن ذلك، ولكن ليسأل الله من فضله. وكذا قال الحسن ومحمد بن سيرين وعطاء والضحاك، نحو هذا؛ وهو الظاهر من الآية ولا يرد على هذا ما ثبت في الصحيح: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلَّطه على هلكته في الحق فيقول رجل: لو أن لي مثل ما لفلان لعملت مثله فهما في الأجر سواء»، فإن هذا شيء غير ما نهت عنه الآية، وذلك أن الحديث حض على تمني مثل نعمة هذا، والآية نهت عن تمني عين نعمة هذا، فقال: ﴿**ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض**﴾ أي في الأمور الدنيوية، وكذا الدينية أيضاً، لحديث أم سلمة. وهكذا قال عطاء بن أبي رباح:

نزلت في النهي عن تمني ما لفلان، وفي تمني النساء أن يكن رجالاً فيغزون.

ثم قال: ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ أي كل له جزاء على عمله بحسبه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، هذا قول ابن جرير، وقيل: المراد بذلك في الميراث، أي كل يرث بحسبه، رواه الترمذي عن ابن عباس، ثم أرشدهم إلى ما يصلحهم، فقال: ﴿واسئلوا الله من فضله﴾ لا تتمنوا ما فضل به بعضكم على بعض، فإن هذا أمر محتوم، والتمني لا يجدي شيئاً، ولكن سلوني من فضلي أعطكم، فإني كريم وهاب.

ثم قال: ﴿إن الله كان بكل شيء عليماً﴾ أي هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، وبمن يستحق الفقر فيفقره، وعليم بمن يستحق الآخرة فيقيضه لأعمالها، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه، ولهذا قال: ﴿إن الله كان بكل شيء عليماً﴾.

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو صالح وقتادة وزيد بن أسلم والسدي والضحاك ومقاتل بن حيان وغيرهم، في قوله: ﴿ولكل جعلنا موالي﴾ أي ورثة، وعن ابن عباس في رواية: أي عَصَبة، قال ابن جرير: والعرب تسمي ابن العم مولى. قال: ويعني بقوله: ﴿مما ترك الوالدان والأقربون﴾، من تركة والديه وأقربيه من الميراث، فتأويل الكلام: ولكلكم أيها الناس جعلنا عصبة يرثونه مما ترك والداه وأقربوه من ميراثهم له. وقوله: ﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ أي والذين تحالفتم بالأيمان المؤكدة أنتم وهم، فآتوهم نصيبهم من الميراث كما وعدتموهم في الأيمان المغلظة، إن الله شاهد بينكم في تلك العهود والمعاقدات، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك وأمروا أن يوفوا لمن عاقدوا، ولا يُنْشئوا بعد نزول هذه الآية معاقدة.

روى البخاري عن ابن عباس: ﴿ولكل جعلنا موالي﴾ قال: ورثة، ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿ولكل جعلنا موالي﴾ نُسخت، ثم قال: ﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ويُوصِى له.

وعن ابن عباس [أيضا] قال: ﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ فكان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل يقول: ترثني وأرثك، وكان الأحياء يتحالفون، فقال رسول الله ﷺ: «كل حلف كان في الجاهلية أو عقد أدركه الإسلام فلا يزيده الإسلام إلا شدة، ولا عقد ولا حلف في الإسلام» فنسختها هذه الآية: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ [الأنفال: ٧٥]، وروي عن سعيد بن المسيَّب ومجاهد والحسن وسعيد والشعبي وعكرمة ومقاتل بن حيان [وغيرهم]، أنهم قالوا: هم الحلفاء.

وروى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة». وهكذا رواه مسلم.

وهذا نص في الرد على من ذهب إلى التوارث بالحلف اليوم، كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه، ورواية عن أحمد بن حنبل، والصحيح قول الجمهور ومالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون**﴾ أي ورثة من قراباته من أبويه وأقربيه، هم يرثونه دون سائر الناس، كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولىٰ رجل ذكر» أي اقسموا الميراث على أصحاب الفروض الذين ذكرهم الله في آيتي الفرائض، فما بقي بعد ذلك فأعطوه العصبة. وقوله: ﴿**والذين عقدت أيمانكم**﴾ أي قبل نزول هذه الآية فآتوهم نصيبهم، أي من الميراث، فأيما حلف عقد بعد ذلك فلا تأثير له.

وقد قيل: إن هذه الآية نسخت الحلف في المستقبل وحكم الماضي أيضاً، فلا توارث به، كما روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ﴿**فآتوهم نصيبهم**﴾، قال: من النصرة والنصيحة والرفادة ويُوصِي له وقد ذهب الميراث. ورواه ابن جرير عن ابن عباس قوله أيضا: ﴿**والذين عقدت أيمانكم**﴾ قال: كان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات ورثه الآخر، فأنزل الله: ﴿**وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً**﴾ [الأحزاب:٦]. يقول: إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقدوا وصية فهو لهم جائز من ثلث مال الميت، وذلك هو المعروف.

وهكذا نصَّ غيرُ واحد من السلف أنها منسوخة بقوله: ﴿**وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً**﴾ وقال سعيد بن جبير: ﴿**فآتوهم نصيبهم**﴾ أي من الميراث، قال: وعاقد أبو بكر مولى فورثه. وقال الزهري عن سعيد بن المسيب: أنزلت هذه الآية في الذين كانوا يتبنون رجالاً غير أبنائهم ويورثونهم، فأنزل الله فيهم، فجعل لهم نصيباً في الوصية، ورد الميراث إلى الموالي في ذي الرحم والعَصبة، وأبى الله أن يكون للمدعين ميراث ممن ادعاهم وتبناهم، ولكن جعل لهم نصيباً من الوصية.

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**الرجال قوامون على النساء**﴾ أي الرجل قَيِّم على المرأة، أي هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجَّت، ﴿**بما فضل الله بعضهم على بعض**﴾ أي لأن الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة؛ ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال،

وكذلك الملك الأعظم لقوله ﷺ: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» رواه البخاري، وكذا منصب القضاء وغير ذلك. ﴿**وبما أنفقوا من أموالهم**﴾ أي من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه وسنة نبيه ﷺ، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه، وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قيما عليها، كما قال الله تعالى: ﴿**وللرجال عليهن درجة**﴾ الآية [البقرة:٢٢٨]، وقال ابن عباس: ﴿**الرجال قوامون على النساء**﴾ يعني أمراء، عليها أن تطيعه فيما أمرها به من طاعته، وطاعته: أن تكون محسنة لأهله حافظة لماله، وكذا قال مقاتل والسدي والضحاك. وقال الحسن البصري: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ تستعديه على زوجها أنه لطمها، فقال رسول الله ﷺ: «القصاص»، فأنزل الله عز وجل ﴿**الرجال قوامون على النساء**﴾ الآية، فرجعت بغير قصاص، وكذلك أرسل هذا الخبر قتادة وابن جريج والسدي. وقال الشعبي في هذه الآية: ﴿**الرجال قوامون على النساء بمافضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم**﴾ قال: الصداق الذي أعطاها، ألا ترى أنه لو قذفها لاعنها، ولو قذفته جلدت. وقوله: ﴿**فالصالحات**﴾ أي من النساء ﴿**قانتات**﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني مطيعات لأزواجهن ﴿**حافظات للغيب**﴾. وقال السدي وغيره: أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله. وقوله: ﴿**بما حفظ الله**﴾ أي المحفوظ من حفظه الله.

وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت» [وهو حسن بطرقه].

وقوله: ﴿**واللاتي تخافون نشوزهن**﴾ أي والنساء اللاتي تتخوفون أن ينشزن على أزواجهن، والنشوز هو الارتفاع، فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها، التاركة لأمره، المعرضة عنه، المبغضة له، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله في عصيانه، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والإفضال، وقد قال رسول الله ﷺ: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عِظَم حقه عليها» [رواه أحمد والترمذي والحاكم وصححه]، وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تصبح»، ورواه مسلم، ولفظه: «إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح»، ولهذا قال تعالى: ﴿**واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن**﴾.

وقوله: ﴿**واهجروهن في المضاجع**﴾ قال ابن عباس: الهجر هو ألا يجامعها، ويضاجعها على فراشها ويوليها ظهره، وكذا قال غير واحد. وزاد آخرون منهم السدي والضحاك وعكرمة وابن عباس في رواية: ولا يكلمها مع ذلك ولا يحدثها. وقال ابن عباس [أيضا] : يعظها فإن هي قبلت وإلا هجرها في المضجع، ولا يكلمها من غير أن يذر نكاحها، وذلك عليها شديد.

وقال مجاهد والشعبي وإبراهيم ومحمد بن كعب ومقسم وقتادة: الهجر هو أن لا يضاجعها.

وفي السنن والمسند عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: يا رسول الله ما حق امرأة أحدنا؟ قال «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تُقَبِّح، ولا تهجر إلا في البيت». [علقه البخاري بصيغة التمريض وسنده حسن].

وقوله: ﴿واضربوهن﴾، أي إذا لم يرتدعن بالموعظة ولا بالهجران، فلكم أن تضربوهن ضرباً غير مبرح، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع: «واتقوا الله في النساء، فإنهن عندكم عَوان، ولكم عليهن أن لا يُوطِئْن فُرُشكم أحداً تكرهونه، فإن فَعَلْنَ ذلك فاضربوهن ضرباً غير مُبَرِّحٍ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف». وكذا قال ابن عباس وغير واحد: ضرباً غير مبرح، قال الحسن البصري: يعني غير مؤثر. وقال الفقهاء: هو أن لا يكسر فيها عضواً ولا يؤثر فيها شيئاً، وعن ابن عباس: يهجرها في المضجع، فإن أقبلت وإلا فقد أذن الله لك أن تضرب ضرباً غير مبرح، ولا تكسر لها عظماً، فإن أقبلت وإلا فقد حل لك منها الفدية. وعن إياس بن عبد الله بن أبي ذُباب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تضربوا إماء الله» فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: «ذئِرَت النساء على أزواجهن، فرخص في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ «لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين أزواجهن ليس أولئك بخياركم» رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه. وإياس مختلف في صحبته.

وقوله: ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾ أي إذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريده منها مما أباحه الله له منها، فلا سبيل له عليها بعد ذلك، وليس له ضربها ولا هجرانها. وقوله ﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلي الكبير وليهن، وهو ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

ذكر تعالى الحال الأول وهو إذا كان النفور والنشوز من الزوجة. ثم ذكر الحال الثاني وهو إذا كان النفور من الزوجين، فقال تعالى: ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ قال الفقهاء: إذا وقع الشقاق بين الزوجين، أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة ينظر في أمرهما ويمنع الظالم منهما من الظلم، فإن تفاقم أمرهما وطالت خصومتهما، بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة وثقة من قوم الرجل ليجتمعا فينظرا في أمرهما ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق، وتَشَوف الشارع إلى التوفيق، ولهذا قال: ﴿إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾. وقال ابن عباس: أمر الله عز وجل أن يبثعوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل، . ورجلاً مثله من أهل المرأة، فينظران أيهما المسيء، فإن كان الرجل هو المسيء

حجبوا عنه امرأته وقصروه على النفقة، وإن كانت المرأة هي المسيئة، قصروها على زوجها ومنعوها النفقة، فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا، فأمرهما جائز، فإن رأيا أن يجمعا فرضي أحد الزوجين وكره ذلك الآخر، ثم مات أحدهما، فإن الذي رضي يرث الذي كره ولا يرث الكاره الراضي.

وعن ابن عباس قال: بعثت أنا ومعاوية حكمين [يعني من قِبَل عثمان]، وقال: إن رأيتما أن تجمعا جمعتما، وإن رأيتما أن تُفَرقا فرقتما، وعن ابن أبي مليكة أن عقيل بن أبي طالب تزوج فاطمة بنت عتبة بن ربيعة؟ فقالت: تصير إليَّ وأنفق عليك، فكان إذا دخل عليها قالت: أين عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة؟، فقال: على يسارك في النار إذا دخلت، فشدت عليها ثيابها فجاءت عثمان فذكرت له ذلك، فضحك، وأرسل ابن عباس ومعاوية، فقال ابن عباس، لأُفَرِّقَن بينهما، فقال معاوية: ما كنت لأفرق بين شيخين من بني عبد مناف، فأتياهما فوجداهما قد أغلقا عليهما أبوابهما فرجعا.

وعن عبيدة قال: شهدت علياً وجاءته امرأة وزوجها مع كل واحد منهما فئام من الناس، فأخرج هؤلاء حكما وهؤلاء حكماً، فقال علي للحكمين: أتدريان ما عليكما؟ إن عليكما إن رأيتما أن تجمعا جمعتما، فقالت المرأة: رضيت بكتاب الله لي وعلي، وقال الزوج: أما الفرقة فلا، فقال علي: كذبت والله لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله عز وجل لك وعليك.

قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: وأجمع العلماء على أن الحكمين إذا اختلف قولهما فلا عبرة بقول الآخر، وأجمعوا على أن قولهما نافذ في الجمع وإن لم يوكلهما الزوجان، واختلفوا هل ينفذ قولهما في التفرقة، ثم حكي عن الجمهور أنه ينفذ قولهما فيها أيضاً من غير توكيل.

﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له، فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الحالات، فهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته، كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ: «أتدري ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: «أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»، ثم قال: «أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ ألا يعذبهم» [متفق عليه]. ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإن الله سبحانه جعلهما سببا لخروجك من العدم إلى الوجود وكثيراً ما يقرن الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، كقوله: **﴿أن اشكر لي ولوالديك﴾** [لقمان:١٤]، وكقوله: **﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا﴾** [الإسراء:٢٣]. ثم عطف على الإحسان إلى الوالدين الإحسان إلى

القرابات من الرجال والنساء كما جاء في الحديث: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة» [رواه الترمذي وحسنه وأخرجه النسائي وابن ماجه].

ثم قال: ﴿واليتامى﴾ وذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم ومن ينفق عليهم فأمر الله بالإحسان إليهم والحنو عليهم. ثم قال: ﴿والمساكين﴾ وهم المحاويج من ذوي الحاجات الذين لا يجدون ما يقوم بكفايتهم، فأمر الله بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم وتزول به ضرورتهم. وقوله ﴿والجار ذي القربى والجار الجنب﴾ قال ابن عباس: ﴿والجار ذي القربى﴾، يعني الذي بينك وبينه قرابة، ﴿والجار الجنب﴾ الذي ليس بينك وبينه قرابة، وكذا روي عن عكرمة ومجاهد وميمون بن مهران والضحاك وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة، وعن نوف البكالي في قوله: والجار ذي القربى : يعني المسلم، ﴿والجار الجنب﴾ يعني اليهودي و النصراني، وعن علي وابن مسعود: والجار ذي القربى يعني المرأة [أي الزوجة]، وقال مجاهد أيضاً في قوله: ﴿والجار الجنب﴾ يعني الرفيق في السفر.

وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار، فلنذكر منها ما تيسر وبالله المستعان:

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثُه» أخرجاه في الصحيحين.

وروى أحمد أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره» ورواه الترمذي وقال حسن غريب.

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود: قلت : يا رسول الله، أي الذنب أعظم ؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قلت: ثم أي ؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت ثم أي ؟ قال «أن تزاني حليلة جارك».

وروى الإمام أحمد عن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت: إن لي جارين فإلى أيهما أهدي ؟ قال: «إلى أقربهما منك بابا» ورواه البخاري.

وقوله تعالى: ﴿والصاحب بالجنب﴾ عن علي وابن مسعود، قالا: هي المرأة، وروي عن ابن أبي ليلى وإبراهيم والحسن [وغيرهم]، نحو ذلك، وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة: هو الرفيق في السفر، وقال سعيد بن جبير: هو الرفيق الصالح، وقال زيد بن أسلم: هو جليسك في الحضر ورفيقك في السفر.

وأما ﴿ابن السبيل﴾ فعن ابن عباس وجماعة: هو الضيف، وقال مجاهد [وغيره]: هو الذي يمر عليك مجتازاً في السفر، وهذا أظهر، وإن كان مراد القائل بالضيف: المار في الطريق، فهما سواء.

وقوله: ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ وصية بالأرقاء، لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس، ولهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصي أمته في مرض الموت، يقول: «الصلاة

الصلاة وما ملكت أيمانكم» فجعل يرددها حتى ما يفيض بها لسانه. [رواه أبوداود وأحمد عن علي وجود الحافظ إسناده وأخرجه النسائي عن أنس وحسنه البوصيري].

وروى الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجتك فهولك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة» ورواه النسائي وإسناده صحيح، ولله الحمد.

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لقهرمان له: هل أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال: لا. قال: فانطلق فأعطهم، فإن رسول الله ﷺ قال: «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوتهم» رواه مسلم. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق» رواه مسلم أيضاً وعنه، عن النبي ﷺ قال: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين، أو أُكلة أو أُكلتين، فإنه ولي حَرّه وعلاجه» أخرجاه، ولفظه للبخاري، ولمسلم: «فليقعده معه فليأكل، فإن كان الطعام مَشْفُوهاً قليلاً، فليضع في يده أُكلة أو أُكلتين». وعن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «هم إخوانكم خَوَلكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم» أخرجاه.

وقوله: ﴿إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً﴾، أي مختالا في نفسه، معجبا متكبراً فخورا على الناس، يرى أنه خير منهم فهو في نفسه كبير، وهو عند الله حقير، وعند الناس بغيض، قال مجاهد في قوله: ﴿إن الله لا يحب من كان مختالا﴾ يعني متكبراً ﴿فخوراً﴾ يعني يَعُدُّ ما أعطى، وهو لا يشكر الله عز وجل يعني يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه، وهو قليل الشكر لله على ذلك. وعن عبد الله بن واقد أبي رجاء الهروي، قال: لا تجد سيء الملكة إلا وجدته مختالا فخوراً، وتلا: ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ ولا عاقاً إلا وجدته جباراً شقياً، وتلا: ﴿وبراً بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقياً﴾، وعن العوام بن حوشب مثله في المختال الفخور، وروى ابن أبي حاتم عن مطرف قال: كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه، فلقيته، فقلت: يا أبا ذر، بلغني أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم: «إن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة»؟ فقال: أجل، فلا إخالني، أكذب على خليلي ثلاثا قلت: من الثلاثة الذين يبغض الله؟ قال: المختال الفخور. أوليس تجدونه عندكم في كتاب الله المنزل، ثم قرأ الآية ﴿إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً﴾ [النساء: ٣٦].

وروي عن أبي تميمة عن رجل من بَلْهُجَيم قال: قلت: يا رسول الله أوصني، قال: «إياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة» [رواه أحمد ورجاله ثقات].

﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا

لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾.

يقول تعالى ذاماً الذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من بر الوالدين والإحسان إلى الأقارب، واليتامى، والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجُنُب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم من الأرقاء، ولا يدفعون حق الله فيها، ويأمرون الناس بالبخل أيضاً، وقد قال رسول الله ﷺ: «إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا» [أخرجه مسلم].

وقوله: ﴿**ويكتمون ما آتاهم الله من فضله**﴾ فالبخيل جَحُود لنعمة الله لا تظهر عليه ولا تبين، لا في أكله ولا في ملبسه، ولا في إعطائه وبذله، كما قال تعالى: ﴿**إن الإنسان لربه لكنود * وإنه على ذلك لشهيد**﴾ [العاديات:٦-٧] أي بحاله وشمائله، ﴿**وإنه لحب الخير لشديد**﴾ [العاديات:٨] وقال ههنا: ﴿**ويكتمون ما آتاهم الله من فضله**﴾ ولهذا توعدهم بقوله: ﴿**وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً**﴾ والكفر هو الستر والتغطية، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدها فهو كافر لنعم الله عليه.

وفي الحديث: «إن الله إذا أنعم نعمة على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه» [أخرجه أحمد والترمذي وحسنه والحاكم وصححه]، وفي الدعاء النبوي: «واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك قابليها ـ ويروى قائليها ـ وأتممها علينا» [أخرجه الطبراني وجود إسناده الهيثمي]. وقد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم من صفة محمد ﷺ وكتمانهم ذلك، ولهذا قال: ﴿**وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً**﴾، رواه ابن إسحاق عن ابن عباس، وقاله مجاهد و غير واحد.

ولا شك أن الآية محتملة لذلك، والظاهر أن السياق في البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلاً في ذلك بطريق الأولى، فإن سياق الكلام في الإنفاق على الأقارب والضعفاء، وكذا الآية التي بعدها وهي قوله: ﴿**الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس**﴾ فَذَكر المُمْسِكين المذمومين وهم البخلاء، ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يُمدَحوا بالكرم، ولا يريدون بذلك وجه الله، وفي الحديث الذي فيه الثلاثة الذين هم أول من تُسَجَّرُ بهم النار وهم: العالم، والغازي، والمنفق المراؤون بأعمالهم، «يقول صاحب المال: ما تركت من شيء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت في سبيلك، فيقول الله: كذبت إنما أردت أن يقال: جواد فقد قيل» [أخرجه مسلم]. أي فقد أخذت جزاءك في الدنيا وهو الذي أردت بفعلك، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لعدي بن حاتم: «إن أباك رام أمراً فبلغه» [أخرجه أحمد وسنده لا بأس به]. وفي حديث آخر: أن رسول الله ﷺ سئل عن عبد الله بن جدعان: هل ينفعه

إنفاقه وإعتاقه ؟ فقال: «لا، إنه لم يقل يوماً من الدهر رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين» [أخرجه مسلم]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الأخر﴾ أي إنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح وعدولهم عن فعل الطاعة على وجهها الشيطانُ، فإنه سول لهم وأملى لهم، وقارنهم فحسن لهم القبائح، ﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وماذا عليهم لوآمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله﴾ أي وأي شيء يَكرثُهم لو سلكوا الطريق الحميدة، وعَدَلوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله، ورجاء موعوده في الدار الآخرة لمن أحسن عملاً، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها، وقوله: ﴿وكان الله بهم عليماً﴾ أي وهو عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم فيوفقه، ويلهمه رشده، ويقيضه لعمل صالح يرضى به عنه، وبمن يستحق الخذلان والطرد عن الجناب الأعظم الإلهي الذي من طرد عن بابه، فقد خاب وخسر في الدنيا والآخرة، عياذاً بالله من ذلك.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى: إنه لا يظلم عبدا من عباده يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة، بل يوفيها له ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط . . .﴾ الآية [الأنبياء:٤٧]، وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل، وفيه: فيقول الله عز وجل: «ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فأخرجوه من النار» وفي لفظ: «أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، فأخرجوه من النار فيخرجون خلقاً كثيراً» ثم يقول أبو سعيد: اقرؤوا إن شئتم ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾.

وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وإن تك حسنة يضاعفها﴾ فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة ولا يخرج من النار أبداً، وقد استدل له بالحديث الصحيح أن العباس قال: يا رسول الله، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعته بشيء ؟ قال: «نعم هو في ضَحْضَاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار» [أخرجه مسلم]. وقد يكون هذا خاصاً بأبي طالب من دون الكفار بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي في سننه عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بها في الدنيا فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة» [ومن طريقه أخرجه مسلم]. وقال أبو هريرة وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والضحاك في قوله: ﴿ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾: يعني الجنة.

وقوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ يقول تعالى مخبراً

عن هول يوم القيامة وشدة أمره وشأنه، فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة حين يجيء من كل أمة بشهيد، يعني الأنبياء عليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿**وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء**﴾ الآية؛ وقال تعالى: ﴿**ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء**﴾ [النحل: ٨٩].

وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ علي» قلت: يا رسول الله آقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: «نعم إني أحب أن أسمعه من غيري» فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿**فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً**﴾ فقال: «حسبك الآن» فإذا عيناه تذرفان، ورواه مسلم أيضاً.

وقوله: ﴿**يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض**﴾ أي لو انشقت وبلعتهم مما يرون من أهوال الموقف وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ، كقوله: ﴿**يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً**﴾ [النبأ: ٤٠]، وقوله: ﴿**ولا يكتمون الله حديثاً**﴾ إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ولا يكتمون منه شيئاً. وعن سعيد بن جبير، قال: أتى رجل إلى ابن عباس فقال له: سمعت الله عز وجل يقول ـ يعني إخباراً عن المشركين يوم القيامة أنهم قالوا ـ ﴿**والله ربنا ما كنا مشركين**﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال في الآية الأخرى: ﴿**ولا يكتمون الله حديثاً**﴾ فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿**والله ربنا ما كنا مشركين**﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام، قالوا: تعالوا فلنجحد، فقالوا: ﴿**والله ربنا ما كنا مشركين**﴾ فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم ﴿**ولا يكتمون الله حديثاً**﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السُّكْر الذي لا يدري معه المصلي ما يقول، وعن قربان محلها وهي المساجد للجُنُب، إلا أن يكون مجتازاً من باب إلى باب من غير مُكْثٍ، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر، كما دل عليه الحديث الذي ذكرناه في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير**﴾ الآية [البقرة: ٢١٩]؛ فإن رسول الله ﷺ تلاها على عمر، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فكانوا لا يشربون الخمر في أوقات الصلوات فلما نزل قوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**فهل أنتم منتهون**﴾ [المائدة: ٩٠ـ٩١] فقال عمر: انتهينا انتهينا.

وذكروا في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم عن سعد بن أبي وقاص قال: نزلت فيَّ أربع آيات، صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعا أناساً من المهاجرين وأناساً من الأنصار، فأكلنا وشربنا حتى سكرنا، ثم افتخرنا، فرفع رجل لَحْيَ بعير ففزر به أنف سعد، فكان سعد مفزور الأنف، وذلك قبل أن تحرم الخمر، فنزلت: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى**﴾. . الآية، والحديث بطوله عند مسلم.

سبب آخر: روى ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب، قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً، قال فقرأ: قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون، فأنزل الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون**﴾ وكذا رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون**﴾ وذلك أن رجالاً كانوا يأتون الصلاة وهم سُكَارَى قبل أن تحرم الخمر، فقال الله: ﴿**لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى**﴾ الآية، وكذا قال أبو رَزِين ومُجَاهدٌ. وعن قتادة: كانوا يجتنبون السُكْرَ عند حضور الصلوات ثم نسخ في تحريم الخمر. وقال الضَّحَّاكُ في قوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون**﴾: لم يعن بها سكر الخمر وإنما عنى بها سكر النوم. ثم قال ابن جرير: والصحيح أن المراد سكر الشراب، قال: ولم يتوجه النهي إلى السكران الذي لا يفهم الخطاب، لأن ذاك في حكم المجنون، وإنما خوطب بالنهي الثَّمِل الذي يفهم التكليف، هذا حاصل ما قاله، وقد ذكره غير واحد من الأصوليين، وهو أن الخطاب توجه إلى من يفهم الكلام دون السكران الذي لا يدري ما يقال له؛ فإن الفهم شرط التكليف. وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهي عن السكر بالكلية؛ لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات من الليل والنهار، فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائماً، والله أعلم، وعلى هذا فيكون كقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾ [آل عمران: ١٠٢] وهو الأمر لهم بالتأهب للموت على الإسلام والمداومة على الطاعة لأجل ذلك.

وقوله: ﴿**حتى تعلموا ما تقولون**﴾ هذا أحسن ما يقال في حد السكران أنه الذي لا يدري ما يقول، فإن المخمور فيه تخليط في القراءة وعدم تدبره وخشوعه فيها. وقد روى الإمام أحمد عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نعس أحدكم وهو يصلي فلينصرف فلينم حتى يعلم ما يقول» وأخرجه البخاري.

وقوله: ﴿**ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا**﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿**ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا**﴾ قال لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب، إلا

عابري سبيل، قال: تمر به مراً، ولا تجلس، ثم قال: وروي عن عبد الله بن مسعود، وأنس، وأبي عبيدة، وسعيد بن المسيب، وأبي الضحى، وعطاء، ومجاهد، ومسروق، وإبراهيم النخعي، وزيد بن أسلم، وأبي مالك، وعمرو بن دينار، والحكم بن عتيبة، وعكرمة، والحسن البصري، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وابن شهاب، وقتادة نحو ذلك.

وعن يزيد بن أبي حبيب، في قوله تعالى: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ أن رجالاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد، فكانت تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم، فيريدون الماء ولا يجدون ممراً إلا في المسجد، فأنزل الله ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾.

ومن هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب اللبث في المسجد، ويجوز له المرور، وكذا الحائض والنفساء أيضاً في معناه، إلا أن بعضهم قال: يمنع مرورهما لاحتمال التلويث، ومنهم من قال: إن أمنت كل واحدة منهما التلويث في حال المرور، جاز لهما المرور، وإلا فلا. وقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «ناوليني الخمرة من المسجد» فقلت: إني حائض، فقال: «إن حيضتك ليست في يدك» وله عن أبي هريرة مثله، ففيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد، والنفساء في معناها، والله أعلم.

وعن علي: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ قال: لا يقرب الصلاة، إلا أن يكون مسافراً تصيبه الجنابة، فلا يجد الماء فيصلي، حتى يجد الماء، وروي عن ابن عباس في إحدى الروايات، وسعيد بن جبير ومجاهد [وغيرهم] [نحو] مثل ذلك. وعن عبد الله بن كثير، قال: كنا نسمع أنه في السفر. ويستشهد لهذا القول بالحديث الذي رواه أحمد وأهل السنن عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «الصعيد الطيب طهور المسلم، وإن لم تجد الماء عشر حجج، فإذا وجدت الماء فأمسسه بشرتك، فإن ذلك خير» [وقال الترمذي: حسن صحيح].

ثم قال ابن جرير بعد حكايته القولين: والأولى قول من قال: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ أي إلا مجتازي طريق فيه، وذلك أنه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء وهو جنب، في قوله: ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر. . .صعيداً طيباً﴾ [المائدة:٦] إلى آخره، فكان معلوماً بذلك أن قوله: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾ لو كان معنياً به المسافر، لم يكن لإعادة ذكره في قوله: ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر﴾ معنى مفهوم، وقد مضى حكم ذكره قبل ذلك، فإذا كان ذلك كذلك فتأويل الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها، وأنتم سكارى، حتى تعلموا ما تقولون، ولا تقربوها أيضاً جنباً، حتى تغتسلوا، إلا عابري سبيل. قال: والعابر السبيل: المجتاز مراً وقطعاً، يقال منه: عبرت هذا الطريق، فأنا أعبره عبرا وعبوراً، ومنه قيل: عبر فلان النهر، إذا قطعه وجاوزه، ومنه قيل للناقة القوية على الأسفار، هي عُبْر أسفار وعَبْر أسفار لقوتها على قطع الأسفار، وهذا الذي نصره، هو قول الجمهور،

وهو الظاهر من الآية، وكأنه تعالى نهى عن تعاطي الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها، وعن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة، وهي الجنابة المباعدة للصلاة، ولمحلها أيضاً، والله أعلم.

وقوله ﴿**حتى تغتسلوا**﴾ دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة، أبو حنيفة ومالك والشافعي، أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد حتى يغتسل أو يتيمم، إن عدم الماء، أو لم يقدر على استعماله بطريقه، وذهب الإمام أحمد: إلى أنه متى توضأ الجنب، جاز له المكث في المسجد، لما روى هو وسعيد بن منصور في سننه بإسناد صحيح: أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك. فروى سعيد بن منصور عن عطاء بن يسار قال: رأيت رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ، يجلسون في المسجد وهم مجنبون، إذا توضؤوا وضوء الصلاة. وهذا إسناده على شرط مسلم، والله أعلم.

وقوله: ﴿**وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً**﴾ أما المرض المبيح للتيمم، فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء، فواتُ عضو أو شَيْنه أو تطويل البُرء. ومن العلماء من جَوّز التيمم بمجرد المرض، لعموم الآية.

والسفر معروف، ولا فرق فيه بين الطويل والقصير، وقوله: ﴿**أو جاء أحد منكم من الغائط**﴾ الغائط هو المكان المطمئن من الأرض، كنى بذلك عن التغوط، وهو الحدث الأصغر، وأما قوله: ﴿**أو لامستم النساء**﴾ فقرىء لمستم ولامستم، واختلف المفسرون والأئمة في معنى ذلك على قولين:

أحدهما: أن ذلك كناية عن الجماع؛ لقوله تعالى: ﴿**وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم**﴾ [البقرة:٢٣٧]. وعن ابن عباس في قوله: ﴿**أو لامستم النساء**﴾ قال: الجماع. وروي عن علي ومجاهد وطاوس والحسن والشعبي [وغيرهم] نحو ذلك، وعن سعيد بن جبير، قال: ذكروا اللمس، فقال ناس من الموالي: ليس بالجماع، وقال ناس من العرب: اللمس الجماع، قال: فأتيت ابن عباس فقلت له: إن ناساً من الموالي والعرب اختلفوا في اللمس، فقالت الموالي: ليس بالجماع، وقالت العرب: الجماع، قال: من أي الفريقين كنت؟ قلت: كنت من الموالي، قال: غُلب فريق الموالي. إن اللمس والمس والمباشرة: الجماع، ولكن الله يكني ما شاء بما شاء.

وقال آخرون: عنى الله بذلك كل لمس بيد كان أو بغيرها من أعضاء الإنسان، وأوجبوا الوضوء على كل من مس بشيء من جسده شيئاً من جسدها مفضياً إليه.

وعن عبد الله بن مسعود، قال: اللمس ما دون الجماع، وعنه أيضا قال: القبلة من المس وفيها الوضوء. وعن عبد الله بن عمر أنه كان يتوضأ من قبلة المرأة، ويرى فيها الوضوء،

ويقول: هي من اللماس. وروي عن ابن عمر، وعبيدة، وإبراهيم النخعي [وغيرهم] نحو ذلك.

وعن ابن عمر أنه كان يقول: قبلة الرجل امرأته وجسه بيده من الملامسة، فمن قبل امرأته أوجسها بيده، فعليه الوضوء.

والقول بوجوب الوضوء من المس، هو قول الشافعي وأصحابه، ومالك، والمشهور عن أحمد بن حنبل رحمهم الله، قال ناصر هذه المقالة: قد قرىء في هذه الآية **﴿لامستم﴾** **﴿ولمستم﴾**، واللمس يطلق في الشرع على الجس باليد، قال تعالى: **﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم﴾** [الأنعام:٧] أي جسوه، وقال رسول الله ﷺ لماعز حين أقر بالزنا، يُعرّض له بالرجوع عن الإقرار: «لعلك قبلت أو لمست» [رواه البخاري]. وفي الحديث الصحيح: «واليد زناها اللمس»، ومنه ما ثبت في الصحيحين، أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع الملامسة، وهو يرجع إلى الجس باليد، على كلا التفسيرين، قالوا: ويطلق في اللغة على الجس باليد، كما يطلق على الجماع.

قال ابن جرير: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: عنى الله بقوله: **﴿أو لامستم النساء﴾** الجماع، دون غيره من معاني اللمس، لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قبّل بعض نسائه، ثم صلى ولم يتوضأ، ثم روى عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يتوضأ، ثم يقبل ثم يصلي، ولا يتوضأ. [أخرجه ابن جرير وسنده قابل للتصحيح وصحح بعض طرقه أحمد شاكر].

وقوله تعالى: **﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾** استنبط كثير من الفقهاء من هذه الآية: أنه لا يجوز التيمم لعادم الماء إلا بعد تَطَلبه الماء، فمتى طلبه فلم يجده، جاز له حينئذ التيمم، وقد ذكروا كيفية الطلب في كتب الفروع، كما هو مقرر في موضعه، كما هو في الصحيحين من حديث عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معتزلاً لم يصل في القوم، فقال: «يا فلان ما منعك أن تصلي مع القوم، ألست برجل مسلم» قال: بلى يا رسول الله، ولكن أصابتني جنابة ولا ماء، قال «عليك بالصعيد فإنه يكفيك». ولهذا قال تعالى: **﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾** فالتيمم في اللغة، هو القصد، تقول العرب: تيممك الله بحفظه، أي قصدك. والصعيد قيل: هو كل ما صعد على وجه الأرض، فيدخل فيه التراب والرمل والشجر والحجر والنبات، وهو قول مالك، وقيل: ما كان من جنس التراب فيختص التراب والرمل، والزرنيخ والنورة، وهذا مذهب أبي حنيفة، وقيل: هو التراب فقط، وهو مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهما، واحتجوا بقوله تعالى: **﴿فتصبح صعيداً زلقاً﴾** [الكهف: ٤٠] أي تراباً أملس طيباً، وبما ثبت في صحيح مسلم، عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء» وفي لفظ «وجعل ترابها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء» قالوا: فخصص الطهورية بالتراب، في مقام الامتنان،

فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه، والطيب ههنا قيل: الحلال، وقيل: الذي ليس بنجس، كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن، إلا ابن ماجه عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «الصعيد الطيب طهور المسلم، وإن لم يجد الماء عشر حجج، فإذا وجده فليمسه بشرته فإن ذلك خير» وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن حبان أيضاً، وقال ابن عباس: أطيب الصعيد تراب الحرث.

وقوله: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ التيمم بدل عن الوضوء في التطهر به، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه، بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع، ولكن اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال: أحدها وهو مذهب الشافعي في الجديد: أنه يجب أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين، لأن لفظ اليدين يصدق إطلاقهما على ما يبلغ المنكبين، وعلى ما يبلغ المرفقين، كما في آية الوضوء، ويطلق ويراد بهما ما يبلغ الكفين، كما في آية السرقة ﴿فاقطعوا أيديهما﴾ [المائدة:٣٨] قالوا: وحمل ما أطلق ههنا على ما قيد في آية الوضوء أولى لجامع الطهورية، وذكر بعضهم: ما رواه الدارقطني عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «التيمم ضربتان: ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين» ولكن لا يصح، لأن في أسانيده ضعفاء، لا يثبت الحديث بهم، وروى أبو داود عن ابن عمر، في حديث، أن رسول الله ﷺ، ضرب بيديه على الحائط ومسح بهما وجهه، ثم ضرب ضربة أخرى فمسح ذراعيه، ولكن في إسناده محمد بن ثابت العبدي، وقد ضعفه بعض الحفاظ، ورواه غيره من الثقات، فوقفوه على فعل ابن عمر، قال البخاري وأبو زرعة وابن عدي: وهو الصواب، وقال البيهقي: رفع هذا الحديث منكر.

والقول الثاني: أنه يجب مسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين، وهو قول الشافعي في القديم. والثالث: أنه يكفي مسح الوجه والكفين بضربة واحدة. روى الإمام أحمد عن عمار، أن رسول الله ﷺ قال في التيمم: «ضربة للوجه والكفين»[ورواه أبوداود والترمذي وصححه الألباني]

وقال تعالى في آية المائدة: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ [المائدة:٦]، استدل بذلك الشافعي، على أنه لابد في التيمم، أن يكون بتراب طاهر، له غبار يعلق بالوجه واليدين منه شيء.

وقوله: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ أي في الدين الذي شرعه لكم ﴿ولكن يريد ليطهركم﴾ فلهذا أباح لكم، إذا لم تجدوا الماء، أن تعدلوا إلى التيمم بالصعيد، ﴿وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾. ولهذا كانت هذه الأمة مختصة بمشروعية التيمم، دون سائر الأمم، كما ثبت في الصحيحين، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل» وفي لفظ: «فعنده طهوره ومسجده، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه

وبعثت إلى الناس عامة». وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿**فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً**﴾ أي ومن عفوه عنكم وغَفره لكم أن شرع التيمم، وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء، توسعة عليكم ورخصة لكم، وذلك أن هذه الآية الكريمة فيها تنزيه الصلاة، أن تفعل على هيئة ناقصة، من سُكْر حتى يصحو المكلف ويعقل ما يقول، أو جنابة حتى يغتسل، أو حدث حتى يتوضأ، إلا أن يكون مريضاً أو عادماً للماء، فإن الله عز وجل قد أرخص في التيمم، والحالة هذه رحمة بعباده ورأفة بهم، وتوسعة عليهم، ولله الحمد والمنة.

ذكر سبب نزول مشروعية التيمم:

وإنما ذكرنا ذلك ههنا؛ لأن هذه الآية التي في النساء متقدمة النزول على آية المائدة، وبيانه أن هذه نزلت قبل تحتّم تحريم الخمر، والخمر إنما حرم بعد أحد يقال: في محاصرة النبي ﷺ لبني النضير بعد أحد بيسير، وأما المائدة فإنها من أواخر ما نزل ولا سيما صدرها، فناسب أن يذكر السبب ههنا، وبالله الثقة. روى البخاري عن عائشة، قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش، انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة، أقامت برسول الله ﷺ وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء قالت عائشة: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي ولا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمم، فتيمموا، فقال أسيد بن الحضير: ما هي بأولَ بركتكم يا آل أبي بكر، قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحته.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

يخبر تبارك وتعالى عن اليهود ـ عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ـ أنهم يشترون الضلالة بالهدى، ويُعرضون عما أنزل الله على رسوله، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين في صفة محمد ﷺ، ليشتروا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا، ﴿**ويريدون أن تضلوا السبيل**﴾ أي يودون لو تكفرون بما أنزل عليكم أيها المؤمنون وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع، ﴿**والله أعلم بأعدائكم**﴾ أي هو أعلم بهم ويحذركم منهم، ﴿**وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً**﴾ أي كفى به ولياً لمن لجأ إليه ونصيراً لمن استنصره. ثم قال تعالى: ﴿من

الذين هادوا﴾ «من» هذه لبيان الجنس كقوله ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ [الحج: ٣٠]، وقوله: ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ أي يتأولون الكلام على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل، قصداً منهم وافتراء ﴿ويقولون سمعنا وعصينا﴾ أي يقولون سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه، هكذا فسره مجاهد وابن زيد، وهو المراد، وهذا أبلغ في عنادهم وكفرهم أنهم يتولون عن كتاب الله بعدما عقلوه وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من الإثم والعقوبة، وقوله: ﴿واسمع غير مسمع﴾ أي اسمع ما نقول، لا سمعت، قاله ابن عباس، وقال مجاهد والحسن: واسمع غير مقبول منك، قال ابن جرير: والأول أصح، وهو كما قال: وهذا استهزاء منهم واستهتار، عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ﴿وراعنا لياً بألسنتهم وطعنا في الدين﴾ أي يوهمون أنهم يقولون: راعنا سمعك بقولهم: راعنا، وإنما يريدون الرعونة. ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه: ﴿لياً بألسنتهم وطعناً في الدين﴾ يعني بسبهم النبي ﷺ. ثم قال تعالى: ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ أي قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه، فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم، وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ [البقرة: ٨٨] والمقصود: أنهم لا يؤمنون إيماناً نافعاً.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

يقول تعالى آمراً أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على عبده ورسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات، ومتهدداً لهم إن لم يفعلوا بقوله: ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها﴾ قال بعضهم: معناه من قبل أن نطمس وجوهاً، وطمسها هو ردها إلى الأدبار وجعل أبصارهم من ورائهم، ويحتمل أن يكون المراد: من قبل أن نطمس وجوهاً فلا يبقى لها سمع ولا بصر ولا أثر، ونردها مع ذلك إلى ناحية الأدبار. وعن ابن عباس: ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً﴾ وطمسها أن تعمى ﴿فنردها على أدبارها﴾ يقول: نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم، فيمشون القهقرى، ونجعل لأحدهم عينين من قفاه، وكذا قال قتادة وعطية العوفي، وهذا أبلغ في العقوبة والنكال، وهو مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل، ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سُبُل الضلالة، يُهْرَعون ويمشون القهقرى على أدبارهم، وهذا كما قال بعضهم في قوله: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ [يس: ٩] إن هذا مثل سوء ضربه الله لهم في ضلالهم، ومنعهم عن الهدى. قال مجاهد: ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً﴾ يقول: عن صراط الحق فنردها على أدبارها، أي في الضلالة. قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عباس والحسن

نحو هذا. قال السدي: فنردها على أدبارها، فنمنعها عن الحق، قال: نرجعها كفاراً ونردهم قردة، وقال ابن زيد: نردهم إلى بلاد الشام من أرض الحجاز. وقد ذكر أن كعب الأحبار أسلم حين سمع هذه الآية.

وقوله: ﴿**أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت**﴾ يعني الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد وقد مسخوا قردة وخنازير، وسيأتي بسط قصتهم في سورة الأعراف. وقوله: ﴿**وكان أمر الله مفعولاً**﴾ أي إذا أمر بأمر فإنه لا يخالف ولا يمانع. ثم أخبر تعالى أنه ﴿**لا يغفر أن يشرك به**﴾. أي لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ﴿**ويغفر ما دون ذلك**﴾ أي من الذنوب ﴿**لمن يشاء**﴾، أي من عباده، وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة:

منها ما روى الإمام أحمد عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقول: يا عبدي ما عبدتني ورجوتني، فإني غافر لك على ما كان فيك، يا عبدي إنك إن لقيتني بقراب الأرض خطيئة ما لم تشرك بي، لقيتك بقرابها مغفرة» [وأخرجه الترمذي من حديث أنس وحسنه].

ومنها ما روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «ما من عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك، إلا دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال وإن زنى وإن سرق ثلاثاً، ثم قال في الرابعة: على رغم أنف أبي ذر»، قال: فخرج أبو ذر وهو يجر إزاره وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذر، وكان أبو ذر يحدث بهذا بَعْدُ ويقول: وإن رغم أنف أبي ذر. أخرجاه.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان في بني إسرائيل رجلان: كان أحدهما مجتهداً في العبادة، وكان الآخر مسرفاً على نفسه، وكانا متآخيين، وكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على ذنب فيقول: يا هذا أقصر، فيقول: خلني وربي أبعثت عليّ رقيباً؟ قال: إلى أن رآه يوماً على ذنب استعظمه، فقال له: ويحك، أقصر! قال: خلني وربي، أبعثت عليّ رقيباً؟ فقال والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الله الجنة أبداً، قال: فبعث الله إليهما ملكا فقبض أرواحهما، واجتمعا عنده، فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أكنت بي عالماً، أكنت على ما في يدي قادراً؟ اذهبوا به إلى النار: قال: «فوالذي نفس أبي القاسم بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته» رواه أبو داود [وحسنه الألباني في تخريج الطحاوية].

وعن ابن عمر، قال: كنا لا نشك فيمن أوجب الله له النار في الكتاب، حتى نزلت علينا هذه الآية: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ قال: فلما سمعناها كففنا عن الشهادة وأرجينا الأمور إلى الله عز وجل.

وهذه الآية التي في سورة «تنزيل» مشروطة بالتوبة، فمن تاب من أي ذنب وإن تكرر منه، تاب الله عليه، ولهذا قال: ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله**

إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ [الزمر:٥٣] أي بشرط التوبة، ولو لم يكن كذلك لدخل الشرك فيه، ولا يصح ذلك لأنه تعالى قد حكم ههنا بأنه لا يغفر الشرك، وحكم بأنه يغفر ما عداه لمن يشاء، أي: وإن لم يتب صاحبه فهذه أرجى من تلك من هذا الوجه، والله أعلم.

وقوله: ﴿ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾ كقوله ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ [لقمان:١٣] وثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» وذكر تمام الحديث.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾.

قال الحسن وقتادة: نزلت هذه الآية وهي قوله ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ في اليهود والنصارى حين قالوا: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ وقال ابن زيد: نزلت في قولهم: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ [المائدة:١٨]، وفي قولهم: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ [البقرة:١١١]. وقال مجاهد: كانوا يقدمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمونهم ويزعمون أنهم لا ذنب لهم، وكذا قال عكرمة وأبو مالك. وعن ابن عباس، قال: كانت اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم، ويقربون قربانهم ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب، وكذبوا، قال الله: «إني لا أطهر ذا ذنب بآخر لا ذنب له»، وأنزل الله: ﴿ألم ترَ إلى الذين يزكون أنفسهم﴾. وروي عن مجاهد وأبي مالك والسدي وعكرمة والضحاك، نحو ذلك، وقال الضحاك: قالوا: ليس لنا ذنوب كما ليس لأبنائنا ذنوب، فأنزل الله ذلك فيهم، وقيل: نزلت في ذم التمادح والتزكية، وقد جاء في الحديث الصحيح عند مسلم عن المقداد بن الأسود قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المدّاحين التراب، وفي الحديث الآخر المخرج في الصحيحين عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يثني على رجل، فقال: «ويحك قطعت عنق صاحبك»، ثم قال: «إن كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة، فليقل أحسبه كذا، ولا يزكي على الله أحداً».

وسيأتي الكلام على ذلك عند قوله تعالى: ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ [النجم:٣٢]. ولهذا قال تعالى: ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ أي المرجع في ذلك إلى الله عز وجل لأنه عالم بحقائق الأمور وغوامضها. ثم قال تعالى: ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ أي ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل، قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وغير واحد من السلف: هو ما يكون في شق النواة. وعن ابن عباس أيضاً: هو ما فتلت بين أصابعك، وكلا القولين متقارب.

وقوله: ﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ أي في تزكيتهم أنفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله

وأحباؤه، وقولهم: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ [البقرة:١١١]، وقولهم: ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ [البقرة:٨٠]، واتكالهم على أعمال آبائهم الصالحة، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزي عن الأبناء شيئاً في قوله: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم... يعملون﴾ [البقرة:١٤١]. ثم قال: ﴿وكفى به إثماً مبيناً﴾ أي وكفى بصنيعهم هذا كذباً وافتراء ظاهراً.

وقوله: ﴿ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ أما الجبت، فعن عمر بن الخطاب أنه قال: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان. وهكذا روي عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد والحسن [وغيرهم]، [وعنهم أيضا]: الجبت: الشيطان، وزاد ابن عباس: بالحبشية. وعن ابن عباس أيضاً: الجبت: الشرك. وعنه: الجبت: الأصنام. وعن الشعبي: الجبت: الكاهن، وعن ابن عباس: الجبت حيي بن أخطب، وعن مجاهد: الجبت: كعب بن الأشرف.

وقال العلامة أبو نصر إسماعيل بن حَمَّاد الجوهري في كتابه «الصحاح»: الجبت كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك. وفي الحديث: «الطيرة والعيافة والطَّرْق من الجبت». وهذا الحديث الذي ذكره رواه الإمام أحمد في مسنده، ورواه أبو داود في سننه، والنسائي وابن أبي حاتم في تفسيريهما، [وحسنه الأرناؤوط].

وقد تقدم الكلام على الطاغوت في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا. وعن جابر بن عبد الله أنه سئل عن الطواغيت، فقال: هم كهان تنزل عليهم الشياطين. وقال مجاهد: الطاغوت: الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه، وهو صاحب أمرهم. وقال الإمام مالك: الطاغوت هو كل ما يعبد من دون الله عز وجل.

وقوله: ﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ أي يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم، وقلة دينهم، وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم. روى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش: ألا ترى هذا الصُنْبُور المنبتر من قومه؟ يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة، وأهل السقاية؟ قال: أنتم خير، قال فنزلت: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ [الكوثر:٣]، ونزل: ﴿ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ـ إلى ـ نصيراً﴾.

وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين، وإنما قالوا لهم ذلك، ليستميلوهم إلى نصرتهم، وقد أجابوهم وجاءوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق، فكفى الله شرهم ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً﴾ [الأحزاب:٢٥].

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**أم لهم نصيب من الملك**﴾؟، وهذا استفهام إنكار، أي ليس لهم نصيب من الملك ثم وصفهم بالبخل، فقال: ﴿**فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً**﴾، أي لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك والتصرف لما أعطوا أحداً من الناس ولا سيما محمداً ﷺ شيئاً، ولا ما يملأ النقير وهو النقطة التي في النواة في قول ابن عباس والأكثرين. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿**قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق**﴾ [الإسراء: ١٠٠] أي خوف أن يذهب ما بأيديكم مع أنه لا يتصور نفادُه، وإنما هو من بخلكم وشُحكم؛ ولهذا قال: ﴿**وكان الإنسان قتوراً**﴾ [الإسراء: ١٠٠] أي بخيلاً.

ثم قال: ﴿**أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله**﴾ يعني بذلك حَسَدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومَنعهم من تصديقهم إياه حسدُهم له، لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل. وعن ابن عباس في قوله: ﴿**أم يحسدون الناس**﴾ الآية، قال: نحن الناس دون الناس، قال الله تعالى: ﴿**فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً**﴾ أي فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل، الذين هم من ذرية إبراهيم النبوة وأنزلنا عليهم الكتب وحكموا فيهم بالسنن، وهي الحكمة، وجعلنا فيهم الملوك ومع هذا ﴿**فمنهم من آمن به**﴾، أي بهذا الإيتاء وهذا الإنعام، ﴿**ومنهم من صد عنه**﴾ أي كفر به وأعرض عنه وسعى في صد الناس عنه، وهو منهم ومن جنسهم أي من بني إسرائيل. فقد اختلفوا عليهم، فكيف بك يا محمد ولست من بني إسرائيل؟ وقال مجاهد: ﴿**فمنهم من آمن به**﴾، أي بمحمد ﷺ، ﴿**ومنهم من صد عنه**﴾، فالكفرة منهم أشد تكذيباً لك، وأبعد عما جئتهم به من الهدى، والحق المبين، ولهذا قال متوعداً لهم: ﴿**وكفى بجهنم سعيراً**﴾ أي وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصدّ عن رسله، فقال: ﴿**إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً**﴾ الآية، أي ندخلهم ناراً دخولاً يحيط بجميع أجرامهم وأجزائهم، ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم، فقال: ﴿**كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب**﴾ عن ابن عمر: إذا احرقت جلودهم بدلوا جلوداً بيضاء أمثال القراطيس. وعن الحسن قال: تنضجهم في اليوم سبعين ألف مرة. وقال الربيع بن أنس: مكتوب في

الكتاب الأول أن جلد أحدهم أربعون ذراعاً وسنه تسعون ذراعاً وبطنه لو وضع فيه جبل لوسعه، فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلوداً غيرها.

وقوله: ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً**﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها، ومحالها وأرجائها حيث شاءوا وأين أرادوا وهم خالدون فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ولا يبغون عنها حولاً. وقوله: ﴿**لهم فيها أزواج مطهرة**﴾ أي من الحيض والنفاس والأذى والأخلاق الرذيلة، والصفات الناقصة، كما قال ابن عباس: مطهرة من الأقذار والأذى. وكذا قال عطاء والحسن والسدي [وغيرهم]. وقال مجاهد: مطهرة من البول والحيض والنخام والبزاق والمني والولد. وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمآثم، ولا حيض ولا كَلَف. وقوله: ﴿**وندخلهم ظلاً ظليلاً**﴾ أي ظلاً عميقاً كثيراً غزيراً طيباً أنيقاً. روى ابن جرير عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها: شجرة الخلد» [سنده لا بأس به وأصله في الصحيحين].

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك» رواه الإمام أحمد وأهل السنن، [وقال الترمذي: حسن غريب. قلت: ولا تخلو طرقه من مقال]، وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله عز وجل على عباده من الصلوات والزكوات والكفارات والنذور والصيام وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه ولا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك، فأمر الله عز وجل بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها حتى يقتص للشاة الجَمَّاء من القرناء» [رواه مسلم]. وعن ابن عباس في قوله: ﴿**إن الله يأمركم أن تأدوا الأمانات إلى أهلها**﴾ قال: هي مبهمة [أي عامة] للبر والفاجر، وقال محمد بن الحنفية: هي مُسَجَّلَةٌ للبر والفاجر. وقال أبو العالية: الأمانة ما أمروا به ونهوا عنه. وقال أبي بن كعب: من الأمانة أن المرأة ائتمنت على فرجها. وقال الربيع بن أنس: هي من الأمانات فيما بينك وبين الناس. وعن ابن عباس: ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**﴾ قال: قال يدخل فيه وعظ السلطان النساء يعني يوم العيد، وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة القرشي العبدري حاجب الكعبة المعظمة، وهو ابن عم شيبة بن عثمان بن أبي طلحة الذي صارت الحجابة في نسله إلى اليوم، أسلم عثمان هذا في الهدنة بين صلح الحديبية،

وفتح مكة، هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وأما عمه عثمان بن طلحة، فكان معه لواء المشركين يوم أحد، وقتل يومئذ كافراً. فعن ابن جريج: ﴿**إن الله يأمركم أن تأدوا الأمانات إلى أهلها**﴾ قال: نزلت في عثمان بن طلحة، قبض منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة فدخل به البيت يوم الفتح، فخرج وهو يتلو هذه الآية، فدعا عثمان إليه فدفع إليه المفتاح، قال: وقال عمر بن الخطاب لما خرج رسول الله ﷺ من الكعبة وهو يتلو هذه الآية: فداه أبي وأمي ما سمعته يتلوها قبل ذلك. [وعن ابن عباس نحوه].

وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك، وسواء كانت نزلت في ذلك أو لا، فحكمها عام؛ ولهذا قال ابن عباس ومحمد بن الحنفية: هي للبر والفاجر، أي هي أمر لكل أحد.

وقوله: ﴿**وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾ أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس، ولهذا قال محمد بن كعب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب: إن هذه الآية إنما نزلت في الأمراء، يعني الحكام بين الناس، وفي الحديث: «إن الله مع الحاكم ما لم يجر فإذا جار وكله الله إلى نفسه» [أخرجه الترمذي: وقال حسن].

وقوله: ﴿**إن الله نعما يعظكم به**﴾ أي يأمركم به من أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة. وقوله: ﴿**إن الله كان سميعاً بصيراً**﴾ أي سميعاً لأقوالكم، بصيراً بأفعالكم.

وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أنه قرأ هذه الآية: ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**﴾ إلى قوله: ﴿**إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً**﴾ ويضع إبهامه على أذنه، والتي تليها على عينه ويقول: هكذا سمعت رسول الله يقرؤها ويضع إصبعيه. رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه [وصححه ووافقه الذهبي وجود إسناده الحافظ في الفتح].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾

روى الإمام أحمد عن علي قال: بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وَجَد عليهم في شيء، قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: اجمعوا لي حطباً، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها، قال: فهمّ القوم أن يدخلوها قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها، قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: «لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف». أخرجاه في الصحيحين.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء فيكثرون». قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: «أوفوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم» أخرجاه. والأحاديث في هذا كثيرة.

وقال ابن عباس: ﴿**وأولي الأمر منكم**﴾ يعني أهل الفقه والدين، وكذا قال مجاهد [وغيره] ﴿**وأولي الأمر منكم**﴾ يعني العلماء والظاهر والله أعلم أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء كما تقدم. وقد قال تعالى: ﴿**لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت**﴾ [المائدة:٦٣]. وقال تعالى: ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾ [النحل:٤٣]، وفي الحديث الصحيح المتفق عليه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني». فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**أطيعوا الله**﴾ أي اتبعوا كتابه ﴿**وأطيعوا الرسول**﴾ أي خذوا بسنته ﴿**وأولي الأمر منكم**﴾ أي فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله، كما تقدم في الحديث الصحيح: «إنما الطاعة في المعروف».

وقوله: ﴿**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول**﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف أي إلى كتاب الله وسنة رسوله. وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿**وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله**﴾ [الشورى:١٠] فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال تعالى: ﴿**إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾ أي ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم ﴿**إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾ فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر، وقوله: ﴿**ذلك خير**﴾ أي التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، والرجوع في فصل النزاع إليهماخير ﴿**وأحسن تأويلاً**﴾ أي وأحسن عاقبة ومآلا كما قاله السدي وغير واحد. وقال مجاهد: وأحسن جزاء وهو قريب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾.

هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء

الأقدمين، وهو مع ذلك يريد التحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية: أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخصاما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف، وقيل: في جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية، وقيل غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة. وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت ههنا، ولهذا قال: ﴿**يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت. . . . صدودا**﴾.

وقوله: ﴿**ويصدون عنك صدوداً**﴾ أي يعرضون عنك إعراضاً كالمستكبرين عن ذلك، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿**وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا**﴾ [لقمان: ٢١]، هؤلاء وهؤلاء بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم: ﴿**إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا**﴾ [النور: ٥١].

ثم قال تعالى في ذم المنافقين: ﴿**فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم**﴾ أي فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم، واحتاجوا إليك في ذلك ﴿**ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً**﴾ أي يعتذرون إليك ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكمنا إلى عداك إلا الإحسان والتوفيق، أي المداراة والمصانعة لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة، كما أخبرنا تعالى عنهم في قوله: ﴿**فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى** - إلى قوله - **فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين**﴾ [المائدة: ٥٢].

ثم قال تعالى: ﴿**أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم**﴾ هذا الضرب من الناس هم المنافقون، والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزيهم على ذلك، فإنه لا تخفى عليه خافية، فاكتف به يا محمد فيهم، فإنه عالم بظواهرهم وبواطنهم؛ ولهذا قال له: ﴿**فأعرض عنهم**﴾ أي لا تعنفهم على ما في قلوبهم ﴿**وعظهم**﴾ أي وانههم على ما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر، ﴿**وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً**﴾ أي وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع**﴾ أي فرضت طاعته على من أرسله إليهم. وقوله: ﴿**بإذن الله**﴾ قال مجاهد: أي لا يطيع أحدٌ إلا بإذني، يعني لا يطيعهم إلا من وفقته لذلك، كقوله: ﴿**ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه**﴾ [آل عمران: ١٥٢] أي عن أمره وقدره ومشيئته وتسليطه إياكم عليهم.

وقوله: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ، فيستغفروا الله عنده ويسألوه أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم، ولهذا قال ﴿لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾.

وقوله: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة: أنه لا يؤمن أحد حتى يُحَكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً، ولهذا قال: ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة.

روى ابن أبي حاتم عن الزبير بن العوام، أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدراً مع النبي ﷺ إلى رسول الله ﷺ، في شراج الحرة كانا يسقيان به كلاهما النخل، فقال الأنصاري: سرح الماء يمر، فأبى عليه الزبير، فقال رسول الله ﷺ: «اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك» فغضب الأنصاري وقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمتك ؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: «اسقِ يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر». واستوعى رسول الله ﷺ للزبير حَقّه، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد فيه السعة له وللأنصاري، فلما أحفظ الأنصاري رسول الله ﷺ، استوعى للزبير حقه في صريح الحكم، فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية إلا في ذلك: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ وهكذا رواه النسائي ورواه أحمد والجماعة كلهم.

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّـۧنَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه، لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن لو كان، فكيف كان يكون، ولهذا قال تعالى: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم﴾.

وقال السدي: افتخر ثابت بن قيس بن شَمَّاس ورجل من اليهود، فقال اليهودي: والله لقد كتب الله علينا القتل فقتلنا أنفسنا، فقال ثابت: والله لو كتب علينا ﴿أن اقتلوا أنفسكم﴾ لفعلنا؛ فأنزل الله هذه الآية. رواه ابن أبي حاتم. [وجاءت مراسيل أخرى بنحوه عن الحسن

وأبي إسحاق السبيعي وعامر بن عبد الله بن الزبير وشريح بن عبيد].

ولهذا قال تعالى: ﴿**ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به**﴾ أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه ﴿**لكان خيراً لهم**﴾ أي من مخالفة الأمر وارتكاب النهي ﴿**وأشد تثبيتاً**﴾، قال السدي: أي وأشد تصديقاً ﴿**وإذاً لآتيناهم من لدنا**﴾ أي من عندنا ﴿**أجراً عظيماً**﴾ يعني الجنة ﴿**ولهديناهم صراطاً مستقيماً**﴾ أي في الدنيا والآخرة، ثم قال تعالى: ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً**﴾. أي من عمل بما أمره الله ورسوله وترك ما نهاه الله عنه ورسوله فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته ويجعله مرافقاً للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة وهم الصديقون، ثم الشهداء ثم عموم المؤمنين وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم ثم أثنى عليهم تعالى فقال: ﴿**وحسن أولئك رفيقاً**﴾.

روى البخاري عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي يمرض إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة» وكان في شكواه التي قبض فيه فأخذته بُحَّة شديدة فسمعته يقول: «مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» فعلمت أنه خُيِّر، وكذا رواه مسلم. وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الآخر: «اللهم في الرفيق الأعلى» ثلاثاً ثم قضى. [رواه البخاري].

ذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة:

روى ابن جرير عن سعيد بن جبير، قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: «يا فلان ما لي أراك محزوناً ؟» فقال: يا نبي الله شيء فكرت فيه، فقال: ما هو ؟ قال: نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك وغداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك، فلم يرد النبي ﷺ عليه شيئاً، فأتاه جبريل بهذه الآية: ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين**﴾. فبعث النبي ﷺ فبشره. قد روى هذا الأثر مرسلا عن مسروق وعكرمة وعامر الشعبي وقتادة وعن الربيع بن أنس.

وثبت في صحيح مسلم من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي «سل»، فقلت: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: «أو غير ذلك ؟» قلت: هو ذاك. قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود».

وروى الترمذي عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء» ثم قال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في الصحاح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال: «المرء مع من أحب» قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث. وفي رواية عن أنس أنه قال: إني لأحب

رسول الله ﷺ، وأحب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وأرجو أن يبعثني الله معهم وإن لم أعمل كعملهم. [رواه مسلم]. وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لِتَفَاضُلِ ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا با لله وصدقوا المرسلين» أخرجاه في الصحيحين ولفظه لمسلم.

ولهذا قال تعالى: ﴿ ذلك الفضل من الله﴾ أي من عند الله برحمته وهو الذي أهلهم لذلك لا بأعمالهم ﴿وكفى بالله عليماً﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾.

يأمر الله عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد، وتكثير العدد بالنفير. ﴿ثبات﴾ أي جماعة بعد جماعة وفرقة بعد فرقة وسرية بعد سرية، والثبات جمع ثُبَة. قال ابن عباس: قوله: ﴿فانفروا ثبات﴾ أي عُصباً يعني، سرايا متفرقين ﴿أو انفروا جميعاً﴾ يعني كلكم، وكذا روي عن مجاهد وعكرمة والسدي وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان وخُصَيف الجَزَري.

وقوله: ﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾ قال مجاهد وغير واحد: نزلت في المنافقين، وقال مقاتل بن حيان: ﴿ليبطئن﴾ أي ليتخلفن عن الجهاد، ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو في نفسه، ويبطىء غيره عن الجهاد كما كان عبد الله بن أبي ابن سلول ـ قبحه الله ـ يفعل، يتأخر عن الجهاد ويُثَبِّط الناس عن الخروج فيه. وهذا قول ابن جريج وابن جرير؛ ولهذ قال تعالى إخباراً عن المنافق أنه يقول: إذا تأخر عن الجهاد ﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾ أي قتل وشهادة وغلب العدو لكم، لما لله في ذلك من الحكمة ﴿ قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً﴾ أي إذ لم أحضر معهم وقعة القتال يعد ذلك من نعم الله عليه، ولم يدر ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل.

﴿ولئن أصابكم فضل من الله﴾ أي نصر وظفر وغنيمة ﴿ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة﴾ أي كأنه ليس من أهل دينكم ﴿يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً﴾ أي بأن يضرب لي بسهم معهم فأحصل عليه. وهو أكبر قصده وغاية مراده.

ثم قال تعالى: ﴿فليقاتل﴾ أي المؤمن النافر ﴿في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ أي يبيعون دينهم بَعَرَض قليل من الدنيا، وما ذلك إلا لكفرهم وعدم إيمانهم، ثم

قال تعالى: ﴿**ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً**﴾ أي كل من قاتل في سبيل الله سواء قُتِل أو غَلَب وسَلَب فله عند الله مثوبة عظيمة وأجر جزيل، كما ثبت في الصحيحين: «وتكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة».

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

يحرض تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان المتبرمين بالمقام بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية**﴾ يعني مكة، كقوله تعالى: ﴿**وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك**﴾ [محمد:١٣]، ثم وصفها بقوله: ﴿**الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً**﴾ أي سخر لنا من عندك ولياً وناصراً، روى البخاري عن ابن عباس قال: كنت أنا وأمي من المستضعفين. وروي عنه أنه تلا: ﴿**إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان**﴾ قال: كنت أنا وأمي ممن عَذَر الله عز وجل.

ثم قال تعالى: ﴿**الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت**﴾ أي المؤمنون يقاتلون في طاعة الله ورضوانه، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان، ثم هيج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله: ﴿**فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً**﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾.

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة، وإن لم تكن ذات النُّصُب، لكن كانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها: كونهم كانوا في بلدهم، وهو بلد حرام، وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء لائقاً، فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه، جَزِع بعضهم منه، وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً ﴿**وقالوا ربنا لم كتبت**

علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ أي لوما أخرت فرضه إلى مدة أخرى، فإن فيه سفك الدماء، ويُتم الأبناء، وتأيّم النساء، وهذه الآية في معنى قوله تعالى: **﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال... خيراً لهم﴾** [محمد: ٢٠ـ٢١]، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، قال: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم»، فلما حوله الله إلى المدينة، أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله: **﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾** الآية، ورواه النسائي والحاكم وصححه وابن مردويه. وقال السدي: لم يكن عليهم إلا الصلاة والزكاة، فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال، فلما فرض عليهم القتال: **﴿إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾** وهو الموت. قال الله تعالى: **﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾**. وعن مجاهد: إن هذه الآية نزلت في اليهود. وقوله: **﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾** أي آخرة المتقي خير من دنياه. **﴿ولا تظلمون فتيلاً﴾** أي من أعمالكم بل توفونها أتم الجزاء، وهذه تسلية لهم عن الدنيا وترغيب لهم في الآخرة وتحريض لهم على الجهاد.

وقرأ الحسن: **﴿قل متاع الدنيا قليل﴾** قال: رحم الله عبداً صحبها على حسب ذلك، وما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة فرأى في منامه بعض ما يحب ثم انتبه. وقال ابن معين كان أبو مُسْهِر ينشد:

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له ... من الله في دار المقام نصيب
فإن تعجب الدنيا رجـــالاً فـإنها ... متاع قـلـيل والـزوال قريب

وقوله: **﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾** أي أنتم صائرون إلى الموت لا محالة ولا ينجو منه أحد منكم، كما قال تعالى: **﴿كل من عليها فان﴾** [الرحمن: ٢٦]، وقال تعالى: **﴿وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾** [الأنبياء: ٣٤]. والمقصود: أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة، ولا ينجيه من ذلك شيء وسواء عليه جاهد أو لم يجاهد، فإن له أجلاً محتوماً، وأمداً مقسوماً، كما قال خالد بن الوليد حين جاءه الموت على فراشه: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي، فلا نامت أعين الجبناء.

وقوله: **﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾** أي حصينة منيعة عالية رفيعة، وقيل، هي بروج في السماء قال السدي، وهو ضعيف، والصحيح أنها المنيعة، أي لا يغني حذر وتحصن من الموت، كما قال زهير بن أبي سلمى:

ومن خاف أســباب المـنايا ينلنه ... ولو رام أسباب السماء بسلم

ثم قيل: المشَيَّدة هي المَشِيدةَ كما قال: ﴿وقصر مشيد﴾ [الحج:٤٥]. وقيل: بل بينهما فرق، وهو أن المُشَيَّدة بالتشديد هي: المطولة، وبالتخفيف هي: المزينة بالشيد وهو الجص.

وقوله: ﴿وإن تصبهم حسنة﴾ أي خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك، هذا معنى قول ابن عباس وأبي العالية والسدي ﴿يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة﴾ أي قحط وجدب ونقص في الثمار والزروع أو موت أولاد أو نتاج أو غير ذلك كما يقوله أبو العالية والسدي ﴿يقولوا هذه من عندك﴾ أي من قبلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك، كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾ [الأعراف:١٣١]. وكما قال تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف .... خسر الدنيا والآخرة﴾ الآية [الحج:١١]. وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهراً وهم كارهون له في نفس الأمر؛ ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم النبي ﷺ. وقال السدي: ﴿وإن تصبهم حسنة﴾ قال: والحسنة الخصب، تنتج خيولهم ومواشيهم وأنعامهم، ويحسن حالهم وتلد نساؤهم الغلمان، قالوا ﴿هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة﴾ والسيئة: الجدْب والضرر في أموالهم، تشاءموا بمحمد ﷺ وقالوا: ﴿هذه من عندك﴾ يقولون: بتركنا ديننا واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء، فأنزل الله عز وجل: ﴿قل كل من عند الله﴾ أي الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ في البَرّ والفاجر والمؤمن والكافر. قال ابن عباس: ﴿قل كل من عند الله﴾ أي الحسنة والسيئة. وكذا قال الحسن البصري. ثم قال تعالى منكراً على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب، وقلة فهم وعلم وكثرة جهل وظلم: ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾.

ثم قال تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ والمراد جنس الإنسان ليحصل الجواب: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾ أي من فضل الله ومنه ولطفه ورحمته﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ أي فمن قِبَلك، ومن عملك أنت، كما قال تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ [الشورى:٣٠]. قال السدي والحسن البصري وابن جريج وابن زيد ﴿فمن نفسك﴾ أي بذنبك. وقال قتادة: عقوبة يا ابن آدم بذنبك. قال وذكر لنا أن النبي ﷺ قال: «لا يصيب رجلاً خَدْش عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عِرْق إلا بذنب، وما يعفو الله أكثر» وهذا الذي أرسله قتادة قد روي متصلاً في صحيح [مسلم]: «والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا حَزَنٌ، ولا نَصَبٌ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه». وقال أبو صالح: أي بذنبك وأنا الذي قدرتها عليك.

وعن مطرف بن عبد الله، قال: ما تريدون من القدر أما تكفيكم الآية التي في سورة النساء: ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾ أي من نفسك والله ما وُكِلُوا إلى القدر وقد أُمِروا وإليه يصيرون، وهذا كلام متين قوي في الرد

على القدرية والجبرية أيضاً. ولبسطه موضع آخر. وقوله تعالى: ﴿**وأرسلناك للناس رسولاً**﴾ أي تبلغهم شرائع الله وما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويأباه ﴿**وكفى بالله شهيداً**﴾ أي على أنه أرسلك وهو شهيد أيضاً بينك وبينهم، وعالم بما تبلغهم إياه وبما يردون عليك من الحق كفراً وعناداً.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾.

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأنه من أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني». وهذا الحديث ثابت في الصحيحين.

وقوله: ﴿**ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً**﴾ أي لا عليك منه إن عليك إلا البلاغ فمن تبعك سعد ونجا، وكان لك من الأجر نظير ما حصل له، ومن تولى عنك خاب وخسر وليس عليك من أمره شيء، كما جاء في الحديث: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه» [رواه مسلم].

وقوله: ﴿**ويقولون طاعة**﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة ﴿**فإذا برزوا من عندك**﴾ أي خرجوا وتواروا عنك ﴿**بيت طائفة منهم غير الذي تقول**﴾ أي استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه لك، فقال تعالى: ﴿**والله يكتب ما يبيتون**﴾ أي يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين الذين هم موكلون بالعباد يعلمون ما يفعلون، والمعنى في هذا التهديد أنه تعالى أخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم، وما يتفقون عليه ليلاً من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة، وسيجزيهم على ذلك، كما قال تعالى: ﴿**ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا... بالمؤمنين**﴾ [النور:٤٧]، وقوله: ﴿**فأعرض عنهم**﴾ أي اصفح عنهم واحلم عليهم ولا تؤاخذهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تَخَفْ منهم أيضاً ﴿**وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً**﴾ أي كفى به ولياً وناصراً ومعيناً لمن توكل عليه وأناب إليه.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾.

يقول تعالى آمراً عباده بتدبر القرآن وناهياً لهم عن الإعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضاد ولا تعارض لأنه

تنزيل من حكيم حميد فهو حق من حق، ولهذا قال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾، ثم قال: ﴿ولو كان من عند غير الله﴾ أي لو كان مفتعلاً مختلقاً، كما يقوله من يقول من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم ﴿لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾، أي اضطراباً وتضاداً كثيراً، أي وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله، كما قال تعالى مخبراً عن الراسخين في العلم حيث قالوا: ﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾ [آل عمران:٧] أي محكمه ومتشابهه حق؛ فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ رَدّوا المحكم إلى المتشابه فغوُوا؛ ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائغين.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو، قال: هَجرتُ إلى رسول الله ﷺ يوماً، فإنا لجلوس إذ اختلف اثنان في آية، فارتفعت أصواتهما، فقال: «إنما هلكت الأمم قبلكم باختلافهم في الكتاب». ورواه مسلم.

وقوله: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾ إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة. وقد روى مسلم في مقدمة صحيحه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع». وفي الصحيحين، عن المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقال، أي الذي يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت، ولا تَدبُّر، ولا تبيُّن. وفي صحيح [مسلم]: «من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين».

ويذكر ههنا حديث عمر بن الخطاب المتفق عليه، حين بلغه أن رسول الله ﷺ، طلق نساءه، فجاء من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك، فلم يصبر حتى استأذن على رسول الله ﷺ، فاستفهمه أطلقت نساءك؟ قال: «لا» فقلت: الله أكبر وذكر الحديث بطوله. وعند مسلم فقلت: أطلقتهن ؟ فقال: «لا» فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي، لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه، ونزلت هذه الآية: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر.

ومعنى يستنبطونه أي يستخرجونه ويستعلمونه من معادنه، يقال: استنبط الرجل العين إذا حفرها واستخرجها من قعورها. ومعنى قوله: ﴿لا تبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾، قال ابن عباس: يعني المؤمنين. وعن قتادة: ﴿إلا قليلاً﴾ يعني كلكم.

﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ ﴾.

يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ بأن يباشر القتال بنفسه، ومن نكل عنه فلا عليه منه؛

ولهذا قال: ﴿لا تكلف إلا نفسك﴾. روى ابن أبي حاتم عن أبي إسحاق، قال: سألت البراء بن عازب عن الرجل يلقى المائة من العدو فيقاتل أيكون ممن يقول الله: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ البقرة:١٩٥] قال: قد قال الله تعالى لنبيه: ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين﴾. ورواه الإمام أحمد عن أبي إسحاق، قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين، أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة؟ قال: لا، لأن الله بعث رسوله ﷺ وقال: ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ إنما ذلك في النفقة.

وقوله: ﴿وحرض المؤمنين﴾ أي على القتال ورغبهم فيه وشجعهم عنده، كما قال لهم ﷺ يوم بدر وهو يسوي الصفوف: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض». [أخرجه مسلم]. وقد وردت أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك، فمن ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها». قالوا: يا رسول الله أفلا نبشر الناس بذلك؟ فقال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيبل الله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة».

وقوله: ﴿عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا﴾ أي بتحريضك إياهم على القتال تنبعث هممهم على مناجزة الأعداء. ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله، ومقاومتهم ومصابرتهم. وقوله: ﴿والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً﴾ أي هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ذلك ولو يشاء الله لا نتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾ [محمد: ٤].

وقوله: ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾ أي من سعى في أمر فترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك ﴿ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها﴾ اي يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء» [متفق عليه]، وقال مجاهد بن جبر: نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض. وقال الحسن البصري: قال الله تعالى: ﴿من يشفع﴾ ولم يقل من يُشَفَّع، وقوله: ﴿وكان الله على كل شيء مقيتاً﴾. قال ابن عباس [وغيره] ﴿مقيتاً﴾ أي حفيظاً. وقال مجاهد: شهيداً، وفي رواية عنه: حسيباً. وقال سعيد بن جبير والسدي وابن زيد: قديراً. وقال عبد الله بن كثير: المقيت الواصب، وقال الضحاك: المقيت الرزاق.

وقوله: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ أي إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلم، أو ردوا عليه بمثل ما سلم به، فالزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة.

وروى الإمام أحمد عن عمران بن حصين أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: السلام عليكم فرد عليه ثم جلس فقال: «عشر»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله يا رسول الله،

فرد عليه ثم جلس، فقال: «عشرون»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه، ثم جلس فقال: «ثلاثون»، وكذا رواه أبو داود وأخرجه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه.

وعن ابن عباس، قال: من يسلم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان مجوسياً، ذلك بأن الله يقول: ﴿فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾. وقال قتادة: فحيوا بأحسن منها، يعني للمسلمين، أو ردوها يعني لأهل الذمة، وهذا التنزيل فيه نظر بل كما تقدم في الحديث من أن المراد أن يرد بأحسن مما حياه به، فإن بلغ المسلم غاية ما شرع في السلام، رد عليه مثل ما قال، فأما أهل الذمة فلا يُبدؤون بالسلام ولا يزادون، بل يرد عليهم بما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السام عليك، فقل: وعليك». . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه». وعن الحسن البصري، قال: السلام تطوع والرد فريضة، وهذا الذي قاله هو قول العلماء قاطبة: أن الرد واجب على من سلم عليه، فيأثم إن لم يفعل، لأنه خالف أمر الله في قوله: ﴿فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾.

وقوله: ﴿ الله لا إله إلا هو﴾ إخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات وتضمَّن قسماً لقوله: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ وهذه اللام موطئة للقسم، فقوله: ﴿الله لا إله إلا هو﴾ خبر وقسم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيجازي كل عامل بعمله، وقوله تعالى: ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ أي لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعده ووعيده، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾.

يقول تعالى منكراً على المؤمنين في اختلافهم في المنافقين على قولين، واختلف في سبب ذلك فروى الإمام أحمد عن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، فأنزل الله: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة وإنها تنفي الخبث

كما تنفي النار خبث الفضة» أخرجاه في الصحيحين. وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في وقعة أحد أن عبد الله بن أبي ابن سلول رجع يومئذ بثلث الجيش، رجع بثلثمائة وبقي النبي ﷺ في سبعمائة، وعن ابن عباس: نزلت في قوم كانوا بمكة، قد تكلموا بالإسلام، كانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس، وأن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة، قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم، فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم، وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله، أو كما قالوا: أتقتلون قوماً قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به ؟ أمن أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم، تستحل دماؤهم وأموالهم ؟ فكانوا كذلك فئتين، والرسول عندهم لا ينهى واحداً من الفريقين عن شيء، فأنزل الله: ﴿**فما لكم في المنافقين فئتين**﴾. وقد روي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم قريب من هذا، وقال زيد بن أسلم عن ابن لسعد بن معاذ: أنها نزلت في تقاول الأوس والخزرج في شأن عبد الله بن أبي، حين استعذر منه رسول الله ﷺ على المنبر في قضية الإفك، وهذا غريب، وقيل غير ذلك.

وقوله: ﴿**والله أركسهم بما كسبوا**﴾ أي ردهم وأوقعهم في الخطأ، قال ابن عباس: ﴿**أركسهم**﴾ أي أوقعهم، وقال قتادة: أهلكم وقال السدي: أضلهم، وقوله: ﴿**بما كسبوا**﴾ أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل ﴿**أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا**﴾ أي لا طريق له إلى الهدى ولا مخلص له إليه، وقوله: ﴿**ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء**﴾ أي هم يودون لكم الضلالة لتستووا أنتم وإياهم فيها، وما ذاك إلا لشدة عدواتهم وبغضهم لكم؛ ولهذا قال: ﴿**فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا**﴾ أي تركوا الهجرة، قاله العوفي عن ابن عباس، وقال السدي: أظهروا كفرهم ﴿**فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً**﴾ أي لا توالوهم ولا تستنصروا بهم على الأعداء ما داموا كذلك.

ثم استثنى الله سبحانه من هؤلاء، فقال: ﴿**إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق**﴾ أي إلا الذين لجأوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة، أو عقد ذمة فاجعلوا حكمهم كحكمهم، وهذا قول السدي وابن زيد وابن جرير.

وفي صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية: فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد ﷺ وأصحابه وعهدهم، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: نسخها قوله: ﴿**فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم**﴾ [التوبة: ٥].

وقوله: ﴿**أو جاؤوكم حصرت صدروهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم**﴾ الآية، هؤلاء قوم آخرون من المستثنين عن الأمر بقتالهم، وهم الذين يجيؤن إلى المصاف وهم حَصِرَةٌ صدروهم

أي ضيقة صدروهم مُبْغضين أن يقاتلوكم، ولا يهون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم بل هم لا لكم ولا عليكم ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم﴾ أي من لطفه بكم أن كفهم عنكم ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم﴾ أي المسالمة ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ أي فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك ، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال وهم كارهون كالعباس ونحوه ولهذا نهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره.

وقوله: ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾ الآية، هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك، فإن هؤلاء منافقون يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم، ويصانعون الكفار في الباطن فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم وهم في الباطن مع أولئك، كما قال تعالى: ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم﴾ [البقرة: ١٤]. وقال هاهنا: ﴿كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها﴾ أي انهمكوا فيها، قال السدي: الفتنة ههنا: الشرك، وحكى ابن جرير عن مجاهد أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا ولهذا قال تعالى: ﴿فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم﴾ أي عن القتال، ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أي أين لقيتموهم، ﴿وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ أي بيناً واضحاً.

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ .

يقول تعالى: ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه، وكما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة». ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث، فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه.

وقوله: ﴿إلا خطأ﴾ قالوا: هو استثناء منقطع.

واختلف في سبب نزول هذه، فقال مجاهد وغير واحد: نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه وذلك أنه قتل رجلاً كان يعذبه مع أخيه على الإسلام وهو الحارث بن يزيد العامري،

فأضمر له عياش السوء، فأسلم ذلك الرجل وهاجر وعياش لا يشعر، فلما كان يوم الفتح رآه فظن أنه على دينه فحمل عليه فقتله، فأنزل الله هذه الآية، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلت في أبي الدرداء لأنه قتل رجلاً وقد قال كلمة الإيمان حين رفع عليه السيف، فأهوى به إليه فقال كلمته، فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ، قال: إنما قالها متعوذاً فقال له: «هل شققت عن قلبه» وهذه القصة في الصحيح لغير أبي الدرداء.

وقوله: ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله﴾ هذان واجبان في قتل الخطأ، أحدهما الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم وإن كان خطأ، ومن شرطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزىء الكافرة، وحكى ابن جرير عن ابن عباس والشعبي وإبراهيم النخعي والحسن البصري أنهم قالوا: لا يجزىء الصغير حتى يكون قاصداً للإيمان، وعن قتادة قال: في حرف أُبيّ ﴿فتحرير رقبة مؤمنة لا يجزىء فيها صبي﴾. واختار ابن جرير إن كان مولوداً بين أبوين مسلمين أجزأ وإلا فلا.

والذي عليه الجمهور أنه متى كان مسلماً صح عتقه عن الكفارة سواء كان صغيراً أو كبيراً. [ففي] موطأ مالك ومسند الشافعي وأحمد وصحيح مسلم عن معاوية بن الحكم: أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء قال لها رسول الله ﷺ: «أين الله ؟ قالت: في السماء. قال: «من أنا» قالت: أنت رسول الله ﷺ، قال: «أعتقها، فإنها مؤمنة».

وقوله: ﴿ودية مسلمة إلى أهله﴾ هو الواجب الثاني فيما بين القاتل و أهل القتيل عوضاً لهم عما فاتهم من قريبهم، وهذه الدية إنما تجب أخماساً.

كذا روي عن علي وطائفة، وقيل: تجب أرباعاً وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل لا في ماله، قال الشافعي رحمه الله: لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة وهو أكثر من حديث الخاصة، وهذا الذي أشار إليه رحمه الله قد ثبت في غير ما حديث، فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: اقتتلت امرأتان من هذيل فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فقضى أن دية جنينها غرة عبد أو أمة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها وهذا يقتضي أن حكم عمد الخطأ المحض في وجوب الدية، لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثاً كالعمد لشبهه به، وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا فجعل خالد يقتلهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فرفع يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» وبعث علياً فودى قتلاهم وما أتلف من أموالهم حتى مِيلَغَة الكلب، وهذا الحديث يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال.

وقوله: ﴿إلا أن يصدقوا﴾ أي فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب.

وقوله: ﴿فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة﴾ أي إذا كان القتيل مؤمناً

ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب، فلا دية لهم، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير، وقوله: ﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية. . . رقبة مؤمنة﴾ الآية، أي فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة فلهم دية قتيلهم، فإن كان مؤمنا فدية كاملة، وكذا إن كان كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء، وقيل: يجب في الكافر نصف دية المسلم وقيل: ثلثها كما هو مفصل في كتاب الأحكام ويجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة.

﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين﴾ أي لا إفطار بينهما بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس استأنف، واختلفوا في السفر هل يقطع أم لا، على قولين.

وقوله: ﴿توبة من الله وكان الله عليماً حكيما﴾ أي هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين ، واختلفوا فيمن لا يستطع الصيام، هل يجب عليه إطعام ستين مسكيناً كما في كفارة الظهار، على قولين أحدهما: نعم كما هو منصوص عليه في كفارة الظهار، وإنما لم يذكر ههنا، لأن هذا مقام تهديد وتخويف وتحذير فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام لما فيه من التسهيل والترخيص، والقول الثاني لا يعدل إلى الطعام، لأنه لو كان واجباً لما أخر بيانه عن وقت الحاجة. ﴿وكان الله عليما حيكماً﴾ قد تقدم تفسيره غير مرة.

ثم لما بين تعالى حكم القتل الخطأ شرع في بيان حكم القتل العمد، فقال: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾ الآية، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله، حيث يقول سبحانه في سورة الفرقان: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾ [الفرقان:٦٨]. وقال تعالى: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً. . . . إلى أن قال: ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ [الأنعام:١٥١].

والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً، فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء». وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو داود عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال المؤمن معنقاً صالحاً ما لم يصب دماً حراماً، فإذا أصاب دماً حراماً بَلَّح» [صححه الحاكم، ومعنقا أي سريع السير، وبلَّح أي: أعيا وانقطع].

وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة للقاتل عمداً لمؤمن، فروى البخاري عن ابن جبير قال: اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلت إلى ابن عباس فسألته عنها، فقال: نزلت هذه الآية ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم﴾ هي آخر ما نزل، وما ينسخها شيء، وكذا رواه مسلم.

وقد روي هذا عن ابن عباس من طرق كثيرة وممن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف زيد

ابن ثابت وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وأبو سلمة بن عبد الرحمن وعبيد بن عمر والحسن وقتادة والضحاك بن مزاحم نقله ابن أبي حاتم.

وفي الباب أحاديث كثيرة: فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً» وكذا رواه النسائي [وأبوداود وصححه الحاكم والألباني وله شاهد من حديث أبي الدرداء].

والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين ربه عز وجل، فإن تاب وأناب، وخشع وخضع وعمل عملاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن طلابته.

قال الله تعالى: ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ـ إلى قوله ـ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً**﴾ [الفرقان:٦٨ـ٦٩]، وهذا خبر لا يجوز نسخه وحمله على المشركين وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر، ويحتاج حمله إلى دليل، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ـ إلى قوله ـ إنه هو الغفور الرحيم**﴾ [الزمر:٥٣]، وهذا عام في جميع الذنوب من كفر وشرك وشك ونفاق وقتل وفسق وغير ذلك، كل من تاب من أي ذلك تاب الله عليه.

وقال تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ [النساء:٤٨]. فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك، وهي مذكورة في هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها لتقوية الرجاء، والله أعلم.

وثبت في الصحيحين خبر الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس ثم سأل عالماً هل لي من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه، فهاجر إليه فمات في الطريق، فقبضته ملائكة الرحمة كما ذكرناه غير مرة، وإذا كان هذا في بني إسرائيل فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى، لأن الله وضع عنا الأغلال والآصار التي كانت عليهم وبعث نبينا بالحنيفية السمحة.

فأما الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿**ومن يقتل مؤمناً متعمداً ـ إلى قوله ـ عذابا عظيما**﴾، فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف: هذا جزاؤه إن جازاه. ومعنى هذه الصيغة أن هذا جزاؤه إن جوزي عليه، وكذا كل وعيد على ذنب، لكن قد يكون كذلك مُعَارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه على قولي أصحاب الموازنة أو الإحباط، وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد، والله أعلم بالصواب. وبتقدير دخول القاتل إلى النار، أما على قول ابن عباس ومن وافقه أنه لا توبة له، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحاً ينجو به فليس يخلد فيها أبداً، بل الخلود هو المكث الطويل، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: «أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان» [متفق عليه]،

وأما حديث معاوية: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً». فعسى للترجي، فإذا انتفى الترجي في هاتين الصورتين لا ينتفي وقوع ذلك في أحدهما وهو القتل لما ذكرنا من الأدلة. وأما من مات كافراً فالنص أنه الله لا يغفر له ألبتة، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فإنه حق من حقوق الآدميين، وهي لا تسقط بالتوبة، ولكن لابد من ردها إليهم ولا فرق بين المقتول والمسروق منه، والمغصوب منه والمقذوف وسائر حقوق الآدميين، فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة، ولابد من أدائها إليهم في صحة التوبة، فإن تعذر ذلك فلا بد من الطلابة يوم القيامة، لكن لا يلزم من وقوع الطلابة وقوع المجازاة، إذ قد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة أو يعوض الله المقتول من فضله بما يشاء من قصور الجنة ونعيمها، ورفع درجته فيها ونحو ذلك والله أعلم.

ثم للقتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة، فأما في الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه، قال الله تعالى: ﴿**ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً** - إلى قوله - **إنه كان منصورا**﴾ [الإسراء:٣٣]، ثم هم مخيرون بين أن يقتلوا، أو يعفوا، أو يأخذوا دية مغلظة. واختلف الأئمة هل تجب عليه كفارة عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام؟ على أحد القولين كما تقدم في كفارة الخطأ، على قولين فالشافعي وأصحابه وطائفة من العلماء يقولون نعم، يجب عليه، لأنه إذا وجبت عليه الكفارة في الخطأ فلأن تجب في العمد أولى، وطردوا هذا في كفارة اليمين الغموس واعتضدوا بقضاء الصلوات المتروكة عمداً كما أجمعوا على ذلك في الخطأ.

قال أصحاب الإمام أحمد وآخرون: قتل العمد أعظم من أن يكفر فلا كفارة فيه، وكذا اليمين الغموس.

وقد احتج من ذهب إلى وجوب الكفارة في قتل العمد بما رواه الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع قال: أتى النبي ﷺ نفر من بني سليم فقالوا: إن صاحباً لنا قد أوجب. قال: «فليعتق رقبة يفدي الله بكل عضو منها عضواً منه من النار». ورواه أبو داود والنسائي [وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا (٩٤) ﴾.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ وهو يسوق غنماً له فسلم عليهم، فقالوا: ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ إلى آخرها، ورواه الترمذي في

التفسير، وقال: هذا حديث حسن، ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وعن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ سرية فيها المقداد بن الأسود، فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأهوى عليه المقداد فقتله، فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلا شهد أن لا إله إلا الله؟ والله لأذكرن ذلك للنبي ﷺ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد، فقال: «ادعوا لي المقداد، يا مقداد: أقتلت رجلاً يقول لا إله إلا الله، فكيف لك بلا إله إلا الله غداً؟» قال: فأنزل الله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا**﴾، فقال رسول الله ﷺ للمقداد: «كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلته، وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل» [رواه البزار وجود إسناده الهيثمي وأصله في البخاري مختصراً].

وقوله: ﴿**فعند الله مغانم كثيرة**﴾ أي خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام، وأظهر لكم الإيمان فتغافلتم عنه واتهمتموه بالمصانعة والتقية لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، فما عند الله من المغانم الحلال خير لكم من مال هذا.

وقوله: ﴿**كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم**﴾ أي قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذي يسر إيمانه ويخفيه من قومه، كما تقدم في الحديث المرفوع آنفاً، وكما قال تعالى: ﴿**واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض** - إلى قوله - **وأيدكم بنصره**﴾ الآية [الأنفال: ٢٦]، وهذا مذهب سعيد بن جبير. [قال] في قوله: ﴿**كذلك كنتم من قبل**﴾ تخفون إيمانكم في المشركين. وهذا اختيار ابن جرير، وعن سعيد بن جبير قوله: ﴿**كذلك كنتم من قبل**﴾ تورعون عن مثل هذا، وعن مسروق: لم تكونوا مؤمنين، ﴿**فمن الله عليكم**﴾ وقال السدي: ﴿**فمن الله عليكم**﴾ أي تاب عليكم.

وقوله: ﴿**فتبينوا**﴾ تأكيد لما تقدم، وقوله: ﴿**إن الله كان بما تعملون خبيراً**﴾ قال سعيد بن جبير: هذا تهديد ووعيد.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

روى البخاري عن البراء قال: لما نزلت ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين**﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله: ﴿**غير أولي الضرر**﴾.

وعن ابن عباس قال: لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر عن بدر والخارجون إلى بدر، لما نزلت غزوة بدر قال عبد الله بن جحش وابن أم مكتوم: إنا أعميان يا رسول الله،

فهل لنا رخصة؟ فنزلت: ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر**﴾ وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة فهؤلاء القاعدون غير أولي الضرر، ﴿**وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما درجات منه**﴾ على القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر، رواه الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن غريب. فقوله: ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين**﴾ كان مطلقاً، فلما نزل بوحي سريع ﴿**غير أولي الضرر**﴾ صار ذلك مخرجاً لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد ـ من العَمَى والعَرَج والمرض ـ عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.

ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين على القاعدين، قال ابن عباس: غير أولي الضرر. وكذا ينبغي أن يكون، كما ثبت في صحيح البخاري عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه» قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: «نعم حبسهم العذر».

وقوله: ﴿**وكلاً وعد الله الحسنى**﴾ أي الجنة والجزاء الجزيل. وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين، بل هو فرض على الكفاية. ثم قال تعالى: ﴿**وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً**﴾ ثم أخبر سبحانه بما فضلهم به من الدرجات، في غرف الجِنَان العاليات، ومغفرة الذنوب والزلات، وحلول الرحمة والبركات، إحساناً منه وتكريماً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً**﴾.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء الأرض».

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾.

روى البخاري عن ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ، يأتي السهم فَيُرمى به فيصيب أحدهم، فيقتله أو يضرب عنقه فيقتل، فأنزل الله: ﴿**إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم**﴾، قال عكرمة: نزلت هذه الآية في شباب من قريش كانوا تكلموا بالإسلام بمكة منهم: علي بن أمية بن خَلَف وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو العاص بن منبّه بن الحجاج والحارث بن زَمْعة، وقال الضحاك: نزلت في ناس من المنافقين تخلفوا عن رسول الله ﷺ بمكة وخرجوا مع المشركين يوم بدر فأصيبوا فيمن أصيب، فنزلت.

فهذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين، وهو قادر على الهجرة وليس متمكناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع، وبنص هذه الآية، حيث يقول تعالى: ﴿**إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم**﴾ أي بترك الهجرة ﴿**قالوا فيم كنتم**﴾ أي لم مكثتم ها هنا وتركتم الهجرة؟ ﴿**قالوا كنا مستضعفين في الأرض**﴾ أي لا نقدر على الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض ﴿**قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ـ إلى قوله ـ وساءت مصيراً**﴾.

وروى أبو داود عن سمرة بن جندب، عن رسول الله ﷺ قال: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»، [حسنه الألباني بمتابعه].

وقوله: ﴿**إلا المستضعفين.....**﴾ إلى آخر الآية، هذه عذر من الله تعالى لهؤلاء في ترك الهجرة، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال: ﴿**لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً**﴾، قال مجاهد وعكرمة والسدي: يعني طريقاً.

وقوله: ﴿**فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم**﴾ أي يتجاوز عنهم بترك الهجرة، وعسى من الله موجبة، ﴿**وكان الله عفواً غفوراً**﴾، روى البخاري عن أبي هريرة، قال: بينا النبي ﷺ يصلي العشاء إذ قال: سمع الله لمن حمده، ثم قال قبل أن يسجد «اللهم نَج عياش بن أبي ربيعة، اللهم نج سلمة بن هشام، اللهم نج الوليد بن الوليد، اللهم نج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف». وروى البخاري عن ابن عباس: ﴿**إلا المستضعفين**﴾ قال: كانت أمي ممن عذر الله عز وجل.

وقوله: ﴿**ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة**﴾ هذا تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه.

وقال ابن عباس [وغيره]: المراغم التحول من أرض إلى أرض. وقال مجاهد: ﴿**مراغماً كثيراً**﴾ يعني متزحزحاً عما يكره. وقال سفيان بن عيينة: ﴿**مراغماً كثيراً**﴾ يعني بروجاً، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه التمنُّع الذي يُتحصَّن به ويراغم به الأعداء.

قوله: ﴿**وسعة**﴾ يعني الرزق، قاله غير واحد منهم: قتادة حيث قال: في قوله: ﴿**يجد في الأرض مراغماً كثيرة وسعة**﴾ إي والله من الضلالة إلى الهدى، ومن القلة إلى الغنى، وقوله: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ أي ومن خرج من منزله بنية الهجرة فمات في أثناء الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله،

ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

وهذا عام في الهجرة وفي كل الأعمال. ومنه الحديث الثابت في الصحيحين في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نَفْساً. ثم أكمل بذلك العابد المائة، ثم سأل عالماً: هل له من توبة ؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد آخر يعبد الله فيه. فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الآخر أدركه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقال هؤلاء: إنه جاء تائباً، وقال هؤلاء: إنه لم يَصِلْ بعد، فأمروا أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها، فأمر الله هذه أن تقترب من هذه، وهذه أن تبعد فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بِشِبْر، فقبضته ملائكة الرحمة. وفي رواية أنه لما جاءه الموت ناء بصدره إلى الأرض التي هاجر إليها.

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**وإذا ضربتم في الأرض**﴾ أي سافرتم في البلاد، كما قال: ﴿**علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله**﴾ [المزمل: ٢٠].

وقوله: ﴿**فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة**﴾ أي تخففوا فيها إما من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية كما فهمه الجمهور من هذه الآية، واستدلوا بها على قصر الصلاة في السفر على اختلافهم في ذلك، فمن قائل: لا بد أن يكون سفر طاعة من جهاد، أو حج، أو عمرة، أو طلب علم، أو زيارة، وغير ذلك، كما هو مروي عن ابن عمر وعطاء ويحكى عن مالك في رواية عنه نحوه، لظاهر قوله: ﴿**إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا**﴾، ومن قائل: لا يشترط سفر القربة، بل لا بد أن يكون مباحاً، لقوله: ﴿**فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم**﴾ [المائدة:٣]، أباح له تناول الميتة مع الاضطرار إلا بشرط ألا يكون عاصياً بسفره، وهذا قول الشافعي وأحمد وغيرهما من الأئمة، ومن قائل: يكفي مطلق السفر سواء كان مباحاً أو محظوراً حتى لو خرج لقطع الطريق وإخافة السبيل، تَرَخَّص لوجود مطلق السفر. وهذا قول أبي حنيفة والثوري وداود لعموم الآية وخالفهم الجمهور.

وأما قوله: ﴿**إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا**﴾ فقد يكون هذا خَرج مَخرج الغالب حال نزول هذه الآية، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام، أو في سرية خاصة. وسائر الأحياء حرب الإسلام وأهله، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له، كقوله تعالى: ﴿**ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً**﴾ [النور:٣٣]، وكقوله: ﴿**وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم**﴾ الآية [النساء:٢٣]، وروى الإمام أحمد عن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب قلت: ﴿**فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا**﴾ وقد أمن الناس ؟

فقال لي عمر: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صدقة تصدّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته». وهكذا رواه مسلم.

وروى البخاري عن أنس قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة، قلت أقمتم بمكة شيئاً ؟ قال: أقمنا بها عشراً. وهكذا أخرجه بقية الجماعة. وروى الإمام أحمد عن حارثة بن وهب الخزاعي قال: صليت مع النبي ﷺ الظهر والعصر بمنى أكثر ما كان الناس، وآمنه ركعتين. ورواه الجماعة سوى ابن ماجه. فهذه الأحاديث دالة صريحاً على أن القصر ليس من شرطه وجود الخوف.

وعن الضحاك في قوله: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ قال: ذاك عند القتال يصلي الرجل الراكب تكبيرتين حيث كان وجهه. وعن السدي: إن الصلاة إذا صليت ركعتين في السفر فهي تمام، التقصير لا يحل إلا أن تخاف من الذين كفروا أن يفتنوك عن الصلاة فالتقصير ركعة. وعن مجاهد: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ يوم كان النبي ﷺ وأصحابه بعُسفان، والمشركون بضجْنان، فتوافقوا، فصلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات ركوعهم، وسجودهم، وقيامهم معاً جميعاً فَهَمَّ بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم وأثقالهم. ونحوه عن جابر وابن عمر، [واختاره ابن جرير].

وروى ابن جرير عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد أنه قال لعبد الله بن عمر: إنا نجد في كتاب الله قصر صلاة الخوف، ولا نجد قصر صلاة المسافر، فقال عبد الله: إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملاً عملنا به.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾.

صلاة الخوف أنواع كثيرة، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة، وتارة يكون في غير صَوْبها، والصلاة تارة تكون رباعية، وتارة تكون ثلاثية كالمغرب، وتارة ثنائية كالصبح وصلاة السفر، ثم تارة يصلون جماعة، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة، بل يصلون فرادى مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ورجالاً وركباناً، ولهم أن يمشوا والحالة هذه ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة. ومن العلماء من قال: يصلون والحالة هذه ركعة واحدة لحديث ابن عباس المتقدم، وبه قال أحمد بن حنبل، والحسن ومجاهد [وغيرهم]، وعن محمد بن نصر المروزي: أنه يرى رَدّ الصبح إلى ركعة في الخوف، وإليه ذهب ابن حزم أيضاً. وقال إسحاق بن راهويه: أما عند المسايفة فيجزيك ركعة واحدة تومىء بها إيماء، فإن لم تقدر فسجدة واحدة لأنها ذكر الله، وقال آخرون: تكفي تكبيرة واحدة. فلعله أراد ركعة واحدة.

كما قاله أحمد بن حنبل وأصحابه، ولكن الذي حكوه إنما حكوه على ظاهره في الاجتزاء بتكبيرة واحدة، كما هو مذهب إسحاق ابن راهويه وإليه ذهب الأمير عبد الوهاب بن بُخْت المكي حتى قال: فإن لم يقدر على التكبيرة فلا يتركها في نفسه يعني بالنية.

ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال والمناجزة، كما أخر النبي ﷺ يوم الأحزاب صلاة العصر، قيل: والظهر، فصلاهما بعد الغروب، ثم صلى بعدهما المغرب، ثم العشاء. وكما قال بعدها يوم بني قريظة حين جهز إليهم الجيش: لا يصلينّ أحد منكم العصر إلا في بني قريظة، فأدركتهم الصلاة في أثناء الطريق، فقال منهم قائلون: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير، ولم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها، فصلوا الصلاة لوقتها في الطريق، وأخر آخرون منهم صلاة العصر فصلوها في بني قريظة بعد الغروب، ولم يعنف رسول الله ﷺ أحداً من الفريقين، وقد تكلمنا على هذا في كتاب السيرة وبينا أن الذين صلوا العصر لوقتها أقرب إلى إصابة الحق في نفس الأمر، وإن كان الآخرون معذورين أيضاً، والحجة ههنا في عذرهم في تأخير الصلاة لأجل الجهاد والمبادرة إلى حصار الناكثين للعهد من الطائفة الملعونة اليهود.

وأما الجمهور فقالوا: هذا كله منسوخ بصلاة الخوف، فإنها لم تكن نزلت بعد، فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك، وهذا بينٌ في حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه الشافعي وأهل السنن، ولكن يشكل عليه ما حكاه البخاري في صحيحه حيث قال:

«باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو» قال الأوزاعي: إن كان تَهَيَّأَ الفتحُ ولم يقدروا على الصلاة، صلوا إيماء كل امرىء لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء، أخروا الصلاة حتى ينكشف القتال، أو يأمنوا فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين، فإن لم يقدروا فلا يجزئهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا، وبه قال مكحول. وقال أنس بن مالك: حضرت مناهضة حصن تُسْتَر عند إضاءة الفجر، واشتد اشتعال القتال، فلم يقدروا على الصلاة، فلم نُصَلِّ إلا بعد ارتفاع النهار فصليناها ونحن مع أبي موسى، فَفُتح لنا، قال أنس: وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها.

انتهى ما ذكره، ثم أتبعه بحديث تأخير الصلاة يوم الأحزاب، ثم بحديث أمره إياهم أن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة، وكأنه كالمختار لذلك، والله أعلم.

ولمن جنح إلى ذلك له أن يحتج بصنيع أبي موسى وأصحابه يوم فتح تستر فإنه يشتهر غالباً، وكان ذلك في إمارة عمر بن الخطاب، ولم ينقل أنه أنكر عليهم ولا أحد من الصحابة، والله أعلم، وقال هؤلاء: وقد كانت صلاة الخوف مشروعة في الخندق لأن ذات الرِّقاع كانت قبل الخندق في قول جمهور علماء السير والمغازي.

والعجب كل العجب أن المُزَني وأبا يوسف القاضي وإبراهيم بن إسماعيل بن عُلَيَّة، ذهبوا إلى أن صلاة الخوف منسوخة بتأخيره عليه الصلاة والسلام، الصلاة يوم الخندق وهذا غريب جداً،

وقد ثبتت الأحاديث بعد الخندق بصلاة الخوف، وحمل تأخير الصلاة يومئذ على ما قاله مكحول والأوزاعي أقوى وأقرب، والله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ أي إذا صليت بهم إماماً في صلاة الخوف، وهذه حالة غير الأولى، فإن تلك قصرها إلى ركعة كما دل عليه الحديث، فرادى ورجالاً وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، ثم ذكر حال الاجتماع والائتمام بإمام واحد، وما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة، فلولا أنها واجبة لما ساغ ذلك، وأما من استدل بهذه الآية على أن صلاة الخوف منسوخة بعد النبي ﷺ لقوله: ﴿وإذا كنت فيهم﴾ فبعده تفوت هذه الصفة، فإنه استدلال ضعيف، ويَرِد عليه مثل قول مانعي الزكاة الذين احتجوا بقوله: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾ [التوبة:١٠٣] قالوا: فنحن لا ندفع زكاتنا بعده ﷺ إلى أحد، بل نخرجها نحن بأيدينا على من نراه، ولا ندفعها إلا إلى من صلاته أي دعاؤه سكن لنا، ومع هذا رد عليهم الصحابة، وأبَوْا عليهم هذا الاستدلال، وأجبروهم على أداء الزكاة وقاتلوا من منعها منهم.

ولنذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة أولاً قبل ذكر صفتها: روى الإمام أحمد عن أبي عياش الزرقي قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعُسْفان، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا النبي ﷺ الظهر، فقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غِرَّتَهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، قال: فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ قال: فحضرت، فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح، قال: فصفنا خلفه صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعاً، ثم رفع فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا، جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ثم ركع فركعوا جميعاً، ثم رفع فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا، ثم سلم عليهم، ثم انصرف، قال: فصلاها رسول الله ﷺ مرتين: مرة بعسفان، ومرة بأرض بني سليم. وهذا إسناده صحيح وله شواهد كثيرة.

وقد روى هذا الحديث الجماعة في كتبهم، ولهذا الحديث طرق كثيرة عن جماعة من الصحابة، وقد أجاد الحافظ أبو بكر بن مردويه في سرد طرقه وألفاظه، وكذا ابن جرير، ولنحرره في كتاب الأحكام الكبير، إن شاء الله وبه الثقة.

وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية، وهو أحد قولي الشافعي، ويدل عليه قوله: ﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى

من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم﴾ أي بحيث تكونون على أهبة إذا احتجتم إليها لبستموها بلا كلفة **﴿إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾**.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف وإن كان مشروعاً مرغباً فيه أيضاً بعد غيرها، ولكن ههنا آكد لما وقع فيها من التخفيف في أركانها، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب، وغير ذلك مما ليس يوجد في غيرها، كما قال تعالى في الأشهر الحرم: **﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾** [التوبة:٣٦]، وإن كان هذا منهياً عنه في غيرها، ولكن فيها آكد لشدة حرمتها وعظمها؛ ولهذا قال تعالى: **﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾** أي في سائر أحوالكم، ثم قال: **﴿فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة﴾** أي فإذا أمنتم وذهب الخوف، وحصلت الطمأنينة **﴿فأقيموا الصلاة﴾** أي فأتموها وأقيموها كما أمرتم بحدودها، وخشوعها، وسجودها، وركوعها، وجميع شؤونها.

وقوله: **﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾** قال ابن عباس: أي مفروضاً، وكذا روي عن مجاهد والحسن ومقاتل [وغيرهم]. وعن قتادة **﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾** قال: ابن مسعود: إن للصلاة وقتاً كوقت الحج. وقال زيد بن أسلم: منجماً، كلما مضى نجم جاءتهم، يعني كلما مضى وقت جاء وقت.

وقوله: **﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم﴾** أي لا تضعفوا في طلب عدوكم، بل جدوا فيهم وقاتلوهم، واقعدوا لهم كل مرصد **﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون﴾** أي كما يصيبكم الجراح والقتل كذلك يحصل لهم، كما قال: **﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾** [آل عمران:١٤٠]، ثم قال: **﴿وترجون من الله مالا يرجون﴾** أي أنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم وإياهم من الجراح والآلام، ولكن أنتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد، وهم لا يرجون شيئاً من ذلك، فأنتم أولى بالجهاد منهم، وأشد رغبة في إقامة كلمة الله وإعلائها. **﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾** أي هو أعلم وأحكم فيما يقدره، وهو المحمود على كل حال.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

يقول تعالى: مخاطباً لرسوله محمد ﷺ: **﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾** أي هو حق

من الله، وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه، وقوله: ﴿**لتحكم بين الناس بما أراك الله**﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية، وبما ثبت في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ سمع جَلَبَة خصم بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: «ألا إنما أنا بشر وإنما أقضي بنحو مما أسمع، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو ليذرها».

وعن ابن عباس: أن نفراً من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته، فسرقت درع لأحدهم، فأظن بها رجلاً من الأنصار، فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال: إن طُعْمَةَ بن أُبَيْرق سرق درعي، فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل بريء، وقال لنفر من عشيرته: إني غَيَّبْتُ الدرع وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده، فانطلقوا إلى نبي الله ﷺ ليلاً فقالوا: يا نبي الله إن صاحبنا بريء وإن صاحب الدرع فلان، وقد أحطنا بذلك علماً، فاعذُرْ صاحبنا على رؤوس الناس، وجادل عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك، فقام رسول الله ﷺ، فبرأه وعذرَه على رؤوس الناس، فأنزل الله ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً * واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً * ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم**﴾ الآية.

ثم قال تعالى: للذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب ﴿**يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله - إلى قوله - وكيلا**﴾ الآيتين، يعني الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين يجادلون عن الخائنين، ثم قال: ﴿**ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه - إلى قوله - رحيما**﴾ يعني الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب، ثم قال: ﴿**ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً**﴾ يعني السارق والذين جادلوا عن السارق، وكذا ذكر مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وابن زيد وغيرهم في هذه الآية: إنها نزلت في سارق بني أبيرق على اختلاف سياقاتهم وهي متقاربة.

وقد روى هذه القصة محمد بن إسحاق مطولة، والترمذي في جامعه.

وقوله: ﴿**يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله**﴾ الآية، هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس لئلا ينكروا عليهم، ويجاهرون الله بها، لأنه مطلع على سرائرهم وعالم بما في ضمائرهم، ولهذا قال: ﴿**وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً**﴾ تهديد لهم ووعيد. ثم قال تعالى: ﴿**ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا**﴾ الآية، أي هب أن هؤلاء انتصروا في الدنيا بما أبدوه أو أبدي لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر وهم متعبدون بذلك، فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله عز وجل الذي يعلم السر وأخفى؟ ومن ذا الذي يتوكل لهم يومئذ في ترويج دعواهم؟ أي لا أحد يكون يومئذ لهم وكيلاً، ولهذا قال: ﴿**أم من يكون عليهم وكيلاً**﴾.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن كرمه وجوده أن كل من تاب إليه تاب عليه من أي ذنب كان. فقال تعالى: **﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾** قال ابن عباس في هذه الآية: أخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه، وسعة رحمته، ومغفرته فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً **﴿ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾** ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال. وقال عبد الله بن مسعود: كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح قد كُتب كفارة ذلك الذنب على بابه، وإذا أصاب البول شيئاً منه قرضه بالمقراض. فقال رجل: لقد آتى الله بني إسرائيل خيراً، فقال عبد الله: ما آتاكم الله خيراً مما آتاهم، جعل الماء لكم طهوراً، وقال: **﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾** [آل عمران:١٣٥]، وقال: **﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾**.

وعن حبيب بن أبي ثابت، قال: جاءت امرأة إلى عبد الله بن مُغَفَّل فسألته عن امرأة فجرت فحبلت، فلما ولدت قتلت ولدها، قال عبد الله بن مغفل مالها؟: لها النار، فانصرفت وهي تبكي فدعاها ثم قال: ما أرى أمرك إلا أحد أمرين: **﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾** قال: فمسحت عينها ثم مضت.

وروى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه. وحدثني أبو بكر ـ وصدق أبو بكر ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يذنب ذنباً، ثم يتوضأ فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله لذلك الذنب، إلا غفر له». وقرأ هاتين الآيتين: **﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ـ إلى قوله ـ رحيما﴾**، **﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾**الآية. [وهو حديث حسن].

وقوله: **﴿ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه﴾** الآية، كقوله تعالى: **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾** الآية [فاطر:١٨]، يعني أنه لا يجني أحد عن أحد، وإنما على كل نفس ما عملت لا يحمل عنها غيرها؛ ولهذا قال تعالى: **﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾** أي من علمه وحكمته، وعدله ورحمته كان ذلك، ثم قال: **﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً﴾** الآية، يعني كما اتهم بنو أبيرق بصنيعهم القبيح ذلك الرجل كما تقدم في الحديث، وقد كان بريئاً وهم الظلمة الخونة، كما أطلعَ الله على ذلك رسولَه ﷺ، ثم هذا التقريع وهذا التوبيخ عام فيهم وفي غيرهم ممن اتصف بصفتهم وارتكب مثل خطيئتهم، فعليه مثل عقوبتهم.

وقوله: ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ امتن عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال، وعصمته له، وما أنزل عليه ﴿من الكتاب﴾ وهو القرآن، ﴿والحكمة﴾ وهي السنة ﴿وعلمك مالم تكن تعلم﴾ أي من قبل نزول ذلك عليك، كقوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدري ما الكتاب ـ إلى قوله ـ تصير الأمور﴾ [الشورى: ٥٢ـ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك﴾ [القصص: ٨٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وكان فضل الله عليك عظيماً﴾.

﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ يعني كلام الناس ﴿إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾ أي إلا نجوى من قال ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فَيَنْمِي خيراً، أو يقول خيراً» وقالت لم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: في الحرب والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها، وقد رواه الجماعة سوى ابن ماجه.

وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة، والصيام، والصدقة؟» قالوا: بلى. قال: «إصلاح ذات البين»، قال: «وفساد ذات البين هي الحالقة». ورواه أبو داود والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

ولهذا قال: ﴿ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله﴾ أي مخلصاً في ذلك محتسباً ثواب ذلك عند الله عز وجل، ﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ أي ثواباً جزيلاً كثيراً واسعاً.

وقوله: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى﴾ أي ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ، فصار في شق، والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح له. وقوله: ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما اجمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفاً لهم وتعظيماً لنبيهم، وقد وردت في ذلك أحاديث صحيحة كثيرة، ومن العلماء من ادعى تواتر معناها، والذي عول عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تَحْرُم مخالفته هذه الآية الكريمة بعد التروي والفكر الطويل، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها.

ولهذا توعد تعالى على ذلك بقوله: ﴿نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾ أي

إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره ونزينها له استدراجاً له، كما قال تعالى: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ [القلم:٤٤]. وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف:٥]. وقوله: ﴿ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ [الأنعام:١١٠].

وجعل النار مصيره في الآخرة، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ـ إلى قوله ـ صراط الجحيم﴾ [الصافات:٢٢ـ٢٣]، وقال: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ [الكهف:٥٣].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾.

قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ الآية [النساء:٤٨]، وذكرنا ما يتعلق بها من الأحاديث في صدر هذه السورة، وقد روى الترمذي عن علي رضي الله عنه أنه قال: ما في القرآن آية أحب إليَّ من هذه الآية: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ الآية، ثم قال: حسن غريب.

وقوله: ﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ أي فقد سلك غير الطريق الحق، وضل عن الهدى وبعد عن الصواب، وأهلك نفسه وخسرها في الدنيا والآخرة، وفاتته سعادة الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً﴾ عن أبي بن كعب قال: مع كل صنم جنيَّة. وعن عائشة قالت: أوثاناً. وروي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعروة بن الزبير ومجاهد وأبي مالك والسدي ومقاتل بن حيان، نحو ذلك. وعن الضحاك قال المشركون: إن الملائكة بنات الله، وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، قال: اتخذوها أرباباً، وصوروهن صور الجواري فحكموا وقلدوا، وقالوا: هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبده، يعنون الملائكة. وهذا التفسير شبيه بقوله: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ـ إلى قوله ـ ما أنزل الله بها من سلطان﴾ [النجم:١٩ـ٢٣]، وقوله: ﴿إن يدعون إلا شيطاناً مريداً﴾ أي هو الذي أمرهم بذلك وحسنه لهم وزينه،

وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿**ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان**﴾ [يس: ٦٠]. وقال تعالى إخباراً عن الملائكة أنهم يقولون يوم القيامة عن المشركين الذين ادعوا عبادتهم في الدنيا: ﴿**بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون**﴾ [سبأ: ٤١].

وقوله: ﴿**لعنه الله**﴾ أي طرده وأبعده من رحمته، وأخرجه من جواره، وقال: ﴿**لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً**﴾ أي معيناً مقدراً معلوماً. قال مقاتل بن حيان: من كل ألف، تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، ﴿**ولأضلنهم**﴾ أي عن الحق، ﴿**ولأمنينهم**﴾ أي أزين لهم ترك التوبة، وأعدهم الأماني، وآمرهم بالتسويف والتأخير، وأغرهم من أنفسهم، وقوله: ﴿**ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام**﴾. قال قتادة والسدي وغيرهما: يعني تشقيقها وجعلها سمة وعلامة للبحيرة والسائبة، ﴿**ولآمرنهم فليغيرن خلق الله**﴾، قال ابن عباس: يعني بذلك خصاء الدواب، وقد روي عن ابن عمر وأنس وأبي صالح وقتادة والثوري [وغيرهم]، وقد ورد في حديث النهي عن ذلك، وقال الحسن: يعني بذلك الوشم، وفي صحيح مسلم النهي عن الوشم في الوجه، وفي لفظ: «لعن الله من فعل ذلك»، وفي صحيح [البخاري] عن ابن مسعود أنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحُسْن المغيّرات خلق الله عز وجل، ثم قال: ألا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله عز وجل، يعني قوله: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾ [الحشر: ٧].

وقال ابن عباس في رواية عنه ومجاهد والحسن [وغيرهم] في قوله: ﴿**ولآمرنهم فليغيرن خلق الله**﴾ يعني دين الله عز وجل، وهذا كقوله: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**﴾ [الروم: ٣٠] على قول من جعل ذلك أمراً، أي لا تبدلوا فطرة الله ودعوا الناس على فطرتهم، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يُهَوِّدانه، ويُنَصِّرَانه، ويُمَجِّسَانه، كما تولد البهيمة بهيمة جَمْعاء هل يحسون فيها من جَدعاء»؟ وفي صحيح مسلم عن عياض بن حِمَار، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجْتَالَتْهُم عن دينهم، وحَرّمت عليهم ما أحللت لهم».

وقوله تعالى: ﴿**ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً**﴾ أي فقد خسر الدنيا والآخرة، وتلك خسارة لا جبر لها ولا استدراك لفائتها. وقوله: ﴿**يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً**﴾. وهذا إخبار عن الواقع؛ لأن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة، وقد كذب وافترى في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿**وما يعدهم الشيطان إلا غروراً**﴾، كما قال تعالى مخبراً عن إبليس يوم المعاد: ﴿**وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان ـ إلى قوله ـ وإن الظالمين لهم عذاب أليم**﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿**أولئك**﴾ أي المستحسنون له فيما وعدهم ومناهم ﴿**مأواهم جهنم**﴾ أي مصيرهم ومآلهم يوم حسابهم ﴿**ولا يجدون عنها محيصاً**﴾ أي ليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف، ولا خلاص، ولا مناص.

ثم ذكر تعالى حال السعداء الأتقياء وما لهم في مآلهم من الكرامة التامة، فقال: ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي صَدَّقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات ﴿**سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ أي يصرفونها حيث شاؤوا وأين شاؤوا ﴿**خالدين فيها أبداً**﴾ أي بلا زوال ولا انتقال ﴿**وعد الله حقاً**﴾ أي هذا وعد من الله، ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة، ولهذا أكده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر، وهو قوله ﴿**حقاً**﴾، ثم قال تعالى: ﴿**ومن أصدق من الله قيلاً**﴾ أي لا أحد أصدق منه قولاً، وخبراً لا إله هو ولا رب سواه، وكان رسول الله ﷺ يقول في خطبته: «إن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور مُحْدَثاتها، وكل مُحْدَثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار» [أخرجه مسلم، وبعضه بالبخاري].

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾.

قال قتادة: ذُكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم نبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله، فأنزل الله ﴿**ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به**﴾ ﴿**ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن**﴾ الآية، فأفلج الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الآديان. وكذا روي عن السدي ومسروق والضحاك وأبي صالح وغيرهم، وكذا روى عن ابن عباس نحوه.

وقال مجاهد: قالت العرب: لن نبعث ولن نعذب، وقالت اليهود والنصارى: ﴿**لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى**﴾ [البقرة: ١١١]، وقالوا: ﴿**لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة**﴾ [البقرة: ٨٠].

والمعنى في هذه الآية أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، وليس كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال إنه هو المحق سمع قوله بمجرد ذلك، حتى يكون له من الله برهان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به**﴾ أي ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني ؟ بل العبرة بطاعة الله سبحانه واتباع ما شرعه على ألسنة رسله الكرام، ولهذا قال بعده ﴿**من يعمل سوءاً**

بجز به﴾، كقوله: **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾** [الزلزلة: ٧-٨]. وقد روي أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على كثير من الصحابة.

فروى الإمام أحمد أن أبا بكر قال: يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية: **﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به﴾** فكل سوء عملناه جزينا به ؟ فقال النبي ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض، ألست تَنْصَب، ألست تحزن، ألست تصيبك اللأواء ؟» قال: بلى. قال: «فهو ما تجزون به». [وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

وعن الحسن: **﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾** قال: الكافر، ثم قرأ: **﴿وهل نجازي إلا الكفور﴾** [سبأ: ١٧]، وهكذا روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير: أنهما فسرا السوء ههنا بالشرك أيضاً. وقوله: **﴿ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾** قال ابن عباس: إلا أن يتوب فيتوب الله عليه. والصحيح أن ذلك عام في جميع الأعمال لما تقدم من الأحاديث، وهذا اختيار ابن جرير، والله أعلم.

وقوله: **﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ـ إلى قوله ـ نقيراً﴾** لما ذكر الجزاء على السيئات وأنه لا بد أن يأخذ مستحقها من العبد إما في الدنيا وهو الأجود له، وإما في الآخرة والعياذ با لله من ذلك، ونسأله العافية في الدنيا والآخرة، والصفح والعفو والمسامحة، شرع في بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده، ذكرانهم وإناثهم بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقير، وهو النقرة التي في ظهر نواة التمرة وقد تقدم الكلام على الفتيل وهو الخيط في الذي شق النواة، وهذا النقير وهما في نواة التمرة، وكذا القطمير وهواللفافة التي على نواة التمرة، الثلاثة في القرآن،

ثم قال تعالى: **﴿ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله﴾** أخلص العمل لربه عز وجل فعمل إيماناً واحتساباً **﴿وهو محسن﴾** أي اتبع في عمله ما شرعه الله له، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق،، وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما، أي يكون خالصاً صواباً والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون متابعاً للشريعة فيصح ظاهره بالمتابعة، وباطنه بالإخلاص، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد، فمتى فقد الإخلاص كان منافقاً وهم الذين يراءون الناس، ومن فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً، ومتى جمعهما فهو عمل المؤمنين **﴿الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم﴾** [الأحقاف: ١٦]، ولهذا قال تعالى: **﴿واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾** وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: **﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي﴾** [آل عمران: ٦٨]. وقال تعالى: **﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾** [الأنعام: ١٦١] والحنيف هو المائل عن الشرك قصداً، أي تاركاً له عن بصيرة، ومقبل على الحق بكليته

لا يصده عنه صاد، ولا يرده عنه راد.

وقوله: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ وهذا من باب الترغيب في اتباعه، لأنه إمام يقتدى به حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له، فإنه انتهى إلى درجة الخُلَّة التي هي أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه، كما وصفه به في قوله: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ [النجم:٣٧]، قال كثير من السلف: أي قام بجميع ما أمر به ووفَّي كل مقام من مقامات العبادة، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير، ولا كبير عن صغير. وقال تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾ الآية [البقرة:١٢٤]. وقال تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين﴾ [النحل:١٢٠].

وروى البخاري عن عمرو بن ميمون، قال: إن معاذاً لما قدم اليمن صلى الصبح بهم، فقرأ: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ فقال رجل: من القوم: لقد قرّت عين أم إبراهيم.

وإنما سُمّي خليل الله لشدة محبة ربه عز وجل له، لما قام له من الطاعة التي يحبها ويرضاها؛ ولهذا ثبت في الصحيحين من رواية أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها، قال: «أما بعد، أيها الناس فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً، لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله».

وعن إسحاق بن يسار، قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ألقى في قلبه الوَجَل حتى إن كان خفقان قلبه لَيُسْمَع من بعيد، كما يسمع خفقان الطير في الهواء. وهكذا جاء في صفة رسول الله ﷺ أنه كان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء. [أخرجه أحمد وأبوداود والنسائي وهو حسن].

وقوله: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي الجميع ملكه وعبيده وخلقه وهو المتصرف في جميع ذلك، لا راد لما قضى، ولا معقب لما حكم، ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته.

وقوله: ﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك لا تخفى عليه خافية من عباده، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ولا تخفى عليه ذرة لما تراءى للناظر وما توارى.

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ ﴾.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن ـ إلى قوله ـ وترغبون أن تنكحوهن﴾ قالت عائشة: هو الرجل تكون عنده اليتيمة، هو وليها ووارثها، قد شَرِكته في ماله حتى في العَذْق، فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوِّجها رجلاً، فيشركه

في ماله بما شركته، فيعضلها، فنزلت هذه الآية، وكذلك رواه مسلم. وروى ابن أبي حاتم عن عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله: ﴿**ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب**﴾ الآية، قالت: والذي ذكر الله أنه يتلى عليه في الكتاب، الآية الأولى التي قال الله: ﴿**وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء**﴾ [النساء:٣]. وعنها قالت: وقول الله عز وجل: ﴿**وترغبون أن تنكحوهن**﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن، وأصله ثابت في الصحيحين. والمقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها، فتارة يرغب في أن يتزوجها، فأمره الله أن يمهرها أسوة أمثالها من النساء، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء، فقد وسع الله عز وجل، وهذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة، وتارة لا يكون للرجل فيها رغبة لدمامتها عنده أو في نفس الأمر، فنهاه الله عز وجل أن يُعضِلها عن الأزواج خشية أن يَشْركوه في ماله الذي بينه وبينها، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿**في يتامى النساء**﴾ الآية، كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً فإن كانت جميلة وهويها، تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت، فإذا ماتت ورثها فحرم الله ذلك ونهى عنه.

وقال في قوله: ﴿**والمستضعفين من الولدان**﴾ كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات، وذلك قوله: ﴿**لا تؤتونهن ما كتب لهن**﴾ فنهى الله عن ذلك وبين لكل ذي سهم سهمه، فقال: ﴿**للذكر مثل حظ الأنثيين**﴾ [النساء:١١] صغيراً أو كبيراً، وكذا قال سعيد بن جبير وغيره وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿**وأن تقوموا لليتامى بالقسط**﴾ كما إذا كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها، كذلك إذا لم تكن ذات جمال ولا مال فانكحها واستأثر بها. وقوله: ﴿**وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً**﴾ تهييجاً على فعل الخيرات وامتثال الأوامر، وأن الله عز وجل عالم بجميع ذلك، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه.

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً ومشرعاً عن حال الزوجين تارة في حال نفور الرجل عن المرأة، وتارة في حال اتفاقه معها، وتارة في حال فراقه لها، فالحالة الأولى ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها أو يعرض عنها، فلها أن تسقط حقها أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت

أو غير ذلك من الحقوق عليه، وله أن يقبل ذلك منها فلا جناح عليها في بذلها ذلك له، ولا عليه في قبوله منها، ولهذا قال تعالى: ﴿**فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً**﴾، ثم قال: ﴿**والصلح خير**﴾ أي من الفراق، وقوله: ﴿**وأحضرت الأنفس الشح**﴾ أي الصلح عند المُشَاحَّة خير من الفراق، ولهذا لما كبرت سَوْدَة بنت زَمْعَة عزم رسول الله ﷺ على فراقها، فصالحته على أن يمسكها وتترك يومها لعائشة، فَقَبِل ذلك منها وأبقاها على ذلك.

روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس قال: خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت: يارسول الله، لا تطلقني واجعل يومي لعائشة ففعل، ونزلت هذه الآية: ﴿**وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضا فلا جناح عليهما**﴾ الآية. قال ابن عباس فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز. ورواه الترمذي، وقال: حسن غريب.

وفي الصحيحين عن عائشة قالت: لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة، فكان النبي ﷺ يقسم لها بيوم سودة. وفي صحيح البخاري من حديث الزهري عن عروة عن عائشة نحوه.

روى البخاري عن عائشة في قوله: ﴿**وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً**﴾ قالت: الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول: أجعلك من شأني في حل، فنزلت هذه الآية.

وروى ابن جرير عن عائشة أيضا: وأن الله عالم بجميع ذلك، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه ﴿**وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير**﴾ قالت: هذا في المرأة تكون عند الرجل، فلعله ألا يكون يستكثر منها، ولا يكون لها ولد ولها صحبة فتقول: لا تطلقني وأنت في حل من شأني.

وروي عنها أيضا في قوله: ﴿**وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً**﴾ قالت: هو الرجل يكون له المرأتان: إحداهما قد كبرت، أو هي دميمة، وهو لا يستكثر منها فتقول: لا تطلقني وأنت في حل من شأني، وهذا الحديث ثابت في الصحيحين.

وعن عمر في هذه الآية: ﴿**وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً**﴾ قال: هذه المرأة تكون عند الرجل قد خلا من سنها، فيتزوج المرأة الشابة يلتمس ولدها، فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز.

وعن علي قال: يكون الرجل عنده المرأة فتنبو عيناه عنها من دمامتها أو كبرها، أو سوء خلقها، أو قذذها فتكره فراقه، فإن وضعت له من مهرها شيئاً حل له، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج. وكذا فسرها ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد من السلف والأئمة، ولا أعلم في ذلك خلافاً في أن المراد بهذه الآية هذا، والله أعلم.

روى الحافظ أبوبكر البيهقي عن سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار: أن السنة في هاتين

الآيتين اللتين ذكر الله فيهما نشوز المرء وإعراضه عن امرأته في قوله: ﴿**وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً**﴾ إلى تمام الآيتين، أن المرء إذا نشز عن امرأته وآثر عليها، فإن من الحق أن يعرض عليها أن يطلقها أو تستقر عنده على ما كانت من أثرة في القَسْم من ماله ونفسه، فإن استقرت عنده على ذلك وكرهت أن يطلقها فلا حرج عليه فيما آثر عليها من ذلك. فإن لم يعرض عليها الطلاق وصالحها على أن يعطيها من ماله ما ترضاه وتقر عنده على الأثرة في القسم من ماله ونفسه، صلح له ذلك وجاز صلحها عليه،كذلك ذكر سعيد بن المسيب وسليمان الصلح الذي قال الله عز وجل: ﴿**فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير**﴾.

وقوله: ﴿**والصلح خير**﴾ قال ابن عباس: يعني التخيير أن يخير الزوج لها بين الإقامة والفراق، خير من تمادي الزوج على أثرة غيرها عليها، والظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج وقبول الزوج ذلك خير من المفارقة بالكلية، كما أمسك النبي ﷺ سودة بنت زمعة على أن تركت يومها لعائشة رضي الله عنها ولم يفارقها، بل تركها من جملة نسائه وفعله ذلك لتتأسى به أمته في مشروعية ذلك وجوازه، فهو أفضل في حقه عليه الصلاة والسلام، ولما كان الوفاق أحب الى الله من الفراق. قال: ﴿**والصلح خير**﴾.

وقوله: ﴿**وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً**﴾ وإن تتجشموا مشقة الصبر على من تكرهون منهن وتقسموا لهن أسوة أمثالهن، فإن الله عالم بذلك وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء.

وقوله تعالى: ﴿**ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم**﴾ أي لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه وإن حصل القسْم الصوري ليلة وليلة، فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع، كما قاله ابن عباس وعَبيدة السلماني ومجاهد والحسن البصري والضحاك بن مزاحم.

وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن أبي مليكة قال: نزلت هذه الآية: ﴿**ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم**﴾ في عائشة، يعني أن النبي ﷺ كان يحبها أكثر من غيرها، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن عائشة قالت: كان رسول الله يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا قَسْمي فيما أملك، فلا تلمني فيماتملك ولا أملك» يعني القلب، لفظ أبي داود، وهذا إسناده صحيح، لكن قال الترمذي: رواه حماد بن زيد وغير واحد عن أيوب عن أبي قلابة مرسلاً، قال: وهذا أصح.

وقوله: ﴿**فلا تميلوا كل الميل**﴾ أي فإذا ملتم إلى واحدة منهن، فلا تبالغوا في الميل بالكلية ﴿**فتذروها كالمعلقة**﴾ أي فتبقى الأخرى مُعَلَّقة. قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن والضحاك والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان: معناه لا ذات زوج ولا مطلقة.

وقد روى أبو داود الطيالسي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له امرأتان

فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وأحد شِقَّيْهِ ساقط»، وهكذا رواه الإمام أحمد وأهل السنن [وصححه ابن حبان والألباني].

وقوله: ﴿وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي وإن أصلحتم في أموركم، وقسمتم بالعدل فيما تملكون واتقيتم الله في جميع الأحوال، غفر الله لكم ما كان من مَيْل إلى بعض النساء دون بعض، ثم قال تعالى: ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته﴾ وهذه هي الحالة الثالثة، وهي حالة الفراق وقد أخبر تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها ويغنيها عنه بأن يعوضه بها من هو خير له منها، ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه، ﴿وكان الله واسعاً حكيماً﴾ أي واسع الفضل عظيم المن حكيماً في جميع أفعاله وأقداره وشرعه.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأنه الحاكم فيهما، ولهذا قال: ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم﴾ أي وصيناكم بما وصيناهم به من تقوى الله عز وجل بعبادته وحده لا شريك له. ثم قال: ﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض﴾ الآية كما قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لقومه: ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾ [إبراهيم:٨]. وقال: ﴿فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد﴾ [التغابن:٦] أي غني عن عباده، ﴿حميد﴾ أي محمود في جميع ما يقدره ويشرعه، قوله: ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾ أي هو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب الشهيد على كل شيء. وقوله: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً﴾ أي هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه، وكما قال: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [محمد:٣٨] وقال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره. وقال تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد* وما ذلك على الله بعزيز﴾ [إبراهيم:١٩-٢٠] أي ما هو عليه بممتنع.

وقوله: ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ أي يامن ليس له همة إلا الدنيا، اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأقناك، كما قال تعالى: ﴿فمن الناس من يقول ربناآتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق * ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار * أولئك لهم نصيب مما كسبوا﴾ [البقرة:٢٠٠-٢٠٢]، وقال تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه﴾ [الشورى:٢٠]، وقال تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد -

إلى قوله ـ **انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾** [الإسراء:١٨ـ٢١].

وقوله: ﴿**فعند الله ثواب الدنيا والآخرة**﴾ ظاهر في حضور الخير في الدنيا والآخرة أي بيده هذا وهذا، فلا يقْتَصِرَنّ قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده الضر والنفع، وهو الله الذي لا إله إلا هو الذي قد قسم السعادة والشقاوة في الدنيا والآخرة بين الناس، وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممن يستحق هذا وممن يستحق هذا. ولهذا قال: ﴿**وكان الله سميعاً بصيراً**﴾.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾.

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أي بالعدل، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه، وقوله: ﴿**شهداء لله**﴾ كما قال: ﴿**وأقيموا الشهادة لله**﴾ أي ليكن أداؤها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً خالية من التحريف والتبديل والكتمان، ولهذا قال ﴿**ولو على أنفسكم**﴾ أي اشهد بالحق ولو عاد ضررها عليك، وإذا سُئِلت عن الأمر فقل الحق فيه وإن كان مَضرة عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه. وقوله: ﴿**أو الوالدين والأقربين**﴾ أي وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تُراعهم فيها، بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم، فإن الحق حاكم على كل أحد. وهو مقدم على كل أحد.

وقوله: ﴿**إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما**﴾ أي لا ترعاه لغناه ولا تشفق عليه لفقره، الله يتولاهما بل هو أولى بهما منك، وأعلم بما فيه صلاحهما. وقوله: ﴿**فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا**﴾ أي فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغْضَة الناس إليكم، على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان، كما قال تعالى: ﴿**ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾ [المائدة:٨].

وقوله: ﴿**وإن تلووا أو تعرضوا**﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف: تلووا، أي تحرفوا الشهادة وتغيروها، «واللي» هو التحريف وتعمد الكذب، قال الله تعالى: ﴿**وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب**﴾ [آل عمران:٧٨]، و«الإعراض» هو كتمان الشهادة وتركها، قال الله تعالى: ﴿**ومن يكتمها فإنه آثم قلبه**﴾ [البقرة:٢٨٣]. وقال النبي ﷺ: «خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها» [أخرجه مسلم]؛ ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿**فإن الله كان بما تعملون خبيراً**﴾ أي وسيجازيكم بذلك.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾.

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه

وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه، كما يقول المؤمن في كل صلاة ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ [الفاتحة:٦] أي بَصِّرنا فيه، وزدنا هدى، وثبتنا عليه، فأمرهم بالإيمان به وبرسوله، كما قال تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله**﴾ [الحديد:٢٨]. وقوله: ﴿**والكتاب الذي نزل على رسوله**﴾ يعني القرآن، ﴿**والكتاب الذي أنزل من قبل**﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال في القرآن: نزَّل لأنه نزل مفرقاً منجماً على الوقائع بحسب ما يحتاج العباد إليه في معادهم معاشهم، وأما الكتب المتقدمة، فكانت تنزل جملة واحدة، ولهذا قال: ﴿**والكتاب الذي أنزل من قبل**﴾ ثم قال تعالى: ﴿**ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً**﴾ أي فقد خرج عن طريق الهدى وبعد عن القصد كل البعد.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان، ثم رجع عنه، ثم عاد فيه، ثم رجع، واستمر على ضلاله وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته ولا يغفر الله له، ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً، ولا طريقاً إلى الهدى، ولهذا قال: ﴿**لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً**﴾. عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**ثم ازدادوا كفراً**﴾ قال: تَمَّمُوا على كفرهم حتى ماتوا، وكذا قال مجاهد. وعن علي رضي الله عنه، أنه قال: يستتاب المرتد ثلاثاً، ثم تلا هذه الآية ﴿**إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً**﴾. ثم قال: ﴿**بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً**﴾ يعني أن المنافقين من هذه الصفة، فإنهم آمنوا ثم كفروا، فطبع على قلوبهم، ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة، يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم: إنما نحن معكم، إنما نحن مستهزئون، أي بالمؤمنين، في إظهارنا لهم الموافقة، قال الله تعالى منكراً عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين: ﴿**أيبتغون عندهم العزة**﴾؟ ثم أخبر تعالى بأن العزة كلها له وحده لا شريك له ولمن جعلها له، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿**من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً**﴾ [فاطر:١٠]، وقال تعالى: ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون**﴾ [المنافقون:٨].

والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله والالتجاء إلى عبوديته والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، ويناسب أن يذكر هاهنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي ريحانه أن النبي ﷺ قال: «من انتسب

إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزاً وفخراً، فهو عاشرهم في النار» تفرد به أحمد [وقال الهيثمي رجاله ثقات].

وقوله: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم﴾ أي إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها، وأقررتموهم على ذلك، فقد شاركتموهم في الذي هم فيه، فلهذا قال تعالى: ﴿إنكم إذاً مثلهم﴾ أي في المأثم، كما جاء في الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يجلس على مائدة يُدَار عليها الخمر» [رواه الترمذي وحسنه الألباني]. والذي أحيل عليه في هذه الآية من النهي في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ [الأنعام:٦٨] قال مقاتل بن حيان: نسخت هذه الآية التي في سورة الأنعام، يعني نُسخَ قوله: ﴿إنكم إذا مثلهم لقوله: وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون﴾ [الأنعام:٦٩]. وقوله: ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾ أي كما أشركوهم في الكفر، كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبداً ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال، والقيود والأغلال، وشراب الحميم والغسلين لا الزلال.

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء، بمعنى ينتظرون زوال دولتهم وظهور الكفر عليهم وذهاب ملتهم. ﴿فإن كان لكم فتح من الله﴾ أي نصر وتأييد وظَفَر وغنيمة ﴿قالوا ألم نكن معكم﴾ أي يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ أي إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان كما وقع يوم أحد، فإن الرسل تبتلى ثم يكون لها العاقبة ﴿قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾ أي ساعدناكم في الباطن، وما ألوناهم خبالاً وتخذيلاً حتى انتصرتم عليهم، وقال السدي: نستحوذ عليكم: نغلب عليكم، كقوله: ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ [المجادلة:١٩]، وهذا أيضاً تودد منهم إليهم، فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء؛ ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم وقلة إيقانهم.

قال الله تعالى: ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ أي بما يعلمه منكم أيها المنافقون من البواطن الرديئة، فلا تغتروا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهراً في الحياة الدنيا، لما له في ذلك من الحكمة، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم، بل هو يوم تبلى فيه السرائر ويُحَصَّل ما في الصدور.

وقوله: ﴿**ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً**﴾ عن يسيع الكندي، قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فقال: كيف هذه الآية: ﴿**ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً**﴾ فقال علي رضي الله عنه: ادنُهْ ادنه، ثم قال: ﴿**فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً**﴾، وكذا روي عن ابن عباس قال: ذاك يوم القيامة، وكذا روي عن أبي مالك الأشجعي: يعني يوم القيامة. وقال السدي: أي حجة.

ويحتمل أن يكون المراد: ﴿**ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا**﴾ أي في الدنيا بأن يُسلَّطُوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**﴾ [غافر: ٥١]، وعلى هذا فيكون رداً على المنافقين فيما أملوه وتربصوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين، خوفاً على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم، كما قال تعالى: ﴿**فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم ـ إلى قوله ـ نادمين**﴾ [المائدة: ٥٢].

وقد استدل كثير من العلماء بهذا الآية الكريمة على أصح قولي العلماء، وهو المنع من بيع العبد المسلم للكافر، لما في صحة ابتياعه من التسليط له عليه والإذلال، ومن قال منهم بالصحة، يأمره بإزالة ملكه عنه في الحال لقوله تعالى: ﴿**ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً**﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾.

قد تقدم في أول سورة البقرة قوله تعالى: ﴿**يخادعون الله والذين آمنوا**﴾ [البقرة: ٩]، وقال ههنا: ﴿**إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم**﴾ [أي إن] المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً، فكذلك يكون حكمهم يوم القيامة عند الله، وأن أمرهم يروج عنده، كما أخبر عنهم تعالى أنهم يوم القيامة يحلفون له: أنهم كانوا على الاستقامة والسداد، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده، فقال تعالى: ﴿**يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم**﴾ [المجادلة: ١٨].

وقوله: ﴿**وهو خادعهم**﴾ أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم، ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا، وكذلك في القيامة، كما قال تعالى: ﴿**يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ـ إلى قوله ـ وظاهره من قبله العذاب**﴾ [الحديد: ١٣]. وقد ورد في الحديث: «من سمع سمع الله به، ومن راءى راءى الله به». [رواه البخاري ومسلم].

وقوله: ﴿**وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى**﴾ هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال

وأفضلها وخيرها، وهي الصلاة إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها؛ لأنهم لا نية لهم فيها ولا إيمان لهم بها ولا خشية، ولا يعقلون معناها كما روي عن ابن عباس، قال: يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان، ولكن يقوم إليها طلق الوجه عظيم الرغبة شديد الفرح، فإنه يناجي الله وإن الله أمامه يغفر له ويجيبه إذا دعاه، ثم يتلو هذه الآية ﴿**وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى**﴾. فقوله تعالى: ﴿**وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى**﴾ هذه صفة ظواهرهم، كما قال: ﴿**ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى**﴾ [التوبة: ٥٤]. ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة، فقال: ﴿**يراءون الناس**﴾ أي لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله بل إنما يشهدون الصلاة تقية من الناس ومصانعة لهم، ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التي لا يُرَون فيها غالباً كصلاة العشاء وقت العَتَمَة، وصلاة الصبح في وقت الغَلَس، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبْواً، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال ومعهم حُزَم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرّق عليهم بيوتهم بالنار».

وقوله: ﴿**و لا يذكرون الله إلا قليلاً**﴾ أي في صلاتهم لا يخشعون فيها ولا يدرون ما يقولون، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون، وعما يراد بهم من الخير معرضون، وقد روى الإمام مالك عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يَرْقُب الشمس حتى إذا كانت بين قَرْنَي الشيطان، قام فَنَقَر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»، رواه مسلم.

وقوله: ﴿**مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا هؤلاء**﴾ يعني المنافقين محيرين بين الإيمان والكفر، فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً ولا مع الكافرين ظاهراً وباطناً، بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين، ومنهم من يعتريه الشك، فتارة يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى أولئك ﴿**كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا**﴾ الآية [البقرة: ٢٠]، وقال مجاهد: ﴿**مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء**﴾ يعني أصحاب محمد ﷺ ﴿**ولا إلى هؤلاء**﴾ يعني اليهود. روى ابن جرير عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تَعِيرُ إلى هذه مرة وإلى هذه مرة ولا تدري أيتهما تتبع» ورواه مسلم. ﴿**مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء**﴾ والذي مكث الكافر. وعن قتادة ﴿**مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء**﴾ يقول: ليسو بمؤمنين مخلصين ولا مشركين مصرحين بالشرك.

ولهذا قال تعالى: ﴿**ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً**﴾ أي ومن صرفه عن طريق الهدى ﴿**فلن تجد له ولياً مرشداً**﴾، فإنه ﴿**من يضلل الله فلا هادي له**﴾ والمنافقون الذين أضلهم عن سبيل النجاة فلا هادي لهم، ولا منقذ لهم مما هم فيه، فإنه تعالى لا مُعَقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ .

ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين يعني مصاحبتهم ومصادقتهم، ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى: ﴿**لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه**﴾ [آل عمران:٢٨] أي يحذركم عقوبته في ارتكابكم نهيه، ولهذا قال ههنا: ﴿**أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً**﴾ أي حجة عليكم في عقوبته إياكم. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قوله: ﴿**سلطاناً مبيناً**﴾ قال كل سلطان في القرآن حجة، وهذا إسناده صحيح، وكذا قال مجاهد [وغيره].

ثم أخبرنا تعالى: ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار**﴾ أي يوم القيامة جزاء على كفرهم الغليظ. قال ابن عباس: ﴿**في الدرك الأسفل من النار**﴾ أي في أسفل النار. وعن أبي هريرة: ﴿**إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار**﴾ قال: الدرك الأسفل بيوت لها أبواب تطبق عليهم، فتوقد من تحتهم ومن فوقهم. [وعن ابن مسعود نحوه].

﴿**ولن تجد لهم نصيراً**﴾ أي ينقذهم مما هم فيه ويخرجهم من أليم العذاب، ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم في الدنيا، تاب عليه وقبل ندمه إذا أخلص في توبته وأصلح عمله، واعتصم بربه في جميع أمره، فقال: ﴿**إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله**﴾ أي بدلوا الرياء بالإخلاص فينفعهم العمل الصالح وإن قل. ﴿**فأولئك مع المؤمنين**﴾ أي في زمرتهم يوم القيامة ﴿**وسوف يؤت الله المؤمنين أجراًعظيماً**﴾.

ثم قال مخبراًعن غناه عما سواه، وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم فقال: ﴿**ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم**﴾ أي أصلحتم العمل وآمنتم بالله ورسوله ﴿**وكان الله شاكراً عليماً**﴾ أي من شكر شكر له، ومن آمن قلبه به علمه وجازاه على ذلك أوفر الجزاء.

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾ .

قال ابن عباس: ﴿ **لا يحب الله الجهر بالسوء من القول**﴾ يقول: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله: ﴿**إلا من ظلم**﴾ وإن صبر فهو خير له. وقال الحسن البصري: لا يدع عليه، وليقل: اللهم أعني عليه، واستخرج حقي منه، وفي رواية عنه قال: قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدى عليه.

وقال عبد الكريم بن مالك الجَزَريّ في هذه الآية: هو الرجل يشتمك فتشتمه، ولكن إن افترى عليك فلا تفتر عليه، لقوله: ﴿**ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل**﴾ [الشورى: ٤١]. وروى أبو داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «المستبَّان ما قالا، فعلى البادىء منهما ما لم يعتد المظلوم» [رواه مسلم]. وعن مجاهد قال: ضاف رجل رجلاً فلم يؤد إليه حق ضيافته، فلما خرج أخبر الناس فقال: ضفت فلاناً فلم يؤد إلي حق ضيافتي، قال: فذلك الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم حتى يؤدي الآخر إليه حق ضيافته.

وقد روى الجماعة سوى النسائي والترمذي عن عقبة بن عامر، قال: قلنا: يارسول الله، إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقرونا، فما ترى في ذلك؟ فقال: «إذا نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيف، فاقبلوا منهم، وإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم».

ومن [هذا ومثله] ذهب أحمد وغيره إلى وجوب الضيافة.

وقوله: ﴿**إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً**﴾ أي إن تظهروا أيها الناس خيراً أو أخفيتموه أو عفوتم عمن أساء إليكم، فإن ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم لديه، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم، ولهذا قال: ﴿**فإن الله كان عفواً قديراً**﴾، ولهذا ورد في الأثر أن حملة العرش يسبحون الله، فيقول بعضهم: سبحانك على حلمك بعد علمك، ويقول بعضهم: سبحانك على عفوك بعد قدرتك، وفي الحديث الصحيح: «ما نقص مال من صدقة، ولا زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله». [رواه مسلم].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ ﴾.

يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسله، من اليهود والنصارى حيث فرّقوا بين الله ورسله في الإيمان، فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض بمجرد التشهي والعادة، وما ألفوا عليه آباءهم لا عن دليل قادهم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك، بل بمجرد الهوى والعصبية، فاليهود ـ عليهم لعائن الله ـ آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ، والسامرة لا يؤمنون بنبيٍّ بعد يوشع خليفة موسى بن عمران، والمجوس يقال إنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له زرادشت، ثم كفروا بشرعه فرفع من بين أظهرهم، والله أعلم.

والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن رد نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي، تبين أن إيمانه بمن آمن

به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله﴾ فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسله، ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله﴾ أي في الإيمان، ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً﴾ أي طريقاً ومسلكاً، ثم أخبر تعالى عنهم فقال: ﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾ أي كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به، لأنه ليس شرعياً إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسولَ الله لآمنوا بنظيره وبمن هو أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه، أو نظروا حق النظر في نبوته.

وقوله: ﴿وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ أي كما استهانوا بمن كفروا به، إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله وإعراضهم عنه وإقبالهم على جمع حطام الدنيا مما لا ضرورة بهم إليه، وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته، كما كان يفعله كثير من أحبار اليهود في زمان رسول الله ﷺ حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة وخالفوه وكذبوه وعادوه وقاتلوه، فسلط الله عليهم الذل الدنيوي الموصول بالذل الأخروي ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله﴾ [البقرة: ٦١] في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ يعني بذلك أمة محمد ﷺ، فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله وبكل نبي بعثه الله، كما قال تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن با لله... إلى قوله وإليك المصير﴾ [البقرة: ٢٨٥]. ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل والثواب الجليل والعطاء الجميل، فقال: ﴿أولئك سوف يؤتيهم أجورهم﴾ على ما آمنوا بالله ورسله ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي لذنوبهم، أي إن كان لبعضهم ذنوب.

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴾.

قال محمد بن كعب القرظي والسدي وقتادة: سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة، قال ابن جريج: سألوه أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان وفلان وفلان بتصديقه فيما جاءهم به، وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد، كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك كما هو مذكور في سورة سبحان: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣] الآيات؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾ أي بطغيانهم وبغيهم، وعتوهم وعنادهم، وهذا مفسر في سورة البقرة حيث يقول تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

وقوله تعالى: ﴿ثم اتخذوا العجل من بعدما جاءتهم البينات﴾ أي من بعدما رأوا من الآيات الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى عليه السلام في بلاد مصر، وما كان من إهلاك عدو الله فرعون وجميع جنوده في اليمّ، فما جاوزوه إلا يسيراً، حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ [الأعراف:١٣٨] ، ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوطة في سورة الأعراف، وفي سورة طه، بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله عز وجل، ثم لما رجع وكان ما كان، جعل الله توبتهم من الذي صنعوه وابتدعوه، أن يقتل من لم يعبد العجل منهم من عبده، فجعل يقتل بعضهم بعضاً، ثم أحياهم الله عز وجل، وقال الله تعالى: ﴿فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾ ثم قال تعالى: ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾ وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى عليه السلام، ورفع الله على رؤوسهم جبلاً، ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم، خشية أن يسقط عليهم، كما قال تعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ [الأعراف: ١٧١].

﴿وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً﴾ أي فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل، فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت القدس سجداً وهم يقولون: حطة، أي اللهم حط عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونكولنا عنه، حتى تهنا في التيه أربعين سنة، فدخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حنطة في شعرة. ﴿وقلنا لهم لا تعدوا في السبت﴾ أي وصيناهم بحفظ السبت والتزام ما حرم الله عليهم، ما دام مشروعاً لهم ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ أي شديداً، فخالفوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب مناهي الله عز وجل، كما هو مبسوط في سورة الأعراف عند قوله: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾ [الأعراف:١٦٣-١٦٦] الآيات.

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾.

وهذه من الذنوب التي ارتكبوها، مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى، وهو نقضهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم، وكفرهم بآيات الله، أي حججه وبراهينه، والمعجزات التي شاهدوها على أيدي الأنبياء عليهم السلام، قوله: ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ وذلك لكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله، فإنهم قتلوا جمعاً غفيراً من الأنبياء عليهم السلام. وقولهم: ﴿قلوبنا غلف﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وقتادة وغير واحد: أي في غطاء، وهذا كقول المشركين ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا

إليه﴾ [فصلت: ٥]. وقيل: معناه أنهم ادعوا أن قلوبهم غُلُف للعلم، أي أوعية للعلم قد حوته وحصلته. روي عن ابن عباس، وقد تقدم نظيره في سورة البقرة.

قال الله تعالى: **﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾** فعلى القول الأول كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول، لأنها في غلف وفي أكنة، قال الله: بل هي مطبوع عليها بكفرهم وعلى القول الثاني: عكس عليهم ما ادعوه من كل وجه. **﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾** أي مَرَدت قلوبهم على الكفر والطغيان، وقلة الإيمان **﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾** قال ابن عباس: يعني أنهم رموها بالزنا، وكذا قال السدي وغير واحد، وهو ظاهر من الآية، أنهم رموها وابنها بالعظائم، فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك، زاد بعضهم: وهي حائض فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة: **﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله﴾** أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه، وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء، كقول المشركين **﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾** [الحجر: ٦].

وكان من خبر اليهود، عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه، أنه لما بعث الله عيسى بن مريم بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات التي كان يبرىء بها الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويصور من الطين طائراً، ثم ينفخ فيه، فيكون طائراً يشاهَدُ طيرانه بإذن الله عز وجل، إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه الله بها وأجراها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم حتى جعل نبي الله عيسى عليه السلام، لا يساكنهم في بلدة، بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام، ثم لم يقنعهم ذلك، حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان، وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته اليونان، وأنهوا إليه أن ببيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم، ويفسد على الملك رعاياه، فغضب الملك من هذا وكتب إلى نائبه بالمقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه، ويكف أذاه عن الناس، فلما وصل الكتاب امتثل مُتَولِّي بيت المقدس ذلك، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى عليه السلام، وهو في جماعة من أصحابه اثني عشر أو ثلاثة عشر، وقيل سبعة عشر نفراً، وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت، فحصروه هنالك. فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه عليهم، قال لأصحابه: أيكم يُلْقَى عليه شبهي وهو رفيقي في الجنة ؟ فانتدب لذلك شاب منهم فكأنه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانية وثالثة، وكل ذلك لا يَنْتَدِبُ إلا ذلك الشاب، فقال: أنت هو، وألقى اللهُ عليه شبه عيسى حتى كأنه هو، وفتحت رَوْزَنَة من سقف البيت، وأخذت عيسى عليه السلام سنة من النوم، فرفع إلى السماء وهو كذلك، كما قال الله تعالى: **﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي﴾** الآية [آل عمران: ٥٥]. فلما رفع خرج أولئك النفر، فلما رأى أولئك ذلك الشاب، ظنوا أنه عيسى،

فأخذوه في الليل وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه، فأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه، وتبجحوا بذلك وسلم لهم طوائف من النصارى، ذلك لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع المسيح، فإنهم شاهدوا رفعه. وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود، أن المصلوب هو المسيح بن مريم، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت، ويقال إنه خاطبها، والله أعلم. [هذا مختصر ما جاء عن ابن عباس ووهب وابن إسحاق].

وهذا كله من امتحان الله عباده، لما له في ذلك من الحكمة البالغة،وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه، وأظهره في القرآن العظيم، الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضحات، فقال تعالى: وهو أصدق القائلين ورب العالمين، المطلع على السرائر والضمائر، الذي يعلم السر في السموات والأرض، العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون: ﴿**وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم**﴾ أي رأوا شبهه فظنوه إياه؛ ولهذا قال: ﴿**وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن**﴾ يعني بذلك من ادعى قتله من اليهود، ومن سَلَّمه من جهال النصارى، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسُعُر، ولهذا قال: ﴿**وما قتلوه يقيناً**﴾ أي وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين ﴿**بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً**﴾ أي منيع الجناب، لا يرام جنابه ولا يضام من لاذ ببابه، ﴿**حكيماً**﴾ أي في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة والسلطان العظيم والأمر القديم.

وعن مجاهد: صلبوا رجلاً شبهوه بعيسى، ورفع الله عز وجل عيسى إلى السماء حياً، واختار ابن جرير أن شبه عيسى ألقي على جميع أصحابه.

وقوله تعالى: ﴿**وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً**﴾ قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك قال بعضهم: معنى ذلك﴿**وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته**﴾ يعنى بعيسى يعني قبل موت عيسى يُوَجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفية، دين إبراهيم عليه السلام. فعن ابن عباس: ﴿**وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته**﴾، قال: قبل موت عيسى ابن مريم، وقال أبو مالك: ذلك عند نزول عيسى ابن مريم، وقبل موت عيسى ابن مريم عليه السلام، لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به، وعن ابن عباس أيضا قال: يعني اليهود خاصة. وقال الحسن البصري: يعني النجاشي وأصحابه، وعن الحسن أيضا: ﴿**قبل موته**﴾ قال: قبل موت عيسى. والله إنه لحي عند الله، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون.

وكذا قال قتادة وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد، وهذا القول هو الحق، كما سنبينه بعد بالدليل القاطع إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به﴾ بعيسى قبل موت الكتابي، إذا عاين علم الحق من الباطل لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه. وعن ابن عباس: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ قال: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى. وعن مجاهد: كل صاحب كتاب يؤمن بعيسى قبل موته ـ قبل موت صاحب الكتاب ـ وقال ابن عباس: لو ضربت عنقه لم تخرج نَفْسُه حتى يؤمن بعيسى. وعنه [أيضاً] قال: لا يموت اليهودي حتى يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله، ولو عجل عليه بالسلاح.

وعنه أيضا قال: هي في قراءة أبي: «قبل موتهم» ليس يهودي يموت أبداً حتى يؤمن بعيسى. قيل لابن عباس: أرأيت إن خرّ من فوق بيت؟ قال: يتكلم به في الهويّ، فقيل: أرأيت إن ضربت عنق أحد منهم؟ قال: يُلَجْلج بها لسانه.

فهذه كلها أسانيدها صحيحة إلى ابن عباس، وكذا صح عن مجاهد وعكرمة ومحمد بن سيرين، وبه يقول الضحاك وجويبر. والسدي، ونقل قراءة أبي بن كعب: «قبل موتهم»، وعن الحسن في قوله: ﴿إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ قال: لا يموت أحد منهم حتى يؤمن بعيسى قبل أن يموت، وهذا يحتمل أن يكون مراد الحسن ما تقدم عنه، ويحتمل أن يكون مراده ما أراده هؤلاء، قال ابن جرير، وقال آخرون: معنى ذلك وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي. فعن عكرمة: لا يموت النصراني ولا اليهودي حتى يؤمن بمحمد ﷺ يعني في قوله: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾.

ثم قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول، وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موته أي قبل موت عيسى عليه السلام، ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح، لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان مادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبّه لهم، فقتلوا الشبيه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه، وإنه باق حي، وإنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة، فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم، ولهذا قال: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ أي قبل موت عيسى الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب. ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ أي بأعمالهم التي شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض.

فأما من فسر هذه الآية بأن المعنى أن كل كتابي لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد عليهما الصلاة والسلام، فهذا هو الواقع، وذلك أن كل أحد عند احتضاره يتجلى له

ما كان جاهلاً به، فيؤمن به، ولكن لا يكون ذلك إيماناً نافعاً له، إذا كان قد شاهد الملك، كما قال تعالى في أول هذه السورة **﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾** الآية [النساء:١٨]، وقال تعالى: **﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده﴾** الآيتين [غافر:٨٤-٨٥].

والمراد بها ما ذكرناه من تقرير وجود عيسى عليه السلام، وبقاء حياته في السماء، وأنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة؛ ليكذب هؤلاء وهؤلاء من اليهود والنصارى الذين تباينت أقوالهم فيه، وتضادَّت وتعاكست وتناقضت وخلت عن الحق، ففرط هؤلاء اليهود، وأفرط هؤلاء النصارى، تَنَقَّصة اليهود بما رموه به وأمه من العظائم، وأطراه النصارى بحيث ادعوا فيه بما ليس فيه، فرفعوه في مقابلة أولئك عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية، تعالى الله عن قول هؤلاء وهؤلاء علواً كبيراً، وتنزه وتقدس لا إله إلا هو.

ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسى بن مريم إلى الأرض من السماء في آخر الزمان قبل يوم القيامة وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

روى البخاري رحمه الله في كتاب ذكر الأنبياء من صحيحه المتلقى بالقبول «نزول عيسى ابن مريم عليه السلام»: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لَيُوشكَنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة خيراً من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: **﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾**.

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا، قال الروم: خلوا بيننا وبين الذين سَبَوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله، لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويقتل ثلثه أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث لا يفتنون أبداً، فيفتحون قسطنطينية، فبينما هم يقسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون وذلك باطل، فإذا جاؤوا الشام خرج، فبينما هم يُعدّون للقتال يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة فينزل عيسى بن مريم فأمّهم، فإذا رآه عدو الله، ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حَرْبته».

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «لقيت ليلة أسري بي، إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فتذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لي بها، فردوا أمرهم إلى موسى فقال: لا علم لي بها، فردوا أمرهم إلى عيسى فقال:

أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيما عهد إليّ ربي عز وجل أن الدجال خارج قال ومعي قضيبان، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص، قال: فيهلكه الله إذا رآني، حتى إن الحجر والشجر يقول: «يامسلم إن تحتي كافراً فتعال فاقتله، قال: فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيطئون بلادهم، فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه، قال: ثم يرجع الناس إلي يشكونهم، فأدعوا الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تَجْوَى الأرض من نَتْن ريحهم، وينزل المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر، ففيما عهد إليّ ربي عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك، أن الساعة كالحامل المتم، لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلاً أو نهاراً» ورواه ابن ماجه [وفي الزوائد: إسناده صحيح رجاله ثقات].

روى مسلم بن الحجاج في صحيحه عن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفَّض فيه ورفَّع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: «ما شأنكم ؟» قلنا: يارسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه، ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم إن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيجُ نفسه، والله خليفتي على كل مسلم. إنه شابٌ قَططٌ عينه طافية، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارجُ من خَلَّة بين الشام والعراق، فعاث يميناً وعاث شمالاً، ياعباد الله فاثبتوا» قلنا: يارسول الله وما لَبْثَه في الأرض ؟ قال: «أربعين يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم» قلنا يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنه أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لا اقدروا له قدره» قلنا: يارسول الله، وما إسراعه في الأرض ؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح فيأتي على قوم فيدعوهم فيؤمنون به، ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى، وأسبغه ضروعاً وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعوا رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم عليه السلام، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان اللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد، فيقتله، ثم يأتي عيسى عليه السلام قوماً قد عصمهم الله منه، فيمسح على وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى: إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور،

ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أولهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خير من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأ زهمهم ونتنهم فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله، طيراً كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر، ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ثم يقال للأرض: أخرجي ثمرك وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها، ويبارك الله في الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللِّقْحَةَ من الغنم لتكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فيقبض الله روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة».

وروى مسلم في صحيحه أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين، لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً، فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير ـ أو إيمان ـ إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه» قال: سمعتها من رسول الله ﷺ «فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دار رزقهم، حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً، قال: وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله ـ أو قال ـ ينزل الله مطراً كأنه الطل ـ أو قال الظل ـ نعمان الشاك ـ فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. ثم يقال: أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾ [الصافات: ٢٤] ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال: فذلك يوم يجعل الولدان شيباً، وذلك يوم يكشف عن ساق».

روى الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى ترون عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، ونزول عيسى بن مريم والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن

تسوق ـ أو تحشر ـ الناس تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا» وهكذا رواه مسلم.

فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة وابن مسعود والنواس بن سمعان وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبي سَرِيحة حذيفة بن أَسِيْد [وغيرهم] رضي الله عنهم، وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه من أنه بالشام بل بدمشق عند المنارة الشرقية، وأن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح، وقد بنيت في هذه الأعصار في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة منارة للجامع الأموي بيضاء من حجارة منحوتة عوضاً عن المنارة التي هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صنيع النصارى ـ عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ـ وكان أكثر عمارتها من أموالهم، وقويت الظنون أنها هي التي ينزل عليها المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية، فلا يقبل إلا الإسلام كما في الصحيحين، وهذا إخبار من النبي ﷺ بذلك وتقرير وتشريع وتسويغ له على ذلك في ذلك الزمان، حيث تنزاح عللهم وترتفع شبههم من أنفسهم، ولهذا كلهم يدخلون في دين الإسلام متابعة لعيسى عليه السلام وعلى يديه، ولهذا قال تعالى: ﴿**وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته**﴾ الآية، وهذه الآية كقوله: ﴿**وإنه لعلم للساعة**﴾ وقرىء: «عَلَم» بالتحريك أي أمارة ودليل على اقتراب الساعة، وذلك لأنه ينزل بعد خروج المسيح الدجال فيقتله الله على يديه، كما ثبت في صحيح [البخاري] : «إن الله لم يخلق داء إلا أنزل له شفاء»، ويبعث الله في أيامه يأجوج ومأجوج، فيهلكهم الله تعالى ببركة دعائه، وقد قال تعالى: ﴿**حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق**﴾ الآية [الأنبياء:٩٦ـ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿**ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً**﴾ قال قتادة: يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله وأقر بعبودية الله عز وجل، وهذا كقوله تعالى في آخر سورة المائدة ﴿**وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس ـ إلى قوله ـ العزيز الحكيم**﴾ [المائدة: ١١٦ـ١١٨].

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة، حَرّم عليهم طيبات كان أحلها لهم، وهذا التحريم قد يكون قدرياً، بمعنى أنه تعالى قيضهم لأن تأولوا في كتابهم، وحرفوا وبدلوا أشياء كانت حلالاً لهم فحرموها على أنفسهم تشديداً منهم على أنفسهم وتضييقاً وتنطعاً، ويحتمل أن يكون شرعياً بمعنى أنه تعالى حرم عليهم في التوراة أشياء كانت حلالاً لهم قبل ذلك، كما قال تعالى: ﴿**كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة**﴾ [آل عمران:٩٣]. وقد قدمنا الكلام على هذه الآية، وأن المراد

أن الجميع من الأطعمة كانت حلالاً لهم من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل وألبانها، ثم إنه تعالى حرم أشياء كثيرة في التوراة كما قال في سورة الأنعام: **﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾** [الأنعام:١٤٦] أي إنما حرمنا عليهم ذلك، لأنهم يستحقون ذلك بسبب بغيهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه، ولهذا قال: **﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾** أي صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق. وهذه سَجِيَّة لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه؛ ولهذا كانوا أعداء الرسل وقتلوا خَلْقاً من الأنبياء، وكذبوا عيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهما.

وقوله: **﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه﴾** أي أن الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه واحتالوا عليه بأنواع من الحيل والشبه، وأكلوا أموال الناس بالباطل، قال الله تعالى: **﴿وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾**، ثم قال تعالى: **﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾** أي الثابتون في الدين لهم قدم راسخة في العلم النافع. وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة آل عمران **﴿والمؤمنون﴾** عطف على الراسخين، وخبره **﴿يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾** قال ابن عباس: أنزلت في عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وزيد بن سعية وأسد بن عبيد، الذين دخلوا في الإسلام، وصدقوا بما أرسل الله به محمداً ﷺ.

وقوله: **﴿والمقيمين الصلاة﴾** هكذا هو في جميع المصاحف الأئمة، وكذا هو في مصحف أبي بن كعب، وذكر ابن جرير أنها في مصحف ابن مسعود «والمقيمون الصلاة»، قال: والصحيح قراءة الجميع ثم رد على من زعم أن ذلك من غلط الكتاب، ثم ذكر اختلاف الناس فقال بعضهم: هو منصوب على المدح، كما جاء في قوله: **﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذي صدقوا﴾** [البقرة:١٧٧]، قالوا: وهذا سائغ في كلام العرب.

وقال آخرون: هو مخفوض عطفاً على قوله: **﴿بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾** يعني وبالمقيمين الصلاة، وكأنه يقول: وبإقامة الصلاة أي يعترفون بوجوبها وكتابتها عليهم، أو أن المراد بالمقيمين الصلاة الملائكة وهذا اختيار ابن جرير، يعني يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالملائكة، وفي هذا نظر، والله أعلم. وقوله: **﴿والمؤتون الزكاة﴾** يحتمل أن يكون المراد زكاة الأموال، ويحتمل زكاة النفوس، ويحتمل الأمرين، والله أعلم، **﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾** أي يصدقون بأنه لا إله إلا الله، ويؤمنون بالبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها. وقوله: **﴿أولئك﴾** هو الخبر عما تقدم **﴿سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾** يعني الجنة.

﴿ ۞إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ
وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ
مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ
عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾.

عن ابن عباس، قال: قال سُكَين وعدي بن زيد: يامحمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى، فأنزل الله في ذلك من قولهما: **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾** إلى آخر الآيات. وعن محمد بن كعب القرظي قال: أنزل الله: **﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾** إلى قوله: **﴿وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾** فلما تلاها عليهم يعني على اليهود، وأخبرهم بأعمالهم الخبيثة، جحدوا كل ما أنزل الله وقالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، ولا موسى ولا عيسى ولا على نبي من شيء، قال: فحل حُبْوته، وقال: ولا على أحد، فأنزل الله عز وجل: **﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾** [الأنعام:٩١]. وفي هذا الذي قاله محمد بن كعب القرظي نظر، فإن هذه الآية مكية التي في سورة الأنعام، وهذه الآية التي في سورة النساء مدنية، وهي رد عليهم لما سألوا النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، قال الله تعالى: **﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك﴾** [النساء:١٥٣]، ثم ذكر فضائحهم ومعايبهم وما كانوا عليه وما هم عليه الآن من الكذب والافتراء، ثم ذكر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله محمد ﷺ، كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين، فقال: **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾** إلى قوله: **﴿وآتينا داود زبوراً﴾** والزبور اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام.

وقوله: **﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾** أي من قبل هذه الآية، يعني في السور المكية وغيرها.

وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم في القرآن وهم: آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين وسيدهم محمد ﷺ.

وقوله: **﴿ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾** أي خلقاً آخرين لم يذكروا في القرآن، وقد اختلف في عدة الأنبياء والمرسلين، والمشهور في ذلك حديث أبي ذر الطويل، [وفيه] قال: قلت: يارسول الله، كم الأنبياء؟ قال «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً». قال: قلت: يارسول الله، كم الرسل من ذلك؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير كثير طيب». قلت: فمن كان أولهم؟ قال: «آدم» قلت: أنبي مرسل؟ قال: «نعم، خلقه الله» بيده، ونفخ فيه من روحه، وسَوَّاه قَبِيلا» [وفي إسناده الغساني وهو متهم].

قوله: ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ وهذا تشريف لموسى عليه السلام بهذه الصفة؛ ولهذا يقال له: الكليم، وقد روى الحافظ أبو بكر بن مردويه أن رجلاً جاء إلى أبي بكر بن عيَّاش فقال: سمعت رجلاً يقرأ: «وكلم اللهَ موسى تكليماً» فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر، قرأت على الأعمش، وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب، وقرأ يحيى بن وثاب على أبي عبد الرحمن السلمي، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي على علي بن أبي طالب، وقرأ علي بن أبي طالب على رسول الله ﷺ: ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ كذلك، لأنه حرف لفظ القرآن ومعناه، وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلَّم موسى عليه السلام، أو يكلم أحداً من خلقه، كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ: ﴿وكلم اللهَ موسى تكليماً﴾ فقال له: يا ابن اللَّخْنَاء، فكيف تصنع بقوله تعالى: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه﴾ [الأعراف:١٤٣]، يعني أن هذا لا يحتمل التحريف، ولا التأويل.

وقوله: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين﴾ أي يبشرون من أطاع الله واتبع رضوانه بالخيرات، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب، وقوله: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ أي أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه، لئلا يبقى لمعتذر عذر، كما قال تعالى: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾ [طه:١٣٤]، وكذا قوله: ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ـ إلى قوله ـ من المؤمنين﴾ [القصص:٤٧]. وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحَدَ أغْيَرُ من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظَهَر منها وما بطن، ولا أحدَ أحبَّ إليه المدحُ من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحبَّ إليه العُذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين».

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾.

لما تضمن قوله تعالى: ﴿إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ إلى آخر السياق، إثبات نبوته ﷺ والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب، قال الله تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾ أي وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب، وهو القرآن العظيم الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [فصلت:٤٢]؛ ولهذا قال: ﴿أنزله بعلمه﴾ أي

فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب إلا أن يُعْلِمَه الله به، كما قال تعالى: **﴿ولايحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء﴾** [البقرة:٢٥٥]، وقال: **﴿ولا يحيطون به علماً﴾** [طه:١١٠].

وروى ابن أبي حاتم عن عطاء بن السائب، قال: أقرأني أبو عبد الرحمن السُّلمي القرآن، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: قد أخذت علم الله، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل، ثم يقرأ قوله: **﴿أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً﴾**.

وقوله: **﴿والملائكة يشهدون﴾** أي بصدق ما جاءك وأوحى اليك وأنزل عليك مع شهادة الله تعالى لك بذلك **﴿وكفى بالله شهيداً﴾**.

وقوله: **﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾** أي كفروا في أنفسهم، فلم يتبعوا الحق، وسعوا في صد الناس عن اتباعه والاقتداء به، قد خرجوا عن الحق وضلوا عنه، وبَعُدُوا منه بعداً عظيماً شاسعاً. ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله، الظالمين لأنفسهم بذلك وبالصد عن سبيله وارتكاب مآثمه وانتهاك محارمه بأنه لا يغفر لهم **﴿ولا ليهديهم طريقاً﴾** أي سبيلاً إلى الخير **﴿إلا طريق جهنم﴾** وهذا استثناء منقطع **﴿خالدين فيها أبداً﴾** الآيه، ثم قال تعالى: **﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم﴾** أي قد جاءكم محمد صلوات الله وسلامه عليه بالهدى ودين الحق والبيان الشافي من الله عز وجل، فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه، يكن خيراً لكم. ثم قال: **﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السموات والأرض﴾** أي فهو غني عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرر بكفرانكم، كما قال تعالى: **﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾** [إبراهيم:٨]. وقال ههنا: **﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾** أي بمن يستحق منكم الهداية فيهديه، وبمن يستحق الغواية فيغويه، **﴿حكيماً﴾** أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ
ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ
وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾.

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا حد التصديق بعيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة، إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه. بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه، فادعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً، ولهذا قال الله تعالى: **﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً**

من دون الله﴾ [التوبة:٣١]. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم. فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله». [رواه البخاري].

وقوله: ﴿**ولا تقولوا على الله إلا الحق**﴾ أي لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولداً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وتنزه وتقدس وتوحد في سؤدده وكبريائه وعظمته، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولهذا قال: ﴿**إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه**﴾ أي إنما هو عبد من عباد الله وخَلْق من خلقه، قال له: كن فكان، ورسول من رسله وكلمته ألقاها إلى مريم، أي خَلَقَه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، فكان عيسى بإذنه عز وجل، وصارت تلك النفخة التي نفخها في جَيْب دِرْعها، فنزلت حتى وَلَجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم، والجميع مخلوق لله عز وجل؛ ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشىء عن الكلمة التي قال له بها كن فكان، والروح التي أرسل بها جبريل قال الله تعالى: ﴿**ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام**﴾ [المائدة:٧٥]. وقال تعالى: ﴿**إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**﴾ [آل عمران:٥٩]. وقال تعالى: ﴿**والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين**﴾ [الأنبياء:٩١] وقال تعالى: ﴿**ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها**﴾ [التحريم:١٢] إلى آخر السورة، وقال تعالى إخباراً عن المسيح: ﴿**إن هو الا عبد أنعمنا عليه**﴾ [الزخرف:٥٩].

وعن قتادة: ﴿**وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه**﴾ هو قوله: ﴿**كن**﴾ [آل عمران:٥٩] فكان. وعن شاذ بن يحيى يقول: في قول الله: ﴿**وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه**﴾ قال: ليس الكلمةُ صارت عيسى ولكن بالكلمة صار عيسى.

وروى البخاري عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». قال الوليد: فحدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن عُمير بن هانىء، عن جُنَادة زاد: «من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء»، وكذا رواه مسلم. فقوله في الآية والحديث: «وروح منه» كقوله: ﴿**وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه**﴾ [الجاثية:١٣] أي من خَلْقه ومن عنده وليست «من» للتبعيض كما تقوله النصارى عليهم لعائن الله المتتابعه ـ بل هي لابتداء الغاية كما في الآية الأخرى، وقد قال مجاهد في قوله: ﴿**وروح منه**﴾ أي ورسول منه، وقال غيره: ومحبة منه، والأظهر الأول أنه مخلوق من روح مخلوقة وأضيفت الروح إلى الله

على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله: ﴿هذه ناقة الله﴾ [هود: ٦٤]. وفي قوله: ﴿وطهر بيتي للطائفين﴾ [الحج: ٢٦]، وكما ورد في الحديث الصحيح: «فأدخل على ربِّي في داره» أضافها إليه إضافة تشريف، وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد.

وقوله: ﴿فآمنوا بالله ورسله﴾ أي فصدقوا بأن الله واحد أحد، لا صاحبة له ولا ولد، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله، ولهذا قال: ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ أي لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهذه الآية كالتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد﴾ [المائدة: ٧٣]. وكما قال في آخر السورة المذكورة: ﴿وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك﴾ الآية [المائدة: ١١٦]، وقال في أولها ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ الآية [المائدة: ٧٢]، فالنصارى ـ عليهم لعنة الله ـ من جهلهم ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حد، بل أقوالهم وضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقده إلهاً، ومنهم من يعتقده شريكاً، ومنهم من يعتقده ولداً، وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة. ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولاً.

ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو سعيد بن بَطْرِيق ـ بَتْرك الإسكندرية ـ في حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية، أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم، وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة، وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة، وأنهم اختلفوا عليه اختلافاً لا ينضبط ولا ينحصر، فكانوا أزيد من ألفين أسقفاً، فكانوا أحزاباً كثيرة، كل خمسين منهم على مقالة، وعشرون على مقالة، ومائة على مقالة، وسبعون على مقالة، وأزيد من ذلك وأنقص. فلما رأى عصابة منهم قد زادوا على الثلثمائة بثمانية عشر نفراً، وقد توافقوا على مقالة، فأخذها الملك ونصرها وأيدها، وكان فيلسوفاً داهية، ومَحَقَ ما عداها من الأقوال، وانتظم دَسْت أولئك الثلثمائة والثمانية عشر، وبنيت لهم الكنائس، ووضعوا لهم كتباً وقوانين، وأحدثوا فيها الأمانة التي يلقنونها الولدان من الصغار ليعتقدوها ويعمدونهم عليها وأتباع هؤلاء هم الملكية. ثم إنهم اجتمعوا مجمعاً ثانياً، فحدث فيهم اليعقوبية، ثم مجمعاً ثالثاً فحدث فيهم النسطورية، وكل هذه الفرق تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح ويختلفون في كيفية ذلك، وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم هل اتحدا، أو ما اتحدا، أو امتزجا، أو حل فيه؟ على ثلاث مقالات وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى، ونحن نكفر الثلاثة، ولهذا قال تعالى: ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ أي يكن خيراً لكم ﴿إنما الله إلهٌ واحد سبحانه أن يكون له ولد﴾ أي تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً ﴿له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾ أي الجميع ملكه وخلقه، وجميع ما فيهما عبيده، وهم تحت تدبيره

وتصريفه، وهو وكيل على كل شيء، فكيف يكون له منهم صاحبة أو ولد؟ كما قال في الآية الأخرى: ﴿بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً ـ إلى قوله ـ فرداً﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾.

عن ابن عباس: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله﴾ لن يستكبر. وقال قتادة: لن يحتشم ﴿المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾ وقد استدل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال: ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ وليس له في ذلك دلالة، لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح، لأن الاستنكاف هو الامتناع، والملائكة أقدر على ذلك من المسيح، فلهذا قال: ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل. وقيل: إنما ذكروا لأنهم اتخذوا آلهة مع الله كما اتخذ المسيح، فأخبر تعالى أنهم عبيد من عباده وخلق من خلقه، كما قال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون﴾ [الأنبياء: ٢٦]، ثم قال: ﴿ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ أي فيجمعهم إليه يوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل الذي لا يجور فيه، ولا يَحيف؛ ولهذا قال: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ أي فيعطيهم من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة، ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتنانه.

﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا﴾ أي امتنعوا من طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك ﴿فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ كما قال تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ [غافر: ٦٠] أي صاغرين حقيرين ذليلين كما كانوا ممتنعين مستكبرين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾.

يقول تعالى مخاطباً جميع الناس ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعذر والحجة المزيلة للشبهة، ولهذا قال: ﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ أي ضياء واضحاً على الحق، قال ابن جريج وغيره: وهو القرآن. ﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به﴾ أي جمعوا بين مقامي العبادة، والتوكل على الله في جميع أمورهم، وقال ابن جريج: آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن. ﴿فسيدخلهم في رحمة منه وفضل﴾ أي يرحمهم فيدخلهم الجنة،

ويزيدهم ثواباً ومضاعفة ورفعاً في درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم، ﴿**ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً**﴾ أي طريقاً واضحاً قَصْداً قَوَاماً لااعوجاج فيه ولا انحراف وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات.

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

روى البخاري عن البراء قال: آخر سورة نزلت: «براءة»، وآخر آية نزلت: «يستفتونك».

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: دخل علي رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ ثم صب علي، أو قال: صبوا عليه، فَعَقَلْتُ فقلت: إنه لا يرثني إلا كلالة، فكيف الميراث؟ فأنزل الله آية الفرائض. رواه الجماعة، وفي بعض الألفاظ فنزلت آية الميراث: ﴿**يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة**﴾ الآية.

وكأن معنى الكلام ـ والله أعلم ـ يستفتونك عن الكلالة ﴿**قل الله يفتيكم**﴾ فيها، فدل المذكور على المتروك. وقد تقدم الكلام على الكلالة واشتقاقها، وأنها مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه ولهذا فسرها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ولا والد ومن الناس من يقول: الكلالة من لا ولد له، كما دلت عليه هذه الآية ﴿**إن امرؤ هلك ليس له ولد**﴾، وقد أُشْكِل حُكْم الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه: الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا. وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بأُصبُعُهِ في صدري، وقال: «يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء». وأخرجه مسلم مطولاً أكثر من هذا.

ولما أرشده النبي ﷺ إلى تفهمها، فإنّ فيها كفاية نسي أن يسأل النبي ﷺ عن معناها؛ ولهذا قال: فلأن أكون سألت رسول الله ﷺ عنها أحب إلي من أن يكون لي حُمْر النَّعَم.

وقال قتادة: وذكر لنا أن أبا بكر الصديق قال في خطبته ألا إن الآية التي نزلت في أول سورة النساء في شأن الفرائض أنزلها الله في الولد والوالد، والآية الثانية أنزلها في الزوج والزوجة والإخوة من الأم، والآية التي ختم بها سورة النساء أنزلها في الإخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله مما جَرّت الرحم من العَصَبَة.

ذكر الكلام على معناها وبالله المستعان، وعليه التكلان:

قوله تعالى: ﴿**إن امرؤ هلك**﴾ أي مات، قوله: ﴿**ليس له ولد**﴾ تمسك به من ذهب إلى

أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد وهو رواية عن عمر بن الخطاب، رواها ابن جرير عنه بإسناد صحيح إليه، ولكن الذي يرجع إليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق أنه مَنْ لا ولد له ولا والد، ويدل على ذلك قوله: ﴿**وله أخت فلها نصف ما ترك**﴾ ولو كان معها أب لم ترث شيئاً لأنه يحجبها بالإجماع، فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن ولا والد بالنص عند التأمل أيضاً، لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد بل ليس لها ميرات بالكلية.

روى الإمام أحمد عن زيد بن ثابت: أنه سُئلَ عن زوج وأخت لأب وأم، فأعطى الزوجَ النصفَ والأخت النصفَ. وعن ابن عباس وابن الزبير أنهما كانا يقولان في الميت: ترك بنتاً وأختاً: إنه لا شيء للأخت لقوله ﴿**إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك**﴾ قال: فإذا ترك بنتاً فقد ترك ولداً فلا شيء للأخت، وخالفهما الجمهور فقالوا في هذه المسألة للابنة النصف بالفرض، وللأخت النصف الآخر بالتعصيب بدليل غير هذه الآية، وهذه نَصبَ أن يفرض لها في هذه الصورة وأما وراثتها بالتعصيب فلما رواه البخاري عن الأسود قال: قضى فينا معاذ بن جبل على عهد رسول الله ﷺ النصف للبنت والنصف للأخت. وفي صحيح البخاري أيضاً عن هُزيل بن شرحبيل قال: سئل أبو موسى الأشعري عن ابنة وابنة ابن وأخت، فقال: للابنة النصف، وللأخت النصف، وأت ابن مسعود فسيتابعني، فسأل ابن مسعود وأخبر بقول أبي موسى فقال: لقد ضَلَلْتُ إذاً وما أنا من المهتدين، أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ للابنة النصف، ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال: لا تسألوني مادام هذا الحبر فيكم.

وقوله: ﴿**وهو يرثها إن لم يكن لها ولد**﴾ أي والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلالة، وليس لها ولد أي ولا والد، لأنها لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً، فإن فرض أن معه من له فرض صرف إليه فرضه كزوج أو أخ من أم، وصرف الباقي إلى الأخ لما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فلأوْلَى رجل ذكر».

وقوله: ﴿**فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك**﴾ أي فإن كان لمن يموت كلالة أختان، فرض لهما الثلثان وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما، ومن ههنا أخذ الجماعة حكم البنتين كما استفيد حكم الأخوات من البنات في قوله: ﴿**فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك**﴾.

وقوله: ﴿**وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين**﴾ هذا حكم العصبات من البنين وبني البنين والإخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم، أعطي الذكر مثل حظ الأنثيين، وقوله: ﴿**يبين الله لكم**﴾ أي يفرض لكم فرائضه، ويحد لكم حدوده، ويوضح لكم شرائعه. وقوله: ﴿**أن تضلوا**﴾ أي لئلا تضلوا عن الحق بعد البيان. ﴿ **والله بكل شيء عليم**﴾ أي هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيها من الخير لعباده، وما يستحقه كل واحد من القرابات

بحسب قربه من المتوفى.

وروى ابن جرير عن طارق بن شهاب قال: أخذ عمر كتفاً وجمع أصحاب رسول الله ﷺ ثم قال: لأقضين في الكلالة قضاء تحدث به النساء في خدورهن، فخرجت حينئذ حَيّة من البيت فتفرقوا، فقال: لو أراد الله عز وجل أن يتم هذا الأمر لأتمه، وهذاإسناده صحيح.

قال ابن جرير: وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إني لأستحي أن أخالف فيه أبا بكر، وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول: هو ما عدا الولد والوالد.

وهذا الذي قاله الصديق عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة في قديم الزمان وحديثه، وهو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة، وقول علماء الأمصار قاطبة، وهو الذي يدل عليه القرآن، كما أرشد الله أنه قد بين ذلك ووضحه في قوله: ﴿**يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم**﴾.

تفسير سورة المائدة وهي مدنية.

روى الترمذي عن عبد الله بن عمرو قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة والفتح، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وروي عن ابن عباس أنه قال: آخر سورة أنزلت ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ [سورة النصر: ١]، [وعن عائشة أن المائدة آخر سورة نزلت].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾.

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إذا سمعت الله يقول: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ فارْعِها سَمْعَك، فإنه خَيْر يأمر به أو شر ينهى عنه. وعن الزهري قال: إذا قال الله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ افعلوا، فالنبي ﷺ منهم، وعن خيثمة قال: كل شيء في القرآن: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ فهو في التوراة: «يا أيها المساكين».

قوله تعالى: ﴿**أوفوا بالعقود**﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني بالعقود العهود، وحكى ابن جرير الإجماع على ذلك، قال: والعهود ما كانوا يتعاهدون عليه من الحلف وغيره. وقال ابن عباس في قوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود**﴾ يعني بالعهود، يعني ما أحل الله وما حرم وما فرض وما حَد في القرآن كله، فلا تغدروا ولا تنكثوا، ثم شدد في ذلك فقال: ﴿**والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل**﴾ إلى قوله ﴿**سوء الدار**﴾ [الرعد: ٢٥]، وقال الضحاك: ﴿**أوفوا بالعقود**﴾ قال: ما أحل الله وحرم، وما أخذ الله من الميثاق على من أقر بالإيمان بالنبي ﷺ والكتاب أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض من الحلال والحرام. وقال زيد بن أسلم ﴿**أوفوا بالعقود**﴾ قال: هي ستة: **عهد الله**،

وعقد الحلف، وعقد الشركة، وعقد البيع، وعقد النكاح وعقد اليمين. وقال محمد بن كعب: هي خمسة منها حلف الجاهلية، وشركة المفاوضة. وقد استدل بعض من ذهب إلى أنه لا خيار في مجلس البيع بهذه الآية ﴿أوفوا بالعقود﴾ قال: فهذا يدل على لزوم العقد وثبوته فيقتضي نفي خيار المجلس، وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك، وخالفهما الشافعي وأحمد بن حنبل والجمهور، والحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «البيّعان بالخيار مالم يتفرقا». وفي لفظ آخر للبخاري: «إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار مالم يتفرقا». وهذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع، وليس هذا منافياً للزوم العقد، بل هو من مقتضياته شرعاً، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقد.

وقوله تعالى: **﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام﴾** هي الإبل والبقر والغنم، قاله الحسن وقتادة وغير واحد، قال ابن جرير: وكذلك هو عند العرب، وقد استدل ابن عمر وابن عباس وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتاً في بطن أمه إذا ذبحت، وقد ورد في ذلك حديث في السنن رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد قال: قلنا: يا رسول الله ننحر الناقة ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين، أنلقيه أم نأكله؟ فقال: «كلوه إن شئتم فإن ذكاته ذكاة أمه». وقال الترمذي: حديث حسن، وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله، عن رسول الله ﷺ، قال: «ذكاة الجنين ذكاة أمه». تفرد به أبو داود [وله طرق يحتج بها كما ذكر الحافظ ابن حجر في التلخيص].

وقوله: **﴿إلا ما يتلى عليكم﴾** قال ابن عباس: يعني بذلك الميتة والدم ولحم الخنزير، وقال قتادة: يعني بذلك الميتة وما لم يذكر اسم الله عليه، والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك قوله: **﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع﴾** فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنها تحرم بهذه العوارض، ولهذا قال: **﴿إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب﴾** يعني منها فإنه حرام لا يمكن استدراكه وتلاحقُه؛ ولهذا قال تعالى: **﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم﴾** أي إلا ما سيتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال.

وقوله: **﴿غير محلي الصيد وأنتم حرم﴾** قال بعضهم: هذا منصوب على الحال. والمراد من الأنعام: ما يعم الإنسي من الإبل والبقر والغنم، وما يعم الوحشي كالظباء والبقر والحمر، فاستثنى من الإنسي ما تقدم، واستثنى من الوحشي الصيد في حال الإحرام، وقيل: المراد أحللنا لكم الأنعام، إلا ما استثني لمن التزم تحريم الصيد، وهو حرام كقوله: **﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد﴾** أي أبحنا تناول الميتة للمضطر بشرط أن يكون غير باغ ولا عاد، أي كما أحللنا الأنعام لكم في جميع الأحوال فحرموا الصيد في حال الإحرام، فإن الله قد حكم بهذا، وهو الحكيم في جميع ما يأمر به وينهى عنه، ولهذا قال الله: **﴿إن الله يحكم ما يريد﴾**.

ثم قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك مناسك الحج. وقال مجاهد: الصفا والمروة، والهدي والبُدن من شعائر الله، وقيل: شعائر الله محارمه، أي لا تحلوا محارم الله التي حرمها تعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا الشهر الحرام﴾ يعني بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه من الابتداء بالقتال وتأكيد اجتناب المحارم، كما قال تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير﴾ [البقرة:٢١٧]، وقال تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً﴾ الآية [التوبة:٣٦]، وفي صحيح البخاري عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حُرُم، ثلاث متواليات: ذو القَعْدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مُضَر الذي بين جُمادى وشعبان». وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت، كما هو مذهب طائفة من السلف.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ولا الشهر الحرام﴾ يعني لا تستحلوا قتالاً فيه، وكذا قال مُقَاتل بن حَيَّان وعبد الكريم بن مالك الجزَريّ، واختاره ابن جرير أيضاً، وقد ذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ وأنه يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ [التوبة:٥]، قالوا والمراد أشهر التسيير الأربعة، ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ قالوا: فلم يستثن شهراً حراماً من غيره.

وقد حكى الإمام أبو جعفر رحمه الله الإجماع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم وغيرها من شهور السنة، قال: وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قلد عنقه أو ذراعيه بلحَاء جميع أشجار الحرم، لم يكن ذلك له أماناً من القتل إذا لم يكن تقدم له عقد ذمة من المسلمين أو أمان. ولهذه المسألة بحث آخر له موضع أبسط من هذا.

وقوله: ﴿ولا الهدي ولا القلائد﴾ يعني لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام، فإن فيه تعظيم لشعائر الله، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام، وليعلم أنها هدي إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها، فإن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ولهذا لما حَج رسول الله ﷺ، بات بذي الحُلَيْفة وهو وادي العَقيق، فلما أصبح طاف على نسائه وكن تسعاً، ثم اغتسل وتطيب وصلى ركعتين، ثم أشعر هَدْيَه وقَلَّدَه، وأَهَلَّ بالحج والعمرة، وكان هديه إبلاً كثيرة تنيفَ على الستين من أحسن الأشكال والألوان، كما قال تعالى: ﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ [الحج:٣٢]. قال بعض السلف: إعظامها استحسانها واستسمانها، وقال علي بن أبي طالب: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، رواه أهل السنن، [وقال الترمذي: حسن صحيح].

وقال مقاتل بن حيان: ﴿ولا القلائد﴾ فلا تستحلوا وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم، قلدوا أنفسهم بالشَّعْر والوَبَر وتقلد مشركو الحرم من لَحاء شجر الحرم فيأمنون به، وعن ابن عباس قال: نسخ من هذه السورة آيتان آية القلائد وقوله: ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ [المائدة:٤٢]. وعن ابن عون قال: قلت للحسن: نسخ من المائدة شيء؟ قال لا، وقال عطاء: كانوا يتقلدون من شجر الحرم فيأمنون فنهى الله عن قطع شجره وكذا قال مُطرِّف بن عبد الله.

وقوله: ﴿ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضوانا﴾ أي ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذي من دخله كان آمناً وكذا من قصده طالباً فضل الله وراغباً في رضوانه فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه. قال مجاهد وأبو العالية وقتادة [وغيرهم] في قوله: ﴿يبتغون فضلاً من ربهم﴾ يعني بذلك التجارة، وهذا كما تقدم في قوله ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ [البقرة:١٩٨]. وقوله ﴿ورضواناً﴾ قال ابن عباس: يترضَّون الله بحجهم. وقد ذكر عكرمة والسدي وابن جريج: أن هذه الآية نزلت في الحُطم بن هند البكري، كان قد أغار على سَرْح المدينة، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت، فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا عليه في طريقه إلى البيت فأنزل الله عز وجل: ﴿ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً﴾.

وقد حكى ابن جرير الإجماع على أن المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان وإن أمَّ البيت الحرام أو بيت المقدس، فإن هذا الحكم منسوخ في حقهم، والله أعلم ـ فأما من قصده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به فهذا يمنع، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ [التوبة:٢٨]؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عام تسع ـ لما أمَّر الصديق على الحجيج ـ عَلياً، وأمره أن ينادي على سبيل النيابة عن رسول الله ﷺ ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عُرْيان. [رواه البخاري]، وقال ابن عباس قوله: ﴿ولا آمِّين البيت الحرام﴾ يعني من توجه قِبَل البيت الحرام، فكان المؤمنون والمشركون يحجون البيت الحرام، فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحداً يحج البيت أو يعرضوا له من مؤمن أو كافر، ثم أنزل الله بعدها: ﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ [التوبة:٢٨]، وقال تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله﴾ [التوبة:١٧]، وقال تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ [التوبة:١٨] فنفى المشركين من المسجد الحرام.

وعن قتادة في قوله: ﴿ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام﴾ قال: منسوخ، كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من الشجر فلم يعرض له أحد، فإذا رجع تقلد قلادة من شعر فلم يعرض له أحد، وكان المشرك يومئذ لا يصد عن البيت، فأمروا أن

لا يقاتلوا في الشهر الحرام ولا عند البيت فنسخها قوله: ﴿**فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم**﴾ [التوبة:٥]. وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿**ولا القلائد**﴾ يعني إن تقلدوا قلادة من الحرم فأمّنوهم، قال ولم تزل العرب تعير من أخفر ذلك.

وقوله: ﴿**وإذا حللتم فاصطادوا**﴾ أي إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه فقد أبحنا لكم ما كان محرماً عليكم في حال الإحرام من الصيد وهذا أمر بعد الحظر والصحيح الذي يثبت على السَّبْر، أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي، فإن كان واجباً رده واجباً وإن كان مستحباً فمستحب أو مباحاً فمباح، ومن قال إنه على الوجوب ينتقض عليه بآيات كثيرة، ومن قال إنه للإباحة يرد عليه آيات أخر، والذي ينتظم الأدلة كلها هذا الذي ذكرناه، كما اختاره بعض علماء الأصول، والله أعلم.

وقوله: ﴿**ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا**﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام وذلك عام الحديبية على أن تعتدوا في حكم الله فيكم فتقتصوا منهم ظلماً وعدواناً بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد، وهذه الآية كما سيأتي من قوله: ﴿**ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾ [المائدة:٨] أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فإن العدل واجب على كل أحد في كل أحد في كل حال، وقال بعض السلف: ما عاملتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض.

وعن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة فقال أصحاب النبي ﷺ: نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم فأنزل الله هذه الآية، والشنآن هو: البغض. قاله ابن عباس وغيره.

وقوله: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم، قال ابن جرير: الإثم: ترك ما أمر الله بفعله، والعدوان: مجاوزة ما حد الله في دينكم، ومجاوزة ما فرض الله عليكم في أنفسكم وفي غيركم، وقد روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». قيل: يا رسول الله، هذا نَصَرْتُه مظلوماً، فكيف أنصره إذا كان ظالماً ؟ قال: «تحجزه وتمنعه من الظلم فإن ذلك نصره» [أخرجاه].

وروى الإمام أحمد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم». [ورواه الترمذي وابن ماجه وله طرق وصححه أحمد شاكر].

وفي صحيح مسلم: «من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣)﴾.

يخبر تعالى عباده خبراً متضمناً النهي عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة، وهي ما مات من الحيوان حَتْف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد، وما ذاك إلا لما فيها من المضرة لما فيها من الدم المحتقن فهي ضارة للدين وللبدن، فلهذا حرمها الله عز وجل، ويستثنى من الميتة السمك، فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها، لما رواه مالك في موطئه، والشافعي وأحمد في مسنديهما، وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر، فقال: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» [وقال الترمذي: حسن صحيح]، وهكذا الجراد، لما سيأتي من الحديث.

وقوله: ﴿والدم﴾ يعني به المسفوح، لقوله ﴿أو دماً مسفوحاً﴾ [الأنعام:١٤٥] قاله ابن عباس وسعيد بن جبير. وعن ابن عباس أنه سئل عن الطحال فقال: كلوه، فقالوا: أنه دم، فقال: إنما حُرم عليكم الدم المسفوح، وعن عائشة قالت: إنما نهى عن الدم السافح، وروى الشافعي عن ابن عمر مرفوعاً، قال قال رسول الله ﷺ: «أحل لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان. فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال»، وكذا رواه أحمد بن حنبل وابن ماجه والدارقطني والبيهقي، [وروي موقوفاً] وقال الحافظ أبو زرعة الرازي: وهو أصح.

وقوله: ﴿لحم الخنزير﴾ يعني إنسيه ووحشيه، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم.

وفي صحيح مسلم عن بُرَيدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من لعب بالنردشير، فكأنما صبغ يده في لحم الخنزير ودمه» فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس، فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتغذي به، وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره؟ وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام» فقيل: يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها تطلى بها السفن، وتدهن بها الجلود، ويَسْتَصبح بها الناس؟ فقال: «لا، هو حرام». وفي صحيح البخاري من حديث أبي سفيان أنه قال لهرقل ملك الروم: «نهانا عن الميتة والدم».

وقوله: ﴿وما أهل لغير الله به﴾ أي ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله فهو حرام؛ لأن الله تعالى أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم، فمتى عُدِل بها عن ذلك وذكر عليها اسم غيره

من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات فإنها حرام بالإجماع. وإنما اختلف العلماء في المتروك التسمية إما عمداً أو نسياناً كما سيأتي تقريره في سورة الأنعام.

قوله: ﴿**والمنخنقة**﴾ وهي التي تموت بالخنق، إما قصداً أو اتفاقاً بأن تتخبل في وثاقتها، فتموت به فهي حرام، وأما ﴿**الموقوذة**﴾ فهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت، كما قال ابن عباس وغير واحد: هي التي تضرب بالخشب حتى تُوقَذَ بها فتموت، وقال قتادة: كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصي حتى إذا ماتت أكلوها. وفي الصحيح أن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إني أرمي بالمعْراض الصيد فأصيب، قال: «إذا رميت بالمعراض فخَزَق فَكُلْه، وإن أصابه بعَرْضِه فإنما هو وَقِيذ فلا تأكله». ففرق بين ما أصابه بالسهم أو بالمزراق ونحوه بحده، فأحله، وما أصابه بعرضه فجعله وقيذاً فلم يحله، وقد أجمع الفقهاء على هذا الحكم ههنا، واختلفوا فيما إذا صدم الجارحة الصيد فقتله بثقله، ولم يجرحه على قولين، هما قولان للشافعي رحمه الله **أحدهما**: أنه لا يحل كما في السهم والجامع أن كلاًّ منهما ميت بغير جرح فهو وقيذ. **والثاني**: أنه يحل لأنه حكم بإباحة ما صاده الكلب ولم يستفصل، فدل على إباحة ما ذكرناه، لأنه قد دخل في العموم.

وأما ﴿**المتردّية**﴾ فهي التي تقع من شاهق أو موضع عال، فتموت بذلك، فلا تحل، قال ابن عباس: المتردّية التي تسقط من جبل. وقال قتادة: هي التي تتردى في بئر. وقال السدي: هي التي تقع من جبل أو تتردى في بئر.

وأما ﴿**النطيحة**﴾ فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها، فهي حرام وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحها، والنطيحة فعيلة بمعنى مفعولة، أي منطوحة.

وقوله: ﴿**وما أكل السبع**﴾ أي ما عدا عليها أسد أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب، فأكل بعضها فماتت بذلك، فهي حرام وإن كان قد سال منها الدماء ولو من مذبحها، فلا تحل بالإجماع، وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة و نحو ذلك، فحرم الله ذلك على المؤمنين.

وقوله: ﴿**إلا ما ذكيتم**﴾ عائد على ما يمكن عوده عليه مما انعقد سبب موته، فأمكن تداركه بذكاة وفيه حياة مستقرة، وذلك إنما يعود على قوله ﴿**والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وما أكل السبع**﴾ قال ابن عباس في قوله: ﴿**إلا ما ذكيتم**﴾ يقول: إلا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح فكلوه، فهو ذكي، وكذا روي عن سعيد بن جبير والحسن البصري والسدي، وعن علي قال: ﴿**وما أكل اسبع إلا ما ذكيتم**﴾ قال: إن مَصَعَت بذنبها أو ركَضَتْ برجلها أو طَرَفَتْ بعينها فكُل. وعنه رضي الله عنه أيضا قال: إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردّية والنطيحة، وهي تحرك يداً أو رجلاً فكلها، وهكذا رُوي عن طاوس والحسن وقتادة وعبيد بن عمير والضحاك وغير واحد: أن المذكاة متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح ،فهي حلال،

وهذا مذهب جمهور الفقهاء، وبه قال أبو حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل. وقال ابن وهب: سئل مالك عن الشاة التي يخرق جوفها السبع حتى تخرج أمعاؤها، فقال مالك: لا أرى أن تذكى، أي شيء يذكى منها؟ وقال أشهب: سئل مالك عن السبع يعدو على الكبش فيدق ظهره، أترى أن يذكى قبل أن يموت فيؤكل؟ فقال: إن كان قد بلغ السُّحْرة فلا أرى أن يؤكل، وإن كان أصاب أطرافه فلا أرى بذلك بأساً، قيل له: وثب عليه فدق ظهره؟ فقال: لا يعجبني، هذا لا يعيش منه. قيل له: فالذئب يعدو على الشاة فيشق بطنها ولا يشق الأمعاء؟ فقال: إذا شق بطنها فلا أرى أن تؤكل، هذا مذهب مالك رحمه الله. وظاهر الآية عام فيما استثناه مالك رحمه الله من الصور التي بلغ الحيوان فيها إلى حالة لا يعيش بعدها فيحتاج إلى دليل مخصص للآية، والله أعلم.

وفي الصحيحين عن رافع بن خديج أنه قال: قلت: يا رسول الله، إنا لاقو العدو غداً وليس معنا مُدَى، أفنذبح بالقَصَب؟ فقال: «ما أنهر الدم، وذكر اسم الله عليه، فكلوه، ليس السنَّ والظفُر، وسأحدثكم عن ذلك: أما السن فعظم، وأما الظفر فمدى الحبشة».

وقوله: ﴿**وما ذبح على النصب**﴾ قال مجاهد وابن جريج: كانت النصب حجارة حول الكعبة، قال ابن جريج: وهي ثلاثمائة وستون نصباً، كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها، وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب، وكذا ذكره غير واحد، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب من الشرك الذي حرمه الله ورسوله، وينبغي أن يحمل هذا على هذا، لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله.

وقوله تعالى: ﴿**وأن تستقسموا بالأزلام**﴾ أي حرّم عليكم أيها المؤمنون الاستقسام بالأزلام، واحدها زُلَم وقد تفتح الزاي، فيقال: زَلم، وقد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك، وهي عبارة عن قداح ثلاثة، على أحدها مكتوب: افعل، وعلى الآخر: لا تفعل، والثالث غفل ليس عليه شيء، ومن الناس من قال: مكتوب على الواحد: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهاني ربي، والثالث غفل ليس عليه شيء، فإذا أجالها فطلع السهم الآمر فعله، أو الناهي تركه، وإن طلع الفارغ أعاد الاستقسام. والاستقسام: مأخوذ من طلب القَسم من هذه الأزلام، هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير، وعن ابن عباس: ﴿**وأن تستقسموا بالأزلام**﴾ قال: والأزلام القداح كانوا يستقسمون بها في الأمور، وكذا روي عن مجاهد [وغيره]. وذكر محمد بن إسحاق وغيره: إن أعظم أصنام قريش صنم كان يقال له هُبَل وكان داخل الكعبة منصوب على بئر فيها، توضع الهدايا وأموال الكعبة فيه، وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه مما أشكل عليهم، فما خرج لهم منها رجعوا إليه ولم يعدلوا عنه. وثبت في صحيح البخاري

أن النبي ﷺ لما دخل الكعبة، وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها، وفي أيديهما الأزلام فقال: «قاتلهم الله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبداً».

وقال مجاهد في قوله: ﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ قال: هي سهام العرب، وكعاب فارس والروم، كانوا يتقامرون. وهذا الذي ذكر عن مجاهد في الأزلام أنها موضوعة للقمار، فيه نظر، اللهم إلا أن يقال: إنهم كانوا يستعملونها في الاستخارة تارة وفي القمار أخرى، والله أعلم. فإن الله سبحانه وتعالى قد فرَّق بين هذه وبين القمار وهو الميسر فقال في آخر السورة: **﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾** [المائدة: ٩٠]. وهكذا قال ههنا: **﴿وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾** أي تعاطيه فسق وغي وضلال وجهالة وشرك. وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخيروه بأن يعبدوه ثم يسألوه الخيَرَة في الأمر الذي يريدونه.

كما روى الإمام أحمد والبخاري وأهل السنن عن جابر بن عبد الله، قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا هَمَّ أحدُكُم بالأمْرِ فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستَقْدِرُك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تَقْدِر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم، وأنت علاَّم الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر ـ ويسميه باسمه ـ خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أوقال: عاجل أمري وآجله ـ فاقدُرْهُ لي، ويَسِّره لي، ثم بارك لي فيه، اللهم وإن كنت تعلمه شرا لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفني عنه، واصرفه عني، واقْدُرْ لي الخير حيث كان، ثم رَضِّني به». لفظ أحمد.

وقوله: **﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم﴾** قال ابن عباس: يعني يئسوا أن يراجعوا دينهم، وكذا روي عن عطاء بن أبي رباح والسدي ومقاتل بن حيان، وعلى هذا المعنى يرد الحديث الثابت في صحيح [مسلم]: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المُصَلُّون في جزيرة العرب، ولكن بالتحريش بينهم»، ويحتمل أن يكون المراد أنهم يئسوا من مشابهة المسلمين، بما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله؛ ولهذا قال تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا في مخالفة الكفار ولا يخافوا أحداً إلا الله، فقال: **﴿فلا تخشوهم واخشون﴾** أي لا تخافوا منهم في مخالفتكم إياهم، واخشوني أنصركم عليهم وأبيدهم، وأظفركم بهم، وأشف صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة.

وقوله: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾** هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف كما قال تعالى: **﴿وتمت كلمة ربك صدقاً**

وعدلاً﴾ [الأنعام: ١١٥] أي صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي، فلما أكمل الدين، تمت النعمة عليهم ولهذا قال تعالى: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾** أي فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي رضيه الله وأحبه، وبعث به أفضل رسله الكرام، وأنزل به أشرف كتبه.

وعن ابن عباس في قوله: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾** وهو الإسلام، أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبداً، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً. وقال السدي: نزلت هذه الآية يوم عرفة، فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام، ورجع رسول الله ﷺ فمات. وقال ابن جرير وغير واحد: مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يوماً.

وعن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: وأي آية ؟ قال: قوله: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾** فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ: نزلت عشية عرفة في يوم جمعة، رواه البخاري ومسلم.

وقوله: **﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾** أي فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى لضرورة ألجأته إلى ذلك، فله تناوله، والله غفور رحيم له؛ لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر وافتقاره إلى ذلك، فيتجاوز عنه، ويغفر له، وفي المسند وصحيح ابن حبان عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصته كما يكره أن تؤتى معصيته».

ولهذا قال الفقهاء: قد يكون تناول الميتة واجباً في بعض الأحيان وهو ما إذا خاف على مُهجته التلف ولم يجد غيرها، وقد يكون مندوباً، وقد يكون مباحاً بحسب الأحوال، واختلفوا هل يتناول منها قدر ما يسد به الرَّمَق، أو له أن يشبع أو يشبع ويتزود ؟ على أقوال كما هو مقرر في كتاب الأحكام، وفيما إذا وجد ميتة وطعام الغير أو صيداً وهو محرم، هل يتناول الميتة أو ذلك الصيد ويلزمه الجزاء أو ذلك الطعام ويضمن بدله، على قولين هما قولان للشافعي رحمه الله. وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم، بل متى اضطر إلى ذلك جاز له.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي واقد الليثي، أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا بأرض تصيبنا بها المخمصة، فمتى تحل لنا بها الميتة ؟ فقال: «إذا لم تصطبحوا، ولم تَغْتَبِقُوا، ولم تَحتفئوا بقلاً فشأنكم بها». تفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو إسناد صحيح على شرط الصحيحين. لكن رواه بعضهم مرسلا.

ومعنى قوله: «ما لم تصطبحوا» يعني به الغداء، «وما لم تغتبقوا» يعني به العشاء، «أو تحتفئوا بقلا فشأنكم بها» فكلوا منها.

روى أبو داود عن جابر بن سَمُرَة: أن رجلاً نزل الحرة ومعه أهله وولده، فقال له رجل: إن ناقة لي ضلت، فإن وجدتها فأمسكها، فوجدها ولم يجد صاحبها، فمرضت، فقالت امرأته: انحرها فأبى، فَنَفَقَتْ فقالت له امرأته: اسلخها حتى نقدد شحمها ولحمها فنأكله، قال: لا حتى أسأل رسول الله ﷺ فأتاه فسأله، فقال: «هل عندك غنى يغنيك ؟» قال: لا، قال: «فكلوها» قال: فجاء صاحبها فأخبره الخبر، فقال: هلا كنت نحرتها ؟ قال استحييت منك. [وسنده لا بأس به وسكت عنه أبوداود والمنذري وقال الشوكاني: ليس في إسناده مطعن]. وقد يحتج به من يُجوز الأكل والشبع والتزود منها مدة يغلب على ظنه الاحتياج إليها و الله أعلم.

وقوله: ﴿**غير متجانف لإثم**﴾ أي غير مُتَعَاط لمعصية الله، فإن الله قد أباح ذلك له وسكت عن الآخر، كما قال في سورة البقرة: ﴿**فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم**﴾ [البقرة:١٧٣]. وقد استدل بهذه الآية من يقول بأن العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر، لأن الرخص لا تنال بالمعاصي، والله أعلم.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها إما في بدنه أو في دينه أو فيهما، واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة، كما قال: ﴿**وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه**﴾ [الأنعام:١١٩]، قال بعدها: ﴿**يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات**﴾ كما في سورة الأعراف في صفة محمد ﷺ أنه﴿**يحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث**﴾ [الأعراف:١٥٧].

قال سعيد بن جبير: يعني الذبائح الحلال الطيبة لهم. وقال مقاتل بن حيان: الطيبات ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه، وهو الحلال من الرزق، وقد سئل الزهري عن شرب البول للتداوي فقال: ليس هو من الطيبات، وسُئل مالك عن بيع الطين الذي يأكله الناس، فقال: ليس هو من الطيبات.

وقوله تعالى: ﴿**وما علمتم من الجوارح مكلبين**﴾ أي أحل لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها، والطيبات من الرزق، وأحل لكم ما اصطدتموه بالجوارح، وهي الكلاب والفهود والصقور وأشباهها، كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة، وقال ابن عباس: هن الكلاب المعلمة، والبازي، وكل طير يعلم للصيد، والجوارح: يعني الكلاب الضواري والفهود والصقور وأشباهها. رواه ابن أبي حاتم [وحكاه عن جماعة]، وروي عن الحسن أنه قال: الباز والصقر من الجوارح، وروي عن علي بن الحسين مثله، ثم روي عن مجاهد أنه

كره صيد الطير كله، وقرأ قوله الله عز وجل: ﴿**وما علمتم من الجوارح مكلبين**﴾ قال: وروي عن سعيد بن جبير نحو ذلك، ونقله ابن جرير عن الضحاك والسدي، ثم روى عن ابن عمر قال: أما ما صاد من الطير البُزاة وغيرها من الطير، فما أدركتَ فهو لك وإلا فلا تطعمه، قلت: والمحكي عن الجمهور إن صيد الطيور كصيد الكلاب لأنها تَكْلَبُ الصيد بمخالبها كما تكلبه الكلاب، فلا فرق، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم واختاره ابن جرير، واستثنى الإمام أحمد صيد الكلب الأسود؛ لأنه عنده مما يجب قتله ولا يحل اقتناؤه.

وسميت هذه الحيوانات التي يصطاد بهن جوارح من الجرح، وهو الكسب، كما تقول العرب: فلان جَرح أهله خيراً، أي كسبهم خيراً، ويقولون: فلان لا جارح له أي لا كاسب له، وقال الله تعالى: ﴿**وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار**﴾ [الأنعام: ٦٠] أي ما كسبتم من خير وشر.

وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية الحديث الذي روي عن أبي رافع قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ ليستأذن عليه، فأذن له، فقال: قد أذن لك يا رسول الله، قال: أجل، ولكنا لا ندخل بيتاً فيه كلب قال أبو رافع: فأمرني أن أقتل كل كلب بالمدينة فقتلت حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبح عليها، فتركته رحمة لها، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فأمرني فرجعت إلى الكلب فقتلته، فجاؤوا فقالوا: يا رسول الله ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها ؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿**يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين**﴾. ورواه الحاكم وقال: صحيح، ولم يخرجاه.

وهكذا قال محمد بن كعب القرظي في سبب نزول هذه الآية: إنه في قتل الكلاب.

وقوله تعالى: ﴿**مكلبين**﴾ يحتمل أن يكون حالاً من الضمير في ﴿**علمتم**﴾ فيكون حالاً من الفاعل ويحتمل أن يكون حالاً من المفعول، وهو ﴿**الجوارح**﴾، أي وما علمتم من الجوارح في حال كونهن مكلبات للصيد، وذلك أن تقتنصه الجوارح بمخالبها أو أظفارها، فيستدل بذلك والحالة هذه على أن الجارحة إذا قتل الصيد بصدمته أو بمخلابه وظفره، أنه لا يحل له، كما هو أحد قولي الشافعي وطائفة من العلماء؛ ولهذا قال: ﴿**تعلمونهن مما علمكم الله**﴾ وهو أنه إذا أرسله استرسل، وإذا أشلاه استشلى [أي دعاه إليه]، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه، ولا يمسكه لنفسه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه**﴾ فمتى كان الجارح معلماً وأمسك على صاحبه، وكان قد ذكر اسم الله عليه عند إرساله، حل الصيد وإن قتله بالإجماع.

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، كما ثبت في الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إني أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله! فقال:

«إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك». قلت: وإن قتلن؟ قال: «وإن قتلن ما لم يشركها كلب ليس منها، فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره» قلت له: فإني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب؟ فقال: «إذا رميت بالمعراض فخَزَق فكله، وإن أصابه بعَرْض فإنه وَقِيذٌ فلا تأكله» وفي لفظ لهما: «وإذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله، فإن أمسك عليك فأدركته حياً، فاذبحه وإن أدركته قد قتل ولم يأكل منه فكله، فإن أخذ الكلب ذكاته» وفي رواية لهما: «فإن أكل فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه» فهذا دليل للجمهور، وهو الصحيح من مذهب الشافعي، وهو أنه إذا أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقاً، ولم يستفصلوا كما ورد بذلك الحديث، وحكي عن طائفة من السلف أنهم قالوا: لا يحرم مطلقاً.

فعن سلمان الفارسي قال: كل وإن أكل ثلثيه ـ يعني الصيد ـ إذا أكل منه الكلب، وعن سعد بن أبي وقاص أنه سئل عن الصيد يأكل منه الكلب، فقال: كل وإن لم يبق منه إلا حِذْيَة، يعني إلا بضعة، وعن أبي هريرة قال: لو أرسلت كلبك فأكل منه، فإن أكل ثلثيه وبقي ثلثه فكله. وعن عبد الله بن عمر قال: إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك، أكل أو لم يأكل، فهذه الآثار ثابتة عن سلمان وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وابن عمر، وهو محكي عن علي وابن عباس، واختلف فيه عن عطاء والحسن البصري، وهو قول الزهري وربيعة ومالك، وإليه ذهب الشافعي في القديم وأومأ إليه في الجديد.

وروى أبوداود عن أبي ثعلبة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل وإن أكل منه، وكل ما ردت عليك يدك» وهذا إسناده جيد.

فهذه آثار دالة على أنه يغتفر إن أكل منه الكلب، وقد احتج بها من لم يحرم الصيد بأكل الكلب وما أشبهه، وقد توسط آخرون فقالوا: إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم لحديث عدي بن حاتم، وللعلة التي أشار إليها النبي ﷺ «فإن أكل فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه» وأما إن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه وجاع فأكل من الصيد لجوعه، فإنه لا يؤثر في التحريم وحملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة الخشني. وهذا تفريق حسن، وجمع بين الحديثين صحيح. وقال آخرون قولاً رابعاً في المسألة وهو التفرقة بين أكل الكلب فيحرم لحديث عدي، وبين أكل الصقور ونحوها فلا يحرم لأنه لا يقبل التعليم إلا بالأكل.

وعن ابن عباس أنه قال في الطير: إذا أرسلته فقتل فكل، فإن الكلب إذا ضربته لم يَعْدُ، وإن تَعَلّم الطير أن يرجع إلى صاحبه وليس يضرب، فإذا أكل من الصيد ونتف الريش فكل، وكذا قال إبراهيم النخعي والشعبي وحماد بن أبي سليمان.

وقوله: ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه﴾ أي عند الإرسال له كما قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك المعلم، وذكرت اسم الله، فكل ما أمسك عليك». [متفق عليه]، وفي حديث أبي ثعلبة المخرج في الصحيحين أيضاً: «إذا أرسلت كلبك

فاذكر اسم الله، وإذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله»؛ ولهذا اشترط من الأئمة كالإمام أحمد بن حنبل في المشهور عنه، التسمية عند إرسال الكلب، والرمي بالسهم، لهذه الآية وهذا الحديث، وهذا القول هو المشهور عن الجمهور أن المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الإرسال كما قال السدي وغير واحد، وقال ابن عباس في قوله: ﴿واذكروا اسم الله عليه﴾ يقول: إذا أرسلت جارحك فقل: باسم الله، وإن نسيت فلا حرج.

وقال بعض الناس: المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ علم رَبِيبه عمر بن أبي سلمة فقال: «سمِّ الله وكل بيمينك وكل مما يليك». وفي صحيح البخاري عن عائشة أنهم قالوا: يا رسول الله، إن قوماً يأتوننا ـ حديث عهدهم بكفر ـ بُلحْمانٍ لا ندري أذكر اسم الله عليها أم لا ؟ فقال: «سموا أنتم وكلوا».

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين، من الخبائث وماأحله لهم من الطيبات. قال بعده: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات﴾ ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين، من اليهود والنصارى فقال: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ قال ابن عباس وأبو أمامة ومجاهد وسعيد بن جبير، وعكرمة وعطاء والحسن، ومكحول وإبراهيم النخعي، والسدي ومقاتل بن حيان: يعني ذبائحهم، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، أن ذبائحهم حلال للمسلمين، لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولايذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزه عن قولهم، تعالى وتقدس.

وقد ثبت في الصحيح: عن عبد الله بن مغفل، قال: دُلِّي بجراب من شحم يوم خيبر قال فاحتضنته وقلت: لا أعطي اليوم من هذا أحداً، والتفتُّ فإذا النبي ﷺ يبتسم.

وعن علي قال: لا تأكلوا ذبائح بني تغلب، لأنهم إنما يتمسكون من النصرانية بشرب الخمر، وكذا قال غير واحد من الخلف والسلف. وعن سعيد بن المسيب والحسن، أنهما كانا لا يريان بأساً، بذبيحة نصارى بني تغلب.

وأما المجوس، فإنهم وإن أخذت منهم الجزية تبعاً وإلحاقاً لأهل الكتاب، فإنهم لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم، خلافاً لأبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبي، أحد الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد بن حنبل. ولما قال ذلك واشتهر عنه، أنكر عليه الفقهاء ذلك، حتى قال عنه الإمام أحمد: أبو ثور كاسمه، يعني في هذه المسألة، وكأنه تمسك بعموم حديث روي مرسلاً عن النبي ﷺ أنه قال: «سُنوا بهم سنة أهل الكتاب» ولكن لم يثبت بهذا اللفظ، وإنما الذي في صحيح البخاري، عن عبد الرحمن بن عوف، أن رسول الله ﷺ، أخذ الجزية من مجوس هجر،

ولو سلم صحة هذا الحديث [أي سنو بهم سنة أهل الكتاب]، فعمومه مخصوص بمفهوم هذه الآية ﴿**وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم**﴾ فدل بمفهومه مفهوم المخالفة على أن طعام من عداهم من أهل الأديان، لا يحل.

وقوله: ﴿**وطعامكم حل لهم**﴾ أي ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم، وليس هذا إخباراً عن الحكم عندهم، اللهم إلا أن يكون خبراً عما أمروا به، من الأكل من كل طعام، ذكر اسم الله عليه، سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها، والأول أظهر في المعنى، أي ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم، وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة، فأما الحديث الذي فيه: «لا تَصْحَبْ إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي» [رواه أبوداود وابن ماجه والترمذي وحسنه] فمحمول على الندب والاستحباب، والله أعلم.

وقوله: ﴿**والمحصنات من المؤمنات**﴾ أي وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات، وذكر هذا توطئة لما بعده، وهو قوله: ﴿**والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم**﴾ فقيل أراد بالمحصنات الحرائر، دون الإماء، حكاه ابن جرير عن مجاهد، وإنما قال مجاهد: المحصنات الحرائر، فيحتمل أن يكون أراد ما حكاه عنه، ويحتمل أن يكون أراد بالحرة العفيفة، كما قال مجاهد في الرواية الأخرى عنه، وهو قول الجمهور ههنا، وهو الأشبه، لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية، وهي مع ذلك غير عفيفة، فيفسد حالها بالكلية ويتحصل زوجها على ما قيل في المثل: «حَشفَاً وسَوء كيلة». والظاهر من الآية أن المراد بالمحصنات العفيفات عن الزنا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿**محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان**﴾ [النساء: ٢٥].

ثم اختلف المفسرون والعلماء في قوله: ﴿**والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم**﴾ هل يعم كل كتابية عفيفة، سواء كانت حرة أو أمة؟ حكاه ابن جرير عن طائفة من السلف، ممن فسر المحصنة بالعفيفة، وقيل: المراد بأهل الكتاب ههنا الإسرائيليات، وهو مذهب الشافعي. وقيل: المراد بذلك الذميات دون الحربيات، لقوله: ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**﴾ [التوبة: ٢٩]، وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى التزويج بالنصرانية، ويقول: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول إن ربها عيسى، وقد قال الله تعالى: ﴿**ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن**﴾ الآية [البقرة: ٢٢١].

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية: ﴿**ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن**﴾ قال فحُجز الناس عنهن حتى نزلت التي بعدها ﴿**والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم**﴾ فنكح الناس من نساء أهل الكتاب، وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى، ولم يروا بذلك بأساً، أخذاً بهذه الآية الكريمة: ﴿**والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب

من قبلكم﴾ فجعلوا هذه مخصصة للتي في البقرة ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ [البقرة: ٢٢١] إن قيل بدخول الكتابيات في عمومها، وإلا فلا معارضة بينها وبينها؛ لأن أهل الكتاب قد يُفْصَل في ذكرهم عن المشركين في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾ [البينة: ١]، وكقوله: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ الآية[آل عمران: ٢٠].

وقوله: ﴿إذا آتيتموهن أجورهن﴾ أي مهورهن، أي كما هن محصنات عفائف فابذلوا لهن المهور عن طيب نفس، وقد أفتى جابر بن عبد الله وإبراهيم النخعي وعامر الشعبي والحسن البصري بأن الرجل إذا نكح امرأة فزنت قبل دخوله بها أنه يفرق بينه وبينها، وتَرُدّ عليه ما بذل لها من المهر.

وقوله: ﴿محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان﴾ فكما شَرَطَ الإحصان في النساء، وهي العفة عن الزنا، كذلك شرطها في الرجال، وهو أن يكون الرجل أيضاً محصناً عفيفاً، ولهذا قال: ﴿غير مسافحين﴾، وهم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية ولا يردون أنفسهم عمن جاءهم، ﴿ولا متخذي أخدان﴾، أي ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن، كما تقدم في سورة النساء سواء، ولهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصح نكاح المرأة البَغي حتى تتوب، وما دامت كذلك لا يصح تزويجها من رجل عفيف، وكذلك لا يصح عنده عقد الرجل الفاجر على عفيفة حتى يتوب ويقلع عما هو فيه من الزنا؛ لهذه الآية وللحديث «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله» [رواه أحمد وأبوداود وسنده جيد].

وسيأتي الكلام على هذه المسألة مستقصى إن شاء الله تعالى عند قوله: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ [النور: ٣]، ولهذا قال تعالى ههنا ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾.

قال كثيرون من السلف في قوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾: معناه وأنتم مُحْدِثون، وقال آخرون: إذا قمتم من النوم إلى الصلاة، وكلاهما قريب. وقال آخرون: بل المعنى أعم من ذلك، فالآية آمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة، ولكن هو في حق المحدث على سبيل الإيجاب، وفي حق المتطهر على سبيل الندب والاستحباب، وقد قيل: إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجباً في ابتداء الإسلام، ثم نسخ، روى الإمام أحمد بن حنبل عن بريدة قال: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه وصلى الصلوات

بوضوء واحد، فقال له عمر: يا رسول الله، إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله. قال: «إني عمداً فعلته يا عمر»، وهكذا رواه مسلم.

وعن ابن سيرين: أن الخلفاء كانوا يتوضؤون لكل صلاة، وعن عكرمة قال: كان علي رضي الله عنه يتوضأ عند كل صلاة ويقرأ هذه الآية: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة**﴾ الآية.

وأما ما رواه أبو داود الطيالسي عن سعيد بن المسيب، أنه قال: الوضوء من غير حدث اعتداء. فهو غريب عن سعيد بن المسيب، ثم هو محمول على أن من اعتقد وجوبه فهو معتد، وأما مشروعيته استحباباً فقد دلت السنة على ذلك. وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، قال: قلت: فأنتم كيف كنتم تصنعون؟ قال: كنا نصلي الصلوات كلها بوضوء واحد مالم نحدث، وقد رواه البخاري.

قال ابن جرير: وقد قال قوم: إن هذه الآية نزلت إعلاماً من الله أن الوضوء لا يجب إلا عند القيام إلى الصلاة دون غيرها من الأعمال، وذلك لأنه عليه السلام كان إذا أحدث امتنع من الأعمال كلها حتى يتوضأ.

وروى مسلم عن ابن عباس قال: كنا عند النبي ﷺ فأتى الخلاء ثم إنه رجع فأتي بطعام، فقيل: يا رسول الله ألا تتوضأ؟ فقال: «لِمَ؟ أأصلي فأتوضأ».

وقوله: ﴿**فاغسلوا وجوهكم**﴾ قد استدل طائفة من العلماء بقوله تعالى: ﴿**إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم**﴾ على وجوب النية في الوضوء، لأن تقدير الكلام: إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم لها، كما تقول العرب: إذا رأيت الأمير فقم، أي له. وقد ثبت في الصحيحين حديث: «الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى»، ويستحب قبل غسل الوجه أن يذكر اسم الله تعالى على وضوئه، لما ورد في الحديث من طرق جيدة عن جماعة من الصحابة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه» [رواه أبوداود وابن ماجه]، ويستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء ويتأكد ذلك عند القيام من النوم، لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يُدخل يده في الإناء قبل أن يغسلها ثلاثاً، فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده». وحَدُّ الوجه عند الفقهاء ما بين منابت شعر الرأس ـ ولا اعتبار بالصَّلع ولا بالغَمَم ـ إلى منتهى اللحيين والذقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً وفي النَّزَعتين والتحذيف خلاف: هل هما من الرأس أو الوجه؟ وفي المسترسل من اللحية عن محل الفرض، قولان أحدهما: أنه يجب إفاضة الماء عليه لأنه تقع به المواجهة. وقال مجاهد: هي من الوجه، ألا تسمع إلى قول العرب في الغلام: إذا نبتت لحيته طلع وجهه، ويستحب للمتوضىء أن يخلل لحيته إذا كانت كَثَّة. روى الإمام أحمد عن أبي وائل قال: رأيت عثمان توضأ، فذكر الحديث، قال: وخلل اللحية ثلاثاً

حين غسل وجهه، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل الذي رأيتموني فعلت، رواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح، وحسنه البخاري.

وقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه في الصحاح وغيرها أنه كان إذا توضأ تمضمض واستنشق، فاختلف الأئمة في ذلك: هل هما واجبان في الوضوء والغسل، كما هو مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله، أو مستحبان فيهما كما هو مذهب الشافعي ومالك، لما ثبت في الحديث الذي رواه أهل السنن، وصححه ابن خزيمة عن رفاعة بن رافع الزّرقي أن النبي ﷺ قال: للمسيء صلاته «توضأ كما أمرك الله»، أو يجبان في الغسل دون الوضوء كما هو مذهب أبي حنيفة، أو يجب الاستنشاق دون المضمضة كما هو رواية عن الإمام أحمد، لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من توضأ فليستنثر»، وفي رواية: «إذا توضأ أحدكم فليجعل في منخريه من الماء ثم لينتثر».

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه توضأ فغسل وجهه، ثم أخذ غرفة من ماء فتمضمض بها واستنثر، ثم أخذ غرفة فجعل بها هكذا، يعني أضافها إلى يده الأخرى، فغسل بها وجهه، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى، ثم مسح رأسه، ثم أخذ غرفة من ماء ثم رش على رجله اليمنى حتى غسلها، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها رجله اليسرى، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يعني يتوضأ. ورواه البخاري.

وقوله: ﴿**وأيديكم إلى المرافق**﴾ أي مع المرافق كما قال تعالى: ﴿**ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً**﴾ [النساء: ٢].

ويستحب للمتوضىء أن يشرع في العضد فيغسله مع ذراعيه لما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل».

وقوله: ﴿**وامسحوا برءوسكم**﴾ اختلفوا في هذه الباء: هل هي للإلصاق؟ وهو الأظهر، أو للتبعيض؟ وفيه نظر، على قولين. ومن الأصوليين من قال: هذا مجمل فليرجع في بيانه إلى السنة، وقد ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن زيد بن عاصم أنه سئل كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فدعا بوضوء فأفرغ على يديه، فغسل يديه مرتين مرتين، ثم مضمض واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين، ثم مسح رأسه بيديه، فأقبل بهما وأدبر بدأ بمقدم رأسه، ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه. وفي حديث علي في صفة وضوء رسول الله ﷺ نحو هذا [أخرجه أحمد وأبوداود والترمذي وقال: حسن صحيح]، وروى أبو داود عن معاوية والمقدام بن معديكرب في صفة وضوء رسول الله ﷺ مثله.

ففي هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس، كما هو

مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل في القرآن.

وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربع الرأس، وهو مقدار الناصية، وذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح ولا يتقدر ذلك بحد، بل لو مسح بعض شعرةٍ من رأسه أجزأه، واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة قال: تخلف النبي ﷺ فتخلفت معه، فلما قضى حاجته قال: هل معك ماء؟ فأتيته بمطهرة فغسل كفيه ووجهه، ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاق كم الجبة، فأخرج يديه من تحت الجبة، وألقى الجبة على منكبيه، فغسل ذراعيه ومسح بناصيته، وعلى العمامة وعلى خفيه، وذكر باقي الحديث وهو في صحيح مسلم وغيره، فقال لهم أصحاب الإمام أحمد: إنما اقتصر على مسح الناصية لأنه كمل مسح بقية الرأس على العمامة، ونحن نقول بذلك وأنه يقع عن الموقع، كما وردت بذلك أحاديث كثيرة وأنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين، فهذا أولى، وليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية أو بعض الرأس من غير تكميل على العمامة، والله أعلم.

ثم اختلفوا في أنه: هل يستحب تكرار مسح الرأس ثلاثاً، كما هو المشهور من مذهب الشافعي، أو إنما يستحب مسحة واحدة كما هو مذهب أحمد بن حنبل ومن تابعه على قولين، فعن حمران بن أبان، قال: رأيت عثمان بن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً، فغسلهما ثم مضمض واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثا، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثاً، ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم مسح برأسه، ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثاً، ثم اليسرى ثلاثاً مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال: «من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يُحدِّث فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه». أخرجه البخاري ومسلم. واحتج من استحب تكرار مسح الرأس بعموم الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن عثمان رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ توضأ ثلاثاً ثلاثاً.

وقوله: ﴿**وأرجلكم إلى الكعبين**﴾ قُرىء: وأرجلَكم بالنصب عطفاً على ﴿**فاغسلوا وجوهكم وأيديكم**﴾. وعن ابن عباس أنه قرأها وأرجلَكم، يقول: رجعت إلى الغسل، وروي عن ابن مسعود والحسن ومجاهد [وغيرهم] نحو ذلك، وهذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل، كما قاله السلف، ومن ههنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب في الوضوء كما هو مذهب الجمهور خلافاً لأبي حنيفة حيث لم يشترط الترتيب، بل لو غسل قدميه، ثم مسح رأسه، وغسل يديه، ثم وجهه، أجزأه ذلك، لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء، والواو لا تدل على الترتيب، وقد سلك الجمهور في الجواب عن هذا البحث طرقاً، فمنهم من قال: الآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء عند القيام إلى الصلاة، لأنه مأمور به بفاء التعقيب وهي مقتضية للترتيب، ولم يقل أحد من الناس بوجوب غسل الوجه أولاً، ثم لا يجب الترتيب بعده، بل القائل اثنان:

أحدهما يوجب الترتيب كما هو واقع في الآية، والآخر يقول: لا يجب الترتيب مطلقاً، والآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء، فوجب الترتيب فيما بعده بالإجماع حيث لا فارق.

ومنهم من قال: لا نسلم أن الواو لا تدل على الترتيب بل هي دالة كما هو مذهب طائفة من النحاة وأهل اللغة وبعض الفقهاء، ثم نقول بتقدير تسليم كونها لا تدل على الترتيب اللغوي هي دالة على الترتيب شرعاً فيما من شأنه أن يرتب، والدليل على ذلك أنه ﷺ لما طاف بالبيت خرج من باب الصفا وهو يتلو قوله تعالى: ﴿**إن الصفا والمروة من شعائر الله**﴾ [البقرة:١٥٨] ثم قال: «أبدأ بما بدأ الله به» لفظ مسلم، ولفظ النسائي: «ابدؤوا بما بدأ الله به» وهذا لفظ أمر، وإسناده صحيح، فدل على وجوب البداءة بما بدأ الله به، وهو معنى كونها تدل على الترتيب شرعاً، و الله أعلم.

ومنهم من قال لما ذكر الله تعالى هذه الصفة في هذه الآية على هذا الترتيب، فقطع النظير عن النظير، وأدخل الممسوح بين المغسولين، دل ذلك على إرادة الترتيب.

وأما القراءة الأخرى وهي قراءة من قرأ: وأرجلِكم بالخفض، فقد احتج بها الشيعة في قولهم بوجوب مسح الرجلين؛ لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس. وقد رُوي عن طائفة من السلف ما يوهم القول بالمسح.

وهي محمولة على أن المراد بالمسح هو الغسل الخفيف لما سنذكره من السنة الثابتة في وجوب غسل الرجلين، وإنما جاءت هذه القراءة بالخفض إما على المجاورة وتناسب الكلام كما في قوله تعالى: ﴿**عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق**﴾ [الإنسان:٢١] وهذا ذائع في لغة العرب شائع.

ومنهم من قال: هي محمولة على مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان، قاله أبو عبد الله الشافعي رحمه الله. ومنهم من قال: هي دالة على مسح الرجلين، ولكن المراد بذلك الغسل الخفيف كما وردت به السنة، وعلى كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضاً لا بد منه للآية والأحاديث التي سنوردها، ومن أحسن ما يستدل على أن المسح يطلق على الغسل الخفيف ما رواه الحافظ البيهقي عن علي بن أبي طالب أنه صلى الظهر، ثم قعد في حوائج الناس في رَحَبَة الكوفة حتى حضرت صلاة العصر، ثم أتى بكوز من ماء فأخذ منه حفنة واحدة، فمسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه، ثم قام فشرب فضله وهو قائم، ثم قال: إن ناساً يكرهون الشرب قائماً، وإن رسول الله ﷺ صنع ما صنعت، وقال «هذا وضوء من لم يحدث». رواه البخاري في الصحيح ببعض معناه.

ومن أوجب من الشيعة مسحهما كما يمسح الخف فقد ضل وأضل، وكذا من جوز مسحهما وجوز غسلهما فقد أخطأ أيضاً، ومن نقل عن أبي جعفر بن جرير أنه أوجب غسلهما للأحاديث، وأوجب مسحهما للآية، فلم يحقق مذهبه في ذلك، فإن كلامه في تفسيره إنما يدل

على أنه أراد أنه يجب دلك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء، لأنهما يليان الأرض والطين وغير ذلك، فأوجب دلكهما ليذهب ما عليهما، ولكنه عبر عن الدلك بالمسح، فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوب الجمع بين غسل الرجلين ومسحهما، فحكاه من حكاه كذلك، ولهذا يستشكله كثير من الفقهاء وهو معذور، فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل، سواء تقدمه أو تأخر عليه لاندراجه فيه، وإنما أراد الرجل ما ذكرته، والله أعلم، ثم تأملت كلامه أيضاً فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين في قوله ﴿وأرجلكم﴾ خفضاً على المسح وهو الدلك، ونصباً على الغسل، فأوجبهما أخذاً بالجمع بين هذه وهذه.

ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لا بد منه:

قد تقدم حديث أميري المؤمنين عثمان وعلي وابن عباس ومعاوية وعبد الله بن زيد بن عاصم والمقداد بن معديكرب، أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في وضوئه إما مرة، وإما مرتين أو ثلاثاً، على اختلاف رواياتهم، وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه، ثم قال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به» [رواه أبوداود وابن ماجه وتقدم].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو قال: تَخَلَّف عنا رسول الله ﷺ في سفرة سافرناها، فأدركَنا وقد أرْهَقَتْنا الصلاة، صلاة العصر، ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى بأعلى صوته «أسبِغوا الوضوء وَيْلٌ للأعقاب من النار». وكذلك هو في الصحيحين عن أبي هريرة. وفي صحيح مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «أسبغوا الوضوء ويل للأعقاب من النار». وعن عبد الله بن الحارث بن جزء أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ويل للأعقاب وبُطون الأقدام من النار» رواه البيهقي والحاكم، وهذا إسناده صحيح.

ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة، وذلك أنه لو كان فَرْض الرجلين مسحهما، أو أنه يجوز ذلك فيهما لما تَوَعّد على تركه؛ لأن المسح لا يستوعب جميع الرجل، بل يجري فيه ما يجري في مسح الخف، وهكذا وَجه هذه الدلالة على الشيعة الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى، وقد روى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب: أن رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على قدمه، فأبصره النبي ﷺ وقال: «ارجع فأحسن وضوءك».

وفي حديث حمران عن عثمان في صفة وضوء النبي ﷺ أنه خلل بين أصابعه. وروى الإمام أحمد عن عمرو بن عبسة قلت: يا نبي الله، أخبرني عن الوضوء، قال: «مامنكم من أحد يقرب وضوءه ثم يتمضمض ويستنشق وينتثر إلا خرت خطاياه من فمه وخياشيمه، مع الماء حين ينتثر، ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلا خرجت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرّت خطايا يديه من أطراف أنامله، ثم يمسح رأسه إلا خرّت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله إلا

خرّت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء، ثم يقوم فيحمد الله ويثني عليه بالذي هو له أهل، ثم يركع ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». وهذا إسناده صحيح وهو في صحيح مسلم من وجه آخر، وفيه: ثم يغسل قدميه كما أمره الله، فدل على أن القرآن يأمر بالغسل.

وعن حذيفة قال: أتى رسول الله ﷺ سُبَاطة قوم، فبال قائماً ثم دعا بماء فتوضأ ومسح على نعليه، وهو حديث صحيح. والثقات الحفاظ رووه عن حذيفة قال: فبال قائماً، ثم توضأ ومسح على خفيه.

قلت: ويحتمل الجمع بينهما بأن يكون في رجليه خفان وعليهما نعلان. وقد ثبت أن النبي ﷺ مسح على الخفين بعد نزول هذه الآية الكريمة.

وفي الصحيحين عن إبراهيم، عن همام قال: بال جرير ثم توضأ ومسح على خفيه، فقيل: تفعل هذا؟ فقال: نعم، رأيت رسول الله ﷺ بال ثم توضأ ومسح على خفيه، قال إبراهيم: فكان يعجبهم هذا الحديث لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة. لفظ مسلم.

وقد ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ مشروعية المسح على الخفين قولاً منه وفعلاً، كما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير وما يحتاج إلى ذكره هناك من تأقيت المسح أو عدمه، أو التفصيل فيه، كما هو مبسوط في موضعه.

وقد خالفت الروافض في ذلك بلا مستند بل بجهل وضلال، مع أنه ثابت في صحيح مسلم من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما ثبت في الصحيحين عنه عن النبي ﷺ النهي عن نكاح المتعة وهم يستبيحونها، وكذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله ﷺ على وفق ما دلت هذه الآية الكريمة، وهم مخالفون لذلك كله وليس لهم دليل صحيح في نفس الأمر، ولله الحمد، وهكذا خالفوا الأئمة والسلف في الكعبين اللذين في القدمين فعندهم أنهما في ظهر القدم فعندهم في كل رجل كعب، وعند الجمهور أن الكعبين هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق والقدم. قال الشافعي: لم أعلم مخالفاً في أن الكعبين اللذين ذكرهما الله في كتابه في الوضوء هما الناتئان، وهما مجمع مفصل الساق والقدم، هذا لفظه، فعند الأئمة رحمهم الله: أن في كل قدم كعبين، كما هو المعروف عند الناس، وكما دلت عليه السنة، ففي الصحيحين من طريق حمران عن عثمان أنه توضأ فغسل رجله اليمنى إلى الكعبين، واليسرى مثل ذلك.

وروى البخاري تعليقاً مجزوماً به وأبو داود وابن خزيمة في صحيحه عن النعمان بن بشير قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «أقيموا صفوفكم ـ ثلاثا ـ والله لتقيمن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم». قال: فرأيت الرجل يلزق كعبه بكعب صاحبه، وركبته بركبة صاحبه، ومَنْكِبه بمنكبه. لفظ ابن خزيمة، فليس يمكن أن يلزق كعبه بكعب صاحبه، إلا والمراد به العظم الناتىء في الساق حتى يحاذي كعب الآخر، فدل ذلك على ما ذكرناه من أنهما

العظمان الناتئان عند مفصل الساق والقدم كما هو مذهب أهل السنة.

وقوله: ﴿**وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه**﴾ كل ذلك قد تقدم الكلام عليه في تفسير آية النساء، فلا حاجة بنا إلى إعادته لئلا يطول الكلام، وذكرنا سبب نزول آية التيمم هناك، لكن البخاري روى ههنا حديثاً خاصاً بهذه الآية الكريمة عن عائشة قالت: سقطت قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة، فأناخ رسول الله ﷺ ونزل، فثَنَى رأسه في حجري راقداً، فأقبل أبو بكر فَلَكَزَني لكزة شديدة وقال: حَبَسْت الناس في قلادة، فَبي الموت لمكان رسول الله ﷺ ، وقد أوجعني، ثم إن النبي ﷺ استيقظ، وحضرت الصبح، فالتمس الماء فلم يوجد، فنزلت ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم**﴾ الآية، فقال أُسَيْد بن الحُضَير: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر ما أنتم إلا بركة لهم.

وقوله: ﴿**ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج**﴾ أي فلهذا سهل عليكم ويسَّر، بل أباح التيمم عند المرض وعند فقد الماء توسعة عليكم، ورحمة بكم وجعله في حق من شرع له يقوم مقام الماء إلا من بعض الوجوه كما تقدم بيانه، وكما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير.

وقوله: ﴿**ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون**﴾ أي لعلكم تشكرون نعمه عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة والرأفة والرحمة والتسهيل والسماحة، وقد وردت السنة بالحث على الدعاء عقب الوضوء بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين في امتثال هذه الآية الكريمة، كما رواه الإمام أحمد ومسلم وأهل السنن عن عقبة بن عامر قال: كانت علينا رعاية الإبل، فجاءت نوبتي فروحتها بعشي، فأدركت رسول الله ﷺ قائماً يحدث الناس، فأدركت من قوله: «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبلاً عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة». قال: قلت: ما أجود هذه، فإذا قائل بين يدي يقول: التي قبلها أجود منها، فنظرت فإذا عمر رضي الله عنه فقال: إني قد رأيتك جئت آنفاً قال« ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أوفيسبغ الوضوء، يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء» لفظ مسلم.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه، خرج من وجهه، كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب» رواه مسلم.

﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ

أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى مذكراً عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم. وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعته ومناصرته ومؤازرته، والقيام بدينه وإبلاغه عنه، وقبوله منه، فقال تعالى: ﴿**واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا**﴾ وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون رسول الله ﷺ عليها عند إسلامهم كما قالوا: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله. [متفق عليه]، وقال تعالى: ﴿**ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين**﴾ [الحديد:٨]، وقيل: هذا تذكار لليهود بما أخذ عليهم من المواثيق والعهود في متابعة محمد ﷺ والانقياد لشرعه، وقيل: هو تذكار بما أخذ تعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صلبه وأشهدهم على أنفسهم ﴿**ألست بربكم قالوا بلى شهدنا**﴾ [الأعراف:١٧٢]، قاله مجاهد ومقاتل بن حيان، والقول الأول أظهر، وهوالمحكي عن ابن عباس والسدي واختاره ابن جرير.

ثم قال تعالى: ﴿**واتقوا الله**﴾ تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال، ثم أعلمهم أنه يعلم ما يتخالج في الضمائر من الأسرار والخواطر، فقال ﴿**إن الله عليم بذات الصدور**﴾.

وقوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله**﴾ أي كونوا قائمين بالحق لله عز وجل، لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا ﴿**شهداء بالقسط**﴾ أي بالعدل لا بالجور، وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير أنه قال: نحلني أبي نُحْلاً فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشْهد رسول الله ﷺ، فجاءه ليشهده على صدقتي، فقال: «أكل ولدك، نحلت مثله؟» قال: لا، قال: «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم». وقال: «إني لا أشهد على جور» قال: فرجع أبي فرد تلك الصدقة.

وقوله: ﴿**ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا**﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد صديقاً كان أو عدواً؛ ولهذا قال: ﴿**اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾ أي عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه، ودل الفعل على المصدر الذي عاد الضمير عليه، كما في نظائره من القرآن وغيره، كما في قوله: ﴿**وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم**﴾ [النور:٢٨].

وقوله: ﴿**هو أقرب للتقوى**﴾ من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء، كما في قوله تعالى: ﴿**أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً**

وأحسن مقيلا﴾ [الفرقان: ٢٤]، وكقول بعض الصحابيات لعمر: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ [متفق عليه].

ثم قال تعالى: ﴿واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ أي وسيجزيكم على ما علم من أفعالكم التي عملتموها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال بعده: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة﴾ أي لذنوبهم ﴿وأجر عظيم﴾ وهوالجنة التي هي من رحمته على عباده، لا ينالونها بأعمالهم بل برحمة منه وفضل، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم، وهو تعالى الذي جعلها أسباباً إلى نيل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه فالكل منه وله، فله الحمد والمنة.

ثم قال: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ وهذا من عدله تعالى، وحكمته وحُكْمه الذي لا يجور فيه، بل هو الحَكَمُ العدل الحكيم القدير. وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم﴾. عن جابر: أن النبي ﷺ نزل منزلاً، وتفرق الناس في العضاه يستظلون تحتها، وعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ ،فأخذه فسله، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال: من يمنعك مني ؟ قال: «الله عز وجل». قال الأعرابي، مرتين أو ثلاثاً: من يمنعك مني ؟ والنبي ﷺ يقول «الله». قال: فشام الأعرابي السيف، فدعا النبي ﷺ أصحابه، فأخبرهم خبر الأعرابي، وهو جالس إلى جنبه، ولم يعاقبه، قال معمر: وكان قتادة يذكر نحو هذا، وذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ فأرسلوا هذا الأعرابي، وتأول ﴿اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾ الآية، وقصة هذا الأعرابي وهو غَوْرَث بن الحارث ثابتة في صحيح [البخاري].

وعن ابن عباس في هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم﴾ وذلك أن قوماً من اليهود صنعوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه طعاماً ليقتلوهم، فأوحى الله إليه بشأنهم، فلم يأت الطعام وأمر أصحابه فلم يأتوه. وقال أبو مالك: نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه حين أرادوا أن يغدروا بمحمدﷺ وأصحابه في دار كعب بن الأشرف. وذكر محمد بن إسحاق بن يسار ومجاهد وعكرمة وغير واحد، أنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحَى، لما جاءهم يستعينهم في دِيَة العامريَيْن، ووكلوا عمرو بن جَحَّاش بن كعب بذلك، وأمروه إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقي تلك الرحى من فوقه، فأطلع الله رسوله ﷺ على ما تمالؤوا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ همَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغدوا إليهم فحاصرهم

حتى أنزلهم فأجلاهم. وقوله تعالى: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ يعني من توكل على الله كفاه الله ما أهمه، وحفظه من شر الناس وعصمه.

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

لما أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ، وأمرهم بالقيام بالحق، والشهادة بالعدل، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين: اليهود والنصارى، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعناً منه لهم، وطرداً عن بابه وجنابه، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق، وهو العلم النافع، والعمل الصالح، فقال تعالى: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ يعني عُرَفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه، وقد ذكر ابن عباس ومحمد بن إسحاق وغير واحد أن هذا كان لما توجه موسى عليه السلام لقتال الجبابرة، فأمر بأن يقيم نقباء من كل سبط نقيب.

وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة، كان فيهم اثنا عشر نقيباً: ثلاثة من الأوس، وتسعة من الخزرج.

والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتئذ عن أمر النبي ﷺ لهم بذلك، وهم الذين ولوا المبايعة المعاقدة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة.

وقوله تعالى: ﴿وقال الله إني معكم﴾ أي بحفظي وكلاءتي ونصري ﴿لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي﴾ أي صدّقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحي، ﴿وعزرتموهم﴾ أي نصرتموهم وآزرتموهم على الحق ﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾ وهو الإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته، ﴿لأكفرن عنكم سيئاتكم﴾ أي ذنوبكم أمحوها وأسترها ولا أؤاخذكم بها، ﴿ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي أدفع عنكم المحذور وأحصل لكم المقصود.

وقوله: ﴿فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ أي فمن خالف هذا الميثاق بعد عَقْده وتوكيده وشدَه، وجحده وعامله معاملة من لم يعرفه، فقد أخطأ الطريق الحق، وعدل عن الهدى إلى الضلال، ثم أخبر تعالى عما حل بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه

ونقضهم عهده، فقال ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم﴾ أي فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعناهم، أي أبعدناهم عن الحق وطردناهم عن الهدى، ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ أي فلا يتعظون بموعظة لغلظتها وقساوتها، ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ أي فسدت فهومهم وساء تصرفهم في آيات الله، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه مالم يقل، عياذاً بالله من ذلك، ﴿ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾ أي وتركوا العمل به رغبة عنه. وقال الحسن: تركوا عُرَى دينهم ووظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل إلا بها، وقال غيره: تركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة، فلا قلوب سليمة، ولا فطر مستقيمة، ولا أعمال قويمة. ﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ يعني مكرهم وغَدْرهم لك ولأصحابك. قال مجاهد وغيره: يعني بذلك تمالؤهم على الفتك برسول الله ﷺ ﴿فاعف عنهم واصفح﴾ وهذا هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ يعني به الصفح عمن أساء إليك. وقال قتادة: هذه الآية ﴿فاعف عنهم واصفح﴾ منسوخة بقوله: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ [التوبة: ٢٩].

وقوله: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم﴾ أي ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى يتابعون المسيح ابن مريم عليه السلام، وليسوا كذلك، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ، ومناصرته، ومؤازرته، واقتفاء آثاره، وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض، أي ففعلوا كما فعل اليهود، خالفوا المواثيق، ونقضوا العهود؛ ولهذا قال: ﴿فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ أي فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضاً، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة، وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، فكل فرقة تحرم الأخرى، ولا تدعها تَلِجُ معبدها، كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم قال تعالى: ﴿وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد للنصارى على ما ارتكبوه من الكذب على الله وعلى رسوله، وما نسبوه إلى الرب عز وجل وتعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً، من جعلهم له صاحبة وولداً، تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَـٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ

﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة: أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيّهم، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل، فقال تعالى: **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب﴾** أي يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه، وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيروه ولا فائدة في بيانه. وقد روى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب قوله **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب﴾** فكان الرجم مما أخفوه، ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم فقال **﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾** أي طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة، **﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾** أي ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أنجب الأمور، وينفي عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم حالة.

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾.

يقول تعالى مخبراً وحاكياً بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح ابن مريم، وهو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه أنه هو الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه: **﴿قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً﴾** أي لو أراد ذلك، فمن ذا الذي كان يمنعه منه أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك، ثم قال: **﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء﴾** أي جميع الموجودات ملكه وخلقه، وهو القادر على ما يشاء، لا يسأل عما يفعل لقدرته وسلطانه وعدله وعظمته، وهذا رد على النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

ثم قال تعالى راداً على اليهود والنصارى في كذبهم وافترائهم: **﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾** أي نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه، وله بهم عناية، وهو يحبنا، ونقلوا عن كتابهم أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل: أنت ابني بكري، فحملوا هذا على

غير تأويله وحرفوه، وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم وقالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام، كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، يعني ربي وربكم، ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من البنوة ما ادعوها في عيسى عليه السلام وإنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه.

قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ أي لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباءه، فلم أعَد لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم؟ وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه، فلم يرد عليه، فتلا عليه الصوفي هذه الآية: ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ وهذا الذي قاله حسن.

وقوله: ﴿بل أنتم بشر ممن خلق﴾ أي لكم أسوة أمثالكم من بني آدم، وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ أي هو فعال لما يريد، لا مُعَقِّب لحكمه، وهو سريع الحساب. ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه، ﴿وإليه المصير﴾ أي المرجع والمآب إليه، فيحكم في عباده بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (١٩) ﴾.

يقول تعالى مخاطباً أهل الكتاب من اليهود والنصارى إنه قد أرسل إليهم رسوله محمداً ﷺ خاتم النبيين، الذي لا نبي بعده ولا رسول، بل هو المعقب لجميعهم، ولهذا قال: ﴿على فترة من الرسل﴾ أي بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى بن مريم.

وكانت الفترة بين عيسى بن مريم آخر أنبياء بني إسرائيل وبين محمد خاتم النبيين من بني آدم على الإطلاق، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بابن مريم؛ لأنه ليس بيني وبينه نبي».

والمقصود أن الله بعث محمداً ﷺ على فترة من الرسل، وطُمُوس من السبل، وتغير الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه أمر عَمَم، فإن الفساد كان قد عَم جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود وعباد النصارى كما روى الإمام أحمد عن عياض بن حِمَار المُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه أن النبي ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: «.... ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم: عجمهم وعربهم، إلا بقايا من أهل الكتاب....». ورواه مسلم.

وكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم حتى بعث الله محمداً ﷺ، فهدى الخلائق وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وتركهم على المحجة البيضاء والشريعة الغراء،

ولهذا قال تعالى: ﴿أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾ أي لئلا تحتجوا وتقولوا ياأيها الذين بدلوا دينهم وغيروه ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر، فقد جاءكم بشير ونذير يعني محمداً ﷺ، ﴿والله على كل شيء قدير﴾ قال ابن جرير: معناه إني قادر على عقاب من عصاني، وثواب من أطاعني.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام فيما ذكر به قومه من نعم الله عليهم وآلائه لديهم في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة: لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة، فقال تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء﴾ أي كلما هلك نبي قام فيكم نبي من لدن أبيكم إبراهيم وإلى ما بعده، وكذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نقمته حتى ختموا بعيسى بن مريم عليه السلام، ثم أوحى الله إلى خاتم الرسل والأنبياء على الإطلاق محمد بن عبد الله المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وهو أشرف من كل من تقدمه منهم ﷺ.

وقوله: ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ عن ابن عباس قال: الخادم والمرأة والبيت. [وعن عبد الله بن عمرو نحوه].

وقال الحسن البصري: هل المُلْك إلا مركب وخادم ودار، رواه ابن جرير، ثم روي عن منصور والحكم ومجاهد وسفيان الثوري نحواً من هذا. وحكاه ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران. وقال ابن شوذب: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له منزل وخادم واستؤذن عليه، فهو ملك وقال قتادة: كانوا أول من ملك الخدم.

وقال السدي في قوله: ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ قال: يملك الرجل منكم نفسه وأهله وماله. وقال مالك: بيت وخادم وزوجة. وقد ورد في الحديث: «من أصبح منكم معافى في جسده، آمناً في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» [رواه الترمذي وقال: حسن غريب ورواه ابن ماجه].

وقوله: ﴿وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين﴾ يعني عَالمي زمانكم، فكأنهم كانوا

أشرف الناس في زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم، كما قال: ﴿**ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين**﴾ [الجاثية:١٦].

والمقصود أنهم كانوا أفضل أهل زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم، وأفضل عند الله، وأكمل شريعة، وأقوم منهاجاً، وأكرم نبياً، وأعظم ملكاً، وأغزر أرزاقاً، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأوسع مملكة، وأدوم عزاً. قال الله تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ [آل عمران:١١٠]، وقال: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس**﴾ [البقرة:١٤٣]، وقد ذكرنا الأحاديث المتواترة في فضل هذه الأمة وشرفها وكرمها عند الله عند قوله عز وجل: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ من سورة آل عمران.

وروى ابن جرير عن ابن عباس وأبي مالك وسعيد بن جبير أنهم قالوا في قوله: ﴿**وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين**﴾: يعني أمة محمد ﷺ، فكأنهم أرادوا أن هذا الخطاب في قوله ﴿**وآتاكم مالم يؤت أحداً**﴾ مع هذه الأمة، والجمهور على أنه خطاب من موسى لقومه، وهو محمول على عالمي زمانهم كما قدمنا، وقيل: المراد ﴿**وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين**﴾ يعني بذلك ما كان تعالى نزله عليهم من المن والسلوى، وتظللهم به من الغمام وغير ذلك مما كان تعالى يخصهم به من خوارق العادات، فالله أعلم.

ثم قال تعالى مخبراً عن تحريض موسى عليه السلام لبني إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب، لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف عليه السلام، ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى عليه السلام، فوجدوا فيها قوماً من العمالقة الجبارين قد استحوذوا عليها وتملكوها، فأمرهم رسول الله موسى عليه السلام بالدخول إليها وبقتال أعدائهم وبشرهم بالنصرة والظفر عليهم، فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره، فعوقبوا بالذهاب في التيه والتمادي في سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد، مدة أربعين سنة عقوبة لهم على تفريطهم في أمر الله تعالى. فقال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال: ﴿**يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة**﴾ أي المطهرة. وعن ابن عباس قال: هي الطور وما حوله، وكذا قال مجاهد وغير واحد.

وقوله تعالى: ﴿**التي كتب الله لكم**﴾ أي التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل أنه وراثة من آمن منكم، ﴿**ولا ترتدوا على أدباركم**﴾ أي ولا تنكلوا عن الجهاد ﴿**فتنقلبوا خاسرين * قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون**﴾ أي اعتذروا بأن في هذه البلدة التي أمرتنا بدخولها وقتال أهلها قوماً جبارين أي ذوي خلق هائلة وقوى شديدة، وإنا لا نقدر على مقاومتهم ولا مصاولتهم، ولا يمكننا الدخول إليها ماداموا فيها، فإن يخرجوا منها دخلناها، وإلا فلا طاقة لنا بهم.

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا أخباراً من وضع بني إسرائيل في عظمة خلق هؤلاء الجبارين،

وأنه كان فيهم عوج بن عنق، ابن بنت آدم عليه السلام، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلث ذراع، تحرير الحساب، وهذا شيء يستحيى من ذكره، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن» ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً، وأنه كان ولد زِنْية، وإذا كان ابن نوح الكافر، غرق فكيف يبقى عوج بن عنق وهو كافر وولد زنية ؟ هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع. ثم في وجود رجل يقال له عوج بن عنق نظر، والله أعلم.

وقوله: ﴿**قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما**﴾ أي فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى ﷺ، حَرّضهم رجلان لله عليهما نعمة عظيمة، وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه، وقرأ بعضهم: ﴿**قال رجلان من الذين يُخَافُون**﴾ أي ممن لهم مهابة وموضع من الناس، ويقال إنهما يوشع بن نون، وكالب بن يوفنا. قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة، وعطية والسدي، والربيع بن أنس، وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله فقالا: ﴿**ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون * وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين**﴾ أي إن توكلتم على الله واتبعتم أمره، ووافقتم رسوله، نصركم الله على أعدائكم وأيدكم وظفركم بهم، ودخلتم البلدة التي كتبها الله لكم، فلم ينفع ذاك منهم شيئاً ﴿**قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون**﴾ وهذا نكول منهم عن الجهاد، ومخالفة لرسولهم، وتخلف عن مقاتلة الأعداء.

وما أحسن ما أجاب به الصحابة رضي الله عنهم يوم بدر رسول الله ﷺ حين استشارهم في قتال النفير، الذين جاؤوا لمنع العير، الذي كان مع أبي سفيان، فلما فات اقتناص العير، واقترب منهم النفير، وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف في العدة، والبيض واليلب، فتكلم أبو بكر رضي الله عنه فأحسن، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين، ورسول الله ﷺ يقول: «أشيروا علي أيها المسلمون» وما يقول ذلك، إلا ليستعلم ما عند الأنصار، لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ، فقال سعد بن معاذ رضي الله: كأنك تعرض بنا يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر، فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إليّ مما عدل به، أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: والله يارسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿**فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون**﴾ ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك وسره بذلك. ورواه البخاري.

وقوله: ﴿قال ربّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ يعني لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى عليه السلام، وقال داعياً عليهم ﴿رب إني لا أملك إلا نفسي وأ خي﴾ أي ليس أحد يطيعني منهم فيمتثل أمر الله ويجيب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخي هارون ﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ قال ابن عباس: يعني اقض بيني وبينهم، وكذا قال الضحاك: اقض بيننا وبينهم، وافتح بيننا وبينهم، وقال غيره: افرق افصل بيننا وبينهم.

وقوله تعالى: ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾ الآية، لما دعا عليهم موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد حكم الله عليهم بتحريم دخولها قدراً مدة أربعين سنة فوقعوا في التيه يسيرون دائماً لا يهتدون للخروج منه وفيه كانت أمور عجيبة وخوارق كثيرة من تظليلهم بالغمام وإنزاله المن والسلوى عليهم، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تحمل معهم على دابة، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عيناً تجري لكل شعب عين، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى بن عمران. وهناك نزلت التوراة وشرعت لهم الأحكام.

وقوله تعالى: ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ تسلية لموسى عليه السلام عنهم، أي لا تتأسف ولا تحزن عليهم فمهما حكمت عليهم به، فإنهم مستحقون ذلك، وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود، وبيان فضائحهم ومخالفتهم لله ولرسوله ونكولهم عن طاعتهما فيما أمراهم به من الجهاد، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم، هذا وقد شاهدوا ما أحل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والغرق له ولجنوده في اليم وهم ينظرون لتقر به أعينهم، وما بالعهد من قدم، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعددهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الذيل، هذا وهم في جهلهم يعمهون وفي غيهم يتردّدون، وهم البغضاء إلى الله وأعداؤه ويقولون مع ذلك: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ [المائدة:١٨]، فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقرود وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، ويقضي لهم فيها بتأبيد الخلود، وقد فعل وله الحمد في جميع الوجود.

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ

قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

يقول تعالى مبيناً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور، وهما هابيل وقابيل كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله، بغياً عليه وحسداً له، فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين، فقال تعالى: ﴿**واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق**﴾، أي واقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم، وهما هابيل وقابيل، فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف.

وقوله: ﴿**بالحق**﴾ أي على الجلية والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب، ولا وهم ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقصان، كما قال تعالى: ﴿**إن هذا لهو القصص بالحق**﴾ [آل عمران:٦٢]، وقوله تعالى: ﴿**نحن نقص عيك نبأهم بالحق**﴾ [الكهف:١٣].

وكان من خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف كابن عباس وابن مسعود وعبد الله بن عمرو وغيرهم من الصحابة والتابعين، أن الله تعالى: كان قد شرع لآدم عليه السلام، أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال، ولكن قالوا: كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل دميمة وأخت قابيل وضيئة، فأراد أن يستأثر بها على أخيه، فأبى آدم ذلك، إلا أن يقربا قرباناً، فمن تقبل منه فهي له، فقربا فتقبّل من هابيل ولم يتقبل من قابيل، فكان من أمرهما ما قص الله في كتابه.

وعن ابن عباس قال: كان من شأنهما أنه لم يكن مسكين يُتَصدّق عليه، وإنما كان القربان يقربه الرجل فبينا ابنا آدم قاعدان، إذ قالا لو قربنا قرباناً، وكان الرجل إذا قرب قرباناً فرضيه الله أرسل إليه ناراً فتأكله، وإن لم يكن رضيه الله خَبَت النار، فقربا قرباناً، وكان أحدهما راعياً وكان الآخر حراثاً، وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها، وقرب الآخر بعض زرعه، فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة وتركت الزرع، وإن ابن آدم قال لأخيه أتمشي في الناس وقد علموا أنك قربت قرباناً فتقبل منك ورد علي، فلا والله لا ينظر الناس إليك وإليّ وأنت خير مني فقال: لأقتلنك، فقال له أخوه: ما ذنبي؟ إنما يتقبل الله من المتقين. رواه ابن جرير. فهذا الأثر يقتضي أن تقريب القربان كان لا عن سبب ولا عن تدارىء في امرأة كما تقدم عن جماعة من تقدم ذكرهم وهو ظاهر القرآن ﴿**إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين**﴾ فالسياق يقتضي أنه إنما غضب عليه وحسده لقبول قربانه دونه.

ومعنى قوله ﴿**إنما يتقبل الله من المتقين**﴾ أي ممن اتقى الله في فعله ذلك، وروى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال: لأن أستيقن أن الله قد تقبل مني صلاة واحدة أحب إليّ من الدنيا

وما فيها إن الله يقول: ﴿**إنما يتقبل الله من المتقين**﴾.

وقوله: ﴿**لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين**﴾ يقول له أخوه الرجل الصالح الذي تقبل الله قربانه لتقواه، حين تواعده أخوه بالقتل على غير ما ذنب منه إليه: ﴿**لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك**﴾ أي لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة ﴿**إني أخاف الله رب العالمين**﴾ أي من أن أصنع كما تريد أن تصنع بل أصبر وأحتسب، قال عبد الله بن عمرو: وايم الله إن كان لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج يعني الورع.

ولهذا ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار». قالوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».

وروى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص أنه قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي» قال: أفرأيت إن دخل عليّ بيتي فبسط يده إليّ ليقتلني قال: «كن كابن آدم» رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن.

قال أيوب السختياني: إن أول من أخذ بهذه الآية من هذه الأمة: ﴿**لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين**﴾ لعثمان بن عفان رضي الله عنه.

وقوله: ﴿**إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين**﴾ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي في قوله: ﴿**إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك**﴾ أي بإثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل ذلك، وعن مجاهد: ﴿**إني أريد أن تبوء بإثمي**﴾ يقول إني أريد أن يكون عليك خطيئتي ودمي فتبوء بهما جميعاً.

قلت: وقد يتوهم كثير من الناس هذا القول، ويذكرون في ذلك حديثاً لا أصل له: ما ترك القاتل على المقتول من ذنب.

ولكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص وهو الغالب، فإن المقتول يطالب القاتل في العَرَصات، فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته فإن نفدت ولم يستوف حقه، أخذ من سيئات المقتول، فطُرِحَتْ على القاتل، فربما لا يبقى على المقتول خطيئة إلا وضعت على القاتل، وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ في المظالم كلها، والقتل من أعظمها وأشدها والله أعلم.

قلت: وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ، وزجراً له لو انزجر، ولهذا قال: ﴿**إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك**﴾ أي تتحمل إثمي وإثمك ﴿**فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء**

الظالمين﴾ وقال ابن عباس: خوفه النار فلم ينته ولم ينزجر.

وقوله تعالى: **﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾** أي فحسنت وسولت له نفسه وشجعته على قتل أخيه فقتله، أي بعد هذه الموعظة وهذا الزجر، وعن أبي جعفر الباقر: أنه قتله بحديدة في يده، وعن ابن عباس وابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: **﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه﴾**، فطلبه ليقتله، فراغ الغلام منه في رؤوس الجبال، فأتاه يوماً من الأيام وهو يرعى غنماً له وهو نائم، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات فتركه بالعراء.

وقال ابن جريج: لما أراد أن يقتله جعل يلوي عنقه، فأخذ إبليس دابة ووضع رأسها على حجر، ثم أخذ حجراً آخر فضرب به رأسها حتى قتلها وابن آدم ينظر، ففعل بأخيه مثل ذلك، وعن زيد بن أسلم قال: أخذ برأسه ليقتله فاضطجع له، وجعل يغمز رأسه وعظامه ولا يدري كيف يقتله، فجاءه إبليس فقال: أتريد أن تقتله؟ قال: نعم. قال: فخذ هذه الصخرة فاطرحها على رأسه، قال: فأخذها فألقاها عليه فشدخ رأسه.

وقوله: **﴿فأصبح من الخاسرين﴾** أي في الدنيا والآخرة، وأي خسارة أعظم من هذه؟ وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقتَل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها، لأنه كان أول من سن القتل» وقد أخرجه الجماعة سوى أبي داود. وعن مجاهد قال: علقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ إلى يوم القيامة ووجهه في الشمس حيثما دارت دار، عليه في الصيف حظيرة من نار، وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج. قال: وقال عبد الله بن عمرو: إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة العذاب عليه شطر عذابهم. وقال إبراهيم النخعي: ما من مقتول يقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول والشيطان كِفل منه.

وقوله تعالى: **﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين﴾** قال السدي [عن ناس من] الصحابة رضي الله عنهم: لما مات الغلام تركه بالعراء، ولا يعلم كيف يدفن، فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حثى عليه، فلما رآه قال: **﴿يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي﴾** وقال ابن عباس: جاء غراب إلى غراب ميت، فحثى عليه من التراب حتى واراه، فقال الذي قتل أخاه: **﴿يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي﴾**. وعن مجاهد: وكان يحمله على عاتقه مائة سنة ميتاً لا يدري ما يصنع به، يحمله ويضعه إلى الأرض حتى رأى الغراب يدفن الغراب، فقال: **﴿يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين﴾**. وقال عطية العَوْفِي: لما قتله ندم فضمه إليه حتى أَرْوَحَ، وعكفت عليه الطيور والسباع تنتظر

متى يرمي به فتأكله.

وقوله: ﴿فأصبح من النادمين﴾ قال الحسن: علاه الله بندامة بعد خسران.

فهذه أقوال المفسرين في هذه القصة، وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه، كما هو ظاهر القرآن، وكما نطق به الحديث في قوله: «إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل». وهذا ظاهر جلي. وعن الحسن قال: «كان الرجلان من بني إسرائيل ولم يكونا ابني آدم لصلبه، وإنما كان القربان في بني إسرائيل، وكان آدم أول من مات» وهذا غريب جداً وفي إسناده نظر.

والظاهر أن قابيل عوجل بالعقوبة، وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ أنه قال «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم». [رواه أبوداود وابن ماجه وصححه الألباني] وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

يقول تعالى: من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً: ﴿كتبنا على بني إسرائيل﴾ أي شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ أي من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعاً؛ لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس، ومن أحياها، أي حرم قتلها واعتقد ذلك، فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار؛ ولهذا قال: ﴿فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ وعن أبي هريرة، قال: دخلت على عثمان يوم الدار فقلت: جئت لأنصرك، وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين، فقال: يا أباهريرة، أيسرك أن تقتل الناس جميعاً وإياي معهم ؟ قلت: لا، قال: فإنك إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً فانصرف مأذوناً لك مأجوراً غير مأزور، قال: فانصرفت ولم أقاتل، وقال ابن عباس: هو كما قال الله تعالى: ﴿من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ وإحياؤها ألا يقتل نفسا حرّمها الله، فذلك الذي أحيا الناس جميعاً يعني أنه من حرم قتلها إلا بحق، حَيِي الناس منه جميعاً، وهكذا قال مجاهد: ﴿ومن أحياها﴾، أي كف عن قتلها.

وقال سعيد بن جبير: من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً، ومن حرم دم مسلم

فكأنما حرم دماء الناس جميعاً، هذا هو الأظهر، وعن ابن عباس: من قتل نبياً أو إمام عدل، فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن شدّ على عضد نبي أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعاً. وفي رواية أخرى عنه [أيضا]: من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً، وذلك لأنه من قتل النفس فله النار فهو كما لو قتل الناس كلهم، وعن مجاهد في قوله: ﴿**فكأنما قتل الناس جميعاً**﴾ من قتل النفس المؤمنة متعمداً، جعل الله جزاءه جهنم، وغضب الله عليه ولعنه، وأعد له عذاباً عظيماً، يقول: لو قتل الناس جميعاً لم يزد على مثل ذلك العذاب، وقال مجاهد [أيضا]: ﴿**ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً**﴾ قال: من لم يقتل أحداً فقد حيي الناس منه، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعاً، يعني فقد وجب عليه القصاص، فلا فرق بين الواحد والجماعة، ﴿**ومن أحياها**﴾ أي عفا عن قاتل وليه فكأنما أحيا الناس جميعاً، وحكى ذلك عن أبيه، وقال مجاهد في رواية: ﴿**ومن أحياها**﴾ أي أنجاها من غرق أو حرق أو هلكة، وقال الحسن وقتادة: هذا تعظيم لتعاطي القتل، قال قتادة: عَظُم والله وزرها، وعَظُم والله أجرها. وعن سليمان بن على الرِّبْعِي قال: قلت للحسن: هذه الآية لنا يا أبا سعيد كما كانت لبني إسرائيل ، فقال: إي والذي لا إله غيره، كما كانت لبني إسرائيل وما جعل دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا، وقال الحسن البصري [أيضا]: ﴿**فكأنما قتل الناس جميعاً**﴾ قال: وزراً، ﴿**ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً**﴾، قال: أجراً.

وقوله: ﴿**ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات**﴾ أي بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة، ﴿**ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون**﴾ وهذا تقريع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها، كما كانت بنو قريظة والنضير وغيرهم من بني قينقاع ممن حول المدينة من اليهود الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج، إذا وقعت بينهم الحروب في الجاهلية، ثم إذا وضعت الحروب أوزارها. فدوا من أسروه وودوا من قتلوه، وقد أنكر الله عليهم ذلك في سورة البقرة حيث يقول: ﴿**وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون**﴾ [البقرة: ٨٤ـ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض**﴾ الآية. المحاربة: هي المضادة والمخالفة، وهي صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل، وكذا الإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر، حتى قال كثير من السلف، منهم سعيد بن المسيب: إن قرض الدراهم والدنانير من الإفساد في الأرض. وقد قال الله تعالى: ﴿**وإذا تولى سعى في**

الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾ [البقرة:٢٠٥]. ثم قال بعضهم: نزلت هذه الآية الكريمة في المشركين، فعن عكرمة والحسن البصري قالا: قال تعالى: **﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾** نزلت هذه الآية في المشركين، فمن تاب منهم من قبل أن تقدروا عليه، لم يكن عليه سبيل، وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل، أو أفسد في الأرض، أو حارب الله ورسوله، ثم لحق بالكفار قبل أن يُقْدر عليه، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصاب، وعن ابن عباس: **﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً﴾**، نزلت في المشركين فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصابه. وقال ابن عباس [أيضا]: قال: كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين النبي ﷺ عهد وميثاق، فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض، فخيَّر الله رسوله إن شاء أن يقتل وإن شاء أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. وعن سعد [بن أبي وقاص] قال: نزلت في الحرورية.

والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات كما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن نفراً من عُكْل ثمانية، قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا المدينة، وسَقَمت أجسامهم فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: «ألا تخرجون مع راعينا في إبله، فتصيبوا من أبوالها وألبانها» فقالوا: بلى، فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصَحُوا، فقتلوا الراعي، وطردوا الإبل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في آثارهم فأُدْرِكُوا فجيء بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسمرت أعينهم، ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا. لفظ مسلم، وفي لفظ لهما: من عكل أو عُرَيْنَة، وفي لفظ: «وألقوا في الحرة فجعلوا يستسقون، فلا يسقون»، وفي لفظ لمسلم: «ولم يَحْسمْهم»، وعند البخاري قال أبو قلابة: فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله.

وقد اختلف الأئمة في حكم هؤلاء العُرَنيين: هل هو منسوخ، أومحكم ؟ فقال بعضهم: هو منسوخ بهذه الآية، وزعموا أن فيها عتاباً للنبي ﷺ كما في قوله تعالى **﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾** [التوبة:٤٣]، ومنهم من قال: هو منسوخ بنهي النبي ﷺ عن المُثْلة. وهذا القول فيه نظر، ثم قائله مطالب ببيان تأخر الناسخ الذي ادعاه عن المنسوخ، وقال بعضهم: كان هذا قبل أن تنزل الحدود، قاله محمد بن سيرين، وفيه نظر، فإن قصتهم متأخرة.

ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور من العلماء في ذهابهم إلى أن حكم المحاربة في الأمصار وفي السبلان على السواء لقوله **﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾** وهذا مذهب مالك والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل، حتى قال مالك في الذي يغتال الرجل فيخدعه حتى يدخله بيتاً فيقتله، ويأخذ ما معه: إن هذه محاربة، ودمه إلى السلطان لا إلى ولي المقتول، ولا اعتبار بعفوه عنه في إنفاذ القتل. وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا تكون المحاربة

إلا في الطرقات، فأما في الأمصار فلا، لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث، بخلاف الطريق لبعده ممن يغيثه ويعينه والله أعلم.

وأما قوله﴿أن يقتلوا أويصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾ الآية قال ابن عباس: من شهر السلاح في قبَّة الإسلام، وأخاف السبيل ثم ظفر به وقدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار إن شاء قتله وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله وكذا قال سعيد بن المسيب ومجاهد وعطاء والحسن البصري وإبراهيم النخعي والضحاك وروى ذلك كله أبو جعفر بن جرير وحكى مثله عن مالك بن أنس رحمه الله ومستند هذا القول أن ظاهر «أو» للتخيير كما في نظائر ذلك من القرآن كقوله في جزاء الصيد: ﴿فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال الجمهور: هذه الآية منزلة على أحوال، فعن ابن عباس في قطاع الطريق: إذا قَتَلوا وأخذوا المال قُتلوا وصلبوا، وإذا قَتلوا ولم يأخذوا المال قُتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالاً نفوا من الأرض، وعن أبي مجلز وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي والحسن وقتادة والسدي وعطاء الخراساني نحو ذلك، وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة.

وأما قوله تعالى: ﴿أوينفوا من الأرض﴾ قال بعضهم: هو أن يطلب حتى يقدر عليه فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام، رواه ابن جرير عن ابن عباس، وأنس بن مالك وسعيد بن جبير والضحاك والربيع بن أنس والزهري والليث بن سعد ومالك بن أنس وقال آخرون: هو أن ينفى من بلده إلى بلد آخر أو يخرجه السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية وقال الشعبي: ينفيه - كما قال ابن هبيرة - من عمله كله. وقال عطاء الخراساني ينفىٰ من جند إلى جند سنين، ولا يخرج من أرض الإسلام، وكذا قال سعيد بن جبير وأبو الشعثاء والحسن والزهري والضحاك ومقاتل بن حيان إنه ينفى ولا يخرج من أرض الإسلام، وقال آخرون: المراد بالنفي ههنا السجن، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، واختار ابن جرير أن المراد بالنفي ههنا أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه.

وقوله: ﴿ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ أي هذا الذي ذكرته من قتلهم ومن صلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم، خزي لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة، وهذا قد يتأيد به من ذهب إلى أن هذه الآية نزلت في المشركين فأما أهل الإسلام ففي الصحيح عند مسلم عن عبادة بن الصامت قال: أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء ألا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا يعضه بعضنا بعضا، فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له، ومن ستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذبه

وإن شاء غفر له. [رواه البخاري بنحوه].

وقال ابن جرير في قوله: ﴿**ذلك لهم خزي في الدنيا**﴾ يعني شر وعار ونكال وذلة وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة، ﴿**ولهم في الآخرة عذاب عظيم**﴾ أي إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا لهم في الآخرة مع الجزاء الذي جازيتهم به في الدنيا، والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها ﴿**عذاب عظيم**﴾، يعني عذاب جهنم.

وقوله تعالى: ﴿**إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم**﴾ أما على قول من قال: إنها في أهل الشرك فظاهر، وأماالمحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم، فإنه يسقط عنهم انحتام القتل والصلب وقطع الرجل، وهل يسقط قطع اليد أم لا ؟ فيه قولان للعلماء، وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع، وعليه عمل الصحابة، فعن الشعبي قال: كان حارثة بن بدر التميمي من أهل البصرة، وكان قد أفسد في الأرض وحارب، فكلم رجالاً من قريش منهم الحسن بن علي وابن عباس وعبد الله بن جعفر، فكلموا علياً فيه فلم يؤمنه، فأتى سعيد بن قيس الهمداني فخلفه في داره، ثم أتى علياً، فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيت من حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض فساداً، فقرأ حتى بلغ: ﴿**إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم**﴾ قال: فكتب له أماناً، قال سعيد بن قيس: فإنه حارثة بن بدر.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، وهي إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات، وقد قال بعدها: ﴿**وابتغوا إليه الوسيلة**﴾ قال ابن عباس: أي القربة، وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن [وغيرهم]. وقال قتادة: أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه. وقرأ ابن زيد: ﴿**أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة**﴾ [الإسراء:٥٧] وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه، والوسيلة: هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضاً عَلَم على أعلى منزلة في الجنة وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، وقد ثبت في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إلا حَلَّتْ له الشفاعة يوم القيامة».

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون

أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة».

وقوله: ﴿وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾ لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم، التاركين للدين القويم، ورغبهم في ذلك بالذي أعده للمجاهدين في سبيله يوم القيامة من الفلاح، والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبيد ولا تحول ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة، الآمنة الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها، التي من سكنها ينعم لا يبأس، ويحيا لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه.

ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكفار من العذاب والنكال يوم القيامة فقال: ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم﴾ أي لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهباً وبمثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به، وتيقن وصوله إليه ما تقبل ذلك منه، بل لا مندوحة عنه ولا محيص له ولا مناص؛ ولهذا قال ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي موجع ﴿يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم﴾ كما قال تعالى: ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها﴾ الآية[الحج:٢٢]، فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه ولا سبيل لهم إلى ذلك، كلما رفعهم اللهب فصاروا في أعالى جهنم ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد فيردونهم إلى أسفلها ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ أي دائم مستمر لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها، وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له: يا ابن آدم، كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع، فيقال: هل تفتدي بقراب الأرض ذهباً؟ قال: فيقول: نعم يا رب، فيقول الله: كذبت، قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل، فيؤمر به إلى النار» رواه البخاري ومسلم.

وروى ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة» قال: فقلت لجابر بن عبد الله: يقول الله: ﴿يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها﴾ قال: اتل أول الآية ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به﴾ الآية، ألا إنهم الذين كفروا. وقد روى الإمام أحمد ومسلم هذا الحديث: من وجه آخر، وهذا أبسط سياقاً.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى حاكماً وآمراً بقطع يد السارق والسارقة، وعن ابن مسعود أنه كان يقرؤها: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما» وهذه قراءة شاذة، وإن كان الحكم عند جميع العلماء

موافقاً لها لا بها، بل هو مستفاد من دليل آخر، وقد كان القطع معمولاً به في الجاهلية، فقرر في الإسلام، وزيدت شروط أخر كما سنذكره إن شاء الله تعالى، كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التي ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه وزيادات هي من تمام المصالح ويقال: إن أول من قطع الأيدي في الجاهلية قريش، قطعوا رجلاً يقال له: دويك مولى لبني مليح بن عمرو من خزاعة، كان قد سرق كنز الكعبة، ويقال: سرقه قوم فوضعوه عنده، وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به، سواء كان قليلاً أو كثيراً لعموم هذه الآية ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما**﴾ فلم يعتبروا نصاباً ولا حرزاً، بل أخذوا بمجرد السرقة.

وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن نجدة الحنفي، قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما**﴾ أخاص أم عام؟ فقال: بل عام، وهذا يحتمل أن يكون موافقة من ابن عباس لما ذهب إليه هؤلاء، ويحتمل غير ذلك، فالله أعلم.

وتمسكوا بما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده». وأما الجمهور، فاعتبروا النصاب في السرقة وإن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره، فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول على حِدَة، فعند الإمام مالك بن أنس رحمه الله النصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصة، فمتى سرقها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقها، وجب القطع، واحتج في ذلك بما رواه عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع في مِجَن ثمنه ثلاثة دراهم، أخرجاه في الصحيحين، قال مالك رحمه الله: وقطع عثمان رضي الله عنه في أتْرُجَّة قُوِّمَت بثلاثة دراهم، وهو أحب ما سمعت في ذلك، وهذا الأثر عن عثمان رضي الله عنه قد رواه مالك عن عَمْرة بنت عبد الرحمن أن سارقاً سرق في زمن عثمان أترجة، فأمر بها عثمان أن تُقَوم فقومت بثلاثة دراهم من صرف اثني عشر درهماً بدينار، فقطع عثمان يده. قال أصحاب مالك: ومثل هذا الصنيع يشتهر، ولم ينكر، فمن مثله يحكى الإجماع السكوتي، وفيه دلالة على القطع في الثمار خلافاً للحنفية، وعلى اعتبار ثلاثة دراهم خلافاً لهم في أنه لا بد من عشرة دراهم، وللشافعية في اعتبار ربع دينار، والله أعلم.

وذهب الشافعي رحمه الله إلى أن الاعتبار في قطع يد السارق بربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعداً، والحجة في ذلك ما أخرجه الشيخان البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً». قال أصحابنا: فهذا الحديث فاصل في المسألة، ونص في اعتبار ربع الدينار لا ما ساواه. قالوا: وحديث ثمن المجن، وأنه كان ثلاثة دراهم لا ينافي هذا لأنه إذ ذاك كان الدينار باثني عشر درهماً، فهي ثمن ربع دينار، فأمكن الجمع بهذه الطريق، ويروى هذا المذهب عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وبه يقول الليث بن سعد والشافعي

وأصحابه، وأبو ثور وداود بن علي الظاهري، [وغيرهم] رحمهم الله.

وذهب الإمام أحمد بن حنبل في رواية عنه، إلى أن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مرد شرعي، فمن سرق واحداً منهما أو ما يساويه، قطع عملاً بحديث ابن عمر وبحديث عائشة رضي الله عنها.

وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه رحمهم الله، فإنهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة، واحتجوا بأن ثمن المجن الذي قطع فيه السارق على عهد رسول الله ﷺ كان ثمنه عشرة دراهم. وقد روى أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن عباس قال: كان ثمن المجن على عهد النبي ﷺ عشرة دراهم، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقطع يد السارق في دون ثمن المجن». وكان ثمن المجن عشرة دراهم، قالوا: فهذا ابن عباس وعبد الله بن عمرو قد خالفا ابن عمر في ثمن المجن، فالاحتياط الأخذ بالأكثر، لأن الحدود تدرأ بالشبهات.

وذهب بعض السلف إلى أنه تقطع يد السارق في عشرة دراهم أو دينار أو ما يبلغ قيمته واحداً منهما، يحكى هذا عن علي وابن مسعود وإبراهيم النخعي وأبي جعفر الباقر رحمهم الله تعالى. وقال بعض السلف: لا تقطع الخمس إلا في خمس، أي في خمسة دنانير أو خمسين درهماً، وينقل هذا عن سعيد بن جبير رحمه الله. وقد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية من حديث أبي هريرة: «يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده». بأجوبة:

أحدها: أنه منسوخ بحديث عائشة، وفي هذا نظر؛ لأنه لا بد من بيان التاريخ. **والثاني**: أنه مؤول ببيضة الحديد وحبل السفن، قاله الأعمش فيما حكاه البخاري وغيره عنه. **والثالث**: أن هذه وسيلة إلى التدرج في السرقة من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده، ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير، فلعن السارق الذي يبذل يده الثمينة في الأشياء المهينة، وقد ذكروا أن أبا العلاء المعري لما قدم بغداد، اشتهر عنه أنه أورد إشكالاً على الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار، ونظم في ذلك شعراً دل على جهله وقلة عقله، فقال:

يد بخمس مئين عسجد وديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار

تناقض مالـنا إلا السكـوت له ... وأن نعـوذ بمولانا من الـنار

ولما قال ذلك واشتهر عنه تَطَلّبه الفقهاء فهرب منهم، وقد أجابه الناس في ذلك، فكان جواب القاضي عبد الوهاب المالكي رحمه الله أن قال: لما كانت أمينة، كانت ثمينة، فلما خانت هانت. ومنهم من قال: هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة، فإن في باب الجنايات ناسب أن تعظم قيمة اليد بخمسمائة دينار لئلا يُجْنى عليها. وفي باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذي تقطع فيه ربع دينار، لئلا يتسارع الناس في سرقة الأموال، فهذا

هو عين الحكمة عند ذوي الألباب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم**﴾ أي مجازاة على صنيعهما السيء في أخذهما أموال الناس بأيديهم، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك ﴿**نكالا من الله**﴾ أي تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك، ﴿**والله عزيز**﴾ أي في انتقامه، ﴿**حكيم**﴾ أي في أمره ونهيه وشرعه وقدره.

ثم قال تعالى: ﴿**فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم**﴾ أي من تاب بعد سرقته وأناب إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم أو بدلها عند الجمهور، وقال أبو حنيفة: متى قطع وقد تلفت في يده فإنه لا يرد بدلها.

وفي الصحيحين عن عائشة أن قريشاً أهمهم شأنُ المرأة التي سرقت، في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حِبُ رسول الله ﷺ، فأتي بها رسول الله ﷺ، فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: «أتشفع في حد من حدود الله عز وجل؟» فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العَشي، قام رسول الله ﷺ فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها»، ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها. قالت عائشة رضي الله عنها: فحسنت توبتها بعد، وتزوجت وكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ، وهذا لفظ مسلم. وفي لفظ له عن عائشة قالت: كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده، فأمر النبي ﷺ بقطع يدها.

وقد ورد في أحكام السرقة أحاديث كثيرة مذكورة في كتاب الأحكام، ولله الحمد والمنة، ثم قال تعالى: ﴿**ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض**﴾ أي هو المالك لجميع ذلك، الحاكم فيه، الذي لا معقب لحكمه، وهو الفعال لما يريد ﴿**يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير**﴾.

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن
قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ
بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ
مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ (٤١) سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ
فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ
ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى

وَنُورٌۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ (٤٤)﴾.

نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عز وجل **﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾** أي أظهروا الإيمان بألسنتهم، وقلوبهم خراب خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون **﴿ومن الذين هادوا﴾** أعداء الإسلام وأهله، وهؤلاء كلهم **﴿سماعون للكذب﴾** أي يستجيبون له، منفعلون عنه، **﴿سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾** أي يستجيبون لأقوام لا يأتون مجلسك يا محمد، وقيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام، ويُنْهُونه إلى قوم آخرين ممن لا يحضر عندك من أعدائك **﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾** أي يتأوّلونه على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ماعقلوه، وهم يعلمون، **﴿يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾**. قيل: نزلت في قوم من اليهود قتلوا قتيلاً، وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد، فإن أفتانا بالدية فخذوا ما قال، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه.

والصحيح أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر برجم من أحصن منهم، فحرفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والإركاب على حمارين مقلوبين، فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبي ﷺ قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك.

وقد وردت الأحاديث في ذلك فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم؛ فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فرأيت الرجل يَحْني على المرأة يقيها الحجارة. أخرجاه، وهذا لفظ البخاري.

فدل على أن رسول الله ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة، وليس هذا من باب الإلزام لهم بما يعتقدون صحته، لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة، ولكن هذا بوحي خاص من الله عز وجل إليه بذلك، وسؤاله إياهم عن ذلك، ليقررهم على ما بأيديهم مما تراضوا على كتمانه وجحده وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة، فلما اعترفوا به مع علمهم على خلافه بان زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، وعُدولهم إلى

تحكيم رسول الله ﷺ إنما كان عن هوى منهم، وشهوة لموافقة آرائهم لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به، ولهذا قالوا ﴿**إن أوتيتم هذا**﴾ أي: الجلد والتحميم، ﴿**فخذوه**﴾ أي اقبلوه، ﴿**وإن لم تؤتوه فاحذروا**﴾ أي من قبوله واتباعه.

وقال الله تعالى: ﴿**ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم سماعون للكذب**﴾ أي الباطل ﴿**أكالون للسحت**﴾ أي الحرام، وهو الرشوة، كما قاله ابن مسعود وغير واحد، أي ومن كانت هذه صفته كيف يطهر الله قلبه وأنى يستجيب له، ثم قال لنبيه: ﴿**فإن جاءوك**﴾ أي يتحاكمون إليك ﴿**فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً**﴾ أي فلا عليك أن لا تحكم بينهم، لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق بل ما وافق هواهم، قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد: هي منسوخة بقوله: ﴿**وأن احكم بينهم بما أنزل الله**﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿**وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط**﴾ أي بالحق والعدل، وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل ﴿**إن الله يحب المقسطين**﴾.

ثم قال تعالى منكراً عليهم في آرائهم الفاسدة، ومقاصدهم الزائغة في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبداً، ثم خرجوا عن حكمه، وعدلوا إلى غيره مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم، فقال ﴿**وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين**﴾ ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران، فقال ﴿**إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا**﴾ أي لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها، ﴿**والربانيون والأحبار**﴾ أي وكذلك الربانيون منهم، وهم العباد العلماء، والأحبار وهم العلماء ﴿**بما استحفظوا من كتاب الله**﴾ أي بما استودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يظهروه ويعملوا به، ﴿**وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشونِ**﴾ أي لا تخافوا منهم وخافوا مني، ﴿**ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ فيه قولان سيأتي بيانهما.

سبب آخر في نزول هذه الآيات الكريمات:

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: إن الله أنزل: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ ﴿**فأولئك هم الظالمون**﴾ [المائدة: ٤٥]﴿**فأولئك هم الفاسقون**﴾ [المائدة: ٤٧]، قال ابن عباس: أنزلها الله في الطائفتين من اليهود، وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقا، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم النبي ﷺ المدينة فذلت الطائفتان كلتاهما لمقدم رسول الله ﷺ ويومئذ لم يظهر ولم يوطئهما عليه

وهو في الصلح، فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلاً، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق، فقالت الذليلة: وهل كان هذا في حيين قط دينهما واحد، ونسبهما واحد، وبلدهما واحد، دية بعضهم نصف دية بعض، إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا وفرقاً منكم فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم فكادت الحرب تهيج بينهما ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم، ثم ذكرت العزيزة، فقالت: والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم، ولقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم فدسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه، وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه، فدسوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول الله ﷺ، فلما جاؤوا رسول الله ﷺ، أخبر الله رسوله ﷺ بأمرهم كله وما أرادوا، فأنزل الله تعالى: **﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾** إلى قوله **﴿الفاسقون﴾** ففيهم والله أنزل، وإياهم عنى الله عز وجل، ورواه أبو داود.

وعن ابن عباس: أن الآيات التي في المائدة قوله **﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ـ إلى المقسطين﴾** إنما أنزلت في الدية في بني النَضير وبني قُرَيْظَة، وذلك أن قتلى بني النضير كان لهم شرف، تؤدى لهم الدية كاملة، وأن قريظة كانوا يُودَوْن نصف الدية، فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله ذلك فيهم، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق في ذلك، فجعل الدية في ذلك سواء، والله أعلم أي ذلك كان، رواه أحمد وأبو داود والنسائي من حديث ابن إسحاق. وهكذا قال قتادة ومقاتل بن حيان وابن زيد وغير واحد.

وعن ابن عباس أيضا: أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، كما تقدم، وقد يكون اجتمع هذان السببان في وقت واحد، فنزلت هذه الآيات في ذلك كله، والله أعلم، ولهذا قال بعد ذلك: **﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين﴾** إلى آخرها، وهذا يقوي أن سبب النزول قضية القصاص، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله: **﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾** قال البراء بن عازب وحذيفة بن اليمان وابن عباس وأبو مجلز وأبو رجاء العطاردي وعكرمة وعبيد الله بن عبد الله والحسن البصري وغيرهم: نزلت في أهل الكتاب، زاد الحسن البصري: وهي علينا واجبة، وعن إبراهيم قال: نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل، ورضي الله لهذه الأمة بها.

وعن علقمة ومسروق أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة. فقال: من السُحت، فقالا: وفي الحكم، قال: ذاك الكفر، ثم تلا، **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾** وقال السدي: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾** يقول: ومن لم يحكم بما أنزلت فتركه عمداً أو جار وهو يعلم، فهو من الكافرين به، وعن ابن عباس قوله: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾** قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقرّ به ولم يحكم فهو ظالم فاسق، رواه ابن جرير، ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب، أو من

جحد حكم الله المنزل في الكتاب، وعن الشعبي: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾** قال: للمسلمين.

وعن الشعبي: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾** قال: هذا في المسلمين، **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾** قال: هذا في اليهود، **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾** قال: هذا في النصارى، وعن ابن طاوس عن أبيه قال: سئل ابن عباس عن قوله: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فؤلئك هم الكافرون﴾** الآية، قال: هي به كفر، قال ابن طاوس: وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وعن عطاء أنه قال: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، رواه ابن جرير، وعن طاوس أيضا: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾** قال: ليس بكفر ينقل عن الملة، وعن ابن عباس قال: ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، ورواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

وهذا أيضاً مما وُبِّخَتْ به اليهود وقرعوا عليه، فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس، وهم يخالفون حكم ذلك عمداً وعناداً، ويُقيدون النضري من القرظي، ولا يُقيدون القرظي من النضري، بل يعدلون إلى الدية، كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار؛ ولهذا قال هناك: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾** لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً، وقال ههنا: **﴿فأولئك هم الظالمون﴾** لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه، فخالفوا وظلموا وتعدى بعضهم على بعض.

وقد استدل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا، إذا حكي مقرراً ولم ينسخ، كما هو المشهور عن الجمهور، وكما حكاه الشيخ أبو إسحاق الإسفراييني عن نص الشافعي، وأكثر الأصحاب بهذه الآية حيث كان الحكم عندنا على وفقها في الجنايات عند جميع الأئمة. وقال الحسن البصري: هي عليهم وعلى الناس عامة، رواه ابن أبي حاتم: وقد حكى الشيخ أبو زكريا النووي في هذه المسألة ثلاثة أوجه، ثالثها أن شرع إبراهيم حجة دون غيره: وصحح منها عدم الحجية، نقلها الشيخ أبو إسحاق الإسفراييني أقوالاً عن الشافعي، ورجح أنه حجة عند الجمهور من أصحابنا، فالله أعلم.

وقد حكى الإمام أبو نصر بن الصباغ رحمه الله في كتابه «الشامل»، إجماع العلماء، على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه، وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة

بعموم هذه الآية الكريمة، وكذا ورد في الحديث «المسلمون تتكافأ دماؤهم» [رواه أبوداود وصححه الألباني]، وهذا قول جمهور العلماء، وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها إلا أن يدفع وليها إلى أوليائه نصف الدية، لأن ديتها على النصف من دية الرجل، وإليه ذهب أحمد في روايته عنه، وحكي هذا عن الحسن البصري وعطاء وعثمان البتي، ورواية عن أحمد أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها بل تجب ديتها، وهكذا احتج أبو حنيفة رحمه الله تعالى بعموم هذه الآية على أنه يقتل المسلم بالكافر الذمي، وعلى قتل الحر بالعبد، وقد خالفه الجمهور فيهما، ففي الصحيحين عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال. قال رسول الله ﷺ «لا يقتل مسلم بكافر» وأما العبد فعن السلف آثار متعددة أنهم لم يكونوا يُقيدون العبد من الحر، ولا يقتلون حراً بعبد، وجاء في ذلك أحاديث لا تصح، وحكى الشافعي الإجماع على خلاف قول الحنفية في ذلك، ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم إلا بدليل مخصص للآية الكريمة.

ويؤيد ماقاله ابن الصباغ من الاحتجاج بهذه الآية الكريمة الحديث الثابت في ذلك، كما روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن الرُّبَيع عمة أنس، كسرت ثَنِيَّة جارية، فطلبوا إلى القوم العفو فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ فقال «القصاص»، فقال أخوها أنس بن النضر: يا رسول الله، تكسر ثنية فلانة، فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس كتاب الله القصاص» قال فقال: لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية فلانة، قال: فرضي القوم فعفوا وتركوا القصاص، فقال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» أخرجاه في الصحيحين.

وقوله تعالى: ﴿**والجروح قصاص**﴾ قال ابن عباس: تقتل النفس بالنفس، وتفقأ العين بالعين، ويقطع الأنف بالأنف، وتنزع السن بالسن، وتقتص الجراح بالجراح، فهذا يستوي فيه أحرار المسلمين به فيما بينهم رجالهم ونساؤهم، إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس، ويستوي فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم، إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿**فمن تصدق به فهو كفارة له**﴾ قال ابن عباس: ﴿**فمن تصدق به فهو كفارة له**﴾ يقول: فمن عفا وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجر للطالب.

وعن ابن عباس [أيضا]: قال كفارة للجارح وأجر المجروح على الله عز وجل، رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وروي عن خيثمة بن عبد الرحمن ومجاهد وإبراهيم في أحد قوليه وعامر الشعبي وجابر بن زيد نحو ذلك.

ثم روى ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله في قول الله عز وجل ﴿**فمن تصدق به فهو كفارة له**﴾ قال: للمجروح، وروى عن الحسن البصري وإبراهيم النخعي في أحد قوليه وأبي إسحاق الهمداني نحو ذلك، وروى ابن جرير عن عامر الشعبي وقتادة مثله. وعن عبد الله بن عمرو:

﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ قال: يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به.

وقوله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ قد تقدم عن طاوس وعطاء أنهما قالا: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وقفينا﴾ أي أتبعنا على آثارهم، يعني أنبياء بني إسرائيل ﴿بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ أي مؤمناً بها حاكماً بما فيها، ﴿وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور﴾ أي هدى إلى الحق ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات، ﴿ومصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ أي متبعاً لها غير مخالف لما فيها إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ [آل عمران:٥٠]؛ ولهذا كان المشهور من قول العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة. وقوله: ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ أي وجعلنا الإنجيل هدى يهتدى به، وموعظة أي وزاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم، للمتقين، أي لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه.

وقوله: ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ قرىء وليحكم أهل الإنجيل بالنصب على أن اللام لام كي، أي وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ليحكم أهل ملته به في زمانهم، وقرىء وليحكم بالجزم على أن اللام لام الأمر، أي ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا ما أمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثة محمد ﷺ والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد، كما قال تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾ الآية[المائدة:٦٨]، وقال تعالى: ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ [الأعراف:١٥٧]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ أي الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلى الباطل، التاركون للحق، وقد تقدم أن هذه الآية نزلت في النصارى، وهو ظاهر السياق.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم

بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كليمه، ومدحها وأثنى عليها وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع وذكر الإنجيل ومدحه وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه، كما تقدم بيانه، شرع تعالى في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم، فقال: **﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾** أي بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله **﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾** أي من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به، مما زادها صدقاً عند حامليها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله، واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله، كما قال تعالى: **﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾** [الإسراء:١٠٧-١٠٨] أي إن كان ما وعدنا الله على ألسنة رسله المتقدمة من مجيء محمد عليه السلام **﴿لمفعولا﴾** أي لكائناً لا محالة ولابد. قوله: **﴿ومهيمناً عليه﴾** عن ابن عباس: أي مؤتمناً عليه. وقال [أيضا]: المهيمن الأمين، قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله. وروي عن عكرمة ومجاهد والحسن [وغيرهم] نحو ذلك، وقال ابن جريج: القرآن أمين على الكتب المتقدمة، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل، وعن ابن عباس: **﴿ومهيمناً﴾** أي شهيداً، وكذا قال مجاهد [وغيره]. وعن ابن عباس: **﴿ومهيمناً﴾** أي حاكماً على ما قبله من الكتب، وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمهاأشملها وأعظمها وأكملها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات، ماليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾** [الحجر:٩].

وقوله: **﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾** أي فاحكم يا محمد بين الناس، عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم، **﴿بما أنزل الله﴾** إليك في هذا الكتاب العظيم، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك، هكذا وجهه ابن جرير بمعناه، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ مخيراً إن شاء حكم بينهم وإن شاء أعرض عنهم، فردهم إلى أحكامهم، فنزلت **﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾** فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا.

وقوله: **﴿ولا تتبع أهواءهم﴾** أي آراءهم التي اصطلحوا عليها، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسوله، ولهذا قال: **﴿ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾** أي لا تنصرف عن الحق

الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء. وقوله: ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**﴾ قال ابن عباس ﴿**شرعة**﴾ سبيلاً. و﴿**ومنهاجاً**﴾ قال: وسنة، وكذا روي عن مجاهد وعكرمة والحسن البصري وقتادة [وغيرهم]، أنهم قالوا في قوله ﴿**شرعة ومنهاجاً**﴾ أي سبيلاً وسنة، وعن ابن عباس ومجاهد أيضا، وعطاء الخراساني عكسه ﴿**شرعة ومنهاجاً**﴾ أي سنة وسبيلاً، والأول أنسب، فإن الشرعة وهي الشريعة أيضاً هي ما يبتدأ فيه إلى الشيء، ومنه يقال: شرع في كذا، أي ابتدأ فيه، كذا الشريعة وهي ما يشرع منها إلى الماء. أما المنهاج فهو الطريق الواضح السهل، والسنن الطرائق.

فتفسير قوله: ﴿**شرعة ومنهاجاً**﴾ بالسبيل والسنة أظهر في المناسبة من العكس، والله أعلم. ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات، ديننا واحد» يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله وضمنه كل كتاب أنزله، كما قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ الآية[النحل:٣٦]، وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً، ثم يحل في الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفاً فيزاد في الشدة في هذه دون هذه، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

وعن قتادة: قوله: ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**﴾ يقول: سبيلاً وسنة، والسنن مختلفة، هي في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل الله غيره، التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿**ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة**﴾ هذا خطاب لجميع الأمم وإخبار عن قدرته تعالى العظيمة، التي لو شاء الله لجمع الناس كلهم على دين واحد، وشريعة واحدة، لا ينسخ شيء منها، ولكنه تعالى شرع لكل رسول شرعة على حدة، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً ﷺ، الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، وجعله خاتم الأنبياء كلهم، ولهذا قال تعالى: ﴿**ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم**﴾ أي أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله. وقال عبد الله بن كثير: ﴿**فيما آتاكم**﴾ يعني من الكتاب.

ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها، فقال: ﴿**فاستبقوا الخيرات**﴾

وهي طاعة الله واتباع شرعه الذي جعله ناسخاً لما قبله، والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله، ثم قال تعالى: ﴿إلى الله مرجعكم﴾ أي معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ أي فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق، فيجزي الصادقين بصدقهم، ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان، بل هم معاندون للبراهين القاطعة، والحجج البالغة والأدلة الدامغة. وقال الضحاك: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ يعني أمة محمد ﷺ، والأول أظهر. وقوله: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك والنهي عن خلافه.

ثم قال تعالى: ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ أي احذر أعداءك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من الأمور، فلا تغتر بهم، فإنهم كذبة كفرة خونة، ﴿فإن تولوا﴾ أي عما تحكم به بينهم من الحق وخالفوا شرع الله، ﴿فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ أي فاعلم أن ذلك كائن عن قدر الله وحكمته فيهم أن يصرفهم عن الهدى لما عليهم من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم، ﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ أي إن أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق ناؤون عنه، كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ [يوسف:١٠٣]. وقال تعالى: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ الآية[الأنعام:١١٦].

وقوله: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذي وضع لهم الياسق، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى: من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ﷺ، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير، قال الله تعالى: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ أي يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون، ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به، وأيقن وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء.

وعن الحسن قال: من حكم بغير حكم الله فحكم الجاهلية هو. وعن ابن أبي نجيح، قال: كان طاوس إذا سأله رجل: أفضِّل بين ولدي في النحل؟ قرأ: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون

ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ الآية، وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الناس إلى الله عز وجل، من يبتغي في الإسلام سنة الجاهلية، وطالب دم امرىء بغير حق ليريق دمه». وروى البخاري نحوه.

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله - قاتلهم الله - ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك، فقال ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ الآية. روى ابن أبي حاتم عن عياض أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد، وكان له كاتب نصراني، فرفع إليه ذلك، فعجب عمر رضي الله عنه وقال: إن هذا لحفيظ، هل أنت قارىء لنا كتاباً في المسجد جاء من الشام ؟ فقال: إنه لا يستطيع أن يدخل المسجد، فقال عمر: أجنب هو ؟ قال: لا بل نصراني. قال: فانتهرني وضرب فخذي، ثم قال: أخرجوه، ثم قرأ: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾.

وقوله: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾ أي شك وريب ونفاق ﴿يسارعون فيهم﴾ أي يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر، ﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ أي يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى، فينفعهم ذلك. عند ذلك قال الله تعالى: ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح﴾ قال السدي: يعني فتح مكة. وقال غيره: يعني القضاء والفصل، ﴿أو أمر من عنده﴾. قال السدي: يعني ضرب الجزية على اليهود والنصارى، ﴿فيصبحوا﴾ يعني الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿على ما أسروا في أنفسهم﴾ من الموالاة، ﴿نادمين﴾ أي على ما كان منهم مما لم يجد عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم محذوراً، بل كان عين المفسدة، فإنهم فضحوا وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين بعد أن كانوا مستورين، لا يدرى كيف حالهم، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين، ويحلفون على ذلك ويتأولون فبان كذبهم وافتراؤهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾.

واختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمات، فذكر السدي أنها نزلت في رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أحد: أما أنا فإني ذاهب إلى ذلك اليهودي فآوي إليه

وأتهوّد معه، لعله ينفعني إذا وقع أمر أو حدث حادث. وقال الآخر أما أنا فأذهب إلى فلان النصراني بالشام فآوي إليه وأتنصر معه، فأنزل الله عز وجل﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء**﴾ الآيات، وقال عكرمة: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة فسألوه: ماذا هو صانع بنا ؟ فأشار بيده إلى حلقه أي أنه الذبح، رواه ابن جرير.

وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي ابن سلول، كما روى ابن جرير عن عطية بن سعد قال: جاء عبادة بن الصامت من بني الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، إن لي موالي من يهود كثير عددهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله، فقال عبد الله بن أبي: إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالي، فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي «يا أبا الحباب، ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت، فهو لك دونه» قال: قد قبلت، فأنزل الله عز وجل ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض**﴾ إلى قوله﴿**فترى الذين في قلوبهم مرض**﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه، وأشدّ منعة، وأقوم سبيلاً، كما قال تعالى: ﴿**وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم**﴾ [محمد:٣٨]. وقال تعالى: ﴿**إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين**﴾ [النساء:١٣٣]، وقال تعالى: ﴿**إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز**﴾ [إبراهيم:١٩-٢٠] أي بممتنع ولا صعب. وقال تعالى ههنا ﴿**يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه**﴾ أي يرجع عن الحق إلى الباطل. قال محمد بن كعب: نزلت في الولاة من قريش. وقال الحسن البصري: نزلت في أهل الردة أيام أبي بكر.

﴿**فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه**﴾ قال الحسن: هو والله أبو بكر وأصحابه رضي الله عنهم، رواه ابن أبي حاتم. وقال أبو بكر بن أبي شيبة: سمعت أبا بكر بن عياش يقول: في قوله ﴿**فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه**﴾ هم أهل القادسية. وعن مجاهد: هم قوم من سبأ. وعن ابن عباس في قوله: ﴿**فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه**﴾ قال: ناس من أهل اليمن، ثم من كِنْدَة، ثم من السَّكُون.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري قال: لما نزلت ﴿**فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه**﴾ قال رسول الله ﷺ: «هم قوم هذا». ورواه ابن جرير [وصححه الحاكم على شرط مسلم].

وقوله: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ هذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعززاً على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ [الفتح:٢٩].

وقوله تعالى: ﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ أي لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله، وقتال أعدائه، وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عذل عاذل، روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع: أمرني بحب المساكين والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مراً، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن من كنز تحت العرش. [قال الهيثمي: وإسناده ثقات].

وروى أحمد وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «إن الله ليسأل العبد يوم القيامة، حتى إنه ليسأله يقول له: أي عبدي، رأيت منكراً فلم تنكره؟ فإذا لقن الله عبداً حجته، قال أي رب، وثقت بك وخفت الناس» [وقال البوصيري عن إسناده: صحيح، وقال ابن كثير: : إسناده لا بأس به].

وثبت في الحديث: «ما ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه»، قالوا وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: «يتحمل من البلاء ما لا يطيق» [رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حسن صحيح غريب].

﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ أي: من اتصف بهذه الصفات فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له، ﴿والله واسع عليم﴾ أي: واسع الفضل، عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه.

وقوله: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ أي ليس اليهود بأوليائكم، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين.

وقوله: ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الصفات من إقام الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين. وأما قوله: ﴿وهم راكعون﴾ فقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أي في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره، لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى، وحتى إن بعضهم ذكر في هذا أثراً عن علي بن أبي طالب أن هذه الآية نزلت فيه، وذلك أنه مر به سائل في حال ركوعه فأعطاه خاتمه، رواه ابن مردويه من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه نفسه،

وعمار بن ياسر وأبي رافع، وليس يصح شيء منها بالكلية لضعف أسانيدها وجهالة رجالها.

وعن ابن عباس: من أسلم فقد تولى الله ورسوله والذين آمنوا، وقد تقدم أن هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت رضي الله عنه حين تبرأ من حلف يهود، ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله **﴿ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾** كما قال تعالى: **﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز، لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾** [المجادلة: ٢١-٢٢] فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين، فهو مفلح في الدنيا والآخرة، ومنصور في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة: **﴿ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾**.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (٥٨) ﴾.

وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركين، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون: وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة، المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، يتخذونها **﴿هزواً﴾** ولعباً يستهزئون بها، **﴿ولعباً﴾** يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، كما قال القائل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفـهـم السقيم

وقوله: **﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار﴾** من ههنا لبيان الجنس كقوله: **﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾** [الحج: ٣٠]، وقرأ بعضهم: **﴿والكفار﴾** بالخفض عطفاً، وقرأ آخرون بالنصب على أنه معمول، **﴿لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾** تقديره ولا **﴿الكفار أولياء﴾** أي لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء، والمراد بالكفار ههنا المشركون.

وقوله: **﴿واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾** أي اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** بشرع الله الذي اتخذه هؤلاء هزواً ولعباً، كما قال تعالى: **﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شئ إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾** [آل عمران: ٢٨].

وقوله تعالى: **﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً﴾** أي وكذلك إذا أذنتم داعين إلى الصلاة التي هي أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوي الألباب **﴿اتخذوها﴾** أيضاً **﴿هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾** معاني عبادة الله وشرائعه، وهذه صفات أتباع الشيطان

الذي جاء في الحديث أنه «إذا سمع الأذان أدبر وله حصاص، أي ضراط، حتى لا يسمع التأذين فإذا قضي التأذين أقبل، فإذا ثوب للصلاة أدبر، فإذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وقلبه، فيقول: اذكر كذا اذكر كذا، لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى، فإذا وجد أحدكم ذلك، فليسجد سجدتين قبل السلام» متفق عليه، وقال الزهري: قد ذكر الله التأذين في كتابه فقال ﴿**وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون**﴾ رواه ابن أبي حاتم.

وقال السدي في قوله: ﴿**وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً**﴾ قال: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادي ينادي: أشهد أن محمداً رسول الله قال: حرق الكاذب، فدخل خادمه ليلة من الليالي بنار وهو نائم، وأهله نيام، فسقطت شرارة فأحرقت البيت، فاحترق هو وأهله.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب: ﴿**هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل**﴾ أي هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة، فيكون الاستثناء منقطعاً، كما في قوله: ﴿**وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد**﴾ [البروج:٨]، وكقوله: ﴿**وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله**﴾ [التوبة: ٧٤].

وقوله ﴿**وأن أكثركم فاسقون**﴾ معطوف على ﴿**أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل**﴾ أي وآمنا بأن أكثركم فاسقون، أي خارجون عن الطريق المستقيم.

ثم قال: ﴿**قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله**﴾ أي هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات فقوله: ﴿**من لعنه الله**﴾ أي أبعده من رحمته ﴿**وغضب عليه**﴾ أي غضباً لا يرضى بعده أبداً ﴿**وجعل منهم القردة والخنازير**﴾ كما تقدم بيانه في سورة البقرة.

وعن ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير: أهي مما مسخ الله؟ فقال: «إن الله لم يهلك قوماً، أو قال: لم يمسخ قوماً فيجعل لهم نسلاً ولا عقباً، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك» وقد رواه مسلم.

وقوله: ﴿**وعبد**﴾ فعل ماض، والطاغوت منصوب به، أي وجعل منهم من عَبَدَ الطاغوت، وقرىء: ﴿وعَبْدَ الطَاغوتِ﴾ بالإضافة على أن المعنى وجعل منهم خدم الطاغوت، أي خدامه وعبيده، وقرىء: ﴿وعُبُدَ الطاغوتِ﴾ على أنه جمع الجمع عبد وعبيد وعُبُد، مثل ثمار وثُمُرْ، وكل هذه القراءات يرجع معناها إلى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا والذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادة دون ما سواه، كيف يصدر منكم هذا، وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر ؟ ولهذا قال: ﴿**أولئك شر مكاناً**﴾ أي مما تظنون بنا ﴿**وأضل عن سواء السبيل**﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة، كقوله: ﴿**أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً**﴾ [الفرقان: ٢٤].

وقوله: ﴿**وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به**﴾ وهذه صفة المنافقين منهم أنهم يصانعون المؤمنين في الظاهر وقلوبهم منطوية على الكفر، ولهذا قال: ﴿**وقد دخلوا بالكفر**﴾ أي عندك يا محمد ﴿**بالكفر**﴾ أي مستصحبين الكفر في قلوبهم، ثم خرجوا وهو كامن فيها لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر ولهذا قال ﴿**وهم قد خرجوا به**﴾ فخصهم به دون غيرهم، وقوله تعالى: ﴿**والله أعلم بما كانوا يكتمون**﴾ أي والله عالم بسرائرهم وما تنطوي عليه ضمائرهم، وإن أظهروا لخلقه خلاف ذلك، وتزينوا بما ليس فيهم، فإن الله عالم الغيب و الشهادة أعلم بهم منهم، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء وقوله: ﴿**وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت**﴾ أي يبادرون إلى ذلك من تعاطي المآثم والمحارم والاعتداء على الناس وأكل أموالهم بالباطل، ﴿**لبئس ما كانوا يعملون**﴾، أي لبئس العمل كان عملهم، وبئس الاعتداء اعتداؤهم.

وقوله: ﴿**لو لا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون**﴾ يعني هلا كان ينهاهم الربانيون والأحبار عن تعاطي ذلك، والربانيون وهم العلماء العمال أرباب الولايات عليهم، والأحبار هم العلماء فقط ﴿**لبئس ما كانوا يصنعون**﴾ وقال ابن عباس: يعني الربانيين أنهم بئس ما كانوا يصنعون يعني في تركهم ذلك، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال لهؤلاء حين لم يَنْهُوا، ولهؤلاء حين عملوا، قال: وذلك الأركان، قال: «ويعملون» «ويصنعون» واحد، وعن ابن عباس، قال: ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية ﴿**لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون**﴾ قال: كذا قرأ وكذا قال الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها، أنا لا ننهىٰ.

وروى ابن أبي حاتم عن يحيى بن يَعْمَر قال: خطب علي بن أبي طالب فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار، فلما تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار أخذتهم العقوبات، فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرب أجلاً، وروى الإمام أحمد عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي هم أعز منه وأمنع، لم يغيروا إلا أصابهم الله منه بعذاب» [رواه أبوداود وابن ماجه وصححه الألباني].

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن اليهود ـ عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ـ بأنهم وصفوا الله عز وجل وتعالى عن قولهم علواً كبيراً بأنه بخيل، كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء وعبروا عن البخل بقولهم **﴿يد الله مغلولة﴾**. وقال ابن عباس: **﴿مغلولة﴾** أي بخيلة، وقال [أيضا]: لا يعنون بذلك أن يد الله موثقة، ولكن يقولون: بخيل أمسك ما عنده تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وكذا روي عن عكرمة وقتادة والسدي ومجاهد والضحاك، وقرأ **﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾** [الإسراء:٢٩] يعني أنه ينهى عن البخل وعن التبذير، وهو الزيادة في الإنفاق في غير محله، وعبر عن البخل بقوله **﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾** وهذا هو الذي أراد هؤلاء اليهود عليهم لعائن الله، وقد قال عكرمة: إنها نزلت في فنحاص اليهودي، عليه لعنة الله، [وهو] الذي قال: **﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾** [آل عمران: ١٨١] فضربه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وقد ردّ الله عز وجل عليهم ما قالوه وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه، فقال: **﴿غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا﴾** وهكذا وقع لهم، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم، كما قال تعالى: **﴿أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾** [النساء:٥٣ـ٥٤]، وقال تعالى: **﴿ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾** الآية[آل عمران: ١١٢].

ثم قال تعالى: **﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾** أي بل هو الواسع الفضل، الجزيل العطاء، الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه، وهو الذي ما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له، الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه، في ليلنا ونهارنا، وحضرنا وسفرنا، وفي جميع أحوالنا، كما قال **﴿وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾** [إبراهيم: ٣٤]. والآيات في هذا كثيرة، وقد روى الإمام أحمد بن حنبل عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه ـ قال ـ: وعرشه على الماء

وفي يده الأخرى القبض يرفع ويخفض. وقال : يقول الله تعالى: «أنفق، أنفق عليك» أخرجاه في الصحيحين.

وقوله: ﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ أي يكون ما آتاك الله يا محمد من النعمة نقمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم، فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً وعلماً نافعاً، يزداد به الكفرة الحاسدون لك ولأمتك ﴿طغياناً﴾ وهو المبالغة والمجاوزة للحد في الأشياء، ﴿وكفراً﴾ أي تكذيباً، كما قال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقوله: ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ يعني أنه لا تجتمع قلوبهم بل العداوة واقعة بين فرقهم بعضهم في بعض دائماً، لأنهم لا يجتمعون على حق، وقد خالفوك وكذبوك، وقال إبراهيم النخعي: ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء﴾، قال: الخصومات والجدال في الدين.

وقوله: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾ أي كلما عقدوا أسباباً يكيدونك بها، وكلما أبرموا أموراً يحاربونك بها، يبطلها الله ويرد كيدهم عليهم، ويحيق مكرهم السيء بهم ﴿ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين﴾ أي من سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض، والله لا يحب من هذه صفته، ثم قال جلا وعلا: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا﴾ أي لو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المحارم والمآثم ﴿لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم﴾ أي لأزلنا عنهم المحذور ولحصّلنا لهم المقصود، ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم﴾ قال ابن عباس وغيره: هو القرآن، أي لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً ﷺ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة.

وقوله: ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض، وقال ابن عباس: ﴿لأكلوا من فوقهم﴾ يعني لأرسل السماء عليهم مدراراً، ﴿ومن تحت أرجلهم﴾ يعني يخرج من الأرض بركاتها، وكذا قال مجاهد [وغيره]، كما قال تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال بعضهم معناه: ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ يعني من غير كَد ولا تعب ولا شقاء ولا عناء.

روى الإمام أحمد عن زياد بن لبيد قال ذكر النبي ﷺ شيئاً، فقال: «وذاك عند ذهاب العلم» قال: قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرؤونه أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ فقال: «ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرأون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء» وكذا رواه ابن ماجه، وهذا إسناده صحيح.

وقوله: ﴿**منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون**﴾ كقوله ﴿**ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾ [الأعراف:١٥٩]، وكقوله عن أتباع عيسى ﴿**فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون**﴾ [الحديد:٢٧]، فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد وهو أوسط مقامات هذه الأمة وفوق ذلك رتبة السابقين، كما في قوله عز وجل: ﴿**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها**﴾ الآية[فاطر:٣٢ـ٣٣]، والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة يدخلون الجنة.

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة، وآمراً له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، وقد امتثل صلوات الله وسلامه عليه ذلك، وقام به أتم القيام، روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن عائشة رضي الله عنها، قالت: من حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب، الله يقول: ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك**﴾ الآية، وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت: لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية ﴿**وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه**﴾ [الأحزاب:٣٧].

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه جاءه رجل فقال له: إن ناساً يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يبده رسول الله ﷺ للناس فقال ابن عباس: ألم تعلم أن الله تعالى قال: ﴿**يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك**﴾ والله ما ورثنا رسول الله ﷺ سوداء في بيضاء، وهذا إسناده جيد، وهكذا في صحيح البخاري من رواية أبي جُحَيفَة قال: قلت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر.

وقال البخاري: قال الزهري: من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم، وقد شهدت له أمته ببلاغ الرسالة وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حجة الوداع، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال في خطبته

يومئذ: «أيها الناس إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون ؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء ويقلبها إليهم ويقول: «اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت».

وقوله: ﴿**وإن لم تفعل فما بلغت رسالته**﴾ يعني وإن لم تؤد إلى الناس ما أرسلتك به، فما بلغت رسالته، أي وقد علم ما يترتب على ذلك لو وقع، وقال ابن عباس: ﴿**وإن لم تفعل فما بلغت رسالته**﴾ يعني إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته.

وقوله: ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾ أي بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك، وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية يُحرس، كما روى الإمام أحمد أن عائشة رضي الله عنها كانت تحدث أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه قالت: فقلت ما شأنك يا رسول الله ؟ قال: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة» قالت: فبينا أنا على ذلك، إذ سمعت صوت السلاح، فقال: «من هذا ؟» فقال: أنا سعد بن مالك. فقال: «ما جاء بك ؟» قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت: فسمعت غطيط رسول الله ﷺ في نومه، أخرجاه.

وروى ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُحْرَس حتى نزلت هذه الآية ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾ قالت: فأخرج النبي ﷺ رأسه من القُبَّة وقال: «يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله عز وجل» وهكذا رواه الترمذي وابن جرير والحاكم في مستدركه، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. [وروي مرسلاً].

ومن عصمة الله عز وجل لرسوله، حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها، مع شدة العداوة والبغضة، ونصب المحاربة له ليلاً ونهاراً، بما يخلقه الله تعالى من الأسباب العظيمة بقدره وحكمته العظيمة، فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه، فلما مات أبو طالب، نال منه المشركون أذى يسيراً، ثم قيض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام وعلى أن يتحول إلى دارهم وهي المدينة، فلما صار إليها، منعوه من الأحمر والأسود، وكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله، ورد كيده عليه، كما كاده اليهود بالسحر فحماه الله منهم، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء، ولما سمه اليهود في ذراع تلك الشاة بخيبر، أعلمه الله به وحماه منه، ولهذا أشباه كثيرة جداً يطول ذكرها، وقصة غَوْرَث بن الحارث مشهورة في الصحيح.

وقوله: ﴿**إن الله لا يهدي القوم الكافرين**﴾ أي بلغ أنت والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل

من يشاء، كما قال: ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [البقرة:٢٧٢]، وقال: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ [الرعد:٤٠].

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد: ﴿يا أهل الكتاب لستم على شيء﴾ أي من الدين ﴿حتى تقيموا التوراة والإنجيل﴾ أي حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء، وتعملوا بما فيها، ومما فيها الأمر باتباع محمد ﷺ والإيمان بمبعثه، والاقتداء بشريعته، فعن مجاهد في قوله: ﴿وما أنزل إليكم من ربكم﴾ يعني القرآن العظيم، وقوله: ﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ تقدم تفسيره، ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾ أي فلا تحزن عليهم، ثم قال: ﴿إن الذين آمنوا﴾ وهم المسلمون، ﴿والذين هادوا﴾ وهم حملة التوراة، ﴿والصابئون﴾ لما طال الفصل حسن العطف بالرفع، والصابئون طائفة من النصارى والمجوس ليس لهم دين، قاله مجاهد، وعنه: من اليهود والمجوس، وقال سعيد بن جبير: من اليهود والنصارى، وعن الحسن والحكم: إنهم كالمجوس، وقال وهب بن منبه: هم قوم يعرفون الله وحده، وليست لهم شريعة يعملون بها، ولم يحدثوا كفراً، وعن أبي الزناد قال: الصابئون قوم مما يلي العراق، وهم بكوثى، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم، ويصومون كل سنة ثلاثين يوماً، ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات، وقيل غير ذلك، وأما النصارى فمعروفون وهم حملة الإنجيل، والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله واليوم الآخر وهو المعاد والجزاء يوم الدين، وعملت عملاً صالحاً، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين فمن اتصف بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا على ما تركوا وراء ظهورهم، ولا هم يحزنون.

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

يذكر تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسوله، فنقضوا تلك العهود والمواثيق واتبعوا آراءهم وأهواءهم، وقدموها على الشرائع، فما وافقهم منها قبلوه وما خالفهم ردوه، ولهذا قال: ﴿كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون وحسبوا ألا تكون فتنة﴾ أي وحسبوا أن لايترتب لهم شر على ما صنعوا، فترتب، وهو أنهم عموا عن الحق وصموا فلا يسمعون حقاً ولا يهتدون إليه، ثم تاب الله عليهم، أي مما كانوا فيه، ﴿ثم عموا وصموا﴾ أي بعد ذلك، ﴿ كثير منهم والله بصير

بما يعملون﴾ أي مطلع عليهم وعليم بمن يستحق ا لهداية ممن يستحق الغواية.

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَـٰٓءِيلَ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْأَيَـٰتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى ممن قال منهم: بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علواً كبيراً، هذا وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: **﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾**، ولم يقل: أنا الله ولا ابن الله، بل قال: **﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾** إلى أن قال **﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾** [مريم: ٣٠-٣٦]. وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته آمراً لهم بعبادة الله ربه وربهم، وحده لا شريك له، ولهذا قال تعالى: **﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله﴾** أي فيعبد معه غيره **﴿فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾** أي فقد أوجب له النار وحرم عليه الجنة كما قال تعالى: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾** [النساء: ٤٨].

وفي صحيح [مسلم] أن النبي ﷺ بعث منادياً ينادي في الناس: إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وفي لفظ: مؤمنة. ولهذا قال إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: **﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾** أي وما له عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هو فيه.

وقوله: **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾** روى ابن أبي حاتم عن أبي صخر في قول الله: **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾** قال: هو قول اليهود عزير ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة، وهذا قول غريب في تفسير الآية أن المراد بذلك طائفتا اليهود والنصارى، والصحيح أنها نزلت في النصارى خاصة، قاله مجاهد وغير واحد، ثم اختلفوا في ذلك فقيل: المراد بذلك كفارهم في قولهم بالأقانيم الثلاثة: وهو أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، قال ابن جرير وغيره: و الطوائف الثلاثة تقول بهذه الأقانيم، وكل فرقة منهم تكفر الأخرى، والحق أن الثلاثة كافرة.

وقال السدي وغيره: نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، قال السدي: وهي كقوله تعالى في آخر السورة **﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم**

أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك﴾ الآية[المائدة:١١٦]، وهذا القول هو الأظهر ـ والله أعلم ـ قال الله تعالى: **﴿وما من إله إلا إله واحد﴾** أي ليس متعدداً بل هو وحده لا شريك له، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات، ثم قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً: **﴿وإن لم ينتهوا عما يقولون﴾** أي من هذا الافتراء والكذب **﴿ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾** أي في الآخرة من الأغلال والنكال.

ثم قال: **﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم﴾** وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم، وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه.

ثم قال تعالى: **﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾** أي له سوية أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه، وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام، كما قال: **﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل﴾** [الزخرف:٥٩]. وقوله **﴿وأمه صدّيقة﴾** أي مؤمنة به مصدقة له، وهذا أعلى مقاماتها، فدل على أنها ليست بنبية.

وقوله: **﴿كانا يأكلان الطعام﴾** أي يحتاجان إلى التغذية به، وإلى خروجه منهما، فهما عبدان كسائر الناس، وليسا بإلهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة، عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة، ثم قال تعالى: **﴿انظر كيف نبين لهم الآيات﴾** أي نوضحها ونظهرها **﴿ثم انظر أنى يؤفكون﴾** أي ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون، وبأي قول يتمسكون، وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون.

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾.

يقول تعالى منكراً على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ومبيناً له أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية، فقال: **﴿قل﴾** أي يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم ودخل في ذلك النصارى وغيرهم: **﴿أتعبدون من دون الله ما لايملك لكم ضرا ولا نفعاً﴾** أي لا يقدر على إيصال ضر إليكم ولا إيصال نفع إليكم، **﴿والله هو السميع العليم﴾** أي فلم عدلتم عن إفراد السميع لأقوال عباده، العليم بكل شيء، إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئا ولا يملك ضراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه. ثم قال: **﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق﴾** أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ولا تُطْروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حَيّز النبوة إلى مقام الإلهية، كما صنعتم في المسيح وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهاً من دون الله، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً، **﴿وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾** أي وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى

طريق الغواية والضلال.

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ۝٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٨١ ﴾.

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داود نبيه عليه السلام، وعلى لسان عيسى ابن مريم، بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه. قال ابن عباس: لعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور وفي الفرقان، ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم، فقال: **﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾** أي كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يُرْكَبَ مثل الذي ارتكبو، فقال: **﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾**، وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا: فجالسوهم في مجالسهم». قال يزيد: وأحسبه قال: «وأسواقهم، وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، **﴿ذلك بما عصوا وكان يعتدون﴾** وكان رسول الله ﷺ متكئاً، فجلس فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً». [ورواه أبوداود والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حسن غريب].

والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً، ولنذكر منها ما يناسب هذا المقام:

عن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم». رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن. وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». رواه مسلم.

وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يسأل العبد يوم القيامة حتى يقول: ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره؟ فإذا لَقَّنَ الله عبداً حجته قال: يا رب رجوتك وفَرِقْتُ الناس» تفرد به أيضاً ابن ماجه، وإسناده لا بأس به.

وروى الإمام أحمد عن حذيفة، عن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي لمسلم أن يذل نفسه» قيل: وكيف يذل نفسه؟ قال «يتعرض من البلاء لما لا يطيق»، وكذا رواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال: قيل:

يا رسول الله، متى يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ؟ قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم» قلنا يا رسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا ؟ قال: «المُلْك في صغاركم، والفاحشة في كباركم، والعلم في رُذالكم» قال زيد: تفسير معنى قول النبي ﷺ والعلم في رذالكم إذا كان العلم في الفُسَّاق. [قال البوصيري عن إسناده: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات].

وقوله: ﴿ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا﴾ قال مجاهد: يعني بذلك المنافقين. وقوله ﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم﴾ يعني بذلك موالاتهم للكافرين، وتركهم موالاة المؤمنين التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم، وأسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم معادهم، ولهذا قال: ﴿أن سخط الله عليهم﴾ فسر بذلك ما ذمهم به، ثم أخبراً أنهم ﴿وفي العذاب هم خالدون﴾ يعني يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء﴾ أي لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسل والقرآن لما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالاة الكافرين في الباطن، ومعاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه، ﴿ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾ أي خارجون عن طاعة الله ورسوله، مخالفون لآيات وحيه وتنزيله.

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾.

قال عطاء بن أبي رباح: هم قوم من أهل الحبشة أسلموا حين قدم عليهم مُهَاجرَة الحبشة من المسلمين وقال قتادة: هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم، فلما رأوا المسلمين، وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلعثموا، واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة، سواء كانوا من الحبشة أو غيرها.

فقوله تعالى: ﴿لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾ ما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهتة للحق وغَمْط للناس وتَنَقص بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة، وسحروه، وألَّبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ أي الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال تعالى:

﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾ [الحديد:٢٧]، وفي كتابهم: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر. وليس القتال مشروعاً في ملتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ أي يوجد فيهم القسيسون وهم خطباؤهم وعلماؤهم، واحدهم قسيس وقس أيضاً، وقد يجمع على قسوس، والرهبان جمع راهب، وهو العابد، مشتق من الرهبة، وهي الخوف، كراكب وركبان، وفارس وفرسان.

فقوله: ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، فقال ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾ أي مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ ﴿يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ أي مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به.

وقد روى النسائي عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ أي مع محمد ﷺ، وأمته هم الشاهدون، يشهدون لنبيهم ﷺ أنه قد بلغ، وللرسل أنهم قد بلغوا، رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

﴿ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾ [آل عمران:١٩٩]؛ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي فجزاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي ساكنين فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿وذلك جزاء المحسنين﴾ أي في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان وأين كان ومع من كان، ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ أي جحدوا بها وخالفوها، ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ أي هم أهلها والداخلون إليها.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبي ﷺ، قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان.

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء،

وقال بعضهم: لا أنام على فراش فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا، لكني أصوم وأفطر وأنام وأقوم وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وعن عبد الله بن مسعود قال: كنا نغزو مع النبي ﷺ وليس معنا نساء، فقلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا رسول الله ﷺ عن ذلك، ورخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل، ثم قرأ عبد الله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**﴾ أخرجاه، وهذا كان قبل تحريم نكاح المتعة، والله أعلم.

وعن عبد الله بن مسعود[أنه جاءه رجل] فقال: إني حرمت فراشي، فتلا هذه الآية: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم**﴾.

وفي صحيح البخاري في قصة الصديق مع أضيافه دلالة لمن ذهب من العلماء كالشافعي وغيره إلى أن من حرم مأكلاً أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه، ولا كفارة عليه أيضاً، ولقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم**﴾، وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم مأكلاً أو مشرباً أو شيئاً من الأشياء، فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين، كما إذا التزم تركه باليمين، فكذلك يؤاخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاماً له بما التزمه، كما أفتى بذلك ابن عباس، وكما في قوله تعالى ﴿**يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم**﴾ [التحريم: ١] ثم قال: ﴿**قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم**﴾ الآية[التحريم: ٢]، وكذلك هاهنا لما ذكر هذا الحكم، عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين، فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين في اقتضاء التكفير، والله أعلم.

وعن مجاهد قال: أراد رجال منهم عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو أن يتبتلوا، ويخصوا أنفسهم، ويلبسوا المسوح، فنزلت هذه الآية إلى قوله ﴿**واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون**﴾. عن عكرمة: أن عثمان بن مظعون وعلي بن أبي طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالماً مولى أبي حذيفة في أصحابه تبتلوا، فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح، وحرموا طيبات الطعام واللباس، إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، وهموا بالاخصاء، وأجمعوا لقيام الليل، وصيام النهار، فنزلت: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**﴾ يقول: لا تسيروا بغير سنة المسلمين، يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس، وما أجمعوا عليه من قيام الليل وصيام النهار، وما هموا به من الاخصاء، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: «إن لأنفسكم حقاً، وإن لأعينكم حقاً، صوموا وأفطروا، وصلوا وناموا، فليس منا من ترك سنتنا». فقالوا: اللهم سلمنا واتبعنا ما أنزلت.

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسلة، ولها شاهد في الصحيحين من رواية

عائشة أم المؤمنين كما تقدم ذلك، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿ولا تعتدوا﴾ يحتمل أن يكون المراد منه ولا تبالغوا في التضييق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم، كما قاله من قاله من السلف، ويحتمل أن يكون المراد كما لا تحرموا الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم، ولا تجاوزوا الحد فيه: كما قال تعالى: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾ [الفرقان: ٦٧]، فشرع الله عدل بين الغالي فيه والجافي عنه، لا إفراط ولا تفريط، ولهذا قال: ﴿لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾.

ثم قال: ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ أي في حال كونه حلالاً طيباً، ﴿واتقوا الله﴾ أي في جميع أموركم، واتبعوا طاعته ورضوانه، واتركوا مخالفته وعصيانه ﴿الذي أنتم به مؤمنون﴾.

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

قد تقدم الكلام على اللغو في اليمين في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا، ولله الحمد والمنة، وأنه قول الرجل في الكلام من غير قصد: لا والله وبلى والله. وهذا مذهب الشافعي. وقيل هو في الهزل. وقيل: في المعصية. وقيل: على غلبة الظن، وهو قول أبي حنيفة وأحمد. وقيل: اليمين في الغضب وقيل: في النسيان. وقيل: هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك، واستدلوا بقوله ﴿لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾.

والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ أي بما صممتم عليه منها وقصدتموها، ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين﴾ يعني محاويج من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه.

وقوله: ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة: أي من أعدل ما تطعمون أهليكم. وقال عطاء الخراساني: من أمثل ما تطعمون أهليكم. وعن علي قال: خبز ولبن، وخبز وسمن. وعن ابن عباس قال: كان الرجل يقوت بعض أهله قوت دونٍ، وبعضهم قوتاً فيه سعَة، فقال الله تعالى: ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ أي من الخبز والزيت، وعن ابن عباس أيضا: ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ قال: من عسرهم ويسرهم. وعن ابن عمر أنه قال: ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾، قال: الخبز واللحم، والخبز والسمن، والخبز واللبن، والخبز والزيت، والخبز والخل، وعنه أيضا قال: الخبز والسمن، والخبز والزيت، والخبز والتمر، ومن أفضل ما تطعمون أهليكم الخبز واللحم، رواه ابن جرير،

ثم روى ابن جرير عن عبيدة والأسود وشريح القاضي ومحمد بن سيرين والحسن والضحاك وأبي رَزِين أنهم قالوا نحو ذلك، وحكاه ابن أبي حاتم عن مكحول أيضاً. واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ أي في القلة والكثرة.

ثم اختلف العلماء في مقدار ما يطعمهم، فعن علي رضي الله عنه قال: يغذيهم ويعشيهم. وقال الحسن ومحمد بن سيرين: يكفيه أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزاً ولحماً، زاد الحسن: فإن لم يجد فخبزاً وسمناً ولبناً، فإن لم يجد فخبزاً وزيتاً وخلاً، حتى يشبعوا، وقال آخرون: يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من بُرّ أو تمر ونحوهما، فهذا قول عمر وعلي وعائشة ومجاهد والشعبي [وغيرهم]. وقال أبو حنيفة: نصف صاع من بر وصاع مما عداه.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: مد من بر يعني لكل مسكين ومعه إدامه، ثم قال: وروي عن ابن عمر وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب ومجاهد وعكرمة والحسن [وغيرهم] نحو ذلك.

وقال الشافعي: الواجب في كفارة اليمين مُدٌّ بمُدِّ النبي ﷺ لكل مسكين ولم يتعرض للأدم. واحتج بأمر النبي ﷺ للذي جامع في رمضان بأن يطعم ستين مسكيناً من مكيل يسع خمسة عشر صاعاً، لكل واحد منهم مد. وقال أحمد بن حنبل: الواجب مد من بر أو مدان من غيره، والله أعلم.

وقوله: ﴿أو كسوتهم﴾ قال الشافعي رحمه الله: لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقْنَعْة، أجزأه ذلك، واختلف أصحابه في القلنسوة: هل تجزىء أم لا ؟ على وجهين، وهكذا حكى الشيخ أبو حامد الإسفراييني: في الخف وجهين أيضاً، والصحيح عدم الإجزاء. وقال مالك وأحمد بن حنبل: لا بد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلي فيه، إن كان رجلاً أو امرأة كل بحسبه، والله أعلم.

وعن ابن عباس: عباءة لكل مسكين أو شملة، وقال مجاهد: أدناه ثوب وأعلاه ما شئت. وعن مجاهد أيضا: يجزىء في كفارة اليمين كل شيء إلا التُبَّان. وقال الحسن وعطاء وإبراهيم النخعي [وغيرهم]: ثوب ثوب. وعن إبراهيم النخعي أيضاً: ثوب جامع كالملحفة والرداء، ولا يرى الدرع والقميص والخمار ونحوه جامعاً، وعن ابن سيرين والحسن: ثوبان. وعن سعيد بن المسيب: عمامة يلف بها رأسه، وعباءة يلتحف بها. وعن أبي موسى أنه حلف على يمين، فكسا ثوبين من مُعقَّدة البحرين.

وقوله: ﴿أو تحرير رقبة﴾ أخذ أبو حنيفة بإطلاقها فقال: تجزىء الكافرة كما تجزىء المؤمنة. وقال الشافعي وآخرون: لا بد أن تكون مؤمنة. وأخذ تقييدها بالإيمان من كفارة القتل لاتحاد الموجب وإن اختلف السبب. ولحديث معاوية بن الحكم السلمي الذي هو في

موطأ مالك ومسند الشافعي وصحيح مسلم أنه ذكر أن عليه عتق رقبة، وجاء معه بجارية سوداء فقال لها رسول الله ﷺ «أين الله ؟». قالت: في السماء. قال «من أنا ؟» قالت: أنت رسول الله. قال «أعتقها فإنها مؤمنة» الحديث بطوله. فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين، أيها فعل الحانث أجزأ عنه بالإجماع، وقد بدأ بالأسهل، فالإطعام أيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فرقى فيها من الأدنى إلى الأعلى، فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفر بصيام ثلاثة أيام، كما قال تعالى: ﴿**فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام**﴾.

وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير والحسن البصري، أنهما قالا: من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام وإلا صام، وقال ابن جرير حاكياً عن بعض متأخري متفقهة زمانه أنه قال: جائز لمن لم يكن له فضل عن رأس مال يتصرف فيه لمعاشه ما يكفر به بالإطعام أن يصوم إلا أن يكون له كفاية ومن المال ما يتصرف به لمعاشه، ومن الفضل عن ذلك ما يكفر به عن يمينه، ثم اختار ابن جرير أنه الذي لا يفضل عن قوته وقوت عياله في يومه ذلك ما يخرج به كفارة اليمين.

واختلف العلماء: هل يجب فيها التتابع أو يستحب ولا يجب، ويجزىء التفريق ؟ على قولين : أحدهما أنه لا يجب التتابع هذا منصوص الشافعي في كتاب الأيمان، وهو قول مالك لإطلاق قوله: ﴿**فصيام ثلاثة أيام**﴾ وهو صادق على المجموعة والمفرقة، كما في قضاء رمضان لقوله ﴿**فعدّة من أيام أخر**﴾ [البقرة: ١٨٤]. ونص الشافعي في موضع آخر في الأم على وجوب التتابع، كما هو قول الحنفية والحنابلة، لأنه قد روي عن أبي بن كعب وغيره أنهم كانوا يقرؤونها «فصيام ثلاثة أيام متتابعات». وحكاها مجاهد والشعبي وأبو إسحاق عن عبد الله بن مسعود، وقال الأعمش كان أصحاب ابن مسعود يقرؤونها كذلك، وهذه إذا لم يثبت كونها قرآناً متواتراً، فلا أقل من أن يكون خبراً واحداً أو تفسيراً من الصحابة وهو في حكم المرفوع.

وقوله ﴿**ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم**﴾. قال ابن جرير: معناه لا تتركوها بغير تكفير ﴿**كذلك يبين الله لكم آياته**﴾ أي يوضحها ويفسرها ﴿**لعلكم تشكرون**﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا
يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١)
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ (٩٣)﴾.

يقول تعالى: ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر وهو القمار، وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: الشطرنج من الميسر. رواه ابن أبي حاتم، وروي عن عطاء ومجاهد وطاوس قال: سفيان أو اثنين منهم قالوا: كل شيء من القمار

فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز. وعن ابن عمر، قال: الميسر هو القمار. وعن ابن عباس، قال: الميسر هو القمار، كانوا يتقامرون في الجاهلية إلى مجيء الإسلام، فنهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة. وعن سعيد بن المسيب يقول: كان ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين، وعن الأعرج، قال: الميسر الضرب بالقداح على الأموال والثمار، وقال القاسم بن محمد: كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو من الميسر.

وفي صحيح مسلم عن بُرَيدة بن الحصيب الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «من لعب بالنَّرْدَشير، فكأنما صَبَغ يده في لحم خنزير ودمه».

وأما الشطرنج فقد قال عبد الله بن عمر إنه شر من النرد، وتقدم عن علي أنه قال: هو من الميسر، ونص على تحريمه مالك وأبو حنيفة وأحمد، وكرهه الشافعي، رحمهم الله تعالى، وأما الأنصاب، فقال ابن عباس ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والحسن وغير واحد: هي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها، وأما الأزلام فقالوا أيضاً: هي قداح كانوا يستقسمون بها.

وقوله: ﴿**رجس من عمل الشيطان**﴾ قال ابن عباس: أي سخط من عمل الشيطان. وقال سعيد بن جبير: إثم. وقال زيد بن أسلم: أي شر من عمل الشيطان ﴿**فاجتنبوه**﴾ الضمير عائد إلى الرجس، أي اتركوه ﴿**لعلكم تفلحون**﴾ وهذا ترغيب، ثم قال: ﴿**إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون**﴾ وهذا تهديد وترهيب.

ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر:

وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب أنه قال لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في البقرة: ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير**﴾ [البقرة:٢١٩] فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في سورة النساء: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى**﴾ [النساء:٤٣] فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة، نادى: ألا يقربن الصلاة سكران. فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر فقرئت عليه، فلما بلغ ﴿**فهل أنتم منتهون**﴾ قال عمر: انتهينا انتهينا. وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي. وصحح هذا الحديث علي بن المديني والترمذي.

وقد ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبته على منبر رسول الله ﷺ: أيها الناس، إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس [أنه سئل] عن بيع الخمر فقال: كان لرسول الله ﷺ

صديق من ثقيف، أو من دوس، فلقيه يوم الفتح براوية خمر يهديها إليه، فقال رسول الله ﷺ: «يا فلان أما علمت أن الله حرمها ؟» فأقبل الرجل على غلامه فقال: اذهب فبعها، فقال رسول الله ﷺ «يا فلان بماذا أمرته ؟ فقال: أمرته أن يبيعها. قال «إن الذي حرم شربها حرم بيعها» فأمر بها فأفرغت في البطحاء، ورواه مسلم.

وروى الإمام أحمد عن أنس قال: كنت أسقي أبا عبيدة بن الجراح وأبي بن كعب وسهيل بن بيضاء ونفراً من أصحابه عند أبي طلحة حتى كاد الشراب يأخذ منهم، فأتى آت من المسلمين فقال: أما شعرتم أن الخمر قد حرمت ؟ فما قالوا: حتى ننظر ونسأل، فقالوا: يا أنس اكف ما بقي في إنائك فوالله ما عادوا فيها، وما هي إلا التمر والبسر، وهي خمرهم يومئذ، أخرجاه في الصحيحين.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن أبا طلحة سأل رسول الله ﷺ عن أيتام في حجره ورثوا خمراً فقال: «أهرقها». قال: أفلا نجعلها خلاً؟ قال: «لا». ورواه مسلم.

وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال: إن هذه الآية التي في القرآن **﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾** قال: هي في التوراة «إن الله أنزل الحق ليذهب به الباطل، ويبطل به اللعب والمزامير، والزَّفْن والكِبَارات، يعني البرابط، والزمارات يعني به الدف، والطنابير والشعر، والخمر مرة لمن طعمها، أقسم الله بيمينه وعزة حَيْله من شربها بعد ما حرمتها لأعطشنه يوم القيامة، ومن تركها بعد ما حرمتها لأسقينه إياها في حظيرة القدس، وهذا إسناده صحيح.

وروى مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر فمات وهو يدمنها ولم يتب منها، لم يشربها في الآخرة». [وأخرج البخاري آخره نحوه].

وعن عبد الله بن عمر: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمدمن الخمر، والمنَّان بما أعطى». ورواه النسائي [وإسناده صحيح].

وعن عثمان بن عفان قال: اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس فَعَلقته امرأة غَوية فأرسلت إليه جاريتها فقالت إنّا ندعوك لشهادة. فدخل معها فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر فقالت إني والله ما دعوتك لشهادة ولكن دعوتك لتقع علي أو تقتل هذا الغلام أو تشرب هذا الخمر. فسقته كأساً، فقال: زيدوني، فلم يَرِم حتى وقع عليها، وقتل النفس فاجتنبوا الخمر فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه. رواه البيهقي [والنسائي] وهذا إسناده صحيح. وله شاهد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق سرقة حين يسرقها وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها

وهو مؤمن».

وروى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «من شرب الخمر لم يرض الله عنه أربعين ليلة، إن مات مات كافراً، وإن تاب تاب الله عليه، وإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال». قالت: قلت: يارسول الله، وما طينة الخبال ؟ قال: «صديد أهل النار». [رواه النسائي وابن ماجه وصححه الألباني].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾.

قال ابن عباس قوله: ﴿**ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم**﴾ قال: هو الضعيف من الصيد وصغيره، يبتلي الله به عباده في إحرامهم، حتى لو شاءوا يتناولونه بأيديهم، فنهاهم الله أن يقربوه. وقال مجاهد: ﴿**تناله أيديكم**﴾ يعني صغار الصيد وفراخه، ﴿**ورماحكم**﴾ يعني كباره. وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية، فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم، لم يروا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون. ﴿**ليعلم الله من يخافه بالغيب**﴾ يعني أنه تعالى يبتليهم بالصيد، يغشاهم في رحالهم يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سراً وجهراً، ليظهر طاعة من يطيع منهم في سره وجهره، كما قال تعالى: ﴿**إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير**﴾ [الملك: ١٢]. وقوله ههنا: ﴿**فمن اعتدى بعد ذلك**﴾ قال السدي وغيره: يعني بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم، ﴿**فله عذاب أليم**﴾ أي لمخالفته أمر الله وشرعه.

ثم قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم**﴾ وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الإحرام، ونهي عن تعاطيه فيه، وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول وما يتولد منه ومن غيره، فأما غير المأكول من حيوانات البر، فعند الشافعي يجوز للمحرم قتلها، والجمهور على تحريم قتلها أيضاً، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يقتلن في الحِلِّ والحَرَم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور». وعن ابن عمر مثله. قال أيوب: قلت لنافع: فالحية ؟ قال الحية لا شك فيها. ولا يختلف في قتلها. ومن العلماء كمالك وأحمد من ألحق بالكلب العقور الذئب والسَّبُعُ والنمر والفهد، لأنها أشد ضرراً منه، فالله أعلم. وقال سفيان بن عيينة وزيد بن أسلم: الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها. وقالوا: فإن قتل ما عداهن فداها، كالضبع والثعلب وهرّ البر ونحو ذلك، قال مالك: وكذا يستثنى من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها، وصغار الملحق بها من السباع العوادي. وقال الشافعي رحمه الله:

يجوز للمحرم قتل كل مالا يؤكل لحمه، ولا فرق بين صغاره وكباره، وجعل العلة الجامعة كونها لا تؤكل. وقال أبو حنيفة: يقتل المحرم الكلب العقور والذئب، لأنه كلب بري، فإن قتل غيرهما فداه إلا أن يصول عليه سبع غيرهما فيقتله فلا فداء عليه وهذا قول الأوزاعي والحسن بن صالح بن حيي. وقال زفر بن الهذيل: يفدي ما سوى ذلك وإن صال عليه.

وقال بعض الناس: المراد بالغراب ههنا الأبقع، وهو الذي في بطنه وظهره بياض دون الأدرع وهو الأسود، والأعصم وهو الأبيض، لما رواه النسائي عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «خمس يقتلهن المحرم: الحية، والفأرة، والحدأة، والغراب الأبقع، والكلب العقور». [وإسناده صحيح] والجمهور على أن المراد به أعم من ذلك، لما ثبت في الصحيحين من إطلاق لفظه. وقال مالك رحمه الله: لا يقتل المحرم الغراب إلا إذا صال عليه وآذاه. وقال مجاهد بن جبر وطائفة: لا يقتله بل يرميه، ويروى مثله عن علي.

وقوله تعالى: ﴿ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾ عن طاوس قال: لا يحكم على من أصاب صيداً خطأ، إنما يحكم على من أصابه متعمداً، وهذا مذهب غريب عن طاوس وهو متمسك بظاهر الآية، وقال مجاهد بن جبر: المراد بالمتعمد هنا القاصد إلى قتل الصيد، الناسي لإحرامه، فأما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه، فذاك أمره أعظم من أن يكفر، وقد بطل إحرامه، وهو قول غريب أيضاً، والذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه. وقال الزهري: دل الكتاب على العامد، وجرت السنة على الناسي، ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأثيمه بقوله: ﴿ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه﴾ وجاءت السنة من أحكام النبي ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ، كما دل الكتاب عليه في العمد، وأيضاً فإن قتل الصيد إتلاف، والإتلاف مضمون في العمد وفي النسيان، لكن المتعمد مأثوم، والمخطىء غير ملوم.

وقوله: ﴿فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾ وحكى ابن جرير، أن ابن مسعود قرأها: «فجزاؤه مثل ما قتل من النعم». وفي قوله: ﴿فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾ على كل من القراءتين دليل لما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد والجمهور، من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم، إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله، حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثلياً أو غير مثلي، قال: وهو مخير إن شاء تصدق بثمنه، وإن شاء اشترى به هدياً، والذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالاتباع، فإنهم حكموا في النعامة ببدنة، وفي بقرة الوحش ببقرة، وفي الغزال بعنز، وأما إذا لم يكن الصيد مثلياً فقد حكم ابن عباس فيه بثمنه يحمل إلى مكة، رواه البيهقي.

وقوله: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ يعني أنه يحكم بالجزاء في المثل أو بالقيمة في غير

المثل عدلان من المسلمين، واختلف العلماء في القاتل: هل يجوز أن يكون أحد الحكمين ؟ على قولين: **أحدهما**: لا، لأنه قد يُتهم في حكمه على نفسه، وهذا مذهب مالك. **والثاني**: نعم، لعموم الآية، وهو مذهب الشافعي وأحمد، واحتج الأولون بأن الحاكم لا يكون محكوماً عليه في صورة واحدة.

روى ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران أن أعرابياً أتى أبا بكر، فقال: قتلت صيداً وأنا محرم، فما ترى علي من الجزاء ؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه لأبي بن كعب وهو جالس عنده: ما ترى فيما قال ؟ فقال الأعرابي: أتيتك وأنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك، فإذا أنت تسأل غيرك ؟ فقال أبو بكر: وما تنكر ؟ يقول الله تعالى: ﴿**فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم**﴾ فشاورت صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به، وهذا إسناده جيد، لكنه منقطع بين ميمون وبين الصديق، ومثله يحتمل ههنا، فبين له الصديق الحكم برفق وتؤدة لما رآه أعرابياً جاهلاً، وإنما دواء الجهل التعليم.

واختلفوا: هل تستأنف الحكومة في كل ما يصيبه المحرم، فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل، وإن كان قد حكم من قبله الصحابة أو يكتفى بأحكام الصحابة المتقدمة ؟ على قولين، فقال الشافعي وأحمد: يتبع في ذلك ما حكمت به الصحابة، وجعلاه شرعاً مقرراً لا يعدل عنه، ومالم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين. وقال مالك وأبو حنيفة: بل يجب الحكم في كل فرد فرد سواء وجد للصحابة في مثله حكم أم لا، لقوله تعالى: ﴿**يحكم به ذوا عدل منكم**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**هدياً بالغ الكعبة**﴾ أي واصلاً إلى الكعبة، والمراد وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك ويفرق لحمه على مساكين الحرم، وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة. وقوله: ﴿**أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً**﴾ أي إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام من الجزاء والإطعام والصيام، كما هو قول مالك وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن، وأحد قولي الشافعي، والمشهور عن أحمد، رحمهم الله، لظاهر الآية«أو» فإنها للتخيير، والقول الآخر أنها على الترتيب، فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة، فيقوم الصيد المقتول عند مالك وأبي حنيفة وأصحابه وحماد وإبراهيم. وقال الشافعي: يقوم مثله من النعم لو كان موجوداً، ثم يشترى به طعام ويتصدق به فيصرف لكل مسكين مد منه، عند الشافعي ومالك وفقهاء الحجاز، واختاره ابن جرير، وقال أبو حنيفة وأصحابه: يطعم كل مسكين مدين، وهو قول مجاهد. وقال أحمد: مد من حنطة أو مدان من غيره، فإن لم يجد أو قلنا بالتخيير، صام عن إطعام كل مسكين يوماً. وقال ابن جرير: وقال آخرون: يصوم مكان كل صاع يوماً كما في جزاء المترفه بالحلق ونحوه، فإن الشارع أمر كعب بن عجرة أن يطعم فرقاً بين ستة، أو يصوم ثلاثة أيام،

والفرق ثلاثة آصع، واختلفوا في مكان هذا الإطعام، فقال الشافعي: محله الحرم، وهو قول عطاء. وقال مالك يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصيد أو أقرب الأماكن إليه. وقال أبو حنيفة: إن شاء أطعم في الحرم، وإن شاء أطعم في غيره.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿**فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً**﴾ قال: إذا أصاب المحرم الصيد حكم عليه جزاؤه من النعم، فإن وجد جزاءه ذبحه فتصدق به وإن لم يجد، نظر كم ثمنه، ثم قوم ثمنه طعاماً فصام فكان كل نصف صاع يوما، قال: ﴿**أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً**﴾، قال: إنما أريد بالطعام الصيام، أنه إذا وجد الطعام وجد جزاؤه.

وعن عامر الشعبي وعطاء ومجاهد: ﴿**أو عدل ذلك صياماً**﴾ قالوا: إنما الطعام لمن لا يبلغ الهدي. وكذا روي عن مجاهد والسدي أنها على الترتيب. وقال عطاء وعكرمة ومجاهد في رواية الضحاك وإبراهيم النخعي: هي على الخيار، وهو رواية عن ابن عباس، واختار ذلك ابن جرير رحمه الله.

وقوله: ﴿**ليذوق وبال أمره**﴾ أي أوجبنا عليه الكفارة ليذوق عقوبة فعله الذي ارتكب فيه المخالفة ﴿**عفا الله عما سلف**﴾ أي في زمان الجاهلية لمن أحسن في الإسلام واتبع شرع الله، ولم يرتكب المعصية، ثم قال: ﴿**ومن عاد فينتقم الله منه**﴾ أي ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام وبلوغ الحكم الشرعي إليه ﴿**فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام**﴾. قال ابن جريج: قلت لعطاء: ما ﴿**عفا الله عما سلف**﴾؟ قال: عما كان في الجاهلية. قال: قلت: وما ﴿**ومن عاد فينتقم الله منه**﴾؟ قال: ومن عاد في الإسلام فينتقم الله منه، وعليه مع ذلك الكفارة. قال: قلت: فهل في العود حَدٌّ تعلمه؟ قال: لا، قال قلت: فترى حقاً على الإمام أن يعاقبه؟ قال: لا، هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله عز وجل، ولكن يفتدي. وقيل: معناه فينتقم الله منه بالكفارة، قاله سعيد بن جبير وعطاء.

ثم الجمهور من السلف والخلف على أنه متى قتل المحرم الصيد وجب الجزاء، ولا فرق بين الأولى والثانية والثالثة، وإن تكرر ما تكرر سواء الخطأ في ذلك والعمد.

وعن ابن عباس، قال: من قتل شيئاً من الصيد خطأ وهو محرم، يحكم عليه فيه كلما قتله، فإن قتله عمداً يحكم عليه فيه مرة واحدة، فإن عاد يقال له: ينتقم الله منك، كما قال الله عز وجل. وعن ابن عباس أيضا فيمن أصاب صيداً يحكم عليه ثم عاد قال: لا يحكم عليه، ينتقم الله منه. وهكذا قال شريح ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن البصري وإبراهيم النخعي، رواهن ابن جرير، ثم اختار القول الأول. وعن الحسن البصري أن رجلاً أصاب صيداً فتجوز عنه، ثم عاد فأصاب صيداً آخر، فنزلت نار من السماء فأحرقته، فهو قوله: ﴿**ومن عاد فينتقم الله منه**﴾. وقال ابن جرير في قوله: ﴿**والله عزيز ذو انتقام**﴾ يقول، عز ذكره: والله منيع

في سلطانه، لا يقهره قاهر ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع، لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، له العزة والمنعة. وقوله ﴿ذو انتقام﴾ يعني أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

قال ابن عباس في رواية عنه، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير وغيرهم، في قوله: ﴿أحل لكم صيد البحر﴾ يعني ما يصطاد منه طرياً ﴿وطعامه﴾ ما يتزود منه مملحاً يابساً. وقال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه: صيده ما أخذ منه حياً ﴿وطعامه﴾ ما لفظه ميتاً، وهكذا روي عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت رضي الله عنهما، وعكرمة والحسن البصري [وغيرهم].

وعن ابن عباس قال: خطب أبو بكر الناس، فقال: ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم﴾ وطعامه ما قذف. وقال سعيد بن المسيب: طعامه ما لفظه حياً أو حسر عنه فمات. وعن نافع أن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأل ابن عمر، فقال: إن البحر قد قذف حيتاناً كثيرة ميتة، أفنأكلها ؟ فقال: لا تأكلوها، فلما رجع عبد الله إلى أهله، أخذ المصحف فقرأ سورة المائدة فأتى هذه الآية: ﴿وطعامه متاعاً لكم وللسيارة﴾ فقال: اذهب فقل له: فليأكله فإنه طعامه، وهكذا اختار ابن جرير أن المراد بطعامه ما مات فيه. وعن أبي هريرة قال: طعامه ما لفظه ميتاً.

وقوله: ﴿متاعاً لكم وللسيارة﴾ أي منفعة وقوتاً لكم أيها المخاطبون ﴿وللسيارة﴾ وهم جمع سيار، قال عكرمة: لمن كان بحضرة البحر وللسيارة: السَفْر. وقال غيره: الطري منه لمن يصطاده من حاضرة البحر، ﴿وطعامه﴾ ما مات فيه أو اصطيد منه ومُلِّح وقُدِّد، زاداً للمسافرين والنائين عن البحر وقد روي نحوه عن ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم.

وقد استدل الجمهور على حل ميتة البحر بهذه الآية الكريمة، وبما رواه الإمام مالك عن جابر بن عبد الله قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً قبل الساحل، فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلثمائة وأنا فيهم، قال فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش، فجمع ذلك كله فكان مزودي تمر، قال: فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني، فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة فقلت وما تغني تمرة، فقال: فقد وجدنا فقدها حين فنيت، قال: ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الظرب، فأكل منه ذلك الجيش ثماني عشرة ليلة، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا، ثم أمر براحلة فرحلت ومرت تحتهما، فلم تصبهما،

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين.

وروى مالك عن أبي هريرة قال: سأل رجل رسول الله ﷺ، فقال، يا رسول الله، إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»، وقد روى هذا الحديث الإمامان الشافعي وأحمد بن حنبل وأهل السنن الأربعة، وصححه البخاري والترمذي وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم، وقد روي عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ بنحوه.

وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء إلى أنه تؤكل دواب البحر ولم يستثن من ذلك شيئاً. وقد استثنى بعضهم الضفادع وأباح ما سواها، لما رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الضفدع، وللنسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع. [وهو صحيح].

وقال آخرون: يؤكل من صيد البحر السمك، ولا يؤكل الضفدع، واختلفوا فيما سواهما، فقيل: يؤكل سائر ذلك. وقيل: لا يؤكل. وقيل: ما أكل شبهه من البر، أكل مثله في البحر. وما لا يؤكل شبهه لا يؤكل، وهذه كلها وجوه في مذهب الشافعي رحمه الله تعالى.

وقال أبو حنيفة رحمه الله: لا يؤكل مامات في البحر، كما لا يؤكل مامات في البر، لعموم قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ [المائدة:٣].

وقد احتج الجمهور من أصحاب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل بحديث العنبر المتقدم ذكره، وبحديث: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»، وقد تقدم أيضاً.

وروى الإمام أبو عبد الله الشافعي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان: فالحوت والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال». ورواه أحمد وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وله شواهد، وروي موقوفاً، والله أعلم.

وقوله: ﴿وحرّم عليكم صيد البر مادمْتُمْ حرماً﴾ أي في حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد، ففيه دلالة على تحريم ذلك فإذا اصطاد المحرم الصيد متعمداً، أثم وغرم، أو مخطئاً، غرم وحرم عليه أكله، لأنه في حقه كالميتة، وكذا في حق غيره من المحرمين والمحلين، عند مالك والشافعي في أحد قوليه، وبه يقول عطاء والقاسم وسالم وأبو يوسف ومحمد بن الحسن وغيرهم، فإن أكله أو شيئاً منه فهل يلزمه جزاء؟ فيه قولان للعلماء: **أحدهما**: نعم، قال عطاء: إن ذبحه ثم أكله فكفارتان، وإليه ذهب طائفة. **والثاني**: لا جزاء عليه يأكله، نص عليه مالك بن أنس. قال أبو عمر بن عبد البر: وعلى هذا مذاهب فقهاء الأمصار وجمهور العلماء. وقال أبو حنيفة: عليه قيمة ما أكل. وقال أبو ثور: إذا قتل المحرم الصيد فعليه جزاؤه وحلال أكل ذلك الصيد، إلا أنني أكرهه للذي قتله للخبر عن رسول الله ﷺ: «صيد البر لكم حلال ما لم تصيدوه أو يصد لكم». [رواه أحمد وأبوداود

والترمذي والنسائي وفيه انقطاع]. وقوله بإباحته للقاتل غريب. وأما لغيره ففيه خلاف قد ذكرنا المنع عمن تقدم، وقال آخرون بإباحته لغير القاتل سواء المحرمون والمحلون لهذا الحديث، والله أعلم.

وأما إذا صاد حلال صيداً، فأهداه إلى محرم، فقد ذهب ذاهبون إلى إباحته مطلقاً، ولم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده من أجله أم لا، حكى هذا القول أبو عمر بن عبد البر، عن عمر بن الخطاب وأبي هريرة والزبير بن العوام وكعب الأحبار ومجاهد وعطاء في رواية، وسعيد بن جبير، قال وبه قال الكوفيون. روى ابن جرير عن أبي هريرة أنه سئل عن لحم صيد صاده حَلال، أيأكله المُحرم؟ قال: فأفتاهم بأكله، ثم لقي عمر بن الخطاب فأخبره بما كان من أمره، فقال: لو أفتيتهم بغير هذا لأوجعت لك رأسك. وقال آخرون: لا يجوز أكل الصيد للمحرم بالكلية، ومنعوا من ذلك مطلقاً لعموم هذه الآية الكريمة.

فعن ابن عباس أنه كره أكل الصيد للمحرم، وقال: هي مبهمة يعني قوله ﴿وحرّم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً﴾. وعن ابن عمر أنه كان يكره للمحرم أن يأكل من لحم الصيد على كل حال. قال ابن عبد البر: وبه قال طاوس وجابر بن زيد، وإليه ذهب الثوري وإسحاق بن راهويه في رواية، وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه كره أكل لحم الصيد للمحرم على كل حال.

وقال مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه في رواية والجمهور: إن كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد لم يجز للمحرم أكله لحديث الصعب بن جثامة أنه أهدى للنبي ﷺ حماراً وحشياً وهو بالأبواء أو بِودَّان، فرده عليه، فلما رأى ما في وجهه قال: «إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم» وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، قالوا: فوجهه أن النبي ﷺ ظن أن هذا إنما صاده من أجله، فرده لذلك، فأما إذا لم يقصده بالاصطياد فإنه يجوز له الأكل منه لحديث أبي قتادة حين صاد حمار وحش، وكان حلالاً لم يحرم، وكان أصحابه محرمين، فتوقفوا في أكله ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال: «هل كان منكم أحد أشار إليها أو أعان في قتلها؟» قالوا: لا. قال «فكلوا». وأكل منها رسول الله ﷺ، وهذه القصة ثابتة أيضاً في الصحيحين. وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة، قال: رأيت عثمان بن عفان بالعَرْج وهو محرم في يوم صائف قد غطى وجهه بقطيفة أرجوان، ثم أتى بلحم صيد، فقال لأصحابه: كلوا، فقالوا: أولا تأكل أنت؟ فقال: إني لست كهيئتكم إنما صيد من أجلي.

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿قل﴾ يا محمد ﴿لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك﴾ أي

يا أيها الإنسان ﴿كثرة الخبيث﴾ يعني أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار، كما جاء في الحديث: «ما قل وكفى خير مما كثر وألهى». [أخرجه أبو يعلى وغيره وصححه الألباني].

﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ أي يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة، وتجنبوا الحرام ودعوه واقنعوا بالحلال واكتفوا به، ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها، لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم سماعها، وروى البخاري عن أنس بن مالك قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال فيها: «لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً». قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم خنين، فقال رجل: من أبي؟ قال «فلان» فنزلت هذه الآية ﴿لا تسألوا عن أشياء﴾.

وقد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من السلف، منهم السدي قال في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ قال: غضب رسول الله ﷺ يوماً من الأيام، فقام خطيباً فقال: «سلوني فإنكم لا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به» فقام إليه رجل من قريش من بني سهم يقال له عبد الله بن حذافة، وكان يُطْعَن فيه، فقال: يا رسول الله، من أبي؟ فقال: أبوك فلان، فدعاه لأبيه، فقام إليه عمر بن الخطاب، فقبل رجله وقال: يا رسول الله، رضينا بالله رباً، وبك نبياً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، فاعف عنا عفا الله عنك، فلم يزل به حتى رضي فيومئذ قال: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر».

وظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا علم بها الشخص ساءته، فالأولى الإعراض عنها وتركها، وما أحسن الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر». الحديث، وقد رواه أبو داود والترمذي، وقال: غريب من هذا الوجه.

وقوله: ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ أي وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيتم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على الرسول ﷺ تُبَيَّن لكم وذلك على الله يسير، ثم قال: ﴿عفا الله عنها﴾ أي عما كان منكم قبل ذلك ﴿والله غفور حليم﴾. وقيل: المراد بقوله ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ أي لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها، فلعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق، وقد ورد في الحديث: «أعظم المسلمين جُرْماً من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته». [متفق عليه] ولكن إذا نزل القرآن بها مجملة فسألتم عن بيانها، حينئذ تبينت لكم لاحتياجكم إليها، ﴿عفا الله عنها﴾ أي

ما لم يذكره في كتابه فهو مما عفا عنه، فاسكتوا أنتم عنها كما سكت عنها، وفي صحيح [مسلم] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ذروني ما تُرِكتُم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم».

ثم قال: ﴿قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾ أي قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قوم من قبلكم فأجيبوا عنها، ثم لم يؤمنوا بها، فأصبحوا بها كافرين أي بسببها، أي بيّنت لهم فلم ينتفعوا بها لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد وإنما سألوا على وجه التعنت والعناد.

وقال ابن عباس: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ قال: لما نزلت آية الحج، نادى النبي ﷺ في الناس فقال: «يا أيها الناس إن الله قد كتب عليكم الحج فحجوا» فقالوا: يا رسول الله، أعاماً واحداً، أم كل عام؟ فقال: «لا بل عاماً واحداً، ولو قلت: كل عام لوجبت، ولو وجبت لكفرتم». ثم قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء﴾ إلى قوله ﴿ثم أصبحوا بها كافرين﴾. وعن ابن عباس: ﴿لا تسألوا عن أشياء﴾ قال: هي البحيرة والوصيلة والسائبة والحام، ألا ترى أنه يقول بعد ذلك: ما جعل الله من بحيرة ولا كذا ولا كذا، وعن عكرمة قال: إنهم كانوا يسألونه عن الآيات فنهوا عن ذلك، ثم قال: ﴿قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾. يعني عكرمة رحمه الله أن المراد بهذا النهي عن سؤال وقوع الآيات، كما سألت قريش أن يجري لهم أنهاراً، وأن يجعل لهم الصفا ذهباً وغير ذلك، وكما سألت اليهود أن ينزل عليهم كتاباً من السماء. وقد قال الله تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ [الإسراء: ٥٩].

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

روى البخاري عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يُمنع دَرّها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء. قال: وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قُصْبَه في النار، كان أول من سيب السوائب» والوصيلة: الناقة البكر تُبَكّر في أول نتاج الإبل، ثم تُثَنّ بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر، والحام: فحل الإبل يَضربُ الضِرابَ المعدود، فإذا قضى ضرابه وَدَعُوه للطواغيت وأعفوه عن الحَمْل، فلم يحمل عليه شيء، وسموه الحامي، وكذا رواه مسلم.

ثم روى البخاري عن عائشة عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، ورأيت عمراً يجر قصبه وهو أول من سيب السوائب».

فعمرو هذا هو ابن لحي بن قَمَعَة، أحد رؤساء خزاعة الذين ولُوا البيت بعد جُرْهم وكان أول من غير دين إبراهيم الخليل، فأدخل الأصنام إلى الحجاز، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب بها، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام عند قوله تعالى: **﴿وجعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾** [الأنعام:١٣٦] إلى آخر الآيات في ذلك.

فأما البحيرة، فقال ابن عباس: هي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، نظروا إلى الخامس، فإن كان ذكراً ذبحوه، فأكله الرجال دون النساء، وإن كان أنثى جدعوا آذانها، فقالوا: هذه بحيرة. وذكر السدي وغيره قريباً من هذا، وأما السائبة فقال مجاهد هي من الغنم نحو ما فسر من البحيرة إلا أنها ما ولدت من ولد بينها وبينه ستة أولاد، كانت على هيئتها، فإذا ولدت السابع ذكراً أو ذكرين ذبحوه، فأكله رجالهم دون نسائهم وقال محمد بن إسحاق. السائبة هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر، سيبت فلم تركب ولم يجز وبرها ولم يحلب لبنها إلا لضيف. وقال أبو روق: السائبة كان الرجل إذا خرج فقضيت حاجته، سيب من ماله ناقة أو غيرها، فجعلها للطواغيت، فما ولدت من شيء كان لها. وقال السدي: كان الرجل منهم إذا قضيت حاجته، أو عوفي من مرض، أو كثر ماله، سَيَّب شيئاً من ماله للأوثان، فمن عرض له من الناس عوقب بعقوبة في الدنيا.

وأما الوصيلة، فقال ابن عباس: هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن، نظروا إلى السابع، فإن كان ذكراً أو أنثىٰ وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء، وإن كان أنثى استحيوها، وإن كان ذكراً وأنثى في بطن واحد استحيوهما وقالوا: وصلته أخته فحرمته علينا. وعن سعيد بن المسيب: **﴿ولا وصيلة﴾**، قال: فالوصيلة من الإبل كانت الناقة تبتكر بأنثى، ثم تثنى بأنثى فيسمونها الوصيلة، ويقولون: وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر، فكانوا يجدعونها لطواغيتهم، وكذا روي عن الإمام مالك بن أنس رحمه الله. وقال محمد بن إسحاق: الوصيلة من الغنم إذا ولدت عشر إناث في خمسة أبطن، توأمين توأمين في كل بطن سميت الوصيلة وتركت، فما ولدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى جعلت للذكور دون الإناث، وإن كانت ميتة اشتركوا فيها.

وأما الحام: فعن ابن عباس، قال: كان الرجل إذا لقح فحله عشراً قيل: حام فاتركوه، وكذا قال أبو روق وقتادة. وقال ابن عباس [أيضا]: وأما الحام فالفحل من الإبل إذا وُلد لولده قالوا: حمى هذا ظهره، فلا يحملون عليه شيئاً ولا يجزون له وبراً، ولا يمنعونه من حمى رعي، ومن حوض يشرب منه، وإن كان الحوض لغير صاحبه. وعن مالك قال: أما الحام فمن الإبل، كان يضرب في الإبل فإذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيّبوه، وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية.

وقوله: **﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾** أي ما شرع الله

هذه الأشياء ولا هي عنده قربة، ولكن المشركين افتروا ذلك وجعلوه شرعاً لهم، وقربة يتقربون بها إليه، وليس ذلك بحاصل لهم بل هو وبال عليهم **﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾** أي إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه، وتَرْك ما حرمه، قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك. قال الله تعالى: **﴿أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً﴾** أي لا يفهمون حقاً ولا يعرفونه ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم والحالة هذه، لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم وأضل سبيلاً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم، ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس، سواء كان قريباً منه أو بعيداً. قال ابن عباس: يقول تعالى: إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال والحرام، ونهيته عنه، فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به، وهكذا قال مقاتل بن حيان، فقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾** نصب على الإغراء، **﴿لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون﴾** أي فيجازي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وليس في الآية مستَدل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا كان فعل ذلك ممكناً.

وقد روى الإمام أحمد عن قيس قال: قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية **﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾** إلى آخر الآية وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه، أوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه». قال: وسمعت أبا بكر يقول: يا أيها الناس إياكم والكذب، فإن الكذب مجانب للإيمان، وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة، وابن حبان في صحيحه، وغيرهم من طرق كثيرة عن جماعة كثيرة.

وروى أبو عيسى الترمذي عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخُشَني فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾** قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام، فإن من ورائكم أياماً، الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم» قال عبد الله بن المبارك: وزاد غير عتبة، قيل: يا رسول الله،

أجر خمسين رجلاً منا أو منهم؟ قال: «بل أجر خمسين منكم»، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح، وكذا رواه أبو داود. وعن ابن مسعود أنه سأله رجل عن قول الله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾، فقال: إن هذا ليس بزمانها، إنها اليوم مقبولة، ولكنه قد أوشك أن يأتي زمانها، تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا، أو قال: فلا يقبل منكم، فحينئذ ﴿**عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل**﴾.

وروى ابن جرير عن سفيان بن عقال قال: قيل لابن عمر: لو جلست في هذه الأيام، فلم تأمر ولم تنه، فإن الله قال ﴿**عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾ فقال ابن عمر: إنها ليست لي ولا لأصحابي، لأن رسول الله ﷺ قال: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب» فكنا نحن الشهود وأنتم الغُيّب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم. وروى أيضاً عن سوار بن شبيب قال: كنت عند ابن عمر إذ أتاه رجل جليد العين شديد اللسان، فقال: يا أبا عبد الرحمن، نفر ستة كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه، وكلهم مجتهد لا يألو، وكلهم بغيض إليه أن يأتي دناءة، وهم في ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك، فقال رجل من القوم: وأي دناءة تريد أكثر من أن يشهد بعضهم على بعض بالشرك؟ فقال الرجل: إني لست إياك أسأل، إنما أسأل الشيخ، فأعاد على عبد الله الحديث فقال عبد الله: لعلك ترى - لا أبا لك - إني سآمرك أن تذهب فتقتلهم، عظهم وانههم، فإن عصوك فعليك بنفسك، فإن الله عز وجل يقول: ﴿**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم**﴾ الآية.

وعن جبير بن نفير قال: كنت في حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ، وإني لأصغر القوم، فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقلت أنا: أليس الله يقول في كتابه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾؟ فأقبلوا عليَّ بلسان واحد، وقالوا: تنزع آية من القرآن ولا تعرفها ولا تدري ما تأويلها؟ فتمنيت أني لم أكن تكلمت، وأقبلوا يتحدثون فلما حضر قيامهم قالوا: إنك غلام حَدَثُ السن، وإنك نزعت بآية ولا تدري ماهي، وعسى أن تدرك ذلك الزمان، إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوىً متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك، لا يضرك من ضل إذا اهتديت.

وعن ضَمْرَة بن ربيعة قال: تلا الحسن هذه الآية: ﴿**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾ فقال الحسن: الحمد لله بها، والحمد لله عليها، ما كان مؤمن فيما مضى ولا مؤمن فيما بقي إلا وإلى جنبه منافق يكره عمله. وقال سعيد بن المسيب: إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، فلا يضرك من ضل إذا اهتديت.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ

مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز قيل إنه منسوخ، روي عن ابن عباس وإبراهيم النخعي. وقال آخرون: وهم الأكثرون فيما قاله ابن جرير: بل هو محكم، ومن ادعى نسخه فعليه البيان، فقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان**﴾ هذا هو الخبر لقوله ﴿**شهادة بينكم**﴾، فقيل: تقديره شهادة اثنين حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، وقيل: دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان. وقوله: ﴿**ذوا عدل**﴾ وصف الاثنين بأن يكونا عدلين. وقوله: ﴿**منكم**﴾ أي من المسلمين. ورُوي عن عبيدة والحسن ومجاهد والسدي وقتادة وغيرهم نحو ذلك.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: عني ذلك ﴿**ذوا عدل منكم**﴾ أي من حَي الموصي، وذلك قول روي عن عكرمة وعبيدة وعدة غيرهما.

وقوله: ﴿**أو آخران من غيركم**﴾ عن ابن عباس قال: من غير المسلمين، يعني أهل الكتاب، وروي عن عبيدة ومحمد بن سيرين ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وقتادة وغيرهم، نحو ذلك.

وعلى ما حكاه ابن جرير عن عكرمة وعبيدة في قوله ﴿**منكم**﴾ أي المراد من قبيلة الموصي يكون المراد ههنا ﴿**أو آخران من غيركم**﴾ أي من غير قبيلة الموصي. وقد روى مثله عن الحسن البصري والزهري رحمهما الله.

وقوله: ﴿**إن أنتم ضربتم في الأرض**﴾ أي سافرتم ﴿**فأصابتكم مصيبة الموت**﴾ وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين أن يكون ذلك في سفر، وأن يكون في وصية، كما صرح بذلك شريح القاضي. فعن شريح قال: لا تجوز شهادة اليهود والنصارى إلا في سفر، ولا تجوز في سفر إلا في وصية.

وقد روي مثله عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، وهذه المسألة من أفراده، وخالفه الثلاثة فقالوا: لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين، وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضاً.

وعن الزهري قال: مضت السُّنة أنه لا تجوز شهادة الكافر في حضر ولا سفر، إنما هي في المسلمين.

وقال ابن زيد: نزلت هذه الآية في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام، وذلك في أول الإسلام، والأرض حرب، والناس كفار، وكان الناس يتوارثون بالوصية ثم نسخت الوصية، وفرضت الفرائض وعمل الناس بها، رواه ابن جرير، وفي هذا نظر، والله أعلم.

وقال ابن جرير: اختلف في قوله: ﴿**شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم**﴾ هل المراد أن يوصي إليهما أو يشهدهما ؟ على قولين: **أحدهما**: أن يوصي إليهما، روي عن ابن مسعود أنه قال: هذا رجل سافر ومعه مال، فأدركه قدره، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته، وأشهد عليهما عدلين من المسلمين، رواه ابن أبي حاتم وفيه انقطاع. **والقول الثاني**: أنهما يكونان شاهدين، وهو ظاهر سياق الآية الكريمة فإن لم يكن وصي ثالث معهما، اجتمع فيهما الوصفان: الوصاية والشهادة، كما في قصة تميم الداري وعدي بن بداء، كما سيأتي ذكرهما إن شاء الله وبه التوفيق.

وقد استشكل ابن جرير كونهما شاهدين قال: لأنا لا نعلم حكماً يحلف فيه الشاهد، وهذا لايمنع الحكم الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، وهو حكم مستقل بنفسه لا يلزم أن يكون جارياً على قياس جميع الأحكام، على أن هذا حكم خاص، بشهادة خاصة، في محل خاص، وقد اغتفر فيه من الأمور مالم يغتفر في غيره، فإذا قامت قرائن الريبة، حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿**تحبسونهما من بعد الصلاة**﴾ عن ابن عباس: يعني صلاة العصر، وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وعكرمة [وغيرهم]. وقال الزهري: يعني صلاة المسلمين. وقال السدي، عن ابن عباس: يعني صلاة أهل دينهما. والمقصود أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم ﴿**فيقسمان بالله**﴾ أي فيحلفان بالله ﴿**إن ارتبتم**﴾ أي إن ظهرت لكم منهما ريبة أنهما قد خانا أو غلا، فيحلفان حينئذ بالله ﴿**لا نشتري به**﴾ أي بأيماننا، قاله مقاتل بن حيان ﴿**ثمناً**﴾ أي لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ﴿**ولو كان ذا قربى**﴾ أي ولو كان المشهود عليه قريباً إلينا لا نحابيه ﴿**ولا نكتم شهادة الله**﴾ أضافها إلى الله تشريفاً لها وتعظيماً لأمرها، وقرأ بعضهم ﴿**ولا نكتم شهادة الله**﴾ مجروراً على القسم رواها ابن جرير، عن عامر الشعبي، ﴿**إنا إذاً لمن الآثمين**﴾ أي إن فعلنا شيئاً من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها بالكلية.

ثم قال تعالى: ﴿**فإن عثر على أنهما استحقا إثماً**﴾ أي فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين أنهما خانا أو غلا شيئاً من المال الموصى به إليهما، وظهر عليهما بذلك ﴿**فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان**﴾. أي متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهما، فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة، وليكونا من أوْلى من يرث ذلك المال ﴿**فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما**﴾ أي لقولنا أنهما خانا، أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿**وما اعتدينا**﴾ أي فيما قلنا من الخيانة، ﴿**إنا إذاً لمن الظالمين**﴾ أي إن كنا قد كذبنا عليهما، وهذا التحليف للورثة والرجوع إلى قولهما والحالة هذه، كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لَوْث في جانب القاتل، فيقسم المستحقون على القاتل

فيدفع برمته إليهم كما هو مقرر في باب القسامة من الأحكام.

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، فعن تميم الداري في هذه الآية ﴿**يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت**﴾ قال: بريء الناس منها غيري وغير عَدي بن بَدَّاء، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتيا الشام لتجارتهما، وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بُدَيْل بن أبي مريم بتجارة، ومعه جام من فضة يريد به الملك، وهو عُظْم تجارته، فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله. قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم، ثم اقتسمناه أنا وعدي بن بدّاء، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، وفقدوا الجام، فسألونا عنه، قلنا: ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره. قال تميم: فلما أسلمت بعد قدوم النبي ﷺ المدينة، تأثمت من ذلك، فأتيت أهله، فأخبرتهم الخبر، ودفعت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها، فوثبوا إليه، أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه، فحلف، فأنزل الله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم**﴾ إلى قوله ﴿**فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما**﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم، فحلفا، فنزعت الخمسمائة من عدي بن بدّاء، وهكذا رواه أبو عيسى الترمذي [وضعفه ورواه هو وأبوداود عن ابن عباس أخصر منه وقال: حسن غريب].

وقد ذكر هذه القصة مرسلة غيرُ واحد من التابعين منهم عكرمة ومحمد بن سيرين وقتادة، وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر، رواه ابن جرير، وكذا ذكرها مرسلة مجاهد والحسن والضحاك، وهذا يدل على اشتهارها في السلف وصحتها، ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضاً ما رواه أبو جعفر بن جرير عن الشعبي أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدَقُوقا، قال: فحضرته الوفاة ولم يجد أحداً من المسلمين يشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، قال: فقدما الكوفة، فأتيا الأشعري يعني أبا موسى الأشعري رضي الله عنه، فأخبراه، وقدما بتركته ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد النبي ﷺ، قال: فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا، ولا كذبا، ولا بدلا، ولا كتما، ولا غيرا، وإنها لوصية الرجل وتركته. قال: فأمضى شهادتها، وهذا إسناده صحيح إلى الشعبي، عن أبي موسى الأشعري.

فقوله: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ الظاهر ـ والله أعلم ـ أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدي بن بداء، وقد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الداري رضي الله عنه، كان في سنة تسع من الهجرة، فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخراً يحتاج مدعي نسخه إلى دليل فاصل في هذا المقام، والله أعلم.

وقال السدي: ﴿**يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم**﴾ قال: هذا في الوصية عند الموت، يوصي ويشهد رجلين من المسلمين

على ماله وما عليه، قال: هذا في الحضر ﴿أو آخران من غيركم﴾ في السفر ﴿إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت﴾ هذا الرجل يدركه الموت في سفره، وليس بحضرته أحد من المسلمين، فيدعو رجلين من اليهود والنصارى والمجوس، فيوصي إليهما ويدفع إليهما ميراثه، فيُقبلان به، فإن رضي أهل الميت الوصية وعرفوا مال صاحبهم، تركوهما، وإن ارتابوا، رفعوهما إلى السلطان، فذلك قوله تعالى: ﴿تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم﴾ قال عبد الله بن عباس: كأني أنظر إلى العلْجين حين انتُهي بهما إلى أبي موسى الأشعري في داره، ففتح الصحيفة، فأنكر أهل الميت وخَوّنوهما، فأراد أبو موسى أن يستحلفهما بعد العصر، فقلت: إنهما لا يباليان صلاة العصر، ولكن استحلفهما بعد صلاتهما في دينهما، فَيُوقَفُ الرجلان بعد صلاتهما في دينهما فيحلفان بالله لا نشتري به ثمناً قليلاً ولو كان ذا قربى، ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين، أن صاحبهم لبهذا أوصى، وأن هذه لتركته، فيقول لهما الإمام قبل أن يحلفا: إنكما إن كتمتما أو خنتما فضحتكما في قومكما، ولم تجز لكما شهادة وعاقبتكما، فإذا قال لهما ذلك فإن ﴿ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ رواه ابن جرير. [وعن النخعي وابن جبير نحوه بأخصر منه].

وهكذاقرر هذا الحكم على مقتضى هذه الآية غير واحد من أئمة التابعين والسلف رضي الله عنهم، وهو مذهب الإمام أحمد رحمه الله.

وقوله: ﴿ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ أي شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي من تحليف الشاهدين الذميين، واستريب بهما أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضي. وقوله: ﴿أو يخافوا أن تردّ أيمان بعد أيمانهم﴾ أي يكون الحامل لهم على الإتيان بها على وجهها وهو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه وإجلاله، والخوف من الفضيحة بين الناس إذا ردت اليمين على الورثة، فيحلفون ويستحقون ما يدعون، ولهذا قال ﴿أو يخافوا أن تردّ أيمان بعد أيمانهم﴾، ثم قال: ﴿واتقوا الله﴾ أي في جميع أموركم، ﴿واسمعوا﴾ أي وأطيعوا، ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته.

﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

وهذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلهم إليهم، كما قال تعالى: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ [الأعراف:٦]، وقال تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ [الحجر:٩٢-٩٣]، وقول الرسل: ﴿لا علم لنا﴾، قال مجاهد والحسن البصري والسدي: إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم.

وعن ابن جريج قوله: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم﴾ ماذا عملوا بعدكم وماذا أحدثوا بعدكم؟ قالوا: ﴿لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾. وقال ابن عباس: يقولون للرب عز وجل: لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا، رواه ابن جرير، ثم اختاره على هذه الأقوال

الثلاثة، ولا شك أنه قول حسن، وهو من باب التأدب مع الرب جل جلاله، أي لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فنحن وإن كنا قد أجبنا وعرفنا من أجابنا، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء، المطلع على كل شيء، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كَلاَ علم، فإنك ﴿**أنت علام الغيوب**﴾.

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

يذكر تعالى ما امتنّ به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم مما أجراه على يديه من المعجزات وخوارق العادات، فقال: ﴿**إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك**﴾ أي في خلقي إياك من أم بلا ذكر، وجعلي إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء، ﴿**وعلى والدتك**﴾ حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبه الظالمون الجاهلون إليها من الفاحشة، ﴿**إذ أيدتك بروح القدس**﴾ وهو جبريل عليه السلام، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرك وكبرك، فأنطقتك في المهد صغيراً، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، واعترفت لي بالعبودية، وأخبرت عن رسالتي إياك ودعوت إلى عبادتي، ولهذا قال تعالى: ﴿**تكلم الناس في المهد وكهلاً**﴾ أي تدعو إلى الله الناس في صغرك وكبرك وضمّن تكلم تدعو، لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب.

وقوله: ﴿**وإذ علمتك الكتاب والحكمة**﴾ أي الخط والفهم ﴿**والتوراة**﴾ وهي المنزلة على موسى بن عمران الكليم، وقد يرد لفظ التوراة في الحديث، ويراد به ما هو أعم من ذلك. وقوله: ﴿**وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني**﴾ أي تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك، فيكون طيراً بإذني أي فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك فتكون طيراً ذا روح تطير بإذن الله وخلقه.

وقوله: ﴿**وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني**﴾ قد تقدم الكلام على ذلك في سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته. وقوله: ﴿**وإذ تخرج الموتى بإذني**﴾ أي تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيئته.

وقوله: ﴿**وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين**﴾ أي واذكر نعمتي عليك في كفي إياهم عنك حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم، فكذبوك واتهموك بأنك ساحر، وسعوا في قتلك وصلبك فنجيتك منهم، ورفعتك إلي، وطهرتك من دنسهم، وكفيتك شرهم، وهذا يدل على أن

هذا الامتنان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء الدنيا، أو يكون هذا الامتنان واقعاً يوم القيامة، وعبر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة، وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع الله عليها رسوله محمداً ﷺ.

وقوله: ﴿**وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي**﴾ وهذا أيضاً من الامتنان عليه، عليه السلام، بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً، ثم قيل: المراد بهذا الوحي وحي إلهام، كما قال تعالى: ﴿**وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه**﴾ الآية[القصص:٧]، وهو وحي إلهام بلا خلاف، وكما قال تعالى: ﴿**وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً**﴾ الآية[النحل:٦٨-٦٩]. وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية ﴿**وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون**﴾ أي ألهموا ذلك، فامتثلوا ما ألهموا. قال الحسن البصري: ألهمهم الله عز وجل ذلك. وقال السدي: قذف في قلوبهم ذلك، ويحتمل أن يكون المراد وإذ أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك، فقالوا ﴿**آمنا بالله واشهد بأننا مسلمون**﴾.

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

هذه قصة المائدة وإليها تنسب السورة، فيقال سورة المائدة، وهي مما امتنّ الله به على عبده ورسوله عيسى لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزلها الله آية ودلالة باهرة وحجة قاطعة، وقد ذكر بعض الأئمة أن قصتها ليست مذكورة في الإنجيل، ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين، فالله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿**إذ قال الحواريون**﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿**يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك**﴾ هذه قراءة كثيرين، وقرأ آخرون: «هل تستطيع ربك» أي هل تستطيع أن تسأل ربك ﴿**أن ينزل علينا مائدة من السماء**﴾ والمائدة هي الخوان عليه طعام، وذكر بعضهم: أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقرهم، فسألوا أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها ويتقوون بها على العبادة ﴿**قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين**﴾ أي فأجابهم المسيح عليه السلام قائلاً لهم: اتقوا الله ولا تسألوا هذا فعساه أن يكون فتنة لكم، وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين، ﴿**قالوا نريد أن نأكل منها**﴾ أي نحن محتاجون إلى الأكل منها، ﴿**وتطمئن قلوبنا**﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء، ﴿**ونعلم أن قد صدقتنا**﴾ أي ونزداد إيماناً بك وعلماً

برسالتك ﴿**ونكون عليها من الشاهدين**﴾ أي ونشهد أنها آية من عند الله، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به. ﴿**قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا**﴾ قال السدي: أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا، وقال سفيان الثوري: يعني يوماً نصلي فيه. وقال قتادة: أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم. وعن سلمان الفارسي: عظة لنا ولمن بعدنا. وقيل: كافية لأولنا وآخرنا ﴿**وآية منك**﴾ أي دليلاً تنصبه على قدرتك على الأشياء وعلى إجابتك لدعوتي، فيصدقوني فيما أبلغه عنك، ﴿**وارزقنا**﴾ أي من عندك رزقاً هنيئاً بلا كلفة ولا تعب ﴿**وأنت خير الرازقين قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم**﴾ أي فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها، ﴿**فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين**﴾ اي من عالمي زمانكم، كقوله: ﴿**ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب**﴾ [غافر:٤٦]، وقوله: ﴿**إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار**﴾ [النساء:١٤٥].

وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو قال: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون.

وعن ابن عباس أنه كان يحدث عن عيسى ابن مريم أنه قال لبني إسرائيل: هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً، ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم، فإن أجر العامل على من عمل له، ففعلوا ثم قالوا: يا معلم الخير، قلت لنا: إن أجر العامل على من عمل له، وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً ففعلنا، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا حين نفرغ طعاماً، فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال عيسى ﴿**اتقوا الله إن كنتم مؤمنين * قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين * قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين * قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين**﴾ قال: فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات، وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم.

والآثار دالة على أن المائدة نزلت على بني إسرائيل أيام عيسى بن مريم، إجابة من الله لدعوته، وكما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم ﴿**قال الله إني منزلها عليكم**﴾ الآية.

وقد قال قائلون: إنها لم تنزل، فعن مجاهد في قوله: ﴿**أنزل علينا مائدة من السماء**﴾، قال: هو مثل ضرب ولم ينزل شيء، وعن مجاهد [أيضا] قال: مائدة عليها طعام أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا، فأبوا أن تنزل عليهم، وعن الحسن أنه قال في المائدة: لم تنزل، وهذه أسانيدها صحيحة إلى مجاهد والحسن، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة

لا تعرفه النصارى، وليس هو في كتابهم، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما يتوفر الدواعي على نقله، وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً، ولا أقل من الآحاد، والله أعلم، ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت، وهو الذي اختاره ابن جرير، قال: لأنه تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى ﴿**إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين**﴾ قال: ووعد الله ووعيده حق وصدق، وهذا القول هو ـ والله أعلم ـ الصواب كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم.

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك. قال: «وتفعلون ؟» قالوا نعم. قال فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. قال: «بل باب التوبة والرحمة». [وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح].

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾.

هذا أيضاً مما يخاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله ﴿**وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله**﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد، هكذا قاله قتادة وغيره، واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى: ﴿**هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم**﴾ وقال السدي: هذا الخطاب والجواب في الدنيا، قال ابن جرير: وهذا هو الصواب، وكان ذلك حين رفعه إلى سماء الدنيا واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين أحدهما: أن الكلام بلفظ المضي. **والثاني**: قوله: ﴿**إن تعذبهم**﴾ و ﴿**وإن تغفر لهم**﴾ وهذان الدليلان فيهما نظر، لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ المضي ليدل على الوقوع والثبوت. ومعنى قوله ﴿**إن تعذبهم فإنهم عبادك**﴾ الآية، التبري منهم، ورد المشيئة فيهم إلى الله، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه كما في نظائر ذلك من الآيات، والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر، والله أعلم: أن ذلك كائن يوم القيامة ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة.

وقوله: ﴿**سبحانك ما يكون لي أن أقول ماليس لي بحق**﴾ هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل، كما روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: يُلَقّى عيسى حجته، ولقّاه الله تعالى في قوله: ﴿**وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله**﴾

قال أبو هريرة، عن النبي ﷺ: فلقاه الله ﴿**سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق**﴾ إلى آخر الآية. [ورجاله ثقات].

وقوله: ﴿**إن كنت قلته فقد علمته**﴾ أي إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب، فإنه لا يخفى عليك شيء، فما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته، ولهذا قال: ﴿**تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتني به**﴾ بإبلاغه ﴿**أن اعبدوا الله ربي وربكم**﴾ أي ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه ﴿**أن اعبدوا الله ربي وربكم**﴾ أي هذا هو الذي قلت لهم. وقوله ﴿**وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم**﴾ أي كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم ﴿**فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد**﴾.

روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة، عراة غرلاً، كما بدأنا أول خلق نعيده، وإن أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿**وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد * إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**﴾ فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم» ورواه البخاري عند هذه الآية.

وقوله: ﴿**إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل، فإنه الفعال لما يشاء، الذي لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله، وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وهذه الآية لها شأن عظيم، ونبأ عجيب.

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي ﷺ تلا قول عيسى: ﴿**إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**﴾ فرفع يديه، فقال «اللهم أمتي» وبكى، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فاسأله ما يبكيه، فأتاه جبريل فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك. [ورواه مسلم].

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام، فيما أنهاه إليه من التبري من النصاري الملحدين الكاذبين على الله وعلى رسوله، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل، فعند ذلك يقول تعالى: ﴿**هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم**﴾ عن ابن عباس يقول: يوم ينفع

الموحدين توحيدهم، ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾ أي ماكثين فيها لا يحولون ولا يزولون، رضي الله عنهم ورضوا عنه كما قال تعالى: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ [التوبة: ٧٢].

وقوله: ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ أي هذا هو الفوز الكبير الذي لا أعظم منه، كما قال تعالى: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ [الصافات: ٦١]، وكما قال ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ [المطففين: ٢٦].

وقوله: ﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير﴾ أي هو الخالق للأشياء، المالك لها، المتصرف فيها، القادر عليها، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته، وفي مشيئته، فلا نظير له، ولا وزير، ولا عديل، ولا والد، ولا ولد، ولاصاحبة، ولا إله غيره، ولا رب سواه. عن عبد الله بن عمرو، قال آخر سورة أنزلت سورة المائدة.

تفسير سورة الأنعام

وهي مكية وآياتها مائة وخمس وستون آية. قال العوفي وعكرمة وعطاء عن ابن عباس: أنزلت سورة الأنعام بمكة.

وعن عبد الله [بن مسعود] قال: نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفاً من الملائكة. وروى الحاكم في مستدركه عن جابر قال: لما نزلت سورة الأنعام، سبح رسول الله ﷺ ثم قال: «لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق» ثم قال صحيح على شرط مسلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مادحاً نفسه الكريمة وحامداً لها على خلقه السموات والأرض قراراً لعباده. وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم، فجمع لفظ الظلمات، ووحد لفظ النور، لكونه أشرف، كما قال: ﴿عن اليمين والشمائل﴾ [النحل: ٤٨]، وكما قال في آخر هذه السورة: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقوله: ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ أي ومع هذا كله كفر به بعض عباده، وجعلوا معه شريكاً وعدلاً، واتخذوا له صاحبة وولداً، تعالى عن ذلك علواً كبيراً. وقوله: ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ يعني أباهم آدم، الذي هو أصلهم، ومنه خرجوا فانتشروا في المشارق والمغارب. وقوله: ﴿ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده﴾ عن ابن عباس: ﴿ثم قضى أجلاً﴾ يعني الموت ﴿وأجل مسمى عنده﴾ يعني الآخرة، وهكذا روي عن مجاهد وعكرمة والحسن

وغيرهم، وقول الحسن في رواية عنه: ﴿**ثم قضى أجلاً**﴾ قال: ما بين أن يخلق إلى أن يموت ﴿**وأجل مسمى عنده**﴾ ما بين أن يموت إلى أن يبعث، هو يرجع إلى ما تقدم، وهو تقدير الأجل الخاص، وهو عمر كل إنسان وتقدير الأجل العام، وهو عمر الدنيا بكمالها، ثم انتهائها وانقضائها وزوالها، ! وانتقالها والمصير إلى الدار الآخرة، وعن ابن عباس ومجاهد: ﴿**ثم قضى أجلاً**﴾ يعني مدة الدنيا، ﴿**وأجل مسمى عنده**﴾ يعني عمر الإنسان إلى حين موته، وكأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا ﴿**وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم**﴾ الآية[الأنعام: ٦٠].

ومعنى قوله: ﴿**عنده**﴾ أي لا يعلمه إلا هو، كقوله ﴿**إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو**﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وكقوله: ﴿**يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها**﴾ [النازعات: ٤٢-٤٤].

وقوله: ﴿**ثم أنتم تمترون**﴾ قال السدي وغيره: يعني تشكون في أمر الساعة، وقوله: ﴿**وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون**﴾ اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال، بعد اتفاقهم على تخطئة قول الجهمية الأول القائلين، تعالى عن قولهم علواً كبيراً، بأنه في كل مكان، حيث حملوا الآية على ذلك، فأصح الأقوال: أنه المدعو الله في السموات وفي الأرض، أي يعبده ويوحده ويقرّ له بالإلهية من في السموات ومن في الأرض، ويسمونه الله ويدعونه رغباً ورهباً، إلا من كفر من الجن والإنس، وهذه الآية على هذا القول، كقوله تعالى: ﴿**وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله**﴾ [الزخرف: ٨٤] أي هو إله من في السماء، وإله من في الأرض، وعلى هذا فيكون قوله ﴿**يعلم سركم وجهركم**﴾ خبراً أو حالاً.

والقول الثاني: أن المراد أن الله الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض، من سر وجهر، فيكون قوله يعلم، متعلقاً بقوله: ﴿**في السموات وفي الأرض**﴾ تقديره، وهو الله يعلم سركم وجهركم، في السموات وفي الأرض، ويعلم ما تكسبون.

والقول الثالث: أن قوله ﴿**وهو الله في السموات**﴾ وقف تام، ثم استأنف الخبر، فقال ﴿**وفي الأرض يعلم سركم وجهركم**﴾ وهذا اختيار ابن جرير، وقوله ﴿**ويعلم ما تكسبون**﴾ أي جميع أعمالكم خيرها وشرها.

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين المكذبين المعاندين، أنهم مهما أتتهم ﴿**من آية**﴾ أي دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات، على وحدانية الله وصدق رسله الكرام، فإنهم يعرضون عنها،

فلا ينظرون إليها ولا يبالون بها، قال الله تعالى: ﴿**فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون**﴾ وهذا تهديد لهم، ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق، بأنه لابد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب، وليجدن غبه وليذوقن وباله، ثم قال تعالى واعظاً ومحذراً لهم، أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم، من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة، وأكثر جمعاً وأكثر أموالاً وأولاداً واستغلالاً للأرض، وعمارة لها، فقال: ﴿**ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم**﴾ أي من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض والسعة والجنود، ﴿**وأرسلنا السماء عليهم مدراراً**﴾ أي شيئاً بعد شيء ﴿**وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم**﴾ أي أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض، أي استدراجاً وإملاء لهم ﴿**فأهلكناهم بذنوبهم**﴾ أي بخطاياهم، وسيئاتهم التي اجترحوها ﴿**وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين**﴾ أي فذهب الأولون كأمس الذاهب، وجعلناهم أحاديث، ﴿**وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين**﴾ أي جيلاً آخر لنختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم، فهلكوا كهلاكهم، فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب، ومعاجلة العقوبة منهم، لولا لطفه وإحسانه.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كفر المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق، ومباهتتهم ومنازعتهم فيه: ﴿**ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم**﴾ أي عاينوه ورأوا نزوله، وباشروا ذلك، ﴿**لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين**﴾ وهذا كما قال تعالى مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات: ﴿**ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون**﴾ [الحجر: ١٤-١٥]. ﴿**وقالوا لولا أنزل عليه ملك**﴾ أي فيكون معه نذيراً، قال الله: ﴿**ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون**﴾ أي لو نزلت الملائكة على ما هم عليه، لجاءهم من الله العذاب، كما قال تعالى: ﴿**ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين**﴾ [الحجر: ٨]، وقوله ﴿**يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين**﴾ [الفرقان: ٢٢].

وقوله: ﴿**ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون**﴾ أي ولو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً، أي لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً، لكان على هيئة رجل لتُفْهَم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لا لتبس عليهم الأمر، كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البَشَريّ، كما قال: ﴿**قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين**

لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ [الإسراء:٩٥]، فمن رحمته تعالى بخلقه، أنه يرسل رسلاً منهم، ليدعو بعضهم بعضاً، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض، في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم﴾ الآية[آل عمران: ١٦٤].

عن ابن عباس في الآية يقول: لو أتاهم ملك، ما أتاهم إلا في صورة رجل، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور، ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ أي ولخلطنا عليهم ما يخلطون، وعنه [أيضا]: ولشبهنا عليهم.

وقوله: ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ هذا تسلية للنبي ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة، في الدنيا والآخرة، ثم قال: ﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي فكروا في أنفسكم، وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية، الذين كذبوا رسله، وعاندوهم، من العذاب والنكال والعقوبة في الدنيا، مع ما ادخر لهم من العذاب الأليم، في الآخرة، وكيف نُجّي رسله وعباده المؤمنون.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ومن فيهن، وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة، كما ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن الله لما خلق الخلق، كتب كتاباً عنده فوق العرش، إن رحمتي تغلب غضبي». وقوله: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ هذه اللام هي الموطئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة، ليجمعن عباده لميقات يوم معلوم وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه، ولا شك فيه عند عباده المؤمنين، فأما الجاحدون المكذبون، فهم في ريبهم يترددون.

ولهذا قال: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أي يوم القيامة ﴿فهم لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون بالمعاد، ولا يخافون شر ذلك اليوم، ثم قال تعالى: ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ أي كل دابة في السموات والأرض الجميع عباده وخلقه، وتحت قهره وتصرفه وتدبيره، لا إله إلا هو، ﴿وهو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم، ثم قال لعبده ورسوله محمد ﷺ، الذي بعثه بالتوحيد العظيم والشرع القويم، وأمره أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم: ﴿قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض﴾ كما قال ﴿قل أفغير الله

تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ [الزمر:٦٤]، والمعنى لا أتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له، فإنه فاطر السموات والأرض، أي خالقهما ومبدعهما، على غير مثال سبق، **﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾** أي وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم، كما قال تعالى: **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾** [الذاريات:٥٦ـ٥٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعا رجل من الأنصار، من أهل قباء النبي ﷺ على طعام، فانطلقنا معه، فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه، قال: «الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم، ومن علينا فهدانا وأطعمنا، وسقانا، وكل بلاء حسن أبلانا الحمد لله غير مودع ربي ولا مكافأ ولا مكفور، ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام، وسقانا من الشراب، وكسانا من العري، وهدانا من الضلال، وبصرنا من العمى، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين». [أخرجه النسائي وصححه ابن حبان وأصله في الصحيحين].

﴿قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم﴾ أي من هذه الأمة **﴿ولا تكونن من المشركين قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾** يعني يوم القيامة **﴿من يصرف عنه﴾** أي العذاب **﴿يومئذ فقد رحمه﴾** يعني فقد رحمه الله **﴿وذلك الفوز المبين﴾** كما قال: **﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾** [آل عمران:١٨٥]، والفوز هو حصول الربح، ونفي الخسارة.

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً: أنه مالك الضر والنفع، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، **﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير﴾** كما قال: **﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾** الآية[فاطر:٢]، وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»؛ ولهذا قال تعالى **﴿وهو القاهر فوق عباده﴾** أي هو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه، وعظمته وعلوه، وقدرته على الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه، وتحت حكمه وقهره، **﴿وهو الحكيم﴾** أي في جميع ما يفعله **﴿الخبير﴾** بمواضع الأشياء ومحالها، فلا يعطي إلا لمن يستحق، ولا يمنح إلا من يستحق، ثم قال **﴿قل أي شيء أكبر شهادة﴾** أي من أعظم الأشياء

شهادة ﴿قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ أي هو العالم بما جئتكم به، وما أنتم قائلون لي، ﴿وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ أي وهو نذير لكل من بلغه، كما قال: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ [هود: ١٧].

روى ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب، في قوله: ﴿ومن بلغ﴾ قال من بلغه القرآن، فكأنما رأى النبي ﷺ، [وفي رواية]: وكلمه، وروى ابن جرير عن محمد بن كعب، قال: من بلغه القرآن، فقد أبلغه محمد ﷺ، وعن قتادة، في قوله تعالى: ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ إن رسول الله ﷺ قال: «بلغوا عن الله فمن بلغته آية من كتاب الله، فقد بلغه أمر الله»، وقال الربيع بن أنس: حق على من اتبع رسول الله ﷺ، أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ، وأن ينذر كالذي أنذر.

وقوله: ﴿أئنكم لتشهدون﴾ أيها المشركون ﴿أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد﴾ كقوله: ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾ [الأنعام: ١٥٠]، ﴿قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون﴾.

ثم قال مخبراً عن أهل الكتاب: أنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به، كما يعرفون أبناءهم بما عندهم من الأخبار والأنباء، عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد ﷺ وبنعته وصفته، وبلده ومهاجره وصفة أمته، ولهذا قال بعد هذا: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أي خسروا كل الخسارة ﴿فهم لا يؤمنون﴾ بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء ونوهت به في قديم الزمان وحديثه. ثم قال: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته﴾ أي لا أظلم ممن تقوّل على الله، فادعى أن الله أرسله، ولم يكن أرسله، ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله، وحججه وبراهينه ودلالاته، ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي لا يفلح لا هذا ولا هذا، لا المفتري ولا المكذب.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ يوم القيامة، فيسألهم عن الأصنام والأنداد، التي كانوا يعبدونها من دونه، قائلاً لهم: ﴿أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون﴾ كما قال تعالى: ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ [القصص: ٦٢].

وقوله: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ أي حجتهم وقال ابن عباس: أي معذرتهم، وكذا قال قتادة. وقال ابن عباس [أيضا]: أي قيلهم، وكذا قال الضحاك. وقال عطاء الخراساني: ثم لم تكن بليتهم حين ابتلوا ﴿إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾. وقال ابن جرير: والصواب ثم

لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم، اعتذاراً مما سلف منهم من الشرك بالله، ﴿إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: أتاه رجل فقال: يا ابن عباس، سمعت الله يقول: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ قال أما قوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة، إلا أهل الصلاة، فقالوا: تعالوا فلنجحد فيجحدون، فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتمون الله حديثاً، فهل في قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا قد نزل فيه شيء ولكن لا تعلمون وجهه. وعن ابن عباس أيضا: هذه في المنافقين، وفي هذا نظر، فإن هذه الآية مكية، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة، والتي نزلت في المنافقين آية المجادلة: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على كل شيء ألا إنهم هم الكاذبون﴾ [المجادلة:١٨]، وهكذا قال في حق هؤلاء: ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ كما قال: ﴿ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين﴾ [غافر:٧٣-٧٤].

وقوله ﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ أي يجيؤوك ليسمعوا قراءتك، ولا تجزي عنهم شيئاً لأن الله جعل ﴿على قلوبهم أكنة﴾ أي أغطية، لئلا يفهموا القرآن ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي صمماً عن السماع النافع فهم، كما قال تعالى: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء﴾ [البقرة:١٧١].

وقوله ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوابها﴾ أي مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات، لا يؤمنوا بها فلا فهم عندهم ولا إنصاف، كما قال تعالى: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ [الأنفال:٢٣]. وقوله: ﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك﴾ أي يحاجونك ويناظرونك، في الحق بالباطل، ﴿يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي ما هذا الذي جئت به، إلا مأخوذاً من كتب الأوائل، ومنقول عنهم، وقوله: ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾ وفي معنى ينهون عنه قولان:

أحدهما: : أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول والانقياد للقرآن، وينأون عنه أي ويبتعدون هم عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين، لا ينتفعون ولا يتركون أحداً ينتفع، قال ابن عباس: ﴿وهم ينهون عنه﴾ ينهون الناس عن محمد ﷺ، أن يؤمنوا به. وقال محمد بن الحنفية: كان كفار قريش لا يأتون النبي ﷺ وينهون عنه، وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وغير واحد، وهذا القول أظهر، والله أعلم، وهو اختيار ابن جرير.

والقول الثاني: روي عن ابن عباس يقول في قوله: ﴿وهم ينهون عنه﴾ قال: نزلت في أبي طالب، كان ينهى الناس عن النبي ﷺ أن يؤذى، وكذا قال القاسم بن مُخَيْمِرَة، وحبيب بن

أبي ثابت، وعطاء بن دينار: أنها نزلت في أبي طالب. وقال سعيد بن أبي هلال: نزلت في عمومة النبي ﷺ وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه في العلانية، وأشد الناس عليه في السر. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿وهم ينهون عنه﴾ أي ينهون الناس عن قتله، وقوله: ﴿وينأون عنه﴾ أي يتباعدون منه ﴿وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ أي وما يهلكون بهذا الصنيع، ولا يعود وباله إلا عليهم، وما يشعرون.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

يذكر تعالى حال الكفار، إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك، قالوا: ﴿يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذبوا بآيات ربهم، ويكونوا من المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ أي بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبل هذا بيسير: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾.

ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم، من صدق ما جاءت به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كما قال تعالى مخبراً عن موسى، أنه قال لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ الآية[الإسراء:١٠٢]. وقال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ [النمل:١٤].

ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين، الذين كانوا يظهرون الإيمان للناس ويبطنون الكفر، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة، من كلام طائفة من الكفار، ولا ينافي هذا كون هذه السورة مكية، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية، وهي العنكبوت، فقال: ﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ [العنكبوت:١١]؛ وعلى هذا فيكون إخباراً عن حال المنافقين في الدار الآخرة، حين يعاينون العذاب، فظهر لهم حينئذ غِبّ ما كانوا يبطنون من الكفر والنفاق والشقاق، والله أعلم.

وأما معنى الإضراب، في قوله: ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ فهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان، بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه، جزاء على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا، ليتخلصوا مما شاهدوا من النار؛ ولهذا قال: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ أي في تمنيهم الرجعة، رغبة ومحبة في الإيمان، ثم قال

مخبراً عنهم أنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه، من الكفر والمخالفة ﴿**وإنهم لكاذبون**﴾ أي في قولهم يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا، ونكون من المؤمنين، ﴿**وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين**﴾ أي لعادوا لما نهوا عنه إنهم لكاذبون، ولقالوا ﴿**إن هي إلا حياتنا الدنيا**﴾ أي ما هي إلا هذه الحياة الدنيا ثم لا معاد بعدها؛ ولهذا قال ﴿**وما نحن بمبعوثين**﴾.

ثم قال: ﴿**ولو ترى إذ وقفوا على ربهم**﴾ أي أوقفوا بين يديه قال ﴿**أليس هذا بالحق ؟**﴾ أي أليس هذا المعاد بحق، وليس بباطل كما كنتم تظنون، ﴿**قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**﴾ أي بما كنتم تكذبون به، فذوقوا اليوم مَسّه ﴿**أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون**﴾ [الطور: ١٥].

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن خسارة من كذب بلقاء الله، وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة، وعن ندامته على ما فرط من العمل، وما أسلف من قبيح الفعل؛ ولهذا قال ﴿**حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها**﴾ وهذا الضمير يحتمل عَوْدُه على الحياة، وعلى الأعمال وعلى الدار الآخرة، أي في أمرها، وقوله: ﴿**وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون**﴾ أي يحملون، وقال قتادة يعملون.

وقوله: ﴿**وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو**﴾ أي إنما غالبها كذلك ﴿**وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون**﴾.

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ، في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه: ﴿**قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون**﴾ أي قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك، وحزنك وتأسفك عليهم ﴿**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**﴾ [فاطر: ٨]، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿**لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين**﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿**فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً**﴾ [الكهف: ٧].

وقوله: ﴿**فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾ أي لا يتهمونك بالكذب

في نفس الأمر ﴿ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ أي ولكنهم يعاندون الحق، ويدفعونه بصدورهم، كما قال علي: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾. قال أبو صالح وقتادة: يعلمون أنك رسول الله ويجحدون.

وروى ابن جرير عن السدي في قوله: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ لما كان يوم بدر، قال الأخنس بن شريق لبني زهرة: يا بني زهرة إن محمداً ابن أختكم فأنتم أحق من ذب عنه، فإنه إن كان نبياً لم تقاتلوه اليوم، وإن كان كاذباً كنتم أحق من كف عن ابن أخته، قفوا ههنا حتى ألقى أبا الحكم، فإن غُلب محمد رجعتم سالمين، وإن غلب محمد، فإن قومكم لم يصنعوا بكم شيئاً ـ فيومئذ سمي الأخنس وكان اسمه أبيّ ـ فالتقى الأخنس وأبو جهل، فخلا الأخنس بأبي جهل فقال: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس هاهنا من قريش غيري وغيرك يسمع كلامنا؟ فقال أبو جهل: ويحك والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والسقاية والحجاب والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ فآيات الله محمد ﷺ. [وعن الزهري نحوه].

وقوله: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ وتعزية له، فيمن كذبه من قومه، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد له بالنصر كما نصروا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ أي التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين، كما قال: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون﴾ [الصافات: ١٧١ـ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾ [المجادلة: ٢١].

وقوله: ﴿ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ أي من خبرهم، كيف نُصروا وأُيدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة وبهم قدوة. ثم قال تعالى: ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم﴾ أي إن كان شق عليك إعراضهم عنك ﴿فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء﴾ قال ابن عباس: النَفقُ السّرْب، فتذهب فيه فتأتيهم بآية، أو تجعل لك سلماً في السماء، فتصعد فيه فتأتيهم بآية، أفضل مما آتيتهم به فافعل، وكذا قال قتادة والسدي وغيرهما.

وقوله: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ كما قال تعالى:

﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾ [يونس:٩٩]، قال ابن عباس في قوله: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ قال: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس، ويتابعوه على الهدى، فأخبر الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، وقوله تعالى: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ أي إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه، كقوله: ﴿لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين﴾ [يس:٧٠]. وقوله: ﴿والموتى يبعثهم الله﴾ يعني بذلك الكفار؛ لأنهم موتى القلوب، فشبههم الله بأموات الأجساد، فقال: ﴿والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾ وهذا من باب التهكم بهم والازراء عليهم.

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين، أنهم كانوا يقولون ﴿لولا نزل عليه آية من ربه﴾ أي خارق على مقتضى ما كانوا يريدون، ومما يتعنتون كما قالوا: ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ الآيات [الإسراء:٩٠]. ﴿قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي هو تعالى قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك، لأنه لو أنزل وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا، لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السالفة، كما قال تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ [الإسراء:٥٩]، وقال تعالى: ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ [الشعراء:٤].

وقوله: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ قال مجاهد: أي أصناف مصنفة تعرف بأسمائها. وقال قتادة: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة، وقال السدي ﴿إلا أمم أمثالكم﴾ أي خلق أمثالكم.

وقوله: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ أي الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتدبيره، سواء كان برياً أو بحرياً، كما قال: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ [هود:٦] أي مُفْصِح بأسمائها وأعدادها ومظانها، وحاصر لحركاتها وسكناتها، وقال تعالى: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم﴾ [العنكبوت:٦٠].

وقوله: ﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾ عن ابن عباس قال: حشرها الموت، وعنه أيضا قال: موت البهائم حشرها، وروي عن مجاهد والضحاك مثله. والقول الثاني: إن حشرها هو بعثها يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ [التكوير:٥].

وعن أبي هريرة في قوله: ﴿إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾ قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطير وكل شيء، فيبلغ من عدل الله يومئذ، أن يأخذ للجمَّاء من القرناء، ثم يقول كوني تراباً، فلذلك يقول الكافر: ﴿يا ليتني كنت تراباً﴾ [النبأ: ٤٠].

وقوله: ﴿والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات﴾ أي مثلهم في جهلهم، وقلة علمهم، وعدم فهمهم. كمثل أصم، وهو الذي لا يسمع، أبكم وهو الذي لا يتكلم، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق، أو يخرج مما هو فيه، كقوله: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾ [البقرة: ١٧-١٨] ولهذا قال: ﴿من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾ أي هو المتصرف في خلقه بما يشاء.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

يخبر تعالى أنه الفعَّال لما يريد، المتصرف في خلقه بما يشاء، وأنه لا معقب لحكمه، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه، بل هو وحده لا شريك له، الذي إذا سئل يجيب لمن يشاء، ولهذا قال: ﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة﴾ أي أتاكم هذا أو هذا ﴿أغير الله تدعون إن كنتم صادقين﴾ أي لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على دفع ذلك سواه، ولهذا قال: ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي في اتخاذكم آلهة معه ﴿بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾ أي في وقت الضرورة، لا تدعون أحداً سواه، وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم كما قال: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾ الآية[الإسراء: ٦٧].

وقوله: ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء﴾ يعني الفقر والضيق في العيش، ﴿والضراء﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام، ﴿لعلهم يتضرعون﴾ أي يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون، قال الله تعالى: ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ أي فهلا إذا ابتليناهم بذلك، تضرعوا إلينا وتمسكنوا إلينا ﴿ولكن قست قلوبهم﴾ أي ما رقَّتْ ولا خشعت ﴿وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ أي من الشرك والمعاصي، ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي أعرضوا عنه وتناسوه، وجعلوه وراء ظهورهم، ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ أي فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم، عياذاً بالله من مكره،

ولهذا قال: ﴿**حتى إذا فرحوا بما أوتوا**﴾ أي من الأموال والأولاد والأرزاق، ﴿**أخذناهم بغتة**﴾ أي على غفلة، ﴿**فإذا هم مبلسون**﴾ أي آيسون من كل خير، عن ابن عباس: المبلس الآيس، وقال الحسن البصري: من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به، فلا رأي له، ومن قَتَر عليه فلم ير أنه ينظر له، فلا رأي له، ثم قرأ ﴿**فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون**﴾ قال الحسن: مكر بالقوم ورب الكعبة، أُعْطُوا حاجتهم ثم أخذوا. وقال قتادة: بَغَت القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قوماً قط، إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعيمهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون. وقال مالك عن الزهري: ﴿**فتحنا عليهم أبواب كل شيء**﴾ قال: إرخاء الدنيا وسترها.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ (٤٩) ﴾.

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ قل لهؤلاء المكذبين المعاندين: ﴿**أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم**﴾ أي سلبكم إياها كما أعطاكموها. فإنه ﴿**هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون**﴾ [الملك:٢٣]، ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما، الانتفاع الشرعي، ولهذا قال: ﴿**وختم على قلوبكم**﴾ كما قال: ﴿**أمّن يملك السمع والأبصار**﴾ [يونس:٣١]، وقال: ﴿**واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه**﴾ [الأنفال:٢٤].

وقوله: ﴿**من إله غير الله يأتيكم به**﴾ أي هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم، إذا سلبه الله منكم لا يقدر على ذلك أحد سواه، ولهذا قال: ﴿**انظر كيف نصرف الآيات**﴾ أي نبينها ونوضحها ونفسرها، دالة على أنه لا إله إلا الله، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال، ﴿**ثم هم يصدفون**﴾ أي ثم هم مع هذا البيان، يعرضون عن الحق، ويصدون الناس عن اتباعه، عن ابن عباس: ﴿**يصدفون**﴾ أي يعدلون، وقال مجاهد وقتادة: يعرضون، وقال السدي: يصدون.

وقوله: ﴿**قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة**﴾ أي وأنتم لا تشعرون به، حتى بغتكم وفجأكم، ﴿**أو جهرة**﴾ أي ظاهراً عياناً، ﴿**هل يهلك إلا القوم الظالمون**﴾ أي إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله، وينجوا الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، كما قال تعالى: ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾ [الأنعام:٨٢]، وقوله: ﴿**وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين**﴾ أي مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات، ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات، ولهذا قال: ﴿**فمن آمن وأصلح**﴾ أي فمن آمن قلبه بما جاؤوا به، وأصلح عمله باتباعه إياهم،

﴿فلا خوف عليهم﴾ أي بالنسبة لما يستقبلونه **﴿ولا هم يحزنون﴾** أي بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعتها، الله وليهم فيما خلفوه، وحافظهم فيما تركوه، ثم قال: **﴿والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون﴾** أي ينالهم العذاب، بما كفروا بما جاءت به الرسل، وخرجوا عن أوامر الله وطاعته، وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرماته.

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ: **﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله﴾** أي لست أملكها ولا أتصرف فيها **﴿ولا أعلم الغيب﴾** أي ولا أقول: إني أعلم الغيب، إنما ذاك من علم الله عز وجل، ولا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه، **﴿ولا أقول لكم إني ملك﴾** أي ولا أدعي أني ملك، إنما أنا بشر من البشر، يوحى إليّ من الله عز وجل، شرفني بذلك وأنعم عليّ به؛ ولهذا قال: **﴿إن أتبع إلا ما يوحى إليّ﴾** أي لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه.

﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾ أي هل يستوي من اتبع الحق وهدي إليه، ومن ضل عنه ولم ينقد له، **﴿أفلا تتفكرون﴾** وهذه كقوله تعالى: **﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب﴾** [الرعد: ١٩].

وقوله: **﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾** أي وأنذر بهذا القرآن يا محمد **﴿الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾** [المؤمنون: ٥٧] والذين **﴿يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾** [الرعد: ٢١]، **﴿الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾** أي يوم القيامة **﴿ليس لهم﴾** أي يومئذ **﴿من دونه ولي ولا شفيع﴾** أي لا قريب لهم ولا شفيع فيهم، من عذابه إن أراده بهم، **﴿لعلهم يتقون﴾** أي أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه، إلا الله عز وجل، **﴿لعلهم يتقون﴾** فيعملون في هذه الدار، عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه.

وقوله: **﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾** أي لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك كما قال: **﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا،**

ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾ [الكهف:٢٨]، وقوله: **﴿يدعون ربهم﴾** أي يعبدونه ويسألونه **﴿بالغداة والعشي﴾** قال سعيد بن المسيب ومجاهد والحسن وقتادة: المراد بذلك الصلاة المكتوبة، وهذا كقوله: **﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾** [غافر:٦٠] أي أتقبل منكم. وقوله: **﴿يريدون وجهه﴾** أي يبتغون بذلك العمل وجه الله الكريم، فهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات، وقوله: **﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء﴾** كما قال نوح عليه السلام: في جواب الذين قالوا **﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾**، قال: **﴿وما علمي بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون﴾** أي إنما حسابهم على الله عز وجل، وليس عليّ من حسابهم من شيء، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء، وقوله: **﴿فتطردهم فتكون من الظالمين﴾** أي إن فعلت هذا والحالة هذه.

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود: قال: مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء فنزل فيهم القرآن: **﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ـ إلى قوله ـ أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾**. [قال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس وهو ثقة].

وقوله: **﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض﴾** أي ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض، **﴿ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا﴾** وذلك أن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه في أول البعثة، ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، كما قال قوم نوح لنوح: **﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾** الآية[هود:٢٧]، وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان حين سأله عن تلك المسائل، فقال له: فهل تبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، فقال: هم أتباع الرسل. [رواه البخاري]، والغرض أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم، ويعذبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: **﴿أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا﴾** أي ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير ـ لو كان ما صاروا إليه خيراً ـ ويدعنا، كما قالوا: **﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾** [الأحقاف:١١]، وكما قال تعالى: **﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾** [مريم:٧٣].

قال الله تعالى في جواب ذلك: **﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئياً﴾** [مريم:٧٤]، وقال في جوابهم حين قالوا: **﴿أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾** أي أليس هو أعلم بالشاكرين له، بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً، كما قال تعالى: **﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾** [العنكبوت:٦٩].

وفي الحديث الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». [رواه مسلم].

وقوله: ﴿**وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم**﴾ أي فأكرمهم بردّ السلام عليهم، وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم، ولهذا قال ﴿**كتب ربكم على نفسه الرحمة**﴾ أي أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً، ﴿**أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة**﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، وعن عكرمة قال: الدنيا كلها جهالة.

﴿**ثم تاب من بعده وأصلح**﴾ أي رجع عما كان عليه من المعاصي، وأقلع وعزم على أن لا يعود، وأصلح العمل في المستقبل، ﴿**فأنه غفور رحيم**﴾ روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قَضَى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي» أخرجاه في الصحيحين.

وروى عبد الرزاق عن سلمان في قوله: ﴿**كتب ربكم على نفسه الرحمة**﴾ قال: إنا نجد في التوراة عطفتين، أن الله خلق السموات والأرض، وخلق مائة رحمة، أو جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق، ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة، وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، قال: فبها يتراحمون، وبها يتعاطفون، وبها يتباذلون، وبها يتزاورون، وبها تَحنّ الناقة، وبها تَثجُّ البقرة، وبها تثغو الشاة، وبها تَتَابَعُ الطير، وبها تتابع الحيتان في البحر، فإذا كان يوم القيامة، جمع الله تلك الرحمة إلى ما عنده، ورحمته أفضل وأوسع. [رواه مسلم مختصراً]. وسيأتي كثير من الأحاديث الموافقة لهذه عند قوله: ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء**﴾ [الأعراف:١٥٦]. ومما يناسب هذه الآية من الأحاديث أيضاً، قوله ﷺ لمعاذ بن جبل: «أتدري ما حق الله على العباد؟ أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً» ثم قال: « أتدري ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك؟ ألا يعذبهم». [متفق عليه].

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾.

يقول تعالى: وكما بيّنا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل، على طريق الهداية والرشاد وذم المجادلة والعناد، ﴿**كذلك نفصل الآيات**﴾ أي التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها، ﴿**ولتستبين سبيل المجرمين**﴾ أي ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسل، وقوله: ﴿**قل إني على بينة من ربي**﴾ أي على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إلي ﴿**وكذبتم به**﴾ أي بالحق الذي جاءني من عند الله ﴿**ما عندي ما تستعجلون به**﴾ أي من العذاب ﴿**إن الحكم إلا لله**﴾ أي إنما يرجع أمر

ذلك إلى الله، إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك، وإن شاء أنظركم وأجلكم، لما له في ذلك من الحكمة العظيمة؛ ولهذا قال: ﴿**يقص الحق وهو خير الفاصلين**﴾ أي وهو خير من فصل القضايا، وخير الفاتحين في الحكم بين عباده، وقوله: ﴿**قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم**﴾ أي لو كان مرجع ذلك إلي، لأوقعت بكم ما تستحقونه من ذلك، ﴿**والله أعلم بالظالمين**﴾.

وقوله: ﴿**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو**﴾ روى البخاري عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله»: ﴿**إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير**﴾ [لقمان: ٣٤].

وقوله: ﴿**ويعلم ما في البر والبحر**﴾ أي يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات، بَريها وبحريها، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقوله: ﴿**وما تسقط من ورقة إلا يعلمها**﴾ أي ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم، كما قال تعالى: ﴿**يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**﴾ [غافر: ١٩]. وعن ابن عباس في قوله: ﴿**وما تسقط من ورقة إلا يعلمها**﴾ قال: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها، يكتب ما يسقط منها. وقوله: ﴿**ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين**﴾ عن ابن عباس قال: خلق الله النون وهي الدواة، وخلق الألواح، فكتب فيها أمر الدنيا، حتى ينقضي ما كان من خلق مخلوق، أو رزق حلال أو حرام، أو عمل بر أو فجور، وقرأ هذه الآية ﴿**وما تسقط من ورقة إلا يعلمها**﴾ إلى آخر الآية.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه يتوفى عباده في منامهم بالليل، وهذا هو التوفي الأصغر، كما قال تعالى: ﴿**إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا**﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿**الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمىّ**﴾ [الزمر: ٤٢]، فذكر في هذه الآية الوفاتين الكبرى والصغرى، وهكذا ذكر في هذا المقام، حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى، فقال: ﴿**وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار**﴾ أي ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار. وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم، في حال سكونهم وفي حال حركتهم، كما قال: ﴿**سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب**

بالنهار﴾ [الرعد: ١٠]، وكما قال تعالى: **﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه﴾** أي في الليل **﴿ولتبتغوا من فضله﴾** [القصص: ٧٣] أي في النهار كما قال: **﴿وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً﴾** [النبأ: ١٠-١١]؛ ولهذا قال ههنا: **﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾** أي ما كسبتم بالنهار **﴿ثم يبعثكم فيه﴾** أي في النهار، قاله مجاهد وقتادة والسدي، وعن عبد الله بن كثير أي في المنام والأول أظهر.

وقوله: **﴿ليقضى أجل مسمى﴾** يعني به أجل كل واحد من الناس، **﴿ثم إليه مرجعكم﴾** أي يوم القيامة **﴿ثم ينبئكم﴾** أي فيخبركم **﴿بما كنتم تعملون﴾** أي ويجزيكم على ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وقوله: **﴿وهو القاهر فوق عباده﴾** أي هو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء، **﴿ويرسل عليكم حفظة﴾** أي من الملائكة يحفظون بدن الإنسان، كما قال تعالى: **﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾** [الرعد: ١١]، وحفظة يحفظون عمله ويُحْصُونه عليه كما قال: **﴿وإنّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾** [الانفطار: ١٠-١٢]، وقال: **﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾** [ق: ١٧-١٨].

وقوله: **﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت﴾** أي إذا احتُضِر وحان أجله **﴿توفته رسلنا﴾** أي ملائكة موكلون بذلك، قال ابن عباس وغير واحد: لملك الموت أعوان من الملائكة، يخرجون الروح من الجسد فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم، وسيأتي عند قوله تعالى: **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾** [إبراهيم: ٢٧] الأحاديث المتعلقة بذلك الشاهدة لهذا المروي عن ابن عباس وغيره بالصحة، وقوله: **﴿وهم لا يفرطون﴾** أي في حفظ روح المتوفى، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله عز وجل، إن كان من الأبرار ففي عليين، وإن كان من الفجار ففي سجين، عياذاً بالله من ذلك، وقوله: **﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾** قال ابن جرير: **﴿ثم ردوا﴾** يعني الملائكة **﴿إلى الله مولاهم الحق﴾**.

ويحتمل أن يكون المراد بقوله **﴿ثم ردوا إلى الله﴾** يعني الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة، فيحكم فيهم بعدله، كما قال: **﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾** [الواقعة: ٤٩-٥٠]، وقال: **﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾** إلى قوله **﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾** [الكهف: ٤٧-٤٩]؛ ولهذا قال: **﴿مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾**.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

يقول تعالى ممتناً على عباده، في إنجائه المضطرين منهم **﴿من ظلمات البر والبحر﴾** أي

الحائرين الواقعين في المهامه البرية، وفي اللجج البحرية، إذا هاجت الرياح العاصفة، فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له، كما قال: ﴿**وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً**﴾ [الإسراء:٦٧]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿**قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية**﴾ أي جهراً وسراً ﴿**لئن أنجانا من هذه**﴾ أي من هذه الضائقة ﴿**لنكونن من الشاكرين**﴾ أي بعدها قال الله: ﴿**قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون**﴾ أي تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى، وقوله: ﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم**﴾ لما قال ﴿**ثم أنتم تشركون**﴾، عقبه بقوله: ﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم**﴾ أي بعد إنجائه إياكم. عن الحسن قال: هذه للمشركين. وعن مجاهد قال: لأمة محمد ﷺ فعفا عنهم.

روى البخاري عن جابر بن عبد الله، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم**﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك» ﴿**أو من تحت أرجلكم**﴾ قال: «أعوذ بوجهك» ﴿**أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض**﴾ قال رسول الله ﷺ: «هذا أهون ـ أو قال هذا أيسر».

ويتعلق بهذه الآية، أحاديث كثيرة منها:

ما رواه الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية، فدخل فصلى ركعتين، فصلينا معه، فناجى ربه عز وجل طويلاً ثم قال: «سألت ربي ثلاثاً: سألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالسَّنَة فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها». وأخرجه مسلم.

وعن أبي بن كعب، قال: أربعة في هذه الأمة، قد مضت ثنتان وبقيت ثنتان: ﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم**﴾ قال: الرجم ﴿**أو من تحت أرجلكم**﴾ قال: الخسف ﴿**أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض**﴾ قال سفيان: يعني الرجم والخسف.

وعن الحسن في قوله: ﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أومن تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً**﴾ الآية، قال: حبست عقوبتها حتى عمل ذنبها، فلما عمل ذنبها أرسلت عقوبتها، وهكذا قال سعيد بن جبير ومجاهد وغير واحد في قوله ﴿**عذاباً من فوقكم**﴾ يعني الرجم ﴿**أو من تحت أرجلكم**﴾ يعني الخسف وهذا هو اختيار ابن جرير، وروى ابن جرير: عن يونس، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله ﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم**﴾ قال: كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يصيح وهو في المسجد أو على المنبر، يقول: ألا أيها الناس إنه قد نزل بكم، إن الله يقول ﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم**﴾

لو جاءكم عذاب من السماء لم يبق منكم أحداً، ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ لو خسف بكم الأرض أهلككم، لم يبق منكم أحد، ﴿أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ ألا إنه نزل بكم أسوأ الثلاث.

قول ثان: عن ابن عباس [أنه] كان يقول: في هذه الآية: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ فأئمة السوء ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ فخدم السوء. وحكى ابن أبي حاتم عن أبي سنان وعمير بن هانىء، نحو ذلك. وقال ابن جرير: وهذا القول وإن كان له وجه صحيح، لكن الأول أظهر وأقوى.

وهو كما قال ابن جرير رحمه الله، ويشهد له بالصحة قوله تعالى: ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير﴾ [الملك:١٦ـ١٨]، وفي الحديث: «ليكونن في هذه الأمة قذفٌ وخسفٌ ومسخٌ» [رواه أحمد وابن ماجه وصححه الألباني]، وذلك مذكور مع نظائره في أمارات الساعة وأشراطها، وظهور الآيات قبل يوم القيامة.

وقوله: ﴿أو يلبسكم شيعاً﴾ يعني يجعلكم متلبسين شيعاً فرَقاً متخالفين. قال ابن عباس: يعني الأهواء، وكذا قال مجاهد وغير واحد، وقد ورد في الحديث المروي من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة». وقوله: ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل. وقوله: ﴿انظر كيف نصرف الآيات﴾ أي نبينها ونوضحها ونفسرها، ﴿لعلهم يفقهون﴾ أي يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه.

﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿وكذب به﴾ أي بالقرآن الذي جئتهم به، والهدى والبيان، ﴿قومك﴾ يعني قريشاً ﴿وهو الحق﴾ أي الذي ليس وراءه حق ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ أي لست عليكم بحفيظ، ولست بموكل بكم، كقوله: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [الكهف:٢٩] أي إنما عليّ البلاغ، وعليكم السمع والطاعة، فمن اتبعني سعد في الدنيا والآخرة، ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿لكل نبإ مستقر﴾ قال ابن عباس وغير واحد: أي لكل نبأ حقيقة، أي لكل خبر وقوع، ولو بعد حين، كما قال: ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ [ص:٨٨]، وقال: ﴿لكل أجل كتاب﴾ [الرعد:٣٧]. وهذا تهديد ووعيد أكيد، ولهذا قال بعده: ﴿وسوف تعلمون﴾.

ثم قال: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ أي بالتكذيب والاستهزاء، ﴿فأعرض عنهم

حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ أي حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب، ﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ والمراد بهذا كل فرد، من آحاد الأمة، أن لا يجلسوا مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها، فإن جلس أحد منهم ناسياً، ﴿فلا تقعد بعد الذكرى﴾ بعد التذكر ﴿مع القوم الظالمين﴾. وقال السدي عن أبي مالك وسعيد بن جبير في قوله: ﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ قال: إن نسيت فذكرت فلا تجلس معهم، وكذا قال مقاتل بن حيان، وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ الآية[النساء: ١٤٠] أي إنكم إذا جلستم معهم، وأقررتموهم على ذلك، فقد ساويتموهم في الذي هم فيه، وقوله: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ أي إذا تجنبوهم، فلم يجلسوا معهم في ذلك، فقد برئوا من عهدتهم وتخلصوا من إثمهم. وعن أبي مالك وسعيد بن جبير قوله: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ قال: ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك، أي إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم، وقال آخرون: بل معناه وإن جلسوا معهم، فليس عليهم من حسابهم من شيء، وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية، وهي قوله ﴿إنكم إذاً مثلهم﴾ [النساء: ١٤٠] قاله مجاهد والسدي وابن جريج وغيرهم. وعلى قولهم يكون قوله: ﴿ولكن ذكرى لعلهم يتقون﴾ أي ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم، حينئذ تذكيراً لهم عما هم فيه؛ لعلهم يتقون ذلك ولا يعودون إليه.

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا﴾ أي دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلاً فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم؛ ولهذا قال: ﴿وذكر به﴾ أي وذكر الناس بهذا القرآن، وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم، يوم القيامة، وقوله: ﴿أن تبسل نفس بما كسبت﴾ أي لئلا تبسل، وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة، والحسن والسدي: تبسل: تُسْلَم. وعن ابن عباس [أيضا]: تُفْضَح. وقال قتادة: تُحْبَس، وقال مُرَّة وابن زيد: تُؤاخذ، وقال الكلبي: تُجَازَى، وكل هذه العبارات متقاربة في المعنى، وحاصلها الإسلام للهلكة، والحبس عن الخير، والارتهان عن درك المطلوب، كما قال: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين﴾ [المدثر: ٣٨ـ٣٩].

وقوله: ﴿ليس لها من دون لله ولي ولا شفيع﴾ أي لا قريب ولا أحد يشفع فيها كما قال: ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ أي ولو بذلت كل مبذول ما قبل منها، كما قال:

﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾ [آل عمران: ٩١]، وهكذا قال ههنا: **﴿أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾**.

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾.

قال السدي: قال المشركون للمؤمنين: اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد، فأنزل الله عز وجل **﴿قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا﴾** أي في الكفر **﴿بعد إذ هدانا الله﴾** فيكون مَثَلنا مَثل الذي **﴿استهوته الشياطين في الأرض حيران﴾** يقول: مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم، كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق، فضل الطريق، فحيرته الشياطين، واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: ائتنا فإنا على الطريق، فأبى أن يأتيهم، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ، ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام، رواه ابن جرير، وقال قتادة: **﴿استهوته الشياطين في الأرض﴾** أضلته في الأرض، يعني استهوته، مثل قوله: **﴿تهوي إليهم﴾** [إبراهيم: ٣٧].

وقال ابن عباس في قوله: **﴿قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا﴾** الآية، هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها، والدعاة الذين يدعون إلى الله عز وجل، كمثل رجل ضل عن الطريق تائهاً ضالاً، إذ ناداه مناد: يا فلان بن فلان هلم إلى الطريق، وله أصحاب يدعونه يا فلان هلم إلى الطريق، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى، اهتدى إلى الطريق، وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلان، يقول: مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله، فإنه يرى أنه في شيء، حتى يأتيه الموت، فيستقبل الهلكة الندامة. وقوله: **﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض﴾** هم الغيلان **﴿يدعونه﴾** باسمه واسم أبيه وجده، فيتبعها وهو يرى أنه في شيء فيصبح وقد ألقته في هلكة، وربما أكلته، أو تلقيه في مضلة من الأرض يهلك فيها عطشاً، فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تُعبد من دون الله عز وجل، رواه ابن جرير، وعن مجاهد: **﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران﴾** قال: رجل حيران يدعوه أصحابه إلى الطريق، وذلك مثل من يضل بعد أن هدي، وعن ابن عباس قوله: **﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران﴾** هو الذي لا يستجيب لهدى الله، وهو رجل أطاع الشيطان، وعمل في الأرض بالمعصية، وحاد عن الحق، وضل عنه، وله أصحاب يدعونه إلى الهدى، ويزعمون أن الذي يأمرونه به هدى، يقول الله ذلك

لأوليائهم من الإنس، يقول الله تعالى ﴿**إن هدى الله هو الهدى**﴾ والضلال ما يدعو إليه الجن، رواه ابن جرير، ثم قال: وهذا يقتضي أن أصحابه يدعونه إلى الضلال ويزعمون أنه هدى، قال: وهذا خلاف ظاهر الآية، فإن الله أخبر أن أصحابه يدعونه إلى الهدى، فغير جائز أن يكون ضلالاً، وقد أخبر الله أنه هدى، وهو كما قال ابن جرير: فإن سياق الآية يقتضي أن هذا الذي استهوته الشياطين في الأرض حيران، وهو منصوب على الحال، أي في حال حيرته وضلاله وجهله، وَجْهَ المحجة، وله أصحاب على المحجة سائرون، فجعلوا يدعونه إليهم وإلى الذهاب معهم على الطريقة المثلى، وتقدير الكلام فيأبى عليهم، ولا يلتفت إليهم، ولو شاء الله لهداه ولرد به إلى الطريق؛ ولهذا قال ﴿**قل إن هدى الله هو الهدى**﴾ كما قال: ﴿**ومن يهد الله فما له من مضل**﴾ [الزمر:٣٧]، وقال: ﴿**إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين**﴾ [النحل:٣٧]، وقوله: ﴿**وأمرنا لنسلم لرب العالمين**﴾ أي نخلص له العبادة وحده لا شريك له، ﴿**وأن أقيموا الصلاة واتقوه**﴾ أي وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه في جميع الأحوال، ﴿**وهو الذي إليه تحشرون**﴾ أي يوم القيامة ﴿**وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق**﴾ أي بالعدل فهو خالقهما ومالكهما، والمدبر لهما ولمن فيهما.

وقوله: ﴿**ويوم يقول كن فيكون**﴾ يعني يوم القيامة، الذي يقول الله ﴿**كن فيكون**﴾ عن أمره كلمح البصر، أو هو أقرب، «ويوم» منصوب إما على العطف على قوله: واتقوه، وتقديره واتقوا يومَ يقول كن فيكون، وإما على قوله: ﴿**خلق السموات والأرض**﴾ أي وخلق يوم يقول كن فيكون فذكر بدء الخلق وإعادته وهذا مناسب، وإما على إضمار فعل تقديره واذكر يوم يقول كن فيكون.

وقوله: ﴿**قوله الحق وله الملك**﴾ جملتان محلهما الجر على أنهما صفتان لرب العالمين، وقوله ﴿**يوم ينفخ في الصور**﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: ﴿**ويوم يقول كن فيكون**﴾ ﴿**يوم ينفخ في الصور**﴾ ويحتمل أن يكون ظرفاً لقوله: ﴿**وله الملك يوم ينفخ في الصور**﴾ كقوله ﴿**لمن الملك اليوم لله الواحد القهار**﴾ [غافر:١٦]، وكقوله: ﴿**الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً**﴾ [الفرقان:٢٦]، وما أشبه ذلك.

واختلف المفسرون في قوله: ﴿**يوم ينفخ في الصور**﴾ فقال بعضهم: المراد بالصور ههنا، جمع صورة، أي يوم ينفخ فيها فتحيا. قال ابن جرير: كما يقال: سور لسور البلد، هو جمع سورة، والصحيح أن المراد بالصور «القَرْن» الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، قال ابن جرير: والصواب عندنا ما تظاهرت به الأخبار، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن إسرافيل قد التقم الصور، وحنى جبهته ينتظر متى يُؤَمر فينفخ». وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: قال أعرابي يا رسول الله ما الصور؟ قال: «قرن ينفخ فيه» [ورواه الترمذي وصححه الألباني].

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

عن ابن عباس: إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر، وإنما كان اسمه تارح. وعن ابن عباس أيضا قال: يعني بآزر الصنم، وأبو إبراهيم اسمه تارح، وأمه اسمها مثاني، وامرأته اسمها سارة، وأم إسماعيل اسمها هاجر، وهي سرية إبراهيم، وهكذا قال غير واحد من علماء النسب أن اسمه تارح، وقال مجاهد والسدي: آزر اسم صنم، قلت: كأنه غلب عليه آزر، لخدمته ذلك الصنم فالله أعلم، وقال ابن جرير وقال آخرون: هو سب وعيب بكلامهم، ومعناه مُعْوَج، ولم يسنده ولا حكاه عن أحد. ثم قال: والصواب أن اسم أبيه آزر، ثم أورد على نفسه قول النسابين أن اسمه تارح، ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان، كما لكثير من الناس، أو يكون أحدهما لقباً، وهذا الذي قاله جيد قوي والله أعلم.

والمقصود أن إبراهيم عليه السلام وعظ أباه في عبادة الأصنام، وزجره عنها ونهاه فلم ينته، كما قال: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ؟﴾ أي أتتأله لصنم تعبده من دون الله ﴿إني أراك وقومك﴾ أي السالكين مسلكك ﴿في ضلال مبين﴾ أي تائهين لا يهتدون أين يسلكون، بل في حيرة وجهل وأمركم في الجهالة والضلال بين واضح لكل ذي عقل صحيح. وقال تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً * إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً * يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً * يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً * يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً * قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً * قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا * وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً﴾ [مريم: ٤١ـ٤٨]، فكان إبراهيم عليه السلام، يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك وتبين إبراهيم ذلك، رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرأ منه إن إبراهيم لأوّاه حليم﴾ [التوبة: ١١٤]. وثبت في صحيح [البخاري] أن إبراهيم، يلقى أباه آزر يوم القيامة، فيقول له أبوه يا بني اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: أي رب ألم تعدني أنك لا تخزني يوم يبعثون، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد فيقال يا إبراهيم، انظر ما وراءك فإذا هو بذِيخ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار، وقوله: ﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾ أي تبين له وجه الدلالة في

نظره إلى خلقهما، على وحدانية الله عز وجل، في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، كقوله: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ [يونس:١٠١]، ويحتمل أن يكون كشف له عن بصره حتى رأى ذلك عياناً، ويحتمل أن يكون هذا عن بصيرته، حتى شاهده بفؤاده وتحققه وعرفه، وعلم ما في ذلك من الحكم الباهرة، والدلالات القاطعة كما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه في حديث المنام: «أتاني ربي في أحسن صورة فقال يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت لا أدري يا رب، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي فتجلى لي كل شيء وعرفت . . .» وذكر الحديث.

وقوله: ﴿وليكون من الموقنين﴾ قيل الواو زائدة تقديره وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض، ليكون من الموقنين، كقوله: ﴿وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين﴾ [الأنعام:٥٥]. وقيل بل هي على بابها، أي نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً، وقوله: ﴿فلما جن عليه الليل﴾ أي تغشاه وستره ﴿رأى كوكباً﴾ أي نجماً ﴿قال هذا ربي فلما أفل﴾ أي غاب، قال محمد بن إسحاق بن يسار: الأفول الذهاب. ﴿قال لا أحبُّ الآفلين﴾ قال قتادة: علم أنه ربه دائم لا يزول، ﴿فلما رأى القمر بازغاً﴾ أي طالعاً ﴿قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي﴾ أي هذا المنير الطالع ربي ﴿هذا أكبر﴾ أي جرماً من النجم ومن القمر وأكثر إضاءة ﴿فلما أفلت﴾ أي غابت ﴿قال يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ أي أخلصت ديني، وأفردت عبادتي ﴿للذي فطر السموات والأرض﴾ أي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿حنيفاً﴾ أي في حال كوني حنيفاً، أي مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال ﴿وما أنا من المشركين﴾.

وقد اختلف المفسرون في هذا المقام: هل هو مقام نظر أو مناظرة ؟ فقال ابن عباس: ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾، وقال محمد بن إسحاق: قال ذلك حين خرج من السَّرب الذي ولدته فيه أمه، حين تخوفت عليه من النمرود بن كنعان، لما أن قد أخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكك على يديه، فأمر بقتل الغلمان عامئذ، فلما حملت أم إبراهيم به وحان وضعها ذهبت به إلى سرب ظاهر البلد فولدت فيه إبراهيم، وتركته هناك، وذكر أشياء من خوارق العادات، كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف.

والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم، الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده في

الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمس، ثم القمر ثم الزهرة، فبين أولاً أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية، لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية، ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما تقدم في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما يقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع، ﴿**قال يا قوم إني بريء مما تشركون**﴾ أي أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون ﴿**إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين**﴾ أي إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء، وربه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: ﴿**إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين**﴾ [الأعراف: ٥٤]. وكيف يجوز أن يكون إبراهيم الخليل ناظراً في هذا المقام. وهو الذي قال الله في حقه ﴿**ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون**﴾ الآيات[الأنبياء: ٥١-٥٢]، وقال تعالى: ﴿**إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣]، وقال تعالى : ﴿**قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة» وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حمار، أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله إني خلقت عبادي حنفاء» وقال الله في كتابه العزيز: ﴿**فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**﴾ [الروم: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿**وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى**﴾ [الأعراف: ١٧٢] ومعناه على أحد القولين كقوله: ﴿**فطرت الله التي فطر الناس عليها**﴾ كما سيأتي بيانه. فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة، فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أمة قانتاً لله حنيفاً، ولم يك من المشركين، ناظراً في هذا المقام، بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة، بعد رسول الله ﷺ

بلا شك ولا ريب، ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً قوله تعالى: .

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

يقول تعالى: وجادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظروه بشبه من القول، قال: ﴿**أتحاجوني في الله وقد هدان**﴾ أي تجادلونني في أمر الله، وأنه لا إله إلا هو، وقد بصرني وهداني إلى الحق، وأنا على بينة منه، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة، وقوله: ﴿**ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً**﴾ أي ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً، وأنا لا أخافها ولا أباليها، فإن كان لها صنع، فكيدوني بها جميعاً، ولا تنظرون بل عاجلوني بذلك.

وقوله: ﴿**إلا أن يشاء ربي شيئاً**﴾ استثناء منقطع، أي لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل ﴿**وسع ربي كل شيء علماً**﴾ أي أحاط علمه بجميع الأشياء فلا تخفى عليه خافية ﴿**أفلا تتذكرون**﴾ أي فيما بينته لكم أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها، وهذه الحجة نظير ما احتج به نبي الله هود عليه السلام على قومه عاد، فيما قص عنهم في كتابه، حيث يقول: ﴿**قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها**﴾ [هود: ٥٣-٥٦].

وقوله: ﴿**وكيف أخاف ما أشركتم**﴾ أي كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله، ﴿**ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً**﴾ قال ابن عباس وغير واحد من السلف: أي حجة وهذا كما قال تعالى: ﴿**أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله**﴾ [الشورى: ٢١]، وقال: ﴿**إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان**﴾ [النجم: ٢٣].

وقوله: ﴿**فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون**﴾ أي فأي طائفتين أصوب، الذي عَبد من بيده الضر والنفع، أو الذي عبد ما لا يضر ولا ينفع بلا دليل، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾ أي هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئاً، هم

الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة. روى البخاري عن عبد الله [بن مسعود] قال: لما نزلت ﴿**ولم يلبسوا إيمانهم بظلم**﴾ قال أصحابه: وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزلت ﴿**إن الشرك لظلم عظيم**﴾ [لقمان: ١٣].

وقوله: ﴿**وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه**﴾ أي وجهنا حجته على قومه، قال مجاهد وغيره: يعني بذلك قوله: ﴿**وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون**﴾ وقد صدقه الله وحكم له بالأمن والهداية فقال: ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾ ثم قال بعد ذلك كله ﴿**وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء**﴾ قرىء بالإضافة وبلا إضافة، كما في سورة يوسف، وكلاهما قريب في المعنى.

وقوله: ﴿**إن ربك حكيم عليم**﴾ أي حكيم في أقواله وأفعاله، عليم أي بمن يهديه ومن يضله، وإن قامت عليه الحجج والبراهين، كما قال: ﴿**إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم**﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿**إن ربك حكيم عليم**﴾.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ
وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٥)
وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٦) وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ
وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ (٨٨) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ (٨٩)
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ (٩٠) ﴾.

يخبر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طَعَن في السن، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط، فبشروه وامرأته بإسحاق فتعجبت المرأة من ذلك، وقالت: ﴿**يا ويلتىٰ أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله؟ رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد**﴾ [هود: ٧٢-٧٣]. وبشروهما مع وجوده بنبوته، وبأن له نسلاً وعَقِباً، كما قال تعالى: ﴿**فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب**﴾ [هود: ٧١] فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يُعْقِب لضعفه، وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام، حين اعتزل قومه وتركهم، وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته، بأولاد صالحين من صلبه على دينه، تقر بهم عينه، كما قال تعالى: ﴿**فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً**﴾ [مريم: ٤٩]، وقال ههنا: ﴿**ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا**﴾.

وقوله: ﴿**ونوحاً هدينا من قبل**﴾ أي من قبله هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة، وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح عليه السلام، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به، جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذرية نوح، وكذلك الخليل إبراهيم عليه السلام، لم يبعث الله عز وجل بعده نبياً، إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿**وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب**﴾ الآية[العنكبوت:٢٧]، وقال تعالى، ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب**﴾ [الحديد:٢٦].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿**ومن ذريته**﴾ أي وهدينا من ذريته ﴿**داود وسليمان**﴾ الآية، وعود الضمير إلى نوح، لأنه أقرب المذكورين ظاهر، وعوده إلى إبراهيم، لأنه الذي سيق الكلام من أجله حسن، لكن يشكل على ذلك لوط، فإنه ليس من ذرية إبراهيم، بل هو ابن أخيه، اللهم إلا أن يقال إنه دخل في الذرية تغليباً، وفي ذكر عيسى عليه السلام في ذرية إبراهيم أو نوح، دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجال. ولما ثبت في صحيح البخاري، أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن علي: «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» فسماه ابناً، فدل على دخوله في الأبناء.

وقوله: ﴿**ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم**﴾ ذكر أصولهم وفروعهم، وذوي طبقتهم وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم؛ ولهذا قال ﴿**واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم**﴾. ثم قال: ﴿**ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده**﴾ أي إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم، ﴿**ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون**﴾ تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه، وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع، كقوله: ﴿**قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين**﴾ [الزخرف:٨١]، وكقوله: ﴿**لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين**﴾ [الأنبياء:١٧]، وكقوله: ﴿**لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار**﴾. [الزمر:٤].

وقوله: ﴿**أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة**﴾ أي أنعمنا عليهم بذلك، رحمة للعباد بهم ولطفاً منا بالخليقة، ﴿**فإن يكفر بها**﴾ أي بالنبوة، ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على هذه الأشياء الثلاثة، الكتاب والحكم والنبوة، وقوله: ﴿**هؤلاء**﴾ يعني أهل مكة، قاله ابن عباس وغير واحد، ﴿**فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين**﴾ أي إن يكفر بهذه النعم، من كفر بها من قريش وغيرهم، فقد وكلنا بها قوماً آخرين يعني المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة، ﴿**ليسوا بها بكافرين**﴾ أي لا يجحدون شيئاً منها، ولا يردون منها حرفاً واحداً، بل يؤمنون بجميعها، محكمها ومتشابهها، جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه وإحسانه.

ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿**أولئك**﴾ يعني الأنبياء المذكورين، مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان ﴿**الذين هدى الله**﴾ أي هم أهل الهداية لا غيرهم

﴿فبهداهم اقتده﴾ أي اقتد واتبع، وإذا كان هذا أمراً للرسول ﷺ، **فأمته** تَبَع له.

روى البخاري أن مجاهداً سأل ابن عباس أفي (ص) سجدة؟ فقال نعم، ثم تلا: **﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾** إلى قوله: **﴿فبهداهم اقتده﴾** ثم قال هو منهم.

وقوله: **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً﴾** أي لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن **﴿أجراً﴾** أي أجرة، ولا أريد منكم شيئاً، **﴿إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾** أي يتذكرون به، فيُرْشَدُوا من العَمَى إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان.

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

يقول تعالى وما عظموا الله حق تعظيمه، إذ كذبوا رسله، قال ابن عباس ومجاهد وعبد الله بن كثير: نزلت في قريش، واختاره ابن جرير، وقيل نزلت في طائفة من اليهود، والأول هو الأظهر، لأن الآية مكية، فإن قريشاً والعرب قاطبة كانوا يستبعدون إرسال رسول من البشر، قال الله تعالى: **﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس﴾** أي قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله، **﴿من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾** يعني التوراة التي قد علمتم، وكل أحد أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران، نوراً وهدى للناس، أي ليستضاء بها في كشف المشكلات، ويهتدى بها من ظلم الشبهات، وقوله: **﴿تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾** أي يجعلها حملتها قراطيس، أي قطعاً يكتبونها من الكتاب الأصلي، الذي بأيديهم، ويحرفون فيها ما يحرفون، ويبدلون ويتأولون، ويقولون هذا من عند الله، أي هو في كتابه المنزل، وما هو من عند الله.

وقوله تعالى: **﴿وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾** أي ومن أنزل القرآن الذي علمكم الله فيه، من خبر ما سبق، ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك أنتم ولا آباؤكم، قال قتادة: هؤلاء مشركو العرب، وقال مجاهد هذه للمسلمين، وقوله: **﴿قل الله﴾** قال ابن عباس: أي قل الله أنزله، وهذا هو المتعين في تفسير هذه الكلمة، لا ما قاله بعض المتأخرين، من أن معنى **﴿قل الله﴾** أي لا يكون خطابك لهم، إلا هذه الكلمة، كلمة «الله». وهذا الذي قاله هذا القائل، يكون أمراً بكلمة مفردة، من غير تركيب، والإتيان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها، وقوله: **﴿ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾** أي ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون، حتى يأتيهم من الله اليقين.

وقوله: **﴿وهذا كتاب﴾** يعني القرآن **﴿أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى﴾** يعني مكة **﴿ومن حولها﴾** من أحياء العرب، ومن سائر طوائف بني آدم، من عرب وعجم،

كما قال في الآية الأخرى ﴿**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً**﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي» وذكر منهن «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»؛ ولهذا قال ﴿**والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به**﴾ أي كل من آمن بالله واليوم الآخر، أمن بهذا الكتاب المبارك ﴿**وهم على صلاتهم يحافظون**﴾ أي يقومون بما افترض عليهم من أداء الصلوات في أوقاتها.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً**﴾ أي لا أحد أظلم، ممن كذب على الله، فجعل له شريكاً أو ولداً، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يكن أرسله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**أو قال أوحي إليّ ولم يوحَ إليه شيء**﴾. ﴿**ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله**﴾ يعني ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي، مما يفتريه من القول، كما قال تعالى: ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين**﴾ [الأنفال: ٣١]، قال الله: ﴿**ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت**﴾ أي في سكراته، وغمراته، وكرباته، ﴿**والملائكة باسطو أيديهم**﴾ أي بالضرب، وقال الضحاك وأبو صالح: **باسطو أيديهم**﴾ أي بالعذاب، كقوله ﴿**ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم**﴾ [الأنفال: ٥٠] ولهذا قال ﴿**والملائكة باسطو أيديهم**﴾ أي بالضرب حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم، ولهذا يقولون لهم: ﴿**أخرجوا أنفسكم**﴾ وذلك أن الكافر إذا احْتُضِر، بشرته الملائكة بالعذاب، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، وتعصي وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة، حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم ﴿**أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون**﴾ أي اليوم تهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون على الله، وتستكبرون عن اتباع آياته والانقياد لرسله.

وقد وردت أحاديث متواترة في كيفية احتضار المؤمن والكافر وهي مقررة عند قوله تعالى: ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقوله: ﴿**ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة**﴾ أي يقال لهم يوم معادهم هذا كما قال: ﴿**وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم، أول مرة**﴾ [الكهف: ٤٨] أي كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه، فهذا يوم البعث. وقوله: ﴿**وتركتم**

ما خولناكم وراء ظهوركم﴾ أي من النعم والأموال التي اقتنيتموها، في الدار الدنيا وراء ظهوركم، وثبت في صحيح [مسلم] أن رسول الله ﷺ قال: « يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس».

وقوله: **﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾** تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدار الدنيا من الأنداد، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم، إن كان ثَمَّ معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب، وانزاح الضلال، وضل عنهم ما كانوا يفترون ويناديهم الرب عز وجل على رؤوس الخلائق: **﴿أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾** [الشعراء: ٩٢-٩٣]؛ ولهذا قال ههنا: **﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾**.

ثم قال تعالى: **﴿لقد تقطع بينكم﴾** أي لقد تقطع ما بينكم من الأسباب والوصلات والوسائل **﴿وضل عنكم﴾** أي ذهب عنكم **﴿ما كنتم تزعمون﴾** من رجاء الأصنام والأنداد، كما قال تعالى: **﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾** [البقرة: ١٦٦-١٦٧]، والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه فالق الحب والنوى، أي يشقه في الثرى، فتنبت الزروع على اختلاف أصنافها، من الحبوب والثمار على اختلاف أشكالها وألوانها وطعومها من النوى، ولهذا فسر قوله: **﴿فالق الحب والنوى﴾** بقوله: **﴿يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي﴾** أي يخرج النبات الحي من الحب والنوى، الذي هو كالجماد الميت.

وقوله: **﴿ومخرج الميت من الحي﴾** معطوف على **﴿فالق الحب والنوى﴾** وقد عبروا عن هذا وهذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى، فمن قائل: يخرج الدجاجة من البيضة وعكسه، ومن قائل: يخرج الولد الصالح من الكافر والكافر من الصالح وغير ذلك من العبارات التي تنتظمها الآية وتشملها.

ثم قال: **﴿ذلكم الله﴾** أي فاعل هذه الأشياء، هو الله وحده لا شريك له **﴿فأنى تؤفكون﴾** أي فكيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه إلى الباطل، فتعبدون معه الله غيره.

وقوله: **﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكناً﴾** أي خالق الضياء والظلام، فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح، فيضيء الوجود، ويستنير الأفق، ويضمحل الظلام، ويجيء النهار

بضيائه وإشراقه، فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة، الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه، فذكر أنه فالق الإصباح، وقابل ذلك بقوله ﴿**وجعل الليل سكناً**﴾ أي مظلماً، تسكن فيه الأشياء.

وقوله: ﴿**والشمس والقمر حسباناً**﴾ أي يجريان بحساب مُقَنَّن مقدر، لا يتغير ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً، كما قال: ﴿**هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب**﴾ الآية[يونس: ٥].

وقوله: ﴿**ذلك تقدير العزيز العليم**﴾ أي الجميع جار بتقدير العزيز الذي لا يُمَانَع ولا يُخَالف، العليم بكل شيء، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر، يختم الكلام بالعزة والعلم.

وقوله: ﴿**وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر**﴾ قال بعض السلف [وهو قتادة]: من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله، أن الله جعلها زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين، ويهتدى بها في الظلمات البر والبحر. وقوله ﴿**قد فصلنا الآيات**﴾ أي قد بيناها ووضحناها ﴿**لقوم يعلمون**﴾ أي يعقلون ويعرفون الحق، ويتجنبون الباطل.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة**﴾ يعني آدم عليه السلام، وقوله: ﴿**فمستقر ومستودع**﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم: ﴿**فمستقر**﴾ أي في الأرحام، قالوا أو أكثرهم: ﴿**ومستودع**﴾ أي في الأصلاب.

وقوله: ﴿**قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون**﴾ أي يفهمون ويعون كلام الله ومعناه، وقوله: ﴿**وهو الذي أنزل من السماء ماء**﴾ مباركاً رزقاً للعباد وغياثاً للخلائق، رحمة من الله لخلقه ﴿**فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً**﴾ أي زرعاً وشجرًاً أخضر، ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والثمر؛ ولهذا قال: ﴿**نخرج منه حباً متراكباً**﴾ أي يركب بعضه بعضاً كالسنابل ونحوها، ﴿**ومن النخل من طلعها قنوان**﴾ أي جمع قنو، وهي عذوق الرطب ﴿**دانية**﴾ أي قريبة من المتناول، كما قال ابن عباس: يعني بالقنوان الدانية قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض.

وقوله: ﴿**وجنات من أعناب**﴾ أي ونخرج منه جنات من أعناب، وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز، وربما كانا خيار الثمار في الدنيا كما امتن الله بهما على عباده، في

قوله: ﴿**ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً**﴾ [النحل:٦٧] وكان ذلك قبل تحريم الخمر.

وقوله: ﴿**والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه**﴾ قال قتادة وغيره: متشابه في الورق قريب الشكل، قريب بعضه من بعض، ومتخالف في الثمار شكلاً وطعماً وطبعاً، وقوله: ﴿**انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه**﴾ أي نضجه، قاله البراء بن عازب، وابن عباس، وقتادة، وغيرهم: أي فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود، بعد أن كان حطباً، صار عنباً ورطباً، وغير ذلك مما خلق تعالى، من الألوان والأشكال والطعوم والروائح، كما قال تعالى: ﴿**وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾ [الرعد:٤]، ولهذا قال ههنا: ﴿**إن في ذلكم**﴾ أيها الناس ﴿**لآيات**﴾ أي دلالات، على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته ﴿**لقوم يؤمنون**﴾ أي يصدقون به ويتبعون رسله.

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

هذا رد على المشركين، الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا به في عبادة الله، بأن عبدوا الجن، فجعلوهم شركاء الله في العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم. فإن قيل: فكيف عبدت الجن، مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم ما عبدوها، إلا عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك، كما قال: ﴿**إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً * لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً * يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً**﴾ [النساء:١١٧ـ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿**ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم**﴾ [يس:٦٠ـ٦١]، وتقول الملائكة يوم القيامة: ﴿**سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون**﴾ [سبأ:٤١]، ولهذا قال تعالى: ﴿**وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم**﴾ أي وقد خلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يُعبد معه غيره، كما قال إبراهيم: ﴿**أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون**﴾ [الصافات:٩٥ـ٩٦]. ومعنى الآية، أنه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق وحده، فلهذا يجب أن يُفرد بالعبادة، وحده لا شريك له.

وقوله تعالى: ﴿**وخرقوا له بنين وبنات بغير علم**﴾ ينبه به تعالى على ضلال من ضل، في وصفه تعالى بأن له ولداً كما يزعم من قاله من اليهود في العزير، ومن قال من النصارى في المسيح، وكما قال المشركون من العرب في الملائكة، إنها بنات الله تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. ومعنى قوله: ﴿**وخرقوا**﴾ أي اختلقوا وائتفكوا وتخرصوا وكذبوا، كما قاله علماء السلف.

قال ابن جرير: فتأويل الكلام إذاً: وجعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم إياه، وهو المنفرد بخلقهم بغير شريك ولا ظهير وقال مجاهد: ﴿**وخرقوا له بنين وبنات**﴾ يقول وتخرصوا لله كذباً فافتعلوا له بنين وبنات بغير علم بحقيقة ما يقولون، ولكن جهلاً بالله وبعظمته، فإنه لا ينبغي لمن كان إلهاً، أن يكون له بنون وبنات، ولا صاحبة، ولا أن يَشْرَكه في خلقه شريك، ولهذا قال تعالى: ﴿**سبحانه وتعالى عما يصفون**﴾ أي تقدس وتنزه وتعاظم، عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون، من الأولاد والأنداد والنظراء والشركاء.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿**بديع السموات والأرض**﴾ أي مبدع السموات والأرض، وخالقهما، ومنشئهما، على غير مثال سبق، كما قال مجاهد والسدي: ومنه سميت البدعةُ بدعةً، لأنه لا نظير لها فيما سلف. ﴿**أنى يكون له ولد**﴾ أي كيف يكون له ولد، ﴿**ولم تكن له صاحبة**﴾، أي والولد إنما يكون متولداً بين شيئين متناسبين، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه، لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له ولا ولد، ﴿**وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم**﴾ فبين تعالى أنه الذي خلق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه، وهو الذي لا نظير له، فأنى يكون له ولد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**ذلكم الله ربكم**﴾ أي الذي خلق كل شيء، ولا ولد له ولا صاحبة ﴿**لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه**﴾ أي فاعبدوه وحده، لا شريك له، وأقروا له بالواحدنية، فإنه لا إله إلا هو، وأنه لا ولد له ولا والد، ولا صاحبة له، ولا نظير ولا عديل ﴿**وهو على كل شيء وكيل**﴾ أي حفيظ ورقيب، يدبر كل ما سواه، ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار.

وقوله: ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾ فيه أقوال للأئمة من السلف:

منها: لا تدركه في الدنيا، وإن كانت تراه في الآخرة، كما تواترت به الأخبار، عن رسول الله ﷺ، من غير ما طريق ثابت، في الصحاح والمسانيد والسنن، كما قال مسروق عن عائشة أنها قالت: من زعم أن محمداً أبصر ربه فقد كذب، وفي رواية على الله، فإن الله تعالى قال: ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾. [تعني لما عرج به ﷺ].

وقال آخرون: ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾ أي جميعها وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الدار الآخرة، كما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله. أما الكتاب، فقوله تعالى: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وقال تعالى عن الكافرين: ﴿**كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون**﴾ [المطففين: ١٥]. قال الإمام الشافعي: فدل هذا، على أن المؤمنين لا يُحجبون عنه تبارك وتعالى.

وأما السنة، فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس، وجرير، وصهيب، وبلال وغير واحد من الصحابة، عن النبي ﷺ، أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، في العَرَصَات وفي روضات الجنات، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه آمين.

والمراد بالإدراك المنفي الإحاطة، ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية، كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم، قال الله تعالى: ﴿**ولا يحيطون به علماً**﴾ [طه: ١١٠] وفي صحيح مسلم «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» ولا يلزم من هذا عدم الثناء فكذلك هذا. وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾ قال لا يحيط بصر أحد بالملك. وعن عكرمة، أنه قيل له ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾ قال ألست ترى السماء؟ قال بلى، قال فكلها ترى.

ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، تثبت الرؤية في الدار الآخرة، وتنفيها في الدنيا، وتحتج بهذه الآية ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾ فالذي نفته: الإدراك، الذي هو بمعنى رؤية العظمة والجلال، على ما هو عليه، فإن ذلك غير ممكن للبشر، ولا للملائكة، ولا لشيء، وقوله: ﴿**وهو يدرك الأبصار**﴾ أي يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه، لأنه خلقها، كما قال تعالى: ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾ [الملك: ١٤].

وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿**وهو اللطيف الخبير**﴾ قال اللطيف باستخراجها، الخبير بمكانها، والله أعلم، وهذا كما قال تعالى إخباراً عن لقمان، فيما وعظ به ابنه: ﴿**يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير**﴾ [لقمان: ١٦].

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

البصائر هي البيناتُ والحججُ التي اشتمل عليها القرآن، وما جاء به رسول الله ﷺ ﴿**فمن أبصر فلنفسه**﴾ أي إنما يعود وبال ذلك عليه.

﴿**وما أنا عليكم بحفيظ**﴾ أي بحافظ ولا رقيب، بل أنا مبلغ، والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وقوله: ﴿**وكذلك نصرف الآيات**﴾ أي وكما فصلنا الآيات في هذه السورة، من بيان التوحيد، وأنه لا إله إلا هو، هكذا نوضح الآيات ونفسرها ونبينها في كل موطن لجهالة الجاهلين، وليقول المشركون والكافرون المكذبون، دارست يا محمد من قبلك، من أهل الكتاب وقارأتهم، وتعلمت منهم، هكذا قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، وغيرهم، وروى الطبراني عن ابن عباس أنه قال: دارست: تلوت، خاصمت، جادلت، وهذا كما قال تعالى إخباراً عن كذبهم وعنادهم: ﴿**وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزورا وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى**

عليه بكرة وأصيلاً﴾ [الفرقان: ٤_٥].

وقوله: ﴿ولنبينه لقوم يعلمون﴾ أي ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه فلله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك وبيان الحق لهؤلاء كقوله تعالى: ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين﴾ [البقرة:٢٦]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين، وأنه يضل به من يشاء، ويهدي من يشاء.

ولهذا قال ههنا: «وكذلك نصرف الآيات وليقولوا دارست ولنبينه لقوم يعلمون» وقرأ بعضهم: ﴿وليقولوا دَرَسْتَ﴾. [وهي قراءة الجمهور]. قال التميمي عن ابن عباس: درست أي قرأت وتعلمت، وكذا قال مجاهد، والسدي، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد. وقال الحسن: «وليقولوا دَرَسَتْ» يقول تقادمت وانمحت [وهي قراءة ابن عامر].

﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

يقول تعالى آمرا لرسوله ﷺ ولمن اتبع طريقته: ﴿اتبع ما أوحي إليك من ربك﴾ اي اقتد به واقتف أثره، واعمل به، فإن ما أوحي إليك من ربك هو الحق، الذي لا مِرْية فيه، لأنه لا إله إلا هو. ﴿وأعرض عن المشركين﴾ أي اعف عنهم واصفح واحتمل أذاهم، حتى يفتحَ الله لك، وينصرَك عليهم، واعلم أن لله حكمة في إضلالهم، فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعاً، ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾ أي بل له المشيئة والحكمة، فيما يشاؤه ويختاره، لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، وقوله تعالى: ﴿وما جعلناك عليهم حفيظاً﴾ أي حافظاً، تحفظ أقوالهم وأعمالهم ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي موكل على أرزاقهم وأمورهم ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ كما قال تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾.

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

يقول تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سبِّ آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسبِّ إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو، كما قال ابن عباس: قالوا: يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا، أو لنهجون ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ﴿فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾.

ومن هذا القبيل، وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها، ما جاء في الصحيح [أي صحيح مسلم] أن رسول الله ﷺ قال: «ملعون من سب والديه» قالوا: يا رسول الله وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه» أو كما قال ﷺ.

وقوله: ﴿كذلك زينا لكل أمّة عملهم﴾ أي وكما زينا لهؤلاء القوم حب أصنامهم، والمحاماة لها والانتصار، كذلك زينا لكل أمة من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه،

ولله الحجة البالغة، والحكمة التامة، فيما يشاؤه ويختاره ﴿ثم إلى ربهم مرجعهم﴾ أي معادهم ومصيرهم ﴿فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ أي يجازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشرٌ.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن المشركين: أنهم حلفوا أيماناً مؤكدة ﴿لئن جاءتهم آية﴾ أي معجزة وخارقة ﴿ليؤمنن بها﴾ أي ليصدقنها ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ أي قل: للذين يسألونك الآيات، تعنتاً وكفراً وعناداً، لا على سبيل الهدى والاسترشاد، إنما مرجع هذه الآيات إلى الله، إن شاء أجابكم بها، وإن شاء ترككم. قال الله تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأوّلون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ قيل المخاطب بـ ﴿وما يشعركم﴾ المشركون وإليه ذهب مجاهد كأنه يقول لهم: وما يدريكم بصدقكم، في هذه الأيمان التي تقسمون بها.

وقيل المخاطب بقوله: وما يشعركم المؤمنون، أي وما يدريكم أيها المؤمنون. وقال بعضهم: «أنها» بمعنى لعلها.

وقوله تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ قال ابن عباس في هذه الآية: لما جحد المشركون ما أنزل الله، لم تثبت قلوبهم على شيء، ورُدَّت عن كل أمر، وقال مجاهد في قوله: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ ونحول بينهم وبينَ الإيمان، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة، وكذا قال عكرمة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال ابن عباس رضي الله عنه: أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه، وقال: ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ [فاطر: ١٤]. فأخبر الله سبحانه، أنهم لو ردوا لم يقدروا على الهدى، وقال: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ قال: ولو ردوا إلى الدنيا، لحيل بينهم وبين الهدى، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا، وقوله: ﴿ونذرهم﴾ أي نتركهم ﴿في طغيانهم﴾ قال ابن عباس والسدي: في كفرهم. وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة: في ضلالهم ﴿يعمهون﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، والربيع، وأبو مالك، وغيرهم: في كفرهم يترددون.

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) ﴾.

يقول تعالى: ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء، الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم، ﴿لئن جاءتهم آية

ليؤمنن بها﴾، فنزلنا عليهم الملائكة أي تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل كما سألوا، **﴿وكلمهم الموتى﴾** أي فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل **﴿وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً﴾** قيل: معناه من المقابلة والمعاينة، روي عن ابن عباس، وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال مجاهد: قبلاً أي أفواجاً، قبيلاً قبيلاً، أي تعرض عليهم كل أمة بعد أمة، فتخبرهم بصدق الرسل فيما جاءوهم به **﴿ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾** أي: إن الهداية إليه لا إليهم، بل يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد، **﴿ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾** لعلمه وحكمته وسلطانه وقهره وغلبته.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

يقول تعالى: وكما جعلنا لك أعداء يخالفونك ويعادونك، جعلنا لكل نبي ممن قبلك أيضاً أعداء فلا يحزنك ذلك، كما قال تعالى: **﴿فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك﴾** [آل عمران: ١٨٤].

وقال تعالى: **﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾** [الفرقان: ٤٣]، وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي. [في حديث بدء الوحي المخرج بالصحيحين].

وقوله: **﴿شياطين الأنس والجن﴾** بدل من **﴿عدواً﴾** أي لهم أعداء من شياطين الإنس والجن، والشيطان كل من خرج عن نظيره بالشر، ولا يعادي الرسل إلا الشياطين.

روى أحمد وابن جرير وابن مردويه من طرق، مجموعها يفيد قوته وصحته عن أبي ذر، قال: أتيت رسول الله ﷺ في مجلس، قد أطال فيه الجلوس، قال، فقال: «يا أبا ذر هل صليت» قلت: لا يا رسول الله، قال: «قم فاركع ركعتين» قال: ثم جئت فجلست إليه، فقال: «يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شياطين الإنس والجن» قال: قلت: لا يا رسول الله، وهل للإنس من شياطين؟ قال: «نعم هم شر من شياطين الجن». [وله شاهد من حديث أبي أمامة عند ابن أبي حاتم].

وشيطان كل شيء مارده، ولهذا جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر، أن رسول الله ﷺ قال «الكلب الأسود شيطان» ومعناه والله أعلم ـ شيطان في الكلاب.

وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: قدمت على المختار فأكرمني وأنزلني، حتى كاد يتعاهد مبيتي بالليل، قال: فقال لي: اخرج إلى الناس فحدث الناس، قال: فخرجت، فجاء رجل فقال: ما تقول في الوحي، فقلت: الوحي وحيان، قال الله تعالى: **﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾** [يوسف: ٣]، وقال تعالى: **﴿شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف**

القول غروراً﴾ قال فهمّوا بي أن يأخذوني، فقلت لهم: ما لكم ذاك، إني مفتيكم وضيفكم فتركوني، وإنما عَرّضَ عكرمة بالمختار ـ وهو ابن أبي عبيد ـ قبحه الله، وكان يزعم أنه يأتيه الوحي، وقد كانت أخته صفية تحت عبد الله بن عمر، وكانت من الصالحات، ولما أخبر عبد الله بن عمر أن المختار يزعم أنه يوحى إليه، فقال: صدق، قال الله تعالى: **﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾** [الأنعام:١٢١]، وقوله تعالى: **﴿يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾** أي يلقي بعضهم إلى بعض القولَ المزيَّن المزخرف، وهو المزوَّق الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره، **﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾** أي وذلك كله بقدر الله وقضائه، وإرادته ومشيئته، أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء **﴿فذرهم﴾** أي فدعهم، **﴿وما يفترون﴾** أي يكذبون. أي دع أذاهم، وتوكل على الله في عداوتهم، فإن الله كافيك وناصرك عليهم، وقوله تعالى: **﴿ولتصغى إليه﴾** أي ولتميل إليه. **﴿أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾** أي قلوبهم وعقولهم وأسماعهم. **﴿وليرضوه﴾** أي يحبوه ويريدوه، وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة، كما قال تعالى: **﴿فـإنكـم ومـا تعبـدون * مـا أنتـم عليـه بفـاتنيـن * إلا مـن هـو صـال الجحيـم﴾** [الصافات:١٦١ـ١٦٣].

﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾.

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ قل لهؤلاء المشركين بالله، الذين يعبدون غيره **﴿أفغير الله أبتغي حكماً﴾** أي بيني وبينكم **﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾** أي مبيناً **﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾** أي من اليهود والنصارى، **﴿يعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾**، أي بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين **﴿فلا تكونن من الممترين﴾**.

وقوله تعالى: **﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾** يقول صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الطلب، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة، كما قال تعالى: **﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾** إلى آخر الآية[الأعراف:١٥٧]. **﴿لا مبدل لكلماته﴾** أي ليس أحد يُعقّبُ حكمه تعالى، لا في الدنيا ولا في الآخرة **﴿وهو السميع﴾** لأقوال عباده **﴿العليم﴾** بحركاتهم وسكناتهم، الذي يجازي كل عامل بعمله.

﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

يخبر تعالى: عن حال أكثر أهل الأرض، من بني آدم أنه الضلال، كما قال تعالى: **﴿ولقد**

ضل قبلهم أكثر الأولين﴾ [الصافات:٧١]، وقال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ [يوسف:١٠٣]، وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم في ظنون كاذبة وحسبان باطل، ﴿إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ فإن الخَرْصَ هو الحزر، ومنه خرص النخل، وهو حَزْرُ ما عليها من التمر، وذلك كله عن قدر الله ومشيئته، ﴿هو أعلم من يضل عن سبيله﴾ فييسره لذلك ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ فييسرهم لذلك، وكل ميسر لما خلق له.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

هذا إباحة من الله، لعباده المؤمنين، أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه، ومفهومه أنه لا يباح مالم يذكر اسم الله عليه، كما كان يستبيحه كفار قريش من أكل الميتات، وأكل ما ذبح على النصب وغيرها، ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه، فقال: ﴿وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم﴾ أي قد بين لكم ما حرم عليكم ووضحه. ﴿إلا ما اضطررتم إليه﴾ أي إلا في حال الاضطرار، فإنه يباح لكم ما وجدتم.

ثم بين تعالى جهالة المشركين، في آرائهم الفاسدة، من استحلالهم الميتات، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى، فقال: ﴿وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين﴾ أي هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافترائهم.

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

قال مجاهد: ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ المعصية في السر والعلانية، وفي رواية عنه، هو ما ينوي مما هو عامل، وقال قتادة: أي سره وعلانيته قليله وكثيره.

والصحيح أن الآية عامة، وهي كقوله تعالى: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ الآية[الأعراف:٣٣]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون﴾ أي سواء كان ظاهراً أو خفياً، فإن الله سيجزيهم عليه، روى ابن أبي حاتم عن النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن الإثم، فقال: «الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه» [ورواه مسلم].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها، ولو كان الذابح مسلماً، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة، على ثلاثة أقوال:

فمنهم من قال: لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة، وسواء متروك التسمية عمداً أو سهواً، وهو مروي عن ابن عمر، ونافع مولاه، وعامر الشعبي، ومحمد بن سيرين، وهو رواية عن الإمام مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين، وهو اختيار أبي ثور، وداود الظاهري، واختار ذلك أبو الفتوح محمد بن محمد بن علي الطائي، من متأخري الشافعية، في كتابه «الأربعين»، واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية، وبقوله في آية الصيد: ﴿**فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه**﴾ [المائدة: ٤]. ثم قد أكد في هذه الآية بقوله ﴿**وإنه لفسق**﴾ والضمير قيل عائد على الأكل، وقيل عائد على الذبح، لغير الله، وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد، كحديثي عدي بن حاتم وأبي ثعلبة: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك». وهما في الصحيحين، وحديث رافع بن خديج: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه». وهو في الصحيحين أيضاً.

والمذهب الثاني في المسألة: أنه لا يشترط التسمية، بل هي مستحبة، فإن تركت عمداً أو نسياناً لم تضر، وهذا مذهب الإمام الشافعي رحمه الله، وجميع أصحابه، ورواية عن الإمام أحمد. وهو رواية عن الإمام مالك، وحكي عن ابن عباس، وأبي هريرة، وعطاء بن أبي رباح، والله أعلم. وحمل الشافعي الآية الكريمة: ﴿**ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق**﴾ على ما ذبح لغير الله، كقوله تعالى: ﴿**أو فسقاً أهلّ لغير الله به**﴾ [الأنعام: ١٤٥]. واحتج البيهقي [لهذا المذهب] بحديث عائشة رضي الله عنها [عند مسلم]، أن ناساً قالوا: يا رسول الله، إن قوماً حديثي عهد بجاهلية، يأتوننا بلحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال: «سَمّوا أنتم وكلوا». قال: فلو كان وجود التسمية شرطاً، لم يرخص لهم إلا مع تحققها، والله أعلم.

المذهب الثالث في المسألة: أنه إن ترك البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضر، وإن تركها عمداً لم تحل، هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه، وإسحاق بن راهويه: وهو محكي عن علي، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، والحسن البصري، وأبي مالك، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وجعفر بن محمد، وربيعة بن أبي عبد الرحمن.

واحتج لهذا المذهب بالحديث المروي من طرق عند ابن ماجة عن ابن عباس، وأبي هريرة، وأبي ذر، وعقبة بن عامر، وعبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» [وهو حسن].

قال ابن جرير: وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية: هل نسخ من حكمها شيء أم لا ؟ فقال بعضهم: لم ينسخ منها شيء، وهي محكمة فيما عُنيت به، وعلى هذا قول عامة أهل العلم.

وروى أبو داود عن ابن عباس في قوله: ﴿**وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم**﴾ يقولون: ما ذبح الله فلا تأكلوه، وما ذبحتم أنتم فكلوه، فأنزل الله: ﴿**ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه**﴾ ورواه ابن ماجه وابن أبي حاتم، وإسناده صحيح.

وقوله تعالى: ﴿**وإن أطعتموهم إنكم لمشركون**﴾ أي حيث عدلتم، عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقدمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك، كما قال تعالى: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا ليعبدوا إلٰهاً واحداً لا إلٰه إلا هو سبحانه عما يشركون**﴾ [التوبة:٣١]. وقد روى الترمذي: في تفسيرها عن عدي بن حاتم، أنه قال: يا رسول الله ما عبدوهم، فقال: «بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم». [رواه أيضاً أحمد في المسند وحسنه الألباني في غاية المرام].

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً، أي في الضلالة هالكاً حائراً، فأحياه الله أي أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله، ﴿**وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس**﴾ أي يهتدي به كيف يسلك وكيف يتصرف به، والنور هو القرآن قاله ابن عباس، وقال السدي، الإسلام، والكل صحيح. ﴿**كمن مثله في الظلمات**﴾ أي الجهالات، والأهواء والضلالات المتفرقة، ﴿**ليس بخارج منها**﴾ أي لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص مما هو فيه، وفي مسند الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره، فمن أصابه ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل». [وصححه الحاكم ووافقه الذهبي]. كما قال تعالى: ﴿**الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾ [البقرة:٢٥٧]. والآيات في هذا كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿**كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون**﴾ أي حَسَّنَّا لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة، قدراً من الله وحكمة بالغة لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

يقول تعالى، وكما جعلنا في قريتك يا نبي الله أكابر من المجرمين، ورؤساء ودعاة إلى الكفر، والصد عن سبيل الله، وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يُبْتَلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة، كما قال تعالى: ﴿**وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً**﴾ [الفرقان:٣١]. قال ابن عباس: ﴿**أكابر مجرميها ليمكروا فيها**﴾

سلَّطنا شرارهم فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب. وقال مجاهد وقتادة ﴿أكابر مجرميها﴾ قال عظماؤها، قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون * وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ [سبأ:٣٤-٣٥]. والمراد بالمكر ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال كما قال تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر با لله ونجعل له أنداداً﴾ الآية[سبأ:٣١-٣٣].

وقال سفيان: كل مكر في القرآن فهو عمل، وقوله: ﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾ أي وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم مَنْ أضلُّوه إلا على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ [العنكبوت:١٣].

وقوله: ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله﴾ أي إذا جاءتهم آية وحجة قاطعة، قالوا ﴿لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله﴾ أي حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتي إلى الرسل، كقوله جل وعلا: ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ الآية [الفرقان:٢١].

وقوله: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ أي هو أعلم حيث يضع رسالته ومَنْ يصلح لها من خلقه، كما قال تعالى: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أهم يقسمون رحمتَ ربك﴾ الآية[الزخرف:٣١-٣٢] يعنون لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير جليل مبجل في أعينهم ﴿من القريتين﴾ أي من مكة والطائف، وذلك لأنهم قبحهم الله كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغياً وحسداً، وعناداً واستكباراً كقوله تعالى مخبراً عنهم: ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا﴾ [الفرقان:٤١]. هذا وهم يعترفون بفضله وشرفه ونسبه، وطهارة بيته وَمَرْبَاه، وَمَنْشَئه ، حتى إنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه «الأمين» وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم: كيف نسبه فيكم ؟ قال: هو فينا ذو نسب، قال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال: لا، الحديث بطوله، الذي استدل ملك الروم بطهارة صفاته عليه السلام على صدق نبوته وصحة ما جاء به.

وروى الإمام أحمد ومسلم عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم».

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت من خير

قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه».

وروى الإمام أحمد عن المطلب بن أبي وداعة، قال: قال العباس: بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس، فصعد المنبر فقال: «من أنا ؟» قالوا أنت رسول الله، فقال «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فريقين فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً». صدق صلوات الله وسلامه عليه. [ورواه الترمذي، وصححه أحمد شاكر في المسند].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود، قال: إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيء. [قال الهيثمي في المجمع: رجاله موثقون، وعزاه أيضا إلى البزار والطبراني، وصححه شاكر في المسند].

وذكر ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية قال: أبصر رجل ابن عباس وهو يدخل من باب المسجد، فلما نظر إليه راعه فقال: من هذا ؟ قالوا ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ فقال: ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون**﴾ الآية، هذا وعيد شديد من الله، وتهديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله صغار وهو الذلة الدائمة، كقوله تعالى: ﴿**إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾ [غافر: ٦٠] أي صاغرين ذليلين حقيرين، وقوله: ﴿**وعذاب شديد بما كانوا يمكرون**﴾ لما كان المكر غالباً إنما يكون خفياً، وهو التلطف في التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد، جزاء وفاقاً، ﴿**ولا يظلم ربك أحداً**﴾ [الكهف: ٤٩]. وجاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة، فيقال هذه غَدْرة فلان بن فلان» والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام**﴾ أي ييسره له وينشطه ويسهله لذلك، فهذه علامات على الخير، كما قال تعالى: ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه**﴾ الآية[الزمر: ٢٢]، وقال ابن عباس: ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره**

للإسلام﴾ يقول: يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به، وكذا قال أبو مالك وغير واحد وهو ظاهر.

وقوله تعالى: ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾ الآية قرىء بفتح الضاد وتسكين الياء، والأكثرون ضيِّقاً بتشديد الياء وكسرها، وهما لغتان كهَيْن وهيِّن، وقرأ بعضهم حَرِجاً بفتح الحاء وكسر الراء قيل بمعنى آثم، [أو] هو الذي لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان، ولا ينفذ فيه.

وقال ابن عباس: يجعل الله عليه الإسلام ضيقاً، والإسلام واسع، وذلك حين يقول: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج:٧٨]، يقول: ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق، وقال مجاهد والسدي: «ضيقاً حرجاً» شاكاً.

وقال السدي ﴿كأنما يصعد في السماء﴾ من ضيق صدره. عن ابن عباس: ﴿كأنما يصعد في السماء﴾ يقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه، حتى يدخله الله في قلبه، وقال الأوزاعي ﴿كأنما يصعد في السماء﴾ كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقاً أن يكون مسلماً.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة تضييقه إياه عن وصول الإيمان إليه، يقول: فمثله في امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه، مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه، لأنه ليس في وسعه وطاقته، وقال في قوله: ﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ يقول: كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقاً حرجاً، كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله، ممن أبى الإيمان بالله ورسوله فيغويه ويصده عن سبيل الله، قال ابن عباس: الرجس الشيطان، وقال مجاهد: الرجس: كل مالا خير فيه، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرجس العذاب.

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله الصادين عنها، نبه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، فقال: ﴿وهذا صراط ربك مستقيماً﴾ أي هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن وهو صراط الله المستقيم، ﴿قد فصلنا الآيات﴾ أي قد وضحناها وبيناها وفسرناها ﴿لقوم يذكرون﴾ أي لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله. ﴿لهم دار السلام﴾ وهي الجنة ﴿عند ربهم﴾ أي يوم القيامة، وإنما وصف الله الجنة ههنا بدار السلام، لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام ﴿وهو وليهم﴾ أي حافظهم وناصرهم ومؤيدهم ﴿بما كانوا يعملون﴾ أي جزاء على أعمالهم الصالحة، تولاهم وأثابهم الجنة بمنه وكرمه.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ يعني الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ويعوذون بهم ويطيعونهم، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، **﴿يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾** أي ثم يقول: يا معشر الجن، ومعنى قوله: **﴿قد استكثرتم من الإنس﴾** أي من إضلالهم وإغوائهم، كما قال تعالى: **﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون﴾** [يس:٦٠-٦٢]. وقال ابن عباس: **﴿يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾** يعني أضللتم منهم كثيراً، وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة، **﴿وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾** يعني أن أولياء الجن من الإنس قالوا: مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا.

وأما استمتاع الجن بالإنس فإنه كان فيما ذكر، ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إياهم في استعانتهم بهم، فيقولون: قد سدنا الإنس والجن **﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾** قال السدي: أي الموت، **﴿قال النار مثواكم﴾** أي مأواكم ومنزلكم أنتم وأولياؤكم، **﴿خالدين فيها﴾** أي ماكثين فيها مكثاً مخلداً إلا ما شاء الله، قال بعضهم: يرجع معنى هذا الاستثناء إلى البرزخ، وقال بعضهم: هذا رد إلى مدة الدنيا، وقيل غير ذلك من الأقوال التي سيأتي تقريرها، عند قوله تعالى في سورة هود: **﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد﴾** [هود:١٠٧].

وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيره هذه الآية عن ابن عباس قال: **﴿النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾** قال: إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ولا ينزلهم جنة ولا ناراً.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

قال قتادة في تفسيرها: وإنما يولي الله الناس بأعمالهم، فالمؤمن وليُّ المؤمن أين كان وحيث كان، والكافر وليُّ الكافر أينما كان وحيثما كان، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي. وقال مالك بن دينار: قرأت في الزبور، إني أنتقم من المنافقين بالمنافقين، ثم أنتقم من المنافقين جميعاً، وذلك في كتاب الله قول الله تعالى: **﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾** وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: في قوله **﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾** قال: ظالمي الجن وظالمي الإنس، وقرأ: **﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾** [الزخرف:٣٦]، قال: ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس.

وقال بعض الشعراء:

وما من يد إلا يدُ الله فوقها ... ولا ظالم إلا سيُبْلى بظالم

ومعنى الآية الكريمة، كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ونهلك بعضهم ببعض وننتقم من بعضهم ببعض، جزاء على ظلمهم وبغيهم.

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

وهذا أيضاً مما يُقرع الله به سبحانه وتعالى كافري الجن والإنس يوم القيامة، حيث يسألهم وهو أعلم هل بلغتهم الرسل رسالاته؟ وهذا استفهام تقرير ﴿**يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم**﴾ أي من جملتكم، والرسل من الإنس فقط وليس من الجن رسل، كما قد نص على ذلك مجاهد وابن جريج وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف، وقال ابن عباس: الرسل من بني آدم ومن الجن نُذُر. وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم: أنه زعم أن في الجن رسلاً واحتج بهذه الآية الكريمة وفي الاستدلال بها على ذلك نظر، لأنها محتملة وليست بصريحة، وهي ـ والله أعلم ـ كقوله ﴿**مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ إلى أن قال ﴿**يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان**﴾ [الرحمن:١٩-٢٢]، ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان إنما يستخرجان من الملح لا من الحلو، وهذا واضح ولله الحمد، وقد نص على هذا الجواب بعينه ابن جرير، والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس، قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿**وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب**﴾ [العنكبوت:٢٧]، فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته، ولم يقل أحد من الناس: إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل، ثم انقطعت عنهم ببعثته، وقال تعالى: ﴿**وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق**﴾ [الفرقان:٢٠]، وقال: ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى**﴾ [يوسف:١٠٩]، ومعلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب.

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿**يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا**﴾ أي أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة، قال تعالى: ﴿**وغرتهم الحياة الدنيا**﴾ أي وقد فرطوا في حياتهم الدنيا، وهلكوا بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم للمعجزات، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها، ﴿**وشهدوا على أنفسهم**﴾ أي يوم القيامة ﴿**أنهم كانوا كافرين**﴾ أي في الدنيا، بما جاءتهم به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون**﴾ أي إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب، لئلا يُعاقب أحداً بظلمه وهو لم تبلغه دعوة،

ولكن أعذرنا إلى الأمم، وما عذبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالى: **﴿وإن من قرية إلا خلا فيها نذير﴾** [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: **﴿كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا﴾** [الملك: ٨-٩]، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله: **﴿ولكل درجات مما عملوا﴾** أي ولكل عامل في طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب من عمله، يبلغه الله إياها ويثيبه بها، إن خيراً فخير وإن شراً فشرٌ، قلت: ويحتمل أن يعود قوله: **﴿ولكل درجات مما عملوا﴾** أي من كافري الجن والإنس، أي ولكلٍّ درجة في النار بحسبه، كقوله: **﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾** [الأعراف: ٣٨].

﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ قال ابن جرير: أي وكل ذلك من عملهم يا محمد بعلم من ربك، يحصيها ويثبتها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه.

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: **﴿وربك الغني﴾** أي عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، **﴿ذو الرحمة﴾** أي وهو مع ذلك رحيم بهم رؤوف، كما قال تعالى: **﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾** [البقرة: ١٤٣]. **﴿إن يشأ يذهبكم﴾** أي إذا خالفتم أمره **﴿ويستخلف من بعدكم ما يشاء﴾** أي قوماً آخرين، أي يعملون بطاعته **﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾** أي هو قادر على ذلك سهل عليه يسير لديه، كما أذهب القرون الأولى وأتى بالذي بعدها كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين، كما قال تعالى: **﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز﴾**. [فاطر: ١٥-١٧]، وقال تعالى: **﴿والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾** [محمد: ٣٨].

وقوله تعالى: **﴿إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين﴾** أي أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة، **﴿وما أنتم بمعجزين﴾** أي لا تعجزون الله، بل هو قادر على إعادتكم وإن صرتم تراباً رفاتاً وعظاماً، هو قادر لا يعجزه شيء.

وقوله تعالى: **﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون﴾** هذا تهديد شديد ووعيد أكيد أي استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى فأنا مستمر على طريقي ومنهجي كما قال تعالى: **﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون﴾** [هود: ١٢١-١٢٢]. **﴿فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون﴾** أي أتكون لي أو لكم وقد أنجز الله موعوده لرسوله صلوات الله عليه فإنه تعالى مكن له في البلاد وحكمه في نواصي مخالفيه من العباد وفتح له مكة وأظهره على من كذبه

من قومه وعاداه وناوأه واستقر أمره على سائر جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين، وكل ذلك في حياته ثم فتحت الأمصار والأقاليم بعد وفاته في أيام خلفائه رضي الله عنهم أجمعين، كما قال الله تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ [المجادلة: ٢٠]، وقال: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ [غافر: ٥١ـ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾، الآية[النور: ٥٥]، وقد فعل الله ذلك بهذه الأمة وله الحمد والمنة أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً، وجعلوا لله جزءاً من خلقه وهو خالق كل شيء سبحانه وتعالى عما يشركون، ولهذا قال تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ﴾ أي مما خلق وبرأ ﴿من الحرث﴾ أي من الزروع والثمار ﴿والأنعام نصيباً﴾ أي جزءاً وقسماً ﴿فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا﴾. وقوله: ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم﴾. قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً، أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان، حفظوه وأحصوه وإن سقط منه شيء فيما سُمّي للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئاً جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن، وإن سقط شيء من الحرث والثمر الذي جعلوه لله فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا هذا فقير، ولم يردوه إلى ما جعلوه لله، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسقى ما سمي للوثن تركوه للوثن، وكانوا يُحرِّمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه لله، فقال الله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ الآية، وهكذا قال مجاهد وقتادة والسدي وغير واحد، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسيره: كل شيء جعلوه لله من ذبح يذبحونه لا يأكلونه أبداً حتى يذكروا معه أسماء الآلهة. وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه، وقرأ الآية حتى بلغ: ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي ساء ما يقسمون، فإنهم أخطؤوا أولاً في القسمة، فإن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه، وله الملك وكل شيء له وفي تصرفه وتحت قدرته ومشيئته، لا إله غيره ولا رب سواه، ثم لما قسموا فيما زعموا لم يحفظوا القسمة التي هي فاسدة بل جاروا فيها، كما قال: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾ [النحل: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً إن

الإنسان لكفور مبين﴾ [الزخرف:١٥].

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

يقول تعالى: وكما زينت الشياطين لهؤلاء المشركين أن جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق ووأد البنات خشية العار، وقال ابن عباس: شركاؤهم زينوا لهم قتل أولادهم، وقال مجاهد: **﴿شركاؤهم﴾** شياطينهم يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خشية العَيْلة، إما ليردوهم فيهلكوهم، وإما ليلبسوا عليهم دينهم، أي فيخلطوا عليهم دينهم ونحو ذلك قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا كقوله تعالى: **﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾** [النحل:٥٨-٥٩].

قال تعالى: **﴿ولو شاء الله ما فعلوه﴾** أي كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كوناً وله الحكمة التامة في ذلك فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون **﴿فذرهم وما يفترون﴾** أي فدعهم واجتنبهم وما هم فيه فسيحكم الله بينك وبينهم.

﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

قال ابن عباس: الحجر: الحرام، مما حرموا الوصيلة وتحريم ما حرموا، وكذلك قال مجاهد والسدي وغيرهما. وقال قتادة: **﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حجر﴾** تحريم كان عليهم من الشياطين في أموالهم، وتغليظ وتشديد لم يكن من الله تعالى، وقال ابن زيد بن أسلم **﴿حجر﴾** إنما احتجروها لآلهتهم، وقال السدي: **﴿لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم﴾** يقولون حرام أن نطعم إلا من شئنا. وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: **﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون﴾** [يونس:٥٩].

وقال السدي: أما الأنعام التي حرمت ظهورها فهي البحيرة والسائبة والحام، وأما الأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها قال إذا أولدوها ولا إن نحروها.

﴿افتراء عليه﴾ أي على الله وكذباً منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه فإنه لم يأذن لهم في ذلك ولا رَضيه منهم **﴿سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾** أي عليه ويُسندون إليه.

﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

قال ابن عباس: **﴿وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا﴾** فهو اللبن كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكرانهم، وكانت الشاة إذا ولدت ولداً ذكراً ذبحوه وكان للرجال دون النساء وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء فنهى الله عن ذلك وكذا قال السدي.

وقال الشعبي البحيرة لا يأكل من لبنها إلا الرجال وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء وكذا قال عكرمة وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال أبو العالية ومجاهد وقتادة في قوله: ﴿**سيجزيهم وصفهم**﴾ أي قولهم الكذب في ذلك يعني كقوله تعالى: ﴿**ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع**﴾ الآية[النحل: ١١٦-١١٧]. ﴿**إنه حكيم**﴾ أي في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ﴿**عليم**﴾ بأعمال عباده من خير وشر وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

يقول تعالى قد خسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم فحرَّموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل بكذبهم على الله وافترائهم، كما قال تعالى: ﴿**إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون**﴾ [يونس: ٦٩-٧٠].

روى البخاري في صحيحه في كتاب المناقب عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿**قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين**﴾.

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

يقول تعالى بياناً لأنه الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام التي تصرف فيها هؤلاء المشركون بآرائهم الفاسدة، وقسموها وجزؤوها فجعلوا منها حراماً وحلالاً، فقال ﴿**وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات**﴾ قال ابن عباس: ﴿**معروشات**﴾ مسموكات، وفي رواية: ما عرش الناس، وغير معروشات: ما خرج في البر والجبال من الثمرات.

وقال ابن جريج: ﴿**متشابهاً وغير متشابه**﴾ قال: متشابهاً في المنظر وغير متشابه في الطعم، وقال محمد بن كعب: ﴿**كلوا من ثمره إذا أثمر**﴾ قال: من رطبه وعنبه، وقوله تعالى: ﴿**وآتوا حقه يوم حصاده**﴾ قال أنس بن مالك وابن عباس: ﴿**وآتوا حقه يوم حصاده**﴾ يعني الزكاة المفروضة. وعن ابن عباس قال: وذلك أن يعلم ما كيله وحقه، وما يلقط الناس من سنبله.

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود في سننه عن جابر بن عبد الله، أن النبي ﷺ أمر من كل

جادٍّ عشرة أوسُق من التمر بقنو يعلق في المسجد للمساكين، وهذا إسناده جيد قوي.

وقال الحسن البصري: هي الصدقة من الحب والثمار، وكذا قال ابن زيد، وعن ابن عمر في قوله: **﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾** قال: كانوا يعطون شيئاً سوى الزكاة، وعن عطاء بن أبي رباح قال: يعطي من حضره يومئذ ما تيسر، وليس بالزكاة، وقال مجاهد: إذا حضرك المساكين طرحت لهم منه، وعن سعيد بن جبير قال: كان هذا قبل الزكاة، للمساكين القبضة لعلف دابته.

وقال آخرون: هذا شيء كان واجباً ثم نسخه الله بالعشر أو نصف العشر، حكاه ابن جرير عن ابن عباس [وغيره]، واختاره ابن جرير رحمه الله.

وقد ذم الله سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة «ن» **﴿إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون * فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم﴾** [القلم: ١٧-٣٣]. أي كالليل المدلهم سوداء محترقة.

وقوله: **﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾** قيل معناه لا تسرفوا في الإعطاء فتعطوا فوق المعروف، وقال أبو العالية: كانوا يعطون يوم الحصاد شيئاً ثم تباروا فيه وأسرفوا، فأنزل الله: **﴿ولا تسرفوا﴾**. وعن عطاء: ينهى عن السرف في كل شيء، وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله فهو سرف، وقال السدي في قوله: **﴿ولا تسرفوا﴾** قال: لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء، وقال سعيد بن المسيب ومحمد بن كعب في قوله: **﴿ولا تسرفوا﴾** قال: لا تمنعوا الصدقة فتعصوا ربكم.

ثم اختار ابن جرير قول عطاء، أنه نهي عن الإسراف في كل شيء ولا شك أنه صحيح، لكن الظاهر والله أعلم من سياق الآية، حيث قال تعالى: **﴿كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾** أن يكون عائداً إلى الأكل، أي لا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن، كما قال تعالى: **﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾** [الأعراف: ٣١].

وفي صحيح البخاري تعليقاً: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير إسراف ولا مخيلة». وهذا من هذا، والله أعلم.

وقوله: **﴿ومن الأنعام حمولة وفرشاً﴾** أي وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة وما هو فرش، قيل: المراد بالحمولة ما يُحمل عليه من الإبل، والفرش الصغار منها، كما قاله عبد الله [ابن مسعود] في قوله: **﴿حمولة﴾** ما حمل عليه من الإبل، **﴿فرشاً﴾** قال الصغار من الإبل، رواه الحاكم وقال صحيح ولم يخرجاه، وقال ابن عباس: أما الحمولة فالإبل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه، وأما الفرش فالغنم، واختاره ابن جرير قال: وأحسبه إنما سمي فرشاً لدنوه من الأرض.

وقوله تعالى: ﴿**كلوا مما رزقكم الله**﴾ أي من الثمار والزروع والأنعام فكلها خلقها الله وجعلها رزقاً لكم، ﴿**ولا تتبعوا خطوات الشيطان**﴾ أي طرائقه وأوامره كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله، أي من الثمار والزروع افتراء على الله، ﴿**إنه لكم**﴾ أي إن الشيطان أيها الناس لكم ﴿**عدو مبين**﴾ أي بيّن ظاهر العداوة، كما قال تعالى: ﴿**إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير**﴾ [فاطر:٦]. والآيات في هذا كثيرة في القرآن.

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

هذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام، فيما كانوا حرّموا من الأنعام وجعلوها أجزاء وأنواعاً بحيرة وسائبة ووصيلة وحاماً، وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار، فبين أنه تعالى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً، ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم ذكره وأنثاه، وإلى إبل ذكورها وإناثها، وبقر كذلك وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك ولا شيئاً من أولادها، بل كلها مخلوقة لبني آدم أكلاً وركوباً وحمولة وحلباً وغير ذلك من وجوه المنافع، كما قال ﴿**وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج**﴾ الآية[الزمر:٦]. وقوله: ﴿**أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين**﴾ رد عليهم في قولهم ﴿**ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا**﴾. وقوله: ﴿**نبئوني بعلم إن كنتم صادقين**﴾ أي أخبروني عن يقين، كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه.

وقوله: ﴿**أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا**﴾ تهكُّم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله من تحريم ما حرموه من ذلك ﴿**فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم**﴾ أي لا أحد أظلم منهم ﴿**إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾. وأول من دخل في هذه الآية عمرو بن لُحَي بن قَمَعَة، فإنه أول من غير دين الأنبياء وأول من سيب السوائب ووصل الوصيلة وحمى الحامي، كما ثبت ذلك في الصحيح.

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً عبده ورسوله محمداً ﷺ: قل لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله، ﴿**لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه**﴾ أي آكل يأكله قيل معناه لا أجد شيئاً مما حرمتم حراماً سوى هذه، وقيل معناه لا أجد من الحيوانات شيئاً حراماً سوى هذه، فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا في سورة المائدة وفي الأحاديث الواردة رافعاً

لمفهوم هذه الآية، ومن الناس من يسمي هذا نسخاً والأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخاً لأنه من باب رفع مباح الأصل والله أعلم، وقال ابن عباس: ﴿**أو دماً مسفوحاً**﴾ يعني المهراق. قال عكرمة في قوله: ﴿**أو دماً مسفوحاً**﴾ لولا هذه الآية لتتبع الناس ما في العروق كما تتبعه اليهود، وقال أبو مجلز عن الدم، وما يتلطخ من الذبح من الرأس وعن القدر يرى فيها الحمرة؟ فقال: إنما نهى الله عن الدم المسفوح، وقال قتادة: حرم من الدماء ما كان مسفوحاً، فأما لحم خالطه الدم فلا بأس به.

وقوله تعالى: ﴿**فمن اضطر غير باغ ولا عاد**﴾ أي فمن اضطر إلى أكل شيء مما حرم الله في هذه الآية الكريمة، وهو غير متلبس ببغي ولا عدوان ﴿**فإن ربك غفور رحيم**﴾ أي غفور له رحيم به، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (١٤٦) ﴾.

قال ابن جرير، يقول تعالى وحرمنا على اليهود ﴿**كل ذي ظفر**﴾ وهو البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع، كالإبل والنعام والإوز والبط، قال ابن عباس: ﴿**وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر**﴾ وهو البعير والنعامة، وكذا قال مجاهد والسدي في رواية، وقال سعيد بن جبير: هو الذي ليس بمنفرج الأصابع، وفي رواية عنه كل شيء متفرق الأصابع ومنه الديك، وقال قتادة في قوله: ﴿**وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر**﴾ وكان يقال البعير والنعامة وأشياء من الطير والحيتان. وفي رواية البعير والنعامة، وحرم عليهم من الطير: البط وشبهه وكل شيء ليس بمشقوق الأصابع.

وقوله تعالى: ﴿**ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما**﴾ قال السدي: يعني الثَّرْب وشحم الكليتين وكانت اليهود تقول إنه حرمه إسرائيل فنحن نحرمه، وكذا قال ابن زيد، وقال قتادة: الثرب وكل شحم كان كذلك ليس في عظم.

وقال ابن عباس: ﴿**إلا ما حملت ظهورهما**﴾ يعني ما عَلِق بالظهر من الشحوم، وقال السدي وأبو صالح: الألية مما حملت ظهورهما. وقوله: ﴿**أو الحوايا**﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير ﴿**الحوايا**﴾ جمع واحدها حاوياء وحاوية وحَوِيّة وهو ما تَحَوّى من البطن فاجتمع واستدار، وهي بنات اللبن وهي المباعر وتسمى المرابض، وفيها الأمعاء، قال: ومعنى الكلام ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو ما حملت الحوايا.

وقوله تعالى: ﴿**أو ما اختلط بعظم**﴾ أي إلا ما اختلط من الشحوم بالعظام فقد أحللناه لهم، وقال ابن جريج: شحم الألية ما اختلط بالعُصْعُص فهو حلال. وكل شيء في القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم فهو حلال ونحوه، قاله السدي. وقوله تعالى: ﴿**ذلك جزيناهم ببغيهم**﴾ أي هذا التضييق إنما فعلناه بهم وألزمناهم به مجازاة لهم على بغيهم ومخالفتهم

أوامرنا، كما قال تعالى: ﴿**فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً**﴾ [النساء: ١٦٠]. وقوله ﴿**وإنا لصادقون**﴾ أي وإنا لعادلون فيما جازيناهم به، وقال ابن جرير: وإنا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد من تحريمنا ذلك عليهم، لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذي حرمه على نفسه، والله أعلم.

وروى الجماعة عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح: «إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام» فقيل: يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنه يدهن بها الجلود ويطلى بها السفن ويستصبح بها الناس فقال: «لا هو حرام». ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومها جَمَلوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه».

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

يقول تعالى: فإن كذبك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم ﴿**فقل ربكم ذو رحمة واسعة**﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتباع رسوله، ﴿**ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين**﴾ ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿**إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم**﴾ [الأنعام: ١٦٥]. والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى، وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا، فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان ويحول بيننا وبين الكفر فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك؛ ولهذا قال: ﴿**لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء**﴾ كما في قوله تعالى: ﴿**وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم**﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقال الله تعالى: ﴿**كذلك كذب الذين من قبلهم**﴾ أي بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء وهي حجة داحضة باطلة، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم وأدال عليهم رسله الكرام وأذاق المشركين من أليم الانتقام.

﴿**قل هل عندكم من علم**﴾ أي بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿**فتخرجوه لنا**﴾ أي فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه ﴿**إن تتبعون إلا الظن**﴾ أي الوهم والخيال، والمراد بالظن هاهنا

الاعتقاد الفاسد﴿وإن أنتم إلا تخرصون﴾ أي تكذبون على الله فيما ادعيتموه، قال ابن عباس: ﴿لو شاء الله ما أشركنا﴾ وقال: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ ثم قال: ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾ [الأنعام:١٠٧]، فإنهم قالوا: عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زُلْفَى فأخبرهم الله أنها لا تقربهم، وقوله: ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾ يقول تعالى لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين، وقوله تعالى: ﴿قل فللّه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿قل﴾ لهم: ﴿فللّه الحجة البالغة﴾ أي له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى وإضلال من أضل، ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ وكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ [الأنعام:٣٥]، وقال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾ [يونس:٩٩].

قال الضحاك: لا حجة لأحد عصى الله ولكن لله الحجة البالغة على عباده، وقوله تعالى: ﴿قل هلم شهداءكم﴾ أي أحضروا شهداءكم ﴿الذين يشهدون أن الله حرم هذا﴾ أي هذا الذي حرمتموه وكذبتم وافتريتم على الله فيه ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾ أي لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذباً وزوراً ﴿ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾ أي يشركون به ويجعلون له عديلاً.

﴿ ۞قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد أن يقرأ وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً﴾ إلى قوله ﴿لعلكم تتقون﴾.

وروى الحاكم عن ابن عباس قال: في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب، ثم قرأ: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً﴾ الآيات، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وروى الحاكم أيضاً عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يبايعني على ثلاث» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ حتى فرغ من الآيات «فمن وفى فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه» ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، [ونحوه عند الشيخين].

وأما تفسيرها فيقول تعالى: لنبيه ورسوله محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين الذين اشركوا وعبدوا غير الله وحرموا ما رزقهم الله وقتلوا أولادهم، وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل

الشياطين لهم **﴿قل﴾** لهم **﴿تعالوا﴾** أي هلموا وأقبلوا **﴿أتل ما حرم ربكم عليكم﴾** أي أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً لا تخرصاً ولا ظناً، بل وحياً منه وأمراً من عنده: **﴿ألا تشركوا به شيئاً﴾** وكأن في الكلام محذوفاً دل عليه السياق، وتقديره وأوصاكم **﴿ألا تشركوا به شيئاً﴾** ولهذا قال في آخر الآية: **﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾**.

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك دخل الجنة، قلت وإن زنى وإن سرق؟ قال وإن زنى وإن سرق، قلت وإن زنى وإن سرق؟ قال وإن زنى وإن سرق، قلت وإن زنى وإن سرق؟ قال وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر» وفي بعض الروايات: أن قائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ وأنه عليه الصلاة والسلام قال في الثالثة: «وإن رغم أنف أبي ذر» فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث: «وإن رغم أنف أبي ذر». وفي بعض المسانيد والسنن عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني فإني أغفر لك على ما كان منك ولا أبالي، ولو أتيتني بقُرَابِ الأرض خطيئة أتيتك بقرابها مغفرة ما لم تشرك بي شيئاً، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عَنَان السماء ثم استغفرتني غفرت لك». [وهو حديث حسن]. ولهذا شاهد في القرآن قال الله تعالى: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾** [النساء:٤٨،١١٦]. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة» والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

وقوله تعالى: **﴿وبالوالدين إحساناً﴾** أي وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحساناً أي أن تحسنوا إليهم كما قال تعالى: **﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾** [الإسراء:٢٣].

والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين كما قال: **﴿أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾** [لقمان:١٤ـ١٥]. فأمر بالإحسان إليهما وإن كانا مشركين، وقال تعالى: **﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً﴾** الآية[البقرة:٨٣]. والآيات في هذا كثيرة.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قال ابن مسعود: حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني.

وقوله تعالى: **﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾** لما أوصى تعالى ببر الوالدين والأجداد، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد، فقال تعالى: **﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾** وذلك أنهم كانوا يقتلون أودلاهم كما سولت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يئدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خيفة الافتقار؛ ولهذا جاء في الصحيحين

من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قلت: يا رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم ؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قلت: ثم أي ؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» قلت: ثم أي ؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك» ثم تلا رسول الله ﷺ: **﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق إثاما﴾** الفرقان: ٦٨].

وقوله: **﴿من إملاق﴾** قال ابن عباس وقتادة والسدي: هو الفقر، أي ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل، وقال في سورة الإسراء: **﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾** [الإسراء: ٣١] أي لا تقتلوهم خشية حصول فقر في الآجل؛ ولهذا قال هناك: **﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾** فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي لا تخافوا من فقركم بسببهم، فرزقهم على الله. وأما في هذه الآية فلما كان الفقر حاصلاً قال: **﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾** لأنه الأهم ههنا، والله أعلم، وقوله تعالى: **﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾** كقوله تعالى: **﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾** [الأعراف: ٣٣]. وقد تقدم تفسيرها في قوله: **﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾**. [الأنعام: ١٢٠].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن». وروى الشيخان عن سعد بن عبادة قال: لو رأيت مع امرأتي رجلاً لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون من غيرة سعد! فوالله لأنا أغير من سعد، والله أغير مني، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن».

وقوله تعالى: **﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾** وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيداً، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن فقد جاء في الصحيحين: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهَد ـ وهو المستأمن من أهل الحرب ـ كما رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً».

وقوله: **﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾** أي هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون عنه أمره ونهيه.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا

إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

قال ابن عباس: لما أنزل الله **﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾** و**﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾** الآية[النساء:١٠]، فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله، أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل **﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾** [البقرة:٢٢٠]، قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم رواه أبو داود، [وهو حديث حسن]. وقوله: **﴿حتى يبلغ أشده﴾** قال الشعبي ومالك وغير واحد من السلف: يعني حتى يحتلم.

وقوله: **﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾** يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء، كما توعد على تركه في قوله تعالى: **﴿ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾** [المطففين:١-٦]. وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان.

وقوله تعالى: **﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾** أي من اجتهد في أداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه.

وقوله: **﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾** كما قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولو على أنفسكم﴾** [المائدة:٨]، يأمر تعالى بالعدل في الفعال والمقال على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد في كل وقت وفي كل حال، وقوله: **﴿وبعهد الله أوفوا﴾** قال ابن جرير: يقول وبوَصِية الله التي أوصاكم بها فأوفوا، وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم وتعملوا بكتابه وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله. **﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾** يقول تعالى: هذا وصاكم به وأمركم به وأكد عليكم فيه **﴿لعلكم تذكرون﴾** أي تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه قبل هذا، وقرأ بعضهم بتشديد الذال وآخرون بتخفيفها.

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

قال ابن عباس في قوله: **﴿فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾** وقوله: **﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾** [الشورى:١٣]، ونحو هذا في القرآن، قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله ونحو هذا، قاله مجاهد وغير واحد.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً» وخط عن يمينه وشماله ثم قال: «هذه السبل ليس منها

سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه» ثم قرأ ﴿**وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾. وكذا رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، [وأخرجه النسائي وابن ماجه بإسناد صحيح].

وروى ابن جرير أن رجلاً قال لابن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد ﷺ في أدناه وطرفه في الجنة، وعن يمينه جواد وعن يساره جواد، وثمّ رجال يدعون من مر بهم، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿**وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾ الآية.

وقد روي الإمام أحمد عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يدعو: يا أيها الناس ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً ولا تفرقوا وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال ويحك لا تفتحه فإنك إن فتحته تلجه فالصراط الإسلام والسوران حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم» ورواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب.

وقوله: ﴿**فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾ إنما وحد سبيله سبحانه لأن الحق واحد، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها كما قال تعالى: ﴿**الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾ [البقرة:٢٥٧].

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾.

لما أخبر الله عن القرآن بقوله ﴿**وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه**﴾ عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: ﴿**ثم آتينا موسى الكتاب**﴾، وكثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة، كقوله تعالى: ﴿**ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً**﴾ [الأحقاف: ١٢]، وقال تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿**يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم**﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿**تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً**﴾ أي آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تماماً كاملاً جامعاً، لجميع ما يحتاج إليه في شريعته كما قال: ﴿**وكتبنا له في الألواح من كل شيء**﴾ الآية[الأعراف: ١٤٥]، وقوله: ﴿**على الذي أحسن**﴾ أي جزاء على إحسانه في العمل وقيامه بأوامرنا وطاعتنا كقوله: ﴿**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان**﴾ [الرحمن: ٦٠]، وكقوله: ﴿**وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال**

عهدي الظالمين﴾ [البقرة:١٢٤].

وقال قتادة من أحسن في الدنيا تمم له ذلك في الآخرة، واختار ابن جرير أن تقدير الكلام: **﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماماً﴾** على إحسانه فكأنه جعل الذي مصدرية كماقيل في قوله تعالى: **﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾** [التوبة:٦٩] أي كخوضهم وقال ابن رواحة:

فثبت الله ما آتاك من حسن   في المرسلين ونصراً كالذي نصروا

وقال آخرون: الذي ههنا بمعنى الذين، قال ابن جرير: وقد ذكر عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقرؤها «تماماً على الذين أحسنوا» وعن مجاهد: **﴿تماماً على الذي أحسن﴾** قال: على المؤمنين والمحسنين، وكذا قال أبو عبيدة وقال والبغوي المحسنون الأنبياء والمؤمنون، يعني أظهرنا فضله عليهم قلت: كما قال تعالى **﴿قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾** [الأعراف:١٤٤]، ولا يلزم اصطفاؤه على محمد ﷺ خاتم الأنبياء والخليل عليهما السلام لأدلة أخر.

وقوله: **﴿وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة﴾** فيه مَدْحٌ لكتابه الذي أنزله الله عليه **﴿لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون﴾** فيه الدعوة إلى اتباع القرآن ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة.

﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

قال ابن جرير: معناه وهذا كتاب أنزلناه لئلا يقولوا: **﴿إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا﴾** يعني لينقطع عذرهم. وقوله: **﴿على طائفتين من قبلنا﴾** قال ابن عباس: هم اليهود والنصارى وكذا قال مجاهد والسدي وقتادة وغير واحد. وقوله: **﴿وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾** أي وما كنا نفهم ما يقولون؛ لأنهم ليسوا بلساننا ونحن في شغل وغفلة عما هم فيه. وقوله: **﴿أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم﴾** أي وقطعنا تعللكم أن تقولوا لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكنا أهدى منهم فيما أوتوه كقوله: **﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً﴾** [فاطر:٤٢]، وهكذا قال ههنا: **﴿فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة﴾** يقول: فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبي العربي قرآن عظيم فيه بيان للحلال والحرام وهدى لما في القلوب ورحمة من الله بعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه.

وقوله: **﴿فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها﴾** أي لم ينتفع بما جاء به الرسول ولا اتبع ما أرسل به ولا ترك غيره [أي يعمل بها] بل صدف عن اتباع آيات الله أي صرف الناس وصدهم عن ذلك قاله السدي، وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة: وصدف عنها: أعرض عنها

وقول السدي ههنا فيه قوة؛ لأنه قال: ﴿**فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها**﴾ كما تقدم في أول السورة ﴿**وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم**﴾ [الأنعام:٢٦]، وقال تعالى: ﴿**الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب**﴾ [النحل:٨٨]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿**سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون**﴾. وقد يكون المراد فيما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿**فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها**﴾ أي لا آمن بها ولا عمل بها، كقوله تعالى: ﴿**فلا صدّق ولا صلى ولكن كذب وتولى**﴾ [القيامة:٣١-٣٢]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على اشتمال الكافر على التكذيب بقلبه وترك العمل بجوارحه ولكن المعنى الأول أقوى وأظهر، والله أعلم.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

يقول تعالى متوعداً للكافرين به والمخالفين لرسله والمكذبين بآياته والصادين عن سبيله ﴿**هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك**﴾ وذلك كائن يوم القيامة ﴿**أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك**﴾ وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها كما روى البخاري في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها» فذلك حين ﴿**لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل**﴾. [ورواه مسلم أيضا].

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض».

وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدري أين تذهب الشمس إذا غربت؟» قلت: لا أدري قال: «إنها تنتهي دون العرش فتخر ساجدة ثم تقوم حتى يقال لها ارجعي فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها ارجعي من حيث جئت وذلك حين ﴿**لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل**﴾.

وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غُرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدُّخَان والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خُسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قَعْر عَدَن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا». وهكذا رواه مسلم وأهل السنن الأربعة.

وعن صفوان بن عسال قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله فتح باباً قبل المغرب

عرضه سبعون عاماً للتوبة»، قال: «لا يغلق حتى تطلع الشمس منه» رواه الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه في حديث طويل.

روى الإمام أحمد عن ابن السعدي أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل». فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص إن رسول الله ﷺ قال: «إن الهجرة خصلتان إحداهما تهجر السيئات والأخرى تهاجر إلى الله ورسوله ولا تنقطع ما تقبلت التوبة ولا تزال التوبة تقبل حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه وكفي الناس العمل» هذا الحديث حسن الإسناد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، والله أعلم.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إذا خرج أول الآيات طرحت الأقلام وحبست الحفظة وشهدت الأجساد على الأعمال رواه ابن جرير.

فقوله: ﴿**لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل**﴾ أي إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه فأما من كان مؤمناً قبل ذلك فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم وإن كان مخلِّطاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿**أو كسبت في إيمانها خيراً**﴾ أي ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك.

وقوله: ﴿**قل انتظروا إنا منتظرون**﴾ تهديد شديد للكافرين ووعيد أكيد لمن سَوَّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك. وإنما كان الحكم هذا عند طلوع الشمس من مغربها لاقتراب وقت القيامة وظهور أشراطها كما قال: ﴿**فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم**﴾ [محمد:١٨].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

قال مجاهد وقتادة والضحاك والسدي: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى. وعن ابن عباس: أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل أن يبعث محمد ﷺ فتفرقوا فلما بعث الله محمداً ﷺ أنزل الله ﴿**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء**﴾ الآية.

والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشَرْعُه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق فمن اختلف فيه ﴿**وكانوا شيعاً**﴾ أي فرقاً كأهل الملل والنحل وهي الأهواء والضلالات فإن الله تعالى قد برَّأ رسوله مما هم فيه. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾ الآية[الشورى:١٣]. وفي الحديث: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد» [رواه البخاري].

فهذا هو الصراط المستقيم وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، والرسل برآء منها كما قال الله: ﴿**لست منهم في شيء**﴾.

وقوله: ﴿**إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون**﴾ كقوله تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة**﴾ الآية[الحج:١٧]. ثم بين فضله سبحانه في حكمه وعدله يوم القيامة فقال تعالى.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾.

وهذه الآية الكريمة مفصِّلة لما أُجْمِل في الآية الأخرى وهي قوله: ﴿**من جاء بالحسنة فله خير منها**﴾ [النمل:٨٩]، وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية كما روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «إن ربكم عز وجل رحيم من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة. ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له واحدةً، أو يمحوها الله عز وجل، ولا يهلك على الله إلا هالك». ورواه البخاري ومسلم والنسائي.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز جل: من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأَزِيدُ، ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغْفِرُ، ومن عمل قُرَابَ الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي شيئاً جعلت له مثلها مغفرة، ومن اقترب إلي شبراً اقتربت إليه ذراعاً، ومن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة» ورواه مسلم.

واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام: تارة يتركها لله فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى، وهذا عمل ونية؛ ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة كما جاء في بعض ألفاظ صحيح [مسلم]: «فإنما تركها من جرائي» أي من أجلي. وتارة يتركها نسياناً وذهولاً عنها فهذا لا له ولا عليه لأنه لم ينو خيراً ولا فعل شراً. وتارة يتركها عجزاً وكسلا عنها بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها، فهذا يتنزل منزلة فاعلها كما جاء في الحديث في الصحيحين: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».

وقال ابن مسعود: ﴿**من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها**﴾ من جاء بلا إله إلا الله، ﴿**ومن جاء بالسيئة**﴾ يقول بالشرك، وهكذا ورد عن جماعة من السلف، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً وفيما ذكر كفاية إن شاء الله وبه الثقة.

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى

وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

يقول تعالى آمراً نبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم الله به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ﴿**ديناً قيماً**﴾ أي قائماً ثابتاً ﴿**ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**﴾ كقوله: ﴿**ومن يرغب من ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه**﴾ [البقرة:١٣٠]، وقوله: ﴿**وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم**﴾ [الحج:٧٨].

وليس يلزم من كونه ﷺ أُمِرَ باتباع ملة إبراهيم الحنيفية، أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيماً وأكملت له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى إبراهيم الخليل عليه السلام.

وقد روى ابن مردويه عن ابن أبزى عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «أصبحنا على ملة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين». [ورواه أحمد وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ أي الأديان أحب إلى الله تعالى؟ قال: «الحنيفية السمحة». [ورواه البخاري في الأدب المفرد وقال الحافظ في الفتح: حسن].

وروى أحمد أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: وضع رسول الله ﷺ ذقني على منكبه، لأنظر إلى زَفْن الحبشة حتى كنت التي مللت فانصرفت عنه. وقال رسول الله ﷺ يومئذ: «لتعلم يَهودُ أن في ديننا فُسْحَة، إني أرسلت بحنيفية سمحة». أصل الحديث مخرج في الصحيحين، والزيادة لها شواهد من طرق عدة، وقد استقصيت طرقها في شرح البخاري ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿**قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين**﴾ يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿**فصل لربك وانحر**﴾ [الكوثر:٢] أي أخلص له صلاتك وذبحك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى، قال مجاهد في قوله: ﴿**إن صلاتي ونسكي**﴾ قال النسك الذبح في الحج والعمرة، وقال سعيد بن جبير: ﴿**ونسكي**﴾ قال: ذبحي، وكذا قال السدي والضحاك.

وقوله: ﴿**وأنا أول المسلمين**﴾ قال قتادة: أي من هذه الأمة، وهو كما قال فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له كما قال: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾ [الأنبياء:٢٥]،

وقد أخبرنا تعالى عن نوح أنه قال لقومه: ﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ [يونس:٧٢]، وقال تعالى: ﴿ومن يرغب من ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [البقرة:١٣٠-١٣٣]، وقال يوسف عليه السلام: ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ [يوسف:١٠١]، وقال موسى: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ [يونس:٨٤]، وقال تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار﴾ الآية[المائدة:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون﴾ [المائدة:١١١].

فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضاً، إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التي لا تنسخ أبد الآبدين، ولا تزال قائمة منصورة وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة، ولهذا قال عليه السلام: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد». [أخرجه البخاري]. فإن أولاد العلات هم الإخوة من أب واحد وأمهات شتى، فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا بنو الأم الواحدة من آباء شتى، والإخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة. والله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر استفتح ثم قال: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين»، «اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك» ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والتشهد وقد رواه مسلم في صحيحه.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

يقول تعالى ﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه ﴿أغير الله أبغي رباً﴾ أي أطلب رباً سواه، وهو رب كل شيء، يُرَبيني ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري، أي لا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه لأنه رب كل شيء ومليكه وله الخلق والأمر. هذه الآية فيها

الأمر بإخلاص التوكل كما تضمنت التي قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له، وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيراً في القرآن كقوله مرشداً لعباده أن يقولوا: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿**فاعبده وتوكل عليه**﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿**قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا**﴾ [الملك: ٢٩]، وأشباه ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿**ولا تكسب كل نفس إلا عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾، إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد وهذا من عدله تعالى كما قال: ﴿**وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى**﴾ [فاطر: ١٨].

وقوله: ﴿**ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون**﴾ أي اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه، فستعرضون ونعرض عليه، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا، كما قال: ﴿**قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون * قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم**﴾. [سبأ: ٢٥-٢٦].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾.

يقول تعالى ﴿**وهو الذي جعلكم خلائف الأرض**﴾ أي جعلكم تعمرون الأرض جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن وخلفاً بعد سلف. قاله ابن زيد وغيره، كقوله: ﴿**عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون**﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وقوله: ﴿**ورفع بعضكم فوق بعض درجات**﴾ أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوىء والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك، كقوله: ﴿**نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً**﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقوله: ﴿**انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً**﴾ [الإسراء: ٢١].

وقوله: ﴿**ليبلوكم في ما آتاكم**﴾ أي ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به، ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره. وقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حُلْوَة خَضِرَة وإن الله مُستخْلِفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

وقوله: ﴿**إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم**﴾ ترهيب وترغيب أن حسابه وعقابه سريع، فيمن عصاه وخالف رسله ﴿**وإنه لغفور رحيم**﴾ لمن والاه واتبع رسله فيما جاؤوا به من خير وطلب. وقال محمد بن إسحاق: ليرحم العباد على ما فيهم، رواه ابن أبي حاتم.

وكثيراً ما يقرن تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين، كما قال: ﴿**نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم**﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بهذا وبهذا لِيَنْجَعَ في كلٍّ بحَسَبِه، جَعَلَنا الله ممن أطاعه فيما أمر، وترك ما عنه نهى وزجر، وصدقه فيما أخبر، إنه قريب مجيب سميع الدعاء جواد كريم وهاب.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بالجنة أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط أحد من الجنة، خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها وعند الله تسعة وتسعون». [ورواه مسلم والترمذي أيضا].

تفسير سورة الأعراف وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓصٓ ١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣ ﴾.

قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف المقطعة وبسطه، واختلاف الناس فيه.

قوله: ﴿**كتاب أنزل إليك**﴾ أي هذا كتاب أنزل إليك من ربك ﴿**فلا يكن في صدرك حرج منه**﴾ قال مجاهد وعطاء وقتادة والسدي: شك منه، وقيل: لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل؛ ولهذا قال: ﴿**لتنذر به**﴾ أي أنزل إليك لتنذر به الكافرين ﴿**وذكرى للمؤمنين**﴾.

ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿**اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم**﴾ أي اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل من رب كل شيء ومليكه ﴿**ولا تتبعوا من دونه أولياء**﴾ أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره ﴿**قليلاً ما تذكرون**﴾ كقوله: ﴿**وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين**﴾ [يوسف:١٠٣]، وقوله: ﴿**وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله**﴾ [الأنعام:١١٦].

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ٧ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**وكم من قرية أهلكناها**﴾ أي بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً بذلّ الآخرة، كما قال تعالى: ﴿**فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد**﴾ [الحج:٤٥].

وقوله: ﴿فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون﴾ أي فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بياتاً﴾ أي ليلاً، ﴿أو هم قائلون﴾ من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو، كما قال تعالى: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحىً وهم يلعبون﴾ [الأعراف:٩٧-٩٨]، وقال: ﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾. [النحل:٤٥-٤٧].

وقوله: ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ أي فما كان قولهم عند مجيء العذاب، إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا، كما قال تعالى: ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين فلما أحسوا بأسنا إذ هم منها يركضون لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾ [الأنبياء:١١-١٥].

وقوله: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ الآية، كقوله: ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ [القصص:٦٥]، وقوله: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ [المائدة:١٠٩]، فالرب تبارك وتعالى يوم القيامة يسأل الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته، ولهذا قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين ويسأل المرسلين عما بلغوا.

وروى ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام يسأل عن رعيته، والرجل يُسأل عن أهله، والمرأة تسأل عن بيت زوجها، والعبد يسأل عن مال سيده» ثم قرأ: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين بدون هذه الزيادة، وقال ابن عباس في قوله: ﴿فلنقصن عليهم بعلم﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿وما كنا غائبين﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يغفل عن شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾. [الأنعام:٥٩].

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿والوزن﴾ أي للأعمال يوم القيامة ﴿الحق﴾ أي لا يظلم تعالى أحداً، كقوله: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها

وكفى بنا حاسبين﴾ [الأنبياء:٤٧].

والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً، قال البغوي: يروى نحو هذا عن ابن عباس، كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غَيَايتان أو فِرْقَان من طير صَوَافّ. ومن ذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك. وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر: «فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح»، وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق.

وقيل يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كِفَّة تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مَدّ البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لا إله إلا الله فيقول: يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: إنك لا تظلم. فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان، قال رسول الله ﷺ: «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» رواه الترمذي بنحو من هذا وصححه.

وقيل يوزن صاحب العمل كما في الحديث: «يؤتى يوم القيامة بالرجل السَّمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة». ثم قرأ: **﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾** [الكهف:١٠٥] [رواه البخاري]. وفي مناقب عبد الله بن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «أتعجبون من دقة ساقيه والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد» [رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح وصححه شاكر في المسند].

وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

يقول تعالى: ممتناً على عبيده فيما مكن لهم، من أنه جعل الأرض قراراً، وجعل لها رواسي وأنهاراً، وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً وأباح منافعها، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معايش أي مكاسب وأسباباً يتجرون فيها ويتسببون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك كما قال: **﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾** [إبراهيم:٣٤].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو منطو عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: **﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا﴾** وهذ كقوله تعالى: **﴿وإذ**

قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة﴾ الآية[الحجر:٢٨-٣٠]، وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب وصوره بشراً سوياً، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الله تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين، وقد تقدم الكلام على إبليس في أول تفسير سورة البقرة، وهذا الذي قررناه هو اختيار ابن جرير، أن المراد بذلك كله آدم عليه السلام.

وقال ابن عباس: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ قال: خُلِقوا في أصلاب الرجال وصُوِّروا في أرحام النساء، رواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، ونقل ابن جرير: عن بعض السلف أيضاً أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم الذرية.

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

اختار ابن جرير أن «منعك» تضمن معنى فعل آخر، تقديره ما أحوجك وألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا، وهذا القول قوي حسن، والله أعلم. وقول إبليس لعنه الله ﴿أنا خير منه﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله: وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له ؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص قوله تعالى: ﴿فقعوا له ساجدين﴾ [ص:٧٢]، فشذ من بين الملائكة بترك السجود، فلهذا أبلس من الرحمة، أي أيس من الرحمة، فأخطأ قبحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة، ولهذا خان إبليس عنصره ونفع آدم عنصره في الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة.

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم».

وروى ابن جرير عن الحسن في قوله: ﴿خلقتني من نار، وخلقته من طين﴾ قال: قاس إبليس وهو أول من قاس، وروى أيضاعن ابن سيرين، قال: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس.

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قدري كوني: ﴿فاهبط منها﴾ أي بسبب عصيانك لأمري

وخروجك عن طاعتي فما يكون لك أن تتكبر فيها، قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة ويحتمل أن يكون عائداً على المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى ﴿**فاخرج إنك من الصاغرين**﴾ أي الذليلين الحقيرين، معاملة له بنقيض قصده مكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين، قال ﴿**أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين**﴾ أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس ﴿**إلى يوم يبعثون**﴾ واستوثق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرد، فقال: ﴿**فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم**﴾ أي كما أغويتني، قال ابن عباس: كما أضللتني، وقال غيره: كما أهلكتني لأقعدن لعبادك ـ الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه ـ على ﴿**صراطك المستقيم**﴾ أي طريق الحق وسبيل النجاة، ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي، وقال بعض النحاة: الباء هنا قَسَمِيَّة كأنه يقول: فبإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم، قال مجاهد: ﴿**صراطك المستقيم**﴾ يعني: الحق.

قلت: روى الإمام أحمد [والنسائي وابن حبان وصححه الألباني] عن سَبْرَة بن أبي فَاكِه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه قعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك». قال: «فعصاه وأسلم» قال: «وقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطِّوَل، فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال، فقال: تقاتل فتقتل، فتُنكَح المرأة ويقسم المال» قال: «فعصاه فجاهد». قال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وَقَصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة».

وقوله: ﴿**ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين**﴾ قال ابن عباس: ﴿**ثم لآتينهم من بين أيديهم**﴾ أشككهم في آخرتهم ﴿**ومن خلفهم**﴾ أرغبهم في دنياهم ﴿**وعن أيمانهم**﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿**وعن شمائلهم**﴾ أشهي لهم المعاصي، وقال قتادة: أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار، ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها، وعن أيمانهم من قبل حسناتهم بطَّأهم عنها، وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها وأمرهم بها، أتاك يا بن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله، وكذا روي

عن إبراهيم النخعي [وغيره]، إلا أنهم قالوا: من بين أيديهم الدنيا، ومن خلفهم الآخرة.

وقال مجاهد: من بين أيديهم وعن أيمانهم حيث يبصرون، ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون، واختار ابن جرير: أن المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصدهم عنه والشر يحسنه لهم، وقال ابن عباس: لم يقل من فوقهم، لأن الرحمة تنزل من فوقهم، وقال ابن عباس أيضا: ﴿**ولا تجد أكثرهم شاكرين**﴾ قال: موحدين، وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق في هذا الواقع، كما قال تعالى: ﴿**ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين * وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ**﴾ [سبأ: ٢٠-٢١]. ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها، كما روى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعتي، واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتي» تفرد به البزار وحسنه.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر يقول: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»، قال وكيع: يعني الخسف، ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

أكد تعالى عليه اللعنة والطرد والإبعاد والنفي عن محل الملأ الأعلى بقوله: ﴿**اخرج منها مذءوماً مدحوراً**﴾ قال ابن جرير: أما المذؤوم فهو المعيب، والمدحور: المُقْصَى، وهو المبعد المطرود، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: ما نعرف المذؤوم والمذموم إلا واحداً، وقال ابن عباس: ﴿**اخرج منها مذءوماً مدحوراً**﴾ قال: مقيتاً، وروي عنه أيضا: صغيراً مقيتاً. وقال السدي: مقيتاً مطروداً، وقال قتادة: لعيناً مقيتاً، وقال الربيع بن أنس: مذؤوماً: منفياً والمدحور: المصغر.

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾.

يذكر تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة، وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة، فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى

في المكر والخديعة والوسوسة، ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن وقال كذباً وافتراء: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أي لئلا تكونا ملكين أو خالدين ها هنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما، كقوله: ﴿**قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى**﴾ [طه: ١٢٠].

﴿**وقاسمهما**﴾ أي حلف لهما بالله ﴿**إني لكما لمن الناصحين**﴾ فإني من قَبْلكما ها هنا وأعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة، والمراد أحد الطرفين، أي حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله، وقال قتادة في الآية: حلف بالله أني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما، وكان بعض أهل العلم يقول من خادعنا بالله خَدعنا له.

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

قال أبي بن كعب رضي الله عنه: كان آدم رجلاً طوالاً كأنه نخلة سَحُوق، كثير شعر الرأس، فلما وقع بما وقع به من الخطيئة، بَدَتْ له عورته عند ذلك وكان لا يراها، فانطلق هارباً في الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة، فقال لها: أرسليني. فقالت: إني غير مرسلتك، فناداه ربه عز وجل: يا آدم أمني تفر؟ قال: رب إني استحييتك، وقد رواه ابن جرير.

وعن ابن عباس: ﴿**وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة**﴾ قال: ورق التين. وقال مجاهد: جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة، كهيئة الثوب، وقال وهب بن منبه في قوله: ﴿**ينزع عنهما لباسهما**﴾ قال: كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما، رواه ابن جرير بإسناد صحيح إليه، وقال قتادة: قال آدم أي رب أرأيت إن تبت واستغفرت، قال: إذاً أدخلك الجنة، وأما إبليس فلم يسأله التوبة وسأله النظرة، فأعطى كل واحد منهما الذي سأله.

وقال الضحاك بن مُزَاحِم في قوله: ﴿**ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**﴾ هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه.

﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

قيل المراد بالخطاب في ﴿**اهبطوا**﴾ آدم وحواء وإبليس والحية، ومنهم من لم يذكر الحية، والله أعلم، والعمدة في العداوة آدم وإبليس، ولهذا قال تعالى في سورة طه قال: ﴿**اهبطا منها جميعاً**﴾ الآية[طه: ١٢٣]، وحواء تبع لآدم، والحية إن كان ذكرها صحيحاً فهي تبع لإبليس، وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها، ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين

في أمر دينهم أو دنياهم، لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿**ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين**﴾ أي قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم وأحصاها القدر وسطرت في الكتاب الأول، وقال ابن عباس: ﴿**مستقر**﴾: القبور، وعنه: وجه الأرض وتحتها، وقوله: ﴿**قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون**﴾. كقوله تعالى: ﴿**منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى**﴾ [طه: ٥٥]، يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم ومنها نشورهم ليوم القيامة، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازي كلاً بعمله.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

يمتن تبارك وتعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والرياش، فاللباس المذكور ههنا لستر العورات وهي السوآت، والرياش والريش هو ما يتجمل به ظاهراً، فالأول من الضروريات والريش من التكمُّلات والزيادات، قال ابن جرير: الرياش في كلام العرب: الأثاث وما ظهر من الثياب، وقال ابن عباس ـ حكاه البخاري ـ عنه: الريش المال. وكذا قال مجاهد وعروة بن الزبير والسدي والضحاك. وقال ابن عباس أيضا: الرياش: اللباس والعيش والنعيم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرياش: الجمال.

وقوله تعالى: ﴿**ولباس التقوى ذلك خير**﴾ قرأ بعضهم ولباس التقوى بالنصب، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء، و﴿**ذلك خير**﴾ خبره، واختلف المفسرون في معناه، فقال عكرمة: يقال هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة، وقال زيد بن علي والسدي وقتادة وابن جريج: ﴿**ولباس التقوى**﴾: الإيمان، وقال ابن عباس: ﴿**ولباس التقوى**﴾: العمل الصالح، وعنه أيضا: هو السمت الحسن في الوجه، وعن عروة بن الزبير: خشية الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿**لباس التقوى**﴾ يتقي الله فيواري عورته فذلك لباس التقوى، وكلها متقاربة.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

يقول تعالى محذراً بني آدم من إبليس وقبيله، ومبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام، في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء، والتسبب في هتك عورته بعد ما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿**أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا**﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ

تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة يقولون نطوف كما ولدتنا أمهاتنا فتضع المرأة على فرجها النِّسْعَة أو الشيء وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحلّه

فأنزل الله: ﴿**وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها**﴾ الآية، قلت: كانت العرب ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش وهم الحمس يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أَحْمَسِي ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، فمن لم يجد ثوباً جديداً، ولا أعاره أحمسي ثوباً طاف عرياناً، وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿**وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها**﴾ فقال تعالى رداً عليهم: ﴿**قل**﴾ أي لمن ادعى ذلك: ﴿**إن الله لا يأمر بالفحشاء**﴾ أي هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة، والله لا يأمر بمثل ذلك ﴿**أتقولون على الله مالا تعلمون**﴾ أي أتسندون إلى الله من الأقوال مالا تعلمون صحته.

وقوله: ﴿**قل أمر ربي بالقسط**﴾ أي بالعدل والاستقامة، ﴿**وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين**﴾ أي أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات، فيما أخبروا به عن الله، وما جاؤوا به عنه من الشرائع وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين، أن يكون صواباً موافقاً للشريعة وأن يكون خالصاً من الشرك.

وقوله تعالى: ﴿**كما بدأكم تعودون**﴾ اختلف في معناه، فقال مجاهد: يحييكم بعد موتكم، وقال الحسن البصري: كما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء، وبنحوه عن قتادة وابن زيد، واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، وأيده بما رواه عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً ﴿**كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين**﴾ [الأنبياء:١٠٤]. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين.

وقال محمد بن كعب القرظي: في قوله تعالى: ﴿**كما بدأكم تعودون**﴾ من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدىء عليه خلقه، وإن عمل بأعمال أهل السعادة كما أن إبليس عمل بأعمال أهل السعادة ثم صار إلى ما ابتدىء عليه خلقه، ومن ابتدىء خلقه على السعادة صار على ما ابتدىء خلقه عليه وإن عمل بأعمال أهل الشقاء، كما أن السحرة عملوا بأعمال

أهل الشقاء ثم صاروا إلى ما ابتدئوا عليه. وبنحوه قال مجاهد وأبو العالية وابن جبير والسدي.

وقال ابن عباس قوله: ﴿**كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة**﴾ قال: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً، كما قال ﴿**هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن**﴾ [التغابن: ٢]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأهم مؤمناً وكافراً.

قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري «فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة».

وروى ابن جرير جابر، عن النبي ﷺ أنه قال «تبعث كل نفس على ما كانت عليه». وهذا الحديث رواه مسلم. قلت: ولا بد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد من الآية، وبين قوله تعالى: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها**﴾ [الروم: ٣٠]، وما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانه».

وفي صحيح مسلم عن عِياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: «إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم» الحديث، ووجه الجمع على هذا، أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم بذلك الميثاق بذلك وجعله في غرائزهم وفطرهم ومع هذا قدر أن منهم شقياً ومنهم سعيداً ﴿**هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن**﴾ [التغابن: ٢]، وفي الحديث: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمُعْتِقُها أو مُوبِقها». [قطعة من حديث عند مسلم]. وقدر الله نافذ في بريته، فإنه هو ﴿**الذي قدر فهدى**﴾ [الأعلى: ٣]، و ﴿**الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**﴾ [طه: ٥٠]، وفي الصحيحين: «فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة» ولهذا قال تعالى: ﴿**فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة**﴾ ثم علل ذلك فقال: ﴿**إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون**﴾.

قال ابن جرير: وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها فيركبها عناداً منه لربه فيها، لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه مهتدي، وفريق الهدى فرق، وقد فرق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية.

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ ﴾.

هذه الآية الكريمة رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه، من الطواف بالبيت عراة كما

رواه مسلم والنسائي وابن جرير، واللفظ له عن ابن عباس: قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء، الرجال بالنهار والنساء بالليل، فقال الله تعالى: ﴿**خذوا زينتكم عند كل مسجد**﴾ وقال ابن عباس في قوله: ﴿**خذوا زينتكم عند كل مسجد**﴾ الآية، قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة، والزينة اللباس وهو ما يواري السوأة وما سوى ذلك من جيد البزِّ والمتاع، فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد، وكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة.

ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة، يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل اللباس البياض كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم وإن من خير أكحالكم الإثمد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر». هذا حديث جيد الإسناد، رجاله على شرط مسلم ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح، وروى الطبراني بسند صحيح أن تميماً الداري اشترى رداء بألف فكان يصلي فيه.

وقوله تعالى: ﴿**وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾، قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية ﴿**وكلوا واشربوا ولا تسرفوا**﴾. وقال البخاري قال ابن عباس: كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرَف ومَخِيلة.

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده» ورواه النسائي وابن ماجه. [وحسنه الألباني].

وروى الإمام أحمد عن المقدام بن معديكرب الكندي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان فاعلاً لا محالة، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» ورواه النسائي والترمذي، وقال الترمذي: حسن وفي نسخة حسن صحيح.

وقال السدي: كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون عليهم الودَكَ ما أقاموا في الموسم، فقال الله تعالى لهم: ﴿**كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾ الآية، يقول: لا تسرفوا في التحريم، وقال مجاهد: أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿**ولا تسرفوا**﴾ يقول: ولا تأكلوا حراماً ذلك الإسراف، وقال ابن عباس قوله: ﴿**وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾ في الطعام والشراب، وقال ابن جرير: وقوله: ﴿**إنه لا يحب المسرفين**﴾ يقول الله تعالى: إن الله لا يحب المعتدين حَدَّه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل أو حرّم، و بتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلل ما أحل،

ويحرم ما حرم وذلك العدل الذي أمر به.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

يقول تعالى رداً على من حرم شيئاً من المآكل والمشارب والملابس من تلقاء نفسه، من غير شرع من الله ﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين، الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم: ﴿من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ الآية، أي هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا، وإن شركهم فيها الكفار حسّاً في الدنيا، فهي لهم خاصة يوم القيامة، ولا يَشْرَكُهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

روى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله فلذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله». أخرجاه في الصحيحين، وتقدم الكلام في سورة الأنعام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وقوله: ﴿والإثم والبغي بغير الحق﴾ قال السدي: أما الإثم فالمعصية، والبغي أن تبغي على الناس بغير الحق، وقال مجاهد: الإثم المعاصي كلها، وأخبر أن الباغي بغيه كائن على نفسه، وحاصل ما فُسّر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغي هو التعدي إلى الناس فحرم الله هذا وهذا.

وقوله: ﴿وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي تجعلوا له شريكا في عبادته ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك مما لا علم لكم به، كما قال تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به﴾ الآية[الحج: ٣٠ـ٣١].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿ولكل أمة﴾ أي قَرْن وجيل ﴿أجل فإذا جاء أجلهم﴾ أي ميقاتهم المقدر لهم ﴿لا يستأخرون ساعة﴾ عن ذلك ﴿ولا يستقدمون﴾. ثم أنذر تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته، وبشر وحذر فقال: ﴿فمن اتقى وأصلح﴾ أي ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها﴾ أي كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي ماكثون فيها مكثاً مخلداً.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته﴾ أي لا أحد أظلم، ممن افترى الكذب على الله أو كذب بآياته المنزلة. ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ اختلف المفسرون في معناه، فقال ابن عباس: ينالهم ما كُتِبَ عليهم، وكُتِبَ لمن يفتري على الله أن وجهه مسود. وعنه أيضا: نصيبهم من الأعمال من عمل خيراً جُزِي به، ومن عمل شراً جُزِي به، وقال مجاهد: ما وعدوا به من خير وشر، وكذا قال قتادة والضحاك وغير واحد. واختاره ابن جرير.

وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ قال: عمله ورزقه وعمره، وكذا قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهذا القول قوي في المعنى، والسياق يدل عليه وهو قوله: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم﴾ ويصير المعنى في هذه الآية كما في قوله: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ [يونس: ٦٩-٧٠].

وقوله: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أينما كنتم تدعون من دون الله﴾ الآية، يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تَفْزَعُهم عند الموت وقَبْض أرواحهم إلى النار يقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله، ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه. قالوا: ﴿ضلوا عنا﴾ أي ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾ أي أقروا واعترفوا على أنفسهم ﴿أنهم كانوا كافرين﴾.

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه المكذبين بآياته: ﴿ادخلوا في أمم﴾ أي من أشكالكم وعلى صفاتكم، ﴿قد خلت من قبلكم﴾ أي من الأمم السالفة الكافرة ﴿من الجن والإنس في النار﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله ﴿في أمم﴾ ويحتمل أن يكون ﴿في أمم﴾ أي مع أمم.

وقوله: ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾ كما قال الخليل عليه السلام: ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾ الآية[العنكبوت: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وقوله: ﴿حتى إذا اداركوا فيها جميعاً﴾ أي اجتمعوا فيها كُلُّهم ﴿قالت أخراهم لأولاهم﴾ أي أخراهم دخولاً ـ وهم الأتباع ـ لأولاهم وهم المتبوعون، لأنهم أشد جرماً من أتباعهم فدخلوا قبلهم فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل فيقولون: ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ أي أضْعِفْ عليهم العقوبة، كما قال تعالى: ﴿يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا * وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا * ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

وقوله: ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ أي قد فعلنا ذلك وجازينا كلاً بحسبه، كما قال: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ [النحل: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال: ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون﴾ [النحل: ٢٥].

﴿وقالت أولاهم لأخراهم﴾ أي قال المتبوعون للأتباع ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ قال السدي: فقد ضللتم كما ضللنا ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ وهذا الحال كما أخبر تعالى عنهم في حال محشرهم في قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلاّ ما كانوا يعملون﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

قوله: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ قيل المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء، قاله مجاهد وسعيد بن جبير وهو قول ابن عباس، وقيل المراد: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء، رواه الضحاك عن ابن عباس، وقاله السدي وغير واحد، ويؤيده ما رواه ابن جرير عن البراء أن رسول الله ﷺ ذكر قَبْض روح الفاجر، وأنه يُصَعْد بها إلى السماء، قال: «فيصعدون بها، فلا تمر على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون: فلان بأقبح أسمائه التي كان يُدْعَى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون بابها له فلا يفتح له». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ الآية. هكذا رواه وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من طرق [وإسناده صحيح].

وقد قال ابن جُرَيج في قوله: ﴿**لا تفتح لهم أبواب السماء**﴾ لا تفتح لأعمالهم، ولا لأرواحهم. وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم، وقوله: ﴿**ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط**﴾ هكذا قرأه الجمهور وفسروه بأنه البعير قال ابن مسعود: هو الجمل ابن الناقة، وفي رواية زوج الناقة وقال الحسن البصري: حتى يدخل البعير في خُرْق الإبرة. وكذا قال أبو العالية والضحاك وكذا روي عن ابن عباس، وقال مجاهد وعكرمة عن ابن عباس: إنه كان يقرؤها: «حتى يلج الجُمَّل في سم الخيام» بضم الجيم وتشديد الميم يعني الحبل الغليظ في خرم الإبرة، وهذا اختيار سعيد بن جبير، وفي رواية أنه قرأ: حتى يلج الجُمَّلُ يعني قُلُوس السفن، وهي الحبال الغلاظ.

وقوله: ﴿**لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش**﴾ قال محمد بن كعب القرظي ﴿**لهم من جهنم مهاد**﴾ قال: الفرش ﴿**ومن فوقهم غواش**﴾ قال: اللحُفُ. وكذا قال الضحاك بن مُزاحِم والسدي ﴿**وكذلك نجزي الظالمين**﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال: ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله واستكبروا عنها، وينبه تعالى على أنه الإيمان والعمل به سهل؛ لأنه تعالى قال: ﴿**لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون * ونزعنا ما في صدورهم من غل**﴾ أي من حسد وبغضاء كما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هُذبّوا ونُقُّوا أذن لهم في دخول الجنة فو الذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا».

وقال السدي في قوله: ﴿**ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار**﴾ الآية، إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة فبلغوا وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزع ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبداً.

وقال علي رضي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿**ونزعنا ما في صدورهم من غل**﴾ رواه ابن جرير. وقال علي: فينا والله أهل بدر نزلت: ﴿**ونزعنا ما في صدورهم من غل**﴾. وروى النسائي وابن مردويه [والحاكم وصححه ووافقه الذهبي] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل الجنة يرى مقعده من النار

فيقول لولا أن الله هداني فيكون له شكراً. وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول لو أن الله هداني فيكون له حسرة». ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا ﴿**أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون**﴾ أي بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم. وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة» قالوا ولا أنت يا رسول الله قال: «ولا أنا إلا أن يَتَغَمَّدَنِي الله برحمة منه وفضل».

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

يخبر تعالى بما يخاطب به أهلُ الجنة أهلَ النار إذا استقروا في منازلهم وذلك على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿**أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ماوعد ربكم حقاً**﴾ أن ههنا مفسرة للقول المحذوف وقد للتحقيق أي قالوا لهم: ﴿**قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم**﴾ كما أخبر تعالى في سورة الصافات عن الذي كان له قرين من الكفار: ﴿**فاطلع فرآه في سواء الجحيم * قال تالله إن كدت لتردين * ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين**﴾ [الصافات: ٥٥ـ٥٧] أي: ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا ويقرعه بما صارإليه من العذاب والنكال وكذلك تقرعهم الملائكة يقولون لهم: ﴿**هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون**﴾ [الطور: ١٤ـ١٦]. وكذلك قرّع رسول الله ﷺ قتلى القَلِيب يوم بدر فنادى: «يا أبا جهل بن هشام ويا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة - وسمى رؤوسهم - هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» وقال عمر: يا رسول الله تخاطب قوماً قد جيفوا ؟ فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا». [متفق عليه].

وقوله: ﴿**فأذن مؤذن بينهم**﴾ أي أعلم معلم ونادى مُناد: ﴿**أن لعنة الله على الظالمين**﴾ أي مستقرة عليهم. ثم وصفهم بقوله: ﴿**الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً**﴾ أي يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد. ﴿**وهم بالآخرة كافرون**﴾ أي وهم بلقاء الله في الدار الآخرة كافرون أي جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به. فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً، فهم شر الناس أقوالاً وأعمالاً.

﴿ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبّه أن بين الجنة والنار حجاباً، وهو الحاجز

المانع من وصول أهل النار إلى الجنة، قال ابن جرير: وهو السور الذي قال الله تعالى فيه: **﴿فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾** [الحديد:١٣]. وهو الأعراف. الذي قال الله تعالى فيه: **﴿وعلى الأعراف رجال﴾**. ثم روى بإسناده عن السدي أنه قال في قوله تعالى: **﴿وبينهما حجاب﴾** هو السور وهو الأعراف وعن مجاهد نحوه.

قال ابن جرير: والأعراف جمع عُرْف وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفاً، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه. وقال ابن عباس: الأعراف هو الشيء المشرف. وعنه أيضا: الأعراف سور كعرف الديك. وفي رواية عنه: الأعراف تل بين الجنة والنار حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار، وفي رواية عنه هو سور بين الجنة والنار. وكذلك قال الضحاك وغير واحد من علماء التفسير. وقال السدي: إنما سمي الأعراف أعرافاً لأن أصحابه يعرفون الناس، واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله.

وروى ابن جرير عن الشعبي قال: أرسل إليّ عبد الحميد بن عبد الرحمن وعنده أبو الزناد عبد الله ابن ذكوان مولى قريش فإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذكراً ليس كما ذكرا، فقلت لهما: إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة فقالا: هات. فقلت: إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال: هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، فإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، فبينا هم كذلك إذ اطلع عليهم ربك فقال لهم اذهبوا فادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم.

وقال ابن مسعود: يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ثم قرأ قول الله: **﴿فمن ثقلت موازينة فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون﴾** [المؤمنون:١٠٢-١٠٣]، ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة، ويرجح، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: سلام عليكم وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا أهل النار قالوا: **﴿ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾**، فتعوذوا بالله من منازلهم قال: فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نوراً فيمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويعطى كل عبد يومئذ نوراً وكل أمة نوراً فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة. فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: **﴿ربنا أتمم لنا نورنا﴾** [التحريم:٨]. وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان بأيديهم فلم ينزع فهنالك يقول الله تعالى: **﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾** فكان الطمع دخولاً. على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة.

ثم يقول: هلك من غلبت واحدته أعشاره. رواه ابن جرير.

وروى أيضاً عن ابن عباس قال: الأعراف السور الذي بين الجنة والنار، وأصحاب الأعراف بذلك المكان حتى إذا بدا الله أن يعافيهم انطُلِق بهم إلى نهر يقال له الحياة، حافتاه قصب الذهب، مكلل باللؤلؤ ترابه المسك، فألقوا فيه حتى تصلح ألوانهم، وتبدو في نحورهم شامةٌ بيضاء يُعرفون بها حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال: تمنوا ما شئتم، فيتمنون حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم: لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفاً، فيدخلون الجنة وفي نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها يسمون مساكين أهل الجنة، وكذا رواه ابن أبي حاتم، وقد رواه سفيان الثوري عن عبد الله بن الحارث من قوله. وهذا أصح والله أعلم، وهكذا روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد.

وقوله تعالى: ﴿**يعرفون كلاً بسيماهم**﴾ قال ابن عباس: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه وأهل النار بسواد الوجوه. وفي رواية عنه قال: أنزلهم الله تلك المنزلة ليعرفوا من في الجنة والناروليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه. ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين وهم في ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها وهم داخلوها إن شاء الله، وكذا قال مجاهد والضحاك والسدي والحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وعن الحسن: أنه تلا هذه الآية: ﴿**لم يدخلوها وهم يطمعون**﴾ قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم وقال قتادة: قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع، وقوله: ﴿**وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين**﴾ قال ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. وقال السدي وإذا مروا بهم ـ يعني بأصحاب الأعراف ـ بزمرة يُذهب بها إلى النار قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿**وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار**﴾ فرأوا وجوههم مسودة وأعينهم مزرقة ﴿**قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين**﴾.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

يقول الله تعالى إخباراً عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم يعرفونهم في النار بسيماهم: ﴿**ما أغنى عنكم جمعكم**﴾ أي كثرتكم ﴿**وما كنتم تستكبرون**﴾ أي لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال ﴿**أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة**﴾ قال ابن عباس يعني أصحاب الأعراف ﴿**ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون**﴾. وروى ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿**قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون**﴾ الآية، قال: فلما قالوا لهم الذي قضى الله أن يقولوا يعني

أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار قال الله لأهل التكبر والأموال: **﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾**.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك. قال السدي: **﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾** يعني الطعام وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم، وقال سعيد بن جبير في هذه الآية: ينادي الرجل أباه أوأخاه فيقول: قد احترقت فأفض علي من الماء. فيقال لهم: أجيبوهم فيقولون: **﴿إن الله حرمهما على الكافرين﴾**. وروي عن ابن عباس مثله سواء. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: **﴿إن الله حرمهما على الكافرين﴾** يعني طعام الجنة وشرابها.

وقوله: **﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾** عن ابن عباس قال: نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا، وقال مجاهد: نتركهم في النار، وقال السدي: نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا، وفي صحيح [مسلم] أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذَرْك ترأس وتَربع؟ فيقول: بلى. فيقول: أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول الله: فاليوم أنساك كما نسيتني».

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول وأنه كتاب مفصل مبين كما قال تعالى: **﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾** الآية[هود:١]، وقوله: **﴿فصلناه على علم﴾** أي على علم منا بما فصلناه به كما قال تعالى: **﴿أنزله بعلمه﴾** [النساء:١٦٦].

قال تعالى: **﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾** أي ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار قاله مجاهد وغير واحد، وقال مالك: ثوابه. وقال الربيع: لا يزال يجيء من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار فيتم تأويله يومئذ.

وقوله: **﴿يوم يأتي تأويله﴾** أي يوم القيامة قاله ابن عباس **﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾** أي تركوا العمل به، وتناسوه في الدار الدنيا: **﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾** أي في خلاصنا مما نحن فيه **﴿أو نرد﴾** إلى الدار الدنيا **﴿فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾** كما قال تعالى: **﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا

ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ [الأنعام:٢٧ـ٢٨]، كما قال ههنا: **﴿قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾** أي خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها **﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾** أي ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا ينصرونهم ولا يشفعون فيهم ولا ينقذونهم مما هم فيه.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾.

يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم سماواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وفيه اجتمع الخلق كله وفيه خلق آدم عليه السلام. واختلفوا في هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان؟ أو كل يوم كألف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك عن ابن عباس، فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع ومنه سمي السبت وهو القطع.

وأما قوله تعالى: **﴿ثم استوى على العرش﴾** فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و**﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾** [الشورى:١١]، بل الأمر كما قال الأئمة منهم نُعَيْم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر. وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى.

وقوله تعالى: **﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾** أي يذهب ظلام هذا بضياء هذا وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثا أي سريعاً لا يتأخر عنه بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كقوله: **﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾** [يس:٣٧ـ٤٠]. وقوله: **﴿يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾** أي الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته؛ ولهذا قال منبهاً: **﴿ألا له الخلق والأمر﴾** أي له الملك والتصرف **﴿تبارك الله رب العالمين﴾**، كما قال تعالى: **﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها**

سراجاً وقمراً منيراً﴾ [الفرقان: ٦١].

﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

أرشد تعالى عباده إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم فقال تعالى: **﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾** قيل معناه تذللاً واستكانه، وخفية كما قال: **﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو الآصال ولا تكن من الغافلين﴾** [الأعراف: ٢٠٥]، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس ارْبَعُوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميع قريب» الحديث.

وقال ابن جرير: **﴿تضرعاً﴾** تذللاً واستكانة لطاعته. **﴿وخفية﴾** يقول: بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهراً ومراءاة. وقال الحسن: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل لقد فقُه الفقه الكثير وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزُّوَّار وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: **﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين﴾** وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رَضِي فعله فقال: **﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾** [مريم: ٣]. وقال ابن جُرَيج: يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء ويؤمر بالتضرع والاستكانه، ثم روي عن ابن عباس في قوله: **﴿إنه لا يحب المعتدين﴾** في الدعاء ولا في غيره. وقال أبو مجلز: **﴿إنه لا يحب المعتدين﴾** لا يسأل منازل الأنبياء.

وروى الإمام أحمد أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها فقال يا بني سل الله الجنة وعُذْ به من النار؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يعتدون في الدعاء والطَّهُور». ورواه ابن ماجه وأبوداود وإسناده حسن لا بأس به والله أعلم.

وقوله تعالى: **﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾** ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض وما أضَرَّه بعد الإصلاح! فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك، كان أضر ما يكون على العباد. فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه، فقال: **﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾** أي خوفاً مما عنده من وبيل العقاب، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب. ثم قال: **﴿إن رحمت الله قريب من المحسنين﴾** أي إن رحمته مُرْصَدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: **﴿ورحمتي وسعت كل شيء**

فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧]. وقال: **﴿قريب﴾** ولم يقل: قريبة؛ لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب أو لأنها مضافة إلى الله فلهذا قال: **قريب** من المحسنين. وقال مطر الوراق: تنجزوا موعود الله بطاعته فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المدبِّر المسخِّر، وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر نبه تعالى على أنه الرزاق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: **﴿وهو الذي يرسل الرياح نُشْراً﴾** أي منتشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ: بشرا كقوله **﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾** [الروم:٤٦]. وقوله: **﴿بين يدي رحمته﴾** أي بين يدي المطر كما قال: **﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد﴾** [الشورى:٢٨]، وقال: **﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾** [الروم:٥٠]. وقوله: **﴿حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً﴾** أي حملت الرياح سحاباً ثقالاً أي من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة كما قال زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المـزن تحـمل عذباً زلالاً
وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخراً ثقالاً

وقوله: **﴿سقناه لبلد ميت﴾** أي إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها كما قال تعالى: **﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها﴾** [يس:٣٣]؛ ولهذا قال: **﴿فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى﴾** أي كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رَمِيماً يوم القيامة، ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء فتمطر الأرض أربعين يوماً فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض. وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله مثلاً ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال **﴿لعلكم تذكرون﴾**.

وقوله: **﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه﴾** أي والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً. **﴿والذي خبث لا يخرج إلا نكداً﴾** قال مجاهد وغيره: كالسباخ ونحوها. وقال ابن عباس في هذه الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر.

وروى البخاري ومسلم عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا

وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أُرسِلْتُ به».

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة، وما يتعلق بذلك وما يتصل به، وفرغ منه شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الأول فالأول فابتدأ بذكر نوح عليه السلام فإنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام، قال محمد بن إسحاق: ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبي قتل. وقال يزيد الرقاشي: إنما سمي نوحاً لكثرة ما ناح على نفسه. وقد كان بين آدم إلى زمان نوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام قاله عبد الله بن عباس.

قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صورة أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم. فلما طال الزمان جعلوا تلك الصور أجساداً على تلك الصور. فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً. فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة رسوله نوحاً يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له فقال: **﴿يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾** أي من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به **﴿قال الملأ من قومه﴾** أي الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم: **﴿إنا لنراك في ضلال مبين﴾** أي في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا. وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة، كما قال تعالى: **﴿وإذ رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾** [المطففين: ٣٢]، **﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾** [الأحقاف: ١١].

﴿قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين﴾ أي ما أنا ضال، ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه **﴿أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾**. وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله، لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعاً: «أيها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟». قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتُها إليهم

ويقول: «اللهم اشهد اللهم اشهد».

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه: **﴿أو عجبتم﴾** أي لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفاً وإحساناً إليكم لإنذاركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به **﴿ولعلكم ترحمون﴾**. قال الله تعالى: **﴿فكذبوه﴾** أي تمادوا على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل كما نص عليه تعالى في موضع آخر **﴿فأنجيناه والذين معه في الفلك﴾** وهي السفينة كما قال: **﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾** [العنكبوت: ١٥]، **﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾** كما قال: **﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا﴾** [نوح: ٢٥].

وقوله: **﴿إنهم كانوا قوماً عمين﴾** أي عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون له. فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين كما قال تعالى: **﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا يوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾** [غافر: ٥١ـ٥٢].

وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة، أن العاقبة فيها للمتقين والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملأى بهم وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

يقول تعالى وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. وهؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: **﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾** [الفجر: ٦ـ٨]. وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى **﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون﴾** [فصلت: ١٥]. وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف وهي جبال الرمل.

روى ابن جرير عن أبي الطفيل عامر بن واثلة سمعت علي بن أبي طالب يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيباً أحمر تخالطه مَدَرَة حمراء ذا أراكٍ وسِدْر كثير بناحية كذا وكذا

من أرض حضرموت. هل رأيته ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين ؟ والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه، قال: لا ولكني قد حدِّثت عنه فقال الحضرمي: وما شأنه يا أمير المؤمنين ؟ قال فيه قبر هود عليه السلام.

﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ والملأ هم الجمهور **﴿إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾** أي في ضلالة حيث دعوتنا إلى ترك عبادة الأصنام والإقبال إلى عبادة الله وحده كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد فقالوا: **﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا الشيء عجاب﴾** [ص: ٥].

﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين﴾ أي لست كما تزعمون بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه **﴿أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾** وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة **﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾** أي لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه بل احمدوا الله على ذاكم **﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾** أي واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه **﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾** أي زاد طولكم على الناس بسطة أي جعلكم أطول من أبناء جنسكم، **﴿فاذكروا آلاء الله﴾** أي نعمه ومننه عليكم **﴿لعلكم تفلحون﴾**.

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن تمردهم وإنكارهم على هود عليه السلام **﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده﴾** كما قال الكفار من قريش: **﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾** [الأنفال: ٣٢].

ولهذا قال هود عليه السلام: **﴿قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾** أي قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس وغضب قيل هو مقلوب من رجز وعن ابن عباس: معناه السخَط والغضب. **﴿أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾** أي أتحاجوني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة، وهي لا تضر ولا تنفع ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً؛ ولهذا قال: **﴿ما نزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾** وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه؛ ولهذا عقب بقوله: **﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾**.

وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم

ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم كما قال في الآية الأخرى: ﴿**وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية**﴾ [الحاقة: ٦ـ٨].

وقال محمد بن إسحاق كانوا يسكنون باليمن بين عمان وحضرموت وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلهاً غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبوا عليه وكذبوه وقالوا من أشد منا قوة واتبعه منهم ناس وهم يسير يكتمون إيمانهم، فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثاً بغير نفع كلمهم هود فقال: ﴿**أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون**﴾ [الشعراء: ١٢٨ـ١٣١]. ﴿**قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء**﴾ أي بجنون ﴿**قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم**﴾ [هود: ٥٣ـ٥٦].

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ
ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ
لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ
مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ
رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله وقد مر رسول الله ﷺ على قراهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع. وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا منها القدور فأمرهم النبي ﷺ فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم». وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين من غير وجه.

وروى الإمام أحمد عن جابر قال لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت ـ يعني الناقة ـ ترد من هذا الفَجْ وتصْدُر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً، فعقروها فأخذتهم صيحة، أهمد الله مَنْ تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله». فقالوا: من هو يا رسول الله ؟ قال «أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه». وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة وهو على شرط مسلم.

فقوله تعالى: **﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾** أي ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً **﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾** جميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾** [الأنبياء:٢٥]، وقال: **﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾** [النحل:٣٦]. وقوله: **﴿قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية﴾** أي قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به. وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه أن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم. فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طَلِبتهم ليؤمنن به وليتبعنه فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وَبْرَاء يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا. فأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب ماء بئرها يوماً وتدعه لهم يوماً وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم كما قال: **﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر﴾** [القمر:٢٨]، وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فج وتصدر من غيره. فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه السلام عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم فيقال إنهم اتفقوا كلهم على قتلها، قال قتادة: بلغني أن الذي قتل الناقة طاف عليهم كلهم انهم راضون بقتلها حتى على النساء في خدورهن وعلى الصبيان أيضاً قلت وهذا هو الظاهر لقوله تعالى: **﴿فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها﴾** [الشمس:١٤] فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة، فدل على رضى جميعهم بذلك والله أعلم.

فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة بلغ الخبر صالحاً عليه السلام، فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى، وقال: **﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾** [هود:٦٥]، وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح وقالوا: إن كان صادقاً عجلناه قبلنا وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته! **﴿قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أن دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية**

بما ظلموا﴾ الآية[النمل: ٤٩-٥٢].

فلما عزموا على ذلك وتواطؤوا عليه وجاؤوا من الليل ليفتكوا بنبي الله، أرسل الله عليهم حجارة فرضَختهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم، وأصبح ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النَّظرة، ووجوههم مصفرة، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنَّطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه عياذاً بالله من ذلك، لا يدرون ماذا يفعل بهم ولا كيف يأتيهم العذاب، وأشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ أي صرعى لا أرواح فيهم ولم يفلت منهم أحد لا صغير ولا كبير لا ذكر ولا أنثى.

قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوى صالح عليه السلام ومن اتبعه رضي الله عنهم، إلا أن رجلاً يقال له: أبو رغال كان لما وقعت النقمة بقومه مقيماً في الحرم فلم يصبه شيء فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله.

وروى أبوداود عن بُجَير بن أبي بجير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر، فقال: «هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف وكان من ثمود وكان بهذا الحرم فدفع عنه. فلما خرج أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه، فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن». قال شيخنا أبو الحجاج المزي: وهو حديث حسن عزيز

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

هذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله، وإبائهم عن قبول الحق وإعراضهم عن الهدى إلى العَمى، قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم، تقريعاً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر براحلته فشُدّت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها ثم سار حتى وقف على القليب قليب بدر، فجعل يقول: «يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال له عمر: يا رسول الله ما تكلم من أقوام قد جيفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون».

وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه: ﴿لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم﴾ أي فلم تنتفعوا بذلك، لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحاً؛ ولهذا قال: ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن

دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ .

يقول تعالى: ﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿لوطاً﴾ أو تقديره ﴿و﴾ اذكر ﴿لوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾. ولوط هو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى أرض الشام فبعثه الله إلى أهل سَدُوم وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله عز وجل ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من الفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله.

ولهذا قال لهم لوط عليه السلام: ﴿أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ أي عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال وهذا إسراف منكم وجهل لأنه وضع الشيء في غير محله.

وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض وكذلك نساؤهم كن قد استغنين بعضهن ببعض أيضاً.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ .

أي ما أجابوا لوطاً إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من المؤمنين من بين أظهرهم، وقوله تعالى: ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ قال قتادة: عابوهم بغير عيب، وقال مجاهد: ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ من أدبار الرجال وأدبار النساء. ورُوي مثله عن ابن عباس أيضاً.

﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ .

يقول تعالى فأنجينا لوطاً وأهله ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ [الذاريات: ٣٥ـ٣٦]، إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، تمالئهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم، ولهذا لما أمر لوط عليه السلام أن يسرى بأهله أمر أن لا يعلم امرأته ولا يخرجها من البلد، ومنهم من يقول: بل اتبعتهم فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم، والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم، ولهذا قال هاهنا: ﴿إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أي الباقين، وفهم من فسر ذلك ﴿من الغابرين﴾ من الهالكين وهو تفسير باللازم.

وقوله: ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ مفسر بقوله ﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾ [هود: ٨٢ـ٨٣]، ولهذا قال: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ أي انظر يا محمد كيف كان عاقبة من يجترىء على معاصي الله عز وجل

وكذَّب رسله.

قال جمع من العلماء إلى أنه [اللائط] يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن وهو أحد قولي الشافعي رحمه الله، وقال آخرون: هو كالزاني فإن كان محصناً رجم، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة، وهو القول الآخر للشافعي، وأما إتيان النساء في الأدبار فهو اللوطية الصغرى، وهو حرام بإجماع العلماء، وقد ورد في النهي عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ وقد تقدم الكلام عليها في سورة البقرة.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

قال محمد بن إسحاق: هم من سلالة مدين بن مديان بن إبراهيم.

قلت: مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب مَعَان من طريق الحجاز قال الله تعالى: ﴿**ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمّة من الناس يسقون**﴾ [القصص:٢٣]، وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره إن شاء الله وبه الثقة.

﴿**قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾ هذه دعوة الرسل كلهم ﴿**قد جاءتكم بينة من ربكم**﴾ أي قد أقام الله الحجج على صدق ما جئتكم به، ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أي لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس وهو نقص المكيال والميزان خُفْية وتدليساً، كما قال تعالى: ﴿**ويل للمطففين ـ إلى قوله ـ لرب العالمين**﴾ [المطففين:١-٦]، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد نسأل الله العافية منه، ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب الذي يقال له خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته وجزالة موعظته.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله: ﴿**ولا تقعدوا بكل صراط توعدون**﴾ أي تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم قال السدي وغيره: كانوا عشارين.

وقوله: ﴿**وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً**﴾ أي وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة. ﴿**واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم**﴾ أي كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عدَدكم، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك ﴿**وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين**﴾ أي من الأمم الخالية والقرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله. وقوله: ﴿**وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا**﴾ أي قد اختلفتم علي ﴿**فاصبروا**﴾ أي انتظروا ﴿**حتى يحكم الله بيننا**﴾ أي يفصل ﴿**وهو خير الحاكمين**﴾

فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

هذا إخبار من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبي الله شعيباً ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه ومن معه بالنفي عن القرية، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه، وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة، وقوله: ﴿**أو لو كنا كارهين ؟**﴾ يقول أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمنا الفِرْية على الله في جعل الشركاء معه أنداداً ﴿**وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا**﴾ وهذا رد إلى المشيئة فإنه يعلم كل شيء وقد أحاط بكل شيء علماً ﴿**على الله توكلنا**﴾ أي في أمورنا ما نأتي منها وما نذر ﴿**ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق**﴾ أي احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم ﴿**وأنت خير الفاتحين**﴾ أي خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن شدة كفر قوم شعيب وعتوهم وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿**لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون**﴾ فلهذا عقب ذلك بقوله: ﴿**فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين**﴾ أخبر تعالى هاهنا أنهم أخذتهم الرجفة كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة هود فقال: ﴿**ولما جاءهم أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين**﴾ [هود: ٩٤]. والمناسبة في ذلك والله أعلم أنهم لما تهكموا بنبي الله شعيب في قولهم: ﴿**أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد**﴾ [هود: ٨٧] فجاءت الصيحة فأسكتتهم، وقال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء: ﴿**فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم**﴾ [الشعراء: ١٨٩] وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿**فأسقط علينا كسفاً من السماء**﴾ [الشعراء: ١٨٧]، فأخبرأنه أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كُلُّه أصابهم عذاب يوم الظلة وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح وخمدت الأجساد ﴿**فأصبحوا في دراهم جاثمين**﴾.

ثم قال تعالى: ﴿**كأن لم يغنوا فيها**﴾ أي كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم

التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها. ثم قال تعالى مقابلاً لقيلهم: ﴿**الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين**﴾.

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

أي فتولى عنهم شعيب عليه السلام بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال، وقال مقرعاً لهم وموبخاً: ﴿**يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم**﴾ أي قد أديت إليكم ما أرسلت به فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به؛ لهذا قال: ﴿**فكيف آسى على قوم كافرين**﴾ ؟

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية، الذين أُرْسِل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء، يعني ﴿**بالبأساء**﴾ ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام، ﴿**والضراء**﴾ ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك ﴿**لعلهم يضرعون**﴾ أي يدعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم.

وتقدير الكلام أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئاً من الذي أراد منهم، فقلب الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه؛ ولهذا قال: ﴿**ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة**﴾ أي حولنا الحالة من شدة إلى رخاء، ومن مرض إلى صحة، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك فما فعلوا.

وقوله ﴿**حتى عفوا**﴾ أي كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال عفا الشيء إذا كثر، ﴿**وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون**﴾ يقول تعالى: ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا ويُنيبوا إلى الله فما نَجَع فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، بل قالوا: قد مسنا من البأساء والضراء، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم، و لا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء، ويصبرون على الضراء كما ثبت في صحيح [مسلم]: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء.

ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: ﴿**فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون**﴾ أي أخذناهم بالعقوبة بغتة، أي على بغتة، وعدم شعور منهم، أي أخذناهم فجأة كما في الحديث «موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر». [رواه أبوداود وأحمد وهو صحيح كما في المشكاة].

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسلُ، كقوله تعالى:

﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ [يونس:٩٨] أي ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا وذلك بعدما عاينوا العذاب.

وقوله تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا﴾ أي آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرسل وصدقت به واتبعته، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ أي قطر السماء ونبات الأرض، قال تعالى: ﴿ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ أي ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المحارم، ثم قال تعالى مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره والتجرؤ على زواجره: ﴿أفأمن أهل القرى﴾ أي الكافرة ﴿أن يأتيهم بأسنا﴾ أي عذابنا ونكالنا ﴿بياتاً﴾ أي ليلاً ﴿وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون﴾ أي في حال شغلهم وغفلتهم ﴿أفأمنوا مكر الله﴾ أي بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم في حال غفلتهم ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ ولهذا قال الحسن البصري: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها﴾ أو لم يتبين وكذا قال مجاهد والسدي وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: أو لم يبين لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيرها: يقول تعالى أو لم نبيِّن للذين يستخلفون في الأرض من بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم وعملوا أعمالهم، وعتوا على ربهم ﴿أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم ﴿ونطبع على قلوبهم﴾ يقول ونختم على قلوبهم ﴿فهم لا يسمعون﴾ موعظة ولا تذكيراً.

قلت: وهكذا قال تعالى: ﴿أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾ [طه:١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أو لم يروا كم أهلنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ [الأنعام:٦]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه، وحصول نعمه لأوليائه؛ ولهذا عقب ذلك بقوله وهو أصدق القائلين ورب العالمين.

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ

لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿**تلك القرى نقص عليك من أنبائها**﴾ أي من أخبارها ﴿**ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات**﴾ أي بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالى: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿**ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد * وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم**﴾ [هود: ١٠١-١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿**فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل**﴾ الباء سببية، أي فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم كقوله: ﴿**وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون**﴾ [الأنعام: ١١٠-١١١]؛ ولهذا قال هنا: ﴿**كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين. وما وجدنا لأكثرهم**﴾ أي لأكثر الأمم الماضية ﴿**من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين**﴾ أي ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة. والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو، فأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولاحجة لامن عقل ولا شرع، وفي الفطر السليمة خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك كما جاء في صحيح مسلم، يقول الله تعالى: «إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم»، وفي الصحيحين: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» الحديث.

وقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ [النحل: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿**فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل**﴾ ما روي عن أبي بن كعب قال: كان في علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق، أي فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك، واختاره ابن جرير، وقال السدي: ﴿**فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل**﴾ قال: ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كُرْهاً، وقال مجاهد في قوله: ﴿**فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل**﴾ هذا كقوله: ﴿**ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون**﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿**ثم بعثنا من بعدهم**﴾ أي الرسل المتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط

وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين. ﴿**موسى بآياتنا**﴾ أي بحججنا ودلائلنا البينة ﴿**إلى فرعون**﴾ وهو ملك مصر ﴿**وملئه**﴾ أي قومه ﴿**فظلموا بها**﴾ أي جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً، كقوله تعالى: ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين**﴾ [النمل: ١٤] أي انظر كيف فعلنا بهم وأغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه، وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه وأشفى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون وإلجامه إياه بالحجة، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى: ﴿**وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين**﴾ أي أرسلني الذي هو خالق كل شيء وربه ومليكه، ﴿**حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق**﴾ فقال بعضهم: معناه حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أي جدير بذلك وحري به، وقال بعض المفسرين: معناه حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق، وقرأ آخرون من أهل المدينة: حقيق عليَّ بمعنى واجب وحق علي ذلك أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من عِزِّ جلاله وعظيم سلطانه. ﴿**قد جئتكم ببينة من ربكم**﴾ أي بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به، ﴿**فأرسل معي بني أسرائيل**﴾ أي أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم؛ فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن. ﴿**قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين**﴾ أي قال فرعون لست بمصدقك فيما قلت ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها إن كنت صادقاً فيما ادعيت.

﴿ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

قال ابن عباس في قوله: ﴿**ثعبان مبين**﴾ الحية الذكر، وكذا قال السدي والضحاك، وفي حديث الفتون [رواه النسائي بطوله وهو مشهور وراجعه في تفسير سورة طه] عن ابن عباس قال: ﴿**فألقى عصاه**﴾ فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون، فلما رأى فرعون أنها قاصدةٌ إليه اقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل، وقال قتادة: تحولت حية عظيمة مثل المدينة.

وقوله: ﴿**ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين**﴾ أي نزع يده أخرجها من درعه بعد ما أدخلها فيه فخرجت بيضاء تتلألأ من غير بَرَص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿**وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء**﴾ [النمل: ١٢]، وقال ابن عباس في حديث الفتون: أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعني من غير برص ثم أعادها إلى كمه فعادت إلى لونها الأول،

وكذا قال مجاهد وغير واحد.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

أي قال الملأ وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعدما رجع إليه رَوْعه، واستقر على سرير مملكته بعد ذلك، قال للملأ حوله **﴿إن هذا لساحر عليم﴾** فوافقوه وقالوا كمقالته وتشاوروا في أمره وماذا يصنعون في أمره وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وظهور كذبهم وافترائهم وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم وإخراجه إياهم من أرضهم والذي خافوا منه وقعوا فيه كما قال تعالى: **﴿ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾** [القصص:٦] فلما تشاوروا في شأنه وائتمروا فيه اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى:

﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾.

قال ابن عباس: **﴿أرجه﴾** أخره وقال قتادة: احبسه. **﴿وأرسل﴾** أي ابعث **﴿في المدائن﴾** أي في الأقاليم **﴿حاشرين﴾** أي من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم.

وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً. واعتقد من اعتقد منهم وأوهم من أوهم منهم أن ما جاء به موسى عليه السلام من قبيل ما تشعبذه سحرتهم؛ فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: **﴿أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى * قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى * فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى﴾** [طه:٥٧-٦٠]، وقال تعالى هاهنا:

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاء جزيلاً فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا وليجعلهم من جلسائه والمقربين عنده فلما توثقوا من فرعون لعنه الله.

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾.

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام في قولهم: **﴿إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين﴾** أي قَبْلك كما قال في الآية الأخرى: **﴿وإما أن نكون أول من ألقى﴾** [طه:٦٥]. فقال لهم موسى عليه السلام: ألقوا أي أنتم أولاً، قبلي. والحكمة في هذا ـ والله أعلم ـ ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فرغوا من بهرجهم جاءهم الحق الواضح الجلي بعد انتظار منهم لمجيئه فيكون أوقع في النفوس. وكذا كان؛ ولهذا قال تعالى: **﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم﴾** أي خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوا له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد

صنعة وخيال، كما قال تعالى: ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ [طه: ٦٦-٦٩].

قال ابن عباس: ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً. قال: فأقبلت يُخيل إليه من سحرهم أنها تسعى.

﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم﴾ يقول فرقوهم أي من الفَرق [أي الفزع]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وجاءوا بسحر عظيم﴾.

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه ﴿فإذا هي تلقف﴾ أي تأكل ﴿ما يأفكون﴾ أي ما يلقونه ويوهمون أنه حق وهو باطل. قال ابن عباس: فجعلت لا تَمُرّ بشيء من حبالهم ولا من خُشبُهم إلا التقمته فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء، وليس هذا بسحر فخروا سجداً وقالوا: ﴿آمنا برب العالمين رب موسى وهارون﴾. [ونحوه عن ابن إسحاق والقاسم بن أبي بزة].

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

يخبر تعالى عما توعد به فرعون لعنه الله السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام، وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله: ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾ أي إن غَلَبَه لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضاً منكم لذلك كقوله في الآية الأخرى: ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ [طه: ٧٠]، وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل؛ فإن موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملأ من قومه وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل. وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون. وموسى عليه السلام لا يعرف أحداً منهم ولا رآه ولا اجتمع به وفرعون يعلم ذلك وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رعاع دولته وجهلتهم كما قال تعالى: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ [الزخرف: ٥٤]، فإن قوماً صدّقوه في قوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤] من أجهل خلق الله وأضلهم.

وقوله: ﴿لتخرجوا منها أهلها﴾ أي تجتمعوا أنتم وهو وتكون لكم دولةٌ وصولةٌ، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء وتكون الدولة والتصرف لكم ﴿فسوف تعلمون﴾ أي ما أصنع بكم. ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ يعني يقطع يد الرّجُل اليمنى ورجْله اليسرى أو بالعكس. ﴿ثم لأصلبنكم أجمعين﴾. وقال في الآية الأخرى: ﴿في جذوع النخل﴾ [طه:٧١] أي على الجذوع.

قال ابن عباس: وكان أول من صلب، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون. وقول السحرة: ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ أي قد تحققنا أنا إليه راجعون وعذابه أشد من عذابك، فلنصبرن اليوم على عذابك لنتخلص من عذاب الله؛ ولهذا قالوا: ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ أي عُمَّنا بالصبر على دينك والثبات عليه ﴿وتوفنا مسلمين﴾ أي متابعين لنبيك موسى عليه السلام، وقالوا لفرعون: ﴿فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى * إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى * ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى﴾ [طه:٧٢-٧٥]، فكانوا في أول النهار سحرة، فصاروا في آخره شهداء بررة، قاله ابن عباس وعبيد بن عمير وقتادة وابن جريج.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه، وما أضمروه لموسى عليه السلام وقومه من الأذى والبغضة ﴿وقال الملأ من قوم فرعون﴾ أي لفرعون ﴿أتذر موسى وقومه﴾ أي أتدعهم ﴿ليفسدوا في الأرض﴾ أي يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك، يا لله العجب! صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون ولكن لا يشعرون؛ ولهذا قالوا: ﴿ويذرك وآلهتك﴾ فأجابهم فرعون فيما سألوا بقوله: ﴿سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم﴾ وهذا أمر ثان بهذا الصنيع، وقد كان نكَّل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام حذراً من وجوده، فكان خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون. وهكذا عومل في صنيعه أيضاً لما أراد قهر بني إسرائيل وإذلالهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد: نصرهم الله عليه وأذله وأغرقه وجنوده. ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا﴾ ووعدهم بالعاقبة وأن الدار ستصير لهم في قوله: ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾ أي قد جرى علينا مثل ما رأيت من الهوان من قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك. فقال منبهاً لهم على

حالهم الحاضر وما يصيرون إليه في ثاني الحال: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ولقد أخذنا آل فرعون﴾ أي اختبرناهم وابتليناهم ﴿بالسنين﴾ وهي سنو الجوع بسبب قلة الزروع، ﴿ونقص من الثمرات﴾ قال مجاهد: وهو دون ذلك. وقال رجاء بن حَيْوة: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة. ﴿لعلهم يذكرون. فإذا جاءتهم الحسنة﴾ أي من الخِصْب والرزق ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي هذا لنا بما نستحقه، ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ أي جَدْب وقحط ﴿يطيّروا بموسى ومن معه﴾ أي هذا بسببهم وما جاؤوا به ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ قال بن عباس: مصائبهم عند الله، وعنه أيضا: إلا من قبل الله.

﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

هذا إخبار من الله عز وجل عن تمرد قوم فرعون وإصرارهم على الباطل في قولهم: ﴿مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ يقولون: أي آية جئتنا بها وحجة أقمتها، رددناها فلا نقبلُها منك، ولا نؤمنُ بك ولا بما جئت به، قال الله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ اختلفوا في معناه فعن ابن عباس في رواية كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار، وبه قال الضحاك، وعن ابن عباس في رواية أخرى: هو كثرة الموت وكذا. قال عطاء، وقال مجاهد: الماء والطاعون على كل حال.

وقال ابن عباس في رواية أخرى: هو أمر من الله طاف بهم. ثم قرأ: ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون﴾ [القلم:١٩]. وأما الجراد فمعروف مشهور وهو مأكول؛ لما ثبت في الصحيحين عن أبي يعفُور قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد، فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد. وروى الشافعي وأحمد بن حنبل وابن ماجه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد، والكبد والطحال» [وإسناده جيد وصححه الألباني].

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد﴾ قال: كانت تأكل مسامير أبوابهم وتدع الخشب.

وأما ﴿القمل﴾ فعن ابن عباس هو السوس الذي يخرج من الحنطة، وعنه أنه الدَّبَى وهو

الجراد الصغار الذي لا أجنحة له وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة. وعن الحسن وسعيد بن جبير: دواب سود صغار، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: البراغيث، وقال ابن جرير: القُمَّل جمع واحدتها قُمَّلة، وهي دابة تشبه القمْل، تأكل الإبل فيما بلغني.

وعن سعيد بن جبير قال: لما أتى موسى عليه السلام فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل فلم يرسلهم فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصب عليهم منه شيئاً، خافوا أن يكون عذاباً فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل. فأنبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الزرع والثمار والكلأ فقالوا: هذا ما كنا نتمنى. فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقي الزرع، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك ليكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فداسوا وأحرزوا في البيوت فقالوا: قد أحرزنا فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذي يخرج منه فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها إلا ثلاثة أقفزة. فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل. فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع فقال لفرعون ما تلقى أنت وقومك من هذا. فقال: وما عسى أن يكون كيد هذا فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذَقْنه في الضفادع، ويهم أن يتكلم فتثب الضفدع في فيه. فقالوا لموسى: ادع ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا وأرسل الله عليهم الدم، فكان ما استقوا من الأنهار والآبار، وما كان في أوعيتهم وجدوه دماً عبيطاً، فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم، وليس لنا شراب. فقال: إنه قد سحركم، فقالوا من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عبيطاً. فأتوه وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، وقد روي نحو هذا عن ابن عباس والسدي وقتادة وغير واحد من علماء السلف.

وقال زيد بن أسلم: يعني بالدم الرعاف.

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) ﴾.

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة أنه انتقم منهم بإغراقه إياهم في البحر الذي فرقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده

فرعون وجنوده على أثرهم فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها. وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون وهم بنو إسرائيل ﴿**مشارق الأرض ومغاربها**﴾ كما قال تعالى: ﴿**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون**﴾ [القصص: ٥-٦]، وقال تعالى: ﴿**كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوماً آخرين**﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨]، وعن الحسن البصري وقتادة في قوله: ﴿**مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها**﴾ يعني الشام، وقوله: ﴿**وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا**﴾ قال مجاهد وابن جرير وهي قوله تعالى: ﴿**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون**﴾ [القصص: ٥-٦].

وقوله: ﴿**ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه**﴾ أي وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع ﴿**وما كانوا يعرشون**﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يبنون.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾.

يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿**فأتوا**﴾ أي فمروا ﴿**على قوم يعكفون على أصنام لهم**﴾.

قال ابن جريج: وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿**يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون**﴾ أي تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل ﴿**إن هؤلاء متبر ما هم فيه**﴾ أي هالك ﴿**وباطل ما كانوا يعملون**﴾.

وروى الإمام أحمد عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة فقلت: يا نبي الله: اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿**اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون**﴾ إنكم تركبون سنن من قبلكم» [رواه الترمذي وقال حسن صحيح].

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

يذكرهم موسى عليه السلام بنعمة الله عليهم، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا

فيه من الذلة، وما صاروا إليه من العزة، والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره.

﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

يقول تعالى ممتناً على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عليه السلام وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة. قال المفسرون فصامها موسى عليه السلام فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين. وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعدة والعشر عشر ذي الحجة قاله مجاهد ومسروق وابن جريج وروي عن ابن عباس. فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ كما قال تعالى: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾** [المائدة:٣]. فلما تم الميقات وعزم موسىٰ على الذهاب إلى الطور كما قال تعالى: **﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن﴾** الآية[طه:٨٠]، فحينئذ استخلف موسى عليه السلام على بني إسرائيل أخاه هارون ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد وهذا تنبيه وتذكير وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله، وله وجاهة وجلالة صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاء لميقات الله تعالى وحصل له التكليم من الله تعالى سأل الله تعالىٰ أن ينظر إليه فقال: **﴿رب أرني أنظر إليك قال لن تراني﴾**. وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة كما سنوردها عند قوله تعالى: **﴿وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة﴾** [القيامة:٢٢-٢٣].

وروى ابن جرير عن أنس قال قرأ رسول الله ﷺ: **﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً﴾** قال: وضع الإبهام قريباً من طرف خنصره، قال: فساخ الجبل قال حميد لثابت: تقول هذا؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد، وقال يقوله رسول الله ﷺ، ويقوله أنس وأنا أكتمه ؟ وهكذا رواه الإمام أحمد في مسنده، والترمذي وقال: حسن صحيح غريب، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

وقال ابن عباس في قول الله تعالى: **﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾** قال ما تجلى منه إلا قدر الخنصر **﴿جعله دكاً﴾** قال: تراباً **﴿وخر موسى صعقاً﴾** قال: مغشياً عليه.

وقال الربيع بن أنس: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً﴾ وذلك أن الجبل حين كشف الغطاء ورأى النور صار مثل دك من الدكاك. وقال بعضهم: ﴿جعله دكاً﴾ أي فتته.

وقال مجاهد في قوله: ﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾ فإنه أكبر منك وأشد خلقاً ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل فدك على أوله ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقاً. وقال عكرمة: ﴿جعله دَكَّاء﴾ قال: نظر الله إلى الجبل فصار صحراء تراباً. وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء واختارها ابن جرير.

وقوله: ﴿فلما أفاق﴾ والإفاقة لا تكون إلا عن غشي ﴿قال سبحانك﴾ تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات. وقوله: ﴿تبت إليك﴾ قال مجاهد أن أسألك الرؤية ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ قال ابن عباس ومجاهد: من بني إسرائيل واختاره ابن جرير. وفي رواية أخرى عن ابن عباس: ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ أنه لا يراك أحد. وكذا قال أبو العالية قد كان قبله مؤمنون، ولكن يقول أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة، وهذا قول حسن له اتجاه.

وقوله: ﴿وخر موسى صعقاً﴾ أسند البخاري في صحيحه هٰهنا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لُطِم في وجهه، فقال: يا محمد، إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم وجهي. قال: «ادعوه». فدعوه قال: «لم لطمت وجهه؟» قال: يا رسول الله إني مررت باليهودي فسمعته يقول: والذي اصطفى موسى على البشر. قال: قلت: وعلى محمد؟ فأخذتني غضبة فلطمته، قال: «لا تخيروني من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور». والكلام في قوله عليه السلام: «لا تخيروني على موسى» كالكلام على قوله: «لا تفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى» قيل: من باب التواضع. وقيل: قبل أن يعلم بذلك، وقيل: نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضبية والتعصب. وقيل: على وجه القول بمجرد الرأي والتشهي والله أعلم.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته وبكلامه ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين؛ ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل عليه السلام ثم موسى بن عمران كليم الرحمن عليه السلام ولهذا قال الله تعالى له: ﴿فخذ ما آتيتك﴾ أي من الكلام والمناجاة ﴿وكن من

الشاكرين﴾ أي على ذلك ولا تطلب ما لا طاقة لك به. ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة مبينة للحلال من الحرام، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله تعالى فيها: **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس﴾** [القصص:٤٣]. وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة فالله أعلم، وعلى كل تقدير كانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومُنِع منها والله أعلم، وقوله: **﴿فخذها بقوة﴾** أي بعزم على الطاعة **﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾** قال ابن عباس: أمر موسى عليه السلام أن يأخذ بأشد ما أَمَرَ قومه. وقوله: **﴿سأريكم دار الفاسقين﴾** أي سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب. قال ابن جرير: وإنما قال: **﴿سأريكم دار الفاسقين﴾** كما يقول القائل لمن يخاطبه سأريك غداً إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره. ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصري. وقيل: معناه **﴿سأريكم دار الفاسقين﴾** أي: من أهل الشام وأعطيكم إياها وقيل: منازل قوم فرعون والأول أولى والله أعلم لأن هذا بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه والله أعلم.

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

يقول تعالى: **﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾** أي سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون على الناس بغير حق، أي كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل كما قال تعالى: **﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾** [الصف:٥]. وقال بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر، وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً، وقال سفيان بن عيينة: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي. قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة، قلت: ليس هذا بلازم؛ لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة، ولا فرق بين أحد وأحد في هذا، والله أعلم. وقوله: **﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾** كما قال تعالى: **﴿إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾** [يونس:٩٦-٩٧]. وقوله: **﴿وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً﴾** أي وإن ظهر لهم طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً. ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: **﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا﴾** أي كذبت بها قلوبهم **﴿وكانوا عنها**

غافلين﴾ أي لا يعلمون بما فيها، وقوله: **﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم﴾** أي من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات حبط عمله، وقوله: **﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾** أي إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها إن خيراً فخير وإن شراً فشر وكما تدين تدان.

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم فشكل لهم منه عجلاً، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام، فصار عجلاً جسداً له خوار: والخوار صوت البقر، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: **﴿قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري﴾** [طه: ٨٥].

وقد اختلف المفسرون في هذا العجل هل صار لحماً ودماً له خوار؟ أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر على قولين والله أعلم. **﴿فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾** [طه: ٨٨]، فقال الله تعالى: **﴿أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً﴾** [طه: ٨٩]. وقال في هذه الآية الكريمة: **﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً﴾** ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل وذُهُولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير. ولكن غَ طى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال. وقوله: **﴿ولما سقط في أيديهم﴾** أي ندموا على ما فعلوا **﴿ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾** أي من الهالكين وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل.

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾.

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف. قال أبو الدرداء: الأسف أشد الغضب. **﴿قال بئسما خلفتموني من بعدي﴾** يقول بئس ما صنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم، وقوله: **﴿أعجلتم أمر ربكم﴾** يقول استعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدر من الله تعالى. وقوله: **﴿وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾** ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً.

وقوله: ﴿وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾ خوفاً أن يكون قد قصَّر في نهيهم كما قال في الآية الأخرى: ﴿قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أفعصيت أمري * قال يا بنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي * إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾ [طه:٩٢-٩٤]، وقال ههنا: ﴿ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ أي لا تسقني مساقهم ولا تخلطني معهم وإنما قال: ابن أم لتكون أرأف وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه. فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام كما قال تعالى: ﴿ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾ [طه:٩٠] فعند ذلك قال موسى: ﴿رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح». [رواه أحمد والبزار والطبراني وابن حبان والحاكم وصححه على شرطهما].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

اما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل فهو أن الله تعالى: لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضاً، كما تقدم في سورة البقرة ﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم. ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾ [البقرة:٥٤]. وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا، وقوله: ﴿وكذلك نجزي المفترين﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هَمْلَجت بهم البغلات وطقطقت بهم البراذين. وروي عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية وقال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة، وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل. ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان حتى ولو كان من كفر أوشرك أونفاق أوشقاق، ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها﴾ أي من بعد تلك الفعلة ﴿لغفور رحيم﴾. وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود أنه سئل عن الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها فتلا هذه الآية: ﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ فتلاها عبد الله عشر مرات فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها.

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ولما سكت﴾ أي سكن ﴿عن موسى الغضب﴾ أي غضبه على قومه ﴿أخذ الألواح﴾ أي التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرة لله وغضباً له

﴿وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ ضمن الرهبة معنى الخضوع، ولهذا عداها باللام.

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾.

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية، كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً، فاختار سبعين رجلاً فبرز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دَعَوا الله قالوا: اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا، فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة، قال موسى: ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾ الآية. وقال السدي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعداً فاختار موسى قومه سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. فلما أتوا ذلك المكان قالوا: ﴿لن نؤمن لك﴾ يا موسى ﴿حتى نرى الله جهرة﴾ فإنك قد كلمته فأَرِنَاه. فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج: إنهم أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل ولا نهوهم، ويتوجه هذا القول بقول موسى: ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾. وقوله: ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ أي ابتلاؤك واختبارك. قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وغير واحد من علماء السلف والخلف، ولا معنى له غير ذلك، يقول: إن الأمرُ إلا أمرُك، وإن الحكمُ إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت ولا مُضل لمن هَدَيت، ولا مُعطِي لما منعت ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك والحكم كله لك، لك الخلق والأمر. وقوله: ﴿أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ الغَفْر هو: الستر، وترك المؤاخذة بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر، يراد بها أن لا يوقعه في مثله في المستقبل، ﴿وأنت خير الغافرين﴾ أي لا يغفر الذنب إلا أنت ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾، هناك الفصل الأول من الدعاء لدفع المحذور، وهذا لتحصيل المقصود أي أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة. ﴿إنا هدنا إليك﴾ أي تبنا وأنبنا إليك. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد: وهو كذلك لغة.

﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾.

قال تعالى مجيباً لموسى في قوله: ﴿إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾ الآية، قال: ﴿عذابي أصيب به من أشاء﴾ أي أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد، ولي الحكمة

والعدل في كل ذلك. سبحانه لا إله إلا هو. وقوله تعالى: ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء**﴾ آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله إخباراً عن حملة العرش ومن حوله، أنهم يقولون: ﴿**ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً**﴾ [غافر:٧]. وروى الإمام أحمد عن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه، قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عَقَلها ثم صلى خلف رسول الله ﷺ. فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها ثم ركبها ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا تشرك في رحمتنا أحداً. فقال رسول الله ﷺ: «أتقولون هذا أضل أم بعيره ألم تسمعوا ما قال؟» قالوا: بلى. قال: «لقد حظرت رحمة واسعة إن الله عز وجل خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنها وإنسها وبهائمها وأخَّر عنده تسعاً وتسعين رحمة، أتقولون هو أضل أم بعيره؟». ورواه أبو داود [وله شاهد عند الشيخين من حديث أنس]، وروى الإمام أحمد أيضاً عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «إن لله عز وجل مائة رحمة فمنها رحمة يتراحمُ بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخر تسعا وتسعين إلى يوم القيامة». [ورواه مسلم].

وقوله: ﴿**فسأكتبها للذين يتقون**﴾ الآية، يعني فسأوجب حصول رحمتي منّةً مني وإحساناً إليهم، كما قال تعالى: ﴿**كتب ربكم على نفسه الرحمة**﴾ [الأنعام:٥٤]. وقوله: ﴿**للذين يتقون**﴾ أي سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات، وهم أمة محمد ﷺ الذين يتقون أي الشرك والعظائم من الذنوب. ﴿**ويؤتون الزكاة**﴾ قيل زكاة النفوس، وقيل زكاة الأموال. ويحتمل أن تكون عامة لهما؛ فإن الآية مكية ﴿**والذين هم بآياتنا يؤمنون**﴾ أي يصدقون.

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

﴿**الذين يتبعون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل**﴾ وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء بشروا أممهم ببعثه، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم. كما روى الإمام أحمد عن رجل من الأعراب قال: جلبت جَلُوبَةً إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعتي قلت: لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم في أقفائهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشراً التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجمله، فقال رسول الله ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك ذا صفتي ومخرجي» فقال برأسه هكذا أي لا. فقال ابنه: إي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله فقال: «أقيموا اليهودي

عن أخيكم». ثم تولى كفنه والصلاة عليه. هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح عن أنس.

وروى ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله ويفتح به قلوباً غلفاً وآذاناً صماً وأعيناً عمياً، قال عطاء: ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك فما اختلفا حرفاً إلا أن كعباً قال بلغته، قال: قلوباً غُلُوفياً وآذاناً صمومياً وأعيناً عمومياً». وقد رواه البخاري في صحيحه. ويقع في كلام كثير من السلف إطلاق «التوراة» على كتب أهل الكتاب. وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر**﴾ هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ فأَرْعها سمعك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه. ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمّة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿**ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث**﴾ أي يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم، ويحرم عليهم الخبائث، فعن ابن عباس: كلحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى. وقال بعض العلماء: كل ما أحل الله تعالى فهو طيب نافع في البدن والدين، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين. وقوله: ﴿**ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم**﴾ أي إنه جاء بالتيسير والسماحة كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة» [رواه أحمد وهو حسن]، وقال ﷺ لأميريه معاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن: «بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا وتطاوعا ولا تختلفا» [متفق عليه]. وقد كانت الأمم التي قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل» [متفق عليه]. وقال: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» [رواه ابن ماجه وإسناده جيد]؛ ولهذا قد أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: ﴿**ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا**

ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ [البقرة:٢٨٦]. وثبت في صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه: قد فعلت قد فعلت.

وقوله: ﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه﴾ أي عظموه ووقروه، ﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾ أي القرآن والوحي الذي جاء به ﴿أولئك هم المفلحون﴾ أي في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ ﴿قل يا أيها الناس﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي ﴿إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ أي جميعكم وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال تعالى: ﴿قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ [الأنعام:١٩]، والآيات في هذا كثيرة كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم.

روى البخاري عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما محاورة، فأغضب أبو بكر عمر فانصرف عمر عنه مغضباً فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء: ونحن عنده فقال رسول الله ﷺ: «أما صاحبكم هذا فقد غامر» أي غاضب وحاقد. قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ، وقص على رسول الله ﷺ الخبر. قال أبو الدرداء: فغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدقت» انفرد به البخاري.

روى الإمام أحمد أيضا عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: «لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلي، أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه،... الحديث. وإسناده جيد قوي أيضاً ولم يخرجوه. وفي صحيح مسلم عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار». وفي الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما

رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة». وقوله: ﴿**الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت**﴾ صفة الله تعالى في قوله ﴿**رسول الله**﴾ ﷺ أي الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي بيده الملك والإحياء والإماتة وله الحكم. وقوله: ﴿**فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي**﴾ أخبرهم أنه رسول الله إليهم ثم أمرهم باتباعه والإيمان به ﴿**النبي الأمي**﴾ أي الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة فإنه منعوت بذلك في كتبهم؛ ولهذا قال: ﴿**النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته**﴾ أي يصدق قوله عملُه، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿**واتبعوه**﴾ أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ﴿**لعلكم تهتدون**﴾ أي إلى الصراط المستقيم.

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال تعالى: ﴿**من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون**﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به**﴾الآية[البقرة: ١٢١].

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة وهي مدنية وهذا السياق مكي ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته. و لله الحمد والمنة.

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿**ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين**﴾ [البقرة: ٦٥]، يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿**واسئلهم**﴾ أي واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة، وحَذِّر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم، لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم. وعن ابن عباس قال: هي قرية يقال لها أيلة بين مدين والطور، وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة والسدي. وقوله: ﴿**إذ يعدون في السبت**﴾ أي يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك ﴿**إذ تأتيهم حيتانهم**

يوم سبتهم شرعاً﴾ قال ابن عباس: أي ظاهرة على الماء. وعنه أيضا: من كل مكان. قال ابن جرير وقوله: ﴿ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم﴾ أي نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في اليوم المحلل لهم صيده ﴿بما كانوا يفسقون﴾ يقول: بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها، وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام. وقد روى الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل» وهذا إسناده جيد.

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾
فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾
فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت كما تقدم بيانه في سورة البقرة، وفرقة نهت عن ذلك وأنكرت واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباًشديداً﴾ أي لِمَ تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكم إياهم، قالت لهم المنكرة: ﴿معذرة إلى ربكم﴾ قرأ بعضهم بالرفع كأنه على تقدير هذه معذرة وقرأ آخرون بالنصب أي نفعل ذلك ﴿معذرة إلى ربكم﴾ أي فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ولعلهم يتقون﴾ يقولون: ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ويرجعون إلى الله تائبين فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم. قال تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا﴾ أي ارتكبوا المعصية ﴿بعذاب بئيس﴾ فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزاء من جنس العمل فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من الهالكين أو من الناجين على قولين.

فعن عكرمة قال جئت ابن عباس يوماً وهو يبكي وإذا المصحف في حجره فأعظمت أن أدنو، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست فقلت: ما يبكيك يا ابا عباس جعلني الله فداك؟ قال: فقال: هؤلاء الورقات. قال: وإذا هو في سورة الأعراف قال: تعرف أيلة؟ قلت: نعم. قال: فإنه كان بها حي من اليهود سيقت الحيتان إليهم يوم السبت ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤونة شديدة، كانت تأتيهم يوم سبتهم شرعاً بيضا سماناً كأنها الماخض تتبطح ظهورها لبطونها بأفنيتهم. فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نُهيتُم عن أكلها يوم السبت فخذوها فيه، وكلوها في غيره

من الأيام، فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة: بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة، فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين وتنحت واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت. وقال الأيمنون: ويلكم، الله الله ننهاكم أن تتعرضوا لعقوبة الله، وقال الأيسرون: ﴿**لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً**﴾ قال الأيمنون: ﴿**معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون**﴾ أي ينتهون، إن ينتهوا فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم. فمضوا على الخطيئة وقال الأيمنون: فقد فعلتم يا أعداء الله، والله لا نبايتكم الليلة في مدينتكم والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب. فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا فلم يجابوا فوضعوا سلماً وأعلوا سور المدينة رجلاً، فالتفت إليهم، فقال: أي عباد الله، قردة والله تعاوى لها أذناب. قال ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القرود أنسابها من الإنس ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة، فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي فيقول: ألم ننهكم عن كذا؟ فتقول برأسها: أي نعم. ثم قرأ ابن عباس: ﴿**فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس**﴾ قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها، قال: قلت جعلني الله فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم ؟ وقالوا: ﴿**لم تعظون قوماً الله مهلكهم**﴾ قال: فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين.

القول الثاني: أن الساكتين كانوا من الهالكين. عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: ابتدعوا السبت فابتلوا فيه فحرمت عليهم فيه الحيتان فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى السبت المقبل فإذا جاء السبت جاءت شرعاً فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتاً فخزم أنفه ثم ضرب له وتداً في الساحل وربطه وتركه في الماء فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون ولا ينهاه منهم أحد إلا عصبة منهم نهوه حتى ظهر ذلك في الأسواق ففعل علانية قال: فقالت: طائفة للذين ينهونهم ﴿**لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم**﴾ فقالوا: سخط أعمالهم ﴿**ولعلهم يتقون * فلما نسوا - إلى قوله - قردة خاسئين**﴾ قال ابن عباس: كانوا أثلاثاً: ثلث نهوا، وثلث قالوا: ﴿**لم تعظون قوماً الله مهلكهم**﴾ وثلث أصحاب الخطيئة فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم، وهذا إسناده جيد عن ابن عباس ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا لأنه تبين حالهم بعد ذلك والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس**﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا. ﴿**وبئيس**﴾ معناه في قول مجاهد: الشديد. وفي رواية أليم وقال قتادة: موجع والكل

متقارب والله أعلم، وقوله: ﴿خاسئين﴾ إي ذليلين حقيرين مهانين.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾.

﴿تأذن﴾ تفعل من الإذن أي: أعلم قاله مجاهد، وقال غيره: أمر، وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا تُلُقِّيَت باللام في قوله: ﴿ليبعثن عليهم﴾ أي على اليهود ﴿إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم، ويقال إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج، سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة، وكان أول من ضرب الخراج. ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين والكلدانيين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد ﷺ فكانوا تحت صغاره وذمته يؤدون الخراج والجزية. وعن ابن عباس: هي الجزية والذي يسومونهم سوء العذاب محمد رسول الله ﷺ وأمته إلى يوم القيامة، وكذا قال سعيد بن جبير وابن جريج والسدي وقتادة. قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عليه السلام، وذلك آخر الزمان.

وقوله: ﴿إن ربك لسريع العقاب﴾ أي لمن عصاه وخالف أمره وشرعه ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ أي لمن تاب إليه وأناب وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أمماً أي طوائف وفرقاً، ﴿منهم الصالحون ومنهم دون ذلك﴾ أي فيهم الصالح وغير ذلك كما قال الجن: ﴿وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً﴾ [الجن: ١١]، ﴿وبلوناهم﴾ أي اختبرناهم ﴿بالحسنات والسيئات﴾ أي بالرخاء والشدة، والرغبة والرهبة، والعافية والبلاء ﴿لعلهم يرجعون﴾. ثم قال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب﴾ يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة وقال مجاهد: هم النصارى وقد يكون أعم من ذلك، ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أي يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعَرَض الحياة الدنيا، ويسوفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه؛ ولهذا قال: ﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾ وكما قال سعيد بن جبير يعملون

الذنب ثم يستغفرون الله منه فإن عرض ذلك الذنب أخذوه. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿**يأخذون عرض هذا الأدنى**﴾ قال: لا يُشْرِفُ لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه حلالاً كان أو حراماً، ويتمنون المغفرة ﴿**ويقولون سيغفر لنا**﴾، وقال قتادة: أي والله لخلف سوء ورثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورسلهم، ورثهم الله وعهد إليهم، وقال الله في آية أخرى: ﴿**فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات**﴾ [مريم:٥٩]، قال: ﴿**يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا**﴾ تمنوا على الله أماني ﴿**وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه**﴾ لا يشغلهم شيء عن شيء ولا ينهاهم شيء عن ذلك كلما هف لهم شيء من الدنيا أكلوه لا يبالون حلالاً كان أو حراماً، وقال السدي: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم، وإنَّ خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشي، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى، فيقال له: ما شأنك ترتشي في الحكم؟ فيقول: سيغفر لي، فيطعن عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع، فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشي. يقول: وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه.

قال الله تعالى: ﴿**ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه**﴾ الآية يقول تعالى منكراً عليهم في صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبينن الحق للناس ولا يكتمونه كقوله: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون**﴾ [آل عمران:١٨٧]، وقال ابن عباس: ﴿**ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق**﴾ قال: فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها، وقوله تعالى: ﴿**والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون**﴾ يرغبهم تعالى في جزيل ثوابه، ويحذرهم من وبيل عقابه، أي وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم وترك هوى نفسه وأقبل على طاعة ربه. ﴿**أفلا تعقلون**﴾ يقول: أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعَرَض الدنيا عما عندي عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير؟ ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه فقال تعالى: ﴿**والذين يمسكون بالكتاب**﴾ أي اعتصموا به واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره ﴿**وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين**﴾.

﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

قال ابن عباس في قوله: ﴿**وإذ نتقنا الجبل فوقهم**﴾ يقول: رفعناه، وهو قوله: ﴿**ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم**﴾ [النساء:١٥٤]. وعن ابن عباس قال: ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمر الله به أن يبلغهم من الوظائف فثقلت عليهم وأبوا أن يقربوها حتى ينتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة،

قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربُّهم ومليكُهم، وأنه لا إله إلا هو. كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه قال تعالى ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**﴾ [الروم: ٣٠]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة - وفي رواية: على هذه الملة - فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم».

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير عن الأسود بن سريع قال غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه، ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية» فقال رجل: يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إن خياركم أبناء المشركين ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليهاحتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها» قال الحسن: والله لقد قال الله في كتابه: ﴿**وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم**﴾ الآية، وقد رواه الإمام أحمد وأخرجه النسائي في سننه [وهو صحيح]، وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به قال: فيقول: نعم فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي» أخرجاه في الصحيحين.

حديث آخر: روى الترمذي عند تفسيره هذه الآية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب من هؤلاء قال: هؤلاء ذريتك فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه قال: أي رب من هذا قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود قال رب وكم جعلت عمره قال ستين سنة قال أي رب زده من عمري أربعين سنة فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال أو لم يبق من عمري أربعون سنة قال أو لم تعطها ابنك داود قال فجحد آدم فجحدت ذريته ونسي آدم فنسيت

ذريته وخطىء آدم فخطئت ذريته». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وروي عن مجاهد والحسن وغير واحد من علماء السلف سياقات توافق هذه الأحاديث.

فالأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم بأنه ربهم فما هو إلا في حديث ابن عباس وفي حديث عبد الله بن عمرو، وهما موقوفان لا مرفوعان، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فَطْرهم على التوحيد كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سَرِيع وقد فسر الحسن البصري الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿**وإذ أخذ ربك من بني آدم**﴾ ولم يقل من آدم ﴿**من ظهورهم**﴾ ولم يقل من ظهره ﴿**ذريتهم**﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن كما قال تعالى ﴿**وهو الذي جعلكم خلائف الأرض**﴾ [الأنعام: ١٦٥]. ثم قال: ﴿**وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى**﴾ أي أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً وقالاً. والشهادة تارة تكون بالقول كما قال تعالى: ﴿**قالوا شهدنا على أنفسنا**﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وتارة تكون حالاً كقوله تعالى: ﴿**ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر**﴾ [التوبة: ١٧] أي حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، كما أن السؤال تارة يكون بالقال، وتارة يكون بالحال كقوله: ﴿**وآتاكم من كل ما سألتموه**﴾ [إبراهيم: ٣٤]، قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه. فإن قيل إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده فالجواب أن المكذبين من المشركين يُكذِّبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جُعِلَ حجةً مستقلة عليهم، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد؛ ولهذا قال: ﴿**أن تقولوا**﴾ أي لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿**إنا كنا عن هذا**﴾ أي التوحيد ﴿**غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا**﴾ الآية.

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿**واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه**﴾ الآية قال: هو رجل من بني إسرائيل يقال له بَلْعم بن أبرَ. وقال ابن عباس: هو صيفي بن الراهب، وعنه أيضا: أنه رجل من أهل اليمن، يقال له: بلعم، آتاه الله آياته فتركها، وروي عنه أيضا وعن مجاهد وعكرمة أنه: بلعم باعر، وقال مالك بن دينار:

كان من علماء بني إسرائيل وكان مجاب الدعوة يقدمونه في الشدائد بعثه نبي الله موسى إلى ملك مدين يدعوه إلى الله فأقطعه وأعطاه فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام. وقال عبد الله بن عمرو: هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت. وقد روي من غير وجه عنه وهو صحيح إليه، وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ولكنه لم ينتفع بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته، وظهرت لكل من له بصيرة، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه، وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة قبحه الله.

وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل كما قال ابن مسعود وغيره من السلف، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره من علماء السلف: كان رجلاً مجاب الدعوة، ولا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه، وقال ابن عباس: لما نزل موسى بهم يعني بالجبارين ومن معه أتاه ـ يعني بلعام ـ أتاه بنو عمه وقومه فقالوا: إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه، قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله ما كان عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿**فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**فأتبعه الشيطان**﴾ أي استحوذ عليه وغلبه أمره فمهما أمره امتثل وأطاعه؛ ولهذا قال: ﴿**فكان من الغاوين**﴾ أي من الهالكين الحائرين البائرين. وقد ورد في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده عن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان ردء الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك» قال قلت يا نبي الله أيهما أولى بالشرك المرمي أو الرامي؟ قال «بل الرامي» إسناده جيد.

وقوله تعالى: ﴿**ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه**﴾ يقول تعالى: ﴿**ولو شئنا لرفعناه بها**﴾ أي لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها، ﴿**ولكنه أخلد إلى الأرض**﴾ أي مال إلى زينة الدنيا وزهرتها، وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهى.

قلت: هو بلعام، ويقال: بلعم بن باعوراء، وكان يسكن قرية من قرى البلقاء، قال ابن عساكر: وهو الذي كان يعرف اسم الله الأعظم فانسلخ من دينه.

وقوله تعالى: ﴿**فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث**﴾ اختلف المفسرون في معناه، فعن سالم أبي النضر: أن بلعاماً اندلع لسانه على صدره، فتشبيهه بالكلب في لهثه

في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك. وقيل: معناه فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه، وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء، كالكلب في لهثه في حالتيه إن حملت عليه وإن تركته هو يلهث في الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه كما قال تعالى: ﴿**سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**﴾ [البقرة:٦] ﴿**استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم**﴾ [التوبة:٨٠]، ونحو ذلك. وقيل: معناه أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى فهو كثير الوجيب، فعبر عن هذا بهذا نقل نحوه عن الحسن البصري وغيره، وقوله تعالى: ﴿**فاقصص القصص لعلهم يتفكرون**﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿**فاقصص القصص لعلهم**﴾ أي لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام، وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب في غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمن وشعب الإيمان، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان، كليم الله موسى بن عمران عليه السلام، ولهذا قال: ﴿**لعلهم يتفكرون**﴾ أي فيحذروا أن يكونوا مثله، فإن الله قد أعطاهم علماً وميزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به، ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد أحل الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة.

وقوله: ﴿**ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا**﴾ يقول تعالى: ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، أي ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حَيِّز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيهاً بالكلب، وبئس المثل مثله؛ ولهذا ثبت في صحيح [البخاري] أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه».

وقوله: ﴿**وأنفسهم كانوا يظلمون**﴾ أي ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى.

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾.

يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضل له ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد وأهل السنن وغيرهم. [وهو صحيح

ويعرف «بخطبة الحاجة»].

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿**ولقد ذرأنا**﴾ أي خلقنا وجعلنا ﴿**لجهنم كثيراً من الجن والإنس**﴾ أي هيأناهم لها وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء».

وفي صحيح مسلم أيضاً: من حديث عائشة بنت طلحة عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: دُعيَ النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت: يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة، وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم»، وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود: «ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقُه وأجلُه وعملُه وشقي أم سعيد» وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال قال: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي» والأحاديث في هذا كثيرة ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها.

وقوله تعالى: ﴿**لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها**﴾ يعني ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: ﴿**وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون**﴾ [الأحقاف:٢٦].

وقوله تعالى: ﴿**أولئك كالأنعام**﴾ أي هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يُعيِّشُها من ظاهر الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿**ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي**﴾ [البقرة:١٧١] أي ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول. ولهذا قال في هؤلاء ﴿**بل هم أضل**﴾ أي من الدواب لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها، وإن لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء، ولأن الدواب تفقه ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر، فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿**أولئك كالأنعام بل هم أضل**

أولئك هم الغافلون﴾.

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر». أخرجاه في الصحيحين. ثم ليُعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في التسعة والتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك ماض فيَّ حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله وهمه حزنه وأبدل مكانه فرحاً» فقيل يا رسول الله: أفلا نتعلمها ؟ فقال: «بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها» وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستي في صحيحه بمثله [وحسنه الألباني]، وذكر الفقيه الإمام أبو بكر العربي أحد أئمة المالكية في كتابه الأحوذي في شرح الترمذي أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم.

وقال مجاهد: **﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾** اشتقوا اللات من الله، واشتقوا العزى من العزيز، وقال قتادة: يلحدون: يشركون. وقال ابن عباس: الإلحاد التكذيب: وأصل الإلحاد في كلام العرب العدل عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾.

يقول تعالى: **﴿وممن خلقنا﴾** أي ومن الأمم **﴿أمة﴾** قائمة بالحق قولاً وعملاً **﴿يهدون بالحق﴾** يقولونه ويدعون إليه **﴿وبه يعدلون﴾** يعملون ويقضون، وقد جاء في الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية هي هذه الأمة المحمدية. وفي الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة» وفي رواية «حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» وفي رواية «وهم بالشام».

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾.

يقول تعالى: **﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾** ومعناه أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال تعالى: **﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾** [الأنعام: ٤٤ـ٤٥]؛ ولهذا قال تعالى: **﴿وأملي لهم﴾** أي وسأملي لهم، أي أطول لهم ما هم فيه

﴿إن كيدي متين﴾ أي قوي شديد.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) ﴾.

يقول تعالى: ﴿أو لم يتفكروا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿ما بصاحبهم﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿من جِنَّة﴾ أي ليس به جنون، بل هو رسول الله حقاً، دعا إلى حق ﴿إن هو إلانذير مبين﴾ أي ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعي به، كما قال تعالى: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ [التكوير:٢٢]، وقال تعالى: ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ [سبأ:٤٦].

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) ﴾.

يقول تعالى: ﴿أولم ينظروا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض، وفيما خلق من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ويصيروا إلى عذاب الله.

وقوله: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ يقول فبأي تخويف وتحذير بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه، الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه يصدقون، إن لم يصدقوا بهذا الحديث.

ثم قال تعالى:

﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) ﴾.

يقول تعالى: من كُتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر فإنه لا يجزي عنه شيئاً كقوله تعالى: ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً﴾ [المائدة:٤١]، وقال تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ [يونس:١٠١].

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) ﴾.

يقول تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة﴾ كما قال تعالى: ﴿يسألك الناس عن الساعة﴾ [الأحزاب:٦٣] قيل: نزلت في قريش. وقيل: في نفر من اليهود. والأول أشبه لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها وتكذيباً بوجودها، كما قال تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ [الأنبياء:٣٨]، وقال تعالى: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد﴾ [الشورى:١٨].

وقوله: ﴿أيان مرساها﴾ قال ابن عباس: منتهاها، وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت

الساعة. ﴿قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ أمر تعالى رسوله ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة أن يرُدَّ علمها إلى الله تعالى، فإنه هو الذي يعلم جلية أمرها ومتى يكون على التحديد، أي لا يعلم ذلك إلا هو تعالى؛ ولهذا قال: ﴿ثقلت في السموات والأرض﴾ قال قتادة: ثقل علمها على أهل السموات والأرض أنهم لا يعلمون، وقال الحسن: إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض، يقول: كَبُرَت عليهم.

وقال ابن عباس: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة، وقال ابن جريج: إذا جاءت انشقت السماء، وانتثرت النجوم، وكورت الشمس، وسيرت الجبال، وكان ما قال الله عز وجل، فذلك ثقلها. واختار ابن جرير رحمه الله أن المراد: ثَقُلَ علم وقتها على أهل السموات والأرض، كما قال قتادة. وهو كما قالاه، كقوله تعالى: ﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾، ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض، والله أعلم.

وقال السدي: خفيت في السموات والأرض، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب ولا نبي مرسل.

﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾ يبغتهم قيامها تأتيهم على غفلة. وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها» [ورواه مسلم بمعناه].

وقوله: ﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾ اختلف المفسرون في معناه، فقيل: معناه كما قال ابن عباس: ﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾ يقول: كأن بينك وبينهم مودة كأنك صديق لهم، قال ابن عباس: لما سأل الناس محمداً ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفيٌّ بهم، فأوحى الله إليه إنما علمها عنده، استأثر بعلمها، فلم يُطْلِع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً. وقال قتادة: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة فأسرّ إلينا متى الساعة ؟ فقال الله عز وجل: ﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾. وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وأبي مالك والسدي، وهذا قول، والصحيح عن مجاهد من رواية ابن أبي نجيح وغيره ﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾ قال: استحفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها، وكذا قال ابن عباس: ﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾ يقول: كأنك عالم بها، لست تعلمها ﴿قل إنما علمها عند الله﴾.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كأنك عالم بها، وقد أخفى الله علمها على خلقه، وقرأ: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ الآية[لقمان: ٣٤]. وهذا القول أرجح في المعنى من الأول،

والله أعلم، ولهذا قال: ﴿قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾. ولهذا لما جاء جبريل عليه السلام في صورة أعرابي ليعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد، وسأله عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة ؟ قال له رسول الله ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» أي لست أعلم بها منك ولا أحد بها من أحد، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ الآية [أخرجاه في الصحيحين].

ولما سأله ذلك الأعرابي وناداه بصوت جهوري فقال: يا محمد، قال له رسول الله ﷺ: «هاؤم» على نحو من صوته، قال: يا محمد متى الساعة ؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك إن الساعة آتية فما أعددت لها» قال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله، فقال له رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب» فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث، وهذا له طرق متعددة في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال «المرء مع من أحب» وهي متواترة عند كثير من الحفاظ المتقنين، ففيه أنه عليه السلام كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى علمه أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك، والتهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته. ولهذا روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة: متى الساعة ؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال: «إن يعش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت عليكم ساعتكم». يعني بذلك موتهم الذي يفضي بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة. وروى مسلم عن أنس قال: مر غلام للمغيرة بن شعبة وكان من أترابي فقال النبي ﷺ: «إن يؤخر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة». ورواه البخاري بأطول من هذا السياق. وهذا الإطلاق محمول على التقييد بـ«ساعتكم» في حديث عائشة رضي الله عنها.

وروى النسائي عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾ [النازعات:٤٢]، وهذا إسناد جيد قوي، فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه نبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملحمة والعاقب والمقفى والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيحين من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وقرن بين أصبعيه السبابة والتي تليها، ومع هذا كله قد أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: ﴿قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

أمره الله تعالى أن يفوّض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب ولا اطلاع له

على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً**﴾ [الجن:٢٦-٢٧]. وقوله: ﴿**ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير**﴾ قال مجاهد: لو كنت أعلم متى أموت، لعملت عملاً صالحاً، وقال مثله ابن جريج، وفيه نظر؛ لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمَة، وفي رواية: كان إذا عمل عملاً أثبته. [رواه مسلم]. فجميع عمله كان على منوال واحد كأنه ينظر إلى الله عز وجل في جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم. والأحسن في هذا ما روي عن ابن عباس ﴿**ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير**﴾ أي من المال. وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه ﴿**وما مسنيَ السوء**﴾ ولا يصيبني الفقر. وقال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة ولوقت الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿**وما مسني السوء**﴾ قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيته. ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير، أي نذير من العذاب وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿**فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً**﴾ [مريم:٩٧].

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾.

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام. وأنه خلق منه زوجه حواء ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ [الحجرات:١٣]، وقال تعالى: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء**﴾ الآية[النساء:١]، وقال في هذا الآية الكريمة: ﴿**وجعل منها زوجها ليسكن إليها**﴾ أي ليألفها ويسكن بها، كما قال تعالى: ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة**﴾ [الروم:٢١]، فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين؛ ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه. ﴿**فلما تغشاها**﴾ أي وطئها ﴿**حملت حملاً خفيفاً**﴾ وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألماً، إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة.

وقوله: ﴿**فمرت به**﴾ قال مجاهد: استمرت بحمله، وروي عن الحسن وإبراهيم النخعي والسدي نحوه، وقال ميمون بن مهران عن أبيه: استخفته. وقال أيوب: سألت الحسن عن قوله ﴿**فمرت به**﴾ قال: لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هي إنما هي فاستمرت به، وقال قتادة:

استبان حملها. وقال ابن جرير: معناه استمرت بالماء قامت به وقعدت. وقال ابن عباس: استمرت به فشكت أحملت أم لا؟ **﴿فلما أثقلت﴾** أي صارت ذات ثقل بحملها. وقال السدي: كبر الولد في بطنها **﴿دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً﴾** أي بشراً سوياً، **﴿لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون﴾** ذكر المفسرون ههنا آثاراً وأحاديث [منها ما] روى الإمام أحمد في مسنده عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سمِّيه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره» وهذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه: **أحدها**: أن عمر بن إبراهيم [أحد رواته] قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به. **الثاني**: أنه قد روي من قول سمرة نفسه ليس مرفوعاً. **الثالث**: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه. روى ابن جرير عن الحسن: **﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾** قال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم.

وروي عن الحسن أيضا: عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده يعني قوله: **﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾**. وروي عنه كذلك أنه قال: هم اليهود، والنصارى رزقهم الله أولاداً فهوّدوا ونَصَّروا. وأسانيدها صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره ولا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاء الله إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم.

فأما الآثار فعن ابن عباس قوله في آدم: **﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة ـ إلى قوله ـ فمرت به﴾** شكّت أحبلت أم لا؟ **﴿فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين﴾** فأتاهما الشيطان، فقال: هل تدريان ما يولد لكما؟ أم هل تدريان ما يكون أبهيمة أم لا؟ وزين لهما الباطل، إنه غوي مبين، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سوياً ومات كما مات الأول، فسميا ولدهما عبد الحارث، فذلك قول الله تعالى: **﴿فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾** الآية.

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس من أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة، ومن الطبقة الثانية قتادة والسدي وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، وكأنه ـ والله أعلم ـ أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب، كما رواه ابن أبي حاتم. وهذا يظهر عليه ـ والله أعلم ـ

أنه من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم» ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام، فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله، ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً، ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله عليه السلام: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» وهو الذي لا يصدَّق ولا يكذب لقوله: «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم». وهذا الأثر هل هو من القسم الثاني أو الثالث؟ فيه نظر. فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا والله أعلم، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس، كقوله **﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾** [الملك: ٥]، ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمى بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائر في القرآن؛ ولهذا قال الله: **﴿فتعالى الله عما يشركون﴾**، والله أعلم.

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر ولا تضر ولا تنفع، ولا تنصر ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال: **﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون﴾** أي أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك، كما قال تعالى: **﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب * ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز﴾** [الحج: ٧٣-٧٤] أخبر تعالى أنه لو اجتمعت آلهتهم كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو استلبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطارت، لما استطاعوا إنقاذ ذلك منها، فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويُسْتَنصَر؟ ولهذا قال تعالى: **﴿لا يخلق شيئاً وهم يخلقون﴾** أي بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: **﴿أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون﴾** [الصافات: ٩٥-٩٦].

ثم قال تعالى: ﴿ولايستطيعون لهم نصراً﴾ أي لعابديهم ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ يعني ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهينُها غاية الإهانة كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾ [الصافات:٩٣] وقال تعالى: ﴿فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون﴾ [الأنبياء:٥٨]، وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما، وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل ليعتبر قومهما بذلك ويرتؤوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح وكان سيداً في قومه صنم يعبده ويطيبه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعَذِرة، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صُنِعَ به، فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً ويقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضاً، حتى أخذاه مرة فقرنامعه جرو ميت، ودلَّياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تالله لو كنت إلهاً مُسْـتَدن لم تك والكلبُ جميعاً في قَرَنْ

ثم أسلم فحسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً رضي الله عنه وأرضاه وجعل جنة الفردوس مأواه.

وقوله: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، كما قال إبراهيم: ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ [مريم:٤٢]. ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها، أي مخلوقات مثلهم، بل الأناسي أكمل منها لأنها تسمع وتبصر وتبطش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك.

وقوله: ﴿قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون﴾ أي استنصروا بها علي فلا تؤخروني طرفة عين، واجهدوا جهدكم ﴿إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾ أي الله حسبي وكافيٍّ، وهو نصيري وعليه متكلي وإليه ألجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة وهو ولي كل صالح بعدي وهذا كما قال هود عليه السلام لما قال له قومه: ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾ [هود:٥٤-٥٦].

وقوله: ﴿والذين تدعون من دونه﴾ إلى آخر الآية، مؤكد لما تقدم إلا أنه بصيغة الخطاب، وذلك بصيغة الغيبة؛ ولهذا قال: ﴿لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾، وقوله: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ كقوله تعالى: ﴿إن

تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم﴾ [فاطر:١٤]. وقوله: ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ إنما قال: ﴿ينظرون إليك﴾ أي يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل؛ لأنها على صورة مصورة كالإنسان وتراهم ينظرون إليك، فعبر عنها بضمير من يعقل، وقال السدي: المراد بهذا المشركون، وروي عن مجاهد نحوه، والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير، وقاله قتادة.

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾.

قال ابن عباس قوله: ﴿خذ العفو﴾ يعني خذ ما عفا لك من أموالهم وما أتوك به من شيء فخذه، وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه الصدقات، قاله السدي. وقال ابن عباس أيضا: أنفق الفضل، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم، واختار هذا القول ابن جرير. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿خذ العفو﴾ قال: من أخلاق الناس وأعمالهم بغير تحسس. وقال هشام بن عروة عن أبيه: أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس، وفي رواية قال: خذ ما عفا لك من أخلاقهم، وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل ﴿خذ العفو﴾ من أخلاق الناس، وعن ابن عمر وعائشة أنهما قالا مثل لك، والله أعلم.

وفي رواية عن ابن الزبير: ﴿خذ العفو﴾ قال: من أخلاق الناس، والله لآخذنه منهم ما صحبتهم، وهذا أشهر الأقوال.

وقال البخاري قوله: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ العرف: المعروف، وعن ابن عباس قال: قدم عيينة بن حصن، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحابَ مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباباً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب فو الله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همّ أن يوقع به، فقال له الحر، يا أمير المؤمنين قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ماجاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل، انفرد بإخراجه البخاري.

وقول البخاري: العرف المعروف، نص عليه عروة بن الزبير والسدي وقتادة وابن جرير وغير واحد، وحكى ابن جرير أنه يقال أوليته معروفاً وعارفاً، كل ذلك بمعنى المعروف، قال: وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل في ذلك جميع الطاعات وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم

لا بالإعراض عمن جهل الحق الواجب من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته وهو للمسلمين حرب. وقال قتادة في قوله ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾ قال: هذه أخلاق أمر الله بها نبيه ﷺ ودله عليها، وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى فسبكه في بيتين فيهما جناس، فقال:

خذ العفو وأمر بعرف كما أمـرت وأعرض عن الجاهـلين

وَلِنْ في الكلام لكل الأنام فمستحسن من ذَوِي الجاه لين

وقال بعض العلماء: الناس رجلان، فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه، وإما مسيء فمره بالمعروف فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر في جهله فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى: ﴿**ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون**﴾ [المؤمنون:٩٦-٩٨]، وقال تعالى: ﴿**ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها**﴾أي هذه الوصية ﴿**إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم**﴾ [فصلت:٣٤-٣٦]، وقال في هذه السورة الكريمة أيضاً: ﴿**وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم**﴾ فهذه الآيات الثلاث في الأعراف والمؤمنون وحم السجدة، لا رابع لهن، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف وبالتي هي أحسن فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى، ولهذا قال: ﴿**فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**﴾. ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإن لا يكفه عنك الإحسان وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك.

قال ابن جرير في تفسير قوله: ﴿**وإما ينزغنك من الشيطان نزغ**﴾ وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاتهم ﴿**فاستعذ بالله**﴾ يقول: فاستجر بالله من نزغه ﴿**إنه سميع عليم**﴾ يقول: إن الله الذي تستعيذ به من نزغ الشيطان سميع لجهل الجاهل عليك والاستعاذة به من نزغه ولغير ذلك من كلام خلقه لا يخفى عليه منه شيء، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر أنهم ﴿**إذا مسهم**﴾ أي أصابهم طائف. ومنهم من فسر ذلك بالغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهم بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب. وقوله: ﴿**تذكروا**﴾ أي عقاب الله وجزيل ثوابه ووعده، ووعيده، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا

إليه من قريب. ﴿فإذا هم مبصرون﴾ أي قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه.

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه هاهنا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وبها طيف فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يشفيني، فقال: «إن شئت دعوت الله فشفاك، وإن شئت فاصبري ولا حساب عليك» فقالت: بل أصبر ولا حساب عليّ، ورواه غير واحد من أهل السنن وعندهم قالت: يا رسول الله إني أصرع وأتكشف، فادع الله أن يشفيني، فقال: «إن شئت دعوت الله أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة» فقالت: بل أصبر ولي الجنة، ولكن ادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها فكانت لا تتكشف. [أخرجه البخاري من حديث ابن عباس].

وقوله: ﴿وإخوانهم يمدونهم﴾ أي وإخوان الشياطين من الإنس كقوله: ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ [الإسراء:٢٧] وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم ﴿يمدونهم في الغي﴾ أي تساعدهم الشياطين على فعل المعاصي وتسهلها عليهم وتحسنها لهم.

﴿ثم لا يقصرون﴾ قيل معناه إن الشياطين تمد والإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك، كما قال ابن عباس: لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات، ولا الشياطين تمسك عنهم، وعن ابن عباس أيضا: هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس ﴿ثم لا يقصرون﴾ يقول: لا يسأمون، وكذا قال السدي وغيره: يعني أن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم في الشر، لأن ذلك طبيعة لهم وسَجِيّة، لا تفتر فيه ولا تبطل عنه، كما قال تعالى: ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً﴾ [مريم:٨٣] قال ابن عباس وغيره: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً.

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قالوا لولا اجتبيتها﴾ لولا تلقيتها. وقال مرة أخرى: لولا أحدثتها فأنشأتها، وعن مجاهد قال: لولا اقتضيتها، قالوا: تخرجها من نفسك، وكذا قال قتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير. وعن ابن عباس قال: تلقيتها من الله عز وجل. وقال الضحاك: لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وإذا لم تأتهم بآية﴾ أي معجزة وخارق، كما قال تعالى: ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ [الشعراء:٤] يقولون للرسول ﷺ: ألا تُجهد نفسك في طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها، قال الله تعالى له: ﴿قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي﴾ أي أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبع ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه إلي، فإن بعث آية قبلتها وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنه حكيم عليم. ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأصدق الحجج والبينات، فقال: ﴿هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) ﴾ .

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً، لا كما كان يعتمده كفار قريش في قولهم **﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾** [فصلت:٢٦]، ولكن يتأكد ذلك من الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة، كما جاء من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا» وكذلك رواه أهل السنن من حديث أبي هريرة، وصححه مسلم بن الحجاج أيضاً، وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال: «هل قرأ أحد منكم معي آنفاً ؟» قال رجل: نعم يا رسول الله، قال: «إني أقول ما لي أنازع القرآن» قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه رسول الله ﷺ بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ. وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وصححه أبو حاتم الرازي. وعن الزهري: قال لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يُسمعهم صوته، ولكنهم يقرؤون فيما لا يجهر به سراً في أنفسهم، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سراً ولا علانية، فإن الله تعالى قال: **﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾** قلت: هذا مذهب طائفة من العلماء أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها، وهو أحد قولي الشافعية، وهو القديم كمذهب مالك ورواية عن أحمد بن حنبل، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة، وقال في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية بما ورد في الحديث «من كان له إمام فقراءته له قراءة» وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعاً، وهو في موطأ مالك عن وهب بن كيسان عن جابر موقوفاً، وهذا أصح وهذه المسألة مبسوطة في غير هذا الموضع، وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مصنفاً على حدة، واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضاً، والله أعلم.

وقال ابن عباس في قوله: **﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾** يعني في الصلاة المفروضة، وكذا روي عن عبد الله بن المغفل. وعن مجاهد قال: في الصلاة، وعنه قال: لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم، وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة [وغيرهما]: أن المراد بذلك في الصلاة. وقال مجاهد أيضا: في الصلاة والخطبة يوم الجمعة، وعن عطاء مثله، وعن الحسن: في الصلاة وعند الذكر. وقال سعيد بن جبير: الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام من الصلاة، وهذا اختيار ابن جرير أن المراد بذلك الإنصات في الصلاة وفي الخطبة، لما جاء في الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف

الإمام وحال الخطبة. وعن مجاهد أنه كره إذا مر الإمام بآية خوف أو بآية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئاً، قال: السكوت. وقال الحسن: إذا جلست إلى القرآن فأنصت له.

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾.

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيراً، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: **﴿فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾** [ق:٣٩]. وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية. وقال هٰهنا: **﴿بالغدو﴾** وهو أول النهار، **﴿والآصال﴾** جمع أصيل كما أن الأيمان جمع يمين، وأما قوله: **﴿تضرعاً وخيفة﴾** أي اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة وبالقول لا جهراً؛ ولهذا قال: **﴿ودون الجهر من القول﴾** وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء ولا جهراً بليغاً.

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار، فقال لهم النبي ﷺ: «يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إن الذي تدعونه سميع قريب». وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى: **﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾** [الإسراء: ١١٠] فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه وسبوا من أنزله وسبوا من جاء به، فأمره الله تعالى أن لا يجهر به لئلا ينال منه المشركون ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم، وليتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار، وكذا قال في هذه الآية الكريمة **﴿ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين﴾**.

المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين، ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال **﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾**، وإنما ذكرهم بهذا ليتشبه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم؛ ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله عز وجل، كما جاء في الحديث: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها يتمون الصفوف الأول فالأول ويتراصون في الصف». [رواه مسلم]. وهذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعيها السجود بالإجماع.

آخر تفسير سورة الأعراف، ولله الحمد والمنة.

تفسير سورة الأنفال وهي مدنية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾.

روى البخاري عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس سورة الأنفال قال: نزلت في بدر. وعن ابن عباس أنه قال: الأنفال الغنائم، كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء.

وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك وقتادة وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد أنها الغنائم.

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الفرس من النَّفل والسلبُ من النفل.

وهذا إسناده صحيح إلى ابن عباس، أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل، والله أعلم.

وقال ابن مسعود ومسروق: لا نفل يوم الزحف، إنما النفل قبل التقاء الصفوف. وقال عطاء بن أبي رباح ﴿**يسألونك عن الأنفال**﴾ قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء، وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء وهو ما أُخِذَ من الكفار من غير قتال. وقال ابن جرير: وقال آخرون: هي أنفال السرايا. ويعنى هذا ما ينفله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش، وقد صرح بذلك الشعبي، واختار ابن جرير أنها الزيادات على القسم، ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية وهو ما رواه الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال: يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السيف. فقال: «إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضعه» قال: فوضعته، ثم رجعت قلت: عسى أن يعطي هذا السيف اليوم من لا يُبْلِي بلائي، قال: فإذا رجل يدعوني من ورائي. قال: قلت قد أنزل الله فيّ شيئاً ؟ قال: «كنت سألتني السيف وليس هو لي، وإنه قد وُهبَ لي، فهو لك». قال: وأنزل الله هذه الآية: ﴿**يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول**﴾. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح. وهكذا رواه أبو داود الطيالسي.

وروى أحمد عن عبادة بن الصامت، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس، فهزم الله تعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق منا نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿**يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم**﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الربع، فإذا أقبل وكلُّ الناس راجعاً نفل الثلث، وكان يكره الأنفال، ويقول: «ليرد قوي المؤمن على ضعيفهم». ورواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، ورواه ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه،

وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وقال الإمام أبو عبيد الله القاسم بن سلام، رحمه الله، في كتاب «الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصارفها»: أما الأنفال فهي المغانم، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب، فكانت الأنفال الأولى إلى النبي ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿**يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول**﴾، فقسمها يوم بدر على ما أراه الله من غير أن يخمسها، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس فنسخت الأولى، قلت هكذا روي عن ابن عباس سواء، وبه قال مجاهد وعكرمة والسدي. وقال ابن زيد: ليست منسوخة بل هي محكمة، قال أبو عبيد وفي ذلك آثار، والأنفال أصلها جماع الغنائم، إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب وجرت به السنة، ومعنى الأنفال في كلام العرب: كل إحسان فعله فاعل تفضلاً، من غير أن يجب ذلك عليه، فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم، وإنما هو شيء خصهم الله به تطولاً منه عليهم بعد أن كانت المغانم محرمة على الأمم قبلهم، فنفلها الله هذه الأمة، فهذا أصل النفل، قلت: شاهد هذا ما في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي» ـ فذكر الحديث إلى أن قال ـ «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي». وذكر تمام الحديث، ثم قال أبو عبيد: ولهذا سُمِّيَ ما جَعَل الإمامُ للمقاتلة نفلاً، وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والنكاية في العدو، وفي النفل الذي ينفله الإمام سنن أربع لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى: **فإحداهن**: في النفل لا خمس فيه وذلك السلب، **والثانية**: في النفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس وهو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب، فتأتي بالغنائم، فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس، **والثالثة**: في النفل من الخمس نفسه، وهو أن تحاز الغنيمة كلها، ثم تخمس فإذا صار الخمس في يدي الإمام، نفل منه على قدر ما يرى. **والرابعة**: في النفل في جملة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء، وهو أن يعطي الأدلاء ورعاة الماشية والسُّوَّاق لها. وفي كل ذلك اختلاف.

وقوله تعالى: ﴿**فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم**﴾ أي اتقوا الله في أموركم وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه ﴿**وأطيعوا الله ورسوله**﴾ أي في قسمه بينكم على ما أراده الله، فإنه يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف، وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله ورسوله على المؤمنين أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم وكذا قال مجاهد، وقال السدي ﴿**فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم**﴾ أي لاتستبوا.

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

قال ابن عباس قوله: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم**﴾. قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه. ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف الله المؤمنين فقال: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم**﴾ فأدوا فرائضه. ﴿**وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً**﴾ يقول: زادتهم تصديقاً ﴿**وعلى ربهم يتوكلون**﴾ يقول: لا يرجون غيره. وقال مجاهد ﴿**وجلت قلوبهم**﴾ فَرَقَت أي فزعت وخافت، وكذا قال السدي وغير واحد، وهذه صفة المؤمن حق المؤمن الذي إذا ذكر الله وجل قلبه أي خاف منه، ففعل أوامره وترك زواجره، كقوله تعالى: ﴿**والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله، فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون**﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وكقوله تعالى: ﴿**وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هي المأوى**﴾ [النازعات: ٤٠-٤١] ولهذا قال السدي في قوله تعالى: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم**﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم أو قال: يهم بمعصية فيقال له: اتق الله فَيجل قلبه، وروى الثوري عن شهر بن حوشب عن أمّ الدرداء في قوله: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم**﴾ قالت: الوجل في القلب كاحتراق السعفة، أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى. قالت لي: إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك، فإن الدعاء يذهب ذلك، وقوله: ﴿**وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون**﴾، كقوله: ﴿**وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون**﴾ [التوبة: ١٢٤]. وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضلة في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد، ﴿**وعلى ربهم يتوكلون**﴾ أي لا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا شريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماعُ الإيمان. وقوله: ﴿**الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**﴾ ينبه تعالى بذلك على أعمالهم بعد ما ذكر اعتقادهم وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كُلَّها، وهو إقامة الصلاة وهو حق الله تعالى، وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها، وقال مقاتل بن حيَّان: إقامتها المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبي ﷺ هذا إقامتها، والإنفاق مما رزقهم الله يشمل

إخراج الزكاة، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب. قال قتادة في قوله: **﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾**، فأنفقوا مما أعطاكم الله فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم أوشكت أن تفارقها.

وقوله: **﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾** أي المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان.

وقال عمرو بن مُرَّة في قوله: **﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾** إنما أنزل القرآن بلسان العرب كقولك فلان سيد حقاً، وفي القوم سادة. وفلان شاعر حقاً، وفي القوم شعراء. وقوله: **﴿لهم درجات عند ربهم﴾** أي منازل ومقامات ودرجات في الجنات كما قال تعالى: **﴿هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون﴾** [آل عمران:١٦٣]. **﴿ومغفرة﴾** أي يغفر لهم السيئات ويشكر لهم الحسنات. وقال الضحاك في قوله: **﴿لهم درجات عند ربهم﴾** أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فُضّل عليه أحد. ولهذا جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل عليين ليراهم مَنْ أسفلَ منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم فقال: «بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين». وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراؤون أهل الدرجات العلى كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما». [وهو حسن].

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨ ﴾.

قال الإمام أبو جعفر الطبري: اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف في قوله: **﴿كما أخرجك ربك﴾**، فقال بعضهم شُبِّه به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربَّهُم وإصلاحُهم ذات بينهم وطاعتهم لله ورسوله. ثم روي عن عكرمة نحو هذا. ومعنى هذا أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها فانتزعها الله منكم وجعلها إلى قَسْمه وقَسْم رسوله ﷺ فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز عيرهم، فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدره لكم وجَمَع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد رشداً وهدى، ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى: **﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم تعلمون﴾** [البقرة:٢١٦]. قال ابن جرير وقال آخرون معنى ذلك: **﴿كما أخرجك ربك من بيتك**

بالحق﴾، على كره من فريق من المؤمنين كذلك هم كارهون للقتال فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم. ثم روى عن مجاهد نحوه أنه قال: **﴿كما أخرجك ربك﴾** قال: كذلك يجادلونك في الحق، وقال السدي: أنزل الله في خروجهم إلى بدر ومجادلتهم إياه، فقال: **﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾** لطلب المشركين **﴿يجادلونك في الحق بعد ما تبين﴾**. وقال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة كما جادلوك يوم بدر فقالوا أخْرَجْتَنا للعِير ولم تعلمنا قتالاً فنستعد له. قلت: رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالباً لعير أبي سفيان التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام فيها أموال جزيلة لقريش فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين من خف منهم فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه، فبعث ضمضم بن عمرو نذيراً إلى أهل مكة، فنهضوا في قريب من ألف مقنع ما بين التسعمائة إلى الألف وتيامن أبو سفيان بالعير إلى سيف البحر فنجا وجاء النفير فوردوا ماء بدر، وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم والتفرقة بين الحق والباطل كما سيأتي بيانه. والغرض أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفير أوحى الله إليه يَعِدُه إحدى الطائفتين إما العير وإما النّفير، ورغب كثير من المسلمين إلى العير لأنه كسبٌ بلا قتال، كما قال تعالى: **﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين﴾**.

وقال ابن عباس: لما شاور النبي ﷺ في لقاء العدو، وقال له سعد بن عبادة ما قال وذلك يوم بدر أمر الناس أن يتهيئوا للقتال وأمرهم بالشوكة، فكره ذلك أهل الإيمان فأنزل الله: **﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون * يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾**. وقال مجاهد: يجادلونك في الحق: في القتال، وقال محمد بن إسحاق: **﴿يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾** أي كراهيةً للقاء المشركين، وإنكار لمسير قريش حين ذكروا لهم، وقال السدي: **﴿يجادلونك في الحق بعدما تبين﴾** أي بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به. قال ابن جرير وقال آخرون عنى بذلك المشركين، [قاله] ابن زيد. والصواب قول ابن عباس وابن إسحاق: أنه خبر عن المؤمنين، وهذا الذي نصره ابن جرير هو الحق وهو الذي يدل عليه سياق الكلام، والله أعلم. وروى الإمام أحمد رحمه الله عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعير ليس دونها شيء، فناداه العباس بن عبد المطلب، وهو أسير في وثاقه: إنه لا يصلح لك، قال: ولم ؟ قال: لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك. إسناده جيد [ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح]، ومعنى قوله تعالى: **﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾** أي يحبون أن الطائفة التي لا حَدَّ لها ولا منعة

ولا قتال تكون لهم وهي العير، **﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾** أي هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليُظْفِّرَكم بهم وينصركم عليهم، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام ويجعله غالباً على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي دبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم كما قال تعالى: **﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم. وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم. وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾** [البقرة:٢١٦]. وروى محمد بن إسحاق رحمه الله عن عبد الله بن عباس قال: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أي ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه، حتى بلغ وادياً يقال له ذفران، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال، فأحسن. ثم قام عمر رضي الله عنه فقال، فأحسن. ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله امض لما أمرك الله به، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: **﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾**، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد، يعني مدينة الحبشة لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ «أشيروا علي أيها الناس» وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذممنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال: «أجل» فقال فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء، ولعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ

بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال: «سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم». وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا، وكذلك قال السدي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد من علماء السلف والخلف، اختصرنا أقوالهم اكتفاء بسياق محمد بن إسحاق.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾.

روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر، نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيّف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة ثم مد يديه وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «اللهم أين ما وعدتني اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الارض أبداً» قال فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه ثم التزمه من ورائه ثم قال: يارسول الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل: **﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾** فلما كان يومئذ التقوا، فهزم الله المشركين فقُتل منهم سبعون رجلاً وأسر منهم سبعون رجلاً، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب ؟» قال: قلت والله ما أرى ما رأىٰ أبو بكر ولكني أرى أن تُمكّنني من فلان قريب لعمر فأضربَ عنقه وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت وأخذ منهم الفداء فلما كان من الغد قال عمر غدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما يبكيان فقلت: يا رسول الله ما يبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تَبَاكيتُ لبكائكما. قال النبي ﷺ: «للذي عَرض على أصحابك من أخذهم الفداء قد عرض عليَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة» لشجرة قريبة وأنزل الله عز وجل: **﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ـ إلى قوله ـ ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم﴾** [الأنفال: ٦٧ـ٦٨] من الفداء، ثم أحل لهم الغنائم. فلما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون، وفَرّ أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكسرت رَباعيته وهُشمت البَيْضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله: **﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير﴾** [آل عمران: ١٦٥] بأخذكم الفداء ورواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير

وابن مردويه، وصححه علي بن المديني والترمذي. وهكذا رُوي عن ابن عباس أن هذه الآية الكريمة قوله: ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ أنها في دعاء النبي ﷺ، وكذا قال يزيد بن يُثَيع والسدي وابن جريج. وروى البخاري في كتاب المغازي باب قول الله تعالى: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ـ إلى قوله ـ فإن الله شديد العقاب﴾ عن ابن مسعود قال: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى لموسى﴿اذهب أنت وربك فقاتلا﴾ [المائدة: ٢٤] ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره يعني قوله. وروى أيضاً عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم أنشدك عَهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبَد» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك! فخرج وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ [القمر: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿بألف من الملائكة مردفين﴾ أي يردف بعضهم بعضاً كما قال ابن عباس: ﴿مردفين﴾ متتابعين. ويحتمل أن المراد ﴿مردفين﴾ لكم أي نجدة لكم كما قال ابن عباس: ﴿مردفين﴾ يقول: المَدَد، كما تقول: أئت للرجل فزده كذا وكذا. وهكذا قال مجاهد وابن كثير القارئ وابن زيد: ﴿مردفين﴾ مُمدّين. والمشهور ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مُجَنِّبة، وميكائيل في خمسمائة مُجَنِّبة، وروى الإمام أبو جعفر بن جرير ومسلم عن ابن عباس، عن عمر قال: بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حَيْزُوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً قال: فنظر إليه فإذا هو قد خُطِم أنفه وشُقَّ وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة». فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين. وروى البخاري عن رفاعة بن رافع الزرقي ـ وكان من أهل بدر ـ قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين» أو كلمة نحوها قال: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة. انفرد بإخراجه البخاري.

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

وقوله تعالى: ﴿وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله﴾ الآية، أي وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى ﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ كما قال تعالى: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مّناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها * ذلك ولو يشاء الله لا نتصر منهم

ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ [محمد: ٤-٦]، وقال تعالى: **﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾** [آل عمران: ١٤٠-١٤١]، فهذه حكمٌ شَرَع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمة المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعاداً الأولى بالدبور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليم ثم أنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك كما قال تعالى: **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس﴾** [القصص: ٤٣]، وقتل المؤمنين للكافرين، أشد إهانة للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة: **﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ويخزهم وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم﴾** [التوبة: ١٤-١٥]؛ ولهذا كان قتلُ صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان، فقتل أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى أشد إهانة له من أن يموت على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك؛ ولهذا قال تعالى: **﴿إن الله عزيز﴾** أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: **﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾** [غافر: ٥١-٥٢]، **﴿حكيم﴾** فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى.

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾.

يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أماناً من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عَدَدهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد، كما قال تعالى: **﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾** [آل عمران: ١٥٤]. قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحَجَف. وروى الحافظ أبو يعلى عن علي رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد

ولقد رأيتنا وما فينا إلاّ نائم، إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح. [رواه أحمد وإسناده صحيح]. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان، وقال قتادة: النعاس في الرأس، والنوم في القلب، قلت: أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد وأمر ذلك مشهور جداً، وأما يوم بدر في هذه الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر، وهي دالة على وقوع ذلك أيضاً وكأن ذلك كان سجية للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله، وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمه عليهم وكما قال تعالى: ﴿فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً﴾ [الشرح: ٥-٦]؛ ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه وهما يدعوان أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ثم استيقظ مبتسماً فقال: «أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع» ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾. [القمر: ٤٥]. [متفق عليه].

وقوله: ﴿وينزل عليكم من السماء ماء﴾ قال ابن عباس: نزل النبي ﷺ حين سار إلى بدر، والمشركون بينهم وبين الماء رملة دعصة، فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنبين فأمطر الله عليهم مطراً شديداً فشرب المسلمون وتطهروا وأذهب الله عنهم رجز الشيطان وثبت الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب، فساروا إلى القوم، وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسمائة مجنبة، وميكائيل في خمسمائة مجنبة.

والمعروف أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك أي أول ماء وجده فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال يا رسول الله هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلكه الله فليس لنا أن نجاوزه، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال: «بل منزل نزلته للحرب والمكيدة» فقال يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم ونغور ما وراءه من القُلُب، ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء فسار رسول الله ﷺ ففعل كذلك.

وأحسن ما في هذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء وكان الوادي دهساً فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد لهم الأرض، ولم يمنعهم من المسير وأصاب قريشاً مالم يقدروا على أن يرتحلوا معه. وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار وتلبدت به الأرض وطابت نفوسهم وثبتت به أقدامهم، وروى ابن جرير عن علي رضي الله عنه قال: أصابنا من الليل طش من المطر يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر فانطلقنا تحت الشجر والحَجَف نستظل تحتها من المطر وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه: «اللهم إن تَهْلِكْ هذه العصابة لا تعبد في الأرض» فلما أن طلع الفجر نادى الصلاة

عباد الله فجاء الناس من تحت الشجر والحجف فصلى بنا رسول الله ﷺ وحرض على القتال.

وقوله: ﴿**ليطهركم به**﴾ أي من حدث أصغر أو أكبر وهو تطهير الظاهر ﴿**ويذهب عنكم رجز الشيطان**﴾ أي من وسوسة أو خاطر سيء وهو تطهير الباطن كما قال تعالى في حق أهل الجنة: ﴿**عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة**﴾ فهذا زينة الظاهر ﴿**وسقاهم ربهم شراباً طهوراً**﴾ [الإنسان: ٢١]أي مطهراً لما كان من غل أو حسد أو تباغض وهو زينة الباطن وطهارته. ﴿**وليربط على قلوبكم**﴾ أي بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء وهو شجاعة الباطن ﴿**ويثبت به الأقدام**﴾ وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم.

وقوله: ﴿**إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا**﴾ وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها وهو أنه تعالى وتقدس وتبارك وتمجد أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه وحزبه المؤمنين يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا. قال ابن إسحاق: وآزرُوهم. وقال غيره: قاتلوا معهم. وقيل: كثروا سوادهم. وقيل كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي ﷺ فيقول: سمعت هؤلاء القوم يعني المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً بذلك فتقوى أنفسهم حكاه ابن جرير وهذا لفظه بحروفه، وقوله: ﴿**سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب**﴾ أي ثبتوا أنتم المؤمنين وقَوُّوا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم بذلك، سألقي الرعب والمذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي. ﴿**فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان**﴾ أي اضربوا الهام فافلقوها، واحتزوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم. وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿**فوق الأعناق**﴾ فقيل: معناه اضربوا الرؤوس، قاله عكرمة وقيل: معناه «فوق الأعناق» أي على الأعناق وهي الرقاب. قاله الضحاك وعطية العوفي. ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى: ﴿**فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموه فشدوا الوثاق**﴾ [محمد: ٤].

وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا هم بضربٍ فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به. وقوله: ﴿**واضربوا منهم كل بنان**﴾ قال ابن جرير: معناه واضربوا أيها المؤمنون من عدوكم كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم، والبنان جمع بنانة. وقال ابن عباس: يعني بالبنان: الأطراف وكذا قال الضحاك وابن جريج. وقال السدي: البنان الأطراف ويقال: كلُّ مَفْصِل. وقال عكرمة وعطية العوفي والضحاك في رواية أخرى: كل مفصل، وقال الأوزاعي: اضرب منه الوجه والعين وارمه بشهاب من نار فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك. وروى ابن عباس قصة بدر إلى أن قال: فقال أبو جهل: لا تقتلوهم قتلاً ولكن خذوهم أخذاً حتى تُعَرِّفُوهم الذي صنعوا من طعنهم في دينكم، ورغبتهم عن اللات والعزى فأوحى الله إلى الملائكة: ﴿**أني معكم فثبتوا الذين آمنوا**

سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ فقتل أبو جهل لعنه الله في تسعة وستين رجلاً، وأسر عقبة بن أبي مُعَيْط فقتل صبراً فوفى ذلك سبعين يعني قتيلاً. ولهذا قال تعالى: **﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾** أي خالفوهما فساروا في شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شِقٍّ، وهو مأخوذ أيضاً من شَقِّ العصا وهو جعلها فرقتين **﴿ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾** أي هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه لا يفوته شيء ولا يقوم لغضبه شيء تبارك وتعالى لا إله غيره ولا رب سواه **﴿ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار﴾** هذا خطاب للكفار أي ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا واعلموا أيضاً أن للكافرين عذاب النار في الآخرة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً﴾** أي تقاربتم منهم ودنوتم إليهم **﴿فلا تولوهم الأدبار﴾** أي تفروا وتتركوا أصحابكم **﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال﴾** أي يفر بين يدي قرنه مكيدة؛ ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه، ثم يكر عليه فيقتله فلا بأس عليه. في ذلك نص عليه سعيد بن جبير والسدي، وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غِرَّةً من العدو فيصيبها. **﴿أو متحيزاً إلى فئة﴾** أي فر من ها هنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونونه، فيجوز له ذلك حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة. روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة وكنت فيمن حاص فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا لو دخلنا المدينة، فبتنا، ثم قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال: «من القوم؟» فقلنا نحن الفرارون فقال: «لا بل أنتم العكَّارون، أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين» قال: فأتيناه حتى قَبَّلنا يده. وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن. قال أهل العلم: معنى قوله «العكارون» أي العطافون، وكذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قتل أبو عبيد قال عمر: يا أيها الناس أنا فئتكم. [وذلك في وقعة الجسر]. وقال مجاهد: قال عمر: أنا فئة كل مسلم، وقال عبد الملك بن عُمَيْر عن عمر: أيها الناس لا تغرنكم هذه الآية فإنما كانت يوم بدر وأنا فئة لكل مسلم، وروى ابن أبي حاتم عن نافع أنه سأل ابن عمر قلت: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا، ولا ندري من الفئة إمامنا أو عسكرنا؟ فقال: إن الفئة رسول الله ﷺ. فقلت: إن الله يقول: **﴿إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار﴾** الآية، فقال إنما نزلت هذه الآية في يوم بدر لا قبلها ولا بعدها، وقال الضحاك في قوله: **﴿أو متحيزاً إلى فئة﴾** المتحيز الفار إلى النبي ﷺ

وأصحابه، وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه. فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب فإنه حرام وكبيرة من الكبائر لما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». ولهذا قال تعالى: ﴿**فقد باء**﴾ أي رجع ﴿**بغضب من الله ومأواه**﴾ أي مصيره ومنقلبه يوم ميعاده ﴿**جهنم وبئس المصير**﴾.

وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراماً على الصحابة لأنه ـ يعني الجهاد ـ كان فرض عين عليهم، وقيل: على الأنصار خاصة؛ لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره. وقيل: المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة يروى هذا عن عمر وابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد وأبي نضرة ونافع مولى ابن عمر وسعيد بن جبير والحسن البصري وعكرمة وقتادة والضحاك وغيرهم، وحجتهم في هذا أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيؤون إليها سوى عصابتهم تلك كما قال النبي ﷺ: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»؛ ولهذا قال الحسن في قوله: ﴿**ومن يولهم يومئذ دبره**﴾ قال: ذلك يوم بدر فأما اليوم فإن انحاز إلى فئة أو مصر أحسبه قال: فلا بأس عليه، وقال يزيد بن أبي حبيب: أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار قال: ﴿**ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله**﴾ فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال: ﴿**إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم**﴾ [آل عمران: ١٥٥] ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين قال: ﴿**ثم وليتم مدبرين**﴾ [التوبة: ٢٥] ﴿**ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء**﴾ [التوبة: ٢٧].

وفي سنن أبي داود والنسائي ومستدرك الحاكم وتفسير ابن جرير وابن مَرْدُويه من حديث أبي سعيد أنه قال في هذه الآية: ﴿**ومن يولهم يومئذ دبره**﴾ إنما أنزلت في أهل بدر، وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حراماً على غير أهل بدر، وإن كان سبب نزول الآية فيهم كما دل عليه حديث أبي هريرة المتقدم من أن الفرار من الزحف من الموبقات كما هو مذهب الجماهير، والله أعلم.

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد وأنه المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير؛ لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه؛ ولهذا قال: ﴿**فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم**﴾ أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم. أي بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال: ﴿**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون**﴾ [آل عمران: ١٢٣]،

وقال تعالى: ﴿**لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين**﴾ [التوبة: ٢٥] يُعْلِم تبارك وتعالى أن النصر ليس عن كثرة العدد ولا بِلُبْس اللأمة والعُدَدَ، وإنما النصر من عنده تعالى كما قال: ﴿**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾. [البقرة: ٢٤٩]. ثم قال تعالى لنبيه ﷺ أيضاً في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه المشركين يوم بدر حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه فرماهم بها وقال: «شاهت الوجوه» ثم أمر أصحابه أن يَصدُقوا الحملَة إثرها ففعلوا فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وما رميت إذ رميت**﴾ أي هو الذي بلغ ذلك إليهم وكبتهم بها لا أنت. قال ابن عباس: رفع رسول الله ﷺ يديه يعني يوم بدر فقال: «يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً» فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين.

وقد روي في هذه القصة عن عروة بن الزبير ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد من الأئمة أنه أنزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضاً.

وقال عروة بن الزبير في قوله: ﴿**وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً**﴾ أي ليُعَرِّف المؤمنين من نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته. وهكذا فسره ابن جرير أيضاً، وقوله: ﴿**إن الله سميع عليم**﴾ أي سميع الدعاء عليم بمن يستحق النصر والغلب، وقوله: ﴿**ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين**﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مُضعف كيد الكافرين فيما يستقبل مصغِّرا أمرهم وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار، ولله الحمد والمنة.

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

يقول تعالى للكفار: ﴿**إن تستفتحوا**﴾ أي تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتم كما قال محمد بن إسحاق وغيره عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَيْر؛ أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أقْطَعُنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنْه الغداة. وكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت: ﴿**إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح**﴾ إلى آخر الآية. ورواه أحمد، وأخرجه النسائي في التفسير، وكذا رواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وروي نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة ويزيد بن رومان وغير واحد. وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين. فقال الله:

﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ يقول قد نصرت ما قلتم وهو محمد ﷺ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو قوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذب أليم﴾ [الأنفال:٣٢]، وقوله: ﴿وإن تنتهوا﴾ أي عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ﴿فهو خير لكم﴾ أي في الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: ﴿وإن تعودوا نعد﴾ كقوله ﴿وإن عدتم عدنا﴾ [الإسراء:٨] معناه وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الواقعة. وقال السدي: ﴿وإن تعودوا﴾ أي إلى الاستفتاح ﴿نعد﴾ أي إلى الفتح لمحمد ﷺ والنصر له وتظفيره على أعدائه والأول أقوى. ﴿ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت﴾ أي ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له، فإن الله مع المؤمنين، وهم الحزب النبوي والجناب المصطفوي.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له؛ ولهذا قال: ﴿ولا تولوا عنه﴾ أي تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره ﴿وأنتم تسمعون﴾ أي بعد ما علمتم ما دعاكم إليه. ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ قيل: المراد المشركون واختاره ابن جرير، وقال ابن إسحاق: هم المنافقون فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك، ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة فقال: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم﴾ أي عن سماع الحق ﴿البكم﴾ عن فهمه؛ ولهذا قال: ﴿الذين لا يعقلون﴾ فهؤلاء شر البرية؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا؛ ولهذا شبههم بالأنعام في قوله ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ [البقرة:١٧١]، وقال في الآية الأخرى: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ [الأعراف:١٧٩]. وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نَفَرٌ من بني عبد الدار من قريش روي عن ابن عباس ومجاهد واختاره ابن جرير. وقال محمد بن إسحاق هم المنافقون، قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا؛ لأن كلاً منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح. ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ولا قصد لهم صحيح لو فرض أن لهم فهماً فقال: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾ أي لأفهمهم وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يُفْهِمْهُم؛ لأنه يعلم أنه ﴿ولو أسمعهم﴾ أي أفهمهم ﴿لتولوا﴾ عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك ﴿وهم معرضون﴾ عنه.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

قال البخاري: ﴿استجيبوا﴾ أجيبوا ﴿لما يحييكم﴾ لما يصلحكم. وروي عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي، فمر بي رسول الله ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت ثم أتيته فقال: «ما منعك أن تأتيني ؟ ألم يقل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج». فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له. قال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾السبع المثاني. هذا لفظه بحروفه. وقال مجاهد في قوله: ﴿لما يحييكم﴾ قال الحق، وقال قتادة هو هذا القرآن فيه النجاة والبقاء والحياة. وقال السدي: ففي الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر، وقال عروة بن الزبير: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ أي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم. وقوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾، قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، رواه الحاكم في مستدركه موقوفاً، وقال: صحيح ولم يخرجاه. وكذا قال مجاهد وسعيد وعكرمة والضحاك وأبو صالح وعطية ومقاتل بن حيان والسدي، وفي رواية عن مجاهد في قوله: ﴿يحول بين المرء وقلبه﴾ حتى يتركه لا يعقل، وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه. وقال قتادة: هو كقوله: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ [ق:١٦]. وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية، فروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». قال: فقلنا يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا ؟ قال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها». وهكذا رواه الترمذي ، وصححه الحاكم.

وروى الإمام أحمد عن النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين إذا شاء أن يقيمه أقامه وإذا شاء أن يزيغه أزاغه». وكان يقول «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». قال «والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه» وهكذا رواه النسائي وابن ماجه[وصححه ابن حبان].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يُصَرِّفه كيف شاء». ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك» انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري.

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

يحذر تعالى عباده المؤمنين فتنةً أي اختباراً ومحنة يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها

أهل المعاصي ولا من باشر الذنب بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع، كما روى الإمام أحمدعن مُطرِّف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذي قتل ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير رضي الله عنه: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت. وقد رواه البزار، وروى النسائي نحو هذا، [وهو حديث صحيح].

وقال داود بن أبي هند عن الحسن في هذه الآية قال: نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير رضي الله عنهم، وقال الزبير: لقد قرأت هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ وقد روي من غير وجه عن الزبير بن العوام، وقال السدي: نزلت في أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلمو منكم خاصة﴾ يعني أصحاب النبي ﷺ خاصة. وعنه أيضا في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين أن لا يُقِرُّوا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب، وهذا تفسير حسن جداً؛ ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ هي أيضاً لكم، وكذا قال الضحاك ويزيد بن أبي حبيب، وغير واحد، وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة إن الله تعالى يقول ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ [التغابن: ١٥] فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن رواه ابن جرير.

والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم وإن كان الخطاب معهم هو الصحيح، ويدل على ذلك الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن ولذلك كتاب مستقل يوضح فيه إن شاء الله تعالى كما فعله الأئمة وأفردوه بالتصنيف.

روى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمدهن فيها كمثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها وأصاب بعضهم أعلاها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فآذوهم فقالوا لو خرقنا في نصيبنا خرقاً فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا: فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا» انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم.

وروى الإمام أحمد عن جرير أن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم يُعْمَل فيهم بالمعاصي هم أعزّ وأكثر ممن يعمله، ثم لم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب». وأخرجه ابن ماجه [وهو حديث حسن].

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم، وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثّرهم ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم، وفقراء فرزقهم من الطيبات واستشكرهم، فأطاعوه

وامتثلوا جميع ما أمرهم. وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله من مشرك ومجوسي ورومي، كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة فآواهم إليها وقيض لهم أهلها آووا ونصروا يوم بدر وغيره، وآسوا بأموالهم وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، قال قتادة في قوله تعالى: ﴿**واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض**﴾، قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاه عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً وأبينه ضلالاً مكعومين على رأس حجر بين الأسدين فارس والروم، ولا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يُحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم رُدِّيَ في النار يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله على نعمه فإن ربكم مُنْعِمٌ يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

روى ابن جرير عن المغيرة بن شعبة قال: نزلت هذه الآية في قتل عثمان، رضي الله عنه ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول**﴾ الآية.

وفي الصحيحين قصة حاطب بن أبي بلتعة أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه واستحضر حاطباً فأقر بما صنع، وفيها فقام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله: ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: «دعه فإنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». قلت: والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية. وقال ابن عباس: ﴿**وتخونوا أماناتكم**﴾ الأمانة، الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد، يعني الفريضة. يقول: ﴿**لا تخونوا**﴾ لا تنقضوها. وقال في رواية: ﴿**لا تخونوا الله والرسول**﴾ يقول: بترك سنته وارتكاب معصيته.

وقال عروة بن الزبير في هذه الآية: أي لا تظهروا له من الحق ما يرضى به منكم، ثم تخالفوه في السر إلى غيره، فإن ذلك هلاك لأماناتكم، وخيانة لأنفسكم. وقال السدي: إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم، وقال أيضاً: كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين، وقال عبد الرحمن بن زيد: نهاكم أن تخونوا الله والرسول كما صنع المنافقون.

وقوله: ﴿**واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة**﴾، أي اختبار وامتحان منه لكم إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها أو تشتغلون بها عنه وتعتاضون بها منه؟ كما قال تعالى: ﴿**إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم**﴾ [التغابن:١٥]، وقال ﴿**ونبلوكم بالشر والخير فتنة**﴾ [الأنبياء:٣٥]، وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون**﴾ [المنافقون:٩].

وقوله: ﴿**وأن الله عنده أجر عظيم**﴾ أي ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغني عنك شيئاً، والله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه، وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه». بل حب رسوله ﷺ مقدم على الأولاد والأموال والنفوس، كما ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين».

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قال ابن عباس والسدي ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان: ﴿**فرقاناً**﴾ مخرجاً، زاد مجاهد: في الدنيا والآخرة، وفي رواية عن ابن عباس ﴿**فرقاناً**﴾ نجاة، وفي رواية عنه: نصراً، وقال محمد بن إسحاق: أي فصلاً بين الحق والباطل. وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم وهو يستلزم ذلك كله، فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه ـ وهو محوها ـ وغفرها: سترها عن الناس ـ وسبباً لنيل ثواب الله الجزيل، كما قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم**﴾. [الحديد:٢٨].

﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿**ليثبتوك**﴾ ليقيدوك، وقال عطاء وابن زيد: ليحبسوك، وقال السدي: الإثبات هو الحبس والوثَاق، وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء وهو مجمع الأقوال، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء.

وقد روى ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه عن ابن عباس، قال: دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي فقال: «ما يبكيك يا بنية؟» قالت: يا أبت ومالي لا أبكي وهؤلاء الملأ من قريش في الحجر يتعاقدون باللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى لو قد رأوك لقاموا

إليك فيقتلونك وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك، فقال: «يا بنية ائتني بوضوء» فتوضأ رسول الله ﷺ ثم خرج إلى المسجد فلما رأوه قالوا: ها هو ذا فطأطأوا رؤوسهم وسقطت أذقانهم بين أيديهم فلم يرفعوا أبصارهم فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بهاوقال: «شاهت الوجوه» فما أصاب رجلاً منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافراً، ثم قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ولا أعرف له علة. [وهو كذلك]. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس في قوله: ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك**﴾ قال: تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه. فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فبات علي رضي الله عنه على فراش رسول الله ﷺ، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا علياً رد الله تعالى مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا ؟ قال لا أدري، فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاث ليال. [وهو حسن كما قاله ابن كثير في البداية والنهاية، والحافظ في الفتح]. وعن عروة بن الزبير في قوله: ﴿**ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**﴾ أي فمكرت بهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن كفر قريش وعُتُوّهم وتمردهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته حين تتلى عليهم أنهم يقولون: ﴿**قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا**﴾ وهذا منهم قول بلا فعل وإلا فقد تُحُدُّوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً. وإنما هذا القول منهم يغرون به أنفسهم ومن تبعهم على باطلهم.

ومعنى ﴿**أساطير الأولين**﴾ وهو جمع أسطورة أي كتبهم اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس. وهذا هو الكذب البحت كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى ﴿**وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً * قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً**﴾ [الفرقان: ٥-٦] أي لمن تاب إليه وأناب؛ فإنه يتقبل منه ويصفح عنه، وقوله: ﴿**وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم**﴾ هذا من كثرة جهلهم وعتوهم وعنادهم وشدة تكذيبهم، وهذا مما عِيبُوا به وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿**ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى**

لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ [العنكبوت:٥٣]. **﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب﴾** [ص:١٦]. وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة كما قال قوم شعيب له: **﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين﴾** [الشعراء:١٨٧].

عن أنس بن مالك قال: هو أبو جهل بن هشام قال: **﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾** فنزلت: **﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾**. [متفق عليه].

وقال قتادة في قوله: **﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾** الآية قال: قال ذلك سَفَهة هذه الأمة وجهلتها فعاد الله بعائدته ورحمته على سفهة هذه الأمة وجهلتها.

وقال ابن عباس: **﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾** يقول: ما كان الله ليعذب قوماً وأنبياؤهم بين أظهرهم حتى يخرجهم، ثم قال: **﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾** يقول وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان وهو الاستغفار - يستغفرون يعني يصلون - يعني بهذا أهل مكة. وروي عن مجاهد وعكرمة وعطية العوفي وسعيد بن جبير والسدي نحو ذلك. وقال الضحاك وأبو مالك: **﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾** يعني المؤمنين الذين كانوا بمكة، وقال ابن عباس: إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم، فأمان قبضه الله إليه وأمان بقي فيكم، قوله: **﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾**.

وروى الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال «إن الشيطان قال وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني». ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام رسول الله ﷺ بين أظهرهم؛ ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقتل صناديدهم وأسرت سُراتهم وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد. وقال قتادة والسدي وغيرهما: لم يكن القوم يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا. واختاره ابن جرير، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين لأوقع بهم البأس الذي لا يرد، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك، كما قال تعالى في يوم الحديبية: **﴿هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم، فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من**

يشاء، **لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾**. [الفتح: ٢٥].

روى ابن جرير عن ابن أبْزَى قال: كان النبي ﷺ بمكة فأنزل الله: **﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾**، قال: فخرج النبي ﷺ إلى المدينة، فأنزل الله: **﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾** قال: وكان أولئك البقية من المسلمين الذين بقوا فيها يستغفرون، يعني بمكة فلما خرجوا أنزل الله **﴿وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه﴾** قال: فأذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم. [وهو حسن]. وروي عن ابن عباس وأبي مالك والضحاك وغير واحد نحو هذا، وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: **﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾**، على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم.

وقال ابن عباس: **﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾** ثم استثنى أهل الشرك فقال: **﴿وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾**. وقوله: **﴿وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** أي وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة عنده والطواف به؛ ولهذا قال: **﴿وما كانوا أولياءه﴾** أي هم ليسوا أهل المسجد الحرام وإنما أهله النبي ﷺ وأصحابه، كما قال تعالى: **﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾** [التوبة: ١٧-١٨]، وقال تعالى: **﴿وصدٌ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل﴾** الآية[البقرة: ٢١٧].

وروى الحاكم في مستدركه عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة عن أبيه عن جده قال: جمع رسول الله ﷺ قريشاً فقال: «هل فيكم من غيركم؟» فقالوا فينا ابن أختنا وفينا حليفنا وفينا مولانا فقال: «حليفنا منا وابن أختنا منا ومولانا منا، إنَّ أوليائي منكم المتقون». ثم قال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه. وقال عروة والسدي ومحمد بن إسحاق في قوله تعالى: **﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾** قال هم محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم. وقال مجاهد: هم المجاهدون، مَنْ كانوا وحيث كانوا، ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام، وما كانوا يعاملونه به، فقال: **﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾**، قال عبد الله بن عمرو وابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو رجاء العطاردي ومحمد بن كعب القرظي وحجر بن عنبس ونبيط بن شريط وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الصفير، وزاد مجاهد وكانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم، وقال السدي: المكاء: الصفير على نحو طير أبيض يقال له «المكاء» ويكون بأرض الحجاز، والتصدية: التصفيق، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾**، قال كانت قريش

تطوف بالكعبة عراة تصفر وتصفق والمكاء: الصفير وإنما شبهوا بصفير الطير وتصدية التصفيق. وكذا روي عن ابن عمر ومجاهد ومحمد ابن كعب وأبي سلمة بن عبد الرحمن والضحاك وقتادة وعطية العوفي وحجر ابن عنبس وابن أبزي نحو هذا. وعن عطية عن ابن عمر قال: المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق، وحكى عطية فعل ابن عمر، فصفر ابن عمر وأمال خده وصفق بيديه، وعن ابن عمر أيضاً أنه قال: كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون. وقال عكرمة: كانوا يطوفون بالبيت على الشمال، قال مجاهد: وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلاته، وقال الزهري: يستهزئون بالمؤمنين، وعن سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد: ﴿**وتصدية**﴾ قال صدهم الناس عن سبيل الله عز وجل. قوله: ﴿**فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**﴾، قال الضحاك وابن جريج ومحمد بن إسحاق: هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي، واختاره ابن جرير ولم يحك غيره. وعن مجاهد قال عذاب أهل الإقرار بالسيف وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعيد بن معاذ قالوا لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ففعلوا، قال ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله عز وجل: ﴿**إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون**﴾. وهكذا روي عن مجاهد وسعيد بن جبير والحكم بن عتيبة وقتادة والسدي وابن أبزى أنها نزلت في أبي سفيان ونفقته الأموال في أحد لقتال رسول الله ﷺ، وقال الضحاك: نزلت في أهل بدر. وعلى كل تقدير فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصاً فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ﴿**ثم تكون عليهم حسرة**﴾ أي ندامة حيث لم تجد شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق والله متم نوره ولو كره الكافرون. فهذا الخزي لهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوؤه، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي؛ ولهذا قال: ﴿**فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون**،

والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ وقوله تعالى: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ قال ابن عباس: فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء، وقال السدي: يميز المؤمن من الكافر، وهذا يحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة كما قال تعالى: ﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم﴾ [يونس:٢٨]، وقال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾ [الروم:١٤]، وقال في الآية الأخرى: ﴿يومئذ يصدعون﴾ [الروم:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ [يس:٥٩]. ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، وتكون اللام معللة لما جعل الله للكافرين من مال ينفقونه في الصد عن سبيل الله، أي إنما أقدرناهم على ذلك ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ أي من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك كما قال: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ الآية[آل عمران:١٦٦-١٦٧]، وقال تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ الآية[آل عمران:١٧٩].

فمعنى الآية على هذا إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض . ﴿فيركمه﴾ أي يجمعه كله وهو جمع الشيء بعضه على بعض كما قال تعالى في السحاب: ﴿ثم يجعله ركاماً﴾ [النور:٤٣] أي متراكماً متراكباً ﴿فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾ أي هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا﴾ أي عما هم فيه من الكفر والعناد، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة يغفر لهم ما قد سلف أي من كفرهم، وذنوبهم وخطاياهم كما جاء في الصحيحين من حديث أبي وائل عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر». وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام يجب ما قبله والتوبة تجب ما كان قبلها» [جزء من حديث طويل]. وقوله: ﴿وإن يعودوا﴾ أي يستمروا على ما هم فيه ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ أي فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم، أنا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة. وقوله: ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ أي في قريش يوم بدر وغيرها من الأمم، وقال السدي ومحمد بن إسحاق أي يوم بدر.

وقوله: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله**﴾ روى البخاري عن نافع عن ابن عمر أن رجلاً جاءه فقال: يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا**﴾ الآية [الحجرات:٩]، فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي أُعَيَّر بهذه الآية، ولا أقاتل أحب إلي من أن أعَيَّر بالآية التي يقول الله عز وجل: ﴿**ومن يقتل مؤمناً متعمداً**﴾ إلى آخر الآية [النساء:٩٣]، قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة**﴾ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد النبي ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يفتن في دينه إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد، قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال ابن عمر: ما قولي في علي وعثمان؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وختَنَهُ وأشار بيده وهذه ابنته أو بنته حيث ترون.

وقال ابن عباس: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة**﴾ يعني حتى لا يكون شرك، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم، وعن عروة بن الزبير، وغيره ﴿**حتى لا تكون فتنة**﴾ حتى لا يفتن مسلم عن دينه، وقوله: ﴿**ويكون الدين كله لله**﴾ قال ابن عباس: يخلص التوحيد لله، وقال الحسن وقتادة وابن جريج: أن يقال لا إله إلا الله، وقال محمد بن إسحاق: ويكون التوحيد خالصاً لله، ليس فيه شرك، ويُخْلَع ما دونه من الأنداد.

ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل». وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حَمِيَّة، ويقاتل رياءً، أي ذلك في سبيل الله عز وجل؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل».

وقوله: ﴿**فإن انتهوا**﴾ أي بقتالكم عما هم فيه من الكفر فكفّوا عنه، وإن لم تعلموا بواطنهم ﴿**فإن الله بما يعملون بصير**﴾، كما قال تعالى: ﴿**فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم**﴾ [التوبة:٥]، وفي الآية الأخرى ﴿**فإخوانكم في الدين**﴾ [التوبة:١١]. وقال: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين**﴾ [البقرة:١٩٣] وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لأسامة، لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال: لا إله إلا الله فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأسامة: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟ قال: يا رسول الله، إنما قالها تعوذاً، قال: «هلا شققت عن قلبه؟» وجعل يقول ويكرر عليه، «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال أسامة حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا ذلك اليوم.

وقوله: ﴿وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير﴾ أي وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم فاعلموا أن الله مولاكم، سيدكم وناصركم على أعدائكم فنعم المولى ونعم النصير. روى محمد بن جرير عن عروة أن عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء فكتب إليه عروة: سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإنك كتبت إلي تسألني، عن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، وسأخبرك به، ولا حول ولا قوة إلا بالله، كان من شأن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، أن الله أعطاه النبوة، فَنِعْم النبي، ونعم السيد، ونعم العشيرة، فجزاه الله خيراً، وعرفنا وجهه في الجنة، وأحيانا على ملته وأماتنا وبعثنا عليها، وأنه لما دعا قومه لما بعثه الله به من الهدى والنور الذي أنزل عليه لم يبعدوا منه أول ما دعاهم إليه، وكادوا يسمعون منه، حتى ذكر طواغيتهم، وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال، أنكر ذلك عليه الناس واشتدوا عليه، وكرهوا ما قال وأغروا به من أطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس، فتركوه إلا من حفظه الله منهم، وهم قليل فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث، ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال، فافتُتِن من افتتن، وعصم الله من شاء منهم، فلما فُعل ذلك بالمسلمين، أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة، وكان بالحبشة ملك صالح، يقال له النجاشي، لا يظلم أحد بأرضه، وكان يُثْنَى عليه مع ذلك، وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها، وكانت مسكنا لتجارهم يجدون فيها رفاغاً من الرزق، وأمناً ومتجراً حسناً، فأمرهم بها النبي ﷺ، فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة، وخافوا عليهم الفتن، ومكث هو فلم يبرح، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم، ثم إنه فشا الإسلام فيها، ودخل فيه رجال من أشرافهم ومنعتهم، فلما رأوا ذلك استرخوا استرخاءة عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه، وكانت الفتنة الأولى: هي التي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قِبل أرض الحبشة مخافتها، وفراراً مما كانوا فيه من الفتن والزلزال، فلما استرخى عنهم ودخل في الإسلام من دخل منهم تحدث باسترخائهم عنهم، فبلغ من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ أنه قد استرخى عمن كان منهم بمكة، وأنهم لا يفتنون، فرجعوا إلى مكة وكادوا يأمنون بها، وجعلوا يزدادون ويكثرون. وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير، وفشا بالمدينة الإسلام وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة، فلما رأت قريش ذلك، تآمرت على أن يفتنوهم ويشتدوا، فأخذوهم فحرصوا على أن يفتنوهم، فأصابهم جهد شديد، فكانت الفتنة الأخيرة، فكانت فتنتان: فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة حين أمرهم النبي ﷺ بها، وأذن لهم في الخروج إليها، وفتنة: لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة، ثم إنه جاء رسول الله ﷺ من المدينة سبعون نقيباً، رؤوس الذين أسلموا، فوافوه بالحج فبايعوه بالعقبة، وأعطوه عهودهم ومواثيقهم، على أنا منك وأنت منا، وعلى أن من جاء من أصحابك أو جئتنا

فإنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا، فاشتدت عليهم قريش، عند ذلك، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه، أن يخرجوا إلى المدينة، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه، وخرج هو، وهي التي أنزل الله عز وجل فيها: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله**﴾. وهذا صحيح إلى عروة رحمه الله.

﴿ ۞ وَاعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصاً لهذه الأمة الشريفة، من بين سائر الأمم المتقدمة من إحلال المغانم. والغنيمة: هي المال المأخوذ من الكفار، بإيجاف الخيل والركاب، والفيء: ما أخذ منهم بغير ذلك، كالأموال التي يُصَالِحون عليها أو يُتَوَفَّوْن عنها، ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك، هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف.

وقوله تعالى: ﴿**واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه**﴾ توكيد لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمِخْيَط، قال الله تعالى: ﴿**ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون**﴾ [آل عمران:١٦١]. وقوله: ﴿**فأن لله خمسه وللرسول**﴾ اختلف المفسرون ههنا، فقال بعضهم: لله نصيب من الخمس يجعل في الكعبة.

وقال آخرون: ذكر الله ههنا استفتاح كلام للتبرك، وسهم لرسوله عليه السلام. قال ابن عباس رضي الله عنهما، كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة، فضرب ذلك الخمس في خمسة، ثم قرأ: ﴿**واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول**﴾قال قوله﴿**فأن لله خمسه**﴾، مفتاح كلام ﴿**لله ما في السموات وما في الأرض**﴾ فجعل سهم الله وسهم الرسول ﷺ واحداً، وهكذا قال إبراهيم النخعي والحسن البصري وعطاء وغير واحد، أن سهم الله ورسوله واحد. ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي، بإسناد صحيح، عن عبد الله بن شقيق، عن رجل من بلقين، قال: أتيت النبي ﷺ وهو بوادي القُرَى، وهو يعرض فرساً، فقلت يا رسول الله، ما تقول في الغنيمة ؟ فقال: «لله خمسها، وأربعة أخماسها للجيش» قلت فما أحدأولى به من أحد ؟ قال: «لا ولا السهم تستخرجه من جيبك ليس أنت أحق به من أخيك المسلم».

ثم اختلف قائلوا هذا القول، فعن ابن عباس قال: كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس، فأربعة منها بين من قاتل عليها، وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس، فربع لله وللرسول ﷺ، فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبي ﷺ ولذي القربى يعني قرابة النبي ﷺ، فما كان لله وللرسول فهو لقرابة رسول الله ﷺ، ولم يأخذ النبي ﷺ من الخمس شيئاً، والربع الثاني لليتامى، والربع الثالث للمساكين، والربع الرابع لابن السبيل. وقال عبد الله بن بُرَيْدَةَ في

قوله: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول﴾، قال: الذي لله فلنبيه، والذي للرسول لأزواجه. وقال عطاء بن أبي رباح: خمس الله والرسول واحد، يحمل منه ويصنع فيه ما شاء، يعني النبي ﷺ، وهذا أعم وأشمل، وهو أنه ﷺ يتصرف في الخمس الذي جعله الله بما شاء، ويرده في أمته كيف شاء، ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب الكندي، أنه جلس مع عبادة بن الصامت، وأبي الدرداء والحارث بن معاوية الكندي رضي الله عنهم، فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء لعبادة: يا عبادة كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس، فقال عبادة: إن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أنملتيه، فقال: «إن هذه من غنائمكم وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيط، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تغلوا فإن الغلول نار وعار على أصحابه في الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس في الله القريب والبعيد، ولا تبالوا في الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله في السفر والحضر، وجاهدوا في سبيل الله، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم، ينجي به الله من الهم والغم»، هذا حديث حسن عظيم، ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه. ولكن روى الإمام أحمد أيضاً وأبو داود والنسائي، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ نحوه في قصة الخمس والنهي عن الغلول. وقد كان للنبي ﷺ من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه، عبداً أو أمةً أو فرساً أو سيفاً أو نحو ذلك كما نص على ذلك محمد بن سيرين وعامر الشعبي، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء. وروى الإمام أحمد والترمذي وحسنه عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ تنفل سيفه ذا الفَقَار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت صفية من الصَّفيِّ، رواه أبو داود في سننه، وروى أيضاً بإسناده والنسائي أيضاً عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمِرْبَد إذ دخل رجل معه قطعة أديم، فقرأناها فإذا فيها «من محمد رسول الله إلى بني زهير بن أقيش إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبي ﷺ، وسهم الصفي، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله». فقلنا من كتب لك هذا؟ فقال رسول الله ﷺ. فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرر هذا وثبوته، ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه، وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف في مال الفيء، وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رحمه الله: وهذا قول مالك وأكثر السلف، وهو أصح الأقوال. فإذا ثبت هذا وعلم، فقد اختلف أيضاً في الذي كان يناله عليه السلام من الخمس، ماذا يُصنع به مَنْ بعده، فقال قائلون يكون لمن يلي الأمر من بعده، روي هذا عن أبي بكر وعلي وقتادة وجماعة. وجاء فيه حديث مرفوع، وقال آخرون: يصرف في مصالح المسلمين،

وقال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف، ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، اختاره ابن جرير، وقال آخرون: بل سهم النبي ﷺ وسهم ذوي القربى، مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل. قال ابن جرير: وذلك قول جماعة من أهل العراق، وقيل إن الخمس جميعه لذوي القربى، كما رواه ابن جرير. وعن قيس بن مسلم، سألت الحسن بن محمد بن الحنفية رحمه الله تعالى، عن قول الله تعالى: **﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول﴾** فقال: هذا مفتاح كلام، لله الدنيا والآخرة، ثم اختلف الناس في هذين السهمين، بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقال قائلون: سهم النبي ﷺ تسليماً للخليفة من بعده، وقال قائلون لقرابة النبي ﷺ وقال قائلون: سهم القرابة لقرابة الخليفة، فإجتمع رأيهم أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، قال الأعمش عن إبراهيم: كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع والسلاح، فقلت لإبراهيم ما كان علي يقول فيه؟ قال: كان أشدهم فيه، وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء رحمهم الله، وأما سهم ذوي القربى، فإنه يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب، لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضباً لرسول الله ﷺ وحماية له، مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافرهم حَمِيَّة للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله ، وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل، وإن كانوا أبناء عمهم، فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم ونابذوهم ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول، ولهذا كان ذم أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشد من غيرهم، لشدة قربهم.

وقال جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل: مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله أعطيت بني المطلب من خمس خيبر وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة، فقال: «إنما بنو هاشم وبنو عبد المطلب شيء واحد» رواه مسلم. وفي بعض روايات هذا الحديث، «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام»، وهذا قول جمهور العلماء، إنهم بنو هاشم وبنو المطلب. قال ابن جرير وقال آخرون: هم بنو هاشم، ثم روي عن مجاهد، قال: علم الله أن في بني هاشم فقراء، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة، وفي رواية عنه قال: هم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة، ثم روى عن علي بن الحسين نحو ذلك، قال ابن جرير وقال آخرون: بل هم قريش كلها.

وقوله: **﴿واليتامى﴾** أي يتامى المسلمين، واختلف العلماء هل يختص بالأيتام الفقراء، أو يعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين، **﴿والمساكين﴾** هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خَلَّتَهم ومسكنتهم، **﴿وابن السبيل﴾** هو المسافر أو المريد للسفر إلى مسافة تُقْصَرُ فيها الصلاة، وليس له ما ينفقه في سفره ذلك.

وقوله: **﴿إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا﴾** أي امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس

في الغنائم، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وما أنزل على رسوله، ولهذا جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس في حديث وفد عبد القيس، أن رسول الله ﷺ قال لهم: «وآمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع. آمركم بالإيمان بالله ـ ثم قال ـ هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من المغنم»، الحديث بطوله، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان. وقال مقاتل بن حيان: ﴿**وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان**﴾ أي في القسمة، وقوله ﴿**يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير**﴾، ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه، بما فَرَق به بين الحق والباطل ببدر، ويسمى «الفرقان»؛ لأن الله تعالى أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه، قال ابن عباس: ﴿**يوم الفرقان**﴾ يوم بدر، فَرَق الله فيه بين الحق والباطل. رواه الحاكم، وكذا قال مجاهد ومقسم وعبيد الله بن عبد الله والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان وغير واحد إنه يوم بدر، وقال عروة بن الزبير في قوله: ﴿**يوم الفرقان**﴾ يوم فرق الله بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ، وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة، فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين، وأسر منهم مثل ذلك. ورواه ابن مردويه، عن علي قال: كانت ليلة الفرقان، ليلة التقى الجمعان، في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان، وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير.

﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان ﴿**إذ أنتم بالعدوة الدنيا**﴾ أي إذ أنتم نُزُول بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة، ﴿**وهم**﴾ أي المشركون نزول ﴿**بالعدوة القصوى**﴾ أي البعيدة التي من ناحية مكة، ﴿**والركب**﴾ أي العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة، ﴿**أسفل منكم**﴾ أي مما يلي سيف البحر، ﴿**ولو تواعدتم**﴾ أي أنتم والمشركون إلى مكان ﴿**لاختلفتم في الميعاد**﴾. وفي حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون، يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. [رواه البخاري].

وقال محمد بن إسحاق في السيرة: ومضى رسول الله ﷺ على وجهه ذلك، حتى إذا كان قريباً من الصفراء، بعث بَسْبَس بن عمرو، وعدي بن أبي الزَّغباء الجهنيين، يلتمسان الخبر عن أبي سفيان، فانطلقا حتى إذا وردا بدراً، فأناخا بعيريهما إلى تل من البطحاء، فاستقيا في شنٍّ لهما من الماء، فسمعا جاريتين تختصمان، تقول إحداهما لصاحبتها اقضيني حقي، وتقول

الأخرى إنما تأتي العير غداً أو بعد غد فأقضيك حقك، فخلص بينهما مَجْدي بن عمرو، وقال صدقت، فسمع بذلك بسبس وعدي، فجلسا على بعيريهما حتى أتيا رسول الله ﷺ، فأخبراه الخبر، وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد حذر، فتقدم أمام عيره، وقال لمجدي بن عمرو هل أحسست على هذا الماء من أحد تنكره؟ فقال: لا والله، إلا أني قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل فاستقيا في شن لهما ثم انطلقا، فجاء أبو سفيان إلى مُنَاخ بعيريهما، فأخذ من أبعارهما فَفَتَّه فإذا فيه النوى، فقال هذه والله علائف يثرب، ثم رجع سريعاً فضرب وجه عيره فانطلق بها فسَاحَل، حتى إذا رأى أنه قد أحرز عيره بعث إلى قريش فقال: إن الله قد نجى عيركم وأموالكم ورجالكم فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نأتي بدراً ـ وكانت بدر سوقاً من أسواق العرب ـ فنقيم بها ثلاثاً فنطعم بها الطعام، وننحر بها الجُزُر، ونسقى بها الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبسيرنا، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبداً. فقال الأخنس بن شُريق: يا معشر بني زُهَرة، إن الله قد أنجى أموالكم ونجى صاحبكم فارجعوا فأطاعوه فرجعت بنو زهرة، فلم يشهدوها، ولا بنو عدي. قال محمد بن إسحاق: وحدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: وبعث رسول الله ﷺ حين دنا من بدر، علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام في نفر من أصحابه يتجسسون له الخبر، فأصابوا سقاة لقريش غلاماً لبني سعيد بن العاص، وغلاماً لبني الحجاج، فأتوا بهما رسول الله ﷺ، فوجدوه يصلي فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يسألونهما لمن أنتما؟ فيقولان: نحن سقاة لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما، فلما ذلقوهما قالا: نحن لأبي سفيان فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين ثم سلم، وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش» قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، والكثيب: العَقَنْقَل، فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟» قالا: كثير. قال: «ما عدَّتهم؟» قالا ما ندري. قال «كم ينحرون كل يوم؟» قالا: يوماً تسعا ويوماً عشراً، قال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف» ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» قالا: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومُنَبِّه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبد ود، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»، قال محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم، أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ: لما التقى الناس يوم بدر يا رسول الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، وننيخ إليك ركائبك، ونلقى عدونا، فإن أظهرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب، وإن تكن الأخرى،

فتجلس على ركائبك وتلحق بمن وراءنا من قومنا، فقد والله تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حباً منهم، لو علموا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، ويوادونك وينصرونك. فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به. فبني له عريش، فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر ما معهما غيرهما. قال ابن إسحاق: وارتحلت قريش حين أصبحت، فلما أقبلت ورآها رسول الله ﷺ تُصَوِّب من العقنقل، وهو الكثيب، الذي جاؤوا منه إلى الوادي، قال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بفخرها وخيلائها تُحَادُّك وتكذب رسولك اللهم أحنهم الغداة». وقوله: ﴿**ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة**﴾، قال محمد بن إسحاق: أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك، وهذا تفسير جيد. وبسط ذلك أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد، على غير ميعاد، لينصركم عليهم، ليصير الأمر ظاهراً، والحجة قاطعة، ولا يبقى لأحد حجة، ولا شبهة، فحينئذ يهلك من هلك أي يستمر في الكفر من استمر فيه، على بصيرة من أمره، إنه مبطل لقيام الحجة عليه، ﴿**ويحيى من حيّ**﴾ أي يؤمن من آمن ﴿**عن بينة**﴾ أي حجة وبصيرة، والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿**أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس**﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وقوله: ﴿**وإن الله لسميع**﴾ أي لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به، ﴿**عليم**﴾ أي بكم، وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾.

قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه قليلاً، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك، فكان تثبيتاً لهم، وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد، وحكى ابن جرير عن بعضهم، أنه رآهم بعينه التي ينام بها. وقوله: ﴿**ولو أراكهم كثيراً لفشلتم**﴾ أي لجَبُنْتُم عنهم، واختلفتم فيما بينكم، ﴿**ولكن الله سلم**﴾ أي من ذلك، بأن أراكهم قليلاً ﴿**إنه عليم بذات الصدور**﴾ أي بما تجنه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء، فيعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. وقوله: ﴿**وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً**﴾ وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين، فيجرؤهم عليهم ويطمعهم فيهم، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جانبي تراهم سبعين ؟ قال: لا بل هم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، فقال: كنا ألفاً. وقوله: ﴿**ويقللكم في أعينهم**﴾ روى ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿**وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينكم**﴾ قال: حضض بعضهم على بعض، إسناده صحيح، وقال عبد الله بن الزبير في قوله تعالى: ﴿**ليقضي الله أمراً كان مفعولاً**﴾ أي ليلقي بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه

من أهل ولايته، ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلاً من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: ﴿**قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار**﴾ [آل عمران:١٣]، وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلاً منهما حق وصدق، ولله الحمد والمنة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا**﴾. ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى، عن رسول الله ﷺ أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». ثم قام النبي ﷺ، وقال: «اللهم مُنزل الكتاب، ومُجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم».

وقال قتادة في هذه الآية: افترض الله ذِكْرَهُ عند أشغل ما تكونون عند الضراب بالسيوف، وعن ابن جريج عن عطاء، قال: وجب الإنصات والذكر عند الزحف، ثم تلا هذه الآية، قلت: يجهرون بالذكر؟ قال: نعم. وقال كعب الأحبار: ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال، فقال ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون**﴾. فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم. ﴿**وتذهب ريحكم**﴾ أي قوتكم، وما كنتم فيه من الإقبال، ﴿**واصبروا إن الله مع الصابرين**﴾. وقد كان للصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة والائتمار بأمر الله، وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبُوش، وأصناف السودان والقبْط وطوائف بني آدم. قهروا الجميع حتى عَلَتْ كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله

عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمرتهم إنه كريم وهاب.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾.

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله، وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم، **﴿بطراً﴾** أي دفعاً للحق، **﴿ورئاء الناس﴾** وهو المفاخرة والتكبر عليهم. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي في قوله تعالى: **﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس﴾** قالوا: هم المشركون الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر. وقال محمد بن كعب: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله: **﴿ولاتكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس، ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط﴾**. وقوله تعالى: **﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم﴾** الآية، حسَّن لهم ـ لعنه الله ـ ما جاءوا له وما هموا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يُؤْتُوا في ديارهم من عدوهم بني بكر، فقال: أنا جار لكم، وذلك أنه تبدى لهم في صورة سُرَاقة بن مالك بن جعشم، سيد بني مُدْلج كبير تلك الناحية، وكل ذلك منه كما قال تعالى عنه: **﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾** [النساء: ١٢٠]. قال ابن عباس في هذه الآية: لما كان يوم بدر، سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم، وإني جاركم، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة، **﴿نكص على عقبيه﴾** قال: رجع مدبراً، وقال: **﴿إني أرى ما لا ترون﴾** الآية.

وقال قتادة: وذكر لنا أنه رأى جبريل عليه السلام تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة، فقال: **﴿إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله﴾** وكذب عدو الله. والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مُسْلَم، وتبرأ منهم عند ذلك. قلت: يعني بعادته لمن أطاعه، قوله تعالى: **﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾** [الحشر: ١٦]، وقوله تعالى: **﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾** [إبراهيم: ٢٢].

وعن طلحة بن عبيد الله بن كريز، أن رسول الله ﷺ قال: «ما رأى إبليس في يوم هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة، وذلك مما يرى من نزول الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر». قالوا: يا رسول الله وما رأى يوم بدر ؟ قال: «أما إنه رأى جبريل عليه السلام يزع الملائكة» وهذا مرسل من هذا الوجه، [وله شواهد يتقوى بها].

وقوله: ﴿**إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم**﴾ قال ابن عباس في هذه الآية: لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: غر هؤلاء دينهم، وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم، فظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك، فقال الله: ﴿**ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم**﴾.

وقال ابن جريج في قوله ﴿**إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض**﴾ هم قوم كانوا من المنافقين بمكة، قالوه يوم بدر، وقال عامر الشعبي: كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين، قالوا: ﴿**غر هؤلاء دينهم**﴾. وقال مجاهد: فئة من قريش، خرجوا مع قريش من مكة، وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: ﴿**غر هؤلاء دينهم**﴾ حتى قدموا على ما قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم، وهكذا قال محمد بن إسحاق بن يسار سواء.

وقوله: ﴿**ومن يتوكل على الله**﴾ أي يعتمد على جنابه ﴿**فإن الله عزيز**﴾ أي لا يُضام من التجأ إليه، فإن الله عزيز منيع الجناب عظيم السلطان ﴿**حكيم**﴾ في أفعاله لا يضعها إلا في مواضعها، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٥١﴾.

يقول تعالى: ولو عاينت حال توفي الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيعاً منكراً، إذ يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ﴿**وذوقوا عذاب الحريق**﴾. قال مجاهد: ﴿**أدبارهم**﴾ استاههم، قال: يوم بدر. قال ابن عباس: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين، ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم. وقال سعيد بن جبير: يضربون وجوههم وأدبارهم قال: واستاههم، ولكن الله يَكْنِىٰ، وكذا قال عُمَر مولى غُفْرة. وهذا السياق وإن كان سببه وقعة بدر، ولكنه عام في حق كل كافر، ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿**ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم**﴾ وفي سورة القتال مثلها، وتقدم في سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿**ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم**﴾ [الأنعام:٩٣]. أي باسطو أيديهم بالضرب فيهم بأمرونهم، إذ استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من

الأجساد أن تخرج قهراً، وذلك إذ بشروهم بالعذاب والغضب من الله، كما جاء في حديث البراء أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة، يقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى سَمُوم وحميم، وظل من يحموم، فتتفرق في بدنه، فيستخرجونها من جسده، كما يخرج السفود من الصوف المبلول، فتخرج معها العروق والعصب؛ ولهذا أخبر تعالى: أن الملائكة تقول لهم ذوقوا عذاب الحريق.

وقوله تعالى: ﴿**ذلك بما قدمت أيديكم**﴾ أي هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا، جزاكم الله بها هذا الجزاء ﴿**وأن الله ليس بظلام للعبيد**﴾ أي لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحكم العدل الذي لا يجور تبارك وتعالى، وتقدس وتنزه الغني الحميد، ولهذا جاء في الحديث الصحيح، عند مسلم رحمه الله، من رواية أبي ذر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» ولهذا قال تعالى.

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

يقول تعالى: فعل هؤلاء من المشركين المكذبين بما أرسلت به، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا أي عادتنا وسنتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل، الكافرين بآيات الله ﴿**فأخذهم الله بذنوبهم**﴾ أي بسبب ذنوبهم أهلكهم، ﴿**إن الله قوي شديد العقاب**﴾ أي لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد، إلا بسبب ذنب ارتكبه، كما قال تعالى: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ومالهم من دونه من وال**﴾ [الرعد: ١١]، وقوله: ﴿**كدأب آل فرعون**﴾ أي كصنعه بآل فرعون وأمثالهم، حين كذبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم، من جنات وعيون وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين.

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

أخبر تعالى: أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه، وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه، ﴿**وهم لا يتقون**﴾ أي لا يخافون من الله

في شيء ارتكبوه من الآثام. ﴿فإما تثقفنهم في الحرب﴾ أي تغلبهم وتظفر بهم في حرب، ﴿فشرد بهم من خلفهم﴾ أي نكل بهم، قاله ابن عباس والحسن البصري والضحاك والسدي وعطاء الخراساني وابن عيينة، ومعناه غَلّظ عقوبتهم وأثخنهم قتلاً، ليخاف مَنْ سِواهم من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة، ﴿لعلهم يذكرون﴾ وقال السدي: يقول: لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وإما تخافن من قوم﴾ قد عاهدتهم ﴿خيانة﴾ أي نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود، ﴿فانبذ إليهم﴾ أي عهدهم ﴿على سواء﴾، أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي تستوي أنت وهم في ذلك. وعن الوليد بن مسلم أنه قال في قوله تعالى: ﴿فانبذ إليهم على سواء﴾ أي على مهل، ﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ أي حتى ولو في حق الكفرين لا يحبها أيضاً. روى الإمام أحمد عن سليم بن عامر، قال: كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدراً، إن رسول الله ﷺ قال: «ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلَّنَّ عقدة ولا يشدها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء» قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، فإذا الشيخ عمرو بن عبسة رضي الله عنه، وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسي، وأخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبّان في صحيحه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا﴾ أي فاتونا، فلا نقدر عليهم بل هم تحت قهر قدرتنا، فلا يعجزوننا، كقوله تعالى: ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون﴾ [العنكبوت: ٤] أي يظنون، وقال تعالى: ﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير﴾ [النور: ٧٥]. ثم أمر تعالى، بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم﴾ أي مهما أمكنكم ﴿من قوة ومن رباط الخيل﴾ روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي» ورواه مسلم. وروى الإمام أحمد وأهل السنن عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ارموا واركبوا وأن ترموا خير من أن تركبوا».

وروى الإمام مالك عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة، لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة، كانت له حسنات ولو أنها قطعت طيلها، فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقي به، كان ذلك حسنات له، فهي لذلك الرجل أجر، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء، فهي على ذلك وزر» وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر، فقال «ما أنزل الله عليّ فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾** رواه البخاري وهذا لفظه، ومسلم. وقد ذهب أكثر العلماء، إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك، إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى للحديث، والله أعلم.

وروي أيضا عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليس من فرس عربي إلا يؤذن له مع كل فجر، يدعو بدعوتين: يقول: اللهم إنك خولتني من خولتني من بني آدم، فاجعلني من أحب أهله وماله إليه ـ أو ـ أحب أهله وماله إليه»، رواه النسائي، [والحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

والأحاديث الواردة في فضل ارتباط الخيل كثيرة. وفي صحيح البخاري، عن عروة بن أبي الجعد البارقي، أن رسول الله ﷺ، قال: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والمغنم». وقوله: **﴿ترهبون﴾** أي تخوفون **﴿به عدو الله وعدوكم﴾** أي من الكفار **﴿وآخرين من دونهم﴾** قال مجاهد: يعني قريظة، وقال السدي: فارس، وقال سفيان الثوري: قال ابن يمان: هم الشياطين التي في الدور.

وقال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون، وهذا أشبه الأقوال، ويشهد له قوله تعالى: **﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾** [التوبة: ١٠١]. وقوله: **﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾** أي مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف.

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾.

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة، فانبذ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على

حربك ومنابذتك، فقاتلهم ﴿وإن جنحوا﴾ أي مالوا ﴿للسلم﴾ أي المسالمة والمصالحة والمهادنة، ﴿فاجنح لها﴾ أي فمل إليها واقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون، عام الحديبية الصلح، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ، تسع سنين، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر. وروى عبد الله بن الإمام أحمد [في زوائد المسند] عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه سيكون بعدي اختلاف أو أمر فإن استطعت أن يكون السلم فافعل» [وهو صحيح]. وقال مجاهد: نزلت في بني قريظة، وهذا فيه نظر. وقول ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني وعكرمة والحسن وقتادة: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ الآية [التوبة: ٢٩] فيه نظر؛ لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفاً فإنه تجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم. وقوله: ﴿وتوكل على الله﴾ أي صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة، ليتقووا ويستعدوا ﴿فإن حسبك الله﴾ أي كافيك وحده، ثم ذكر نعمته عليه مما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار، فقال: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم﴾ أي جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك، ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾ أي لِمَا كان بينهم من العداوة والبغضاء فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار، في شأن غنائم حنين، قال لهم: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي» كلما قال شيئاً قالوا الله ورسوله أمنّ. ولهذا قال تعالى: ﴿ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾ أي عزيز الجناب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه.

قال ابن عباس: قرابة الرحم تقطع، ومنة النعمة تكفر، ولم ير مثل تقارب القلوب، يقول الله تعالى: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾ وذلك موجود في الشعر:

إذا متَّ ذو قربى إليك برحمه فغشك واستغنى فليس بذي رحم

ولكن ذا القربى الذي إن دعوته أجاب ومن يرمي العدو الذي ترمي

قال: ومن ذلك قول القائل:

ولقد صحبت الناس ثم سبرتهم وبلوت ما وصلوا من الأسباب
فإذا القـرابة لا تقــرب قاطــعاً وإذا الـمـودة أقــرب الأسباب

قال البيهقي: لا أدري هذا موصول بكلام ابن عباس أو هو من قول من دونه من الرواة؟ وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله: **﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾** الآية، قال: هم المتحابون في الله. وفي رواية نزلت في المتحابين في الله. رواه النسائي والحاكم في مستدركه وقال: صحيح، وعن ابن عباس، قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء، ثم قرأ **﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾** رواه الحاكم أيضاً، وقال أبو عمرو الأوزاعي: حدثني عبدة بن أبي لبابة عن مجاهد، ولقيته فأخذ بيدي فقال: إذا تراءى المتحابان في الله فأخذ أحدهما بيد صاحبه وضحك إليه، تحاتت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير، فقال: لا تقل ذلك فإن الله تعالى يقول **﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾** قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني. وقال ابن عون عن عمير بن إسحاق، قال: كنا نتحدث أن أول ما يرفع من الناس الألفة، وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني رحمه الله عن سلمان الفارسي، أن رسول الله ﷺ قال: «إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده، تحاتت عنهما ذنوبهما، كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ذنوبهما ولو كانت مثل زبد البحار» [وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

يحرض تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم أي كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين. قال الشعبي في قوله: **﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾** قال حسبك الله، وحسب من شهد معك، وروي عن عطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد مثله، ولهذا قال: **﴿يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال﴾** أي حثهم؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرض على القتال، عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عَدَدَهم وعُدَدِهم: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فقال عمير بن الحُمام: عرضهاالسموات والأرض؟ فقال رسول الله ﷺ «نعم»، فقال: بخ بخ فقال: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟» قال: رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها»

فتقدم الرجل، فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه [رواه مسلم].

ثم قال تعالى مبشراً للمؤمنين وآمراً: ﴿**إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا**﴾ كل واحد بعشرة، ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة. روى عبد الله بن المبارك عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿**إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين**﴾ شق ذلك على المسلمين، حين فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: ﴿**الآن خفف الله عنكم**﴾ إلى قوله ﴿**يغلبوا مائتين**﴾ قال خفف الله عنهم من العدة، ونقص من الصبر، بقدر ما خفف عنهم، وروى البخاري نحوه. وقال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفاً، فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى، فقال ﴿**الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً**﴾ الآية، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم، لم ينبغ لهم أن يفروا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم. وروي عن مجاهد وعطاء والحسن [وغيرهم] نحو ذلك.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾.

روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه، قال: استشار النبي ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر، فقال: «إن الله قد أمكنكم منهم» فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس» فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد النبي ﷺ فقال: للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، قال فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء، قال وأنزل الله عز وجل ﴿**لولا كتاب من الله سبق**﴾. [قال الذهبي في الميزان: حسن بشواهده].

وعن ابن عباس: ﴿**ما كان لنبي أن يكون له أسرى**﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿**عذاب عظيم**﴾ قال: غنائم بدر قبل أن يحلها لهم، يقول: لولا أني لا أعذب من عصاني، حتى أتقدم إليه لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم، وكذا روى ابن أبي نجيح: عن مجاهد، وقال الأعمش: سبق منه أ لا يعذب أحداً شهد بدراً، وروي نحوه عن سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن جبير وعطاء. وقال ابن عباس في قوله: ﴿**لولا كتاب من الله سبق**﴾ يعني في أم الكتاب الأول، أن المغانم والأسارى حلال لكم ﴿**لمسكم فيما أخذتم**﴾ من الأسارى ﴿**عذاب عظيم**﴾. قال الله تعالى:

﴿فكلوا مما غنمتم﴾ الآية. وروي مثله عن أبي هريرة، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، وعطاء والحسن البصري، وقتادة والأعمش أيضاً: أن المراد ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ لهذه الأمة بإحلال الغنائم، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

ويُسْتَشهد لهذا القول، بما أخرجاه في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة». وقال الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لم تحل الغنائم لسود الرؤوس غيرنا» [رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح]. ولهذا قال الله تعالى: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفورٌ رحيم﴾ الآية، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء، وقد روى الإمام أبو داود في سننه عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة. [والظاهر أنه يُحسَّن].

وقد استقر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء، أن الإمام مخير فيهم إن شاء قتل كما فعل ببني قريظة، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر، أو بمن أسر من المسلمين، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها، اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر. هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء، وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة، مقرر في موضعه من كتب الفقه.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾.

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك أن رجالاً من الأنصار اسأذنوا رسول الله فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه. قال «لا والله لا تذرون منه درهماً». وقال ابن عباس في هذه الآية: كان العباس أسر يوم بدر فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب فقال العباس حين قرئت هذه الآية لقد أعطانا الله عز وجل خصلتين ما أحب أن لي بهما الدنيا: إني أسرت يوم بدر ففديت نفسي بأربعين أوقية فآتاني أربعين عبداً وإني لأرجو المغفرة التي وعدنا الله جل ثناؤه. [وفي الجملة فهذه القصة ثابتة، فقد استشهد بها الحافظ في الفتح، كما صححها الحاكم في المستدرك من قبل].

روى الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن حميد بن هلال قال: بعث ابن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفاً ما أتاه مال أكثر منه لا قَبلُ ولا بعد. قال فنثرت على حصير ونودي بالصلاة. قال وجاء رسول الله ﷺ فمثل قائماً على المال وجاء أهل المسجد

فما كان يومئذ عددٌ ولا وزنٌ، ما كان إلا قبضاً وجاء العباس بن عبد المطلب يحثي في خميصة عليه، وذهب يقوم فلم يستطع قال فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ارفع علي. قال فتبسم رسول الله ﷺ حتى خرج ضاحكه أو نابه وقال له: «أعد من المال طائفة وقم بما تطيق» قال ففعل وجعل العباس يقول: وهو منطلق أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا، وما ندري ما يصنع في الأخرى: ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾ الآية ثم قال: هذا خير مما أخذ منا ولا أدري ما يصنع الله في الأخرى فما زال رسول الله ﷺ مائلاً على ذلك المال حتى ما بقي منه درهم وما بعث إلى أهله بدرهم ثم أتى الصلاة فصلى.

حديث آخر في ذلك: روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن أنس بن مالك قال: أتي رسول الله ﷺ بمال من البحرين فقال: «انثروه في المسجد» قال وكان أكثر مال أتي به رسول الله ﷺ فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه. فما كان يرى أحداً إلا أعطاه إذ جاء العباس فقال يا رسول الله أعطني فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلاً فقال له رسول الله ﷺ: «خذ» فحثا في ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع، فقال: مُر بعضهم يرفعه إلي. قال: «لا». قال: فارفعه أنت عليّ، قال: «لا» فنثر منه ثم احتمله على كاهله ثم انطلق فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خَفِيَ عنه عجباً من حرصه، فما قام رسول الله ﷺ وثَمَّ منها درهم. وقد رواه البخاري في مواضع من صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم.

وقوله: ﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ أي فيما أظهروا لك من الأقوال ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾ أي من قبل بدر بالكفر به ﴿فأمكن منهم﴾ أي بالإسار يوم بدر ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بما يفعله حكيم فيه. قال قتادة نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح الكاتب حين ارتد ولحق بالمشركين، وقال ابن عباس: نزلت في عباس وأصحابه حين قالوا: لننصحن لك على قومنا. وفسرها السدي على العموم وهو أشمل وأظهر والله أعلم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾.

ذكر تعالى أصناف المؤمنين وقسمهم إلى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاؤوا لنصر الله ورسوله وإقامة دينه وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك، وإلى أنصار وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم وواسوهم في أموالهم ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم فهؤلاء بعضهم أولياء بعض أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار كل اثنين أخوَان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك في صحيح البخاري عن ابن عباس، وروى الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة» تفرد به أحمد، [وجوّد إسناده الهيثمي عند الطبراني].

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار، في غير ما آية في كتابه، فقال: ﴿**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار**﴾ الآية[التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿**لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة**﴾ الآية[التوبة: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿**للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾ الآية[الحشر: ٨ـ٩].

وقوله تعالى: ﴿**والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا**﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بَوَاديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب، ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال، كما روى الأمام أحمد عن بريدة الحصيب الأسلمي رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أوصاه في خاصة نفسه، بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، وقال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم. ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا واختاروا دارهم، فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا، فادعهم إلى إعطاء الجزية. فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله ثم قاتلهم». انفرد به مسلم.

وقوله: ﴿**وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير**﴾ يقول تعالى: وإن استنصركم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم؛ لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار، بينكم وبينهم ميثاق أي مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم، وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنه.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، كما روى

الحاكم في مستدركه عن أسامة، عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً، ولا كافر مسلماً»، ثم قرأ: ﴿**والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**﴾». ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قلت: الحديث في الصحيحين من رواية أسامة بن زيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم». وفي المسند والسنن، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى» وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى أبو داود في آخر كتاب الجهاد عن سمرة بن جندب: أما بعد قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله» [وهو حديث حسن لشواهده].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض» [رواه أبوداود وصححه الحاكم والألباني أيضا]. ومعنى قوله: ﴿**إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**﴾ أي إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين وإلا وقعت الفتنة في الناس وهو التباس الأمر واختلاط المؤمن بالكافر فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا، عطف بذكر مالهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان كما تقدم في أول السورة وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن ذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف لا ينقطع ولا ينقضي، ولا يُسأم ولا يُمَلُّ لحسنه وتنوعه. ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة، كما قال: ﴿**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار**﴾ الآية[التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿**والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم**﴾ [الحشر: ١٠]، وفي الحديث المتفق عليه بل المتواتر من طرق صحيحة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب».

وأما قوله تعالى: ﴿**وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله**﴾ أي في حكم الله وليس المراد بقوله: ﴿**وأولو الأرحام**﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة، بل يُدْلون بوارث كالخالة والخال والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية ويعتقد ذلك صريحاً في المسألة، بل الحق أن

الآية عامة تشمل جميع القرابات، كما نص ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص. ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث» [رواه النسائي وغيره، وجود إسناده الحافظ ابن حجر، وقال البوصيري: إسناده صحيح]. قالوا: فلو كان ذا حق لكان ذا فرض في كتاب الله مسمى فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً، والله أعلم.

تفسير سورة التوبة وهي مدنية.

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ ﴾.

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما روى البخاري عن البراء قال: آخر آية نزلت: ﴿**يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة**﴾ [النساء:١٧٦]، وآخر سورة نزلت براءة. وإنما لا يبسمل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، والاقتداء في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه.

فقوله تعالى: ﴿**براءة من الله ورسوله**﴾ أي هذه براءة أي تبرؤ من الله ورسوله ﴿**إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا في الأرض أربعة أشهر**﴾ اختلف المفسرون ههنا اختلافاً كثيراً، فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان؛ لقوله تعالى: ﴿**فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم**﴾ [التوبة:٤]، ولِمَا سيأتي في الحديث: «ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته». وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله، وروي عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي وغير واحد. وقال ابن عباس في قوله: ﴿**براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا في الأرض أربعة أشهر**﴾ قال: حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون في الأرض حيثما شاؤوا، وأجَّل أجَل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى إنسلاخ المحرم فذلك خمسون ليلة، فإذا انسلخ الأشهر الحرم، أمره بأن يضع السيف فيمن لا عهد له. وقال الضحاك بعد قوله: فذلك خمسون ليلة، فأمر الله نبيه إذا انسلخ الأشهر الحُرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد يقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام، وأمر ممن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضاً حتى يدخلوا في الإسلام.

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ

لَكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾.

يقول تعالى: وإعلام ﴿**من الله ورسوله**﴾ وتقدُّم وإنذار إلى الناس ﴿**يوم الحج الأكبر**﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعاً ﴿**أن الله بريء من المشركين ورسوله**﴾ أي بريء منهم أيضاً. ثم دعاهم إلى التوبة إليه، فقال: ﴿**فإن تبتم**﴾ أي مما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿**فهو خير لكم، وإن توليتم**﴾ أي استمررتم على ما أنتم عليه ﴿**فاعلموا أنكم غير معجزي الله**﴾ بل هو قادر، وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيئته، ﴿**وبشر الذين كفروا بعذاب أليم**﴾ أي في الدنيا بالخزي والنكال وفي الآخرة بالمقامع والأغلال. روى البخاري رحمه الله عن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المُؤذِّنين الذين بعثهم يوم النحر يؤذِّنون بمنى: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. قال حميد: ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب فأمره أن يُؤذِّن ببراءة، قال أبو هريرة فأذن معنا عليٌّ في أهل منى يوم النحر ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وروى أحمد والنسائي بإسناد صحيح عن أبي هريرة قال: كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال: ما كنتم تنادون؟. قال: كنا نادي ألا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو أمده إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد العام هذا مشرك، قال: فكنت أنادي حتى صَحل صوتي.

وقال أبو إسحاق سألت أبا جُحَيفة عن يوم الحج الأكبر، قال: يوم عرفة، فقلت: أمن عندك أم من أصحاب محمد ﷺ؟ قال: كل في ذلك، وقال عطاء: يوم الحج الأكبر يوم عرفة. وعن شهاب بن عباد العصري عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: هذا يوم عرفة هذا يوم الحج الأكبر فلا يصومنه أحد. قال: فحججت بعد أبي فأتيت المدينة فسألت عن أفضل أهلها فقالوا: سعيد بن المسيب فأتيته فقلت: إني سألت عن أفضل أهل المدينة فقالوا: سعيد بن المسيب فأخبرني عن صوم يوم عرفة، فقال: أخبرك عمن هو أفضل مني مائة ضعف عمر أو ابن عمر، كان ينهى عن صومه ويقول هو يوم الحج الأكبر، وهكذا روي عن ابن عباس وعبد الله بن الزبير ومجاهد وعكرمة وطاوس أنهم قالوا: يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر.

والقول الثاني أنه يوم النحر. قال علي رضي الله عنه: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وقال عبد الله بن أبي أوفى: يوم الحج الأكبر يوم النحر، وعن عبد الله بن سنان قال: خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال: هذا يوم الأضحى وهذا يوم النحر وهذا يوم الحج الأكبر، وقال ابن عباس: الحج الأكبر يوم النحر.

وروى ابن جرير عن أبي بكرة قال: لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله ﷺ على بعير له،

وأخذ الناس بخطامه أو زمامه، فقال: «أي يوم هذا ؟» قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، فقال «أليس هذا يوم الحج الأكبر ؟». وهذا إسناده صحيح وأصله مخرج في الصحيح.

وعن سعيد بن المسيب أنه قال: يوم الحج الأكبر اليوم الثاني من يوم النحر. وقال مجاهد أيضاً: يوم الحج الأكبر أيام الحج كلها.

وقال سهل السراج: سئل الحسن البصري عن يوم الحج الأكبر ؟ فقال: ما لكم وللحج الأكبر ذاك عام حج فيه أبو بكر الذي استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس. وروى ابن جرير عن ابن عون، سألت محمداً يعني ابن سيرين عن يوم الحج الأكبر، فقال: كان يوماً وافق فيه حج رسول الله ﷺ وحج أهل الوبر.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله أربعة أشهر يسيح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته، وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده ولم يظاهر على المسلمين أحداً أي يمالىء عليهم مَنْ سواهم، فهذا الذي يوفي له بذمته وعهده إلى مدته ولهذا حرض تعالى على الوفاء بذلك، فقال **﴿إن الله يحب المتقين﴾** أي الموفين بعهدهم.

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾.

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم ههنا ما هي ؟ فذهب ابن جرير إلى أنها الأربعة المذكورة في قوله تعالى: **﴿منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾** الآية[التوبة:٣٦]، قال أبو جعفر الباقر، ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم، وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وإليه ذهب الضحاك أيضاً وفيه نظر، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه، وبه قال مجاهد وقتادة والسدي [وغيرهم]: أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها في قوله **﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾** [التوبة:٢]، ثم قال: **﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم﴾** أي إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمنا عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر، ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية أخرى بعد في هذه السورة الكريمة. وقوله: **﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾** أي من الأرض. وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم،

بقوله: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾ [البقرة: ١٩١]. وقوله: ﴿وخذوهم﴾ أي واسروهم إن شئتم قتلاً وإن شئتم أسراً، وقوله: ﴿واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾ أي لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تُضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام، ولهذا قال: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾. ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال وهي الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته، ونبه بأعلاها على أدناها فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادة الصلاة التي هي حق الله عز وجل، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة. وقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة». الحديث، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال: يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه.

وروى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم». ورواه البخاري في صحيحه وأهل السنن إلا ابن ماجه.

وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين، وكل عهد وكل مدة، وقال ابن عباس في هذه الآية: لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة، وانسلاخ الأشهر الحرم، ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل براءة أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر.

ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه فقال الضحاك والسدي هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فإما مناً بعد وإما فداء﴾ [محمد: ٤]، وقال قتادة بالعكس.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾.

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿وإن أحد من المشركين﴾ الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿استجارك﴾ أي استأمنك فأجبه إلى طَلِبَتِه ﴿حتى يسمع كلام الله﴾ أي القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم عليه به حجة الله ﴿ثم

أبلغه مأمنه﴾ أي وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عباده.

وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: إنسان يأتيك ليسمع ما تقول وما أنزل عليك فهو آمن حتى يأتيك فيسمع كلام الله وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء، ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً أو في رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم عروة بن مسعود، ومِكْرَز بن حفص، وسهيل بن عمرو وغيرهم، واحداً بعد واحد يترددون في القضية بينه وبين المشركين فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم، ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟ قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك» [رواه أحمد وأبوداود وله شاهد يتقوى به]. وقد قيض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له ابن النواحة ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة وأمر به فضربت عنقه لا رحمه الله ولعنه. والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب، فطلب من الإمام أو نائبه أماناً، أُعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه، لكن قال العلماء لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء رحمهم الله.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾.

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا فقال تعالى: ﴿كيف يكون للمشركين عهد﴾ وأمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام﴾ يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله﴾ الآية [الفتح: ٢٥]، ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ أي مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون. استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ومالؤوا حلفاءهم وهم بني بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان

سنة ثمان ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصيهم ولله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر على كفره وفرّ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر يذهب حيث شاء، ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

يقول تعالى محرضاً للمؤمنين على معاداة المشركين منهم ومبيناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله وكفرهم برسول الله ﷺ، ولو أنهم إذ ظهروا على المسلمين وأُدِيلوا عليهم لم يُبْقُوا ولم يذروا ولا راقبوا فيهم إلاً ولا ذمة. قال ابن عباس: الإلّ: القرابة، والذمة: العهد. وكذا قال الضحاك والسدي.

وقال مجاهد: ﴿**لا يرقبون في مؤمن إلاً**﴾ لا يرقبون الله ولا غيره. والقول الأول أشهر وأظهر وعليه الأكثر. وعن مجاهد أيضاً الإل العهد. وقال قتادة: الإل الحلف.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى ذماً للمشركين وحثاً للمؤمنين على قتالهم ﴿**اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً**﴾ يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿**فصدوا عن سبيله**﴾ أي منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿**إنهم ساء ما كانوا يعملون * لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة**﴾ تقدم تفسيره وكذا الآية التي بعدها ﴿**فإن تابوا وأقاموا الصلاة**﴾ إلى آخرها تقدمت.

﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾.

يقول تعالى وإن نكث المشركون هؤلاء الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم أي عهودهم ومواثيقهم ﴿**وطعنوا في دينكم**﴾ أي عابوه وانتقصوه، ومن هٰهنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بتنقص، ولهذا قال: ﴿**فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون**﴾ أي يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال. وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر. كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف وعدد رجالاً، وعن مصعب بن سعد قال: مر سعد بن أبي وقاص برجل من الخوارج فقال الخارجي: هذا من أئمة الكفر فقال سعد كذبت بل أنا قاتلت أئمة الكفر. وقال حذيفة: ما قوتل أهل هذه الآية بعد. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: مثله، والصحيح أن الآية عامة وإن كان

سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم والله أعلم. وعن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، أنه كان في عهد أبي بكر رضي الله عنه إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال: إنكم ستجدون قوماً مُحَوَّقة رؤوسهم، فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيوف، فوالله لأن أقتل رجلاً منهم أحب أليّ من أن أقتل سبعين من غيرهم وذلك بأن الله يقول: ﴿**فقاتلوا أئمة الكفر**﴾.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

وهذا أيضاً تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين لإيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**﴾ [الأنفال: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿**يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي**﴾ الآية [الممتحنة: ١].

وقوله: ﴿**وهم بدؤوكم أول مرة**﴾ قيل المراد بذلك: يوم بدر حين خرجوا لنصر عيرهم، فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم، طلباً للقتال بغياً وتكبراً كما تقدم بسط ذلك، وقيل المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان ولله الحمد.

وقوله: ﴿**أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين**﴾ يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون فأنا أهل أن يَخْشَى العباد من سطوتي وعقوبتي. ثم قال عزيمة على المؤمنين وبياناً لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: ﴿**قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين**﴾: وهذا عام في المؤمنين كلهم، وقال مجاهد وعكرمة والسدي في هذه الآية ﴿**ويشف صدور قوم مؤمنين**﴾ يعني خزاعة، وأعاد الضمير في قوله: ﴿**ويذهب غيظ قلوبهم**﴾ عليهم أيضاً.

﴿**ويتوب الله على من يشاء**﴾ أي من عباده ﴿**والله عليم**﴾ أي بما يصلح عباده ﴿**حكيم**﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿**أم حسبتم**﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين لا نختبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب؛ ولهذا قال: ﴿**ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة**﴾ أي بطانة ودخيلة بل هم في الظاهر والباطن

على النصح لله ولرسوله فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر. وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿**ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين**﴾ [العنكبوت: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين**﴾ [آل عمران: ١٤٢].

والحاصل أنه تعالى لما شرع الجهاد لعباده بين أن له فيه حكمة وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه لا إله إلا هو ولا رب سواه، ولا راد لما قدّره وأمضاه.

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

يقول تعالى ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له، ومن قرأ مسجد الله فأراد به المسجد الحرام أشرفَ المساجد في الأرض الذي بُنِيَ من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له، وأسسه خليل الرحمن، هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر أي بحالهم وقالهم كما قال السدي: لو سألت النصراني ما دينك؟ لقال نصراني، واليهودي ما دينك؟ لقال يهودي، والصابئي لقال صابىء، والمشرك لقال مشرك. ﴿**أولئك حبطت أعمالهم**﴾ أي بشركهم ﴿**وفي النار هم خالدون**﴾، كما قال تعالى: ﴿**وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ [الأنفال: ٣٤]؛ ولهذا قال: ﴿**إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر**﴾ فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد.

وقال عمرو بن ميمون الأودي: أدركت أصحاب محمد ﷺ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله في الأرض وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب، ويأتى المسجد ويصلي فلا صلاة له، وقد عصى الله ورسوله. قال الله تعالى: ﴿**إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر**﴾ الآية، [قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم وصححه الألباني]. وقوله: ﴿**وأقام الصلاة**﴾ أي التي هي أكبر عبادات البدن ﴿**وآتى الزكاة**﴾ أي التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق، وقوله: ﴿**ولم يخش إلا الله**﴾ أي ولم يخف إلا من الله تعالى ولم يخش سواه ﴿**فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين**﴾ قال ابن عباس في قوله: ﴿**إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر**﴾ يقول: من وحد الله وآمن باليوم الآخر يقول من آمن بما أنزل الله، ﴿**وأقام الصلاة**﴾ يعني الصلوات الخمس ﴿**ولم يخش إلا الله**﴾ يقول لم يعبد إلا الله. ثم قال: ﴿**فعسى أولئك أن**

يكونوا من المهتدين﴾ يقول: إن أولئك هم المفلحون كقوله لنبيه ﷺ: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ [الإسراء:٧٩] يقول: إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً وهي الشفاعة، وكل «عسى» في القرآن فهي واجبة، وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله: و«عسى» من الله حق.

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون * مستكبرين به سامراً تهجرون﴾ [المؤمنون:٦٦-٦٧] يعني أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال: ﴿به سامراً﴾ كانوا يسمرون به ويهجرون القرآن والنبي ﷺ. فخير الله الإيمان والجهاد مع النبي ﷺ على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به، وإن كانوا يعمرون بيته ويخدمونه. قال الله: ﴿لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يعني الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسماهم الله ظالمين بشركهم فلم تغن عنهم العمارة شيئاً.

وقال ابن عباس أيضا: قد نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسر يوم بدر قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني، قال الله عز وجل: ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يعني أن ذلك كله كان في الشرك ولا أقبل ما كان في الشرك، وقال الضحاك بن مزاحم: نحوه. وعن الشعبي قال: نزلت في علي والعباس رضي الله عنهما تكلما في ذلك.

وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث مرفوع فلا بد من ذكره هٰهنا، فعن النعمان بن بشير الأنصاري قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال ففعل فأنزل الله عز وجل: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام﴾ إلى قوله ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ رواه مسلم وأبو داود وابن جرير وهذا لفظه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أمر تعالى بمباينة الكفار به وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إذا ﴿**استحبوا**﴾ أي اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك كما قال تعالى: ﴿**لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله فقال: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها**﴾ أي اكتسبتموها وحصلتموها ﴿**وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها**﴾ أي تحبونها لطيبها وحسنها، أي إن كانت هذه الأشياء ﴿**أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا**﴾ أي فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم؛ ولهذا قال: ﴿**حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾.

روى الإمام أحمد عن زُهْرَة بن مَعْبَد عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال: والله لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إليّ من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «الآن يا عمر» انفرد بإخراجه البخاري. وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» [متفق عليه]. وروى الإمام أحمد وأبو داود واللفظ له عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعِينةَ، وأخذتم بأذناب البقر، ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم» [وهو صحيح قاله أحمد شاكر، والألباني].

﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ ﴾.

قال مجاهد: هذه أول آية نزلت من براءة. يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده

وتقديره لا بعددهم ولا بعددهم ونبههم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو كثر فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين. وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف ولن تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة» وهكذا رواه أبو داود والترمذي ثم قال: هذا حديث حسن غريب [وصححه أحمد شاكر].

وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله ﷺ، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف بن النصري، ومعه ثقيف بكمالها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال وهم قليل وناس من بني عمرو بن عامر وعوف بن عامر وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنَّعم وجاؤوا بقضِّهم وقَضِيضِهم فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين أيضاً، فسار بهم إلى العدو فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم، ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين كما قال الله عز وجل، وثبت رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر يثقلانها لئلا تسرع السير وهو ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول: «إلي عباد الله إليّ أنا رسول الله» ويقول في تلك الحال: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ومنهم من قال: ثمانون فمنهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والعباس وعلي والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم ثم أمر ﷺ عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن لا يفروا عنه فجعل ينادي بهم يا أصحاب الشجرة، ويقول تارة يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يا لبيك يا لبيك، وانعطف الناس فجعلوا يتراجعون إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه، ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ. فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله ﷺ أمرهم ﷺ أن يصدقوا الحملة وأخذ قبضة من التراب بعد

ما دعا ربه واستنصره، وقال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني» ثم رمى القوم بها فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينه وفمه ما شغله عن القتال ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجدلة بين يدي رسول الله ﷺ.

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رجلاً قال له: يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفرّ إن هوازن كانوا قوماً رماة فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة إنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجري ولا تصلح لكر ولا لفر ولا لهرب وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلاً عليه وعلماً منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان؛ ولهذا قال تعالى: **﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله﴾** أي طمأنينته وثباته على رسوله **﴿وعلى المؤمنين﴾** أي الذين معه **﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾** وهم الملائكة، كما روى الإمام أبو جعفر ابن جرير عن عبد الرحمن مولى أم برثن قال: حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حَلْب شاة، قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله ﷺ قال: فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه فقالوا لنا شاهت الوجوه ارجعوا قال فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها.

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار قدمنا ولم نولهم الدبر وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة قال: ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضي قُدُماً، فحادَت بغلته فمال عن السرج فقلت: ارتفع رفعك الله. قال: «ناولني كفاً من التراب» فناولته قال: فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم تراباً قال: «أين المهاجرون والأنصار؟» قلت: هم هناك قال: «اهتف بهم» فهتفت بهم فجاؤوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب وولى المشركون أدبارهم. ورواه الإمام أحمد في مسنده [وصححه شاكر].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم» [وروى البخاري معناه من حديث جماعة من الصحابة]. ولهذا قال تعالى: **﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين﴾**. وقوله: **﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾** قد تاب الله

على بقية هوازن وأسلموا وقدموا عليه مسلمين ولحقوه وقد قارب مكة عند الجِعِرَّانة، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوماً، فعند ذلك خَيَّرهم بين سبيهم وبين أموالهم فاختاروا سبيهم وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فرده عليهم وقسم أموالهم بين الغانمين ونفل أناساً من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام فأعطاهم مائة من الإبل وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النَّصْري واستعمله على قومه كما كان.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين الذين هم نجس ديناً عن المسجد الحرام، وألا يقربوه بعد نزول هذه الآية وكان نزولها في سنة تسع ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة أبي بكر رضي الله عنهما عامئذ وأمره أن ينادي في المشركين أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. فأتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدراً. وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي، كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين وأتبع نهيه قول الله تعالى: ﴿**إنما المشركون نجس**﴾ وقال عطاء: الحرم كله مسجد لقوله تعالى: ﴿**فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا**﴾ ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما دلت على طهارة المؤمن ولما ورد في الحديث الصحيح: «المؤمن لا ينجس» [رواه البخاري]. وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم، وقال الحسن: من صافحهم فليتوضأ.

وقوله: ﴿**وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله**﴾ قال محمد بن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا لتنقطعن عنا الأسواق ولتهلكن التجارة وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق، فنزلت: ﴿**وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله**﴾ من وجه غير ذلك ﴿**إن شاء**﴾ إلى قوله ﴿**وهم صاغرون**﴾ أي إن هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق فعوضهم الله بما قطع عنهم من أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية، وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم. ﴿**إن الله عليم**﴾ أي بما يصلحكم ﴿**حكيم**﴾ أي فيما يأمر به وينهى عنه؛ لأنه الكامل في أفعاله وأقواله العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى؛ ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة، فقال: ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**﴾ فهم في نفس الأمر

لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاءوا به وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه لا لأنه شرع الله ودينه؛ لأنهم لوكانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله. بل لحظوظهم وأهوائهم فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم، ولهذا قال: ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب**﴾ وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجاً واستقامت جزيرة العرب أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى وكان ذلك في سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فَأَوْعَبوا معه واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك في عام جَدْب ووقت قَيْظ وحر، وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك، فنزل بها وأقام بها قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس.

وقد استدل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس لما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر [رواه البخاري]. وهذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عنه وقال أبو حنيفة رحمه الله: بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب، وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسي ووثني وغير ذلك.

وقوله: ﴿**حتى يعطوا الجزية**﴾ أي إن لم يسلموا ﴿**عن يد**﴾ أي عن قهر لهم وغلبة ﴿**وهم صاغرون**﴾ أي ذليلون حقيرون مهانون. فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين بل هم أذلاء صَغَرة أشقياء كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه». ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال: كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا

وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نُحدثَ في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قِلاية ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها ولا نحيي منها ما كان خطط للمسلمين وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً، ولا نكتم غشاً للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شركاً ولا ندعو إليه أحداً، ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نوقر المسلمين وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم ولانكتني بكناهم، لا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور، وأن نجز مقاديم رؤوسنا، وأن نلزم زينا حيثما كنا وأن نشد الزنانير على أوساطنا، وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً، وألا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانين ولا باعوثاً، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم. قال فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه ولا نضرب أحداً من المسلمين شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾.

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال المشركين الكفار من اليهود والنصارى لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة، والفِرْية على الله تعالى فأما اليهود فقالوا في العُزَير: إنه ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وذكر السدي وغيره أن الشبهة التي حصلت لهم في ذلك أن العمالقة لما غلبت على بني إسرائيل فقتلوا علماءهم وسَبَوا كبارهم، بقي العزير يبكي على بني إسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه، فبينما هو ذات يوم إذ مر على جبانة، وإذ امرأة تبكي عند قبر وهي تقول: وامطعماه واكاسياه فقال لها: ويحك من كان يطعمك قبل هذا ؟ قالت: الله قال: فإن الله حي لا يموت، قالت يا عزير فمن كان يعلم العلماء قبل بني إسرائيل ؟ قال: الله. قالت: فلم تبكي عليهم ؟ فعرف أنه شيء قد وعظ به. ثم قيل له اذهب إلى نهر كذا

فاغتسل منه وصل هناك ركعتين فإنك ستلقى هناك شيخاً فما أطعمك فكله. فذهب ففعل ما أمر به فإذا شيخ فقال له: افتح فمك ففتح فمه فألقى فيه شيئاً كهيئة الجمرة العظيمة ثلاث مرات فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة فقال: يا بني إسرائيل قد جئتكم بالتوراة فقالوا يا عزير ما كنت كذاباً فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلماً وكتب التوراة بأصبعه كلها فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء أخبروا بشأن عزير فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال وقابلوها بها فوجدوا ما جاء به صحيحاً فقال بعض جهلتهم: إنما صنع هذا لأنه ابن الله.

وأما ضَلَال النصارى في المسيح فظاهر؛ ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال: ﴿**ذلك قولهم بأفواههم**﴾ أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلاقهم ﴿**يضاهئون**﴾ أي يشابهون ﴿**قول الذين كفروا من قبل**﴾ أي من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿**قاتلهم الله**﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله ﴿**أنى يؤفكون ؟**﴾ أي كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل ؟ وقوله: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم**﴾ روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرَّ إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها، فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عَدِي إلى المدينة، وكان رئيساً في قومه طيىء وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**﴾. قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم فقال: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم». وقال رسول الله ﷺ: «يا عدي ما تقول ؟ أيُفرّكَ أن يقال الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ما يُفرك أيفرك أن يقال: لا إله إلا الله فهل تعلم من إله إلا الله ؟». ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال: «إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون» [وهو حسن بمجموع طرقه] وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**﴾ إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا، وقال السدي: استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً**﴾ أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام وما حلله حلَّ وما شرعه اتُّبع وما حكم به نفذ ﴿**لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون**﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ

ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿**أن يطفئوا نور الله**﴾ أي ما بعث به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافترائهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه فكذلك ما أرسل به رسوله ﷺ لابد أن يتم ويظهر؛ ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم: ﴿**ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾ والكافر هو الذي يستر الشيء ويغطيه ومنه سمي الليل كافراً؛ لأنه يستر الأشياء والزارع كافراً لأنه يغطي الحَبَّ في الأرض كما قال: ﴿**أعجب الكفار نباته**﴾ [الحديد: ٢٠]. ثم قال تعالى: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق**﴾ فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع، ودين الحق: هي الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة.

﴿**ليظهره على الدين كله**﴾ أي على سائر الأديان كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زُوي لي منها» [رواه مسلم]. روى الإمام أحمد عن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله هذا الدين بعز عزيز أو بذُلِّ ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل الله به الكفر»، فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذل والصغار والجزية [ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

وفي المسند أيضاً عن عدي بن حاتم قال: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «يا عدي أسلم تسلم» فقلت إني من أهل دين قال: «أنا أعلم بدينك منك» فقلت أنت أعلم بديني مني ؟ قال: «نعم ألست من الرَّكُوسِيَّة، وأنت تأكل مرباع قومك ؟ قلت: بلى! قال: «فإن هذا لا يحل لك في دينك» قال: فلم يَعْدُ أن قالها فتواضعت لها، قال: «أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام، تقول إنما اتبعه ضَعَفَةُ الناس ومن لا قوة له، وقد رَمَتْهُم العرب، أتعرف الحيرة ؟» قلت: لم أرها وقد سمعت بها، قال: «فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظَّعِينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز» قلت: كسرى بن هرمز ؟ قال: «نعم كسرى بن هرمز، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد» قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها. [إسناده جيد].
وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعْبَد اللاتُ والعُزّى». فقلت: يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق** ـ إلى قوله ـ **ولو كره المشركون**﴾ أن ذلك تام،

قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل، ثم يبعث الله ريحاً طيبة فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم».

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

قال السدي: الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى. وهو كما قال فإن الأحبار هم علماء اليهود كما قال تعالى: **﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت﴾** [المائدة: ٦٣]، والرهبان عباد النصارى، والقسيسون علماؤهم كما قال تعالى: **﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾** [المائدة: ٨٢]. والمقصود التحذير من علماء السوء وعُبَّاد الضلالة، كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى. وفي الحديث الصحيح: «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القُذّة بالقُذّة» قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟ وفي رواية فارس والروم، قال: «فمن الناس إلا هؤلاء؟» [متفق عليه].

والحاصل التحذير من التشبه بهم في أحوالهم وأقوالهم ولهذا قال تعالى: **﴿ليأكلون أموال الناس﴾** وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ولهم عندهم هدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة وسلبهم إياها، وعوضهم بالذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله.

وقوله تعالى: **﴿ويصدون عن سبيل الله﴾** أي وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق، ويُلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون. وقوله: **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾** هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال بعضهم [وهو ابن المبارك]:

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

وأما الكنز فقال ابن عمر: هو المال الذي لا تؤدى منه الزكاة، وقال: ما أُدِّي زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهراً لا تؤدى زكاته فهو كنز. وقد روي هذا عن ابن عباس وجابر وأبي هريرة موقوفاً ومرفوعاً، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه نحوه: «أيما

مال أديت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً في الأرض، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض». وروى البخاري عن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهراً للأموال، وكذا قال عمر بن عبد العزيز، وعِرَاك بن مالك نسخها قوله تعالى: **﴿خذ من أموالهم صدقة﴾** [التوبة: ١٠٣].

وعن أبي أمامة أنه قال: حلية السيوف من الكنز. ما أحدثكم إلا ما سمعت.

وقوله تعالى: **﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾** أي يقال لهم هذا الكلام تبكيتاً وتقريعاً وتهكماً، كما في قوله: **﴿ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾** [الدخان: ٤٨-٤٩] أي هذا بذاك وهذا الذي كنتم تكنزون لأنفسكم؛ ولهذا يقال من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله، عُذب به وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها، فيحمى عليها في نار جهنم وناهيك بحرهافتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. قال عبد الله بن مسعود: والله الذي لا إله غيره لا يكوى عبد بكنز، فيمس دينار ديناراً ولا درهم درهماً ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي بين الناس، ثم يُرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» وذكر تمام الحديث [ورواه البخاري أيضا]. وروى البخاري في تفسير هذه الآية عن زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر بالرَّبَذة فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض، قال: كنا بالشام فقرأت: **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾** فقال معاوية ما هذه فينا ما هذه إلا في أهل الكتاب، قال: قلت إنها لفينا وفيهم.

قلت: كان من مذهب أبي ذر رضي الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال، وكان يفتي الناس بذلك ويحثهم عليه ويأمرهم به ويغلظ في خلافه. فنهاه معاوية فلم ينته، فخشي أن يضر بالناس في هذا فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان وأن يأخذه إليه، فاستقدمه عثمان إلى المدينة، وأنزله بالرّبذة وحده، وبها مات رضي الله عنه في خلافة عثمان. وقد اختبره معاوية رضي الله عنه وهو عنده هل يوافق عمله قوله فبعث إليه بألف دينار ففرقها من يومه ثم بعث إليه الذي أتاه بها فقال إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأت فهات الذهب فقال: ويحك إنها خرجت ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به. وقال ابن عباس: إنها عامة، وقال السدي: هي في أهل القبلة. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهباً يمر عليه ثالثة وعندي منه شيء إلا دينار أرصده لدين» [رواه البخاري] فهذا

والله أعلم هو الذي حدا بأبي ذر على القول بهذا.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن الصامت رضي الله عنه أنه كان مع أبي ذر فخرج عطاؤه ومعه جارية فجعلت تقضي حوائجه ففضلت معها سبعة فأمرها أن تشتري به فلوساً. قال: قلت لو ادخرته لحاجة بيوتك وللضيف ينزل بك! قال: إن خليلي عهد إليّ أن أيما ذهب أو فضة أوكى عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله عز وجل. [رواه الطبراني، وقال الهيثمي: رجاله ثقات، وله طريق أخرى رجالها رجال الصحيح].

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (٣٦) ﴾.

روى الإمام أحمد عن أبي بكرة أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». ثم قال: «أي يوم هذا ؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس يوم النحر ؟» قلنا: بلى. ثم قال: «أي شهر هذا ؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس ذا الحجة ؟» قلنا: بلى ثم قال: «أي بلد هذا ؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليست البلدة ؟» قلنا: بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم ـ وأحسبه قال ـ وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا لا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض ألا هل بلغت ؟ ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه» ورواه البخاري ومسلم.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿**منها أربعة حرم**﴾ قال محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة. وقوله ﷺ في الحديث: «إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض» تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه، وتثبيت للأمر على ما جعله الله ، في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسيء ولا تبديل كما قال في تحريم مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»، وهكذا قال ههنا «إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض» أي الأمر اليوم شرعاً كما ابتدأ الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض.

وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث إن المراد بقوله «قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض» أنه اتفق أن حج رسول الله ﷺ في تلك السنة في ذي الحجة وأن العرب قد كانت نسأت النسيء يحجون في كثير من السنين بل أكثرها في غير ذي الحجة،

وزعموا أن حجة الصديق في سنة تسع كانت في ذي القعدة، وفي هذا نظر كما سنبينه إذا تكلمنا على النسيء، وأغرب منه ما رواه الطبراني عن بعض السلف في جملة حديث أنه اتفق حج المسلمين واليهود والنصارى في يوم واحد وهو يوم النحر عام حجة الوداع والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**منها أربعة حرم**﴾ فهذا مما كانت العرب أيضاً في الجاهلية تحرمه وهو الذي كان عليه جمهورهم إلا طائفة منهم يقال لهم «البَسْل» كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقاً وتشديداً، وأما قوله: «ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» فإنما أضافه إلى مضر ليبين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان لا كما تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ثلاثة سرد وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة فحرم قبل شهر الحج شهر وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك وحرم بعده شهر آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى نائي أقصى بلادهم آمنين، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً.

وقوله: ﴿**ذلك الدين القيم**﴾ أي هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم. وقال ابن عباس في قوله: ﴿**إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا**﴾ الآية، فلا تظلموا فيهن أنفسكم في كلهن ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراماً، وعظم حُرُماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم. وقال قتادة في قوله: ﴿**فلا تظلموا فيهن أنفسكم**﴾ إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء. وقال: إن الله اصطفى صفايا من خلقه. اصطفى من الملائكة، رسلاً ومن الناس رسلاً، واصطفى من الكلام ذكْرَه، واصطفى من الأرض المساجد. واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم واصطفى من الأيام يوم الجمعة واصطفى من الليالي ليلة القدر فعظِّموا ما عظم الله. فإنما تُعظَّم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل. وقال محمد بن إسحاق: ﴿**فلا تظلموا فيهن أنفسكم**﴾ أي لا تجعلوا حرامها حلالاً ولا حلالها حراماً، كما فعل أهل الشرك فإنما النسيء الذي كانوا يصنعون من ذلك زيادة في الكفر ﴿**يضل به الذين كفروا**﴾ الآية [التوبة: ٣٧]، وهذا القول اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿**وقاتلوا المشركين كافة**﴾ أي جميعكم ﴿**كما يقاتلونكم كافة**﴾ أي جميعهم ﴿**واعلموا أن الله مع المتقين**﴾. وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم على قولين: **أحدهما**: وهو الأشهر أنه منسوخ لأنه تعالى قال ههنا

﴿**فلا تظلموا فيهن أنفسكم**﴾ وأمر بقتال المشركين، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً فلو كان محرماً في الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها؛ ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت في الصحيحين أنه خرج إلى هوازن في شوال فلما كسرهم واستفاء أموالهم ورجع فلهم فلجؤوا إلى الطائف فعمد إلى الطائف فحاصرها أربعين يوماً وانصرف ولم يفتتحها فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام. **والقول الآخر**: أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام**﴾ [المائدة: ٢]، وقال: ﴿**الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم**﴾ الآية [البقرة: ١٩٤]، وقال: ﴿**فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين**﴾ الآية [التوبة: ٥٠].

وأما قوله تعالى: ﴿**وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة**﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله، وأنه حكم مستأنف، ويكون من باب التهييج والتحضيض أي كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضاً لهم إذا حاربتموهم وقاتلوهم بنظير مايفعلون، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم كما قال تعالى: ﴿**الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص**﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿**ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم**﴾ الآية [البقرة: ١٩١]، وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من تتمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف، فإنهم هم الذين ابتدؤوا القتال وجمعوا الرجال ودعوا إلى الحرب والنزال فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً، وكان ابتداؤه في شهر حلال ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياماً ثم قفل عنهم لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا هو أمر مقرر وله نظائر كثيرة والله أعلم.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾.

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم وتأخيره إلى صفر فيحلون الشهر الحرام ويحرمون الشهر الحلال ليواطئوا عدة ما حرم الله الأشهر الأربعة.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ قال: النسيء أن جنادة بن عوف بن أمية الكناني كان يوافي الموسم في كل عام وكان يكنى أبا ثُمَامة فينادي ألا إن أبا ثمامة لا يُحاب ولا يُعاب ألا وإن صفر العام الأول العام حلال. فيحله للناس فيحرم صفراً عاماً، ويحرم المحرم عاماً فذلك قول الله: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ إلى قوله﴿الكافرين﴾، وقوله: ﴿إنما النسيء زيادة الكفر﴾ يقول: يتركون المحرم عاماً وعاماً يحرمونه، وروي عن أبي وائل والضحاك وقتادة نحو هذا.

وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا في كتاب السيرة كلاماً جيداً مفيداً حسناً فقال: كان أول من نسأ الشهور على العرب فأحل منها ما حرم الله وحرم منها ما أحل الله عز وجل «القَلَمَّس» وهو حذيفة بن عبد فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد، ثم من بعد عباد ابنه قلع بن عباد، ثم ابنه أمية بن قلع، ثم ابنه عوف بن أمية، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف وكان آخرهم وعليه قام الإسلام فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيباً فحرم رجباً وذا القعدة وذا الحجة ويحل المحرم عاماً ويجعل مكانه صفراً ويحرمه ليواطىء عدة ما حرم الله فيحل ما حرم الله يعني ويحرم ما أحل الله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

هذا شروع في عتاب من تخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله﴾ أي إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿اثاقلتم إلى الأرض﴾ أي تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدَّعَة وطيب الثمار ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟﴾ أي ما لكم فعلتم هكذا أرضاً منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة ؟ ثم زهد تبارك وتعالى في الدنيا، ورغب في الآخرة فقال: ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ كما روى الإمام أحمد عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع ؟» وأشار بالسبابة انفرد بإخراجه مسلم. فالدنيا ما مضى منها وما بقي منها عند الله قليل. وقال الأعمش في الآية: ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ قال: كزاد الراكب.

وقال عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه: لما حضرت عبد العزيز بن مَروان الوفاة. قال: ائتوني بكفني الذي أكفن فيه أنظر إليه. فلما وضع بين يديه نظر إليه فقال: أما لي من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا ؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول: أفٍّ لك من دار إن كان كثيرك لقليل، وإن كان قليلك لقصير، وإن كنا منك لفي غرور. ثم توعد تعالى على ترك الجهاد

فقال: ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتثاقلوا عنه فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم ﴿ويستبدل قوماً غيركم﴾ أي لنصرة نبيه وإقامة دينه كما قال تعالى: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم * ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [محمد:٣٨]. ﴿ولا تضروه شيئاً﴾ أي ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، ونُكُولكم وتثاقلكم عنه ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم، وقد قيل إن هذه الآية وقوله: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾، وقوله: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ [التوبة:١٢٠] إنهن منسوخات بقوله تعالى: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ [التوبة:١٢٢]، روي هذا عن ابن عباس وعكرمة والحسن، وزيد بن أسلم ورده ابن جرير وقال: إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد فتعين عليهم ذلك فلو تركوه لعوقبوا عليه وهذا له اتجاه والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿إلا تنصروه﴾ أي تنصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وحافظه، كما تولى نصره ﴿إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين﴾ أي عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هارباً صحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطَّلَبُ الذين خرجوا في آثارهم، ثم يسيرا نحو المدينة فجعل أبو بكر رضي الله عنه يجزع أن يطَّلع عليهم أحد فيخلص إلى رسول الله ﷺ منهم أذى فجعل النبي ﷺ يُسكِّنه ويثبِّته ويقول: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»، كما روى الإمام أحمد عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. قال: فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما» أخرجاه في الصحيحين. ولهذا قال تعالى: ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ أي تأييده ونصره عليه أي على الرسول ﷺ في أشهر القولين وقيل على أبي بكر، وروي عن ابن عباس وغيره قالوا: لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينة وهذا لا ينافي تجدد سكينة خاصة بتلك الحال؛ ولهذا قال: ﴿وأيده بجنود لم تروها﴾ أي الملائكة ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا﴾ قال ابن عباس: يعني بكلمة الذين كفروا الشرك وكلمة الله هي لا إله إلا الله. وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». وقوله: ﴿والله عزيز﴾ أي في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب لا يُضام من لاذ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه. ﴿حكيم﴾ في أقواله وأفعاله.

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)﴾.

قال أبو الضحى مسلم بن صبيح: هذه الآية **﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾** أول ما نزل من سورة براءة.

أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب وحَتَّم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المَنْشط والمَكْرَه والعسر واليسر فقال: **﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾**.

قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية **﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾** فقال أرى ربنا يستنفرنا شيوخاً وشباناً جهزوني يا بني، فقال بنوه يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ومع أبي بكر حتى مات ومع عمر حتى مات فنحن نغزو عنك فأبى فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه فيها. وهكذا روي عن ابن عباس وعكرمة وأبي صالح والحسن البصري وشمر بن عطية ومقاتل بن حيان والشعبي وزيد بن أسلم أنهم قالوا في تفسير هذه الآية **﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾** قالوا كهولاً وشباناً وكذا قال عكرمة والضحاك ومقاتل بن حيان وغيرواحد، وقال مجاهد شباناً وشيوخاً وأغنياء ومساكين وكذا قال أبو صالح وغيره وقال الحكم بن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل، وفي رواية عن ابن عباس: انفروا نشاطاً وغير نشاط، وكذا قال قتادة. وقال مجاهد: **﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾** قالوا: فإن فينا الثقيل، وذا الحاجة والضيعة والشغل، والمتيسر به أمر فأنزل الله وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافاً وثقالاً وعلى ما كان منهم. وقال الحسن بن أبي الحسن البصري أيضاً في العسر واليسر وهذا كله من مقتضيات العموم في الآية وهذا اختيار ابن جرير.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: إذا كان النفير إلى دروب الروم نفر الناس إليها خفافاً وركباناً وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافاً وثقالاً وركباناً ومشاة وهذا تفصيل في المسألة. وقال السدي قوله: **﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾** يقول: غنياً وفقيراً وقوياً وضعيفاً فجاءه رجل يومئذ زعموا أنه المقداد وكان عظيماً سميناً فشكا إليه وسأله أن يأذن له فأبى فنزلت يومئذ **﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾** فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس شأنها فنسخها الله فقال: **﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله﴾** [التوبة: ٩١].

وروى ابن جرير عن حبان بن زيد الشرعبي قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان والياً على حمص قِبَل الأفسُوس إلى الجراجمة فلقيت شيخاً كبيراً همّاً، قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار. فأقبلت إليه فقلت يا عم لقد أعذر الله إليك. قال:

فرفع حاجبيه فقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافاً وثقالاً إنه من يحبه الله يبتليه ثم يعيده الله فيبقيه. وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا الله عز وجل. ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله، وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله فقال: ﴿**وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾ أي هذا خير لكم في الدنيا والآخرة لأنكم تغرمون في النفقة قليلاً فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة كما قال النبي ﷺ: «وتكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرده إلى منزله نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة» [متفق عليه]. ولهذا قال تعالى: ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ [البقرة:٢١٦]. ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد عن أنس أنَّ رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم» قال: أجدني كارهاً قال: «أسلم وإن كنت كارهاً». [وهو صحيح].

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك وقعدوا عن النبي ﷺ بعدما استأذنوه في ذلك مظهرين أنهم ذوو أعذار، ولم يكونوا كذلك فقال: ﴿**لو كان عرضاً قريباً**﴾ قال ابن عباس: غنيمة قريبة ﴿**وسفراً قاصداً**﴾ أي قريباً أيضاً ﴿**لا تبعوك**﴾ أي لكانوا جاؤوا معك لذلك ﴿**ولكن بعدت عليهم الشقة**﴾ أي المسافة إلى الشام ﴿**وسيحلفون بالله**﴾ أي لكم إذا رجعتم إليهم ﴿**لو استطعنا لخرجنا معكم**﴾ أي لو لم تكن لنا أعذار لخرجنا معكم قال الله تعالى: ﴿**يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون**﴾.

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

روى ابن أبي حاتم عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة فقال: ﴿**عفا الله عنك لم أذنت لهم**﴾ وكذا قال مُورِّق العجلي وغيره. وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون ثم أنزل التي في سورة النور، فرخّص له في أن يأذن لهم إن شاء ﴿**فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم**﴾ [النور:٦٢]. وكذا روي عن عطاء الخراساني، وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**حتى يتبين لك الذين صدقوا**﴾ أي في إبداء الأعذار ﴿**وتعلم الكاذبين**﴾ يقول تعالى: هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن

الغزو وإن لم تأذن لهم فيه. ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله فقال: ﴿**لايستأذنك**﴾ أي في القعود عن الغزو ﴿**الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم**﴾ لأنهم يرون الجهاد قربة، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا ﴿**والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك**﴾ أي في القعود ممن لا عذر له ﴿**الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾ أي لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم ﴿**وارتابت قلوبهم**﴾ أي شكت في صحة ما جئتهم به ﴿**فهم في ريبهم يترددون**﴾ أي يتحيرون، يُقَدِّمون رجلاً ويؤخرون أخرى وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم حَيارى هَلْكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً.

﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**ولو أرادوا الخروج**﴾ أي معك إلى الغزو ﴿**لأعدوا له عدة**﴾ أي لكانوا تأهبوا له ﴿**ولكن كره الله انبعاثهم**﴾ أي أبغض أن يخرجوا معك قَدراً ﴿**فثبطهم**﴾ أي أخرهم ﴿**وقيل اقعدوا مع القاعدين**﴾ أي قدراً. ثم بين الله تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال: ﴿**لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً**﴾ أي لأنهم جبناء مخذولون ﴿**ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة**﴾ أي ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿**وفيكم سماعون لهم**﴾ أي مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم فيؤدي هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير. وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير: ﴿**وفيكم سماعون لهم**﴾ أي عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم، وهذا لا يبقى له اختصاص لخروجهم معهم بل هذا عام في جميع الأحوال والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين.

وقال محمد بن إسحاق: كان فيما بلغني ـ من استأذن ـ من ذوي الشرف منهم عبد الله بن أبي ابن سلول والجدُّ بن قيس، وكانوا أشرافاً في قومهم فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه، فيفسدوا عليه جنده. وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم فقال: ﴿**وفيكم سماعون لهم**﴾. ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿**والله عليم بالظالمين**﴾ فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ولهذا قال تعالى: ﴿**لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً**﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: ﴿**ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون**﴾ [الأنعام:٢٨]، وقال تعالى: ﴿**ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون**﴾ [الأنفال:٢٣]، وقال تعالى: ﴿**ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم**

ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً * وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً * ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ والآيات في هذا كثيرة.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

يقول تعالى محرضاً لنبيه عليه السلام على المنافقين: **﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور﴾** أي لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماله مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد تَوَجَّه. فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم؛ ولهذا قال تعالى: **﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾**.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

يقول تعالى ومن المنافقين من يقول لك: يا محمد **﴿ائذن لي﴾** في القعود **﴿ولا تفتني﴾** بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم. قال الله تعالى: **﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾** أي قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا. كما قال محمد بن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه للجَدِّ بن قيس أخي بني سلمة: «هل لك يا جَدُّ العامَ في جلاد بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك» ففي الجد بن قيس نزلت هذه: **﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني﴾** الآية، أي إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم. [وهو مرسل صحيح، وجاء موصولاً من حديث جابر رضي الله عنه]. وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت في الجد بن قيس، وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بني سلمة. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لهم: «من سيدكم يا بني سلمة؟» قالوا: الجد بن قيس على أنا نُبَخِّله. فقال رسول الله ﷺ: «وأي داء أدوأ من البخل! ولكن سَيِّدكم الفتى الأبيض الجَعْد بشرُ بن البراء بن مَعْرُور» [والذي في البخاري منه قوله: «وأي داء أدوأ من البخل»، والقصة ذكرها ابن عبد البر في الاستيعاب، وابن حجر في الإصابة]. وقوله تعالى: **﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾** أي لا مَحيد لهم عنها ولا مَحيص ولا مَهرَب.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ

فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

يعلم تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعداوة هؤلاء له لأنه مهما أصابه من ﴿حسنة﴾ أي فتح ونصر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك ﴿وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل﴾ أي قد احترزنا من متابعته من قبل هذا ﴿ويتولوا وهم فرحون﴾ فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة فقال: ﴿قل﴾ أي لهم ﴿لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ أي نحن تحت مشيئة الله وقدره ﴿هو مولانا﴾ أي سيدنا وملجؤنا ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿قل﴾ لهم ﴿هل تربصون بنا﴾ أي تنتظرون بنا ﴿إلا إحدى الحسنيين﴾ شهادة أو ظَفَرٌ بكم. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ﴿ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا﴾ أي ننتظر بكم هذا أو هذا، إما أن يصيبكم الله بقارعة من عنده أو بأيدينا، بسبي أو بقتل ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾. وقوله: ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً﴾ أي مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾. ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو أنهم لا يتقبل منهم ﴿أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ أي والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾ أي ليس لهم قصد صحيح ولا همة في العمل ﴿ولا ينفقون﴾ نفقة ﴿إلا وهم كارهون﴾. وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أن الله لا يمل حتى تملوا وأنه طيب لا يقبل إلا طيباً؛ فلهذا لا يتقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً لأنه إنما يتقبل من المتقين.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم﴾، كما قال تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾ [طه: ١٣١]، وقال: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

وقوله: ﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ قال الحسن البصري بزكاتها والنفقة منها في سبيل الله، وقال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. واختار ابن جرير

قول الحسن، وهو القول القوي الحسن. وقوله: ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ أي ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم. عياذاً بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفرقهم أنهم ﴿يحلفون بالله إنهم لمنكم﴾ يميناً مؤكدة ﴿وما هم منكم﴾ أي في نفس الأمر ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ أي فهو الذي حملهم على الحلف ﴿لو يجدون ملجئاً﴾ أي حصناً يتحصنون به ﴿أو مغارات﴾ وهي التي في الجبال ﴿أو مدخلاً﴾ وهو السِّرْب في الأرض والنفق. قال ذلك في الثلاثة ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿لولوا إليه وهم يجمحون﴾ أي يسرعون في ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرهاً لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم ولكن للضرورة أحكام؛ ولهذا لا يزالون في هم وغمٍّ؛ لأن الإسلام وأهله لا يزال في عز ورفعة؛ فلهذا كلما سُرّ المؤمنون ساءهم ذلك فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿لو يجدون ملجئاً أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿ومنهم﴾ أي ومن المنافقين ﴿من يلمزك﴾ أي يعيب عليك ﴿في﴾ قسم ﴿الصدقات﴾ إذا فرقتها ويتهمك في ذلك وهم المتهمون وهم مع هذا لا ينكرون للدين وإنما ينكرون لحظ أنفسهم؛ ولهذا إن ﴿أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ أي يغضبون لأنفسهم.

روى الشيخان من حديث أبي سعيد في قصة ذي الخويصرة واسمه حرقوص لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين، فقال له: اعدل فإنك لم تعدل فقال: «لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل». ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفياً: «إنه يخرج من ضِئْضِىء هذا قوم يحقرُ أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرَّمِيَّة، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء» وذكر بقية الحديث. ثم قال تعالى منبهاً لهم على ما هو خير من ذلك فقال: ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده وهو قوله: ﴿وقالوا حسبنا الله﴾، وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتثال أوامره وترك زواجره وتصديق أخباره والاقتفاء بآثاره.

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦٠ ﴾.

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولمزهم إياه في قَسْم الصدقات بين تعالى أنه هو الذي قَسْمها وبين حكمها وتولى أمرها بنفسه ولم يكل قسمها إلى أحد غيره فجزّأها لهؤلاء المذكورين.

وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية هل يجب استيعاب الدفع إليها أو إلى ما أمكن منها ؟ على قولين: **أحدهما**: أنه يجب ذلك وهو قول الشافعي وجماعة.

والثاني: أنه لا يجب استيعابها بل يجوز الدفع إلى واحد منها، ويعطي جميع الصدقة مع وجود الباقين وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف منهم عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران، قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم، وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف ههنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعاب الإعطاء. ولوجوه الحجاج والمآخذ مكان غير هذا والله أعلم، وإنما قدم الفقراء ههنا لأنهم أحوج من البقية على المشهور ولشدة فاقتهم. وروي عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وابن زيد. واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير: هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً، والمسكين: هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس وقال قتادة: الفقير من به زمانة، والمسكين الصحيح الجسم. وقال إبراهيم: هم فقراء المهاجرين. قال سفيان الثوري: يعني ولا يُعطى الأعراب منها شيئاً، وكذا روي عن سعيد بن جبير وسعيد بن عبد الرحمن بن أبزَى.

وقال عكرمة: لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين وإنما المساكين مساكين أهل الكتاب ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية. فأما الفقراء فعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي». رواه أحمد وأبو داود والترمذي، [وهو صحيح]، ولأحمد أيضاً والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة مثله. وعن عبيد الله بن عدي بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة فقلب إليهما البصر فرآهما جلدين فقال: «إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب» رواه أحمد وأبو داود والنسائي بإسناد جيد قوي.

وأما المساكين فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان». قالوا: فما المسكين يا رسول الله ؟ قال: «الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئاً». رواه الشيخان البخاري ومسلم. وأما العاملون عليها فهم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطا على ذلك ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث، أنه انطلق هو والفضل بن

عباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة فقال: «إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس». وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام منهم من يعطى ليسلم، كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهدها مشركاً، روى الإمام أحمد عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إلي، فما زال يعطيني حتى صار وإنه لأحب الناس إلي. ورواه مسلم والترمذي. ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعةً من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل، وقال: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه مخافة أن يكُبَّه الله على وجهه في نار جهنم». [رواه أحمد ومسلم]. ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه، ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حَوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد، ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع، والله أعلم.

وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبي ﷺ ؟ فيه خلاف، فرُوي عن عمر، وعامر الشَّعبي وجماعة: أنهم لا يُعطَون بعده؛ لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ومكَّن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد، وقال آخرون: بل يُعطَون لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم.

وأما الرقاب فروي عن الحسن البصري ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعي والزهري وابن زيد أنهم المكاتبون، وروي عن أبي موسى الأشعري نحوه، وهو قول الشافعي والليث. وقال ابن عباس والحسن: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل ومالك وإسحاق، أي أن الرقاب أعم من أن يعطي المكاتب أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً، وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من معتقها، وما ذاك إلا لأن الجزاء من جنس العمل **﴿وما تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾** [الصافات:٣٩]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهُم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف» رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود، [وقال الترمذي: حسن].

وأما الغارمون فهم أقسام فمنهم: من تحمل حَمَالة أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله، أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب، فهؤلاء يدفع إليهم، والأصل في هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها» قال: ثم قال: «يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك». الحديث رواه مسلم، وعن أبي سعيد قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه، فقال النبي ﷺ: «تصدقوا عليه» فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي ﷺ لغرمائه: «خذوا

ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك» رواه مسلم.

وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه فيقول: يا ابن آدم فيم أخذت هذا الدين وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول: يا رب إنك تعلم أني أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم أضيع ولكن أتى على يدي إما حرق وإما سرق وإما وضيعة. فيقول الله صدق عبدي أنا أحق من قضى عنك اليوم، فيدعو الله بشيء فيضعه في كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته، فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته». [قال شاكر: إسناده حسن].

وأما في سبيل الله فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان، وعند الإمام أحمد والحسن وإسحاق والحج من سبيل الله للحديث.

وكذلك ابن السبيل وهوالمسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال، وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه. والدليل على ذلك الآية وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: العامل عليها أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز في سبيل الله، أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغني». [قال الحافظ في التلخيص: صححه جماعة].

وقوله: ﴿**فريضة من الله**﴾ أي حكماً مقدراً بتقدير الله وفَرْضِه وقَسْمه ﴿**والله عليم حكيم**﴾ أي عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده ﴿**حكيم**﴾ فيما يقوله ويفعله ويشرعه ويحكم به، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

يقول تعالى ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه، ويقولون ﴿**هو أذن**﴾ أي من قال له شيئاً صدقه، ومن حدثه فينا صدقه، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا. روي معناه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. قال الله تعالى: ﴿**قل أذن خير لكم**﴾ أي هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب ﴿**يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين**﴾ أي ويصدق المؤمنين ﴿**ورحمة للذين آمنوا منكم**﴾ أي وهو حجة على الكافرين؛ ولهذا قال ﴿**والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم**﴾.

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿**يحلفون بالله لكم ليرضوكم**﴾ الآية. قال ذُكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا وإن كان ما يقول محمد حقاً، لهم شر من الحمير.

قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق ولأنت أشر من الحمار، قال: فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: «ما حملك على الذي قلت ؟» فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب، فأنزل الله: ﴿**يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين**﴾. وقوله تعالى: ﴿**ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالداً فيها**﴾ الآية، أي ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله عز وجل أي شاقه وحاربه، وكان في حد والله ورسوله في حد ﴿**فأن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم**﴾ أي وهذا هو الذل العظيم والشقاء الكبير.

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

قال مجاهد: يقولون القول بينهم ثم يقولون: عسى الله أن لا يُفْشي علينا سِرَّنا هذا، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿**وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير**﴾ [المجادلة:٨]. وقال في هذه الآية: ﴿**قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون**﴾ أي إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم، كما قال تعالى: ﴿**أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم**﴾ إلى قوله ﴿**ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم**﴾ [محمد:٢٩ـ٣٠]؛ ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة الفاضحة، فاضحة المنافقين.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

قال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بني أمية بن زيد من بني عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مَخْشي بن حمَير، يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين فقال مخشي بن حمير: والله لوددت أني أقاضَى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وأنَّا نَنْفلِتُ أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه، وقال رسول الله ﷺ فيما بلغني لعمار بن ياسر: «أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا فإن أنكروا فقل بلى قلتم كذا وكذا» فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت ورسول الله واقف على راحلته، فجعل يقول وهو آخذ بحَقَبها: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله عز وجل: ﴿**ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب**﴾ فقال مخشي بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي فكان الذي عفي عنه في هذه الآية مخشي بن

حمير، فتسمى عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر. [صححه الشيخ شاكر بشواهده].

وقال عكرمة في تفسير هذه الآية: كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول اللهم إني أسمع آية أنا أعنى بها تقشعر منها الجلود وتجيب منها القلوب، اللهم فاجعل وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحد أنا غسّلت، أنا كفنت، أنا دفنت. قال: فأصيب يوم اليمامة فما أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره. وقوله: ﴿**لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم**﴾ أي بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿**إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة**﴾ أي لا يعفى عن جميعكم ولا بد من عذاب بعضكم ﴿**بأنهم كانوا مجرمين**﴾ أي مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾.

يقول تعالى منكراً على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كان هؤلاء ﴿**يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم**﴾ أي عن الإنفاق في سبيل الله، ﴿**نسوا الله**﴾ أي نسوا ذكر الله ﴿**فنسيهم**﴾. كقوله تعالى: ﴿**وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا**﴾ [الجاثية: ٣٤]، ﴿**إن المنافقين هم الفاسقون**﴾ أي الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلالة، وقوله: ﴿**وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم**﴾ أي على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم ﴿**خالدين فيها**﴾ أي ماكثين فيها مخلدين هم والكفار ﴿**هي حسبهم**﴾ أي كفايتهم في العذاب ﴿**ولعنهم الله**﴾ أي طردهم وأبعدهم ﴿**ولهم عذاب مقيم**﴾.

﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

يقول تعالى أصاب هؤلاء من عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم، وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثرأموالاً وأولاداً ﴿**فاستمتعوا بخلاقهم**﴾ قال الحسن البصري: بدينهم، ﴿**كما استمع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا**﴾ أي في الكذب والباطل ﴿**أولئك حبطت أعمالهم**﴾ أي بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿**في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون**﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب. قال ابن عباس في قوله: ﴿**كالذين من قبلكم**﴾ الآية، ما أشبه الليلة بالبارحة هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم لا أعلم إلا أنه قال: «والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جُحر ضبٍّ لدخلتموه». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتتبعن سَنَن الذين من قبلكم،

شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وباعاً بباع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا: ومن هم يا رسول الله، أهل الكتاب؟ قال: «فمَه». وزاد أبو هريرة [في رواية]: اقرؤوا إن شئتم القرآن ﴿**كالذين من قبلكم**﴾ الآية، قال أبو هريرة: الخلاق: الدين ﴿**وخضتم كالذي خاضوا**﴾ قالوا يا رسول الله كما صنعت فارس والروم؟ قال: «فهل الناس إلا هم؟». [رواه الطبري]. وهذا الحديث له شاهد في الصحيح.

- ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل ﴿**ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم**﴾ أي ألم تُخْبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل ﴿**قوم نوح**﴾ وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام، ﴿**وعاد**﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هوداً عليه السلام، ﴿**وثمود**﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة، ﴿**وقوم إبراهيم**﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم وأهلك ملكهم النمرود بن كنعان لعنه الله، ﴿**وأصحاب مدين**﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة، ﴿**والمؤتفكات**﴾ قوم لوط وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال في الآية الأخرى: ﴿**والمؤتفكة أهوى**﴾ [النجم:٥٣] أي الأمة المؤتكفة وقيل: أم قراهم، وهي سدوم، والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطاً عليه السلام وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، ﴿**أتتهم رسلهم بالبينات**﴾ أي بالحجج القاطعات، ﴿**فما كان الله ليظلمهم**﴾ أي بإهلاكه إياهم لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل، ﴿**ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ أي بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: ﴿**بعضهم أولياء بعض**﴾ أي يتناصرون كما جاء في الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه [متفق عليه]، وفي الصحيح أيضاً: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» [متفق عليه]. وقوله: ﴿**يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾ كقوله تعالى: ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقوله: ﴿**ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة**﴾ أي يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ﴿**ويطيعون الله ورسوله**﴾ أي فيما أمر وترك ما عنه زجر ﴿**أولئك سيرحمهم الله**﴾ أي سيرحم الله من اتصف

بهذه الصفات ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي عزيز ومن أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿حكيم﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإنه له الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ومساكن طيبة﴾ أي حسنة البناء طيبة القرار، كما جاء في الصحيحين عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن». وبه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً في السماء! للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضاً» أخرجاه.

ثم ليعلم أن أعلى منزلة في الجنة مكان يقال له الوسيلة لقربه من العرش وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله. وأرجو أني أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة».

وقوله تعالى: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ أي رضا الله عنهم أكبر وأجل مما هم فيه من النعيم، كما روى الإمام مالك رحمه الله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك يا ربنا وسعديك والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» أخرجاه من حديث مالك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة.

وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾ قال: بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه. وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم، وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم، وعن مقاتل والربيع مثله، وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم، وقد يقال إنه لا منافاة بين هذه الأقوال لأنه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم. وقوله: ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم﴾ قال قتادة: نزلت في عبد الله بن أبي وذلك أنه اقتتل رجلان جهني وأنصاري فعلا الجهني على الأنصاري، فقال عبد الله للأنصار ألا تنصروا أخاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمِّن كلبك يأكلك، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله فيه هذه الآية. [رواه ابن جرير].

وروى [أيضا] الإمام أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني الشيطان فإذا جاء فلا تكلموه» فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «علام تشتمني أنت وأصحابك ؟» فانطلق الرجل فجاءه بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾ الآية [قال شاكر: إسناده صحيح].

وقوله: ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ قيل أنزلت في الجلاس بن سويد وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته حين قال لأخبرن رسول الله ﷺ، وقيل في عبد الله بن أبي، هم بقتل رسول الله ﷺ، وقال السدي: نزلت في أناس أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرض رسول الله ﷺ، وقد ورد أن نفراً من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك، في بعض تلك الليالي في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلاً، قال الضحاك: ففيهم نزلت هذه الآية، وذلك بَيِّنٌ فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق الناقة أو أنا أسوقه وعمار يقوده حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها، قال فأنبهت رسول الله ﷺ بهم، فصرخ بهم فولوا مدبرين، فقال لنا رسول الله ﷺ: «هل عرفتم القوم ؟» قلنا: لا يا رسول الله قد كانوا متلثمين ولكنا قد عرفنا الركاب قال: «هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة وهل تدرون ما أرادوا ؟» قلنا: لا، قال: «أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ في العقبة فيلقوه منها». قلنا: يا رسول الله أوَلاَ تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال: «لا، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم . . .» الحديث ثم قال: «اللهم ارمهم بالدبيلة» قلنا: يا رسول الله وما الدبيلة ؟ قال: «شهاب

من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك». [ولأحمد نحوه من حديث أبي الطفيل].

وروى مسلم عن أبي الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك؟ فقال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم؟ وقد كان في حرة فمشى فقال: إن الماء قليل فلا يسبقني إليه أحد، فوجد قوماً قد سبقوه فلعنهم يومئذ، وفي رواية له أيضاً أن النبي ﷺ قال: «في أصحابي اثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط: ثمانية تكفيكهم الدبيلة سراج من نار يظهر بين أكتافه حتى ينجم من صدورهم». ولهذا كان حذيفة يقال له صاحب السر الذي لا يعلمه غيره أي من تعيين جماعة من المنافقين وهم هؤلاء قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله**﴾ أي وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته، ولو تمت عليه السعادة لهداهم الله لما جاء به، كما قال ﷺ للأنصار: «ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟، وعالة فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ. [جزء من حديث رواه مسلم]. وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب، كقوله: ﴿**وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد**﴾ [البروج:٨]. وكما قال عليه السلام: «ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله» [متفق عليه]. ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال: ﴿**فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة**﴾ أي وإن يستمروا على طريقهم ﴿**يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا**﴾ أي بالقتل والهم والغم، ﴿**والآخرة**﴾ أي بالعذاب والصغار ﴿**وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير**﴾ أي وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم ولا يُحصِّلُ لهم خيراً ولا يدفع عنهم شراً.

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

يقول تعالى ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين، فما وفى بما قال ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقَوْن الله عز وجل يوم القيامة عياذاً بالله من ذلك، وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصري أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في ثعلبة بن حاطب الأنصاري. [ولايصح في تسميته شيء، وانظر في إبطالها رسالة للألباني].

وقوله تعالى: ﴿**بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون**﴾ أي أعقبهم النفاق في قلوبهم

بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم كما جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان». [متفق عليه] وله شواهد كثيرة، والله أعلم. وقوله: ﴿**ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم**﴾ الآية، يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها فإن الله أعلم بهم من أنفسهم؛ لأنه تعالى علام الغيوب أي يعلم كل غيب وشهادة، وكل سر ونجوى ويعلم ما ظهر وما بطن.

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾.

وهذه أيضاً من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا هذا مراء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، كما روى البخاري عن أبي مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا: مرائي، وجاء رجل فتصدق بصاع: فقالوا إن الله لغني عن صدقة هذا. فنزلت ﴿**الذين يلمزون المطوعين**﴾ الآية. وقد رواه مسلم أيضاً في صحيحه.

وقوله: ﴿**فيسخرون منهم سخر الله منهم**﴾ لأن الجزاء من جنس العمل .

﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، وقد قيل إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها، وقيل بل لها مفهوم كما روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لما نزلت هذه الآية أسمع ربي قد رخص لي فيهم فو الله لأستغفرن لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم» فقال الله من شدة غضبه عليهم: ﴿**سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾ [المنافقون: ٦]. [وله شاهد في الصحيحين من حديث ابن عمر].

﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلًا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

يقول تعالى ذاماً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه ﴿**وكرهوا أن يجاهدوا**﴾ معه ﴿**بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا**﴾ أي بعضهم لبعض ﴿**لا تنفروا في الحر**﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند

طيب الظلال والثمار؛ فلهذا قالوا: **﴿لا تنفروا في الحر﴾** قال الله تعالى لرسوله ﷺ: **﴿قل﴾** لهم **﴿نار جهنم﴾** التي تصيرون إليها بسبب مخالفتكم **﴿أشد حراً﴾** مما فررتم منه من الحر، بل أشد حراً من النار، كما روى الإمام مالك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي يوقدون بها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» فقالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية ؟ فقال: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً» أخرجاه في الصحيحين. وزاد الإمام أحمد فيه: «وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد». وهذاأيضاً إسناده صحيح، وقد روى الإمام أبو عيسى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُوقد الله على النار ألف سنة حتى احمرَّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضَّت، ثم أوقد عليها ألف سنة، حتى اسودَّت، فهي سوداء كالليل المظلم». [وصحح إسناده شاكر].

وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لمن له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرْجَل، لا يرى أن أحداً من أهل النار أشدُّ عذاباً منه وإنه أهونهم عذاباً» أخرجاه في الصحيحين.

والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة، وقال الله تعالى في كتابه العزيز **﴿كلا إنها لظى نزاعة للشوى﴾** [المعارج:١٥ـ١٦]، وقال تعالى: **﴿يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾** [الحج:١٩ـ٢٢].

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: **﴿قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾** أي لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر، ليتقوا به حر جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا ولكنهم كما قال الآخر:

كالمستجير من الرمضاء بالنار.

ثم قال تعالى جل جلاله متوعداً هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: **﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون﴾**. قال ابن عباس: الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاؤوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل، استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً. وكذا قال أبو رَزِين والحسن وقتادة والربيع بن خثيم وعون العقيلي وزيد بن أسلم.

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً لرسوله عليه الصلاة السلام **﴿فإن رجعك الله﴾** أي ردك الله من غزوتك هذه **﴿إلى طائفة منهم﴾** قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً **﴿فاستأذنوك للخروج﴾** أي معك إلى غزوة أخرى **﴿فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً﴾** أي تعزيراً لهم

وعقوبة، ثم علل ذلك بقوله: ﴿**إنكم رضيتم بالقعود أول مرة**﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿**ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة**﴾ [الأنعام: ١١٠]، فإن جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

وقوله تعالى: ﴿**فاقعدوا مع الخالفين**﴾ قال ابن عباس: أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزَاة، وقال قتادة ﴿**فاقعدوا مع الخالفين**﴾ أي مع النساء.

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يَبْرأَ من المنافقين وألا يصلي على أحد منهم إذا مات، وألا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه. وهذا حكم عام في كل من عُرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين كما روى البخاري [ومسلم] عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يُكفِّن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه ؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما خيرني الله فقال: ﴿**استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم**﴾ وسأزيده على السبعين». قال: إنه منافق! قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل آية ﴿**ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره**﴾.

وروى البخاري [ومسلم] عن جابر بن عبد الله قال: أتى النبي ﷺ عبد الله بن أبي بعد ما أدخل في قبره فأمر به فأخرج ووضع على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه والله أعلم.

وقد ذكر بعض السلف أنه إنما ألبسه قميصه لأن عبد الله بن أبي لما قدم العباس طلب له قميص فلم يوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أبي لأنه كان ضخماً طويلاً ففعل ذلك به رسول الله ﷺ مكافأة له فالله أعلم. ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلي على أحد من المنافقين ولا يقوم على قبره، كما روى الإمام أحمد عن أبي قتادة قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعي لجنازة سأل عنها، فإن أثني عليها خيراً قام فصلى عليها، وإن أثني عليها غير ذلك قال لأهلها: «شأنكم بها». ولم يصل عليها، [وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح]. وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة من جهل حاله حتى يصلي عليها حذيفة بن اليمان لأنه كان يعلم أعيان المنافقين، قد أخبره بهم رسول الله ﷺ، ولهذا كان يقال له صاحب السر الذي لا يعلمه غيره أي من الصحابة.

ولما نهى الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذا الصنيع من أكبر القربات في حق المؤمنين فشرع ذلك، وفي فعله الأجر الجزيل كما ثبت

في الصحاح وغيرها من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من شهد الجنازة حتى يُصلّى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان». قيل: وما القيراطان؟ قال: «أصغرهما مثل أحد». [متفق عليه]. وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات، فقد روى أبو داود عن عثمان رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل». انفرد بإخراجه أبو داود رحمه الله. [وكذا رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وقال النووي: إسناده جيد].

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

قد تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة ولله الحمد والمنة.

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

يقول تعالى منكراً وذاماً للمتخلفين عن الجهاد الناكلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة والطَّوْل. واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: ﴿**ذرنا نكن مع القاعدين**﴾ ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمْنٌ كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿**فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد**﴾ [الأحزاب:١٩] أي علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء.

وقوله: ﴿**وطبع على قلوبهم**﴾ أي بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله ﴿**فهم لا يفقهون**﴾ أي لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه.

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى ذم المنافقين بين ثناء المؤمنين ومالهم في آخرتهم، فقال: ﴿**لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا**﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم، وقوله: ﴿**وأولئك لهم الخيرات**﴾ أي في الدار الآخرة في جنات الفردوس والدرجات العلى.

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾.

ثم بيّن تعالى حال ذَوي الأعذار في ترك الجهاد الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة. وعن ابن عباس: أنه كان يقرأ: «وجاء المُعْذِرُون» بالتخفيف ويقول: هم أهل العذر.

وكذا قال مجاهد سواء. وهذا القول هو الأظهر في معنى الآية؛ لأنه قال بعد هذا: ﴿**وقعد الذين كذبوا الله ورسوله**﴾ أي لم يأتوا فيعتذروا. وقال مجاهد أيضا: ﴿**وجاء المعذرون من الأعراب**﴾ قال: نفر من بني غفار جاءوا فاعتذروا فلم يُعْذرهم الله. وكذا قال الحسن وقتادة ومحمد بن إسحاق، والقول الأول أظهر والله أعلم، لما قدمنا من قوله بعده: ﴿**وقعد الذين كذبوا الله ورسوله**﴾ أي وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال: ﴿**سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم**﴾.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

ثم بين تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد فيها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاد في الجهاد، ومنه العمى والعَرَج ونحوهما، ولهذا بدأ به ومنه وما هو عارض بسبب مرض عنّ له في بدنه شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره لا يقدر على التجهّز للحرب، فليس على هؤلاء حَرَج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس ولم يثبطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا؛ ولهذا قال: ﴿**ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم**﴾ وقال أبو ثمامة رضي الله عنه: قال الحواريون يا روح الله أخبرنا عن الناصح لله؟ قال: الذي يؤثر حق الله على حق الناس، وإذا حدث له أمران أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة، بدأ بالذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا.

وقال الأوزاعي: خرج الناس لاستسقاء فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال، يا معشر من حضر ألستم مقرين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم، فقال: اللهم إنا نسمعك تقول: ﴿**ما على المحسنين من سبيل**﴾ اللهم وقد أقررنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقِنا، ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسُقوا.

وعند البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ولا سرتم مسيراً إلا وهم معكم» قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «نعم حبسهم العذر». [وله شاهد آخر عند مسلم].

ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنّبهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال ﴿**وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون**﴾.

﴿ ۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ

يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم **﴿قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم﴾** أي لن نصدقكم **﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾** أي قد أعلمنا الله أحوالكم **﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾** أي سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا **﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾** أي فيخبركم بأعمالكم خيرها وشرها ويجزيكم عليها. ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تُؤنِّبوهم **﴿فأعرضوا عنهم﴾** احتقاراً لهم **﴿إنهم رجس﴾** أي خبثاء نَجَسٌ بواطنهم واعتقاداتهم، **﴿ومأواهم﴾** في آخرتهم **﴿جهنم جزاء بما كانوا يكسبون﴾** أي من الآثام والخطايا. وأخبر أنهم إن رضوا عنهم بحلفهم لهم **﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾** أي الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج.

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر، أي أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله كما قال إبراهيم: جلس أعرابي إلى زيد بن صُوْحان وهو يحدث أصحابه وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوَند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتريبني. فقال زيد: ما يريبك من يدي إنها الشمال؟ فقال الأعرابي: والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله **﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾**. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن» ورواه أبو داود والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب، [وفي نسخة: حسن صحيح غريب، وصححه شاكر والألباني].

ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولاً، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى﴾** [يوسف:١٠٩]، ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فرد عليه أضعافها حتى رضي، قال: «لقد هممت أن لا أقبل هدية إلا من قرشي أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي». [رواه أحمد وأبوداود والترمذي وحسنه وصححه شاكر] لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن مكة والطائف والمدينة واليمن، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب لما في طباع الأعراب من الجفاء.

وقوله: ﴿**والله عليم حكيم**﴾ أي عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، ﴿**حكيم**﴾ فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته، وأخبر تعالى أن منهم ﴿**من يتخذ ما ينفق**﴾ أي في سبيل الله ﴿**مغرماً**﴾ أي غرامة وخسارة ﴿**ويتربص بكم الدوائر**﴾ أي ينتظر بكم الحوادث والآفات ﴿**عليهم دائرة السوء**﴾ أي هي منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم ﴿**والله سميع عليم**﴾ أي سميع لدعاء عباده عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان، وقوله: ﴿**ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول**﴾ هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم ﴿**ألا إنها قربة لهم**﴾ أي ألا إن ذلك حاصل لهم ﴿**سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم**﴾.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم، قال الشعبي: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية، وقال أبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة، هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ، وقال محمد بن كعب القرظي: مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ ﴿**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار**﴾ فأخذ عمر بيده فقال: من أقرأك هذا؟ فقال: أبي بن كعب، فقال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه، فلما جاءه قال عمر: أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم. قال: وسمعتها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أبيٌّ: تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة: ﴿**وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم**﴾ [الجمعة:٣]، وفي سورة الحشر ﴿**والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان**﴾ [الحشر:١٠]، وفي الأنفال ﴿**والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم**﴾ إلى آخر الآية [الأنفال:٧٥]، رواه ابن جرير. قال: وذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرؤها برفع الأنصار عطفاً على ﴿**والسابقون الأولون**﴾.

فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سَبَّهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم. عياذاً بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة،

فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم ؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله ويعادون من يعادي الله وهم متبعون لا مبتدعون ويقتدون ولا يبتدون، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

يخبر تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون، وفي أهل المدينة أيضاً منافقون **﴿مردوا على النفاق﴾** أي مرنوا واستمروا عليه، ومنه يقال شيطان مَرِيد، ومارد ويقال تمرد فلان على الله أي عتا وتجبر، وقوله: **﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾** لا ينافي قوله تعالى: **﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول﴾** [محمد: ٣٠]؛ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يُعْرَفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً وإن كان يراه صباحاً ومساء.

وتقدم في تفسير قوله: **﴿وهموا بما لم ينالوا﴾** [التوبة: ٧٤]، أنه ﷺ أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم، والله أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عمر البيروتي عن أبي الدرداء أن رجلاً يقال له حرملة أتى النبي ﷺ فقال: الإيمان هٰهنا وأشار بيده إلى لسانه، والنفاق هٰهنا وأشار بيده إلى قلبه، ولم يذكر الله إلا قليلاً، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل له لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وارزقه حبي وحب من يحبني، وصير أمره إلى خير» فقال: يا رسول الله إنه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأساً فيهم أفلا آتيك بهم ؟ قال: «من أتانا استغفرنا له، ومن أصر على دينه، فالله أولى به، ولا تخرقن على أحد ستراً». قال: وكذا رواه أبو أحمد الحاكم [ورجاله ثقات]. وقال قتادة في هذه الآية: ما بال أقوام يتكلفون علم الناس، فلان في الجنة وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري لعمري أنت بنفسك أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك، قال نبي الله نوح عليه السلام: **﴿وما علمي بما كانوا يعملون﴾** [الشعراء: ١١٢]، وقال نبي الله شعيب عليه السلام: **﴿بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾** [هود: ٨٦]، وقال الله تعالى لنبيه ﷺ: **﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾**. وقال السدي عن ابن عباس في هذه الآية قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال: «اخرج يا فلان فإنك منافق، واخرج يا فلان فإنك منافق» فأخرج من المسجد ناساً منهم فضحهم، فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة وظن أن الناس قد انصرفوا، واختبؤوا هم من عمر ظنوا أنه قد علم بأمرهم، فجاء عمر فدخل المسجد

فإذا الناس لم يصلوا، فقال له رجل من المسلمين: أبشر يا عمر قد فضح الله المنافقين اليوم، قال ابن عباس: فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد، والعذاب الثاني عذاب القبر، وكذا قال الثوري عن السدي عن أبي مالك نحو هذا.

وقال مجاهد في قوله ﴿**سنعذبهم مرتين**﴾ يعني القتل والسبي، وقال في رواية بالجوع وعذاب القبر، ﴿**ثم يردون إلى عذاب عظيم**﴾، وقال ابن جريج: عذاب الدنيا وعذاب القبر ثم يردون إلى عذاب النار، وقال الحسن البصري: عذاب في الدنيا وعذاب في القبر، وعن قتادة مثله، وقال عبد الرحمن بن زيد: أما عذاب في الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قوله تعالى: ﴿**فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا**﴾ [التوبة: ٥٥]، فهذه المصائب لهم عذاب وهي للمؤمنين أجر، وعذاب في الآخرة في النار ﴿**ثم يردون إلى عذاب عظيم**﴾ قال النار، وقال محمد بن إسحاق ﴿**سنعذبهم مرتين**﴾ قال: هو فيما بلغني ما هم فيه من أمر الإسلام وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها، ثم العذاب العظيم الذي يردون إليه عذاب الآخرة والخلد فيه.

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

لما بيَّن تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغَزاة رغبة عنها وتكذيباً وشكاً، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: ﴿**وآخرون اعترفوا بذنوبهم**﴾ أي أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال أخرُ صالحة، خلطوا هذه بتلك فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه، وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلصين المتلوثين.

وروى البخاري عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان فابتعثاني فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطر مِنْ خَلْقِهم كأحسن ما أنت راء، وشطر كأقبح ما أنت راء، قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة، قالا لي: هذه جنة عدن وهذا منزلك، قالا: أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فتجاوز الله عنهم».

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في أموالهم إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً؛ ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصاً برسول الله ﷺ، ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم**

وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾، وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد، أبو بكر الصديق وسائر الصحابة وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق: والله لو منعوني عقالا ـ وفي رواية عَناقاً ـ كانوا يُؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه. [جزء من حديث متفق عليه]. وقوله: ﴿**وصل عليهم**﴾ أي ادع لهم واستغفر لهم كما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُتِيَ بصدقة قوم صَلَّى عليهم فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صَل على آل أبي أوفى».

﴿**سكن لهم**﴾ قال ابن عباس: رحمة لهم، وقال قتادة وقار، وقوله: ﴿**والله سميع**﴾ أي لدعائك ﴿**عليم**﴾ أي بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له.

وقوله: ﴿**ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات**﴾ هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويُمحِّصُها ويَمْحَقُها، وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال، فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أحد، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ كما روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد»، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿**ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات**﴾ وقوله: ﴿**يمحق الله الربا ويربي الصدقات**﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وقد روى ابن عساكر في تاريخه في ترجمة عبد الله بن الشاعر السكسكي الدمشقي وأصله حمصي، وكان أحد الفقهاء، روى عن معاوية وغيره، وحكى عنه حوشب بن سيف السكسكي الحمصي قال: غزا الناس في زمان معاوية رضي الله عنه وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فغل رجل من المسلمين مائة دينار رومية. فلما قفل الجيش ندم وأتى الأمير فأبى أن يقبلها منه وقال: قد تفرق الناس ولن أقبلها منك حتى تأتي الله بها يوم القيامة، فجعل الرجل يستقرىء الصحابة فيقولون له مثل ذلك، فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه فأبى عليه، فخرج من عنده وهو يبكي ويسترجع، فمر بعبد الله بن الشاعر السكسكي فقال له ما يبكيك؟ فذكر له أمره، فقال له: أمطيعني أنت؟ فقال: نعم، فقال اذهب إلى معاوية فقل له اقبل مني خمسك فادفع إليه عشرين ديناراً وانظر الثمانين الباقية فتصدق بها عن ذلك الجيش، فإن الله يقبل التوبة عن عباده وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم، ففعل الرجل، فقال معاوية رضي الله عنه: لأن أكون أفتيته بها أحب إلي من كل شيء أملكه، أحسن الرجل.

﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

قال مجاهد: هذا وعيد يعني من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرَضُ عليه

تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين. وهذا كائن لا محالة يوم القيامة كما قال: ﴿**يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية**﴾ [الحاقة:١٨].

وقال البخاري قالت عائشة رضي الله عنها: إذا أعجبك حسن عمل امرىء فقل: ﴿**اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾. وقد ورد في الحديث شبيه بهذا، روى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له، فإن العامل يعمل زماناً من عمره أو برهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه لدخل الجنة ثم يتحول فيعمل عملاً سيئاً، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيء لو مات عليه دخل النار ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً، وإذا أراد الله بعبده خيراً استعمله قبل موته» قالوا: يا رسول الله وكيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه» تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه. [وهو صحيح، وله شاهد في الصحيحين بمعناه].

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا أي عن التوبة، وهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلاً وميلاً إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال لا شكاً ونفاقاً، فكانت منهم طائفة ربَطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لُبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء وأرجى هؤلاء عن التوبة، حتى نزلت الآية الآتية وهي قوله: ﴿**لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار**﴾ الآية [التوبة:١١٧]، ﴿**وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم**﴾ الآية [التوبة:١١٨]، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك، وقوله: ﴿**إما يعذبهم وإما يتوب عليهم**﴾ أي هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه وهو ﴿**عليم حكيم**﴾ أي عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

سبب نزول هذه الآيات الكريمات، أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وقال ابن عباس: هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجنود من الروم وأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا

النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله عز وجل: ﴿لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم﴾ إلى قوله: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾. وكذا روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وعروة بن الزبير وقتادة وغير واحد من العلماء.

وقوله: ﴿وليحلفن﴾ أي الذين بنوه ﴿إن أردنا إلا الحسنى﴾ أي ما أردنا ببنيانه إلا خيراً ورفقاً بالناس، قال الله تعالى: ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ أي فيما قصدوا وفيما نووا، وإنما بنوه ضراراً لمسجد قباء وكفراً بالله وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الفاسق لعنه الله، وقوله: ﴿لا تقم فيه أبداً﴾ نهي من الله لرسوله ﷺ والأمة تبع له في ذلك عن أن يقوم فيه أي يصلي فيه أبداً. ثم حثه على الصلاة في مسجد قباء الذي أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهي طاعة الله وطاعة رسوله وجمعاً لكلمة المؤمنين ومَعقلاً للإسلام وأهله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾ والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجد قباء كعمرة» [رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن غريب، وصححه شاكر والألباني] ، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكباً وماشياً، [متفق عليه].

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف، منهم ابن عباس، وعروة بن الزبير، وقال عطية العوفي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والشعبي والحسن البصري ونقله البغوي عن سعيد بن جبير وقتادة. وقد ورد في الحديث الصحيح [معناه عند مسلم] أن مسجد رسول الله ﷺ الذي هو في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى، وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى.

روى مسلم عن أبي سعيد قال: أتيت رسول الله ﷺ فدخلت عليه في بيت لبعض نسائه فقلت: يا رسول الله أين المسجد الذي أسس على التقوى ؟ قال: فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض ثم قال: «هو مسجدكم هذا».

وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب، واختاره ابن جرير، وقوله: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين﴾ دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء والتنزه عن ملابسة القاذورات.

وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿والله يحب المطهرين﴾ إن الطهور بالماء لحسن ولكنهم المطهرون من الذنوب. وقال الأعمش التوبة من الذنوب، والتطهير من الشرك.

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

يقول تعالى لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى الله ورضوان ومن بنى مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما بني هؤلاء بنيانهم ﴿على شفا جرف هار﴾ أي طرف حفيرة ﴿في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يُصْلِحُ عمل المفسدين. قال جابر بن عبد الله: رأيت المسجد الذي بني ضراراً يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم﴾ أي شكاً ونفاقاً، بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورثهم نفاقاً في قلوبهم كما أشرب عابدو العجل حبه، وقوله: ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾ أي بموتهم، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم والسدي وحبيب بن أبي ثابت والضحاك وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد من علماء السلف، ﴿والله عليم﴾ أي بأعمال خلقه ﴿حكيم﴾ في مجازاتهم عنها من خير وشر.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قَبِلَ العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم. وقال شَمر بن عطية: ما من مسلم إلا ولله عز وجل في عُنُقه بيعة، وفَّى بها أو مات عليها ثم تلا هذه الآية. ولهذا يقال من حمل في سبيل الله بايع الله أي قَبِل هذا العقد ووفى به. وقوله: ﴿يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾ أي سواء قَتلوا أو قُتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة؛ ولهذا جاء في الصحيحين: «وتكفل الله لمن خرج في سبيله، لا يُخرِجُه إلا جهاد في سبيلي، وتصديق برسلي، بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة». وقوله: ﴿وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن﴾ تأكيد لهذا الوعد وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وقوله: ﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ أي: ولا واحد أعظم وفاء بما عاهد عليه من الله

فإنه لا يخلف الميعاد. ولهذا قال: ﴿**فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾ أي فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم والنعيم المقيم.

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة ﴿**التائبون**﴾ من الذنوب كلها ﴿**العابدون**﴾ أي القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها وهي الأقوال والأفعال، فمن أخصّ الأقوال الحمد؛ فلهذا قال: ﴿**الحامدون**﴾ ومن أفضل الأعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة هٰهنا؛ ولهذا قال: ﴿**السائحون**﴾ كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى: ﴿**سائحات**﴾ [التحريم: ٥] أي صائمات، وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿**الراكعون الساجدون**﴾ وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علماً وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق؛ ولهذا قال: ﴿**وبشر المؤمنين**﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

عن عبد الله بن مسعود قال ﴿**السائحون**﴾ الصائمون. وقال ابن عباس كل ما ذكر الله في القرآن السياحة هم الصائمون، وكذا قال الضحاك رحمه الله، وروى ابن جرير عن عائشة رضي الله عنها قالت: سياحة هذه الأمة الصيام، وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وأبو عبد الرحمن السلمي والضحاك بن مزاحم وسفيان بن عيينة وغيرهم: أن المراد بالسائحين: الصائمون، وقال الحسن البصري: ﴿**السائحون**﴾ الصائمون شهر رمضان، وقال أبو عمرو العبدي: ﴿**السائحون**﴾ الذين يديمون الصيام من المؤمنين.

وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المهاجرون. وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن». وقال ابن عباس في قوله: ﴿**والحافظون لحدود الله**﴾ قال القائمون بطاعة الله، وكذا قال الحسن البصري وعنه رواية: ﴿**الحافظون لحدود الله**﴾ قال: لفرائض الله، وفي رواية القائمون على أمر الله.

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ

لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

روى الإمام أحمد عن ابن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال «أي عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: أنا على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فنزلت **﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾** قال: ونزلت فيه **﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾** [القصص:٥٦] أخرجاه.

وروى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت **﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾** إلى قوله **﴿فلما تبين له أنه عدو الله﴾** قال: لما مات. [ورواه الترمذي وحسنه والنسائي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

وروى الإمام أحمد أيضا عن بريدة قال: كنا مع النبي ﷺ فنزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان، فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال: يا رسول الله مالك؟ قال: «إني سألت ربي عز وجل في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي فدمعت عيناي رحمة لها من النار» الحديث [وهو صحيح أو حسن].

وعن ابن عباس في قوله: **﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾** الآية، فإن رسول الله ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فنهاه الله عن ذلك، فقال: «فإن إبراهيم خليل الله استغفر لأبيه» فأنزل الله **﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه﴾** الآية، وقال ابن عباس في هذه الآية، كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية، فلما نزلت أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله: **﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه﴾** الآية.

وقال سعيد بن جبير قال: مات رجل يهودي وله ابن مسلم فلم يخرج معه، فذكر ذلك لابن عباس فقال: فكان ينبغي له أن يمشي معه ويدفنه ويدعو له بالصلاح ما دام حياً، فإذا مات وكله إلى شأنه، ثم قال: **﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾** لم يَدْعُ. وهذا يشهد له بالصحة ما رواه أبو داود عن علي بن أبي طالب، لما مات أبو طالب قلت يا رسول الله: إن عمك الشيخ الضال قد مات، قال: «اذهب فواره ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني» وذكر تمام الحديث. [وهو صحيح]. وقال عطاء بن أبي رباح: ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة، ولو كانت حبشية حبلى من الزنا؛ لأني لم

أسمع الله حجب الصلاة إلا على المشركين، يقول الله عز وجل: ﴿**ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين**﴾.

وقوله: ﴿**فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه**﴾ قال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، وفي رواية لما مات تبين له أنه عدو لله، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم رحمهم الله، وقال عُبَيْد بن عمير وسعيد بن جبير: إنه يتبرأ منه يوم القيامة حتى يلقى أباه، وعلى وجه أبيه الغبرة والقترة، فيقول: يا إبراهيم إني كنت أعصيك وإني اليوم لا أعصيك، فيقول: أي ربي ألم تعدني ألا تخزني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقال انظر إلى ما وراءك فإذا هو بِذيخ متلطخ، أي قد مسخ ضبعاً، ثم يسحب بقوائمه ويلقى في النار. وقوله: ﴿**إن إبراهيم لأواهٌ حليم**﴾ قال عبد الله بن مسعود: الأواه: الدَّعَّاء. وقال ابن مسعود أيضا: الأواه: هو الرحيم، وبه قال مجاهد وأبو ميسرة عمرو بن شرحبيل والحسن البصري وقتادة: أنه الرحيم أي بعباد الله. وقال ابن عباس: الأواه الموقن بلسان الحبشة، وكذا قال مجاهد والضحاك، وقال ابن عباس أيضا: الأواه المؤمن التواب.

وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له ذو البِجادين: «إنه أواه» وذلك أنه رجل كثير الذكر لله في القرآن ويرفع صوته في الدعاء، ورواه ابن جرير [والطبراني وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني وإسنادهما حسن]. وقال سعيد بن جبير والشعبي: الأواه المسبِّح، وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: لا يحافظ على سبحة الضحى إلا أواه. وعن أبي أيوب: الأواه الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها، وعن مجاهد: الأواه الحفيظ الوجل يذنب الذنب سراً ثم يتوب منه سراً. وروي عن كعب الأحبار أنه قال: ﴿**إن إبراهيم لأواه**﴾ قال كان إذا ذكر النار قال: أَوَّه من النار، وعن ابن عباس قال: ﴿**إن إبراهيم لأواه**﴾ فقيه.

قال الإمام العالم أبو جعفر بن جرير: وأولى الأقوال قول من قال إنه الدعَّاء وهو المناسب للسياق، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها إياه، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليماً عمن ظلمه وأناله مكروهاً؛ ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له في قوله ﴿**أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً * قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً**﴾ [مريم:٤٦-٤٧]، فحلم عنه مع أذاه له ودعا له واستغفر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**إن إبراهيم لأواه حليم**﴾.

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحُكْمِه العادل: إنه لا يضل قوماً بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿**وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا**

العمىٰ على الهدى﴾ الآية [فصلت: ١٧]. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾ قال: بيان الله عز وجل للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه طاعته ومعصيته عامة، فافعلوا أو ذَروا. وقال ابن جرير: يقول الله تعالى وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهية ذلك بالنهي عنه، ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، وأما من لم يُؤمر ولم يُنه فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه.

وقوله: ﴿إن الله له ملك السموات والأرض يحيي ويميت ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ قال ابن جرير، هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض، ولا يرهبوا من أعدائه، فإنه لا ولي لهم من دون الله ولا نصير لهم سواه.

وروى ابن أبي حاتم عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيط السماء وما تلام أن تَئِطَّ، وما فيها من موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم». [رواه الطبراني وله شواهد عدة وصححه الألباني في الصحيحة].

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾.

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مُجدبة وحر شديد وعسر من الزاد والماء، قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم، وروى ابن جرير عن عبد الله بن عباس، أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله عز وجل قد عَوّدك في الدعاء خيراً فادع لنا، قال: «تحب ذلك؟» قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء فأظَلّت ثم سكبت، فملؤوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر. [ورواه البزار والحاكم وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي].

وقال ابن جرير: في قوله ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ أي من النفقة والظهر والزاد والماء ﴿من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ أي عن الحق، ويشك في دين رسول الله ﷺ ويرتاب بالذي نالهم من المشقة والشدة في سفره وغزوه ﴿ثم تاب عليهم﴾ يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿إنه بهم رؤوف رحيم﴾.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمي، قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ فقال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل وأنا إليها أصعر، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئا، فأقول لنفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمّر بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً وقلت الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً من جهازي، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فأدركهم وليت أني فعلت، ثم لم يقدر ذلك لي فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذره الله عز وجل، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك» قال رجل من بني سلمة: حبسه يا رسول الله برداه والنظر في عطفيه، فقال له معاذ بن جبل: بئسما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك، حضرني بثي

وطفقت أتذكر الكذب، وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً أستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً، زاح عني الباطل وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه وصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلفك ألم تك قد اشتريت ظهرك» فقلت: يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً ولكنه والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله يسخطك علي، ولئن حدثتك بصدق تجد علي فيه إني لأرجو أقرب عقبى ذلك من الله عز وجل والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك» فقمت وبادرني رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، قال: فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، قال ثم قلت لهم هل لقي معي هذا أحد؟ قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، قلت فمن هما؟ قالوا مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لي قال ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي حرك شفتيه برد السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ، فإذا التفتُ نحوه أعرض، حتَّى إذا طال علَّي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتَّى تسوَّرت حائط أبي قتادة وهوابن عمي وأحب الناس إليَّ، فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال فسكت، قال فعدت له فنشدته فسكت، فعدت فنشدته فسكت، فقال الله ورسوله أعلم.

قال ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك، قال فطفق الناس

يشيرون له إلي حتى جاء فدفع إلي كتاباً من ملك غسان وكنت كاتباً، فإذا فيه: أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك، قال: فقلت حين قرأتها وهذا أيضاً من البلاء، قال: فتيممت به التنور فسجرته حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: فقلت أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: بل اعتزلها ولا تقربها، قال وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك، قال فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله إن هلالاً شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه، قال: «لا، ولكن لا يقربنّك» قالت: وإنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي من لدن أن كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لا مرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال فقلت والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب.

قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، قال: فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبيّ مبشرون، وركض إلي رجل فرساً وسعى ساع من أسلم وأوفى على جبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني فنزعت ثوبيَّ فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ وتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئوني بالتوبة، يقولون ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قال: قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله». قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر وقلت يا رسول الله: إنما نجاني الله بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، قال:

فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال: وأنزل الله تعالى: ﴿**لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾. قال كعب: فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ، أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال الله تعالى: ﴿**سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين**﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦]. قال: وكنا خُلّفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال عز وجل: ﴿**وعلى الثلاثة الذين خلفوا**﴾ وليس تخليفه إيانا وارجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خُلِّفنا بتخلفاً عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحبا الصحيح البخاري ومسلم. فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها، وكذا روي عن غير واحد من السلف في تفسيرها.

ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها، وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، أي مع سعتها فسدّدت عليهم المسالك والمذاهب فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم وتوبة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾ أي اصدقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً، وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله

كذاباً». أخرجاه في الصحيحين، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، اقرؤوا إن شئتم ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾ هكذا قرأها، ثم قال فهل تجدون لأحد فيه رخصة، وعن عبد الله بن عمر: ﴿**اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾ قال: مع محمد ﷺ وأصحابه، وقال الضحاك مع أبي بكر وعمر وأصحابهما، وقال الحسن البصري: إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد في الدنيا والكف عن أهل الملة.

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة، فإنهم نَقَصوا أنفسهم من الأجر لأنهم ﴿**لا يصيبهم ظمأ**﴾ وهو العطش ﴿**ولا نصب**﴾ وهو التعب ﴿**ولا مخمصة**﴾ وهي المجاعة ﴿**ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار**﴾. أي ينزلون منزلاً يرهب عدوهم ﴿**ولا ينالون**﴾ منه ظفراً وغلبة عليه إلا كتب الله لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قَدَرهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً ﴿**إن الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾ كما قال تعالى: ﴿**إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً**﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**ولا ينفق**﴾ هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿**نفقة صغيرة ولا كبيرة**﴾ أي قليلاً ولا كثيراً ﴿**ولا يقطعون وادياً**﴾ أي في السير إلى الأعداء ﴿**إلا كتب لهم**﴾ ولم يقل ههنا «به»؛ لأن هذه أفعال صادرة عنهم، ولهذا قال: ﴿**ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون**﴾. وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة، كما روى عبد الله بن الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن خباب السلمي، قال: خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها، قال: ثم حث، فقال عثمان: عليَّ مائة بعير أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال ثم نزل مرْقاة من المنبر ثم حث، فقال عثمان بن عفان: عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا يحركها، كالمتعجب: «ما على عثمان ما عمل بعد هذا» [ورواه الترمذي وأبونعيم في الحلية وهو حديث حسن]. وروى عبد الله أيضاً عن عبد الرحمن بن سمرة، قال: جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حتى جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فصبها في

حجر النبي ﷺ فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: «ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم» يرددها مراراً. [رواه الترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي]، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم﴾ الآية. ما ازداد قوم من أهليهم في سبيل الله بعداً إلا ازدادوا من الله قرباً.

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نَفير الأحياء مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك، فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ [التوبة: ٤١]، وقال: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ [التوبة: ١٢٠]، قالوا: فنسخ ذلك بهذه الآية.

وقد يقال إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها، وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا النفير المعين، وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد، فإنه فرض كفاية على الأحياء، وقال ابن عباس: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ يعني عصبة، يعني: السرايا ولا يسيروا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ، قالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآناً وقد تعلمناه. فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم، ﴿لعلهم يحذرون﴾ وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب محمد ﷺ، خرجوا في البوادي فأصابوا من الناس معروفاً، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا؟ فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجاً وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ، فقال الله عز وجل: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ يبتغون الخير ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ وليستمعوا ما في الناس وما أنزل الله بعدهم ﴿ولينذروا قومهم﴾ الناس كلهم ﴿إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾. وقال قتادة في هذه الآية: هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش أمرهم الله ألا يُعروا نبيه ﷺ، وتقيم طائفة مع رسول الله ﷺ تتفقه في الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم.

وقال الضحاك: كان رسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه إلا أهل العذر، وكان إذا قام فاسترت السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه، فكان الرجل

إذا استرى فنزل بعده قرآن تلاه نبي الله ﷺ على أصحابه القاعدين معه، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ: إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآناً فيقرؤونهم ويفقهونهم في الدين، وهو قوله: ﴿**وما كان المؤمنون لينفروا كافة**﴾ يقول إذا أقام رسول الله ﴿**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة**﴾ يعني بذلك أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً ونبي الله ﷺ قاعد، ولكن إذا قعد نبي الله تسرت السرايا وقعد معه عُظْم الناس. وقال ابن عباس في قوله: ﴿**وما كان المؤمنون لينفروا كافة**﴾ فإنها ليست في الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مُضر بالسنين، أجدبت بلادهم وكانت القبيلة منهم تُقبل بأسرها، حتى يحلوا بالمدينة من الجهد، ويعتلّوا بالإسلام وهم كاذبون. فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ وأجهدوهم، فأنزل الله تعالى يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين، فردهم رسول الله ﷺ إلى عشائرهم وحذّر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله: ﴿**ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**﴾.

وقال عكرمة لما نزلت هذه الآية ﴿**إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً**﴾ [التوبة:٣٩]، و﴿**ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله**﴾ [التوبة:١٢٠]، قال المنافقون: هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه. وقد كان ناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم فأنزل الله عز وجل: ﴿**وما كان المؤمنون لينفروا كافة**﴾ الآية، ونزلت ﴿**والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له**﴾ [الشورى:١٦]. وقال الحسن البصري في الآية: ليتفقه الذين خرجوا بما يردهم الله من الظهور على المشركين والنصرة، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً، فأولاً الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام؛ ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهْد الناس وجَدْب البلاد وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجته حجة الوداع، ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يوماً، فاختاره الله لما عنده.
وقام بالأمر بعده وزيره وصِدِّيقُه وخليفته أبو بكر رضي الله عنه، وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل فثبته الله تعالى به، فوطد القواعد، ورد شارد الدين وهو راغم، ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطَّغام، وبين الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول

ما حَمَله، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سَفَارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد. وأنفق كنوزهما في سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الله، وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده، وولي عهده الفاروق الأوّاب، شهيدِ المحراب، أبي حفص عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاةَ والمنافقينَ واستولى على الممالك شرقاً وغرباً. وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقُرباً. ففرقها على الوجه الشرعي. والسبيل المرضي. ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً. أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيد الدار.

فكسى الإسلام بجلاله رياسة حلة سابغة. وامتدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة. فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها. وعلت كلمة الله وظهر دينه. وبلغت الأمة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها. فكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار**﴾، وقوله تعالى: ﴿**وليجدوا فيكم غلظة**﴾ أي وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن غليظاً على عدوه الكافر، كما قال تعالى: ﴿**فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين**﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ [الفتح: ٢٩].

وقوله: ﴿**واعلموا أن الله مع المتقين**﴾ أي قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم. ولم تزل الفتوحات كثيرة ولم تزل الأعداء في سِفَال وخسار، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء في أطراف البلاد وتقدموا إليها، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلداناً كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام ولله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله وتوكل على الله فتح الله عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله. والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم إنه جواد كريم.

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**وإذا ما أنزلت سورة**﴾ فمن المنافقين ﴿**من يقول أيكم زادته هذه إيماناً**﴾ أي

يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه السورة إيماناً قال الله تعالى: ﴿**فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون**﴾ وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء. بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد. ﴿**وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم**﴾ أي زادتهم شكاً إلى شكهم وريباً إلى ريبهم كما قال تعالى: ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا**﴾ [الإسراء:٨٢]، وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم كما أن سيء المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً.

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

يقول: تعالى أو لا يرى هؤلاء المنافقون ﴿**أنهم يفتنون**﴾ أي يختبرون ﴿**في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون**﴾ أي لا يتوبون من ذنوبهم السالفة ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم، قال مجاهد: يختبرون بالسَّنة والجوع، وقال قتادة: بالغزو في السنة مرة أو مرتين، وعن حذيفة في قوله: ﴿**أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين**﴾ قال: كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين فيضل بها فئام من الناس كثير رواه ابن جرير. وقوله: ﴿**وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض: هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون**﴾ هذا أيضاً إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿**نظر بعضهم إلى بعض**﴾ أي تلفتوا ﴿**هل يراكم من أحد ثم انصرفوا**﴾ أي تولوا عن الحق وانصرفوا عنه وهذا حالهم في الدين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يقيمونه كما قال تعالى: ﴿**فمالِ الذين كفروا قبلك مهطعين * عن اليمن وعن الشمال عزين**﴾ [المعارج:٣٦-٣٧] أي ما لهؤلاء القوم يتقلبون عنك يميناً وشمالاً هروباً من الحق وذهاباً إلى الباطل. وقوله: ﴿**ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم**﴾ كقوله: ﴿**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم**﴾ [الصف:٥]، ﴿**بأنهم قوم لا يفقهون**﴾ أي لا يفهمون عن الله خطابه ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه بل هم في شغل عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم أي من جنسهم وعلى لغتهم كما قال تعالى: ﴿**لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم**﴾ [آل عمران:١٦٤]، وقال تعالى: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم**﴾ أي منكم وبلغتكم كما قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا

رسولاً منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته وذكر الحديث. [وكلاهما صحيح الأول عند أحمد والثاني عند البخاري].

وقوله: ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أي يعز عليه الشيء الذي يُعِنْتُ أمته ويشق عليها؛ ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة» [رواه أحمد والطبراني والبزار وقال الحافظ ابن حجر: حسن]، وفي الصحيح: «إن هذا الدين يسر» [رواه البخاري]، وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه ﴿حريص عليكم﴾ أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم، وروى الطبراني عن أبي ذر قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم» [قال الهيثمي رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان فيما يرى النائم فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه. فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم قال: فانطلق بهم فأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم: ألم ألفكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ فقالوا بلى فقال: فإن بين أيديكم رياضاً هي أعشب من هذه وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني فقالت طائفة صدق والله لنتبعه، وقالت طائفة قد رضينا بهذا نقيم عليه. [رواه أحمد والطبراني والبزار وقال الهيثمي: إسناده حسن].

وقوله: ﴿بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ كقوله: ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون * وتوكل على العزيز الرحيم﴾ [الشعراء: ٢١٥-٢١٧]. وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿فإن تولوا﴾ أي تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿فقل حسبي الله لا إله إلا هو﴾ أي الله كافي لا إله إلا هو عليه توكلت.

﴿وهو رب العرش العظيم﴾ أي هو مالك كل شيء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء وقدره نافذ في كل شيء وهو على كل شيء وكيل.

وفي الصحيح أن زيداً قال: فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت أو أبي خزيمة[رواه البخاري].

وقدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عن رسول الله ﷺ كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها والله أعلم.

تفسير سورة يونس وهي مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾.

أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة، وعن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿الر﴾** أي أنا الله أرى. وكذلك قال الضحاك وغيره. **﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾** أي هذه آيات القرآن المحكم المبين، وقال مجاهد: **﴿الر تلك آيات الكتاب الحكيم﴾**. قال التوراة والإنجيل. وقال الحسن: التوراة والزبور، وقال قتادة: الكتب التي كانت قبل القرآن، وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه.

وقوله: **﴿أكان للناس عجباً﴾** الآية. يقول تعالى منكراً على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: **﴿أبشر يهدوننا﴾** [التغابن:٦]، وقال هود وصالح لقومهما: **﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم﴾** [الأعراف:٦٣-٦٩]، وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا: **﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾** [ص:٥]، وقال ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد قال فأنزل الله عز وجل: **﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم﴾**. وقوله: **﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾** اختلفوا فيه فقال ابن عباس: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول. وروي عنه أيضا: أجراً حسناً بما قدموا. وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهذا كقوله تعالى: **﴿لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون أن لم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً﴾** [الكهف:٢-٣]، وقال مجاهد: الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم. وقال قتادة أو الحسن: محمد ﷺ يشفع لهم، وكذا قال زيد بن أسلم ومقاتل بن حيان. وقال قتادة: سَلَفُ صدق عند ربهم. واختار ابن جرير قول مجاهد كما يقال: «له قدم في الإسلام»، ومنه قول حسان رضي الله عنه:

لنا القدم العليا إليك وخلفنا   لأولنا في طاعة الله تابع

وقوله تعالى: **﴿قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾** أي مع أنا بعثنا إليهم رسولاً منهم رجلاً من جنسهم بشيراً ونذيراً **﴿قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾** أي ظاهر وهم الكاذبون في ذلك.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام قيل كهذه الأيام وقيل كل يوم كألف سنة مما تعدون كما سيأتي بيانه ثم استوى على العرش والعرش أعظم المخلوقات وسقفها. وقوله: ﴿يدبر الأمر﴾ أي يدبر أمر الخلائق ﴿**لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض**﴾ [سبأ:٣]، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير في الجبال والبحار والعمران والقفار ﴿**وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين**﴾ [هود:٦]. ﴿**وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين**﴾ [الأنعام:٥٩].

وقوله: ﴿**ما من شفيع إلا من بعد إذنه**﴾، كقوله تعالى: ﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه**﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقوله: ﴿**ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون**﴾ أي أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ﴿**أفلا تذكرون**﴾ أي أيها المشركون في أمركم تعبدون مع الله غيره وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق كقوله تعالى: ﴿**قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون**﴾ [المؤمنون:٨٦-٨٧]، وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها.

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

أخبر تعالى أن إليه مرجعَ الخلائق يوم القيامة لا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده ﴿**وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه**﴾ [الروم:٢٧]. ﴿**ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط**﴾ أي بالعدل والجزاء الأوفى ﴿**والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون**﴾ أي بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العقاب من ﴿**سموم وحميم وظل من يحموم**﴾ [الواقعة:٤٢-٤٣].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وجعل شعاع القمر نوراً، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يكمل إبداره، ثم يَشْرَعُ في النقص حتى يرجع إلى

حاله الأول في تمام شهر كما قال تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾ [يس: ٣٩-٤٠].

وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وقدره﴾ أي القمر ﴿منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام. ﴿ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾ أي لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة، كما قال تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾ [ص: ٢٧]. وقوله: ﴿نفصل الآيات﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿لقوم يعلمون﴾. وقوله: ﴿إن في اختلاف الليل والنهار﴾ أي تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا وإذا ذهب هذا جاء هذا لا يتأخر عنه شيئاً كما قال تعالى: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار﴾ [يس: ٤٠]، وقوله: ﴿وما خلق الله في السموات والأرض﴾ أي من الآيات الدالة على عظمته تعالى كما قال: ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾ [سبأ: ٩]، وقال: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ [آل عمران: ١٩٠] أي العقول، وقال هٰهنا ﴿لآيات لقوم يتقون﴾ أي عقاب الله وسخطه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون في لقاء الله شيئاً ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها أنفسهم. قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها بإن مأواهم يوم معادِهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسله واليوم الآخر.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات بأنه سيهديهم بإيمانهم، يحتمل أن تكون الباء هٰهنا سببية فتقديره بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصُوا إلى الجنة، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد: يكون لهم نوراً يمشون به، وقال ابن جريج: يَمْثُلُ له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك فيجعل له نوراً من بين يديه حتى يُدخله الجنة، والكافر يَمْثُلُ له عمله في صورة سيئة وريح منتنة فيلازم صاحبه حتى يقذفه في النار، وروي نحوه عن قتادة

مرسلاً فالله أعلم، وقوله: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ أي هذا حال أهل الجنة. قال سفيان الثوري: إذا أراد أحدهم أن يدعو بشيء قال: ﴿سبحانك اللهم﴾ وهذه الآية فيها شبه من قوله: ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً﴾ [الأحزاب:٤٤].

وقوله: ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ هذا فيه دلالة على أن الله تعالى هو المحمود أبداً، المعبود على طول المدى؛ ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله حيث يقول تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾ [الكهف:١]، ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ [الأنعام:١] إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها وأنه المحمود في الحياة الدنيا وفي الآخرة وفي جميع الأحوال ولهذا جاء في الحديث: «إن أهل الجنة يُلهمون التسبيح والتحميد كما يُلهمون النَّفَس» [رواه مسلم]. وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تضاعف نعم الله عليهم، فتكرّر وتعاد وتزاد، فليس لها انقضاء ولا أمد فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في حال غضبهم وأنه يعلم منهم عَدَم القصد إلى إرادة ذلك فلهذا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفاً ورحمة كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم ولأولادهم بالخير والبركة والنماء؛ ولهذا قال: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم﴾ أي لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم لا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم» ورواه أبو داود [وفي مسلم بأطول من هذا]. وهذا كقوله تعالى: ﴿ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا﴾ [الإسراء:١١]، وقال مجاهد في تفسيرها: هو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليه: اللهم لا تبارك فيه والعنه. فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم.

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان وقلقه إذا مسه الضر، وهذه كقوله: ﴿وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾ [فصلت:٥١] أي كثير، وهما في معنى واحد وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها وأكثر الدعاء عند ذلك فدعا الله في زوالها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه

وفي جميع أحواله فإذا فرج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه وذهب كأنه ما كان به من ذاك شيء ﴿مرّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾. ثم ذم تعالى من هذه صفته فقال: ﴿كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فإنه مستثنى من ذلك، كما قال تعالى: ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾ [هود:١١]، وكقول رسول الله ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن اصابته ضراء صبر فكان خيراً له وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن». [رواه مسلم].

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاؤوهم به من الحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القومَ من بعدهم وأرسل إليهم رسولاً لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خَضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء» الحديث.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحُجَجه الواضحة قالوا له: ﴿ائت بقرآن غير هذا﴾ أي رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر، أو بدله إلى وضع آخر، قال الله لنبيه ﷺ: ﴿قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي﴾ أي ليس هذا إليّ إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلغ عن الله ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾. ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به: ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به﴾ أي هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل على أني لست أتقوله من عندي ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل، لا تنتقدون عليَّ شيئاً تغمصوني به؛ ولهذا قال: ﴿فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾ أي أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؛ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي ﷺ قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان فقلت لا، وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين ومع هذا اعترف بالحق:

والفضل ما شهدت به الأعداء

فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدَعَ الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله. [أخرجه البخاري]. وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرهم قبل النبوة أربعين سنة، وعن سعيد بن المسيب ثلاثاً وأربعين سنة، والصحيح المشهور الأول.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

يقول تعالى لا أحد أظلم **﴿ممن افترى على الله كذباً﴾** وتقوّل على الله، وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظلماً من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء! فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بِرِّه أو فُجُوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل في حِنْدس الظلماء، فمن سيما كل منهما وأفعاله وكلامه يَستدلّ من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب، وسَجَاح. والأسود العنسي.

قال عبد الله بن سلام لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انْجَفَل الناس فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام» [رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حسن صحيح]. ولما قدم ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له: من رفع هذه السماء؟ قال: «الله» قال: ومن نصب هذه الجبال قال: «الله» قال: ومن سطح هذه الأرض؟ قال: «الله» قال: فبالذي رفع هذه السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض: الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: «اللهم نعم» ثم سأله عن الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين ويحلف له رسول الله ﷺ فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص. [رواه الشيخان بمعناه]. فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه. كما قال حسان بن ثابت:

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... كانت بديهـته تأتـيك بالخـبر

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذَوي البصائر علم أمره لا محالة، بأقواله الركيكة، وأفعاله القبيحة، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الفضيحة، وكم من فرق بين قوله تعالى: **﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم﴾** إلى آخرها [البقرة: ٢٥٥]. وبين عُلاَك مسيلمة قبحه الله ولعنه: «يا ضفدع بنت الضفدعين، نقي كما تنقين لا الماء تكدرين، ولا الشارب

تمنعين». وقوله ـ قبح ولعن ـ: «لقد أنعم الله على الحبلى، إذ أخرج منها نَسَمة تسعى، من بين صِفَاق وحَشَى». وقوله خلده الله في نار جهنم، وقد فعل: «الفيل وما أدراك ما الفيل، له زلوم طويل»، وقوله ـ أبعده الله عن رحمته ـ: «والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً، إن قريشاً قوم يعتدون»، إلى غير ذلك من الهذيانات والخرافات التي يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها إلا على وجه السخرية والاستهزاء، ولهذا أرغم الله أنفه، وشرب يوم حديقة الموت حتفه، ومزق شمله. ولعنه صحبُه وأهله. وقدموا على الصديق تائبين، فسألهم الصديق خليفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ورضي عنه أن يقرؤوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة لعنه الله فسألوه أن يعفيهم من ذلك فأبى عليهم إلا أن يقرؤوا شيئاً منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس، فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم. فقرؤوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه، فلما فرغوا قال لهم الصديق رضي الله عنه: ويحكم أين كان يذهب بعقولكم ؟ والله إن هذا لم يخرج من إلٍّ. [والمراد به الرب].

ولهذا قال الله تعالى: **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾** [الأنعام:٩٣]، وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل. وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما جاء في الحديث: «أعتى الناس على الله رجل قتل نبياً أو قتله نبي». [رواه أحمد والطبراني والبزار، وقال الهيثمي: رجاله ثقات].

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتُها عند الله فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبداً؛ ولهذا قال تعالى: **﴿قل أتنبئون الله بمالا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾**. وقال ابن جرير: معناه أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض ؟ ثم نزه نفسه عن شركهم فقال: **﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾**. ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحُجَجه البالغة **﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾** [الأنفال:٤٢]. وقوله: **﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾** الآية، أي لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضىَ بينهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين وأعنَتَ الكافرين.

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ

ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي يقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: لولا أنزل على محمد آية من ربه يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً ونحو ذلك مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله كما قال تعالى: ﴿**وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون**﴾ الآية [الإسراء:٥٩]، يقول تعالى: إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أن يُعطى ما سألوا فإن أجابوا وإلا عُوجلوا، وبين أن يُنظرهم، اختار إنظارهم كما حلم عنهم غير مرة رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى إرشاداً لنبيه ﷺ إلى الجواب عما سألوا: ﴿**فقل إنما الغيب لله**﴾ أي الأمر كله لله وهو يعلم العواقب في الأمور، ﴿**فانتظروا إني معكم من المنتظرين**﴾ اي إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فيَّ وفيكم. هذا مع أنهم قد شاهدوا من معجزاته ﷺ أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره فانشق باثنتين فرقة من وراء الجبل وفرقة من دونه. [يشير إلى ما رواه الشيخان من حديث ابن مسعود وأنس في حادثة انشقاق القمر]، وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا وما لم يسألوا، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشاداً وتثبيتاً لأجابهم، ولكن علم أنهم إنما يسألون عناداً وتعنتاً فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد كما قال تعالى: ﴿**إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولوجاءتهم كل آية**﴾ [يونس:٩٦-٩٧]، وقال تعالى: ﴿**ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله**﴾ [الأنعام:١١١]، فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما سألوا؛ لأنه لا فائدة في جوابهم لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم لكثرة فجورهم وفسادهم؛ ولهذا قال: ﴿**فانتظروا إني معكم من المنتظرين**﴾.

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة، والمطر بعد القحط ونحو ذلك ﴿**إذا لهم مكر في آياتنا**﴾. قال مجاهد: استهزاء وتكذيب. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء أصابهم من الليل ثم قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مُطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا

وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب». وقوله: ﴿قل الله أسرع مكراً﴾ أي أشد استدراجاً وإمهالاً حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرة منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازيه على الحقير والجليل.

ثم أخبر تعالى أنه ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ أي يكلؤكم بحراسته ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها﴾ أي بسرعة سيرهم فبينما هم كذلك إذ ﴿جاءتها﴾ أي تلك السفن ﴿ريح عاصف﴾ أي شديدة ﴿وجاءهم الموج من كل مكان﴾ أي اغتلم البحر عليهم ﴿وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي هلكوا ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ أي لا يدعون معه صنماً ولا وثناً، بل يُفردونه بالدعاء والابتهال، كما قال تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه. فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾ [الإسراء:٦٧]، وقال ههنا: ﴿دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه﴾ أي هذه الحال ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ أي لا نشرك بك أحداً، ولنفردَنّك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء ههنا، قال الله تعالى: ﴿فلما أنجاهم﴾ من تلك الورطة ﴿إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾ أي كأن لم يكن من ذلك شيء ﴿كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾. ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾ أي إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحداً غيركم، كما جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يعجّل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر الله لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم». [رواه أبوداود والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حسن صحيح]. وقوله: ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ أي إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ثم إلينا مرجعكم﴾ أي مصيركم ومآلكم ﴿فننبئكم﴾ أي فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم إياها.

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بما أنزل من السماء من الماء، مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام، ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها﴾ أي زينتها الفانية ﴿وازينت﴾ أي حَسُنت بما خرج من رباها من زهور نَضِرة مختلفة الأشكال والألوان ﴿وظن أهلها﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿أنهم قادرون عليها﴾ أي على حصادها، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة، أو ريح باردة، فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً﴾ أي يَبَساً بعد الخضرة والنضارة ﴿كأن لم تغن

بالأمس﴾ أي كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك. وقال قتادة: **﴿كأن لم تغن﴾** كأن لم تنعم، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن؛ ولهذا جاء في الحديث: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا، فيُغْمَس في النار غَمْسَة ثم يقال له: هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول: لا ، ويؤتى بأشد الناس عذاباً في الدنيا فيغمس في النعيم غمسة، ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط ؟ فيقول: لا» [رواه مسلم]. ثم قال تعالى: **﴿كذلك نفصل الآيات﴾** أي نبين الحُجج **﴿لقوم يتفكرون﴾** فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترارهم بها، وتمكنهم بمواعيدها وتفلتها منهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز، فقال في سورة الكهف: **﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾** [الكهف: ٤٥]، وكذا في سورة الزمر والحديد، يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا كماء.

وقوله: **﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾** الآية. لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها، رغب في الجنة ودعا إليها وسماها دار السلام أي من الآفات، والنقائص والنكبات فقال: **﴿والله يدعو إلى دار السلام، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾**. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه اضرب له مثلاً، فقال اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مَثَلُك ومثل أُمَّتك كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه، فالله الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها» رواه ابن جرير، [والبخاري بمعناه].

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح أبدله الحسنى في الدار الآخرة كما قال تعالى: **﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾** [الرحمن: ٦٠]. وقوله: **﴿وزيادة﴾** هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضاً، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته، وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف، وقد وردت فيه

أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن صهيب أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن يُنجِزَكُمُوه. فيقولون: وما هو ألم يُثقِّل موازيننا؟ ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا من النار» قال: «فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم» وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة.

وقوله تعالى: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر﴾ أي قتام وسواد في عَرَصات المحشر كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القَتْرة والغَبْرة، ﴿ولا ذلة﴾ أي هوان وصغار أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً﴾ [الإنسان:١١] أي نضرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته آمين.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يُضاعف لهم الحسنات، عطف بذكر حال الأشقياء فذكر تعالى عدله فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك ﴿وترهقهم﴾ أي تعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال: ﴿وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل﴾ الآية [الشورى:٤٥]. وقوله: ﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما﴾ إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ [آل عمران:١٠٦ـ١٠٧].

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ويوم نحشرهم﴾ أي أهل الأرض كلهم من جن وإنس، وبر وفاجر كما قال: ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾ [الكهف:٤٧]. ﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم﴾ أي الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ [يس:٥٩]، وفي الحديث الآخر: «نحن يوم القيامة على كوم فوق الناس» [رواه مسلم].

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة: ﴿مكانكم أنتم وشركاؤكم، فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون﴾ أنكروا عبادتهم

وتبرؤوا منهم، كما قال: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ [الأحقاف: ٥-٦]. وقال في هذه الآية إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم: ﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾ أي ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا ولا رضينا منكم بذلك.

وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، وقد تركوا عبادة الحي القيوم السميع البصير القادر على كل شيء العليم بكل شيء، وقد أرسل رسله وأنزل كتبه آمراً، بعبادته وحده لا شريك له ناهياً عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ [النحل: ٣٦].

والمشركون أنواع وأقسام كثيرون قد ذكرهم الله في كتابه وبين أحوالهم وأقوالهم ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد، وقوله: ﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت﴾ أي في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما أسلفت من عملها من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]. وقد قرأ بعضهم ﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت﴾ وفسَّرها بعضهم بالقراءة، وفسرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمت من خير وشر، وفسرها بعضهم بحديث: «تتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت». الحديث [رواه الشيخان]، وقوله: ﴿وردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ أي ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل ففصلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. ﴿وضل عنهم﴾ أي ذهب عن المشركين ﴿ما كانوا يفترون﴾ أي ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته في ربوبيته على وحدانيته الإلهية، فقال: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي من ذا الذي يُنْزلُ من السماء ماءَ المطر، فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيئته، فيخرج منها ﴿حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهةً وأباً﴾ [عبس: ٢٧-٣١] أإله مع الله ؟ فسيقولون الله وكذلك قوله: ﴿أمّن يملك السمع والأبصار﴾ [يونس: ٣١] أي الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب

بها ولسلبكم إياها كما قال تعالى: ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به﴾ الآية [الأنعام:٤٦]. وقوله: ﴿ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي﴾ أي بقدرته العظيمة ومنته العميمة. وقوله: ﴿ومن يدبر الأمر﴾ أي المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴿يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن﴾ [الرحمن:٢٩]، فالملك كله العلوي والسفلي وما فيهما من ملائكة وإنس وجان فقيرون إليه عبيد له خاضعون لديه، ﴿فسيقولون الله﴾ أي هم يعلمون ذلك ويعترفون به.

﴿فقل أفلا تتقون﴾ أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم. وقوله: ﴿فذلكم الله ربكم الحق﴾ أي فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ أي فكل معبود سواه باطل لا إله إلا هو واحد لا شريك له. ﴿فأنى تصرفون﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء والمتصرف في كل شيء، وقوله: ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾ أي كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق المتصرف في الملك وحده؛ فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله: ﴿قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾.

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي من بَدَأ خلق هذه السموات والأرض، ثم ينشىء ما فيهما من الخلائق، ويفرق أجرام السموات والأرض، ويبدلهما بفناء ما فيهما ثم يُعيد الخلق خلقاً جديداً ﴿قل الله﴾ هو الذي يفعل هذا ويستقل به وحده لا شريك له ﴿فأنى تؤفكون﴾ أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل؟ ﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق﴾ أي أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدي الحيارى والضُّلَّال، ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد الله الذي لا إله إلا هو. ﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى﴾ أي أفيُتّبع العبد الذي يهدى إلى الحق ويُبَصَّر بعد العمى، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدى لعماه وبَكَمه؟ كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يُغني عنك شيئاً﴾ [مريم:٤٢]. وقوله: ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ أي فما بالكم أن يُذهَبُ بعقولكم، كيف سويتم بين الله وبين

خلقه، وعبدتم هذا وهذا، وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة. ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً وإنما هو ظن منهم أي توهم، وذلك لا يغني عنهم شيئاً **﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾** تهديد لهم ووعيد شديد لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله؛ لأنه بفصاحته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني العزيزة النافعة في الدنيا والآخرة لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين؛ ولهذا قال تعالى: **﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾** أي مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر **﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾** أي من الكتب المتقدمة ومهيمناً عليها، ومُبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل وقوله: **﴿وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾** أي وبيان الأحكام والحلال والحرام بياناً شافياً حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين.

وقوله: **﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾** أي إن ادعيتم وشككتم في أن هذا من عند الله وقلتم كذباً: إن هذا من عند محمد، فمحمد بشر مثلكم وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورة مثله، أي من جنس القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قَدرتم عليه من إنس وجان.

وهذا هو المقام الثالث في التحدي، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد فلتعارضوه بنظير ما جاء به وحده واستعينوا بمن شئتم. وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾** [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال في أول سورة هود: **﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾** [هود: ١٣]، ثم تنازل إلى سورة، فقال في هذه السورة: **﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾**، وكذا في سورة البقرة وهي مدنية تحداهم بسورة منه وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً فقال: **﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار﴾** الآية [البقرة: ٢٤].

هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب،

ولكن جاءهم من الله ما لا قِبَلَ لأحد به؛ ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته وجزالته وطلاوته وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به وأفهمهم له وأتبعهم له وأشدُّهم له انقياداً، كما عرف السحرة لعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى عليه السلام لا يصدر إلا عن مُؤيَّد مرسل من الله، وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن الله. وكذلك عيسى عليه السلام بُعث في زمان علماء الطب، فكان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله؛ ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً». [متفق عليه].

وقوله: ﴿**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله**﴾ يقول بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه ﴿**ولما يأتهم تأويله**﴾ أي ولم يُحصّلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً ﴿**كذلك كذب الذين من قبلهم**﴾ أي من الأمم السالفة ﴿**فانظر كيف كان عاقبة الظالمين**﴾ أي فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً وكفراً وجهلاً، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم. وقوله: ﴿**ومنهم من يؤمن به**﴾ أي ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أُرسِلْتَ به ﴿**ومنهم من لا يؤمن به**﴾ بل يموت على ذلك ويُبْعَثُ عليه ﴿**وربك أعلم بالمفسدين**﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضله، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كلاً ما يستحقه تبارك وتعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو.

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ وإن كذبك هؤلاء المشركون، فتبرأ منهم ومن عملهم ﴿**فقل لي عملي ولكم عملكم**﴾ كقوله تعالى: ﴿**قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون**﴾ إلى آخرها [سورة الكافرون]، وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين ﴿**إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله**﴾ [الممتحنة: ٤]. وقوله: ﴿**ومنهم من يستمعون إليك**﴾ أي يسمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم والأحاديث الصحيحة النافعة في القلوب والأبدان والأديان، وفي هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم فإنك لا تقدر على إسماع الأصم ـ وهو الأطرش ـ فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله. ﴿**ومنهم من ينظر إليك**﴾ أي ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة، والسمت الحسن والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولي البصائر والنهى. وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ولا يحصل لهم من الهداية شيء

مما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، والكافرون ينظرون إليك بعين الاحتقار ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا﴾ [الفرقان: ٤١].

ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً وإن كان قد هدى به من هدى من الغي وبصر به من العمى، وفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وأضل به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾. وفي الحديث عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ـ إلى أن قال في آخره: يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه». رواه مسلم بطوله.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم إلى عَرَصات القيامة: كأنهم يوم يوافونها لم يلبثوا في الدنيا ﴿إلا ساعة من نهار﴾ وكما قال تعالى: ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ [النازعات: ٤٦]. وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كما قال: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون﴾ [المؤمنون: ١١٢ـ١١٤].

وقوله: ﴿يتعارفون بينهم﴾ أي يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم بعضا، كما كانوا في الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقوله: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين﴾ كقوله تعالى: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ [المرسلات: ١٥]، لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين فهذه هي الخسارة العظيمة ولا خسارة أعظم من خَسارة من فُرّق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ أي ننتقم منهم في حياتك لتقر عينُك منهم ﴿أو نتوفينك فإلينا مرجعهم﴾ أي مصيرهم ومنقلبهم والله شهيد على أفعالهم بعدك. وقوله: ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم﴾ قال مجاهد: يعني يوم القيامة ﴿قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ كما قال تعالى: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون﴾ [الزمر: ٦٩]، فكل أمة

تُعَرَض على الله بحضرة رسولها، وكتابُ أعمالها من خير وشر موضوعٌ شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهودٌ أيضاً أمة بعد أمة. وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم ويقضي لهم كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق»، فأمته إنما حازت قصب السبق لشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين مما لا فائدة لهم فيه كما قال تعالى: **﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾** [الشورى:١٨] أي كائنة لا محالة وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: **﴿قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله﴾** أي لا أقول إلا ما علَّمني ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يُطلعني عليه فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعني على وقتها ولكن **﴿لكل أمة أجل﴾** أي لكل قرن مدة من العمر مقدَّرة، فإذا انقضى أجلهم **﴿فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾** كما قال تعالى: **﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾** [المنافقون:١١]، ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة فقال: **﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً﴾** أي ليلاً أو نهاراً **﴿ماذا يستعجل منه المجرمون * أثم إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون﴾** يعني أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا **﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾** [السجدة: ١٢].

﴿ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد﴾ أي يوم القيامة يقال لهم هذا تبكيتاً وتقريعاً كقوله: **﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾** [الطور: ١٣-١٦].

﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

يقول تعالى ويستخبرونك **﴿أحق هو﴾** أي المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام تراباً. **﴿قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾** أي ليس صيرورتكم تراباً بمعجز لله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم **﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾** [يس: ٨٢].

وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ: ﴿**وقال الذين كفروا لا تأتيناالساعة قل بلى وربي لتأتينكم**﴾ [سبأ:٣]، وفي التغابن ﴿**زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير**﴾ [التغابن:٧]. ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يودّ الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً، ﴿**وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط**﴾ أي بالحق ﴿**وهم لا يظلمون**﴾.

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٥٦ ﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأنّ وعده حق كائن لا محالة، وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك العليم بما تفرّق من الأجسام وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨ ﴾.

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿**يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم**﴾ أي زاجر عن الفواحش، ﴿**وشفاء لما في الصدور**﴾ أي من الشُبَه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودَنَس، ﴿**وهدى ورحمة**﴾ أي محصلٌ لها الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه، كما قال تعالى: ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً**﴾ [الإسراء:٨٢]. وقوله تعالى: ﴿**قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا**﴾ أي بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿**هو خير مما يجمعون**﴾ أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة.

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠ ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحللون يحرمون من البحائر والسوائب والوصائل، كقوله تعالى: ﴿**وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً**﴾ الآيات [الأنعام:١٣٦]، وقد روى الإمام أحمد عن مالك بن نضلة قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا قشف الهيئة فقال: «هل لك مال؟ قلت نعم. قال من أي المال؟ قال قلت من كل المال من الإبل والرقيق والخيل والغنم، فقال: «إذا آتاك الله مالاً فلْيُرَ عليك». وقال: «هل تنتج إبل قومك صحاحاً آذانُها، فتعمد إلى

موسى فتقطع آذانها، فتقول هذه بحر وتشقها أوتشق جلودها وتقول: هذه صُرُم، وتحرمها عليك وعلى أهلك» قال: نعم. قال: «فإن ما آتاك الله لك حل، وساعد الله أشد من ساعدك، وموسى الله أحدّ من موساك» وذكر تمام الحديث. وهذا حديث جيد قوي الإسناد. [ورواه أبوداود والنسائي وصححه الألباني].

وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله، أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها، ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال: ﴿**وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة**﴾ أي ما ظنهم أن يُصنَع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة، وقوله: ﴿**إن الله لذو فضل على الناس**﴾ قال ابن جرير: في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا. قلت: ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم ﴿**ولكن أكثرهم لا يشكرون**﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً. وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾.

يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وآن ولحظة، وأنه لا يعزُب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين كقوله: ﴿**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين**﴾ [الأنعام:٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله: ﴿**وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم**﴾ [الأنعام:٣٨]. وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة كما قال تعالى: ﴿**وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين**﴾ [الشعراء:٢١٧-٢١٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه**﴾ أي إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون؛ ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». كما رواه مسلم من حديث عمر ورواه هو والبخاري من حديث أبي هريرة.

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، فكل من كان تقياً كان لله ولياً أنه

﴿لا خوف عليهم﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال القيامة **﴿ولا هم يحزنون﴾** على ما وراءهم في الدنيا، وقال عَبد الله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف أولياء الله الذين إذا رؤوا ذُكِر الله، وقد ورد هذا في حديث مرفوع كما روى البزار عن ابن عباس قال: قال رجل: يا رسول الله من أولياء الله ؟ قال «الذين إذا رؤوا ذكر الله» [ورواه أيضا النسائي في التفسير، والطبراني في الكبير، وقال الألباني: حسن].

وروى ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء». قيل: من هم يا رسول الله لعلنا نحبهم ؟ قال: «هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس». ثم قرأ: **﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**. [ورواه النسائي في التفسير، وأبويعلى، وابن حبان وهو صحيح].

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر أنه قال يا رسول الله: الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه، ويثنون عليه به فقال رسول الله ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن» رواه مسلم.

وروى ابن جرير عن أم كُرْز الكعبية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات» [ورواه أحمد وابن ماجه، وقال في الزوائد: هذا إسناد صحيح، وصححه الألباني]. وهكذا روي عن ابن مسعود وأبي هريرة وابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير ويحيى بن أبي كثير وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح وغيرهم أنهم فسروا ذلك بالرؤيا الصالحة. وقيل: المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كما في قوله تعالى: **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلاً من غفور رحيم﴾** [فصلت: ٣٠-٣٢]. وفي حديث البراء رضي الله عنه: «أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء». [وهو حديث طويل رواه أحمد وأبوداود والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه]. وأما بشراهم في الآخرة فكما قال تعالى: **﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾** [الأنبياء: ١٠٣]، وقال تعالى: **﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾** [الحديد: ١٢]. وقوله: **﴿لا تبديل لكلمات الله﴾** أي هذا الوعد لا يُبدَّل ولا يُخْلَف، بل هو مقرر مثبتٌ كائن لا محالة **﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾**.

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى

ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾
هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿**ولا يحزنك**﴾ قول هؤلاء المشركين واستعن بالله عليهم وتوكل عليه فإن العزة لله جميعاً أي جميعها له ولرسوله وللمؤمنين ﴿**هو السميع العليم**﴾ أي السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم، ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وأن المشركين يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئاً لا ضراً ولا نفعاً ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وإفكهم، ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه، أي يستريحون فيه من نصبهم وكلالهم وحركاتهم ﴿**والنهار مبصراً**﴾ أي مضيئاً لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم ﴿**إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون**﴾ أي يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ويستدلون على عظمة خالقها.

﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

يقول تعالى منكراً على من ادعى أن له ولداً: ﴿**سبحانه هو الغني**﴾ أي تقدس عن ذلك هو الغني عن كل ما سواه وكل شيء فقير إليه ﴿**له ما في السموات وما في الأرض**﴾ أي فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له عبد له ﴿**إن عندكم من سلطان بهذا**﴾ أي ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ﴿**أتقولون على الله ما لا تعلمون**﴾ إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد، كما قال تعالى: ﴿**وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدًّا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عدًّا * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً**﴾ [مريم:٨٨-٩٥]. ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفترين ممن زعم أن له ولداً بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلاً ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ، كما قال تعالى ههنا: ﴿**متاع في الدنيا**﴾ أي مدة قريبة ﴿**ثم إلينا مرجعهم**﴾ أي يوم القيامة ﴿**ثم نذيقهم العذاب الشديد**﴾ أي الموجع المؤلم ﴿**بما كانوا يكفرون**﴾ أي بسبب كفرهم وافترائهم على الله فيما ادعوه من الزور.

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿**واتل عليهم**﴾ أي أخبر كفار مكة

الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿نبأ نوح﴾ أي خَبَره مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله ودمّرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك. ﴿إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم﴾ أي عَظُم عليكم ﴿مقامي﴾ فيكم بين أظهركم ﴿وتذكيري﴾ إياكم ﴿بآيات الله﴾ أي بحججه وبراهينه ﴿فعلى الله توكلت﴾ أي فإني لا أبالي ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أو لا ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم﴾ أي فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن ﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمة﴾ أي ولاتجعلوا أمركم عليكم ملتبساً، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إلي ﴿ولا تنظرون﴾ أي ولا تؤخروني ساعة واحدة أي مهما قدرتم فافعلوا فإني لا أباليكم لأنكم لستم على شيء كما قال هود لقومه: ﴿إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

وقوله ﴿فإن توليتم﴾ أي أدبرتم عن الطاعة ﴿فما سألتكم من أجر﴾ أي لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً ﴿إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أي وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾ [المائدة:٤٨]. قال ابن عباس: سبيلاً وسنة. فهذا نوح يقول: ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾، وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [البقرة: ١٣١-١٣٢]، وقال يوسف: ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال موسى: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ [يونس: ٨٤]، وقال السحرة: ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقال بلقيس: ﴿رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ [النمل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ [المائدة: ١١١]، وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ: ﴿إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] أي من هذه الأمة؛ ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: «نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلَّات، ديننا واحد» [متفق عليه] أي وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوعت شرائعنا وذلك معنى قوله: أولاد علات وهم الإخوة من أمهات شتى والأب واحد.

وقوله تعالى: ﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه﴾ أي على دينه ﴿في الفلك﴾ وهي السفينة

﴿وجعلناهم خلائف﴾ أي في الأرض **﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾** أي انظر كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

يقول تعالى: ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات أي بالحجج والبراهين على صدق ما جاؤوهم به **﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾** أي فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم كما قال تعالى: **﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾** [الأنعام: ١١٠]. وقوله: **﴿كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾** أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل، وأنجى من آمن بهم، وذلك من بعد نوح عليه السلام، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام؛ ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. وقال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، وقال الله تعالى: **﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾** الآية [الإسراء: ١٧]، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا بسيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العقاب والنكال، فما ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

يقول تعالى: **﴿ثم بعثنا﴾** من بعد تلك الرسل **﴿موسى وهارون إلى فرعون وملئه﴾** أي قومه **﴿بآياتنا﴾** أي حججنا **﴿فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾** أي استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له، **﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين﴾** كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه كذب، كما قال تعالى: **﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾** الآية [النمل: ١٤]. **﴿قال﴾** لهم **﴿موسى﴾** منكراً عليهم **﴿أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون * قالوا أجئتنا لتلفتنا﴾** أي تثنينا **﴿عما وجدنا عليه آباءنا﴾** أي الدين الذي كانوا عليه **﴿وتكون لكما﴾** أي لك ولهارون **﴿الكبرياء﴾** أي العظمة والرياسة **﴿في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين﴾**.

وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز لأنها من أعجب القصص فإن فرعون حَذر من موسى كل الحذر فسخره القدر أن ربَّى هذا الذي يحذر منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد ثم ترعرع وعقد الله له سبباً أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة الله وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية، والنفس الخبيثة الأبية، وتولى بركنه وادعى ما ليس له وتجهرم على الله وعتا وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى وأخاه هارون ويحوطهما بعنايته ويحرسهما بعينه التي لا تنام، ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئاً بعد شيء، ومرة بعد مرة، مما يبهر العقول ويدهش الألباب مما لا يقوم له شيء ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله، وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها، وصمم فرعون ومَلَؤه ـ قبحهم الله ـ على التكذيب بذلك كله والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يُرَد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين **﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾** [الأنعام: ٤٥].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

ذكر تعالى قصة السحرة مع موسى عليه السلام في سورة الأعراف وقد تقدم الكلام عليها هناك وفي هذه السورة وفي سورة طه وفي الشعراء وذلك أن فرعون لعنه الله أراد أن يعارض ما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين، بزخارف السحرة والمشعبذين، فانعكَس عليه النظام، ولم يحصل له ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام، و**﴿ألقي السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون﴾** [الشعراء: ٤٦-٤٨] فظن فرعون أنه يستنصر بالسُّحار، على رسول عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة واستوجب النار. **﴿وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم * فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾** وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل **﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا﴾** [طه: ٦٥-٦٦] فأراد موسى أن تكون البَدَاءةُ منهم، ليرى الناس ما صنعوا ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم؛ ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم **﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾** [طه: ٦٧-٦٩]. فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: **﴿ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾**.

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات إلا قليل من قوم فرعون من الذرية ـ وهم الشباب ـ على وجل وخوف منه ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر، لأن فرعون كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفاً شديداً. فعن ابن عباس قال: فإن الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير منهم امرأة فرعون: ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه. وعنه أيضا في قوله **﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه﴾** يقول: بني إسرائيل. وعنه وعن الضحاك وقتادة: الذرية: القليل، وقال مجاهد في قوله: **﴿إلا ذرية من قومه﴾** يقول: بني إسرائيل. قال: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم. واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية: أنها من بني إسرائيل لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكورين، وفي هذا نظر لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب وأنهم من بني إسرائيل، فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام واستبشروا به وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذر كل الحذر فلم يجد عنه شيئاً، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى، و**﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾** [الأعراف:١٢٩]. وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل؟

﴿على خوف من فرعون وملئهم﴾ أي وأشراف قومهم أن يفتنهم ولم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان سوى قارون فإنه كان من قوم موسى فبغى عليهم لكنه كان طاوياً إلى فرعون متصلاً به متعلقاً بحباله. ومن قال إن الضمير في قوله **﴿وملئهم﴾** عائد إلى فرعون وعُظّم الملك من أجل أتباعه أو بحذف «آل» فرعون وإقامة المضاف إليه مقامه فقد أبعد، وإن كان ابن جرير قد حكاهما عن بعض النحاة. ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن، قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: **﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾** أي فإن الله كاف من توكل عليه. وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل، كما في قوله تعالى: **﴿فاعبده وتوكل عليه﴾** [هود:١٢٣]، **﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾** [الملك:٢٩]، **﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾** [المزمل:٩]،

وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ [الفاتحة: ٥].

وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك، فقالوا: ﴿على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ أي لا تسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سُلِّطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك. هكذا روي عن أبي مجلز وأبي الضحى، وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون، ولا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنوا بنا. وعن مجاهد أيضا: لا تسلطهم علينا فيفتنونا. ﴿ونجنا برحمتك﴾ أي خلصنا برحمة منك ﴿من القوم الكافرين﴾ أي الذين كفروا الحق وستروه ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه وكيفية خلاصهم منهم وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام ﴿أن يتبوءا﴾ أي يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً، واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ فقال ابن عباس: أمروا أن يتخذوها مساجد، وقال إبراهيم: كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم. وكذا قال مجاهد وأبو مالك والربيع بن أنس والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبوه زيد بن أسلم: وكأن هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾ [البقرة: ١٥٣]. وفي الحديث كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. أخرجه أبو داود [وأحمد وهو حديث حسن]؛ ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين﴾ أي بالثواب والنصر القريب، وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية: قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله لهم أن يصلوا في بيوتهم وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قِبَل القبلة، وقال مجاهد: لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يصلوا في الكنائس الجامعة، أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سراً وكذا قال قتادة والضحاك. وقال سعيد بن جبير ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ أي يقابل بعضها بعضاً.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون ومَلَئه، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلماً وتكبراً، قال موسى: ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة﴾ أي من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿وأموالاً﴾ أي جزيلة كثيرة ﴿في﴾ هذه

﴿**الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك**﴾ بفتح الياء أي أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم استدراجاً منك لهم كما قال تعالى: ﴿**لنفتنهم فيه**﴾. وقرأ آخرون بضم الياء: أي ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم. ﴿**ربنا اطمس على أموالهم**﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: أي أهلكها، وقال الضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت، وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة، وقال محمد بن كعب القرظي: جعل سكرهم حجارة.

وقوله: ﴿**واشدد على قلوبهم**﴾ قال ابن عباس: أي اطبع عليها ﴿**فلا يؤمنوا حتى يروا العذب الأليم**﴾. وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنه لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح عليه السلام فقال: ﴿**رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً**﴾ [نوح: ٢٦-٢٧]؛ ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التي أمَّن عليها أخوه هارون فقال تعالى: ﴿**قد أجيبت دعوتكما**﴾. قال أبو العالية وأبو صالح وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي والربيع بن أنس: دعا موسى وأمن هارون أي قد أجبنا كما فيما سألتما من تدمير آل فرعون، وقد يحتج بهذه الآية من يقول: إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة ينزل منزلة قراءتها لأن موسى دعا وهارون أمن، وقال تعالى: ﴿**قد أجيبت دعوتكما فاستقيما**﴾ الآية، أي كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري. قال ابن عباس: ﴿**فاستقيما**﴾ فامضيا لأمري. قال ابن جريج يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة، وقال محمد بن علي بن الحسين أربعين يوماً.

﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده؛ فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر بصحبة موسى عليه السلام، وهم فيما قيل ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية وقد كانوا استعاروا من القُبط حُلِيّاً كثيراً، فخرجوا به معهم فاشتد حَنَق فرعون عليهم فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة لما يريده الله تعالى بهم، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿**فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون**﴾ وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر وأدركهم فرعون ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان وألح أصحاب موسى عليه السلام عليه في السؤال كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إني أمرت أن أسلك ههنا ﴿**كلا إن معي**

ربي سيهدين﴾ [الشعراء: ٦٢]، فعند ما ضاق الأمر اتسع فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه فضربه فانفلق البحر ﴿فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ أي كالجبل العظيم وصار اثني عشر طريقاً لكل سبط واحد وأمر الله الريح فنشَّفت أرضه ﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى﴾ [طه: ٧٧]، وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك ليرى كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا. وجازت بنو إسرائيل البحر فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئاً فتجلد لأمرائه، وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فاقتحموا كلهم عن آخرهم وميكائيل في ساقتهم لا يترك منهم أحداً إلا ألحقه بهم، فلما استوسقوا فيه وتكاملوا وهمَّ أولهم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم فارتطم عليهم فلم ينج منهم أحد وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم وتراكمت الأمواج فوق فرعون وغشيته سكرات الموت فقال: وهو كذلك: ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون» [غافر: ٨٤-٨٥]. وهكذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿آلآن وقد عصيت قبل﴾ أي أهذا الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه ﴿وكنت من المفسدين﴾ أي في الأرض ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾ [القصص: ٤١]. وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله ﷺ؛ ولهذا روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قال فرعون آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل قال: قال لي جبريل: لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة» [ورواه الترمذي وقال حسن، والنسائي في التفسير، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

وقوله: ﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكّوا في موت فرعون فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع ليتحققوا موته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فاليوم ننجيك﴾ أي نرفعك على نشز من الأرض ﴿ببدنك﴾ قال مجاهد: بجسدك، وقال الحسن: بجسم لا روح فيه، وقال عبد الله بن شداد: سوياً صحيحاً أي لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه، وقال ابو صخر: بدرعك. وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها كما تقدم والله أعلم. وقوله: ﴿لتكون لمن خلفك آية﴾ أي لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده وأنه لا يقوم لغضبه؛ شيء ولهذا قرأ بعضهم: «لتكون لمن خلقك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون» أي لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها، وقد كان

إهلاك فرعون وملئه يوم عاشوراء كما روى البخاري عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا: هذا يوم ظهرَ فيه موسى على فرعون. فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم فصوموا».

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية وقوله: **﴿مبوأ صدق﴾** قيل هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها، كما قال الله تعالى: **﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾** [الأعراف: ١٣٧]، ولكن استمروا مع موسى عليه السلام طالبين إلى بلاد بيت المقدس وهي بلاد الخليل عليه السلام فاستمر موسى بمن معه طالباً بيت المقدس، وكان فيه قوم من العمالقة فنكل بنو إسرائيل عن قتال العمالقة فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه هارون، ثم موسى عليهما السلام، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ففتح الله عليهم بيت المقدس واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حيناً من الدهر، ثم عادت إليهم ثم أخذها ملوك اليونان وكانت تحت أحكامهم مدة طويلة، وبعث الله عيسى ابن مريم عليه السلام في تلك المدة فاستعانت اليهود قبحهم الله على معاداة عيسى عليه السلام بملوك اليونان وكانت تحت أحكامهم ووشوا عندهم وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا فبعثوا من يقبض عليه فرفعه الله إليه، وشُبِّه لهم بعض الحواريين بمشيئة الله وقدره، فأخذوه فصلبوه واعتقدوا أنه هو **﴿وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾** [النساء: ١٥٧ـ١٥٨]. ثم بعد المسيح عليه السلام بنحو ثلثمائة سنة دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في دين النصرانية وكان فيلسوفاً قبل ذلك فدخل في دين النصارى قيل تقية وقيل حيلة ليفسده، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة وبدعا وأحدثوها، فبنى لهم الكنائس والبيَع الكبار والصغار، والصوامع والهياكل، والمعابد وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف ووضع وكذب ومخالفة لدين المسيح ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان، فاتخذوا لهم الصوامع في البراري، واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم، وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية، والقُمَامة، وبيت لحم، وكنائس بلاد بيت المقدس، ومدن حوران كبصرى وغيرها من البلدان بناءات هائلة محكمة، وعبدوا الصليب من حينئذ، وصلوا إلى الشرق، وصوروا الكنائس، وأحلوا لحم الخنزير وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول، ووضعوا له الأمانة الحقيرة التي

يسمونها الكبيرة، وصنفوا له القوانين وبسط هذا يطول. والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة رضي الله عنهم وكان فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً وقوله: ﴿فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾ أي ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم أي ولم يكن لهم أن يختلفوا وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس، وقد ورد في الحديث: «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة وإن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة منها واحدة في الجنة وثنتان وسبعون في النار» قيل: من هم يا رسول الله قال: «ماأنا عليه وأصحابي» رواه الحاكم في مستدركه بهذا اللفظ وهو في السنن والمسانيد [وهو حديث صحيح]؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إن ربك يقضي بينهم﴾ أي يفصل بينهم ﴿يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾.

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

قال قتادة بن دعامة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل» [وهو مرسل جيد]. وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ الآية [الأعراف:١٥٧]. ثم مع هذا العلم يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم يُلْبِسون ذلك ويبدلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ أي لا يؤمنون إيماناً ينفعهم بل حين لا ينفع نفساً إيمانها؛ ولهذا لما دعا موسى عليه السلام على فرعون وملئه قال: ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس:٨٨]. ثم قال تعالى:

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾.

يقول تعالى فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه أو أكثرهم كما قال تعالى: ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾ [يس:٣٠]، وفي الحديث الصحيح: «عرض عليّ الأنبياء فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس والنبي يمر معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد» ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلامه عليه

كثرة سدت الخافقين الشرقي والغربي. [متفق عليه]. والغرض، أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى، إلا قوم يونس وهم أهل نِيَنْوى، وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم فعندما جأروا إلى الله، واستغاثوا به وتضرعوا لديه واستكانوا، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم. فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأُخِّروا كما قال تعالى: ﴿**إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين**﴾.

واختلف المفسرون هل كُشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي؟ أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط؟ على قولين: **أحدهما**: إنما كان ذلك في الحياة الدنيا كما هو مقيد في هذه الآية. **والثاني**: فيهما لقوله تعالى: ﴿**وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون * فآمنوا فمتعناهم إلى حين**﴾ [الصافات:١٤٧-١٤٨]، فأطلق عليهم الإيمان. والإيمان منقذ من العذاب الأخروي وهذا هو الظاهر والله أعلم.

وقال قتادة في تفسير هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب فتركت، إلا قوم يونس لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المسُوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عَجّوا إلى الله أربعين ليلة. فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم. وذكر أن قوم يونس بنينوى أرض الموصل. وكذا روي عن ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف وكان ابن مسعود يقرؤها: «فهلا كانت قرية آمنت».

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**ولو شاء ربك**﴾ لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كما قال: ﴿**أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً**﴾ [الرعد:٣١]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**أفأنت تكره الناس**﴾ أي تلزمهم وتلجئهم ﴿**حتى يكونوا مؤمنين**﴾ أي ليس ذلك عليك ولا إليك بل الله ﴿**يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**﴾ [فاطر:٨]، ﴿**ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء**﴾ [البقرة:٢٧٢]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد الهادي من يشاء المضل لمن يشاء لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال: ﴿**وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس**﴾ وهو الخبال والضلال ﴿**على الذين لا يعقلون**﴾ أي حججَ الله وأدلته، وهو العادل في كل ذلك، في هداية من هدى وإضلال من ضل.

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ

أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

يرشدُ تعالى عباده إلى التفكر في آلائه وماخلق في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، مما في السموات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار واختلافهما وإيلاج أحدهما في الآخر حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج وهو مع هذا مسخر مذلل للسالكين يحمل سفنهم ويجري بها برفق بتسخير القدير لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقوله: ﴿**وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون**﴾ أي وأي شيء تجدي الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون، كما قال ﴿**إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون. ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم**﴾ [يونس: ٩٦ـ٩٧].

وقوله: ﴿**فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم**﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسلهم ﴿**قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين * ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا**﴾ أي ونهلك المكذبين بالرسل ﴿**كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين**﴾ حقاً أوجبه الله على نفسه الكريمة كقوله: ﴿**كتب ربكم على نفسه الرحمة**﴾ [الأنعام: ١٢] كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي**».

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من صحة ما جئتكم من الدين الذي أوحاه الله إلي فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله وحده لا شريك له، وهو الذي يتوفاكم، ثم إليه مرجعكم؛ فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقاً فأنا لا أعبدها، فادعوها فلتضرني فإنها لا تضر ولا تنفع، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له وأمرت أن أكون من المؤمنين. وقوله: ﴿**وأن أقم وجهك للدين حنيفاً**﴾ أي أخلص العبادة لله وحده، حنيفاً أي منحرفاً عن الشرك؛ ولهذا قال: ﴿**ولا تكونن من المشركين**﴾

وهو معطوف على قوله: ﴿**وأمرت أن أكون من المؤمنين**﴾.

وقوله: ﴿**وإن يمسسك الله بضر**﴾ إلى آخرها، بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، وقوله: ﴿**وهو الغفور الرحيم**﴾ أي لمن تاب إليه وتوكل عليه ولو من أي ذنب كان حتى من الشرك به فإنه يتوب عليه.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

يقول تعالى أمراً لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك فيه، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿**وما أنا عليكم بوكيل**﴾ أي وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين به، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى. وقوله: ﴿**واتبع ما يوحى إليك واصبر**﴾ أي تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿**حتى يحكم الله**﴾ أي يفتح بينك وبينهم ﴿**وهو خير الحاكمين**﴾ أي خير الفاتحين بعدله وحكمته.

تفسير سورة هود وهي مكية

روى أبو عيسى الترمذي عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت قال: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت». وفي رواية «هود وأخواتها». [وقال: حسن غريب وصححه الألباني].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾.

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا وبالله التوفيق، وأما قوله: ﴿**أحكمت آياته ثم فصلت**﴾ أي هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها، فهو كامل صورة ومعنى، هذا معنى ما روي عن مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير. وقوله: ﴿**من لدن حكيم خبير**﴾ أي من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه، الخبير بعواقب الأمور. ﴿**ألا تعبدوا إلا الله**﴾ أي نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ [النحل:٣٦]. وقوله: ﴿**إنني لكم منه نذير وبشير**﴾ أي إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه،

وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب فاجتمعوا فقال: «يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبحكم ألستم مصدقي؟» فقالوا: ما جربنا عليك كذباً قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». [متفق عليه].

وقوله: ﴿**وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله**﴾ أي وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك ﴿**يمتعكم متاعاً حسناً**﴾ أي في الدنيا ﴿**إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله**﴾ أي في الدار الآخرة، قاله قتادة، كقوله: ﴿**من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾ [النحل:٩٧]، وقد جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لسعد: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجِرْت بها حتى ما تجعل في في امرأتك». [متفق عليه]. وعن ابن مسعود في قوله: ﴿**ويؤت كل ذي فضل فضله**﴾ قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات. فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات، ثم يقول: هلك من غلب آحاده أعشاره، وقوله: ﴿**وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير**﴾ هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى وكذب رسله فإن العذاب يناله يوم معاده لا محالة، ﴿**إلى الله مرجعكم**﴾ أي معادكم يوم القيامة ﴿**وهو على كل شيء قدير**﴾ أي وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب كما أن الأول مقام ترغيب.

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ﴾.

قال ابن عباس كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية، روى البخاري عن محمد بن عباد بن جعفر أن ابن عباس قرأ: ألا إنهم تَثْنُوني صدورهم» فقلت: يا أبا عباس ما تثنوني صدورهم؟ قال: الرجل كان يجامع امرأته فيستحي أو يتخلى فيستحي فنزلت: ﴿**ألا إنهم تثنوني صدورهم**﴾.

قال البخاري: عن ابن عباس: ﴿**يستغشون**﴾ يغطون رؤوسهم، وقال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية: يعني به الشك في الله، وعمل السيئات وكذا روي عن مجاهد والحسن وغيرهم: أي أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿**يعلم ما يسرون**﴾ من القول ﴿**وما يعلنون * إنه عليم بذات الصدور**﴾ أي يعلم ما تكن

صدورهم من النيات والضمائر والسرائر.

وقال عبد الله بن شداد: كان أحدهم إذا مر برسول الله ثنى عنه صدره وغطى رأسه فأنزل الله ذلك، وعود الضمير إلى الله أولى لقوله: **﴿ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾** وقرأ ابن عباس: «ألا إنهم تَثْنَوْني صدُورُهم برفع الصدور على الفاعلية وهو قريب المعنى.

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ ﴾.

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها بحريها وبريها، وأنه **﴿يعلم مستقرها ومستودعها﴾** أي يعلم أين مُنتهى سيرها في الأرض وأين تأوي إليه من وكرها وهو مستودعها، وقال ابن عباس: **﴿ويعلم مستقرها﴾** أي حيث تأوي **﴿ومستودعها﴾** حيث تموت، وعن مجاهد: **﴿مستقرها﴾** في الرحم، **﴿ومستودعها﴾** في الصلب كالتي في الأنعام، وكذا روي عن ابن عباس والضحاك وجماعة. وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك كما قال تعالى: **﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾** [الأنعام:٣٨]، وقوله: **﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾** [الأنعام:٥٩].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، وقال البخاري في تفسير هذه الآية: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل أَنفِق أُنفق عليك». وقال: «يد الله ملأى لا يَغِيضها نفقة، سحَّاءَ الليلَ والنهار» وقال: «أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يَغض ما في يده وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع».

وقال مجاهد: **﴿وكان عرشه على الماء﴾** قبل أن يخلق شيئاً، وكذا قال وهب بن منبه وضمرة بن حبيب وقتادة وابن جرير وغير واحد، وقال قتادة في قوله: **﴿وكان عرشه على الماء﴾** ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض، وقال الربيع بن أنس **﴿وكان عرشه على الماء﴾** فلما خلق السموات والأرض قسم ذلك الماء قسمين فجعل نصفاً تحت العرش وهو البحر المسجور. وقال ابن عباس: إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه،

وقال محمد بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿**وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء**﴾ فكان كما وصف نفسه تعالى إذ ليس إلا الماء وعليه العرش وعلى العرش ذو الجلال والإكرام، والعزة والسلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرحمة والنعمة الفعال لما يريد، وقال سعيد بن جبير: سئل ابن عباس عن قول الله: ﴿**وكان عرشه على الماء**﴾ على أي شيء كان الماء ؟ قال على متن الريح.

وقوله تعالى: ﴿**ليبلوكم أيكم أحسن عملاً**﴾ أي خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له، ولم يخلق ذلك عبثاً، كما قال تعالى: ﴿**وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار**﴾ [ص:٢٧]، وقوله: ﴿**ليبلوكم**﴾ أي ليختبركم ﴿**أيكم أحسن عملاً**﴾ ولم يقل أكثر عملاً، بل أحسن عملاً ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل على شريعة رسول الله ﷺ فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين بطل حبط.

وقوله: ﴿**ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين**﴾ يقول: تعالى ولئن أخبرت هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿**ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله**﴾ [الزخرف:٨٧]. وقولهم: ﴿**إن هذا إلا سحر مبين**﴾ أي يقولون كفراً وعناداً ما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا مَنْ سَحَرْتَه فهو يتبعك على ما تقول، وقوله: ﴿**ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه**﴾ يقول تعالى: ولئن أخرنا العذاب عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ليقولن تكذيباً واستعجالاً: ﴿**ما يحبسه**﴾ أي يؤخر هذا العذاب عنا فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد. و«الأمة» تستعمل في القرآن والسنة في معان متعددة فيراد بها: الأمد، كقوله في هذه الآية ﴿**إلى أمة معدودة**﴾.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة إلا من رحم الله من عباده المؤمنين فإنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له يأس من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وجحود لماضي الحال كأنه لم ير خيراً، ولم يَرْج بعد ذلك فرجاً. وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿**ليقولن ذهب السيئآت عني**﴾ أي يقول: ما بقي ينالني بعد هذا ضَيْم ولا سوء ﴿**إنه لفرح فخور**﴾ أي فرح بما في يده فخور على غيره، قال الله تعالى: ﴿**إلا الذين صبروا**﴾ أي في الشدائد والمكاره ﴿**وعملوا الصالحات**﴾ أي في الرخاء والعافية ﴿**أولئك لهم مغفرة**﴾ أي بما يصيبهم من الضراء

﴿**وأجر كبير**﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء كما جاء في الحديث «والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن همٌ ولا غمٌ ولا نَصَب ولا وَصَب ولا حَزَن حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه». [رواه مسلم]، وقال تعالى: ﴿**إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعا. وإذا مسه الخير منوعا. إلا المصلين**﴾ [المعارج: ١٩ـ٢٢].

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ عما كان يتعنت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخبر تعالى عنهم: ﴿**وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً * أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً**﴾ [الفرقان: ٧ـ٨]. فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه وأرشده إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدره ولا يثنينه عن دعائهم إلى الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿**ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون. فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين. واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾ [الحجر: ٩٧ـ٩٩]، وقال ههنا: ﴿**فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا**﴾ أي لقولهم ذلك فإنما أنت نذير ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك فإنهم كُذبُوا وأوذُوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل، ثم بين تعالى إعجاز القرآن وأنه لا يستطيع بشر الإتيان بمثله، ولا بعشر سور من مثله، ولا بسورة من مثله؛ لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلامُ المخلوقين، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات. وذاته لا يشبهها شيء تعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو ولا رب سواه. ثم قال تعالى: ﴿**فإن لم يستجيبوا لكم**﴾ فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتهم إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله، متضمن علمه وأمره ونهيه ﴿**وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون**﴾.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

عن ابن عباس في هذه الآية: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً، يقول: من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل لا يعمله إلا التماس الدنيا، يقول الله تعالى: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمله التماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين: وهكذا روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد، وقال أنس بن مالك والحسن: نزلت في اليهود والنصارى،

وقال مجاهد وغيره: نزلت في أهل الرياء، وقال قتادة: من كانت الدنيا همه ونيته وطَلِبَته جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطىٰ بها جزاء، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة. وقال تعالى: **﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾**.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) ﴾.

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو كما قال تعالى: **﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾** الآية [الروم:٣٠]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه و ينصرانه و يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟». وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حُنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم»، فالمؤمن باق على هذه الفطرة، وقوله: **﴿ويتلوه شاهد منه﴾** أي وجاءه شاهد من الله وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المُكمَّلَة المُخْتَتَمَة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. ولهذا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو العالية والضحاك وإبراهيم النخعي والسدي وغير واحد في قوله تعالى: **﴿ويتلوه شاهد منه﴾**: إنه جبريل عليه السلام.

وعن علي والحسن وقتادة: هو محمد ﷺ وكلاهما قريب في المعنى؛ لأن كلاًّ من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلَّغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد ومحمد إلى الأمة، وهو الحق؛ وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة، والفطرة تصدقها وتؤمن بها، ولهذا قال تعالى: **﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾** وهو القرآن بلغه جبريل إلى النبي ﷺ وبلغه النبي إلى أمته. ثم قال تعالى: **﴿ومن قبله كتاب موسى﴾** أي ومن قبلَ القرآن كتاب موسى وهو التوراة **﴿إماماً ورحمة﴾** أي أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم وقدوة يقتدون بها، ورحمة من الله بهم. فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن، ولهذا قال تعالى: **﴿أولئك يؤمنون به﴾**. ثم قال تعالى متوعداً لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه: **﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾** أي ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض فالنار موعده. وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار». وقال سعيد بن جبير: كنت لا أسمع

بحديث عن النبي ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه أو قال تصديقه في القرآن فبلغني أن النبي ﷺ قال: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي إلا دخل النار» فجعلت أقول أين مصداقه في كتاب الله ؟ قال وقلما سمعت عن رسول الله ﷺ إلا وجدت له تصديقاً في القرآن حتى وجدت هذه الآية ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ قال: من الملل كلها. وقوله: ﴿فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك﴾ أي القرآن حق من الله لا مرية ولا شك كما قال تعالى: ﴿ألم، تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ [السجدة: ١-٢].

وقوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء وسائر البشر والجان، كما روى الإمام أحمد عن صفوان بن مُحْرِز قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل قال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل يدني المؤمن فيضع عليه كنَفَه ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه ويقول له: أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرَّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم». ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول: ﴿الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ الآية أخرجه البخاري ومسلم. وقوله: ﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ أي يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل ويجنبوهم الجنة، ﴿ويبغونها عوجاً﴾ أي ويريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة، ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أي جاحدون بها مكذبون بوقوعها. ﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾ أي بل كانوا تحت قهره وفي قبضته وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة، ولكن ﴿يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وفي الصحيحين: «إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾ أي يضاعف عليهم العذاب، وذلك لأن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، فما أغنى عنهم

سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء، بل كانوا صماً عن سماع الحق، عمياً عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار: ﴿**وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير**﴾ [الملك:١٠]؛ ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه وعلى كل نهي ارتكبوه؛ ولهذا كان أصح الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة. وقوله: ﴿**أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون**﴾ أي خسروا أنفسهم لأنهم دخلوا ناراً حامية فهم معذبون فيها لا يُفَتَّر عنهم من عذابها طرفة عين، كما قال تعالى: ﴿**كلما خبت زدناهم سعيراً**﴾ [الإسراء:٩٧].

﴿**وضلّ عنهم**﴾ أي ذهب عنهم ﴿**ما كانوا يفترون**﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام فلم تُجْد عنهم شيئاً، بل ضرتهم كل الضرر، كما قال تعالى: ﴿**وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾ [الأحقاف:٦]. وقال الخليل لقومه: ﴿**إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين**﴾ [العنكبوت:٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسارهم ودمارهم؛ ولهذا قال: ﴿**لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون**﴾ يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة؛ لأنهم استبدلوا بالدركات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن شرب الرحيق المختوم بسموم وحميم وظل من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غِسْلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن ورؤيته، بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فآمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلاً، وبهذا ورثوا الجنات، المشتملة على الغرف العاليات، والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والمآكل المشتهيات والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسموات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون، ولا يتمخطون، إن هو إلا رشح مسك يعرقون.

ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال: ﴿**مثل الفريقين**﴾ أي الذين وصفهم أولاً بالشقاء والمؤمنين بالسعداء فأولئك كالأعمى والأصم وهؤلاء كالبصير والسميع، فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا وفي الآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به، ﴿**ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون**﴾ الآية [الأنفال:٢٣]. وأما المؤمن ففطن ذكي بصير بالحق، يميز بينه وبين الباطل، فيتبع الخير

ويترك الشر، سميع للحجة يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يروج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا. ﴿أفلا تذكرون﴾ أفلا تعتبرون وتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء كما قال في الآية الأخرى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات، إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور * إن أنت إلا نذير إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ [فاطر:١٩-٢٤].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين أنه قال لقومه: ﴿إني لكم نذير مبين﴾ أي ظاهر النذَارَة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله، ولهذا قال: ﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾ وقوله: ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ أي إن استمررتم على ما أنتم عليه عذبكم الله عذاباً موجعاً شاقاً في الدار الآخرة. ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ والملأ: هم السادة والكبراء من الكافرين منهم ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾ أي لست بملك ولكنك بشر فكيف أوحي إليك من دوننا ثم ما نراك اتبعك إلا أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تَرَوّ منهم ولا فكرة، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك؛ ولهذا قال: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ أي في أول بادىء الرأي ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ يقولون ما رأينا لكم علينا فضيلة في خَلق ولا خُلق ولا رزق ولا حال، ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ أي فيما تَدَّعونه لكم من البر والصلاح والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها. هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه، وهو دليل على جهلهم وقلة عقلهم فإنه ليس بعار على الحق رَذَالةُ من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاءُ الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالى: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ [الزخرف:٢٣]، ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل هم أتباع الرسل. [رواه البخاري]. وقولهم: ﴿بادي الرأي﴾ ليس بمذمة ولا عيب لأن الحق إذا وضح لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال بل لابد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء، بل ولا يفكر وينزوي ههنا إلا عَيِيٌّ أو غبيٌّ، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنما جاءوا بأمر جلي. وقولهم: ﴿وما نرى

لكم علينا من فضل﴾ هم لا يرون ذلك؛ لأنهم عُمْي عن الحق لا يسمعون ولا يبصرون، بل هم في ريبهم يترددون في ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفاكون الأرذلون وهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عما رد به نوح على قومه في ذلك: **﴿أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾** أي على يقين وأمر جلي، ونبوة صادقة وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم **﴿فعميت عليكم﴾** أي خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها بل بادرتم إلى تكذيبها وردها **﴿أنلزمكموها﴾** أي نغصبكم على قبولها وأنتم لها كارهون.

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

يقول لقومه: لا أسألكم على نصحي لكم أجرة آخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله عز وجل **﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾** كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه نفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصاً فأنزل الله تعالى: **﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾** [الأنعام: ٥٢].

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

يخبرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له بإذن الله له في ذلك، ولا يسألهم على ذلك أجراً بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع فمن استجاب له فقد نجا، ويخبرهم أنه لا يقدر على التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بمَلَك من الملائكة بل هو بشر مرسل مؤيد بالمعجزات. ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم إنهم ليس لهم عند الله ثواب على إيمانهم الله أعلم بما في أنفسهم، فإن كانوا مؤمنين باطناً كما هو الظاهر من حالهم فلهم جزاء الحسنى، ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما آمنوا لكان ظالماً قائلاً ما لا علم له به.

﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه، والبلاء موكل بالمنطق. **﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا﴾** أي حاججتنا فأكثرت من ذلك ونحن لا نتبعك **﴿فأتنا بما**

تعدنا﴾ أي من النقمة والعذاب ادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعو به **﴿إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين﴾** أي إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذي لا يعجزه شيء **﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾** أي أي شيء يجدي عليكم وإنذاري إياكم ونصحي إن كان الله يريد إغواءكم ودماركم **﴿هو ربكم وإليه ترجعون﴾** أي هو مالك أزمة الأمور، والمتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور، مالك الدنيا والآخرة.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة مؤكد لها. ومقرر بشأنها يقول تعالى لنبيه ﷺ: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون افترى هذا وافتعله من عنده **﴿قل إن افتريته فعلي إجرامي﴾** أي فإثم ذلك علي **﴿وأنا بريء مما تجرمون﴾** أي ليس ذلك مفتعلاً ولا مفترى لأني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه.

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نقمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى مخبراً عنه أنه قال: **﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾** [نوح: ٢٦]، **﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾** [القمر: ١٠]، فعند ذلك أوحى الله تعالى إليه **﴿أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾** فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم **﴿واصنع الفلك﴾** يعني السفينة **﴿بأعيننا﴾** أي بمرأى منا **﴿ووحينا﴾** أي وتعليمنا لك ماذا تصنعه **﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾**.

وقوله: **﴿ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه﴾** أي يكذبون بما يتوعدهم به من الغرق **﴿قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون. فسوف تعلمون﴾** تهديد أكيد **﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾** أي يهنه في الدنيا **﴿ويحل عليه عذاب مقيم﴾** أي مستمر أبداً.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

هذه مُواعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة، والهتّان الذي لا يُقلع ولا يَفتُر، بل هو كما قال تعالى: **﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر﴾** [القمر: ١١-١٤]، وأما قوله: **﴿وفار التنور﴾** فعن ابن عباس التنور:

وجه الأرض، أي صارت الأرض عيوناً تفور حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماء وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه التنور: فَلَق الصبح، وتنوير الفجر، وهو ضياؤه وإشراقه. والأول أظهر. فحينئذ أمر الله نوحاً عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات اثنين ذكراً وأنثى.

وقوله: ﴿**وأهلك إلا من سبق عليه القول**﴾ أي واحمل فيها أهلك وهم أهل بيته وقرابته إلا من سبق عليه القول منهم، ممن لم يؤمن بالله فكان منهم ابنه يام الذي انعزل وحده وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله، وقوله: ﴿**ومن آمن**﴾ أي من قومك ﴿**وما آمن معه إلا قليل**﴾ أي نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً.

﴿ ۞وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام إنه قال للذين أُمِرَ بحملهم معه في السفينة: ﴿**اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها**﴾ أي بسم الله يكون جَرْيُها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رُسُوّها. وقال الله تعالى: ﴿**فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين وقل ربِّ أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين**﴾ [المؤمنون:٢٨-٢٩]؛ ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور عند الركوب على السفينة وعلى الدابة كما قال تعالى: ﴿**والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين. وإنا إلى ربنا لمنقلبون**﴾ [الزخرف:١٢-١٤]، وجاءت السنة بالحث على ذلك كما سيأتي في سورة الزخرف إن شاء الله وبه الثقة.

وقوله: ﴿**إن ربي لغفور رحيم**﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذكر أنه غفور رحيم كما قال: ﴿**إن ربك لسريع العقاب * وإنه لغفور رحيم**﴾ [الأعراف:١٦٧]، إلى غير ذلك من الآيات التي يقرن فيها بين انتقامه ورحمته، وقوله: ﴿**وهي تجري بهم في موج كالجبال**﴾ أي السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبق جميع الأرض حتى طفت على رؤوس الجبال وارتفع عليها، وهذه السفينة جارية على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كَنَفه وعنايته وحراسته وامتنانه كما قال تعالى: ﴿**إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية**﴾ [الحاقة: ١١-١٢]. وقوله: ﴿**ونادى نوح ابنه**﴾ الآية، هذا هو الابن الرابع واسمه يام وكان كافراً دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون ﴿**قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء**﴾، اعتقد بجهله أن

الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح عليه السلام: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ أي ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله، ﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾.

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه لما اغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ﴿وغيض الماء﴾ أي شرع في النقص ﴿وقضي الأمر﴾ أي فُرِغَ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله لم يبق منهم دَيّارٌ ﴿واستوت﴾ السفينة بمن فيها ﴿على الجودي﴾ قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت وتواضع هو لله عز وجل، فلم يغرق وأرسَت عليه سفينة نوح عليه السلام. وقال قتادة: استوت عليه شهراً حتى نزلوا منها، قال قتادة: قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رماداً. وقال الضحاك: الجودي جبل بالموصل، وقال بعضهم: هو الطور.

وقوله: ﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ أي هلاكاً وخساراً لهم وبعداً من رحمة الله فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق ﴿قال رب إن ابني من أهلي﴾ أي وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدُك الحق الذي لا يخلف فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين ﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك﴾ أي الذين وعدت إنجاءهم لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك؛ ولهذا قال: ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم﴾ [هود: ٤٠]، فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً عليه السلام، وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه وإنما كان ابن زنية، ويحكى القول بأنه ليس بابنه وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد والحسن وعبيد بن عمير وأبي جعفر الباقر وابن جري، واحتج بعضهم بقوله: ﴿إنه عمل غير صالح﴾ وبقوله: ﴿فخانتاهما﴾ [التحريم: ١٠]، فممن قاله الحسن البصري احتج بهاتين الآيتين وبعضهم يقول كان ابن امرأته وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن أو أراد أنه نسب إليه مجازاً لكونه كان ربيباً عنده فالله أعلم. وقال ابن عباس وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط قال: وقوله: ﴿إنه ليس

من **أهلك﴾** أي الذين وعدتك نجاتهم، وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة؛ ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه؛ ولهذا قال تعالى: **﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم * لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾** إلى قوله: **﴿إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾** [النور: ١١ـ١٥].

وقال ابن عباس: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية قال عكرمة في بعض الحروف إنه عمل غير صالح، والخيانة تكون على غير باب، وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قرأ بذلك، فقد روى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: «إنه عَمِلَ غيرَ صالح»، وسمعته يقول: **﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾** ولا يبالي **﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾** [الزمر: ٥٣] [ورواه أبوداود والترمذي وهو حسن]. وقال ابن عباس لما سئل وهو إلى جنب الكعبة عن قول الله: **﴿فخانتاهما﴾** [التحريم: ١٠] قال: أما إنه لم يكن بالزنا، ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون، وكانت هذه تدل على الأضياف. ثم قرأ: **﴿إنه عمل غير صالح﴾** قال ابن عيينة: أخبرني عمار الدُهْنِي أنه سأل سعيد بن جبير عن ذلك فقال: كان ابن نوح إن الله لا يكذب. قال تعالى: **﴿ونادى نوح ابنه﴾** قال وقال بعض العلماء: ما فجرت امرأة نبي قط. وكذا رُوي عن مجاهد أيضاً وعكرمة والضحاك وميمون بن مهران وثابت بن الحجاج وهو اختيار أبي جعفر بن جرير وهو الصواب الذي لا شك فيه.

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾.

يخبر تعالى عما قيل لنوح عليه السلام حين أرست السفينة على الجودي، من السلام عليه وعلى من معه من المؤمنين وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة، كما قال محمد بن كعب: دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة. وقال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض وأبواب السماء، يقول الله تعالى: **﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك﴾** الآية فجعل الماء ينقص ويغيض ويُدْبِرُ، حتى برز وجه الأرض وظهر اليَبَس، وكشف نوح غطاء الفلك، ورأى وجه الأرض و**﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا﴾** الآية.

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ

لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ هذه القصص وأشباهها: ﴿من أنباء الغيب﴾ يعني من أخبارالغيوب السالفة نوحيها إليك على وجهها، كأنك شاهدها ﴿نوحيها إليك﴾ أي نعلمك بها وحياً منا إليك ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ أي لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يكذبك إنك تعلمتها منه بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك، فإنا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا﴾ الآية [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

يقول تعالى: ولقد أرسلنا ﴿إلى عاد أخاهم هوداً﴾ آمراً لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح والبلاغ من الله، إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره أفلا تعقلون من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة. ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره وحفظ شأنه وقوته؛ ولهذا قال: ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ [نوح: ١١].

﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾.

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم: ﴿ما جئتنا ببينة﴾ أي بحجة على ما تدعيه ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك﴾ أي بمجرد قولك اتركوهم نتركهم ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ بمصدقين ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبَل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها ﴿قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه﴾ يقول: إني بريء من جميع الأنداد والأصنام ﴿فكيدوني جميعاً﴾ أي أنتم وآلهتكم إن كانت حقاً فذروها تكيدني ﴿ثم لا تنظرون﴾ أي طرفة عين. وقوله: ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ أي تحت قهره وسلطانه وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه فإنه على صراط مستقيم. قال أيفع بن عبد الكلاعي في قوله تعالى: ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾ قال: فيأخذ

بنواصي عباده فيلقن المؤمن حتى يكون له أشفق من الوالد لولده، ويقول للكافر: ﴿**ما غرك بربك الكريم**﴾ [الانفطار:٦]. وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر بل هي جماد لا تسمع ولاتبصر، ولا تُوالي ولا تُعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له، الذي بيده الملك وله التصرف وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾.

يقول لهم هود: فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها ﴿**ويستخلف ربي قوماً غيركم**﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به، ولا يبالي بكم فإنكم لا تضرونه بكفركم بل يعود وَبَال ذلك عليكم ﴿**إن ربي على كل شيء حفيظ**﴾ أي شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر. ﴿**ولما جاء أمرنا**﴾ وهو الريح العقيم، التي لا تمر بشيء إلا جعلته كالرميم، فأهلكهم الله عن آخرهم، ونجى هوداً وأتباعه من عذاب غليظ ﴿**وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم**﴾ كفروا بها وعصوا رسل الله، وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به، فعاد كفروا بهود فنزَّل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل، ﴿**واتبعوا أمر كل جبار عنيد**﴾ تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد، فلهذا أُتبِعُوا في هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذُكِروا، ويُنَادَى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ﴿**ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعادٍ قوم هود**﴾. قال السدي: ما بعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

يقول تعالى: ولقد أرسلنا ﴿**إلى ثمود**﴾ وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة وكانوا بعد عاد، فبعث الله منهم ﴿**أخاهم صالحاً**﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده؛ ولهذا قال: ﴿**هو أنشأكم من الأرض**﴾ أي ابتدأ خلقكم من الأرض التي خلق منها أباكم آدم ﴿**واستعمركم فيها**﴾ أي جعلكم فيها عُمَّاراً تعمرونها وتستغلونها ﴿**فاستغفروه**﴾ لسالف ذنوبكم، ﴿**ثم توبوا إليه**﴾ فيما تستقبلونه ﴿**إن ربي قريب مجيب**﴾ كما قال تعالى: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان**﴾ الآية [البقرة:١٨٦].

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾.

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم ﴿**قد كنت فينا مرجواً قبل هذا**﴾ أي كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت ﴿**أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا**﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿**وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب**﴾ أي في شك كثير ﴿**قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي**﴾ فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان ﴿**وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته**﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني ﴿**غير تخسير**﴾ أي خسارة.

﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

تقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته ههنا وبالله التوفيق.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**ولقد جاءت رسلنا**﴾ وهم الملائكة إبراهيم بالبشرى، قيل: تبشره بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط. ويشهد للأول قوله تعالى: ﴿**فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط**﴾ [هود: ٧٤]، ﴿**قالوا سلاماً قال سلام**﴾ أي عليكم. قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيوه به؛ لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام ﴿**فما لبث أن جاء بعجل حنيذ**﴾ أي ذهب سريعاً فأتاهم بالضيافة، وهو عجل فتى البقر، حنيذ: مشوي شيا ناضجا على الحجارة المُحْماة. هذا معنى ما روي عن ابن عباس وقتادة وغير واحد كما قال في الآية الأخرى: ﴿**فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون**﴾ [الذاريات: ٢٦-٢٧]. وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة. وقوله: ﴿**فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم**﴾ تنكرهم، ﴿**وأوجس منهم خيفة**﴾ وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يأكلونه؛ فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم ﴿**وأوجس منهم خيفة**﴾. قال السدي: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط، أقبلت تمشي في صُور رجال شبان حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه، فلما رآهم أجلَّهم ﴿**فراغ إلى أهله فجاء بعجل**

سمين﴾ فذبحه ثم شواه وأتاهم به فقعد معهم، وقامت سارة تخدمهم فذلك حين يقول: وامرأته قائمة فلما قربه إليهم قال: ألا تأكلون ؟ قالوا: يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاماً إلا بثمن، قال: فإن لهذا ثمناً. قالوا: وما ثمنه ؟ قال تذكرون اسم الله على أوله، وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حُق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً **﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾** يقول فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم وأوجس منهم خيفة، فلما نظرت إليه سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم ضحكت وقالت: عجبا لأضيافنا هؤلاء نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم وهم لا يأكلون طعامنا.

وقوله تعالى إخباراً عن الملائكة: **﴿قالوا لا تخف﴾** أي قالوا لا تخف منا إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم، فضحكت سارة استبشاراً بهلاكهم لكثرة فسادهم، وغِلَظ كفرهم وعنادهم، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس. وقال قتادة: ضحكت وعجبت أن قوماً يأتيهم العذاب وهم في غفلة، قال ابن عباس: **﴿فضحكت﴾** أي حاضت. **﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾** أي بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل، فإن يعقوب ولد إسحاق كما قال في آية البقرة: **﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾** [البقرة: ١٣٣].

ومن هاهنا استدل من استدل بهذه الآية، على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق؛ لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده. ووعد الله حق لا خُلْفَ فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه، ولله الحمد.

﴿قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً﴾ الآية حكى قولها في هذه الآية، كما حكى فعلها في الآية الأخرى **﴿فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم﴾** [الذاريات: ٢٩]، كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب **﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾** أي قالت الملائكة لها لا تعجبي من أمر الله، فإنه إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون. فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً، وبعلك وإن كان شيخاً كبيراً فإن الله على ما يشاء قدير. **﴿رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾** أي هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله محمود ممجد في صفاته وذاته.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروع، وهو ما أوجس من الملائكة

خيفة حين لم يأكلوا، وبشروه بعد ذلك بالولد، وأخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير في الآية: لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له: ﴿إنا مهلكو أهل هذه القرية﴾ [العنكبوت:٣١]، قال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلثمائة مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً؟ قالوا: لا. قال: ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسة قالوا: لا. قال: أرأيتكم إن كان فيها رجل مسلم واحد أتهلكونها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: ﴿إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته﴾ الآية العنكبوت:٣٢]. فسكت عنهم واطمأنت نفسه، وقال قتادة وغيره قريباً من هذا زاد ابن إسحاق: أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا، قال: فإن كان فيها لوط يدفع به عنهم العذاب، قالوا: ﴿نحن أعلم بمن فيها﴾ الآية، وقوله: ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ مدح لإبراهيم بهذه الصفات الجميلة، وقد تقدم تفسيرها في سورة براءة. وقوله تعالى: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك﴾ الآية، أي أنه قد نفذ فيهم القضاء وحقت عليهم الكلمة بالهلاك، وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن قُدوم رسله من الملائكة بعد ما أعلموا إبراهيم بهلاكهم، وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة. فانطلقوا من عنده، فأتوا لوطاً عليه السلام وهو على ما قيل في أرض له يعمرها، وقيل: في منزله، ووردوا عليه وهم في أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه، ابتلاء من الله وله الحكمة والحجة البالغة، فساءه شأنهم وضاقت نفسه بسببهم وخشي إن لم يُضِفْهم أن يُضيفهم أحد من قومه، فينالهم بسوء ﴿وقال هذا يوم عصيب﴾. قال ابن عباس وغير واحد: شديد بلاؤه، وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك. وذكر قتادة أنهم أتوه وهو في أرض له فتضيّفوه فاستحيا منهم، فانطلق أمامهم وقال لهم في أثناء الطريق كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه: إنه والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء. ثم مشى قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات، قال قتادة: وقد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك.

وقال السدي خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فبلغوا نهر سدوم نصف النهار، ولقوا بنت لوط تستقي، فقالوا: يا جارية هل من منزل؟ فقالت: مكانكم حتى آتيكم، وفرقت عليهم من قومها، فأتت أباها فقالت: يا أبتاه أدرك فتياناً على باب المدينة، ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم، وكان قومه نهوه أن يضيف رجلاً فقالوا: خل عنا فلْنُضِف الرجال. فجاء بهم فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته، فخرجت امرأته فأخبرت قومها،

فجاءوا يهرعون إليه وقوله: ﴿**يهرعون إليه**﴾ أي يسرعون ويهرولون. وقوله: ﴿**ومن قبل كانوا يعملون السيئات**﴾ أي لم يزل هذا من سجيتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال. وقوله: ﴿**قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم**﴾ يرشدهم إلى نسائهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، كما قال لهم في الآية الأخرى: ﴿**أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون**﴾ [الشعراء:١٦٥ـ١٦٦]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿**هؤلاء بناتي هن أطهر لكم**﴾ قال مجاهد: لم يَكُنَّ بناتِه، ولكن كن من أمَّتِه، وكل نبي أبو أمته. وكذا روي عن قتادة وغير واحد.

وقال ابن جريج: أمرهم أن يتزوجوا النساء، لم يعرض عليهم سفاحاً، وقال سعيد بن جبير: يعني نساءهم هن بناته، وهو أب لهم، ويقال في بعض القراءات: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم». وكذا روي عن الربيع بن أنس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم. وقوله: ﴿**فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي**﴾ أي اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم ﴿**أليس منكم رجل رشيد**﴾ أي فيه خير يقبل ما آمره به، ويترك ما أنهاه عنه؟ ﴿**قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق**﴾ أي إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن، ﴿**وإنك لتعلم ما نريد**﴾ أي ليس لنا غرض إلا في الذكور، وأنت تعلم ذلك، فأي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟ قال السدي: ﴿**وإنك لتعلم ما نريد**﴾ إنما نريد الرجال.

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام: إن لوطاً توعدهم بقوله: ﴿**لو أن لي بكم قوة**﴾ الآية أي لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط، لقد كان يأوي إلى ركن شديد ـ يعني الله عز وجل ـ فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه». [رواه أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي]. فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه، وأنهم لا وصول لهم إليه ﴿**قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك**﴾ وأمروه أن يسري بأهله من آخر الليل، وأن يتَّبع أدبارهم أي يكون ساقة لأهله، ﴿**ولا يلتفت منكم أحد**﴾ أي إذا سمعت ما نزل بهم ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين. ﴿**إلا امرأتك**﴾ ذكر في الإسرائيليات أنها خرجت معهم، وأنها لما سمعت الوَجْبَة التفتت وقالت: واقوماه. فجاءها حجر من السماء فقتلها. [وروي نحوه عن حذيفة ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي]. ثم قرّبوا له هلاك قومه تبشيراً له لأنه قال لهم: أهلكوهم الساعة، فقالوا: ﴿**إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب**﴾ هذا وقومُ لوط وقُوف على الباب وعُكوف قد جاءوا

يُهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لا يقبلون منه. بل يتوعدونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق كما قال تعالى: ﴿**ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر**﴾ [القمر: ٣٧].

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**فلما جاء أمرنا**﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿**جعلنا عاليها**﴾ وهي سدوم ﴿**سافلها**﴾ كقوله: ﴿**فغشاها ماغشى**﴾ [النجم: ٥٤] أي أمطرنا عليها حجارة من سجيل، وهي بالفارسية حجارة من طين قاله ابن عباس وغيره وقال بعضهم: أي من سنك وهو الحجر، وكل وهو الطين وقد قال في الآية الأخرى: ﴿**حجارة من طين**﴾ [الذاريات: ٣٣] أي مستحجرة قوية شديدة، وقال بعضهم: مشوية، وقال البخاري: سجيل: الشديد الكبير، سجيل وسجين واحد.

وقوله: ﴿**منضود**﴾ قال بعضهم: منضودة في السماء أي معدة لذلك، وقال آخرون: ﴿**منضود**﴾ أي يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم، وقوله: ﴿**مسوّمة**﴾ أي مُعَلَّمة مختومة، عليها أسماء أصحابها كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه. وقال قتادة وعكرمة: ﴿**مسومة**﴾ مُطَوّقة، بها نَضْحٌ من حُمْرةٍ. وذكروا أنها نزلت على أهل البلد، وعلى المتفرقين في القرى مما حولها، فبينا أحدهم يكون عند الناس يتحدث إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس، فدمّره فتتبعهم الحجارة من سائر البلاد، حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد. وقال مجاهد: أخذ جبريل قوم لوط من سَرْحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم، ورفعهم حتى سمع أهلُ السماء نُبَاحَ كلابهم ثم أكفأهم، وكان حملهم على حوافي جناحه الأيمن. وفي رواية عن قتادة وغيره قال: بلغنا أن جبريل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه فانتسف به أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها، وجميع ما فيها، فضمها في جناحه، فحواها وطواها في جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا، حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكوسة، ودَمْدَم بعضها على بعض فجعل عاليها سافلها ثم أتبعها حجارة من سجيل.

وقوله: ﴿**وما هي من الظالمين ببعيد**﴾ أي وما هذه النقمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد عنه. وقد ورد في الحديث المروي في السنن عن ابن عباس مرفوعاً: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» [صححه شاكر والألباني].

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ ﴾.

يقول تعالى ولقد أرسلنا إلى مدين وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام

قريباً من معان. في بلد يعرف بهم يقال لها مدين فأرسل الله إليهم شعيباً، وكان من أشرفهم نسباً، ولهذا قال: ﴿أخاهم شعيباً﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ﴿إني أراكم بخير﴾ أي في معيشتكم ورزقكم فأخاف أن تُسلَبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ أي في الدار الآخرة.

﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾.

ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق، وقوله: ﴿بقية الله خير لكم﴾ قال ابن عباس: رزق الله خير لكم. وقال الحسن: رزق الله خير لكم من بخسكم الناس، وقال الربيع بن أنس وصية الله خير لكم، وقال مجاهد: طاعة الله خير لكم. وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الهلاك في العذاب، والبقية في الرحمة، وقال أبو جعفر بن جرير: ﴿بقيت الله خير لكم﴾ أي ما يفضُل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس. قال: وقد روي هذا عن ابن عباس. قلت: ويشبه قوله تعالى: ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقوله: ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أي برقيب، أي افعلوا ذلك لله عز وجل. لا تفعلوه ليراكم الناس بل لله عز وجل.

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾.

يقولون له على سبيل التهكم قبحهم الله ﴿أصلاتك﴾ قال الأعمش: أي قرآنك ﴿تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ أي الأوثان والأصنام، ﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ فنترك التطفيف على قولك، هي أموالنا نفعل فيها ما نريد. قال الحسن في قوله: ﴿أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ إي والله إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم، وقال الثوري في قوله: ﴿أو أن نفعل في أموالنا مانشاء﴾ يعنون الزكاة. ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جريج وابن أسلم وابن جرير: يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء قبحهم الله ولعنهم عن رحمته وقد فعل.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾.

يقول لهم أرأيتم يا قوم ﴿إن كنت على بينة من ربي﴾ أي على بصيرة فيما أدعو إليه ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾ قيل: أراد النبوة. وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين، وقال الثوري: ﴿وماأريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ أي لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا

في السر فأفعله خفية عنكم، كما قال قتادة: لم أكن لأنهاكم عن أمر وأرتكبه **﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾** أي فيما آمركم وأنهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي **﴿وماتوفيقي﴾** أي في إصابة الحق فيما أريده **﴿إلا بالله عليه توكلت﴾** في جميع أموري **﴿وإليه أنيب﴾** أي أرجع قاله مجاهد وغيره.

روى أحمد عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: أخذ النبي ﷺ ناساً من قومي في تُهمة فحبسهم فجاء رجل من قومي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب فقال: يا محمد علام تحبس جيرتي ؟ فصمت رسول الله ﷺ فقال: إن ناساً ليقولون: إنك تنهى عن الشيء وتستخلي به فقال النبي ﷺ: «ما يقول ؟» قال: فجعلت أعرض بينهما الكلام مخافة أن يسمعها فيدعو على قومي دَعوة لا يفلحون بعدها أبداً، فلم يزل رسول الله ﷺ حتى فهمها فقال: «أوقد قالوها أو قائلها منهم، والله لو فعلت لكان عليّ وما كان عليهم، خلوا عن جيرانه». [رواه أبوداود وإسناده حسن]. ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصاري قال: سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولان: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تُنكره قلوبكم، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه». هذا إسناده صحيح [على شرط مسلم]. ومعناه والله أعلم مهما بلغكم عني من خير فأنا أولاكم به. ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه **﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾** قال مسروق: جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت: أتنهى عن الواصلة ؟ قال: نعم، قالت: فلعله في بعض نسائك، فقال: ما حفظت إذاً وصية العبد الصالح **﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾**. وعن أبي سليمان العتبي قال: كانت تجيئنا كتب عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهي فيكتب في آخرها: وما كنت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح: **﴿وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾**.

﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ ﴾.

يقول لهم **﴿وياقوم لا يجرمنكم شقاقي﴾** أي لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط من النقمة والعذاب. وقال قتادة: **﴿وياقوم لا يجرمنكم شقاقي﴾** يقول: لا يحملنكم فراقي، وقال السدي: عداوتي، على أن تتمادوا في الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم. وقوله: **﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾** قيل: المراد في الزمان، كما قال قتادة: يعني إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس، وقيل: في المكان ويحتمل الأمران **﴿واستغفروا ربكم﴾** من سالف الذنوب وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة **﴿إن ربي رحيم ودود﴾** لمن تاب

وأناب.

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ ﴾.

يقولون **﴿ياشعيب ما نفقه كثيراً مما تقول﴾** ما نفهم ولا نعقل كثيراً من قولك، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب **﴿وإنا لنراك فينا ضعيفاً﴾**. قال سعيد بن جبير والثوري: كان ضرير البصر، وقال الثوري: كان يقال له خطيب الأنبياء، وقال السدي **﴿وإنا لنراك فينا ضعيفاً﴾** قال: أنت واحد، وقال أبو روق: يعنون ذليلاً؛ لأن عشيرتك ليسوا على دينك **﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾** أي لولا معزة قومك علينا لرجمناك، قيل: بالحجارة، وقيل: لسبَبْناك، **﴿وما أنت علينا بعزيز﴾** أي ليس لك عندنا معزة. **﴿قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾** يقول: أتتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرب أن تنالوا نبيه بمساءة وقد اتخذتم جانب الله **﴿وراءكم ظهرياً﴾** أي نبذتموه خلفكم، لا تطيعونه ولا تعظمونه، **﴿إن ربي بما تعملون محيط﴾** أي هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم بها.

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾.

لما يئس نبي الله شعيب من استجابة قومه له، قال: يا قوم **﴿اعملوا على مكانتكم﴾** أي طريقتكم وهذا تهديد ووعيد شديد **﴿إني عامل﴾** على طريقتي **﴿سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾** أي في الدار الآخرة، **﴿ومن هو كاذب﴾** أي مني ومنكم **﴿وارتقبوا﴾** أي انتظروا **﴿﴿إني معكم رقيب﴾**. قال الله تعالى: **﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾** وقوله جاثمين أي هامدين لا حِرَاك بهم. وذكر ههنا أنهم أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقَمُ كلها. وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه ففي الأعراف لما قالوا: **﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا﴾** [الأعراف:٨٨] ناسب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيهم منها، وهاهنا لما أساءوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ذكر الصيحة التي أسكتتهم وأخمدتهم، وفي الشعراء لما قالوا: **﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين﴾** [الشعراء:١٨٧]، قال: **﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾** [الشعراء:١٨٩]، وهذا من الأسرار الدقيقة ولله الحمد والمنة كثيراً دائماً. وقوله: **﴿كأن لم يغنوا فيها﴾** أي يعيشوا في دارهم قبل ذلك **﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾** وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار وشبيهاً بهم في

الكفر وقَطْع الطريق، وكانوا عرباً شبههم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى عليه السلام بآياته الباهرة إلى فرعون لعنه الله **﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾** أي مسلكه وطريقته في الغي **﴿وما أمر فرعون برشيد﴾** أي ليس فيه رشد ولا هدى. وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا، وكان مُقَدَّمهم ورئيسَهم، كذلك هو يَقْدُمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، فأوردهم إياها وشربوا من حياض رَدَاها، وله في ذلك الحظ الأوفر، من العذاب الأكبر، كما قال تعالى: **﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود﴾** وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين في العذاب يوم المعاد، كما قال تعالى: **﴿لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾** [الأعراف:٣٨]. وقوله: **﴿وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة﴾** الآية، أي أتبعناهم زيادة على ما جازيناهم من عذاب النار لعنة في هذه الحياة الدنيا **﴿ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾** قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان، وقال ابن عباس: **﴿بئس الرفد المرفود﴾** قال: لعنة الدنيا والآخرة وكذا قال الضحاك وقتادة.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال: **﴿ذلك من أنباء القرى﴾** أي من أخبارها **﴿نقصه عليك منها قائم﴾** أي عامر **﴿وحصيد﴾** أي هالك **﴿وما ظلمناهم﴾** أي إذ أهلكناهم **﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾** بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم **﴿فما أغنت عنهم آلهتهم﴾** أي أصنامهم وأوثانهم التي يعبدونها ويدعونها **﴿من دون الله من شيء﴾** ما نفعوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم **﴿وما زادوهم غير تتبيب﴾** قال مجاهد وقتادة وغيرهما: أي غير تخسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة فبهذا خسروا في الدنيا والآخرة.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك نفعل بنظائرهم وأمثالهم **﴿إن أخذه أليم شديد﴾** وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ: **﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾**.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا

لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

يقول تعالى إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين ونصرة الأنبياء ﴿**لآية**﴾ أي عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الدار الآخرة ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**﴾ [غافر:٥١]، وقال تعالى: ﴿**فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد**﴾ [إبراهيم:١٣-١٤]. وقوله: ﴿**ذلك يوم مجموع له الناس**﴾ أي أولهم وآخرهم فلا يبقى منهم أحد كما قال: ﴿**وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً**﴾ [الكهف:٤٧]. ﴿**وذلك يوم مشهود**﴾ أي عظيم تحضره الملائكة كلهم، ويجتمع فيه الرسل جميعهم، وتُحشر فيه الخلائق من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها، وقوله: ﴿**وما نؤخره إلا لأجل معدود**﴾ أي ما نؤخر إقامة يوم القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله وقدره في وجود أناس معدودين من ذرية آدم، وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم، أقام الساعة؛ ولهذا قال: ﴿**وما نؤخره إلا لأجل معدود**﴾ أي لمدة مؤقتة لا يزاد عليها ولا ينقص منها ﴿**يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه**﴾ أي يوم يأتي هذا اليوم وهو يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله تعالى كما قال تعالى: ﴿**يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً**﴾ [النبأ:٣٨]. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ من حديث الشفاعة الطويل: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ: اللهُم سلّم سَلّم». وقوله: ﴿**فمنهم شقي وسعيد**﴾ أي فمن أهل الجمع شقي ومنهم سعيد كما قال ﴿**فريق في الجنة وفريق في السعير**﴾ [الشورى:٧].

ثم بيَّن تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾.

يقول تعالى ﴿**لهم فيها زفير وشهيق**﴾ قال ابن عباس الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر أي تنفسهم زفير، وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب عياذاً بالله من ذلك ﴿**خالدين فيها ما دامت السموات والأرض**﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: هذا دائم دوام السموات والأرض، وكذلك يقولون هو باق ما اختلف الليل والنهار، يعنون بذلك كلمة أبداً، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم فقال: ﴿**خالدين فيها ما دامت السموات والأرض**﴾. قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض الجنس؛ لأنه لابد في عالم الآخرة من سموات وأرض، كما قال تعالى: ﴿**يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات**﴾ [إبراهيم:٤٨]؛ ولهذا قال الحسن البصري في قوله: ﴿**ما دامت السموات والأرض**﴾ قال: تبدل سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه الأرض فما

دامت تلك السماء وتلك الأرض. وقال ابن عباس: ﴿**ما دامت السموات والأرض**﴾ قال: لكل جنة سماء وأرض، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما دامت الأرض أرضا والسماء سماء. وقوله: ﴿**إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد**﴾ كقوله تعالى: ﴿**النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم**﴾ [الأنعام:١٢٨]. وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة، حكاها الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه زاد المسير، وغيره من علماء التفسير، ونقل كثيراً منها الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله في كتابه واختار هو ما نقله عن خالد بن مَعْدَان، والضحاك، وقتادة، وابن سنان ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً: أن الاستثناء عائد على العُصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبيين والمؤمنين، حتى يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من النار من لم يعمل خيراً قط وقال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة. وقال قتادة: الله أعلم بثنياه، وقال السدي: هي منسوخة بقوله ﴿**خالدين فيها أبداً**﴾ [النساء:٥٧].

﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**وأما الذين سعدوا**﴾ وهم أتباع الرسل ﴿**ففي الجنة**﴾ أي فمأواهم الجنة ﴿**خالدين فيها**﴾ أي ماكثين مقيمين فيها أبداً ﴿**ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك**﴾ معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النَّفس. وقال الضحاك والحسن البصري: هي في حق عصاة الموحدين الذين كانوا في النار ثم أخرجوا منها. وعقب ذلك بقوله: ﴿**عطاء غير مجذوذ**﴾ أي غير مقطوع قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وغير واحد لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاعاً، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع. كما بين هنا أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته، وأنه بعَدْله وحكمته عذبهم؛ ولهذا قال ﴿**إن ربك فعال لما يريد**﴾ [هود:١٠٧]، كما قال: ﴿**لا يسأل عما يفعل وهم يسألون**﴾ [الأنبياء:٢٣]، وهنا طيب القلوب وثَبَّت المقصود بقوله: ﴿**عطاء غير مجذوذ**﴾. وقد جاء في الصحيحين «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»، وفي الصحيح أيضاً: «فيقال يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً وإن لكم أن تشبوا فلا تهْرَموا أبداً، وإن

لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً».

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿**فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء**﴾ المشركون، إنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي ليس لهم مستنَد فيما هم فيه إلا إتباع الآباء في الجهالات، وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذب كافرهم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة. عن ابن عباس في قوله: ﴿**وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص**﴾ قال: ما وعدوا من خير أو شر. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص. ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب، فاختلف الناس فيه فمن مؤمن به ومن كافر به، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك أسوة فلا يغيظنك تكذيبهم لك. ﴿**ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم**﴾ قال ابن جرير لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى الله بينهم. ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه، كما قال: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾ [الإسراء:١٥]. ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فقال: ﴿**وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير**﴾ أي عليم بأعمالهم جميعها جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها.

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد ونهى عن الطغيان وهو البغي، فإنه مَصرَعة حتى ولو كان على مشرك. وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء ولا يخفى عليه شيء.

وقوله: ﴿**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا**﴾ قال ابن عباس: لا تُداهنوا. وقال أيضا: هو الركون إلى الشرك. وقال أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم. وقال ابن عباس كذلك: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا وهذا القول حسن، أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صنيعهم ﴿**فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون**﴾ أي ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم ولا ناصر يخلصكم من عذابه.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

قال ابن عباس: ﴿**وأقم الصلاة طرفي النهار**﴾ قال يعني الصبح والمغرب وكذا قال الحسن

وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال الحسن في رواية وقتادة والضحاك وغيرهم: هي الصبح والعصر وقال مجاهد: هي الصبح في أول النهار والظهر والعصر من آخره. وكذا قال محمد بن كعب القرظي والضحاك في رواية عنه. وقوله: ﴿وزلفاً من الليل﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم: يعني صلاة العشاء. وقال الحسن في رواية عنه يعني المغرب والعشاء. وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والضحاك: إنها صلاة المغرب والعشاء، وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء؛ فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة وثبت وجوبه عليه ثم نسخ عنه أيضاً في قول والله أعلم.

وقوله: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ يقول إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعت من رسول الله حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه وإذا حدثني عنه أحد استحلفته فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له» [حسنه الترمذي وهو صحيح]. وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال: هكذا رأيت رسول الله يتوضأ، وقال: «من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه.

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً غَمْراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يُبقى من درنه شيئاً؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: «كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا». وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مُكفِّرات ما بينهن ما اجتنبت الكبائر». وروى البخاري عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات﴾، فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم».

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

يقول تعالى فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض، وقوله: ﴿إلا قليلاً﴾ أي قد وُجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه؛ ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿ولتكن منكم

أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ [آل عمران:١٠٤]. وفي الحديث: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب» [رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه وهو صحيح]. ولهذا قال تعالى: **﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم﴾**.

وقوله: **﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾** أي استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فَجَأهم العذابُ **﴿وكانوا مجرمين﴾**. ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها، ولم يأت قريةً مُصْلِحَة بأسُه وعذابُه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: **﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم﴾** [هود:١٠١].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفران، كما قال تعالى: **﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾** [يونس:٩٩]. وقوله: **﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾** أي ولا يزال الخُلْفُ بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم. قال عكرمة: مختلفين في الهدى. وقال الحسن البصري: مختلفين في الرزق، يُسخّر بعضهم بعضاً، والمشهور الصحيح الأول. وقوله: **﴿إلا من رحم ربك﴾** أي إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين. أخبرتهم به رسل الله إليهم ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبي ﷺ خاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه ونصروه، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية، كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسنن، من طرق يشد بعضها بعضاً: «إن اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى افترقت على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة». قالوا: ومن هم يا رسول الله ؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي» رواه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة، وقال عطاء: **﴿ولا يزالون مختلفين﴾** يعني اليهود والنصارى والمجوس **﴿إلا من رحم ربك﴾** يعني الحنيفية. وقال قتادة: أهل رحمة الله أهلُ الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم. وقوله: **﴿ولذلك خلقهم﴾** قال الحسن البصري في رواية عنه: وللاختلاف خَلَقهم. وقال ابن عباس: خلقهم فريقين كقوله: **﴿فمنهم شقي وسعيد﴾** [هود:١٠٥]. وقيل: للرحمة خلقهم. فعن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾** [الذاريات:٥٦].

وقيل: بل المراد وللرحمة والاختلاف خلقهم كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله: ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ قال: الناس مختلفون على أديان شتى

﴿**إلا من رحم ربك**﴾ فمن رحم ربك غير مختلف. قيل له: فلذلك خلقهم؟ قال: خلق هؤلاء لجنته وخلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لعذابه. وكذا قال عطاء بن أبي رباح والأعمش، وقال ابن وهب: سألت مالكاً عن قوله تعالى: ﴿**ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم**﴾ قال: فريق في الجنة وفريق في السعير، وقد اختار هذا القول ابن جرير وأبو عبيد والفراء. وعن مالك فيما روينا عنه في التفسير: ﴿**ولذلك خلقهم**﴾ قال: للرحمة وقال قوم: للاختلاف. وقوله: ﴿**وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين**﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة، أن ممن خلقه من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار، وأنه لابد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة. وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضَعَفَةُ الناس وسَقطُهم، وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. فقال الله عز وجل للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابي أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما الجنة فلا يزال فيها فضل، حتى ينشىء الله لها خلقاً يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد، حتى يضع عليها رب العزة قدمه فتقول: قَطْ قَطْ وعزتك».

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

يقول تعالى وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من الخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين. كل هذا مما نثبت به فؤادك أي قلبك ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة. وقوله: ﴿**وجاءك في هذه الحق**﴾ أي هذه السورة قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف، وعن الحسن في رواية عنه وقتادة: **في هذه الدنيا**. والصحيح في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قصص حق وموعظة يرتدع بها الكافرون وذكرى يتذكر بها المؤمنون.

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد: ﴿**اعملوا على مكانتكم**﴾ أي على طريقتكم ومنهجكم ﴿**إنا عاملون**﴾ أي على طريقتنا ومنهجنا ﴿**وانتظروا إنا منتظرون**﴾ أي فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون. وقد أنجز الله لرسوله وعده ونَصَرَه، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا

تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب، وسَيُوفِّي كلَّ عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر. فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه؛ فإنه كافٍ من توكل عليه وأناب إليه، وقوله: ﴿**وما ربك بغافل عما تعملون**﴾ أي ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والاخرة، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين. وقال كعب: خاتمة التوراة خاتمة هود.

تفسير سورة يوسف وهي مكية.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله: ﴿**تلك آيات الكتاب**﴾ أي هذه آيات الكتاب، وهو القرآن ﴿**المبين**﴾ أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة، ويفسرها ويبينها. ﴿**إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون**﴾ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأوسعها؛ فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدىء إنزاله في أشرف شهور السنة، وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن**﴾ بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن جرير عن سعد قال: أنزل على النبي ﷺ القرآن، قال: فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يارسول الله لو قصصت علينا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿**الر تلك آيات الكتاب المبين**﴾ إلى قوله: ﴿**لعلكم تعقلون**﴾ ثم تلا عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله عز وجل ﴿**الله نزل أحسن الحديث**﴾ الآية [الزمر:٢٣]، وذكر الحديث، ورواه الحاكم [وصححه ووافقه الذهبي ورواه ابن حبان وحسنه الحافظ].

ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ. فغضب. وقال: «أمُتَهوّكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه، أو بباطل فتصدقونه، والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيّاً ما وسعه إلا أن يتبعني». [رواه ابن أبي عاصم في السنة وحسنه الألباني].

﴿ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

يقول تعالى: اذكر لقومك في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه هو

يعقوب عليه السلام، كما روى الإمام أحمد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». انفرد بإخراجه البخاري، وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحي. وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام: أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلاً سواه، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه. روي هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش وهو سريره وإخوته بين يديه ﴿**وخرّوا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً**﴾ [يوسف: ١٠٠].

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٥﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قيل يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعبيرها خضوع إخوته له، وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً، فخشي يعقوب عليه السلام أن يُحدِّثَ بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدوه على ذلك، فيبغوا له الغوائل حسداً منهم له؛ ولهذا قال له: ﴿**لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً**﴾ أي يحتالوا لك حيلة يُرْدُونك فيها. ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر، وليتفل عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من شرها، ولا يحدث بها أحداً فإنها لن تضره» [رواه مسلم]. وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن من رواية لقيط بن صبرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبّر، فإذا عبرت وقعت». [وهو حديث صحيح]. ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، كما ورد في حديث «استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود». [قال الألباني: إسناده جيد].

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف: إنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ﴿**كذلك يجتبيك ربك**﴾ أي يختارك لنبوته ﴿**ويعلمك من تأويل الأحاديث**﴾ قال مجاهد وغير واحد: يعني تعبير الرؤيا. ﴿**ويتم نعمته عليك**﴾ أي بإرسالك والإيحاء إليك؛ ولهذا قال: ﴿**كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم**﴾ وهو الخليل ﴿**وإسحاق**﴾ ولده ﴿**إن ربك عليم حكيم**﴾ أي هو أعلم حيث يجعل رسالته.

﴿ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، أي عبرة للسائلين عن ذلك المستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب يستحق أن يستخبر عنه **﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا﴾** أي حلفوا فيما يظنون والله ليوسف وأخوه، يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه **﴿أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة﴾** أي جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة **﴿إنّ أبانا لفي ضلال مبين﴾** يعنون في تقديمهما علينا، ومحبته إياهما أكثر منا.

واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مُدّعِ ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: **﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾** [البقرة:١٣٦]، وهذا فيه احتمال لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط، كما يقال للعرب قبائل وللعجم شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم، والله أعلم.

﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم﴾ يقولون: هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم، أعدموه من وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه، وتَخْتَلُوا أنتم بأبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين، فأضمروا التوبة قبل الذنب. **﴿قال قائل منهم﴾** قال قتادة ومحمد بن إسحاق: وكان أكبرهم واسمه روبيل. وقال السدي: الذي قال ذلك يهوذا. وقال مجاهد: هو شمعون **﴿لا تقتلوا يوسف﴾** أي لا تَصِلوا في بغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب وهو أسفله. قال قتادة: وهي بئر بيت المقدس **﴿يلتقطه بعض السيارة﴾** أي المارة من المسافرين فتستريحوا بهذا ولا حاجة إلى قتله **﴿إن كنتم فاعلين﴾** أي إن كنتم عازمين على ما تقولون. قال محمد بن إسحاق: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه، على كبر سنه ورِقَّة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلاً صغيراً، وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً.

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾.

لما تواطؤوا على أخذه وطرحه في البئر، جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا: ﴿**يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون**﴾ وهذه توطئة ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك؛ لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له ﴿**أرسله معنا**﴾ أي ابعثه معنا ﴿**غداً نرتع ونلعب**﴾ وقرأ بعضهم بالياء «يرتع ويلعب». قال ابن عباس: يسعى وينشط، وكذا قال قتادة والضحاك والسدي وغيرهم. ﴿**وإنا له لحافظون**﴾ يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء: ﴿**إني ليحزنني أن تذهبوا به**﴾ أي يشق علي مفارقتُه مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفرط محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال في الخَلْق والخُلُق صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: ﴿**وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون**﴾ يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة ﴿**لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون**﴾ يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة إنا إذاً لهالكون.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿**وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب**﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكراماً له، وبسطاً وشرحاً لصدره، وإدخالاً للسرور عليه.

وقوله: ﴿**وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون**﴾، يقول تعالى ذاكراً لطفه وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطييباً لقلبه وتثبيتاً له، إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع، وقوله: ﴿**وهم لا يشعرون**﴾. قال مجاهد وقتادة: ﴿**وهم لا يشعرون**﴾ بإيحاء الله إليه. وقال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك، وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك.

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه في غيابة الجب، ثم رجعوا

إلى أبيهم في ظلمة الليل يبكون ويظهرون الأسف على يوسف ويتغممون لأبيهم، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا: ﴿إنا ذهبنا نستبق﴾ أي نترامى، ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾ أي ثيابنا وأمتعتنا، ﴿فأكله الذئب﴾، وقولهم: ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك، لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا؛ لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا. ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾ أي مكذوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالؤوا عليه من المكيده، وهو أنهم عمدوا إلى سَخْلة فيما ذكره مجاهد والسدي وغير واحد، فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلهذا لم يَرُج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من تمالئهم عليه: ﴿بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾ أي فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿والله المستعان على ما تصفون﴾ أي على ما تذكرون من الكذب والمحال.

وقال ابن عباس: لو أكله السبع لخرق القميص، وكذا قال الشعبي والحسن وقتادة وغير واحد. وقال مجاهد: الصبر الجميل الذي لا جزع فيه. وقال الثوري، عن بعض أصحابه أنه قال: ثلاث من الصبر: أن لا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك.

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنِۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف عليه السلام حين ألقاه إخوته وتركوه في ذلك الجب فريداً وحيداً، فمكث في البئر ثلاثة أيام فيما قاله أبو بكر بن عياش. وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ما يصنع وما يصنع به، فساق الله له سَيَّارة، فنزلوا قريباً من تلك البئر، وأرسلوا واردهم وهو الذي يتطلب لهم الماء، فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها، تشبث يوسف عليه السلام فيها فأخرجه واستبشر به، وقال: ﴿يا بشراى هذا غلام﴾. وقرأ بعض القراء: «يا بشرىٰ».

وقوله: ﴿وأسروه بضاعة﴾ أي وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره، قاله مجاهد والسدي وابن جرير: هذا قول، وقال ابن عباس قوله: ﴿وأسروه بضاعة﴾ يعني إخوة يوسف أسروا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه ﴿يا بشرى هذا غلام﴾ يباع فباعه إخوته.

وقوله: ﴿والله عليم بما يعملون﴾ أي عليم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على

تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين. وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ وإعلام له بأنني عالم بأذى قومك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكني سأملي لهم ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

وقوله: ﴿**وشروه بثمن بخس دراهم معدودة**﴾ يقول تعالى: وباعه إخوته بثمن قليل. قاله مجاهد وعكرمة والبخس: هو النقص، أي اعتاض عنه إخوته بثمن دُونٍ قليل، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهدين أي ليس لهم رغبة فيه، بل لو سئلوه بلا شيء لأجابوا. قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: إن الضمير في قوله: ﴿**وشروه**﴾ عائد على إخوة يوسف. وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة. والأول أقوى، لأن قوله: ﴿**وكانوا فيه من الزاهدين**﴾ إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة، لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فترجح من هذا أن الضمير في ﴿**شروه**﴾ إنما هو لإخوته.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

يخبر تعالى بألطافه بيوسف عليه السلام أنه قيض له الذي اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصى أهله به، وتوسم فيه الخير والصلاح، فقال لامرأته: ﴿**أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً**﴾ وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير بها. وقال محمد بن إسحاق: كان على خزائن مصر، وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق، قال: واسم امرأته راعيل، وقال غيره: اسمها زليخا.

يقول تعالى: وكما أنقذنا يوسف من إخوته ﴿**كذلك مكنا ليوسف في الأرض**﴾ يعني بلاد مصر ﴿**ولنعلمه من تأويل الأحاديث**﴾ قال مجاهد والسدي: هو تعبير الرؤيا ﴿**والله غالب على أمره**﴾ أي إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه. قال سعيد بن جبير في قوله: ﴿**والله غالب على أمره**﴾: أي فعال لما يشاء. وقوله: ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ يقول: لا يدرون حكمته في خلقه، وقوله: ﴿**ولما بلغ**﴾ أي يوسف عليه السلام ﴿**أشده**﴾ أي استكمل عقله وتم خلقه ﴿**آتيناه حكماً وعلماً**﴾ يعني النبوة أنه حباه بها بين أولئك الأقوام، ﴿**وكذلك نجزي المحسنين**﴾ أي إنه كان محسناً في عمله، عاملاً بطاعة ربه تعالى.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه، فراودته عن نفسه، أي حاولته على نفسه ودعته إليها، وذلك انها أحبته حباً شديداً

لجماله وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها، **﴿وقالت هيت لك﴾** فامتنع من ذلك أشد الامتناع، و**﴿قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي﴾** وكانوا يطلقون الرب على السيد الكبير، أي إن بعلك ربي أحسن مثواي أي منزلى، وأحسن إليّ، فلا أقابله بالفاحشة في أهله **﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾**، قال ذلك مجاهد والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم. وقد اختلف القراء في قوله: **﴿هيت لك﴾** فقرأه كثيرون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء، وقال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: معناه أنها تدعوه إلى نفسها. وعن ابن عباس: هيت لك، تقول: هلم لك، وكذا قال زر بن حبيش وعكرمة والحسن وقتادة. وعن الحسن: هي كلمة بالسريانية، أي عليك. وقال السدي: أي هلم لك، وهي بالقبطية. وقال مجاهد: هي لغة عربية تدعوه بها. وقال البخاري: وقال عكرمة: هلم لك بالحَوْرَانية. هكذا ذكره معلقاً.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وكان الكسائي يحكي هذه القراءة، يعني **﴿هيت لك﴾**، ويقول: هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز، ومعناها: تعال. وقال أبو عبيدة: سألت شيخاً عالماً من أهل حوران، فذكر أنها لغتهم يعرفها.

وعن أبي وائل، قال: قال عبد الله: هَيْتَ لك، فقال له مسروق: إن ناساً يقرءونها: هَيْتُ لك، فقال: دعوني فإني أقرأ كما أُقْرِئت، أحب إليّ.

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام، وقد روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وطائفة من السلف في ذلك ما رواه ابن جرير وغيره، والله أعلم. وقيل: المراد بهمه بها خَطَرات حديث النفس، حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد البغوي ههنا حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جرائي، فإن عملها فاكتبوها بمثلها»، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين. وقيل: هم بضربها. وقيل: تمناها زوجة. وقيل: **﴿هم بها لولا أن رأى برهان ربه﴾** أي فلم يهم بها، وفي هذا القول نظر من حيث العربية، حكاه ابن جرير وغيره.

وأما البرهان الذي رآه ففيه أقوال أيضاً، فعن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم: رأى صورة أبيه يعقوب عليه السلام عاضاً على أصبعه بفمه. وعن ابن عباس أيضا: فضرب في صدر يوسف. وعن ابن عباس كذلك: رأى خيال الملك يعني سيده، وكذا قال محمد بن إسحاق فيما حكاه عن بعضهم.

وقال محمد بن كعب القرظي: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب في حائط

البيت ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢]. وقال الأوزاعي رأى آية من كتاب الله في الجدار تنهاه عن ذلك. وقال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه رأى من آيات الله ما زجره عما كان هم به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى. وقوله: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾ أي كما أريناه برهاناً صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره: ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ أي من المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب، يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته في أثناء ذلك فأمسكت بقميصه من ورائه، فَقَدَّتْه قداً فظيعاً، واستمر يوسف هارباً ذاهباً، وهي في إثره، فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً﴾ أي فاحشة ﴿إلا أن يسجن﴾ أي يحبس، ﴿أو عذاب أليم﴾ أي يضرب ضرباً شديداً موجعاً. فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق، وتبرأ مما رمته به من الخيانة، وقال باراً صادقاً: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾، وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه ﴿وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قدّ من قبل﴾ أي من قدامه ﴿فصدقت﴾ أي في قولها إنه راودها عن نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره، فقدّت قميصه فيصح ما قالت ﴿وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها وتطلبته، أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها فقدت قميصه من ورائه، وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير؟ على قولين لعلماء السلف، فقال ابن عباس: قال ذو لحية، وعنه أيضا: كان من خاصة الملك، وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم: إنه كان رجلاً. وقال زيد بن أسلم والسدي: كان ابن عمها. وعن ابن عباس في رواية ثالثة قال: كان صبياً في المهد. وكذا روي عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم أنه كان صبياً في الدار، واختاره ابن جرير: وقد ورد فيه حديث مرفوع رواه ابن جرير عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم

صغار» فذكر فيهم شاهد يوسف. [ورواه أحمد والحاكم وغيرهما وصححه].

وقوله: ﴿فلما رأى قميصه قدّ من دبر﴾ أي لما تحقق زوجها صدقَ يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿قال إنه من كيدكن﴾ أي إن هذا البهت واللَّطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن ﴿إن كيدكن عظيم﴾، ثم قال آمراً ليوسف عليه السلام بكتمان ما وقع: ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾ أي اضرب عن هذا صفحاً، أي فلا تذكره لأحد. ﴿واستغفري لذنبك﴾ يقول لامرأته وقد كان لين العريكة أو أنه عذرها؛ لأنها رأت ما لا صبر لها عنه فقال لها: استغفري لذنبك أي الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ثم قذفه بما هو بريء منه. استغفري من هذا الذي وقع منك ﴿إنك كنت من الخاطئين﴾.

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز، شاع في المدينة وهي مصر حتى تحدث به الناس ﴿وقال نسوة في المدينة﴾ مثل نساء الأمراء والكبراء، ينكرن على امرأة العزيز ﴿امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه﴾ أي تحاول غلامها عن نفسه وتدعوه إلى نفسها ﴿قد شغفها حباً﴾ أي قد وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو غلافه. قال ابن عباس: الشَّغَف: الحب القاتل، والشعف دون ذلك، والشَّغاف: حجاب القلب. ﴿إنا لنراها في ضلال مبين﴾ أي في صنيعها هذا من حبها فتاها، ومراودتها إياه عن نفسه، ﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ قال بعضهم: بقولهن، وقال محمد بن إسحاق: بل بلغهن حسن يوسف، فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك ﴿أرسلت إليهن﴾ أي دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿وأعتدت لهن متكأ﴾.
قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن والسدي وغيرهم: هو المجلس المعد فيه مفارش، ومخاد، وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه، ولهذا قال تعالى: ﴿وآتت كل واحدة منهن سكيناً﴾ وكان هذا مكيدة منها، ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته ﴿وقالت اخرج عليهن﴾، وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر ﴿فلما﴾ خرج و﴿رأينه أكبرنه﴾ أي أعظمن شأنه، وأجللن قدره، وجعلن يقطعن أيديهن دَهَشاً برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين، والمراد أنهن حززن أيديهن بها، قاله غير واحد، وعن مجاهد وقتادة: قطعن أيديهن حتى ألقينها، فالله أعلم.

وقد ذكر غير واحد أنها قالت لهن بعد ما أكلن وطابت أنفسهن، ثم وضعت بين أيديهن

أترجاً وآتت كل واحدة منهن سكيناً: هل لكن في النظر إلى يوسف ؟ قلن: نعم، فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع ليرينه مقبلاً ومدبراً، وهن يحززن في أيديهن، فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن، فقالت: أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا، فكيف ألام أنا ؟ ﴿**وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم**﴾ ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد الذي رأينا، لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ولا قريباً منه، فإنه عليه السلام كان قد أعطي شطر الحسن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة، قال: «فإذا هو قد أعطي شطر الحسن» [رواه مسلم].

وقال الإمام أبو القاسم السهيلي: معناه أن يوسف عليه السلام كان على النصف من حسن آدم عليه السلام، فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها، ولم يكن في ذريته من يوازيه في جماله، وكان يوسف قد أعطي شطر حسنه، فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته ﴿**حاش لله**﴾. قال مجاهد وغير واحد: معاذ الله ﴿**ما هذا بشراً**﴾. ﴿**إن هذا إلا ملك كريم * قالت فذلكن الذي لمتنني فيه**﴾ تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق بأن يحب لجماله وكماله، ﴿**ولقد راودته عن نفسه فاستعصم**﴾ أي فامتنع. قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن، وهي العفة مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعده: ﴿**ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين**﴾ فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهن وكيدهن، و﴿**قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه**﴾ أي من الفاحشة ﴿**وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن**﴾ أي إن وكلتني إلى نفسي، فليس لي من نفسي قدرة ولا أملك لها ضراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي ﴿**أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم**﴾، وذلك أن يوسف عليه السلام عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه امرأة عزيز مصر، وهي في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه.

ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله».

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين، أي إلى مدة، وذلك بعد ما عرفوا براءته وظهرت الآيات، وهي الأدلة على صدقه في عفته ونزاهته، فكأنهم إنما سجنوه لمَّا شاع الحديث إيهاماً أنه راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة، امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة. فلما تقرر ذلك، خرج وهو نَقِيّ العرض صلوات الله عليه وسلامه. وذكر السدي أنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها في حقه، ويبرأ عرضه فيفضحها.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

قال قتادة: كان أحدهما ساقي الملك، والآخر خبازه. قال السدي: كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه، وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة، وصدق الحديث، وحسن السمت، وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه. ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن، وعيادة مرضاهم، والقيام بحقوقهم. ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تآلفا به وأحباه حباً شديداً وقالا له: والله لقد أحببناك حباً زائداً. قال: بارك الله فيكما، ثم إنهما رأيا مناماً فرأى الساقي أنه يعصر خمراً يعني عنباً، وقال الضحاك في قوله: ﴿**إني أراني أعصر خمراً**﴾ يعني عنباً، قال: وأهل عُمان يسمُّون العنب خمراً، وقال عكرمة: قال له: إني رأيت فيما يرى النائم أني غرست حَبَلَة من عنب، فنبتت. فخرج فيها عناقيد، فعصرتهن ثم سقيتهن الملك، فقال: تمكث في السجن ثلاثة أيام ثم تخرج فتسقيه خمراً، وقال الآخر وهو الخباز: ﴿**إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين**﴾ والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه أنهما رأيا مناماً وطلبا تعبيره. وقال ابن مسعود: ما رأى صاحبا يوسف شيئاً، إنما كان تحالماً ليجربا عليه.

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في المنام من حلم فإنه عارف بتفسيره يخبرهما بتأويله قبل وقوعه؛ ولهذا قال: ﴿**لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما**﴾. قال مجاهد: ﴿**لا يأتيكما طعام ترزقانه**﴾ في يومكما ﴿**إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما**﴾، وكذا قال السدي. ثم قال: وهذا إنما هو من تعليم الله إياي، لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد. ﴿**واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب**﴾ يقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع المرسلين، وأعرض

عن طريق الضالين، فإنه يَهْدِي قلبه، ويعلمه ما لم يكن يعلمه، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير، وداعياً إلى سبيل الرشاد. **﴿ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس﴾** هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له **﴿من فضل الله علينا﴾** أي أوحاه إلينا وأمرنا به. **﴿وعلى الناس﴾** إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك **﴿ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون﴾** أي لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم.

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

ثم إنّ يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخَلْع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما، فقال: **﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾** أي الذي ولي كل شيء بعز جلاله وعظمة سلطانه، ثم بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة، إنما هو جهل منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تلقاها خَلَفهم عن سَلَفهم، وليس لذلك مستند من عند الله؛ ولهذا قال: **﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾** أي حجة. ثم أخبرهم أن الحكم والملك كلَّه لله، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه، ثم قال: **﴿ذلك الدين القيم﴾** أي هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله، وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم الذي أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** أي فلهذا كان أكثرهم مشركين، **﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾** [يوسف: ١٠٣].

قال ابن جرير: جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وصْلةً وسبباً إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لِمَا رأى في سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما شرع في تعبير رؤياهما من غير تكرار سؤال فقال:

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾.

يقول لهما: **﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً﴾** وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً، ولكنه لم يعيِّنه لئلا يحزن ذاك، ولهذا أبهمه في قوله: **﴿وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾** وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقع لا محالة، لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبر فإذا عُبِّرَت وقعت. وقال ابن مسعود: لما قالا ما قالا وأخبرهما، قالا: ما رأينا شيئاً، فقال: **﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾** وكذا فسره مجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، وحاصله أن من تحلم بباطل، وفَسّره فإنه يُلزَم بتأويله، والله تعالى أعلم، وقد ورد في الحديث الشريف الذي

رواه الإمام أحمد عن لقيط بن صبرة، عن النبي ﷺ قال: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت».

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

ولما ظن يوسف عليه السلام نجاة أحدهما ـ وهو الساقي ـ قال له يوسف خفية عن الآخر، والله أعلم، لئلا يشعره أنه المصلوب، قال له: ﴿**اذكرني عند ربك**﴾ يقول: اذكر قصتي عند ربك، وهو الملك، فنسي ذلك الموصَى أن يُذَكِّر مولاه الملك بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان لئلا يَطْلُع نبي الله من السجن، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله ﴿**فأنساه الشيطان ذكر ربه**﴾ عائد على الناجي، كما قال مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد. ويقال: إن الضمير عائد على يوسف عليه السلام رواه ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد أيضاً وعكرمة وغيرهم.

وأما البضع فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع. وقال وهب بن منبه: مكث أيوب في البلاء سبعاً، ويوسف في السجن سبعاً، وعذب بختنصر سبعاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ثنتا عشرة سنة. وقال الضحاك: أربع عشرة سنة.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدّر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف عليه السلام من السجن، معززاً مكرماً، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجَّب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة وكبار دولته وأمراءه فقص عليهم ما رأى وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأن هذه ﴿**أضغاث أحلام**﴾ أي أخلاط اقتضت رؤياك هذه ﴿**وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين**﴾ أي لو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها، فعند ذلك تذكر الذي نجا من ذينك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر ﴿**بعد أمة**﴾ أي مدة، وقرأ بعضهم: بعد «أمِةٍ» أي بعد نسيان، فقال للملك والذين جمعهم لذلك: ﴿**أنا أنبئكم بتأويله**﴾ أي بتأويل هذا المنام، ﴿**فأرسلون**﴾ أي فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن، ومعنى الكلام فبعثوه. فجاء. فقال: ﴿**يوسف أيها الصديق أفتنا**﴾ وذكر المنام الذي

رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿**تزرعون سبع سنين دأباً**﴾ أي يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التي تُستغل منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات الخضر، ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين، فقال: ﴿**فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون**﴾ أي مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب، فاخزنوه في سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً، لا تسرفوا فيه لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المُحْل التي تعقب هذه السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي يأكلن السِّمان؛ لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات. وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئاً، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء، ولهذا قال: ﴿**يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون**﴾ ثم بشرهم بعد الجَدْب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿**عام فيه يغاث الناس**﴾ أي يأتيهم الغيث وتُغل البلاد، ويَعصرُ الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم، من زيت ونحوه، وسكر ونحوه، حتى قال بعضهم: يدخل فيه حلب اللبن أيضاً. فعن ابن عباس ﴿**وفيه يعصرون**﴾ يحلبون.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه، فعرف فضل يوسف عليه السلام، وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه، وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه، فقال: ﴿**ائتوني به**﴾ أي أخرجوه من السجن وأحضروه، فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ونزاهة عرضه، مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلماً وعدواناً، فقال: ﴿**ارجع إلى ربك**﴾ الآية. وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره، صلوات الله وسلامه عليه، ففي المسند والصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿**رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي**﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي».

وقوله تعالى: ﴿**قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه**﴾ إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لهن كلهن وهو يريد امرأة وزيره،

وهو العزيز، قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴿ما خطبكن﴾ أي شأنكن وخبركن ﴿إذ راودتن يوسف عن نفسه﴾ يعني يوم الضيافة، ﴿قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء﴾ أي قالت النسوة جواباً للملك: حاش لله أن يكون يوسف متهماً، والله ما علمنا عليه من سوء، فعند ذلك ﴿قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: تقول الآن تبين الحق وظهر وبرز، ﴿أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ أي في قوله: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي وذلك ليعلم زوجي أني لم أخنه في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع؛ فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة ﴿وأن الله لا يهدي كيد الخائنين * وما أبرىء نفسي﴾ تقول المرأة: ولست أبرىء نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته لأنها أمارة بالسوء ﴿إلا ما رحم ربي﴾ أي إلا من عصمه الله تعالى: ﴿إن ربي غفور رحيم﴾. وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام. وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتُدِبَ لنصرِه الإمام أبو العباس بن تيمية رحمه الله، فأفرده بتصنيف على حدة. وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف عليه السلام يقول: ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه﴾ في زوجته ﴿بالغيب﴾ أي إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي، وليعلم العزيز ﴿أني لم أخنه﴾ في زوجته ﴿بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه. وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة [وغيرهم] والقول الأول أقوى وأظهر، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نسب إليه، قال: ﴿ائتوني به أستخلصه لنفسي﴾ أي أجعله من خاصتي وأهل مشورتي ﴿فلما كلمه﴾ أي خاطبه الملك وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خَلْق وخُلُق وكمال، قال له الملك: ﴿إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾ أي إنك عندنا ذا مكانة وأمانة، فقال يوسف عليه السلام: ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جُهِل أمره للحاجة، وذكر أنه ﴿حفيظ﴾ أي خازن أمين، ﴿عليم﴾ ذو علم وبصيرة بما يتولاه. وقال شيبة بن نعامة: حفيظ لما استودعتني، عليم بِسِنِيِّ الجدب، وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما فيه من المصالح للناس، وإنما سأله أن يُجْعَل على خزائن الأرض، وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبةً فيه وتكرمة له ولهذا قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

يقول تعالى: **﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾** أي أرض مصر، **﴿يتبوأ منها حيث يشاء﴾** قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرف فيها كيف يشاء. وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار، **﴿نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾** أي وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلهذا أعقبه الله عز وجل السلامة والتأييد، **﴿ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾** يخبر تعالى أن ما ادخره الله لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا، كما قال في حق سليمان عليه السلام **﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب * وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾** [ص:٣٩-٤٠]. والغرض أن يوسف عليه السلام ولاه ملك مصر الوزارة في بلاد مصر مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام، قاله مجاهد.

وقال محمد بن إسحاق: لما قال يوسف للملك: **﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾** قال الملك: قد فعلت، يقول الله عز وجل: **﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾**. وقال الفضيل بن عياض: وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مر يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته، والملوك عبيداً بمعصيته.

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ .

ذكر السدي، ومحمد بن إسحاق وغيرهما من المفسرين أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف عليه السلام لما باشر الوزارة بمصر ومضت السبع السنين المخصبة، ثم تلتها سنين الجدب، وعم القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان وهي التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده، وحينئذ احتاط يوسف عليه السلام للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، ووَرَدَ عليه الناسُ من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة، وكان عليه السلام، لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يكتفي الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين، وكان رحمة من الله على أهل مصر.

والغرض أنه كان في جملة من ورد للميرة إخوةُ يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاماً، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف عليه السلام، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف، فلما دخلوا على يوسف وهو جالس في أبهته ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم، ﴿وهم له منكرون﴾ أي لا يعرفونه، لأنهم فارقوه وهو صغير حدث، وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم. فذكر السدي وغيره أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ فقالوا: أيها العزيز إنا قدمنا للميرة، قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله. قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا، هلك في البرية وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم. ﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ أي وفاهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم، قال: ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ﴿ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين﴾ يرغبهم في الرجوع إليه، ثم رهَّبَهم فقال: ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾، أي إن لم تَقْدُموا به معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة، ﴿ولا تقربون * قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون﴾ أي سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن، ولا نُبْقي مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه. ﴿وقال لفتيانه﴾ أي غلمانه ﴿اجعلوا بضاعتهم﴾ أي التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿في رحالهم﴾ أي في أمتعتهم من حيث لا يشعرون، ﴿لعلهم يرجعون﴾ بها، قيل: خشي يوسف عليه السلام أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها. وقيل: تذمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام، وقيل أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم تحرجاً وتورعاً، لأنه يعلم ذلك منهم والله أعلم.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

يخبر الله تعالى عنهم: إنهم لما رجعوا إلى أبيهم ﴿قالوا يا أبانا منع منا الكيل﴾ يعنون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين، فأرسله معنا نكتل، قرأ بعضهم بالياء أي يكتل هو، ﴿وإنا له لحافظون﴾ أي لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك، وهذا كما قالوا له في يوسف: ﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون﴾ ولهذا قال لهم: ﴿هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾ أي هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيبونه عني، وتحولون بيني وبينه؟ ﴿فا لله خير حافظاً﴾ وقرأ بعضهم: حفظاً ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ أي هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كِبَرِي وضَعْفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يرده

علي ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهي التي كان أمر يوسف فتيانه بوضعها في رحالهم، فلما وجدوها في متاعهم **﴿قالوا يا أبانا ما نبغي﴾** أي ماذا نريد **﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾**، كما قال قتادة: ما نبغي وراء هذا، إن بضاعتنا ردت إلينا، وقد أوفى لنا الكيل. **﴿ونمير أهلنا﴾** أي إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا، **﴿ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير﴾** وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل رجل حمل بعير، وقال مجاهد: حمل حمار، وقد يسمى في بعض اللغات بعيراً، كذا قال. **﴿ذلك كيل يسير﴾** هذا من تمام الكلام وتحسينه، أي إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم. **﴿قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله﴾** أي تحلفون بالعهود والمواثيق **﴿لتأتنني به إلا أن يحاط بكم﴾** إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه **﴿فلما آتوه موثقهم﴾** أكده عليهم، فقال: **﴿الله على ما نقول وكيل﴾**، قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك لأنه؛ لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم.

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام، إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس ومحمد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي: إنه خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم، فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه، وعن إبراهيم النخعي في قوله **﴿وادخلوا من أبواب متفرقة﴾** قال: علم أنه سيلقى إخوته في بعض الأبواب. وقوله: **﴿وما أغني عنكم من الله من شيء﴾** أي إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يُخالف ولا يُمانع، **﴿إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون * ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾** قالوا: هي دفع إصابة العين لهم **﴿وإنه لذو علم لما علمناه﴾** قال قتادة والثوري: لذو عمل بعلمه. وقال ابن جرير: لذو علم لتعليمنا إياه **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له، وعرفه أنه أخوه، وقال له: لا تبتئس، أي لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززاً مكرّماً معظماً.

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾.

لما جهزَّهم وحَمَّل لهم أبعرتهم طعاماً، أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية، وهي إناء من فضة في قول الأكثرين، وقيل: من ذهب، قال ابن زيد، كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزّة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد، وقال ابن عباس: ﴿صواع الملك﴾ قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوك، وكان للعباس مثلُه في الجاهلية، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ فالتفتوا إلى المنادي وقالوا ﴿ماذا تفقدون * قالوا نفقد صواع الملك﴾ أي صاعه الذي يكيلُ به ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾ وهذا من باب الجَعَالة، ﴿وأنا به زعيم﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة.

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾.

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف: ﴿تا لله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ أي لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة أنّا ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين أي ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيان: ﴿فما جزاؤه﴾ أي السارق إن كان فيكم ﴿إن كنتم كاذبين﴾ أي: أي شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟ ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين﴾ وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام، أن السارق يدفع إلى المسروق منه، وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام، ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي فتشها قبله تورية، ﴿ثم استخرجها من وعاء أخيه﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم، وإلزاماً لهم بما يعتقدونه، ولهذا قال تعالى: ﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

وقوله: ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ أي لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر قاله

الضحاك وغيره، وإنما قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه تعالى فقال: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ كما قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾ [المجادلة: ١١]. ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله عز وجل، وكذا روى عن سعيد بن جبير، قال: كنا عند ابن عباس فحدث بحديث عجيب، فتعجب رجل فقال: الحمد لله ﴿فوق كل ذي علم عليم﴾، فقال ابن عباس: بئس ما قلت: الله العليم فوق كل عالم، وعن ابن عباس أيضا قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم، وهكذا قال عكرمة، وقال قتادة: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾، حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بدىء، وتعلمت العلماء، وإليه يعود، وفي قراءة عبد الله، وفوق كل عالم عليم.

﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ ﴾.

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصوّاع قد أخرج من متاع بنيامين ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ يتنصلون إلى العزيز من التشبه به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف عليه السلام. قال سعيد بن جبير، وعن قتادة: كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجده أبي أمه فكسره. وقوله: ﴿فأسرها يوسف في نفسه﴾ يعني الكلمة التي بعدها، وهي قوله: ﴿أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون﴾ أي تذكرون، قال هذا في نفسه ولم يبده لهم، وهذامن باب الإضمار قبل الذكر، وهو كثير. وله شواهد كثيرة في القرآن والحديث واللغة في منثورها وأخبارها وأشعارها. وعن ابن عباس: ﴿فأسرها يوسف في نفسه﴾، قال: أسر في نفسه ﴿أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون﴾.

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩ ﴾.

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترققون له فـ ﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً﴾ يعنون وهو يحبه حباً شديداً ويتسلى به عن ولده الذي فقده ﴿فخذ أحدنا مكانه﴾ أي بدله يكون عندك عوضاً عنه، ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ أي العادلين المنصفين القابلين للخير، ﴿قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ أي كما قلتم واعترفتم ﴿إنا إذاً لظالمون﴾ أي إن أخذنا بريئاً بسقيم.

﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي

كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك ﴿**خلصوا**﴾ أي انفردوا عن الناس ﴿**نجياً**﴾ يتناجون فيما بينهم ﴿**قال كبيرهم**﴾ وهو روبيل، وقيل: يهوذا، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله، قال لهم: ﴿**ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله**﴾ لتردنه إليه فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿**فلن أبرح الأرض**﴾ أي لن أفارق هذه البلدة ﴿**حتى يأذن لي أبي**﴾ في الرجوع إليه راضياً عني ﴿**أو يحكم الله لي**﴾ قيل: بالسيف، وقيل: بأن يمكنني من أخذ أخي ﴿**وهو خير الحاكمين**﴾، ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذراً لهم عنده، وقوله: ﴿**وما كنا للغيب حافظين**﴾ قال عكرمة وقتادة: ما كنا نعلم أن ابنك يسرق. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئاً، إنما سألنا ما جزاء السارق ؟ ﴿**واسأل القرية التي كنا فيها**﴾: قيل المراد مصر، قاله قتادة، وقيل غيرها، ﴿**والعير التي أقبلنا فيها**﴾ أي التي رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا وحراستنا، ﴿**وإنا لصادقون**﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقته.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

قال لهم كما قال لهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب ﴿**بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل**﴾ قال محمد بن إسحاق: لما جاؤوا يعقوب وأخبروه بما جرى، اتهمهم وظن أنها كفعلتهم بيوسف، قال: ﴿**بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل**﴾ وقال بعض الناس: لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول، سحب حكم الأول عليه، وصح قوله: ﴿**بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل**﴾. ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين وروبيل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه، فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية؛ ولهذا قال: ﴿**عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم**﴾ أي العليم بحالي، ﴿**الحكيم**﴾ في أفعاله وقضائه، ﴿**وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف**﴾ أي أعرض عن بنيه، وقال متذكراً حُزنَ يوسف القديم الأول ﴿**يا أسفى على يوسف**﴾ جدد له حزن الابنين الحزن الدفين، وعن سعيد بن جبير أنه قال: لم يُعْطَ أحد غير هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام ﴿**يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم**﴾ أي ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق، قاله قتادة وغيره. وقال الضحاك:

فهو كظيم كميد حزين. فعند ذلك رق له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿تالله تفتأ تذكر يوسف﴾ أي لا تفارق تذكُّر يوسف ﴿حتى تكون حرضاً﴾ أي ضعيف الجسم، ضعيف القوة ﴿أو تكون من الهالكين﴾ يقولون إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف ﴿قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ أي أجابهم عما قالوا بقوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني﴾ أي همي وما أنا فيه ﴿إلى الله﴾ وحده، ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي أرجو منه كل خير، وعن ابن عباس ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ يعني رؤيا يوسف أنها صدق، وأن الله لا بد أن يظهرهاوينجزها.

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام: إنه ندب بنيه إلى الذهاب في الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين، والتحسس يكون في الخير، والتجسس يستعمل في الشر، ونَهَضهم وبشرهم وأمرهم أن لا ييأسوا من روح الله أي لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء ولا يقطع الإياس من الله إلا القوم الكافرون. وقوله ﴿فلما دخلوا عليه﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا بلد مصر، ودخلوا على يوسف ﴿قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر﴾ يعنون من الجدب والقحط وقلة الطعام، ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ أي ومعنا ثمن الطعام الذي نمتاره، وهو ثمن قليل، قاله مجاهد والحسن وغير واحد. وقال ابن عباس: الرديء لا يَنفُق، مثل خَلَق الغِرارة، والحبل والشيء، وفي رواية عنه: الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان، وكذا قال قتادة والسدي. وقال سعيد بن جبير: هي الدراهم الفُسُول. وقال أبو صالح: هو الصنوبر وحبة الخضراء، وقال الضحاك: كاسدة لا تنفق. وقال أبو صالح: جاؤوا بحب البُطْم الأخضر والصنوبر، وأصل الإزجاء: الدفع لضعف الشيء، وقوله إخباراً عنهم: ﴿فأوف لنا الكيل﴾ أي أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك، وقرأ ابن مسعود: فأوقر ركابنا وتصدق علينا. وقال ابن جريج: وتصدق علينا برد أخينا إلينا. وقال سعيد بن جبير والسدي ﴿وتصدق علينا﴾ يقولون: تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة، وتَجَوَّز فيها. وسئل سفيان بن عيينة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي ﷺ؟ فقال ألم تسمع قوله: ﴿فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين ؟﴾.

﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يوسف عليه السلام، إنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء فتعرف إليهم، فيقال: إنه رفع التاج عن جبهته، وكان فيها شامة، وقال ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾ يعني كيف فرقوا بينه وبين أخيه ﴿إذ أنتم جاهلون﴾ أي إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، كما قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، وقرأ: ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ إلى قوله: ﴿إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ [النحل:١١٩].

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر، فرج الله تعالى من ذلك الضيق، كما قال تعالى: ﴿فإن مع العسر يسراً إنّ مع العسر يسراً﴾ [الشرح:٥ـ٦]، فعند ذلك قالوا: ﴿أئنك لأنت يوسف ؟﴾ أي أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر وهم لا يعرفونه وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: ﴿أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا﴾ أي بجمعه بيننا بعد التفرقة وبُعْدِ المدة ﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين * قالوا تالله لقد آثرك الله علينا﴾ الآية، يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخَلْق والخُلُق، والملك والتصرف والنبوة أيضاً، على قول من لم يجعلهم أنبياء، وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطأوا في حقه.

﴿قال لا تثريب عليكم اليوم﴾ يقول: أي لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم، ولا أعيد عليكم ذنبكم في حقي بعد اليوم. ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال: ﴿يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ قال السدي: اعتذروا إلى يوسف فقال: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ يقول: لا أذكر لكم ذنبكم: وقال ابن إسحاق والثوري: أي لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم ﴿يغفر الله لكم﴾ أي يستر الله عليكم فيما فعلتم ﴿وهو أرحم الراحمين﴾.

﴿ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾.

يقول: اذهبوا بهذا القميص ﴿فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً﴾ وكان قد عَمِيَ من كثرة البكاء، ﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ أي بجميع بني يعقوب، ﴿ولما فصلت العير﴾ أي خرجت من مصر ﴿قال أبوهم﴾ يعني يعقوب عليه السلام لمن بقي عنده من بنيه ﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾ تنسبوني إلى الفَنَد والكِبَر. قال ابن عباس: ولما فصلت العير، قال: لما خرجت العير هاجت ريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف، فقال: ﴿إني لأجد ريح

يوسف لولا أن تفندون﴾ قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام، وقال الحسن وابن جُرَيْج: كان بينهما ثمانون فرسخاً، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة.

وقوله: **﴿لولا أن تفندون﴾** قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جبير: تُسَفِّهون وقال مجاهد أيضاً والحسن: تُهرّمون. وقولهم: **﴿إنك لفي ضلالك القديم﴾** قال ابن عباس: لفي خطئك القديم. وقال قتادة: أي من حب يوسف لا تنساه ولاتسلاه، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله ﷺ، وكذا قال السدي وغيره.

﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾.

قال ابن عباس والضحاك: **﴿البشير﴾** البريد. وقال مجاهد والسدي: كان يهوذا بن يعقوب، قال السدي: إنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب، فأحب أن يغسل ذاك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً، وقال لبنيه عند ذلك: **﴿ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾** أي أعلم أن الله سيرده إلي، وقلت لكم: **﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾** فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له: **﴿يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين * قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم﴾** أي من تاب إليه تاب عليه، قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السحر. وعن محارب بن دثار قال: كان عمر رضي الله عنه يأتي المسجد فيسمع إنساناً يقول: اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا السحر فاغفر لي. قال فاستمع الصوت، فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسأل عبد الله عن ذلك، فقال: إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله: **﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾**.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام، وقدومه بلاد مصر، لما كان يوسف قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم، وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أُخبِرَ يوسف عليه السلام باقترابهم، خرج لتلقيهم وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام، ويقال: إن الملك خرج أيضاً لتلقيه، وهو الأشبه.

وقوله: **﴿آوى إليه أبويه﴾** قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أباه وخالته، وكانت أمه قد ماتت قديماً. وقال محمد بن إسحاق وابن جرير: كان أبوه وأمه يعيشان، قال ابن جرير: ولم يقم دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها، وهذا الذي نصره هو

المنصور الذي يدل عليه السياق. وقوله: ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني السرير، أي أجلسهما معه على سريره، ﴿وخروا له سجداً﴾ أي سجد له أبواه وإخوته الباقون. وكانوا أحد عشر رجلاً، ﴿وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ أي التي كان قصها على أبيه قبل، ﴿إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾ [يوسف:٤]، وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى، هذا مضمون قول قتادة وغيره.

وفي الحديث أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله، فقال: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها». [رواه أحمد وغيره وهو صحيح].

والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم، ولهذا خروا له سجداً، فعندها قال يوسف: ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً﴾ أي هذا ما آل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله﴾ [الأعراف:٥٣] أي يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا به من خير وشر.

وقوله: ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ أي صحيحة صدقاً يذكر نعم الله عليه، ﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾ أي البادية. قال ابن جريج وغيره: كانوا أهل بادية وماشية، ﴿من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء﴾ أي إذا أراد أمراً قيض له أسباباً ويسره ﴿إنه هو العليم﴾ بمصالح عباده، ﴿الحكيم﴾ في أفعاله وأقواله وقضائه وما يختاره. قال سلمان: كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة، قال عبد الله بن شداد: وإليها ينتهي أقصى الرؤيا. وقال الحسن: كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة، لم يفارق الحزن قلبه، ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب، وعنه أيضا: ثلاث وثمانون سنة. وقال قتادة: كان بينهما خمس وثلاثون سنة. وقال مسروق: دخلوا وهم ثلثمائة وتسعون بين رجل وامرأة، والله أعلم.

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به ربه عز وجل لما تمت النعمة عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما منّ الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه، قاله الضحاك، وأن يلحقه بالصالحين وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهذا

الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام، قاله عند احتضاره، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول: «اللهم في الرفيق الأعلى» ثلاثاً، ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا حان أجله، وانقضى عمره، لا أنه سأله ذلك منجزاً كما يقول الداعي لغيره: أماتك الله على الإسلام، ويقول الداعي: اللهم أحينا مسلمين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً، وكان ذلك سائغاً في ملتهم، كما قال قتادة قوله: ﴿**توفني مسلماً وألحقني بالصالحين**﴾ لما جمع الله شمله وأقر عينه، وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملكها وغضارتها، اشتاق إلى الصالحين قبله، وكان ابن عباس يقول: ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام، وكذا ذكر ابن جرير والسدي عن ابن عباس أنه أول نبي دعا بذلك ، وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام، كما أن نوحاً أول من قال: ﴿**رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً**﴾ ويحتمل أنه أول من سأل نجاز ذلك، وهو ظاهر سياق قول قتادة، ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا. روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فإن كان ولا بد متمنياً الموت، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي» ورواه البخاري ومسلم.

وهذا فيما إذا كان الضر خاصاً به، وأما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهددهم بالقتل ﴿**قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين**﴾ [الأعراف:١٢٦]، وقالت مريم لما أجاءهاالمخاض، وهو الطلق، إلى جذع النخلة: ﴿**يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً**﴾ [مريم:٢٣]، لما تعلم من أن الناس يقذفونها بالفاحشة، وفي حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد والترمذي [وقال: حسن صحيح] في قصة المنام والدعاء الذي فيه «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون».

فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت، ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ولا يزداد الأمر إلا شدة، فقال: اللهم خذني إليك، فقد سئمتهم وسئموني. وقال البخاري رحمه الله: لما وقعت له تلك المحن وجرى له ما جرى مع أمير خراسان، قال: اللهم توفني إليك. وفي الحديث: «إن الرجل ليمر بالقبر ـ أي في زمان الدجال ـ فيقول: يا ليتني مكانك» [متفق عليه] لما يرى من الفتن. والزلازل والبلابل والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون. قال أبو جعفر بن جرير: وذكر أن بَني يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا، استغفر لهم أبوهم، فتاب الله عليهم، وعفا عنهم، وغفر لهم ذنوبهم.

وذكر السدي أن يعقوب عليه السلام لما حضره الموت أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند

إبراهيم وإسحاق، فلما مات صبّره وأرسله إلى الشام، فدفن عندهما عليهم السلام.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام، هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة **﴿نوحيه إليك﴾** ونعلمك به لما فيه من العبرة لك، والاتعاظ لمن خالفك **﴿وما كنت لديهم﴾** حاضراً عندهم ولا مشاهداً لهم **﴿إذ أجمعوا أمرهم﴾** أي على إلقائه في الجب **﴿وهم يمكرون﴾** به، ولكنا أعلمناك به وحياً إليك، وإنزالاً عليك، كما قال: **﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾** الآية [آل عمران: ٤٤].

يقرر تعالى أنه رسوله، وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم، ومع هذا ما آمن أكثر الناس؛ ولهذا قال: **﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾** وقال: **﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾** [الأنعام: ١١٦]، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله: **﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾** أي وما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، **﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾** يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة.

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوان ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية ذي الأسماء والصفات.

وقوله: **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾** قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلق السموات، ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون به. وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وفي الصحيح: أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك. وفي الصحيح أنهم كانوا إذا قالوا: لبيك لا شريك لك، قال رسول الله ﷺ: «قَدْ قَدْ» أي حَسْبُ حسب، لا تزيدوا على هذا. [رواه مسلم]. وقال الله تعالى: **﴿إن الشرك**

لظلم عظيم﴾ [لقمان:١٣]، وهذا هو الشرك الأعظم الذي يُعْبَدُ مع الله غيره، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك».

وقال الحسن البصري في قوله: **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾** قال: ذاك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذاك يعني قوله تعالى: **﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾** [النساء:١٤٢]. وثمَّ شرك آخر خفي لا يشعر به غالباً فاعله، ففي الحديث: «من حلف بغير الله فقد أشرك» رواه الترمذي وحسنه من رواية ابن عمر، وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك». [ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي]، وفي لفظ لهما: «الطيرة شرك وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل».

وقوله: **﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب لله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون﴾** أي أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون، كما قال تعالى: **﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾** [النحل:٤٥-٤٧]. وقال تعالى: **﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾** [الأعراف:٩٧-٩٩].

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ آمراً له أن يخبر أن هذه سبيله أي طريقه ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك، ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان شرعي وعقلي. وقوله: **﴿وسبحان الله﴾** أي وأنزّه الله وأجله وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك، أو نظير، أو عديل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة، أو وزير أو مشير، تبارك وتعالى تقدس وتنزه عن ذلك كله علواً كبيراً، **﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾** [الإسراء:٤٤].

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما

دل عليه سياق هذه الآية الكريمة أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع. وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله: ﴿**وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه**﴾ الآية [القصص:٧]، وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى عليه السلام، وبقوله تعالى: ﴿**إذ قالت الملائكة يا مريم، إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين**﴾ [آل عمران:٤٢ـ٤٣]. وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يَكنَّ نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف، فهذا لا شك فيه، ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرده أم لا ؟ الذي عليه أهل السنة والجماعة، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم: أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن صديقات، كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال: ﴿**ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام**﴾ [المائدة:٧٥]، فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقية، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صدّيقة بنص القرآن.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً**﴾ الآية، أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم، وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى: ﴿**وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق**﴾ الآية [الفرقان:٢٠]، وقوله تعالى: ﴿**وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين * ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين**﴾ [الأنبياء:٨ـ٩]، وقوله تعالى: ﴿**قل ما كنت بدعاً من الرسل**﴾ الآية [الأحقاف:٩]. وقوله: ﴿**من أهل القرى**﴾ المراد بالقرى: المدن لا أنهم من أهل البوادي، الذين هم أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً، وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرق طباعاً وألطف من أهل سوادهم، وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي، ولهذا قال تعالى: ﴿**الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله**﴾ الآية [التوبة:٩٧]. وقال قتادة في قوله: ﴿**من أهل القرى**﴾ لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود [أي سكان الخيام]. وفي الحديث الآخر أن رجلاً من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة، فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضي، فقال رسول الله ﷺ: «لقد هممت أن لا أتَّهِبَ هِبَةً إلا من قرشي أو أنصاري أو ثقفي أو دوسي». [رواه أحمد والنسائي وهو صحيح].

وقوله: ﴿**أفلم يسيروا في الأرض**﴾ يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض ﴿**فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم**﴾ أي من الأمم المكذبة للرسل، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، كقوله: ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ [الحج:٤٦]، فإذا استمعوا خبر

ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه، ولهذا قال تعالى: ﴿**ولدار الآخرة خير للذين اتقوا**﴾ أي وكما أنجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة وهي خير لهم من الدنيا بكثير، كما قال: ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار**﴾ [غافر: ٥٠ـ٥١].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله في أحوج الأوقات إلى ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿**وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا نصر الله قريب**﴾ [البقرة: ٢١٤]، ، وفي قوله: ﴿**كذبوا**﴾ قراءتان إحداهما بالتشديد: «قد كُذّبوا»، وكذلك كانت عائشة رضي الله عنها تقرؤها، روى البخاري عن عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت له وهو يسألها عن قول الله: ﴿**حتى إذا استيأس الرسل**﴾ قال: قلت: أكُذِبوا أم كُذِّبوا ؟ قالت عائشة: كُذِّبوا. فقلت فقد استيقنوا أن قومهم قد كذَّبوهم فما هو بالظن ؟: قالت: أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك. فقلت لها: وظنوا أنهم قد كُذِبوا؟ قالت: معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها. قلت: فما هذه الآية ؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر ﴿**حتى إذا استيأس الرسل**﴾ ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك، وعن ابن عباس أنه قرأها: ﴿**وظنوا أنهم قد كُذِبُوا**﴾ خفيفة. ثم قال: كانوا بشراً، وتلا ابن عباس﴿**حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب**﴾ [البقرة: ٢١٤]. قال: لماأيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كَذَّبوهم، جاءهم النصر على ذلك ﴿**فنجي من نشاء**﴾. وكذا روي عن سعيد بن جبير وعمران بن الحارث السلمي وعبد الرحمن بن معاوية.

وعن سعيد بن جبير قال: حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدِّقوهم، وظن المرسَلُ إليهم أن الرسل قد كَذَبوا. ثم روى ابن جرير أيضاً من وجه آخر أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير عن ذلك، فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتنقه وقال: فرج الله عنك كما فرجت عني، وكذا فسرها مجاهد بن جبر وغير واحد من السلف.

وأما ابن مسعود فإنه يقول في هذه الآية: ﴿**حتى إذا استيأس الرسل**﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كَذَبوا بالتخفيف.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين **﴿عبرة لأولي الألباب﴾** وهي العقول، **﴿ما كان حديثاً يفترى﴾** أي وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أي يُكْذَبُ ويُخْتَلق **﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾** أي: من الكتب المنزلة من السماء وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير **﴿وتفصيل كل شيء﴾** من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور الجلية، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى وبالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان **﴿هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾** تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالربح المُبْيَضَّة وجوههم الناضرة، ويرجع المسودّة وجوههم بالصفقة الخاسرة.

آخر تفسير سورة يوسف، ولله الحمد والمنة وبه المستعان وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل.

سورة الرعد وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقدمنا أن كل سورة تبتدأ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب؛ ولهذا قال: **﴿تلك آيات الكتاب﴾** أي هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، ثم عطف على ذلك عطف صفات فقوله: **﴿والذي أنزل إليك﴾** أي يا محمد **﴿من ربك الحق﴾** خبر تقدم مبتدؤه، وهو قوله: **﴿والذي أنزل إليك من ربك﴾** هذا هو الصحيح. وقوله: **﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾** كقوله: **﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾** [يوسف:١٠٣] أي مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه: أنه الذي بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمدٍ، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعداً لا تُنال ولا يُدْركُ مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام،

وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينهما من البعد مسير خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وهكذا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال تعالى: ﴿**الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً**﴾ [الطلاق:١٢]، وفي الحديث: «ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة». وفي رواية: «والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل». [صححه الألباني].

وقوله: ﴿**بغير عمد ترونها**﴾ روي عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا: لها عمد ولكن لا ترى. وقال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمد، وكذا روي عن قتادة، وهذا هو اللائق بالسياق. والظاهر من قوله تعالى: ﴿**ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه**﴾ [الحج:٦٥]، فعلى هذا يكون قوله: ﴿**ترونها**﴾ تأكيداً لنفي ذلك، أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة.

وقوله: ﴿**ثم استوى على العرش**﴾ تقدم تفسيره في سورة الأعراف وأنه يمرر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علواً كبيراً. وقوله: ﴿**وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى**﴾ قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كما في قوله تعالى: ﴿**والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم**﴾ [يس:٣٨]. وقيل: المراد إلى مستقرهما وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك يكونون أبعد ما يكون عن العرش، لأنه على الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة قبة مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك، لأن له قوائم وحملة يحملونه، ولا يتصور هذا في الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تدبر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿**يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون**﴾ أي يوضح الآيات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما ابتدأ خلقه.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال: ﴿**وهو الذي مد الأرض**﴾ أي جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والعيون، لسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح من كل زوجين اثنين أي من كل شكل صنفان. ﴿**يغشي الليل**

النهار﴾ أي جعل كلاً منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضاً في الزمان كما تصرف في المكان والسكان، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ أي في آلاء الله وحكمته.

وقوله: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾ أي أراض تجاور بعضها بعضاً، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس وهذه سَبخة مالحة لا تنبت شيئاً، هكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم. وكذا يدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، فهذه بصفتها، وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لا إله إلا هو ولا رب سواه. وقوله: ﴿وجنات من أعناب وزرع ونخيل﴾ يحتمل أن تكون الواو عاطفة على جنات، فيكون ﴿وزرع ونخيل﴾ مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفاً على أعناب، فيكون مجروراً، ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة.

وقوله: ﴿صنوان وغير صنوان﴾ الصنوان: هي الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين، وبعض النخيل ونحو ذلك. وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه، كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه». [رواه مسلم]. قال البراء رضي الله عنه: الصنوان هي النخلات في أصل واحد، وغير الصنوان المتفرقات، وقاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقوله: ﴿تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ أي هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع، في أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها، فهذا في غاية الحلاوة، وذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة وذا عَفِص، وهذا عذب، وهذا جمع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وهذا أسود، وهذا أزرق، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء، مع الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدرته فاوت بين الأشياء، وخلقها على ما يريد، ولهذا قال تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وإن تعجب﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد، مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلائله في خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع

ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء، فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالمين خلقاً جديداً، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم ﴿**أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد**﴾، وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة سهلة عليه، كما قال تعالى: ﴿**أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير**﴾ [الأحقاف: ٣٣]. ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿**أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم**﴾ أي يسحبون بها في النار ﴿**وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾ أي ماكثون فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**ويستعجلونك**﴾ أي هؤلاء المكذبون ﴿**بالسيئة قبل الحسنة**﴾ أي بالعقوبة كما أخبر عنهم في قوله: ﴿**ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون. يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين**﴾ [العنكبوت: ٥٣-٥٤]، فكانوا يطلبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله، وذلك من شدة تكذيبهم وكفرهم وعنادهم. قال الله تعالى: ﴿**وقد خلت من قبلهم المثلات**﴾ أي قد أوقعنا نقمتنا بالأمم الخالية وجعلناهم مثلة وعظة لمن اتعظ بهم.

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة كما قال تعالى: ﴿**ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة**﴾ [فاطر: ٤٥]. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿**وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم**﴾ أي إنه ذو عفو وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿**إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم**﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿**نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم**﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]، إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفراً وعناداً: لولا يأتينا بآية من ربه، كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيح عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً، قال الله تعالى: ﴿**وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون**﴾ [الإسراء: ٥٩]، قال الله تعالى: ﴿**إنما أنت منذر**﴾ أي إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، ﴿**ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء**﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقوله: ﴿**ولكل قوم هاد**﴾ قال ابن عباس: أي ولكل قوم داع. وعنه في تفسيرها: يقول الله تعالى: أنت يا محمد منذر، وأنا هادي كل قوم،

وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك. وعن مجاهد: ﴿ولكل قوم هاد﴾ أي نبي. كقوله: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ [فاطر:٢٤]، وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد. وقال أبو صالح ويحيى بن رافع: ﴿ولكل قوم هاد﴾ أي قائد. وقال أبو العالية: الهادي: القائد، والقائد: الإمام، والإمام: العمل. وعن عكرمة وأبي الضحى: ﴿لكل قوم هاد﴾ قالا: هو محمد ﷺ. وقال مالك: ﴿ولكل قوم هاد﴾ يدعوهم إلى الله عز وجل.

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ [لقمان:٣٤] أي ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كما قال تعالى: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة﴾ الآية [النجم:٣٢]. وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن خَلْق إحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه ملك فيؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه، وعمره، وعمله، وشقي أو سعيد».

وقوله: ﴿وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾ روى البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله». وعن ابن عباس: ﴿وما تغيض الأرحام﴾ يعني السَقْط ﴿وما تزداد﴾ يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومن تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه تعالى.

وقال ابن عباس: ما نقصت من تسعة وما زاد عليها، وقال الضحاك: وضعتني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين، وولدتني وقد نبتت ثنيتي. وقال مجاهد: ﴿وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾ قال: ما ترى من الدم في حملها، وما تزداد على تسعة أشهر، وبه قال عطية العوفي وقتادة والحسن البصري والضحاك. وقال مجاهد أيضاً: ﴿وما تغيض الأرحام﴾ إراقة الدم حتى يخسَّ الولد، ﴿وما تزداد﴾ إن لم تهرق المرأة، تم الولد وعظم. وقال مكحول: الجنين في بطن أمه لا يطلب ولا يحزن ولا يغتم، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضتها، فمن ثم لا تحيض الحامل، فإذا وقع إلى الأرض، استهل، واستهلاله استنكار لمكانه، فإذا قطعت سرته، حول الله رزقه إلى ثديي أمه حتى لا يطلب ولا يحزن ولا يغتم، ثم يصير طفلاً يتناول الشيء بكفه فيأكله، فإذا هو بلغ قال: هو الموت أو القتل أنى لي بالرزق ؟ فيقول مكحول:

ياويلك! غذاك وأنت في بطن أمك وأنت طفل صغير، حتى إذا اشتددت وعقلت قلت: هو الموت أو القتل أنى لي بالرزق؟ ثم قرأ مكحول: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ الآية.

وقال قتادة: ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ أي بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلاً معلوماً. وفي الحديث الصحيح أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابناً لها في الموت، وأنها تحب أن يحضره. فبعث إليها يقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمروها فلتصبر ولتحتسب» الحديث بتمامه. [متفق عليه]. وقوله: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم، ولا يخفى عليه منه شيء ﴿الكبير﴾ الذي هو أكبر من كل شيء، ﴿المتعال﴾ أي على كل شيء ﴿قد أحاط بكل شيء علماً﴾ وقهر كل شيء، فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرهاً.

﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء، كما قال: ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ [طه:٧]، وقال: ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ [النمل:٢٥]، وقالت عائشة رضي الله عنها: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفى عليَّ بعض كلامها، الحديث [رواه أحمد والنسائي وصححه الحاكم].

وقوله: ﴿ومن هو مستخف بالليل﴾ أي مختف في قعر بيته في ظلام الليل، ﴿وسارب بالنهار﴾ أي ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه، فإن كليهما في علم الله على السواء، كما قال تعالى: ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ [هود:٥]، وقال تعالى: ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ [يونس:٦١].

وقوله: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حَرَس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل، بدلاً حافظان وكاتبان، كما جاء في الصحيح: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل

وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون». [متفق عليه].

وقال ابن عباس في قوله: ﴿**له معقبات من بين يديه ومن خلفه**﴾ والمعقبات من أمر الله وهي الملائكة، وقال ابن عباس أيضا: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه، وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل، يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريده، إلا قال له الملك وراءك، إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه.

وقال ابن عباس أيضا في قوله: ﴿**له معقبات من بين يديه ومن خلفه**﴾ قال: ذلك ملك من ملوك الدنيا، له حرس من دونه حرس، وقال عكرمة في تفسيرها: هؤلاء الأمراء المواكب بين يديه ومن خلفه، وقال الضحاك في الآية: هو السلطان المحترس من أمر الله، وهم أهل الشرك، والظاهر ـ والله أعلم ـ أن مراد ابن عباس وعكرمة والضحاك بهذا أن حرس الملائكة للعبد يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة» قالوا: وإياك يارسول الله ؟ قال: «وإياي، ولكن أعانني الله عليه، فلا يأمرني إلا بخير»، انفرد بإخراجه مسلم. وقوله: ﴿**يحفظونه من أمر الله**﴾ قيل: المراد حفظهم له من أمر الله، رواه علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وغيرهم.

وقال بعضهم: ﴿**يحفظونه من أمر الله**﴾ بأمر الله، كما جاء في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، أرأيت رقىً نسترقي بها، هل ترد من قَدَر الله شيئاً ؟ فقال: «هي من قدر الله». [رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ .

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعاً من خلل السحاب. وقوله: ﴿**خوفاً وطمعاً**﴾ قال قتادة: خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله، ﴿**وينشىء السحاب الثقال**﴾ أي ويخلقها منشأة جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض قال مجاهد: السحاب الثقال الذي فيه الماء، قال: ﴿**ويسبح الرعد بحمده**﴾ كما قال تعالى: ﴿**وإن من شيء إلا يسبح بحمده**﴾ [الإسراء: ٤٤].

روى الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال: «إن الله ينشىء السحاب فينطق أحسن النطق، ويضحك

أحسن الضحك». [رواه أبو الشيخ في العظمة وهو صحيح]. والمراد ـ والله أعلم ـ أن نطقها الرعد وضحكها البرق.

وقال الأوزاعي: كان ابن أبي زكريا يقول: من قال حين يسمع الرعد: سبحان الله وبحمده، لم تصبه صاعقة، وعن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض، رواه مالك في موطئه، والبخاري في كتاب الأدب.

وقوله: ﴿**ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء**﴾ أي يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان، وقد روي في سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أنس أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب، فقال: «اذهب فادعه لي». قال: فذهب إليه فقال: يدعوك رسول الله ﷺ، فقال له: من رسول الله، وما الله، أمن ذهب هو، أم من فضة هو، أم من نحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك، قال لي كذا وكذا، فقال: «ارجع إليه الثانية» أراه فذهب فقال له مثلها، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك، فقال: «ارجع إليه فادعه» فرجع إليه الثالثة، قال: فأعاد عليه ذلك الكلام، فبينا هو يكلمه إذ بعث الله عز وجل سحابة حيال رأسه، فرعدت فوقعت منها صاعقة، فذهب بِقِحْفِ رأسه، فأنزل الله: ﴿**ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال**﴾. [ورواه أحمد والنسائي وهو صحيح].

وقوله: ﴿**وهم يجادلون في ا لله**﴾ أي يَشُكّون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو، ﴿**وهو شديد المحال**﴾ قال ابن جرير: شديدة مماحَلَتُه في عقوبة من طغى عليه، وعَتَا وتمادى في كفره، وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿**ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين**﴾ [النمل: ٥٠ـ٥١]، وعن علي رضي الله عنه: ﴿**وهو شديد المحال**﴾ أي شديد الأخذ، وقال مجاهد: شديد القوة.

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ ﴾.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿**له دعوة الحق**﴾ قال: التوحيد، وقال ابن عباس وقتادة ومحمد بن المنكدر: لا إله إلا الله. ﴿**والذين يدعون من دونه**﴾ أي ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿**كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه**﴾. قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد: ﴿**كباسط كفيه**﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً، وقيل: المراد كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شي. ومعنى هذا الكلام أن الذي يبسط يده إلى الماء إما قابضاً

وإما متناولاً له من بُعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره، لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿**وما دعاء الكافرين إلا في ضلال**﴾.

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه، الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين وكرهاً من المشركين ﴿**وظلالهم بالغدوّ**﴾ أي البُكر ﴿**والآصال**﴾ وهو جمع أصيل، وهو آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿**أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون**﴾ [النحل: ٤٨].

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، لأنهم معترفون أنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى ﴿**نفعاً ولا ضراً**﴾ أي لا تحصل لهم منفعة ولا تدفع مضرة، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: ﴿**قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم**﴾ أي أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره أي ليس الأمر كذلك فإنه لا يشابهه شيء، ولا يماثله ولا ند له ولا عدل له ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون أنها مخلوقة له، عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، وكما أخبرنا تعالى عنهم في قوله: ﴿**ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾ [الزمر: ٣]، فأنكر تعالى ذلك عليهم حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ﴿**ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له**﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال: ﴿**إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً**﴾ [مريم: ٩٣-٩٥]. فإذا كان الجميع عبيداً، فَلِمَ يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان، بل مجرد الرأي، ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم، تزجرهم عن ذلك وتنهاهم عن عبادة من سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة ﴿**ولا يظلم ربك أحداً**﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ

زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء﴾ أي مطراً ﴿فسالت أودية بقدرها﴾ أي أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير وسع بقَدْره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها ﴿فاحتمل السيل زبداً رابياً﴾ أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عال عليه، هذا مثل.

وقوله: ﴿ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع﴾ الآية، هذا هو المثل الثاني وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ﴿ابتغاء حلية﴾ أي ليجعل حليةَ نحاس أو حديد، فيجعل متاعاً، فإنه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زَبَدٌ منه ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾ أي إذا اجتمعا، لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب، ونحوه مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء﴾ أي لا يُنْتَفعُ به بل يتفرق، ويذهب في جانبي الوادي، ويعلَق بالشجر، وتنسفه الرياح، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس، يذهب لا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به، ولهذا قال: ﴿وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾ كما قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ [العنكبوت:٤٣]. قال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه، بكيت على نفسي، لأن الله تعالى يقول ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾.

عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾ الآية، هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله. وهو قوله: ﴿فأما الزبد﴾ وهو الشك، ﴿فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك، وقال ابن عباس قوله: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً﴾ يقول: احتمل السيل ما في الوادي من عود ودِمْنَة ﴿ومما يوقدون عليه في النار﴾ فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خبث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت، فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيء يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، فكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله، فمن عمل بالحق كان له ويبقى، كما يبقى ما ينفع الناس في الأرض، وكذلك الحديد

لا يستطاع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار، فتأكل خبثه، ويخرج جيده فينتفع به، كذلك يضمحل الباطل، فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق، وهكذا روي في تفسيرها عن مجاهد والحسن البصري وعطاء وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف.

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: ﴿للذين استجابوا لربهم﴾ أي أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿الحسنى﴾ وهو الجزاء الحسن، كما قال تعالى مخبراً عن ذي القرنين أنه قال: ﴿أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً. وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً﴾ [الكهف:٨٧ـ٨٨]، وقال تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ [يونس:٢٦]. وقوله: ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ أي لم يطيعوا الله، ﴿لو أن لهم ما في الأرض جميعاً﴾ أي في الدار الآخرة لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يقبل منهم؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً ﴿أولئك لهم سوء الحساب﴾ أي في الدار الآخرة. أي يناقشون على النقير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عُذب؛ ولهذا قال ﴿ومأواهم جهنم وبئس المهاد﴾.

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾.

يقول تعالى لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿أنزل إليك﴾ يا محمد ﴿من ربك﴾ هو الحق الذي لا شك فيه، ولا مرية، ولا لبس فيه، ولا اختلاف فيه، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً، لا يضاد شيء منه شيئاً آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، كما قال تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ [الأنعام:١١٥] أي صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الطلب، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدقه ولا اتبعه كما قال تعالى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ [الحشر:٢٠]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾ أي أفهذا كهذا؟ لا استواء. وقوله: ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ أي إنما يتعظ أولو العقول السليمة الصحيحة، جعلنا الله منهم.

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ

بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة: ﴿**الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق**﴾ وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان ﴿**والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل**﴾ من صلة الأرحام والإحسان إليهم، وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف، ﴿**ويخشون ربهم**﴾ أي فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، ويراقبون الله في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة، فلهذا أَمْرَهُم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم، وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية ﴿**والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم**﴾ أي عن المحارم والمآثم، ففطموا نفوسهم عن ذلك لله عز وجل ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ﴿**وأقاموا الصلاة**﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها، على الوجه الشرعي المرضي ﴿**وأنفقوا مما رزقناهم**﴾ أي على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين ﴿**سراً وعلانية**﴾ أي في السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، في آناء الليل وأطراف النهار ﴿**ويدرءون بالحسنة السيئة**﴾ أي يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً وعفواً، كما قال تعالى: ﴿**ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم**﴾ [فصلت:٣٤-٣٥]، ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿**جنات عدن**﴾ والعدن الإقامة، أي جنات إقامة يخلدون فيها، وقال الضحاك في قوله: ﴿**جنات عدن**﴾: مدينة الجنة، فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى، والناس حولهم بعد والجنات حولها. وقوله: ﴿**ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم**﴾ أي يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين، لتقر أعينهم بهم، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله وإحساناً من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته، بل امتناناً من الله وإحسانا كما قال تعالى: ﴿**والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم**﴾ [الطور: ٢١].

وقوله: ﴿**والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**﴾ أي وتدخل عليهم الملائكة من ههنا وههنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلِّمين، مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ .

هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر مآلهم في الآخرة، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء **﴿ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض﴾** كما ثبت في الحديث «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان». وفي رواية «وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر» [متفق عليه]؛ ولهذا قال: **﴿أولئك لهم اللعنة﴾** وهي الإبعاد عن الرحمة، **﴿ولهم سوء الدار﴾** وهي سوء العاقبة والمآل، **﴿ومأواهم جهنم وبئس المهاد﴾**. وقال أبو العالية في قوله: **﴿والذين ينقضون عهد الله﴾** الآية، قال: هي ست خصال في المنافقين، إذا كان فيهم الظَّهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظَّهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا.

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، ويُقتِّره على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل، وفَرِحُ هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً، كما قال: **﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾** [المؤمنون: ٥٥-٥٦]. ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة، فقال: **﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾**، كما قال: **﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً﴾** [النساء: ٧٧]. وروى الإمام أحمد عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع» وأشار بالسبابة، ورواه مسلم في صحيحه. وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ مر بجدي أسك ميت، والأسك الصغير الأذنين، فقال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه». [رواه مسلم].

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن قيل المشركين **﴿لولا﴾** أي هلا **﴿أنزل عليه آية من ربه﴾**، كقولهم **﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾** [الأنبياء: ٥]. وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وأن الله قادر على إجابة ما سألوا، وفي الحديث إن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً، وأن يجري لهم ينبوعاً، وأن يزيح الجبال من حول مكة، فيصير مكانها مروج وبساتين: إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت

فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة» [رواه أحمد والنسائي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي]؛ ولهذا قال لرسوله: ﴿**قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب**﴾ أي هو المضل والهادي سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يجبهم إلى سؤالهم، فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه، كما قال: ﴿**وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون**﴾ [يونس: ١٠١]، ولهذا قال: ﴿**قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب**﴾ أي ويهدي من أناب إلى الله ورجع إليه واستعان به وتضرع لديه. ﴿**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله**﴾ أي تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً؛ ولهذا قال: ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾ أي هو حقيق بذلك.

﴿**الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب**﴾ قال ابن عباس: فرحٌ وقُرةُ عينٍ. وقال عكرمة: نعم ما لهم. وقال الضحاك: غبطة لهم. وقال إبراهيم النخعي: خير لهم. وقال قتادة: هي كلمة عربية، يقول الرجل: طوبى لك، أي أصبت خيراً. وقال في رواية: ﴿**طوبى لهم**﴾ حسنى لهم، ﴿**وحسن مآب**﴾ أي مرجع، وهذه الأقوال شيء واحد، لا منافاة بينها. وقال ابن عباس: ﴿**طوبى لهم**﴾ قال: هي أرض الجنة بالحبشية، وعن عكرمة: ﴿**طوبى لهم**﴾ هي الجنة، وبه قال مجاهد.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً: «طوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» [رواه أحمد وأبويعلى وصححه شاكر والألباني].

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المِخيَطُ إذا أدخل في البحر». الحديث بطوله.

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿**لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك**﴾ أي تبلغهم رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كذب الرسل من قبلك فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: ﴿**تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم**﴾ الآية [النحل: ٦٣].

وقوله: ﴿**وهم يكفرون بالرحمن**﴾ أي هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم، قاله قتادة، والحديث في صحيح البخاري. وقد قال الله تعالى: ﴿**قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعو فله الأسماء**

الحسنى﴾ [الإسراء: ١١٠]. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن». ﴿قل هو ربي لا إله إلا هو﴾ أي هذا الذي تكفرون به، أنا مؤمن به معترف، مقر له بالربوبية والألوهية، هو ربي لا إله إلا هو ﴿عليه توكلت﴾ أي في جميع أموري، ﴿وإليه متاب﴾ أي إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه.

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ ﴾.

يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله ﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال﴾ أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تَسِيرُ به الجبال عن أماكنها، أو تُقْطَعُ به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به، جاحدون له ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ أي مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن يضلل الله فلا هادي له، ومن يهد الله فما له من مضل، وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة؛ لأنه مشتق من الجميع.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خففت على داود القراءة فكان يأمر بدابته أن تُسرج، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه» انفرد بإخراجه البخاري. والمراد بالقرآن هنا الزبور. وقوله: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ أي من إيمان جميع الخلق ويعلموا، أو يتبينوا ﴿أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في النفوس والعقول من هذا القرآن الذي لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله. وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي إلا وقد أوتي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» [متفق عليه] معناه أن معجزة كل نبي انقرضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد لا تنقضي عجائبه ولا يَخْلَقُ عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله.

وقال قتادة: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم.

وقوله: ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ قال ابن عباس: أي لا يصنع من ذلك إلا ما يشاء ولم يكن ليفعل، وقاله ابن جرير أيضاً. وقال غير واحد من السلف في قوله: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾: أفلم يعلم الذين آمنوا، وقرأ آخرون: «أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى

الناس جميعاً». وقال أبو العالية: قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا، ولو يشاء الله لهدى الناس جميعاً. وقوله: ﴿**ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم**﴾ أي بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا أو تصيب من حولهم، ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿**ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون**﴾ [الأحقاف:٢٧]، قال الحسن: ﴿**أو تحل قريباً من دارهم**﴾ أي القارعة وهذا هو الظاهر من السياق.

وقال ابن عباس: ﴿**تصيبهم بما صنعوا قارعة**﴾ قال: عذاب من السماء ينزل عليهم ﴿**أو تحل قريباً من دارهم**﴾ يعني نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله إياهم، وكذا قال مجاهد وقتادة. وعن ابن عباس: ﴿**قارعة**﴾ أي نكبة. وكلهم قال: ﴿**حتى يأتي وعد الله**﴾ يعني فتح مكة. وقال الحسن البصري: يوم القيامة، وقوله: ﴿**إن الله لا يخلف الميعاد**﴾ أي لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة ﴿**فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام**﴾ [إبراهيم:٤٧].

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿**ولقد استهزىء برسل من قبلك**﴾ أي فلك فيهم أسوة ﴿**فأمليت للذين كفروا**﴾ أي أنظرتهم وأجلتهم، ﴿**ثم أخذتهم**﴾ أخذة رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم، كما قال تعالى: ﴿**وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير**﴾ [الحج:٤٨]، وفي الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد**﴾ [هود:١٠٢].

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت**﴾ أي حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية، ﴿**وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه**﴾ [يونس:٦١]، وقال تعالى: ﴿**وما تسقط من ورقة إلا يعلمها**﴾ [الأنعام:٥٩]، أفمن هو كذلك كالأصنام التي يعبدونها، لا تسمع ولا تبصر، ولا تعقل، ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه وهو قوله: ﴿**وجعلوا لله شركاء**﴾ أي عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان ﴿**قل سموهم**﴾ أي أعلمونا بهم، واكشفوا عنهم حتى يعرفوا، فإنهم لا حقيقة لهم، ولهذا قال: ﴿**أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض**﴾ أي لا وجود له، لأنه لو كان له وجود في الأرض لعلمها، لأنه لا تخفى

عليه خافية ﴿أم بظاهر من القول﴾ قال مجاهد: بظن من القول. وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول، أي إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر وسميتموها آلهة ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان * إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ [النجم:٢٣]. ﴿بل زين للذين كفروا مكرهم﴾ قال مجاهد: قولهم أي ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار.

«وصدوا عن السبيل» من قرأها بفتح الصاد معناه: أنهم لما زين لهم ما هم فيه، وأنه حق، دعوا إليه، وصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل، ومن قرأها بالضم أي بما زين لهم من صحة ما هم عليه، صُدّوا به عن سبيل الله، ولهذا قال: ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ كما قال ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً﴾ [المائدة:٤١]، وقال: ﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين﴾ [النحل:٣٧].

﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار، فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك ﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾ أي بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً، ﴿ولعذاب الآخرة﴾ أي المدخر لهم مع هذا الخزي في الدنيا ﴿أشق﴾ أي من هذا بكثير، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة» [متفق عليه]. وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه، فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبداً في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد﴾ [الفجر:٢٥-٢٦]، ولهذا قرن هذا بهذا فقال: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ أي صفتها ونعتها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيراً، أي يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا.

وقوله: ﴿أكلها دائم وظلها﴾ أي فيها المطاعم والفواكه والمشارب لانقطاع ولا فناء، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكعت، فقال: «إني رأيت الجنة ـ أو أريت الجنة ـ فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا».

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يتمخطون ولا يتغوطون، ولا يبولون، طعامهم جُشَاء كريح المسك، ويلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس» رواه مسلم.

وقد قال تعالى: ﴿وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ [الواقعة:٣٢-٣٣]، وقال ﴿ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً﴾ [الإنسان:١٤]. وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص،

كما قال تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾ [النساء: ٥٧].

وقد تقدم في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها» ثم قرأ ﴿وظل ممدود﴾ [الواقعة: ٣٠]. وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ليرغب في الجنة ويحذر من النار، ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر قال بعده: ﴿تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾. كما قال تعالى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ [الحشر: ٢٠]. وقال بلال بن سعد خطيب دمشق في بعض خطبه: عباد الله، هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئاً من عبادتكم تُقُبِّلت منكم، أو أن شيئاً من خطاياكم غفرت لكم؟ ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ [المؤمنون: ١١٥]، والله لو عُجِّل لكم الثواب في الدنيا لا ستقللتم كلكم ما افترض عليكم، أو ترغبون في طاعة الله لتعجيل دنياكم ولا تنافسون في جنة ﴿أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾.

﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿يفرحون بما أنزل إليك﴾ أي من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾ الآية[البقرة: ١٢١]، وقوله: ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾ أي ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك. وقال مجاهد ﴿ومن الأحزاب﴾ أي اليهود والنصارى ﴿من ينكر بعضه﴾ أي بعض ما جاءك من الحق، وكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

﴿قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به﴾ أي إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي ﴿إليه أدعو﴾ أي إلى سبيله أدعو الناس ﴿وإليه مآب﴾ أي مرجعي ومصيري.

وقوله: ﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾ أي وكما أرسلناقبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً، شرفناك به، وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [فصلت: ١١]. وقوله: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ أي آراءهم ﴿بعدما جاءك من العلم﴾ أي من الله تعالى ﴿مالك من الله من وليّ ولا واق﴾ وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية، على من جاء بها

أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك رسولاً بشرياً، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية، وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم ﴿**قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ**﴾ [الكهف: ١١٠]. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». وقوله: ﴿**وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله**﴾ أي لم يكن يأتي قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه بل إلى الله عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ﴿**لكل أجل كتاب**﴾ أي لكل مدة مضروبة، كتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار ﴿**ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير**﴾ [الحج: ٧٠]، وكان الضحاك بن مُزاحم يقول في قوله: ﴿**لكل أجل كتاب**﴾ أي لكل كتاب أجل، يعني لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله، ومقدار معين، فلهذا يمحو الله ما يشاء منها، ويثبت يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله صوات الله وسلامه عليه. وقوله ﴿**يمحو الله ما يشاء ويثبت**﴾ اختلف المفسرون في ذلك فعن ابن عباس قال: يدبر أمر السنة، فيمحو الله ما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت، وفي رواية ﴿**يمحو الله ما يشاء ويثبت**﴾ قال: كل شيء إلا الحياة والموت والشقاء والسعادة، فإنهما قد فرغ منهما. وبه قال مجاهد.

وقال شقيق بن سلمة: إنه كان يكثر أن يدعو بهذا الدعاء: اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء، فامحه واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يطوف بالبيت ويبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبت علي شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضاً. وقال كعب لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة. قال: وما هي؟ قال: قول الله تعالى: ﴿**يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب**﴾.

ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء، وقد يُسْتَأنس لهذا القول بما ورواه الإمام أحمد عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»، ورواه النسائي وابن ماجه [وهو صحيح].

وثبت في الصحيحين أن صلة الرحم تزيد في العمر.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ يقول: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله، فيموت على ضلالة، فهو الذي يمحو، والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله، وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله فهو الذي يثبت.

وقال ابن عباس أيضا: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ يقول: يبدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، ﴿وعنده أم الكتاب﴾ وجملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ والمنسوخ، وما يبدل وما يثبت كل ذلك في كتاب، وبنحوه قال قتادة.

وقال الحسن البصري: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ قال: من جاء أجله فذهب، ويثبت الذي هو حي يجري إلى أجله، وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير رحمه الله، وقوله: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ قال: الحلال والحرام، وقال قتادة: أي جملة الكتاب وأصله، وقال الضحاك: كتاب عند رب العالمين.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله ﴿وإما نرينك﴾ بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا ﴿أو نتوفينك﴾ أي قبل ذلك، ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ أي إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله، وقد فعلت ما أمرت به ﴿وعلينا الحساب﴾ أي حسابهم وجزاؤهم، كقوله تعالى: ﴿فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر * إلا من تولى وكفر * فيعذبه الله العذاب الأكبر * إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم﴾ [الغاشية: ٢١-٢٦]، وقوله: ﴿أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ قال ابن عباس: أو لم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض، وقال في رواية: أو لم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية. وقال مجاهد وعكرمة: ﴿ننقصها من أطرافها﴾ قال: خرابها. وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين. وقال ابن عباس: نقصان أهلها وبركتها. وبنحوه قال مجاهد، وقال ابن عباس في رواية: خرابها بموت فقهائها وعلمائها وأهل الخيرَ منها، وكذا قال مجاهد أيضاً: هو موت العلماء، وفي هذا المعنى روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن عبد العزيز أبي القاسم المصري الواعظ سكن أصبهان، قال: أنشدنا أحمد بن غزال لنفسه:

الأرض تحـيا إذا مـا عـاش عالمها ... متى يمت عالم منها يمت طرف

كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها ... وإن أبى عـاد في أكنافها التـلف

والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، كما قال تعالى: ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى﴾ الآية [الأحقاف: ٢٧]، وهذا اختيار ابن جرير.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾ [النمل:٥٠-٥٢]. وقوله: ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ أي إنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر وسيجزي كل عامل بعمله ﴿وسيعلم الكفار﴾، والقراءة الأخرى الكافر، ﴿لمن عقبى الدار﴾ أي لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل، كلا، بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة، ولله الحمد والمنة.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

يقول تعالى: يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: ﴿لست مرسلا﴾ أي ما أرسلك الله ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ أي حسبي الله هو الشاهد علي وعليكم. شاهد علي فيما بلغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان، وقوله: ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ عن ابن عباس قال: هم من اليهود والنصارى، وقال قتادة: منهم ابن سلام وسلمان وتميم الداري، وقال مجاهد في رواية عنه: هو الله تعالى، وكان سعيد بن جبير يقرؤها «ومن عنده عُلِمَ الكتاب» ويقول: من عند الله، وكذا قرأها مجاهد والحسن البصري.

والصحيح في هذا أن ﴿ومن عنده﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: ﴿أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ [الشعراء:١٩٧]. وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة.

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور ﴿كتاب أنزلناه إليك﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك، وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ أي إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد، كما قال تعالى: ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ الآية [الحديد:٩].

وقوله: ﴿بإذن ربهم﴾ أي هو الهادي لمن قدَّر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿إلى صراط العزيز﴾، أي العزيز الذين لا يُمانع ولا يُغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿الحميد﴾ أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه الصادق في خبره. وقوله: ﴿الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ قرأ بعضهم مستأنفاً مرفوعاً وقرأه آخرون على الإتباع صفة للجلالة، كما قال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض﴾ [الأعراف:١٥٨]. وقوله: ﴿وويل للكافرين من عذاب شديد﴾ أي ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك، ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أي يقدمونها عليها ويعملون للدنيا، ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ وهي اتباع الرسل ﴿ويبغونها عوجاً﴾ أي ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة، وهي مستقيمة في نفسها لا يضرها من خالفها، ولا من خذلها فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجى لهم والحالة هذه صلاح.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون، وما أرسلوا به إليهم، وقوله: ﴿فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي بعد البيان وإقامة الحجة عليهم، يضل الله تعالى من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق ﴿وهو العزيز﴾ الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿الحكيم﴾ في أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال ويهدي من هو أهل لذلك، وقد كانت هذه سنة الله في خلقه أنه ما بعث نبياً في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثبت في الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة». وله شواهد من وجوه كثيرة. وقال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ [الأعراف:١٥٨].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا، قال مجاهد: هي التسع الآيات ﴿أن أخرج قومك﴾ أي أمرناه قائلين له ﴿أخرج قومك من الظلمات إلى النور﴾ أي

ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان، ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ أي بأياديه ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره، وإنجائه إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من النعم، قال ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد.

وقوله: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين لعبرة لكل صبَّار أي في الضراء، شكور أي في السراء، كما قال قتادة: نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر. وكذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أمر المؤمن كله عجب، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له». [رواه مسلم].

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حين كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم، فأنقذ الله بني إسرائيل من ذلك، وهذه نعمة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ أي نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها. وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿بلاء﴾ أي اختبار عظيم، ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ [الأعراف:١٦٨]. وقوله: ﴿وإذ تأذن ربكم﴾ أي آذنكم وأعلمكم بوعده لكم، ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم بعزته وجلاله، كما قال تعالى: ﴿وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ [الأعراف:١٦٧].

وقوله: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ﴿ولئن كفرتم﴾ أي كفرتم النعم وجحدتموها ﴿إن عذابي لشديد﴾، وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرها، وقد جاء في الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه». [رواه أحمد وابن ماجه وحسنه العراقي والألباني].

وقوله تعالى: ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾ أي هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفره، كما قال: ﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم﴾ [الزمر:٧]. وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما

يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر» فسبحانه وتعالى الغني الحميد.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

قال ابن جرير: هذا من تمام قيل موسى لقومه. يعني وتذكاره إياهم بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسل، وفيما قال ابن جرير نظر، والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة، فإنه قد قيل: إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصصه عليهم ذلك، فلا شك أن تكون هاتان القصتان في التوراة، والله أعلم، وبالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل مما لا يحصي عددهم إلا الله عز وجل ﴿**جاءتهم رسلهم بالبينات**﴾ أي بالحجج الواضحات القاطعات، وقال عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿**لا يعلمهم إلا الله**﴾ كذب النسابون. وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد مَعَدِّ بن عدنان.

وقوله: ﴿**فردوا أيديهم في أفواههم**﴾ اختلف المفسرون في معناه، قيل: معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم لما دعوهم إلى الله عز وجل. وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم. وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل. وقال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة: معناه أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم. قال ابن جرير: وتوجيهه أن في هنا بمعنى الباء، قال: وقد سمع من العرب أدخلك الله بالجنة يعنون في الجنة، قلت: ويؤيد قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام ﴿**وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب**﴾ فكأن هذا ـ والله أعلم ـ تفسير لمعنى رد أيديهم في أفواههم. وعن عبد الله بن مسعود: عضوا عليها غيظاً. وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ووجهه ابن جرير مختاراً له بقوله تعالى عن المنافقين ﴿**وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ**﴾ [آل عمران: ١١٩]. وقال ابن عباس: لما سمعوا كلام الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم، يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به، فإن عندنا فيه شكاً قوياً.

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا

كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أفي الله شك﴾ وهذا يحتمل شيئين أحدهما: أفي وجوده شك، فإنَّ الفِطَر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الدليل المُوصِل إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه ﴿فاطر السموات والأرض﴾ الذي خلقهما وابتدعها على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليها، فلا بد لهما من صانع وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه.

والمعنى الثاني: في قولهم: ﴿أفي الله شك﴾ أي أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى، وقالت لهم رسلهم: ﴿يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ أي في الدنيا كما قال تعالى: ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ الآية [هود:٣]، فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة بعد تقدير تسليمهم المقام الأول، وحاصل ما قالوه ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾ أي كيف نتبعكم بمجرد قولكم ولمَّا نَر منكم معجزة، ﴿فأتونا بسلطان مبين﴾ أي خارق نقترحه عليكم ﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم﴾ أي صحيح أنا بشر مثلكم في البشرية ﴿ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده﴾ أي بالرسالة والنبوة ﴿وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان﴾ على وفق ما سألتم ﴿إلا بإذن الله﴾ أي بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا في ذلك ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي في جميع أمورهم. ثم قالت الرسل: ﴿وما لنا أن لا نتوكل على الله﴾ أي وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ﴿ولنصبرن على ما آذيتمونا﴾ أي من الكلام السيء والأفعال السخيفة ﴿وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من

قريتنا﴾ الآية [الأعراف:٨٨]، وقال قوم لوط: ﴿أخرجوا آل لوط من قريتكم﴾ الآية [النمل:٥٦]، وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريش: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً﴾ [الإسراء:٧٦].

وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجنداً يقاتلون في سبيل الله، ولم يزل يرقيه تعالى من شيء إلى شيء حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكن له فيها، وأرغم آناف أعدائه منهم ومن سائر أهل الأرض حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾ وكما قال تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

وقوله: ﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾ أي وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة، وخشي من وعيدي وهو تخويفي وعذابي، كما قال تعالى: ﴿فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى﴾ [النازعات:٣٧-٤١]، وقال: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ [الرحمن:٤٦].

وقوله: ﴿واستفتحوا﴾ أي استنصرت الرسل ربها على قومها، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال:٣٢]. ويحتمل أن يكون هذا مراداً وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم﴾ الآية [الأنفال:١٩]، والله أعلم.

﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ أي متجبر في نفسه معاند للحق، كما قال تعالى: ﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد، مناع للخير معتد مريب، الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد﴾ [ق:٢٤-٢٦]. وفي الحديث: «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادي الخلائق، فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد». الحديث [رواه أحمد وله شاهد عند الترمذي وقال: حسن غريب صحيح]. خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء في الابتهال إلى ربها العزيز المقتدر.

وقوله: ﴿ومن ورائه جهنم﴾ وراء هنا بمعنى أمام، كما قال تعالى: ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً﴾ [الكهف:٧٩]، وكان ابن عباس يقرؤها: «وكان أمامهم ملك»، أي من وراء الجبار العنيد جهنم، أي هي له بالمرصاد يسكنها مخلداً يوم المعاد، ويعرض عليها غدواً وعشياً إلى يوم التناد. ﴿ويسقى من ماء صديد﴾ أي في النار ليس له شراب إلا من حميم

وغساق، فهذا حار في غاية الحرارة، وهذا بارد في غاية البرد والنتن، كما قال: ﴿**هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج**﴾ [ص:٥٧ـ٥٨]. وقال مجاهد وعكرمة: الصديد من القيح والدم. وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده، وفي رواية عنه: الصديد ما يخرج من جوف الكافر قد خالط القيح والدم.

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿**ويسقى من ماء صديد يتجرعه**﴾ قال: «يُقرَّبُ إليه فيتكرهه، فإذا أدني منه شوىٰ وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره». يقول الله تعالى: ﴿**وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم**﴾ [محمد:١٥]، ويقول: ﴿**وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه**﴾ [الكهف:٢٩]. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم [ورواه الترمذي والنسائي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

وقوله: ﴿**يتجرعه**﴾ أي يتغصصه ويتكرهه، أي يشربه قهراً وقسراً، لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿**ولهم مقامع من حديد**﴾ [الحج:٢١]. ﴿**ولا يكاد يسيغه**﴾ أي يزدرده لسوء لونه طعمه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يُستطاع. ﴿**ويأتيه الموت من كل مكان**﴾ أي يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه. قال عمرو بن ميمون بن مهران: من كل عظم وعرق وعصب. وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره، ونحوه عن إبراهيم التيمي. وقال ابن جرير: ﴿**ويأتيه الموت من كل مكان**﴾ أي من أمامه وورائه، وعن يمينه وشماله، ومن فوقه ومن تحت أرجله، ومن سائر أعضاء جسده.

وقال ابن عباس: أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم، وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت، ولكن لا يموت لأن الله تعالى قال: ﴿**لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها**﴾ [فاطر:٣٦].

وقوله: ﴿**ومن ورائه عذاب غليظ**﴾ أي وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ، أي مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله، وأدهى وأمر، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿**إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم * طلعها كأنه رؤوس الشياطين * فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم * ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم**﴾ [الصافات:٦٤ـ٦٨]، فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردون إلى جحيم، عياذاً بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿**هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن**﴾ [الرحمن:٤٣ـ٤٤]، وقال تعالى: ﴿**إن شجرة الزقوم طعام الأثيم، كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم، ذق إنك أنت العزيز الكريم، إن هذا ما كنتم به تمترون**﴾ [الدخان:٤٣ـ٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره

وأنواعه، وأشكاله مما لا يحصيه إلا الله عز وجل جزاءً وفاقاً ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ [فصلت:٤٦].

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، فانهارت وعَدِمُوها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم﴾ أي مثل أعمال الذين كفروا يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئاً، ولا أَلْفَوا حاصلاً إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿في يوم عاصف﴾ أي ذي ريح عاصفة قوية، فلا يقدرون على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال في هذه الآية: ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾ أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما هم إليه ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿٢٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى، بلى إنه على كل شيء قدير﴾ [الأحقاف:٣٣].

وقوله ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز﴾ أي بعظيم ولا ممتنع بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم كما قال تعالى: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز﴾ [فاطر:١٥ـ١٧].

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴿٢١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وبرزوا﴾ أي برزت الخلائق كلها برها وفاجرها لله الواحد القهار، أي اجتمعوا له في براز من الأرض وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً ﴿فقال الضعفاء﴾ وهم الأتباع لقادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل فقالوا لهم: ﴿إنا كنا لكم تبعاً﴾ أي مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا ﴿فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾ أي فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعدوننا، فقالت القادة لهم: ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله،

وحقت كلمة العذاب على الكافرين، ﴿**سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص**﴾ أي ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله عز وجل، تعالوا نبك ونتضرع إلى الله فبكوا وتضرعوا فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا: إنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حتى نصبر فصبروا صبراً لم ير مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا ﴿**سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص**﴾.

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿**وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار، قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد**﴾ [غافر: ٤٧-٤٨].

وأما تخاصمهم في المحشر، فقال تعالى: ﴿**ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل كنتم مجرمين. وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون**﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس لعنه الله أتباعه، بعد ما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، فقال: ﴿**إن الله وعدكم وعد الحق**﴾ أي على ألسنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم، كما قال الله تعالى: ﴿**يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً**﴾ [النساء: ١٢٠]. ثم قال: ﴿**وما كان لي عليكم من سلطان**﴾ أي ما كان لي دليل فيما دعوتكم إليه ولا حجة فيما وعدتكم به ﴿**إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي**﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿**فلا تلوموني**﴾ اليوم ﴿**ولوموا أنفسكم**﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿**ما أنا بمصرخكم**﴾ أي بنافعكم ومخلصكم مما أنتم فيه، ﴿**وما أنتم بمصرخيّ**﴾ أي

بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿**إني كفرت بما أشركتمون من قبل**﴾. قال قتادة: أي بسبب ما أشركتموني من قبل، وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل، وهذا الذي قاله هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿**ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾ [الأحقاف:٥-٦]، قال: ﴿**كلاّ سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً**﴾ [مريم:٨٢].

وقوله: ﴿**إن الظالمين**﴾ أي في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل، ﴿**لهم عذاب أليم**﴾ والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا.

وقال محمد بن كعب القرظي رحمه الله: لما قال أهل النار ﴿**سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص**﴾ قال لهم إبليس ﴿**إن الله وعدكم وعد الحق**﴾ الآية، فلما سمعوا مقالته، مقتوا أنفسهم فنودوا ﴿**لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون**﴾ [غافر:١٠]. وقال الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس، يقول الله تعالى لعيسى ابن مريم: ﴿**أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟**﴾ إلى قوله ﴿**قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم**﴾ [المائدة:١١٦-١١٩]، قال: ويقوم إبليس لعنه الله فيقول: ﴿**وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي**﴾ الآية.

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال، وأن خطيبهم إبليس، عطف بحال السعداء، فقال: ﴿**وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا ﴿**خالدين فيها**﴾ ماكثين أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿**بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام**﴾، كما قال تعالى: ﴿**حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم**﴾ [الزمر:٧٣].

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قال ابن عباس قوله: ﴿**ومثل كلمة طيبة**﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ﴿**كشجرة طيبة**﴾ وهو المؤمن، ﴿**أصلها ثابت**﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، ﴿**وفرعها في السماء**﴾ يقول يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء، وهكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة وغير واحد: إن ذلك عبارة عن عمل المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت وصباح ومساء، وهكذا روي عن ابن مسعود وأنس: أنها النخلة. وكذا نص عليه مسروق ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وغيرهم.

وروى البخاري [ومسلم أيضا] عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبروني عن شجرة تشبه ـ أو ـ كالرجل المسلم لا يتحاتُّ ورقها، ولا ولا ولا، تؤتي أكلها كل حين» قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة. قال: ما منعك أن تتكلم ؟ قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إليَّ من كذا وكذا.

وعن ابن عباس: ﴿كشجرة طيبة﴾ قال: هي شجرة في الجنة. وقوله: ﴿تؤتي أكلها كل حين﴾ قيل: غدوة وعشياً، وقيل: كل شهر. وقيل: كل شهرين. وقيل: كل ستة أشهر. وقيل: كل سبعة أشهر. وقيل: كل سنة، والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين ﴿بإذن ربها﴾ أي كاملاً حسناً كثيراً طيباً ﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾.

وقوله: ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة﴾ هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات، وشبه بشجرة الحنظل.

وقوله: ﴿اجتثت﴾ أي استؤصلت ﴿من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ أي لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولافرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء.

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

روى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾». ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة كلهم [وهو جزء من حديث البراء الطويل المعروف في عذاب القبر].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها. فذكر من طيب ريحها وذكر المسك. ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قِبَل الأرض صلى الله عليك وعلى جسد كنت تَعْمرينه، فيُنطَلَقُ به إلى ربه عز وجل، فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن الكافر إذا خرجت روحه. وذكر من نتنها، وذكر مقتاً، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض، فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة: فرد رسول الله ﷺ ريطة كانت عليه على أنفه هكذا.

وروى الحافظ أبو عيسى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قُبر الميت ـ أو قال: أحدكم ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير،

فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، وينور له فيه، ثم يقال له: نم، فيقول: أرجع الى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نم نومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون: فقلت مثلهم لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه فتلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك» ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وروى ابن جرير عن أبي هريرة [مرفوعاً]: إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه مدبرين، فإذا كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصوم عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من عند رأسه، فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، فيؤتى عند رجليه فيقول: فعل الخيرات ما قبلي مدخل، فيقال له: اجلس، فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب، فيقال له: أخبرنا عما نسألك، فيقول: دعوني حتى أصلي، فيقال: إنك ستفعل فأخبرنا عما نسألك، فيقول: وعم تسألوني؟ فيقال: أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول فيه، وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أمحمد؟ فيقال له: نعم، فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه، فيقال له: على ذلك حَييتَ وعلى ذلك مت، وعليه تبعث إن شاء الله ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه، ويفتح له باب إلى الجنة فيقال له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها، فيزداد غبطة وسروراً، ثم تجعل نسمته في النسم الطيب، وهي طير خضر تعلق بشجر الجنة، ويعاد الجسد إلى ما بدىء منه من التراب»، وذلك قول الله: ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾، ورواه ابن حبان [وأحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

روى البخاري عن عطاء أنه سمع ابن عباس يقول في قوله: ﴿**ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً**﴾ قال: هم كفار أهل مكة، ووقد روي عن علي نحو قول ابن عباس.

وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن زيد: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر، وكذا رواه مالك في تفسيره عن ابن عمر.

وقوله: ﴿**وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله**﴾ أي جعلوا له شركاء عبدوهم معه، ودعوا الناس إلى ذلك. ثم قال تعالى مهدداً لهم ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿**قل تمتعوا فإن**

مصيركم إلى النار﴾ أي مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيء **﴿فإن مصيركم إلى النار﴾** أي مرجعكم وموئلكم إليها كما قال تعالى: **﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾** [لقمان:٢٤]، وقال تعالى: **﴿متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾** [يونس:٧٠].

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً العباد بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامتها هو: المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر أي في الخفية، والعلانية وهي الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم **﴿من قبل أن يأتي يوم﴾** وهو يوم القيامة **﴿لا بيع فيه ولا وخلال﴾** أي لا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه، كما قال تعالى: **﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا﴾** [الحديد:١٥]. وقوله: **﴿ولا خلال﴾** قال ابن جرير: يقول ليس هناك مُخَالة خليل فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمُخَالَّته، بل هناك العدل والقسط.

وقال قتادة: إن الله قد علم أن في الدنيا بيوعاً وخلالاً يتخالون بها في الدنيا، فينظر رجل من يخالل وعَلَامَ صَاحَبَ، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فسيُقْطَعُ عنه، قلت: والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحداً بيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا تنفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافراً، قال الله تعالى: **﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾** [البقرة:١٢٣].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً والأرض فراشاً وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجاً من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر يحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هاهنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقاً للعباد من شرب وسقي، وغير ذلك من أنواع المنافع. **﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾** أي يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً **﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل**

في فلك يسبحون﴾ [يس: ٤٠]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل. وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى﴾ [لقمان: ٢٩].

وقوله ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ يقول هيأ لكم ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم. وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه. وقوله: ﴿وإن تعدوانعمة الله لا تحصوها﴾ يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصْبِحُوا توابين. وأمسوا توابين. وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك الحمد غير مَكْفِيّ ولا مودَع، ولا مستغنى عنه ربنا».

وقد روي في الأثر أن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك عليَّ ؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود، أي حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم، وقال الشافعي رحمه الله: الحمد لله الذي لا يؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤدي ما مضى نعمه بأدائها نعمة حادثة توجب عليه شكره بها، وقال القائل في ذلك:

لو كـل جـارحـة مني لــهـا لغـة ... تثني عليك بما أوليت من حسن
لكان ما زاد شكري إذ شكرت به ... إليك أبلـغ في الإحسان والمنن

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾.

يذكر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت بسببه عامرة آهلة تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ وقد استجاب الله له فقال تعالى: ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال في هذه القصة: ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ فعرفه كأنه دعا به بعد بنائها؛ ولهذا قال: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة فإنه دعا أيضاً فقال: ﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقال: ﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾ ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته، ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائقُ من الناس، وأنه بريء ممن عبدها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ [المائدة: ١١٨]، وليس في هذا أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى

لا تجويز وقوع ذلك. وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم: ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾ الآية، وقول عيسى عليه السلام ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ الآية، ورفع يديه ثم قال: «اللهم، أمتي، اللهم أمتي، اللهم أمتي» وبكى فقال الله: اذهب يا جبريل إلى محمد، وربك أعلم، وسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، فقال الله: اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك. [رواه مسلم].

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما وَلَّى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه تأكيداً ورغبة إلى الله عز وجل، ولهذا قال: ﴿عند بيتك المحرّم﴾. وقوله: ﴿ربنا ليقيموا الصلاة﴾ قال ابن جرير: هو متعلق بقوله ﴿المحرّم﴾ أي إنما جعلته محرماً ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: لو قال أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿من الناس﴾ فاختص به المسلمون وقوله: ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ أي ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل لهم ثماراً يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك كما قال: ﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا﴾[القصص:٧٥]، وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ أي أنت تعلم قصدي في دعائي، وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء، ثم حمد ربه عز وجل على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء﴾ أي إنه يستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد، ثم قال: ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة﴾ أي محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿ومن ذرّيتي﴾ أي واجعلهم كذلك مقيمين الصلاة ﴿ربنا وتقبل دعاء﴾ أي فيما سألتك فيه كله ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي﴾ وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله عز وجل ﴿وللمؤمنين﴾ أي كلهم ﴿يوم يقوم الحساب﴾ أي يوم

تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾.

يقول تعالى: ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون، أي لا تحسبنه إذا أنظرهم أنه غافل عنهم مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعده عداً، أي ﴿**إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار**﴾ أي من شدة الأهوال يوم القيامة، ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم ومجيئهم إلى قيام المحشر، فقال: ﴿**مهطعين**﴾ أي مسرعين، كما قال تعالى: ﴿**مهطعين إلى الداع**﴾ الآية [القمر:٨].

وقوله: ﴿**مقنعي رؤوسهم**﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: رافعي رؤوسهم ﴿**لا يرتد إليهم طرفهم**﴾ أي أبصارهم ظاهرة شاخصة يديمون النظر، لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول لما يَحلُّ بهم، عياذاً بالله العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿**وأفئدتهم هواء**﴾ أي وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف، ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقال بعضهم: هي خراب لا تعي شيئاً ولشدة ما أخبر الله به تعالى عنهم، قال لرسوله ﷺ: ﴿**وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب**﴾.

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب: ﴿**ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل**﴾، كما قال تعالى: ﴿**حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون**﴾ الآية [المؤمنون:٩٩]، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم: ﴿**ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم**﴾ الآية [السجدة:١٢]، وقال تعالى رداً عليهم في قولهم هذا: ﴿**أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال**﴾ أي أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه وأنه لا معاد ولا جزاء فذوقوا هذا بذاك، قال مجاهد وغيره: ﴿**ما لكم من زوال**﴾ أي ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كما أخبر عنهم تعالى: ﴿**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت**﴾ [النحل:٣٨]، ﴿**وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال**﴾ أي قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿**حكمة بالغة فما تغني النذر**﴾ [القمر:٥].

وروي عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال. وكذا قال الحسن البصري، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من كفرهم بالله وشركهم به، ما ضر شيئاً من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك على أنفسهم، قلت: ويشبه هذا إذاً قول الله تعالى: **﴿ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾** [الإسراء:٣٧].

والقول الثاني في تفسيرها ما روي عن ابن عباس أيضا **﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾** يقول: شركهم كقوله: **﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً. أن دعوا للرحمن ولداً﴾** [مريم:٩٠-٩١]، وهكذا قال الضحاك وقتادة.

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

يقول تعالى مقرراً لوعده ومؤكداً: **﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾** أي من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده ولا يُغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحده **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** [الطور:١١]؛ ولهذا قال: **﴿يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات﴾** أي وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء في الصحيحين من حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقُرصة النَّقيّ ليس فيها مَعْلَم لأحد».

وروى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية **﴿يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات﴾** قالت: قلت أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط»، رواه مسلم.

وروى الإمام مسلم عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائماً عند رسول الله ﷺ، فجاءه حبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله؟ فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي» فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيئاً إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعود معه فقال: «سل» فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر» قال: فمن أول الناس إجازة؟ فقال: «فقراء المهاجرين»، فقال اليهودي: فما تُحْفَتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون». قال: فما غذاؤهم في أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها». قال: فما شرابهم عليه؟ قال «من عين فيها تسمى سلسبيلاً». قال: صدقت،

قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال «أينفعك إن حدثتك؟ قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد. قال: «ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل منيّ المرأة، أذكرا بإذن الله تعالى، وإذا علا منيّ المرأة مني الرجل، أنّثا بإذن الله». قال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبي. ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله به».

وقوله: ﴿وبرزوا لله﴾ أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿الواحد القهار﴾ أي الذي قهر كل شيء وغلبه ودانت له الرقاب وخضعت له الألباب.

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١ ﴾.

يقول تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ وتبرز الخلائق لديَّانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم ﴿مقرنين﴾ أي بعضهم إلى بعض قد جمع بين النظراء منهم كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ [الصافات:٢٢]، وقال: ﴿وإذا النفوس زوّجت﴾ [التكوير:٧]، والأصفاد هي القيود، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والأعمش وعبد الرحمن بن زيد، وهو مشهور في اللغة.

وقوله: ﴿سرابيلهم من قطران﴾ أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهو الذي به الإبل تطلى، قال قتادة: وهو ألصق شيء بالنار. ويقال فيه: قطران بفتح القاف وكسر الطاء وتسكينها، وبكسر القاف وتسكين الطاء.

وكان ابن عباس يقول: القطران هو النحاس المذاب، وربما قرأها ﴿سرابيلهم من قطران﴾ أي من نحاس حار قد انتهى حره، وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة. وقوله: ﴿وتغشى وجوههم النار﴾، كقوله: ﴿تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون﴾ [المؤمنون:١٠٤]. وروى الإمام أحمد عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من أمر الجاهلية لا يُتْرَكن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قَطران، ودرْع من جَرَب» انفرد بإخراجه مسلم.

وقوله: ﴿ليجزي الله كل نفس ما كسبت﴾ أي يوم القيامة كما قال: ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾ [النجم:٣١]. ﴿إن الله سريع الحساب﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ [الأنبياء:١]، ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النَّجاز؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس

واحدة﴾ [لقمان:٢٨]، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سريع الحساب﴾ إحصاء، ويحتمل ان يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

يقول تعالى هذا القرآن بلاغ للناس كقوله: ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ [الأنعام:١٩] أي هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال في أول السورة: ﴿الر * كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾، ﴿ولينذروا به﴾ أي ليتعظوا به ﴿وليعلموا أنما هو إله واحد﴾ أي يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو ﴿وليذكر أولو الألباب﴾ أي ذووا العقول.

تفسير سورة الحجر وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. وقوله: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا في الدار الدنيا مع المسلمين، ونقل السدي في تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة: أن الكفار لما عرضوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين. وقيل: إن المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمناً. وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ [الأنعام:٢٧]. وقال عبد الله بن مسعود: هذا في الجهنميين إذا رأوهم يخرجون من النار، وكان ابن عباس وأنس بن مالك يتأولانها يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار، قال: فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا، قال: فيغضب الله لهم بفضل رحمته فيخرجهم، فذلك حين يقول: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾.

وهكذا روي عن الضحاك ومجاهد وقتادة وأبي العالية وغيرهم، وقد ورد في ذلك أحاديث مرفوعة، منها ما رواه الطبراني عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فسمع الله ما قالوا فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا. فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا: ياليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا ـ قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين * ربما يود الذين

كفروا لو كانوا مسلمين﴾» ورواه ابن أبي حاتم [والطبري وابن أبي عاصم في السنة وصححه الألباني].

وقوله: **﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾** تهديد لهم شديد ووعيد أكيد، كقوله تعالى: **﴿قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾** [إبراهيم: ٣٠]، وقوله: **﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون﴾** [المرسلات: ٤٦]؛ ولهذا قال: **﴿ويلههم الأمل﴾** أي عن التوبة والإنابة **﴿فسوف يعلمون﴾** أي عاقبة أمرهم.

﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥ ﴾.

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وأنه لا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتهم ولا يتقدمون عن مدتهم، وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم فيه من الشرك الذي يستحقون به الهلاك.

﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩ ﴾.

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم: **﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر﴾** أي الذي يدعي ذلك **﴿إنك لمجنون﴾** أي في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا **﴿لو ما﴾** أي هلا **﴿تأتينا بالملائكة﴾** أي يشهدون لك بصحة ما جئت به **﴿إن كنت من الصادقين﴾** كما قال فرعون **﴿فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾** [الزخرف: ٥٣]، وكذا قال في هذه الآية: **﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين﴾**. وقال مجاهد في قوله: **﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق﴾** بالرسالة والعذاب، ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل، ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى: **﴿له لحافظون﴾** على النبي ﷺ، كقوله: **﴿والله يعصمك من الناس﴾** [المائدة: ٦٧] والمعنى الأول أولى وهو ظاهر السياق.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣ ﴾.

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفار قريش: إنه أرسل من قبله في الأمم الماضية وإنه ما أتى أمة من رسول إلا كذبوه واستهزءوا به، ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين استكبروا عن اتباع الهدى. قال أنس والحسن البصري: **﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين﴾** يعني الشرك. وقوله: **﴿وقد خلت سنة الأولين﴾** أي قد عُلِمَ ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

﴿ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ

مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن قوّة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدّقوا بذلك، بل قالوا: ﴿إنما سكرت أبصارنا﴾ قال مجاهد وابن كثير والضحاك: سدت أبصارنا. وقال ابن عباس: أخذت أبصارنا. [وفي رواية عنه: شُبّه علينا، وإنما سُحِرنا. وقال الكلبي: عميت أبصارنا. وقال ابن زيد: ﴿سكرت أبصارنا﴾، السكران الذي لا يعقل.

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زينها به من الكواكب، لمن تأملها وكرر النظر فيها يرى فيها من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه، وبهذا قال مجاهد وقتادة: البروج ههنا هي الكواكب. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً﴾ [الفرقان: ٦١]. ومنهم من قال: البروج هي منازل الشمس والقمر. وقال عطية العوفي: البروج ههنا هي قصور الحرس. وجعل الشهب حرساً لها من مَرَدة الشياطين لئلا يسَمَّعوا إلى الملأ الأعلى، فمن تمرد وتقدم منهم لاستراق السمع جاءه شهاب مبين فأتلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه فيأخذها الآخر ويأتي بها إلى وليه، كما جاء مصرحاً به في الصحيح، كما قال البخاري في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان» ينفُذهم ذلك، فإذا فُزّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي قال: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر، فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يَرْمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه حتى يلقوها إلى الأرض، فتلقى على فم الساحر أو الكاهن فيكذب معها مائة كذبة فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقاً للكلمة التي سمعت من السماء» [رواه البخاري]. ثم ذكر تعالى خلقه الأرض، ومده إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي، والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة.

وقال ابن عباس: ﴿من كل شيء موزون﴾ أي معلوم، وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وأبو مالك ومجاهد والحكم بن عتيبة والحسن بن محمد وأبو صالح وقتادة، ومنهم من يقول: مقدر بقدر. وقال ابن زيد: من كل شيء يُوزَن ويقدر بقدر. وقوله: ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض في صنوف الأسباب والمعايش وهي جمع معيشة. وقوله:

﴿ومن لستم له برازقين﴾ قال مجاهد: هي الدواب والأنعام. وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام، والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها، والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف، ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ كما يشاء وكما يريد، ولما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده لا على وجه الوجوب بل هو كتب على نفسه الرحمة. وقال الحكم بن عتيبة في قوله: ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ قال: ما عام بأكثر مطراً من عام ولا أقل، ولكنه يمطر قوم ويحرم آخرون وربما كان في البحر.

وقوله: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ أي تلقح السحاب فتَدُر ماء، وتلقح الشجر فتتفتح عن أوراقها وأكمامها، وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف الريح العقيم، فإنه أفردها ووصفها بالعقيم وهو عدم الإنتاج، لأنه لا يكون إلا من شيئين فصاعداً.

وقال عبد الله بن مسعود: تُرْسَلُ الريح فتحمل الماء من السماء، ثم تَمْرى السحاب حتى تدر كما تَدرِ اللَّقحَة، وكذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة. وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب فتُلقحه فيمتلىء ماء. وقال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المبشرة فتقمُّ الأرض قمّاً، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾.

وقوله: ﴿فأسقيناكموه﴾ أي أنزلناه لكم عذباً يمكنكم أن تشربوا منه، ولو نشاء جعلناه أجاجاً، كما ينبه الله على ذلك في الآية الأخرى في سورة الواقعة، وهو قوله تعالى: ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ * لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠].

وقوله: ﴿وما أنتم له بخازنين﴾ قال سفيان الثوري: بمانعين، ويحتمل أن المراد وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعله معيناً وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليبقى لهم في طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

وقوله: ﴿وإنا لنحن نحيي ونميت﴾ إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه

هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع، وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجعون. ثم قال مخبراً عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم، فقال: **﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم﴾** قال ابن عباس رضي الله عنهما: المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة، وروي نحوه عن عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة ومحمد بن كعب والشعبي وغيرهم، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: المراد بالصلصال ههنا التراب اليابس، والظاهر أنه كقوله تعالى: **﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار﴾** [الرحمن: ١٤-١٥]، وعن مجاهد أيضاً: الصلصال: المنتن، وتفسير الآية بالآية أولى. وقوله: **﴿من حمأ مسنون﴾** أي الصلصال من حمأ، وهو الطين. والمسنون: الأملس.

وقوله: **﴿والجان خلقناه من قبل﴾** أي من قبل الإنسان **﴿من نار السموم﴾** قال ابن عباس: هي السموم التي تقتل، وقال بعضهم: السموم بالليل والنهار، ومنهم من يقول: السموم بالليل والحرور بالنهار. وقال عبد الله بن مسعود: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التي خلق منها الجان، ثم قرأ **﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾**. وعن ابن عباس: أن الجان خُلق من لهب النار، وفي رواية: من أحسن النار. وعن عمرو بن دينار: من نار الشمس. وقد ورد في الصحيح: «خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». [رواه مسلم]. ومقصود الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه، وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسداً وكفراً وعناداً واستكباراً وافتخاراً بالباطل، ولهذا قال: **﴿لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حماٍ مسنون﴾** كما قال في الآية الأخرى: **﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾** [الأعراف: ١٢].

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

يقول آمراً لإبليس أمراً كونياً لا يخالَف ولا يمانع بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى، وأنه رجيم أي مرجوم، وأنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به متواترة عليه إلى يوم

القيامة. وأنه لما تحقق الغضب الذي لا مرد له، سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجاً له وإمهالاً، فلما تحقق النظرة قبحه الله.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب: ﴿**بما أغويتني**﴾ قال بعضهم: أقسم بإغواء الله له. قلت: ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿**لأزينن لهم**﴾ أي لذرية آدم عليه السلام ﴿**في الأرض**﴾ أي أحبب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها ﴿**ولأغوينهم أجمعين**﴾ أي كما أغويتني ﴿**إلا عبادك منهم المخلصين**﴾ كما قال: ﴿**أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً**﴾ [الإسراء:٦٢]. قال الله تعالى له متهدداً ومتوعداً: ﴿**هذا صراط عليّ مستقيم**﴾ أي مرجعكم كلكم إليّ، فأجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿**إن ربك لبالمرصاد**﴾ [الفجر:١٤]. وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهي. قاله مجاهد والحسن وقتادة، كما قال: ﴿**وعلى الله قصد السبيل**﴾ [النحل:٩].

وقوله: ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾ أي الذي قدرت لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك إليهم ﴿**إلا من اتبعك من الغاوين**﴾ استثناء منقطع.

وقوله: ﴿**وإن جهنم لموعدهم أجمعين**﴾ أي جهنم موعد جميع من اتبع إبليس. ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب ﴿**لكل باب منهم جزء مقسوم**﴾ أي قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه، أجارنا الله منها، وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في دَرَك بقدر عمله. وقال علي رضي الله عنه: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلىء الأول ثم الثاني ثم الثالث حتى تُملأ كلها. وقال عكرمة: سبعة أبواب سبعة أطباق، وقال ابن جريج: سبعة أبواب: أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحُطَمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، وعن ابن عباس والأعمش نحوه. وقال قتادة: ﴿**لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم**﴾ هي و الله منازل بأعمالهم، وقال الضحاك: ﴿**لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم**﴾ قال: باب لليهود، وباب للنصارى، وباب للصابئين، وباب للمجوس، وباب للذين أشركوا وهم كفار العرب، وباب للمنافقين، وباب لأهل التوحيد، فأهل التوحيد يرجى لهم ولا يرجى لأولئك أبداً.

وروى الترمذي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «لجهنم سبعة أبواب، باب منها لمن سلَّ السيف على أمتي ـ أو قال على أمة محمد». [وصححه أحمد شاكر في المسند].

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة وأنهم في جنات وعيون. وقوله: **﴿ادخلوها بسلام﴾** أي سالمين من الآفات، مسلماً عليكم **﴿آمنين﴾** من كل خوف وفزع، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء، وقوله: **﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾**.

روى البخاري عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار. فيُقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونُقّوا، أذن لهم في دخول الجنة».

وروى ابن جرير عن محمد بن سيرين قال: استأذن الأشتر على علي رضي الله عنه، وعنده ابن لطلحة فحبسه ثم أذن له، فلما دخل قال: إني لأراك إنما احتبستني لهذا، قال: أجل، قال: إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني، قال: أجل إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى: **﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابيلن﴾**.

وقال كثير النواء: دخلت على أبي جعفر محمد بن علي فقلت: وليي وليكم، وسلمي سلمكم، وعدوي عدوكم، وحربي حربكم، أنا أسألك بالله أتبرأ من أبي بكر وعمر؟ فقال: **﴿قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين﴾** [الأنعام:٥٦] تولهما يا كثير فما أدركك فهو في رقبتي هذه، ثم تلا هذه الآية: **﴿إخواناً على سرر متقابلين﴾** قال: أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

وقوله: **﴿متقابلين﴾**. قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض.

وقوله: **﴿لا يمسهم فيها نصب﴾** يعني المشقة والأذى، كما جاء في الصحيحين: «إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب». وقوله: **﴿وما هم منها بمخرجين﴾** كما جاء في الحديث: «يقال يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبداً». [متفق عليه]، وقال الله تعالى: **﴿خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً﴾** [الكهف:١٠٨].

وقوله: **﴿نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾** أي أخبر يا محمد عبادي أني ذو رحمة وذو عقاب أليم، وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة وهي دالة على مقامَي الرجاء والخوف.

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ

عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: وخبرهم يا محمد عن قصة ﴿ضيف إبراهيم﴾ والضيف يطلق على الواحد والجمع كالزوَّر والسفر، وكيف ﴿دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون﴾ أي خائفون، وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة، وهو العجل السمين الحنيذ. ﴿قالوا لا توجل﴾ أي لا تخف ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ [الذاريات:٢٨] وهو إسحاق عليه السلام كما تقدم في سورة هود. ثم قال متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد: ﴿أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون﴾ فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة ﴿قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين﴾ فأجابهم بأنه ليس يقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنَّت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى، أنه شرع يسألهم عما جاءوا له، فقالوا: ﴿إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ يعنون قوم لوط، وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من الهالكين؛ ولهذا قالوا: ﴿إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين﴾ أي الباقين المهلكين.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره قال: ﴿إنكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾ يعنون بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوايشكون في وقوعه بهم وحلوله بساحتهم ﴿وأتيناك بالحق﴾ كما قال تعالى: ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق﴾ [الحجر:٨]. وقوله: ﴿وإنا لصادقون﴾ تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاك قومه.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأن يكون لوط عليه السلام يمشي وراءهم ليكون أحفظ لهم، وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغَزاة وإنما يكون ساقة، يُزجي الضعيف ويحمل المنقطع. [رواه أبوداود وسكت عنه هو والمنذري]. وقوله: ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما

حل بهم من العذاب والنكال ﴿وامضوا حيث تؤمرون﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾ أي تقدمنا إليه في هذا ﴿أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ أي وقت الصباح كما قال في الآية الأخرى: ﴿إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾ [هود: ٨١].

﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم، وأنهم جاؤوا مستبشرين بهم فرحين ﴿قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون * واتقوا الله ولا تخزون﴾ وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل الله، كما في سياق سورة هود، وأما ههنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم، ولكن الواو لا تقتضي الترتيب ولا سيما إذا دل دليل على خلافه، فقالوا له مجيبين: ﴿أو لم ننهك عن العالمين﴾ أي أو ما نهيناك أن تضيف أحداً؟ فأرشدهم إلى نسائهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة. وقد تقدم إيضاح القول في ذلك بما أغنى عن إعادته. هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يُصبحهم من العذاب المستقر؛ ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض. قال ابن عباس: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾. وقال قتادة: ﴿في سكرتهم﴾ أي في ضلالهم ﴿يعمهون﴾ أي يلعبون، وقال ابن عباس: ﴿لعمرك﴾ لعيشك ﴿إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ قال يتحيرون.

﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

يقول: ﴿فأخذتهم الصيحة﴾ وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء، ثم قلبها وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم. وقوله: ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾ أي إن آثار هذه النقم ظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿للمتوسمين﴾ قال: المتفرسين. وعن ابن عباس والضحاك: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مالك عن بعض أهل المدينة: للمتأملين.

وقوله: ﴿وإنها لبسبيل مقيم﴾ أي وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي، والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة، مستمرة إلى اليوم، كما قال تعالى: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨]،

وقال مجاهد والضحاك: ﴿وإنها لبسبيل مقيم﴾ قال: مُعَلَّم. وقال قتادة: بطريق واضح. وقال قتادة أيضاً: بصقع من الأرض واحد. وقوله: ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ اي إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾.

أصحاب الأيكة: هم قوم شعيب، قال الضحاك وقتادة وغيرهما: الأيكة الشجر الملتف، وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بَعْدَهم في الزمان، ومسامتين لهم في المكان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وإنهما لبإمام مبين﴾ أي طريق مبين، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: طريق ظاهر؛ ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته إياهم ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ [هود:٨٩].

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

أصحاب الحجر: هم ثمود الذين كذبوا صالحاً نبيهم عليهم السلام، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين؛ ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين، وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء، وكانت تسرح في بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، فلما عتوا وعقروها قال لهم: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ [هود:٦٥]، وذكر تعالى أنهم ﴿كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾ أي من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشراً وبطراً وعبثاً، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مرّ به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك، فَقَنَّع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم». [متفق عليه]. وقوله: ﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين﴾ أي وقت الصباح من اليوم الرابع ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ أي ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضَنُّوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ أي بالعدل. وقال تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦]. ثم أخبر نبيه بقيام الساعة، وأنها كائنةٌ لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كما

قال تعالى: ﴿**فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون**﴾ [الزخرف: ٨٩]. وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال، وهو كما قالا، فإن هذه مكية والقتال إنما شرع بعد الهجرة.

وقوله: ﴿**إن ربك هو الخلاق العليم**﴾ تقرير للمعاد وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق ما يشاء، العليم بما تمزق من الأجساد، وتفرق في سائر أقطار الأرض، كما قال: ﴿**أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون**﴾ [يس: ٨١-٨٣].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: كما آتيناك القرآن العظيم فلا تنظرنّ إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزناً عليهم في تكذيبهم لك ومخالفتهم دينك. ﴿**واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين**﴾ [الشعراء: ٢١٥] أي ألن لهم جانبك.

وقد اختلف في السبع المثاني ما هي؟ فقال ابن مسعود وابن عمر وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغير واحد: هي السبع الطُوَل، يعنون: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، نص عليه ابن عباس وسعيد بن جبير، وقال سعيد: بين فيهن الفرائض والحدود والقصص والأحكام. وقال ابن عباس: بين الأمثال والخَبَر والعِبَر.

وقال سفيان: المثاني: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال وبراءة سورة واحدة، قال ابن عباس: ولم يُعْطهن أحد إلا النبي ﷺ، وأعطي موسى منهن ثنتين. وقال ابن عباس: أوتي النبي ﷺ سبعاً من المثاني الطُوَل، وأوتي موسى عليه السلام ستاً، فلما ألقى الألواح ارتفع اثنتان وبقيت أربع، وقال مجاهد: هي السبع الطول، ويقال: هي القرآن العظيم. وقال زياد بن أبي مريم: أعطيتك سبعة أجزاء: آمُرْ، وأَنه، وأبشر، وأنذر، وأضرب الأمثال، وأعدد النعم، وأنبئك بنبأ القرآن.

والقول الثاني: أنها الفاتحة، وهي سبع آيات. رُوي ذلك عن علي وعمر وابن مسعود وابن عباس. قال ابن عباس: والبسملة هي الآية السابعة، وقد خصكم الله بها، وبه قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن عبيد بن عمير وابن أبي مليكة وشهر بن حوشب والحسن البصري ومجاهد.

وقال قتادة: ذكر لنا أنهن فاتحة الكتاب، وأنهن يثنين في كل ركعة مكتوبة أو تطوع، واختاره ابن جرير، واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك، وقد قدمناها في فضائل سورة الفاتحة

في أول التفسير ولله الحمد، وقد أورد البخاري رحمه الله ههنا حديثين:

أحدهما عن أبي سعيد بن المعلى قال: مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيته، فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» فقلت: كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾ [الأنفال: ٢٤]، ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد» فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرته فقال: «﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

والثاني: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم». فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطوال بذلك، لما فيها من هذه الصفة كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني﴾ [الزمر: ٢٣]، فهو مثان من وجه ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً، كماأنه عليه الصلاة والسلام لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده، والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافي، فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم. وقوله: ﴿لا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ أي استغن بماآتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية، ومن ههنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» إلى أنه يستغني به عما عداه، وهو تفسير صحيح ولكن ليس هو المقصود من الحديث كما تقدم في أول التفسير.

وعن ابن عباس ﴿لا تمدّن عينيك﴾ قال: نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه. وقال مجاهد: ﴿إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ هم الأغنياء.

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿إني أنا النذير المبين﴾ البين النذارة، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام. وقوله: ﴿المقتسمين﴾ أي المتحالفين، أي تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كما قال تعالى إخباراً عن قوم صالح إنهم ﴿قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله﴾ [النمل: ٤٩]، أي نقتلهم ليلاً، قال مجاهد: تقاسموا: تحالفوا. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقتسمون أصحاب صالح الذين تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله.

وقوله: ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ أي جَزَّؤوا كتبهم المنزلة عليهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض. روى البخاري عن ابن عباس قال: هم أهل الكتاب جزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن والضحاك

وغيرهم نحو ذلك. وقال ابن عباس ﴿جعلوا القرآن عضين﴾ قال: السحر. وقال عكرمة: العَضْه: السحر بلسان قريش، تقول للساحرة: إنها العاضهة، وقال مجاهد: عضوه أعضاء، قالوا سحر، وقالوا كهانة، وقالوا أساطير الأولين، وقال عطاء: قال بعضهم ساحر، وقال بعضهم مجنون، وقال بعضهم كاهن، فذلك العضين، وكذا روي عن الضحاك وغيره.

وعن ابن عمر في قوله: ﴿لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ قال: عن لا إله إلا الله. وروي عن مجاهد مثله.

وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود قال: والذي لا إله غيره ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول: ابن آدم ماذا غرك مني بي؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟

وقال أبو العالية في قوله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ قال: يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين، وقال ابن عيينة: عن عملك وعن مالك. وعن ابن عباس في قوله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ ثم قال: ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ [الرحمن:٣٩] قال: لا يسألهم هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وبإنفاذه والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ أي أمضه، وفي رواية: افعل ما تؤمر. وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة. وقوله: ﴿وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين﴾ أي بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله. ولا تخفهم فإن الله كافيك إياهم وحافظك منهم، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ [المائدة:٦٧].

وروى محمد بن إسحاق عن عروة بن الزبير: كان عظماء المستهزئين خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم. وهكذا روى سعيد بن جبير وعكرمة. وكذا روي عن مجاهد ومقسم وقتادة وغير واحد أنهم كانوا خمسة. وقال الشعبي: كانوا سبعة، والمشهور الأول.

وقوله: ﴿الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر.

وقوله: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين﴾

أي وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك انقباض وضيق صدر فلا يثنينك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل على الله فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿**فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين**﴾. كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن نعيم بن همّار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره». ورواه أبو داود [وهو صحيح]، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. [رواه أبوداود وهو صحيح].

وقوله: ﴿**واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾ قال البخاري: قال سالم: الموت، وسالم هذا هو ابن عبد الله بن عمر، كما قال ابن جرير، وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿**لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين**﴾ [المدثر:٤٣-٤٧]. وفي الصحيح عن أم العلاء امرأة من الأنصار أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، قالت أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه ؟» فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله، فمن ؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير». [رواه البخاري].

ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿**واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً، فيصلي بحسب حاله، كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب». ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنما المراد باليقين ههنا الموت، كما قدمناه، ولله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسؤول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها، فإنه جواد كريم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تفسير سورة النحل وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾.

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقيق والوقوع لا محالة، كما قال تعالى: ﴿**اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون**﴾ [الأنبياء:١]،

وقال: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ [القمر:١]. وقوله: ﴿فلا تستعجلوه﴾ أي قَرُب فلا تستعجلوه، يحتمل أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازم، كما قال تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ [العنكبوت:٥٣-٥٤].

وروى ابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس، فما تزال ترتفع في السماء ثم ينادي مناد فيها: يا أيهاالناس، فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم، فمنهم من يقول: نعم، ومنهم من يشك، ثم ينادي الثانية: يا أيها الناس، فيقول الناس بعضهم لبعض: هل سمعتم، فيقولون: نعم، ثم ينادي الثالثة: يا أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه» قال رسول الله ﷺ: «فو الذي نفسي بيده، إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبداً، وإن الرجل ليمدن حوضه فما يسقي فيه شيئاً ابداً، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً ـ قال ـ ويشتغل الناس». [ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة قال: ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ينزل الملائكة بالروح﴾ أي الوحي، كما قال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ [الشورى:٥٢]. وقوله: ﴿على من يشاء من عباده﴾ وهم الأنبياء، كما قال: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [الأنعام:١٢٤]. وقوله: ﴿أن أنذروا﴾ أي لينذروا ﴿أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾أي فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ ﴾.

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السموات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث بل ﴿ ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾ [النجم:٣١]. ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له. ثم نبه على خلق جنس الإنسان من نطفة أي ضعيفة مهينة، فلما استقل ودَرَج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضداً، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً * ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ [الفرقان:٥٤-٥٥]. وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بسر بن

جحاش قال: بصق رسول الله ﷺ في كفه، ثم قال: «يقول الله تعالى: ابن آدم أنَّى تعجزني وقد خلقتكَ من مثل هذه، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت الحلقوم قلت أتصدق، وأنَّى أوان الصدقة» [قال البوصيري: إسناده صحيح].

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ ﴾ .

يمتنّ تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارهاوأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة، ولهذا قال: ﴿**ولكم فيها جمال حين تريحون**﴾ وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى، ﴿**وحين تسرحون**﴾ أي غُدوة حين تبعثونها إلى المرعى. ﴿**وتحمل أثقالكم**﴾ وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها ﴿**إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس**﴾ تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل، كما قال تعالى: ﴿**وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون**﴾ [المؤمنون: ٢١-٢٢]؛ ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النعم: ﴿**إن ربكم لرءوف رحيم**﴾ أي ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كما قال: ﴿**وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون**﴾ [الزخرف: ١٢-١٤]. قال ابن عباس: ﴿**لكم فيها دفء**﴾ أي ثياب، ﴿**ومنافع**﴾ ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة. وعنه أيضا: نسل كل دابة. وقال مجاهد: ﴿**لكم فيها دفء**﴾ أي لباس ينسج، ومنافع مركب ولحم ولبن. ونحوه عن قتادة، وكذا قال غير واحد من المفسرين بألفاظ متقاربة.

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾ .

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده يمتن به عليهم، وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فَصَلها من الأنعام، وأفردها بالذكر، استدل من استدل من العلماء ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه من الفقهاء بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير وهي حرام، كما ثبتت به السنة النبوية، وذهب إليه أكثر العلماء. وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير أنَّ ابن عباس أنه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله تعالى: ﴿**والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون**﴾ فهذه للأكل، ﴿**والخيل والبغال والحمير لتركبوها**﴾ فهذه للركوب، وقال مثل ذلك الحكم بن عتيبة أيضاً رضي الله عنه، واستأنسوا

بحديث رواه الإمام أحمد عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير. وأخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه. فلو صح هذا الحديث لكان نصاً في تحريم لحوم الخيل، ولكن لا يقاوم ما ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل.

وفي صحيح مسلم عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً فأكلناه ونحن بالمدينة، فهذه أدل وأقوى وأثبت، وإلى ذلك صار جمهور العلماء وأكثر السلف والخلف، والله أعلم. فقد دل النص على جواز ركوب هذه الدواب ومنها البغال، وقد أهديت إلى رسول الله ﷺ بغلة فكان يركبها مع أنه قد نهى عن إنزاء الحمر على الخيل لئلا ينقطع النسل. [رواه النسائي والترمذي وهو صحيح].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يُسار عليه في السبل الحسية، نبه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كما قال تعالى: **﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾** [البقرة:١٩٧]، وقال تعالى: **﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير﴾** [الأعراف:٢٦]. ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها، التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبين أن الحق منها ما هي مُوصِلَةٌ إليه فقال: **﴿وعلى الله قصد السبيل﴾** كما قال: **﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾** [الأنعام:١٥٣]، وقال: **﴿هذا صراط عليّ مستقيم﴾** [الحجر:٤١].

قال مجاهد في قوله: **﴿وعلى الله قصد السبيل﴾** قال: طريق الحق على الله، وقال السدي، **﴿وعلى الله قصد السبيل﴾** الإسلام. وقال ابن عباس: وعلى الله البيان، أي تبيين الهدى والضلالة. وكذا قال قتادة والضحاك، وقول مجاهد ههنا أقوى من حيث السياق، لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقاً تسلك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق وهي الطريق التي شرعها ورضيها، وما عداها مسدودة والأعمال فيها مردودة؛ ولهذا قال تعالى: **﴿ومنها جائر﴾** أي حائد مائل زائغ عن الحق. قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية. ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: **﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾** كما قال: **﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾** [يونس:٩٩].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾.

لما ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب، شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال

المطر من السماء وهو العلو مما لهم فيه بُلْغَة ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿**لكم منه شراب**﴾ أي جعله عذباً زلالاً يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحاً أجاجاً. ﴿**ومنه شجر فيه تسيمون**﴾: أي وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم. كما قال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة وابن زيد في قوله ﴿**فيه تسيمون**﴾ أي ترعون. ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعي.

وقوله: ﴿**ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات**﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها، ولهذا قال: ﴿**إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون**﴾ أي دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿**أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون**﴾ [النمل: ٦٠]، ثم قال تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

ينبه تعالى عباده على آياته العظام، ومننه الجسام في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السموات نوراً وضياء للمهتدين بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مقدرة لا يزيد عليها ولا ينقص منها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره، كما قال: ﴿**إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين**﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ ولهذا قال: ﴿**إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾ أي لدلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه.

وقوله: ﴿**وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه**﴾ لما نبه سبحانه على معالم السموات، نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة، والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن، والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص ﴿**إن في ذلك لآية لقوم يذكرون**﴾ أي آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها في الحل والإحرام، وما يخلقه فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها

حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره أي تشقه، وقيل تمخر الرياح، ولهذا قال تعالى: ﴿ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ أي نعمه وإحسانه.

ثم ذكر تعالى الأرض وما جعل فيها من الرواسي الشامخات، والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد، أي تضطرب بما عليها من الحيوان فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك؛ ولهذا قال: ﴿والجبال أرساها﴾ [النازعات: ٣٢]. وقال الحسن: لما خُلقت الأرض كانت تميد، فقالوا: ما هذه بمقرّة على ظهرها أحداً، فأصبحوا وقد خلقت الجبال، فلم تدر الملائكة ممّ خلقت الجبال. ونحوه عن قيس بن عباد وعلي بن أبي طالب.

وقوله: ﴿وأنهاراً وسبلاً﴾ أي جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر رزقاً للعباد، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سُخِّر لأهله. وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة، وجنوباً وشمالاً. وشرقاً وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيناً وتنقطع في وقت، وما بين نبع وجمع ، وقوي السير وبطيئه، بحسب ما أراد وقدر وسخر ويسر، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، وكذلك جعل فيها سبلاً أي طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقوله: ﴿وعلامات﴾ أي دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك ، يستدل بها المسافرون براً وبحراً إذا ضلوا الطريق بالنهار. وقوله: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ أي في ظلام الليل، قاله ابن عباس، وعن مالك في قوله: ﴿وعلامات﴾ يقولون: النجوم وهي الجبال. ثم قال تعالى منبهاً على عظمته وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون؛ ولهذا قال: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون﴾. ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم، فقال: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم﴾ أي يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير ويجازي على اليسير، وقال ابن جرير: يقول: ﴿إن الله لغفور﴾ لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، ﴿رحيم﴾ بكم أن يعذبكم بعد الإنابة والتوبة.

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، كما قال الخليل: ﴿أتعبدون ما تنحتون ؟ والله خلقكم وما تعملون﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦]. وقوله: ﴿أموات غير أحياء﴾ أي هي جمادات لا أرواح فيها، فلا تسمع

ولا تبصر ولا تعقل. ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ أي لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يُرتجى ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق كل شيء.

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) ﴾.

يخبر تعالى أنه لا إله هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عجاب﴾ [ص:٥]، وقال تعالى: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾ [الزمر:٤٥]. وقوله: ﴿وهم مستكبرون﴾ أي عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده كما قال: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ [غافر:٦٠]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿لا جرم﴾ أي حقاً ﴿أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾.

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا﴾ معرضين عن الجواب ﴿أساطير الأوّلين﴾ أي لم ينزل شيئاً، إنما هذا الذي يُتْلى علينا أساطير الأولين، أي مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿وقالوا أساطير الأوّلين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ [الفرقان:٥] أي يفترون على الرسول ويقولون أقوالاً متضادة مختلفة كلها باطلة، وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر وشاعر وكاهن ومجنون، ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي لما ﴿فكر وقدّر، فقتل كيف قدّر، ثم قتل كيف قدّر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر﴾ [المدثر:١٨-٢٤] أي يُنْقل ويُحْكَى، فتفرقوا عن قوله ورأيه قبحهم الله. قال الله تعالى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ أي إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم أي يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً». [رواه مسلم]. وقال تعالى: ﴿وليحملُن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ [العنكبوت:١٣]. وهكذا روي ابن عباس في قوله: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ أنها كقوله: ﴿وليحملن أثقالهم

وأثقالاً مع أثقالهم﴾ [العنكبوت:١٣]. وقال مجاهد: يحملون أثقالهم: ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف عمن أطاعهم من العذاب شيئاً.

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

قال ابن عباس في قوله: **﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾** قال: هو نمرود الذي بنى الصرح، وروي عن مجاهد نحوه. وقال زيد بن أسلم: أول جبار كان في الأرض نمرود، فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره، فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه وكان جباراً أربعمائة سنة، فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه، ثم أماته الله، وهو الذي بنى الصرح إلى السماء الذي قال الله تعالى: **﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾** وقال آخرون: بل هو بختنصر. وقال آخرون: هذا من باب المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح عليه السلام: **﴿ومكروا مكراً كباراً﴾** [نوح:٢٢] أي احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: **﴿بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾** الآية [سبأ:٣٣].

وقوله: **﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾** أي اجتثه من أصله وأبطل عملهم، وقال ههنا: **﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ثم يوم القيامة يخزيهم﴾** أي يُظْهِرُ فضائحهم، وما كانت تُجنّه ضمائرهم، فيجعله علانية، كما قال تعالى: **﴿يوم تبلى السرائر﴾** [الطارق:٩] كما في الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته، فيقال هذه غدرة فلان بن فلان». وهكذا يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرعاً لهم وموبخاً: **﴿أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم﴾** تحاربون وتعادون في سبيلهم أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا؟ **﴿هل ينصرونكم أو ينتصرون﴾** [الشعراء:٩٣]. فإذا توجهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة وأسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار **﴿قال الذين أوتوا العلم﴾** وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ: **﴿إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين﴾** أي الفضيحة والعذاب اليوم محيط بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره ولا ينفعه.

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم

لقبض أرواحهم ﴿فألقوا السلم﴾ أي أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ كما يقولون يوم المعاد: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام:٢٣]. قال الله مكذباً لهم في قيلهم ذلك: ﴿بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون * فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين﴾ أي بئس المقيل والمقام والمكان مِنْ دارِ هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله. وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، ويأتي أجسادَهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾ [فاطر:٣٦].

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢ ﴾

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿ماذا أنزل ربكم﴾ فقالوا معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئاً إنما هذا أساطير الأولين، وهؤلاء ﴿قالوا خيراً﴾ أي أنزل خيراً، أي رحمة وحسنا لمن اتبعه وآمن به. ثم أخبروا عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقالوا: ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير﴾، كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل:٩٧] أي من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة. ثم أخبروا بأن دار الآخرة خير أي من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ [الأعلى:١٧]، وقال لرسولهﷺ: ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ [الضحى:٤]. ثم وصفوا الدار الآخرة فقال: ﴿ولنعم دار المتقين﴾.

وقوله: ﴿جنات عدن﴾ بدل من دار المتقين أي لهم في الآخرة جنات عدن، أي إقامة يدخلونها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي بين أشجارها وقصورها ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾ كما قال تعالى: ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾ [الزخرف:٧١]، وفي الحديث: «إن السحابة لتمر بالملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شرابهم، فلا يشتهي أحد منهم شيئاً إلا أمطرته عليهم حتى إن منهم لمن يقول أمطرينا كواعب أتراباً فيكون ذلك». [رواه ابن المبارك في الزهد، وأبو نعيم في صفة الجنة بسند صحيح].

﴿كذلك يجزي الله المتقين﴾ أي كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله، ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون أي مُخْلَصُون من الشرك والدنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، كما قال تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون *

نزلاً من غفور رحيم﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

يقول تعالى مهدداً للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم بقبض أرواحهم، قاله قتادة، ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ أي يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال. وقوله: ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ أي هكذا تمادى في شركهم أسلافهم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال. ﴿وما ظلمهم الله﴾ لأنه تعالى أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك ﴿وحاق بهم﴾ أي أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿ ماكانوا به يستهزئون﴾ أي يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله؛ فلهذا يقال يوم القيامة: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ [الطور: ١٤].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم محتجين بالقدر في قولهم: ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء﴾ أي مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل الله به سلطاناً، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مكنا منه، قال الله راداً عليهم شبهتهم: ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم يعبه عليكم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي، وبعث في كل أمة رسولاً أي في كل قرن وطائفة رسولاً، وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه ﴿أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله الى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله

واجتنبوا الطاغوت﴾ فيكف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: **﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾** فمشيئته تعالى الشرعية منتفية؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدراً، فلا حجة لهم فيها؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة.

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل؛ فلهذا قال: **﴿فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾** أي اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف **﴿دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾** [محمد:١٠]، **﴿ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾** [الملك:١٨].

ثم أخبر تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم كما قال تعالى: **﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً﴾** [المائدة:٤١]، وقال نوح لقومه: **﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾** [هود:٣٤]، وقال في هذه الآية الكريمة: **﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل﴾**. فقوله: **﴿فإن الله﴾** أي شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلهذا قال: **﴿لا يهدي من يضل﴾** أي من أضله، فمن ذا الذي يهديه من بعد الله؟ أي لا أحد **﴿وما لهم من ناصرين﴾** أي ينقذونهم من عذابه ووثاقه.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا **﴿بالله جهد أيمانهم﴾** أي اجتهدوا في الحلف، وغلظوا الأيمان على أنه **﴿لا يبعث الله من يموت﴾** أي استبعدوا ذلك، وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك وحلفوا على نقيضه، فقال تعالى مكذبا لهم وراداً عليهم: **﴿بلى﴾** أي بلى سيكون ذلك **﴿وعداً عليه حقاً﴾** أي لا بد منه **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** أي فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر. ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: **﴿ليبين لهم﴾** أي للناس **﴿الذي يختلفون فيه﴾** أي من كل شيء، **﴿وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾** أي في أيمانهم وأقسامهم: لا يبعث الله من يموت، ولهذا يُدَعُّون يوم القيامة إلى نار جهنم دعا.

ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه **فإنما** يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كما قال: **﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾** [القمر:٥٠]،

وقال: في هذه الآية الكريمة: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ أي أن يأمر به مرة واحدة فإذا هو كائن، أي أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف، لأنه الواحد القهار العظيم الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء فلا إله إلا هو ولا رب سواه، وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: قال الله تعالى: سبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يسبني، وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني، فأما تكذيبه إياي فقال: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ قال وقلت: ﴿بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ وأما سبه إياي فقال: ﴿إن الله ثالث ثلاثة﴾ ، وقلت: ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾ [سورة الإخلاص]. هكذا ذكره موقوفاً وهو في الصحيحين مرفوعا بلفظ آخر.

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان رجاء ثواب الله وجزائه. ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة في مُهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرافهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول، وأبو سلمة بن عبد الأسد في جماعة قريب من ثمانين، ما بين رجل وامرأة، صِدِّيق وصِدِّيقة رضي الله عنهم وأرضاهم، وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿لنبوئنهم في الدنيا حسنة﴾ قال ابن عباس والشعبي وقتادة: المدينة، وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه، وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم في البلاد، وحكمهم على رقاب العباد، وصاروا أمراء حكاماً، وكل منهم للمتقين إماماً، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿ولأجر الآخرة أكبر﴾ أي مما أعطيناهم في الدنيا ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أي لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله. ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي صبروا على من آذاهم من قومهم، متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

عن ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً، أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل الله ﴿أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل

منهم أن أنذر الناس﴾ [يونس:٢]، وقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ يعني أهل الكتب الماضية: أبشرٌ كانت الرسلُ التي أتتكم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً، قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى﴾ ليسوا من أهل السماء كما قلتم، قاله مجاهد والأعمش، وقول عبد الرحمن بن زيد: الذكر القرآن، واستشهد بقوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر:٩] صحيح، لكن ليس هو المراد ههنا، لأن المخالف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه، وكذا قول أبي جعفر الباقر: نحن أهل الذكر، ومراده أن هذه الأمة أهل الذكر، صحيح فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة. وعلماء أهل بيت الرسول الله عليهم السلام والرحمة من خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة كعلي وابن عباس وبني علي الحسن والحسين، ومحمد بن الحنفية وعلي بن الحسين زين العابدين، وعلي بن عبد الله بن عباس، وأبي جعفر الباقر وهو محمد بن علي بن الحسين وجعفر ابنه، وأمثالهم ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، وعرف لكل ذي حق حقه، ونزل كل المنزل الذي أعطاه الله ورسوله واجتمع إليه قلوب عباده المؤمنين.

والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ [الفرقان:٢٠]. ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشراً إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا هل كان أنبياؤهم بشراً أو ملائكة؟ ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بالبينات﴾ أي بالدلالات والحجج ﴿والزبر﴾ وهي الكتب قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم، والزبر جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبته.

ثم قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر﴾ يعني القرآن ﴿لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ أي من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل عليك وحرصك عليه واتباعك له، لِعْلمِنَا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فَتُفَصِّل لهم ما أجمل وتبين لهم ما أشكل ﴿ولعلهم يتفكرون﴾ أي ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين.

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾.

ليخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على ﴿أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾، أي من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كما قال تعالى: ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور * أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير.﴾ [الملك:١٦-١٧]، وقوله: ﴿أو يأخذهم في تقلبهم﴾ أي

في تقلبهم في المعايش واشتغالهم بها في أسفارهم ونحوها من الأشغال الملهية، قال قتادة والسدي: ﴿تقلبهم﴾ أي أسفارهم، وقال مجاهد والضحاك وقتادة ﴿في تقلبهم﴾ في الليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿**أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون**﴾ [الأعراف:٩٧-٩٨].

وقوله: ﴿**فما هم بمعجزين**﴾ أي لا يُعجزون الله على أي حال كانوا عليه. وقوله: ﴿**أو يأخذهم على تخوف**﴾ أي أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد حالة الأخذ، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد؛ ولهذا قال ابن عباس: ﴿**أو يأخذهم على تخوف**﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك، وكذا روي عن مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم. ثم قال تعالى: ﴿**فإن ربكم لرؤوف رحيم**﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت في الصحيحين: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم». وفي الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد**﴾ [هود:١٠٢] وقال تعالى: ﴿**وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير**﴾ [الحج:٤٨].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن عظمته وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن، والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال، أي بكرة وعشياً فإنه ساجد بظله لله تعالى. قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل، وكذا قال قتادة والضحاك وغيرهم، وقوله: ﴿**وهم داخرون**﴾ أي صاغرون. وقال مجاهد أيضاً: سجود كل شيء فيؤه، وذكر الجبال، قال: سجودها فيؤها. وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته، ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم ثم قال: ﴿**ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة**﴾ كما قال: ﴿**ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال**﴾ [الرعد:١٥]. وقوله: ﴿**والملائكة وهم لا يستكبرون**﴾ أي تسجد لله أي غير مستكبرين عن عبادته ﴿**يخافون ربهم من فوقهم**﴾ أي يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله ﴿**ويفعلون ما يؤمرون**﴾ أي مثابرين على طاعته تعالى وامتثال أوامره، وترك زواجره.

﴿ ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا

فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه. ﴿وله الدين واصباً﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وميمون بن مهران والسدي وقتادة وغير واحد: أي دائماً، وعن ابن عباس أيضا: أي واجباً. وقال مجاهد: أي خالصاً، أي له العبادة وحده ممن في السموات والأرض، كقوله: ﴿أفغير دين الله يبغون * وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون﴾ [آل عمران:٨٣]. هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخبر، وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب، أي ارهبوا أن تشركوا بي شيئاً وأخلصوا لي الطلب، كما في قوله تعالى: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ [الزمر:٣]. ثم أخبر أنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعباد من رزق ونصر فمن فضله عليهم، وإحسانه إليهم ﴿ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾ أي لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه وتلحون في الرغبة إليه مستغيثين به، كما قال تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾ [الإسراء:٦٧]، وقال ههنا: ﴿ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم﴾. قيل: اللام ههنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل بمعنى قيضنا لهم ذلك ليكفروا، أي يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم، وأنه المسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم، ثم توعدهم قائلاً: ﴿فتمتعوا﴾ أي اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ﴿فسوف تعلمون﴾ أي عاقبة ذلك.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد، وجعلوا لها نصيباً مما رزقهم الله فقالوا: ﴿هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾ [الأنعام:١٣٦] أي جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله وفضلوها على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه وائتفكوه وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: ﴿تالله لتسألن عما كنتم تفترون﴾. ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله وعبدوها معه، فأخطأوا خطأ كبيراً في كل مقام من هذه المقامات، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً ولا ولد له، ثم أعطوه البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذاً قسمة ضيزى﴾ [النجم:٢١-٢٢]، وقال ههنا:

﴿ويجعلون لله البنات سبحانه﴾ أي عن قولهم وإفكهم. وقوله: ﴿ولهم ما يشتهون﴾ أي يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فإنه ﴿إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً﴾ أي كئيباً من الهم ﴿وهو كظيم﴾ ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، ﴿يتوارى من القوم﴾ أي يكره أن يراه الناس ﴿من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب﴾ أي إن أبقاها أبقاها مُهَانَةً لا يُوَرِّثُها، ويفضل أولاده الذكور عليها ﴿أم يدسه في التراب﴾ أي يئدها، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله ؟ ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ أي بئس ما قالوا، وبئس ما قسموا، وقوله: ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء﴾ أي النقص إنما ينسب إليهم ﴿ ولله المثل الأعلى﴾ اي الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿وهو العزيز الحكيم﴾.

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أي لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم، ولكن الرب جل جلاله يحلم إلى أجل مسمى أي لا يعاجلهم بالعقوبة؛ إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً. قال عبد الله بن مسعود: كاد الجُعَل أن يهلك في جحره بخطيئة بني آدم. ومثله عن أبي الأحوص، ونحوه عن أبي هريرة.

وقوله: ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾ أي من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله.

وقوله: ﴿وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى﴾ إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا، وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى، وإخبار عن قيل من قال منهم، كقوله: ﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ﴾ [فصلت: ٥٠]، فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل بأن يجازوا على ذلك حسناً وهذا مستحيل.

وقال مجاهد وقتادة: ﴿وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى﴾ أي الغلمان. وقال ابن جرير: ﴿أن لهم الحسنى﴾ أي يوم القيامة كما قدمنا بيانه، وهو الصواب، ولله الحمد، ولهذا قال الله تعالى راداً عليهم في تمنيهم ذلك: ﴿لا جرم﴾ أي حقاً لابد منه ﴿أن لهم النار﴾ أي يوم القيامة ﴿وأنهم مفرطون﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم: منسيون فيها مُضَيَّعُون. وهذا كقوله تعالى: ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ [الأعراف: ٥١].

وعن قتادة أيضا: ﴿مفرطون﴾ أي معجلون إلى النار من الفَرَط، وهو السابق إلى الوِرْد، ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار وينسون فيها أي يخلدون.

﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً فكُذِّبت الرسل، فلك في إخوانك من المرسلين أسوة، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه ﴿فهو وليهم اليوم﴾ أي هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم، ولهم عذاب أليم. ثم قال تعالى لرسوله: إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿وهدى﴾ أي للقلوب ﴿ورحمة﴾ أي لمن تمسك به ﴿لقوم يؤمنون﴾. وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما ينزله عليها من السماء من ماء ﴿إن في ذلك لآية لقوم يسمعون﴾ أي يفهمون الكلام ومعناه.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿وإن لكم﴾ أيها الناس﴿في الأنعام﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ﴿لعبرة﴾ أي لآية ودلالة على قدرة خالقها وحكمته ﴿نسقيكم مما في بطونه﴾، وأفرد ههنا الضمير عوداً على معنى النعم، أو الضمير عائد على الحيوان، فإن الأنعام حيوانات أي نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان، وفي الآية الأخرى ﴿مما في بطونها﴾ [المؤمنون:٢١] ويجوز هذا وهذا، وقوله: ﴿من بين فرث ودم لبناً خالصاً﴾ أي يتخلص اللبن بياضه وطعمه وحلاوته، ما بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته، تصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به. وقوله: ﴿لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾ أي لا يغص به أحد، ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً ثنى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه، ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً﴾ دل على إباحته شرعا قبل تحريمه، ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من العنب والمتخذ من النخل، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿سكراً ورزقاً حسناً﴾ السَّكَر ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن

ما أُحِلَّ من ثمرتيهما، وفي رواية: السكر حرامه، والرزق الحسن حلاله، يعني ما يبس منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء وهو الدبس وخل ونبيذ، حلال يشرب قبل أن يشتد كما وردت السنة بذلك. ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾ ناسب ذكر العقل ههنا فإنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

المراد بالوحي هاهنا: الإلهام والهداية والإرشاد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورصها بحيث لا يكون في بينها خلل، ثم أذن لها تعالى إذناً قدرياً تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى لها مذللة، حيث شاءت في هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى موضعها وبيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع وتقيء العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها.

وقال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فاسلكي سبل ربك ذللاً﴾ أي مطيعة، فجعلاه حالاً من السالكة، قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالى: ﴿وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾ [يس: ٧٢] قال: ألا ترى أنهم ينقلون النحل من بيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم، والقول الأول هو أظهر، وهو أنه حال من الطريق، أي فاسلكيها مذللة لك، نص عليه مجاهد، وقال ابن جرير: كلا القولين صحيح.

وقوله تعالى: ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾ أي ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلها منها. وقوله: ﴿فيه شفاء للناس﴾ أي في العسل شفاء للناس، أي من أدواء تعرض لهم، قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال فيه الشفاء للناس، لكان دواء لكل داء، ولكن قال فيه شفاء للناس، أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار والشيء يداوى بضده.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استَطْلَق بطنه، فقال: «اسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يارسول الله سقيته عسلاً، فما زاده إلا استطلاقا، قال: «اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يارسول الله، ما زاده إلا استطلاقا، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه فبرىء. قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلاً وهو حار تحللت، فأسرعت في الاندفاع فزاده إسهالاً، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع،

ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسده المضرة بالبدن، استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

روى الشيخان عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان في شيء من أدويتكم، أو يكون في شيء من أدويتكم خير: ففي شرطة محجم، أو شربة عسل، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي».

وروى الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن» وهذا إسناده جيد. [قال في الزوائد: هذا إسناده صحيح]. وروى ابن ماجه عن أبي أبي بن أم حرام وكان قد صلى القبلتين، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليكم بالسَّنا والسَّنُوت، فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام» قيل: يارسول الله وما السام؟ قال: «الموت». [وصححه الألباني]، قال ابن أبي عبلة: السنوت: الشِّبْتُ. وقال آخرون: بل هو العسل الذي في زقاق السمن.

وقوله: ﴿**إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون**﴾ أي إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهامه والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل وهو من أطيب الأشياء، لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٧٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهَرَم، كما قال الله تعالى: ﴿ **الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة**﴾ الآية [الروم: ٥٤]، وقد روي عن علي رضي الله عنه في أرذل العمر: خمس وسبعون سنة، وفي هذا السن يحصل له ضعفُ القوى والخرفُ، وسوءُ الحفظ وقلةُ العلم، ولهذا قال: ﴿**لكي لا يعلم بعد علم شيئاً**﴾، أي بعد ما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من الفَنَد والخرف؛ ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل والكسل، والهرم وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات». رواه مسلم.

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له كما كانوا يقولون في تلبياتهم في حجهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، فقال تعالى منكراً عليهم: أنتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيده له في الإلهية والتعظيم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿**ضرب لكم مثلاً**

من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ [الروم:٢٨]، عن ابن عباس في هذه الآية: يقول لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني، فذلك قوله: ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾. وقال مجاهد في هذه الآية: هذا مثل الآلهة الباطلة، وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد شارك مملوكه في زوجته وفي فراشه، فتعدلون بالله خلقه وعباده ؟ فإن لم ترض لنفسك هذا، فالله أحق أن ينزه منك.

وقوله: ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ أي أنهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فجحدوا نعمته، وأشركوا معه غيره. وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري: واقنع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فضّل بعض عباده على بعض في الرزق، بلاء يبتلي به كلاً، فيبتلي من بسط له كيف شُكره لله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل ائتلاف، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين، قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد، قال ابن عباس: بنين وحفدة، وهم الولد وولد الولد. وقال مجاهد: بنين وحفدة ابنه وخادمه. وقال في رواية: الحفدة الأنصار والأعوان والخدام، وقال طاوس: الحفدة الخدم. وكذا قال قتادة وأبو مالك والحسن البصري. وقال عكرمة: الحفدة من خَدَمَك من ولدك وولد ولدك، قال الضحاك: إنما كانت العرب تخدمها بنوها. وقال ابن عباس قوله: ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ يقول: بنو امرأة الرجل ليسوا منه، ويقال: الحفدة: الرجل يعمل بين يدي الرجل. يقال: فلان يحفد لنا، قال: وزعم رجال أن الحفدة: أَخْتَان الرجل، وهذا الأخير الذي ذكره ابن عباس، قاله ابن مسعود ومسروق وأبو الضحى وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومجاهد والقرظي، وقال ابن عباس: هم الأصهار.

قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى الحَفْد، وهو الخدمة الذي منه قوله في القنوت: وإليك نسعى ونحفد، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والأصهار والخدم، فالنعمة حاصلة بهذا كله، ولهذا قال: ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾.

وقوله: ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ من المطاعم والمشارب. ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره: ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ وهم الأصنام والأنداد ﴿وبنعمة الله هم

يكفرون﴾ أي يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره. وفي الحديث الصحيح «إن الله يقول للعبد يوم القيامة ممتناً عليه: ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع ؟». [رواه مسلم].

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق، وحده لا شريك ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان **﴿ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً﴾** أي لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك، أي ليس لهم ذلك، ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: **﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾** أي لا تجعلوا له أنداداً وأمثالاً **﴿إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾**أي إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن، وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير، والعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سراً وجهراً هو المؤمن، وقال مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا ؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهرا واضحاً بيناً لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى: **﴿الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾**.

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشر ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا **﴿كل﴾** أي عيال على مولاه **﴿أينما يوجهه﴾** أي يبعثه **﴿لا يأت بخير﴾** ولا ينجح مسعاه **﴿هل يستوي﴾** مَنْ هذه صفاته **﴿ومن يأمر بالعدل﴾** أي بالقسط **﴿وهو على صراط مستقيم﴾**. وبهذا قال السدي وقتادة وعطاء الخراساني، واختار هذا القول ابن جرير. وعن ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء في علمه غيب السموات والأرض واختصاصه بذلك، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمانع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، كما قال: ﴿**وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر**﴾ [القمر: ٥٠] أي فيكون ما يريد كطرف العين، وهكذا قال ههنا: ﴿**وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير**﴾ كما قال: ﴿**ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة**﴾ [لقمان: ٢٨]. ثم ذكر تعالى منته على عباده في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم تعالى السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار التي بها يحسون المرئيات، والأفئدة وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ، والعقل به يميز بين الأشياء ضارّها ونافعها، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلاً قليلاً كلما كبر زِيد في سمعه وبصره وقَوِي عَقْلُه حتى يبلغ أشده. وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه.

كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن دعاني لأجيبنه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه». فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا لله، ولا يبصر إلا لله أي ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل، مستعيناً بالله في ذلك كله، ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح بعد قوله ورجله التي يمشي بها «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿**قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون * قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون**﴾ [الملك: ٢٣-٢٤].
ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض في جو السماء، ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى التي جعل فيها قوىً تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها ويسير الطير كذلك، كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿ **أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير**﴾ [الملك: ١٩] وقال ههنا: ﴿**إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون**﴾.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ

وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ
ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ
عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً **﴿من جلود الأنعام بيوتاً﴾** أي من الأُدُم، يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر، ولهذا قال: **﴿تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها﴾** أي الغنم، **﴿وأوبارها﴾** أي الإبل، **﴿وأشعارها﴾** أي المعز، والضمير عائد على الأنعام **﴿أثاثا﴾** أي تتخذون منه أثاثاً وهو المال، وقيل: المتاع، وقيل: الثياب، والصحيح أعم من هذا كله فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالاً وتجارة، وقال ابن عباس: الأثاث: المتاع، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وعطية العوفي وعطاء الخراساني والضحاك وقتادة. وقوله: **﴿إلى حين﴾** أي إلى أجل مسمى ووقت معلوم.

وقوله: **﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالاً﴾** قال قتادة: يعني الشجر **﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾** أي حصوناً ومعاقل، كما **﴿جعل لكم سرابيل تقيكم الحر﴾** وهي الثياب من القطن والكتان والصوف **﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾** كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك، **﴿كذلك يتم نعمته عليكم﴾** أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته **﴿لعلكم تسلمون﴾**. هكذا فسره الجمهور.

وقال قتادة: هذه السورة تسمى سورة النعم. وقال عطاء الخراساني: إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب، ألا ترى إلى قوله تعالى: **﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾** وما جعل من السهل أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب جبال ؟ ألا ترى إلى قوله: **﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾** وما جعل لهم من غير ذلك أعظم وأكثر منه، ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر ؟ ألا ترى إلى قوله: **﴿وينزل من السماء من جبال فيها من برد﴾** لعجبهم من ذلك وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا لا يعرفونه ؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: **﴿سرابيل تقيكم الحر﴾** وما بقى من البرد أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب حر.

وقوله: **﴿فإن تولوا﴾** أي بعد هذ البيان وهذا الامتنان، فلا عليك منهم، **﴿فإنما عليك البلاغ المبين﴾** وقد أديته إليهم. **﴿يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها﴾** أي يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق إلى غيره **﴿وأكثرهم الكافرون﴾**.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى: **﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾** أي في الاعتذار، لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كما قال: **﴿هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾** [المرسلات: ٣٥-٣٦]. ولهذا قال: **﴿ولا هم يستعتبون * وإذا رأى الذين ظلموا﴾** أي الذين أشركوا **﴿العذاب فلا يخفف عنهم﴾** أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة. **﴿ولا هم ينظرون﴾** أي لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب، فإنه إذا جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فيشرف عنق منها على الخلائق، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد الذي جعل مع الله إلها آخر وبكذا وبكذا، وتذكر أصنافاً من الناس، كما جاء في الحديث [الذي رواه مسلم بنحوه]. ثم تنطوي عليهم وتتلقطهم من الموقف كما يتلقط الطائر الحب، قال الله تعالى: **﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً، وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً، لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً، وادعوا ثبوراً كثيراً﴾** [الفرقان: ١٢-١٤].

ثم أخبر تعالى عن تبري آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال: **﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾** أي الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا **﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك * فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون﴾** أي قالت لهم الآلهه: كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا، كما قال تعالى: **﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾** [الأحقاف: ٥-٦]، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله: **﴿وألقوا إلى الله يومئذ السلم﴾** قال قتادة وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أي استسلموا لله جميعُهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، وكما قال تعالى: **﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾** [مريم: ٣٨] أي ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ، وقال تعالى: **﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾** [السجدة: ١٢]، وقال: **﴿وعنت الوجوه للحي القيوم﴾** [طه: ١١١]. وقوله: **﴿وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾** أي ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا مجير.

ثم قال تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ أي عذاباً على كفرهم، وعذاباً على صدهم الناس عن اتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾ [الأنعام:٢٦] أي ينهون الناس عن اتباعه، ويبتعدون هم منه أيضاً ﴿وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ [الأنعام:٢٦] وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) ﴾.

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ يعني أمته، أي اذكر ذلك اليوم وهوله، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع، وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء، فلما وصل إلى قوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ [النساء:٤١]. فقال له رسول الله ﷺ: «حسبك» فقال ابن مسعود رضي الله عنه: فالتفت فإذا عيناه تذرفان. [متفق عليه].

وقوله: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ قال ابن مسعود: قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء. وقال مجاهد: كل حلال وحرام، وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم ﴿وهدى﴾ أي للقلوب ﴿ورحمة وبشرى للمسلمين﴾. وقال الأوزاعي: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ أي: بالسنة، ووجه اقتران قوله: ﴿ونزلنا عليك الكتاب﴾ مع قوله: ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ أن المراد ـ والله أعلم ـ إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك، سائلك عن ذلك يوم القيامة ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ [الأعراف:٦].

﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾.

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان، كما قال تعالى: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ [النحل:١٢٦]، وقال: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ [الشورى:٤٠]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والندب إلى الفضل.

وقوله: ﴿وإيتاء ذي القربى﴾ أي يأمر بصلة الأرحام، كما قال: ﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً﴾ [الإسراء:٢٦]. وقوله: ﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر﴾ فالفواحش المحرمات. والمنكرات ما ظهر منها؛ ولهذ قال في الموضع الآخر:

﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ [الأعراف: ٣٣]. وأما البغي فهو العدوان على الناس. وقد جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»[رواه الترمذي وغيره وقال: حسن صحيح]. وقوله: ﴿يعظكم﴾ أي يأمركم بما يأمركم به من الخير وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ﴿لعلكم تذكرون﴾. قال ابن مسعود: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الآية، وقال قتادة: ليس من خلق حسن، كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنون إلا أمر الله به، وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه بينهم، إلا نهى الله عنه وقدم فيه. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها. قلت: ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سَفْسافها» [رواه الحاكم وصححه].

وقد ورد في نزول هذه الآية الكريمة حديث حسن رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته جالس إذ مر به عثمان بن مظعون، فكشر إلى رسول الله فقال له رسول الله ﷺ: «ألا تجلس ؟ فقال: بلى، قال: فجلس رسول الله ﷺ مستقبله، فبينما هو يحدثه إذ شَخَص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى السماء، فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمنته في الأرض، فتحرف رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره، فأخذ ينغض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابن مظعون ينظر، فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له، شخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة، فأتبعه بصره حتى توارى في السماء، فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى، فقال: يامحمد فيما كنت أجالسك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة! قال: «وما رأيتني فعلت ؟» قال: رأيتك شخص بصرك إلى السماء، ثم وضعته حيث وضعته على يمينك، فتحرفت إليه وتركتني، فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك، قال: «وفطنت لذلك ؟» فقال عثمان: نعم، قال رسول الله ﷺ: «أتاني رسول الله آنفاً وأنت جالس» قال: رسول الله ؟ قال: «نعم». قال: فما قال لك ؟ قال: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الآية، قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً ﷺ . إسناده جيد متصل حسن.

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

هذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة؛ ولهذا قال: ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ الآية [البقرة: ٢٢٤]، وبين قوله تعالى: ﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم﴾ [المائدة: ٨٩] أي لا تتركوها بلا كفارة، وبين قوله عليه

السلام فيما ثبت عنه في الصحيحين قال: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها ـ وفي رواية ـ وكفرت عن يميني» لا تعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة ههنا، وهي قوله: ﴿**ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها**﴾ لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع؛ ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿**ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها**﴾ يعني الحلف، أي حلف الجاهلية. ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية فإنه لم يزده الإسلام إلا شدة» وكذا رواه مسلم. ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وأما ما ورد في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا، فمعناه أنه آخى بينهم فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك، والله أعلم.

وروى الإمام أحمد عن نافع قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم تشهد، ثم قال: أما بعد فإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال: هذه غدرة فلان، وإن من أعظم الغدر ـ إلا أن يكون الإشراك بالله ـ أن يبايع رجل رجلاً على بيع الله ورسوله، ثم ينكث بيعته، فلا يخلعن أحد منكم يزيد ولا يسرفن أحد منكم في هذا الأمر، فيكون فصل بيني وبينه». المرفوع منه في الصحيحين.

وقوله: ﴿**إن الله يعلم ما تفعلون**﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها. وقوله: ﴿**ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً**﴾ قال عبد الله بن كثير والسدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه. وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده، وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا. وقوله: ﴿**أنكاثاً**﴾ يحتمل أن يكون اسم مصدر، ﴿**نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً**﴾ أي أنقاضاً، ويحتمل أن يكون بدلاً عن خبر كان أي لا تكونوا أنكاثاً جمع نكث من ناكث؛ ولهذا قال بعده: ﴿**تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم**﴾ أي خديعة ومكراً ﴿**أن تكون أمة هي أربى من أمة**﴾ أي يحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم، فنهى الله عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى، إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى.

قال ابن عباس: ﴿**أن تكون أمة هي أربى من أمة**﴾ أي أكثر، وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر

وأعز، فنهوا عن ذلك. وقال الضحاك وقتادة وابن زيد نحوه. وقوله: ﴿**إنما يبلوكم الله به**﴾ قال سعيد بن جبير: يعني بالكثرة، وقال ابن جرير: أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد. ﴿**وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون**﴾ فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

يقول الله تعالى: ﴿**ولو شاء الله لجعلكم**﴾ أيها الناس ﴿**أمة واحدة**﴾ كما قال تعالى: ﴿**ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً**﴾ [يونس:٩٩] أي لوفق بينكم ولما جعل اختلافاً ولا تباغض ولا شحناء ﴿**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم**﴾ [هود:١١٨-١١٩]، وهكذا قال ههنا: ﴿**ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء**﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على الفتيل والنقير والقطمير. ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلاً أي خديعة ومكراً لئلا تزل قدم بعد ثبوتها، مَثَلٌ لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزلَّ عن طريق الهدى، بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام، ولهذا قال ﴿**وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم**﴾.

ثم قال تعالى: ﴿**ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلاً**﴾ أي لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عَرَض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وحفظ عهده رجاء موعوده؛ ولهذا قال: ﴿**إن كنتم تعلمون * ما عندكم ينفد**﴾ أي يفرغ وينقضي فإنه إلى أجل معدود مُتَناه، ﴿**وما عند الله باق**﴾ أي وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاد له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول، ﴿**ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾ قسم من الرب عز وجل، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي ويتجاوز عن سيئها.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من ذكر أو أنثى، من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت. وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم

فسروها بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه فسرها بالقناعة، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه، وقال ابن عباس أيضا: إنها السعادة. وقال الحسن ومجاهد وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة. وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا، وقال الضحاك أيضاً: هي العمل بالطاعة والانشراح بها، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافاً، وقنّعه الله بما آتاه»، ورواه مسلم.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، وهذا أمر ندب ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة. والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة، لئلا يلبس على القارىء قراءته، ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكر، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة، وحكي عن حمزة وأبي حاتم السجستاني: أنها تكون بعد التلاوة، واحتجا بهذه الآية. ونقل النووي في شرح المهذب مثل ذلك عن أبي هريرة أيضاً ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعي والصحيح الأول لما للأحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة، والله أعلم.

وقوله: ﴿**إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون**﴾ قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه، وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم. وقال آخرون كقوله: ﴿**إلا عبادك منهم المخلصين**﴾ [ص:٨٣]، ﴿**إنما سلطانه على الذين يتولونه**﴾ قال مجاهد: يطيعونه، وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله ﴿**والذين هم به مشركون**﴾ أي أشركوا في عبادة الله تعالى. أي أشركوه في عبادة الله، ويحتمل أن تكون الباء سببية، أي صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى. وقال آخرون: معناه أنه شَرَكَهُم في الأموال والأولاد.

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يُتَصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول ﷺ: ﴿**إنما أنت مفتر**﴾ أي كذاب، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وقال مجاهد: ﴿**بدلنا آية مكان آية**﴾ أي رفعناها وأثبتنا غيرها، وقال قتادة: هو كقوله تعالى: ﴿**ما ننسخ من آية أو ننسها**﴾ [البقرة:١٠٦]، فقال تعالى مجيباً لهم ﴿**قل نزله روح القدس**﴾ أي جبريل ﴿**من ربك بالحق**﴾ أي بالصدق والعدل ﴿**ليثبت الذين آمنوا**﴾ فيصدقوا

بما أنزل أولاً وثانياً، وتخبت له قلوبهم ﴿وهدى وبشرى للمسلمين﴾ أي وجعله هاديا وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله.

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء أن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش، وكان بياعاً يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه، فلهذا قال الله تعالى: راداً عليهم في افترائهم ذلك ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ أي القرآن، أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي أُرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي ؟ لا يقول هذا من له أدنى مُسْكة من العقل.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتَغَافل عما أنزله على رسوله ﷺ ولم يكن له قصد إلى الايمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الايمان بآياته وما أرسل به رسله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة، ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب، لأنه ﴿إنما يفتري الكذب﴾ على الله وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق، ﴿الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس، والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد ﷺ، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال: لا ، فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل. [رواه البخاري].

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به، أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذابا عظيماً في الدار الآخرة، لأنهم

استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم، فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يراد بهم، ﴿لا جرم﴾ أي لابد ولا عجب أن من هذه صفته ﴿أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ أي الذين خسروا أنفسهم وأهاليهم يوم القيامة ـ وأما قوله: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ فهو استثناء فيمن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لِمَا ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

وقد روي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية. وهكذا قال الشعبي وأبو مالك وقتادة.

ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يوالي المكره على الكفر إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يستقتل كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم، وهو يقول: أحد، أحد. ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها، رضي الله عنه وأرضاه. وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول: لا أسمع. فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك.

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي أحد الصحابة أنه أسرته الروم، فجاءوا به إلى ملكهم فقال له: تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي، فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت، فقال: إذاً أقتلك، فقال: أنت وذاك، قال: فأمر به فصلب، وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقدر، وفي رواية ببقرة من نحاس فأحميت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح، وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقى فيها، فرفع في البكرة ليلقى فيها، فبكى فطمع فيه ودعاه، فقال له: إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله. وفي بعض الروايات أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل ؟ فقال: أما إنه قد حلَّ لي، ولكن لم أكن لأشمتك في، فقال له الملك: فقبل رأسي وأنا أطلقك، فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين ؟ قال: نعم،

فقبل رأسه فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ فقام فقبل رأسه.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

هؤلاء صنف آخر كانو مستضعفين بمكة، مهانين في قومهم قد واتوهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا، فأخبر الله تعالى أنه من بعدها، أي تلك الفعلة وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم رحيم بهم يوم معادهم. **﴿يوم تأتي كل نفس تجادل﴾** أي تحاج **﴿عن نفسها﴾** ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة **﴿وتوفى كل نفس ما عملت﴾** أي من خير وشر **﴿وهم لا يظلمون﴾** أي لا ينقص من ثواب الخير، ولا يزداد على ثواب الشر، ولا يظلمون نقيراً.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

هذا مثل أريد به أهلُ مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يُتخطَّف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمنا لا يخاف، كما قال تعالى: **﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا﴾** [القصص: ٥٧]، وهكذا قال ههنا: **﴿يأتيها رزقها رغداً﴾** أي هنيئاً سهلاً **﴿من كل مكان فكفرت بأنعم الله﴾** أي جحدت آلاء الله عليها وأعظم ذلك بعثة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: **﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار﴾** [إبراهيم: ٢٨-٢٩]. ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما، فقال: **﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف﴾** أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك لمَّا استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العِلْهِز وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه.

وقوله: **﴿والخوف﴾** وذلك أنهم بُدِّلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة، من سطوته وسراياه وجيوشه، وجعل كل ما لهم في سَفَال ودمار حتى فتحها الله على رسوله ﷺ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم في قوله: **﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾** [آل عمران: ١٦٤]. وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد،

فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً، ورزقهم بعد العيلة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم، وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل مضروب لمكة قاله ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وحكاه مالك عن الزهري رحمهم الله.

وروى ابن جرير عن سليم بن عتر يقول: صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبي ﷺ وعثمان رضي الله عنه محصور بالمدينة، فكانت تسأل عنه ما فعل؟ حتى رأت راكبين فأرسلت إليهما تسألهما فقالا: قتل، فقالت حفصة: والذي نفسي بيده إنها القرية ـ تعني المدينة ـ التي قال الله تعالى: ﴿**وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله**﴾.

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير ﴿**وما أهل لغير الله به**﴾ أي ذبح على غير اسم الله، ومع هذا ﴿**فمن اضطر**﴾ أي احتاج في غير بغي ولا عدوان ﴿**فإن الله غفور رحيم**﴾.

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وضعوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك، مما كان شرعاً لهم ابتدعوه في جاهليتهم، فقال: ﴿**ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب**﴾ ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئاً مما حرم الله، أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهِّيه، و«ما» في قوله: ﴿**لما تصف**﴾ مصدرية، أي ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم، ثم توعد على ذلك فقال: ﴿**إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون**﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿**نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ**﴾ [لقمان: ٢٤] وقال: ﴿**إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون، متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون**﴾ [يونس: ٦٩-٧٠].

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وأنه

أرخص فيه عند الضرورة ـ وفي ذلك توسعة لهذه الأمة التي يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر ـ ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والأغلال والحرج والتضييق، فقال: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل﴾ أي في سورة الأنعام في قوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ماحملت ظهورهما ـ إلى قوله ـ لصادقون﴾ [الأنعام:١٤٦]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وما ظلمناهم﴾ أي فيما ضيقنا عليهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي فاستحقوا ذلك، كما قال: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾ [النساء:١٦٠]. ثم أخبر تعالى تكرماً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين: أن من تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل. ﴿ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ أي أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿إن ربك من بعدها﴾ أي تلك الفعلة والزلة ﴿لغفور رحيم﴾.

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

يمدح تبارك وتعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية، فقال: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً﴾ فأما الأمة: فهو الإمام الذي يقتدى به، والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿ولم يك من المشركين﴾ قال عبد الله بن مسعود: الأمة معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله، وعن ابن عمر قال: الأمة الذي يعلم الناس دينهم، وقال ابن مسعود: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً، فقلت في نفسي: غلط أبو عبد الرحمن، إنما قال الله: ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ فقال: أتدري ما الأمة وما القانت؟ قلت: الله أعلم، فقال: الأمة الذي يعلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله، وكذلك كان معاذ. وقال مجاهد: أمة أي أمة وحده، والقانت المطيع وقال مجاهد أيضاً: كان إبراهيم أمة أي مؤمناً وحده والناس كلهم إذ ذاك كفار. وقال قتادة: كان إمام هدى، والقانت المطيع لله. وقوله: ﴿شاكراً لأنعمه﴾ أي قائماً بشكر نعم الله عليه، كما قال تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ [النجم:٣٧]، أي قام بجميع ما أمره الله تعالى به.

وقوله: ﴿اجتباه﴾ أي اختاره واصطفاه. ثم قال: ﴿وهداه إلى صراط مستقيم﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي. وقوله: ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾ أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة ﴿وإنه في الآخرة لمن

الصالحين﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾ أي لسان صدق. وقوله: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك ياخاتم الرسل وسيد الأنبياء ﴿أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ كما قال في الأنعام: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم * ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ [الأنعام: ١٦١]، ثم قال تعالى منكراً على اليهود.

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة، واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده، ويقال: إن الله تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى فعدلوا عنه، واختاروا السبت لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذي كمل خلقها يوم الجمعة، فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه وأَخْذِه مواثيقهم وعهودهم على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه﴾ قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنه حولهم إلى يوم الأحد، ويقال إنه لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها، وإنه لم يزل محافظا على السبت حتى رفع، وإن النصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد مخالفة لليهود، وتحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة، والله أعلم.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع: اليهود غداً والنصارى بعد غد».

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله ﴿بالحكمة﴾. قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة ﴿والموعظة الحسنة﴾، أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى. وقوله: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كما قال تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾ [العنكبوت: ٤٦] فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون فقال:

﴿فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾ [طه: ٤٤].

وقوله: ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ أي قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

يأمر تعالى بالعدل في الاقتصاص والمماثلة في استيفاء الحق، كما قال ابن سيرين: إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذ مثله، وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصري وغيرهم واختاره ابن جرير. وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذوو منعة، فقالوا: يارسول الله لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب. فنزلت هذه الآية، ثم نسخ ذلك بالجهاد.

وروى عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لَنُرْبِيَنَّ عليهم، فلما كان يوم الفتح قال رجل: لا تعرف قريش بعد اليوم، فنادى مناد: إن رسول الله ﷺ أمن الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً ـ ناساً سماهم ـ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ فقال رسول الله ﷺ: «نصبر ولا نعاقب». [رواه الترمذي وقال: حسن غريب، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي]. وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل كما في قوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ ثم قال: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال: ﴿والجروح قصاص﴾ ثم قال ﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال في هذه الآية: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ ثم قال ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾.

وقوله: ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾ تأكيد للأمر بالصبر وإخبار بأن ذلك إنما ينال بمشيئة الله وإعانته. ثم قال تعالى: ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي على من خالفك فإن الله قدر ذلك ﴿ولا تك في ضيق﴾ أي غم ﴿مما يمكرون﴾ أي مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك ومظهرك ومظفرك بهم. وقوله: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ أي معهم بتأييده ونصره ومعونته وهذه معية خاصة كقوله لموسى وهارون: ﴿لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾ [طه: ٤٦]، وقول النبي ﷺ للصديق وهما في الغار: ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ [التوبة: ٤٠].

وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وهو معكم أين ما كنتم والله بما

تعملون بصير﴾ [الحديد: ٤]، وكقوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا﴾ [المجادلة: ٧]. ومعنى ﴿الذين اتقوا﴾ أي تركوا المحرمات، ﴿والذين هم محسنون﴾ أي فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم وينصرهم ويؤيدهم ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم.

تفسير سورة الإسراء وهي مكية.

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل، والزمر. [رواه الترمذي وصححه].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾.

يمجد تعالى نفسه، ويعظم شأنه، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره، ﴿الذي أسرى بعبده﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ليلاً﴾ أي في جنح الليل ﴿من المسجد الحرام﴾ وهو مسجد مكة ﴿إلى المسجد الأقصى﴾ وهو بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام؛ ولهذا جُمِعُوا له هناك كلهم فأمهم في دارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله تعالى: ﴿الذي باركنا حوله﴾ أي في الزروع والثمار ﴿لنريه﴾ أي محمداً ﴿من آياتنا﴾ أي العظام. كما قال تعالى: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ [النجم: ١٨]. وسنذكر من ذلك [بعض] ما وردت به السنة من الأحاديث عنه ﷺ، وقوله تعالى: ﴿إنه هو السميع البصير﴾ أي السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم، البصير بهم فيعطي كلاً منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

ذكر بعض الأحاديث الورادة في الإسراء

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن فقال جبريل: أصبت الفطرة. قال: ثم عرج بي إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت ؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك ؟ قال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه ؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل له: من أنت.

قال: جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه ؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى فرحبا بي ودعوا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت فقال: جبريل فقيل ومن معك فقال محمد فقيل وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ فقال: جبريل. فقيل: ومن معك ؟ قال: محمد، فقيل: وقد أرسل إليه ؟ قال: قد بعث إليه ففتح الباب فإذا أنا بإدريس فرحب ودعا لي بخير. ثم قال يقول الله تعالى: ﴿**ورفعناه مكاناً عليا**﴾ [مريم:٥٧]. ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت ؟ فقال جبريل، فقيل: ومن معك ؟ فقال: محمد. فقيل: قد أرسل إليه ؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون، فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه ؟ قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بموسى عليه السلام، فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت ؟ قال: جبريل. قيل ومن معك ؟ قال: محمد. فقيل وقد بعث إليه ؟ قال قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها. قال: فأوحى الله إليّ ما أوحى، وفرض علي في كل يوم وليلة خمسين صلاة فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، قال ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت خمسين صلاة في كل يوم وليلة، قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فإن أمتك لا تطيق ذلك وإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال فرجعت إلى ربي فقلت أي رب خفف عن أمتي فحط عني خمساً، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال ما فعلت ؟ فقلت قد حط عني خمساً فقال إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى ويحطّ عني خمساً خمساً حتى قال: يا محمد هن خمس صلوات في كل يوم وليلة بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن علمها كتبت عشراً، ومن هم بسيئة فلم يعلمها لم تكتب، فإن عملها كتبت سيئة واحدة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت» ورواه مسلم.

وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر فجَلّى الله لي بيت المقدس، فطفقت

أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه» أخرجاه في الصحيحين.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: أسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبعيرهم، فقال ناس: نحن لا نصدق محمداً بما يقول، فارتدوا كفاراً فضرب الله رقابهم مع أبي جهل، وقال أبو جهل: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمراً وزبداً فتزقموا، ورأى الدجال في صورته رؤيا عين ليس برؤيا منام وعيسى وموسى وإبراهيم، وسئل النبي ﷺ عن الدجال فقال «رأيته فيلمانياً أقمر هجاناً، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دري، كأن شعر رأسه أغصان شجرة، ورأيت عيسى عليه السلام أبيض، جعد الرأس حديد البصر، ومبطن الخلق، ورأيت موسى عليه السلام أسحم آدم، كثير الشعر، شديد الخلق، ونظرت إلى إبراهيم عليه السلام فلم أنظر إلى إِرْبٍ منه إلا نظرت إليه مني حتى كأنه صاحبكم، قال جبريل: سلم على أبيك، فسلمت عليه» ورواه النسائي وهو صحيح.

وروى البيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أسري بي مرت بي رائحة طيبة، فقلت: ما هذه الرائحة ؟ قالوا: ماشطة بنت فرعون وأولادها، سقط مشطها من يدها فقالت: باسم الله، فقالت ابنة فرعون أبي، قالت ربي وربك ورب أبيك، قالت أولك رب غير أبي ؟ قالت نعم ربي وربك ورب أبيك الله.. قال: فدعاها، فقال: ألك رب غيري ؟ قالت نعم ربي وربك الله عز وجل. قال فأمر ببقرة من نحاس، فأحميت ثم أمر بها أن تلقى فيها، قالت: إن لي إليك حاجة، قال: ما هي ؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي في موضع، قال: ذاك لك لما لك علينا من الحق، قال: فأمر بهم فألقوا واحداً واحداً حتى بلغ رضيعاً فيهم، فقال: يا أمه قعي ولا تقاعسي، فإنك على الحق، قال: وتكلم أربعة في المهد وهم صغار: هذا وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم عليه السلام. إسناد لا بأس به.

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فتذاكروا أمر الساعة، قال: فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام، فقال: لا علم لي بها، فردوا أمرهم إلى موسى فقال: لا علم لي بها، فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل، وفيما عهد إلي ربي أن الدجال خارج، قال: ومعي قضيبان فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص، قال: فيهلكه الله إذا رآني حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم إن تحتي كافراً فتعال فاقتله، قال: فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، قال: فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون فيطؤون بلادهم فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه، قال: ثم يرجع الناس إلي فيشكونهم فأدعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم، أي تنتن، قال: فينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر، ففيما عهد إلي ربي أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادتها

ليلاً أو نهاراً. وأخرجه ابن ماجه [وقال البوصيري: هذا إسناده صحيح].

وقد روى البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حين أسري بي، لقيت موسى عليه السلام ـ فنعته، فإذا رجل حسبته قال ـ مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة، قال: ولقيت عيسى ـ فنعته النبي ﷺ ـ ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس ـ يعني حمام، قال ـ ولقيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به، قال: وأتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر، قيل لي: خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربت، فقيل لي: هديت الفطرة ـ أو أصبت الفطرة ـ أما إنك لو أخذت خمراً غوت أمتك».

فصل وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام، ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب، ولم يتحصل على مطلب. وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه عليه السلام أسري به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء، وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات، وهذا بعيد جداً، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف ولو تعدد هذا التعدد، لأخبر النبي ﷺ به أمته، ولنقله الناس على التعدد والتكرر.

قال الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة، وكذا قال عروة. وقال السدي: بستة عشر شهراً، والحق أنه عليه السلام أسري به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد، ربط الدابة عند الباب ودخله، فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مر بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة وغشيتها الملائكة ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسند ظهره إليه، لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. ورأى الجنة والنار وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها. ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء فصلى بهم، ومن الناس من

يزعم أنه أمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه. والظاهر أنه بعد رجوعه إليه لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً، وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق، لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع هو وإخوانه من النبيين ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك.

ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله سبحانه وتعالى أعلم، وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل أو اللبن والخمر، أو اللبن والماء أو الجميع فقد ورد أنه في بيت المقدس وجاء أنه في السماء. ويحتمل أن يكون ههنا وههنا، لأنه كالضيافة للقادم، والله أعلم.

ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه، أو بروحه فقط ؟ على قولين، فالأكثرون من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكر أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً ثم رآه بعد يقظة، لأنه كان عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله**﴾ فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم، وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقال تعالى ﴿**أسرى بعبده ليلا**﴾ وقال تعالى: ﴿**وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس**﴾ قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، رواه البخاري، وقال تعالى: ﴿**ما زاغ البصر وما طغى**﴾ [النجم:١٧]، والبصر من آلات الذات لا الروح، وأيضاً فإنه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه، والله أعلم.

فائدة: قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه «التنوير في مولد السراج المنير» وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس وتكلم عليه فأجاد وأفاد، ثم قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلي وابن مسعود وأبي ذر ومالك بن صعصعة وأبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس، وشداد بن أوس وأبي بن كعب وعبد الرحمن بن قرط وأبي حبة وأبي ليلى الأنصاريين، وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة وبريدة، وأبي أيوب وأبي أمامة وسمرة بن جندب وأبي الحمراء، وصهيب الرومي وأم هانىء، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين، منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في

المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون ﴿**يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون**﴾ [الصف:٨].

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد ﷺ، عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام، وبين ذكر التوراة والقرآن؛ ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿**وآتينا موسى الكتاب**﴾ يعني التوراة ﴿**وجعلناه**﴾ أي الكتاب ﴿**هدى**﴾ أي هادياً ﴿**لبني إسرائيل ألاّ تتخذوا**﴾ أي لئلا تتخذوا ﴿**من دوني وكيلاً**﴾ أي ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني، لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿**ذرية من حملنا مع نوح**﴾ تقديره يا ذرية من حملنا مع نوح، فيه تهييج وتنبيه على المنة، أي يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم ﴿**إنه كان عبداً شكوراً**﴾ فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمداً ﷺ. وقد ورد في الأثر عن السلف أن نوحاً عليه السلام كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله، فلهذا سمي عبداً شكوراً. روى الطبراني عن سعد بن مسعود الثقفي قال: إنما سمي نوح عبداً شكوراً، لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها» وهكذا رواه مسلم. وقال مالك عن زيد بن أسلم: كان يحمد الله على كل حال. وقد روى البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ـ بطوله، وفيه ـ فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، فاشفع لنا إلى ربك» وذكر الحديث بكماله.

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، ويعلون علواً كبيراً، أي يتجبرون ويطغون على

الناس، كقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ [الحجر:٦٦] أي تقدمنا إليه، وأخبرناه بذلك، وأعلمناه به. وقوله: ﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ أي أولى الإفسادتين ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ أي سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولي بأس شديد؛ أي قوة وعدة وسلطة شديدة، فجاسوا خلال الديار، أي تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أي بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحداً وكان وعداً مفعولاً.

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم من هم ؟ فعن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت وجنوده، سلط عليهم أولاً ثم أديلوا عليه بعد ذلك. وقتل داود جالوت، ولهذا قال: ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾ الآية، وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل وجنوده. وعنه أيضاً وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل.

وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أرَ تطويل الكتاب بذكرها، لأن منها ما هو من وضع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً، ونحن في غُنْيَة عنها، ولله الحمد. وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم. وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا، سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بَيْضَتَهم، وسلك خلال بيوتهم، وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء. وقد روى ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال: ظهر بُختنَصَّر على الشام، فخرب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلي على كِبًا، فسألهم، ما هذا الدم ؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر، قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فسكن. [والكبا: الكناسة والتراب] وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ منهم خلقاً كثيراً أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها، ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾ أي فعليها، كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ [فصلت:٤٦]. وقوله: ﴿فإذا جاء وعد الاخرة﴾ أي المرة الآخرة، أي إذا أفسدتم المرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿ليسوءوا وجوهكم﴾ أي يهينوكم ويقهروكم، ﴿وليدخلوا المسجد﴾ أي بيت المقدس ﴿كما دخلوه أول مرة﴾ أي في التي جاسوا فيها خلال الديار، ﴿وليتبروا﴾ أي يدمروا ويخربوا ﴿ما علوا﴾ أي ما ظهروا عليه ﴿تتبيراً * عسى ربكم أن يرحمكم﴾ أي فيصرفهم عنكم، ﴿وإن عدتم عدنا﴾ أي متى عدتم إلى الإفساد ﴿عدنا﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال، ولهذا

قال: ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ أي مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه. قال ابن عباس: حصيراً أي سجناً. وقال مجاهد: يحصرون فيها، وكذا قال غيره، وقال الحسن: فراشاً ومهاداً. وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل، فسلط الله عليهم محمد ﷺ وأصحابه، يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾.

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، وهو القرآن بأنه يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل، ويبشر المؤمنين به الذين يعملون الصالحات على مقتضاه، أن لهم أجراً كبيراً، أي يوم القيامة، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة، أي ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن لهم عذاباً أليماً، أي يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ [آل عمران: ٢١].

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر أي بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم﴾ [يونس: ١١]، وكذا فسره ابن عباس ومجاهد وقتادة، وفي الحديث: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا على أموالكم، أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها». [رواه مسلم]. وإنما يحمل ابن آدم على ذلك عجلتُه وقلقُه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وكان الإنسان عجولاً﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾.

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل، وينتشروا في النهار للمعايش والصنائع، والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾ أي في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك، ﴿ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء؟ أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ [القصص: ٧١-٧٣]. وقال تعالى: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾ [يس: ٣٧-٣٨] ثم إنه تعالى جعل لليل آية، أي علامة يعرف بها، وهي

الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة وهي النور وطلوع الشمس النيرة فيه، وفاوت بين نور القمر وضياء الشمس ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق ـ إلى قوله ـ لآيات لقوم يتقون﴾ [يونس:٥ـ٦]، وقال تعالى: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ [البقرة:١٨٩].

قال عبد الله بن كثير في قوله: ﴿فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ قال: ظلمة الليلة وسدف النهار. وقال مجاهد: الشمس آية النهار والقمر آية الليل، ﴿فمحونا آية الليل﴾ قال: السواد الذي في القمر، وكذلك خلقه الله تعالى. ونحوه عن ابن عباس. وقد روى أبو جعفر بن جرير من طرق متعددة جيدة أن ابن الكَوَّاء سأل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فقال: يا أمير المؤمنين ما هذه اللطخة التي في القمر؟ فقال: ويحك أما تقرأ القرآن؟ فقال: فمحونا آية الليل فهذه محوه. وقال قتادة في قوله: ﴿فمحونا آية الليل﴾ كنا نحدث أن محو آية الليل سواد القمر الذي فيه، وجعلنا آية النهار مبصرة أي منيرة، وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ قال ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما الله عز وجل.

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾.

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾ وطائره هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما، من خير وشر، يُلزم به ويجازى عليه، ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [الزلزلة:٥ـ٦]. والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساء.

وقوله: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ أي نجمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة إما بيمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقياً، منشوراً أي مفتوحاً يقرؤه هو وغيره فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر * بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره﴾ [القيامة:١٣ـ١٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ أي إنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت، لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي. وقوله: ﴿ألزمناه طائره في عنقه﴾ إنما ذكر العنق لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له في الجسد، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه.

وقال قتادة: ﴿ألزمناه طائره في عنقه﴾ قال عمله ﴿ونخرج له يوم القيامة﴾ قال: نخرج ذلك

العمل ﴿كتاباً يلقاه منشوراً﴾ قال معمر، وتلا الحسن البصري ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ [ق:١٧] يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً، ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ الآية، قد عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك، هذا من أحسن كلام الحسن، رحمه الله.

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾.

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق، واقتفى أثر النبوة، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه، ﴿ومن ضل﴾ أي عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ثم قال: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جان إلا على نفسه، كما قال تعالى: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء﴾ [فاطر:١٨]. ولا منافاة بين هذا وبين قوله: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ [العنكبوت:١٣]، وقوله: ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ [النحل:٢٥]، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئاً. وهذا من عدل الله ورحمته بعباده، وكذا قوله تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كقوله تعالى: ﴿كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾ [الملك:٨-٩]، وكذا قوله: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا، قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾ [الزمر:٧١]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه.

وههنا مسألة قد اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى فيها قديماً وحديثاً، وهي الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار: ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف ومن مات في الفترة ولم تبلغه الدعوة؟ وقد ورد في شأنهم أحاديث.

منها ما روى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع أن نبي الله ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب قد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي

مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول. فيأخذ مواثيقهم ليطيعنّه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفس محمد بيده، لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً». [وروى الحافظ أبو يعلى الحديث وفيه: «يؤتى بأربعة يوم القيامة: بالمولود، والمعتوه وساقه بنحوه، وله شاهد من حديث أبي سعيد عند أحمد والبزار].

[وعنده] عن أبي هريرة مثله، غير أنه قال في آخره: «فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها يسحب إليها»، ورواه البيهقي في كتاب الاعتقاد وقال: هذا إسناده صحيح.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء ؟» وفي رواية قالوا: يارسول الله، أفرأيت من يموت صغيراً ؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ذراري المسلمين في الجنة يكفلهم إبراهيم عليه السلام». [ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

فمن العلماء من ذهب إلى التوقف فيهم، ومنهم من جزم لهم بالجنة لحديث سمرة بن جندب في صحيح البخاري أنه عليه الصلاة والسلام قال في جملة ذلك المنام حين مر على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، فقال له جبريل: هذا إبراهيم عليه السلام، وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين، قالوا: يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ قال: «نعم وأولاد المشركين». ومنهم من جزم لهم بالنار لقوله عليه السلام: «هم مع آبائهم». [رواه أحمد وأبوداود بنحوه]. ومنهم من ذهب إلى أنّهم يمتحنون يوم القيامة في العرصات، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف على الله فيهم بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً وانكشف علم الله به بسابق الشقاوة وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض، وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عن أهل السنة والجماعة، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب الاعتقاد، وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ والنقاد.

ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها، روي ذلك عن ابن عباس والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد بن الحنفية وغيرهم، وأخرج ابن حبان في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال أمر هذه الأمة مواتياً أو مقارباً ما لم يتكلموا في الولدان والقدر». قال ابن حبان: يعني أطفال المشركين، وهكذا رواه أبو بكر البزار.

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ ﴾.

اختلف القراء في قراءة قوله ﴿أمرنا﴾ فالمشهور قراءة التخفيف، واختلف المفسرون في

معناها، فقيل: معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قدرياً، كقوله تعالى: ﴿أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً﴾ [يونس: ٢٤]، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش، فاستحقوا العذاب، وقيل: معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة، روي عن ابن عباس، وقاله سعيد بن جبير أيضاً. وقال ابن جرير: يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء، قلت إنما يجيء هذا على قراءة من قرأ ﴿أمّرنا مترفيها﴾، قال ابن عباس في قوله: ﴿أمّرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب، وهو قوله: ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها لِيَمْكُرُوا فيها﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس.

وقال ابن عباس أيضا: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ يقول: أكثرنا عددهم، وكذا قال عكرمة والحسن والضحاك وقتادة. وعن الزهري: ﴿أمرنا مترفيها﴾ أكثرنا.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾ ﴾.

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ، بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسل من بعد نوح، ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام كما قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذّبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى. وقوله: ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾ أي هو عالم بجميع أعمالهم: خيرها وشرها لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى.

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومٗا مَّدْحُورٗا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورٗا ﴿١٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل عليه، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات، فإنه قال: ﴿عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم﴾ أي في الآخرة ﴿يصلاها﴾ أي يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿مذموماً﴾ أي في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفاني على الباقي ﴿مدحوراً﴾ مبعداً حقيراً ذليلاً.

وقوله: ﴿ومن أراد الآخرة﴾ أي أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿وسعى لها سعيها﴾ أي طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﷺ ﴿وهو مؤمن﴾ أي وقلبه مؤمن، أي مصدق بالثواب والجزاء ﴿فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾.

﴿ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٖۚ وَلَلْأٓخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلٗا ﴿٢١﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿كلاً﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة

نمدهم فيما هم فيه ﴿من عطاء ربك﴾ أي هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور، فيعطي كلاً ما يستحقه من السعادة والشقاوة، فلا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى ولا مغير لما أراد؛ ولهذا قال: ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ أي ممنوعاً أي لا يمنعه أحد، ولا يرده راد. قال قتادة: منقوصاً، وقال الحسن وابن جريج وابن زيد ممنوعاً، ثم قال تعالى: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقبيح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً، وبين ذلك ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ أي ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا، فإن منهم من يكون في الدركات في جهنم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العُلى ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدركات يتفاوتون في ما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفي الصحيحين: «إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾.

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

يقول تعالى، والمراد المكلفون من الأمة: لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكا ﴿فتقعد مذموما﴾ أي على إشراكك به ﴿مخذولا﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك بل يكلك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك ضراً ولا نفعاً، لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له.

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له، فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر، قال مجاهد: ﴿وقضى﴾ يعني وصى، وكذا قرأ أبي بن كعب وابن مسعود: «ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه»؛ ولهذا قرن بعبادته برّ الوالدين، فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي وأمر بالوالدين إحساناً، كقوله في الآية الأخرى ﴿أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير﴾ [لقمان:١٤]. وقوله: ﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف﴾ أي لا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيىء ﴿ولا تنهرهما﴾ أي ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿ولا تنهرهما﴾ أي لا تنفض يدك على والديك، ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن، فقال: ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ أي ليناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم، ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ أي تواضع لهما بفعلك ﴿وقل رب ارحمهما﴾ أي في كبرهما وعند وفاتهما، ﴿كما

ربياني صغيرا﴾. قال ابن عباس: ثم أنزل الله: **﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى﴾** [التوبة:١١٣].

وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة منها الحديث المروي من طرق عن أنس وغيره أن النبي ﷺ لما صعد المنبر قال: «آمين آمين آمين» قيل يا رسول الله علام أمنت؟ قال: «أتاني جبريل فقال: يا محمد رغم أنف امرىء ذكرت عنده فلم يصل عليك، قل: آمين، فقلت آمين، ثم قال رغم أنف امرىء دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له، قل: آمين، فقلت آمين، ثم قال: رغم أنف امرىء أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، قل: آمين، فقلت آمين». [والحديث بعضه في مسلم من حديث أبي هريرة، وحديث أنس عند البزار، وابن حبان وهو صحيح].

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

قال سعيد بن جبير: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به، وفي رواية: لا يريد إلا الخير بذلك، فقال: **﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم﴾**. وقوله: **﴿فإنه كان للأوابين غفوراً﴾** قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة، وعن ابن عباس: المسبحين، وفي رواية عنه: المطيعين المحسنين، وقال بعضهم: هم الذين يصلون بين العشاءين وقال بعضهم: هم الذين يصلون الضحى. وقال سعيد بن المسيب: الذي يصيب الذنب ثم يتوب، ويصيب الذنب ثم يتوب، وكذا قال عطاء بن يسار. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: هم الراجعون إلى الخير. وقال عبيد بن عمير: هو الذي إذا يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر الله منها، ووافقه مجاهد في ذلك، وقال عبيد بن عمير أيضا: كنا نعد الأواب الحفيظ، أن يقول: اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا. وقال ابن جرير: والأولى في ذلك قول من قال: هو التائب من الذنب، الراجع من المعصية إلى الطاعة مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه، وهذا الذي قاله هو الصواب، لأن الأوّاب مشتق من الأوب، وهو الرجوع، يقال: آب فلان إذا رجع، قال تعالى: **﴿إن إلينا إيابهم﴾**

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام، وفي الحديث: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله، فليصل رحمه» [متفق عليه].

وقوله: **﴿ولا تبذر تبذيراً﴾** لما أمر بالإنفاق، نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً كما قال في الآية الأخرى: **﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾** [الفرقان:٦٧]، ثم قال منفراً عن التبذير والسرف: **﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾** أي أشباههم في ذلك. قال ابن مسعود: التبذير الإنفاق في غير حق، وكذا قال ابن عباس،

وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً، ولو أنفق مداً في غير حقه كان تبذيراً. وقال قتادة: التبذير النفقة في معصية الله تعالى، وفي غير الحق وفي الفساد.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: أتى رجل من بني تميم إلى رسول الله فقال: يا رسول الله إني ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق، وكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «تخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين». فقال: يا رسول الله أقلل لي؟ فقال: «وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً». فقال: حسبي يا رسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها فلك أجرها، وإثمها على من بدلها». [رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

وقوله: ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ أي في التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته، ولهذا قال ﴿وكان الشيطان لربه كفوراً﴾ أي جحوداً، لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفته. وقوله: ﴿وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ أي وإذا سألك أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شيء، أعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ أي عدهم وعداً بسهولة ولين، إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله، هكذا فسر قوله: ﴿فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ بالوعد، مجاهد وسعيد بن جبير والحسن وغير واحد.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى آمراً بالاقتصاد في العيش، ذامّاً للبخل، ناهياً عن السرف ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ أي لا تكن بخيلاً منوعاً، لا تعطي أحداً شيئاً، وقوله: ﴿ولا تبسطها كل البسط﴾ أي ولا تسرف في الإنفاق، فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك فتقعد ملوماً محسوراً.

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو الدابة التي عجزت عن السير فوقفت ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال: ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ [الملك: ٣-٤] أي كليل عن أن يرى عيباً، هكذا فسر هذه الآية بأن المراد هنا البخل والسرف ابن عباس والحسن وابن زيد وغيرهم. وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثدييهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سَبَغَت أو وفرت على جلده حتى تُخفي بنانه

وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً».

وقوله: ﴿إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ إخباراً أنه تعالى هو الرزاق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء لما له في ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال: ﴿إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ أي خبيراً بصيراً بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر، وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً، والفقر عقوبة، عياذاً بالله من هذا وهذا.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾.

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، لأنه ينهى عن قتل الأولاد كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تَكْثُرَ عَيْلَتُهُ، فنهى الله تعالى عن ذلك وقال: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾ أي خوف أن تفتقروا في ثاني حال، ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾ وفي الأنعام ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾ أي من فقر ﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾. وقوله: ﴿إن قتلهم كان خطأ كبيراً﴾ أي ذنباً عظيماً، وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم: قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك».

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾.

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مقاربته ومخالطة أسبابه ودواعيه: ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة﴾ أي ذنباً عظيماً ﴿وساء سبيلاً﴾ أي بئس طريقاً ومسلكاً.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي أمامة أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: «ادنه» فدنا منه قريباً، فقال: «اجلس» فجلس، قال: «أتحبه لأمك»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: «أفتحبه لابنتك؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم. قال: «أتحبه لأختك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال فوضع يده عليه، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه،

وأحصن فرجه». قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء. [رواه الطبراني وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح].

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعي، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة». وقوله: **﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾** أي سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قَوداً، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجاناً، كما ثبتت السنة بذلك، وقوله: **﴿فلا يسرف في القتل﴾** قالوا: معناه فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل. وقوله: **﴿إنه كان منصوراً﴾** أي إن الولي منصور على القاتل شرعاً وغالباً قدراً.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: **﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾** أي لا تتصرفوا له إلا بالغبطة **﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حُوباً كبيراً﴾** [النساء:٢] **﴿ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾** [النساء:٦]. وقوله: **﴿وأوفوا بالعهد﴾** أي الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه **﴿إن العهد كان مسئولاً﴾** أي عنه.

وقوله: **﴿وأوفوا الكيل إذا كلتم﴾** أي من غير تطفيف ولا تبخسوا الناس أشياءهم، **﴿وزنوا بالقسطاس﴾** وهو الميزان. وقال مجاهد: هو العدل بالرومية. وقوله: **﴿المستقيم﴾** أي الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب **﴿ذلك خير﴾** أي لكم في معاشكم ومعادكم، ولهذا قال **﴿وأحسن تأويلا﴾** أي مآلا ومنقلباً في آخرتكم، قال قتادة: **﴿ذلك خير وأحسن تأويلا﴾** أي خير ثواباً وأحسن عاقبة.

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

قال ابن عباس يقول: لا تقل. وعنه أيضا: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم. وقال محمد بن الحنفية: يعني شهادة الزور. وقال قتادة: لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكروه أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: **﴿اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم﴾** [الحجرات:١٢]، وفي الحديث: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث». [متفق عليه]. وقوله: **﴿كل أولئك﴾** أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد

﴿كان عنه مسئؤولا﴾ أي سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وعما عمل فيها.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾.

يقول تعالى ناهياً عباده عن التبختر في المِشْيَة: ﴿**ولا تمش في الأرض مرحاً**﴾ أي متبختراً متمايلاً مشي الجبَّارين ﴿**إنك لن تخرق الأرض**﴾ أي لن تقطع بمشيتك، ﴿**ولن تبلغ الجبال طولاً**﴾ أي بتمايلك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده، كما ثبت في الصحيحين: «بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم وعليه بردان يتبختر فيهما، إذ خُسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة». وكذلك أخبر الله عن قارون أنه خرج على قومه في زينته وأن الله خسف به وبداره الأرض. ورأى البختري العابد رجلاً من آل علي يمشي وهو يخطر في مشيته، فقال له: يا هذا، إن الذي أكرمك به لم تكن هذه مشيته، قال: فتركها الرجل بعد.

وقوله: ﴿**كل ذلك كان سئيه عند ربك مكروهاً**﴾ أما من قرأ «سيئةً» أي فاحشة فمعناه عنده: كل هذا الذي نهينا عنه من قوله: ﴿**ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق**﴾ إلى هنا فهو سيئة مؤاخذ عليها مكروها عند الله لا يحبه ولا يرضاه، وأما من قرأ «سيئهُ» على الإضافة فمعناه عنده: كل هذا الذي ذكرناه من قوله: ﴿**وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه**﴾ إلى هنا فسيئه أي فقبيحه مكروه عند الله، هكذا وجه ذلك ابن جرير رحمه الله.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾.

يقول تعالى: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس، ﴿**ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً**﴾ أي تلومك نفسك ويلومك الله والخلق، ﴿**مدحوراً**﴾ أي مبعداً من كل خير، قال ابن عباس وقتادة: مطروداً، والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى راداً على المشركين الزاعمين، عليهم لعائن الله: أن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، ثم ادعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطؤوا خطأ عظيماً، فقال تعالى منكراً عليهم: ﴿**أفأصفاكم ربكم بالبنين**﴾ أي خصكم بالذكور ﴿**واتخذ من الملائكة إناثاً**﴾ أي واختار لنفسه على زعمكم البنات، ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿**إنكم لتقولون قولاً عظيماً**﴾ أي في زعمكم أن لله ولداً، ثم جعلكم ولده الإناث التي تأنفون أن يَكُنّ لكم، وربما قتلتموهن بالوأد، فتلك إذاً قسمة ضيزى، قال تعالى: ﴿**وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إدّاً * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا**

للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً، لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١)﴾.

يقول تعالى: ﴿ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن ليذكروا﴾ أي صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والمواعظ، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك، ﴿وما يزيدهم﴾ أي الظالمين منهم ﴿إلا نفوراً﴾ أي عن الحق وبعداً منه.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣)﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره، ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تعبد لِتُقرِّب إليه وتشفع لديه، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تَدْعُونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون وساطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه، وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه، ثم نزه نفسه الكريمة وقدّسها فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون﴾ أي هؤلاء المشركون المعتدون في زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿علواً كبيراً﴾ أي تعالياً كبيراً، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)﴾.

يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أي من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته:

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وقوله: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ أي لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغتكم، وهذا عام في الحيوانات والنبات والجماد، وهذا أشهر القولين، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. وفي حديث أبي ذر أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وهو حديث مشهور في المسانيد. [وقال الهيثمي: إسناده صحيح].

وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ قال الأسطوانة تسبح والشجرة تسبح، وقال بعض السلف: صرير الباب تسبيحه وخرير الماء تسبيحه، قال الله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ وقال إبراهيم: الطعام يسبح، ويشهد لهذا القول آية السجدة في أول الحج، وقال آخرون: إنما يسبح ما كان فيه روح، يعنون من حيوان ونبات.

وقال قتادة: كل شيء فيه روح يسبح، وقاله الحسن والضحاك. وقد يستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة». ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، ثم قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا». أخرجاه في الصحيحين، قال بعض من تكلم على هذ الحديث من العلماء: إنما قال ما لم ييبسا لأنهما يسبحان ما دام فيهما خضرة، فإذا يبسا انقطع تسبيحهما، والله أعلم.

وقوله ﴿**إنه كان حليماً غفوراً**﴾ أي أنه تعالى لا يعاجل من عصاه بالعقوبة بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد**﴾ [هود:١٠٢]، ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله تاب إليه وتاب عليه، كما قال تعالى: ﴿**ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً**﴾ [النساء:١١٠]. وقال ههنا: ﴿**إنه كان حليماً غفوراً**﴾ كما قال في آخر فاطر: ﴿**إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً**﴾ إلى أن قال ﴿**ولو يؤاخذ الله الناس**﴾ إلى آخر السورة. [فاطر:٤١-٤٥].

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأت على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً. قال قتادة وابن زيد: هو الأكنة على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿**وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب**﴾ [فصلت:٥] أي مانع حائل أن يصل إلينا مما تقول شيء. وقوله ﴿**حجاباً مستوراً**﴾ بمعنى ساتر وقيل: مستوراً عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى ترجيحه ابن جرير رحمه الله.

وقوله: ﴿**وجعلنا على قلوبهم أكنة**﴾ وهي جمع كنان الذي يغشى القلب ﴿**أن يفقهوه**﴾ أي لئلا يفهموا القرآن ﴿**وفي آذانهم وقراً**﴾ وهو الثقل الذي منعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به. وقوله تعالى: ﴿**وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده**﴾ أي إذا وحدت الله في تلاوتك، وقلت لا إله إلا الله، ﴿**ولّوْا**﴾ أي أدبروا راجعين ﴿**على أدبارهم نفوراً**﴾ كما قال تعالى: ﴿**وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة**﴾ [الزمر:٤٥]. قال قتادة: إن المسلمين لما قالوا لا إله إلا الله، أنكر ذلك المشركون، وكبرت عليهم وضاقها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يمضيها ويعليها وينصرها ويُفلجها ويظهرها على من ناوأها.

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ

كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾﴾.

يخبر تعالى نبيه صلوات الله وسلامه بما تناجى به رؤساء قريش حين جاؤوا يستمعون قراءة رسول الله ﷺ سراً من قومهم، بما قالوا من أنه رجل مسحور من السّحر على المشهور، أو من السَّحر وهو الرئة، أي إن تتبعون إن اتبعتم محمداً إلا بشراً يأكل ويشرب. وقد صوب هذا القول ابن جرير، وفيه نظر لأنهم أرادوا ههنا أنه مسحور له رئي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه، ومنهم من قال: شاعر. ومنهم من قال: كاهن. ومنهم من قال: مجنون ومنهم من قال: ساحر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً**﴾ أي فلا يهتدون إلى الحق ولا يجدون إليه مخلصاً. قال محمد بن إسحاق في السيرة: حدثني الزهري أنه حُدِّث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، حتى إذا جمعتهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قاله أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. قال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الرُّكب وكنا كفَرَسَي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه. [وهو مرسل].

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد القائلين استفهام إنكار منهم لذلك ﴿**أئذا كنا عظاماً ورفاتاً**﴾ أي تراباً، قاله مجاهد. وقال ابن عباس: غباراً، ﴿**أئنا لمبعوثون خلقاً**

جديداً﴾ أي يوم القيامة بعدما بلينا وصرنا عدماً لا نذكر، كما أخبر عنهم في الموضع الآخر ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أوّل مرّةٍ وهو بكل خلق عليم﴾ [يس:٧٨-٧٩]، وهكذا أمر رسول الله ﷺ أن يجيبهم فقال: ﴿قل كونوا حجارة أو حديداً﴾ إذا هما أشد امتناعاً من العظام والرفات ﴿أو خلقاً مما يكبر في صدوركم﴾ قال ابن عباس: هو الموت، وروي عن ابن عمر أنه قال في تفسير هذه الآية: لو كنتم موتى لأحييتكم، وكذا قال سعيد بن جبير وأبو صالح والحسن وقتادة والضحاك، ومعنى ذلك: أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراده.

وقال مجاهد: ﴿أو خلقاً مما يكبر في صدوركم﴾ يعني السماء والأرض والجبال، وفي رواية: ما شئتم فكونوا فسيعيدكم الله بعد موتكم، وقوله تعالى: ﴿فسيقولون من يعيدنا﴾ أي من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً ﴿قل الذي فطركم أول مرة﴾ أي الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صرتم بشراً تنتشرون، فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ [الروم:٢٧]، وقوله تعالى: ﴿فسينغضون إليك رؤوسهم﴾ قال ابن عباس وقتادة: يحركونها استهزاء. وهذا الذي قالاه هو الذي تفهمه العرب من لغاتها؛ لأن الإنغاض: هو التحرك من أسفل إلى أعلى أو من أعلى إلى أسفل.

وقوله: ﴿ويقولون متى هو﴾ إخبار عنهم بالإستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ [الملك:٢٥]. وقوله: ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾ أي احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت آت. وقوله تعالى: ﴿يوم يدعوكم﴾ أي الرب تبارك وتعالى: ﴿إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ أي إذا أمركم بالخروج منها، فإنه لا يُخالَف ولا يُمَانع، بل كما قال تعالى: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ [القمر:٥٠]، وقوله: ﴿فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة﴾ [النازعات:١٣-١٤] أي إنما هو أمر واحد بانتهار، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، كما قال تعالى: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾ أي تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته. قال ابن عباس: فتستجيبون بحمده، أي بأمره، وكذا قال ابن جريج: وقال قتادة: بمعرفته وطاعته.

وقال بعضهم: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾ أي وله الحمد في كل حال. وقوله تعالى: ﴿وتظنون﴾ أي يوم تقومون من قبوركم ﴿إن لبثتم﴾ أي في الدار الدنيا ﴿إلا قليلاً﴾، وكقوله تعالى: ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ [النازعات:٤٦].

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ .

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع عن السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ في يده أي فربما أصابه بها.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار». أخرجه الشيخان.

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**ربكم أعلم بكم**﴾ أيها الناس، بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿**إن يشأ يرحمكم**﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ﴿**أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك**﴾ يا محمد ﴿**عليهم وكيلا**﴾ أي إنما أرسلناك نذيراً، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار. وقوله: ﴿**وربك أعلم بمن في السموات والأرض**﴾ أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية ﴿**ولقد فضلنا بعض النبيين**﴾ وكما قال تعالى ﴿**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات**﴾ [البقرة:٢٥٣]. وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تفضلوا بين الأنبياء» فإن المراد من ذاك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية لا بمقتضى الدليل فإذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب ﴿**وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم**﴾ [الأحزاب:٧]، وفي الشورى: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾ [الشورى:١٣]. ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى على المشهور. وقوله تعالى: ﴿**وآتينا داود زبورا**﴾ تنبيه على فضله وشرفه. روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «خفف على داود القرآن، فكان يأمر بدابته لتُسْرج، فكان يقرأ قبل أن يفرغ». يعني القرآن.

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**قل**﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ﴿**ادعوا الذين زعمتم من دونه**﴾ من الأصنام والأنداد فارغبوا إليهم فإنهم ﴿**لا يملكون كشف الضر عنكم**﴾ أي بالكلية

﴿ولا تحويلا﴾ أي بأن يحولوه إلى غيركم، والمعنى أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر. عن ابن عباس قال: كان أهل الشرك يقولون نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً، وهم الذين يدعون.

وقوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾. روى البخاري عن عبد الله بن مسعود في قوله ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿أولئك الذي يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾ قال: عيسى وأمه وعزير. واختار ابن جرير قول ابن مسعود لقوله ﴿يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ وهذا لا يعبر به عن الماضي، فلا يدخل فيه عيسى والعزير. قال: والوسيلة هي القربة، كما قال قتادة؛ ولهذا قال: ﴿أيهم أقرب﴾. وقوله تعالى: ﴿ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء ينبعث على الطاعات. وقوله تعالى: ﴿إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ أي ينبغي أن يحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله، عياذاً بالله منه.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾.

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتَمَ وقضى بما عنده في اللوح المحفوظ: أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿عذاباً شديداً﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال تعالى عن الأمم الماضين: ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً﴾ [الطلاق: ٧-٨].

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن نستأني بهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا فإن كفروا أهلكوا، كما أهلكتُ من كان قبلهم من الأمم. وقال: «لا، بل استأن بهم» وأنزل الله تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة﴾، ورواه النسائي [وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

ولهذا قال تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات﴾ أي نبعث الآيات ونأتي بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهل علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعد ما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها، كما قال الله تعالى في

المائدة: ﴿قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ [المائدة: ١١٥]. وقال تعالى عن ثمود حين سألوا آية ناقة تخرج من صخرة عينوها، فدعا صالح عليه السلام ربه فأخرج لهم منها ناقة على ما سألو، فظلموا بها أي كفروا بمن خلقها، وكذبوا رسوله وعقروها، فقال: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ [هود: ٦٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة﴾ أي دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها ﴿فظلموا بها﴾ أي كفروا بها ومنعوها شِرْبها وقتلوها، فأبادهم الله عن آخرهم وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله تعالى: ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ قال قتادة: إن الله يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون. وروي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات، فقال عمر: أحدثتم والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن. وكذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عز وجل يرسلهما يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره». ثم قال: «يا أمة محمد، والله ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً».

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرضاً له على إبلاغ رسالته مخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته. وقال مجاهد وعروة بن الزبير والحسن وغيرهم في قوله: ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ أي عصمك منهم، وقوله: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ روى البخاري عن ابن عباس قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ شجرة الزقوم، وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء مجاهد والحسن ومسروق وعبد الرحمن بن زيد، وغير واحد، وقد تقدمت أحاديث الإسراء في أول السورة. وقوله: ﴿ونخوفهم﴾ أي الكفار بالوعيد والعذاب والنكال، ﴿فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ أي تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال، وذلك من خذلان الله لهم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

يذكر تبارك وتعالى عداوة إبليس لعنه الله لآدم عليه السلام وذريته وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له افتخاراً عليه واحتقاراً له ﴿قال أأسجد لمن خلقت طيناً﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿أنا خير

منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ [الأعراف:١٢]. وقال أيضاً أرأيتك يقول للرب جراءة وكفراً والرب يحلم ويُنْظِر ﴿قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذريته إلا قليلاً﴾. قال ابن عباس يقول: لأستولين على ذريته إلا قليلاً وقال مجاهد: لأحتوينّ. وقال ابن زيد: لأضلنهم. وكلها متقاربة والمعنى أرأيتك هذا الذي شرفته وعظمته علي لإن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم.

﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

لما سأل إبليس النظرة قال الله له ﴿اذهب﴾ فقد أنظرتك. كما قال في الآية الأخرى قال: ﴿فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ [الحجر:٣٧-٣٨] ثم أوعده ومن تبعه من ذرية آدم جهنم فقال: ﴿فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم﴾ أي على أعمالكم ﴿جزاءً موفوراً﴾ قال مجاهد: وافراً، وقال قتادة: مُوَفَّراً عليكم لا ينقص لكم منه. وقوله تعالى: ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾ قيل: هو الغناء. قال مجاهد: باللهو والغناء أي استخفهم بذلك وقال ابن عباس: كل داع دعا إلى معصية الله عز وجل. وقاله قتادة واختاره ابن جرير. وقوله تعالى: ﴿وأجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾ يقول واحمل عليهم بجنودك خَيَّالتهم ورجالتهم فإن الرجل جمع راجل كما أن الركب جمع راكب وصحب جمع صاحب. ومعناه تَسلَّطْ عليهم بكل ما تقدر عليه. وهذا أمر قدري، كقوله تعالى: ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً﴾ [مريم:٨٣] أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً، وتسوقهم إليها سوقاً. وقال ابن عباس ومجاهد: كل راكب وماش في معصية الله. وقال قتادة: إن له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس وهم الذين يطيعونه. تقول العرب: أجلب فلان على فلان إذا صاح عليه، ومنه اشتقاق الجلبة وهي ارتفاع الأصوات. وقوله تعالى: ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله، وقال عطاء: هو الربا، وقال الحسن: هو جمعها من خبيث وإنفاقها في حرام، وكذا قال قتادة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أما مشاركته إياهم في أموالهم فهو ما حرموه من أنعامهم يعني من البحائر والسوائب ونحوها وكذا قال الضحاك وقتادة. وقال ابن جرير: والأولى أن يقال إن الآية تعم ذلك كله. وقوله: ﴿والأولاد﴾ عن ابن عباس ومجاهد والضحاك: يعني أولاد الزنا، وقال ابن عباس أيضا: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم، وقال الحسن البصري: قد والله شاركهم في الأموال والأولاد مَجّسُوا وهودوا ونَصّروا وصبغوا على غير صبغة الإسلام، وجزؤوا من أموالهم جزءاً للشيطان، وكذا قال قتادة سواء. وقال ابن عباس أيضا: هو تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد الشمس وعبد فلان. قال ابن جرير: فكل ما عصي الله فيه أو به او أطيع

الشيطان فيه أو به فهو مشاركة، وهذا الذي قاله متجه وكل من السلف رحمهم الله فسر بعض المشاركة فقد ثبت في صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ: قال «يقول الله عز وجل إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم». وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً». وقوله تعالى: ﴿**وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً**﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا حصحص الحق يوم يقضي بالحق ﴿**إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولومُوا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي**﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢]. وقوله: ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾ إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم؛ ولهذا قال: ﴿**وكفى بربك وكيلاً**﴾ أي حافظاً وناصراً.

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر، وتسهيلها لمصالح عباده لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم؛ ولهذا قال: ﴿**إنه كان بكم رحيماً**﴾ أي إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم.

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾.

يخبر تبارك وتعالى أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه**﴾ أي ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة فذهب هارباً فركب في البحر ليدخل الحبشة فجاءتهم ريح عاصف فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده فقال عكرمة في نفسه: والله إن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره اللهم لك علي عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يدي محمد فلأ جدنه رؤوفاً رحيماً، فخرجوا من البحر فرجع إلى رسول الله ﷺ أسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه. [رواه النسائي وأبوداود وصححه الحاكم ووافقه الذهبي]. وقوله: ﴿**فلما نجاكم إلى البر أعرضتم**﴾ أي نسيتم ما عرفتم من توحيده وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له ﴿**وكان الإنسان كفوراً**﴾ أي سجيته هذا ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله.

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

يقول تعالى أفحسبتم إن نخرجكم إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه ﴿**أن نخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً**﴾ وهو المطر الذي فيه حجارة قاله مجاهد وغير واحد، كما

قال تعالى ﴿إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر﴾ [القمر: ٣٤]، وقد قال في الآية الأخرى ﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾ [هود: ٨٢]. وقوله: ﴿ثم لا تجدوا لكم وكيلا﴾ أي ناصراً يرد ذلك عنكم وينقذكم منه.

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

يقول تبارك وتعالى ﴿أم أمنتم﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر وخرجوا إلى البر ﴿أن يعيدكم﴾ في البحر مرة ثانية ﴿فيرسل عليكم قاصفاً من الريح﴾ أي يقصف الصواري ويغرق المراكب قال ابن عباس وغيره: القاصف ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها وقوله: ﴿فيغرقكم بما كفرتم﴾ أي بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى. وقوله: ﴿ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً﴾ قال ابن عباس: نصيراً وقال مجاهد: نصيراً ثائراً أي يأخذ بثأركم بعدكم. وقال قتادة: ولا نخاف أحداً يُتْبِعُنا بشيء من ذلك.

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكلمها، كقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ أي يمشي قائماً منتصباً على رجليه ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً، يفقه بذلك كله وينتفع به ويفرق بين الأشياء ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية ﴿وحملناهم في البر﴾ أي على الدواب من الأنعام والخيل والبغال، وفي البحر أيضاً على السفن الكبار والصغار ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي من زروع ثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ أي من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات. وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة.

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾.

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم، وقد اختلفوا في ذلك فقال مجاهد وقتادة: بنبيهم. وهذا كقوله: ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ [يونس: ٤٧]. وقال بعض السلف هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لأن إمامهم النبي ﷺ. وقال ابن زيد: بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع. واختاره ابن جرير، وعن مجاهد أنه قال: بكتبهم. فيحتمل أن يكون أراد هذا، وأن يكون أراد ما روي عن

ابن عباس في قوله: ﴿**يوم ندعو كل أناس بإمامهم**﴾ أي بكتاب أعمالهم، وكذا قال أبو العالية والحسن والضحاك وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى ﴿**وكل شيء أحصيناه في إمام مبين**﴾ [يس: ١٢]. وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته، فإنه لا بد أن يكون شاهداً على أمته بأعمالها، كقوله تعالى: ﴿**وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء**﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال: ﴿**فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً**﴾ [النساء: ٤١]. ولكن المراد ههنا بالإمام هو كتاب الأعمال؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم**﴾ أي من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح يقرأه ويحب قراءته. وقوله تعالى: ﴿**ولا يظلمون فتيلاً**﴾ الفتيل هو الخيط المستطيل في شق النواة.

وقوله: ﴿**ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً**﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد: ﴿**ومن كان في هذه**﴾ أي في الحياة الدنيا ﴿**أعمى**﴾ أي عن حجج الله ﴿**فهو في الآخرة أعمى**﴾ أي كذلك يكون ﴿**وأضل سبيلاً**﴾ أي وأضل منه كما كان في الدنيا عياذاً بالله من ذلك.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن تأييده رسوله صلوات الله عليه وسلامه، وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره مؤيده ومظفره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها، ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

قيل: نزلت في اليهود إذ أشاروا على رسول الله ﷺ بسكنى الشام بلاد الأنبياء وترك سكنى المدينة، وهذا القول ضعيف، لأن هذه الآية مكية وسكنى المدينة بعد ذلك، وقيل: إنها نزلت بتبوك وفي صحته نظر.

والأظهر أن هذا ليس بصحيح، فإن النبي لم يغز تبوك عن قول اليهود، وإنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار**﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**﴾ [التوبة: ٢٩]. وغزاها ليقتص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه، والله أعلم، وقيل نزلت

في كفار قريش، هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً، وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم وسبى سراتهم؛ ولهذا قال: ﴿**سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا**﴾ أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم يُخْرِج الرسول من بين أظهرهم ويأتيهم العذاب، ولولا أنه رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به.

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾.

يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها: ﴿**أقم الصلاة لدلوك الشمس**﴾ قيل: لغروبها، قاله ابن مسعود ومجاهد وابن زيد. وقال ابن عباس: دلوكها زوالها، ورواه نافع عن ابن عمر، وقاله أبو برزة الأسلمي وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود ومجاهد، وبه قال الحسن والضحاك وأبو جعفر الباقر وقتادة، واختاره ابن جرير.

هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس فمن قوله: ﴿**لدلوك الشمس إلى غسق الليل**﴾ وهو ظلامه، وقيل غروب الشمس، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء. وقوله: ﴿**وقرآن الفجر**﴾ يعني صلاة الفجر، وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم مما تلقوه خلفاً من سلف وقرناً بعد قرن. ﴿**إن قرآن الفجر كان مشهوداً**﴾ روى الإمام أحمد عن ابن مسعود وأبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿**وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً**﴾ قال: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار». ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال عبد الله بن مسعود يجتمع الحرسان في صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء، وكذا قال إبراهيم النخعي ومجاهد وقتادة وغير واحد في تفسير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿**ومن الليل فتهجد به نافلة لك**﴾ أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ، أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: «صلاة الليل»؛ ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد ما كان بعد نوم. قاله علقمة والأسود وإبراهيم النخعي وغير واحد، وهو المعروف في لغة العرب، وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أن كان يتهجد بعد نومه، عن ابن عباس وعائشة وغير واحد من الصحابة رضي الله عنهم.

وقال الحسن البصري: هو ما كان بعد العشاء، ويحمل على ما كان بعد النوم. واختلف في معنى قوله تعالى: ﴿**نافلة لك**﴾ فقيل معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فجعلوا قيام

الليل واجباً في حقه دون الأمة، روي عن ابن عباس، وهو أحد قولي العلماء، واختاره ابن جرير. وقيل: إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه. قاله مجاهد.

وقوله: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ أي افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً يحمدك عليه الخلائق كُلُّهم وخالقهم. قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم. ثم رواه عن حذيفة وابن عباس وحكاه عن مجاهد والحسن وقتادة.

روى الإمام أحمد رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة، ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون، ولا يحتملون فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه مما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله قط، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فذكر كذباته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: يا موسى أنت رسول الله اصطفاك الله برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى، إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبياً، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله،

ولم يذكر ذنباً، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتوني فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي عز وجل، ثم يفتح الله عليَّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه مالم يفتحه على أحد قبلي، فيقال: يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفس محمد بيده لما بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبُصرى، أخرجاه في الصحيحين.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله: **﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾** [رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح].

وقال قتادة: **﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق﴾** يعني المدينة **﴿وأخرجني مخرج صدق﴾** يعني مكة، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهذا القول هو أشهر الأقوال. وقال ابن عباس: **﴿أدخلني مدخل صدق﴾** يعني الموت **﴿وأخرجني مخرج صدق﴾** يعني الحياة بعد الموت، وقيل غير ذلك من الأقوال، والأول أصح، وهو اختيار ابن جرير.

وقوله: **﴿واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾** قال الحسن البصري في تفسيرها: وعده ربه لينزعن ملك فارس وعز فارس وليجعلنه له، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له. وقال قتادة فيها: إن نبي الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم، قال مجاهد: **﴿سلطاناً نصيراً﴾** حجة بينة، واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة، وهو الأرجح لأنه لابد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى: **﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ـ إلى قوله ـ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾** [الحديد: ٢٥]. وفي الحديث [الموقوف على عثمان]: «إن الله ليَزَع بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن» أي لَيَمْنَع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام، ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع.

وقوله: **﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾** تهديد ووعيد لكفار قريش؛

فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع، وزهق باطلهم أي اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق**﴾ [الأنبياء:١٨]. وروى البخاري [ومسلم] عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصُب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً. جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد».

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزل على رسول الله ﷺ وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، إنه شفاء ورحمة للمؤمنين أي يُذْهِبُ ما في القلب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله، وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة. وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيد سماعه القرآن إلا بعداً وكفراً، والآفة من الكافر لا من القرآن، كقوله تعالى: ﴿**قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد**﴾ [فصلت:٤٤]، وقال تعالى: ﴿**وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً * فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون**﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥]. والآيات في ذلك كثيرة. قال قتادة في قوله: ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**﴾ إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿**ولا يزيد الظالمين إلا خساراً**﴾ أي لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصمه الله تعالى في حالتي سرائه وضرائه، بإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه. قال مجاهد: بَعُد عنا، قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿**فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه**﴾ [يونس:١٢] وقوله: ﴿**فلما نجاكم إلى البر أعرضتم**﴾ [الإسراء:٦٧]. وبأنه إذا مسه الشر وهو المصائب، والحوادث والنوائب ﴿**كان يؤوساً**﴾ أي قنط أن يعود فيحصل له بعد ذلك خير، كقوله تعالى: ﴿**ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور * إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير**﴾ [هود:١٠-١١].

وقوله تعالى: ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ قال ابن عباس: على ناحيته. وقال مجاهد: على حدته وطبيعته. وقال قتادة: على نِيَّتِه. وقال ابن زيد: دينه، وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى وهذه الآية والله أعلم تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون﴾ [هود:١٢١-١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ أي منا ومنكم، وسيجزي كل عامل بعمله فإنه لا تخفى عليه خافية.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في حرث وهو متوكىء على عسيب، إذ مر باليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابكم إليه، وقال بعضهم: لا يستقبلنكم بشيء تكرهونه. فقالوا سلوه، فسألوه عن الروح، فأمسك النبي ﷺ، فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ الآية، وهذا السياق يقتضي فيما يظهر بادي الرأي أن هذه الآية مدنية، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو نزل عليه الوحي بأن يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية ﴿ويسألونك عن الروح﴾. وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا على أقوال: أحدها: أن المراد أرواح بني آدم. وقيل: المراد بالروح ههنا جبريل، قاله قتادة. وقيل المراد به ههنا مَلَكٌ عظيم بقدر المخلوقات كلها. عن ابن عباس قال: الروح ملك.

وقال السهيلي: وقيل المراد بذلك طائفة من الملائكة على صور بني آدم، وقيل: طائفة يرون الملائكة ولا تراهم، فهم للملائكة كالملائكة لبني آدم.

وقوله: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ أي من شأنه ومما استأثر بعلمه دونكم؛ ولهذا قال: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ أي وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى. والمعنى أنه علمكم في علم الله قليل، وهذا الذي تسألون عنه أمر الروح مما استاثر به تعالى ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى، وسيأتي إن شاء الله في قصة موسى والخضر أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة فنقر في البحر نقرة، أي شرب منه بمنقاره، فقال: يا موسى ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر، أو كما قال صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾. ثم ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها. فحاصل ما يقول: أن الروح هي أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهي هي من وجه لا من كل وجه،

وهذا معنى حسن، والله أعلم. قلت: وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامها، وصنفوا في ذلك كتباً، ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منده.

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾.

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. قال ابن مسعود رضي الله عنه: يطرق الناس ريحٌ حمراء، يعني في آخر الزمان من قبلَ الشام، فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية، ثم قرأ ابن مسعود **﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك﴾** الآية. ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزل على رسوله لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا فإن هذا أمر لا يُسْتَطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له، ولا عديل له. وقوله: **﴿ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾** أي بينا لهم البراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه، ومع هذا **﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾** أي جحوداً ورداً للصواب.

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: **﴿حتى تفجر لنا في الأرض ينبوعاً﴾** الينبوع: العين الجارية، سألوه أن يُجْري لهم عيناً معيناً في أرض الحجاز ههنا وههنا، وذلك سهل يسير على الله تعالى لو شاء لفعله ولأجابهم على جميع ما سألوه وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون كما قال تعالى: **﴿إن الذين حقت عليهم كلمتُ ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾** [يونس: ٩٦-٩٧]. وقوله تعالى: **﴿أو تسقط السماء كما زعمت﴾** أي أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء، فعجِّل ذلك في الدنيا وأسقطها كسفاً، أي قطعاً كقولهم **﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾** الآية [الأنفال: ٣٢]، وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا: **﴿أسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين﴾** [الشعراء: ١٨٧]. فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم، وأما نبي الرحمة ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين فسأل إنظارهم وتأجيلهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً. وكذلك وقع، فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك

وحسن إسلامه حتى عبد الله بن أبي أمية الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً وأناب إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: هو الذهب، ﴿أو ترقى في السماء﴾ أي تصعد في سلم ونحن ننظر إليك ﴿ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾ قال مجاهد: أي مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة هذا كتاب من الله لفلان تصبح موضوعة عند رأسه. وقوله تعالى: ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ أي سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء إن شاء أجابكم إلى ما سألتم، وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتم إلى الله عز وجل.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿وما منع الناس﴾ أي أكثرهم ﴿أن يؤمنوا﴾ ويتابعوا الرسل إلا استعجابهم من بعثة البشر رسلاً، كما قال تعالى: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا﴾ [يونس: ٢]. والآيات في هذا كثيرة، ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده: أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا منه لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه كما قال تعالى: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذا بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾ [آل عمران: ١٦٤]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين﴾ أي كما أنتم فيها ﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ أي من جنسهم. ولما كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفاً ورحمة.

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مرشداً نبيه ﷺ إلى الحجة على قومه في صدق ما جاءهم به: إنه شاهد علي وعليكم، عالم بما جئتكم به، فلو كنت كاذباً عليه لا نتقم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]. وقوله: ﴿إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ أي عليم بهم بمن يستحق الإنعام والهداية، ممن يستحق الشقاء والإضلال؛ ولهذا قال:

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه وأنه لا معقب له بأنه من يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه أي يهدونهم، كما قال: ﴿من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ [الكهف: ١٧]. وقوله: ﴿ونحشرهم يوم القيامة

على وجوههم﴾ روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم»، وأخرجاه في الصحيحين.

وقوله: **﴿عمياً﴾** أي لا يبصرون، **﴿وبكماً﴾** يعني لا ينطقون، **﴿وصماً﴾** لا يسمعون، وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصماً عن الحق، فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه **﴿مأواهم﴾** أي منقلبهم ومصيرهم **﴿جهنم كلما خبت﴾** قال ابن عباس: سكنت، وقال مجاهد طفئت، **﴿زدناهم سعيراً﴾** أي لهباً ووهجاً وجمراً، كما قال: **﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾** [النبأ: ٣٠].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمي والبكم والصمم، جزاؤهم الذي يستحقونه؛ لأنهم كذبوا **﴿بآياتنا﴾** أي بأدلتنا واستبعدوا وقوع البعث **﴿وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتا﴾** أي بالية نخرة **﴿أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾** أي بعد ما صرنا إليه من البلى والهلاك والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية؟ فاحتج تعالى عليهم ونبههم على قدرته على ذلك بأنه خلق السموات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك، كما قال: **﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾** [الأحقاف: ٣٣]. وقال ههنا: **﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم﴾** أي يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم. وقوله: **﴿وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه﴾** أي جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لا بد من انقضائها، كما قال تعالى: **﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾** [هود: ١٠٤]. وقوله: **﴿فأبى الظالمون﴾** أي بعد قيام الحجة عليهم **﴿إلا كفوراً﴾** إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه: قل لهم يا محمد لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله لأمسكتم خشية الإنفاق، قال ابن عباس وقتادة: أي الفقر أي خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تَفرغُ ولا تنفدُ أبداً؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم؛ ولهذا قال: **﴿وكان الإنسان قتوراً﴾** قال ابن عباس وقتادة: أي بخيلاً منوعاً، وقال الله تعالى: **﴿أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً﴾** [النساء: ٥٣] أي لو أن لهم نصيباً في ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو إلا من وفقه الله وهداه،

فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿**إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين**﴾ [المعارج:١٩-٢٢]. ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه، وقد جاء في الصحيحين: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يَغض ما في يمينه».

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون، وهي: العصا، واليد، والسنين. والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات، قاله ابن عباس. وقال محمد بن كعب: هي اليد والعصا، والخمس في الأعراف والطَّمْسَة والحجرُ، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وعكرمة والشعبي وقتادة: هي يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي، وجعل الحسن البصري السنين ونقص الثمرات واحدة، وعنده أن التاسعة هي تلقف العصا ما يأفكون. ﴿**فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين**﴾ [الأعراف:١٣٣] أي ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، وما نجعت فيهم: فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا، ﴿**وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً**﴾ [الإسراء:٩٠] إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات ﴿**وإني لأظنك يا موسى مسحوراً**﴾ قيل: بمعنى ساحر، والله تعالى أعلم. فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المراد ههنا، وهي المعنية في قوله تعالى: ﴿**وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون إلا من ظلم ثم بدَّل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم وأدخل يدك فيجيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين**﴾ [النمل:١٠-١٢]. فذكر هاتين الآيتين العصا واليد، وبين الآيات الباقيات في سورة الأعراف وفصلها. وقد أوتي موسى عليه السلام آيات أخر كثيرة، منها ضربهُ الحجر بالعصا، وخروج الماء منه، ومنها تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك مما أوتوه بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً.

ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ أي حججاً على صدق ما جئتك به ﴿وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً﴾ أي هالكاً، قاله: مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس: ملعوناً، وقال أيضاً هو والضحاك ﴿مثبوراً﴾ أي مغلوباً، والهالك يشمل هذا كله، وقرأ بعضهم برفع التاء من قوله علمت، وروي ذلك عن علي بن أبي طالب، ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب لفرعون، كما قال تعالى: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ [النمل:١٣ـ١٤]. وقوله: ﴿فأراد أن يستفزهم من الأرض﴾ أي يزيلهم عنها ﴿فأغرقناه ومن معه جميعاً وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض﴾ وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لاّ يلبثون خلافك إلا قليلاً * سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا﴾ [الإسراء:٧٦ـ٧٧]؛ ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عُنْوَة على أشهر القولين، وقهر أهلها ثم أطلقهم حلماً وكرماً، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ [الشعراء:٥٩]، وقال ههنا: ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا﴾ أي جميعكم، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: لفيفاً أي جميعاً.

﴿ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز وهو القرآن المجيد أنه بالحق نزل، أي متضمناً للحق، كما قال تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾ [النساء:١٦٦] أي متضمناً علم الله الذي أراد أن يُطْلِعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه. وقوله: ﴿وبالحق نزل﴾ أي ووصل إليك يا محمد محفوظاً محروساً لم يُشَب بغيره، ولا زيد فيه ولا نُقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القُوى الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى. وقوله: ﴿وما أرسلناك﴾ أي يا محمد ﴿إلا مبشراً ونذيراً﴾ مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين ونذيراً لمن عصاك من الكافرين.

وقوله: ﴿وقرآناً فرقناه﴾ أما قراءة من قرأ بالتخفيف فمعناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مُفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة، قاله ابن عباس. وعن ابن عباس أيضاً أنه قرأ: فرقناه بالتشديد، أي أنزلناه آية آية مُبَيناً ومفسراً؛ ولهذا قال: ﴿لتقرأه على الناس﴾ أي لتبلغه الناس وتتلوه عليهم، ﴿على مكث﴾ أي مَهَل ﴿ونزلناه تنزيلاً﴾ أي شيئاً بعد شيء .

﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم ﴿آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ أي سواء آمنتم به أم لا، فهو حق في نفسه أنزله الله ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله؛ ولهذا قال: ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله﴾ أي من صالح أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ويقيمونه ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إذا يتلى عليهم﴾ هذا القرآن ﴿يخرون للأذقان﴾ جمع ذَقْن وهو أسفل الوجه ﴿سجداً﴾ أي لله عز وجل شكراً على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلاً أن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب؛ ولهذا يقولون: ﴿سبحان ربنا﴾ أي تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ؛ ولهذا قالوا: ﴿سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا﴾. وقوله: ﴿ويخرون للأذقان يبكون﴾ أي خضوعاً لله عز وجل وإيماناً بكتابه ورسوله، ويزيدهم الله خشوعاً اي إيماناً وتسليماً، كما قال: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ [محمد:١٧]. وقوله: ﴿ويخرون﴾ عطف صفة على صفة لا عطف السجود على السجود.

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ أي لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن، فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم إلى أن قال له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ [الحشر:٢٢-٢٤].

وقوله: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ الآية، روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوارٍ بمكة ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾ قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله ومن جاء به، قال: فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿ولا تخافت بها﴾ عن أصحابك، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وابتغ بين ذلك سبيلا﴾ أخرجاه في الصحيحين. وقال عكرمة والحسن البصري وقتادة: نزلت هذه الآية في القراءة في الصلاة، وقال ابن مسعود: لم يُخافتْ بها مَنْ أسمع أذنيه.

قال ابن عباس: نزلت في الدعاء، وهكذا قالت عائشة. وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو عياض ومكحول وعروة بن الزبير.

قول آخر: عن عائشة رضي الله عنها قالت: نزلت هذه الآية في التشهد. وبه قال محمد بن سيرين.

قول آخر: عن ابن عباس قال: لا تصل مراءاة للناس، ولا تدعها مخافة الناس. وقال الحسن البصري: لا تحسن علانيتها وتسيء سريرتها.

قول آخر: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿**وابتغ بين ذلك سبيلا**﴾ قال: أهل الكتاب يخافتون، ثم يجهر أحدهم بالحرف، فيصيح به ويصيحون هم به وراءه، فنهاه أن يصيح كما يصيح هؤلاء، وأن يخافت كما يخافت القوم، ثم كان السبيل الذي بين ذلك الذي سن له جبريل من الصلاة.

وقوله: ﴿**وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً**﴾ لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى، نَزَّه نفسه عن النقائض فقال: ﴿**وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك**﴾ بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. ﴿**ولم يكن له ولي من الذل**﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي أو وزير أو مشير، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومدبرها ومقدرها بمشيئته وحده لا شريك له. قال مجاهد في قوله: ﴿**ولم يكن له ولي من الذل**﴾ لم يحالف أحداً ولا يبتغ نصر أحد. ﴿**وكبره تكبيراً**﴾ أى عظمه وأجلّه عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

سورة الكهف وهي مكية.

ذكر ما ورد في فضلها والعشر الآيات من أولها وآخرها وأنها عصمة من الدجال:

روى الإمام أحمد عن البراء قال: قرأ رجل الكهف، وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «اقرأ فلان، فإنها السكينة تنزلت عند القرآن أو تنزلت للقرآن» أخرجاه في الصحيحين. وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أُسَيْدُ بن الحُضَيْر. وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال». رواه مسلم.

وروى الإمام أحمد من طريق أخرى عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِم من فتنة الدجال». ورواه مسلم أيضاً.

وروى الإمام سعيد بن منصور في سننه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق. وقد أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين». ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، [وهو صحيح بشواهده].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

قد تقدم في أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتيمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة؛ ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض؛ إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم واضحاً بيناً جلياً، نذيراً للكافرين، بشيراً للمؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿**ولم يجعل له عوجاً**﴾ أي لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيغاً، بل جعله معتدلاً؛ ولهذا قال: ﴿**قيماً**﴾ أي مستقيما ﴿**لينذر بأساً شديداً من لدنه**﴾ أي لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به ينذره بأساً شديداً، عقوبة عاجلة في الدنيا وآجلة في الأخرى ﴿**من لدنه**﴾ أي من عند الله الذي لا يُعَذِّب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد. ﴿**ويبشر المؤمنين**﴾ أي بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿**أن لهم أجراً حسناً**﴾ أي مثوبة عند الله جميلة ﴿**ماكثين فيه**﴾ في ثوابهم عند الله، وهو الجنة خالدين فيه ﴿**أبداً**﴾ دائماً لا زوال له ولا انقضاء.

﴿**وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً**﴾ قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب في قولهم: نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله. ﴿**ما لهم به من علم**﴾ أي بهذا القول الذي افتروه وائتفكوه ﴿**ولا لآبائهم**﴾ أي لأسلافهم. ﴿**كبرت كلمة**﴾ نصب على التمييز تقديره: كبرت كلمتهم هذه كلمةً. وقيل: على التعجب تقديره: أعظم بكلمتهم كلمة، ﴿**كبرت كلمة تخرج من أفواههم**﴾ أي ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم؛ ولهذا قال: ﴿**إن يقولون إلا كذبا**﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾.

يقول تعالى مسلياً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان، وبعدهم عنه كما قال تعالى: ﴿**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**﴾ [فاطر:٨]، وقال: ﴿**ولا تحزن عليهم**﴾ [النحل:١٢٧]، باخع أي مهلك نفسك بحزنك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿**فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث**﴾ يعني القرآن ﴿**أسفاً**﴾ يقول: لا تهلك نفسك أسفاً. قال قتادة: قَاتِلٌ نفسك غضباً وحزناً عليهم، وقال مجاهد: جزعاً، والمعنى متقارب، أي لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات. ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية

مُزيَّنة بزينة زائلة، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار، فقال: ﴿**إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً**﴾. [روى مسلم] عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء». ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها، وفراغها وانقضائها وذهابها وخرابها، فقال تعالى: ﴿**وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً**﴾ أي وإنا لمصيّروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شيء عليها هالكاً ﴿**صعيداً جرزاً**﴾ لا يُنْبِت ولا ينتفع به.

كما روي عن ابن عباس قال: يهلكُ كل شيء عليها ويبيد. وقال مجاهد: صعيداً جرزاً: بلقعاً، وقال قتادة: الصعيد الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات، وقال ابن زيد: الصعيد الأرض التي ليس فيها شيء، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون**﴾ [السجدة: ٢٧]. وقال محمد بن إسحاق: إن ما عليها لفان وبائد، وإن المرجع لإلى الله، فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾.

هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿**أم حسبت**﴾ يعني يا محمد ﴿**أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً**﴾ أي ليس أمرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف، كما قال مجاهد: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك.

وعن ابن عباس قال: الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم، وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت من حججي على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم. وأما الكهف فهو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون. وأما الرقيم فعن ابن عباس: هو واد قريب من أيلَة، وكذا قال العوفي وقتادة. وقال الضحاك: أما الكهف فهو غار في الوادي، والرقيم اسم الوادي، وقال مجاهد: الرقيم كان بنيانهم، ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم.

وقال ابن عباس: يزعم كعب أنها القرية، وقال ابن عباس أيضا: الرقيم الجبل الذي فيه الكهف. وعنه كذلك: ما أدري ما الرقيم؟ أكتاب أم بنيان. وفي رواية عنه: الرقيم الكتاب. وقال سعيد بن جبير: الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف، ثم وضعوه

على باب الكهف. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم الكتاب، ثم قرأ: ﴿**كتاب مرقوم**﴾ [المطففين:٩]. وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير، قال: الرقيم فعيل بمعنى مرقوم.

وقوله: ﴿**إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً**﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتية، الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه، فهربوا منهم فلجأوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم، **فقالوا** حين دخلوا سائلين الله تعالى رحمته ولطفه بهم: ﴿**ربنا آتنا من لدنك رحمة**﴾ أي هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ﴿**وهيىء لنا من أمرنا رشداً**﴾ أي وقدر لنا من أمرنا هذا رشداً أي اجعل عاقبتنا رشداً، وفي المسند من حديث بسر بن أرطاة عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة». [رواه ابن حبان في صحيحه، وذكره الهيثمي وقال: رجال أحمد ثقات].

وقوله: ﴿**فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً**﴾ أي ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف فناموا سنين كثيرة ﴿**ثم بعثناهم**﴾ أي من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه، كما سيأتي بيانه وتفصيله؛ ولهذا قال: ﴿**ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين**﴾ أي المختلفين فيهم ﴿**أحصى لما لبثوا أمداً**﴾ قيل: عدداً، وقيل: غاية.

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ .

من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا في دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً، وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً، وقال مجاهد: بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة يعني الحَلَق، فألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم، فآمنوا بربهم أي اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو ﴿**وزدناهم هدى**﴾ استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله وأنه يزيد وينقص، ولهذا قال تعالى: ﴿**وزدناهم هدى**﴾ كما قال: ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم**﴾ [محمد:١٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى ابن مريم، والله أعلم، والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم، وقد روي

عن ابن عباس أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء، وعن خبر ذي القرنين، وعن الروح، فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب وأنه متقدم على دين النصرانية، والله أعلم.

وقوله: ﴿وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض﴾ يقول تعالى: وصبَّرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة، فإنه ذَكَر غيرُ واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له دقيانوس، . وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض. فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينحاز عنهم، فكان أول من جلس منهم وحده أحدهم، جلس تحت ظل شجرة فجاء الآخر فجلس إليها عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان، كما جاء في الحديث الذين رواه البخاري تعليقاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» وأخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة. والناس يقولون: الجنسية علة الضم.

والغرض أنه جعل كل أحد منهم يكتم ما هو عليه عن أصحابه خوفاً منهم، ولا يدري أنهم مثله حتى قال أحدهم: تعلمون والله يا قوم إنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء، فليظهر كل واحد منكم بأمره، فقال آخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيء هو الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وقال الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك، وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة، وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عز وجل؛ ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً﴾ ولن لنفي التأبيد أي لا يقع منا هذا أبداً؛ لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً؛ ولهذا قال عنهم: ﴿لقد قلنا إذاً شططاً﴾ أي باطلاً وبهتاناً. ﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين﴾

أي هَلاَّ أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً؟ ﴿**فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً**﴾ يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك، فيقال إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أبى عليهم وتهددهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأجَّلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يراجعون دينهم الذي كانوا عليه، وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه، كما جاء في الحديث: «يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن» [رواه البخاري] ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع، فلما وقع عزمهم على الهرب من قومهم، واختار الله تعالى لهم ذلك وأخبر عنهم بذلك في قوله: ﴿**وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله**﴾ أي وإذ فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم، ﴿**فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته**﴾ أي يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿**ويهيىء لكم من أمركم**﴾ الذي أنتم فيه ﴿**مرفقاً**﴾ أي أمراً ترتفقون به، فعند ذلك خرجوا هُرَّاباً إلى الكهف فأووا إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم وتَطَلَّبهم الملك، فيقال أنه لم يظفر بهم وعمى الله عليه خبرهم.

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ .

هذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال، لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿**ذات اليمين**﴾ أي يتقلص الفيء يمنة، كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة: ﴿**تزاور**﴾ أي تميل، وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان؛ ولهذا قال: ﴿**وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال**﴾ أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية المشرق، وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: تقرضهم تتركهم. وقد أخبر الله تعالى بذلك، وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي، وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً، فتقدم عن ابن عباس أنه قال: هو قريب من أيلة. وقال ابن إسحاق: هو عند نِينَوَى. وقيل: ببلاد الروم. وقيل: ببلاد البلقاء، والله أعلم بأي بلاد الله هو، ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه، فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه، فقال: ﴿**وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم**﴾ قال زيد بن أسلم: تميل ﴿**ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة**

منه﴾ أي في متسع منه داخلاً بحيث لا تمسهم؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم، قاله ابن عباس. **﴿ذلك من آيات الله﴾** حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم؛ ولهذا قال تعالى: **﴿ذلك من آيات الله﴾**. ثم قال: **﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾** أي هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم، فإنه من هداه الله اهتدى، ومن أضله فلا هادي له.

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾.

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم لئلا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها؛ ولهذا قال تعالى: **﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود﴾** وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد.

وقوله: تعالى: **﴿ونقلبهم وذات اليمين ذات الشمال﴾** قال بعض السلف: يقلبون في العام مرتين. قال ابن عباس: لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض. وقوله: **﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾** قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة: الوصيد: الفناء، وقال ابن عباس: بالباب. وقيل: بالصعيد وهو التراب، والصحيح أنه بالفناء وهو الباب، ومنه قوله تعالى: **﴿إنها عليهم مؤصدة﴾** أي مطبقة مغلقة، ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب، قال ابن جريج: يحرس عليهم الباب، وهذا من سجيته وطبيعته، حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب، كما ورد في الصحيحين ولا صورة ولا جُنُب ولا كافر، كما ورد به الحديث الحسن [رواه أبوداود والنسائي]، وشملت كلبهم بركتُهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وشأن.

وقوله تعالى: **﴿لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً﴾** أي أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم، لِما أُلبسوا من المهابة، لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس، حتى يبلغ الكتابُ أجله، وتنقضي رقدتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم، لما له في ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

يقول تعالى كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبصارهم لم يفقدوا من أحوالهم وهيآتهم شيئاً وذلك بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين؛ ولهذا تساءلوا بينهم **﴿كم لبثتم﴾** أي

كم رقدتم ؟ ﴿**قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم**﴾ كأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار، واستيقاظهم كان في آخر نهار؛ ولهذا استدركوا فقالوا: ﴿**أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم**﴾ أي الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿**فابعثوا أحدكم بورقكم**﴾ أي فضتكم هذه، وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها؛ فلهذا قالوا: ﴿**فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة**﴾ أي مدينتكم التي خرجتم منها، ﴿**فلينظر أيها أزكى طعاماً**﴾ أي أطيب طعاماً. كقوله: ﴿**قد أفلح من تزكى**﴾ ومنه الزكاة التي تُطَيب المال وتطهره، وقيل: أكثر طعاماً، ومنه زكا الزرع إذا كثر، والصحيح الأول، لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال سواء كان كثيراً أو قليلاً. وقوله: ﴿**وليتلطف**﴾ أي في خروجه وذهابه وشرائه وإيابه، يقولون: وَلْيَتَخَفَّ كل ما يقدر عليه ﴿**ولا يشعرن**﴾ أي ولا يُعْلِمنَّ ﴿**بكم أحداً * إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم**﴾ أي إن علموا بمكانكم ﴿**يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم**﴾ يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها، أو يموتوا، وإن واتوهم على العود في الدين فلا فلاح لهم في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿**ولن تفلحوا إذاً أبداً**﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**وكذلك أعثرنا عليهم**﴾ أي أطلعنا عليهم الناس ﴿**ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها**﴾ ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة. وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد، فبعث الله أهل الكهف حجة وآية على ذلك، وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة في شراء شيء لهم ليأكلوه، تنكر وخرج يمشي في غير الجادة حتى انتهى إلى المدينة، وهو يظن أنه قريب العهد بها، وكان الناس قد تبدلوا قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل وأمة بعد أمة، وتغيرت البلاد ومن عليها، فجعل لا يرى شيئاً من معالم البلد التي يعرفها، ولا يعرف أحداً من أهلها: لا خواصها ولا عوامها، فجعل يتحير في نفسه ويقول: لعل بي جنوناً أو مساً أو أنا حالم، ويقول: والله ما بي شيء من ذلك، وإن عهدي بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة. ثم قال: إن تعجيل الخروج من ههنا لأولى لي، ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام، فدفع إليه ما معه من النفقة، وسأله أن يبيعه بها طعاماً، فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون: لعل هذا وجد كنزاً، فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النفقة، لعله وجدها من كنز ومن أنت ؟ فجعل

يقول: أنا من أهل هذه البلدة، وعهدي بها عشية أمس وفيها دقيانوس، فنسبوه إلى الجنون، فحملوه إلى ولي أمرهم فسأله عن شأنه وخبره حتى أخبرهم بأمره، وهو متحير في حاله وما هو فيه، فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف ـ مُتَوَلّي البلد وأهلها ـ حتى انتهى بهم إلى الكهف فقال لهم: دعوني حتى أتقدمكم في الدخول لأعلم أصحابي فدخل، فيقال إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه، وأخفى الله عليهم خبرهم، ويقال بل دخلوا عليهم ورأوهم، وسلم عليهم الملك واعتنقهم، وكان مسلماً فيما قيل، ففرحوا به وآنسوه بالكلام، ثم ودعوه وسلموا عليه، وعادوا إلى مضاجعهم، وتوفاهم الله عز وجل، فالله أعلم.

قال قتادة: غزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة، فمروا بكهف في بلاد الروم، فرأوا فيه عظاماً فقال قائل: هذه عظام أهل الكهف، فقال ابن عباس: لقد بليت عظامهم من أكثر من ثلاثمائة سنة. رواه ابن جرير، وقوله: ﴿**وكذلك أعثرنا عليهم**﴾ أي كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿**ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم**﴾ أي في أمر القيامة، فمن مثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ﴿**فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم**﴾ أي سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم ﴿**قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً**﴾ حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين: أحدهما: أنهم المسلمون منهم. والثاني: أهل الشرك منهم، فالله أعلم، والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر، لأن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد». [متفق عليه] يحذر ما فعلوا، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق، أمر أن يخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده، فيها شيء من الملاحم وغيرها.

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضَعَّف القولين الأولين بقوله: ﴿**رجماً بالغيب**﴾ أي قولاً بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب وإن أصاب فبلا قصد. ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله: ﴿**وثامنهم كلبهم**﴾ دل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر. وقوله: ﴿**قل ربي أعلم بعدتهم**﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به وإلا وَقَفْنا حيث وَقَّفنا.

وقوله: ﴿ما يعلمهم إلا قليل﴾ أي من الناس. قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل، كانوا سبعة.

وقال تعالى: ﴿فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً﴾ أي سهلاً هيناً، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ﴿ولا تستفت فيهم منهم أحداً﴾ أي فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب، أي من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية فيه، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال.

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل، علام الغيوب الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ـ وفي رواية: تسعين امرأة، وفي رواية: مائة امرأة ـ تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقيل له ـ وفي رواية قال له الملك: قل إن شاء الله، فلم يقل، فطاف بهم فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو قال إن شاء الله لم يحنث، وكان دَرَكاً لحاجته» وفي رواية: «ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون».

وقوله: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ قيل معناه إذا نسيت الاستثناء، فاستثن عند ذكرك له، قاله أبو العالية والحسن البصري.

وقال عكرمة: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ إذا غضبت. وعن ابن عباس: أن تقول إن شاء الله.

ويحتمل في الآية وجه آخر وهو أن يكون الله تعالى قد أرشد مَنْ نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى؛ لأن النسيان منشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ وذكر الله تعالى يطرد الشيطان فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فَذِكْرُ الله تعالى سبب للذكر؛ ولهذا قال: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾. وقوله: ﴿وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً﴾ أي إذا سئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله تعالى فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك، وقيل في تفسيره غير ذلك، والله أعلم.

﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم

إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي الثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال: بعد ثلاثمائة وازدادوا تسعاً. وقوله: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ أي إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا: ﴿الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو ومن أطلعه عليه من خلقه، وهذا الذي قلناه عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد وغير واحد من السلف والخلف.

وقوله: ﴿أبصر به وأسمع﴾ أي أنه لبصير بهم سميع لهم، قال ابن جرير: وذلك في معنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء. ثم روي عن قتادة في قوله: ﴿أبصر به وأسمع﴾ فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع. وقال ابن زيد: ﴿أبصر به وأسمع﴾ يرى أعمالهم ويسمع ذلك منهم سميعاً بصيراً. وقوله: ﴿ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً﴾ أي أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر، الذي لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس.

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس: ﴿لا مبدل لكلماته﴾ أي لا مغير لها ولا محرّف ولا مؤول. وقوله: ﴿ولن تجد من دونه ملتحداً﴾ عن مجاهد ملتحداً قال: ملجأ. وعن قتادة: ولياً ولا مولى. قال ابن جرير: يقول إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحي إليك من كتاب ربك، فإنه لا ملجأ لك من الله، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ [المائدة: ٦٧].

وقوله: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ أي اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشياً، من عباد الله سواء كانوا فقراء أو أغنياء، أو أقوياء أو ضعفاء، يقال: إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم، وحدهم، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه، كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك فقال: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ الآية [الأنعام: ٥٢]، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء.

روى مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال

المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترؤون علينا قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال، ورجلان نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما يشاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾.

وقوله: ﴿ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾ قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم، تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة، ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ أي شُغِلَ عن الدين وعبادة ربه بالدنيا، ﴿واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾ أي أعماله وأفعاله سفهٌ وتفريط، ولا تكن مطيعاً ولا محباً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال: ﴿ولاتمدن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾ [طه: ١٣١].

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وقل يا محمد للناس: هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿إنا أعتدنا﴾ أي أرصدنا ﴿للظالمين﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿ناراً أحاط بهم سرادقها﴾ أي سورها.

وقوله: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ قال ابن عباس: المهل: الماء غليظ مثل دُرْدِي الزيت. وقال مجاهد: هو كالدم والقيح. وقال عكرمة: هو الشيء الذي انتهى حَرّه. وقال آخرون: هو كل شيء أذيب. وقال قتادة: أذاب ابن مسعود شيئاً من الذهب في أخدود، فلما انماع وأزبد، قال: هذا أشبه شيء بالمهل. وقال الضحاك: ماء جهنم أسود وهي سوداء وأهلها سود، وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار؛ ولهذا قال: ﴿يشوي الوجوه﴾ أي من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى يسقط جلد وجهه فيه.

وقال سعيد بن جبير: إذا جاع أهل النار استغاثوا، فأغيثوا بشجرة الزقوم فيأكلون منها، فاختلست جلود وجوههم، فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم، لعرف جلود وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون، فيغاثون بماء كالمهل وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود؛ ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة ﴿بئس الشراب﴾ أي بئس هذا الشراب، كما قال في الآية الأخرى ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾ [محمد: ١٥]. ﴿وساءت مرتفقاً﴾ أي وساءت النار منزلاً ومقيلاً للارتفاق، كما قال في الآية الآخرى ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فلهم جنات عدن، والعدن: الإقامة، ﴿**تجري من تحتهم الأنهار**﴾ أي من تحت غرفهم ومنازلهم، ﴿**يحلون**﴾ أي من الحلية ﴿**فيهامن أساور من ذهب**﴾ وقال في المكان الآخر ﴿**ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير**﴾ [الحج:٢٣] وفصله ههنا، فقال: ﴿**ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق**﴾ فالسندس ثياب رقاق كالقمصان وما جرى مجراها. وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق.

وقوله: ﴿**متكئين فيها على الأرائك**﴾ الاتكاء قيل الاضطجاع، وقيل التربع في الجلوس وهو أشبه بالمراد ههنا، ومنه الحديث في الصحيح «أما أنا فلا آكل متكئاً» [رواه البخاري]، فيه القولان: والأرائك جمع أريكة، وهي السرير تحت الحجلة، والحجلة [بيت يزين بالثياب والأسرة والستور]. قال قتادة: ﴿**على الأرائك**﴾ قال: هي الحجال، وقال غيره: السُّرُر في الحجال.

وقوله: ﴿**نعم الثواب وحسنت مرتفقاً**﴾ أي نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم وحسنت مرتفقاً، أي حسنت منزلاً ومقيلاً، كما قال في النار: ﴿**بئس الشراب وساءت مرتفقاً**﴾ [الكهف:٢٩] وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿**إنها ساءت مستقراً ومقاماً**﴾ [الفرقان:٦٦]، ثم ذكر صفات المؤمنين، فقال: ﴿**أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً**﴾[الفرقان:٧٥-٧٦].

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً برجلين جعل الله لأحدهما جنتين، أي بستانين من أعناب، محفوفتين بالنخيل في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجودة؛ ولهذا قال: ﴿**كلتا الجنتين آتت أكلها**﴾ أي خرَّجت ثمرها ﴿**ولم تظلم منه شيئاً**﴾ أي ولم تُنْقِص منه شيئاً ﴿**وفجرنا خلالهما نهراً**﴾ أي والأنهار تتخرق فيهما ههنا وههنا، ﴿**وكان له ثمر**﴾ قيل: المراد به المال، روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. وقيل: الثمار، وهو أظهر ههنا ويؤيده القراءة الأخرى: «وكان له ثُمُر» بضم الثاء [والميم]،

فيكون جمع ثَمَرة كخشبة وخُشب. فقال أي صاحب هاتين الجنتين: لصاحبه وهو يحاوره، أي يجادله، ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ أي أكثر خدماً وحشماً وولداً، قال قتادة: تلك والله أمنية الفاجر، كثرة المال وعزة النفر.

وقوله: ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾ أي بكفره وتكبره وإنكاره المعاد ﴿قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً﴾ وذلك اغتراراً منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار، والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى ولا تتلف، وذلك لقلة عقله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة، ولهذا قال: ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ أي كائنة ﴿ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ أي ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا لأني محظى عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ [فصلت: ٥٠] أي في الدار الآخرة، تألى على الله عز وجل.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن، واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار ﴿أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلاً﴾ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه، وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ [البقرة: ٢٨٠]، أي كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جلية، كل أحد يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وجد، وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء من المخلوقات، لأنه بمثابته، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء، ولهذا قال المؤمن: ﴿لكنا هو الله ربي﴾ أي لكن أنا لا أقول بمقالتك بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية، ﴿ولا أشرك بربي أحداً﴾ أي بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله، لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً﴾ هذا تحضيض وحث على ذلك، أي هلا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها، حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده، فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد ثبت في الصحيح

عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله». [متفق عليه].

وقوله: ﴿فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ويرسل عليها﴾ أي على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى ﴿حسباناً من السماء﴾ قال ابن عباس والضحاك وقتادة والزهري: أي عذاباً من السماء، والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها؛ ولهذا قال: ﴿فتصبح صعيداً زلقاً﴾ أي بَلْقعاً تراباً أملس لا يثبت فيه قَدم، وقال ابن عباس: كالجُرز الذي لا يُنْبِتُ شيئاً وقوله: ﴿أو يصبح ماؤها غوراً﴾ أي غائراً في الأرض، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى: ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾ [الملك: ٣٠] أي جار وسائح، وقال ههنا: ﴿أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً﴾ والغور مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه.

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿وأحيط بثمره﴾ بأمواله أو بثماره، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خَوَّفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته التي اغتر بها وأَلْهَته عن الله عز وجل ﴿فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾ وقال قتادة: يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها ﴿ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً * ولم تكن له فئة﴾ أي عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز ﴿ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً * هنالك الولاية لله الحق﴾ اختلف القراء ههنا فمنهم من يقف على قوله: ﴿وما كان منتصراً * هنالك﴾ أي في ذلك الموطن الذي حل به عذاب الله، فلا منقذ له منه، ويبتدىء بقوله: ﴿الولاية لله الحق﴾ ومنهم من يقف على ﴿وما كان منتصراً﴾ يبتدىء بقوله: ﴿هنالك الولاية لله الحق﴾ ثم اختلفوا في قراءة الولاية، فمنهم من فتح الواو من الولاية، فيكون المعنى هنالك الموالاة لله، أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ [غافر: ٨٤]، ومنهم من كسر الواو من الولاية، أي هنالك الحكم لله الحق، ثم منهم من رفع الحق على أنه نعت للولاية، كقوله تعالى: ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ [الفرقان: ٢٦]، ومنهم من خفض القاف على أنه نعت لله عز وجل، كقوله: ﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾ [الأنعام: ٦٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هو خير ثواباً﴾ أي جزاء ﴿وخير عقباً﴾ أي الأعمال التي تكون لله عز وجل، ثوابها خير وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير.

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ

ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿واضرب﴾ يا محمد للناس ﴿مثل الحياة الدنيا﴾ في زوالها وانقضائها ﴿كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾ أي ما فيها من الحب، فشب وحَسُن، وعلاه الزهر والنَّوْرُ والنضرة، ثم بعد هذا كله ﴿أصبح هشيماً﴾ يابساً ﴿تذروه الرياح﴾ أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال، ﴿وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ أي هو قادر على هذه الحال وهذه الحال، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل، كما قال تعالى في سورة يونس ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت﴾ الآية [يونس: ٢٤]. وفي الحديث الصحيح: «الدنيا خضرة حلوة». [رواه مسلم]. وقوله: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ كقوله: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ [آل عمران: ١٤]، وقال تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾ [التغابن: ١٥] أي الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم، ولهذا قال: ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾. قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف: الباقيات الصالحات الصلوات الخمس. وعن ابن عباس: الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وبه قال مجاهد والحسن وقتادة، وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن الباقيات الصالحات ما هي؟ فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. [ونحوه عن ابن عمر وسعيد بن المسيب].

روى ابن جرير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هن الباقيات الصالحات». [إسناده حسن].

وقال ابن عباس في قوله: ﴿والباقيات الصالحات﴾ قال: هي ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولاحول ولاقوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام، والصلاة، والحج، والصدقة، والعتق، والجهاد، والصلة، وجميع أعمال الحسنات وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السموات والأرض. وعنه أيضا: هن الكلام الطيب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي الأعمال الصالحة كلها، واختاره ابن جرير رحمه الله.

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا

مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: ﴿**يوم تمور السماء موراً * وتسير الجبال سيراً**﴾ [الطور:٩-١٠] أي تذهب من أماكنها وتزول؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وترى الأرض بارزة**﴾ أي بادية ظاهرة ليس فيها مَعْلَم لأحد، ولا مكان يواري أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية. قال مجاهد وقتادة: ﴿**وترى الأرض بارزة**﴾ لا خَمَرَ فيها ولا غَيَابة قال قتادة: لا بناءَ ولا شَجَر.

وقوله: ﴿**وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً**﴾ وأي وجمعناهم الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحداً لا صغيراً ولا كبيراً، كما قال: ﴿**قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم**﴾ [الواقعة:٤٩-٥٠]. وقوله: ﴿**وعرضوا على ربك صفاً**﴾ يحتمل أن يكون المراد أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفاً واحداً، كما قال تعالى: ﴿**يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً**﴾ [النبأ:٣٨] ويحتمل أنهم يقومون صفوفاً صفوفاً، كما قال: ﴿**وجاء ربك والملك صفاً صفاً**﴾ [الفجر:٢٢]. وقوله: ﴿**لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة**﴾ هذا تقريع للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد؛ ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم: ﴿**بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً**﴾ أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن.

وقوله: ﴿**ووضع الكتاب**﴾ أي كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير، ﴿**فترى المجرمين مشفقين مما فيه**﴾ أي من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة ﴿**ويقولون يا ويلتنا**﴾ أي يا حسرتنا على ما فرطنا في أعمارنا ﴿**ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها**﴾ أي لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صَغُر، إلا أحصاها، أي ضبطها وحفظها.

وقوله: ﴿**ووجدوا ما عملوا حاضراً**﴾ أي من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿**يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً**﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقوله: ﴿**ولا يظلم ربك أحداً**﴾ أي فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحداً من خلقه بل يغفر ويرحم، ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويُخلِّد فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، قال تعالى: ﴿**إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً**﴾ [النساء: ٤٠]، والآيات في هذا كثيرة. وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: بلغني حديث عن رجل سمعه عن النبي ﷺ، فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رحلاً، فسرت عليه شهراً حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أنيس، فقلت للبواب: قل له جابر

على الباب، فقال: ابن عبد الله ؟ قلت نعم، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه، فقال سمعت رسول الله يقول: «يحشر الله عز وجل الناس يوم القيامة ـ أو قال العباد ـ عُراة غُرْلاً بُهْماً» قلت: وما بهما ؟ قال: «ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد، كما يسمعه من قَرب: أنا الملك، أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وله عند رجل من أهل النار حق حتى أقصه منه حتى اللطمة». قال: قلنا كيف وإنما نأتي الله عز وجل حفاة عراة غرلاً بهما ؟ قال: «بالحسنات والسيئات». [رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾.

يقول تعالى منبهاً بني آدم على عدواة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، وهو الذي أنشأه وابتداه وبألطاف رزقه وغذاه، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى الله، فقال تعالى: **﴿وإذ قلنا للملائكة﴾** أي لجميع الملائكة كما تقدم تقريره في أول سورة البقرة **﴿اسجدوا لآدم﴾** أي سجود تشريف وتكريم وتعظيم. وقوله: **﴿فسجدوا إلا إبليس كان من الجن﴾** أي خانه أصله، فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة وذلك أنه كان قد تَوَسَّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم وعصى بالمخالفة، ونبه تعالى ههنا على أنه من الجن أي على أنه خلق من نار، كما قال: **﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾** [الأعراف:١٢]. قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم عليه السلام أصل البشر، رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه.

وقال ابن عباس: كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجن، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزان الجنة، وخلقت الملائكة من نور غير هذا الحي، قال: وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت. وقال سعيد بن المسيب: كان رئيس ملائكة سماء الدنيا، وعن سعيد بن جبير أنه قال: كان من الجنانين الذين يعملون في الجنة. وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تُنْقَلُ لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يُقْطَع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غُنْيَةٌ عن كل ما عداه

من الأخبار المتقدمة لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين يَنْفُون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والسادة والأتقياء والأبرار والنجباء من الجهابذة النقاد والحفاظ الجياد الذين دونوا الحديث، وحرروه وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكره، وموضوعه ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي خاتم الرسل وسيد البشر عليه أفضل التحيات والصلوات والتسليمات أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس منه، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم.

وقوله: ﴿ففسق عن أمر ربه﴾ أي فخرج عن طاعة الله، فإن الفسق هو الخروج، يقال: فَسَقت الرُّطبَة إذا خرجت من أكمامها. ثم قال تعالى مقرعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾ أي بدلاً عني؛ ولهذا قال: ﴿بئس للظالمين بدلاً﴾. وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء في سورة يس **﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألاّ تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوٌ مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون﴾** [يس: ٥٩-٦٢].

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾.

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم، لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلقي للسموات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبرها ومقدرها وحدي، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير ولا نظير، كما قال: **﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير* ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾** الآية [سبأ: ٢٢-٢٣؛ ولهذا قال: ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ قال مالك: أعواناً.

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يُخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعاً لهم وتوبيخاً: ﴿نادوا شركائي الذين زعمتم﴾ أي في دار الدنيا ادعوهم اليوم ينقذوكم مما أنتم فيه، كما قال تعالى: **﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾** [الأنعام: ٩٤]. وقوله: ﴿فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ كما قال: **﴿وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾** [القصص: ٦٤]. وقوله: ﴿وجعلنا بينهم موبقاً﴾ قال

ابن عباس وقتادة وغير واحد: مَهْلِكاً، وعن عبد الله بن عمرو قال: هو واد عميق فُرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة. وقال قتادة: موبقاً وادياً في جهنم.

وقال أنس بن مالك: واد في جهنم من قيح ودم، وقال الحسن البصري: موبقاً: عداوة، والظاهر من السياق ههنا: أنه المهلك، ويجوز أن يكون وادياً في جهنم أو غيرَه، إلا أن الله تعالى أخبره أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير. وأما إن جعل الضمير في قوله بينهم عائداً إلى المؤمنين والكافرين كما قال عبد الله بن عمرو إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به، فهو كقوله تعالى: ﴿**ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون**﴾ [الروم:١٤]، وقال ﴿**يومئذ يصدعون**﴾ [الروم:٤٣].

وقوله: ﴿**ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً**﴾ أي أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك فإذا رأى المجرمون النار، تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز. ﴿**ولم يجدوا عنها مصرفاً**﴾ أي ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولابد لهم منها.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾.

يقول تعالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور وفصلناها، كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى، ومع هذا البيان وهذا الفرقان الإنسان كثير المجادلة والمعارضة للحق بالباطل إلا من هدى الله وبَصَّره لطريق النجاة. روى الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب قال: إن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة، فقال: «ألا تصليان ؟» فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئاً، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول: ﴿**وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً**﴾ أخرجاه في الصحيحين.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والآثار والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً، كما قال أولئك لنبيهم: ﴿**فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين**﴾ [الشعراء:١٨٧]، وآخرون قالوا: ﴿**ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين**﴾ [العنكبوت:٢٩]، وقالت قريش: ﴿**اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر**

علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال:٣٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

ثم قال: ﴿**إلا أن تأتيهم سنة الأولين**﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم، ﴿**أو يأتيهم العذاب قبلاً**﴾ أي يرونه عياناً مواجهة ومقابلة، ثم قال تعالى: ﴿**وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً**﴾ أي قبل العذاب مبشرين مَنْ صَدَّقهم وآمن بهم، ومنذرين من كذبهم وخالفهم، ثم أخبر عن الكفار بأنهم ﴿**يجادلون بالباطل ليدخصوا به الحق**﴾ أي ليضعفوا به الحق الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم، ﴿**واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً**﴾ أي اتخذوا الحجج وخوارق العادات التي بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿**هزواً**﴾ أي سخروا منهم في ذلك وهو أشد التكذيب.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

يقول تعالى: وأي عباد الله أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها، أي تناساها وأعرض عنها، ولم يُصْغ لها، ولا ألقى إليها بالاً، ﴿**ونسي ما قدمت يداه**﴾ أي من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة، ﴿**إنا جعلنا على قلوبهم**﴾ أي قلوب هؤلاء ﴿**أكنة**﴾ أي أغطية وغشاوة ﴿**أن يفقهوه**﴾ أي لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان ﴿**وفي آذانهم وقراً**﴾ أي صمماً معنوياً عن الرشاد ﴿**وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً**﴾.

وقوله: ﴿**وربك الغفور ذو الرحمة**﴾ أي ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة ﴿**لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب**﴾ كما قال: ﴿**ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة**﴾ [فاطر:٤٥]. والآيات في هذا كثيرة. ثم أخبر أنه يحلم ويَسْتُر ويغفر، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها؛ ولهذا قال: ﴿**بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً**﴾ أي ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا معدل. وقوله: ﴿**وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا**﴾ أي الأمم السالفة والقرون الخالية، أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم، ﴿**وجعلنا لمهلكهم موعداً**﴾ أي جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين، معلوم لا يزيد ولا ينقص، أي وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذري.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا

نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.

سبب قول موسى لفتاه وهو يوشع بن نون، هذا الكلام أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الذهاب إليه، وقال لفتاه ذلك: ﴿**لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين**﴾ أي لا أزال سائراً حتى أبلغ هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين. قال قتادة وغير واحد: هما بحر فارس مما يلي المشرق، وبحر الروم مما يلي المغرب، وقال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين عند طنجة، يعني في أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم. وقوله: ﴿**أو أمضي حقباً**﴾ أي ولو أني أسير حقباً من الزمان. قال ابن جرير رحمه الله: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقُب في لغة قيس: سنة، ثم روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الحقب ثمانون سنة. وقال مجاهد: سبعون خريفاً. وقال ابن عباس: دهراً، وقال قتادة وابن زيد مثل ذلك.

وقوله: ﴿**فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما**﴾ وذلك أنه كان قد أُمِرَ بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدت الحوت، فهو ثَمّة، فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وهناك عين يقال لها عين الحياة، فناما هنالك، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء، فاضطرب وكان في مكتل مع يوشع عليه السلام، وطَفَر من المكْتَل إلى البحر، فاستيقظ يوشع عليه السلام وسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**فاتخذ سبيله في البحر سرباً**﴾ أي مثل السَرَب في الأرض. قال ابن عباس: صار أثره كأنه حجر. وقال ابن عباس أيضا: جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة. وقال قتادة: سرب من البر حتى أفضى إلى البحر، ثم سلك فيه فجعل لا يسلك فيه طريقاً إلا جُعِل ماء جامداً.

وقوله: ﴿**فلما جاوزا**﴾ أي المكان الذي نسيا الحوت فيه، ونُسب النسيان إليهما وإن كان يوشعَ هو الذي نسيه.

فلما ذهبا عن المكان الذي نسياه فيه مَرْحَلةً ﴿**قال**﴾ موسى ﴿**لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا**﴾ أي الذي جاوزا فيه المكان ﴿**نصباً**﴾ يعني تعباً ﴿**قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره**﴾ قال قتادة: وقرأ ابن مسعود: «وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان»؛ ولهذا قال ﴿**واتخذ سبيله**﴾ أي طريقه ﴿**في البحر عجباً قال ذلك ما كنا نبغ**﴾ أي هذا هو الذي نطلب ﴿**فارتدا**﴾ أي رجعا ﴿**على آثارهما**﴾ أي طريقهما ﴿**قصصاً**﴾ أي يقصان آثار مشيهما ويقفوان أثرهما ﴿**فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا**

وعلمناه من لدنا علماً﴾ وهذا هو الخضر عليه السلام، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ بذلك روى البخاري عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه إنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. فقال موسى: يا رب وكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، فأخذ حوتاً فجعله بمكتل، ثم انطلق وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون عليه السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ، نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، قال له فتاه: ﴿أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا﴾ قال: فكان للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً، فقال ﴿ذلك ما كنا نبغِ فارتدا على آثارهما قصصاً﴾ قال: فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوب، فسلم عليه موسى فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام. فقال: أنا موسى. فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم قال أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً ﴿قال إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم من علم الله عَلَّمَكَه الله لا أعلمه. فقال موسى ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾ قال له الخضر: ﴿فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾.

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة، فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قد حملونا بغير نول، فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمراً ﴿قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾ قال: وقال رسول الله ﷺ فكانت الأولى من موسى نسياناً، قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى ﴿أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ قال: وهذه أشد من الأولى، ﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً﴾، فانطلقا حتى إذا أتيا

أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾ أي مائلاً، فقال الخضر بيده **﴿فأقامه﴾** فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا **﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً، قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾** فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما».

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن قيل موسى عليه السلام لذلك الرجل العالم وهو الخضر، الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر **﴿قال له موسى هل أتبعك﴾** سؤال بتلطف لا على وجه الإلزام والإجبار، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم. وقوله: **﴿أتبعك﴾** أي أصحبك وأرافقك **﴿على أن تعلمن مما علمت رشدا﴾** أي مما علمك الله شيئاً أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح، فعندها **﴿قال﴾** الخضر لموسى: **﴿إنك لن تستطيع معي صبرا﴾** أي إنك لا تقدر على أن تصاحبني لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك، لأني على علم من علم الله ما علمكه الله، وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتي. **﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا﴾** فأنا أعرف أنك ستنكر علي ما أنت معذور فيه، ولكن ما اطلعت على حكمته ومصلحته الباطنة التي اطلعتُ أنا عليها دونك **﴿قال﴾** له موسى **﴿ستجدني إن شاء الله صابرا﴾** أي على ما أرى من أمورك **﴿ولا أعصي لك أمراً﴾** أي ولا أخالفك في شيء فعند ذلك شارطه الخضر عليه السلام **﴿قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء﴾** أي ابتداءً **﴿حتى أحدث لك منه ذكرا﴾** أي حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني.

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه الخضر، أنهما انطلقا، فركبا في السفينة، وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة، وأنهم عرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول، يعني بغير أجرة، تكرمة للخضر، فلما استقلت بهم السفينة في البحر ولججت، أي دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها ثم رقَّعها، فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكراً عليه: **﴿أخرقتها لتغرق أهلها﴾** وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل. **﴿لقد جئت شيئاً إمراً﴾** قال مجاهد: منكراً. وقال قتادة: عجباً، فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط: **﴿ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا﴾** يعني وهذا الصنيع فعلته قصداً، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر علي فيها، لأنك لم تحط بها خبراً، ولها داخل هو مصلحة

ولم تعلمه أنت. ﴿قال﴾ أي موسى: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا﴾ أي لا تضيق علي ولا تشدد علي، ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كانت الأولى من موسى نسياناً».

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿فانطلقا﴾ أي بعد ذلك ﴿حتى إذا لقيا غلاماً فقتله﴾ وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى، وأنه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم وأوضأهم فقتله، وروي أنه احتز رأسه، وقيل رضخه بحجر، وفي رواية اقتطفه بيده، والله أعلم. فلما شاهد موسى عليه السلام هذا، أنكره أشد من الأول، وبادر فقال: ﴿أقتلت نفساً زكية﴾ أي صغيرة لم تعمل الحِنْث ولا عملت إثماً بَعْدُ فقتلته ﴿بغير نفس﴾ أي بغير مستند لقتله ﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾ أي ظاهر النكارة ﴿قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا﴾ فأكد أيضاً في التذكار بالشرط الأول؛ فلهذا قال له موسى: ﴿إن سألتك عن شيء بعدها﴾ أي إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً﴾ أي أعذرت إليّ مرة بعد مرة. روى ابن جرير عن أبي بن كعب قال: كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: «رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب، ولكنه قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا». [ورواه أبوداود وبعضه في مسلم].

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عنهما إنهما ﴿انطلقا﴾ بعد المرتين الأوليين ﴿حتى إذا أتيا أهل قرية﴾. روى ابن جرير عن ابن سيرين أنها الأيلة، ﴿فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾ والانقضاض هو السقوط. وقوله: ﴿فأقامه﴾ أي فرده إلى حالة الاستقامة، وقد تقدم في الحديث أنه رده بيديه ودعمه حتى رد ميله، وهذا خارق، فعند ذلك قال موسى له: ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجرا﴾ أي لأجل أنهم لم يضيفونا، كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجاناً ﴿قال هذا فراق بيني وبيك﴾ أي لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها، فلا تصاحبني فهو فراق بيني وبينك ﴿سأنبئك بتأويل﴾ أي بتفسير ﴿ما لم تستطع عليه صبرا﴾.

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾.

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام، وما كان أنكر ظاهره، وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنة، فقال: إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿يأخذ كل سفينة﴾ صالحة أي جيدة ﴿غصباً﴾ فأردت أن أعيبها لأرده

عنها لعيبها، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها، وقد قيل إنهم أيتام.

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾.

وفي الحديث عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً». [رواه مسلم]؛ ولهذا قال: **﴿فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا﴾** أي يحملهما حبه على متابعته على الكفر، قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب، وصح في الحديث: «لا يقضي الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له». [عند مسلم بمعناه]. وقال تعالى: **﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾** [البقرة:٢١٦]. وقوله: **﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما﴾** أي ولداً أزكى من هذا، وهما أرحم به منه، قاله ابن جريج. وقال قتادة: أبرّ بوالديه.

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولاً: **﴿حتى إذا أتيا أهل قرية﴾** [الكهف:٧٧]، وقال ههنا: **﴿فكان لغلامين يتيمين في المدينة﴾** كما قال تعالى: **﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك﴾** [محمد:١٣]، **﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾** [الزخرف:٣١] يعني مكة والطائف. ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما. قال عكرمة وقتادة وغير واحد: كان تحته مال مدفون لهما، وهو ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

وعن ابن عباس: كان تحته كنز علم، وكذا قال سعيد بن جبير، وقال مجاهد: صحف فيها علم. وقد روي في هذا آثار عن السلف، فروى ابن جرير في تفسيره عن الحسن البصري قال: هو لوح من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن؟ وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح؟ وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وعن عمر مولى غُفْرَة قال: كان لوحاً من ذهب مصمت، مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبٌ لمن عرف النار ثم ضحك! عجب لمن أيقن بالقدر ثم نصب! عجب لمن أيقن بالموت ثم أمن! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. وقال جعفر بن محمد في قول الله تعالى: **﴿وكان تحته كنز لهما﴾** قال سطران ونصف لم يتم الثالث: عجبت للموقن

بالرزق كيف يتعب، وعجبت للمؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبت للمؤمن بالموت كيف يفرح. وقد قال الله: ﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ وذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاح. وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة، لا ينافي قول عكرمة: إنه كان مالاً، لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب، وفيه مال جزيل أكثر ما زادوا أنه كان مودعاً فيه علم، وهو حكم ومواعظ، والله أعلم.

وقوله: ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يُحْفَظُ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت به السنة. قال ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يُذْكر لهما صلاح. وقوله: ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما﴾ ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى، لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله، وقال في الغلام: ﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه﴾ وقال في السفينة: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿رحمة من ربك وما فعلته عن أمري﴾ أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام، وولدي الرجل الصالح، وما فعلته عن أمري أي لكني أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام مع ما تقدم من قوله: ﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً﴾ وقال آخرون: كان رسولاً. وقيل: بل كان ملكاً. وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً، بل كان ولياً، فالله أعلم.

قالوا: وكان يكنى أبا العباس، ويلقب بالخضر، وكان من أبناء الملوك، ذكره النووي في تهذيب الأسماء، وحكى هو وغيره في كونه باقياً إلى الآن، ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابن الصلاح إلى بقائه، وذكروا في ذلك حكايات وآثاراً عن السلف وغيرهم، وجاء ذكره في بعض الأحاديث، ولا يصح شيء من ذلك، وأشهرها حديث التعزية، وإسناده ضعيف، ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ وبقول النبي ﷺ يوم بدر «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض» [رواه مسلم]. وبأنه لم يُنقل أنه جاء رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ولا قاتل معه، ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه، لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين: الجن والإنس، وقد قال: «لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي». [رواه أحمد والدارمي وابن أبي عاصم، وقال الألباني: حسن]، وأخبر قبل موته بقليل أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف، إلى غير ذلك من الدلائل.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في الخضر قال: «إنما سمي خضراً لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذ هي تحته تهتز خضراء». [ورواه البخاري].

والمراد بالفروة ههنا الحشيش اليابس وهو الهشيم من النبات، قاله عبد الزراق. وقيل: المراد بذلك وجه الأرض. وقوله: ﴿**ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا**﴾ أي هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: ﴿**ما لم تسطع**﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً، فقال ﴿**سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً**﴾، فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال: ﴿**فما اسطاعوا أن يظهروه**﴾ وهو الصعود إلى أعلاه ﴿**وما استطاعوا له نقباً**﴾ وهو أشق من ذلك، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى، والله أعلم.

فإن قيل: فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما، وفتى موسى معه تبع، وقد صرح في الأحاديث الصحاح وغيرها أنه يوشع بن نون، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى عليهما السلام.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿**ويسألونك**﴾ يا محمد ﴿**عن ذي القرنين**﴾ أي عن خبره. قال وهب بن منبه: كان ملكا، وإنما سمي ذا القرنين؛ لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس، قال: وقال بعض أهل الكتاب: لأنه ملك الروم وفارس. وقال بعضهم: كان في رأسه شبه القرنين. وقال علي رضي الله عنه: كان عبداً ناصح لله، فناصحه، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه، فمات، فأحياه الله، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات، فسمي ذا القرنين. ويقال: إنه سمي ذا القرنين لأنه بلغ المشارق والمغارب من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب.

وقوله: ﴿**إنا مكنا له في الأرض**﴾ أي أعطيناه ملكاً عظيماً متمكناً، فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب، ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها. وقوله: ﴿**وآتيناه من كل شيء سبباً**﴾ قال ابن عباس والسدي وقتادة وغيرهم: يعني علماً. وقال قتادة أيضاً: منازل الأرض وأعلامها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿**وآتيناه من كل شيء سبباً**﴾ قال: تعليم الألسنة، قال: كان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم.

وفي المختارة للحافظ الضياء المقدسي عن حبيب بن حِماز قال: كنت عند علي رضي الله عنه وسأله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب؟ فقال سبحان الله سخر له السحاب وقدر له الأسباب وبسط له اليد.

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾.

قال ابن عباس ﴿فأتبع سبباً﴾ يعني بالسبب المنزل، وبه قال الضحاك. وقال مجاهد: ﴿فأتبع سبباً﴾ منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب، ونحوه عن قتادة. وفي رواية عن مجاهد قال: طريقاً في الأرض. وقال سعيد بن جبير: علماً، وهكذا قال عكرمة وعبيد بن يعلى والسدي، وقال مطر: معالم وآثار كانت قبل ذلك.

وقوله: ﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس﴾ أي فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب وهو مغرب الأرض. وقوله: ﴿وجدها تغرب في عين حمئة﴾ أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه وهي لا تفارق الفلك الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه، والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين من الحمأة وهو الطين، كما قال تعالى: ﴿إني خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون﴾ [الحجر:٢٨]أي طين أملس، وقد تقدم بيانه. وكذا قال ابن عباس، وبه قال مجاهد وغير واحد. وقال ابن عباس أيضا: وجدها تغرب في عين حامية، يعني حارة، وكذا قال الحسن البصري. وقال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان وأيهما قرأ القارىء فهو مصيب.

وقوله: ﴿ووجد عندها قوماً﴾ أي أمّة من الأمم ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم. وقوله: ﴿قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً﴾ معنى هذا أن الله تعالى مكنه منهم وحكمه فيهم وأظفره بهم وخيّره إن شاء قتل وسبى وإن شاء منّ أو فدى. فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه في قوله: ﴿أمّا من ظلم﴾ أي استمر على كفره وشركه بربه ﴿فسوف نعذبه﴾ قال قتادة بالقتل وقال السدي كان يحمي لهم بقر النحاس ويضعهم فيها حتى يذوبوا وقال وهب بن منبه كان يسلط الظلمة فتدخل أجوافهم وبيوتهم وتغشاهم من جميع جهاتهم والله أعلم، وقوله: ﴿ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً﴾ أي شديداً بليغاً وجيعاً أليماً وفي هذا إثبات المعاد والجزاء. وقوله: ﴿وأما من آمن﴾ أي اتبعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فله جزاء الحسنى﴾ أي في الدار الآخرة عند الله عز وجل ﴿وسنقول له من أمرنا يسراً﴾ قال مجاهد معروفاً.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾.

يقول تعالى ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها وكان كلما مر بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم واستباح أموالهم

وأمتعتهم واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الإقليم المتاخم لهم، وذكر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمائة سنة يجوب الأرض طولها وعرضها حتى بلغ المشارق والمغارب. ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال تعالى: ﴿وجدها تطلع على قوم﴾ أي أمة ﴿لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ أي ليس لهم بناء يُكِنُّهم ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس، وقال سعيد بن جبير: كانوا حُمْراً قصاراً مساكنهم الغيران أكثر معيشتهم من السمك.

وقوله: ﴿كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً﴾ قال مجاهد والسدي: علماً أي نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه لا يخفى علينا منها شيء وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض فإنه تعالى ﴿لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ [آل عمران: ٥].

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن ذي القرنين ﴿ثم أتبع سبباً﴾ أي ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض حتى إذا بلغ بين السدين وهما جبلان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيها فساداً، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين «إن الله تعالى يقول: يا آدم فيقول لبيك وسعديك فيقول: ابعث بعث النار فيقول: وما بعث النار؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة، فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها فقال إن فيكم أمّتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج».

وقوله: ﴿وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً﴾ أي لاستعجام كلامهم وبعدهم عن الناس ﴿قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً﴾ قال ابن عباس: أجراً عظيماً يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا لهم من بينهم مالاً يعطونه إياه، حتى يجعل بينهم وبينهم سداً. فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: ﴿ما مكني فيه ربي خير﴾ أي إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ النمل: ٣٦] وهكذا قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من الذي تبذلونه، ولكن ساعدوني بقوة أي بعملكم وآلات البناء ﴿أجعل بينكم وبينهم ردماً آتوني زبر الحديد﴾ والزبر جمع زُبْرَة وهي القطعة منه قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة. وهي كاللبنة. ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ أي وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً ﴿قال

انفخوا﴾ أي أجج عليه النار حتى صار كله ناراً **﴿قال آتوني أفرغ عليه قطراً﴾** قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي: هو النحاس زاد بعضهم المذاب ويستشهد بقوله تعالى: **﴿وأسلنا له عين القطر﴾** [سبأ: ١٢] ولهذا يشبه بالبرد المحبر.

ثم قال الله تعالى:

﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ولا قدروا على نقبه من أسفله ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال **﴿فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً﴾** وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ولا على شيء منه.

ويؤيد ما قلناه من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شيء منه ما رواه الإمام أحمد عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول: «لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا». وحَلَّق. قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث». هذا حديث صحيح اتفق البخاري ومسلم على إخراجه.

وقال عكرمة في قوله: **﴿فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء﴾** قال: طريقاً كما كان، **﴿وكان وعد ربي حقاً﴾** أي كائناً لا محالة. وقوله: **﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾** أي الناس يومئذ، أي يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدي: ذاك حين يخرجون على الناس، وهذا كله قبل القيامة وبعد الدجال. قال ابن زيد في قوله وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض قال: هذا أول القيامة **﴿ونفخ في الصور﴾** على أثر ذلك **﴿فجمعناهم جمعاً﴾**. وقال آخرون: بل المراد بقوله: **﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾** يوم القيامة يختلط الإنس والجن.

وقوله: **﴿ونفخ في الصور﴾** والصور كما جاء في الحديث: قرن ينفخ فيه، والذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، والأحاديث فيه كثيرة، وفي الحديث عن ابن عباس وأبي سعيد مرفوعاً: «كيف أنعم، وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، واستمع متى يؤمر؟» قالوا: كيف نقول؟ قال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا». [رواه أحمد والترمذي، وقال: حسن]. وقوله: **﴿فجمعناهم جمعاً﴾** أي أحضرنا الجميع للحساب، **﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾** [الواقعة: ٤٩-٥٠].

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة أنه يعرض عليهم جهنم، أي يبرزها لهم ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهمّ والحزن لهم. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها». ثم قال مخبراً عنهم: ﴿الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري﴾ أي تغافلوا وتعاموا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق، كما قال: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾ [الزخرف:٣٦]، وقال ههنا: ﴿وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾ أي لا يعقلون عن الله أمره ونهيه، ثم قال: ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء﴾ أي اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك، وينتفعون بذلك ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ [مريم:٨٢]؛ ولهذا أخبر أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً.

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾.

روى البخاري عن مصعب قال: سألت أبي يعني سعد بن أبي وقاص عن قول الله: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً﴾ أهم الحرورية؟ قال: لا هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، فكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين، وقال علي بن أبي طالب والضحاك وغير واحد: هم الحرورية. ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعم من هذا، فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مَرْضيَّة يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول وهو مخطىء وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية﴾ [الغاشية:٢-٤]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قل هل ننبئكم﴾ أي نخبركم ﴿بالأخسرين أعمالاً﴾ ثم فسرهم، فقال ﴿الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا﴾ أي عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ أي يعتقدون أنهم على شيء وأنهم مقبولون محبوبون.

وقوله: ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه﴾ أي جحدوا آيات الله في الدنيا وبراهينه التي أقام على وحدانيته وصِدْقِ رسله، وكذبوا بالدار الآخرة ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ أي لا نُثَقِّل موازينهم لأنها خالية عن الخير. روى البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة» وقال: «اقرؤوا

إن شئتم ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾». وقوله: ﴿ذلك جزؤاهم جهنم بما كفروا﴾ أي إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً، استهزؤوا بهم وكذبوهم أشد التكذيب.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن عباده السعداء وهم الذين آمنوا بالله ورسله، وصدقوهم فيما جاؤوا به، أن لهم جنات الفردوس، قال مجاهد: الفردوس هو البستان بالرومية. وقال كعب والسدي والضحاك: هو البستان الذي فيه شجر الأعناب، وقال أبو أمامة: سرة الجنة، وقال قتادة: ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها. وفي الصحيح: «إذا سألتم الله الجنة، فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة». [رواه البخاري]. وقوله تعالى: ﴿نزلاً﴾ أي ضيافة، فإن النزل الضيافة. وقوله: ﴿خالدين فيها﴾ أي مقيمين ساكنين فيها لا يظعنون عنها أبداً ﴿لا يبغون عنها حولاً﴾ أي لا يختارون عنها غيرها ولا يحبون سواها. وفي قوله: ﴿لا يبغون عنها حولاً﴾ تنبيه على رغبتهم فيها وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا بدلاً.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه، لنفد البحر قبل أن يفرغ من كتابة ذلك ﴿ولو جئنا بمثله﴾ أي بمثل البحر آخر، ثم آخر وهلم جرّاً بحور تمده ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾ [لقمان:٢٧]. وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾ يقول: لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله، والشجر كله أقلام لانكسرت الأقلام، وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثني عليه كما ينبغي حتى يكون هو الذي يثني على نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾.

روى الطبراني عن معاوية بن أبي سفيان قال: هذه آخر آية أنزلت. [قال الهيثمي: رجاله ثقات]. يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين

المكذبين برسالتك إليهم ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ فمن زعم أني كاذب فليأت بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي، عما سألتم من قصة أصحاب الكهف وخبر ذو القرنين مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلعني الله عليه، وإنما أخبركم ﴿أنما إلهكم﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته ﴿إله واحد﴾ لا شريك له ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ أي ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ وهو ما كان موافقاً لشرع الله ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصاً لله صواباً على شريعة رسول الله ﷺ.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن الله عز وجل أنه قال: «أنا خير الشركاء فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري، فأنا بريء منه، وهو للذي أشرك». [ورواه مسلم].

تفسير سورة مريم وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴿٦﴾ ﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقوله: ﴿ذكر رحمت ربك﴾ أي هذا ذكر رحمة الله بعبده زكريا. وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل، وفي صحيح [مسلم] أنه كان نجاراً يأكل من عمل يديه في النجارة. وقوله: ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه لئلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره، حكاه الماوردي وقال آخرون: إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله، كما قال قتادة في هذه الآية: إن الله يعلم القلب التقي، ويسمع الصوت الخفي. وقال بعض السلف: قام من الليل عليه السلام وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربه يقول خفية: يا رب، يا رب، يا رب، فقال الله: لبيك لبيك لبيك. ﴿قال رب إني وهن العظم مني﴾ أي ضعفت وخارت القوى ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾، أي اضطرم المشيب في السواد. والمراد من هذا الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة. وقوله: ﴿ولم أكن بدعائك رب شقيا﴾ أي ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تردني قط فيما سألتك. وقوله: ﴿وإني خفت الموالي من ورائي﴾ قال مجاهد وقتادة والسدي: أراد بالموالي العصبة. وقال أبو صالح: الكلالة. وروي عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه كان يقرؤها: «وإني خَفَّت الموالي من ورائي» بتشديد الفاء بمعنى قلت عصباتي من بعدي، وعلى القراءة الأولى، وجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحي إليه، فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من

أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثة عصباته له ويسأل أن يكون له ولد فيحوز ميراثه دونهم هذا وجه.

الثاني: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالاً ولا سيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا.

الثالث: أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «لا نُورَث، ما تركنا فهو صدقة». وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: «نحن معشر الأنبياء لا نورث»، وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿**فهب لي من لدنك ولياً يرثني**﴾ على ميراث النبوة؛ ولهذا قال: ﴿**ويرث من آل يعقوب**﴾ كقوله: ﴿**وورث سليمان داود**﴾ [النمل: ١٦] أي في النبوة إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها، قال مجاهد: كان وراثته علماً، وكان زكريا من ذرية يعقوب، وقال أبو صالح في قوله: ﴿**يرثني ويرث من آل يعقوب**﴾ يكون نبياً كما كانت آباؤه أنبياء، وبه قال زيد بن أسلم، وقال الحسن: يرث نبوته وعلمه، وقال السدي: يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب. وقال أبو صالح: يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة، وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره.

وقوله: ﴿**واجعله رب رضيا**﴾ أي مرضياً عندك وعند خلقك، تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ⑦﴾.

هذا الكلام يتضمن محذوفاً وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه، فقيل له: ﴿**يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى**﴾ كما قال تعالى: ﴿**هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين**﴾ [آل عمران: ٣٨-٣٩]. وقوله: ﴿**لم نجعل له من قبل سميا**﴾ قال قتادة وابن جريج وابن زيد: أي لم يسم أحد قبله بهذا الاسم، واختاره ابن جرير رحمه الله.

وقال مجاهد: أي شبيهاً، وأخذه من معنى قوله: ﴿**فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا**﴾ أي شبيهاً، وقال ابن عباس: أي لم تلد العواقر قبله مثله، وهذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم، وسارة عليهما السلام، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما لا لعقرهما؛ ولهذا قال: ﴿**أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون**﴾ [الحجر: ٥٤] مع أنه كان قد ولد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة، وقالت امرأته: ﴿**يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد**﴾ [هود: ٧٢-٧٣].

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ ﴾.

هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل، وبُشِّر بالولد، ففرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا، أي: عسا عَظْمُه ونَحَل، ولم يبق فيه لقاح ولا جماع، والعرب تقول للعود إذا يبس: عتا يعتو عِتياً وعُتُواً، وعَسا يعسو عسواً وعِسياً، وقال مجاهد: عتيا بمعنى نحول العظم، وقال ابن عباس وغيره: يعني الكبر، والظاهر أنه أخص من الكبر.

﴿**قال**﴾ أي الملك مجيباً لزكريا عما استعجب منه: ﴿**كذلك قال ربك هو علي هين**﴾ أي إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها، ﴿**هين**﴾ أي يسير سهل على الله. ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه، فقال: ﴿**وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً**﴾ كما قال تعالى: ﴿**هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً**﴾ [الإنسان: ١].

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام أنه: ﴿**قال رب اجعل لي آية**﴾ أي علامة على وجود ما وعدتني، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿**رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي**﴾ الآية[البقرة: ٢٦٠]. ﴿**قال آيتك**﴾ أي علامتك ﴿**ألاّ تكلم الناس ثلاث ليال سوياً**﴾ أي أن يحتبس لسانك عن الكلام **ثلاث** ليال، وأنت صحيح سوي من غير مرض. قال ابن عباس ووهب بن منبه والسدي وقتادة وغير واحد: اعتُقِلَ لسانه من غير مرض. قال ابن زيد: كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة.

وعن ابن عباس: ﴿**ثلاث ليالٍ سويا**﴾ أي متتابعات. والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح، كما قال تعالى في آل عمران: ﴿**قال رب اجعل لي آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار**﴾ [آل عمران: ٤١]. وقال زيد بن أسلم: ﴿**ثلاث ليال سويا**﴾ من غير خرس. وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿**إلا رمزاً**﴾ أي إشارة؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿**فخرج على قومه من المحراب**﴾ أي الذي بشر فيه بالولد ﴿**فأوحى إليهم**﴾ أي أشار إشارة خفية سريعة ﴿**أن سبحوا بكرة وعشيا**﴾ أي موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكراً لله على ما أولاه. قال مجاهد: «فأوحى إليهم» أي أشار. وبه قال وهب وقتادة. وقال مجاهد في رواية عنه: ﴿**فأوحى إليهم**﴾ أي كتب لهم في الأرض. وكذا قال السدي.

﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍۢ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّۭا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًۭا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةًۭ ۖ وَكَانَ تَقِيًّۭا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّۭا ﴿١٤﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّۭا ﴿١٥﴾ ﴾ .

وهذا أيضاً تضمن محذوفاً تقديره: أنه وجد هذا الغلام المبشر به وهو يحيى عليه السلام، وأن الله علمه الكتاب وهو التوارة التي كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار. وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً فلهذا نوه بذكره وبما أنعم به عليه وعلى والديه فقال: **﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾** أي تعلم الكتاب بقوة أي بجد وحرص واجتهاد **﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾** أي الفهم والعلم والجد، والإقبال على الخير والإكباب عليه، وهو صغير. قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعب خلقنا، قال: فلهذا أنزل الله: **﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾**.

وقوله: **﴿وحناناً من لدنا﴾** قال ابن عباس: ورحمة من عندنا، وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك وزاد: لا يقدر عليها غيرنا، وزاد قتادة: رحِم الله بها زكريا. وقال مجاهد: **﴿وحناناً من لدنا﴾** وتعطفاً من ربه عليه. وقال عكرمة: محبة عليه. وقال ابن زيد: أما الحنان فالمحبة، وقال عطاء بن أبي رباح: تعظيماً من لدنا، والظاهر من هذا السياق أن وحناناً من لدنّا معطوف على قوله **﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾** أي وآتيناه الحكم وحناناً وزكاة، أي وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل، كما تقول العرب: حنّت الناقة على ولدها وحنت المرأة على زوجها.

وقوله: **﴿وزكاة﴾** معطوف على وحناناً، فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب، وقال قتادة: الزكاة العمل الصالح، وقال الضحاك وابن جريج: العمل الصالح الزكي. وقال ابن عباس: **﴿وزكاة﴾** قال: بركة، **﴿وكان تقياً﴾** ذا طهر فلم يعمل بذنب. وقوله: **﴿وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً﴾** لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبته عقوقهما قولاً وفعلاً، أمراً ونهياً، ولهذا قال: **﴿ولم يكن جباراً عصياً﴾** ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك: **﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾** أي له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال. وقال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم، قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصّه بالسلام عليه، فقال: **﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾**.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًۭا شَرْقِيًّۭا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًۭا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًۭا سَوِيًّۭا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّۭا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًۭا زَكِيًّۭا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌۭ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌۭ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّۭا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌۭ

وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾.

لماذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكياً طاهراً مباركاً، عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى عليهما السلام منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة، ولهذا ذكرهما في آل عمران وههنا، وفي سورة الأنبياء يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليُدِلَّ عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر، فقال ﴿**واذكر في الكتاب مريم**﴾ وهي مريم بنت عمران من سلالة داود عليه السلام. وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل، ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل. فلما أراد الله تعالى وله الحكمة والحجة البالغة، أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام ﴿**انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً**﴾ أي اعتزلتهم وتنحت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس. وقال السدي لحيض أصابها، وقيل لغير ذلك.

قال ابن عباس: إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة، لقول الله تعالى: ﴿**فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً**﴾ واتخذوا ميلاد عيسى قبلة. وقال قتادة ﴿**مكاناً شرقياً**﴾ شاسعاً منتحياً، وقال محمد بن إسحاق: ذهبت بقلتها تستقى من الماء. وقال نوف البكالي: اتخذت لها منزلاً تتعبد فيه، فالله أعلم.

وقوله: ﴿**فاتخذت من دونهم حجاباً**﴾ أي استترت منهم وتوارت، فأرسل الله تعالى إليها جبريل عليه السلام ﴿**فتمثل لها بشراً سوياً**﴾ أي على صورة إنسان تام كامل. قال مجاهد وقتادة ووهب بن منبه والسدي [وغيرهم] في قوله: ﴿**فأرسلنا إليها روحنا**﴾ يعني جبرائيل عليه السلام، وهذا الذي قالوه هو ظاهر القرآن، فإنه تعالى قد قال في الآية الأخرى: ﴿**نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين**﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

﴿**قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً**﴾ أي لما تَبَدى لها المَلَكُ في صورة بشر، وهي في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب، خافته وظنت أنه يريدها على نفسها، فقالت: ﴿**إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً**﴾ أي إن كنت تخاف الله تذكيراً له بالله وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولاً بالله عز وجل.

قال أبو وائل وذكر قصة مريم، فقال: قد علمت أن التقي ذو نُهْيَة حين قالت: ﴿**إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً * قال إنما أنا رسول ربك**﴾ أي فقال لها الملك مجيباً لها ومزيلاً ما حصل عندها من الخوف على نفسها لست مما تظنين ولكني رسول ربك، أي بعثني الله إليك، ويقال إنها لما ذكرت الرحمن انتفض جبريل فرقاً وعاد إلى هيئته وقال: ﴿**إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً**﴾. ﴿**قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغياً**﴾ أي فتعجبت مريم من هذا وقالت: كيف يكون لي غلام؟ أي على أي صفة يوجد هذا الغلام مني،

ولست بذات زوج، ولا يتصور مني الفجور، ولهذا قالت: ﴿**ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا**﴾، ﴿**قال كذلك قال ربك هو علي هين**﴾ أي فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت: إن الله قد قال إنه سيوجد منك غلاماً وإن لم يكن لك بعل، ولا توجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر، ولهذا قال: ﴿**ولنجعله آية للناس**﴾ أي علامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم. ﴿**ورحمة منا**﴾ أي ونجعل هذا الغلام رحمة من الله ونبياً من الأنبياء، يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده. وقوله: ﴿**وكان أمراً مقضياً**﴾ يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدرته ومشيئته، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النفخ في فرجها، كما قال تعالى: ﴿**ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا**﴾ [التحريم:١٢]، وقال: ﴿**والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا**﴾ [الأنبياء:٩١]. قال ابن إسحاق: ﴿**وكان أمراً مقضياً**﴾ أي إن الله قد عزم على هذا فليس منه بد، واختار هذا أيضاً ابن جرير في تفسيره ولم يحك غيره، والله أعلم.

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال، أنها استسلمت لقضاء الله تعالى، فذكر غير واحد من علماء السلف أن الملك وهو جبرائيل عليه السلام عند ذلك نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد بإذن الله تعالى، فلما حملت به ضاقت ذرعاً، ولم تدر ماذا تقول للناس، فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به، غير أنها أفشت سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا.

قال مالك رحمه الله: بلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام ابنا خالة، وكان حملهما جميعاً معاً، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إني أرى أن ما في بطني يسجد لما في بطنك. قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام، لأن الله جعله يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص. ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر. وقال عكرمة: ثمانية أشهر، قال: ولهذا لا يعيش ولد لثمانية أشهر. وعن ابن عباس قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت، وهذا غريب، وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله تعالى: ﴿**فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة**﴾ فالفاء وإن كانت للتعقيب، لكن تعقيب كل شيء بحسبه، كقوله تعالى: ﴿**ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة**﴾ [الحج:٦٣]. فالمشهور الظاهر، والله على كل شيء قدير، أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن، ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة، انتبذت منهم مكاناً قصياً، أي قاصياً منهم بعيداً عنهم لئلا تراهم ولا يروها.

قال محمد بن إسحاق: فلما حملت به وملأت قلتها ورجعت، استمسك عنها الدم وأصابها

ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والتوحم وتغير اللون، حتى فَطَر لسانها فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا، وشاع الحديث في بني إسرائيل فقالوا: إنما صاحبها يوسف ولم يكن معها في الكنيسة غيره، وتوارت من الناس واتخذت من دونهم حجاباً، فلا يراها أحد ولا تراه. وقوله: ﴿**فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة**﴾ أي فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة في المكان الذي تنحت إليه، وقد اختلفوا فيه، فقال السدي: كان شرقي محرابها الذي تصلي فيه من بيت المقدس. وقال وهب بن منبه: ذهبت هاربة، فلما كانت بين الشام وبلاد مصر ضربها الطلق. وفي رواية عن وهب: كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس في قرية هناك يقال لها بيت لحم، قلت: وفي أحاديث الإسراء من رواية النسائي عن أنس رضي الله عنه، والبيهقي عن شداد بن أوس رضي الله عنه أن ذلك ببيت لحم، فالله أعلم، وهذا هو المشهور الذي تلقاه الناس بعضهم عن بعض، ولا تشك فيه النصارى أنه ببيت لحم، وقد تلقاه الناس، وقد ورد به الحديث إن صح.

وقوله تعالى إخباراً عنها: ﴿**قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً**﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت: ﴿**يا ليتني مت قبل هذا**﴾ أي قبل هذا الحال، ﴿**وكنت نسياً منسياً**﴾ أي لم أخلق ولم أك شيئاً، قاله ابن عباس. وقال السدي: قالت وهي تطلق من الحبل استحياء من الناس: ياليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه، والحزن بولادتي المولود من غير بَعْل، ﴿**وكنت نسياً منسياً**﴾ نُسي فتُرِك طلبه. وقال قتادة: أي شيئاً لا يعرف ولا يذكر ولا يدري من أنا. وقال الربيع بن أنس: هو السقط. وقال ابن زيد: لم أكن شيئاً قط.

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾.

قرأ بعضهم: «مَنْ تحتها» بمعنى الذي تحتها، وقرأ الآخرون: «مِن تحتها» على أنه حرف جر، واختلف المفسرون في المراد بذلك من هو؟ فقال ابن عباس: ﴿**فناداها من تحتها**﴾ جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها. وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك وعمرو بن ميمون والسدي وقتادة: إنه جبريل عليه الصلاة والسلام، أي ناداها من أسفل الوادي. وقال مجاهد: ﴿**فناداها من تحتها**﴾ قال: عيسى ابن مريم، وكذا قال الحسن: هو ابنها، وهو إحدى الروايتين عن سعيد بن جبير أنه ابنها، قال: أو لم تسمع الله يقول: ﴿**فأشارت إليه**﴾ واختاره ابن زيد وابن جرير في تفسيره.

وقوله: ﴿**ألاّ تحزني**﴾ أي ناداها قائلاً لا تحزني ﴿**قد جعل ربك تحتك سريا**﴾ قال البراء بن

عازب: الجدول، وكذا قال ابن عباس: السري النهر، وبه قال عمرو بن ميمون نهر تشرب منه. وقال مجاهد: هو النهر بالسريانية. وقال سعيد بن جبير: السري النهر الصغير بالنبطية. وقال الضحاك: هو النهر الصغير بالسريانية. وقال إبراهيم النخعي: هو النهر الصغير. وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل الحجاز، وقال وهب بن منبه: السري هو ربيع الماء. وقال السدي: هو النهر، واختار هذا القول ابن جرير.

وقال آخرون: المراد بالسري عيسى عليه السلام، وبه قال الحسن والربيع بن أنس ومحمد بن عباد بن جعفر، وهو إحدى الروايتين عن قتادة، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم والقول الأول أظهر. ولهذا قال بعده: ﴿**وهزي إليك بجذع النخلة**﴾ أي وخذي إليك بجذع النخلة. قيل: كانت يابسة، قاله ابن عباس. وقيل: مثمرة. قال مجاهد: كانت عجوة. والظاهر أنها كانت شجرة، ولكن لم تكن في إبان ثمرها، قاله وهب بن منبه، ولهذا امتن عليها بذلك بأن جعل عندها طعاماً وشراباً فقال: ﴿**تساقط عليك رطباً جنياً * فكلي واشربي وقري عيناً**﴾ أي طيبي نفساً، ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة.

وقوله: ﴿**فإما ترين من البشر أحداً**﴾ أي مهما رأيت من أحد ﴿**فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً**﴾ المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك، لا أن المراد به القول اللفظي لئلا ينافي ﴿**فلن أكلم اليوم إنسياً**﴾ قال أنس بن مالك في قوله: ﴿**إني نذرت للرحمن صوماً**﴾ قال: صمتاً، وكذا قال ابن عباس والضحاك، وفي رواية عن أنس: صوماً وصمتاً، وكذا قال قتادة وغيرهما، والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام، نص على ذلك السدي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد. وقال عبد الرحمن بن زيد: لما قال عيسى لمريم: ﴿**ألاّ تحزني**﴾ قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي، لا ذات زوج ولا مملوكة؟ أي شيء عذري عند الناس؟ يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، قال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام ﴿**فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً**﴾ قال هذا كله من كلام عيسى لأمه، وكذا قال وهب.

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك وأن لا تكلم أحداً من البشر، فإنها ستكفى أمرها ويقام بحجتها، فسلمت لأمر الله عز وجل واستسلمت لقضائه، فأخذت ولدها فأتت به قومها تحمله، فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها واستنكروه جداً، و﴿**قالوا**

يا مريم لقد جئت شيئاً فريا﴾، أي أمراً عظيماً، قاله مجاهد وقتادة والسدي وغير واحد. ﴿يا أخت هارون﴾ أي يا شبيهة هارون في العبادة ﴿ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً﴾ أي أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟ قال علي بن أبي طلحة والسدي: قيل لها: ﴿يا أخت هارون﴾ أي أخي موسى، وكانت من نسله كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وللمضري يا أخا مضر، وقيل: نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون، فكانت تقاس به في الزهادة والعبادة، وحكى ابن جرير عن بعضهم أنهم شبهوها برجل فاجر كان فيهم يقال له هارون. ورواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير.

روى الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أرأيت ما تقرؤون ﴿يا أخت هارون﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم» رواه مسلم.

وعن قتادة: ﴿يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كان أمك بغياً﴾ قال: كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ولا يعرفون بالفساد، ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به، وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به، وكان هارون مصلحاً محبباً في عشيرته وليس بهارون أخي موسى ولكنه هارون آخر. وقوله: ﴿فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ أي إنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهكمين بها ظانين أنها تزدري بهم وتلعب بهم: ﴿كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ قال ميمون بن مهران: ﴿فأشارت إليه﴾ قالت كلموه، فقالوا: على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبياً، وقال السدي لما أشارت إليه غضبوا، وقالوا: لسخريتها بنا حين تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها. ﴿قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ أي من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟ قال: ﴿إني عبد الله﴾، أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى وبرأ الله عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه.

وقوله: ﴿آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة، قال نوف البكالي: لما قالو لأمه ما قالوا، كان يرتضع ثديه، فنزع الثدي من فمه واتكأ على جنبه الأيسر وقال: ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً إلى قوله ما دمت حياً﴾. وقال ثابت البناني: رفع أصبعه السبابة فوق منكبه، وهو يقول: ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ الآية، وقال عكرمة: ﴿آتاني الكتاب﴾ أي قضى أنه يؤتيني الكتاب فيما قضى.

وقوله: ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾ قال مجاهد وعمرو بن قيس والثوري: وجعلني معلماً للخير. وفي رواية عن مجاهد: نفّاعاً. وروى ابن جرير عن وهيب بن الورد مولى

بني مخزوم قال: لقي عالم عالماً هو فوقه في العلم، فقال له: يرحمك الله ما الذي أعلن من عملي؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده، وقد أجمع الفقهاء على قول الله: ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾ وقيل: ما بركته؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان. وقوله: ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ [الحجر:٩٩]. وقال مالك بن أنس في قوله ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ قال: أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت. ما أشدها على أهل القدر.

وقوله: ﴿وبراً بوالدتي﴾ أي وأمرني ببر والدتي، ذكره بعد طاعة الله ربه، لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾ [الإسراء:٢٣]. وقوله: ﴿ولم يجعلني جباراً شقياً﴾ أي ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدتي، فأشقى بذلك. قال سفيان الثوري: الجبار الشقي الذي يُقْبِل على الغضب. وقال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً﴾ قال: ولا تجد سيء الملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً، ثم قرأ: ﴿وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾ [النساء:٣٦].

قال قتادة: ذكر لنا أن امرأة رأت ابن مريم يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص في آيات سلطه الله عليهن وأذن له فيهن، فقالت: طوبى للبطن الذي حملك، والثدي الذي أرضعت به، فقال نبي الله عيسى عليه السلام يجيبها: طوبى لمن تلا كتاب الله فاتبع ما فيه، ولم يكن جباراً شقياً. وقوله: ﴿والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً﴾ إثبات منه لعبوديته لله عز وجل، وأنه مخلوق من خلق الله يحيي ويموت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى ﴿قول الحق الذي فيه يمترون﴾ أي يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به، ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً نزه نفسه المقدسة فقال: ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه﴾ أي عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون علواً كبيراً ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي إذا أراد شيئاً، فإنما يأمر به فيصير كما يشاء، كما قال: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾ [آل عمران:٥٩-٦٠].

وقوله: ﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ أي ومما أمر به عيسى قومه

وهو في مهده، أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم، وأمرهم بعبادته، فقال: ﴿**فاعبدوه هذا صراط مستقيم**﴾ أي هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم، أي قويم من اتبعه رشد وهُدِي، ومن خالفه ضل وغوى. وقوله: ﴿**فاختلف الأحزاب من بينهم**﴾ أي اختلف أقوال أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة منهم، وهم جمهور اليهود ـ عليهم لعائن الله ـ على أنه ولد زِنْيَة، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله. وقال آخرون: بل هو ابن الله. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله، وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين، وقد روي نحو هذا عن عمرو بن ميمون وابن جريج وقتادة وغير واحد من السلف والخلف. وعن ابن عباس وعن عروة بن الزبير وعن بعض أهل العلم قريباً من ذلك.

وقوله: ﴿**فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم**﴾ تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله وافترى وزعم أن له ولداً. ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة، وأجلهم حلماً وثقة بقدرته عليهم، فإنه الذي لا يعجل على من عصاه، كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد**﴾ [هود:١٠٢]. ولهذا قال ههنا: ﴿**فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم**﴾ أي يوم القيامة. وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة: إنهم يكونون أسمع شيء وأبْصَرُه، كما قال تعالى: ﴿**ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا**﴾ [السجدة:١٢]، أي يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئاً، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب لكان نافعاً لهم ومنقذاً من عذاب الله، لهذا قال: ﴿**أسمع بهم وأبصر**﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم ﴿**يوم يأتوننا**﴾ يعني يوم القيامة ﴿**لكن الظالمون اليوم**﴾ أي في الدنيا ﴿**في ضلال مبين**﴾ أي لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك. ثم قال تعالى: ﴿**وأنذرهم يوم الحسرة**﴾ أي أنذر الخلائق يوم الحسرة ﴿**إذ قضي الأمر**﴾ أي فصل بين أهل الجنة وأهل النار وصار كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه، ﴿**وهم**﴾ أي اليوم ﴿**في غفلة**﴾ عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة

﴿وهم لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون به.

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا، قال: فيشرئبون ويقولون: نعم هذا الموت». قال: «فيقال: ياأهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت». قال: «فيؤمر به فيذبح» قال: «ويقال يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة﴾ وأشار بيده ثم قال «أهل الدنيا في غفلة الدنيا». وأخرجه البخاري ومسلم.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ من أسماء يوم القيامة، عَظَّمه الله وحذره عباده. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يوم القيامة، وقرأ: ﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله﴾ [الزمر:٥٦]. وقوله: ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾ يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو تعالى وتقدس، ولا أحد يدّعي مُلْكاً ولا تصرفاً، بل هو الوارث لجميع خلقه الباقي بعدهم الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة. روى ابن أبي حاتم أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة: أما بعد، فإن الله كتب على خلقه حين خلقهم الموت، فجعل مصيرهم إليه، وقال فيما أنزل في كتابه الصادق الذي حفظه بعلمه وأشهد ملائكته على خلقه: إنه يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: واذكر في الكتاب إبراهيم واتلُه على قومك، هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن الذين هم من ذريته، ويدعون أنهم على ملته، وقد كان صديقاً نبياً مع أبيه، كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿يا أبت لم تعبد ما لايسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ أي لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً. ﴿ياأبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك﴾ يقول: وإن كنت من صلبك وترى أني أصغر منك لأني ولدك، فاعلم أني قد أطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت، و لا اطلعت عليه و لا جاءك بعد ﴿فاتبعني أهدك صراطاً سوياً﴾ أي طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المرهوب. ﴿ياأبت لا تعبد الشيطان﴾ أي لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به، كما قال تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان﴾ [يس:٦٠]. وقوله: ﴿إن الشيطان كان للرحمن عصياً﴾ أي مخالفاً

مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه تصر مثله. ﴿ياأبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن﴾ أي على شركك وعصيانك لما آمرك به، ﴿فتكون للشيطان ولياً﴾ يعني فلا يكون لك مولى ولا مغيثاً إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم، فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم﴾ [النحل: ٦٣].

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه أنه قال: ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم؟﴾ يعني إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها، فانته عن سبها وشتمها وعيبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسببتك، وهو قوله: ﴿لأرجمنك﴾ قاله ابن عباس والسدي وابن جريج والضحاك وغيرهم، وقوله: ﴿واهجرني ملياً﴾ قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن إسحاق: يعني دهراً. وقال الحسن البصري: زماناً طويلاً. وقال السدي: أبداً. وقال ابن عباس: سوياً سالماً قبل أن تصيبك مني عقوبة، وكذا قال الضحاك وقتادة وعطية وأبو مالك وغيرهم، واختاره ابن جرير، فعندها قال إبراهيم لأبيه: ﴿سلام عليك﴾ كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ [الفرقان: ٦٣]. ومعنى قول إبراهيم لأبيه: ﴿سلام عليك﴾ يعني أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى وذلك لحرمة الأبوة، ﴿سأستغفر لك ربي﴾ ولكن سأسأل الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك ﴿إنه كان بي حفياً﴾ قال ابن عباس وغيره: لطيفاً، أي في أن هداني لعبادته والإخلاص له.

وقال قتادة ومجاهد وغيرهما: عوّده الإجابة. وقال السدي: الحفي الذي يَهْتَم بأمره. وقد استغفر إبراهيم لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام، وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام في قوله: ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ [إبراهيم: ٤١]. وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين في ابتداء الإسلام، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك حتى أنزل الله تعالى: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شي﴾ الآية [الممتحنة: ٤]، يعني إلا في هذا القول، فلا تتأسوا به، ثم بين تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ [التوبة: ١١٣-١١٤]. وقوله: ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي﴾. أي أجتنبكم

وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله، وأدعو ربي أي وأعبد ربي وحده لا شريك له ﴿عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً﴾ وعسى هذه موجبة لا محالة، فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾.

يقول تعالى: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خير منهم، ووهب له إسحاق ويعقوب يعني ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ويعقوب نافلة﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وقال: ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ [هود: ٧١].

ولاخلاف أن إسحاق والد يعقوب، وهو نص القرآن في سورة البقرة: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ [البقرة: ١٣٣]. ولهذا إنما ذكر ههنا إسحاق ويعقوب، أي جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء أقر الله بهم عينه في حياته، ولهذا قال: ﴿وكلاً جعلنا نبياً﴾ فلو لم يكن يعقوب عليه السلام قد نبىء في حياة إبراهيم لما اقتصر عليه ولذكر ولده يوسف، فإنه نبي أيضاً كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته حين سئل عن خير الناس، فقال: «يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن إسحاق نبي الله ابن إبراهيم خليل الله»، وفي اللفظ الآخر: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». وقوله: ﴿ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا﴾ قال ابن عباس: يعني الثناء الحسن، وكذا قال السدي ومالك بن أنس، وقال ابن جرير: إنما قال: ﴿عليا﴾ لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عطف بذكر الكليم، فقال: ﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام من الإخلاص في العبادة. وعن أبي لبابة قال: قال الحواريون: يا روح الله أخبرنا عن المخلص لله؟ قال: الذي يعمل لله لا يحب أن يحمده الناس، وقرأ الآخرون بفتحها بمعنى أنه كان مصطفى، كما قال تعالى: ﴿إني اصطفيتك على الناس﴾ [الأعراف: ١٤٤]. ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ جُمع له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين.

وقوله: ﴿وناديناه من جانب الطور﴾ أي الجبل ﴿الأيمن﴾ من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة رآها تلوح فقصدها، فوجدها في جانب الطور الأيمن منه عند شاطىء الوادي،

فكلمه الله تعالى وناداه وقربه وناجاه. وعن ابن عباس: ﴿وقربناه نجيا﴾ قال: أُدْنِيَ حتى سمع صريف القلم، وهكذا قال مجاهد وأبو العالية وغيرهم: يعنون صريف القلم بكتابة التوارة. وقال السدي: أدخل في السماء فكلم، وعن مجاهد نحوه. وقال قتادة: نجا بصدقه. وقوله: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ أي وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه، فجعلناه نبياً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون﴾ [القصص:٣٤]، وقال: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ [طه:٣٦]، ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ قال ابن عباس: كان هارون أكبرَ من موسى، ولكن أراد وهَبَ له نبوته.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾.

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهماالسلام بأنه كان صادق الوعد. قال ابن جريج: لم يَعِدْ ربه عدة إلا أنجزها، يعني ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها ووفَّاها حقها. وقال بعضهم: إنما قيل له: ﴿صادق الوعد﴾ لأنه قال لأبيه: ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ [الصافات:١٠٢]، فصدق في ذلك. فصدق الوعد من الصفات الحميدة كما أن خُلْفَه من الصفات الذميمة، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ [الصف:٢-٣]، وقال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان». [متفق عليه]. ولما كانت هذه صفات المنافقين، كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً لا يعد أحداً شيئاً إلا وفى له به.

وقوله: ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ وصف بالنبوة والرسالة. وقوله: ﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً﴾ هذا أيضاً من الثناء الجميل والصفة الحميدة، والخلة السديدة، حيث كان مثابراً على طاعة ربه عز وجل، آمراً بها لأهله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ [طه:١٣٢]، وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد﴾ [التحريم:٦] أي مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر ولا تدعوهم هملاً، فتأكلهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نَضَح في وجهها الماء. رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء». أخرجه أبو داود وابن ماجه [وهو صحيح]. وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا

ركعتين، كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات». رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه واللفظ له [وهو صحيح].

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾.

وهذا ذكر إدريس عليه السلام بالثناء عليه بأنه كان صديقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ مر به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة. وعن ابن عباس أن إدريس كان خياطاً، فكان لا يغرز إبرة إلا قال: سبحان الله، فكان يمسي حين يمسي وليس في الأرض أحد أفضل عملاً منه. وعن مجاهد في قوله: **﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾** قال: إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى، وعنه أيضا قال: رفع إلى السماء الرابعة، وعن ابن عباس قال: رفع إلى السماء السادسة فمات بها وهكذا قال الضحاك بن مزاحم، وقال الحسن وغيره في قوله: **﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾** قال: الجنة.

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾.

يقول تعالى: هؤلاء النبيون ـ وليس المراد هؤلاء المذكورين في هذه السورة فقط بل جنس الأنبياء عليهم السلام استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس **﴿الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم﴾** الآية، قال السدي وابن جرير رحمه الله: فالذي عنى به من ذرية آدم: إدريس، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح: إبراهيم، والذي عنى به من ذرية إبراهيم: إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي عنى به من ذرية إسرائيل: موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم، قال ابن جرير: ولذلك فرق أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة وهو إدريس، فإنه جد نوح.

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة: **﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾** أي إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة، والبُكِي جمع باك، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم. قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مريم، فسجد وقال: هذا السجود فأين البكي؟ يريد البكاء.

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى حزبَ السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام، ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره، المؤدين فرائض الله التاركين لزواجره، ذكر أنه **﴿خلف من بعدهم خلف﴾** أي قرون أخر **﴿أضاعوا الصلاة﴾** وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع، لأنها عماد الدين وقوامُه وخير أعمال العباد، وأقبلوا على شهوات الدنيا، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها،

فهؤلاء سيلقون غياً، أي خَسَاراً يوم القيامة. وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة هاهنا فقال قائلون: المراد بإضاعتها تركُها بالكلية، قاله محمد بن كعب القرظي وابن زيد والسدي، واختاره ابن جرير ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد، وقول عن الشافعي إلى تكفير تارك الصلاة للحديث: «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة». [رواه مسلم]. والحديث الآخر: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر». [رواه الترمذي وقال: حسن صحيح]. وليس هذا محل بسط هذه المسألة.

وقال القاسم بن مُخَيمرة: إنما أضاعوا المواقيت ولو كان تركاً كان كفراً. وقال ابن مسعود لما قيل له: إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن: **﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾** و**﴿على صلاتهم دائمون﴾** و**﴿على صلاتهم يحافظون﴾** فقال ابن مسعود: على مواقيتها. قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك، قال ذلك الكفر، وقال مسروق: لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس فيكتب من الغافلين، وفي إفراطهن الهلكة، وإفراطهن إضاعتهن عن وقتهن، وقرأ عمر بن عبد العزيز: **﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾** ثم قال: لم تكن إضاعتهم تركها، ولكن أضاعوا الوقت. وقال مجاهد: **﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾** قال: عند قيام الساعة وذهاب صالحي أمة محمد ﷺ ينزو بعضهم على بعض في الأزقة، وكذا روي عن عكرمة وعطاء بن أبي رباح أنهم من هذه الأمة، يعنون في آخر الزمان. وقال الحسن البصري: عطلوا المساجد ولزموا الضيعات.

وقوله: **﴿فسوف يلقون غياً﴾** قال ابن عباس أي خسراناً، وقال قتادة: شراً، وعن عبد الله بن مسعود قال: واد في جهنم بعيد القعر، خبيث الطعم. وعن أبي عياض نحوه.

وقوله: **﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾** أي إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته ويحسن عاقبته ويجعله من ورثة جنة النعيم، ولهذا قال: **﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً﴾** وذلك لأن التوبة تجُبُّ ما قبلها. وفي الحديث الآخر: «التائب من الذنب كمن لاذنب له» [رواه الطبراني وغيره وهو حسن بمجموع طرقه]. ولهذا لا يُنْقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئاً، ولا قوبلوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها، لأن ذلك ذهب هَدَراً، من كرم الكريم وحلم الحليم. وهذا الاستثناء ههنا كقوله في سورة الفرقان: **﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صلحاً فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾** [الفرقان: ٦٨-٧٠].

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ ﴾.

يقول تعالى: الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي جنات عدن، أي إقامة التي وعد الرحمن عباده بظهر الغيب، أي هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه، وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم. وقوله: ﴿**إنه كان وعده مأتياً**﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره، فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله: ﴿**كان وعده مفعولاً**﴾ [المزمل:١٨] أي كائناً لا محالة، وقوله ههنا: ﴿**مأتياً**﴾ أي العباد صائرون إليه وسيأتونه. ومنهم من قال: ﴿**مأتياً**﴾ بمعنى آتياً، لأن كل ما أتاك فقد أتيته، كما تقول العرب: أتت علي خمسون سنة، وأتيت على خمسين سنة، كلاهما بمعنى واحد.

وقوله: ﴿**لا يسمعون فيها لغواً**﴾ أي هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له كما قد يوجد في الدنيا. وقوله: ﴿**إلا سلاماً**﴾ استثناء منقطع كقوله: ﴿**لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً**﴾ [الواقعة:٢٥ـ٢٦]. وقوله: ﴿**ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً**﴾ أي في مثل وقت البُكرات ووقت العشيات لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم في أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار، كما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها، ولا يتمخطون فيها. ولايتغوطون، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم الألوّة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقيهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا». أخرجاه في الصحيحين. وقال ابن عباس: ﴿**ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً**﴾ قال: مقادير الليل والنهار. وقال زهير بن محمد: ليس في الجنة ليل، هم في نور أبداً ولهم مقدار الليل والنهار، ويعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وبفتح الأبواب، وعن الحسن البصري وذكر أبواب الجنة فقال: أبواب يرى ظاهرها من باطنها فتكلم وتكلم، فَتفهم انفتحي انغلقي فتفعل، وقال قتادة: فيها ساعتان بكرة وعشي، ليس ثم ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور، وقال مجاهد: ليس بكرة ولا عشي، ولكن يُؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا.

وقال الحسن وقتادة وغيرهما: كانت العرب، الأنعم فيهم، من يتغدى ويتعشى، فنزل القرآن على ما في أنفسهم من النعيم. وعن الحسن قال: البكور يرد على العشي، والعشي يرد على البكور، ليس فيها ليل.

وقوله: ﴿**تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً**﴾ أي هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة، هي التي نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله عز وجل في السراء والضراء، وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنين: ﴿**قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾ إلى أن قال: ﴿**أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون**﴾ [المؤمنون:١ـ١١].

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ .

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبرائيل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟» قال: فنزلت: ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾ إلى آخر الآية. انفرد بإخراجه البخاري.

وقوله: ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا﴾ قيل: المراد ما بين أيدينا أمر الدنيا، وما خلفنا أمر الآخرة، ﴿وما بين ذلك﴾ ما بين النفختين، هذا قول أبي العالية وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة في رواية عنهما، والسدي والربيع بن أنس، وقيل: ﴿ما بين أيدينا﴾ ما يستقبل من أمر الآخرة ﴿وما خلفنا﴾ أي ما مضى من الدنيا ﴿وما بين ذلك﴾ أي ما بين الدنيا والآخرة، ويروى نحوه عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن جريج والثوري، واختاره ابن جرير أيضاً، والله اعلم.

وقوله: ﴿وما كان ربك نسياً﴾ قال مجاهد معناه ما نسيك ربك. وروى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء يرفعه قال: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرمه فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً» ثم تلا هذه الاية: ﴿وما كان ربك نسياً﴾. [ورواه البزار والحاكم وصححه ووافقه الذهبي]. وقوله: ﴿رب السموات والأرض وما بينهما﴾ أي خالق ذلك ومدبره والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه ﴿فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً﴾ قال ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً. وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وابن جريج وغيرهم. وقال ابن عباس أيضا: ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه.

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته، كما قال تعالى: ﴿وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد﴾ [الرعد: ٥]، وقال ههنا: ﴿ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حياً * أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾ يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئاً، أفلا يعيده وقد صار شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ [الروم: ٢٧]، وفي صحيح [البخاري]: «يقول الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني، وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني، أما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من آخره، وأما أذاه إياي فقوله: إن لي ولداً وأناالأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد

ولـم يكن له كفواً أحد».

وقوله: ﴿فوربك لنحشرنهم والشياطين﴾ أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة أنه لابد أن يحشرهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ﴿ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً﴾ قال ابن عباس: يعني قعوداً كقوله: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ [الجاثية:٢٨]. وقال السدي: يعني قياماً، وروي عن ابن مسعود مثله. وقوله: ﴿ثم لننزعن من كل شيعة﴾ يعني من كل أمة، قاله مجاهد: ﴿أيهم أشد على الرحمن عتياً﴾. قال ابن مسعود: يحبس الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً، وهو قوله: ﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً﴾.

وقال قتادة: ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر، وكذا قال ابن جريج وغير واحد من السلف، وهذا كقوله تعالى: ﴿حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ [الأعراف:٣٨-٣٩]. وقوله: ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً﴾ ثم ههنا لعطف الخبر على الخبر، والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلَّد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب، كما قال في الآية المتقدمة ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾.

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾.

قال خالد بن معدان: قال أهل الجنة بعد ما دخلوا الجنة: ألم يعدنا ربنا الورود على النار ؟ قال: قد مررتم عليها وهي خامدة، وعن قيس بن أبي حازم قال: كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته، فبكى فبكت امرأته، فقال: ما يبكيك ؟ قالت رأيتك تبكي فبكيت، قال: إني ذكرت قول الله عز وجل: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ فلا أدري أنجو منها أم لا - وفي رواية، وكان مريضاً.

وكان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال: ياليت أمي لم تلدني، ثم يبكي، فقيل له: ما يبكيك ياأبا ميسرة ؟ قال: أُخبِرْنا أنا واردوها ولم نُخبَر أنّا صادرون عنها، وقال الحسن البصري: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار ؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك صادر عنها ؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك ؟ قال: فما رُئي ضاحكاً حتى لحق بالله. وعن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس فأتاه رجل يقال له أبو راشد وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس أرأيت قول الله: ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً﴾ ؟ قال: أما أنا وأنت ياأبا راشد فسنردها، فانظر هل نصدر عنها أم لا ؟

وروى ابن جرير عن عبد الله قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف، فتمر الطبقة الأولى

كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم. ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سلم سلم، ولهذا شواهد في الصحيحين وغيرهما من رواية أنس وأبي سعيد وأبي هريرة وجابر وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

وروى أحمد عن أم مبشر امرأة زيد بن حارثة قالت: كان رسول الله ﷺ في بيت حفصة فقال: «لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية» قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ثم ننجي الذين اتقوا﴾. [رواه مسلم ولم يذكر فيه بدراً]. وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلا تحلة القسم».

وعن مجاهد قال: الحمى حظ كل مؤمن من النار ثم قرأ: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾. وعن قتادة قال: هو الممر عليها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها وورود المشركين أن يدخلوها، وقال ابن مسعود في قوله: ﴿كان على ربك حتماً مقضياً﴾ قال: قَسَماً واجباً. وقال مجاهد: حتماً، قال قضاء، وكذا قال ابن جريج.

وقوله: ﴿ثم ننجي الذين اتقوا﴾ أي إذا مر الخلائق كلهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي بحسبهم، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم، فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيُخْرِجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم وهي مواضع السجود، وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان، فيخرجون أولاً من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، حتى يخرجوا من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله وإن لم يعمل خيراً قط، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة أنهم يصدون عن ذلك ويُعرضون ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم: ﴿خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ أي أحسن منازل وأرفع دوراً وأحسن ندياً وهو مجمع الرجال للحديث أي ناديهم أعمر وأكثر وارداً وطارقاً، يعنون فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق. كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا

إليه﴾ [الأحقاف:١١]. وقال قوم نوح: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ [الشعراء:١١١]، ولهذا قال تعالى راداً على شبهتهم: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾ أي وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم ﴿هم أحسن أثاثاً ورءياً﴾ أي كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً ومناظر وأمتعة. وعن ابن عباس: ﴿خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ قال: المقام: المنزل، والندي: المجلس، والأثاث: المتاع، والرئي: المنظر. وعن ابن عباس أيضا: المقام المسكن، والندي المجلس والنعمة والبهجة التي كانوا فيها، وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكهم وقص شأنهم في القرآن: ﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم﴾ [الدخان:٢٥-٢٦]، فالمقام المسكن والنعيم، والندي المجلس والمجمع الذي كانوا يجتمعون فيه، وقال الله فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط: ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ [العنكبوت:٢٩]، والعرب تسمي المجلس النادي. وقال قتادة: لما رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشهم خشونة، وفيهم قشافة، تَعَرّض أهل الشرك بما تسمعون ﴿أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ وكذا قال مجاهد والضحاك. ومنهم من قال في الأثاث: هو المال. ومنهم من قال الثياب، ومنهم من قال المتاع، والرئي المنظر كما قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد، وقال الحسن البصري يعني الصور وكذا قال مالك: ﴿أثاثاً ورءياً﴾ أكثر أموالاً وأحسن صوراً والكل متقارب صحيح.

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على حق وأنكم على باطل: ﴿من كان في الضلالة﴾ أي منا ومنكم ﴿فليمدد له الرحمن مداً﴾ أي فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضي أجله ﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب﴾ يصيبه ﴿وإما الساعة﴾ بغتة تأتيه ﴿فسيعلمون﴾ حينئذ ﴿من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ أي في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندى. قال مجاهد في قوله: ﴿فليمدد له الرحمن مداً﴾ فليدعه الله في طغيانه، وهكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير رحمه الله وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود في قوله: ﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ [الجمعة:٦] أي ادعُوا على المبطل منا أو منكم بالموت إن كنتم تَدَّعون أنكم على الحق، فإنه لا يضركم الدعاء، فنكلوا عن ذلك، وقد تقدم تقرير ذلك في سورة البقرة مبسوطاً، ولله الحمد. وكما ذكر المباهلة مع النصارى في آل عمران [آية٦١] ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ فنكلوا أيضا.

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾.

لما ذكر الله تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هُدى، كما قال تعالى: ﴿**وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون**﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]. وقوله: ﴿**والباقيات الصالحات**﴾ قد تقدم تفسيرها في سورة الكهف. ﴿**خير عند ربك ثواباً**﴾ أي جزاء ﴿**وخير مرداً**﴾ أي عاقبة ومرداً على صاحبها.

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾.

روى الإمام أحمد عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه منه، فقال: لا و الله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث. قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثَمَّ مال وولد فأعطيتك، فأنزل الله: ﴿**أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً ـ إلى قوله ـ ويأتينا فرداً**﴾ أخرجه صاحبا الصحيح وغيرهما. وفي لفظ البخاري: كنت قينا بمكة ... فذكر الحديث وقال: ﴿**أم اتخذ عند الرحمن عهداً**﴾ قال: موثقا. وهكذا قال مجاهد وقتادة وغيرهم: أنها نزلت في العاص بن وائل. وقوله: ﴿**لأوتين مالاً وولداً**﴾ قرأ بعضهم بفتح الواو من ولدا، وقرأ آخرون بضمها وهو بمعناه، وقيل: إن الوُلْد بالضم جمع، والوَلَد بالفتح مفرد، وهي لغة قيس، والله أعلم. وقوله: ﴿**أطلع الغيب**﴾ إنكار على هذا القائل ﴿**لأوتين مالاً وولداً**﴾ يعني يوم القيامة، أي أَعلم مَالهُ في الآخرة حتى تألى وحلف على ذلك، ﴿**أم اتخذ عند الرحمن عهداً**﴾ أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك؟ وقد تقدم عند البخاري أنه الموثق. وقال ابن عباس: ﴿**أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً**﴾ قال: لا إله إلا الله فيرجو بها. وقال محمد بن كعب القرظي: شهادة أن لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿**إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً**﴾.

وقوله: ﴿**كلا**﴾ هي حرف ردع لما قبلها، وتأكيد لما بعدها، ﴿**سنكتب ما يقول**﴾ أي من طلبه ذلك وحُكْمه لنفسه بما تمناه، وكفره بالله العظيم، ﴿**ونمد له من العذاب مداً**﴾ أي في الدار الآخرة على قوله ذلك وكفره بالله في الدنيا، ﴿**ونرثه ما يقول**﴾ أي من مال وولد، نسلبه منه عكس ما قال: إنه يُؤتى في الدار الآخرة مالاً وولداً، زيادة على الذي له في الدنيا، بل في الآخرة يُسلَب مِنه الذي كان له في الدنيا، ولهذا قال: ﴿**ويأتينا فرداً**﴾ أي من المال والولد. وقال قتادة: ﴿**ويأتينا فرداً**﴾ لا مال له ولا ولد. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿**ونرثه ما يقول**﴾ قال: ما جمع من الدنيا وما عمل فيها، قال ﴿**ويأتينا فرداً**﴾ قال: فرداً من ذلك لا يتبعه قليل ولا كثير.

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ

أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم: أنهم اتخذوا من دونه آلهة لتكون تلك الآلهة **﴿عزاً﴾** يعتزون بها ويستنصرونها. ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ولا يكون ما طمعوا فقال: **﴿كلا سيكفرون بعبادتهم﴾** أي يوم القيامة **﴿ويكونون عليهم ضداً﴾** أي بخلاف ما ظنوا فيهم كما قال تعالى: **﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾** [الأحقاف: ٥ـ٦]. وقال السدي: **﴿كلا سيكفرون بعبادتهم﴾** أي بعبادة الأوثان. وقوله: **﴿ويكونون عليهم ضداً﴾** أي بخلاف ما رَجَوا منهم. وقال ابن عباس: أعواناً. قال مجاهد: عوناً عليهم، تُخَاصمهم وتُكَذِّبهم. وعن ابن عباس أيضا: **﴿ويكونون عليهم ضداً﴾** قال: قرناء. وقال قتادة: قرناء في النار، يلعن بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم ببعض. وقال السدي: الخصماء الأشداء في الخصومة، وقال الضحاك: أعداء، وقال ابن زيد: الضد البلاء، وقال عكرمة: الضد الحسرة.

وقوله: **﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً﴾** قال ابن عباس: تغويهم إغواء، وعنه: تحرضهم على محمد وأصحابه. وقال مجاهد: تُشليهم إشلاء. وقال قتادة: تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله، وقال سفيان الثوري: تغريهم إغراءاً وتستعجلهم استعجالاً. وقال السدي: تطغيهم طغياناً. وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كقوله تعالى: **﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾** [الزخرف: ٣٦]. وقوله: **﴿فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً﴾** أي لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم **﴿إنما نعد لهم عداً﴾** أي إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله، **﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾** [إبراهيم: ٤٢]، **﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾** [الطارق: ١٧]. وقال السدي: إنما نعد لهم عداً: السنين والشهور والأيام والساعات. وقال ابن عباس: نعد أنفاسهم في الدنيا.

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم، وأطاعوهم فيما أمروهم به، وانتهوا عما عنه زجروهم، أنه يحشرهم يوم القيامة وفداً إليه، والوفد هم القادمون ركباناً، ومنه الوفود وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة. وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه. وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم، فإنهم يساقون عُنْفاً إلى النار **﴿ورداً﴾** عطاشاً، قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد، وههنا يقال: **﴿أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾** [مريم: ٧٣].

وقال ابن عباس: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ قال: ركبانا. وعن أبي هريرة قال: على الإبل. وقال ابن جُريج: على النجائب. وقال الثوري: على الإبل النوق. وقال قتادة ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ قال: إلى الجنة.

وقوله: ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ أي عطاشا ﴿لا يملكون الشفاعة﴾ أي ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١]. وقوله: ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ هذا استثناء منقطع بمعنى لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً، وهو شهادة أن لا إله إلا الله والقيام بحقها. قال ابن عباس: العهد شهادة أن لا إله إلا الله، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله عز وجل.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾.

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً، فقال: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم﴾ أي في قولكم هذا ﴿شيئا إداً﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومالك: أي عظيماً. ويقال إداً بكسر الهمزة وفتحها، ومع مدها أيضاً ثلاث لغات أشهرها الأولى. وقوله: ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً﴾ أي يكاد ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظاماً للرب وإجلالاً، لأنهم مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفء له، بل هو الأحد الصمد.

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد

قال ابن عباس: إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، فكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وقال الضحاك: ﴿تكاد السموات يتفطرن منه﴾ أي يتشققن فرقاً من عظمة الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وتنشق الأرض﴾ أي غضباً لله عز وجل، ﴿وتخر الجبال هداً﴾، قال ابن عباس: هدماً، وقال سعيد بن جبير: ينكسر بعضها على بعض متتابعات. وقال عون بن عبد الله: إن الجبل لينادي الجبل باسمه يا فلان، هل مر بك اليوم ذاكر لله عز وجل؟ فيقول: نعم ويستبشر، قال عون: لهي للخير أسمع أفيسمعن الزور والباطل إذا قيل ولا يسمعن غيره، ثم قرأ: ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولداً﴾. وقال كعب الأحبار: غضبت الملائكة واستعرت جهنم

حين قالوا ما قالوا.

وروى الإمام أحمد عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله إنه يشرك به ويجعل له ولدا، وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم». أخرجاه في الصحيحين. وقوله: ﴿**وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً**﴾ أي لا يصلح له ولا يليق به لجلاله وعظمته، لأنه لا كفء له من خلقه، لأن جميع الخلائق عبيد له، ولهذا قال: ﴿**إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً**﴾ أي قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذكرهم وأنثاهم، صغيرهم وكبيرهم، ﴿**وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً**﴾ أي لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم في خلقه بما يشاء وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ولا يظلم أحداً.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهي الأعمال التي ترضي الله عز وجل لمتابعتها الشريعة المحمدية يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة، وهذا أمر لابد منه، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل، فقال: يا جبريل، إني أحب فلاناً فأحبه. قال: فيحبه جبريل، قال: ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، قال: فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء في الأرض». [متفق عليه].

وقال ابن عباس في قوله: ﴿**سيجعل لهم الرحمن وداً**﴾ قال: حباً، وعنه قال: محبة في الناس في الدنيا، وعنه أيضا: يحبهم ويُحَبِّبُهم، يعني إلى خلقه المؤمنين. كما قال مجاهد أيضاً، والضحاك وغيرهم. وعن ابن عباس أيضاً: الود من المسلمين في الدنيا، والرزق الحسن واللسان الصادق. وقال قتادة: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً**﴾ إيْ والله في قلوب أهل الإيمان، ذكر لنا أن هرم بن حيان كان يقول: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم. وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: ما من عبد يعمل خيراً أو شراً إلا كساه الله عز وجل رداء عمله.

وقال الحسن البصري رحمه الله: قال رجل: والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها، فكان لا يرى في حين صلاة إلا قائماً يصلي، وكان أول داخل إلى المسجد وآخر خارج، فكان لا يعظم، فمكث بذلك سبعة أشهر، وكان لا يمر على قوم إلا قالوا: انظروا إلى هذا المرائي، فأقبل على

نفسه فقال: لا أراني أذكر إلا بِشَرّ، لأجعلن عملي كله لله عز وجل، فلم يزد على أن قلب نيته، ولم يزد على العمل الذي كان يعمله، فكان يمر بعد بالقوم فيقولون: رحم الله فلاناً الآن، وتلا الحسن ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً**﴾.

وقوله: ﴿**فإنما يسرناه**﴾ يعني القرآن ﴿**بلسانك**﴾ أي يا محمد وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل ﴿**لتبشر به المتقين**﴾ أي المستجيبين لله، المصدقين لرسوله، ﴿**وتنذر به قوماً لداً**﴾ أي عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل وقال مجاهد: ﴿**قوماً لداً**﴾ لا يستقيمون، ومعناه عن أبي صالح. وقال الضحاك: هو الخصم. وقال القرظي: الألد الكذاب. وقال الحسن البصري: صماً، وقال غيره: صم آذان القلوب. وقال قتادة: قوماً لداً يعني قريشاً وعن ابن عباس: فجاراً، وكذا روي عن مجاهد. وقال ابن زيد: الألد: الظلوم، وقرأ قوله تعالى: ﴿**وهو ألد الخصام**﴾ [البقرة: ٢٠٤]. وقوله: ﴿**وكم أهلكنا قبلهم من قرن**﴾ أي من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿**هل تُحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً**﴾ أي هل ترى منهم أحداً أو تسمع لهم ركزاً. قال ابن عباس وأبو العالية والحسن البصري وابن زيد [وغيرهم]: يعني صوتاً، وقال الحسن وقتادة: هل ترى عيناً أو تسمع صوتاً، والركز في أصل اللغة هو الصوت الخفي.

تفسير سورة طه وهي مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤
ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ
يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾.

تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته. وعن ابن عباس قال: طه: يا رجل، وهكذا روي عن مجاهد والحسن والسدي [وغيرهم] أنهم قالوا: طه بمعنى يا رجل.

وقوله: ﴿**ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى**﴾ قال الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى: ﴿**طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى**﴾ فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت في الصحيحين عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**». وما أحسن الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني عن ثعلبة بن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده: إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي**» إسناده جيد. وقال مجاهد في قوله:

﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ هي كقوله: ﴿فاقرءوا ما تيسر منه﴾ [المزمل:٢٠]، وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم في الصلاة. وقال قتادة: لا والله ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة. ﴿إلا تذكرة لمن يخشى﴾ إن الله أنزل كتابه وبعث رسله رحمة رحم بها عباد ليتذكر ذاكر، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه.

وقوله: ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى﴾ أي هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك، رب كل شيء ومليكه القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السموات العلى في ارتفاعها ولطافتها، وقوله: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته أيضاً، وأن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل.

وقوله: ﴿له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾ أي الجميع ملكه، وفي قبضته، وتحت تصرفه ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه وإلهه لا إله سواه ولا رب غيره. وقوله: ﴿وما تحت الثرى﴾ قال محمد بن كعب: أي ما تحت الأرض السابعة.

وقوله: ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ أي أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسموات العلى الذي يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً﴾ [الفرقان:٦]. قال ابن عباس: ﴿يعلم السر وأخفى﴾ قال: السر ما أسره ابن آدم في نفسه، ﴿وأخفى﴾ ما أخفي على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فالله يعلم ذلك كله، فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد، وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفس واحدة، وهو قوله: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ [لقمان:٢٨]. وقال الضحاك: السر ما تحدث به نفسك، وأخفى ما لم تحدث به نفسك بعد. وقال سعيد بن جبير: أنت تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غداً، والله يعلم ما تسر اليوم وما تسر غداً، وقال مجاهد: ﴿وأخفى﴾ يعني الوسوسة، وقال أيضاً هو وسعيد بن جبير ﴿وأخفى﴾ أي ما هو عامله مما لم يحدث به نفسه. وقوله: ﴿الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾ أي الذي أنزل عليك القرآن، هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى.

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾.

من هاهنا شَرَع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم، وسار بأهله قيل: قاصداً بلاد مصر بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأضل الطريق وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال في برد وشتاء وسحاب وظلام

وضباب، وجعل يقدح بزند معه ليوري ناراً كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدح شيئاً ولا يخرج منه شرر ولا شيء، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً، أي ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشرهم: ﴿إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس﴾ أي شهاب من نار. وفي الآية الأخرى ﴿أو جذوة من النار﴾ [القصص:٢٩]، وهي الجمر الذي معه لهب ﴿لعلكم تصطلون﴾ [القصص:٢٩] دل على وجود البرد. وقوله: ﴿بقبس﴾ دل على وجود الظلام. وقوله: ﴿أو أجد على النار هدى﴾ أي من يهديني الطريق، دل على أنه قد تاه عن الطريق، كما قال ابن عباس: من يهديني إلى الطريق، وكانوا شاتين وضلوا الطريق، فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق آتكم بنار توقدون بها.

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿فلما أتاها﴾ أي النار، واقترب منها ﴿نودي يا موسى﴾ وفي الآية الأخرى ﴿نودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله﴾ [القصص:٣٠]، وقال ههنا: ﴿إني أنا ربك﴾ أي الذي يكلمك ويخاطبك ﴿فاخلع نعليك﴾ قال علي بن أبي طالب وأبو ذر وأبو أيوب وغير واحد من السلف: كانتا من جلد حمار غير ذكي، وقيل: إنما أمره بخلع نعليه تعظيما للبقعة. قال سعيد بن جبير: كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة، وقيل: ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير منتعل، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿إنك بالوادي المقدس طوى﴾ قال ابن عباس: هو اسم للوادي، وكذا قال غير واحد، فعلى هذا يكون عطف بيان، وقيل عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه، وقيل: لأنه قدس مرتين، وطوى له البركة وكررت، والأول أصح كقوله: ﴿إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى﴾ [النازعات:١٦]. وقوله: ﴿وأنا اخترتك﴾ كقوله: ﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ [الأعراف:١٤٤] أي على جميع الناس من الموجودين في زمانه، وقد قيل: إن الله تعالى قال يا موسى أتدري لم خصصتك بالتكليم من بين الناس؟ قال: لا، قال: لأني لم يتواضع إلي أحد تواضعك. وقوله: ﴿فاستمع لما يوحى﴾ أي استمع الآن ما أقول لك وأوحيه إليك ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا﴾ هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿فاعبدني﴾ أي وحدّني، وقم بعبادتي من غير شريك ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ قيل: معناه صَلِّ لتذكرني، وقيل: معناه وأقم الصلاة عند ذكرك لي، ويشهد لهذا الثاني

مافي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك». وقوله: ﴿إن الساعة آتية﴾ أي قائمة لا محالة وكائنة لابد منها.

وقوله: ﴿أكاد أخفيها﴾ قال ابن عباس: أنه كان يقرؤها: أكاد أخفيها من نفسي، يقول: لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً، وعنه رواية: من نفسه، وفي أخرى: لا أطلع عليها أحداً غيري. وقال السدي: ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا قد أخفى الله تعالى عنه علم الساعة وهي في قراءة ابن مسعود: «إني أكاد أخفيها من نفسي»، يقول: كتمتها عن الخلائق. قال قتادة: أكاد أخفيها، وهي في بعض القراءة: أخفيها من نفسي، ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ومن الأنبياء والمرسلين. قلت وهذا كقوله تعالى: ﴿ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة﴾ [الأعراف:١٨٧] أي ثقل علمها على أهل السموات والأرض. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ أي أقيمها لا محالة لأجزي كل عامل بعمله ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [الزلزلة:٧-٨]. وقوله: ﴿فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾، المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين. أي لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذه في دنياه، وعصى مولاه واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿فتردى﴾ أي تهلك وتعطب.

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾.

هذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام، وخرق للعادة باهر دالٌّ على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل. وقوله: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له. وقيل: وإنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها، فسترى ما نصنع بها الآن، [وهو] استفهام تقرير. ﴿قال هي عصاي أتوكأ عليها﴾ أي أعتمد عليها في حال المشي ﴿وأهش بها على غنمي﴾ أي أهز بها الشجرة ليسقط ورقها لترعاه غنمي. قال الإمام مالك: الهش أن يضع الرجل المحْجَن في الغصن ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ولا يكسر العود، فهذا الهش ولا يَخْبط، وكذا قال ميمون بن مهران أيضاً.

وقوله: ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ أي مصالح وحاجات أخر غير ذلك. وقوله تعالى: ﴿قال ألقها يا موسى﴾ أي هذه العصا التي في يدك يا موسى ألقها ﴿فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾ أي صارت في الحال حيّة عظيمة، ثعباناً طويلاً يتحرك حركة سريعة، فإذا هي تهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه في غاية الكبر وفي غاية سرعة الحركة، ﴿تسعى﴾ أي

تمشي وتضطرب.

قال وهب بن منبه في قوله: ﴿خذها﴾ بيمينك ﴿ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ وعلى موسى حينئذ مدرعة من صوف قد خلَّها بخلال من عيدان، فلما أمره بأخذها، أدلى طرف المدرعة على يده، فقال له ملك: أرأيت يا موسى لو أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً؟ قال: لا ولكني ضعيف، ومن ضَعْف خُلِقْتُ، فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية حتى سمع حسّ الأضراس والأنياب، ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهدها، وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها إذا توكأ بين الشعبتين، ولهذا قال تعالى: ﴿سنعيدها سيرتها الأولى﴾ أي إلى حالها التي تعرف قبل ذلك.

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

وهذا برهان ثان لموسى عليه السلام، وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه كما صرح به في الآية الأخرى، وهنا عبر عن ذلك بقوله: ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ وقال في مكان آخر ﴿واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه﴾ [القصص: ٣٢]. وقال مجاهد: ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ كفك تحت عضدك، وذلك أن موسى عليه السلام كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها، تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر. وقوله: ﴿تخرج بيضاء من غير سوء﴾ أي من غير برص ومن غير شين، قاله ابن عباس وقتادة والسدي وغيرهم، وقال الحسن البصري: أخرجها والله كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه عز وجل، ولهذا قال تعالى: ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾. وقال وهب: قال له ربه: ادْنُهْ فلم يزل يدنيه حتى أسند ظهره بجذع الشجرة، فاستقر وذهبت عنه الرِّعدة، وجمع يده في العصا وخضع برأسه وعنقه.

وقوله: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أي اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خرجت فاراً منه وهارباً، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليحسن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا ونسي الرب الأعلى.

﴿قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري﴾ هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم وخطب جسيم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك وأجبرهم وأشدهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره. هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليداً عندهم في حجر فرعون على فراشه، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها. ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم

نذيراً يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري﴾ أي إن لم تكن أنت عوني، وظهيري، وإلا فلا طاقة لي بذلك. ﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾ وذلك لما كان أصابه، من اللثغ حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، كما سيأتي بيانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العيُّ، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة. ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾ [الزخرف: ٥٢] أي يفصح بالكلام.

وقال الحسن البصري: ﴿واحلل عقدة من لساني﴾ قال: حل عقدة واحدة. ولو سأل أكثر من ذلك أُعْطي. وقال ابن عباس: شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتيل، وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءاً ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فآتاه سؤله فحل عقدة من لسانه.

وقوله: ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي﴾ وهذا أيضاً سؤال من موسى عليه السلام في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له. قال ابن عباس: فَنُبِّىء هارون ساعتئذ حين نبىء موسى عليهما السلام. وعن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراب، فسمعت رجلاً يقول: أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه؟ قالوا: لا ندري. قال: أنا والله أدري. قالت: فقلت في نفسي في حلفه لا يستثني إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه، قال: موسى حين سأل لأخيه النبوة، فقلت: صدق والله. قلت: وفي هذا قال الله تعالى في الثناء على موسى عليه السلام: ﴿وكان عند الله وجيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقوله: ﴿اشدد به أزري﴾ قال مجاهد: ظهري ﴿وأشركه في امري﴾ أي في مشاورتي ﴿كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً﴾ قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً. وقوله: ﴿إنك كنت بنا بصيراً﴾ أي في اصطفائك لنا، وإعطائك إيانا النبوة، وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون فلك الحمد على ذلك.

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾.

هذه إجابة من الله لرسوله موسى عليه السلام فيما سأل ربه عز وجل، وتذكير له بنعمه السالفة عليه فيما كان ألْهَمَ أمه حين كانت ترضعه، وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه،

لأنه كان قد ولد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان، فاتخذت له تابوتاً، فكانت ترضعه ثم تضعه فيه وترسله في النيل، وتمسكه إلى منزلها بحبل، فذهبت مرة لتربط الحبل فانفلت منها وذهب به البحر، فحصل لها من الغم والهم ما ذكره الله عنها في قوله: ﴿**وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها**﴾ [القصص: ١٠]، فذهب به البحر إلى دار فرعون ﴿**فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً**﴾ [القصص:٨] أي قدراً مقدوراً من الله حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني إسرائيل، حذراً من وجود موسى، فحكم الله وله السلطان العظيم والقدرة التامة أن لا يربى إلا على فراش فرعون، ويُغذَّى بطعامه وشرابه، مع محبته وزوجته له، ولهذا قال تعالى: ﴿**يأخذه عدو لي وعدو له * وألقيت عليك محبة مني**﴾ أي عند عدوك جعلته يحبك، قال سلمة بن كُهَيْل: حببتك إلى عبادي ﴿**ولتصنع على عيني**﴾ قال أبو عمران الجوني: تربى بعين الله. وقال قتادة: تغذى على عيني. وقال معمر بن المثنى ﴿**ولتصنع على عيني**﴾ بحيث أرى، وقال عبد الرحمن بن زيد: يعني أجعله في بيت المَلِك ينعم ويترف، وغذاؤه عندهم غذاء الملك فتلك الصنعة.

وقوله: ﴿**إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها**﴾ وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون عرضوا عليه المراضع فأباها، قال الله تعالى: ﴿**وحرمنا عليه المراضع من قبل**﴾ فجاءت أخته وقالت: ﴿**هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون**﴾ [القصص:١٢]. تعني هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة، فذهبت به وهم معها إلى أمه فعرضت عليه ثديها، فقبله ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا وفي الآخرة أغنى وأجزل، وقال تعالى ههنا: ﴿**فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن**﴾ أي عليك ﴿**وقتلت نفسا**﴾ يعني القبطي ﴿**فنجيناك من الغم**﴾ وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففر منهم هارباً حتى ورد ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: ﴿**لا تخف نجوت من القوم الظالمين**﴾ [القصص: ٢٥].

[حديث الفتون]

وقوله: ﴿**وفتناك فتونا**﴾ روى الإمام النسائي رحمه الله في كتاب التفسير من سننه قوله: ﴿**وفتناك فتوناً**﴾ عن سعيد بن جبير قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى عليه السلام: ﴿**وفتناك فتوناً**﴾ فسألته عن الفتون ما هو ؟ فقال: استأنف النهار يا ابن جبير فإن لها حديثاً طويلاً، فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً، فقال بعضهم: إن بني اسرائيل ينتظرون ذلك لا يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم عليه السلام، فقال فرعون: كيف

ترون ؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه، ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم، والصغار يذبحون، قالوا: ليوشكن أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاماً كل مولد ذكر، فيقل أبناؤهم، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم، فتخافوا مكاثرتهم إياكم، ولم يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم، فأجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة، فلما كان من قابل، حملت بموسى عليه السلام فوقع في قلبها الهم والحزن، وذلك من الفتون - يا ابن جبير - ما دخل عليه وهو في بطن أمه مما يراد به، فأوحى الله إليها أن لا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين، فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في اليم، فلما ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت في نفسها: ما فعلت با بني لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إلي من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه.

فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فُرْضَة مستقى جواري امرأة فرعون، فلما رأينه أخذنه، فهممن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن: إن في هذا مالاً، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدناه فيه، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئاً حتى دفعنه إليها، فلما فتحته رأت فيه غلاماً، فألقى الله عليه منها محبة لم يلق منها على أحد قط، وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى، فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير، فقالت لهم: أقروه، فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم ألمكم، فأتت فرعون فقالت: قرة عين لي ولك، فقال فرعون: يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه، فقال رسول الله ﷺ: «والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها، ولكن حرمه ذلك»، فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها لبن لتختار له ظئراً، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها، فلم يقبل. وأصبحت أم موسى والهاً فقالت لأخته: قصي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكراً: أحي ابني أم قد أكلته الدواب ؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون، والجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه وهو لا يشعر به، فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات: أنا أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون، فأخذوها فقالوا ما يدريك

ما نصحهم له هل يعرفونه ؟ حتى شكوا في ذلك، وذلك من الفتون يا ابن جبير، فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظؤرة الملك ورجاء منفعة الملك فتركوها، فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه رياً، وانطلق البشراء إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئراً، فأرسلت إليها فأتت بها وبه، فلما رأت ما يصنع بها قالت: امكثي ترضعي ابني هذا، فإني لم أحب شيئاً حبه قط. قالت أم موسى: لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آلوه خيراً فعلت وإلا فإني غير تاركة بيتي وولدي، وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فيه، فتعاسرت على امرأة فرعون وأيقنت أن الله منجز وعده، فرجعت به إلى بيتها من يومها، وأنبته الله نباتاً حسناً، وحفظه لما قد قضى فيه.

فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أتريني ابني فوعدتها يوماً تريها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظؤرها وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك، وأنا باعثة أميناً يحصي ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها نحلته وأكرمته وفرحت به، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه، ثم قالت: لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمنه، فلما دخلت به عليه جعله في حجره فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه إنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير بعد كل بلاء ابتلي به. وأريد به فتوناً فجاءت امرأة فرعون فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي ؟ فقال: ألا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلوني ؟ فقالت: اجعل بيني وبينك أمراً يعرف الحق به، ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين، فاعرف أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل، فقرب إليه الجمرتين واللؤلؤتين، فتناول الجمرتين، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد هم به، وكان الله بالغاً فيه أمره، فلما بلغ أشده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة حتى امتنعوا كل الامتناع، فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فغضب موسى غضباً شديداً، لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم لا يعلم الناس إلا إنما ذلك من الرضاع إلا أم موسى إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره، فوكز موسى الفرعوني فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي،

فقال موسى حين قتل الرجل: **﴿هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين. قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾** [القصص: ١٥-١٦]. فأصبح في المدينة خائفاً يترقب الأخبار، فأتى فرعون فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون، فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم، فقال: ابغوني قاتله ومن يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صَغْوه مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ولا ثبت، فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم، فبينما هم يطوفون لا يجدون ثبتاً إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فصادف موسى قد ندم على ما كان منه وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم: **﴿إنك لغوي مبين﴾**، فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني، فخاف أن يكون بعد ما قال له إنك لغوي مبين، أن يكون إياه أراد، ولم يكن أراده إنما أراد الفرعوني، فخاف الإسرائيلي وقال: **﴿يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾** [القصص: ١٩] وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله، فتتاركا وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، فأرسل فوعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هينتهم يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره، وذلك من الفتون يا ابن جبير.

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين ولم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل، فإنه قال: **﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل * ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان﴾** [القصص: ٢٢-٢٣] يعني بذلك حابستين غنمهما، فقال لهما: ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوة نزاحم القوم وإنما ننتظر من فضول حياضهم. فسقى لهما فجعل يغترف في الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاء، فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى عليه السلام فاستظل بشجرة وقال: **﴿ربِّ إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير﴾** [القصص: ٢٤]. واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حُفَّلاً بطاناً، فقال: إن لكما اليوم لشأناً، فأخبرتاه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى فدعته، فلما كلمه قال: لا تخف نجوت من القوم الظالمين ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان، ولسنا في مملكته، فقالت إحداهما: **﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾** [القصص: ٢٦] فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته وما أمانته؟ فقالت: أما قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما الأمانة فإنه نظر إلي حين أقبلت إليه وشخصت له،

فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم رفعه حتى بلغته رسالتك، ثم قال لي: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين، فسري عن أبيها وصدقها وظن به الذي قالت، فقال له: هل لك ﴿**أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج، فإن أتممت عشراً، فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين**﴾ [القصص: ٢٧] ففعل فكانت على نبي الله موسى ثمان سنين واجبة، وكانت سنتان عدة منه، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشراً.

قال سعيد وهو ابن جبير: فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال: هل تدري أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا، وأنا يومئذ لا أدري، فلقيت ابن عباس فذكرت له ذلك، فقال: أما علمت أن ثمانياً كانت على نبي الله واجبة لم يكن لنبي الله أن ينقص منها شيئاً، ويعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التي كان وعده، فإنه قضى عشر سنين، فلقيت النصراني فأخبرته ذلك، فقال: الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك، قلت: أجل وأولى، فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص الله عليك في القرآن، فشكا إلى الله تعالى ما يحذر من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءاً ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فآتاه الله سؤله وحل عقدة من لسانه، وأوحى الله إلى هارون وأمره أن يلقاه، فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون عليهما السلام، فانطلقا جميعاً إلى فرعون، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا: ﴿**إنا رسولا ربك**﴾ [طه: ٤٧] قال: فمن ربكما؟ فأخبراه بالذي قص الله عليك في القرآن؟ قال: فما تريدان؟ وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت، قال: أريد أن تؤمن بالله وترسل معنا بني إسرائيل، فأبى عليه وقال: ﴿**فأت بآية إن كنت من الصادقين**﴾ [الشعراء: ١٥٤]. فألقى عصاه فإذا هي حية تسعى عظيمة، فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء، يعني من غير برص، ثم ردها فعادت إلى لونها الأول، فاستشار الملأ حوله فيما رأى، فقالوا له: هذان ساحران ﴿**يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى**﴾ [طه: ٦٣]، يعني ملكهم الذي هم فيه والعيش، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب، وقالوا له: اجمع لهما السحرة، فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما، فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات، قالوا: فلا والله ما أحد في الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل، فما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربي وخاصتي، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم، فتواعدوا يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى.

قال سعيد بن جبير: فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء. فلما اجتمعوا في صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر ﴿لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾ [الشعراء:٤٠] يعنون موسى وهارون استهزاء بهما ؟ فقالوا ﴿يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين﴾ [الأعراف:١١٥] ﴿قال: بل ألقوا﴾ [طه:٦٦]، ﴿فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ [الشعراء:٤٤] فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة، فأوحى الله إليه أن ألقِ عصاك، فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاها، فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت جزراً إلى الثعبان تدخل فيه حتى ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتعلته، فلما عرف السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكن هذا أمر من الله عز وجل، آمنا بالله وبما جاء به موسى من عند الله، ونتوب إلى الله مما كنا عليه، فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴿فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين﴾ [الأعراف:١١٩] وامرأة فرعون بارزة متبذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمها لموسى، فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا مضت أخلف موعده وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟ فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه، ويواثقه على أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا كف ذلك عنه أخلف موعده ونكث عهده حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين فتبعه بجنود عظيمة كثيرة وأوحى الله إلى البحر إذا ضربك عبدي موسى بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التق على من بقي بعد من فرعون وأشياعه، فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل، فيصير عاصياً لله.

فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال أصحاب موسى: إنا لمدركون افعل ما أمرك به ربك فإنه لم يكذب ولم تكذب. قال: وعدني ربي أن إذا أتيت البحر انفلق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه، ثم ذكر بعد ذلك العصا، فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفلق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى، فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه، التقى عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه: إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه، فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه، ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴿قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾ [الأعراف:١٣٨-١٣٩].

قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم، ومضى فأنزلهم موسى منزلاً وقال: أطيعوا هارون فإني قد استخلفته عليكم، فإني ذاهب إلى ربي وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوماً، وقد صامهن ليلهن ونهارهن، وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فمضعه فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت وهو أعلم بالذي كان، قال: يا رب إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح. قال: أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، ارجع فصم عشراً ثم ائتني.

ففعل موسى عليه السلام ما أمر به، فلما رأى قومه أنه لم يرجع إليهم في الأجل ساءهم ذلك، وكان هارون قد خطبهم وقال: إنكم قد خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع ولكم فيهم مثل ذلك، فإني أرى أنكم تحتسبون ما لكم عندهم ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا برادين إليهم شيئاً من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا، فحفر حفيراً وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار فأحرقه، فقال: لا يكون لنا ولا لهم، وكان السامري من قوم يعبدون البقر جيران لبني إسرائيل، ولم يكن من بني إسرائيل فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا، فقضي له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة، فمر بهارون فقال له هارون عليه السلام: يا سامري ألا تلقي ما في يدك، وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك؟ فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر، ولا ألقيها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد، فألقاها ودعا له هارون، فقال: أريد أن يكون عجلاً، فاجتمع ما كان في الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلاً أجوف ليس فيه روح وله خوار، قال ابن عباس: لا والله ما كان له صوت قط إنما كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه، وكان ذلك الصوت من ذلك، فتفرق بنو إسرائيل فرقاً، فقالت فرقة: يا سامري ما هذا وأنت أعلم به؟ قال: هذا ربكم ولكن موسى أضل الطريق، فقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأينا، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى، وقالت فرقة: هذا من عمل الشيطان، وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل وأعلنوا التكذيب به، فقال لهم هارون: **﴿يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾** [طه:٩٠]. قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثم أخلفنا، هذه أربعون يوماً قد مضت، وقال سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه: يتبعه، فلما كلم الله موسى وقال له ما قال، أخبره بما لقي قومه من بعده **﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً﴾** [طه:٨٦]، فقال لهم ما سمعتم في القرآن، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقى الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له، وانصرف إلى السامري فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: قبضت قبضة من أثر الرسول وفطنت لها وعُمّيت عليكم فقذفتها

﴿وكذلك سولت لي نفسي، قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً﴾ [طه: ٩٦-٩٧]، ولو كان إلهاً لم يخلص إلى ذلك منه، فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فيكفر عنا ما عملنا، فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً لذلك لا يألو الخير خيار بني إسرائيل ومن لم يشرك في العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة فرجفت بهم الأرض! فاستحيا نبي الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل، فقال: **﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منّا﴾** [الأعراف: ١٥٥] وفيهم من كان اطلع الله منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به، فلذلك رجفت بهم الأرض فقال: **﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾** [الأعراف: ١٥٦] فقال: يا رب سألتك التوبة لقومي، فقلت إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي، هلا أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحومة؟ فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد، فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن، وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون، واطلع الله من ذنوبهم، فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا، وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمر به أن يبلغهم من الوظائف، فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يُقرّوا بها، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون، ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم، ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون، خلقهم خلق منكر، وذكروا من ثمارهم أمراً عجيباً من عظمها، فقالوا: يا موسى إن فيها قوماً جبارين لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجلان من الذين يُخَافُون آمنا بموسى وخرجا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنهم لا قلوب لهم ولا مَنَعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، ويقول أناس: إنهم من قوم موسى، فقال الذين يخافون من بني إسرائيل: **﴿قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾** [المائدة: ٢٤]، فأغضبوا موسى، فدعا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ، فاستجاب الله له وسماهم كما سماهم موسى فاسقين، فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض يصبحون كل يوم

فيسيرون ليس لهم قرار، وظلل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثياباً لا تبلىٰ ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعاً، وأمر موسى فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً في كل ناحية ثلاث أعين، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها، فلا يرتحلون من مكان إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس.

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ، وصدق ذلك عندي أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتيل الذي قتل، فقال: كيف يفشي عليه ولم يكن علم به، ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلي الذي حضر ذلك؟ فغضب ابن عباس فأخذ بيد معاوية فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهري، فقال له: يا أبا إسحاق هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذي قتل من آل فرعون؟ الاسرائيلي الذي أفشى عليه أم الفرعوني؟ قال: إنما أفشى عليه الفرعوني بما سمع من الإسرائيلي الذي شهد على ذلك وحضره، وهكذا رواه النسائي في السنن الكبرى، وأخرجه أبو جعفر بن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار، أو غيره، والله أعلم، وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك أيضاً.

﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾.

يقول تعالى مخاطباً لموسى عليه السلام: إنه لبث مقيماً في أهل مدين فاراً من فرعون وملئه، يرعى على صهره حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لقدر الله وإرادته من غير ميعاد، والأمر كله لله تبارك وتعالى، وهو المُسَيِّرُ خلقه فيما يشاء، ولهذا قال: ﴿**ثم جئت على قدر يا موسى**﴾ قال مجاهد: أي على موعد. وقال قتادة: على قدر الرسالة والنبوة. وقوله: ﴿**واصطنعتك لنفسي**﴾ أي اصطفيتك واجتبيتك رسولاً لنفسي أي كما أريد وأشاء. وروى البخاري عند تفسيرها عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «التقى آدم وموسى فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة، فقال آدم: وأنت الذي اصطفاك الله برسالته واصطفاك لنفسه وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم، قال فوجدته قد كتب عليّ قبل أن يخلقني، قال: نعم فحج آدم موسى» [ورواه مسلم].

وقوله: ﴿**اذهب أنت وأخوك بآياتي**﴾ أي بحُجَجي ﴿**ولا تنيا في ذكري**﴾ قال ابن عباس: لا تُبْطئا، وعنه أيضا: لا تَضْعُفا، والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكرُ الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له. وقوله: ﴿**اذهبا إلى فرعون إنه طغى**﴾ أي تمرد وعتا على الله وعصاه ﴿**فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى**﴾

هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهي أن فرعون في غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد الرقاشي عند قوله: ﴿**فقولا له قولاً ليناً**﴾ يا من يتحبب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه؟ وقال وهب بن منبه: قولا له إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة. وعن عكرمة قال: لا إله إلا الله، وقال الحسن البصري: أَعْذرا إليه، قولا له: إن لك رباً ولك معاداً، وإن بين يديك جنة وناراً، وعن علي قال: كَنِّه، وكذا روي عن سفيان الثوري: كنه بأبي مرة، والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين، ليكون أوقع في النفوس وأنجع، كما قال تعالى: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ [النحل: ١٢٥].

وقوله: ﴿**لعله يتذكر**﴾ أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، أو يخشى أي يوجد طاعة من خشية ربه، فالتذكر الرجوع عن المحذور، والخشية تحصيل الطاعة. وقال الحسن البصري: لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون: أهلكه قبل أن أعذر إليه، وههنا نذكر شعر زيد بن عمرو بن نفيل، ويروى لأمية بن أبي الصلت فيما ذكره ابن إسحاق.

وأنت الذي من فضل منّ ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولاً مناديا
فقلت له: فاذهب وهارون فادعُوَا ... إلى الله فرعون الذي كان باغيا
فقولا له: هل أنت سويت هذه ... بلا وتد حتى استقلت كما هيا
وقولا له: آأنت رفعت هذه ... بلا عمد أرفق إذن بك بانيا
وقولا له: آأنت سويت وسطها ... منيراً إذا ما جنه الليل هاديا
وقولا له: من يخرج الشمس بكرة ... فيصبح مامَسَّت من الأرض ضاحيا
وقولا له: من ينبت الحب في الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه في رؤوسه ؟ ... ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون عليهما السلام، إنهما قالا مستجيرين بالله تعالى شاكيَيْن إليه: ﴿**إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى**﴾ يعنيان أن يَبْدُر إليهما بعقوبة أو يعتدي عليهما، فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن يفرط: يَعْجَل. وقال مجاهد: يبسط علينا. وقال ابن عباس: يعتدي. ﴿**قال لا تخافا إنني معكما أسمع**

وأرى﴾ أي لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي.

وروى ابن أبي حاتم من طريق الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: لما بعث الله عز وجل موسى إلى فرعون قال: رب أي شيء أقول؟ قال: قل هيا شراهيا. قال الأعمش: فسَّرَ ذلك: أنا الحي قبل كل شيء والحي بعد كل شيء، إسناده جيد. **﴿فأتياه فقولا إنا رسولا ربك﴾** قد تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس أنه قال: مكثا على بابه حيناً لا يؤذن لهما حتى أذن لهما بعد حجاب شديد.

وقوله: **﴿قد جئناك بآية من ربك﴾** أي بمعجزة من ربك **﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾** أي والسلام عليك إن اتبعت الهدى، ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتاباً كان أوله: «بسم الله الرحمن الرحمن، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين». [جزء من حديث طويل متفق عليه]. ولهذا قال موسى وهارون عليهما السلام لفرعون **﴿والسلام على من اتبع الهدى إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى﴾** أي قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن العذاب لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته، كما قال تعالى: **﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هي المأوى﴾** [النازعات: ٣٧-٣٩].

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى منكراً وجود الصانع الخالق إله كل شيء وربه ومليكه، قال: **﴿فمن ربكما يا موسى﴾** أي الذي بعثك وأرسلك من هو، فإني لا أعرفه وما علمت لكم من إله غيري **﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾**. قال ابن عباس: يقول خلق لكل شيء زَوْجة. وعنه أيضا: جعل الإنسان إنساناً، والحمار حماراً، والشاة شاةً. وقال مجاهد: أعطى كل شيء صورته. وعنه في رواية: سَوّى خلق كل دابة.

وقال سعيد بن جبير: أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خَلْقه، ولم يجعل للإنسان من خَلْق الدابة، ولاللدابة من خَلْق الكلب، ولا للكلب من خلق الشاة، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من النكاح، وهيأ كل شيء على ذلك، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله في الخلق والرزق والنكاح. وقال بعض المفسرين: [هو] كقوله تعالى: **﴿الذي قدر فهدى﴾** [الأعلى: ٣] أي قدر قدراً، وهدى الخلائق إليه، أي كَتَب الأعمال والآجال والأرزاق، ثم الخلائق ماشون على ذلك لا يحيدون عنه ولا يقدر أحد على الخروج منه. يقول: ربنا الذي خلق الخلق، وقدر القَدَر، وجَبَل الخليقة على ما أراد. **﴿قال فما بال القرون الأولى﴾** أصح الأقوال في معنى ذلك: أن

فرعون لماأخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق، وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أي الذين لم يعبدوا الله، أي فما بالهم إذا كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك، بل عبدوا غيره، فقال له موسى في جواب ذلك، هم وإن لم يعبدوه فإن علمهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم ﴿**في كتاب**﴾ وهو اللوح المحفوظ ﴿**لا يضل ربي ولا ينسى**﴾ أي لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً، تبارك وتقدس وتنزه، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان: أحدهما عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟
وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ
أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾.

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه عز وجل حين سأله فرعون عنه، فقال: ﴿**الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**﴾ ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿**الذي جعل لكم الأرض مهداً**﴾ أي قراراً تستقرون عليها، وتقومون وتنامون عليها، وتسافرون على ظهرها ﴿**وسلك لكم فيها سبلاً**﴾ أي جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها كما قال تعالى: ﴿**وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون**﴾ [الأنبياء: ٣١]. ﴿**وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى**﴾ أي من أنواع النباتات من زروع وثمار، ومن حامض وحلو ومر وسائر الأنواع ﴿**كلوا وارعوا أنعامكم**﴾ أي شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم لأقواتها خَضِراً ويبساً ﴿**إن في ذلك لآيات**﴾ أي لدلالات وبراهين ﴿**لأولي النهى**﴾ أي لذوي العقول السليمة المستقيمة، على أنه لا إله إلا الله ولا رب سواه ﴿**منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى**﴾ أي من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض وفيها نعيدكم أي وإليها تصيرون إذا متم، ومنها نخرجكم تارة أخرى. ﴿**يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً**﴾ [الإسراء: ٥٢]. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿**قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون**﴾ [الأعراف: ٢٥]. وفي الحديث الذي في السنن أن رسول الله ﷺ حضر جنازة، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر ثم قال: منها خلقناكم، ثم أخذ أخرى، وقال: وفيها نعيدكم، ثم أخرى، وقال: ومنها نخرجكم تارة أخرى. [سنن ابن ماجه وقال البوصيري: إسناده صحيح]. وقوله: ﴿**ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى**﴾ يعني فرعون أنه قامت عليه الحجج والآيات، وعاين ذلك وأبصره فكذب بها وأباها كفراً وبغياً، كما قال تعالى: ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين**﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ

نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴿٥٩﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء، فقال: هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس فيتبعونك، وتكاثرنا بهم ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحراً مثل سحرك، فلا يغرنك ما أنت فيه، ﴿**فاجعل بيننا وبينك موعداً**﴾ أي يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين، فعند ذلك ﴿**قال**﴾ لهم موسى ﴿**موعدكم يوم الزينة**﴾ وهو يوم عيدهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماعهم جميعهم، ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء ومعجزات الأنبياء وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿**وأن يحشر الناس**﴾ أي جميعهم ﴿**ضحى**﴾ أي ضحوة من النهار، ليكون أظهر وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم بين واضح، ليس فيه خفاء ولا ترويج، ولهذا لم يقل ليلاً ولكن نهاراً ضحى، قال ابن عباس: وكان يوم الزينة يوم عاشوراء. وقال السدي وقتادة وابن زيد: كان يوم عيدهم. وقال سعيد بن جبير: كان يوم سوقهم، ولا منافاة. قلت: وفي مثله أهلك الله فرعون وجنوده، كما ثبت في الصحيح، وقال وهب بن منبه: قال فرعون: يا موسى اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه. قال موسى لم أومر بهذا إنما أمرت بمناجزتك إن أنت لم تخرج دخلت إليك، فأوحى الله إلى موسى أن اجعل بينك وبينه أجلاً، وقل له أن يجعل هو، قال فرعون: اجعله إلى أربعين يوماً. ففعل، وقال مجاهد وقتادة: مكاناً سوى مَنْصَفاً. وقال السدي: عدلاً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مستوٍ يتبين الناس ما فيه، لا يكون صَوَبٌ ولا شيءٌ فيغيب بعض ذلك عن بعض مستوٍ حين يُرى.

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه لما تواعد هو وموسى عليه السلام إلى وقت ومكان معلومين تولى، أي شرع في جمع السحرة من مدائن ممكلته، كل من ينسب إلى السحر في ذلك الزمان، وقد كان السحر فيهم كثيراً، كما قال تعالى: ﴿**وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم**﴾ [يونس: ٧٩]. ثم أتي أي اجتمع الناس يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة، وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام يتوكأ على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفاً، وهو يحرضهم ويحثهم ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم، يقولون: ﴿**أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين**﴾ [الشعراء: ٤١-٤٢]. ﴿**قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً**﴾ أي لا تُخَيِّلوا للناس

بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة، وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتم على الله ﴿**فيسحتكم بعذاب**﴾ أي يهلككم بعقوبة هلاكاً لا بقية له ﴿**وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم**﴾ قيل معناه أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقائل يقول ليس هذا بكلام ساحر إنما هذا كلام نبي، وقائل يقول بل هو ساحر، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿**وأسروا النجوى**﴾ أي تناجوا فيما بينهم ﴿**قالوا إن هذان لساحران**﴾ وهذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ ﴿**إن هذين لساحران**﴾ وهذه اللغة المشهورة. والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه ـ يعنون موسى وهارون ـ ساحران عالمان، خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة، ويقاتلا فرعون وجنوده، فينتصرا عليه، ويخرجاكم من أرضكم.

وقوله: ﴿**ويذهبا بطريقتكم المثلى**﴾ أي ويستبدا بهذه الطريقة وهي السحر، فإنهم كانوا مُعَظَّمين بسببها لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم، وعن علي قال: يصرفا وجوه الناس إليهما. وقال مجاهد: أولى الشرف والعقل والأسنان. وقال أبو صالح: أشرافكم وسرواتكم. وقال عكرمة: بخيركم. وقال قتادة: وطريقتهم المثلى يومئذ بنو إسرائيل، وكانوا أكثر القوم عدداً وأموالاً، فقال عدو الله يريدان أن يذهبا بها لأنفسهما. وقال عبد الرحمن بن زيد: بالذي أنتم عليه. ﴿**فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً**﴾ أي اجتمعوا كلُّكم صفاً واحداً، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه ﴿**وقد أفلح اليوم من استعلى**﴾ أي منا ومنه، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام، أنهم قالوا لموسى: ﴿**إما أن تلقي**﴾ أي أنت أولاً ﴿**وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا**﴾ أي أنتم أولاً ليُرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أمرهم ﴿**فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى**﴾ وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿**قالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون**﴾ [الشعراء:٤٤] وقال تعالى: ﴿**سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم**﴾ [الأعراف:١١٦]، وقال ههنا: ﴿**فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى**﴾ وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب، بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جمعاً كثيراً، فألقى كل منهم عصاً وحبلاً حتى صار

الوادي ملآن حيات يركب بعضها بعضاً.

وقوله: ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ أي خاف على الناس أن يَفْتَتنوا بسحرهم ويغتروا بهم قبل أن يُلقيَ ما في يمينه، فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة أن ألقِ ما في يمينك يعني عصاك، فإذا هي تلقف ما صنعوا وذلك أنها صارت تنيناً عظيماً هائلاً ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تُبق منها شيئاً إلا تلقفته وابتلعته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً ضحوة. فقامت المعجزة واتضح البرهان، وبطل ما كانوا يعملون، ولهذا قال تعال: ﴿إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾. وروى ابن أبي حاتم عن جُندب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أخذتم يعني الساحر فاقتلوه»، ثم قرأ: ﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ قال: لا يؤمن به حيث وجد». وقد روى أصله الترمذي موقوفاً ومرفوعاً [والحاكم وصححه ووافقه الذهبي]. فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سجداً لله، وقالوا: آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، ولهذا قال ابن عباس وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة. وقال محمد بن كعب: كانوا ثمانين ألفاً، وقال القاسم بن أبي بزة: كانوا سبعين ألفاً، وقال السدي: بضعة وثلاثين ألفاً، وقال أبو ثمامة: كان سحرة فرعون تسعة عشر ألفاً، وقال محمد بن إسحاق: كانوا خمسة عشر ألفاً، وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفاً.

وعن ابن عباس قال: كانت السحرة سبعين رجلاً، أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء. قال الأوزاعي: لما خر السحرة سجداً، رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها، وعن سعيد بن جبير قال: رأوا منازلهم تبنى لهم وهم في سجودهم، وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبي بزة.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون ومكابرته الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم، وغُلِب كلَّ الغلَب، شرع في المكابرة، وعدل إلى استعمال سلطانه في السحرة، فتهددهم وتوعدهم، وقال: ﴿آمنتم له﴾ أي صدقتموه ﴿قبل أن آذن لكم﴾ أي ما أمرتكم بذلك، وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه كذب: ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ أي أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه علي وعلى رعيتي لتظهروه، كما قال تعالى في الاية الأخرى: ﴿إن هذا لمكر

مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون﴾ [الأعراف: ١٢٣]. ثم أخذ يتهددهم فقال: **﴿فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾** أي لأجعلنكم مثلة، ولأقتلنكم ولأشهرنكم، قال ابن عباس: فكان أول من فعل ذلك، وقوله: **﴿ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى﴾** أي أنتم تقولون: إني وقومي على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى، فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه، فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم في الله عز وجل و**﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات﴾** أي لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين، **﴿والذي فطرنا﴾** يحتمل أن يكون قسماً، ويُحتمل أن يكون معطوفاً على البينات، يعنون لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم المبتدي خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت، **﴿فاقض ما أنت قاض﴾** أي فافعل ما شئت، وما وَصَلَتْ إليه يدُك، **﴿إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾** أي إنما لك تَسلُّط في هذه الدار وهي دار الزوال، ونحن قد رغبنا في دار القرار **﴿إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا﴾** أي ما كان منا من الآثام خصوصاً ما أكرهتنا عليه من الحسر لنعارض به آية الله تعالى.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿وما أكرهتنا عليه من السحر﴾** قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل، فأمر أن يعلموا السحر، وقال: علموهم تعليماً لا يعلمه أحد في الأرض، قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بموسى وهم من الذين قالوا: **﴿إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر﴾**. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقوله: **﴿والله خير وأبقى﴾** أي خير لنا منك **﴿وأبقى﴾** أي أدوم ثواباً مما كنت وعدتنا ومنيتنا، وهو رواية عن ابن إسحاق رحمه الله. وقال محمد بن كعب القرظي **﴿والله خير﴾** أي لنا منك إن أُطيع **﴿وأبقى﴾** أي منك عذاباً إن عُصي، وروي نحوه عن ابن إسحاق أيضاً. والظاهر أن فرعون ـ لعنه الله ـ صمم على ذلك، وفعله بهم رحمهم الله، ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء.

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾.

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد، فقالوا: **﴿إنه من يأت ربه مجرماً﴾** أي يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم **﴿فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى﴾** كقوله: **﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور﴾** [فاطر: ٣٦]. وروى الإمام أحمد بن حنبل عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتمون فيها ولا يحيون، ولكن أناس تصيبهم النار بذنوبهم فتميتهم إماتة حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة جيء بهم ضبائر ضبائر، فبُثُّوا على أنهار الجنة، فيقال:

يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل» فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية، وأخرجه مسلم.

وقوله تعالى: ﴿**ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات**﴾ أي ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب قد صدق ضميره بقوله وعمله ﴿**فأولئك لهم الدرجات العلى**﴾ أي الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمساكن الطيبات.

وفي الصحيحين: «إن أهل عليين ليرون مَنْ فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء لتفاضل ما بينهم ـ قالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء قال ـ بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين». وقوله: ﴿**جنات عدن**﴾ أي إقامة، وهي بدل من الدرجات العلى ﴿**تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها**﴾ أي ماكثين أبداً ﴿**وذلك جزاء من تزكى**﴾ أي طَهَّر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له. وصدق المرسلين فيما جاؤوا به من خَبَر وطلب.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً أنه أمر موسى عليه السلام حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل أن يسري بهم في الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون، وقد بسط الله هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة، وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضباً شديداً، وأرسل في المدائن حاشرين، أي من يجمعون له الجند من بلدانه، يقول: ﴿**إن هؤلاء لشرذمة قليلون، وإنهم لنا لغائظون**﴾ [الشعراء: ٥٤ـ٥٥] ثم لما جمع جنده واستوسق له جيشه، ساق في طلبهم فأتبعوهم مشرقين، أي عند طلوع الشمس ﴿**فلما تراءى الجمعان**﴾ أي نظر كل من الفريقين إلى الآخر ﴿**قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين**﴾ [الشعراء: ٦١ـ٦٢]، ووقف موسى ببني إسرائيل، البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿**أن اضرب لهم طريقاً في البحر يبساً**﴾ فضرب البحر بعصاه، وقال: انفلق علي بإذن الله، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، أي الجبل العظيم، فأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يبساً كوجه الأرض، فلهذا قال: ﴿**فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً**﴾ أي من فرعون ﴿**ولا تخشى**﴾ يعني من البحر أن يُغْرِق قومك، ثم قال تعالى: ﴿**فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم**﴾ أي البحر ﴿**ما غشيهم**﴾ أي الذي هو معروف ومشهور، وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: ﴿**والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى**﴾ [النجم: ٥٣ـ٥٤].

وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد، كذلك يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود. [هود: ٩٨].

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾.

يذكر تعالى نعمه على بني إسرائيل العظام، حيث أنجاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، كما قال: ﴿**وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون**﴾ [البقرة: ٥٠]. وروى البخاري عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وجد اليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون، فقال: «نحن أولى بموسى فصوموه» رواه مسلم أيضاً في صحيحه.

ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه الله تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هناك، وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل كما يقصه الله تعالى قريباً، وأما المن والسلوى، فالمن حلوى كانت تنزل عليهم من السماء، والسلوى طائر يسقط عليهم فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد، لطفاً من الله ورحمة بهم وإحساناً إليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿**كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي**﴾ أي كلوا من هذا الرزق الذي رزقتكم، ولا تطغوا في رزقي فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما آمركم به ﴿**فيحل عليكم غضبي**﴾ أي أغضب عليكم ﴿**ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى**﴾ قال ابن عباس: أي فقد شقي. وقال شُفَيّ بن ماتع: إن في جهنم قصراً يُرْمَى الكافر من أعلاه، فيهوي في جهنم أربعين خريفاً قبل أن يبلغ الصلصال، وذلك قوله: ﴿**ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى**﴾.

وقوله: ﴿**وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً**﴾ أي كل من تاب إلي تبت عليه من أي ذنب كان، حتى أنه تاب تعالى على من عبد العجل من بني إسرائيل. وقوله تعالى: ﴿**تاب**﴾ أي رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق. وقوله: ﴿**وآمن**﴾ أي بقلبه. ﴿**وعمل صالحاً**﴾ أي بجوارحه. وقوله: ﴿**ثم اهتدى**﴾ قال ابن عباس: أي ثم لم يشكك. وقال سعيد بن جبير: أي استقام على السنة والجماعة وروي نحوه عن مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف. وقال قتادة: أي لزم الإسلام حتى يموت. وقال سفيان الثوري: أي علم أن لهذا ثواباً. وثم ههنا لترتيب الخبر على الخبر.

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ ﴾.

لما سار موسى عليه السلام ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون وأتوا ﴿ **على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون**﴾ [الأعراف:١٣٨-١٣٩] وواعده ربه ثلاثين ليلة، ثم أتبعها عشراً، فتمت أربعين ليلة، أي يصومها ليلاً ونهاراً، وقد تقدم في حديث الفتون بيان ذلك، فسارع موسى عليه السلام مبادراً إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، ولهذا قال تعالى: ﴿**وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري**﴾ أي قادمون ينزلون قريباً من الطور ﴿**وعجلت إليك رب لترضى**﴾ أي لتزداد عني رضا ﴿**قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري**﴾ أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري. وكتب الله تعالى له في هذه المدة الألواح المتضمنة للتوراة كما قال تعالى: ﴿**وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين**﴾ [الأعراف:١٤٥] أي عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري.

وقوله: ﴿**فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً**﴾ أي بعدما أخبره تعالى بذلك في غاية الغضب والحَنَق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتَسَلَّم التوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم. وهم قوم قد عبدوا غير الله، ما يعلم كل عاقل له لب وحزم بطلان ما هم فيه، وسخافة عقولهم وأذهانهم، ولهذا رجع إليهم غضبان أسفاً، والأسف شدة الغضب. وقال مجاهد: أي جزعاً، وقال قتادة والسدي: حزيناً على ما صنع قومه من بعده ﴿**قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً**﴾ أي أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة وحسن العاقبة، كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه وغير ذلك من أياديه عندكم ﴿**أفطال عليكم العهد**﴾ أي في انتظار ما وعدكم الله، ونسيان ما سلف من نعمه وما بالعهد من قِدَم. ﴿**أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم**﴾ أم ههنا بمعنى بل، وهي للإضراب عن الكلام الأول وعدول إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي، قالوا أي بنو إسرائيل في جواب ما أنبهم موسى ﴿**ما أخلفنا موعدك بملكنا**﴾ أي عن قدرتنا واختيارنا. ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد، يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر، فقذفناها أي ألقيناها عنا. وقد تقدم في حديث الفتون أن هارون عليه السلام هو الذي كان أمرهم بإلقاء الحلي في حفرة فيها نار، وعن ابن عباس: إنما أراد هارون أن يجتمع الحلي كله في تلك الحفيرة، ويُجعل حجراً واحداً، حتى إذا رجع موسى عليه السلام، رأى فيه ما يشاء ثم جاء بعد ذلك السامري فألقى عليها تلك القبضة التي أخذها من أثر الرسول، وسأل من هارون أن يدعو الله أن يستجيب له في دعوته، فدعا له هارون وهو لا يعلم ما يريد فأجيب له، فقال

السامري عند ذلك: أسأل الله أن يكون عجلاً، فكان عجلاً له خوار أي صوت استدراجاً، واختباراً، ولهذا قال: ﴿**فكذلك ألقى السامري، فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار**﴾.

وعن ابن عباس: أن هارون مر بالسامري وهو ينحت العجل، فقال له: ما تصنع ؟ فقال: أصنع ما ينفع ولا يضر، فقال هارون: اللهم أعطه ما سأل على ما في نفسه، ومضى هارون. وقال السامري: اللهم إني أسألك ان يخور فَخَار، فكان إذا خار سجدوا له، وإذا خار رفعوا رؤوسهم. وقال السدي كان يخور ويمشي فقالوا: أي الضُّلال منهم الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه: ﴿**هذا إلهكم وإله موسى فنسي**﴾ أي نسيه هاهنا وذهب يتطلبه. كما تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس. وبه قال مجاهد. وقال ابن عباس: ﴿**فنسي**﴾، أي نسي أن يُذكِّركم أن هذا إلهكم، وعن ابن عباس أيضا: عكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً قط مثله، يقول الله: ﴿**فنسي**﴾ أي ترك ما كان عليه من الإسلام يعني السامري. قال الله تعالى رداً عليهم وتقريعاً لهم وبياناً لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: ﴿**أفلا يرون أن لايرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً**﴾ أي العجل، أفلا يرون أنه لا يجيبهم إذا سألوه ولا إذا خاطبوه، ﴿**ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً**﴾، أي في دنياهم ولا في أخراهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح في دبره. فيخرج من فمه فيسمع له صوت. وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم وعبدوا العجل، فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب، يعني هل يصلي فيه أم لا ؟ فقال ابن عمر رضي الله عنهما: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله يعني الحسين، وهم يسألون عن دم البعوضة. [رواه البخاري].

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾.

يخبر تعالى عما كان من نَهْي هارون عليه السلام لهم عن عبادة العجل وإخباره إياهم، إنما هذا فتنة لكم وإن ربكم الرحمن الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، ذو العرش المجيد الفعال لما يريد ﴿**فاتبعوني**﴾ أي فيما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه، ﴿**قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى**﴾ أي لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه، وخالفوا هارون في ذلك وحاربوه وكادوا أن يقتلوه.

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلأ عند ذلك غضباً وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه

يجره إليه، وشرع يلوم أخاه هارون، فقال: ﴿ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن﴾ أي فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع ﴿أفعصيت أمري﴾ أي فيما كنت تقدمت إليك، وهو قوله: ﴿اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ [الأعراف: ١٤٢]. ﴿قال يا ابن أم﴾ ترفق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه، لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف، ولهذا قال: ﴿يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾. هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم، ﴿قال إني خشيت﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿ولم ترقب قولي﴾ أي وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم، قال ابن عباس: وكان هارون هائباً له مطيعاً.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾.

يقول موسى عليه السلام للسامري: ما حملك على ما صنعت؟ وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟ قال ابن عباس: كان السامري رجلاً من قوم يعبدون البقر، وكان حبُّ عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الاسلام مع بني إسرائيل، وكان اسم السامري موسى بن ظفر، وفي رواية عن ابن عباس أنه كان من كرمان، وقال قتادة: كان من قرية اسمها سامِرَا ﴿قال بصرت بما لم يبصروا به﴾ أي رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿فقبضت قبضة من أثر الرسول﴾ أي من أثر فرسه، وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم.

وقال مجاهد: ﴿فقبضت قبضة من أثر الرسول﴾ قال: من تحت حافر فرس جبريل، وقال مجاهد: نبذ السامري، أي ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل، فانسبك عجلاً جسداً له خوار حفيف الريح فيه فهو خواره. ولهذا قال: ﴿فنبذتها﴾ أي ألقيتها مع من ألقى ﴿وكذلك سولت لي نفسي﴾ أي حَسَّنته وأعجبها إذ ذاك ﴿قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾ أي كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول فعقوبتك في الدنيا أن تقول لا مساس، أي لا تماس الناس ولا يمسونك. ﴿وإن لك موعداً﴾ أي يوم القيامة ﴿لن تخلفه﴾ أي لا محيد لك عنه. وقال قتادة ﴿أن تقول لا مساس﴾ قال: عقوبة لهم وبقاياهم اليوم يقولون لا مساس.

وقوله: ﴿وإن لك موعداً لن تخلفه﴾ قال الحسن وقتادة وأبو نَهِيك: لن تغيب عنه. وقوله: ﴿وانظر إلى إلهك﴾ أي معبودك ﴿الذي ظلت عليه عاكفاً﴾ أي أقمت على عبادته يعني العجل ﴿لنحرقنه﴾ قال ابن عباس والسدي: سَحَله بالمبارد وألقاه على النار. وقال قتادة: استحال

العجل من الذهب لحماً ودماً، فحرقه بالنار، ثم القاه أي رماده في البحر، ولهذا قال: **﴿ثم لننسفنه في اليم نسفاً﴾**. وعن علي رضي الله عنه قال: إن موسى لما تعجل إلى ربه عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي نساء بني إسرائيل، ثم صوره عجلاً، قال: فعمد موسى إلى العجل فوضع عليه المبارد، فبرده بها وهو على شط نهر، فلم يشرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب، فقالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً، وهكذا قال السدي. وقوله: **﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً﴾** يقول لهم موسى عليه السلام: ليس هذا إلهكم، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو، أي لا يستحق ذلك على العباد إلا هو ولا تنبغي العبادة إلا له، فإن كل شيء فقير إليه عبد لديه. وقوله: **﴿وسع كل شيء علماً﴾** أي هو عالم بكل شيء، **﴿أحاط بكل شيء علماً﴾** [الطلاق:١٢]، **﴿وأحصى كل شيء عدداً﴾** [الجن:٢٨]، فلا **﴿يعزب عنه مثقال ذرة﴾** [سبأ:٣]، **﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾** [الأنعام:٥٩]، **﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها، كل في كتاب مبين﴾** [هود:٦]، والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ ﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى وما جرى له مع فرعون وجنوده، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا وقد آتيناك من لدنا، اي من عندنا ذكراً، وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلفه، تنزيل من حكيم حميد، الذي لم يعط نبي من الأنبياء منذ بعثوا إلى أن ختموا بمحمد ﷺ كتاباً مثله، ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحكم الفصل بين الناس منه. ولهذا قال تعالى: **﴿من أعرض عنه﴾** أي كذب به وأعرض عن اتباعه أمراً وطلباً، وابتغى الهدى من غيره، فإن الله يضله ويهديه إلى سواء الجحيم، ولهذا قال: **﴿من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً﴾** أي إثماً كما قال الله تعالى: **﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾** [هود:١٧]. وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم، كما قال: **﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾** [الأنعام:١٩]. فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هُدِي ومن خالفه وأعرض عنه، ضلَّ وشَقِي في الدنيا والنار موعده يوم القيامة، ولهذا قال: **﴿من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً خالدين فيه﴾** أي لا مَحِيد لهم عنه ولا انفكاك **﴿وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾** أي بئس الحِمْلُ حملهم.

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور، فقال: «قرن ينفخ فيه» [رواه أحمد]. وجاء في الحديث «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له» فقالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا» [رواه الترمذي وقال: حسن].

وقوله: ﴿**ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً**﴾ قيل: معناه زُرْق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال ﴿**يتخافتون بينهم**﴾ قال ابن عباس: يتسارون بينهم، أي يقول بعضهم لبعض: إن لبثتم إلا عشراً أي في الدار الدنيا، لقد كان لبثكم فيها قليلاً عشرة أيام أو نحوها، قال الله تعالى: ﴿**نحن أعلم بما يقولون**﴾ أي في حال تناجيهم بينهم ﴿**إذ يقول أمثلهم طريقة**﴾ أي العاقل الكامل فيهم ﴿**إن لبثتم إلا يوماً**﴾ أي لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد، لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها، كأنها يوم واحد، ولهذا يستقصر الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة، وكان غرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة، ولهذا قال تعالى: ﴿**ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون**﴾ [الروم: ٥٥-٥٦].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿**ويسألونك عن الجبال**﴾ أي هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿**فقل ينسفها ربي نسفاً**﴾ أي يُذهِبُها عن أماكنها ويَمْحَقُها ﴿**فيذرها**﴾ أي الأرض ﴿**قاعاً صفصفاً**﴾ أي بساطاً واحداً، والقاع هو المستوي من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل الذي لا نبات فيه، والأول أولى وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم، ولهذا قال: ﴿**لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً**﴾ أي لا ترى في الأرض يومئذ وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذا قال ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وغير واحد من السلف. ﴿**يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له**﴾ أي يوم يرون هذه الأحوال والأهوال يستجيبون مسارعين إلى الداعي حيثما أمروا بادروا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم ولكن حيث لا ينفعهم، كما قال تعالى: ﴿**أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا**﴾ [مريم: ٣٨]. وقال محمد بن كعب القرظي: يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة، وتطوي السماء، وتتناثر النجوم، وتذهب الشمس والقمر، وينادي مناد، فيتبع الناس الصوت فيأتونه، فذلك قوله: ﴿**يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له**﴾ وقال قتادة: لا يميلون عنه. وقال أبو صالح: لا عوج عنه.

وقوله: ﴿**وخشعت الأصوات للرحمن**﴾ قال ابن عباس: سكنت، وكذا قال السدي. ﴿**فلا تسمع إلا همساً**﴾ قال ابن عباس: يعني وطء الأقدام، وكذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد

وغيرهم. وقال ابن عباس أيضا: الصوت الخفي، وهو رواية عن عكرمة والضحاك. وقال سعيد بن جبير ﴿فلا تسمع إلا همساً﴾ الحديثَ وسِرَّه، ووطء الأقدام، فقد جمع سعيد كلا القولين، وهو محتمل، أما وطء الأقدام فالمراد سعي الناس إلى المحشر، وهو مشيهم في سكون وخضوع، وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال، فقد قال تعالى: ﴿يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد﴾ [هود:١٠٥].

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿يومئذ﴾ أي يوم القيامة ﴿لا تنفع الشفاعة﴾ أي عنده ﴿إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾ كقوله: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقوله: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ [النجم:٢٦]، وقال: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ [الأنبياء:٢٨] وقال: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ [سبأ:٢٣]، وقال: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾ [النبأ:٣٨]. وفي الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم، وأكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال: «آتي تحت العرش، وأخر لله ساجداً، ويفتح علي بمحامد لا أحصيها الآن، فيدعني ما شاء أن يدعني، ثم يقول: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع، واشفع تشفع» قال: «فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة ثم أعود»، فذكر أربع مرات، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء. وفي الحديث أيضاً «يقول تعالى أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقول أخرجوا من النار من كان في قلبه نصف مثقال من إيمان، أخرجوا من النار من كان في قلبه ما يزن ذرة، من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان» الحديث [متفق عليه].

وقوله: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي يحيط علماً بالخلائق كلهم ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ كقوله: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ [البقرة:٢٥٥]. وقوله: ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم﴾ قال ابن عباس وغير واحد: خضعت واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا ينام، وهوقيم على كل شيء يدبره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه لا قوام له إلا به. وقوله: ﴿وقد خاب من حمل ظلماً﴾ أي يوم القيامة، فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه حتى يقتص للشاة الجَمَّاء من الشاة القرناء. وفي الصحيح: «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة» [رواه مسلم]، والخيبة كل الخيبة لمن لقي الله وهو به مشرك، فإن الله تعالى يقول: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ [لقمان:١٣]. وقوله: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ لما ذكر الظالمين

ووعيدهم، ثنى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يُظلَمون ولا يُهضَمون، أي لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم. قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد، فالظلم الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم النقص.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾.

يقول تعالى: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعاً لا محالة، أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً بلسان عربي مبين، **﴿وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون﴾** أي يتركون المآثم والفواحش **﴿أو يحدث لهم ذكراً﴾** وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات **﴿فتعالى الله الملك الحق﴾** أي تنزه الملك الحق الذي هو حق ووعده حق، ووعيده حق، ورسله حق، والجنة حق والنار حق، وكل شيء منه حق، وعدله تعالى أن لا يعذب أحداً قبل الإنذار وبعثة الرسل، والإعذار إلى خلقه لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة.

وقوله: **﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾**، كقوله تعالى في سورة لا أقسم بيوم القيامة **﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه﴾** [القيامة:١٦-١٩]، وثبت في الصحيح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرّك لسانه، فأنزل الله هذه الآية. يعني أنه عليه السلام كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشق عليه، فقال: **﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه﴾** أي أن نجمعه في صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً **﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾** [متفق عليه]. وقال في هذه الآية: **﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾** أي بل أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده **﴿وقل رب زدني علماً﴾** أي زدني منك علماً، قال ابن عيينة رحمه الله ولم يزل ﷺ في زيادة من العلم حتى توفاه الله عز وجل، ولهذا جاء في الحديث: «إن الله تابع الوحي على رسوله، حتى كان الوحي أكثر ما كان يوم تُوفّي رسول الله ﷺ» [متفق عليه].

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

عن ابن عباس قال: إنما سمي الإنسان لأنه عُهِدَ إليه فنسي. وقال مجاهد والحسن: ترَكَ. وقوله: **﴿وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾** يذكر تعالى تشريف آدم، وتكريمه وما فضله به على

كثير ممن خلق تفضيلاً، وقد تقدم الكلام على هذه القصة في سورة البقرة وفي الأعراف وفي الحجر والكهف، وسيأتي في آخر سورة «ص» إن شاء الله تعالى. يذكر تعالى فيها خَلْقَ آدم وأمْرَه الملائكة بالسجود له تشريفاً وتكريماً، ويبين عداوة إبليس لبني آدم ولأبيهم قديماً، ولهذا قال تعالى: ﴿فسجدوا إلا إبليس أبى﴾ أي امتنع واستكبر ﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك﴾ يعني حواء عليهما السلام ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ أي إياك أن يسعى في إخراجك منها فتتعب وتشقى في طلب رزقك، فإنك ههنا في عيش رغيد هنيء، لا كلفة ولا مشقة ﴿إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى﴾ إنما قرن بين الجوع والعرْي، لأن الجوع ذُل الباطن، والعري ذُل الظاهر، ﴿وأنك لا تظمؤ فيها ولا تضحى﴾ وهذان أيضاً متقابلان، فالظمأ حر الباطن وهو العطش، والضحى حر الظاهر.

وقوله: ﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ قد تقدم أنه دلاهما بغرور ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾ [الأعراف: ٢١]. وقد تقدم أن الله تعالى أوحى إلى آدم وزوجته أن يأكلا من كل الثمار، ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة. فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها، وكانت شجرة الخلد، يعني التي من أكل منها خلد ودام مكثه. وقوله: ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ قال مجاهد: يرقعان كهيئة الثوب، وكذا قال قتادة والسدي. قال ابن عباس: ينزعان ورق التين فيجعلانه على سوآتهما. وقوله: ﴿وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ روى البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «حاج موسى آدم، فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر كتبه الله علي قبل أن يخلقني أو قدره الله عليّ قبل أن يخلقني؟ ـ قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى» [ورواه مسلم].

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منها جميعاً، أي من الجنة كلكم. ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ قال: آدم وذريته، وإبليس وذريته. وقوله: ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان ﴿فمن ابتع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ قال ابن عباس: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ﴿ومن أعرض عن ذكري﴾ أي خالف أمري وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه ﴿فإن له معيشة ضنكاً﴾ أي ضنكا في الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشرح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعّم ظاهره ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يَخْلُص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق

وحيرة، فلا يزال في ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة.

قال ابن عباس: ﴿**فإن له معيشة ضنكا**﴾ قال: الشقاء. وعنه أيضا قال: كل مال أعطيته عبداً من عبادي قل أو كثر، لا يتقيني فيه، فلا خير فيه وهو الضنك في المعيشة. ويقال: إن قوماً ضُلالاً أعرضوا عن الحق، وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين، فكانت معيشتهم ضنكاً، وذلك أنهم كانوا يرون أن الله ليس مخلفاً لهم معايشهم من سوء ظنهم بالله والتكذيب، فإذا كان العبد يكذِّب بالله ويُسيء الظن به، اشتدت عليه معيشته، فذلك الضنك. وقال الضحاك: هو العمل السيء.، والرزق الخبيث، وكذا قال عكرمة ومالك بن دينار.

وعن أبي سعيد قال: يُضيَّقُ عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه.

وقوله: ﴿**ونحشره يوم القيامة أعمى**﴾ قال مجاهد وأبو صالح والسدي: لا حجة له، وقال عكرمة: عُمّي عليه كل شيء إلا جهنم، ويحتمل أن يكون المراد: أنه يبعث أو يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضاً، كما قال تعالى: ﴿**ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً**﴾ [الإسراء:٩٧]. ولهذا يقول: ﴿**رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً**﴾ أي في الدنيا ﴿**قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى**﴾ أي لما أعرضت عن آيات الله، وعاملْتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك، تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها، كذلك نعاملك اليوم، فإن الجزاء من جنس العمل. فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً في هذاالوعيد الخاص.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧) ﴾.

يقول تعالى: وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة ﴿**لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق**﴾ [الرعد:٣٤] ولهذا قال: ﴿**ولعذاب الآخرة أشد وأبقى**﴾ أي أشد ألماً من عذاب الدنيا وأدوم عليهم، فهم مخلدون فيه.

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) ﴾.

يقول تعالى: ﴿**أفلم يهد**﴾ لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به يا محمد، كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيها يمشون فيها ﴿**إن في ذلك لآيات لأولي النهى**﴾ أي العقول الصحيحة والألباب المستقيمة، كما قال تعالى: ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ [الحج:٤٦]. ثم قال تعالى: ﴿**ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى**﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لايعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى

الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة، لجاءهم العذاب بغتة، ولهذا قال لنبيه: **﴿فاصبر علىٰ ما يقولون﴾** أي من تكذيبهم لك **﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس﴾** يعني صلاة الفجر **﴿وقبل غروبها﴾** يعني صلاة العصر، كما جاء في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» ثم قرأ هذه الآية.

وقوله: **﴿ومن آناء الليل فسبح﴾** أي من ساعاته فتهجد به، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء، **﴿وأطراف النهار﴾** في مقابلة آناء الليل **﴿لعلك ترضى﴾** كما قال تعالى: **﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾** [الضحى:٥]. وفي الصحيح: «يقول الله تعالى ياأهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: إني أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» [متفق عليه].

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: لا تنظر إلى هؤلاء المترفين وما هم فيه من النعيم، فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك وقليل من عبادي الشكور. وقال مجاهد: **﴿أزواجاً منهم﴾**، يعني الأغنياء، فقد آتاك خيراً مما آتاهم، كما قال في الآية الأخرى **﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾** [الحجر:٨٧-٨٨]، وكذلك ما ادخره الله تعالى لرسوله ﷺ في الآخرة أمر عظيم لا يحد ولا يوصف، كما قال تعالى: **﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾** [الضحى:٥] ولهذا قال: **﴿ورزق ربك خير وأبقى﴾** وفي الصحيح: أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن، فرآه متوسداً مضطجعاً على رمال حصير، وليس في البيت إلا صبرة من قرظ وأهب معلقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال له رسول الله ﷺ: «مايبكيك يا عمر؟» فقال: يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ فقال: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا» [متفق عليه]. فكان ﷺ أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد.

وقال قتادة والسدي: زهرة الحياة الدنيا، يعني زينة الحياة الدنيا. وقال قتادة: **﴿لنفتنهم فيه﴾** لنبتليهم. وقوله: **﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾** أي استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم**

ناراً﴾ [التحريم:٦]. وعن زيد بن أسلم عن أبيه: أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويرفأ، وكان له ساعة من الليل يصلي فيها، فربما لم يقم، فنقول: لا يقوم الليلة كما كان يقوم، وكان إذا استيقظ أقام يعني أهله، وقال «وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها».

وقوله: ﴿**لا نسألك رزقاً نحن نرزقك**﴾ يعني إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾ [الطلاق:٢-٣]، وقال تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين**﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨] ولهذا قال: ﴿**لا نسألك رزقاً نحن نرزقك**﴾. وقال الثوري: لا نكلفك الطلب. وقوله: ﴿**والعاقبة للتقوى**﴾ أي وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وهي الجنة لمن اتقى الله. وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت الليلة كأنا في دار عقبة بن رافع، وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة، وأن ديننا قد طاب» [رواه مسلم].

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم: ﴿**لولا**﴾ أي هلا يأتينا محمد بآية من ربه، أي بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله؟ قال الله تعالى: ﴿**أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى**﴾ يعني القرآن الذي أنزله عليه الله، وهو أمي لا يحسن الكتابة ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور، بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها، فإن القرآن مهيمن عليها يصدق الصحيح ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿**وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون**﴾ [العنكبوت:٥٠-٥١] وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» [متفق عليه]. وإنما ذكر ههنا أعظم الآيات التي أعطيها عليه السلام، وهو القرآن، وإلا فله من المعجزات ما لا يحد ولا يحصر، كما هو مودع في كتبه ومقرر في مواضعه.

ثم قال تعالى: ﴿**ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً**﴾ أي لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم، لكانوا قالوا: ﴿**ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً**﴾ قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه، كما قال: ﴿**فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى**﴾ يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين

معاندون لا يؤمنون ﴿ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس:٩٧]. ثم قال تعالى: ﴿قل﴾ أي يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره ﴿كل متربص﴾ أي منا ومنكم ﴿فتربصوا﴾ أي فانتظروا ﴿فستعلمون من أصحاب الصراط السوي﴾ أي الطريق المستقيم ﴿ومن اهتدى﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً﴾ [الفرقان:٤٢].

تفسير سورة الانبياء وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

هذا تنبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة، وأن الناس في غفلة عنها، أي لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها. وروى النسائي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ ﴿في غفلة معرضون﴾ قال: «في الدنيا». [وهو صحيح]، وقال تعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ [النحل:١]. وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن هانىء أبي نواس الشاعر أنه قال: أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول:

الناس فـي غفـلاتـهم ... ورحـا المـنية تطـحن

فقيل له: من أين أخذ هذا؟ قال من قول الله تعالى: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾. ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار، فقال: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾ أي جديد إنزاله ﴿إلا استمعوه وهم يلعبون﴾ كما قال ابن عباس: ما لكم تسألون أهل الكتاب عمابأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرؤونه محضاً لم يشب، رواه البخاري بنحوه.

وقوله: ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾ أي قائلين فيما بينهم خفْيَة ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم﴾ يعنون رسول الله ﷺ يستبعدون كونه نبياً لأنه بشر مثلهم، فكيف اختُصَّ بالوحي دونهم، ولهذا قال: ﴿أفتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾ أي أفتتبعونه فتكونون كمن أتى السحر وهو يعلم أنه سحر. فقال تعالى مجيباً لهم عما اختلقوه من الكذب: ﴿قال ربي يعلم القول في السماء والأرض﴾ أي الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض. وقوله: ﴿وهو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوالكم والعليم بأحوالكم،

وفي هذا تهديد لهم ووعيد. وقوله: ﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه﴾ هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن، وحيرتهم فيه وضلالهم عنه، فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفترى، كما قال: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾ [الإسراء:٤٨]. وقوله: ﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ يعنون كناقة صالح، وآيات موسى وعيسى. وقد قال الله: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾ [الإسراء:٥٩]، ولهذا قال تعالى: ﴿ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون﴾ أي ما آتينا قرية من القرى التي بعث فيهم الرسل آية على يدي نبيها فآمنوا بها بل كذبوا، فأهلكناهم بذلك أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا، بل ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس:٩٦ـ٩٧]. هذا كله وقد شاهدوا من الآيات الباهرات على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأبهر وأقطع وأقهر مما شُوهِدَ مع غيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٩ ﴾.

يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم﴾ أي جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال في الآية الأخرى ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى﴾ [يوسف:١٠٩]، ولهذا قال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعملون﴾ أي اسألواأهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ وإنما كانوا بشراً، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه إذ بعث فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم.

وقوله: ﴿وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام﴾ أي بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ [الفرقان:٢٠] أي قد كانوا بشراً من البشر يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضار لهم ولا ناقص منهم شيئاً، كما توهمه المشركون في قولهم ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً * أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾ [الفرقان:٧ـ٨].

وقوله: ﴿وما كانوا خالدين﴾ أي في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ [الأنبياء:٣٤] وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عز وجل. وقوله: ﴿ثم

صدقناهم الوعد﴾ أي الذي وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين، صدقهم الله وعده ففعل ذلك، ولهذا قال: ﴿فأنجيناهم ومن نشاء﴾ أي أتباعهم من المؤمنين ﴿وأهلكنا المسرفين﴾ أي المكذبين بما جاءت به الرسل.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا
قَوْمًا ءَاخَرِينَ (١١) فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْـَٔلُونَ (١٣) قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ (١٥)﴾.

يقول تعالى منبهاً على شرف القرآن ومحرضاً لهم على معرفة قدره: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم﴾ قال ابن عباس: شَرَفُكم. وقال مجاهد: حديثكم. وقال الحسن: دينكم، ﴿أفلا تعقلون﴾ أي هذه النعمة، وتتلقونها بالقبول، كما قال تعالى: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾ [الزخرف: ٤٤]. وقوله: ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة﴾ هذه صيغة تكثير، كما قال: ﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد﴾ [الحج: ٤٥]. وقوله: ﴿وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ أي أمة أخرى بعدهم ﴿فلما أحسوا بأسنا﴾ أي تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم ﴿إذا هم منها يركضون﴾ أي يفرون هاربين ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم﴾ هذا تهكم بهم قيل لهم: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة. قال قتادة: استهزاء بهم. ﴿لعلكم تسألون﴾ أي عما كنتم فيه من أداء شكر النعم، ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك، ﴿فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾ أي ما زالت تلك المقالة، وهي الاعتراف بالظلم هِجيراهم حتى حصدناهم حصداً، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٧) بَلْ
نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾.

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق، أي بالعدل والقسط، ﴿ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾ [النجم: ٣١]، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً كما قال: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾ [ص: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لا تخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾ قال مجاهد: يعني من عندنا، يقول: وما خلقنا جنة ولا ناراً ولا موتاً ولا بعثاً ولا حساباً. وقال الحسن وقتادة وغيرهما: اللهو المرأة بلسان أهل اليمن. وقال إبراهيم النخعي: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لا تخذناه﴾ من الحور العين. وقال عكرمة والسدي: والمراد باللهو ههنا: الولد، وهذا والذي قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً

لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه﴾ [الزمر: ٤]، فنزه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقاً، لا سيما عما يقولون من الإفك والباطل من اتخاذ عيسى أو العزير أو الملائكة سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

وقوله: **﴿إن كنا فاعلين﴾** قال قتادة والسدي وإبراهيم النخعي ومغيرة بن مقسم: أي ما كنا فاعلين. وقال مجاهد: كل شيء في القرآن «إن» فهو إنكار. وقوله: **﴿بل نقذف بالحق على الباطل﴾** أي نبين الحق فيدحض الباطل، ولهذا قال: **﴿فيدمغه فإذا هو زاهق﴾** أي ذاهب مضمحل **﴿ولكم الويل﴾** أي أيها القائلون لله ولد **﴿مما تصفون﴾** أي تقولون وتفترون. ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: **﴿وله من في السموات والأرض ومن عنده﴾** يعني الملائكة **﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾** أي لا يستنكفون عنها، كما قال: **﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون * ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾** [النساء: ١٧٢].

وقوله: **﴿ولا يستحسرون﴾** أي لا يتعبون ولا يملون **﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾** فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً، مطيعون قصداً وعملاً، قادرون عليه، كما قال تعالى: **﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾** [التحريم: ٦]. وقال عبد الله بن الحارث بن نوفل: جلست إلى كعب الأحبار وأنا غلام، فقلت له: أرأيت قول الله تعالى للملائكة: **﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾** أما يشغلهم عن التسبيح الكلام والرسالة والعمل. فقال: فمن هذا الغلام؟ فقالوا من بني عبد المطلب، قال فقبل رأسي ثم قال: يا بني إنه جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس أليس تتكلم وأنت تتنفس وتمشي وأنت تتنفس؟

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال: **﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون﴾** أي أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض، أي لا يقدرون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله نداً وعبدوها معه. ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض، فقال: **﴿لو كان فيهما آلهة﴾** أي في السموات والأرض **﴿لفسدتا﴾** كقوله تعالى: **﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾** [المؤمنون: ٩١]، وقال ههنا: **﴿فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾** أي عما يقولون أن له ولداً أو شريكاً سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علواً كبيراً.

وقوله: **﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾** أي هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وكبريائه وعلوه وحكمته وعدله ولطفه، **﴿وهم يسألون﴾** أي وهو

سـائـل خلقـه عمـا يعملـون كقـولـه: ﴿فوربـك لنسـألنهـم أجمعيـن عمـا كـانـوا يعملـون﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤) وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ (٢٥) ﴾.

يقول تعالى: ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة قل﴾ يا محمد ﴿هاتوا برهانكم﴾ أي دليلكم على ما تقولون ﴿هذا ذكر من معي﴾ يعني القرآن ﴿وذكر من قبلي﴾ يعني الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم معرضون عنه، ولهذا قال: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ كما قال: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ [النحل: ٣٦]، فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ (٢٨) ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ (٢٩) ﴾.

يقول تعالى رداً على من زعم أن له تعالى وتقدس ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله فقال: ﴿سبحانه بل عباد مكرمون﴾ أي الملائكة عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً ﴿لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ أي لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم به، بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾.

وقوله: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ كقوله ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ [البقرة: ٢٥٥]. في آيات كثيرة في معنى ذلك. ﴿وهم من خشيته﴾ أي من خوفه ورهبته ﴿مشفقون * ومن يقل منهم إني إله من دونه﴾ أي من ادعى منهم أنه إله من دون الله أي مع الله ﴿فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾ أي كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾.

يقول تعالى منبهاً على قدرته التامة، وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء، وقهره لجميع المخلوقات، فقال: **﴿أو لم ير الذين كفروا﴾** أي الجاحدون لإلهيته العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يُعبد معه غيره، أو يُشرك به ما سواه، ألم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً أي كان الجميع متصلاً بعضه ببعض متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه. فجعل السموات سبعاً، والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض، ولهذا قال: **﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾** أي وهم يشاهدون المخلوقات تُحْدُث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك كله دليل على وجود الصانع المختار القادر على ما يشاء.

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

سئل ابن عباس: الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: أرايتم السموات والأرض حين كانتا رتقاً هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار. وعن ابن عمر أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما. قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرني بما قال لك، قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله فقال ابن عباس: نعم كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علماً، صدق هكذا كانت. قال ابن عمر: قد كنت أقول ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن علمت أنه قد أوتى في القرآن علماً. وقال عطية العوفي: كانت هذه رتقاً لا تمطر فأمطرت، وكانت هذه رتقاً لا تنبت فأنبتت.

وقال إسماعيل بن أبي خالد: سألت أبا صالح الحنفي عن قوله: **﴿أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾** قال: كانت السماء واحدة ففتق منها سبع سموات، وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين، وهكذا قال مجاهد، وزاد: ولم تكن السماء والأرض متماستين. وقال سعيد بن جبير: بل كانت السماء والأرض ملتزقتين، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض، كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه. وقال الحسن وقتادة: كانتا جميعاً ففصل بينهما بهذا الهواء.

وقوله: **﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾** أي أصل كل الأحياء منه. وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قلت يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء، قال: «كل شيء خلق من ماء» قال: قلت أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة قال: «أفش السلام، وأطعم الطعام، وصل الأحارم، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام» [رواه ابن حبان والحاكم وصححاه]. وقوله: «وجعلنا في الأرض رواسي» أي جبالاً أرسى الأرض بها وقرّرها وثقلها لئلا تميد بالناس، أي تضطرب وتتحرك، فلا يحصل لهم عليها قرار،

ولهذا قال: ﴿أن تميد بهم﴾ أي لئلا تميد بهم. وقوله: ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً﴾ أي ثُغُراً في الجبال يسلكون فيها طريقاً من قطر إلى قطر ومن إقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة ثغرة ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا، ولهذا قال: ﴿لعلهم يهتدون﴾.

وقوله: ﴿وجعلنا السماء سقفاً﴾ أي على الأرض وهي كالقبة عليها، كما قال: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾ [الذاريات:٤٧]، والبناء هو نصب القبة، كما قال رسول الله ﷺ «بني الإسلام على خمس» [متفق عليه] أي خمسة دعائم، وهذا لا يكون إلا في الخيام كما تعهده العرب ﴿محفوظاً﴾ أي عالياً محروساً أن ينال. وقال مجاهد: مرفوعاً. وقوله: ﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ كقوله: ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ [يوسف:١٠٥] أي لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ونهارها من هذه الشمس التي تقطع الفُلْكَ بكماله في يوم وليلة، فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيرها. ثم قال منبهاً على بعض آياته: ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار﴾ أي هذا في ظلامه وسكونه وهذا بضيائه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وعكسه الآخر ﴿والشمس والقمر﴾ هذه لها نور يخصها وفلك بذاته وزمان على حدة وحركة وسير خاص، وهذا بنور آخر وفلك آخر وسير آخر وتقدير آخر ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ [يس:٤٠] أي يدورون. قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل في الفلكة. قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة، ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهن، كما قال تعالى: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم﴾ [الأنعام:٩٦].

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك﴾ أي يا محمد ﴿الخلد﴾ أي في الدنيا بل ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧]. وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات وليس بحي إلى الآن، لأنه بشر سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً. وقد قال تعالى: ﴿وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾. وقوله: ﴿أفإن مت﴾ أي يا محمد ﴿فهم الخالدون﴾ أي يؤملون أن يعيشوا بعدك لا يكون هذا بل كل إلى الفناء، ولهذا قال تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾. وقوله: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ أي نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى، فننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، كما قال ابن عباس: ﴿ونبلوكم﴾ يقول نبتليكم ﴿بالشر والخير فتنة﴾ بالشدة والرخاء،

والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال. وقوله: ﴿**وإلينا ترجعون**﴾ أي فنجازيكم بأعمالكم.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٣٦ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ۝٣٧﴾.

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿**وإذا رآك الذين كفروا**﴾ يعني كفار قريش كأبي جهل وأشباهه ﴿**إن يتخذونك إلا هزواً**﴾ أي يستهزئون بك وينتقصونك، يقولون: ﴿**أهذا الذي يذكر آلهتكم**﴾ يعنون أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم، قال تعالى: ﴿**وهم بذكر الرحمن هم كافرون**﴾ أي وهم كافرون بالله، ومع هذا يستهزئون برسول الله، كما قال في الآية الأخرى: ﴿**وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولاً * إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً**﴾ [الفرقان: ٤١-٤٢].

وقوله: ﴿**خلق الإنسان من عجل**﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿**وكان الإنسان عجولاً**﴾ [الإسراء: ١١] أي في الأمور. قال مجاهد: خلق الله آدم بعد كل شيء من آخر النهار، من يوم خلق الخلائق، فلما أحيا الروح عينيه ولسانه ورأسه، ولم يبلغ أسفله، قال: يا رب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس. وروى ابن أبي حاتم عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط منها، وفيه تقوم الساعة وفيه ساعة لا يوافقها مؤمن يصلي - وقبض أصابعه يقللها - فسأل الله خيراً إلا أعطاه إياه» قال أبو سلمة: فقال عبد الله بن سلام: قد عرفت تلك الساعة، هي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة، وهي التي خلق الله فيها آدم، قال الله تعالى: ﴿**خلق الإنسان من عجل** سأوريكم آياتي فلا تستعجلون﴾. [وأصله في الصحيحين وغيرهما].

والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامة عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك، فقال الله تعالى: ﴿**خلق الإنسان من عجل**﴾ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر، ولهذا قال: ﴿**سأريكم آياتي**﴾ أي نقمي واقتداري على من عصاني ﴿**فلا تستعجلون**﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣٨ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝٣٩ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ۝٤٠﴾.

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم، تكذيباً وكفراً واستبعاداً، فقال: ﴿**ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**﴾ قال الله تعالى: ﴿**لو يعلم الذين**

كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾ أي لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا به. ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم **﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾** [الزمر:١٦]، **﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾** [الأعراف:٤١]، وقال في هذه الآية: **﴿حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾** فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم **﴿ولا هم ينصرون﴾** أي لا ناصر لهم، كما قال: **﴿وما لهم من الله من واق﴾** [الرعد:٣٤]. وقوله: **﴿بل تأتيهم بغتة﴾** أي تأتيهم النار بغتة أي فجأة، **﴿فتبهتهم﴾** أي تذعرهم، فيستسلمون لها حائرين ولا يدرون ما يصنعون، **﴿فلا يستطعون ردها﴾** أي ليس لهم حيلة في ذلك، **﴿ولا هم ينظرون﴾** أي ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة.

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مسلياً لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب **﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾** يعني من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى: **﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله * ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾** [الأنعام:٣٤]. ثم ذكر تعالى نعمته على عبيده في حفظه بالليل والنهار، وكلاءته لهم بعينه التي لا تنام، فقال: **﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن﴾** أي بدل الرحمن بمعني غيره. وقوله تعالى: **﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾** أي لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال: **﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾** استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أي ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا، ولا كما زعموا، ولهذا قال: **﴿لا يستطيعون نصر أنفسهم﴾** أي هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم. وقوله: **﴿ولا هم منا يصحبون﴾** قال ابن عباس: أي يجارون. وقال قتادة: لا يصحبون من الله بخير. وقال غيره: يمنعون.

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال، أنهم مُتّعوا في الحياة الدنيا، ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء. ثم

قال واعظاً لهم: ﴿**أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها**﴾ اختلف المفسرون في معناه، وقد أسلفناه في سورة الرعد وأحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿**ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون**﴾ [الأحقاف:٢٧]. وقال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر. والمعنى أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة، وإنجائه لعباده المؤمنين، ولهذا قال: ﴿**أفهم الغالبون**﴾ يعني بل هم المغلوبون الأرذلون.

وقوله: ﴿**قل إنما أنذركم بالوحي**﴾ أي إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذركم به من العذاب والنكال، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلي، ولكن لا يجدي هذا عمن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه، ولهذا قال: ﴿**ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون**﴾. وقوله: ﴿**ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين**﴾ أي ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله ليعترفن بذنوبهم وأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدنيا. وقوله: ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً**﴾ أي ونضع الموازين العدل ليوم القيامة، الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه.

وقوله: ﴿**فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ كما قال تعالى: ﴿**ولا يظلم ربك أحداً**﴾ [الكهف:٤٩]، وقال: ﴿**إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً**﴾ [النساء:٤٠]. وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يارب. قال: أفلك عذر أو حسنة؟ قال: فيبهت الرجل فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله عبده ورسوله فيقول أحضروه، فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، قال: ولا يثقل شيء مع بسم الله الرحمن الرحيم» ورواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب [وصححه جماعة من أهل العلم].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه

عليهما، وبين كتابيهما، ولهذا قال: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان﴾ قال مجاهد: يعني الكتاب. وقال أبو صالح: التوراة. وقال قتادة: التوراة حلالها وحرامها، وما فرق الله بين الحق والباطل. وقال ابن زيد: يعني النصر. وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية تشتمل على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يُحصِّل نوراً في القلوب، وهداية وخوفاً وإنابة وخشية، ولهذا قال: ﴿الفرقان وضياء وذكراً للمتقين﴾ أي تذكيراً لهم وعظة، ثم وصفهم فقال: ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ كقوله: ﴿من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾ [ق:٣٣]. ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾ أي خائفون وجلون. ثم قال تعالى: ﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه﴾ يعني القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد ﴿أفأنتم له منكرون﴾ أي أفتنكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور؟.

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل، أي من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ [الأنعام:٨٣].

والمقصود ههنا أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده من قبل، أي من قبل ذلك. وقوله: ﴿وكنا به عالمين﴾ أي وكان أهلا لذلك. ثم قال: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيه من صغره الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله عز وجل، فقال: ﴿ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾ أي معتكفون على عبادتها. ﴿قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين﴾ لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضُّلال، ولهذا قال: ﴿لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ أي الكلام مع آبائكم الذي احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم. فلما سفَّه أحلامهم وضلل آباءهم واحتقر آلهتهم ﴿قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين﴾ يقولون: هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعباً أم محقاً فيه، فإنا لم نسمع به قبلك. ﴿قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن﴾ أي ربكم الذي لا إله غيره، وهو الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات الذي ابتدأ خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ أي وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه.

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ

إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم، أي ليحرصن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين، أي إلى عيدهم، وكان لهم عيد يخرجون إليه. قال السدي: لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه: يا بني لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا، فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض، وقال: إني سقيم فجعلوا يمرون عليه وهو صريع فيقولون: مه، فيقول: إني سقيم، فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم قال: **﴿تالله لأكيدن أصنامكم﴾** فسمعه أولئك. وقال عبد الله بن مسعود: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه، فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا ؟ قال: إني سقيم، وقد كان بالأمس، قال: **﴿تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾** فسمعه ناس منهم.

وقوله: **﴿فجعلهم جذاذاً﴾** أي حطاماً كسرها كلها، إلا كبيراً لهم يعني إلا الصنم الكبير عندهم، كما قال: **﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾** [الصافات: ٩٣]. وقوله: **﴿لعلهم إليه يرجعون﴾** ذكروا أنه وضع القدوم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها. **﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين﴾** أي حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على سخافة عقول عابديها **﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين﴾** أي في صنيعه هذا **﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾** أي قال من سمعه يحلف إنه ليكيدنهم: سمعنا فتىً أي شاباً، يذكرهم يقال له إبراهيم. قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا شاباً ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية: **﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾**.

وقوله: **﴿قالوا فأتوا به على أعين الناس﴾** أي على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام أن يتبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام. التي لا تدفع عن نفسها ضراً، ولا تملك لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك ؟ **﴿قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال بل فعله كبيرهم هذا﴾** يعني الذي تركه لم يكسره **﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾** وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون، فإن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن** إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله قوله: **﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾**، وقوله: **﴿إني سقيم﴾** - **قال** - وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة، إذ نزل منزلاً فأتى الجبار رجل فقال: إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك ؟ قال: أختي. قال: فاذهب فأرسل بها إلي، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار قد

سألني عنك، فاخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي، فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها فأخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت له، فأرسل فأهوى إليها، فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد، ففعل ذلك الثالثة، فأخذ فذكر مثل المرتين الأوليين، فقال: ادعي الله فلا أضرك، فدعت له فأرسل، ثم دعا أدنى حجابه فقال: إنك لم تأتني بإنسان، ولكنك أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر. فأخرجت وأعطيت هاجر فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها، انفتل من صلاته، وقال: مَهْيَم؟ قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر وأخدمني هاجر».

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أي بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم، فقالوا: ﴿إنكم أنتم الظالمون﴾ أي في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها، ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾ أي ثم أطرقوا في الأرض فقالوا: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾. قال قتادة: أدركت القوم حيرةُ سوء، فقالوا ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾. وقال السدي: ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾ أي في الفتنة. وقال ابن زيد: أي في الرأي، وقول قتادة أظهر في المعنى، لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً، ولهذا قالوا له: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ فكيف تقول لنا سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم انها لا تنطق، فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك: ﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾ أي إذا كانت لا تنطق وهي لا تنفع ولا تضر، فلم تعبدونها من دون الله ؟ ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾ أي أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل. فأقام عليهم الحجة وألزمهم بها، ولهذا قال تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ [الأنعام:٨٣].

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

لما دَحَضت حجتُهم، وبان عجزُهم، وظهر الحقُ، واندفع الباطلُ، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم، فقالوا: ﴿حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾، فجمعوا حطباً كثيراً جداً، قال السدي: حتى إن كانت المرأة تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم، ثم جعلوه في جوبَة من الأرض وأضرموها ناراً، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل، فلما ألقوه قال: حسبي الله

ونعم الوكيل، كما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال: حسبي الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وقال سعيد بن جبير - ويروى عن ابن عباس أيضاً - قال: لما ألقي إبراهيم، جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله؟ قال: فكان أمر الله أسرع من أمره، قال الله: **﴿يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾** قال: لم يبق نار في الأرض إلا طفئت. وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أحد يومئذ بنار، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه.

وعن علي بن أبي طالب: **﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾** قال: لا تضريه. وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله عز وجل قال: وسلاماً لآذى إبراهيم بَرْدُها، وعن الضحاك قال: صنعوا له حظيرة من حطب جَزْل، وأشعلوا فيه النار من كل جانب، فأصبح ولم يصبه منها شيء حتى أخمدها الله، قال: ويذكرون أن جبريل كان معه يمسح وجهه من العرق، فلم يصبه منها شيء غير ذلك. وقال السدي: كان معه فيها ملك الظل.

وعن أبي هريرة قال: إن أحسن شيء قال أبو إبراهيم لما رفع عنه الطبق وهو في النار: وجده يرشح جبينه، قال عند ذلك: نعم الرب ربك يا إبراهيم. وقال قتادة: لم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار، إلا الوَزَغ. وروى ابن أبي حاتم عن مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي قالت: دخلت على عائشة، فرأيت في بيتها رمحاً. فقلت: يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح؟ فقالت: نقتل به هذه الأوزاغ، إن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حين ألقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفيء النار غير الوزغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم»، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله. [وراوه أحمد والنسائي وصححه الألباني]. وقوله: **﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾** أي المغلوبين الأسفلين، لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً، فكادهم الله ونجاه من النار، فغلبوا هنالك، وقال عطية العوفي: لما ألقي إبراهيم في النار، جاء ملكهم لينظر إليه، فطارت شرارة فوقعت على إبهامه، فأحرقته مثل الصوفة.

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه سلمه الله من نار قومه وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها. كما قال أبي بن كعب في قوله: **﴿إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾** قال: الشام، وكذا قال أبو العالية أيضاً. وقال قتادة: كان بأرض العراق، فأنجيا إلى الشام، وكان يقال للشام عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرض زيد في الشام،

وما نقص من الشام زيد في فلسطين، وكان يقال: هي أرض المحشر والمنشر، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام، وبها يهلك المسيح الدجال.

وقال كعب الأحبار في قوله: ﴿**إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين**﴾ إلى حران. وقال ابن عباس: إلى مكة، ألا تسمع إلى قوله: ﴿**إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين**﴾ [آل عمران:٩٦].

وقوله: ﴿**ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة**﴾ قال عطاء ومجاهد: عطية وقال ابن عباس وقتادة والحكم بن عتيبة: النافلة ولد الولد، يعني أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال: ﴿**فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب**﴾ [هود:٧١]. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: سأل واحداً، فقال: ﴿**رب هب لي من الصالحين**﴾ فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة، ﴿**وكلاً جعلنا صالحين**﴾ أي الجميع أهل خير وصلاح، ﴿**وجعلناهم أئمة**﴾ أي يُقْتدى بهم، ﴿**يهدون بأمرنا**﴾ أي يدعون إلى الله بإذنه، ولهذا قال: ﴿**وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة**﴾ من باب عطف الخاص على العام، ﴿**وكانوا لنا عابدين**﴾ أي فاعلين لما يأمرون الناس به. ثم عطف بذكر لوط، وكان قد آمن بإبراهيم، واتبعه وهاجر معه، كما قال تعالى: ﴿**فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي**﴾ [العنكبوت:٢٦]، فآتاه الله حكماً وعلماً، وأوحى إليه وجعله نبياً وبعثه إلى سَدُوم وأعمالها، فخالفوه وكذبوه، فأهلكهم الله ودمَّر عليهم، كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز، ولهذا قال: ﴿**ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين * وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين**﴾.

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه ﴿**فدعا ربه أني مغلوب فانتصر**﴾ [القمر:١٠]، ﴿**وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً**﴾ [نوح:٢٦ـ٢٧] ولهذا قال ههنا: ﴿**إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله**﴾ أي الذين آمنوا به، كما قال: ﴿**وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل**﴾ [هود:٤٠]. وقوله: ﴿**من الكرب العظيم**﴾ أي من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يقصدون لأذاه ويتواصون قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل على خلافه، وقوله: ﴿**ونصرناه من القوم**﴾ أي ونجيناه وخلصناه منتصراً من القوم ﴿**الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين**﴾ أي أهلكهم الله بعامة، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحداً، كما دعا عليهم نبيهم.

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا

سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

قال ابن عباس: النفش الرعي. وقال شريح والزهري وقتادة: النَّفْش لا يكون إلا بالليل، زاد قتادة: والهَمَلُ بالنهار. وعن ابن مسعود في قوله: ﴿**وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم**﴾ قال: كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته، قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله: قال: وما ذاك ؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿**ففهمناها سليمان**﴾ وكذا روي عن ابن عباس، ونحوه عن مسروق. وهكذا قال شريح ومرة ومجاهد وقتادة وابن زيد وغير واحد.

وقال عامر [الشعبي]: جاء رجلان إلى شريح فقال أحدهما: إن شاة هذا قطعت غزلاً لي، فقال شريح: نهاراً أم ليلاً ؟ فإن كان نهاراً فقد برىء صاحب الشاة، وإن كان ليلاً فقد ضمن، ثم قرأ: ﴿**وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه**﴾ الآية.

وقوله: ﴿**ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً**﴾ روى ابن أبي حاتم أن إياس بن معاوية لما استقضى أتاه الحسن فبكى، فقال: ما يبكيك ؟ قال: يا أبا سعيد بلغني أن القضاة: رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار، ورجل مال به الهوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة. فقال الحسن البصري: إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكما يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿**وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين**﴾ فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود، ثم قال: ـ يعني الحسن ـ: إن الله اتخذ على الحكام ثلاثاً: لا يشترون به ثمناً قليلاً، ولا يتبعون فيه الهوى، ولا يخشون فيه أحداً، ثم تلا: ﴿**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله**﴾ [ص: ٢٦]، وقال: ﴿**فلا تخشوا الناس واخشونِ**﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿**ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً**﴾ [المائدة: ٤٤]. قلت: أما الأنبياء عليهم السلام، فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف، وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخارى عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب، فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ، فله أجر»، فهذا الحديث يرد نصاً ما توهمه إياس من أن القاضى إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار، والله أعلم.

وفي السنن: «القضاة ثلاثة: قاض في الجنة، وقاضيان في النار: رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار» [إسناده صحيح].

وقوله: ﴿**وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين**﴾ وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا تَرنَّم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وتَرد عليه الجبال تأوبياً، ولهذا لما مر النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل وكان له صوت طيب جداً، فوقف واستمع لقراءته، وقال: «لقد أوتي هذا من مزامير آل داود» قال: يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً. [متفق عليه].

وقوله: ﴿**وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم**﴾ يعني صنعة الدروع. قال قتادة: إنما كانت الدروع قَبْلَه صفائح: وهو أول من سردها حِلَقاً، كما قال تعالى: ﴿**وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد**﴾ [سبأ: ١٠-١١] أي لا توسع الحلقة فتقلق المسمار ولا تغلظ المسمار فتقَدّ الحلقة، ولهذا قال: ﴿**لتحصنكم من بأسكم**﴾ يعني في القتال ﴿**فهل أنتم شاكرون**﴾ أي نعم الله عليكم لِما ألهم به عبده داود، فعلمه ذلك من أجلكم. وقوله: ﴿**ولسليمان الريح عاصفة**﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح العاصفة ﴿**تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها**﴾ يعني أرض الشام ﴿**وكنا بكل شيء عالمين**﴾ وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجند ثم يأمر الريح أن تحمله، فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسير به، وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وحشمه، قال الله تعالى: ﴿**فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب**﴾ [ص: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿**غدوها شهر ورواحها شهر**﴾ [سبأ: ١٢].

قال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان سليمان يأمر الريح فتجتمع كالطود العظيم كالجبل، ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها، ثم يدعو بفرس من ذوات الأجنحة فيرتفع حتى يصعد على فراشه، ثم يأمر الريح فترتفع به كل شرف دون السماء، وهو مطأطىء رأسه ما يلتفت يميناً ولا شمالاً، تعظيماً لله عز وجل، وشكراً لما يعلم من صغر ما هو فيه في ملك الله عز وجل، حتى تضعه الريح حيث شاء أن تضعه.

وقوله: ﴿**ومن الشياطين من يغوصون له**﴾ أي في الماء يستخرجون اللآلىء والجواهر وغير ذلك، ﴿**ويعملون عملاً دون ذلك**﴾ أي غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿**والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد**﴾ [ص: ٣٧-٣٨]. وقوله: ﴿**وكنا لهم حافظين**﴾ أي يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل في قبضته وتحت قهره، لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو يحكم فيهم إن شاء أطلق وإن شاء حبس، ولهذا قال: ﴿**وآخرين مقرنين في الأصفاد**﴾.

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام، ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير وأولاد ومنازل مرضية. فابتلي في ذلك كله وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده، يقال: بالجذام في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله عز وجل، حتى عافه الجليس، وأفردَ في ناحية من البلد، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته كانت تقوم بأمره، ويقال: إنها احتاجت، فصارت تخدم الناس من أجله، وقد قال النبي ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل. يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه» [رواه أحمد والترمذي، وقال: حسن صحيح]. وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر. وبه يضرب المثل في ذلك. وقال يزيد بن ميسرة: لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل والمال والولد، ولم يبق شيء له، أحسن الذكر، ثم قال: أحمدك رب الأرباب، الذي أحسنت إليّ، أعطيتني المال والولد فلم يبق من قلبي شعبة إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله مني، وفرغت قلبي، فليس يحول بيني وبينك شيء، ولو يعلم عدوي إبليس بالذي صنعت حسدني. قال: فلقي إبليس من ذلك منكراً. قال: وقال أيوب عليه السلام: يا رب إنك أعطيتني المال والولد، فلم يقم على بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك، وأنه كان يوطأ لي الفراش فأتركها، وأقول لنفسي: يا نفس إنك لم تخلقي لوطء الفراش ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك.

وعن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: كان لأيوب عليه السلام أخوان، فجاءا يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للآخر: لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط، فقال: اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعان وأنا أعلم مكان جائع، فصدقني، فصدق من السماء وهما يسمعان، ثم قال: اللهم إن كنت تعلم أني لم يكن لي قميصان قط، وأنا أعلم مكان عار، فصدقني، فصدق من السماء وهما يسمعان، ثم قال: اللهم بعزتك، ثم خر ساجداً، فقال: اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبداً حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى كشف عنه. [وروى نحوه عن نوف البكالي].

وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى أيوب قد رددت عليك أهلك ومالك، ومثلهم معهم. فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك وقرب عن صحابتك قرباناً، واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك.

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لما عافى الله أيوب أمطر عليه

جراداً من ذهب، فجعل يأخذ منه بيده ويجعله في ثوبه، قال: فقيل له: يا أيوب أما تشبع ؟ قال: يا رب ومن يشبع من رحمتك». أصله في الصحيحين.

وقوله: ﴿وآتيناه أهله ومثلهم معهم﴾ قد تقدم عن ابن عباس أنه قال: ردوا عليه بأعيانهم، وكذا روي مثله عن ابن مسعود ومجاهد، وبه قال الحسن وقتادة.

وقال مجاهد: قيل له: يا أيوب إن أهلك لك في الجنة، فإن شئت أتيناك بهم، وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم ؟ قال: لا بل اتركهم لي في الجنة، فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا. وعن أبي عمران الجوني عن نَوف البِكالي قال: أوتى أجرهم في الآخرة وأعطي مثلهم في الدنيا. قال: فحدثت به مُطَرِّفاً، فقال: ما عرفت وجهها قبل اليوم، وكذا روي عن قتادة والسدي وغير واحد من السلف، والله أعلم. قوله: ﴿رحمة من عندنا﴾ أي فعلنا به ذلك رحمة من الله به ﴿وذكرى للعابدين﴾ أي وجعلناه في ذلك قدوة لئلا يظن أهل البلاء أنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

وأما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وقد تقدم ذكره في سورة مريم، وكذا إدريس عليه السلام، وأما ذو الكفل، فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي. وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلاً، وتوقف ابن جرير في ذلك، فالله أعلم. وقال مجاهد: رجل صالح غير نبي، تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فَسُمي ذا الكفل.

قال ابن عباس: كان قاض في بني إسرائيل فحضره الموت فقال: من يقوم مقامي على أن لا يغضب ؟ قال: فقال رجل: أنا، فسمي ذا الكفل. وعن مجاهد نحوه.

وهكذا روي عن عبد الله بن الحارث ومحمد بن قيس وابي حجيرة الأكبر وغيرهم من السلف نحوه.

وعن أبي موسى الأشعري قال: ما كان ذو الكفل بنبي ولكن كان في بني إسرائيل رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة، فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلي كل يوم مائة صلاة، فسمي ذا الكفل.

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

هذه القصة مذكورة هنا وفي سورة الصافات وفي سورة «ن»، وذلك أن يونس بن متى عليه السلام، بعثه الله إلى أهل قرية نينوى، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله تعالى،

فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، فلما تحققوا منه ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل وجأروا إليه، ورغت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحُمْلانها، فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿**فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها، إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين**﴾ [يونس:٩٨].

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فَلَجَّجت بهم، وخافوا أن يغرقوا. فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضاً فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿**فساهم فكان من المدحضين**﴾ [الصافات:١٤١] أي وقعت عليه القرعة فقام يونس عليه السلام ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله سبحانه حوتاً يشق البحار حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظماً، فإن يونس ليس لك رزقاً وإنما بطنك تكون له سجناً.

وقوله: ﴿**وذا النون**﴾ يعني الحوت صحت الإضافة إليه بهذه النسبة. وقوله: ﴿**إذ ذهب مغاضباً**﴾ قال الضحاك لقومه: ﴿**فظن أن لن نقدر عليه**﴾ أي نضيق عليه في بطن الحوت، يروى نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم، واختاره ابن جرير واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿**ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها * سيجعل الله بعد عسر يسرا**﴾ [الطلاق:٧]. وقال عطية العوفي: ﴿**فظن أن لن نقدر عليه**﴾، أي نقضي عليه، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير، فإن العرب تقول: قدر وقدّر بمعنى واحد. ومنه قوله تعالى: ﴿**فالتقى الماء على أمر قد قدر**﴾ أي قُدّر. ﴿**فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك**﴾ قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل، وكذا روي عن ابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والضحاك والحسن وقتادة. وقال سالم بن أبي الجعد: ظلمة حوت في بطن حوت آخر في ظلمة البحر، قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما: وذلك أنه ذهب به الحوت في البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر، فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره، فعند ذلك وهنالك قال: ﴿**لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**﴾.

وقوله: ﴿**فاستجبنا له ونجيناه من الغم**﴾ أي أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات ﴿**وكذلك ننجي المؤمنين**﴾ أي إذا كانوا في الشدائد ودَعَونا منيبين إلينا ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء، فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء. روى الإمام أحمد عن سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه قال: مررت بعثمان بن عفان رضي الله عنه في المسجد،

فسلمت عليه، فملأ عينيه مني ثم لم يردد عليّ السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين هل حدث في الإسلام شيء، مرتين قال: لا وما ذاك؟ قلت لا، إلا أني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يرد علي السلام، قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلت، قال سعد: قلت بلى حتى حلف وحلفت، قال: ثم إن عثمان ذكر فقال بلى وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفاً وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ، لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة، قال سعد: فأنا أنبئك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إلي رسول الله ﷺ فقال: «من هذا، أبو إسحاق؟» قال: قلت نعم يا رسول الله، قال: «فمه» قلت: لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك، قال: «نعم دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت ﴿**لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له» ورواه الترمذي والنسائي في اليوم والليلة [ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن عبده زكريا حين طلب أن يهبه الله ولداً يكون من بعده نبياً، وقد تقدمت القصة مبسوطة في أول سورة مريم وفي سورة آل عمران أيضاً، وههنا أخصر منهما ﴿**إذ نادى ربه**﴾ أي خفية عن قومه ﴿**رب لا تذرني فرداً**﴾ أي لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس ﴿**وأنت خير الوارثين**﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة. قال الله تعالى: ﴿**فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه**﴾ أي امرأته، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: كانت عاقراً لا تلد فولدت. وقال عطاء: كان في لسانها طول، فأصلحها الله. وفي رواية: كان في خلقها شيء فأصلحها الله. وهكذا قال محمد بن كعب والسدي، والأظهر من السياق الأول.

وقوله: ﴿**إنهم كانوا يسارعون في الخيرات**﴾ أي في عمل القربات وفعل الطاعات ﴿**ويدعوننا رغباً ورهبا**﴾ قال الثوري: رغباً فيما عندنا ورهبا مما عندنا ﴿**وكانوا لنا خاشعين**﴾ قال ابن عباس: أي مصدقين بما أنزل الله، وقال مجاهد: مؤمنين حقاً. وقال أبو العالية: خائفين. وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً. وعن مجاهد أيضاً: متواضعين. وقال الحسن وقتادة والضحاك: متذللين لله عز وجل، وكل هذه الأقوال متقاربة. وعن عبد الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر رضي الله عنه. فقال: أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله، وتُثْنوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة،

فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿**إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين**﴾.

﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

هكذا قَرَن تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام، بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، فيذكر أولاً قصة زكريا ثم يتبعها بقصة مريم، لأن تلك موطئة لهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر، هكذا وقع في سورة آل عمران وفي سورة مريم، وههنا ذكر قصة زكريا ثم أتبعها بقصة مريم بقوله: ﴿**والتي أحصنت فرجها**﴾ يعني مريم عليها السلام، كما قال في سورة التحريم: ﴿**ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا**﴾ [التحريم: ١٢].

وقوله: ﴿**وجعلناها وابنها آية للعالمين**﴾ أي دلالة على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿**إن هذه أمتكم أمة واحدة**﴾ يقول: دينكم دين واحد. وقال الحسن البصري في هذه الآية يبين لهم ما يتقون وما يأتون، ثم قال: ﴿**إن هذه أمتكم أمة واحدة**﴾ أي سنتكم سنة واحدة. فقوله: إن هذه: إن واسمها، وأمتكم خبر إن، أي هذه شريعتكم التي بينت لكم ووضحت لكم. وقوله أمة واحدة نصب على الحال، ولهذا قال: ﴿**وأنا ربكم فاعبدون**﴾ كما قال: ﴿**يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليهم. وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون**﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٢]، وقال رسول الله ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلاَّت دينا واحد» [متفق عليه]، يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله، كما قال تعالى: ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا**﴾ [المائدة: ٤٨].

وقوله: ﴿**وتقطعوا أمرهم بينهم**﴾ أي اختلفت الأمم على رسلها فمن بين مصدق لهم ومكذب، ولهذا قال: ﴿**كل إلينا راجعون**﴾ أي يوم القيامة، فيجازي كل بحسب عمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولهذا قال: ﴿**فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن**﴾ أي قلبه مصدق وعمل صالحاً ﴿**فلا كفران لسعيه**﴾ كقوله: ﴿**إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً**﴾ [الكهف: ٣٠] أي لا يُكْفَر سعيه، وهو عمله بل يُشكر فلا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿**وإنا له كاتبون**﴾ أي يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه منه شيء.

﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ

حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**وحرام على قرية**﴾ قال ابن عباس: وجب، يعني قدراً مُقدراً أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة، هكذا صرح به ابن عباس وأبو جعفر الباقر وقتادة وغير واحد. وفي رواية عن ابن عباس: لا يتوبون، والقول الأول أظهر، والله أعلم. وقوله: ﴿**حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج**﴾ قد قدمنا أنهم من سلالة آدم عليه السلام، بل هم من نسل نوح أيضاً من أولاد يافث، أي أبي الترك، والترك شرذمة منهم تُركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين. وقال: ﴿**هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً * وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً**﴾ [الكهف:٩٨-٩٩]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿**حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون**﴾ أي يسرعون في المشي إلى الفساد، والحَدَب: هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس وعكرمة وأبو صالح والثوري وغيرهم، وهذه صفتهم في حال خروجهم، كأن السامع مشاهد لذلك ﴿**ولا ينبئك مثل خبير**﴾ [فاطر:١٤] هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذي يعلم غيب السموات والأرض لا إله إلا هو.

رأى ابن عباس صبياناً ينزو بعضهم على بعض يلعبون، فقال ابن عباس: هكذا يخرج يأجوج ومأجوج. **وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية.**

منها ما رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُفتَح يأجوج ومأجوج، فيخرجون على الناس، كما قال الله عز وجل: ﴿**وهم من كل حدب ينسلون**﴾ فيغشون الناس وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبساً، حتى أن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان ههنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد في حصن أو مدينة، قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقي أهل السماء، قال: ثم يهز أحدهم حربته، ثم يرمي بها إلى السماء فترجع إليه مخضبة دماً للبلاء والفتنة. فبينما هم على ذلك بعث الله عز وجل دوداً في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقه، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس، فيقول المسلمون: ألا رجل يَشْري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو؟ قال: فيتجرد رجل منهم محتسباً نفسه قد أوطنها على أنه مقتول فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض، فينادي: يا معشر المسلمين ألا أبشروا إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويُسَرِّحون مواشيهم، فما يكون لها رعي إلا لحومهم، فَتَشْكر عنهم كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط»، ورواه ابن ماجه [وقال البوصيري إسناده صحيح].

وروى الإمام أحمد أيضاً عن النواس بن سمعان الكلابي قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك في وجوهنا فسألناه فقلنا يارسول الله: ذكرت الدجال الغداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم. فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فكل امرىء حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، وإنه شاب جعد قطط عينه طافية، وإنه يخرج خلة بين الشام والعراق فعاث يميناً وشمالاً يا عباد الله اثبتوا ـ قلنا: يا رسول الله ما لبثه في الأرض؟ ـ قال: أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، يوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم» قلنا: يا رسول الله فذاك اليوم الذي هو كسنة، أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: «لاقدروا له قدره» قلنا: يا رسول الله فما إسراعه في الأرض؟ قال كالغيث استدبرته الريح، قال: فيمر بالحي فيدعوهم فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذرى، أمده خواصر، وأسبغه ضروعاً، ويمر بالحي فيدعوهم فيردون عليه قوله، فتتبعه أموالهم فيصبحون ممحلين ليس لهم من أموالهم شيء، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ـ قال ـ ويأمر برجل فيقتل، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل إليه، يتهلل وجهه فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً يديه على أجنحة ملكين، فيتبعه فيدركه فيقتله عند باب لد الشرقي ـ قال ـ فبينما هم كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم عليه السلام أني قد أخرجت عباداً من عبادي لا يدان لك بقتالهم، فحوز عبادي إلى الطور، فيبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج، كما قال تعالى: ﴿**وهم من كل حدب ينسلون**﴾ فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل عليهم نغفاً في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، فيهبط عيسى وأصحابه فلا يجدون في الأرض بيتاً إلا قد ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله»، قال ابن جابر: فحدثني عطاء بن يزيد السكسكي عن كعب أو غيره قال: فتطرحهم بالمَهْبِل، قال ابن جابر: فقلت يا أبا يزيد، وأين المهبل؟ قال: مطلع الشمس. قال: «ويرسل الله مطراً لا يَكُنّ منه بيت مَدَر ولا وَبَر أربعين يوماً، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة، ويقال للأرض: أنبتي ثمرتك ودري بركتك، قال: فيومئذ يأكل النفر من الرمانة ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرِّسْل حتى إن اللِّقْحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر تكفي الفخذ، والشاة من الغنم تكفي أهل البيت، قال: فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل ريحاً طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم ـ أو قال: كل مؤمن ـ ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة»، انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري.

والأحاديث في هذا كثيرة جداً والآثار عن السلف كذلك.

وقوله: ﴿**واقترب الوعد الحق**﴾ يعني يوم القيامة إذا وجدت هذه الأهوال والزلازل، أزفت الساعة واقتربت فإذا كانت ووقعت، قال الكافرون: هذا يوم عسر، ولهذا قال تعالى: ﴿**فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا**﴾ أي من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام ﴿**يا ويلنا**﴾ أي يقولون يا ويلنا ﴿**قد كنا في غفلة من هذا**﴾ أي في الدنيا ﴿**بل كنا ظالمين**﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك.

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش ومن دان بدينهم من عبدة الأوثان: ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم**﴾ قال ابن عباس: أي وقودها يعني كقوله: ﴿**وقودها الناس والحجارة**﴾ [التحريم:٦]. وقال ابن عباس أيضاً: شجر جهنم، وفي رواية قال: حطب جهنم بالزنجية. وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: حطبها، وقال الضحاك: ما يرمى به فيها، وكذا قال غيره، والجميع قريب. وقوله: ﴿**أنتم لها واردون**﴾ أي داخلون ﴿**لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها**﴾ يعني لو كانت هذه الأصنام التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار، ولما دخلوها ﴿**وكل فيها خالدون**﴾ أي العابدون ومعبوداتهم كلهم فيها خالدون ﴿**لهم فيها زفير**﴾ كما قال تعالى: ﴿**لهم فيها زفير وشهيق**﴾ [هود:١٠٦]، والزفير خروج أنفاسهم، والشهيق ولوج أنفاسهم ﴿**وهم فيها لا يسمعون**﴾.

وقوله: ﴿**إن الذين سبقت لهم منا الحسنى**﴾ قال عكرمة: الرحمة. وقال غيره: السعادة ﴿**أولئك عنها مبعدون**﴾ لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسله، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**﴾ [يونس:٢٦]، وقال: ﴿**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان**﴾ [الرحمن:٦٠]، فكما أحسنوا العمل في الدنيا أحسن الله مآبهم وثوابهم، فنجاهم من العذاب وحصل لهم جزيل الثواب، فقال: ﴿**أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها**﴾ أي حريقها في الأجساد.

قال ابن عباس في قوله: ﴿**إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون**﴾ فأولئك أولياء الله يمرون على الصراط مراً هو أسرع من البرق، ويبقى الكفار فيها جثياً، فهذا مطابق لما ذكرناه، وقال آخرون: بل نزلت استثناء من المعبودين، وخرج منهم عزير والمسيح، وقال ابن عباس: نزلت في عيسى ابنُ مريم وعزير عليهما السلام، وكذا قال عكرمة، والحسن،

وابن جريج، ومجاهد. وقال الضحاك: عيسى، ومريم، والملائكة، والشمس، والقمر، وكذا روي عن سعيد بن جبير وأبي صالح وغير واحد.

عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون**﴾ قال المشركون: فالملائكة وعزير وعيسى يعبدون من دون الله فنزلت: ﴿**لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها**﴾ الآلهة التي يعبدون ﴿**وكل فيها خالدون**﴾.

وقوله: ﴿**لا يحزنهم الفزع الأكبر**﴾ قيل: المراد بذلك الموت، رواه عبد الرزاق عن عطاء. وقيل: المراد النفخة في الصور، قاله ابن عباس وأبو سنان سعيد بن سنان الشيباني، واختاره ابن جرير في تفسيره، وقيل: حين يؤمر بالعبد إلى النار، قاله الحسن البصري، وقيل: حين تطبق النار على أهلها، قاله سعيد بن جبير وابن جريج، وقيل: حين يذبح الموت بين الجنة والنار، قاله أبو بكر الهذلي. وقوله: ﴿**وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون**﴾ يعني تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم ﴿**هذا يومكم الذي كنتم توعدون**﴾ أي قابلوا ما يسركم.

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة ﴿**يوم نطوي السماء كطي السجل**﴾ كما قال تعالى: ﴿**وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾ [الزمر:٦٧] وقد روى البخاري عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السموات بيمينه». وقوله: ﴿**كطي السجل للكتب**﴾ قيل: المراد بالسجل الكتاب، وقيل المراد بالسجل ههنا ملك من الملائكة، قال ابن عمر في قوله تعالى: ﴿**يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب**﴾ السجل: ملك، فإذا صعد بالاستغفار قال: اكتبها نوراً، وروي عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين أن السجل ملك، وقال السدي في هذه الآية: السجل: مَلَك موكل بالصحف، فإذا مات الإنسان رفع كتابه إلى السجل، فطواه ورفعه إلى يوم القيامة.

والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب، أي على الكتاب بمعنى المكتوب، كقوله: ﴿**فلما أسلما وتله للجبين**﴾ أي على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم. وقوله: ﴿**كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين**﴾ يعني هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً كما بدأهم هو القادر على إعادتهم. وذلك واجب الوقوع لأنه من جملة وعد الله الذي لا يُخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك، ولهذا قال: ﴿**إنا كنا فاعلين**﴾. وروى الإمام أحمد عن

ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة: فقال: «إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراةً غرلاً، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا، إنا كنا فاعلين» وذكر تمام الحديث، أخرجاه في الصحيحين. وعن ابن عباس في قوله: ﴿**كما بدأنا أول خلق نعيده**﴾ قال: نُهلك كل شيء كما كان أول مرة.

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿**إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين**﴾ [الأعراف:١٢٨]. وقال: ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً**﴾ [النور:٥٥]. وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لامحالة، ولهذا قال تعالى: ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر**﴾. قال الأعمش: سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى: ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر**﴾ فقال الزبور: التوراة والإنجيل، والقرآن وقال مجاهد: الزبور الكتاب، وقال ابن عباس والشعبي والحسن وقتادة وغير واحد: الزبور الذي أنزل على داود، والذكر التوراة. وعن ابن عباس: الزبور القرآن، وقال سعيد بن جبير: الذكر الذي في السماء. وقال مجاهد: الزبور الكتُب بعد الذكر والذكر أمّ الكتاب عند الله، واختار ذلك ابن جرير رحمه الله، وكذا قال زيد بن أسلم: هو الكتاب الأول. وقال الثوري: هو اللوح المحفوظ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الزبور الكتب التي نزّلت على الأنبياء، والذكر أمّ الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك، وقال ابن عباس، : أخبر الله سبحانه وتعالى في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يُورثَ أمة محمد ﷺ الأرض، ويدخلهم الجنة وهم الصالحون. وقال ابن عباس أيضا: ﴿**أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾ قال: أرض الجنة، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والشعبي وقتادة والسدي [وغيرهم]، وقال أبو الدرداء: نحن الصالحون. وقال السدي: هم المؤمنون. وقوله: ﴿**إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين**﴾ أي إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً: لمنفعة وكفايةً لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان، وشهوات أنفسهم.

وقوله: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ يخبر تعالى أن الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين أي أرسله رحمة لهم كلهم فمن قبِل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سَعِد في الدنيا والآخرة، ومن ردها وجحدها خسر في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿**ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار**﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩]،

وقال تعالى في صفة القرآن: ﴿**قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد**﴾ [فصلت:٤٤] وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قيل يارسول الله ادع على المشركين. قال «إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة».

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن أبي قرة الكندي قال: كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ، فجاء حذيفة إلى سلمان، فقال سلمان: يا حذيفة إن رسول الله ﷺ كان يغضب فيقول ويرضى فيقول لقد علمت أن رسول الله ﷺ خطب فقال: «أيما رجل من أمتي سببته في غضبي أو لعنته لعنة، فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما تغضبون، إنما بعثني الله رحمة للعالمين فأجعلها صلاة عليه يوم القيامة». ورواه أبو داود، وله شاهد عند مسلم. فإن قيل: فأي رحمة حصلت لمن كفر به؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿**وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ قال: من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله صلواته وسلامه عليه أن يقول للمشركين ﴿**إنما يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون**﴾ أي متبعون على ذلك منقادون له. ﴿**فإن تولوا**﴾ أي تركوا ما دعوتهم إليه ﴿**فقل آذنتكم على سواء**﴾ أي أعلمتكم أني حَرْب لكم، كما أنكم حرب لي، بريء منكم كما أنتم بُرآء مني، كقوله: ﴿**وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء**﴾ [الأنفال:٥٨] أي ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء، وهكذا ههنا ﴿**فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء**﴾ أي أعلمتكم ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك.

وقوله: ﴿**وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون**﴾ أي هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده، ﴿**إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون**﴾ اي إن الله يعلم الغيب جميعه ويعلم ما يُظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في أجهارهم وأسرارهم، وسيجزيهم على ذلك القليل والجليل. وقوله: ﴿**وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين**﴾ أي وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين. قال ابن جرير: لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع إلى أجل مسمى. وحكاه عون عن ابن عباس، والله أعلم. ﴿**قال رب احكم بالحق**﴾ أي افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق. قال قتادة: كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون: ﴿**ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين**﴾ [الأعراف:٨٩]، وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك. وقوله: ﴿**وربنا الرحمن المستعان على**

ما تصفون﴾ أي على ما يقولون ويفترون من الكذب ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم في ذلك.

تفسير سورة الحج وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

يقول تعالى آمراً عباده بتقواه ومخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها. وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة: هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة، أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم؟ كما قال تعالى: **﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها﴾** [الزلزلة: ١-٢].

فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة. وقال علقمة: قبل الساعة، وروي عن الشعبي وإبراهيم وعبيد بن عمير نحو ذلك.

وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال كائن يوم القيامة في العرصات، بعد القيام من القبور، واختار ذلك ابن جرير، واحتجوا بأحاديث:

منها ما رواه الإمام أحمد عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال وهو في بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السير رفع بهاتين الآيتين صوته: **﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾** فلما سمع أصحابه بذلك حَثْوا المُطي، وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما دنوا حوله قال: «أتدرون أي يوم ذاك، ذاك يوم ينادى آدم عليه السلام فيناديه ربه عز وجل، فيقول: يا آدم ابعث بعثك إلى النار، فيقول: يا رب وما بعث النار؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار وواحد في الجنة» قال: فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: «أبشروا واعملوا، فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بني آدم وبني إبليس» قال: فسُرّي عنهم، ثم قال: «اعملوا وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو الرقمة في ذراع الدابة» وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننيهما، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وبما رواه البخاري عند تفسير هذه الآية [وكذا مسلم] عن أبي سعيد قال: قال النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى يوم القيامة**: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف

ـ أراه قال ـ تسعمائة وتسعة وتسعون، فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد **﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾** فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم. قال النبي ﷺ «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد، أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة» فكبرنا، ثم قال: «ثلث أهل الجنة» فكبرنا، ثم قال: « شطر أهل الجنة» فكبرنا.

والأحاديث في أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جداً لها موضع آخر، ولهذا قال تعالى: **﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾** أي أمر عظيم، وخطب جليل، وطارق مفظع، وحادث هائل، وكائن عجيب، والزلزال: هو ما يحصل للنفوس من الرعب والفزع، كما قال تعالى: **﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾** [الأحزاب: ١١]. ثم قال تعالى: **﴿يوم ترونها﴾** هذا من باب ضمير الشأن، ولهذا قال مفسراً له: **﴿تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾** أي تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها، والتي هي أشفق الناس عليه تُدْهَش عنه في حال إرضاعها له، ولهذا قال: **﴿كل مرضعة﴾** ولم يقل مرضع، وقال: **﴿عما أرضعت﴾** أي عن رضيعها قبل فطامه. وقوله: **﴿وتضع كل ذات حمل حملها﴾** أي قبل تمامه لشدة الهول **﴿وترى الناس سكارى﴾** وقرىء «سَكْرَى» أي من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حسب أنهم سُكارى، **﴿وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾**.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾.

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضاً عما أنزل الله على أنبيائه متبعاً في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد من الإنس والجن، وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، ولهذا قال في شأنهم وأشباههم **﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾** أي علم صحيح **﴿ويتبع كل شيطان مريد، كتب عليه﴾** قال مجاهد: يعني الشيطان، يعني كتب عليه كتابة قدرية **﴿أنه من تولاه﴾** أي اتبعه وقلده **﴿فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾** أي يضله في الدنيا، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المؤلم المزعج المقلق، وعن أبي مالك: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث، وكذلك قال ابن جريج.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى

ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾.

لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد بما يشاهد من بدئه للخلق فقال: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب﴾ أي في شك ﴿من البعث﴾ وهو المعاد، وقيام الأرواح والأجساد، يوم القيامة ﴿فإنا خلقناكم من تراب﴾ أي أصل بَرْئه لكم من تراب، وهو الذي خلق منه آدم عليه السلام ﴿ثم من نطفة﴾ أي ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ﴿ثم من علقة ثم من مضغة﴾ وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة، مكثت أربعين يوماً كذلك يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يوماً، ثم تستحيل فتصير مضغة قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن وفخذان ورجلان وسائر الأعضاء. فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة﴾ أي كما تشاهدونها ﴿لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾ أي وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مخلقة وغير مخلقة﴾ قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق. فإذا مضى عليها أربعون يوماً وهي مضغة، أرسل الله تعالى ملكاً إليها فنفخ فيها الروح وسواها كما يشاء الله عز وجل من حسن وقبح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقي أو سعيد. كما ثبت في الصحيحين من حديث الأعمش عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن خلق أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه وعمله وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح».

وقوله: ﴿ثم نخرجكم طفلا﴾ أي ضعيفا في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله، ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئاً، ويلطف به ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار، ولهذا قال: ﴿ثم لتبلغوا أشدكم﴾ أي تتكامل القُوى، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر. ﴿ومنكم من يتوفى﴾ أي في حال شبابه وقواه، ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ وهو الشيخوخة والهَرَم وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الخَرَف وضعف الفكر، ولهذا قال: ﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾ كما قال تعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ [الروم: ٥٤].

وقوله: ﴿وترى الأرض هامدة﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الأرض الميتة الهامدة، وهي القحلَة التي لا ينبت فيها شيئا. وقال قتادة: غبراء متهشمة.

وقال السدي: ميتة، ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ أي فإذا أنزل الله عليها المطر، اهتزت اي تحركت بالنبات، وحييَت بعد موتها، وربت أي ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومه وروائحها وأشكالها ومنافعها، ولهذا قال تعالى: ﴿وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ أي حسن المنظر طيب الريح.

وقوله: ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾ أي الخالق المدبر الفعال لما يشاء ﴿وأنه يحيي الموتى﴾ أي كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع ﴿إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾ [فصلت:٣٩]. ﴿وأن الساعة آتية لا ريب فيها﴾ أي كائنة لا شك فيها ولا مرية، ﴿وأن الله يبعث من في القبور﴾ أي يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رمماً، ويوجدهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾ [يس:٧٨-٨٠] والآيات في هذا كثيرة.

روى الإمام أحمد وأبوداود وابن ماجه عن أبي رزين العقيلي قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى؟ قال: «أمررت بأرض من أرضك مُجْدبةً، ثم مررت بها مخصبة؟» قال: نعم. قال: «كذلك النشور». [وصححه ابن القيم في الزاد].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنۡيَا خِزۡىٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ۝١٠ ﴾.

لما ذكر تعالى حال الضُّلال الجُهال المقلدين في قوله: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾، ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع، فقال: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ أي بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوى. وقوله: ﴿ثاني عطفه﴾ قال ابن عباس وغيره: مستكبراً عن الحق إذا دعي إليه، وقال مجاهد وقتادة وزيد بن أسلم: لاوي عنقه وهي رقبته، يعني يُعْرِضُ عما يُدْعَى إليه من الحق استكباراً، كقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً﴾ [النساء:٦١]، وقال لقمان لابنه: ﴿ولا تصعر خدك للناس﴾ [لقمان:١٨] أي تميله عنهم استكباراً عليهم.

وقوله: ﴿ليضل عن سبيل الله﴾ قال بعضهم: هذه لام العاقبة، لأنه قد لا يقصد ذلك، ويحتمل أن تكون لام التعليل. ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الذي يجعله ممن يضل عن سبيل الله. ثم قال تعالى: ﴿له في الدنيا خزي﴾ وهو الإهانة والذل، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لَقَّاه الله المذلة في الدنيا وعاقبه فيها قبل الآخرة، لأنها أكبر هَمّه ومبلغ علمه ﴿ونذيقه يوم القيامة عذاب

الحريق * ذلك بما قدمت يداك﴾ أي يقال له هذا تقريعاً وتوبيخاً **﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾**، وعن الحسن قال: بلغني أن أحدهم يحرق في اليوم سبعين ألف مرة.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾.

قال مجاهد وقتادة وغيرهما: **﴿على حرف﴾** على شك، وقال غيرهم: على طرف، ومنه حرف الجبل أي طرفه، أي دخل في الدين على طرف فإن وجد ما يحبه استقر وإلا انشمر. وروى البخاري عن ابن عباس قال: **﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾** قال: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ونُتِجَت خيلُه قال: هذا دين صالح. وإن لم تلد امرأته ولم تُنتَج خيله قال: هذا دين سوء. وعن ابن عباس أيضا: كان أحدهم إذا قدم المدينة وهي أرض وبيئة، فإن صح بها جسمه ونتجت فرسه مهراً حسناً وولدت امرأته غلاماً رضي به، واطمأن إليه، وقال: ما أصبت منذ كنت على ديني هذا إلا خيراً، وإن أصابته فتنة، والفتنة البلاء، أي وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شراً، وذلك الفتنة. وهكذا ذكر قتادة والضحاك وابن جريج وغير واحد من السلف في تفسير هذه الآية. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه، فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر. وقال مجاهد في قوله: **﴿انقلب على وجهه﴾** أي ارتد كافراً.

وقوله: **﴿خسر الدنيا والآخرة﴾** أي فلا هو حصل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة، ولهذا قال تعالى: **﴿ذلك هو الخسران المبين﴾** أي هذه هي الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة. وقوله: **﴿يدعو من دون الله ما لا يضره وما لاينفعه﴾** أي من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها، وهي لا تنفعه ولا تضره **﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾**. وقوله: **﴿يدعو لمن ضره أقرب من نفعه﴾** أي ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن. وقوله: **﴿لبئس المولى ولبئس العشير﴾** قال مجاهد: يعني الوثن، يعني بئس هذا الذي دعاه من دون الله مولى، يعني ولياً وناصراً، **﴿ولبئس العشير﴾** وهو المخالط والمعاشر، واختار ابن جرير أن المراد لبئس ابن العم والصاحب من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه وقول مجاهد إن المراد به الوثن أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾.

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم،

وصدّقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، وتركوا المنكرات، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات في روضات الجنات، ولما ذكر تعالى أنه أضل أولئك وهدى هؤلاء قال: ﴿إن الله يفعل ما يريد﴾.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة، فليمدد بسبب أي بحبل ﴿إلى السماء﴾ أي سماء بيته ﴿ثم ليقطع﴾ يقول ثم ليختنق به، وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وأبو الجوزاء وقتادة وغيرهم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فليمدد بسبب إلى السماء﴾ أي ليتوصل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتي محمداً من السماء ﴿ثم ليقطع﴾ ذلك عنه إن قدر على ذلك، وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى وأبلغ في التهكم، فإن المعنى من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدّار﴾ [غافر:٥١-٥٢]، ولهذا قال: ﴿فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ﴾. قال السدي: يعني من شأن محمد ﷺ. وقال عطاء الخراساني: فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ. وقوله: ﴿وكذلك أنزلناه﴾ أي القرآن ﴿آيات بينات﴾ أي واضحات في لفظها ومعناها، وحجة من الله على الناس، ﴿وأن الله يهدي من يريد﴾ أي يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة والحجة القاطعة في ذلك ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ [الأنبياء:٢٣]، أما هو فلحكمته ورحمته وعدله وعلمه وقهره لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين، والنصارى والمجوس والذين أشركوا فعبدوا مع الله غيره، فإنه تعالى يفصل بينهم يوم القيامة، ويحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم وما تُكِن ضمائرهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾.

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كُلُّ شيء طوعاً وكرهاً، وسجود كل شيء مما يختص به، كما قال تعالى: ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون﴾ [النحل:٤٨]. وقال ههنا: ﴿ألم تر أن الله

يسجد له من في السموات ومن في الأرض﴾ أي من الملائكة في أقطار السموات، والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجن والدواب والطير ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقوله: ﴿والشمس والقمر والنجوم﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص، لأنها قد عبدت من دون الله فبين أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾ [فصلت: ٣٧]. وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أتدري أين تذهب هذه الشمس ؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت». وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع لله ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه، وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمائل.

وقوله: ﴿والدواب﴾ أي الحيوانات كلها، وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ، نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر. فرب مركوبة خير وأكثر ذكراً لله تعالى من راكبها. [ورواه أبوداود وصححه أحمد شاكر]. وقوله: ﴿وكثير من الناس﴾ أي يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك ﴿وكثير حق عليه العذاب﴾ أي ممن امتنع وأبى واستكبر ﴿ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء﴾. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار» رواه مسلم. وروى أبو داود وابن ماجه عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ، أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في المفصل وفي سورة الحج سجدتان، [وله] شواهد يشد بعضها بعضاً.

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ثبت في الصحيحين عن أبي ذر: أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر، وروى البخاري عن علي بن أبي طالب قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة.

وقال قتادة في قوله: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ قال: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: كتابنا يقضي على الكتب كلها ونبينا خاتم الأنبياء، فنحن أولى بالله منكم.

فأفلج الله الإسلام على من ناوأه، وأنزل ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ وكذا روي عن ابن عباس. وقال قتادة أيضا: مُصدق ومكذب. وقال مجاهد وعطاء في هذه الآية: هم المؤمنون والكافرون.

وقال عكرمة: هي الجنة والنار، قالت النار: اجعلني للعقوبة، وقالت الجنة: اجعلني للرحمة. وقول مجاهد وعطاء: إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون يشمل الأقوال كلها، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله عز وجل، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل، وهذا اختيار ابن جرير، وهو حَسَن، ولهذا قال: ﴿فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار﴾ أي فصلت لهم مقطعات من نار. قال سعيد بن جبير: من نحاس، وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي. ﴿يصب من فوق رؤوسهم الحميم * يصهر به ما في بطونهم والجلود﴾ أي إذا صب على رؤوسهم الحميم وهو الماء الحار في غاية الحرارة. وقال سعيد بن جبير: هو النحاس المذاب، أذاب ما في بطونهم من الشحم والأمعاء، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم، وكذلك تذوب جلودهم، وقال ابن عباس وسعيد: تساقط.

وروى ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفُذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان» ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح، [وفي إسناده دراج أبو السمح]. وقال عبد الله بن السري: يأتيه الملك يحمل الإناء بِكَلْبتين من حرارته، فإذا أدناه من وجهه تكرَّهه، قال: فيرفع مِقْمَعَة معه فيضرب بها رأسه، فَيُفرغ دماغه، ثم يفرغ الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه من دماغه، فذلك قوله: ﴿يصهر به ما في بطونهم والجلود﴾.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿ولهم مقامع من حديد﴾ قال: يضربون بها، فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور.

وقوله: ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها﴾ قال سلمان: النار سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا جمرها، ثم قرأ: ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها﴾. وقال زيد بن أسلم: بلغني أن أهل النار في النار لا يتنفسون، وقال الفضيل بن عياض: والله ما طمعوا في الخروج، إن الأرجل لمقيدة وإن الأيدي لموثقة، ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها. وقوله: ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ كقوله: ﴿وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ [السجدة: ٢٠] ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلاً.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار عياذاً بالله من حالهم وما هم فيه من العذاب والنَّكال والحريق والأغلال، وما أعد لهم من الثياب من النار، ذكر حال أهل الجنة نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة، فقال: ﴿**إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ أي تتخرّق في أكنافها وأرجائها وجوانبها وتحت أشجارها وقصورها، يصرفونها حيث شاؤوا وأين أرادوا ﴿**يحلون فيها**﴾ من الحلية ﴿**من أساور من ذهب ولؤلؤاً**﴾ أي في أيديهم، كما قاله النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «تبلغ الحِلْيَة من المؤمن حيث يبلغ الوضوء». وقال كعب الأحبار: إن في الجنة مَلَكاً لو شئت أن أسميه لسميته يصوغ لأهل الجنة الحلي منذ خلقه الله إلى يوم القيامة لو أبرز قُلْب منها ـ أي سوار منها ـ لرد شعاع الشمس كما ترد الشمسُ نورَ القمر.

وقوله: ﴿**ولباسهم فيها حرير**﴾ في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير إستبرقه وسُنْدسُه، كما قال: ﴿**عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً * إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً**﴾ [الإنسان: ٢١ـ٢٢]، وفي الصحيح: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا، فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» [متفق عليه]. قال عبد الله بن الزبير: من لم يلبس الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة، قال الله تعالى: ﴿**ولباسهم فيها حرير**﴾. وقوله: ﴿**وهدوا إلى الطيب من القول**﴾ كقوله تعالى: ﴿**وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام**﴾ [إبراهيم: ٢٣]، فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يُروّعون به، يقال لهم: ﴿**ذوقوا عذاب الحريق**﴾. وقوله: ﴿**وهدوا إلى صراط الحميد**﴾ أي إلى المكان الذي يَحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم كما جاء في الحديث الصحيح: «إنهم يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النَّفس» [رواه مسلم]. وقد قال بعض المفسرين في قوله: ﴿**وهدوا إلى الطيب من القول**﴾ أي القرآن. وقيل: لا إله إلا الله وقيل: الأذكار المشروعة، ﴿**وهدوا إلى صراط الحميد**﴾ أي الطريق المستقيم في الدنيا وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه والله أعلم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

يقول تعالى منكراً على الكفار في صدهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام وقضاء مناسكهم فيه. وفي هذه الآية دليل على أنها مدنية، كما قال في سورة البقرة: ﴿**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله**﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال هاهنا: ﴿**إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله**

والمسجد الحرام﴾ أي ومن صفتهم أنهم مع كفرهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أي ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر. وقوله: ﴿الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد﴾ أي يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعاً سواء لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكناها، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ قال: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام. وقال مجاهد: ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل، وكذا قال أبو صالح وعبد الرحمن بن سابط وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقال قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله. وهذه المسألة هي التي اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخيف، وأحمد بن حنبل حاضر أيضاً، فذهب الشافعي رحمه الله إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر، واحتج بحديث أسامة بن زيد قال: قلت يا رسول الله أتنزل غداً في دارك بمكة؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل من رباع؟» ثم قال: «لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر» وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية داراً بمكة، فجعلها سجناً، بأربعة آلاف درهم، وبه قال طاوس وعمرو بن دينار. وذهب إسحاق بن راهويه إلى أنها لا تورث ولا تؤجر، وهو مذهب طائفة من السلف، ونص عليه مجاهد وعطاء، واحتج إسحاق بن راهويه بما روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها، وكان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم، وأن عمر بن الخطاب كان ينهى عن أن تُبوّب دور مكة لأن ينزل الحاج في عرصاتها، فكان أول من بوب داره سهيل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك، فقال: أنظرني يا أمير المؤمنين إني كنت امرأ تاجراً، فأردت أن أتخذ بابين يحبسان لي ظهري، قال: فلك ذلك إذاً. وقال عمر بن الخطاب: يا أهل مكة لا تتخذوا لدوركم أبواباً لينزل البادي حيث يشاء. وتوسط الإمام أحمد فيما نقله صالح ابنه قال: تملك وتورث ولا تؤجر جمعاً بين الأدلة، والله أعلم.

وقوله: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ قال بعض المفسرين من أهل العربية: الباء ههنا زائدة، كقوله: ﴿تنبت بالدهن﴾ [المؤمنون: ٢٠] أي تنبت الدهن، وكذا قوله: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد﴾ تقديره إلحاداً، والأجود أنه ضمن الفعل ههنا معنى «يُهَمّ»، ولهذا عداه بالباء فقال: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد﴾ أي يهم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار: وقوله: ﴿بظلم﴾ أي عامداً قاصداً أنه ظلم ليس بمتأول، كما قال ابن عباس: هو التعمد. وقال أيضا: بشرك، وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير الله، وكذا قال قتادة وغير واحد. وعن ابن عباس: هو أن تستحل من الحرم ما حرم الله عليك من إساءة أو قتل، فتظلم من لا يظلمك وتقتل من لا يقتلك، فإذا فعل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم، وقال مجاهد: بظلم: يعمل فيه عملاً

سيئا، وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقَب البادي فيه الشر إذا كان عازماً عليه وإن لم يوقعه. قال عبد الله بن مسعود: لو أن رجلاً أراد فيه بإلحاد بظلم وهو بعَدَن أبينَ، أذاقه الله من العذاب الأليم، وعن مجاهد: إلحاد فيه لا والله، وبلى والله، وعن عبد الله بن عمرو مثله. وقال سعيد بن جبير: شتم الخادم ظلم فما فوقه، وقال ابن عباس في قوله: ﴿**ومن يرد فيه بإلحاد بظلم**﴾ قال: تجارة الأمير فيه. وعن ابن عمر: بيع الطعام بمكة إلحاد. وقال حبيب بن أبي ثابت: المحتكر بمكة، وكذا قال غير واحد.

وهذه الآثار وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعم من ذلك بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل، ﴿**ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول**﴾ [الفيل: ٤-٥] أي دمرهم وجعلهم عبرة ونكالاً لكل من أراده بسوء، ولذلك ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «يغزو هذا البيت جيش حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم» الحديث [متفق عليه].

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت، أي أرشده إليه وسلمه له وأذن له في بنائه، واستدل به كثير ممن قال: إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم يبن قبله، كما ثبت في الصحيحين عن أبي ذر، قلت: يا رسول الله أي مسجد وُضعَ أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» [متفق عليه]. وقد قال الله تعالى: ﴿**إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم**﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧]، وقال تعالى: ﴿**وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود**﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقال تعالى ههنا: ﴿**أن لا تشرك بي**﴾ أي ابنه على اسمي وحدي ﴿**وطهر بيتي**﴾ قال قتادة ومجاهد: من الشرك ﴿**للطائفين والقائمين والركع السجود**﴾ أي اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها، ﴿**والقائمين**﴾ أي في الصلاة، ولهذا قال: ﴿**والركع السجود**﴾ فقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده والصلاة إليه في غالب الأحوال، إلا ما استثني من الصلاة عند اشتباه القبلة وفي الحرب وفي النافلة في السفر، والله أعلم.

وقوله: ﴿**وأذن في الناس بالحج**﴾ أي ناد في الناس بالحج، داعياً لهم إلى الحج إلى هذا

البيت الذي أمرناك ببنائه، فذكر أنه قال: يا رب وكيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقال: ناد وعلينا البلاغ، فقام على مقامه، وقيل على الحجر، وقيل على الصفا، وقيل على أبي قُبَيس، وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمَعَ مَن في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حَجَر ومَدَر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: لبيك اللهم لبيك. هذا مضمون ما روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف، والله أعلم.

وقوله: ﴿يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ قد يَستدلّ بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضلُ من الحج راكباً، لأنه قدمهم في الذكر، فدل على الاهتمام بهم وشدة عزمهم، والذي عليه الأكثرون أن الحج راكباً أفضل، اقتداء برسول الله ﷺ فإنه حج راكباً مع كمال قوته عليه السلام. وقوله: ﴿يأتين من كل فج﴾ يعني طريق. وقوله: ﴿عميق﴾ أي بعيد. قاله مجاهد والسدي وقتادة وغير واحد، وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبراهيم حيث قال في دعائه: ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قال ابن عباس: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ قال: منافع الدنيا والآخرة، أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البُدْن، والذبائح والتجارات، وكذا قال مجاهد وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة كقوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ [البقرة:١٩٨]. وقوله: ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾، عن ابن عباس: الأيام المعلومات أيام العشر. وروي مثله عن أبي موسى الأشعري ومجاهد وقتادة وعطاء وسعيد بن جبير والحسن والضحاك وعطاء الخراساني وإبراهيم النخعي، وهو مذهب الشافعي والمشهور عن أحمد بن حنبل.

وروى البخاري عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء». وقال البخاري: وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما.

وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذي ثبت في صحيح مسلم عن أبي قتادة قال: سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة، فقال: «أحتسب على الله أن يكفر به السنة الماضية والآتية». ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد في حديث أنه أفضل

الأيام عند الله وبالجملة، فهذا العشر قد قيل إنه أفضل أيام السنة، كما نطق به الحديث، وفضله كثير على عشر رمضان الأخير، لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك من صلاة وصيام وصدقة وغيره، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه. وقيل ذلك أفضل لا شتماله على ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وتوسط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل، وليالي ذاك أفضل، وبهذا يجتمع شمل الأدلة، والله أعلم.

قول ثان: في الأيام المعلومات: قال ابن عباس: الأيام المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده، ويروى هذا عن ابن عمر وإبراهيم النخعي، وإليه ذهب أحمد بن حنبل في رواية عنه.

قول ثالث: كان ابن عمر يقول: الأيام المعلومات والمعدودات هن جميعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات: يوم النحر، ويومان بعده، والأيام المعدودات ثلاثة أيام بعد يوم النحر، هذا إسناد صحيح إليه، وقاله السدي، وهو مذهب الإمام مالك بن أنس، ويعضد هذا القول والذي قبله قوله تعالى: ﴿**على ما رزقهم من بهيمة الأنعام**﴾ يعني ذكر الله عند ذبحها.

قول رابع: أنها يوم عرفة ويوم النحر ويوم آخر بعده. وهو مذهب أبي حنيفة. وقال زيد بن أسلم: المعلومات يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق.

وقوله: ﴿**على ما رزقهم من بهيمة الأنعام**﴾ يعني الإبل والبقر والغنم كما فصلها تعالى في سورة الأنعام ﴿**ثمانية أزواج**﴾ الآية [الأنعام:١٤٣]. وقوله: ﴿**فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير**﴾ استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحي، وهو قول غريب، والذي عليه الأكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بَدَنة ببَضْعَة فتطبخ، فأكل من لحمها وحسا من مرقها. [رواه مسلم]. قال مالك: أُحِبُّ أن يأكل من أضحيته، لأن الله يقول: ﴿**فكلوا منها**﴾ وقال الليث مثل ذلك، وقال إبراهيم: ﴿**فكلوا منها**﴾ قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين، فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل، وروي عن مجاهد وعطاء نحو ذلك.

وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره، واستدل من نصر القول بأن الأضاحي يتصدق منها بالنصف بقوله في هذه الآية: ﴿**فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير**﴾ فجزأها نصفين: نصف للمضحي ونصف للفقراء، والقول الآخر: أنها تجزأ ثلاثة أجزاء: ثلث له وثلث يهديه وثلث يتصدق به، لقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿**فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر**﴾ [الحج:٣٦]. وقوله: ﴿**البائس الفقير**﴾ قال عكرمة: هو المضطر الذي يظهر عليه البؤس، وهو الفقير المتعفف، وقال مجاهد: هو الذي لا يبسط يده، وقال قتادة: هو الزّمِن، وقال مقاتل بن حيان: هو الضرير. وقوله: ﴿**ثم ليقضوا تفثهم**﴾ قال ابن عباس: وهو وضع الإحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظافر ونحو ذلك، وكذا قال عكرمة ومحمد بن كعب القرظي. وقال ابن عباس أيضا: التفث: المناسك. وقوله: ﴿**وليوفوا نذورهم**﴾ قال ابن عباس: يعني

نحر ما نذر من أمر البُدن. وقال مجاهد: ﴿**وليوفوا نذورهم**﴾ نذر الحج والهدي وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج. وعنه قال: الذبائح. وقال أيضا: كل نذر إلى أجل وقال عكرمة ﴿**وليوفوا نذورهم**﴾ قال: حجهم. وقال سفيان: نذر الحج، فكل من دخل الحج فعليه من العمل فيه: الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة وعرفة والمزدلفة ورمي الجمار على ما أمروا به، وروي عن مالك نحو هذا.

وقوله: ﴿**وليطوفوا بالبيت العتيق**﴾ قال مجاهد: يعني الطواف الواجب يوم النحر، وقال أبو حمزة: قال لي ابن عباس: أتقرأ سورة الحج؟ يقول الله تعالى: ﴿**وليطوفوا بالبيت العتيق**﴾ فإن آخر المناسك الطواف بالبيت. قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ برمي الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت، وفي الصحيحين عن ابن عباس أنه قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف إلا أنه خفف عن المرأة الحائض.

وقوله: ﴿**بالبيت العتيق**﴾ فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحِجْر، لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم، ون كانت قريش قد أخرجوه من البيت حين قصرت بهم النفقة، ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحجر وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركنين الشاميين لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة، وقال الحسن البصري في قوله: ﴿**وليطوفوا بالبيت العتيق**﴾ قال: لأنه أول بيت وضع للناس، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وعن عكرمة أنه قال: إنما سمي البيت العتيق لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح، وقال خصيف: إنما سمي بالبيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار قط. وقال مجاهد: أعتق من الجبابرة أن يسلطوا عليه، وكذا قال قتادة. وقال ابن الزبير: إنما سمي البيت **العتيق** لأن الله أعتقه من الجبابرة.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

يقول تعالى: هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك وما لفاعلها من الثواب الجزيل. ﴿**ومن يعظم حرمات الله**﴾ أي ومن يجتنب معاصيه، ومحارمه ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه ﴿**فهو خير له عند ربه**﴾ أي فله على ذلك خير كثير، فكما على فعل الطاعات ثواب كثير، كذلك على تلك المحرمات، قال مجاهد في قوله: ﴿**ذلك ومن يعظم حرمات الله**﴾ قال: الحرمة: مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها، وكذا قال ابن زيد.

وقوله: ﴿**وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم**﴾ أي أحللنا لكم جميع الأنعام وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام. وقوله: ﴿**إلا ما يتلى عليكم**﴾ أي من تحريم ﴿**الميتة**

والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم الآية [المائدة:٣]، قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة. وقوله: ﴿**فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور**﴾ «من» هاهنا لبيان الجنس ، أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، وقرن الشرك بالله بقول الزور، كقوله: ﴿**قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾ [الأعراف:٣٣]، ومنه شهادة الزور. وفي الصحيحين عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟» قلنا: بلى يا رسول لله. قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس فقال - ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور». فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

وقال ابن مسعود: تُعْدَل شهادة الزور الإشراك بالله، ثم قرأ هذه الآية.

وقوله: ﴿**حنفاء لله**﴾ أي مخلصين له الدين منحرفين عن الباطل قصداً إلى الحق، ولهذا قال: ﴿**غير مشركين به**﴾. ثم ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى، فقال: ﴿**ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء**﴾ أي سقط منها ﴿**فتخطفه الطير**﴾ أي تقطعه الطيور في الهواء، ﴿**أو تهوي به الريح في مكان سحيق**﴾ أي بعيد مهلك لمن هوى فيه، ولهذا جاء في حديث البراء: «إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت وصعدوا بروحه إلى السماء، فلا تفتح له أبواب السماء بل تطرح روحه طرحاً من هناك» [وهو صحيح].

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾.

يقول تعالى هذا ﴿**ومن يعظم شعائر الله**﴾ أي أوامره ﴿**فإنها من تقوى القلوب**﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن، كما قال ابن عباس: تعظيمها استسمانها واستحسانها. وروى البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين. وعن علي رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وأن لا نضحي بمقابَلَة ولا مدابَرَة ولا شَرْقاء ولا خَرْقاء. رواه أحمد وأهل السنن، وصححه الترمذي ولهم عنه، قال: نهى رسول الله ﷺ أن نُضُحي بأعضب القرن والأذن. [وهو صحيح]. وقال سعيد بن المسيب: العضب: النصف فأكثر. وعند الشافعي أن الأضحية بذلك مجزئة لكن تكره. وقال الإمام أحمد: لا تجزىء الأضحية بأعضب القرن والأذن لهذا الحديث. وقال مالك: إن كان الدم يسيل من القرن لم يجزىء وإلا أجزأ، والله أعلم.

وأما المقابلة فهي التي قطع مقدم أذنها، والمدابرة من مؤخر أذنها. والشرقاء هي التي قطعت أذنها طولاً، قاله الشافعي، وأما الخرقاء فهي التي خرقت السِّمَةُ أذنها خرقاً مُدَوّراً، والله أعلم. وعن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع لاتجوز في الأضاحي: العوراء البيّن عَوَرها،

والمريضة البين مَرَضها، والعرجاء البين ظَلَعَها، والكسيرة التي لاتُنقِى». رواه أحمد وأهل السنن، وصححه الترمذي. وهذه العيوب تنقص اللحم لضعفها وعجزها عن استكمال الرعي، لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى، فلهذا لا تجزيء التضحية بها عند الشافعي وغيره من الأئمة، كما هو ظاهر الحديث، واختلف قول الشافعي في المريضة مرضاً يسيراً على قولين. فهذه العيوب كلها مانعة من الإجزاء، فإن طرأ العيب بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضر عند الشافعي خلافاً لأبي حنيفة. وقال ابن عباس: البدن من شعائر الله. وقال محمد بن أبي موسى: الوقوف ومزدلفة والجمار والرمي والحلق والبدن من شعائر الله. وقال ابن عمر: أعظم الشعائر: البيت.

وقوله: «لكم فيها منافع» أي لكم في البدن منافع من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها. وقال مجاهد في قوله: ﴿**لكم فيها منافع إلى أجل مسمى**﴾ قال: الركوب واللبن والولد، فإذا سميت بدنة أو هدياً ذهب ذلك كله، وكذا قال عطاء والضحاك وقتادة وعطاء الخراساني وغيرهم. وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هدياً إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال «اركبها» قال: إنها بدنة. قال «اركبها ويحك» في الثانية أو الثالثة. وفي رواية لمسلم عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها». وقوله: ﴿**ثم محلها إلى البيت العتيق**﴾ أي محل الهدي وانتهاؤه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة، كما قال تعالى: ﴿**هدياً بالغ الكعبة**﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال: ﴿**والهدي معكوفاً أن يبلغ محله**﴾ [الفتح: ٢٥]. وقال ابن عباس: كل من طاف بالبيت فقد حل، قال الله تعالى: ﴿**ثم محلها إلى البيت العتيق**﴾.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه لم يَزَل ذبحُ المناسك وإراقةُ الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل. وعن ابن عباس: ﴿**ولكل أمة جعلنا منسكاً**﴾ قال: عيداً. وقال عكرمة: ذَبْحاً. وقال زيد بن أسلم: إنها مكة، لم يجعل الله لأمة قط منسكاً غيرها. وقوله: ﴿**ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام**﴾ كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: أُتيَ رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسمى وكبر ووضع رجله على صِفَاحهما. وقوله: ﴿**فإلهكم إله واحد فله أسلموا**﴾ أي معبودكم واحد، وإن تنوعت شرائع الأنبياء ونَسخ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ولهذا قال: ﴿**فله أسلموا**﴾ أي أخلصوا واستسلموا لحكمه وطاعته. ﴿**وبشر المخبتين**﴾ قال مجاهد: المطمئنين. وقال الضحاك وقتادة: المتواضعين. وقال السدي: الوجلين. وقال عمرو بن أوس: المخبتين: الذين لا يَظلمون وإذا ظُلموا لم ينتصروا.

وقال الثوري: المطمئنين الراضين بقضاء الله المستسلمين له، وأحسن بما يفسر بما بعده، وهو قوله: ﴿**الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم**﴾ أي خافت منه قلوبهم ﴿**والصابرين على ما أصابهم**﴾ أي من المصائب. قال الحسن البصري: والله لَتَصْبِرُنَّ أو لتَهْلِكُنَّ. ﴿**والمقيمي الصلاة**﴾ أي المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه، ﴿**ومما رزقناهم ينفقون**﴾ أي وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأقاربهم وأرقائهم وفقرائهم ومحاويجهم، ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله.

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

يقول تعالى ممتناً على عباده فيما خلق لهم من البدن وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تُهْدى إلى بيته الحرام، بل هي أفضل ما يهدى إلى بيته الحرام، كما قال تعالى: ﴿**لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد**﴾ الآية [المائدة:٢]، قال عطاء في قوله: ﴿**والبدن جعلناها لكم من شعائر الله**﴾ قال البقرة والبعير، وكذا روي عن ابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن البصري، وقال مجاهد: وإنما البدن من الإبل. قلت: أما إطلاق البدنة على البعير فمتفق عليه، واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين، أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً كما صح في الحديث، ثم جمهور العلماء على أنه تجزىء البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة، كما ثبت به الحديث عند مسلم من رواية جابر بن عبد الله قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الأضاحي، البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة. وقوله: ﴿**لكم فيها خير**﴾ أي ثواب في الدار الآخرة، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «ما عمل ابنُ آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من هِرَاقة دم، وإنه ليأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض، فطِيبُوا بها نفساً». رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه، وقال سفيان الثوري: كان أبو حازم يستدين ويسوق البُدْن، فقيل له: تستدين وتسوق البدن؟ فقال: إني سمعت الله يقول لكم: ﴿**لكم فيها خير**﴾. وقال مجاهد: ﴿**لكم فيها خير**﴾ قال: أجر ومنافع، وقال إبراهيم النخعي: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها.

وقوله: ﴿**فاذكروا اسم الله عليها صواف**﴾ قال ابن عباس: قياماً على ثلاث قوائم، معقولة يدُها اليسرى، يقول: باسم الله والله أكبر، اللهم منك ولك، ونحوه عن مجاهد والضحاك. وفي الصحيحين عن ابن عمر أنه أتى على رجل قد أناخ بدنته وهو ينحرها فقال: ابعثها قياماً مقيدة، سنة أبي القاسم ﷺ. وقال طاوس والحسن وغيرهما «فاذكروا اسم الله عليها صوافي» يعني خالصة لله عز وجل، وعن ابن زيد نحوه. وقوله: ﴿**فإذا وجبت جنوبها**﴾ قال مجاهد: يعني سقطت إلى الأرض، وهو رواية عن ابن عباس، وكذا قال مقاتل بن حيان، وعن ابن عباس: نحرت، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ماتت، وهذا القول هو مُرَادُ ابن عباس

ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحرت حتى تموت وتبرد حركتها. وفي صحيح مسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، ولْيُحدَّ أحدكم شفرته، ولْيُرِحْ ذبيحته».

وقوله: ﴿**فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر**﴾ قال بعض السلف: قوله: ﴿**فكلوا منها**﴾ أمر إباحة. وقال مالك: يستحب ذلك. وقال غيره: يجب، وهو وجه لبعض الشافعية. واختلفوا في المراد بالقانع والمعتر، فعن ابن عباس: القانع المستغني بما أعطيته وهو في بيته. والمعتر الذي يتعرض لك ويُلمّ بك أن تعطيه من اللحم ولا يسأل، وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب القرظي. وقال ابن عباس أيضا: القانع: المتعفف، والمعتر: السائل، وهذا قول قتادة وإبراهيم النخعي ومجاهد في رواية عنه. وقال ابن عباس وزيد بن أسلم والحسن البصري [وغيرهم]: القانع: هو الذي يَقْنع إليك ويسألك. والمعتر: الذي يعتريك يتضرع ولا يسألك، وهذا لفظ الحسن. وقال سعيد بن جبير: القانع هو السائل، وبه قال ابن زيد. وقال زيد بن أسلم: القانع: المسكين الذي يطوف، والمعتر: الصديق والضيف الذي يزور، وهو رواية عن ابنه عبد الله بن زيد أيضاً. وعن مجاهد أيضاً: القانع جارك الغني الذي يبصر ما يدخل بيتك، والمعتر: الذي يعتريك من الناس، وعن عكرمة: القانع أهل مكة. واختار ابن جرير أن القانع: هو السائل، لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال، والمعتر من الاعتراء وهو الذي يتعرض لأكل اللحم. وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تُجزَّأ ثلاثة أجزاء: فثلث لصاحبها يأكله، وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدق به على الفقراء، لأنه تعالى قال: ﴿**فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر**﴾. وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال للناس: «إني كنت نهيتكم عن إدخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فكلوا وادخروا ما بدا لكم». وفي رواية «فكلوا وادخروا وتصدقوا». وفي رواية «فكلوا وأطعموا وتصدقوا». [رواه مسلم]. والقول الثاني: أن المضحي يأكل النصف ويتصدق بالنصف، لقوله في الآية المتقدمة: ﴿**فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير**﴾ [الحج:٢٨]، ولقوله في الحديث: فكلوا وادخروا وتصدقوا». فإن أكل الكل، فقيل: لا يضمن شيئاً، وبه قال ابن سريج من الشافعية. وقال بعضهم: يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها. وقيل: يضمن نصفها. وقيل: ثلثها. وقيل: أدنى جزء منها، وهو المشهور من مذهب الشافعي.

مسألة: عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي، ثم نرجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم عجله لأهله ليس هو من النسك في شيء». أخرجاه، فلهذا قال الشافعي وجماعة من العلماء: إن أول وقت ذبح الأضاحي إذا طلعت الشمس يوم النحر ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين، زاد أحمد: وأن يذبح الإمام بعد ذلك لما جاء في صحيح مسلم: «وأن لا تذبحوا حتى يذبح

الإمام». وقال أبو حنيفة: أما أهل السواد من القرى ونحوهم فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر، إذ لا صلاة عيد تشرع عنده لهم. وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلي الإمام، والله أعلم. ثم قيل: لا يشرع بالذبح إلا يوم النحر وحده. وقيل: يوم النحر لأهل الأمصار لتيسر الأضاحي عندهم، وأما اهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده، وبه قال سعيد بن جبير. وقيل: يوم النحر ويوم بعده للجميع، وقيل: ويومان بعده، وبه قال الإمام أحمد. وقيل: يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وبه قال الشافعي لحديث جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «أيام التشريق كلها ذبح» رواه أحمد وابن حبان [وله طرق وشواهد يتقوى بها].

وقوله: ﴿**كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون**﴾ يقول تعالى من أجل هذا ﴿**سخرناها لكم**﴾ أي ذللناها لكم، وجعلناها منقادة لكم خاضعة، إن شئتم ركبتم، وإن شئتم حلبتم، وإن شئتم ذبحتم، كما قال تعالى: ﴿**أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ۞ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون**﴾ [يس: ٧١ـ٧٣]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿**كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون**﴾.

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

يقول تعالى: إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرزاق لا يناله شيء من لحومها ولا دمائها، فإنه تعالى هو الغني عما سواه. وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قربانهم، ونضحوا عليها من دمائها، فقال تعالى: ﴿**لن ينال الله لحومها ولا دماؤها**﴾. كما جاء في الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». [رواه مسلم]. وجاء في الحديث: «إن الصدقة لتقع في يد الرحمن قبل أن تقع في يد السائل، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض» كما تقدم في الحديث، رواه ابن ماجه والترمذي، وحسنه عن عائشة مرفوعاً، فمعناه أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص في عمله وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿**كذلك سخرها لكم**﴾ أي من أجل ذلك سخر لكم البدن. ﴿**لتكبروا الله على ما هداكم**﴾ أي لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه ويرضاه ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه. وقوله: ﴿**وبشر المحسنين**﴾ أي وبشر يا محمد المحسنين أي في عملهم القائمين بحدود الله المتبعين ما شرع لهم المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل.

مسألة: وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثوري إلى القول بوجوب الأضحية على من ملك نصاباً،

وزاد أبو حنيفة اشتراط الإقامة أيضاً، وقال ابن عمر: أقام رسول الله ﷺ عشر سنين يضحي، رواه الترمذي [وحسنه]. وقال الشافعي وأحمد: لا تجب الأضحية بل هي مستحبة، وقد تقدم أنه عليه الصلاة والسلام ضحى عن أمته، فأسقط ذلك وجوبها عنهم. وقال أبو سرَيحةَ: كنت جاراً لأبي بكر وعمر، فكانا لا يضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما، وقال بعض الناس: الأضحية سنة كفاية، إذا قام بها واحد من أهل دار أو محلة أو بيت، سقطت عن الباقين لأن المقصود إظهار الشعار. وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن وحسنه الترمذي عن مِخْنَف بن سليم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعرفات: «على كل أهل بيت في كل عام أضحاة وعتيرة، هل تدرون ما العتيرة؟ هي التي تدعونها الرجبية» [وحسنه الألباني].

وأما مقدار سن الأضحية فقد روى مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تذبحوا إلا مُسِنَّة، إلا أن يعسر عليكم فتذبحوا جذعة من الضأن».

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ ﴾.

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار، وكيد الفجار، ويحفظهم وينصرهم، كما قال تعالى: ﴿**أليس الله بكاف عبده**﴾ [الزمر: ٣٦] وقال: ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدراً**﴾ [الطلاق: ٣]. وقوله: ﴿**إن الله لا يحب كل خوان كفور**﴾ أي لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة في العهود لا يفي بما قال، والكفر: الجَحْدُ للنعم، فلا يعترف بها.

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ﴾.

عن ابن عباس: نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة. وقال غير واحد من السلف: هذه أول آية نزلت في الجهاد، واستدلَّ بهذه الآية بعضُهم على أن السورة مدنيةٌ. وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن. قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل: ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير**﴾ قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: فعرفت أنه سيكون قتال. ورواه الإمام أحمد وزاد: هي أول آية نزلت في القتال. ورواه الترمذي والنسائي في التفسير من سننيهما وقال الترمذي: حديث حسن.

وقوله: ﴿**وإن الله على نصرهم لقدير**﴾ أي هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته، كما قال: ﴿**فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لا نتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض، والذين قتلوا في سبيل الله**

فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ [محمد: ٤ـ٦]، والآيات في هذا كثيرة. ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ وقد فَعَل. وإنما شرع الله الجهاد في الوقت الأليق به، لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً فلو أمر المسلمين وهم أقل من العشر بقتال الباقين لشق عليهم، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ. وكانوا نيفاً وثمانين، قالوا: يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي، يعنون أهل منى، ليالي منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أومر بهذا» فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شذر مذر، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة، فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومَعْقلاً يلجؤون إليه، شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك، فقال تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق﴾ عن ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق، يعني محمداً وأصحابه. ﴿إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ أي ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له. وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما في نفس الأمر، وأما عند المشركين فإنه أكبر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم﴾ [الممتحنة: ١]، وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيزالحميد﴾ [البروج: ٨]. ولهذا لما كان المسلمون يرتجزون في بناء الخندق ويقولون:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

فيوافقهم رسول الله ﷺ ويقول معهم آخر كل قافية، فإذا قالوا: إذا أرادوا فتنة أبينا. يقول: «أبينا» يمد بها صوته، [معناه في الصحيحين]. ثم قال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ أي لولا أنه يدفع بقوم عن قوم، ويكف شرَّ أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدت الأرض ولأهلك القوي الضعيف. ﴿لهدمت صوامع﴾ وهي المعابد الصغار للرهبان، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وغيرهم. وقال قتادة: هي معابد الصابئين، وفي رواية عنه: صوامع المجوس، وقال مقاتل بن حيان: هي البيوت التي على الطرق ﴿وبيع﴾ وهي أوسع منها، وأكثر عابدين فيها، وهي للنصارى أيضاً، قاله أبو العالية وقتادة والضحاك وابن صخر وغيرهم. وحكي عن مجاهد وغيره أنها كنائس اليهود، وحكى السدي عمن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس اليهود، ومجاهد إنما قال: هي الكنائس، والله أعلم.

وقوله: ﴿وصلوات﴾ قال العوفي عن ابن عباس: الصلوات الكنائس وكذا قال عكرمة

والضحاك وقتادة: إنها كنائس اليهود، وهم يسمونها صَلُوتا. وحكى السدي عمن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس النصارى. وقال أبو العالية وغيره: الصلوات معابد الصابئين. وقال مجاهد: الصلوات مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق، وأما المساجد فهي للمسلمين. وقوله: **﴿يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾** فقد قيل: الضمير في قوله يذكر فيها عائد إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات. وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيراً. وقال ابن جرير: الصواب لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً، لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب. وقال بعض العلماء: هذا ترقٍّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهى إلى المساجد وهي أكثر عُمَّاراً وأكثر عبادا وهم ذوو القصد الصحيح.

وقوله: **﴿ولينصرن الله من ينصره﴾** كقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم﴾** [محمد: ٧-٨]. وقوله: **﴿إن الله لقوي عزيز﴾** وصف نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديراً، وبعزته لا يقهره قاهر، بل كل شيء ذليل لديه فقير إليه، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: **﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾** [الصافات: ١٧١-١٧٣].

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾.

قال أبو العالية: هم أصحاب محمد ﷺ، وقال الصباح بن سوادة الكِنْدِي: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: **﴿الذين إن مكناهم في الأرض﴾** الآية، ثم قال: ألا إنها ليست على الوالي وحده، ولكنها على الوالي والمولى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم، وبما للوالي عليكم منه ؟ إن لكم على الوالي من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المستكرهة، ولا المخالف سرُّها علانيتها. وقال عطية العوفي: هذه الآية كقوله: **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾** [النور: ٥٥]. وقوله: **﴿ولله عاقبة الأمور﴾** كقوله تعالى: **﴿والعاقبة للمتقين﴾** [القصص: ٨٣]. وقال زيد بن أسلم: **﴿ولله عاقبة الأمور﴾** وعند الله ثواب ما صنعوا.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه: ﴿**وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح**﴾ إلى أن قال: **وكذب موسى**﴾ أي مع ما جاء به من الآيات البينات. ﴿**فأمليت للكافرين**﴾ أي أنظرتهم وأخرتهم، ﴿**ثم أخذتهم فكيف كان نكير**﴾ أي فيكف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم ؟! وذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه: أنا ربكم الأعلى، وبين إهلاك الله له أربعون سنة. وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ: ﴿**وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد**﴾ [١٠٢]. ثم قال تعالى: ﴿**فكأين من قرية أهلكناها**﴾ أي كم من قرية أهلكتها ﴿**وهي ظالمة**﴾ أي مكذبة لرسولها ﴿**فهي خاوية على عروشها**﴾ قال الضحاك: سقوفها، أي قد خربت وتعطلت حواضرها ﴿**وبئر معطلة**﴾ أي لا يستقى منها، ولا يَرِدُها أحد بعد كثرة وارديها والإزدحام عليها ﴿**وقصر مشيد**﴾ قال عكرمة يعني المبيض بالجص، وروي عن علي بن أبي طالب ومجاهد وعطاء [وغيرهم] نحو ذلك. وقال آخرون: هو المُنيف المرتفع. وقال آخرون: المشيد المنيع الحصين، وكل هذه الأقوال متقاربة ولا منافاة بينها، فإنه لم يَحْمِ أهلَه شدةُ بنائه ولا ارتفاعُه ولا إحكامه ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم كما قال تعالى: ﴿**أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة**﴾ [النساء:٧٨]. وقوله: ﴿**أفلم يسيروا في الأرض**﴾ أي بأبدانهم وبفكرهم أيضاً، وذلك كاف كما قال ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر والاعتبار: عن مالك بن دينار قال: أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران عليه السلام أن يا موسى اتخذ نعلين من حديد وعصا، ثم سِحْ في الأرض، ثم اطلب الآثار والعبر، حتى يتخرق النعلان وتنكسر العصا. وقال ابن أبي الدنيا: قال بعض الحكماء: أحي قلبك بالمواعظ، ونَوِّره بالفكر، ومَوِّته بالزهد، وقوِّه باليقين، وذلله بالموت، وقرره بالفناء، وبصِّره فجائع الدنيا، وحذِّره صولةَ الدهر وفُحْش تقلب الأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره ما أصاب من كان قبله، وسِرْ في ديارهم وآثارهم، وانظر ما فعلوا، وأين حَلُّوا وعمَّ انقلبوا، أي فانظروا ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنكال، ﴿**فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها**﴾ أي فيعتبرون بها، ﴿**فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ أي ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر ولا تدري ما الخبر.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾.

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿**ويستعجلونك بالعذاب**﴾ أي هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿**وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم**﴾ [الأنفال:٣٢].

وقوله: ﴿**ولن يخلف الله وعده**﴾ أي الذي قد وعد من إقامة الساعة والإنتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه. وقوله: ﴿**وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون**﴾ أي هو تعالى لا يَعجَل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حلمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء وإن أجل وأملى، ولهذا قال بعد هذا: ﴿**وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير**﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام» ورواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح. وعن ابن عباس: ﴿**وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون**﴾ قال: من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض. وبه قال مجاهد وعكرمة، ونص عليه أحمد بن حنبل في كتاب الرد على الجهمية، وقال مجاهد: هذه الآية كقوله: ﴿**يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون**﴾ [السجدة: ٥].

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه به: ﴿**قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين**﴾ أي إنما أرسلني الله إليكم نذيراً لكم، بين يدي عذاب شديد، وليس إلي من حسابكم من شيء، أمْرُكم إلى الله إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار ﴿**لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب**﴾ [الرعد: ١٤]، ﴿**إنما أنا لكم نذير مبين * فالذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿**لهم مغفرة ورزق كريم**﴾ أي مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حسَنةٌ على القليل من حسناتهم. قال محمد بن كعب القرظي: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿**ورزق كريم**﴾ فهو الجنة.

وقوله: ﴿**والذين سعوا في آياتنا معاجزين**﴾ قال مجاهد: يثبطون الناس عن متابعة النبي ﷺ، وكذا قال عبد الله بن الزبير: مثبطين. وقال ابن عباس: مراغمين. ﴿**أولئك أصحاب الجحيم**﴾ وهي النار الحارة الموجعة، الشديد عذابها ونكالها، أجارنا الله منها. قال الله تعالى: ﴿**الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون**﴾ [النحل: ٨٨].

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغَرَانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى

أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا. ولم أرها مسندة من وجه صحيح، [وكل طرقها] مرسلات ومنقطعات، والله أعلم. وقد ساق البغوي في تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما بنحو من ذلك، ثم سأل ههنا سؤالاً: كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه؟ ثم حكى أجوبة عن الناس من ألطفها أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ، وليس كذلك في نفس الأمر، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن ﷺ، والله أعلم.

وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين عن هذا بتقدير صحته. وقد تعرض القاضي عياض رحمه الله في كتاب الشفاء لهذا، وأجاب عنه. وقوله: ﴿**إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته**﴾ هذا فيه تسلية له صلوات الله وسلامه عليه، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء. قال البخاري: قال ابن عباس ﴿**في أمنيته**﴾ إذا حَدّث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته. وقال مجاهد: ﴿**إذا تمنى**﴾ يعني إذا قال، ويقال: أمنيته قراءته. قال البغوي وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله: ﴿**تمنى**﴾ أي تلا وقرأ كتاب الله ﴿**ألقى الشيطان في أمنيته**﴾ أي في تلاوته. وقال الضحاك: ﴿**إذا تمنى**﴾ إذا تلا. قال ابن جرير هذا القول أشبه بتأويل الكلام. وقوله: ﴿**فينسخ الله ما يلقي الشيطان**﴾ حقيقة النسخ لغة الإزالة والرفع، قال ابن عباس: أي فيبطل الله سبحانه وتعالى ما ألقى الشيطان. وقال الضحاك: نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته. وقوله: ﴿**والله عليم**﴾ أي بما يكون من الأمور والحوادث لا تخفى عليه خافية ﴿**حكيم**﴾ أي في تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة والحجة البالغة، ولهذا قال: ﴿**ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض**﴾ أي شك وشرك وكفر ونفاق، كالمشركين حين فرحوا بذلك واعتقدوا أنه صحيح من عند الله، وإنما كان من الشيطان. قال ابن جريج: ﴿**للذين في قلوبهم مرض**﴾ هم المنافقون، ﴿**والقاسية قلوبهم**﴾ هم المشركون.

وقال مقاتل بن حيان: هم اليهود. ﴿**وإن الظالمين لفي شقاق بعيد**﴾ أي في ضلال ومخالفة وعناد بعيد، أي من الحق والصواب، ﴿**وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به**﴾ أي وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والمؤمنون بالله ورسوله، أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم، ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾ [فصلت: ٤٢]. وقوله: ﴿**فيؤمنوا به**﴾ أي يصدقوه وينقادوا له، ﴿**فتخبت له قلوبهم**﴾ أي تخضع وتذل له قلوبهم، ﴿**وإنّ الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم**﴾ أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة

يهديهم الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات.

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: إنهم لا يزالون في مرية، أي في شك من هذا القرآن، قال ابن جريج واختاره ابن جرير. وقال سعيد بن جبير وابن زيد: منه أي مما ألقى الشيطان **﴿حتى تأتيهم الساعة بغتة﴾** قال مجاهد: فجأة، وقال قتادة: بغت القومَ أمرُ الله وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لايغتر بالله إلا القوم الفاسقون. وقوله: **﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾** قال أبي بن كعب: هو يوم بدر، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير. قال عكرمة ومجاهد في رواية عنهما: هو يوم القيامة، لا ليل له، وكذا قال الضحاك والحسن البصري، وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أُوعِدُوا به لكن هذا هو المراد، ولهذا قال: **﴿الملك يومئذ لله يحكم بينهم﴾** كقوله: **﴿مالك يوم الدين﴾** [الفاتحة:٤]، وقوله: **﴿الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيرا﴾** [الفرقان:٢٦]. **﴿فالذين آمنوا وعملوا الصاحات﴾** أي آمنت قلوبهم وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبُهم وأقوالُهم وأعمالُهم. **﴿في جنات النعيم﴾** أي لهم النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد **﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾** أي كفرت قلوبهم بالحق وجحدوا به، وكذبوا به وخالفوا الرسل واستكبروا عن اتباعهم **﴿فأولئك لهم عذاب مهين﴾** أي مقابلة استكبارهم وإعراضهم عن الحق، كقوله تعالى: **﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾** [غافر: ٦٠] أي صاغرين.

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عمن خرج مهاجراً في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلباً لما عنده، وترك الأوطان والأهلين والخِلاَّن، وفارق بلاده في الله ورسوله، ونصرة لدين الله ثم قتلوا أي في الجهاد، أو ماتوا أي حتف أنفهم أي من غير قتال على فرشهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل والثناء الجميل، كما قال تعالى: **﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾** [النساء: ١٠٠]. وقوله: **﴿ليرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾** أي ليُجْرَين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم، **﴿وإن الله لهو خير الرازقين * ليدخلنهم مدخلاً يرضونه﴾** أي الجنة كما قال تعالى: **﴿فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم﴾** [الواقعة: ٨٨-٨٩] فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة نعيم، كما قال ههنا: **﴿ليرزقنّهم الله**

رزقاً حسناً﴾ ثم قال ﴿ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم﴾ أي بمن يهاجر ويجاهد في سبيله وبمن يستحق ذلك ﴿حليم﴾ أي يحلم ويغفر لهم الذنوب، ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه وتوكلهم عليه. فأما من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حي عند ربه يرزق، والأحاديث في هذا كثيرة، وأما من تُوُفي في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تضمنت هذه الاية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه وعظيم إحسان الله إليه. روى ابن أبي حاتم عن شُرَحبِيل بن السِّمط: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم، فمر بي سلمان يعني الفارسي رضي الله عنه، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات مرابطاً أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر، وأجرى عليه الرزق، وأمن من الفتانين، واقرؤوا إن شئتم: ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حليم﴾» [وروى مسلم المرفوع فقط]. وعن أبي قبيل وربيعة بن سيف المعافري قالا: كنا برودس، ومعنا فضالة بن عبيد الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ، فمر بجنازتين إحداهما قتيل، والأخرى متوفى، فمال الناس على القتيل، فقال فضالة: ما لي أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا؟ فقالوا: هذا القتيل في سبيل الله، فقال: والله ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت؟ اسمعوا كتاب الله: ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسناً وإن الله لهو خير الرازقين﴾. وقوله: ﴿ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله﴾، ذكر مقاتل بن حيان وابن جرير أنها نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعاً من المشركين في شهر محرم، فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلوهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم، وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون فنصرهم الله عليهم ﴿إن الله لعفو غفور﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء، كما قال: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير * تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧] ومعنى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل إدخاله من هذا في هذا ومن هذا في هذا، فتارة يطول الليل ويقصر النهار كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف.

وقوله: ﴿وأن الله سميع بصير﴾ أي سميع بأقوال عباده، بصير بهم، لا يخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم. ولما بين أنه المتصرف في الوجود، الحاكم الذي لامعقب لحكمه قال: ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾ أي الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له،

لأنه ذو السلطان العظيم الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء فقير إليه، ذليل لديه ﴿وأن ما يدعون من دونه هو الباطل﴾ أي من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل، لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً. وقوله: ﴿وأن الله هو العلي الكبير﴾ كما قال ﴿وهو العلي العظيم﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال: ﴿الكبير المتعال﴾ [الرعد:٩]، فكل شيء تحت قهره وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس عز وجل عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾.

وهذا أيضاً من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، فإنه يرسل الرياح فتثير سحاباً فيمطر على الأرض الجُرُز التي لا نبات فيها، وهي هامدة يابسة سوداء ممحلة، ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ [الحج:٥]. وقوله: ﴿فتصبح الأرض مخضرة﴾ الفاء ههنا للتعقيب، وتعقيب كل شيء بحسبه، وقد ذكر عن بعض أهل الحجاز أنها تصبح عقب المطر خضراء، فالله أعلم.

وقوله: ﴿إن الله لطيف خبير﴾ أي عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحَبِّ وإن صغُر، ولا يخفى عليه خافية، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به، كما قال لقمان: ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير﴾ [لقمان:١٦]. وقوله: ﴿له ما في السموات وما في الأرض إن الله لهو الغني الحميد﴾ أي مُلْكُه جميع الأشياء، وهو غني عما سواه وكل شيء فقير إليه، عبد لديه، وقوله: ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ أي من حيوان وجماد وزروع وثمار، كما قال: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ [الجاثية:١٣] أي من إحسانه وفضله وامتنانه، ﴿والفلك تجري في البحر بأمره﴾ أي بتسخيره وتسييره، أي في البحر العَجَاج، وتلاطم الأمواج، تجري الفلك بأهلها بريح طيبة، ورفق وتؤدة فيحملون فيها ما شاؤوا من بضائع ومنافع من بلد إلى بلد وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك مما يحتاجون إليه ويريدونه، ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ أي لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ولهذا قال: ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أي مع ظلمهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾ [الرعد:٦].

وقوله: ﴿وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور﴾، كقوله: ﴿كيف

تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ [البقرة:٢٨]. ومعنى الكلام: كيف تجعلون لله أنداداً وتعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف ﴿وهو الذي أحياكم﴾ أي خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يُذْكر، فأوجدكم ﴿ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ أي يوم القيامة ﴿إن الإنسان لكفور﴾ أي جَحُود.

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكاً، قال ابن جرير: يعني لكل أمة نبي منسكاً. قال: وأصل المنسك في كلام العرب: هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ويتردد إليه إما لخير أو شر. قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها. فإن كان كما قال، فيكون المراد بقوله: فلا ينازعنك في الأمر أي هؤلاء المشركين، وإن كان المراد لكل أمة جعلنا منسكاً جَعْلاً قدرياً كما قال: ﴿ولكل وجهة هو موليها﴾ [البقرة:١٤٨] ولهذا قال ههنا: ﴿هم ناسكوه﴾ أي فاعلوه، فالضمير ههنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، أي هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته، فلا تتأثر بمنازعتهم لك، ولا يصرفْكَ ذلك عما أنت عليه من الحق، ولهذا قال: ﴿وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم﴾ أي طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود، وهذا كقوله: ﴿ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك﴾ [القصص:٨٧].

وقوله: ﴿وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون﴾. كقوله: ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ [يونس:٤١]. وقوله: ﴿الله أعلم بما تعملون﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد، كقوله: ﴿هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾ [الأحقاف:٨]، ولهذا قال: ﴿الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾. وهذه كقوله تعالى: ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت و لا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾ [الشورى:١٥].

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما في السموات وما في الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض و لا في السماء، و لا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى عَلِمَ الكائنات كُلَّها قبل وجودها، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء». وفي السنن من حديث جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال و ما أكتب؟

قال: اكتب ما هو كائن، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة» [وصححه الألباني]. وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها، وقدرها وكتبها أيضاً، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره، وهذا يعصي باختياره، وكتب ذلك عنده وأحاط بكل شيء علماً، وهو سهل عليه يسير لديه، ولهذا قال تعالى: ﴿**إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير**﴾.

﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، يعني حجة، كقوله: ﴿**ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون**﴾ [المؤمنون: ١١٧]. ولهذا قال ههنا: ﴿**ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم**﴾ أي ولا علم لهم فيما اختلقوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿**وما للظالمين من نصير**﴾ أي من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال. ثم قال: ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات**﴾ أي وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق ﴿**يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا**﴾ أي يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴿**قل**﴾ أي يا محمد لهؤلاء ﴿**أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا**﴾ أي النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم إن نلتم بزعمكم وإرادتكم. وقوله: ﴿**وبئس المصير**﴾ أي وبئس النار مقيلاً ومنزلاً ومرجعاً، ﴿**إنها ساءت مستقراً ومقاماً**﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾.

يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها ﴿**يا أيها الناس ضرب مثل**﴾ أي لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به ﴿**فاستمعوا له**﴾ أي أنصتوا وتفهموا ﴿**إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له**﴾ أي لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك. كما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً قال: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا مثل خلقي ذرة أو ذبابة

أو حبة». وأخرجاه في الصحيحين [وليس فيه ذكر الذبابة]. ثم قال تعالى أيضاً: ﴿**وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه**﴾ أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال: ﴿**ضعف الطالب والمطلوب**﴾ قال ابن عباس: الطالب الصنم، والمطلوب الذباب، واختاره ابن جرير، وهو ظاهر السياق. وقال السدي وغيره: الطالب العابد، والمطلوب الصنم، ثم قال: ﴿**ما قدروا الله حق قدره**﴾ أي ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها ﴿**إن الله لقوي عزيز**﴾ أي هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء ﴿**وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه**﴾ [الروم:٢٧]. وقوله: ﴿**عزيز**﴾ أي قد عز كلَّ شيء فقهره وغلبه، فلا يمانع ولا يغالب لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره، ومن الناس لإبلاغ رسالته ﴿**إن الله سميع بصير**﴾ أي سميع لأقوال عباده، بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم، كما قال: ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾ [الأنعام:١٢٤]. وقوله: ﴿**يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور**﴾ أي يعلم ما يُفْعَلُ برسله فيما أرسلهم به، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم، كما قال: ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً. إلا من ارتضى من رسول**﴾ [الجن:٢٦]، فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس**﴾ الآية [المائدة:٦٧].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾.

اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه السجدة الثانية من سورة الحج: هل هي مشروع السجودُ فيها، أم لا؟ على قولين، وقد قدمنا عند الأولى حديث: «فُضلت سورة الحج بسجدتين». وقوله: ﴿**وجاهدوا في الله حق جهاده**﴾ أي بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿**اتقوا الله حق تقاته**﴾ [آل عمران:١٠٢]. وقوله: ﴿**هو اجتباكم**﴾ أي يا هذه الأمة الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول وأكمل شرع. ﴿**وما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾ أي ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق

عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً، فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين تجب في الحَضر أربعاً، وفي السفر تُقصر إلى اثنتين، وفي الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة، كما ورد به الحديث، [عند البخاري]، وتصلى رجالاً وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط لعذر المرض، فيصليها المريض جالساً، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات، ولهذا قال عليه السلام: «بعثت بالحنيفية السمحة» [حسنه الحافظ في الفتح]، وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن: «بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا» [متفق عليه]، والأحاديث في هذا كثيرة، ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿**وما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾ يعني من ضيق.

وقوله: ﴿**ملة أبيكم إبراهيم**﴾ قال ابن جرير: نصب على تقدير ﴿**ما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾ أي من ضيق بل وسعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم، قال: ويحتمل أنه منصوب على تقدير الزموا ملة أبيكم إبراهيم. قلت: وهذا المعنى في هذه الآية كقوله: ﴿**قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً**﴾ الآية [الأنعام: ١٦١]. وقوله: ﴿**هو سماكم المسلمين من قبل**﴾ قال ابن عباس: [يعني] الله عز وجل، وكذا قال مجاهد وعطاء والضحاك والسدي ومقاتل بن حيان وقتادة.

قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة وفي الذكر، ﴿**وفي هذا**﴾ يعني القرآن، وكذا قال غيره. **قلت**: وهذا هو الصواب، لأنه تعالى قال: ﴿**هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾ ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه، بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نوه به من ذكرها والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان في كتب الأنبياء يُتلى على الأحبار والرهبان، فقال: ﴿**هو سماكم المسلمين من قبل**﴾ أي من قبل هذا القرآن ﴿**وفي هذا**﴾، وقد روى النسائي عند تفسير هذه الآية عن الحارث الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثي جهنم». قال رجل: يا رسول الله ﷺ وإن صام وصلى؟ قال: «نعم، وإن صام وصلى، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله» [رواه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب]، ولهذا قال: ﴿**ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس**﴾ أي إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عدولا خياراً مشهوداً بعدالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة ﴿**شهداء على الناس**﴾ لأن جميع الأمم معترفةٌ يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها، فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلَّغتْهُم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك. وقوله: ﴿**فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾ أي قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض وطاعة

ما أوجب وترك ما حرم. ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهو الإحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغني من إخراج جزء نزر من ماله في السنة للضعفاء والمحاويج. وقوله: ﴿**واعتصموا بالله**﴾ أي استعينوا به، وتوكلوا عليه وتأيّدوا به ﴿**هو مولاكم**﴾ أي حافظكم وناصركم على أعدائكم ﴿**فنعم المولى ونعم النصير**﴾ يعني نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء. قال وهيب بن الورد: يقول الله تعالى: ابن آدم اذكرني إذا غضبتَ، أذكرك إذا غضبتُ، فلا أمْحَقُك فيمن أمحق، وإذا ظُلمتَ فاصبر وارض بنصرتي، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك. رواه ابن أبي حاتم، والله تعالى أعلم.

تفسير سورة المؤمنون وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

روى النسائي في تفسيره عن يزيد بن بابَنُوس قال: قلنا لعائشة أم المؤمنين: كيف كان خُلُق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خُلق رسول الله ﷺ القرآن، فقرأت: ﴿**قد أفلح المؤمنون**﴾، حتى انتهت إلى: ﴿**والذين هم على صلواتهم يحافظون**﴾ قالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ. [ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وأوله عند مسلم].

وقد روي عن كعب الأحبار ومجاهد وأبي العالية وغيرهم: لما خلق الله جنة عَدْن وغرسها بيده نظر إليها وقال لها: تكلمي، فقالت: ﴿**قد أفلح المؤمنون**﴾. قال كعب الأحبار: لِمَا أعد لهم من الكرامة فيها. وقال أبو العالية: فأنزل الله ذلك في كتابه.

وقوله تعالى: ﴿**قد أفلح المؤمنون**﴾ أي قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف ﴿**الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾ قال ابن عباس: خائفون ساكنون، وكذا روي عن مجاهد والحسن وقتادة والزهري. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الخشوعُ خشوعُ القلب، وكذا قال إبراهيم النخعي. وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا الجَنَاحَ، وقال ابن سيرين: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم، إلى السماء في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿**قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾ خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم. وقال محمد بن سيرين: وكانوا يقولون: لا يجاوز بصره مُصَلاه، فإن كان قد اعتاد النظر فليُغمِض. والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرَّغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقُرَّة عين، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد

والنسائي عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حُبِّب إليّ الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة». [وإسناده حسن].

وقوله: ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ أي عن الباطل، وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم، والمعاصي كما قاله آخرون، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾ [الفرقان: ٧٢]. قال قتادة: أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك. وقوله: ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ الأكثرون على أن المراد بالزكاة ههنا زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة، والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النُّصُب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ [الأنعام: ١٤١]. وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها﴾ [الشمس: ٩ـ١٠]، وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال، فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ أي والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم أو ما ملكت أيمانُهم من السراري، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج، ولهذا قال: ﴿فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك﴾ أي غير الأزواج والإماء ﴿فأولئك هم العادون﴾ أي المعتدون.

وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة ﴿والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال الله تعالى: ﴿فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾. وقوله: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ أي إذا اؤتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان». [متفق عليه]. وقوله: ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ أي يواظبون عليها في مواقيتها، كما قال ابن مسعود: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». أخرجاه في الصحيحين.

وقال ابن مسعود ومسروق في قوله: ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ يعني في

مواقيت الصلاة، وكذا قال أبو الضحى وعلقمة بن قيس وسعيد بن جبير وعكرمة. وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها، وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة فدل على أفضليتها كما قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن». [رواه أحمد وابن حبان وصححه الألباني]. ولما وصفهم الله تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: ﴿**أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون**﴾. وثبت في الصحيح [البخاري] أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن».

وقال مجاهد: ﴿**أولئك هم الوارثون**﴾ قال: ما من عبد إلا وله منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما المؤمن فيُبنى بيته الذي في الجنة، ويُهدم بيته الذي في النار، وأما الكافر فيُهدم بيته الذي في الجنة، ويُبني بيته الذي في النار. وروي عن سعيد بن جبير نحو ذلك. فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به مما خُلقوا له، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل، بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «يجيء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى». قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿**تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً**﴾ [مريم:٦٣]، وكقوله: ﴿**وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون**﴾ [الزخرف:٧٣]. وقد قال مجاهد وسعيد بن جبير: الجنة بالرومية هي الفردوس، وقال بعض السلف: لا يسمى البستان فردوساً إلا إذا كان فيه عنب، فالله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمإ مسنون. وقال ابن عباس: ﴿**من سلالة من طين**﴾ قال: من صَفوةُ الماء. وقال مجاهد: من سلالة أي من مني آدم. وقال ابن جرير: إنما سُمِّي آدمُ طيناً لأنه مخلوق منه. وقال قتادة: استُلّ آدمُ من الطين. وهذا أظهر في المعنى وأقرب إلى السياق، فإن آدم عليه السلام خلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمإ المسنون، وذلك مخلوق من التراب كما قال تعالى: ﴿**ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون**﴾ [الروم:٢٠].

وروى الإمام أحمد عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها

من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك». وقد رواه أبو داود والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح. ﴿ثم جعلناه نطفة﴾ هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ [السجدة:٧-٨] أي ضعيف، كما قال: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين﴾ يعني الرحم مُعَد لذلك مهيأ له ﴿إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون﴾ [المرسلات:٢٢-٢٣] أي مدة معلومة وأجل معين حتى استحكم وتنقَّل من حال إلى حال وصفة إلى صفة، ولهذا قال ههنا: ﴿ثم خلقنا النطفة علقة﴾ أي ثم صَيّرنا النطفة علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة، قال عكرمة: وهي دم. ﴿فخلقنا العلقة مضغة﴾ وهي قطعة كالبضعة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط، ﴿فخلقنا المضغة عظاماً﴾ يعني شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها.

وقرأ آخرون ﴿فخلقنا المضغة عظماً﴾ قال ابن عباس: وهو عظم الصلب، وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل جسد ابن آدم يبلى إلا عَجْبُ الذَّنَب، منه خلق، ومنه يركب» [متفق عليه]. ﴿فكسونا العظام لحماً﴾ أي وجعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ أي ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إذا أتمت النطفة أربعة أشهر بعث الله إليها ملكاً فنفخ فيها الروح في ظلمات ثلاث، فذلك قوله: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ يعني نفخنا فيه الروح، وروي عن أبي سعيد الخدري أنه نَفْخُ الروح، قال ابن عباس: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ يعني به الروح، وكذا قال مجاهد والحسن والسدي وابن زيد [وغيرهم]، واختاره ابن جرير.

وعن ابن عباس أيضا: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ يعني ننقله من حال إلى حال إلى أن خرج طفلاً، ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، ثم هَرِماً. وعن قتادة والضحاك نحو ذلك، ولا منافاة فإنه من ابتداء نفخ الروح فيه شرع في هذه التنقلات والأحوال، والله أعلم. روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم ليُجمع خَلقُه في بطن أمه في أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وهل هو شقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها». أخرجاه.

وقال عبد الله ابن مسعود إن النطفة إذا وقعت في الرحم طارت في كل شعر وظفر، فتمكث

أربعين يوماً، ثم تتحدّر في الرحم فتكون علقة. وروى الإمام أحمد أيضاً عن عبد الله قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي، فقال: لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي، قال: فجاءه حتى جلس، فقال: يا محمد مم يخلق الإنسان؟ فقال: «يا يهودي من كل يُخْلَقُ، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعَصَب، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم» فقام اليهودي فقال: هكذا كان يقول من قبلك. [وله شاهد عند البزار يتقوى به فهو حسن].

وقوله: ﴿**فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾ يعني حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال، وشكل إلى شكل حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السّوي الكامل الخلق، قال: ﴿**فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾. وقوله: ﴿**ثم إنكم بعد ذلك لميتون**﴾ يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت، ﴿**ثم إنكم يوم القيامة تبعثون**﴾ يعني النشأة الآخرة ﴿**ثم الله ينشىء النشأة الآخرة**﴾ [العنكبوت:٢٠] يعني يوم المعاد، وقيام الأرواح إلى الأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوفى كل عامل عمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى خلق الإنسان، عطف بذكر خلق السموات السبع، وكثيراً ما يذكر تعالى خَلْق السموات والأرض مع خلق الإنسان كما قال تعالى: ﴿**لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس**﴾ [غافر:٥٧]. وهكذا في أول﴿**الم**﴾ السجدة التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها في صبيحة يوم الجمعة في أولها خلق السموات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء وغير ذلك من المقاصد.

وقوله: ﴿**سبع طرائق**﴾ قال مجاهد: يعني السموات السبع، وهذه كقوله تعالى: ﴿**تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن**﴾ [الإسراء:٤٤]، وقال هاهنا: ﴿**ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين**﴾ أي ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير، وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماء ولا أرض أرضاً، ولا جبل إلا يعلم ما في وَعْره، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار ﴿**وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين**﴾ [الأنعام:٥٩].

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

يذكر تعالى نعمه على عبيده التي لا تُعد ولا تحصى في إنزاله القَطْر من السماء بقدر، أي

بحسب الحاجة لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به. وقوله: ﴿**فأسكناه في الأرض**﴾ أي جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية له تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى. وقوله: ﴿**وإنا على ذهاب به لقادرون**﴾ أي لو شئنا ألا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري والبحار والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشُرب ولا لسقي لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض بل ينجَرّ على وجهها لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا، ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً، فيسكنه في الأرض ويسلكه ينابيع في الأرض، فيفتح العيون والأنهار فيسقى به الزروع والثمار، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه وتتطهرون منه وتتنظفون، فله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿**فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب**﴾ يعني فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أي بساتين وحدائق ذات منظر حسن. وقوله: ﴿**من نخيل وأعناب**﴾ أي فيها نخيل وأعناب، وهذا ما كان يألف أهل الحجاز ولا فرق بين الشيء وبين نظيره، وكذلك في حق كل أهل إقليم عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره. وقوله: ﴿**لكم فيها فواكه كثيرة**﴾ أي من جميع الثمار، كما قال: ﴿**ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات**﴾ [النحل: ١١]. وقوله: ﴿**ومنها تأكلون**﴾ كأنه معطوف على شيء مقدر تقديره تنظرون إلى حسنه ونضجه ومنه تأكلون.

وقوله: ﴿**وشجرة تخرج من طور سيناء**﴾ يعني الزيتونة، والطور هو الجبل. وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عري عنها سمي جبلاً لا طوراً، والله أعلم، وطور سيناء، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون. وقوله: ﴿**تنبت بالدهن**﴾ قال بعضهم: الباء زائدة، وتقديره تنبت الدهن كما في قول العرب: ألقى فلان بيده، أي يده، وأما على قول من يضمن الفعل، فتقديره تخرج بالدهن أو تأتي بالدهن، ولهذا قال: ﴿**وصبغ**﴾ أي أدم، قاله قتادة، ﴿**للآكلين**﴾ أي فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ، كما روى عبد بن حميد في مسنده وتفسيره عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ائتدموا بالزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة»، ورواه الترمذي وابن ماجه [ويتقوى بحديث أبي أسيد عند أحمد فهو حسن].

وقوله: ﴿**وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون**﴾ يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم، ويأكلون من حملانها ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها، ويحملونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم، كما

قال تعالى: ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم﴾ [النحل: ٧].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله، وانتقامه ممن أشرك به وكذب رسله، ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلاتتقون﴾ أي ألا تخافون من الله في إشراككم به؟ فقال الملأ وهم السادة والأكابر منهم: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾ يعنون يترفع عليكم، ويتعاظم بدعوى النبوة، وهو بشر مثلكم، فكيف أوحي إليه دونكم ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ أي لو أراد أن يبعث نبياً لبعث ملكاً من عنده ولم يكن بشراً ما سمعنا بهذا، أي ببعثة البشر في آبائنا الأولين، يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية. وقوله: ﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾ أي مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم واختصه من بينكم بالوحي ﴿فتربصوا به حتى حين﴾ أي انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه دعا ربه يستنصره على قومه، كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الأخرى: ﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾ [القمر: ١٠] وقال ههنا: ﴿قال رب انصرني بما كذبون﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى بصَنْعَة السفينة وإحكامها، وأن يحمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين، أي ذكراً وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿إلا من سبق عليه القول منهم﴾ أي من سبق عليه القول من الله بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته، والله أعلم.

وقوله: ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ أي عند معاينة إنزال المطر العظيم لا تأخذنك رأفة بقومك وشفقة عليهم، وطمعٌ في تأخيرهم لعلهم يؤمنون، فإني قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان. وقوله: ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين﴾ كما قال: ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ [الزخرف: ١٢-١٤].

وقد امتثل نوح عليه السلام هذا. وقوله: ﴿إن في ذلك لآيات﴾ أي إن في هذا الصنيع وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين لآيات أي لحججاً واضحات على صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء قادر على كل شيء عليم بكل شيء. وقوله: ﴿وإن كنا لمبتلين﴾ أي لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين، قيل: المراد بهم عاد، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم، وقيل: المراد بهؤلاء ثمود لقوله: ﴿فأخذتهم الصيحة بالحق﴾ وأنه تعالى أرسل فيهم رسولاً منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكذبوه وخالفوه وأبوا عن اتباعه لكونه بشراً مثلهم، واستنكفوا عن اتباع رسول بشري، وكذبوا بلقاء الله في القيامة وأنكروا المعاد الجثماني وقالوا: ﴿أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون﴾ أي بعيد بعيد ذلك ﴿إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً﴾ أي فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد ﴿وما نحن له بمؤمنين * قال رب انصرني بما كذبون﴾ أي استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم، فأجاب دعاءه ﴿قال عما قليل ليصبحن نادمين﴾ أي بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به ﴿فأخذتهم الصيحة بالحق﴾ أي وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم، والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصَّرْصر العاصف القوي الباردة ﴿تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ [الأحقاف: ٢٥]. وقوله: ﴿فجعلناهم غثاء﴾ أي صرعى هَلْكى كغثاء السيل، وهو الشيء الحقير التافه الهالك الذي لا ينتفع بشيء منه. ﴿فبعداً للقوم الظالمين﴾ كقوله: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين﴾ [الزخرف: ٧٦] أي بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين﴾ أي أمماً وخلائق ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾ يعني بل يؤخذون على حسب ما قدّر لهم تعالى في كتابه المحفوظ، وعلمه قبل كونهم أمة بعد أمة. ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترا﴾ قال ابن عباس يعني يتبع بعضهم بعضاً، وهذا

كقوله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ [النحل:٣٦]. وقوله: ﴿كلما جاء أمة رسولها كذبوه﴾ يعني جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾ [يس:٣٠]. وقوله: ﴿فأتبعنا بعضهم بعضاً﴾ أي أهلكناهم كقوله: ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾ [الإسراء:١٧]. وقوله: ﴿وجعلناهم أحاديث﴾ أي أخباراً وأحاديث للناس كقوله: ﴿فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق﴾ [سبأ:١٩]. فبعدا لقوم لا يؤمنون.

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون إلى فرعون وملئه بالآيات والحجج الدامغات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما، لكونهما بشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم فأهلك الله فرعون وملأه، وأغرقهم في يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب وهو التوراة، فيها أحكامه وأوامره ونواهيه، وذلك بعد أن قصم الله فرعون والقبط وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون﴾ [القصص:٤٣].

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس، أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى. وقوله: ﴿وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ قال ابن عباس: الربوة المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات. وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة.

قال ابن عباس: وقوله: ﴿ذات قرار﴾ يقول ذات خصب ﴿ومعين﴾ يعني ماء ظاهراً. وقال مجاهد: ربوة مستوية، وقال سعيد بن جبير ﴿ذات قرار ومعين﴾ استوى الماء فيها. وقال مجاهد وقتادة: ﴿ومعين﴾ الماء الجاري. ثم اختلف المفسرون في مكان هذه الربوة: من أي أرض الله هي؟ قال سعيد بن المسيب: هي دمشق. وروي عن عبد الله بن سلام والحسن وزيد بن أسلم وخالد بن معدان نحو ذلك. وعن ابن عباس قال: أنهار دمشق. وقال مجاهد: ﴿وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ قال: عيسى ابن مريم وأمه حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها. وقال أبو هريرة: هي الرملة من فلسطين.

وأقرب الأقوال في ذلك ما روي عن ابن عباس قال: المعين الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿قد جعل ربك تحتك سرياً﴾ [مريم: ٢٤]. وكذا قال الضحاك وقتادة: هو بيت المقدس، فهذا والله أعلم هو الأظهر، لأنه المذكور في الآية الأخرى والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذا أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة ثم الآثار.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً ودلالةً ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً. قال الحسن البصري في قوله: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات﴾ قال: أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه. وقال سعيد بن جبير والضحاك ﴿كلوا من الطيبات﴾ يعني الحلال. وعن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل: كان عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمه، وفي الصحيح «وما من نبي إلا رعى الغنم» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة». وفي الصحيح «إن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده». وقد ثبت في صحيح مسلم وجامع الترمذي ومسند الإمام أحمد واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾ وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب فأنى يستجاب لذلك». وقوله: ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولهذا قال ﴿وأنا ربكم فاتقون﴾. وقوله: ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً﴾ أي الأمم الذين بُعث إليهم الأنبياء ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ أي يفرحون بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً: ﴿فذرهم في غمرتهم﴾ أي في غيهم وضلالهم ﴿حتى حين﴾ أي إلى حين حينهم وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ [الطارق: ١٧].

وقوله: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ يعني أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟ كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نحن أكثر أمولاً وأولاداً وما نحن

بمعذبين﴾ [سبأ: ٣٥]، لقد أخطؤوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً، ولهذا قال: ﴿**بل لا يشعرون**﴾ كما قال تعالى: ﴿**فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون**﴾ [التوبة: ٥٥]. قال قتادة في قوله: ﴿**أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون**﴾ قال: مُكِرَ والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون**﴾ أي هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن الكافر جمع إساءة وأمناً. ﴿**والذين هم بآيات ربهم يؤمنون**﴾ أي يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم عليها السلام: ﴿**وصدقت بكلمات ربها وكتبه**﴾ [التحريم: ١٢] أي أيقنت أن ما كان، إنما هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله: ﴿**والذين هم بربهم لا يشركون**﴾ أي لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفء له.

وقوله: ﴿**والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون**﴾ أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يُتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما روى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل» وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم [والحاكم وصححه ووافقه الذهبي]، وهكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي والحسن البصري في تفسير هذه الآية.

وقد قرأ آخرون هذه الآية ﴿**والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة**﴾ أي يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، والمعنى على القراءة الأولى، وهي قراءة الجمهور السبعة وغيرهم أظهر، لأنه قال: ﴿**أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون**﴾ فجعلهم من السابقين، ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك أن لا يكونوا من السابقين بل من المقتصدين أو المقصرين، والله أعلم.

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾

قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، أي إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء، ولهذا قال: **﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق﴾** يعني كتاب الأعمال، **﴿وهم لا يظلمون﴾** أي لا يبخسون من الخير شيئاً، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين، ثم قال منكراً على الكفار والمشركين من قريش: **﴿بل قلوبهم في غمرة﴾** أي في غفلة وضلالة **﴿من هذا﴾**، أي القرآن الذي أنزله على رسوله ﷺ.

وقوله: **﴿ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾** قال ابن عباس: **﴿ولهم أعمال﴾** أي سيئة من دون ذلك يعني الشرك **﴿هم لها عاملون﴾** قال: لابد أن يعملوها، وكذا روي عن مجاهد والحسن وغير واحد. وقال آخرون: **﴿ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾** أي قد كُتِبَ عليهم أعمالٌ سيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة، لِتَحقَّ عليهم كلمةُ العذاب، وروي نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ظاهر قوي حسن، وقد قدمنا في حديث ابن مسعود [المتفق عليه]: «فو الذي لا إله غيره إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها».

وقوله: **﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون﴾** يعني حتى إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون في الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم **﴿إذا هم يجأرون﴾** أي يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى: **﴿وكم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص﴾** [ص: ٣]. وقوله: **﴿لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾** أي لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتم أو سكتم، لا محيد ولا مناص ولا وزر لزم الأمر ووجب العذاب. ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: **﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾** أي إذا دعيتم أبيتم، وإن طلبتم امتنعتم **﴿ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾** [غافر: ١٢].

وقوله: **﴿مستكبرين به سامراً تهجرون﴾** في تفسيره قولان. أحدهما: أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه استكباراً عليه، واحتقاراً له ولأهله، فعلى هذا الضمير في «به» فيه ثلاثة أقوال: **أحدها**: أنه الحرم بمكة، ذُمُّوا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام. **والثاني**: أنه ضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة. **والثالث**: أنه محمد ﷺ كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو كذاب أو مجنون، فكل ذلك باطل، بل هو عبد الله ورسوله الذي

أظهره الله عليهم وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء. وقيل المراد بقوله: ﴿مستكبرين به﴾ أي بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به، كما روى النسائي من التفسير في سننه عن ابن عباس أنه قال: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية ﴿مستكبرين به سامراً تهجرون﴾ فقال: مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهله سامراً قال: كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه.

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

يقول تعالى منكراً على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف لا سيما آباؤهم الذين ماتوا في الجاهلية حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها والقيام بشكرها وتفهمها والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول ﷺ ورضي عنهم. وقال قتادة: ﴿أفلم يدبروا القول﴾ إذاً والله يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه ولكنهم أخذوا بما تشابه منه فهلكوا عند ذلك. ثم قال منكراً على الكافرين من قريش: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾ أي أفهُمْ لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التي نشأ بها فيهم أي أفيقدرون على إنكار ذلك والمباهتة فيه، ولهذا قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك إن الله بعث فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته، [جزء من حديث طويل جداً رواه أحمد وهو صحيح]، وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا، ومع هذا ما أمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك. وقوله: ﴿أم يقولون به جنة﴾ يحكي قول المشركين عن النبي ﷺ أنه تقوّل القرآن أي افتراه من عنده أو أن به جنوناً لا يدري ما يقول، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن، فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يُطاق ولا يُدافع، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ولا يستطيعون أبد الآبدين ولهذا قال: ﴿بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون﴾ يحتمل أن تكون هذه جملة حالية أي في حالة كراهة أكثرهم للحق ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة والله أعلم.

وقوله: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾ قال مجاهد

وأبو صالح والسدي: الحق هو الله عز وجل، والمراد: لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشرَع الأمور على وَفْقِ ذلك لفسدت السموات والأرض ومن فيهن أي لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم في قولهم: ﴿**لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**﴾ ثم قال: ﴿**أهم يقسمون رحمت ربك**﴾ [الزخرف:٣١-٣٢]، ففي هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتدبيره لخلقه، تعالى وتقدس، فلا إله غيره ولا رب سواه. ثم قال: ﴿**بل أتيناهم بذكرهم**﴾ أي القرآن ﴿**فهم عن ذكرهم معرضون**﴾.

وقوله: ﴿**أم تسألهم خرجاً**﴾ قال الحسن: أجراً. وقال قتادة: جُعْلاً ﴿**فخراج ربك خير**﴾ أي أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه، كما قال: ﴿**قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله**﴾ [سبأ:٤٧]. وقوله: ﴿**وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم . وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون**﴾ روى الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان، فقعد أحدهما عند رجليه، والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مَثَل هذا ومثل أمته، فقال: إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة، فقال: أرأيتم إن أوردتكم رياضا معشبة وحياضاً رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم، قال: فانطلق بهم وأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم ألفكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ قالوا: بلى، قال: فإن بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني، قال: فقالت طائفة: صدق والله لنتبعنه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه. [قال الهيثمي: إسناده حسن].

وقوله: ﴿**وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون**﴾ أي لعادلون جائرون منحرفون، تقول العرب: نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها. وقوله: ﴿**ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون**﴾ يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم بأنه لو أزاح عنهم الضر وأفهمهم القرآن لما انقادوا له ولا ستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم، كما قال تعالى ﴿**ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون**﴾ [الأنفال:٢٣]، فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون ولو كان كيف يكون، قال ابن عباس: كل ما فيه «لو» فهو مما لا يكون أبداً.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ

تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد ﴿فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ أي فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على غيهم وضلالهم ﴿فما استكانوا﴾، أي ما خشعوا ﴿وما يتضرعون﴾ أي ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ [الأنعام:٤٣]. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العلهز ـ يعني الوبر والدم ـ فأنزل الله: ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾. وكذا رواه النسائي، وأصله في الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا، فقال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف».

وروى ابن أبي حاتم عن وهب بن عمر بن كيسان قال حبس وهب بن منبه فقال له رجل من الأبناء: ألا أنشدك بيتاً من شعر يا أبا عبد الله؟ فقال وهب: نحن في طرف من عذاب الله، والله يقول: ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ قال: وصام وهب ثلاثاً متواصلة، فقيل له: ما هذا الصوم يا أبا عبد الله؟ قال: أَحَدَث لنا فأحدثنا، يعني أحدث لنا الحبس فأحدثنا زيادة عبادة.

وقوله: ﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون﴾ أي حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة، فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون فعند ذلك أيسوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم. ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وهي العقول والفهوم التي يدركون بها الأشياء ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله وأنه الفاعل المختار لما يشاء.

وقوله: ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، كقوله: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ [يوسف:١٠٣]. ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر في بَرْئه الخليقة وذرئه لهم في سائر أقطار الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيراً ولا كبيراً، ولا ذكراً ولا أنثى، ولا جليلاً ولا حقيراً، إلا أعاده كما بدأه، ولهذا قال: ﴿وهو الذي يحيي ويميت﴾ أي يحيي الرمم ويميت الأمم، ﴿وله اختلاف الليل والنهار﴾ أي وعن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، يتعاقبان لا يفتران ولا يفترقان بزمان غيرهما، كقوله: ﴿لاالشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار

وكل في فلك يسبحون﴾ [يس: ٤٠].

وقوله: **﴿أفلا تعقلون﴾** أي أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد قهر كُلَّ شيء. ثم قال مخبراً عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين: **﴿بل قالوا مثل ما قال الأولون * قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾** يعني يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى **﴿لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل، إن هذا إلا أساطير الأولين﴾** يعنون أن الإعادة محال، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلاقهم. وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله إخباراً عنهم: **﴿أئذا كنا عظاماً نخرة * قالوا تلك إذاً كرة خاسرة * فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة﴾** [النازعات: ١١-١٤].

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك، ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية فعبدوا غيره معه مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئأولا يملكون شيئاً ولا يستبدون بشيء، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى **﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾** [الزمر: ٣] فقال: **﴿قل لمن الأرض ومن فيها﴾** أي من مالكها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات **﴿إن كنتم تعلمون * سيقولون لله﴾** أي فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك **﴿قل أفلا تذكرون﴾** أي لا تذكرون أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرزاق لا لغيره. **﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم﴾** أي مَنْ هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيّرات والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات، ومن هو رب العرش العظيم، يعني الذي هو سقف المخلوقات، كما جاء في الحديث: «ما السموات السبع والأرضون السبع وما بينهن وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة» [جزء من حديث طويل رواه أبوداود والترمذي وحسنه وصححه الحاكم]. وقال ابن عباس: إنما سمي عرشاً لارتفاعه. وقال كعب الأحبار: إن السموات والأرض في العرش كالقنديل المعلق بين السماء والأرض. وقال مجاهد: ما السموات والأرض في العرش إلا كحلقة في أرض فلاة. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: العرش لا يُقَدِّرُ قدره أحد، وفي رواية: إلا الله عز وجل، ولهذا قال ههنا: **﴿ورب العرش**

العظيم﴾ أي الكبير. وقال في آخر السورة ﴿**رب العرش الكريم**﴾ أي الحسن البهي، فقد جمع العرش بين العظمة في الإتساع والعلو والحسن الباهر، ولهذا قال من قال إنه من ياقوتة حمراء. وقال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه.

وقوله: ﴿**سيقولون لله قل أفلا تتقون**﴾ أي إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به.

﴿**قل من بيده ملكوت كل شيء**﴾ أي بيده الملك ﴿**ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها**﴾ [هود:٥٦]، أي متصرف فيها وكان رسول الله ﷺ يقول: «لا والذي نفسي بيده» وكان إذا اجتهد في اليمين قال: «لا ومقلب القلوب» فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف ﴿**وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون**﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً، لا يُخْفَر في جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه لئلا يفتات عليه، ولهذا قال الله: ﴿**وهو يجير ولا يجار عليه**﴾ أي وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه، الذي لا يُمانع ولا يُخالف، وما شاء كان ومالم يشأ لم يكن، وقال الله: ﴿**لا يسأل عما يفعل وهم يسألون**﴾ [الأنبياء:٢٣].

وقوله: ﴿**سيقولون لله**﴾ أي سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿**قل فأنى تسحرون**﴾ أي فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك. ثم قال تعالى: ﴿**بل أتيناهم بالحق**﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك ﴿**وإنهم لكاذبون**﴾ أي في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك، كما قال في آخر السورة ﴿**ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون**﴾ فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال، كما قال الله عنهم: ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾ [الزخرف:٢٣].

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة، فقال: ﴿**ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض**﴾ أي لو قُدّر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق، فما كان ينتظم الوجود، والمُشَاهدُ أن الوجود منتظم متسق كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال ﴿**ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت**﴾ [الملك:٣] ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض. والمتكلمون ذكروا هذا المعنى، وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه

لو فرض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزاً ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد. وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالاً فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكناً، لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿**ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون**﴾ أي عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً. ﴿**عالم الغيب والشهادة**﴾ أي يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه ﴿**فتعالى عما يشركون**﴾ اي تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون.

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم: ﴿**رب إما تريني ما يوعدون**﴾ أي إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك، فلا تجعلني فيهم كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه: «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفَّني إليك غير مفتون». وقوله تعالى: ﴿**وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون**﴾ اي لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن. ثم قال تعالى مرشداً له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء إليه، ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، فقال تعالى: ﴿**ادفع بالتي هي أحسن السيئة**﴾ وهذا كما قال في الآية الأخرى: ﴿**ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم**﴾ [فصلت: ٣٤ـ٣٥].

وقوله: ﴿**وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين**﴾ أمره الله أن يستعيذ من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم الحيل ولا ينقادون بالمعروف. وقوله: ﴿**وأعوذ بك رب أن يحضرون**﴾ أي في شيء من أمري، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور، ولهذا روى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهَرَم، وأعوذ بك الهَدْم ومن الغرق، وأعوذ بك من أن يتخبطني الشيطان عند الموت» [وهو صحيح بطرقه]. وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عد جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفزع: «باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» قال فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، ولهذا قال: **﴿رب ارجعون لعلي أعمل صاحلاً فيما تركت كلا﴾** كما قال تعالى: **﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت ـ إلى قوله ـ والله خبير بما تعملون﴾** [المنافقون: ١٠-١١]، وقال تعالى: **﴿وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾** [فاطر: ٣٧]، فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون.

وقوله هاهنا: **﴿كلا إنها كلمة هو قائلها﴾** كلا حرف ردع وزجر، أي لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه. وقوله تعالى: **﴿كلا إنها كلمة هو قائلها﴾** قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أي لابد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله كلا، أي لأنها كلمة، أي سؤاله الرجوع ليعمل صالحاً هو كلام منه وقول لا عمل معه، ولو رد لما عمل صالحاً، ولكان يَكْذِبُ في مقالته هذه، كما قال تعالى: **﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾**.

وقال محمد بن كعب القرظي: **﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾** قال: فيقول الجبار: **﴿كلا إنها كلمة هو قائلها﴾** وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة: إذا سمعت الله يقول: كلا فإنما يقول: كذبت. وقال قتادة في قوله تعالى: **﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت﴾** قال: كان العلاء بن زياد يقول: لِيُنْزِلْ أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله تعالى. وقال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فانظروا أمنية الكافر المفرِّط فاعملوا بها، ولا قوة إلا بالله، وعن محمد بن كعب القرظي نحوه. وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: إذا وضع ـ يعني الكافر ـ في قبره فيرى مقعده من النار، قال: فيقول: رب ارجعون أتوب وأعمل صالحاً، قال: فيقال قد عمرت ما كنت معمَّراً، قال: فيضيق عليه قبره، قال: فهو كالمنهوش ينام ويفزع، تهوي إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها.

وروى أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ويل لأهل المعاصي من أهل القبور تدخل عليهم في قبورهم حيات سود أو دهم، حية عند رأسه وحية عند رجليه يقرصانه حتى يلتقيا في وسطه، فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى: **﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾**. وقال أبو صالح وغيره في قوله تعالى: **﴿ومن ورائهم﴾** يعني أمامهم. وقال مجاهد: البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة. وقال محمد بن كعب: البرزخ ما بين الدنيا والآخرة، ليسوا مع

أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم. وقال أبو صخر: البرزخ المقابر لا هم في الدنيا ولا هم في الآخرة، فهم مقيمون إلى يوم يبعثون، وفي قوله تعالى: ﴿ومن ورائهم برزخ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ، كما قال تعالى: ﴿من ورائهم جهنم﴾ [الجاثية: ١٠] وقال تعالى: ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ [إبراهيم: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿إلى يوم يبعثون﴾ أي يستمر به العذاب إلى يوم البعث، كما جاء في الحديث «فلا يزال معذباً فيها» أي في الأرض. [رواه الترمذي وقال حسن غريب].

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور، وقام الناس من القبور ﴿فلا أنساب بينهم﴾ أي لا تنفع الأنساب يومئذ ولا يرثي والد لولده ولا يَلْوي عليه، قال الله تعالى: ﴿ولا يسأل حميم حميماً يبصرونهم﴾ [المعارج: ١٠-١١]أي لايسأل القريب قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وهو كان أعز الناس عليه في الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة، قال الله تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]. وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين، ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه: قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً، ومصداق ذلك في كتاب الله قال الله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ رواه ابن أبي حاتم.

وروى الإمام أحمد عن المسور ابن مخرمة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فاطمة بضعة مني، يَقْبضني ما يقبضها، ويَبْسُطني ما يبسطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي وصهري». وهذا الحديث له أصل في الصحيحين. وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر: «ما بال رجال يقولون إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه؟ بلى والله إن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة، وإني أيها الناس فرط لكم إذا جئتم» قال رجل: يا رسول الله أنا فلان بن فلان، وقال أخوه أنا فلان ابن فلان فأقول لهم: أما النسب فقد عرفت ولكنكم أحدثتم بعدي وارتددتم القهقرى» [ورواه الحاكم وصححه]. وقد ذكرنا في مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من طرق متعددة عنه رضي الله عنه أنه لما تزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: أما والله ما بي إلا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل سببٍ ونَسب فإنه منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي». رواه الطبراني والبزار والهيثم بن كليب والبيهقي، والحافظ الضياء في المختارة وذكر أنه أصدقها أربعين ألفاً إعظاماً وإكراماً رضي الله عنه.

وقوله: ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾ أي من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، قاله ابن عباس. ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ أي الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة، وقال ابن عباس: أولئك الذين فازوا بما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا. ﴿ومن خفت موازينه﴾ أي ثقلت سيئاته على حسناته ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ أي خابوا وهلكوا وباؤوا بالصفقة الخاسرة، ولهذا قال تعالى: ﴿في جهنم خالدون﴾ أي ما كثون فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون. ﴿تلفح وجوههم النار﴾ كما قال تعالى: ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ [إبراهيم: ٥٠]. وقوله: ﴿وهم فيها كالحون﴾ قال ابن عباس: يعني عابسون. وقال عبد الله بن مسعود: ألم تر إلى الرأس المُشَيَّط الذي قد بدا أسنانه وقَلَصت شفتاه. وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: ﴿وهم فيها كالحون﴾، قال: «تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سُرَّته». ورواه الترمذي، وقال: حسن غريب.

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

هذا تقريع من الله تعالى لأهل النار وتوبيخ لهم على ما ارتكبوه من الكفر والمحارم التي أوبقتهم في ذلك، فقال تعالى: ﴿ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون﴾ أي قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت عليكم الكتب، وأزلت شبهكم، ولم يبق لكم حجة، كما قال تعالى: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ [النساء: ١٦٥]، ولهذا قالوا: ﴿ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين﴾ أي قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها، فضللنا عنها ولم نُرزقها. ثم قالوا: ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ أي رُدّنا إلى الدنيا، فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قال: ﴿فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل * ـ إلى قوله ـ فالحكم لله العلي الكبير﴾ [غافر: ١١-١٢] أي لا سبيل إلى الخروج لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون.

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾.

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار. يقول ﴿اخسئوا فيها﴾ أي امكثوا فيها صاغرين أذلاء، ﴿ولا تكلمون﴾ أي لا تعودوا إلى سؤالكم هذا فإنه لا جواب لكم عندي. قال ابن عباس: ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه. وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال: إن أهل جهنم يدعون مالكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً، ثم يرد عليهم إنكم ماكثون، قال هانت دعوتهم والله على مالك

ورب مالك، ثم يدعون ربهم فيقولون ﴿ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ قال: فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ قال: والله ما نَبَس القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم، قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخرياً﴾ أي فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي ﴿حتى أنسوكم ذكري﴾ أي حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتي ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾ أي من صنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون﴾ [المطففين:٢٩-٣٠] أي يلمزونهم استهزاء. ثم أخبر تعالى عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين، فقال: ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا﴾ أي على أذاكم لهم واستهزائكم بهم ﴿أنهم هم الفائزون﴾ أي جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار.

﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده، ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين﴾ أي كم كانت إقامتكم في الدنيا ﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين﴾ أي الحاسبين ﴿قال إن لبثتم إلا قليلاً﴾ أي مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لو أنكم كنتم تعلمون﴾ أي لما آثرتم الفاني على الباقي ولما تصرفتم لأنفسكم هذا المتصرف السيىء ولا استحققتم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا.

وقوله: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾ أي أفظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا، ﴿وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ أي لا تعودون في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ [القيامة:٣٦] يعني هملاً. وقوله: ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ أي تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك ﴿لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم أي حسن المنظر بهيُّ الشكل.

روى ابن أبي حاتم أن آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه

للحكم بينكم والفصل بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله، وحُرم جنة عرضها السموات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن عذاب الله غداً إلا من حذر هذا اليوم وخافه، وباع نافذاً بباق وقليلاً بكثير وخوفاً بأمان، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين، وسيكون من بعدكم الباقين حتى تُردُّون إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم في كل يوم تُشيّعون غادياً ورائحاً إلى الله عز وجل، قد قضى نحبه وانقضى أجله حتى تغيبوه في صَدْع من الأرض في بطن صدع غير مُمهّد ولا مُوسّد، قد فارق الأحباب وباشر التراب، وواجه الحساب، مُرتَهَن بعمله، غني عما ترك، فقير إلى ما قدم. فاتقوا الله قبل انقضاء مواثيقه ونزول الموت بكم، ثم جعل طرف ردائه على وجهه فبكى وأبكى من حوله.

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره، وعبد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله لا برهان له، أي لا دليل له على قوله، فقال: **﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به﴾** وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط في قوله: **﴿فإنما حسابه عند ربه﴾** أي الله يحاسبه على ذلك. ثم أخبر **﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾** أي لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجاة. وقوله: **﴿وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾** هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء، فالغفر إذا أطلق معناه محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال.

تفسير سورة النور وهي مدنية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾.

يقول تعالى: هذه **﴿سورة أنزلناها﴾** فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها **﴿وفرضناها﴾**. قال مجاهد وقتادة: أي بينا الحلال والحرام والأمر والنهي والحدود. **﴿وأنزلنا فيها آيات بينات﴾** أي مفسرات واضحات **﴿لعلكم تذكرون﴾**. ثم قال تعالى: **﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾** هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع، فإن الزاني لا يخلو إما أن يكون بكراً وهو الذي لم يتزوج، أو محصناً وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل، فأما إذا كان بكراً لم يتزوج، فإن حده مائة جلدة كما في الآية، ويزاد على ذلك أن يُغرّب عاماً عن بلده عند جمهور العلماء خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله، فإن عنده أن التغريب إلى رأي الإمام: إن شاء غرب وإن شاء لم يغرّب، وحجة الجمهور في ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ: فقال أحدهما: يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيفاً ـ يعني

أجيراً ـ على هذا، فزنى بامرأته، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى، الوليدة والغنم رد عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريبَ عام، واغد يا أنيس ـ لرجل من أسلم ـ إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها». فغدا عليها فاعترفت فرجمها. ففي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكراً لم يتزوج، فأما إذا كان محصناً فإنه يرجم كما روى الإمام مالك عن ابن عباس أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: أما بعد، أيها الناس فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها ووعيناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف. أخرجاه في الصحيحين وهذه قطعة منه فيها مقصودنا هاهنا.

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن كثير بن الصلت قال: كنا عند مروان وفينا زيد [بن ثابت] فقال زيد: كنا نقرأ: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»، قال مروان: ألا كتبتها في المصحف؟ قال: ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب، فقال: أنا أشفيكم من ذلك، قال: قلنا فكيف؟ قال جاء رجل إلى النبي ﷺ قال: فذكر كذا وكذا وذكر الرجم، فقال: يا رسول الله اكتب لي آية الرجم، قال «لا أستطيع الآن» هذا أو نحو ذلك. وقد رواه النسائي، وطرق الحديث متعددة، ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة فنسخ تلاوتها وبقي حكمها معمولاً به.

وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة، وهي زوجة الرجل الذي استأجر الأجير لما زنت مع الأجير، ورجم رسول الله ﷺ ماعزاً والغامدية، وكل هؤلاء لم ينقل عن رسول الله ﷺ أنه جلدهم قبل الرجم، وإنما وردت الأحاديث الصحاح المتعددة الطرق والألفاظ بالإقتصار على رجمهم وليس فيها ذكر الجلد، ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء، وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعي رحمهم الله. وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أنه يجب أن يجمع على الزاني المحصن بين الجلد للآية، والرجم للسنة، كما رُويَ عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه لما أتى بشُرَاحة، وكانت قد زنت وهي محصنة، فجلدها يوم الخميس، ورجمها يوم الجمعة، فقال: جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ. وقد روى الإمام أحمد ومسلم عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم».

وقوله تعالى: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ أي في حكم الله، أي لا ترحموهما

وترأفوا بهما في شرع الله، وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية على إقامة الحد، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد، فلا يجوز له ذلك. قال مجاهد: إقامة الحدود إذا رُفعت إلى السلطان، فتقام ولا تعطل. وكذا روي عن سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح. وقد جاء في الحديث: «تعافوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حد فقد وجب» [رواه أبوداود والنسائي وصححه الألباني]، وفي الحديث الآخر: «لحد يقام في الأرض خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحاً». [رواه أحمد والنسائي، وحسنه الألباني]. وقيل المراد: ﴿**ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله**﴾ فلا تقيموا الحد كما ينبغي من شدة الضرب الزاجر عن المأثم، وليس المراد الضرب المبرِّح.

قال الشعبي: ﴿**ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله**﴾ قال: رحمة في شدة الضرب. وقال عطاء: ضرب ليس بالمبرح. وقال سعيد بن أبي عروبة عن حماد بن أبي سليمان: يجلد القاذف وعليه ثيابه والزاني تخلع ثيابه، ثم تلا: ﴿**ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله**﴾ فقلت هذا في الحكم؟ قال: هذا في الحكم والجلد يعني في إقامة الحد وفي شدة الضرب. وروى ابن أبي حاتم عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجليها، قال نافع: أراه قال وظهرها، قال قلت: ﴿**ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله**﴾ قال: يا بني ورأيتني أخذتني بها رأفة إن الله لم يأمرني أن أقتلها، ولا أن أجعل جلدها في رأسها، وقد أوجعت حين ضربتها. وقوله تعالى: ﴿**إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾ أي فافعلوا ذلك وأقيموا الحدود على من زنى، وشددوا عليه الضرب ولكن ليس مبرحاً ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك.

وقوله تعالى: ﴿**وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين**﴾ هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جُلدا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما وأنجع في ردعهما، فإن في ذلك تقريعاً وتوبيخاً وفضيحة إذا كان الناس حضوراً. قال الحسن البصري: يعني علانية. وعن ابن عباس قال: الطائفة الرجل فما فوقه. وقال مجاهد: الطائفة رجل إلى ألف، وكذا قال عكرمة، ولهذا قال أحمد: إن الطائفة تصدُق على واحد، وقال عطاء بن أبي رباح: اثنان، وبه قال إسحاق بن راهويه، وكذا قال سعيد بن جبير: يعني رجلين فصاعداً، وقال الزهري: ثلاثة نفر فصاعداً.

وعن الإمام مالك قال: الطائفة أربعة نفر فصاعداً، لأنه لا يكفي شهادة في الزنا دون أربعة شهداء فصاعداً، وبه قال الشافعي. وقال ربيعة: خمسة. وقال الحسن البصري: عشرة وقال قتادة: أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين، أي نفر من المسلمين ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالاً. وروى ابن أبي حاتم عن نصر بن علقمة قال: ليس ذلك للفضيحة، إنما ذلك ليُدعى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة.

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة، أي لا يطاوعه على مراده من

الزنا إلا زانية عاصية، أو مشركة لا ترى حرمة ذلك، وكذلك ﴿**الزانية لا ينكحها إلا زان**﴾ أي عاص بزناه ﴿**أو مشرك**﴾ لا يعتقد تحريمه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿**الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة**﴾ قال: ليس هذا بالنكاح، إنما هو الجماع لا يزني بها إلا زان أو مشرك، وهذا إسناده صحيح عنه. وقد روي عن مجاهد وعروة بن الزبير ومقاتل بن حيان وغير واحد نحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿**وحرم ذلك على المؤمنين**﴾ أي تعاطيه والتزويج بالبغايا، أو تزويج العفائف بالرجال الفجار، وروى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس قال: حرم الله الزنا على المؤمنين. وقال قتادة ومقاتل بن حيان: حرم الله على المؤمنين نكاح البغايا، وتقدم في ذلك فقال ﴿**وحرم ذلك على المؤمنين**﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿**محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان**﴾ [النساء: ٢٥]. وقوله ﴿**محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان**﴾ الآية[المائدة: ٥]. ومن ههنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تستتاب، فإن تابت صح العقد عليها وإلا فلا، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة لقوله تعالى: ﴿**وحرم ذلك على المؤمنين**﴾.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً من المؤمنين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح وتشترط له أن تنفق عليه قال فاستأذن رسول الله ﷺ أو ذكر له أمرها قال: فقرأ عليه رسول الله ﷺ: ﴿**الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحهاإلا زان أو مشرك وحرّم ذلك على المؤمنين**﴾ [ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله». وهكذا أخرجه أبو داود [وأحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

فأما إذا حصلت توبة فإنه يحل التزويج، كما روى الإمام أبو محمد بن أبي حاتم رحمه الله أن رجلا قال لابن عباس: إني كنت ألم بامرأة آتي منها ما حرم الله عز وجل علي، فرزقني الله عز وجل من ذلك توبة، فأردت أن أتزوجها، فقال أناس: إن الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، فقال ابن عباس: ليس هذا في هذا، انكحها فما كان من إثم فعلي. وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة، كما روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال: ذُكر عنده ﴿**الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك**﴾ قال: كان يقال نسختها الآية التي بعدها ﴿**وأنكحوا الأيامى منكم**﴾ قال: كان يقال الأيامى من المسلمين، وهكذا رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب «الناسخ والمنسوخ»، ونص على ذلك أيضاً الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾.

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة، هي الحرة البالغة العفيفة، فإذا كان المقذوف رجلاً فكذلك يجلد قاذفه أيضاً، وليس في هذا نزاع بين العلماء، فإن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله، رُدّ عنه الحد، ولهذا قال تعالى: **﴿ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾**، فأوجب على القاذف، إذا لم يقم البينة على صحة ما قال، ثلاثة أحكام: أحدها: أن يجلد ثمانين جلدة. الثاني: أنه ترد شهادته أبداً. الثالث: أن يكون فاسقاً ليس بعدل لا عند الله ولا عند الناس.

ثم قال تعالى: **﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾** الآية. واختلف العلماء في هذا الاستثناء. هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبةُ الفسقَ فقط، ويبقى مردودَ الشهادة دائماً وإن تاب، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة؟ أما الجلد فقد ذهب وانقضى سواء تاب أو أصر ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف. فذهب الإمام مالك وأحمد والشافعي إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته، وارتفع عنه حكم الفسق، ونص عليه سعيد بن المسيب سيد التابعين، وجماعة من السلف أيضاً. وقال الإمام أبو حنيفة: إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط، فيرتفع الفسق بالتوبة، ويبقى مردود الشهادة أبداً. وممن ذهب إليه من السلف القاضي شريح وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومكحول وعبد الرحمن بن زيد بن جابر. وقال الشعبي والضحاك: لا تقبل شهادته وإن تاب إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان، فحينئذ تقبل شهادته، والله أعلم.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج إذا قذف أحدُهم زوجته، وتعسر عليه إقامةُ البينة أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل وهو أن يحضرها إلى الإمام فيدعي عليها بما رماها به، فيُحَلِّفُه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين أي فيما رماها به من الزنا **﴿والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين﴾** فإذا قال ذلك، بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وحرمت عليه أبداً، ويعطيهامهرها ويتوجه عليها حد الزنا، ولا يُدْرأُ عنهاالعذاب إلا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، أي فيما رماها به **﴿والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين﴾**. ولهذا قال: **﴿ويدرأ عنها العذاب﴾** يعني الحد **﴿أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين * والخامسة أن**

غضب الله عليها إن كان من الصادقين﴾ فخصها بالغضب، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور، وهي تعلم صدقه فيما رماها به، ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه.

ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدة ما يكون فيه من الضيق، فقال تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ أي لحرجتم ولشق عليكم كثير من أموركم ﴿وأن الله تواب﴾ أي على عباده، وإن كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغلظة ﴿حكيم﴾ فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه، وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية، وذكر سبب نزولها وفيمن نزلت فيه من الصحابة.

فقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾ قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار رضي الله عنه: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ «يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟» فقالوا: يا رسول الله: لا تَلُمه فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً، وما طلق امرأة له قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته. فقال سعد: والله يا رسول الله إني لأعلم أنها حق وأنها من الله، ولكني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيّجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء، فو الله لا آتي بهم حتى يقضي حاجته ـ قال: فما لبثوا إلا يسيراً ـ حتى جاء هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، فجاء من أرضه عشاء، فوجد عند أهله رجلاً، فرأى بعينيه وسمع بأذنيه فلم يهيجه حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني جئت على أهلي عشاء فوجدت عندها رجلاً، فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه، واجتمعت عليه الأنصار وقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة الآن، يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويبطل شهادته في الناس، فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً. وقال هلال يا رسول الله فإني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به، والله يعلم إني لصادق. فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ أنزل الله على رسوله ﷺ الوحي، وكان إذا أنزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تَرَبُّد وجهه، يعني فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي، فنزلت: ﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله﴾ الآية، فسُرّي عن رسول الله ﷺ فقال: «أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً» فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي عز وجل، فقال رسول الله ﷺ «أرسلوا إليها» فأرسلوا إليها فجاءت، فتلاها رسول الله ﷺ عليهما، فذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، فقال هلال: والله يا رسول الله لقد صدقت عليها، فقالت: كذب، فقال رسول الله ﷺ «لاعنوا بينهما» فقيل لهلال: اشهد، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين،

فلما كانت الخامسة قيل له: يا هلال اتق الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب، فقال: والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها، فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم قيل للمرأة: اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، وقيل لها عند الخامسة: اتقي الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف، ثم قالت: والله لا أفضح قومي، فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ففرق رسول الله ﷺ بينهما، وقضى أن لا يدعى ولدها لأب، ولا يرمى ولدها، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد، وقضى أن لا بيت لها عليه ولا قوت لها من أجل أنهما يفترقا من غير طلاق ولا متوفى عنها. ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾.

هذه العشر آيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله عز وجل لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه، فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض رسول الله ﷺ فقال: ﴿**إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم**﴾ أي جماعة منكم يعني ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين، فإنه كان يجمعه ويستوشيه، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين فتكلموا به، وجوزه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن، وسياق ذلك في الأحاديث الصحيحة.

روى الإمام أحمد عنن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها، خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة رضي الله عنها: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، وخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه، مسيرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غَزْوه وقفل ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذن بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري، فإذا عقْد لي من جَزْع ظَفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه. وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه، قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يهلبهن ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العُلْقة من الطعام. فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني

عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرَّس من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يضرب على الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته، فوطىء على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن سلول، فقدمت المدينة فاشتكيت حين قدمناها شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول «كيف تيكم ؟» فذلك الذي يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت، وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه في البرية وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها في بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وابنة أبي رهم) أم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئسما قلت تسبين رجلاً شهد بدراً ؟ فقالت: أي هنتاه ألم تسمعي ما قال ؟ قلت: وماذا قال ؟ قالت فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل عليّ رسول الله ﷺ فسلم، ثم قال «كيف تيكم ؟» فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي ؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس به ؟ فقالت: أي بنية هوني عليك، فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت: فقلت سبحان الله أوقد تحدث الناس بهذا، فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، قالت: فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي ويستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه له من الود، فقال أسامة: يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيراً. وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: «أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟» فقالت له بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت منها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله. فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين من

يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي». فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا بأمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ: لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت! لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتثاور الحيان: الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائمٌ على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت عليّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها فجلست تبكي معي، فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله ثم توبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبٍ ثم تاب، تاب الله عليه». قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ، فقال والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأمي أجيبي عني رسول الله ﷺ فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أحفظ كثيراً من القرآن، والله لقد عرفت، أنكم قد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أني بريئة لتصدقني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿**فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون**﴾ [يوسف:١٨]. قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذٍ أعلم أني بريئة وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها. قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فلما سُرِّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك». قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل هو الذي أنزل براءتي،

وأنزل الله عز وجل: ﴿**إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم**﴾ العشر آيات كلها، فأنزل الله هذه الآيات في براءتي قالت: فقال أبو بكر رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿**ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى ـ إلى قوله ـ ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم**﴾ [النور:٢٢]، فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري، فقال «يا زينب ماذا علمت أو رأيت ؟» فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله تعالى بالورع. وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك. أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

فقوله: ﴿**إن الذين جاءوا بالإفك**﴾ أي بالكذب والبهت والافتراء ﴿**عصبة**﴾ أي جماعة منكم ﴿**لاتحسبوه شراً لكم**﴾ أي يا آل أبي بكر ﴿**بل هو خير لكم**﴾ أي في الدنيا والآخرة لسان صدق في الدنيا، ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم، ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضي الله عنه وعنها وهي في سياق الموت، قال لها: أبشري فإنك زوجة رسول الله ﷺ، وكان يحبك ولم يتزوج بكراً غيرك، ونزلت براءتك من السماء. [رواه البخاري].

وقوله: ﴿**لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم**﴾ أي لكل من تكلم في هذه القضية ورمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب ﴿**والذي تولى كبره منهم**﴾ قيل ابتدأ به، وقيل الذي كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه ﴿**له عذاب عظيم**﴾ أي على ذلك، ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبي ابن سَلُول قبحه الله تعالى ولعنه، وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث، وقال ذلك مجاهد وغير واحد، وقيل المراد به حسان بن ثابت، وهو قول غريب.

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة رضي الله عنها حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السيىء، وما ذكر من شأن الإفك فقال: ﴿**لولا**﴾ يعني هلا ﴿**إذ سمعتموه**﴾ أي ذلك الكلام الذي رُمِيَتْ به أم المؤمنين رضي الله عنها ﴿**ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً**﴾ أي قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى.

وقوله تعالى: ﴿ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً﴾ أي هلا ظنوا الخير فإن أم المؤمنين أهله وأولى به. هذا ما يتعلق بالباطن، ﴿وقالوا﴾ أي بألسنتهم ﴿هذا إفك مبين﴾ أي كذب ظاهر على أم المؤمنين رضي الله عنها، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة، والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جَهْرة ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان يكون هذا لو قُدر خفية مستوراً، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والرعونة الفاحشة الفاجرة، والصفقة الخاسرة، قال الله تعالى: ﴿لولا﴾ أي هلا ﴿جاءوا عليه﴾ أي على ما قالوه ﴿بأربعة شهداء﴾ يشهدون على صحة ما جاءوا به ﴿فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾ أي في حكم الله كاذبون فاجرون.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

يقول الله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة﴾ أيها الخائضون في شأن عائشة بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ﴿لمسكم فيماأفضتم فيه﴾ من قضية الإفك ﴿عذاب عظيم﴾ وهذا فيمن عنده إيمان رزقه الله بسببه التوبة إليه، كمسطح وحسان وحمنة بنت جحش أخت زينت بنت جحش، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي ابن سلول وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية، لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه، وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه.

ثم قال تعالى: ﴿إذ تلقونه بألسنتكم﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير: أي يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا سمعته من فلان، وقال فلان كذا، وذكر بعضهم كذا، وقرأ آخرون: «إذ تَلِقُونه بألسنتكم». وفي صحيح البخاري عن عائشة أنها كانت تقرؤها كذلك، وتقول: هو من وَلَق القول. يعني الكذب الذي يستمر صاحبه عليه، تقول العرب: وَلَق فلان في السير: إذا استمر فيه، والقراءة الأولى أشهر وعليها الجمهور، ولكن الثانية مروية عن أم المؤمنين عائشة.

وقوله: ﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾ أي تقولون ما لا تعلمون. ثم قال تعالى: ﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾ أي تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين وتحسبون ذلك يسيراً سهلاً، ولو لم تكن زوجة النبي ﷺ لما كان هيناً، فكيف وهي زوجة النبي الأمي خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، فعظيم عند الله أن يقال في زوجة رسوله ما قيل! فإن الله سبحانه وتعالى يغار لهذا، وهو سبحانه وتعالى لا يقدّر على زوجة نبي من الأنبياء ذلك حاشا وكلا،

ولما لم يكن ذلك، فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾، وفي الصحيحين: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تَبْلُغ، يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض». وفي رواية «لا يلقي لها بالاً».

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

هذا تأديب آخر بعد الأول الآمر بظن الخير، أي إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة فأولى ينبغي الظن بهم خيراً، وأن لا يشعر نفسه سوى ذلك، ثم إن عَلِق بنفسه شيء من ذلك وسوسة أو خيالاً، فلا ينبغي أن يتكلم به، فإن رسول الله ﷺ قال «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل». أخرجاه في الصحيحين. وقال الله تعالى: ﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ أي ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ أي سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله وحليلة خليله.

ثم قال تعالى: ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً﴾ أي ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً أي فيما يستقبل. فلهذا قال: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه، وتعظمون رسوله ﷺ، فأما من كان متصفاً بالكفر فذاك حكم آخر. ثم قال تعالى: ﴿ويبين الله لكم الآيات﴾ أي يوضح لكم الأحكام الشرعية والحِكَمَ القَدَريّة، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بما يصلح عباده، حكيم في شرعه وقدره.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيء، فقام بذهنه شيء منه وتكلم به، فلا يكثر منه ولا يشيعه ويذيعه، فقد قال تعالى: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾ أي يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح ﴿لهم عذاب أليم في الدنيا﴾ أي بالحد، وفي الآخرة بالعذاب ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي فَرُدُّوا الأمور إليه ترشدوا. وروى الإمام أحمد عن ثوبان عن النبي ﷺ قال: «لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته، حتى يفضحه في بيته». [وله شاهد عند مسلم من حديث أبي هريرة].

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

يقول الله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم﴾ أي لولا هذا لكان أمر آخر، ولكنه تعالى رؤوف بعباده رحيم بهم، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليه. ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ يعني طرائقه ومسالكه وما يأمر به ﴿ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾ هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها، قال ابن عباس: ﴿خطوات الشيطان﴾ عمله. وقال عكرمة: نزغاته. وقال قتادة: كل معصية فهي من خطوات الشيطان. وقال أبو مجلز: النذور في المعاصي من خطوات الشيطان. وقال مسروق: سأل رجل ابن مسعود فقال: إني حرمت أن آكل طعاماً وسماه، فقال: هذا من نزغات الشيطان، كفِّر عن يمينك وكل. وقال الشعبي في رجل نذر ذبح ولده: هذا من نزغات الشيطان، وأفتاه أن يذبح كبشاً.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي رافع قال: غضبت علي امرأتي فقالت هي يوماً يهودية ويوماً نصرانية، وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك، فأتيت عبد الله بن عمر فقال: إنما هذه من نزغات الشيطان، وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة وهي يومئذ أفقه امرأة بالمدينة، وأتيت عاصم بن عمر فقال مثل ذلك. ثم قال تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ أي لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ويزكي النفوس من شركها، وفجورها ودنسها، وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه، لما حَصَّل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً ﴿ولكن الله يزكي من يشاء﴾ أي من خلقه، ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغيّ. وقوله: ﴿والله سميع﴾ أي سميع لأقوال عباده ﴿عليم﴾ بمن يستحق منهم الهدى والضلال.

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ولا يأتل﴾ أي لا يحلف ﴿أولو الفضل منكم﴾ أي الطَّوْل والإحسان ﴿والسعة﴾ أي الجِدَةَ ﴿أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله﴾ أي لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين. وهذا في غاية الترقق والعطف على صلة الأرحام، ولهذا قال تعالى: ﴿وليعفوا وليصفحوا﴾ أي عما تقدم منهم من الإساءة والأذى؟ وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم، وهذه الآية نزلت في الصديق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفع مِسْطَح بن أثاثَة بنافعة بعدما قال في عائشة ما قال، كما تقدم في الحديث، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على من أقيم عليه ـ شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنة، يعطف الصديق على قريبه ونسيبه وهو مسطح بن أثاثة، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر رضي الله

عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد زلق زلقةً تاب الله عليه منها، وضُرب الحد عليها، وكان الصديق رضي الله عنه معروفاً بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿**ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم**﴾ أي، فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكماتصفح نصفح عنك، فعند ذلك قال الصديق: بلى والله إنا نحب ـ يا ربنا ـ أن تغفر لنا ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، في مقابلة ما كان، قال والله لا أنفعه بنافعة أبداً. فلهذا كان الصديق هو الصديق رضي الله عنه وعن بنته.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾.

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات ـ خُرِّج مخرج الغالب ـ المؤمنات فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، ولا سيما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما، وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية، فإنه كافر لأنه معاند للقرآن. وفي بقية أمهات المؤمنين قولان: أصحهما أنهن كهي، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم**﴾، كقوله: ﴿**إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً**﴾ [الأحزاب: ٥٧]. وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة، فقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿**إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات**﴾ قال: نزلت في عائشة خاصة، وكذا قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان، وقد ذكره ابن جرير عن عائشة. وليس الحكم خاصا بها، وإن كان الحكم يعمها كغيرها، ولعله مراد ابن عباس ومن قال كقوله، والله أعلم. وقال الضحاك وأبو الجوزاء وسلمة بن نُبَيْط: المراد بها أزواج النبي خاصة دون غيرهن من النساء.

وروى ابن جرير عن ابن عباس أنه: فسر سورة النور، فلما أتى على هذه الآية ﴿**إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات**﴾ الآية، قال: في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ، وهي مبهمة وليست لهم توبة، ثم قرأ ﴿**والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء** ـ إلى قوله ـ **إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا**﴾ الآية [النور: ٤-٥]، قال: فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة، قال: فهمّ بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه من حسن ما فسر به سورة النور. فقوله وهي مبهمة أي عامة في تحريم قذف كل محصنة ولعنته في الدنيا والآخرة، وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذا في عائشة ومن صنع مثل هذا أيضاً اليوم في المسلمات فله ما قال الله تعالى ولكن عائشة كانت إمَامَ ذلك.

وقد اختار ابن جرير عمومها وهو الصحيح، ويعضد العموم ما رواه ابن أبي حاتم عن

أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». أخرجاه في الصحيحين.

وقوله: ﴿**يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون**﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إنهم يعني المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا: تعالوا حتى نجحد فيجحدون، فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم و أرجلهم ولا يكتمون الله حديثاً.

وروى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال «من مجادلة العبد لربه يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز عليّ إلا شاهداً من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام عليك شهوداً، فيختم على فيه ويقال لأركانه: انطقي فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكن وسحقاً فعنكنَّ كنت أناضل». وقد رواه مسلم والنسائي. وقال قتادة: ابن آدم، والله إن عليك لشهوداً غير متهمة في بدنك، فراقبهم واتق الله في سرك وعلانيتك، فإنه لا يخفى عليه خافية، الظلمة عنده ضياء، والسر عنده علانية، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل ولا قوة إلا بالله.

وقوله: ﴿**يومئذ يوفيهم الله الحق دينهم الحق**﴾ قال ابن عباس ﴿**دينهم**﴾ أي حسابهم وكلْ ما في القرآن دينهم أي حسابهم، وكذا قال غير واحد. ثم إن قراءة الجمهور بنصب الحق على أنه صفة لدينهم، وقرأ مجاهد بالرفع على أنه نعت الجلالة. وقوله: ﴿**ويعلمون أن الله هو الحق المبين**﴾ أي وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه.

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قال ابن عباس: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول. والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول. قال: ونزلت في عائشة وأهل الإفك، وهكذا روي عن مجاهد والشعبي والحسن البصري [وغيرهم]، واختاره ابن جرير، ووجَّهَهُ بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم، ولهذا قال: ﴿**أولئك مبرءون مما يقولون**﴾ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال. والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، وهذا أيضاً يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم، أي ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا

وهي طيبة، لأنه أطيب من كل طيب من البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعاً ولا قدراً، ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك مبرءون مما يقولون﴾ أي هم بُعَداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ﴿لهم مغفرة﴾ أي بسبب ما قيل فيهم من الكذب، ﴿ورزق كريم﴾ أي عند الله في جنات النعيم، وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة.

روى ابن أبي حاتم عن يحيى بن الجزار قال: جاء أسير بن جابر إلى عبد الله [بن مسعود]، فقال: لقد سمعت الوليد بن عقبة تكلم اليوم بكلام أعجبني، فقال عبد الله: إن الرجل المؤمن يكون في قلبه الكلمة غير الطيبة تتجلجل في صدره ما يستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل عنده يَتُلها فيضمها إليه. وإن الرجل الفاجر يكون في قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل في صدره ما تستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل الذي عنده يتلها فيضمها إليه ثم قرأ عبد الله ﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

هذه آداب شرعية، أدب الله بها عباده المؤمنين وذلك في الاستئذان، أمرهم أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا، أي يستأذنوا قبل الدخول، ويسلموا بعده، وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات، فإن أذن له وإلا انصرف، كما ثبت في الصحيح أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً فلم يؤذن له انصرف، ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له، فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما رجعك؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، وإني سمعت النبي ﷺ يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصرف». فقال عمر: لتأتيني على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضرباً، فذهب إلى ملإ من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر فقالوا لا يشهد لك إلا أصغرنا فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك فقال: ألهاني عنه الصفق بالأسواق. [متفق عليه].

وروى الإمام أحمد عن أنس أو غيره أن رسول الله ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال: «السلام عليك ورحمة الله» فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله، ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثاً. ورد عليه سعد ثلاثاً ولم يسمعه فرجع النبي ﷺ واتبعه سعد فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، ما سلمت تسليمة إلا وهي بأذني، ولقد رددت عليك ولم أسمعك، وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة، ثم أدخله البيت فقرب إليه زبيباً فأكل نبي الله، فلما فرغ قال: «أكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة، وأفطر عندكم الصائمون». ورواه أبوداود والنسائي [وسنده صحيح].

ثم ليعلم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فخذفته بحصاة ففقأت عينه، ما كان عليك من جناح» وأخرج الجماعة عن جابر قال: أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي فدققتُ الباب، فقال: «من ذا؟» فقلت: أنا، قال: «أنا أنا» كأنه كرهه، وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يُفصِحَ باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها، وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بـ «أنا»، فلا يحصل بها المقصود من الإستئذان الذي هو الإستئناس المأمور به في الآية، وقال ابن عباس: الإستئناس: الإستئذان، وكذا قال غير واحد.

وروى الإمام أحمد عن كَلَدَة بن الحنبل أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح، والنبي ﷺ بأعلى الوادي، قال: فدخلت على النبي ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن، فقال ﷺ: «ارجع فقل السلام عليكم أأدخل؟» وذلك بعد ما أسلم صفوان، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب. وروى أبو داود عن رِبْعِي قال: حدثنا رجل من بني عامر استأذن على رسول الله ﷺ وهو في بيته، فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه «اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقل له: قل السلام عليكم أأدخل؟» فسمعه الرجل، فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فأذن له النبي ﷺ، فدخل. [وإسناده صحيح].

وعن ابن مسعود قال: عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاث آيات جحدهن الناس. قال الله تعالى: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ [الحجرات: ١٣]، قال: ويقولون إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتاً. قال: والإذن كله قد جحده الناس. قال: قلت: أستأذن على أخواتي أيتام في حجري معي في بيت واحد؟ قال: نعم. فرددت عليه ليرخص لي فأبى، فقال: تحب أن تراها عريانة؟ قلت: لا، قال: فاستأذن قال: فراجعته أيضاً. فقال: أتحب أن تطيع الله؟ قلت نعم، قال: فاستأذن. وقال طاوس: ما من امرأة أكره إليّ أن أرى عورتها من ذات محرم، قال: وكان يشدد في ذلك. وقال ابن جريج: قلت لعطاء: أيستأذن الرجل على امرأته قال: لا. وهذا محمول على عدم الوجوب، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها. وروى أبو جعفر بن جرير عن زينب رضي الله عنها، قالت: كان عبدالله [بن مسعود] إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه، إسناده صحيح.

وقال مجاهد: حتى تستأنسوا، قال: تنحنحوا أو تَنَخَّموا. وعن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه قال: إذا دخل الرجل بيته استُحب له أن يتنحنح أو يحرك نعليه، ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ: أنه نهى أن يطرقَ الرجل أهلَه طُروقاً ـ وفي رواية ـ ليلاً يَتَخوّنهم،

وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهاراً، فأناخ بظاهرها، وقال: «انتظروا حتى ندخل عشاء ـ يعني آخر النهار ـ حتى تمتشط الشعثة وتستحد المُغَيبة». [متفق عليه].

وقال قتادة في قوله: ﴿حتى تستأنسوا﴾ هو الاستئذان ثلاثاً، فمن لم يؤذن له فيهم فليرجع، أما الأولى فليسمع الحي، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة فإن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردوا، ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم، فإن للناس حاجات ولهم أشغال، والله أولى بالعذر.

وقال مقاتل بن حيان: كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه، ويقول: حييت صباحاً وحييت مساء، وكان ذلك تحيةَ القومِ بينهم. وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول: قد دخلتُ. فيشق ذلكَ على الرجل ولعله يكون مع أهله فغيَّر الله ذلك كله في ستر وعفة، وجعله نقياً نزهاً من الدنس والقذر والدرَن، فقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها**﴾. وهذا الذي قاله مقاتل: حسن، ولهذا قال تعالى: ﴿**ذلكم خير لكم**﴾ يعني الاستئذان خير لكم، بمعنى هو خير من الطرفين للمستأذن ولأهل البيت ﴿**لعلكم تذكرون**﴾.

وقوله: ﴿**فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم**﴾، وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه، فإن شاء أذن، وإن شاء لم يأذن ﴿**وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم**﴾ أي إذا ردّوكم من الباب قبل الإذن أو بعده ﴿**فارجعوا هو أزكى لكم**﴾ أي رجوعكم أزكى لكم وأطهر ﴿**والله بما تعملون عليم**﴾. وقال قتادة: قال بعض المهاجرين لقد طلبتُ عمري كله هذه الآية، فما أدركتها أن أستأذن على بعض إخواني فيقول لي ارجع، فأرجع وأنا مغتبط لقوله: ﴿**وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم**﴾. وقال سعيد بن جبير: لا تقفوا على أبواب الناس.

وقوله: ﴿**ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة**﴾ هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها، وذلك أنها تقتضي جوازَ الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد، إذا كان له متاع فيها بغير إذن، كالبيت المعد للضيف إذا أذن له فيه أولَ مرة كفى. قال ابن عباس: ﴿**لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم**﴾ ثم نُسخ واستثنى، فقال تعالى: ﴿**ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم**﴾ وكذا روي عن عكرمة والحسن البصري، وقال آخرون: هي بيوت التجار ومنازل الأسفار، وبيوت مكة وغير ذلك، واختار ذلك ابن جرير وحكاه عن جماعة، والأول أظهر، والله أعلم. وقال زيد بن أسلم: هي بيوت الشعر.

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على

محرم من غير قصد، فليصرف بصره عنه سريعاً، كما رواه مسلم في صحيحه عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري. وفي الصحيح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والجلوس على الطرقات» قالوا: يارسول الله لابد لنا من مجالسنا نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: «إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه» قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ فقال«غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر». [متفق عليه].

وفي صحيح البخاري: «من يكفل لي ما بين لحييه وما بين رجليه، أكفل له الجنة». ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب، كما قال بعض السلف: النظر سهم سم إلى القلب، فلذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك، فقال تعالى: ﴿**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم**﴾ وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا، كما قال تعالى: ﴿**والذين هم لفروجهم حافظون**﴾ [المعارج:٢٩ـ٣٠]، وتارة يكون بحفظه من النظر إليه كما جاء في الحديث في مسند أحمد والسنن: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك». [وهو صحيح]. ﴿**ذلك أزكى لهم**﴾ أي أطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم، كما قيل: من حفظ بصره أورثه الله نوراً في بصيرته، ويروى في قلبه.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة (أول مرة) ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها» وروي هذا مرفوعاً عن ابن عمر وحذيفة وعائشة رضي الله عنهم، ولكن في أسانيدها ضعف إلا أنها في الترغيب، ومثله يتسامح فيه.

وقوله: ﴿**إن الله خبير بما يصنعون**﴾ كما قال تعالى: ﴿**يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**﴾ [غافر:١٩]. وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأذنين الاستماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخطى، والنفس تمنىٰ وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه». رواه البخاري تعليقاً، ومسلم مسنداً بنحو ما تقدم، وقد قال كثير من السلف: إنهم كانوا ينهون أن يحدَّ الرجل بصره إلى الأمرد، وحرمه طائفة من أهل العلم لما فيه من الافتتان، وشدد آخرون في ذلك كثيراً جداً.

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات، وغَيْرَة منه لأزواجهنّ، عباده المؤمنين، وتمييزٌ لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات. فقوله تعالى: ﴿**وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن**﴾ أي عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن، ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً. واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذي عن أم سلمة أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة قالت فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعدما أمِرْنا بالحجاب فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه». فقلت: يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أو عمياوان أنتما؟ أوألستما تبصرانه». ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح. وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتى ملت ورجعت.

وقوله: ﴿**ويحفظن فروجهن**﴾ قال سعيد بن جبير: عن الفواحش. وقال قتادة وسفيان: عما لا يحل لهن. وقال مقاتل: عن الزنا، وقال أبو العالية: كل آية نزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج فهو من الزنا إلا هذه الآية ﴿**ويحفظن فروجهن**﴾ أن لا يراها أحد. وقوله: ﴿**ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها**﴾ أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه. قال ابن مسعود: كالرداء والثياب يعني على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المِقَنعة التي تُجَلِّل ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب. فلا حرج عليها فيه لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه ونظيره في زي النساء ما يظهر من إزارها وما لا يمكن إخفاؤه. وقال بقول ابن مسعود الحسن وابن سيرين وأبو الجوزاء وإبراهيم النخعي وغيرهم.

وقال ابن عباس: وجهها وكفيها والخاتم. وروي عن ابن عمر وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير وأبي الشعثاء والضحاك وإبراهيم النخعي وغيرهم نحو ذلك، وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي نهين عن إبدائها، كما قال عبد الله [بن مسعود]: الزينة القرط والدُّمْلُجَ والخَلْخَال والقلادة. وفي رواية عنه بهذا الإسناد قال: الزينة زينتان: فزينة لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب. وقال الزهري لا يبدين لهؤلاء الذين سَمَّى الله ممن لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة من غير حسر وأما عامة الناس فلا يبدين منها إلا الخواتم.

وقال الزهري أيضا: الخاتم والخلخال. ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ماظهر منها بالوجه والكفين وهذا هو المشهور عند الجمهور، ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه عن خالد بن دريك عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها، وقال: «يا أسماء إن المرأة إذا بلغت

المحيض لم يصلح أي يرى منها إلا هذا» وأشار إلى وجهه وكفيه، لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازي: هذا مرسل؛ خالد بن دريك لم يسمع من عائشة رضي الله عنها، والله أعلم.

وقوله: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ يعني المقانع يعمل لها صَنفات ضاربات على صدور النساء لتواري ما تحتها من صدرها وترائبها ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية فإنهن لم يكن يفعلن ذلك بل كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها، فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن كما قال تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ [الأحزاب:٥٩]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ والخمر: جمع خمار وهو ما يخمر به أي يغطى به الرأس وهي التي تسميها الناس المقانع.

قال سعيد بن جبير: ﴿وليضربن﴾ وليشددن ﴿بخمرهن على جيوبهن﴾ يعني على النحر والصدر فلا يُرى منه شيء وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها.

وقوله: ﴿ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن﴾ أي أزواجهن ﴿أو آبائهن أو آباء بعولتهن أوأبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن﴾ كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ولكن من غير تبرج. وقال الشعبي وعكرمة في هذه الآية: لم يذكر العم ولا الخال لأنهما ينعتان لأبنائهما ولا تضع خمارها عند العم والخال، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره.

وقوله: ﴿أو نسائهن﴾ يعني تظهر بزينتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة لئلا تصفهن لرجالهن. وذلك وإن كان محذوراً في جميع النساء إلا أنه في نساء أهل الذمة أشد فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع وأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه، وقد قال رسول الله ﷺ: «لاتباشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها». أخرجاه في الصحيحين. وكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة: أما بعد فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك فانْهَ مَن قِبَلَك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها. وقال مجاهد: نساؤهن المسلمات ليس المشركات من نسائهن، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدي المشركة، وعن ابن عباس قال: هن المسلمات لا تبديه ليهودية ولا نصرانية وهو النحر والقرط والوشاح وما لا يحل أن يراه إلا محرم.

وعن مجاهد قال: لاتضع المسلمة خمارها عند مشركة لأن الله تعالى يقول: ﴿أو نسائهن﴾

فليست من نسائهن، وعن مكحول وعبادة بن نُسَيّ أنهما كرها أن تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة، وعن عطاء قال: لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ بيت المقدس كان قوابل نسائهم اليهوديات والنصرانيات، فهذا إن صح فمحمول على حال الضرورة أو أن ذلك من باب الامتهان، ثم إنه ليس فيه كشف عورة ولابد، والله أعلم.

وقوله: ﴿أو ما ملكت أيمانهن﴾ قال ابن جرير: يعني من نساء المشركين، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها، وإن كانت مشركة لأنها أمتها، وإليه ذهب سعيد بن المسيب، وقال الأكثرون: بل يجوز لها أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء.

وروى الإمام أحمد عن أم سلمة، ذكرت أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان لإحداكن مكاتب، وكان له ما يؤدي فلتحتجب منه» ورواه أبو داود [والترمذي وقال: حسن صحيح]. وقوله تعالى: ﴿أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾ يعني كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء، وهم مع ذلك في عقولهم ولَه وخَوَث، ولا همَّ لهم إلى النساء ولا يشتهونهن، قال ابن عباس: هو المغفل الذي لا شهوة له. وقال مجاهد: هو الأبْلَه، وقال عكرمة: هو المخَنَّث، وكذلك قال غير واحد من السلف، وروى الإمام أحمد عن أم سلمة أنها قالت: دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث، وعندها أخوها عبد الله بن أبي أمية، والمخنث يقول لعبد الله: يا عبد الله، إن فتح الله عليكم الطائف غداً فعليك بابنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، قال: فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأم سلمة: «لا يدخلن هذا عليك» أخرجاه في الصحيحين.

وقوله: ﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾ يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم، وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك: فلا بأس بدخوله على النساء، فأما إن كان مراهقاً، أو قريباً منه، بحيث يعرف ذلك ويدريه ويفرق بين الشوهاء والحسناء، فلا يمكن من الدخول على النساء، وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال «إياكم والدخول على النساء» قيل: يا رسول الله، أفرأيت الحمْوُ؟ قال: «الحمو الموت».

وقوله: ﴿ولا يضربن بأرجلهن﴾ كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوته، ضربت برجلها الأرض، فيعلم الرجال طنينه، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك، وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستوراً فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي لقوله تعالى: ﴿ولا يضربن بأرجلهن﴾ ومن ذلك أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشتم الرجال طيبها، فقد روى أبو عيسى الترمذي وأبوداود والنسائي عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «كل عين زانية والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كا وكذا» يعني زانية، وقال الترمذي: حسن صحيح.

ومن ذلك أيضاً أنهن ينهين عن المشي في وسط الطريق لما فيه من التبرج. روى أبو داود

عن أبي أسيد الأنصاري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج من المسجد، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق، فقال رسول الله ﷺ للنساء: «استأخرن فإنه ليس لكن أن تَحقُقْن الطريق، عليكن بحافات الطريق»، فكانت المرأة تلصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به. [وصححه الألباني]. وقوله: ﴿**وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون**﴾ أي افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهيا عنه، والله تعالى هو المستعان.

﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

اشتملت هذه الآيات الكريمات على جمل من الأحكام المحكمة، والأوامر المبرمة، فقوله تعالى: ﴿**وأنكحوا الأيامى منكم**﴾ إلى آخره، هذا أمر بالتزويج. وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه على كل من قدر عليه. واحتجوا بظاهر قوله عليه السلام: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء». أخرجاه في الصحيحين، وقد جاء في السنن من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «تزوجوا، توالدوا، تناسلوا، فإني مُبَاه بكم الأمم يوم القيامة». [وحسنه الحافظ ابن حجر]. الأيامى: جمع أيِّم، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها، وللرجل الذي لا زوجة له، وسواء كان قد تزوج ثم فارق أو لم يتزوج واحد منهما، حكاه الجوهري عن أهل اللغة، يقال رجل أيِّم وامرأة أيِّم.

وقوله تعالى: ﴿**إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله**﴾ قال ابن عباس: رغبهم الله في التزويج وأمر به الأحرار والعبيد ووعدهم عليه الغنى، وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى. وعن ابن مسعود: التمسوا الغنى في النكاح. يقول الله تعالى: ﴿**إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله**﴾. وعن عمر بنحوه، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حقٌّ على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله» رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه [والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم]. وقد زوج النبي ﷺ ذلك الرجل الذي لم يجد إلا إزاره، ولم يقدر على خاتم من حديد، ومع هذا فزوجه بتلك المرأة وجعل صداقها عليه أن يعلمها ما معه من القرآن. والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه ما فيه كفاية لها وله.

وقوله: ﴿**وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله**﴾ هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام كما قال ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء». وهذه الآية مطلقة، والتي في سورة النساء أخص منها وهي قوله: ﴿**ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات فمن ملكت أيمانكم** ـ إلى قوله ـ **وأن تصبروا خير لكم**﴾ [النساء: ٢٥]، أي صبركم عن تزوج الإماء خير لكم، لأن الولد يجيء رقيقاً ﴿**والله غفور رحيم**﴾. قال عكرمة في قوله: ﴿**وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً**﴾ قال: هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهي، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض حاجته منها، وإن لم يكن له امرأة فلينظر في ملكوت السموات والأرض حتى يغنيه الله.

وقوله: ﴿**والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً**﴾ هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يكاتبوهم بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه، وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب، لا أمر تحتم وإيجاب، بل السيد مخير إذا طلب منه عبده الكتابة، إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكاتبه. وقال الشعبي: إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكاتبه. وكذا قال عطاء بن أبي رباح ومقاتل بن حيان والحسن البصري. وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبدُه ذلك أن يجيبه إلى ما طلب أخذاً بظاهر هذا الأمر.

وقال البخاري: وقال روح عن ابن جريج قلت لعطاء: أواجب علي إذا علمت له مالاً أن أكاتبه، قال: ما أراه إلا واجباً. وقال عمرو بن دينار: قلت لعطاء: أتأثره عن أحد؟ قال: لا، ثم أخبرني أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنساً المكاتبة، وكان كثير المال فأبى، فانطلق إلى عمر رضي الله عنه، فقال: كاتبه، فأبى فضربه بالدرة، ويتلو عمر رضي الله عنه ﴿**فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً**﴾ فكاتبه. وعن الضحاك قال: هي عزمة، وهذا هو القول القديم من قولي الشافعي، وذهب في الجديد إلى أنه لا يجب لقوله عليه السلام: «لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب من نفسه». [رواه ابن حبان وغيره بإسناد صحيح]. وقال مالك: الأمر عندنا أنه ليس على سيد العبد أن يكاتبه إذا سأله ذلك، ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يكاتب عبده. قال مالك: وإنما ذلك أمر من الله تعالى وإذن منه للناس وليس بواجب. وكذا قال الثوري وأبو حنيفة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية.

وقوله: ﴿**إن علمتم فيهم خيراً**﴾ قال بعضهم: أمانة، وقال بعضهم: صدقاً، وقال بعضهم: مالاً، وقال بعضهم: حيلة وكسباً. وقوله: ﴿**وآتوهم من مال الله الذي آتاكم**﴾ اختلف المفسرون فيه، فقال بعضهم: معناه اطرحوا لهم من الكتابة بعضها، ثم قال بعضهم: مقدار الربع، وقيل:

الثلث، وقيل: النصف، وقيل: جزء من الكتابة من غير حد.

وقال آخرون: بل المراد من قوله ﴿**وآتوهم من مال الله الذي آتاكم**﴾ هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكوات، وهذا قول الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبيه ومقاتل بن حيان، واختاره ابن جرير، وقال إبراهيم النخعي: حث الناس عليه مولاه وغيره، وكذا قال بريدة بن الحصيب الأسلمي وقتادة، وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب. وعن عمر: أنه كاتب عبداً له يكنى أبا أمية، فجاء بنجمه حين حل فقال: يا أبا أمية اذهب فاستعن به في مكاتبتك، فقال: يا أمير المؤمنين، لو تركته حتى يكون من آخر نجم؟ قال: أخاف أن لا أدرك ذلك، ثم قرأ: ﴿**فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم**﴾ قال عكرمة: كان أول نجم أدي في الإسلام.

وكان ابن عمر إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئاً من أول نجومه مخافة أن يعجز فترجع إليه صدقته، ولكنه إذا كان في آخر مكاتبته وضع عنه ما أحب، وقال ابن عباس أيضا: ضعوا عنهم في مكاتبتهم، وكذا قال مجاهد وعطاء والقاسم بن أبي بزة وعبد الكريم بن مالك الجَزَريّ والسدي، وقال محمد بن سيرين: كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتَبه طائفة من مكاتبته.

وقوله: ﴿**ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء**﴾ كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمةٌ أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلماء جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك، وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة، فيما ذكره غير واحد من المفسرين من السلف والخلف في شأن عبد الله بن أبيّ ابن سلول المنافق، فإنه كان له إماء، فكان يكرههن على البغاء طلباً لخراجهن، ورغبة في أولادهن ورياسة منه فيما يزعم.

فعن جابر في هذه الآية، قال: نزلت في أمة لعبد الله بن أبيّ ابن سلول يقال لها مُسَيْكَة، كان يكرهها على الفجور، وكانت لا بأس بها فتأبى، فأنزل الله هذه ﴿**ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم**﴾. [رواه مسلم].

وقوله: ﴿**إن أردن تحصناً**﴾ هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، وقوله: ﴿**لتبتغوا عرض الحياة الدنيا**﴾ أي من خَرَاجهن ومهورهن وأولادهن. وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجام، ومهر البغي، وحلوان الكاهن. وقوله: ﴿**ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم**﴾ أي لهن كما تقدم في الحديث عن جابر. وقال ابن عباس: فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم، وإثمهن على من أكرههن وكذا قال مجاهد وعطاء الخراساني والأعمش وقتادة. وقال الحسن في هذ الآية: ﴿**فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم**﴾ قال: لهن والله. لهن والله. وعن الزهري قال: غفور لهن ما أكرهن عليه. وعن زيد بن أسلم قال: غفور رحيم للمكرهات. وفي الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». [رواه ابن ماجه وأحمد وهو حديث حسن].

ولما فَصَّل تعالى هذه الأحكام وبينها قال: ﴿**ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات**﴾ يعني القرآن فيه آيات واضحات مفسرات، ﴿**ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم**﴾ أي خبراً عن الأمم الماضية وما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿**فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين**﴾ [الزخرف: ٥٦]. ﴿**وموعظة**﴾: أي زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿**للمتقين**﴾ أي لمن اتقى الله وخافه. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صفة القرآن: فيه حكم ما بينكم، وخبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وهو الفَصْل ليس بالهَزْل، من تركه من جبَّار قَصَمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله.

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ
يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ
لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (٣٥) ﴾.

قال ابن عباس: ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾ هادي أهل السموات والأرض. وقال مجاهد وابن عباس أيضا: يدبر الأمر فيهما نجومَهما وشَمْسَهما وقَمرهُما. وعن أنس بن مالك قال: إن الله يقول: نوري هداي. واختار هذا القول ابن جرير. وعن أبيّ بن كعب قال: هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره، فضرب الله مثله فقال: ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾ فبدأ بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن فقال: مثل نور من آمن به. قال: فكان أبيّ بن كعب يقرؤها: «مثل نور من آمن به»، فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره، وهكذا قرأها ابن عباس: «نور من آمن بالله». وقرأ بعضهم: «الله نَوَّر السموات والأرض». وهكذا قرأها الضحاك.

وقال السدي في قوله: ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾ فبنوره أضاءت السموات والأرض. وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: اللهم لك الحمد، أنت قيِّم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن» الحديث، وعن ابن مسعود قال: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور العرش من نور وجهه. وقوله تعالى: ﴿**مثل نوره**﴾ في هذا الضمير قولان أحدهما: أنه عائد إلى الله عز وجل أي مثل هداه في قلب المؤمن قاله ابن عباس ﴿**كمشكاة**﴾. **والثاني**: أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام تقديره: مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة، فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه كما قال تعالى: ﴿**أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه**﴾ [هود: ١٧]، فشبه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل الذي لا كدر فيه ولا انحراف. فقوله: ﴿**كمشكاة**﴾ قال ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغير واحد: هو موضع الفتيلة

من القنديل هذا هو المشهور، ولهذا قال بعده: ﴿فيها مصباح﴾ وهو الذُّبالة التي تضيء. وقال ابن عباس في قوله: ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾ وذلك أن اليهود قالوا لمحمد ﷺ: كيف يخلص نور الله من دون السماء؟ فضرب الله مثلَ ذلك لنوره، فقال: ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة﴾ والمشكاة: كُوَّة في البيت، قال: وهو مثل ضربه الله لطاعته فسمى الله طاعته نوراً ثم سماها أنواعاً شتى، وقال مجاهد: الكوة بلغة الحبشة. وزاد غيره فقال: المشكاة الكوة التي لا منفذ لها، وعن مجاهد: المشكاة الحدائد التي يعلق بها القنديل، والقول الأول أولى، وهو: أن المشكاة هو موضع الفتيلة من القنديل ولهذا قال: ﴿فيها مصباح﴾ وهو النور الذي في الذُّبالة، قال أبيّ بن كعب: المصباح النور، وهو القرآن والإيمان الذي في صدره، وقال السدي: هو السراج ﴿المصباح في زجاجة﴾ أي هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية، وقال أبيّ بن كعب وغير واحد: وهي نظير قلب المؤمن. ﴿الزجاجة كأنها كوكب دري﴾ قال أبيّ بن كعب: كوكب مضيء، وقال قتادة: مضيء مبين ضخم. ﴿يوقد من شجرة مباركة﴾ أي يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة ﴿زيتونة﴾ بدل أو عطف بيان ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ أي ليست في شرقي بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار ولا في غربيها فيتقلص عنها الفيء قبل الغروب، بل هي في مكان وسط، تفْرَعه الشمس من أول النهار إلى آخره فيجيء زيتها صافياً معتدلاً مشرقاً. وعن ابن عباس قال: هي شجرة بالصحراء لا يظلها شجر، ولا جبل، ولا كهف، ولا يواريها شيء وهو أجود لزيتها. وبنحوه قال عكرمة ومجاهد. وقال سعيد بن جبير: هو أجود الزيت. قال: إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق، فإذا أخذت في الغروب أصابتها الشمس، فالشمس تصيبها بالغداة والعشي فتلك لا تعد شرقية ولا غربية. وقال السدي: ليست بشرقية يحوزها المشرق ولا غربية يحوزها المغرب دون المشرق ولكنها على رأس جبل أو في صحراء تصيبها الشمس النهار كله. وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ أنها في وسط الشجر ليست بادية للمشرق ولا للمغرب.

وعن أبيّ بن كعب قال: هي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أي حال كانت، لا إذا طلعت ولا إذا غربت قال فكذلك هذا المؤمن قد أجير من أن يصيبه شيء من الفتن، وقد يبتلى بها فيثبته الله فيها، فهو بين أربع خلال، إن قال صدق، وإن حكم عدل، وإن ابتلي صبر، وإن أعطي شكر، فهو في سائر الناس كالرجل الحي يمشي في قبور الأموات، وعن سعيد بن جبير قال: هي وسط الشجر لا تصيبها الشمس شرقاً ولا غرباً، وقال عطية العوفي: ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ قال: هي شجرة في موضع من الشجر يرى ظل ثمرها في ورقها، وهذه من الشجر لا تطلع عليها الشمس ولا تغرب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما كذلك: ليست شرقية ليس فيها غرب، ولا غربية ليس فيها شرق،

ولكنها شرقية غربية، وقال محمد بن كعب القرظي: هي القبلية، وقال زيد بن أسلم: الشام، وقال الحسن البصري: لو كانت هذه الشجرة في الأرض لكانت شرقية أو غربية، ولكنه مثل ضربه الله لنوره.

وقال ابن عباس: ﴿**توقد من شجرة مباركة**﴾ قال: رجل صالح ﴿**زيتونة لا شرقية ولا غربية**﴾ قال: لا يهودي ولا نصراني.

وأولى هذه الأقوال القول الأول، وهو أنها في مستوى من الأرض في مكان فسيح بارز ظاهر ضاح للشمس تفرعه من أول النهار إلى آخره ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف كما قال غير واحد ممن تقدم، ولهذا قال تعالى: ﴿**يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار**﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني لضوء إشراق الزيت.

وقوله: ﴿**نور على نور**﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك إيمان العبد وعمله، وقال مجاهد والسدي: يعني نور النار ونور الزيت، وقال أبيّ بن كعب: فهو يتقلب في خمسة من النور: فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنة. وقال شِمْر بن عَطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال: حدثني عن قول الله تعالى: ﴿**يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار**﴾ قال: يكاد محمد ﷺ يبين للناس وإن لم يتكلم أنه نبي، كما يكاد ذلك الزيت أن يضيء. وقال السدي في قوله: ﴿**نور على نور**﴾ قال: نور النار ونور الزيت، حين اجتمعا أضاءا، ولا يضيء واحد بغير صاحبه كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه.

وقوله: ﴿**يهدي الله لنوره من يشاء**﴾ أي يرشد الله إلى هدايته من يختاره، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ، فمن أصاب من نوره يومئذ اهتدى ومن أخطأ ضل. فلذلك أقول: جف القلم على علم الله عز وجل». [وصححه أحمد شاكر].

وقوله تعالى: ﴿**ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم**﴾ لما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هداه في قلب المؤمن ختم الآية بقوله: ﴿**ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم**﴾ أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال.

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح. فأما القلب الأجرد: فقلب المؤمن سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها الدم والقيح، فأي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه» إسناده جيد ولم يخرجوه.

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن، وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب، وذلك كالقنديل، ذكر محلها وهي المساجد، التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض وهي بيوته التي يعبد فيها ويُوَحّد فقال: ﴿**في بيوت أذن الله أن ترفع**﴾ أي أمر الله تعالى بتطهيرها من الدنس واللغو والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها. كما قال ابن عباس في هذه الآية الكريمة: نهى الله سبحانه عن اللغو فيها. وكذا قال عكرمة والضحاك ونافع بن جبير وغيرهم من علماء التفسير.

وقال قتادة: هي هذه المساجد، أمر الله سبحانه ببنائها ورفعها، وعمارتها وتطهيرها. وقد ذكر لنا أن كعباً كان يقول: مكتوب في التوراة ألا إن بيوتي في الأرض المساجد وإنه من توضأ فأحسن وضوءه ثم زارني في بيتي أكرمته وحق على المزور كرامة الزائر. رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره. وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد واحترامها وتوقيرها وتطييبها وتبخيرها. وذلك له محل مفرد يذكر فيه وقد كتبت في ذلك جزءاً على حدة، و لله الحمد والمنة، ونحن بعون الله تعالى نذكر هاهنا طرفاً من ذلك إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان، فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنها قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة». أخرجاه في الصحيحين.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور وأن تنظف وتطيب. رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي، [وصححه ابن حبان]. وقال البخاري: قال عمر: ابن للناس ما يكنهم، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس، وعن بريدة أن رجلاً أنشد في المسجد فقال: من دعاإلى الجمل الأحمر فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا وجدت إنما بنيت المساجد لما بنيت له» رواه مسلم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد، فقولوا: لا أربح الله تجارتك. وإذا رأيتم من يَنْشُد ضالة في المسجد فقولوا: لا ردَّ الله عليك» رواه الترمذي وقال حسن غريب.

ولا يشهر فيه بسلاح، ولا ينبض فيه بقوس، ولا ينثر فيه نبل، لما يخشى من إصابة بعض الناس به، لكثرة المصلين فيه، ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مر أحد بسهام أن يقبض على نصالها، لئلا يؤذي أحداً، كما ثبت ذلك في الصحيح [المتفق عليه]، وينهى عن المرور باللحم النيىء فيه لما يخشى من تقاطر الدم منه، كما نهيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلويث، ولا يضرب فيه حد، أو يقتص، لما يخشى من إيجاد النجاسة فيه من المضروب أو المقطوع، ولا يتخذ سوقاً، لما تقدم من النهي عن البيع والشراء فيه، فإنه إنما بني لذكر الله

والصلاة فيه كما قال النبي ﷺ لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد: «إن المساجد لم تبن لهذا، إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها». ثم أمر بسَجْل من ماء فأهريق على بوله. [متفق عليه]. وتجنب المساجد المجانين، والخصومات، ورفع الأصوات، لما روى البخاري عن السائب بن يزيد الكندي قال: كنت قائماً في المسجد فحصبني رجل فنظرت فإذا عمر بن الخطاب فقال: اذهب فائتني بهذين فجئته بهما فقال من أنتما ؟ أو من أين أنتما ؟ قالا: من أهل الطائف. قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما. ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ.

ويؤمر بتبخيرها في أيام الجمع لكثرة اجتماع الناس يومئذ، وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن ابن عمر أن عمر كان يجمر مسجد رسول الله ﷺ كل جمعة. إسناده حسن لا بأس به والله أعلم. وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الرجل في الجماعة تُضعَّف على صلاته في بيته وفي سوقه، خمساً وعشرين ضعفاً. وذلك أنه إذا توضأ فأحسن وضوءه ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه. ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة».

والمستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى، وأن يقول كما ثبت [في سنن أبي داود] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد يقول: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم» (قال: أقطُ قال نعم) قال: فإذا قال ذلك قال الشيطان: حفظ مني سائر اليوم. [حديث حسن].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ﷺ. وليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليسلم على النبي ﷺ وليقل: اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم» رواه ابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما. [ولبعضه شواهد عند مسلم].

وقوله: ﴿**ويذكر فيها اسمه**﴾ أي اسم الله كقوله ﴿**يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد**﴾ وقوله ﴿**وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد**﴾ [الأعراف:٣١]، قال ابن عباس: ﴿**ويذكر فيها اسمه**﴾ يعني يتلى فيها كتابه. وقوله: ﴿**يسبح له فيها بالغدو والآصال**﴾ أي في البُكرات والعَشِيَّات. والآصال: جمع أصيل وهو آخر النهار. وقال ابن عباس: كل تسبيح في القرآن هو الصلاة. وقال ابن عباس: يعني **بالغدوّ**: صلاة الغداة، ويعني **بالآصال**: صلاة العصر، وهما أول ما افترض الله من الصلاة، فأحب أن يَذْكُرهما وأن يُذكَرَ بهما عباده. وكذا قال الحسن والضحاك: ﴿**يسبح له فيها بالغدو والآصال**﴾ يعني الصلاة، ومن قرأ من القراء: «يسبَّح له فيها بالغدو والآصال» بفتح الباء من ﴿**يسبح**﴾ على أنه مبني لما لم يسم فاعله وقف على قوله:

﴿والآصال﴾ وقفا تاما، وابتدأ بقوله: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ وكأنه مفسر للفاعل المحذوف، وأما على قراءة من قرأ: ﴿يسبِّح﴾ بكسر الباء فجعله فعلاً وفاعله: ﴿رجال﴾ فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل لأنه تمام الكلام. فقوله: ﴿رجال﴾ فيه إشعار بهممهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية التي بها صاروا عُمَّاراً للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطنُ عبادته وشكره، وتوحيده وتنزيهه كما قال تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وأما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن لما رواه أبو داود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها». [وله شاهد بمعناه عند أحمد من حديث أم سلمة، وأم حميد امرأة أبي حميد الساعدي].

هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال بشرط أن لا تؤذي أحداً من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب، كما ثبت في الصحيح عن عبد الله بن عمر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله». وقد ثبت في صحيح مسلم عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً».

وقوله: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾ [المنافقون: ٩]. يقول تعالى: لا تشغلهم الدنيا وزخرُفها عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم، لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق، ولهذا قال تعالى: ﴿لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ أي يقدمون طاعته ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم. وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد فقال ابن عمر: فيهم نزلت ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: إني قمت على هذا الدرج أبايع عليه، أربح كل يوم ثلثمائة دينار، وأشهد الصلاة في كل يوم في المسجد، أما إني لا أقول إن ذلك ليس بحلال، ولكني أحب أن أكون من الذين قال الله فيهم: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾. وكذا قال سعيد بن أبي الحسن والضحاك: لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها. وقال مطر الورّاق: كانوا يبيعون ويشترون، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه وأقبل إلى الصلاة.

وقال ابن عباس: ﴿لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ يعني عن الصلاة المكتوبة، وكذا قال مقاتل بن حيان والربيع بن أنس. وقال السدي: عن الصلاة في جماعة. وقال مقاتل بن حيان:

لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة وأن يقيموها كما أمرهم الله، وأن يحافظوا على مواقيتها وما استحفظهم الله فيها.

وقوله: ﴿**يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار**﴾ أي يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار، أي من شدّة الفزع وعظمة الأهوال، كقوله: ﴿**وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين**﴾ [غافر:١٨]، وقوله: ﴿**إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار**﴾ [إبراهيم:٤٢]، وقوله ههنا: ﴿**ليجزيهم الله أحسن ما عملوا**﴾ أي هؤلاء من الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم. وقوله: ﴿**ويزيدهم من فضله**﴾ أي يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم، كما قال تعالى: ﴿**إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً**﴾ [النساء:٤٠]، وقال ههنا: ﴿**والله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾. وعن ابن مسعود أنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحداً واحداً، فكلهم لم يشربه لأنه كان صائماً، فتناوله ابن مسعود فشربه لأنه كان مفطراً، ثم تلا قوله: ﴿**يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار**﴾ رواه النسائي.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) ﴾.

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار، كما ضرب للمنافقين في أول البقرة مثلين: نارياً ومائياً، وكما ضرب لما يقر في القلوب من الهدى والعلم في سورة الرعد مثلين: مائياً ونارياً، وقد تكلمنا على كل منهما في موضعه بما أغنى عن إعادته، ولله الحمد والمنة. فأما الأول من هذين المثلين، فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض من بعد كأنه بحر طام. والقيعة: جمع قاع كجار وجيرة، والقاع أيضاً: واحد القيعان، كما يقال جار وجيران، وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة، وفيه يكون السراب، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار. وأما الآل فإنما يكون أول النهار، يرى كأنه ماء بين السماء والأرض، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء يحسبه ماء فقصده ليشرب منه، فلما انتهى إليه ﴿**لم يجده شيئاً**﴾ فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملاً وأنه قد حصل شيئاً، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله، لم يجد له شيئاً بالكلية قد قبل، إما لعدم الإخلاص أو لعدم سلوك الشرع، كما قال تعالى: ﴿**وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً**﴾ [الفرقان:٢٣]. وقال ههنا: ﴿**ووجد الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب**﴾ وهكذا روي عن أبي بن كعب وابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد.

وفي الصحيحين أنه يقال يوم القيامة لليهود: ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون: كنا نعبد عزير ابن الله.

فيقال: كذبتم ما اتخذ الله من ولد، ماذا تبغون ؟ فيقولون: يا رب عطشنا فاسقنا، فيقال: ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سرابٌ يحطم بعضها بعضاً، فينطلقون فيتهافتون فيها، وهذا المثال مثال لذوي الجهل المركب. فأما أصحاب الجهل البسيط وهم المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون، فمثلهم كما قال تعالى: ﴿**أو كظلمات في بحر لجي**﴾ قال قتادة: هو العميق ﴿**يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها**﴾ أي لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط، المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده، ولا يدري أين يذهب، بل كما يقال في المثل للجاهل أين تذهب ؟ قال معهم. قيل: فإلى أين يذهبون ؟ قال لا أدري.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿**يغشاه موج**﴾ يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر، وهي كقوله: ﴿**ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم**﴾ [البقرة:٧]، وقال أبيّ بن كعب في قوله تعالى: ﴿**ظلمات بعضها فوق بعض**﴾ فهو يتقلب في خمسة من الظلم فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار، وقال السدي والربيع بن أنس نحو ذلك أيضاً. وقوله: ﴿**ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور**﴾ أي من لم يهده الله فهو هالك جاهل، حائر، كافر، كقوله: ﴿**من يضلل الله فلا هادي له**﴾ [الأعراف:١٨٦]، وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين: ﴿**يهدي الله لنوره من يشاء**﴾ فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً، وعن أيماننا نوراً، وعن شمائلنا نوراً، وأن يعظم لنا نوراً.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه يسبحه من في السموات والأرض، أي من الملائكة والأناسي والجان والحيوان حتى الجماد، كما قال تعالى: ﴿**تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم**﴾ [الإسراء:٤٤]. وقوله: ﴿**والطير صافات**﴾ أي في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه، وهو يعلم ما هي فاعلة، ولهذا قال: ﴿**كل قد علم صلاته وتسبيحه**﴾ أي كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله عز وجل. ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولهذا قال: ﴿**والله عليم بما يفعلون**﴾. ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض، فهو الحاكم المتصرف الذي لا معقب لحكمه وهو الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿**وإلى الله المصير**﴾ أي يوم القيامة، فيحكم فيه بما يشاء ﴿**ليجزي الذين أساءوا بما عملواويجزي الذين أحسنوا بالحسنى**﴾ [النجم:٣١]، فهو الخالق المالك، له الحكم في الدنيا والأخرى، وله الحمد في الأولى والآخرة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤)﴾.

يذكر تعالى أنه بقدرته يسوق السحاب أول ما ينشئها وهي ضعيفة، وهو الإزجاء ﴿**ثم يؤلف بينه**﴾ أي يجمعه بعد تفرقه ﴿**ثم يجعله ركاماً**﴾ أي متراكماً، أي يركب بعضه بعضاً ﴿**فترى الودق**﴾ أي المطر ﴿**يخرج من خلاله**﴾ أي من خَلَله، وكذا قرأها ابن عباس والضحاك. قال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المثيرة فتقم الأرض قماً، ثم يبعث الله الناشئة فتنشىء السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح السحاب. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير رحمهما الله.

وقوله: ﴿**وينزل من السماء من جبال فيها من برد**﴾ معناه أن في السماء جبال بَرَد ينزل الله منها البرد. وقوله: ﴿**فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء**﴾ يحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿**فيصيب به**﴾ أي بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد، فيكون قوله: ﴿**فيصيب به من يشاء**﴾ رحمة لهم، ﴿**ويصرفه عمن يشاء**﴾ أي يؤخر عنهم الغيث. ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿**فيصيب به**﴾ أي بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم، ويصرفه عمن يشاء أي رحمة بهم.

وقوله: ﴿**يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار**﴾ أي يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته. وقوله: ﴿**يقلب الله الليل والنهار**﴾ أي يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول الذي كان قصيراً ويقصر الذي كان طويلاً، والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه. ﴿**إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار**﴾ أي لدليلاً على عظمته تعالى، كما قال تعالى ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وما بعدها من الآيات الكريمات.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)﴾.

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد، ﴿**فمنهم من يمشي على بطنه**﴾ كالحية وما شاكلها، ﴿**ومنهم من يمشي على رجلين**﴾ كالإنسان والطير ﴿**ومنهم من يمشي على أربع**﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات، ولهذا قال: ﴿**يخلق الله ما يشاء**﴾ أي بقدرته لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا قال: ﴿**إن الله على كل شيء قدير**﴾.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦)﴾.

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحُكْم والحِكَم والأمثال البينة المحكمة كثيراً جداً، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولي الألباب والبصائر والنهى، ولهذا قال ﴿**والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾.

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولاً بألسنتهم: ﴿**آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك**﴾ أي يخالفون أقوالهم بأعمالهم فيقولون ما لا يفعلون، ولهذا قال تعالى: ﴿**وما أولئك بالمؤمنين**﴾. وقوله: ﴿**وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون**﴾ أي إذا طلبوا إلى اتباع الهدىٰ فيما أنزل الله على رسوله، أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه، وهذه كقوله: ﴿**ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ـ إلى قوله ـ رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً**﴾ [النساء: ٦٠ـ٦١].

وقوله: ﴿**وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين**﴾ أي وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاؤوا سامعين مطيعين، وهو معنى قوله: ﴿**مذعنين**﴾، وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي ﷺ ليروج باطله ثم. فإذعانه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق، بل لأنه موافق لهواه، ولهذا لما خالف الحق قصده عدل عنه إلى غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿**أفي قلوبهم مرض**﴾ الآية، يعني لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها، أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم، وأيا ما كان فهو كفر محض، والله عليم بكل منهم وما هو منطو عليه من هذه الصفات.

وقوله تعالى: ﴿**بل أولئك هم الظالمون**﴾ أي بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور تعالى الله ورسوله عن ذلك. ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لا يبغون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله، فقال: ﴿**إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا**﴾ أي سمعاً وطاعة. ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح، وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب، فقال تعالى: ﴿**وأولئك هم المفلحون**﴾.

وقوله: ﴿**ومن يطع الله ورسوله**﴾ أي فيما أمراه به، وترك ما نهياه عنه، ويخشَ الله فيما

مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل. وقوله: ﴿فأولئك هم الفائزون﴾ يعني الذين فازوا بكل خير وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة.

﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ: لئن أمرتهم بالخروج في الغزو ليخرجن، قال الله تعالى: ﴿قل لا تقسموا﴾ أي لا تحلفوا. وقوله: ﴿طاعة معروفة﴾ قيل: معناه طاعتكم طاعة معروفة، أي قد علمت طاعتكم إنما هي قول لا فعل معه، وكلما حلفتم كذبتم، كما قال تعالى: ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم﴾ الآية [التوبة: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾ الآية [المنافقون: ٢]، فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه، كما قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أخرجوا لا يخرجون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون﴾ [الحشر: ١١-١٢].

وقيل: المعنى في قوله ﴿طاعة معروفة﴾ أي ليكن أمركم طاعة معروفة، أي بالمعروف من غير حلف ولا إقسام، كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف، فكونوا أنتم مثلهم. ﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ أي هو خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصي، فالحلف وإظهار الطاعة والباطن بخلافه وإن راج على المخلوق، فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى، لا يروج عليه شئ من التدليس، بل هو خبير بضمائر عباده وإن أظهروا خلافها. ثم قال تعالى: ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ أي اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله.

وقوله: ﴿فإن تولوا﴾ أي تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به ﴿فإنما عليه ما حمل﴾ أي إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة، ﴿وعليكم ما حملتم﴾ أي من قبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه، ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ الآية [الشورى: ٥٣]. وقوله: ﴿وما على الرسول إلا البلاغ﴾ كقوله تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ [الرعد: ٤٠]. قال وهب بن منبه: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له شعياء أن قم في بني إسرائيل، فإني سأطلق لسانك بوحي، فقام فقال: يا سماء اسمعي ويا أرض أنصتي، فإن الله يريد أن يقضي شأناً ويدبر أمراً هو منفذه، إنه يريد أن يحول الريف إلى الفلاة، والآجام في الغيطان، والأنهار في الصحارى، والنعمة في الفقراء، والملك في الرعاة، ويريد أن يبعث أمياً من الأميين ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته، ولو يمشي على القصب اليابس

لم يسمع من تحت قدميه، أبعثه بشيراً ونذيراً، لا يقول الخنى، أفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً، وأسدده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقه، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به من الجهالة، وأرفع به بعد الخمَالة، وأعرف به بعد النُكرة، وأكثِّر به بعد القلة، وأغني به بعد العَيلَة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأستنقذ به فئاماً من الناس عظيماً من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، موحدين مؤمنين مخلصين مصدقين بما جاءت به رسلي، رواه ابن أبي حاتم.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٥٥) ﴾.

هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد. وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم، وقد فعله تبارك وتعالى، وله الحمد والمنة، فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية وهو المقوقس، وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصْحَمة رحمه الله وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلمّ شعث ما وهى بعد موته ﷺ، وأَطّدَ جزيرة العرب ومهدها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد رضي الله عنه، ففتحوا طرفاً منها، وقتلوا خلقاً من أهلها. وجيشاً آخر صحبة أبي عبيدة رضي الله عنه ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثاً صحبة عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها، وتوفاه الله عز وجل واختار له ما عنده من الكرامة.

ومنَّ على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق، فقام بالأمر بعده قياماً تاماً، لم يَدُر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيرته وكمال عدله. وتمّ في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها وديار مصر إلى آخرها وأكثر إقليم فارس. وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام، وانحدر إلى القسطنطينية،

وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سَبْتَة مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجُبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، ويبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها». [رواه مسلم]. فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله فنسأل الله الإيمان به وبرسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا.

روى الإمام مسلم بن الحجاج عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً» ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عني، فسألت أبي: ماذا قال رسول الله ﷺ فقال: قال: «كلهم من قريش». ورواه البخاري أيضا. وفي هذا الحديث دلالة على أنه لابد من وجود اثني عشر خليفة عادلاً وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر، فإن كثيراً من أولئك لم يكن إليهم من الأمر شيء، فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش يلون فيعدلون، وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدمة، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين، بل يكون وجودهم في الأمة متتابعاً ومتفرقاً، وقد وجد منهم أربعة على الولاء وهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنهم، ثم كانت بعدهم فترة، ثم وجد منهم ما شاء الله، ثم قد يوجد منهم من بقي في الوقت الذي يعلمه الله تعالى. ومنهم المهدي الذي اسمه يطابق اسم رسول الله ﷺ، وكنيته كنيته، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً.

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن سفينة مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً عضوضاً» [صحيح]. وقال بعض السلف: خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حق في كتاب الله، ثم تلا هذه الآية.

وقال البراء بن عازب: نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد، وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿**واذكروا إذ أنتم قليل متسضعفون في الأرض** ـ إلى قوله ـ **لعلكم تشكرون**﴾ [الأنفال: ٢٦]. وقوله: ﴿**كما استخلف الذين من قبلهم**﴾ كما قال تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿**عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض**﴾ [الأعراف: ١٢٩]،

وقال تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾ الآيتين [القصص: ٥-٦].

وقوله: ﴿وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم﴾ كما قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم حين وفد عليه: «أتعرف الحيرة؟» قال: لم أعرفها، ولكن قد سمعت بها. قال: «فو الذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحِيَرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولَتُفتحن كنوز كسرى بن هرمز» قلت: كسرى بن هرمز، قال: «نعم، كسرى بن هرمز، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد». قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة، لأن رسول الله ﷺ قد قالها. [رواه البخاري].

وروى الإمام أحمد عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسَّناء والرفعة، والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب». [حسن]. وقوله: ﴿يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ روى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال: بينا أنا رديف النبي ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل، قال: «يا معاذ». قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل». قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل». قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «هل تدري ما حق الله على العباد؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً». قال: ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل». قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قال: قلت الله ورسوله أعلم. قال: «فإن حق العباد على الله أن لا يعذبهم»، أخرجاه في الصحيحين.

وقوله: ﴿ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ أي فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد فسق عن أمر ربه، وكفى بذلك ذنباً عظيماً، فالصحابة رضي الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله عز وجل وأطوعهم لله، كان نصرهم بحسبهم وأظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييداً عظيماً، وتحكموا في سائر العباد والبلاد. ولما قصَّر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم، ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك».

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بإقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم، وأن يكونوا في ذلك مطيعين

لرسول الله ﷺ أي سالكين وراءه فيما به أمرهم، وتاركين ما عنه زجرهم، لعل الله يرحمهم بذلك، ولا شك أن من فعل هذا، أن الله سيرحمه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿**أولئك سيرحمهم الله**﴾ [التوبة: ٧١]. وقوله: ﴿**لا تحسبن**﴾ أي لا تظن يا محمد ﴿**الذين كفروا**﴾ أي خالفوك وكذبوك ﴿**معجزين في الأرض**﴾ أي لا يعجزون الله، بل الله قادر عليهم وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب، ولهذا قال: ﴿**ومأواهم**﴾ أي في الدار الآخرة ﴿**النار ولبئس المصير**﴾ أي بئس المآل مآل الكافرين.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض، وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدَمُهم مما ملكت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال: **الأول**: من قبل صلاة الغداة، لأن الناس إذ ذاك يكونون نياماً في فرشهم، ﴿**وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة**﴾ اي في وقت القيلولة، لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله، ﴿**ومن بعد صلاة العشاء**﴾ لأنه وقت النوم، فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجمُوا على أهل البيت في هذه الأحوال لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الأعمال، ولهذا قال: ﴿**ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن**﴾ أي إذا دخلوا في حال غير هذه الأحوال، فلا جناح عليكم في تمكينكم من ذلك إياهم ولا عليهم إن رأوا شيئاً في غير تلك الأحوال. لأنه قد أذن لهم في الهجوم، ولأنهم طوافون عليكم أي في الخدمة وغير ذلك. ويغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم، ولهذا روى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن النبي ﷺ قال في الهرة: «إنها ليست بنجسة إنها من الطوافين عليكم أو الطوافات». [وقال الترمذي: حسن صحيح]. ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشيء وكان عمل الناس بها قليلاً جداً، أنكر عبد الله بن عباس ذلك على الناس.

وقال موسى بن أبي عائشة: سألت الشعبي عن قوله: ﴿**ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم**﴾ ؟ قال: لم تنسخ. قلت: فإن الناس لا يعملون بها. فقال: الله المستعان.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رجلين سألاه عن الاستئذان في الثلاث عورات التي أمر الله بها في القرآن، فقال ابن عباس: إن الله ستير يحب الستر. كان الناس ليس لهم ستور

على أبوابهم، ولا حِجال في بيوتهم، فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمه في حجره وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمَّى الله. ثم جاء الله بعد بالستور، فبسط الله عليهم الرزق، فاتخذوا الستور واتخذوا الحِجَال، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به. وهذا إسناده صحيح إلى ابن عباس، ورواه أبو داود. ومما يدل على أنها محكمة لم تنسخ قوله: ﴿**كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم**﴾. ثم قال تعالى: ﴿**وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم**﴾ يعني إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث، إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال، يعني بالنسبة إلى أجانبهم وإلى الأحوال التي يكون الرجل على امرأته، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث.

قال الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير: إذا كان الغلام رباعياً، فإنه يستأذن في العورات الثلاث على أبويه، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال. وهكذا قال سعيد بن جبير. وقال في قوله: ﴿**كما استأذن الذين من قبلهم**﴾ يعني كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه. وقوله: ﴿**والقواعد من النساء**﴾ قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والضحاك وقتادة: هن اللواتي انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد، ﴿**اللاتي لا يرجون نكاحاً**﴾ أي لم يبق لهن تَشوُّف إلى التزوج ﴿**فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة**﴾ أي ليس عليها من الحرج في التستر كما على غيرها من النساء.

روى أبو داود عن ابن عباس في قوله: ﴿**وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن**﴾ الآية [النور:٣١] فنسخ واستثنى من ذلك والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا. قال ابن مسعود في قوله: ﴿**فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن**﴾ قال: الجلباب أو الرداء وكذلك روي عن ابن عباس وابن عمر ومجاهد والحسن وغيرهم. وقال أبو صالح: تضع الجلباب وتقوم بين يدي الرجل في الدرع والخمار.

وقال سعيد بن جبير وغيره في قراءة عبد الله بن مسعود ﴿**أن يضعن من ثيابهن**﴾ وهو الجلباب من فوق الخمار، فلا بأس أن يضعن عند غريب أو غيره بعد ان يكون عليها خمار صفيق، وقال سعيد بن جبير: ﴿**غير متبرجات بزينة**﴾ يقول: لا يتبرجن بوضع الجلباب ليرى ما عليهن من الزينة.

وقوله: ﴿**وأن يستعففن خير لهن**﴾ أي وترك وضعهن لثيابهن وإن كان جائزاً خير وأفضل لهن ﴿**والله سميع عليم**﴾.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ

صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

اختلف المفسرون رحمهم الله في المعنى الذي لأجله رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ههنا، فقال عطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم إنها: نزلت في الجهاد، وجعلوا هذه الآية ههنا كالتي في سورة الفتح، وتلك في الجهاد لا محالة، أي إنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم، وكما قال تعالى في سورة براءة: ﴿**ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم * ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ـ إلى قوله ـ أن لا يجدوا ما ينفقون**﴾ [التوبة: ٩١ـ٩٢]. وقيل: المراد ههنا أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات، فربما سبقه غيره إلى ذلك، ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره، فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم، فأنزل الله هذه الآية، رخصة في ذلك، وهذا قول سعيد بن جبير ومقسم.

وقوله تعالى: ﴿**ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم**﴾ إنما ذكر هذا وهو معلوم ليعطف عليه غيره في اللفظ. وتضمن هذا بيوت الأبناء لأنه لم ينص عليهم، ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه، وقد جاء في المسند والسنن من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنت ومالك لأبيك». وقوله: ﴿**أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم ـ إلى قوله ـ أو ما ملكتم مفاتحه**﴾ هذا ظاهر، وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، كما هو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل في المشهور عنهما، وأما قوله: ﴿**أو ما ملكتم مفاتحه**﴾ فقال سعيد بن جبير والسدي: هو خادم الرجل من عبد وقَهْرَمان، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان المسلمون يذهبون في النفير مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتحهم إلى ضُمَنائهم، ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه، فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن نأكل، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم، وإنما نحن أمناء، فأنزل الله ﴿**أو ما ملكتم مفاتحه**﴾. [رواه البزار وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح].

وقوله: ﴿**أو صديقكم**﴾ أي بيوت أصدقائكم وأصحابكم، فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يَشُق عليهم ولا يكرهون ذلك. وقال قتادة: إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه. وقوله: ﴿**ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً**﴾ قال ابن عباس في هذه الآية: لما أنزل الله ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**﴾ قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل الأموال، فلا يحل

لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكف الناس عن ذلك، فأنزل الله: ﴿**ليس على الأعمى حرج ـ إلى قوله ـ أو صديقكم**﴾ وكانوا أيضاً يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره، فرخص الله لهم في ذلك، فقال ﴿**ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً**﴾ وقال قتادة: كان هذا الحي من بني كنانة يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية، حتى إن كان الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه فأنزل الله ﴿**ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً**﴾. فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل.

وقوله: ﴿**فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم**﴾ قال سعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة والزهري: يعني فليسلم بعضكم على بعض. وقال أبو الزبير: سمعت جابر بن عبد الله يقول: إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة، قال: ما رأيته إلا يوجبه. وعن ابن طاوس أنه كان يقول: إذا دخل أحدكم بيته فليسلم، قال ابن جريج: قلت لعطاء: أواجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلم عليهم؟ قال: لا، ولا آثر وجوبه عن أحد، ولكن هو أحب إلي وما أدعه إلا ناسياً.

وقال مجاهد: إذا دخلت المسجد فقل: السلام على رسول الله، وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وقال قتادة: إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنه كان يؤمر بذلك، وحدثنا أن الملائكة ترد عليه.

وقوله: ﴿**تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون**﴾ لما ذكر تعالى ما في هذه السور الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة، نبه تعالى عباده على أنه يبين لعباده الآيات بياناً شافياً ليتدبروها ويتعقلوها.

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾.

وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك، أمرهم الله تعالى أن لا ينصرفوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته وإن من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين، ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء، ولهذا قال: ﴿**فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله**﴾. وقد روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن

يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة» وهكذا رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حديث حسن.

﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾.

قال ابن عباس: كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاماً لنبيه ﷺ، قال: فقولوا يا نبي الله، يا رسول الله، وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير. وقال قتادة: أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ، وأن يُبَجَّل وأن يعظم وأن يُسَوَّدَ. وقال مقاتل بن حيان في قوله: **﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾** يقول: لا تسموه إذا دعوتموه يا محمد ولا تقولوا يا ابن عبد الله، ولكن شَرِّفوه فقولوا: يا نبي الله يا رسول الله.

وقال زيد بن أسلم: أمرهم الله أن يشرفوه. هذا قول. وهو الظاهر من السياق، كقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا﴾** [البقرة:١٠٤]، وقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ـ إلى قوله ـ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم﴾** [الحجرات:٢ـ٥]. فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبي ﷺ والكلام معه وعنده كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته.

والقول الثاني: أي لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا، حكاه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن البصري وعطية العوفي، والله أعلم.

وقوله: **﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً﴾** قال مقاتل بن حيان: هم المنافقون كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة، ويعني بالحديث الخطبة، فيلوذون ببعض أصحاب محمد ﷺ حتى يخرجوا من المسجد، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبي ﷺ في يوم الجمعة بعد ما يأخذ في الخطبة، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه إلى النبي ﷺ فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل، لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي ﷺ يخطب بطلت جمعته. وقال السدي: كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم، وقال قتادة: لواذاً عن نبي الله وعن كتابه. وقال سفيان: من الصف، وقال مجاهد **﴿لواذاً﴾** خلافاً.

وقوله: **﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾** أي عن أمر رسول الله ﷺ، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما أن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». أي فليحذر وليخشَ من

خالف شريعة الرسول باطناً أو ظاهراً. ﴿أن تصيبهم فتنة﴾ أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿أو يصيبهم عذاب أليم﴾ أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللائي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه ويقتحمن فيها ـ قال ـ فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار، فتغلبوني وتقتحمون فيها» أخرجاه في الصحيحين.

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٦٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم، فقال: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾ وقد للتحقيق، كما قال قبلها ﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً﴾، كقول المؤذن تحقيقاً وثبوتاً: قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة. فقوله تعالى: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾ أي هو عالم به، مشاهد له لا يعزب عنه مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وتوكل على العزيز الرحيم ـ إلى قوله ـ إنه هو السميع العليم﴾ [الشعراء:٢١٧ـ٢٢٠]، وقال تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ [الرعد:٣٣] أي هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر، والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

وقوله: ﴿ويوم يرجعون إليه﴾ أي ويوم ترجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ أي يخبرهم بما فعلوا في الدنيا من جليل وحقير وصغير وكبير، كما قال تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ [القيامة:١٣]، ولهذا قال هاهنا: ﴿ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم﴾ والحمد لله رب العالمين ونسأله التمام.

تفسير سورة الفرقان وهي مكية.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾ ﴾.

يقول تعالى حامداً لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات﴾ الآية [الكهف:١ـ٣]، وقال ههنا: ﴿تبارك﴾ وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة ﴿الذي نزل الفرقان﴾ نزّل فعّل من التكرر، والتكثر كقوله ﴿والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ [النساء:١٣٦] لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل منجماً مفرقاً مفصلاً، آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسوراً بعد سور، وهذا أشد وأبلغ وأشد اعتناء

بمن أنزل عليه، كما قال في أثناء هذه السورة: ﴿**وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً**﴾ [الفرقان: ٣٢-٣٣]. ولهذا سماه ههنا الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام.

وقوله: ﴿**على عبده**﴾ هذه صفة مدح وثناء لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله وهي ليلة الإسراء، فقال: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً**﴾ [الإسراء: ١]، وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه: ﴿**وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً**﴾ [الجن: ١٩]، وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه، فقال ﴿**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده**﴾. وقوله: ﴿**ليكون للعالمين نذيراً**﴾ أي إنما خصه بهذا الكتاب المفصَّل العظيم المبين المُحْكم الذي ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾ [فصلت٤٢]، الذي جعله فرقاناً عظيماً إنما خصه به ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ويستقل على الغبراء، كما قال ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود» [رواه مسلم]. وقال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي» فذكر منهن أنه «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» [متفق عليه]، وقال تعالى: ﴿**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً**﴾ الآية [الأعراف: ١٥٨] أي الذي أرسلني هو مالك السموات والأرض الذي يقول للشيء كن فيكون وهو الذي يحيي ويميت، وهكذا قال ههنا: ﴿**الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك**﴾ ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك. ثم أخبر أنه: ﴿**خلق كل شيء فقدره تقديراً**﴾ أي كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره.

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴿٣﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شيء، المالك لأزمة الأمور، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة، بل هم مخلوقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فكيف يملكون لعابديهم؟ ﴿**ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً**﴾ أي ليس لهم من ذلك شيء بل ذلك كله مرجعه إلى الله عز وجل الذي هو يحيي ويميت، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم ﴿**ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة**﴾ [لقمان: ٢٨]. فهو الله الذي لا إله غيره ولا رب سواه، ولا تنبغي العبادة إلا له لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي لا ولد ولا والد له ولا عديل ولا نديد، ولا وزير ولا نظير، بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن ﴿**إن هذا إلا إفك**﴾ أي كذب ﴿**افتراه**﴾ يعنون النبي ﷺ ﴿**وأعانه عليه قوم آخرون**﴾ أي واستعان على جمعه بقوم آخرين، فقال الله تعالى: ﴿**فقد جاءوا ظلماً وزوراً**﴾ أي فقد افتروا هم قولاً باطلاً، هم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون. ﴿**وقالوا أساطير الأولين اكتتبها**﴾ يعنون كتب الأوائل أي استنسخها ﴿**فهي تملى عليه**﴾ أي تقرأ عليه ﴿**بكرة وأصيلا**﴾ أي في أول النهار وآخره، وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم يعلم كل أحد بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمداً رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه، ونزاهته وبره وأمانته وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره وإلى أن بُعِث الأمين، لما يعلمون من صدقه وبره، فلما أكرمه الله بما أكرمه به، نصبوا له العداوة ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا فيما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب، وقال الله تعالى: ﴿**انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً**﴾ [الإسراء:٤٨]. وقال تعالى في جواب ما عاندوا ههنا وافتروا: ﴿**قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض**﴾ أي أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع في الخارج ماضياً ومستقبلاً ﴿**الذي يعلم السر**﴾ أي الله الذي يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر.

وقوله: ﴿**إنه كان غفوراً رحيماً**﴾ دعاء لهم إلى التوبة وإخبار لهم بأن رحمته واسعة وأن حلمه عظيم وأن من تاب إليه تاب عليه، فهؤلاء مع كذبهم وفجورهم وكفرهم وعنادهم، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى، كما قال تعالى: ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم**﴾ [المائدة:٧٣-٧٤]، وقال تعالى: ﴿**إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق**﴾ [البروج:١٠]. قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة.

﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾

أَنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم للحق بلا حجة، وإنما تعللوا بقولهم: ﴿**ما لهذا الرسول يأكل الطعام**﴾ يعنون كما نأكله ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ﴿**ويمشي في الأسواق**﴾ أي يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة ﴿**لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً**﴾ يقولون: هلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه، وهذا كما قال فرعون: ﴿**فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أوجاء معه الملائكة مقترنين**﴾ [الزخرف: ٥٣]. وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم، ولهذا قالوا: ﴿**أو يلقى إليه كنز**﴾ أي كنز ينفق منه ﴿**أو تكون له جنة يأكل منها**﴾ أي تسير معه حيث سار، وهذا كله سهل يسير على الله ولكن له الحكمة في ترك ذلك وله الحجة البالغة ﴿**وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً**﴾. قال الله تعالى: ﴿**انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا**﴾ أي جاءوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك من قولهم ساحر، مسحور، مجنون، كذاب، شاعر، وكلها أقوال باطلة، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك، ولهذا قال ﴿**فضلوا**﴾ عن طريق الهدى ﴿**فلا يستطيعون سبيلاً**﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى، فإنه ضال حيثما توجه، لأن الحق واحد ومنهجه متحد يُصدّق بعضه بعضاً.

ثم قال تعالى مخبراً نبيه أنه إن شاء لآتاه خيراً مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن، فقال: ﴿**تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا**﴾ قال مجاهد: يعني في الدنيا، قال: وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصراً، كبيراً كان أو صغيراً.

وقوله: ﴿**بل كذبوا بالساعة**﴾ أي إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيباً وعناداً لا أنهم يطلبون ذلك تبصراً واسترشاداً بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال، ﴿**وأعتدنا**﴾ أي أرصدنا ﴿**لمن كذب بالساعة سعيراً**﴾ أي عذاباً أليماً حاراً لا يطاق في نار جهنم. وقوله: ﴿**إذا رأتهم**﴾ أي جهنم ﴿**من مكان بعيد**﴾ يعني في مقام المحشر. قال السدي: من مسيرة مائة عام ﴿**سمعوا لها تغيظاً وزفيراً**﴾ أي حنقاً عليهم، كما قال تعالى: ﴿**إذاألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميز من الغيظ**﴾ [الملك: ٧-٨] أي يكاد ينفصل بعضها عن بعض من شدة غيظها على من كفر بالله.

قال أبو وائل: خرجنا مع عبد الله بن مسعود، ومعنا الربيع بن خيثم، فمروا على حداد، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار، ونظر الربيع بن خثيم إليها، فتمايل الربيع ليسقط،

فمر عبد الله على أتّون على شاطىء الفرات، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه، قرأ هذه الآية: ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ فصعق، يعني الربيع، وحملوه إلى أهل بيته، فرابطه عبد الله إلى الظهر، فلم يُفِقْ رضي الله عنه.

قال ابن عباس: إن الرجل ليجر إلى النار فتنزوي وتنقبض بعضها إلى بعض، فيقول لها الرحمن: ما لك؟ قالت: إنه يستجير مني، فيقول: أرسلوا عبدي، وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول: يا رب ما كان هذا الظن بك، فيقول: فما كان ظنك؟ فيقول: أن تسعني رحمتك، فيقول: أرسلوا عبدي، وإن الرجل ليجر إلى النار فتشهق إليه النار شهوق البغلة إلى الشعير، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف، وهذا إسناده صحيح.

وقال عبيد بن عمير: إن جهنم لتزفر زفرة لايبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خرَّ لوجهه ترتعد فرائصه، حتى إن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول: رب لاأسألك اليوم إلا نفسي. وقوله: ﴿وإذا ألقوا منهامكاناً ضيقاً مقرنين﴾ قال عبد الله بن عمرو: مثل الزُج في الرمح، أي من ضيقه. وقوله: ﴿مقرنين﴾ قال أبو صالح: يعني مكتفين ﴿دعوا هنالك ثبوراً﴾ أي بالويل والحسرة والخيبة ﴿لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً﴾.

عن ابن عباس قال: لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً، وادعوا ويلاً كثيراً، وقال الضحاك: الثبور: الهلاك، والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار، كما قال موسى لفرعون ﴿وإني لأظنك يافرعون مثبورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] أي هالكاً.

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: يا محمد هذا الذي وصفناه لك من حال أولئك الأشقياء الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم، فتلقاهم بوجه عبوس وبغيظ وزفير، ويلقون في أماكنها الضيق مقرنين لا يستطيعون حراكاً ولا استنصاراً ولا فكاكاً مما هم فيه، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده، التي أعدها لهم وجعلها لهم جزاء ومصيراً على ماأطاعوه في الدنيا، وجعل مآلهم إليها ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾ من الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ومناظر، وغير ذلك مما لاعين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد، وهم في ذلك خالدون أبداً دائماً سرمداً، لا يبغون عنها حولاً، وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم وأحسن به إليهم، ولهذا قال: ﴿كان على ربك وعداً مسؤولاً﴾ أي لابد أن يقع وأن يكون كما حكاه أبو جعفر بن جرير عن بعض علماء العربية أن معنى قوله ﴿وعداً مسئولاً﴾ أي وعداً واجباً.

وقال ابن عباس: فسألوا الذي وعدهم وتنجزوه. وقال محمد بن كعب القرظي: إن الملائكة تسأل لهم ذلك ﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾ [غافر: ٨]. وقال أبو حازم:

إذا كان يوم القيامة، قال المؤمنون: ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا، فأنجز لنا ما وعدتنا، فذلك قوله: ﴿**وعداً مسئولاً**﴾.

وهذا المقام في هذه السورة من ذكر النار، ثم التنبيه على حال أهل الجنة، كما ذكر تعالى في سورة الصافات حال أهل الجنة وما فيها من النضرة والحبور، ثم قال: ﴿**أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم**﴾ إلى قوله **ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم**﴾ [الصافات: ٦٢ـ٦٨].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم مَن عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم، فقال: ﴿**ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله**﴾ قال مجاهد: عيسى والعزير والملائكة ﴿**فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء**﴾ أي فيقول تبارك وتعالى للمعبودين: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: ﴿**وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال: سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس. لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا علم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به**﴾ [المائدة: ١١٦ـ١١٧]، ولهذا قال تعالى مخبراً عما يُجيب به المعبودون يوم القيامة: ﴿**قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء**﴾ قرأ الأكثرون بفتح النون من قوله ﴿**نتخذ من دونك من أولياء**﴾ أي ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا، ، ونحن برآء منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿**ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون**﴾ [سبأ: ٤٠ـ٤١]. وقرأ آخرون: «ما كان ينبغي لنا أن نُتَّخذ من دونك من أولياء» أي ما ينبغي لأحد أن يعبدنا فإنا عبيد لك فقراء إليك، وهي قريبة المعنى من الأولى. ﴿**ولكن متعتهم وآباءهم**﴾ أي طال عليهم العمر حتى نَسُوا الذكر، أي نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك. ﴿**وكانوا قوماً بوراً**﴾ قال ابن عباس: أي هلكى، وقال الحسن البصري والزهري: أي لا خير فيهم.

وقال الله تعالى: ﴿**فقد كذبوكم بما تقولون**﴾ أي فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى، كقوله تعالى: ﴿**ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا**

لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ [الأحقاف:٥ـ٦]. وقوله: ﴿فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً﴾ أي لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ﴿ومن يظلم منكم﴾ أي يشرك بالله ﴿نذقه عذاباً كبيراً﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين: إنهم كانوا يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذي به، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم، فإن الله تعالى جعل لهم من السِّمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة والخوارق الباهرة، ما يستدل به كلُّ ذي لبٍّ سليم وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاؤوا به من الله، ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى﴾ [يوسف:١٠٩]، وقوله: ﴿وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام﴾ [الأنبياء:٨].

وقوله: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾ أي اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم من يطيع ممن يَعْصي، ولهذا قال: ﴿أتصبرون وكان ربك بصيراً﴾ أي بمن يستحق أن يوحي إليه، كما قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [الأنعام:١٢٤]، ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به، ومن لا يستحق ذلك.

وقال محمد بن إسحاق: يقول الله: لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون لفعلت، ولكني قد أردت أن أبتلي العباد بهم وأبتليهم بهم. وفي صحيح مسلم عن عياض بن عماد عن رسول الله ﷺ «يقول الله تعالى إني مبتليك ومبتلٍ بك».

﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن تَعنُّت الكفار في كفرهم، وعنادهم في قولهم: ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ أي بالرسالة كما تنزل على الأنبياء، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى: ﴿قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله﴾ [الأنعام:١٢٤]، ويحتمل أن يكون مرادهم ههنا ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ فنراهم عياناً فيخبرونا أن محمداً رسول الله، كقولهم: ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلا﴾ [الإسراء:٩٢]. وقد تقدم تفسيرها في سورة سبحان، ولهذا قالوا: ﴿أو نرى ربنا﴾ ولهذا قال الله تعالى: ﴿لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً﴾. وقد قال الله تعالى: ﴿ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾ [الأنعام:١١١]. وقوله تعالى: ﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين

ويقولون حجراً محجوراً﴾ أي هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم، وذلك يَصْدُق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، والغضب من الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، اخرجي إلى سموم وحميم وظل من يحموم. فتأبى الخروج وتتفرق في البدن فيضربونه، كما قال الله تعالى: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ [الأنفال: ٥٠]. وقال: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم﴾ أي بالضرب ﴿أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ [الأنعام: ٩٣]، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم، فإنهم يبشرون بالخيرات، وحصول المسرات، قال الله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]. وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب: أن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب، كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان. [رواه أحمد وغيره].

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿يوم يرون الملائكة﴾ يعني يوم القيامة. قاله مجاهد والضحاك وغيرهما، ولا منافاة بين هذا وما تقدم، فإن الملائكة في هذين اليومين: يوم الممات ويوم المعاد، تتجلى للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران، فلا بشرى يومئذ للمجرمين. ﴿ويقولون حجراً محجوراً﴾ أي وتقول الملائكة للكافرين: حرام محرم عليكم الفلاح اليوم. وأصل الحجر: المنع. ومنه يقال حجر القاضي على فلان إذا منعه التصرف، إما لفَلَس أو سفَه أو صِغَر أو نحو ذلك. والغرض أن الضمير في قوله: ﴿ويقولون﴾ عائد على الملائكة، هذا قول مجاهد وعكرمة والحسن وغير واحد واختاره ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾ وهذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر، فأخبر أنه لا يتحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله. فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معاً فتكون أبعد من القبول حينئذ، ولهذا قال تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾. قال مجاهد والثوري: ﴿وقدمنا﴾ أي عمدنا، وكذا قال السدي، وبعضهم يقول: أتينا عليه.

وقوله: ﴿فجعلناه هباء منثوراً﴾ عن علي رضي الله عنه قال: شعاع الشمس إذا دخل في الكُوَّة. وروي مثله عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي والضحاك وغيرهم، وكذا قال الحسن البصري: هو الشعاع في كوة أحدهم، ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع. وقال ابن عباس: هو الماء المهراق. وعن علي أيضا قال: الهباء رَهْج الدواب، وروي مثله عن ابن عباس أيضاً والضحاك، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال قتادة: أما رأيت يَبِيس الشجر إذا ذرته الريح؟ فهو ذلك الورق. وعن يعلى بن عبيد قال: وإن الهباء الرماد. وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية، وذلك أنهم عملوا أعمالاً اعتقدوا أنها على شيء، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجور ولا يظلم أحداً إذا إنها لا شيء بالكلية، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية، كما قال تعالى: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح﴾ [إبراهيم:١٨].

وقوله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ أي يوم القيامة ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ [الحشر:٢٠]، وذلك لأن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات والغرفات الآمنات، فهم في مقام أمين حسن المنظر طيب المقام ﴿خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً﴾ [الفرقان:٧٦]، وأهل النار يصيرون إلى الدركات السافلات، والحسرات المتتابعات، وأنواع العذاب والعقوبات ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ [الفرقان:٦٦] أي بئس المنزل منظراً، وبئس المقيل مقاماً، ولهذا قال تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ أي بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا ما نالوا، وصاروا إلى ما صاروا إليه، بخلاف أهل النار فإنهم ليس لهم عمل واحد يقتضي لهم دخول الجنة والنجاة من النار، فنبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء، وأنه لا خير عندهم بالكلية، فقال تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾. قال ابن عباس: إنما هي ضحوة فيقيلُ أولياء الله على الأسرة مع الحور العين، ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين.

وقال سعيد بن جبير: يفرغ الله من الحساب نصف النهار، فيقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، قال الله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾. وقال عكرمة: إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وهي الساعة التي تكون في الدنيا عند ارتفاع الضُّحى الأكبر إذا انقلب الناس إلى أهليهم للقيلولة، فينصرف أهل النار إلى النار، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة فكانت قيلولتهم في الجنة، وأطعموا كبد حوت فأشبعهم ذلك كلهم، وذلك قوله: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾.

وقال عمرو بن الحارث أن سعيداً الصواف حدثه أنه بلغه أن يوم القيامة يَقصُر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وأنهم ليقيلون في رياض الجنة حتى يفرغ من الناس، وذلك قوله تعالى: ﴿**أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً**﴾.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن هَول يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء وتفطرها، وانفراجها بالغمام وهو ظُلَل النور العظيم الذي يبهر الأبصار، ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء. قال مجاهد: وهذا كما قال تعالى: ﴿**هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر**﴾ [البقرة: ٢٠١].

وقد قال الله تعالى: ﴿**فيومئذ وقعت الواقعة. وانشقت السماء فهي يومئذ واهية. والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية**﴾ [الحاقة: ١٥-١٧]، قال شهر بن حوشب: حملة العرش ثمانية، أربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك. وأربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك. وقال بكر بن عبد الله: إذا نظر أهل الأرض إلى العرش يهبط عليهم من فوقهم، شخصت إليه أبصارهم، ورجفت كُلَاهم في أجوافهم، وطارت قلوبهم من مَقَرّها من صدورهم إلى حناجرهم.

وقوله تعالى: ﴿**الملك يومئذ الحق للرحمن**﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿**لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار**﴾ [غافر: ١٦]. وفي الصحيح: «أن الله تعالى يطوي السموات بيمينه، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى، ثم يقول: أنا الملك أنا الديان، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون، أين المتكبرون». [متفق عليه]. وقوله: ﴿**وكان يوماً على الكافرين عسيراً**﴾ أي شديداً صعباً، لأنه يوم عدل وقضاء فصل، كما قال تعالى: ﴿**فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير**﴾ [المدثر: ٨-١٠]، فهذا حال الكافرين في ذلك اليوم، وأما المؤمنون فكما قال تعالى: ﴿**لا يحزنهم الفزع الأكبر**﴾ الآية [الأنبياء: ١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿**ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً**﴾ يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ، وما جاء به من عند الله من الحق المبين الذي لا مرية فيه، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعض على يديه حسرة وأسفاً. وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي مُعَيط أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم، كما قال تعالى: ﴿**يوم تقلب وجوههم في**

النار﴾ الآيتين [الأحزاب:٦٦-٦٨]، فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويعض على يديه قائلاً: ﴿يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً . يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾ يعني من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلالة من دعاة الضلالة، وسواء في ذلك أمية بن خلف أو أخوه أبي بن خلف أو غيرهما. ﴿لقد أضلني عن الذكر﴾ وهو القرآن ﴿بعد إذ جاءني﴾ أي بعد بلوغه إليّ، قال الله تعالى: ﴿وكان الشيطان للإنسان خذولا﴾ أي يُخَذِّله عن الحق ويصرفه عنه، ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه.

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال: ﴿يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ وذلك أن المشركين كانوا لا يُصغُون للقرآن ولا يسمعونه، كما قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ [فصلت:٢٦]، فكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعوه. فهذا من هجرانه، وترك علمه وحفظه أيضاً من هجرانه، وترك الإيمان به، وترك تصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره، من هجرانه، فنسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء، أن يخلصنا مما يسخطه، ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يحبه ويرضاه، إنه كريم وهاب.

وقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين﴾ أي كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن، كذلك كان في الأمم الماضين، لأن الله جعل لكل نبي عدواً من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن﴾ الآيتين [الأنعام:١١٢-١١٣]، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾ أي لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقه واتبعه، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة، وإنما قال ﴿هادياً ونصيراً﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن لئلا يهتدي أحد به، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن، فلهذا قال ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيهم، حيث

قالوا ﴿**لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة**﴾ أي هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحي إليه جملة واحدة، كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة، كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية، فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث، وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به، كقوله: ﴿**وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا**﴾ [الإسراء:١٠٦]، ولهذا قال ﴿**لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً**﴾، ولهذا قال: ﴿**لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا**﴾ قال قتادة: بيناه تبيينا. وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم: وفسرناه تفسيراً. ﴿**ولا يأتونك بمثل**﴾ أي بحجة وشبهة ﴿**إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً**﴾ أي ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق، إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصحُ من مقالتهم.

قال ابن عباس: ﴿**ولا يأتونك بمثل**﴾ أي بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿**إلا جئناك بالحق**﴾ الآية، أي إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم. ثم في هذا اعتناء كبير لشرف الرسول ﷺ، حيث كان يأتيه الوحي من الله عز وجل بالقرآن صباحاً ومساء، وليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، وكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن لا كإنزال كتابٍ مما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد ﷺ أعظم نبي أرسله الله تعالى، وقد جمع الله للقرآن الصفتين معاً، ففي الملأ الأعلى أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض منجماً بحسب الوقائع والحوادث. وروى أبو عبد الرحمن النسائي عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال تعالى: ﴿**ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً**﴾، وقال تعالى: ﴿**وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً**﴾ [الإسراء:١٠٦].

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة، وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات وأقبح الصفات: ﴿**الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلاً**﴾. وفي الصحيح عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة». [متفق عليه]. وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وغير واحد من المفسرين والله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا
تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ

نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى متوعداً من كذب رسوله محمداً ﷺ من مشركي قومه ومن خالفه، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله، فبدأ بذكر موسى وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيراً، أي نبياً مؤازراً، فكذبهما فرعون وجنوده ﴿**فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها**﴾ [محمد: ١٠]. وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً عليه السلام، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل، إذ لا فرق بين رسول ورسول، ولو فرض أن الله تعالى بعث إليهم كل رسول فإنهم كانوا يكذبون، ولهذا قال تعالى: ﴿**وقوم نوح لما كذبوا الرسل**﴾ ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل، ويحذرهم نقَمه فما آمن معه إلا قليل. ولهذا أغرقهم الله جميعاً ولم يبق منهم أحداً، ولم يترك من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط. ﴿**وجعلناهم للناس آية**﴾ أي عبرة يعتبرون بها، كما قال تعالى: ﴿**إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية**﴾ [الحاقة: ١١-١٢]. أي وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لُجَج البحار، لتذكروا نعمة الله عليكم في إنجائكم من الغرق، وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره.

وقوله: ﴿**وعاداً وثمود وأصحاب الرس**﴾ قد تقدم الكلام على قصتيهما في غير ما سورة، كسورة الأعراف بما أغنى عن الإعادة. وأما أصحاب الرس، فقال ابن عباس: هم أهل قرية من قرى ثمود. وقال عكرمة: أصحاب الرس بفَلَج، وهم أصحاب يس. وقال قتادة: فلج من قرى اليمامة. وعن ابن عباس قال: بئر بأذربيجان. وعن عكرمة: الرس بئر رسوا فيها نبيهم، أي دفنوه بها.

واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج، فالله أعلم.

وقوله: ﴿**وقروناً بين ذلك كثيراً**﴾ أي وأمما بين أضعاف من ذكر أهلكناهم كثيرة، ولهذا قال ﴿**وكلا ضربنا له الأمثال**﴾ أي بينا لهم الحجج ووضحنا لهم الأدلة، كما قال قتادة: وأزحنا الأعذار عنهم ﴿**وكلا تبرنا تتبيراً**﴾ أي أهلكنا إهلاكاً، كقوله تعالى: ﴿**وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح**﴾ [الإسراء: ١٧]. والقرن هو الأمة من الناس، كقوله: ﴿**ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين**﴾ [المؤمنون: ٣١]. وحده بعضهم بمائة وعشرين سنة. وقيل: بمائة. وقيل: بثمانين، وقيل: أربعين، وقيل غير ذلك، والأظهر أن القرن هم الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد وإذا ذهبوا وخلفهم جيل فهم قرن ثان، كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» الحديث. ﴿**ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء**﴾ يعني قرية قوم لوط، وهي سدوم التي أهلكها الله بالقلب وبالمطر

من الحجارة التي من سجيل، كما قال تعالى: ﴿وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين﴾ [الشعراء:١٧٣]، ولهذا قال: ﴿أفلم يكونوا يرونها﴾ أي فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول وبمخالفتهم أوامر الله ﴿بل كانوا لا يرجون نشوراً﴾ يعني المارين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشوراً، أي معاداً يوم القيامة.

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه كما قال تعالى: ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً﴾ [الأنبياء:٣٦] يعنونه بالعيب والنقص. وقال ههنا: ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولاً﴾ أي على سبيل التنقيص والازدراء قبحهم الله، كما قال: ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب﴾ [الرعد:٣٢]. وقوله: ﴿إن كاد ليضلنا عن آلهتنا﴾ يعنون أنه كاد يثنيهم عن عبادة الأصنام لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها. قال الله تعالى متوعداً لهم ومتهدداً: ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً﴾.

ثم قال تعالى لنبيه منبهاً له أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال، فإنه لا يهديه أحد إلا الله. ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ أي مهما استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه، كان دينَه ومذهبَه، كما قال تعالى: ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء﴾ [فاطر:٨]، ولهذا قال هاهنا: ﴿أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول. ثم قال تعالى: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون﴾ الآية، أي هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة، فإن تلك تعقل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، وهم يعبدون غيره ويشركون به مع قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

من ههنا شرع سبحانه وتعالى في بيان الأدلة الدالة على قدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل﴾ قال ابن عباس وابن عمر ومسروق ومجاهد والحسن والسدي وغيرهم: هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ولو شاء لجعله ساكناً﴾ أي دائماً لا يزول، كما قال تعالى: ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً﴾ الآيات [القصص:٧١-٧٢]. وقوله تعالى: ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾ أي لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف، فإن الضد لا يعرف إلا بضده، وقال قتادة والسدي: دليلاً تتلوه

وتتبعه حتى تأتي عليه كله.

وقوله: ﴿ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾ أي الظل. وقيل الشمس ﴿يسيراً﴾ أي سهلاً، قال ابن عباس: سريعاً. وقال مجاهد: خفياً. وقال السدي: قبضاً خفياً حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة، وقد أظلت الشمس ما فوقه. وقال أيوب بن موسى: ﴿قبضاً يسيراً﴾ قليلاً قليلا. وقوله: ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباساً﴾ أي يلبس الوجود، كما قال: ﴿والليل إذا يغشى﴾ [الليل:١]. ﴿والنوم سباتاً﴾ أي قاطعاً للحركة لراحة الأبدان، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعايش، فإذا جاء الليل وسكن، سكنت الحركات فاستراحت، فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معاً. ﴿وجعل النهار نشوراً﴾ أي ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم، كما قال تعالى: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾ [القصص:٧٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾.

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات، أي بمجيء السحاب بعدها، والرياح أنواع في صفات كثيرة من التسخير، فمنها ما يثير السحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً، ومنها ما يكون قبل ذلك يَقُمّ الأرض، ومنها ما يلقح السحاب ليمطر، ولهذا قال تعالى: ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهوراً﴾ أي آلة يتطهر بها كالسَّحُور والوقود وما جرى مجراه. وعن ثابت البناني قال: دخلت مع أبي العالية في يوم مطير، وطرق البصرة قذرة، فصلى فقلت له، فقال: ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهوراً﴾ قال: طهره ماء السماء، وعن سعيد بن المسيب قال: أنزله الله ماء طاهراً لا ينجسه شيء. وعن أبي سعيد قال: قيل: يا رسول الله أنتوضأ من بئر بضاعة، وهي بئر يلقى فيها النتن ولحوم الكلاب؟ فقال: «إن الماء طهور لا ينجسه شيء» رواه الشافعي وأحمد وصححه وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي.

وعن عكرمة قال: ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشبة أو في البحر لؤلؤة. وقال غيره: في البر بُر وفي البحر دُرّ.

وقوله تعالى: ﴿لنحيي به بلدة ميتا﴾ أي أرضاً قد طال انتظارها للغيث، فهي هامدة لا نبات فيها ولا شيء. فلما جاءها الحيا عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان، كما قال تعالى: ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ [الحج:٥]. ﴿ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسيَّ كثيراً﴾ أي وليشرب منه الحيوان من أنعام، وأناسيَّ محتاجين إليه غاية الحاجة، لشربهم وزروعهم وثمارهم، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته﴾ [الشورى:٢٨]، وقال تعالى: ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله

كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾ [الروم: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿ولقد صرفناه بينهم ليذكروا﴾ أي أمطرنا هذه الأرض دون هذه، وسقنا السحاب يمر على الأرض وتعداها وجاوزها إلى الأرض الأخرى، فيمطرها ويكفيها ويجعلها غدقاً، والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة. قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم: ليس عام بأكثر مطراً من عام، ولكن الله يصرفه كيف يشاء، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ أي ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات، أو ليذَّكر من منع المطر إنما أصابه ذلك بذنب أصابه، فيقلع عما هو فيه.

وقوله تعالى: ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ قال عكرمة: يعني الذين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا، وهذا الذي قاله عكرمة كما صح في الحديث المخرج في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي، كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي، مؤمن بالكواكب».

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً﴾ يدعوهم إلى الله عز وجل، ولكنا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تبلغهم القرآن ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ [هود: ١٧]، ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾ [الأنعام: ٩٢] ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وفي الصحيحين: «بعثت إلى الأحمر والأسود»، وفيهما: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»، ولهذا قال تعالى: ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به﴾ يعني القرآن، قاله ابن عباس، ﴿جهاداً كبيراً﴾ كما قال تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ [التوبة: ٧٣].

وقوله: ﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج﴾ أي خلق الماءين: الحلو والمِلْح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، وهذا هو البحر الحلو العذب الفرات الزلال، قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير، وهذا الذي لا شك فيه، فإنه ليس في الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات، والله سبحانه وتعالى إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس، فرقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً

وعيوناً في كل أرض، بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأرضيهم.

وقوله تعالى: ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي مالح مُرّ زعاق لا يستساغ، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب: البحر المحيط وما يتصل به من البحار الساكنة التي لا تجري، ولكن تتموج وتضطرب وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مد وجزر، ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت في المد إلى الليلة الرابعة عشرة، ثم تشرع في النقص، فأجرى الله سبحانه وتعالى ـ وهو ذو القدرة التامة ـ العادة بذلك، فكل هذه البحار الساكنة، خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة لئلا يحصل بسببها نتن الهواء، فيفسد الوجود بذلك، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان، ولما كان ماؤها مالحاً، كان هواؤها صحيحاً وميتتها طيبة، ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سئل عن ماء البحر: أنتوضأ به؟ فقال: «هو الطهور ماؤه، الحل ميتته». رواه الأئمة مالك والشافعي وأحمد وأهل السنن بإسناد جيد.

وقوله تعالى: ﴿وجعل بينهما برزخاً وحجراً﴾ أي بين العذب والمالح ﴿برزخاً﴾ أي حاجزاً ﴿وحجراً محجوراً﴾ أي مانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر، كقوله تعالى: ﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ [الرحمن:١٩ـ٢١]، وقوله تعالى: ﴿أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله؟ بل أكثرهم لا يعلمون﴾ [النمل:٦١]. وقوله: ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً﴾ أي خلق الإنسان من نطفة ضعيفة، فسواه وعَدّله، وجعله كامل الخلقة ذكراً أو أنثى، كما يشاء، ﴿فجعله نسباً وصهراً﴾ فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صهراً، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات، وكل ذلك من ماء مهين، ولهذا قال تعالى: ﴿وكان ربك قديراً﴾.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تملك له ضراً ولا نفعاً، بلا دليل قادهم إلى ذلك، بل بمجرد الآراء والتشهي والأهواء، فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم، ويعادون الله ورسوله والمؤمنين، ولهذا قال تعالى: ﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ أي عوناً في سبيل الشيطان على حزب الله وحزب الله هم الغالبون، كما قال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون﴾ [يس: ٧٤ـ٧٥] أي آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصراً، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند

محضرون يقاتلون عنهم، ويذبُّون عن حَوْزتهم، ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله وللمؤمنين في الدنيا والآخرة.

قال مجاهد: ﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ قال: يظاهر الشيطان على معصية الله، يعينه. وقال سعيد بن جبير: عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك. وقال زيد بن أسلم: موالياً، ثم قال تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾ أي بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله، ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله. ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر﴾ أي على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى، ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ [التكوير:٢٨]، ﴿إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي طريقاً ومنهجاً يقتدي فيها بما جئت به.

ثم قال: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ أي في أمورك كلها كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً، الذي هو ﴿الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾ [الحديد:٣]، الدائم الباقي السرمدي الأبدي الحي القيوم ورب كل شيء ومليكه، اجعله ذخرك وملجأك، وهو الذي يُتَوكل عليه ويفزع إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ [المائدة:٦٧].

وقوله تعالى: ﴿وسبح بحمده﴾ أي اقرن بين حمده وتسبيحه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك» [رواه أبوداود والحاكم وصححه] أي أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالى: ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾ [المزمل:٩]. وقال تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ [هود:١٢٣] ﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾ [الملك:٢٩].

وقوله: ﴿وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾ أي لعلمه التام الذي لا يخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة. وقوله: ﴿الذي خلق السموات والأرض﴾ أي هو الحي الذي لا يموت، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه، الذي خلق بقدرته السموات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها ﴿في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ أي يدبر الأمر، ويقضي الحق، وهو خير الفاصلين.

وقوله: ﴿ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً﴾ أي استعلم عنه من هو خبير به عالم به، فاتبعه واقتد به، وقد عُلِم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه، سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فما قاله فهو الحق، وما أخبر به فهو الصدق، وهو الإمام

المُحَكَّم الذي إذا تنازع الناس في شيء وجب رد نزاعهم إليه، فما وافق أقواله وأفعاله فهو الحق، وما خالفها فهو مردود على قائله وفاعله، كائناً من كان، قال الله تعالى: ﴿**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول**﴾ [النساء: ٥٩]، وقال: ﴿**وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله**﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿**وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً**﴾ [الأنعام: ١١٥] أي صدقاً في الإخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي، ولهذا قال تعالى: ﴿**فاسأل به خبيراً**﴾.

قال مجاهد: في قوله ﴿**فاسأل به خبيراً**﴾ قال: ما أخبرك من شيء فهو كما أخبرك. وكذا قال ابن جريج. وقال شِمْر بن عطية: هذا القرآن خبير به. ثم قال تعالى منكراً على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد ﴿**وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن**﴾ أي لا نعرف الرحمن، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، ولكن اكتب كما كنت تكتب: باسمك اللهم، ولهذا أنزل الله تعالى: ﴿**قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى**﴾ [الإسراء: ١١٠] أي هو الله وهو الرحمن. وقال في هذه الآية: ﴿**وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن**﴾ أي لا نعرفه ولا نُقر به ﴿**أنسجد لما تأمرنا**﴾ أي لمجرد قولك ﴿**وزادهم نفوراً**﴾ فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويُفرِدُونه بالإلهية، ويسجدون له، وقد اتفق العلماء رحمهم الله على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروع السجودُ عندها لقارئها ومستمعها.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

يقول تعالى ممجداً نفسه ومعظماً على جميل ما خلق في السماوات من البروج، وهي الكواكب العظام في قول مجاهد وسعيد بن جبير وأبي صالح والحسن وقتادة. وقيل: هي قصور في السماء للحرس، يروى هذا عن علي وابن عباس ومحمد بن كعب وإبراهيم النخعي وسليمان بن مهران الأعمش، وهو رواية عن أبي صالح أيضاً، والقول الأول أظهر. اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس، فيجتمع القولان، كما قال تعالى: ﴿**ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح**﴾ [الملك: ٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿**تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً**﴾ وهي الشمس المنيرة التي هي كالسراج في الوجود، كما قال تعالى: ﴿**وجعلنا سراجاً وهاجاً**﴾ [النبأ: ١٣]. ﴿**وقمراً منيراً**﴾ أي مشرقاً مضيئاً بنور آخر ونوع وفن آخر، غير نور الشمس، كما قال: ﴿**هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً**﴾ [يونس: ٥]. ثم قال تعالى: ﴿**وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة**﴾ أي يخلف كل واحد منهما صاحبه، يتعاقبان لا يفتران، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب ذاك، كما قال تعالى: ﴿**وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار**﴾ [إبراهيم: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ أي جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده له عز وجل، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل، وقد جاء في الحديث الصحيح: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل» [رواه مسلم]. وقال ابن عباس: من فاته شيء من الليل أن يعمله، أدركه بالنهار، أو من النهار أدركه بالليل، وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والحسن، وقال مجاهد وقتادة: خلفة، أي مختلفين، أي هذا بسواده وهذا بضيائه.

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾.

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿الذين يمشون على الأرض هوناً﴾ أي بسكينة ووقار، كقوله: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ الآية [الإسراء:٣٧]. فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح، ولا أشر ولا بطر، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع تصنعاً ورياء، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صبَب، وكأنما الأرض تطوى له، وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع، حتى روي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رويداً، فقال: ما بالك أأنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. فعلاه بالدرة وأمره أن يمشي بقوة. وإنما المراد بالهَوْن هاهنا السكينة والوقار، كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا، وما فاتكم فأتموا». [متفق عليه].

وقال الحسن البصري في قوله ﴿وعباد الرحمن﴾ قال: إن المؤمنين قوم ذُلُل، ذلت منهم - والله - الأسماع والأبصار والجوارح، حتى يحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم من مرض، وإنهم والله أصحاء، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس، ولا تعاظم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة، أبكاهم الخوف من النار، وإنه مَنْ لم يَتَعَزَّ بعزاء الله، تقطع نفسه على الدنيا حسرات، ومن لم ير لله نعمةً إلا في مطعم أو في مشرب، فقد قل علمه وحَضَر عذابه.

وقوله تعالى: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ أي إذا سَفه عليهم الجهال بالسيء، لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون، ولا يقولون إلا خيراً، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلماً، وكما قال تعالى: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾ الآية [القصص:٥٥]. وروى الإمام أحمد عن النعمان بن مقرن المزني قال: قال رسول الله ﷺ، وسب رجل رجلاً عنده، قال: فجعل الرجل المسبوب يقول: عليك السلام، فقال رسول الله ﷺ: «أما إن ملكاً بينكما يذب عنك، كلما شتمك هذا قال له: بل أنت وأنت أحق به،

وإذا قلت له وعليك السلام، قال: لا بل عليك وأنت أحق به». إسناده حسن، ولم يخرجوه.

وقال مجاهد: ﴿**قالوا سلاماً**﴾ يعني قالوا سداداً. وقال سعيد بن جبير: ردوا معروفاً من القول. وقال الحسن البصري: حلماء لا يجهلون، وإن جُهِل عليهم حلموا، يصاحبون عباد الله نهارهم بما تسمعون، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل، فقال تعالى: ﴿**والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً**﴾ أي في طاعته وعبادته، كما قال تعالى: ﴿**كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون**﴾ [الذاريات:١٧ـ١٨]، ولهذا قال تعالى: ﴿**والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً**﴾ أي ملازماً دائماً.

ولهذا قال الحسن في قوله ﴿**إن عذابها كان غراماً**﴾ كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه، فليس بغرام، وإنما الغرام الملازم ما دامت السموات والأرض، وكذا قال سليمان التيمي. وقال محمد بن كعب القرظي: ما نُعِّمُوا في الدنيا، إن الله تعالى سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه، فأغرمهم فأدخلهم النار. ﴿**إنها ساءت مستقراً ومقاماً**﴾ أي بئس المنزل منظراً، وبئس المقيل مقاماً.

وقوله: ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا**﴾ أي ليسوا بمبذرين في إنفاقهم، فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم، بل عَدْلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا، ﴿**وكان بين ذلك قواماً**﴾ كما قال تعالى ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط**﴾ [الإسراء:٢٩]، وقال الحسن البصري: ليس في النفقة في سبيل الله سرف. وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله تعالى، فهو سرف. وقال غيره: السرف النفقة في معصية الله عز وجل.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١)﴾.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» قال: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك» قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر**﴾ الآية. وقد أخرجه البخاري ومسلم.

وقوله: ﴿**ومن يفعل ذلك يلق أثاماً**﴾ روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: أثاماً: واد في جهنم. وقال عكرمة: أودية في جهنم يعذب فيها الزناة. وكذا روي عن سعيد بن جبير ومجاهد. وقال قتادة: نكالاً، كنا نحدث أنه واد في جهنم. وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول: يا بني، إياك والزنا، فإن أوله مخافة وآخره ندامة، وقال السدي ﴿**يلق أثاماً**﴾ جزاء، وهذا

أشبه بظاهر الآية، وبهذا فسره بما بعده مبدلاً منه، وهو قوله: ﴿**يضاعف له العذاب يوم القيامة**﴾ أي يكرر عليه ويغلظ ﴿**ويخلد فيه مهاناً**﴾ أي حقيراً ذليلاً. وقوله: ﴿**إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً**﴾ أي جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿**إلا من تاب**﴾ في الدنيا إلى الله عز وجل من جميع ذلك، فإن الله يتوب عليه.(وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء ﴿**ومن يقتل مؤمناً متعمداً**﴾ الآية [النساء:٩٣]، فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة، فتحمل على من لم يتب، لأن هذه مقيدة بالتوبة، ثم قد قال تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ [النساء:٤٨]. وقد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل، كما ذكر مقرراً من قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب، فقبل الله توبته، وغير ذلك من الأحاديث) وقوله: ﴿**فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً**﴾(في معنى قوله: ﴿**يبدل الله سيئاتهم حسنات**﴾ قولان:

أحدهما: أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات. قال ابن عباس: هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات، فَرَغِب الله بهم عن ذلك، فحوَّلهم إلى الحسنات، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات. وروي عن ابن عباس أنه كان يُنْشد عند هذه الآية:

بُدّلن بعد حَرِّهِ خريفا وبعد طول النَّفس الوجيفا

يعني تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها، وقال عطاء بن أبي رباح: هذا في الدنيا، يكون الرجل على هيئة قبيحة ثم يبدله الله بها خيراً. وقال سعيد بن جبير: أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الله، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات. وقال الحسن البصري: أبدلهم الله بالعمل السيء العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً، وأبدلهم بالفجور إحصاناً، وبالكفر إسلاماً، وهذا قول أبي العالية وقتادة وجماعة آخرين.

والقول الثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذلك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار، فيوم القيامة وإن وجده مكتوباً عليه، فإنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته، كما ثبتت السنة بذلك، وصحت به الآثار المروية عن السلف رحمهم الله تعالى، وهذا سياق الحديث. روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة، يؤتى برجل فيقول: نَحّوا كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها، قال: فيقال له: عملت يوم كذا، كذا وكذا، وعملت يوم كذا، كذا وكذا، فيقول: نعم لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً، فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة، فيقول: يا رب عملت أشياء لا أراها ههنا» قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، انفرد بإخراجه مسلم. وعن سلمان قال: يعطى الرجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها، فإذا سيئاته، فإذا كاد يسوء

ظنه نظر في أسفلها فإذا حسناته، ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدلت حسنات. وقال علي بن الحسين زين العابدين: ﴿يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ في الآخرة، وعن سعيد بن المسيب مثله)

ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده، وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلاً أو حقيراً، كبيراً أو صغيراً، فقال تعالى: ﴿ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾ أي فإن الله يقبل توبته، كما قال تعالى: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ [النساء: ١١٠]، وقال: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا﴾ [الزمر: ٥٣]، أي لمن تاب إليه.

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾.

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور، قيل: هو الشرك وعبادة الأصنام، وقيل: الكذب والفسق والكفر واللغو والباطل، وقال محمد بن الحنفية: هو اللهو والغناء. وقال أبو العالية وطاوس ومحمد ابن سيرين والضحاك والربيع بن أنس وغيرهم: هي أعياد المشركين. وقال عمرو بن قيس، هي مجالس السوء والخنا. وقال الزهري: شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه، كما جاء في الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر» [رواه الترمذي وقال: حسن غريب]. وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿لا يشهدون الزور﴾ أي شهادة الزور، وهي الكذب متعمداً على غيره، كما في الصحيحين عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟» ثلاثاً، قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الشرك بالله وعقوق الوالدين» وكان متكئاً، فجلس فقال: «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور». فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أي لا يحضرونه، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾ أي لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء، ولهذا قال ﴿مروا كراماً﴾.

وقوله: ﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ وهذه أيضاً من صفات المؤمنين ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾ [الأنفال: ٢]، بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يُقْصر عما كان عليه بل يبقى مستمراً على كفره وطغيانه وجهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ [التوبة: ١٢٤ـ١٢٥]. فقوله:

﴿لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ أي بخلاف الكافر أي الذي إذا ذكر بآيات الله، فاستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى.

وقال مجاهد: لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئاً. وقال الحسن البصري رضي الله عنه: كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى. وقال قتادة: لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه، فهم والله قوم عقلوا عن الله وانتفعوا بما سمعوا من كتابه. وعن ابن عون قال: سألت الشعبي قلت: الرجل يرى القوم سجوداً ولم يسمع ما سجدوا، أيسجد معهم؟ قال: فتلا هذه الآية: يعني أنه لا يسجد معهم، لأنه لم يتدبر آية السجود، ولا ينبغي للمؤمن أن يكون إمعة بل يكون على بصيرة من أمره ويقين واضح بيِّن.

وقوله: ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾ يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له. وقال ابن عباس: يعنون من يعمل بطاعة الله فتقرُّ به أعينهم في الدنيا والآخرة. (قال عكرمة: لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالاً، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين) (وسئل الحسن البصري عن هذه الآية فقال: أن يُري الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله، لا والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولداً أو ولد ولد أو أخاً أو حميماً مطيعا لله عز وجل) قال ابن جريج: يعبدونك فيحسنون عبادتك ولا يجرون علينا الجرائر. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني يسألون الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام.

وروى الإمام أحمد عن جبير بن نفير قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً، فمر به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ لوددنا أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت، فاستغضب المقداد، فجعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيراً، ثم أقبل إليه فقال: ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيبه الله عنه لا يدري لو شهده كيف يكون فيه؟ والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم، لم يجيبوه ولم يصدقوه، أولا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم قد كفيتم البلاء بغيركم؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشد حال بعث عليها نبياً من الأنبياء في فترة جاهلية، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل، وفرق بين الوالد وولده، حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده أو أخاه كافراً وقد فتح الله قُفْل قلبه للإيمان، يعلم أنه إن هلك دخل النار، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار، وأنها التي قال الله تعالى: ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾ وهذا إسناده صحيح، ولم يخرجوه.

وقوله: ﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾ قال ابن عباس والحسن والسدي وقتادة والربيع بن أنس: أئمة يقتدى بنا في الخير. وقال غيرهم: هداةً مهتدين، ودعاة إلى الخير، فأحبوا أن تكون

عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثواباً، وأحسنُ مآباً، ولهذا ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧٦ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ۝٧٧﴾.

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من هذه الصفات الجميلة، والأقوال والأفعال الجليلة، قال بعد ذلك كله: ﴿**أولئك**﴾ أي المتصفون بهذه ﴿**يجزون**﴾ يوم القيامة ﴿**الغرفة**﴾ وهي الجنة، قال أبو جعفر الباقر وسعيد بن جبير والضحاك والسدي: سميت بذلك لارتفاعها ﴿**بما صبروا**﴾ أي على القيام بذلك ﴿**ويلقون فيها**﴾ أي في الجنة ﴿**تحية وسلاماً**﴾ أي يُبْتَدرون فيها بالتحية والإكرام، ويُلَقَّوْن فيها التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. وقوله: ﴿**خالدين فيها**﴾ أي مقيمين لا يظعنون ولا يموتون ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولاً، كما قال تعالى: ﴿**وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض**﴾ الآية [هود:١٠٨].

وقوله: ﴿**حسنت مستقراً ومقاماً**﴾ أي حسنت منظراً وطابت مقيلاً ومنزلاً. ثم قال تعالى: ﴿**قل ما يعبأ بكم ربي**﴾ أي لا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلاً. وقال مجاهد وعمرو بن شعيب: ما يفعل بكم ربي. وقال ابن عباس في قوله ﴿**لولا دعاؤكم**﴾ يقول: لولا إيمانكم، وأخبر تعالى الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين.

وقوله: ﴿**فقد كذبتم**﴾ أيها الكافرون ﴿**فسوف يكون لزاماً**﴾ أي فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم، يعني مقتضياً لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والاخرة، ويدخل في ذلك يوم بدر، كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومحمد بن كعب القرظي ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم. وقال الحسن البصري: ﴿**فسوف يكون لزاماً**﴾ أي يوم القيامة، ولا منافاة بينهما.

تفسير سورة الشعراء وهي مكية.

ووقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتها سورة الجامعة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً

فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة. وقوله: ﴿**تلك آيات الكتاب المبين**﴾ أي هذه آيات القرآن المبين، أي البين الواضح الجلي الذي يفصل بين الحق والباطل، والغي والرشاد. وقوله: ﴿**لعلك باخع**﴾ أي مهلك ﴿**نفسك**﴾ أي مما تحرص عليهم وتحزن عليهم ﴿**ألا يكونوا مؤمنين**﴾ وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: ﴿**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**﴾ [فاطر:٨]، وقال: ﴿**فعللك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً**﴾ [الكهف:٦]. قال مجاهد وعكرمة وقتادة وعطية والضحاك والحسن وغيرهم ﴿**لعلك باخع نفسك**﴾ أي قاتل نفسك.

ثم قال تعالى: ﴿**إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين**﴾ أي لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً، ولكن لا نفعل ذلك، لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري. وقال تعالى: ﴿**ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً. أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾ [يونس:٩٩]، فنفذ قَدَرُه، ومضت حكمته، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم. ثم قال: ﴿**وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين**﴾ أي كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس، كما قال: ﴿**وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين**﴾ [يوسف:١٠٣]، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿**فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يسهزئون**﴾ أي فقد كذبوا بما جاءهم من الحق، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين ﴿**وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون**﴾ [الشعراء:٢٢٧]. ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه وجلالة قدره وشأنه، الذين اجترؤوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه، وهو القاهر العظيم القادر الذي خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم من زروع وثمار وحيوان.

روي عن الشعبي أنه قال: الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم ﴿**إن في ذلك لآية**﴾ أي دلالة على قدرة الخالق للأشياء الذي بسط الأرض ورفع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس بل كذبوا به وبرسله وكتبه، وخالفوا أمره، وارتكبوا نهيه. وقوله: ﴿**وإن ربك لهو العزيز**﴾ أي الذي عز كل شيء وقهره وغلبه ﴿**الرحيم**﴾ أي بخلقه فلا يعجل على من عصاه بل يُؤجله ويُنظره، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر. قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس ومحمد ابن إسحاق: العزيز في نقمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره. وقال سعيد بن جبير: الرحيم بمن تاب إليه وأناب.

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ
صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم
مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا
وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾
فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام حين ناداه من جانب الطور الأيمن، وكلمه وناجاه، وأرسله واصطفاه، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه، ولهذا قال تعالى: **﴿أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون * قال رب إني أخاف أن يكذبون * ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون * ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون﴾** هذه أعذار سأل الله إزاحتها عنه، كما قال في سورة طه: **﴿قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري ـ إلى قوله ـ قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾** [طه: ٢٥ـ٣٦].

وقوله: **﴿ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون﴾** أي بسبب قتل ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر. **﴿قال كلا﴾** أي قال الله له: لا تخف من شيء من ذلك كقوله: **﴿سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً﴾** ـ أي برهاناً ـ **﴿فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾** [القصص: ٣٥]. **﴿فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون﴾** كقوله: **﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾** [طه: ٤٦] أي إنني معكما بحفظي ونصري. **﴿فائتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين﴾**، وقال في الآية الأخرى: **﴿إنا رسولا ربك﴾** [طه: ٤٧] أي كل منا أرسل إليك، **﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾** أي أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك، فإنهم عباد الله المؤمنون وحزبه المخلصون، وهم معك في العذاب المهين، فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون هنالك بالكلية، ونظر إليه بعين الازدراء، فقال: **﴿ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت﴾** أي أما أنت الذي ربيناه فينا وفي بيتنا وعلى فراشنا وغذيناه، وأنعمنا عليه مدة من السنين، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة أن قتلت منا رجلاً، وجحدت نعمتنا عليك، ولهذا قال: **﴿وأنت من الكافرين﴾** أي الجاحدين. قاله ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير، **﴿قال فعلتها إذاً﴾** أي في تلك الحال **﴿وأنا من الضالين﴾** أي قبل أن يُوحَى إلي ويُنعِم الله علي بالرسالة والنبوة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم **﴿وأنا من الضالين﴾** أي الجاهلين. قال ابن جريج: وهي كذلك في قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. **﴿ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين﴾** أي انفصل الحال الأول وجاء أمر آخر، فقد أرسلني الله إليك فإن أطعته سَلمت، وإن خالفته عَطبت. ثم قال موسى: **﴿وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل﴾** أي وما أحسنت إلي وربيتني مقابل ما أسأت إلى

بني إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخدماً تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيتك، أفيفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم، أي ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وطغيانه وجحوده في قوله ﴿**وما رب العالمين**﴾ وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿**ما علمت لكم من إله غيري**﴾ [القصص:٣٨]، ﴿**فاستخف قومه فأطاعوه**﴾ [الزخرف:٥٤]، وكانوا يجحدون الصانع جل وعلا، ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون فلما قال له موسى: إني رسول رب العالمين. قال له فرعون: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السدي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿**قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**﴾ [طه:٤٩-٥٠]. ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم أن هذا سؤال عن الماهية فقد غَلِطَ، فإنه لم يكن مقراً بالصانع حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين: ﴿**قال رب السموات والأرض وما بينهما**﴾ أي خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه، وإلهه لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار وجبال وأشجار وحيوانات ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطير، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون. ﴿**إن كنتم موقنين**﴾ أي إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة، فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلاً لهم على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿**ألا تستمعون؟**﴾ أي ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه أن لكم إلهاً غيري؟ فقال لهم موسى: ﴿**ربكم ورب آبائكم الأولين**﴾ أي خالقكم وخالق آبائكم الأولين، الذين كانوا قبل فرعون وزمانه. ﴿**قال**﴾ أي فرعون لقومه: ﴿**إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون**﴾ أي ليس له عقل في دعواه أن ثمَّ رباً غيري. ﴿**قال**﴾ أي موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة، فأجاب موسى بقوله: ﴿**رب المشرق والمغرب ومابينهما إن كنتم تعقلون**﴾ أي هو الذي جعل المشرق مشرقاً تطلع منه الكواكب، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب: ثوابتها وسياراتها، مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً، فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً، كما قال تعالى عن ﴿**الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فائت بها من المغرب**﴾ [البقرة:٢٥٨]،

ولهذا لما غُلب فرعون وانقطعت حجته، عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى عليه السلام، فقال ما أخبر الله تعالى عنه:

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه، وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال، فقال: ﴿**لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين**﴾ فعند ذلك قال موسى: ﴿**أولو جئتك بشيء مبين**﴾ أي ببرهان قاطع واضح ﴿**قال فأت به إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين**﴾ أي ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة، ذات قوائم، وفم كبير، وشكل هائل مزعج ﴿**ونزع يده**﴾ أي من جيبه ﴿**فإذا هي بيضاء للناظرين**﴾ أي تتلألأ كقطعة من القمر، فبادر فرعون بشقائه إلى التكذيب والعناد، فقال للملإ حوله: ﴿**إن هذا لساحر عليم**﴾ أي بارع في السحر، فروج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته والكفر به، فقال: ﴿**يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره**﴾ الآية، أي أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه، ويغلبكم على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم، فأشيروا علي فيه ماذا أصنع به؟ ﴿**قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحار عليم**﴾ أي أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليم يقابلونه، ويأتون بنظير ما جاء به، فتغلبه أنت، وتكون لك النصرة والتأييد، فأجابهم إلى ذلك. وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك ليجتمع الناس في صعيد واحد، ولتظهر آيات الله وبراهينه على الناس في النهار جهرة.

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى عليه السلام والقبط في سورة الأعراف، وفي سورة طه، وفي هذه السورة، وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، وهذا شأن الكفر والإيمان، ما تواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان، ﴿**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون**﴾ [الأنبياء:١٨]، ﴿**وقل جاء الحق وزهق الباطل**﴾ [الإسراء:٨١]، ولهذا لما جاء السحرة وقد جمعوهم من

أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك من أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخييلاً في ذلك، وكان السحرة جمعاً كثيراً وجماً غفيراً، واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: ﴿**لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين**﴾ ولم يقولوا نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم ﴿**فلما جاء السحرة**﴾ أي إلى مجلس فرعون، وقد ضربوا له وطاقاً، وجمع خدمه وحشمه وأمراءه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته، فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا، أي هذا الذي جمعتنا من أجله، فقالوا: ﴿**أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين**﴾ أي وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي، فعادوا إلى مقام المناظرة ﴿**قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا**﴾ [طه: ٦٥-٦٦]، وقد اختصر هذا ههنا، فقال لهم موسى ﴿**ألقوا ما أنتم ملقون * فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون**﴾ وهذا كما يقوله الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً هذ بثواب فلان، وقد ذكر الله تعالى في سورة الأعراف أنهم ﴿**سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم**﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال في سورة طه ﴿**فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** - إلى قوله - **ولا يفلح الساحر حيث أتى**﴾ [طه: ٦٦-٦٩]. وقال ههنا: ﴿**فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون**﴾ أي تخطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئاً. قال الله تعالى: ﴿**فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون** - إلى قوله - **رب موسى وهارون**﴾ [الأعراف: ١١٨-١٢٢] وكان هذا أمراً عظيماً جداً، وبرهاناً قاطعاً للعذر، وحجة دامغة، وذلك أن الذي استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا، قد غلبوا وخضعوا، وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة، سجدوا لله رب العالمين الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله، وكان وقحاً جريئاً، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل، فشرع يتهددهم ويتوعدهم ويقول: ﴿**إنه لكبيركم الذي علمكم السحر**﴾ [طه: ٧١]، وقال: ﴿**إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة**﴾ [الأعراف: ١٢٣].

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

تهددهم فلم يقطع ذلك فيهم، وتوعدهم فما زادهم إلا إيماناً وتسليماً. وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجابُ الكفر، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم، من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر، إلا أن يكون الله قد أيده به، وجعله له حجة على صدق ما جاء به من ربه، ولهذا لما قال لهم فرعون: ﴿**آمنتم له قبل أن آذن لكم**﴾ أي كان ينبغي أن تستأذنوني

فيما فعلتم، ولا تفتاتوا عليَّ في ذلك، فإن أذنت لكم فعلتم، وإن منعتكم امتنعتم فأني أنا الحاكم المطاع ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾. وهذه مكابرة يعلم كل أحد بُطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل.

ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب فقالوا: ﴿لا ضير﴾ أي لاحرج، ولا نبالي به ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ أي المرجع إلى الله عز وجل، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء، ولهذا قالوا: ﴿إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا﴾ أي ما قارفنا من الذنوب وما أكرهتنا عليه من السحر ﴿أن كنا أول المؤمنين﴾ أي بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان. فقتَلهُم كلهم.

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر، وأقام بها حُجَج الله وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال، فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً من مصر، وأن يمضي بهم حيث يُؤمر، ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل، خرج بهم بعد ما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً.

فلما أصبحوا وليس في ناديهم داع ولا مجيب، غاظ ذلك فرعون، واشتد غضبه على بني إسرائيل لما يريد الله به من الدمار، فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين، أي من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحُجّاب، ونادى فيهم: ﴿إن هؤلاء﴾ يعني بني إسرائيل ﴿لشرذمة قليلون﴾ أي لطائفة قليلة ﴿وإنهم لنا لغائظون﴾ أي كل وقت يصل منهم إلينا ما يغيظنا ﴿وإنا لجميع حاذرون﴾ أي نحن كل وقت نحذر من غائلتهم، وإني أريد أن أستأصل شأفتهم، وأبيد خَضْراءهم، فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم، قال الله تعالى: ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم﴾ أي فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق، والملك والجاه الوافر في الدنيا ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ كما قال تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾ [الأعراف: ١٣٧].

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ

ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾.

ذكر غير واحد من المفسرين أن فرعون خرج في جحفل عظيم وجمع كبير، وهو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه، أولي الحل والعقد والدول من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود. ﴿**فأتبعوهم مشرقين**﴾ أي وصلوا إليهم عند شروق الشمس، وهو طلوعها، ﴿**فلما تراءى الجمعان**﴾ أي رأى كل من الفريقين صاحبه، فعند ذلك ﴿**قال أصحاب موسى إنا لمدركون**﴾ وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحرُ، فصار أمامهم البحر وقد أدركهم فرعون بجنوده، فلهذا قالوا: ﴿**إنا لمدركون . قال كلا إن معي ربي سيهدين**﴾ أي لا يصل إليكم شيء مما تحذرون، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير ههنا بكم، وهو سبحانه وتعالى لا يُخْلفُ الميعاد، وكان هارون عليه السلام في المقدمة، ومعه يوشع بن نون، ومؤمن آل فرعون، وموسى عليه السلام في الساقة، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون، وجعل يوشع بن نون أو مؤمن آل فرعون، يقول لموسى عليه السلام: يا نبي الله ههنا أمرك ربك أن تسير؟ فيقول، نعم، فاقترب فرعون وجنوده ولم يبق إلا القليل، فعند ذلك أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر، فضربه وقال: انفلق بإذن الله.

وقال قتادة: أوحى الله تلك الليلة إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع، فبات البحر تلك الليلة وله اضطراب، ولا يدري من أي جانب يضربه موسى، فلما انتهى إليه موسى، قال له فتاه يوشع بن نون: يا نبي الله أين أمرك ربك عز وجل؟ قال: أمرني أن أضرب البحر، قال: فاضربه. [وروي نحوه عن ابن اسحاق. وذكر غير واحد أنه كناه، فقال: انفلق عليّ أبا خالد بحول الله.

قال الله تعالى: ﴿**فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم**﴾ أي كالجبل الكبير، قاله ابن مسعود وابن عباس ومحمد بن كعب والضحاك وقتادة وغيرهم. وقال عطاء الخراساني: هو الفَجّ بين الجبلين. وقال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق، وزاد السدي: وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض، وقام الماء كالحيطان. وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته، فصار يبساً كوجه الأرض، قال الله تعالى: ﴿**فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى**﴾ [طه:٧٧]، وقال في هذه القصة: ﴿**وأزلفنا ثم الآخرين**﴾ أي هنالك. قال ابن عباس وعطاء الخراساني وقتادة والسدي: ﴿**وأزلفنا**﴾ أي قربنا من البحر فرعون وجنوده، وأدنيناهم إليه. ﴿**وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين**﴾ أي أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم، فلم يهلك منهم أحد، وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلا هلك.

ثم قال تعالى: ﴿**إن في ذلك لآية**﴾ أي في هذه القصة وما فيها من العجائب والتأييد

لعباد الله المؤمنين، لدلالة وحكمة بالغة، ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ تقدم تفسيره.

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء، أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يتلوه على أمته ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبري من الشرك وأهله، فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل، أي من صغره إلى كبره، فإنه من وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله عز وجل ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون﴾ أي ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ ﴿قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين﴾ أي مقيمين على عبادتها ودعائها ﴿قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون. قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ يعني اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فهم على آثارهم يُهرعون، فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾ أي إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير، فلتخلُص إلي بالمساءة، فإني عدو لها لا أباليها ولا أفكر فيها، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام: ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم﴾ الآية [يونس: ٧١]، وقال هود عليه السلام: ﴿إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾ [هود: ٥٤-٥٦]. وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم فقال: ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله﴾ [الأنعام: ٨١].

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾.

يعني لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ أي هو الخالق الذي قدَّر قدراً، وهدى الخلائق إليه، فكل يجري على ما قدر له، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿والذي هو يطعمني ويسقين﴾ أي هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المُزْنَ، وأنزل الماء وأحيا به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذباً زلالا يسقيه مما خلق أنعاماً وأناسي كثيراً.

وقوله: ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ أسند المرض إلى نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً، كما قال تعالى آمراً للمصلي أن يقول: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ [الفاتحة: ٥-٦] إلى آخر السورة، فأسند الإنعام والهداية إلى الله تعالى، والغضب

حذف فاعله أدباً، وأسند الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن: ﴿وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾ [الجن: ١٠]، ولهذا قال إبراهيم: ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ أي إذا وقعت في مرض، فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه، ﴿والذي يميتني ثم يحيين﴾ أي هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يبدىء ويعيد ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ أي هو الذي لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا الله، وهو الفعال لما يشاء.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾.

وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتيه ربه حكماً. قال ابن عباس: هو العلم. وقال عكرمة: اللب، وقال مجاهد: القرآن. وقال السدي: النبوة. وقوله: ﴿وألحقني بالصالحين﴾ أي اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار «اللهم الرفيق الأعلى» قالها ثلاثاً. [متفق عليه]. وقوله: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ أي واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أُذْكَر به، ويُقْتَدى بي في الخير، كما قال تعالى: ﴿وتركنا عليه في الآخرين * سلام على إبراهيم * كذلك نجزي المحسنين﴾ [الصافات: ١٠٨-١١٠].

قال مجاهد وقتادة: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ يعني الثناء الحسن. قال مجاهد: كقوله: ﴿وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ [العنكبوت: ٢٧]، قال ليث بن أبي سليم: كل ملة تحبه وتتولاه، وكذا قال عكرمة. وقوله تعالى: ﴿واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ أي أنعم عليّ في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم. وقوله: ﴿واغفر لأبي﴾ كقوله: ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي﴾ [إبراهيم: ٤١]، وهذا مما رجَعَ عنه إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه - إلى قوله - إن إبراهيم لأواه حليم﴾ [التوبة: ١١٤]. وقد قطع الله تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه فقال: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه - إلى قوله - وما أملك لك من الله من شيء﴾ [الممتحنة: ٤].

وقوله: ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾ أي أجرني من الخزي يوم القيامة ويوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم.

روى البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قَتَرةٌ وغَبَرةٌ، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصيني، فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد.

فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم انظر تحت رجلك، فينظر، فإذا هو بذيخ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار». والذيخ هو الذكر من الضباع، كأنه حول آزر إلى صورة ذيخ متلطخ بعذرته فيلقى في النار كذلك.

وقوله: ﴿**يوم لا ينفع مال ولا بنون**﴾ أي لا يقي المرء من عذاب الله ماله، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿**ولا بنون**﴾ أي ولو افتدى بمن على الأرض جميعاً، ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله وإخلاص الدين له، والتبري من الشرك، ولهذا قال: ﴿**إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾ أي سالم من الدنس والشرك. قال ابن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. وقال ابن عباس: ﴿**إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾ حَيِي يشهد أن لا إله إلا الله. وقال مجاهد والحسن وغيرهما: ﴿**بقلب سليم**﴾ يعني من الشرك. وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن، لأن قلب المنافق مريض، قال الله تعالى: ﴿**في قلوبهم مرض**﴾ [البقرة: ١٠]. قال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب الخالي من البدعة، المطمئن على السنة.

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿**أزلفت الجنة**﴾ أي قربت وأدنيت من أهلها يوم القيامة مزخرفة مزينة لناظريها، وهم المتقون الذين رغبوا فيها على ما في الدنيا، وعملوا لها عملها في الدنيا. ﴿**وبرزت الجحيم للغاوين**﴾ أي أظهرت وكُشف عنها، وبدت منها عُنقٌ، فزفرت زفرة بلغت منها القلوب إلى الحناجر، وقيل لأهلها تقريعاً وتوبيخاً: ﴿**أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون**﴾ أي ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله، من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئاً، ولا تدفع عن أنفسها، فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون.

وقوله: ﴿**فكبكبوا فيها هم والغاوون**﴾ قال مجاهد: يعني فَدُهْوِرُوا فيها. وقال غيره: كبوا فيها، والكاف مكررة، كما يقال صرصر، والمراد أنه ألقى بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك، ﴿**وجنود إبليس أجمعون**﴾ أي ألقوا فيها عن آخرهم. ﴿**قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين**﴾ أي يقول الضعفاء للذين استكبروا: إنا كنا لكم تبعاً، فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار؟ ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة ﴿**تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين**﴾ أي نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين، وعبدناكم مع رب العالمين ﴿**وما أضلنا إلا المجرمون**﴾ أي ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون ﴿**فما لنا من شافعين**﴾ قال بعضهم: يعني

من الملائكة كما يقولون: ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾ [الأعراف: ٥٣]. وكذا قالوا: ﴿فما لنا من شافعين. ولا صديق حميم﴾ أي قريب.

قال قتادة: يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحاً نفع، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع. ﴿فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين﴾ وذلك أنهم يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون، والله تعالى يعلم أنهم لو ردَّهم إلى دار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون، وقد أخبر الله تعالى عن تخاصم أهل النار في سورة (ص) ثم قال تعالى: ﴿إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ [ص: ٦٤]. ثم قال تعالى: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامة الحجج عليهم في التوحيد لآية، أي لدلالة واضحة جلية على أنه لا إله إلا الله ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ﴾.

هذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله نوح عليه السلام، وهو أول رسول بُعث إلى أهل الأرض بعد ما عبدت الأصنام والأنداد، بعثه الله ناهياً عن ذلك، ومحذراً من وبيل عقابه، فكذبه قومه، فاستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى: ونزل الله تعالى تكذيبهم له بمنزلة تكذيبهم جميع الرسل، فلهذا قال تعالى: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون﴾ أي ألا تخافون الله في عبادتكم غيره ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي إني رسول من الله إليكم، أمين فيما بعثني الله به، أبلغكم رسالة ربي ولا أزيد فيها ولا أنقص منها، ﴿فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر﴾ الآية، أي لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم، بل أدّخر ثواب ذلك عند الله ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ فقد وضح لكم وبان صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني الله به وائتمنني عليه.

﴿ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾.

يقولون: أنؤمن لك، ونتبعك ونتساوى في ذلك بهؤلاء الأراذل، الذين اتبعوك وصدقوك وهم أراذلنا، ولهذا ﴿قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون * قال وما علمي بما كانوا يعملون﴾ أي وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي؟ ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه، لا يلزمني التنقيب عنهم والبحث والفحص، إنما علي أن أقبل منهم تصديقهم إياي، وأكل سرائرهم إلى الله عز وجل ﴿إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين﴾ كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ويتابعوه، فأبى عليهم ذلك وقال ﴿وما أنا بطارد المؤمنين * إن أنا إلا نذير مبين﴾ أي إنما بعثت نذيراً، فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني وكنت منه، سواء كان شريفاً أو وضيعاً.

﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم، يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر: **﴿لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾** أي لئن لم تنته عن دعوتك إيانا إلى دينك، **﴿لتكونن من المرجومين﴾** أي لنرجمنك، فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه، فقال: **﴿رب إن قومي كذبون * فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾** كما قال في الآية الأخرى: **﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾** إلى آخر الآية [القمر: ١٠-١٤]. وقال هاهنا: **﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعد الباقين﴾** والمشحون هو المملوء بالأمتعة والأزواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين، أي أنجينا نوحاً ومن اتبعه كلهم، وأغرقنا من كفر به وخالف أمره كلهم أجمعين **﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾**.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام، أنه دعا قومه عاداً، وكان قومه يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل قريباً من بلاد حضرموت، متاخمة لبلاد اليمن، وكانوا بعد قوم نوح، كما قال في سورة الأعراف: **﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة﴾** [الأعراف: ٦٩]، وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب والبطش الشديد، والطول المديد، والأرزاق الدّارّة، والأموال والجنات والعيون والأنهار، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله هوداً إليهم رجلاً منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً، فدعاهم إلى الله وحده، وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته وبطشه، فقال لهم كما قال نوح لقومه إلى أن قال: **﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون﴾** اختلف المفسرون في الريع بما حاصله أنه المكان المرتفع عند جوادّ الطرق المشهورة، يبنون هناك بنياناً محكماً هائلاً باهراً، ولهذا قال: **﴿أتبنون بكل ريع آية﴾** أي معلماً بناء مشهوراً، تعبثون، أي وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة، ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك، لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة. ثم قال: **﴿وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون﴾** قال مجاهد: والمصانع البروج المشيدة والبنيان المخلد، وفي رواية عنه: بروج الحمام. وقال قتادة: هي مأخذ الماء.

قال قتادة: وقرأ بعض الكوفيين: «وتتخذون مصانع كأنكم خالدون». وفي القراءة المشهورة ﴿**وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون**﴾ أي لكي تقيموا فيها أبداً وذلك ليس بحاصل لكم بل زائل عنكم، كما زال عمن كان قبلكم. وروى ابن أبي حاتم رحمه الله أن أبا الدرداء رضي الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الشجر، قام في مسجدهم فنادى: يا أهل دمشق، فاجتمعوا إليه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا تستحيون، ألا تستحيون، تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون، ويبنون فيوثقون، ويأملون فيطيلون، فأصبح أملُهم غروراً، وأصبح جمعهم بوراً، وأصبحت مساكنهم قبوراً، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعُمَان خيلاً وركاباً، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين ؟.

وقوله: ﴿**وإذا بطشتم بطشتم جبارين**﴾ أي يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت ﴿**فاتقوا الله وأطيعون**﴾ أي اعبدوا ربكم وأطيعوا رسولكم. ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم، فقال: ﴿**واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون * إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم**﴾ أي إن كذبتم وخالفتم، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب، فما نفع فيهم.

﴿ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له بعد ما حذرهم وأنذرهم، ورغبهم ورهبهم، وبين لهم الحق ووضحه: ﴿**قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين**﴾ أي لا نرجع عما نحن عليه ﴿**وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك، وما نحن لك بمؤمنين**﴾ [هود:٥٣]. وهكذا الأمر، فإن الله تعالى قال: ﴿**إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**﴾ [البقرة:٦]. وقولهم: ﴿**إن هذا إلا خلق الأولين**﴾ قرأ بعضهم: «إن هذا إلا خَلْق الأولين» بفتح الخاء وتسكين اللام. قال ابن مسعود وابن عباس وعلقمة ومجاهد: يعنون ما هذا الذي جئتنا به إلاأخلاق الأولين، كما قال المشركون من قريش: ﴿**وقالوا أساطير الأولين**﴾ [الفرقان:٥]، وقرأ آخرون: «إن هذا إلا خُلُق الأولين» بضم الخاء واللام، يعنون دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأولين من الآباء والأجداد، ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولامعاد، ولهذا قالوا ﴿**وما نحن بمعذبين**﴾. قال ابن عباس: ﴿**إن هذا إلا خلق الأولين**﴾ يقول: دين الأولين. وقاله عكرمة وعطاء الخراساني وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿**فكذبوه فأهلكناهم**﴾ أي فاستمروا على تكذيب نبي الله هود وعناده، فأهلكهم الله، وقد بين سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية، أي ريحاً شديدة الهبوب، ذات برد شديد جداً، فكان سبب إهلاكهم من

جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة، كما قال تعالى: ﴿**ألم ترَ كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد**﴾ [الفجر:٦-٧]، وهم عاد الأولى، كما قال تعالى: ﴿**وأنه أهلك عاداً الأولى**﴾ [النجم:٥٠]، وهم من نسل إرم بن سام بن نوح. ﴿**ذات العماد**﴾ الذين كانو يسكنون العَمَد، ومن زعم أن إرم مدينة، فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب، وليس لذلك أصل أصيل، ولهذا قال: ﴿**التي لم يخلق مثلها في البلاد**﴾ [الفجر:٨] أي لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجبروتهم، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال: التي لم يبن مثلها في البلاد، وقال: ﴿**فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون**﴾ [فصلت:١٥]. وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئاً ﴿**إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر**﴾ [نوح:٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿**فكذبوه فأهلكناهم**﴾ الآية.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٤٥) ﴾.

وهذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله صالح عليه السلام، أنه بعثه إلى قومه ثمود، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحِجْر، التي بين وداي القرى وبلاد الشام، ومساكنهم معروفة مشهورة، وقد قدمنا في سورة الأعراف [عند الآيات ٧٣-٧٨] الأحاديث المروية في مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد غزو الشام، فوصل إلى تبوك ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك، وكانوا بعد عاد وقبل الخليل عليه السلام. فدعاهم نبيهم صالح إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه، وأخبرهم أنه لا يبتغي بدعوتهم أجراً منهم، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله عز وجل، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم، فقال:

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ (١٤٩) فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٥١) ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) ﴾.

يقول لهم واعظاً لهم، ومحذرهم أياهم نِقَم الله أن تحل بهم، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارّة وجعلهم في أمن من المحذورات. وأنبت لهم من الجنات، وفجر لهم من العيون الجاريات، وأخرج لهم من الزروع والثمرات، ولهذا قال: ﴿**ونخل طلعها هضيم**﴾ وعن ابن عباس: أينع وبلغ، فهو هضيم. وعنه أيضا: هضيم: معشبة. وعنه كذلك: إذا رطب واسترخى. وروي عن أبي صالح نحو هذا.

وقال أبو العلاء: ﴿**ونخل طلعها هضيم**﴾ قال: هو المُذَنِّب من الرطب [يعني أرطب أوله أو آخره]، وقال مجاهد: هو الذي إذا كُبس تهشم وتفتت وتناثر، وقال مجاهد: حين يطلع

تقبض عليه فتهضمه، فهو من الرطب الهضيم، ومن اليابس الهشيم، تقبض عليه فتهشمه. وقال عكرمة وقتادة: الهضيم الرطب اللين. وقال الضحاك: إذا كثر حمل الثمرة وركب بعضه بعضاً، فهو هضيم. وقال الحسن البصري: هو الذي لا نوى له، وقال أبو صخر: ما رأيت الطلع حين يُشق عنه الكم؟ فترى الطلع قد لصق بعضه ببعض، فهو الهضيم.

وقوله: ﴿**وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين**﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني حاذقين. وفي رواية عنه: شرهين أشرين. وهو اختيار مجاهد وجماعة، ولا منافاة بينهما، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وبطراً وعبثاً من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم، ولهذا قال ﴿**فاتقوا الله وأطيعون**﴾ أي أقبلوا على عمل ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتعبدوه وتوحدوه وتسبحوه بكرة وأصيلا ﴿**ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون**﴾ يعني رؤساءهم وكبراءهم، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق.

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن ثمود في جوابهم لنبيهم صالح عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة ربهم عز وجل أنهم ﴿**قالوا إنما أنت من المسحرين**﴾ قال مجاهد وقتادة: يعنون من المسحورين. وروي عن ابن عباس: ﴿**من المسحرين**﴾ يعني من المخلوقين، أي الذين لهم سُحور، والسَّحر هو الرئة. والأظهر في هذا قول مجاهد وقتادة أنهم يقولون: إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك، ثم قالوا: ﴿**ما أنت إلا بشر مثلنا**﴾ يعني فكيف أوحي إليك دوننا؟ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿**أءلقي الذكر عليه من بيننا؟ بل هو كذاب أشر * سيعلمون غداً من الكذاب الأشر**﴾ [القمر: ٢٥-٢٦]. ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم، وقد اجتمع ملؤهم، وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة وأشاروا الى صخرة عندهم ناقة عُشَراء من صفتها كذا وكذا، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح. العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به، فأعطوه ذلك، فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى، ثم دعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء على الصفة التي وصفوها، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم، ﴿**قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم**﴾ يعني ترد ماءكم يوماً، ويوماً تردونه أنتم ﴿**ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم**﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر، ترد الماء وتأكل الورق والمرعى، وينتفعون بلبنها

يحلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً، فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم، تمالؤوا على قتلها وعقرها، ﴿**فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب**﴾ وهو أن أرضهم زلزلت زلزالاً شديداً، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، وأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿**إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم**﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط عليه السلام، وهو لوط وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم، وكانوا يسكنون سدوم وأعمالها التي أهلكها الله بها، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور متاخمة لجبال بيت المقدس، بينها وبين بلاد الكَرَك والشَّوبَك. فدعاهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم، ونهاهم عن معصية الله، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله، من إتيان الذكور دون الإناث، ولهذا قال تعالى:

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش، وغشيانهم الذكور، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله لهم، ما كان جوابهم له إلا أن قالوا: ﴿**لئن لم تنته يا لوط**﴾ أي عما جئتنا به ﴿**لتكونن من المخرجين**﴾ أي ننفيك من بين أظهرنا، كما قال تعالى: ﴿**فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون**﴾ [الأعراف: ٨٢]، فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرون على ضلالتهم، تبرأ منهم وقال: ﴿**إني لعملكم من القالين**﴾ أي المبغضين، لا أحبه ولا أرضى به، وإني بريء منكم، ثم دعا الله عليهم فقال: ﴿**رب نجني وأهلي مما يعملون**﴾ قال الله تعالى: ﴿**فنجيناه وأهله أجمعين**﴾ أي كلهم ﴿**إلا عجوزاً في الغابرين**﴾ وهي امرأته، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقي من قومها، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الأعراف وهود، وكذا في الحجر حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته، وأنهم لا يلتفتوا إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه، فصبروا لأمر الله واستمروا، وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عم جميعهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، ولهذا قال تعالى: ﴿**ثم دمرنا الآخرين * وأمطرنا عليهم مطراً** ـ إلى قوله ـ

وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾.

هؤلاء - يعني أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم وإنما لم يقل ههنا أخوهم شعيب لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة، وقيل شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها، فلهذا لما قال: كذب أصحاب الآيكة المرسلين لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال ﴿إذ قال لهم شعيب﴾ فقطع نسبة الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً. ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الآيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيباً عليه السلام بعثه الله إلى أمتين، ومنهم من قال: ثلاث أمم. وروى أبو القاسم البغوي عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وأصحاب الرس﴾ [ق:١٢] قوم شعيب. وقوله: ﴿وأصحاب الأيكة﴾ [ق:١٤] قوم شعيب. والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا في كل مقام بشيء، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان، كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل ذلك على أنهما أمة واحدة.

﴿ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾.

يأمرهم الله تعالى بإيفاء المكيال والميزان، وينهاهم عن التطفيف فيهما، فقال: ﴿أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين﴾ أي إذا دفعتم للناس فكملوا الكيل لهم، ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصاً، وتأخذوه إذا كان لكم تاماً وافياً، ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون. ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ والقسطاس هو الميزان. قال مجاهد: القسطاس المستقيم هو العدل بالرومية. وقال قتادة: القسطاس العدل. وقوله: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ أي لا تُنقِصوهم أموالهم، ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ يعني قطع الطريق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به﴾ [الأعراف:٨٦].

وقوله: ﴿واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين﴾ يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل، كما قال موسى عليه السلام: ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ [الصافات:١٢٦]. قال ابن عباس ومجاهد والسدي وسفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿والجبلة الأولين﴾ يقول: خلق الأولين وقرأ ابن زيد ﴿ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً﴾ [يس:٦٢].

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها، تشابهت قلوبهم حيث قالوا: ﴿**إنما أنت من المسحرين**﴾ يعنون من المسحورين كما تقدم ﴿**وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين**﴾ أي تتعمد الكذب فيما تقوله لا أن الله أرسلك إلينا ﴿**فأسقط علينا كسفاً من السماء**﴾ قال الضحاك: جانباً من السماء. وقال قتادة: قطعاً من السماء. وقال السدي: عذاباً من السماء. وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿**وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً**﴾ إلى أن قالوا ﴿**أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً**﴾ [الإسراء:٩٠-٩٢]. وهكذا قال هؤلاء الكفرة الجهلة: ﴿**فأسقط علينا كسفاً من السماء**﴾. ﴿**قال ربي أعلم بما تعملون**﴾ يقول: الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به، وهو غير ظالم لكم، وهكذا وقع بهم جزاء كما سألوا جزاء وفاقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿**فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم**﴾ وهذا من جنس ما سألوه من إسقاط الكِسف عليهم، فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام، لا يَكِنهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها، أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار ولهباً ووهجاً عظيماً، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم، ولهذا قال تعالى: ﴿**إنه كان عذاب يوم عظيم**﴾.

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا: ﴿**لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا**﴾ [الأعراف:٨٨]، فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه فأخذتهم الرجفة، وفي سورة هود قال: ﴿**فأخذتهم الصيحة**﴾ وذلك لأنهم استهزءوا بنبي الله في قولهم: ﴿**أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد**﴾ [هود:٨٧]. قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم، فقال: ﴿**وأخذت الذين ظلموا الصيحة**﴾. وهاهنا قالوا: ﴿**فأسقط علينا كسفاً من السماء**﴾ الآية، على وجه التعنت والعناد، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه ﴿**فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم**﴾.

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلهم منه شيء، ثم إن الله تعالى أنشأ لهم سحابة، فانطلق إليها أحدهم فاستظل بها فأصاب تحتها برداً وراحة، فأعلم بذلك قومه فأتوها جميعاً فاستظلوا تحتها فأجّجَت عليهم ناراً، وهكذا روي عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: بعث الله إليهم الظلة حتى إذا اجتمعوا كلهم كشف الله عنهم الظلة وأحمى عليهم الشمس، فاحترقوا، وقال محمد بن كعب القرظي: إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب: أخذتهم الرجفة

في دارهم حتى خرجوا منها، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد، ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم، فأرسل الله عليهم الظلة، فدخل تحتها رجل فقال: ما رأيت كاليوم ظلاً أطيب ولا أبرد من هذا، هلموا أيها الناس، فدخلوا جميعاً تحت الظلة، فصاح بهم صيحة واحدة، فماتوا جميعاً، ثم تلا محمد بن كعب: ﴿**فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم**﴾.

وقال يزيد الباهلي، سألت ابن عباس عن هذه الآية قال: بعث الله عليهم رعداً وحراً شديداً، فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا البيوت، فدخل عليهم أجواف البيوت، فأخذ بأنفاسهم، فخرجوا من البيوت هراباً إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس، فوجدوا لها برداً ولذة، فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم ناراً. قال ابن عباس: فذلك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴿**إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم**﴾ أي العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿**وإنه**﴾ أي القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿**وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث**﴾ الآية. ﴿**لتنزيل رب العالمين**﴾ أي أنزله الله عليك وأوحاه إليك ﴿**نزل به الروح الأمين**﴾ وهو جبريل عليه السلام، قاله غير واحد من السلف: ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة وعطية العوفي والسدي والضحاك والزهري وابن جريج، وهذا مما لا نزاع فيه. قال الزهري: وهذه كقوله: ﴿**قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه**﴾ [البقرة:٩٧]. ﴿**على قلبك لتكون من المنذرين**﴾ أي نزل به ملك كريم أمين ذو مكانة عند الله مطاع في الملأ الأعلى ﴿**على قلبك**﴾ يا محمد سالماً من الدنس والزيادة والنقص ﴿**لتكون من المنذرين**﴾ أي لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له.

وقوله تعالى: ﴿**بلسان عربي مبين**﴾ أي هذا القرآن الذي أنزلناه إليك، أنزلناه بلسانك العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بيناً واضحاً ظاهراً، قاطعاً للعذر، مقيماً للحجة دليلاً إلى المحجة.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾.

يقول تعالى: وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم، الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيباً في ملئه بالبشارة بأحمد: ﴿**وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد**﴾ [الصف:٦]،

والزبر ههنا هي الكتب، وهي جمع زبور، وكذلك الزبور وهو كتاب داود، وقال الله تعالى: ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾ [القمر:٥٢] أي مكتوب عليهم في صحف الملائكة، ثم قال تعالى: ﴿أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ أي أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك: أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها، والمراد العدول منهم، الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك من آمن منهم، كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي عمن أدركه منهم ومن شاكلهم. قال الله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه عندهم في التوراة والإنجيل﴾ [الأعراف:١٥٧].

ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن: أنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لا يؤمنون به، ولهذا قال: ﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾ كما أخبر عنهم في الآية الأخرى: ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾ [الحجر:١٤-١٥].

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾.

يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيب والكفر والعناد، أي أدخلناه في قلوب المجرمين ﴿لا يؤمنون به﴾ أي بالحق ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ أي حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار، ﴿فيأتيهم﴾ أي عذاب الله ﴿بغتة وهم لا يشعرون فيقولوا هل نحن منظرون﴾ أي يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلاً ليعملوا بطاعة الله، كما قال الله تعالى: ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا ـ إلى قوله ـ ما لكم من زوال﴾ [إبراهيم:٤٤]، فكل ظالم وكافر إذا شاهد عقوبته ندم ندماً شديداً، هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله: ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم قال قد أجيبت دعوتكما﴾ [يونس:٨٨-٨٩]، فأثرت هذه الدعوة في فرعون، فما آمن حتى رأى العذاب الأليم ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ـ إلى قوله ـ وكنت من المفسدين﴾ [يونس:٩٠-٩١]. وقوله تعالى: ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ إنكار عليهم وتهديد لهم، فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيباً واستبعاداً: ائتنا بعذاب الله. ثم قال: ﴿أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ أي لو أخرناهم

وأنظرناهم برهة من الزمان وإن طال، ثم جاءهم أمر الله أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ [النازعات:٤٦]. وفي الحديث الصحيح: «يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة ثم يقال له: هل رأيت خيراً قط ؟ هل رأيت نعيماً قط ؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً كان في الدنيا، فيصبغ في الجنة صبغة، ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط ؟ فيقول: لا والله يا رب». [رواه مسلم].

ثم قال تعالى مخبراً عن عدله في خلقه أنه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الإنذار لهم، وبعثة الرسل إليهم، وقيام الحجة عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين﴾ كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ [الإسراء:١٥].

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾. ثم ذكر أنه يمتنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه: أنه ما ينبغي لهم، أي ليس هو من بُغيتهم ولا من طلبتهم، لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد، وهذا فيه نور وهدى وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وما ينبغي لهم﴾.

وقوله تعالى: ﴿وما يستطيعون﴾ أي ولو انبغى لهم ما استطاعوا ذلك، ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته، لما وصلوا إلى ذلك، لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله، لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشُهباً في مُدّة إنزال القرآن على رسوله، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه لئلا يشتبه الأمر، وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعه، ولهذا قال تعالى: ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ كما قال تعالى مخبراً عن الجن: ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾ [الجن:٨-١٠].

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له، ومخبراً أن من أشرك به عذبه. ثم قال تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين، أي الأدنين إليه، وأنه لا يُخلِّص أحداً منهم إلا إيمانه بربه عز وجل، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين، ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبرأ منه، ولهذا قال: ﴿فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾. وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة بل هي فرد من أجزائها، كما قال تعالى: ﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾ [يس:٦]، وقال تعالى: ﴿لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً

لداً﴾ [مريم:٩٧]، وقال: ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ [الأنعام:١٩]، كما قال: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ [هود:١٧]. وفي صحيح مسلم: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار». وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة فقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما أنزل الله عز وجل: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، أتى النبي ﷺ الصفا، فصعد عليه، ثم نادى: «يا صباحاه». فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني ؟» قالوا: نعم. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾ [سورة المسد:١] ورواه البخاري ومسلم.

وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: لما نزلت: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ قام رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من مالي ما شئتم» أخرجه مسلم.

ولم يكن أحد في بني هاشم إذ ذاك أشد إيماناً وإيقاناً وتصديقاً لرسول الله ﷺ من علي رضي الله عنه، ولهذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله ﷺ ثم كان بعد هذا ـ والله أعلم ـ دعاؤه الناس جهرة على الصفا، وإنذاره لبطون قريش عموماً وخصوصاً، حتى سمى من سمى من أعمامه وعماته وبناته لينبه بالأدنى على الأعلى، أي إنما أنا نذير والله يهدي من يشاء إلى صرط مستقيم.

وقوله: ﴿وتوكل على العزيز الرحيم﴾ أي في جميع أمورك، فإنه مؤيدك وحافظك وناصرك ومظفرك ومعلٍ كلمتك. وقوله: ﴿الذي يراك حين تقوم﴾ أي هو معتن بك كما قال تعالى: ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ [الطور:٤٨]. قال ابن عباس: ﴿الذي يراك حين تقوم﴾ يعني إلى الصلاة. وقال عكرمة: يرى قيامه وركوعه وسجوده. وقال الضحاك: ﴿الذي يراك حين تقوم﴾ أي من فراشك أو مجلسك. وقال قتادة ﴿الذي يراك﴾ قائماً وجالساً وعلى حالاتك.

وقوله: ﴿وتقلبك في الساجدين﴾ قال قتادة: في الصلاة يراك وحدك، ويراك في الجَمْع، وهذا قول عكرمة وعطاء الخراساني والحسن البصري. وقوله: ﴿إنه هو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، كما قال تعالى: ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾ [يونس:٦١].

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس حقاً، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه، أو أنه أتاه به رَئِيٌّ من الجان، فنزه الله سبحانه وتعالى جناب رسوله عن قولهم وافترائهم، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله، وأنه تنزيله ووحيه، نزل به ملك كريم أمين عظيم، وأنه ليس من قبل الشياطين، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة، ولهذا قال الله: ﴿**هل أنبئكم**﴾ أي أخبركم ﴿**على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم**﴾ أي كذوب في قوله، والأثيم أي الفاجر في أفعاله. فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان، وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة. ﴿**يلقون السمع**﴾ أي يسترقون السمع من السماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب، كما روى البخاري عن أبي هريرة قال: إن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعاناً لقوله، كأنها سلسلة على صفوان، فإذا فُزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء». وقوله: ﴿**والشعراء يتبعهم الغاوون**﴾ قال ابن عباس: يعني الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن، وكذا قال مجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما.

وقوله: ﴿**ألم تر أنهم في كل واد يهيمون**﴾ قال ابن عباس: في كل لغو يخوضون. وعن ابن عباس أيضا: في كل فن من الكلام، وكذا قال مجاهد وغيره. وقال الحسن البصري: قد والله رأينا أوديتهم التي يهيمون فيها مرة في شتمة فلان، ومرة في مدحة فلان. وقال قتادة: الشاعر يمدح قوماً بباطل، ويذم قوماً بباطل. وقوله: ﴿**وأنهم يقولون ما لا يفعلون**﴾ قال ابن عباس: أكثر قولهم يكذبون فيه. وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنه هو الواقع في نفس الأمر، ولهذا اختلف العلماء رحمهم الله: فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حداً: هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا، لأنهم يقولون ما لا يفعلون؟ على قولين. وقد ذكر الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة، أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، استعمل النعمان بن عدي بن نضلة على ميسان من أرض البصرة، وكان يقول الشعر، فقال:

فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني ... ولا تسقني بالأصغر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسوؤه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إي والله إنه ليسوؤني ذلك. فلما قدم على عمر بكته بهذا الشعر، فقال: والله يا أمير المؤمنين ما شربتها قط، وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لساني. فقال عمر: أظن ذلك، ولكن والله لا تعمل لي عملاً أبداً وقد قلت ما قلت، فلم يذكر أنه حده على الشراب، وقد ضمنه شعره، لأنهم يقولون ما لا يفعلون، ولكن ذمه عمر رضي الله عنه ولامه على ذلك وعزله به، ولهذا جاء في الحديث: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً يريه خير له من أن يمتلىء شعراً» [رواه مسلم]. والمراد من هذا أن الرسول ﷺ الذي أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر، لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة، كما قال تعالى: ﴿**إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين**﴾ [الحاقة: ٤٠ـ٤٣].

وقوله: ﴿**إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ قال ابن عباس وقتادة وزيد بن أسلم وغير واحد: إن هذا استثناء مما تقدم. ولا شك أنه استثناء يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله، ثم تاب وعمل صالحاً، وذكر الله كثيراً في مقابلة ما تقدم من الكلام السيء، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ماكذب بذمه. ولهذا قال تعالى: ﴿**إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً**﴾ قيل: معناه ذكروا الله كثيراً في كلامهم، وقيل في شعرهم. وكلاهما صحيح مكفر لما سبق.

وقوله: ﴿**وانتصروا من بعد ما ظلموا**﴾ قال ابن عباس: يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين. وكذا قال قتادة وغير واحد، وهذا كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهجهم، أو قال: هاجهم، وجبريل معك». وروى الإمام أحمد عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ: إن الله عز وجل قد أنزل في الشعراء ما أنزل، فقال: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكأن ما ترمونهم به نضح النبل» [قال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح].

وقوله: ﴿**وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون**﴾، كقوله تعالى: ﴿**يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم**﴾ [غافر: ٥٢]، وفي الصحيح لمسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿**وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون**﴾ يعني من الشعراء وغيرهم. وقيل: المراد بهم أهل مكة. والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم. كما روى ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كتب أبي في وصيته سطرين: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا، حين يؤمن الكافر وينتهي الفاجر ويَصدُق الكاذب، إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه، وإن يجر ويبدل فلا أعلم الغيب، ﴿**وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون**﴾.

تفسير سورة النمل وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾.

قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور. وقوله: **﴿تلك آيات﴾** أي هذه آيات **﴿القرآن وكتاب مبين﴾** أي بين واضح **﴿هدى وبشرى للمؤمنين﴾** أي إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به، وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وآمن بالدار الآخرة، كما قال تعالى: **﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾** الآية [فصلت: ٤٤]. ولهذا قال تعالى ههنا: **﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾** أي يكذبون بها **﴿زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾** أي حسَّنا لهم ما هم فيه، ومددنا لهم في غَيهم فهم يَتيهون في ضلالهم، وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة، كما قال تعالى: **﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾** الآية [الأنعام: ١١٠]، **﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾** أي في الدنيا والآخرة **﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾** أي ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر. وقوله: **﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾** أي **﴿وإنك﴾** يا محمد قال قتادة: **﴿لتلقى﴾** أي لتأخذ **﴿القرآن من لدن حكيم عليم﴾** أي من عند حكيم عليم، أي حكيم في أمره ونهيه، عليم بالأمور: جليلها وحقيرها، فخبره هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام، كما قال تعالى: **﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾** [الأنعام: ١١٥].

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكراً له ما كان من أمر موسى عليه السلام، كيف اصطفاه الله وكلمه وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة، وابتعثه إلى فرعون وملئه، فجحدوا بها وكفروا، واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، **﴿إذ قال موسى لأهله﴾** أي اذكر حين سار موسى بأهله فأضل الطريق، وذلك في ليل وظلام، فآنس من جانب الطور ناراً، أي رأى ناراً تتأجج

وتضطرم، فقال ﴿لأهله إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر﴾ أي عن الطريق ﴿أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون﴾ أي تستدفئون به. وكان كما قال. فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس منها نوراً عظيماً، ولهذا قال تعالى: ﴿فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها﴾ أي فلما أتاها ورأى منظراً هائلاً عظيماً حيث انتهى إليها والنار تضطرم في شجرة خضراء لا تزداد النار إلا توقداً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رفع رأسه، فإذا نورها متصل بعنان السماء. قال ابن عباس وغيره: لم تكن ناراً، وإنما كانت نوراً يتوهج، فوقف موسى متعجباً مما رأى، فنودي أن بورك من في النار. قال ابن عباس أي: قُدّس. ﴿ومن حولها﴾ أي من الملائكة، قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي عبيدة عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل»، [وفي رواية]: «وحجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره». ثم قرأ أبو عبيدة: ﴿أن بورك من في النار ومن حولها﴾. وأصل الحديث مخرج في صحيح مسلم. وقوله: ﴿وسبحان الله رب العالمين﴾ الذي يفعل ما يشاء، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم المباين لجميع المخلوقات، ولا تكتنفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات.

وقوله: ﴿يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، الحكيم في أقواله وأفعاله. ثم أمره أن يلقي عصاه من يده ليُظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار القادر على كل شيء، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة في غاية الكبر وسرعة الحركة، ولهذا قال تعالى: ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان﴾ والجان ضرب من الحيات أسرعه حركة وأكثره اضطراباً. وفي الحديث: «نَهْيُ عن قتل جِنان البيوت» [رواه البخاري]، فلما عاين موسى ذلك ﴿ولى مدبراً ولم يعقب﴾ أي لم يلتفت من شدة فرقه، ﴿يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون﴾ أي لا تخف مما ترى، فإني أريد أن أصطفيك رسولاً.

وقوله: ﴿إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم﴾ هذا استثناء منقطع وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل سيء ثم أقلع عنه، ورجع وتاب وأناب، فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ [طه: ٨٢]، والآيات في هذا كثيرة جداً. وقوله: ﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ هذه آية أخرى ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، وصدق من جعل له معجزة، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب دِرْعِه، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء

ساطعة كأنها قطعة قمر لها لمعان.

وقوله: ﴿في تسع آيات﴾ أي هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن وأجعلهن برهاناً لك ﴿إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾. وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ [الإسراء:١٠١] كما تقدم تقرير ذلك هنالك. وقوله: ﴿فلماجاءتهم آياتنا مبصرة﴾ أي بينة واضحة ظاهرة ﴿قالوا هذا سحر مبين﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴿وجحدوا بها﴾ أي في ظاهر أمرهم ﴿واستيقنتها أنفسهم﴾ أي علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ظلماً وعلواً﴾ أي ظلماً من أنفسهم سَجيّة ملعونة، وعلواً أي استكباراً عن اتباع الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ
وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ
ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا
يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ
أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه: داود وابنه سليمان عليهما السلام، من النعم الجزيلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والملك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾.

قوله: ﴿وورث سليمان داود﴾ أي في الملك والنبوة، وليس المراد وراثة المال، إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، فإنه قد كان لدواد مائة امرأة، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة» [رواه البخاري]. وقوله: ﴿يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء﴾ أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام، حتى إنه سخَّر له الإنس والجن والطير، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً، وهذا شيء لم يُعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به ورسوله، ومن زعم من الجهلة والرّعاع أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان بن داود، كما قد يتفوه به كثير من الناس، فهو قول بلا علم، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة، ولهذا قال: ﴿علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء﴾ أي مما يحتاج إليه الملك ﴿إن هذا لهو الفضل المبين﴾ أي الظاهر البين لله علينا.

وقوله تعالى: ﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير﴾ أي وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير، وقوله: ﴿فهم يوزعون﴾ أي يكف أولهم على آخرهم لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له. قال مجاهد: جعل على كل صنف وزعة يردون أولاها على أخراها لئلا يتقدموا في المسير كما يفعل الملوك اليوم.

وقوله: ﴿حتى إذا أتوا على وادي النمل﴾ أي حتى إذا مر سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم، ففهم ذلك سليمان عليه السلام منها ﴿فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلي والديّ﴾ أي ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها عليّ من تعليمي منطق الطير والحيوان. وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك ﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ أي عملاً تحبه وترضاه ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ أي إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك.

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾.

قال ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندساً يدل سليمان عليه السلام على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه، فنظر له الماء في تخوم الأرض، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض. فنزل سليمان عليه السلام يوماً بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره، ﴿فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين﴾ حدث يوماً عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفي القوم رجل من الخوارج يقال له: نافع بن الأزرق وكان كثير الاعتراض على ابن عباس، فقال له: قف يا ابن عباس غلبت اليوم، قال: ولم؟ قال: إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ ويحثو على الفخ تراباً، فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ فيصيده الصبي، فقال ابن عباس، لولا أن يذهب هذا فيقول رددت على ابن عباس لما أجبته، ثم قال له: ويحك إنه إذا نزل القدر عَمي البصر وذهب الحَذَر، فقال له نافع: والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبداً [رواه الحاكم].

وقوله: ﴿لأعذبنه عذاباً شديداً﴾ قال ابن عباس: يعني نتف ريشه، وكذا قال غير واحد من السلف. وقوله: ﴿أو لأذبحنه﴾ يعني أقتله، ﴿أو ليأتيني بسلطان مبين﴾ بعذر بيّن واضح.

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿فمكث﴾ الهدهد ﴿غير بعيد﴾ أي غاب زماناً يسيراً، ثم جاء فقال لسليمان: ﴿أحطت بما لم تحط به﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿وجئتك من سبأ بنبأ يقين﴾ أي بخبر حق يقين، وسبأ هم حمير وهم ملوك اليمن، ثم قال: ﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾ قال الحسن البصري: وهي بلقيس بنت شَرَاحيل ملكة سبأ.

وقوله: ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ أي من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿ولها عرش عظيم﴾ يعني سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلىء. قال علماء التاريخ: وكان هذا السرير في قصر عظيم البناء محكم، وكان فيه ثلثمائة وستون طاقة من شرقه ومثلها من غربه، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة ،وتغرب من مقابلتها فيسجدون لها صباحاً ومساء، ولهذا قال: ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل﴾ أي عن طريق الحق ﴿فهم لا يهتدون﴾.

وقوله: ﴿ألا يسجدوا لله﴾ أي لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها. وقرأ بعض القراء [وهو الكسائي]: «ألا يا اسجدوا لله» جعلها ألا الاستفتاحية، ويا للنداء، وحذف المنادى تقديره عنده ألا يا قوم اسجدوا لله.

وقوله: ﴿الذي يخرج الخبء في السموات والأرض﴾ قال ابن عباس: يعلم كل خبيئة في السماء والأرض، وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: خبء السموات والأرض ما جعل فيهما من الأرزاق، المطر من السماء والنبات من الأرض. وهذا مناسب من كلام الهدهد الذي جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره من أنه يرى الماء يجري في تخوم الأرض وداخلها.

وقوله: ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ أي يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال، وهذا كقوله تعالى: ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾ [الرعد: ١٠]. وقوله: ﴿الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ أي هو المدعو الله، وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه. ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له نهي عن قتله، كما رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصُّردَ» وإسناده صحيح.

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

يخبر تعالى عن قيل سليمان للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم: ﴿قال سننظر

أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ أي صدقت في إخبارك هذا ﴿أم كنت من الكاذبين﴾ في مقالتك لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك؟ ﴿اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون﴾ فحمله، وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها فألقاه إليها من كُوة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحية، فتحيرت مما رأت وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين﴾ فجمعت عند ذلك كبراء دولتها، ثم قالت لهم: ﴿يا أيها الملأ إني ألقي إليّ كتاب كريم﴾ تعني بكرمه ما رأته من عجيب أمره كون طائر أتى به فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدباً، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأته عليهم فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام، وأنه لا قِبَل لهم به، وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها.

وقوله: ﴿ألا تعلوا عليَّ﴾ قال قتادة: يقول لا تجيروا علي ﴿وأتوني مسلمين﴾ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لا تمتنعوا ولا تتكبروا علي وأتوني مسلمين. قال ابن عباس: موحدين، وقال سفيان بن عيينة: طائعين.

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

لما قرأت عليهم كتاب سليمان، استشارتهم في أمرها، ولهذا قالت ﴿يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾ أي حتى تحضرون وتشيرون ﴿قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد﴾ أي مَنوْا إليها بعددهم وعُددهم وقوتهم، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين﴾ أي ليس بنا بأس إن شئت أن تقصديه وتحاربيه، فما لنا عاقة عنه. وبعد هذا فالأمر إليك، مري فينا برأيك نمتثله ونطيعه. فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه. ولهذا قالت: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾. قال ابن عباس: أي إذا دخلوا بلداً عُنوَة أفسدوه أي خربوه ﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ أي وقصدوا من فيها من الولاة والجنود فأهانوهم غاية الهوان إما بالقتل أو بالأسر. قال ابن عباس: قال الرب عز وجل: ﴿وكذلك يفعلون﴾ ثم عدلت إلى المهادنة والمخادعة، فقالت: ﴿وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ أي سأبعث إليه بهدية تليق بمثله وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك منا ويكف عنا، أو يضرب علينا خراجاً نحمله إليه في كل عام. وقال ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ

فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

ذكر غير واحد من المفسرين من السلف وغيرهم أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلىء وغير ذلك. والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب. والظاهر أن سليمان عليه السلام، لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل أعرض عنه. وقال منكراً عليهم: ﴿**أتمدونن بمال ؟**﴾ أي أتصانعونني بمال لأترككم على شرككم؟ ﴿**فما آتاني الله خير مما آتاكم**﴾ أي الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه، ﴿**بل أنتم بهديتكم تفرحون**﴾ أي أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف.

قال ابن عباس رضي الله عنه: أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة، فلما رأت رسلها ذلك، قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا. ﴿**ارجع إليهم**﴾ أي بهديتهم ﴿**فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها**﴾ أي لا طاقة لهم بقتالهم ﴿**ولنخرجنهم منها أذلة**﴾ أي ولنخرجنهم من بلدتهم أذلة ﴿**وهم صاغرون**﴾ أي مهانون مدحورون. فلما رجعت إليها رسلُها بهديتها وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة، معظمة لسليمان ناوية متابعته في الإسلام، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومهم عليه، فرح بذلك.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

قال يزيد بن رومان: فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد والله عرفت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة، وبعثت إليه: إني قادمة عليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك. فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس ممن تحت يديه فقال: ﴿**يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين**﴾.

وقال قتادة: لما بلغ سليمان أنها جائية وكان قد ذكر له عرشها. فكره أن يأخذه بعد إسلامهم. وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودماؤهم، فقال: ﴿**يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين**﴾ وهكذا قال عطاء الخراساني والسدي وزهير بن محمد ﴿**قال عفريت من الجن**﴾ قال مجاهد: أي مارد من الجن. ﴿**أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك**﴾ قال ابن عباس: يعني قبل أن تقوم من مجلسك. وقال السدي وغيره: كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام، من أول النهار إلى أن تزول الشمس. ﴿**وإني عليه لقوي أمين**﴾ قال ابن عباس: أي قوي على حمله أمين على ما فيه من الجوهر، فقال سليمان عليه الصلاة والسلام: أريد أعجل من ذلك. ومن ههنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير

إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك، وسخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله ولا يكون لأحد من بعده، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يَقدموا عليه. هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة. فلما قال سليمان أريد أعجل من ذلك، ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾ قال ابن عباس: وهو آصف كاتب سليمان، وكذا قال يزيد بن رومان. وكان صدّيقاً يعلم الاسم الأعظم.

وقوله: ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ أي ارفع بصرك وانظر، مد بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك، قال وهب بن منبه: امدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتيك به، فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش ثم قام فتوضأ ودعا الله تعالى. قال مجاهد: قال يا ذا الجلال والإكرام. فلما عاين سليمان وملؤه ذلك، ورآه مستقراً عنده ﴿قال هذا من فضل ربي﴾ أي هذا من نعم الله عليّ ﴿ليبلوني﴾ أي ليختبرني ﴿أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾، ﴿ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾ أي هو غني عن العباد وعبادتهم كريم أي كريم في نفسه وإن لم يعبده أحد فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، وهذا كما قال موسى: ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾ [إبراهيم: ٨]. وفي صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً».

﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

لما جيء سليمان عليه السلام بعرش بلقيس قبل قدومها أمر به أن يغير بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها فقال: ﴿نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون﴾ قال ابن عباس: نزع منه فصوصه ومرافقه، وقال مجاهد: أمر به فغير ما كان أحمر جُعل أصفر، وما كان أصفر جعل أحمر، وما كان أخضر جعل أحمر، غير كل شيء عن حاله. وقال عكرمة: زادوا فيه ونقصوا. ﴿فلما جاءت قيل أهكذا عرشك﴾ أي عرض عليها عرشها وقد غير ونُكّر وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته، وإن غير وبدل ونكر، فقالت: ﴿كأنه هو﴾ أي يشبهه ويقاربه. وهذا غاية في الذكاء والحزم.

وقوله: ﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ قال مجاهد يقوله سليمان. وقوله تعالى: ﴿وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين﴾هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام

في قول مجاهد وسعيد بن جبير رحمهما الله أي قال سليمان: ﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ وهي كانت قد صدها أي منعها من عبادة الله وحده ﴿ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين﴾ وهذا الذي قاله مجاهد وسعيد: حسنٌ. وقاله ابن جرير أيضاً. ثم قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون في قوله: ﴿وصدها﴾ ضمير يعود إلى سليمان أو إلى الله عز وجل تقديره ومنعها ﴿ما كانت تعبد من دون الله﴾ أي صدها عن عبادة غير الله ﴿إنها كانت من قوم كافرين﴾. وقوله: ﴿قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها﴾ وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين فبنوا لها قصراً عظيماً من قوارير أي من زجاج، وأجري تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه.

وأصل الصرح في كلام العرب هو القصر، وكل بناء مرتفع، قال الله سبحانه وتعالى إخباراً عن فرعون لعنه الله أنه قال لوزيره هامان: ﴿ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب﴾ الآية [غافر:٣٦ـ٣٧]. والممرد المبني بناء محكماً أملس ﴿من قوارير﴾ أي زجاج، وتمريد البناء تمليسه. والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله عز وجل وقالت ﴿رب إني ظلمت نفسي﴾ أي بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله ﴿وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ أي متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام حين بعثه الله إليهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿فإذا هم فريقان يختصمون﴾ قال مجاهد: مؤمن وكافر كقوله تعالى: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾ [الأعراف:٧٥ـ٧٦]. ﴿قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة﴾ أي لم تدعون بحضور العذاب، ولا تطلبون من الله رحمته، ولهذا قال: ﴿لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك﴾ أي ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً، وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال هذا من قبل صالح وأصحابه. قال مجاهد: تشاءموا بهم. وهذا كما قال الله تعالى إخباراً عن قوم فرعون: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله﴾ [الأعراف:١٣١].

وقال هؤلاء: ﴿اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله﴾ أي الله يجازيكم على ذلك ﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ قال قتادة: تبتلون بالطاعة والمعصية والظاهر أن المراد بقوله: ﴿تفتنون﴾ أي تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال.

﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة وهموا بقتل صالح أيضاً، بأن يبيتوه في أهله ليلاً فيقلتوه غيْلَة، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه: إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك، فقال تعالى: ﴿وكان في المدينة﴾ أي مدينة ثمود ﴿تسعة رهط﴾ أي تسعة نفر ﴿يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود، لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم. قال ابن عباس: هؤلاء هم الذين عقروا الناقة، أي الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم قبحهم الله ولعنهم، وقد فعل ذلك.

وعن عطاء ابن أبي رباح قال: كانوا يقرضون الدراهم، يعني أنهم كانوا يأخذون منها وكأنهم كانوا يتعاملون بها عدداً كما كان العرب يتعاملون. وعن سعيد بن المسيب أنه قال: قَطْع الذهب والورق من الفساد في الأرض. والغرض أن هؤلاء الكفرة كان من صفاتهم الإفساد في الأرض، بكل طريق يقدرون عليها.

وقوله تعالى: ﴿قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله﴾ أي تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم، قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على هلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين. وعن ابن عباس: هم الذين عقروا الناقة، قالوا حين عقروها: نبيّت صالحاً وأهله وقومه فنقتلهم، ثم نقول لأولياء صالح: ما شهدنا من هذا شيئاً، وما لنا به من علم فدمرهم الله أجمعين.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: لما عقروا الناقة قال لهم صالح ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ [هود: ٦٥] قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث، وكان لصالح مسجد في الحجْر عند شعب هناك يصلي فيه، فخرجوا إلى كهف، أي غار هناك ليلاً فقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله ففرغنا منهم، فبعث الله عليهم صخرة من الهضب حيالهم فخشوا أن تشدخهم فتبادروا، فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار، فلا يدري قومهم أين هم، ولا يدرون ما فعل

بقومهم، فعذب الله هؤلاء ههنا، وهؤلاء ههنا، وأنجى الله صالحاً ومن معه ثم قرأ: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية﴾ أي فارغة ليس فيها أحد ﴿بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه أنذر قومه نقمة الله بهم في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، فقال: ﴿أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون﴾ أي يرى بعضكم بعضاً، وتأتون في ناديكم المنكر ﴿أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون﴾ أي لا تعرفون شيئاً لا طبعاً ولا شرعاً كما قال في الآية الأخرى: ﴿أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦]. ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾ أي يتحرجون من فعل ما تفعلون، ومن إقراركم على صنيعكم، فأخرجوهم من بين أظهركم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم. فعزموا على ذلك، فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، قال الله تعالى: ﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين﴾ أي من الهالكين مع قومها، لأنها كانت ردءاً لهم على دينهم وعلى طريقتهم، في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي الله ﷺ لا كرامة لها. وقوله تعالى: ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد، ولهذا قال: ﴿فساء مطر المنذرين﴾ أي الذين قامت عليهم الحجة، ووصل إليهم الإنذار فخالفوا الرسول وكذبوه وهموا بإخراجه من بينهم.

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول: ﴿الحمد لله﴾ أي على نعمه على عباده من النعم التي لا تعد ولا تحصى وعلى ما اتصف به من الصفات العُلى والأسماء الحسنى، وأن يسلم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم وهم رسله وأنبياؤه الكرام، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام، وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره: إن المراد بعباده الذين اصطفى، هم

الأنبياء، وقال الثوري والسدي: هم أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم أجمعين، وروي نحوه عن ابن عباس، ولا منافاة فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى، فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى. والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ذكره لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد، وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر، أن يحمدوه على جميع أفعاله، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار.

وقوله تعالى: ﴿آلله خير أم ما يشركون﴾ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة آخرى. ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال: ﴿أمّن خلق السموات﴾ أي خلق تلك السموات بارتفاعها وصفائها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة، وخلق الأرض في استفالها وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال والأطواد والسهول والأوعار، والأشجار والثمار والبحار، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من السماء ماء﴾ أي جعله رزقاً للعباد ﴿فأنبتنا به حدائق﴾ أي بساتين ﴿ذات بهجة﴾ أي منظر حسن ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ أي لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها. وإنما يقدر على ذلك الخالق، المستقل بذلك المتفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله﴾ [العنكبوت: ٦٣] أي هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يُفرَدَ بالعبادة مَن هو المتفرد بالخلق والرزق، ولهذا قال: ﴿أإله مع الله ﴾ أي أإله مع الله يعبد، وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضاً أنه الخالق الرازق.

ومن المفسرين من يقول معنى قوله: ﴿أإله مع الله﴾ أي أإله مع الله فعل هذا وهو يرجع إلى معنى الأول لأن تقدير الجواب أنهم يقولون: ليس ثم أحد فعل هذا معه، بل هو المتفرد به. فيقال فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير ؟ وقوله ههنا: ﴿أمن خلق السموات والأرض﴾ ﴿أمن﴾ في هذه الآيات كلها تقديره أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها ؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك. وقد قال الله تعالى: ﴿آلله خير أما يشركون﴾.

ثم قال في آخر الآية: ﴿بل هم قوم يعدلون﴾ أي يجعلون لله عِدْلاً ونظيراً.

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿أمن جعل الأرض قراراً﴾ أي قارة ساكنة لا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم،

فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً لا تتزلزل ولا تتحرك. ﴿وجعل خلالها أنهاراً﴾ أي جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم في أرجاء الأرض وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ﴿وجعل لها رواسي﴾ أي جبالاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها، لئلا تميد بهم ﴿وجعل بين البحرين حاجزاً﴾ أي جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً، أي مانعاً يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، ولهذا قال تعالى: ﴿أإله مع الله﴾ أي فعل هذا، أو يعبد على القول الأول والآخر ؟. وكلاهما متلازم صحيح ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي في عبادتهم غيره.

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجُوّ عند النوازل، كما قال تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾ [الإسراء:٦٧]، وهكذا قال ههنا: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه﴾ أي من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه.

وقوله تعالى: ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ أي يُخلف قرناً لقرن قبلهم وخلفاً لسلف، كما قال تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ [الأنعام:١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة:٣٠] أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً كما قدمنا تقريره، وهكذا هذه الآية ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ أي أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، ولو شاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب، ولا يميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد، فكانت تضيق عليهم الأرض، وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم، ويتضرر بعضهم ببعض، ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة، ثم يكثرهم غاية الكثرة، ويذرأهم في الأرض، ويجعلهم قروناً بعد قرون، وأمماً بعد أمم، حتى ينقضي الأجل، ثم يقيم القيامة ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله، ولهذا قال تعالى: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله﴾ أي يقدر على ذلك، أو إله مع الله يعبد ؟ وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ أي ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

يقول: ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر﴾ أي بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية كما قال تعالى: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ [الأنعام:٩٧]. ﴿ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ أي بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث الله به عباده المجدبين الأزلين القنطين، ﴿أإله مع الله تعالى الله عما يشركون﴾.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

أي هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إنه هو يبدىء ويعيد﴾ [البروج:١٣]. ﴿ومن يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي بما ينزل من مطر السماء وينبت من بركات الأرض، فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركاً فيسلكه ينابيع في الأرض، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والثمار والأزاهير وغير ذلك من ألوان شتى، ولهذا قال: ﴿أإله مع الله﴾ أي فعل هذا. وعلى القول الآخر يعبد ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى، ﴿إن كنتم صادقين﴾ في ذلك، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان، كما قال: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾ [المؤمنون:١١٧].

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق أنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله. وقوله: ﴿إلا الله﴾ استثناء منقطع أي لا يعلم أحد ذلك إلا الله عز وجل فإنه المنفرد بذلك وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ الآية [الأنعام:٥٩]. وقوله: ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ أي وما يشعر الخلائق الساكنون في السموات والأرض بوقت الساعة.

وروى ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: من زعم أنه يعلم ـ تعني النبي ﷺ ـ ما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، لأن الله تعالى يقول: ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾. وقال قتادة: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظه وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. وإن أناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة، من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا. ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والقصير والطويل والحسن والدميم، وما علْمُ هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب، وقضى الله تعالى أنه لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله

وما يشعرون أيان يبعثون. رواه ابن أبي حاتم وهو كلام جليل متين صحيح.

وقوله: ﴿**بل ادّارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها**﴾ أي انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها. قال ابن عباس: ﴿**بل ادّارك علمهم في الآخرة**﴾ أي غاب، وقال قتادة: يُجهِّلهم ربهم، يقول: لم ينفذ لهم إلى الآخرة علم، هذا قول. وعن ابن عباس: «**بل أدرك علمهم في الآخرة**» حين لم ينفع العلم، وبه قال عطاء الخراساني والسدي: أي إن علمهم إنما يدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك. وعن الحسن، أنه كان يقرأ: «**بل أدرك علمهم**» قال: اضمحل علمهم في الدنيا حين عاينوا الآخرة.

وقوله: ﴿**بل هم في شك منها**﴾ عائد على الجنس، والمراد الكافرون، كما قال تعالى: ﴿**بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً**﴾ [الكهف:٤٨] أي الكافرون منكم. وهكذا قال ههنا: ﴿**بل هم في شك منها**﴾ أي شاكون في وجودها ووقوعها ﴿**بل هم منها عمون**﴾ أي في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن منكري البعث من المشركين: أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً، ثم قال: ﴿**لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل**﴾ أي ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً، وقولهم: ﴿**إن هذا**﴾ يعنون ما هذا الوعد بإعادة الأبدان ﴿**إلا أساطير الأولين**﴾ أي أخذه قوم عمن قبلهم من كتبهم يتلقاه بعض عن بعض وليس له حقيقة، قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من عدم المعاد: ﴿**قل**﴾ يا محمد لهؤلاء ﴿**سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين**﴾ أي المكذبين بالرسل وبما جاءوهم به من أمر المعاد وغيره كيف حلت بهم نقمُ الله وعذابه ونكاله، ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته. ثم قال تعالى مسلياً لنبيه ﷺ: ﴿**ولا تحزن عليهم**﴾ أي المكذبين بما جئت به وتذهب نفسك عليهم حسرات، ﴿**ولا تكن في ضيق مما يمكرون**﴾ أي في كيدك، ورد ما جئت به فإن الله مؤيدك وناصرك ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك ﴿**ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**﴾ قال الله مجيباً لهم: ﴿**قل**﴾ يا محمد ﴿**عسى أن

يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون﴾ قال ابن عباس: أن يكون قرب لكم بعض الذي تستعجلون، وهكذا قال مجاهد والضحاك وعطاء الخراساني وقتادة والسدي، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً﴾ [الإسراء: ٥٠] وإنما دخلت اللام في قوله: ﴿ردف لكم﴾ لأنه ضُمِّن معنى عَجِل لكم، كما قال مجاهد في رواية عنه ﴿عسى أن يكون ردف لكم﴾ عَجِل لكم.

ثم قال الله تعالى: ﴿وإن ربك لذو فضل على الناس﴾ أي في إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم، ﴿وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾ أي يعلم السرائر كما يعلم الظواهر، ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به﴾ [الرعد: ١٠]. ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة، وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه، فقال: ﴿وما من غائبة﴾ قال ابن عباس: يعني وما من شيء ﴿في السماء والأرض إلا في كتاب مبين﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وما اشتمل عليه من الهدى والبينات والفرقان: إنه يقص على بني إسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ كاختلافهم في عيسى وتباينهم فيه، فاليهود افتروا، والنصارى غَلَوا فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد من عباد الله ورسله الكرام، عليه أفضل الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾ [مريم: ٣٤]. وقوله: ﴿وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين﴾ أي هدى لقلوب المؤمنين به ورحمة لهم في العمليات. ثم قال: ﴿إن ربك يقضي بينهم﴾ أي يوم القيامة ﴿بحكمه وهو العزيز﴾ أي في انتقامه ﴿العليم﴾ بأفعال عباده وأقوالهم ﴿فتوكل على الله﴾ أي في جميع أمورك، وبلغ رسالة ربك ﴿إنك على الحق المبين﴾ أي أنت على الحق المبين وإن خالفك من خالفك ممن كُتبت عليه الشقاوة وحقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، ولهذا قال: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ أي لا تسمعهم شيئاً ينفعهم، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة وفي آذانهم وقر الكفر، ولهذا قال: ﴿ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم * إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ أي إنما يستجيب لك من هو سميع بصير، السمع والبصر النافع في القلب والبصيرة، الخاضعُ لله ولما جاء عنه على ألسنة الرسل عليهم السلام.

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق، يخرج الله لهم دابة من الأرض، فَتُكَلم الناس على ذلك، قال ابن عباس والحسن وقتادة ويروى عن علي رضي الله عنه: تكلمهم كلاماً، أي تخاطبهم مخاطبة، وقال ابن عباس في رواية: تجرحهم، وعنه رواية قال: كلاًّ تفعل يعني هذا وهذا، وهو قول حسن ولا منافاة، والله أعلم.

وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة، فقد روى الإمام أحمد عن حُذَيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم عليه السلام، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس، تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا». وهكذا رواه مسلم وأهل السنن.

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً».

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة وخويصة أحدكم».

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة، وحشر الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله عز وجل ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا، تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً، فقال تعالى: **﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجاً﴾** أي من كل قوم وقرن فوجاً أي جماعة **﴿ممن يكذب بآياتنا﴾** كما قال تعالى: **﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾** [الصافات: ٢٢]. وقوله: **﴿فهم يوزعون﴾** قال ابن عباس رضي الله عنهما: يدفعون. وقال قتادة: وَزَعَةٌ تردُّ أولهم على آخرهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يساقون **﴿حتى إذا جاءوا﴾** أي أوقفوا بين يدي الله عز وجل في مقام المساءلة **﴿قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أم ماذا كنتم تعملون﴾** أي فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم! فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله عنهم: **﴿فلا صدق ولا صلى * ولكن كذب وتولى﴾** [القيامة: ٣١-٣٢]، فحينئذ قامت عليهم الحجة، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به، كما قال الله تعالى: **﴿هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾** [المرسلات: ٣٥-٣٦]، وهكذا قال ههنا: **﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون﴾** أي بهتوا فلم يكن لهم جواب لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة

الذي لا تخفى عليه خافية. ثم قال تعالى منبهاً على قدرته التامة، وشأنه الرفيع الذي تجب طاعته والانقياد لأوامره، وتصديق أنبيائه فيما جاؤوا به من الحق الذي لا محيد عنه، ﴿**ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه**﴾ أي فيه ظلام تسكن حركاتهم بسببه، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم. ﴿**والنهار مبصراً**﴾ أي منيراً مشرقاً، فبسبب ذلك يتصرفون في المعايش والمكاسب، وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها ﴿**إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون**﴾.

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفَزَع في الصور، وهو كما جاء في الحديث: «قرن ينفخ فيه» [رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم ووافقه الذهبي]. فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطولها، وذلك في آخر عمر الدنيا، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء، فيفزع من في السموات ومن في الأرض ﴿**إلا من شاء الله**﴾ وهم الشهداء، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون. روى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين ـ لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً ـ فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه. ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه، فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌ رزقهم، حسنٌ عيشهم. ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً. وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، فَيَصْعَقُ ويَصعقُ الناس، ثم يرسل الله ـ أو قال: ينزل الله ـ مطراً كأنه الطل ـ أو قال: الظل، فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفَخُ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم وقفوهم إنهم مسؤولون، ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال: فذلك يوم يجعل الولدان شيباً، وذلك يوم يكشف عن ساق». وقوله: أصغى ليتاً ورفع ليتاً. الليت هو صفحة العنق، أي أمال عنقه ليستمعه من السماء جيداً، فهذه نفخة الفزع. ثم بعد ذلك نفخة الصعق وهو الموت، ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق، ولهذا قال تعالى: ﴿**وكل أتوه داخرين**﴾ أي صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره، كما قال تعالى: ﴿**يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده**﴾ [الإسراء: ٥٢].

وقوله: ﴿**وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب**﴾ أي تراها كأنها ثابتة باقية على

ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب أي تزول عن أماكنها، كما قال تعالى: ﴿يوم تمور السماء موراً * وتسير الجبال سيراً﴾ [الطور:٩-١٠]. وقوله: ﴿صنع الله﴾ أي يفعل ذلك بقدرته العظيمة ﴿الذي أتقن كل شيء﴾ أي أتقن كل ما خلق، وأودع فيه من الحكمة ما أودع، ﴿إنه خبير بما تفعلون﴾ أي هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر، فيجازيهم عليه.

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ، فقال: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ قال زين العابدين: هي لا إله إلا الله، وقد بين تعالى في المكان الآخر أن له عشر أمثالها. ﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ [الأنبياء:١٠٣]. وقوله: ﴿ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار﴾ أي من لقي الله مسيئاً لا حسنة له، أو قد رجحت سيئاته على حسناته كل بحسبه، ولهذا قال تعالى: ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾. وقال ابن مسعود وابن عباس وأبو هريرة رضي الله عنهم، وأنس بن مالك وزيد بن أسلم، والزهري والحسن [وغيرهم] في قوله: ﴿ومن جاء بالسيئة﴾ يعني بالشرك.

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً رسوله وآمراً له أن يقول: ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها﴾، وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، كما قال: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ [قريش:٣-٤]. وقوله: ﴿الذي حرمها﴾ أي الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدراً بتحريمه لها، كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة».

وقوله: ﴿وله كل شيء﴾ من باب عطف العام على الخاص، أي هو رب هذه البلدة ورب كل شيء ومليكه ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أي الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له. وقوله: ﴿وأن أتلو القرآن﴾ أي على الناس أبلغهم إياه، أي أنا مبلغ ومنذر، ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين﴾ أي لي أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم، وخَلَصوا من عهدتهم، وحساب أممهم على الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ [الرعد:٤٠]. ﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها﴾ أي لله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والإعذار إليه، ولهذا قال: ﴿سيريكم آياته فتعرفونها﴾، كما قال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ [فصلت:٥٣].

وقوله: ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ أي بل هو شهيد على كل شيء.

تفسير سورة القصص وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ٦﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة، وقوله: ﴿**تلك**﴾ أي هذه ﴿**آيات الكتاب المبين**﴾ أي الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور، وعلم ما قد كان وما هو كائن. وقوله: ﴿**نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون**﴾ أي نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك حاضر. ثم قال: ﴿**إن فرعون علا في الأرض**﴾ أي تكبر وطغى، ﴿**وجعل أهلها شيعاً**﴾ أي أصنافاً قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته.

وقوله: ﴿**يستضعف طائفة منهم**﴾ يعني بني إسرائيل، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم. هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أخس الأعمال، ويكُدُّهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيي نساءهم، إهانة لهم واحتقاراً وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذي يكون هلاكه وذهاب دولته على يديه. وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل عليه السلام، حين ورد الديار المصرية، فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه مَن يكون هلاك ملك مصر على يديه، فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون، فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل ولن ينفع حذر من قدر، ولكل أجل كتاب، ولهذا قال: ﴿**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ـ إلى قوله ـ يحذرون**﴾ وقد فعل تعالى ذلك بهم. أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه ذلك مع قَدَر الملك العظيم الذي لا يخالَف أمره القدري، بل نفَذَ حكمه وجرى قلمُه بأن يكون هلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده وقتلتَ بسببه ألوفاً من الولدان، إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفي دارك، وغذاؤه من طعامك وأنت تربيه وتدلله وتتفداه، وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه، لتعلم أن رب السموات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوي العزيز الشديد المحال، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾.

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل، خافت القبط أن يفنى بني إسرائيل، فَيَلُون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة، فقالوا لفرعون: إنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم وغلمانهم لا يعيشون. ونساؤهم لا يمكن أن يَقُمْن بما يقوم به رجالهم من الأعمال، فيخلص إلينا ذلك. فأمر بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً، فولد هارون عليه السلام في السنة التي يتركون فيها الولدان، وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها الولدان، وكان لفرعون ناس موكلون بذلك، وقوابل يَدُرْنَ على النساء، فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها، فإذا كان وقت ولادتها لايَقْبُلها إلا نساء القبط، فإن ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة فقتلوه ومضوا، قَبّحهم الله تعالى. فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها، ولم تفطن لها الدايات ولكن لما وضعته ذكراً ضاقت به ذرعاً، وخافت عليه خوفاً شديداً وأحبته حباً زائداً، وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه، قال الله تعالى: ﴿**وألقيت عليك محبة مني**﴾ [طه:٣٩]. فلما ضاقت به ذرعاً، ألهمت في سرها، وألقي في خلدها، كما قال الله تعالى: ﴿**وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين**﴾. وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتاً ومهدت فيه مهداً، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخاف جعلته في ذلك التابوت، وسيرته في البحر وربطته بحبل عندها. فلما كانت ذات يوم دخل عليها من تخافه، فذهبت فوضعته في ذلك التابوت وأرسلته في البحر، وذهلت عن أن تربطه، فذهب مع الماء واحتمله حتى مر به على دار فرعون، فالتقطه الجواري فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون، ولا يدرين ما فيه، وخشين أن يفتتن عليها في فتحه دونها، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها، ولهذا قال: ﴿**فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً**﴾ قال محمد بن إسحاق وغيره: اللام هنا لام العاقبة، لا لام التعليل، لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك. ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه، ولكن إذا نظر إلى معنى السياق، فإنه تبقى اللام للتعليل، لأن معناه أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله عدواً لهم وحزناً فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه، ولهذا قال: ﴿**إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين**﴾ وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه كتب كتاباً إلى قوم من القدرية في تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة في علمه السابق: وموسى في علم الله السابق لفرعون عدو وحزن، قال الله تعالى: ﴿**ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون**﴾ وقلتم أنتم لو شاء فرعون أن يكون لموسى ولياً وناصراً، والله تعالى يقول: ﴿**ليكون لهم عدواً وحزناً**﴾.

وقوله: ﴿**وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك**﴾ يعني أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من

أن يكون من بني إسرائيل فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه، وتحببه إلى فرعون، فقالت: ﴿قرة عين لي ولك﴾ فقال فرعون: أما لك فَنعم، وأما لي فلا. فكان كذلك، وهداها الله بسببه وأهلكه الله على يديه، وقوله: ﴿عسى أن ينفعنا﴾ وقد حصل لها ذلك، وهداها الله به وأسكنها الجنة بسببه. وقولها: ﴿أو نتخذه ولداً﴾ أي أرادت أن تتبناه، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه. وقوله تعالى: ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة.

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغاً، أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى، قاله ابن عباس ومجاهد، والحسن البصري وغيرهم. ﴿إن كادت لتبدي به﴾ أي إن كادت من شدة حزنها وأسفها لتظهر أنَّه ذهب لها ولد، لولا أن الله ثَبَّتها وصبرها، قال الله تعالى: ﴿لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين وقالت لأخته﴾ أي أمرت ابنتها وكانت كبيرة تعي ما يقال لها، فقالت لها: ﴿قصيه﴾ أي اتبعي أثره، وتَطلَّبي شأنه من نواحي البلد، فخرجت لذلك ﴿فبصرت به عن جنب﴾ قال ابن عباس: عن جانب. وقال مجاهد: عن بعد.

وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده، وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون وأحبته امرأة الملك واستطلقته منه، عرضوا عليه المراضع التي في دارهم فلم يقبل منها ثدياً، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك، فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رأته بأيديهم عرفته ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها. قال الله تعالى: ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾ أي تحريماً قدرياً، وذلك لكرامته عند الله وصيانته له أن يرتضع غير ثدي أمه، ولأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه لترضعه، وهي آمنة بعد ما كانت خائفة، فلما رأتهم أخته حائرين فيمن يرضعه ﴿قالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾ قال ابن عباس: فلما قالت ذلك، أخذوها وشكوا في أمرها، وقالوا لها: وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت لهم: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظُؤُورة الملك ورجاء منفعته، فأرسلوها، فلما قالت لهم ذلك وخَلَصت من أذاهم، ذهبوا معها إلى منزلهم، فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وذهب البشير إلى امرأة الملك، فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها، وأعطتها عطاء جزيلاً، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة، ولكن لكونه وافق ثديها، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها

فترضعه، فأبت عليها وقالت: إن لي بعلاً وأولاداً، ولا أقدر على المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك، وأجرت عليها النفقة والصلات والإحسان الجزيل، فرجعت أم موسى بولدها قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً، في عز وجاه ورزق دَارّ. ولهذا قال تعالى: ﴿**فرددناه إلى أمه كي تقر عينها**﴾ أي به ﴿**ولا تحزن**﴾ أي عليه ﴿**ولتعلم أن وعد الله حق**﴾ أي فيما وعدها من رده إليها وجعله من المرسلين، فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين، فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعاً وشرعاً. وقوله: ﴿**ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ أي حِكَم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة، التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس، وعاقبته محمودة في نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿**وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم**﴾ [البقرة: ٢١٦].

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عليه السلام، ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى، آتاه الله حكماً وعلماً. قال مجاهد: يعني النبوة ﴿**وكذلك نجزي المحسنين**﴾ ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قَدّر له من النبوة والتكليم: قضية قتله ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين، فقال تعالى: ﴿**ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها**﴾ عن ابن عباس: وذلك بين المغرب والعشاء. وعن ابن عباس [أيضا]: كان ذلك نصف النهار، وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة والسدي وقتادة. ﴿**فوجد فيها رجلين يقتتلان**﴾ أي يتضاربان ويتنازعان ﴿**هذا من شيعته**﴾ أي إسرائيلي ﴿**وهذا من عدوه**﴾ أي قبطي، قاله ابن عباس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق، فاستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام، فوجد موسى فرصة وهي غفلة الناس، فعمد إلى القبطي ﴿**فوكزه موسى**﴾ قال مجاهد: فوكزه أي طعنه بجُمْع كفه. ﴿**فقضي عليه**﴾ أي كان فيها حتفه فمات ﴿**قال**﴾ موسى ﴿**هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين * قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت علي**﴾ أي بما جعلت لي من الجاه والمنعة ﴿**فلن أكون ظهيراً**﴾ أي معيناً ﴿**للمجرمين**﴾ أي الكافرين بك، المخالفين لأمرك.

﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح ﴿**في المدينة خائفاً**﴾ أي من مَعَرّة ما فعل ﴿**يترقب**﴾ أي يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر فمر في بعض الطرق، فإذا ذلك الذي استنصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر، فلما مر عليه موسى استصرخه على الآخر، فقال له موسى ﴿**إنك لغوي مبين**﴾ أي ظاهر الغواية كثير الشر، ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطي، فاعتقد الإسرائيلي لخوَره أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك، فقال يدفع عن نفسه: ﴿**يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟**﴾ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام، فلما سمعها ذلك القبطي لقَفَها من فمه، ثم ذهب بها إلى باب فرعون فألقاها عنده، فعلم فرعون بذلك، فاشتد حنقه، وعزم على قتل موسى، فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك.

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قال تعالى: ﴿**وجاء رجل**﴾ فسبق إلى موسى، فقال له: ﴿**إن الملأ يأتمرون بك**﴾ أي يتشاورون فيك ﴿**ليقتلوك فاخرج**﴾ أي من البلد ﴿**إني لك من الناصحين**﴾.

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته في أمره، خرج من مصر وحده، ولم يألف ذلك، بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة، ﴿**فخرج منها خائفاً يترقب**﴾ أي يتلفت ﴿**قال رب نجني من القوم الظالمين**﴾ أي من فرعون وملئه. ﴿**ولما توجه تلقاء مدين**﴾ أي أخذ طريقاً سالكاً، فرح بذلك ﴿**قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل**﴾ أي الطريق الأقوم، ففعل الله به ذلك. ﴿**ولما ورد ماء مدين**﴾ أي ولما وصل إلى مدين وورد ماءها، وكان لها بئر ترده رعاء الشاء ﴿**وجد عليه أمة من الناس**﴾ أي جماعة ﴿**يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان**﴾ أي تكفكفان غنمهما أن تَرِد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا، فلما رآهما موسى عليه السلام رق لهما، ﴿**قال ما خطبكما ؟**﴾ أي ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ؟ ﴿**قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء**﴾ أي لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء ﴿**وأبونا شيخ كبير**﴾ أي فهذا الحال الملجيء لنا إلى ما ترى، قال الله تعالى: ﴿**فسقى لهما**﴾ روى أبو بكر بن أبي شيبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين، وجد عليه أمة من الناس يسقون قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان قال: ما خطبكما ؟ فحدثتاه، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوباً واحداً

حتى رويت الغنم. وإسناده صحيح.

وقوله تعالى: ﴿ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ قال ابن عباس: سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً، وقوله: ﴿إلى الظل﴾ قال ابن عباس وابن مسعود والسدي: جلس تحت شجرة.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

لما رجعت المرأتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما، أنكر مجيئهما سريعاً، فسألهما عن خبرهما، فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام، فبعث إحداهما إليه، قال الله تعالى: ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء﴾ أي مشي الحرائر. وروى ابن أبي حاتم عن عمر رضي الله عنه أنه قال: جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها، ليست بسلفع خرّاجة ولاجة. وإسناده صحيح. قال الجوهري: السلفع من الرجال الجسور، ومن النساء الجريئة السليطة، ومن النوق الشديدة. ﴿قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ريبة، بل قالت: ﴿إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾، يعني ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا. ﴿فلما جاءه وقص عليه القصص﴾ أي ذكر له ما كان من أمره، ﴿قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ يقول: طب نفساً، فقد خرجت من مملكتهم، فلا حُكم لهم في بلادنا، ولهذا قال: ﴿نجوت من القوم الظالمين﴾.

وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو؟ على أقوال أحدها أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد. وقال آخرون: بل كان ابن أخي شعيب. وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب. وقال آخرون. كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ [هود: ٩٥]. وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة، كما ذكره غير واحد. وما قيل إن شعيباً عاش مدة طويلة، إنما هو ـ والله أعلم ـ احتراز من هذا الإشكال، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ههنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده، والله أعلم.

وقوله: ﴿قالت إحداهما﴾ أي قالت إحدى ابنتي هذا الرجل لأبيها ﴿يا أبت استأجره﴾ أي

لرعية الغنم. قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وغير واحد: لما قالت: ﴿**إن خير من استأجرت القوي الأمين**﴾ قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت له: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختلفت علي الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه. قال: ﴿**إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين**﴾ أي طلب إليه هذا الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين.

وقوله: ﴿**على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك**﴾ أي على أن ترعى غنمي ثماني سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك، وإلا ففي الثمان كفاية ﴿**وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين**﴾ أي لا أشاقك ولا أؤذيك ولا أماريك.

وقوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام: ﴿**قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليَّ والله على ما نقول وكيل**﴾ يقول: إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين، فإن أتممت عشراً فمن عندي فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط، ولهذا قال ﴿**أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي**﴾ أي فلا حرج علي.

روى البخاري عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حَبْر العرب فأسأله، فقدمت على ابن عباس فسألته، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل.

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

قد تقدم في تفسير الآية قبلها أن موسى عليه السلام قضى أتم الأجلين وأوفاهما، وقد يستفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة من قوله: ﴿**فلما قضى موسى الأجل**﴾ أي الأكمل منهما، والله أعلم. وقوله: ﴿**وسار بأهله**﴾ قالوا: كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة، فنزل منزلاً، فجعل كلما أورى زَنده لا يضيء شيئاً، فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك إذ ﴿**آنس من جانب الطور ناراً**﴾ أي رأى ناراً تضيء له على بعد ﴿**فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً**﴾ أي حتى أذهب إليها ﴿**لعلي آتيكم منها بخبر**﴾ وذلك

لأنه قد أضل الطريق ﴿**أو جذوة من النار**﴾ أي قطعة منها ﴿**لعلكم تصطلون**﴾ أي تتدفئون بها من البرد، قال الله تعالى: ﴿**فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن**﴾ أي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب، كما قال تعالى: ﴿**وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر**﴾ [القصص:٤٤]، فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة، والجبل الغربي عن يمينه، والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لحْف الجبل مما يلي الوادي، فوقف باهتاً في أمرها، فناداه ربه ﴿**من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين**﴾ أي الذي يكلمك هو رب العالمين، الفعال لما يشاء لا إله غيره، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله سبحانه.

وقوله: ﴿**وأن ألق عصاك**﴾ أي التي في يدك كما قرره على ذلك في قوله تعالى: ﴿**وما تلك بيمينك يا موسى؟ قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى**﴾ [طه:١٧ـ١٨]. والمعنى أما هذه عصاك التي تعرفها ألقها ﴿**فألقاها فإذا هي حية تسعى**﴾ فعرف وتحقق أن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء: كن فيكون، وقال ههنا: ﴿**فلما رآها تهتز**﴾ أي تضطرب ﴿**كأنها جان**﴾ أي في حركتها السريعة مع عظم خلقتها، واتساع فمها، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها، فتنحدر في فيها. فعند ذلك ﴿**ولى مدبراً ولم يعقب**﴾ أي ولم يكن يلتفت لأن طبع البشرية ينفر من ذلك، فلما قال الله له: ﴿**يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين**﴾ رجع فوقف في مقامه الأول، ثم قال الله تعالى له: ﴿**اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء**﴾ أي إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها، فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر، ولهذا قال: ﴿**من غير سوء**﴾ أي من غير برص.

وقوله: ﴿**واضمم إليك جناحك من الرهب**﴾ قال مجاهد: من الفزع، وقال قتادة: من الرعب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير: مما حصل لك من خوفك من الحية. والظاهر أن المراد أعم من هذا، وهو أنه أمره عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب وهي يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف، وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يديه على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يجده أو يَخِفّ إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

وقوله: ﴿**فذانك برهانان من ربك**﴾ يعني إلقاء العصا وجعلها حية تسعى وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، دليلان قاطعان على قدرة الفاعل المختار، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه، ولهذا قال: ﴿**إلى فرعون وملئه**﴾ أي وقومه من الرؤساء والأتباع ﴿**إنهم كانوا قوماً فاسقين**﴾ أي خارجين عن طاعة الله، مخالفين لدينه.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون، الذي إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفاً من سطوته ﴿قال رب إني قتلت منهم نفساً﴾ يعني ذلك القبطي ﴿فأخاف أن يقتلون﴾ أي إذا رأوني ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً﴾ وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه لثغة بسبب ما كان تناول تلك الجمرة حين خُيّر بينها وبين التمرة أو الدرّة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، فحصل فيه شدة في التعبير، ولهذا قال: ﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري﴾ [طه:٢٧-٣٢]، أي يؤنسني فيما أمرتني به من هذا المقام العظيم، وهو القيام بأعباء الرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد، ولهذا قال: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني﴾ أي وزيراً ومقوياً لأمري، يصدقني فيما أخبر به عن الله عز وجل، لأن خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد، ولهذا قال: ﴿إني أخاف أن يكذبون﴾.

وقال محمد بن إسحاق ﴿ردءاً يصدقني﴾ أي يبين لهم عني ما أكلمهم به، فإنه يفهم عني ما لا يفهمون، فلما سأل ذلك موسى قال الله تعالى: ﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ أي سنقوي أمرك بأخيك الذي سألت له أن يكون نبياً معك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ [طه:٣٦]، وقال تعالى: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ [مريم:٥٣]. ولهذا قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منة على أخيه من موسى على هارون عليهما السلام، فإنه شفع فيه حتى جعله الله رسولاً معه إلى فرعون وملئه، ولهذا قال تعالى في حق موسى ﴿وكان عند الله وجيهاً﴾ [الأحزاب:٦٩].

وقوله تعالى: ﴿ونجعل لكما سلطاناً﴾ أي حجة قاهرة ﴿فلا يصلون إليكما بآياتنا﴾ أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله، ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ كما قال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾ [المجادلة:٢١]، ووجه ابن جرير على أن المعنى: ونجعل لكما سطاناً فلا يصلون إليكما، ثم يبتدىء فيقول: ﴿بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ تقديره أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا، ولا شك أن هذا المعنى صحيح، وهو حاصل من التوجيه الأول.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه وعرضه ما آتاهما الله من

المعجزات الباهرة، والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله عز وجل من توحيده واتباع أوامره. فلما عاين فرعون وملؤه ذلك، وأيقنوا أنه من عند الله، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهتة، فقالوا ﴿ما هذا إلا سحر مفترى﴾ أي مفتعل مصنوع، وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه فما صعد معهم ذلك.

وقوله: ﴿وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ يعنون عبادة الله وحده لا شريك له، يقولون: ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين، ولم نرَ الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى، فقال موسى عليه السلام مجيباً لهم: ﴿ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده﴾ يعني مني ومنكم، وسيفصل بيني وبينكم، ولهذا قال: ﴿ومن تكون له عاقبة الدار﴾ أي النصرة والتأييد ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي المشركون بالله.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه في دعواه الإلهية لنفسه القبيحة لعنه الله، كما قال الله تعالى: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ [الزخرف: ٥٤]، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم، ولهذا قال: ﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾.

وقوله: ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى﴾ أي أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين، ليتخذ له آجراً لبناء الصرح، وهوالقصر المنيف الرفيع العالي، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب﴾ [غافر: ٣٦ـ٣٧]، وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذي لم يُرَ في الدنيا بناء أعلى منه، إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون، ولهذا قال: ﴿وإني لأظنه من الكاذبين﴾ أي في قوله: إن ثمَّ رباً غيري، لا أنه كذبه في أن الله تعالى أرسله لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع، فإنه قال: ﴿وما رب العالمين ﴾ [الشعراء: ٢٣].

وقوله: ﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾ أي طغوا وتجبروا، وأكثروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد ﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد﴾ [الفجر: ١٣ـ١٤]، ولهذا قال هاهنا: ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في

اليم﴾ أي أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة، فلم يبقَ منهم أحد، ﴿**فانظر كيف كان عاقبة الظالمين. وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾** أي لمن أخذ بطريقتهم في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع ﴿**ويوم القيامة لا ينصرون﴾** أي فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة. وقوله: ﴿**وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾** أي وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين، كما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم كذلك ﴿**ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾** قال قتادة: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿**وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾** [هود: ٩٩].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه. وقوله: ﴿**من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾** يعني أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين، كما قال: ﴿**وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية﴾** [الحاقة: ٩-١٠]. وروى ابن جرير عن أبي سعيد الخدري قال: ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض بعد ما أنزلت التوراة على وجه الأرض، غير أهل القرية الذين مسخوا قردة بعد موسى، ثم قرأ ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾**. وقوله: ﴿**بصائر للناس وهدى ورحمة﴾** أي من العمى والغي، وهدى إلى الحق ورحمة، أي إرشاداً إلى العمل الصالح ﴿**لعلهم يتذكرون﴾** أي لعل الناس يتذكرون به ويهتدون بسببه.

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن سامعه شاهد لما تقدم، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها قال تعالى: ﴿**وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾** [آل عمران: ٤٤]، أي وما كنت حاضراً لذلك، ولكن الله أوحاه إليك. وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه، وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه، وقال ههنا بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها، وكيف كان ابتداء إيحاء الله

إليه وتكليمه له ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ يعني ما كنت بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطىء الوادي ﴿وما كنت من الشاهدين﴾ لذلك ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك، ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدها، ونسوا حُجَج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين.

وقوله: ﴿وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا﴾ أي وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرتَ عن نبيها شعيب وما قال لقومه وما ردوا عليه ﴿ولكنا كنا مرسلين﴾ أي ولكن نحن أوحينا إليك ذلك وأرسلناك للناس رسولاً.

وقال قتادة: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ موسى. وقوله: ﴿ولكن رحمة من ربك﴾ أي ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك، ولكن الله تعالى أوحاه إليك وأخبرك به، رحمة منه بك وبالعباد بإرسالك إليهم ﴿لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون﴾ أي لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عز وجل. ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً﴾ أي وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة، وليتقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم، لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول: أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ، قالوا على وجه التعنت والعناد ﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ يعنون ـ والله أعلم ـ من الآيات مثل العصا واليد، وتنقص الزروع والثمار، مما يضيق على أعداء الله، وكفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة، التي أجراها الله تعالى على يدي موسى عليه السلام، ومع هذا كله لم ينجع في فرعون وملئه، بل كفروا بموسى وأخيه هارون، كما قالوا لهما: ﴿أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين﴾ [يونس:٧٨]، وقال ههنا: ﴿أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل﴾ أي أو لم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿قالوا ساحران تظاهرا﴾ أي تعاونا ﴿وقالوا إنا بكل كافرون﴾ أي بكل منهما كافرون. قال مجاهد: أمرت اليهود قريشاً أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك، فقال الله: ﴿أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا﴾ قال يعني موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم ﴿تظاهرا﴾ أي تعاونا وتناصرا وصدق كل منهما الآخر؟ وبهذا قال سعيد بن جبير وأبو رَزِين، وعن ابن عباس ﴿قالوا ساحران تظاهرا﴾ قال: يعنون

موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم، وهذا رواية عن الحسن البصري.

وأما من قرأ: ﴿**سِحْران تظاهرا**﴾ فقال ابن عباس: يعنون التوارة والقرآن، وكذا قال عاصم الجندي والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. قال السدي: يعني صدق كل واحد منهما الآخر. وقال عكرمة: يعنون التوارة والإنجيل. واختاره ابن جرير. وقال الضحاك وقتادة: الإنجيل والقرآن، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب. والظاهر على قراءة ﴿**سحران**﴾ أنهم يعنون التوارة والقرآن، لأنه قال بعده: ﴿**قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه**﴾ وكثيراً ما يقرن الله بين التوارة والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿**قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس ـ إلى أن قال ـ وهذا كتاب أنزلناه مبارك**﴾ [الأنعام: ٩١-٩٢]، وقال ورقة بن نوفل: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى. [أخرجه البخاري]. وقد علم بالضرورة لذوي الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل من الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ، وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى، وهو التوراة التي قال الله فيها: ﴿**إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء**﴾ [المائدة: ٤٤]، والإنجيل إنما أنزل متمماً للتوراة، ومُحِلاً لبعض ما حُرِّم على بني إسرائيل، ولهذا قال تعالى: ﴿**قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين**﴾ أي فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل، قال الله تعالى: ﴿**فإن لم يستجيبوا لك**﴾ أي فإن لم يجيبوك عما قلت لهم، ولم يتبعوا الحق ﴿**فاعلم أنما يتبعون أهواءهم**﴾ أي بلا دليل ولا حجة ﴿**ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله**﴾ أي بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ﴿**إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾.

وقوله: ﴿**ولقد وصلنا لهم القول**﴾ قال مجاهد: فصلنا لهم القول. وقال السدي: بينا لهم القول. وقال قتادة: يقول تعالى: أخبرهم كيف صنع بمن مضى، وكيف هو صانع ﴿**لعلهم يتذكرون**﴾. قال مجاهد وغيره ﴿**وصلنا لهم**﴾ يعني قريشاً، وهذا هو الظاهر.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ (٥٥) ﴾.

يخبر تعالى عن العلماء الألبّاء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به**﴾ [البقرة: ١٢١]. قال سعيد بن جبير: نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم: ﴿**يس. والقرآن الحكيم**﴾ حتى ختمها، فجعلوا يبكون وأسلموا، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى ﴿**الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا**

كنا من قبله مسلمين﴾ يعني من قبل هذا القرآن كنا مسلمين، أي موحدين مخلصين لله مستجيبين له. قال الله: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني، يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بالرسول الأول ثم بالثاني ولهذا قال: ﴿بما صبروا﴾ أي على اتباع الحق، فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس، وقد ورد في الصحيح من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يُؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أمة، فأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها فتزوجها».

وقوله: ﴿ويدرءون بالحسنة السيئة﴾ أي لا يقابلون السيء بمثله، ولكن يعفون ويصفحون ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله في النفقات الواجبة لأهليهم وأقاربهم، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات. وقوله: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾ أي لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم، بل كما قال تعالى: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾ [الفرقان: ٧٢]. ﴿وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ أي إذا سفه عليهم سفيه وكلمهم بما لا يَليقُ بهم الجوابُ عنه، أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب، ولهذا قال عنهم إنهم قالوا: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ أي لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها.

قال محمد بن إسحاق في السيرة: وقد سألت الزهري عن هذه الآيات فيمن أنزلن؟ قال: ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في النجاشي وأصحابه رضي الله عنهم والآيات اللاتي في سورة المائدة ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً ـ إلى قوله ـ فاكتبنا مع الشاهدين﴾ [المائدة: ٨٢ـ٨٣].

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ إنك يا محمد ﴿لا تهدي من أحببت﴾ أي ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وهذه الآية أخص من هذا كله، فإنه قال: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهوأعلم بالمهتدين﴾ أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ، وقد كان يَحوطُه وينصره ويقوم في صفه ويحبه حباً طبعياً لا شرعياً،

فلما حضرته الوفاة وحان أجله، دعاه رسول الله ﷺ إلى الدخول في الإسلام. فسبق القدر فيه واختطف من يده، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، ولله الحكمة التامة.

وقوله: ﴿وقالوا إن نتبع الهدى نتخطف من أرضنا﴾ يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ أي نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة، ويتخطفونا أينما كنا، قال الله تعالى مجيباً لهم: ﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمناً﴾ يعني هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل، لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين وحَرَم مُعظم آمن منذ وُضع، فكيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق؟ وقوله: ﴿يجبى إليه ثمرات كل شيء﴾ أي من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿رزقاً من لدنا﴾ أي من عندنا ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ولهذا قالوا ما قالوا.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

يقول تعالى مُعَرِّضاً بأهل مكة في قوله تعالى: ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾ أي طغت وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق، ولهذا قال تعالى: ﴿فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً﴾ أي دَثَرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم. وقوله: ﴿وكنا نحن الوارثين﴾ أي رجعت خراباً ليس فيها أحد.

ثم قال تعالى مخبراً عن عدله وأنه إنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم، ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها﴾ وهي مكة ﴿رسولاً يتلو عليهم آياتنا﴾ فيه دلالة على أن النبي الأمي وهو محمد ﷺ المبعوث من أم القرى، رسول إلى جميع القرى من عرب وعجم، كما قال تعالى: ﴿لتنذر أم القرى ومن حولها﴾ [الشورى:٧]، وقال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ [الأعراف:١٥٨]. فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى، لأنه رسول إلى أمها وأصلها التي ترجع إليها. وثبت في الصحيحين عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «بعثت إلى الأحمر والأسود» ولهذا ختم به النبوة والرسالة، فلا نبي من بعده ولا رسول، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة. وقيل المراد بقوله: ﴿حتى يبعث في أمها رسولاً﴾ أي أصلها وعظيمتها.

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا، وما فيها من الزينة الدنيئة، والزهرة الفانية بالنسبة إلى

ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم، كما قال تعالى: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾ [النحل:٩٦]، وقال رسول الله ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة، إلا كما يَغْمِس أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر ماذا يرجع إليه» [رواه مسلم].

وقوله: ﴿أفلا تعقلون؟﴾ أي أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة. وقوله: ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا﴾ يقول: أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب الذي هو صائر إليه لا محالة، كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيده، فهو ممتع في الحياة الدنيا أياماً قلائل ﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ قال مجاهد وقتادة: من المعذبين.

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول: ﴿أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ يعني أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد، هل ينصرونكم أو ينتصرون؟ وهذا على سبيل التقريع والتهديد، كما قال تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقوله: ﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ يعني الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾ فشهدوا عليهم أنه أغووهم فاتبعوهم ثم تبرءوا من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ [مريم:٨١ـ٨٢]، ولهذا قال: ﴿وقيل ادعوا شركاءكم﴾ أي ليخلصوكم مما أنتم فيه، كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا ﴿فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب﴾ أي وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة.

وقوله: ﴿لو أنهم كانوا يهتدون﴾ أي فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا. وقوله: ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ النداء الأول عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوات، ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم، وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يسأل العبد في قبره: من ربك، ومن نبيك، وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأما الكافر فيقول: هاه هاه لا أدري، ولهذا لاجواب له يوم القيامة غير السكوت، لأن من كان في هذه أعمى، فهو في الآخرة أعمى وأضل

سبيلاً، ولهذا قال تعالى: ﴿**فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون**﴾. قال مجاهد: فعميت عليهم الحجج، فهم لا يتساءلون بالأنساب. وقوله: ﴿**فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً**﴾ أي في الدنيا ﴿**فعسى أن يكون من المفلحين**﴾ أي يوم القيامة وعسى من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومنه لا محالة.

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب، فقال: ﴿**وربك يخلق ما يشاء ويختار**﴾ أي ما يشاء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده، ومرجعها إليه. وقوله: ﴿**ما كان لهم الخيرة**﴾ نفي على أصح القولين. وقد اختار ابن جرير أن ﴿**ما**﴾ ههنا بمعنى «الذي» تقديره: ويختار الذي لهم فيه خيرة، وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح. والصحيح أنها نافية، كما نقله ابن أبي حاتم عن ابن عباس وغيره أيضاً. فإن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك، ولهذا قال: ﴿**سبحان الله وتعالى عما يشركون**﴾ أي من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً.

ثم قال: ﴿**وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون**﴾ أي يعلم ما تكن الضمائر، كما يعلم ما تبديه الظواهر. وقوله: ﴿**وهو الله لا إله إلا هو**﴾ أي هو المنفرد بالإلهية، فلا معبود سواه، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه ﴿**له الحمد في الأولى والآخرة**﴾ أي في جميع ما يفعله هو المحمود عليه، لعدله وحكمته ﴿**وله الحكم**﴾ أي الذي لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ﴿**وإليه ترجعون**﴾ أي جميعكم يوم القيامة، فيجزي كل عامل بعمله من خير وشر، ولايخفى عليه منهم خافية.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار، اللذين لا قوامَ لهم بدونهما. وبيّن أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة، لأضر ذلك بهم، ولسئمته النفوس، ولهذا قال تعالى: ﴿**من إله غير الله يأتيكم بضياء**﴾ أي تبصرون به وتستأنسون بسببه ﴿**أفلا تسمعون**﴾. ثم أخبر تعالى أنه لو جعل النهار سرمداً، أي دائماً مستمراً إلى يوم القيامة، لأضر ذلك بهم، ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال، ولهذا قال: ﴿**من إله غير الله**

يأتيكم بليل تسكنون فيه﴾ أي تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿أفلا تبصرون. ومن رحمته﴾ أي بكم ﴿جعل لكم الليل والنهار﴾ أي خلق هذا وهذا ﴿لتسكنوا فيه﴾ أي في الليل ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي في النهار بالأسفار والترحال، والحركات والأشغال. وقوله: ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ [الفرقان: ٦٢]، والآيات في هذا كثيرة.

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

وهذا أيضاً نداء ثان على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب تعالى على رؤوس الأشهاد فيقول: ﴿أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ أي في دار الدنيا. ﴿ونزعنا من كل أمة شهيداً﴾ قال مجاهد: يعني رسولاً. ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾ أي على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء، ﴿فعلموا أن الحق لله﴾ أي لا إله غيره، فلم ينطقوا ولم يحيروا جواباً ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم.

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

قال ابن عباس: ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ قال: كان ابن عمه، وهكذا قال إبراهيم النخعي وقتادة وابن جريج وغيرهم. وقال قتادة بن دعامة: كنا نُحدّث أنه كان ابن عم موسى، وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله.

وقوله: ﴿وآتيناه من الكنوز﴾ أي من الأموال ﴿ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة﴾ أي ليُثقِلُ حملُها الفئام من الناس لكثرتها. وقوله: ﴿إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ أي وعظه صالح قومه، فقالوا على سبيل النصح والإرشاد: لا تفرح بما أنت فيه، يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال، ﴿إن الله لا يحب الفرحين﴾ قال ابن عباس: يعني المرحين. وقال مجاهد: يعني الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم.

وقوله: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ أي استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات، التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة. ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ أي مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح. ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ أي أحسن إلى خلقه، كما أحسن هو إليك ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ أي لا تكن همتك بما أنت

فيه أن تفسد به في الأرض، وتسيء إلى خلق الله ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه حين أرشدوه إلى الخير، ﴿**قال إنما أوتيته على علم عندي**﴾ أي أنا لا أفتقر إلى ما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه، ولمحبته لي، فتقديره إنما أُعطِيتُه لعلم الله فيّ أني أهل له، وهذا كقوله تعالى: ﴿**فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم**﴾ [الزمر: ٤٩] أي على علم من الله بي. قال الله تعالى راداً عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال ﴿**أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً**﴾ أي قد كان من هو أكثر منه مالاً، وما كان ذلك عن محبة منّا له، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم، ولهذا قال: ﴿**ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون**﴾ أي لكثرة ذنوبهم. قال قتادة: ﴿**على علم عندي**﴾ على خير عندي. وقال السدي: على علم أني أهل لذلك.

وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فإنه قال في قوله: ﴿**قال إنما أوتيته على علم عندي**﴾ قال: لولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال، وقرأ ﴿**أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً**﴾ وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه يقول: لولا أنه يستحق ذلك لما أعطى.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قارون أنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتجمل باهر، من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي ﴿**قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم**﴾ أي ذو حظ وافر من الدنيا، فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم: ﴿**ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً**﴾ أي جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون. وقوله: ﴿**ولا يلقاها إلا الصابرون**﴾ قال السدي: وما يلقى الجنة إلا الصابرون، كأنه جعل ذلك من تمام الكلام الذين أوتوا العلم. قال ابن جرير: وما يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون في الدار الآخرة وكأنه جعله من كلام الله عز وجل وإخباره بذلك.

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة».

وقوله تعالى: ﴿فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾ أي ما أغنى عنه ماله ولا خدمه. ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله به، ولا كان هو في نفسه منتصراً لنفسه، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره.

وقوله تعالى: ﴿وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس﴾ أي الذين لما رأوه في زينته ﴿قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾ أصبحو يقولون: ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، أي ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه، فإن الله يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة.

﴿لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا﴾ أي لولا لُطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا، كما خسف به، لأنا وددنا أن نكون مثله. ﴿ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ يعنون أنه كان كافراً، ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة. وقد اختلف النحاة في معنى قوله: ويكأن، فقال بعضهم: معناه «ويلك اعلم أن»، ولكن خففت فقيل: «ويك» ودل فتح «أن» على حذف «اعلم»، وهذا القول ضعفه ابن جرير، والظاهر أنه قوي، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة، والكتابة أمر اصطلاحي، والمرجع إلى اللفظ العربي، والله أعلم، وقيل معناها: ألم تر أن، قاله قتادة. وقيل معناها: «وي» للتعجب أو للتنبيه، «وكأن» بمعنى أظن. قال ابن جرير: وأقوى الأقوال في هذا قول قتادة: إنها بمعنى ألم تر أن.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمَها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، الذين لا يريدون علواً في الأرض أي ترفعاً على خلق الله وتعاظماً عليهم ولا فساداً فيهم، كما قال عكرمة: العلو: التجبر. وقال سعيد بن جبير: العلو البغي. وقال ابن جريج: ﴿لا يريدون علواً في الأرض﴾ تعظماً وتجبراً ﴿ولا فساداً﴾ عملاً بالمعاصي.

وقوله: ﴿من جاء بالحسنة﴾ أي يوم القيامة ﴿فله خير منها﴾ أي ثواب الله خير من حسنة العبد، فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة، فهذا مقام الفضل. ثم قال: ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار، هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ [النمل: ٩٠] وهذا مقام العدل.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾

وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد وهو يوم القيامة، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة، ولهذا قال: ﴿**إن الذي فرض عليك القرآن**﴾ أي افترض عليك أداءه إلى الناس ﴿**لرادك إلى معاد**﴾ أي إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿**فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين**﴾ [الأعراف: ٦]، وعن ابن عباس: لرادك إلى الجنة، ثم سائلك عن القرآن. وقال أبو سعيد مثلها، وعن ابن عباس [أيضا] قال: إلى يوم القيامة، ورواه مالك عن الزهري. وعن ابن عباس [أيضا]: إلى الموت، وروى البخاري عن ابن عباس: قال: إلى مكة.

ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة، وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبي ﷺ. وفسر ابن عباس تارة أخرى بالموت، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين: الإنس والجن.

وقوله: ﴿**قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين**﴾ أي قل لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم: ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار، ولمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة. ثم قال تعالى مذكراً لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم ﴿**وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب**﴾ أي ما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك ﴿**إلا رحمة من ربك**﴾ أي إنما أنزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿**فلا تكونن ظهيراً**﴾ أي معيناً ﴿**للكافرين**﴾ ولكن فارقهم وخالفهم ﴿**ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك**﴾ أي لا تتأثر لمخالفتهم لك وصدهم الناس عن طريقك، فإن الله مؤيد دينك ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان، ولهذا قال: ﴿**وادع إلى ربك**﴾ أي إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ﴿**ولا تكونن من المشركين**﴾.

وقوله: ﴿**ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو**﴾ أي لا تليق العبادة إلا له، ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته. وقوله: ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: ﴿**كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، وهكذا قوله ههنا: ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾ أي إلا إياه. وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: **ألا كل شيء ما خلا الله باطل**.

وقال مجاهد والثوري في قوله: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ أي إلا ما أريد به وجهه، وحكاه البخاري في صحيحه كالمقرر له.

وهذا القول لا ينافي القول الأول، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية إلا ذاته تعالى، فإنه الأول الآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء. وقوله: ﴿له الحكم﴾ أي الملك والتصرف، ولا معقب لحكمه ﴿وإليه ترجعون﴾ أي يوم معادكم، فيجزيكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

تفسير سورة العنكبوت وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناوهم لا يفتنون﴾ استفهام إنكار، ومعناه أن الله سبحانه وتعالى لابد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء» [رواه الترمذي]. وهذه الآية كقوله: ﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ [آل عمران:١٤٢]، ولهذا قال ههنا: ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ أي الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه. والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة، وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله: ﴿إلا لنعلم﴾ [البقرة:١٤٣] إلا لنرى وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود، والعلم أعم من الرؤية، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود.

وقوله: ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون﴾ أي لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم، ولهذا قال: ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا﴾ أي يفوتونا ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي بئس ما يظنون.

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿من كان يرجو لقاء الله﴾ أي في الدار الآخرة، وعمل الصالحات ورجا

ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملاً موفراً، فإن ذلك كائن لا محالة لأنه سميع الدعاء، ولهذا قال تعالى: ﴿**من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم**﴾. وقوله: ﴿**ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه**﴾، كقوله: ﴿**من عمل صالحاً فلنفسه**﴾ [فصلت:٤٦] أي فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن الله تعالى غني عن أفعال العباد، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم، ما زاد ذلك في ملكه شيئاً، ولهذا قال تعالى: ﴿**إن الله لغني عن العالمين**﴾. قال الحسن البصري: إن الرجل ليجاهد، وما ضرب يوماً من الدهر بسيف. ثم أخبر تعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم، ومع بره وإحسانه بهم، يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أن يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: ﴿**إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً**﴾ [النساء: ٤٠]، وقال ههنا: ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون**﴾.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سببُ وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق، ومع هذه الوصية بالإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما المتقدم، قال: ﴿**وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما**﴾ أي وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، فلا تطعهما في ذلك، فإن مرجعكم إليّ يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب أي حباً دينياً، ولهذا قال تعالى: ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين**﴾.

روى الترمذي عند تفسير هذه الآية عن سعد [بن أبي وقاص] قال: نزلت فيَّ أربع آيات، فذكر قصة، وقال: قالت أم سعد: أليس الله قد أمرك بالبر؟ والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها، فأنزل الله ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه حسناً * وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما**﴾ الآية، وهذا الحديث رواه مسلم أيضاً.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ

ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدّعون الإيمان بألسنتهم ولم يثبت الإيمان في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم، فارتدوا عن الإسلام، ولهذا قال تعالى: **﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾**. قال ابن عباس: يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله. وكذا قال غيره من علماء السلف، وهذه الآية كقوله تعالى: **﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة﴾** [الحج: ١١]. ثم قال: **﴿ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم﴾** أي ولئن جاء نصر قريب من ربك يا محمد، وفتح ومغانم، ليقولن هؤلاء لكم: إنا كنا معكم، أي كنا إخوانكم في الدين، كما قال تعالى: **﴿الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم، وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾** [النساء: ١٤١]، ثم قال تعالى: **﴿أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾** أي أو ليس الله بأعلم بما في قلوبهم وما تكنّه ضمائرهم، وإن أظهروا لكم الموافقة.

وقوله: **﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾** أي وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء، ليتميز هؤلاء من هؤلاء، من يطيع الله في الضراء والسراء، ومن يطيعه في حظ نفسه، كما قال تعالى: **﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾** [محمد: ٣١].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا، واتبعوا سبيلنا، **﴿ولنحمل خطاياكم﴾** أي آثامكم - إن كانت لكم آثام في ذلك - علينا وفي رقابنا، كما يقول القائل: افعل هذا وخطيئتك في رقبتي، قال الله تكذيباً لهم: **﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون﴾** أي: فيما قالوه إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد، **﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾** [فاطر: ١٨].

وقوله: **﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾** إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة، أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم، وأوزاراً أخر بسبب من أضلوا من الناس، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً، كما قال تعالى: **﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾** [النحل: ٢٥]. وفي صحيح [مسلم]: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة

كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً».

وقوله: ﴿**وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون**﴾ أي يكذبون ويختلقون من البهتان.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ، يخبره عن نوح عليه السلام أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق وإعراضاً عنه وتكذيباً له، وما آمن معه منهم إلا قليل، ولهذا قال: ﴿**فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون**﴾ أي بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ولا تحزن عليهم، فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك، ويذل عدوك ويكبتهم، ويجعلهم أسفل السافلين.

قال ابن عباس: بعث نوح وهو لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفشوا.

وقوله: ﴿**فأنجيناه وأصحاب السفينة**﴾ أي الذين آمنوا بنوح عليه السلام، وقد تقدم ذكر ذلك مفصلاً في سورة هود. وقوله: ﴿**وجعلناها آية للعالمين**﴾ أي وجعلنا تلك السفينة باقية إما عينها، كما قال قتادة: إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق، كيف أنجاهم من الطوفان، كما قال تعالى: ﴿**إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية**﴾ [الحاقة: ١١-١٢]، وقال هاهنا: ﴿**فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين**﴾ وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس، كقوله تعالى: ﴿**ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين**﴾ [الملك: ٥] أي وجعلنا نوعها رجوماً، فإن التي يرمى بها ليست هي زينة للسماء، ولهذا نظائر كثيرة. وقال ابن جرير: لو قيل إن الضمير في قوله: ﴿**وجعلناها**﴾ عائد إلى العقوبة لكان وجهاً، والله أعلم.

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء، أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكور على النعم، لا مُسْدي لها غيره، فقال لقومه: ﴿**اعبدوا الله واتقوه**﴾ أي

أخلصوا له العبادة والخوف ﴿**ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾ أي إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة. ثم أخبرهم أن الأصنام التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء فسميتموها آلهة، وإنما هي مخلوقة مثلكم. هكذا روي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد والسدي، وروي عن ابن عباس: وتخلقون إفكاً أي تنحتونها أصناما، وبه قال مجاهد في رواية، وعكرمة والحسن وقتادة وغيرهم، واختاره ابن جرير رحمه الله. وهي لا تملك لكم رزقاً ﴿**فابتغوا عند الله الرزق**﴾ وهذا أبلغ في الحصر، كقوله ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ [الفاتحة:٥]، ولهذا قال: ﴿**فابتغوا**﴾ أي فاطلبوا ﴿**عند الله الرزق**﴾ أي لا عند غيره، فإن غيره لا يملك شيئاً، ﴿**واعبدوه واشكروا له**﴾ أي كلوا من رزقه واعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ﴿**إليه ترجعون**﴾ أي يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله.

وقوله: ﴿**وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم**﴾ أي فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل ﴿**وما على الرسول إلا البلاغ المبين**﴾ يعني إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فاحرصوا أن تكونوا من السعداء.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِى وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته، فإنه سهل عليه يسير لديه. ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السموات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء كن فيكون، ولهذا قال: ﴿**أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير**﴾ كقوله: ﴿**وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه**﴾ [الروم:٢٧]. ثم قال تعالى: ﴿**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة**﴾ أي يوم القيامة ﴿**إن الله على كل شيء قدير**﴾. وقوله: ﴿**يعذب من يشاء ويرحم من يشاء**﴾ أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فله الخلق والأمر مهما فعل فعدلٌ، لأنه

المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، ﴿وإليه تقلبون﴾ أي ترجعون يوم القيامة.

وقوله: ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء﴾ أي لا يعجزه أحد من أهل سمواته وأرضه، بل هو القاهر فوق عباده، وكل شيء فقير إليه، وهو الغني عما سواه. ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير. والذين كفروا بآيات الله ولقائه﴾ أي جحدوها وكفروا بالمعاد ﴿أولئك يئسوا من رحمتي﴾ أي لا نصيب لهم فيها ﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾ أي موجع في الدنيا والآخرة.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم، ودفعهم الحق بالباطل: أنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان، ﴿إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه﴾ وذلك لأنهم قام عليهم البرهان، وتوجهت عليهم الحجة، فعدلوا إلى استعمال قوة ملكهم، وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة، وحَوّطوا حولها، ثم أضرموا فيها النار، فارتفع لها لهب إلى عنان السماء، ولم توقد نار قط أعظم منها، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه في كفَّة المنجنيق، ثم قذفوه فيها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وخرج منها سالماً، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً. فإنه بذل نفسه للرحمن، وجسده للنيران، وسخا بولده للقربان، وجعل ماله للضيفان، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان.

وقوله: ﴿فأنجاه الله من النار﴾ أي سلمه منها، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون * وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾ يقول لقومه مقرعاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان: إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا، صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا. وهذا على قراءة من نصب مودة بينكم على أنه مفعول له، وأما على قراءة الرفع، فمعناه: إنما اتخاذكم هذا يُحَصِّل لكم المودة في الدنيا فقط ﴿ثم يوم القيامة﴾ ينعكس هذا الحال، فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضاً وشنآناً، فـ ﴿يكفر بعضكم ببعض﴾ أي تتجاحدون ما كان بينكم ﴿ويلعن بعضكم بعضاً﴾ أي يلعن الأتباع المتبوعين، والمتبوعون الأتباع ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾ [الأعراف:٣٨]، وقال تعالى: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ [الزخرف:٦٧]، وقال: ﴿ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾ أي ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار وما لكم من ناصر ينصركم، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله، وهذا حال الكافرين، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك.

﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا

فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه آمن له لوط، يقال: إنه ابن أخي إبراهيم، يقولون هو: لوط بن هاران بن آزر، يعني ولم يؤمن به من قومه سواه، وسارة امرأة إبراهيم الخليل، لكن يقال: كيف الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الوارد في الصحيح أن إبراهيم حين مر على ذلك الجبار فسأل إبراهيم عن سارة ما هي منه، فقال: أختي، ثم جاء إليها فقال لها: إني قد قلت له إنك أختي فلا تكذبيني، فإنه ليس على وجه الأرض أحد مؤمن غيري وغيرك، فأنت أختي في الدين. وكأن المراد من هذا ـ والله أعلم ـ أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك، فإن لوطاً عليه السلام آمن به من قومه، وهاجر معه إلى بلاد الشام، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم وإقليمها، وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي.

وقوله: ﴿**وقال إني مهاجر إلى ربي**﴾ يحتمل عود الضمير في قوله: ﴿**وقال**﴾ على لوط. لأنه هو أقرب المذكورين، ويحتمل عوده إلى إبراهيم، قال ابن عباس والضحاك، وهو المكنى عنه بقوله: ﴿**فآمن له لوط**﴾ أي من قومه. ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك، ولهذا قال: ﴿**إنه هو العزيز الحكيم**﴾ أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين به، الحكيم في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية.

وقوله: ﴿**ووهبنا له إسحاق ويعقوب**﴾ أي أنه لما فارق قومه، أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي، وولد له ولد صالح في حياة جده، ولذلك قال تعالى: ﴿**ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة**﴾ [الأنبياء:٧٢] أي زيادة، كما قال: ﴿**فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب**﴾ [هود:٧١] أي يولد لهذا الولد ولد في حياتكما، تقر به أعينكما. وقوله: ﴿**وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب**﴾ هذه خِلْعة سنية عظيمة، مع اتخاذ الله إياه خليلاً، وجعله للناس إماماً، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم، فقام في ملئهم مبشراً بسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه.

وقوله: ﴿**وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين**﴾ أي جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني، والمنزل الرَّحْب، والمورد العذب، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل، فكل أحد يحبه ويتولاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿**وإبراهيم الذي وفى**﴾ [النجم:٣٧] أي قام بجميع ما أمر به وكمل طاعة ربه، ولهذا قال تعالى: ﴿**وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين**﴾.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام، أنه أنكر على قومه سُوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال في إتيانهم الذكران، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم، وكانوا مع هذا يكفرون بالله ويكذبون رسله، ويقطعون السبيل، أي يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم، ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ أي يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك، فمن قائل كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملأ، قاله مجاهد، ومن قائل كانوا يتضارطون ويتضاحكون، قالته عائشة رضي الله عنها والقاسم، ومن قائل كانوا يناطحون بين الكباش ويناقرون بين الديوك، وكل ذلك يصدر عنهم وكانوا شراً من ذلك.

وقوله: ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم، ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال: ﴿رب انصرني على القوم المفسدين﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

لما استنصر لوط عليه السلام بالله عز وجل عليهم، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم عليه السلام في هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للضيف، فلما رآهم لا همة لهم إلى الطعام، نكِرَهم وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة، وكانت حاضرة، فتعجبت من ذلك كما تقدم بيانه في سورة هود والحجر. فلما أخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط، أخذ يدافع لعلهم ينظرون لعل الله أن يهديهم، ولما قالوا ﴿إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين قال إن فيها لوطاً، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أي من الهالكين، لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم، ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شبان حسان، فلما رآهم كذلك ﴿سيء بهم وضاق بهم ذرعاً﴾ أي اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم ولم يعلم بأمرهم ﴿قالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء، ثم

قلبها عليهم، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك، وما هي من الظالمين ببعيد، وجعل مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد. ولهذا قال تعالى: ﴿**ولقد تركنا منها آية بينة**﴾ أي واضحة ﴿**لقوم يعقلون**﴾ كما قال تعالى: ﴿**وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون**﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨].

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام، أنه أنذر قومه أهل مدين، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس الله وسطوته يوم القيامة، فقال: ﴿**يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر**﴾ قال بعضهم معناه واخشوا اليوم الآخر، وهذا كقوله تعالى: ﴿**لمن كان يرجو الله واليوم الآخر**﴾ [الممتحنة: ٦]. وقوله: ﴿**ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾ نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وهو السعي فيها [أي بالفساد] والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها، إنه كان عذاب يوم عظيم. وقد تقدمت قصتهم مبسوطة في سورة الأعراف وهود والشعراء. وقوله: ﴿**فأصبحوا في دارهم جاثمين**﴾ قال قتادة: ميتين.

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم، فعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف، وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً، وتمر عليها كثيراً، وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة، وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله تعالى ورسوله ﷺ ﴿**فكلاً أخذنا بذنبه**﴾ أي كانت عقوبته بما يناسبه ﴿**فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا**﴾ وهم عاد، وذلك أنهم قالوا: من أشد منا قوة؟ فجاءتهم ريح صرصر شديدة البرد، عاتية الهبوب جداً، تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها عليهم، وتقتلعهم من الأرض، فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه، فيبقى بدنا بلا رأس، كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴿**ومنهم من أخذته الصيحة**﴾ وهم

ثمود، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوه سواء بسواء، ومع هذا استمروا على طغيانهم وكفرهم، وتهددوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى، ومشى في الأرض مرحاً، واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخسف الله به وبداره الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ وهو فرعون ووزيره هامان وجنوده عن آخرهم أغرقوا في صبيحة واحدة فلم ينج منهم مخبر ﴿وما كان الله ليظلمهم﴾ أي فيما فعل بهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾. أي إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كسبت أيديهم.

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم، إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها.

ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به، إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد، وسيجزيهم وصفهم، إنه حكيم عليم. ثم قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضر بها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ أي وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه.

وعن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني، لأنني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾.

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه خلق السموات والأرض بالحق، يعني لاعلى وجه العبث واللعب. وقوله: ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أي لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية. ثم قال تعالى آمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن، وهو قراءته وإبلاغه للناس: ﴿وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾ يعني أن الصلاة تشتمل على شيئين: ترك الفواحش والمنكرات، أي إن مواظبتها تحمل على ترك ذلك.

فقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن فلاناً يصلي

بالليل، فإذا أصبح سرق، فقال: «إنه سينهاه ما يقول» [قال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح].

وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى وهو المطلوب الأكبر، ولهذا قال تعالى: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ أي أعظم من الأول ﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ أي يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم. وقال أبو العالية: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخصال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله، فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله القرآن يأمره وينهاه.

وعن ابن عباس: ذكر الله إياكم عندما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه، أكبر من ذكركم إياه. وروي أيضا عن ابن مسعود وأبي الدرداء وسلمان الفارسي وغيرهم، واختاره ابن جرير.

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف. وقال آخرون: بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ الآية [النحل: ١٢٥]، وهذا القول اختاره ابن جرير، وحكاه عن ابن زيد.

وقوله: ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ أي حادوا عن وجه الحق، وعَمُوا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم. قال مجاهد ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ يعني أهل الحرب، ومن امتنع منهم من أداء الجزية. وقوله: ﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم﴾ يعني: إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا نُقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً، ولا على تصديقه فلعله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً مجملاً معلقاً على شرط أن يكون منزلاً لا مبدلاً ولا مؤولاً.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون». ثم ليعلم أن أكثر ما يحدثون به كذب وبهتان، لأنه قد دخله تحريف وتبديل، وما أقل الصدق فيه، ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحاً.

روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال. وروى البخاري عن ابن عباس قال: كيف

تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث، تقرؤونه محضاً لم يُشَب، وقد حدّثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم.

وروى البخاري عن معاوية [أنه] ذكر كعب الأحبار، فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب. قلت: معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد، لأنه يحدث عن صحف يحسن بها الظن، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة، لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قال ابن جرير: يقول الله تعالى: كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب. وهذا الذي قاله حسن. وقوله: **﴿فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾** أي الذين أخذوه فتلَوْه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء، كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وأشباههما. وقوله: **﴿ومن هؤلاء من يؤمن به﴾** يعني العرب من قريش وغيرهم **﴿وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾** أي ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل.

ثم قال تعالى: **﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾** أي قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عُمراً لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب. وهكذا صفته في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: **﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾** الآية [الأعراف:١٥٧]. وهكذا كان رسول الله ﷺ لا يحسن الكتابة ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده، بل كان له كتّاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم. ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية: «هذا ما قاضي عليه محمد بن عبد الله»، فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري: ثم أخذ فكتب. وهذه محمولة على الرواية الأخرى: ثم أمر فكتب. ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي، وتبرؤوا منه، وإنما أراد الباجي فيما يظهر، أنه كتب ذلك على وجه المعجزة لا أنه كان يحسن الكتابة، كما قال ﷺ إخباراً عن الدجال: «مكتوب بين عينيه كافر» وفي رواية «ك ف ر، يقرؤها كل مؤمن» [متفق عليه]، وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة، فضعيف لا أصل له، قال الله تعالى: **﴿وما كنت تتلو﴾** أي تقرأ **﴿من قبله من كتاب﴾** لتأكيد النفي

ولا تخطه بيمينك، تأكيد أيضاً، وخرج مخرج الغالب كقوله تعالى: ﴿**ولا طائر يطير بجناحيه**﴾ [الأنعام:٣٨].

وقوله: ﴿**إذاً لارتاب المبطلون**﴾ أي لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس، فيقول إنما تعلم هذا من كُتب قبله مأثورة عن الأنبياء، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة ﴿**وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا**﴾ [الفرقان:٥]، قال الله تعالى: ﴿**قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض**﴾ الآية [الفرقان:٦]، وقال هاهنا: ﴿**بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم**﴾ أي هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق أمراً ونهياً وخبراً، يحفظه العلماء يسره الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً، كما قال تعالى: ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر**﴾ [القمر:١٧]، وقال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا وقد أعطي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً» [رواه البخاري].

واختار ابن جرير أن المعنى في قوله تعالى: ﴿**بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم**﴾ **بل** العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً، ولا تخطه بيمينك آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب، ونقله عن قتادة وابن جريج، وحكي الأول عن الحسن البصري فقط. قلت: وهو الذي روي عن ابن عباس، وقاله الضحاك وهو الأظهر والله أعلم. وقوله: ﴿**وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون**﴾ أي ما يكذب بها ويردها إلا الظالمون، أي المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، كما قال تعالى: ﴿**إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم**﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ
أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى
وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله كما أتى صالح بناقته، قال الله تعالى: ﴿**قل**﴾ يا محمد ﴿**إنما الآيات عند الله**﴾ أي إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم، لأن هذا سهل عليه يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿**وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون. وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها**﴾ [الإسراء:٥٩].

وقوله: ﴿**وإنما أنا نذير مبين**﴾ أي إنما بعثت نذيراً لكم بيّن النّذارة، فعليّ أن أبلغكم رسالة الله. ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم وسخافة عقلهم حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق

محمد ﷺ فيما جاءهم به، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته بل عن معارضة عشر سور من مثله، بل عن معارضة سورة منه، فقال تعالى: ﴿**أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم**﴾ أي أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم، الذي فيه خبر ما قبلهم، ونبأ ما بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه، وبالحق الواضح البين الجلي.

ثم قال الله تعالى: ﴿**إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون**﴾ أي إن في هذا القرآن لرحمة أي بياناً للحق، وإزاحة للباطل، وذكرى بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين.

ثم قال تعالى: ﴿**قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً**﴾ أي هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات. ﴿**يعلم مافي السموات والأرض**﴾ أي لا تخفى عليه خافية ﴿**والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون**﴾ أي يوم معادهم سيجزيهم على ما فعلوا، ويقابلهم على ما صنعوا من تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، سيجازيهم على ذلك إنه حكيم عليم.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِالْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم، وبأس الله أن يحل عليهم، ﴿**ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب**﴾ أي لولا ما حتّم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه. ثم قال: ﴿**وليأتينهم بغتة**﴾ أي فجأة ﴿**وهم لا يشعرون. يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين**﴾ أي يستعجلون بالعذاب وهو واقع بهم لا محالة.

ثم قال تعالى: ﴿**يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم**﴾، كقوله تعالى: ﴿**لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش**﴾ [الأعراف:٤١]، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم، وهذا أبلغ في العذاب الحسي. وقوله: ﴿**ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون**﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ، وهذا عذاب معنوي على النفوس.

﴿ يَٰعِبَادِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ .

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم، ولهذا قال: ﴿**يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون**﴾ ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابة الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة.

ثم قال: ﴿**كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون**﴾ أي أينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله، فهو خير لكم، فإن الموت لا بد منه ولا محيد عنه، ثم إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء، ولهذا قال: ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار**﴾ أي لنسكننهم منازلَ عاليةً في الجنة تجري من تحتها الأنهار، على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن، يصرفونها حيث شاؤوا، ﴿**خالدين فيها**﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يبغون عنها حولا ﴿**نعم أجر العاملين**﴾ نعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين ﴿**الذين صبروا**﴾ أي على دينهم. وهاجروا إلى الله ونابذوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده وتصديق موعده.

قوله: ﴿**وعلى ربهم يتوكلون**﴾ في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم. ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار، ولهذا قال: ﴿**وكأين من دابة لا تحمل رزقها**﴾ أي لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئاً لغد ﴿**الله يرزقها وإياكم**﴾ أي الله يقيض لها رزقها على ضعفها وييسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء والحيتان في الماء. قال تعالى: ﴿**وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين**﴾ [هود: ٦].

وقوله: ﴿**وهو السميع العليم**﴾ أي السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ .

يقول تعالى مقرراً أنه لا إله إلا هو، لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده ومقدر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم، ففاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير وهو

العليم بما يصلح كلا منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر انه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك، فلم يعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية. وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها وغاية ما فيها لهو ولعب **﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾** أي الحياة الدائمة الحق التي لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد. وقوله: **﴿لو كانوا يعلمون﴾** أي لآثروا ما يبقى على ما يفنى، ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له، فهلا يكون هذا منهم دائماً **﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾** كقوله: **﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلاإياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم﴾** [الإسراء:٦٧]، وقال ههنا: **﴿فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾**. وقوله: **﴿ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا﴾** هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة، لأنهم لا يقصدون ذلك، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهي لام التعليل، وقد قدمنا تقرير ذلك في قوله **﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾** [القصص:٨].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

يقول تعالى ممتناً على قريش فيما أحلهم من حرمه، الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد، ومن دخله كان آمناً فهم في أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً، وقوله: **﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾** أي أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد وبدلوا نعمت الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار، وكفروا بنبي الله وعبده ورسوله، فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره، فكذبوه وقاتلوه، وأخرجوه من بين أظهرهم، ولهذا سلبهم الله تعالى ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم ببدر، ثم صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم.

ثم قال تعالى: **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه﴾** أي لا أحد

أشد عقوبة ممن كذب على الله، فقال: إن الله أوحى إليه، ولم يوح إليه شيء. ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه، فالأول مفتر، والثاني مكذب، ولهذا قال تعالى: ﴿**أليس في جهنم مثوى للكافرين**﴾. ثم قال تعالى: ﴿**والذين جاهدوا فينا**﴾ يعني الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿**لنهدينهم سبلنا**﴾ أي لنبصرنهم سبلنا، أي طرقنا في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿**وإن الله لمع المحسنين**﴾ في حديث جبريل لما سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان قال: «أخبرني عن الإحسان» قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه مسلم].

تفسير سورة الروم وهي مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

نزلت هذه الآيات حين غلب ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم. واضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية وحاصره فيها مدة طويلة، ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتي. روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿**آلم. غلبت الروم في أدنى الأرض**﴾ قال: غُلبَت وغَلَبت. قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم، لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس، لأنهم أهل كتاب، فذكر ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنهم سيغلبون» فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجلاً خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ، فقال «ألا جعلتها إلى دون العشر». ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله ﴿**آلم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم**﴾ ورواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب.

قال عبد الله [بن مسعود]: خمس قد مضين، الدخان، واللزام، والبطشة، والقمر، والروم، أخرجاه.

وقد روي نحو هذا مرسلاً عن جماعة من التابعين مثل عكرمة والشعبي ومجاهد وقتادة والسدي والزهري وغيرهم.

ولنتكلم عن كلمات هذه الآيات الكريمة، فقوله تعالى: ﴿آلَمَ * غلبت الروم﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة. وأما الروم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بني إسرائيل، ويقال لهم بنو الأصفر، وكانوا على دين اليونان، واليونان كانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة، فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة، وكان من ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له قيصر، فكان أول من دخل في دين النصارى من الملوك قسطنطين بن قسطس، وأمه مريم كانت قد تنصرت قبله، فدعته إلى دينها، واجتمعت به النصارى وتناظروا في زمانه، واختلفوا اختلافاً كثيراً منتشراً متشتتاً لا ينضبط، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً، فوضعوا لقسطنطين العقيدة، وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة، وإنما هي الخيانة الحقيرة، ووضعوا له القوانين يعنون كتب الأحكام من تحريم وتحليل، وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وغَيَّروا دين المسيح عليه السلام، وزادوا فيه ونقصوا منه، وصلوا إلى المشرق، واعتاضوا عن السبت بالأحد، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير، واتخذوا أعياداً أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس وغير ذلك من البواعيث والشعانين، وجعلوا له الباب، وهو كبيرهم، ثم البتاركة، ثم المطارنة، ثم الأساقفة والقساقسة، ثم الشمامسة، وابتدعوا الرهبانية، وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية، يقال إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة، وبنى بيت لحم بثلاثة محاريب، وبنت أمه القمامة، وهؤلاء هم الملكية يعنون الذين هم على دين الملك.

ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الأسكاف، ثم النسطورية أصحاب نسطورا، وهم فرق وطوائف كثيرة، كما قال رسول الله ﷺ: «إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة» [حديث صحيح له طرق عدة]. والغرض أنهم استمروا على النصرانية، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم هرقل، فناوأه كسرى ملك الفرس وملك البلاد كالعراق وخراسان والري وجميع بلاد العجم، وهو سابور ذو الأكتاف، وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر، وله رياسة العجم، وحماقة الفرس، وكانوا مجوساً يعبدون النار. والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده، فقهره وكَسَره، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية، فحاصره بها مدة طويلة، حتى ضاقت عليه، ولم يقدر كسرى على فتح البلد، لحصانتها لأن نصفها من ناحية البر، ونصفها الآخر من ناحية البحر، فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك، فلما طال الأمر، دبر قيصر مكيدة، ورأى في نفسه خديعة، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مال يصالحه عليه ويشترط عليه ما شاء، فأجابه إلى ذلك، وطلب منه أموالاً عظيمة لايقدر عليها أحد من ملوك الدنيا، فطاوعه قيصر وأوهمه أن عنده جميع ما طلب، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عشره، وسأل كسرى أن يمكنه من

الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته، ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه، فأطلق سراحه، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية جمع أهل ملته وقال: إني خارج في أمر قد أبرمته في جند قد عينته من جيشي، فإن رجعت إليكم قبل الحول، فأنا ملككم، وإن لم أرجع إليكم قبلها، فأنتم بالخيار: إن شئتم استمررتم على بيعتي، وإن شئتم وليتم عليكم غيري، فأجابوه بأنك ملكنا مادمت حياً، ولو غبت عشرة أعوام، فلما خرج من القسطنطينية خرج في جيش متوسط، وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع، فركب قيصر من فوره وسار مسرعاً حتى انتهى إلى بلاد فارس، فعاث في بلادهم قتلاً لرجالها ومن بها من المقاتلة، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن وهي كرسي مملكة كسرى، فقتل من بها وأخذ جميع أمواله، وأسر نساءه وحريمه، وحلق رأس ولده وركبه على حمار، وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة، وكتب إلى كسرى يقول: هذا ما طلبت فخُذه، فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصيه إلا الله تعالى، واشتد حنقه على البلد، فاشتد في حصارها بكل ممكن، فلم يقدر على ذلك. فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون، التي لا سبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها، فلما علم قيصر بذلك، احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها وهو أنه أرصد جنده عند فم المخاضة، وركب في بعض الجيش، وأمر بأحمال من التبن والبعر والروث فحملت معه، وسار إلى قريب من يوم في الماء مصعداً، ثم أمر بالقاء تلك الأحمال في النهر، فلما مرت بكسرى ظن وجنده أنهم قد خاضوا من هنالك، فركبوا في طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض والخوض، فخاضوا وأسرعوا السير، ففاتوا كسرى وجنوده، ودخلوا القسطنطينية، فكان ذلك يوماً مشهوداً عند النصارى، وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون، لم يحصلوا على بلاد قيصر، وبلادهم قد خربتها الروم، وأخذوا حواصلهم، وسبوا ذراريهم، ونساءهم، فكان هذا من غَلب الروم لفارس، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب الفرس للروم. وكانت الوقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز. وقال مجاهد: كان ذلك في الجزيرة، وهي أقرب بلاد الروم من فارس، فالله أعلم.

ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين وهي تسع، فإن البضع في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع.

وقوله تعالى: ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ أي من قبل ذلك ومن بعده. ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ أي للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى، وهم المجوس، وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كثيرة من العلماء، كابن عباس والثوري والسدي وغيرهم. وقال الآخرون: بل كان نصرة الروم على فارس عام

الحديبية. قاله عكرمة والزهري وقتاده وغيرهم.

والأمر في هذا سهل قريب، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين، فلما انتصرت الروم على فارس، فرح المؤمنون بذلك، لأن الروم أهل كتاب في الجملة، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس، كما قال تعالى: ﴿**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى** - إلى قوله - ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣]، وقال تعالى ههنا: ﴿**ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم**﴾.

وقوله: ﴿**وهو العزيز**﴾ أي في انتصاره وانتقامه من أعدائه ﴿**الرحيم**﴾ بعباده المؤمنين. وقوله: ﴿**وعد الله لا يخلف الله وعده**﴾ أي هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أنا سننصر الروم على فارس، وعد من الله حق، لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلين إلى الحق، ويجعل لها العاقبة ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ أي بحكم الله في كونه، وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل.

وقوله: ﴿**يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون**﴾ أي أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الآخرة كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة. قال الحسن البصري: والله لَيبلُغ من أحدهم بدنياه أن يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يصلي. وقال ابن عباس في قوله: ﴿**يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون**﴾ يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

يقول تعالى منبهاً على التفكر في مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال: ﴿**أولم يتفكروا في أنفسهم**﴾ يعني به النظر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي وما بينهما من المخلوقات المتنوعة، فيعلموا أنها ما خلقت باطلاً بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿**وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون**﴾. ثم نبههم على صدق رسله فيما جاؤوا به عنه، بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات من إهلاك من كفر بهم ونجاة من صدقهم، فقال: ﴿**أولم يسيروا في الأرض**﴾ أي بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين، ولهذا قال: ﴿**فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة**﴾ أي كانت الأمم الماضية أشد

منكم أيها المبعوث إليهم محمد ﷺ وأكثر أموالاً وأولاداً، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومُكنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه وعمروا فيها أعماراً طوالاً، فعمروها أكثر منكم، واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، ﴿**وما كان الله ليظلمهم**﴾ فيما أحل بهم من العذاب والنكال ﴿**ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ أي وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله واستهزؤوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم، ولهذا قال: ﴿**ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزءون**﴾ أي كانت السوأى عاقبتهم لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون. هذا توجيه ابن جرير، ونقله عن ابن عباس وقتادة، ورواه ابن أبي حاتم عنهما وعن الضحاك بن مزاحم، وهو الظاهر ـ والله أعلم ـ لقوله ﴿**وكانوا بها يستهزئون**﴾.

﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ **الله يبدأ الخلق ثم يعيده**﴾ أي كما هو قادر على بَداءته فهو قادر على إعادته ﴿**ثم إليه ترجعون**﴾ أي يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله. ثم قال: ﴿**ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون**﴾ قال ابن عباس: ييأس المجرمون، وقال مجاهد: يفتضح المجرمون، ﴿**ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء**﴾ أي ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم. ثم قال: ﴿**ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون**﴾ قال قتادة: هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها، يعني أنه إذا رفع هذا إلى عليين وخفض هذا إلى أسفل سافلين، فذلك آخر العهد بينهما، ولهذا قال: ﴿**فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون**﴾ قال مجاهد وقتادة: ينعمون. وقال يحيى بن أبي كثير: يعني سماع الغناء. والحبرة أعم من هذا.

﴿ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه عند المساء، وهو إقبال الليل بظلامه، وعند الصباح وهو إسفار النهار عن ضيائه. ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح وهو التحميد، فقال تعالى: ﴿**وله الحمد في السموات والأرض**﴾ أي هو المحمود على ما خلق في السموات والأرض. ثم قال: ﴿**وعشياً وحين تظهرون**﴾ فالعشاء هو شدة الظلام، والإظهار قوة الضياء،

فسبحان خالق هذا وهذا.

وقوله: ﴿يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي﴾ وهذه الآيات المتتابعة الكريمة يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها، ليدل خلقه على كمال قدرته، فمن ذلك إخراج النبات من الحب، والحب من النبات، والبيض من الدجاج، والدجاج من البيض، والإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. وقوله: ﴿ويحيي الأرض بعد موتها﴾ كقوله: ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ـ إلى قوله ـ وأن الله يبعث من في القبور﴾ [الحج: ٥ـ٧]، ولهذا قال ههنا: ﴿وكذلك تخرجون﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته، أنه خلق أباكم آدم من تراب، ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ فأصلكم من تراب، ثم من ماءٍ مهين، ثم تصور فكان علقة، ثم مضغة، ثم صار عظاماً شكله على شكل الإنسان، ثم كسا الله تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير، ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المدائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم، وله فكرة وغور، ودهاء ومكر، ورأي وعلم، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه. فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعايش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكر، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة، ولهذا قال: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾.

وروى الإمام أحمد عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك». ورواه أبو داود والترمذي، وقال: حسن صحيح.

وقوله: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي خلق لكم من جنسكم إناثاً يَكُنّ لكم أزواجاً ﴿لتسكنوا إليها﴾ كما قال تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ [الأعراف: ١٨٩] يعني بذلك حواء، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر، ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكوراً وجعل إناثهم من جنس آخر إما من جان أو حيوان، لما حصل هذا الإئتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة وهي المحبة، ورحمة وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد،

أو محتاجة إليه في الإنفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿خلق السموات والأرض﴾ أي خلق السموات في ارتفاعها واتساعها، وشفوف أجرامها، وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات، والأرض في انخفاضها وكثافتها، وما فيها من جبال وأودية وبحار، وقفار وحيوان وأشجار. وقوله: ﴿واختلاف ألسنتكم﴾ يعني اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء روم، وهؤلاء بربر، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى من اختلاف لغات بني آدم، واختلاف ألوانهم، فجميع أهل الأرض منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان، وليس يشبه واحد منهم الآخر، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمت أو الهيئة أو الكلام ظاهراً كان أو خفياً يظهر عند التأمل، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه أخرى، ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ﴿إن في ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله﴾ أي ومن الآيات ما جعل لكم من صفة النوم في الليل والنهار، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة وذهاب الكلال والتعب. وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب والأسفار في النهار وهذا ضد النوم ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ أي: يعون.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾ أي تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة أو صواعق متلفة، وتارة ترجون وميضه وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه، ولهذا قال: ﴿وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها﴾ أي بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الماء ﴿اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ [الحج: ٥]. وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة، ولهذا قال: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾. ثم قال: ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾ كقوله: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾ [فاطر: ٤١]. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا اجتهد في اليمين يقول: لا والذي تقوم السماء والأرض بأمره، أي هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها، ثم إذا كان يوم القيامة بُدلت الأرض غير الأرض والسموات، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم، ولهذا قال: ﴿ثم إذا دعاكم

دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ كما قال تعالى: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٥٢].

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿وله من في السموات والأرض﴾ أي ملكه وعبيده ﴿كل له قانتون﴾ أي خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً. وقوله: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ قال ابن عباس: يعني أيسر عليه، وقال مجاهد: الإعادة أهون عليه من البَدَاءة، والبداءة عليه هينة، وكذا قال عكرمة وغيره وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال الله: كَذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد». وقال آخرون: كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء. فعن ابن عباس: كل عليه هين. وكذا قاله الربيع بن خُثيم، ومال إليه ابن جرير. وقوله: ﴿وله المثل الأعلى في السموات والأرض﴾ قال ابن عباس كقوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: ١١]. وقال قتادة: مَثَله أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره، وقال مثل هذا ابن جرير.

وهو العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد غلب كل شيء، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه، الحكيم في أقواله وأفعاله شرعاً وقدراً، وعن محمد بن المنكدر في قوله تعالى: ﴿وله المثل الأعلى﴾ قال: لا إله إلا الله.

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به، العابدين معه غيره، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له، ملك له، كما كانوا في تلبيتهم يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فقال تعالى: ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم﴾ أي تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ﴿هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء﴾ أي لا يرتضي أحد منكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله فهو وهو فيه على السواء ﴿تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ أي تخافون أن يقاسموكم الأموال. قال أبو مجلز: إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك، وليس له ذاك، كذلك الله لا شريك له، والمعنى أن أحدكم يأنف من ذلك، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه.

ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته بطريق الأولى والأحرى. قال تعالى:

﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾. ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سفهاً من أنفسهم وجهلاً ﴿بل اتبع الذين ظلموا﴾ أي المشركون ﴿أهواءهم﴾ أي في عبادتهم الأنداد بغير علم ﴿فمن يهدي من أضل الله﴾ أي فلا أحد يهديهم إذا كتب الله إضلالهم ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي ليس لهم من الله منقذ ولا مجير ولا محيد لهم عنه، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

يقول تعالى: فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم، التي هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾ [الأعراف:١٧٢]، وفي الحديث: «إني خلقت عبادي حُنفاء، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم» [رواه مسلم]. فالله تعالى فطر خلقه على الإسلام، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية والنصرانية والمجوسية.

وقوله: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ قال بعضهم: معناه لا تبدلوا خلق الله، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، فيكون خبراً بمعنى الطلب، كقوله تعالى: ﴿ومن دخله كان آمنا﴾ [آل عمران:٩٧]، وهو معنى حسن صحيح، وقال آخرون: هو خبر على بابه، ومعناه أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك. ولهذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة وابن زيد [وغيرهم] في قوله: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ أي لدين الله، وقال البخاري: قوله: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ لدين الله، الدين والفطرة: الإسلام.

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول: «فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم». وفي معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة.

وقوله تعالى: ﴿ذلك الدين القيم﴾ أي التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي فلهذا لا يعرفه أكثر الناس، فهم عنه ناكبون، كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ [يوسف:١٠٣]. وقوله: ﴿منيبين إليه﴾ قال ابن زيد وابن جريج: أي راجعين إليه. ﴿واتقوه﴾ أي خافوه وراقبوه، ﴿وأقيموا الصلاة﴾ وهي الطاعة العظيمة، ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ أي بل كونوا من الموحدين المخلصين

له العبادة لا يريدون بها سواه. روى ابن جرير عن يزيد بن أبي مريم قال: مر عمر رضي الله عنه بمعاذ بن جبل فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث وهن من المنجيات: الإخلاص، وهي الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها، والصلاة وهي الملة، والطاعة وهي العصمة. فقال عمر: صدقت.

وقوله: ﴿**من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون**﴾ أي لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أي بدلوه وغيروه، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، وقرأ بعضهم: فارقوا دينهم، أي تركوه وراء ظهورهم، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومِلَل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء، وهذه لأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما رواه الحاكم في مستدركه أنه سئل رسول الله ﷺ عن الفرقة الناجية منهم فقال «ما أنا عليه اليوم وأصحابي» [ورواه الترمذي بمعناه وقال: حسن صحيح].

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الإضطرار يدعون الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم في حالة الاختبار يشركون بالله ويعبدون معه غيره. وقوله: ﴿**ليكفروا بما آتيناهم**﴾ هي لام العاقبة عند بعضهم، ولام التعليل عند آخرين، ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك، ثم توعدهم بقوله: ﴿**فسوف تعلمون**﴾ قال بعضهم: والله لو توعدني حارس دَرْب لخفت منه، فكيف والمتوعد ههنا هو الذي يقول للشيء: كن فيكون. ثم قال منكراً على المشركين فيما اختلقوه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان ﴿**أم أنزلنا عليهم سلطاناً**﴾ أي حجة ﴿**فهو يتكلم**﴾ أي ينطق ﴿**بما كانوا به يشركون**﴾ وهذا استفهام إنكار، أي لم يكن لهم شيء من ذلك.

ثم قال: ﴿**وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقطنون**﴾ هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووفقه، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر. وقال: ﴿**ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور**﴾ [هود: ١٠] أي يفرح في نفسه ويفخر على غيره، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية. قال الله تعالى: ﴿**إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات**﴾ [هود: ١١] أي صبروا في الضراء وعملوا الصالحات

في الرخاء. كما ثبت في صحيح [مسلم]: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له». وقوله تعالى: ﴿أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله، فيوسع على قوم ويضيّق على آخرين ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾.

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى آمراً بإعطاء ذي ﴿القربى حقه﴾ أي من البر والصلة، ﴿والمسكين﴾ وهو الذي لا شيء له ينفق عليه أو له شيء لا يقوم بكفايته، ﴿وابن السبيل﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره، ﴿ذلك خير للذين يريدون وجه الله﴾ أي النظر إليه يوم القيامة وهو الغاية القصوى، ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي في الدنيا والآخرة. ثم قال: ﴿وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربوا عند الله﴾ أي من أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى لهم، فهذا لا ثواب له عند الله، بهذا فسره ابن عباس وقتادة والشعبي [وغيرهم]، وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه، إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة، قاله الضحاك، واستدل بقوله: ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ [المدثر: ٦] أي لا تعط العطاء تريد أكثر منه.

وقال ابن عباس: الربا رباءان: فربا لا يصح، يعني ربا البيع؟ وربا لا بأس به وهو هدية الرجل يريد فضلها، وأضعافها، ثم تلا هذه الآية ﴿وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله﴾. وإنما الثواب عند الله في الزكاة، ولهذا قال: ﴿وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾ أي الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء. كما في الصحيح: «وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه فيربيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوَّه أو فصيله حتى تصير التمرة أعظم من أُحُد».

وقوله: ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم﴾ أي هو الخالق الرزاق، يخرج الإنسان من بطن أمه عرياناً لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قُوَى، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك والرياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب.

وقوله: ﴿ثم يميتكم﴾ أي بعد هذه الحياة، ﴿ثم يحييكم﴾ أي يوم القيامة. وقوله: ﴿هل من شركائكم﴾ أي الذين تعبدونهم من دون الله ﴿من يفعل من ذلكم من شيء؟﴾ أي لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق، والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة، ولهذا قال بعد هذا كله: ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه وتعاظم وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساوٍ

أو ولد أو والد، بل هو الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

قال ابن عباس وعكرمة والسدي وغيرهم: المراد بالبر ههنا: الفَيَافي، وبالبحر الأمصار والقرى. وفي رواية عن ابن عباس وعكرمة: البحر: الأمصار والقرى، ما كان منها على جانب نهر. وقال آخرون بل المراد بالبر هو البر المعروف، وبالبحر هو البحر المعروف. وقال زيد بن رفيع: ﴿ظهر الفساد﴾ يعني انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط، وعن البحر تعمى دوابه، وعن مجاهد قال: فساد البر قتل ابن آدم، وفساد البحر أخذ السفينة غصباً.

وقال عطاء الخراساني: المراد بالبر ما فيه من المدائن والقرى، وبالبحر جزائره. والقول الأول أظهر وعليه الأكثرون، ويؤيده ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة: أن رسول الله ﷺ صالح ملك أيلة، وكتب له ببحره، يعني ببلده. ومعنى قوله تعالى: ﴿**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس**﴾ أي بان النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي. وقال أبو العالية: من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة، ولهذا جاء في الحديث: «لحد يقام في الأرض خير لأهلهامن أن يمطروا أربعين صباحاً» [رواه أحمد والنسائي والطبراني وهو حسن]. والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم عن تعاطي المحرمات، وإذا ارتكبت المعاصي كان سبباً في محاق البركات من السماء والأرض. ولهذا إذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية، وهو تركها، فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فإذا أهلك الله في زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج، قيل للأرض: أخرجي بركاتك، فيأكل من الرمانة الفئَام من الناس، ويستظلون بقَحفها، ويكفي لبن اللّقحة الجماعة من الناس، وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول الله ﷺ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير. ولهذا ثبت في الصحيح: «أن الفاجر إذا مات تستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب».

وقوله: ﴿**ليذيقهم بعض الذي عملوا**﴾ أي يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختباراً منه لهم ومجازاة على صنيعهم ﴿**لعلهم يرجعون**﴾ أي عن المعاصي، كما قال تعالى: ﴿**وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون**﴾ [الأعراف: ١٦٨]. ثم قال تعالى: ﴿**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل**﴾ أي من قبلكم ﴿**كان أكثرهم مشركين**﴾ أي فانظروا ماذا حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً عباده بالمبادرة إلى الإستقامة في طاعته والمبادرة إلى الخيرات: ﴿**فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله**﴾ أي يوم القيامة إذا أراد كونه فلا راد له، ﴿**يومئذ يصدعون**﴾ أي يتفرقون، ففريق في الجنة وفريق في السعير، ولهذا قال: ﴿**من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله**﴾ أي يجازيهم مجازاة الفضل، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿**إنه لا يحب الكافرين**﴾ ومع هذا هو العادل فيهم الذي لا يجور.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

يذكر تعالى نعَمه على خلقه في إرسال الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقيبها، ولهذا قال: ﴿**وليذيقكم من رحمته**﴾ أي المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد ﴿**ولتجري الفلك بأمره**﴾ أي في البحر وإنما سيرها بالريح، ﴿**ولتبتغوا من فضله**﴾ أي في التجارات والمعايش والسير من إقليم إلى إقليم، وقطر إلى قطر ﴿**ولعلكم تشكرون**﴾ أي تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى. ثم قال تعالى: ﴿**ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاؤوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا**﴾ هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس، فقد كُذِّبت الرسل المتقدمون مع ما جاؤوا أممهم به من الدلائل الواضحات. ولكن انتقم الله ممن كذبهم وخالفهم وأنجى المؤمنين بهم ﴿**وكان حقاً علينا نصر المؤمنين**﴾ هو حق أوجبه على نفسه الكريمة تكرماً وتفضلاً، كقوله تعالى: ﴿**كتب ربكم على نفسه الرحمة**﴾ [الأنعام: ٥٤].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذي ينزل منه الماء، فقال تعالى: ﴿**الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً**﴾ إما من البحر، أو مما يشاء الله عز وجل ﴿**فيبسطه في السماء كيف يشاء**﴾ أي يَمُدّه فيكثّرهُ ويُنميه، ينشىء سحابة ترى في رأي العين مثل الترس، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقالاً مملوءة، كما قال تعالى: ﴿**وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت ـ إلى قوله ـ كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون**﴾ [الأعراف: ٥٧]، وكذلك قال ههنا: ﴿**الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً**﴾. قال مجاهد وقتادة

وأبو عمرو بن العلاء ومطر الوراق: يعني قطعاً. وقال الضحاك: متراكماً. وقال غيره: أسود من كثرة الماء، تراه مدلهماً ثقيلاً قريباً من الأرض.

وقوله: ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ أي فترى المطر وهو القطر، يخرج من بين ذلك السحاب ﴿فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ أي يفرحون لحاجتهم بنزوله عليهم ووصوله إليهم. وقوله: ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين﴾ معنى الكلام أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر، كانوا قنطين من نزول المطر إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم، جاءهم على فاقة، فوقع منهم موقعاً عظيماً، وقد اختلف النحاة في قوله: ﴿من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين﴾ فقال ابن جرير: هو تأكيد، وحكاه عن بعض أهل العربية. وقال آخرون: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم المطر من قبله، أي الإنزال لمبلسين، ويحتمل أن يكون معنى الكلام أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، ومن قبله أيضاً قد فات عندهم نزوله وقتاً بعد وقت، فترقبوه في إبانه فتأخر، ثم مضت مدة فترقبوه فتأخر، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط، فبعدما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ولهذا قال: ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله﴾ يعني المطر ﴿كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾. ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها فقال: ﴿إن ذلك لمحيي الموتى﴾ أي إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ﴿إنه على كل شيء قدير﴾. ثم قال تعالى: ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون﴾، يقول: ولئن أرسلنا ريحاً يابسة على الزرع الذي زرعوه ونبت وشب واستوى على سوقه، فرأوه مصفراً، أي قد اصْفَرَّ وشرع في الفساد لظلوا من بعده، أي بعد هذا الحال، يكفرون، أي يجحدون ما تقدم من النعم. كقوله: ﴿أفرأيتم ما تحرثون ـ إلى قوله ـ بل نحن محرومون﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٧].

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

يقول تعالى: كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجداثها، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون وهم مع ذلك مُدْبرون عنك، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق وردهم عن ضلالتهم بل ذلك إلى الله، فإنه تعالى بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء وليس ذلك لأحد سواه، ولهذا قال: ﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ أي خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه وهذا حال المؤمنين، والأول مثل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾ [الأنعام: ٣٦]. وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قليب بدر بعد ثلاثة أيام ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم،

حتى قال عمر: يا رسول الله ما تخاطب من قوم قد جَيَّفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون». وتأولته عائشة على أنه قال «إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق» [رواه البخاري]. وقال قتادة: أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تقريعاً وتوبيخاً ونقمة.

والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححاً له عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم كان يعرفه في الدنيافيسلم عليه، إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام».

وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له، إذا انصرفوا عنه، [متفق عليه].

وقد شرع السلام على الموتى، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلم محال، وقد علّم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا: «سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية» [رواه مسلم]، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد، وإن لم يسمع المسلم الرد، والله أعلم.

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾.

ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالاً بعد حال. يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى. ثم يشب قليلاً قليلاً حتى يكون صغيراً، ثم حدثاً، ثم مراهقاً ثم شاباً. وهو القوة بعد الضعف، ثم يشرع في النقص فيكتهل، ثم يشيخ ثم يهرم، وهو الضعف بعد القوة. فتضعف الهمة والحركة والبطش، وتشيب اللّمة، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة، ولهذا قال: **﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء﴾** أي يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد **﴿وهو العليم القدير﴾**.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم وأنهم لم يُنْظروا حتى يُعذَر إليهم. قال الله تعالى: **﴿كذلك كانوا يؤفكون * وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾** أي فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا،

فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة ﴿لقد لبثتم في كتاب الله﴾ أي في كتاب الأعمال ﴿إلى يوم البعث﴾ أي من يوم خلقتم إلى أن بعثتم ﴿ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾. قال الله تعالى: ﴿فيومئذ﴾ أي يوم القيامة ﴿لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾ أي اعتذارهم عما فعلوا ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي ولا هم يرجعون إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ [فصلت: ٢٤].

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي قد بينا لهم الحق، ووضحناه لهم، وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبيَّنوا الحق ويتبعوه ﴿ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾ أي لورأوا أي آية كانت، سواء كانت باقتراحهم أو غيره، لايؤمنون بها ويعتقدون أنها سحر وباطل، كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه، كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]، ولهذا قال ههنا: ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون فاصبر إن وعد الله حق﴾ أي اصبر على مخالفتهم وعنادهم، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك عليهم وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾ أي بل اثبت على ما بعثك الله به، فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هُدَى يتبع، بل الحق كله منحصر فيه.

وروى الإمام أحمد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ، صلى بهم الصبح فقرأ فيها الروم فأوهم، فقال: «إنه يلبس علينا القرآن، فإن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء» وإسناده حسن، ومتنه حسن، وفيه سر عجيب، ونبأ غريب، وهو أنه ﷺ تأثر بنقصان وضوء من ائتم به، فدل ذلك على أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام.

تفسير سورة لقمان وهي مكية

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾.

تقدم في أول سورة البقرة عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة، وهو أنه سبحانه وتعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة،

وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، ووصلوا أرحامهم وقراباتهم، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك لم يراؤوا به، ولا أرادوا جزاءاً من الناس ولا شكوراً، فمن فعل ذلك كذلك، فهو من الذين قال الله تعالى: ﴿**أولئك على هدى من ربهم**﴾ أي على بصيرة وبينة ومنهج واضح جلي ﴿**وأولئك هم المفلحون**﴾ أي في الدنيا والآخرة.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى حال السعداء، وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه، عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله**﴾ قال: هو والله الغناء.

وكذا قال ابن عباس وجابر ومكحول [وغيرهم].

وقال الحسن البصري: نزلت هذه الأية في الغناء والمزامير. وقال قتادة: والله لعله لا ينفق فيه مالاً، ولكن شراؤه استحبابه، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق، وما يضر على ما ينفع. وقيل: أراد اشتراء المغنيات من الجواري. وقال الضحاك: يعني الشرك، وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله. وقوله: ﴿**ليضل عن سبيل الله**﴾ أي إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله، وعلى قراءة فتح الياء تكون اللام لام العاقبة أو تعليلاً للأمر القدري، أي قُيضوا لذلك ليكونوا كذلك. وقوله: ﴿**ويتخذها هزواً**﴾ قال مجاهد: ويتخذ سبيل الله هزواً يستهزىء بها. وقال قتادة: يعني ويتخذ آيات الله هزواً، وقول مجاهد أولى.

وقوله: ﴿**أولئك لهم عذاب مهين**﴾ أي كما استهانوا بآيات الله وسبيله، أهينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر. ثم قال تعالى: ﴿**وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا**﴾ أي هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولى عنها وأعرض وأدبر وتصامم وما به من صمم، كأنه ما يسمعها، لأنه يتأذى بسماعها إذ لا انتفاع له بها ولا أرَبَ له فيها، ﴿**فبشره بعذاب أليم**﴾ أي يوم القيامة، يؤلمه كما تألم بسماع كتاب الله وآياته.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء في الدار الآخرة، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة لشريعة الله ﴿**لهم جنات النعيم**﴾ أي يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب والنساء والنضرة

والسماع، الذي لم يخطر ببال أحد وهم في ذلك مقيمون دائماً لا يظعنون ولا يبغون عنها حولاً. وقوله: ﴿وعد الله حقاً﴾ أي هذا كائن لا محالة لأنه من وعد الله، والله لا يخلف الميعاد، لأنه الكريم المنان الفعال لما يشاء القادر على كل شيء ﴿وهو العزيز﴾ الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾ ﴾.

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض، وما فيها وما بينهما، فقال تعالى: ﴿خلق السموات بغير عمد﴾ قال الحسن وقتادة: ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية. وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد، لها عمد لا ترونها، وقد تقدم تقرير هذه المسألة في أول سورة الرعد بما أغنى عن إعادته، ﴿وألقى في الأرض رواسي﴾ يعني الجبال أرست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها، ولهذا قال ﴿أن تميد بكم﴾ أي لئلا تميد بكم.

وقوله: ﴿وبث فيها من كل دابة﴾ أي وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالهاوألوانها إلا الذي خلقها، ولما قرر سبحانه أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله: ﴿وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ أي من كل زوج من النبات كريم، أي حسن المنظر. وقوله: ﴿هذا خلق الله﴾ أي هذا الذي ذكره الله تعالى من خلق السموات والأرض وما بينهما صادر عن فعل الله وخلقه وتقديره، وحده لا شريك له في ذلك، ولهذا قال: ﴿فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ أي مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ﴿بل الظالمون﴾ يعني المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿في ضلال﴾ أي جهل وعمى ﴿مبين﴾ أي واضح ظاهر لا خفاء به.

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿١٢﴾ ﴾.

اختلف السلف في لقمان: هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة ؟ على قولين، الأكثرون على الثاني. فعن ابن عباس قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً. وقال سعيد بن المسيب: كان لقمان من سودان مصر، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة. وقال مجاهد: كان لقمان عبداً صالحاً ولم يكن نبياً.

فهذه الآثار منها ما هو مصرح فيه بنفي كونه نبياً، ومنها ما هو مشعر بذلك، لأن كونه عبداً قد مسّه الرق ينافي كونه نبياً، لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها، ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً، وإنما ينقل كونه نبياً عن عكرمة إن صح السند إليه، فإنه رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن جابر عن عكرمة، قال: كان لقمان نبياً، وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، والله أعلم.

وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ أي الفقه في الإسلام، ولم يكن نبياً ولم يوح إليه.

وقوله: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ أي الفهم والعلم والتعبير ﴿أن اشكر لله﴾ أي أمرناه أن يشكر الله عز وجل على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه. ثم قال تعالى: ﴿ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه﴾ أي إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى: ﴿ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾ [الروم: ٤٤]. وقوله: ﴿ومن كفر فإن الله غني حميد﴾ أي غني عن العباد لا يتضرر بذلك ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً، فإنه الغني عما سواه، فلا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه.

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده، وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر، وأنه آتاه الحكمة، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله ولا يشرك به شيئاً، ثم قال محذراً له ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ أي هو أعظم الظلم. روى البخاري عن عبد الله [ابن مسعود] قال: لما نزلت ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس بذاك، ألا تسمع إلى قول لقمان: ﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾». ثم قرن بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين، كما قال تعالى: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن، وقال ههنا: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن﴾ قال مجاهد: مشقة وَهْن الولد، وقال قتادة: جهداً على جهد.

وقوله: ﴿وفصاله في عامين﴾ أي تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين، كما قال تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ [البقرة: ٢٣٣]. ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأنه قال في الآية الأخرى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ [الأحقاف: ١٥]. وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً، ليُذكّر الولد بإحسانها المتقدم إليه، كما قال تعالى: ﴿وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ [الإسراء: ٢٤]، ولهذا قال: ﴿أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير﴾ أي فإني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء.

وقوله: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ أي إن حَرَصا

عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمنعنَّك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً، أي محسناً إليهما، ﴿واتبع سبيل من أناب إلى﴾ يعني المؤمنين، ﴿ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعلمون﴾ روى الطبراني في كتاب العشرة أن سعد بن مالك قال: أنزلت فيَّ هذه الآية ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ الآية، قال: كنت رجلاً براً بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد ما هذا الذي أراك قد أحدثت لتدعَنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتُعيَّر بي ، فيقال: يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعلي يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء. فمكثت يوماً وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، مكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي، فأكلت. [وسنده حسن]

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾.

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله سبحانه عن لقمان الحكيم، ليمتثلها الناس ويقتدوا بها، فقال: ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل﴾ أي إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل، وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قوله إنها ضمير الشأن والقصة، وعلى هذا رفع مثقال، [وهي قراءة نافع المدني] والأول أولى. وقوله: ﴿يأت بها الله﴾ أي أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، وجازى عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها﴾ الآية [الأنبياء:٤٧]، وقال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [الزلزلة:٧-٨]، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء، أو غائبة ذاهبة في ارجاء السموات والأرض، فإن الله يأتي بها، لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولهذا قال: ﴿إن الله لطيف خبير﴾ أي لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت، ﴿خبير﴾ بدبيب النمل في الليل البهيم.

ثم قال: ﴿يا بني أقم الصلاة﴾ أي بحدودها وفروضها وأوقاتها ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر﴾ أي بحسب طاقتك وجهدك ﴿واصبر على ما أصابك﴾ علم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر. وقوله: ﴿إن ذلك من عزم الأمور﴾ أي إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور. وقوله: ﴿ولا تصعر خدك للناس﴾ يقول لا تعرض

بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم، واستكباراً عليهم، ولكن ألن جانبك وابسط وجهك إليهم، قال ابن عباس في قوله: ﴿**ولا تصعر خدك للناس**﴾ يقول لا تتكبر فتحقِرَ عباد الله، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك، وقال زيد بن أسلم: ﴿**ولا تصعر خدك للناس**﴾ لا تتكلم وأنت معرض، وكذا روي عن مجاهد والضحاك وابن زيد وغيرهم. وقال إبراهيم النخعي: يعني بذلك التشديق في الكلام. والصواب القول الأول. وقال ابن جرير: وأصل الصَّعَر: داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها، حتى تلتفت أعناقها عن رؤوسها، فشبه به الرجل المتكبر.

وقوله: ﴿**ولا تمش في الأرض مرحا**﴾ أي متكبراً جباراً عنيداً، لا تفعل ذلك يبغضك الله، ولهذا قال: ﴿**إن الله لا يحب كل مختال فخور**﴾ أي مختال معجب في نفسه، فخور أي على غيره.

وقوله: ﴿**واقصد في مشيك**﴾ أي امش مقتصداً مشياً ليس بالبطيء المتثبط، ولا بالسريع المفرط، بل عدلاً وسطا بين بين. وقوله: ﴿**واغضض من صوتك**﴾ أي لا تبالغ في الكلام ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه، ولهذا قال ﴿**إن أنكر الأصوات لصوت الحمير**﴾ قال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير، أي غاية من رفع صوته أنه يُشبه بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى، وهذا التشبيه في هذا بالحمير، يقتضي ذمه غاية الذم، لأن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه» [رواه البخاري].

وقد روى الشيخان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً».

فهذه وصايا نافعة جداً، وهي من قَصص القرآن عن لقمان الحكيم، وقد روي عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة، منها ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر قال: أخبرنا رسول الله ﷺ قال: «إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله إذا استودع شيئاً حفظه» [وسنده حسن].

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾.

يقول تعالى منبهاً خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة، بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد، وجعله إياها لهم سقفاً محفوظاً، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة الشبَه

والعلل، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم، بل منهم من يجادل في الله، أي في توحيده وإرساله الرسل ومجادلته في ذلك بغير علم، ولا مستند من حجة صحيحة، ولا كتاب مأثور صحيح، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ أي مضيء ﴿وإذا قيل لهم﴾ أي لهؤلاء المجادلين في توحيد الله ﴿اتبعوا ما أنزل الله﴾ أي على رسوله من الشرائع المطهرة ﴿قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾ أي لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين، قال الله تعالى: ﴿أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ [البقرة: ١٧٠] أي فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾.

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجههلله أي أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه، ولهذا قال: ﴿وهو محسن﴾ أي في عمله باتباع ما به أمر، وترك ما عنه زجر ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي فقد أخذ موثقاً من الله متيناً لا يعذبه ﴿وإلى الله عاقبة الأمور ومن كفر فلا يحزنك كفره﴾ أي لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم بالله وبما جئت به، فإن قدر الله نافذ فيهم، وإلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا، أي فيجزيهم عليه ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ فلا تخفى عليه خافية. ثم قال تعالى: ﴿نمتعهم قليلاً﴾ أي في الدنيا ﴿ثم نضطرهم﴾ أي نلجئهم ﴿إلى عذاب غليظ﴾ أي فظيع، كما قال تعالى: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ [يونس: ٦٩-٧٠].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به أنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خَلْقٌ له وملك له، ولهذا قال: ﴿ولئن سألتم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله﴾ أي إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾. ثم قال: ﴿لله ما في السموات والأرض﴾ أي هو خلقه وملكه ﴿إن الله هوالغني الحميد﴾ أي الغني عما سواه. وكل شيء فقير إليه، الحميد في جميع ما خلق، له الحمد في السموات والأرض على ما خلق وشرع، وهو المحمود في الأمور كلها.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر

على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» [رواه مسلم]، فقال تعالى: **﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾** أي ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً وجعل البحر مداداً ومده سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ونفد ماء البحر، ولو جاء أمثالها مَدَداً، وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى: **﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾** [الكهف: ١٠٩]، فليس المراد بقوله: **﴿بمثله﴾** آخر فقط بل بمثله ثم بمثله، ثم بمثله ثم هلم جرا، لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته.

قال الحسن البصري: لو جعل شجر الأرض أقلاماً، وجعل البحر مداداً، وقال الله إن من أمري كذا ومن أمري كذا، لنفد ماء البحر وتكسرت الأقلام. وقال قتادة: قال المشركون: إنما هذا كلام يوشك أن ينفد، فقال الله تعالى: **﴿ولو أنّما في الأرض شجرة أقلام﴾** أي لو كان شجر الأرض أقلاماً ومع البحر سبعة أبحر ما كان لتنفد عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه. وقوله: **﴿إن الله عزيز حكيم﴾** أي عزيز قد عز كلَّ شيء وقهره وغلبه، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه، حكيم في خلقه وأمره وأقواله وأفعاله وشرعه وجميع شؤونه. وقوله: **﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾** أي ما خَلْقُ جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة، الجميع هين عليه، **﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾** [يس: ٨٢]. وقوله: **﴿إن الله سميع بصير﴾** أي كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة، ولهذا قال: **﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير﴾**.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾.

يخبر تعالى أنه **﴿يولج الليل في النهار﴾** يعني يأخذ منه في النهار، فيطولُ ذلك ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف، يطول النهار إلى الغاية، ثم يشرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا يكون في الشتاء **﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى﴾** قيل إلى غاية محدودة، وقيل إلى يوم القيامة، وكلا المعنيين صحيح، ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر رضي الله عنه الذي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأذن ربها فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت».

وقوله: ﴿وأن الله بما تعلمون خبير﴾، كقوله: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض﴾ [الحج: ٧٠] ومعنى هذا أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء. وقوله: ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾ أي إنما يظهر لكم آياته لتستدلوابها على أنه الحق، أي الموجود الحق الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل، فإنه الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه، لأن كل ما في السموات والأرض الجميع خلقه وعبيده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك ، ولهذا قال: ﴿وأن الله هو العلي الكبير﴾ أي العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء، فكلٌ خاضع حقير بالنسبة إليه.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره، أي بلطفه وتسخيره، فإنه لو لا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت، ولهذا قال: ﴿ليريكم من آياته﴾ أي من قدرته، ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي صبار في الضراء شكور في الرخاء. ثم قال: ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل﴾ أي كالجبال والغمام، ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ كما قال تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾ [الإسراء: ٦٧]. ثم قال: ﴿فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد﴾ قال مجاهد: أي كافر كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد، كما قال تعالى: ﴿فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ [العنكبوت: ٦٥]. وقال ابن زيد: هو المتوسط في العمل، وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله تعالى: ﴿فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات﴾ [فاطر: ٣٢]، فالمقتصد ههنا هو: المتوسط في العمل، ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضاً، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العظام والآيات الباهرات في البحر، ثم بعد ما أنعم الله عليه بالخلاص كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام، والدؤوب في العبادة، والمبادرة إلى الخيرات، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه والله أعلم. وقوله: ﴿وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور﴾ فالختَّار هو الغدَّار، قاله مجاهد والحسن وقتادة وزيد بن أسلم: وهو الذي كلما عاهد نقض عهده، والختر: أتم الغدر وأبلغه.

وقوله: ﴿كفور﴾ أي جحود للنعم لا يشكرها بل يتناساها ولا يذكرها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾.

يقول تعالى منذراً للناس يوم المعاد، وآمراً لهم بتقواه والخوف منه والخشية من يوم القيامة

حيث ﴿**لا يجزي والد عن ولده**﴾ أي لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه. وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه. لم يُقبل منه، ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله: ﴿**فلا تغرنكم الحياة الدنيا**﴾ أي لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة، ﴿**ولا يغرنكم بالله الغرور**﴾ يعني الشيطان. قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة، فإنه يغر ابن آدم ويعده ويمنيه، وليس من ذلك شيء بل كما قال تعالى: ﴿**يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً**﴾ [النساء: ١٢٠].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾.

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب، ﴿**لا يجليها لوقتها إلا هو**﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك، ومن يشاء الله من خلقه، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى أو شقياً أو سعيداً، علم الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه، وكذا لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخراها ﴿**وما تدري نفس بأي أرض تموت**﴾ في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك، وهذه شبيهة بقوله تعالى: ﴿**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو**﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب.

روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿**إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير**﴾» انفرد بإخراجه البخاري.

وعن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: من حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت ﴿**وما تدري نفس ماذا تكسب غداً**﴾ [متفق عليه].

وقوله: ﴿**وما تدري نفس بأي أرض تموت**﴾ قال قتادة: أشياء استأثر الله بهن، فلم يطلع عليهنّ ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً ﴿**إن الله عنده علم الساعة**﴾ فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة في أي سنة، أو في أي شهر، أو ليل أو نهار ﴿**وينزل الغيث**﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلاً أو نهاراً ﴿**ويعلم ما في الأرحام**﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود، وما هو ﴿**وما تدري نفس ماذا تكسب غداً**﴾ أخير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت لعلك الميت غداً، لعلك المصاب غداً ﴿**وما تدري نفس بأي أرض تموت**﴾ أي ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض، أفي بحر أم بر أو سهل أو جبل.

وروى عبد الله بن الإمام أحمد عن مطر بن عُكَامِس قال: قال رسول الله ﷺ «إذا قضى الله ميتة عبد بأرض جعل له إليها حاجة» ورواه الترمذي، وقال: حسن غريب.

تفسير سورة السجدة وهي مكية

روى البخاري عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿**آلم تنزيل**﴾ السجدة و﴿**هل أتى على الإنسان**﴾.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا. وقوله: ﴿**تنزيل الكتاب لا ريب فيه**﴾ أي لا شك فيه ولا مرية أنه نزل ﴿**من رب العالمين**﴾. ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿**أم يقولون**﴾ بل يقولون: ﴿**افتراه**﴾ أي اختلقه من تلقاء نفسه ﴿**بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون**﴾ أي يتبعون الحق.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ﴾.

يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء، فخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش. وقد تقدم الكلام على ذلك. ﴿**ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع**﴾ أي بل هو المالك لأزمة الأمور، الخالق لكل شيء، المدبر لكل شيء، القادر على كل شيء، فلا ولي لخلقه سواه، ولا شفيع إلا من بعد إذنه. ﴿**أفلا تتذكرون**﴾ يعني أيها العابدون غيره المتوكلون على من عداه، تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو وزير، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقوله: ﴿**يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه**﴾ أي يتنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة، كما قال تعالى: ﴿ **الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن**﴾ الآية [الطلاق:١٢]. وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا. قال مجاهد وقتادة والضحاك: النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام وصعوده في مسيرة خمسمائة عام، ولكنه يقطعها في طرفة عين، ولهذا قال تعالى: ﴿**في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون. ذلك عالم الغيب والشهادة**﴾ أي المدبر لهذه الأمور، الذي هو شهيد على أعمال عباده، يرفع إليه جليلها وحقيرها، هو العزيز الذي قد عز كل شيء فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، الرحيم بعباده المؤمنين، فهو عزيز في رحمته رحيم في عزته.

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ ﴾.

يقول تعالى مخبراً أنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها. وقال زيد بن أسلم ﴿**الذي أحسن كل شيء خلقه**﴾ قال: أحسن خلق كل شيء كأنه جعله من المقدم والمؤخر. ثم لما ذكر تعالى خلق السموات والأرض، شرع في ذكر خلق الإنسان، فقال: ﴿**وبدأ خلق الإنسان من طين**﴾ يعني خلق أبا البشر آدم من طين، ﴿**ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين**﴾ أي يتناسلون كذلك من نطفة من بين صلب الرجل وترائب المرأة ﴿**ثم سواه**﴾ يعني آدم لما خلقه من تراب، خلقاً سوياً مستقيماً ﴿**ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة**﴾ يعني العقول ﴿**قليلاً ما تشكرون**﴾ أي بهذه القوى التي رزقكموها الله عز وجل، فالسعيد من استعملها في طاعة ربه عز وجل.

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِى ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٍ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا: ﴿**أئذا ضللنا في الأرض**﴾ أي تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت ﴿**أئنا لفي خلق جديد**﴾ أي أئنا لنعود بعد تلك الحال؟ يستبعدون ذلك، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة، لا بالنسبة إلى قدرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، ولهذا قال: ﴿**بل هم بلقاء ربهم كافرون**﴾. ثم قال: ﴿**قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم**﴾ الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة، كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره في سورة إبراهيم [آية:٢٧]، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور، قاله قتادة وغير واحد وله أعوان، وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت، قال مجاهد: حُويت له الأرض فجعلت له مثل الطست يتناول منها حيث يشاء، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله: ﴿**ثم إلى ربكم ترجعون**﴾ أي يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم.

﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّى لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة، وحالهم حين عاينوا البعث، وقاموا بين يدي الله عز وجل، حقيرين ذليلين ناكسي رؤوسهم، أي من الخجل، يقولون: ﴿**ربنا أبصرنا وسمعنا**﴾ أي نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، كما قال تعالى: ﴿**أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا**﴾ [مريم:٣٨]، وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم: ﴿**لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير**﴾ [الملك:١٠]. وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿**ربنا أبصرنا وسمعنا**

فارجعنا﴾ أي إلى الدار الدنيا ﴿نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ أي قد أيقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون بآيات الله ويخالفون رسله، كما قال: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ [الأنعام:٢٧-٢٨]. وقال ههنا: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ كما قال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾ [يونس:٩٩]. ﴿ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ أي من الصنفين فدارهم النار لامحيد لهم عنها ولا محيص لهم منها، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك، ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أي يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ: ذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ﴿إنا نسيناكم﴾ أي سنعاملكم معاملة الناسي، لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة كما قال تعالى: ﴿فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ [الجاثية:٣٤]. وقوله: ﴿وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون﴾ أي بسبب كفركم وتكذيبكم.

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾.

يقول تعالى: ﴿إنما يؤمن بآياتنا﴾ أي إنما يصدق بها ﴿الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً﴾ أي استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً ﴿وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ أي عن اتباعها والانقياد لها، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة، قال الله تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ [غافر:٦٠]. ثم قال: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ يعني بذلك قيام الليل، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة، قال مجاهد والحسن: يعني بذلك قيام الليل. وعن أنس وعكرمة وقتادة [وغيرهم]: هو الصلاة بين العشاءين، وعن أنس أيضاً: هو انتظار صلاة العتمة. وقال الضحاك: هو صلاة العشاء في جماعة وصلاة الغداة في جماعة. ﴿يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾ أي خوفاً من وبال عقابه، وطمعاً في جزيل ثوابه ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ، كما قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

وفينا رسول الله يتـلو كتـــابه ... إذا انشق معروف من الصبح ساطع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركـين المضاجع

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «عجب ربنا من رجلين: رجل ثار من وطائه ولحافه من بين أهله وحيه إلى صلاته فيقول ربنا: أيا ملائكتي انظروا إلى عبدي، ثار

من فراشه ووطائه ومن بين حيه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي، ورجل غزا في سبيل الله تعالى فانهزموا، فعلم ما عليه من الفرار وما له في الرجوع، فرجع حتى أهريق دمه رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي، فيقول الله عز وجل للملائكة: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي ورهبة مما عندي حتى أهريق دمه». وهكذا رواه أبو داود [وسنده جيد].

وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال [له]: «ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة، والصدقة تطفيء الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ: ﴿**تتجافى جنوبهم عن المضاجع**﴾ حتى بلغ ﴿**جزاء بما كانوا يعلمون**﴾». رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

وقوله: ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون**﴾ أي فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد، لمّا أخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثواب، جزاء وفاقاً، فإن الجزاء من جنس العمل. قال الحسن: أخفى قوم عملهم، فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر.

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذُخْراً من بَله ما اطلعتم عليه»، ثم قرأ: ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون**﴾.

وروى مسلم في صحيحه عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى النبي ﷺ قال: سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل: ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك مَلِكٍ من ملوك الدنيا ؟ فيقول: رضيت رب، فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله، ومثله فقال في الخامسة، رضيت ربي، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك، فيقول: رضيت رب. قال: رب فأعلاهم منزلة ؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، قال: ومصداقه من كتاب الله عز وجل ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون**﴾.

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن عدله وكرمه أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبعاً

لرسله، بمن كان فاسقاً أي خارجاً عن طاعة ربه، مكذباً لرُسُله إليه، كما قال تعالى: ﴿**أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون**﴾ [الجاثية: ٢١]، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿**أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون**﴾ أي عند الله يوم القيامة، ولهذا فصَّل حكمهم فقال: ﴿**أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي صدّقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها وهي الصالحات ﴿**فلهم جنات المأوى**﴾ أي التي فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿**نزلا**﴾ أي ضيافة وكرامة ﴿**بما كانوا يعملون وأما الذين فسقوا**﴾ أي خرجوا عن الطاعة فمأواهم النار، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، كقوله: ﴿**كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها**﴾ الآية [الحج: ٢٢]. قال الفُضيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم، والملائكة تقمعهم. ﴿**وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون**﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً.

وقوله: ﴿**ولنذيقهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون**﴾ قال ابن عباس: يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها، وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه. وروي مثله عن أبي بن كعب والحسن والضحاك وعلقمة [وغيرهم]. وقال البراء بن عازب ومجاهد وأبو عبيدة: يعني به عذاب القبر. وروى النسائي عن عبد الله [بن مسعود]: ﴿**ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر**﴾ قال: سنون أصابتهم.

وروى عبد الله بن الإمام أحمد عن أبي بن كعب في هذه الآية قال: المصيبات والدخان قد مضيا والبطشة واللزام، ورواه مسلم موقوفاً نحوه، وعند البخاري عن ابن مسعود نحوه. وقال عبد الله بن مسعود أيضاً في رواية عنه: العذاب الأدنى ما أصابهم من القتل والسبي يوم بدر، وكذا قال زيد بن أسلم. قال السُّدِّي وغيره: لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير، فأصيبوا أو غرموا، ومنهم من جمع له الأمران.

وقوله: ﴿**ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها**﴾ أي لا أظلم ممن ذَكَّره الله بآياته وبيّنها له ووضحها، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها. قال قتادة رحمه الله: إياكم والإعراض عن ذكر الله، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرّة، وأعوز أشد العَوَز، ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك: ﴿**إنا من المجرمين منتقمون**﴾ أي سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه آتاه الكتاب، وهو التوراة،

وقوله: ﴿**فلا تكن في مرية من لقائه**﴾ قال قتادة: يعني به ليلة الإسراء. وعن ابن عباس قال: قد رأى موسى ولقي موسى ليلة أسري به.

وروى الطبراني عن ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله: ﴿**وجعلناه هدى لبني إسرائيل**﴾ قال: جُعل موسى هُدى لبني إسرائيل، وفي قوله: ﴿**فلا تكن في مرية من لقائه**﴾ قال: من لقاء موسى ربه عز وجل. [وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح]. وقوله: ﴿**وجعلناه**﴾ أي الكتاب الذي آتيناه موسى ﴿**هدى لبني إسرائيل**﴾ كما قال تعالى: ﴿**وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل**﴾ [الإسراء: ٢].

وقوله: ﴿**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾ أي لما كانوا صابرين على أوامر الله، وترك نواهيه وزواجره، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. ثم لما بدلوا وحَرّفوا، سلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عمل صالحاً ولا اعتقاد صحيحاً، ولهذا قال: ﴿**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا**﴾ قال قتادة: لما صبروا عن الدنيا. وكذلك قال سفيان: هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا. قال وكيع: قال سفيان: لا بد للدين من العلم، كما لا بد للجسد من الخبز. وسئل سفيان عن قول علي رضي الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ألم تسمع قوله: ﴿**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا**﴾، قال: لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوسا. قال بعض العلماء: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ولهذا قال تعالى: ﴿**ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة**﴾ [الجاثية: ١٦]، كما قال هنا: ﴿**إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**﴾ أي من الاعتقادات والأعمال.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

يقول تعالى: أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ﴿**هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً**﴾ [مريم: ٩٨]، ولهذا قال: ﴿**يمشون في مساكنهم**﴾ أي هؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها ﴿**كأن لم يغنوا فيها**﴾ [الأعراف: ٩٢]، كما قال: ﴿**فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا**﴾ [النمل: ٥٢]، ولهذا قال ههنا: ﴿**إن في ذلك لآيات**﴾ أي إن في ذهاب أولئك القوم ودَمَارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم،

لآيات وعبراً ودلائل متظاهرة. ﴿أفلا يسمعون﴾ أي أخبار من تقدم كيف كان أمرهم.

وقوله تعالى: ﴿أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز﴾ يبين تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته، ولهذا قال: ﴿إلى الأرض الجرز﴾ وهي التي لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾ [الكهف:٨]، أي يبساً لا تنبت شيئاً، وليس المراد من قوله ﴿إلى الأرض الجرز﴾ أرض مصر فقط، بل هي بعض المقصود وإن مثل بها كثير من المفسرين فليست هي المقصودة وحدها.

قال تعالى: ﴿أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾ كما قال تعالى: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً﴾ [عبس:٢٤-٢٥]، ولهذا قال ههنا: ﴿أفلا يبصرون﴾.

وقال عكرمة والضحاك وقتادة والسدي وابن زيد: الأرض الجرز التي لا نبات فيها، وهي مغبرة. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها﴾ الآيات [يس:٣٣-٣٥].

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوعَ بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعاداً وتكذيباً وعناداً ﴿ويقولون متى هذا الفتح﴾ أي متى تنصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أن لك وقتاً تُدال علينا ويُنتَقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين، قال الله تعالى: ﴿قل يوم الفتح﴾ أي إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الأخرى ﴿لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون﴾، ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النُّجْعة، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريباً من ألفين، ولوكان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم لقوله تعالى: ﴿قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون﴾ وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل كقوله: ﴿فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾ [الشعراء:١١٨].

ثم قال تعالى: ﴿فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون﴾ أي أعرض عن هؤلاء المشركين، وبلغ ما أنزل إليك من ربك، كقوله: ﴿اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين﴾ الأنعام:١٠٦]، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد. وقوله: ﴿إنهم منتظرون﴾ أي أنت منتظر وهم منتظرون، ويتربصون بكم الدوائر، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله، في نصرتك وتأييدك، وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك من وبيل عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تفسير سورة الأحزاب وهي مدنية

روى عبد الله بن الإمام أحمد عن زرٍّ قال: قال لي أبي بن كعب: كأين تقرأ سورة الأحزاب أو كأين تعدها؟ قال: قلت ثلاثاً وسبعين آية، فقال: قط لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، نكالاً من الله، والله عليم حكيم، ورواه النسائي، وإسناده حسن، وهو يقتضي أنه قد كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾.

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فَلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى. وقد قال طَلْق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، مخافة عذاب الله. وقوله: ﴿**ولا تطع الكافرين والمنافقين**﴾ أي لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿**إن الله كان عليماً حكيماً**﴾ أي فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإنه عليم بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله، ولهذا قال: ﴿**واتبع ما يوحى إليك من ربك**﴾ أي من قرآن وسنة ﴿**إن الله كان بما تعملون خبيراً**﴾ أي فلا تخفى عليه خافية، ﴿**وتوكل على الله**﴾ أي في جميع أمورك وأحوالك ﴿**وكفى بالله وكيلا**﴾ أي وكفى به وكيلا لمن توكل عليه وأناب إليه.

﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾.

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوي أمراً حسياً معروفاً، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ولاتصير زوجته التي يظاهر منها بقوله أنت علي كظهر أمي أماً له، كذلك لا يصير الدَّعيّ ولداً للرجل إذا تبناه فدعاه ابناً له، فقال: ﴿**ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم**﴾ كقوله: ﴿**ماهن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم**﴾ [المجادلة:٢]. وقوله: ﴿**وما جعل أدعيائكم أبنائكم**﴾ هذا هو المقصود بالنفي، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى النبي ﷺ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة، فكان يقال له زيد بن محمد، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله: ﴿**وماجعل أدعياءكم أبناءكم**﴾ كما قال في أثناء السورة: ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً**﴾ [الأحزاب:٤٠]،

وقال ههنا: ﴿**ذلكم قولكم بأفواهكم**﴾ يعني تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان. ﴿**والله يقول الحق وهو يهدي السبيل**﴾ قال سعيد بن جبير ﴿**يقول الحق**﴾ أي العدل، وقال قتادة: ﴿**وهو يهدي السبيل**﴾ أي الصراط المستقيم.

وقد ذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش، كان يقال له ذو القلبين، وأنه كان يزعم أن له قلبين كل منهما بعقل وافر، فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليه. هكذا روي عن ابن عباس، وقاله مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة واختاره ابن جرير.

وروى عبد الرزاق عن الزهري في قوله: ﴿**ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه**﴾ قال بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة ضُرب له مثل: يقول ليس ابن رجل آخر ابنك، وكذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد أنها نزلت في زيد بن حارثة رضي الله عنه، وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير والله سبحانه وتعالى أعلم. وقوله: ﴿**ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله**﴾ هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب وهم الأدعياء، فأمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، وأن هذا هو العدل والقسط. روى البخاري عن عبد الله بن عمر قال: إن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، ما كُنَّا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن ﴿**ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله**﴾. وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه في الخلوة بالمحارم وغير ذلك، ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة: يارسول الله إنا كنا ندعو سالماً ابناً، وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه كان يدخل علي وإني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً، فقال ﷺ: «أرضعيه تحرمي عليه» الحديث [رواه مسلم]، ولهذا لما نسخ هذا الحكم أباح تبارك وتعالى زوجة الدعي، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة، وقال: ﴿**لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً**﴾ [الأحزاب:٣٧]، وقال في آية التحريم: ﴿**وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم**﴾ [النساء:٢٣]، احترازاً عن زوجة الدعي فإنه ليس من الصلب، فأما الابن من الرضاعة فمنزل منزلة ابن الصلب شرعاً، بقوله ﷺ في الصحيحين: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب». فأما دعوة الغير ابناً على سبيل التكريم والتحبيب، فليس مما نهى عنه في هذه الآية بدليل مارواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يابُني». وقوله: ﴿**فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم**﴾ أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عرفوا، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم، أي عوضاً عما فاتهم من النسب، ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء لزيد: «أنت أخونا ومولانا» [رواه البخاري]. وقد جاء في الحديث: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه كفر» [رواه البخاري]. وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد في التبري من النسب المعلوم، ولهذا قال: ﴿**ادعوهم لآبائهم هو**

أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾.

ثم قال: ﴿**وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به**﴾ أي إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع، فإن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه، كما أرشد إليه في قوله تبارك وتعالى آمراً عباده أن يقولوا: ﴿**ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا**﴾ [البقرة:٢٨٦]. وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: قد فعلت».

وقال هاهنا: ﴿**وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً**﴾ أي وإنما الإثم على من تعمد الباطل، وفي القرآن المنسوخ: «فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم» [رواه الشيخان].

وفي الحديث الآخر: «ثلاث في الناس كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم» [رواه مسلم].

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾.

قد علم الله تعالى شفقة رسوله على أمته ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم مقدماً على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً**﴾ [النساء:٦٥]. وفي الصحيح أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال ﷺ «لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي، فقال ﷺ «الآن ياعمر». ولهذا قال تعالى في هذه الآية ﴿**النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم**﴾.

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿**النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم**﴾ فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه».

وقوله: ﴿**وأزواجه أمهاتهم**﴾ أي في الحرمة والاحترام، والتوقير والإكرام والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع.

وقوله: ﴿**وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله**﴾ أي في حكم الله ﴿**من المؤمنين والمهاجرين**﴾ أي القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ، وكذا قال سعيد بن جبير وغيره من السلف والخلف.

وقوله: ﴿**إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً**﴾ أي ذهب الميراث وبقي النصر والبر والصلة

والإحسان والوصية. وقوله: ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ أي هذا الحكم، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدل ولا يغير، قاله مجاهد وغير واحد، وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة وهو يعلم أنه سينسخه إلى ماهو جار في قدره الأزلي وقضائه القدري الشرعي.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾.

يقول الله تعالى مخبراً عن أولي العزم الخمسة وبقية الأنبياء أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله تعالى، وإبلاغ رسالته والتعاون والتناصر والاتفاق، كما قال تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتومنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري؟ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ [آل عمران: ٨١]. فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم، وكذلك هذا، ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة وهم أولو العزم، وهو من باب عطف الخاص على العام، وقد صرح بذكرهم أيضاً في قوله: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ [الشورى: ١٣]، فذكر الفاتح، والخاتم، ومن بينهما على الترتيب، فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها، كما قال: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم﴾ فبدأ في هذه الآية بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه، ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم.

وقد قيل إن المراد بهذا الميثاق الذي أخذ منهم حين أخرجوا في صورة الذر من صلب آدم عليه الصلاة والسلام، كما [روي] عن أبي بن كعب قال: ورفع أباهم آدم، فنظر إليهم يعني ذريته، وأن فيهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك، فقال: رب لو سويت بين عبادك، فقال: إني أحببت أن أشكر، ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذي يقول الله تعالى: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم﴾ وهذا قول مجاهد أيضاً، وقال ابن عباس: الميثاق الغليظ العهد.

وقوله: ﴿ليسأل الصادقين عن صدقهم﴾ قال مجاهد: المبلغين المؤدين عن الرسل. وقوله تعالى: ﴿وأعد للكافرين﴾ أي من أممهم ﴿عذاباً أليماً﴾ أي موجعاً.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم وهزمه

إياهم عام الخندق، في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور. وقال موسى بن عقبة وغيره: كانت في سنة أربع، وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفراً من أشراف يهود بني النضير الذين أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، خرجوا إلى مكة فاجتمعوا بأشراف قريش وألبوهم على حرب النبي ﷺ، ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة، فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضاً، وخرجت قريش ومن تابعها، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب، والجميع قريب من عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم، أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة، وذلك بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا، ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات. وجاء المشركون فنزلوا قريباً من أحد، ونزلت طائفة منهم أعالي أرض المدينة، كما قال الله تعالى: ﴿**إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم**﴾ وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين وهم نحو سبعمائة، فأسندوا ظهورهم إلى سَلْع ووجوههم إلى نحو العدو، والخندق حفير يحجب الخيالة والرجال أن تصل إليهم، وجعل النساء والذراري في آطام المدينة، وكانت بنو قريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقي المدينة، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة وهم قريب من ثمانمائة مقاتل، فذهب إليهم حيي بن أخطب النضري اليهودي، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ومالؤوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فعظم الخطب واشتد الأمر، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿**هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً**﴾. ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريباً من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ودّ العامري وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية، ركب ومعه فوارس، فاقتحموا الخندق وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه، فلم يبرز إليه أحد، فأمر علياً رضي الله عنه فخرج إليه فتجاولا ساعة ثم قتله علي رضي الله عنه، فكان علامة على النصر.

ثم أرسل الله عز وجل على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء، ولا تُوقَد لهم نار ولا يقر لهم قرار، حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال الله عز وجل: ﴿**ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً**﴾ قال مجاهد: وهي الصبا، ويؤيده الحديث الآخر: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور» [متفق عليه].

وروى ابن جرير عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أرسلني خالي ابن مظعون رضي الله عنه ليلة الخندق في برد شديد وريح إلى المدينة، فقال: ائتنا بطعام ولحاف، قال: فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي وقال «من أتيت من أصحابي فمرهم يرجعوا» قال: فذهبت والريح تسفي كل شيء، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ قال: فما يلوي

أحد منهم عنقه، قال: وكان معي ترس لي، فكانت الريح تضربه علي، وكان فيه حديد، قال: فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي فأبعدها إلى الأرض.

وقوله ﴿**وجنوداً لم تروها**﴾ وهم الملائكة زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف، فكان رئيس كل قبيلة يقول: يا بني فلان إلي، فيجتمعون إليه، فيقول: النجاء، النجاء لما ألقى الله عز وجل في قلوبهم من الرعب.

وقد روى مسلم عن حذيفة بن اليمان قال: لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقر، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتي بخبر القوم يكون معي يوم القيامة». فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية ثم الثالثة مثله، ثم قال ﷺ: «ياحذيفة قم فأتنا بخبر القوم». فلم أجد بدّاً إذ دعاني باسمي أن أقوم فقال: «ائتني بخبر القوم ولاتذعرهم علي» قال: فمضيت كأنما أمشي في حَمام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يَصْلي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد قوسي وأردت أن أرميَه، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تذعرهم علي»، ولو رميته لأصبته، قال: فرجعت كأنما أمشي في حمام، فأتيت رسول الله ﷺ، ثم أصابني البرد حين فَرَغت وقُررْتُ، فأخبرت رسول الله ﷺ وألبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائماً حتى الصبح، فلما أصبحت قال رسول الله ﷺ: «قم يا نومان».

وقوله: ﴿**إذ جاؤوكم من فوقكم**﴾ أي الأحزاب ﴿**ومن أسفل منكم**﴾ هم بنو قريظة ﴿**وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر**﴾ أي شدة الخوف والفزع ﴿**وتظنون بالله الظنونا**﴾ قال ابن جرير: ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين، وأن الله سيفعل ذلك. وقال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿**وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا**﴾ ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق، حتى قال مُعتّب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يَعِدُنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط.

وقال الحسن في قوله عز وجل ﴿**وتظنون بالله الظنونا**﴾ ظنون مختلفة، ظن المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه سيستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾.

يقول الله تعالى مخبراً عن ذلك الحال، حين نزلت الأحزاب حول المدينة، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، أنهم ابتُلوا واختُبروا وزلزلوا زلزالاً شديداً، فحينئذ ظهر النفاق، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في نفوسهم: ﴿**وإذ يقول**

المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ أما المنافق فنجم نفاقه، والذي في قلبه شبهة تنفس بما يجده من الوسواس في نفسه، لضعف إيمانه وشدة ماهو فيه من ضيق الحال. وقوم آخرون قالوا كما قال الله: ﴿وإذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب﴾ يعني المدينة.

وقوله: ﴿لا مقام لكم﴾ أي ههنا يعنون عند النبي ﷺ في مقام المرابطة، ﴿فارجعوا﴾ أي إلى بيوتكم ومنازلكم ﴿ويستأذن فريق منهم النبي﴾ عن ابن عباس: قالوا: بيوتنا نخاف عليها السَّرَق، وكذا قال غير واحد. يعني اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عَورة أي ليس دونها ما يحجبها من العدو، فهم يخشون عليها منهم، قال الله تعالى: ﴿وما هي بعورة﴾ أي ليست كما يزعمون ﴿إن يريدون إلا فراراً﴾ أي هرباً من الزحف.

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً﴾ أنهم لو دَخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة، ثم سئلوا الفتنة وهي الدخول في الكفر لكفروا سريعاً، وهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع. هكذا فسرها قتادة وعبد الرحمن بن زيد وابن جرير، وهذا ذم لهم غاية الذم. ثم قال تعالى يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف أن لا يولوا الأدبار ولا يفروا من الزحف، ﴿وكان عهد الله مسئولاً﴾ أي وإن الله تعالى سيسألهم عن ذلك العهد لا بد من ذلك، ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ولا يطول أعمارهم، بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرّة، ولهذا قال: ﴿وإذاً لا تمتعون إلا قليلاً﴾ أي بعد هَرَبكم وفراركم ﴿قل متاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى﴾ [النساء:٧٧]. ثم قال: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله﴾ أي يمنعكم ﴿إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ أي ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث.

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب، والقائلين لإخوانهم أي أصحابهم وعُشَرائهم ﴿هلم إلينا﴾ إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار، وهم مع ذلك ﴿لا يأتون البأس إلا قليلاً۞ أشحة عليكم﴾ أي بخلاء بالمودة والشفقة عليكم.

وقال السدي ﴿أشحة عليكم﴾ أي في الغنائم، ﴿فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت﴾ أي من شدة خوفه وجزعه، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال ﴿فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد﴾ أي فإذا كان الأمن تكلموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون في ذلك. وقال ابن عباس: ﴿سلقوكم﴾ أي استقبلوكم. وقال قتادة: أما عند الغنيمة فأشح قوم، وأسوأه مقاسمة: أعطونا أعطونا، قد شهدنا معكم. وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق. وهم مع ذلك أشحة على الخير، أي ليس فيهم خير قد جَمَعُوا الجبن والكذب وقلة الخير، ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي سهلاً هيناً عنده.

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور، ﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا﴾، بل هم قريب منهم وإن لهم عودة إليهم ﴿وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم﴾ أي ويودون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة، بل في البادية يسألون عن أخباركم وما كان من أمركم مع عدوكم، ﴿ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً﴾ أي ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلاً لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ولهذا قال تعالى للذين تزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ أي هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ، ولهذا قال: ﴿لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾.

ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم، وجَعْله العاقبةَ حاصلةً لهم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله﴾. قال ابن عباس وقتادة: يعنون قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب﴾ [البقرة: ٢١٤]. أي هذا

ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب، ولهذا قال تعالى: ﴿**وصدق الله ورسوله**﴾. وقوله: ﴿**وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً**﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم، كما قال جمهور الأئمة: إنه يزيد وينقص. ومعنى قوله: ﴿**وما زادهم**﴾ أي ذلك الحال والضيق والشدة ﴿**إلا إيماناً**﴾ بالله ﴿**وتسليماً**﴾ أي انقياداً لأوامره وطاعة لرسوله ﷺ.

﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

لما ذكر عز وجل عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و﴿**صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه**﴾ قال بعضهم: أجله. وقال البخاري: عهده وهو يرجع إلى الأول. ﴿**ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا**﴾ أي وما غيروا عهد الله ولا نقضوه ولا بدلوه. روى البخاري عن زيد بن ثابت قال: لما نسخنا المصحف فَقَدْتُ آيةً من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها لم أجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾. روى الإمام أحمد عن ثابت قال: قال أنس: عمي أنس بن النضر رضي الله عنه سميت به لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليه، وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيِّبت عنه، لئن أراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ لَيَرَيَن الله عز وجل ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد فاستقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقال له أنس رضي الله عنه: يا أبا عمرو أين ؟ واهاً لريح الجنة إني أجده دون أحد، قال: فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه، قال: فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته عمتي الربيع ابنة النضر فما عرفت أخي إلا ببنانه، قال: فنزلت هذه الآية ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا**﴾ قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه، وفي أصحابه رضي الله عنهم. ورواه مسلم.

قال مجاهد في قوله: ﴿**فمنهم من قضى نحبه**﴾ قال: عهده، ﴿**ومنهم من ينتظر**﴾ قال يوماً فيه قتال فيصدق في اللقاء. وقال الحسن: ﴿**فمنهم من قضى نحبه**﴾ يعني موته على الصدق والوفاء، ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك، ومنهم من لم يبدل تبديلاً، وكذا قال قتادة وابن زيد. وقال بعضهم، نحبه نذره.

وقوله: ﴿**وما بدلوا تبديلاً**﴾ أي وما غيروا عهدهم، وبدلوا الوفاء بالغدر، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه، وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا: ﴿**إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً**﴾ ﴿**ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار**﴾. وقوله: ﴿**ليجزي الله**

الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم﴾ أي إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب، فيظهر أمر هذا بالفعل، وأمر هذا بالفعل، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعملوا بما يعلمه فيهم، كما قال تعالى: **﴿ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾** [محمد: ٣١]، فهذا علم بالشيء بعد كونه، وإن كان العلم السابق حاصلاً به قبل وجوده، ولهذا قال ههنا: **﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم﴾** أي بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه وقيامهم به ومحافظتهم عليه **﴿ويعذب المنافقين﴾** وهم الناقضون لعهد الله المخالفون لأوامره فاستحقوا بذلك عقابه، وعذابه، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا، إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان، ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى بخلقه هي الغالبة لغضبه قال: **﴿إن الله كان غفوراً رحيما﴾**.

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية، فسلط عليهم هواء فرق شملهم كما كان سبب اجتماعهم من الهَوَى، وهم أخلاط من قبائل شتى أحزاب وآراء، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعاتهم، وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحنَقهم، لم ينالوا خيراً لا في الدنيا مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول ﷺ بالعدواة وهمهم بقتله واستئصال جيشه، ومن هَمَّ بشيء وصدق همه بفعله، فهو في الحقيقة كفاعله.

وقوله: **﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾** أي لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم، بل كفى الله وحده، ونصر عبده، وأعز جنده، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده» أخرجاه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. [مع اختلاف في اللفظ]. وفي الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوْفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم». وفي قوله: **﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾** إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقع بعدها، لم يغزهم المشركون بل غزاهم المسلمون في بلادهم. كما روى الإمام أحمد عن سليمان بن صرد قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزونا». وهكذا رواه البخاري في صحيحه. وقوله تعالى: **﴿وكان الله قوياً عزيزاً﴾** أي بحوله وقوته ردهم خائبين لم ينالوا خيراً، وأعز الله الإسلام وأهله، وصدق وعده ونصر رسوله وعبده، فله الحمد والمنة.

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ

﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ۝٢٧﴾.

قد تقدم أن بني قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ونزلوا على المدينة، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد، وكان ذلك بسفارة حيي بن أخطب النضري لعنه الله، دخل حصنهم ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد، وقال له فيما قال: ويحك قد جئتك بعز الدهر، أتيتك بقريش وأحابيشها، وغطفان وأتباعها، ولا يزالون ههنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه، فقال له كعب: بل والله أتيتني بذل الدهر، ويحك ياحيي إنك مشؤوم، فدعنا منك، فلم يزل حتى أجابه، واشترط له حيي إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شيء أن يدخل معهم في الحصن، فيكون له أسوتهم، فلما نقضت قريظة، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ساءه وشق عليه وعلى المسلمين جداً، فلما أيده الله تعالى ونصره وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً، ووضع الناس السلاح، فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعثاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة رضي الله عنها، إذ تبدى له جبريل عليه الصلاة والسلام معتجرا بعمامة، فقال: أوضعت السلاح يارسول الله ؟ قال ﷺ: «نعم». قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها، وهذا الآن رجوعي من طلب القوم، ثم قال: إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة، فإن الله تعالى أمرني أن أزلزل عليهم، فنهض رسول الله ﷺ من فوره، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة، وكانت على أميال من المدينة، وذلك بعد صلاة الظهر، وقال ﷺ «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة» فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق، فصلى بعضهم في الطريق وقالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ، إلا تعجيل السير، وقال آخرون: لا نصليها إلا في بني قريظة، فلم يُعنِّف واحداً من الفريقين، وتبعهم رسول الله ﷺ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحال، نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه، لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية، واعتقدوا أنه يحسن إليهم في ذلك، كما فعل عبد الله بن أبي ابن سلول في مواليه بني قينقاع، حين استطلقهم من رسول الله ﷺ، فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبي في أولئك، ولم يعلموا أن سعداً رضي الله عنه كان قد أصابه سهم في أكحَله أيام الخندق، فكواه رسول الله ﷺ وأنزله في قبة المسجد ليعوده من قريب، وقال سعد رضي الله عنه فيما دعا به، اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فأفجرها، ولا تمتني حتى تُقرّ عيني من بني قريظة، فاستجاب الله دعاءه، وقَدّر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطؤوا له عليه، جعل الأوس يلوذون به ويقولون: ياسعد إنهم مواليك فأحسن فيهم، ويرققونه

عليهم ويعطفونه وهو ساكت لا يرد عليهم فلما أكثروا عليه قال رضي الله عنه: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم. فعرفوا أنه غير مستبقيهم، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم» فقام إليه المسلمون، فأنزلوه إعظاماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته ليكون أنفذ لحكمه فيهم. فلما جلس قال له رسول الله ﷺ: «إن هؤلاء ـ وأشار إليهم ـ قد نزلوا على حكمك، فاحكم فيهم بما شئت» فقال رضي الله عنه: وحكمي نافذ عليهم؟ قال ﷺ: «نعم». قال وعلى من في هذه الخيمة؟ قال: «نعم». قال وعلى من ههنا وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله، وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالاً وإكراماً وإعظاماً، فقال له رسول الله ﷺ: «نعم». فقال رضي الله عنه: إني أحكم أن تقتل مُقَاتلتهم، وتُسْبى ذريتهم وأموالهم. فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبع أرقعة»، ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فَخُدّت في الأرض، وجيء بهم مكتفين، فضرب أعناقهم وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة، وسبى من لم يُنبت منهم مع النساء وأموالهم، [وأصل هذه القصة في الصحيح]، وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة، الذي أفردناه موجزاً، ولله الحمد والمنة. ولهذا قال تعالى: **﴿وأنزل الذين ظاهروهم﴾** أي عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ **﴿من أهل الكتاب﴾** يعني بني قريظة من اليهود من بعض أسباط بني إسرائيل، كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديماً طمعاً في اتباع النبي الأمي الذين يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل **﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾** [البقرة:٨٩]، فعليهم لعنة الله.

وقوله: **﴿من صياصيهم﴾** يعني حصونهم، كذا قال مجاهد وقتادة والسدي وغيرهم، ومنه سمي صياصي البقر، وهي قرونها لأنها أعلى شيء فيها. **﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾** وهو الخوف، لأنهم كانوا مالؤوا المشركين على حرب النبي ﷺ، وليس من يعلم كمن لا يعلم، فأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليَعزّوا في الدنيا، فانعكس عليهم الحال، وانقلب الفال، وانشمر المشركون ففازوا بصفقة المغبون، فكما رامو العز ذلوا، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الخاسرة، ولهذا قال تعالى: **﴿فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً﴾** فالذين قتلوا هم المقاتلة والآسراء هم الأصاغر والنساء.

روى الإمام أحمد عن عطية القرظي قال: عرضت على النبي ﷺ يوم قريظة، فشكوا في، فأمر بي النبي ﷺ أن ينظروا هل أنبت بعد، فنظروا فلم يجدوني أنبت، فخلي عني وألحقني بالسبي. وكذا رواه أهل السنن كلهم، وقال الترمذي: حسن صحيح. وقوله: **﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم﴾** أي جعلها لكم **﴿وأرضاً لم تطؤوها﴾** قيل: خيبر، وقيل مكة، رواه مالك عن زيد بن أسلم وقيل فارس والروم، وقال ابن جرير يجوز أن يكون الجميع مراداً.

﴿وكان الله على كل شيء قديراً﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يَحصُل لهن عنده الحياةُ الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن ـ رضي الله عنهنّ وأرضاهن ـ: الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة. روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه، قالت: فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: «إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك»، وقد عَلِمَ أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه. قالت: ثم قال: «إن الله تعالى قال: ﴿ياأيها النبي قل لأزواجك﴾ إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة.

وروى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال: أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس، والنبي ﷺ جالس فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر رضي الله عنه، فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه، وهو ﷺ ساكت، فقال عمر رضي الله عنه: لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك، فقال عمر رضي الله عنه: يارسول الله لو رأيت ابنة زيد ـ امرأة عمر ـ سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال: «هن حولي يسألنني النفقة» فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة ليضربها، وقام عمر رضي الله عنه إلى حفصة كلاهما يقولان: تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده، فنهاهما رسول الله ﷺ، فقلن: والله لانسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده، قال: وأنزل الله عز وجل الخيار، فبدأ بعائشة رضي الله عنها فقال: «إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك» قالت: وما هو ؟ قال: فتلا عليها: ﴿ياأيها النبي قل لأزواجك﴾ الآية، قالت عائشة رضي الله عنها: أفيك أستأمر أبوي ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله، وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت، فقال ﷺ: «إن الله تعالى لم يبعثني معنفاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً، لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها» انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري. قال عكرمة: وكان تحته يومئذ تسع نسوة: خمس من قريش: عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضي الله عنهن، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حيي النَّضَرية وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، رضي الله عنهن وأرضاهن جميعاً.

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾.

يقول الله تعالى واعظاً نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهي النشوز وسوء الخلق، وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى: ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ [الزمر: ٦٥]، فلما كانت محلتهن رفيعة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع، ولهذا قال: ﴿من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين﴾. قال زيد بن أسلم: في الدنيا والآخرة، وعن مجاهد مثله. ﴿ وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي سهلاً هيناً، ثم ذكر عدله وفضله في قوله: ﴿ومن يقنت منكن لله ورسوله﴾ أي يطع الله ورسوله ويستجب ﴿نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ أي في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش.

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال تعالى مخاطباً لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن، فإنه لا يشبههن أحد من النساء ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة، ثم قال: ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ قال السدي وغيره: يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال، ولهذا قال: ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ أي دَغَل ﴿وقلن قولاً معروفاً﴾ قال ابن زيد: قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير. ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي لاتخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها.

وقوله: ﴿وقرن في بيوتكن﴾ أي الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن وهن تَفِلات»، وفي رواية «وبيوتهن خير لهن». [أخرجه الشيخان وأبوداود واللفظ له].

وروى البزار عن عبد الله [بن مسعود]، عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان وأقرب ما تكون بروحة ربها وهي في قعر بيتها». رواه الترمذي [وقال: حسن غريب]. وروى البزار وأبو داود عن النبي ﷺ قال: «صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها». وإسناده جيد.

وقوله تعالى: ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي

بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية. وقال قتادة: يقول: إذا خرجتن من بيوتكن وكانت لهن مشية وتكسر وتغنُّج فنهى الله تعالى عن ذلك. وقال مقاتل بن حيان: والتبرج أنها تلقي الخمار على رأسها، ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج.

وروى ابن جرير عن ابن عباس [أنه] تلا هذه الآية: ﴿**ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى**﴾. قال: كانت فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة، وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل، وكان رجال الجبل صِباحاً، وفي النساء دمامة. وكان نساء السهل صِباحاً وفي الرجال دَمَامة، وإن إبليس لعنه الله أتى رجلاً من أهل السهل في صورة غلام، فآجر نفسه منه فكان يخدمه، فاتخذ إبليس شيئاً من مثل الذي يُزَمّر فيه الرعاء، فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله، فبلغ ذلك من حوله فانتابوهم يسمعون إليه، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة، فيتبرج النساء للرجال، قال ويتزين الرجال لهن، وإن رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك، فرأى النساء وصَبَاحتهن، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إليهن فنزلوا معهن، وظهرت الفاحشة فيهن، فهو قول الله تعالى: ﴿**ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى**﴾.

وقوله: ﴿**وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله**﴾ نهاهن أولاً عن الشر ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين، ﴿**وأطعن الله ورسوله**﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص. وقوله: ﴿**إنما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾ وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا، لأنهن سبب نزول هذه الآية وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح. وروى ابن جرير عن عكرمة أنه كان ينادي في السوق ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾ نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة. وقال عكرمة: من شاء باهلته أنها نزلت في شأن أزواج النبي ﷺ. فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن ففيه نظر، فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك:

[منها ما] رواه ابن جرير عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة رضي الله عنها: خرج النبي ﷺ ذات غداة وعليه مرطٌ مرحل من شعر أسود، فجاء الحسن رضي الله عنه فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾ ورواه مسلم.

وروى مسلم عن حصين بن سبرة عن زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً

بماء يدعى خُماً، بين مكة والمدينة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ووعظ وذَكّر ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله تعالى، فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به». فحث على كتاب الله عز وجل ورغب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي» ثلاثاً، فقال له حصين: ومن أهل بيته يازيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِمَ الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عَقيل وآل جعفر وآل عباس، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة بعده؟ قال: نعم.

ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله: ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾ فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿**واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة**﴾ أي واعملن بما ينزل الله على رسوله ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسنة. قاله قتادة وغير واحد، واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما أولاهن بهذه النعمة، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه. [رواه البخاري]. ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته، فقرابته أحق بهذه التسمية.

وروى السدي عن أبي الديلم قال: قال علي بن الحسين رضي الله عنهما لرجل من الشام: أما قرأت في الأحزاب ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾؟ فقال: نعم، ولأنتم هم؟ قال: نعم. وقوله: ﴿**إن الله كان لطيفاً خبيراً**﴾ أي بلطفه بكن، بلغتن هذه المنزلة، وبخبرته بكن وأنكن أهل لذلك أعطاكن ذلك وخصكن بذلك. قال ابن جرير رحمه الله: واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله تعالى على ذلك واحمدنه. ﴿**إن الله كان لطيفاً خبيراً**﴾ أي ذا لطف بكن، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة، وهي السنة. خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله. وقال قتادة: ﴿**واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة**﴾ قال: يمتن عليهن بذلك. وقال عطية العوفي: يعني لطيفاً باستخراجها خبيراً بموضعها، رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وكذا روي عن قتادة.

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

روى الإمام أحمد والنسائي وابن جرير عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: قلت للنبي ﷺ مالنا لا نُذكَرُ في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على

المنبر، وأنا أسرح شعري، فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرة من حجر بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد فإذا هو يقول عند المنبر «يأيها الناس إن الله تعالى يقول: ﴿**إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات**﴾» إلى آخر الآية.

فقوله: ﴿**إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات**﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام، وهو أخص منه لقوله تعالى: ﴿**قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم**﴾ [الحجرات:١٤]. وفي الصحيحين: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فسلبه الإيمان ولايلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين، فدل على أنه أخص منه كما قررناه في أول شرح البخاري.

وقوله: ﴿**والقانتين والقانتات**﴾ القنوت هو الطاعة في سكون، قال تعالى: ﴿**أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه**﴾ [الزمر:٩]، فالإسلام بعده مرتبة يُرتقى إليها، ثم القنوت ناشىء عنهما. ﴿**والصادقين والصادقات**﴾ هذا في الأقوال، فإن الصدق خَصلة محمودة، وهو علامة على الإيمان، كما أن الكذب أمارة على النفاق، ومن صدق نجا، «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً». [متفق عليه]. والأحاديث فيه كثيرة جداً.

﴿**والصابرين والصابرات**﴾ هذه سَجيّة الأثبات، وهي الصبر على المصائب، والعلم بأن المقدور كائن لا محالة وتَلَقي ذلك بالصبر والثبات، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أي أصعبه في أول وهلة، ثم مابعده أسهل منه وهو صدق السجية وثباتها. ﴿**والخاشعين والخاشعات**﴾ الخشوع: الطمأنينة، والوقار، والتواضع. والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته، كما في الحديث «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [متفق عليه بنحوه]. ﴿**والمتصدقين والمتصدقات**﴾ الصدقة هي الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء، الذين لا كسب لهم ولا كاسب يعطون من فضول الأموال طاعة لله وإحساناً إلى خلقه. وقد ثبت في الصحيحين: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» فذكر منهم: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ما تنفق يمينه». والأحاديث في الحث عليها كثيرة جداً. ﴿**والصائمين والصائمات**﴾ قال سعيد بن جبير: من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل في قوله تعالى: ﴿**والصائمين والصائمات**﴾. ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة، كما قال رسول الله ﷺ: «يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغَضُّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» [متفق عليه]، ناسب أن يذكر بعده ﴿**والحافظين فروجهم والحافظات**﴾ أي عن المحارم والمآثم إلا عن المباح كما قال تعالى:

﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ [المؤمنون: ٥-٧].

وقوله: **﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات﴾** روى ابن أبي حاتم وأبوداود والنسائي وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كُتبا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات» [وسنده صحيح].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سبق المفردون». قالوا: وما المفردون ؟ قال ﷺ: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» [وإسناده صحيح].

وقوله: **﴿أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾** خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم أي أن الله تعالى قد أعد لهم أي هيأ لهم مغفرة منه لذنوبهم وأجراً عظيماً وهو الجنة.

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة رضي الله عنه فاستنكفت منه وقالت: أنا خير منه حسباً، وكانت امرأة فيها حدة، فأنزل الله تعالى: **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة﴾** الآية كلها، وهكذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان إنها نزلت في زينب بنت جحش حين خطبها رسول الله ﷺ على مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، فامتنعت ثم أجابت.

وهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد هنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تعالى: **﴿فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾** [النساء: ٦٥]. ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال **﴿ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾** كقوله تعالى: **﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾** [النور: ٦٣].

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نبيه ﷺ أنه قال لمولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه وهو الذي أنعم الله عليه أي بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ **﴿وأنعمت عليه﴾** أي بالعتق من الرق، وكان سيداً كبير الشأن جليل القدر حبيباً إلى النبي ﷺ يقال له الحِبّ، ويقال لابنه أسامة الحب بن الحب. وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية، وأمها أميمة بنت عبد المطلب، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما، فجاء زيد يشكوها

إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «أمسك عليك زوجك واتق الله» قال الله تعالى: ﴿**وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه**﴾ ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير ههنا آثاراً عن بعض السلف رضي الله عنهم، أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها.

وقد روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن هذه الآية ﴿**وتخفي في نفسك ما الله مبديه**﴾ نزلت في شأن زينب بنت حجش وزيد بن حارثة رضي الله عنهما. وروى ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين في قوله: ﴿**وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه**﴾ قال: الله أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال: «اتق الله وأمسك عليك زوجك». وروي عن السدي أنه قال نحو ذلك.

وروى ابن جرير عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم ﴿**وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه**﴾ [وأصله في الصحيح]. وقوله: ﴿**فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها**﴾ الوطر هو الحاجة والأرب، أي لما فرغ منها وفارقها، زَوّجناكها، وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله عز وجل بمعنى أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولامهر ولا شهود من البشر.

وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال: لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: «اذهب فاذكرها علي» فانطلق حتى أتاها وهي تُخَمِّر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أنَّ رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، وقلت: يازينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي عز وجل، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن. ورواه مسلم.

وقد روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن زينب بنت جحش رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي فتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات.

وقوله: ﴿**لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً**﴾ أي إنما أبحنا لك تزويجها، وفعلنا ذلك لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة رضي الله عنه، فكان يقول له زيد بن محمد، فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى: ﴿**وما جعل أدعياءكم أبناءكم** ـ إلى قوله تعالى ـ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله**﴾ ثم زاد ذلك بياناً وتأكيداً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها، لما طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه، ولهذا قال تعالى في آية التحريم: ﴿**وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم**﴾ [النساء: ٢٣] ليحترز

من الابن الدعي، فإن ذلك كان كثيراً فيهم. وقوله: ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ أي وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحَتَّمه وهو كائن لامحالة، كانت زينب رضي الله عنها في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ.

﴿ مَا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ماكان على النبي من حرج فيما فرض الله له﴾ أي فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب رضي الله عنها التي طلقها دَعِيه زيد بن حارثة رضي الله عنه. وقوله: ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ أي هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا ردٌّ على من توهم من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذي كان قد تبناه. ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ أي وكان أمره الذي يقدره كائناً لا محالة وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

يمدح تبارك وتعالى ﴿الذين يبلغون رسالات الله﴾ أي إلى خلقه ويؤدونها بأماناتها ﴿ويخشونه﴾ أي يخافونه ولا يخافون أحداً سواه، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي وكفى بالله ناصراً ومعيناً، وسيد الناس في هذا المقام بل وفي كل مقام محمد رسول الله ﷺ، فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها، وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبي قبله إنما يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو ﷺ فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم ﴿قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ [الأعراف:١٥٨]، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضي الله عنهم، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وحَضره وسفره، وسره وعلانيته، فرضي الله عنهم وأرضاهم. ثم ورثه كُل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون، فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم.

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمراً لله فيه مقال ثم لا يقوله، فيقول الله ما يمنعك أن تقول فيه؟ فيقول رب خشيت الناس، فيقول: فأنا أحق أن يخشى» ورواه ابن ماجه [وقال البوصيري: إسناده صحيح].

وقوله: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ نهى تعالى أن يقال بعد هذا زيد بن محمد، أي لم يكن أباه وإن كان قد تبناه، فإنه ﷺ لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم فإنه ﷺ ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة رضي الله عنها، فماتوا صغاراً وولد له ﷺ إبراهيم من مارية

القبطية، فمات أيضاً رضيعاً، وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضي الله عنهم أجمعين، فمات في حياته ﷺ ثلاث، وتأخرت فاطمة رضي الله عنها حتى أصيبت به ﷺ، ثم ماتت بعده لستة أشهر.

وقوله: ﴿**ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً**﴾ كقوله: ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾ [الأنعام: ١٢٤] فهذه الآية نص في أنه لانبي بعده، وإذا كان لانبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى والأحرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم. روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي». قال: فشق ذلك على الناس، فقال: «ولكن المبشرات» قالوا: يارسول الله وما المبشرات؟ قال: «رؤيا الرجل المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة» ورواه الترمذي، وقال: صحيح غريب.

وروى أبو داود الطيالسي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء عليهم السلام». ورواه البخاري.

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فُضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم، ونُصِرْت بالرعب وأحِلَّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون». والأحاديث في هذا كثيرة، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ﷺ إليهم، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به وإكمال الدين الحنيف له، وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه ورسوله ﷺ في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب وأفاك دجال ضال مضل، ولو تمخرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب، كما أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ما علم كل ذي لب وفهم أنهما كاذبان ضالان لعنهما الله، وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله تعالى معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها، وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ولاينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره، ويكون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿**هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم**﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٢]. وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه،

مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات والبراهين الباهرات، فصلوات الله وسلامه عليهم ما دامت الأرض والسموات.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن، لما لهم في ذلك من جزيل الثواب، وجميل المآب. روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم» قالوا: وما هو يارسول الله ؟ قال: «ذكر الله عز وجل». [ورواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن بسر قال: جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ فقال أحدهما: يارسول الله أي الناس خير ؟ قال ﷺ: «من طال عمره وحسن عمله». وقال الآخر: يارسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا، فمرني بأمر أتشبث به، قال ﷺ: «لايزال لسانك رطباً بذكر الله تعالى». وروى الترمذي وابن ماجه [آخره]، وقال الترمذي: حديث حسن غريب. [رجاله رجال مسلم].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم جلسوا مجلساً لم يذكروا الله تعالى فيه إلا رأوه حسرة يوم القيامة». [قال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿**اذكروا الله ذكراً كثيراً**﴾ إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً، ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر، فإن الله تعالى لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على تركه، فقال: ﴿**فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم**﴾ [النساء:١٠٣]، بالليل والنهار في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال. وقال: ﴿**وسبحوه بكرة وأصيلا**﴾ فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته. والأحاديث والآيات والآثار في الحث على ذكر الله تعالى كثيرة جداً، وفي هذه الآية الكريمة الحث على الإكثار من ذلك. وقد صنف الناس في الأذكار المتعلقة بآناء الليل والنهار كالنسائي والمعمري وغيرهما. ومن أحسن الكتب المؤلفة في ذلك كتاب الأذكار للشيخ محيي الدين النووي رحمه الله.

وقوله: ﴿**وسبحوه بكرة وأصيلاً**﴾ أي عند الصباح والمساء، كقوله عز وجل ﴿**فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين**

تظهرون﴾ [الروم:١٧ـ١٨]. وقوله: ﴿**هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾** هذا تهييج إلى الذكر، أي أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله: ﴿**فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾** [البقرة:١٥٢]. وقال النبي ﷺ: «يقول الله: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم». [متفق عليه]. والصلاة من الله تعالى ثناؤه على العبد عند الملائكة، حكاه البخاري عن أبي العالية، وقال غيره: الصلاة من الله الرحمة. ورد بقوله: ﴿**أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾**. وقد يقال: لا منافاة بين القولين، والله أعلم.

وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار، كقوله: ﴿**الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم** * ربنا **وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك انت العزيز الحكيم** * **وقهم السيئات﴾** الآية [غافر:٧ـ٩]. وقوله: ﴿**ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾** أي بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم ودعاء ملائكته لكم، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين. ﴿**وكان بالمؤمنين رحيماً﴾** أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبَصّرهم الطريق الذي ضل عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأشياعهم من الطَّغام. وأما رحمته بهم في الآخرة فآمنهم من الفزع الأكبر وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم.

وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال: مر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه رضي الله عنهم، وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يُوطَأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني، ابني، وسَعَت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار. قال فخَفَّضهم رسول الله ﷺ وقال: «لا، والله لايلقي حبيبه في النار». إسناده على شرط الصحيحين، وفي صحيح البخاري عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى امراة من السبي قد أخذت صبياً لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه تلقي ولدها في النار وهي تقدر على ذلك ؟» قالوا: لا. قال رسول الله ﷺ: «فوالله، لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

وقوله: ﴿**تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾** الظاهر أن المراد ـ والله أعلم ـ تحيتهم، أي من الله تعالى يوم يلقونه سلام أي يوم يسلم عليهم كما قال عز وجل: ﴿**سلام قولاً من رب رحيم﴾** [يس:٥٨]. وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيي بعضهم بعضاً بالسلام يوم يلقون الله في الدار الآخرة، واختاره ابن جرير. قلت: وقد يستدل له بقوله تعالى: ﴿**دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾** [يونس:١٠]. وقوله: ﴿**وأعد لهم أجراً كريماً﴾** يعني الجنة وما فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح

والملاذ والمناظر، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

روى الإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: «﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لست بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملّة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً». وقد رواه البخاري.

وقوله: ﴿شاهداً﴾ أي لله بالوحدانية، وأنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً كقوله: ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ [البقرة:١٤٣]. وقوله: ﴿ومبشراً ونذيراً﴾ أي بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب. وقوله: ﴿وداعياً إلى الله بإذنه﴾ أي داعياً للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك ﴿وسراجاً منيراً﴾ أي وأمرُك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس في إشرافها وإضاءتها لا يجحدها إلا معاند. وقوله: ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ أي لا تطعهم وتسمع منهم في الذي يقولونه ﴿ودع أذاهم﴾ أي اصفح وتجاوز عنهم، وكِلْ أمرهم إلى الله تعالى، فإن فيه كفاية لهم، ولهذا قال: ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾.

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة منها إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، وقد اختلفوا في النكاح: هل هو حقيقة في العقد وحده أو في الوطء أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده إلا في هذه الآية، فإنه استعمل في العقد وحده لقوله تبارك وتعالى: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها.

وقوله: ﴿المؤمنات﴾ خرج مخرج الغالب إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق، وقد استدل ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن المسيب والحسن البصري وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح، لأن الله تعالى قال: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن﴾ فعقب النكاح بالطلاق، فدل على أنه لا يصح ولا يقع

قبله، وهذا مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من السلف والخلف رحمهم الله تعالى، وذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى إلى صحة الطلاق قبل النكاح فيما إذا قال: إن تزوجت فلانة فهي طالق، فعندهما متى تزوجها طلقت منه. واختلفا فيما إذا قال كل امرأة أتزوجها فهي طالق فقال مالك: لا تطلق حتى يعين المرأة. وقال أبو حنيفة رحمه الله: كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه، فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية.

وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك». رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وهو أحسن شيء روي في هذا الباب، والمسيس مطلق، ويراد به الوطء.

وقوله: ﴿**فما لكم عليهمن من عدة تعتدونها**﴾ هذا أمر مجمع عليه بين العلماء، أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها، فتذهب فتتزوج في فورها من شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً. وقوله: ﴿**فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جيملاً**﴾ المتعة ههنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمي لها. قال الله تعالى: ﴿**وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم**﴾ [البقرة: ٢٣٧]. وقال: ﴿**لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين**﴾ [البقرة: ٢٣٦]. وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد وأبي أسَيد رضي الله عنهما قالا: إن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل، فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيَّين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن كان سمى لها صداقاً فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمى لها صداقاً فأمتعها على قدر عسره ويسره، وهو السراح الجميل.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مخاطباً نبيه ﷺ بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن وهي الأجور ههنا، كما قاله مجاهد وغير واحد. وقد كان مهره لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونشاً وهو نصف أوقية، فالجميع خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان، فإنه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله تعالى أربعمائة دينار وإلا صفية بنت حيي فإنه اصطفاها من سبي خيبر، ثم أعتقها

وجعل عتقها صداقها، كذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها، رضي الله عنهن أجمعين.

وقوله: ﴿**وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك**﴾ أي وأباح لك التسري مما أخذت من المغانم، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليه السلام، وكانتا من السراري رضي الله عنهما. وقوله: ﴿**وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك**﴾ هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى، فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت وهذا شنيع فظيع، وإنما قال: ﴿**وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك**﴾ فوحد لفظ الذكر لشرفه وجمع الإناث لنقصهن كقوله: ﴿**عن اليمين والشمائل**﴾ [النحل:٤٨]، ﴿**يخرجهم من الظلمات إلى النور**﴾ [البقرة:٢٥٧]، وله نظائر كثيرة.

وقوله: ﴿**اللاتي هاجرن معك**﴾ روى ابن أبي حاتم عن أم هانيء قالت: خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرني، ثم أنزل الله تعالى: ﴿**إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك**﴾ قالت: فلم أكن أحل له، ولم أكن ممن هاجر معه كنت من الطلقاء. ورواه الترمذي في جامعه، [وقال: حسن صحيح]. وهكذا قال أبو رزين وقتادة إن المراد من هاجر معه إلى المدينة. وفي رواية عن قتادة ﴿**اللاتي هاجرن معك**﴾ أي أسلمن.

وقوله: ﴿**وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها**﴾ أي ويحل لك يأيها النبي المرأة المؤمنة إن وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك. وهذه الآية توالى فيها شرطان، كقوله تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿**ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم**﴾ [هود:٣٤].

وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله إني قد وهبت نفسي لك، فقامت قياماً طويلاً، فقام رجل فقال: يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: «هل عندك من شيء تصدقها إياه ؟» فقال: ما عندي إلا إزاري هذا، فقال رسول الله ﷺ: «إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك، فالتمس شيئاً» فقال: لا أجد شيئاً، فقال «التمس ولو خاتماً من حديد» فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال له النبي ﷺ: «هل معك من القرآن شيء ؟» قال: نعم سورة كذا وسورة كذا ـ لسور يسميها ـ فقال له النبي ﷺ: «زوجتكها بما معك من القرآن» أخرجاه.

واللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثير، وروى ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن عباس قال: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له. أي أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به، لأنه مردود إلى مشيئته، كما قال الله تعالى: ﴿**إن أراد النبي أن يستنكحها**﴾ أي إن اختار ذلك.

وقوله: ﴿**خالصة لك من دون المؤمنين**﴾ قال عكرمة أي لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً، وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما، أي أنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل فإنه متى دخل بها وجب عليه لها مهر مثلها، كما حكم به رسول الله ﷺ في بَرْوَع بنت واشق لما فوضت، فحكم لها رسول الله ﷺ بصداق مثلها لما توفي عنها زوجها [رواه الترمذي وصححه]، والموت والدخول سواء في تقرير المهر وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ، فأما هو عليه الصلاة والسلام فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء ولو دخل بها، لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولي، ولا شهود، كما في قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها، ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿**خالصة لك من دون المؤمنين**﴾ يقول: ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿**قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم**﴾ قال أبي بن كعب ومجاهد والحسن وقتادة وابن جرير: أي من حصرهم في أربع نسوة حرائر، وما شاؤوا من الإماء واشتراط الولي والمهر والشهود عليهم، وهم الأمة وقد رخصنا لك في ذلك فلم نوجب عليك شيئاً منه ﴿**لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً**﴾.

﴿ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ﴾.

روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تُعيِّر النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، قالت: ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق؟ فأنزل الله عز وجل ﴿**ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء**﴾ الآية، قالت: إني أرى ربك يسارع لك في هواك. ورواه البخاري، فدل هذا على أن المراد بقوله: ﴿**ترجي**﴾ أي تؤخر ﴿**من تشاء منهن**﴾ أي من الواهبات أنفسهن ﴿**وتؤوي إليك من تشاء**﴾ أي من شئت قبلتها ومن شئت رددتها، ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك، إن شئت عدت فيها فآويتها، ولهذا قال: ﴿**ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك**﴾.

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿**ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء**﴾ أي من أزواجك لا حرج عليك أن تترك القَسْم لهن، فتقدم من شئت وتؤخر من شئت، وتجامع من شئت وتترك من شئت، هكذا يروى عن ابن عباس والحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، ومع هذا كان النبي ﷺ يقسم لهن، ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية

وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه ﷺ، واحتجوا بهذه الآية الكريمة.

وروى البخاري عن مُعَاذة عن عائشة أن رسول الله ﷺ: كان يستأذن في اليوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية ﴿**ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك**﴾ فقلت لها: ما كنت تقولين؟ فقالت: كنت أقول إن كان ذلك إلي فإني لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحداً. فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من ذلك عدم وجوب القسم، وحديثها الأول يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات، ومن ههنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء، اللاتي عنده أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم، وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي، وفيه جمع بين الأحاديث، ولهذا قال تعالى: ﴿**ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن**﴾ أي إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم، فإن شئت قسمت وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، ثم مع هذا أن تقسم لهن اختياراً منك، لا أنه على سبيل الوجوب، فرحن بذلك واستبشرن به، وحملن جميلك في ذلك، واعترفن بمنتك عليهن في قسمتك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن.

وقوله: ﴿**والله يعلم ما في قلوبكم**﴾ أي من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه، كما روى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك». وزاد أبو داود بعد قوله «فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» يعني القلب. وإسناده صحيح، ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿**وكان الله عليماً**﴾ أي بضمائر السرائر ﴿**حليماً**﴾ أي يحلم ويغفر.

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾.

ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس وقتادة وابن زيد وابن جرير وغيرهم، أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضاً عنهن على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله ﷺ كما تقدم في الآية، فلما اخترن رسول الله ﷺ كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن، ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء فلا حجر عليه فيهن، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج لتكون المنة لرسول الله ﷺ عليهن.

روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء. ورواه الترمذي والنسائي في سننيهما، [وسنده صحيح].

وقال آخرون: بل معنى الآية ﴿**لا يحل لك النساء من بعد**﴾ أي من بعد ما ذكرنا لك من

صفة النساء اللاتي أحللنا لك من نسائك، اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك وبنات العم والعمات والخال والخالات والواهبة وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك، وهذا مروي عن أبي بن كعب ومجاهد في رواية عنه، وعكرمة والضحاك في رواية، وأبي رزين في رواية عنه، وأبي صالح والحسن وقتادة في رواية، والسدي وغيرهم.

واختار ابن جرير رحمه الله: أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعاً، وهذا الذي قاله جيد، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف، فإن كثيراً منهم روى عنه هذا وهذا ولا منافاة، والله أعلم. ثم أورد ابن جرير على نفسه ما روي أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها! وعزم على فراق سودة حتى وهبت يومها لعائشة، ثم أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله: ﴿**لا يحل لك من النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج**﴾، وهذا الذي قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح، ولكن لا يحتاج إلى ذلك، فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته وأنه لا يستبدل بهن غيرهن، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال، فالله أعلم، فأما قضية سودة ففي الصحيح عن عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها وهي سبب نزول قوله تعالى: ﴿**وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً**﴾ [النساء:١٢٨]. وأما قضية حفصة فروى أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه عن عمر أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها، وإسناده قوي. وعن ابن عمر قال: دخل عمر على حفصة وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك، إنه قد كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلي، والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً، ورجاله على شرط الصحيحين.

وقوله: ﴿**ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن**﴾ فنهاه عن الزيادة عليهن أوطلاق واحدة منهن، واستبدال غيرها بها، إلا ما ملكت يمينه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٥٤)﴾.

هذه آية الحجاب وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال: وافقت ربي عز وجل في ثلاث، [وذكر منها]: قلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن، فأنزل الله آية الحجاب. وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش،

وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة في قول قتادة والواقدي وغيرهما، وزعم أبو عبيدة معمر بن المثنى وخليفة بن خياط أن ذلك كان في سنة ثلاث، فالله أعلم.

وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام، قام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقوا، فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا**﴾ الآية.

فقوله: ﴿**لا تدخلوا بيوت النبي**﴾ حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله لهذه الأمة فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إياكم والدخول على النساء» [متفق عليه]. ثم استثنى من ذلك فقال: ﴿**إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه**﴾ قال مجاهد وقتادة وغيرهما: أي غير متحينين نضجه واستواءه، أي لا ترقبوا الطعام إذا طبخ حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول، فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه، وهذا دليل على تحريم التطفيل وهو الذي تسميه العرب الضيفن، وقد صنف الخطيب البغدادي في ذلك كتاباً في ذم الطفيليين، وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها.

ثم قال تعالى: ﴿**ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا**﴾ وفي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرساً كان أو غيره». وأصله في الصحيحين، وفي الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ: «لو دعيت إلى ذراع لأجبت ولو أهدي إلى كراع لقبلت». فإذا فرغتم من الذي دعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل وانتشروا في الأرض» ولهذا قال: «ولا مستأنسين لحديث﴾ أي كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث، ونسُوا أنفسهم حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿**إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم**﴾. وقيل: المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به، ولكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه عليه السلام حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك، ولهذا قال: ﴿**والله لا يستحيي من الحق**﴾ أي ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه.

ثم قال تعالى: ﴿**وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب**﴾ أي وكما نهيتكم عن الدخول عليهن كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن، فلا ينظر إليهن ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب. وروى ابن أبي حاتم [والنسائي] عن عائشة قالت: كنت آكل مع النبي ﷺ حيساً في قَعْب، فمر عمر فدعاه فأكل، فأصابت إصبعه إصبعي،

فقال: حَسٍّ، أو: أوه، لو أُطاع فيكن ما رأتكن عين. فنزل الحجاب [وسنده حسن]. ﴿**ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن**﴾ أي هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب.

وقوله: ﴿**وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً**﴾ أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده، لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين كما تقدم، واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته: هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين مأخذهما هل دخلت هذه في عموم قوله ﴿**من بعده**﴾ أم لا ؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم في حلها لغيره والحالة هذه نزاعاً، والله أعلم.

وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله: ﴿**إن ذلكم كان عند الله عظيماً**﴾ ثم قال تعالى: ﴿**إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً**﴾ أي مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم، فإن الله يعلمه، فإنه لا تخفى عليه خافية ﴿**يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**﴾ [غافر: ١٩].

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

لما أمر تعالى النساء بالحجاب من الأجانب، بيّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، كما استثناهم في سورة النور عند قوله: ﴿**ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن**﴾ إلى آخرها [النور: ٣١]، وفيها زيادات على هذه، وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته.

روى ابن جرير عن داود عن الشعبي وعكرمة في قوله: ﴿**لا جناح عليهن في آبائهن**﴾ الآية، قلت: ما شأن العم والخال لم يذكرا ؟ قالا: هما ينعتانها لأبنائهما وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها. [وقد أذن النبي ﷺ لعائشة أن يدخل عليها عمها من الرضاعة كما في الصحيحين]. وقوله: ﴿**ولا نسائهن**﴾ يعنى بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات. وقوله: ﴿**وما ملكت أيمانهن**﴾ يعني به أرقاءَهن من الذكور والإناث كما تقدم التنبيه عليه وإيراد الحديث فيه، [انظر تفسير النور: ٣١]. قال سعيد بن المسيب: إنما يعني به الإماء فقط، وقوله: ﴿**واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهداً**﴾ أي واخشينه في الخلوة والعلانية، فإنه شهيد على كل شيء، لا تخفى عليه خافية فراقبن الرقيب.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

قال البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء. وقال ابن عباس: يصلون: يبرِّكون، هكذا علقه البخاري عنهما، وقال أبو عيسى

الترمذي: وروي عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم، قالوا: صلاة الرب الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار.

والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين: العلوي والسفلي جميعاً.

وقد أخبر سبحانه وتعالى بأنه يصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيراً * وسبحوه بكرة وأصيلاً * هو الذي يصلي عليكم وملائكته**﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣]. وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه، وكيفية الصلاة عليه، فمنها ما روى البخاري عند تفسير هذه الآية، عن كعب بن عجرة قال: قيل يارسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد».

ومعنى قولهم أما السلام عليك فقد عرفناه هو الذي في التشهد، الذي كان يعلمهم إياه كما كان يعلمهم السورة من القرآن، وفيه السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

وروى البخاري [أيضا] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله هذا السلام، فكيف نصلي عليك؟ قال «قولوا اللهم صل على محمد عبدك ورسولك، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم» وفي رواية: «على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم».

وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير، فإن تركه لم تصح صلاته، وقد شرع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يشنع على الإمام الشافعي في اشتراطه ذلك في الصلاة، ويزعم أنه قد تفرد بذلك، وحكى الإجماع على خلافه أبو جعفر الطبري والطحاوي والخطابي وغيرهم فيما نقله القاضي عياض عنهم، وقد تعسف هذا القائل في رده على الشافعي، وتكلف في دعواه الإجماع في ذلك، وقال ما لم يحط به علماً، فإنا قد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ في الصلاة، كما هو ظاهر الآية، ومفسر بالحديث عن جماعة من الصحابة منهم ابن مسعود وأبو مسعود البدري وجابر بن عبد الله، ومن التابعين: الشعبي وأبو جعفر الباقر ومقاتل بن حيان، وإليه ذهب الشافعي لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضاً، وإليه ذهب الإمام أحمد أخيراً فيما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقي، وبه قال إسحاق بن راهويه والفقيه الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز المالكي رحمهم الله، حتى إن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن

يقال في الصلاة عليه ﷺ كما علمهم أن يقولوا لما سألوه.

والغرض أن الشافعي رحمه الله لقوله بوجوب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة سلفٌ وخلفٌ كما تقدم، ولله الحمد والمنة، فلا إجماع على خلافه في هذه المسألة لا قديماً ولا حديثاً، والله أعلم. ومما يؤيد ذلك الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه، والنسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجد الله ولم يصل على النبي، فقال رسول الله ﷺ: «عَجل هذا». ثم دعاه فقال له أو لغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد الله عز وجل والثناء عليه، ثم ليصل على النبي ثم ليدع بعد بما شاء».

وروى الإمام أحمد عن أبي بن كعب قال: قال رجل: يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك؟ قال «إذن يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك». [وسنده حسن].

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشراً».

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة». وقال: حسن غريب.

وهذا الحديث دليل على وجوب الصلاة على النبي ﷺ كما ذكر، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوي والحليمي، وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة عليه في المجلس مرة واحدة، ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس، بل تستحب، نقله الترمذي عن بعضهم، ويتأيد بالحديث الذي رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرَةٌ، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم». وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وقد رُوي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ من غير وجه.

وحكي عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في العمر مرة واحدة امتثالاً لأمر الآية. ثم هي مستحبة في كل حال، وهذا هو الذي نصره القاضي عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ في الجملة. قال: وقد حكى الطبري أن محمل الآية على الندب، وادعى فيه الإجماع. قال: ولعله فيما زاد على المرة، والواجب فيه مرة كالشهادة له بالنبوة، وما زاد على ذلك فمندوب مُرغَّب فيه من سنن الإسلام وشعار أهله. قلت: وهذا قول غريب، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة، فمنها واجب ومنها مستحب على ما نبينه.

فمنه بعد النداء للصلاة للحديث الذي رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم مؤذناً فقولوا مثلما يقول، ثم صلوا علي فإنه

من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة».

ومن ذلك عند دخول المسجد والخروج منه للحديث الذي رواه الإمام أحمد عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم، وقال: «اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج صلى على محمد وسلم، ثم قال: «اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك». [صحيح بشواهده].

وأما الصلاة عليه ﷺ في الصلاة، فقد قدمنا الكلام [على وجوبها] في التشهد الأخير ومن ذهب إلى ذلك من العلماء، منهم الشافعي وأحمد رحمهما الله، وأما التشهد الأول فلا يجب فيه قولاً واحداً وهل تستحب؟ على قولين للشافعي. ومن ذلك الصلاة عليه ﷺ في صلاة الجنازة، فإن السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب، وفي الثانية يصلي على النبي ﷺ، وفي الثالثة يدعو للميت، وفي الرابعة يقول اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده.

روى الشافعي رحمه الله عن أبي أمامة بن سهل بن حُنَيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبي ﷺ: أن السنة في الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سراً في نفسه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ويخلص الدعاء للجنازة، وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها، ثم يسلم سراً في نفسه. ورواه النسائي عن أبي أمامة نفسه، وهذا من الصحابي في حكم المرفوع على الصحيح. ورواه إسماعيل القاضي عن سعيد بن المسيب. ومن ذلك في صلاة العيد: روى إسماعيل القاضي عن علقمة أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة، خرج عليهم الوليد بن عقبة يوماً قبل العيد فقال لهم: إن هذا العيد قد دنا فكيف التكبير فيه؟ قال عبد الله: تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة وتحمد ربك، وتصلي على النبي ﷺ ثم تدعو وتكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ، ثم تدعو وتكبر وتفعل مثل ذلك ثم تركع، فقال حذيفة وأبو موسى: صدق أبو عبد الرحمن، إسناده صحيح.

ومن ذلك أنه يستحب ختم الدعاء بالصلاة عليه ﷺ روى الترمذي عن عمر بن الخطاب قال: الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك.

ومن آكد ذلك دعاء القنوت لما رواه أحمد وأهل السنن وابن خزيمة وابن حبان والحاكم من حديث أبي الجوزاء عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت» [الحديث]، وزاد النسائي في سننه ـ بعد هذا ـ: «وصلى الله على النبي محمد».

ومن ذلك أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة، روى الإمام أحمد وأبوداود عن

أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي» قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرَمْت؟ يعني وقد بليت، قال: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء». وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني والنووي في الأذكار.

(وأما الصلاة على غير الأنبياء، فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث: «اللهم صل على محمد وآله»، فهذا جائز بالإجماع وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم. فقال قائلون: يجوز ذلك، واحتجوا بقوله: ﴿**هو الذي يصلي عليكم وملائكته**﴾، وبقوله: ﴿**أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة**﴾ [البقرة:١٥٧]، وبقوله: ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم**﴾ [التوبة:١٠٣]، وبحديث: «اللهم صل على آل أبي أوفى» أخرجاه في الصحيحين، وقال الجمهور من العلماء: لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال: قال أبو بكر صلى الله عليه أو قال علي صلى الله عليه، وإن كان المعنى صحيحاً، كما لا يقال: قال محمد عز وجل، وإن كان عزيزاً جليلاً، لأن هذا من شعار ذكر الله عز وجل. وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم، ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبي أوفى، وهذا مسلك حسن.

وقال آخرون: لا يجوز ذلك، لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء، يصلون على من يعتقدون فيهم، فلا يقتدى بهم في ذلك، والله أعلم. ثم اختلف المانعون من ذلك: هل هو من باب التحريم، أو الكراهة التنزيهية، أو خلاف الأولى؟ على ثلاثة أقوال، حكاه الشيخ أبو زكريا النووي في كتاب الأذكار. ثم قال: والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه لأنه شعار أهل البدع، وقد نهينا عن شعارهم، والمكروه هو ما ورد فيه نهي مقصود. (قلت: وقد غلب في عبارة كثير من النساخ للكتب أن يفرد علي رضي الله عنه بأن يقال عليه السلام من دون سائر الصحابة أو كرم الله وجهه، وهذا وإن كان معناه صحيحاً، لكن ينبغي أن يُسَاوى بين الصحابة في ذلك، فإن هذا من باب التعظيم والتكريم، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه رضي الله عنهم أجمعين.

قال النووي: إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول: «صلى الله عليه» فقط، ولا «عليه السلام» فقط، وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً**﴾ فالأولى أن يقال: صلى الله عليه وسلم تسليماً.)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ

ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

يقول تعالى متهدداً ومتوعداً من آذاه بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك، وآذى رسوله بعيب أو بنقص، عياذاً بالله من ذلك. قال عكرمة في قوله: ﴿**إن الذين يؤذون الله ورسوله**﴾ نزلت في المصوّرين. وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر أقلب ليله ونهاره». ومعنى هذا: أن الجاهلية كانوا يقولون يا خيبة الدهر فعل بنا كذا وكذا. فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ويسبونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله عز وجل فنهى عن ذلك. هكذا قرره الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من العلماء رحمهم الله.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿**إن الذين يؤذون الله ورسوله**﴾ نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حُيَي بن أخطب. والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ومن آذاه فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله.

وقوله: ﴿**والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا**﴾ أي ينسبون إليهم ما هم بُرآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه، ﴿**فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً**﴾ وهذا هو البهت البيّن أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتنقص لهم، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرةُ بالله ورسوله، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد بَرّأهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم، فإن الله عز وجل قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم وينتقصونهم، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً.

وروى أبو داود عن أبي هريرة أنه قيل: يا رسول الله ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته». وهكذا رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ تسليماً أن يأمر النساء المؤمنات ـ خاصة أزواجه وبناته لشرفهن ـ بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء، والجلباب هو الرداء فوق الخمار. قاله ابن مسعود والحسن البصري وسعيد بن جبير وغير واحد وهو بمنزلة الإزار اليوم. قال الجوهري: الجلباب الملحفة، قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلاً لها:

تمشي النسور إليه وهي لاهيةٌ		مشي العذارى عليهن الجلابيبُ

قال ابن عباس: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة، وقال محمد بن سيرين سألت عبيدة السلماني عن قول الله عز وجل: ﴿يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى، وقال عكرمة تغطي ثغرة نحرها بجلبابها تدنيه عليها. وروى ابن أبي حاتم [والبخاري] عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية ﴿يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها.

وقوله: ﴿ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ أي إذا فعلن ذلك عُرِفْنَ أنهن حرائر، لسن بإماء ولا عواهر. قال السدي: كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة يتعرضون للنساء وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن، فإذا رأوا المرأة عليها جلباب قالوا هذه حرة فكفوا عنها، وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا هذه أمة فوثبوا عليها، وقال مجاهد يتجلببن فيعلم أنهن حرائر فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة.

وقوله: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك. ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر: ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ قال عكرمة وغيره: هم الزناة ههنا ﴿والمرجفون في المدنية﴾ يعني الذين يقولون: جاء الأعداء، وجاءت الحروب، وهو كذب وافتراء، لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿لنغرينك بهم﴾ قال ابن عباس: أي لنسلطنك عليهم. وقال قتادة لنحرّشَنَّك بهم، وقال السدي: لنعلمنك بهم. ﴿ثم لا يجاورونك فيها﴾ أي في المدينة ﴿إلا قليلاً﴾ مدة قريبة ﴿ملعونين﴾ مطرودين مبعدين، ﴿أينما ثقفوا﴾ أي وجدوا ﴿أخذوا﴾ لذلتهم وقلتهم ﴿وقتلوا تقتيلاً﴾. ثم قال: ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ أي هذه سنته في المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أي وسنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير.

﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه أنه لا علم له بالساعة، وإن سأله الناس عن ذلك، وأرشده أن يرد علمها إلى الله عز وجل كما قال الله تعالى في سورة الأعراف وهي مكية وهذه مدنية، فاستمر الحال في رَدّ علمها إلى الذي يقيمها، لكن أخبره أنها قريبة بقوله: ﴿وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾ كما قال: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ [القمر: ١].

ثم قال: ﴿إن الله لعن الكافرين﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿وأعد لهم سعيراً﴾ أي في الدار الآخرة ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي ماكثين مستمرين، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها، ﴿لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ أي وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه. ثم قال: ﴿يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا﴾ أي يسحبون في النار على وجوههم وتلوى وجوههم على جهنم يقولون وهم كذلك، يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾ [الفرقان:٢٧ـ٢٩]، وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا ﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾ وقال طاوس، سادتنا: يعني الأشراف، وكبراءنا: يعني العلماء. أي اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئاً، وأنهم على شيء فإذا هم ليسوا على شيء ﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب﴾ أي بكفرهم وإغوائهم إيانا ﴿والعنهم لعناً كبيراً﴾ قرأ بعض القراء بالباء الموحدة، وقرأ آخرون بالثاء المثلثة وهما قريبا المعنى.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى عليه السلام كان رجلاً حيياً سِتِّيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاهُ من بني إسرائيل، فقالوا: ما يتستر هذ التستر إلا من عيب في جلده، إما بَرص وإما أُدْرَة وإما آفة، وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام فخلا يوماً وحده فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله عز وجل وأبرأه، مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لَنَدَباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ـ قال ـ فذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾.

وقوله: ﴿وكان عند الله وجيهاً﴾ أي له وجاهة وجاه عند ربه عز وجل. قال الحسن البصري كان مستجاب الدعوة عند الله، وقال غيره من السلف لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، ولكن منع الرؤية لما يشاء الله عز وجل. وقال بعضهم من وجاهته العظيمة عند الله أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه فأجاب الله سؤاله، فقال ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ [مريم: ٥٣].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ

وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه، وأن يقولوا ﴿**قولاً سديداً**﴾ أي مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف. ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم، أي يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية. وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها. ثم قال: ﴿**ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً**﴾ وذلك أنه يجار من نار الجحيم ويصير إلى النعيم المقيم.

قال عكرمة: القول السديد: لا إله إلا الله. وقال غيره: السديد: الصدق. وقال مجاهد: هو السداد. وقال غيره: هو الصواب والكل حق.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

قال ابن عباس: يعني بالأمانة: الطاعة، وعرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم، فلم يطقنها. فقال لآدم: إني قد عرضتُ الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال: يا رب، وما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت فأخذها آدم فتحملها، فذلك قوله: ﴿**وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً**﴾. وقال ابن عباس [أيضا]: الأمانة: الفرائض، عرضها الله على السموات والأرض والجبال، إن أدوها أثابهم، وإن ضيعوها عذبهم، فكرهوا ذلك، وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيما لدين الله أن لا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، وهو قوله: ﴿**وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً**﴾ يعني غراً بأمر الله.

وقال مجاهد والحسن البصري وغير واحد: إن الأمانة هي الفرائض، وقال آخرون: هي الطاعة، وقال أبي بن كعب: من الأمانة أن المرأة اؤتمنت على فرجها. وقال قتادة: الأمانة الدين والفرائض والحدود، وقال بعضهم: الغسل من الجنابة، وقال زيد بن أسلم: الأمانة ثلاثة: الصلاة والصوم والاغتسال من الجنابة. وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها بل متفقة وراجعة إلى أنها التكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب وإن تركها عُوقبَ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفق الله وبالله المستعان.

ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن حذيفة رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا «أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة». ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكت فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك، تراه منتبراً وليس فيه شيء

ـ قال: ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله قال ـ فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل ما أجلده وأظرفه وأعقله وما في قلبه حبة خردل من إيمان، ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت إن كان مسلماً ليردنه علي دينه، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه علي ساعيه، فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً. وأخرجاه في الصحيحين.

وقد ورد النهي عن الحلف بالأمانة، روى عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد عن خُنَاس بن سحيم أو قال: جبلة بن سحيم، قال: أقبلت مع زياد بن حُدَيْر من الجابية فقلتُ في كلامي: لا والأمانة. فجعل زياد يبكي ويبكي فظننت أني أتيت أمراً عظيماً، فقلت له: أكان يكره هذا؟ قال: نعم، كان عمر بن الخطاب ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهي. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه أبو داود عن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف بالأمانة فليس منا». [رواه ابن حبان في صحيحه، وسنده صحيح].

وقوله تعالى: ﴿**ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات**﴾ أي إنما حمل ابن آدم الأمانة وهي التكاليف، ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله، ﴿**والمشركين والمشركات**﴾ وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسله، ﴿**ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات**﴾ أي وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿**وكان الله غفوراً رحيماً**﴾.

تفسير سورة سبأ وهي مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة: أن له الحمدَ المطلق في الدنيا والآخرة، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، كما قال: ﴿**وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون**﴾ [القصص: ٧٠]، ولهذا قال ههنا: ﴿**الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض**﴾ أي الجميع ملكه وعبيده وتحت تصرفه وقهره. ثم قال: ﴿**وله الحمد في الآخرة**﴾ فهو المعبود أبداً، المحمود على طول المدى. وقال: ﴿**وهو الحكيم**﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقَدَره، ﴿**الخبير**﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه شيء، وقال الزهري: خبير بخلقه، حكيم بأمره. ولهذا قال: ﴿**يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها**﴾ أي يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض، والحب المبذور والكامن فيها، ويعلم ما يخرج من ذلك عدده وكيفيته

وصفاته، ﴿وما ينزل من السماء﴾ أي من قطر ورزق، وما يعرج فيها، أي من الأعمال الصالحة وغير ذلك، ﴿وهو الرحيم الغفور﴾ أي الرحيم بعباده، فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة، العَفُوّ عن ذنوب عباده التائبين إليه المتوكلين عليه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾.

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن، مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع: المعاد، لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فإحداهن في سورة يونس: ﴿ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾ [يونس:٥٣]، والثانية هذه: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم﴾، والثالثة في سورة التغابن: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾ [التغابن:٧]، فقوله: ﴿قل بلى وربي لتأتينكم﴾ ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره: ﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾. قال مجاهد وقتادة: لا يعزب عنه لا يغيب عنه. أي الجميع مندرج تحت علمه، فلا يخفى عليه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت، فهو عالم أين ذهبت، وأين تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة، فإنه بكل شيء عليم. ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله: ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم * والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ أي سعوا في الصد عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسله، ﴿أولئك لهم عذاب من رجز أليم﴾ أي لينعم السعداء من المؤمنين ويعذب الأشقياء من الكافرين، كما قال: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ [الحشر:٢٠].

وقوله: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله تعالى في الدنيا، رأوه حينئذ عين اليقين، ويقولون يومئذ أيضاً: ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ [الأعراف:٤٣]، ﴿ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ العزيز هو: المنيع الجناب الذي لا يُغالب ولا يُمَانع، بل قد قهر كل شيء وغلبه، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وهو المحمود في ذلك.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ

مُنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

هذا إخبار من الله عز وجل عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة، واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك ﴿**وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق**﴾ أي تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق ﴿**إنكم**﴾ أي بعد هذا الحال ﴿**لفي خلق جديد**﴾ أي تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك، وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين: إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله تعالى أنه قد أوحي إليه ذلك، أو أنه لم يتعمد، لكن لبس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون، ولهذا قالوا: ﴿**أفترى على الله كذباً أم به جنة**﴾ قال الله عز وجل راداً عليهم ﴿**بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد**﴾ أي ليس الأمر كما زعموا، ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد، الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ﴿**في العذاب**﴾ أي: في الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله تعالى ﴿**والضلال البعيد**﴾ عن الحق في الدنيا، ثم قال تعالى منبهاً لهم على قدرته في خلق السموات والأرض، ﴿**أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض**﴾ أي حيثما توجهوا وذهبوا، فالسماء مظلة عليهم، والأرض تحتهم، كما قال عز وجل: ﴿**والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون * والأرض فرشناها فنعم الماهدون**﴾ [الذاريات: ٤٧-٤٨].

عن قتادة قال: ﴿**أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض**﴾ إنك إن نظرت عن يمينك، أو عن شمالك، أو من بين يديك، أو من خلفك، رأيت السماء والأرض. وقوله: ﴿**إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء**﴾ أي لو شئنا لفعلنا بهم ذلك بظلمهم وقدرتنا عليهم، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا، ثم قال: ﴿**إن في ذلك لآية لكل عبد منيب**﴾ قال قتادة: ﴿**منيب**﴾ تائب. وقال أيضا: المنيب المقبل على الله تعالى. أي إن في النظر إلى خلق السموات والأرض لدلالة لكل عبد فَطِن لبيب رَجَّاع إلى الله، على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ووقوع المعاد، لأن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها، وأطوالها وأعراضها، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام، كما قال تعالى: ﴿**أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى**﴾ [يس: ٨١].

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العَدد والعُدد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات،

وتقف له الطيور السارحات، والغاديات، والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته، ثم قال ﷺ: «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود». ومعنى قوله: ﴿أوبي﴾ أي سبحي، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد، والتأويب في اللغة هو الترجيع، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها.

وقوله: ﴿**وألنا له الحديد**﴾ قال الحسن البصري وقتادة والأعمش وغيرهم: كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط، ولهذا قال تعالى: ﴿**أن اعمل سابغات**﴾ وهي الدروع قال قتادة، وهو أول من عملها من الخلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح.

﴿**وقدر في السرد**﴾ هذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود عليه السلام في تعليمه صنعة الدروع وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿**وقدر في السرد**﴾ لا تُدِقّ المسمار فَيقلَق في الحلقة، ولا تُغلّظه فيفصمها، واجعله بقدر. وهكذا روي عن قتادة وغير واحد، وقال ابن عباس: السرد: حِلَق الحديد.

وقوله: ﴿**واعملوا صالحاً**﴾ أي في الذي أعطاكم الله تعالى من النعم ﴿**إني بما تعملون بصير**﴾ أي مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى علي من ذلك شيء.

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود، عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من تسخير الريح له، تحمل بساطه غدوها شهر ورواحها شهر. قال الحسن البصري: كان يغدو على بساطه من دمشق، فينزل باصطخر يتغذى بها، ويذهب رائحاً من اصطخر فيبيت بكابل، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع.

وقوله: ﴿**وأسلنا له عين القطر**﴾ قال ابن عباس وقتادة والسدي وزيد بن أسلم، وغير واحد: القطر: النحاس. قال قتادة: وكانت باليمن. قال السدي: وإنما أسيلت له ثلاثة أيام. وقوله: ﴿**ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه**﴾ أي وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن ربه، أي بقدره وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنايات وغير ذلك ﴿**ومن يزغ منهم عن أمرنا**﴾ أي ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿**نذقه من عذاب السعير**﴾ وهو الحريق.

وقوله: ﴿**يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل**﴾ أما المحاريب فهي البناء الحسن، وهو أشرف شيء في المسكن وصدره. وقال مجاهد: المحاريب بنيان دون القصور. وقال الضحاك: هي المساجد، وقال قتادة: هي القصور والمساجد. وقال ابن زيد: هي المساكن.

وأما التماثيل، فقال عطية العوفي والضحاك والسدي: التماثيل الصور. قال مجاهد: وكانت من نحاس. وقال قتادة: من طين وزجاج. وقوله: ﴿وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾ الجواب جمع جابية، وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء، وعن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿كالجواب﴾ أي كالجوبة من الأرض. وعنه [أيضا]: كالحياض. وكذا قال مجاهد والحسن والضحاك وغيرهم. والقدور الراسيات، أي الثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمها، كذا قال مجاهد والضحاك وغيرهما. وقوله: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ أي وقلنا لهم: اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم في الدين والدنيا، وشكراً مصدر من غير الفعل، أو أنه مفعول له، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة   يدي ولساني والضمير المحجبا

قال أبو عبد الرحمن الحُبلي: الصلاة شكر والصيام شكر، وكل خير تعمله لله عز وجل شكر، وأفضل الشكر الحمد، وعن محمد بن كعب القرظي قال: الشكر تقوى الله تعالى والعمل الصالح. وهذا لمن هو متلبس بالفعل، وقد كان آل داود عليهم السلام كذلك قائمين بشكر الله تعالى قولاً وعملاً. عن ثابت البناني، قال: كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي، فغمرتهم هذه الآية ﴿اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى».

وقوله: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ إخبار عن الواقع.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام، وكيف عَمَّى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه، وهي مِنْسَأته، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد: مدة طويلة نحواً من سنة، فلما أكلتها دابةُ الأرض، وهي الأرضة، ضعفت وسقطت إلى الأرض، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة. وتبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ

قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾.

كانت سبأ ملوكَ اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جملتهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد، شذر مذر، كما سيأتي إن شاء الله تعالى تفصيله وبيانه قريباً وبه الثقة.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ: ما هو أرجل أم امرأة أم أرض؟ قال ﷺ: «بل هو رجل ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، والشام منهم أربعة، فأما اليمانيون، فَمَذْحِجُ، وكِندَةُ، والأزد والأشعريون، وأنمار، وحمير. وأما الشامية: فلخم وجذام وعاملة وغسان». وإسناده حسن.

ومعنى قوله: «فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة» أي بعد ما أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم، منهم من أقام ببلادهم، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها. وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين، وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً، حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبلين، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار، وعلى رأسها مكتل أو زنبيل، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قُطّاف لكثرته ونضجه واستوائه، وكان هذا السد بمأرب، ويعرف بسد مأرب، وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث، ولا شيء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم، ليوحدوه ويعبدوه، كما قال تبارك وتعالى: **﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية﴾** ثم فسرها بقوله: **﴿جنتان عن يمين وشمال﴾** أي من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك، **﴿كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور﴾** أي غفور لكم إن استمررتم على التوحيد.

وقوله: **﴿فأعرضوا﴾** أي عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله، كما قال هدهد سليمان: **﴿وجئتك من سبإ بنبإ يقين * إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾** [النمل: ٢٢-٢٤].

وقوله: **﴿فأرسلنا عليهم سيل العرم﴾** قيل: المراد بالعرم المياه، وقيل: الوادي، وقيل: الجُرَذ، وقيل الماء الغزير، فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته مثل مسجد الجامع، حكى ذلك السهيلي. وذكر غير واحد منهم ابن عباس ووهب بن منبه وقتادة والضحاك: إن الله عز وجل لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم، بعث على السد دابة من الأرض يقال لها الجُرَذ

نقبته.

وقال قتادة وغيره: الجُرَذ هو الخَلْد، نقبت أسافله حتى إذا ضعف ووَهَى، وجاءت أيام السيول، صَدمَ الماءُ البناء فسقط، فانساب الماء في أسفل الوادي وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال، فيبست وتحطمت وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿**وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط**﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء الخراساني والحسن وقتادة والسدي: وهو الأراك. ﴿**وأثل**﴾ قال ابن عباس: هو الطَّرْفاء. وقال غيره: هو شجر يشبه الطرفاء، وقيل هو السّمُر، والله أعلم.

وقوله: ﴿**وشيء من سدر قليل**﴾ لما كان أجودَ هذه الأشجار المبدل بها هو السّدْر قال: ﴿**وشيء من سدر قليل**﴾ فهذا الذي صار أمر تَيْنك الجنتين إليه بعد الثمار النضيجة، والمناظر الحسنة، والظلال العميقة، والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل، ولهذا قال تعالى: ﴿**ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور**﴾ أي عاقبناهم بكفرهم. قال مجاهد: ولا يعاقب إلا الكفور. وقال الحسن البصري نحوه. وقال طاوس: لا يناقش إلا الكفور. وعن ابن خيرة، وكان من أصحاب علي رضي الله عنه، قال: جزاء المعصية الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة، قيل: وما التعسر في اللذة؟ قال: لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من يُنَغصه إياها.

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾.

يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهني الرغيد، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث أن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمراًو ويقيل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿**وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها**﴾ قال وهب بن منبه: هي قرى بصنعاء، وكذا قال أبو مالك، وقال مجاهد والحسن وزيد بن أسلم والسدي وغيرهم: يعني قرى الشام، يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة.

وقال ابن عباس: **القرى التي باركنا فيها بيت المقدس**، وعنه أيضاً: هي قرى عربية بين المدينة والشام. ﴿**قرى ظاهرة**﴾ **أي بينة واضحة**، يعرفها المسافرون، يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى، ولهذا قال: ﴿**وقدرنا فيها السير**﴾ **أي جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه**

﴿سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين﴾ أي الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهاراً. ﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم﴾ وقرأ آخرون: «بعّد بين أسفارنا»، وذلك أنهم بطروا هذه النعمة كما قاله ابن عباس والحسن وغير واحد، وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحَرُور والمخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في مَنّ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة، ولهذا قال لهم: ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾ [البقرة:٦١]، وقال في حق هؤلاء: ﴿وظلموا أنفسهم﴾ أي بكفرهم ﴿فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق﴾ أي جعلناهم حديثاً للناس وَسَمراً يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء، تفرقوا في البلاد ههنا وههنا، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدي سبأ، وأيادي سبأ.

وقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النقمة والعذاب وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام، لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب شكور على النعم. وفي صحيح مسلم: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله تعالى له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن». وكان مطرف يقول: نعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر.

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى وخالف الرشاد والهدى، فقال: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه﴾ قال ابن عباس وغيره: هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم، ثم قال: ﴿أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾ [الإسراء:٦٢]، وقال: ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ [الأعراف:١٧]، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله: ﴿وما كان له عليهم من سلطان﴾ قال ابن عباس: أي من حجة. وقال الحسن البصري: والله ما ضربهم بعصا ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غروراً وأماني، دعاهم إليها فأجابوه. وقوله: ﴿إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك﴾ أي إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء، فيُحسِنَ عبادة ربه عز وجل في الدنيا ممن هو منها في شك.

وقوله: ﴿وربك على كل شيء حفيظ﴾ أي بحفظه وكلاءته سلم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل.

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

بيَّن تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا نظير له ولا شريك له، بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فقال: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله﴾ أي من الآلهة التي عبدت من دونه ﴿لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾ كما قال تبارك وتعالى: ﴿والذين يدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾ [فاطر:١٣]. وقوله: ﴿وما لهم فيهما من شرك﴾ أي لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشركة، ﴿وما له منهم من ظهير﴾ أي وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه عبيد لديه، قال قتادة في قوله: ﴿وماله منهم من ظهير﴾ من عون يعينه بشيء.

ثم قال: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ أي لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترىء أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة، كما قال تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ [النجم:٢٦]، وقال: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾ [الأنبياء:٢٨]. ولهذا ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم، وأكبر شفيع عند الله تعالى أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم أن يأتي ربهم لفصل القضاء، قال: «فأسجد لله تعالى فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ويفتح علي بمحامد لا أحصيها الآن، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع» الحديث بتمامه.

وقوله: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق﴾ وهذا أيضا مقام رفيع في العظمة، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه، أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي، قاله ابن مسعود رضي الله عنه ومسروق وغيرهما. ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ أي زال الفزع عنها، قال ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم والحسن [وغيرهم] في قوله عز وجل: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق﴾ يقول: جُلِّي عن قلوبهم، فإذا كان كذلك سأل بعضهم بعضاً ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿قالوا الحق﴾ أي أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿وهو العلي الكبير﴾.

وقال آخرون: بل معنى قوله: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ يعني المشركين عند الاحتضار ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة قالوا: ماذا قال ربكم؟ فقيل لهم: الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا. قال مجاهد ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ كشف عنها الغطاء يوم القيامة، وعن الحسن نحوه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿حتى إذ فزع عن قلوبهم﴾ يعني ما فيها من الشك. قال: فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم، ﴿قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾ قال: وهذا في بني آدم هذا عند الموت، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار، وقد اختار ابن جرير القول الأول: أن الضمير عائد على الملائكة، وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه لصحة الأحاديث فيه والآثار، ولنذكر منها طرفاً يدل على غيره.

روى البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه عن أبي هريرة قال: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائه كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء».

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه، فرُمي بنجم فاستنار، فقال ﷺ: «ما كنتم تقولون إذا كان مثلُ هذا في الجاهلية» قالوا: كنا نقول يولد عظيم أو يموت عظيم. قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذي يلونهم حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماء، حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء وتخطف الجن السمع فيرمون، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون» وقد أخرجه مسلم في صحيحه.

وقد روي عن ابن عباس، وقتادة أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله تعالى إلى محمد ﷺ بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى عليه الصلاة والسلام، ولا شك أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية.

﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

يقول تعالى مقرراً تفرده بالخلق والرزق وانفراده بالإلهية أيضاً، فكما كانوا يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض، أي بما ينزل من المطر وينبت من الزرع إلا الله، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره. وقوله: ﴿**وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين**﴾ أي واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى. قال قتادة: قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين والله ما نحن وإياهم على أمر واحد إن أحد الفريقين لمهتد. وقال عكرمة وزياد بن أبي مريم: معناها إنا نحن لعلى هدى وإنكم لفي ضلال مبين.

وقوله: ﴿**قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون**﴾ معناه التبري منهم، أي لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا، كما قال تعالى: ﴿**وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون**﴾ [يونس: ٤١].

وقوله: ﴿**قل يجمع بيننا ربنا**﴾ أي يوم القيامة يجمع بين الخلائق في صعيد واحد، ثم يفتح بيننا بالحق، أي يحكم بيننا بالعدل، فيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصر والسعادة الأبدية، ولهذا قال تعالى: ﴿**وهو الفتاح العليم**﴾ أي الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور.

وقوله: ﴿**قل أروني الذين ألحقتم به شركاء**﴾ أي أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أنداداً وصيرتموها له عدلاً. ﴿**كلا**﴾ أي ليس له نظير، ولا شريك. ولهذا قال: ﴿**بل هو الله**﴾ أي الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿**العزيز الحكيم**﴾ أي ذو العزة التي قد قهر بها كل شيء وغلبت كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، تعالى وتقدس.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ تسليماً: ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً**﴾ أي إلا إلى جميع الخلائق من المكلفين كقوله تعالى: ﴿**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً**﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً**﴾ [الفرقان: ١]. ﴿**بشيراً ونذيراً**﴾ أي تبشر من أطاعك بالجنة وتنذر من عصاك بالنار. ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ كقوله تعالى: ﴿**وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين**﴾ [يوسف: ١٠٣].

قال محمد بن كعب في قوله: ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس**﴾ يعني إلى الناس عامة. وقال قتادة في هذه الآية: أرسل الله تعالى محمداً ﷺ إلى العرب والعجم، فأكرمهم على الله

أطوعهم لله عز وجل.

وقد ثبت في الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة». وفي صحيح [مسلم] أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت إلى الأسود والأحمر». قال مجاهد: يعني الجن والإنس. وقال غيره: يعني العرب والعجم، والكل صحيح.

ثم قال عز وجل مخبراً عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة: **﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾** وهذه الآية كقوله: **﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾** الآية [الشورى:١٨]. ثم قال: **﴿قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾** أي لكم ميعاد مؤجل معدود محرر لا يزاد ولا ينقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم كما قال تعالى: **﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر﴾**.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ
رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ
ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا
رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم، وبما أخبربه من أمر المعاد، ولهذا قال: **﴿وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه﴾** قال الله تعالى متهدداً لهم ومتوعداً ومخبراً عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم: **﴿يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا﴾** وهم الأتباع **﴿للذين استكبروا﴾** وهم قادتهم وسادتهم **﴿لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾** أي لولا أنتم تصدونا لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به. فقال لهم القادة والسادة وهم الذين استكبروا: **﴿أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟﴾** أي نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك، ولهذا قالوا: **﴿بل كنتم مجرمين وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار﴾** أي بل كنتم تمكرون بنا ليلاً نهاراً، وتُمَنّونا وتخبروننا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذب.

قال قتادة: **﴿بل مكر الليل والنهار﴾** يقول: بل مكركم بالليل والنهار، وكذا قال زيد بن أسلم. **﴿إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾** أي نظراء وآلهة معه وتقيمون لنا شبهاً

وأشياء من المحال تضلوننا بها ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ أي الجميع من السادة والأتباع كل ندم على ما سلف منه. ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ أي إنما نجازيكم بأعمالكم كل بحسبه للقادة عذاب بحسبهم وللأتباع بحسبهم ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ وآمراً له بالتأسي بمن قبله من الرسل، ومخبره بأنه ما بعث نبياً في قرية إلا كذبه مترفوها، واتبعه ضعفاؤهم، كما قال قوم نوح عليه الصلاة والسلام ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول﴾ [الإسراء: ١٦]، وقال ههنا: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير﴾ أي نبي أو رسول ﴿إلا قال مترفوها﴾ وهم أولو النعمة والرياسة، قال قتادة: هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر. ﴿إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ أي لا نؤمن به ولا نتبعه.

وقال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل قال فيها: وسألتك أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم؟ فزعمت بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل. [أخرجه البخاري].

وقال تعالى إخباراً عن المترفين المكذبين: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ أي افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة وهيهات لهم ذلك قال الله: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، ولهذا قال تعالى ها هنا: ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء، وله الحكمة التامة البالغة والحجة القاطعة الدامغة ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

ثم قال: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى﴾ أي ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم ولا إعتنائنا بكم. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» ورواه مسلم، ولهذا قال: ﴿إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ أي إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح ﴿فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا﴾ أي تضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها،

إلى سبعمائة ضعف ﴿**وهم في الغرفات آمنون**﴾ أي في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ومن كل شر يُحذر منه.

﴿**والذين يسعون في آياتنا معاجزين**﴾ أي يسعون في الصد عن سبيل الله، واتباع الرسل والتصديق بآياته ﴿**أولئك في العذاب محضرون**﴾ أي جميعهم مَجْزيون بأعمالهم فيها بحسبهم.

وقوله: ﴿**قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له**﴾ أي بحسب ما له في ذلك من الحكمة يبسط على هذا من المال كثيراً. ويضيق على هذا ويقتر عليه رزقه جداً. وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالى: ﴿**انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً**﴾ [الإسراء:٢١] أي كما هم متفاوتون في الدنيا هذا فقير مدقع، وهذا غني مُوَسَّع عليه، فكذلك هم في الأخرة هذا في الغُرفات في أعلى الدرجات، وهذا في الغَمرَات في أسفل الدركات، وأطيب الناس في الدنيا كما قال ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه». رواه مسلم.

وقوله: ﴿**وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه**﴾ أي مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفة عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الأخرة بالجزاء والثواب، كما ثبت في الحديث: «يقول الله تعالى: ابن آدم أنفق، أنفق عليك» [متفق عليه]. وفي الحديث: أن ملكين يصيحان كل يوم يقول أحدهما: «اللهم أعط ممسكاً تلفاً»، ويقول الأخر: «اللهم أعط منفقاً خلفاً» [متفق عليه].

وقال مجاهد: لا يتأولن أحدكم هذه الآية ﴿**وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه**﴾ إذا كان عند أحدكم ما يقيمه، فليقصد فيه، فإن الرزق مقسوم.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه يُقرِّع المشركين يوم القيامة على روؤس الخلائق، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ليقربوهم إلى الله زلفى، فيقول للملائكة: ﴿**أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون**﴾ أي أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم، كما قال في سورة الفرقان: ﴿**أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء**﴾ [الفرقان:١٧]. وهكذا تقول الملائكة: ﴿**سبحانك**﴾ أي تعاليتَ وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿**أنت ولينا من دونهم**﴾ أي نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ﴿**بل كانوا يعبدون الجن**﴾ يعنون الشياطين، لأنهم هم الذين يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم ﴿**أكثرهم بهم مؤمنون**﴾ كما قال تعالى: ﴿**إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً**﴾ [النساء:١١٧]. قال الله تعالى: ﴿**فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً، ولا**

ضراً﴾ أي لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكُرَبكم، اليوم لايملكون لكم نفعاً ولا ضراً، ﴿ونقول للذين ظلموا﴾ وهم المشركون ﴿ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب، لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات يسمعونها غَضَّةً طرية من لسان رسوله ﷺ ﴿قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل. عليهم وعلى آبائهم لعائن الله ﴿وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى﴾ يعنون القرآن ﴿وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ قال الله تعالى: ﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ أي ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ، وقد كانوا يَوَدّون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدى من غيرنا، فلما منّ الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه.

ثم قال: ﴿وكذب الذين من قبلهم﴾ أي من الأمم ﴿وما بلغوا معشار ماآتيناهم﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي من القوة في الدنيا. وكذلك قال قتادة والسدي وابن زيد، ولهذا قال: ﴿فكذبوا رسلي فكيف كان نكير﴾ أي فكيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي.

يقول تبارك وتعالى: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون: ﴿إنما أعظكم بواحدة﴾ أي إنما آمركم بواحدة وهي ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة﴾ أي تقوموا قياماً خالصاً لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضاً هل بمحمد من جنون. فينصح بعضكم بعضاً ﴿ثم تتفكروا﴾ أي ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه، ويتفكر في ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة﴾ هذا معنى ما ذكره مجاهد ومحمد بن كعب والسدي وقتاده وغيرهم، وهذا هو المراد من الآية.

وقوله: ﴿إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ روى البخاري عندها عن ابن عباس قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: مالك؟ فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصَبّحكم أو يُمَسّيكم أما كنتم تصدقوني» قالوا: بلى، قال ﷺ: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا.

فأنزل الله: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾ [المسد:١].

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿ما سألتكم من أجر فهو لكم﴾ أي لا أريد منكم جعلاً ولا عطاء على أداء رسالة الله إليكم، ونصحي إياكم وأمركم بعبادة الله ﴿إن أجري إلا على الله﴾ أي إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله ﴿وهو على كل شيء شهيد﴾ أي عالم بجميع الأمور بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم وما أنتم عليه.

وقوله: ﴿قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب﴾ كقوله تعالى: ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ [غافر:١٥]. أي يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض، وهو علام الغيوب فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض. وقوله: ﴿قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾ أي: جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذهبَ الباطل وزهق واضمحل، كقوله: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ [الأنبياء:١٨]، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يَطعن الصنم بسِيَةِ قَوْسه، ويقرأ: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ ﴿قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾ رواه البخاري ومسلم. أي لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة.

وقوله: ﴿قل إن ضللت فإنماأضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي﴾ أي الخير كله من عند الله، وفيما أنزله عز وجل من الوحي والحق المبين، فيه الهدى والبيان والرشاد، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه. وقوله: ﴿إنه سميع قريب﴾ أي سميع لأقوال عباده قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾.

يقول تبارك وتعالى: ولو ترى يا محمد إذ فَزِع هؤلاء المكذبون يوم القيامة، فلا فوت أي فلا مفر لهم ولا ملجأ ﴿وأخذوا من مكان قريب﴾ أي لم يمكنوا أن يمعنوا في الهرب، بل أخذوا من أول وهلة. قال الحسن البصري: حين خرجوا من قبورهم. وقال مجاهد وعطية العوفي وقتادة: من تحت أقدامهم. وعن ابن عباس والضحاك: يعني عذابهم في الدنيا. وقال عبد الرحمن بن زيد: يعني قتلهم يوم بدر، والصحيح أن المراد بذلك يوم القيامة، وهو الطامة العظمى، وإن كان ما ذكر متصلاً بذلك. ﴿وقالوا آمنا به﴾ أي يوم القيامة يقولون آمنا بالله

وملائكته وكتبه ورسله كما قال تعالى: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ [السجدة: ١٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿وأنى لهم التناوش من مكان بعيد﴾ أي وكيف لهم تعاطي الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم، وصاروا إلى الدار الأخرة، وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الأخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد.

قال مجاهد: ﴿وأنى لهم التناوش﴾ قال: التناول لذلك. وقال الزهري: التناوش تناولهم الإيمان وهم في الآخرة وقد انقطعت عنهم الدنيا، وقال الحسن البصري: أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد. وقال ابن عباس: طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه، وليس بحين رجعة ولا توبة، وكذا قال محمد بن كعب القرظي رحمه الله.

وقوله: ﴿وقد كفروا به من قبل﴾ أي كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا الرسل. ﴿ويقذفون بالغيب من مكان بعيد﴾ قال زيد بن أسلم: بالظن. قلت: كما قال تعالى: ﴿رجماً بالغيب﴾ [الكهف: ٢٢]، فتارة يقولون: شاعر. وتارة يقولون: كاهن. وتارة يقولون: ساحر. وتارة يقولون: مجنون. إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالبعث والنشور والمعاد ويقولون: ﴿إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين﴾ [الجاثية: ٣٢]. قال قتادة: يرجمون بالظن، لا بعث ولا جنة ولا نار.

وقوله: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ قال الحسن البصري والضحاك وغيرهما: يعني الإيمان. وقال السدي: هي التوبة. وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله. وقال مجاهد: ﴿وحيل بينهم وبين مايشتهون﴾ من هذه الدنيا، من مال وزهرة وأهل. وروي نحوه عن ابن عمر وابن عباس والربيع بن أنس، وهو قول البخاري وجماعه، والصحيح أنه لا منافاة بين القولين، فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنياوبين ما طلبوه في الأخرة فمنعوا منه.

وقوله: ﴿كما فعل بأشياعهم من قبل﴾ أي كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسل لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم، كما قال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾ [غافر: ٨٤-٨٥]. وقوله: ﴿إنهم كانوا في شك مريب﴾ أي كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب، قال قتاده إياكم والشك والريبة، فإن من مات على شك بُعِثَ عليه، ومن مات على يقين بعث عليه.

تفسير سورة فاطر وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾.

قال ابن عباس: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، أنا بدأتها. فقال ابن عباس أيضاً: **﴿فاطر السموات والأرض﴾** أي بديع السموات والأرض. وقال الضحاك: كل شيء في القرآن فاطر السموات والأرض فهو: خالق السموات والأرض. وقوله: **﴿جاعل الملائكة رسلاً﴾** أي بينه وبين أنبيائه **﴿أولي أجنحة﴾** أي يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعاً **﴿مثنى وثلاث ورباع﴾** أي منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الإسراء وله ستمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب [رواه البخاري]، ولهذا قال: **﴿يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾** قال السدي: **يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء**، وقال الزهري وابن جريج: حسن الصوت.

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢) ﴾.

يخبر تعالى أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي ولا منع. روى الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبة قال: إني سمعت رسول الله ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ». أخرجاه. وثبت في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: «سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، اللهم أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد». وهذه الآية كقوله تعالى: **﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله﴾** [يونس: ١٠٧]. ولهذا نظائر كثيرة. وكان أبو هريرة إذا مُطِروا يقول: مطرنا بنَوْء الفتح، ثم يقرأ هذه الآية: **﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾**.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾.

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق، فكذلك فَليفرد بالعبادة، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ولهذا قال: **﴿لا إله إلا هو فأنى تؤفكون﴾** أي فكيف تؤفكون [أي تصرفون] بعد هذا البيان،

ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾.

يقول تبارك وتعالى: وإن يكذبوك يا محمد هؤلاء المشركون بالله ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة، فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم **﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾** أي وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء. ثم قال تعالى: **﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق﴾** أي المعاد كائن لا محالة **﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾** أي العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم، فلا تَتَلَهّوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية **﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾** وهو الشيطان قاله ابن عباس. أي لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته، فإنه غرّار كذاب أفاك، وهذه الآية كالآية التي في آخر لقمان **﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾** [لقمان: ٣٣]. قال زيد بن أسلم: هو الشيطان.

ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال: **﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً﴾** أي هو مبارز لكم بالعداوة فعادوه أنتم أشد العداوة، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به **﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾** أي إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير، فهذا هو العدو المبين. فنسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان، وأن يرزقنا اتباع كتابه، والاقتفاء بطريق رسله، إنه قدير، وبالإجابة جدير، وهذه كقوله: **﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾** [الكهف: ٥٠].

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد، لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن، وأن الذين آمنوا بالله ورسله **﴿وعملوا الصالحات لهم مغفرة﴾** أي لما كان منهم من ذنب **﴿وأجر كبير﴾** على ما عملوه من خير. ثم قال: **﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾** يعني كالكفار والفجار، يعملون أعمالاً سيئة، وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، أي أفمن كان هكذا قد أضله الله، ألك فيه حيلة، لاحيلة لك فيه **﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾** أي بقدره كان ذلك **﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾** أي لا تأسف على ذلك، فإن الله حكيم في قدره، إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي، لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام، ولهذا قال تعالى: **﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾**.

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها، كما في أول سورة الحج ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ﴿**اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج**﴾ [الحج: ٥]، كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها، أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً، فتنبت الأجساد في قبورها كما تنبت الحبة في الأرض، ولهذا جاء في الصحيح: «كل ابن آدم يبلى إلا عَجْبَ الذنب، منه خلق ومنه يركب» [رواه البخاري]، ولهذا قال تعالى: ﴿**كذلك النشور**﴾.

وقوله: ﴿**من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً**﴾ أي من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والأخرة فليلزم طاعة الله تعالى، فإنه يحصل له مقصوده لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة وله العزة جميعاً، كما قال تعالى: ﴿**الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً**﴾ [النساء: ١٣٩]. قال مجاهد: ﴿**من كان يريد العزة**﴾ بعبادة الأوثان ﴿**فلله العزة جميعاً**﴾. وقال قتادة: أي فليتعزز بطاعة الله عز وجل.

وقوله: ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب**﴾ يعني الذكر والتلاوة والدعاء، قاله غير واحد من السلف. وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود [قال]: إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله تعالى، إن العبد المسلم إذا قال: سبحان الله وبحمده، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر تبارك الله، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه، ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا واستغفروا لقائلهن حتى يجيء بهن وجه الرحمن عز وجل، ثم قرأ عبد الله: ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه**﴾.

وقوله: ﴿**والعمل الصالح يرفعه**﴾ قال ابن عباس: الكلم الطيب: ذكر الله، يصعد به إلى الله عز وجل، والعمل الصالح: أداء فرائضه، ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله، فكان أولى به. وقال مجاهد: العمل الصالح يرفع الكلام الطيب. وكذا قال أبو العالية وعكرمة والضحاك والسدي وغير واحد. وقال إياس بن معاوية القاضي، لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام. وقال الحسن وقتادة: لا يقبل قولٌ إلا بعمل.

وقوله: ﴿**والذين يمكرون السيئات**﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وشهر بن حوشب: هم المراؤون بأعمالهم، يعني يمكرون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله تعالى، وهم بُغَضاء إلى الله عز وجل يراؤون بأعمالهم، ﴿**ولا يذكرون الله إلا قليلاً**﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المشركون، والصحيح أنها عامة، والمشركون داخلون بطريق الأولى، ولهذا قال: ﴿لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور﴾ أي يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهى، فإنه ما أسر أحدٌ سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير وإن شراً فشر. فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي، أما المؤمنين المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم، بل يُكشف لهم عن قريب، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية.

وقوله: ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة﴾ أي ابتدأ خلق أبيكم من تراب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾ أي ذكراً وأنثى، لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم لتسكنوإليها. وقوله: ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ أي هو عالم بذلك، لا يخفى عليه من ذلك شيء، كقوله تعالى: ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾ [الرعد:٨].

وقوله: ﴿وما يعمّر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ أي ما يعطي بعض النطف من العمر الطويل يعلمه، وهو عنده في الكتاب الأول ﴿ولا ينقص من عمره﴾ الضمير عائد على الجنس لا على العين، لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس قال ابن جرير: وهذا كقولهم عندي ثوب ونصفه أي هو ونصف ثوب آخر، وروي عن ابن عباس: ليس أحد قضيت له طول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له، فذلك قوله: ﴿ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ يقول: كل ذلك في كتاب عنده، وهكذا قال الضحاك بن مزاحم.

وقال زيد بن أسلم: ﴿ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ قال: ما لَفَظت الأرحام من الأولاد من غير تمام. وقال عبد الرحمن في تفسيرها: ألا ترى الناس يعيش الإنسان مائة سنة وآخر يموت حين يولد فهذا هذا. وقال مجاهد: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ أي في بطن أمه يكتب له ذلك، لم يخلق الخلق على عمر واحد، بل لهذا عمر، ولهذا عمر هو أنقص من عمره. وكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغ ما بلغ، وقال بعضهم: بل معناه ﴿وما يعمر من معمر﴾ أي ما يكتب من الأجل ﴿ولا ينقص من عمره﴾ وهو ذهابه قليلاً قليلاً، الجميع معلوم عند الله تعالى سنة بعد سنة، وشهراً بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، ويوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، الجميع مكتوب عند الله في كتاب. نقله ابن جرير عن أبي مالك، وإليه ذهب السدي وعطاء الخراساني، واختار ابن جرير الأول، وهو كما قال.

وروى النسائي عند تفسير هذه الآية الكريمة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت

رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه». وقد رواه البخاري.

وقوله: ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ أي سهل عليه، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته، فإن علمه شامل للجميع، لا يخفى عليه شيء.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة وخلق البحرين العذب الزلال، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، والعمران والبراري والقفار، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ﴿وهذا ملح أجاج﴾ وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة زُعَاقاً مُرَّة، ولهذا قال: ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي مر. ثم قال تعالى: ﴿ومن كل تأكلون لحماً طرياً﴾ يعني السمك ﴿وتستخرجون حلية تلبسونها﴾ كما قال عز وجل: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ [الرحمن: ٢٢ـ٢٣].

وقوله: ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾ أي تمخره وتشقه بحيزومها، وهو مقدمها المُسَنَّم الذي يشبه جؤجؤ الطير وهو صدره، وقال مجاهد: تمخر الريح السفن ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام. وقوله: ﴿لتبتغوا من فضله﴾ أي بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم، وهو البحر، تتصرفون فيه كيف شئتم، وتذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيء منه، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض، الجميع من فضله ورحمته.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم في تسخيره الليل بظلامه، والنهار بضيائه، ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ أي والنجوم السيارات، والثوابت الثاقبات، بأضوائهن أجرام السموات، الجميع يسيرون بمقدار معين، وعلى منهاج مقنن محرر، تقديراً من عزيز عليم. ﴿كل يجري لأجل مسمى﴾ أي إلى يوم القيامة ﴿ذلكم الله ربكم﴾ أي الذي فعل هذا هو الرب العظيم، الذي لا إله غيره ﴿والذين تدعون من دونه﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿ما يملكون من قطمير﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم: القطمير هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة، أي لا يملكون من السموات والأرض شيئاً

ولا بمقدار هذا القطمير.

ثم قال: ﴿**إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم**﴾ يعني الآلهة التي تدعونها من دون الله، لأنها جماد لا أرواح فيها، ﴿**ولو سمعوا ما استجابوا لكم**﴾ أي لا يقدرون على ما تطلبون منها، ﴿**ويوم القيامة يكفرون بشرككم**﴾ أي يتبرؤون منكم، كما قال تعالى: ﴿**ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾ [الأحقاف: ٥ـ٦]. وقوله: ﴿**ولا ينبئك مثل خبير**﴾ أي ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثلُ خبير بها. قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى، فإنه أخبر بالواقع لا محالة.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾.

يخبر تعالى بغناه عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلها إليه وتذللها بين يديه، فقال تعالى: ﴿**يا أيهاالناس أنتم الفقراء إلى الله**﴾ أي هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو تعالى الغني عنهم بالذات، ولهذا قال: ﴿**والله هو الغني الحميد**﴾ أي هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه. وقوله: ﴿**إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد**﴾ أي لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع، ولهذا قال: ﴿**وما ذلك على الله بعزيز**﴾.

وقوله: ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾ أي يوم القيامة ﴿**وإن تدع مثقلةٌ إلى حملها**﴾ أي وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿**لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى**﴾ أي وإن كان قريباً إليها حتى ولو كان أباها أو ابنها، كل مشغول بنفسه وحاله، كما قال تعالى: ﴿**يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه**﴾ [عبس: ٣٤ـ٣٧].

ثم قال: ﴿**إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة**﴾ أي إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنُّهى، الخائفون من ربهم، الفاعلون ما أمرهم به ﴿**ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه**﴾ أي ومن عمل صالحاً فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿**وإلى الله المصير**﴾ أي وإليه المرجع والمآب، وهو سريع الحساب، وسيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينهما فرق وبون كثير، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين وهم الأحياء وللكافرين وهم الأموات، كقوله تعالى: ﴿**أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها**﴾ [الأنعام:١٢٢]، وقال تعالى: ﴿**مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً**﴾ [هود:٢٤] فالمؤمن بصير سميع في نور يمشي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى أصم في ظلمات يمشي لا خروج له منها، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم.

وقوله: ﴿**إن الله يسمع من يشاء**﴾ أي يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والإنقياد لها. ﴿**وما أنت بمسمع من في القبور**﴾ أي كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتب عليهم الشقاوة لا حيلةَ لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم. ﴿**إن أنت إلا نذير**﴾ أي إنما عليك البلاغ والإنذار، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء. ﴿**إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً**﴾ أي بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، ﴿**وإن من أمة إلا خلا فيها نذير**﴾ أي وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر، وأزاح عنهم العلل، كما قال تعالى: ﴿**إنما أنت منذر ولكل قوم هاد**﴾ [الرعد:٧]، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿**وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات**﴾ وهي المعجزات الباهرات والأدلة القاطعات ﴿**وبالزبر**﴾ وهي الكتب ﴿**وبالكتاب المنير**﴾ أي الواضح البين ﴿**ثم أخذت الذين كفروا**﴾ أي ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاؤوهم به، فأخذتهم أي بالعقاب والنكال ﴿**فكيف كان نكير**﴾ أي فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿**وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك**

لآيات لقوم يعقلون﴾ [الرعد: ٤].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها﴾ أي وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان، كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق وهي الجُدَد جمع جُدّة، مختلفة الألوان أيضاً قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجدد: الطرائق، وكذا قال أبو مالك والحسن وقتادة والسدي، ومنها غرابيب سود. قال عكرمة: الغرابيب: الجبال الطوال السود، وكذا قال أبو مالك وعطاء الخراساني وقتادة. وقال ابن جرير: والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد قالوا: أسود غربيب.

وقوله تعالى: ﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك﴾ أي كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب، وهو كل ما دب على القوائم، والأنعام، من باب عطف الخاص على العام كذلك هي مختلفة أيضاً، فالناس منهم حُبُوش في غاية السواد، وصقالبة وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك والهنود دون ذلك، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ [الروم: ٢٢]. وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان، بل الحيوان الواحد يكون فيه من هذا اللون وهذا اللون، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ولهذا قال تعالى بعد هذا: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير، وعن ابن عباس [أيضا] قال: العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك به شيئاً، وأحل حلاله وحرم حرامه، وحفظ وصيته وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله. وقال سعيد بن جبير: الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عز وجل. وقال الحسن البصري: العالم من خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه، ثم تلا الحسن ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به، ويعملون بما فيه من إقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله تعالى في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ أي يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله، ولهذا قال تعالى:

﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ أي ليوفيهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ﴿إنه غفور﴾ أي لذنوبهم ﴿شكور﴾ للقليل من أعمالهم. كان مطرف رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القراء.

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١ ﴾ .

يقول تعالى: ﴿والذي أوحينا إليك﴾ يامحمد من الكتاب وهو القرآن ﴿هو الحق مصدقاً لما بين يديه﴾ أي من الكتب المتقدمة يصدقها كما شهدت هي له بالتنويه، وأنه منزل من رب العالمين. ﴿إن الله بعباده لخبير بصير﴾ أي هو خبير بهم بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر، وفضل النبيين بعضهم على بعض، ورفع بعضهم درجات وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢ ﴾ .

يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب الذين اصطفينا من عبادنا وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال: ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات ﴿ومنهم مقتصد﴾ وهو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات، ﴿ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

قال ابن عباس في قوله: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ قال: هم أمة محمد ﷺ، ورثهم الله تعالى كل كتاب أنزله، فظالمهم يُغفَر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب.

وعن ابن عباس [أيضا]: «السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ، وهكذا روي عن غير واحد من السلف أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين على ما فيه من عوج وتقصير. وقال آخرون: بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ولا من المصطفين الوارثين الكتاب.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: فمنهم ظالم لنفسه قال: هو الكافر، وبه قال عكرمة أيضاً. وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ قال: هم أصحاب المشأمة. وقال زيد بن أسلم والحسن وقتادة: هو المنافق، ثم قد قال ابن عباس والحسن وقتاده: وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة في أول سورة الواقعة وآخرها.

والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة، وهذا اختيار ابن جرير، كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضاً.

فقد روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: ﴿**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله**﴾ فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذي يحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون ﴿**الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لايمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب**﴾ [وإسناده حسن].

روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول الله عز وجل: ما هؤلاء؟ وهو أعلم تبارك وتعالى فتقول الملائكة: هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك شيئاً، فيقول الرب عز وجل: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي وتلا عبد الله رضي الله عنه هذه الآية: ﴿**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا**﴾ الآية.

وقال كعب الأحبار: إن الظالم لنفسه من هذه الأمة والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم في الجنة، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها** ـ إلى قوله عز وجل ـ **والذين كفروا لهم نار جهنم**﴾ قال: فهؤلاء أهل النار.

وعن أبي إسحاق السبيعي في هذه الآية قال: أما ما سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج.

وإذا تقرر هذا، فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة.

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾ ﴾.

يخبر تعالى أن مأوى هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة، جنات عدنٍ، أي جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله عز وجل ﴿**يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً**﴾ كما ثبت في صحيح [مسلم] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء».

﴿**ولباسهم فيها حرير**﴾، ولهذا كان محظوراً عليهم في الدنيا، فأباحه الله تعالى لهم في

الدارالآخرة، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة».

﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ وهو الخوف من المحذور، أزاحه عنا وأرحنا مما كنا نتخوفه ونحذره من هموم الدنيا والآخرة.

﴿إن ربنا لغفور شكور﴾ قال ابن عباس وغيره: غفر لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات ﴿الذي أحلنا دار المقامة من فضله﴾ يقولون الذي أعطانا هذه المنزلة وهذا المقام من فضله ومَنِّه ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال «لن يُدخل أحداً منكم عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يارسول الله ؟ قال «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل». ﴿لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ أي لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء. والنَصب واللغوب كل منهما يستعمل في التعب، وكأن المراد بنفي هذا وهذا عنهم، أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم، والله أعلم، فمن ذلك أنهم كانوا يدئبون أنفسهم في العبادة في الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها، وصاروا في راحة دائمة مستمرة قال الله تعالى: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ [الحاقة: ٢٤].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى حال السعداء، شرع في بيان مآل الأشقياء، فقال: ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا﴾، كما قال تعالى: ﴿لا يموت فيها ولا يحيى﴾ [طه: ٧٤]. وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فلا يموتون فيها ولا يحيون». قال تعالى: ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾ [الزخرف: ٧٧]. فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾، كما قال تعالى: ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٥]، وقال: ﴿كلما خبت زدناهم سعيراً﴾ [الإسراء: ٩٧] ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ [النبأ: ٣٠]. ثم قال: ﴿كذلك نجزي كل كفور﴾ أي هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق.

وقوله: ﴿وهم يصطرخون فيها﴾ أي ينادون فيها يجأرون إلى الله عز وجل بأصواتهم: ﴿ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ أي يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون. فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم، كما قال تعالى مخبراً عنهم في قولهم ﴿فهل إلى خروج

من سبيل. ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا﴾ [غافر:١١-١٢] أي لا يجيبكم إلى ذلك لأنكم كنتم كذلك، ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتم عنه، ولهذا قال ههنا: ﴿أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ أي أو ما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم؟ وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد ههنا، فروي عن علي بن الحسين زين العابدين أنه قال: مقدار سبع عشرة سنة.

وقال قتادة: اعلموا أن طول العمر حجة، فنعوذ بالله أن نغتر بطول العمر قد نزلت هذه الآية ﴿أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ وإن فيهم لابن ثماني عشرة سنة، وكذا قال أبو غالب الشيباني. وقال وهب بن منبه: عشرين سنة، وقال الحسن: أربعين سنة، وقال مسروق: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة، فليأخذ حذره من الله عز وجل، وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: العمر الذي أعذر الله تعالى لابن آدم أربعون سنة. وهذا القول هو اختيار ابن جرير. ثم روي عن ابن عباس قال: العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله: ﴿أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ ستون سنة، فهذه الرواية أصح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضاً، لما ثبت في ذلك من الحديث كما سنورده، لا كما زعمه ابن جرير من أن الحديث لم يصح في ذلك، لأن في إسناده من يجب التثبت في أمره، وقد روي عن علي رضي الله عنه أنه قال في قوله: ﴿أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ ستون سنة.

وروى الإمام البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعذر الله عز وجل إلى إمرىء أخَّر عمره حتى بَلَّغه ستين سنة».

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله إلى عباده به، ويزيح به عنهم العلل، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة، كما ورد بذلك الحديث. روى الحسن بن عرفة رحمه الله عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك». وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه جميعاً في كتاب الزهد عن الحسن بن عرفة. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، [وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي].

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثاً وستين سنة، وقيل ستين، وقيل خمساً وستين، والمشهور الأول، والله أعلم.

وقوله: ﴿وجاءكم النذير﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة وأبي جعفر الباقر رضي الله عنه وقتادة وسفيان بن عيينة أنهم قالوا: يعني الشيب وقال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني به رسول الله ﷺ، وقرأ ابن زيد ﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ [النجم:٥٦]. وهذا هو الصحيح عن قتادة، وهذا اختيار ابن جرير، وهو الأظهر. وقوله تعالى: ﴿فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ أي فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعمالكم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى بعلمه غيب السماوات والأرض، وإنه يعلم ما تكنه السرائر وما تنطوي عليه الضمائر، وسيجازى كل عامل بعمله، ثم قال: ﴿**هو الذي جعلكم خلائف في الأرض**﴾ أي يخلف قوم لآخرين قبلهم وجيل لجيل قبلهم. كما قال: ﴿**ويجعلكم خلفاء الأرض**﴾ [النمل: ٦٢] ﴿**فمن كفر فعليه كفره**﴾ أي فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره ﴿**ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً**﴾ أي كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بخلاف المؤمنين، فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحَسُن عمله، ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة وزاد أجره وأحبه خالقه وبارئه.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿**أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون لله**﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿**أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات**﴾ أي ليس لهم شيء من ذلك ما يملكون من قطمير. وقوله: ﴿**أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه**﴾ أي أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولون من الشرك والكفر؟ ليس الأمر كذلك، ﴿**بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً**﴾ أي بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم وهي غرور وباطل وزور.

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما، فقال: ﴿**إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا**﴾ أي أن تضطربا عن أماكنهما، كما قال: ﴿**ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه**﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿**ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده**﴾ أي لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حليم غفور أي يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فيؤخر ويُنظر ويؤجل ولا يَعجَل، ويستر آخرين ويغفر، ولهذا قال: ﴿**إنه كان حليماً غفوراً**﴾.

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن قريش والعرب، أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم ﴿**لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم**﴾ أي من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل، قاله الضحاك وغيره كقوله تعالى: ﴿**أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفين من قبلنا**

وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينـة مـن ربكـم وهـدى ورحمـة فمـن أظلـم ممـن كـذب بـآيـات الله وصـدف عنهـا﴾ [الأنعام: ١٥٦-١٥٧].

قال الله تعالى: ﴿فلما جاءهم نذير﴾ وهو محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم، وهو القرآن المبين ﴿ما زادهم إلا نفوراً﴾ أي ما ازدادوا إلا كفراً إلى كفرهم، ثم بين ذلك بقوله: ﴿استكباراً في الأرض﴾ أي: استكبروا عن اتباع آيات الله ﴿ومكر السيء﴾ أي ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ أي وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم.

قال محمد بن كعب القرظي: ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به: من مكر أو بغى أو نكث، وتصديقها في كتاب الله تعالى: ﴿ولايحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾ [يونس: ٢٣]، ﴿ومن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ [الفتح: ١٠].

وقوله: ﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين﴾ يعني عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أي لاتغير ولا تبدل، بل هي جارية كذلك في كل مكذب. ﴿ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ أي ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له﴾ [الرعد: ١١]، ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد، والله أعلم.

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة: سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، فخلت منهم منازلهم، وسلبوا ما كانوا فيه من النِّعَم بعد كمال القوة وكثرة العدد والعُدَد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئاً، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء، لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يعجزه شيء إذا أراد كونه في السماوات والأرض ﴿إنه كان عليماً قديراً﴾ أي عليم بجميع الكائنات قدير على مجموعها. ثم قال تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ أي لو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل الأرض وما يملكونه من دواب وأرزاق.

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله [بن مسعود] قال: كاد الجُعْلُ أن يعذب في جحره بذنب ابن آدم، ثم قرأ: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾. وقال سعيد بن جبير والسدي في قوله: ﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾ أي لما سقاهم المطر فماتت جميع الدواب، ﴿ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ أي ولكن يُنْظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم

يومئذ، ويوفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهل الطاعة وبالعقاب أهل المعصية، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً﴾.

تفسير سورة يس وهي مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ ﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. وروي عن ابن عباس وعكرمة والضحاك والحسن وسفيان بن عيينة أن يس بمعنى يا إنسان. وقال سعيد بن جبير: هو كذلك في لغة الحبشة، وقال زيد بن أسلم: هو اسم من أسماء الله تعالى. ﴿والقرآن الحكيم﴾ أي المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿إنك﴾ يا محمد﴿لمن المرسلين على صراط مستقيم﴾ أي على منهج ودين قويم وشرع مستقيم ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾ أي هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به مُنَزل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾ [الشورى:٥٢ـ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾ يعني بهم العرب، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله، وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم. وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة في عموم بعثته ﷺ عند قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ [الأعراف:١٥٨]. وقوله: ﴿لقد حق القول على أكثرهم﴾ قال ابن جرير: لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ﴿فهم لايؤمنون﴾ بالله ولا يصدقون رسله.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢ ﴾.

يقول تعالى: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جُعل في عنقه غُل، فجَمَع يديه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسه فصار مقمَحاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فهم مقمحون﴾ والمقمح هو الرافع رأسه، ولما كان الغُلّ إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق، اكتفى بذكر العنق عن اليدين. وعن ابن عباس في قوله: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون﴾ قال: هو كقوله تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ [الإسراء:٢٩] يعني بذلك أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يبسطوها

بخير. وقال مجاهد: ﴿فهم مقمحون﴾ قال: رافعو رؤوسهم، وأيديهم موضوعة على أفواههم، فهم مغلولون عن كل خير.

وقوله: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً﴾ قال مجاهد: عن الحق ﴿ومن خلفهم سداً﴾ قال: عن الحق فهم يترددون. وقال قتادة: في الضلالات. وقوله: ﴿فأغشيناهم﴾ أي أغشينا أبصارهم عن الحق ﴿فهم لا يبصرون﴾ أي لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: جعل الله تعالى هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان، فهم لا يخلصون إليه، وقرأ: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس:٩٦-٩٧] ثم قال: من منعه الله تعالى لا يستطيع.

وقوله: ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون﴾ أي قد ختم الله عليهم بالضلالة فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به، وقد تقدم نظيرها في أول سورة البقرة، ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر﴾ أي إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر، وهو القرآن العظيم ﴿وخشي الرحمن بالغيب﴾ أي حيث لا يراه أحد إلا الله، يعلم أن الله مطلع عليه وعالم بما يفعله ﴿فبشره بمغفرة ﴾ أي لذنوبه ﴿وأجر كريم﴾ أي كبير واسع حسن جميل، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾ [الملك:١٢]. ثم قال تعالى: ﴿إنا نحن نحيي الموتى﴾ أي يوم القيامة، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار، الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة فيهديهم بعد ذلك إلى الحق، كما قال بعد ذكر قسوة القلوب: ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ [الحديد:١٧].

وقوله: ﴿ونكتب ماقدموا﴾ أي من الأعمال. وفي قوله: ﴿وآثارهم﴾ قولان: **أحدهما**: نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم فنجزيهم على ذلك أيضاً إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كقوله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها، وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً» رواه مسلم.

وقال مجاهد في قوله: ﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ قال: ما أورثوا من الضلالة. وهذا القول هو اختيار البغوي.

والقول الثاني: أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية، قال مجاهد [أيضا]: ﴿ما قدموا﴾ أعمالهم ﴿وآثارهم﴾ قال: خطاهم بأرجلهم، وكذا قال الحسن وقتاده. وقال قتادة: لو كان الله عز وجل مغفلاً شيئاً من شأنك يا ابن آدم أغفل ما تعفي الرياح من هذه الآثار، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله تعالى أو من معصيته، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله تعالى فليفعل. وقد وردت في هذا المعنى أحاديث [منها ما]:

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لهم: «إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد؟» قالوا: نعم يارسول الله قد أردنا ذلك، فقال ﷺ: «يا بني سلمة، دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم». وهكذا رواه مسلم.

وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب، فلأن تكتب تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى، والله أعلم.

وقوله: ﴿**وكل شيء أحصيناه في إمام مبين**﴾ أي وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ، والإمام المبين ههنا هو أم الكتاب، قاله مجاهد وقتاده وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وكذا في قوله تعالى: ﴿**يوم ندعو كل أناس بإمامهم**﴾ [الإسراء:٧١] أي بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿**ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء**﴾ [الزمر:٦٩].

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

يقول تعالى: واضرب يا محمد لقومك الذين كذبوك ﴿**مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون**﴾ قال ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه: إنها مدينة أنطاكية وكان بها ملك يعبد الأصنام، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل، فكذبهم. وهكذا روي عن بريدة بن الحصيب وعكرمة وقتادة والزهري أنها أنطاكية، وقد استشكل بعض الأئمة كونها أنطاكية بما سنذكره بعد تمام القصة إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿**إذ أرسلنا إليهم إثنين فكذبوهما**﴾ أي بادروهما بالتكذيب ﴿**فعززنا بثالث**﴾ أي قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث. ﴿**فقالوا**﴾ أي لأهل تلك القرية ﴿**إنا إليكم مرسلون**﴾ أي من ربكم الذي خلقكم يأمركم بعبادته وحده لا شريك له، قاله أبو العالية. وزعم قتادة: أنهم كانوا رسل المسيح عليه السلام إلى أهل أنطاكية ﴿**قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا**﴾ أي فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر ونحن بشر، فلم لا أوحي إلينا مثلكم، ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة، وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿**ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا**﴾ [التغابن:٦]، فاستعجبوا من ذلك وأنكروه. ولهذا قال هؤلاء: ﴿**ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون**﴾ أي أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كَذَبة عليه لا نتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم وستعلمون لمن تكون عاقبة

الدار. ﴿وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ يقولون: إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، فإذا أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة، وإن لم تجيبوا فستعلمون غِبَّ ذلك، والله أعلم.

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

فعند ذلك قال لهم أهل القرية: ﴿إنا تطيرنا بكم﴾ أي لم نر على وجوهكم خيراً في عيشنا. وقال قتادة: يقولون إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم. وقال مجاهد: يقولون لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها. ﴿لئن لم تنتهوا لنرجمنكم﴾ قال قتادة: بالحجارة. وقال مجاهد: بالشتم. ﴿وليمسنكم منا عذاب أليم﴾ أي عقوبة شديدة، فقالت لهم رسلهم ﴿طائركم معكم﴾ أي مردود عليكم، كقوله تعالى في قوم صالح ﴿اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله﴾ [النمل: ٤٧]. وقال قتادة ووهب بن منبه: أي أعمالكم معكم. وقوله: ﴿أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له، قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا وتهددتمونا، بل أنتم قوم مسرفون. وقال قتادة: أي إن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا بل أنتم قوم مسرفون.

﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما وكعب الأحبار ووهب بن منبه: إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى، أي لينصرهم من قومه، قالوا: وهو حبيب، وكان يعمل الجرير وهو الحبال وكان رجلاً سقيماً قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه مستقيم الفطرة. ﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿اتبعوا من لايسألكم أجراً﴾ أي على إبلاغ الرسالة ﴿وهم مهتدون﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ومالي لا أعبد الذي فطرني﴾ أي وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لاشريك له ﴿وإليه ترجعون﴾ أي يوم المعاد، فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿أأتخذ من دونه آلهة﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ﴿إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون﴾ أي هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لايملكون من الأمر شيئاً، فإن الله تعالى لو أرادني بسوء فلا كاشف له إلا هو، وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه، ولا ينقذونني مما أنا فيه ﴿إني إذاً لفي ضلال مبين﴾ أي إن اتخذتها آلهة من دون الله.

وقوله: ﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾ عن ابن عباس وكعب ووهب: يقول لقومه ﴿إني آمنت بربكم﴾ الذي كفرتم به ﴿فاسمعون﴾ أي فاسمعوا قولي. ويحتمل أن يكون خطابه

للرسل. وقد حكاه ابن جرير فقال: وقال آخرون: بل خاطب بذلك الرسل، وقال لهم: اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي، إني آمنت بربكم واتبعتكم، وهذا القول الذي حكاه عن هؤلاء أظهر في المعنى، والله أعلم. وعن ابن عباس وكعب ووهب: فلما قال ذلك، وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه. وقال قتادة: جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومي فإنهم لايعلمون، فلم يزالوا به حتى أقعصوه، وهو يقول كذلك، فقتلوه رحمه الله.

﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

عن ابن مسعود: أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه من دبره، وقال الله له: **﴿ادخل الجنة﴾** فدخلها فهو يرزق منها قد أذهب الله عنه سُقْم الدنيا وحزنها ونَصَبها. وقال مجاهد: قيل لحبيب النجار: ادخل الجنة، وذلك أنه قتل فوجبت له، فلما رأى الثواب **﴿قال يا ليت قومي يعلمون﴾** قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً لا تلقاه غاشاً. لمَّا عاين ما عاين من كرامة الله **﴿قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾** تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله له. وقال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: **﴿يا قوم اتبعوا المرسلين﴾** وبعد مماته في قوله **﴿يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾**.

وقال أبو مِجْلَز: **﴿بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾** بإيماني بربي وتصديقي المرسلين. ومقصودة أنهم لو اطلعوا على ما حصل من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل فرحمه الله ورضي عنه، فلقد كان حريصاً على هداية قومه.

وقوله: **﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين﴾** يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه، غضباً منه تبارك وتعالى عليهم، لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليه، ويذكر تعالى أنه ما أنزل عليهم وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم، بل الأمر كان أيسر من ذلك. عن ابن مسعود في قوله: **﴿وما كنا منزلين﴾** أي ما كاثرناهم بالجموع، الأمر كان أيسر علينا من ذلك **﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾** قال: فأهلك الله تعالى ذلك الملك ، وأهلك أهل أنطاكية، فبادوا عن وجه الأرض فلم يبق منهم باقية، وقيل: **﴿وما كنا منزلين﴾** أي وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم بل نبعث عليهم عذاباً يدمرهم، وقيل: المعنى في قوله: **﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء﴾** أي من رسالة أخرى إليهم، قاله مجاهد وقتادة. قال ابن جرير: والأول أصح، لأن الرسالة لا تسمى جنداً. قال المفسرون. بعث الله تعالى إليهم جبريل عليه الصلاة والسلام، فأخذ بعضادتي باب بلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة، فإذا هم خامدون عن آخرهم لم تبق

بهم روح تتردد في جسد. وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، كما نص عليه قتادة وغيره، وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره، وفي ذلك نظر من وجوه:

أحدها: أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل، لا من جهة المسيح عليه السلام كما قال تعالى: ﴿**إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون** ـ إلى أن قالوا ـ **ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين**﴾ [يس: ١٤ـ١٧]، ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام. والله تعالى أعلم، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم ﴿**ما أنتم إلا بشر مثلنا**﴾.

الثاني: أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح، ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتي فيهن بتاركة، وهن: القدس لأنها بلد المسيح، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، والإسكندرية لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين، ثم رومية لأنها مدنية الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأوطده، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت، فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم، والله أعلم.

الثالث: أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وغير واحد من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، ذكروه عند قوله تبارك وتعالى: ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى**﴾ [القصص: ٤٣]. فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً. أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

قال ابن عباس في قوله: ﴿**يا حسرة على العباد**﴾ أي يا ويل العباد. وقال قتادة ﴿**يا حسرة على العباد**﴾ أي يا حسرة العباد على أنفسهم على ما ضيعت من أمر الله، وفرطت في جنب الله، ومعنى هذا: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله، فإنهم كانوا في الدار الدنيا المكذبون منهم ﴿**ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون**﴾ أي يكذبونه ويستهزئون به ويجحدون ما أرسل به من الحق.

ثم قال تعالى: ﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون﴾ أي ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفجرتهم من قولهم: ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾ [المؤمنون: ٣٧]، وهم القائلون بالدور من الدهرية، وهم الذين يعتقدون جهلاً منهم أنهم يعودون إلى الدنيا، كما كانوا فيها، فرد الله تبارك وتعالى عليهم باطلهم، فقال: ﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون﴾.

وقوله: ﴿وإن كل لما جميع لدينا محضرون﴾ أي وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جل وعلا، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها، ومعنى هذا كقوله تعالى: ﴿وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم﴾ [هود: ١١١]. وقد اختلف القراء في أداء هذا الحرف، فمنهم من قرأ: «وإن كلاً لَمَا» بالتخفيف فعنده أن إن للإثبات، ومنهم من شدد: «لمّا» وجعل أن نافية، ولما بمعنى إلا، تقديره وما كل إلا جميع لدينا محضرون، ومعنى القراءتين واحد، والله أعلم.

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿وآية لهم﴾ أي دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿الأرض الميتة﴾ أي إذا كانت ميتة هامدة لا شيء فيها من النبات، فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء، اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ولهذا قال: ﴿أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون﴾ أي جعلناه رزقاً لهم ولأنعامهم ﴿وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون﴾ أي جعلنا فيها أنهاراً سارحة في أمكنة يحتاجون إليها ليأكلوا من ثمره، لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم، عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها.

وقوله: ﴿وما عملته أيديهم﴾ أي وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم لا بسعيهم ولا بحولهم وقوتهم، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: ولهذا قال: ﴿أفلا يشكرون﴾ أي فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى، واختار ابن جرير - بل جزم به، ولم يحك غيره إلا احتمالاً - أن «ما» في قوله تعالى: ﴿وما عملته أيديهم﴾ بمعنى الذي تقديره ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم أي غرسوه ونصبوه. ثم قال: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض﴾ أي من زروع وثمار ونبات ﴿ومن أنفسهم﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى، ﴿ومما لا يعلمون﴾ أي من مخلوقات شتى لا يعرفونها، كما قال جلت عظمته: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ

ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى: ومن الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة، خلق الليل والنهار هذا بظلامه وهذا بضيائه، وجعلهما يتعاقبان يجيء هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيجيء هذا، كما قال تعالى: ﴿**يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً**﴾ [الأعراف: ٥٤]، ولهذا قال ههنا: ﴿**وآية لهم الليل نسلخ منه النهار**﴾ أي نصرمه منه، فيذهب فيقبل الليل، ولهذا قال: ﴿**فإذا هم مظلمون**﴾.

وقوله: ﴿**والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم**﴾ في معنى قوله: ﴿**لمستقر لها**﴾ قولان: **أحدهما**: أن المراد مستقرها المكاني، وهو تحت العرش. روى البخاري عن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ: في المسجد عند غروب الشمس، فقال ﷺ «يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله تعالى: ﴿**والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم**﴾».

[وفي رواية] عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: «أتدري أين تذهب؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد، فلا يقبل منها؟ وتستأذن فلا يؤذن لها، ويقال لها ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿**والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم**﴾».

وقيل: المراد بمستقرها هو انتهاء سيرها، وهو غاية ارتفاعها في السماء في الصيف وهو أوجها، ثم غاية انخفاضها في الشتاء وهو الحضيض.

والقول الثاني: أن المراد بمستقرها هو منتهى سيرها، وهو يوم القيامة، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكور، وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهذا هو مستقرها الزماني. قال قتادة ﴿**لمستقر لها**﴾ أي لوقتها ولأجل لا تعدوه، وقيل: المراد أنها لا تزال تنتقل في مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها، ثم تنتقل في مطالع الشتاء إلى مدة لا تزيد عليها، يروى هذا عن عبد الله بن عمرو. وقرأ ابن مسعود وابن عباس: والشمس تجري لا مستقر لها» أي لا قرار لها ولا سكون، بل هي سائرة ليلاً ونهاراً، لا تفتر ولا تقف. كماقال تعالى: ﴿**وسخر لكم الشمس والقمر دائبين**﴾ [إبراهيم: ٣٣] أي لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة. ﴿**ذلك تقدير العزيز**﴾ أي الذي لا يخالَف ولا يُمانَع ﴿**العليم**﴾ بجميع الحركات والسكنات، وقد قدر ذلك وقنّنه على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس، كما قال: ﴿**فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم**﴾ [الأنعام: ٩٦]. وهكذا ختم آية حم السجدة بقوله: ﴿**ذلك تقدير العزيز العليم**﴾ [فصلت: ١٢].

ثم قال: ﴿**والقمر قدرناه منازل**﴾ أي جعلناه يسير سيراً آخر يستدل به على مضي الشهور،

كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار، كما قال: ﴿**يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج**﴾ [البقرة:١٨٩]. وقال: ﴿**هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب**﴾ الآية [يونس:٥]، وقال: ﴿**وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً**﴾ [الإسراء:١٢]، فجعل الشمس لها ضوء يخصها، والقمر له نور يخصه، وفاوت بين سير هذه وهذا، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاء، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وجعل سلطانها بالنهار فهي كوكب نهاري، وأما القمر فقدره منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياءً وإن كان مقتبساً من الشمس حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم. قال ابن عباس: وهو أصل العِذْق. وقال مجاهد: العرجون القديم: أي العذق اليابس. يعني ابن عباس أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى، وكذا قال غيرهما.

وقوله: ﴿**لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر**﴾ قال مجاهد: لكل منهما حد لا يعدوه ولا يُقصر دونه، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا، وقال الحسن: ذلك ليلة الهلال. وقال أبو صالح: لا يدرك هذا ضوء هذا ولا هذا ضوء هذا. وقال عكرمة: يعني أن لكل منهما سلطاناً! فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل.

وقوله: ﴿**ولا الليل سابق النهار**﴾ يقول: لا ينبغي إذا كان الليلُ أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار، فسلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل. وقال الضحاك: لا يذهب الليل من ههنا حتى يجيء النهار من ههنا، وأومأ بيده إلى المشرق. وقال مجاهد: ﴿**ولا الليل سابق النهار**﴾ يطلبان حثيثين ينسلخ أحدهما من الآخر، والمعنى في هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ، لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلباً حثيثاً.

وقوله: ﴿**وكل في فلك يسبحون**﴾ يعني الليل والنهار والشمس والقمر، كلهم يسبحون أي يدورون في فلك السماء، قاله ابن عباس وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة وعطاء الخراساني. وقال ابن عباس وغير واحد من السلف: في فلكة كفلكة المغزل. وقال مجاهد: الفلك كحديدة الرَّحَى أو كفلكة المغزل، لا يدور المغزل إلا بها، ولا تدور إلا به.

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

يقول تبارك وتعالى: ودلالة لهم أيضاً على قدرته تبارك وتعالى تسخيره البحر ليحمل السفن، فمن ذلك بل أوله سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، التي أنجاه الله تعالى فيها بمن معه

من المؤمنين، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام غيرهم، ولهذا قال: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم﴾ أي آباءهم ﴿في الفلك المشحون﴾ أي في السفينة الموقرة المملوءة من الأمتعة والحيوانات، التي أمره الله تبارك وتعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين. قال ابن عباس: المشحون الموقر، وكذا قال سعيد بن جبير والشعبي وقتادة والسدي. وقال الضحاك وقتادة وابن زيد: وهي سفينة نوح عليه السلام.

وقوله: ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾ عن ابن عباس: يعني بذلك الإبل، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها، وكذا قال مجاهد وقتادة في رواية، وعبد الله بن شداد وغيرهم. وقال السدي في رواية: هي الأنعام. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: هي السفن جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها، وكذا قال أبو مالك والضحاك وقتادة وأبو صالح والسدي أيضاً، ويقوي هذا المذهب في المعنى قوله تعالى: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾ [الحاقة: ١١-١٢].

وقوله: ﴿وإن نشأ نغرقهم﴾ يعني الذين في السفن ﴿فلا صريخ لهم﴾ أي فلا مغيث لهم مما هم فيه ﴿ولا هم ينقذون﴾ أي مما أصابهم ﴿إلا رحمة منا﴾ وهذا استثناء منقطع تقديره ولكن برحمتنا نسيركم في البر والبحر، ونُسَلِّمكم إلى أجل مسمى، ولهذا قال: ﴿ومتاعاً إلى حين﴾ أي إلى وقت معلوم عند الله.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها، وما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة ﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم﴾ قال مجاهد: من الذنوب، ﴿لعلكم ترحمون﴾ أي لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه، وتقدير كلامه: أنهم لا يجيبون إلى ذلك ويعرضون عنه، واكتفى عن ذلك بقوله: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم﴾ أي على التوحيد وصدق الرسل ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ أي لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها.

وقوله: ﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله﴾ أي إذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا﴾ أي قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمروهم به: ﴿أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾ أي هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه، فنحن نوافق مشيئة الله تعالى فيهم ﴿إن أنتم إلا في ضلال مبين﴾ أي في أمركم لنا بذلك.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا

يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾ [الشورى:١٨]، قال الله تعالى: ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون﴾ أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه والله أعلم ـ نفخة الفزع، ينفخ في الصور نفخة الفزع، والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذ أمر الله عز وجل إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يُطوّلها ويَمُدّها، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً ـ وهي صفحة العنق ـ يتسمع الصوت من قبل السماء، ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فلا يستطيعون توصية﴾ أي على ما يملكونه، الأمر أهم من ذلك ﴿ولا إلى أهلهم يرجعون﴾ ثم يكون بعد هذا نفخة الصعق التي تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم، ثم بعد ذلك نفخة البعث.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

هذه هي النفخة الثالثة، وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور، ولهذا قال تعالى: ﴿فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾ والنَّسلان: هو المشي السريع كما قال تعالى: ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ [المعارج:٤٣]. ﴿قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، فلما عاينوا ما كذبوا به في محشرهم ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم، لأنه بالنسبة إلى مابعده في الشدة كالرقاد. قال أبي بن كعب رضي الله عنه ومجاهد والحسن وقتادة: ينامون نومة قبل البعث. قال قتادة: وذلك بين النفختين، فلذلك يقولون من بعثنا من مرقدنا، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون، قاله غير واحد من السلف: ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾. وقال الحسن: إنما يجيبهم بذلك الملائكة، ولا منافاة إذ الجمع ممكن، والله أعلم.

وقال عبد الرحمن بن زيد: الجميع من قول الكفار. نقله ابن جرير، واختار الأول، وهو أصح، وذلك كقوله تعالى: ﴿وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون﴾ [الصافات:٢٠ـ٢١].

وقوله: ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ كقوله: ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾ [النازعات:١٣ـ١٤]، أي إنما نأمرهم أمراً واحداً، فإذا الجميع محضرون، ﴿فاليوم لاتظلم نفس شيئاً﴾ أي من عملها ﴿ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾.

﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العَرَصات، فنزلوا في روضات الجنات، أنهم في شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم. قال الحسن البصري وإسماعيل بن أبي خالد: في شغل عما فيه أهل النار من العذاب. وقال مجاهد: **﴿في شغل فاكهون﴾** أي في نعيم معجبون أي به، وكذا قال قتادة، وقال ابن عباس: فاكهون أي فرحون. قال عبد الله بن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما وسعيد المسيب والحسن [وغيرهم]: شغلهم افتضاض الأبكار.

وقوله: **﴿هم وأزواجهم﴾** قال مجاهد: وحلائلهم، **﴿في ظلال﴾** أي في ظلال الأشجار **﴿على الأرائك متكئون﴾**. قال ابن عباس ومحمد بن كعب والحسن [وغيرهم]: **﴿الأرائك﴾** هي السرر تحت الحجال. وقوله: **﴿لهم فيها فاكهة﴾** أي من جميع أنواعها **﴿ولهم ما يدّعون﴾** أي مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ. وقوله: **﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾** قال ابن عباس: فإن الله تعالى نفسه سلام على أهل الجنة، وهذا الذي قاله ابن عباس كقوله تعالى: **﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾** [الأحزاب: ٤٤].

﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا بمعنى يتميزون عن المؤمنين في موقفهم، كقوله تعالى: **﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾** [الروم: ١٤].

وقوله: **﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾** هذا تقريع من الله تعالى للكفرة من بني آدم، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم، ولهذا قال: **﴿وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾** أي قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به ولهذا قال: **﴿ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً﴾** يقال: جبلاً بكسر الجيم وتشديد اللام، ويقال جُبُلاً بضم الجيم والباء وتخفيف اللام، ومنهم من يسكن الباء، [وكلها قراءات سبعية]. والمراد بذلك: الخلق الكثير، قاله مجاهد وقتادة والسدي وسفيان بن عيينة.

وقوله: **﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾** أي أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له، وعُدُولُكم إلى اتباع الشيطان.

﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ

وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ
يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة وقد برزت الجحيم لهم تقريعاً وتوبيخاً **﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾** أي هذه التي حذرتكم الرسل، فكذبتموهم **﴿اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾** كما قال تعالى: **﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾** [الطور: ١٣-١٥]. وقوله تعالى: **﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾** هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم بما عملت.

روى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال ﷺ: «أتدرون ممَّ أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز علي إلا شاهداً من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي. فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لكن وسحقاً، فعنكن كنت أناضل». وقد رواه مسلم.

وقوله: **﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون﴾** قال ابن عباس في تفسيرها: يقول ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى، فكيف يهتدون؟ وقال مرة: أعميناهم: وقال الحسن البصري: لو شاء الله لطمس على أعينهم فجعلهم عُمياً يترددون. وقال السدي: لو نشاء أعمينا أبصارهم. وقال مجاهد وأبو صالح وقتادة والسدي: فاستبقوا الصراط، يعني الطريق. وقال ابن زيد: يعني بالصراط ههنا الحق، فأنى يبصرون وقد طمسنا على أعينهم. وعن ابن عباس [أيضا]: **﴿فأنى يبصرون﴾** يقول: لا يبصرون الحق.

وقوله: **﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم﴾** قال ابن عباس: أهلكناهم. وقال السدي: يعني لغيَّرنا خلقهم. وقال الحسن البصري وقتادة: لأقعدهم على أرجلهم، ولهذا قال تعالى: **﴿فما استطاعوا مضياً﴾** أي إلى أمام **﴿ولا يرجعون﴾** إلى وراء بل يلزمون حالاً واحداً لا يتقدمون و لا يتأخرون.

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ
مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره، رد إلى الضعف بعد القوة، والعجز بعد النشاط، كما قال تعالى: **﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾** [الروم: ٥٤]. والمراد من هذا ـ

والله أعلم الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال، لا دار دوام واسقرار، ولهذا قال: ﴿أفلا يعقلون﴾ أي يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم، ثم صيرورتهم إلى الشبيبة، ثم إلى الشيخوخة ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال لها ولا انتقال منها ولا محيد عنها، وهي الدار الآخرة.

وقوله: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ يقول تعالى: مخبراً عن نبيه محمد ﷺ أنه ما علمه الشعر ﴿وما ينبغي له﴾ أي ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضيه جبلته، ولهذا ورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم بل إن أنشده زحفه أو لم يتمه.

وثبت في الصحيحين أنه ﷺ تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، ولكن تبعاً لقول أصحابه رضي الله عنهم، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون فيقولون:

لا همَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنـزلـن سـكـينة علينا وثبت الأقـدام إن لاقينا
إن الألى قد بغـوا علـينا إذا أرادوا فـتنة أبـــينا

ويرفع ﷺ صوته بقوله أبينا ويمدها، وقد روى هذا بزحاف في الصحيح أيضاً، وكذا ثبت أنه ﷺ قال يوم حنين وهو راكب البغلة يقدم بها في نحور العدو:

أنا النـــبي لا كـــذب أنا ابـــن عبد المطلـــب [متفق عليه].

لكن قالوا هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه، وكذلك ما ثبت في الصحيحين عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غار، فَنَكِبت أصبعه، فقال:

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سـبيل الله ما لقيت

وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما علم شعراً ولا ينبغي له، فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [فصلت: ٤٢]. وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش، ولا كهانة، ولا مفتعل، ولا سحر يؤثر، كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال، وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً.

وروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً». وإسناده على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

على أن الشعر فيه ما هو مشروع، وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وأمثالهم وأضرابهم رضي الله عنهم أجمعين، ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب، كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية، ومنهم أمية بن أبي الصلت، وقد أنشد بعض الصحابة [من شعره] للنبي ﷺ مائة بيت يقول عقب

كل بيت «هيه» يعني يستطعمه، فيزيده من ذلك. [رواه مسلم]. ولهذا قال تعالى: ﴿**وما علمناه الشعر**﴾ يعني محمداً ﷺ ما علمه الله الشعر، «وما ينبغي له﴾ أي وما يصلح له ﴿**إن هو**﴾ أي ما هذا الذي علمناه ﴿**إلا ذكر وقرآن مبين**﴾ أي بيِّن واضح جلي لمن تأمله وتدبره، ولهذا قال: ﴿**لينذر من كان حياً**﴾ أي لينذر هذا القرآن البيّن كلّ حي على وجه الأرض، كقوله: ﴿**لأنذركم به ومن بلغ**﴾ [الأنعام:١٩]. وإنما ينتفع بنذارته من هو حي القلب مستنير البصيرة، كما قال قتادة: حي القلب حي البصر. وقال الضحاك يعني عاقلاً ﴿**ويحق القول على الكافرين**﴾ أي هو رحمة للمؤمنين وحجة على الكافرين.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ﴿**فهم لها مالكون**﴾ قال قتادة: مطيقون، أي جعلهم يقهرونها وهي ذليلة لهم، لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه، ولوشاء لأقامه وساقه، وذاك ذليل منقاد معه، وكذا لو كان القطَارُ مائة بعير أو أكثر لسار الجميع بسير الصغير. وقوله: ﴿**فمنها ركوبهم ومنها يأكلون**﴾ أي منها ما يركبون في الأسفار ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار. ﴿**ومنها يأكلون**﴾ إذا شاؤوا نحروا واجتزروا ﴿**ولهم فيها منافع**﴾ أي من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴿**ومشارب**﴾ أي من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ونحو ذلك، ﴿**أفلا يشكرون**﴾ أي أفلا يُوحّدُون خالق ذلك ومسخره ولا يشركون به غيره؟.

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى، قال الله تعالى: ﴿**لايستطيعون نصرهم**﴾ أي لاتقدر الآلهة على نصر عابديها بل هي أضعف من ذلك وأقل وأحقر وأدحر، بل لا تقدر على الانتصار لأنفسها، ولا الإنتقام ممن أرادها بسوء، لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل.

وقوله: ﴿**وهم لهم جند محضرون**﴾ قال مجاهد: يعني عند الحساب يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة، محضرة عند حساب عابديها، ليكون ذلك أبلغ في خزيهم، وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم. وقال قتادة: ﴿**لايستطيعون نصرهم**﴾ يعني: الآلهة ﴿**وهم لهم جند محضرون**﴾ والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم شراً، إنما هي أصنام، وهكذا قال الحسن البصري، وهذا القول حسن، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله. وقوله: ﴿**فلا يحزنك قولهم**﴾ أي تكذيبهم لك وكفرهم بالله ﴿**إنا نعلم مايسرون وما يعلنون**﴾ أي نحن نعلم جميع ما هم فيه، وسنجزيهم وصْفَهم ونعاملهم على ذلك

يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ولا صغيراً ولا كبيراً بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة: جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم، وهو يفتنه ويذريه في الهواء، وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: «نعم، يميتك الله تعالى، ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار». ونزلت هذه الآيات من آخر يس ﴿**أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة**﴾ إلى آخرهن. [رواه ابن جرير عن مجاهد وقتادة].

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن عباس قال: إن العاصي بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتَّه بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيي الله هذا بعد ما أرى؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، يميتك الله، ثم يحييك، ثم يدخلك جهنم». قال: ونزلت الآيات من آخر يس. [وسنده صالح].

وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات قد نزلت في أبي بن خلف أو العاص بن وائل أو فيهما، فهي عامة في كل من أنكر البعث، والألف واللام في قوله تعالى: ﴿**أولم ير الإنسان**﴾ للجنس يعم كل منكر للبعث. ﴿**أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين**﴾ أي أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين، كماقال تعالى: ﴿**ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم**﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٢]، وقال: ﴿**إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج**﴾ [الإنسان: ٢] أي من نطفة من أخلاط متفرقة، فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته. كما روى الإمام أحمد عن بُسْر بن جَحَّاش، أن رسول الله ﷺ: بصق يوماً في كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال رسول الله ﷺ «قال الله تعالى: ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة؟» ورواه ابن ماجه [قال البوصيري: صحيح ورجاله ثقات]، ولهذا قال تعالى: ﴿**وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم**﴾ أي استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض للأجساد والعظام الرميمة، ونسي نفسه، وأن الله تعالى خلقه من العدم، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده، ولهذا قال تعالى: ﴿**قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم**﴾ أي يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها، أين ذهبت

وأين تفرقت وتمزقت.

روى الإمام أحمد عن رِبْعي قال: قال عقبة بن عمرو لحذيفة: ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته ﷺ يقول: «إن رجلاً حضره الموت فلما أيس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا لي حطباً كثيراً جزلاً، ثم أوقدوا فيه ناراً حتى إذ أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فامتُحشْت، فخذوها فَذَروها في اليم، ففعلوا، فجمعه الله تعالى إليه ثم قال له: لم فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك، فغفر الله عز وجل له» فقال عقبة بن عمرو: وأنا سمعته يقول ذلك وكان نَبَّاشاً. وقد أخرجاه في الصحيحين.

وقوله: ﴿**الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون**﴾ أي الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خَضراً نَضراً ذا ثمر وينع، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء، قادر على ما يريد لايمنعه شيء. قال قتادة في قوله: ﴿**الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون**﴾ يقول الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر على أن يبعثه، وقيل: المراد بذلك سَرْح المرخ والعَفَار، ينبت في أرض الحجاز، فيأتي من أراد قَدْح نار وليس معه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين، ويقدح أحدهما بالآخر، فتتولد النار من بينهما، كالزناد سواء، وروي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً منبهاً على قدرته العظيمة في خلق السموات السبع بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت والأرضين السبع، وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار، وما بين ذلك، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة، كقوله تعالى: ﴿**لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس**﴾ [غافر:٥٧]. وقال ههنا: ﴿**أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم**﴾ أي مثل البشر، فيعيدهم كما بدأهم، قاله ابن جرير.

وقوله: ﴿**فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون**﴾ أي تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم، الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، وله الخلق والأمر، وإليه يرجع العباد يوم المعاد، فيجازي كل عامل بعمله وهو العادل المتفضل. ومعنى قوله: ﴿**فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء**﴾ كقوله عز وجل: ﴿**قل من بيده ملكوت كل شيء**﴾ [المؤمنون:٨٨]، فالملك والملكوت واحد في المعنى كرحمة ورَحَمُوت، ورَهْبة ورهبوت، وجَبْر وجَبَروت. ومن الناس من زعم أن المُلْك هو عالم الأجساد، والملكوت هو عالم الأرواح، والصحيح الأول، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم.

تفسير سورة الصافات وهي مكية.

روى النسائي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمنا بالصافات. [سنده صحيح].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ ﴾.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: **﴿والصافات صفا﴾** وهي الملائكة **﴿فالزاجرات زجراً﴾** هي الملائكة **﴿فالتاليات ذكراً﴾** هي الملائكة، وكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما والسدي وقتادة [وغيرهم]، قال قتادة: الملائكة صفوف في السماء.

وقد روى مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم ؟»** قلنا وكيف تصف الملائكة عند ربهم ؟ قال ﷺ: **«يُتِمون الصفوف المتقدمة ويتراصون في الصف»**. وقال السدي وغيره معنى قوله: **﴿فالزاجرات زجراً﴾** أنها تزجر السحاب. وقال الربيع بن أنس **﴿فالزاجرات زجراً﴾** ما زجر الله عنه في القرآن. وكذا [قال] زيد بن أسلم. **﴿فالتاليات ذكراً﴾** قال السدي: الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس. وهذه الآية كقوله تعالى: **﴿فالملقيات ذكراً عذراً أو نذراً﴾** [المرسلات: ٥-٦]. وقوله: **﴿إن إلهكم لواحد رب السموات والأرض﴾** هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لاإله إلاهو رب السموات والأرض **﴿ومابينهما﴾** أي من المخلوقات **﴿ورب المشارق﴾** أي هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تبدو من المشرق وتغرب من المغرب. واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه. وقال في الآية الآخرى: **﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾** [الرحمن: ١٧]، يعني في الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض **﴿بزينة الكواكب﴾** فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوؤها جرم السماء الشفاف فتضيء لأهل الأرض كما قال تعالى: **﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين * وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾** [الملك: ٥]. وقوله: **﴿وحفظاً﴾** تقديره وحفظناها حفظاً **﴿من كل شيطان مارد﴾** يعني المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب فأحرقه، ولهذا قال: **﴿لا يسمعون إلى الملأ الأعلى﴾** أي لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى وهي السموات ومن فيها من الملائكة إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى مما يقوله من شرعه وقدره، ولهذا قال: **﴿ويقذفون﴾** أي يرمون

﴿من كل جانب﴾ أي من كل جهة يقصدون السماء منها ﴿دحوراً﴾ أي رجماً يدحرون به ويمنعون من الوصول إلى ذلك، ﴿ولهم عذاب واصب﴾ أي في الدار الآخرة لهم عذاب موجع مستمر كما قال: ﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ [الملك: ٥]. وقوله: ﴿إلا من خطف الخطفة﴾ أي إلا من اختطف من الشياطين الخطفة وهي الكلمة يسمعها من السماء فيلقيها إلى الذي تحته ويلقيها الآخر إلى الذي تحته فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، ولهذا قال: ﴿إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ أي مستنير. وستأتي إن شاء الله تعالى الأحاديث الواردة مع الآثار في هذا المعنى عند قوله تعالى إخباراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾ [الجن: ٨-٩].

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

يقول تعالى: فَسَل هؤلاء المنكرين للبعث أيما أشد خلقاً هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ فإنهم يُقرّون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم ينكرون البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا كما قال عز وجل: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [غافر: ٥٧]. ثم بين أنهم خلقوا من شيء ضعيف فقال: ﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك: هوالجيد الذي يلتزق بعضه ببعض، وقال ابن عباس وعكرمة: هو اللزج، وقال قتادة: هوالذي يلزق باليد، وقوله: ﴿بل عجبت ويسخرون﴾ أي بل عجبت يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك.

قال قتادة: عجب محمد ﷺ وسَخِر ضُلّال بني آدم. ﴿وإذا رأوا آية﴾ أي دلالة واضحة على ذلك ﴿يستسخرون﴾ قال مجاهد وقتادة يستهزئون ﴿وقالوا إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي إن هذا الذي جئت به إلا سحر مبين، ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون﴾ يستبعدون ذلك ويكذبون به ﴿قل نعم وأنتم داخرون﴾ أي قل لهم يا محمد نعم تبعثون يوم القيامة بعدما تصيرون تراباً وعظاماً ﴿وأنتم داخرون﴾ أي حقيرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى: ﴿وكل أتوه داخرين﴾ [النمل: ٨٧]. ثم قال: ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون﴾ أي إنما هو أمر واحد من الله عز وجل، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض،

فإذا هم قيام بين يديه ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

﴿ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١ ۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ۝٢٤ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ۝٢٦ ﴾.

يخبر تعالى عن قِيل الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندموا كلَّ الندم حيث لا ينفعهم الندم، ﴿**وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين**﴾ فتقول لهم الملائكة والمؤمنون: ﴿**هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون**﴾. وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ، ويأمر الله تعالى الملائكة أن تميزَ الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ومنشرهم ولهذا قال تعالى: ﴿**احشروا الذين ظلموا وأزواجهم**﴾ قال النعمان بن بشير رضي الله عنه يعني بأزواجهم أشباههم وأمثالهم، وكذا قال ابن عباس والسدي وأبو العالية وزيد بن أسلم [وغيرهم]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ﴿**احشروا الذين ظلموا وأزواجهم**﴾ قال: إخوانهم. وعن عمر أيضا قال: أشباههم، قال: يجيء صاحب الزنا مع أصحاب الزنا وأصحاب الربا مع أصحاب الربا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر. ﴿وما كانوا يعبدون من دون الله﴾ أي من الأصنام والأنداد تحشر معهم في أماكنهم. وقوله: ﴿**فاهدوهم إلى صراط الجحيم**﴾ أي أرشدوهم إلى طريق جهنم. وقوله: ﴿**وقفوهم إنهم مسؤولون**﴾ أي قفوهم حتى يُسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدنيا كما قال ابن عباس: يعني احبسوهم إنهم محاسبون. وقال عثمان بن زَائِدَةَ: إن أول ما يسأل عنه الرجل جلساؤه، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿**ما لكم لا تناصرون ؟**﴾ أي كما زعمتم أنكم جميع منتصر ﴿**بل هم اليوم مستسلمون**﴾ أي منقادون لأمر الله لا يخالفونه ولا يحيدون عنه.

﴿ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ۝٢٨ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ۝٣٠ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ۝٣١ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ۝٣٢ فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ۝٣٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٤ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ۝٣٦ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣٧ ﴾.

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة كما يتخاصمون في دَركات النار، ﴿**فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار * قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد**﴾ [غافر: ٤٧ـ٤٨]. قالوا لهم هاهنا: ﴿**إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين**﴾ قال ابن عباس يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء، وقال مجاهد: يعني عن الحق، الكفار تقوله للشياطين. وقال قتادة: قالت الإنس للجن: ﴿**إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين**﴾ قال من قبل الخير فتنهونا عنه وتبطئونا

عنه، وقال السدي: تأتوننا عن اليمين من قبل الحق وتزينون لنا الباطل وتصدونا عن الحق، وقال الحسن في قوله: **﴿إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾** إي والله يأتيه عند كل خير يريده فيصده عنه. وقال ابن زيد: معناه تحولون بيننا وبين الخير ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به، وقال يزيد الرشْك: من قبل لا إله إلا الله، وقال خُصيف: يعنون من قبل ميامنهم، وقال عكرمة: من حيث نأمنكم.

وقوله: **﴿قالوا بل لم تكونوا مؤمنين﴾** تقول القادة من الجن والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان **﴿وما كان لنا عليكم من سلطان﴾** أي من حجة على صحة ما دعوناكم إليه **﴿بل كنتم قوماً طاغين﴾** أي بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاؤوكم به فخالفتموهم. **﴿فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون * فأغويناكم إنا كنا غاوين﴾** يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله أنا من الأشقياء الذائقين العذاب يوم القيامة **﴿فأغويناكم﴾** أي دعوناكم إلى الضلالة **﴿إنا كنا غاوين﴾** أي فدعوناكم إلى ما نحن فيه، فاستجبتم لنا، قال الله تعالى: **﴿فإنهم يومئذٍ في العذاب مشتركون﴾** أي الجميع في النار كل بحسبه **﴿إنا كذلك نفعل بالمجرمين * إنهم كانوا﴾** أي في الدنيا **﴿إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾** أي يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون. روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت** أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله» وأنزل الله تعالى في كتابه العزيز وذكر قوماً استكبروا فقال: **﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾**. [رواه مسلم دون نزول الآية].

﴿ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون﴾ أي أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون، يعنون رسول الله ﷺ قال الله تعالى تكذيباً لهم ورداً عليهم: **﴿بل جاء بالحق﴾** يعني رسول الله ﷺ جاء بالحق في جميع ما شرعه الله له من الإخبار والطلب، **﴿وصدق المرسلين﴾** أي صدقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله تعالى في شرعه وأمره كما أخبروا **﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾** الآية [فصلت: ٤٣].

﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ
مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ
لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾.

يقول تعالى مخاطباً للناس: **﴿إنكم لذائقو العذاب الأليم * وما تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾** ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين كما قال تعالى: **﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر * إلا**

الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ [العصر: ١-٣]. ولهذا قال هاهنا: **﴿إلا عباد الله المخلصين﴾** أي ليسوا يذوقون العذاب الأليم ولا يناقشون في الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله تعالى من التضعيف. وقوله: **﴿أولئك لهم رزق معلوم﴾** قال قتادة والسدي: يعني الجنة. ثم فسره بقوله تعالى: **﴿فواكه﴾** أي متنوعة **﴿وهم مكرمون﴾** أي يُخْدمون ويرزقون ويرفهون وينعمون **﴿في جنات النعيم * على سرر متقابلين﴾** قال مجاهد لا ينظر بعضهم في قفا بعض.

وقوله: **﴿يطاف عليهم بكأس من معين * بيضاء لذة للشاربين * لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون﴾** كما قال في الآية الأخرى: **﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين * لا يصدعون عنها ولا ينزفون﴾** [الواقعة: ١٧-١٩]، فنزه الله سبحانه وتعالى خمر الجنة عن الآفات التي في خمر الدنيا من صداع الرأس ووجع البطن - وهو الغول - وذهابها بالعقل جملة فقال هاهنا: **﴿يطاف عليهم بكأس من معين﴾** أي بخمر من أنهار جارية لا يخافون انقطاعها. قال زيد بَن أسلم: خمر جارية بيضاء. أي لونها مشرق حسن بهي لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم. وقوله: **﴿لذة للشاربين﴾** أي طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك. وقوله: **﴿لا فيها غول﴾** يعني لا تؤثر فيهم غولاً وهو وجع البطن قاله مجاهد وقتادة وابن زيد كما تفعله خمر الدنيا، وقيل: المراد بالغول هاهنا: صداع الرأس. وروي عن ابن عباس، وقال قتادة هو صداع الرأس ووجع البطن، وعنه وعن السدي: لا تغتال عقولهم. وقال سعيد بن جبير: لا مكروه فيها ولا أذى. والصحيح قول مجاهد: إنه وجع البطن. وقوله: **﴿ولا هم عنها ينزفون﴾** قال مجاهد: لا تذهب عقولهم وكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب والحسن وغيرهم وعن ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السكر والصداع والقيء والبول. فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال، كما ذكر في سورة الصافات. وقوله: **﴿وعندهم قاصرات الطرف﴾** أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن. كذا قال ابن عباس رضي الله عنهما وزيد بن أسلم وقتادة والسدي وغيرهم. وقوله: **﴿عين﴾** أي حسان الأعين. وقيل: ضخام الأعين وهو يرجع إلى الأول وهي النجلاء العيناء فوصف عيونهن بالحسن والعفة، ولهذا قال: **﴿وعندهم قاصرات الطرف عين﴾**. وقوله: **﴿كأنهن بيض مكنون﴾** وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان. قال ابن عباس رضي الله عنهما: اللؤلؤ المكنون. وقال الحسن: يعني مصون لم تمسه الأيدي، وقال سعيد بن جبير: **﴿كأنهن بيض مكنون﴾** يعني بطن البيض، وقال عطاء الخراساني هو السحاء الذي يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة، وقال السدي: **﴿كأنهن بيض مكنون﴾** يقول بياض البيض حين ينزع قشره واختاره ابن جرير لقوله **﴿مكنون﴾** قال والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش وتنالها الأيدي بخلاف داخلها والله أعلم.

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا
وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾
وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون أي عن أحوالهم وكيف كانوا في الدنيا وماذا كانوا يعانون فيها، وذلك من حديثهم على شرابهم واجتماعهم في تنادمهم وعشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرر والخدم بين أيديهم يسعون ويجيؤون بكل خير عظيم، من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. **﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين﴾** قال مجاهد: يعني شيطاناً. وعن ابن عباس: هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا، ولا تنافي بين كلام مجاهد وابن عباس رضي الله عنهما فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاماً تسمعه الأذنان وكلاهما متعاديان، ولهذا **﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أئنك لمن المصدقين﴾** أي أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟! يعني يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والعناد، **﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون﴾** قال مجاهد والسدي: لمحاسبون. وقال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي: لمجزيون بأعمالناوكلاهما صحيح. **﴿قال هل أنتم مطلعون﴾** أي مشرفون. يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة **﴿فاطلع فرآه في سواء الجحيم﴾** قال ابن عباس وقتادة والسدي [وغيرهم]: يعني في وسط الجحيم، وقال الحسن البصري: في وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد. **﴿قال تالله إن كدت لتردين﴾** يقول المؤمن مخاطباً للكافر والله إن كدت لتهلكني لو أطعتك **﴿ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين﴾** أي ولولا فضل الله عليَّ لكنتُ مثلك في سواء الجحيم حيث أنت، محضر معك في العذاب ولكنه تفضل عليَّ ورحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده **﴿وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾** [الأعراف: ٤٣]. وقوله: **﴿أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين﴾** هذا من كلام المؤمن مغبطاً نفسه بما أعطاه الله تعالى من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة لا موت فيها ولا عذاب، ولهذا قال: **﴿إن هذا لهو الفوز العظيم﴾**.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة: **﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون﴾** [الطور: ١٩]، قال: **﴿هنيئاً﴾** أي لا يموتون فيها. فعندها قالوا: **﴿أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين﴾**. وقال الحسن البصري: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه، فقالوا: **﴿أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين﴾** قيل لهم: لا. قالوا: **﴿إن هذا لهو الفوز العظيم﴾**. وقوله: **﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾** قال قتادة

هذا من كلام أهل الجنة. وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا ليصيروا إليه في الآخرة.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

يقول الله تعالى أهذا الذي ذكره من نعيم الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ خير ضيافة وعطاء **﴿أم شجرة الزقوم﴾** أي التي في جهنم. وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة كما قال بعضهم، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر يقال له الزقوم، ويؤيد ذلك قوله تعالى: **﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لآكلون من شجر من زقوم﴾** [الواقعة: ٥١-٥٢]. وقوله: **﴿إنا جعلناها فتنة للظالمين﴾** قال قتادة: ذكرت شجرة الزقوم فافتتن بها أهل الضلالة، وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر فأنزل الله تعالى: **﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾** غذيت من النار ومنها خلقت. وقال مجاهد: **﴿إنا جعلناها فتنة للظالمين﴾** قال أبو جهل لعنه الله: إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه. قلت: ومعنى الآية إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختباراً نختبر به الناس، من يصدق منهم ممن يكذب كقوله تعالى: **﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾** [الإسراء: ٦٠]. وقوله: **﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾** أي أصل منبتها في قرار النار **﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾** تبشيع لها وتكريه لذكرها. وإنما شبهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر. وقوله: **﴿فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون﴾**. ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبشع منها ولا أقبح من منظرها مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها لأنهم لا يجدون إلا إياها وما هو في معناها كما قال تعالى: **﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع * لا يسمن ولا يغني من جوع﴾** [الغاشية: ٦-٧].

وقوله تعالى: **﴿ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم﴾** قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني شرب الحميم على الزقوم. وقال في رواية عنه: مزجاً من حميم. وقال غيره: يمزج لهم الحميم بصديد وغساق مما يسيل من فروجهم وعيونهم. وقوله: **﴿ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾** أي ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فتارة في هذا وتارة في هذا، كما قال تعالى: **﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾** [الرحمن: ٤٤]. هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية وهو تفسير حسن قوي.

وقوله: **﴿إنهم ألفوا آباءهم ضالين﴾** أي إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم

على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان، ولهذا قال: ﴿**فهم على آثارهم يهرعون**﴾ قال مجاهد شبيهة بالهرولة، وقال سعيد بن جبير يسفهون.

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى. وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين ينذرون بأس الله ويحذرونهم سطوته ونقمته ممن كفر به وعبد غيره وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم فأهلك المكذبين ودمرهم ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم ولهذا قال تعالى: ﴿**فانظر كيف كان عاقبة المنذرين إلا عباد الله المخلصين**﴾.

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة شرع يبين ذلك مفصلاً، فذكر نوحاً عليه الصلاة والسلام وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعا ربه أني مغلوب فانتصر، فغضب الله لغضبه عليهم، ولهذا قال: ﴿**ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون**﴾ أي فلنعم المجيبون له ﴿**ونجيناه وأهله من الكرب العظيم**﴾ وهو التكذيب والأذى ﴿**وجعلنا ذريته هم الباقين**﴾ قال ابن عباس: لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام. وعن سعيد بن المسيب قال: ولد نوح عليه السلام ثلاثة: سام ويافث وحام، وولد كل واحد من هؤلاء الثلاثة ثلاثة فولد سام العرب وفارس والروم، وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج، وولد حام القبط والسودان والبربر، وروي عن وهب بن منبه نحو هذا والله أعلم. وقوله: ﴿**وتركنا عليه في الآخرين**﴾ قال ابن عباس: يذكر بخير. وقال مجاهد: يعني لسان صدق للأنبياء كلهم. وقال قتادة والسدي: أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين. وقال الضحاك: السلام والثناء الحسن. وقوله: ﴿**سلام على نوح في العالمين**﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم ﴿**إنا كذلك نجزي المحسنين**﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى نجعل له لسان صدق يذكر به بعده بحسب مرتبته في ذلك. ثم قال: ﴿**إنه من عبادنا المؤمنين**﴾ أي المصدقين الموحدين الموقنين ﴿**ثم أغرقنا الآخرين**﴾ أي أهلكناهم فلم تبْق منهم عين تطرف ولا ذكر لهم ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

قال ابن عباس: ﴿وإن من شيعته لإبراهيم﴾ يقول من أهل دينه، وقال مجاهد: على منهاجه وسنته. ﴿إذ جاء ربه بقلب سليم﴾ قال ابن عباس: يعني شهادة أن لا إله إلا الله. وعن عوف: قلت لمحمد بن سيرين: ما القلب السليم؟ قال: يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. وقال الحسن: سليم من الشرك، وقال عروة: لا يكون لعاناً.

وقوله: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون﴾ أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد، ولهذا قال: ﴿أئفكا آلهة دون الله تريدون * فما ظنكم برب العالمين﴾. قال قتادة: يعني ما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره.

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك، ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلي بآلهتهم فيكسرها فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر، فَهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه ﴿فتولوا عنه مدبرين﴾ قال قتادة والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم. يعني قتادة أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يلهيهم به فقال ﴿إني سقيم﴾ أي ضعيف، فأما الحديث الذي رواه ابن جرير هاهنا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله تعالى، قوله: ﴿إني سقيم﴾، وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ [الأنبياء:٦٣]، وقوله في سارة: هي أختي». فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طرق ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله حاشا وكلا، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني كما جاء في الحديث «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب». [رواه البيهقي عن عمران وصحح وقفه].

قال سفيان في قوله: ﴿إني سقيم﴾ يعني طعين. وكانوا يفرون من المطعون، فأراد أن يخلو بآلهتهم، وقال ابن عباس: فقالوا له وهو في بيت آلهتهم: اخرج فقال إني مطعون فتركوه مخافة الطاعون. وقيل: أراد ﴿إني سقيم﴾ أي مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى. وقال الحسن البصري: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم فأرادوه على الخروج فاضطجع على ظهره وقال ﴿إني سقيم﴾ وجعل ينظر في السماء فلما خرجوا أقبل إلى آلهتهم فكسرها. ولهذا قال تعالى: ﴿فتولوا عنه مدبرين﴾أي إلى عيدهم ﴿فراغ إلى آلهتهم﴾ أي ذهب إليها بعد أن خرجوا في سرعة واختفاء ﴿فقال ألا تأكلون﴾ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً لتُبرِّك لهم فيه. قال السدي: دخل إبراهيم عليه السلام إلى بيت الآلهة، فإذا هم

في بَهْوٍ عظيم، وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه بعضها إلى جنب بعض كل صنم يليه أصغر منه حتى بلغوا باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاماً وضعوه بين أيدي الآلهة، وقالوا إذا كان حين نرجع وقد بركت الآلهة في طعامنا أكلناه، فلما نظر إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿**ألا تأكلون * ما لكم لا تنطقون**﴾ وقوله: ﴿**فراغ عليهم ضرباً باليمين**﴾ قال الفراء: معناه مال عليهم ضرباً باليمين. وقال قتادة والجوهري: فأقبل عليهم ضرباً باليمين. وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى ولهذا تركهم جذاداً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون كما تقدم في سورة الأنبياء تفسير ذلك. وقوله هاهنا: ﴿**فأقبلوا إليه يزفون**﴾ قال مجاهد وغير واحد أي يسرعون، فلما جاؤوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبهم، فقال: ﴿**أتعبدون ما تنحتون**﴾ أي أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم ﴿**والله خلقكم وما تعملون**﴾ يحتمل أن تكون «ما» مصدرية فيكون تقدير الكلام خلقكم وعملكم. ويحتمل أن تكون بمعنى «الذي» تقديره والله خلقكم والذي تعملونه وكلا القولين متلازم، والأول أظهر لما رواه البخاري في كتاب أفعال العباد عن حذيفة مرفوعاً قال: «إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته». [وصححه ابن حجر]. فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر فقالوا: ﴿**ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم**﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ونجاه الله من النار وأظهره عليهم وأعلى حجته ونصرها ولهذا قال تعالى: ﴿**فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين**﴾.

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه بعد ما نصره الله تعالى على قومه وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم، وقال: ﴿**إني ذاهب إلى ربي سيهدين * رب هب لي من الصالحين**﴾ يعني أولاداً مطيعين عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم، قال الله تعالى: ﴿**فبشرناه بغلام حليم**﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة، وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة أخرى بكره فأقحموا هاهنا

كذباً وبهتاناً إسحاق ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم فزادوا ذلك وحرفوا وحيدك بمعنى الذي ليس عندك غيره فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى مكة، وهذا تأويل وتحريف باطل فإنه لا يقال: وحيد إلا لمن ليس له غيره، وأيضاً فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار. وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق وحكي ذلك عن طائفة من السلف حتى نقل عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أيضاً، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تُلقي إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلماً من غير حجة. وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل فإنه ذكر البشارة بغلام حليم، وذكر أنه الذبيح ثم قال بعد ذلك: ﴿**وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين**﴾ ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿**إنا نبشرك بغلام عليم**﴾ [الحجر:٥٣]. وقال تعالى: ﴿**فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب**﴾ [هود:٧١]، أي يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل. وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير لأن الله تعالى قد وعدهما بأنه سيعقب، ويكون له نسل فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيراً، وإسماعيل وصف هاهنا بالحلم لأنه مناسب لهذا المقام. وقوله: ﴿**فلما بلغ معه السعي**﴾ أي كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه وقد كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد فاران وينظر في أمرهما وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعاً إلى هناك والله أعلم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وزيد بن أسلم وغيرهم: ﴿**فلما بلغ معه السعي**﴾ يعنى شب وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل ﴿**قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى**﴾ قال عبيد بن عمير رؤيا الأنبياء وحي ثم تلا هذه الآية. وقد روى ابن أبي حاتم [والطبراني] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رؤيا الأنبياء في المنام وحي». [سنده صحيح]. وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه. ﴿**قال يا أبت افعل ما تؤمر**﴾ أي امض لما أمرك الله من ذبحي ﴿**ستجدني إن شاء الله من الصابرين**﴾ أي سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل، وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد، ولهذا قال الله تعالى: ﴿**واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً * وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً**﴾ [مريم:٥٤-٥٥]. قال تعالى: ﴿**فلما أسلما وتله للجبين**﴾ أي فلما تشهدا وذكرا الله تعالى إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت وقيل: أسلما: يعني استسلما وانقادا، إبراهيم امتثل أمر الله تعالى، وإسماعيل طاعة الله وأبيه قاله مجاهد وقتادة والسدي وغيرهم. ومعنى ﴿**تله للجبين**﴾ أي صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه. قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك

وقتادة: أكبّه على وجهه.

وقوله تعالى: ﴿وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ أي قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح. وذكر السدي وغيره أنه أمَرّ السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً بل حال بينها وبينه صفيحة من نحاس ونودي إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند ذلك ﴿قد صدقت الرؤيا﴾. وقوله: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ أي هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، كقوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ [الطلاق:٢]. وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل، خلافاً لطائفة من المعتزلة، والدلالة من هذه ظاهرة لأن الله تعالى شرع لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ذَبْحَ ولده، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء وإنما كان المقصود من شرعه أولاً إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ أي الاختبار الواضح الجلي حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله تعالى منقاداً لطاعته ولهذا قال تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ [النجم:٣٧]. وقوله: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ عن علي رضي الله عنه قال: بكبش أبيض أعين أقرن. وقال ابن عباس: كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً. وقال مجاهد: ذبحه بمنى عند المنحر. وعن عكرمة أن ابن عباس كان أفتى الذي جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه، فأمره بمائة من الإبل. ثم قال بعد ذلك لو كنت أفتيته بكبش لأجزأه أن يذبح كبشاً فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه فُدي بكبش. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ قال: وَعْلٌ. وعن الحسن أنه كان يقول: ما فدي إسماعيل عليه السلام إلا بتيس من الأرْوَى. وقد روى الإمام أحمد عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتني امرأة من بني سليم ولَدت عامة أهل دارنا ـ أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة ـ وقالت مرة: أنها سألت عثمان لم دعاك النبي ﷺ ؟ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي». [إسناده صحيح]. وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام فإن قريشاً توارثوا قرني الكبش الذي فدى به إسماعيل خلفاً عن سلف وجيلاً بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله ﷺ.

وقد حكى البغوي القول بأنه إسحاق عن عمر وعلي وابن مسعود والعباس رضي الله عنهم ومن التابعين عن كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق وعكرمة وعطاء ومقاتل والزهري والسدي قال وهوإحدى الروايتين عن ابن عباس.

قال ابن إسحاق: وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى وذلك أن الله تعالى حين فرغ

من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال الله تعالى: ﴿**وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين**﴾. ويقول الله تعالى: ﴿**فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب**﴾ يقول بابن وابن ابن فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الله الموعود بما وعده وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل. وقال ابن أبي حاتم: وسمعت أبي يقول الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه السلام. قال: وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب القرظي وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح أنهم قالوا: الذبيح إسماعيل. وقال البغوي في تفسيره وإليه ذهب عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب والسدي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وهو رواية عن ابن عباس وحكاه أيضاً عن أبي عمرو بن العلاء.

وقوله: ﴿**وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين**﴾ لما تقدمت البشارة بالذبيح وهو إسماعيل عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق وقد ذكرت في سورتي هود والحجر، وقوله: ﴿**نبياً**﴾ حال مقدرة أي سيصير منه نبي من الصالحين.

عن ابن عباس قال: بشر به حين ولد وحين نبيء. وعن قتادة قال: بعد ما كان من أمره لما جاد لله تعالى بنفسه وقال الله عز وجل ﴿**وباركنا عليه وعلى إسحاق**﴾. وقوله: ﴿**وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين**﴾ كقوله تعالى: ﴿**قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم**﴾ [هود:٤٨].

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمده في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء واستعمالهم في أخس الأشياء. ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم. ثم أنزل الله عز وجل على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين وهو التوراة، كما قال تعالى: ﴿**ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء**﴾ [الأنبياء:٤٨]، وقال هاهنا: ﴿**وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم**﴾ أي في الأقوال والأفعال ﴿**وتركنا عليهما في الآخرين**﴾ أي أبقينا لهما من بعدهما ذكراً جميلاً وثناء حسناً ثم فسره بقوله تعالى: ﴿**سلام على موسى وهارون إنا كذلك نجزي المحسنين إنهما من عبادنا المؤمنين**﴾.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى

ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾.

قال قتادة ومحمد بن إسحاق يقال إلياس هو إدريس، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إلياس هو إدريس، وكذا قال الضحاك.

﴿**إذ قال لقومه ألا تتقون**﴾ أي ألا تخافون الله عز وجل في عبادتكم غيره ﴿**أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين**﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدي: **بعلاً** يعني رباً. قال عكرمة وقتادة: وهي لغة أهل اليمن. وقال زيد بن أسلم: هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها بعلبك غربي دمشق. وقال الضحاك: هو صنم كانوا يعبدونه. وقوله: ﴿**أتدعون بعلاً**﴾ أي أتعبدون صنماً ﴿**وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين**﴾ أي هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، قال الله تعالى: ﴿**فكذبوه فإنهم لمحضرون**﴾ أي للعذاب يوم الحساب ﴿**إلا عباد الله المخلصين**﴾ أي الموحدين منهم. وهذا استثناء منقطع من مثبت. وقوله: ﴿**وتركنا عليه في الآخرين**﴾ أي ثناء جميلاً ﴿**سلام على إل ياسين**﴾ كما يقال في إسماعيل إسماعين، ويقال ميكال وميكائيل وميكائين، وطور سيناء وطور سينين وهو موضع واحد وكل هذا سائغ. وقرأ آخرون: «سلام على آل ياسين» يعني آل محمد ﷺ. وقوله: ﴿**إنا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين**﴾ قد تقدم تفسيره، والله أعلم.

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه بعثه إلى قومه فكذبوه، فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلاً ونهاراً، ولهذا قال: ﴿**وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون**﴾ أي أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها.

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

قد تقدمت قصة يونس عليه الصلاة والسلام في سورة الأنبياء، وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متَّى» ونسبه إلى أمه. وفي رواية قيل: إلى أبيه. وقوله: ﴿**إذ أبق إلى الفلك المشحون**﴾ قال ابن عباس: هو الموقر أي المملوء بالأمتعة ﴿**فساهم**﴾ أي قارع ﴿**فكان من المدحضين**﴾ أي المغلوبين، وذلك أن السفينة تلعَّبَت بها الأمواج من كل جانب وأشرفوا على الغرق فساهموا على من تقع عليه القرعة

يلقي في البحر لتخف بهم السفينة فوقعت القرعة على نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات وهم يضنون به أن يلقى من بينهم، فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه وهم يأبون عليه ذلك. وأمر الله تعالى حوتاً من البحر الأخضر أن يشق البحار وأن يلتقم يونس عليه السلام، فلا يَهْشِمُ له لحماً، ولا يكسر له عظماً. فجاء ذلك الحوت وألقى يونس عليه السلام نفسه فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها. ولما استقر يونس في بطن الحوت حسب أنه قد مات ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حي فقام فصلى في بطن الحوت، وكان من جملة دعائه يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس، واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام قاله قتادة. وقيل: سبعة قاله جعفر الصادق، وقيل: أربعين يوماً قاله أبو مالك. وعن الشعبي: التقمه ضحى وقذفه عشية، والله تعالى أعلم بمقدار ذلك.

وقوله: ﴿**فلولا أنه كان من المسبحين * للبث في بطنه إلى يوم يبعثون**﴾ قيل: لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء. قاله الضحاك بن قيس وأبو العالية ووهب بن منبه وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير. وفي حديث عن ابن عباس: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة». [رواه والترمذي وقال: حسن صحيح]. وقال ابن عباس والضحاك والسدي والحسن [وغيرهم]: ﴿**فلولا أنه كان من المسبحين**﴾ يعني المصلين، وقيل المراد: ﴿**فلولا أنه كان من المسبحين**﴾ هو قوله: ﴿**فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**﴾ [الأنبياء: ٨٧]، قاله سعيد بن جبير وغيره.

وقال تعالى: ﴿**فنبذناه**﴾ أي ألقيناه ﴿**بالعراء**﴾ قال ابن عباس وغيره: وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء. ﴿**وهو سقيم**﴾ أي ضعيف البدن، قال ابن مسعود رضي الله عنه: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش، وقال السدي: كهيئة الصبي حين يولد وهو المنفوس. وقاله ابن عباس وابن زيد أيضاً. ﴿**وأنبتنا عليه شجرة من يقطين**﴾ قال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد ووهب بن منبه والسدي وقتادة وغير واحد: اليقطين هو القرع. وقال سعيد بن جبير: كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين. وفي رواية عنه: كل شجرة تهلك من عامها فهي من اليقطين.

وقوله تعالى: ﴿**وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون**﴾ عن ابن عباس قال: إنما كانت رسالة يونس عليه الصلاة والسلام بعد ما نبذه الحوت. وقال مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت. قلت: ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً، أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا به، وحكى البغوي أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت كانوا مائة ألف أو يزيدون. وقوله: ﴿**أو يزيدون**﴾ قال ابن عباس في رواية عنه: بل يزيدون وكانوا مائة وثلاثين ألفاً. وعنه: مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفاً. وعنه: مائة ألف وبضعة وأربعين ألفاً. والله أعلم، وقال سعيد بن جبير يزيدون سبعين ألفاً. وقال مكحول: كانوا مائة ألف وعشرة آلاف. وسلك ابن جرير هاهنا ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿**ثم قست**

قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ [البقرة:٧٤]، وقوله: ﴿إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾ [النساء:٧٧]، وقوله: ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ [النجم:٩] أن المراد ليس أنقص من ذلك بل أزيد. وقوله: ﴿فآمنوا﴾ أي فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس عليه السلام جميعهم ﴿فمتعناهم إلى حين﴾ أي إلى وقت آجالهم، كقوله: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ [يونس:٩٨].

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾.

يقول تعالى منكراً على هؤلاء المشركين في جعلهم لله تعالى البنات سبحانه ولهم ما يشتهون، أي من الذكور أي يوَدّون لأنفسهم الجيد ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ [النحل:٥٨] أي يسوؤه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا البنين، يقول تعالى: فكيف نسبوا إلى الله تعالى القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم، ولهذا قال: ﴿فاستفتهم﴾ أي سلهم على سبيل الإنكار عليهم ﴿ألربك البنات ولهم البنون﴾ كقوله: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسمة ضيزى﴾ [النجم:٢١-٢٢]. وقوله: ﴿أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون﴾ أي كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم؟ كقوله: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون﴾ [الزخرف:١٩] أي يسألون عن ذلك يوم القيامة. وقوله: ﴿ألا إنهم من إفكهم﴾ أي من كذبهم ﴿ليقولون ولد الله﴾ أي صدر منه الولد ﴿وإنهم لكاذبون﴾ فذكر الله تعالى عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب، فأولاً جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولداً. وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله. وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم. ثم قال منكراً عليهم ﴿أصطفى البنات على البنين﴾ أي أيّ شيء يحمله على أن يختار البنات دون البنين؟ كقوله: ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً ؟ إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾ [الإسراء:٤٠]، ولهذا قال: ﴿مالكم كيف تحكمون﴾ أي مالكم عقول تتدبرون بها ما تقولون ﴿أفلا تذكرون. أم لكم سلطان مبين﴾ أي حجة على ما تقولونه، ﴿فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾ أي هاتوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب مُنزل من السماء عن الله أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن اسناده إلى عقل، بل لا يُجوّزه العقل بالكلية. وقوله: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى فسأل أبو بكر رضي الله عنه فمن أمهاتهن، قالوا بنات سَرَوات الجن. وكذا قال قتادة وابن زيد ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد علمت الجنة﴾ أي الذين

نسبوا إليهم ذلك ﴿إنهم لمحضرون﴾ أي إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب لكذبهم في ذلك وافترائهم وقولهم الباطل بلا علم، وعن ابن عباس في قوله: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً﴾ قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان. وقوله: ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد وعما يصفه به الظالمون الملحدون علواً كبيراً. وقوله: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ استثناء منقطع وهو من مثبت، إلا أن يكون الضمير في قوله: ﴿عما يصفون﴾ عائد إلى الناس جميعهم ثم استثنى منهم المخلصين، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي ومرسل.

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مخاطباً للمشركين: ﴿فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم﴾ أي ما ينقاد لمقالكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة إلا من هو أضل منكم ممن ذُرىء للنار، ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ [الأعراف:١٧٩]. فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تعالى: ﴿إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك﴾ [الذاريات:٨-٩] أي إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل. ثم قال تعالى مُنَزِّهاً للملائكة مما نَسَبُوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ أي له موضع مخصوص في السموات ومقامات العبادة لا يتجاوزه ولا يتعداه. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إن في السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماه، ثم قرأ عبد الله: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ وكذا قال سعيد بن جبير. ﴿وإنا لنحن الصافون﴾ أي نقف صفوفاً في الطاعة، وقال أبو نَضْرة: كان عمر رضي الله عنه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال: أقيموا صفوفكم استووا قياماً يريد الله تعالى بكم هدي الملائكة ثم يقول: ﴿وإنا لنحن الصافون﴾ تأخر يا فلان تقدم يا فلان ثم يتقدم فيكبر. وفي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها طهوراً» الحديث. ﴿وإنا لنحن المسبحون﴾ أي نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص فنحن عبيد له فقراء إليه خاضعون لديه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ الملائكة ﴿وإنا لنحن الصافون﴾ الملائكة ﴿وإنا لنحن المسبحون﴾ الملائكة تسبح الله عز وجل.

وقوله: ﴿وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين﴾ أي قد

كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، كما قال تعالى: ﴿**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً**﴾ [فاطر: ٤٢]، ولهذا قال هاهنا: ﴿**فكفروا به فسوف يعلمون**﴾ وعيد أكيد وتهديد شديد على كفرهم بربهم عز وجل وتكذيبهم رسوله ﷺ.

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين**﴾ أي تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿**كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز**﴾ [المجادلة: ٢١]، ولهذا قال: ﴿**ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون**﴾ أي في الدنيا والآخرة كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونجى عباده المؤمنين ﴿**وإن جندنا لهم الغالبون**﴾ أي تكون لهم العاقبة. وقوله جل وعلا: ﴿**فتول عنهم حتى حين**﴾ أي اصبر على أذاهم لك وانتظر إلى وقت مؤجل، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر. وقوله: ﴿**وأبصرهم فسوف يبصرون**﴾ أي أنظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال على مخالفتك وتكذيبك، ولهذا قال على وجه التهديد والوعيد: ﴿**فسوف يبصرون**﴾ ثم قال عز وجل: ﴿**أفبعذابنا يستعجلون**﴾ أي هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم، فإن الله تعالى يغضب عليهم بذلك ويعجل لهم العقوبة، ومع هذا أيضاً كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة. قال الله تعالى: ﴿**فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين**﴾ أي فإذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم بإهلاكهم ودمارهم. قال السدي: ﴿**فإذا نزل بساحتهم**﴾ يعني بدارهم ﴿**فساء صباح المنذرين**﴾ أي فبئس ما يصبحون، أي بئس الصباح صباحهم، ولهذا ثبت في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: صَبَّح رسول الله ﷺ خيبر فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا وهم يقولون: محمد والله، محمد والخميس فقال النبي ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». وقوله: ﴿**وتول عنهم حتى حين * وأبصر فسوف يبصرون**﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

ينزه تبارك وتعالى نفسه ويقدسها ويبرئها عما يقول له الظالمون المكذبون المعتدون ـ تعالى وتنزه وتقدس عن قولهم علواً كبيراً ـ ولهذا قال: ﴿**سبحان ربك رب العزة**﴾ أي ذي العزة التي لا تُرَام ﴿**عما يصفون**﴾ أي عن قول هؤلاء المعتدين المفترين ﴿**وسلام على المرسلين**﴾ أي

سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقيته، ﴿**والحمد لله رب العالمين**﴾ أي له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال، ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن االحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص قرن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن، ولهذا قال: ﴿**سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين**﴾.

تفسير سورة ص وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا. وقوله: ﴿**والقرآن ذي الذكر**﴾ أي والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ونفع لهم في المعاش والمعاد، قال الضحاك في قوله: ﴿**ذي الذكر**﴾ كقوله: ﴿**لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم**﴾ [الأنبياء:١٠] أي تذكيركم. وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير وابن عيينة والسدي [وغيرهم]: ﴿**ذي الذكر**﴾ ذي الشرف أي ذي الشأن والمكانة. ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار. واختلفوا في جواب هذا القسم فقال بعضهم: هو قوله: ﴿**إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب**﴾ [ص:١٤] وقال قتادة: جوابه ﴿**بل الذين كفروا في عزة وشقاق**﴾ واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿**بل الذين كفروا في عزة وشقاق**﴾ أي: إن في هذا القرآن لذكراً لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر، وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿**في عزة**﴾ أي استكبار عنه وحمية، ﴿**وشقاق**﴾ أي مخالفة له ومعاندة ومفارقة. ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء، فقال: ﴿**كم أهلكنا من قبلهم من قرن**﴾ أي من أمة مكذبة ﴿**فنادوا**﴾ أي حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله. وليس ذلك بمجد عنهم شيئاً. كما قال تعالى: ﴿**فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون**﴾ [الأنبياء:١٢] أي يهربون ﴿**لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون**﴾ [الأنبياء:١٣]. روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس في قول الله: ﴿**فنادوا ولات حين مناص**﴾ قال: ليس بحين نداء ولا نَزْو ولا فرار. وعن ابن عباس [أيضا]: ليس بحين مغاث. وعنه [أيضا]: نادوا النداء حين لا ينفعهم. وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء. [وعن محمد بن كعب نحوه]، وقال مجاهد: ﴿**فنادوا ولات حين مناص**﴾ ليس بحين فرار ولا إجابة، وقد روي نحو هذا عن سعيد بن جبير وزيد بن أسلم والحسن [وغيرهم].

وهذه الكلمة وهي «لات» هي «لا» التي للنفي، زيدت معها «التاء» كما تزاد في «ثم»، فيقولون: «ثمت»، «ورب» فيقولون: «ربت». والوقف عليها. وقرأ الجمهور بنصب «حين»، تقديره: وليس الحين حين مناص. وأهل اللغة يقولون: النوص: التأخر، والبوص: التقدم، ولهذا قال تعالى: ﴿**ولات حين مناص**﴾ أي ليس الحين حين فرار ولا ذهاب.

﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة الرسول بشراً: ﴿**وعجبوا أن جاءهم منذر منهم**﴾ أي بشر مثلهم ﴿**وقال الكافرون هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلهاً واحداً**﴾ أي أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟ أنكر المشركون ذلك، قبحهم الله تعالى، وتعجبوا من ترك الشرك بالله فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿**أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب * وانطلق الملأ منهم**﴾ وهم سادتهم وكبراؤهم قائلين: ﴿**أن امشوا**﴾ أي استمروا على دينكم ﴿**واصبروا على آلهتكم**﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد. وقوله: ﴿**إن هذا لشيء يراد**﴾ قال ابن جرير إن هذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء وأن يكون له منكم أتباع ولسنا مجيبيه إليه.

روى أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب، دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته، فبعث إليه فجاء النبي ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، قال فخشي أبو جهل لعنه الله إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه فجلس عند الباب. فقال له أبو طالب: أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك ويزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول؟ قال وأكثروا عليه من القول وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم إني أريدهم **على** كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية»، ففزعوا لكلمته ولقوله فقال القوم: كلمة واحدة! نعم وأبيك عشراً، فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ قال ﷺ: «لا إله إلا الله» فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿**أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عجاب**﴾ قال ونزلت من هذا الموضع إلى قوله ﴿**لما يذوقوا**

عذاب﴾. [ورواه أحمد والنسائي والترمذي وابن أبي حاتم، وقال الترمذي: حسن].
وقولهم: ﴿**ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة**﴾ أي ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة.

قال مجاهد وقتادة وابن زيد: يعنون دين قريش. وقال محمد بن كعب والسدي: يعنون النصرانية. وعن ابن عباس: يعني النصرانية قالوا لو كان هذا القرآن حقاً أخبرتنا به النصارى. ﴿**إن هذا إلا اختلاق**﴾ قال مجاهد وقتادة: كذب، وقال ابن عباس: تخرص. وقولهم: ﴿**أؤنزل عليه الذكر من بيننا**﴾ يعني أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿**لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**﴾ [الزخرف:٣١] قال الله تعالى: ﴿**أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات**﴾ [الزخرف:٣٢]، ولهذا لما قالوا هذا الذي دلّ على جهلهم وقلة عقلهم، في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال الله تعالى: ﴿**بل لما يذوقوا عذاب**﴾ أي إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله تعالى ونقمته، سيعلمون غِبّ ما قالوا وما كذبوا به يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً. ثم قال تعالى مبيناً أنه المتصرف في ملكه الفعال لما يشاء الذي يعطي من يشاء ما يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويختم على قلب من يشاء فلا يهديه أحد من بعد الله، وأن العباد لا يملكون شيئاً من الأمر وليس إليهم من التصرف في الملك ولا مثقال ذرة وما يملكون من قطمير، ولهذا قال تعالى منكراً عليهم: ﴿**أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب**﴾ أي العزيز الذي لا يرام جنابه الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد.

وقوله: ﴿**أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب**﴾ أي إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة وغيرهم: يعني طرق السماء، وقال الضحاك: فليصعدوا إلى السماء السابعة.

ثم قال: ﴿**جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب**﴾ أي هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويُكبَتُون كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقد تقدمت قصصهم مبسوطة في أماكن متعددة وقوله: ﴿**أولئك الأحزاب**﴾ أي كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فما دفع ذلك

عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك ولهذا قال: ﴿**إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب**﴾ فجعل علة هلاكهم هو تكذيبهم بالرسل، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر.

وقوله: ﴿**وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق**﴾ قال زيد بن أسلم: أي ليس لها مثنوية. أي ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها، أي قد اقتربت ودنت وأزفت وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى إسرافيل أن يطولها فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع إلا من استثنى الله عز وجل.

وقوله: ﴿**وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب**﴾ هذا إنكار من الله تعالى على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن القط هو الكتاب، وقيل: هو الحظ والنصيب. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والحسن وغير واحد: سألوا تعجيل العذاب. وقال ابن جرير: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر في الدنيا، وهذا الذي قاله جيد وعليه يدور كلام الضحاك وإسماعيل بن أبي خالد والله أعلم. ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد، قال الله تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بالصبر على أذاهم ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر: ﴿**اصبر على ما يقولون**﴾.

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود عليه السلام أنه كان ذا أيد، والأيد: القوة في العلم والعمل. قال ابن عباس والسدي وابن زيد: الأيد: القوة، وقرأ ابن زيد ﴿**والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون**﴾ [الذاريات:٤٧]، وقال مجاهد: الأيد: القوة في الطاعة. وقال قتادة: أعطي داود عليه السلام قوة في العبادة، وفقهاً في الإسلام، وقد ذكر لنا أنه عليه السلام كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر، وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى». وأنه كان أواباً، وهو الرجاع إلى الله عز وجل في جميع أموره وشؤونه.

وقوله: ﴿**إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق**﴾ أي أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال تعالى: ﴿**يا جبال أوبي معه والطير**﴾ [سبأ:١٠]. وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيعه إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب بل يقف في الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعاً له.

قال تعالى: ﴿**والطير محشورة**﴾ أي محبوسة في الهواء ﴿**كل له أواب**﴾ أي مطيع يسبح تبعاً له، وقال سعيد بن جبير وقتادة وزيد بن أسلم وابن زيد: ﴿**كل له أواب**﴾ أي مطيع.

﴿وشددنا ملكه﴾ أي جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك، قال مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطاناً، وقال السدي كان يحرسه في كل يوم أربعة آلاف.

وقوله: ﴿وآتيناه الحكمة﴾ قال مجاهد يعني الفهم والعقل والفطنة. وقال مرة: الحكمة والعدل، وقال مرة: الصواب، وقال قتادة كتاب الله واتباع ما فيه، وقال السدي: النبوة. وقوله: ﴿وفصل الخطاب﴾ قال شريح القاضي والشعبي: فصل الخطاب الشهود والأيمان. وقال قتادة: شاهدان على المدعي، أو يمين المدعى عليه، هو فصل الخطاب الذي فصل به الأنبياء والرسل أو قال المؤمنون والصالحون وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة، وكذا قال أبو عبد الرحمن السلمي، وقال مجاهد والسدي: هو إصابة القضاء وفهمه، وقال مجاهد أيضاً: هو الفصل في الكلام وفي الحكم. وهذا يشمل هذا كله وهو المراد واختاره ابن جرير، وقال الشعبي فصل الخطاب: «أما بعد».

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم حديثاً لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق وما تضمن فهو حق أيضاً. وقوله: ﴿إذ دخلوا على داوود ففزع منهم﴾ إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب أي احتاطا به يسألانه عن شأنهما. وقوله: ﴿وعزني في الخطاب﴾ أي غلبني يقال عز يعز: إذا قهر وغلب. وقوله: ﴿وظن داود أنما فتناه﴾ قال ابن عباس: أي اختبرناه. وقوله: ﴿وخر راكعاً﴾ أي ساجداً ﴿وأناب﴾ ويحتمل أنه ركع أولاً، ثم سجد بعد ذلك، ﴿فغفرنا له ذلك﴾ أي ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقد اختلف الأئمة رضي الله عنهم في سجدة «ص» هل هي من عزائم السجود؟ على قولين الجديد من مذهب الشافعي رحمه الله أنها ليست من عزائم السجود بل هي سجدة شكر، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال في السجدة في «ص» ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها. ورواه البخاري.

وروى البخاري عند تفسيرها عن العوام قال سألت مجاهداً عن سجدة «ص» فقال: سألت ابن عباس من أين سجدت؟ فقال: أو ما تقرأ ﴿ومن ذريته داود وسليمان﴾ [الأنعام:٨٤]، ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام:٩]، فكان داود عليه السلام ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به فسجدها داود عليه الصلاة والسلام فسجدها رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ أي وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها، وحسن مرجع وهو الدرجات العاليات في الجنة لتوبته وعدله التام في ملكه كما جاء في صحيح [مسلم]: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا».

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦ ﴾.

هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله. وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد. روى ابن أبي حاتم عن إبراهيم أبي زرعة وكان قد قرأ الكتاب أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهت، فقلت يا أمير المؤمنين أقول؟ قال: قل في أمان، قلت: يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام، إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ثم توعده في كتابه فقال: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ الآية. وقال عكرمة: ﴿لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ هذا من المقدم والمؤخر لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا. وقال السدي: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب. وهذا القول أمشى على ظاهر الآية والله أعلم.

﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾.

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه، ثم يجمعهم ليوم الجمع، فيثيب المطيع ويعذب الكافر، ولهذا قال تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا﴾ أي الذين لا يرون بعثاً ولا معاداً، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿فويل للذين كفروا من النار﴾ أي ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم. ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمن والكافر، فقال: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض * أم نجعل المتقين كالفجار﴾ أي

لا نفعل ذلك ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ويعاقب فيها هذا الفاجر. وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء، فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء. ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة، قال: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ أي ذوو العقول وهي الألباب جمع لب وهو العقل. (قال الحسن البصري: والله ما تَدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل)

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان أي نبياً كما قال: ﴿**وورث سليمان داود**﴾ [النمل:١٦] أي في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر. وقوله: ﴿**نعم العبد إنه أواب**﴾ ثناء على سليمان عليه السلام بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل.

وقوله: ﴿**إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد**﴾ أي إذ عرض على سليمان عليه الصلاة والسلام في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات. قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والجياد السراع وكذا قال غير واحد من السلف، وروي عن إبراهيم التيمي قال: كانت الخيل التي شغلت سليمان عليه الصلاة والسلام عشرين ألف فرس فعقرها.

وقوله: ﴿**فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب**﴾ ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه. ويحتمل أنه كان سائغاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال، والخيل تراد للقتال. وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعاً فنسخ ذلك بصلاة الخوف، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسايفة والمضايقة، حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في فتح تستر وهو منقول عن مكحول والأوزاعي وغيرهما والأول أقرب لأنه قال: ﴿**ردوها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق**﴾. قال الحسن البصري: قال: لا، قال: والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك، ثم أمر بها فعقرت وكذا قال قتادة، وقال السدي: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف. وقال ابن عباس: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبالها. وهذا القول اختاره ابن جرير

قال: لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة، ويهلك مالاً من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها، وهذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظر لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولاسيما إذا كان غضباً لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوضه الله عز وجل ما هو خير منها وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب غدوها شهر ورواحها شهر فهذا أسرع وخير من الخيل. روى الإمام أحمد عن أبي قتادة وأبي الدهماء وكانا يكثران السفر نحو البيت قالا: أتينا على رجل من أهل البادية فقال البدوي: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله عز وجل وقال: «إنك لا تدع شيئاً اتقاء الله إلا أعطاك الله خيراً منه». [قال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح].

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

يقول تعالى: **﴿ولقد فتنا سليمان﴾** أي اختبرناه بأن سلبناه الملك مرة **﴿وألقينا على كرسيه جسداً﴾** قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والحسن وغيرهم: يعني شيطاناً **﴿ثم أناب﴾** أي رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته.

﴿قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب﴾ قال بعضهم: لا ينبغي لأحد من بعدي أي لا يصلح لأحد أن يسلبنيه بعدي كما كان من قضية الجسد الذي ألقي على كرسيه، لا أنه يحجر على من بعده من الناس والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله وهذا هو ظاهر السياق من الآية وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ.

روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت عليّ البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله منه وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان عليه الصلاة والسلام **﴿رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾**.

وقوله: **﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾** قال الحسن البصري: لما عقر سليمان عليه الصلاة والسلام الخيل غضباً لله عز وجل عوضه الله تعالى ما هو خير منها وأسرع، الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر.

وقوله: **﴿حيث أصاب﴾** أي حيث أراد من البلاد. وقوله: **﴿والشياطين كل بناء وغواص﴾** أي منهم من هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون في

البحار يستخرجون ما فيها من اللآلىء والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها، ﴿وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ أي موثقون في الأغلال والأكبال، ممن قد تَمَرّد وعصى وامتنع من العمل وأبى، أو قد أساء في صنيعه واعتدى.

وقوله: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾ أي هذا الذي أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا، فأعط من شئت واحرم من شئت لا حساب عليك، أي مهما فعلت فهو جائز لك احكم بما شئت فهو صواب. وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خُيِّر بين أن يكون عبداً رسولاً ـ وهو الذي يفعل ما يؤمر به وإنما هو قاسم يقسم بين الناس كما أمره الله تعالى به ـ وبين أن يكون نبياً ملكاً يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح، اختار المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل عليه الصلاة والسلام فقال له: تواضع. فاختار المنزلة الأولى لأنها أرفع قدراً عند الله عز وجل وأعلى منزلة في المعاد. وإن كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مع الملك عظيمة أيضاً في الدنيا والآخرة، ولهذا لما ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان عليه الصلاة والسلام في الدنيا نبه تعالى على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضاً فقال تعالى: ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ أي في الدار الآخرة.

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ ﴾.

يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أيوب عليه السلام، وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده حتى لم يبق في جسده مَغْرز إبرة سليماً سوى قلبه، ولم يبق له من الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله تعالى ورسوله. فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر المقدور وتم الأجل المقدر تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين فقال: ﴿إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وفي هذه الاية الكريمة قال: ﴿أني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾، قيل: بنصب في بدني، وعذاب في مالي وولدي فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه وأن يركض الأرض برجله. ففعل فأنبع الله تعالى عيناً وأمره أن يغتسل منها فأذهبت جميع ما كان في بدنه من الأذى، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر فأنبع له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها فأذهبت جميع ما كان في باطنه من السوء وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً، ولهذا قال تعالى: ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾.

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم

والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين. قال له صاحبه وما ذاك ؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب عليه الصلاة والسلام: لا أدري ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا في حق، قال وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله تبارك وتعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام أن ﴿**اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب**﴾ فاستبطأته فالتفتت تنظر فأقبل عليها وقد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، فوالله ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً. قال: فإني أنا هو، قال وكان له أندران، أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله تعالى سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض». هذا لفظ ابن جرير رحمه الله. [قال الهيثمي في المجمع: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب عليه الصلاة والسلام يحثو في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى قال عليه الصلاة والسلام: بلى يا رب ولكن لا غنى بي عن بركتك». انفرد بإخراجه البخاري. ولهذا قال تعالى: ﴿**ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب**﴾ قال الحسن وقتادة أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم.

وقوله: ﴿**رحمة منا**﴾ أي به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته، ﴿**وذكرى لأولي الألباب**﴾ أي لذوي العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة. وقوله: ﴿**وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث**﴾ وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على زوجته ووجد عليها في أمر فعلته. قيل: باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه فلامها على ذلك، وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة، وقيل: لغير ذلك من الأسباب فلما شفاه الله عز وجل وعافاه، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضغثاً وهو الشِّمراخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة وقد بَرّت يمينه وخرج مِنْ حنثه ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿**إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب**﴾ أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿**نعم العبد إنه أواب**﴾ أي رجاع منيب، ولهذا قال تعالى: ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً* ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً***﴾ [الطلاق: ٢-٣]. وقد استدل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة

على مسائل في الأيمان وغيرها، وأخذوا بمقتضاها ومنعت طائفة اخرى من الفقهاء من ذلك وقالوا: لم يثبت أن الكفارة كانت مشروعة في شرع أيوب عليه السلام، فلذلك رخص له في ذلك وقد أغنى الله هذه الأمة بالكفارة.

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾.

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين **﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار﴾** يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة، قال ابن عباس: **﴿أولي الأيدي﴾** يقول: أولي القوة، **﴿والأبصار﴾** يقول: الفقه في الدين. وقال مجاهد: **﴿أولي الأيدي﴾** يعني القوة في طاعة الله تعالى، والأبصار يعني البصر في الحق. وعن قتادة والسدي: [نحوه].

وقوله: **﴿إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾** قال مجاهد: أي جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هَمّ غيرها. وقال السدي: ذكرهم للآخرة وعملهم لها. [وعن مالك بن دينار، وعطاء الخراساني نحوه]. وقال سعيد بن جبير: يعني بالدار الجنة يقول أخلصناها لهم بذكرهم لها. وقال قتادة: كانوا يذَكّرون الناس الدار الآخرة والعمل لها. وقوله: **﴿وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾** أي لمن المختارين المجتبين الأخيار، فهم أخيار مختارون.

وقوله: **﴿واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار﴾** قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما أغنى عن إعادته ههنا.

وقوله: **﴿هذا ذكر﴾** أي هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر، قال السدي: يعني القرآن العظيم.

﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة لحسن مآب وهو المرجع والمنقلب. ثم فسره بقوله: **﴿جنات عدن﴾** أي جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب، والألف واللام ههنا بمعنى الإضافة كأنه يقول مفتحة لهم أبوابها أي إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها.

وقد ورد في ذكر أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوه عديدة.

وقوله: **﴿متكئين فيها﴾** قيل: متربعين على سرر تحت الحجال، **﴿يدعون فيها بفاكهة كثيرة﴾** أي مهما طلبوا وجدوا، وأحضر كما أرادوا **﴿وشراب﴾** أي من أي أنواعه شاؤوا أتتهم به الخدام **﴿بأكواب وأباريق وكأس من معين﴾** [الواقعة:١٨].

﴿وعندهم قاصرات الطرف﴾ أي عن غير أزواجهن فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن **﴿أتراب﴾** أي متساويات في السن والعمر هذا معنى قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والسدي. **﴿هذا ما توعدون ليوم الحساب﴾** أي هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة التي وعدها

لعباده المتقين الذين يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار.

ثم أخبر تبارك وتعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا انقضاء ولا انتهاء، فقال: ﴿إن هذا لرزقنا ماله من نفاد﴾ كقوله تعالى: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾ [النحل:٩٦]، وكقوله: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ [هود:١٠٨]. والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى مآل السعداء ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم، فقال: ﴿هذا وإن للطاغين﴾ وهم الخارجون عن طاعة الله عز وجل المخالفون لرسل الله ﴿لشر مآب﴾ أي لسوء منقلب ومرجع. ثم فسره بقوله: ﴿جهنم يصلونها﴾ أي يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم، ﴿فبئس المهاد * هذا فليذوقوه حميم وغساق﴾ أما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره، وأما الغَسَّاق فهو ضده وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم، ولهذا قال: ﴿وآخر من شكله أزواج﴾ أي وأشياء من هذا القبيل: الشيء وضده يعاقبون بها.

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وآخر من شكله أزواج﴾ ألوان من العذاب، وقال غيره: كالزمهرير، والسموم، وشرب الحميم، وأكل الزقوم، والصعود والهوي إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة والجميع مما يعذبون به، ويهانون بسببه.

وقوله: ﴿هذا فوج مقتحم معكم لامرحباً بهم إنهم صالوا النار﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض كما قال تعالى: ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾ [الأعراف:٣٨]، يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون، ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية: ﴿هذا فوج مقتحم﴾ أي داخل ﴿معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار﴾ أي لأنهم من أهل جهنم. ﴿قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم﴾ أي فيقول لهم الداخلون: ﴿بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا﴾ أي أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ﴿فبئس القرار﴾ أي فبئس المنزل والمستقر والمصير. ﴿قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار﴾ كما قال عز وجل: ﴿قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار * قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ [الأعراف:٣٨] أي لكل منكم عذاب بحسبه ﴿وقالوا مالنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار * أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار﴾ هذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يفقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة وهم المؤمنون في زعمهم قالوا مالنا لا نراهم

معنا في النار. قال مجاهد: هذا قول أبي جهل يقول مالي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً وهذا مثل ضرب وإلا فكل الكفار هذا حالهم يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم فقالوا: ﴿**مالنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار * أتخذناهم سخرياً**﴾ أي في الدار الدنيا ﴿**أم زاغت عنهم الأبصار**﴾ يسألون أنفسهم بالمحال يقولون: أو لعلهم معنا في جهنم ولكن لم يقع بصرنا عليهم، فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات، وهو قوله: ﴿**ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين** ـ إلى قوله ـ **ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون**﴾ [الأعراف: ٤٤-٤٩]. وقوله: ﴿**إن ذلك لحق تخاصم أهل النار**﴾ أي إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ولعن بعضهم لبعض لحق لا مرية فيه ولا شك.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله: إنما أنا منذر لست كما تزعمون، ﴿**وما من إله إلا الله الواحد القهار**﴾ أي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه ﴿**رب السموات والأرض وما بينهما**﴾ أي هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه ﴿**العزيز الغفار**﴾ أي غفار مع عظمته وعزته. ﴿**قل هو نبأ عظيم**﴾ أي خبر عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله إياي إليكم ﴿**أنتم عنه معرضون**﴾ أي غافلون، قال مجاهد وشريح القاضي والسدي في قوله: ﴿**قل هو نبأ عظيم**﴾ يعني القرآن.

وقوله: ﴿**ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون**﴾ أي لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى؟ يعني في شأن آدم عليه الصلاة والسلام وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه في تفضيله عليه. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن معاذ رضي الله عنه قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى قرن الشمس فخرج ﷺ سريعاً فثوب بالصلاة فصلى وتجوز في صلاته فلما سلم قال ﷺ: «كما أنتم على مصافكم» ثم أقبل إلينا فقال: «إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي فنعست في صلاتي حتى استثقلت فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة فقال: يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري رب ـ أعادها ثلاثاً ـ فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري فتجلى لي كل شيء وعرفت فقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجمعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء عند الكريهات. قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام،

قال: سل، قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك ،وقال رسول الله ﷺ: إنها حق فادرسوها وتعلموها». فهو حديث المنام المشهور، ومن جعله يقظة فقد غلط وهو في السنن من طرق، وقال الترمذي: حسن صحيح. وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور في القرآن فإن هذا قد فسر، وأما الاختصام الذي في القرآن فقد فسر بعد هذا وهو قوله تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

هذه القصة ذكرها الله تبارك وتعالى في سورة البقرة، وفي أول سورة الأعراف، وفي سورة الحجر، وفي سبحان، والكهف، وههنا وهي أن الله سبحانه وتعالى أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمإ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراماً وإعظاماً واحتراماً وامتثالاً لأمر الله عز وجل. فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس ولم يكن منهم جنساً. كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه، فاستنكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه عز وجل فيه، وادعى أنه خير من آدم، فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين، والنار خير من الطين في زعمه. وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله تعالى وكفر بذلك، فأبعده الله عز وجل وأرغم أنفه، وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه، وحضرة قدسه، وسماه إبليس إعلاماً له بأنه قد أبْلَس من الرحمة، وأنزله من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث، فأنظره الحليم الذي لا يَعْجَل على من عصاه. فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى، وقال: **﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين﴾** كما قال: **﴿أرأيتك هذا الذي كرمت علي * لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾** [الإسراء: ٦٢]، وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً﴾** [الإسراء: ٦٥].

وقوله: **﴿قال فالحق والحق أقول * لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾** قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع الحق الأولى، وفسره مجاهد بأن معناه أنا الحق والحق أقول. وفي رواية عنه: الحق مني وأقول الحق، وقرأ آخرون بنصبهما. قال السدي: هو قسم أقسم الله به.

قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ [السجدة: ١٣].

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾.

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجراً تعطونيه من عرض الحياة الدنيا، ﴿وما أنا من المتكلفين﴾ أي وما أزيد على ما أرسلني الله تعالى به، ولا أبتغي زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة. عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود فقال: يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾ أخرجاه.

وقوله: ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ يعني القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، وعن ابن عباس في قوله: ﴿للعالمين﴾ قال: الجن والإنس، وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ [الأنعام: ١٩]، وكقوله: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ [هود: ١٧]. وقوله: ﴿ولتعلمن نبأه﴾ أي خبره وصدقه ﴿بعد حين﴾ أي عن قريب. قال قتادة: بعد الموت وقال عكرمة: يعني يوم القيامة، ولا منافاة بين القولين فإن من مات فقد دخل في حكم القيامة، وقال الحسن يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

تفسير سورة الزمر وهي مكية.

روى النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر. [وسنده صحيح].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن العظيم من عنده، تبارك وتعالى فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ [الشعراء: ١٩٢]، وقال: ﴿وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]. وقال هاهنا: ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز﴾ أي المنيع الجناب ﴿الحكيم﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره. ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له

الدين﴾ أي فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده، وأنه ليس له شريك ولا عديل، ولهذا قال: **﴿ألا لله الدين الخالص﴾** أي لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له. وقال قتادة في قوله: **﴿ألا لله الدين الخالص﴾** شهادة أن لا إله إلا الله. ثم أخبر عن عُبّاد الأصنام من المشركين أنهم يقولون: **﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾** أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة، ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمور الدنيا فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به. قال قتادة والسدي وزيد بن أسلم وابن زيد: **﴿إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾** أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة. ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون قديم الدهر وحديثه وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردّها والنهي عنها والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأنّ هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضي به بل أبغضه ونهى عنه **﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾** [النحل:٣٦]. **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾** [الأنبياء:٢٥]. وأخبر أن الملائكة التي في السموات من الملائكة المقربين وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه، **﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾** [النحل:٧٤]، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقوله: **﴿إن الله يحكم بينهم﴾** أي يوم القيامة **﴿فيما هم فيه يختلفون﴾** أي سيفصل بين الخلائق يوم معادهم ويجزي كل عامل بعمله، **﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾** [سبأ:٤٠-٤١]. وقوله: **﴿إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾** أي لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله، وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه. ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزير وعيسى فقال: **﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء﴾** أي لكان الأمر على خلاف ما يزعمون. وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، كما قال: **﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾** [الأنبياء:١٧]، **﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾** [الزخرف:٨١]، كل هذا من باب الشرط ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم.

وقوله: **﴿سبحانه هو الله الواحد القهار﴾** أي تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه

الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي كل شيء عبد لديه فقير إليه، وهو الغني عما سواه، الذي قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾.

يخبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض وما بين ذلك من الأشياء، وأنه مالك الملك المتصرف فيه يقلب ليله ونهاره ﴿**يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل**﴾ أي سخرهما يجريان متعاقبين لا يفتران، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، كقوله تبارك وتعالى: ﴿**يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً**﴾ [الأعراف:٥٤] هذا معنى ما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وغيرهم.

وقوله عز وجل: ﴿**وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى**﴾ أي إلى مدة معلومة عند الله تعالى ثم تنقضي يوم القيامة. ﴿**ألا هو العزيز الغفار**﴾ أي مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب إليه.

وقوله: ﴿**خلقكم من نفس واحدة**﴾ أي خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة وهو آدم، ﴿**ثم جعل منها زوجها**﴾ وهي حواء عليهما السلام، كقوله: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجا وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء**﴾ [النساء:١]. وقوله: ﴿**وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج**﴾ أي خلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهي المذكورة في سورة الأنعام: ﴿**ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين**﴾ ﴿**ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين**﴾ [الأنعام:١٤٣، ١٤٤]. وقوله: ﴿**يخلقكم في بطون أمهاتكم**﴾ أي قدركم في بطون أمهاتكم ﴿**خلقاً من بعد خلق**﴾ يكون أحدكم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً وعصباً وعروقاً وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿**في ظلمات ثلاث**﴾ يعني: ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد، وظلمة البطن. كذا قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد وغيرهم. وقوله: ﴿**ذلكم الله ربكم**﴾ أي هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم، هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك ﴿**لا إله إلا هو**﴾ أي الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿**فأنى تصرفون**﴾ أي فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يُذهَبُ بعقولكم؟

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ

إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾.

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن نفسه تبارك وتعالى أنه الغني عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى: ﴿**إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد**﴾ [إبراهيم:٨]. وفي صحيح مسلم: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً». وقوله: ﴿**ولا يرضى لعباده الكفر**﴾ أي لا يحبه ولا يأمر به ﴿**وإن تشكروا يرضه لكم**﴾ أي يحبه لكم ويزدكم من فضله. ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾ أي لا تحمل نفس عن نفس شيئاً، بل كل مطالب بأمر نفسه ﴿**ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور**﴾ أي فلا تخفى عليه خافية.

وقوله: ﴿**وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه**﴾ أي عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿**وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً**﴾ [الإسراء:٦٧]. ولهذا قال: ﴿**ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل**﴾ أي في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال: ﴿**وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضرّه مر كأن لم يدعناإلى ضر مسه**﴾ [يونس:١٢].

﴿**وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله**﴾ أي في حال العافية يشرك بالله، ويجعل له أنداداً. ﴿**قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار**﴾ أي قل لمن هذه حالته ومسلكه: تمتع بكفرك قليلاً وهو تهديد شديد ووعيد أكيد، كقوله: ﴿**قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار**﴾ [إبراهيم:٣٠].

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾﴾.

يقول تعالى: أَمَّنْ هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً، لا يستوون عند الله، كما قال تعالى: ﴿**ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون**﴾ [آل عمران:١١٣]، وقال ههنا: ﴿**أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً**﴾ أي في حال سجوده وفي حال قيامه، ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة، وليس هو القيام وحده، كما ذهب إليه آخرون. قال ابن مسعود: القانت: المطيع لله ولرسوله. وقال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن والسدي وابن زيد: آناء الليل: جوف الليل. وقال منصور بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء، وقال الحسن وقتادة: آناء الليل: أوله وأوسطه وآخره.

وقوله: ﴿**يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه**﴾ أي في حال عبادته خائف راج، ولا بد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب، ولهذا قال: ﴿**يحذر الآخرة**

ويرجو رحمة ربه﴾ فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه، كما روى الإمام عبد بن حميد في مسنده والترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت فقال له: «كيف تجدك؟» فقال: أرجو وأخاف، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله عز وجل الذي يرجو وأمنه الذي يخافه». [سنده صحيح].

وقوله: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ أي هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ أي إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل.

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم، وقوله: ﴿وأرض الله واسعة﴾ قال مجاهد: فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان، وعن عطاء في قوله: ﴿وأرض الله واسعة﴾ قال: إذا دعيتم إلى معصية فاهربوا، ثم قرأ: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ [النساء:٩٧]. وقوله: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم ولا يكال لهم إنما يغرف لهم غرفاً، وقال ابن جريج: بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزادون على ذلك، وقال السدي: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ يعني في الجنة. وقوله: ﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾ أي إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿وأمرت لأن أكون أول المسلمين﴾ قال السدي يعني من أمته ﷺ.

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾.

يقول تعالى قل يا محمد وأنت رسول الله: ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ وهو يوم القيامة، وهذا شرط معناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى، ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾ وهذا أيضاً تهديد، ﴿قل إن الخاسرين﴾ أي إنما الخاسرون كل الخسران ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ أي تفارقوا فلا التقاء لهم أبداً، سواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا النار ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور، ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾ أي هذا هو الخسران المبين الظاهر الواضح. ثم وصف حالهم في النار فقال: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾

كما قال: ﴿**يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون**﴾ [العنكبوت: ٥٥]. وقوله: ﴿**ذلك يخوف الله به عباده**﴾ أي إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده لينزجروا عن المحارم والمآثم. وقوله: ﴿**يا عباد فاتقون**﴾ أي اخشوا بأسي وعذابي.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾.

قال زيد بن أسلم: ﴿**والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها**﴾ نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل، وأبي ذر، وسلمان الفارسي. والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان، وأناب إلى عبادة الرحمن فهؤلاء هم الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ثم قال: ﴿**فبشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾ أي يفهمونه ويعملون بما فيه. ﴿**أولئك الذين هداهم الله**﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة ﴿**وأولئك هم أولو الألباب**﴾ أي ذوو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة.

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

يقول تعالى أفمن كتب الله أنه شقي تَقْدرُ تُنقذُه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أي لا يهديه أحد من بعد الله لأنه من يضلل الله فلا هادي له ومن يهده فلا مضل له. ثم أخبر عن عباده السعداء أن لهم غرفا في الجنة، وهي القصور الشاهقة ﴿**من فوقها غرف مبنية**﴾ طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة أهل الغرف، كما تراءون الكوكب الدري الغارب في الأفق الطالع، في تفاضل أهل الدرجات ـ فقالوا يا رسول الله أولئك النبيون؟ فقال ﷺ: «بلى، والذي نفسي بيده، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل». ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

وقوله: ﴿**تجري من تحتها الأنهار**﴾ أي تسلك الأنهار بين خلال ذلك، كما يشاؤون وأين أرادوا ﴿**وعد الله**﴾ أي هذا الذي ذكرنا وَعْدٌ وعَدَه الله عباده المؤمنين ﴿**إن الله لا يخلف الميعاد**﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى أن أصل الماء من السماء كما قال عز وجل: ﴿**وأنزلنا من السماء ماء طهوراً**﴾ [الفرقان: ٤٨]، فإذا أنزل الماء من السماء كَمَن في الأرض، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض

كما يشاء، ويُنبِعُه عيوناً ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها، ولهذا قال: ﴿**فسلكه ينابيع في الأرض**﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء ولكن عروق في الأرض تغيره، فذلك قوله: ﴿**فسلكه ينابيع في الأرض**﴾ فمن سره أن يعود الملح عذباً فليصعده. وكذا قال سعيد بن جبير وعامر الشعبي: أن كل ماء في الأرض فأصله من السماء، وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج. وقوله: ﴿**ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه**﴾ أي ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعاً مختلفاً ألوانه أي أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه ﴿**ثم يهيج**﴾ أي بعد نضارته وشبابه يكتهل فتراه مصفراً قد خالطه اليُبْس ﴿**ثم يجعله حطاماً**﴾ أي ثم يعود يابساً يتحطم ﴿**إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب**﴾ أي الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خَضرةً نضرةً حسناء، ثم تعود عَجُوزاً شوهاء، والشاب يعود شيخاً هَرِماً ضعيفاً قد خالطه اليبس، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء، وينبت به زرعاً وثماراً، ثم يكون بعد ذلك حُطاماً، كما قال تعالى: ﴿**واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً**﴾ [الكهف: ٤٥]. وقوله: ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه**﴾ أي هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق؟ كقوله تعالى: ﴿**أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها**﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ولهذا قال: ﴿**فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله**﴾ أي فلا تلين عند ذكره ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم ﴿**أولئك في ضلال مبين**﴾.

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

هذا مدح من الله عز وجل لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم. قال الله تعالى: ﴿**الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني**﴾ قال مجاهد: يعني القرآن كله متشابه مثاني، وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف. وقال الضحاك: مثاني ترديد القول ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى وقال عكرمة والحسن: ثَنّى الله فيه القضاء، زاد الحسن تكون السورة فيها آية وفي السورة الأخرى آية تشبهها، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مثاني مُرَدَّد، رُدِّد موسى في القرآن، وصالح وهود والأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أمكنة كثيرة. وقال ابن عباس: مثاني قال: القرآن يشبه بعضه بعضاً، ويُرَدُّ بعضه على بعض، ويُرْوى عن سفيان بن عيينة معنى قوله: ﴿**متشابهاً مثاني**﴾ أنّ سياقات القرآن تارة تكونُ في معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارة تكونُ بذكر الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا فهذا من المثاني، كقوله تعالى: ﴿**إن الأبرار لفي نعيم * وإن**

الفجار لفي جحيم﴾ [الانفطار: ١٣-١٤]، ونحو هذا من السياقات فهذا كله من المثاني، أي في معنيين اثنين، وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضاً، فهو المتشابه وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله: **﴿منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾** [آل عمران: ٧]، ذلك معنى آخر. وقوله: **﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾** أي هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف **﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾** لما يرجون ويُؤمِّلون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه: **أحدها**: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نَغَمات الأبيات من أصوات القَيْنات. **الثاني**: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبُكياً، بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم كما قال: **﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾** [الأنفال: ٢-٤]. **الثالث**: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. ولم يكونوا يتصارخُون ولا يتكلّفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فازوا بالقِدح المُعَلّى في الدنيا والآخرة. قال قتادة رحمه الله: **﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾** هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله عز وجل بأن تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان.

وقال السدي: **﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾** أي إلى وعد الله، وقوله: **﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده﴾** أي هذه صفة من هداه الله ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله **﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾**.

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: **﴿أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة﴾** ويُقرَّع فيقال له ولأمثاله من الظالمين: **﴿ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾**، كمن يأتي آمناً يوم القيامة؟ كما قال تعالى: **﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾** [الملك: ٢٢]. ، واكتفى في هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر. وقوله: **﴿كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من**

حيث لا يشعرون﴾ يعني القرون الماضية المكذبة للرسل أهلكهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق، وقوله: **﴿فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا﴾** أي بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفي المؤمنين بهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل وخاتم الأنبياء ﷺ، والذي أعده الله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظمُ مما أصابهم في الدنيا، ولهذا قال: **﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾**.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) ﴾.

يقول تعالى: **﴿ولقد ضربنا للناس في هذه القرآن من كل مثل﴾** أي بينا للناس فيه بضرب الأمثال **﴿لعلهم يتذكرون﴾**، فإن المثل يُقرِّب المعنى إلى الأذهان، كما قال تعالى: **﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم﴾** [الروم:٢٨] أي تعلمونه من أنفسكم، وقال: **﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾** [العنكبوت:٤٣]. وقوله: **﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾** أي هو قرآن بلسان عربي مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأنزله بذلك **﴿لعلهم يتقون﴾** أي يحذرون ما فيه من الوعيد ويعملون لما فيه من الوعد. ثم قال: **﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون﴾** أي يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم، **﴿ورجلاً سلماً﴾** أي سالماً **﴿لرجل﴾** أي خالصاً لا يملكه أحد غيره **﴿هل يستويان مثلاً ﴾** أي لا يستوي هذا وهذا. كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، فأين هذا من هذا؟ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص، ولما كان هذا المثلُ ظاهراً بَيِّناً جلياً، قال: **﴿الحمد لله﴾** أي على إقامة الحجة عليهم **﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾** أي فلهذا يشركون بالله. وقوله: **﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾** هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق رضي الله عنه عند موت الرسول ﷺ حتى تحقق الناس موته.

ومعنى هذه الآية أنكم ستنقلون من هذه الدار لا محالة وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عز وجل، فيفصل بينكم ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين. ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين. ثم إن هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذِكْر الخصومة بينهم في الدار الآخرة فإنها شاملة لكل المتنازعين في الدنيا فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة.

روى الإمام أحمد عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ **﴿إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾** قال الزبير رضي الله عنه:

أي رسول الله، أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال ﷺ: «نعم ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه». قال الزبير: والله إن الأمر لشديد. ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهتدي الضال، والضعيف المستكبر.

وقال أبو العالية في قوله: ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال: يعني أهل القبلة، وقال ابن زيد: يعني أهل الإسلام وأهل الكفر، وقد قدمنا أن الصحيح العموم والله أعلم.

﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

يقول عز وجل مخاطباً المشركين الذين افتروا على الله وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولداً - تعالى عن قولهم علواً كبيراً - ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولهذا قال: ﴿فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه﴾ أي لا أحد أظلم من هذا، لأنه جمع بين طرفي الباطل كذب على الله، وكذّب رسول الله، قالوا الباطل وردوا الحق، ولهذا قال متوعداً لهم: ﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين؟﴾ وهم الجاحدون المكذبون. ثم قال: ﴿والذي جاء بالصدق﴾ قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد: الذي جاء بالصدق هو الرسول ﷺ. وقال السدي: هو جبريل عليه السلام، ﴿وصدق به﴾ يعني محمداً ﷺ وقال ابن عباس: ﴿والذي جاء بالصدق﴾ قال: من جاء بلا إله إلا الله ﴿وصدق به﴾ يعني رسول الله ﷺ. وعن مجاهد: ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به﴾ قال: أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة فيقولون هذا ما أعطيتمونا فعملنا فيه بما أمرتمونا. وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين، فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير فإنه جاء بالصدق وصدق المرسلين وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿والذي جاء بالصدق﴾ هو رسول الله ﷺ ﴿وصدق به﴾ قال المسلمون. ﴿أولئك هم المتقون﴾ قال ابن عباس: اتقوا الشرك ﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾ يعني في الجنة مهما طلبوا وجدوا ﴿ذلك جزاء المحسنين﴾

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**أليس الله بكاف عبده**﴾ وقرأ بعضهم: «عباده» يعني أنه تعالى يكفي مَنْ عبده وتوكل عليه. وروى ابن حاتم ههنا عن فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أفلح من هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقَنِعَ به». ورواه الترمذي، وقال: صحيح. ﴿**ويخوفونك بالذين من دونه**﴾ يعني المشركين يخوفون الرسول ﷺ ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يدعونها من دونه جهلاً منهم وضلالاً، ولهذا قال تعالى: ﴿**ومن يضلل الله فما له من هاد* ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام**﴾ أي منيع الجناب لا يضام، من استند إلى جنابه ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذي لا أعز منه ولا أشد انتقاماً منه ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ. وقوله: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله**﴾ يعني أن المشركين كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره مما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ولهذا قال: ﴿**قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته**﴾ أي لا تستطيع شيئاً من الأمر. وذكر ابن أبي حاتم ههنا حديث ابن عباس مرفوعاً: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف ورفعت الأقلام واعمل لله بالشكر في اليقين. واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً. وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً» [رواه الترمذي وقال: حسن صحيح].

﴿**قل حسبي الله**﴾ أي الله كافيَّ، عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون، كما قال هود عليه السلام حين قال قومه: ﴿**إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مماتشركون * من دونه فيكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم**﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

وقوله: ﴿**قل يا قوم اعملوا على مكانتكم**﴾ أي على طريقتكم، وهذا تهديد ووعيد ﴿**إني عامل**﴾ أي على طريقتي ومنهجي ﴿**فسوف تعلمون**﴾ أي ستعلمون غب ذلك ووباله ﴿**من يأتيه عذاب يخزيه**﴾ أي في الدنيا ﴿**ويحل عليه عذاب مقيم**﴾ أي دائم مستمر لا محيد عنه وذلك يوم القيامة.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: **﴿إنا أنزلنا عليك الكتاب﴾** يعني القرآن **﴿للناس بالحق﴾** أي لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به **﴿فمن اهتدى فلنفسه﴾** أي فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه **﴿ومن ضل فإنما يضل عليها﴾** أي إنما يرجع وبال ذلك على نفسه **﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾** أي بموكل أن يهتدوا **﴿إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾** [هود: ١٢].

ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تعالى: **﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون * وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾** [الأنعام: ٦٠-٦١]. فذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى. وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى، ولهذا قال: **﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾** فيه دلالة على أنها تجتمع في الملأ الأعلى. وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا آوى أحدكم إلى فراشه فلينْفُضْه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين». وقال بعض السلف: تقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف، **﴿فيمسك التي قضى عليهاالموت﴾** التي قد ماتت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى. قال السدي: إلى بقية أجلها، وقال ابن عباس: يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء ولا يغلط **﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾**.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

يقول تعالى ذاماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك، وهي لا تملك شيئاً من الأمر بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ من الحيوان بكثير. ثم قال: قل أي يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه من شفعاء لهم

عند الله، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له فمرجعها كلها إليه، **﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾** [البقرة:٢٥٥]. **﴿له ملك السموات والأرض﴾** أي هو المتصرف في جميع ذلك **﴿ثم إليه ترجعون﴾** أي يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله ويجزي كلاً بعمله. ثم قال تعالى ذاماً للمشركين أيضاً: **﴿وإذا ذكر الله وحده﴾** أي إذا قيل لا إله إلا الله **﴿اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾** قال مجاهد: اشمأزت انقبضت، وقال السدي: نفرت وقال قتادة: كفرت واستكبرت، وقال زيد بن أسلم: استكبرت، كما قال تعالى: **﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾** [الصافات:٣٥]، أي عن المتابعة والانقياد لها فقلوبهم لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر، ولذلك قال: **﴿وإذا ذكر الذين من دونه﴾** أي من الأصنام والأنداد، قاله مجاهد، **﴿إذا هم يستبشرون﴾** أي يفرحون.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

يقول تبارك وتعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر من المذمة لهم في حبهم الشرك، ونفرتهم عن التوحيد، **﴿قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة﴾** أي ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذي خلق السموات والأرض وفطرها، أي جعلها على غير مثال سبق، **﴿عالم الغيب والشهادة﴾** أي السر والعلانية، **﴿أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾** أي في دنياهم ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم. روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

وقوله: **﴿ولو أن للذين ظلموا﴾** وهم المشركون **﴿ما في الأرض جميعاً ومثله معه﴾** أي ولو أن جميع ما في الأرض وضعفه معه **﴿لافتدوا به من سوء العذاب﴾** أي الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يُتقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً، كما قال في الآية الأخرى: **﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾** أي وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم، **﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾** أي وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم، **﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** أي وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟

مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله عز وجل، وينيب إليه ويدعوه، فإذا خوله نعمة منه بغى وطغى، وقال: ﴿**إنما أوتيته على علم**﴾ أي لما يعلم الله تعالى من استحقاقي له، ولولا أني عند الله خصيص لما خَوَّلني هذا، قال قتادة: على علم عندي: على خير عندي. قال الله عز وجل: ﴿**بل هي فتنة**﴾ أي ليس الأمر كما زعموا بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصي، مع علمنا المتقدم بذلك، فهي فتنة أي اختبار ﴿**ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ فلهذا يقولون ما يقولون ويدعون ما يدعون. ﴿**قد قالها الذين من قبلهم**﴾ أي قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم، ﴿**فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون**﴾ أي فما صح قولهم ولا مَنَعهم جمعُهم وما كانوا يكسبون ﴿**فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء**﴾ أي من المخاطبين ﴿**سيصيبهم سيئات ما كسبوا**﴾ أي كما أصاب أولئك ﴿**وما هم بمعجزين**﴾.

وقوله: ﴿**أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر**﴾ أي يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين ﴿**إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون**﴾ أي لعبراً وحججاً.

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ
إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا
فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ
حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ
وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبة، لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه. روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزل: ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون**﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزل: ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله**﴾. والمراد من الآية الأولى قوله: ﴿**إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً**﴾ الآية [الفرقان: ٧٠].

[فهذا دال] على أن المراد أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنط عبد من رحمة الله

وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب الرحمة والتوبة واسع، قال الله تعالى: ﴿**ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده**﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال: ﴿**ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً**﴾ [النساء: ١١٠]. والآيات في هذا كثيرة جداً. وفي الصحيحين عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ حديث الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً، ثم ندم وسأل عابداً من عُبَّاد بني إسرائيل هل له من توبة، فقال: لا فقتله وأكمل به مائة. ثم سأل عالماً من علمائهم هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة. ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها، فقصدها فأتاه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله عز وجل أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها. فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة. وذكر أنه نأى بصدره عند الموت وأن الله أمر البلدة الخيرة أن تقترب وأمر تلك البلدة أن تتباعد. هذا معنى الحديث وقد كتبناه في موضع آخر بلفظه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قد دعا الله تعالى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيراً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿**أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم**﴾ [المائدة: ٧٤] ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال: ﴿**أنا ربكم الأعلى**﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿**ما علمت لكم من إله غيري**﴾ [القصص: ٣٨]. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عز وجل، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه. وروى الطبراني عن ابن مسعود قال: إن أعظم آية في كتاب الله ﴿**الله لا إله إلا هو الحي القيوم**﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإن أجمع آية في القرآن ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان**﴾ [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية في القرآن فرجاً في سورة الزمر ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله**﴾، وإن أشد آية في كتاب الله تفويضاً ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾ [الطلاق: ٢-٣]. ومر عبد الله بن مسعود على قاص، وهو يذكر الناس، فقال: يا مذكر، لم تُقَنِّط الناس؟ ثم قرأ: ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله**﴾.

وروى الإمام أحمد عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «لولا أنكم تذنبون لخلق الله عز وجل قوماً يذنبون فيغفر لهم». وأخرجه مسلم.

ثم استحث سبحانه وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: ﴿**وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له**﴾ الخ، أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له ﴿**من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون**﴾ أي بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة، ﴿**واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم**

من ربكم﴾ وهو القرآن العظيم ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون﴾ أي من حيث لا تعلمون ولا تشعرون. ثم قال: ﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله﴾ أي يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل، وقوله: ﴿وإن كنت لمن الساخرين﴾ أي إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزىء غير موقن مصدق. ﴿أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرّة فأكون من المحسنين﴾ أي تود لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل. قال ابن عباس: أخبر الله سبحانه ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه، وقال: ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ [فاطر: ١٤]، ﴿أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين﴾ فأخبر الله تعالى: أن لو رُدوا لما قدروا على الهدى، وقال تعالى: ﴿ولورُدوا لعادوا لما نُهُوا عنهُ وإنهم لكاذبون﴾ [الأنعام: ٢٨]. وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول لو أن الله هداني فتكون عليه حسرة، قال: وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول لولا أن الله هداني قال فيكون له الشكر». ورواه النسائي [وسنده صحيح]. ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾ أي قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي في الدار الدنيا وقامت حججي عليك فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها.

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى ههنا: ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله﴾ أي في دعواهم له شريكاً وولداً ﴿وجوههم مسودة﴾ أي بكذبهم وافترائهم. وقوله: ﴿أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾ أي أليست جهنم كافية لهم سجناً وموئلاً لهم فيها الخزي والهوان، بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق. روى ابن أبي حاتم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجنا من النار في واد يقال له بولس من نار الأنيار، ويسقون من عصارة أهل النار ومن طينة الخبال». [وروى نحوه الترمذي، وقال: حسن صحيح]. وقوله: ﴿وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم﴾ أي بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿لا يمسهم السوء﴾ أي يوم القيامة ﴿ولا هم يحزنون﴾ أي ولا يحزنهم الفزع

الأكبر بل هم آمنون من كل فزع مزحزحون عن كل شر مؤملون كل خير.

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكها والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته. وقوله: **﴿له مقاليد السموات والأرض﴾** قال مجاهد: المقاليد هي المفاتيح بالفارسية، وكذا قال قتادة وابن زيد وسفيان بن عيينة، وقال السدي: أي خزائن السموات والأرض. والمعنى على كلا القولين أن أزمَّة الأمور بيده له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ولهذا قال: **﴿والذين كفروا بآيات الله﴾** أي حججه وبراهينه **﴿أولئك هم الخاسرون﴾**.

وقوله: **﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾** ذكروا في سبب نزولها ما رواه ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا معه إلهه، فنزلت **﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون * ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾**، وهذه كقوله: **﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾** [الأنعام:٨٨]. وقوله: **﴿بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾** أي أخلص العبادة لله وحده لا شريك له أنت ومن اتبعك وصدقك.

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء وكل شيء تحت قهره وقدرته، قال مجاهد: نزلت في قريش. وقال السدي: ما عظموه حق تعظيمه، وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوا، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم. فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره. وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف. روى البخاري عند قوله: **﴿وما قدروا الله حق قدره﴾** عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على أصبع، والأرضين على أصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع، وسائر الخلائق على أصبع فيقول أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: **﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾** الآية.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس فقال: كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله سبحانه وتعالى السماء على ذه ـ وأشار بالسبابة ـ والأرض على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه ـ كل ذلك يشير بأصابعه ـ قال فأنزل الله عز وجل: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ الآية. ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح غريب.

وروى البخاري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله تعالى الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض». وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على أصبع وتكون السموات بيمينه ثم يقول أنا الملك». وقد رواه الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: **﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾** ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر: «يمجد الرب نفسه أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم» فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا ليَخِرَّن به. وقد رواه مسلم.

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيامة، ومايكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقوله: **﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾**، هذه النفخة هي الثانية وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور. ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء ويقول: **﴿لمن الملك اليوم﴾** [غافر:١٦] ثلاث مرات. ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: **﴿لله الواحد القهار﴾** أي الذي هو واحد وقد قهر كل شيء، وحكم بالفناء على كل شيء، ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل ويأمره أن ينفخ بالصور مرة أخرى وهي النفخة الثالثة نفخة البعث، قال تعالى: **﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾** أي أحياء بعدما كانوا عظاماً ورفاتاً، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: **﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾** [النازعات:١٣-١٤].

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى له، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق، ثم يرسل الله تعالى أو ينزل الله عز وجل مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس.

ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾ [الصافات: ٢٤]، قال: ثم يقال: أخرجوا بعث النار، قال: فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فيومئذٍ تبعث الولدان شيباً ويومئذٍ يكشف عن ساق». أخرجه مسلم.

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «ما بين النفختين أربعون». قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركب الخلق.

وقوله: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ أي أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق تبارك وتعالى للخلائق لفصل القضاء، ﴿ووضع الكتاب﴾ قال قتادة: كتاب الأعمال ﴿وجيء بالنبيين﴾ قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوا رسالات الله إليهم ﴿والشهداء﴾ أي الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر ﴿وقضي بينهم بالحق﴾ أي بالعدل ﴿وهم لا يظلمون﴾ قال الله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ولهذا قال: ﴿ووفيت كل نفس ما عملت﴾ أي من خير وشر ﴿وهو أعلم بما يفعلون﴾.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار سوقاً عنيفاً. بزجر وتهديد ووعيد، كما قال تعالى: ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً﴾ [الطور: ١٣] أي يدفعون إليها دفعاً، هذا وهم عطاش ظماء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً * ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ [مريم: ٨٥-٨٦] وهم في تلك الحال صم وبكم وعمي منهم من يمشي على وجهه ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً﴾ [الإسراء: ٩٧]. وقوله: ﴿حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها﴾ أي بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعاً لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق شداد القوى على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل: ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ أي من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم ﴿يتلون عليكم آيات ربكم﴾ أي يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه، ﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ أي ويحذرونكم من شر هذا اليوم، فيقول الكفار لهم: ﴿بلى﴾ أي قد جاءونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾ أي ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة التي كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل، كما

قال تعالى مخبراً عنهم في الآية الأخرى: ﴿**كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل. ما كنا في أصحاب السعير**﴾ [الملك:٨-١٠] أي رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة ﴿**فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير**﴾ [الملك:١١] أي بعداً لهم وخساراً.

وقوله ههنا: ﴿**قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها**﴾ أي كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب، ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به، ولهذا قال جل وعلا: ﴿**قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها**﴾ أي ماكثين فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها ﴿**فبئس مثوى المتكبرين**﴾ أي فبئس المصير، بسبب تكبركم في الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه فبئس الحال وبئس المآل.

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حيث يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة ﴿**زمراً**﴾ أي جماعة بعد جماعة: المقربون ثم الأبرار ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف كل زمرة تناسب بعضها بعضاً. ﴿**حتى إذا جاءوها**﴾ أي وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا أذن لهم في دخول الجنة، وقد ورد في حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم بالدخول، فيقصدون آدم، ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما فعلوا في العرصات عند استشفاعهم إلى الله عز وجل أن يأتي لفصل القضاء، ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر في المواطن كلها. وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول شفيع في الجنة». وفي لفظ لمسلم «وأنا أول من يقرع باب الجنة».

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن من أنت؟ فأقول محمد. قال: يقول: بك أُمِرْتُ أن ألا أفتح لأحد قبلك». ورواه مسلم.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج

الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون فيها ولا يتغوطون فيها، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب رجل واحد يسبحون الله تعالى بكرة وعشيا» رواه البخاري ومسلم نحوه.

وقوله: ﴿**حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين**﴾ لم يذكر الجواب ههنا، وتقديره حتى إذا جاءوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سعدوا وطابوا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم، وإذا حذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل، ومن زعم أن الواو في قوله : ﴿**وفتحت أبوابها**﴾ واو الثمانية واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية فقد أبعد النّجْعَة وأغرق في النّزْع، وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله تعالى دعي من أبواب الجنة وللجنة أبواب ثمانية، فمن كان من أهل الصلاة دُعِي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان» فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله ما على أحد من ضرورة دعي من أيها دعي فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله ؟ قال ﷺ: «نعم وأرجو أن تكون منهم». رواه البخاري ومسلم. وفيهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة ثمانية أبواب باب منها يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون».

ذكر سعة أبواب الجنة، نسأل الله من فضله العظيم أن يجعلنا من أهلها:

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل «فيقول الله: يا محمد أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن وهم شركاء الناس في الأبواب الأخر والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ما بين عضادتي الباب لكما بين مكة وهجر ـ أو هجر ومكة ـ وفي رواية ـ مكة وبصرى». وفي صحيح مسلم عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام.

وقوله: ﴿**وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم**﴾ أي طابت أعمالكم وأقوالكم وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم.

وقوله: ﴿**فادخلوها خالدين**﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يبغون عنها حولاً ﴿**وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده**﴾ أي يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر والعطاء والنعيم

المقيم والملك الكبير، يقولون عند ذلك: ﴿**الحمد لله الذي صدقنا وعده**﴾ أي الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام.

وقولهم: ﴿**وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين**﴾. قال أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدي وابن زيد: أي أرض الجنة فهذه الآية كقوله: ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾ [الأنبياء:١٠٥]، ولهذا قالوا: ﴿**نتبوأ من الجنة حيث نشاء**﴾ أي أين شئنا حللنا فنعم الأجر أجرنا على عملنا. وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه في قصة المعراج قال النبي ﷺ: «أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك».

﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار، وأنه نزَّل كلاً في المحل الذي يليق به ويصلح له، وهو العادل في ذلك الذي لا يجور، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد، يسبحون بحمد ربهم ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية وقضي الأمر وحكم بالعدل، ولهذا قال عز وجل: ﴿**وقضي بينهم**﴾ أي بين الخلائق ﴿**بالحق**﴾. ثم قال: ﴿**وقيل الحمد لله رب العالمين**﴾ أي نطق الكون أجمعه ـ ناطقه وبهيمه ـ لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شَهِدَت له بالحمد. قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: ﴿**الحمد لله الذي خلق السموات والأرض**﴾ [الأنعام:١]، واختتم بالحمد في قوله: ﴿**وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين**﴾.

تفسير سورة غافر وهي مكية.

قد كره بعض السلف منهم محمد بن سيرين أن يقال: الحواميم، وإنما يقال: آل حم. قال عبد الله بن مسعود: آل حم ديباج القرآن، وقال ابن عباس: إن لكل شيء لباباً، ولباب القرآن آل حم أو قال: الحواميم وقال مسعر بن كدام: كان يقال لهن: العرائس وروى ذلك كله الإمام أبو عبيد في كتاب فضائل القرآن.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا. وقد ورد في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي عن المهلب بن أبي صفرة قال: حدثني من سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن بَيَّتم الليلة فقولوا: حم لا ينصرون» وإسناده صحيح.

وقوله: ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾ أي تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن من الله ذي العزة والعلم فلا يرام جنابه ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه. وقوله: ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ أي يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه. وقوله: ﴿شديد العقاب﴾ أي لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله تعالى وبغى، وهذه كقوله: ﴿نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، يقرن هذين الوصفين كثيراً في مواضع متعددة من القرآن ليبقى العبد بين الرجاء والخوف. وقوله: ﴿ذي الطول﴾ قال ابن عباس: يعني السعة والغنى. وهكذا قال مجاهد وقتادة، وقال يزيد بن الأصم: يعني الخير الكثير. وقال عكرمة: ذي المن. وقال قتادة: ذي النعم والفواضل. والمعنى أنه المتفضل على عباده المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والنعم التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [إبراهيم:٣٤]. وقوله: ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا نظير له في جميع صفاته فلا إله ولا رب سواه ﴿إليه المصير﴾ أي المرجع والمآب فيجازي كل عامل بعمله، ﴿وهو سريع الحساب﴾ [الرعد:٤١].

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾.

يقول تعالى ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿إلا الذين كفروا﴾ أي الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه ﴿فلا يغررك تقلبهم في البلاد﴾ أي في أموالها ونعيمها وزهرتها، كما قال: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ [لقمان:٢٤]. ثم قال تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوة فيمن سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنه قد كذبهم أممهم وخالفوهم وما آمن بهم منهم إلا قليل، فقال: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح﴾ وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان ﴿والأحزاب من بعدهم﴾ أي من كل أمة ﴿وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه﴾ أي حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله، ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾ أي مَاحَلُوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي.

وقوله: ﴿فأخذتهم﴾ أي أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ﴿فكيف كان عقاب﴾ أي فكيف بلغك عذابي لهم ونكالي لهم، قد كان شديداً موجعاً مؤلماً. قال قتادة: كان شديداً والله. وقوله: ﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ أي كما حقت كلمةُ العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأحرى لأن من كذبك فلا وثوق له

بتصديق غيرك.

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش ومن حوله من الملائكة بأنهم يسبحون بحمد ربهم، أي يقرنون بين التسبيح الدال على نفي النقائص، والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح **﴿ويؤمنون به﴾** أي خاشعون له أذلاء بين يديه وأنهم **﴿يستغفرون للذين آمنوا﴾** أي من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، فقيض الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب، ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام، كانوا يُؤَمِّنون على دعاء المؤمن لاخيه بظهر الغيب، كما ثبت في صحيح مسلم: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ولك بمثله».

ويقولون إذا استغفروا للذين آمنوا: **﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً﴾** أي إن رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم، **﴿فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك﴾** أي فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات **﴿وقهم عذاب الجحيم﴾** أي وزحزحهم عن عذاب الجحيم وهو العذاب الموجع الأليم. **﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾** أي اجمع بينهم وبينهم، لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة، كما قال تعالى: **﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾** [الطور:٢١] أي ساوينا بين الكل في المنزلة لتقر أعينهم، وما نقصنا العالي حتى يساوي الداني بل رفعنا ناقص العمل فساويناه بكثير العمل تفضلاً منا ومنة.

قال مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير: أنصحُ عباد الله للمؤمنين الملائكة، ثم تلا هذه الأية **﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾** وأغشُّ عباد الله للمؤمنين الشياطين. وقوله: **﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾** أي الذي لا يمانع ولا يغالب، الحكيم في أقوالك وأفعالك من شرعك وقدرك. **﴿وقهم السيئات﴾** أي فعلها أو وَبالها ممن وقعت منه **﴿ومن تق السيئات يومئذ﴾** أي يوم القيامة **﴿فقد رحمته﴾** أي لطفت به ونجيته من العقوبة **﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾**.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ

وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: إنهم يُنادَون يوم القيامة وهم في غَمَرات النيران يتلظون، وذلك عندما باشروا من عذاب الله ما لا قِبَل لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخباراً عالياً نادوهم به نداء بأن مقت الله لهم في الدنيا حين كان يُعرض عليهم الإيمان فيكفرون أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة. قال قتادة: لمقتُ الله أهلَ الضلالة حين عُرض عليهم الإيمان في الدنيا، فتركوه وأبوا أن يقبلوه أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة، وهكذا قال مجاهد والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم [وغيرهم]. وقوله: ﴿**قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين**﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿**كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون**﴾ [البقرة:٢٨] وكذا قال ابن عباس، والضحاك وقتادة وأبو مالك. وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية. (والمقصود: أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله عز وجل في عرصات القيامة، كما قال عز وجل: ﴿**ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون**﴾ [السجدة:١٢]، فلا يجابون. ثم إذا رأوا النار ونظروا إلى ما فيها من العذاب، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة فلا يجابون قال الله تعالى: ﴿**ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون**﴾ [الأنعام:٢٧-٢٨] فإذا دخلوا النار وذاقوا مسّها ومقامعها وأغلالها كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم ﴿**ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون**﴾ [المؤمنون:١٠٧-١٠٨]) وفي هذه الآية الكريمة تلطفوا في السؤال، وقدموا بين يدي كلامهم مُقدّمة، وهي قولهم: ﴿**ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين**﴾ أي قدرتك عظيمة فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتاً ثم أمتنا ثم أحييتنا فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا ﴿**فهل إلى خروج من سبيل**﴾ أي فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا فإنك قادر على ذلك، لنعمل غير الذي كنا نعمل فإن عدنا إلى ماكنا فيه فإنا ظالمون، فأجيبوا أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا. ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تمجه وتنفيه، ولهذا قال تعالى: ﴿**ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا**﴾ أي أنتم هكذا تكونون، وإن رددتم إلى الدار الدنيا كما قال تعالى: ﴿**ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون**﴾ [الأنعام:٢٨]. وقوله: ﴿**فالحكم لله العلي الكبير**﴾ أي هو الحاكم في خلقه العادل الذي لا يجور، فيهدي من

يشاء ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء لا إله إلا هو، وقوله: ﴿**هو الذي يريكم آياته**﴾ أي يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومنشئها، ﴿**وينزل لكم من السماء رزقاً**﴾ وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس، من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء، ﴿**وما يتذكر**﴾ أي يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿**إلا من ينيب**﴾ أي من هو بصير منيب إلى الله عز وجل. وقوله: ﴿**فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون**﴾ أي فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم.

وقد ثبت في صحيح [مسلم] عن ابن الزبير رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون».

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها، كما قال تعالى: ﴿**من الله ذي المعارج تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة**﴾ [المعارج: ٣-٤].

وقوله: ﴿**يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده**﴾، كقوله تعالى: ﴿**ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون**﴾ [النحل: ٢]، ولهذا قال: ﴿**لينذر يوم التلاق**﴾ عن ابن عباس: يوم التلاق اسم من أسماء يوم القيامة حذر الله منه عباده. وقال ابن عباس أيضا: يلتقي فيه آدم وآخر ولده. وقال قتادة والسدي وبلال بن سعد وسفيان بن عيينة: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، [وعن ابن زيد نحوه، وزاد قتادة: والخالق والخلق]، وقال ميمون بن مهران: يلتقي فيه الظالم والمظلوم، وقد يقال: إن يوم القيامة يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر كما قاله آخرون.

وقوله: ﴿**يوم هم بارزون**﴾ أي ظاهرون بادون كلهم لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم، ولهذا قال: ﴿**يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء**﴾ أي الجميع في علمه على السواء. وقوله: ﴿**لمن الملك اليوم لله الواحد القهار**﴾ وفي حديث ابن عمر: أنه تعالى يطوي السموات والأرض بيده، ثم يقول أنا الملك، أنا الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ [أصله في مسلم].

﴿لله الواحد القهار﴾ أي الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه.

وقوله: ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسيئة واحدة، ولهذا قال: ﴿لا ظلم اليوم﴾ كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا - إلى أن قال -: يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه». وقوله: ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ [لقمان:٢٨].

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿أزفت الآزفة * ليس لها من دون الله كاشفة﴾ [النجم:٥٧-٥٨]، وقال: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ [القمر:١].

وقوله: ﴿إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين﴾ قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها. وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد، ومعنى كاظمين أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾ [النبأ:٣٨]. وقال ابن جريج: ﴿كاظمين﴾ أي باكين. وقوله: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير. وقوله: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ يخبر عز وجل عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويَتَّقُوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر. قال ابن عباس في قوله: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غض بصره عنها فإذا غفلوا لحظ فإذا فطنوا غض، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها. وقال الضحاك: ﴿خائنة الأعين﴾ هو الغمز وقول الرجل: رأيت ولم ير. أو لم أر، وقد رأى. وقال ابن عباس: يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا.؟

وكذا قال مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس في قوله: ﴿وما تخفي الصدور﴾ يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا، وقال السدي: ﴿وما تخفي الصدور﴾ أي من الوسوسة.

وقوله: ﴿والله يقضي بالحق﴾ أي يحكم بالعدل، قال ابن عباس: قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة ﴿إن الله هو السميع البصير﴾.

وقوله: ﴿والذين يدعون من دونه﴾ أي من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿لا يقضون بشيء﴾ أي لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك.

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

يقول تعالى: أولم يسر هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ أي من الأمم المكذبة بالأنبياء، ما حل بهم من العذاب والنكال، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة، ﴿وآثاراً في الأرض﴾ أي أثروا في الأرض من البنايات والمعالم ما لا يقدر هؤلاء عليه، كما قال: ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾ [الأحقاف: ٢٦]، أي ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أخذهم الله بذنوبهم، وهي كفرهم برسلهم، ﴿وما كان لهم من الله من واق﴾ أي وما دفع عنهم عذاب الله أحد، ولا وقاهم واق. ثم ذكر علة أخذه إياهم بذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها، فقال: ﴿ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾ أي بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات ﴿فكفروا﴾ أي مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا ﴿فأخذهم الله﴾ أي أهلكهم ودمر عليهم وللكافرين أمثالها ﴿إنه قوي﴾ أي ذو قوة عظيمة وبطش شديد ﴿وهو شديد العقاب﴾ أي عقابه أليم شديد، أعاذنا الله منه.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا ٱقْتُلُوٓا أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

يقول تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات. والدلائل الواضحات، ولهذا قال: ﴿بآياتنا وسلطان مبين﴾ والسلطان هو الحجة والبرهان ﴿إلى فرعون﴾ وهو ملك القبط بالديار المصرية ﴿وهامان﴾ وهو وزيره ﴿وقارون﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة ﴿فقالوا ساحر كذاب﴾ أي كذبوه وجعلوه ساحراً مموهاً

كذاباً في أن الله أرسله، وهذه كقوله تعالى: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣]. ﴿فلما جاءهم بالحق من عندنا﴾ أي بالبرهان القاطع الدال على أن الله أرسله إليهم ﴿قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل. أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين، وأما الأمر الثاني فللعلة الثانية ولإهانة هذا الشعب ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام، ولهذا قالوا: ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا * قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ [الأعراف:١٢٩]. قال قتادة: هذا أمر بعد أمر، قال الله تعالى: ﴿وما كيد الكافرين إلا في ضلال﴾ أي وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا يُنصروا عليهم إلا ذاهب وهالك في ضلال. ﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه﴾ وهذا عَزْمٌ من فرعون لعنه الله تعالى على قتل موسى عليه الصلاة والسلام، أي قال لقومه دعوني حتى أقتل لكم هذا، ﴿وليدع ربه﴾ أي لا أبالي به، وهذا في غاية الجحد والعناد، وقوله قبحه الله: ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ يعني موسى، يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم، وهذا كما يقال في المثل: صار فرعون مُذكِّراً، يعني واعظاً يشفق على الناس من موسى عليه السلام. ﴿وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ أي لما بلغه قول فرعون ﴿ذروني أقتل موسى﴾ قال موسى عليه السلام: استجرتُ بالله وعُذْتُ به من شره وشر أمثاله، ولهذا قال: ﴿إني عذت بربي وربكم﴾ أيها المخاطبون ﴿من كل متكبر﴾ أي عن الحق مجرم، ﴿لا يؤمن بيوم الحساب﴾، ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم وندرأ بك في نحورهم». [رواه أحمد وأبوداود والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي].

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون. قال السدي: كان ابن عم فرعون ويقال إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام، واختاره ابن جرير، وردَّ قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً، لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة لأنه منهم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون،

والذي قال: ﴿يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾ [القصص: ٢٠]. وقد كان هذا الرجلُ يكتم إيمانه عن قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذروني أقتل موسى﴾ فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل. وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر كما ثبت بذلك الحديث [رواه أحمد وأبوداود وسنده حسن]، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله: ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾ اللهم إلا ما رواه البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة، إذ أقبل عُقْبة بن أبي مُعَيط فأخذ بمَنْكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ، ثم قال: ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾.

وقوله: ﴿وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾ أي كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول: ربي الله، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تَنَزَّل معهم في المخاطبة فقال: ﴿وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم﴾ يعني إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به فمن العقل والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه فإن يك كاذباً فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة، وإن يكن صادقاً وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقاً فينبغي على هذا أن لا تتعرضوا له بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه.

وقوله: ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾ أي لو كان هذا الذي يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون، لكان أمره بيناً يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله، [و] كانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله. ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم: ﴿يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض﴾ أي قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق رسوله ﷺ واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله ﴿فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا﴾ أي لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء. قال فرعون لقومه راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذي كان أحق بالملك من فرعون: ﴿ما أريكم إلا ما أرى﴾ أي ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي وقد كذب فرعون فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الرسالة، قال الله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ [النمل: ١٤].

فقوله: ﴿ما أريكم إلا ما أرى﴾ كذب فيه وافترى وخان الله تبارك وتعالى ورسوله ورعيته

فغشهم وما نصحهم، وكذا قوله: ﴿**وما أهديكم إلا سبيل الرشاد**﴾ أي وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد، وقد كذب أيضاً في ذلك وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تعالى: ﴿**فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد**﴾ [هود:٧٩]، وقال تعالى: ﴿**وأضل فرعون قومه وما هدى**﴾ [طه:٧٩]، وفي الحديث: «ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام». [متفق عليه].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ
بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا
هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ
فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ
جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

هذا إخبار من الله عز وجل عن هذا الرجل الصالح مؤمن آل فرعون أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة فقال: ﴿**يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب**﴾ أي الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله وما رده عنهم راد. ﴿**وما الله يريد ظلماً للعباد**﴾ أي إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره فأنفذ فيهم قدره، ثم قال: ﴿**ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد**﴾ يعني يوم القيامة. قال الضحاك: ذلك إذا جيء بجهنم، ذهب الناس هِرَاباً، فتتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر، وهو قوله تعالى: ﴿**والملك على أرجائها**﴾ [الحاقة:١٧]. وقوله: ﴿**يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان**﴾ [الرحمن:٣٣]. وقال قتادة: ينادي كل قوم بأعمالهم، ينادي أهل الجنة أهل الجنة وأهل النار أهل النار، وقيل: سمي بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار: ﴿**أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم**﴾ [الأعراف:٤٤]. ومناداة أهل النار أهل الجنة: ﴿**أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين**﴾ [الأعراف:٥٠]، ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار كما هو مذكور في سورة الأعراف. واختار البغوي وغيره: أنه سمي بذلك لمجموع ذلك. وهو قول حسن جيد، والله أعلم. وقوله: ﴿**يوم تولون مدبرين**﴾ أي ذاهبين هاربين ﴿**ما لكم من الله من عاصم**﴾ أي ما لكم مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه، ﴿**ومن يضلل الله فما له من هاد**﴾ أي من أضله الله فلا هادي له غيره. وقوله: ﴿**ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات**﴾ يعني أهل مصر وقد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى، وهو يوسف عليه السلام، كان عزيز أهل مصر، وكان رسولاً يدعو إلى الله أمة القبط، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا لمجرد

الوزارة والجاه الدنيوي، ولهذا قال: ﴿فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً﴾ أي يئستم فقلتم طامعين: ﴿لن يبعث الله من بعده رسولاً﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾ أي كحالكم. ثم قال: ﴿الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم﴾ أي الذين يدفعون الحق بالباطل ويجادلون بالحجج بغير دليل وحجة معهم من الله، فإن الله يمقت على ذلك أشد المقت، ولهذا قال تعالى: ﴿كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا﴾ أي والمؤمنون أيضاً يبغضون من تكون هذه صفته، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفاً ولا ينكر منكراً، ولهذا قال: ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر﴾ أي على اتباع الحق ﴿جبار﴾. وروي عن عكرمة والشعبي أنهما قالا: لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين. وقال أبو عمران الجوني، وقتادة: آية الجبابرة القتل بغير حق.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراًعن فرعون وعتوه وتمرده وافترائه في تكذيبه موسى عليه السلام، أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحاً، وهو القصر العالي المنيف الشاهق. وكان اتخاذه من الآجرّ المضروب من الطين المشوي، كما قال: ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً﴾ [القصص: ٣٨].

وقوله: ﴿لعلي أبلغ الأسباب. أسباب السموات﴾ قال سعيد بن جبير وأبو صالح: أبواب السموات. وقيل: طرق السموات ﴿فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً﴾ وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى في أن الله عز وجل أرسله إليه، قال الله تعالى: ﴿وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل﴾ أي بصنيعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئاً يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه السلام، ولهذا قال تعالى: ﴿وما كيد فرعون إلا في تباب﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني إلا في خسار.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، ونسي الجبار الأعلى: ﴿يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد﴾ لا كما كذب فرعون في قوله: ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾. ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام، فقال: ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾ أي قليلة زائلة فانية عن

قريب تذهب وتضمحل، ﴿وإن الآخرة هي دار القرار﴾ أي الدار التي لا زوال لها ولا انتقال منها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم، ولهذا قال: ﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ أي واحدة مثلها، ﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ أي لا يتقدر بجزاء بل يثيبه الله عز وجل ثواباً كثيراً لا انقضاء له ولا نفاد.

﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلى النجاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذي بعثه ﴿وتدعونني إلى النار * تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم﴾ أي جهل بلا دليل ﴿وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾ أي هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه ﴿لا جرم أنما تدعونني إليه﴾ يقول حقاً. قال السدي وابن جرير: معنى قوله: ﴿لا جرم﴾ حقاً. وقال الضحاك: لا كذب. وقال ابن عباس: يقول: بلى إن الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ﴿ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾. وقال السدي: لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، [وعن مجاهد وقتادة نحوه]، وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ [الأحقاف:٥-٦]، ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾ [فاطر:١٤]. وقوله: ﴿وأن مردنا إلى الله﴾ أي في الدار الآخرة فيجازي كلاً بعمله، ولهذا قال: ﴿وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾ أي خالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله. ﴿فستذكرون ما أقول لكم﴾ أي سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم وتتذكرونه، وتندمون حيث لا ينفع الندم ﴿وأفوض أمري إلى الله﴾ أي وأتوكل على الله وأستعينه وأقاطعكم وأباعدكم، ﴿إن الله بصير بالعباد﴾ أي هو بصير بهم، فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ. وقوله تعالى: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾ أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه السلام، وأما في الآخرة فبالجنة ﴿وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾ وهو الغرق في اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم. فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساء إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال: ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ أي أشده ألماً وأعظمه نكالاً، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ

في القبور وهي قوله تعالى: ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً﴾.

وقال قتادة في قوله: ﴿غدواً وعشياً﴾ صباحاً ومساء ما بقيت الدنيا، يقال لهم يا آل فرعون هذه منازلكم توبيخاً ونقمة وصغاراً لهم، وقال ابن زيد: هم فيها اليوم، يُغدَى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة.

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إليه يوم القيامة». أخرجاه في الصحيحين.

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم، فيقول الضعفاء وهم الأتباع للذين استكبروا وهم القادة والسادة والكبراء: ﴿إنا كنا لكم تبعاً﴾ أي أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال ﴿فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾ أي قسطاً تتحملونه عنا. ﴿قال الذين استكبروا إنا كل فيها﴾ أي لا نتحمل عنكم شيئاً كفى بنا ما حملنا من العذاب والنكال ﴿إن الله قد حكم بين العباد﴾ أي فقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعملون﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب﴾ لما علموا أن الله سبحانه لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾ [المؤمنون: ١٠٨] سألوا الخزنة ـ وهم كالبوابين لأهل النار ـ أن يدعوا لهم الله تعالى أن يخفف عن الكافرين ولو يوماً واحداً من العذاب، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: ﴿أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟﴾ أي أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل؟ ﴿قالوا بلى قالوا فادعوا﴾ أي أنتم لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نود خلاصكم، ونحن منكم براء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم، ولهذا قالوا: ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أي إلا في ذهاب، ولا يتقبل ولا يستجاب.

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا

هُم بِبَـٰلِغِيهِۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾.

قد أورد أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا**﴾ سؤالاً فقال: قد عُلِم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعياء، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى فأين النصرة في الدنيا ثم أجاب عن ذلك بجوابين:

أحدهما: أن يكون الخبر خرج عاماً، والمراد به البعض، قال: وهذا سائغ في اللغة.

الثاني: أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبهم أو بعد موتهم، كما فُعِلَ بقتلة يحيى وزكريا وشعياء سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمرود أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود فسلط الله تعالى عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله عليهم. ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام. وهذه نصرة عظيمة وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويقر أعينهم ممن آذاهم، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تبارك وتعالى من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب»، ولهذا أهلك الله قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأهل مدين وأشباههم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق، وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين فلم يهلك منهم أحداً، وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحداً. قال السدي: لم يبعث الله عز وجل رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا. قال فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها. وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة، ولهذا قال تعالى: ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**﴾ أي يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل. قال مجاهد: الأشهاد الملائكة. وقوله تعالى: ﴿**يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم**﴾ بدل من قوله: ﴿**ويوم يقوم الأشهاد**﴾. ﴿**يوم لا ينفع الظالمين**﴾ وهم المشركون ﴿**معذرتهم**﴾ أي لا يقبل منهم عذر ولا فدية، ﴿**ولهم اللعنة**﴾ أي الإبعاد والطرد من الرحمة ﴿**ولهم سوء الدار**﴾ وهي النار. قاله السدي، بئس المنزل والمقيل، وقال ابن عباس: ﴿**ولهم سوء الدار**﴾ أي سوء العاقبة. وقوله تعالى: ﴿**ولقد آتينا موسى الهدى**﴾ وهو ما بعثه الله به من

الهدى والنور، ﴿**وأورثنا بني إسرائيل الكتاب**﴾ أي جعلنا لهم العاقبة وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه، بما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله موسى عليه الصلاة والسلام، وفي الكتاب الذي أورثوه وهو التوارة ﴿**هدى وذكرى لأولي الألباب**﴾ وهي العقول الصحيحة السليمة. وقوله: ﴿**فاصبر**﴾ أي يا محمد ﴿**إن وعد الله حق**﴾ أي وعدناك أنا سنعلي كلمتك، ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك والله لا يخلف الميعاد. وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك. وقوله: ﴿**واستغفر لذنبك**﴾ هذا تهييج للأمة على الاستغفار ﴿**وسبح بحمد ربك بالعشي**﴾ أي في أواخر النهار وأوائل الليل، ﴿**والإبكار**﴾ وهي أوائل النهار وأواخر الليل. وقوله: ﴿**إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم**﴾ أي يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله، ﴿**إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه**﴾ أي ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع، ﴿**فاستعذ بالله**﴾ أي من حال مثل هؤلاء ﴿**إنه هو السميع البصير**﴾ أي من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان. هذا تفسير ابن جرير.

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) ﴾.

يقول تعالى منبهاً على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه يسير لديه بأنه خلق السموات والأرض، وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿**أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير**﴾ [الأحقاف:٣٣]. وقال ههنا: ﴿**لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض، وينكرون المعاد استبعاداً وكفراً، وقد اعترفوا بما هو أولى. ثم قال: ﴿**وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء**﴾ أي كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار، ﴿**قليلاً ما تتذكرون**﴾ أي ما أقل ما يتذكر كثير من الناس. ثم قال: ﴿**إن الساعة لآتية**﴾ أي لكائنة وواقعة ﴿**لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون**﴾ أي لا يصدقون بها بل يكذبون بوجودها.

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ﴾.

هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثوري يقول: يا مَنْ أحبُّ عباده إليه مَنْ سأله فأكثر سؤاله، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله، وليس أحد كذلك غيرك يا رب. وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

اللهُ يغضبُ إن تركت سؤاله ... وبُنَيُّ آدمَ حين يُسألُ يَغضبُ

وروى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿**ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾، وهكذا رواه أصحاب السنن، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقوله: ﴿**إن الذين يستكبرون عن عبادتي**﴾ أي عن دعائي وتوحيدي سيدخلون جهنم داخرين أي صاغرين حقيرين، كما روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار». [وسنده حسن].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

يقول تعالى ممتناً على خلقه، بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه يستريحون من حركات ترددهم في المعايش بالنهار وجعل النهار مبصراً، أي مضيئاً ليتصرفوا فيه بالأسفار وقطع الأقطار والتمكن من الصناعات، ﴿**إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون**﴾ أي لا يقومون بشكر نعم الله عليهم، ثم قال: ﴿**ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو**﴾ أي الذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد، خالق الأشياء الذي لا إله غيره ولا رب سواه، ﴿**فأنى تؤفكون**﴾ أي فكيف تعبدون الأصنام التي لا تخلق شيئاً بل هي مخلوقة منحوتة.

وقوله: ﴿**كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون**﴾ أي كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته. وقوله: ﴿**الله الذي جعل لكم الأرض قراراً**﴾ أي جعلها لكم مستقراً، بساطاً مهاداً تعيشون عليها وتتصرفون فيها، وتمشون في مناكبها وأرساها بالجبال لئلا تميد بكم، ﴿**والسماء بناء**﴾ أي سقفاً للعالم محفوظاً ﴿**وصوركم فأحسن صوركم**﴾ أي فخلقكم في أحسن الأشكال ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم، ﴿**ورزقكم من الطيبات**﴾

أي من المآكل والمشارب في الدنيا. فذكر أنه خالق الدار والسكان والأرزاق فهو الخالق الرازق، وقال بعد خلق هذه الأشياء: ﴿**ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين**﴾ أي فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم. ثم قال: ﴿**هو الحي لا إله إلا هو**﴾ أي هو الحي أزلاً وأبداً، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، ﴿**لا إله إلا هو**﴾ أي لا نظير له ولا عديل، ﴿**فادعوه مخلصين له الدين**﴾ أي موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو الحمد لله رب العالمين. وعن ابن عباس قال: من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين وذلك قوله تعالى: ﴿**فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين**﴾ [ومثله عن سعيد بن جبير].

﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله عز وجل ينهى أن يُعْبَد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان. وقد بين تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه، في قوله: ﴿**هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً**﴾ أي هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها، وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك، ﴿**ومنكم من يتوفى من قبل**﴾ أي من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطاً، ومنهم من يتوفى صغيراً، وشاباً، وكهلاً قبل الشيخوخة، كقوله: ﴿**لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى**﴾ [الحج: ٥] وقال هاهنا: ﴿**ولعلكم تعقلون**﴾ قال ابن جريج تتذكرون البعث. ثم قال: ﴿**هو الذي يحيي ويميت**﴾ أي هو المتفرد بذلك، لا يقدر على ذلك أحد سواه ﴿**فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**﴾ أي لا يخالف ولا يمانع بل ما شاء كان لا محالة.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ويجادلون في الحق بالباطل، كيف تُصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال، ﴿**الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا**﴾ أي من الهدى والبيان، ﴿**فسوف يعلمون**﴾ هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من

الرب جل جلاله لهؤلاء كما قال تعالى: ﴿**ويل يومئذ للمكذبين**﴾ [المرسلات: ١٥]. وقوله: ﴿**إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل**﴾ أي متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم، وتارة إلى الجحيم ولهذا قال: ﴿**يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون**﴾ كما قال: ﴿**هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون، يطوفون بينها وبين حميم آن**﴾ [الرحمن: ٤٣-٤٤].

وقوله: ﴿**ثم قيل لهم أينما كنتم تشركون من دون الله**﴾ أي قيل لهم أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿**قالوا ضلوا عنا**﴾ أي ذهبوا فلم ينفعونا ﴿**بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً**﴾ أي جحدوا عبادتهم كقوله تعالى: ﴿**ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين**﴾ [الأنعام: ٢٣]، ولهذا قال: ﴿**كذلك يضل الله الكافرين**﴾. وقوله: ﴿**ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون**﴾ أي تقول لهم الملائكة هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير حق، ﴿**ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين**﴾ أي فبئس المَنْزِلُ والمَقِيلُ الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه.

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه، فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك، وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة، ﴿**فإما نرينك بعض الذي نعدهم**﴾ أي في الدنيا. وكذلك وقع فإن الله أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم، أبيدوا في يوم بدر. ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ. وقوله: ﴿**أو نتوفينك فإلينا يرجعون**﴾ أي فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة. ثم قال تعالى مسلياً له: ﴿**ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك**﴾ كما قال جل وعلا في سورة النساء سواء، أي منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة، ﴿**ومنهم من لم نقصص عليك**﴾ وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة النساء [آية: ١٦٤]، ولله الحمد والمنة. وقوله: ﴿**وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله**﴾ أي ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات، إلا أن يأذن الله له في ذلك فيدل على صدقه فيما جاءهم به ﴿**فإذا جاء أمر الله**﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿**قضي بالحق**﴾ فينجي المؤمنين، ويهلك الكافرين، ولهذا قال: ﴿**وخسر هنالك المبطلون**﴾.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً

فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ .

يقول تعالى ممتناً على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم ﴿**فمنها ركوبهم ومنها يأكلون**﴾ [يس: ٧٢]، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة. والبقر تؤكل ويشرب لبنها وتحرث عليها الأرض، والغنم تؤكل ويشرب لبنها والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة، كما فصل وبين في أماكن تقدم ذكرها في سورة الأنعام، وسورة النحل وغير ذلك، ولهذا قال ههنا: ﴿**لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون**﴾. وقوله: ﴿**ويريكم آياته**﴾ أي حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم، ﴿**فأي آيات الله تنكرون**﴾ أي لا تقدرون على إنكار شيء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ .

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر وماذا حل بهم من العذاب الشديد، مع شدة قواهم، وما آثروه في الأرض، وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ولا رد عنهم ذرة من بأس الله، وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل. قال مجاهد: قالوا نحن أعلم منهم، لن نبعث ولن نعذب. وقال السدي: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم، فأتاهم من بأس الله تعالى ما لا قِبَل لهم به. ﴿**وحاق بهم**﴾ أي أحاط بهم ﴿**ما كانوا به يستهزئون**﴾ أي يكذبون ويستبعدون وقوعه. ﴿**فلما رأوا بأسنا**﴾ أي عاينوا وقوع العذاب بهم، ﴿**قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين**﴾ أي وحدوا الله عز وجل وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تُقَال العثرات ولا تنفع المعذرة، وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿**آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين**﴾ [يونس: ٩٠]، قال الله تبارك وتعالى: ﴿**آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين**﴾ [يونس: ٩١]، وهكذا قال ههنا: ﴿**فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده**﴾ أي هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب، أنه لا يقبل، ولهذا جاء في الحديث: «**إن الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغرغر**» [**رواه الترمذي وحسنه**] أي فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة، وعاين الملك فلا توبة حينئذ، ولهذا قال تعالى: ﴿**وخسر هنالك الكافرون**﴾.

تفسير سورة فصلت وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم ۝١ تنزيل من الرحمن الرحيم ۝٢ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ۝٣ بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ۝٤ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ۝٥﴾.

يقول تعالى: ﴿حم. تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ يعني القرآن منزل من الرحمن الرحيم، كقوله: ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾ [النحل:١٠٢]. وقوله: ﴿كتاب فصلت آياته﴾ أي بُينت معانيه وأحكمت آياته، ﴿قرآناً عربياً﴾ أي في حال كونه قرآناً عربياً، بيناً واضحاً، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشكلة، كقوله: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ [هود:١] أي هو معجز من حيث لفظه ومعناه.

وقوله: ﴿لقوم يعلمون﴾ أي إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماءُ الراسخون، ﴿بشيراً ونذيراً﴾ أي تارة يبشر المؤمنين وتارة ينذر الكافرين، ﴿فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ أي أكثر قريش فهم لا يفهمون منه شيئاً مع بيانه ووضوحه، ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة﴾ أي في غلف مغطاة ﴿مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر﴾ أي صمم عما جئتنا به، ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقول، ﴿فاعمل إننا عاملون﴾ أي اعمل أنت على طريقتك ونحن على طريقتنا لا نتابعك.

﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ۝٦ الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ۝٧ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ۝٨﴾.

يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين ﴿إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد﴾ لا كما تعبدونه من الأصنام والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد ﴿فاستقيموا إليه﴾ أي أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل، ﴿واستغفروه﴾ أي لسالف الذنوب، ﴿وويل للمشركين﴾ أي دمار لهم وهلاك عليهم، ﴿الذين لا يؤتون الزكاة﴾ قال ابن عباس يعني الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله وكذا قال عكرمة، وهذا كقوله تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها﴾ [الشمس:٩-١٠]. والمراد بالزكاة ههنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك، وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سبباً لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقاً إلى استعماله في الطاعات، وقال السدي: ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾ أي لا يؤدون الزكاة، وقال معاوية بن قرة: ليس هم من أهل الزكاة. وقال قتادة يمنعون زكاة أموالهم. وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير وفيه نظر لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة على ما ذكره غير واحد، وهذه الآية مكية اللهم إلا أن يقال

لا يبعد أن يكون أصل الصدقة والزكاة وكان مأموراً به في ابتداء البعثة، كقوله تعالى: ﴿**وآتوا حقه يوم حصاده**﴾ [الأنعام: ١٤١]، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بيَّن أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعاً بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجباً قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف فرض الله تعالى على رسوله ﷺ الصلوات الخمس، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئاً فشيئاً، والله أعلم. ثم قال بعد ذلك: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون**﴾ قال مجاهد وغيره: غير مقطوع ولا محسوب، كقوله: ﴿**ماكثين فيها أبداً**﴾ [الكهف: ٣]، وكقوله: ﴿**عطاء غير مجذوذ**﴾ [هود: ١٠٨].

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾.

هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقتدر على كل شيء فقال: ﴿**قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً**﴾ أي نظراء وأمثالاً تعبدونها معه، ﴿**ذلك رب العالمين**﴾ أي الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم. وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿**خلق السموات والأرض في ستة أيام**﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولاً لأنها كالأساس، والأصل أن يُبْدأ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال: ﴿**هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات**﴾ الآية [البقرة: ٢٩]. فأما قوله: ﴿**أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم**﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣] ففي هذ الآية أن دَحي الأرض كان بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس رضي الله عنه فيما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية من صحيحه عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما إني لأجد في القرآن أشياء تختلف علي، قال: ﴿**أم السماء بناها - إلى قوله - دحاها**﴾ [النازعات: ٢٧-٣٠] فذكر خلق السماء قبل الأرض ثم قال: ﴿**قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين - إلى قوله - طائعين**﴾ فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق **السماء** قال ابن عباس: خلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء، فسواهن في يومين آخرين، ثم دَحَى الأرض، ودَحْيُها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله: **دحاها**،

وقوله: ﴿خلق الأرض في يومين﴾ فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلق السموات في يومين.

وقوله: ﴿خلق الأرض في يومين﴾ يعني يوم الأحد ويوم الإثنين ﴿وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها﴾ أي جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس، وقدر فيها أقواتها وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس، يعني يوم الثلاثاء والأربعاء فهما مع اليومين السابقين أربعة، وقال عكرمة ومجاهد في قوله: ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ جعل في كل أرض ما لا يصلح في غيرها، وقال ابن عباس وقتادة والسدي في قوله تعالى: ﴿سواء للسائلين﴾ أي لمن أراد السؤال عن ذلك. وقال ابن زيد: معناه وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين أي على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة فإن الله تعالى قدر له ما هو محتاج إليه. وهذا القول يشبه ما ذكروه في قوله تعالى: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والله أعلم. وقوله: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾ وهو بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض، ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً﴾ أي استجيبا لأمري وانفعلا لفعلي طائعتين أو مكرهتين. عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً﴾ قال: قال الله تبارك وتعالى للسموات: أطلعي شمسي وقمري والنجوم. وقال للأرض: شققي أنهارك، وأخرجي ثمارك ﴿قالتا أتينا طائعين﴾. واختاره ابن جرير رحمه الله.

﴿قالتا أتينا طائعين﴾ أي بل نستجيب لك مطيعين بما فينا، مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس جميعاً مطيعين لك، حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية، قال: وقيل: تنزيلاً لهن معاملة من يعقل بكلامهما. وقال الحسن البصري: لو أبيا عليه أمره عليه لعذبهما عذاباً يجدان ألمه. ﴿فقضاهن سبع سموات في يومين﴾ أي ففرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين أي آخرين وهما يوم الخميس ويوم الجمعة. ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ أي ورتب مقرراً في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو ﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ وهي الكواكب المشرقة على أهل الأرض ﴿وحفظاً﴾ أي حرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى. ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ أي العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا
تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾
وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله تعالى، فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ أي ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما، ﴿إذْ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ كقوله تعالى: ﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾ [الأحقاف:٢١] أي في القرى المجاورة لبلادهم بعث الله إليهم الرسل يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس أولياءه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا بل كذبوا وجحدوا، وقالوا: ﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ أي لو أرسل الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده، ﴿فإنا بما أرسلتم به﴾ أي أيها البشر ﴿كافرون﴾ أي لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا. قال الله تعالى: ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق﴾ أي بغوا وعتوا وعصوا، ﴿وقالوا من أشد منا قوة﴾ أي منوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله ﴿ألم يرواأن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾ أي أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة، فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها وأن بطشه شديد، فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسله، فلهذا قال: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ قال بعضهم وهي الشديدة الهبوب، وقيل الباردة. وقيل هي التي لها صوت. والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحاً شديدة قوية، لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت شديدة البرد جداً كقوله تعالى: ﴿بريح صرصر عاتية﴾ [الحاقة:٦] أي باردة شديدة وكانت ذات صوت مزعج.

وقوله: ﴿في أيام نحسات﴾ أي متتابعات ﴿سبع ليال وثمانية أيام حسوماً﴾ [الحاقة:٧]، كقوله: ﴿في يوم نحس مستمر﴾ [القمر:١٩] أي ابتدأوا العذاب في يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة، ولهذا قال: ﴿لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى﴾ أي أشد خزياً لهم، ﴿وهم لا ينصرون﴾ أي في الآخرة، كما لم ينصروا في الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال، وقوله: ﴿وأما ثمود فهديناهم﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وأبو العالية وسعيد بن جبير وقتادة والسدي وابن زيد: بينا لهم، وقال الثوري: دعوناهم. ﴿فاستحبوا العمى على الهدى﴾ أي بصرناهم ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام، فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله تعالى التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم، ﴿فأخذتهم صاعقة العذاب الهون﴾ أي بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهواناً وعذاباً ونكالاً ﴿بما كانوا يكسبون﴾ أي من التكذيب والجحود. ﴿ونجينا الذين

آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي من بين أظهرهم لم يمسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح عليه السلام بإيمانهم وتقواهم لله عز وجل.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون**﴾ أي اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار، يوزعون أي تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى: ﴿**ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً**﴾ [مريم:٦٨] أي عطاشاً. وقوله: ﴿**حتى إذا ما جاءوها**﴾ أي وقفوا عليها ﴿**شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون**﴾ أي بأعمالهم مما قدموه وأخروه، لا يُكْتَم منه حرف. ﴿**وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا**﴾ أي لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء: ﴿**قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة**﴾ أي فهو لا يخالف ولا يمانع وإليه ترجعون. روى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم أو تبسم، فقال: «ألا تسألوني عن أي شيء ضحكت؟» قالوا: يا رسول الله، من أي شيء ضحكت؟ قال: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أي ربي، أليس وعدتني أن لا تظلمني، قال: بلى، فيقول: فإني لا أقبل علي شاهداً إلا من نفسي. فيقول الله تبارك وتعالى: أوليس كفى بي شهيداً، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟! قال: فيردد هذا الكلام مراراً. قال: فيختم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بعداً لَكُنَّ وسُحقاً، عنكن كنت أجادل». [وقد أخرجه مسلم].

وروى ابن أبي حاتم عن أبي موسى قال: يدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه عز وجل عمله، فيجحد ويقول: أي رب، وعزتك لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل! فيقول له الملك أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك، أي رب ما عملته. قال فإذا فعل ذلك خُتِم على فيه، قال الأشعري: فإني لأحسب أول ما ينطق منه فخذه اليمنى.

وقد تقدم أحاديث وآثار عند قوله تعالى في سورة يس ﴿**اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون**﴾ [يس:٦٥]، بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقوله: ﴿**وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم**﴾ أي تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تكتمون منا الذي كنتم

تفعلونه، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي ولا تبالون، لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم، ولهذا قال: ﴿**ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعلمون * وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم**﴾ أي هذا الظن الفاسد وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيراً مما تعملون هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم، ﴿**فأصبحتم من الخاسرين**﴾ أي في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم.

روى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشي وختناه ثقفيان ـ أو ثقفي وختناه قرشيان ـ كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئاً سمعه كله. قال: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿**وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ـ إلى قوله ـ من الخاسرين**﴾ [ورواه البخاري ومسلم].

وروى عبد الرزاق عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ في قوله: ﴿**أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم**﴾ قال: «إنكم تدعون يوم القيامة مُفَدَّماً على أفواهكم بالفدام، فأول شيء يبين عن أحدكم فخذه وكفه» [وسنده حسن]. قال معمر: وتلا الحسن ﴿**وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم**﴾، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أنا مع عبدي عند ظنه بي، وأنا معه إذا دعاني»، ثم افترَّ الحسن ينظر في هذا، فقال: ألا إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم، فأما المؤمن فأحسن الظن بربه فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق فأساءا الظن بالله فأساءا العمل، ثم قال: قال الله تعالى: ﴿**وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ـ إلى قوله ـ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين**﴾.

وقوله: ﴿**فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين**﴾ أي سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا هم في النار، لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها، وإن طلبوا ان يستعتبوا ويبدوا أعذارهم فما لهم أعذار ولا تُقَال لهم عثرات. قال ابن جرير: ومعنى قوله: ﴿**وإن يستعتبوا**﴾ أي يسألوا الرجعة إلى الدنيا فلا جواب لهم، قال: وهذه كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿**قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون**﴾ [المؤمنون: ١٠٦ـ١٠٨].

﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ

ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وقدرته وهو الحكيم في أفعاله، بما قيَّض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن ﴿**فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم**﴾ أي حسَّنوا لهم أعمالهم في الماضي، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، كما قال تعالى: ﴿**ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون**﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧]. وقوله تعالى: ﴿**وحق عليهم القول**﴾ أي كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم ممن فعل كفعلهم من الجن والإنس ﴿**إنهم كانوا خاسرين**﴾ أي استووا هم وإياهم في الخسار والدمار. وقوله تعالى: ﴿**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن**﴾ أي تواصوا فيما بينهم أن لا يطيعوا للقرآن ولا ينقادوا لأوامره، ﴿**والغوا فيه**﴾ أي إذا تلي لا تستمعوا له كما قال مجاهد والغوا فيه يعني بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن قريش تفعله، وعن ابن عباس: ﴿**والغوا فيه**﴾ عيبوه، وقال قتادة: اجحدوا به وأنكروه وعادوه، ﴿**لعلكم تغلبون**﴾ هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن. وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال: ﴿**وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون**﴾ [الأعراف:٢٠٤]. ثم قال تعالى: منتصراً للقرآن ومنتقماً ممن عاداه من أهل الكفران ﴿**فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً**﴾ أي في مقابلة ما اعتمدوه في القرآن وعند سماعهم ﴿**ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون**﴾ أي بشرِّ أعمالهم وسيء أفعالهم ﴿**ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون * وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين**﴾. قال علي رضي الله عنه في قوله: ﴿**اللذين أضلانا**﴾ قال إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه. وقال السدي عن علي: فإبليس يدعو به كل صاحب شرك، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة، فإبليس هو الداعي إلى كل شر من شرك فمادونه، وابن آدم الأول. كما ثبت في الحديث: «ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل». [متفق عليه]. وقوله: ﴿**نجعلهما تحت أقدامنا**﴾ أي أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذاباً منا، ولهذا قالوا: ﴿**ليكونا من الأسفلين**﴾ أي في الدرك الأسفل من النار، كما تقدم في الأعراف في سؤال الأتباع من الله تعالى أن يعذب قادتهم أضعاف عذابهم، ﴿**قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون**﴾ [الأعراف:٣٨] أي أنه تعالى قد أعطى كلاً منهم ما يستحقه من العذاب والنكال بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: ﴿**الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون**﴾ [النحل:٨٨].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ

فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ أي أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم.

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه ما تقولون في هذه الآية: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ فقالوا: ﴿ربنا الله ثم استقاموا﴾ من ذنب فقال: لقد حملتموه على غير المحمل، قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلم يلتفتوا إلى إله غيره. وكذا قال مجاهد والسدي وغير واحد.

وعن عكرمة قال سئل ابن عباس رضي الله عنهما: أي آية في كتاب الله تبارك وتعالى أرخص؟ قال قوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال الزهري: تلا عمر رضي الله عنه هذه الآية على المنبر ثم قال استقاموا والله لله بطاعته ولم يروغوا روغان الثعالب.

وقال ابن عباس: ﴿استقاموا﴾ على أداء فرائضه، وكذا قال قتادة،وقال أبو العالية: أخلصوا له الدين والعمل.

وقد أخرج مسلم في صحيحه عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال ﷺ: «قل آمنت بالله ثم استقم». وذكر تمام الحديث. وقوله: ﴿تتنزل عليهم الملائكة﴾ قال مجاهد والسدي وزيد بن أسلم وابنه: يعني عند الموت قائلين: ﴿أن لا تخافوا﴾ قال مجاهدوعكرمة وزيد بن أسلم: أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دين فإنا نخلفكم فيه، ﴿وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير.

وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث. وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً وهو الواقع.

وقوله: ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار نحن كنا أولياءكم، أي قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط، ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم﴾ أي في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس وتقر به العيون، ﴿ولكم فيها ما تدعون﴾ أي مهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم ﴿نزلاً من غفور رحيم﴾ أي ضيافة وعطاء من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غفر وستر ورحم ولطف.

وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قلنا: يا رسول الله كلنا نكره الموت قال ﷺ:

«ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حُضِر جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله تعالى فأحب الله لقاءه، قال: وإن الفاجر ـ أو الكافر ـ إذا حُضِر جاءه بما هو صائر إليه من الشر أو ما يلقى من الشر، فكره لقاء الله فكره الله لقاءه». وهذا حديث صحيح وقد ورد في الصحيح [نحوه].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

يقول تعالى: **﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله﴾** أي دعا عباد الله إليه **﴿وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾** أي وهو في نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومُتَعَدٍ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة في كل من دعا إلى الخير وهو في نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك، كما قال محمد بن سيرين والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقيل: المراد بها المؤذنون الصلحاء.

وقالت عائشة: ولهم هذه الآية **﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾** قالت: فهو المؤذن إذا قال: حي على الصلاة فقد دعا إلى الله. وهكذا قال ابن عمر وعكرمة: إنها نزلت في المؤذنين. وقد ذكر البغوي عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أنه قال في قوله عز وجل **وعمل صالحاً** يعني صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة.

والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية، لأنها مكية والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة، حين أريه عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري في منامه فقصه على رسول الله ﷺ، فأمره أن يلقيه على بلال فإنه أندى صوتاً، كما هو مقرر في موضعه، فالصحيح إذاً أنها عامة، كما قال الحسن البصري: أنه تلا هذه الآية **﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾** فقال: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خِيَرَة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، وقال إنني من المسلمين هذا خليفة الله. وقوله: **﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾** أي فرق عظيم بين هذه وهذه **﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾** أي من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر رضي الله عنه: ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

وقوله: **﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾** وهو الصديق إي إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك، حتى يصير كأنه ولي لك حميم، أي قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك. ثم قال: **﴿وما يلقاها إلا الذين**

صبروا﴾ أي وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس ﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ أي ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة، قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم. وقوله: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله﴾ أي إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك، فإذا استعذت بالله ولجأت إليه، كفه عنك ورد كيده، وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» [رواه أبوداود وابن ماجه والحاكم وصححه]، وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له في القرآن إلا في سورة الأعراف عند قوله: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ [الأعراف:١٩٩ـ٢٠٠]، وفي سورة المؤمنين عند قوله: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ [المؤمنون:٩٦ـ٩٨].

لكن الذي ذكر في الأعراف أخف على النفس مما ذكر في سورة السجدة، لأن الإعراض عن الجاهل وتركه أخف على النفس من الإحسان إلى المسيء فتتلدد النفس من ذلك ولا تنقاد له الا بمعالجة ويساعدها الشيطان في هذه الحال، فتنفعل له وتستعصى على صاحبها، فتحتاج إلى مجاهدة وقوة ايمان، فلهذ أكد ذلك هاهنا بضمير الفصل والتعريف باللام فقال: ﴿واستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

يقول تعالى منبهاً خلقه على قدرته وأنه، الذي لا نظير له، ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر﴾ أي إنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يقرّان، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازله في فلكه، واختلاف سيره في سمائه ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجُمَع والشهور والأعوام، ويتبين حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات. ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال: ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي لا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به،

ولهذا قال: ﴿**فإن استكبروا**﴾أي عن إفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره ﴿**فالذين عند ربك**﴾ يعني الملائكة ﴿**يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون**﴾ كقوله: ﴿**فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين**﴾ [الأنعام: ٨٩].

وقوله: ﴿**ومن آياته**﴾ أي على قدرته على إعادة الموتى ﴿**أنك ترى الأرض خاشعة**﴾ أي هامدة لا نبات فيها بل هي ميتة ﴿**فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت**﴾ أي أخرجت من جميل ألوان الزروع والثمار ﴿**إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير**﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾ ﴾.

قوله: ﴿**إن الذين يلحدون في آياتنا**﴾ قال ابن عباس: الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه. وقال قتادة وغيره: هو الكفر والعناد. وقوله: ﴿**لا يخفون علينا**﴾ فيه تهديد شديد ووعيد أكيد، أي إنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿**أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة**﴾ أي أيستوي هذا وهذا؟ لا يستويان. ثم قال عز وجل مهدداً للكفرة: ﴿**اعملوا ما شئتم**﴾ قال مجاهد والضحاك وعطاء الخراساني: وعيد أي من خير أو شر، إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم، ولهذا قال: ﴿**إنه بما تعملون بصير**﴾. ثم قال: ﴿**إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم**﴾ قال الضحاك والسدي وقتادة: هو القرآن ﴿**وإنه لكتاب عزيز**﴾ أي منيع الجناب، لا يرام أن يأتي أحد بمثله ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**﴾ أي ليس للبطلان إليه سبيل، لأنه منزل من رب العالمين، ولهذا قال: ﴿**تنزيل من حكيم حميد**﴾ أي حكيم في أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود أي في جميع ما يأمر به وينهى عنه، الجميع محمودة عواقبه وغاياته. ثم قال: ﴿**ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك**﴾ قال قتادة والسدي وغيرهما: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما كُذِّبْت فقد كُذِّبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبر أنت على أذى قومك لك. وهذا اختيار ابن جرير ولم يحك هو ولا ابن أبي حاتم غيره. وقوله: ﴿**إن ربك لذو مغفرة**﴾ أي لمن تاب إليه ﴿**وذو عقاب أليم**﴾ أي لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقاقه ومخالفته.

﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته، وإحكامه في لفظه ومعناه ومع هذا لم يؤمن به

المشركون، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت، كما قال: ﴿**ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين**﴾ [الشعراء:١٩٨-١٩٩]. وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم، لقالوا على وجه التعنت والعناد: ﴿**لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي**﴾ أي لقالوا: هلا أنزل مفصلاً بلغة العرب، ولأنكروا ذلك وقالوا: أعجمي وعربي؟ أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه.؟ رُوي هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم. وقيل: المراد بقولهم: ﴿**لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي**﴾ أي هلا أنزل بعضها بالأعجمي وبعضها بالعربي. هذا قول الحسن البصري وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام ﴿**أعجمي**﴾ وهو رواية عن سعيد بن جبير وهو في التعنت والعناد أبلغ. ثم قال: ﴿**قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء**﴾ أي قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب، ﴿**والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر**﴾ أي لا يفهمون ما فيه ﴿**وهو عليهم عمى**﴾ أي لا يهتدون إلى ما فيه من البيان، كما قال تعالى: ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا**﴾ [الإسراء:٨٢]. ﴿**أولئك ينادون من مكان بعيد**﴾ قال مجاهد: يعني بعيد من قلوبهم. قال ابن جرير: معناه كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول، قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿**ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون**﴾ [البقرة:١٧١]. وقال الضحاك: ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم.

وقوله تعالى: ﴿**ولقدآتينا موسى الكتاب فاختلف فيه**﴾ أي كُذِّب وأوذي، ﴿**فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل**﴾ [الأحقاف:٣٥]. ﴿**ولو لا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى**﴾ بتأخير الحساب إلى يوم المعاد ﴿**لقضي بينهم**﴾ أي لعجل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً، ﴿**وإنهم لفي شك منه مريب**﴾ أي وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكين فيما قالوه غير محققين لشيء كانوا فيه، هكذا وجهه ابن جرير وهو محتمل، والله أعلم.

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**من عمل صالحاً فلنفسه**﴾ اي إنما يعود نفع ذلك على نفسه، ﴿**ومن أساء فعليها**﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿**وما ربك بظلام للعبيد**﴾ أي لا يعاقب أحداً إلا بذنب، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه. ثم قال: ﴿**إليه يرد علمُ الساعة**﴾ أي لا يعلم ذلك أحد سواه كما قال محمد ﷺ، - وهو سيد البشر لجبريل عليه الصلاة والسلام وهو من سادات الملائكة حين سأله عن الساعة -: «ما المسؤول عنها بأعلم من

السائل» [رواه مسلم]، وكما قال تعالى: ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وقوله: ﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ أي الجميع بعلمه، لايعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقد قال تعالى: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال جلت عظمته: ﴿يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار﴾ [الرعد: ٨]. وقوله: ﴿ويوم يناديهم أين شركائي﴾ أي يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق: أين شركائي الذين عبدتموهم معي؟ ﴿قالوا آذناك﴾ أي أعلمناك ﴿ما منا من شهيد﴾ أي ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكاً، ﴿وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم، ﴿وظنوا﴾ أي وظن المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين، ﴿ما لهم من محيص﴾ أي لا محيد لهم عن عذاب الله كقوله تعالى: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾.

يقول تعالى: لا يَمَلّ الإنسان من دعاء ربّه بالخير، وهو المال وصحة الجسم وغير ذلك، فإن مسه الشر وهو البلاء أو الفقر ﴿فيئوس قنوط﴾ أي يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير. ﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي﴾ أي إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان في شدة ليقولن: هذا لي إني كنت أستحقه عند ربي ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ أي يكفر بقيام الساعة، أي لأجل أنه خُوِّل نعمة يبطر ويفخر ويكفر، كما قال تعالى: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى﴾ [العلق: ٦-٧]. ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ أي ولئن كان ثَمّ معاد فليُحسِننّ إليَّ ربي، كما أحسن إلي في هذه الدار، يتمنى على الله عز وجل، مع إساءته العمل وعدم اليقين. قال تعالى: ﴿فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال. ثم قال: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه﴾ أي أعرض عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله عز وجل، كقوله: ﴿فتولى بركنه﴾ [الذاريات: ٣٩]. ﴿وإذا مسه الشر﴾ أي الشدة ﴿فذو دعاء عريض﴾ أي يطيل المسألة في الشيء الواحد، فالكلام العريض: ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز: هو ما قل ودل، وقد قال تعالى: ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾ [يونس: ١٢].

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى

مِّرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿**قل**﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: ﴿**أرأيتم إن كان**﴾ هذا القرآن ﴿**من عند الله ثم كفرتم به**﴾ أي كيف تُرَون حالكم عند الذي أنزله على رسوله ؟ ولهذا قال: ﴿**من أضل ممن هو في شقاق بعيد**﴾ أي في كفر و عناد ومشاقة للحق، و مَسْلَك بعيد من الهدى. ثم قال: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم**﴾ أي سنظهر لهم دلالاتنا وحُجَجنا على كون القرآن حقاً منزلا من عند الله على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية ﴿**في الآفاق**﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان، قاله مجاهد والحسن والسدي: ودلائل في أنفسهم، قالوا: وقعة بدر، وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التي حلّت بهم، نصر الله فيها محمداً ﷺ وصحبه، وخذل فيها الباطل وحِزْبَه. ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى. وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة، من حَسن وقبيح وبين ذلك، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحيَله وحذره أن يجوزها ولا يتعداها.

وقوله تعالى: ﴿**حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد**﴾ أي كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمداً ﷺ صادق فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿**لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون**﴾ [النساء: ١٦٦]. وقوله: ﴿**ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم**﴾ أي في شك من قيام الساعة، ولهذا لا يتفكرون فيه ولا يعملون له ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هَدَرٌ لا يعبأون به وهو كائن لا محالة وواقع لا ريب فيه.

ثم قال تعالى مقرراً أنه على كل شيء قدير وبكل شيء محيط، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى: ﴿**ألا إنه بكل شيء محيط**﴾ أي المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته وتحت علمه وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

تفسير سورة الشورى وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة.

قوله: ﴿**كذلك يوحي إليك، وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم**﴾ أي كما أنزل إليك هذا القرآن، كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك. وقوله: ﴿ **الله العزيز**﴾ أي في

انتقامه ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله.

عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يأتيني الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة: فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فَيفصِم عنه وإن جبينه ﷺ ليتفصّد عرقاً. أخرجاه في الصحيحين ولفظه للبخاري.

وقوله تعالى: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي الجميع عبيد له وملك له تحت قهره وتصريفه ﴿وهو العلي العظيم﴾ كقوله تعالى: ﴿وهو العلي الكبير﴾ [سبأ:٢٣]، والآيات في هذا كثيرة. وقوله: ﴿تكاد السموات يتفطرن من فوقهن﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك وقتادة والسدي وكعب الأحبار: أي فَرَقاً من العظمة، ﴿والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾ كقوله: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً﴾ [غافر:٧]. وقوله: ﴿ألا إن الله هو الغفور الرحيم﴾ إعلام بذلك وتنويه به، وقوله: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ يعني المشركين ﴿الله حفيظ عليهم﴾ أي شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدها عداً، وسيجزيهم بها ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي إنما أنت نذير، والله على كل شيء وكيل.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ ﴾.

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أوحينا إليك قرآناً عربياً﴾ أي واضحاً جلياً بيناً، ﴿لتنذر أم القرى﴾ وهي مكة ﴿ومن حولها﴾ أي من سائر البلاد شرقاً وغرباً، وسميت مكة أم القرى، لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها، ومن أوجز ذلك وأدله ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحَزْوَرة في سوق مكة: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخْرِجت منك ما خرجت». هكذا رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح. وقوله: ﴿وتنذر يوم الجمع﴾ وهو يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد. وقوله: ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك في وقوعه، وأنه كائن لا محالة، وقوله: ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ كقوله: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن﴾ [التغابن:٩] أي يَغْبَن أهل الجنة أهل النار.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قلنا لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله. قال ﷺ للذي في يمينه: «هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم

ـ ثم أجمل على آخرهم ـ لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً ـ ثم قال ﷺ للذي في يساره: هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأي شيء نعمل إن كان هذا الأمر قد فُرِغ منه؟ قال رسول الله ﷺ: «سَدِّدوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل» ثم قال ﷺ بيده فقبضها، ثم قال: «فرغ ربكم عز وجل من العباد ـ ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال فريق في الجنة ـ ونبَذ باليسرى وقال ـ فريق في السعير» وهكذا رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح غريب.

وروى الإمام أحمد عن أبي نضرة قال: إن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعني يزورونه فوجدوه يبكي، فقالوا له ما يبكيك؟ ألم يقل لك رسول الله ﷺ: «خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقاني»، قال: بلى ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى قبض بيمينه قبضة وأخرى باليد الأخرى قال هذه لهذه وهذه لهذه ولا أبالي». فلا أدري في أي القبضتين أنا. [قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح]. وأحاديث القدر في الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جداً، منها حديث علي وابن مسعود وعائشة وجماعة جَمَّة. وقوله: ﴿**ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة**﴾ أي إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء إلى الحق وأضل من يشاء عنه وله الحكمة والحجة البالغة ولهذا قال عز وجل: ﴿**ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير**﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبراً أنه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، فإنه هو القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير، ثم قال: ﴿**وما اختلفتم فيه من شيء**﴾ أي مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام في جميع الأشياء ﴿**فحكمه إلى الله**﴾ أي هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ، كقوله: ﴿**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول**﴾ [النساء:٥٩]. ﴿**ذلكم الله ربي**﴾ أي الحاكم في كل شيء، ﴿**عليه توكلت وإليه أنيب**﴾ أي أرجع في جميع الأمور، وقوله: ﴿**فاطر السموات والأرض**﴾ أي خالقهما وما بينهما ﴿**جعل لكم من أنفسكم أزواجاً**﴾ أي من جنسكم وشكلكم، منةً عليكم وتفضلاً جعل من جنسكم ذكراً وأنثى، ﴿**ومن الأنعام أزواجاً**﴾ أي وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج. وقوله: ﴿**يذرؤكم فيه**﴾ أي يخلقكم فيه، أي في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذرؤكم فيه ذكوراً وإناثاً، خلقاً من بعد خلق، وجيلاً بعد جيل، ونسلاً بعد نسل، من الناس

والأنعام. وقال البغوي: يذرؤكم فيه أي في الرحم. وقيل: في البطن. وقيل: في هذا الوجه من الخلقة. قال مجاهد: نسلاً بعد نسل من الناس والأنعام. وقيل: «في» بمعنى «الباء» أي يذرؤكم به. ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ أي ليس كخالق الأزواج كلها شيء، لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له ﴿**وهو السميع البصير**﴾. وقوله: ﴿**له مقاليد السموات والأرض**﴾ تقدم تفسيره في سورة الزمر [آية:٦٣]، وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم فيهما ﴿**يبسطُ الرزق لمن يشاء ويقدر**﴾ أي يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء وله الحكمة والعدل التام ﴿**إنه بكل شيء عليم**﴾.

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾.

يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك**﴾ فذكر أول الرسل بعد آدم عليه السلام وهو نوح عليه السلام وآخرهم محمد ﷺ. ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم وهم إبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله: ﴿**وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم**﴾ الآية[الأحزاب:٧]. والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾ [الأنبياء:٢٥]. وفي الحديث: «نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» [متفق عليه بمعناه] أي القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله: ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**﴾ [المائدة:٤٨]، ولهذا قال ههنا: ﴿**أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾ أي وصى الله تعالى جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والجماعة. ونهاهم عن الافتراق والاختلاف. وقوله: ﴿**كبر على المشركين ما تدعوهم إليه**﴾ أي شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد. ثم قال: ﴿**الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب**﴾ أي هو الذي يُقدّر الهداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد، ولهذا قال: ﴿**وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم**﴾ أي إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغيُ والعنادُ والمشاقة. ثم قال: ﴿**ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى**﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد، لعجل عليهم العقوبة في الدنيا سريعاً. وقوله: ﴿**وإن الذين أُورثوا الكتاب من بعدهم**﴾ يعني الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ﴿**لفي شك منه مريب**﴾ أي ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما

هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم وشك مريب وشقاق بعيد.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات كل منها منفصلة عن التي قبلها لها حكم برأسها، قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضاً عشرة فصول كهذه. وقوله: **﴿فلذلك فادع﴾** أي فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك، أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم فادع الناس إليه. وقوله: **﴿واستقم كما أمرت﴾** أي واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله تعالى كما أمركم الله عز وجل، وقوله: **﴿ولا تتبع أهواءهم﴾** يعني المشركين فيما اختلفوا فيه وكذبوه وافتروه من عبادة الأوثان.

وقوله: **﴿وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب﴾** أي صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء لا نفرق بين أحد منهم. وقوله: **﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾** أي في الحكم كما أمرني الله، وقوله: **﴿الله ربنا وربكم﴾** أي هو المعبود لا إله غيره، فنحن نقر بذلك اختياراً وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً، فله يسجد من في العالمين طوعاً واجباراً. وقوله: **﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾** أي نحن براء منكم، كما قال تعالى: **﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾** [يونس:٤١]. وقوله: **﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾** قال مجاهد: أي لا خصومة. قال السدي: وذلك قبل نزول [illegible]، وهذا مُتَّجه، لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة. وقوله: **﴿الله يجمع بيننا﴾** اي يوم القيامة، كقوله: **﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم﴾** [سبأ:٢٦]. وقوله: **﴿وإليه المصير﴾** أي المرجع والمآب يوم الحساب.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٍ ١٨﴾.

يقول تعالى متوعداً الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به: **﴿والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له﴾** أي يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى، **﴿حجتهم داحضة عند ربهم﴾** أي باطلة عند الله **﴿وعليهم غضب﴾** أي منه **﴿ولهم عذاب شديد﴾** أي يوم القيامة، قال ابن عباس ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله، ليصدوهم عن الهدى، وطمعوا أن تعود الجاهلية. وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، قالوا: ديننا خير من دينكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم وأولى بالله

منكم، وقد كذبوا في ذلك. ثم قال: ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق﴾ يعني الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿والميزان﴾ وهو العدل والإنصاف، قاله مجاهد وقتادة، وهذه كقوله تعالى: **﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾** [الحديد: ٢٥].

وقوله: **﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾** فيه ترغيب فيها وترهيب منها، وتزهيد في الدنيا، وقوله: **﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾** أي: يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، وإنما يقولون ذلك تكذيباً واستبعاداً وكفراً وعناداً **﴿والذين آمنوا مشفقون منها﴾** أي خائفون وَجِلُون من وقوعها **﴿ويعلمون أنها الحق﴾** أي كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها. وقد رُوي من طرق تبلغ درجة التواتر في الصحاح والحسان والسنن والمسانيد، وفي بعض ألفاظه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري وهو في بعض أسفاره، فناداه فقال: يا محمد، فقال له رسول الله ﷺ نحواً من صوته: «هاؤم»، فقال له: متى الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: «ويحك، إنها كائنة فما أعددت لها؟» فقال: حب الله ورسوله، فقال ﷺ: «أنت مع من أحببت» [متفق عليه]. فقوله في الحديث: «المرء مع من أحب» هذا متواتر لا محالة، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها. وقوله: **﴿ألا إن الذين يمارون في الساعة﴾** أي يجادلون في وجودها ويدفعون وقوعها، **﴿لفي ضلال بعيد﴾** أي في جهل بين، لأن الذي خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى، كما قال: **﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾** [الروم: ٢٧].

﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم لا ينسى أحداً منهم، سواء في رزقه البر والفاجر، كقوله: **﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾** [هود: ٦]، ولها نظائر كثيرة. وقوله: **﴿يرزق من يشاء﴾** أي يوسع على من يشاء، **﴿وهو القوي العزيز﴾** أي لا يعجزه شيء. ثم قال: **﴿من كان يريد حرث الآخرة﴾** أي عمل الآخرة **﴿نزد له في حرثه﴾** أي نقويه ونعينه على ما هو بصدده، ونكثر نماءه ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله، **﴿ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾** أي ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا وليس له إلى الآخرة همة البتة بالكلية، حَرَمه الله الآخرة، والدنيا إن شاء أعطاه منها وإن لم يشأ

لم يحصل له لا هذه ولا هذه، وفاز الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة. والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مقيدة بالآية التي في «سبحان» وهي قوله تعالى: ﴿**من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً * كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً**﴾ [الإسراء:١٨-٢١].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسَّنَاء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة من نصيب». [رواه أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي]. وقوله: ﴿**أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله**﴾ أي هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالات الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم، من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة والأقوال الفاسدة. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عمرو بن لحي بن قمعة يجر قُصْبَه في النار» لأنه أول من سيب السوائب. وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذي حَمَل قريشاً على عبادة الأصنام لعنه الله وقبحه، ولهذا قال تعالى: ﴿**ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم**﴾ أي لعوجلوا بالعقوبة، لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد ﴿**وإن الظالمين لهم عذاب أليم**﴾ أي شديد موجع في جهنم وبئس المصير.

ثم قال تعالى: ﴿**ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا**﴾ أي في عرصات القيامة ﴿**وهو واقع بهم**﴾ أي الذي يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم، وهم في هذا الخوف والوجل ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم**﴾، فأين من هو في العرصات في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه، ممن هو في روضات الجنات فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ، فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ولهذا قال تعالى: ﴿**ذلك هو الفضل الكبير**﴾ أي الفوز العظيم والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾.

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنات لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿**ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي هذا حاصل لهم كائن لا محالة ببشارة الله

لهم به. وقوله: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى**﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالا تعطونيه، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني، وتذروني أبلغ رسالات ربي، إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة. روى البخاري عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى: إلا المودة في القربى، فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد. فقال ابن عباس: عجلت إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة. وبه قال مجاهد وقتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم.

وعن الحسن البصري : لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجراً إلا أن توادوا الله، وأن تقربوا إليه بطاعته. وهذا قول ثان، كأنه يقول: إلا المودة في القربى أي إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقربكم عند الله زلفى. وقول ثالث: وهو ما حكاه البخاري وغيره رواية عن سعيد بن جبير ما معناه، أنه قال: معنى ذلك أن تودوني في قرابتي أي تحسنوا إليهم وتبروهم.

وقال عمرو بن شعيب: قربى النبي ﷺ.

والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به حَبرُ الأمة، وترجمان القرآن عبد الله بن عباس، كما رواه عنه البخاري ولا تنكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه، وعلي وأهل بيته وذريته رضي الله عنهم أجمعين.

وقد ثبت في صحيح [مسلم]: أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، وإنهما لم يفترقا حتى يردا علي الحوض».

وروى البخاري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته. وفي الصحيح: أن الصديق رضي الله عنه قال لعلي رضي الله عنه: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أَصِلَ من قرابتي. وقال عمر بن الخطاب للعباس رضي الله عنهما: والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب. فحال الشيخين رضي الله عنهما هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين رضي الله عنهما وعن سائر الصحابة أجمعين.

وقوله: ﴿**ومن يقترف حسنة**﴾ أي ومن يعمل حسنة نزد له فيها حسناً أي أجراً وثواباً، كقوله: ﴿**إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً**﴾ [النساء: ٤٠]، وقال بعض السلف: من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها. وقوله: ﴿**إن الله غفور شكور**﴾ أي يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من

الحسنات، فيستر ويغفر، ويضاعف فيشكر، وقوله: ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾ أي لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿يختم على قلبك﴾ أي يطبع على قلبك ويسلبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧] أي لا نتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه.

وقوله: ﴿ويمح الله الباطل﴾ ليس معطوفاً على قوله: ﴿يختم﴾ فيكون مجزوماً، بل هو مرفوع على الابتداء، قاله ابن جرير، قال: وحذفت من كتابته الواو في رسم مصحف الإمام، كما حذفت في قوله: ﴿ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير﴾ [الإسراء: ١١]. وقوله: ﴿ويحق الحق بكلماته﴾ أي يحققه ويثبته ويوضحه بكلماته، أي بحججه وبراهينه ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي بما تكنه الضمائر وتنطوي عليه السرائر.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

يقول تعالى ممتناً على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه أنه من كرمه وحلمه أن يعفو ويصفح ويستر ويغفر، كقوله: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ [النساء: ١١٠]، وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك ـ أخطأ من شدة الفرح».

وقوله: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات﴾ أي يقبل التوبة في المستقبل، ويعفو عن السيئات في الماضي ﴿ويعلم ما تفعلون﴾ أي هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

وقوله: ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ قال السدي: يعني يستجيب لهم، وكذا قال ابن جرير: معناه يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم، وحكاه عن بعض النحاة، وأنه جعلها كقوله عز وجل: ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ [آل عمران: ١٩٥]. ثم روى هو وابن أبي حاتم عن سلمة بن سبرة قال: خطبنا معاذ بالشام، فقال: أنتم المؤمنون، وأنتم أهل الجنة. والله إني لأرجو أن يدخل الله تعالى من تسبون من فارس والروم الجنة، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له ـ يعني أحدُهم عملاً قال: أحسنت رحمك الله، أحسنت بارك الله فيك،

ثم قرأ: ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله﴾.

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل قوله: ﴿ويستجيب الذين آمنوا﴾، كقوله: ﴿الذين يستمعون القول﴾ [الزمر:١٨] أي هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ [الأنعام:٣٦] والمعنى الأول أظهر لقوله تعالى: ﴿ويزيدهم من فضله﴾ أي يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك.

وقوله: ﴿والكافرون لهم عذاب شديد﴾ لما ذكر المؤمنين ومالهم من الثواب الجزيل، ذكر الكافرين ومالهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم.

وقوله: ﴿ولوبسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض، أشراً وبطراً.

وقال قتادة: كان يقال خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك. وقوله: ﴿ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير﴾ أي ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر.

وقوله: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا﴾ أي من بعد إياس الناس من نزول المطر ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه كقوله: ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين﴾ [الروم:٤٩]. وقوله: ﴿وينشر رحمته﴾ أي يعم بها الوجود على أهل ذلك القُطْر وتلك الناحية. قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قُحِطَ المطر وقنط الناس. فقال عمر رضي الله عنه: مطرتم، ثم قرأ: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته﴾. ﴿وهو الولي الحميد﴾ أي هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿خلق السموات والأرض وما بث فيهما﴾ أي ذرأ فيهما، أي في السموات والأرض، ﴿من دابة﴾ وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم، وقد فرقهم في أرجاء أقطار السموات والأرض، ﴿وهو﴾ مع هذا كله ﴿على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ أي يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائرالخلائق في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، ويَنْفُذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق.

وقوله: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ أي مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هي عن سيئات تقدمت لكم، ﴿ويعفو عن كثير﴾ أي من السيئات فلا يجازيكم

عليها بل يعفو عنها، ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ [فاطر: ٤٥]. وفي الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده ما يصيب المؤمن من نَصَب ولا وَصَب ولا هم ولا حَزَن إلا كفر الله عنه بها من خطاياه حتى الشوكة يشاكها» [متفق عليه].

وروى ابن أبي حاتم عن أبي جحيفة قال دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يعيه؟ قال: فسألناه فتلا هذه الآية: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ قال: ما عاقب الله تعالى به في الدنيا فالله أحلم من أن يُثَنِّي عليه بالعقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود في عفوه يوم القيامة. وروى الإمام أحمد عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله تعالى عنه به من سيئاته» [قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح].

وعن الضحاك قال: ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب، ثم قرأ الضحاك: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ ثم يقول الضحاك: وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

يقول تعالى ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه، تسخيره البحر لتجري فيه الفلك بأمره، وهي الجواري في البحر كالأعلام، أي كالجبال، قاله مجاهد والحسن والسدي والضحاك، أي هذه في البحر كالجبال في البر ﴿إن يشأ يسكن الريح﴾ أي التي تسير بالسفن حتى لا تتحرك السفن، بل تبقى راكدة لا تجيء ولا تذهب بل واقفة على وجه الماء ﴿إن في ذلك لآيات﴾ لدلالات على نعمه تعالى على خلقه لكل صبار أي في الشدائد، شكور في الرخاء. وقوله: ﴿أو يوبقهن بما كسبوا﴾ أي ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها، ﴿ويعف عن كثير﴾ أي من ذنوبهم ولو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر.

وقال بعض علماء التفسير أي لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية، فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال آبقة لا تسير على طريق ولا إلى جهة مقصد. وهذا القول هو يتضمن هلاكها وهو مناسب للأول، وهو أنه تعالى لو شاء لسكّن الريح فوقفت أو لقواها فشردت وأبِقَت وهلكت. ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيراً جداً لهدم البنيان، أو قليلاً لما أنبت الزرع والثمار.

وقوله: ﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص﴾ أي لا محيد لهم عن بأسنا

ونقمتنا، فإنهم مقهورون بقدرتنا.

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

يقول تعالى محقراً لشأن الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني، بقوله: **﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا﴾** أي مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا وهي دار دنيئة فانية لا محالة **﴿وما عند الله خير وأبقى﴾** أي وثواب الله تعالى خير من الدنيا، وهو باق سرمدي فلا تقدموا الفاني على الباقي، ولهذا قال: **﴿للذين آمنوا﴾** أي للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا **﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾** أي ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات.

ثم قال: **﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾** وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش في سورة الأعراف **﴿وإذا ما غضبوا هو يغفرون﴾** أي سجيتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس ليس سجيتهم الانتقام من الناس. وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ **ما انتقم لنفسه قط**، إلا أن تنتهك حرمات الله. وفي حديث آخر: كان يقول لأحدنا عند المعتبة: «ما له تربت يمينه» [رواه البخاري]. وعن إبراهيم [النخعي] قال: كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا، وكانوا إذا قدروا عفوا.

وقوله: **﴿والذين استجابوا لربهم﴾** أي اتبعوا رسله وأطاعوا أمره، واجتنبوا زجره، **﴿وأقاموا الصلاة﴾** وهي أعظم العبادات لله عز جل، **﴿وأمرهم شورى بينهم﴾** أي لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب، وما جرى مجراها، كما قال تعالى: **﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾** [آل عمران: ١٥٩] ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها، ليطيب بذلك قلوبهم. وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رضي الله عنه الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر، وهم: عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، فاجتمع رأي الصحابة كلهم رضي الله عنهم على تقديم عثمان عليهم رضي الله عنهم، **﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾** وذلك بالإحسان إلى خلق الله الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

وقوله: **﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾** أي فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بالعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا، كما قال يوسف عليه السلام لإخوته: **﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾** [يوسف: ٩٢]، مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن لبيد بن الأعصم الذي سحره عليه الصلاة والسلام

[متفق عليه]، ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه مع قدرته عليه. وكذلك عفوه ﷺ عن المرأة اليهودية - وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري الذي قتله محمود بن مسلمة - التي سمت الذراع يوم خيبر - فأخبره الذراع بذلك فدعاها فاعترفت فقال ﷺ: «ما حملك على ذلك» قالت: أردت إن كنت نبياً لم يضرك، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك، فأطلقها عليه الصلاة والسلام، ولكن لما مات منه بشر بن البراء رضي الله عنه قتلها به [أخرجه البخاري]، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً، والحمد لله.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: **﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾** كقوله تعالى: **﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾** [النحل:١٢٩]، فشرع العدل وهو القصاص وندب إلى الفضل وهو العفو، كقوله: **﴿والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له﴾** [المائدة:٤٥]، ولهذا قال هاهنا: **﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾** أي لا يضيع ذلك عند الله، كما صح ذلك في الحديث: «وما زاد الله تعالى عبداً بعفو إلا عزاً» [رواه مسلم]. وقوله: **﴿إنه لا يحب الظالمين﴾** أي المعتدين، وهو المبتدىء بالسيئة.

(وقال بعضهم: لما كانت الأقسام ثلاثة: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، ذكر الأقسام الثلاثة في هذه الآية فذكر المقتصد وهو الذي يقتص بقدر حقه لقوله: **﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مثلها﴾**، ثم ذكر السابق بقوله: **﴿فَمَن عَفَا وأَصلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله﴾**، ثم ذكر الظالم بقوله: **﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِين﴾** فأمر بالعدل، وندب إلى الفضل، ونهى عن الظلم)

ثم قال جل وعلا: **﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾** أي ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم.

وقوله: **﴿إنما السبيل﴾** أي إنما الحرج والعنت **﴿على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق﴾** أي يبدءون الناس بالظلم، كما جاء في الحديث الصحيح: «المُسْتَبَّان، ما قالا فعلى البادىء ما لم يعتد المظلوم» [رواه مسلم]. **﴿أولئك لهم عذاب أليم﴾** أي شديد موجع.

ثم إن الله تعالى، لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص، قال نادباً إلى العفو والصفح: **﴿ولمن صبر وغفر﴾**، أي صبر على الأذى، وستر السيئة **﴿إن ذلك لمن عزم الأمور﴾**. قال سعيد بن جبير: يعني لمن حق الأمور التي أمر الله بها. أي لمن الأمور المشكورة، والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل، وثناء جميل.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة: إنه ما شاء كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له، وأنه من هداه فلا مُضِل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، كما قال: **﴿ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾** [الكهف:١٧]. ثم قال مخبراً عن الظالمين، وهم المشركون بالله: **﴿لما رأوا العذاب﴾** أي يوم القيامة يتمنون الرجعة إلى الدنيا **﴿يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾**، كما قال: **﴿ولوترى إذ وقفوا على النار، فقالوا: ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾** [الأنعام:٢٧]. وقوله: **﴿وتراهم يعرضون عليها﴾** أي على النار **﴿خاشعين من الذل﴾** أي الذي قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله تعالى **﴿ينظرون من طرف خفي﴾** قال مجاهد: يعني ذليل أي ينظرون إليها مُسَارَقَة خوفاً منها، والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما في نفوسهم، أجارنا الله من ذلك. **﴿وقال الذين آمنوا﴾** أي يقولون يوم القيامة **﴿إن الخاسرين﴾** أي الخسار الأكبر **﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾** أي ذهب بهم إلى النار، فعدموا لذتهم في دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أحبابهم وأهاليهم فخسروهم، **﴿ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾** أي دائم سرمدي أبدي، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها. وقوله: **﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾** أي ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، **﴿ومن يضلل الله فما له من سبيل﴾** أي ليس له خلاص.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾.

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة، حَذَّر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: **﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾** أي إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع. وقوله: **﴿ما لكم من ملجأ يومئذٍ وما لكم من نكير﴾** أي ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه.

وقوله: **﴿فإن أعرضوا﴾** يعني المشركين **﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾** أي لست عليهم بمسيطر، وقال: **﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾** [الرعد:٤٠]. وقال ههنا: **﴿إن عليك إلا البلاغ﴾** أي إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم.

ثم قال تعالى: ﴿**وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها**﴾ أي إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك ﴿**وإن تصبهم**﴾ يعني الناس ﴿**سيئة**﴾ أي جدب وبلاء وشدة ﴿**فإن الإنسان كفور**﴾ أي يجحد ما تقدم من النعم ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن أصابته محنة يئس وقنط. وهذا حال أكثر الناس، إلا من هداه الله تعالى وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمؤمن كما قال ﷺ: «إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن». [رواه مسلم].

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وأنه يخلق ما يشاء ﴿**يهب لمن يشاء إناثاً**﴾ أي يرزقه البنات فقط. ﴿**ويهب لمن يشاء الذكور**﴾ أي يرزقه البنين فقط. ﴿**أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً**﴾ أي يعطي من يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى أي هذا وهذا. ﴿**ويجعل من يشاء عقيماً**﴾ أي لا يولد له. فجعل الناس أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكوراً وإناثاً، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيماً لا نسل له ولا يولد له. ﴿**إنه عليم**﴾ أي بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ﴿**قدير**﴾ أي على من يشاء من تفاوت الناس في ذلك.

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾.

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل، وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل.

وقوله: ﴿**أو من وراء حجاب**﴾ كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها.

وفي [الحديث] الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله: «ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كفاحاً» الحديث [أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب]، وكان أبوه قد قتل يوم أحد، ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا. وقوله: ﴿**أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء**﴾ كما ينزل جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم السلام ﴿**إنه عليّ حكيم**﴾ فهو علي عليم خبير حكيم. وقوله: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا**﴾ يعني القرآن ﴿**ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان**﴾ أي على التفصيل

الذي شرع لك في القرآن، ﴿ولكن جعلناه﴾ أي القرآن ﴿نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾، كقوله: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله: ﴿وإنك﴾ أي يا محمد ﴿لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ وهو الحق القويم، ثم فسره بقوله: ﴿صراط الله﴾ أي شرعه الذي أمر به الله، ﴿الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما، والحاكم الذي لا معقب لحكمه، ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾ أي ترجع الأمور فيفصلها ويحكم فيها.

تفسير سورة الزخرف وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

يقول تعالى: ﴿حم. والكتاب المبين﴾ أي البين الواضح المعاني والألفاظ، لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس، ولهذا قال: ﴿إنا جعلناه﴾ أي نزلناه ﴿قرآناً عربياً﴾ أي بلغة العرب فصيحاً واضحاً، ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي تفهمونه وتتدبرونه، كما قال: ﴿بلسان عربي مبين﴾ [الشعراء: ١٩٥]. وقوله تعالى: ﴿وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾ بين شرفه في الملأ الأعلى ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿وإنه﴾ أي القرآن ﴿في أم الكتاب﴾ أي اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس ومجاهد، ﴿لدينا﴾ أي عندنا، قاله قتادة وغيره، ﴿لعلي﴾ أي ذو مكانة وشرف وفضل قاله قتادة، ﴿حكيم﴾ أي محكم بريء من اللبس والزيغ. وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال: ﴿إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين﴾ [الواقعة: ٧٧-٨٠].

وقوله: ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين﴾ اختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناها أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به؟ قاله ابن عباس رضي الله عنهما وأبو صالح ومجاهد والسدي واختاره ابن جرير. وقال قتادة في قوله: ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحاً ؟﴾ والله لو أن هذا القرآن رفع حين ردته أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله تعالى عاد بعائدته ورحمته، فكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة أو ما شاء الله من ذلك، وقول قتادة لطيف المعنى جداً، وحاصله أنه يقول في معناه إنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم وهو القرآن، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه بل يأمر به ليهتدي به من قدّر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته.

ثم قال تعالى ـ مسلياً لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه وآمراً له بالصبر عليهم ـ: ﴿وكم

أرسلنا من نبي في الأولين﴾ أي في شيع الأولين ﴿وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون﴾ أي يكذبونه ويسخرون به. وقوله: ﴿فأهلكنا أشد منهم بطشاً﴾ أي فأهلكنا المكذبين بالرسل، وقد كانوا أشد بطشاً من هؤلاء المكذبين لك يا محمد، كقوله: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة﴾ [غافر:٨٢] والآيات في ذلك كثيرة.

وقوله: ﴿ومضى مثل الأولين﴾ قال مجاهد: سنتهم. وقال قتادة: عقوبتهم. وقال غيرهما: عبرتهم. أي جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين﴾ [الزخرف:٥٦].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره: ﴿من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ أي ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد. ثم قال: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾ أي فراشاً قراراً ثابتة يسيرون عليها ويقومون وينامون وينصرفون، وأرساها بالجبال لئلا تميد هكذا ولا هكذا ﴿وجعل لكم فيها سبلاً﴾ أي طرقاً بين الجبال والأودية ﴿لعلكم تهتدون﴾ أي في سيركم من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، ﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر﴾ أي بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم.

وقوله: ﴿فأنشرنا به بلدة ميتاً﴾ أي أرضاً ميتة، فلما جاءها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. ثم نبه تعالى بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال: ﴿كذلك تخرجون﴾. ثم قال: ﴿والذي خلق الأزواج كلها﴾ أي مما تنبت الأرض من سائر الأصناف، من نبات وزروع وثمار وأزاهير، وغير ذلك. من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها، ﴿وجعل لكم من الفلك﴾ أي السفن ﴿والأنعام ما تركبون﴾ أي ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها، وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها، ولهذا قال: ﴿لتستووا على ظهوره﴾ أي لتستووا متمكنين مرتفعين ﴿على ظهوره﴾ أي على ظهور هذا الجنس ﴿ثم تذكروا نعمة ربكم﴾ أي فيما سخر لكم ﴿إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ أي مقاومين. ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه. قال ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد: مقرنين، أي مطيقين، ﴿وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ أي لصائرون إليه بعد

مماتنا وإليه سيرنا الأكبر. وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله: ﴿**وتزودوا فإن خير الزاد التقوى**﴾ [البقرة:١٩٧]، وباللباس الدنيوي على الأخروي في قوله تعالى: ﴿**وريشاً ولباس التقوى ذلك خير**﴾ [الأعراف:٢٦].

ذكر أحاديث واردة عند ركوب الدابة:

روى الإمام أحمد عن علي بن ربيعة قال: رأيت علياً رضي الله عنه أُتي بدابة، فلما وضع رجله في الركاب قال: باسم الله، فلما استوى عليها قال: الحمد لله ﴿**سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون**﴾ ثم حمد الله تعالى ثلاثاً وكبر ثلاثاً، ثم قال: سبحانك، لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسي فاغفر لي. ثم ضحك، فقلت له: مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟ فقال رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ فعل مثلما فعلت ثم ضحك، فقلت: مم ضحكت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «يعجب الرب تبارك وتعالى من عبده إذا قال رب اغفر لي، ويقول علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري» وهكذا رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثاً ثم قال: «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون. ثم يقول: «اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا السفر واطو لنا البعيد، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا». وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال: «آيبون تائبون إن شاء الله، عابدون لربنا حامدون». وهكذا رواه مسلم.

وروى الإمام أحمد عن محمد بن حمزة أنه سمع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «على ظهر كل بعير شيطان، فإذا ركبتموها فسموا الله عز وجل ثم لا تقصروا عن حاجاتكم». [قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن حمزة وهو ثقة].

﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله، كما ذكر الله عنهم في سورة الأنعام في قوله: ﴿**وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون**﴾ [الأنعام:١٣٦]. وكذلك جعلوا له من

قسمي البنات والبنين أخسهما وهو البنات، كما قال تعالى: **﴿ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسمة ضيزى﴾** [النجم: ٢١-٢٢]. وقال ههنا: **﴿وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين﴾**. ثم قال: **﴿أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين﴾** وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار. ثم ذكر تمام الإنكار فقال: **﴿وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾** أي إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول تعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك وتنسبونه إلى الله عز وجل؟ ثم قال: **﴿أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾** أي المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عَيِيَّة، أوَ مَنْ يكون هكذا ينسب إلى جناب الله العظيم؟ فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي وما في معناه ليجبر ما فيها من نقص.

وقوله: **﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾** أي اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: **﴿أشهدوا خلقهم﴾** أي شاهدوه وقد خلقهم الله إناثاً **﴿ستكتب شهادتهم﴾** أي بذلك **﴿ويسألون﴾** عن ذلك يوم القيامة وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد. **﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾** أي لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقرنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ:

أحدها: جعلهم لله تعالى ولداً، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً.

الثاني: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً.

الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا إذن من الله عز وجل، بل بمجرد الآراء والأهواء والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء والخبط في الجاهلية الجهلاء.

الرابع: احتجاجهم بتقريرهم على ذلك قَدَراً، والحجة إنما تكون بالشرع، وقد جهلوا في هذا الإحتجاج جهلاً كبيراً، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال تعالى: **﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾** [الزخرف: ٤٥]. وقال في هذه الآية بعد أن ذكر حجتهم هذه: **﴿ما لهم بذلك من علم﴾** أي بصحة ما قالوه واحتجوا به **﴿إن هم إلا يخرصون﴾** أي يكذبون ويتقولون. وقال مجاهد في قوله: **﴿ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون﴾** يعني ما يعلمون قدرة الله تبارك وتعالى على ذلك.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم

مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

يقول تعالى منكراً على المشركين في عبادتهم غير الله بلا دليل ولا حجة: ﴿أم آتيناهم كتاباً من قبله﴾ أي من قبل شركهم ﴿فهم به مستمسكون﴾ أي فيما هم فيه ليس الأمر كذلك، كقوله: ﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون﴾ [الروم:٣٥] أي لم يكن ذلك. ثم قال: ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾ أي ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين ههنا. وفي قوله: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ وقولهم: ﴿وإنا على آثارهم﴾ أي وراءهم ﴿مهتدون﴾ دعوى منهم بلا دليل. ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم فقالوا مثل مقالتهم، فقال: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾. ثم قال عز وجل: ﴿قل﴾ أي يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ أي لو علموا وتيقنوا صحة ما جئتم به لما انقادوا لذلك لسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله. قال الله تعالى: ﴿فانتقمنا منهم﴾ أي من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب كما فصله تبارك وتعالى في قصصهم ﴿فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي كيف بادوا وهلكوا وكيف نجى الله المؤمنين.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها: أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ أي هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهي لا إله إلا الله أي جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله تعالى من ذرية إبراهيم عليه السلام ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي إليها.

قال مجاهد وقتادة والسدي وغيرهم في قوله: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ يعني

لا إله إلا الله لا يزال في ذريته من يقولها، ورُوي نحوه عن ابن عباس. وقال ابن زيد: كلمة الإسلام. ثم قال: ﴿**بل متعت هؤلاء**﴾ يعني المشركين ﴿**وآباءهم**﴾ أي فتطاول عليهم العمر في ضلالهم ﴿**حتى جاءهم الحق ورسول مبين**﴾ أي بين الرسالة والنذارة. ﴿**ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون**﴾ أي كابروه وعاندوه كفراً وحسداً وبغياً، ﴿**وقالوا**﴾ أي كالمعترضين على الذي أنزله تعالى وتقدس: ﴿**لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**﴾ أي هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين ؟ يعنون مكة والطائف. قاله ابن عباس وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي وابن زيد. وقد ذكر غير واحد منهم قتادة: أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفي. وقال الضحاك والسدي: يعنون الوليد بن المغيرة ومسعود بن عمرو الثقفي. وعن مجاهد: عمير بن عمرو بن مسعود الثقفي. وعنه أيضا: أنهم يعنون الوليد بن المغيرة وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، وعن مجاهد: يعنون عتبة بن ربيعة بمكة وابن عبد ياليل بالطائف. وقال السدي: عنوا بذلك الوليد بن المغيرة وكنانة بن عمرو بن عمير الثقفي. والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان.

قال الله تعالى راداً عليهم في هذا الإعتراض: ﴿**أهم يقسمون رحمت ربك**﴾ أي ليس الأمر مردوداً إليهم. بل إلى الله عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً. وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً.

ثم قال تعالى مبيناً أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فقال: ﴿**نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا**﴾. وقوله: ﴿**ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً**﴾ قيل: معناه ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السدي وغيره. وقال قتادة والضحاك: ليملك بعضهم بعضاً. وهو راجع إلى الأول. ثم قال: ﴿**ورحمت ربك خير مما يجمعون**﴾ أي رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا. ثم قال تعالى: ﴿**ولولا أن يكون الناس أمة واحدة**﴾ أي لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال هذا معنى قول ابن عباس والحسن والسدي وغيرهم ﴿**لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج**﴾ أي سلالم ودرجاً من فضة قاله ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد وغيرهم ﴿**عليها يظهرون**﴾ أي يصعدون ولبيوتهم أبواباً أي أغلاقاً على أبوابهم ﴿**وسرراً عليها يتكئون**﴾ أي جميع ذلك يكون فضة ﴿**وزخرفاً**﴾ أي وذهباً، قاله ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد.

ثم قال: ﴿**وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا**﴾ أي إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى، أي يعجل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب ليوافوا الآخرة،

وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها.

ثم قال: ﴿والآخرة عند ربك للمتقين﴾ أي هي لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم، ولهذا لما قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ حين صعد إليه في تلك المشربة لما آلى من نسائه، فرآه عمر على رمال حصير قد أثر بجنبه، فابتدرت عيناه بالبكاء وقال: يا رسول الله هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس وقال: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟» ثم قال: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا» وفي رواية: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة». [متفق عليه]. وفي الصحيحين أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة». وإنما خولهم الله تعالى في الدنيا لحقارتها كما روى الترمذي وابن ماجه عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء أبداً» قال الترمذي: حسن صحيح.

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ومن يعش﴾ أي يتعامى ويتغافل ويعرض ﴿عن ذكر الرحمن﴾ والعشا في العين: ضعف بصرها، والمراد ههنا: عشا البصيرة، ﴿نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾ كقوله: ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ الآية [فصلت: ٢٥]، ولهذا قال ههنا: ﴿وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا﴾ أي هذا الذي تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضله ويهديه إلى صراط الجحيم. فإذا وافى الله عز وجل يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذي وكل به ﴿قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾. وقرأ بعضهم: «حتى إذا جاءانا» يعني القرين والمقارن.

والمراد بالمشرقين هنا هو ما بين المشرق والمغرب. وإنما استعمل هاهنا تغليباً، كما يقال: القمران والعمران والأبوان، قاله ابن جرير وغيره.

ولما كان الاشتراك في المصيبة في الدنيا يحصل به تسلية لمن شاركه في مصيبته، قطع الله بذلك بين أهل النار، فلا يحصل لهم بذلك تأسٍ وتسلية ولا تخفيف، فقال تعالى: ﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾ أي لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم. وقوله: ﴿أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال

مبين﴾ أي ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الحكم العدل في ذلك. ثم قال: ﴿**فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون**﴾ أي لابد أن ننتقم منهم ونعاقبهم، ولو ذهبت أنت، ﴿**أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون**﴾ أي نحن قادرون على هذا وعلى هذا. ولم يقبض الله رسوله حتى أقر عينه من أعدائه وحكمه في نواصيهم، وملكه ما تضمنته صياصيهم. هذا معنى قول السدي واختاره ابن جرير.

وعن قتادة قال: ذهب النبي ﷺ وبقيت النقمة، ولم ير الله نبيه ﷺ في أمته شيئاً يكرهه حتى مضى، ولم يكن نبي قط إلا وقد رأى العقوبة في أمته إلا نبيكم ﷺ. وعن الحسن نحو ذلك. وفي الحديث: «النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما تُوعَدُ، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون» [رواه مسلم]. ثم قال: ﴿**فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم**﴾ أي خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق، وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنات النعيم.

ثم قال: ﴿**وإنه لذكر لك ولقومك**﴾ قيل: معناه لشرف لك ولقومك، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد، واختاره ابن جرير ولم يحك سواه. وأورد البغوي ههنا حديث معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين» رواه البخاري. ومعناه: أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم الخُلَّص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم. وقيل: معناه تذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم، كقوله: ﴿**لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون**﴾ [الأنبياء: ١٠]، وكقوله: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ [الشعراء: ٢١٤].

﴿**وسوف تسألون**﴾ أي عن هذا القرآن، وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له.

وقوله: ﴿**واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون**﴾ أي جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ [النحل: ٣٦]. قال مجاهد في قراءة عبد الله بن مسعود: «واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا». وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدي عن ابن مسعود، وهذا كأنه تفسير لا تلاوة، والله أعلم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: واسألهم ليلة الإسراء، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جُمِعوا له، واختار ابن جرير الأول، والله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا

يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عبده ورسوله موسى عليه السلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة والأتباع والرعايا من القبط وبني إسرائيل يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظاماً كيده وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكذبوها وسخروا منها وضحكوا ممن جاءهم بها **﴿وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾** ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، وجهلهم وخبالهم وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى عليه الصلاة والسلام ويتلطفون له في العبارة بقولهم: **﴿يا أيها الساحر﴾** أي العالم، قاله ابن جرير، وكان علماء زمانهم هم السحرة. ولم يكن السحر مذموماً عندهم فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم، لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم في زعمهم، ففي كل مرة يعدون موسى عليه السلام إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بني إسرائيل وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله تعالى: **﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين * ولما وقع عليهم الرجز قال يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون﴾** [الأعراف: ١٣٣-١٣٥].

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده، أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها: **﴿أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾**، قال قتادة: قد كانت لهم جنات وأنهار ماء، **﴿أفلا تبصرون﴾** أي أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعني وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء. وهذا كقوله تعالى: **﴿فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾** [النازعات: ٢٣-٢٥].

وقوله: **﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين﴾** قال السدي: يقول بل أنا خير من هذا الذي هو مهين. وهكذا قال بعض نحاة البصرة: إن «أم» ههنا بمعنى «بل». قلت: يعني فرعون لعنه الله بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام، وقد كذب في قوله هذا كذباً بيناً واضحاً، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. ويعني بقوله: مهين كما قال سفيان: حقير،

وقال قتادة والسدي: يعني ضعيف. وقال ابن جرير: يعني لا ملك له ولا سلطان ولا مال. ﴿**ولا يكاد يبين**﴾ يعني لا يكاد يفصح عن كلامه فهو عيي حَصِر. قال السدي ﴿**لا يكاد يبين**﴾ أي لا يكاد يُفهِم. وقال قتادة والسدي وابن جرير: يعني عيي اللسان، وقال سفيان: يعني في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فمه وهو صغير، وهذا الذي قاله فرعون لعنه الله كذب واختلاق، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد وهو ينظر إلى موسى عليه السلام بعين كافرة شقية، وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يبهر أبصار ذوي الألباب.

وقوله: ﴿**مهين**﴾ كذب، بل هو المهين الحقير خلقة وخلقاً وديناً، وموسى هو الشريف الصادق البار الراشد. وقوله: ﴿**ولا يكاد يبين**﴾ افتراء أيضاً فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله عز وجل أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله له ذلك في قوله: ﴿**قد أوتيت سؤلك يا موسى**﴾ [طه: ٢٦]، وبتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته، كما قاله الحسن البصري، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها، وفرعون إن كان يفهم وله عقل، فهو يدري هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته، فإنهم كانوا جهلة أغبياء، وهكذا قوله: ﴿**فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب**﴾ وهي ما يجعل في الأيدي من الحلي. قاله ابن عباس وقتادة وغير واحد ﴿**أو جاء معه الملائكة مقترنين**﴾ أي يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه، نظر إلى الشكل الظاهر ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه لو كان يعلم، ولهذا قال تعالى: ﴿**فاستخف قومه فأطاعوه**﴾ أي استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له ﴿**إنهم كانوا قوماً فاسقين**﴾. قال الله تعالى: ﴿**فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين**﴾ قال ابن عباس: آسفونا أسخطونا، وقال الضحاك: أغضبونا، وهكذا قال ابن عباس أيضاً ومجاهد ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي وغيرهم من المفسرين.

وروى ابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله تبارك وتعالى يعطي العبد ما يشاء وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك استدراج منه له»، ثم تلا: ﴿**فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين**﴾ [رواه أحمد والطبراني في الأوسط وحسنه العراقي في تخريج الإحياء]. وروى ابن أبي حاتم عن طارق بن شهاب قال: كنت عند عبد الله رضي الله عنه، فذكر عنده موت الفجأة، فقال: تخفيف على المؤمن وحسرة على الكافر، ثم قرأ: ﴿**فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين**﴾. وقال عمر بن عبد العزيز: وجدت النقمة مع الغفلة، يعني قوله: ﴿**فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين**﴾. وقوله: ﴿**فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين**﴾ قال أبو مجلز: سلفاً لمثل من عمل بعملهم. وقال هو ومجاهد: ومثلاً أي عبرة لمن بعدهم.

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن تعنت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل: **﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾** قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي والضحاك: يضحكون أي أعجبوا بذلك، وقال قتادة: يجزعون ويضحكون. وقال إبراهيم النخعي: يعرضون.

[وقال ابن إسحاق]: يصدون عن أمرك. ثم ذكر عيسى عليه السلام فقال: **﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل * ولونشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون * وإنه لعلم للساعة﴾** أي ما وضع على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام فكفى به دليلاً على علم الساعة، يقول: **﴿فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم﴾**.

وعن ابن عباس في قوله: **﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾** قال: يعني قريشاً، لما قيل لهم: **﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾** [الأنبياء: ٩٨] إلى آخر الآيات، فقالت له قريش: فما ابن مريم؟ قال: «ذاك عبد الله ورسوله». فقالوا: والله ما يريد هذا إلا أن نتخذه رباً، كما اتخذت النصارى عيسى بن مريم رباً، فقال الله تعالى: **﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾**.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير». فقالوا له: ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، فقد كان يعبد من دون الله؟ فأنزل الله عز وجل: **﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾** [رواه أحمد والطبراني بنحوه وسنده حسن]. وقال مجاهد في قوله: **﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾** قالت قريش إنما يريد محمد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى عليه السلام. ونحو هذا قال قتادة. وقوله: **﴿وقالوا أآلهتنا خير أم هو﴾** قال قتادة: يقولون آلهتنا خير منه.

وقوله: **﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً﴾** أي مراء، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية، لأنها لما لا يعقل، وهي قوله: **﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾** [الأنبياء: ٩٨]. ثم هي خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلاً منهم ليسوا يعتقدون صحتها. وقد روى الإمام

أحمد عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أورثوا الجدل»، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿**ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون**﴾. وقد رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

وقوله: ﴿**إن هو إلا عبد أنعمنا عليه**﴾ يعني عيسى عليه السلام. ما هو إلا عبد من عباد الله عز وجل أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، ﴿**وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل**﴾ أي دلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على ما نشاء. وقوله: ﴿**ولو نشاء لجعلنا منكم**﴾ أي بدلكم ﴿**ملائكة في الأرض يخلفون**﴾ قال السدي: يخلفونكم فيها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: يخلف بعضهم بعضاً كما يخلف بعضكم بعضاً، وهذا القول يستلزم الأول، قال مجاهد: يعمرون الأرض بدلكم.

وقوله: ﴿**وإنه لعلم للساعة**﴾ [قال] ابن إسحاق: المراد من ذلك ما بُعث به عيسى عليه السلام، من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك من الأسقام. وفي هذا نظر. بل الصحيح أنه عائد على عيسى عليه السلام فإن السياق في ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿**وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته**﴾ أي قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿**ثم يوم القيامة يكون عليهم شهيداً**﴾ [النساء:١٥٩]، قال مجاهد: ﴿**وإنه لعلم للساعة**﴾ أي آية للساعة خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة، وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية والحسن وغيرهم، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً.

وقوله تعالى: ﴿**فلا تمترن بها**﴾ أي لا تشكوا فيها أنها واقعة لا محالة ﴿**واتبعون**﴾ أي فيما أخبركم به ﴿**هذا صراط مستقيم * ولا يصدنكم الشيطان**﴾ أي عن اتباع الحق ﴿**إنه لكم عدو مبين * ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة**﴾ أي بالنبوة ﴿**ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه**﴾ قال ابن جرير: يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية، وهذا الذي قاله حسن جيد ثم رد قول من زعم أن «بعض» ههنا بمعنى «كل».

وقوله: ﴿**فاتقوا الله**﴾ أي فيما أمركم به ﴿**وأطيعون**﴾ فيما جئتكم به ﴿**إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه**﴾ أي أنا وأنتم عبيد له، فقراء مشتركون في عبادته وحده لا شريك له، ﴿**هذا صراط مستقيم**﴾ أي هذا الذي جئتكم به هو الصراط المستقيم وهو عبادة الرب جل وعلا وحده. وقوله: ﴿**فاختلف الأحزاب من بينهم**﴾ أي اختلفت الفرق وصاروا شيعاً فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله - وهو الحق - ومنهم من يدعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول إنه الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ولهذا قال: ﴿**فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم**﴾.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾

ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل **﴿إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾** أي فإنها كائنة لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها، فحينئذ يندمون كل الندم حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم. وقوله: **﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾** أي كل صداقة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة، إلا ما كان لله عز وجل، فإنه دائم. وهذا كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: **﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ومالكم من ناصرين﴾** [العنكبوت: ٢٥].

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين.

وقوله: **﴿يا عباد لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾** ثم بشرهم فقال: **﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾** أي آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم. قال المعتمر بن سليمان عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع فينادي مناد: **﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾** فيرجوها الناس كلهم، قال: فيُتبعها **﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾** قال: فييأس الناس منها غير المؤمنين. **﴿ادخلوا الجنة﴾** أي يقال لهم ادخلوا الجنة **﴿أنتم وأزواجكم﴾** أي نظراؤكم **﴿تحبرون﴾** أي تتنعمون وتسعدون وقد تقدم في سورة الروم. **﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب﴾** أي آنية الطعام **﴿وأكواب﴾** وهي آنية الشراب أي من ذهب لا خراطيم لها ولا عُرَى **﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس﴾** **﴿وتلذ الأعين﴾** أي طيب الطعام والريح وحسن المنظر.

﴿وأنتم فيها﴾ أي في الجنة **﴿خالدون﴾** أي لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولاً.

ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان **﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾** أي أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يُدخل أحداً عملُه الجنة، ولكن بفضل الله ورحمته. وإنما الدرجات تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات. روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فالكافر يرث المؤمنَ منزله من النار، والمؤمن يرث الكافرَ منزله من الجنة» وذلك قوله تعالى: **﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾** [ورواه أحمد وسنده جيد].

وقوله: **﴿لكم فيها فاكهة كثيرة﴾** أي من جميع الأنواع **﴿منها تأكلون﴾** أي مهما اخترتم وأردتم. ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة.

﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء ثنى بذكر الأشقياء فقال: ﴿**إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون * لا يفتر عنهم**﴾ أي ساعة واحدة ﴿**وهم فيه مبلسون**﴾ أي آيسون من كل خير. ﴿**وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين**﴾ أي بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجج عليهم وإرسال الرسل إليهم، فكذبوا وعصوا فجوزوا بذلك جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد. ﴿**ونادوا يا مالك**﴾ وهو خازن النار. ﴿**ليقض علينا ربك**﴾ أي يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿**لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها**﴾ [فاطر:٣٦]، فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك ﴿**قال إنكم ماكثون**﴾ قال ابن عباس: مكث ألف سنة ثم قال: إنكم ماكثون. أي لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها. ثم ذكر سبب شقوتهم، وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال: ﴿**لقد جئناكم بالحق**﴾ أي بيناه لكم ووضحناه وفسرناه ﴿**ولكن أكثركم للحق كارهون**﴾ أي ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تُقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم بالملامة. واندموا حيث لا تنفعكم الندامة، ثم قال تعالى: ﴿**أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون**﴾ قال مجاهد: أرادوا كيد شر، فكدناهم. وهذا الذي قاله مجاهد كما قال تعالى: ﴿**ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون**﴾ [النمل:٥٠]، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله تعالى ورد وبال ذلك عليهم، ولهذا قال: ﴿**أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم**﴾ أي سرهم وعلانيتهم ﴿**بلى ورسلنا لديهم يكتبون**﴾ أي نحن نعلم ما هم عليه والملائكة أيضاً يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها.

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ .

يقول تعالى: ﴿**قل**﴾ يا محمد ﴿**إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين**﴾ أي لو فرض هذا لعبدته على ذلك، لأني عبد من عبيده مطيع لجميع ما يأمرني به ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض هذا لكان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً، كما قال عز وجل: ﴿**لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هوالله الواحد القهار**﴾ [الزمر:٤]. وقال بعض المفسرين في قوله: ﴿**فأنا أول العابدين**﴾ أي الآنفين، ومنهم سفيان الثوري. والبخاري حكاه فقال ويقال أول العابدين:

الجاحدين، من عَبِد يعْبَد. وهذا القول فيه نظر لأنه كيف يلتئم مع الشرط فيكون تقديره إن كان هذا فأنا ممتنع منه؟ هذا فيه نظر فليتأمل. اللهم إلا أن يقال: «إنْ» ليست شرطاً، وإنما هي نافية، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿**قل إن كان للرحمن ولد**﴾ يقول: لم يكن للرحمن ولد، فأنا أول الشاهدين. وقال قتادة: هي كلمة من كلام العرب، أي إن ذلك لم يكن فلا ينبغي، وقال أبو صخر: أي فأنا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال مجاهد: أي أول من عبده ووحده وكذبكم. والأول أقرب على أنه شرط وجزاء ولكن هو ممتنع، وقال السدي: يقول : لو كان له ولد كنت أول من عبده بأن له ولداً ولكن لا ولد له، وهو اختيار ابن جرير ورد قول من زعم أن «إنْ» نافية. ولهذا قال تعالى: ﴿**سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون**﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد فإنه فرد أحد صمد، لا نظير له ولا كفء له فلا ولد له.

وقوله: ﴿**فذرهم يخوضوا**﴾ أي في جهلهم وضلالهم ﴿**ويلعبوا**﴾ في دنياهم ﴿**حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون**﴾ وهو يوم القيامة، أي فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم في ذلك اليوم. وقوله: ﴿**وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله**﴾ أي هو إله من في السماء، وإله من في الأرض يعبده أهلهما، وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه، ﴿**وهو الحكيم العليم**﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿**وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون**﴾ [الأنعام:٣] أي هو المدعو الله في السموات والأرض . ﴿**وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما**﴾ أي هو خالقهما ومالكهما، والمتصرف فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد، وتبارك أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص، لأنه الرب العلي العظيم المالك للأشياء الذي بيده أزمة الأمور نقضاً وإبراماً. ﴿**وعنده علم الساعة**﴾ أي لا يجليها لوقتها إلا هو ﴿**وإليه ترجعون**﴾ أي فيجازي كلاً بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر. ثم قال تعالى: ﴿**ولا يملك الذين يدعون من دونه**﴾ أي من الأصنام والأوثان ﴿**الشفاعة**﴾ أي لا يقدرون على الشفاعة لهم ﴿**إلا من شهد بالحق وهم يعلمون**﴾ هذا استثناء منقطع. أي لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له. ثم قال: ﴿**ولئن سألتهم**﴾ أي ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿**من خلقهم ليقولن الله**﴾ أي هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها وحده لا شريك له في ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء، فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل. ولهذا قال: ﴿**فأنى يؤفكون**﴾.

وقوله: ﴿**وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون**﴾ أي وقال محمد قيلَه أي شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه، فقال: يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما أخبر تعالى في الآية

الأخرى: ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ [الفرقان: ٣٠] وهذا الذي قلناه هو قول ابن مسعود رضي الله عنه ومجاهد وقتادة، وعليه فسر ابن جرير. قال البخاري: وقرأ عبد الله يعني ابن مسعود: «وقال الرسول يا رب». وقال مجاهد في قوله: ﴿وقيله يا رب إن هؤلاء لا يؤمنون﴾ قال فأبر الله قول محمد ﷺ. وقال قتادة: هو قول نبيكم ﷺ يشكو قومه إلى ربه عز وجل. ثم حكى ابن جرير في قوله تعالى: ﴿وقيله يا رب﴾ قراءتين إحداهما النصب، ولها توجيهان: أحدهما أنه معطوف على قوله: ﴿نسمع سرهم ونجواهم﴾، والثاني أن يقدر فعل، وقال قيلَه. والثانية: الخفض، وقيلِه عطفاً على قوله: ﴿وعنده علم الساعة﴾ وتقديره وعلم قيله.

وقوله: ﴿فاصفح عنهم﴾ أي المشركين ﴿وقل سلام﴾ أي لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيء، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً ﴿فسوف يعلمون﴾ هذا تهديد من الله تعالى لهم، ولهذا أحلّ بهم بأسه الذي لا يرد وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب.

تفسير سورة الدخان وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم أنه أنزله في ليلة مباركة، وهي ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ [القدر: ١] وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقد ذكرنا في الأحاديث الواردة في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته، ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان كما روي عن عكرمة فقد أبعد النُّجعَة، فإن نص القرآن أنها في رمضان، والحديث الذي رواه عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس قال: إن رسول الله ﷺ قال: «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح ويولد له وقد أخرج اسمه في الموتى» [رواه الطبري في التفسير] حديث مرسل ومثله لا يعارض به النصوص.

وقوله: ﴿إنا كنا منذرين﴾ أي معلمين ما ينفعهم ويضرهم شرعاً لتقوم حجة الله على عباده.

وقوله: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ أي في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روي عن ابن عمر ومجاهد وأبي مالك والضحاك وغير واحد من السلف. وقوله: ﴿حكيم﴾ أي محكم لا يبدل ولا يغير، ولهذا قال: ﴿أمراً من عندنا﴾ أي جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوجبه

فبأمره وإذنه وعلمه ﴿إنا كنا مرسلين﴾ أي إلى الناس رسولاً يتلو عليهم آيات الله مبينات، فإن الحاجة كانت ماسة إليه، ولهذا قال: ﴿**رحمة من ربك إنه هو السميع العليم * رب السموات والأرض وما بينهما**﴾ أي الذي أنزل القرآن هو رب السموات والأرض وخالقها ومالكها وما فيها ﴿**إن كنتم موقنين**﴾ أي إن كنتم متحققين. ثم قال: ﴿**لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين**﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله**﴾ الآية [الأعراف: ١٥٨].

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون، أي قد جاءهم اليقين، وهم يشكون فيه ويمترون ولا يصدقون به، ثم قال متوعداً لهم ومتهدداً: ﴿**فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين**﴾.

قال ابن مسعود: إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان، وفي رواية فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد.، قال الله تعالى: ﴿**فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم**﴾ فأتى رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت، فاستسقى ﷺ لهم فَسُقُوا، فنزلت ﴿**إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون**﴾ قال ابن مسعود: أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟ فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله عز وجل: ﴿**يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون**﴾ قال يعني يوم بدر. قال ابن مسعود: فقد مضى خمسة: الدخان والروم والقمر والبطشة واللِّزام، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين. وقد وافق ابن مسعود على تفسير الآية بهذا، وأن الدخان مضى، جماعة من السلف كمجاهد وأبي العالية وإبراهيم النخعي والضحاك وعطية العوفي، وهو اختيار ابن جرير.

وقال آخرون لم يمض الدخان بعد بل هو من أمارات الساعة كما في حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه، قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان والدابة وخروج يأجوج ومأجوج وخروج عيسى بن مريم والدجال وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس ـ أو تحشر الناس ـ تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا». تفرد بإخراجه مسلم،

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد: «إني خبأت لك خَبْأ» قال: هو الدُّخ، قال ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك». قال: وخبأ له رسول الله ﷺ: **﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾**. وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان، وهم يُقَرطمون العبارة، ولهذا قال هو الدخ، يعني الدخان، فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته وأنها شيطانية فقال ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك».

وروى ابن جرير عن عبد الله بن أبي مليكة قال: غدوت على ابن عباس رضي الله عنهما ذات يوم فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لِمَ؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق فما نمت حتى أصبحت. وهكذا رواه ابن أبي حاتم. وإسناده صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان مما فيه مقنع، ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن.

قال الله تعالى: **﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾** أي بين واضح يراه كل أحد، وعلى ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه: إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد، وهكذا قوله تعالى: **﴿يغشى الناس﴾** أي يتغشاهم ويَعُمهم، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه **﴿يغشى الناس﴾**.

وقوله: **﴿هذا عذاب أليم﴾** أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، كقوله: **﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾** [الطور: ١٣-١٤]، أو يقول بعضهم لبعض ذلك. وقوله: **﴿ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون﴾** أي يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم، كقوله: **﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾** [إبراهيم: ٤٤]، وهكذا قال ههنا: **﴿أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون﴾**. يقول: كيف لهم بالتذكر، وقد أرسلنا إليهم رسولاً بين الرسالة والنذارة، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه بل كذبوه، وقالوا معلم مجنون، وهذا كقوله: **﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتني قدمت لحياتي﴾** [الفجر: ٢٣-٢٤].

وقوله: **﴿إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾** يحتمل معنيين: أحدهما: أنه يقول تعالى ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله: **﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون﴾** [المؤمنون: ٧٥]، وكقوله: **﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾** [الأنعام: ٢٨]. **والثاني**: أن يكون المراد إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم،

كقوله تعالى: ﴿**إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين**﴾ [يونس:٩٨]، ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم بل كان قد انعقد سببه عليهم، ولا يلزم أيضاً أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالى إخباراً عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه حين قالوا: ﴿**لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين * قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها**﴾ [الأعراف:٨٨-٨٩]، وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم، وقال قتادة: إنكم عائدون إلى عذاب الله.

وقوله: ﴿**يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون**﴾ فسر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه بيوم بدر، وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود رضي الله عنه على تفسيره الدخان بما تقدم، وروي أيضاً عن ابن عباس وعن أبي بن كعب رضي الله عنه، وجماعة وهو محتمل، والظاهر أن ذلك يوم القيامة وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً. روى ابن جرير عن ابن عباس قال: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى يوم بدر وأنا أقول هي يوم القيامة، وإسناده صحيح عنه وبه يقول الحسن البصري وعكرمة في أصح الروايتين عنه، والله أعلم.

﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن
لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن
جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ
عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ
ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

يقول تعالى: ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون، وهم قبط مصر ﴿**وجاءهم رسول كريم**﴾ يعني موسى كليمه عليه السلام ﴿**أن أدوا إليَّ عباد الله**﴾ كقوله: ﴿**فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى**﴾ [طه:٤٧]. وقوله: ﴿**إني لكم رسول أمين**﴾ أي مأمون على ما أبلغكموه. وقوله: ﴿**وأن لا تعلوا على الله**﴾ أي لا تستكبروا عن اتباع آياته والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه، كقوله: ﴿**إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾ [غافر:٦٠]. ﴿**إني آتيكم بسلطان مبين**﴾ أي بحجة ظاهرة واضحة وهي ما أرسله الله تعالى به من الآيات البينات والأدلة القاطعات. ﴿**وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وأبو صالح: هو الرجم باللسان وهو الشتم. وقال قتادة: الرجم بالحجارة، أي أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إلي بسوء من قول أو فعل. ﴿**وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون**﴾ أي فلا تتعرضوا إلي، ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا. فلما طال مقامه ﷺ بين أظهرهم، وأقام حجج الله

عليهم. وما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تعالى: ﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم * قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما﴾ [يونس:٨٨-٨٩]. وهكذا قال ههنا: ﴿فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون﴾، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج بني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه، ولهذا قال: ﴿فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون﴾، كما قال: ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاًولا تخشى﴾ [طه:٧٧].

وقوله هاهنا: ﴿واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون﴾ وذلك أن موسى عليه السلام لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم، فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكناً وبشره بأنهم جند مغرقون فيه وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى. وقال ابن عباس: ﴿واترك البحر رهواً﴾ كهيئته وامضِهْ. وقال مجاهد: رهواً طريقاً يبساً كهيئته. يقول: لا تأمره يرجع اتركه حتى يرجع آخرهم، وكذا قال عكرمة وقتادة وابن زيد وغير واحد. ثم قال تعالى: ﴿كم تركوا من جنات﴾ وهي البساتين ﴿وعيون وزروع﴾ والمراد بها الأنهار والآبار ﴿ومقام كريم﴾ وهي المساكن الأنيقة والأماكن الحسنة. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: ﴿ومقام كريم﴾ المنابر.

﴿ونعمة كانوا فيها فاكهين﴾ أي عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ [الشعراء:٥٩]، وقال هاهنا: ﴿كذلك وأورثناها قوماً آخرين﴾ وهم بنو إسرائيل كما تقدم. وقوله: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ أي لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم، فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم وعتوهم وعنادهم.

وعن علي قال: إنه ليس من عبد إلا له مصلى في الأرض، ومصعد عمله من السماء. وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض ولا عمل يصعد في السماء، ثم قرأ علي رضي الله عنه: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾ وعن ابن عباس نحوه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان يقال تبكي الأرض على المؤمن أربعين صباحاً، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد، وقال قتادة: كانوا أهون على الله عز وجل من أن تبكي عليهم السماء والأرض.

وعن يزيد بن أبي زياد قال: لما قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما احمرت آفاق السماء أربعة أشهر، قال يزيد: واحمرارها بكاؤها، وهكذا قال السدي الكبير، وقال عطاء الخراساني: بكاؤها أن تحمر أطرافها. وذكروا أيضاً في مقتل الحسين رضي الله عنه أنه ما قلب حجر يومئذ إلا وجد تحته دم عَبِيط، وأنه كسفت الشمس واحمر الأفق وسقطت حجارة. وفي كل من ذلك نظر، والظاهر أنه من سُخْف الشيعة وكذبهم ليعظموا الأمر ـ ولا شك أنه عظيم ـ، ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكذبوه وقد وقع ما هو أعظم من قتل الحسين رضي الله عنه ولم يقع شيء مما ذكروه، فإنه قتل أبوه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو أفضل منه بالإجماع، ولم يقع شيء من ذلك، وعثمان بن عفان رضي الله عنه قتل محصوراً مظلوماً، ولم يكن شيء من ذلك. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه قتل في المحراب في صلاة الصبح، وكأن المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك ولم يكن شيء من ذلك. وهذا رسول الله ﷺ، وهو سيد البشر في الدنيا والآخرة، يوم مات لم يكن شيء مما ذكروه. ويوم مات إبراهيم بن النبي ﷺ خسفت الشمس، فقال الناس: خسفت لموت إبراهيم! فصلى بهم رسول الله ﷺ صلاة الكسوف وخطبهم وبين لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته. [متفق عليه].

وقوله: ﴿**ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين * من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين**﴾ يمتن عليهم تعالى بذلك حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة. وقوله: ﴿**من فرعون إنه كان عالياً**﴾ أي مستكبراً جباراً عنيداً كقوله: ﴿**إن فرعون علا في الأرض**﴾ [القصص: ٤]. وقوله: ﴿**ولقد اخترناهم على علم على العالمين**﴾ قال مجاهد: ﴿**اخترناهم على علم على العالمين**﴾ على من هم بين ظهريه. وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك، وكان يقال: إن لكل زمان عالماً، وهذه كقوله: ﴿**قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس**﴾ [الأعراف: ١٤٤] أي أهل زمانه، وكقوله لمريم: ﴿**واصطفاك على نساء العالمين**﴾ [آل عمران: ٤٢] أي في زمانها، فإن خديجة أفضل منها، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، أو مساوية لها في الفضل، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. وقوله: ﴿**وآتيناهم من الآيات**﴾ أي الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿**ما فيه بلاء مبين**﴾ أي اختبار ظاهر جلي لمن اهتدى به.

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

يقول تعالى منكراً على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا ولا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور. ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا فإن كان البعث حقاً ﴿**فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين**﴾ وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها، يعيد الله

العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً. ثم قال تعالى متهدداً لهم، ومتوعداً ومنذراً لهم بأسه الذي لا يرد، كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث كقوم تبع، وهم سبأ، حيث أهلكهم الله وخرب بلادهم وشردهم في البلاد وفرقهم شذر مذر، كما تقدم ذلك في سورة سبأ، وهي مُصَدَّرة بإنكار المشركين للمعاد، وكذلك ههنا شبههم بأولئك وقد كانوا عرباً من قحطان، كما أن هؤلاء عرب من عدنان، وقد كانت حمير وهم سبأ كلما ملك فيهم رجل سموه تُبَّعاً، كما يقال كسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافراً، والنجاشي لمن ملك الحبشة وغير ذلك من أعلام الأجناس.

وقال سعيد بن جبير: كسا تبع الكعبة، وكان سعيد ينهى عن سبه، وتبع هذا هو تبع الأوسط، واسمه أسعد اليماني، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستاً وعشرين سنة، ولم يكن في حمير أطول مدة منه، وتوفي قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة سنة.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل، كقوله جل وعلا: **﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾** [ص: ٢٧]. ثم قال: **﴿إن يوم الفصل﴾** وهو يوم القيامة، يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين. وقوله: **﴿ميقاتهم أجمعين﴾** أي يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم **﴿يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً﴾** أي لا ينفع قريب قريباً كقوله: **﴿ولا يسأل حميم حميماً يبصرونهم﴾** [المعارج: ١٠-١١] أي لا يسأل أخاً له عن حاله وهو يراه عياناً. وقوله: **﴿ولا هم ينصرون﴾** أي لا ينصر القريب قريبه ولا يأتيه نصره من خارج، ثم قال: **﴿إلا من رحم الله﴾** أي لا ينفع يومئذ إلا رحمة الله عز وجل بخلقه **﴿إنه هو العزيز الرحيم﴾** أي هو عزيز ذو رحمة واسعة.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقائه: **﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾** الأثيم أي في قوله وفعله، وهو الكافر، وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شك في دخوله في هذه الآية، ولكن ليست خاصة به. روى ابن جرير أن أبا الدرداء كان يقرىء رجلاً: **﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾** فقال: طعام اليتيم، فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: قل إن شجرة الزقوم طعام الفاجر أي ليس له طعام غيرها، قال مجاهد: ولو وقعت قطرة منها في الأرض لأفسدت

على أهل الأرض معايشهم. وقوله: ﴿كالمهل﴾ قالوا: كعكر الزيت ﴿يغلي في البطون كغلي الحميم﴾ أي من حرارتها ورداءتها، وقوله: ﴿خذوه﴾ أي الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية خذوه ابتدره سبعون ألفاً منهم، وقوله: ﴿فاعتلوه﴾ أي سوقوه سحباً ودفعاً في ظهره، قال مجاهد ﴿خذوه فاعتلوه﴾ أي خذوه فادفعوه.

﴿إلى سواء الجحيم﴾ أي وسطها ﴿ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم﴾، كقوله: ﴿يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود﴾ [الحج:١٩-٢٠]. وقوله تعالى: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ أي قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ، وعن ابن عباس: أي لست بعزيز ولا كريم.

وقوله: ﴿إن هذا ما كنتم به تمترون﴾، كقوله: ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ [الطور:١٣-١٥]، ولهذا قال ههنا: ﴿إن هذا ما كنتم به تمترون﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء ولهذا سمي القرآن مثاني، فقال: ﴿إن المتقين﴾ أي لله في الدنيا ﴿في مقام أمين﴾ أي في الآخرة وهو الجنة، قد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيده، وسائر الآفات والمصائب ﴿في جنات وعيون﴾ وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجرة الزقوم وشرب الحميم. وقوله تعالى: ﴿يلبسون من سندس﴾ وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها ﴿وإستبرق﴾ وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش وما يلبس على أعالي القماش ﴿متقابلين﴾ أي على السرر لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره. وقوله: ﴿كذلك وزوجناهم بحور عين﴾ أي هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحسان الحور العين اللاتي ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ [الرحمن:٥٦]، ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ [الرحمن:٥٨]، ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ [الرحمن:٦٠].

وقوله: ﴿يدعون فيها بكل فاكهة آمنين﴾ أي مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم كلما أرادوا. وقوله: ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ هذا استثناء يؤكد النفي فإنه استثناء منقطع، ومعناه أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود

فلا موت». وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يقال لأهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً» رواه مسلم.

وروى أبو بكر البزار في مسنده عن جابر رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله: هل ينام أهل الجنة ؟ قال ﷺ: «لا ، النوم أخو الموت».[قال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح].

وقوله: ﴿ووقاهم عذاب الجحيم﴾ أي مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم وسلمهم ونجاهم وزحزحهم عن العذاب الأليم في دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب ونجاهم من المرهوب، ولهذا قال: ﴿فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم﴾ أي إنما كان هذا بفضله عليهم وإحسانه إليهم كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحداً لن يدخله عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ﷺ: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل». وقوله: ﴿فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون﴾ أي إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأعلاها ﴿لعلهم يتذكرون﴾ أي يتفهمون ويعلمون. ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند قال الله تعالى لرسوله ﷺ مسلياً له وواعداً له بالنصر، ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك: ﴿فارتقب﴾ أي انتظر ﴿إنهم مرتقبون﴾ أي فسيعملون لمن تكون النصرة والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين كما قال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ [المجادلة: ٢١].

تفسير سورة الجاثية وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ ﴾.

يرشد تعالى خلقه إلى التفكر في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض، وما فيها من المخلوقات المختلفة من الملائكة والجن والإنس والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وما أنزل الله تبارك وتعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقاً لأن به يحصل الرزق ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ أي بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها. وقوله: ﴿وتصريف الرياح﴾ أي جنوباً وشمالاً، ودبوراً وصباً، برية وبحرية، ليلية ونهارية. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج ، وقال أولاً: ﴿لآيات للمؤمنين﴾، ثم ﴿يوقنون﴾، ثم ﴿يعقلون﴾ وهو

ترَقَّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى: هذه آيات الله، يعني القرآن بما فيه من الحجج والبينات، **﴿نتلوها عليك بالحق﴾** أي متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟ ثم قال: **﴿ويل لكل أفاك أثيم﴾** أي أفاك في قوله كذاب، حلاّف مهين أثيم في فعله وقيله كافر بآيات الله، ولهذا قال: **﴿يسمع آيات الله تتلى عليه﴾** أي تقرأ عليه **﴿ثم يصر﴾** أي على كفره وجحوده استكباراً وعناداً **﴿كأن لم يسمعها﴾** أي كأنه ما سمعها **﴿فبشره بعذاب أليم﴾** أي فأخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً. **﴿وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً﴾** أي إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذه سخرياً وهزواً، **﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾** أي في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به. ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال: **﴿من ورائهم جهنم﴾** أي كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة **﴿ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً﴾** أي لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم **﴿ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء﴾** أي ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئاً، **﴿ولهم عذاب عظيم﴾**. ثم قال تعالى: **﴿هذا هدى﴾** يعني القرآن **﴿والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم﴾** وهو المؤلم الموجع.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر **﴿لتجري الفلك﴾** وهي السفن **﴿فيه بأمره﴾** تعالى. فإنه هو الذي أمر البحر بحملها **﴿ولتبتغوا من فضله﴾** أي في المتاجر والمكاسب **﴿ولعلكم تشكرون﴾** أي على حصول المنافع المجلوبة من الأقاليم النائية والآفاق القاصية. ثم قال عز وجل: **﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض﴾** أي من الكواكب والجبال والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به أي الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه، ولهذا قال: **﴿جميعاً منه﴾** أي من عنده وحده لا شريك له في ذلك، كما قال تعالى: **﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾** [النحل: ٥٣]. **﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾**.

وقوله: **﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله﴾** أي ليصفحوا عنهم ويحتملوا

الأذى منهم وكان هذا في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ليكون ذلك كالتأليف لهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد. هكذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة. وقال مجاهد: ﴿**لا يرجون أيام الله**﴾ لا ينالون نعم الله تعالى، وقوله: ﴿**ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون**﴾ أي إذا صفحوا عنهم في الدنيا فإن الله عز وجل مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة، ولهذا قال: ﴿**من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون**﴾ أي تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه فيجزيكم خيرها وشرها.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم، ولهذا قال: ﴿**ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات**﴾ أي من المآكل والمشارب، ﴿**وفضلناهم على العالمين**﴾ أي في زمانهم ﴿**وآتيناهم بينات من الأمر**﴾ أي حججاً وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت عليهم الحجج ثم اختلفوا من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغياً منهم على بعضهم بعضاً، ﴿**إن ربك**﴾ يا محمد ﴿**يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**﴾ أي سيفصل بينهم بحكمه العدل. وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، ولهذا قال: ﴿**ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها**﴾ أي اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين، وقال هاهنا: ﴿**ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون * إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض**﴾ أي وماذا تغني عنهم ولايتهم لبعضهم بعضاً، فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً ﴿**والله ولي المتقين**﴾ وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. ثم قال: ﴿**هذا بصائر للناس**﴾ يعني القرآن ﴿**وهدى ورحمة لقوم يوقنون**﴾.

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

يقول تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون، كما قال: ﴿**لا يستوي أصحاب النار وأصحاب**

الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال هاهنا: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات﴾ أي عملوها وكسبوها ﴿أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم﴾ أي نساويهم بهم في الدنيا والآخرة ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نُساوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة وفي هذه الدار.

وقد ذكر محمد بن إسحاق في كتاب السيرة أنهم وجدوا حجراً بمكة في أس الكعبة مكتوبا عليه: تعملون السيئات وترجون الحسنات؟ أجل كما يجنى من الشوك العنب. وقد روى الطبراني أن تميماً الداري قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ساء ما يحكمون﴾، وقال: ﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق﴾ أي بالعدل ﴿ولتُجْزَى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾.

ثم قال: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ أي إنما يأتمر بهواه، فما رآه حسناً فعله وما رآه قبيحاً تركه، وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين، وعن مالك فيما روي عنه من التفسير: لا يهوي شيئاً إلا عبده. وقوله: ﴿وأضله الله على علم﴾ يحتمل قولين: أحدهما: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك. والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه. والثاني يستلزم الأول ولا ينعكس. ﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ أي فلا يسمع ما ينفعه ولا يعي شيئاً يهتدي به، ولا يرى حجة يستضيء بها. ولهذا قال: ﴿فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾ كقوله: ﴿من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾ أي ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد، وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾ قال الله تعالى: ﴿وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾ أي يتوهمون ويتخيلون.
فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب ليله

ونهاره». وفي رواية: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر». فقال الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»: كانت العرب في جاهليتهم إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر، فينسبون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل، لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نُهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال، هذا أحسن ما قيل في تفسيره وهو المراد، والله أعلم، وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدِّهم الدهر من الأسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث.

وقوله تعالى: ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات**﴾ أي إذا استدل عليهم وبين لهم الحق، وأن الله تعالى قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها ﴿**ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين**﴾ أي أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً. قال الله تعالى: ﴿**قل الله يحييكم ثم يميتكم**﴾ أي كما تشاهدون ذلك يخرجكم من العدم إلى الوجود، ﴿**كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم**﴾ [البقرة:٢٨] أي الذي قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى. ﴿**ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه**﴾ أي إنما يجمعكم إلى يوم القيامة لايعيدكم في الدنيا حتى تقولوا ﴿**ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين**﴾ ﴿**يوم يجمعكم ليوم الجمع**﴾ [التغابن:٩] ﴿**لأي يوم أجلت ليوم الفصل**﴾ [المرسلات:١٢-١٣]، وقال ههنا ﴿**ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه**﴾ أي لا شك فيه ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ أي فلهذا ينكرون المعاد ويستبعدون قيام الأجساد قال الله تعالى: ﴿**إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً**﴾ [المعارج:٦-٧] أي يرون وقوعه بعيداً والمؤمنون يرون ذلك سهلاً قريباً.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿**ويوم تقوم الساعة**﴾ أي يوم القيامة ﴿**يخسر المبطلون**﴾ وهم الكافرون بالله الجاحدون بما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات.

وقال ابن أبي حاتم: قدم سفيان الثوري المدينة فسمع المعافري يتكلم ببعض ما يضحك به الناس، فقال له: يا شيخ أما علمت أن لله تعالى يوماً يخسر فيه المبطلون؟ قال: فما زالت تعرف في المعافري حتى لحق بالله عز وجل. ثم قال: ﴿**وترى كل أمة جاثية**﴾ أي على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال: إن هذا إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرة، لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، حتى إبراهيم الخليل، ويقول: نفسي نفسي نفسي! لا أسألك اليوم إلا نفسي. وحتى إن عيسى ليقول: لا أسألك إلا نفسي لا أسألك مريم التي ولدتني. قال مجاهد وكعب الأحبار والحسن البصري: ﴿**كل أمة جاثية**﴾ أي على الركب. وقال عكرمة: جاثية متميزة على ناحيتها

وليس على الركب، والأول أولى.

وقوله: ﴿**كل أمة تدعى إلى كتابها**﴾ يعني كتاب أعمالها، كقوله: ﴿**ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء**﴾ [الزمر:٦٩]، ولهذا قال: ﴿**اليوم تجزون ما كنتم تعملون**﴾ أي تجازون بأعمالكم خيرها وشرها، كقوله: ﴿**ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر * بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولوألقى معاذيره**﴾ [القيامة:١٣-١٥]. ثم قال: ﴿**هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق**﴾ أي يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص، كقوله: ﴿**ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه، ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً**﴾ [الكهف:٤٩]. وقوله: ﴿**إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون**﴾ أي إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم. قال ابن عباس وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة الذين في ديوان الأعمال على ما بأيدي الكتبة، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر، مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، ثم قرأ: ﴿**إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون**﴾.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ
تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ
إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا
نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا
يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيامة، فقال: ﴿**فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة، وهي الخالصة الموافقة للشرع ﴿**فيدخلهم ربهم في رحمته**﴾ وهي الجنة. كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى قال للجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء». ﴿**ذلك الفوز هو المبين**﴾ أي البين الواضح. ثم قال تعالى: ﴿**وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم**﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً: أما قرئت عليكم آيات الله تعالى فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم عند سماعها، وكنتم قوماً مجرمين في أفعالكم مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟ ﴿**وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها**﴾ أي إذا قال لكم المؤمنون ذلك ﴿**قلتم ما ندري ما الساعة**﴾ أي لا نعرفها ﴿**إن نظن إلا ظناً**﴾ أي إن نتوهم وقوعها إلا توهماً أي مرجوحاً، ولهذا قال: ﴿**وما نحن بمستيقنين**﴾ أي بمتحققين. قال الله تعالى: ﴿**وبدا لهم سيئات ما عملوا**﴾ أي وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة ﴿**وحاق بهم**﴾ أي أحاط بهم ﴿**ما كانوا به يستهزئون**﴾ أي من العذاب والنكال

﴿وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أي فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به، ﴿ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾. وقد ثبت في صحيح [مسلم] أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وترْبع؟ فيقول: بلى يارب. فيقول أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني».

قال الله تعالى: ﴿ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً﴾ أي إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخرياً تسخرون وتستهزؤن بها ﴿وغرتكم الحياة الدنيا﴾ أي خدعتكم فاطمأننتم إليها فأصبحتم من الخاسرين، ولهذا قال: ﴿فاليوم لا يخرجون منها﴾ أي من النار ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي لا يطلب منهم العتبى بل يعذبون بغير حساب ولا عتبى، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب. ثم لما ذكر تعالى حكمه في المؤمنين والكافرين، قال: ﴿فلله الحمد رب السموات ورب الأرض﴾ أي المالك لهما وما فيهما، ولهذا قال ﴿رب العالمين﴾. ثم قال: ﴿وله الكبرياء في السموات والأرض﴾ قال مجاهد: يعني السلطان أي هو العظيم الممجد الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه. وقد ورد في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما أسكنته ناري» ورواه مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ بنحوه. وقوله تعالى: ﴿وهو العزيز﴾ أي الذي لا يغالب ولا يمانع ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره تعالى وتقدس لا إله إلا هو.

تفسير سورة الأحقاف وهي مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾.

يخبر تعالى أنه نزَّل الكتاب على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال تعالى: ﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ أي لا على وجه العبث والباطل ﴿وأجل مسمى﴾ أي وإلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص. وقوله: ﴿والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾ أي لاهون عما يراد بهم، وقد أنزل الله تعالى إليهم كتاباً وأرسل إليهم رسولاً، وهم معرضون عن ذلك كله أي وسيعلمون غبَّ ذلك. ثم قال: ﴿قل﴾ أي لهؤلاء المشركين

العابدين مع الله غيره: ﴿**أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض**﴾ أي أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض ﴿**أم لهم شرك في السموات**﴾ أي ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض وما يملكون من قطمير، إن الملك والتصرف كله إلا لله عز وجل، فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿**ائتوني بكتاب من قبل هذا**﴾ أي هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يأمركم بعبادة هذه الأصنام، ﴿**أو أثارة من علم**﴾ أي دليل بيِّن على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ أي لا دليل لكم لا نقلياً ولا عقلياً على ذلك، ولهذا قرأ آخرون: «أو أَثَرَة من علم» أي: أو علم صحيح يأثرونه عن أحد ممن قبلهم، كما قال مجاهد في قوله: ﴿**أو أثارة من علم**﴾ أو أحد يأثُر علماً، وعن ابن عباس: أو بينة من الأمر. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «أو أَثَرَة من علم» قال: «الخط». [سنده صحيح]. وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم. وقال الحسن البصري: شيء يستخرجه فيثيره. وقال ابن عباس ومجاهد وأبو بكر بن عياش أيضاً: يعني الخط. وقال قتادة: خاصة من علم. وكل هذه الأقوال متقاربة. وهي راجعة إلى ما قلناه وهو اختيار ابن جرير رحمه الله وأكرمه وأحسن مثواه.

وقوله: ﴿**ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون**﴾ أي لا أضل ممن يدعو من دون الله أصناماً، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهي غافلة عما يقول لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش، لأنها جماد حجارة صم. وقوله: ﴿**وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾، كقوله: ﴿**واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً* كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً**﴾ [مريم: ٨١-٨٢] أي سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾.

يقول عز وجل مخبراً عن المشركين في كفرهم وعنادهم: أنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات أي في حال بيانها ووضوحها وجلائها، يقولون: ﴿**هذا سحر مبين**﴾ أي سحر واضح، وقد كَذَبوا وافتروا وضَلّوا وكفروا ﴿**أم يقولون افتراه**﴾ يعنون محمداً ﷺ. قال الله تعالى: ﴿**قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً**﴾ أي لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني وليس كذلك لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم، أن يجيرني منه، كقوله: ﴿**قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً* إلا بلاغاً من الله ورسالاته**﴾ [الجن: ٢٢-٢٣]، ولهذا قال هاهنا: ﴿**قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو**

أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾ هذا تهديد ووعيد أكيد وترهيب شديد.

وقوله: ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة، أي ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم تاب عليكم وعفا عنكم، وغفر ورحم، وهذه الآية كقوله في سورة الفرقان: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً * قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً﴾ [٥-٦]. وقوله: ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾ أي لست بأول رسول طرق العالم، بل جاءت الرسل من قبلي فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾ ما أنا بأول رسول. ولم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم غير ذلك.

وقوله: ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ قال ابن عباس في هذه الآية: نزل بعدها ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح:٢]. وهكذا قال عكرمة والحسن وقتادة: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾، قالوا: ولما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين: هذا قد بين الله تعالى، ماهو فاعل بك يا رسول الله، فما هو فاعل بنا؟ فأنزل الله: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات﴾ [الفتح: ٥]. هكذا قال، والذي هو ثابت في الصحيح أن المؤمنين قالوا: هنيئاً لك يارسول الله فما لنا؟ فأنزل الله هذه الآية. وقال الضحاك: ما أدري بماذا أومر وبماذا أنهى بعد هذا؟ وعن الحسن البصري قال: أما في الآخرة فمعاذ الله، قد علم أنه في الجنة، ولكن قال: لاأدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أُخرَج كما أخرجت الأنبياء من قبلي؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيخسف بكم أو تُرمون بالحجارة؟ وهذا القول هو الذي عول عليه ابن جرير وأنه لا يجوز غيره ولا شك أن هذا هو اللائق به ﷺ، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا، أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أم العلاء، وكانت بايعت رسول الله ﷺ قالت: طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون رضي الله عنه فاشتكى عثمان عندنا فمرَّضناه، حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله عز وجل فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله تعالى أكرمه» فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي، فقال رسول الله ﷺ «أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ﷺ ما يفعل بي». قالت: والله لا أزكي أحداً بعده أبداً وأحزنني ذلك فنمت، فرأيت لعثمان رضي الله عنه عيناً تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك عمله» فقد انفرد

بإخراجه البخاري دون مسلم، وفي لفظ له: «ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به» وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ بدليل قولها فأحزنني ذلك، وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذين نص الشارع على تعيينهم كالعشرة وابن سلام والغُميصاء وبلال وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة، وزيد بن حارثة وجعفر وابن رواحة وما أشبه هؤلاء. وقوله: ﴿إن أتبع إلا ما أوحي إلي﴾ أي إنما أتبع ما ينزله الله علي من الوحي، ﴿وما أنا إلا نذير مبين﴾ أي بين النِّذَارة، أمري ظاهر لكل ذي لب وعقل.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن ﴿أرأيتم إن كان﴾ هذا القرآن ﴿من عند الله وكفرتم به﴾ أي ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به قد أنزله علي لأبلغكموه، وقد كفرتم به وكذبتموه، ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾ أي وقد شهدتْ بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به. وقوله: ﴿فآمن﴾ أي هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيته ﴿واستكبرتم﴾ أنتم عن اتباعه، وقال مسروق: فآمن هذا الشاهد بنبيه، وكتابه وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾. وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام، وهذه كقوله: ﴿وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾ [القصص:٥٣]. قال مسروق والشعبي: ليس بعبد الله بن سلام هذه الآية مكية، وإسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة. واختاره ابن جرير. وروى مالك عن سعد [بن أبي وقاص] قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾ رواه البخاري ومسلم، وكذا قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ويوسف بن عبد الله بن سلام وهلال بن يساف والسدي والثوري ومالك بن أنس، وابن زيد كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سلام.

وقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ أي قالوا عن المؤمنين بالقرآن لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، يعنون بلالاً وعماراً وصُهَيباً وخباباً

رضي الله عنهم، وأشباههم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية. وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً وأخطأوا خطأ بيناً، كما قال تعالى: ﴿**وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا**﴾ [الأنعام:٥٣] أي يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا، ولهذا قالوا: ﴿**لو كان خيراً ما سبقونا إليه**﴾ وأما أهل السنة والجماعة، فيقولون: في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه. لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها.

وقوله: ﴿**وإذ لم يهتدوا به**﴾ أي بالقرآن ﴿**فسيقولون هذا إفك قديم**﴾ أي كذب قديم أي مأثور عن الناس الأقدمين فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله ﷺ: «بطر الحق وغَمْط الناس». [رواه مسلم]. ثم قال: ﴿**ومن قبله كتاب موسى**﴾ وهو التوراة ﴿**إماماً ورحمة وهذا كتاب**﴾ يعني القرآن ﴿**مصدق**﴾ أي لما قبله من الكتب ﴿**لساناً عربياً**﴾ أي فصيحاً بيناً واضحاً ﴿**لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين**﴾ أي مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين، قوله: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا**﴾ تقدم تفسيرها في سورة حم السجدة. [فصلت:٣٠]. وقوله: ﴿**فلا خوف عليهم**﴾ أي فيما يستقبلون ﴿**ولا هم يحزنون**﴾ على ما خلفهم ﴿**أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون**﴾ أي الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسُبُوغها عليهم.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن كقوله: ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً**﴾ [الإسراء:٢٣] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وقال ههنا ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً**﴾ أي أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما. وروى أبو داود الطيالسي عن سعد [بن أبي وقاص] قال: قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين فلا آكل طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى تكفر بالله، فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا، ونزلت هذه الآية ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً**﴾ الآية[العنكبوت:٨]. ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه نحوه وأطول منه. ﴿**حملته أمه كرهاً**﴾ أي قاست بسببه في حمله مشقة وتعباً من وحام وغثيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿**ووضعته كرهاً**﴾ أي بمشقة أيضاً من الطلق وشدته ﴿**وحمله وفصاله ثلاثون شهراً**﴾.

وقد استدل علي رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿وفصاله في عامين﴾ [لقمان:١٤]، وقوله: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ [البقرة:٢٣٣] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوي وصحيح، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم. وعن ابن عباس: قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين، لأن الله تعالى يقول ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾. ﴿حتى إذا بلغ أشده﴾ أي قوي وشب وارتجل. ﴿وبلغ أربعين سنة﴾ أي تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه. ويقال إنه لا يتغير غالباً عما يكون عليه ابن الأربعين.

وقد قال الحجاج بن عبد الله الحكمي أحد أمراء بني أمية بدمشق، تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياء من الناس، ثم تركتها حياءً من الله عز وجل.

﴿قال رب أوزعني﴾ أي ألهمني ﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ أي في المستقبل ﴿وأصلح لي في ذريتي﴾ أي نسلي وعقبي ﴿إني تبت إليك وإني من المسلمين﴾ وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ويعزم عليها.

قال الله تعالى: ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة﴾ أي هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله تعالى المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم فيغفر لهم الكثير من الزلل، ويتقبل منهم اليسير من العمل.

﴿في أصحاب الجنة﴾ أي هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله عز وجل من تاب إليه وأناب، ولهذا قال: ﴿وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾.

وروى ابن أبي حاتم عن محمد بن حاطب قال: لقد شهدت أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه، وعنده عمار وصعصعة والأشتر ومحمد بن أبي بكر رضي الله عنهم، فذكروا عثمان رضي الله عنه فنالوا منه، فكان علي رضي الله عنه على السرير ومعه عود في يده، فقال قائل منهم: إن عندكم من يفصل بينكم، فسألوه فقال علي : كان عثمان من الذين قال الله تعالى: ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ قال: والله عثمان وأصحاب عثمان رضي الله عنهم، قالها ثلاثاً.

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا

كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما ومالهم عنده من الفوز، والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿والذي قال لوالديه أف لكما﴾ وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر فقوله ضعيف، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلم، وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه.

وإنما هذا عام في كل من عق والديه وكذب بالحق، فقال لوالديه ﴿أف لكما﴾ عقهما.

وروى البخاري عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة رضي الله عنها فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل فيه: ﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي﴾ فقالت عائشة رضي الله عنها من وراء الحجاب: ما أنزل الله عز وجل فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله تعالى أنزل عذري.

وقوله: ﴿أتعدانني أن أخرج﴾ أي أبعث ﴿وقد خلت القرون من قبلي﴾ أي قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر ﴿وهما يستغيثان الله﴾ أي يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما ﴿ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين﴾ قال الله تعالى: ﴿أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين﴾ أي دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم، من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة. وقوله: ﴿أولئك﴾ بعد قوله: ﴿والذي قال﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك. وقال الحسن وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه المكذب بالبعث.

وقوله: ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ أي لكل عذاب بحسب عمله ﴿وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾ أي لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، درجات النار تذهب سفالاً ودرجات الجنة تذهب علواً. وقوله: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن كثير من طيبات المآكل والمشارب. وتنزه عنها ويقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم وقرّعهم: ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾. وقال أبو مجلز: ليتفقدن أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا، فيقال لهم: ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ وقوله: ﴿فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾ فجوزوا من جنس عملهم، فكما نعّموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة والحسرات المتتابعة والمنازل في الدركات

المفظعة، أجارنا الله من ذلك كله.

﴿ ۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: **﴿واذكر أخا عاد﴾** وهو هود عليه الصلاة والسلام، بعثه الله إلى عاد الأولى وكانوا يسكنون الأحقاف، جمع حِقْف وهو الجبل من الرمل، قاله ابن زيد، وقال عكرمة: الأحقاف الجبل والغار، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الأحقاف واد بحضرموت، وقال قتادة: ذُكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشِّحْر.

وقوله: **﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾** يعني وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين، كقوله عز وجل: **﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لانزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون﴾** [فصلت:١٣-١٤] أي قال لهم هود ذلك فأجابه قومه قائلين: **﴿أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا﴾** أي لتصدنا عن آلهتنا **﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾** استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم وقوعه، كقوله: **﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾** [الشورى:١٨]. **﴿قال إنما العلم عند الله﴾** أي الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيفعل ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به، **﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾** أي لا تعقلون ولا تفهمون.

قال الله تعالى: **﴿فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم﴾** أي لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا واستبشروا، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر. قال الله تعالى: **﴿بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم﴾** أي هو العذاب الذي قلتم **﴿فأْتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾**. **﴿تدمر﴾** أي تخرب **﴿كل شيء﴾** من بلادهم مما من شأنه الخراب **﴿بأمر ربها﴾** أي بإذن الله لها في ذلك، كقوله: **﴿ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾** [الذاريات:٤٢] أي كالشيء البالي ولهذا قال: **﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾** أي قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية **﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾** أي هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا وخالف أمرنا.

وروى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى رأيت منه لهواته إنما كان يبتسم وقالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك

في وجهه، قالت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب وقالوا هذا عارض ممطرنا». وأخرجاه.

وقد ذكرنا قصة هلاك قوم عاد في سورة الأعراف [الآيات: ٦٥-٧٢]، وهود [الآيات: ٥٠-٦٠] بما أغنى عن إعادته هنا، ولله تعالى الحمد والمنة.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها مالم نعطكم مثله ولا قريباً منه، **﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** أي وأحاط بهم العذاب، والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أي فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

وقوله: **﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى﴾** يعني أهل مكة، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها، كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمرون بها أيضاً، وقوله: **﴿وصرفنا الآيات﴾** أي بيناها وأوضحناها **﴿لعلهم يرجعون * فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة﴾** أي فهلا نصروهم عند احتياجهم إليهم. **﴿بل ضلوا عنهم﴾** أي بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم **﴿وذلك إفكهم﴾** أي: كذبهم **﴿وما كانوا يفترون﴾** أي وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها واعتمادهم عليها.

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: مالكم؟ فقالوا: حيل بيننا

وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، فقالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء قد حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء. فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم، قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً، يهدي إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحدا، وأنزل الله على نبيه: ﴿**قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن**﴾ [الجن:١]، وإنما أوحي إليه قول الجن رواه البخاري بنحوه، وأخرجه مسلم.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن ابن عباس قال: كان الجن يستمعون الوحي فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشراً، فيكون ما سمعوا حقاً وما زادوا باطلاً، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث، فبث جنوده فإذا بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة، فأتوه فأخبروه فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض. ورواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننيهما، وقال الترمذي: حسن صحيح، وهكذا قال الحسن البصري: إنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم.

وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن عبد الله بن مسعود قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة فلما سمعوه قالوا: أنصتوا. قالوا: صه، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة، فأنزل الله عز وجل: ﴿**وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين**﴾ **إلى** ﴿**ضلال مبين**﴾ [رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي]. فهذا مع الأول من رواية ابن عباس يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة، وإنما استمعوا قراءته ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً قوماً بعد قوم وفوجاً بعد فوج.

فأما ما رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود أنه آذنته بهم شجرة، فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى، ويكون إثباتاً مقدماً على نفي ابن عباس، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات، والله أعلم. ويحتمل أن يكون في المرة الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة أي أعلمته باجتماعهم، والله أعلم.

قال الحافظ البيهقي: وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ، وعلمت حاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله عز وجل كما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ذكر الرواية عنه بذلك:

روى مسلم عن عامر قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود رضي الله عنه شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود رضي الله عنه فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب فقلنا: استطير؟ اغتيل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذ هو جاء من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: «أتاني داعي الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن». قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر مايكون لحماً، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم» قال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم».

وروى البيهقي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انطلقت مع رسول الله ﷺ ليلة الجن حتى أتى الحجون، فخط لي خطاً ثم تقدم إليهم، فازدحموا عليه فقال سيد لهم يقال له وردان: أنا أرحلهم عنك. فقال: إني لن يجيرني من الله أحد. [وسنده صحيح].

فهذا يدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصداً، وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما. ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود، وأما ابن مسعود فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم، وإنما كان بعيداً منه، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة، هذه طريقة البيهقي، وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ﷺ ابن مسعود رضي الله عنه ولا غيره، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمد، وهي عند مسلم، ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى، والله أعلم.

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي عن سعيد بن عمرو قال: كان أبو هريرة رضي الله عنه يتبع رسول الله ﷺ بأداوة لوضوئه وحاجته، فأدركه يوماً فقال «من هذا؟» قال: أنا أبو هريرة. قال ﷺ: «ائتني بأحجار أستنج بها ولا تأتني بعظم ولا روثة فأتيته بأحجار في ثوبي فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته فقلت: يا رسول الله ما بال العظم والروثة؟ قال ﷺ: «أتاني وفد جن نصيبين فسألوني الزاد فدعوت الله تعالى لهم أن لا يمروا بروثة ولا عظم إلا وجدوه طعاماً» أخرجه البخاري قريباً منه، فهذا يدل مع ما تقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك، وقد روى ابن عباس غير ما روى عنه أولاً من وجه جيد، رواه ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿**وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن**﴾ الآية، قال: كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله رسلاً إلى قومهم. فهذا يدل على أنه روى القصتين.

وقوله: ﴿**وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن**﴾ أي طائفة من الجن ﴿**يستمعون القرآن فلما**

حضروه قالوا أنصتوا﴾ أي استمعوا وهذا أدب منهم.

وقوله: ﴿فلما قضي﴾ أي فرغ، ﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾ أي رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ كقوله: ﴿ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ [التوبة:١٢٢]. وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نُذُرٌ، وليس فيهم رسل، ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولاً لقوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى﴾ [يوسف:١٠٩]، وقال: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ [الفرقان:٢٠]. وقال عن إبراهيم الخليل: ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ [العنكبوت:٢٧] فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته.

فأما قوله تعالى في الأنعام: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾ [الأنعام:١٣٠]، فالمراد هنا مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس. ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم: ﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى﴾ ولم يذكروا عيسى لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة فالعمدة هو التوراة، فلهذا قالوا أنزل من بعد موسى، وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه الصلاة والسلام أول مرة فقال: هذا الناموس الذي كان يأتي موسى يا ليتني أكون فيها جذعاً. [رواه البخاري]. ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ أي من الكتب المنزلة على الأنبياء قبله، وقوله: ﴿يهدي إلى الحق﴾ أي في الاعتقاد والإخبار ﴿وإلى طريق مستقيم﴾ في الأعمال، فإن القرآن مشتمل على شيئين خبر وطلب، فخبره صدق، وطلبه عدل، كما قال: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ [الأنعام:١١٥]، وقال: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ [التوبة:٣٣]، فالهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح، وهكذا قالت الجن: ﴿يهدي إلى الحق﴾ في الاعتقادات ﴿وإلى طريق مستقيم﴾ أي في العمليات. ﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس، حيث دعاهم إلى الله تعالى، ولهذا قال: ﴿أجيبوا داعي الله وآمنوا به﴾، وقوله: ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ قيل: إن «من» ههنا زائدة وفيه نظر، لأن زيادتها في الإثبات قليل، وقيل: إنها على بابها للتبعيض، ﴿ويجركم من عذاب أليم﴾ أي ويقكم من عذابه الأليم. وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة، ولهذا قالوا هذا في هذا المقام وهو مقام تبجح ومبالغة، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه.

والحق أن مُؤمِنَهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله: ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ [الرحمن:٧٤]، وفي هذا

الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان * فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ [الرحمن:٤٦-٤٧]، فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، فلم يكن تعالى ليمتنّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضاً فإنه إذا كان يجازي كافرهم بالنار، وهو مقام عدل، فلأن يجازي مؤمنهم بالجنة، وهو مقام فضل، بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل أيضاً على ذلك عمومُ قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً﴾ [الكهف:١٠٧]، وما أشبه ذلك من الآيات. وقد أفردت هذه المسألة في جزء على حدة ولله الحمد والمنة.

ثم قال مخبراً عنهم ﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾ أي بل قدرة الله شاملة له ومحيطة به ﴿وليس له من دونه أولياء﴾ أي لا يجيرهم منه أحدٌ ﴿أولئك في ضلال مبين﴾ وهذا مقامُ تهديد وترهيب، فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب، ولهذا نجع في كثير منهم وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) ﴾.

يقول تعالى: أولم ير هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن﴾ أي ولم يَكْرِثهُ خَلْقُهن، بل قال لها: «كوني» فكانت بلا ممانعة، بل طائعة مجيبة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ كما قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [غافر:٥٧]، ولهذا قال: ﴿بلى إنه على كل شيء قدير﴾. ثم قال متهدداً ومتوعداً لمن كفر به: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق﴾ أي يقال لهم: أما هذا حق؟ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قالوا بلى وربنا﴾ أي لا يسعهم إلا الاعتراف، ﴿قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾، ثم قال تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ أي على تكذيب قومهم لهم. وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال وأشهرها أنهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء محمد ﷺ، قد نص الله تعالى على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي الأحزاب [آية:٨] والشورى [آية:١٣]، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل، تكون ﴿من﴾ في قوله من الرسل لبيان الجنس، والله أعلم.

﴿ولا تستعجل لهم﴾ أي لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم كقوله: ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ [الطارق:١٧]. ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾، كقوله:

﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ [النازعات:٤٦]، وحاصل ذلك أنهم استقصروا مدة لبثهم في الدنيا وفي البرزخ حين عاينوا يوم القيامة وشدائدها وطولها. وقوله: ﴿بلاغ﴾. قال ابن جرير يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون تقديره: وذلك لُبثٌ بلاغ، والآخر: أن يكون تقديره هذا القرآن بلاغ. وقوله: ﴿فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ أي لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله تعالى أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب.

تفسير سورة محمد وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣ ﴾.

يقول تعالى: ﴿الذين كفروا﴾ أي بآيات الله ﴿وصدوا﴾ غيرهم ﴿عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾ أي أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها ثواباً، كقوله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ [الفرقان:٢٣]. ثم قال: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم، ﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾ عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ. وقوله: ﴿وهو الحق من ربهم﴾ جملة معترضة حسنة، ولهذا قال: ﴿كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ قال ابن عباس: أي أمْرَهم. وقال مجاهد: شأنهم. وقال قتادة وابن زيد: حالهم والكل متقارب. ثم قال تعالى: ﴿ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل﴾ أي إنما أبطلنا أعمال الكفار. وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أي اختاروا الباطل على الحق، ﴿وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ أي يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم.

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩ ﴾.

يقول تعالى مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب﴾ أي إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيوف ﴿حتى إذا أثخنتموهم﴾ أي أهلكتموهم قتلاً ﴿فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء﴾ وثاق الأسارى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب مخيرون في أمرهم، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجاناً، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه، والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد

وقعة بدر، فإن الله سبحانه عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء، والتقلّل من القتل يومئذ فقال: ﴿**ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم**﴾ [الأنفال:٦٧ـ٦٨]. ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه منسوخة بقوله تعالى: ﴿**فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم**﴾ الآية[التوبة:٥]، روي عن ابن عباس. وقاله قتادة والضحاك والسدي وابن جُرَيْج. وقال الآخرون وهم الأكثرون: ليست بمنسوخة. ثم قال بعضهم: إنما الإمام مُخَيَّر بين المن على الأسير ومفاداته فقط، ولا يجوز له قتله. وقال آخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء لقول ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له: «**ما عندك يا ثمامة ؟**» فقال: إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تمنن تمنن على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعطَ منه ما شئت. [رواه البخاري]. وزاد الشافعي رحمه الله، فقال: الإمام مخير بين قتله أو المن عليه أو مفاداته أو استرقاقه أيضاً، وهذه المسألة محررة في علم الفروع وقد دللنا على ذلك في كتابنا الأحكام ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿**حتى تضع الحرب أوزارها**﴾ قال مجاهد: حتى ينزل عيسى بن مريم عليه السلام، وكأنه أخذه من قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال». [رواه أبوداود بإسناد صحيح]. وروى الإمام أحمد عن جبير بن نفير قال: إن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: إني سَيَّبْتُ الخيل وألقيت السلاح ووضعت الحرب أوزارها وقلت: لا قتال، فقال له النبي ﷺ: «الآن جاء القتال لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس، يُزيغ الله تعالى قلوب أقوام، فيقاتلونهم، ويرزقهم الله منهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، ألا إن عُقْرَ دار المؤمنين بالشام والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» ورواه النسائي [وسنده صحيح]. وهذا يقوي القول بعدم النسخ كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى أن لا يبقى حرب.

وقال قتادة: ﴿**حتى تضع الحرب أوزارها**﴾ حتى لا يبقى شرك، وهذا كقوله تعالى: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله**﴾ [البقرة:١٩٣]. وقوله: ﴿**ذلك ولو يشاء الله لا نتصر منهم**﴾ أي هذا ولو شاء الله لا نتقم من الكافرين بعقوبة ونكَال من عنده، ﴿**ولكن ليبلو بعضكم ببعض**﴾ أي ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم، ويبلو أخباركم. كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي آل عمران وبراءة في قوله: ﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين**﴾ [آل عمران:١٤٢].

وقال في سورة براءة: ﴿**قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم**﴾

[التوبة: ١٤-١٥]. ثم لما كان من شأن القتال أن يُقتل كثيرٌ من المؤمنين، قال: ﴿والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾ أي لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها. ومنهم من يجري عليه عمله طول بَرْزَخه، كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له في أول دَفْعَة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حُلَّة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمَن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشَفَّع في سبعين إنساناً من أقاربه». وقد أخرجه الترمذي وصححه. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وعن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يغفر للشهيد كل شيء إلا الدَّين». وروي من حديث جماعة من الصحابة، والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جداً.

وقوله: ﴿سيهديهم﴾ أي إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم﴾ [يونس:٩]. وقوله: ﴿ويصلح بالهم﴾ أي أمرهم وحالهم، ﴿ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ أي عرفهم بها وهداهم إليها. قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً، وعن ابن زيد بن أسلم ومحمد بن كعب نحو هذا.

وقد روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذّبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾، كقوله: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ [الحج: ٤٠]، فإن الجزاء من جنس العمل، ولهذا قال: ﴿ويثبت أقدامكم﴾. ثم قال تعالى: ﴿والذين كفروا فتعساً لهم﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ورسوله ﷺ، وقد ثبت الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش» [رواه البخاري] أي فلا شفاه الله. وقوله: ﴿وأضل أعمالهم﴾ أي أحبطها وأبطلها، ولهذا قال: ﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله﴾ أي لا يريدونه ولا يحبونه ﴿فأحبط أعمالهم﴾.

﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ

أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿أفلم يسيروا﴾ يعني المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم﴾ أي عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، أي ونجى المؤمنين من بين أظهرهم، ولهذا قال: ﴿وللكافرين أمثالها﴾. ثم قال: ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ ولهذا قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، أما إنكم ستجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤني، ثم ذهب يقول: اعل هُبَل اعل هُبَل. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبوه؟» فقالوا: يا رسول الله وما نقول؟ قال ﷺ: «قولوا: الله أعلى وأجل» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عُزّى لكم، فقال ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم». [رواه البخاري].

ثم قال تعالى: ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي يوم القيامة، ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تاكل الأنعام﴾ أي في دنياهم يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، قضما ليس لهم همة إلا في ذلك، ولهذا ثبت في الصحيح: «المؤمن يأكل في مِعى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء». ثم قال: ﴿والنار مثوى لهم﴾ أي يوم جزائهم، وقوله: ﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك﴾ يعني مكة ﴿أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة، في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد الرسل وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله عز وجل قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء فما ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة، فإن العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم.

وقوله: ﴿من قريتك التي أخرجتك﴾ أي الذين أخرجوك من بين أظهرهم. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار أراه قال: التفت إلى مكة وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إليّ، ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك». فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾. [له شاهد دون ذكر نزول الأية من حديث عدي بن الحمراء عند الترمذي وصححه].

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ أي على بصيرة ويقين من أمر الله ودينه بما أنزل

في كتابه من الهدى والعلم، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة، ﴿**كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم**﴾ أي ليس هذا كهذا، كقوله: ﴿**أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى**﴾ [الرعد: ١٩].

ثم قال: ﴿**مثل الجنة التي وعد المتقون**﴾ قال عكرمة: ﴿**مثل الجنة**﴾ أي نعتها ﴿**فيها أنهار من ماء غير آسن**﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة: يعني غير متغير. وقال قتادة والضحاك وعطاء الخراساني: غير منتن، والعرب تقول: أسن الماء إذ تغير ريحه.

وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله [بن مسعود]: أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك. ﴿**وأنهار من لبن لم يتغير طعمه**﴾ أي بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة، ﴿**وأنهار من خمر لذة للشاربين**﴾ أي ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل هي حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، ﴿**لا فيها غول ولا هم عنهاينزفون**﴾ [الصافات: ٤٧]، ﴿**بيضاء لذة للشاربين**﴾ [الصافات: ٤٦]. ﴿**وأنهار من عسل مصفى**﴾ أي وهو في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح.

روى الإمام أحمد عن معاوية بن حيدة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد» ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

وفي الصحيح: «إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تُفَجَّر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن».

وقوله: ﴿**ولهم فيها من كل الثمرات**﴾، كقوله: ﴿**يدعون فيها بكل فاكهة آمنين**﴾ [الدخان: ٥٥]. وقوله: ﴿**ومغفرة من ربهم**﴾ أي مع ذلك كله. وقوله: ﴿**كمن هو خالد في النار**﴾ أي أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أي ليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات، ﴿**وسقوا ماء حميماً**﴾ أي شديد الحر لا يستطاع ﴿**فقطع أمعاءهم**﴾ أي قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء ـ عياذاً بالله من ذلك.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئاً، فإذا خرجوا من عنده ﴿**قالوا للذين أوتوا العلم**﴾ من الصحابة: ﴿**ماذا قال آنفاً**﴾ أي الساعة. لا يعقلون ما قال، ولا يكترثون له.

قال الله تعالى: ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم﴾ أي فلا فهم صحيح ولا قصد صحيح. ثم قال: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ أي والذين قصدوا الهداية وفقهم الله تعالى لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها ﴿وآتاهم تقواهم﴾ أي ألهمهم رشدهم. وقوله: ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة﴾ أي وهم غافلون عنها ﴿فقد جاء أشراطها﴾ أي أمارات اقترابها، كقوله تبارك وتعالى: ﴿هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآزفة﴾ [النجم:٥٦-٥٧]، فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة، لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحجة على العالمين. وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها وأبان عن ذلك وأوضحه، كما هو مبسوط في موضعه. وقال الحسن البصري: بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة وهو كما قال.

وروى البخاري عن سهل بن سعد قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تليها: «بعثت أنا والساعة كهاتين». ثم قال تعالى: ﴿فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ أي فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك كقوله تعالى: ﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾. [الفجر:٢٣]. وقوله: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا ينافي كونه آمراً بعلم ذلك، ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾. وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هَزْلي وجدّي وخَطَئي وعَمْدي وكل ذلك عندي». وفي صحيح [مسلم] أنه كان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني أنت إلهي لا إله إلا أنت». وفي الصحيح أنه قال: «ياأيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جداً. وقوله: ﴿والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ أي يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم، كقوله: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ [الأنعام:٦٠]. وهذا القول ذهب إليه ابن جريج وهو اختيار ابن جرير، وعن ابن عباس: متقلبكم في الدنيا ومثواكم في الآخرة، وقال السدي: متقلبكم في الدنيا ومثواكم في قبوركم، والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله عز وجل وأمر به

نكل عنه كثير من الناس، كقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا: ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب؟ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا﴾ [النساء:٧٧]. وقال هاهنا: ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة﴾ أي مشتملة على حُكْم القتال، ولهذا قال: ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾ أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء، ثم قال مشجعاً لهم: ﴿فأولى لهم طاعة وقول معروف﴾ أي وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أي في الحالة الراهنة ﴿فإذا عزم الأمر﴾ أي جد الحال، وحضر القتال، ﴿فلو صدقوا الله﴾ أي خلصوا له النية ﴿لكان خيراً لهم﴾.

وقوله: ﴿فهل عسيتم إن توليتم﴾ أي عن الجهاد ونكلتم عنه ﴿أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ أي تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام، ولهذا قال: ﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل وقد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والفعال وبذل الأموال، وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خلق الله تعالى الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن عز وجل، فقال: مه! فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال تعالى: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلك لك». قال رسول الله ﷺ: «اقرءوا إن شئتم: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾. ورواه مسلم.

وروى الإمام أحمد عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله تعالى عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم». ورواه أبو داود والترمذي، وقال: هذا حديث صحيح.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافىء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها» رواه البخاري.

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه، وناهياً عن الإعراض عنه ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾ أي بل على قلوب أقفالها، فهي مُطْبَقَة لا يخلص إليها شيء من معانيه. ثم قال تعالى: ﴿**إن الذين ارتدوا على أدبارهم**﴾ أي فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر ﴿**من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم**﴾ أي زين لهم ذلك وحسنه، ﴿**وأملى لهم**﴾ أي غرهم وخدعهم، ﴿**ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر**﴾ أي ما لؤوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿**والله يعلم إسرارهم**﴾ أي ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله: ﴿**والله يكتب ما يبيتون**﴾ [النساء: ٨١].

ثم قال: ﴿**فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم**﴾ أي كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعاصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال: ﴿**ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم**﴾ الآية[الأنفال: ٥٠].

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم**﴾ أي أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين، بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة براءة فبين فيها فضائحهم، وما يعتمذونه من الأفعال الدالة على نفاقهم، ولهذا كانت تسمى الفاضحة. والأضغان: جمع ضغن وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره. وقوله: ﴿**ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم**﴾ يقول عز وجل: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عياناً، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين ستراً منه على خلقه، وحملاً للأمور على ظاهر السلامة ورداً للسرائر إلى عالمها، ﴿**ولتعرفنهم في لحن القول**﴾ أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه. وقد ذكرنا ما يستدل به على نفاق الرجل وتكلمنا على نفاق العمل والاعتقاد في أول شرح البخاري بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقوله: ﴿**ولنبلونكم**﴾ أي ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي ﴿**حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم**﴾ وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد حتى نعلم وقوعه، ولهذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما في مثل هذا:

إلا لنعلم أي لنرى.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾ ﴾.

يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه بردته مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال، ولهذا قال: ﴿**ولا تبطلوا أعمالكم**﴾ أي بالردة، ولهذا قال بعدها: ﴿**إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم**﴾، كقوله: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ الآية. ثم قال لعباده المؤمنين: ﴿**فلا تهنوا**﴾ أي لا تضعفوا عن الأعداء ﴿**وتدعوا إلى السلم**﴾ أي المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عَدَدِكم وعُدَدِكم، ولهذا قال: ﴿**وأنتم الأعلون**﴾ أي في حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصلحة فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم ﷺ إلى ذلك. [رواه البخاري]. وقوله: ﴿**والله معكم**﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء ﴿**ولن يتركم أعمالكم**﴾ أي ولن يحبطها ويبطلها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً.

﴿ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ﴿٣٦﴾ إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾.

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهويناً لشأنها: ﴿**إنما الحياة الدنيا لعب ولهو**﴾ أي حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل، ولهذا قال: ﴿**وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم**﴾ أي هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم ويرجع ثوابه إليكم. ثم قال: ﴿**إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا**﴾ أي يحوجكم تبخلوا ﴿**ويخرج أضغانكم**﴾. قال قتادة: قد علم الله تعالى أن

في إخراج الأموال إخراج الأضغان. وصدق قتادة فإن المال محبوب ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه. وقوله: ﴿**ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل**﴾ أي لا يجيب إلى ذلك ﴿**ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه**﴾ أي إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه ﴿**والله الغني**﴾ أي عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائماً، ولهذا قال: ﴿**وأنتم الفقراء**﴾ أي بالذات إليه. فوصفه بالغني وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، لا ينفكون عنه.

وقوله: ﴿**وإن تتولوا**﴾ أي عن طاعته واتباع شرعه ﴿**يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم**﴾ أي ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره.

تفسير سورة الفتح وهي مدنية.

روى الإمام أحمد عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجَّع فيها، قال معاوية: لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت قراءته، أخرجاه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾.

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ، من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكرُّه من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله. فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع أنزل الله عز وجل هذه السورة من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة وما آل الأمر إليه، كما روى ابن مسعود رضي الله عنه وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية، وعن جابر قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبة، وروى البخاري عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا.

وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر قال: فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد عليَّ، قال فقلت في نفسي: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب

كررت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك ؟ قال: فركبت راحلتي فحركت بعيري فتقدمت مخافة أن يكون نزل فيَّ شيء، قال: فإذا أنا بمناد ينادي يا عمر، قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل فيَّ شيء قال: فقال النبي ﷺ «نزلت علي البارحة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها: ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً* ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**﴾ ورواه البخاري.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: نزلت على النبي ﷺ ﴿**ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**﴾ مرجعه من الحديبية. قال النبي ﷺ: «لقد أنزلت علي الليلة آية أحب إلي مما على الأرض» ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا نبي الله لقد بين الله عز وجل ما يفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه ﷺ ﴿**ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ـ حتى بلغ ـ فوزاً عظيماً**﴾ أخرجاه في الصحيحين.

وروى الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبة قال: كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه فقيل له أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً». أخرجاه.

فقوله: ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً**﴾ أي بيناً وظاهراً، والمراد به صلح الحديبية، فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان.

وقوله: ﴿**ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**﴾ هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق وسيدهم في الدنيا والآخرة، ولما كان أطوع خلق الله تعالى لله وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه قال: حين بركت به الناقة: «حبسها حابس الفيل» ثم قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليه» [رواه البخاري]. فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له: ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك**﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿**ويهديك صراطاً مستقيماً**﴾ أي بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم ﴿**وينصرك الله نصراً عزيزاً**﴾ أي بسبب خضوعك لأمر الله عز وجل يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً. وما تواضع أحد لله عز وجل إلا رفعه الله تعالى» [رواه مسلم]. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما عاقبت أحداً عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ

فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿هو الذي أنزل السكينة﴾ أي جعل الطمأنينة، قاله ابن عباس، وعنه: الرحمة وقال قتادة: الوقار في قلوب المؤمنين. وهم الصحابة يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم إيماناً مع إيمانهم، وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب. ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لا نتصر من الكافرين فقال: ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾ أي ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة، ولهذا قال تعالى: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾. ثم قال: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾، قد تقدم حديث أنس حين قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ [متفق عليه] أي ما كثين فيها أبداً ﴿ويكفر عنهم سيئاتهم﴾ أي خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر ويستر ويرحم ويشكر ﴿وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً﴾، كقوله: ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقوله: ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء﴾ أي يتهمون الله تعالى في حكمه ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية، ولهذا قال: ﴿عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾ ثم قال مؤكداً لقدرته على الانتقام من - أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين - ﴿ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً﴾.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٨﴾ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٠﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إنا أرسلناك شاهداً﴾ أي على الخلق ﴿ومبشراً﴾ أي للمؤمنين ﴿ونذيراً﴾ أي للكافرين وقد تقدم تفسيرها في سورة الأحزاب [آية: ٤٥]. ﴿لتؤمنوا با لله ورسوله وتعزروه﴾ قال ابن عباس وغير واحد: تعظموه ﴿وتوقروه﴾ من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام ﴿وتسبحوه﴾ أي تسبحون الله ﴿بكرة وأصيلاً﴾ أي أول النهار وآخره. ثم قال عز وجل لرسوله ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾، كقوله: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ أي هو حاضر

معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى المبايع بواسطة رسول الله ﷺ، كقوله: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بابعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾ [التوبة: ١١١].

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ في الحَجَر: «والله ليبعثنه الله عز وجل يوم القيامة له عينان ينظر بهما، ولسان ينطق به ويشهد على من استلمه بالحق، فمن استلمه فقد بايع الله تعالى». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم**﴾ [رواه الترمذي وقال: حديث حسن]، ولهذا قال ههنا: ﴿**فمن نكث فإنما ينكث على نفسه**﴾ أي إنما يعود وبال ذلك على الناكث والله غني عنه، ﴿**ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً**﴾ أي ثواباً جزيلاً. وهذه البيعة هي بيعة الرضوان وكانت تحت شجرة سَمُر بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قيل ألفاً وثلثمائة، وقيل وأربعمائة، وقيل وخمسمائة، والأوسط أصح.

روى البخاري عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة.

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة:

قال محمد بن إسحاق في السيرة: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة، ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته، فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان رضي الله عنه حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل، قال ابن اسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا نبرح حتى نناجز القوم».

ودعا رسول الله الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت ولكن بايعنا على ألا نفر، فبايع الناس ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة، فكان جابر يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد صبأ

إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان باطل.

وروى البخاري عن ابن عمر قال: إن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ قد تفرقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ فقال يعني عمر: يا عبد الله انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ، فوجدهم يبايعون فبايع، ثم رجع إلى عمر، فخرج فبايع.

وعن جابر رضي الله عنه، قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه، وعمر رضي الله عنه آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة وقال: بايعناه على ألا نفر ولم نبايعه على الموت. رواه مسلم.

وروى البخاري عن سلمة [بن الأكوع] قال: بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ثم تنحيت فقال ﷺ: «يا سلمة ألا تبايع ؟» قلت: قد بايعت، قال ﷺ: «أقبل فبايع». فدنوت فبايعت على الموت.

وروى الحميدي عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فقال لنا رسول الله ﷺ: «أنتم خير أهل الأرض اليوم» قال جابر رضي الله عنه: لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة. أخرجاه. وروى الإمام أحمد عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة». [وإسناده صحيح ورواه مسلم عن حفصة رضي الله عنها].

وروى عبد الله بن أحمد عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «من يصعد الثنية ثنية المرار فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل» فكان أول من صعد خيل بني الخزرج، ثم تبادر الناس بعد، فقال النبي ﷺ: «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر» فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ. فقال: والله لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم، فإذا هو رجل ينشد ضالة، رواه مسلم.

ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً**﴾، كما قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿**لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً**﴾ [الفتح: ١٨].

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر

لهم الرسول ﷺ وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة، ولهذا قال تعالى: ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً﴾ أي لا يقدر أحد أن يرد ما أراده الله فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسرائركم، وإن صانعتمونا وتابعتمونا، ولهذا قال: ﴿بل كان الله بما تعملون خبيراً﴾. ثم قال: ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً﴾ أي لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص بل تخلف نفاق، ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً﴾ أي اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم ولا يرجع منهم مخبر ﴿وظننتم ظن السوء، وكنتم قوماً بوراً﴾ أي هلكى، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد، وقال قتادة: فاسدين. ثم قال: ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله﴾ أي من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر. ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي لمن تاب إليه وأناب وخضع لديه.

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه إلى خيبر يفتحونها: أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم، لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدراً ولهذا قال: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ قال مجاهد وقتادة وجويبر: وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية. واختاره ابن جرير.

وقال ابن جريج ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ يعني بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد. ﴿قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل﴾ أي وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم ﴿فسيقولون بل تحسدوننا﴾ أي أن نشرككم في المغانم ﴿بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ولكن لا فهم لهم.

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) ﴾.

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد على أقوال: أحدها: أنهم هوازن، قاله سعيد بن جبير وعكرمة وبه يقول قتادة في رواية عنه.

الثاني: ثقيف، قاله الضحاك. **الثالث**: بنو حنيفة، قاله جويبر والزهري، وروي عن سعيد وعكرمة. **الرابع**: هم أهل فارس، قاله ابن عباس، وبه يقول عطاء ومجاهد وعكرمة في إحدى الروايات عنه. وقال كعب الأحبار: هم الروم، وعن ابن أبي ليلى وعطاء والحسن وقتادة: هم فارس والروم، وعن مجاهد: هم أهل الأوثان، وعنه أيضاً: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة، وبه يقول ابن جريج وهو اختيار ابن جرير.

وعن الزهري قال: لم يأت أولئك بعد.

وعن أبي هريرة أنه فسر قول رسول الله ﷺ: «تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر» قال: هم البارزون يعني الأكراد. وقوله: ﴿**تقاتلونهم أو يسلمون**﴾ يعني شرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم، ولكم النصرة عليهم أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار.

ثم قال: ﴿**فإن تطيعوا**﴾ أي تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿**يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل**﴾ يعني زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم ﴿**يعذبكم عذاباً أليماً**﴾.

ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ. ثم قال تعالى مرغباً في الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿**ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول**﴾ أي ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش ﴿**يعذبه عذاباً أليماً**﴾ في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار.

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم أنهم كانوا ألفاً وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية. روى البخاري عن طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون فقلت: ما هذا المسجد ؟ قالوا هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم.

وقوله: ﴿**فعلم ما في قلوبهم**﴾ أي من الصدق والوفاء والسمع والطاعة، ﴿**فأنزل السكينة**﴾ وهي الطمأنينة، ﴿**عليهم وأثابهم فتحاً قريباً**﴾ وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة،

ولهذا قال: ﴿ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً﴾.

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

قال مجاهد في قوله: ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾ هي جميع المغانم إلى اليوم ﴿فعجل لكم هذه﴾ يعني فتح خيبر، وروي عن ابن عباس: ﴿فعجل لكم هذه﴾ يعني صلح الحديبية ﴿وكف أيدي الناس عنكم﴾ أي لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال، وكذلك كف أيدي الناس الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكم وحريمكم، ﴿ولتكون آية للمؤمنين﴾ أي يعتبرون بذلك، فإن الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر، كما قال: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ [البقرة:٢١٦]. ﴿ويهديكم صراطاً مستقيماً﴾ أي بسبب انقيادكم لأمره، وموافقتكم رسوله.

وقوله: ﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً﴾ أي وغنيمة أخرى وفتحاً آخر معيناً لم تكونوا تقدرون عليها، قد يسرها الله عليكم وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون. وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة ما المراد بها فعن ابن عباس: هي خيبر. وهذا على قوله في قوله: ﴿فعجل لكم هذه﴾ إنها صلح الحديبية، وقاله الضحاك وابن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال قتادة: هي مكة. واختاره ابن جرير. وقال ابن أبي ليلى والحسن البصري: هي فارس والروم. وقال مجاهد: هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة.

وعن ابن عباس قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم.

وقوله: ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ يقول عز وجل مبشراً لعباده المؤمنين، بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفر فاراً مدبراً لا يجدون ولياً ولا نصيراً، لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين. ثم قال: ﴿سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أي هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصلٍ إلا نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعُدَدهم وكثرة المشركين وعددهم.

وقوله: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم فلم يصل إليهم منهم سوء، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً فيه خيَرَةٌ للمؤمنين، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح، من قبل جبل التنعيم، يريدون غِرّة رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأخذوا. فعفا عنهم ونزلت هذه الآية: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾ ورواه مسلم.

وروى أحمد أيضاً عن عبد الله بن مغفل المزني رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. وسهيلُ بن عمرو بين يديه فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فأخذ سهيل بيده وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف فقال: «اكتب باسمك اللهم، وكتب «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة». فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف. فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله تعالى بأسماعهم فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد؟ أو هل جعل لكم أحد أماناً؟» فقالوا: لا، فخلى سبيلهم فأنزل الله: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾ رواه النسائي [وسنده جيد].

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب من قريش، ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ ﴿هم الذين كفروا﴾ أي هم الكفار دون غيرهم ﴿وصدوكم عن المسجد الحرام﴾ أي أنتم أحق به وأنتم أهله في نفس الأمر ﴿والهدي معكوفاً أن يبلغ محله﴾ أي صدوا الهدي أن يصل إلى محله وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهديُ سبعين بدنة. وقوله: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾ أي بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من

قومهم، لكنا سَلَّطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل، ولهذا قال: ﴿لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة﴾ أي إثم وغرامة ﴿بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء﴾ أي يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام. ثم قال: ﴿لو تزيلوا﴾ أي لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ أي لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلاً ذريعاً.

وعن ابن عباس قال: لو تزيل الكفار من المؤمنين لعذبهم الله عذاباً أليماً بقتلهم إياهم.

وقوله: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وأبوا أن يكتبوا هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى﴾ وهي قول: «لا إله إلا الله»، وقال مجاهد: كلمة التقوى: الإخلاص، وقال عطاء بن أبي رباح: هي «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير». وقال المسور: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، وعن علي قال: «لا إله إلا الله والله اكبر، وكذا قال ابن عمر رضي الله عنهما، وقال ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله وهي رأس كل تقوى، وقال سعيد بن جبير: «لا إله إلا الله والجهاد في سبيله»، وقال عطاء الخراساني: هي لا إله إلا الله محمد رسول الله. وقال الزهري: بسم الله الرحمن الرحيم. وقال قتادة: «لا إله إلا الله».

﴿وكانوا أحق بها وأهلها﴾ كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾ أي هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر.

ذكر قصة الحديبية وقضية الصلح:

روى البخاري في كتاب الشروط من صحيحه [من طريق] معمر، أخبرني الزهري أخبرني عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يصدق كل واحد منهم حديث صاحبه، قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة، وبعث عيناً له من خزاعة وسار، حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك. فقال ﷺ: «أشيروا أيها الناس علي، أترون أن نميل على عيال وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟» وفي لفظ: «أترون أن نميل على ذراري هؤلاء الذين أعانوهم، فإن يأتونا كان الله قد قطع عنقاً من المشركين، وإلا تركناهم محزونين»، وفي لفظ «فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محروبين، وإن نجوا يكن عنقاً قطعها الله عز وجل. أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت، لا تريد قتل أحد

ولا حرباً، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه، وفي لفظ: فقال أبو بكر رضي الله عنه: الله ورسوله علم إنما جئنا معتمرين ولم نجيء لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذن» وفي لفظ «فامضوا على اسم الله تعالى» حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حل حل فألحت، فقالوا: خلأت القصواء خلأت القصواء. فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال ﷺ: والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها». ثم زجرها فوثبت فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس حتى نزحوه، وشكوا إلى رسول الله العطش، فانتزع ﷺ من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه.

فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال النبي ﷺ: «إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب، فأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره». قال بديل: سأبلغهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء. وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قاله رسول الله ﷺ فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهمونني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته. قالوا: ائته، فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ له نحواً من قوله لبديل بن ورقاء، فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإني والله لأرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: امصص بظر اللات أنحن نفر وندعه؟ قال: من ذا؟ قالوا أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته ﷺ، والمغيرة بن شعبة رضي الله

عنه قائم على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف وعليه المغفر، وكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ. فرفع عروة رأسه وقال: من هذا ؟ قال: المغيرة بن شعبة. قال: أي غدر ألست أسعى في غدرتك ؟ وكان المغيرة بن شعبة رضي الله عنه صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيماً له ﷺ فرجع عروة إلى أصحابه. فقال: أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

فقال رجل منهم من بني كنانة: دعوني آته. فقالوا: ائته. فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، قال النبي ﷺ: «هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له». فبعثت واستقبله الناس يلبون. فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص، فقال: دعوني آته. فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هذا مكرز وهو رجل فاجر» فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، وقال معمر: أخبرني أيوب عن عكرمة أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: «قد سهل لكم من أمركم» قال معمر قال الزهري في حديثه فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتاباً. فدعا النبي ﷺ بعلي رضي الله عنه وقال: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا باسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ «اكتب باسمك اللهم ـ ثم قال ـ هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله. فقال له النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله» قال الزهري: وذلك لقوله: «والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها» فقال له النبي ﷺ: على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به. فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب فقال سهيل: وعلى أن

لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا فقال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً ؟.

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي. فقال ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد» قال: فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً، فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي» قال: ما أنا بمجيز ذلك لك قال «بلى فافعل» قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله عز وجل. قال عمر رضي الله عنه: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت ألست نبي الله حقاً ؟ قال ﷺ: «بلى» قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال ﷺ: «بلى» قلت فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذاً ؟ قال ﷺ: «إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري» قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال ﷺ: «بلى أفأخبرتك أنا نأتيه العام ؟». قلت: لا . قال ﷺ: فإنك آتيه ومطوف به. قال: فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً ؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً ؟ قال: أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه، وهو ناصره فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق. قلت: أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت: لا . قال: فإنك تأتيه وتطوف به.

قال الزهري قال عمر رضي الله عنه: فعملت لذلك أعمالاً. قال فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا» قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ﷺ ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت له أم سلمة رضي الله عنها: يا نبي الله أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج رسول الله ﷺ، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات - حتى بلغ - بعصم الكوافر**﴾ [الممتحنة: ١٠]. فطلق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية.

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان

جيداً، فاستله الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت منه ثم جربت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذُعراً» فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله تعالى منهم. فقال النبي ﷺ: «ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر قال وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم وأنزل الله عز وجل: **﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة﴾** ـ حتى بلغ ـ **﴿حمية الجاهلية﴾** وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت. هكذا ساقه البخاري ههنا، وقد أخرجه في التفسير وفي عمرة الحديبية وفي الحج وغير ذلك ووقع في بعض الأماكن عن الزهري عن عروة عن مروان والمسور عن رجال من أصحاب النبي ﷺ بذلك وهذا أشبه والله أعلم، ولم يسقه أبسط من ههنا.

وروى البخاري عن أبي وائل قال: كنا بصفين، فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله، فقال علي بن أبي طالب: نعم، فقال سهل بن حنَيْف: اتهمُوا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية يعني الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، فجاء عمر رضي الله عنه فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ فقال: بلى. قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال ﷺ: «يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً» فرجع متغيظاً فلم يصبر حتى جاء أبا بكر رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً، فنزلت سورة الفتح. وقد رواه مسلم، وفي بعض ألفاظه: يا أيها الناس اتهموا الرأي فلقد رأيتني يوم أبي جندل، ولو أقدر على أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددته، وفي رواية: فنزلت سورة الفتح فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأها عليه.

وروى أحمد أيضاً عن عبد الله بن عباس قال: لما خرجت الحرورية اعتزلوا، فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلي رضي الله عنه: «اكتب يا علي هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك فقال رسول الله ﷺ: «امح يا علي اللهم إنك تعلم أني رسولك امح يا علي واكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله»

والله لرسول الله خير من علي وقد محا نفسه ولم يكن محوه ذلك يمحوه من النبوة أخرجت من هذه ؟ قالوا: نعم. ورواه أبو داود [وسنده جيد].

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾.

كان رسول الله ﷺ قد أُرِيَ في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل وقع في نفس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فقال له فيما قال أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال: «بلى أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟» قال لا ، قال النبي ﷺ: «فإنك آتيه ومطوف به» وبهذا أجاب الصديق رضي الله عنه أيضاً، ولهذا قال تعالى: ﴿**لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله**﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده وليس هذا من الإستثناء في شيء. وقوله: ﴿**آمنين**﴾ أي في حال دخولكم. وقوله: ﴿**محلقين رؤوسكم ومقصرين**﴾ حال مقدرة لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين وإنما كان هذا في ثاني الحال. كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين» قالوا والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ: «رحم الله المحلقين» قالوا والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ: «رحم الله المحلقين» قالوا والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ: «والمقصرين» في الثالثة أو الرابعة. [متفق عليه].

وقوله: ﴿**لا تخافون**﴾ حال مؤكدة في المعنى فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد. وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة. فأقام بها ذا الحجة والمحرم وخرج في صفر إلى خيبر، ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحاً، وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعري وأصحابه رضي الله عنهم، ولم يغب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دجانة سِمَاك بن خَرَشَة، كما هو مقرر في موضعه ثم رجع إلى المدينة.

فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج ﷺ إلى مكة معتمراً هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة وساق معه الهدي، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار أصحابه يلبون. فلما كان ﷺ قريباً من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه. فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من

وضع القتال عشر سنين، فذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قربها، كما شارطهم عليه. فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مِكْرَز بن حفص فقال: يا محمد ما عرفناك تنقض العهد، فقال ﷺ: «وما ذاك؟» قال «دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح. فقال ﷺ: «لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى يأجج». فقال: بهذا عرفناك بالبر والوفاء. وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه رضي الله عنهم غيظاً وحنقاً. وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان، فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يلبون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى، وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية.

وروى عبد الرزاق عن أنس بن مالك قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء مشى عبدالله بن رواحة بين يديه، وفي رواية: وابن رواحة آخذ بغرزه وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله قد نزل الرحمن في تنزيله بأن خير القتل في سبيله
يا رب إني مؤمن بقيله نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله
اليوم نضربكم على تأويله ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

وروى أحمد عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة وقد وهنتهم حمى يثرب ولقوا منها سوءاً، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب، ولقوا منها شراً، وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم. فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم هؤلاء أجلد من كذا وكذا. أخرجاه في الصحيحين.

وروى البخاري عن البراء قال: اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة، حتى قاضاهم على أن يقيموا بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضانا عليه محمد رسول الله، قالوا: لا نقر بهذا ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً، ولكن أنت محمد بن عبد الله. قال ﷺ: «أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله» ثم قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «امح رسول الله» قال: لا والله، لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب، فكتب: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله أن لا يدخل مكة بالسلاح إلا بالسيف في القراب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها».

فلما دخلها ومضى الأجل أتوا علياً فقالوا: قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة رضي الله عنه تنادي يا عم يا عم، فتناولها علي رضي الله عنه فأخذ بيدها وقال لفاطمة رضي الله عنها: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر رضي الله عنهم فقال علي رضي الله عنه: أنا أخذتها وهي ابنة عمي. وقال جعفر رضي الله عنه: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد رضي الله عنه: ابنة أخي، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال: «الخالة بمنزلة الأم» وقال لعلي رضي الله عنه: «أنت مني وأنا منك» وقال لجعفر رضي الله عنه «أشبهت خلقي وخلقي وقال ﷺ لزيد رضي الله عنه: «أنت أخونا ومولانا» قال علي: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ قال ﷺ: «إنها ابنة أخي من الرضاعة».

وقوله: ﴿**فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً**﴾ أي فعلم الله عز وجل من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿**فجعل من دون ذلك**﴾ أي قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ فتحاً قريباً، وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين. ثم قال تعالى مبشراً للمؤمنين بنصرة الرسول ﷺ على عدوه، وعلى سائر أهل الأرض: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق**﴾ أي بالعلم النافع والعمل الصالح، فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل ﴿**ليظهره على الدين كله**﴾ أي على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ﴿**وكفى بالله شهيداً**﴾ أي أنه رسوله وهو ناصره.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾﴾

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب فقال: ﴿**محمد رسول الله**﴾ وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿**والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ كما قال تعالى: ﴿**فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين**﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيماً براً بالأخيار، غضوباً عبوساً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة**﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»، وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً». وشبك ﷺ بين أصابعه، كلا الحديثين في الصحيح.

وقوله: ﴿تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ وصفهم بكثرة الصلاة وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل، والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه تعالى عنهم، وهو أكبر من الأول كما قال: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ [التوبة: ٧٢]. وقوله: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ قال ابن عباس: سيماهم في وجوههم يعني السمت الحسن. وقال مجاهد وغير واحد: يعني الخشوع والتواضع. وروى ابن أبي حاتم عن منصور عن مجاهد قال: الخشوع. قلت: ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه، فقال: ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون. وقال السدي: الصلاة تحسن وجوههم، وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار.

وقال أمير المؤمنين عثمان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه، والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله عز وجل ظاهره للناس، كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته.

فالصحابة رضي الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم. وقال مالك رحمه الله: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا، وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة، ولهذا قال هاهنا: ﴿ذلك مثلهم في التوراة﴾، ثم قال: ﴿و مثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه﴾ أي فراخه ﴿فآزره﴾ أي شده ﴿فاستغلظ﴾ أي شب وطال، ﴿فاستوى على سوقه يعجب الزراع﴾ أي فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾.

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله في رواية عنه، بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم ومن غاظه الصحابة فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلك، والأحاديث في فضل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم. ثم قال: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم﴾ «من» هذه لبيان الجنس ﴿مغفرة﴾ أي لذنوبهم. ﴿وأجراً عظيماً﴾ أي ثواباً جزيلاً ورزقاً كريماً، ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل. روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق

مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه».

تفسير سورة الحجرات وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)﴾.

هذه آداب أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله﴾** أي لا تسارعوا في الأشياء بين يديه أي قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور.

قال ابن عباس: **﴿لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾** لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة، وعنه: نهى أن يتكلموا بين يدي كلامه، وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه. وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم. وقال سفيان الثوري: **﴿لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾** بقول ولا فعل. وقال الحسن البصري: لا تدعوا قبل الإمام. وقال قتادة: ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون لو أنزل في كذا كذا وكذا، لو صنع كذا، فكره الله تعالى ذلك وتقدم فيه. **﴿واتقوا الله﴾** أي فيما أمركم به **﴿إن الله سميع﴾** أي لأقوالكم **﴿عليم﴾** بنياتكم.

وقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾** هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته،(وقد روى البخاري عن ابن أبي ملكية أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن مَعْبد، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾** حتى انقضت الآية **﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم﴾** الآية. [وفي رواية] قال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه)

وروى البخاري [أيضا] عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده في بيته مُنَكِّساً رأسه فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حبط عمله فهو من أهل النار. فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، فقال: «اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار ولكن من أهل الجنة».

وروى الإمام أحمد [نحوه وزاد] قال أنس رضي الله عنه: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن

نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفنه فقال: بئسما تُعوّدون أقرانكم. فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه. [وإسناده صحيح].

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك، فقد نهى الله عز وجل عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله،(وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال: من أين أنتما ؟ قالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً. [رواه البخاري]. وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام، لأنه محترم حياً وفي قبره ﷺ دائماً) ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم، ولهذا قال: ﴿**ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض**﴾، كما قال: ﴿**لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً**﴾ [النور: ٦٣].

وقوله: ﴿**أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون**﴾ أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده، خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري كما جاء في الصحيح: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يُلقي لها بالاً يكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يُلقي لها بالاً يَهْوِي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض». ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك، وأرشد إليه، ورغب فيه، فقال: ﴿**إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى**﴾ أي أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحلاً ﴿**لهم مغفرة وأجر عظيم**﴾.

(وروى الإمام أحمد في كتاب الزهد عن مجاهد قال: كُتب إلى عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية، ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها فكتب عمر: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿**أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم**﴾)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾.

ثم إنه تعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهي بيوت نسائه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فقال: ﴿**أكثرهم لا يعقلون**﴾. ثم أرشد إلى الأدب في ذلك فقال: ﴿**ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم**﴾ أي لكان لهم في ذلك الخِيْرَة والمصلحة في الدنيا والآخرة. ثم قال داعياً لهم إلى التوبة والإنابة: ﴿**والله غفور رحيم**﴾. وقد ذُكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي فيما أورده غير واحد.

روى ابن جرير عن البراء في قوله: ﴿**إن الذين ينادونك من وراء الحجرات**﴾ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إن حمدي زين وذمي شين، فقال ﷺ: «ذاك الله عز وجل» [وإسناده صحيح] وهكذا ذكره الحسن البصري وقتادة مرسلاً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨ ﴾.

يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق لئلا يحكم بقوله، فيكون في نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال، وقد قررنا هذه المسألة في كتاب العلم من شرح البخاري ولله الحمد والمنة. وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق.

كذا ذكر غير واحد من السلف منهم ابن أبي ليلى ويزيد بن رومان والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغيرهم في هذه الآية أنها أنزلت في الوليد بن عقبة، والله أعلم.

وقوله: ﴿**واعلموا أن فيكم رسول الله**﴾ أي اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿**النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم**﴾ [الأحزاب:٦]. ثم بين أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم، فقال: ﴿**لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم**﴾ أي لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحَرَجكم، كما قال تعالى: ﴿**ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون**﴾ [المؤمنون:٧١]. وقوله: ﴿**ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم**﴾ أي حببه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم.

﴿**وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان**﴾ أي وبغض إليكم الكفر والفسوق وهي الذنوب الكبار والعصيان، وهي جميع المعاصي وهذا تدريج لكمال النعمة، وقوله: ﴿**أولئك هم الراشدون**﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم.

وفي الحديث المرفوع: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» [رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح]. ثم قال: ﴿**فضلاً من الله ونعمة**﴾ أي هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، ﴿**والله عليم حكيم**﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً بالإصلاح بين الفئتين الباغين بعضهم على بعض: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما**﴾ فسماهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم، وهكذا ثبت في صحيح البخاري عن أبي بكرة قال: إن رسول الله ﷺ خطب يوماً، ومعه على المنبر الحسن بن علي رضي الله عنهما، فجعل ينظر إليه مرة، وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين». فكان كما قال ﷺ، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة، والواقعات المهولة. وقوله: ﴿**فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله**﴾ أي حتى ترجع إلى أمر الله، وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت في الصحيح عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال ﷺ: «تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه».

وروى الإمام أحمد أن أنساً قال: قيل للنبي ﷺ، لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه النبي ﷺ، وركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سبخة، فلما انطلق النبي ﷺ إليه قال: «إليك عني فوالله لقد آذاني ريح حمارك» فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما**﴾ ورواه البخاري ومسلم.

وقوله: ﴿**فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا**﴾ أي اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط وهو العدل ﴿**إن الله يحب المقسطين**﴾.

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وماولوا». ورواه مسلم.

وقوله: ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾ أي الجميع إخوة في الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه». [متفق عليه]، وفي صحيح [مسلم]: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه». والأحاديث في هذا كثيرة، وفي الصحيح: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له

سائر الجسد بالحمى والسهر». وفي الصحيح أيضاً: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً». وشبك بين أصابعه ﷺ.

وروى أحمد عن سهل بن سعد الساعدي عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس». تفرد به أحمد ولا بأس بإسناده.

وقوله: ﴿**فأصلحوا بين أخويكم**﴾ يعني الفئتين المقتتلتين ﴿**واتقوا الله**﴾ أي في جميع أموركم ﴿**لعلكم ترحمون**﴾ وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ ﴾.

ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في صحيح [مسلم] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكِبْر بطر الحق وغَمْص الناس» ويروى: «وغمط الناس». والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام فإنه قد يكون المحتقَر أعظم قدراً عند الله تعالى، وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له، ولهذا قال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن**﴾ فنص على نهي الرجال، وعطف بنهي النساء. وقوله: ﴿**ولا تلمزوا أنفسكم**﴾ أي لا تلمزوا الناس. والهماز اللماز من الرجال مذموم ملعون كما قال تعالى: ﴿**ويل لكل همزة لمزة**﴾ [الهمزة:١]، والهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال: ﴿**هماز مشاء بنميم**﴾ [القلم:١١] أي يحتقر الناس ويهمزهم طاعناً عليهم ويمشي بينهم بالنميمة وهي اللمز بالمقال، ولهذا قال ههنا: ﴿**ولا تلمزوا أنفسكم**﴾ كما قال: ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم**﴾ [النساء:٢٩] أي لا يقتل بعضكم بعضاً.

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل بن حيان: أي لا يطعن بعضكم على بعض، وقوله: ﴿**ولا تنابزوا بالألقاب**﴾ أي لا تداعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها.

(روى الإمام أحمد عن أبي جبيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة ﴿**ولا تنابزوا بالألقاب**﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعِيَ واحداً منهم باسم من تلك الأسماء، قالوا: يا رسول الله إنه يغضب من هذا، فنزلت ﴿**ولا تنابزوا بالألقاب**﴾. [ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح])

وقوله: ﴿**بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان**﴾ أي بئس الصفة والاسم الفسوق. وهو التنابز بالألقاب كما كان أهل الجاهلية يتناعتون بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه ﴿**ومن لم يتب**﴾ أي من هذا ﴿**فأولئك هم الظالمون**﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ

أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله، لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، فليتجنب كثير منه احتياطاً، وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً. [رواه الإمام أحمد في الزهد].

وروى مالك عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولاتحسسوا، ولا تنافسوا ولاتحاسدوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً». رواه البخاري.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام». رواه مسلم.

وروى أبو داود عن زيد قال: أُتِيَ ابن مسعود رضي الله عنه برجل، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمراً، فقال عبد الله رضي الله: قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به.

(وعن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم، أو كدت أن تفسدهم» فقال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها، رواه أبو داود. [وسنده صحيح]).

وروى أبو داود أيضاً عن المقدام بن معد يكرب وأبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم» [وسنده صحيح]. وقوله: ﴿**ولا تجسسوا**﴾ أي على بعضكم بعضاً(والتجسس غالباً يطلق في الشر ومنه الجاسوس. وأما التحسس فيكون غالباً في الخير، كما قال عز وجل إخباراً عن يعقوب أنه قال: ﴿**يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله**﴾ وقد يستعمل كل منهما في الشر كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً». وقال الأوزاعي: التجسس البحث عن الشيء. والتحسس الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون أو يتسمع على أبوابهم)

وقوله: ﴿**ولا يغتب بعضكم بعضاً**﴾ فيه نهي عن الغيبة، وقد فسرها الشارع كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة قال: قيل يا رسول الله ما الغيبة؟ قال ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال ﷺ: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته». ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

وروى أبو داود عن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ حسبك من صفية كذا وكذا. تعني قصيرة، فقال ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مُزِجَتْ بماء البحر لمزجته» قالت: وحكيت له إنساناً فقال ﷺ:

«ما أحب أني حكيت إنساناً وإن لي كذا وكذا». ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا من رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والنصيحة كقوله ﷺ، لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «ائذنوا له بئس أخو العشيرة» [رواه البخاري]، وكقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس، وقد خطبها معاوية وأبو الجهم: «أما معاوية فصعلوك، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه» [رواه مسلم]، وكذا ما جرى مجرى ذلك، ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد، ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت، كما قال عز وجل: ﴿**أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه**﴾ أي كما تكرهون هذا طبعاً، فاكرهوا ذاك شرعاً، فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها والتحذير منها، كما قال ﷺ في العائد في هبته: «كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه»، وقد قال: «ليس لنا مثل السوء» [متفق عليه]. وثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه ﷺ قال في خطبة حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا».

وروى أبو يعلى في مسنده عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها - أو قال - في خدورها، فقال: يا معشر من آمن بلسانه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته». [قال الهيثمي: رجاله ثقات].

وقوله: ﴿**واتقوا الله**﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبوه في ذلك واخشوا منه، ﴿**إن الله تواب رحيم**﴾ أي تواب على من تاب إليه، رحيم بمن رجع إليه، واعتمد عليه (قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك ويعزم على ألا يعود. وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذي اغتابه. وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله فإنه إذ أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه فطريقه إذا أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، فتكون تلك بتلك).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوباً، وهي أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك. فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ، ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً، منبهاً على تساويهم في البشرية ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا**﴾ أي ليحصل التعارف بينهم كل يرجع

إلى قبيلته، وقال مجاهد في قوله: ﴿لتعارفوا﴾ كما يقال فلان بن فلان من كذا وكذا أي من قبيلة كذا وكذا.

وقوله: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ أي إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى لا بالأحساب، وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ: روى البخاري عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني»؟ قالوا: نعم. قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا». وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

وقوله: ﴿**إن الله عليم خبير**﴾ أي عليم بكم خبير بأموركم، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله، وقد استدل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، لقوله: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ وذهب الآخرون إلى أدلة مذكورة في كتب الفقه، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في (كتاب الأحكام) ولله الحمد والمنة.

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

يقول تعالى منكراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: ﴿**قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم**﴾. وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل عليه الصلاة والسلام حين سأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه. وروى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال: أعطى رسول الله ﷺ رجالاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً، فقال سعد: يا رسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن، فقال النبي ﷺ: أو مسلم؟ حتى أعادها سعد ثلاثاً والنبي ﷺ يقول: أو مسلم؟ ثم قال النبي ﷺ: «إني لأعطي رجالاً وأدع من هو أحب إليّ منهم فلا أعطيه شيئاً، مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم». أخرجاه في الصحيحين. فقد فرق النبي ﷺ بين المؤمن

والمسلم، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام، وقد قررنا ذلك بأدلته في أول شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري ولله الحمد والمنة. ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً لأنه تركه من العطاء، ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه فأدبوا في ذلك، وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة واختاره ابن جرير. وإنما قلنا هذا لأن البخاري رحمه الله ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك.

وقد روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد أنهم قالوا في قوله: ﴿**ولكن قولوا أسلمنا**﴾ أي استسلمنا خوف القتل والسبي. قال مجاهد: نزلت في بني أسد بن خزيمة. وقال قتادة: نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ. والصحيح الأول أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما ذكر المنافقون في سورة براءة، وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿**قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم**﴾ أي لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد.

ثم قال: ﴿**وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً**﴾ أي لا ينقصكم من أجوركم شيئاً كقوله: ﴿**وما ألتناهم من عملهم من شيء**﴾ [الطور: ٢١].

وقوله: ﴿**إن الله غفور رحيم**﴾ أي لمن تاب إليه وأناب. وقوله: ﴿**إنما المؤمنون**﴾ أي إنما المؤمنون الكُمَّل ﴿**الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا**﴾ أي لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، هي التصديق المحض، ﴿**وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله**﴾ أي وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه، ﴿**أولئك هم الصادقون**﴾ أي في قولهم إذا قالوا إنهم مؤمنون، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة.

وقوله: ﴿**قل أتعلمون الله بدينكم**﴾ أي أتخبرونه بما في ضمائركم ﴿**والله يعلم ما في السموات وما في الأرض**﴾ أي لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿**والله بكل شيء عليم**﴾. ثم قال تعالى: ﴿**يمنون عليك أن أسلموا**﴾ يعني الأعراب الذين يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ﷺ، يقول الله تعالى رداً عليهم: ﴿**قل لا تمنوا علي إسلامكم**﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ولله المنة عليكم فيه، ﴿**بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين**﴾ أي في دعواكم ذلك كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟». كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن. [رواه البخاري].

ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات فقال: ﴿**إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعلمون**﴾.

تفسير سورة ق وهي مكية.

هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح وقيل من الحجرات. وأما ما يقوله العوام: إنه من (عمّ) فلا أصل له ولم يقله أحد من العلماء المعتبرين فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل ما رواه أبو داود في سننه باب تحزيب القرآن عن أوس بن حذيفة قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف، وكان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا، فلما كانت ليلة أبطأ عنا ﷺ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت علينا الليلة، قال ﷺ: «إنه طرأ علي حزبي من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أتمه». قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده، ورواه ابن ماجه وأحمد [وسنده حسن].

إذا علم هذا فإذا عددت ثمانياً وأربعين سورة، فالتي بعدهن سورة ق. بيانه ثلاث: البقرة وآل عمران والنساء. وخمس: المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة. وسبع: يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل. وتسع: سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والم السجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس. وثلاث عشرة: الصافات وص والزمر وغافر وحم السجدة وحم عسق والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة رضي الله عنهم. فتعين أن أوله سورة ق. وهو الذي قلنا ولله الحمد والمنة.

روى الإمام أحمد أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد؟ قال: بقاف، واقتربت. ورواه مسلم. وروى أحمد عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تنّورنا وتنور النبي ﷺ واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿**ق والقرآن المجيد**﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ، وكان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس. رواه مسلم.

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار، كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور، والمعاد والقيام والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب والترغيب والترهيب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ
رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ

أَمۡرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

﴿ق﴾: حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور، كقوله: «ص ـ ن ـ الم ـ حم ـ طس» ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره وقد أسلفنا الكلام عليها في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿**والقرآن المجيد**﴾ أي الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. واختلفوا في جواب القسم ما هو؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله: ﴿**قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ**﴾. وفي هذا نظر بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد وتقريره وتحقيقه، وإن لم يكن القسم متلقي لفظاً، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله: ﴿**ص والقرآن ذي الذكر. بل الذين كفروا في عزة وشقاق**﴾ [ص:١ـ٢]، وهكذا قال ههنا: ﴿**ق والقرآن المجيد. بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب**﴾ أي تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر، كقوله: ﴿**أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس**﴾ [يونس:٢] أي وليس هذا بعجيب فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس.

ثم قال مخبراً عنهم في عجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه: ﴿**أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد**﴾ أي يقولون أئذا متنا وبَلينا، وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿**ذلك رجع بعيد**﴾ أي بعيد الوقوع. والمعنى: أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه. قال الله تعالى رداً عليهم: ﴿**قد علمنا ما تنقص الأرض منهم**﴾ أي ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين صارت؟ ﴿**وعندنا كتاب حفيظ**﴾ أي حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة. عن ابن عباس في قوله: ﴿**قد علمنا ما تنقص الأرض منهم**﴾ أي ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم، وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم. ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد، فقال: ﴿**بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج**﴾ أي وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل. والمريج: المختلف المضطرب الملتبس، كقوله تعالى: ﴿**إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك**﴾ [الذاريات:٨ـ٩].

﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ
وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ
ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه: ﴿**أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها**﴾ أي بالمصابيح ﴿**وما لها من**

فروج﴾ قال مجاهد: يعني من شقوق، وقال غيره: فتوق، وقال غيره: صدوع، والمعنى متقارب كقوله تعالى: ﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ [الملك:٣-٤] أي كليل عن أن يرى عيباً أو نقصاً. وقوله: ﴿والأرض مددناها﴾ أي وسّعناها وفرشناها، ﴿وألقينا فيها رواسي﴾ وهي الجبال لئلا تميد بأهلها وتضطرب، ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ أي من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع، ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ [الذاريات:٤٩]، وقوله: ﴿بهيج﴾ أي حسن نضر، ﴿تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾ أي ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل الله فيهما من الآيات العظيمة تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، أي خاضع خائف رَجَّاع إلى الله عز وجل.

وقوله: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً﴾ أي نافعاً ﴿فأنبتنا به جنات﴾ أي حدائق من بساتين ونحوها، ﴿وحب الحصيد﴾ وهو الزرع الذي يراد لحبه وادخاره. ﴿والنخل باسقات﴾ أي طوالاً شاهقات، قال ابن عباس والحسن والسدي وغيرهم: الباسقات الطوال. ﴿لها طلع نضيد﴾ أي منضود. ﴿رزقاً للعباد﴾ أي للخلق ﴿وأحيينا به بلدة ميتا﴾ وهي الأرض التي كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت، كذلك يحيي الله الموتى. وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث، كقوله تعالى: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ [غافر:٥٧].

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

يقول تعالى مهدداً لكفار قريش، بما أحله بأشباههم من المكذبين قبلهم، من النقمات والعذاب الأليم في الدنيا كقوم نوح وما عذبهم الله تعالى به من الغرق العام لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرس وقد تقدمت قصتهم في سورة الفرقان ﴿وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط﴾ وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور، وكيف خسف الله تعالى بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق، ﴿وأصحاب الأيكة﴾ وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿وقوم تبع﴾ وهو اليماني.

﴿كل كذب الرسل﴾ أي كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسوله، ومن كذب رسولاً فكأنما كذب جميع الرسل، كقوله: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ [الشعراء:١٠٥]، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم، ﴿فحق وعيد﴾ أي فحق عليهم ما أوعدهم الله تعالى على التكذيب من العذاب والنكال، فليحذر المخاطبون أن

يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك. وقوله تعالى: ﴿أفعيينا بالخلق الأول﴾ أي أفعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة، ﴿بل هم في لبس من خلق جديد﴾ والمعنى أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ [الروم:٢٧]، وقال الله تعالى: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشاها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ [يس:٧٨-٧٩]، وفي الصحيح: «يقول الله تعالى يؤذيني ابن آدم، يقول: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته».

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعلمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل».(وقوله: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ يعني ملائكته تعالى أقربُ إلى الإنسان من حبل وريده إليه، ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد وإنما قال: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ كما قال في المحتضر ﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾ [الواقعة:٨٥] يعني ملائكته، وكما قال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر:٩] فالملائكة نزلت بالذكر وهو القرآن بإذن الله عز وجل، وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله جل وعلا لهم على ذلك) فللملك لَمّة من الإنسان كما أن للشيطان لمة، وكذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق [رواه البخاري]، ولهذا قال ههنا: ﴿إذ يتلقى المتلقيان﴾ يعني الملكين الذين يكتبان عمل الإنسان. ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ أي مترصد ﴿ما يلفظ﴾ أي ابن آدم ﴿من قول﴾ أي ما يتكلم بكلمة ﴿إلا لديه رقيب عتيد﴾ أي إلا ولها من يرقبها معد لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين. كراماً كاتبين. يعلمون ما تفعلون﴾ [الانفطار:١٠-١٢]. وقد اختلف العلماء هل يكتب الملك كل شيء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس، فعلى قولين وظاهر الآية الأول لعموم قوله: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾.

وروى الإمام أحمد عن علقمة الليثي عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه». فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث، ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح وله شاهد في الصحيح. [من حديث أبي هريرة].

وقال الأحنف بن قيس: صاحب اليمين يكتب الخير، وهو أمير على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال له أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها، وإن أبى كتبها، رواه ابن أبي حاتم. وقال الحسن البصري ـ وتلا هذه الآية ـ: يا ابن آدم بُسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: ﴿**وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً**﴾ [الإسراء:١٣ـ١٤] ثم يقول: عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك.

(وقال ابن عباس: ﴿**ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**﴾ قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى أنه ليكتب قوله: أكلت شربت ذهبت جئت رأيت، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقي سائره، وذلك قوله: ﴿**يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب**﴾ [الرعد:٣٩]) وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه فبلغه عن طاوس أنه قال يكتب الملك كل شيء حتى الأنين. فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله.

وقوله: ﴿**وجاءت سكرة الموت بالحق**﴾ يقول عز وجل: وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق، أي كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه، ﴿**ذلك ما كنت منه تحيد**﴾ أي هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك فلا محيد ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص.

وقد اختلف المفسرون في المخاطب بقوله: ﴿**وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد**﴾ فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو، وقيل: الكافر، وقيل غير ذلك.

روى ابن أبي الدنيا وابن جرير أنه لما ثقل أبو بكر رضي الله عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال رضي الله عنه: ليس كذلك، ولكن قولي: ﴿**وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد**﴾ وقد أوردت لهذا الأثر طرقاً كثيرة في سيرة الصديق رضي الله عنه

عند ذكر وفاته، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سبحان الله إن للموت لسكرات» وفي قوله: ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ قولان: **أحدهما**: أن «ما» ههنا موصولة، أي الذي كنت منه تحيد بمعنى تبتعد وتنأى وتفر قد حل بك ونزل بساحتك. **والقول الثاني**: أن «ما» نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه.

وقوله: ﴿ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد﴾. قد تقدم الكلام على حديث النفخ في الصور للفزع والصعق والبعث، وذلك يوم القيامة [الزمر:٦٨]. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له» قالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال ﷺ: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل» فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل. [أخرجه أبويعلى وابن حبان بسند صحيح].

﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ أي ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله. هذا هو الظاهر من الآية الكريمة، وهو اختيار ابن جرير ثم روي من حديث يحيى بن رافع مولى لثقيف قال: سمعت عثمان بن عفان يخطب فقرأ هذه الآية: ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ فقال: سائق يسوقها إلى الله، وشاهد يشهد عليها بما عملت. وكذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد، وعن أبي هريرة: السائق: الملك، والشهيد العمل، وكذلك قال الضحاك والسدي. وعن ابن عباس: السائق من الملائكة والشهيد الإنسان نفسه، يشهد على نفسه. وبه قال الضحاك أيضاً.

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ أحدها: أن المراد بذلك الكافر، قاله ابن عباس، وبه يقول الضحاك وصالح بن كيسان. **والثاني**: أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر، لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة، والدنيا كالمنام، وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله عن ابن عباس. **والثالث**: أن المخاطب بذلك النبي ﷺ وبه يقول زيد بن أسلم وابنه، والمعنى على قولهما: لقد كنت في غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك فبصرك اليوم حديد. والظاهر من السياق خلاف هذا بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾ يعني من هذا اليوم ﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ أي قوي، لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصراً حتى الكفار في الدنيا، يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك، قال الله تعالى: ﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾ [مريم:٣٨].

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ

قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم: أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ويقول: ﴿**هذا ما لدي عتيد**﴾ أي معد محضر بلا زيادة ولا نقصان. وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق، يقول ابن آدم الذي وكلتني به قد أحضرته.(وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة، فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل فيقول: ﴿**ألقيا في جهنم كل كفار عنيد**﴾.

والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم، وبئس المصير) ﴿**ألقيا في جهنم كل كفار**﴾ أي كثير الكفر والتكذيب بالحق، ﴿**عنيد**﴾ معاند للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك. ﴿**مناع للخير**﴾ أي لا يؤدي ما عليه من الحقوق ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة، ﴿**معتد**﴾ أي فيما ينفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد. وقال قتادة: معتد في منطقه وسيرته وأمره. ﴿**مريب**﴾ أي شاك في أمره مريب لمن نظر في أمره ﴿**الذي جعل مع الله إلهاً آخر**﴾ أي أشرك بالله فعبد معه غيره ﴿**فألقياه في العذاب الشديد**﴾.

﴿**قال قرينه**﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم: هو الشيطان الذي وكل به ﴿**ربنا ما أطغيته**﴾ أي يقول عن الإنسان الذي قد أوفى القيامة كافراً يتبرأ منه شيطانه فيقول: ﴿**ربنا ما أطغيته**﴾ أي ما أضللته ﴿**ولكن كان في ضلال بعيد**﴾ أي بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق، كما أخبر تعالى في الآية الأخرى في قوله: ﴿**وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم ولا أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم**﴾ [إبراهيم:٢٢]. وقوله: ﴿**قال لا تختصموا لدي**﴾ يقول الرب عز وجل للإنسي وقرينه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق، فيقول الإنسي يا رب هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني. ويقول الشيطان: ﴿**ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد**﴾ أي عن منهج الحق، فيقول الرب عز وجل لهما: ﴿**لا تختصموا لدي**﴾ أي عندي ﴿**وقد قدمت إليكم بالوعيد**﴾ أي قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين ﴿**ما يبدل القول لدي**﴾ قال مجاهد: يعني قد قضيت ما أنا قاض ﴿**وما أنا بظلام للعبيد**﴾ أي لست أعذب أحداً إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه.

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت ؟ وذلك أنه تبارك وتعالى وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه وتعالى يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقى وهي تقول: هل من مزيد أي هل بقي شيء تزيدوني ؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية وعليه تدل الأحاديث. روى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط، وعزتك وكَرَمِك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقاً آخر فيسكنهم في فضول الجنة» [رواه مسلم، ورواه البخاري مختصراً].

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تحاجت الجنة والنار، فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم. قال الله عز وجل للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع رجله، فتقول: قط قط فهنالك تمتلىء وينزوي بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله ينشىء لها خلقاً آخر».

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾** قال: ما امتلأت، قال: تقول: وهل من مكان يزاد فيّ، وكذا عن عكرمة **﴿وتقول هل من مزيد﴾** وهل في مدخل واحد قد امتلأت. وعن مجاهد قال: لا يزال يقذف فيها حتى تقول: امتلأت فتقول: هل من مزيد؟ وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو هذا. فعند هؤلاء أن قوله تعالى: **﴿هل امتلأت﴾** إنما هو بعدما يضع عليهاقدمه، فتنزوي وتقول حينئذ هل بقي في مزيد يسع شيئاً ؟ وعن ابن عباس: وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة، والله أعلم.

وقوله: **﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾** قال قتادة وأبو مالك والسدي: **﴿وأزلفت﴾** أدنيت وقربت من المتقين، **﴿غير بعيد﴾** وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد لأنه واقع لا محالة وكل ما هو آت قريب. **﴿هذا ما توعدون لكل أواب﴾** أي رجاع تائب مقلع، **﴿حفيظ﴾** أي يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه، وقال عبيد بن عمير: الأواب الحفيظ الذي لا يجلس مجلساً فيقوم حتى يستغفر الله عز وجل. **﴿من خشي الرحمن بالغيب﴾** أي من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله، كقوله ﷺ: «ورجل ذكر الله تعالى خالياً، ففاضت عيناه» [متفق عليه]. **﴿وجاء بقلب منيب﴾** أي ولقي الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه **﴿ادخلوها﴾** أي الجنة **﴿بسلام﴾** قال قتادة: سلموا من عذاب الله، وسلم عليهم ملائكة الله. وقوله: **﴿ذلك يوم الخلود﴾** أي يخلدون في الجنة فلا يموتون أبداً، ولا يظعنون أبداً، ولا يبغون عنها حولاً. وقوله: **﴿لهم ما يشاءون فيها﴾** أي مهما اختاروا وجدوا، من أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم.

روى ابن أبي حاتم عن كثير بن مُرَّة قال: من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ماذا تريدون فأمطره لكم؟ فلا يدعون بشيء إلا أمطرتهم. قال كثير: لئن أشهدني الله تعالى ذلك لأقولن أمطرينا جواري مزينات.

وقوله: ﴿ولدينا مزيد﴾، كقوله: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ [يونس:٢٦]. وفي صحيح مسلم عن صهيب بن سنان الرومي أنها النظر إلى وجه الله الكريم.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾.

يقول تعالى: وكم أهلكنا قبل هؤلاء المنكرين ﴿من قرن هم أشد منهم بطشاً﴾ أي كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وأثاروا الأرض وعمروهاأكثر مما عمروها، ولهذا قال ههنا: ﴿فنقبوا في البلاد هل من محيص﴾ قال ابن عباس: أثروا فيها. وقال مجاهد: ضربوا في الأرض. وقال قتادة: فساروا في البلاد. أي ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم بها، ويقال لمن طوف في البلاد: نقب فيها.

وقوله: ﴿هل من محيص﴾ أي هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره، وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل، فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص. وقوله: ﴿إن في ذلك لذكرى﴾ أي لعبرة ﴿لمن كان له قلب﴾ أي لبٌّ يَعِي به. وقال مجاهد: عقل ﴿أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ أي استمع الكلام فوعاه، وتعقله بعقله. وقال مجاهد: ﴿أو ألقى السمع﴾ يعني لا يحدث نفسه في هذا بغيره، ﴿وهو شهيد﴾ وقال: شاهد القلب. وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه: إذا استمع بأذنيه، وهو شاهد بقلب غير غائب. وهكذا قال الثوري وغير واحد. وقوله: ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ فيه تقرير المعاد، لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن، قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى، وقال قتادة: قالت اليهود ـ عليهم لعائن الله ـ: خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه: ﴿وما مسنا من لغوب﴾ أي من إعياء ولا تعب ولا نصب، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بل إنه على كل شيء قدير﴾ [الأحقاف:٣٣].

وقوله: ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ يعني: المكذبين، اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلاً، ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾ وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء

ثنتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. [كما سيأتي في تفسير المزمل].

وروى الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون فيه، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا». ثم قرأ: ﴿**وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب**﴾ ورواه البخاري.

وقوله: ﴿**ومن الليل فسبحه**﴾ أي فصل له كقوله: ﴿**ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً**﴾ [الإسراء:٧٩]. ﴿**وأدبار السجود**﴾ قال ابن عباس: هو التسبيح بعد الصلاة. ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، فقال النبي ﷺ: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق. قال ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين» قال: فقالوا يا رسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله. فقال ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء». والقول الثاني: أن المراد بقوله تعالى: ﴿**وأدبار السجود**﴾ هما الركعتان بعد المغرب وروي ذلك عن عمر وعلي وابنه الحسن وابن عباس وأبي هريرة وأبي أمامة رضي الله عنهم وبه يقول مجاهد وعكرمة والشعبي والنخعي والحسن وقتادة وغيرهم.

﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**واستمع**﴾ يا محمد ﴿**يوم يناد المناد من مكان قريب**﴾ قال كعب الأحبار: يأمر الله تعالى ملكاً أن ينادي على صخرة بيت المقدس أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة، إن الله تعالى يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. ﴿**يوم يسمعون الصيحة بالحق**﴾ يعني النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون. ﴿**ذلك يوم الخروج**﴾ أي من الأجداث ﴿**إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير**﴾ أي هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وإليه مصير الخلائق كلهم، فيجازي كلاً بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وقوله: ﴿**يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً**﴾ وذلك أن الله عز وجل ينزل مطراً من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها، كما ينبت الحب في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله

إسرافيل فينفخ في الصور وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ وتنشق الأرض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سراعاً، مبادرين إلى أمر الله عز وجل، ﴿**مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر**﴾ [القمر:٨]، وقال تعالى: ﴿**يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً**﴾ [الإسراء:٥٢]، وفي صحيح مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض»، وقوله: ﴿**ذلك حشر علينا يسير**﴾ أي تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا، كما قال تعالى: ﴿**وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر**﴾ [القمر:٥٠]. وقال تعالى: ﴿**ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير**﴾ [لقمان:٢٨]. وقوله: ﴿**نحن أعلم بما يقولون**﴾ أي نحن علمُنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهولنك ذلك كقوله: ﴿**ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾ [الحجر:٩٧-٩٩]. وقوله تعالى: ﴿**وما أنت عليهم بجبار**﴾ أي ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مماكلفت به. وقال مجاهد وقتادة والضحاك: ﴿**وما أنت عليهم بجبار**﴾ أي لا تتجبر عليهم. والقول الأول أولى، ولو أراد ما قالوه لقال: ولا تكن جباراً عليهم، وإنما قال: ﴿**وما أنت عليهم بجبار**﴾ بمعنى وما أنت بمجبرهم على الإيمان إنما أنت مبلغ. وقال الفراء: سمعت العرب تقول: جبر فلان فلاناً على كذا بمعنى أجبره، ثم قال تعالى: ﴿**فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**﴾ أي بلغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده، كقوله تعالى: ﴿**فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب**﴾ [الرعد:٤٠]، وقوله: ﴿**فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر**﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]. ﴿**إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء**﴾ [القصص:٥٦]، ولهذا قال ههنا: ﴿**وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**﴾ كان قتادة يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعودك يابر يارحيم.

تفسير سورة الذاريات وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ
لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ
سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى، ولا عن سنة عن رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك، فقام إليه ابن الكواء، فقال: يا أمير المؤمنين ما معنى قوله تعالى: ﴿**والذاريات ذرواً**﴾ قال علي رضي الله عنه:

الريح، قال: ﴿فالحاملات وقراً﴾ قال: السحاب، قال: ﴿فالجاريات يسراً﴾ قال: السفن، قال: ﴿فالمقسمات أمراً﴾ قال: الملائكة.

وقد روي الحافظ أبو بكر البزار عن سعيد بن المسيب قال: جاء صَبِيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، فأخبرني عن الذاريات ذرواً، فقال: هي الرياح، قال: فأخبرني عن المقسمات أمراً، قال: هي الملائكة، قال: فأخبرني عن الجاريات يسراً قال: هي السفن. ثم أمر بضربه فضرب مائة وجعل في بيت، فلما برأ دعا به فضربه مائة أخرى وحمله علىٰ قَتَب وكتب إلى أبي موسى الأشعري: امنع الناس من مجالسته، فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى رضي الله عنه، فحلف بالأيمان المغلظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئاً، فكتب في ذلك إلى عمر رضي الله عنه، فكتب عمر: ما إخاله إلا قد صدق فخل بينه وبين مجالسة الناس.

وهكذا فسرها ابن عباس وابن عمر، والحسن وقتادة والسدي وغير واحد، ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك. وقد قيل: إن المراد بالذاريات الريح كما تقدم، وبالحاملات وقراً السحاب كما تقدم، لأنها تحمل الماء. فأما الجاريات يسراً فالمشهور عن الجمهور كما تقدم أنها السفن، تجري ميسرة في الماء جرياً سهلاً، وقال بعضهم: هي النجوم تجري يسراً في أفلاكها ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمراً الملائكة فوق ذلك تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية، وهذا قسم من الله عز وجل على وقوع المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿إنما توعدون لصادق﴾ أي لخبر صدق ﴿وإن الدين﴾ وهو الحساب ﴿لواقع﴾ أي لكائن لا محالة.

ثم قال: ﴿والسماء ذات الحبك﴾ قال ابن عباس: ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء، وكذا قال مجاهد والسدي وقتادة وغيرهم. وقال الضحاك والمنهال بن عمرو وغيرهما: مثل تجعد الماء والرمل والزرع، إذا ضربته الريح فينسج بعضه بعضاً طرائق طرائق، فذلك الحبك.

روى ابن جرير عن رجل من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن من ورائكم الكذاب المضل، وإن رأسه من ورائه حُبُك حُبُك». يعني بالحبك الجعودة [ورواه أحمد ورجاله رجال الصحيح]. وعن أبي صالح: ذات الحبك الشدة. وقال خصيف: ذات الصفاقة. وقال الحسن البصري: حبكت بالنجوم. وقال عبد الله بن عمرو: يعني السماء السابعة.

وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد وهو الحسن والبهاء كما قال ابن عباس، فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزهرات. وقوله: ﴿إنكم لفي قول مختلف﴾ أي إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفي قول مختلف مضطرب لا يلتئم ولا يجتمع. وقال قتادة: يعني ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به. ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي إنما يروج على من

هو ضال في نفسه، لأنه قول باطل إنما ينقاد له ويضل بسببه، ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال لا فهم له، كما قال تعالى: ﴿فإنكم وما تعبدون ماأنتم عليه بفاتنين. إلا من هو صال الجحيم﴾ قال ابن عباس والسدي ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ يضل عنه من ضل. وقال مجاهد: يؤفن عنه من أفن. وقال الحسن البصري: يصرف عن هذا القرآن من كذب به. وقوله: ﴿قتل الخراصون﴾ قال مجاهد: الكذابون. قال: وهي مثل التي في عبس ﴿قتل الإنسان ماأكفره﴾ [عبس:١٧]، والخراصون الذين يقولون لا نبعث ولا يوقنون. وقال ابن عباس: لعن المرتابون. وهكذا كان معاذ رضي الله عنه يقول في خطبته: هلك المرتابون. وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون. وقوله: ﴿الذين هم في غمرة ساهون﴾ قال ابن عباس وغير واحد: في الكفر والشك غافلون لاهون. ﴿يسألون أيان يوم الدين﴾ وإنما يقولون هذا تكذيباً وعناداً وشكاً واستبعاداً. قال الله تعالى: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد: يفتنون يعذبون. قال مجاهد: كما يفتن الذهب على النار، وقال جماعة آخرون كمجاهد أيضاً وعكرمة وإبراهيم النخعي وزيد بن أسلم وسفيان الثوري: يحرقون. ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ قال مجاهد: حريقكم، وقال غيره: عذابكم ﴿هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المتقين لله عز وجل: أنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال. وقوله: ﴿آخذين ما آتاهم ربهم﴾ قال ابن جرير: أي عاملين بما آتاهم الله من الفرائض ﴿إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾ أي قبل أن يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين في الأعمال أيضاً. والذي فسر به ابن جرير فيه نظر، لأن قوله تبارك وتعالى آخذين حال من قوله في جنات وعيون، فالمتقون في حال كونهم في الجنات والعيون آخذين ماآتاهم ربهم، أي من النعيم والسرور والغبطة.

وقوله: ﴿إنهم كانوا قبل ذلك﴾ أي في الدار الدنيا ﴿محسنين﴾ كقوله: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ [الحاقة:٢٤] ثم إنه تعالى بيَّن إحسانهم في العمل فقال: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ اختلف المفسرون في ذلك على قولين: أحدهما: أن «ما» نافية، تقديره: كانوا قليلاً من الليل لا يهجعونه. قال ابن عباس: لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئاً، وقال مطرف بن عبد الله: قلَّ ليلة لا تأتي عليهم إلا يصلون فيها لله عز وجل، إما من أولها وإما من أوسطها. وقال مجاهد: قلَّ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون، وكذا قال قتادة، (وقال أنس بن مالك وأبو العالية: كانوا يصلون بين المغرب

والعشاء) وقال أبو جعفر الباقر: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة، **والقول الثاني**: أن «ما» مصدرية، تقديره: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم، واختاره ابن جرير. وقال الحسن البصري: كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر. وقال الأحنف بن قيس: كانوا لا ينامون إلا قليلاً، ثم يقول: لست من أهل هذه الآية. وقال الحسن البصري: كان الأحنف بن قيس يقول عرضت عملي على عمل أهل الجنة، فإذا قوم قد باينونا بوناً بعيداً، إذا قوم لا نبلغ أعمالهم كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وعرضت عملي على عمل أهل النار، فإذا قوم لا خير فيهم مكذبون بكتاب الله وبرسل الله، مكذبون بالبعث بعد الموت، فقد وجدت من خيرنا منزلة قوماً خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بني تميم لأبي: يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا ذكر الله تعالى قوماً فقال: **﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾** ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم، فقال له أبي: طوبى لمن رقد إذا نعس واتقى الله إذا استيقظ. وقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيت وجهه ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته ﷺ يقول: «يا أيها الناس أطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام» [رواه الترمذي وصححه].

قال الزهري والحسن: كانوا كثيراً من الليل ما يصلون. وقال ابن عباس وإبراهيم النخعي: ما ينامون. وقال الضحاك: **﴿إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلاً﴾** ثم ابتدأ فقال: **﴿من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون﴾**.

وقوله عز وجل: **﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾** قال مجاهد وغير واحد: يصلون. وقال آخرون: قاموا الليل وأخروا الاستغفار إلى الأسحار، كما قال تعالى: **﴿والمستغفرين بالأسحار﴾** [آل عمران:١٧]، فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن. وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأغفر له، هل من سائل فيعطى سؤله، حتى يطلع الفجر». [حديث متواتر كما نص عليه الدار قطني وغيره].

وقوله: **﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾** لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة، فقال: **﴿وفي أموالهم حق﴾** أي جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم. أما السائل فمعروف وهو الذي يبتدىء بالسؤال، وله حق. وأما المحروم فقال ابن عباس ومجاهد: هو المحارف الذي ليس له في الإسلام سهم. يعنى لا سهم له في بيت المال، ولا كسب له، ولا حرفة يتقوت منها. وقالت أم المؤمنين عائشة: هو المحارَف الذي لا يكاد يتيسر له

مكسبه. وقال الضحاك: هو الذي لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله تعالى له ذلك. وقال أبو قِلَابة: جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من الصحابة: هذا المحروم وقال ابن عباس أيضاً وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي ونافع مولى ابن عمر وعطاء بن أبي رباح: المحروم المحارف. وقال قتادة والزهري: المحروم الذي لا يسأل الناس شيئاً. قال الزهري وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه». وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحيهما. وقال سعيد بن جبير: هو الذي يجيء وقد قُسِّم المغنم فيرضخ له. وقال الشعبي: أعياني أن أعلم ما المحروم.

واختار ابن جرير أن المحروم الذي لا مال له بأي سبب كان وقد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب أو قد هلك ماله أو نحوه بآفة أو نحوها.

وقوله: ﴿**وفي الأرض آيات للموقنين**﴾ أي فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه، ولهذا قال: ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾(قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة)

ثم قال: ﴿**وفي السماء رزقكم**﴾ يعنى المطر ﴿**وما توعدون**﴾ يعني الجنة، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد.

وقوله: ﴿**فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون**﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

هذه القصة قد تقدمت في سورة هود[٦٩-٧٣]، والحجر [٥١-٥٦] أيضاً. وقوله: ﴿**هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين**﴾ أي الذين أرصد لهم الكرامة، وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل. وقوله: ﴿**قالوا سلاماً قال سلام**﴾ الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم. قال تعالى: ﴿**وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها**﴾ [النساء:٨٦]، فالخليل اختار الأفضل، وقوله: ﴿**قوم منكرون**﴾ وذلك أن الملائكة قدموا عليه في صورة شباب حسان عليهم مهابة

عظيمة، ولهذا قال: ﴿قوم منكرون﴾. وقوله: ﴿فراغ إلى أهله﴾ أي انسل خفية في سرعة، ﴿فجاء بعجل سمين﴾ أي من خيار ماله. وفي الآية الأخرى: ﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾ [هود:٦٩] أي مشوي على الرَّضف، ﴿فقربه إليهم﴾ أي أدناه منهم ﴿قال ألا تأكلون﴾ تلطف في العبارة وعرض حسن. (وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة، فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولاً، فقال: نأتيكم بطعام؟ بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال: ﴿ألا تأكلون﴾ على سبيل العرض والتلطف.)

وقوله: ﴿فأوجس منهم خيفة﴾ هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى وهي قوله تعالى: ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا: لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت﴾ [هود٧٠-٧١] أي استبشرت بهلاكهم، لتمردهم وعتوهم على الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. وقال ههنا: ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ فالبشارة له هي بشارة لها. لأن الولد منها، فكل منهما بشر به. وقوله: ﴿فأقبلت امرأته في صرة﴾ أي في صرخة عظيمة ورنة، قاله ابن عباس وزيد بن أسلم والسدي [وغيرهم] وهي قولها: ﴿يا ويلتا﴾ ﴿فصكت وجهها﴾ أي ضربت بيدها على جبينها قاله مجاهد وابن سابط، وقال ابن عباس: لطمت أي تعجباً كما تتعجب النساء من الأمر الغريب ﴿وقالت عجوز عقيم﴾ أي كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت في حال الصبا عقيماً لا أحبل؟ ﴿قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم﴾ أي عليم بما تستحقون من الكرامة حكيم في أقواله وأفعاله.

﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

قال الله تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط * إن إبراهيم لحليم أواه منيب * يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ [هود:٧٤-٧٦]، وقال هاهنا: ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾ أي ما شأنكم وفيم جئتم؟ ﴿قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ يعنون قوم لوط، ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة﴾ أي معلمة ﴿عند ربك للمسرفين﴾ أي مكتتبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، فقال في سورة العنكبوت: ﴿قال إن فيها لوطاً، قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ [العنكبوت:٣٢]. وقال هاهنا: ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين﴾ وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ احتج بهذه من ذهب إلى رأي المعتزلة ممن

لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام، لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين، وهذا الاستدلال ضعيف لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس فاتفق الاسمان ههنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال. وقوله: ﴿**وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم**﴾ أي جعلناها عبرة لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين ﴿**الذين يخافون العذاب الأليم**﴾.

﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**وفي موسى**﴾ أي آية ﴿**إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين**﴾ أي بدليل باهر وحجة قاطعة ﴿**فتولى بركنه**﴾ أي فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين استكباراً وعناداً. وقال مجاهد: تعزز بأصحابه، وقال قتادة: غَلَب عدو الله على قومه، وقال ابن زيد: ﴿**فتولى بركنه**﴾ أي بجموعه التي معه، ثم قرأ: ﴿**لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد**﴾ [هود: ٨٠]. والمعنى الأول قوي كقوله: ﴿**ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله**﴾ [الحج: ٩] أي معرض عن الحق مستكبر ﴿**وقال ساحر أو مجنون**﴾ أي لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحراً أو مجنوناً، قال الله تعالى: ﴿**فأخذناه وجنوده فنبذناهم**﴾ أي ألقيناهم ﴿**في اليم**﴾ وهو البحر ﴿**وهو مليم**﴾ أي وهو ملوم كافر معاند.

ثم قال: ﴿**وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم**﴾ أي المفسدة التي لا تنتج شيئاً. قاله الضحاك وقتادة وغيرهما، ولهذا قال: ﴿**ما تذر من شيء أتت عليه**﴾ أي مما تفسده الريح ﴿**إلا جعلته كالرميم**﴾ أي كالشيء الهالك البالي. قال سعيد بن المسيب وغيره: هي الجنوب. وقد ثبت في صحيح [مسلم] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور». ﴿**وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين**﴾ قال ابن جرير: يعني إلى وقت فناء آجالكم. والظاهر أن هذه كقوله: ﴿**وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون**﴾ [فصلت: ١٧]. وهكذا قال هاهنا: ﴿**وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين. فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون**﴾، وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بُكْرة النهار ﴿**فما استطاعوا من قيام**﴾ أي من هربٍ ولا نهوض ﴿**وما كانوا منتصرين**﴾ أي لا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه. وقوله: ﴿**وقوم نوح من قبل**﴾ أي وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿**إنهم كانوا قوماً فاسقين**﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسوطة في أماكن كثيرة من سور متعددة.

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ

تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً على خلق العالم العلوي والسفلي ﴿**والسماء بنيناها**﴾ أي جعلناها سقفاً محفوظا رفيعاً ﴿**بأيد**﴾ أي بقوة، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثوري وغير واحد ﴿**وإنا لموسعون**﴾ أي قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هي، ﴿**والأرض فرشناها**﴾ أي جعلناها فراشاً للمخلوقات ﴿**فنعم الماهدون**﴾ أي وجعلناها مهداً لأهلها ﴿**ومن كل شيء خلقنا زوجين**﴾ أي جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات جن وإنس، ذكور وإناث والنباتات، ولهذا قال: ﴿**لعلكم تذكرون**﴾ أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له ﴿**ففروا إلى الله**﴾ أي الجأوا إليه واعتمدوا في أموركم عليه ﴿**إني لكم منه نذير مبين * ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر**﴾ أي لا تشركوا به شيئاً ﴿**إني لكم منه نذير مبين**﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ: وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسلهم: ﴿**كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحرٌ أو مجنون**﴾ قال الله تعالى: ﴿**أتواصوا به**﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة؟ ﴿**بل هم قوم طاغون**﴾ أي لكن هم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم. قال الله تعالى: ﴿**فتول عنهم**﴾ أي فأعرض عنهم يامحمد، ﴿**فما أنت بملوم**﴾ يعني فما نلومك على ذلك ﴿**وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾ أي إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة، ثم قال: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ أي إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم. وقال ابن عباس: ﴿**إلا ليعبدون**﴾ أي إلا ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً. وهذا اختيار ابن جرير. وقال ابن جريج: إلا ليعرفون. وقال الربيع بن أنس: أي إلا للعبادة. وقال السدي: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله**﴾ [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون.

وقوله: ﴿**ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين**﴾ معنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب. وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم. فهو خالقهم ورازقهم. وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «قال الله: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك». ورواه الترمذي، وقال: حسن غريب. [وله شاهد من حديث معقل عند الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي].

وقوله: ﴿**فإن للذين ظلموا ذنوباً**﴾ أي نصيباً من العذاب ﴿**مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون**﴾ أي فلا يستعجلون ذلك فإنه واقع لا محالة ﴿**فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون**﴾ يعني يوم القيامة.

تفسير سورة الطور وهي مكية.

روى مالك عن جبير بن مطعم: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه، أخرجاه. وروى البخاري عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي فقال: «طوفي من وراء الناس وأنت راكبة» فطفت ورسول الله يصلي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ
عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾
الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ
هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة: أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم، فالطور هو الجبل الذي يكون فيه أشجار، مثل الذي كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طوراً إنما يقال له: جبل. ﴿**وكتاب مسطور**﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ، وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهاراً، ولهذا قال: ﴿**في رق منشور * والبيت المعمور**﴾ ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: «ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم» يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، كذلك ذلك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة، ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور [متفق عليه]، لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه والذي في السماء الدنيا يقال له بيت العزة، والله أعلم.

وروى ابن جرير أن رجلاً قال لعلي: ما البيت المعمور؟ قال: بيت في السماء يقال له الضُّراح، وهو بحيال الكعبة من فوقها، حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون فيه أبداً. وعن ابن عباس: هو بيت حذاء العرش

تعمره الملائكة، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه. وكذا قال عكرمة ومجاهد وغير واحد من السلف.

وقوله: ﴿**والسقف المرفوع**﴾ قال علي: يعني السماء. ثم تلا: ﴿**وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون**﴾ [الأنبياء:٣٢]. وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي وابن جريج وابن زيد واختاره ابن جرير. وقال الربيع بن أنس: هو العرش، يعني أنه سقف لجميع المخلوقات، وله اتجاه وهو مراد مع غيره كما قاله الجمهور.

وقوله: ﴿**والبحر المسجور**﴾ قال الربيع بن أنس: هو الماء الذي تحت العرش الذي ينزل الله منه المطر، الذي يحيي به الأجساد في قبورها يوم معادها، وقال الجمهور: هو هذا البحر، واختلف في معنى قوله المسجور فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة ناراً كقوله: ﴿**وإذا البحار سجرت**﴾ [التكوير:٦] أي أضرمت فتصير ناراً تتأجج محيطة بأهل الموقف. رواه سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب. وروي عن ابن عباس وبه يقول سعيد بن جبير ومجاهد وعبيد بن عمير وغيرهم. وقال العلاء بن بدر: إنما سمي البحر المسجور، لأنه لا يُشرب منه ماء ولا يسقى به زرع وكذلك البحار يوم القيامة. وعن سعيد بن جُبير ﴿**والبحر المسجور**﴾ يعني المرسل، وقال قتادة: المسجور المملوء، اختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس موقداً اليوم فهو مملوء. وقيل: المراد به الفارغ، فعن ابن عباس قال: الفارغ خرجت أمة تستسقي فرجعت فقالت: إن الحوض مسجور يعني فارغاً. وقيل: المراد بالمسجور الممنوع المكفوف عن الأرض لئلا يغمرها فيغرق أهلها قاله ابن عباس وبه يقول السدي وغيره.

وقوله: ﴿**إن عذاب ربك لواقع**﴾ هذا هو المقسم عليه أي لواقع بالكافرين، كما قال في الآية الأخرى: ﴿**ما له من دافع**﴾ أي ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك.

(وروى الإمام أبو عبيد في فضائل القرآن عن الحسن أن عمر قرأ: ﴿**إن عذاب ربك لواقع * ما له من دافع**﴾ فربا لها ربوة عِيد منها عشرين يوماً) وقوله: ﴿**يوم تمور السماء موراً**﴾ قال ابن عباس وقتادة: تتحرك تحريكاً. وعن ابن عباس: هو تشققها. وقال مجاهد: تدور دوراً. وقال الضحاك: استدارتها وتحركها لأمر الله وموج بعضها في بعض. وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك في استدارة.

﴿**وتسير الجبال سيراً**﴾ أي تذهب فتصير هباء منبثاً، وتنسف نسفاً، ﴿**فويل يومئذ للمكذبين**﴾ أي ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم وعقابه لهم، ﴿**الذين هم في خوض يلعبون**﴾ أي هم في الدنيا يخوضون في الباطل، ويتخذون دينهم هزواً ولعباً، ﴿**يوم يدعون**﴾ أي يدفعون ويساقون، ﴿**إلى نار جهنم دعا**﴾ قال مجاهد والشعبي ومحمد بن كعب والضحاك والسدي والثوري: يدفعون فيها دفعاً ﴿**هذه النار التي كنتم بها تكذبون**﴾ أي تقول لهم الزبانية ذلك تقريعاً وتوبيخاً، ﴿**أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها**﴾ أي ادخلوها دخول من تغمره من

جميع جهاته ﴿**فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم**﴾ أي سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها ﴿**إنما تجزون ما كنتم تعملون**﴾ أي ولا يظلم الله أحداً، بل يجازي كلاً بعمله.

﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٢٠﴾ ﴾.

يخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿**إن المتقين في جنات ونعيم**﴾ وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال، ﴿**فاكهين بما آتاهم ربهم**﴾ أي يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم من أصناف الملاذ، من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك، ﴿**ووقاهم ربهم عذاب الجحيم**﴾ أي وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التي فيها من السرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وقوله: ﴿**كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون**﴾، كقوله: ﴿**كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية**﴾ [الحاقة: ٢٤] أي هذا بذاك تفضلاً منه وإحساناً. وقوله: ﴿**متكئين على سرر مصفوفة**﴾ عن ابن عباس: السرر في الحجال.

وعن ثابت قال: بلغنا أن الرجل ليتكىء في الجنة سبعين سنة عنده من أزواجه وخدمه، وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم، فإذا حانت منه نظرة فإذا أزواج له لم يكن رآهن قبل ذلك، فيقلن قد آن لك أن تجعل لنا منك نصيباً. ومعنى ﴿**مصفوفه**﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض، كقوله: ﴿**على سرر متقابلين**﴾ [الصافات: ٤٤]. ﴿**وزوجناهم بحور عين**﴾ أي وجعلنا لهم قرينات صالحات وزوجات حساناً من الحور العين، وقال مجاهد: ﴿**وزوجناهم**﴾ أنكحناهم بحور عين، وقد تقدم وصفهن في غير موضع.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه، أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يُلحقهم بآبائهم في المنزلة، وإن لم يبلغوا عملهم لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته للتساوي بينه وبين ذاك، ولهذا قال: ﴿**ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء**﴾ قال ابن عباس: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه، ثم قرأ: ﴿**والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء**﴾.

وعن ابن عباس [أيضا] في هذه الآية يقول: والذين أدرك ذريتهم الإيمان فعملوا بطاعتي، ألحقتهم بإيمانهم إلى الجنة، وأولادهم الصغار تلحق بهم. وهذا راجع إلى التفسير الأول، فإن ذلك مفسر أصرح من هذا، وهكذا يقول الشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم وقتادة وابن زيد [وغيرهم] وهو اختيار ابن جرير.

وهذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك». إسناده صحيح، وله شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

وقوله: ﴿كل امرىء بما كسب رهين﴾ لما أخبر عن مقام الفضل، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك، أخبر عن مقام العدل وهو أنه لا يؤاخذ أحداً بذنب أحد، بل ﴿كل امرىء بما كسب رهين﴾ أي مرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أباً أو ابناً، كما قال: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ [المدثر:٣٨]. وقوله: ﴿وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون﴾ أي وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى، مما يستطاب ويشتهى. وقوله: ﴿يتنازعون فيها كأساً﴾ أي يتعاطون فيها كأساً أي من الخمر. قاله الضحاك. ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ أي لا يتكلمون فيها بكلام لاغ، أي هَذَيَان، ولا إثم، أي فُحْش، كما تتكلم به الشربة من أهل الدنيا. قال ابن عباس: اللغو: الباطل. والتأثيم: الكذب، وقال مجاهد: لا يستبون ولا يؤثمون. وقال قتادة: كان ذلك في الدنيا مع الشيطان. فنزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، كما تقدم فنفى عنها صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء الفارغ عن الفائدة المتضمن هَذيَاناً وفُحشاً، وأخبر بحسن منظرها وطيب طعمها ومخبرها فقال: ﴿بيضاء لذة للشاربين. لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون﴾ [الصافات:٤٦ـ٤٧]، وقال: ﴿لا يصدعون عنها ولا ينزفون﴾ [الواقعة:١٩]، وقال ههنا ﴿يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم﴾.

وقوله: ﴿ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون﴾ إخبار عن خَدَمهم وحَشَمهم في الجنة، كأنهم اللؤلؤ الرطب، المكنون في حسنهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال: ﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وأباريق وكأس من معين﴾ [الواقعة:١٧ـ١٨]. وقوله: ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ أي أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وهذا كما يتحدث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم، ﴿قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين﴾ أي كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه ﴿فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم﴾ أي فتصدق

علينا وأجارنا مما نخاف، ﴿إنا كنا من قبل ندعوه﴾ أي نتضرع إليه فاستجاب لنا وأعطانا سؤالنا، ﴿إنه هو البر الرحيم﴾.

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٣٢ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٣٤﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه. ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال: ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ أي لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش، والكاهن الذي يأتيه الرئي من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء، ﴿ولا مجنون﴾ وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس. ثم قال تعالى منكراً عليهم في قولهم في الرسول ﷺ ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ أي قوارع الدهر، والمنون: الموت، يقولون ننتظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه، قال الله تعالى: ﴿قل تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾ أي انتظروا فإني منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا﴾ أي عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقاويل الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور ﴿أم هم قوم طاغون﴾ أي ولكن هم قوم طاغون ضلال معاندون، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك. وقوله: ﴿أم يقولون تقوله﴾ أي اختلقه وافتراه من عند نفسه يعنون القرآن، قال الله: ﴿بل لا يؤمنون﴾ أي كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة. ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي إن كانوا صادقين في قولهم: تَقوّله وافتراه فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ما جاءوا بمثله، ولا بعشر سور مثله، ولا بسورة من مثله.

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ۝٣٩ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٠ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤١ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ۝٤٢ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٣﴾.

هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ أي أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي لا هذا ولا هذا بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً. روى البخاري عن جبير بن مطعم قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون * أم عندهم خزائن ربك أم هم

المسيطرون﴾ كاد قلبي أن يطير. وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركاً، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك. ثم قال تعالى: **﴿أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾** أي أهم خلقوا السموات والأرض؟ وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له، ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك، **﴿أم عندهم خزائن ربك﴾** أي أهم يتصرفون في الملك وبيدهم مفاتيح الخزائن **﴿أم هم المصيطرون﴾** أي المحاسبون للخلائق، ليس الأمر كذلك بل الله عز وجل هو المالك المتصرف الفعال لما يريد.

وقوله: **﴿أم لهم سلم يستمعون فيه﴾** أي مرقاة إلى الملأ الأعلى، **﴿فليأت مستمعهم بسلطان مبين﴾** أي فليأت الذي يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال، أي وليس لهم سبيل إلى ذلك فليسوا على شيء، ولا لهم دليل. ثم قال منكراً عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، وجعلهم الملائكة إناثاً، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله وعبدوهم مع الله فقال: **﴿أم له البنات ولكم البنون﴾** وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد **﴿أم تسألهم أجراً﴾** أي أجرة إبلاغك إياهم رسالة الله، أي لست تسألهم على ذلك شيئاً **﴿فهم من مغرم مثقلون﴾** أي فهم من أدنى شيء يتبرمون منه ويثقلهم ويشق عليهم **﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾** أي ليس الأمر كذلك فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله **﴿أم يريدون كيداً. فالذين كفروا هم المكيدون﴾** يقول تعالى: أم يريد هؤلاء بقولهم هذا في الرسول وفي الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم، فالذين كفروا هم المكيدون **﴿أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون﴾** وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله، ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون فقال: **﴿سبحان الله عما يشركون﴾**.

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس: **﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾** أي عليهم يعذبون به لَمَا صدقوا، ولَمَا أيقنوا، **﴿يقولوا﴾** بل يقولون: هذا **﴿سحاب مركوم﴾** أي متراكم. قال الله تعالى **﴿فذرهم﴾** أي دعهم يا محمد **﴿حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون﴾** وذلك يوم القيامة **﴿يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً﴾** أي لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذي استعملوه في الدنيا يوم القيامة شيئاً **﴿ولا هم ينصرون﴾**. ثم قال: **﴿وإن للذين ظلموا**

عذاباً دون ذلك﴾ أي قبل ذلك في الدار الدنيا، كقوله: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾ [السجدة:٢١]، ولهذا قال: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي نعذبهم في الدنيا ونبتليهم فيها بالمصائب لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلى عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه.

وقوله: ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ أي اصبر على أذاهم ولا تبالهم فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا والله يعصمك من الناس. وقوله: ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ قال الضحاك: أي إلى الصلاة: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك. وقد روي مثله عن الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما.

وروى مسلم في صحيحه عن عمر أنه كان يقول: هذا في ابتداء الصلاة، ورواه أحمد وأهل السنن عن أبي سعيد وغيره، عن النبي ﷺ أنه كان يقول ذلك. وقال أبو الجوزاء: ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ أي من نومك من فراشك، واختاره ابن جرير ويتأيد هذا القول بما (رواه الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: «من تعارّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قال: رب اغفر لي ـ أو قال: ثم دعا ـ استجيب له، فإن عزم فتوضأ ثم صلى قبلت صلاته» وأخرجه البخاري) وقال مجاهد: ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ قال: من كل مجلس. وعن أبي الأحوص قال: إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك.

وعن عطاء بن أبي رباح أنه قال: حين تقوم من كل مجلس إن كنت أحسنت ازددت خيراً، وإن كنت غير ذلك كان هذا كفارة له. وقد وردت أحاديث مسندة من طرق يقوي بعضها بعضاً بذلك، فمن ذلك حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك». رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح، وأخرجه الحاكم، وقال إسناده على شرط مسلم.

وقوله: ﴿ومن الليل فسبحه﴾ أي اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل، كما قال: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ [الإسراء:٧٩]. وقوله: ﴿وإدبار النجوم﴾ هما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم أي عند جنوحها للغيبوبة. وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر، وفي لفظ لمسلم: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها».

تفسير سورة النجم وهي مكية.

روى البخاري عن عبد الله [بن مسعود] قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة: «والنجم» قال: فسجد النبي ﷺ وسجد من خلفه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتل كافراً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

قال الشعبي وغيره: الخالق يقسم بما شاء من خَلْقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق. واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿**والنجم إذا هوى**﴾ فقال مجاهد: يعني بالنجم الثُرَيّا إذا سقطت مع الفجر. وكذا روي عن ابن عباس وسفيان الثوري واختاره ابن جرير. وزعم السدي أنها الزهرة، وقال الضحاك: ﴿**والنجم إذا هوى**﴾ إذا رُمي به الشياطين. وهذا القول له اتجاه. وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿**والنجم إذا هوى**﴾ يعني القرآن إذا نزل، وهذه الآية، كقوله تعالى: ﴿**فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين**﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٠]. وقوله: ﴿**ما ضل صاحبكم وما غوى**﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول ﷺ، بأنه راشد تابع للحق ليس بضال، وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم، والغاوي هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره، فنزه الله رسوله وشَرْعَه، عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود. وهي علم الشيء وكتمانه، والعمل بخلافه، بل هو صلوات الله وسلامه عليه وما بعثه به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد، ولهذا قال: ﴿**وما ينطق عن الهوى**﴾ أي ما يقول قولاً عن هوى وغرض ﴿**إن هو إلا وحي يوحى**﴾ أي إنما يقول ما أمر به يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان كما رواه الإمام أحمد عن أبي أمامة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليدخلنَّ الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثل الحيين - أو مثل أحد الحيين - رَبِيعة ومُضَر» فقال رجل: يا رسول الله أو ما ربيعة من مضر؟ قال: «إنما أقول ما أقول». [قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ميسرة وهو ثقة].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب. فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «اكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق» ورواه أبو داود [وسنده حسن]. وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أقول إلا حقاً قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: «إني لا أقول إلا حقاً». [ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح].

﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩
فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ
ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ
ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه علمه الذي جاء به إلى الناس **﴿شديد القوى﴾** وهو جبريل عليه السلام، كما قال: **﴿إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين﴾** [التكوير:١٩-٢١]. وقال ههنا: **﴿ذو مرة﴾** أي ذو قوة، قاله مجاهد والحسن وابن زيد. وقال ابن عباس: ذو منظر حسن، وقال قتادة: ذو خَلْق طويل حسن. ولا منافاة بين القولين فإنه عليه السلام ذو منظر حسن وقوة شديدة. وقوله: **﴿فاستوى﴾** يعني جبريل عليه السلام. قاله الحسن ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس **﴿وهو بالأفق الأعلى﴾** يعني جبريل استوى في الأفق الأعلى، قاله عكرمة وغير واحد. قال عكرمة: والأفق الأعلى الذي يأتي منه الصبح. وقال مجاهد هو مطلع الشمس. وقال قتادة: هو الذي يأتي منه النهار، وكذا قال ابن زيد وغيرهم.

وقوله: **﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾** أي فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض، حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين، أي بقدرهما إذا مدا، قاله مجاهد وقتادة وقد قيل إن المراد بذلك بعد ما بين وتر القوس إلى كبدها. وقوله: **﴿أو أدنى﴾** هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه ونفي ما زاد عليه، كقوله: **﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾** [البقرة:٧٤]، أي ما هي بألين من الحجارة، بل هي مثلها أو تزيد عليها في الشدة والقسوة، وكذا قوله: **﴿يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾** [النساء:٧٧]، وقوله: **﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾** [الصافات:١٤٧] أي ليسوا أقل منها بل هم مائة ألف حقيقة أو يزيدون عليها. فهذا تحقيق للمخبر به لا شك ولا تردد فإن هذا ممتنع ههنا، وهكذا هذه الآية: **﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾**. وهذا الذي قلناه من أن هذا المقترب الداني الذي صار بينه وبين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم إنما هو جبريل عليه السلام، وهو قول أم المؤمنين عائشة وابن مسعود وأبي ذر وأبي هريرة.

وروى مسلم في صحيحه عن ابن عباس أنه قال: رأى محمد ربه بفؤاده مرتين فجعل هذه إحداهما. وهذه كانت ورسول الله ﷺ في الأرض لا ليلة الإسراء، ولهذا قال بعده: **﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى﴾** فهذه هي ليلة الإسراء والأولى كانت في الأرض.

وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل له ستمائة جناح». [وإسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه البخاري موقوفا].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان أول شأن رسول الله ﷺ أنه رأى في منامه جبريل

بأجياد، ثم إنه خرج ليقضي حاجته فصرخ به جبريل: يا محمد يا محمد! فنظر رسول الله يميناً وشمالاً فلم ير أحداً ثلاثاً، ثم رفع بصره فإذا هو ثاني إحدى رجليه مع الأخرى على أفق السماء، فقال: يا محمد جبريل، جبريل يُسكنه. فهرب النبي ﷺ حتى دخل في الناس، فنظر فلم ير شيئاً، ثم خرج من الناس ثم نظر فرآه فدخل في الناس فلم ير شيئاً، ثم خرج فنظر فرآه، فذلك قول الله عز وجل: ﴿**والنجم إذا هوى** ـ إلى قوله ـ **ثم دنا فتدلى**﴾ يعني جبريل إلى محمد عليهما الصلاة والسلام ﴿**فكان قاب قوسين أو أدنى**﴾ [وسنده جيد] ويقولون: القاب نصف أصبع، وقال بعضهم: ذراعين كان بينهما، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وروى ابن جرير عن عبد الله [بن مسعود]: ﴿**ما كذب الفؤاد ما رأى**﴾ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلتا رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض. [سنده صحيح]. فعلى ما ذكرناه يكون قوله: ﴿**فأوحى إلى عبده ما أوحى**﴾ معناه فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى، أو فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل، وكلا المعنيين صحيح. وقد ذكر عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿**فأوحى إلى عبده ما أوحى**﴾ قال: أوحى الله إليه﴿**ألم يجدك يتيماً ـ ورفعنا لك ذكرك**﴾. وقال غيره: أوحى الله إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك.

وقوله: ﴿**ما كذب الفؤاد ما رأى. أفتمارونه على ما يرى**﴾ روى مسلم عن ابن عباس ﴿**ما كذب الفؤاد ما رأى**﴾، ﴿**ولقد رآه نزلة أخرى**﴾ قال: رآه بفؤاده مرتين، وكذا قال أبوصالح والسدي وغيرهما: إنه رآه بفؤاده مرتين أو مرة، وقد خالفه ابن مسعود وغيره. وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد، ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة رضي الله عنهم، وقول البغوي في تفسيره وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه وهو قول أنس والحسن وعكرمة فيه نظر والله أعلم.

وروى النسائي عن ابن عباس قال: أتعجبون أن تكون الخُلَّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد عليهم السلام؟ [سنده صحيح]. وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه» وفي رواية «رأيت نوراً».

وروى ابن أبي حاتم عن عباد بن منصور قال: سألت عكرمة عن قوله: ﴿**ما كذب الفؤاد ما رأى**﴾ فقال عكرمة: تريد أن أخبرك أنه قد رآه، قلت نعم، قال: قد رآه، ثم قد رآه، قال: فسألت عنه الحسن فقال: قد رأى جلاله وعَظَمته ورداءَه.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربي عز وجل» فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح، لكنه مختصر من حديث المنام كما رواه الإمام أحمد أيضاً عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني ربي الليلة في أحسن صورة ـ أحسبه

يعني في النوم ـ فقال: يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى، قال: قلت: لا، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي ـ أو قال نحري ـ فعلمت ما في السموات وما في الأرض. ثم قال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى، قال: قلت نعم، يختصمون في الكفارات والدرجات، قال: وما الكفارات والدرجات؟ قال: قلت المكث في المساجد بعد الصلوات، والمشي على الأقدام إلى الجُمُاعات، وإبلاغ الوضوء في المكاره، من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه، وقال: قل يا محمد إذا صليت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون. قال: والدرجات بذل الطعام وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام». وقد تقدم في آخر سورة ص [آية:٦٩]عن معاذ نحوه.

وقوله: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى﴾ هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها وكانت ليلة الإسراء. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الإسراء في أول سورة سبحان بما أغنى عن إعادته ههنا، وتقدم أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء ويستشهد بهذه الآية، وتابعه جماعة من السلف والخلف، وقد خالفه جماعات من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وغيرهم، وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود في هذه الآية قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل وله ستمائة جناح ينتثر منه ريشه التهاويل من الدر والياقوت». وإسناده جيد قوي.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل على سدرة المنتهى وله ستمائة جناح». وإسناده جيد. وروى أحمد عن ابن مسعود يقول أيضا: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل عليه السلام في خضر معلق به الدر». إسناده جيد أيضاً. **وروى الإمام أحمد عن مسروق [أنه سأل] عائشة فقال: يا أم المؤمنين هل رأى محمد ﷺ ربه عز وجل؟ قالت: سبحان الله لقد قَفَّ شعري لما قلت، أين أنت من ثلاث من حَدَّثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ [الأنعام:١٠٣]، ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب﴾ [الشورى:٥١]، ومن أخبرك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ الآية[لقمان:٣٤]، ومن أخبرك أن محمداً قد كتم شيئا من الوحي فقد كذب، ثم قرأت ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ [المائدة:٦٧] ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين. [وسنده صحيح].**

وروى الإمام أحمد أيضاً عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول: ﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾ [التكوير:٢٣]، ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عنها فقال: «إنما ذاك جبريل». لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين،

رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض، أخرجاه في الصحيحين.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. قال: وما كنت تسأله ؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه عز وجل ؟ فقال: إني قد سألته فقال: «قد رأيته نوراً أنى أراه». هكذا وقع في رواية الإمام أحمد وقد أخرجه مسلم من طريقين بلفظين: «نور أنى أراه»، «رأيت نوراً».

وروى ابن أبي حاتم عن أبي ذر قال: رآه بقلبه ولم يره بعينه. [ورواه النسائي وسنده صحيح].

وحاول ابن خزيمة أن يدعي انقطاعه بين عبد الله بن شقيق وبين أبي ذر، وأما ابن الجوزي فتأوله على أن أبا ذر لعله سأل رسول الله ﷺ قبل الإسراء فأجابه بما أجابه به، ولو سأله بعد الإسراء لأجابه بالإثبات، وهذا ضعيف جداً، فإن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قد سألت عن ذلك بعد الإسراء ولم يُثبت لها الرؤية، ومن قال إنه خاطبها على قدر عقلها أو حاول تخطئتها فيما ذهبت إليه كابن خزيمة في كتاب التوحيد، فإنه هو المخطىء والله أعلم.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال في قوله: ﴿**ولقد رآه نزلة أخرى**﴾ قال رأى جبريل عليه السلام.

وقال مجاهد في قوله: ﴿**ولقد رآه نزلة أخرى**﴾ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته مرتين، وكذا قال قتادة والربيع بن أنس وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿**إذ يغشى السدرة ما يغشى**﴾ في أحاديث الإسراء أنه غشيتها الملائكة مثل الغِربان، وغشيها نور الرب، وغشيها ألوان ما أدري ما هي. وروى الإمام أحمد عن عبد الله ابن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها، ﴿**إذ يغشى السدرة ما يغشى**﴾ قال: فراش من ذهب، قال: وأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يُشرك بالله شيئاً من أمته المقحمات. رواه مسلم. وقال مجاهد: كان أغصان السدرة لؤلؤاً وياقوتاً وزبرجداً، فرآها النبي ﷺ ورأى ربه بقلبه.

وقوله: ﴿**ما زاغ البصر**﴾ قال ابن عباس: ما ذهب يميناً ولا شمالاً، ﴿**وما طغى**﴾ ما جاوز ما أمر به، وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطي، وما أحسن ما قال الناظم:

رأى جنةَ المأوَى وما فَوْقَها   ولَو رأى غَيرُه ما قد رآه لتَاهَا

وقوله: ﴿**لقد رأى من آيات ربه الكبرى**﴾، كقوله: ﴿**لنريك من آياتنا الكبرى**﴾ [طه: ٢٣]

أي الدالة على قدرتنا وعظمتنا، وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع لأنه قال: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس، وقد تقدم تقرير ذلك في سورة سبحان.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مقرعاً للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم البيوت لها مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن عليه السلام: ﴿أفرأيتم اللات﴾ وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة وعليها بيت بالطائف، له أستار وسَدَنة، وحوله فناء معظّم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش، قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله، فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. وحكي عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرأوا اللاتّ بتشديد التاء وفسروه بأنه كان رجلاً يَلُتُّ للحجيج في الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه. وروى البخاري عن ابن عباس في قوله: ﴿اللات والعزى﴾ قال: كان اللات رجلاً يلت السَّويق سويق الحجاج. قال ابن جرير: وكذا العزى من العزيز، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة والطائف، وكانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم». [رواه البخاري].

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى فليقل لا إله إلا الله. ومن قال لصاحبه: تعالَ أقامرْك فليتصدق». وهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته في زمن الجاهلية.

وأما مناة فكانت بالمشَلَّل عند قُدَيد بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها، ويُهلّون منها للحج إلى الكعبة. وروى البخاري عن عائشة نحوه، وقد كان بجزيرة العرب طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة. غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها.

ولهذا قال تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾. ثم قال تعالى: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾ أي أتجعلون له ولداً وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكور، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿قسمة ضيزى﴾ أي جوراً باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً، ثم قال منكراً

عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ أي من تلقاء أنفسكم ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ أي من حجة ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ أي ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين، ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ أي ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاءوهم به ولا انقادوا له.

ثم قال: ﴿أم للإنسان ما تمنى﴾ أي ليس كل من تمنى خيراً حصل له، ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب﴾ ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، ولا كل من ود شيئاً يحصل له. وقوله: ﴿فلله الآخرة والأولى﴾ أي إنما الأمر كله لله، مالك الدنيا والآخرة، والمتصرف في الدنيا والآخرة، فهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وقوله: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾، كقوله: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ [سبأ:٢٣]، فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله، وهو لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾.

يقول تعالى منكراً على المشركين في تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى، وجعلهم لها أنها بنات الله، كما قال: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون﴾ [الزخرف:١٩]، ولهذا قال: ﴿وما لهم به من علم﴾ أي ليس لهم علم صحيح يُصَدِّق ما قالوه، بل هو كذب وزور وافتراء وكفر شنيع. ﴿إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ أي لا يجدي شيئاً ولا يقوم أبداً مقام الحق، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث».

وقوله: ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا﴾ أي أعرض عن الذي أعرض عن الحق واهجره. وقوله: ﴿ولم يرد إلا الحياة الدنيا﴾ أي وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه، ولهذا قال: ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾ أي طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه. وفي الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا» [أخرجه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي]. وقوله: ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ أي هو الخالق لجميع المخلوقات والعالم بمصالح

عباده، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته، وهو العادل الذي لا يجور أبداً لا في شرعه ولا في قَدَره.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الغني عما سواه، الحاكم في خلقه بالعدل وخلق الخلق بالحق، **﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾** أي يجازي كلاً بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، أي لا يتعاطون المحرمات الكبائر، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم كما قال في الآية الأخرى: **﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً﴾** [النساء:٣١]. وقال ههنا: **﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾** وهذا استثناء منقطع، لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال. روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه». أخرجاه في الصحيحين.

وروى ابن جرير أن ابن مسعود قال: زنا العينين النظر، وزنا الشفتين التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشي، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه، فإن تقدم بفرجه كان زانياً وإلا فهو اللمم، وكذا قال مسروق والشعبي. وقال عبد الرحمن بن نافع: سألت أبا هريرة عن قول الله: **﴿إلا اللمم﴾** قال: القُبلة والغمزة والنظرة والمباشرة، فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل، وهو الزنا. وقال ابن عباس: **﴿إلا اللمم﴾** إلا ما سلف. وكذا قال زيد بن أسلم. وعن مجاهد أنه قال: الذي يُلِم بالذنب ثم يَدَعه، قال الشاعر:

إن تغفر اللهُمّ تغفر جَمّا وأيّ عَبْد لكَ مَا أَلَمّا

وعن ابن عباس قال: هو الرجل الذي يلم بالفاحشة ثم يتوب، وقال: قال رسول الله ﷺ:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك ما ألما

ورواه الترمذي، وقال: هذا حديث صحيح حسن غريب.

وعن الحسن قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: هو الرجل يصيب اللمة من الزنا، واللمة من شرب الخمر فيجتنبها ويتوب منها. وعن ابن عباس: **﴿إلا اللمم﴾** يلم بها في الحين. قلت: الزنا؟ قال: الزنا ثم يتوب. وعن ابن عباس قال: اللمم، الذي يلم المرة. وقال أبو صالح سئلت عن اللمم فقلت: هو الرجل يصيب الذنب ثم يتوب، وأخبرت بذلك

ابن عباس فقال: لقد أعانك عليها مَلَك كريم، حكاه البغوي. وعن عبد الله بن عمرو قال: اللمم ما دون الشرك، وعن ابن الزبير: ﴿إلا اللمم﴾ قال: ما بين الحدين حد الدنيا وعذاب الآخرة، وعن ابن عباس مثله سواء. وعن ابن عباس قال: كل شيء بين الحدين حد الدنيا وحد الآخرة، تكفره الصلوات فهو اللمم، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شيء ختمه الله بالنار وأخر عقوبته إلى الآخرة. وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك.

وقوله: ﴿إن ربك واسع المغفرة﴾ أي رحمته وسعَت كل شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها، كقوله: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ [الزمر:٥٣]. وقوله: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض﴾ أي هو بصير بكم، عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي تصدر عنكم وتقع منكم، حين أنشأ أباكم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذَّر ثم قسمهم فريقين: فريقاً للجنة وفريقاً للسعير. وكذا قوله: ﴿وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم﴾ قد كتب الملك الذي يوكل به رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد.

وقوله: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ أي تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم ﴿هو أعلم بمن اتقى﴾، كما قال: ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً﴾ [النساء:٤٩]. وروى مسلم في صحيحه عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: سميت ابنتي بَرّةَ فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم وسميت برة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر منكم». فقالوا: بمَ نسميها؟ قال: «سموها زينب».(وقد ثبت أيضاً في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي بكرة قال: مدح رجل رجلاً عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «ويلك قطعت عنق صاحبك - مراراً - إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلاناً والله حسيبه ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك». وكذا رواه البخاري.

وروى الإمام أحمد عن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه في وجهه قال: فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب ويقول: أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثو في وجوههم التراب. ورواه مسلم)

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

يقول تعالى ذاماً لمن تولى عن طاعة الله: ﴿فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى﴾ [القيامة:٣١-٣٢]، ﴿وأعطى قليلاً وأكدى﴾ قال ابن عباس: أطاع قليلاً ثم قطعه، وكذا

قال مجاهد وقتادة وغير واحد. قال عكرمة وسعيد: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً، فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل فيقولون أكدينا ويتركون العمل.

وقوله تعالى: ﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ أي أعند هذا الذي قد أمسك يده خشية الإنفاق وقطع معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفد ما في يده، حتى أمسك عن معروفه، فهو يرى ذلك عياناً؟ أي ليس الأمر كذلك. وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلاً وشحاً وهلعاً، وقد قال الله تعالى ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾ [سبأ: ٣٩].

وقوله: ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى. وإبراهيم الذي وفى﴾ قال سعيد بن جبير والثوري: أي بلغ جميع ما أمر به، وقال ابن عباس: ﴿وفى﴾ لله بالبلاغ، وقال سعيد بن جبير ﴿وفى﴾ ما أمر به، وقال قتادة ﴿وفى﴾ طاعة الله وأدى رسالته إلى خلقه. وهذا القول هو اختيار ابن جرير، وهو يشمل الذي قبله ويشهد له قوله تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً﴾ [البقرة: ١٢٤] فقام بجميع الأوامر وترك جميع النواهي، وبلغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماماً يُقتَدى به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله. قال الله تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ [النحل: ١٢٣].

ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال: ﴿أن لا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد كما قال: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ [فاطر: ١٨]، ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ أي كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه، ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتبعه، أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما.

وأما الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به»، فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله، كما جاء في الحديث: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه» [رواه الترمذي وقال: حسن صحيح]. والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه، وقد قال تعالى: ﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ الآية [يس: ١٢]. والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده

هو أيضاً من سعيه وعمله، وثبت في صحيح [مسلم]: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً».

وقوله: ﴿**وأن سعيه سوف يرى**﴾ أي يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون**﴾ [التوبة: ١٠٥] أي فيخبركم به ويجزيكم عليه أتم الجزاء، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وهكذا قال ههنا: ﴿**ثم يجزاه الجزاء الأوفى**﴾ أي الأوفر.

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**وأن إلى ربك المنتهى**﴾ أي المعاد يوم القيامة. وعن عمرو بن ميمون الأودي قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بني أود، إني رسول رسول الله ﷺ إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله إلى الجنة أو النار.

وقوله: ﴿**وأنه هو أضحك وأبكى**﴾ أي خلق في عباده الضحك والبكاء وسببهما وهما مختلفان ﴿**وأنه هو أمات وأحيا**﴾، كقوله: ﴿**الذي خلق الموت والحياة**﴾ [الملك: ٢]، ﴿**وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى. من نطفة إذا تمنى**﴾، كقوله: ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من مني يمنى! * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى**﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

وقوله تعالى: ﴿**وأن عليه النشأة الأخرى**﴾ أي كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة، وهي النشأة الأخرى يوم القيامة. ﴿**وأنه هو أغنى وأقنى**﴾ أي مَلَّك عباده المال، وجعله لهم قُنْيَة مقيماً عندهم، لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم. وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، وعن مجاهد: ﴿**أغنى**﴾ مَوّل، ﴿**وأقنى**﴾ أخدم، وكذا قال قتادة، وقال ابن عباس ومجاهد أيضاً: ﴿**أغنى**﴾ أعطى ﴿**وأقنى**﴾ رَضّى.

وقوله: ﴿**وأنه هو رب الشعرى**﴾ قال ابن عباس وقتادة وابن زيد وغيرهم: هو هذا النجم الوقاد الذي يقال له مِرْزَم الجوزاء كانت طائفة من العرب يعبدونه. ﴿**وأنه أهلك عاداً الأولى**﴾ وهم قوم هود ويقال لهم: عاد بن إرم بن سام بن نوح، كما قال تعالى: ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد**﴾ [الفجر: ٦-٨]، فكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله تعالى وعلى رسوله، فأهلكهم الله ﴿**بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً**﴾ [الحاقة: ٦-٧].

وقوله: ﴿**وثمود فما أبقى**﴾ أي دمرهم فلم يبق منهم أحداً، ﴿**وقوم نوح من قبل**﴾ أي من

قبل هؤلاء، ﴿إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ أي أشد تمرداً من الذين من بعدهم، ﴿والمؤتفكة أهوى﴾ يعني مدائن لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، ولهذا قال: ﴿فغشاها ما غشى﴾ يعني من الحجارة التي أرسلها عليهم ﴿وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين﴾ [الشعراء:١٧٣]. قال قتادة، كان في مدائن لوط أربعة آلاف ألف إنسان، فانضرم عليهم الوادي شيئاً فشيئاً من نار ونفط وقَطِران كفم الأتون.

﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾ أي ففي أي نعم الله عليك أيها الإنسان تمتري؟ قاله قتادة. وقال ابن جُريج: ﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾ يا محمد والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير.

﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿هذا نذير﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿من النذر الأولى﴾ أي من جنسهم أرسل كما أرسلوا، كما قال تعالى: ﴿قل ما كنت بدعا من الرسل﴾ [الأحقاف:٩]. ﴿أزفت الآزفة﴾ أي اقتربت القريبة، وهي القيامة ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾ أي لا يدفعها إذاً من دون الله أحد ولا يطلع على علمها سواه.

ثم قال تعالى منكراً على المشركين في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم ﴿تعجبون﴾ من أن يكون صحيحاً ﴿وتضحكون﴾ منه استهزاء وسخرية ﴿ولا تبكون﴾ أي كما يفعل الموقنون به كما أخبر عنهم ﴿ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾ [الإسراء:١٠٩].

وقوله: ﴿وأنتم سامدون﴾ قال ابن عباس: الغناء هي يمانية، أسمد لنا: غَنّ لنا، وكذا قال عكرمة، وفي رواية عن ابن عباس ﴿سامدون﴾ معرضون. وكذا قال مجاهد وعكرمة. وقال الحسن: غافلون، وهو رواية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. وفي رواية عن ابن عباس: تستكبرون، وبه يقول السدي. ثم قال آمراً لعباده بالسجود له والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص: ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ أي فاخضعوا له وأخلصوا ووحدوا.

روى البخاري عن ابن عباس قال: سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. وروى الإمام أحمد عن المطلب بن أبي وداعة قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم فسجد وسجد من عنده، فرفعت رأسي وأبيتُ أن أسجد، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب، فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً يقرؤها إلا سجد معه. وقد رواه النسائي [وسنده جيد].

تفسير سورة القمر وهي مكية.

[عن] أبي واقد: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة، في الأضحى والفطر [رواه مسلم]، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار لاشتمالهما على الوعد والوعيد وبدء الخلق وإعادته والتوحيد وإثبات النبوات وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها، كما قال تعالى: **﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾** [النحل: ١]، وقال: **﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾** [الأنبياء: ١] وقد وردت الأحاديث بذلك، روى الإمام أحمد عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بعثت أنا والساعة هكذا». وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى [متفق عليه].

وفي الصحيح في أسماء رسول الله ﷺ أنه الحاشر الذي يُحشر الناس على قدميه. وروى الإمام أحمد عن عتبة بن غَزْوَان قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بَصرْم وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صُبَابَة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوامنها بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يُلقَى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً ما يدرك لها قعراً، والله لتملؤنه، أفعجبتم! والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصراعي الجنة مسيرة أربعين عاماً، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام» وذكر تمام الحديث [رواه مسلم].

وقوله: **﴿وانشق القمر﴾** قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: «خمس قد مضين الروم والدخان واللزام والبطشة والقمر» وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك: [منها]

رواية أنس بن مالك: روى البخاري عن أنس بن مالك، أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شِقَّين حتى رأوا حراء بينهما.

رواية جبير بن مطعم رضي الله عنه: روى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد. فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. [وسنده صحيح].

رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: روى البخاري عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمان النبي ﷺ.

رواية عبد الله بن عمر: روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن عبد الله بن عمر في قوله: **﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾** قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ، انشق فلقتين، فِلْقَة من دون الجبل وفلقة من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد». وهكذا رواه مسلم.

رواية عبد الله بن مسعود: روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين حتى نظروا إليه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا» ورواه البخاري.

وقوله: ﴿**وإن يروا آية**﴾ أي دليلاً وحجة وبرهاناً ﴿**يعرضوا**﴾ أي لا ينقادوا له بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم، ﴿**ويقولوا سحر مستمر**﴾ أي ويقولون هذا الذي شاهدناه من الحجج سحر سحرنا به. ومعنى ﴿**مستمر**﴾ أي ذاهب. قاله مجاهد وقتادة وغيرهما، أي باطل مضمحل لا دوام له. ﴿**وكذبوا واتبعوا أهواءهم**﴾ أي كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقلهم.

وقوله: ﴿**وكل أمر مستقر**﴾ قال قتادة: معناه أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر، وقال ابن جريج: مستقر بأهله. وقال مجاهد ﴿**وكل أمر مستقر**﴾ أي يوم القيامة، وقال السدي: **مستقر** أي واقع، وقوله: ﴿**ولقد جاءهم من الأنباء**﴾ أي من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسل، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب مما يتلى عليهم في القرآن ﴿**ما فيه مزدجر**﴾ أي ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب. وقوله تعالى: ﴿**حكمة بالغة**﴾ أي في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله، ﴿**فما تغن النذر**﴾ يعني أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة وختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله ؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿**وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون**﴾ [يونس: ١٠١].

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾.

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضون ويقولون: هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم ﴿**يوم يدع الداع إلى شيء نكر**﴾ أي إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب وما فيه من البلاء بل والزلازل والأهوال، ﴿**خشعاً أبصارهم**﴾ أي ذليلة أبصارهم ﴿**يخرجون من الأجداث**﴾ وهي القبور ﴿**كأنهم جراد منتشر**﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي جراد منتشر في الآفاق، ولهذا قال: ﴿**مهطعين**﴾ أي مسرعين ﴿**إلى الداع**﴾ لا يخالفون ولا يتأخرون ﴿**يقول الكافرون هذا يوم عسر**﴾ أي يوم شديد الهول عبوس قمطرير ﴿**فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير**﴾ [المدثر: ٩-١٠].

﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**كذبت**﴾ قبل قومك يا محمد ﴿**قوم نوح فكذبوا عبدنا**﴾ أي صرحوا له

بالتكذيب واتهموه بالجنون ﴿وقالوا مجنون وازدجر﴾ قال مجاهد: وازدجر. أي استطير جنوناً، وقيل: وازدجر أي انتهروه وزجروه وأوعدوه ﴿لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾ [الشعراء:١١٦]، قاله ابن زيد وهذا متوجه حسن ﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾ أي إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم فانتصر أنت لدينك. قال الله تعالى: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾ قال السدي: وهو الكثير ﴿وفجرنا الأرض عيوناً﴾ أي نبعت جميع أرجاء الأرض حتى التنانير التي هي محال النيران نبعت عيوناً، ﴿فالتقى الماء﴾ أي من السماء والأرض ﴿على أمر قد قدر﴾ أي أمر مقدر.

قال ابن عباس ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾ كثير لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب، فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى الماءان على أمر قد قدر. ﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير والقرظي وقتادة وابن زيد: هي المسامير، واختاره ابن جرير، قال: وواحدها دسار. ويقال: دَسير كما يقال حبيك وحباك والجمع حُبُك، وقال مجاهد: الدسر أضلاع السفينة. وقال عكرمة والحسن: هو صدرها الذي يضرب به الموج. وقال الضحاك: طرفها وأصلها، وعن ابن عباس: هو كَلْكَلُها. وقوله: ﴿تجري بأعيننا﴾ أي بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿جزاء لمن كان كفر﴾ أي جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنوح عليه السلام.

وقوله: ﴿ولقد تركناها آية﴾ قال قتادة: أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة. (والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن) كقوله تعالى: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾ [يس:٤١-٤٢]. وقال: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية. لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾ [الحاقة:١١-١٢]، ولهذا قال ههنا: ﴿فهل من مدكر﴾ أي فهل من يتذكر ويتعظ؟

وقوله: ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ أي كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي، ولم يتعظ بما جاءت به نُذُري، وكيف انتصرت لهم وأخذت لهم بالثأر. ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراده، ليتذكر الناس، كما قال: ﴿فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً﴾ [مريم:٩٧]. قال مجاهد: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ يعني هَوّنّا قراءته، وقال السدي: يسرنا تلاوته على الألسن، وعن ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل، قلت: ومن تيسيره تعالى على الناس تلاوة القرآن ما تقدم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف» [متفق عليه]. وقوله: ﴿فهل من مدكر﴾ أي فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسر الله حفظه ومعناه؟ وقال محمد بن كعب القرظي: فهل من منزجر عن المعاصي؟

وعن مَطَر الوراق في قوله تعالى: ﴿فهل من مدكر﴾ هل من طالب علم فَيُعَان عليه،

وروي عن قتادة مثله.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عاد قوم هود: إنهم كذبوا رسولهم أيضاً، كما صنع قوم نوح، وأنه تعالى أرسل عليهم **﴿ريحاً صرصراً﴾** وهي الباردة الشديدة البرد **﴿في يوم نحس﴾** أي عليهم، قاله الضحاك وقتادة والسدي **﴿مستمر﴾** عليهم نحسه ودماره لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي. وقوله: **﴿تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾** وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه فيسقط على الأرض، فتثلغ رأسه فيبقى جثة بلا رأس، ولهذا قال: **﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر * فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾**.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحاً، **﴿فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر﴾** يقولون: لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كُلّنا قيادنا لواحد منا. ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه خاصة من دونهم، ثم رموه بالكذب فقالوا: **﴿بل هو كذاب أشر﴾** أي متجاوز في حد الكذب، قال الله تعالى: **﴿سيعلمون غداً من الكذاب الأشر﴾** وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد. ثم قال تعالى: **﴿إنا مرسلو الناقة فتنة لهم﴾** أي اختباراً لهم، أخرج الله لهم ناقة عظيمة عُشراء، من صخرة صَمّاء طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به. ثم قال تعالى آمراً لعبده ورسوله صالح: **﴿فارتقبهم واصطبر﴾** أي انتظر ما يؤول إليه أمرهم، واصبر عليهم فإن العاقبة لك، والنصر في الدنيا والآخرة **﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم﴾** أي يوم لهم ويوم للناقة، كقوله: **﴿قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾** [الشعراء: ١٥٥].

وقوله: **﴿كل شرب محتضر﴾** قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء. وإذا جاءت حضروا اللبن، ثم قال تعالى: **﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر﴾** قال المفسرون: هو عاقر الناقة، واسمه قُدّار بن سالف، وكان أشقى قومه. كقوله: **﴿إذ انبعث أشقاها﴾** [الشمس: ١٢]، و**﴿فتعاطى﴾** فَجَسر **﴿فعقر. فكيف كان عذابي ونذر﴾** أي فعاقبتهم، فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي وتكذيبهم رسولي **﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾** أي فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية، وخمدوا وهمدوا كما يهمد وييبس الزرع والنبات، قاله غير واحد

من المفسرين، والمحتظر قال السدي هو المرعى بالصحراء حين ييبس وتحرق ونسفته الريح. وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حِظَاراً على الإبل والمواشي من يَبِيس الشوك فهو المراد من قوله: ﴿كهشيم المحتظر﴾. وقال سعيد بن جبير: هو التراب المتناثر من الحائط.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عَنَان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها، وأتبعت بحجارة من سجيل منضود، ولهذا قال ههنا: ﴿إنا أرسلنا عليهم حاصباً﴾ وهي الحجارة ﴿إلا آل لوط نجيناهم بسحر﴾ أي خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد، حتى ولا امرأته أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً لم يمسَسْه سوء، ولهذا قال تعالى: ﴿كذلك نجزي من شكر. ولقد أنذرهم بطشتنا﴾ أي ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه فما التفتوا إلى ذلك ولا أصغوا إليه بل شكوا فيه وتماروا به، ﴿ولقد راودوه عن ضيفه﴾ وذلك ليلة ورَدَ عليه الملائكة في صور شباب مُرد حسان مِحْنَةً من الله بهم، فأضافهم لوط عليه السلام، وبعثت امرأته العجوز إلى قومها فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية ولوط عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه ويقول لهم: ﴿هؤلاء بناتي﴾ يعني نساءهم ﴿إن كنتم فاعلين﴾ [الحجر: ٧١] ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ أي ليس لنا فيهن أرب ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ [هود: ٧٩] فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول، خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم. يقال إنها غارت من وجوههم، وقيل إنه لم تبق لهم عيون بالكلية، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطاً عليه السلام إلى الصباح. قال الله تعالى: ﴿ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر﴾ أي لا محيد لهم عنه ولا انفكاك لهم منه ﴿فذوقوا عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: إنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة

إن آمنوا، والنذارة إن كفروا، وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة فكذبوا بها كلها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر أي فأبادهم الله ولم يبق منهم مخبر ولا عين ولا أثر. ثم قال: ﴿**أكفاركم**﴾ أي أيها المشركون من كفار قريش ﴿**خير من أولئكم**﴾ يعني من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل وكفرهم بالكتب، أأنتم خير من أولئك؟ ﴿**أم لكم براءة في الزبر**﴾ أي أم معكم من الله براءة أن لا ينالكم عذاب ولا نكال؟ ثم قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿**أم يقولون نحن جميع منتصر**﴾ أي يعتقدون أنهم مناصرون بعضهم بعضاً، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء. قال الله تعالى: ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر**﴾ أي سيتفرق شملهم ويغلبون.

روى البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً» فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال: حسبك يا رسول الله ألححت على ربك فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول: ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر**﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق، وسُعُر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق، ثم قال: ﴿**يوم يسحبون في النار على وجوههم**﴾ أي كما كانوا في سعر وشك وتردد أورثهم ذلك النار، وكما كانوا ضلالاً يسحبون فيها على وجوههم لا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: ﴿**ذوقوا مس سقر**﴾. وقوله: ﴿**إنا كل شيء خلقناه بقدر**﴾، كقوله: ﴿**وخلق كل شيء فقدره تقديراً**﴾ [الفرقان:٢]، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القدرية، الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة، وقد تكلمنا على هذا المقام مفصلاً وما ورد فيه من الأحاديث في شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري رحمه الله.

روى أحمد عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر فنزلت: ﴿**يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر**﴾ ورواه مسلم.

وروى ابن أبي حاتم عن عطاء قال: أتيت ابن عباس وهو ينزع من زمزم، وقد ابتلت أسافل

ثيابه فقلت له: قد تُكُلِّم في القدر، فقال: أوقد فعلوها؟ قلت: نعم، قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم ﴿ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم ولا تُصَلُّوا على موتاهم، إن رأيت أحداً منهم فقأت عينيه بأصبعي هاتين.

وروى الإمام أحمد عن نافع قال: كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكاتبه. فكتب إليه عبد الله بن عمر أنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر، فإياك أن تكتب إلي فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر» ورواه أبو داود [وسنده جيد].

وروى أحمد عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في هذه الأمة مسخ، ألا وذاك في المكذبين بالقدر والزنديقية» ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح غريب. وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس» ورواه مسلم.

وفي الحديث الصحيح: «استعن بالله ولا تعجز فإن أصابك أمر فقل قَدَّر الله وما شاء فعل، ولا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا فإن لو تفتح عمل الشيطان». [رواه مسلم]. وفي حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك جفت الأقلام وطويت الصحف» [رواه أحمد وغيره وهو صحيح].

وقد ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»..

وقوله: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه، كما أخبرنا بنفوذ قدره فيهم فقال: ﴿وما أمرنا إلا واحدة﴾ أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجوداً كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء:

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له كن قَوْلَةً فيكون

وقوله: ﴿ولقد أهلكنا أشياعكم﴾ يعني أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسل، ﴿فهل من مدكر﴾ أي فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك وقدر لهم من العذاب، كما قال: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل﴾ [سبأ: ٥٤]. وقوله: ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾ أي مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام ﴿وكل صغير وكبير﴾ أي من أعمالهم ﴿مستطر﴾ أي مجموع عليهم ومسطر في صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وروى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً» ورواه النسائي وابن ماجه [وسنده جيد].

وقوله: ﴿إن المتقين في جنات ونهر﴾ أي بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر والسحب في النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد. وقوله: ﴿في مقعد صدق﴾ أي في دار كرامة الله ورضوانه وفضله وامتنانه وجوده وإحسانه ﴿عند مليك مقتدر﴾ أي عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها. وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون. وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا». أخرجه مسلم.

تفسير سورة الرحمن وهي مكية.

روى الإمام أحمد عن زرٍّ أن رجلاً قال لابن مسعود: إني لأقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال: أهذًا كهذِّ الشعر، لا أبا لك ؟ قد علمت. قرائن النبي ﷺ التي كان يقرن قرينتين قرينتين من أول المفصل، وكان أول مفصل ابن مسعود ﴿الرحمن﴾ [وسنده جيد].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه أنه أنزل على عباده القرآن، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه، فقال: ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾ قال الحسن: يعني النطق، وقال الضحاك وقتادة وغيرهما: يعني الخير والشر، وقول الحسن ههنا أحسن وأقوى لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين على اختلاف مخارجها وأنواعها. وقوله: ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ أي يجريان متعاقبين بحساب مُقَنَّن لا يختلف ولا يضطرب ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾ [يس: ٤٠].

وقوله: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ قال ابن جرير: اختلف المفسرون في معنى قوله والنجم بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: النجم ما انبسط على وجه الأرض يعني من النبات، وكذا قال سعيد بن جبير والسدي وسفيان الثوري، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله. وقال مجاهد: النجم الذي في السماء. وكذا قال الحسن وقتادة، وهذا القول هو الأظهر والله أعلم لقوله تعالى: ﴿ألم ترَ أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من

الناس﴾ الآية [الحج: ١٨].

وقوله: ﴿**والسماء رفعها ووضع الميزان**﴾ يعني العدل كما قال تعالى: ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾ [الحديد: ٢٥]، وهكذا قال ههنا: ﴿**ألا تطغوا في الميزان**﴾ أي خلق السموات والأرض بالحق والعدل، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل. ولهذا قال تعالى: ﴿**وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان**﴾ أي لا تبخسوا الوزن بل زنوا بالحق والقسط كما قال تعالى: ﴿**وزنوا بالقسطاس المستقيم**﴾ [الشعراء: ١٨٢]. وقوله: ﴿**والأرض وضعها للأنام**﴾ أي كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها، وأرساها بالجبال، لتستقر لما على وجهها من الأنام، وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم في سائر أقطارها وأرجائها.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد: الأنام: الخلق. ﴿**فيها فاكهة**﴾ أي مختلفة الألوان والطعوم والروائح ﴿**والنخل ذات الأكمام**﴾ أفرده بالذكر لشرفه ونفعه رطباً ويابساً، والأكمام عن ابن عباس: هي أوعية الطلع وهكذا قال غير واحد من المفسرين، وهو الذي يطلع فيه القنو ثم ينشق عن العنقود، فيكون بسراً ثم رطباً ثم ينضج ويتناهى ينعه واستواؤه.

(كتب قيصر إلى عمر بن الخطاب: أخبرك أن رسلي أتتني من قبلك فزعمت أن قبلكم شجرة ليست بخليقة لشيء من الخير، تخرج مثل آذان الحمير ثم تشقق مثل اللؤلؤ، ثم تخضر فتكون مثل الزمرد الأخضر، ثم تحمر فتكون كالياقوت الأحمر، ثم تينع فتنضج فتكون كأطيب فالوذج أكل، ثم تيبس فتكون عصمة للمقيم وزاداً للمسافر، فإن تكن رسلي صدقتني فلا أرى هذه الشجرة إلا من شجر الجنة، فكتب إليه عمر بن الخطاب: من عمر أمير المؤمنين إلى قيصر ملك الروم، إن رسلك قد صدقوك هذه الشجرة عندنا، وهي الشجرة التي أنبتها الله على مريم حين نفست بعيسى ابنها، فاتق الله ولا تتخذ عيسى إلهاً من دون الله ﴿**إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين**﴾ [آل عمران: ٥٩-٦٠] رواه ابن أبي حاتم) وقيل: الأكمام: رفاتها، وهو الليف الذي على عنق النخلة، وهو قول الحسن وقتادة.

﴿**والحب ذو العصف**﴾ قال ابن عباس: يعني التين. وعن ابن عباس: العصف ورق الزرع الأخضر الذي قطع رؤوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس، وكذا قال قتادة والضحاك وأبو مالك: عصفه: تبنه. وقال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: ﴿**والريحان**﴾ يعني الورق. وقال الحسن: هو ريحانكم هذا، وقال ابن عباس [أيضا]: والريحان خضر الزرع، ومعنى هذا - والله أعلم - أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له في حال نباته عصف، وهو: ما على السنبلة، وريحان وهو الورق الملتف على ساقها. وقيل: العصف الورق أول ما ينبت الزرع بقلاً، والريحان الورق يعني إذا أدجن وانعقد فيه الحب، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل في قصيدته

المشهورة:

وقولا له من يُنبتُ الحبَّ في الثَّرى فيصـبح منه البـقلُ يهـتزُّ رابيا
ويخــرج مــنه حبه فـي رُؤوســه ففي ذاك آياتٌ لمن كان واعيا

وقوله: ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ أي فبأي الآلاء يا معشر الثقلين من الإنس والجن تكذبان؟ قاله مجاهد وغير واحد، ويدل عليه السياق بعده، أي النِّعَمُ ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها، فنحن نقول: اللهم ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد. وكان ابن عباس يقول: لا بأيها يا رب. أي لا نكذب بشيء منها.

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار، وخلقه الجان من مارج من نار، وهو طرف لهبها، قاله ابن عباس، وبه يقول عكرمة ومجاهد والحسن وابن زيد، وعن ابن عباس: من مارج من نار، من لهب النار من أحسنها. وقال ابن عباس: من مارج من نار من خالص النار. وكذلك قال عكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم. وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». ورواه مسلم.

وقوله: ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ تقدم تفسيره ﴿**رب المشرقين ورب المغربين**﴾ يعني مشرقي الصيف والشتاء ومغربي الصيف والشتاء، وقال في الآية الأخرى: ﴿**فلا أقسم برب المشارق والمغارب**﴾ [المعارج: ٤٠]، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم وبروزها منه إلى الناس. وقال في الآية الأخرى: ﴿**رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً**﴾ [المزمل: ٩] وهذا المراد منه جنس المشرق والمغرب، ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال: ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾.
وقوله: ﴿**مرج البحرين يلتقيان**﴾ قال ابن عباس: أي أرسلهما. وقوله: ﴿**يلتقيان**﴾ قال ابن زيد: أي منعهما أن يلتقيا بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما، والمراد بقوله البحرين: الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس، وقد قدمنا الكلام على ذلك في سورة الفرقان عند قوله تعالى: ﴿**وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج * وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً**﴾ [الفرقان: ٥٣].

وقوله: ﴿**يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان**﴾ أي من مجموعهما، فإذا وجد ذلك من أحدهما كفى، كما قال تعالى: ﴿**يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم**﴾ [الأنعام: ١٣٠].

والرسل إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن وقد صح هذا الإطلاق. واللؤلؤ معروف، وأما المرجان فقيل هو صغار اللؤلؤ، قاله مجاهد وقتادة وأبو رزين والضحاك وروي عن علي، وقيل: كباره وجيده، حكاه ابن جرير عن بعض السلف ورواه ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس، وحكاه السدي عمن حدثه عن ابن عباس، وروي مثله عن علي ومجاهد أيضاً ومرة الهمداني، وقيل: هو نوع من الجواهر أحمر اللون، عن عبد الله [بن مسعود] قال: المرجان الخرز الأحمر، وأما قوله: ﴿**ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها**﴾ [فاطر: ١٢]، فاللحم من كل من الأجاج والعذب، والحلية إنما هي من المالح دون العذب. قال ابن عباس: ما سقطت قط قطرة من السماء في البحر فوقعت في صدفة إلا صار منها لؤلؤة، وكذا قال عكرمة، وزاد: فإذا لم تقع في صدفة نبتت بها عنبرة، وروي من غير وجه عن ابن عباس نحوه.

وعن ابن عباس قال: إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواهها فما وقع فيها، يعني من قطر فهو اللؤلؤ. وإسناده صحيح، ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض، امتن بها عليهم فقال: ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾.

وقوله: ﴿**وله الجوار المنشآت**﴾ يعني السفن التي تجري ﴿**في البحر**﴾ قال مجاهد: ما رفع قلعه من السفن فهي منشأة وما لم يرفع قلعه فليس بمنشأة، وقال قتادة: المنشآت يعني المخلوقات، وقال غيره: المنشِآت بكسر الشين يعني البادئات ﴿**كالأعلام**﴾ أي كالجبال في كبرها، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم، مما فيه صلاح الناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع، ولهذا قال: ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾. وعن عميرة بن سعد قال: كنت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه على شاطىء الفرات إذ أقبلت سفينة مرفوع شراعها فبسط علي يديه ثم قال: يقول الله عز وجل: ﴿**وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام**﴾ والذي أنشأها تجري في بحوره ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله.

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات، إلا من شاء الله ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم، فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت بل هو الحي الذي لا يموت أبداً، قال قتادة: أنبأ بما خلق، ثم أنبأ أن ذلك كله فانٍ. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾ [القصص: ٨٨]. وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية بأنه ﴿**ذو الجلال والإكرام**﴾ أي هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف. قال ابن عباس: ذو الجلال والإكرام: ذو العظمة والكبرياء، ولما أخبر تعالى عن تساوي أهل

الأرض كلهم في الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال: ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾. وقوله: ﴿**يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن**﴾ وهذا إخبار عن غناه عما سواه، وافتقار الخلائق إليه وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو في شأن، قال عبيد بن عمير: من شأنه أن يجيب داعياً أو يعطي سائلاً، أو يفك عانياً أو يشفي سقيماً.

وعن مجاهد قال: كل يوم هو يجيب داعياً ويكشف كرباً ويجيب مضطراً ويغفر ذنباً، وقال قتادة: لا يستغني عنه أهل السموات والأرض يحيي حياً، ويميت ميتاً، ويربي صغيراً، ويفك أسيراً وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم، ومنتهى شكواهم.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: ﴿**كل يوم هو في شأن**﴾ ـ قال ـ من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً ويضع آخرين». [ورواه ابن ماجه وقال البوصيري في الزوائد: إسناده حسن]. قلت: وقد روي موقوفاً كما علقه البخاري بصيغة الجزم فجعله من كلام أبي الدرداء فالله أعلم.

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

قال ابن عباس في قوله: ﴿**سنفرغ لكم أيها الثقلان**﴾ قال: وعيد من الله تعالى للعباد وليس بالله شغل، وكذا قال الضحاك، وقال قتادة: قد دنا من الله فراغ لخلقه، وقال ابن جريج ﴿**سنفرغ لكم**﴾ أي سنقضي لكم، وقال البخاري: سنحاسبكم لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف في كلام العرب، يقال لأتفرغن لك وما به شغل، يقول: لآخذنك على غِرَّتك. وقوله: ﴿**أيها الثقلان**﴾ الثقلان: الإنس والجن كما جاء في الصحيح: «ويسمعها كل شيء إلا الثقلين» وفي رواية «إلا الإنس والجن». ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾. ثم قال: ﴿**يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان**﴾ أي لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره بل هو محيط بكم، لا تقدرون على التخلص من حكمه ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام الحشر، الملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿**إلا بسلطان**﴾ أي إلا بأمر الله ﴿**يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر**﴾ [القيامة: ١٠ـ١٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿**يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران**﴾ قال ابن عباس الشواظ: هو لهب النار، وعنه [أيضا]: الشواظ الدخان، وقال مجاهد: هو اللهب الأخضر المنقطع، وقال أبو صالح: هو اللهب الذي فوق النار ودون الدخان. وقال الضحاك: سيل من نار. وقوله: ﴿**ونحاس**﴾ قال ابن عباس: دخان النار، وروي مثله عن أبي صالح وسعيد بن جبيروأبي سنان.

وقال ابن جرير: والعرب تسمي الدخان نحاساً، بضم النون وكسرها، والقراء مجمعة على الضم، وقال مجاهد: النحاس الأصفر يذاب فيصب على رؤوسهم، وكذا قال قتادة، وقال الضحاك: ونحاس سيل من نحاس، والمعنى على كل قول لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار، والنحاس المذاب عليكم لترجعوا، ولهذا قال: ﴿فلا تنتصران فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾.

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿فإذا انشقت السماء﴾ يوم القيامة كما دلت عليه هذه الآيات مع ما شاكلها من الآيات الواردة في معناها، كقوله: ﴿وانشقت السماء فهي يومئذ واهية﴾ [الحاقة:١٦]. ﴿فكانت وردة كالدهان﴾ أي تذوب كما يذوب الدُّرْدي والفضة في السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وردة كالدهان﴾ قال: هو الأديم الأحمر، وعنه [أيضا]: كالفرس الورد، وعنه [أيضا]: تغير لونها، وقال أبو صالح: كالبِرْذَون الورد، ثم كانت بعد كالدهان، وحكى البغوي وغيره أن الفرس الورد تكون في الربيع صفراء، وفي الشتاء حمراء، فإذا اشتد البرد تغير لونها، وقال الحسن البصري: تكون ألواناً. وقال مجاهد: ﴿كالدهان﴾ كألوان الدهان، وقال عطاء الخراساني: كلون دُهْن الورد في الصفرة، وقال قتادة: هي اليوم خضراء ويومئذ لونها إلى الحمرة يوم ذي ألوان. وقال أبو الجوزاء: في صفاء الدهن. وقال ابن جريج: تصير السماء كالدهن الذائب وذلك حين يصيبها حر جهنم.

وقوله: ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾، وهذه كقوله: ﴿هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ [المرسلات:٣٥-٣٦]، فهذا في حال، وثَمَّ حال يسأل الخلائق فيها عن جميع أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ [الحجر:٩٢-٩٣]، ولهذا قال قتادة: ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ قال: قد كانت مسألة، ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. قال ابن عباس: لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا، لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟ فهذا قول ثان. وقال مجاهد في هذه الآية: لا يسأل الملائكة عن المجرمين بل يُعْرَفون بسيماهم، وهذا قول ثالث، وكأن هذا بعدما يؤمر بهم إلى النار فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم، بل يقادون إليها ويلقون فيها، كما قال تعالى: ﴿يعرف المجرمون بسيماهم﴾ أي بعلامات تظهر عليهم. وقال الحسن وقتادة: يعرفونهم باسوداد الوجوه وزرقة العيون. قلت: وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء.

وقوله: ﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ أي تجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ويلقونه في النار كذلك، وعن ابن عباس: يؤخذ بناصيته وقدميه فيكسر كما يكسر الحطب في التنور، وقال الضحاك: يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره، وقال السدي: يجمع بين ناصية الكافر وقدميه فتربط ناصيته بقدمه ويفتل ظهره.

وقوله: ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ أي هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها، هاهي حاضرة تشاهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً. وقوله: ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ أي تارة يعذبون في الجحيم وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب يقطع الأمعاء والأحشاء، وهذه كقوله تعالى: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون﴾ [غافر: ٧١-٧٢].

وقوله: ﴿آن﴾ أي حار قد بلغ الغاية في الحرارة لا يستطاع من شدة ذلك، قال ابن عباس في قوله: ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ أي قد انتهى غليه واشتد حره، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن والثوري والسدي. وقال قتادة: قد أنى طبخه منذ خلق الله السموات والأرض، وقال محمد بن كعب القرظي: الحميم الآن يعني: الحار، وعن القرظي رواية أخرى ﴿حميم آن﴾ أي حاضر. وهو قول ابن زيد أيضاً، والحاضر لا ينافي ماروي عن القرظي أولاً أنه الحار كقوله: ﴿تسقى من عين آنية﴾ أي حارة شديدة الحر لا تستطاع، فقوله: ﴿حميم آن﴾ أي حميم حار جداً. ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره لهم عن عذابه وبأسه مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك قال ممتناً بذلك على بريته ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾.

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ ﴾.

هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره، يقول الله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه﴾ بين يدي الله عز وجل يوم القيامة ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾ [النازعات: ٤٠]، ولم يطغ ولا آثر الحياة الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى فأدى فرائض الله واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما روى البخاري عن [أبي موسى الأشعري] أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

وروى ابن جرير والنسائي عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق فقال: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن رغم أنف أبي الدرداء» [وسنده صحيح].

وهذه الآية عامة في الإنس والجن، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿**ولمن خاف مقام ربه جنتان * فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ ثم نعت هاتين الجنتين فقال: ﴿**ذواتا أفنان**﴾ أي أغصان نضرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة، ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ هكذا قال عطاء الخراساني وجماعة أن الأفنان أغصان الشجر يمس بعضها بعضاً، وعن عكرمة قال: ﴿**ذواتا أفنان**﴾ يقول: ظل الأغصان على الحيطان، وحكى البغوي عن مجاهد وعكرمة والضحاك والكلبي: أنه الغصن المستقيم، وعن ابن عباس قال: ذواتا ألوان، وروي عن سعيد بن جبير والحسن والسدي وخصيف والنضر بن عربي وابن سنان مثل ذلك. ومعنى هذا القول أن فيهما فنوناً من الملاذ، واختاره ابن جرير، وقال عطاء: كل غصن يجمع فنوناً من الفاكهة، وقال الربيع بن أنس ﴿**ذواتا أفنان**﴾ واسعتا الفناء وكل هذه الأقوال صحيحة ولا منافاة بينها، والله أعلم، وقال قتادة: ﴿**ذواتا أفنان**﴾ ينبىء بسعتها وفضلها ومزيتها على ما سواها.

﴿**فيهما عينان تجريان**﴾ أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان، ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ قال الحسن البصري: إحداهما يقال لها تسنيم، والأخرى السلسبيل. وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين، ولهذا قال بعد هذا: ﴿**فيهما من كل فاكهة زوجان**﴾ أي من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون، ومما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾. قال ابن عباس، ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل، وقال ابن عباس [أيضا]: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء يعني أن بين ذلك بوناً عظيماً وفرقاً بيناً في التفاضل.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**متكئين**﴾ يعني أهل الجنة، والمراد بالاتكاء ههنا الاضطجاع ويقال: الجلوس على صفة التربع ﴿**على فرش بطائنها من إستبرق**﴾ وهو ما غلظ من الديباج، قاله عكرمة والضحاك وقتادة وقال أبو عمران الجَوْني: هو الديباج المغرّى بالذهب، فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة، فهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى. وعن عبد الله بن مسعود قال: هذه البطائن، فكيف لو رأيتم الظواهر. وقال مالك بن دينار: بطائنها من إستبرق وظواهرها من نور، وقال القاسم بن محمد: بطائنها من إستبرق وظواهرها من الرحمة، وعن أبي عبد الله الشامي: ذكر الله البطائن ولم يذكر الظواهر، وعلى الظواهر المحابس ولا يعلم ما تحت المحابس إلا الله تعالى، ذكر ذلك كله الإمام ابن أبي حاتم. ﴿**وجنى الجنتين دان**﴾ أي ثمرهما

قريب إليهم متى شاءوا تناولوه، على أي صفة كانوا، كما قال: **﴿ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا﴾** [الإنسان: ١٤] أي لا تمتنع ممن تناولها بل تنحط إليه من أغصانها **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾**.

ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك: **﴿فيهن﴾** أي في الفرش **﴿قاصرات الطرف﴾** أي غضيضات عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئاً في الجنة أحسن من أزواجهن. قاله ابن عباس وقتادة وعطاء الخراساني وابن زيد.

﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ أي بل هن أبكار عرب أتراب، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن، وهذه أيضاً من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة، وسئل ضمرة بن حبيب هل يدخل الجن الجنة ؟ قال: نعم وينكحون، للجن جنيات وللإنس إنسيات، وذلك قوله: **﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان * فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾**. ثم قال ينعتهن للخطاب **﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾** قال مجاهد والحسن وابن زيد وغيرهم: في صفاء الياقوت وبياض المرجان، فجعلوا المرجان ههنا اللؤلؤ.

وروى مسلم عن محمد بن سيرين قال: إما تفاخروا وإما تذاكروا، الرجال أكثر في الجنة أم النساء ؟ فقال أبو هريرة: أولم يقل أبو القاسم ﷺ: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر والتي تليها على ضوء كوكب دري في السماء، لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم وما في الجنة أعزب». مخرج في الصحيحين. وروى الإمام أحمد عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قيده ـ يعني سوطه ـ من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحاً ولطاب ما بينهما، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها» ورواه البخاري.

وقوله: **﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾** أي ما لمن أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة، كما قال تعالى: **﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾** [يونس: ٢٦]. ولما كان في الذي ذكر نعم عظيمة لا يقاومها عمل بل مجرد تفضل وامتنان قال بعد ذلك كله: **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾**.

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ
نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ
حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ
قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله تعالى:

﴿ومن دونهما جنتان﴾ وفي الحديث: جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما» [متفق عليه]، فالأوليان للمقربين والأخريان لأصحاب اليمين. وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين. وقال ابن عباس: من دونهما في الدرج، وقال ابن زيد: من دونهما في الفضل. والدليل على شرف الأوليين على الأخريين وجوه: أحدها: أنه نعت الأوليين قبل هاتين، والتقدم يدل على الاعتناء ثم قال: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ وهذا ظاهر في شرف المتقدم وعلوه على الثاني. وقال هناك: ﴿ذواتا أفنان﴾ وهي الأغصان أو الفنون في الملاذ، وقال ههنا: ﴿مدهامتان﴾ أي سوداوان من شدة الري من الماء. قال ابن عباس في قوله: ﴿مدهامتان﴾ قد اسودتا من الخضرة من شدة الري من الماء، وعن ابن عباس قال: خضراوان. وروي عن أبي أيوب الأنصاري وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن أبي أوفى ومجاهد في إحدى الروايات وعطاء والحسن وسفيان الثوري [وغيرهم] نحو ذلك، وقال محمد بن كعب: ﴿مدهامتان﴾ ممتلئتان من الخضرة، وقال قتادة: خضراوان من الري ناعمتان ولا شك في نضارة الأغصان على الأشجار المشبكة بعضها في بعض.

وقال هناك: ﴿فيهما عينان تجريان﴾ وقال ههنا: ﴿نضاختان﴾ قال ابن عباس: أي فياضتان والجري أقوى من النضخ، وقال الضحاك: ﴿نضاختان﴾ أي ممتلئتان لا تنقطعان. وقال هناك: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾، وقال ههنا: ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾ ولا شك أن الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنويع على فاكهة، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم، ولهذا فسر قوله: ﴿ونخل ورمان﴾ من باب عطف الخاص على العام كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما.

وعن ابن عباس قال: نخل الجنة سعفها كسوة لأهل الجنة، منها مُقَطَّعَاتهم، ومنها حُلَلهم وكَرَبُها ذهب أحمر، وجذوعها زمرد أخضر، وثمرها أحلى من العسل وألين من الزبد وليس له عجم.

ثم قال: ﴿فيهن خيرات حسان﴾ قيل المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة، قاله قتادة، وقيل: خيرات جمع خيرة، وهي المرأة الصالحة الحسنة الخُلُق الحسنة الوجه، قاله الجمهور. ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾. ثم قال: ﴿حور مقصورات في الخيام﴾ وهناك قال: ﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ ولا شك أن التي قد قصرت طرفها بنفسها أفضل ممن قصرت وإن كان الجميع مخدرات، وقوله: ﴿في الخيام﴾ روى البخاري عن [أبي موسى الأشعري] أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون».

وعن ابن عباس قال: في خيام اللؤلؤ، وفي الجنة خيمة واحدة من لؤلؤة واحدة أربعة فراسخ في أربعة فراسخ عليها أربعة آلاف مصراع من ذهب. وعن أبي الدرداء: لؤلؤة واحدة

فيها سبعون بابا من در.

وقوله تعالى: ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ قد تقدم مثله سواء إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله: ﴿كأنهن الياقوت والمرجان * فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾.

وقوله: ﴿متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان﴾ قال ابن عباس: الرفرف: المحابس، وكذا قال مجاهد والحسن والضحاك وغيرهم: هي المحابس، وقال العلاء بن بدر: الرفرف على السرير كهيئة المحابس المتدلي. وقال عاصم الجحدري: يعني الوسائد وهو قول الحسن البصري في رواية عنه، وقال سعيد بن جبير: الرفرف رياض الجنة. وقوله: ﴿وعبقري حسان﴾ قال ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي: العبقري الزرابي، وقال سعيد بن جبير هي عتاق الزرابي يعني جيادها، وقال مجاهد: العبقري الديباج، وسئل الحسن البصري عن قوله: ﴿وعبقري حسان﴾ فقال: هي بسط أهل الجنة لا أبا لكم فاطلبوها، وعن الحسن رواية أنها المرافق. وقال زيد بن أسلم: العبقري أحمر وأصفر وأخضر، وسئل العلاء بن زيد عن العبقري فقال: البسط أسفل من ذلك. وقال أبو العالية: العبقري الطنافس المخْمَلة إلى الرقة ما هي، وقال الخليل بن أحمد: كل شيء نفيس من الرجال وغير ذلك يسمى عند العرب عبقرياً، ومنه قول النبي ﷺ في عمر: «فلم أرَ عبقرياً يفري فريه» [متفق عليه]. وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين الأوليين أرفع وأعلى من هذه الصفة فإنه قد قال هناك: ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق﴾ فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها اكتفاء بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى. وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ فوصف أهلها بالإحسان، وهو أعلى المراتب والنهايات، فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأوليين على هاتين الأخريين، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأوليين.

ثم قال: ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ أي هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى، وقال ابن عباس ﴿ذي الجلال والإكرام﴾ ذي العظمة والكبرياء. وروى الحافظ أبو يعلى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «ألظّوا بيا ذا الجلال والإكرام». وكذا رواه الترمذي. وروى الإمام أحمد عن ربيعة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألظوا بذي الجلال والإكرام» ورواه النسائي [وهو حسن بما قبله]. وقال الجوهري: ألظ فلان بفلان: إذا لزمه. وقول ابن مسعود ألظو بياذا الجلال والإكرام: أي الزموا. يقال: الإلظاظ هو الإلحاح. قلت: وكلاهما قريب من الآخر، والله أعلم، وهو المداومة واللزوم والإلحاح. وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد يعني بعد الصلاة إلا بقدر ما يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام».

تفسير سورة الواقعة وهي مكية.

روى الإمام أحمد عن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكنه كان يخفف، وكانت صلاته أخف من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور. [وسنده جيد].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢ ﴾.

الواقعة من أسماء يوم القيامة سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها كما قال تعالى: ﴿**فيومئذ وقعت الواقعة**﴾ [الحاقة: ١٥]. وقوله: ﴿**ليس لوقعتها كاذبة**﴾ أي ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها، ولا دافع يدفعها، كما قال: ﴿**استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله**﴾ [الشورى: ٤٧]، ومعنى ﴿**كاذبة**﴾ كما قال محمد بن كعب: لابد أن تكون، وقال قتادة: ليس فيها مثنوية ولا ارتداد ولا رجعة. قال ابن جرير: والكاذبة مصدر كالعاقبة والعافية.

وقوله: ﴿**خافضة رافعة**﴾ أي تخفض أقواماً إلى أسفل سافلين إلى الجحيم، وإن كانوا في الدنيا أعزاء، وترفع آخرين إلى أعلى عليين إلى النعيم المقيم، وإن كانوا في الدنيا وضعاء. هكذا قال الحسن وقتادة وغيرهما. وعن ابن عباس: تخفض أقواماً وترفع آخرين. وعن عثمان بن سراقة ابن خالة عمر بن الخطاب قال: الساعة خفضت أعداء الله إلى النار ورفعت أولياء الله إلى الجنة. وقال السدي: خفضت المتكبرين ورفعت المتواضعين، وعن ابن عباس [أيضا]: ﴿**خافضة رافعة**﴾ أسمعت القريب والبعيد، وقال عكرمة: خفضت فأسمعت الأدنى، ورفعت فأسمعت الأقصى، وكذا قال الضحاك وقتادة.

وقوله: ﴿**إذا رجت الأرض رجاً**﴾ أي حركت تحريكاً فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها، ولهذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد: زلزلت زلزالاً، وقال الربيع بن أنس: ترج بما فيها كرج الغربال بما فيه، وهذه كقوله تعالى: ﴿**إذا زلزلت الأرض زلزالها**﴾ [الزلزلة: ١]. وقوله: ﴿**وبست الجبال بساً**﴾ أي فُتِّتت تفتيتاً، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغيرهم، وقال ابن زيد: صارت الجبال كما قال الله تعالى: ﴿**كثيباً مهيلاً**﴾ [المزمل: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿**فكانت هباء منبثاً**﴾ عن علي رضي الله عنه: كرهَج الغبار يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء، وعن ابن عباس: الهباء الذي يطير من النار، إذا اضطرمت يطير منه الشرر فإذا وقع لم يكن شيئاً، وقال عكرمة: المنبث الذي قد ذرته الريح وبثته. وقال قتادة: كيبيس الشجر الذي تذروه الرياح. وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة

وذهابها وتسييرها ونسفها وصيرورتها كالعهن المنفوش.

وقوله: ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة﴾ أي ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قوم عن يمين العرش. ويؤتون كتبهم بأيمانهم ويؤخذ بهم ذات اليمين، وقال السدي: وهم جمهور أهل الجنة، وآخرون عن يسار العرش، ويؤتون كتبهم بشمالهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال وهم عامة أهل النار ـ عياذاً بالله من صنيعهم ـ وطائفة سابقون بين يديه عز وجل، وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عدداً من أصحاب اليمين، ولهذا قال: ﴿فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة * والسابقون السابقون﴾ وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آخر السورة وقت احتضارهم، وهكذا ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ الآية [فاطر: ٣٢]، وذلك على أحد القولين في الظالم لنفسه كما تقدم بيانه.

عن ابن عباس في قوله: ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة﴾ قال: هي التي في سورة الملائكة ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات﴾. وعنه [أيضا]: هذه الأزواج الثلاثة هم المذكورون في آخر السورة وفي سورة الملائكة. وقال مجاهد: يعني فرقاً ثلاثة. وقال ميمون بن مهران: أفواجاً ثلاثة، وقال عثمان بن سراقة ابن خالة عمر بن الخطاب ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة﴾ اثنان في الجنة وواحد في النار.

وقال محمد بن كعب: ﴿والسابقون السابقون﴾ هم الأنبياء عليهم السلام. وقال السدي: هم أهل عليين، وعن ابن عباس قال: يوشع بن نون، سبق إلى موسى، ومؤمن آل يس، سبق إلى عيسى وعلي بن أبي طالب سبق إلى محمد رسول الله ﷺ. رواه ابن أبي حاتم. وعن ابن سيرين: ﴿والسابقون السابقون﴾ الذين صلوا إلى القبلتين. وقال الحسن وقتادة ﴿والسابقون السابقون﴾ أي من كل أمة، وعن عثمان بن أبي سودة أنه قرأ هذه الآية ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾ ثم قال: أولهم رواحاً إلى المسجد وأولهم خروجاً في سبيل الله. وهذه الأقوال كلها صحيحة فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا، كما قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾ [الحديد: ٢٢]، فمن سابق في هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان، ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك المقربون، في جنات النعيم﴾.
وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال: قالت الملائكة يا رب جعلت لبني آدم الدنيا فهم يأكلون ويشربون ويتزوجون فاجعل لنا الآخرة. فقال: لا أفعل، فراجعوا ثلاثاً فقال:

لا أجعل من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان. ثم قرأ عبد الله: ﴿**والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم**﴾ وقد روى هذا الأثر الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه الرد على الجهمية ولفظه: فقال الله عز وجل: لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان.

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين أنهم ثلة أي جماعة من الأولين وقليل من الآخرين، وقد اختلفوا في المراد بقوله الأولين والآخرين فقيل: المراد بالأولين الأمم الماضية وبالآخرين هذه الأمة، وهذا رواية عن مجاهد والحسن البصري، وهو اختيار ابن جرير واستأنس بقوله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة» [متفق عليه]. ولم يحك غيره ولا عزاه إلى أحد.

والراجح أن المراد بقوله تعالى: ﴿**ثلة من الأولين**﴾ أي من صدر هذه الأمة ﴿**وقليل من الآخرين**﴾ أي من هذه الأمة. وعن الحسن قال: أما السابقون فقد مضوا ولكن اللهم اجعلنا من أصحاب اليمين. وعن الحسن أنه قرأ: ﴿**ثلة من الأولين**﴾ فقال: ثلة ممن مضى من هذه الأمة، وعن محمد بن سيرين أنه قال في هذه الآية: ﴿**ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين**﴾ كانوا يقولون أو يرجون أن يكونوا كلهم من هذه الأمة. فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة، ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم كل أمة بحسبها، ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم». [متفق عليه]. الحديث بتمامه.

وقوله: ﴿**على سرر موضونة**﴾ قال ابن عباس: أي مرمولة بالذهب يعني منسوجة به، وكذا قال مجاهد وزيد بن أسلم وقتادة وغيرهم، وقال السدي: مرمولة بالذهب واللؤلؤ، وقال عكرمة: مشبكة بالدر والياقوت، وقال ابن جرير: ومنه يسمى وضين الناقة الذي تحت بطنها، وهو فعيل بمعنى مفعول لأنه مضفور، وكذلك السرر في الجنة مضفورة بالذهب واللآلىء.

وقوله: ﴿**متكئين عليها متقابلين**﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض ليس أحد وراء أحد. ﴿**يطوف عليهم ولدان مخلدون**﴾ أي مخلدون على صفة واحدة، لا يكبرون عنها ولا يشيبون ولا يتغيرون، ﴿**بأكواب وأباريق وكأس من معين**﴾ أما الأكواب فهي الكيزان التي لا خراطيم لها ولا آذان، والأباريق التي جمعت الوصفين. والجميع من خمر من عين جارية معين، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ بل من عيون سارحة. وقوله: ﴿**لا يصدعون عنها ولا ينزفون**﴾ أي لا تصدع

رؤوسهم ولا تنزف عقولهم، بل هي ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة، وعن ابن عباس أنه قال: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول، فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال. وقال مجاهد وقتادة والسدي [وغيرهم]: ليس لهم فيها صداع رأس، ولا تذهب بعقولهم.

وقوله: ﴿**وفاكهة مما يتخيرون * ولحم طير مما يشتهون**﴾ أي ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار، وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها.

وروى الإمام أحمد والحافظ أبو يعلى عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا، فربما رأى الرجل الرؤيا فسأل عنه إذا لم يكن يعرفه، فإذا أثنى عليه معروف كان أعجب لرؤياه إليه، فأتته أمرأة فقالت: يا رسول الله رأيت كأني أتيت فأخرجت من المدينة فأدخلت الجنة، فسمعت وجبة انتحبت لها الجنة، فنظرت فإذا فلان بن فلان وفلان بن فلان فسمت اثني عشر رجلاً، كان النبي ﷺ قد بعث سرية قبل ذلك فجيء بهم عليهم ثياب طلس تشخب أوداجهم، فقيل اذهبوا بهم إلى نهر البيدخ أو البيذخ، قال فغمسوا فيه فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر، فأتوا بصفحة من ذهب فيها بُسر فأكلوا من بسره ما شاءوا، فما يقلبونها من وجه إلا أكلوا من الفاكهة ما أرادوا، وأكلت معهم فأتى البشير من تلك السرية، فقال كان من أمرنا كذا وكذا فأصيب فلان وفلان حتى عد اثني عشر رجلاً، فدعا رسول الله ﷺ المرأة، فقال قصي رؤياك، فقصتها وجعلت تقول فجيء بفلان وفلان كما قال. هذا لفظ أبي يعلى، قال الحافظ الضياء: وهذا على شرط مسلم.

وقوله: ﴿**ولحم طير مما يشتهون**﴾ روى أبو بكر بن أبي الدنيا عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سئل عن الكوثر فقال: «نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها يعني كأعناق الجزر» فقال عمر: إنها لناعمة، قال رسول الله ﷺ: «آكلها أنعم منها» وكذا رواه الترمذي، وقال: حسن.

وروى ابن أبي حاتم عن كعب قال: إن طائر الجنة أمثال البخت يأكل من ثمرات الجنة ويشرب من أنهار الجنة، فيصطففن له فإذا اشتهى منها شيئاً أتى حتى يقع بين يديه، فيأكل من خارجه وداخله ثم يطير لم ينقص منه شيء، صحيح إلى كعب.

وقوله: ﴿**وحور عين**﴾ أي لهم فيها حور عين. وقوله: ﴿**كأمثال اللؤلؤ المكنون**﴾ أي كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه كما في سورة الصافات ﴿**كأنهن بيض مكنون**﴾ [آية: ٤٩]، وقد تقدم في سورة الرحمن وصفهن أيضاً، ولهذا قال: ﴿**جزاء بما كانوا يعملون**﴾ أي هذا الذي أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل.

ثم قال: ﴿**لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً**﴾ أي لا يسمعون في الجنة كلاماً لاغياً أي عبثاً خالياً من المعنى أو مشتملاً على معنى حقير أو ضعيف كما قال:

﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ [الغاشية: ١١] أي كلمة لاغية ﴿ولا تأثيماً﴾ أي ولا كلاماً فيه قبح ﴿إلا قيلا سلاماً سلاماً﴾ أي إلا التسليم منهم بعضهم على بعض، كما قال: ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ [إبراهيم: ٢٣] وكلامهم أيضاً سالم من اللغو والإثم.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى مآل السابقين وهم المقربون، عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين وهم الأبرار، كما قال ميمون بن مِهْرَان: أصحاب اليمين منزلتهم دون المقربين، فقال: ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ أي أي شيء أصحاب اليمين؟! وما حالهم وكيف مآلهم؟ ثم فسر ذلك فقال تعالى: ﴿في سدر مخضود﴾ قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة والسدي وغيرهم: هو الذي لا شوك فيه، وعن ابن عباس: هو الموَقَّر بالثمر، وهو رواية عن عكرمة ومجاهد، وكذا قال قتادة أيضاً: كنا نحدث أنه الموقر الذي لا شوك به، والظاهر أن المراد هذا وهذا، فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر، وفي الآخرة على العكس من هذا لا شوك فيه، وفيه الثمر الكثير الذي قد أثقل أصله، كما روى الحافظ أبو بكر أحمد بن سلمان النجّاد عن سليم بن عامر قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم، قال: أقبل أعرابي يوماً فقال: يا رسول الله ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، فقال رسول الله: «وما هي ؟» قال السدر فإن له شوكاً مؤذياً. فقال رسول الله ﷺ: «أليس الله تعالى يقول ﴿في سدر مخضود﴾ خَضَد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها لتنبت ثمراً تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام، ما فيها من لون يشبه الآخر». [ورواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد].

وقوله: ﴿وطلح منضود﴾ الطلح شجر عظام يكون بأرض الحجاز من شجر العضاه واحدته طلحة، وهو شجر كثير الشوك، وقال مجاهد: ﴿منضود﴾ أي متراكم الثمر يُذكِّر بذلك قريشاً لأنهم كانوا يعجبون من وجّ وظلاله من طلح وسدر. وقال السدي: منضود: مصفوف. قال ابن عباس: يشبه طلح الدنيا، ولكن له ثمر أحلى من العسل، قال الجوهري والطلح لغة في الطلع. وعن أبي سعيد قال: الموز، قال وروي عن ابن عباس وأبي هريرة والحسن وعكرمة وقسامة بن زهير وقتادة وأبي حزرة مثل ذلك، وبه قال مجاهد وابن زيد: وزاد فقال: أهل اليمن يسمون الموز الطلح، ولم يحك ابن جرير غير هذا القول.

وقوله: ﴿وظل ممدود﴾ روى البخاري عن أبي هريرة، يبلغ به النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرأوا إن شئتم: ﴿وظل ممدود﴾».

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أنس عن النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿وظل

ممدود﴾ قال: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها» ورواه البخاري. وقد أخرج البخاري من حديث أبي سعيد وسهل بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها» فهذا حديث ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل متواتر مقطوع بصحته عند أئمة الحديث النقاد، لتعدد طرقه وقوة أسانيده وثقة رجاله.

وعن ابن عباس: في الجنة شجر لا يحمل يُستظلُّ به. وقال الضحاك والسدي وأبو حزرة في قوله: **﴿وظل ممدود﴾** لا ينقطع، ليس فيها شمس ولا حر مثل قبل طلوع الفجر، وقال ابن مسعود: الجنة سَجْسَج كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وقد تقدمت الآيات كقوله: **﴿وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾** [النساء: ٥٧]، وقوله: **﴿أكلها دائم وظلها﴾** [الرعد: ٣٥] إلى غير ذلك من الآيات. وقوله: **﴿وماء مسكوب﴾** قال الثوري: يجري في غير أخدود.

وقوله: **﴿وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾** أي وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال تعالى: **﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً﴾** [البقرة: ٢٥] أي يشبه الشكلُ الشكلَ، ولكن الطعم غيرُ الطعم، وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: خُسِفَت الشمس، فصلى رسولُ الله ﷺ والناس معه فذكر الصلاة. وفيه قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت. قال: «إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا».

وقوله: **﴿لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾** أي لا تنقطع شتاء ولا صيفاً بل أكلها دائم مستمر أبداً، مهما طلبوا وجدوا، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء، وقال قتادة: لا يمنعهم من تناولها عودٌ ولا شوكٌ ولا بُعدٌ، وفي الحديث: «إذا تناول الرجل الثمرة عادت مكانها أخرى» [رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد]. وقوله: **﴿وفرش مرفوعة﴾** أي عالية وطيئة ناعمة. وعن الحسن قال: ارتفاع فراش الرجل من أهل الجنة مسيرة ثمانين سنة. وقوله: **﴿إنا أنشأناهن إنشاءً * فجعلناهن أبكاراً * عرباً أتراباً * لأصحاب اليمين﴾** جرى الضمير على غير مذكور. ولكن لما دل السياق وهو ذكر الفرش على النساء اللاتي يضاجعن فيها، اكتفى بذلك عن ذكرهن وعاد الضمير عليهن، كما في قوله: **﴿إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب﴾** [ص: ٣١-٣٢] يعني الشمس على المشهور من قول المفسرين. فقوله: **﴿إنا أنشأناهن﴾** أي أعدناهن في النشأة الأخرى بعدما كُنّ عجائز، صرنَ أبكاراً عرباً، أي بعد الثيوبة عدن أبكاراً عرباً، أي: متحببات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة. وقال بعضهم عرباً أي غَنِجات.

وروى أبو داود الطيالسي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يعطى المؤمن في الجنة قوة

كذا وكذا في النساء». قلت: يا رسول الله ويُطيق ذلك؟ قال: «يعطى قوة مائة» ورواه الترمذي، وقال: صحيح غريب. وروى أبو القاسم الطبراني عن أبي هريرة قال: قيل يا رسول الله هل نصل إلى نسائنا في الجنة؟ قال: «إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء» قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: هذا الحديث عندي على شرط الصحيح والله أعلم.

وقوله: ﴿عرباً﴾ قال ابن عباس: يعني متحببات إلى أزواجهن، ألم تر إلى الناقة الضبعة هي كذلك، وعن ابن عباس [أيضا]: العُرُب: العواشق لأزواجهن، وأزواجهن لهن عاشقون، وكذا قال مجاهد وأبو العالية والحسن وغيرهم. وسئل ابن عباس عن قوله: ﴿عرباً﴾ قال: هي الملِقَة لزوجها. وقال عكرمة: هي الغَنِجة، [وعنه]: هي الشَّكِلَةُ. وعن عبد الله بن بريدة قال: الشكلة بلغة أهل مكة، والغنجة بلغة أهل المدينة، وقال تميم بن حذلم: هي حسن التَّبَعل. وقال زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن: العُرُب: حَسِنات الكلام.

وقوله: ﴿أتراباً﴾ عن ابن عباس: يعني في سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة، وقال مجاهد: الأتراب: المستويات، وفي رواية عنه: الأمثال، وقال عطية: الأقران، وقال السدي: ﴿أتراباً﴾ أي في الأخلاق المتواخيات بينهن، ليس بينهن تباغض ولا تحاسد، يعني لا كما كن ضرائر متعاديات. وعن الحسن ومحمد قالا: المستويات الأسنان، يأتلفن جميعاً، ويلعبن جميعاً.

وقوله: ﴿لأصحاب اليمين﴾ أي خلقن لأصحاب اليمين، أو ادخرن لأصحاب اليمين، أو زوجن لأصحاب اليمين، والأظهر أنه متعلق بقوله: ﴿إنا أنشأناهن إنشاءً فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً لأصحاب اليمين﴾ فتقديره أنشأناهن لأصحاب اليمين، وهذا توجيه ابن جرير.

قلت: ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لأصحاب اليمين﴾ متعلقاً بما قبله وهو قوله: ﴿أتراباً لأصحاب اليمين﴾ أي في أسنانهم، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء». وروى الإمام أحمد والطبراني واللفظ له عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً بيضاً جعاداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين، وهم على خَلْق آدم ستون ذراعاً في عرض سبعة أذرع». وروى الترمذي من حديث معاذ بن جبل [نحوه فيحسن به].

وقوله تعالى: ﴿ثلة من الأولين وثلة من الآخرين﴾ أي جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين.

وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود، قال: أكرينا ذات ليلة عند رسول الله ﷺ ثم غدونا عليه فقال: «عُرضت عليّ الأنبياء وأتباعها بأممها، فيمر علي النبي والنبي في العصابة،

والنبي في الثلاثة والنبي وليس معه أحد، قال: حتى مر علي موسى بن عمران في كَبْكَبَة من بني إسرائيل قال: قلت ربي من هذا؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران ومن تبعه من بني إسرائيل! قال: قلت رب فأين أمتي؟ قال: انظر عن يمينك في الظراب قال فإذا وجوه الرجال قال: قال: أرضيت؟ قال: قلت: قد رضيت رب. قال: انظر إلى الأفق عن يسارك فإذا وجوه الرجال قال: أرضيت؟ قلت: قد رضيت رب. قال: فإن مع هؤلاء سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب». قال وأنشأ عكاشة بن محصن قال: يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم قال: فقال: «اللهم اجعله منهم». قال: أنشأ رجل آخر قال: يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «سبقك بها عكاشة». قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإن استطعتم فداكم أبي وأمي أن تكونوا من أصحاب السبعين فافعلوا، وإلا فكونوا من أصحاب الضراب، وإلا فكونوا من أصحاب الأفق، فإني قد رأيت أناساً كثيراً قد تأشَّبوا حوله. ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة» فكبرنا. ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» قال: فكبرنا قال: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» قال فكبرنا، قال ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية **﴿ثلة من الأولين وثلة من الآخرين﴾**. قال: فقلنا بيننا: من هؤلاء السبعون ألفاً؟ فقلنا: هم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا. قال: فبلغه ذلك فقال: «بل هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» وكذا رواه ابن جرير، وهذا الحديث له طرق كثيرة في الصحاح وغيرها.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ
مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا
ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن
شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال فقال: **﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال﴾** أي أيُّ شيء هم فيه أصحاب الشمال؟ ثم فسر ذلك فقال: **﴿في سموم﴾** وهو الهواء الحار **﴿وحميم﴾** وهو الماء الحار **﴿وظل من يحموم﴾** قال ابن عباس: ظل الدخان، وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي وغيرهم، وهذه كقوله تعالى: **﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون * انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب * إنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر * ويل يومئذ للمكذبين﴾** [المرسلات: ٢٩-٣٤]، ولهذا قال ههنا: **﴿وظل من يحموم﴾** وهو الدخان الأسود **﴿لا بارد ولا كريم﴾** أي ليس طيب الهبوب ولا حسن المنظر، كما قال الحسن وقتادة: **﴿ولا كريم﴾** أي ولا كريم المنظر، قال الضحاك: كل شراب ليس بعذب فليس بكريم.

وقال ابن جرير: العرب تُتْبِع هذه اللفظة في النفي فيقولون: هذا الطعام ليس بطيب

ولا كريم، هذا اللحم ليس بسمين ولا كريم. وهذه الدار ليست بنظيفة ولا كريمة. ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك، فقال تعالى: ﴿**إنهم كانوا قبل ذلك مترفين**﴾ أي كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل ﴿**وكانوا يصرون**﴾ أي يقيمون ولا ينوون توبة ﴿**على الحنث العظيم**﴾ وهو الكفر بالله وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله. قال ابن عباس: الحنث العظيم: الشرك. وكذا قال مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم. وقال الشعبي: هو اليمين الغموس. ﴿**وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون**﴾ يعني أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدين لوقوعه، قال الله تعالى: ﴿**قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم**﴾ أي أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بني آدم سيجمعون إلى عَرَصات القيامة لا نغادر منهم أحداً، كما قال تعالى: ﴿**ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود**﴾ [هود:١٠٣]، ولهذا قال ههنا: ﴿**لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم**﴾ أي هو مُوَقَّت بوقت مُحَدد، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص.

﴿**ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لآكلون من شجر من زقوم * فمالئون منها البطون**﴾ وذلك أنهم يقبضون ويُسجَرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم، حتى يملؤوا منها بطونهم، ﴿**فشاربون عليه من الحميم. فشاربون شرب الهيم**﴾ وهي الإبل العطاش، واحدها أهيم، والأنثى هيماء، ويقال: هائم وهائمة. قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة: الهيم، الإبل العطاش الظماء، وعن عكرمة أنه قال: الهيم: الإبل المراض تمص الماء مصاً ولا تَرْوَى. وقال السدي: الهيم داء يأخذ الإبل فلا تَرْوى أبداً حتى تموت، فكذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبداً. ثم قال تعالى: ﴿**هذا نزلهم يوم الدين**﴾ أي هذا الذي وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم، كما قال في حق المؤمنين: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً**﴾ [الكهف:١٠٧] أي ضيافة وكرامة.

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

يقول تعالى مُقرراً للمعاد، وراداً على المكذبين به من أهل الزيغ، والإلحاد، من الذين قالوا ﴿**أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون**﴾ [الصافات:١٦]، وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد، فقال: ﴿**نحن خلقناكم**﴾ أي نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، أفليس الذي قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى؟ ولهذا قال: ﴿**فلولا تصدقون**﴾ أي فهلا تصدقون بالبعث! ثم قال مستدلاً عليهم بقوله: ﴿**أفرأيتم ما تمنون. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون**﴾ أي أنتم تقرونه في الأرحام وتخلقونه فيها أم الله

الخالق لذلك ؟ ثم قال تعالى: ﴿نحن قدرنا بينكم الموت﴾ أي صرفناه بينكم، وقال الضحاك: ساوى فيه بين أهل السماء والأرض. ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ أي وما نحن بعاجزين ﴿على أن نبدل أمثالكم﴾ أي نغير خلقكم يوم القيامة.

﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾ أي من الصفات والأحوال. ثم قال: ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ أي قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة وهي البَداءة، قادر على النشأة الأخرى، وهي الإعادة بطريق الأولى والأحرى، كما قال: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ [الروم:٢٧]، وقال: ﴿أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾ [مريم:٦٧].

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿أفرأيتم ما تحرثون﴾ وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها، ﴿أأنتم تزرعونه﴾ أي تنبتونه في الأرض ﴿أم نحن الزارعون﴾ أي بل نحن الذين نقره قراره وننبته في الأرض.

وعن أبي عبد الرحمن: لا تقولوا زرعنا ولكن قولوا حرثنا. وروي عن حُجْر المدَري أنه كان إذا قرأ: ﴿أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ وأمثالها يقول: بل أنت يا رب.

وقوله: ﴿لو نشاء لجعلناه حطاماً﴾ أي نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا، وأبقيناه لكم رحمة بكم، ولو نشاء لجعلناه حطاماً، أي لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده ﴿فظلتم تفكهون﴾ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿إنا لمغرمون * بل نحن محرومون﴾ أي لو جعلناه حطاماً لظللتم تفكهون في المقالة تنوعون كلامكم، فتقولون تارة: إنا لمغرمون أي لملقُون، وقال مجاهد وعكرمة: إنا لموقع بنا. وقال قتادة: معذبون. وتارة تقولون: بل نحن محرومون. وقال مجاهد أيضاً: ملقون للشر أي بل نحن محَارَفون، قاله قتادة، أي لا يثبت لنا مال ولا ينتج لنا ربح، وقال مجاهد: محدودون، يعني لا حظ لنا، وقال ابن عباس ومجاهد: ﴿فظلتم تفكهون﴾ تعجبون. وقال مجاهد أيضاً: تفجعون وتحزنون على ما فاتكم من زرعكم. وهذا يرجع إلى الأول، وهو التعجب من السبب الذي من أجله أصيبوا في مالهم، وهذا اختيار ابن جرير. وقال عكرمة: تلاومون. وقال الحسن وقتادة والسدي: تندمون. ومعناه إما على ما أنفقتم أو على ما أسلفتم من الذنوب. قال الكسائي: تفكه من الأضداد، تقول العرب تفكهت بمعنى تنعمت، وتفكهت بمعنى حزنت.

ثم قال تعالى: ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن﴾ يعني السحاب،

قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد ﴿أم نحن المنزلون﴾ يقول بل نحن المنزلون ﴿لو نشاء جعلناه أجاجاً﴾ أي زُعاقاً مُرّاً لا يصلح لشرب ولا زرع ﴿فلولا تشكرون﴾ أي فهلا تشكرون نعمة الله عليكم في إنزاله المطر عليكم عذباً زلالاً ﴿لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ [النحل: ١٠-١١].

ثم قال: ﴿أفرأيتم النار التي تورون﴾ أي تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها ﴿أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾ أي بل نحن الذين جعلناها مودعة في موضعها. وللعرب شجرتان، إحداهما: المرخ، والأخرى: العَفَار، إذا أخذ منهما غصنان أخضران فحُك أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار.

وقوله: ﴿نحن جعلناها تذكرة﴾ قال مجاهد وقتادة: أي تذَكّر النار الكبرى.

روى الإمام مالك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» فقالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية، فقال: «إنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً». رواه البخاري.

وقوله: ﴿ومتاعاً للمقوين﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والنضر بن عربي: المسافرين، واختاره ابن جرير وقال: ومنه قولهم: أَقْوَتِ الدَّارُ إذا رحل أهلها»، وقال غيره: القيّ والقَوَاء: القفر الخالي البعيد من العمران. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المُقْوي ههنا الجائع. وعن مجاهد: للحاضر والمسافر لكل طعام لا يصلحه إلا النار، وعن مجاهد [أيضا]: المستمتعين من الناس أجمعين، وكذا ذكر عن عكرمة، وهذا التفسير أعم من غيره، فإن الحاضر والبادي من غني وفقير الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع. ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى، وأوقد ناره فأطبخ بها واصطلى، واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات، لهذا أُفْرِد المسافرون وإن كان ذلك عاماً في حق الناس كلهم. وقد يستدل له بما رواه الإمام أحمد وأبو داود من حديث أبي خِدَاش حَبَّان بن زيد الشَّرعَبي الشَّامي عن رجل من المهاجرين من قَرَن أن رسول الله ﷺ قال: «المسلمون شركاء في ثلاثة: النار والكلأ والماء» [وسنده صحيح]. وروى ابن ماجه بإسناد جيد عن أبي هريرة [نحوه].

وقوله: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة: الماء الزلال العذب البارد ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً كالبحار المغرقة، وخلق النار المحرقة وجعل ذلك مصلحة للعباد، وجعل هذه منفعة لهم في معاش دنياهم وزجراً لهم في المعاد.

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ

مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

الذي عليه الجمهور أنه قسم من الله يقسم بما شاء من خلقه، وهو دليل على عظمته. ثم قال بعض المفسرين: «لا» ههنا زائدة وتقديره أقسم بمواقع النجوم، ورواه ابن جرير عن سعيد بن جبير ويكون جوابه ﴿إنه لقرآن كريم﴾. وقال آخرون: ليست لا زائدة لا معنى لها بل يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسماً به على منفي، وتقدير الكلام: لا أقسم بمواقع النجوم، ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة بل هو قرآن كريم. وقال ابن جرير وقال بعض أهل العربية: معنى قوله: ﴿فلا أقسم﴾ فليس الأمر كما تقولون ثم استأنف القسم بعد ذلك فقيل: أقسم. واختلفوا في معنى قوله: ﴿بمواقع النجوم﴾ فقال ابن عباس: يعني نجوم القرآن فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً في السنين بعد. ثم قرأ ابن عباس هذه الآية، وكذا قال عكرمة ومجاهد والسدي وأبو حزرة، وقال مجاهد أيضاً: مواقع النجوم في السماء ويقال مطالعها ومشارقها، وكذا قال الحسن وقتادة وهو اختيار ابن جرير، وعن قتادة: مواقعها منازلها، وعن الحسن أيضاً: أن المراد بذلك انتثارها يوم القيامة. وقال الضحاك: الأنواء التي كان أهل الجاهلية إذا أمطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا. وقوله: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ أي وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم به عليه ﴿إنه لقرآن كريم﴾ أي إن هذا القرآن الذي نزل على محمد لكتاب عظيم ﴿في كتاب مكنون﴾ أي معظم، في كتاب معظم محفوظ موقر. وعن ابن عباس ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ قال: الكتاب الذي في السماء. وقال ابن عباس ﴿إلا المطهرون﴾ يعني الملائكة، وكذا قال أنس ومجاهد والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم.

وروى ابن جرير عن قتادة قال: لا يمسه عند الله إلا المطهرون، فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسي النجس، والمنافق الرجس، وقال: وهي في قراءة ابن مسعود: «ما يمسه إلا المطهرون»، وقال أبو العالية ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ ليس أنتم، أنتم أصحاب الذنوب، وقال ابن زيد: زعمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون، كما قال تعالى: ﴿وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]. وهذا القول قول جيد، وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله، وقال الفراء: لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به. وقال آخرون ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ أي من الجنابة والحدث. قالوا: ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب، قالوا: والمراد بالقرآن ههنا المصحف، كما روى مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو واحتجوا في ذلك بما رواه الإمام مالك في موطئه

عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم أن لا يمس القرآن إلا طاهر. وروى أبو داود في المراسيل من حديث الزهري قال: قرأت في صحيفة عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن رسول الله ﷺ قال: «ولا يمس القرآن إلا طاهر». وهذه وِجَادة جيدة قد قرأها الزهري وغيره، ومثل هذا ينبغي الأخذ به، وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم وعبد الله بن عمر وعثمان بن أبي العاصى وفي إسناد كل منهما نظر، والله أعلم. [وهو حديث حسن بشواهده].

وقوله: ﴿تنزيل من رب العالمين﴾ أي هذا القرآن منزل من الله رب العالمين وليس هو كما يقولون: إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذي لا مِرْية فيه، وليس وراءه حق نافع. وقوله: ﴿أفبهذا الحديث أنتم مدهنون﴾ عن ابن عباس: أي مكذبون غير مصدقين، وكذا قال الضحاك وأبو حزرة والسدي، وقال مجاهد ﴿مدهنون﴾ أي تريدون أن تمالئوهم فيه وتركنوا إليهم. ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ قال بعضهم: معنى وتجعلون رزقكم بمعنى شكركم أنكم تكذبون أي تكذبون بدل الشكر، وقال ابن جرير: وقد ذكر عن الهيثم بن عدي أن من لغة أزدشنوءة ما رزق فلان بمعنى ما شكر فلان.

وروى ابن جرير عن ابن عباس، قال: ما مطر قوم قط إلا أصبح بعضهم كافراً يقولون: مُطِرنا بنوء كذا وكذا. وقرأ ابن عباس: ﴿وتجعلون شكركم أنكم تكذبون﴾ وإسناده صحيح إلى ابن عباس. وروى مالك في الموطأ عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت في الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب». أخرجاه في الصحيحين.

روى ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال: أخبرني من شهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يستسقي، فلما استسقى التفت إلى العباس فقال: يا عباس يا عم رسول الله كم بقى من نوء الثريا ؟ فقال: العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق بعد سقوطها سبعاً، قال: فما مضت سابعة حتى مطروا، وهذا محمول على السؤال عن الوقت الذي أجرى الله فيه العادة بإنزال المطر، لا أن ذلك النوء مؤثر بنفسه في نزول المطر، فإن هذا هو المنهي عن اعتقاده.

وقال مجاهد ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ قال: قولهم في الأنواء مطرنا بنوء كذا، وبنوء كذا، يقول: قولوا هو من عند الله وهو رزقه، وهكذا قال الضحاك وغير واحد. وقال قتادة: أما الحسن فكان يقول: بئس ما أخذ قوم لأنفسهم لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب، فمعنى قول الحسن هذا: وتجعلون حظكم من كتاب الله أنكم تكذبون به ولهذا قال قبله: ﴿أفبهذا الحديث أنتم مدهنون * وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾.

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**فلولا إذا بلغت**﴾ أي الروح ﴿**الحلقوم**﴾ أي الحلق وذلك حين الاحتضار، كما قال: ﴿**كلا إذا بلغت التراقي وقيل من راق. وظن أنه الفراق: والتفت الساق بالساق، إلى ربك يومئذ المساق**﴾ [القيامة:٢٦ـ٣٠]، وقال هاهنا: ﴿**وأنتم حينئذ تنظرون**﴾ أي إلى المحتضر وما يُكابده من سكرات الموت ﴿**ونحن أقرب إليه منكم**﴾ أي بملائكتنا ﴿**ولكن لا تبصرون**﴾ أي ولكن لا ترونهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿**وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين**﴾ [الأنعام:٦١ـ٦٢]. وقوله: ﴿**فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها**﴾ معناه فهلا ترجعون هذه النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول ومقرها من الجسد إن كنتم غير مدينين. قال ابن عباس: يعني محاسبين، وروي عن مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك والسدي وأبي حزرة مثله. وقال سعيد ين جبير والحسن البصري: غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون فردوا هذه النفس، وعن مجاهد: غير موقنين. وقال ميمون بن مهران: غير معذبين مقهورين.

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾.

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم: إما أن يكون من المقربين، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين، وإما أن يكون من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى الجاهلين بأمر الله، ولهذا قال تعالى: ﴿**فأما إن كان**﴾ أي المحتضَر ﴿**من المقربين**﴾ وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات، ﴿**فروح وريحان وجنة نعيم**﴾ أي فلهم روح وريحان وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت كما تقدم في حديث البراء أن ملائكة الرحمة تقول: «أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان». [رواه أحمد وسنده حسن]. قال ابن عباس: ﴿**فروح**﴾ راحة وريحان، يقول: مستراح، وكذا قال مجاهد: إن الروح الاستراحة، وقال أبو حَزْرَة: الراحة من الدنيا، وقال سعيد بن جبير والسدي: الروح: الفرح، وعن مجاهد ﴿**فروح وريحان**﴾ جنة ورخاء وقال قتادة: فروح: فرحمة، وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير، وريحان ورزق. وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة، فإن من مات مقرباً حصل له جميعُ ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة، والفرح والسرور والرزق الحسن، ﴿**وجنة نعيم**﴾. وقال محمد بن كعب: لا يموت أحد من الناس حتى يعلم من أهل الجنة هو أم من أهل النار،

وقد قدمنا أحاديث الاحتضار عند قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ [إبراهيم:٢٧]، وروى الإمام أحمد عن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ ﴿فرُوح وريحان﴾ برفع الراء، وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي [وسنده صحيح]، وهذه القراءة هي قراءة يعقوب وحده وخالفه الباقون فقرءوا ﴿فرَوح وريحان﴾ بفتح الراء.

وروى الإمام أحمد عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي عن الإمام مالك بن أنس عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه». وهذا إسناد عظيم ومتن قويم.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في رياض الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش» الحديث. وروى الإمام أحمد عن عطاء بن السائب قال: كان أول يوم عرفت فيه عبد الرحمن بن أبي ليلى رأيت شيخاً أبيض الرأس واللحية على حمار، وهو يتبع جنازة فسمعته يقول: حدثني فلان بن فلان سمع رسول الله ﷺ يقول: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قال: فأكب القوم يبكون. فقال: «ما يبكيكم؟» فقالوا: إنا نكره الموت، قال: «ليس ذاك ولكنه إذا حُضِر ﴿فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم﴾ فإذا بشر بذلك أحب لقاء الله عز وجل، والله عز وجل للقائه أحب ﴿وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم﴾ فإذا بشر بذلك كره لقاء الله والله تعالى للقائه أكره». [سنده لا بأس به]، وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها شاهد لمعناه.

وقوله تعالى: ﴿وأما إن كان من أصحاب اليمين﴾ أي وأما إذا كان المحتضر من أصحاب اليمين ﴿فسلام لك من أصحاب اليمين﴾ أي تبشرهم الملائكة بذلك تقول لأحدهم: سلام لك أي لا بأس عليك أنت إلى سلامة، أنت من أصحاب اليمين، وقال قتادة وابن زيد: سَلِم من عذاب الله وسَلَّمت عليه ملائكة الله، كما قال عكرمة: تسلم عليه الملائكة وتخبره أنه من أصحاب اليمين، وهذا معنى حسن، ويكون ذلك كقول الله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلاً من غفور رحيم﴾ [فصلت:٣٠-٣٢]. وقال البخاري: ﴿فسلام لك﴾ أي مُسلم لك أنك من أصحاب اليمين.

وقوله: ﴿وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم﴾ أي وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى ﴿فنزل﴾ أي فضيافة ﴿من حميم﴾ وهو المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴿وتصلية جحيم﴾ أي وتقرير له في النار التي

تغمره من جميع جهاته. ثم قال تعالى: ﴿إن هذا لهو حق اليقين﴾ أي إن هذا الخبر لهو حق اليقين الذي لا مرية فيه ولا محيد لأحد عنه ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾.

روى البخاري في آخر كتابه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم».

تفسير سورة الحديد وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات وما في الأرض أي من الحيوانات والنباتات، كما قال في الآية الأخرى: ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقوله: ﴿وهو العزيز﴾ أي الذي قد خضع له كل شيء ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره وشرعه ﴿له ملك السموات والأرض يحيي ويميت﴾ أي هو المالك المتصرف في خلقه، فيحيي ويميت، ويعطي من يشاء ما يشاء، ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ أي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. وقوله: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ روى أبو داود عن أبي زميل قال: سألت ابن عباس فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله لا أتكلم به. قال: فقال لي: أشيء من شك؟ قال ـ وضحك ـ قال: ما نجا من ذلك أحد، قال: حتى أنزل الله تعالى: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾ [يونس: ٩٤]، قال: وقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾ [سنده على شرط مسلم]. وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولاً.

وقال البخاري: قال يحيى: الظاهر على كل شيء علماً والباطن على كل شيء علماً. قال شيخنا الحافظ المزي: يحيى هذا هو ابن زياد الفراء، له كتاب سماه معاني القرآن، وقد ورد في ذلك أحاديث، فمن ذلك: ما رواه مسلم في صحيحه عن سُهَيل قال: كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن، ثم يقول: «اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر» وكان يروي ذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ

مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهها في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته هاهنا. ﴿**يعلم ما يلج في الأرض**﴾ أي يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ﴿**وما يخرج منها**﴾ من نبات وزرع وثمار، كما قال: ﴿**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين**﴾ [الأنعام:٥٩]. وقوله: ﴿**وما ينزل من السماء**﴾ أي من الأمطار والثلوج والبرد، والأقدار والأحكام مع الملائكة الكرام.

وقوله: ﴿**وما يعرج فيها**﴾ أي من الملائكة والأعمال كما جاء في صحيح [مسلم]: «يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل». وقوله: ﴿**وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير**﴾ أي رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث أنتم، وأين كنتم من بر أو بحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو القفار، الجميع في علمه على السواء وتحت بصره وسمعه فيسمع كلامكم ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم، كما قال: ﴿**ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور**﴾ [هود:٥]. وقال: ﴿**سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار**﴾ [الرعد:١٠]، فلا إله غيره ولا رب سواه، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجبريل لما سأله عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وكان الإمام أحمد رحمه الله تعالى ينشد هذين البيتين:

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوماً فلا تقُلْ ... خَلَوتُ ولكن قُل عليّ رقيبُ
ولاتحسبن الله يغفـلُ سـاعةً ... ولا أن ما يخفـي عليه يغيبُ

وقوله: ﴿**له ملك السموات والأرض**﴾ أي هو المالك للدنيا والآخرة، كما قال: ﴿**وإن لنا للآخرة والأولى**﴾ [الليل:١٣]، وهو المحمود على ذلك، كما قال: ﴿**وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة**﴾ [القصص:٧٠]. فجميع ما في السموات والأرض ملك له، وأهلهما عبيد أرقاء أذلاء بين يديه، كما قال: ﴿**إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عداً وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً**﴾ [مريم:٩٣-٩٥]، ولهذا قال: ﴿**وإلى الله ترجع الأمور**﴾ أي إليه المرجع يوم القيامة فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة، بل إن يكن عمل أحدهم حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً، كما قال تعالى: ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ [الأنبياء:٤٧].

وقوله: ﴿**يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل**﴾ أي هو المتصرف في الخلق يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة بالعكس، وتارة يتركهما معتدلين، وتارة يكون الفصل شتاءً ثم ربيعاً ثم قيظاً ثم خريفاً، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه ﴿**وهو عليم بذات الصدور**﴾ أي يعلم السرائر وإن دقت وإن خفيت.

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

أمر تبارك وتعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل، والدوام والثبات على ذلك، وحث على الإنفاق ﴿**مما جعلكم مستخلفين فيه**﴾ أي مما هو معكم على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم، فأرشد الله تعالى إلى استعمال ما استخلفتم فيه من المال في طاعته، فإن تفعلوا وإلا حاسبكم عليه وعاقبكم لترككم الواجبات فيه. وقوله: ﴿**مما جعلكم مستخلفين فيه**﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك، أو يعصي الله فيه فتكون قد سعيت في معاونته على الإثم والعدوان. روى الإمام أحمد عن عبد الله بن الشِّخِّير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «ألهاكم التكاثر، يقول ابن آدم: مالي مالي! وهل لك من مالك إلا ماأكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت ؟». ورواه مسلم وزاد: «وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس».

وقوله: ﴿**فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير**﴾ ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة. ثم قال: ﴿**ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم**﴾ أي وأي شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم، يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به.

وقوله: ﴿**وقد أخذ ميثاقكم**﴾ كما قال تعالى: ﴿**واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا**﴾ [المائدة: ٧]. ويعني بذلك بيعة الرسول ﷺ. وزعم ابن جرير أن المراد بذلك الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم وهو مذهب مجاهد فالله أعلم. وقوله: ﴿**هو الذي ينزل على عبده آيات بينات**﴾ أي حججاً واضحات وبراهين قاطعات، ﴿**ليخرجكم من الظلمات إلى النور**﴾ أي من ظلمات الجهل والكفر، والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان، ﴿**وإن الله بكم لرؤوف رحيم**﴾ أي في إنزاله الكتب وإرساله الرسل

لهداية الناس، وإزالة الشُبه. ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق، ثم حثهم على الإيمان وبين أنه قد أزال عنهم موانعه، حثهم أيضاً على الإنفاق فقال: ﴿**ومالكم ألا تنفقوا في سبيل الله و لله ميراث السموات والأرض**﴾ أي أنفقوا ولا تخشوا فقراً وإقلالاً فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السموات والأرض وبيده مقاليدهما، وعنده خزائنهما، وهو مالك العرش بما حوى، وهو القائل: ﴿**وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين**﴾ [سبأ:٣٩]. وقال: ﴿**ما عندكم ينفد وما عند الله باق**﴾ [النحل:٩٦] فمن توكل على الله أنفق ولم يخش من ذي العرش إقلالاً، وعلم أن الله سيخلفه عليه. وقوله: ﴿**لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل**﴾ أي لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ولهذا قال: ﴿**أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى**﴾ والجمهور على أن المراد بالفتح هٰهنا فتح مكة، وعن الشعبي وغيره أن المراد بالفتح ههنا صلح الحديبية، وقد يستدل لهذا القول بما روى الإمام أحمد عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها، فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبا ما بلغتم أعمالهم» [سنده صحيح]. ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة، وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

وقوله: ﴿**وكلاً وعد الله الحسنى**﴾ يعني المنفقين قبل الفتح وبعده، كلهم لهم ثواب على ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء، كما قال: ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً**﴾ [النساء:٩٥]. وهكذا الحديث الذي في صحيح [مسلم]: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير». وإنما نبه بهذا لئلا يُهدرَ جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر، فيتوهم متوهم ذمه، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه، مع تفضيل الأول عليه، ولهذا قال: ﴿**والله بما تعملون خبير**﴾ أي فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن فعل ذلك بعد ذلك وما ذاك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام، وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق. وفي الحديث: «سبق درهم مائة ألف» [رواه النسائي وسنده حسن]. ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر رضي الله عنه له الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه سيّد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء، فإنه أنفق ماله كله

ابتغاء وجه الله، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها.

وقوله: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ قال عمر بن الخطاب: هو الإنفاق في سبيل الله، وقيل: هو النفقة على العيال، والصحيح أنه أعم من ذلك، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة، وعزيمة صادقة، دخل في عموم هذه الآية، ولهذا قال: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبصط وإليه ترجعون﴾ [البقرة: ٢٤٥]. ﴿وله أجر كريم﴾ أي جزاء جميل ورزق باهر، وهو الجنة.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ (١٤) فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٥)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين: أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عَرصات القيامة، بحسب أعمالهم، كما قال عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿يسعى نورهم بين أيديهم﴾ قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتّقد مرة ويطفأ مرة. وعن جنادة بن أمية قال: إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم، وسيماكم وحُلاكم، ونجواكم ومجالسكم، فإذا كان يوم القيامة، قيل: يافلان هذا نورك، يافلان لا نور لك، وقرأ: ﴿يسعى نورهم بين أيديهم﴾. وقال الضحاك: ليس أحد إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طفيء نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفيء نور المنافقين، فقالوا: ربنا أتمم لنا نورنا، وقال الحسن في قوله: ﴿يسعى نورهم بين أيديهم﴾ يعني على الصراط. وروى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء وأبي ذر أن النبي ﷺ قال: «أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي فأعرف أمتي من بين الأمم» فقال له رجل: يانبي الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم، ما بين نوح إلى أمتك؟ فقال: أعرفهم مُحجَّلون من أثر الوضوء، ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم». [رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد].

وقوله: ﴿وبأيمانهم﴾ قال الضحاك: أي وبأيمانهم كتبهم، كما قال: ﴿فمن أوتي كتابه بيمينه﴾ [الإسراء: ٧١]. وقوله: ﴿بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي يقال لهم: بشراكم اليوم جنات، أي لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار، ﴿خالدين فيها﴾ أي

ماكثين فيها أبداً ﴿**ذلك هو الفوز العظيم**﴾. وقوله: ﴿**يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم**﴾ وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأهوال المزعجة، والأمور الفظيعة، وأنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن با لله ورسوله وعمل بما أمر الله به وترك ما عنه زجر. روى ابن أبي حاتم عن سليم بن عامر قال: خرجنا على جنازة في باب دمشق ومعنا أبو أمامة الباهلي، فلما صلى على الجنازة وأخذوا في دفنها، قال أبو أمامة: أيها الناس، إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر، وهو هذا ـ يشير إلى القبر ـ بيت الوحدة، وبيت الظلمة، وبيت الدود، وبيت الضيق، إلا ما وسع الله، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة، فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله، فتبيض وجوه وتسود وجوه، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً، وهو المثل الذي ضربه الله تعالى في كتابه، قال: ﴿**أو كظلمات في بحر لجي**﴾ إلى قوله: ﴿**فما له من نور**﴾ [النور:٤٠]، فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى بنور البصير، ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا: ﴿**انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً**﴾ وهي خدعة الله التي يخدع بها المنافقين حيث قال: ﴿**يخادعون الله وهو خادعهم**﴾ [النساء:١٤٢]. فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور، فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم ﴿**بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبلهالعذاب**﴾ الآية. يقول سليم بن عامر: فما يزال المنافق مغتراً حتى يقسم النور ويميز الله بين المؤمن والمنافق. [سنده صحيح].

وعن ابن عباس: بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم فأظلم الله على المنافقين فقالوا حينئذ ﴿**انظرونا نقتبس من نوركم**﴾ فإنا كنا معكم في الدنيا قال المؤمنون: ﴿**ارجعوا**﴾ من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور.

وقوله: ﴿**فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب**﴾ قال الحسن وقتادة: هو حائط بين الجنة والنار، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو الذي قال الله تعالى: ﴿**وبينهما حجاب**﴾ [الأعراف:٤٦]. وهكذا روي عن مجاهد رحمه الله وغير واحد وهو الصحيح. ﴿**باطنه فيه الرحمة**﴾ أي الجنة وما فيها ﴿**وظاهره من قبله العذاب**﴾ أي النار قاله قتادة وابن زيد وغيرهما، قال ابن جرير وقد قيل إن ذلك السور سور بيت المقدس عند وادي جهنم.

وروي عن عبد الله بن عمرو وعبادة بن الصامت وكعب الأحبار وعلي بن الحسين زين العابدين نحو ذلك، وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثالاً لذلك،

لا أن الذي أريد من القرآن هذا الجدار المعين نفسه ونفس المسجد، وما وراءه من الوادي المعروف بوادي جهنم، فإن الجنة في السموات في أعلى عليين والنار في الدركات أسفل سافلين، وإنما المراد بذلك السور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دُخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة **﴿ينادونهم ألم نكن معكم﴾** أي ينادي المنافقون المؤمنين: أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات، ونصلي معكم الجماعات، ونقف معكم بعرفات، ونحضر معكم الغزوات، ونؤدي معكم سائر الواجبات؟ **﴿قالوا بلى﴾** أي فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين: بلى قد كنتم معنا **﴿ولكنكم فتنتم أنفسكم﴾** قال بعض السلف: أي فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات وتربصتم أي أخرتم التوبة من وقت إلى وقت. وقال قتادة: **﴿وتربصتم﴾** بالحق وأهله **﴿وارتبتم﴾** أي بالبعث بعد الموت **﴿وغرتكم الأماني﴾** أي قلتم سيغفر لنا وقيل غرتكم الدنيا **﴿حتى جاء أمر الله﴾** أي مازلتم في هذا حتى جاءكم الموت **﴿وغركم بالله الغرور﴾** أي الشيطان. قال قتادة: كانوا على خدعة من الشيطان والله مازالوا عليها حتى قذفهم الله في النار: ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين أنكم كنتم معنا أي بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها، وإنما كنتم في حيرة وشك فكنتم تراؤون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً، قال مجاهد: كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويغشونهم ويعاشرونهم، وكانوا معهم أمواتاً ويعطون النور جميعاً يوم القيامة، ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور ويُماز بينهم حينئذ.

وهذا القول من المؤمنين لا ينافي قولهم الذي أخبر الله به عنهم حيث يقول، وهو أصدق القائلين: **﴿كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين * في جنات يتساءلون * عن المجرمين * ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين﴾** [المدثر: ٣٨-٤٧]، فهذا إنما خرج منهم على وجه التقريع لهم والتوبيخ. ثم قال تعالى: **﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾** [المدثر: ٤٨]، كما قال هاهنا: **﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا﴾** أي لوجاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه. وقوله: **﴿مأواكم النار﴾** أي هي مصيركم وإليها منقلبكم. وقوله: **﴿هي مولاكم﴾** أي هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم، وبئس المصير.

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

يقول تعالى: أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي تلين عند الذكر والموعظة

وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه.

روى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ الآية، إلا أربع سنين. رواه مسلم.

وقوله: ﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم﴾ نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمناً قليلاً ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة، وقلدوا الرجال في دين الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولاتلين قلوبهم بوعد ولا وعيد. ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ أي في الأعمال فقلوبهم فاسدة، وأعمالهم باطلة، كما قال: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾ [المائدة:١٣] أي فسدت قلوبهم فقست وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه، وتركوا الأعمال التي أمروا بها، وارتكبوا ما نهوا عنه، ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: «إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد فقست قلوبهم اخترعوا كتاباً من عند أنفسهم، استهوته قلوبهم واستحلته ألسنتهم واستلذته، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم فقالوا تعالوا ندع بني إسرائيل إلى كتابنا هذا، فمن تابعنا عليه تركناه ومن كره أن يتابعنا قتلناه، ففعلوا ذلك.

وقوله: ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضَلتها، ويفرِّج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتَّان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال.

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى عما يثيب به المُصَّدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة، ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ أي دفعوه بنية خالصة ابتغاء وجه الله، لا يريدون جزاءً ممن أعطوه ولا شكوراً، ولهذا قال: ﴿يضاعف لهم﴾ أي يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها، ويزاد على ذلك إلى سبعمائة ضعف، وفوق ذلك ﴿ولهم أجر كريم﴾ أي ثواب جزيل حسن

ومرجع صالح ومآب كريم. وقوله: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون﴾ هذا تمام لجملة وَصَف المؤمنين با لله ورسله بأنهم صديقون، عن ابن عباس في قوله: ﴿والذين آمنوا با لله ورسله أولئك هم الصديقون﴾ هذه مفصولة ﴿والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾. وقال أبو الضُحى: ﴿أولئك هم الصديقون﴾ ثم استأنف الكلام فقال: ﴿والشهداء عند ربهم﴾. وهكذا قال مسروق والضحاك ومقاتل بن حيان وغيرهم.

وعن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى، ﴿أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم﴾ قال: هم ثلاثة أصناف: يعني المصدقين والصديقين والشهداء، كما قال تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ [النساء: ٦٩]، ففرق بين الصديقين والشهداء فدل على أنهما صنفان ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد، كما رواه الإمام مالك بن أنس عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل مابينهم» قالوا: يارسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» اتفق البخاري ومسلم على إخراجه. وقال آخرون: بل المراد من قوله تعالى: ﴿أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم﴾ فأخبر عن المؤمنين با لله ورسله بأنهم صديقون وشهداء، حكاه ابن جرير عن مجاهد، وعن عمرو بن ميمون في قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا با لله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾ قال: يجيؤون يوم القيامة معاً كالأصبعين.

وقوله: ﴿والشهداء عند ربهم﴾ أي في جنات النعيم، كما جاء في الصحيحين: «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خُضْر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال: ماذا تريدون؟ فقالوا: نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فيك فنقتل كما قتلنا أول مرة، فقال: إني قد قضيت أنهم إليها لا يرجعون». وقوله: ﴿لهم أجرهم ونورهم﴾ أي لهم عند الله أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم، وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال كما روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله فقتل فذاك الذي ينظر الناس إليه هكذا ـ ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوة رسول الله ﷺ أو قلنسوة عمر ـ والثاني مؤمن لقي العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح جاءه سهم غَرْب فقتله فذاك في الدرجة الثانية، والثالث رجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الثالثة، والرابع رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافاً كثيراً لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الرابعة». وهكذا رواه علي بن المديني، وقال: إسناده مصري صالح، ورواه الترمذي، وقال: حسن غريب.

وقوله: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ لما ذكر السعداء ومآلهم عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم.

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾.

يقول تعالى مُوهناً أمر الحياة الدنيا ومحقراً لها: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد﴾ أي إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا، كما قال: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ [آل عمران: ١٤]. ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية و نعمة زائلة فقال: ﴿كمثل غيث﴾ وهو المطر.

وقوله: ﴿أعجب الكفار نباته﴾ أي يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث، وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها، ﴿ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً﴾ أي يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعد ما كان خضراً نضراً، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً أي يصير يَبَساً متحطماً، هكذا الحياة الدنيا تكون أولا شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً شوهاء، والإنسان يكون كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه ويفقد بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ضعيف القوى، قليل الحركة يعجزه الشيء اليسير، كما قال تعالى: ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ [الروم: ٥٤]. ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حَذَّر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير فقال: ﴿وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان﴾ أي وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا: إما عذاب شديد، وإما مغفرة من الله ورضوان.

وقوله: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ أي هي متاع فانٍ غارٌّ لمن ركن إليه، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة. روى ابن جرير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، اقرءوا: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾» [سنده حسن]. وهذا الحديث ثابت في الصحيح بدون هذه الزيادة والله أعلم. وروى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال: قال رسول الله ﷺ: «للجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك» انفرد بإخراجه البخاري. ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان، وإذا كان

الأمر كذلك فلهذا حثه الله تعالى على المبادرة إلى الخيرات من فعل الطاعات وترك المحرمات التي تكفر عنه الذنوب والزلات وتحصل له الثواب والدرجات فقال تعالى: ﴿**سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض**﴾ والمراد جنس السماء والأرض، كما قال في الآية الأخرى: ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين**﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقال ههنا: ﴿**أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾ أي هذا الذي أهلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم وإحسانه إليهم، كما في الصحيح أن فقراء المهاجرين قالوا: يارسول الله ذهب أهل الدُّثور بالأجور بالدرجات العلى والنعيم المقيم. قال: «وما ذاك ؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويُعتقون ولا نُعتق. قال: «أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم: تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين» قال: فرجعوا فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال مافعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**».

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية فقال: ﴿**ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم**﴾ أي في الآفاق وفي أنفسكم ﴿**إلا في كتاب من قبل أن نبرأها**﴾ أي من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة. وقال بعضهم: من قبل أن نبرأها عائد على النفوس، وقيل: عائد على المصيبة، والأحسن عوده على الخليقة والبرية لدلالة الكلام عليها كما روى ابن جرير عن منصور بن عبد الرحمن قال: كنت جالساً مع الحسن فقال رجل: سله عن قوله: ﴿**ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها**﴾ فسألته عنها فقال: سبحان الله ومن يشك في هذا! كل مصيبة بين السماء والأرض ففي كتاب الله من قبل أن يبرأ النسمة. وقال قتادة: ما أصاب من مصيبة في الأرض قال: هي السنون يعني الجَدْب، ﴿**ولا في أنفسكم**﴾ يقول: الأوجاع والأمراض، قال: وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قَدم، ولاخلجان عرق إلا بذنب، وما يعفوالله عنه أكثر.

وهذه الآية الكريمة العظيمة من أدل دليل على القَدَرية نُفاة العلم السابق ـ قبحهم الله ـ وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة». ورواه مسلم في صحيحه ، وزاد: «وكان عرشه على الماء». وقوله: ﴿**إن ذلك على الله يسير**﴾ أي إن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابته لها طِبقَ ما يوجد في حينها سهل على الله عز وجل، لأنه يعلم ما كان

وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

وقوله: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ أي أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسوا على ما فاتكم لأنه لو قدر شيء لكان ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ أي أعطاكم أي لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً تفخرون بها على الناس، ولهذا قال: ﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾ أي مختال في نفسه متكبر فخور أي على غيره. وقال عكرمة: ليس أحد إلا هو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً. ثم قال: ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ أي يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه ﴿ومن يتول﴾ أي عن أمر الله وطاعته ﴿فإن الله هو الغني الحميد﴾ كما قال موسى عليه السلام: ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾ [إبراهيم:٨].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾ أي بالمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات ﴿وأنزلنا معهم الكتاب﴾ وهو النقل الصدق ﴿والميزان﴾ وهو العدل، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة كما قال: ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾ [الرحمن:٧]، ولهذا قال في هذه الآية: ﴿ليقوم الناس بالقسط﴾ أي بالحق والعدل وهو اتباع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جاءوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق، كما قال: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ [الأنعام:١١٥] أي صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي، ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوءوا غرف الجنات، والمنازل العاليات، والسرر المصفوفات: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ [الأعراف:٤٣].

وقوله: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ أي وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين وبيان وإيضاح للتوحيد وبينات ودلالات، فلما قامت الحجة على من خالف، شرع الله الهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده، ولهذا قال تعالى: ﴿فيه بأس شديد﴾ يعني السلاح كالسيوف والحراب، والسنان والنصال، والدروع ونحوها ﴿ومنافع للناس﴾ أي في معايشهم كالفأس والقدوم، والمنشار، والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ والخبز، وما لا قوام للناس بدونه وغير ذلك.

وقوله: ﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾ أي من نيته في حمل السلاح نصرة الله ورسوله ﴿إن الله قوي عزيز﴾ أي هو قوي عزيز ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) ﴾.

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً عليه السلام لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته، وكذلك إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده إلا وهو من سلالته، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم الذي بشر من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل﴾ وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه﴾ وهم الحواريون ﴿رأفة﴾ وهي الخشية ﴿ورحمة﴾ بالخلق. وقوله: ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ أي ابتدعها أمة النصارى ﴿ما كتبناها عليهم﴾ أي ما شرعناها لهم وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم.

وقوله: ﴿إلا ابتغاء رضوان الله﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم قصدوا بذلك رضوان الله، قاله سعيد بن جبير وقتادة. والآخر: ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله. وقوله: ﴿فما رعوها حق رعايتها﴾ أي فما قاموا بما التزموا حق القيام، وهذا ذم لهم من وجهين: أحدهما: الابتداع في دين الله مالم يأمر به الله. والثاني: في عدم قيامهم بماالتزموا مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل.

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاءه فقال: أوصني، فقال: سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك أوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن فإنه روحك في السماء وذكرك في الأرض. [وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾.

عن ابن عباس أنه حمل هذه الآية على مؤمني أهل الكتاب وأنهم يؤتون أجرهم مرتين كما في الآية [٥٤] التي في القصص، وكما في حديث أبي موسى الأشعري قال: قال

رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران». أخرجاه في الصحيحين. ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك وعتبة بن أبي حكيم وغيرهما، وهو اختيار ابن جرير. وقال سعيد بن جبير: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى عليه هذه الآية في حق هذه الأمة: ﴿**يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين**﴾ أي ضعفين ﴿**من رحمته**﴾ وزادهم ﴿**ويجعل لكم نوراً تمشون به**﴾ يعني هدى يتبصر به من العمى والجهالة ويغفر لكم، ففضلهم بالنور والمغفرة.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم**﴾ [الأنفال:٢٩]. وقال سعيد بن عبد العزيز: سأل عمر بن الخطاب حَبراً من أحبار اليهود: كم أفضل ما ضُعِّفت لكم حسنة؟ قال كفل ثلاثمائة وخمسين حسنة. قال: فحمد الله عمر على أنه أعطانا كفلين. ثم ذكر سعيد قول الله عز وجل: ﴿**يؤتكم كفلين من رحمته**﴾ قال سعيد: والكفلان في الجمعة مثل ذلك. ومما يؤيد هذا القول مارواه البخاري عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم فعملوا إلى نصف النهار فقالوا لا حاجة لنا في أجرك الذي شرطت لنا وما عملنا باطل، فقال لهم لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوا واستأجر آخرين بعدهم فقال أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه. فقال أكملوا بقية عملكم فإنما بقي من النهار شيء يسير فأبوا. فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا له بقية يومهم حتى غابت الشمس، فاستكملوا أجرة الفريقين كليهما فذلك مثلهم ومثل ما قَبلوا من هذا النور». ولهذا قال تعالى: ﴿**لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله**﴾ أي ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله ولا إعطاء مامنع الله ﴿**وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾.

قال ابن جرير: ﴿**لئلا يعلم**﴾ أي ليعلم، لأن العرب تجعل لا صلة في كل كلام دخل في أوله أو آخره جحد غير مصرح فالسابق كقوله: ﴿**ما منعك ألا تسجد**﴾ [الأعراف:١٢]، ﴿**وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون**﴾ [الأنعام:١٠٩]، ﴿**وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون**﴾ [الأنبياء:٩٥].

تفسير سورة المجادلة وهي مدنية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾.

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت الحمد لله الذي وَسع سمعه الأصواتَ، لقد جاءت المجادلةُ إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقوله، فأنزل الله عز وجل: **﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾** إلى آخر الآية. [وسنده صحيح]. ورواه البخاري في كتاب التوحيد تعليقاً. وفي رواية لابن أبي حاتم عن عائشة أنها قالت: تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله أكلَ شبابي، ونثَرت له بطني، حتى إذا كَبُرَ سِنِّي، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: **﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾**. وقالت: وزوجها أوس بن الصامت.

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾.

روى الإمام أحمد عن خويلة بنت ثعلبة قالت: فيّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه، قالت: فدخل علي يوماً فراجعته بشيء، فغضب فقال: أنت عليَّ كظهر أمي. قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل علي فإذا هو يريدني عن نفسي. قالت: قلت كلا، والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إلي، وقد قلت ما قلت، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فواثبني، فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثياباً، ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيتُ منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «ياخويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه». قالت: فو الله ما برحت حتى نزل في قرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ثم سري عنه فقال لي: «يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك» ثم قرأ علي: **﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير - إلى قوله تعالى - وللكافرين عذاب أليم﴾** قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: «مريه فليعتق رقبة». قالت: فقلت يا رسول الله ما عنده ما يعتق. قال: «فليصم شهرين متتابعين». قالت: فقلت والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام. قال: «فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر». قالت: فقلت والله يا رسول الله ما ذاك عنده، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «فإنا سنعينه بعَرَقٍ من تمر» قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا سأعينه بعَرَقٍ آخر، قال: «قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه ثم استوصي بابن عمك خيراً» قالت: ففعلت.

ورواه أبو داود في كتاب الطلاق من سننه [وهو حديث حسن]، وعنده خولة بنت ثعلبة، ويقال فيها: خولة بنت مالك بن ثعلبة، وقد تصغر فيقال: خُوَيلة. ولا منافاة بين هذه الأقوال فالأمر فيها قريب والله أعلم. هذا هو الصحيح في سبب نزول هذه السورة، فأما حديث سلمة بن صخر فليس فيه أنه كان سبب النزول ولكن أمر بما أنزل الله في هذه السورة، من العتق أو الصيام أو الإطعام، كما روى الإمام أحمد عن سلمة بن صخر الأنصاري قال: كنت امرءاً قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما دخل رمضان ظاهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان فرقاً من أن أصيب في ليلتي شيئاً فأتتابع في ذلك إلى أن يدركني النهار وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينما هي تخدمني من الليل إذ تكشف لي منها شيء فوثبت عليها، فلما أصبحت غدوت على قومي فأخبرتهم خبري وقلت: انطلقوا معي إلى النبي ﷺ فأخبره بأمري، فقالوا: لا والله لا نفعل نتخوف أن ينزل فينا، أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقى علينا عارها، ولكن اذهب أنت، فاصنع ما بدا لك.

قال: فخرجت حتى أتيت النبي ﷺ فأخبرته خبري فقال لي: «أنت بذاك» فقلت: أنا بذاك. فقال: «أنت بذاك» فقلت: أنا بذاك قال: «أنت بذاك» قلت: نعم، ها أنا ذا فأمض في حكم الله عز وجل فإني صابر له. قال: «أعتق رقبة». قال: فضربت صفحة رقبتي بيدي وقلت: لا، والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها. قال: «فصم شهرين متتابعين» قلت: يا رسول الله وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام. قال: «فتصدق» فقلت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وَحْشَى ما لنا عشاء. قال: «اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق فقل له فليدفعها إليك، فأطعم عنك منها وسقاً من تمر ستين مسكيناً ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك». قال: فرجعت إلى قومي فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة قد أمر لي بصدقتكم فادفعوها إليّ فدفعوها إليَّ. وهكذا رواه أبو داود وابن ماجه واختصره الترمذي وحسنه. وظاهر السياق أن هذه القصة كانت بعد قصة أوس بن الصامت وزوجته خويلة بنت ثعلبة، كما دل عليه سياق تلك وهذه بعد التأمل.

وذهب ابن عباس والأكثرون إلى ما قلناه والله أعلم. فقوله تعالى: ﴿**الذين يظاهرون منكم من نسائهم**﴾ أصل الظهار مشتق من الظهر، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها: أنت عليَّ كَظَهْرِ أمي، والظهار في سائر الأعضاء قياساً على الظهر، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم، هكذا قال غير واحد من السلف.

ورى ابن جرير عن ابن عباس قال: كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية: أنت علي كظهر أمي، حرمت عليه فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس، وكان تحته ابنة عم له يقال لها خويلة بنت ثعلبة، فظاهر منها فأسقط في يديه، وقال ما أراك إلا قد حَرُمت علي وقالت له مثل

ذلك، قال: فانطلقي إلى رسول الله ﷺ فأتت رسول الله ﷺ فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه، فقال: «يا خويلة ما أُمِرنا في أمرك بشيء». فأنزل الله على رسوله، فقال: «يا خويلة، أبشري» قالت: خيراً ـ فقرأ عليها: ﴿**قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما** ـ إلى قوله تعالى ـ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا**﴾ قالت: وأي رقبة لنا؟ والله ما يجد رقبة غيري. قال: ﴿**فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين**﴾ قالت: والله لولا أنه يشرب في اليوم ثلاث مرات لذهب بصره. قال: ﴿**فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً**﴾ قالت: من أين ما هي إلا أكلة إلي مثلها! قال: فدعا بشطر وَسْق ثلاثين صاعاً والوسق ستون صاعاً فقال: ليطعم ستين مسكيناً وليراجعك. إسناده قوي وسياقه غريب، وقد روي عن أبي العالية نحو هذا.

وقال سعيد بن جبير: كان الإيلاء والظهار من طلاق الجاهلية، فوقت الله الإيلاء أربعة أشهر، وجعل في الظهار الكفارة، وقد استدل الإمام مالك على أن الكافر لا يدخل في هذه الآية بقوله منكم فالخطاب للمؤمنين، وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، واستدل الجمهور بقوله: ﴿**من نسائهم**﴾ على أن الأمة لا ظهار منها ولا تدخل في هذا الخطاب.

وقوله: ﴿**ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم**﴾ أي لا تصير المرأة بقول الرجل: أنت عليَّ كأمي، أو مثل أمي، أو كظهر أمي، وما أشبه ذلك، لا تصير أمه بذلك إنما أمه التي ولدته، ولهذا قال: ﴿**وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً**﴾ أي كلاماً فاحشاً باطلاً ﴿**وإن الله لعفو غفور**﴾ أي عما كان منكم في حال الجاهلية، وهكذا أيضاً عما خرج من سبق اللسان، ولم يقصد إليه المتكلم، ولا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿**والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا**﴾ اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله تعالى: ﴿**ثم يعودون لما قالوا**﴾ فقال بعض الناس: العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره، وهذا القول باطل وهو اختيار ابن حزم وقول داود وحكاه أبو عمر بن عبد البر عن بكير بن الأشج والفراء وفرقة من أهل الكلام، وقال الشافعي: هو أن يمسكها بعد المظاهرة زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق، وقال أحمد بن حنبل: هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة، وقد حكي عن مالك أنه العزم على الجماع والإمساك، وعنه أنه الجماع، وقال أبو حنيفة: هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية، فمتى ظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة، وإليه ذهب أصحابه والليث بن سعد، وعن سعيد بن جبير ﴿**ثم يعودون لما قالوا**﴾ يعني يريدون أن يعودوا في الجماع الذي حرموه على أنفسهم. وقال الحسن البصري:

يعني الغشيان في الفرج وكان لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر، وقال ابن عباس: ﴿**من قبل أن يتماسا**﴾ والمس النكاح، وكذا قال عطاء والزهري وقتادة ومقاتل بن حيان، وقال الزهري: ليس له أن يقبلها ولا يمسها حتى يكفر.

وقوله: ﴿**فتحرير رقبة**﴾ أي فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا، فهاهنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان، وفي كفارة القتل مقيدة بالإيمان، فحمل الشافعي رحمه الله ما أطلق هاهنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب وهو عتق الرقبة، واعتضد في ذلك بما رواه عن مالك بسنده عن معاوية بن الحكم السلمي في قصة الجارية السوداء، وأن رسول الله ﷺ قال: «أعتقها فإنها مؤمنة» وقد رواه أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه.

وقوله: ﴿**ذلكم توعظون به**﴾ أي تزجرون به ﴿**والله بما تعملون خبير**﴾ أي خبير بما يصلحكم عليم بأحوالكم. وقوله: ﴿**فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً**﴾ قد تقدمت الأحاديث الآمرة بهذا على الترتيب كما ثبت في الصحيحين في قصة الذي جامع امرأته في رمضان. ﴿**ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله**﴾ أي شرعنا هذا لهذا. وقوله: ﴿**وتلك حدود الله**﴾ أي محارمه فلا تنتهكوها. وقوله: ﴿**وللكافرين عذاب أليم**﴾ أي الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء كلا ليس الأمر كما زعموا بل لهم عذاب أليم أي في الدنيا والآخرة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

يخبر تعالى عمن شاقوا الله ورسوله وعاندوا شرعه ﴿**كبتوا كما كبت الذين من قبلهم**﴾ أي أهينوا ولعنوا وأخزوا كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم ﴿**وقد أنزلنا آيات بينات**﴾ أي واضحات لا يعاندها ولا يخالفها إلا كافر فاجر مكابر، ﴿**وللكافرين عذاب مهين**﴾ أي في مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله والانقياد له والخضوع لديه.

ثم قال: ﴿**يوم يبعثهم الله جميعاً**﴾ وذلك يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، ﴿**فينبئهم بما عملوا**﴾ أي فيخبرهم بالذي صنعوا من خير وشر ﴿**أحصاه الله ونسوه**﴾ أي ضبطه الله وحفظه عليهم وهم قد نسوا ما كانوا عملوا ﴿**والله على كل شيء شهيد**﴾ أي لا يغيب عنه شيء ولا ينسى شيئاً. ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم وسماعه كلامهم، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا فقال: ﴿**ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة**﴾ أي من سر ثلاثة ﴿**إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا**﴾ أي مطلع عليهم يسمع كلامهم

وسرهم ونجواهم ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علم الله به وسمعه له، كما قال: **﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب﴾** [التوبة: ٧٨]. وقال: **﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾** [الزخرف: ٨٠]، ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم فهو سبحانه وتعالى مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء. ثم قال: **﴿ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾** وقال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

قال مجاهد في قوله: **﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه﴾** قال اليهود. وكذا قال مقاتل بن حيان وزاد: كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة، وكانوا إذا مر بهم الرجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن، فإذا رأى المؤمن ذلك خَشيهم، فترك طريقه عليهم. فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى، فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى، فأنزل الله تعالى: **﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه﴾**. وقوله: **﴿ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول﴾** أي يتحدثون فيما بينهم بالإثم، وهو ما يختص بهم، والعدوان وهو ما يتعلق بغيرهم، ومنه معصية الرسول ومخالفته، يُصرون عليها ويتواصون بها. وقوله: **﴿وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله﴾** روى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت: «دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم. فقالت عائشة: وعليكم السام واللعنة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش» قلت: ألا تسمعهم يقولون السام عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «أو ما سمعت ما أقول: وعليكم». فأنزل الله: **﴿وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله﴾** وفي رواية في الصحيح أنها قالت لهم: عليكم السام والذام واللعنة، وأن رسول الله ﷺ قال «إنه يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا». [متفق عليه].

وقوله: **﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول﴾** أي يفعلون هذا، ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام، وإنما هو شتم في الباطن، ومع هذا يقولون في أنفسهم: لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن، لأن الله يعلم ما نسره، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا فقال الله تعالى: **﴿حسبهم جهنم﴾** أي جهنم كفايتهم في الدار الآخرة **﴿يصلونها فبئس المصير﴾**. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر، أن اليهود

كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: سام عليك، ثم يقولون في أنفسهم: لولا يعذبنا الله بما نقول ؟ فنزلت هذه الآية: ﴿**وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير**﴾ إسناده حسن.

وعن ابن عباس قال: كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ إذا حَيّوه: سام عليك، قال الله: ﴿**حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير**﴾. ثم قال الله تعالى مؤدباً عباده المؤمنين أن لا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول**﴾ أي كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن مَالأهم على ضلالهم من المنافقين ﴿**وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون**﴾ أي فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم وسيجزيكم بها. روى الإمام أحمد عن صفوان بن محرز قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل فقال كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كَنَفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قَرّره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. ثم يُعْطَى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين**». أخرجاه في الصحيحين.

ثم قال تعالى: ﴿**إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ أي إنما النجوى ـ وهي المُسَارّة ـ حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً ﴿**من الشيطان ليحزن الذين آمنوا**﴾ يعني إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه ﴿**ليحزن الذين آمنوا**﴾ أي ليسوءهم وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله، ومن أحسَّ من ذلك شيئاً فليستعذ بالله وليتوكل على الله فإنه لا يضره شيء بإذن الله.

وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذٍ على مؤمن، كما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه فإن ذلك يحزنه**». أخرجاه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

يقول تعالى مؤدباً عباده المؤمنين وآمراً لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم**﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل، كما جاء في الحديث الصحيح: «**من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة**». [متفق عليه]. وفي الحديث الآخر: «**ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**». [رواه مسلم]، ولهذا أشباه كثيرة،

ولهذا قال تعالى: ﴿فافسحوا يفسح الله لكم﴾ قال قتادة: نزلت هذه الآية في مجالس الذكر، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضَنّوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ فأمرهم الله تعالى أن يفسح بعضهم لبعض.

وقد روى الإمام أحمد والشافعي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا» وأخرجاه في الصحيحين.

(وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال: فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث: «قوموا إلى سيدكم» [متفق عليه]. ومنهم من منع من ذلك محتجاً بحديث: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار» [رواه الترمذي وحسنه]. ومنهم من فصل فقال: يجوز عند القدوم من سفر وللحاكم في محل ولايته، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ، فإنه لما استقدمه النبي حاكماً في بني قريظة فرآه مقبلاً قال للمسلمين: «قوموا إلى سيدكم» وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه والله أعلم. فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم، وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكان إذا جاء لا يقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك. [رواه أحمد والترمذي وحسنه])

وقد روي عن ابن عباس والحسن البصري وغيرهما أنهم قالوا في قوله تعالى: ﴿إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم﴾ يعني في مجالس الحرب قالوا: ومعنى قوله: ﴿وإذا قيل انشزوا فانشزوا﴾ أي انهضوا للقتال. وقال قتادة: إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا، وقال مقاتل: إذا دعيتم إلى الصلاة فارتفعوا إليها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا إذا كانوا عند النبي ﷺ في بيته فأرادوا الانصراف، أحب كل منهم أن يكون هو آخرهم خروجاً من عنده، فربما يشق ذلك عليه، عليه السلام وقد تكون له الحاجة فأمروا أنهم إذا أمروا بالانصراف أن ينصرفوا، كقوله: ﴿وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا﴾ [النور:٢٨].

وقوله: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾ أي لا تعتقدوا أنه إذا فَسَح أحد منكم لأخيه إذا أقبل أو إذا أمر بالخروج فخرج، أن يكون ذلك نقصاً في حقه بل هو رفعة ورتبة عند الله، والله تعالى لا يضيع ذلك له، بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة فإن (من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ونشر ذكره) ولهذا قال: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾ أي خبير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه.

وروى الإمام أحمد أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي ؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبزى رجل من موالينا، فقال عمر: استخلفت عليهم مولى ؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنه قارىء لكتاب الله عالم بالفرائض قاضٍ، فقال عمر رضي الله عنه: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله

يرفع بهذا الكتاب قوماً ويضع به آخرين» وهكذا رواه مسلم. وقد ذكرت فضل العلم وأهله وما ورد في ذلك من الأحاديث مستقصاة في شرح كتاب العلم من صحيح البخاري، ولله الحمد والمنة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) ﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ أي يسارّه فيما بينه وبينه، أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام، ولهذا قال: **﴿ذلك خير لكم وأطهر﴾** ثم قال تعالى: **﴿فإن لم تجدوا﴾** أي إلا من عجزعن ذلك لفقده **﴿فإن الله غفور رحيم﴾** فما أمر بها إلا من قدر عليها. ثم قال: **﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات﴾** أي أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول، **﴿فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون﴾** فنسخ وجوب ذلك عنهم، وقد قيل إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقال ابن عباس في قوله: **﴿فقدموا بين يدي نجواكم صدقة﴾** وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه، فلما قال ذلك صبر كثير من المسلمين وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا **﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾** فوسع الله عليهم ولم يضيق.

وقال عكرمة والحسن البصري: نسختها الآية التي بعدها: **﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات﴾** إلى آخرها. وقال قتادة: إنها منسوخة ما كانت إلا ساعة من نهار.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٥) ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ (١٨) ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٩) ﴾.

يقول الله تعالى منكراً على المنافقين موالاتهم الكفار في الباطن. وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين، كما قال تعالى: **﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾** [النساء:١٤٣]. وقال هٰهنا: **﴿ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم﴾** يعني اليهود الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم في الباطن. ثم قال:

﴿ما هم منكم ولا منهم﴾ أي هؤلاء المنافقون ليسوا في الحقيقة منكم أيها المؤمنون، ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود. ثم قال: ﴿ويحلفون على الكذب وهم يعلمون﴾ يعني المنافقين يحلفون على الكذب، وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا، وهي اليمين الغموس، ولا سيما في مثل حالهم اللعين عياذاً بالله منه، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا جاؤوا الرسول حلفوا له بالله إنهم مؤمنون، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به، لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه، ولهذا شهد الله بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك.

ثم قال: ﴿أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ أي أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة، وهي موالاة الكافرين ونصحهم، ومعاداة المؤمنين وغشهم، ولهذا قال تعالى: ﴿اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله﴾ أي أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر واتقوا بالأيمان الكاذبة، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم، فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس ﴿فلهم عذاب مهين﴾ أي في مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم في الأيمان الكاذبة الحانثة. ثم قال: ﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ أي لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾. ثم قال: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً﴾ أي يحشرهم يوم القيامة فلا يغادر منهم أحداً، ﴿فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء﴾ أي يحلفون بالله عز وجل أنهم كانوا على الهدى والاستقامة، كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة، ولهذا قال: ﴿ويحسبون أنهم على شيء﴾ أي حلفهم ذلك لربهم عز وجل. ثم قال منكراً عليهم حسبانهم: ﴿ألا إنهم هم الكاذبون﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان في ظل حجرة من حُجَره، وعنده نفر من المسلمين قد كاد يقلصُ عنهم الظل قال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان، فإذا أتاكم فلا تكلموه» فجاء رجل أزرق فدعاه رسول الله فكلمه فقال: «علام تشتمني أنت وفلان وفلان»؟ نفر دعاهم بأسمائهم، قال فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا له واعتذروا إليه، قال فأنزل الله عز وجل: ﴿فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون﴾ [ورواه أحمد وإسناده جيد].

وحال هؤلاء كما أخبر الله تعالى عن المشركين حيث يقول: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ [الأنعام: ٢٣-٢٤]. ثم قال: ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله﴾ أي استحوذ على قلوبهم الشيطانُ حتى أنساهم أن يذكروا الله عز وجل، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه. ثم قال تعالى: ﴿أولئك حزب الشيطان﴾ يعني الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله.

ثم قال: ﴿ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسوله، يعني الذين هم في حدٍّ والشرع في حَدٍّ، أي مجانبون للحق مشاقون له، هم في ناحية والهدى في ناحية، ﴿أولئك في الأذلين﴾ أي في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب، الأذلين في الدنيا والآخرة. ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ أي قد حكم وكتب في كتابه الأول وقَدَره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل، بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ [غافر: ٥١-٥٢]. وقال هاهنا: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾ أي كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه، وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة. ثم قال تعالى: ﴿لا تجد قوماًيؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾ أي لا يوادّون المحادّين ولو كانوا من الأقربين، كما قال تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه﴾ الآية [آل عمران: ٢٨]، وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره: أنزلت هذه الآية ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة رضي الله عنهم: ولو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته.

وقيل في قوله: ﴿ولو كانوا آباءهم﴾ نزلت في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر ﴿أو أبناءهم﴾ في الصديق هم يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ﴿أو إخوانهم﴾ في مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿أو عشيرتهم﴾ في عمر قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ، فالله أعلم.

وقوله: ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾ أي من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه، فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان أي كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته. قال السدي: جعل في قلوبهم الإيمان. وقال ابن عباس: ﴿وأيدهم بروح منه﴾ أي قواهم.

وقوله: ﴿ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ كل هذا تقدم تفسيره غير مرة.(وفي قوله: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ سر بديع وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم والفضل العميم) وقوله: ﴿أولئك حزب الله﴾ أي هؤلاء حزب الله أي عباد الله وأهل كرامته. وقوله: ﴿ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدنيا والآخرة في مقابلة ما أخبر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان. ثم قال: ﴿ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾.

تفسير سورة الحشر وهي مدنية

وكان ابن عباس يقول: سورة بني النضير. عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس سورة الحشر، قال: أنزلت في بني النضير، رواه البخاري ومسلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾.

يخبر تعالى أن جميع ما في السموات وما في الأرض من شيء يسبح له ويمجده ويقدسه، ويصلي له ويوحده، كقوله تعالى: ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقوله: ﴿وهو العزيز﴾ أي منيع الجناب ﴿الحكيم﴾ في قَدره وشرعه. وقوله: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ يعني يهود بني النضير. قاله ابن عباس ومجاهد والزهري وغير واحد.

وكان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهداً وذمة، على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه فأحل الله بهم بأسه الذي لا مَرَدَّ له، فأجلاهم النبي ﷺ وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون، وظنوا هم أنها ما نعتهم من بأس الله، فما أغنى عنهم من الله شيئاً وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم، وسيرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام، وهي أرض المحشر والمنشر، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر، وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم، فكانوا يخربون ما في بيوتهم من المنقولات التي يمكن أن تحمل معهم، ولهذا قال: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ أي تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه، كيف يحل به من بأسه المخزي له

في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم.

روى أبو داود عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس، والخزرج، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لنقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مُقاتلتكم ونسبي نساءكم، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان أجمعوا لقتال النبي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم يريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم». فلما سمعوا ذلك من النبي تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء وهو الخلاخيل، فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ اجتمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ: اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً حتى نلتقي بمكان المَنْصَف، وليسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك. فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم فقال لهم: «إنكم والله لا تؤمنون عندي إلا بعهد تعاهدونني عليه». فأبوا أن يعطوه عهداً فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا الغَد على بني قريظة بالكتائب، وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه، فانصرف عنهم. وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، فجلت بنو النضير واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، وكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة أعطاه الله إياها وخصه بها فقال: ﴿**وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب**﴾ يقول بغير قتال، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين، قسمها بينهم وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوي حاجة، ولم يقسم من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ التي في أيدي بني فاطمة. [سنده صحيح].

ولنذكر ملخص غزوة بني النضير على وجه الاختصار وبالله المستعان.

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازي والسير أنه لما قُتِل أصحابُ بئر معونة من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا سبعين وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري، فلما كان في أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر، وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «لقد قتلت رجلين لأدينهما» وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد، فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير ليستعينهم في دية ذينك الرجلين، وكانت منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها.

قال محمد بن إسحاق بن يسار في كتابه السيرة: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف. فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال أنا لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة.

فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم، ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض وتعيبه على من يصنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟ وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي ابن سلول قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا فقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعل، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ، فكانت لرسول الله ﷺ خاصة يضعها حيث يشاء، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار. إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة - سماك بن خرشة - ذكرا فقراً فأعطاهما رسول الله ﷺ، قال: ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان: يامين بن عمرو بن كعب عم عمرو بن جحاش وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها.

قال ابن إسحاق: وقد حدثني بعض آل يامين أن رسول الله ﷺ قال ليامين: «ألم ترَ ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأني» فجعل يامين بن عمرو لرجل جُعْلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله فيما يزعمون. قال ابن إسحاق: ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها. فقوله: ﴿**هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب**﴾ يعني بني النضير ﴿**من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا**﴾ أي في مدة حصاركم لهم وقصرها وكانت ستة أيام مع شدة

حصونهم ومنعتها، ولهذا قال: ﴿**وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا**﴾ أي جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال، كما قال في الآية الأخرى: ﴿**قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون**﴾ [النحل: ٢٦].

وقوله: ﴿**وقذف في قلوبهم الرعب**﴾ أي الخوف والهَلَع والجَزَع، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذي نُصر بالرعب مسيرةَ شهر صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: ﴿**يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار**﴾ قد تقدم تفسير ابن إسحاق لذلك، وهو نقض ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم، وتَحمّلها على الإبل، وكذلك قال عروة بن الزبير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد. ﴿**ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا**﴾ أي لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء، وهو النفي من ديارهم وأموالهم، لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبي ونحو ذلك، قاله عروة والسدي وابن زيد، لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا مع ما أعد لهم في الدار الآخرة من العذاب في نار جهنم. وقال عكرمة: الجلاء: القتل، وفي رواية عنه: الفناء، وقال قتادة: الجلاء خروج الناس من البلد إلى البلد. وقال الضحاك: أجلاهم إلى الشام وأعطى كل ثلاثة بعيراً وسقاء، فهذا الجلاء.

وقوله: ﴿**ولهم في الآخرة عذاب النار**﴾ أي حتم لازم لا بد لهم منه. وقوله: ﴿**ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله**﴾ **أي إنما فعل الله بهم ذلك وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين**، لأنهم خالفوا الله ورسوله وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم. ثم قال: ﴿**ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب**﴾. وقوله تعالى: ﴿**ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين**﴾ اللين نوع من التمر وهو جيد. قال أبو عبيدة: وهو ما خالف العجوة والبَرْني من التمر، وقال كثيرون من المفسرين: اللينة ألوان التمر سوى العجوة. قال ابن جرير: هو جميع النخل ونقله عن مجاهد: وهو البُوَيرة أيضاً.

وروى النسائي عن ابن عباس في قوله: ﴿**ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين**﴾ قال: يستنزلونهم من حصونهم، وأمروا بقطع النخل، فحاك في صدورهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً فلنسألن رسول الله ﷺ هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله: ﴿**ما قطعتم من لينة**﴾ [رجاله ثقات].

وأخرج صاحبا الصحيح عن ابن عمر، قال: حاربت النضير وقريظة فأجلى بني النضير وأقر قريظة ومن عليهم حتى حارب قريظة، فقتل من رجالهم وسبى وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فأمنهم وأسلموا وأجلى يهود المدينة كلهم

بني قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سلام ويهود بني حارثة وكل يهود بالمدينة. ولهما أيضاً عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير، وقطع وهي البُوَيرةُ، فأنزل الله عز وجل فيه ﴿**ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين**﴾.

قال ابن إسحاق: كانت وقعة بني النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة، وحكى البخاري عن الزهري عن عروة أنه قال: كانت وقعة بني النضير بعد بدر بستة أشهر.

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾.

يقول تعالى مبيناً ما الفيء، وما صفته، وما حكمه، فالفيء: كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، كأموال بني النضير هذه، فإنها مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، أي لم يقاتلوا الأعداء فيها، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ، فأفاءه الله على رسوله، ولهذا تَصرَّف فيه كما شاء، فردّه على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآيات فقال: ﴿**وما أفاء الله على رسوله منهم**﴾ أي من بني النضير ﴿**فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب**﴾ يعنِي الإبل ﴿**ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير**﴾ أي هو قدير لا يُغالَب ولا يُمانع، بل هو القاهر لكل شيء.

ثم قال: ﴿**ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى**﴾ أي جميع البلدان التي تُفتَح هكذا، فحكمها حكم أموال بني النضير، ولهذا قال: ﴿**فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل**﴾ إلى آخرها والتي بعدها فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهه.

روى أبو داود عن مالك بن أوس قال: أرسل إليّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين تعالى النهار، فجئته فوجدته جالساً على سرير مفضياً إلى رماله، فقال حين دخلت عليه: يا مالك إنه قد دَفّ أهل أبيات من قومك، وقد أمرت فيهم بشيء فاقسم فيهم، قلت: لو أمرت غيري بذلك فقال: خذه. فجاءه يرفأ، فقال: يا أمير المؤمنين هل لك في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص؟ قال: نعم. فأذن لهم فدخلوا ثم جاءه يرفا فقال: يا أمير المؤمنين هل لك في العباس وعلي؟ قال: نعم، فأذن لهما فدخلا فقال العباس: يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا يعني علياً، فقال بعضهم: أجل يا أمير المؤمنين اقض بينهما وأرحهما، قال مالك بن أوس: خُيِّل إلي أنهما قدما أولئك النفر لذلك، فقال عمر رضي الله عنه: اتئدا. ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة» قالوا: نعم.

ثم أقبل على علي والعباس فقال: أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة» فقالا: نعم. فقال: إن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحداً من الناس فقال: ﴿**وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير**﴾ فكان الله تعالى أفاء على رسوله أموال بني النضير فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة سنة أو نفقته ونفقة أهله سنة، ويجعل ما بقي أسوة المال. ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون ذلك؟ قالوا: نعم. ثم أقبل على علي والعباس فقال: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان ذلك؟ قالا: نعم. فلما توفي رسول الله ﷺ قال أبو بكر: أنا ولي رسول الله ﷺ، فجئت أنت وهذا إلى أبي بكر تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها، فقال أبو بكر رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «لا نورث ما تركنا صدقة» والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق. فوليها أبو بكر، فلما توفي قلت: أنا وَلِيّ رسول الله ﷺ وولي أبي بكر، فوليتها ما شاء الله أن أليها، فجئت أنت وهذا وأنتما جميع وأمركما واحد فسألتمانيها، فقلت: إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أنَّ عليكما عهد الله أن تلياها بالذي كان رسول الله ﷺ يليها، فأخذتماها مني على ذلك ثم جئتماني لأقضي بينكما بغير ذلك. والله لا أقضي بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة فإن عجزتما عنها فرداها إلي. أخرجه الشيخان.

وهذه المصارف المذكورة في هذه الآية هي المصارف المذكورة في خمس الغنيمة، وقد قدمنا الكلام عليها في سورة الأنفال بما أغنى عن إعادته هٰهنا ولله الحمد.

وقوله: ﴿**كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم**﴾ أي جعلنا هذه المصارف لمال الفيء لئلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها، بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء. وقوله: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾ أي مهما أمركم به فافعلوه ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر.

وروى الإمام أحمد عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمُتفَلِّجات للحُسْن، المغيرات خلق الله عز وجل، قال: فبلغ امرأة من بني أسد في البيت يقال لها أم يعقوب، فجاءت إليه فقالت: بلغني أنك قلت كيت وكيت. قال: ما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وفي كتاب الله تعالى، فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته. فقال: إن كنت قرأتِهِ فقد وجدتيه. أما قرأت: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾ قالت: بلى. قال: فإن رسول الله ﷺ نهى عنه. قالت: إني لأظن أهلك يفعلونه، قال: اذهبي فانظري فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً، فجاءت فقالت: ما رأيت شيئاً، قال: لو كان كذا لما تجامعنا. أخرجاه في الصحيحين. وقد ثبت

في الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه». وروى النسائي عن ابن عمر وابن عباس: أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه نهى عن الدُّباء والحَنْتَم والنَّقير والمزَفَّت، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾. [سنده صحيح وهو عند مسلم دون ذكر الآية]. وقوله: ﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ أي اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه وارتكب ما عنه زجره ونهاه.

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفيء أنهم ﴿الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ أي خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾ أي هؤلاء الذين صَدَقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين. ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم، وإيثارهم مع الحاجة، فقال: ﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم﴾ أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم. قال عمر: وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم كرامتهم. وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم رواه البخاري هٰهنا.

وقوله: ﴿يحبون من هاجر إليهم﴾ أي مِنْ كَرَمهم وشرف أنفسهم، يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم. روى الإمام أحمد عن أنس قال: قال المهاجرون يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: «لا ما أثنيتم عليهم ودَعَوتُم الله لهم». [سنده صحيح].

وروى البخاري عن أنس بن مالك قال: دعا النبي ﷺ الأنصار أن يقطع لهم البحرين. قالوا: لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال: «إما لا، فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم بعدي أثرة». وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: لا. فقالوا: تكفوننا المؤنة ونشرككم في الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا. ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ أي ولا يجدون في أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة.

قال الحسن البصري: ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة﴾ يعني الحسد. ﴿مما أوتوا﴾ قال قتادة: يعني فيما أعطى إخوانهم. وكذا قال ابن زيد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ يعني مما أوتوا المهاجرين، قال وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم في الأنصار فعاتبهم الله في ذلك فقال: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير﴾. وقوله: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ يعني حاجة أي يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدءون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك.

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضلُ الصدقة جَهدُ المقلّ».

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: أتى رجل لرسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيفُ رسول الله ﷺ لا تَدّخريه شيئاً، فقالت: والله ما عندي إلا قوتُ الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفيء السراج ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت. ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: «لقد عجب الله عز وجل ـ أو ضحك ـ من فلان وفلانة». وأنزل الله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾، وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ أي من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح.

روى أحمد عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم». أخرجه مسلم.

وروى ابن أبي حاتم عن الأسود بن هلال قال: جاء رجل إلى عبد الله فقال: يا أبا عبد الرحمن إني أخاف أن أكون قد هلكت، فقال له عبد الله: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من يدي شيئاً، فقال عبد الله: ليس ذلك بالشح الذي ذكره الله في القرآن، إنما الشح الذي ذكر الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذاك البخل وبئس الشيء البخل.

وقوله: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم﴾ هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء، وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان، كما

قال في آية براءة ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ [التوبة: ١٠٠]. فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة الداعون لهم في السر والعلانية، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون﴾ أي قائلين ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذي سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً﴾ أي بغضاً وحسداً ﴿للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم﴾ وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسبّ الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب، لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم﴾.

وروى ابن أبي حاتم عن عائشة أنها قالت: أمروا أن يستغفروا لهم فسبوهم! ثم قرأت هذه الآية: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ الآية. [وأخرج مسلم نحوه].

وروى ابن جرير عن مالك بن أوس بن الحَدَثان قال: قرأ عمر بن الخطاب: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى﴾ حتى بلغ ﴿للفقراء﴾ ﴿والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم﴾ ﴿والذين جاءوا من بعدهم﴾ ثم قال: استوعبت هذه المسلمين عامة، وليس أحد إلا له فيها حق ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي وهو بَسرو حِمير نصيبه فيها لم يعرق فيها جبينه.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه، حين بعثوا إلى يهود بني النضير يَعدُونهم النصر من أنفسهم، فقال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب: لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصركم﴾ قال الله تعالى: ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ أي لكاذبون فيما وعدوهم به إما لأنهم قالوا لهم قولاً، ومن نيتهم أن لا يفوا لهم به، وإما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه، ولهذا قال: ﴿ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾ أي لا يقاتلون معهم ﴿ولئن نصروهم﴾ أي قاتلوا معهم ﴿ليولن الأدبار ثم لا ينصرون﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها. ثم قال تعالى: ﴿لأنتم أشد رهبة في صدورهم من

الله﴾ أي يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله، كقوله: ﴿إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾ [النساء:٧٧]، ولهذا قال: ﴿ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾. ثم قال: ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر﴾ يعني أنهم من جُبنهم وهَلَعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة، والمقاتلة بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة.

ثم قال: ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ أي عداوتهم فيما بينهم شديدة، ولهذا قال: ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ أي تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين، وهم مختلفون غاية الاختلاف، قال إبراهيم النخعي: يعني أهل الكتاب والمنافقين ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾. ثم قال: ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم﴾ قال مجاهد والسدي ومقاتل بن حيان: يعني كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر، وقال ابن عباس: يعني يهود بني قينقاع، وكذا قال قتادة ومحمد بن إسحاق، وهذا القول أشبه بالصواب فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا.

وقوله: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك﴾ يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين، وقول المنافقين لهم: ﴿وإن قوتلتم لننصرنكم﴾ ثم لما حقت الحقائق وجدَّ بهم الحصار والقتال، تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان ـ والعياذ بالله ـ الكفر، فإذا دخل فيما سول له تبرأ منه وتنصل وقال: ﴿إني أخاف الله رب العالمين﴾. وقد ذكر بعضهم هٰهنا قصة لبعض عباد بني إسرائيل هي كالمثال لهذا المثل، لا أنها المرادة وحدها بالمثل، بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها، فروى ابن جرير عن علي رضي الله عنه: أن راهباً تعبد ستين سنة، وإن الشيطان أراده فأعياه، فعمد إلى امرأة فأجنَّها، ولها إخوة فقال لإخوتها عليكم بهذا القس فيداويها، قال فجاؤوا بها إليه فداواها وكانت عنده، فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته، فأتاها فحملت، فعمد إليها فقتلها، فجاء إخوتها، فقال الشيطان للراهب: أنا صاحبك إنك أعييتني أنا صنعت هذا بك فأطعني أنجك مما صنعت بك، فاسجد لي سجدة، فسجد له فلما سجد له قال: إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين، فذلك قوله: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني إخاف الله رب العالمين﴾. وكذا روي عن ابن عباس وابن مسعود وطاوس ومقاتل بن حيان نحو ذلك، واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيصا، والله أعلم.

وقوله: ﴿فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها﴾ أي فكان عاقبة الآمر بالكفر والفاعل له، ومصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها، ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ أي جزاء كل ظالم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ

كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ .

روى الإمام أحمد عن جرير قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مُجْتَابي النمار أو العَبَاء مُتَقلِّدي السيوف، عامتهم من مُضَر، بل كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، قال: فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة فصلى ثم خطب فقال: «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ـ إلى آخر الآية وقرأ الآية التي في الحشر ﴿**ولتنظر نفس ما قدمت لغد**﴾ تصدق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاع بره من صاع تمره ـ حتى قال ـ ولو بشق تمرة» قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: «من سَنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن يَنْقُص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وِزْرُها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». أخرجه مسلم. فقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله**﴾ أمر بتقواه وهي تشمل فعل ما به أمر وترك ما عنه زجر.

وقوله: ﴿**ولتنظر نفس ما قدمت لغد**﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ﴿**واتقوا الله**﴾ تأكيد ثان ﴿**إن الله خبير بما تعملون**﴾ أي اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم، لا تخفى عليه منكم خافية ولا يغيب من أموركم جليل ولا حقير. وقوله: ﴿**ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم**﴾ أي لا تنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التي تنفعكم في معادكم، فإن الجزاء من جنس العمل، ولهذا قال تعالى: ﴿**أولئك هم الفاسقون**﴾ أي الخارجون عن طاعة الله، الهالكون يوم القيامة، الخاسرون يوم معادهم، كما قال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون**﴾ [المنافقون: ٩].

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن نعيم بن نَمحة قال: كان في خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم، فمن استطاع أن يقضي الأجل وهو في عمل الله عز وجل فليفعل، ولن تنالوا ذلك إلا بالله عز وجل. إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله عز وجل أن تكونوا أمثالهم: ﴿**ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم**﴾ أين من تعرفون من إخوانكم؟ قدموا على ما قدموا في أيام سلفهم، وخلوا بالشقوة والسعادة، وأين الجبارون الأولون الذي بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه فاستضيئوا منه ليوم ظلمة، واستضيئوا بسنائه وبيانه،

إن الله تعالى أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿**إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين**﴾ لا خير في قول لا يراد به وجه الله ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم. إسناده جيد ورجاله كلهم ثقات.

وقوله: ﴿**لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة**﴾ أي لا يستوي هؤلاء وهؤلاء في حكم الله تعالى يوم القيامة، كما قال: ﴿**أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون**﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال: ﴿**أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار**﴾ [ص: ٢٨]. في آيات أخر دالات على أن الله تعالى يكرم الأبرار، ويهين الفجار، ولهذا قال تعالى هٰهنا: ﴿**أصحاب الجنة هم الفائزون**﴾ أي الناجون المسلمون من عذاب الله عز وجل.

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾.

يقول تعالى معظماً لأمر القرآن ومبيناً علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه، لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد: ﴿**لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله**﴾ أي فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه، ولهذا قال تعالى: ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون**﴾. عن ابن عباس في قوله: ﴿**لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً**﴾ إلى آخرها يقول لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حمّلته إياه لتصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع. ثم قال: ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون**﴾ وكذا قال قتادة وابن جرير.

ثم قال تعالى: ﴿**هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم**﴾ أخبر تعالى أنه الذي لا إله إلا هو فلا رب غيره، ولا إله للوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه فباطل، وأنه عالم الغيب والشهادة أي يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من جليل وحقير وصغير وكبير، حتى الذر في الظلمات. وقوله: ﴿**هو الرحمن الرحيم**﴾ قد تقدم الكلام على ذلك في أول التفسير بما أغنى

عن إعادته هٰهنا، والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، وقد قال تعالى: ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء**﴾ [الأعراف:١٥٦]. ثم قال: ﴿**هو الله الذي لا إله إلا هو الملك**﴾ أي المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة. وقوله: ﴿**القدوس**﴾ قال وهب بن منبه أي الطاهر. وقال مجاهد وقتادة أي المبارك وقال ابن جريج تقدسه الملائكة الكرام. ﴿**السلام**﴾ أي من جميع العيوب والنقائص لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله.

وقوله: ﴿**المؤمن**﴾ قال ابن عباس: أي أمن خلقه من أن يظلمهم. وقال قتادة: أمَّن بقوله: أنه حق. وقال ابن زيد: صدَّق عباده المؤمنين في إيمانهم به. وقوله: ﴿**المهيمن**﴾ قال ابن عباس وغير واحد: أي الشاهد على خلقه بأعمالهم بمعنى هو رقيب عليهم، كقوله: ﴿**والله على كل شيء شهيد**﴾ [البروج:٩]. وقوله: ﴿**العزيز**﴾ أي الذي قد عزَّ كل شيء فقهره، وغلب الأشياء فلا ينال جنابه، لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه، ولهذا قال: ﴿**الجبار المتكبر**﴾ أي الذي لا تليق الجَبْرِيّة إلا له، ولا التكبر إلا لعظمته، كما في الصحيح: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عَذَّبته» وقال قتادة: الجبار الذي جَبَر خلقه على ما يشاء. وقال ابن جرير: الجبار: المصلح أمور خلقه المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم. وقال قتادة: المتكبر يعني عن كل سوء ثم قال: ﴿**سبحان الله عما يشركون**﴾. وقوله: ﴿**هو الله الخالق البارىء المصور**﴾ الخلق: التقدير، والبرء: هو الفري، وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود.

وقوله تعالى: ﴿**الخالق البارىء**﴾ أي الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار. ﴿**المصور**﴾ أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها.

وقوله: ﴿**له الأسماء الحسنى**﴾ قد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف. وذكر الحديث المروي في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر».

وقوله: ﴿**يسبح له ما في السموات والأرض**﴾ كقوله: ﴿**تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً**﴾ [الإسراء:٤٤]. وقوله: ﴿**وهو العزيز**﴾ أي فلا يرام جَنابه ﴿**الحكيم**﴾ في شرعه وقدره.

تفسير سورة الممتحنة وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم

بِالسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعة. روى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظَعِينة معها كتاب فخذوه منها، فانطلقنا تَعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة قلنا أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، قلنا لتخرجن الكتاب أو لَنُلقين الثياب، قال: فأخرجت الكتاب من عِقَاصها، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب ما هذا؟» قال: لا تعجل علي إني كنت امرأً مُلصَقاً في قريش ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضى بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «إنه صدقكم». فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر، فقال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» وهكذا أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه، وزاد البخاري في كتاب المغازي: فأنزل الله السورة: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء**﴾. وعن عروة نحو ذلك، وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد أن هذه الآيات نزلت في حاطب بن أبي بلتعة.

فقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق**﴾ يعني المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين، الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء، كما قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم**﴾ [المائدة:٥١]. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، وقال تعالى: ﴿**لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه**﴾ [آل عمران:٢٨]، ولهذا قبل رسول الله ﷺ عذر حاطب، لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد.

وقوله: ﴿**يخرجون الرسول وإياكم**﴾ هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم، لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، ولهذا قال: ﴿**أن تؤمنوا بالله ربكم**﴾ أي لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين، كقوله: ﴿**وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد**﴾ [البروج:٨]، وكقوله: ﴿**الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله**﴾ [الحج:٤٠].

وقوله: ﴿إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾ أي إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء، إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم، فلا توالوا أعدائي وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم. وقوله: ﴿تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم﴾ أي تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر ﴿ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل * إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء﴾ أي لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم مِن أذى ينالونكم به بالمقال والفعال. ﴿وودوا لو تكفرون﴾ أي ويحرصون على أن لا تنالوا خيراً فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة، فكيف توالون مثل هؤلاء؟ وهذا تهييج على عداوتهم أيضاً.

وقوله: ﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير﴾ أي قراباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءاً، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضل عمله، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد، ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء. روى الإمام أحمد عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله أين أبي؟ قال: «في النار» فلما قفّى دعاه فقال: «إن أبي وأباك في النار» ورواه مسلم.

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾.

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبري منهم: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه﴾ أي وأتباعه الذين آمنوا معه ﴿إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم﴾ أي تبرأنا منكم ﴿ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم﴾ أي بدينكم وطريقكم ﴿وبدا بيننا وبينكم، العداوة والبغضاء أبداً﴾ يعني وقد شُرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم، مادمتم على كفركم فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ أي إلى أن تُوحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له وتخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد. وقوله: ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك﴾ أي لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم، ويقولون إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه، فأنزل الله عز وجل: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم * وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله

تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾ [التوبة:١١٣-١١٤].

وقال تعالى في هذه الآية: ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء﴾ أي ليس لكم في ذلك أسوة أي في الاستغفار للمشركين هكذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد.

ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه، حين فارقوا قومهم وتبرءوا منهم، فلجؤوا إلى الله وتضرعوا إليه فقالوا ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ أي توكلنا عليك في جميع الأمور وسلمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك، وإليك المصير أي المعاد في الدار الآخرة. ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾ قال مجاهد: معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا، وكذا قال الضحاك، وقال قتادة: لا تُظْهِرهم علينا فيفتتنوا بذلك، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه، واختاره ابن جرير، وقال ابن عباس: لا تسلطهم علينا فيفتنونا.

وقوله: ﴿واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي واستر ذنوبنا عن غيرك واعف عنها فيما بيننا وبينك ﴿إنك أنت العزيز﴾ أي الذي لا يُضَام من لاذ بجنابك ﴿الحكيم﴾ في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك. ثم قال تعالى: ﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة﴾ وهذا تأكيد لما تقدم ومستثنى منه ما تقدم أيضاً لأن هذه الأسوة المثبتة هٰهنا هي الأولى بعينها. وقوله: ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ تهييج إلى ذلك لكل موقن بالله والمعاد، وقوله: ﴿ومن يتول﴾ أي عما أمر الله به ﴿فإن الله هو الغني الحميد﴾ كقوله: ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾ [إبراهيم:٨]. وقال ابن عباس: ﴿الغني﴾ الذي قد كمل في غناه وهو الله، هذه صفته لا تنبغي إلا له ليس له كفء، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار. ﴿الحميد﴾ المستحمد إلى خلقه أي هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله لا إله غيره ولا رب سواه.

﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾ أي محبة بعد البِغْضَة، ومودة بعد النفرة. ﴿والله قدير﴾ أي على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمختلفة، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة فتصبح مجتمعة متفقة، كما قال تعالى ممتناً على الأنصار: ﴿واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ الآية [آل عمران:١٠٣]. وكذا قال لهم النبي ﷺ: «ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بي وكنتم متفرقين

فألَّفكم الله بي ؟». [رواه البخاري].

وقوله: ﴿والله غفور رحيم﴾ أي يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له، وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه، من أي ذنب كان.

وقوله تعالى: **﴿لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم﴾** أي لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين، كالنساء والضعفة منهم **﴿أن تبروهم﴾** أي تحسنوا إليهم **﴿وتقسطوا إليهم﴾** أي تعدلوا. روى الإمام أحمد عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قَدِمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها ؟ قال: «نعم صلي أمك» أخرجاه.

وقوله: **﴿إن الله يحب المقسطين﴾** قد تقدم تفسير ذلك في سورة الحجرات [آية:٩]، وفي الحديث الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولوا». [رواه مسلم].

وقوله: **﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم﴾** أي إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة، فقاتلوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم ينهاكم الله عز وجل عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم، ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال: **﴿ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾**، كقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾** [المائدة: ٥١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

تقدم في سورة الفتح في ذكر صلح الحديبية الذي وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش فكان فيه: على أن لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، وفي رواية: على أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، وهذا قول عروة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد والزهري ومقاتل بن حيان والسدي. فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصصة للسنة، وهذا من أحسن أمثلة ذلك، وعلى طريقة بعض السلف ناسخة، فإن الله عز وجل أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن، فإن عَلِموهن مؤمنات فلا يرجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن. وعن ابن عباس في قوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن﴾** كان امتحانهن أن يشهدن أن

لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله، وقال مجاهد: ﴿**فامتحنوهن**﴾ فاسألوهن عما جاء بهن، فإذا كان جاء بهن غضبٌ على أزواجهن، أو سَخْطة أو غيره، ولم يؤمنّ فارجعوهن إلى أزواجهن. وقال عكرمة: يقال لها: ما جاء بك إلا حب الله ورسوله، وما جاء بك عشق رجل منا ولا فرار من زوجك؟ فذلك قوله: ﴿**فامتحنوهن**﴾ وقال قتادة: كانت محنتهن أن يستحلفن بالله ما أخرجكن النشوز؟ وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله وحرص عليه؟ فإذا قلن ذلك قبل ذلك منهن.

وقوله: ﴿**فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار**﴾ فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً. وقوله: ﴿**لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن**﴾ هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة.

وقوله: ﴿**وآتوهم ما أنفقوا**﴾ يعني أزواج المهاجرات من المشركين، ادفعوا إليهم الذي غرموه عليهن من الأصدقة، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والزهري وغير واحد. وقوله: ﴿**ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن**﴾ يعني إذا أعطيتموهن أصدقتهن فانكحوهن، أي تزوجوهن بشرطه من انقضاء العدة والولي وغير ذلك. وقوله: ﴿**ولا تمسكوا بعصم الكوافر**﴾ تحريم من الله عز وجل على عباده المؤمنين نكاح المشركات والاستمرار معهن.

وفي الصحيح عن المسور ومروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية، جاءه نساء من المؤمنات فأنزل الله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات - إلى قوله - ولا تمسكوا بعصم الكوافر**﴾ فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين تزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. وقال الزهري: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو بأسفل الحديبية حين صالحهم، على أنه من أتاه منهم رده إليهم، فلما جاءه النساء نزلت هذه الآية، وأمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن، وحكم على المشركين مثل ذلك إذا جاءتهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى زوجها، وقال: ﴿**ولا تمسكوا بعصم الكوافر**﴾. وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال: وإنما حكم الله بينهم بذلك لأجل ما كان بينهم وبينهم من العهد.

وقوله: ﴿**واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا**﴾ أي وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار، إن ذهبن، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين.

وقوله: ﴿**ذلكم حكم الله يحكم بينكم**﴾ أي في الصلح واستثناء النساء منه، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم به بين خلقه ﴿**والله عليم حكيم**﴾ أي عليم بما يصلح عباده حكيم في ذلك.

ثم قال: ﴿**وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا**﴾ قال مجاهد وقتادة: هذا في الكفار الذين ليس لهم عهد، إذا فرت إليهم امرأة

ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيء حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليها. وروى ابن جرير عن الزهري قال: أقر المؤمنون بحكم الله، فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوا على نسائهم، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين، فقال الله تعالى للمؤمنين به: **﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم، فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾**. فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين، ردَّ المؤمنون إلى زوجها النفقة التي أنفق عليهامن العَقب الذي بأيديهم، الذي أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم، التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمن وهاجرن، ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقي لهم، والعقب: ما كان بأيدي المؤمنين من صداق نساء الكفار حين آمن وهاجرن. وعن ابن عباس في هذه الآية: يعني إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار أمر له رسول الله ﷺ أنه يعطى مثل ما أنفق من الغنيمة، وهكذا قال مجاهد **﴿فعاقبتم﴾** أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم **﴿فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾** يعني مهر مثلها. وهكذا قال مسروق وإبراهيم وقتادة ومقاتل والضحاك وسفيان بن حسين والزهري أيضاً. وهذا لا ينافي الأول لأنه إن أمكن الأول فهو الأولى وإلا فمن الغنائم اللاتي تؤخذ من أيدي الكفار، وهذا أوسع وهو اختيار ابن جرير، ولله الحمد والمنة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

روى البخاري عن عائشة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية **﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ـ إلى قوله ـ غفور رحيم﴾**. قالت عائشة فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسول الله: «قد بايعتك»، كلاماً، ولا والله ما مست يده يد امرأة في المبايعة قط، وما يبايعهن إلا بقوله: «**قد بايعتك على ذلك**».

وروى الإمام أحمد عن أميمة بنت رقيقة قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن: **﴿أن لا يشركن بالله شيئاً﴾** الآية، وقال: «فيما استطعتن وأطقتن»، قلنا الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أصافح النساء إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة» وإسناده صحيح، وقد رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح. وقد رواه أحمد أيضاً وزاد: «ولم يصافح منا امرأة».

وروى البخاري عن أم عطية قالت: بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا: **﴿أن لا يشركن بالله شيئاً﴾**، ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأة يدها فقالت: أسعدتني فلانة أريد أن أجزيها، فما قال لها رسول الله ﷺ شيئاً، فانطلقت ورجعت فبايعها.

وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد، كما روى البخاري عن ابن عباس قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب بعد، فنزل نبي الله ﷺ فكأني أنظر إليه حين يُجَلِّس الرجال بيده، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال: ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾ حتى فرغ من الآية كلها. ثم قال حين فرغ: «آنتن على ذلك؟» فقالت امرأة واحدة ولم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله، قال: «فتصدقن»، قال: وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفَتَخَ والخواتيم في ثوب بلال.

وروى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال: كنا عند رسول الله ﷺ في مجلس فقال: «تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ـ قرأ الآية التي أخذت على النساء: «إذا جاءك المؤمنات» ـ فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه فهو إلى الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه». أخرجاه في الصحيحين.

فقوله: ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك﴾ أي من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط فبايعها ﴿على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن﴾ أموال الناس الأجانب، فأما إذا كان الزوج مقصراً في نفقتها فلها أن تأكل من ماله بالمعروف، ما جرت به عادة أمثالها، وإن كان بغير علمه، عملاً بحديث هند بنت عتبة أنها قالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بنيَّ، فهل عليَّ جناح إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك». أخرجاه في الصحيحين.

وقوله: ﴿ولا يزنين﴾ ،كقوله: ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾ [الإسراء:٣٢]. وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع رسول الله ﷺ فأخذ عليها: ﴿أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين﴾ الآية، قال: فوضعت يدها على رأسها حياء، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة: أقري أيتها المرأة فوالله ما بايعنا إلا على هذا، قالت: فنعم إذاً، فبايعها بالآية. [وسنده صحيح].

وقوله: ﴿ولا يقتلن أولادهن﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعم قتله وهو جنين، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء، تطرح نفسها لئلا تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه.

وقوله: ﴿ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾ قال ابن عباس: يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم. وكذا قال مقاتل. وقوله: ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ يعني فيما

أمرتهن به من معروف ونهيتهن عنه من منكر. روى البخاري عن ابن عباس في قوله: ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ قال: إنما هو شرط شرطه الله للنساء. وقال ميمون بن مهران: لم يجعل الله طاعة لنبيه إلا في المعروف، والمعروف طاعة، وقال ابن زيد: أمر الله بطاعة رسوله وهو خِيَرة الله من خلقه في المعروف. وعن ابن عباس وأنس بن مالك وسالم بن أبي الجَعْد وأبي صالح وغير واحد: نهاهن يومئذ عن النوح، وقد تقدم حديث أم عطية في ذلك أيضاً.

وروى ابن أبي حاتم عن امرأة من المبايعات قالت: كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ: ألا نعصيه في معروف: ألا نخمش وجهاً، ولا ننشر شعراً، ولا نشق جيباً، ولا ندعوا ويلاً. [سنده حسن].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية». وفي الصحيحين أيضاً عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ بريء من الصالقة والحالقة والشاقة. وروى الحافظ أبو يعلى عن أبي مالك الأشعري: أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة. وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قَطران ودرع من جرب». ورواه مسلم في صحيحه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾.

ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة، كما نهى عنها في أولها فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ يعني اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء وقد يئسوا من الآخرة، أي من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله عز وجل.

وقوله: ﴿كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ فيه قولان: أحدهما كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك، لأنهم لايعتقدون بعثاً ولانشوراً، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه. عن ابن عباس: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ إلى آخر السورة، يعني: من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يبعثهم الله عز وجل، وقال الحسن البصري: الكفار الأحياء قد يئسوا من الأموات، وقال قتادة: كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا، وكذا قال الضحاك.

والقول الثاني: معناه كما يئس الكفار الذين هم في القبور من كل خير، عن ابن مسعود قال: كما يئس هذا الكافر إذا مات وعاين ثوابه واطلع عليه، وهذا قول مجاهد وعكرمة ومقاتل

وابن زيد والكلبي ومنصور، وهو اختيار ابن جرير.

تفسير سورة الصف وهي مدنية.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله ﷺ، فيسأله أي الأعمال أحب إلى الله، فلم يقم أحد منا فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً، فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة يعني سورة الصف كلها. وقد رواه الترمذي [وسنده صحيح].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾.

قد تقدم الكلام على قوله تعالى: **﴿سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾** غير مرة بما أغنى عن إعادته. وقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾** إنكار على من يَعِدُ عِدَةً أو يقول قولاً لا يفي به، ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً، سواء ترتب عليه غُرم للموعود أم لا، واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان». وفي الحديث الآخر في الصحيح: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها». فذكر منهن إخلاف الوعد. وقد استقصينا الكلام على هذين الحديثين في أول شرح البخاري ولله الحمد والمنة، ولهذا أكد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله: **﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾**.

وذهب الإمام مالك رحمه الله إلى أنه إذا تعلق بالوعد غُرم على الموعود وجب الوفاء به، كما لو قال: لغيره تزوج ولك علي كل يوم كذا. فتزوج وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك، لأنه تعلق به حق آدمي، وهو مبني على المضايقة. وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فَرضيَّة الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم كقوله تعالى: **﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا * أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾** [النساء:٧٧-٧٨]. وهذه الآية معناها كما قال ابن عباس: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون لوددنا أن الله عز وجل دلنا على أحب الأعمال إليه فنعملَ به. فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمانٌ به لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به. فلما نزل الجهاد كره ذلك

ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره، فقال الله سبحانه: ﴿ياأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾. وهذا اختيار ابن جرير. وقال مقاتل بن حيان: قال المؤمنون لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به، فدلهم الله على أحب الأعمال إليه فقال: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾ فبين لهم فابتلوا يوم أحد بذلك، فولوا عن النبي ﷺ مدبرين فأنزل الله في ذلك ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ وقال: أحبكم إلي من قاتل في سبيلي. وقال قتادة والضحاك: نزلت توبيخاً لقوم كانوا يقولون قتلنا وضربنا وطعنا وفعلنا، ولم يكونوا فعلوا ذلك. وقال ابن زيد: نزلت في قوم من المنافقين كانوا يعدون المسلمين النصر ولا يَفُون لهم بذلك. وقال زيد بن أسلم: ﴿لم تقولون ما لا تفعلون﴾ قال: في الجهاد.

ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ فهذا إخبار من الله تعالى بمحبته عباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله لتكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان.

وروى ابن أبي حاتم عن مطرف قال: كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه فلقيته، فقلت: يا أبا ذر كان يبلغني عنك حديث فكنت أشتهي لقاءك، فقال: لله أبوك فقد لقيت فهات. فقلت: كان يبلغني عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم أن الله يبغض ثلاثة ويحب ثلاثة، قال: أجل فلا إخالني أكذب على خليلي ﷺ. قلت: فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله عز وجل؟ فقال: رجل غزا في سبيل الله خرج محتسباً مجاهداً فلقي العدو فقتل وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل، ثم قرأ: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾... وذكر الحديث وقد أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي ذر بأبسط من هذا السياق وأتم، وقال الترمذي: حسن صحيح].

وعن كعب الأحبار أنه قال: يقول الله تعالى لمحمد ﷺ [يعني في التوراة]: «عبدي المتوكل المختار ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سخَّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، مولده بمكة وهجرته بطابة وملكه الشام، وأمته الحمادون يحمَدُون الله على كل حال، وفي كل منزلة لهم دويٌّ كدوي النحل في جو السماء بالسحر، يُوَضّون أطرافهم، ويأتزرون على أنصافهم، صفُّهم في القتال مثل صفهم في الصلاة». ثم قرأ: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾، رعاة الشمس يصلون الصلاة حيث أدركتهم لو على ظهر دابة. رواه ابن أبي حاتم. وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾ قال: كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يُصافَّهم، وهذا تعليم من الله للمؤمنين. قال: وقوله: ﴿كأنهم بنيان مرصوص﴾ ملتصق بعضه في بعض، من الصف في القتال، وقال مقاتل بن حيان: ملتصق بعضه إلى بعض، وقال ابن عباس: ﴿كأنهم بنيان

مرصوص﴾ مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض. وقال قتادة: ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه. فكذلك الله عز وجل لا يحب أن يختلف أمره، وإن الله صف المؤمنين في قتالهم، وصفَّهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله فإنه عصمة لمن أخذ به، أورد ذلك كله ابن أبي حاتم.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿**لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم**﴾ أي لم توصلون الأذى إلي وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة. وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر، ولهذا قال «رحمة الله على موسى: لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر» [متفق عليه]. وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ أو يُوَصّلوا إليه أذى، كما قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً**﴾ [الأحزاب:٦٩]. وقوله: ﴿**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم**﴾ أي فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالى: ﴿**ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون**﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال: ﴿**ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً**﴾ [النساء:١١٥]، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿**والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾.

وقوله: ﴿**وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد**﴾ يعني التوراة قد بَشَّرَت بي، وأنا مصداقُ ما أخبرت عنه، وأنا مُبَشِّر بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد. فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشراً بمحمد، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة، وما أحسن ما روى البخاري عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يَمحُو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب». ورواه مسلم.

وقد قال الله تعالى: ﴿**الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل**﴾ [الأعراف:١٥٧]، وقال تعالى: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال: أأقررتم وأخذتم**

على ذلكم إصري قالوا: أقررنا. قال: فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ [آل عمران: ٨١]. قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد: لئن بُعِثَ محمد وهو حي ليتبعنه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بُعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصُرُنَّه.

وروى محمد بن إسحاق عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبُشْرَى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام». وإسناده جيد وله شواهد من وجوه أخر [من حديث العرباض وأبي أمامة رواهما أحمد].

والمقصد أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أممها، وتأمرهم باتباعه ونصره وموازرته إذا بعث، وكان [أول] ما اشتهر الأمر في أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، وكذا على لسان عيسى ابن مريم، ولهذا قالوا: أخبرنا عن بَدْء أمرك، يعني في الأرض قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم، ورؤيا أمي التي رأت». أي ظهر في أهل مكة أثر ذلك، والإرهاص بذكره صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: **﴿فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾** قال ابن جريج وابن جرير: **﴿فلما جاءهم﴾** أحمد أي المبشر به في الأعصار المتقادمة، المنَّوه بذكره في القرون السالفة. لما ظهر أمره وجاء بالبينات، قال الكفرة والمخالفون: **﴿هذا سحر مبين﴾**.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

يقول تعالى: **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام﴾** أي: لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله، ويجعل له أنداداً وشركاء، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص، ولهذا قال: **﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾**. ثم قال: **﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾** أي يحاولون أن يردوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذلك مستحيل، ولهذا قال: **﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾** وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين في سورة براءة [آية: ٣٢] بما فيه كفاية، ولله الحمد والمنة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

تقدم في حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة رضي الله عنهم أرادوا أن يسألوا رسول الله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ليفعلوه، فأنزل الله تعالى هذه السورة ومن جملتها هذه الآية: ﴿**يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم**﴾ ثم فسر هذه التجارة العظيمة التي لا تبور، التي هي محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال: ﴿**تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾ أي من تجارة الدنيا والكد لها والتصدي لها وحدها، ثم قال: ﴿**يغفر لكم ذنوبكم**﴾ أي إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه، غفرت لكم الزلات، وأدخلتكم الجنات، والمساكن الطيبات، والدرجات العاليات، ولهذا قال: ﴿**ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم**﴾. ثم قال: ﴿**وأخرى تحبونها**﴾ أي وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها، وهي ﴿**نصر من الله وفتح قريب**﴾ أي إذا قاتلتم في سبيله ونصرتم دينه تكفل الله بنصركم، قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾ [محمد: ٧]. وقال تعالى: ﴿**ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز**﴾ [الحج: ٤٠]. وقوله: ﴿**وفتح قريب**﴾ أي عاجل. فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة، لمن أطاع الله ورسوله ونصر الله ودينه، ولهذا قال: ﴿**وبشر المؤمنين**﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤ ﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله، كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال: ﴿**من أنصاري إلى الله**﴾ أي من مُعيني في الدعوة إلى الله عز وجل؟ ﴿**قال الحواريون**﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام: ﴿**نحن أنصار الله**﴾ أي نحن أنصارك على ما أرسلت به ومُوَازروك على ذلك، ولهذا بعثهم دعاةٌ إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيلين واليونانيين.

وقوله: ﴿**فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة**﴾ أي لما بلغ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام رسالة ربه إلى قومه، وآزره من وازره من الحواريين، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به وضلت طائفة، فخرجت عما جاءهم به وجحدوا نبوته ورموه وأمه بالعظائم، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وغلت فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فِرَقاً وشيعاً، فمن قائل منهم: إنه ابن الله. وقائل إنه ثالث ثلاثة: الأب والابن وروح القدس. ومن قائل إنه الله.

وقوله: ﴿**فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم**﴾ أي نصرناهم على من عاداهم من فِرَق النصارى ﴿**فأصبحوا ظاهرين**﴾ أي عليهم، وذلك ببعثة محمد ﷺ، كما روى الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى إلى السماء،

خرج إلى أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلاً من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي، قال: ثم قال أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ قال: فقام شاب من أحدثهم سناً فقال: أنا. فقال له: اجلس. ثم عاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا، فقال له: «اجلس» ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا، فقال: نعم أنت ذاك. قال: فألقي عليه شبه عيسى ورُفع عيسى عليه السلام من روزَنة في البيت إلى السماء، قال: وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا شِبْهَه فقتلوه وصلبوه، وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، فتفرقوا ثلاث فرق. قالت فرقة: كان الله فينا ما شاء، ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء. ثم رفعه إليه وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة، فقتلوها فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ، ﴿**فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة**﴾ يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى، ﴿**فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم**﴾ بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ﴿**فأصبحوا ظاهرين**﴾. هذا لفظه في كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة. وهكذا رواه النسائي عند تفسير هذه الآية من سننه مثله سواء. فأمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح، والله أعلم.

تفسير سورة **الجمعة** وهي مدنية.

عن ابن عباس وأبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين. رواه مسلم في صحيحه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات وما في الأرض، أي من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها، كما قال تعالى: ﴿**وإن من شيء إلا يسبح بحمده**﴾ [الإسراء: ٤٤]. ثم قال: ﴿**الملك**﴾ أي هو مالك السموات والأرض المتصرف فيهما بحكمه، وهو ﴿**القدوس**﴾ أي المنزه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال ﴿**العزيز الحكيم**﴾ تقدم تفسيرهما غير مرة. وقوله: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم**﴾ الأميون هم العرب، كما قال تعالى:

﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾ [آل عمران: ٢٠] وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر، كما في قوله: **﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾** [الزخرف: ٤٤]، وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به، وكذا قوله: **﴿وأنذر عشيرك الأقربين﴾** [الشعراء: ٢١٤] وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى: **﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾** [الأعراف: ١٥٨]، وقوله تعالى إخباراً عن القرآن: **﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾** [هود: ١٧]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته، صلوات الله وسلامه عليه، إلى جميع الخلق أحمرهم وأسودهم، وقد قدمنا تفسير ذلك في سورة الأنعام [آية: ١٩] بالآيات والأحاديث الصحيحة، ولله الحمد والمنة.

وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فبعثه الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة، على حين فترة من الرسل وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه، وقد مقت الله أهل الأرض عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، أي نزراً يسيراً ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام، ولهذا قال تعالى: **﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾**. وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام، فبدلوه وغيروه، وخالفوه واستبدلوا بالتوحيد شركاً وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ورضا الله عنهم، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع، وجمع له تعالى وله الحمد والمنة جميع المحاسن ممن كان قبله وأعطاه ما لم يُعط أحداً من الأولين، ولا يعطيه أحداً من الآخرين، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

وقوله: **﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾** روى الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة: **﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾** قالوا: من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سُئل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثُّريَّا لناله رجال ـ أو رجل ـ من هؤلاء». ورواه مسلم. ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس، لأنه فسر قوله تعالى:

﴿وآخرين منهم﴾ بفارس، ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم، يدعوهم إلى الله عز وجل وإلى اتباع ما جاء به، ولهذا قال مجاهد وغير واحد في قوله تعالى: ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ قال: هم الأعاجم وكل من صدق النبي ﷺ من غير العرب.

وقوله: ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي: ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره. وقوله: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ يعني ما أعطاه الله محمداً ﷺ من النبوة العظيمة وما خص به أمته من بعثته ﷺ إليهم.

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾.

يقول تعالى ذامًّا لليهود الذين أُعطُوا التوراة وحُمِّلوها للعمل بها فلم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً، أي كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملاً حسياً ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظاً ولم يتفهموه ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه وحرفوه وبدلوه فهم أسوأ حالاً من الحمير، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقال تعالى هٰهنا: ﴿بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ أي إن كنتم تزعمون أنكم على هدى، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة، فادعوا بالموت على الضال من الفئتين إن كنتم صادقين، أي فيما تزعمونه. قال الله تعالى: ﴿ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم﴾ أي بما يعملون من الكفر والظلم والفجور ﴿والله عليم بالظالمين﴾. وقد قدمنا الكلام في سورة البقرة على هذه المباهلة لليهود، حيث قال تعالى: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون﴾ [البقرة: ٩٤-٩٦]، وقد أسلفنا الكلام هناك، وبينا أن المراد أن يدعوا على الضلال من أنفسهم أو خصومهم، كما تقدمت مباهلة النصارى في آل عمران: ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ [آل عمران: ٦١] ومباهلة المشركين في سورة مريم: ﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً﴾ [مريم: ٧٥].

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: قال أبو جهل لعنه الله: إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتينَّه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يُبَاهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً» رواه البخاري.

وقوله: **﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾**، كقوله تعالى في سورة النساء **﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾** [النساء:٧٨].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

إنما سميت الجمعة جُمعة، لأنها مشتقة من الجَمع، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار، وفيه كَمُل جميع الخلائق، فإنه اليوم السادس من الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض. وفيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه، كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح.

وقد كان يقال له في اللغة القديمة يوم العروبة، وثبت أن الأمم قبلنا أمروا به فَضَلّوا عنه، واختار اليهود يوم السبت الذي لم يقع فيه خلق، واختار النصارى يوم الأحد الذي ابتدىء فيه الخلق، واختار الله لهذه الأمة يوم الجمعة الذي أكمل الله فيه الخَليقَةَ، كما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم إن هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبعٌ، اليهود غداً، والنصارى بعد غد».

وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة، فقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله﴾** أي اقصدوا واعمدوا واهتموا في مَسيركم إليها، وليس المراد بالسعي ههنا المشي السريع، وإنما هو الاهتمام بها، كقوله تعالى: **﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن﴾** [الإسراء:١٩]. وكان عمر بن الخطاب وابن مسعود رضي الله عنهما يقرآنها: «فامضوا إلى ذكر الله». فأما المشي السريع إلى الصلاة فقد نهي عنه لما أخرجاه في الصحيحين عن أبي قتادة قال: بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ إذ سمع جلبة رجال، فلما صلى قال: «ما شأنكم؟» قالوا: استعجلنا إلى الصلاة قال: «فلا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا». قال الحسن: أما والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نُهُوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكن

بالقلوب والنية والخشوع. وقال قتادة: يعني أن تسعى بقلبك وعملك، وهو المشي إليها، وكان يتأول قوله تعالى: ﴿**فلما بلغ معه السعي**﴾ [الصافات:١٠٢] أي المشي معه، وروي عن محمد بن كعب وزيد بن أسلم وغيرهما نحو ذلك.

ويستحب لمن جاء إلى الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها، لما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل». ولهما عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «غُسلُ يوم الجمعة واجب على كل محتلم». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «من اغتسل يوم الجمعة غُسلَ الجنابة، ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر» أخرجاه.

ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه ويتطيب ويتسوك ويتنظف ويتطهر. وفي حديث أبي سعيد المتقدم: «غسلُ يوم الجمعة واجب على كل محتلم، والسواك، وأن يمس من طيب أهله».
وروى الإمام أحمد عن أبي أيوب الأنصاري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله إن كان عنده ولبس من أحسن ثيابه، ثم خرج حتى يأتي المسجد فيركع إن بدا له، ولم يؤذ أحداً، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى». [وسنده حسن].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الجمعة، فرأى عليهم ثياب النمار فقال: «ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعته، سوى ثوبي مهنته» رواه ابن ماجه، [وقال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح رجاله ثقات].

وقوله: ﴿**إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة**﴾ المراد بهذا النداء هو النداء الثاني الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر، فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه فهذا هو المراد، فأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فإنما كان هذا لكثرة الناس كما رواه البخاري عن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان بعد زمن وكثر الناس، زاد النداء الثاني على الزوراء يعني يؤذن به على الدار التي تسمى بالزوراء، وكانت أرفع دار بالمدينة بقرب المسجد. وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون العبيد والنساء والصبيان، ويعذر المسافر والمريض، وقيّم المريض وما أشبه ذلك من الأعذار، كما هو مقرر في كتب الفروع.

وقوله: ﴿**وذروا البيع**﴾ أي اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودي للصلاة، ولهذا اتفق

العلماء رضي الله عنهم على تحريم البيع بعد النداء الثاني. واختلفوا هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا ؟ على قولين وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر في موضعه، والله أعلم. وقوله: ﴿**ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾ أي ترككم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خير لكم أي في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون. وقوله: ﴿**فإذا قضيت الصلاة**﴾ أي فُرغ منها ﴿**فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله**﴾ لما حَجَر عليهم في التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع، أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله.

وقوله: ﴿**واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون**﴾ أي في حال بيعكم وشرائكم وأخذكم وعطائكم، اذكروا الله ذكراً كثيراً، ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة، ولهذا جاء في الحديث: «من دخل سوقاً من الأسواق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة ومحي عنه ألف ألف سيئة». [رواه أحمد والترمذي وهو حديث حسن]. وقال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً.

﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ فقال تعالى: ﴿**وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً**﴾ أي على المنبر تخطب، هكذا ذكره غير واحد من التابعين، منهم أبو العالية والحسن وزيد بن أسلم وقتادة. روى الإمام أحمد عن جابر قال: قَدِمَت عيرٌ المدينة، ورسول الله ﷺ يخطب فخرج الناس، وبقي اثنا عشر رجلاً، فنزلت: ﴿**وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها**﴾ أخرجاه في الصحيحين.

وفي قوله: ﴿**وتركوك قائماً**﴾ دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائماً. وقد روى مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة قال: كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس. ولكن ههنا شيء ينبغي أن يعلم وهو: أن هذه القصة قد قيل إنها كانت لما كان رسول الله ﷺ يقدّم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة، كما رواه أبو داود في كتاب المراسيل عن مقاتل بن حيان قال: كان رسول الله ﷺ يصلي يوم الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين، حتى إذا كان يوم والنبي ﷺ يخطب، وقد صلى الجمعة، فدخل رجل فقال: إن دحية بن خليفة قد قدم بتجارة. يعني فانفضوا ولم يبق معه إلا نفر يسير. وقوله: ﴿**قل ما عند الله**﴾ أي الذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة ﴿**خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين**﴾ أي لمن توكل عليه وطلب الرزق في وقته.

تفسير سورة المنافقون وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين: أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاءوا النبي ﷺ، فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك، بل على الضد من ذلك، ولهذا قال تعالى: **﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله﴾** أي إذا حضروا عندك واجهوك بذلك، وأظهروا لك ذلك، وليسوا كما يقولون، ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله فقال: **﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾**. ثم قال تعالى: **﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾** أي فيما أخبروا به، وإن كان مطابقاً للخارج، لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه، ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم.

وقوله: **﴿اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله﴾** أي اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة والحَلفات الآثمة، ليصدقوا فيما يقولون، فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالاً، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس، ولهذا قال تعالى: **﴿فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾** ولهذا كان الضحاك بن مزاحم يقرؤها **﴿اتخذوا إيمانهم جنة﴾** أي تصديقهم الظاهر جُنَّة أي تقية يتقون به القتل. وقوله: **﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾** أي إنما قُدِّر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران، واستبدالهم الضلالة بالهدى، فطبع الله على قلوبهم فهم لايفقهون. أي فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير فلا تعي ولا تهتدي.

وقوله: **﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾** أي كانوا أشكالاً حسنة وذوي فصاحة وألسنة، وإذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخَور والهلع والجزع والجبن، ولهذا قال: **﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾** أي كلما وقع أمر أو كائنة أو خوف يعتقدون لجبنهم، أنه نازل بهم، كما قال: **﴿أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً﴾** [الأحزاب: ١٩]، فهم صور بلا معان، ولهذا قال: **﴿هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾** أي كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ

ٱسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين عليهم لعائن الله أنهم ﴿**وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم**﴾ أي صدوا وأعرضوا عما قيل لهم استكباراً عن ذلك واحتقاراً لما قيل لهم، ولهذا قال: ﴿**ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون**﴾ ثم جازاهم على ذلك فقال: ﴿**سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾، كما قال في سورة براءة [آية: ٨٠]، وقد تقدم الكلام على ذلك.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن أبي عمر العدني قال: قال سفيان: ﴿**لووا رؤوسهم**﴾ قال ابن أبي عمر: وحوّل سفيان وجهه على يمينه ونظر شَزْراً ثم قال: هو هذا. وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي بن سلول. وقال قتادة والسدي: أنزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي، وقيل لعدو الله: لو أتيت رسول الله ﷺ فجعل يلوي رأسه، أي لست فاعلاً، وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير: [أنه] قيل لعبد الله بن أبي: ائت النبي ﷺ حتى يستغفر لك، فأنزل الله تعالى: ﴿**إذا جاءك المنافقون ـ إلى قوله ـ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم**﴾. وهذا إسناده صحيح إلى سعيد بن جبير.

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكَسَعَ رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار: فقال الأنصاري: ياللأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة». وقال عبد الله بن أبي بن سلول: وقد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ، ثم كثر المهاجرون بعد ذلك، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» ورواه البخاري ومسلم.

وروى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال عبد الله بن أبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال: فحلف عبد الله بن أبي أنه لم يكن شيء من ذلك، قال: فلامني قومي وقالوا: ما أردت إلى هذا؟ قال: فانطلقت فنمتُ كئيباً حزيناً، قال: فأرسل إلي نبي الله ﷺ فقال: «إن الله قد أنزل عذرك وصَدّقك» قال: فنزلت هذه الآية ﴿**هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ـ حتى بلغ ـ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل**﴾. ورواه البخاري عند هذه الآية.

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة، وقف عبدُ الله بن عبد الله على باب المدينة، واستل سيفه فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه: وراءك! فقال: مالك ويلك؟ فقال: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول الله ﷺ وكان إنما يسير ساقة فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه، فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ فقال: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فَجُز الآن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره، وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك، ومخبراً لهم بأنه من التهَى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خُلِقَ له من طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ثم حثهم على الإنفاق في طاعته فقال: **﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين﴾** فكل مُفرِّط يندم عند الاحتضار ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً، يستعتب ويستدرك ما فاته، وهيهات، كان ما كان وأتى ما هو آت، وكل بحسب تفريطه، أما الكفار فكما قال تعالى: **﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾** [إبراهيم: ٤٤]. وقال تعالى: **﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون * لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾** [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]. ثم قال تعالى: **﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾** أي لا ينظر أحداً بعد حلول أجله، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً في قوله وسؤاله ممن لو رُدّ لعاد إلى شر مما كان عليه، ولهذا قال: **﴿والله خبير بما تعملون﴾**.

تفسير سورة **التغابن** وهي مدنية، وقيل: مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾.

هذه السورة هي آخر المُسبِّحات، وقد تقدم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها، ولهذا قال: **﴿له الملك وله الحمد﴾** أي هو المتصرف في جميع الكائنات المحمود على جميع ما يخلقه ويقدره. وقوله: **﴿وهو على كل شيء قدير﴾** أي ما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع

وما لم يشأ لم يكن. وقوله: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ أي هو الخالق لكم على هذه الصفة، وأراد منكم ذلك فلا بد من وجود مؤمن وكافر، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال، وهو شهيد على أعمال عباده، وسيجزيهم بها أتم الجزاء، ولهذا قال: ﴿والله بما تعملون بصير﴾. ثم قال: ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾ أي بالعدل والحكمة، ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾ أي أحسن أشكالكم، كقوله تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات﴾ الآية [غافر: ٦٤]، وقوله: ﴿وإليه المصير﴾ أي المرجع والمآب، ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السماوية والأرضية والنفسية، فقال: ﴿يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور﴾.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين وما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل والتكذيب بالحق، فقال تعالى: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل﴾ أي خبرهم وما كان من أمرهم، ﴿فذاقوا وبال أمرهم﴾ أي وخيم تكذيبهم ورديء أفعالهم، وهو ما حل بهم في الدنيا من العقوبة والخزي ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي في الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوي، ثم علل ذلك فقال: ﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾ أي بالحجج والدلائل والبراهين ﴿فقالوا أبشر يهدوننا﴾ أي استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر، وأن يكون هداهم على يدي بشر مثلهم. ﴿فكفروا وتولوا﴾ أي كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل ﴿واستغنى الله﴾ أي عنهم ﴿والله غني حميد﴾.

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار والمشركين والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون: ﴿قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم﴾ أي لتُخْبَرُنَّ بجميع أعمالكم، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها ﴿وذلك على الله يسير﴾ أي بعثكم ومجازاتكم، وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه عز وجل، على وقوع المعاد ووجوده، فالأولى في سورة يونس: ﴿ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾ [يونس: ٥٣]، والثانية في سورة سبأ ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم﴾ الآية [سبأ: ٣]. والثالثة هي هذه.

ثم قال تعالى: ﴿**فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا**﴾ يعني القرآن ﴿**والله بما تعملون خبير**﴾ أي فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية. وقوله: ﴿**يوم يجمعكم ليوم الجمع**﴾ وهو يوم القيامة، سمي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفُذَهم البصر، كما قال تعالى: ﴿**ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود**﴾ [هود:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿**قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم**﴾ [الواقعة:٤٩-٥٠].

وقوله: ﴿**ذلك يوم التغابن**﴾ قال ابن عباس: هو اسم من أسماء يوم القيامة، وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار، وكذا قال قتادة ومجاهد، وقال مقاتل بن حيان: لا غبن أعظمُ من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة ويُذْهَب بأولئك إلى النار. قلت: وقد فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿**ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير**﴾ وقد تقدم تفسير مثل هذه غير مرة.

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً بما أخبر به في سورة الحديد: ﴿**ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير**﴾ [الحديد:٢٢]، وهكذا قال هٰهنا: ﴿**ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله**﴾ قال ابن عباس: بأمر الله، يعني عن قدره ومشيئته. ﴿**ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم**﴾ أي ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه. وعَوَّضه عما فاته من الدنيا هُدى في قلبه، ويقيناً صادقاً، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيراً منه. قال ابن عباس: ﴿**ومن يؤمن بالله يهد قلبه**﴾ يعني يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وقال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم. وقال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان: ﴿**ومن يؤمن بالله يهد قلبه**﴾ يعني يسترجع ويقول: ﴿**إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾ [البقرة:١٥٦].

وفي الحديث: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحدإلا للمؤمن» [رواه مسلم].

وقوله: ﴿**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول**﴾ أمرٌ بطاعة الله ورسوله فيما شرع، وفعل ما به أمر وترك ما عنه نهى وزجر، ثم قال: ﴿**فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين**﴾ أي إن نكلتم

عن العمل فإنما عليه ما حُمِّل من البلاغ وعليكم ما حُمِّلتم من السمع والطاعة. قال الزهري: من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم.

ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد الذي لا إله غيره، فقال: ﴿ **الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ فالأول خَبرٌ عن التوحيد، ومعناه معنى الطلب أي وحدوا الإلهية له، وأخلصوها لديه وتوكلوا عليه، كما قال تعالى: ﴿**رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً**﴾ [المزمل: ٩].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد: أن منهم من هو عدو الزوج والوالد، بمعنى أنه يلتهي به عن العمل الصالح، كقوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون**﴾ [المنافقون: ٩]، ولهذا قال ههنا: ﴿**فاحذروهم**﴾ قال ابن زيد: يعني على دينكم، وقال مجاهد: ﴿**إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم**﴾ قال: يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية قال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول الله رأوا الناسَ قد فقهوا في الدين فهموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿**وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم**﴾ وكذا رواه الترمذي، وقال حسن صحيح. وهكذا قال عكرمة.

وقوله: ﴿**إنما أموالكم وأولادكم فتنة**﴾ يقول تعالى: إنما الأموال والأولاد فتنة أي اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه ليعلم من يطيعه ممن يعصيه. وقوله: ﴿**والله عنده**﴾ أي يوم القيامة ﴿**أجر عظيم**﴾ كما قال تعالى: ﴿**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب**﴾ والتي بعدها [آل عمران: ١٤-١٥].

وروى الإمام أحمد عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال: «صدق الله ورسوله إنما أموالكم وأولادكم فتنة، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما» ورواه أهل السنن،

وقال الترمذي: حسن غريب.

وقوله: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾ أي جهدكم وطاقتكم كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه». وقد قال بعض المفسرين: إن هذه الآية ناسخة للتي في آل عمران، وهي قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وعن سعيد بن جبير قال: لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم، فأنزل الله تعالى هذه الآية تخفيفاً على المسلمين ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾ فنسخت الآية الأولى. وروي عن أبي العالية وزيد بن أسلم وقتادة والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان نحو ذلك. وقوله: ﴿**واسمعوا وأطيعوا**﴾ أي كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة، ولا تقدموا بين يدي الله ورسوله ولا تتخلفوا عما به أمرتم. ولا تركبوا ما عنه زجرتم.

وقوله: ﴿**وأنفقوا خيراً لأنفسكم**﴾ أي وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن الله إليكم، يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شراً لكم في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿**ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾ تقدم تفسيره في سورة الحشر [آية: ٩] بما أغنى عن إعادته هٰهنا، ولله الحمد والمنة. وقوله: ﴿**إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم**﴾ أي مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه. ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه، ونزل ذلك منزلة القرض له، كما ثبت في الصحيح [المسلم] أن الله تعالى يقول: «من يقرض غير ظلوم ولا عديم». ولهذا قال: ﴿**يضاعفه لكم**﴾ كما تقدم في سورة البقرة ﴿**فيضاعفه له أضعافاً كثيرة**﴾ [البقرة: ٢٤٥]. ﴿**ويغفر لكم**﴾ أي ويكفر عنكم السيئات. ولهذا قال: ﴿**والله شكور**﴾ أي يجزي على القليل بالكثير ﴿**حليم**﴾ أي يصفح ويغفر ويستر، ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات ﴿**عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم**﴾ تقدم تفسيره غير مرة.

تفسير سورة الطلاق وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ۝١ ﴾.

خوطب النبي ﷺ أولاً تشريفاً وتكريماً ثم خاطب الأمة تبعاً فقال تعالى: ﴿**يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن**﴾ وروى ابن أبي حاتم عن قتادة عن أنس قال طلق رسول الله ﷺ حفصة فأتت أهلها فأنزل الله تعالى: ﴿**يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن**

لعدتهن﴾ فقيل له: راجعها فإنها صوامة قوامة وهي من أزواجك ونسائك في الجنة. [سنده حسن]، ورواه ابن جرير عن قتادة مرسلاً، وقد ورد من غير وجه أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها.

وروى البخاري عن سالم أن عبد الله بن عمر أخبره أنه طلق امرأة له وهي حائض فذكر عمرُ لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: «ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر بها الله عز وجل». هكذا رواه البخاري هٰهنا وقد رواه في مواضع من كتابه ومسلم ولفظه: «فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء». ورواه أصحاب الكتب والمسانيد من طرق متعددة وألفاظ كثيرة، وموضع استقصائها كتب الأحكام. وأمَسُّ لفظ يورَد ههنا ما رواه مسلم في صحيحه أن ابن عمر طلق امرأته حائضاً على عهد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «ليراجعها» فردها، وقال: «إذا طهرت فليطلق أو يمسك». قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ **﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾**. وعن عبد الله [بن مسعود] في قوله: **﴿فطلقوهن لعدتهن﴾** قال: الطهر من غير جماع، وروي عن ابن عمر وعطاء ومجاهد والحسن وابن سيرين وقتادة، وميمون بن مهران ومقاتل بن حيان مثل ذلك، وهو رواية عن عكرمة، والضحاك، وقال ابن عباس: لا يطلقها وهي حائض، ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة. وقال عكرمة: العدة: الطهر، والقرء: الحيضة، أن يطلقها حبلى مستبيناً حملها، ولا يطلقها وقد طاف عليها ولا يدري حبلى هي أم لا.

ومن هٰهنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنة وطلاق بدعة، فطلاق السنة: أن يطلقها طاهرة من غير جماع، او حاملاً قد استبان حملها. والبدعة: هو أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه ولا يدري أحملت أم لا. وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة وهو طلاق الصغيرة والآيسة وغير المدخول بها، وتحرير الكلام في ذلك وما يتعلق به مستقصى في كتب الفروع والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله: **﴿وأحصوا العدة﴾** أي احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها، لئلا تطول العدة على المرأة فتمنع من الأزواج **﴿واتقوا الله ربكم﴾** أي في ذلك. وقوله: **﴿لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن﴾** أي في مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه، فليس للرجل أن يخرجها ولا يجوز لها أيضاً الخروج لأنها معتقلة لحق الزوج أيضاً. وقوله: **﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾** أي لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة فتخرج من المنزل، والفاحشة المبينة تشمل الزنا كما قاله ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب والحسن وزيد بن أسلم والسدي وغيرهم. وتشمل ما إذا نشزَت المرأة أو بَذَت على أهل الرجل وآذتهم في الكلام والفعال، كما قاله أبي بن كعب وابن عباس وعكرمة وغيرهم.

وقوله: ﴿وتلك حدود الله﴾ أي شرائعه ومحارمه ﴿ومن يتعد حدود الله﴾ أي يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها ﴿فقد ظلم نفسه﴾ أي بفعل ذلك.

وقوله: ﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ أي إنما أبقينا المطلقة في منزل الزوج في مدة العدة لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله تعالى في قلبه رَجْعَتَها، فيكون ذلك أيسر وأسهل. قالت فاطمة بنت قيس في قوله: ﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ قالت: هي الرجعة، وكذا قال الشعبي وعطاء وقتادة والضحاك ومقاتل بن حيان والثوري. ومن هٰهنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم كالإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة، وكذا المتوفى عنها زوجها، واعتمدوا أيضاً على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات، وكان غائباً عنها باليمن، فأرسل إليها بذلك، فأرسل إليها وكيله بشعير يعني: نفقة فَتسخَّطته فقال: والله ليس لك علينا نفقة. فأتت رسول الله ﷺ فقال: «ليس لك عليه نفقة ولا سكنى» وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك ثم قال: «تلك امرأة يغشاها أصحابي اعتدي عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك» الحديث. [رواه مسلم].

وروى أبو القاسم الطبراني عن فاطمة بنت قيس قالت: إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلي وهو منطلق في جيش إلى اليمن بطلاقي، فسألت أولياءه النفقة عليَّ والسكنى فقالوا ما أرسل إلينا في ذلك شيئاً ولا أوصانا به، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلي بطلاقي، فسألت أولياء السكنى والنفقة علي، فقال أولياؤه: لم يرسل إلينا في ذلك بشيء، فقال رسول الله ﷺ: «إنما السكنى والنفقة للمرأة إذا كان لزوجها عليها رجعة، فإذا كانت لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره فلا نفقة لها ولا سكنى» وكذا رواه النسائي [وسنده حسن].

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾.

يقول تعالى: فإذا بلغت المعتدات أجلهن، أي شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده. ﴿بمعروف﴾ أي محسناً إليها في صحبتها، وإما أن يعزم على مفارقتها بمعروف أي من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن.

وقوله: ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾ أي على الرجعة إذا عَزَمتم عليها، كما رواه أبو داود وابن ماجه عن عمران بن حصين: أنه سئل عن الرجل يطلق المرأة ثم يقع بها ولم يشهد على

طلاقها ولا على رجعتها، فقال: طلقت لغير سنة ورجعت لغير سنة، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تَعُدْ، وقال عطاء: لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاع إلا شاهدا عدل، كما قال الله عز وجل، إلا أن يكون من عذر. وقوله: **﴿ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾** أي هذا الذي أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة، إنما يأتمر به من يؤمن بالله واليوم الآخر، ومن يخاف عقاب الله في الدار الآخرة. ومن هٰهنا ذهب الشافعي في أحد قوليه إلى وجوب الإشهاد في الرجعة، كما يجب عنده في ابتداء النكاح، وقد قال بهذا طائفة من العلماء ومن قال بهذا يقول: إن الرجعة لا تصح إلا بالقول ليقع الإشهاد عليها.

وقوله: **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾** أي ومن يتق الله فيما أمره به، وترك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، أي من جهة لا تخطر بباله.

وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: إن أجمع آية في القرآن: **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾** [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية في القرآن فرجاً: **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾**. وقال ابن عباس: **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾** يقول: ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة **﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾**. وقال الربيع بن خيثم: **﴿يجعل له مخرجاً﴾** أي من كل شيء ضاق على الناس، وقال عكرمة: من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجاً، وكذا روي عن ابن عباس والضحاك. وقال ابن مسعود ومسروق: **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾** يعلم أن الله إن شاء منع، وإن شاء أعطى **﴿من حيث لا يحتسب﴾** أي من حيث لا يدري. وقال قتادة: **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾** أي من شبهات الأمور والكرب عند الموت، **﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾** من حيث لا يرجو ولا يأمل. وقال السدي: **﴿ومن يتق الله﴾** يطلق للسنة، ويراجع للسنة.

وقوله: **﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾** روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال له رسول الله ﷺ: **«يا غلام إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»**. وقد رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

وقوله: **﴿إن الله بالغ أمره﴾** أي منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه بما يريده ويشاؤه **﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾**، كقوله: **﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾** [الرعد: ٨].

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ

وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥﴾ .

يقول تعالى مبيناً لعدة الآيسة، وهي التي انقطع عنها المحيض لكبرها، أنها ثلاثة أشهر عوضاً عن الثلاثة القروء في حق من تحيض، كما دلت على ذلك آية البقرة [آية:٢٢٨]، وكذا الصغار اللائي لم يبلغن سن الحيض أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر، ولهذا قال تعالى: **﴿واللائي لم يحضن﴾**، وقوله تعالى: **﴿إن ارتبتم﴾** فيه قولان: أحدهما: وهو قول طائفة من السلف كمجاهد والزهري وابن زيد: أي إن رأين دماً وشككتم في كونه حيضاً أو استحاضة وارتبتم فيه. والقول الثاني: إن ارتبتم في حكم عدتهن، ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر. وهذا مروي عن سعيد بن جبير وهو اختيار ابن جرير وهو أظهر في المعنى.

وقوله: **﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾** يقول تعالى: ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعه، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفُوَاق ناقة، في قول جمهور العلماء من السلف والخلف، كما هو نص هذه الآية الكريمة، وكما وردت به السنة النبوية. وقد روي عن علي وابن عباس رضي الله عنهم أنهما ذهبا في المتوفى عنها زوجها أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع والأشهر، عملاً بهذه الآية والتي في سورة البقرة، روى البخاري عن أبي سلمة قال: جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس فقال: أفتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس: آخر الأجلين. قلت أنا: **﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾**. قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي - يعني أبا سلمة - فأرسل ابن عباس غلامه كريباً إلى أم سلمة يسألها فقالت: قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها، هكذا أورد البخاري هذا الحديث هٰهنا مختصراً، وقد رواه هو ومسلم وأصحاب الكتب مطولاً.

وروى مسلم بن الحجاج أن سبيعة بنت الحارث الأسلمية كانت تحت سعد بن خَولة، وكان ممن شهد بدراً فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تَنشَب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تَعَلَّت من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعكك فقال لها: مالي أراك: متجملة؟ لعلك تَرجِين النكاح، إنك والله ما أنت بناكح حتى تَمرَ عليك أربعة أشهر وعشر.

قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جَمعتُ علي ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حَلَلت حين وضعت حملي وأمرني بالتزويج إن بدا لي. هذا لفظ مسلم ورواه البخاري مختصراً.

وروى ابن جرير أن عبد الله بن مسعود قال: من شاء لاعنته، ما نزلت: **﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾** إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها، قال: وإذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حلت. يريد بآية المتوفى عنها زوجها **﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن

بأنفسهن **أربعة أشهر وعشراً﴾** [البقرة: ٢٣٤]. وقد رواه النسائي وأبوداود وهو صحيح.

وقوله: **﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾** أي يسهل له أمره وييسره عليه ويجعل له فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً. ثم قال: **﴿ذلك أمر الله أنزله إليكم﴾** أي حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسوله ﷺ، **﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾** أي يذهب عنه المحذور ويجزل له الثواب على العمل اليسير.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

يقول تعالى آمراً عباده إذا طلق أحدهم المرأة أن يُسكنَها في منزل حتى تنقضي عدتها فقال: **﴿أسكنوهن من حيث سكنتم﴾** أي عندكم **﴿من وجدكم﴾** قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني سَعَتكم. حتى قال قتادة: إن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه. وقوله: **﴿ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن﴾** قال مقاتل بن حيان: يعني يضاجرها لتفتدي منه بمالها أو تخرج من مسكنه، وعن أبي الضحى: **﴿ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن﴾** قال يطلقها فإذا بقي يومان راجعها.

وقوله: **﴿وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن﴾** قال كثير من العلماء منهم ابن عباس وطائفة من السلف وجماعات من الخلف: هذه في البائن إن كانت حاملا أنفق عليها حتى تضع حملها، قالوا بدليل أن الرجعية تجب نفقتها سواء كانت حاملا أو حائلا، وقال آخرون: بل السياق كله في الرجعيات وإنما نص على الإنفاق على الحامل، وإن كانت رجعية، لأن الحمل تطول مدته غالباً فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع، لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة. ثم اختلف العلماء هل النفقة لها بواسطة الحمل أم للحمل وحده؟ على قولين منصوصين عن الشافعي وغيره ويتفرع عليها مسائل كثيرة مذكورة في علم الفروع.

وقوله: **﴿فإن أرضعن لكم﴾** أي إذا وضعن حملهن وهن طوالق فقد بن بانقضاء عدتهن ولها حينئذ أن ترضع الولد ولها أن تمتنع منه، ولكن بعد أن تغذيه باللبَّأ، وهو باكورة اللبن الذي لا قوام للمولود غالباً إلا به، فإن أرضعت استحقت أجرة مثلها، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجرة، ولهذا قال تعالى: **﴿فإن أرضعن لكن فآتوهن أجورهن﴾**. وقوله: **﴿وائتمروا بينكم بمعروف﴾** أي: ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف، من غير إضرار ولا مضارة، كما قال تعالى في سورة البقرة: **﴿لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده﴾** [البقرة: ٢٣٣]. وقوله: **﴿وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾** أي وإن اختلف الرجل والمرأة فطلبت المرأة في أجرة الرضاع كثيراً، ولم يجبها الرجل إلى ذلك، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه، فليسترضع له غيرها، فلو رضيت الأم بما استؤجرت به الأجنبية فهي أحق

بولدها.

وقوله: ﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾ أي لينفق على المولود والده أو وليه بحسب قدرته، ﴿ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾، كقوله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ [البقرة:٢٨٦].

وقوله: ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ وعد منه تعالى ووعده حق لا يخلفه، وهذه كقوله تعالى: ﴿فإن مع العسر يسراً. إن مع العسر يسراً﴾ [الشرح:٥-٦].

وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: دخل رجل على أهله فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البَرِيَّة، فلما رأت امرأته قامت إلى الرحى فوضعتها، وإلى التنور فسَجَرته، ثم قالت: اللهم ارزقنا، فنظرت، فإذا الجفنة قد امتلأت قال: وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً، قال فرجع الزوج فقال: أصبتم بعدي شيئاً؟ قالت: امرأته: نعم من ربنا، قام إلى الرحى فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «أما إنه لو لم ترفعها لم تزل تدور إلى يوم القيامة». [وسنده جيد].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾.

يقول تعالى متوعداً لمن خالف أمره، وكذب رسله، وسلك غير ما شرعه، ومخبراً عما حل بالأمم السالفة بسبب ذلك، فقال تعالى: ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله﴾ أي تمردت وطغَت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله ﴿فحاسبناها حسابا شديداً وعذبناها عذاباً نكراً﴾ أي منكراً فظيعاً. ﴿فذاقت وبال أمرها﴾ أي غبّ مخالفتها، وندموا حيث لا ينفعهم الندم ﴿وكان عاقبة أمرها خسراً * أعد الله لهم عذابا شديداً﴾ أي في الدار الآخرة مع ما عجلّ لهم من العذاب في الدنيا. ثم قال تعالى بعد ما قَص من خبر هؤلاء: ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ أي الأفهام المستقيمة، لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولي الألباب، ﴿الذين آمنوا﴾ أي صدقوا بالله ورسله ﴿قد أنزل الله إليكم ذكراً﴾ أي القرآن. كقوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر:٩].

وقوله: ﴿رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات﴾ قال بعضهم: رسولاً منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة، لأن الرسول هو الذي بلغ الذكر. قال ابن جرير: الصواب أن الرسول ترجمة عن الذكر يعني تفسيراً له، ولهذا قال تعالى: ﴿رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات﴾ أي في حال كونها بينة واضحة جلية ﴿ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور﴾، كقوله: ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ [إبراهيم:١] أي من ظلمات

الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم. وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله نوراً لما يحصل به من الهدى، كما سماه روحاً لما يحصل به من حياة القلوب، فقال تعالى: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم**﴾ [الشورى: ٥٢]. وقوله: ﴿**ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً**﴾ قد تقدم تفسير مثل هذا غير مرة بما أغنى عن إعادته هٰهنا.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قدرته التامة وسلطانه العظيم، ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم: ﴿**الله الذي خلق سبع سموات**﴾ كقوله تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه: ﴿**ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً**﴾ [نوح: ١٥]. وقوله: ﴿**تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن**﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقوله: ﴿**ومن الأرض مثلهن**﴾ أي سبعاً أيضاً، كما ثبت في الصحيحين: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين». وفي صحيح البخاري: «خُسِف به إلى سبع أرضين»، ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم فقد أبعد النجعة وأغرق في النزع وخالف القرآن والحديث بلا مستند.

وروى البيهقي في كتاب الأسماء والصفات عن ابن عباس قال: ﴿**الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن**﴾ قال: سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى. ثم قال البيهقي: إسناد هذا عن ابن عباس صحيح وهو شاذ بمرة.

تفسير سورة التحريم وهي مدنية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾.

اختلف في سبب نزول صدر هذه السورة فقيل: نزلت في شأن مارية وكان رسول الله ﷺ قد حرمها، فنزل قوله: ﴿**يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ؟ تبتغي مرضات أزواجك**﴾ الآية.

روى أبو عبد الرحمن النسائي عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به

عائشة وحفصة حتى حَرَّمها، فأنزل الله عز وجل: **﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾** إلى آخر الآية. [وسنده حسن].

وعن مسروق قال: آلى رسول الله ﷺ وحرَّمَ، فعوتب في التحريم، وأمر بالكفارة في اليمين. رواه ابن جرير. وكذا روي عن الشعبي، وكذا قال غير واحد من السلف منهم الضحاك والحسن وقتادة ومقاتل ابن حيان، وزيد بن أسلم، وعن ابن عباس القصة مطولة.

وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: قلت لعمر بن الخطاب: من المرأتان؟ قال: عائشة وحفصة. وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم مارية القبطية، أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في نوبتها، فَوَجَدت حفصة: فقالت: يا نبي الله لقد جئت إليَّ شيئاً ما جئت إلى أحد من أزواجك، في يومي، وفي دوري، وعلى فراشي، قال: «ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها». قالت: بلى فحرمها وقال لها: «لا تذكري ذلك لأحد». فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه فأنزل الله تعالى: **﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك﴾** الآيات كلها. فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفَّر عن يمينه وأصاب جاريته. [أصله في الصحيحين]. وروى الهيثم بن كليب في مسنده عن عمر قال: قال النبي ﷺ لحفصة: «لا تخبري أحداً، وإن أم إبراهيم علي حرام» فقالت: أتحرم ما أحل الله لك؟ قال: «فوالله لا أقربها». قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة. قال: فأنزل الله تعالى: **﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾** وهذا إسناده صحيح ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج.

وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير: أن ابن عباس كان يقول في الحرام: يمين تكفرها، وقال ابن عباس: **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾** [الأحزاب:٢١] يعني أن رسول الله ﷺ حرم جاريته فقال الله تعالى: **﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك - إلى قوله - قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾** فكفر يمينه فصير الحرام يميناً. ورواه البخاري ومسلم.

ومن هٰهنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجوب الكفارة على من حرم جاريته أو زوجته أو طعاماً أو شراباً أو ملبساً أو شيئاً من المباحات، وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة. وذهب الشافعي إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية إذا حرم عينيهما أو أطلق التحريم فيهما في قول، فأما إن نوى بالتحريم طلاق الزوجة أو عتق الأمة نفذ فيهما.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: **﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾** في المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ وهذا قول غريب، والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل كما روى البخاري في كتاب الطلاق عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحَلوى والعَسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس، فَغِرْتُ فسألت عن ذلك، فقيل لي:

أهدت لها امرأة من قومها عُكَّة عسل، فسقت النبي ﷺ منه شربة، فقلت: أما والله لنحتالن له، فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك فإذا دنا منك فقولي: أكلت مغافير؟ فإنه سيقول لك: لا، فقولي له: ما هذه الريح التي أجد؟ فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل، فقولي: جرست نحلُه العُرفُطَ وسأقول ذلك، وقولي له أنت يا صفية ذلك، قالت: تقول سودة فو الله ما هو إلا أن قام على الباب، فأردت أن أناديه بما أمرتني فرقاً منك، فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله أكلت مغافير ؟ قال: «لا» قالت: فما هذه الريح التي أجد منك ؟ قال: «سقتني حفصة شربة عسل» قالت: جرست نحله العرفط، فلما دار إليَّ قلت نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله ألا أسقيك منه ؟ قال: «لا حاجة لي فيه» قالت: تقول سودة والله لقد حَرَمْنَاه، قلت لها اسكتي، هذا لفظ البخاري. وقد رواه مسلم، وعنده قالت: وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح، يعني الريح الخبيثة، ولهذا قلن له أكلت مغافير لأن ريحها فيه شيء، فلما قال: «بل شربت عسلاً». قلن: جرست نحله العرفط أي رعت نحله شجر العرفط الذي صَمغُه المغافير، فلهذا ظهر ريحه في العسل الذي شربته.

والغرض أن هذا السياق فيه أن حفصة هي الساقية للعسل، وفي طريق [آخر] أن زينب بنت جحش هي التي سقته العسل، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه فالله أعلم. وقد يقال إنهما واقعتان ولا بُعد في ذلك إلا أن كونهما سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر، والله أعلم. ومما يدل على أن عائشة وحفصة رضي الله عنهما هما المتظاهرتان الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: **﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾** حتى حج عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة فتبرز، ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى: **﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾** فقال عمر: واعجباً لك يا ابن عباس، هي عائشة وحفصة. قال: ثم أخذ يسوق الحديث. قال: كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تَغلِبُهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، قال: وكان منزلي في دار بني أمية بن زيد بالعوالي، قال: فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تُرَاجِعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فو الله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل. قال: فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ فقالت: نعم. قلت: وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت: نعم. قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت، لا تراجعي رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئاً وسليني من مالي ما بدا لك، ولا يغرنك أن كانت جارتك

هي أوسم وأحب إلى رسول الله ﷺ منك ـ يريد عائشة ـ قال: وكان لي جار من الأنصار، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك. قال: وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي يوماً ثم أتى عشاء فضرب بابي ثم ناداني فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم، فقلت: وما ذاك أجاءت غسان؟ قال: لا بل أعظم من ذلك وأطول طلق رسول الله ﷺ نساءه. فقلت: قد خابت حفصة وخسرت قد كنت أظن هذا كائناً حتى إذا صليت الصبح شددت علي ثيابي، ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ فقالت: لا أدري هو هذا معتزل في هذه المشربة، فأتيت غلاماً له أسود فقلت استأذن لعمر، فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال: ذكرتك له فصمت، فانطلقت حتى أتيت المنبر فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلست عنده قليلاً ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج فقال: قد ذكرتك له فصمت، فخرجت، فجلست إلى المنبر ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إلي فقال: قد ذكرتك له، فصمت، فوليت مدبراً، فإذا الغلام يدعوني فقال: ادخل قد أذن لك، فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكىء على رمال الحصير، وقد أثر في جنبه فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إلي وقال: «لا» فقلت: الله أكبر. ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم فغضبت علي امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فو الله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله فإذا هي قد هلكت. فتبسم رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قد دخلت على حفصة فقلت: لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم أو أحب إلى رسول الله ﷺ منك. فتبسم أخرى، فقلت: استأنس يا رسول الله، قال: «نعم» فجلست فرفعت رأسي في البيت، فو الله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا أهبة ثلاثة، فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً وقال: «أفي شك أنت يا ابن الخطاب. أولئك قوم عُجِّلَت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا» فقلت استغفر لي يا رسول الله. وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل. وقد رواه البخاري ومسلم.

وروى مسلم أيضاً عن عبد الله بن عباس، حدثني عمر بن الخطاب، قال: لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه دخلت المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون طلق رسول الله ﷺ نساءه، وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب، فقلت: لأعلمن ذلك اليوم، فذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة ووعظه إياهما، إلى أن قال: فدخلت فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ

على أسكُفَّة المشرَبة، فناديت فقلت: يا رباح استأذن لي على رسول الله ﷺ، فذكر نحو ما تقدم ـ إلى أن قال ـ فقلت: يا رسول الله ما يَشُقّ عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمتُ ـ وأحمد الله ـ بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي، فنزلت هذه الآية آية التخيير: ﴿**عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن**﴾، ﴿**وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير**﴾ فقلت: أطلقتهن ؟ قال: «لا» فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه. ونزلت هذه الآية: ﴿**وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم**﴾ [النساء: ٨٣]. فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر. وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومقاتل بن حيان والضحاك وغيرهم ﴿**وصالح المؤمنين**﴾ أبو بكر وعمر، زاد الحسن البصري: وعثمان، وعن مجاهد: ﴿**وصالح المؤمنين**﴾ قال: علي بن أبي طالب.

وروى البخاري عن أنس قال: قال عمر: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن: ﴿**عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن**﴾ فنزلت هذه الآية، وقد تقدم أنه وافق القرآن في أماكن: منها في نزول الحجاب، ومنها في أسارى بدر، ومنها قوله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى: ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾ [البقرة: ١٢٥]. وروى ابن أبي حاتم عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب: بلغني شيء كان بين أمهات المؤمنين وبين النبي ﷺ فاستقريتهن أقول: لتكفن عن رسول الله ﷺ أو ليبدلنَّه الله أزواجاً خيراً منكن، حتى أتيت على آخر أمهات المؤمنين فقالت: يا عمر أما لي برسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن، فأمسكت فأنزل الله عز وجل: ﴿**عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً**﴾ [وسنده صحيح] وهذه المرأة التي ردته عما كان فيه من وعظ النساء هي أم سلمة كما ثبت ذلك في صحيح البخاري.

وقد تبين مما أوردناه تفسير هذه الآيات الكريمات، ومعنى قوله: ﴿**مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات**﴾ ظاهر. وقوله: ﴿**سائحات**﴾ أي: صائمات، قاله أبو هريرة وعائشة وابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب القرظي وإبراهيم النخعي والحسن والسدي وغيرهم، وقال زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن: ﴿**سائحات**﴾ أي مهاجرات، وتلا عبد الرحمن: ﴿**السائحون**﴾ [التوبة: ١١٢] أي المهاجرون. والقول الأول أولى، والله أعلم.

وقوله: ﴿**ثيبات وأبكاراً**﴾ أي منهن ثيبات، ومنهن أبكاراً ليكون ذلك أشهى إلى النفس، فإن التنوع يبسُط النفسَ، ولهذا قال: ﴿**ثيبات وأبكاراً**﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾ ﴾.

عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿**قوا أنفسكم وأهليكم نارا**﴾ يقول: أدبوهم وعلموهم. وقال ابن عباس: اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله، ومُروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار، وقال مجاهد: اتقوا الله وأوصوا أهليكم بتقوى الله، وقال قتادة: يأمرهم بطاعة الله، وينهاهم عن معصية الله، وأن يقومَ عليهم بأمر الله، ويأمرهم به ويساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية، ردعتهم عنها وزجرتهم عنها، وهكذا قال الضحاك ومقاتل: حق على المسلم أن يعلم أهله من قرابته وإمائه وعبيده، ما فرض الله عليهم، وما نهاهم الله عنه.

وفي معنى هذه الآية الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي من حديث عبد الملك بن الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها». هذا لفظ أبي داود، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. قال الفقهاء وهكذا في الصوم ليكون ذلك تمريناً له على العبادة لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر، والله الموفق.

وقوله: ﴿**وقودها الناس**﴾ وقودها أي حطبها الذي يلقى فيها جُثث بني آدم ﴿**والحجارة**﴾ قيل المراد بها الأصنام التي تعبد لقوله: ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم**﴾ [الأنبياء:٩٨]. وقال ابن مسعود ومجاهد وأبو جعفر الباقر والسدي، هي حجارة من كبريت، زاد مجاهد: أنتن من الجيفة.

وقوله: ﴿**عليها ملائكة غلاظ شداد**﴾ أي طباعهم غليظة، قد نُزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله، ﴿**شداد**﴾ أي تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج. وقوله: ﴿**لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾ أي مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه، وهؤلاء هم الزبانية عياذ بالله منهم. وقوله: ﴿**يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون**﴾ أي يقال للكفرة يوم القيامة: لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم. ثم قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً**﴾ أي توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات، وتلم شعث التائب وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات.

روى ابن جرير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً**﴾ قال: يذنب ثم لا يرجع فيه، وعن عبد الله [بن مسعود]: ﴿**توبة نصوحاً**﴾ قال: يتوب ثم لا يعود.

ولهذا قال العلماء: التوبة النصوح هو أن يُقلعَ عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزِم على أن لا يفعل في المستقبل، ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه بطريقه. روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مَعقِل قال: دخلت مع أبي على عبد الله بن مسعود فقال: أنت سمعت النبي ﷺ يقول: «الندم توبة ؟» قال: نعم. وقال مَرَة: نعم سمعته يقول: «الندم توبة» ورواه ابن ماجه [وصحح البوصيري إسناده].

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن قال: التوبة النصوح أن تُبغِض الذنب كما أحببته، وتستغفر منه إذا ذكرته. فأما إذا جزم بالتوبة وصمم عليها فإنها تَجُب ما قبلها من الخطيئات، كما ثبت في الصحيح[لمسلم]: «الإسلام يَجُب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها». وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرار على ذلك إلى الممات، أو يكفي العزم على ألا يعود في تكفير الماضي، بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضاراً في تكفير ما تقدم، لعموم قوله عليه السلام: «التوبة تجب ما قبلها ؟». وللأول أن يحتج بما ثبت في الصحيح أيضاً: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر». فإذا كان هذا في الإسلام الذي هو أقوى من التوبة فالتوبة بطريق الأولى، والله أعلم.

وقوله: ﴿**عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ وعسى من الله موجبة، ﴿**يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه**﴾ أي ولا يخزيهم معه يعني يوم القيامة ﴿**نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم**﴾ كما تقدم في سورة الحديد [آية: ١٢]. ﴿**يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير**﴾ قال مجاهد والضحاك والحسن البصري وغيرهم: هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طفىء.

وروى محمد بن نصر المروزي عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير أنه سمع أبا ذر وأبا الدرداء قالا: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر بين يَدَيَ فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن يميني فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن شمالي فأعرف أمتي من بين الأمم، فقال رجل: يا رسول الله، وكيف تعرف أمتك من بين الأمم ؟ قال: غُرٌّ مُحجلون من آثار الطُهور، ولا يكون أحد من الأمم كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتَون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم». [وسنده حسن].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، هؤلاء بالسلاح والقتال، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم ﴿**واغلظ عليهم**﴾ أي في الدنيا ﴿**ومأواهم جهنم وبئس المصير**﴾ أي في الآخرة.

ثم قال: ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا﴾ أي في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً، ولا ينفعهم عند الله، إن لم يكن الإيمان حاصلاً في قلوبهم، ثم ذكر المثل فقال: ﴿امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين﴾ أي نبيين رسولين عندهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً، يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ﴿فخانتاهما﴾ أي في الإيمان لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقاهما في الرسالة، فلم يُجْد ذلك كلَه شيئاً ولا دفع عنهما محذوراً، ولهذا قال: ﴿فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً﴾ أي لكفرهما ﴿وقيل﴾ أي للمرأتين ﴿ادخلا النار مع الداخلين﴾. وليس المراد بقوله: ﴿فخانتاهما﴾ في فاحشة بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة، لحرمة الأنبياء كما قدمنا في سورة النور. [عند آيات الإفك].

عن ابن عباس قال في هذه الآية: ﴿فخانتاهما﴾ قال: ما زنتا، أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه. وعن ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط إنما كانت خيانتهما في الدين، وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم. وقد استدل بهذه الآية الكريمة بعض العلماء على ضعف الحديث الذي يأثره كثير من الناس: من أكل مع مغفور له غفر له. وهذا الحديث لا أصل له.

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾.

وهذا مَثَلٌ ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم، كما قال تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ [آل عمران:٢٨]. قال قتادة: كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم فو الله ما ضر امرأته كُفر زوجها حين أطاعت ربها، لتعلموا أن الله حَكَمٌ عدل، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه. وعن سلمان قال: كانت امرأة فرعون تُعَذَّب في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة.

فقولها: ﴿رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾ قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار، ﴿ونجني من فرعون وعمله﴾ أي خلصني منه، فإني أبرأ إليك من عمله ﴿ونجني من القوم الظالمين﴾ وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها.

وقوله: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾ أي حفظته وصانته، والإحصان هو العفاف والحرية ﴿فنفخنا فيه من روحنا﴾ أي بواسطة المَلَك وهو جبريل، فإن الله بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سَوي، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام، ولهذا قال: ﴿فنفخنا فيه من روحنا

وصدقت بكلمات ربها وكتبه﴾ أي بقدره وشرعه ﴿وكانت من القانتين﴾ روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: خَطّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط، وقال: «أتدرون ما هذا ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون». [قال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح]. وثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثَّريد على سائر الطعام».

تفسير سورة الملك وهي مكية.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت لصاحبها حتى غفر له: تبارك الذي بيده الملك» ورواه أهل السنن الأربعة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. [يقويه ما بعده].

وقد روى الطبراني والحافظ الضياء المقدسي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة: تبارك الذي بيده الملك». [سنده جيد].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾.

يمجد تعالى نفسه الكريمة، ويخبر أنه بيده الملك أي هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله، ولهذا قال: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾. ثم قال تعالى: ﴿الذي خلق الموت والحياة﴾ واستدل بهذه الآية من قال إن الموت أمر وجودي، لأنه مخلوق، ومعنى الآية أنه أوجد الخلائق من العدم ليبلوهم أي يختبرهم أيهم أحسن عملاً، كما قال: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾ [البقرة:٢٨]. فسمى الحال الأول ـ وهو العدم ـ موتاً، وسمى هذه النشأة حياة، ولهذا قال: ﴿ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ [البقرة:٢٨].

وقوله: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أي خير عملاً كما قال محمد بن عَجْلان: ولم يقل أكثر عملاً. ثم قال: ﴿وهو العزيز الغفور﴾ أي هو العزيز العظيم المنيع الجناب، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأناب، بعد ما عصاه وخالف أمره، وإن كان تعالى عزيزاً هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز، ثم قال: ﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً﴾ أي طبقة بعد طبقة، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض، أو متفاصلات بينهن خلاء، فيه قولان

أصحهما الثاني كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره.

وقوله: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ أي بل هو مصطحب مستو، ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة، ولا نقص ولا عيب ولا خلل، ولهذا قال: ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ أي انظر إلى السماء فتأملها، هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً؟. قال ابن عباس ومجاهد والثوري وغيرهم في قوله: ﴿من فطور﴾ أي شقوق. وقال السدي: أي من خُروق، وقال ابن عباس في رواية: أي من وهاء. وقال قتادة: أي هل ترى خللاً يا ابن آدم.

وقوله: ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ قال قتادة: مرتين. ﴿ينقلب إليك البصر خاسئاً﴾ قال ابن عباس: ذليلا، وقال مجاهد وقتادة: صاغراً. ﴿وهو حسير﴾ قال ابن عباس: يعني وهو كليل، وقال مجاهد وقتادة والسدي: الحسير: المنقطع من الإعياء. ومعنى الآية إنك لو كررت البصر مهماكررت لانقلب إليك أي لرجع إليك البصر ﴿خاسئاً﴾ عن أن يرى عيباً أو خللا، ﴿وهو حسير﴾ أي كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرر ولا يرى نقصاً. ولما نفى عنها في خلقها النقص بين كمالها وزينتها فقال: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثوابت.

وقوله: ﴿وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ عاد الضمير في قوله وجعلناها على جنس المصابيح لا على عينها، لأنه لا يرمي بالكواكب التي في السماء، بل بشهب من دونها، وقد تكون مستمدة منها، والله أعلم. وقوله: ﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ أي جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا، وأعتدنا لهم عذاب السعير في الآخرة، كما قال في أول الصافات: ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظاً من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب * إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ [الصافات:٦ـ١٠]. قال قتادة: إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها الله زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به.

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿و﴾ أعتدنا ﴿للذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير﴾ أي بئس المآل والمنقلب. ﴿إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً﴾ قال ابن جرير: يعني الصياح. ﴿وهي تفور﴾ قال الثوري: تغلي بهم كما يغلي الحَبّ القليل في الماء الكثير. وقوله: ﴿تكاد تميز من الغيظ﴾ أي

تكاد ينفصل بعضها من بعض، من شدة غيظها عليهم **﴿كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾** يذكر تعالى عدله في خلقه، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه، كما قال: **﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾** [الإسراء: ١٥]. وقال تعالى: **﴿حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾** [الزمر: ٧١]. وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة، فقالوا: **﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾** أي لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم. قال الله تعالى: **﴿فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾**. روى الإمام أحمد عن أبي البختريّ الطائي قال: أخبرني من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال: «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم» [سنده صحيح].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس، فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات، حيث لا يراه أحد إلا الله، بأنه له مغفرة وأجر كبير، أي يكفر عنه ذنوبه، ويجازى بالثواب الجزيل، كما ثبت في الصحيحين: «سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله»، فذكر منهم: «رجلاً دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجلاً تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

ثم قال منبهاً على أنه مطلع على الضمائر والسرائر: **﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور﴾** أي بما خطر في القلوب، **﴿ألا يعلم من خلق﴾** أي ألا يعلم الخالق. وقيل: معناه ألا يعلم الله مخلوقه؟ والأول أولى لقوله: **﴿وهو اللطيف الخبير﴾**. ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض وتذليله إياها لهم، بأن جعلها قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب، بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار، فقال: **﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها﴾** أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئاً، إلا أن ييسره الله لكم، ولهذا قال تعالى: **﴿وكلوا من رزقه﴾** فالسعي في السبب لا ينافي التوكل، كما روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ

يقول: «لوأنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِمَاصاً وتَرُوح بِطَاناً». رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح. فأثبت لها رواحاً وغدواً لطلب الرزق مع توكلها على الله عز وجل وهو المسَخِّر المسير المسبب. ﴿وإليه النشور﴾ أي المرجع يوم القيامة. قال ابن عباس ومجاهد والسدي وقتادة: ﴿مناكبها﴾ أطرافها وفجاجها ونواحيها، وقال ابن عباس وقتادة أيضاً: مناكبها: الجبال. وعن أبي الدرداء قال: هي الجبال.

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾.

وهذا أيضاً من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم، بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره، وهو مع هذا يحلم ويصفح ويؤجل ولا يعجل، كما قال تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً﴾ [فاطر: ٤٥]. وقال هٰهنا: ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾ أي تذهب وتجيء وتضطرب ﴿أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً﴾ أي ريحاً فيها حصباء تدمغكم، كما قال تعالى: ﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً﴾ [الإسراء: ٦٨]. وهكذا توعدهم هٰهنا بقوله: ﴿فستعلمون كيف نذير﴾ أي كيف يكون إنذاري وعاقبة من كذب به.

ثم قال: ﴿ولقد كذب الذين من قبلهم﴾ أي من الأمم السالفة ﴿فكيف كان نكير﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم؟ أي عظيماً شديداً أليماً. ثم قال تعالى: ﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن﴾ أي تارة يصففن أجنحتهن في الهواء، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً ﴿ما يمسكهن﴾ أي في الجو ﴿إلا الرحمن﴾ أي بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه، ﴿إنه بكل شيء بصير﴾ أي بما يصلح كل شيء من مخلوقاته، وهذه كقوله: ﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾. [النحل: ٧٩].

﴿ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا معه غيره، يبتغون عندهم نصراً ورزقاً، منكراً عليهم فيما اعتقدوه، ومخبراً لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه، فقال: ﴿أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم

من دون الرحمن﴾ أي ليس لكم من دونه من ولي ولا واق ولا ناصر لكم غيره، ولهذا قال: ﴿إن الكافرون إلا في غرور﴾. ثم قال: ﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ أي من هذا الذي إذا قطع الله عنكم رزقه يرزقكم بعده؟ أي لا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق وينصر إلا الله عز وجل وحده لا شريك له، أي وهم يعلمون ذلك ومع هذا يعبدون غيره، ولهذا قال: ﴿بل لجوا﴾ أي استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿في عتو ونفور﴾ أي معاندةً واستكباراً ونفوراً على إدبارهم عن الحق لا يسمعون له ولا يتبعونه.

ثم قال: ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى! أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾ وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكباً على وجهه، أي يمشي منحنياً لا مستوياً على وجهه أي لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب، بل تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿أمن يمشي سوياً﴾ أي منتصب القامة ﴿على صراط مستقيم﴾ أي على طريق واضح بين وهو في نفسه مستقيم. هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة. فالمؤمن يحشر يمشي سوياً على صراط مستقيم، مُفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم.

روى الإمام أحمد رحمه الله عن أنس بن مالك قال: قيل يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم؟ فقال: «أليس الذي أمشاهم على أرجلهم قادراً على أن يمشيهم على وجوههم». وهذا الحديث مخرج في الصحيحين. وقوله: ﴿قل هو الذي أنشأكم﴾ أي ابتدأ خلقكم بعدأن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ أي العقول والإدراك، ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي ما أقل ما تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم في طاعته، وامتثال أوامره وترك زواجره. ﴿قل هو الذي ذرأكم في الأرض﴾ أي بثكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها، مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم وصوركم، ﴿وإليه تحشرون﴾ أي تُجمعون بعد هذا التفرق والشتات، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم. ثم قال تعالى مخبراً عن الكفار المنكرين للمعاد المستبعدين وقوعه: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ أي متى يقع هذا الذي تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق ﴿قل إنما العلم عندالله﴾ أي لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله عز وجل، لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ أي وإنما علي البلاغ وقد أديته إليكم.

قال تعالى: ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾ أي لما قامت القيامة وشاهدها الكفار، ورأوا أن الأمر كان قريباً، لأن كل ما هو آتٍ آتٍ وإن طال زمنه، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك لما يعلمون ما لهم هناك من الشر، أي فأحاط بهم ذلك وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون * وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ [الزمر: ٤٧-٤٨]. ولهذا يقال لهم على وجه التقريع

والتوبيخ ﴿هذا الذي كنتم به تدعون﴾ أي تستعجلون.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه ﴿أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم﴾ أي خلِّصوا أنفسكم، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة، والرجوع إلى دينه، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنَّكال، فسواء عذبنا الله أو رحمنا، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم. ثم قال: ﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾ أي آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم، وعليه توكلنا في جميع أمورنا، كما قال: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ [هود:١٢٣]، ولهذا قال: ﴿فستعلمون من هو في ضلال مبين﴾ أي منا ومنكم، ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة؟

ثم قال: ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً﴾ أي ذاهباً في الأرض إلى أسفل، فلا يُنال بالفؤوس الحداد ولا السواعد الشداد، والغائر عكس النابع، ولهذا قال: ﴿فمن يأتيكم بماء معين﴾ أي نابع سائح جار على وجه الأرض، لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل، فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها في سائر أقطار الأرض، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة، فلله الحمد والمنة.

تفسير سورة القلم وهي مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾.

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة، وأن قوله: ﴿ن﴾ كقوله ﴿ص﴾، ﴿ق﴾ ونحو ذلك من الحروف المقطعة في أوائل السور، وتحرير القول في ذلك بما أغنى عن إعادته هٰهنا.

قيل: المراد بقوله: ﴿ن﴾ لوح من نور.

وقال ابن جريج: أخبرت أن ذلك القلم من نور طوله مائة عام، وقيل المراد بقوله: ﴿ن﴾ دواة، والقلم: القلم. وعن الحسن وقتادة في قوله ﴿ن﴾ قالا هي الدواة. وقوله: ﴿والقلم﴾ الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به، كقوله: ﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾ [العلق:٣ـ٥]. فهو قسم منه تعالى، وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم، ولهذا قال: ﴿وما يسطرون﴾. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: يعني وما يكتبون. وقال ابن عباس [أيضا]: أي وما يعملون. وقال السدي: يعني الملائكة وما تكتب من أعمال العباد. وقال آخرون: بل المراد هٰهنا بالقلم الذي أجراه الله

بالقدر حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف سنة.

روى ابن أبي حاتم عن عبادة بن الصامت قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: يا رب وما أكتب؟ قال: اكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد». وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد وأخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح غريب. وقال مجاهد: والقلم: يعني الذي كتب به الذكر. وقوله: ﴿وما يسطرون﴾ أي يكتبون كما تقدم.

وقوله: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ أي لست ولله الحمد بمجنون، كما يقوله الجهلة من قومك، المكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين، فنسبوك فيه إلى الجنون، ﴿وإن لك لأجراً غير ممنون﴾ أي بل إن لك الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق، وصبرك على أذاهم، ومعنى غير ممنون أي غير مقطوع، كقوله ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ [هود:١٠٨] أي غير مقطوع عنهم. وقال مجاهد: غير ممنون أي غير محسوب وهو يرجع إلى ما قلناه.

وقوله: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ عن ابن عباس: وإنك لعلى دين عظيم وهو الإسلام. وكذلك قال مجاهد وأبو مالك والسدي والربيع بن أنس، وكذا قال الضحاك وابن زيد. وقال عطية: لعلى أدب عظيم. وروى عبد الرزاق عن سعد بن هشام قال: سألت عائشة فقلت: أخبريني يا أم المؤمنين عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: أتقرأ القرآن ؟ قلت: نعم. فقالت: كان خلقه القرآن. وقد رواه مسلم.

ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثالُ القرآن، أمراً ونهياً سجيةً له وخلقاً تَطَبَّعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خلق جميل. كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: خدمتُ رسولَ الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف قط، ولا قال: لشيء فعلته: لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته ؟ وكان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ. والأحاديث في هذا كثيرة ولأبي عيسى الترمذي في هذا كتاب الشمائل.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» [سنده حسن].

وقوله: ﴿فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون﴾ فستعلم يا محمد وسيعلم مخالفوك ومكذبوك من المفتون الضال منك ومنهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿سيعلمون غداً من الكذاب الأشر﴾ [القمر:٢٦]. قال ابن جريج: قال ابن عباس في هذه الآية: ستعلم ويعلمون يوم القيامة،

وعنه [أيضا]: بأيكم المفتون أي المجنون، وكذا قال مجاهد وغيره، وقال قتادة وغيره: أي أولى بالشيطان. ومعنى المفتون ظاهر أي الذي قد افتتن عن الحق وضل عنه، وإنما دخلت الباء في قوله بأيكم لتدل على تضمين الفعل في قوله ﴿**فستبصر ويبصرون**﴾ وتقديره فستعلم ويعلمون أو فستخبر ويخبرون بأيكم المفتون، والله أعلم. ثم قال تعالى: ﴿**إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾ أي هو يعلم تعالى أي الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي، ويعلم الحزب الضال عن الحق.

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم ﴿**فلا تطع المكذبين * ودوا لوتدهن فيدهنون**﴾ قال ابن عباس: لو تُرَخِّص لهم فيرخِّصون. وقال مجاهد: ودوا لو تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق. ثم قال تعالى: ﴿**ولاتطع كل حلاف مهين**﴾ وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترىء بها على أسماء الله تعالى، واستعمالها في كل وقت في غير محلها. قال ابن عباس: المهين الكاذب، وقال مجاهد: هو الضعيف القلب، قال الحسن: كل حلاف مكابر مهين ضعيف.

وقوله: ﴿**همّاز**﴾ قال ابن عباس وقتادة: يعني الاغتياب ﴿**مشاء بنميم**﴾ يعني الذي يمشي بين الناس، ويحرش بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين وهي الحالقة، وقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة» الحديث.

وروى الإمام أحمد أن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قَتَّات» رواه الجماعة إلا ابن ماجه.

وقوله: ﴿**مناع للخير معتد أثيم**﴾ أي يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿**معتد**﴾ في تناول ما أحل الله له، يتجاوز فيها الحد المشروع ﴿**أثيم**﴾ أي يتناول المحرمات. وقوله: ﴿**عتل بعد ذلك زنيم**﴾ العتل: الفظُّ الغليظ الصحيح الجموع المَنُوعُ. وروى الإمام أحمد عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة كل ضعيف مُتَضعِّف لو أقسم على الله لأبره، ألا أنبئكم بأهل النار، كل عُتل جَوّاظ مستكبر». أخرجاه في الصحيحين. وروى الإمام أحمد أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال عند ذكر أهل النار: «كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع». [قال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح]. قال أهل اللغة: الجعظري: الفظُّ الغليظ. والجَوّاظ: الجَمُوع المَنُوع. ونص غير واحد من السلف،

منهم مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغيرهم أن العتل هو: المُصحَّح الخَلْق، الشديد القوي في المأكل والمشرب والمنكح، وغير ذلك، وأما الزنيم فروى البخاري عن ابن عباس قال: رجل من قريش له زنمة مثل زَنَمة الشاة، ومعنى هذا: أنه كان مشهوراً بالسوء كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها، وإنما الزنيم في لغة العرب: هو الدّعِيُّ في القوم. قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة، وقال: ومنه قول [الشاعر]:

زنيمٌ ليس يُعرَفُ من أبوهُ بغيُّ الأم ذو حسب لئيم

وعن ابن عباس في قوله: ﴿زنيم﴾ قال: الدعي الفاحش اللئيم. وعن سعيد بن المسيب قال في هذه الآية: هو الملصق بالقوم ليس منهم، وعن عكرمة قال: هو ولد الزنا. [وعنه] قال: يعرف المؤمن من الكافر مثل الشاة الزنماء، والزنماء من الشياه: التي في عنقها هَنتان معلقتان في حلقها. وعن سعيد بن جبير قال: الزنيم الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها. والزنيم الملصق. وقال الضحاك: كانت له زنمة في أصل أذنه. ويقال: هو اللئيم الملصق في النسب، وعن ابن عباس: هو المريب الذي يعرف بالشر. وقال مجاهد: الزنيم الذي يعرف بهذا الوصف كما تعرف الشاة، وقال أبو رزين: الزنيم علامة الكفر.

والأقوال في هذا كثيرة وترجع إلى ما قلناه، وهو أن الزنيم هو: المشهور بالشر، الذي يعرف به من بين الناس، وغالباً يكون دعياً ولد زنا، فإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه ما لا يتسلط على غيره.

وقوله: ﴿**أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين**﴾ يقول تعالى: هذه مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين، كفر بآيات الله عز وجل وأعرض عنها، وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين، كقوله: ﴿**ذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالاً ممدوداً * وبنين شهوداً * ومهدت له تمهيداً * ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيداً * سأرهقه صعوداً * إنه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر * سأصليه سقر**﴾ [المدثر: ١١-٢٦]. وقال تعالى هٰهنا: ﴿**سنسمه على الخرطوم**﴾ قال ابن جرير: سنبين أمره بياناً واضحاً، حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم، كما لا تخفى عليهم السمة على الخراطيم. وقال قتادة: شين لا يفارقه آخر ما عليه. وفي رواية عنه: سيما على أنفه. وكذا قال السدي. وعن ابن عباس: ﴿**سنسمه على الخرطوم**﴾ يقاتل يوم بدر، فيُخطم بالسيف في القتال. وقال آخرون: ﴿**سنسمه**﴾ سمة أهل النار، يعني نسود وجهه يوم القيامة، وعبر عن الوجه بالخرطوم. حكى ذلك كله أبو جعفر بن جرير، ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه في الدنيا والآخرة وهو مُتّجه.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾

فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا
الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا
تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن
يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

هذا مَثَل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعم الجسيمة، وهو بعْثُهُ محمد ﷺ إليهم فقابلوه، بالتكذيب والرد والمحاربة، ولهذا قال: ﴿**إنا بلوناهم**﴾ أي اختبرناهم ﴿**كما بلونا أصحاب الجنة**﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿**إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين**﴾ أي: حلفوا فيما بينهم لَيجُذن ثَمرها ليلاً، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء، ﴿**ولا يستثنون**﴾ أي فيما حلفوا به، ولهذا حَنَّثهم الله في أيمانهم، فقال: ﴿**فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون**﴾ أي أصابتها آفة سماوية، ﴿**فأصبحت كالصريم**﴾ قال ابن عباس كالليل الأسود، وقال الثوري والسدي: مثل الزرع إذا حصد أي هشيماً يبساً. ﴿**فتنادوا مصبحين**﴾ أي لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجُذَاذ ﴿**أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين**﴾ أي تريدون الصرام. قال مجاهد: كان حرثهم عِنباً ﴿**فانطلقوا وهم يتخافتون**﴾ أي يتناجون فيما بينهم بحيث لا يُسمعون أحداً كلامهم. ثم فسر الله سبحانه وتعالى عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به فقال: ﴿**أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين**﴾ أي يقول بعضهم لبعض لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم، قال الله تعالى: ﴿**وغدوا على حرد**﴾ أي قوة وشدة. وقال مجاهد: أي جد، وقال عكرمة: غيظ، وقال الشعبي ﴿**على حرد**﴾ على المساكين.

﴿**قادرين**﴾ أي عليها فيما يزعمون ويَرومون. ﴿**فلما رأوها قالوا إنا لضالون**﴾ أي فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها، وهي على الحالة التي قال الله عز وجل قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مُدْلَهِمَّة، لا يُنتفع بشيء منها، فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق، ولهذا قالوا: ﴿**إنا لضالون**﴾ أي قد سلكنا إليها غير الطريق فتُهنا عنها. قاله ابن عباس وغيره، ثم رجعوا عما كانوا فيه، وتيقنوا أنها هي فقالوا: ﴿**بل نحن محرومون**﴾ أي بل هي هذه ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب.

﴿**قال أوسطهم**﴾ قال ابن عباس ومحمد بن كعب والربيع بن أنس وقتادة [وغيرهم]: أي أعدلهم وخيرهم ﴿**ألم أقل لكم لولا تسبحون**﴾ قال مجاهد والسدي وابن جريج: ﴿**لولا تسبحون**﴾ أي لولا تستثنون قال السدي: وكان استثناؤهم في ذلك الزمان تسبيحاً. وقال ابن جريج: هو قول القائل إن شاء الله، وقيل: معناه هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم، ﴿**قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين**﴾، أتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع، ولهذا قالوا: ﴿**إنا كنا ظالمين * فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون**﴾

أي يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجُذاذ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب، ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين﴾ أي اعتدينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا. ﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون﴾ قيل: رغبوا في بذلها لهم في الدنيا. وقيل: احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة والله أعلم. قال الله تعالى: ﴿كذلك العذاب﴾ أي هكذا عذاب من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه، ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات، وبدل نعمة الله كفراً ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ أي هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم وعذاب الآخرة أشق.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

لما ذكر الله تعالى حال أهل الجنة الدنيوية، وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله عز وجل، وخالفوا أمره بين أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم التي لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقضي نعيمها. ثم قال: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾ أي أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء؟ كلا ورب الأرض والسماء ولهذا قال: ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾ أي كيف تظنون ذلك؟

ثم قال: ﴿أم لكم كتاب فيه تدرسون﴾ يقول: أفبأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف، مُتضمن حكماً مؤكداً كما تدعونه؟ ﴿إن لكم فيه لما تخيرون * أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة﴾ أي أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة، ﴿إن لكم لما تحكمون﴾ أي إنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون ﴿سلهم أيهم بذلك زعيم﴾ أي قل لهم من هو المتضمن المتكفل بهذا؟ قال ابن عباس: يقول أيهم بذلك كفيل ﴿أم لهم شركاء﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾.

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى أن للمتقين عنده جنات النعيم، بيّن متى ذلك كائن وواقع، فقال: ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾ يعني يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء، والامتحان والأمور العظام. وقد روى البخاري هٰهنا عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً»، وعن ابن عباس: ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ قال: هو يوم كَرْب وشدة. رواه ابن جرير. وعنه أيضا

قال: عن أمر عظيم، كقول الشاعر:

وقامت الحرب بنا على ساق

وعن مجاهد قال: شدة الأمر وجده، وقال ابن عباس: هي أول ساعة تكون في يوم القيامة، وقال ابن عباس [أيضا]: هو الأمر الشديد المُفظِع من الهول يوم القيامة. وعن ابن عباس [أيضا]: حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال. وكشفه دخول الآخرة، وكشف الأمر عنه. أورد ذلك كله أبو جعفر بن جرير.

وقوله تعالى: ﴿**خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة**﴾ أي في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه. ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة، إذا تجلى الرب عز وجل فسجد له المؤمنون، ولا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً، كلما أراد أحدهم أن يسجد خرّ لقفاه عكس السجود، كما كانوا في الدنيا، بخلاف ما عليه المؤمنون.

ثم قال تعالى: ﴿**فذرني ومن يكذب بهذا الحديث**﴾ يعني القرآن، وهذا تهديد شديد أي دعني وإياه، أنا أعلم به كيف أستدرجه وأمده في غيه وأنظره، ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر، ولهذا قال: ﴿**سنستدرجهم من حيث لا يعلمون**﴾ أي وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة، وهو في نفس الأمر إهانة، كما قال: ﴿**أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون**﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، وقال: ﴿**فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون**﴾ [الأنعام: ٤٤]. ولهذا قال ههنا: ﴿**وأملي لهم إن كيدي متين**﴾ أي وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم، وذلك من كيدي ومكري بهم، ولهذا قال تعالى: ﴿**إن كيدي متين**﴾ أي عظيم لمن خالف أمري وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي.

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ليُمْلي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلِته». ثم قرأ: ﴿**وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد**﴾ [هود: ١٠٢]. وقوله: ﴿**أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون. أم عندهم الغيب فهم يكتبون**﴾ تقدم تفسيرهما في سورة الطور [آية: ٤٠-٤١]. والمعنى في ذلك أنك يا محمد تدعوهم إلى الله عز وجل بلا أجر تأخذه منهم، بل ترجو ثواب ذلك عند الله، وهم يكذبون بما جئتهم به بمجرد الجهل والكفر والعناد.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿فاصبر﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم، فإن الله سيحكم لك عليهم، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ يعني ذا النون وهو يونس بن متى عليه السلام حين ذهب مُغَاضِباً على قومه، فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر والتقام الحوت له، وشرود الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلي القدير، الذي لا يُرَدّ ما أنفذه من التقدير، فحينئذ نادى في الظلمات: ﴿أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ [الأنبياء:٨٧]. قال الله: ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾ [الأنبياء:٨٨]، وقال تعالى: ﴿فلولا أنه كان من المسبحين * للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ [الصافات:١٤٣ـ١٤٤] وقال ههنا: ﴿إذ نادى وهو مكظوم﴾ قال ابن عباس ومجاهد والسدي: مغموم. وقال عطاء الخراساني وأبو مالك: مكروب. قال تعالى: ﴿فاجتباه ربه فجعله من الصالحين﴾.

وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى». ورواه البخاري. وقوله: ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: ﴿ليزلقونك﴾ لَيَنْفُذونك بأبصارهم، أي لَيَعِينُونك بأبصارهم، بمعنى يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك، وحمايته إياك منهم. وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة. روى أبو داود عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا رقية إلا من عين أو حُمة». ورواه ابن ماجه عن بريدة بن الحصيب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا رقية إلا من عين أو حمة» [حسن بما قبله]. وقد أخرجه مسلم في صحيحه عن بريدة موقوفاً وفيه قصة، وروى هذا الحديث الإمام البخاري عن عمران بن حصين موقوفاً.

روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين وإذا اغتسلتم فاغسلوا». وروى عبد الرزاق عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين يقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامَّة، ومن كل عين لامَّة». ويقول هكذا كان إبراهيم يعوذ إسحاق وإسماعيل عليهما السلام أخرجه البخاري.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن العين حق» أخرجاه.

وقوله تعالى: ﴿ويقولون إنه لمجنون﴾ أي يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بألسنتهم، ويقولون إنه لمجنون أي لمجيئه بالقرآن، قال الله تعالى: ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾.

تفسير سورة الحاقة وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا

عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

الحاقةُ من أسماء يوم القيامة، لأن فيها يتحققُ الوَعدُ والوَعيد، ولهذا عظَّم الله أمرها فقال: ﴿**وما أدراك ما الحاقة**﴾ ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال تعالى: ﴿**فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية**﴾ وهي الصيحة التي أسكتتهم، والزلزلة التي أسكنتهم، هكذا قال قتادة: الطاغية: الصيحة، وهو اختيار ابن جرير، وقال مجاهد: **الطاغية**: الذنوب، وكذا قال الربيع بن أنس وابن زيد: إنها الطغيان وقرأ ابن زيد: ﴿**كذبت ثمود بطغواها**﴾ [الشمس: ١١]. وقال السدي: ﴿**فأهلكوا بالطاغية**﴾ قال: يعني عاقر الناقة. ﴿**وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر**﴾ أي باردة قال قتادة والسدي والربيع بن أنس والثوري: ﴿**عاتية**﴾ أي شديدة الهبوب، قال قتادة: عتت عليهم حتى نقَّبت عن أفئدتهم. وقال الضحاك: ﴿**صرصر**﴾ باردة ﴿**عاتية**﴾ عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة، وقال علي وغيره: عتت على الخزنة فخرجت بغير حساب.

﴿**سخرها عليهم**﴾ أي سلطها عليهم ﴿**سبع ليال وثمانية أيام حسوماً**﴾ أي كوامل متتابعات مشائيم. قال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة والثوري وغير واحد: حسوماً: متتابعات، وعن عكرمة والربيع: مشائيم عليهم، كقوله: ﴿**في أيام نحسات**﴾ [فصلت: ١٦]. قال ابن عباس: ﴿**خاوية**﴾ خربة. وقال غيره: بالية أي جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتاً على أم رأسه، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان. وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأهلكَت عادٌ بالدَّبور». ﴿**فهل ترى لهم من باقية**﴾ أي هل تحس منهم من أحد من بقاياهم، أو ممن ينتسب إليهم بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفاً.

ثم قال تعالى: ﴿**وجاء فرعون ومن قبله**﴾ قُرِىء بكسر القاف، أي ومن عنده ممن في زمانه من أتباعه من كفار القبط، وقرأ آخرون بفتحها أي ومن قبله من الأمم المشبهين له. وقوله: ﴿**والمؤتفكات**﴾ وهم المكذبون بالرسل. ﴿**بالخاطئة**﴾ بالفعلة الخاطئة، وهي التكذيب بما أنزل الله. قال الربيع: أي بالمعصية، وقال مجاهد: بالخطايا، ولهذا قال: ﴿**فعصوا رسول ربهم**﴾ وهذا جنس، أي كلٌّ كذَّب رسول الله إليهم، كما قال: ﴿**كل كذب الرسل فحق وعيد**﴾ [ق: ١٤]. ومن كذب برسول فقد كذب بالجميع، كما قال: ﴿**كذبت قوم نوح المرسلين**﴾ [الشعراء: ١٠٥]، ﴿**كذبت عاد المرسلين**﴾ [الشعراء: ١٢٣]، ﴿**كذبت ثمود المرسلين**﴾ [الشعراء: ١٤١]. وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد، ولهذا قال ههنا: ﴿**فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية**﴾ أي عظيمة شديدة أليمة، قال مجاهد: رابية: شديدة، وقال السدي: مهلكة.

ثم قال تعالى: ﴿**إنا لما طغا الماء**﴾ أي زاد على الحد بإذن الله وارتفع على الوجود. قال ابن عباس وغيره: طغى الماء: كثر، وذلك بسبب دعوة نوح عليه السلام على قومه حين كذبوه وخالفوه، فعبدوا غير الله فاستجاب الله له وعَمّ أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح في السفينة فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته. وعن علي بن أبي طالب قال: لم تنزل قطرة من ماء إلا بكيل على يدي ملك، فلما كان يوم نوح أذن للماء دون الخزان، فطغى الماء على الخزان، فخرج فذلك قوله تعالى: ﴿**إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية**﴾ ولم ينزل شيء من الريح إلا بكيل على يدي ملك، إلا يوم عاد فإنه أذن لها دون الخزان فخرجت، فذلك قوله: ﴿**بريح صرصر عاتية**﴾ عتت على الخزان، ولهذا قال تعالى ممتناً على الناس: ﴿**إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية**﴾ وهي السفينة الجارية على وجه الماء ﴿**لنجعلها لكم تذكرة**﴾ عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه، أي وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار كما قال: ﴿**وآية لهم أنّا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون**﴾ [يس: ٤١-٤٢]. وقال قتادة: أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة، والأول أظهر ولهذا قال تعالى: ﴿**وتعيها أذن واعية**﴾ أي وتفهم هذه النعمة وتذكرها أذن واعية، قال ابن عباس: حافظة سامعة. وقال قتادة: عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله، وقال الضحاك: سمعتها أذن ووعت أي من له سمع صحيح وعقل رجيح، وهذا عام فيمن فهم ووعى.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن أهوال يوم القيامة، وأول ذلك نفخة الفزع، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يُصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور، وهي هذه النفخة، وقد أكدها ههنا بأنها واحدة لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد، وقال الربيع: هي النفخة الأخيرة والظاهر ما قلناه، ولهذا قال ههنا: ﴿**وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة**﴾ أي فمدت وتبدلت الأرض غير الأرض ﴿**فيومئذ وقعت الواقعة**﴾ أي قامت القيامة. ﴿**وانشقت السماء فهي يومئذ واهية**﴾ عن علي قال: تنشق السماء من المجرة. وقال ابن جريج: هي كقوله ﴿**وفتحت السماء فكانت أبواباً**﴾ [النبأ: ١٩]. وقال ابن عباس: منخرقة، والعرش بحذائها. ﴿**والملك على أرجائها**﴾ **الملك** اسم جنس أي الملائكة على أرجاء السماء، قال ابن عباس: على ما لم يهِ منها. أي حافاتها، وكذا قال سعيد بن جبير والأوزاعي، وقال الضحاك: أطرافها، وقال الحسن البصري: أبوابها، وقال الربيع بن أنس: **على** ما استدق من السماء ينظرون إلى أهل الأرض.

وقوله: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ أي يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة. ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العرش العظيم، أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء، والله أعلم بالصواب. وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال: حملة العرش ثمانية ما بين مُوق أحدهم إلى مؤخر عينه مسيرة مائة عام. وروى ابن أبي حاتم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أذنَ لي أن أحدثكم عن ملك من حَمَلة العرش بعد ما بين شحمة أذنه وعنقه بخفق الطير سبعمائة عام». وهذا إسناده جيد رجاله كلهم ثقات، وقد رواه أبو داود في كتاب السنة.

وعن سعيد بن جبير: قال: ثمانية صفوف من الملائكة. قال: ورُوي عن الشعبي وعكرمة والضحاك وابن جريج مثل ذلك، وكذا روي عن ابن عباس: ثمانية صفوف. وعن ابن عباس: الكَرُوبيّون ثمانية أجزاء، كل جزء منهم بعدة الإنس والجن والشياطين والملائكة. وقوله: ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ أي تعرضون على عالم السر والنجوى الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر، ولهذا قال: ﴿لا تخفى منكم خافية﴾. وروى ابن أبي الدنيا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن تُوزَنوا، فإنه أخف عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتَزَيّنُوا للعرض الأكبر ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾.

وقد روى ابن جرير عن عبد الله قال: يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: عرضتان معاذير وخصومات، والعرضة الثالثة تطير الصحف في الأيدي.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن سعادة من أوتي كتابه يوم القيامة بيمينه وفرحه بذلك، وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه: ﴿هاؤم اقرءوا كتابيه﴾ أي خذوا اقرؤوا، كتابيه لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محضة، لأنه ممن بَدل الله سيئاته حسنات. قال عبد الرحمن بن زيد: معنى ﴿هاؤم اقرءوا كتابيه﴾ أي: ها اقرؤوا كتابيه، و«ؤم» زائدة كذا قال، والظاهر أنها بمعنى: هاكم.

وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي عثمان قال: المؤمن يعطى كتابه بيمينه في ستر من الله، فيقرأ سيئاته، فكلما قرأ سيئةً تغير لونه حتى يمر بحسناته فيقرؤها فيرجع إليه لونه، ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات، قال: فعند ذلك يقول: هاؤم اقرؤوا كتابيه.

وفي الصحيح عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدني الله العبد يوم القيامة، فيُقَرِّره بذنوبه كلها، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله: إني سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين». وقوله: ﴿إني ظننت أني ملاق حسابيه﴾ أي

قد كنت موقناً في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة، كما قال: ﴿**الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم**﴾ [البقرة:٤٦]. قال الله: ﴿**فهو في عيشة راضية**﴾ أي مرضية، ﴿**في جنة عالية**﴾ أي رفيعة قصورها، حسان حورها، نعيمة دورها، دائم حبورها.

وقد ثبت في الصحيح: «إن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض». وقوله: ﴿**قطوفها دانية**﴾ قال البراء بن عازب: أي قريبة يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره، وكذا قال غير واحد.

وقوله: ﴿**كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية**﴾ أي يقال لهم ذلك تفضلاً عليهم وامتناناً وإنعاماً وإحساناً، وإلا فقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحداً منكم لن يدخلَه عملُه الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ (٢٧) مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ (٣٧) ﴾.

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطي أحدهم كتابه في العرصات بشماله، فحينئذ يندم غاية الندم ﴿**فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * يا ليتها كانت القاضية**﴾ قال الضحاك: يعني موتة لاحياة بعدها. وكذا قال محمد بن كعب والربيع والسدي، وقال قتادة: تمنى الموت ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه. ﴿**ما أغنى عني ماليه * هلك عني سلطانيه**﴾ أي لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه، بل خَلَص الأمر إلي وحدي، فلا معين لي ولا مجير، فعندها يقول الله عز وجل: ﴿**خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه**﴾ أي يأمر الزبانية أن تأخذه عنفاً من المحشر، فتغُله، أي تضع الأغلال في عنقه ثم تُورده إلى جهنم فتصليه إياها، أي تغمره فيها. وعن المنهال بن عمرو قال: إذا قال الله تعالى: خذوه ابتدره سبعون ألف ملك، إن الملك منهم ليقول هكذا، فيلقي سبعين ألفاً في النار. وروى ابن أبي الدنيا في الأهوال: أنه يبتدره أربعمائة ألف، ولا يبقى شيء إلا دقَه، فيقول: ما لي ولك ؟ فيقول: إن الرب عليك غضبان فكل شيء غضبان عليك، وقال الفضيل بن عياض: إذا قال الرب عز وجل: خذوه فغلوه ابتدره سبعون ألف ملك، أيهم يجعل الغل في عنقه. ﴿**ثم الجحيم صلوه**﴾ أي اغمروه فيها.

وقوله: ﴿**ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه**﴾ قال كعب الأحبار: كل حلقة منها قدر حديد الدنيا، وعن ابن عباس: بذراع الملك. [وعنه]: ﴿**فاسلكوه**﴾ تدخل في استه ثم تخرج من فيه ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود حين يشوى. و[عنه]: يسلك في دبره

حتى يخرج من منخريه حتى لا يقوم على رجليه.

وقوله: ﴿إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين﴾ أي لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته، ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم، فإن لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والمعاونة على البر والتقوى، ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وقبض النبي ﷺ وهو يقول: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» [جاء من حديث جماعة من الصحابة في المسند والسنن]. وقوله: ﴿فليس له اليوم ههنا حميم * ولا طعام إلا من غسلين * لا يأكله إلا الخاطئون﴾ أي ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله، لا حميم وهو القريب، ولا شفيع يطاع، ولا طعام له ههنا إلا من غسلين، قال قتادة: هو شر طعام أهل النار. وقال الربيع والضحاك: هو شجرة في جهنم. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ما أدري ما الغسلين، ولكني أظنه الزقوم. وعن ابن عباس [أيضا] قال: الغسلين: الدم والماء يسيل من لحومهم.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مُقسماً لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم: إن القرآن كلامه ووحيه وتنزيلُه على عبده ورسوله، الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، فقال: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون * إنه لقول رسول كريم﴾ يعني محمداً ﷺ، أضافه إليه على معنى التبليغ، لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل، ولهذا أضافه في سورة التكوير إلى الرسول الملكي ﴿إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين﴾ وهذا جبريل عليه السلام. ثم قال تعالى: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾ يعني أن محمداً ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، ﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ أي بمتهم ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ [التكوير: ١٩-٢٥]، وهكذا قال ههنا: ﴿وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون. ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون﴾ فأضافه الله تارة إلى قول الرسول الملكي وتارة إلى الرسول البشري، لأن كلاً منهما مبلغ عن الله ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه، ولهذا قال: ﴿تنزيل من رب العالمين﴾.

﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ولو تقول علينا﴾ أي محمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفترياً علينا، فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا، وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة.

ولهذا قال: ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ قيل: معناه لانتقمنا منه باليمين لأنها أشد في البطش، وقيل: لأخذنا منه بيمينه. ﴿ثم لقطعنا منه الوتين﴾ قال ابن عباس: وهو نياط القلب، وهو العِرْقُ الذي القلب معلق فيه. وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والحكم وقتادة [وغيرهم]. وقال محمد بن كعب: هو القلب ومَرَاقُّه وما يليه. وقوله: ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ أي فما يقدر أحد منكم أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئاً من ذلك. والمعنى في هذا: بل هو صادق بار راشد لأن الله عز وجل مقرر له ما يبلغه عنه، مؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات.

ثم قال: ﴿وإنه لتذكرة للمتقين﴾ يعني القرآن كما قال: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى﴾ [فصلت: ٤٤]. ثم قال: ﴿وإنا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ أي مع هذا البيان والوضوح، سيوجد منكم من يكذب بالقرآن. ثم قال: ﴿وإنه لحسرة على الكافرين﴾ قال ابن جرير: وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة. وحكاه عن قتادة بمثله. وعن أبي مالك: ﴿وإنه لحسرة على الكافرين﴾ يقول: لَندامة. ويحتمل عود الضمير على القرآن، أي وإن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين، كما قال: ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به﴾ [الشعراء: ٢٠٠-٢٠١]، ولهذا قال ههنا: ﴿وإنه لحق اليقين﴾ أي الخبر الصادق الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب. ثم قال: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي الذي أنزل هذا القرآن العظيم.

تفسير سورة المعارج وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ ﴾.

﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ فيه تضمين دل عليه حرف الباء كأنه مُقَدّر: استعجل سائل بعذاب واقع. كقوله: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده﴾ [الحج: ٤٧]، أي وعذابه واقع لا محالة. عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ قال: النضر بن الحارث بن كلدة، وعنه [أيضا] قال: ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع، وعن مجاهد قال: دعا داع بعذاب واقع يقع في الآخرة، قال: وهو قولهم ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقوله: ﴿واقع. للكافرين﴾ أي مُرصد مُعَدّ للكافرين، وقال ابن عباس: واقع: جَاءٍ ﴿ليس له دافع﴾ أي لا دافع له إذا أراد الله كونه، ولهذا قال: ﴿من الله ذي المعارج﴾ عن ابن عباس قال: ذو الدرجات، وعنه [أيضا]: يعني العلو والفواضل، وقال مجاهد: معارج السماء، وقال قتادة: ذي الفواضل والنعم. وقوله: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾ عن قتادة: تعرج: تصعد،

وأما الروح فقال أبو صالح: هم خلق من خلق الله. يشبهون الناس وليسوا ناساً. قلت: ويحتمل أن يكون المراد به جبريل، ويكون من باب عطف الخاص على العام، ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم، فإنها إذا قبضت يُصعد بها إلى السماء، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن البراء مرفوعاً الحديث بطوله في قبض الروح الطيبة قال فيه: «فلا يزال يصعد بها من سماء إلى سماء حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة». [وهو حسن]، وله شاهد في حديث أبي هريرة من رواية الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وإسناده رجاله على شرط الجماعة، وقد بسطنا لفظه عند قوله تعالى: **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾** [إبراهيم: ٢٧].

وقوله: **﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾** فيه أربعة أقوال:

أحدها: أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين، وهو قرار الأرض السابعة، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة، هذا ارتفاع العرش عن المركز الذي في وسط الأرض السابعة. وعن ابن عباس قال: منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السموات مقدار خمسين ألف سنة، ويوم كان مقداره ألف سنة. يعني بذلك: تَنَزُّل الأمر من السماء إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، فذلك مقداره ألف سنة، لأن ما بين السماء والأرض مقدار مسيرة خمسمائة سنة.

القول الثاني: أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة، وعن مجاهد قال: الدنيا عمرها خمسون ألف سنة، وذلك عمرها يوم سماها الله عز وجل يوم، **﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم﴾** قال: اليوم الدنيا، وعن عكرمة قال: الدنيا من أولها إلى آخرها مقدار خمسين ألف سنة لا يدري أحدٌ كم مضى، ولا كم بقي إلا الله عز وجل.

القول الثالث: أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة، وهو قول غريب جداً. عن محمد بن كعب قال: هو يوم الفصل بين الدنيا والآخرة.

القول الرابع: أن المراد بذلك يوم القيامة. عن ابن عباس قال: يوم القيامة. وإسناده صحيح، وكذا قال الضحاك وابن زيد. وقال ابن عباس: فهذا يوم القيامة جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه إلا جعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم، فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار». وذكر بقية الحديث في الغنم والإبل، وفيه: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر» ورواه مسلم في صحيحه بتمامه، والغرض من إيراده ههنا

قوله: «حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة». وقد روى ابن جرير أن ابن عباس [سئل] عن قوله ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ فقال: هما يومان ذكرهما الله، والله أعلم بهما وأكره أن أقول في كتاب الله بما لا أعلم.

وقوله: ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾ أي اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه، كقوله: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾ [الشورى:١٨] قال: ﴿إنهم يرونه بعيداً﴾ أي وقوع العذاب وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع، بمعنى مستحيل الوقوع، ﴿ونراه قريباً﴾ أي المؤمنون يعتقدون كونه قريباً، ، وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله عز وجل، لكن كل ما هوآت فهو قريب وواقع لا محالة.

﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾.

يقول تعالى العذاب واقع بالكافرين: ﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وغير واحد: أي كدرديّ الزيت، ﴿وتكون الجبال كالعهن﴾ أي كالصوف المنفوش، قاله مجاهد وقتادة و السدي، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ [القارعة:٥]. وقوله: ﴿ولا يسأل حميم حميماً. يبصرونهم﴾ أي لا يسأل القريب قريبه عن حاله، وهو يراه في أسوأ الأحوال فتشغله نفسه عن غيره. قال ابن عباس: يعرف بعضهم بعضاً، ويتعارفون بينهم، ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك، يقول الله تعالى: ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ وهذه الآية الكريمة كقوله: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق﴾ [لقمان:٣٣].

وقوله: ﴿يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التي تؤويه * ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه * كلا﴾ أي لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض، وبأعز ما يجده من المال ولو بملء الأرض ذهباً، أو من ولده الذي كان في الدنيا حُشَاشَة كبده، يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدي من عذاب الله به ولا يقبل منه. قال مجاهد والسدي: ﴿فصيلته﴾ قبيلته وعشيرته، وقال عكرمة: فخذه الذي هو منهم، وقال مالك: فصيلته: أمه. وقوله: ﴿إنها لظى﴾ يصف النار وشدة حرها ﴿نزاعة للشوى﴾ قال ابن عباس ومجاهد: جلدة الرأس، وعن ابن عباس: ﴿نزاعة للشوى﴾ الجلود والهام، وقال مجاهد: ما دون العظم من اللحم، وقال سعيد بن جبير: العصب. وقال أبو صالح: يعني أطراف اليدين والرجلين. وقال أيضاً: نزاعة لحم الساقين، وقال الحسن البصري وثابت البناني: أي مكارم

وجهه، وقال الحسن أيضاً: تحرق كل شيء فيه ويبقى فؤاده يصيح. وقال قتادة: نزاعة لهامته ومكارم وجهه وخَلْقه وأطرافه. وقال الضحاك: تبري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئاً، وقال ابن زيد: الشوى: الآراب العظام، فقوله نزاعة، قال: تقطع عظامهم ثم يجدد جلودهم وخلقهم.

وقوله: ﴿**تدعو من أدبر وتولى * وجمع فأوعى**﴾ أي تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، وقدر لهم أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طَلق ذَلِق، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطيرُ الحبَّ، وذلك أنهم كما قال الله عز وجل: كانوا ممن أدبر وتولى أي كذب بقلبه وترك العمل بجوارحه ﴿**وجمع فأوعى**﴾ أي جمع المال بعضه على بعض فأوعاه أي أوكاه ومنع حق الله منه من الواجب عليه في النفقات ومن إخراج الزكاة، وقد ورد في الحديث: «لا توعي فَيُوعيَ الله عليك» [متفق عليه]. وكان عبد الله بن عُكيم لا يربط كيساً ويقول: سمعت الله يقول: ﴿**وجمع فأوعى**﴾. وقال الحسن البصري: يا ابن آدم سمعتَ وعيدَ الله ثم أوعيتَ الدنيا. وقال قتادة: كان جَمُوعاً قَمُوماً للخبيث.

﴿ ۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة ﴿**إن الإنسان خلق هلوعاً**﴾ ثم فسره بقوله: ﴿**إذا مسه الشر جزوعاً**﴾ أي إذا مسه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير ﴿**وإذا مسه الخير منوعاً**﴾ أي إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره، ومنع حق الله فيها. وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «شر ما في رجل: شُحٌّ هالع وجبن خالع» ورواه أبو داود [وسنده حسن].

ثم قال: ﴿**إلا المصلين**﴾ أي الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم، إلا من عصمه الله ووفقه، وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه، وهم المصلون ﴿**الذين هم على صلاتهم دائمون**﴾ قيل: معناه يحافظون على أوقاتها وواجباتها، قاله ابن مسعود ومسروق وإبراهيم النخعي، وقيل: المراد بالدوام ههنا السكون والخشوع، كقوله: ﴿**قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾ [المؤمنون: ١-٢]. قاله عقبة بن عامر. ومنه الماء الدائم، أي الساكن الراكد. وقيل: المراد بذلك الذين إذا عملوا عملاً داوموا عليه وأثبتوه، كما جاء في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل».

وفي لفظ: «ما داوم عليه صاحبه»، قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً داوم عليه، وفي لفظ أثبته [متفق عليه]، وقال قتادة: ذُكر لنا أن دانيال عليه السلام نعت أمة محمد ﷺ فقال: يصلون صلاة لو صلاَّها قوم نوح ما غرقوا، أو قوم عاد ما أرسلت عليهم الريح العقيم، أو ثمود ما أخذتهم الصيحة، فعليكم بالصلاة فإنها خُلُقٌ للمؤمنين حسن.

وقوله: ﴿**والذين في أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم**﴾ أي في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات، وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الذاريات [الآية: ١٩]. وقوله: ﴿**والذين يصدقون بيوم الدين**﴾ أي يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب. ولهذا قال: ﴿**والذين هم من عذاب ربهم مشفقون**﴾ أي خائفون وجلون ﴿**إن عذاب ربهم غير مأمون**﴾ أي لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى. وقوله: ﴿**والذين هم لفروجهم حافظون**﴾ أي يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه ولهذا قال: ﴿**إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم**﴾ أي من الإماء ﴿**فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون**﴾ وقد تقدم تفسير هذا في أول سورة ﴿**قد أفلح المؤمنون**﴾ [٥-٧] بما أغنى عن إعادته ههنا. وقوله: ﴿**والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون**﴾ أي إذا اؤتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا. وهذه صفات المؤمنين وضدها صفات المنافقين، كما ورد في الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان». وفي رواية: «إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». [متفق عليه]. وقوله: ﴿**والذين هم بشهاداتهم قائمون**﴾ أي محافظون عليها لا يزيدون فيها، ولا ينقصون منها ولا يكتمونها ﴿**ومن يكتمها فإنه آثم قلبه**﴾ [البقرة: ٢٨٣].

ثم قال: ﴿**والذين هم على صلاتهم يحافظون**﴾ أي على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها، كما تقدم في أول سورة ﴿**قد أفلح المؤمنون**﴾ سواء، ولهذا قال هناك: ﴿**أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون**﴾ [المؤمنون: ١٠-١١]، وقال ههنا: ﴿**أولئك في جنات مكرمون**﴾ أي مكرمون بأنواع الملاذ والمسار.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

يقول تعالى منكراً على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وهم مشاهدون له، ولما أرسله الله به من الهدى وما أيده الله به من المعجزات الباهرات، ثم هم مع هذاكله فارون منه

متفرقون عنه، شاردون يميناً وشمالاً فِرَقاً فِرقاً، وشيعاً شيعاً، كما قال تعالى: ﴿**فما لهم عن التذكرة معرضين * كأنهم حمر مستنفرة * فرت من قسورة**﴾ [المدثر: ٤٩ـ٥١] وهذه مثلها فإنه قال تعالى: ﴿**فما للذين كفروا قبلك**﴾ أي فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد ﴿**مهطعين**﴾ أي مسرعين نافرين منك، كما قال الحسن البصري: مهطعين أي منطلقين، ﴿**عن اليمين وعن الشمال عزين**﴾ واحدها عِزَةٌ، أي متفرقين، وهو حال من مهطعين، أي في حال تفرقهم واختلافهم كما قال الإمام أحمد في أهل الأهواء: فهم مخالفون للكتاب، مختلفون في الكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب. وعن ابن عباس: ﴿**فما للذين كفروا قبلك مهطعين**﴾ قال: قبلك ينظرون، ﴿**عن اليمين وعن الشمال عزين**﴾ قال: العزين العُصَب من الناس، عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به، وعن الحسن قال: متفرقين يأخذون يميناً وشمالاً يقولون: ما قال هذا الرجل؟

وقال قتادة: ﴿**مهطعين**﴾ عامدين ﴿**عن اليمين وعن الشمال عزين**﴾ أي فِرَقاً حول النبي ﷺ لا يرغبون في كتاب الله ولا في نبيه ﷺ.

وقوله: ﴿**أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم * كلا**﴾ أي: أيطمع هؤلاء ـ والحالة هذه ـ من فرارهم عن رسول الله ﷺ ونفارهم عن الحق أن يدخلوا جنات النعيم؟ كلا بل مأواهم جهنم. ثم قال تعالى مقرراً لوقوع المعاد والعذاب بهم الذي أنكروا كونه واستبعدوا وجوده، مستدلاً عليهم بالبداءة التي الإعادة أهون منها، وهم معترفون بها، فقال: ﴿**إنا خلقناهم مما يعلمون**﴾ أي من المني الضعيف، كما قال: ﴿**ألم نخلقكم من ماء مهين**﴾ [المرسلات: ٢٠].

ثم قال: ﴿**فلا أقسم برب المشارق والمغارب**﴾ أي الذي خلق السموات والأرض، وجعل مشرقاً ومغرباً، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها. وتقدير الكلام: ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب، ولا بعث ولا نشور، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة، ولهذا أتى بـ «لا» في ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفي، وهو مضمون الكلام وهو الرد على زعمهم الفاسد في نفي يوم القيامة. وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة، وهو خلق السموات والأرض وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات وسائر صنوف الموجودات، ولهذا قال تعالى: ﴿**أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير**﴾ [الأحقاف: ٣٣]. وقال ههنا: ﴿**فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم**﴾ أي يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه، فإن قدرته صالحة لذلك، ﴿**وما نحن بمسبوقين**﴾ أي بعاجزين، كما قال تعالى: ﴿**نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين * على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون**﴾ [الواقعة: ٦٠ـ٦١].

واختار ابن جرير ﴿على أن نبدل خيراً منهم﴾ أي: أمة تطيعنا ولا تعصينا وجعلها، كقوله: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [محمد:٣٨]. والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿فذرهم﴾ أي يا محمد ﴿يخوضوا ويلعبوا﴾ أي دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ أي فسيعلمون غب ذلك ويذوقون وباله، ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ أي: يقومون من القبور إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب ينهضون سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: إلى عَلَم يسعون، وقال أبو العالية ويحيى بن أبي كثير: إلى غاية يسعون إليها. وقد قرأ الجمهور: «نَصْب» بفتح النون وإسكان الصاد وهو مصدر بمعنى المنصوب، وقرأ غيرهم: «نُصُب» بضم النون والصاد وهو الصنم، أي كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه، يوفضون يبتدرون أيهم يستلمه أول. وهذا مروي عن مجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم. وقوله تعالى: ﴿خاشعة أبصارهم﴾ أي خاضعة ﴿ترهقهم ذلة﴾ أي في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون﴾.

تفسير سورة نوح وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أرسله إلى قومه آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم. ولهذا قال: ﴿أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم * قال يا قوم إني لكم نذير مبين﴾ أي بَيِّنُ النَذارة، ظاهر الأمر واضحه، ﴿أن اعبدوا الله واتقوه﴾، أي اتركوا محارمه ﴿وأطيعون﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه. ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ أي إذا فعلتم ما آمركم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم، غفر الله لكم ذنوبكم، و«من» ههنا قيل: إنها زائدة. ولكن زيادتها في الإثبات قليلة، ومنه قول بعض العرب: «قد كان من مطر». وقيل: إنها بمعنى «عن»، تقديره: يصفح لكم عن ذنوبكم، واختاره ابن جرير. وقيل: إنها للتبعيض، أي يغفر لكم الذنوب العظام التي وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام.

﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ أي يمد في أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تجتنبوا ما نهاكم عنه أوقعه بكم. وقد يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزاد بها في العمر حقيقة، كما ورد به الحديث: «صلة الرحم تزيد في العمر» [رواه الطبراني في الأوسط وهو صحيح بطرقه وشواهده]. وقوله: ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم

تعلمون﴾ أي بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة، فإنه إذا أمر تعالى بكون ذلك لا يرد ولا يمانع، فإنه العظيم الذي قد قهر كل شيء، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام، أنه اشتكى إلى ربه عز وجل ما لقي من قومه، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاماً، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم، فقال: **﴿رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً﴾** أي لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار امتثالاً لأمرك وابتغاءً لطاعتك **﴿فلم يزدهم دعائي إلا فراراً﴾** أي كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فَروا منه وحَادُوا عنه، **﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم﴾** أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه. كما أخبر تعالى عن كفار قريش: **﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾** [فصلت:٢٦]. **﴿واستغشوا ثيابهم﴾** عن ابن عباس: تنكروا له لئلا يعرفهم. وقال سعيد بن جبير والسدي: غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول. **﴿وأصروا﴾** أي استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع **﴿واستكبروا استكباراً﴾** أي واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له **﴿ثم إني دعوتهم جهاراً﴾** أي جهرة بين الناس **﴿ثم إني أعلنت لهم﴾** أي كلاماً ظاهراً بصوت عال، **﴿وأسررت لهم إسراراً﴾** أي فيما بيني وبينهم، فَنوَّع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم **﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً﴾** أي ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب عليه، ولو كانت ذنوبه مهما كانت في الكفر والشرك، ولهذا قال: **﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً﴾** أي متواصلة الأمطار، وروي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه صعد المنبر ليستسقي فلم يزد على الاستغفار، وقراءة الآيات في الاستغفار. ومنها هذه الآية: **﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً﴾** ثم قال: لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر. وقال ابن عباس وغيره: يتبع بعضه بعضاً. وقوله: **﴿ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾** أي إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدرَّ لكم الضَّرع، وأمدكم بأموال وبنين أي أعطاكم

الأموال والأولاد وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار وخللها بالأنهار الجارية بينها. هذا مقام الدعوة بالترغيب. ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال: ﴿**ما لكم لا ترجون لله وقاراً**﴾ أي عظمة، قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك. لا تعظمون الله حق عظمته أي لا تخافون من بأسه ونقمته، ﴿**وقد خلقكم أطواراً**﴾ قيل معناه من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة. قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة ويحيى بن رافع والسدي وابن زيد.

وقوله: ﴿**ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً**﴾ أي واحدة فوق واحدة وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط؟ أو هي من الأمور المدركة بالحس مما علم من التسيير والكسوفات. والمقصود أن الله سبحانه وتعالى خلق سبع سموات **طباقاً** وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً أي فاوت بينهما في الاستنارة فجعل كلاً منهما أنموذجاً على حدة، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدر للقمر منازل وبروجاً، وفاوت نوره فتارة يزداد حتى يتناهى ثم يشرع في النقص حتى يستتر ليدل على مضي الشهور والأعوام، كما قال: ﴿**هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون**﴾ [يونس: ٥].

وقوله: ﴿**والله أنبتكم من الأرض نباتاً**﴾ هذا اسم مصدر، والإتيان به ههنا أحسن ﴿**ثم يعيدكم فيها**﴾ أي إذا متم ﴿**ويخرجكم إخراجاً**﴾ **أي** يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة ﴿**والله جعل لكم الأرض بساطاً**﴾ أي بسطها ومهدها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ﴿**لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً**﴾ **أي** خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها، وكل هذا مما ينبههم به نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرازق جعل السماء بناء والأرض مهاداً، وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد، لأنه لا نظير له ولا عديل ولا ندَّ، ولا صاحبة ولا ولد ولا وزير ولا مشير بل هو العلي الكبير.

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام إنه أنهى إليه وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء، أنه مع البيان المتقدم ذكره والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى أنهم عصوه وخالفوه وكذبوه، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غَفَل عن أمر الله، ومُتِّع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام، ولهذا قال: ﴿**واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً**﴾. وقوله: ﴿**ومكروا مكراً كباراً**﴾ قال مجاهد: كباراً أي عظيماً، وقال ابن زيد: أي كبيراً. والعرب تقول: أمر عجيب وعُجَاب وعُجَّاب. بمعنى واحد. والمعنى في قوله: ﴿**ومكروا مكراً**

كباراً﴾ أي بأتباعهم في تسويلهم لهم أنهم على الحق والهدى، كما يقولون لهم يوم القيامة: ﴿بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ [سبأ: ٣٣]. ولهذا قال ههنا: ﴿ومكروا مكراً كباراً. وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾. وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله.

روى البخاري عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد: أما وَد: فكانت لكلب بدَومة الجندل، وأما سواع: فكانت لهذيل، وأما يغوث: فكانت لمراد ثم لبني غُطَيف بالجُرُف عند سبأ، وأما يَعوقُ: فكانت لهمدان، وأما نسر: فكانت لحمير لآل ذي كَلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عُبدت. وكذا روي عن عكرمة والضحاك وقتادة وابن إسحاق نحو هذا.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي جعفر قال: كان وَدٌّ رجلاً مسلماً وكان محبباً في قومه، فلما مات عسكروا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه، فلما رأى إبليس جَزَعهم عليه، تشبه في صورة إنسان، ثم قال: إني أرى جزعكم على هذا الرجل فهل لكم أن أصور لكم مثله، فيكون في ناديكم فتذكرونه؟ قالوا: نعم، فصور لهم مثله، قال: ووضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه، فلما رأى ما بهم من ذكره قال: هل لكم أن أجعل في منزل كل رجل منكم تمثالاً مثله فيكون له في بيته فتذكرونه؟ قالوا: نعم، قال: فمثل لكل أهل بيت تمثالاً مثله، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به، قال: وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به، قال: وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه، حتى اتخذه إلهاً يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم، فكان أول ما عبد من دون الله الصنم الذي سموه وَدّاً.

وقوله: ﴿وقد أضلوا كثيراً﴾ يعني الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقاً كثيراً، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم، وقد قال الخليل عليه السلام في دعائه: ﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام. رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦]. وقوله: ﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً﴾ دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم، وقد استجاب الله له في قومه وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به.

﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿مما خطيئاتهم﴾ أي من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿أغرقوا فأدخلوا ناراً﴾ أي نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار

﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾ أي لم يكن لهم معين ولا مُغيث ولا مُجير ينقذهم من عذاب الله كقوله: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ [هود:٤٣]. ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ أي لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً وهذه من صيغ تأكيد النفي، قال الضحاك: دياراً: واحداً، وقال السدي: الديار الذي يسكن الدار. فاستجاب الله له فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه، وقال: ﴿سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ [هود:٤٣]. ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح عليه السلام وهم الذين أمره الله بحملهم معه.

وقوله: ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك﴾ أي إنك إن أبقيت منهم أحداً أضلوا عبادك، أي الذين تخلقهم بعدهم ﴿ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ أي فاجراً في الأعمال كافر القلب، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً. ثم قال: ﴿رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً﴾ قال الضحاك: يعني مسجدي، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن.

وقوله: ﴿وللمؤمنين والمؤمنات﴾ دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، وذلك يَعُم الأحياءَ منهم والأموات، ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء اقتداء بنوح عليه السلام وبما جاء في الآثار والأدعية المشهورة المشروعة، وقوله: ﴿ولا تزد الظالمين إلا تباراً﴾ قال السدي: إلا هلاكاً، وقال مجاهد: إلا خساراً أي في الدنيا والآخرة.

تفسير سورة الجن وهي مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يخبر قومه: أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له، فقال تعالى: ﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً. يهدي إلى الرشد﴾ أي إلى السداد والنجاح ﴿فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾. وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾ [الأحقاف:٢٩]. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في ذلك بما أغنى عن إعادته ههنا.

وقوله: ﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾ قال ابن عباس: أي فعله وأمره وقدرته. وقال [أيضا]: جد الله آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه. وروي عن مجاهد وعكرمة: جلال ربنا. وقال قتادة:

تعالى جلاله وعظمته وأمره. وقال السدي: تعالى أمر ربنا. وعن أبي الدرداء ومجاهد أيضاً وابن جريج: تعالى ذكره. وقال سعيد بن جبير: أي تعالى ربنا.

وقوله: ﴿**ما اتخذ صاحبة ولا ولداً**﴾ أي تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد، أي قالت الجن: تنزه الرب جل جلاله حين أسلموا وآمنوا بالقرآن عن اتخاذ الصاحبة والولد. ثم قالوا: ﴿**وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً**﴾ قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي: ﴿**سفيهنا**﴾ يعنون إبليس، ﴿**شططاً**﴾ قال أبو مالك: جوراً. وقال ابن زيد: ظلماً كبيراً. ويحتمل أن يكون المراد بقولهم: سفيهنا اسم جنس لكل من زعم أن لله صاحبة أو ولداً، ولهذا قالوا: ﴿**وأنه كان يقول سفيهنا**﴾ أي قبل إسلامه ﴿**على الله شططاً**﴾ أي باطلاً وزوراً، ولهذا قالوا: ﴿**وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً**﴾ أي ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالؤون على الكذب على الله تعالى في نسبة الصاحبة والولد إليه. فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك.

وقوله: ﴿**وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً**﴾ أي كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس لأنهم، كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها ـ كما كانت عادة العرب في جاهليتها ـ يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان، أن يصيبهم بشيء يسوؤهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم، زادوهم رهقاً أي خوفاً وذعراً، حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم، كما قال قتادة ﴿**فزادوهم رهقاً**﴾ أي إثماً وازدادت الجن عليهم جراءة. وقال إبراهيم [النخعي]: نحوه. وقال السدي: كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضر أنا فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي، قال: فإذا عاذ بهم من دون الله رهَقَتهم الجن الأذى عند ذلك.

وعن عكرمة قال: كان الجن يفرقون من الإنس كما يفَرق الإنس منهم أو أشد، فكان الإنس إذا نزلوا وادياً هرب الجن، فيقول سيد القوم نعوذ بسيد أهل هذا الوادي، فقال الجن: نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم. فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخَبَل والجنون، فذلك قول الله عز وجل: ﴿**وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً**﴾. وقال أبو العالية والربيع وزيد بن أسلم: ﴿**رهقاً**﴾ أي خوفاً. وقال ابن عباس: أي إثماً، وكذا قال قتادة وقال مجاهد: زاد الكفار طغياناً.

وروى ابن أبي حاتم عن كَردم بن أبي السائب الأنصاري قال: خرجت مع أبي من المدينة في حاجة، وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة، فآوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم فوثب الراعي فقال: يا عامر الوادي جارك. فنادى مناد لا نراه يقول: يا سِرْحان أرسله. فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة.

وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة: **﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾** سنده حسن. ثم قال: ورُوي عن عبيد بن عمير ومجاهد وأبي العالية والحسن وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي نحوه. وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل، وهو ولد الشاة، جنياً حتى يُرهب الإنسي ويخاف منه، ثم رده عليه لما استجار به ليضله ويهينه، والله أعلم. وقوله: **﴿وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً﴾** أي لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً، قاله الكلبي وابن جرير.

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له أن السماء مُلئَت حرساً شديداً وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك، لئلا يسرقوا شيئاً من القرآن، فيلقوه على ألسنة الكهنة فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق، وهذا من لطف الله تعالى بخلقه، ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز، ولهذا قالت الجن: **﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾** أي من يروم أن يسترق السمع يجد له شهاباً مرصداً له لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يمحقه اليوم ويهلكه. **﴿وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾** أي ما ندري هذا الأمر الذي قد حدث في السماء، لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً، وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله عز وجل. وقد ورد في الصحيح [لمسلم]: «والشر ليس إليك» وقد كانت الكواكب يُرمَى بها قبل ذلك، ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان، كما في حديث ابن عباس [عن رجل من أصحاب النبي ﷺ]: «بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ رمي بنجم فاستنار فقال: «ما كنتم تقولون في هذا؟» فقلنا: كنا نقول يولد عظيم، يموت عظيم فقال: «ليس كذلك، ولكن الله إذا قضى الأمر في السماء» وذكر تمام الحديث. [رواه مسلم]. وهذا هو السبب الذي حَمَلهم على تطلب السبب في ذلك فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حُفظت من أجله السماء، فآمن من آمن منهم، وتمرد في طغيانه من بقي. ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر، وهو كثرة الشهب في السماء والرمي بها، هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له وارتاعوا لذلك، وظنوا أن ذلك لخراب العالم.

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً

غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الجن: إنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم: ﴿**وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك**﴾ أي غير ذلك ﴿**كنا طرائق قدداً**﴾ أي طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أي منا المؤمن ومنا الكافر. وروى أحمد بن سليمان النَّجاد في أماليه عن الأعمش قال: تروح إلينا جني، فقلت له: ما أحب الطعام إليكم؟ فقال: الأرز، قال: فأتيناهم به فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحداً. فقلت: فيكم من هذه الأهواء التي فينا؟ قال: نعم فقلت فما الرافضة فيكم؟ قال: شرنا. عرضت إسناده على شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي فقال: هذا إسناد صحيح إلى الأعمش.

وقوله: ﴿**وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً**﴾ أي نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا، وأنا لا نعجزه في الأرض، ولو أمعنا في الهرب فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا ﴿**وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به**﴾ يفتخرون بذلك، وهو مفتخر لهم، وشرف رفيع وصفة حسنة، وقولهم: ﴿**فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً**﴾ قال ابن عباس وقتادة وغيرهما: فلا يخاف أن يُنقص من حسناته أو يحمل عليه غير سيئاته، كما قال تعالى: ﴿**فلا يخاف ظلماً ولا هضماً**﴾ [طه: ١١٢]. ﴿**وأنّا منا المسلمون، ومنا القاسطون**﴾ أي منا المسلم ومنا القاسط، وهو الجائر عن الحق الناكب عنه، بخلاف المقسط فإنه العادل ﴿**فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً**﴾ أي طلبوا لأنفسهم النجاة ﴿**وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً**﴾ أي وقوداً تُسعر بهم.

وقوله: ﴿**وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً. لنفتنهم فيه**﴾ اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين: **أحدهما**: وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ﴿**لأسقيناهم ماء غدقاً**﴾ أي كثيراً، والمراد بذلك سعة الرزق، كقوله تعالى: ﴿**ولو أنهم أقاموا التوارة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم**﴾ [المائدة: ٦٦]، وكقوله: ﴿**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض**﴾ [الأعراف: ٩٦]. وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿**لنفتنهم فيه**﴾ أي لنختبرهم، كما قال زيد بن أسلم: لنبتليهم، من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية.

قال ابن عباس: ﴿**وأن لو استقاموا على الطريقة**﴾ يعني بالاستقامة: الطاعة. وقال مجاهد: الإسلام. وكذا قال سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وعطاء والسدي ومحمد بن كعب القرظي. وقال قتادة: لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا. وقال مجاهد: طريقة الحق. وكذا قال الضحاك واستشهد على ذلك بالآيتين اللتين ذكرناهما، وكل هؤلاء أو أكثرهم قالوا في قوله: ﴿**لنفتنهم فيه**﴾ أي لنبتليهم به. وقال مقاتل: نزلت في كفار قريش حين مُنعوا المطر سبع سنين.

والقول الثاني: ﴿**وأن لو استقاموا على الطريقة**﴾ الضلال ﴿**لأسقيناهم ماء غدقاً**﴾ أي لأوسعنا

عليهم الرزق استدراجاً، كما قال: ﴿**فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون**﴾ [الأنعام: ٤٤]، وكقوله: ﴿**أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون**﴾ [المؤمنون: ٥٥ـ٥٦]، وهذا قول أبي مِجلز لاحِق بن حُمَيد، فإنه قال في قوله: ﴿**وأن لو استقاموا على الطريقة**﴾ أي طريقة الضلالة. وحكاه البغوي عن الربيع بن أنس وزيد بن أسلم والكلبي وابن كيسان وله اتجاه، ويتأيد بقوله: لنفتنهم فيه. وقوله: ﴿**ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً**﴾ أي عذاباً شاقاً شديداً موجعاً مؤلماً، قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وابن زيد: ﴿**عذاباً صعداً**﴾ أي مشقة لا راحة معها، وعن ابن عباس: جبل في جهنم، وعن سعيد بن جبير: بئر فيها.

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً عباده أن يوحدوه في محال عبادته، ولا يُدْعى معه أحد ولا يشرك به، كما قال قتادة في قوله: ﴿**وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً**﴾ قال: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعِهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده. وعن ابن عباس قال: لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ومسجد إيليا بيت المقدس.

وعن عكرمة: نزلت في المساجد كلها، وقال سعيد بن جبير: نزلت في أعضاء السجود، أي هي لله فلا تسجدوا بها لغيره. وذكروا عند هذا القول الحديث الصحيح من رواية ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة ـ أشار بيديه إلى أنفه ـ واليدين والركبتين وأطراف القدمين**». [متفق عليه]. وقوله: ﴿**وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً**﴾ قال ابن عابس: لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن كادوا يركبونه من الحرص، لما سمعوه يتلو القرآن ودنوا منه، فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه: ﴿**قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن**﴾ يستمعون القرآن. هذا قول، وهو مروي عن الزبير بن العوام رضي الله عنه، وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: لما رأوه يصلي وأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده، قال: عجبوا من طواعية أصحابه له قال: فقالوا لقومهم: ﴿**لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً**﴾ وهذا قول ثان، وهو مروي عن سعيد بن جبير أيضاً. وقال الحسن: لما قام رسول الله ﷺ يقول: لا إله إلا الله ويدعو الناس إلى ربهم كادتَ العرب تَلبُد عليه جميعاً. وقال قتادة: تَلَبَّدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه، فأبى الله إلا أن ينصره ويُمضيه ويظهره على من ناوأه. وهذا قول ثالث، وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقول ابن زيد، وهو اختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله بعده: ﴿**قل إنما**

أدعو ربي ولا أشرك به أحداً﴾ أي قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته: ﴿إنما أدعوا ربي﴾ أي إنما أعبد ربي وحده لا شريك له وأستجير به وأتوكل عليه ﴿ولا أشرك به أحداً﴾. وقوله: ﴿قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً﴾ أي إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي وعبد من عباد الله ليس إلي من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كله إلى الله عز وجل. ثم أخبر عن نفسه أيضاً أنه لا يجيره من الله أحد، أي لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذي من عذابه، ﴿ولن أجد من دونه ملتحداً﴾ قال مجاهد وقتادة والسدي: لا ملجأ. وقال قتادة أيضاً: أي لا نصير ولا ملجأ وفي رواية: لا وليّ ولا موئل.

وقوله: ﴿إلا بلاغاً من الله ورسالاته﴾ قال بعضهم هو مستثنى من قوله: ﴿قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً إلا بلاغاً﴾ ويحتمل أن يكون استثناء من قوله: ﴿لن يجيرني من الله أحد﴾ أي لا يجيرني منه ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها عليّ، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ [المائدة: ٦٧]. وقوله: ﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً﴾ أي إنما أبلغكم رسالة الله، فمن يعص بعد ذلك فله جزاءً على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبداً، أي لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها. وقوله تعالى: ﴿حتى إذ رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً﴾ أي حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة، فسيعلمون يومئذمن أضعف ناصراً وأقل عدداً، هم أم المؤمنون الموحدون لله تعالى، أي بل المشركون لا ناصر لهم بالكلية وهم أقل عدداً من جنود الله عز وجل.

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للناس: إنه لا علم له بوقت الساعة ولا يدري أقريب وقتها أم بعيد؟ ﴿قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً﴾ أي مدة طويلة.

وقد كان ﷺ يسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها، ولما تَبدَّى له جبريل في صورة أعرابي كان فيما سأله أن قال: يا محمد فأخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» [رواه مسلم]. ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جهوري فقال: يا محمد متى الساعة؟ قال: «ويحك إنها كائنة فما أعددت لها؟» قال: أما إني لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام ولكني أحب الله ورسوله قال: «فأنت مع من أحببت» قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث. [متفق عليه].

وقوله: ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول**﴾ هذه كقوله: ﴿**ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء**﴾ [البقرة:٢٥٥]. وهكذا قال ههنا: إنه يعلم الغيب والشهادة، وأنه لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلا مما أطلعه تعالى عليه، ولهذا قال: ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول**﴾ وهذا يعم الرسول الملكي والبشري. ثم قال: ﴿**فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً**﴾ أي يَخْتَصّه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله، ويساوقونه على ما معه من وحي الله، ولهذا قال: ﴿**ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً**﴾. وقد اختلف المفسرون في الضمير الذي في قوله: ﴿**ليعلم**﴾ إلى من يعود؟ فقيل: إنه عائد على النبي ﷺ، وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً**﴾ قال: أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل، ﴿**ليعلم**﴾ محمد ﷺ ﴿**أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً**﴾. وعن قتادة قال: ليعلم نبي الله أن الرسل قد بلّغت عن الله، وأن الملائكة حفظتها ودفعت عنها. واختاره ابن جرير. وقيل غير ذلك كما رُوي عن ابن عباس في قوله: ﴿**إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً**﴾ قال: هي معقبات من الملائكة يحفظون النبي ﷺ من الشيطان حتى يتبين الذي أرسل به إليهم، وذلك حين يقول ليعلم أهل الشرك أن قد أبلغوا رسالات ربهم. وقال مجاهد: ليعلم من كذب الرسل أن قد أبلغوا رسالات ربهم. وفي هذا نظر. وقال البغوي: قرأ يعقوب: ﴿**ليُعلَم**﴾ بالضم أي ليعلم الناس أن الرسل بُلّغوا. ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله عز وجل، وهو قول حكاه ابن الجوزي في «زاد المسير». ويكون المعنى في ذلك أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما بُيّن إليهم من الوحي، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، ويكون ذلك كقوله: ﴿**وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين**﴾ [العنكبوت:١١]، إلى أمثال ذلك من العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة، ولهذا قال بعد هذا: ﴿**وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً**﴾.

تفسير سورة المزمل وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى
عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ
تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾.

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل، وهو التغطي في الليل وينهض إلى القيام لربه عز وجل، كما قال تعالى: ﴿**تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم**

ينفقون﴾ [السجدة: ١٦]. وكذلك كان ﷺ ممتثلاً ما أمره الله تعالى به من قيام الليل، وقد كان واجباً عليه وحده، كما قال تعالى: **﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾** [الإسراء: ٧٩]. وههنا بيّن له مقدار ما يقوم، فقال تعالى: **﴿يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلاً﴾** قال ابن عباس والضحاك والسدي **﴿يا أيها المزمل﴾** يعني يا أيها النائم. وقال قتادة: المزمل في ثيابه. وقال إبراهيم النخعي: نزلت وهو متزمل بقطيفة، وعن ابن عباس **﴿يا أيها المزمل﴾** قال: يا محمد زملت القرآن. وقوله تعالى: **﴿نصفه﴾** بدل من الليل، **﴿أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه﴾** أي أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل، لاحرج عليك في ذلك.

وقوله: **﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾** أي اقرأه على تمهل، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره. وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه، قالت عائشة رضي الله عنها: كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها. [متفق عليه]. وفي صحيح البخاري عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت مداً، ثم قرأ: **﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾** يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم. وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت: كان يقطع قراءته آية آية، **﴿بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين﴾** رواه أحمد وأبو داود [ورواه الحاكم وصححه]. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: يقال لقارىء القرآن: اقرأ وارْقَ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها» ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

وقد قدمنا في أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة. كما جاء في الحديث: «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود» يعني: أبا موسى، فقال أبو موسى: لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتي لحبَّرته لك تحبيراً. [متفق عليه].

وروى البخاري عن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة. فقال: هذاً كهذّ الشعر. لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن، فذكر عشرين سورة من المُفَصّل، سورتين في ركعة. وقوله: **﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾** قال الحسن وقتادة: أي العمل به. وقيل: ثقيل وقت نزوله من عظمته، كما قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي فكادت تُرض فَخذي. [رواه البخاري].

وفي أول صحيح البخاري عن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتي في مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة:

ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد، فَيَفْصِمُ عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً. واختار ابن جرير أنه ثقيل من الوجهين معاً، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، كما ثقل في الدنيا ثقل يوم القيامة في الموازين.

وقوله: ﴿**إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً**﴾ قال ابن عباس: نشأ، قام **بالحبشية**، وقال عمر وابن عباس وابن الزبير: **الليل** كله ناشئة. وكذا قال مجاهد وغير واحد. يقال: نشأ: إذا قام من الليل. وفي رواية عن مجاهد: بعد العشاء، وكذا قال أبو مجلز وقتادة وسالم وأبو حازم ومحمد بن المنكدر. والغرض أن ناشئة **الليل**: هي ساعاته وأوقاته، وكل ساعة منه تسمى ناشئة وهي الآنات، والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿**هي أشد وطأً وأقوم قيلاً**﴾ أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقتُ انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش، ولهذا قال: ﴿**إن لك في النهار سبحاً طويلاً**﴾ قال ابن عباس وعكرمة وعطاء بن أبي مسلم: الفراغ والنوم، وقال أبو العالية ومجاهد والحسن وسفيان الثوري [وغيرهم]: فراغاً طويلاً. وقال قتادة: فراغاً وبغية ومُنْقَلباً. وقال السدي: ﴿**سبحاً طويلاً**﴾ تطوعاً كثيراً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿**سبحاً طويلاً**﴾ قال: لحوائجك، فأفرغ لدينك الليل. قال وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة، ثم إن الله تبارك وتعالى مَنَّ على العباد فخففها ووضعها، وقرأ: ﴿**قم الليل إلا قليلاً**﴾ إلى آخر الآية، ثم قال: ﴿**إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه** - حتى بلغ - **فاقرؤوا ما تيسر منه**﴾ وقال: ﴿**ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً**﴾ [الإسراء:٤٩]. وهذا الذي قاله كما قاله.

والدليل عليه ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن سعد بن هشام أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة ليبيع عقاراً له بها، ويجعله في الكراع والسلاح ثم يجاهد الروم حتى يموت، فلقي رهطاً من قومه فحدثوه أن رهطاً من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فقال: «أليس لكم فيّ أسوة حسنة؟» فنهاهم عن ذلك فأشهدهم على رَجعتها، ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال: ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: ائت عائشة فاسألها ثم ارجع إليّ فأخبرني بردها عليك. قال: فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقتُه إليها فقال: ما أنا بقاربها، إني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعَتَين شيئاً، فأبت فيها إلا مُضياً. فأقسمتُ عليه، فجاء معي فدخلنا عليها فقالت: حكيم؟ وعرفته قال: نعم. قالت: من هذا الذي معك؟ قال: سعد بن هشام. قالت: من هشام؟ قال: ابن عامر. قالت: فترحمت عليه وقالت: نعم المرء كان عامر. قلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلُق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلُق رسول الله ﷺ كان القرآن. فهممت أن أقوم ثم بدا لي قيامُ رسول الله ﷺ، قلت: **يا** أم المؤمنين أنبئيني

عن قيام رسول الله ﷺ. قالت: ألست تقرأ هذه السورة ﴿**يا أيها المزمل**﴾؟ قلت: بلى. قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة. فهممت أن أقوم ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ فقلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ قالت: كنا نعد له سواكه وطَهُوره فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثماني ركعات ولا يجلس فيهن إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه ويدعو ثم ينهض ولا يسلم ثم يصلي التاسعة فيقعد فيحمد ربه ويذكره ويدعوه ثم يسلم تسليماً يسمعنا، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني، فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذه اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم فتلك تسع يا بني، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أومرض صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة، ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة ولا قام ليلة حتى أصبح، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان. فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها فقال: صدقت أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهني مشافهة، هكذا رواه الإمام أحمد بتمامه وقد أخرجه مسلم في صحيحه بنحوه.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: أول ما نزل أول المزمل، كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان، وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة. [وسنده جيد].

وقال قتادة: ﴿**قم الليل إلا قليلاً**﴾ قاموا حولاً أو حولين حتى انتفخت سُوقهم وأقدامهم، فأنزل الله تخفيفها بعد في آخر السورة. وقال ابن عباس في قوله: ﴿**قم الليل إلا قليلاً * نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا**﴾ فأمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلاً، فشق ذلك على المؤمنين ثم خفف الله عنهم ورحمهم، فأنزل بعد هذا: ﴿**علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله** إلى قوله: **فاقرءوا ما تيسر منه**﴾ فوسع الله تعالى وله الحمد ولم يضيق، وقوله: ﴿**واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً**﴾ أي أكثر من ذكره وانقطع إليه وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك، وما تحتاج إليه من أمور دنياك، كما قال: ﴿**فإذا فرغت فانصب**﴾ [الشرح:٧] أي إذا فرغت من مهامك فانصب في طاعته وعبادته لتكون فارغَ البال. قاله ابن زيد بمعناه أو قريب منه. قال ابن عباس ومجاهد وأبو صالح وعطية والضحاك والسدي: ﴿**وتبتل إليه تبتيلاً**﴾ أي أخلص له العبادة. وقال الحسن: اجتهد وبتل إليه نفسك. وقال ابن جرير: يقال للعابد متبتل.

وقوله: ﴿**رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً**﴾ أي هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إله إلا هو، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل كما قال في الآية الأخرى: ﴿**فاعبده وتوكل عليه**﴾ [هود:١٢٣]، وكقوله: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾

وآيات كثيرة في هذا المعنى فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله وتخصيصه بالتوكل عليه.

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه، وأن يهجرهم هجراً جميلاً، وهو الذي لا عتاب معه. ثم قال له متوعداً لكفار قومه ومتهدداً ـ وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء ـ: **﴿وذرني والمكذبين أولي النعمة﴾** أي دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم **﴿ومهلهم قليلاً﴾** أي رويداً كما قال: **﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾** [لقمان: ٢٤]، ولهذا قال ههنا: **﴿إن لدينا أنكالاً﴾** وهي القيود، قاله ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة والسدي وغير واحد، **﴿وجحيماً﴾** وهي السعير المضطرمة. **﴿وطعاماً ذا غصة﴾** قال ابن عباس: ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج **﴿وعذاباً أليماً * يوم ترجف الأرض والجبال﴾** أي تزلزل **﴿وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾** أي تصير ككثبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء، ثم إنها تنسف نسفاً فلا يبقى منها شيء إلا ذهب، حتى تصير الأرض قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً، أي وادياً، ولا أمتاً أي رابية، ومعناه لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع. ثم قال مخاطباً لكفار قريش، والمراد سائر الناس: **﴿إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم﴾** أي بأعمالكم **﴿كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً * فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾** قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي والثوري **﴿أخذاً وبيلاً﴾** أي شديداً أي فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول فيصيبكم ما أصاب فرعون حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر كما قال تعالى: **﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾** [النازعات: ٢٥]، وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم رسولكم، لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران، ويروى عن ابن عباس ومجاهد.

وقوله: **﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً﴾** يحتمل أن يكون يوماً معمولاً لتتقون، كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود: «فكيف تخافون أيها الناس يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به»؟ ويحتمل أن يكون معمولاً لكفرتم، فعلى الأول: كيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم، وعلى الثاني كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه، وكلاهما معنى حسن، ولكن الأول أولى والله أعلم. ومعنى قوله: **﴿يوماً يجعل الولدان شيباً﴾** أي من شدة أهواله وزلازله، وذلك حين يقول الله لآدم: ابعث بعث النار فيقول من كم؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة. [متفق عليه].

وقوله: ﴿السماء منفطر به﴾ قال الحسن وقتادة: أي بسببه من شدته وهوله. وقوله: ﴿كان وعده مفعولاً﴾ أي كان وعد هذا اليوم مفعولاً أي واقعاً لا محالة وكائناً لا محيد عنه.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿إن هذه﴾ أي السورة ﴿تذكرة﴾ أي يتذكر بها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي ممن شاء الله تعالى هدايته كما قيده في السورة الأخرى ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾ [الإنسان: ٣٠]. ثم قال: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك﴾ أي تارة هكذا، وتارة هكذا، وذلك كله من غير قصد منكم، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل، لأنه يشق عليكم، ولهذا قال: ﴿والله يقدّر الليل والنهار﴾ أي تارة يعتدلان، وتارة يأخذ هذا من هذا، وهذا من هذا ﴿علم أن لن تحصوه﴾ أي الفرض الذي أوجبه عليكم ﴿فاقرءوا ما تيسر من القرآن﴾ أي من غير تحديد بوقت، أي ولكن قوموا من الليل ما تيسر. وعبر عن الصلاة بالقراءة كما قال في سورة سبحان ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ أي بقراءتك ﴿ولا تخافت بها﴾.

وقوله: ﴿علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾ أي علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل، من مرضى لا يستطيعون ذلك، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر، وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله، وهذه السورة كلها مكية ولم يكن القتال شرع بعد، فهي من أكبر دلائل النبوة لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة، ولهذا قال تعالى: ﴿فاقرءوا ما تيسر منه﴾ أي قوموا بما تيسر عليكم منه.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام حتى أصبح، فقال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنه» [متفق عليه].

وقوله: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم وآتوا الزكاة المفروضة، وهذا يدل لمن قال إن فرض الزكاة نزل بمكة، لكن مقادير النُّصُب والمُخْرَج لم تُبَين إلا بالمدينة والله أعلم. وقد قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد من السلف: إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل. واختلفوا في المدة التي بينهما. وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل: «خمس صلوات

في اليوم والليلة» قال: هل علي غيرها ؟ قال: «لا إلا أن تطوع».

وقوله تعالى: ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ يعني من الصدقات، فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره، كما قال: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ [البقرة:٢٤٥]. وقوله: ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾ أي جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو لكم حاصل وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا. وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه ؟» قالوا: يا رسول الله ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه. قال: «اعلموا ما تقولون» قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله ؟ قال: «إنما مال أحدكم ما قدم ومال وارثه ما أخر». ورواه البخاري. ثم قال تعالى: ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ أي أكثروا من ذكره واستغفاره في أموركم كلها فإنه غفور رحيم لمن استغفره.

تفسير سورة المدثر وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ﴾.

ثبت في صحيح البخاري عن جابر أنه كان يقول: أول شيء نزل من القرآن: ﴿يا أيها المدثر﴾. وخالفه الجمهور فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولاً قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ كما سيأتي ذلك هنالك.

وقوله: ﴿قم فأنذر﴾ أي شمر عن ساق العزم وأنذر الناس، وبهذا حصل الإرسال كما حصل بالأول النبوة. ﴿وربك فكبر﴾ أي عظم. وقوله: ﴿وثيابك فطهر﴾ عن ابن عباس أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية: ﴿وثيابك فطهر﴾ قال: لا تلبسها على معصية ولا على غَدْرَة. ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

فإني بحمد الله لا ثوبَ فاجر لبست ولا من غدرة أتَقَنَّعُ

وعن ابن عباس في الآية قال: في كلام العرب: نَقِي الثياب. وفي رواية: فطهر من الذنوب، وكذا قال إبراهيم والشعبي وعطاء. وقال مجاهد: ﴿وثيابك فطهر﴾ قال: نفسك، ليس ثيابك، وفي رواية عنه: عملك فأصلح، وكذا قال أبو رَزِين، وقال في رواية أخرى: ﴿وثيابك فطهر﴾ أي لست بكاهن ولا ساحر فأعرض عما قالوا. وقال قتادة: أي طهرها من المعاصي، وكانت العرب تسمي الرجل إذا نكث ولم يَف بعهد الله إنه لَمُدَنس الثياب، وإذا وفى وأصلح: إنه لمطهر الثياب، وقال عكرمة والضحاك: لا تلبسها على معصية. وعن ابن عباس: لا تك ثيابك التي تلبس من مكسب غير طائب، ويقال: لا تلبس ثيابك على معصية، وقال محمد بن سيرين: أي اغسلها بالماء. وقال ابن زيد: وكان المشركون لا يتطهرون فأمره الله

أن يتطهر وأن يطهر ثيابه. وهذا القول اختاره ابن جرير، وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب، فإن العرب تطلق الثياب عليه. وقال سعيد بن جبير: وقلبك ونيتك فطهر، وقال محمد بن كعب القرظي والحسن البصري: وخلقك فحسن.

وقوله: ﴿**والرجز فاهجر**﴾ قال ابن عباس: الأصنام فاهجر. وكذا قال مجاهد وعكرمة وقتادة والزهري وابن زيد: إنها الأوثان، وقال إبراهيم والضحاك: أي اترك المعصية. وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك، كقوله: ﴿**يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين**﴾ [الأحزاب:١]. ﴿**وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين**﴾ [الأعراف:١٤٢]. وقوله: ﴿**ولا تمنن تستكثر**﴾ قال ابن عباس: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها، وكذا قال مجاهد وإبراهيم النخعي وقتادة والسدي وغيرهم. وقال الحسن البصري: لا تمنن بعملك على ربك تستكثره وكذا قال الربيع بن أنس واختاره ابن جرير، وعن مجاهد قال: لا تضعف أن تستكثر من الخير، قال: تمنن في كلام العرب تضعف، وقال ابن زيد: لا تمنن بالنبوة على الناس تستكثرهم بها تأخذ عليه عوضاً من الدنيا. فهذه أربعة أقوال والأظهر القول الأول، والله أعلم.

وقوله: ﴿**ولربك فاصبر**﴾ أي اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عز وجل قاله مجاهد. وقال إبراهيم النخعي: اصبر عطيتك لله عز وجل. وقوله: ﴿**فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير**﴾ قال ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم والحسن والسدي وابن زيد [وغيرهم]: ﴿**الناقور**﴾ الصور، قال مجاهد: وهو كهيئة القرن.

وقوله: ﴿**فذلك يومئذ يوم عسير**﴾ أي شديد ﴿**على الكافرين غير يسير**﴾ أي غير سهل عليهم، كما قال تعالى: ﴿**يقول الكافرون هذا يوم عَسِر**﴾، وقد روينا عن زُرارة بن أوفى قاضي البصرة: أنه صلى بهم الصبح، فقرأ هذه السورة فلما وصل إلى قوله: ﴿**فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير**﴾ شهق شهقة ثم خرّ ميتاً رحمه الله تعالى. [رواه الترمذي].

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا، فكفر بأنعم الله، وبدلها كفراً وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها، وجعلها من قول البشر. وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال: ﴿**ذرني ومن خلقت وحيداً**﴾ أي خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد، ثم رزقه الله تعالى: ﴿**مالاً ممدوداً**﴾ أي واسعاً كثيراً. وجعل له ﴿**بنين شهوداً**﴾ قال مجاهد

لا يغيبون أي حضوراً عنده لا يسافرون بالتجارات بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم: وهم قعود عند أبيهم يتمتع بهم ويتَمَلَّى بهم، وكانوا فيما ذكره السدي وأبو مالك ثلاثة عشر. وقال ابن عباس ومجاهد: كانوا عشرة. وهذا أبلغ في النعمة. ﴿**ومهدت له تمهيداً**﴾ أي مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك، ﴿**ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيداً**﴾ أي معانداً، وهو الكفر على نعمه بعد العلم. قال الله: ﴿**سأرهقه صعوداً**﴾ وعن ابن عباس: صعوداً صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه. وقال السدي: صعوداً: صخرة ملساء في جهنم، يكلف أن يصعدها. وقال مجاهد: مشقة من العذاب. وقال قتادة: عذاباً لا راحة فيه، واختاره ابن جرير. وقوله تعالى: ﴿**إنه فكر وقدر**﴾ أي إنما أرهقناه صعوداً، أي قربناه من العذاب الشاق لبعده عن الإيمان، لأنه فكر وقدر، أي تَرَوَّى ماذا يقول في القرآن حين سئل عن القرآن، ففكر ماذا يختلق من المقال ﴿**وقدر**﴾ أي تروى ﴿**فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر**﴾ دعاء عليه ﴿**ثم نظر**﴾ أي أعاد النظرة والتروي ﴿**ثم عبس**﴾ أي قبض بين عينيه وقطب ﴿**وبسر**﴾ أي كلح وكره.

وقوله: ﴿**ثم أدبر واستكبر**﴾ أي صُرف عن الحق، ورجع القهقهرى مستكبراً عن الانقياد للقرآن ﴿**فقال إن هذا إلا سحر يؤثر**﴾ أي هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم، ولهذا قال: ﴿**إن هذا إلا قول البشر**﴾ أي ليس بكلام الله. وهذا المذكور في هذا السياق هو: الوليد بن المغيرة أحد رؤساء قريش لعنه الله، وكان من خبره في هذا ما روي عن ابن عباس قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج على قريش فقال يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة، فو الله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذْيٍ من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله. فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا وقالوا: والله لئن صبأ الوليد لتصبون قريش، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه فانطلق حتى دخل عليه بيته، فقال للوليد: ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟ فقال: ألست أكثرهم مالاً وولداً ؟ فقال أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه، فقال الوليد: أقد تحدث به عشيرتي ؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولاعمر ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿**ذرني ومن خلقت وحيداً** إلى قوله: **لا تبقي ولا تذر**﴾.

ثم قال تعالى: ﴿**وما أدراك ما سقر**﴾ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم. ثم فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿**لا تبقي ولا تذر**﴾ أي تأكل لحومهم وعروقهم وعَصَبهم وجلودهم ثم تبدل غير ذلك، وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون، قاله ابن بريدة وأبو سنان وغيرهم.

وقوله: ﴿**لواحة للبشر**﴾ قال مجاهد أي للجلد، وقال أبو رزين: تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل، وقال زيد بن أسلم: تلوح أجسادهم عليها. وقال قتادة: حراقة للجلد.

وقال ابن عباس: تحرق بشرة الإنسان. وقوله: ﴿**عليها تسعة عشر**﴾ أي من مُقَدّمي الزبانية، عظيم خَلْقهم، غليظ خُلُقُهم.

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**وما جعلنا أصحاب النار**﴾ أي خُزَّانها، ﴿**إلا ملائكة**﴾ زبانية غلاظاً شداداً، وذلك رد على مشركي قريش حين ذكروا عدد الخزنة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم، فقال الله تعالى: ﴿**وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة**﴾ أي شديدي الخلق لا يقاومون ولا يغالبون.

وقوله: ﴿**وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا**﴾ أي إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختباراً منا للناس ﴿**ليستيقن الذين أوتوا الكتاب**﴾ أي يعلمون أن هذا الرسول حق فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله. ﴿**ويزداد الذين آمنوا إيماناً**﴾ أي إلى إيمانهم أي بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ، ﴿**ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض**﴾ أي من المنافقين ﴿**والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً**﴾ أي يقولون ما الحكمة في ذكر هذا ههنا ؟ قال الله تعالى: ﴿**كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء**﴾ أي من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

وقوله: ﴿**وما يعلم جنود ربك إلا هو**﴾ أي ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى، لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة: «فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم».

وروى محمد بن نصر المروزي عن عدي بن أرطاة قال: سمعت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: إن لله تعالى ملائكة ترعد فرائصهم من خيفته، ما منهم ملك تقطر منه دمعة من عينه إلا وقعت على ملك يصلي، وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق الله السموات والأرض لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، وإن منهم ملائكة ركوعاً لم يرفعوا رؤوسهم منذ خلق الله السموات والأرض ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، فإذا رفعوا رؤوسهم نظروا إلى وجه الله عز وجل قالوا سبحانك ما عبدناك حق عبادتك» وإسناده لا بأس به.

وقوله: ﴿**وما هي إلا ذكرى للبشر**﴾ قال مجاهد وغير واحد: ﴿**وما هي**﴾ أي النار التي وصفت ﴿**إلا ذكرى للبشر**﴾. ثم قال: ﴿**كلا والقمر * والليل إذ أدبر**﴾ أي ولى ﴿**والصبح إذا**

أسفر﴾ أي أشرق ﴿إنها لإحدى الكبر﴾ أي العظائم يعني النار، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وغير واحد من السلف ﴿نذيراً للبشر * لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾ أي لمن شاء أن يقبل النّذارة ويهتدي للحق أو يتأخر عنها ويولي ويردها.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً أن: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ أي معتقلة بعملها يوم القيامة قاله ابن عباس وغيره ﴿إلا أصحاب اليمين﴾ فإنهم ﴿في جنات يتساءلون عن المجرمين﴾ أي يسألون المجرمين وهم في الغرفات وأولئك في الدركات قائلين لهم: ﴿ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين﴾ أي ما عبدنا الله ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا ﴿وكنا نخوض مع الخائضين﴾ أي نتكلم فيما لا نعلم. وقال قتادة: كلما غوى غاوٍ غوينا معه ﴿وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين﴾ يعني الموت، كقوله: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ [الحجر: ٩٩]، وقال رسول الله ﷺ: «أما هو - يعني عثمان بن مظعون - فقد جاءه اليقين من ربه» [رواه البخاري]. قال الله تعالى: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ أي من كان متصفاً بمثل هذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه، لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلاً، فأما من وافى الله كافراً يوم القيامة فإنه له النار لا محالة خالداً فيها. ثم قال تعالى: ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾ أي فما لهؤلاء الكفرة الذين قِبلَك عما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين، ﴿كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة﴾ أي كأنهم في نفارهم عن الحق وإعراضهم عنه حُمُر من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد، قاله أبو هريرة وابن عباس في رواية عنه وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن. أو رام، وهو رواية عن ابن عباس وهو قول الجمهور.

وقوله: ﴿بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة﴾ أي بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب كما أنزل الله على النبي ﷺ، قاله مجاهد وغيره، كقوله: ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله، الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وفي رواية عن قتادة: يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل. فقوله: ﴿كلا بل لا يخافون الآخرة﴾ أي إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها، وتكذيبهم بوقوعها.

ثم قال تعالى: ﴿كلا إنه تذكرة﴾ أي حقاً إن القرآن تذكرة ﴿فمن شاء ذكره وما يذكرون إلا أن يشاء الله﴾، كقوله: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾ [الإنسان: ٣٠]. وقوله: ﴿هو أهل

التقوى وأهل المغفرة﴾ أي هو أهل أن يُخاف منه، وهو أهل أن يَغفر ذنب من تاب إليه وأناب. قاله قتادة.

تفسير سورة القيامة وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ (١) وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ (٣) بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ (٤) بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ (٥) يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ (٩) يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ (١٥)﴾.

قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه إذا كان منتفياً جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي. والمقسم عليه ههنا هو إثبات المعاد والرد على ما يزعمه الجهلة من عدم بَعث الأجساد، ولهذا قال تعالى: **﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾** قال الحسن: أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة. وقال قتادة: بل أقسم بهما جميعاً، وقد حكى ابن جرير عن الحسن والأعرج أنهما قرءا: «لأقسم بيوم القيامة» وهذا يوجه قول الحسن، لأنه أثبت القسم بيوم القيامة ونفى القسم بالنفس اللوامة. والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً كما قاله قتادة رحمه الله، وهو المروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير، واختاره ابن جرير. فأما يوم القيامة فمعروف، وأما النفس اللوامة فقال الحسن البصري في هذه الآية: إن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه. ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ وإن الفاجر يمضي قُدُماً ما يعاتب نفسه. وروي عن الحسن [أيضا] أنه قال: ليس أحد من أهل السموات والأرضين إلا يلوم نفسه يوم القيامة. وعن عكرمة قال: يلوم على الخير والشر لو فعلت كذا وكذا. وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: تلوم على الخير والشر، ثم رواه من وجه آخر عن سعيد أنه سأل ابن عباس عن ذلك فقال: هي النفس اللؤوم، وقال مجاهد: تندم على ما فات وتلوم عليه، وقال ابن عباس: اللوامة المذمومة، وقال قتادة: **﴿اللوامة﴾** الفاجرة. والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر وتندم على ما فات.

وقوله: **﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه﴾** أي يوم القيامة أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة؟ **﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾** قال ابن عباس: أن نجعله خُفّاً أو حافراً. وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وابن جرير، ووجهه ابن جرير بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك في الدنيا، والظاهر من الآية أن قوله: **﴿قادرين﴾** حال من قوله: **﴿نجمع﴾** أي أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه ؟ بل سنجمعها قادرين على أن نسوي بنانه، أي قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا بعثناه أزيد مما كان فنجعل بنانه وهي أطراف أصابعه مستوية. وقوله: **﴿بل يريد الإنسان ليفجر أمامه﴾** قال ابن عباس: يعني يمضي قدماً،

وقال ابن عباس [أيضا]: ﴿ليفجر أمامه﴾ يعني الأمل، يقول الإنسان: أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة، ويقال: هو الكفر بالحق بين يدي القيامة. وقال مجاهد: ليمضي أمامه راكباً رأسه. وقال الحسن: لا يُلْقَى ابن آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قُدُماً قُدُماً إلا من عصمه الله. ورُوي عن عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والسدي وغير واحد من السلف: هو الذي يعجل الذنوب ويسوف التوبة. وقال ابن عباس: هو الكافر يكذب بيوم الحساب، وكذا قال ابن زيد وهذا هو الأظهر من المراد، ولهذا قال بعده ﴿يسأل أيان يوم القيامة﴾ أي يقول متى يكون يوم القيامة؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه، وتكذيب لوجوده، كما قال تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ [سبأ: ٢٩_٣٠].

وقال تعالى ههنا: ﴿فإذا برق البصر﴾ قرأ أبو عمرو بن العلاء: «بَرِق» بكسر الراء أي حار، وهذا شبيه بقوله تعالى: ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ [إبراهيم: ٤٣]، بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا لا يستقر لهم بصر على شيء من شدة الرعب، وقرأ آخرون: «بَرَق» بالفتح وهو قريب في المعنى من الأول، والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور. وقوله: ﴿وخسف القمر﴾ أي ذهب ضوؤه، ﴿وجمع الشمس والقمر﴾ قال مجاهد: كُوّرا، وقرأ ابن زيد عند تفسير هذه الآية: ﴿إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت﴾ [التكوير: ١_٢]. وقوله: ﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر﴾ أي إذا عاين ابنُ آدم هذه الأهوال يوم القيامة حينئذ يريد أن يفر ويقول: أين المفر؟ أي هل من ملجأ أو موئل؟ قال الله تعالى: ﴿كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف: أي لا نجاة، وهذه كقوله: ﴿مالكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير﴾ [الشورى: ٤٧] أي ليس لكم مكان تتنكرون فيه، وكذا قال ههنا: ﴿لا وزر﴾ أي ليس لكم مكان تعتصمون فيه، ولهذا قال: ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾ أي المرجع والمصير.

ثم قال تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ أي يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها، كما قال تعالى: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾ [الكهف: ٤٩]. وهكذا قال ههنا: ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره﴾ أي هو شهيد على نفسه عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر، وكما قال تعالى: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ [الإسراء: ١٤]. وقال ابن عباس يقول: سمعُه وبصرُه ويداه ورجلاه وجوارحُه. وقال قتادة: شاهد على نفسه. وفي رواية قال: إذا شئتَ ـ والله ـ رأيته بصيراً بعيوب الناس وذنوبهم غافلاً عن ذنوبه. وكان يقال: إن في الإنجيل مكتوباً: يا ابن آدم تُبصر القَذَاة في عين أخيك، وتترك الجِذْع في عينك لا تبصره!

وقال مجاهد: ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ ولو جادل عنها فهو بصير عليها. وقال قتادة: ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه. وقال السدي ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ حجته. وكذا قال ابن زيد والحسن البصري وغيرهم واختاره ابن جرير. وقال ابن عباس: لو ألقى ثيابه. وقال الضحاك: ولو أرخى ستوره، وأهل اليمن يسمون الستر المعذار. والصحيح قول مجاهد وأصحابه، كقوله: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام:٢٣]. وعن ابن عباس: هي الاعتذار، ألم تسمع أنه قال: ﴿لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾ [غافر:٥٢]، وقال: ﴿وألقوا إلى الله يومئذ السلم﴾ [النحل:٨٧].

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق المَلَك في قراءته، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل الله له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه عليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه. فالحالة الأولى جمعُه في صدره، والثانية تلاوته والثالثة تفسيره وإيضاح معناه. ولهذا قال: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ أي بالقرآن، كما قال: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً﴾ [طه:١١٤]. ثم قال: ﴿إن علينا جمعه﴾ أي في صدرك ﴿وقرآنه﴾ أي أن تقرأه ﴿فإذا قرأناه﴾ أي إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى: ﴿فاتبع قرآنه﴾ أي فاستمع له، ثم اقرأه كما أقرأك ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ أي بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك شفتيه قال ابن عباس: أنا أحرك شفتي كما كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه، فأنزل الله عز وجل: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه﴾ قال: جمعه في صدرك ثم تقرأه ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ أي فاستمع له وأنصت ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه. وقد رواه البخاري. وهكذا قال الشعبي والحسن البصري وقتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد: إن هذه الآية نزلت في ذلك. وروي عن ابن عباس قال: كان لا يفتر من القراءة مخافة أن ينساه، فقال الله: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه﴾ أن نجمعه لك ﴿وقرآنه﴾ أن نقرئك فلا تنسى، وقال ابن عباس وعطية العوفي ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ تبيين حلاله وحرامه وكذا قال قتادة. وقوله: ﴿كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾ أي إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزله الله عز وجل على رسوله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم، أنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة. ثم قال: ﴿وجوه يومئذ

ناضرة﴾ من النضارة أي حسنة بَهِيَّة مشرقة مسرورة، ﴿**إلى ربها ناظرة**﴾ أي تراه عياناً، كما رواه البخاري رحمه الله في صحيحه: «إنكم سترون ربكم عَيَاناً». وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها، لحديث أبي سعيد وأبي هريرة في الصحيحين: أنَّ ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تُضَارُّون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟» قالوا: لا، قال: «فإنكم ترون ربكم كذلك». وفي الصحيحين عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم أن لا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا». وفي أفراد مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة» قال: «يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا! ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار! قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم وهي الزيادة». ثم تلا هذه الآية: ﴿**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**﴾ [يونس: ٢٦]. وفي أفراد مسلم عن جابر في حديثه: «إن الله يتجلى للمؤمنين يضحك» يعني في عرصات القيامة ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم عز وجل في العرصات وفي روضات الجنات. ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن، ولكن ذكرنا ذلك مفرقاً في مواضع من هذا التفسير وبالله التوفيق. وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام، وهُدَاة الأنام.

ومن تأول ذلك بأن المراد بـ «إلى» مفرد الآلاء، وهي النعم كما قال مجاهد: ﴿**إلى ربها ناظرة**﴾ قال: تنتظر الثواب من ربها، رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد. وكذا قال أبو صالح أيضاً فقد أبعد هذا القائل النجعة وأبطل فيما ذهب إليه، وأين هو من قوله تعالى: ﴿**كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون**﴾ [المطففين: ١٥]، قال الشافعي رحمه الله: ما حجب الفجار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه عز وجل. ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بما دل عليه سياق الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿**إلى ربها ناظرة**﴾ روى ابن جرير عن الحسن: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة**﴾ قال حسنة، ﴿**إلى ربها ناظرة**﴾ قال: تنظر إلى الخالق، وحُقّ لها أن تَنضر وهي تنظر إلى الخالق.

وقوله: ﴿**ووجوه يومئذ باسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة**﴾ هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة، قال قتادة: كالحة، وقال السدي: تغير ألوانها، وقال ابن زيد: عابسة. ﴿**تظن**﴾ أي تستيقن ﴿**أن يفعل بها فاقرة**﴾ قال مجاهد: داهية، وقال قتادة: شر، وقال السدي. تستيقن أنها هالكة، وقال ابن زيد: تظن أن ستدخل النار، وهذا المقام كقوله: ﴿**وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة. ووجوه يومئذ عليها غبرة. ترهقها قترة أولئك هم الكفرة**

الفجرة﴾ [عبس: ٣٨-٤٢]. في أشباه ذلك من الآيات والسياقات.

﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال ثبتنا الله هنالك بالقول الثابت فقال تعالى: ﴿**كلا إذا بلغت التراقي**﴾، إن جعلنا كلا رادعة فمعناها: لست يا ابن آدم هناك تُكذِّب بما أخبرت به، بل صار ذلك عندك عياناً. وإن جعلناها بمعنى «حقاً» فظاهر، أي حقاً إذا بلغت التراقي أي انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك، والتراقي جمع ترقوة وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق، ﴿**وقيل من راق**﴾ قال ابن عباس: أي من راق يرقي؟ وقال أبو قلابة: أي من طبيب شاف. وكذا قال قتادة والضحاك وابن زيد. وعن ابن عباس: ﴿**وقيل من راق**﴾ قيل: من يَرْقَى بروحه ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟. فعلى هذا يكون من كلام الملائكة.

وقال ابن عباس: ﴿**والتفت الساق بالساق**﴾ يقول: آخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحم الله. وقال عكرمة: الأمر العظيم بالأمر العظيم، وقال مجاهد: بلاء ببلاء، وقال الحسن البصري: هما ساقاك إذا التفتا. وفي رواية عنه: ماتت رجلاه فلم تحملاه، وقد كان عليهما جَوَّالاً، وكذا قال أبو مالك، وفي رواية عن الحسن: هو لَفُّهما في الكفن، وقال الضحاك: اجتمع عليه أمران: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه.

وقوله: ﴿**إلى ربك يومئذ المساق**﴾ أي المرجع والمآب، وذلك أن الروح ترفع إلى السموات، فيقول الله عز وجل: ردوا عبدي إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، كما ورد في حديث البراء الطويل [رواه أحمد وهو حسن]. وقد قال الله تعالى: ﴿**وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين**﴾ [الأنعام: ٦١-٦٢].

وقوله: ﴿**فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى**﴾ هذا إخبار عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذباً للحق بقلبه، متولياً عن العمل بقالبه، فلا خير فيه باطناً ولا ظاهراً، ﴿**ثم ذهب إلى أهله يتمطى**﴾ أي جَذِلا أشراً بَطِرا كسلانا لا همة له ولا عمل، كما قال: ﴿**وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين**﴾ [المطففين: ٣٤] وقال ابن عباس: يختال: وقال قتادة وزيد بن أسلم: يتبختر. قال الله تعالى: ﴿**أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى**﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد من الله تعالى للكافر به المتبختر في مشيه، أي يحق لك أن تمشي هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك،

كما يقال في مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد، كقوله: ﴿**ذق إنك أنت العزيز الكريم**﴾ [الدخان: ٤٩]، وروى أبو عبد الرحمن النسائي عن ابن عباس: ﴿**أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى**﴾ ؟ قال: قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل ثم أنزله الله عز وجل. [سنده صحيح].

وقوله: ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سدى**﴾ قال السدي: يعني لا يبعث. وقال مجاهد والشافعي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني لا يؤمر ولا ينهى، والظاهر أن الآية تعم الحالين، أي ليس يترك في هذه الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يترك في قبره سدى لا يبعث، بل هو مأمور منهي في الدنيا، محشور إلى الله في الدار الآخرة. والمقصود هنا إثبات المعاد، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد، ولهذا قال تعالى مستدلاً على الإعادة بالبداءة فقال: ﴿**ألم يك نطفة من مني يمنى**﴾ أي أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين. يمنى: يراق من الأصلاب في الأرحام. ﴿**ثم كان علقة فخلق فسوى**﴾ أي فصار علقة، ثم مضغة، ثم شُكِّل ونفخ فيه الروح، فصار خلقاً سوياً سليم الأعضاء، ذكراً أو أنثى بإذن الله وتقديره. ولهذا قال: ﴿**فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى**﴾. ثم قال: ﴿**أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى**﴾ أي أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه؟ وتناولُ القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداءة، وإما مساوية على القولين في قوله: ﴿**وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه**﴾ والأول أشهر.

وروى أبو داود وابن أبي حاتم عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته فكان إذا قرأ ﴿**أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى**﴾ قال سبحانك، فبلى، فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ، ولم يسم هذا الصحابي ولا يضر ذلك. [وسنده صحيح].

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، أنه مر بهذه الآية ﴿**أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى**﴾ قال: سبحانك فبلى.

تفسير سورة الإنسان وهي مكية.

في صحيح مسلم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿**ألم تنزيل**﴾ السجدة و ﴿**هل أتى على الإنسان**﴾.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر لحقارته وضعفه. ﴿**هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً**﴾ ثم بين ذلك فقال: ﴿**إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج**﴾ أي أخلاط، والمشج والمشيج: الشيء المختلط بعضه في بعض، قال ابن عباس: يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعدُ من طور إلى طور،

وهكذا قال عكرمة ومجاهد والحسن والربيع بن أنس.

وقوله: ﴿نبتليه﴾ أي نختبره، ﴿فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ أي جعلنا له سمعاً وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية.

وقوله: ﴿إنا هديناه السبيل﴾ أي بيناه له وبصرناه به، كقوله: ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد: ١٠] أي: بينا له طريق الخير وطريق الشر. وهذا قول عكرمة وعطية وابن زيد ومجاهد في المشهور عنه والجمهور. وقوله: ﴿إما شاكراً وإما كفوراً﴾ منصوب على الحال من الهاء في قوله: ﴿إنا هديناه السبيل﴾ تقديره فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فموبقها أو معتقها».

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى عما أرصده للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير، وهو اللهب والحريق في نار جهنم كما قال: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون * في الحميم ثم في النار يسجرون﴾ [غافر: ٧١-٧٢]. ولما ذكر ما أعده لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده: ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً﴾، وقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة في الجنة. قال الحسن: برد الكافور في طيب الزنجبيل ولهذا قال: ﴿عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً﴾ أي هذا الذي مُزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفاً بلا مزج ويَرْوَوْن بها، ولهذا ضمن يشرب معنى يروى حتى عداه بالباء ونصب عيناً على التمييز، قال بعضهم: هذا الشراب في طيبه كالكافور. وقال بعضهم: هو من عين كافور، وقال بعضهم: يجوز أن يكون منصوباً بـ «يشرب». حكى هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير. وقوله: ﴿يفجرونها تفجيراً﴾ أي يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، من قصورهم ومجالسهم. والتفجير هو الإنباع، كما قال تعالى: ﴿وفجرنا خلالهما نهراً﴾ [الكهف: ٣٣].

وقال مجاهد: يقودونها حيث شاؤوا، وكذا قال عكرمة وقتادة. وقال الثوري: يصرفونها حيث شاؤوا. وقوله: ﴿يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً﴾ أي يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر. روى الإمام مالك عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه» رواه البخاري. ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها

خيفة من سوء الحساب يوم المعاد، وهو اليوم الذي شره مستطير، أي منتشر عام على الناس إلا من رَحِمَ الله، قال ابن عباس: فاشياً، وقال قتادة: استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض، وقال ابن جرير: ومنه قولهم: استطار الصدع في الزجاجة واستطال.

وقوله: ﴿**ويطعمون الطعام على حبه**﴾ قيل: على حب الله تعالى. وجعلوا الضمير عائداً إلى الله عز وجل لدلالة السياق عليه. والأظهر أن الضمير عائد على الطعام، أي ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له، قاله مجاهد ومقاتل واختاره ابن جرير، كقوله تعالى: ﴿**وآتى المال على حبه**﴾ [البقرة:١٧٧]. وروى البيهقي عن نافع قال: مرض ابن عمر فاشتهى عنباً أول ما جاء العنب فأرسلت صفية، يعني امرأته، فاشترت عنقوداً بدرهم فاتبع الرسولَ سائل، فلما دخل به قال السائل: السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه فأعطوه إياه، فأرسلت بدرهم آخر فاشترت عنقوداً فاتبع الرسول السائل، فلما دخل قال السائل: السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه فأعطوه إياه، فأرسلت صفية إلى السائل فقالت والله إن عدت لا تصيب منه خيراً أبداً، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به.

وفي الصحيح: «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر»، أي في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿**ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً**﴾. أما المسكين واليتيم فقد تقدم بيانهما وصفتهما، وأما الأسير فقال سعيد بن جبير والحسن والضحاك: الأسير من أهل القبلة، وقال ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذ مشركين، وهكذا قال سعيد بن جبير وعطاء والحسن وقتادة.

وقال عكرمة: هم العبيد، واختاره ابن جرير لعموم الآية للمسلم والمشرك. وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث، وحتى أنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» [رواه أحمد وابن ماجه وقال البوصيري في الزوائد إسناده صحيح على شرط الشيخين]. وقال مجاهد: هو المحبوس، أي يطعمون الطعام لهؤلاء وهم يشتهونه ويحبونه، قائلين بلسان الحال: ﴿**إنما نطعمكم لوجه الله**﴾ أي رجاءَ ثواب الله ورضاه، ﴿**لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً**﴾ أي لا نطلب منكم مجازاة تكافئونا بها ولا أن تشكرونا عند الناس.

قال مجاهد وسعيد بن جبير: أما والله ما قالوه بألسنتهم ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به. ليرغب في ذلك راغب. ﴿**إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً**﴾ أي إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه في اليوم العبوس القمطرير. قال ابن عباس: عبوساً: ضيقاً، قمطريراً: طويلاً، وقال [أيضا]: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عَرَق مثل القَطِران. وقال مجاهد: ﴿**عبوساً**﴾ العابس الشفتين، ﴿**قمطريراً**﴾ قال: تقبيض الوجه بالبُسُور. وقال سعيد بن جبير وقتادة: تعبس فيه الوجوه من الهول، قمطريراً تقليص الجبين

وما بين العينين من الهول. وقال ابن زيد: العبوس: الشر، والقمطرير: الشديد، وأوضح العبارات، وأجلاها، وأحلاها، وأعلاها وأولاها قول ابن عباس رضي الله عنه. قال ابن جرير: والقمطرير هو الشديد.

قال الله تعالى: ﴿**فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً**﴾ وهذا من باب التجانس البليغ ﴿**فوقاهم الله شر ذلك اليوم**﴾ أي آمنهم مما خافوا منه ﴿**ولقاهم نضرة**﴾ أي في وجوههم ﴿**وسروراً**﴾ أي في قلوبهم، قاله الحسن البصري وقتادة وأبو العالية والربيع بن أنس، وهذه كقوله تعالى: ﴿**وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة**﴾ [عبس:٣٨-٣٩]. وذلك أن القلب إذا سر استنار الوجه. وقوله: ﴿**وجزاهم بما صبروا**﴾ أي بسبب صبرهم أعطاهم وبوّأهم ﴿**جنة وحريراً**﴾ أي منزلاً رحباً وعيشاً رغيداً ولباساً حسناً. وروى الحافظ ابن عساكر عن أبي سليمان الداراني قال: بما صبروا على ترك الشهوات في الدنيا ثم أنشد يقول:

كـم قـتيل بشــهوةٍ وأســـير أُفٍّ من مُشتَهى خلاف الجَميل
شهواتُ الإنسان تورثه الذُّلْـ ـلَ وَتُلْـقيه في البَـلاء الطَّـويل

﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ﴿١٦﴾ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، وما أسبغ عليهم من الفضل العميم، فقال: ﴿**متكئين فيها على الأرائك**﴾ والاتكاء: هو الاضطجاع أو التمرفق أو التربع أو التمكن في الجلوس، والأرائك هي السرر تحت الحجال. وقوله: ﴿**لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً**﴾ أي ليس عندهم حر مزعج، ولا برد مؤلم، بل هي مزاج واحد دائم سرمدي. ﴿**ودانية عليهم ظلالها**﴾ أي قريبة إليهم أغصانها، ﴿**وذللت قطوفها تذليلاً**﴾ أي متى تعاطاه دنا القطف إليه وتدلى من أعلى غصنه، كأنه سامع طائع، كما قال في الآية الأخرى: ﴿**وجنى الجنتين دان**﴾ [الرحمن: ٥٤] قال مجاهد: ﴿**وذللت قطوفها تذليلاً**﴾ إن قام ارتفعت معه بقَدْره، وإن قعد تدلت له حتى ينالها، وإن اضطجع تدلَّت له حتى ينالها. وقال قتادة: لا يرد أيديهم عنها شوكٌ ولا بُعدٌ، وقال مجاهد أرض الجنة من وَرِق، وترابها المسك، وأصول شجرها من ذهب وفضة، وأفنانها من اللؤلؤ الرطب والزبرجد والياقوت، والوَرَقُ والثمر بين ذلك. فمن أكل منها قائماً لم يؤذه، ومن أكل منها قاعداً لم يؤذه، ومن أكل منها مضطجعاً لم يؤذه.

وقوله: ﴿**ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب**﴾ أي يطوف عليهم الخدم بأواني الطعام، وهي من فضة، وأكواب الشراب وهي الكيزان التي لا عرى لها ولا خراطيم. وقوله: ﴿**قوارير.**

قوارير من فضة﴾ فالأول منصوب بخبر كان، أي كانت قوارير، والثاني منصوب على البدلية أو تمييز لأنه بينه بقوله: ﴿**قوارير من فضة**﴾.

قال ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وغير واحد: بياض الفضة في صفاء الزجاج، والقوارير لا تكون إلا من زجاج، فهذه الأكواب هي من فضة وهي مع هذا شفافة يرى ما في باطنها من ظاهرها، وهذا مما لا نظير له في الدنيا. وعن ابن عباس: ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة.

وقوله: ﴿**قدروها تقديراً**﴾ أي على قدر ريّهم، لا تزيد عنه ولا تنقص، بل هي مُعَدّة لذلك، مقدرة حسب ريّ صاحبها. هذا معنى قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والشعبي وابن زيد، وقاله ابن جرير وغير واحد، وهذا أبلغ في الاعتناء والشرف والكرامة، وعن ابن عباس [أيضا]: ﴿**قدروها تقديراً**﴾ قدرت للكف. وهكذا قال الربيع بن أنس. وقال الضحاك: على قدر أكُفّ الخُدّام. وهذا لا ينافي القول الأول فإنها مقدرة في القَدْر والرّي.

وقوله: ﴿**ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً**﴾ أي ويسقون يعني الأبرار أيضاً في هذه الأكواب ﴿**كأساً**﴾ أي خمراً ﴿**كان مزاجها زنجبيلاً**﴾ فتارة يُمزَج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار، ليعتدل الأمر، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة، وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صِرْفاً، كما قال قتادة وغير واحد. وقد تقدم قوله: ﴿**عيناً يشرب بها عباد الله**﴾، وقال ههنا: ﴿**عيناً فيها تسمى سلسبيلاً**﴾ أي الزنجبيل عين في الجنة تسمى سلسبيلاً، وقال عكرمة: اسم عين في الجنة، وقال مجاهد: سميت بذلك لسلاسة سيلها وحِدّة جريها، وقال قتادة: عين سَلِسَة مستعذب ماؤها. وحكى ابن جرير عن بعضهم أنها سميت بذلك لسلاستها في الحَلْق. واختار هو أنها تَعُمّ ذلك كله، وهو كما قال.

وقوله: ﴿**ويطوف عليهم ولدان مخلدون. إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً**﴾ أي يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدانٌ من ولدان الجنة ﴿**مخلدون**﴾ أي على حالة واحدة مخلدون عليها، لا يتغيرون عنها، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن. ومن فسرهم بأنهم مُخَرّصُون في آذانهم الأقرطة، فإنما عبر عن المعنى بذلك، لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير. وقوله: ﴿**إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً**﴾ أي إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة، وكثرتهم، وصباحة وجوههم، وحُسن ألوانهم وثيابهم وحليهم، حسبتهم لؤلؤاً منثوراً، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن. قال عبد الله بن عمرو: ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم، كل خادم على عمل ما عليه صاحبه.

وقوله: ﴿**وإذا رأيت**﴾ أي وإذا رأيت يا محمد ﴿**ثم**﴾ أي هنالك يعني في الجنة ونعيمها وسعَتها وارتفاعها وما فيها من الحَبْرَة والسرور ﴿**رأيت نعيماً وملكاً كبيراً**﴾ أي مملكةً لله هناك

عظيمة وسلطاناً باهراً. وثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً إليها: إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها.

وقوله: ﴿**عاليهم ثياب سندس وإستبرق**﴾ أي لباس أهل الجنة فيها الحرير، ومنه سندس، وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر، كما هو المعهود في اللباس، ﴿**وحلوا أساور من فضة**﴾ وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون فكما قال: ﴿**يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير**﴾ [الحج:٢٣]. ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي قال بعده: ﴿**وسقاهم ربهم شراباً طهوراً**﴾ أي طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرَّدِية، كما روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: إذا انتهى أهلُ الجنة إلى باب الجنة وجدوا هناك عينين، فكأنما ألهموا ذلك فشربوا من إحداهما فأذهب الله ما في بطونهم من أذى، ثم اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم، فأخبر سبحانه وتعالى بحالهم الظاهر وجمالهم الباطن. وقوله: ﴿**إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً**﴾ أي يقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم كما قال: ﴿**كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية**﴾ [الحاقة: ٢٤]. وقوله: ﴿**وكان سعيكم مشكوراً**﴾ أي جزاكم الله تعالى على القليل بالكثير.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾.

يقول تعالى ممتناً على رسوله ﷺ بما نَزَّله عليه من القرآن العظيم تنزيلاً: ﴿**فاصبر لحكم ربك**﴾ أي كما أكرمتك بما أنزلت عليك، فاصبر على قضائه وقدره، واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره، ﴿**ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً**﴾ أي لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك، وتوكل على الله، فإن الله يعصمك من الناس. فالآثم هو الفاجر في أفعاله، والكفور هو الكافر قلبه. ﴿**واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً**﴾ أي أول النهار وآخره ﴿**ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً**﴾، كقوله: ﴿**ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً**﴾ [الإسراء: ٧٩].

ثم قال تعالى منكراً على الكفار ومن أشبههم في حب الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم: ﴿**إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً**﴾ يعني يوم القيامة. ثم قال: ﴿**نحن خلقناهم وشددنا أسرهم**﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني خَلْقَهم. ﴿**وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً**﴾ أي وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة،

وبدلناهم فأعدناهم خلقاً جديداً، وهذا استدلال بالبداءة على الرجعة. وقال ابن زيد وابن جرير: أي وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم، كقوله: ﴿**إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً**﴾ [النساء: ١٣٣].

ثم قال تعالى: ﴿**إن هذه تذكرة**﴾ يعني هذه السورة تذكرة ﴿**فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً**﴾ أي طريقاً ومسلكاً أي من شاء اهتدى بالقرآن. ثم قال: ﴿**وما تشاؤون إلا أن يشاء الله**﴾ أي لا يقدر أحد أن يَهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان ولا يجرّ لنفسه نفعاً، ﴿**إلا أن يشاء الله. إن الله كان عليماً حكيماً**﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية فيُيَسرها له، ويقيض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، ولهذا قال تعالى: ﴿**إن الله كان عليماً حكيماً**﴾. ثم قال: ﴿**يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً**﴾ أي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ومن يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

تفسير سورة المرسلات وهي مكية.

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمنى إذ نزلت عليه ﴿**والمرسلات**﴾، فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها، إذ وثبت علينا حية، فقال النبي ﷺ: «اقتلوها» فابتدرناها فذهبت فقال النبي ﷺ: «وُقِيَتْ شركم كما وُقِيتُم شرها». وروى مالك عن ابن عباس أن أم الفضل سمعته يقرأ: ﴿**والمرسلات عرفاً**﴾ فقالت: يا بني أذكرتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب. أخرجاه في الصحيحين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ
أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة: ﴿**والمرسلات عرفاً**﴾ قال: الملائكة. وروي عن مسروق وأبي الضحى ومجاهد في إحدى الروايات والسدي والربيع بن أنس مثل ذلك. وروي عن أبي صالح أنه قال: هي الرسل. وفي رواية عنه: أنها الملائكة. وهكذا قال أبو صالح في العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات إنها الملائكة. وقال ابن مسعود: الريح، وكذا قال في ﴿**العاصفات عصفاً والناشرات نشراً**﴾ إنها الريح، وكذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبو صالح في رواية عنه، وتوقف ابن جرير في ﴿**والمرسلات عرفاً**﴾ هل هي الملائكة أرسلت بالعُرْف، أو كعُرْف الفرس يتبع بعضهم بعضاً، أو: هي الرياح إذا هَبّت شيئاً فشيئاً؟ وقطع بأن العاصفات عصفاً هي الرياح، كما قاله ابن مسعود ومن تابعه. وممن قال ذلك في العاصفات أيضاً علي بن أبي طالب والسدي، وتوقف في الناشرات نشراً هل هي الملائكة أو الريح؟

كما تقدم. وعن أبي صالح أن الناشرات نشراً هي المطر. والأظهر أن المرسلات هي الرياح كما قال تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ [الحجر:٢٢]، وهكذا العاصفات هي: الرياح، يقال: عصفت الريح إذا هَبَّت بتصويت، وكذا الناشرات هي: الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء كما يشاء الرب عز وجل.

وقوله: ﴿**فالفارقات فرقاً فالملقيات ذكراً عذرا أو نذراً**﴾ يعني الملائكة. قاله ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسدي [وغيرهم]، ولا خلاف ههنا فإنها تنزل بأمر الله على الرسل، تفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إعذار إلى الخلق، وإنذارٌ لهم عقابَ الله إن خالفوا أمره. وقوله: ﴿**إنما توعدون لواقع**﴾ هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام، أي ما وعدتم به من قيام الساعة، والنفخ في الصور، وبعث الأجساد، وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ومجازاة كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، إن هذا كله لواقع أي لكائن لامحالة. ثم قال: ﴿**فإذا النجوم طمست**﴾ أي ذهب ضوؤها، كقوله: ﴿**وإذا النجوم انكدرت**﴾ [التكوير:٢]. ﴿**وإذا السماء فرجت**﴾ أي انفطرت وانشقت، وتدلت أرجاؤها ووهت أطرافها.

﴿**وإذا الجبال نسفت**﴾ أي ذُهِب بها، فلا يبقى لها عين ولا أثر، كقوله: ﴿**ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً**﴾ الآية[طه:١٠٥]. وقوله: ﴿**وإذا الرسل أقتت**﴾ قال ابن عباس: جمعت. وقال ابن زيد: وهذه كقوله تعالى: ﴿**يوم يجمع الله الرسل**﴾ [المائدة:١٠٩]. وقال مجاهد: ﴿**أقتت**﴾ أجلت. وقال إبراهيم: أوعدت. ثم قال: ﴿**لأي يوم أجلت ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذٍ للمكذبين**﴾ يقول تعالى: لأي يوم أجلت الرسل وأرجىء أمرها حتى تقوم الساعة، كما قال تعالى: ﴿**فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام * يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار**﴾ [إبراهيم:٤٧-٤٨]. وهو يوم الفصل، كما قال: ﴿**ليوم الفصل**﴾. ثم قال معظماً لشأنه: ﴿**وما أدراك ما يوم الفصل * ويل يومئذٍ للمكذبين**﴾ أي ويل لهم من عذاب الله غداً.

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿**ألم نهلك الأولين**﴾ يعني من المكذبين للرسل المخالفين لما جاؤوهم به، ﴿**ثم نتبعهم الآخرين**﴾ أي ممن أشبههم، ولهذا قال: ﴿**كذلك نفعل بالمجرمين * ويل يومئذ للمكذبين**﴾. قاله ابن جرير. ثم قال ممتناً على خلقه ومحتجاً على الإعادة بالبَدَاءة: ﴿**ألم نخلقكم من ماء مهين**﴾ أي ضعيف حقير بالنسبة إلى قُدرَة الباري عز وجل. ﴿**فجعلناه في قرار مكين**﴾ يعني جمعناه في الرّحِم، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة، والرحم معد لذلك حافظ

لما أودع فيه من الماء. وقوله: ﴿**إلى قدر معلوم**﴾ يعني إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر، ولهذا قال: ﴿**فقدرنا فنعم القادرون. ويل يومئذ للمكذبين**﴾ ثم قال: ﴿**ألم نجعل الأرض كفاتاً. أحياء وأمواتاً**﴾ قال ابن عباس: كفاتاً: كنًا. وقال مجاهد: يُكفت المَيت فلا يُرَى منه شيء. وقال الشعبي: بطنها لأمواتكم، وظهرها لأحيائكم. وكذا قال مجاهد وقتادة. ﴿**وجعلنا فيها رواسي شامخات**﴾ يعني الجبال أرسى بها الأرض لئلا تميد وتضطرب. ﴿**وأسقيناكم ماء فراتاً**﴾ أي عذباً زُلالاً من السحاب، أو مما أنبعه الله من عيون الأرض. ﴿**ويل يومئذ للمكذبين**﴾ أي ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها، ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره.

﴿ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى
بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مخاطباً للكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار، إنهم يقال لهم يوم القيامة: ﴿**انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب**﴾ يعني لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان، فمن شدته وقوته له ثلاث شعب، ﴿**لا ظليل ولا يغني من اللهب**﴾ أي ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو في نفسه، ولا يغني من اللهب، يعني ولا يقيهم حر اللهب. وقوله: ﴿**إنها ترمي بشرر كالقصر**﴾ أي يتطاير الشرر من لهبها كالقصر، قال ابن مسعود: كالحصون، وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد وزيد بن أسلم وغيرهم: يعني أصول الشجر. ﴿**كأنه جمالات صفر**﴾ أي كالإبل السود، قاله مجاهد والحسن وقتادة والضحاك واختاره ابن جرير، وعن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: يعني حبال السفن، وعن ابن عباس: قطع نحاس. وروى البخاري عن ابن عباس قال: كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك، فنرفعه للبناء فنسميه القَصْرَ، ﴿**كأنه جمالات صفر**﴾ حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال ﴿**ويل يومئذ للمكذبين**﴾. ثم قال تعالى: ﴿**هذا يوم لا ينطقون**﴾ أي لا يتكلمون ﴿**ولا يؤذن لهم فيعتذرون**﴾ أي لا يقدرون على الكلام، ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا، بل قد قامت عليهم الحجة، ووقع القولُ عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون، وعرصات القيامة حالات، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة وعن هذه الحالة تارة، ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ، ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام: ﴿**ويل يومئذ للمكذبين**﴾.

وقوله: ﴿**هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون**﴾ وهذه مخاطبة من الخالق تعالى لعباده يقول لهم: ﴿**هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين**﴾ يعني أنه جمعهم بقدرته في صعيد واحد، يُسمعُهم الداعي وينفذهم البصر. وقوله: ﴿**فإن كان لكم كيد فكيدون**﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد أي إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي، وتَنجُوا من حكمي فافعلوا،

فإنكم لا تقدرون على ذلك، كما قال تعالى: ﴿ولا تضرونه شيئاً﴾ [هود:٥٧]، وفي الحديث: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلُغوا ضري فتضروني» [أخرجه مسلم].

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات، وترك المحرمات: أنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون أي بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظلل اليحموم، وهو الدخان الأسود المنتن. ﴿وفواكه ممايشتهون﴾ أي ومن سائر أنواع الثمار، مهما طلبوا وجدوا. ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون﴾ أي يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم. ثم قال تعالى مخبراً خبراً مستأنفاً: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ أي هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل، ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾. وقوله: ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون﴾ خطاب للمكذبين بيوم الدين، وأمَرَهم أمر تهديد ووعيد فقال تعالى: ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً﴾ أي مدة قليلة قصيرة ﴿إنكم مجرمون﴾ أي ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ كما قال تعالى: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ [لقمان:٢٤]. وقوله: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ أي إذاأمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة امتنعوا من ذلك واستكبرواعنه، ولهذا قال: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾. ثم قال: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾. أي إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأي كلام يؤمنون، كقوله تعالى: ﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾ [الجاثية:٦].

تفسير سورة النبأ وهي مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾.

يقول تعالى منكراً على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها: ﴿عم يتساءلون عن النبأ العظيم﴾ أي عن أي شيء يتساءلون؟ عن أمر القيامة، وهو النبأ العظيم، يعني الخبر الهائل المفظع، قال قتادة وابن زيد: النبأ العظيم البعث بعد الموت وقال مجاهد: هو القرآن. والأظهر الأول لقوله: ﴿الذي هم فيه مختلفون﴾ يعني الناس فيه على قولين مؤمن به وكافر، ثم قال تعالى متوعداً لمنكري القيامة: ﴿كلا سيعلمون * ثم كلا سيعلمون﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد. ثم شرع تبارك وتعالى يبين قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة

والأمور العجيبة، الدالة على قدرته على المعاد وغيره، فقال: ﴿**ألم نجعل الأرض مهاداً**﴾ أي ممهدة للخلائق ذَلُولاً لهم، قارّةً ساكنة ثابتة، ﴿**والجبال أوتاداً**﴾ أي جعلها لها أوتاداً أرساها بها وثبتها وقرّرها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها. ثم قال: ﴿**وخلقناكم أزواجاً**﴾ يعني ذكراً وأنثى، يستمتع كل منهما بالآخر، ويحصل التناسل بذلك، كقوله: ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة**﴾ [الروم:٢١]. وقوله: ﴿**وجعلنا نومكم سباتاً**﴾ أي قَطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعي في المعايش في عرض النهار. وقد تقدم مثل هذه الآية في سورة الفرقان [آية:٤٧]. ﴿**وجعلنا الليل لباساً**﴾ أي يغشى الناسَ ظلامُه وسوادُه، كما قال: ﴿**والليل إذا يغشاها**﴾ [الشمس:٤]. وقال قتادة في قوله: ﴿**وجعلنا الليل لباساً**﴾ أي سكناً. وقوله: ﴿**وجعلنا النهار معاشاً**﴾ أي جعلناه مشرقاً مُنيراً مضيئاً، ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات، وغير ذلك. وقوله: ﴿**وبنينا فوقكم سبعاً شداداً**﴾ يعني السموات السبع في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات، ولهذا قال: ﴿**وجعلنا سراجاً وهاجاً**﴾ يعني الشمس المنيرة على جميع العالم التي يتوهج ضوؤها لأهل الأرض كلهم. وقوله: ﴿**وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً**﴾ عن ابن عباس: ﴿**وأنزلنا من المعصرات**﴾ قال: الرياح. وكذا قال مجاهد وقتادة وزيد بن أسلم [وغيرهم]، ومعنى هذا القول أنها تستدر المطر من السحاب، وقال ابن عباس [أيضا]: من المعصرات أي: من السحاب، وكذا قال أبو العالية والحسن والثوري [وغيرهم] واختاره ابن جرير. وقال الفراء: هي السحاب التي تَتَحَلَّب بالمطر ولم تُمطر بعدُ، كما يقال: امرأة معصر، إذا دنا حيضها ولم تحض. والأظهر أن المراد بالمعصرات: السحاب، كما قال تعالى: ﴿**الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله**﴾ [الروم:٤٨] أي من بينه.

وقوله: ﴿**ماء ثجاجاً**﴾ قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس: منصباً وقال الثوري: متتابعاً. وقال ابن زيد: كثيراً.

وقوله: ﴿**لنخرج به حباً ونباتاً. وجنات ألفافاً**﴾ أي لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك ﴿**حباً**﴾ يدخر للأناسي والأنعام ﴿**ونباتاً**﴾ أي خضراً يؤكل رطباً، ﴿**وجنات**﴾ أي بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة، وألوان مختلفة، وطعوم وروائح متفاوتة، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعاً، ولهذا قال وجنات ألفافاً، قال ابن عباس وغيره: مجتمعة، وهذه كقوله تعالى: ﴿**وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل**﴾ الآية[الرعد:٤]

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ
فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾

إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفصل، وهو يوم القيامة: إنه مؤقت بأجل معدود، لا يزاد عليه ولا ينقص منه، ولا يعلم وقتَه على التعيين إلا الله عز وجل، كما قال: ﴿**وما نؤخره إلا لأجل معدود**﴾ [هود: ١٠٤]. ﴿**يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً**﴾ قال مجاهد: زُمَراً. قال ابن جرير: يعني تأتي كل أمة مع رسولها، كقوله: ﴿**يوم ندعو كل أناس بإمامهم**﴾ [الإسراء: ٣١]. روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون» قالوا: أربعون يوماً؟ قال [أبوهريرة]: «أبيت». قالوا: أربعون شهراً؟ قال: «أبيت». قالوا: أربعون سنة؟ قال: «أبيت». قال: «ثم يُنزلُ الله من السماء ماء فينبُتونَ كما ينبتُ البقلُ، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يَبلَى إلا عظماً واحداً، وهو عَجْبُ الذنَب، ومنه يُرَكَّبُ الخَلْقُ يوم القيامة».

﴿**وفتحت السماء فكانت أبواباً**﴾ أي طرقاً ومسالك لنزول الملائكة، ﴿**وسيرت الجبال فكانت سراباً**﴾، كقوله: ﴿**وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب**﴾ [النمل: ٨٨]، وقال ههنا: ﴿**فكانت سراباً**﴾ أي يخيل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء، وبعد هذا تذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر، كما قال: ﴿**ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً. فيذرها قاعاً صفصفاً. لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً**﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

وقوله: ﴿**إن جهنم كانت مرصاداً**﴾ أي مرصدة مُعَدَّة، ﴿**للطاغين**﴾ وهم المَرَدة العصاة المخالفون للرسل، ﴿**مآباً**﴾ أي مرجعاً ومصيراً. وقال الحسن وقتادة في قوله: ﴿**إن جهنم كانت مرصاداً**﴾ يعني أنه لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز بالنار، فإن كان معه جواز نجا، وإلا احتبس، وقال سفيان الثوري: عليها ثلاث قناطر.

وقوله: ﴿**لا بثين فيها أحقاباً**﴾ أي ماكثين فيها أحقاباً، وهي جمع حُقب، وهو المدة من الزمان، وقد اختلفوا في مقداره، فقال علي بن أبي طالب لهلال الهَجَري: ما تجدون الحُقْبَ في كتاب الله المنزل؟ قال: نجده ثمانين سنة، كل سنة اثنا عشر شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً، كل يوم ألف سنة. وهكذا روي عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وابن عباس وسعيد بن جبير وعمرو بن ميمون والحسن وقتادة والربيع بن أنس والضحاك. وعن الحسن والسدي أيضاً: سبعون سنة كذلك. وعن عبد الله بن عمرو: الحقب أربعون سنة كل يوم منها كألف سنة مما تعدون.

وقال بُشَير بن كعب: ذُكِر لي أن الحقب الواحد ثلثمائة سنة، كل سنة اثنا عشر شهراً، كل سنة ثلثمائة وستون يوماً، كل يوم منها ألف سنة

وقال السدي: سبعمائة حُقب، كل حقب سبعون سنة، كل سنة ثلثمائة وستون يوماً، كل يوم كألف سنة مما تعدون، وقد قال مقاتل بن حيَّان: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى:

﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾.

وقال خالد بن مَعْدان: هذه الآية وقوله تعالى: ﴿إلا ما شاء ربك﴾ [هود:١٠٧] في أهل التوحيد. رواهما ابن جرير. ثم قال: ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾ متعلقاً بقوله: ﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً﴾ ثم يحدث الله لهم بعد ذلك عذاباً من شكل آخر ونوع آخر. ثم قال: والصحيح أنها لا انقضاء لها كما قال قتادة والربيع بن أنس. وعن الحسن قال: أما الأحقاب فليس لها عِدّة إلا الخلود في النار، ولكن ذكروا أن الحقب سبعون سنة كل يوم منها كألف سنة مما تعدون. وقال قتادة: هو ما لا انقطاع له، وكلما مضى حقب جاء حقب بعده. وذكر لنا أن الحُقْب ثمانون سنة. وقال الربيع بن أنس: لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله، ولكن الحقب الواحد ثمانون سنة، والسنة ثلثمائة وستون يوماً، وكل يوم كألف سنة مما تعدون.

وقوله: ﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً﴾ أي لا يجدون في جهنم برداً لقلوبهم، ولا شراباً طيباً يتغذون به. ولهذا قال: ﴿إلا حميماً وغساقاً﴾ قال أبو العالية: استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق، وكذا قال الربيع بن أنس. فأما الحميم: فهو الحار الذي قد انتهى حره. والغَسّاق: هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده، ولا يواجه من نتنه. أجارنا الله من ذلك بمنه وكرمه. قال ابن جرير: وقيل: المراد بقوله: لا يذوقون فيها برداً يعني النوم.

وقد رواه ابن أبي حاتم عن مرة الطيب. ونقله عن مجاهد أيضاً. وحكاه البغوي عن أبي عُبيدة، والكسائي أيضاً. وقوله: ﴿جزاء وفاقاً﴾ أي هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وَفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا، قاله مجاهد وقتادة وغير واحد. ثم قال: ﴿إنهم كانوا لا يرجون حساباً﴾ أي لم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يجازون فيها ويحاسبون، ﴿وكذبوا بآياتنا كذاباً﴾ أي وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة. وقوله: ﴿كذاباً﴾ أي تكذيباً، وهو مصدر من غير الفعل.

وقوله تعالى: ﴿وكل شي أحصيناه كتاباً﴾ أي وقد عَلِمنا أعمال العباد كلهم، وكتبناها عليهم، وسنجزيهم على ذلك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وقوله: ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ أي يقال لأهل النار: ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه، ﴿وآخر من شكله أزواج﴾ [ص:٥٨]. عن عبد الله بن عمرو قال: لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه: ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ قال: فهم في مزيد من العذاب أبداً.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم، فقال:

﴿إن للمتقين مفازاً﴾ قال ابن عباس والضحاك: متنزهاً. وقال مجاهد وقتادة: فازوا فنجوا من النار. والأظهر هٰهنا قول ابن عباس لأنه قال بعده: ﴿حدائق﴾ وهي البساتين من النخيل وغيرها، ﴿وأعناباً. وكواعب أتراباً﴾ أي وحوراً كواعب، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: ﴿كواعب﴾ أي نواهد، يعنون أن ثديهن نواهد لم يتدلين لأنهن أبكار عُرُب أتراب أي في سن واحد كما تقدم بيانه في سورة الواقعة.

وقوله: ﴿وكأساً دهاقاً﴾ قال ابن عباس: مملوءة ومتابعة. وقال عكرمة: صافية. وقال مجاهد والحسن وقتادة وابن زيد: ﴿دهاقاً﴾ الملأى المترعة. وقال مجاهد وسعيد بن جبير هي المتتابعة. وقوله: ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً﴾، كقوله: ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ [الطور:٢٣] أي ليس فيها كلام لاغ عار عن الفائدة، ولا إثم كذب، بل هي دار السلام، وكل ما فيها سالم من النقص. وقوله: ﴿جزاءً من ربك عطاء حساباً﴾ أي هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه بفضله ورحمته، ﴿عطاء حساباً﴾ أي كافياً وافراً، تقول العرب: «أعطاني فأحسبني» أي كفاني ومنه «حسبي الله» أي الله كافيّ.

﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ﴿٣٧﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وأنه رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء. وقوله: ﴿لا يملكون منه خطاباً﴾ أي لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، كقوله: ﴿يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾ [هود:١٠٥].

وقوله: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون﴾ اختلف المفسرون في المراد بالروح هٰهنا ما هو؟ على أقوال: أحدها: عن ابن عباس أنهم أرواح بني آدم. الثاني: هم بنو آدم قاله الحسن وقتادة، وقال قتادة: هذا مما كان ابن عباس يكتمه. الثالث: أنهم خلق من خلق الله على صور بني آدم وليسوا بملائكة ولا بشر، وهم يأكلون ويشربون، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو صالح والأعمش. الرابع: هو جبريل. قاله الشعبي وسعيد بن جبير والضحاك، ويستشهد لهذا القول بقوله: ﴿نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤]. وقال مقاتل بن حيان: الروح: أشرف الملائكة، وأقرب إلى الرب عز وجل، وصاحب الوحي. الخامس: أنه القرآن، قاله ابن زيد، كقوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ الآية[الشورى:٥٢]. السادس: أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات. قال ابن عباس: هو ملك عظيم من أعظم الملائكة خلقاً.

وتوقف ابن جرير فلم يقطع بواحد من هذه الأقوال كلها، والأشبه عندي والله أعلم أنهم بنو آدم.

وقوله: ﴿إلا من أذن له الرحمن﴾، كقوله: ﴿يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾ [هود:١٠٥]. وكما ثبت في الصحيح: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل». وقوله: ﴿وقال صواباً﴾ أي حقاً، ومن الحق: «لا إله إلا الله»، كما قاله أبو صالح وعكرمة. وقوله: ﴿ذلك اليوم الحق﴾ أي الكائن لا محالة ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً﴾ أي مرجعاً وطريقاً يهتدي إليه ومنهجاً يمر به عليه. وقوله: ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً﴾ يعني يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريباً، لأن كل ما هو آت آت. ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾ أي يعرض عليه جميع أعماله، خيرها وشرها، قديمها وحديثها، كقوله: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾ [الكهف:٤٩]، وكقوله: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ [القيامة:١٣]. ﴿ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً﴾ أي يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا تراباً، ولم يكن خُلِقَ، ولا خرج إلى الوجود. وذلك حين عاين عذاب الله، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سُطِّرت عليه بأيدي الملائكة السَفَرة الكرام البَرَرة. وقيل: إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا، فيَفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور، حتى إنه ليقتص للشاة الجمَّاء من القرناء. فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كوني تراباً، فتصير تراباً. فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يا ليتني كنت تراباً﴾ أي كنت حيواناً فأرجع إلى التراب.

تفسير سورة النازعات وهي مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ
ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا
كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾.

قال ابن مسعود وابن عباس ومسروق وسعيد بن جبير وأبو صالح وأبو الضحى والسدي: ﴿والنازعات غرقاً﴾ الملائكة، يعنون حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعنف فتُغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حَلَّته من نشاط، وهو قوله: ﴿والناشطات نشطاً﴾ قاله ابن عباس. وعن ابن عباس: ﴿والنازعات﴾ هي أنفس الكفار تنزع ثم تنشط ثم تغرق في النار. وقال مجاهد: الموت. وقال الحسن وقتادة: هي النجوم. وقال عطاء ابن أبي رباح في قوله: ﴿والناشطات﴾ هي القسيّ في القتال. والصحيح الأول، وعليه الأكثرون.

وأما قوله: ﴿والسابحات سبحاً﴾ فقال ابن مسعود: هي الملائكة، ورُوي عن علي ومجاهد وسعيد بن جُبير وأبي صالح مثل ذلك. وعن مجاهد: ﴿والسابحات سبحاً﴾ الموت. وقال قتادة: هي النجوم، وقال عطاء بن أبي رباح، هي السفن.

وقوله: ﴿فالسابقات سبقاً﴾ روي عن علي ومسروق ومجاهد وأبي صالح والحسن البصري: يعني الملائكة، قال الحسن: سبقت إلى الإيمان والتصديق به وعن مجاهد: الموت.

وقال قتادة: هي النجوم، وقال عطاء: هي الخيل في سبيل الله. وقوله: ﴿**فالمدبرات أمراً**﴾ قال علي ومجاهد والحسن والسدي [وغيرهم]: هي الملائكة، زاد الحسن: تدبر الأمر من السماء إلى الأرض. يعني بأمر ربها عز وجل، ولم يختلفوا في هذا. وقوله: ﴿**يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة**﴾ قال ابن عباس: هما النفختان الأولى والثانية، وهكذا قال مجاهد والحسن وغير واحد. وعن مجاهد: أما الأولى وهي قوله: ﴿**يوم ترجف الراجفة**﴾ فكقوله جلت عظمته: ﴿**يوم ترجف الأرض والجبال**﴾ [المزمل:١٤]، والثانية ـ وهي الرادفة ـ فهي كقوله: ﴿**وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة**﴾ [الحاقة:١٤]. وقد روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه». فقال رجل: يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك، قال: «إذاً يكفيك الله ما أهَمَّك من دنياك وآخرتك». وقد رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم، ولفظ الترمذي وابن أبي حاتم: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناس اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه». [سنده حسن].

وقوله: ﴿**قلوب يومئذ واجفة**﴾ قال ابن عباس: يعني خائفة. وكذا قال مجاهد وقتادة. ﴿**أبصارها خاشعة**﴾ أي أبصار أصحابها. وإنما أضيف إليها للملابسة، أي ذليلة حقيرة، مما عاينت من الأهوال. وقوله: ﴿**يقولون أئنا لمردودون في الحافرة**﴾ يعني مشركي قريش ومن قال بقولهم في إنكار المعاد. يستبعدون وقوعَ البعث بعد المصير إلى الحافرة، وهي القبور، قاله مجاهد. وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها، ولهذا قالوا: ﴿**أئذا كنا عظاماً نخرة**﴾. وعن ابن عباس، ومحمد بن كعب والسدي وقتادة [وغيرهم]: الحافرة: الحياة بعد الموت، وقال ابن زيد: الحافرة: النار. وما أكثر أسماءها! هي النار والجحيم وسقر وجهنم والهاوية والحافرة ولظى والحُطَمة، وأما قولهم: ﴿**تلك إذاً كرة خاسرة**﴾ فقال محمد بن كعب: قالت قريش لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن. قال الله تعالى: ﴿**فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة**﴾ أي فإنما هو أمر من الله لا مثنوية فيه ولا تأكيد، فإذا الناس قيام ينظرون، وهو أن يأمر الله تعالى إسرافيلَ فينفخ في الصور نفخة البعث، فإذا الأولون والآخرون قيامٌ بين يَدَي الرب عز وجل ينظرون، كما قال: ﴿**يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا**﴾ [الإسراء:٥٢]. قال مجاهد: ﴿**فإنما هي زجرة واحدة**﴾ صيحة واحدة. وقال إبراهيم التيمي: أشد ما يكون الرب عز وجل غضباً على خلقه يوم يبعثهم، وقال الحسن البصري: زجرة من الغضب. وقال أبو مالك والربيع بن أنس: زجرة واحدة هي النفخة الآخرة. وقوله: ﴿**فإذا هم بالساهرة**﴾ قال ابن عباس: الساهرة الأرض كلها، وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وأبو صالح. وقال عكرمة والحسن والضحاك وابن زيد: وجه الأرض. وقال مجاهد: كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها. قال: والساهرة المكان المستوي.

وعن سهل بن سعد الساعدي ﴿فإذا هم بالساهرة﴾ قال: أرض بيضاء عفراء خالية كالخُبزَة النَقِيّ. وقال الربيع بن أنس: ﴿فإذا هم بالساهرة﴾ يقول الله عز وجل: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار﴾ [إبراهيم:٤٨]، ويقول: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً. فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾ [طه:١٠٥ـ١٠٦]. وقال: ﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة﴾ [الكهف:٤٧] وبرزت الأرض التي عليها الجبال وهي لا تعد من هذه الأرض وهي أرض لم يعمل عليها خطيئة، ولم يهرَق عليها دم.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾.

يخبر تعالى رسوله محمداً ﷺ عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه ابتعثه إلى فرعون، وأيده الله بالمعجزات، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وكذلك عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به، ولهذا قال في آخر القصة: ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ فقوله: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ أي هل سمعت بخبره؟ ﴿إذ ناداه ربه﴾ أي كلمه نداء ﴿بالواد المقدس﴾ أي المطهر ﴿طوى﴾ وهو اسم الوادي على الصحيح، كما تقدم في سورة طه. فقال له: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أي تجبر وعتا، ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى﴾ أي قل له هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تَزكّى به، أي تسلم وتطيع. ﴿وأهديك إلى ربك﴾ أي أدلك إلى عبادة ربك، ﴿فتخشى﴾ أي فيصير قلبك خاضعاً له مطيعاً خاشعاً بعدما كان قاسياً خبيثاً بعيداً من الخير. ﴿فأراه الآية الكبرى﴾ يعني فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قوية، ودليلاً واضحاً على صدق ما جاءه به من عند الله، ﴿فكذب وعصى﴾ أي فكذب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة. وحاصله أنه كفر قلبه فلم ينفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره، وعلمُهُ بأن ما جاء به حق لا يلزم منه أنه مؤمن به، لأن المعرفة علم القلب، والإيمان عمله وهو الانقياد للحق والخضوع له.

وقوله: ﴿ثم أدبر يسعى﴾ أي في مقابلة الحق بالباطل، وهو جَمعُهُ السحرة ليقابلوا ما جاء به موسى عليه السلام من المعجزة الباهرة، ﴿فحشر فنادى﴾ أي في قومه ﴿فقال أنا ربكم الأعلى﴾ قال ابن عباس ومجاهد: وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله ما علمت لكم من إله غيري بأربعين سنة. قال الله تعالى: ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ أي انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا، ﴿ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾ [هود:٩٩]، كما قال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾ [القصص:٤١]. هذا هو الصحيح في معنى الآية، أن المراد بقوله: ﴿نكال الآخرة والأولى﴾ أي الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ أي لمن يتعظ وينزجر.

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾.

يقول تعالى محتجاً على منكري البعث في إعادة الخلق بعد بدئه: **﴿أأنتم﴾** أيها الناس **﴿أشد خلقاً أم السماء﴾** يعني بل السماء أشدّ خلقاً منكم، كما قال تعالى: **﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾** [غافر: ٥٧]، وقوله: **﴿بناها﴾** فسره بقوله: **﴿رفع سمكها فسواها﴾** أي جعلها عالية البناء بعيدة الفناء مستوية الأرجاء، مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء. وقوله: **﴿وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾** أي جعل ليلها مظلماً أسود حالكاً، ونهارها مضيئاً. قال ابن عباس: أغطش ليلها: أظلمه، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وجماعة كثيرون. **﴿وأخرج ضحاها﴾** أي أنار نهارها. وقوله: **﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾** فسره بقوله: **﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾**. وقد تقدم في سورة حم السجدة[آية: ٩] أن الأرض خلقت قبل خلق السماء، ولكن إنما دُحيت بعد خلق السماء، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل. وهذا معنى قول ابن عباس وغير واحد واختاره ابن جرير. وعن ابن عباس: **﴿دحاها﴾** ودَحْيها أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام، فذلك قوله: **﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾**.

وقوله: **﴿والجبال أرساها﴾** أي قررها وأثبتها وأكّدها في أماكنها، وهو الحكيم العليم، الرؤوف بخلقه الرحيم.

وقوله: **﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾** أي دحا الأرض فأنبع عيونها، وأظهر مكنونها، وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها، وثبت جبالها لتستقر بأهلها ويقر قرارها، كل ذلك متاعاً لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار، إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل.

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: **﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى﴾** وهو يوم القيامة، قاله ابن عباس، سميت بذلك لأنها تَطُم على كل أمر هائل مفظع، كما قال تعالى: **﴿والساعة أدهى وأمر﴾** [القمر: ٤٦]. **﴿يوم يتذكر الإنسان ما سعى﴾** أي حينئذ يتذكرُ ابن آدم جميع عمله خيره وشره كما قال تعالى: **﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾** [الفجر: ٢٣]. **﴿وبرزت الجحيم لمن يرى﴾** أي أظهرت للناظرين فرآها الناس عياناً، **﴿فأما من طغى﴾** أي تَمَرّد وعتا، **﴿وآثر الحياة الدنيا﴾** أي قدمها على أمر دينه وأخراه **﴿فإن الجحيم هي المأوى﴾** أي فإن مصيره إلى الجحيم وإن مطعمه

من الزقوم، ومشربه من الحميم. ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾ أي خاف القيام بين يدي الله عز وجل، وخاف حُكْمَ الله فيه، ونهى نفسه عن هواها، وردها إلى طاعة مولاها ﴿فإن الجنة هي المأوى﴾ أي منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء. ثم قال تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها﴾ أي ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق، بل مردها ومرجعها إلى الله عز وجل، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين، ﴿ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال ههنا: ﴿إلى ربك منتهاها﴾. ولهذا لما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» [رواه مسلم].

وقوله: ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ أي إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده اتبعك فأفلح وأنجح، والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك. وقوله تعالى: ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ أي إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضحى من يوم. وعن ابن عباس: ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ أما عشية: فما بين الظهر إلى غروب الشمس ﴿أو ضحاها﴾ ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار. وقال قتادة: وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة.

تفسير سورة عبس وهي مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ (٤) أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢) فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ (١٤) بِأَيْدِى سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ (١٦) ﴾.

ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطبُ بعض عظماء قريش، وقد طَمِع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابنُ أم مكتوم ـ وكان ممن أسلم قديماً ـ فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه، وودّ النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة، ذلك الرجل طمعاً ورغبة في هدايته. وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه، وأقبل على الآخر فأنزل الله تعالى: ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى﴾ أي يحصل له زكاة وطهارة في نفسه ﴿أو يذكر فتنفعه الذكرى﴾ أي يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم ﴿أما من استغنى. فأنت له تصدى﴾ أي أما الغني فأنت تتعرض له لعله يهتدي ﴿وما عليك ألا يزكى﴾ أي ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة ﴿وأما من جاءك يسعى. وهو يخشى﴾ أي يقصدك ويؤمك ليهتدي بما تقول له: ﴿فأنت عنه تلهى﴾ أي تتشاغل، ومن ههنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يخص بالإنذار أحداً.

روى الحافظ أبو يعلى في مسنده عن قتادة عن أنس رضي الله عنه في قوله: ﴿**عبس وتولى**﴾ جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبي بن خلف، فأعرض عنه، فأنزل الله عز وجل ﴿**عبس وتولى. أن جاءه الأعمى**﴾ فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه.

قال قتادة: أخبرني أنس بن مالك قال: رأيته يوم القادسية وعليه درع ومعه راية سوداء يعني ابن أم مكتوم [له شاهدان من حديث عائشة وابن عمر فهو صحيح بهما].

وهكذا ذكر عروة بن الزبير ومجاهد وأبو مالك وقتادة والضحاك وابن زيد وغير واحد من السلف والخلف: أنها نزلت في ابن أم مكتوم. والمشهور أن اسمه عبد الله ويقال عمرو، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**كلا إنها تذكرة**﴾ أي هذه السورة، أو الوصية بالمساواة بين الناس في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم. وقال قتادة والسدي: ﴿**كلا إنها تذكرة**﴾ يعني القرآن، ﴿**فمن شاء ذكره**﴾ أي فمن شاء ذكر الله تعالى في جميع أموره ويحتمل عود الضمير إلى الوحي لدلالة الكلام عليه.

وقوله: ﴿**في صحف مكرمة. مرفوعة مطهرة**﴾ أي هذه السورة أو العظة، وكلاهما متلازم، بل جميع القرآن في صحف مكرمة أي معظمة موقرة، مرفوعة أي عالية القدر، مطهرة أي من الدنس والزيادة والنقص. وقوله: ﴿**بأيدي سفرة**﴾ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وابن زيد: هي الملائكة. وقال وهب بن منبه: هم أصحاب محمد ﷺ، وقال قتادة: هم القراء. وعن ابن عباس: السفرة بالنبطية: القراء. وقال ابن جرير: والصحيح أن السفرة الملائكة، والسفرة يعني بين الله تعالى وبين خلقه، وقال البخاري: سَفَرة: الملائكة.

وقوله: ﴿**كرام بررة**﴾ أي خلقهم كريم حسنٌ شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة. ومن ههنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد. روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق، له أجران» أخرجه الجماعة.

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾.

يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم: ﴿**قتل الإنسان ما أكفره**﴾ قال ابن عباس: لعن الإنسان، وكذا قال أبو مالك. وهذا لجنس الإنسان المكذب، لكثرة تكذيبه بلا مستند، بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم. قال ابن جرير: ﴿**ما أكفره**﴾ أي ما أشد كفره، ويحتمل أن يكون المراد: أي شيء جعله كافراً؟ أي ما حمله على التكذيب بالمعاد. وقال قتادة ﴿**ما أكفره**﴾ ما ألعنه، وقد حكاه البغوي عن مقاتل والكلبي. ثم بين تعالى له كيف خلَقه

من الشيء الحقير، وأنه قادر على إعادته كما بدأه فقال: ﴿من أي شيء خلقه. من نطفة خلقه فقدره﴾ أي قدر أجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد ﴿ثم السبيل يسره﴾ عن ابن عباس: ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه. وكذا قال عكرمة والضحاك وأبو صالح وقتادة والسدي واختاره ابن جرير. وقال مجاهد: هذه كقوله: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ [الإنسان:٣] أي بَيّنا له ووضحّناه وسهلنا عليه عمله، وكذا قال الحسن وابن زيد، وهذا هو الأرجح والله أعلم. وقوله: ﴿ثم أماته فأقبره﴾ أي إنه بعد خلقه له أماته فأقبره أي جعله ذا قبر. وقوله: ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ أي بعثه بعد موته، ومنه يقال البعث والنشور، ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ [الروم:٢٠]. وفي الصحيح عن أبي هريرة: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يُركَّب». [متفق عليه مرفوعاً].

وقوله: ﴿كلا﴾ قال ابن جرير: يقول: كلا ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر من أنه قد أدى حق الله عليه في نفسه وماله، ﴿لما يقض ما أمره﴾ يقول: لم يُؤدِّ ما فرض عليه من الفرائض لربه عز وجل. وعن مجاهد قال: لا يقضي أحد أبداً كل ما افتُرض عليه. وحكاه البغوي عن الحسن البصري بنحو من هذا. ولم أجد للمتقدمين فيه كلاماً سوى هذا. والذي يقع لي في معنى ذلك، والله أعلم، أن المعنى: ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ أي بعثه ﴿كلا لما يقض ما أمره﴾ أي لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة، ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب الله له أن سيوجد منهم ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كوناً وقدراً، فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

وقوله: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ فيه امتنان، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعد ما كانت عظاماً بالية وتراباً متمزقاً، ﴿أنا صببنا الماء صباً﴾ أي: أنزلناه من السماء على الأرض، ﴿ثم شققنا الأرض شقاً﴾ أي أسكناه فيها فدخل في تُخُومها وتخلَّل في أجزاء الحب المودَع فيها، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض، ﴿فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً﴾ فالحب: كل ما يذكر من الحبوب، والعنب معروف، والقضب هو الفِصْفِصة التي تأكلها الدواب رطبة. ويقال لها: القَتّ أيضاً. قال ذلك ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي. وقال الحسن البصري: القضب: العلف. ﴿وزيتوناً﴾ وهو معروف، وهو أدْمٌ وعصيره أدم، ويستصبح به ويدهن به ﴿ونخلاً﴾ يؤكل بلحاً بسراً، ورطباً وتمراً، ونيئاً ومطبوخاً، ويعتصر منه رُبٌّ وخل. ﴿وحدائق غلباً﴾ أي بساتين. قال الحسن وقتادة: ﴿غُلْباً﴾ نخل غلاظ كرام. وقال ابن عباس ومجاهد: الحدائق: كل ما التف واجتمع. وقال ابن عباس أيضاً: غلبا: الشجر الذي يستظل به، وقال ابن عباس [أيضا]: ﴿وحدائق غلباً﴾ أي طوال. وقال عكرمة: غلباً أي غلاظ الأوساط. وفي رواية: غلاظ الرقاب.

وقوله: ﴿وفاكهة وأباً﴾ أما الفاكهة فكل ما يتفكه به من الثمار. قال ابن عباس: الفاكهة:

كل ما أكل رطباً. والأبّ ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس، وفي رواية عنه: هو الحشيش للبهائم. وقال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك: الأب الكلأ، وعن مجاهد والحسن وقتادة وابن زيد: الأب للبهائم كالفاكهة لبني آدم، وعن عطاء: كل شيء نبت على وجه الأرض فهو أبٌّ. وقال الضحاك: كل شيء أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو أبٌّ. وعن ابن عباس: الأب الكلأ والمرعى. وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وابن زيد وغير واحد. وسئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿**وفاكهة وأباً**﴾ فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم. [وروى ابن جرير] عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب ﴿**عبس وتولى**﴾ فلما أتى على هذه الآية ﴿**وفاكهة وأبا**﴾ قال: قد عرفنا الفاكهة، فما الأب؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف. وهو صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس، وهو محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكُلٌّ من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض، لقوله: ﴿**فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأباً**﴾. وقوله: ﴿**متاعاً لكم ولأنعامكم**﴾ أي عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة.

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

قال ابن عباس: ﴿**الصاخة**﴾ اسم من أسماء يوم القيامة، عظمه الله وحذره عباده، وقال ابن جرير: لعله اسم للنفخة في الصور. وقال البغوي: **الصاخة** يعني صيحة القيامة، سميت بذلك لأنها تَصُخّ الأسماع، أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تُصمّها. ﴿**يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه**﴾ أي يراهم ويفر منهم ويبتعد منهم لأن الهول عظيم والخطب جليل. قال عكرمة: يلقى الرجل زوجته فيقول لها: يا هذه أي بعل كنتُ لك؟ فتقول: نعم البعل كنت، وتثني بخير ما استطاعت، فيقول لها: فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهبينها لي لعلي أنجو مما ترين، فتقول له: ما أيسر ما طلبت، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً أتخوف مثل الذي تخاف. قال: وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول: يا بني أي والد كنت لك؟ فيثني بخير. فيقول له: يا بني إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى. فيقول ولده: يا أبت، ما أيسر ما طلبت، ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً، يقول الله تعالى: ﴿**يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه**﴾. وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة أنه إذا طلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلائق يقول: نفسي نفسي. [متفق عليه]، ولهذا قال تعالى: ﴿**يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه**﴾. قال قتادة: الأحب فالأحب والأقرب فالأقرب من هول ذلك اليوم.

وقوله: ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ أي هو في شُغُل شاغل عن غيره. روى ابن أبي حاتم والترمذي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «تحشرون حفاة عراة غرلاً» فقالت امرأة: أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «يا فلانة لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه». وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، [وروى النسائي نحوه عن عائشة مرفوعاً].

وقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة﴾ أي يكون الناس هنالك فريقين وجوه مسفرة أي مستنيرة، ضاحكة مستبشرة أي مسرورة فرحة من السرور في قلوبهم، قد ظهر البشر على وجوههم، وهؤلاء هم أهل الجنة. ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة﴾ أي يعلوها ويغشاها قترة أي سواد. وقال ابن عباس: يغشاها سواد الوجوه. وقوله: ﴿أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ أي الكفرة قلوبهم، الفجرة في أعمالهم.

تفسير سورة التكوير وهي مكية.

روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من سَرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأيُ عين فليقرأ: ﴿إذا الشمس كورت﴾، و ﴿إذا السماء انفطرت﴾، و ﴿إذا السماء انشقت﴾ وهكذا رواه الترمذي، [وقال: حسن غريب].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤ ﴾.

قال ابن عباس: ﴿إذا الشمس كورت﴾ يعني أظلمت. وعنه: ذهبت. وقال مجاهد: اضمحَلَّت وذهبت، وكذا قال الضحاك. وقال قتادة: ذهب ضوؤها. وقال سعيد بن جبير: غُوِّرت. وقال الربيع بن خُثَيم: رمي بها. وقال أبو صالح: ألقيت، وعنه أيضاً: نكست، وقال زيد بن أسلم: تقع في الأرض. قال ابن جرير: والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكوير جَمعُ الشيء بعضه إلى بعض، ومنه تكوير العمامة وهو لفها على الرأس، فمعنى قوله: ﴿كورت﴾ جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرمي بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها.

روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «الشمس والقمر يكوران يوم القيامة».

وقوله: ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ أي انتثرت، كما قال تعالى: ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾ [الانفطار: ٢]، وأصل الانكدار الانصباب. وقال مجاهد والربيع بن خثيم والحسن البصري وأبو صالح وحماد بن أبي سليمان والضحاك في قوله: ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ أي تناثرت. وقال ابن عباس: تغيرت.

وقوله: ﴿وإذا الجبال سيرت﴾ أي زالت عن أماكنها ونُسِفت، فتركت الأرض قاعاً صفصفا. وقوله: ﴿وإذا العشار عطلت﴾ قال عكرمة ومجاهد: عشار الإبل. قال مجاهد: تركت وسُيِّبت.

وقال أبي بن كعب والضحاك: أهملها أهلها، وقال الربيع بن خثيم: لم تحلب ولم تُصَرّ، تخلى منها أربابها. وقال الضحاك: تركت لا راعي لها. والمعنى في هذا كله متقارب. والمقصود أن العشار من الإبل وهي: خيارها والحوامل منها التي قد وصلت في حملها إلى الشهر العاشر، واحدتها عُشَراء، ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع، قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها، بعد ما كانوا أرغب شيء فيها بما دَهَمهم من الأمر العظيم المفظع الهائل، وهو أمر يوم القيامة وانعقاد أسبابها ووقوع مقدماتها. وقيل: بل يكون ذلك يوم القيامة، يراها أصحابها كذلك لا سبيل لهم إليها.

وقوله: ﴿**وإذا الوحوش حشرت**﴾ أي جمعت، كما قال تعالى: ﴿**وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون**﴾ [الأنعام:٣٨]. قال ابن عباس: يحشر كل شيء حتى الذباب. وكذا قال الربيع بن خُثَيم والسدي وغير واحد، وكذا قال قتادة في تفسير هذه الآية: إن هذه الخلائق موافية فيقضي الله فيها ما يشاء، وقال عكرمة: حشرها موتها. وروي عن ابن عباس قال: حشر البهائم موتها، وحشر كل شيء الموت غير الجن والإنس، فإنهما يوقفان يوم القيامة. وعن الربيع بن خثيم قال: أتى عليها أمر الله. وعن أبي بن كعب أنه قال: اختلطت. قال ابن جرير والأولى قول من قال: حشرت: جمعت، قال الله تعالى: ﴿**والطير محشورة**﴾ [ص:١٩] أي مجموعة.

وقوله: ﴿**وإذ البحار سجرت**﴾ عن علي رضي الله عنه [أنه قال] لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر. فقال: ما أراه إلا صادقاً. ﴿**والبحر المسجور**﴾ [الطور:٦]، ﴿**وإذا البحار سجرت**﴾. وقال ابن عباس وغير واحد: يرسل الله عليها الدّبور فتسعرها، وتصير ناراً تأجج، وقد تقدم الكلام على ذلك عند قوله: ﴿**والبحر المسجور**﴾.

وقال مجاهد والحسن بن مسلم: ﴿**سجرت**﴾ أوقدت. وقال الحسن: يبست. وقال الضحاك وقتادة: غاض ماؤها فذهب فلم يبق فيها قطرة. وقال الضحاك أيضاً: فجرت، وقال السدي: فتحت وسيرت. وقال الربيع بن خثيم: فاضت.

وقوله: ﴿**وإذا النفوس زوجت**﴾ أي جمع كل شكل إلى نظيره، كقوله: ﴿**احشروا الذين ظلموا وأزواجهم**﴾ [الصافات:٢٢]. روى ابن أبي حاتم أن عمر قال للناس: ما تقولون في تفسير هذه الآية: ﴿**وإذا النفوس زوجت**﴾؟ فسكتوا. قال: ولكن هو الرجل يزوج نظيره من أهل الجنة، والرجل يزوج نظيره من أهل النار، ثم قرأ: ﴿**احشروا الذين ظلموا وأزواجهم**﴾. وعن ابن عباس قال: ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة. وقال مجاهد: الأمثال من الناس جمع بينهم. وكذا قال الربيع بن خثيم والحسن وقتادة واختاره ابن جرير وهو الصحيح.

قول آخر في قوله: ﴿**وإذا النفوس زوجت**﴾ عن ابن عباس قال: يسيل واد من أصل العرش من ماء فيما بين الصيحتين، ومقدار ما بينهما أربعون عاماً، فينبت منه كل خلق بلي من الإنسان

أو طير أو دابة، ولو مر عليهم مار قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم على الأرض قد نبتوا، ثم ترسل الأرواح فتزوج الأجساد فذلك قول الله تعالى: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ وكذا قال أبو العالية وعكرمة وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصري أيضاً. وقيل: زوج المؤمنون بالحور العين، وزوج الكافرون بالشياطين. حكاه القرطبي في «التذكرة».

وقوله: ﴿وإذا الموءودة سئلت * بأي ذنب قتلت﴾ والموءودة هي التي كان أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات، فيوم القيامة تسأل الموءودة على أي ذنب قتلت، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذاً؟ وقال ابن عباس: أي سألت. وكذا قال أبو الضحى: سألت أي طالبت بدمها. وعن السدي وقتادة مثله.

وروى الإمام أحمد عن جُدَامة بنت وهب أخت عكّاشة قالت: حضرت رسول الله ﷺ في ناس وهو يقول: «لقد هممت أن أنهى عن الغيلَة، فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يُغيلُونَ أولادهم ولا يضر أولادهم ذلك شيئاً» ثم سألوه عن العزل فقال رسول الله ﷺ: «ذلك الوأد الخفي وهو الموءودة سئلت» ورواه مسلم.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب، يقول الله تعالى: ﴿وإذا الموءودة سئلت * بأي ذنب قتلت﴾ قال: هي المدفونة.

وقوله: ﴿وإذا الصحف نشرت﴾ قال الضحاك: أعطي كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله، وقال قتادة: صحيفتك يا ابن آدم تُملِي فيها، ثم تطوى، ثم تنشر عليك يوم القيامة، فلينظر رجل ماذا يملي في صحيفته.

وقوله: ﴿وإذا السماء كشطت﴾ قال مجاهد: اجتذبت. وقال السدي: كشفت. وقال الضحاك: تنكشط فتذهب. وقوله: ﴿وإذا الجحيم سعرت﴾ قال السدي: أحميت، وقال قتادة: أوقدت. قال: وإنما يسعرها غضب الله وخطايا بني آدم. وقوله: ﴿وإذا الجنة أزلفت﴾ قال الضحاك وأبو مالك وقتادة والربيع بن خثيم: أي قربت إلى أهلها. وقوله: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ هذا هو الجواب، أي إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها، كما قال تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ [آل عمران: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ [القيامة: ١٣].

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

سئل عليّ عن: ﴿لا أقسم بالخنس. الجوار الكنس﴾ فقال: هي النجوم تخنِس بالنهار. وكذا روي عن ابن عباس والحسن والسدي وغيرهم: أنها النجوم.

وعن بكر بن عبد الله قال: هي النجوم الدراريّ، التي تجري تستقبل المشرق. وقال بعض الأئمة: إنما قيل للنجوم: الخنس أي في حال طلوعها، ثم هي جوار في فلكها، وفي حال غيبوبتها يقال لها: كُنَّس، من قول العرب أوى الظبي إلى كَناسه: إذا تغيب فيه. وقال عبد الله [بن مسعود]: بقر الوحش، وعن ابن عباس قال: البقر تكنس إلى الظل. وكذا قال سعيد بن جبير، وعن ابن عباس [أيضا]: هي الظباء. وكذا قال سعيد أيضاً ومجاهد والضحاك. وقال أبو الشعثاء جابر بن زيد: هي الظباء والبقر. وعن إبراهيم ومجاهد أنهما تذاكرا هذه الآية ﴿فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس﴾ فقال إبراهيم لمجاهد: قل فيها بما سمعت، قال: فقال مجاهد: كنا نسمع فيها شيئاً وناس يقولون: إنها النجوم، قال: فقال إبراهيم قل فيها بما سمعت، قال: فقال مجاهد: كنا نسمع أنها بقر الوحش حين تكنس في حُجْرتها، فقال إبراهيم إنهم يكذبون على عليّ، هذا كما رووا عن علي أنه ضمن الأسفل الأعلى والأعلى الأسفل. وتوقف ابن جرير هل هو النجوم، أو الظباء وبقر الوحش قال ويحتمل أن يكون الجميع مراداً.

وقوله: ﴿والليل إذا عسعس﴾ فيه قولان: أحدهما: إقباله بظلامه. وقال مجاهد: أظلم. وقال سعيد بن جبير: إذا نشأ. وقال الحسن البصري: إذا غَشي الناس. وكذا قال عطية العوفي. وقال ابن عباس: إذا أدبر. وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك. وكذا قال زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن: أي إذا ذهب فتولى.

وخرج علي رضي الله عنه حين ثَوّب المثوب بصلاة الصبح فقال: أين السائلون عن الوتر ﴿والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس ؟﴾ هذا حين أدبر.

وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿إذا عسعس﴾ إذا أدبر قال لقوله ﴿والصبح إذا تنفس﴾ أي أضاء. وعندي أن المراد بقوله: ﴿إذا عسعس﴾ إذا أقبل وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضاً، لكن الإقبال ههنا أنسب، كأنه أقسم تعالى بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كما قال: ﴿والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى﴾ [الليل:١-٢]، وقال: ﴿والضحى والليل إذا سجى﴾ [الضحى:١-٢] وغير ذلك من الآيات. وقال كثير من علماء الأصول: إن لفظة عسعس تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما والله أعلم. وقال ابن جرير: وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب يزعم أن عسعس دنا من أوله وأظلم.

وقوله: ﴿والصبح إذا تنفس﴾ قال الضحاك: إذا طلع، وقال قتادة، إذا أضاء وأقبل، وقال سعيد بن جبير: إذا نشأ، وهو المروي عن علي رضي الله عنه. وقال ابن جرير: يعني ضوء النهار إذا أقبل وتَبيَّن. وقوله: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ يعني إن هذا القرآن لتبليغ

رسول كريم، أي ملك شريف حَسَن الخلق، بهي المنظر، وهو جبريل عليه الصلاة والسلام، قاله ابن عباس والشعبي والحسن وغيرهم. ﴿**ذي قوة**﴾ كقوله تعالى: ﴿**علمه شديد القوى. ذو مرة**﴾ أي شديد الخَلْق، شديد البطش والفعل، ﴿**عند ذي العرش مكين**﴾ أي له مكانة عند الله عز وجل ومنزلة رفيعة. قال أبو صالح في قوله: ﴿**عند ذي العرش مكين**﴾ قال جبريل يدخل في سبعين حجاباً من نور بغير إذن، ﴿**مطاع ثم**﴾ أي له وجاهة وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى. قال قتادة ﴿**مطاع ثم**﴾ أي في السموات يعني ليس هو من أفناء الملائكة، بل هو من السادة والأشراف معتنى به انتخب لهذه الرسالة العظيمة.

وقوله: ﴿**أمين**﴾ صفة لجبريل بالأمانة، وهذا عظيم جداً أن الرب عز وجل يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل، كما زكى عبده ورسوله البشرى محمداً ﷺ بقوله: ﴿**وما صاحبكم بمجنون**﴾. قال الشعبي وميمون بن مهران وأبو صالح، ومن تقدم ذكرهم: المراد بقوله: ﴿**وما صاحبكم بمجنون**﴾ يعني محمداً ﷺ. وقوله تعالى: ﴿**ولقد رآه بالأفق المبين**﴾ يعني ولقد رأى محمدٌ جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح ﴿**بالأفق المبين**﴾ أي البين وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء، وهي المذكورة في قوله: ﴿**علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى. ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى**﴾ [النجم: ٥-١٠]، كما تقدم تفسير ذلك وتقريره. والدليلُ أن المراد بذلك جبريل عليه السلام، والظاهر والله أعلم أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء، لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤيا وهي الأولى، وأما الثانية وهي المذكورة في قوله: ﴿**ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى**﴾ [النجم: ١٣-١٦]، فتلك إنما ذكرت في سورة النجم وقد نزلت بعد الإسراء.

وقوله: ﴿**وما هو على الغيب بضنين**﴾ أي وما محمد على ما أنزله الله إليه بضنين: ببخيل بل يبذله لكل أحد. ومنهم من قرأ بالظاء: أي بمتهم. قال سفيان بن عيينة: ظنين وضنين سواء أي ما هو بكاذب، وما هو بفاجر. والظنين المتهم والضنين البخيل. وقال قتادة: كان القرآن غيباً فأنزله الله على محمد، فما ضَنَّ به على الناس، بل نشره وبلَّغه وبذله لكل من أراده، وكذا قال عكرمة وابن زيد وغير واحد. واختار ابن جرير قراءة الضاد ﴿**قلت**﴾: وكلاهما متواتر ومعناه صحيح كما تقدم. وقوله: ﴿**وما هو بقول شيطان رجيم**﴾ أي وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، أي لا يقدر على حمله ولا ينبغي له، كما قال: ﴿**وما تنزلت به الشياطين. وما ينبغي لهم وما يستطيعون. إنهم عن السمع لمعزولون**﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]. وقوله: ﴿**فأين تذهبون**﴾؟ أي فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه جاء من عند الله عز وجل، كما قال الصديق رضي الله عنه لوفد بني حنيفة حين قدموا مسلمين، وأمرهم فتلوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة الكذاب الذي هو في غاية الهذيان والركاكة،

فقال: ويحكم، أين يُذهب بعقولكم؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إلٍّ، أي من إله. وقال قتادة: ﴿فأين تذهبون﴾ أي عن كتاب الله وعن طاعته.

وقوله: ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ أي هذا القرآن ذكر لجميع الناس، يتذكرون به ويتعظون، ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ أي من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن، فإنه منجاة له وهداية، ولا هداية فيما سواه، ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ أي ليست المشيئة موكولة إليكم، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين.

تفسير سورة الانفطار وهي مكية.

روى النسائي عن جابر قال: قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطول فقال النبي ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ؟ أين كنت عن سبح اسم ربك الأعلى، والضحى، وإذا السماء انفطرت». وأصل الحديث مخرج في الصحيحين، ولكن ذُكر ﴿إذا السماء انفطرت﴾ في أفراد النسائي. وقد تقدم من رواية عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «من سره أن ينظر إلى القيامة رأي عين فليقرأ: إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت». [رواه أحمد والترمذي وقال: حسن غريب].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿إذا السماء انفطرت﴾ أي انشقت. كما قال: ﴿السماء منفطر به﴾ [المزمل: ١٨]. ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾ أي تساقطت. ﴿وإذا البحار فجرت﴾ قال ابن عباس: فجر الله بعضها في بعض. وقال الحسن: فجر الله بعضها في بعض فذهب ماؤها، وقال قتادة: اختلط عذبها بمالحها. وقال الكلبي: ملئت.

﴿وإذا القبور بعثرت﴾ قال ابن عباس: بُحِثَت. وقال السدي: تُبَعثر: تُحرَّك فيخرج من فيها. ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ أي إذا كان هذا، حصل هذا. وقوله: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾؟ هذا تهديد، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب، حيث قال: الكريم حتى يقول قائلهم غره كرمه، بل المعنى في هذه الآية: ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم أي العظيم حتى أقدمت على معصيته وقابلته بما لا يليق. (روى ابن أبي حاتم أن عمر سمع رجلاً يقرأ: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم؟﴾ فقال عمر: الجهل. وروى أيضاً عن ابن عمر قال: غره والله جهله. قال: ورُوي عن ابن عباس والربيع بن خثيم والحسن مثلُ ذلك) وقال قتادة: ﴿ما غرك بربك الكريم﴾ شيءٌ، ما غَرَّ ابن آدم غير هذا العدو الشيطان.

وقوله: ﴿**الذي خلقك فسواك فعدلك**﴾ أي ما غرك بالرب الكريم ﴿**الذي خلقك فسواك فعدلك**﴾ أي جعلك سَوياً مستقيماً معتدل القامة منتصبها، في أحسن الهيئات والأشكال. روى الإمام أحمد عن بُسْر بن جِحَاش القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال: «قال الله عز وجل: يا ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وَئِيدٌ، فجَمَعت ومَنعت حتى إذا بلغت التراقي قلتَ: أتصدقُ وأنّى أوانُ الصدقة». وكذا رواه ابن ماجه [قال البوصيري في الزوائد إسناده صحيح رجاله ثقات].

وقوله: ﴿**في أي صورة ما شاء ركبك**﴾ قال مجاهد: في أي شبه أب أو أم أوخال أو عم. وقال عكرمة: إن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير. وكذا قال أبو صالح: إن شاء في صورة كلب، وإن شاء في صورة حمار، وإن شاء في صورة خنزير. وقال قتادة: قادر والله ربنا على ذلك. ومعنى هذا القول عند هؤلاء أن الله عز وجل قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام، حَسَن المنظر والهيئة.

وقوله: ﴿**كلا بل تكذبون بالدين**﴾ أي إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي، تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب. وقوله تعالى: ﴿**وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون**﴾ يعني وإن عليكم لملائكة حَفَظَة كراماً فلا تقابلوهم بالقبائح، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم.

﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـًٔاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم، وهم الذين أطاعوا الله عز وجل ولم يقابلوه بالمعاصي. ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم، ولهذا قال: ﴿**يصلونها يوم الدين**﴾ أي يوم الحساب والجزاء والقيامة، ﴿**وماهم عنها بغائبين**﴾ أي لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ولو يوماً واحداً. وقوله: ﴿**وما أدراك ما يوم الدين**﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة، ثم أكده بقوله تعالى: ﴿**ثم ما أدراك ما يوم الدين**﴾، ثم فسره بقوله: ﴿**يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً**﴾ أي لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاَصه مما هو فيه، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. ونذكر ههنا حديث «يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، لا أملك لكم من الله شيئاً» [متفق عليه]. وقد تقدم في آخر تفسير سورة الشعراء، ولهذا قال: ﴿**والأمر يومئذ لله**﴾، كقوله ﴿**لمن الملك اليوم لله الواحد القهار**﴾ [غافر:١٦]، وكقوله: ﴿**الملك يومئذ الحق للرحمن**﴾ [الفرقان:٢٦]. قال قتادة ﴿**يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله**﴾ والأمر والله

اليوم لله، ولكنه لا ينازعه فيه يومئذ أحد.

تفسير سورة المطففين وهي مدنية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾.

روى النسائي وابن ماجه عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى: **﴿ويل للمطففين﴾** فحسَّنوا الكيل بعد ذلك. [إسناده جيد]. وروى ابن أبي حاتم عن هلال بن طلق قال: بينما أنا أسير مع ابن عمر فقلت: من أحسن الناس هيئةً وأوفاهم كيلاً؟ أهل مكة أو أهل المدينة؟ قال: حق لهم، أما سمعت الله تعالى يقول: **﴿ويل للمطففين﴾**. والمراد بالتطفيف ههنا البخس في المكيال والميزان، إما بالإزدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالنقصان إن قَضَاهم. ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخَسار والهَلَاك وهو الويل، بقوله: **﴿الذين إذا اكتالوا على الناس﴾** أي من الناس **﴿يستوفون﴾** أي يأخذون حقهم بالوافي والزائد، **﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾** أي ينقصون.

وقد أمر الله تعالى بالوفاء في الكيل والميزان، فقال: **﴿وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم * ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾** [الإسراء:٣٥]، وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال. ثم قال تعالى متوعداً لهم: **﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم﴾** أي أما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يَدَي من يعلم السرائر والضمائر في يوم عظيم الهول، كثير الفزع جليل الخطب، من خسر فيه أدخل ناراً حامية؟ وقوله: **﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾** أي يقومون حفاة عراة غُرلاً، في موقف صعب حَرِج ضيق ضَنك على المجرم، ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تَعْجزُ القوى والحواس عنه.

روى الإمام مالك عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه» رواه البخاري.

وروى الإمام أحمد عن المقداد بن الأسودالكندي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد، حتى تكون قيدَ ميل أو ميلين، قال: فتصهرهم الشمس، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم، منهم من يأخذه إلى عَقِبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حَقْوَيه، ومنهم من يلجمه إلجاماً» رواه مسلم. وعن ابن مسعود: يقومون أربعين سنة رافعي رؤوسهم إلى السماء لا يكلمهم أحد قد ألجم العرق بَرَّهم وفاجرهم. وعن ابن عمر: يقومون مائة سنة.

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ
ٱلدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (١٧) ﴾ .

يقول تعالى حقاً ﴿**إن كتاب الفجار لفي سجين**﴾ أي أن مصيرهم ومأواهم لفي سجين - فعيل من السجن وهو الضيق - كما يقال: فسّيق وشرّيب وسكّير ونحو ذلك، ولهذا عظم أمره فقال تعالى: ﴿**وما أدراك ما سجين**﴾ أي هو أمر عظيم وسجن مقيم وعذاب أليم. ثم قد قال قائلون: هي تحت الأرض السابعة. وقد تقدم في حديث البراء بن عازب في حديثه الطويل: يقول الله عز وجل في روح الكافر اكتبوا كتابه في سجين. [رواه أحمد وسنده حسن]. وسجين: هي تحت الأرض السابعة. وقيل: بئر في جهنم. والصحيح أن سجيناً مأخوذ من السجن وهو الضيق، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق، وكل ما تعالى منها اتسع. ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين، كما قال تعالى: ﴿**ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ [التين: ٥-٦]. وقال ههنا: ﴿**كلا إن كتاب الفجار لفي سجين وماأدراك ما سجين**﴾ وهو يجمع الضيق والسفول، كما قال: ﴿**وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً**﴾ [الفرقان: ١٣].

وقوله: ﴿**كتاب مرقوم**﴾ ليس تفسيراً لقوله: ﴿**وما أدراك ما سجين**﴾ وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين، أي مرقوم مكتوب مفروغ منه، لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد. قاله محمد بن كعب القرظي. ثم قال: ﴿**ويل يومئذ للمكذبين**﴾ أي إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السجن والعذاب المهين، وقد تقدم الكلام على قوله: ويل بما أغنى عن إعادته وأن المراد من ذلك الهلاك والدمار. ثم قال تعالى مفسراً للمكذبين الفجار الكفرة: ﴿**الذين يكذبون بيوم الدين**﴾ أي لا يصدقون بوقوعه، ولا يعتقدون كونه ويستبعدون أمره، قال الله تعالى: ﴿**وما يكذب به إلا كل معتد أثيم**﴾ أي معتد في أفعاله، من تعاطي الحرام والمجاوزة في تناول المباح، والأثيم في أقواله إن حدث كذب، وإن وعد أخلف، وإن خاصم فجر.

وقوله: ﴿**إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين**﴾ أي إذا سمع كلام الله من الرسول يكذب به ويظن به ظن السوء، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل، كما قال تعالى: ﴿**وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين**﴾ [النحل: ٢٤]، قال الله تعالى: ﴿**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرَّيْن الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا، ولهذا قال تعالى: ﴿**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾.

والرين يعتري قلوبَ الكافرين، والغيم للأبرار والغين للمقربين، وقد روى الترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صُقِل قلبه وإن زاد زادت، فذلك قول الله: ﴿**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾ وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحسن البصري: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت، وكذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد، وغيرهم. وقوله: ﴿**كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون**﴾ أي لهم يوم القيامة مَنزلٌ ونزل سجين، ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم. قال الإمام أبو عبد الله الشافعي: وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ. وهذا الذي قاله الإمام الشافعي رحمه الله في غاية الحسن وهو استدلال بمفهوم هذه الآية، كما دل عليه منطوق قوله: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم عز وجل في الدار الآخرة، رؤية بالأبصار في عَرَصات القيامة، وفي روضات الجنات الفاخرة. وقد روى ابن جرير عن الحسن قال: يكشف الحجاب فينظر إليه المؤمنون والكافرون، ثم يحجب عنه الكافرون وينظر إليه المؤمنون. كل يوم غدوة وعشية، أو كلاماً هذا معناه.

قوله: ﴿**ثم إنهم لصالوا الجحيم**﴾ أي ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران، ﴿**ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون**﴾ أي يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتحقير.

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

يقول تعالى: حقاً ﴿**إن كتاب الأبرار**﴾ وهم بخلاف الفجار ﴿**لفي عليين**﴾ أي مصيرهم إلى عليين وهو بخلاف سجين. سأل ابن عباس كعباً عن سجين، قال: هي الأرض السابعة، وفيها أرواح الكفار، وسأله عن عِليين فقال: هي السماء السابعة، وفيها أرواح المؤمنين، وهكذا قال غير واحد: إنها السماء السابعة، وقال ابن عباس في قوله: ﴿**كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين**﴾ يعني الجنة. وفي رواية عنه: أعمالهم في السماء عند الله. وكذا قال الضحاك. والظاهر أن عليين مأخوذ من العلو، وكلما علا الشيء وارتفع، عظم واتسع، ولهذا قال معظماً أمره ومفخماً شأنه: ﴿**وما أدراك ما عليون**﴾. ثم قال مؤكداً لما كتب لهم: ﴿**كتاب مرقوم يشهده المقربون**﴾، وهم الملائكة قاله قتادة، وعن ابن عباس: يشهده من كل سماء مقربوها.

ثم قال تعالى: ﴿**إن الأبرار لفي نعيم**﴾ أي يوم القيامة هم في نعيم مقيم، وجنات فيها فضل عميم، ﴿**على الأرائك**﴾ وهي السرر تحت الحِجَال، ينظرون قيل: معناه ينظرون في مُلكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يبيد. وقيل: معناه ينظرون إلى الله عز وجل.

وهذا مقابل لما وُصف به أولئك الفجار ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾، فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله عز وجل وهم على سررهم وفرشهم. وقوله: ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ أي تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم نضرة النعيم، أي صفة الترافة والحشمة والسرور والدعة والرياسة، مما هم فيه من النعيم العظيم.

وقوله: ﴿يسقون من رحيق مختوم﴾ أي يسقون من خمر من الجنة. والرحيق: من أسماء الخمر، قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وابن زيد. وقال ابن مسعود في قوله: ﴿ختامه مسك﴾ أي خلطه مسك، وعن ابن عباس: طيب الله لهم الخمر، فكان آخر شيء جعل فيها مسك، خُتِم بمسك. وكذا قال قتادة والضحاك، وقال إبراهيم والحسن: عاقبته مسك.

وعن أبي الدرداء: ﴿ختامه مسك﴾ قال: شراب أبيض مثل الفضة، يختمون به شرابهم. ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها. وعن مجاهد قال: طيبه مسك. وقوله: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ أي وفي مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون، ويتكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون، كقوله: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ [الصافات:٦١]. وقوله: ﴿ومزاجه من تسنيم﴾ أي: ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم أي من شراب يقال له تسنيم، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه. قاله أبو صالح والضحاك، ولهذا قال: ﴿عيناً يشرب بها المقربون﴾ أي يشربها المقربون صِرْفاً، وتُمزَجُ لأصحاب اليمين مَزجاً، قاله ابن مسعود وابن عباس ومسروق وقتادة وغيرهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين، أي يستهزئون بهم ويحتقرونهم، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم، أي محتقرين لهم ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين﴾ أي وإذا انقلب أي رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم، انقلبوا إليها فاكهين، أي مهما طلبوا وجدوا، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحتقرونهم ويحسدونهم، ﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾ أي لكونهم على غير دينهم. قال الله تعالى: ﴿وما أرسلوا عليهم حافظين﴾ أي وما بُعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر منهم من أعمالهم وأقوالهم، ولا كلفوا بهم؟ فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم، كما قال تعالى: ﴿قال اخسئوا فيها ولا تكلمون. إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون. إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم

الفائزون﴾ [المؤمنون:١٠٨-١١١]. ولهذا قال هاهنا: ﴿فاليوم﴾ يعني يوم القيامة ﴿الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ أي في مقابلة ما ضحك بهم أولئك ﴿على الأرائك ينظرون﴾ أي إلى الله عز وجل في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون، ليسوا بضالين بل هم من أولياء الله المقربين، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته. وقوله: ﴿هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ أي هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقص أم لا؟ يعني قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله.

تفسير سورة الانشقاق وهي مكية.

روى البخاري عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ ﴿إذا السماء انشقت﴾ فسجد، فقلت له. فقال: سجدت خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا
الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ
إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣)
إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) ﴾.

يقول تعالى: ﴿إذا السماء انشقت﴾ وذلك يوم القيامة، ﴿وأذنت لربها﴾ أي: استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق وذلك يوم القيامة ﴿وحقت﴾ أي وحق لها أن تطيع أمره، لأنه العظيم الذي لا يُمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شيء وذل له كل شيء، ثم قال: ﴿وإذا الأرض مدت﴾ أي: بُسطت وَوُسِّعت.

وقوله: ﴿وألقت ما فيها وتخلت﴾ أي ألقت ما في بطنها من الأموات، وتخلت منهم. قاله مجاهد وسعيد وقتادة ﴿وأذنت لربها وحقت﴾ كما تقدم.

وقوله: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً﴾ أي إنك ساع إلى ربك سعياً، وعامل عملاً ﴿فملاقيه﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أوشر. ومن الناس من يعيد الضمير على قوله ربك، أي فملاق ربك، ومعناه فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك، وعلى هذا فكلا القولين متلازم، وعن ابن عباس: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً﴾ يقول: تعمل عملاً تلقى الله به خيراً كان أو شراً.

وقال قتادة: إن كدحك يا ابن آدم لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل، ولا قوة إلا بالله. ثم قال: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ أي سهلاً بلا تعسير، أي لا يحقق عليه جميعُ دقائق أعماله، فإن من حوسب كذلك يهلك لا محالة. وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب عذِّب». قالت: فقلت: أفليس قال الله تعالى: ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ قال: «ليس ذاك

بالحساب ولكن ذلك العرض من نوقش الحساب يوم القيامة عذب». وهكذا رواه البخاري.

وروى أحمد عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: «اللهم حاسبني حساباً يسيرا». فلما انصرف قلت: يا رسول الله ما الحساب اليسير ؟ قال: «أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه إنه من نُوقِش الحساب يا عائشةُ يومئذ هَلَكَ». صحيح على شرط مسلم.

وقوله: ﴿**وينقلب إلى أهله**﴾ أي ويرجع إلى أهله في الجنة. قاله قتادة والضحاك، ﴿**مسروراً**﴾ أي فرحاً مغتبطاً بما أعطاه الله عز وجل.

وقوله: ﴿**وأما من أوتي كتابه وراء ظهره**﴾ أي بشماله من وراء ظهره، تُثْنى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك، ﴿**فسوف يدعو ثبوراً**﴾ أي خساراً وهلاكاً، ﴿**ويصلى سعيراً. إنه كان في أهله مسرورا**﴾ أي فرحاً لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل، ﴿**إنه ظن أن لن يحور**﴾ أي كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته، قاله ابن عباس وقتادة وغيرهما. والحَوْرُ: هو الرجوع. قال الله: ﴿**بلى إن ربه كان به بصيراً**﴾ يعني بلى سيعيده الله كما بدأه ويجازيه على أعماله خيرها وشرها، فإنه كان به بصيراً أي عليماً خبيراً.

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾ ﴾.

رُوي عن علي وابن عباس وعبادة بن الصامت وأبي هريرة وابن عمر وغيرهم أنهم قالوا: الشفق: الحمرة. وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة قال: الشفق البياض. فالشفق هو حمرة الأفق إما قبل طلوع الشمس كما قاله مجاهد وإما بعد غروبها كما هو معروف عند أهل اللغة. قال الخليل بن أحمد: الشفق: الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة، فإذا ذهب قيل: غاب الشفق. وقال الجوهري: الشفق: بقية ضوء الشمس وحمرتُها في أول الليل إلى قريب من العَتَمة. وكذا قال عكرمة: الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وقت المغرب ما لم يغب الشفق». ففي هذا كله دليل على أن الشفق هو كما قاله الجوهري والخليل. ولكن صح عن مجاهد أنه قال في هذه الآية: ﴿**فلا أقسم بالشفق**﴾ هو النهار كله. وفي رواية عنه أيضاً أنه قال: الشفق الشمس. وإنما حمله على هذا قَرْنُه بقوله تعالى: ﴿**والليل وما وسق**﴾ أي جمع. كأنه أقسم بالضياء والظلام. وقال ابن جرير: أقسم الله بالنهار مدبراً، وبالليل مقبلاً. وقال ابن جرير: وقال آخرون: الشفق اسم للحمرة والبياض. وقالوا هو من الأضداد. قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة: ﴿**وما وسق**﴾ وما جمع. قال قتادة: وما جمع من نجم ودابة. وقال عكرمة: ﴿**والليل وما وسق**﴾ يقول ما ساق من ظلمة إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه.

وقوله تعالى: ﴿والقمر إذا اتسق﴾ قال ابن عباس: إذا اجتمع واستوى. وكذا قال مجاهد ومسروق وابن زيد [وغيرهم]. ﴿والقمر إذا اتسق﴾ إذا استوى. وقال الحسن: إذا اجتمع، إذا امتلأ. وقال قتادة: إذا استدار ومعنى كلامهم أنه إذا تكامل نوره وأبدر، جعله مقابلاً لليل وما وسق. وقوله: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ روى البخاري عن ابن عباس: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ حالاً بعد حال قال هذا نبيكم ﷺ. وهو محتمل أن يكون ابن عباس أسند هذا التفسير عن النبي ﷺ، كأنه قال سمعت هذا من نبيكم ﷺ فيكون قوله نبيكم مرفوعاً على الفاعلية من قال، وهو الأظهر. وروى ابن جرير عنه: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ قال: يعني نبيكم ﷺ يقول: حالاً بعد حال. وكذا قال مجاهد والحسن ومسروق [وغيرهم]. ويحتمل أن يكون المراد: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ حالاً بعد حال، قال هذا يعني المراد بهذا نبيكم ﷺ فيكون مرفوعاً على أن «هذا»، و«نبيكم» مبتدأ وخبراً، والله أعلم. ولعل هذا قد يكون هو المتبادر إلى كثير من الرواة كما روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ قال: محمد ﷺ. ويؤيد هذا المعنى قراءة أهل مكة والكوفة: «لَتَرْكَبَنّ» بفتح التاء والباء.

وعن الشعبي: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ قال: لتركبن يا محمد سماء بعد سماء. وهكذا روي عن ابن مسعود ومسروق وأبي العالية. قلت: يعنون ليلة الإسراء. وعن ابن عباس: ﴿طبقاً عن طبق﴾ منزلاً على منزل. وقال السدي: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ أعمال من قبلكم منزلاً بعد منزل. قلت: كأنه أراد معنى الحديث الصحيح: «لتركبن سَنَنَ من كان قبلكم، حذو القُذَّة بالقُذَّة حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لدخلتموه». قالوا يا رسول الله: اليهود والنصارى قال «فمن ؟» [متفق عليه]. وهذا محتمل.

وعن مكحول في قول الله: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ قال: في كل عشرين سنة تحدثون أمراً لم تكونوا عليه. وقال عبد الله [بن مسعود]: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾: السماء تتشقق ثم تحمر، ثم تكون لوناً بعد لون.

وقال سعيد بن جبير: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ قال قوم كانوا في الدنيا خسيس أمرهم، فارتفعوا في الآخرة، وآخرون كانوا أشرافاً في الدنيا، فاتضعوا في الآخرة. وقال عكرمة: ﴿طبقاً عن طبق﴾ حالاً بعد حال، فطيماً بعد ما كان رضيعاً، وشيخاً بعد ما كان شاباً، وقال الحسن البصري: ﴿طبقاً عن طبق﴾ يقول: حالاً بعد حال، رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقراً بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقماً بعد صحة.

قال ابن جرير بعد ما حكى أقوال الناس في هذه الآية من القراء والمفسرين: والصواب من التأويل قول من قال لتَركَبَن أنت يا محمد حالاً بعد حال وأمراً بعد أمر من الشدائد. والمراد بذلك ـ وإن كان الخطاب موجهاً إلى رسول الله ﷺ ـ جميع الناس وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأحواله أهوالاً. وقوله: ﴿فما لهم لا يؤمنون وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون﴾ أي

فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، ومالهم إذا قرئت عليهم آيات الله وكلامه وهو هذا القرآن لا يسجدون إعظاماً وإكراماً واحتراماً؟ وقوله: ﴿**بل الذين كفروا يكذبون**﴾ أي من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق. ﴿**والله أعلم بما يوعون**﴾ قال مجاهد وقتادة: يكتمون في صدورهم ﴿**فبشرهم بعذاب أليم**﴾ أي فأخبرهم يا محمد بأن الله عز وجل قد أعد لهم عذاباً أليماً.

وقوله: ﴿**إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ هذا استثناء منقطع يعني لكن الذين آمنوا أي بقلوبهم وعملوا الصالحات أي بجوارحهم ﴿**لهم أجر**﴾ أي في الدار الآخرة. ﴿**غير ممنون**﴾ قال ابن عباس: غير منقوص. وقال مجاهد والضحاك: غير محسوب. وحاصل قولهما أنه غير مقطوع، كما قال تعالى: ﴿**عطاء غير مجذوذ**﴾ [هود:١٠٨].

تفسير سورة البروج وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾.

يقسم تعالى بالسماء وبروجها، وهي: النجوم العظام، كما تقدم بيان ذلك في قوله: ﴿**تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً**﴾ [الفرقان:٦١]. قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة والسدي: البروج: النجوم. وعن مجاهد أيضاً: البروج التي فيها الحرس. وقال يحيى بن رافع: البروج قصور في السماء، وقال المنهال بن عمرو ﴿**والسماء ذات البروج**﴾ الخَلْقُ الحسن. واختار ابن جرير أنها: منازل الشمس والقمر وهي اثنا عشر برجاً، تسير الشمس في كل واحد منها شهراً، ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثلثاً، فذلك ثمانية وعشرون منزلا، ويستتر ليلتين.

وقوله: ﴿**واليوم الموعود. وشاهد ومشهود**﴾ اختلف المفسرون في ذلك. فروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أنه قال في هذه الآية: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، والموعود يوم القيامة. وقد روي عن أبي هريرة أنه قال: اليوم الموعود يوم القيامة، وكذلك قال الحسن وقتادة وابن زيد.

وعن ابن عباس قال: الشاهد هو محمد ﷺ والمشهود يوم القيامة، ثم قرأ: ﴿**ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود**﴾ [هود:١٠٣]. وعن شباك قال: سأل رجل الحسن بن علي عن ﴿**وشاهد ومشهود**﴾ قال: سألت أحداً قبلي ؟ قال: نعم، سألت ابن عمر وابن الزبير فقالا: يوم الذبح ويوم الجمعة. فقال: لا، ولكن الشاهد محمد ﷺ. ثم قرأ: ﴿**فكيف إذا جئنا**

من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ [النساء: ٤١]، والمشهود يوم القيامة، ثم قرأ: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾. وهكذا قال الحسن البصري وسعيد بن المسيب. ﴿ومشهود﴾ يوم القيامة.

وقال مجاهد وعكرمة والضحاك: الشاهد: ابن آدم، والمشهود: يوم القيامة. وعن عكرمة أيضاً: الشاهد: محمد ﷺ، والمشهود: يوم الجمعة، وقال ابن عباس: الشاهد: الله، والمشهود: يوم القيامة. وعن ابن عباس قال: الشاهد: الإنسان، والمشهود يوم الجمعة.

وعنه [أيضا] قال: الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم القيامة، وعن إبراهيم قال: يوم الذبح ويوم عرفة يعني الشاهد والمشهود، قال ابن جرير وقال آخرون: المشهود يوم الجمعة.

وعن سعيد بن جبير الشاهد: الله، وتلا ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ [النساء: ٧٩]، والمشهود: نحن. حكاه البغوي، وقال الأكثرون على أن الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة

وقوله: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ أي لعن أصحاب الأخدود، وجمعه أخاديد، وهي الحفر في الأرض، وهذا خبر عن قوم من الكفار عَمَدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عز وجل، فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدُوداً وأججوا فيه ناراً، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم، فقذفوهم فيها، ولهذا قال تعالى: ﴿قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾ أي مشاهدون لمايفعل بأولئك المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ أي وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يضام من لاذ بجنابه المنيع، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وإن كان قد قَدَّر على عباده هؤلاء هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار به، فهو العزيز الحميد، وإن خفي سبب ذلك على كثير من الناس.

ثم قال: ﴿الذي له ملك السموات والأرض﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ أي لا يغيب عنه شيء في جميع السموات والأرض، ولا تخفى عليه خافية. وقد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة من هم؟ فعن علي رضي الله عنه: أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزوج المحارم، فامتنع عليه علماؤهم، فعمد إلى حَفْرِ أخدود فقذف فيه من أنكر عليه منهم، واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم. وعنه أنهم كانوا قوماً باليمن اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم، فغلب مؤمنوهم على كفارهم، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين، فخدُّوا لهم الأخاديد، وأحرقوهم فيها. وعنه أنهم كانوا من أهل الحبشة. وعن ابن عباس قال: ناس من بني إسرائيل، خَدُّوا أخدوداً في الأرض، ثم أوقدوا فيه ناراً، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء، فعُرضوا عليها، وزعموا أنه دانيال وأصحابه. وهكذا قال الضحاك، وقيل غير ذلك.

وقد روى الإمام أحمد عن صُهَيب أن رسول الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم ملك، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبر سني وحضر أجلي، فادفع إلي غلاماً لأعلمه السحر، فدفع إليه غلاماً فكان يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني الساحر، قال فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة عظيمة فظيعة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا. فقال اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر، قال فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس، ورماها فقتلها ومضى الناس فأخبر الراهب بذلك فقال: أي بني أنت أفضل مني، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي. فكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم، وكان للملك جليس فعمي فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة فقال: اشفني ولك ما ههنا أجمع، فقال ما أنا أشفي أحداً إنما يشفي الله عز وجل، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك فآمن فدعا الله فشفاه. ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس فقال له الملك: يا فلان من رد عليك بصرك؟ فقال ربي: فقال: أنا؟ قال: لا، ربي وربك الله. قال: ولك رب غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله. فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فبعث إليه فقال: أي بُني بلغ من سحرك أن تبرىء الأكمه والأبرص وهذه الأدواء! قال: ما أشفي أحداً، إنما يشفي الله عز وجل، قال: أنا؟ قال: لا. قال أولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه أيضاً بالعذاب فلم يزل به حتى دل على الراهب فأتى بالراهب فقال ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض. وقال للغلام: ارجع عن دينك فأبى فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فَدَهدهوه من فوقه، فذهبوا به فلما علوا به الجبل قال: اللهم اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون. وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله. فبعث به مع نفر في قُرقُور فقال: إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرِّقوه في البحر فلججوا به البحر فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت. فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله. ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي، ثم قل: باسم الله رب الغلام فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. ففعل ووضع السهم في كبد قوسه

ثم رماه وقال: باسم الله رب الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام. فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك قد آمن الناس كلهم. فأمر بأفواه السكك، فخدت فيها الأخاديد وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها، قال فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن تقع في النار فقال الصبي: اصبري يا أماه فإنك على الحق».

وهكذا رواه مسلم في آخر الصحيح نحوه، وقد جوده الإمام أبو عيسى الترمذي فرواه في تفسير هذه السورة عن صهيب قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر همس والهمس في بعض قولهم تحريك شفتيه كأنه يتكلم فقيل له: إنك يا رسول الله إذا صليت العصر همست، قال: «إن نبياً من الأنبياء كان أُعجب بأمته فقال: من يقوم لهؤلاء؟ فأوحى الله إليه أن خيرهم بين أن أنتقم منهم، وبين أن أسلط عليهم عدوهم، فاختاروا النقمة، فسلط الله عليهم الموت فمات منهم في يوم سبعون ألفاً» قال: وكان إذا حدث بهذا الحديث، حدث بهذا الحديث الآخر قال: «كان مَلك من الملوك وكان لذلك الملك كاهن يتكهن له، فقال الكاهن: انظروا لي غلاماً فهماً أو قال: فطناً لقناً فأعلمه علمي هذا، فذكر القصة بتمامها، وقال في آخره: يقول الله عز وجل: ﴿**قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود** ـ حتى بلغ ـ **العزيز الحميد**﴾. قال: فأما الغلام فإنه دفن، فيذكر أنه أخرج في زمان عمر بن الخطاب وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل، ثم قال الترمذي: حسَن غريب، وهذا السياق ليس فيه صراحة، أن سياق هذه القصة من كلام النبي ﷺ قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي: فيحتمل أن يكون من كلام صهيب الرومي، فإنه كان عنده علم من أخبار النصارى والله أعلم.

وعن السدي قال: كانت الأخدود ثلاثة: خَدّ بالعراق، وخدّ بالشام، وخدّ باليمن. وعن مقاتل قال: كانت الأخدود ثلاثة: واحد بنجران باليمن، والأخرى بالشام، والأخرى بفارس حرقوا بالنار، أما التي بالشام فهو انطنانوس الرومي، وأما التي بفارس فهو بختنصر، وأما التي بأرض العرب فهو يوسف ذو نواس. فأما التي بفارس والشام فلم ينزل الله تعالى فيهما قرآنا وأنزل في التي كانت بنجران.

وقوله: ﴿**إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات**﴾ أي حَرقوا. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن أبزَى. ﴿**ثم لم يتوبوا**﴾ أي لم يقلعوا عما فعلوا ويندموا على ما أسلفوا ﴿**فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق**﴾، وذلك أن الجزاء من جنس العمل، قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾
إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ

وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن ﴿**لهم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم، ولهذا قال: ﴿**ذلك الفوز الكبير**﴾. ثم قال: ﴿**إن بطش ربك لشديد**﴾ أي إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره لشديد عظيم قوي، فإنه تعالى ذو القوة المتين الذي ما شاء كان كما يشاء في مثل لمح البصر أو هو أقرب، ولهذا قال: ﴿**إنه هو يبدىء ويعيد**﴾ أي من قوته وقدرته التامة يبدىء الخلق ويعيده كما بدأه، بلا ممانع ولا مدافع ﴿**وهو الغفور الودود**﴾ أي يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه ولو كان الذنب من أي شيء كان. والودود ـ قال ابن عباس وغيره ـ: هو الحبيب، ﴿**ذو العرش**﴾ أي صاحب العرش العظيم العالي على جميع الخلائق. و﴿**المجيد**﴾ فيه قراءتان: الرفع على أنه صفة للرب عز وجل، والجر على أنه صفة للعرش وكلاهما معنى صحيح. ﴿**فعال لما يريد**﴾ أي مهما أراد فعله، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل، لعظمته وقهره وحكمته وعدله، كما روينا عن أبي بكر الصديق أنه قيل له وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم. قالوا فما قال لك ؟ قال: قال لي: إني فعال لما أريد.

وقوله: ﴿**هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود**﴾ أي هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النقمة التي لم يردها عنهم أحد؟ وهذا تقرير لقوله: ﴿**إن بطش ربك لشديد**﴾ أي إذا أخذ الظالم أخذه أخذاً أليماً شديداً أخذ عزيز مقتدر.

وقوله: ﴿**بل الذين كفروا في تكذيب**﴾ أي هم في شك وكفر وعناد، ﴿**والله من ورائهم محيط**﴾ أي: هو قادر عليهم قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه، ﴿**بل هو قرآن مجيد**﴾ أي عظيم كريم، ﴿**في لوح محفوظ**﴾ أي هو في الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل.

وعن أنس بن مالك في قوله: ﴿**بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ**﴾ قال: إن اللوح المحفوظ الذي ذكر الله: ﴿**بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ**﴾ في جبهة إسرافيل.

وقال الحسن البصري: إن هذا القرآن المجيد عند الله في لوح محفوظ ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه. وقال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش.

تفسير سورة الطارق وهي مكية.

روى النسائي عن جابر قال: صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة والنساء، فقال النبي ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ! ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق، والشمس وضحاها ونحوها؟». [إسناده صحيح].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾.

يقسم تعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة، ولهذا قال: **﴿والسماء والطارق﴾** ثم قال: **﴿وما أدراك ما الطارق﴾** ثم فسره بقوله: **﴿النجم الثاقب﴾** قال قتادة وغيره: إنما سمي النجم طارقاً، لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار، ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح: نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً [متفق عليه]، أي يأتيهم فجأة بالليل.

وقوله: **﴿الثاقب﴾** قال ابن عباس: المضيء وقال السدي: يثقب الشياطين إذا أُرْسِلَ عليها، وقال عكرمة: هو مضيء ومحرق للشيطان.

وقوله: **﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾** أي كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات، كما قال تعالى: **﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾** [الرعد: ١١]. وقوله: **﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾** تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خُلق منه، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد، لأن من قدر على البَدَاءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى، كما قال: **﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾** [الروم: ٢٧]. وقوله: **﴿خلق من ماء دافق﴾** يعني المني، يخرج دَفقاً من الرجل ومن المرأة، فيتولد منهما الولد بإذن الله عز وجل، ولهذا قال: **﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾** يعني صلب الرجل وترائب المرأة، وهو صدرها. قال ابن عباس: صلب الرجل وترائب المرأة أصفر رقيق، لا يكون الولد إلا منهما، وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدي وغيرهم، وعن ابن عباس قال: هذه الترائب، ووضع يده على صدره. وعن ابن عباس: تريبة المرأة موضع القلاده، وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير، وقال ابن عباس [أيضا]: الترائب: بين ثدييها. وعن مجاهد: الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر، وعنه أيضاً: الترائب أسفل من التراقي. وقال سفيان الثوري: فوق الثديين. وعن سعيد بن جبير: الترائب أربعة أضلاع من هذا الجانب الأسفل. وعن الضحاك: الترائب بين الثديين والرجلين والعينين. وعن قتادة: من بين صلبه ونحره.

وقوله: **﴿إنه على رجعه لقادر﴾** فيه قولان: **أحدهما**: على رجع هذا الماء الدافق إلى مقره الذي خرج منه لقادر على ذلك. قاله مجاهد وعكرمة وغيرهما. **والثاني**: إنه على رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق، أي إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر، لأن من قدر على البداءة قدر على الإعادة. وقد ذكر الله عز وجل هذا الدليل في القرآن في غير ما موضع، وهذا القول قال به الضحاك واختاره ابن جرير، ولهذا قال: **﴿يوم تبلى السرائر﴾** أي يوم القيامة تبلى فيه السرائر أي تظهر وتبدو، ويبقى السر علانية والمكنون مشهوراً. وقد ثبت في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «يرفع لكل غادر لواء عند إسته، يقال هذه غَدْرَةُ فلان بن فلان». وقوله: **﴿فما له﴾** أي الإنسان يوم القيامة **﴿من قوة﴾** أي في نفسه **﴿ولا ناصر﴾** أي من خارج منه أي لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله، ولا يستطيع له أحد ذلك.

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧) ﴾ .

قال ابن عباس: الرجع: المطر. وعنه: هو السحاب فيه المطر. وعنه: ﴿**والسماء ذات الرجع**﴾ تمطر ثم تمطر. وقال قتادة: ترجع رزق العباد كل عام، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم. وقال ابن زيد: ترجع نجومها وشمسها وقمرها، يأتين من ههنا.

﴿**والأرض ذات الصدع**﴾ قال ابن عباس: هو انصداعها عن النبات. وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وأبو مالك والضحاك والحسن وقتادة والسدي وغير واحد. وقوله: ﴿**إنه لقول فصل**﴾ قال ابن عباس: حق. وكذا قال قتادة. ﴿**وما هو بالهزل**﴾ أي بل هو حق جد. ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله، فقال: ﴿**إنهم يكيدون كيداً**﴾ أي يمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن. ثم قال: ﴿**فمهل الكافرين**﴾ أي أنظرهم ولا تستعجل لهم، ﴿**أمهلهم رويداً**﴾ أي قليلاً. أي وترى ماذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك، كما قال: ﴿**نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ**﴾ [لقمان: ٢٤].

تفسير سورة سبح وهي مكية.

والدليلُ على ذلك ما رواه البخاري عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابنُ أم مكتوم، فجعلا يقرئاننا القرآن. ثم جاء عمار وبلال وسعد. ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين. ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله قد جاء، فما جاء حتى قرأت: ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ في سُوَر مثلها. وثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صَلَّيت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى».

وروى مسلم عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى، وهل أتاك حديث الغاشية، وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما. وقد روى الإمام أحمد من حديث أبي بن كعب، وعبد الله بن عباس، وعبد الرحمن بن أبْزَى، وعائشة أم المؤمنين: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد، زادت عائشة والمعوذتين. [وهو صحيح]. وهكذا رُوي الحديث من طريق جابر وأبي أمامة، وعبد الله بن مسعود وعمران بن حصين، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (١٣) ﴾ .

روى الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ: ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ قال: «سبحان ربي الأعلى». [رجال إسناده ثقات]. وقال عبد خير: سمعت علياً قرأ: ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ فقال: سبحان ربي الأعلى.

وقوله: ﴿**الذي خلق فسوى**﴾ أي خلق الخليقة وسَوّى كل مخلوق في أحسن الهيئات. وقوله: ﴿**والذي قدر فهدى**﴾ قال مجاهد: هدى الإنسان للشقاوة والسعادة، وهدى الأنعام لمراتعها، وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿**ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**﴾ [طه: ٥٠] أي قدر قدراً، وهدى الخلائق إليه، كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء». وقوله: ﴿**والذي أخرج المرعى**﴾ أي من جميع صنوف النباتات والزروع، ﴿**فجعله غثاء أحوى**﴾ قال ابن عباس: هشيماً متغيراً، وعن مجاهد وقتادة وابن زيد نحوه.

وقوله: ﴿**سنقرئك**﴾ أي يا محمد ﴿**فلا تنسى**﴾. وهذا إخبار من الله تعالى ووعد منه له. بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها، ﴿**إلا ما شاء الله**﴾ وهذا اختيار ابن جرير. وقال قتادة: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئاً إلا ما شاء الله. وقيل: المراد بقوله: ﴿**فلا تنسى**﴾ طلب، وجعلوا معنى الاستثناء على هذا ما يقع من النسخ، أي لا تنسى ما نقرئك إلا ما شاء الله رفعه، فلا عليك أن تتركه. وقوله: ﴿**إنه يعلم الجهر وما يخفى**﴾ أي يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم لا يخفى عليه من ذلك شيء.

وقوله: ﴿**ونيسرك لليسرى**﴾ أي نسهل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً مستقيماً عدلاً، لا اعوجاج فيه ولا حرج. وقوله: ﴿**فذكر إن نفعت الذكرى**﴾ أي ذكِّر حيث تنفع التذكرة، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله كما قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم. وقال: حدث الناس بما يعرفون أتحبون أن يُكَذَّب اللهُ ورسوله؟ وقوله: ﴿**سيذكر من يخشى**﴾ أي سيتعظ بما تبلغه يا محمد مَنْ قَلْبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه، ﴿**ويتجنبها الأشقى. الذي يصلى النار الكبرى. ثم لا يموت فيها ولا يحيى**﴾ أي لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة تنفعه، بل هي مضرة عليه، لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب وأنواع النكال.

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أناس ـ أو كما قال ـ تصيبهم النار بذنوبهم ـ أو قال بخطاياهم ـ فيميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فَنَبتوا على أنهار الجنة فيقال: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم. فينبتون نبات الحبة تكون

في حميل السيل». قال: فقال رجل من القوم حينئذ: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية، ورواه مسلم.

وقد قال الله تعالى إخباراً عن أهل النار: ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾ [الزخرف:٧٧]. وقال تعالى: ﴿لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾ [فاطر:٣٦] إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿قد أفلح من تزكى﴾ أي طهَّر نفسه من الأخلاق الرذيلة، وتابع ما أنزل الله على الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ﴿وذكر اسم ربه فصلى﴾ أي أقام الصلاة في أوقاتها ابتغاء رضوان الله وطاعة لأمر الله وامتثالاً لشرع الله. وقال ابن عباس: إن المراد بذلك الصلوات الخمس، واختاره ابن جرير.

وروي عن أبي العالية [أنه] قرأ: ﴿قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى﴾ وقال: إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها ومن سقاية الماء. قلت: وكذلك روينا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر ويتلو هذه الآية ﴿قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى﴾. وقال أبو الأحوص: إذا أتى أحدكم سائلٌ وهو يريد الصلاة فليقدم بين يدي صلاته زكاته، فإن الله تعالى يقول: ﴿قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى﴾ وقال قتادة: زكى ماله وأرضى خالقه.

ثم قال تعالى: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ أي تقدمونها على أمر الآخرة، ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ أي ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دنيَّة فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريباً، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد.

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له». [قال في المجمع: رجاله رجال الصحيح غير ذويد وهو ثقة]. وروى ابن جرير عن عرفجة الثقفي قال: استقرأت ابن مسعود ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ ـ فلما بلغ ـ ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه وقال: آثرنا الدنيا على الآخرة. فسكت القوم فقال: آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل. وهذا منه على وجه التواضع والهضم أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو والله أعلم.

وقوله: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى﴾ روى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى﴾

قال النبي ﷺ: «كان كل هذا ـ أو كان هذا ـ في صحف إبراهيم وموسى» [سنده حسن]. وقال أبو العالية: قصة هذه السورة في الصحف الأولى. واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿**إن هذا**﴾ إشارة إلى قوله: ﴿**قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى. بل تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى**﴾، ثم قال: ﴿**إن هذا**﴾ أي مضمون هذا الكلام ﴿**لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى**﴾ وهذا اختيار حسن قوي، وقد روي عن قتادة وابن زيد نحوُه، والله أعلم.

تفسير سورة الغاشية وهي مكية.

قد تقدم عن النعمان بن بَشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بسبح اسم ربك الأعلى والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة. [رواه مسلم].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾.

الغاشية: من أسماء يوم القيامة. قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد لأنها تغشى الناس وتعمهم. وقوله: ﴿**وجوه يومئذ خاشعة**﴾ أي ذليلة. قاله قتادة. وقال ابن عباس: تخشع ولا ينفعها عملها. وقوله: ﴿**عاملة ناصبة**﴾ أي قد عملت عملاً كثيراً، ونَصبت فيه، وصَلِيَتْ يوم القيامة ناراً حامية. ورُوي أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه مر بدير راهب، فناداه: يا راهب يا راهب، فأشرف. فجعل عمر ينظر إليه ويبكي، فقيل له: يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله عز وجل في كتابه: ﴿**عاملة ناصبة. تصلى ناراً حامية**﴾ فذاك الذي أبكاني.

وقال البخاري: قال ابن عباس ﴿**عاملة ناصبة**﴾ النصارى، وعن عكرمة والسدي: عاملة في الدنيا بالمعاصي، وناصبة في النار بالعذاب والأغلال، قال ابن عباس والحسن وقتادة: ﴿**تصلى ناراً حامية**﴾ أي حارة شديدة الحر ﴿**تسقى من عين آنية**﴾ أي قد انتهى حَرّها وغليانها، قاله ابن عباس ومجاهد والحسن والسدي. وقوله: ﴿**ليس لهم طعام إلا من ضريع**﴾ قال ابن عباس: شجر من النار، وقال سعيد بن جبير: هو الزقوم. وعنه: أنها الحجارة. وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو الجوزاء وقتادة: هو الشِّبرِقُ. قال قتادة: قريش تسميه في الربيع الشبرق وفي الصيف الضريع. قال عكرمة: شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض. وعن قتادة: ﴿**ليس لهم طعام إلا من ضريع**﴾ من شر الطعام وأبشعه وأخبثه. وقوله: ﴿**لا يسمن ولا يغني من جوع**﴾ يعني لا يحصل به مقصود ولا يندفع به محذور.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

لما ذكر حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء فقال: ﴿**وجوه يومئذ**﴾ أي يوم القيامة ﴿**ناعمة**﴾

أي يُعْرَفُ النعيم فيها. وإنما حَصَل لها ذلك بسعيها. وقال سفيان ﴿**لسعيها راضية**﴾ قد رضيت عملها. وقوله: ﴿**في جنة عالية**﴾ أي رفيعة بهية في الغرفات آمنون ﴿**لا تسمع فيها لاغية**﴾ أي لا يُسْمَعُ في الجنة التي هم فيها كلمة لغو، كما قال: ﴿**لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً. إلا قيلاً سلاماً سلاماً**﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦]. ﴿**فيها عين جارية**﴾ أي سارحة وهذه نكرة في سياق الإثبات، وليس المراد بها عيناً واحدة وإنما هذا جنس يعني فيها عيون جاريات. ﴿**فيها سرر مرفوعة**﴾ أي عالية ناعمة كثيرة الفرش، مرتفعة السمك، عليها الحور العين، قالوا فإذا أراد وَليُّ الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له ﴿**وأكواب موضوعة**﴾ يعني أواني الشرب معدة مُرصدة لمن أرادها من أربابها، ﴿**ونمارق مصفوفة**﴾ قال ابن عباس: النمارق: الوسائد. وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك والسدي والثوري وغيرهم. وقوله: ﴿**وزرابي مبثوثة**﴾ قال ابن عباس: الزرابي: البسط، وكذا قال الضحاك وغير واحد، ومعنى مبثوثة أي ههنا وههنا لمن أراد الجلوس عليها.

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾.

يقول تعالى آمراً عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت**﴾؟ فإنها خَلق عجيب، وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل، وينتفع بوبرها، ويشرب لبنها ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل، وكان شريح القاضي يقول اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت! أي كيف رفعها الله عز وجل عن الأرض هذا الرفع العظيم، كما قال تعالى: ﴿**أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج**﴾ [ق: ٦]. ﴿**وإلى الجبال كيف نصبت**﴾ أي جعلت منصوبة قائمة ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن. ﴿**وإلى الأرض كيف سطحت**﴾ أي كيف بسطت ومدت ومهدت، فنبَّه البدويَّ على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم الخالق المالك المتصرف، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه.

وقوله: ﴿**فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمصيطر**﴾ أي فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، ولهذا قال: ﴿**لست عليهم بمصيطر**﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: لست عليهم بجبار. وقال ابن زيد: لست بالذي تكرههم على الإيمان. روى الإمام أحمد عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى

يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل». ثم قرأ: ﴿**فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر**﴾ ورواه مسلم.

وقوله: ﴿**إلا من تولى وكفر**﴾ أي تولى عن العمل بأركانه، وكفر بالحق بجنانه ولسانه، وهذه كقوله: ﴿**فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى**﴾ [القيامة: ٣١-٣٢]. ولهذا قال: ﴿**فيعذبه الله العذاب الأكبر**﴾. وقوله: ﴿**إن إلينا إيابهم**﴾ أي: مرجعهم ومنقلبهم ﴿**ثم إن علينا حسابهم**﴾ أي نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

تفسير سورة الفجر وهي مكية.

روى النسائي عن جابر قال: صلى معاذ صلاةً، فجاء رجل فصلى معه، فطَول، فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذاً فقال: منافق. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى فقال: يا رسول الله: جئت أصلي معه فطوّل علي، فانصرفت وصليتُ في ناحية المسجد، فعلقت ناضحي. فقال رسول الله ﷺ: «أفتان يا معاذ؟ أين أنت من سبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والفجر، والليل إذا يغشى». [سنده صحيح].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ (٣) وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ
بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ (٧) ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ (٨) وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ (١٠)
ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ (١١) فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ (١٤) ﴾.

الفجر هو: الصبح، قاله علي وابن عباس وعكرمة ومجاهد والسدي. وعن مسروق ومجاهد ومحمد بن كعب: المراد به فجر يوم النحر خاصة، وهو خاتمة الليالي العشر. وقيل: المراد بذلك الصلاة التي تفعل عنده كما قاله عكرمة. وقيل: المراد به جميع النهار. وهو رواية عن ابن عباس، والليالي العشر: المراد بها عشر ذي الحجة. كما قاله ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف. وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام» يعني عشر ذي الحجة قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء». وقيل: المراد بذلك العشر **الأُوُلُ** من المحرم، حكاه أبو جعفر بن جرير ولم يعزه إلى أحد، وقد روي عن ابن عباس قال: هو العشر الأول من رمضان. والصحيح القول الأول.

وقوله: ﴿**والشفع والوتر**﴾ الوتر يوم عرفة لكونه التاسع، والشفع يوم النحر لكونه العاشر، قاله ابن عباس وعكرمة والضحاك. **قول ثان:** عن عطاء قال: الشفع يوم عرفة والوتر ليلة الأضحى. **قول ثالث:** قال ابن الزبير: الشفع أوسط أيام التشريق، والوتر آخر أيام التشريق. وفي الصحيحين من رواية أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً،

من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر».

قول رابع: قال الحسن البصري وزيد بن أسلم: الخلق كلهم شفع، ووتر، أقسم تعالى بخلقه. وهو رواية عن مجاهد، والمشهور عنه الأول. وعن ابن عباس قال: الله وتر واحد، وأنتم شفع، ونحوه عن مجاهد، ويقال: الشفع صلاة الغداة والوتر صلاة المغرب.

قول خامس: عن مجاهد: كل شيء خلقه الله شفع. السماء والأرض، والبر والبحر، والجن والإنس، والشمس والقمر، ونحو هذا، ونحا مجاهد في هذا ما ذكروه في قوله تعالى: ﴿**ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون**﴾ [الذاريات:٤٩] أي لتعلموا أن خالق الأزواج واحد.

قول سادس: قال الحسن: هو العدد منه شفع ومنه وتر.

قول سابع: قال أبو العالية والربيع بن أنس وغيرهما: هي الصلاة، منها شفع كالرباعية والثنائية، ومنها وتر كالمغرب فإنها ثلاث وهي وتر النهار، وكذلك صلاة الوتر في آخر التهجد من الليل. ولم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال في الشفع والوتر.

وقوله: ﴿**والليل إذا يسر**﴾ قال ابن عباس: أي إذا ذهب، وقال عبد الله بن الزبير: حتى يُذْهِبَ بعضه بعضاً. وقال مجاهد وأبو العالية وقتادة وزيد بن أسلم وابن زيد: إذا سار. وهذا يمكن حمله على ما قال ابن عباس أي ذهب، ويحتمل أن يكون المراد إذا سار أي أقبل، وقد يقال إن هذا أنسب لأنه في مقابلة قوله: ﴿**والفجر**﴾ فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل، فإذا حمل قوله: ﴿**والليل إذا يسر**﴾ على إقباله كان قسماً بإقبال الليل وإدبار النهار، وبالعكس، كقوله: ﴿**والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس**﴾ [التكوير:١٧-١٨]. وكذا قال الضحاك: ﴿**إذا يسر**﴾ أي يجري. وقال عكرمة: يعني ليلة جَمْع.

وعن محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿**والليل إذا يسر**﴾ قال: اسر يا سار، ولا تبيتن إلا بجَمْع. وقوله: ﴿**هل في ذلك قسم لذي حجر**﴾ أي لذي عقل، وإنما سمي العقل حجْراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال، ومنه حجْرُ البيت لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامي، ومنه حَجَر الحاكم على فلان إذا منعه التصرف. وهذا القسم هو بأوقات العبادة، وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرب بها إليه عباده المتقون المطيعون له، الخاشعون لوجهه الكريم. ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده: ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد**﴾، وهؤلاء كانوا جبارين، خارجين عن طاعته مكذبين لرسله، جاحدين لكتبه، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم وجعلهم أحاديث وعبراً، فقال: ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد ؟**﴾ وهؤلاء عاد الأولى، وهم أولاد عاد بن إرم، قاله ابن إسحاق، وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هوداً عليه السلام فكذبوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم، وأهلكهم ﴿**بريح صرصر عاتية، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية**﴾

وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع ليعتبر بمصرعهم المؤمنون، فقوله تعالى: ﴿إرم﴾ عطف بيان زيادة تعريف بهم.

وقوله: **﴿ذات العماد﴾** لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشَّعر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خِلْقَةً وأقواهم بطشاً، ولهذا ذكَّرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم، فقال: **﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾** [الأعراف:٦٩]. وقال تعالى: **﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾** [فصلت:١٥]، وقال ههنا: **﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾** أي القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم. قال مجاهد: إرم: أمة قديمة. يعني عاداً الأولى، كما قال قتادة والسدي: إن إرم بيت مملكة عاد، وهذا قول حسن جيد وقوي. وقال مجاهد وقتادة والكلبي في قوله: **﴿ذات العماد﴾** كانوا أهل عمود لا يقيمون.

وقوله: **﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾** أعاد قتادة وابن جرير الضمير على القبيلة أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد يعني في زمانهم، وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع، المقرونون بثمود كما ههنا، والله أعلم. ومن زعم أن المراد بقوله: **﴿إرم ذات العماد﴾** مدينة إما دمشق، كما روي عن سعيد بن المسيب وعكرمة، أو إسكندرية كما روي عن القرظي أو غيرهما ففيه نظر، فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا: **﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد﴾** إن جعل ذلك بدلاً أو عطف بيان، فإنه لا يتسق الكلام حينئذ. ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يُرد، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم.

وإنما نبهت على ذلك لئلا يغتر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية من ذكر مدينة يقال لها: إرم ذات العماد، مبنية بلبن الذهب والفضة قصورها ودورها وبساتينها، وأن حصباءها لآلىء وجواهر، وترابها بنادق المسك، وأنهارها سارحة، وثمارها ساقطة، ودورها لا أنيس بها، وسورها وأبوابها تصفر ليس بها داع ولا مجيب. وأنها تتنقل فتارة تكون بأرض الشام، وتارة باليمن، وتارة بالعراق، وتارة بغير ذلك من البلاد، فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك.

وذكر الثعلبي وغيره أن رجلاً من الأعراب وهو عبد الله بن قلابة في زمان معاوية ذهب في طلب أباعر له شردت، فبينما هو يتيه في ابتغائها، إذ اطلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب، فدخلها فوجد فيها قريباً مما ذكرناه من صفات المدينة الذهبية التي تقدم ذكرها، وأنه رجع فأخبر الناس فذهبوا معه إلى المكان الذي قال فلم يروا شيئاً. وقد ذكر ابن أبي حاتم قصة إرم

ذات العماد ههنا مطولة جداً فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي فقد يكون اختلق ذلك أو أنه أصابه نوع من الهوس والخبال، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج وليس كذلك، وهذا مما يقطع بعدم صحته، وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين من وجود مطالب تحت الأرض، فيها قناطير الذهب والفضة وألوان الجواهر واليواقيت واللآلىء والإكسير الكبير، لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها، فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير ونحو ذلك من الهذيانات ويَطْنزُون بهم. والذي يجزم به أن في الأرض دفائن جاهلية وإسلامية وكنوزاً كثيرة من ظفر بشيء منها أمكنه تحويله، فأما على الصفة التي زعموها فكذب وافتراء وبهت ولم يصح في ذلك شيء مما يقولونه إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم والله سبحانه وتعالى الهادي للصواب.

وقول ابن جرير يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿**إرم ذات العماد**﴾ قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها فلذلك لم تُصرَف فيه نظر، لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة، ولهذا قال بعده: ﴿**وثمود الذين جابوا الصخر بالواد**﴾ يعني يقطعون الصخر بالوادي، قال ابن عباس ينحتونها ويخرقونها، وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد. ومنه يقال: اجتاب الثوب إذا فتحه. ومنه الجيب أيضاً. وقال الله تعالى: ﴿**وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين**﴾ [الشعراء: ١٤٩].

وقال ابن إسحاق: كانوا عرباً، وكان منزلهم بوادي القرى، وقد ذكرنا قصة عاد في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته. وقوله: ﴿**وفرعون ذي الأوتاد**﴾ عن ابن عباس: الأوتاد: الجنود الذين يشدون له أمره. ويقال: كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها، وكذا قال مجاهد: كان يوتد الناس بالأوتاد. وهكذا قال سعيد بن جبير والحسن والسدي. قال السدي: كان يربط الرجل، كل قائمة من قوائمه في وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فتشدخه. وقال قتادة: بلغنا أنه كان له مَطَالٌ وملاعب، يلعب له تحتها من أوتاد وحبال. وعن أبي رافع: قيل لفرعون ذي الأوتاد لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت.

وقوله: ﴿**الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد**﴾ أي تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذية للناس، ﴿**فصب عليهم ربك سوط عذاب**﴾ أي أنزل عليهم رجزاً من السماء، وأحل بهم عقوبة، لا يَرُدّها عن القوم المجرمين.

وقوله: ﴿**إن ربك لبالمرصاد**﴾ قال ابن عباس: يسمع ويرى. يعني: يرصد خلقه فيما يعملون، ويجازي كلاًّ بسعيه في الدنيا والأخرى، وسيُعْرَضُ الخلائقُ كلهم عليه، فيحكم فيهم بعدله، ويقابل كلا بما يستحقه. وهو المنزه عن الظلم والجور.

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾.

يقول تعالى منكراً على الإنسان في اعتقاده إذا وسع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان كما قال تعالى: **﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين. نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾** [المؤمنون: ٥٥-٥٦]. وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيّق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له. قال الله: **﴿كلا﴾** أي ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين: إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك وإذا كان فقيراً بأن يصبر. وقوله: **﴿بل لا تكرمون اليتيم﴾** فيه أمر بالإكرام له، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» وقرن بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام. [رواه البخاري]. **﴿ولا تحاضون على طعام المسكين﴾** يعني: لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين، ويحث بعضهم على بعض في ذلك، **﴿وتأكلون التراث﴾** يعني الميراث **﴿أكلاً لماً﴾** أي من أي جهة حصل لهم ذلك من حلال أو حرام، **﴿وتحبون المال حباً جماً﴾** أي كثيراً.

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة، فقال: **﴿كلا﴾** أي حقاً **﴿إذا دكت الأرض دكاً دكاً﴾** أي سويت الأرض والجبال، وقام الخلائق من قبورهم لربهم، **﴿وجاء ربك﴾** يعني: لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد ﷺ، بعدما يسألون أولي العزم من الرسل واحداً بعد واحد، فكلهم يقول: لست بصاحب ذاكم، حتى تنتهي النوبة إلى محمد ﷺ فيقول: «أنا لها، أنا لها». فيذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء، فيشفعه الله تعالى في ذلك. [جزء من حديث الشفاعة المتفق عليه]. وهي أول الشفاعات وهي المقام المحمود كما تقدم بيانه في سورة سبحان [آية: ٧٩]، فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً.

وقوله: **﴿وجيء يومئذ بجهنم﴾** روى الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألفاً ملك

يجرونها».

وقوله: ﴿يومئذ يتذكر الإنسان﴾ أي عمله وما كان أسلفه في قديم دهره وحديثه، ﴿وأنى له الذكرى﴾ أي وكيف تنفعه الذكرى؟ ﴿يقول يا ليتني قدمت لحياتي﴾ يعني: يندم على ما كان سلف منه من المعاصي - إن كان عاصياً - ويود لو كان ازداد من الطاعات - إن كان طائعاً - كما روى الإمام أحمد عن محمد بن أبي عميرة، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قال: لو أن عبداً خرَّ على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هَرِماً في طاعة الله، لَحَقِرَه يوم القيامة، ولودَّ أنه يرد إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب. [رجال إسناده ثقات، ورواه أحمد عن عتبة بن عبد مرفوعا].

قال الله تعالى: ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد﴾ أي ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه ﴿ولا يوثق وثاقه أحد﴾ أي وليس أحد أشد قبضاً ووثقاً من الزبانية لمن كفر بربهم عز وجل، هذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين. فأما النفس الزكية المطمئنة وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فيقال لها: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك﴾ أي إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته ﴿راضية﴾ أي في نفسها ﴿مرضية﴾ أي قد رضيت عن الله ورضي عنها وأرضاها، ﴿فادخلي في عبادي﴾ أي في جملتهم، ﴿وادخلي جنتي﴾. وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضاً، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره، فكذلك ههنا.

ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية، فروى الضحاك عن ابن عباس: نزلت في عثمان بن عفان، وعن بريدة بن الحصيب: نزلت في حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه. وقال ابن عباس: يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة ﴿يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك﴾ يعني صاحبك، وهو بدنها الذي كانت تعمره في الدنيا، ﴿راضية مرضية﴾. وكذا قال عكرمة والكلبي، واختاره ابن جرير وهو غريب، والظاهر الأول لقوله: ﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ [الأنعام: ٦٢]، ﴿وأن مردنا إلى الله﴾ [غافر: ٤٣] أي إلى حكمه والوقوف بين يديه.

روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: مات ابن عباس بالطائف، فجاء طير لم ير على خَلْقه، فدخل نعشه، ثم لم ير خارجاً منه فلما دفن تُليت هذه الآية على شفير القبر، ما يدرى من تلاها: ﴿يا أيتهاالنفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ رواه الطبراني [وقال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح].

تفسير سورة البلد وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۝٩

وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾.

هذا قسم من الله عز وجل بمكة أم القرى في حال كون الساكن فيها حالاً، لينبه على عظمة قَدرها في حال إحرام أهلها، عن مجاهد: ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ لا رد عليهم. أقسم بهذا البلد. وقال ابن عباس: ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ يعني مكة، ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾ قال أنت يا محمد يحل لك أن تُقاتل به، وكذا روي عن سعيد بن جبير وقتادة والسدي وابن زيد [وغيرهم]، وقال مجاهد: ما أصبت فيه فهو حلال لك، وقال قتادة: أنت به من غير حَرَج ولا إثم، وقال الحسن البصري أحلها الله له ساعة من نهار. وهذا المعنى الذي قالوه ورد به الحديث المتفق على صحته: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرامٌ بحُرمَة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شجره ولا يختلى خلاه. وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب». وفي لفظ آخر: «فإن أحد ترخَّص بقتال رسول الله فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم».

وقوله: ﴿ووالد وما ولد﴾ عن ابن عباس: الوالد الذي يلد، وما ولد العاقر الذي لا يولد له. وقال مجاهد وقتادة والضحاك وسعيد بن جبير والسدي والحسن البصري وغيرهم: يعني بالوالد آدم، وما ولد ولده. وهذا الذي ذهب إليه مجاهد وأصحابه حَسنٌ قوي، لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى وهي المساكن أقسم بعده بالساكن، وهو آدم أبو البشر وولده، وقال أبو عمران الجوني: هو إبراهيم وذريته. واختار ابن جرير أنه عام في كل والد وولده. وهو محتمل أيضاً.

وقوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ روي عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم: يعني منتصباً، زاد ابن عباس في رواية عنه منتصباً في بطن أمه، والكبد: الاستواء والاستقامة. ومعنى هذا القول لقد خلقناه سوياً مستقيماً، كقوله: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم. الذي خلقك فسوّاك فعدلك﴾ [الانفطار:٦-٧]، وكقوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [التين:٤]. وقال ابن عباس: في كبد، قال: في شدة خَلْق، ألم تر إليه... وذكر مولده ونبات أسنانه، وقال مجاهد: ﴿في كبد﴾ نطفة، ثم علقة، ثم مضغة يتكبد في الخلق، كقوله: ﴿حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً﴾ [الأحقاف:١٥]، وأرضعته كرهاً ومعيشته كره فهو يكابد ذلك. وقال سعيد بن جبير: في شدة وطَلَب معيشة. وقال عكرمة: في شدة وطول، وقال قتادة: في مشقة. وروي عن الحسن قال: يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة. وقال ابن زيد: آدم خلق في السماء، فسُمي ذلك الكَبَد، واختار ابن جرير أن المراد بذلك مكابدة الأمور ومشاقها.

وقوله: ﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ قال الحسن البصري: يعني أيحسب أن لن يقدر عليه أحد يأخذ ماله. وقال قتادة: ابنُ آدم يظن أن لن يُسأل عن هذا المال من أين اكتسبه، وأين أنفقه؟ وقال السدي: ﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ قال: الله عز وجل،

وقوله: ﴿يقول أهلكت مالاً لبداً﴾ أي يقول ابن آدم أنفقت مالاً لبداً أي كثيراً قاله مجاهد وقتادة والسدي وغيرهم. ﴿أيحسب أن لم يره أحد﴾ قال مجاهد: أي أيحسب أن لم يره الله عز وجل. وكذا قال غيره من السلف. وقوله: ﴿ألم نجعل له عينين﴾ أي يبصر بهما، ﴿ولساناً﴾ أي ينطق به، فيُعبر عما في ضميره، ﴿وشفتين﴾ يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام وجمالاً لوجهه وفمه.

﴿وهديناه النجدين﴾: قال ابن مسعود: الخير والشر، وكذا روي عن علي وابن عباس وأبي وائل ومحمد بن كعب في آخرين.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وهديناه النجدين﴾ قال الثديين. وروي عن الربيع بن خُثَيم وقتادة وأبي حازم مثل ذلك. ورواه ابن جرير. ثم قال: والصواب القول الأول، ونظير هذه الآية قوله: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ [الإنسان: ٢-٣].

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾.

عن ابن عمر في قوله: ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ قال: جبل في جهنم. وقال كعب الأحبار: هو سبعون درجة في جهنم. وقال الحسن البصري: عقبة في جهنم، وقال قتادة: إنها قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله تعالى. ثم أخبر تعالى عن اقتحامها فقال: ﴿فك رقبة أو إطعام﴾. وقال ابن زيد ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ أي أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير. ثم بينها فقال تعالى: ﴿وما أدراك ما العقبة. فك رقبة أو إطعام﴾ روى الإمام أحمد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرْب منها إرباً منه من النار، حتى إنه ليعتق باليد اليد، وبالرجل الرجل، وبالفرج الفرج». فقال علي بن الحسين: أنت سمعت هذا من أبي هريرة؟ فقال سعيد: نعم. فقال علي بن الحسين لغلام له أفْرَهَ غلمانه: ادعُ مطْرَفاً، فلما قام بين يديه قال: اذهب فأنت حر لوجه الله. وقد رواه البخاري.

روى الإمام أحمد عن عمرو بن عبسة أن النبي ﷺ قال: «من بنى مسجداً ليذكر الله فيه، بنى الله له بيتاً في الجنة. ومن أعتق نفساً مسلمة، كانت فديته من جهنم، ومن شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة». [أسانيده جيدة قوية]. وروى أبوداود والنسائي بعضه.

وقوله: ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة﴾ قال ابن عباس: ذي مجاعة. وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد. والسَّغَب: هو الجوع. وقال إبراهيم النخعي: في يوم الطعام فيه عزيز، وقال قتادة: في يوم يُشتهى فيه الطعام. وقوله: ﴿يتيماً﴾ أي أطعم في مثل هذا اليوم يتيماً، ﴿ذا مقربة﴾ أي ذا قرابة منه. قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك والسدي. كما جاء

في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن سليمان بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان، صدقة وصلة». وقد رواه الترمذي والنسائي وإسناده صحيح. وقوله: ﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ أي فقيراً مُدقعاً لاصقاً بالتراب، وهو الدقعاء أيضاً. قال ابن عباس: ذا متربة هو المطروح في الطريق الذي لا بيت له، ولا شيء يقيه من التراب، وفي رواية عنه: هو البعيد التربة، قال ابن أبي حاتم: يعني الغريب عن وطنه، وقال عكرمة: هو الفقير المديون المحتاج، وقال سعيد بن جبير: هو الذي لا أحد له، وقال ابن عباس وسعيد وقتادة ومقاتل بن حيان: هو ذو العيال، وكل هذه قريبة المعنى.

وقوله: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ أي ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة، مؤمنٌ بقلبه، محتسب ثواب ذلك عند الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيهاوهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ [الإسراء:١٩]. وقوله: ﴿وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾ أي كان من المؤمنين العاملين صالحاً، المتواصين بالصبر على أذى الناس، وعلى الرحمة بهم، كما جاء في الحديث: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» [رواه أحمد وغيره وهو صحيح].

وقوله: ﴿أولئك أصحاب الميمنة﴾ أي المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين. ثم قال: ﴿والذين كفروابآياتنا هم أصحاب المشأمة﴾ أي أصحاب الشمال، ﴿عليهم نار مؤصدة﴾ أي مطبقة عليهم فلا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. قال أبو هريرة وابن عباس ومجاهد والحسن والسدي وغيرهم: ﴿مؤصدة﴾ أي مطبقة قال ابن عباس: مغلقة الأبواب، وقال مجاهد: أصد الباب بلغة قريش أي أغلقه. وقال الضحاك: حيط لا باب له، وقال قتادة: مطبقة فلا ضوء فيها ولا فُرَج، ولا خروج منها آخر الأبد.

تفسير سورة الشمس وهي مكية.

تقدم حديث جابر الذي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى»؟.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾.

قال مجاهد ﴿والشمس وضحاها﴾ أي وضوئها. وقال قتادة: ﴿وضحاها﴾ النهار كله. قال ابن جرير: والصواب أن يقال: أقسم الله بالشمس ونهارها، لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار. ﴿والقمر إذا تلاها﴾ قال مجاهد: تبعها، وعن ابن عباس قال: يتلو النهار. وقال قتادة: ليلة الهلال، إذا سقطت الشمس رؤي الهلال، وقال ابن زيد، هو يتلوها في النصف الأول من الشهر، ثم هي تتلوه. وهو يتقدمها في النصف الأخير من الشهر، وقال زيد بن أسلم: إذا تلاها

ليلة القدر. وقوله: ﴿**والنهار إذا جلاها**﴾ قال مجاهد: أضاء. وقال قتادة: إذا غشيها النهار. قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية يتأول ذلك بمعنى: والنهار إذا جلا الظلمة لدلالة الكلام عليها.

قلت: ولو أن هذا القائل تأول ذلك بمعنى ﴿**والنهار إذا جلاها**﴾ أي البسيطة لكان أولى، ولصح تأويله في قوله: ﴿**والليل إذا يغشاها**﴾ فكان أجود وأقوى، والله أعلم. ولهذا قال مجاهد: إنه كقوله: ﴿**والنهار إذا تجلى**﴾ [الليل: ٢]. وأما ابن جرير فاختار عود الضمير في ذلك كله على الشمس، لجريان ذكرها. وقالوا في قوله: ﴿**والليل إذا يغشاها**﴾ يعني إذا يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق.

وقوله: ﴿**والسماء وما بناها**﴾ يحتمل أن تكون «ما» هاهنا مصدرية، بمعنى: والسماء وبنائها. وهو قول قتادة، ويحتمل أن تكون بمعنى «مَن» يعني: والسماء وبانيها، وهو قول مجاهد، وكلاهما متلازم والبناء هو الرفع، كقوله: ﴿**والسماء بنيناها بأيد**﴾ أي بقوة. [الذاريات: ٤٧]، وهكذا قوله: ﴿**والأرض وما طحاها**﴾ قال مجاهد: طحاها: دحاها، وعن ابن عباس: أي خلق فيها. وقال [أيضا]: قسمها. وقال مجاهد وقتادة والضحاك والسدي والثوري وأبو صالح وابن زيد: بسطها، وهذا أشهر الأقوال وعليه الأكثر من المفسرين، وهو المعروف عند أهل اللغة، قال الجوهري: طحوته مثل دحوته أي بسطته.

وقوله: ﴿**ونفس وما سواها**﴾ أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة، كما قال تعالى: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**﴾ [الروم: ٣٠]. وقال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوذانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء». أخرجاه.

وقوله: ﴿**فألهمها فجورها وتقواها**﴾ أي فأرشدها إلى فجورها وتقواها أي بين ذلك لها وهداها إلى ما قدر لها. قال ابن عباس: بين لها الخير والشر، وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك والثوري. وقال سعيد بن جبير: ألهمها الخير والشر. وقال ابن زيد: جعل فيها فجورها وتقواها.

روى ابن جرير عن أبي الأسود الديلي قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قَدَر قد سبق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت عليهم الحجة؟ قلت: بل شيء قضي عليهم، قال: فهل يكون ذلك ظلماً؟ قال: ففزعت منه فزعاً شديداً قال: قلت له ليس شيء إلا وهو خلقه وملك يده لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، قال: سددك الله إنما سألتك لأختبر عقلك، إن رجلاً من مُزينة أو جهينة أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ

وأكدت به عليهم الحجة ؟ قال: «بل شيء قد قضي عليهم» قال: ففيم نعمل ؟ قال: «من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يُهيِّئه لها وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿**ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها**﴾ رواه مسلم.

وقوله تعالى: ﴿**قد أفلح من زكاها**﴾ يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى نفسه أي بطاعة الله ـ كما قال قتادة ـ وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل، ويروى نحوه عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير. وكقوله: ﴿**قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى**﴾ [الأعلى: ١٤ـ١٥]. ﴿**وقد خاب من دساها**﴾ أي دسسها، أي أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى، حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله عز وجل. وقد يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه، وقد خاب من دسى الله نفسه كما قال ابن عباس.

روى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والهرم، والجبن والبخل وعذاب القبر. اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من قَلْب لا يخشع، ومن نَفْس لا تشبع. وعلم لا ينفع ودعوة لا يستجاب لها» قال زيد: كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكموهن، رواه مسلم.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي، وقال محمد بن كعب: ﴿**بطغواها**﴾ أي بأجمعها، والأول أولى، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما. فأعقبهم ذلك تكذيباً في قلوبهم بما جاءهم به رسولهم من الهدى واليقين. ﴿**إذ انبعث أشقاها**﴾ أي أشقى القبيلة وهو قدار بن سالف عاقرُ الناقة، وهو أحيمر ثمود، وهو الذي قال الله تعالى: ﴿**فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر**﴾ [القمر: ٢٩]. وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم شريفاً في قومه نسيباً رئيساً مطاعاً، كما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن أبي زمعة قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال: «**إذ انبعث أشقاها**، انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة» ورواه البخاري في التفسير.

وقوله: ﴿**فقال لهم رسول الله**﴾ يعني صالحاً عليه السلام ﴿**ناقة الله**﴾ أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء، ﴿**وسقياها**﴾ أي لا تعتدوا عليها في سقياها، فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم. قال الله: ﴿**فكذبوه فعقروها**﴾ أي كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم ﴿**فدمدم عليهم ربهم بذنبهم**﴾ أي غضب عليهم فدمَّر عليهم، ﴿**فسواها**﴾ أي فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء. قال قتادة: بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، فلما اشترك القوم

في عقرها دمدم الله عليهم بذنبهم فسواها. وقوله تعالى: ﴿ولا يخاف﴾ وقرىء فلا يخاف. ﴿عقباها﴾ قال ابن عباس: لا يخاف اللهُ من أحد تبعة، وكذا قال مجاهد والحسن وبكر بن عبد الله المزني وغيرهم. وقال الضحاك والسدي: ﴿ولا يخاف عقباها﴾ أي لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع، والقول الأول أولى لدلالة السياق عليه والله أعلم.

تفسير سورة الليل وهي مكية.

تقدم قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ: «فهلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى». [متفق عليه].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾.

أقسم تعالى بـ ﴿الليل إذا يغشى﴾ أي إذا غَشِيَ الخليقة بظلامه، ﴿والنهار إذا تجلى﴾ أي بضيائه وإشراقه. ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ كقوله: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ [الذاريات:٤٩]. ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان المقسم عليه أيضاً متضاداً، ولهذا قال: ﴿إن سعيكم لشتى﴾ أي أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضاً ومتخالفة، فمن فاعلٍ خيراً ومن فاعلٍ شراً. قال الله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ أي أعطى ما أمر بإخراجه، واتقى الله في أموره ﴿وصدق بالحسنى﴾ أي بالمجازاة على ذلك قاله قتادة. وقال خصيف: بالثواب. وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو صالح وزيد بن أسلم: أي بالخلف. وقال أبو عبد الرحمن السلمي والضحاك: أي بلا إله إلا الله. وفي رواية عن عكرمة: أي بما أنعم الله عليه، وفي رواية عن زيد بن أسلم قال: الصلاة والزكاة والصوم. وقال مرة: وصدقة الفطر.

وقوله: ﴿فسنيسره لليسرى﴾ قال ابن عباس: يعني للخير، وقال زيد بن أسلم: يعني للجنة، وقال بعض السلف: من ثواب الحسنة الحسنةُ بعدها، ومن جزاء السيئة السيئةُ بعدها، ولهذا قال تعالى: ﴿وأما من بخل﴾ أي بما عنده ﴿واستغنى﴾ قال ابن عباس: أي بخل بماله واستغنى عن ربه عز وجل. ﴿وكذب بالحسنى﴾ أي بالجزاء في الدار الآخرة، ﴿فسنيسره للعسرى﴾ أي لطريق الشر، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ [الأنعام:١١٠]، والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله عز وجل يجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان، وكل ذلك بقدر مُقدّر والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة.

روى البخاري عن علي بن أبي طالب قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومقعده من النار». فقالوا:

يا رسول الله، أفلا نتكل؟ فقال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له». ثم قرأ **﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى إلى قوله للعسرى﴾**.

روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال عمر: يا رسول الله أرأيت ما نعمل فيه أفي أمر قد فرغ أو مبتدأ أو مبتدع؟ قال: «فيما قد فرغ منه، فاعمل يا ابن الخطاب، فإن كلاً ميسر، أما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء».

ورواه الترمذي في القدر، وقال: حسن صحيح.

وروى ابن جرير عن جابر بن عبد الله أنه قال: يا رسول الله أنعمل لأمر قد فرغ منه أو لأمر نستأنفه؟ فقال: «لأمر قد فرغ منه». فقال سراقة: ففيم العمل إذاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «كل عامل مُيَسَّر لعمله». ورواه مسلم.

وقوله: **﴿وما يغني عنه ماله إذا تردى﴾** قال مجاهد: أي إذا مات وقال أبو صالح وزيد بن أسلم: إذا تردى في النار.

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾.

قال قتادة: **﴿إن علينا للهدى﴾** أي نبين الحلال والحرام، وقال غيره: من سلك طريق الهدى وصل إلى الله، وجعله كقوله تعالى: **﴿وعلى الله قصد السبيل﴾** حكاه ابن جرير. وقوله: **﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾** أي الجميع ملكنا وأنا المتصرف فيهما. وقوله: **﴿فأنذرتكم ناراً تلظى﴾** قال مجاهد: أي توهج.

روى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول: «أنذركم النار أنذرتكم النار أنذرتكم النار» حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا، قال: حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه. [سنده صحيح].

[وعنه قال]: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجلٌ توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه». رواه البخاري. ومسلم [وزاد] «ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذابا».

وقوله: **﴿لا يصلاها إلا الأشقى﴾** أي لا يدخلها دخولاً يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى. ثم فسره فقال: **﴿الذي كذب﴾** أي بقلبه **﴿وتولى﴾** أي عن العمل بجوارحه وأركانه.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى». قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى». رواه البخاري.

وقوله تعالى: **﴿وسيجنبها الأتقى﴾** أي وسيزحزح عن النار التقي النقي. ثم فسره بقوله:

﴿الذي يؤتي ماله يتزكى﴾ أي يصرف ماله في طاعة ربه، ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ أي ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفاً، فهو يعطي في مقابلة ذلك وإنما دفعه ذلك ﴿ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ أي طمعاً في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات، قال الله تعالى: ﴿ولسوف يرضى﴾ أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات.

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها فإن لفظها العموم، وهو قوله تعالى: ﴿وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذالاً لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله ﷺ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده منّةٌ يحتاج إلى أن يكافئه بها، وكان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود وهو سيد ثقيف يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة، فإن كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل، فكيف بمن عداهم، ولهذا قال: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى﴾. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة: يا عبد الله هذا خير» فقال أبو بكر: يا رسول الله ما على من يدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد؟ قال: «نعم وأرجو أن تكون منهم».

تفسير سورة الضحى وهي مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا
ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾.

روى الإمام أحمد عن جندب قال: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله عز وجل: ﴿والضحى والليل إذا سجى. ما ودعك ربك وما قلى﴾ رواه البخاري.

وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء، ﴿والليل إذا سجى﴾ أي سكن فأظلم. قاله مجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم، وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا، كما قال: ﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى﴾ [الليل: ١-٢]، وقال: ﴿فالق الإصباح وجعل

الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقوله: **﴿ما ودعك ربك﴾** أي ما تركك **﴿وما قلى﴾** أي وما أبغضك، **﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾** أي والدار الآخرة خير لك من هذه الدار، ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا، وأعظمهم لها اطِّراحاً كما هو معلوم بالضرورة من سيرته، ولما خُيِّرَ عليه السلام في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى الله عز وجل، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية. روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه وقلت: يا رسول الله ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما لي وللدنيا! ما أنا والدنيا! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظَلَّ تحت شجرة ثم راح وتركها». ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

وقوله: **﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾** أي في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته، وفيما أعدَّه له من الكرامة، ومن جملته نهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، وطينه مسك أذفر كما سيأتي.

وعن عبد الله بن عباس قال: عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كنزاً فسر بذلك، فأنزل الله: **﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾** فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم. رواه ابن جرير، وإسناده صحيح إلى ابن عباس ومثلُ هذا ما يقال إلا عن توقيف. وعن ابن عباس: من رضا محمد ﷺ أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار. وقال الحسن: يعني بذلك الشفاعة. وهكذا قال أبو جعفر الباقر.

ثم قال تعالى يعدد نعَمه على عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه: **﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾** وذلك أن أباه تُوفي وهو حَملٌ في بطن أمه، عليه السلام، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره، ويكفّ عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحُسن تدبيره، إلى أن تُوفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجُهالهم فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سُنَّته على الوجه الأتم الأكمل. فلما وصل إليهم آووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به.

وقوله تعالى: **﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾**، كقوله: **﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾** [الشورى: ٥٢].

وقوله: ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ أي كنت فقيراً ذا عيال، فأغناك الله عمن سواه، فجمع له بين مقامي الفقير الصابر والغني الشاكر صلوات الله وسلامه عليه. وقال قتادة في قوله: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى. ووجدك ضالاً فهدى. ووجدك عائلاً فأغنى﴾ قال: كانت هذه منازل رسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله عز وجل. وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس».

ثم قال: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ أي كما كنت يتيماً فآواك الله فلا تقهر اليتيم أي لا تذله وتنهره وتهنه، ولكن أحسِنْ إليه وتلطف به. قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ أي وكما كنت ضالا فهداك الله، فلا تنهر السائل في العلم المسترشد. قال ابن إسحاق: فلا تكن جباراً، ولا متكبراً، ولا فحاشاً، ولافظّاً على الضعفاء من عباد الله. وقال قتادة: يعني رد المسكين برحمة ولين. ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ أي وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله، فحدث بنعمة الله عليك.

وعن أبي نضرة قال: كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدث بها.

وفي الصحيحين عن أنس أن المهاجرين قالوا يا رسول الله ذهب الأنصار بالأجر كله، قال: «لا ما دعوتم الله لهم، وأثنيتم عليهم». وروى أبو داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» ورواه الترمذي، وقال: صحيح.

وقال مجاهد: يعني النبوة التي أعطاك ربك. وفي رواية عنه القرآن. وعن الحسن بن علي قال: ما عملت من خير فَحَدث إخوانك. وقال محمد بن إسحاق: ما جاءك من الله من نعمة وكرامة من النبوة فحدث بها واذكرها، وادع إليها، قال: فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم به عليه من النبوة سراً إلى من يطمئن إليه من أهله، وافترضت عليه الصلاة فصلى.

تفسير سورة الشرح وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾.

يقول تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ يعني أمَا شرحنا لك صدرك، أي نورناه وجعلناه فسيحاً واسعاً كقوله: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ [الأنعام:١٢٥]، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه سمحاً سهلاً لا حرج فيه ولا ضيق. وقيل: المراد شرح صدره ليلة الإسراء، كما تقدم [في أول سورة الإسراء] من رواية مالك بن صعصعة، وقد أورده الترمذي ههنا، وهذا وإن كان واقعاً، ولكن لا منافاة فإن من جملة شرح صدره الذي فعل بصدره ليلة الإسراء وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضاً، فالله أعلم.

وقوله: ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ بمعنى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح:٢]

﴿الذي أنقض ظهرك﴾ الإنقاض: الصوت. وقال غير واحد من السلف: أي أثقلك حمله.
وقوله: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ قال مجاهد: لا أُذْكَرُ إلا ذُكِرتَ معي: أشهد أن لا إله، إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا مُتشهد ولا صاحبُ صلاة إلا ينادي بها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي مسألة وددت أني لم أسأله، قلت قد كان قبلي أنبياء منهم من سخرت له الريح، ومنهم من يحيي الموتى، قال: يا محمد ألم أجدك يتيماً فآويتك؟ قلت: بلى يا رب، قال: ألم أجدك ضالاً فهديتك ؟ قلت: بلى يا رب. قال: ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ قلت: بلى يا رب. قال: ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت: بلى يا رب». [رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد].

وحكى البغوي عن ابن عباس ومجاهد: أن المراد بذلك الأذان. يعني ذكره فيه، وأورد من شعر حسان بن ثابت:

أغـرّ عليـه للنـبوة خـاتـم ... مـن الله مـن نـور يلـوح ويشـهد
وضمَّ الإلهُ اسم النبي إلى اسمه ... إذا قالَ في الخَمْس المؤذنُ: أشهدُ

وقال آخرون: رفع الله ذكره في الأولين والآخرين ونوه به، حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به، وأن يأمروا أممهم بالإيمان به، ثم شهَّر ذكره في أمته فلا يذكر الله إلا ذُكر معه.

وقوله: ﴿فإن مع العسر يسراً. إن مع العسر يسراً﴾ أخبر تعالى أن مع العسر يوجَدُ اليسر، ثم أكد هذا الخبر. وعن الحسن قال: كانوا يقولون: لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين. ومعنى هذا أن العسر معرّف في الحالين فهو مفرد واليسر منكر فتعدد، فالعسر الأول عين الثاني واليسر تعدد.

وقوله: ﴿فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب﴾ أي إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها، فانصب في العبادة وقم إليها نشيطاً فارغ البال، وأخلص لربك النية والرغبة، ومن هذا القبيل قوله ﷺ: «لا صلاة بحضرة الطعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان». [رواه مسلم]. وقوله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء، فابدؤوا بالعشاء». [رواه البخاري]. قال مجاهد في هذه الآية: إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت إلى الصلاة فانصب لربك. وفي رواية عنه: إذا قمت إلى الصلاة فانصب في حاجتك. وعن ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل، وعن ابن عياض نحوه، وفي رواية عن ابن مسعود: ﴿فانصب. وإلى ربك فارغب﴾ بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس. وقال ابن عباس: فانصب: يعني في الدعاء، وقال زيد بن أسلم والضحاك: ﴿فإذا فرغت﴾ أي من الجهاد ﴿فانصب﴾ أي في العبادة. ﴿وإلى ربك فارغب﴾ قال الثوري: اجعل نيتك ورغبتك إلى الله عز وجل.

تفسير سورة التين وهي مكية.

عن البراء بن عازب: كان النبي ﷺ يقرأ في سفر في إحدى الركعتين بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه. أخرجه الجماعة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾.

اختلف المفسرون هاهنا في التين فعن ابن عباس أنه مسجد نوح الذي على الجودي، وقال مجاهد: هو تِينُكم هذا. ﴿والزيتون﴾ قال كعب الأحبار وقتادة وابن زيد وغيرهم: هو مسجد بيت المقدس. وقال مجاهد وعكرمة: هو هذا الزيتون الذي تعصرون. ﴿وطور سينين﴾ قال كعب الأحبار وغير واحد: هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، ﴿وهذا البلد الأمين﴾ يعني مكة. قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وإبراهيم النخعي وابن زيد وكعب الأحبار ولا خلاف في ذلك. وقال بعض الأئمة: هذه مَحَالٌّ ثلاثة بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلاً من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار:

فالأول: محلة التين والزيتون، وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم عليه السلام. والثاني: طور سينين، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران. والثالث: مكة، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ. قالوا: وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء - يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران - وأشرق من ساعير - يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى - واستعلن من جبال فاران - يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أقسم بالأشرف ثم الأشرف منه ثم بالأشرف منهما.

وقوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة، وشكل منتصب القامة سَوِيّ الأعضاء حسنها. ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ أي إلى النار. قاله مجاهد وأبو العالية والحسن وابن زيد وغيرهم، ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيره إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل، ولهذا قال: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾. وقال بعضهم: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ أي إلى أرذل العمر. رُوي هذا عن ابن عباس وعكرمة، حتى قال عكرمة: من جمع القرآن لم يُرَدّ إلى أرذل العمر، واختار ذلك ابن جرير، ولو كان هذا هو المراد لما حَسُن استثناء المؤمنين من ذلك، لأن الهَرَم قد يصيبُ بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه، كقوله: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر.

إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ [العصر: ١-٣]. وقوله: ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾ أي غير مقطوع. ثم قال: ﴿فما يكذبك﴾ أي يا ابن آدم ﴿بعد بالدين﴾ أي بالجزاء في المعاد، ولقد علمت البداءة وعرفت أن من قدر على البداءة، فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى، فأي شيء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا ؟

روى ابن أبي حاتم عن منصور قال: قلت لمجاهد ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ عنى به النبي ﷺ قال: معاذ الله! عنى به الإنسان وهكذا قال عكرمة وغيره. وقوله: ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ أي أمَا هو أحكم الحاكمين الذي لا يجور ولا يظلم أحداً، ومن عدله أن يقيم القيامة فينصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه.

تفسير سورة اقرأ وهي مكية. وهي أول شيء أنزل من القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾.

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فاجأه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ. قال رسول الله ﷺ: «فقلت ما أنا بقارىء. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ، فقلت ما أنا بقارىء، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق حتى بلغ ما لم يعلم﴾ قال: فرجع بها ترجف بَوادره حتى دخل على خديجة فقال: «زمّلوني زملوني». فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْع. فقال: «يا خديجة ما لي ؟» وأخبرها الخبر وقال: «قد خشيت على نفسي». فقالت له: كلا، أبشر فو الله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به وَرَقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت خديجة: أي ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة: ابن أخي ما ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جَذعاً ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجي هم ؟» فقال ورقة: نعم لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يُدركني يومك أنصُرْكَ نصراً مُؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن تُوفِّي،

وفَتَر الوحي فترة حتى حَزن رسول الله ﷺ، حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن بذلك جأشه، وتقر نفسه فيرجع. فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك وهذا الحديث مخرج في الصحيحين.

فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم، وهو الذي امتاز به أبو البشرية آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان، ذهني ولفظي ورسمي والرسمي يستلزمهما من غير عكس، فلهذا قال: ﴿**اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم. علم الإنسان مالم يعلم**﴾ وفي الأثر: قيدوا العلم بالكتابة. [رواه الحاكم من قول عمر وأنس].

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله. ثم تهدده ووعظه فقال: ﴿**إن إلى ربك الرجعى**﴾ أي إلى الله المصير والمرجع، وسيحاسبك على مالك: من أين جمعته وفيم صرفته؟ روى ابن أبي حاتم عن عبد الله [بن مسعود]: مَنهومان لا يشبعان، صاحب العلم وصاحب الدنيا، ولا يستويان، فأما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان. ثم قرأ عبدالله: ﴿**إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى**﴾. وقال للآخر: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ [فاطر:٢٨].

ثم قال تعالى: ﴿**أرأيت الذي ينهى. عبداً إذا صلى**﴾ نزلت في أبي جهل لعنه الله، توعد النبي ﷺ على الصلاة عند البيت، فوعظه تعالى بالتي هي أحسن أولاً فقال: ﴿**أرأيت إن كان على الهدى**﴾ أي فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريق المستقيمة في فعله، أو أمر بالتقوى بقوله، وأنت تزجره وتتوعده على صلاته، ولهذا قال: ﴿**ألم يعلم بأن الله يرى ؟**﴾ أي أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه. وسيجازيه على فعله أتم الجزاء. ثم قال تعالى متوعداً ومتهدداً: ﴿**كلا لئن لم ينته**﴾ أي لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿**لنسفعاً بالناصية**﴾ أي لنَسِمَنَّها سواداً يوم القيامة. ثم قال: ﴿**ناصية كاذبة خاطئة**﴾ يعني ناصية أبي جهل كاذبة في مقالها خاطئة في فعَالها. ﴿**فليدع ناديه**﴾ أي قومه وعشيرته، أي ليدعهم يستنصر بهم، ﴿**سندع الزبانية**﴾ وهم ملائكة العذاب، حتى يعلم من يغلب أحزبنا أو حزبه.

روى البخاري عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عُنُقه. فبلغ النبي ﷺ فقال: «لئن فعله لأخذته الملائكة».

وروى أحمد والترمذي وابن جرير وهذا لفظه عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام فقال: يا محمد ألم أنهك عن هذا؟ وتوعده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد بأي شيء تهددني ؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً، فأنزل الله ﴿فليدع ناديه. سندع الزبانية﴾ وقال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى ابن جرير عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فقال واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبته، ولأعفِّرن وجهه في التراب، فأتى رسول الله ﷺ وهو يُصَلي ليطأ على رقبته، قال: فما فَجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة قال: فقال رسول الله: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً». قال: وأنزل الله ﴿كلا إن الإنسان ليطغى﴾ إلى آخر السورة. وقد رواه مسلم.

وقوله: ﴿كلا لا تطعه﴾ يعني يا محمد لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها، وصل حيث شئت، ولا تباله فإن الله حافظك وناصرك وهو يعصمك من الناس ﴿واسجد واقترب﴾ كما ثبت في الصحيح عند مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء» وتقدم أيضاً أن رسول الله ﷺ كان يسجد في ﴿إذا السماء انشقت﴾ و ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ [رواه مسلم].

تفسير سورة القدر وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥ ﴾.

يخبر تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر، وهي من شهر رمضان كما قال تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ [البقرة: ١٨٥]. قال ابن عباس وغيره: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العِزّة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ. ثم قال تعالى معظماً لشأن ليلة القدر التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها فقال: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر﴾.

عن مجاهد: ليلة القدر خير من ألف شهر قال: عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر. [وعنه أيضا] : ليلة القدر خير من ألف شهر، ليس في تلك الشهور ليلة القدر، وهكذا قال قتادة بن دعامة والشافعي وغير واحد. وقال عمرو بن قيس الملائي: عمل فيها خير من عمل

ألف شهر، وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر هو اختيار ابن جرير، وهو الصواب لا ما عداه.

وروى الإمام أحمد عن أبي هُريرة قال: لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطن، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرم خيرَها فقد حُرم». [سنده صحيح]. ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر، ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه». وقوله: ﴿**تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر**﴾ أي يكثر تَنَزُّلُ الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن، ويحيطون بحِلَق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدقٍ تعظيماً له. وأما الروح فقيل: المراد به هاهنا جبريل عليه السلام، فيكون من باب عطف الخاص على العام. وقيل: هم ضرب من الملائكة كما تقدم في سورة النبأ والله أعلم.

وقوله: ﴿**من كل أمر**﴾ قال مجاهد: سلام هي من كل أمر. وعن مجاهد قال: هي سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً أو يعمل فيها أذى. وقال قتادة وغيره: تُقضى فيها الأمورُ، وتقدر الآجال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿**فيها يفرق كل أمر حكيم**﴾ [الدخان: ٤]. وقوله: ﴿**سلام هي حتى مطلع الفجر**﴾ عن الشعبي قال: تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد حتى يطلع الفجر. وروى أبو داود الطيالسي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إنها ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى». [سنده حسن]. وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لا يَحْدُثُ فيها أمر. وقال قتادة وابن زيد: يعني هي خير كلها، ليس فيها شر إلى مطلع الفجر.

واختلف العلماء هل كانت ليلة القدر في الأمم السالفة أو هي من خصائص هذه الأمة؟ على قولين: والذي دل عليه الحديث أنها كانت في الأمم الماضين كما هي في أمتنا. روى الإمام أحمد بن حنبل عن مرثد قال: سألت أبا ذر قلت: كيف سألت رسول الله ﷺ عن ليلة القدر؟ قال: أنا كنت أسأل الناس عنها، قلت: يا رسول الله، أخبرني عن ليلة القدر أفي رمضان هي أو في غيره؟ قال: «بل هي في رمضان» قلت: تكون مع الأنبياء ما كانوا فإذا قبضوا رفعت أم هي إلى يوم القيامة؟ قال: «بل هي إلى يوم القيامة» قلت: في أي رمضان هي؟ قال: «التمسوها في العشر الأول والعشر الأواخر» ثم حدث رسول الله ﷺ وحدث ثم اهتبلت غفلته قلت: في أي العشرين هي؟ قال: «ابتغوها في العشر الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها». ثم حدث رسول الله ثم اهتبلت غفلته فقلت: يا رسول الله أقسمت عليك بحقي عليك لما أخبرتني في أي العشر هي؟ فغضب عليَّ غضباً لم يغضب مثله منذ صحبته

وقال: «التمسوها في السبع الأواخر، لا تسألني عن شيئاً بعدها». ورواه النسائي [سنده حسن]. ففيه دلالة على ما ذكرناه، وفيه أنها تكون باقية إلى يوم القيامة في كل سنة بعد النبي ﷺ، لا كما زعمه بعض طوائف الشيعة من رفعها بالكلية، على ما فهموه من الحديث الذي سنورده بعد من قوله عليه السلام: «فرفعت وعسى أن يكون خيراً لكم» لأن المراد رفعُ عِلْم وقتها عيناً. وفيه دلالة على أن ليلة القدر يختص وقوعها بشهر رمضان من بين سائر الشهور، لا كما رُوي عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة، من أنها توجد في جميع السنة وترتجى في جميع الشهور على السواء.

وقد ترجم أبو داود في سننه على هذا فقال: «باب بيان أن ليلة القدر في كل رمضان» فروى عن عبد الله بن عمر قال: سئل رسول الله ﷺ وأنا أسمع عن ليلة القدر فقال: «هي في كل رمضان» [وسنده صحيح]. وقد حكي عن أبي حنيفة رحمه الله رواية أنها ترتجى في جميع شهر رمضان وهو وجه حكاه الغزالي واستغربه الرافعي جداً.

ثم قد قيل إنها في أول ليلة من شهر رمضان، يحكى هذا عن أبي رزين، وقيل إنها تقع ليلة سبع عشرة، وروى فيه أبو داود حديثاً مرفوعاً عن ابن مسعود، وروى موقوفاً عليه وعلى زيد بن أرقم وعثمان بن أبي العاص وهو قول عن الشافعي، ويحكى عن الحسن البصري ووجهوه بأنها ليلة بدر، وقيل: ليلة تسع عشرة يحكى عن علي وابن مسعود أيضاً رضي الله عنهما. وقيل: ليلة إحدى وعشرين، لحديث أبي سعيد الخدري قال: اعتكف رسول الله ﷺ في العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأوسط فاعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: الذي تطلب أمامك ثم قام رسول الله ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان فقال: «من كان اعتكف معي فليرجع فإني رأيت ليلة القدر وإني أنسيتها وإنها في العشر الأواخر في وتر وإني رأيت كأني أسجد في طين وماء». وكان سقف المسجد جريداً من النخل وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قزعة فمطرنا، فصلى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه، وفي لفظ في صبح إحدى وعشرين. أخرجاه في الصحيحين. قال الشافعي: وهذا الحديث أصح الروايات. وقيل: ليلة ثلاث وعشرين لحديث عبد الله بن أنيس في صحيح مسلم، وهو قريب السياق من رواية أبي سعيد فالله أعلم. وقيل: ليلة أربع وعشرين، روى أبو داود الطيالسي عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «ليلة القدر ليلة أربع وعشرين» رجاله ثقات. وقيل: تكون ليلة خمس وعشرين لما رواه البخاري عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان في تاسعة تبقى في سابعة تبقى في خامسة تبقى» فَسَّره كثيرون بليالي الأوتار، وهو أظهر وأشهر، وحمله آخرون على الأشفاع كما رواه مسلم عن أبي سعيد أنه حمله على ذلك والله أعلم. وقيل: إنها تكون ليلة سبع وعشرين لما رواه مسلم في صحيحه

عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ: «أنها ليلة سبع وعشرين».

روى الإمام أحمد عن زِرّ: سألت أبي بن كعب قلت: أبا المنذر إن أخاك ابن مسعود يقول: من يقم الحَولَ يُصب ليلة القدر، قال: يرحمه الله، لقد علم أنها في شهر رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين، ثم حلف. قلت: وكيف تعلمون ذلك؟ قال بالعلامة أو بالآية التي أخبرنا بها، تطلع ذلك اليوم لا شعاع لها أعني الشمس. وقد رواه مسلم عن أبي فذكره وفيه: فقال: والله الذي لا إله إلاهو إنها لفي رمضان يحلف ما يستثني، ووالله إني لأعلم أي ليلة القدر هي التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها، هي ليلة سبع وعشرين، وأمارتها أن تطلع الشمس في صبيحتها بيضاء لا شعاع لها. وفي الباب عن معاوية وابن عمر وابن عباس وغيرهم عن رسول الله ﷺ: أنها ليلة سبع وعشرين، وهو قول طائفة من السلف وهو الجَادّة من مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وهو رواية عن أبي حنيفة أيضاً وقد حكي عن بعض السلف أنه حاول استخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن من قوله: ﴿هي﴾ لأنها الكلمة السابعة و العشرون من السورة فالله أعلم.

وقيل: إنها تكون في ليلة تسع وعشرين. روى الإمام أحمد بن حنبل عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر، فقال رسول الله ﷺ: «في رمضان التمسوها في العشر الأواخر فإنها في وتر إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين أو سبع وعشرين أو تسع وعشرين أو في آخر ليلة». [حديث حسن]. وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إنها في ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى». تفرد به أحمد وإسناده لا بأس به.

وقيل إنها تكون في آخر ليلة لما تقدم من هذا الحديث آنفاً، ولما رواه الترمذي والنسائي عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: «في تسع يبقين أوسبع يبقين أو خمس يبقين أو ثلاث يبقين أو آخر ليلة» يعني التمسوا ليلة القدر وقال الترمذي: حسن صحيح.

قال الشافعي في هذه الروايات: صدرت من النبي ﷺ جواباً للسائل إذا قيل له ألتمس ليلة القدر في الليلة الفلانية؟ يقول «نعم». وإنما ليلة القدر معينة لا تنتقل. نقله الترمذي عنه بمعناه. وروي عن أبي قِلابَة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر وهذا الذي نص عليه مالك والثوري وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو ثور والمزني وأبو بكر بن خزيمة وغيرهم، وهو محكي عن الشافعي نقله القاضي عنه وهو الأشبه والله أعلم. وقد يستأنس لهذا القول بما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان، فقال رسول الله ﷺ: «أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر». وفيهما أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من

رمضان». ولفظه للبخاري.

ولهما عن ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان. وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر أخرجاه، ولمسلم عنها: كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره. وهذا معنى قولها: وشد المئزر. وقيل: المراد بذلك اعتزال النساء ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين.

وقد حكي عن مالك رحمه الله أن في جميع ليالي العشر تطلب ليلة القدر على السواء لا يترجح منها ليلة على أخرى. والمستحب الإكثار من الدعاء في جميع الأوقات، وفي شهر رمضان أكثر، وفي العشر الأخير منه ثم في أوتاره أكثر. والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء: «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني». لما رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله أرأيت إن علمت أي ليلة القدر، ما أقول فيها؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عني». وهذا لفظ الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح وأخرجه الحاكم في مستدركه وقال هذا صحيح على شرط الشيخين.

تفسير سورة البينة وهي مدنية.

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿**لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب**﴾ قال: وسماني لك ؟ قال: «نعم». فبكى أبي. ورواه البخاري.

وإنما قرأ عليه النبي ﷺ هذه السورة تثبيتاً له وزيادة لإيمانه، فإنه كما روى أحمد ومسلم وأبو داودَ والنسائي عنه، كان قد أنكر على إنسان وهو عبد الله بن مسعود قراءة شيء من القرآن على خلاف ما أقرأه رسول الله ﷺ، فرفعه إلى النبي ﷺ فاستقرأهما، وقال لكل منهما: «أصبت» قال أبي: فأخذني من الشك ولا إذ كنت في الجاهلية، فضرب رسول الله ﷺ في صدره، قال أبي: فَفِضْتُ عَرَقاً، وكأنما أنظر إلى الله فرقاً. وأخبره رسول الله ﷺ أن جبريل أتاه فقال: إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف. فقلت: أسأل الله معافاته ومغفرته. فقال: على حرفين. فلم يزل حتى قال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف». كما قدمنا ذكر هذا الحديث في أول التفسير. فلما نزلت هذه السورة وفيها ﴿**رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة. فيها كتب قيمة**﴾ قرأها عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وتثبيت وإنذار، لا قراءة تعلم واستذكار والله أعلم.

وهذا كما أن عمر بن الخطاب لما سأل رسول الله ﷺ يوم الحديبية عن تلك الأسئلة وكان فيما قال: أو لم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟، قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا» قال: لا. قال: «فإنك آتيه ومُطوِّف به». فلما رجعوا من الحديبية وأنزل الله على النبي ﷺ سورة الفتح، دعا عمر بن الخطاب فقرأها عليه وفيها قوله: ﴿**لقد صدق الله رسوله**

الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين﴾ الآية [الفتح:٢٧]، كما تقدم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾.

أما أهل الكتاب فهم: اليهود والنصارى، والمشركون: عَبَدَةُ الأوثان والنيران من العرب ومن العجم. وقال مجاهد: لم يكونوا ﴿منفكين﴾ يعني منتهين حتى يتبين لهم الحق. وكذا قال قتادة. ﴿حتى تأتيهم البينة﴾ أي هذا القرآن. ثم فسر البينة بقوله: ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة﴾ يعني محمداً ﷺ، وما يتلوه من القرآن العظيم الذي هو مكتتب في الملأ الأعلى في صحف مطهرة، كقوله: ﴿في صحف مكرمة. مرفوعة مطهرة. بأيدي سفرة. كرام بررة﴾ [عبس:١٣-١٦]. وقوله: ﴿فيها كتب قيمة﴾ قال ابن جرير: أي في الصحف المطهرة كتب من الله قيمة عادلة مستقيمة ليس فيها خطأ لأنها من عند الله عز وجل.

قال قتادة: ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة﴾ يذكر القرآن بأحسن الذكر، ويثني عليه بأحسن الثناء. وقال ابن زيد: ﴿فيها كتب قيمة﴾ مستقيمة معتدلة. وقوله: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ كقوله: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ [آل عمران:١٠٥] يعني بذلك أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا، بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبينات تفرقوا واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم، واختلفوا اختلافاً كثيراً، كما جاء في الحديث المروي من طرق: «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى اختلفوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة». قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي». [حديث صحيح مشهور كما قال: الإمام ابن تيمية وغيره].

وقوله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ كقوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ [الأنبياء:٢٥]، ولهذا قال: ﴿حنفاء﴾ أي مُتَحنفين عن الشرك إلى التوحيد. كقوله: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدو الله واجتنبوا الطاغوت﴾ [النحل:٣٦]، وقد تقدم تقرير الحنيف في سورة الأنعام [آية:١٦١] بما أغنى عن إعادته هاهنا. ﴿ويقيموا الصلاة﴾ وهي أشرف عبادات البدن، ﴿ويؤتوا الزكاة﴾ وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاويج. ﴿وذلك دين القيمة﴾ أي الملة القائمة العادلة، أو الأمة المستقيمة المعتدلة. وقد استدل كثير من الأئمة كالزهري والشافعي بهذه الآية الكريمة أن الأعمال داخلة في الإيمان، ولهذا قال: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ (٧) جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا
رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ (٨)﴾.

يخبر تعالى عن مآل الفجار، من كفرة أهل الكتاب والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسلة: أنهم يوم القيامة في نار جهنم خالدين فيها أي ماكثين لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿**أولئك هم شر البرية**﴾ أي شر الخليقة التي برأها الله وذرأها. ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بأبدانهم بأنهم خير البرية. وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة لقوله: ﴿**أولئك هم خير البرية**﴾. ثم قال تعالى: ﴿**جزاؤهم عند ربهم**﴾ أي يوم القيامة ﴿**جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً**﴾ أي بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ. ﴿**رضي الله عنهم ورضوا عنه**﴾ ومَقَامُ رِضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم ﴿**ورضوا عنه**﴾ فيما منحهم من الفضل العميم.

وقوله: ﴿**ذلك لمن خشي ربه**﴾ أي هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه، وعبده كأنه يراه، وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه.

تفسير سورة الزلزلة وهي مكية.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله سورة جامعة فأقرأه: ﴿**إذا زلزلت الأرض زلزالها**﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجلُ: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها أبداً. ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله ﷺ: «أفلح الرويجل، أفلح الرويجل». أخرجه أبو داود والنسائي [وسنده حسن].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ
رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ (٧)
وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ (٨)﴾.

قال ابن عباس: ﴿**إذا زلزلت الأرض زلزالها**﴾ أي تحركت من أسفلها. ﴿**وأخرجت الأرض أثقالها**﴾ يعني ألقت ما فيها من الموتى. قاله غير واحد من السلف، وهذه كقوله تعالى: ﴿**وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت**﴾ [الانشقاق: ٣-٤]. روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قَتَلْتُ، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قَطَعتُ رحمي ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطِعت يدي، ثم يَدَعُونه فلا يأخذون منه شيئاً». وقوله: ﴿**وقال الإنسان مالها**﴾ أي استنكر أمرها بعدما كانت قارة ساكنة ثابتة، وهو مستقر على ظهرها أي

تقلبت الحال فصارت متحركة مضطربة، قد جاءها من أمر الله ما قد أعد لها من الزلزال الذي لا محيد لها عنه، ثم ألقت ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين، وحينئذٍ استنكر الناس أمرها وتبدلت الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار.

وقوله: ﴿**يومئذٍ تحدث أخبارها**﴾ أي تحدث بما عمل العاملون على ظهرها. روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي واللفظ له عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿**يومئذ تحدث أخبارها**﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا فهذه أخبارها» ثم قال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب.

وقوله: ﴿**بأن ربك أوحى لها**﴾ قال البخاري: أوحى لها وأوحى إليها، ووحى لها ووحى إليها: واحد، وكذا قال ابن عباس: أوحى لها أي أوحى إليها، والظاهر أن هذا مُضَمَّن بمعنى أذن لها. وعن ابن عباس ﴿**يومئذ تحدث أخبارها**﴾ قال: قال لها ربها: قولي فقالت. وقال مجاهد: أوحى لها أي أمرها. وقال القُرَظي: أمرها أن تنشق عنهم. وقوله: ﴿**يومئذ يصدر الناس**﴾ أي يرجعون عن مواقف الحساب، ﴿**أشتاتاً**﴾ أي أنواعاً وأصنافاً، ما بين شقي وسعيد، مأمور به إلى الجنة، ومأمور به إلى النار. قال ابن جريج: يتصدعون أشتاتاً فلا يجتمعون آخر ما عليهم، وقال السدي: أشتاتاً: فرقاً. وقوله تعالى: ﴿**ليروا أعمالهم**﴾ أي ليجازوا بما عملوه في الدنيا من خير وشر، ولهذا قال: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾.

روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن الحمر فقال: «ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾.

وروى الإمام أحمد عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾ قال: حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها. وهكذا رواه النسائي في التفسير [ورجاله ثقات].

وفي صحيح البخاري عن عَدي مرفوعاً: «اتقوا النار ولو بِشقّ تمرة، ولو بكلمة طيبة». وفي [صحيح مسلم]: «لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط». وفي الصحيح أيضاً: «يا نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرْسَنَ شاة» يعني ظلفها. وفي الحديث الآخر: «ردوا السائل ولو بظلف مُحَرق». [رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح].

وروي عن عائشة أنها تصدقت بعنبة وقالت: كم فيها من مثقال ذرة.

روى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: لما نزلت ﴿**إذا زلزلت الأرض**

زلزالها﴾ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قاعد فبكى حين أنزلت، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر»؟ قال: يبكيني هذه السورة: فقال له رسول الله ﷺ: «لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر الله لكم لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم». [سنده حسن].

تفسير سورة العاديات وهي مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾.

يقسم تعالى بالخيل إذا أجريت في سبيله فَعَدت وضَبَحت، وهو الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو. ﴿فالموريات قدحاً﴾ يعني اصطكاك نعالها للصخر فتقدح منه النار. ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ يعني الإغارة وقت الصباح. وقوله: ﴿فأثرن به نقعاً﴾ يعني غباراً في مكان معترك الخيول. ﴿فوسطن به جمعاً﴾ أي توسطن ذلك المكان كُلّهن جُمعَ. عن عبد الله [بن مسعود]: ﴿والعاديات ضبحاً﴾ قال: الإبل. وقال علي: هي الإبل. وقال ابن عباس: هي الخيل، فبلغ علياً قول ابن عباس فقال: ما كانت لنا خيل يوم بدر. قال ابن عباس: إنما كان ذلك في سرية بعثت. [ثم] قال ابن عباس: فنزعت عن قولي ورجعت إلى الذي قال علي رضي الله عنه. وقد قال بقول علي: إنها الإبل جماعة. منهم إبراهيم وعبيد بن عمير، وقال بقول ابن عباس آخرون منهم مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة والضحاك واختاره ابن جرير. وقال ابن عباس وعطاء: ما ضبحت دابة قط إلا فرس أو كلب. وعن عطاء: سمعت ابن عباس يصف الضبح: أَحْ أُحْ. وقال أكثر هؤلاء في قوله: ﴿فالموريات قدحاً﴾ يعني بحوافرها، وقيل أسعرنَ الحرب بين رُكبانهن. قاله قتادة. وعن ابن عباس ومجاهد: ﴿فالموريات قدحاً﴾ يعني مكر الرجال. وقيل: هو إيقاد النار إذا رجعوا إلى منازلهم من الليل، وقيل: المراد بذلك نيران القبائل، وقال من فسرها بالخيل: هو إيقاد النار بالمزدلفة. وقال ابن جرير: والصواب الأول أنها الخيل حين تقدح بحوافرها.

وقوله: ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: يعني إغارة الخيل صبحاً في سبيل الله. وقال من فسرها بالإبل: هو الدفع صبحاً من المزدلفة إلى منى. وقالوا كلهم في قوله: ﴿فأثرن به نقعاً﴾ هو المكان الذي حلت فيه، أثارت به الغبار إما في حج أو غزو. وقوله: ﴿فوسطن به جمعاً﴾ عن ابن عباس وعطاء وعكرمة وقتادة والضحاك: يعني جمع الكفار من العدو، ويحتمل أن يكون فوسطن بذلك المكان جميعهن ويكون جمعاً منصوباً على الحال المؤكدة.

وقوله: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ هذا هو المقسم عليه بمعنى إنه بنعم ربه لكفور جحود.

قال ابن عباس ومجاهد والحسن وابن زيد [وغيرهم]: الكنود: الكفور. قال الحسن: هو الذي يعد المصائب وينسى نعم ربه.

وقوله: ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ قال قتادة وسفيان الثوري: وإن الله على ذلك لشهيد. ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان، قاله محمد بن كعب القرظي فيكون تقديره وإن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد، أي بلسان حاله، أي ظاهرٌ ذلك عليه في أقواله وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ [التوبة:١٧].

وقوله: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ أي وإنه لحب الخير وهو المال لشديد، وفيه مذهبان: **أحدهما**: أن المعنى وإنه لشديد المحبة للمال. **والثاني**: وإنه لحريص بخيل من محبة المال وكلاهما صحيح. ثم قال تعالى مُزهِّداً في الدنيا، ومرغباً في الآخرة، ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال، وما يستقبله الإنسان من الأهوال: ﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور﴾ أي أخرج ما فيها من الأموات، ﴿وحصل ما في الصدور﴾ قال ابن عباس وغيره: يعني أبرز وأظهر ما كانوا يسرون في نفوسهم، ﴿إن ربهم بهم يومئذٍ لخبير﴾ أي لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ومجازيهم عليه أوفر الجزاء ولا يظلم مثقال ذرة.

تفسير سورة القارعة وهي مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾.

القارعة من أسماء يوم القيامة، كالحاقة والطامة والصاخة والغاشية وغير ذلك. ثم قال معظماً أمرها ومهولاً لشأنها: ﴿وما أدراك ما القارعة﴾؟ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث﴾ أي في انتشارهم وتفرقهم، وذهابهم ومجيئهم، من حيرتهم مما هم فيه كأنهم فراش مبثوث، كما قال في الآية الأخرى: ﴿كأنهم جراد منتشر﴾ [القمر:٧]. وقوله تعالى: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ يعني قد صارت كأنها الصوف المنفوش، الذي قد شرع في الذهاب والتمزق. قال مجاهد والحسن والسدي [وغيرهم]: ﴿العهن﴾ الصوف. ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين، وما يصيرون إليه من الكرامة أو الإهانة بحسب أعمالهم، فقال: ﴿فأما من ثقلت موازينه﴾ أي رجحت حسناته على سيئاته ﴿فهو في عيشة راضية﴾ يعني في الجنة ﴿وأما من خفت موازينة﴾ أي رجحت سيئاته على حسناته.

وقوله: ﴿فأمه هاوية﴾ قيل: معناه فهو ساقط هاو بأم رأسه في نار جهنم. وعبَّر عنه بأمه يعني دماغه، روي نحو هذا عن ابن عباس وعكرمة وأبي صالح وقتادة. وقال قتادة: يهوي في النار على رأسه. وكذا قال أبو صالح يهوون في النار على رؤوسهم. وقيل: معناه فأمه التي

يرجع إليها ويصير في المعاد إليها هاوية وهي اسم من أسماء النار. قال ابن جرير: وإنما قيل للهاوية أمه لأنه لا مأوى له غيرها. وقال ابن زيد: الهاوية النار هي أمه ومأواه التي يرجع إليها ويأوي إليها، وقرأ: ﴿ومأواهم النار﴾ [آل عمران:١٥١]. قال ابن أبي حاتم وروي عن قتادة أنه قال: هي النار وهي مأواهم، ولهذا قال تعالى مفسراً للهاوية: ﴿وما أدراك ماهيه. نار حامية﴾.

وقوله: ﴿نار حامية﴾ أي حارة شديدة الحر قوية اللهب والسعير. روى مالك عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم». قالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية. فقال: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً» رواه البخاري. وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت يا رب أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنَفَسين: نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون في الشتاء من بردها وأشد ما تجدون في الصيف من حرها».

تفسير سورة التكاثر وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

يقول تعالى: شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر وصرتم من أهلها.

قال الحسن البصري ﴿ألهاكم التكاثر﴾ في الأموال والأولاد، وفي صحيح البخاري في الرقاق منه عن أبي بن كعب قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت ﴿ألهاكم التكاثر﴾ يعني «لو كان لابن آدم واد من ذهب». [لتمنى ثانيا]. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن الشخير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «﴿ألهاكم التكاثر﴾ يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت». ورواه مسلم.

وروى البخاري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله».

وقال قتادة: ﴿ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر﴾ كانوا يقولون: نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعَدُّ من بني فلان، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم. والصحيح أن المراد بقوله: زرتم المقابر أي صرتم إليها ودفنتم فيها، كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده فقال: «لابأس طهور إن شاء الله» فقال: قلت طهور بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تُزيره القبور،

قال: «فنعم إذاً». [رواه البخاري].

وروى ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران قال: كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر﴾ فلبث هنيهة ثم قال: يا ميمون ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله.

وقوله: ﴿كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون﴾ قال الحسن البصري: هذا وعيد بعد وعيد. وقال الضحاك: ﴿كلا سوف تعلمون﴾ يعني الكفار ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾ يعني أيها المؤمنون، وقوله: ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين﴾ أي لو علمتم حق العلم، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة، حتى صرتم إلى المقابر. ثم قال: ﴿لترون الجحيم. ثم لترونها عين اليقين﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم، وهو قوله: ﴿كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون﴾ توعَّدَهم بهذا الحال، وهي رؤية النار التي إذا زفرت زفرة واحدة خَرَّ كل ملك مقرب، ونبي مرسل على ركبتيه، من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال. وقوله: ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ أي ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته.

وروى الإمام أحمد عن محمود بن الربيع قال: لما نزلت ﴿ألهاكم التكاثر﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ قالوا: يا رسول الله عن أي نعيم نُسأل؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر، وسيوفنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم نسأل؟ قال: «أما إن ذلك سيكون». [سنده حسن].

وقال سعيد بن جبير: حتى عن شربة عسل. وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا. وقال الحسن البصري: نعيم الغداء والعشاء. وقال أبو قلابة. من النعيم أكل السمن والعسل بالخبز النقي. وقول مجاهد أشمل هذه الأقوال. وقال ابن عباس: النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار يسأل الله العباد فيما استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم وهو قوله تعالى: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

وثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». ومعنى هذا أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون.

تفسير سورة العصر وهي مكية.

وقال الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾.

العصر: الزمان الذي يقع فيه حَركاتُ بني آدم من خير وشر. وقال زيد بن أسلم: هو

العَشي، والمشهور الأول. فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر أي في خسارة وهلاك، ﴿**إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، ﴿**وتواصوا بالحق**﴾ وهو أداء الطاعات، وترك المحرمات ﴿**وتواصوا بالصبر**﴾ أي على المصائب والأقدار، وأذى من يُؤذِي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر.

تفسير سورة الهمزة وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾.

الهماز بالقول، واللماز بالفعل. يعني: يزدري الناس وينتقص بهم، وقد تقدم بيان ذلك في قوله تعالى: ﴿**هماز مشاء بنميم**﴾ [القلم:١١]. قال ابن عباس: همزة لمزة، طعان معياب. وقال الربيع بن أنس: الهمزة يهمزه في وجهه، واللمزة من خلفه. وقال قتادة: يهمزه ويلمزه بلسانه وعينه، ويأكل لحوم الناس ويطعن عليهم. وقال مجاهد: الهمزة: باليد والعين، واللمزةُ: باللسان وهكذا قال ابن زيد. وقال زيد بن أسلم: هُمَزة لحوم الناس. ثم قال بعضهم: المراد بذلك الأخنس بن شَرِيق. وقيل غيره وقال مجاهد: هي عامة. وقوله: ﴿**الذي جمع مالاً وعدده**﴾ أي جمعه بعضه على بعض، وأحصى عدده كقوله: ﴿**وجمع فأوعى**﴾ [المعارج:١٨]. قاله السدي وابن جرير. وقال محمد بن كعب: ألهاه ماله بالنهار هذا إلى هذا فإذا كان الليل نام كأنه جيفة.

وقوله: ﴿**يحسب أن ماله أخلده**﴾ أي يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار؟ ﴿**كلا**﴾ أي ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب. ثم قال تعالى: ﴿**لينبذن في الحطمة**﴾ أي ليلقين هذا الذي جمع مالاً فعدده في الحطمة وهي اسم من أسماء النار صفة لأنها تحطم من فيها، ولهذا قال: ﴿**وما أدراك ما الحطمة. نار الله الموقدة. التي تطلع على الأفئدة**﴾ قال ثابت البناني: تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء، ثم يقول لقد بلغ منهم العذاب، ثم يبكي. قال محمد بن كعب: تأكل كل شيء من جسده حتى إذا بلغت فؤاده حَذْوَ حلقه ترجع على جسده.

وقوله: ﴿**إنها عليهم مؤصدة**﴾ أي مطبقة كما تقدم تفسيره في سورة البلد.

وقوله: ﴿**في عمد ممددة**﴾ قال عطية العوفي: عمد من حديد. وقال السدي: من نار. وقال ابن عباس: ﴿**في عمد ممددة**﴾ يعني الأبواب هي الممددة. وعن ابن عباس: أدخلهم في عَمَد فمدت عليهم بعماد، وفي أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب. وقال قتادة: كنا نحدث أنهم يعذبون بعمد في النار. واختاره ابن جرير، وقال أبو صالح ﴿**في عمد ممددة**﴾ يعني القيود الطوال.

تفسير سورة الفيل وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة، ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله وأرغم أنوفهم، وخيب سعيهم وأضل عملهم، وردهم بشر خيبة. وكانوا قوماً نصارى وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، وكان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال.

وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والتقريب، ففي قصة أصحاب الأخدود: أن ذا نواس، وكان آخر ملوك حمير وكان مشركاً وهو الذي قتل أصحاب الأخدود، وكانوا نصارى وكانوا قريباً من عشرين ألفاً فلم يفلت منهم إلا دوس ذو ثعلبان فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام، وكان نصرانياً، فكتب له إلى النجاشي ملك الحبشة لكونه أقرب إليهم، فبعث معه أميرين أرياط وأبرهة، في جيش كثيف، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار واستلبوا الملك من حمير، وهلك ذو نواس غريقاً في البحر، واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران أرياط وأبرهة، فاختلفا في أمرهما وتصاولا وتقاتلا وتصافا، فقال أحدهما للآخر: إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الجيشين بيننا، ولكن ابرز إلي وأبرز إليك، فأينا قتل الآخر استقل بعده بالملك، فأجابه إلى ذلك فتبارزا وخَلْفَ كل واحد منهما قناة، فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف فشرم أنفه وفمه وشق وجهه، وحمل عَتَوْدَة مولى أبرهة على أرياط فقتله، ورجع أبرهة جريحاً فداوى جرحه فبرأ، واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن. فكتب إليه النجاشي يلومه على ما كان منه، ويتوعده ويحلف ليطأن بلاده ويجزن ناصيته، فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانعه، وبعث مع رسوله بهدايا وتحف وبجراب فيه من تراب اليمن، وجز ناصيته، فأرسلها معه ويقول في كتابه: ليطأ الملك على هذا الجراب فيبر قسمه، وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه ورضي عنه وأقره على عمله، وأرسل أبرهة يقول للنجاشي إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبْنَ قبلها مثلها، فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء رفيعة البناء، مزخرفة الأرجاء. سمتها العرب القُلَّيس، لارتفاعها لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها، وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها كما يُحَج إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً حتى قصدها بعضهم، وتوصل إلى أن دخلها ليلاً. فأحدث فيها وكرَّ راجعاً. فلما رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمره إلى ملكهم أبرهة، وقالوا له:

إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذي ضاهيت هذا به، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة وليخربنه حجراً حجراً.

وذكر مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها ناراً وكان يوماً فيه هواء شديد، فاحترقت وسقطت إلى الأرض. فتأهب أبرهة لذلك وسار في جيش كثيف، لئلا يصده أحد عنه، واستصحب معه فيلاً عظيماً لم يرَ مثله، يقال له: محمود، وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك، ويقال كان معه أيضاً ثمانية أفيال، وقيل اثنا عشر فيلاً غيره فالله أعلم. يعني ليهدم به الكعبة بأن يجعل السلاسل في الأركان وتوضع في عنق الفيل ثم يزجر ليلقي الحائط جملة واحدة، فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً ورأوا أن حقاً عليهم المحاجبة دون البيت، ورد من أراده بكيد، فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له «ذو نفر» فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله، وما يريده من هدمه وخرابه، فأجابوه وقاتلوا أبرهة، فهزمهم لما يريده الله عز وجل من كرامة البيت وتعظيمه وأسر ذو نفر، فاستصحبه معه ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم، عَرَض له نفيل بن حبيب الخَثعمي في قومه: شهران وناهس فقاتلوه، فهزمهم أبرهة، وأسر نُفَيل بن حبيب فأراد قتله ثم عفا عنه، واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز. فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم الذي عندهم الذي يسمونه اللات، فأكرمهم وبعثوا معه «أبا رغال» دليلاً. فلما انتهى أبرهة إلى المغمس وهو قريب من مكة نزل به. وأغار جيشه على سَرْح أهل مكة من الإبل وغيرها فأخذوه، وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب، وكان الذي أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة، وكان يقال له «الأسود بن مفصود» فهجاه بعض العرب فيما ذكره ابن إسحاق، وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة، وأمره أن يأتيه بأشرف قريش وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تَصُدوه عن البيت، فجاء حناطة فَدُل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخلِّ بينه وبينه فو الله ما عندنا دفع عنه. فقال له حناطة فاذهب معي إليه، فذهب معه. فلما رآه أبرهة أجله، وكان عبد المطلب رجلاً جميلاً حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريره وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال للترجمان: إن حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فقال أبرهة لترجمانه: قل له لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه. قال: ما كان ليمتنع مني. قال: أنت وذاك. ويقال إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث

أموال تهامة على أن يرجع عن البيت، فأبى عليهم، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من مَعرة الجيش. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده. قال ابن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال. فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله، وكان اسمه محموداً، وعبأ جيشه فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه، ثم أخذ بإذنه وقال: ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه فبرك الفيل. وخرج نفيل بن حبيب يَشتد حتى أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين وأدخلوا محاجن لهم في مَرَاقه فبزغوه بها ليقوم فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول. ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى مكة فبرك. وأرسل الله عليهم طيراً من البحر مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه أمثال الحمص والعَدسَ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك. وليس كلهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق، ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق، هذا ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة، وجعل نفيل يقول:

أين المفـر والإلـه الطـالب ... والأشرم المغلوب غير الغالب

قال ابن أسحاق: فلما بعث الله محمداً ﷺ كان فيما يَعُد به على قريش من نعمته عليهم وفضله ما رَدّ عنهم من أمر الحبشة، لبقاء أمرهم ومدتهم، فقال: ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول**﴾. ﴿**لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا رب هذا البيت. الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**﴾ أي لئلا يغير شيئاً من حالهم التي كانوا عليها لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه.

قال ابن هشام: الأبابيل الجماعات، ولم تتكلم العرب بواحدة. قال: وأما السجيل فأخبرني يونس النحوي وأبو عبيدة أنه عند العرب: الشديد الصلب. قال: وذكر بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة واحدة، وإنما هو سَنْج وجل يعني بالسنج: الحجر، والجِل الطين. يقول الحجارة من هذين الجنسين: الحجر والطين. قال: والعصفُ: ورق الزرع الذي لم يُقضب واحدته عصفة. انتهى ما ذكره. وقد قال عبد الله [بن مسعود]: ﴿**طيراً أبابيل**﴾ قال: الفرق. وقال ابن عباس والضحاك: أبابيل يتبع بعضها بعضاً. وقال الحسن البصري وقتادة: الأبابيل الكثيرة. وقال مجاهد: أبابيل شتى متتابعة مجتمعة. وقال ابن زيد: الأبابيل المختلفة تأتي من هھنا، ومن هھنا، أتتهم من كل مكان. وعن عبد الله بن الحارث بن

نوفل أنه قال في قوله تعالى: ﴿وأرسل عليهم طيراً ابابيل﴾ هي الأقاطيع كالإبل المؤبلة.

وعن ابن عباس: ﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل﴾ قال: لهم خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف الكلب. وعن عكرمة قال: كانت طيراً خضراً خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع. وعن عبيد بن عمير قال: هي طيور سود بحرية في مناقيرها وأظافيرها الحجارة.

وقال سعيد بن جبير: كانت طيراً خضراً لها مناقير صفر تختلف عليهم.

وعن عبيد بن عمير قال: لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف. كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار مُجزعة: حجرين في رجليه وحجراً في منقاره، قال: فجاءت حتى صفت على رؤوسهم ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها، فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره، ولا يقع على شيء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر، وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً.

وقوله: ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾ قال سعيد بن جبير: يعني التبن. وفي رواية عن سعيد: ورق الحنطة. والمأكول: القصيل يجز للدواب، وكذلك قال الحسن البصري. وعن ابن عباس: العصف: القشرة التي على الحبة كالغلاف على الحنطة. وقال ابن زيد: العصف ورق الزرع وورق البقل إذا أكلته البهائم فراثته، فصار روثاً.

والمعنى أن الله سبحانه وتعالى أهلكهم ودمرهم بكيدهم وغيظهم، لم ينالوا خيراً، وأهلك عامتهم ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح كما جرى لملكهم أبرهة فإنه انصدع صدره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء، وأخبرهم بما جرى لهم ثم مات.

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حُرمَتُها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

تفسير سورة قريش وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾.

هذه السورة مفصولة عن التي قبلها في المصحف الإمام، كتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، وإن كانت متعلقة بما قبلها. كما صرح بذلك ابن إسحاق وابن زيد، لأن المعنى عندهما حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله ﴿لإيلاف قريش﴾ أي لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين. وقيل: المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم لعظمتهم عند الناس لكونهم سكان حرم الله، فمن عرفهم احترمهم بل من سار معهم أمن بهم،

وهذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم. وأما في حال إقامتهم في البلد فكما قـال الله تعـالـى: ﴿**أو لـم يـروا أنـا جعلنـا حـرمـاً آمنـاً ويتخطـف النـاس مـن حـولهـم**﴾ [العنكبوت: ٦٧]. ولهذا قال: ﴿**لإيلاف قريش إيلافهم**﴾ بدل من الأول ومفسر له، ولهذا قال: ﴿**إيلافهم رحلة الشتاء والصيف**﴾(قال ابن جرير: الصواب أن اللام لام التعجب كأنه يقول: اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك. قال: وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان)

ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال: ﴿**فليعبدوا رب هذا البيت**﴾ أي فليوحدوه بالعبادة، كما جعل لهم حرماً آمناً وبيتاً محرماً، كما قال تعالى: ﴿**إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين**﴾ [النمل: ٩١]. وقوله: ﴿**الذي أطعمهم من جوع**﴾ أي هو ربّ البيت، وهو الذي أطعمهم من جوع ﴿**وآمنهم من خوف**﴾ أي تفضل عليهم بالأمن والرخص، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً، ولهذا من استجاب لهذا الأمر جَمَعَ الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه، كما قال تعالى: ﴿**وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون**﴾ [النحل: ١١٢-١١٣].

تفسير سورة الماعون وهي مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾.

يقول تعالى: أرأيت **يا محمد** الذي يكذب بالدين؟ وهو: المعاد والجزاء والثواب، ﴿**فذلك الذي يدع اليتيم**﴾ أي هو الذي يقهر اليتيم ويظلمه حقه ولا يطعمه ولا يحسن إليه، ﴿**ولا يحض على طعام المسكين**﴾، كما قال تعالى: ﴿**كلا بل لا تكرمون اليتيم. ولا تحاضون على طعام المسكين**﴾ [الفجر: ١٧-١٨] يعني الفقير الذي لا شيء له يقوم بأوده وكفايته. ثم قال: ﴿**فويل للمصلين. الذين هم عن صلاتهم ساهون**﴾ قال ابن عباس وغيره: يعني المنافقين الذين يصلون في العلانية ولا يصلون في السر. ولهذا قال: ﴿**للمصلين**﴾ الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها، ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية، كما قاله ابن عباس، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعاً فيخرجها عن وقتها بالكلية، كما قاله مسروق وأبو الضحى.

وقال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: ﴿**عن صلاتهم ساهون**﴾ ولم يقل في صلاتهم ساهون. وإماعن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائماً أو غالباً. وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به. وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل ذلك

كله ولكل من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية، ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم له نصيبه منها، وكمل له النفاق العملي. كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يَرْقُب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فَنَقَرَ أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً». فهذا آخر صلاة العصر التي هي الوسطى كما ثبت به النص إلى آخر وقتها، وهو وقت الكراهة، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب لم يطمئن ولا خشع فيها أيضاً، ولهذا قال: «لا يذكر الله فيها إلا قليلاً». ولعله إنما حمله على القيام إليها مراءاة الناس لا ابتغاء وجه الله، فهو إذا لم يصل بالكلية. قال تعالى: ﴿**إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً**﴾ [النساء: ١٤٢]. وقال ههنا: ﴿**الذين هم يراءون**﴾.

وقوله: ﴿**ويمنعون الماعون**﴾ أي لا أحسنوا عبادة ربهم ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما يُنْتَفَعُ به ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم. فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القُرُبات أولى وأولى، قال علي: الماعون الزكاة، وكذا روي من غير وجه عن ابن عمر، وبه يقول محمد بن الحنفية ومجاهد وعطاء والزهري والحسن وابن زيد [وغيرهم]. وقال الحسن البصري: إن صلى راءى وإن فاتته لم يأس عليها، ويمنع زكاة ماله. وفي لفظ صدقة ماله. وقال زيد بن أسلم: هم المنافقون ظهرت الصلاة فصلوها، وخفيت الزكاة فمنعوها.

وقد روى أبو داود والنسائي عن عبد الله قال: كل معروف صدقة، وكنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدلو والقدر. [وسنده حسن].

وعن ابن عباس: متاع البيت، وكذا قال مجاهد وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وغير واحد إنها العارية للأمتعة. وعن ابن عباس [أيضا] قال: لم يجىء أهلها بعد.

وقال عكرمة: رأس الماعون زكاةُ المال، وأدناه المنخل والدلو والإبرة. وهذا الذي قاله عكرمة حسن، فإنه يشمل الأقوال كلها وترجع كلها إلى شيء واحد، وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة، ولهذا قال محمد بن كعب ﴿**ويمنعون الماعون**﴾ قال: المعروف. ولهذا جاء في الحديث: «كل معروف صدقة» [رواه مسلم].

وعن الزهري: ﴿**ويمنعون الماعون**﴾ قال: بلسان قريش: المال.

تفسير سورة الكوثر وهي مدنية، وقيل: مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾.

روى مسلم عن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله. قال: «لقد أنزلت علي آنفاً سورة» فقرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر﴾.

ثم قال: «أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا الله ورسوله أعلم قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم في السماء، فَيختلجُ العبد منهم فأقول رب إنه من أمتي، فيقول إنك لا تدري ما أحدث بعدك».

وقد استدل به كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية، وكثير من الفقهاء على أن البسملة من السورة، وأنها منزلة معها.

فأما قوله تعالى: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ فقد تقدم في هذا الحديث أنه نهر في الجنة. وروى البخاري عن أنس بن مالك قال: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال: هذا الكوثر».

وروى البخاري عن أبي عبيدة عن عائشة رضي الله عنها قال: سألتها عن قوله تعالى: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ قالت: نهر عظيم أعطيه نبيكم ﷺ، شاطئاه عليه دُرّ مجوف، آنيته كعدد النجوم. ثم روى البخاري عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة قال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه.

وهذا التفسير يعم النهر وغيره، لأن الكوثر من الكثرة وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحارب بن دثار والحسن بن أبي الحسن البصري، حتى قال مجاهد: هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة. وقال عكرمة: هو النبوة والقرآن، وثواب الآخرة وقد صح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضاً، فقد روى ابن جرير عنه أنه قال: الكوثر نهر في الجنة حافتاه ذهب وفضة يجري على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل. وروى ابن جرير عن ابن عمر [مثله]. وهكذا روي عن أنس وأبي العالية ومجاهد وغير واحد من السلف أن الكوثر نهر في الجنة، وقال عطاء: هو حوض في الجنة.

وقوله تعالى: ﴿**فصل لربك وانحر**﴾ أي كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته، فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونَحْرَك، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿**قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين**﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]، قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وعكرمة والحسن: يعني بذلك نحر البُدْن ونحوها. وكذا قال قتادة والضحاك وغير واحد من السلف، وهذا بخلاف ما كان عليه المشركون من السجود لغير الله والذبح على غير اسمه كما قال تعالى: ﴿**ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق**﴾ الآية [الأنعام:١٢١]. وقيل: المراد بقوله ﴿**وانحر**﴾ وضع اليد اليمنى على اليد اليسرى تحت النحر، يروى هذا عن علي ولا يصح، وعن الشعبي مثله

وعن أبي جعفر الباقر ﴿وانحر﴾ يعني ارفع اليدين عند افتتاح الصلاة، وقيل ﴿وانحر﴾ أي واستقبل بنحرك القبلة، ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير.

وعن عطاء الخراساني: ﴿وانحر﴾ أي ارفع صلبك بعد الركوع واعتدل وأبرز نحرك يعني به الاعتدال، رواه ابن أبي حاتم وكل هذه الأقوال غريبة جداً، والصحيح القول الأول أن المراد بالنحر ذبح المناسك، ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد ثم ينحر نسكه ويقول: «من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له». فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله إني نسكت شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم. قال: «شاتك شاة لحم» قال: فإن عندي عناقاً هي أحب إليَّ من شاتين أفتجزىء عني ؟ قال: «تجزئك ولا تجزىء أحداً بعدك». [رواه البخاري].

قال أبو جعفر بن جرير: والصواب قول من قال: إن معنى ذلك فاجعل صلاتك كلها لربك خالصاً دون ما سواه من الأنداد والآلهة، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان، شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير، الذي لا كِفَاء له وخصك به، وهذا الذي قاله في غاية الحسن، وقد سبقه إلى هذا المعنى محمد بن كعب القرظي وعطاء. وقوله: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ أي إن مبغضك يا محمد ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذكْرُه، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة: نزلت في العاص بن وائل. وقال شِمْر بن عطية: نزلت في عقبة بن أبي معيط.

وقال ابن عباس أيضاً وعكرمة: نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش. وروى البزار عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المُصَنْبر المنبتر من قومه ؟ يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية فقال: أنتم خير منه، قال فنزلت: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ اسناده صحيح. وعن عطاء: نزلت في أبي لهب، وذلك حين مات ابن رسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين فقال: بُتِرَ محمد الليلة فأنزل الله في ذلك: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾.

وعن ابن عباس: نزلت في أبي جهل، وعنه: ﴿إن شانئك﴾ يعني عدوك، وهذا يعم جميع من اتصف بذلك ممن ذكر وغيرهم، وقال عكرمة: الأبتر الفرد، وقال السدي: كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا: بُتر، فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا بتر محمد، فأنزل الله ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾. وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتر الذي إذا مات انقطع ذكره، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره، وحاشا وكلا بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم المحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد.

تفسير سورة الكافرون وهي مكية.

ثبت في صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة، وبـ ﴿قل هوالله أحد﴾ في ركعتي الطواف، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر. وروى الإمام أحمد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين، قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعاً وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة، ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل هو الله أحد﴾. [رجال إسناده ثقات].

وفي الحديث أنها تعدل ربع القرآن. [حديث حسن بطرقه].

وروى الإمام أحمد عن نوفل بن معاوية أن رسول الله ﷺ قال له: «اقرأ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ ثم نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك». [حسن بما بعده]. وروى أبو القاسم الطبراني عن جبلة بن حارثة، وهو أخو زيد بن حارثة أن النبي ﷺ قال: «إذا أويت إلى فراشك فاقرأ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ حتى تمر بآخرها فإنها براءة من الشرك». [حسن بما قبله].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤
وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾.

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، فقوله: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض، ولكنَّ المواجَهين بهذا الخطاب هم كفار قريش، وقيل إنهم من جهلهم دَعَوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية فقال: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ يعني من الأصنام والأنداد ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ وهو الله وحده لا شريك له، فما ههنا بمعنى من، ثم قال: ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ أي ولا أعبد عبادتكم، أي لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه، ولهذا قال: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ أي لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم، كما قال: ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ [النجم: ٢٣]، فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لا بد له من معبود يعبده، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه، ولهذا كان كلمة الإسلام «لا إله إلا الله محمد رسول الله» أي لا معبود إلا الله ولا طريق إليه إلا ما جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله، ولهذا قال لهم الرسول ﷺ: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ كما قال تعالى: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ [القصص: ٥٥]. وقال البخاري يقال: ﴿لكم دينكم﴾ الكفر ﴿ولي دين﴾ الإسلام. ولم يقل ديني لأن الآيات بالنون فحذف الياء كما قال: ﴿فهو يهدين﴾ [الشعراء: ٨٧]. وقال غيره: لا أعبد ما تعبدون الآن ولا أجيبكم فيما بقي

من عمري ولا أنتم عابدون ما أعبد، وهم الذين قال: **﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾** [المائدة: ٦٤]. ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد كقوله: **﴿فإن مع العسر يسراً. إن مع العسر يسراً﴾** [الشرح: ٥-٦]. وحكاه بعضهم كابن الجوزي وغيره عن ابن قتيبة، فالله أعلم. فهذه ثلاثة أقوال أولها: ما ذكرناه أولاً. والثاني: ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن المراد **﴿لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾** في الماضي **﴿ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾** في المستقبل. الثالث: إن ذلك تأكيد محض. وثم قول رابع: نصره أبو العباس بن تيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله: **﴿لا أعبد ما تعبدون﴾** نفي الفعل لأنها جملة فعلية **﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾** نفي قبوله لذلك بالكلية، لأن النفي بالجملة الإسمية آكد، فكأنه نفي الفعل، وكونه قابلاً لذلك، ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً، وهو قول حسن أيضاً، والله أعلم. وقد استدل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة **﴿لكم دينكم ولي دين﴾** على أن الكفر ملة واحدة، فورث اليهود من النصارى وبالعكس. وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود، وبالعكس لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى». [رواه أحمد وأبوداود وسنده حسن].

تفسير سورة النصر وهي مدنية.

روى النسائي عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال لي ابن عباس: يا ابن عتبة، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم، **﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾** قال: صدقت. [ورواه مسلم].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾.

روى البخاري عن ابن عباس قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وَجَد في نفسه، فقال: لم يَدْخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليُريهم فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: **﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾**؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: **﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾** فذلك علامة أجلك **﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾** فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول. فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر رضي الله عنهم أجمعين من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره ونسبحه، يعني نصلي له

ونستغفره. معنى مليح صحيح. وروى البخاري عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» يتأول القرآن.

وروى الإمام أحمد عن مسروق قال: قالت عائشة كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قوله: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه». وقال: «إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره، إنه كان تواباً، فقد رأيتها ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً**﴾ ورواه مسلم.

والمراد بالفتح ههنا فتح مكة قولاً واحداً، فإن أحياء العرب كانت تَتَلَوّم بإسلامها فتح مكة، يقولون إن ظهر على قومه فهو نبي. فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تمضِ سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة. وقد روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن سلمة قال: لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ وكانت الأحياء تتلوّم بإسلامها فتح مكة، يقولون دعوه وقومه فإن ظهر عليهم فهو نبي الحديث.

تفسير سورة تبت وهي مكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾.

روى البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: «يا صباحاه». فاجتمعت إليه قريش فقال: «أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني؟ - قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟ تباً لك فأنزل الله: ﴿**تبت يدا أبي لهب وتب**﴾ إلى آخرها وفي رواية فقام ينفض يديه وهو يقول: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿**تبت يدا أبي لهب وتب**﴾. الأول دعاء عليه والثاني خبر عنه. فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله ﷺ، واسمه عبد العُزّى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عُتبة. وإنما سمي أبا لهب لإشراق وجهه، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغضة له والازدراء به والتنقص له ولدينه.

وروى محمد بن إسحاق عن ربيعة بن عباد الديلي قال: إني لمع أبي رجل شاب، أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل ووراءه رجل أحول وضيء الوجه ذو جمة، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: «يا بني فلان إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفِّذَ عن الله ما بعثني به». وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان هذا يريد منكم أن تسلُخوا اللات والعزى، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن

أقَيْش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه، فقلت لأبي: من هذا ؟ قال: عمه أبو لهب. رواه أحمد أيضاً والطبراني بهذا اللفظ [سنده حسن]. فقوله تعالى: **﴿تبت يدا أبي لهب﴾** أي خسرت وخابت، وضل عمله وسعيه، **﴿وتب﴾** أي وقد تَبَّ تحققُ خسارته وهلاكه.

وقوله: **﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾** قال ابن عباس وغيره **﴿وما كسب﴾** يعني ولده، وروي عن عائشة ومجاهد وعطاء والحسن وابن سيرين مثله.

وقوله: **﴿سيصلى ناراً ذات لهب﴾** أي ذات لهب وشرر وإحراق شديد **﴿وامرأته حمالة الحطب﴾** وكانت زوجته من سادات نساء قريش وهي أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده. فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم. ولهذا قال تعالى: **﴿حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد﴾** يعني تحمل الحطب فتلقي على زوجها ليزداد على ما هو فيه، وهي مُهَيَّأة لذلك مستعدة له. **﴿في جيدها حبل من مسد﴾** قال مجاهد وعروة: من مَسد النار، وعن مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والثوري والسدي **﴿حمالة الحطب﴾** كانت تمشي بالنميمة. وعن ابن عباس وعطية الجدلي والضحاك وابن زيد: كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ، واختاره ابن جرير. قال ابن جرير: كانت تعيرالنبي ﷺ بالفقر، وكانت تحتطب فعيرت بذلك، كذا حكاه ولم يعزه إلى أحد، والصحيح الأول والله أعلم. قال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة فقالت لأنفقنها في عداوة محمد يعني فأعقبها الله بها حبلاً في جيدها من مسد النار. وعن الشعبي قال: المسد الليف، وقال عروة بن الزبير: المسد سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً، وعن الثوري: هي قلادة من نار طولها سبعون ذراعاً. وقال مجاهد: أي طوق من حديد، ألا ترى أن العرب يسمون البكرة مسداً ؟ وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى: **﴿في جيدها حبل من مسد﴾** أي في عنقها حبل من نار جهنم ترفع به إلى شفيرها ثم ترمى إلى أسفلها، ثم كذلك دائماً. قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: **﴿سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب. في جيدها حبل من مسد﴾** فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان لم يقيض لهما أن يؤمنا ولا واحد منهما لا باطناً ولا ظاهراً، لا مسراً ولا معلناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة.

تفسير سورة الإخلاص وهي مكية.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سَرِيَّة، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «سلوه لأي شيء يصنع ذلك» فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله تعالى يحبه». وفي رواية قال ﷺ: «ما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة»؟ قال: إني أحبها. قال: «حبُك إياها أدخلك الجنة».

وروى البخاري عن أبي سعيد أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالّها، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن».

وروى أبو عيسى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احشُدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن» فحشد من حشد ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ ثم دخل فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله ﷺ: «فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن» إني لأرى هذا خبراً جاء من السماء، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال: «إني قلت سأقرأ عليكم ثلث القرآن ألا وإنها تعدل ثلث القرآن». وهكذا رواه مسلم.

وروى الإمام مالك عن عبيد بن حنين قال: سمعت أبا هريرة يقول: أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد، فقال رسول الله ﷺ: «وجبت». قلت: وما وجبت؟ قال: «الجنة». ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح غريب.

وروى عبد الله بن الإمام أحمد عن عبد الله بن خبيب قال: أصابنا عطش وظلمة فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي بنا، فخرج فأخذ بيدي فقال: «قل». فسكت. قال: «قل». قلت: ما أقول ؟ قال: «قل هو الله أحد، والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثاً، تكفيك كل يوم مرتين» ورواه أبو داود والترمذي، وقال: حسن صحيح غريب.

وروى البخاري عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس. ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾.

قال عكرمة. لما قالت اليهود نحن نعبد عُزيرَ ابن الله. وقالت النصارى: نحن نعبد المسيح ابن الله. وقالت المجوس: نحن نعبد الشمس والقمر. وقالت المشركون: نحن نعبد الأوثان. أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿قل هو الله أحد﴾ يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير، ولا نديد ولا شبيه، ولا يُطلَق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله عز وجل، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله. وقوله: ﴿الله الصمد﴾ قال ابن عباس: يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم. وقال ابن عباس [أيضا]: هو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته. وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له ليس له كفء وليس كمثله شيء سبحان الله الواحد القهار. وعن أبي وائل ﴿الصمد﴾ السيد الذي قد

انتهى سؤدده، وعن ابن مسعود مثله.

وقال زيد بن أسلم: السيد. وقال الحسن وقتادة: هو الباقي بعد خلقه. وقال الحسن أيضاً الحي القيوم الذي لا زوال له. وقال عكرمة: الذي لم يخرج منه شيء ولا يطعم. وقال الربيع بن أنس: هو الذي لم يلد ولم يولد. كأنه جعل ما بعده تفسيراً له، وهو قوله: ﴿**لم يلد ولم يولد**﴾ وهو تفسير جيد. وقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب [وغيرهم]: ﴿**الصمد**﴾: الذي لا جوف له. وقال الشعبي: هو الذي لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب. وقال عبد الله بن بريدة: ﴿**الصمد**﴾: نور يتلألأ، روى ذلك كله وحكاه ابن أبي حاتم والبيهقي والطبراني، وكذا أبو جعفر بن جرير ساق أكثر ذلك بأسانيده.

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب السنة له، بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير الصمد: وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا عز وجل، هو الذي يُصمَد إليه في الحوائج وهو الذي قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذي لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه. وقال البيهقي نحو ذلك أيضاً. وقوله: ﴿**لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد**﴾ أي ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة. قال مجاهد ﴿**ولم يكن له كفواً أحد**﴾ يعني لا صاحبة له. وهذا كما قال تعالى: ﴿**بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء**﴾ [الأنعام: ١٠١] أي: هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه تعالى وتقدس وتنزه.

وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل كذَّبني ابنُ آدمَ ولم يكن له ذلك، وشتَمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبهُ إيايَ، فقوله: لن يُعيدَني كما بدأني، وليسَ أولُ الخلق بأهوَنَ عليَّ من إعادتهِ، وأما شَتمُهُ إياي فقوله: اتَّخَذ الله ولداً. وأنا الأحدُ الصمدُ، لم ألِدْ ولم أُولَد، ولم يكُن لي كُفواً أحد».

تفسير سورتي المعوذتين وهما مدنيتان.

روى مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم يُر مثلهن قط: ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾ و ﴿**قل أعوذ برب الناس**﴾.

وروى الإمام مالك عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات وأمسح بيده عليه رجاء بركتها. ورواه البخاري ومسلم. وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما. رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾.

عن جابر قال: الفلق: الصبح. وعن ابن عباس [مثله]. وروي عن مجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وزيد بن أسلم [وغيرهم] مثل هذا. قال القرظي وابن زيد وابن جرير: وهي كقوله تعالى: ﴿فالق الإصباح﴾ [الأنعام:٩٦]. وقال ابن عباس [أيضا]: ﴿الفلق﴾: الخلق، وكذا قال الضحاك: أمر الله نبيه أن يتعوذ من الخلق كله. وقال كعب الأحبار: بيت في جهنم، إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره، وعن زيد بن علي، عن آبائه أنهم قالوا: جب في قعر جهنم عليه غطاء، فإذا كشف عنه، خرجت منه نار تصيح منه جهنم من شدة حر ما يخرج منه، وكذا روي عن عمرو بن عَبَسَةَ، والسدي وغيرهم.

وقال أبو عبد الرحمن الحبلي: ﴿الفلق﴾ من أسماء جهنم. وقال ابن جرير: والصواب القول الأول إنه فلق الصبح، وهذا هو الصحيح، وهو اختيار البخاري في صحيحه رحمه الله تعالى.

وقوله: ﴿من شر ما خلق﴾ أي من شر جميع المخلوقات، وقال ثابت البناني والحسن البصري: جهنم وإبليس وذريته مما خلق.

﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ قال مجاهد: غاسق الليلُ إذا وقبَ غُروبُ الشمس، حكاه البخاري عنه، وكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي والضحاك وخُصَيف والحسن وقتادة: إنه الليل إذا أقبل بظلامه. وقال الزهري: ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ الشمس إذا غربت. وعن عطية وقتادة: إذا وقب الليل: إذا ذهب. وعن أبي هريرة قال: كوكب، وقال ابن زيد: كانت العرب تقول: الغاسق سقوط الثريا، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها.

قال ابن جرير وقال آخرون: هو القمر. قلت: وعمدة أصحاب هذا القول ما رواه الإمام أحمد عن عائشة [قالت]: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فأراني القمر حين طلع، وقال: «تعوَّذي با لله من شر هذا الغاسق إذا وقب» ورواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننيهما، وقال الترمذي: حسن صحيح. قال أصحاب القول الأول: وهو آية الليل إذا ولج، هذا لا ينافي قولنا، لأن القمر آية الليل ولا يوجد له سلطان إلا فيه، وكذلك النجوم لا تضيء إلا بالليل فهو يرجع إلى ما قلناه والله أعلم.

وقوله: ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك: يعني السواحر، قال مجاهد: إذا رقين ونفثن في العقد. وعن طاوس قال: ما من شيء أقرب إلى الشرك من رقية الحية والمجانين. وفي الحديث أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ فقال: اشتكيت يا محمد؟ فقال: «نعم» فقال: باسم الله أرْقِيك، من كل داء يؤذيك، ومن شر كل حاسد وعين، الله يشفيك. [رواه مسلم]. ولعل هذا كان من شكواه ﷺ حين سحر، ثم عافاه الله تعالى وشفاه ورد كيد السحرة الحساد من اليهود في رؤوسهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم

وفضحهم، ولكن مع هذا لم يعاتبه رسول الله ﷺ يوماً من الدهر، بل كفى الله وشفى وعافى.

وروى البخاري في كتاب الطب من صحيحه عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن فقال: «يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيتُه فيه ؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طَبَّه؟ قال: لَبيد بن أعصم - رجل من بني زريق حليف اليهود كان منافقاً - قال: وفيم؟ قال: في مشط ومُشاطة. قال: وأين؟ قال: في جُف طَلْعَةٍ ذكر تحت رَعُوفةٍ في بئر ذَرْوان». قالت: فأتى النبي ﷺ البئر حتى استخرجه. فقال: «هذه البئر التي أريتها وكأن ماءها نُقَاعة الحنَّاء وكأن نخلها رؤوس الشياطين». قال: فاستخرج فقلت: أفلا تَنشرْتَ؟ فقال: «أما الله فقد شفاني وأكره أن أُثيرَ على أحد من الناس شراً».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل: الربوبية، والملك، والإلهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة عبيد له، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يُزَين له الفواحش ولا يألوه جهداً في الخبال. والمعصوم من عصمه الله.

وقد ثبت في الصحيح [لمسلم] أنه: «ما منكم من أحد إلا قد وُكِل به قرينه». قالوا: وأنت يا رسول الله ؟ قال: «نعم إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير»، وثبت في الصحيح عن أنس في قصة زيارة صفية للنبي ﷺ وهو معتكف، وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها، فلقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا فقال رسول الله ﷺ: «على رسلكما إنها صفية بنت حُيي». فقالا: سبحان الله يا رسول الله. فقال: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً، أو قال: شراً».

روى الإمام أحمد عن أبي تميمة عن رديف رسول الله ﷺ قال عثر بالنبي ﷺ حمارهُ، فقلت: تعس الشيطان. فقال النبي ﷺ: «لا تقل: تعس الشيطان، فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاظم، وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: باسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب». وإسناده جيد قوي، وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغُلِب، وإن لم يذكر الله تعاظم وغلب. وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا كان في المسجد، جاءه الشيطان فأبس به كما يبس الرجل بدابته، فإذا سكن له زنقه أو ألجمه». قال أبو هُريرة: وأنتم ترون ذلك، أما المزنوق فتراه مائلاً - كذا - لا يذكر الله،

وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله عز وجل. [قال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح].

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿الوسواس الخناس﴾ قال: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خَنَس، وكذا قال مجاهد وقتادة وقال المعتمر بن سليمان عن أبيه: ذُكرَ لي أن الشيطان الوسواس ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح، فإذا ذكر الله خنس. وعن ابن عباس في قوله: ﴿الوسواس﴾ قال: هو الشيطان يأمر فإذا أطيع خنس.

وقوله: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾ هل يختص هذا ببني آدم كما هو الظاهر أو يعم بني آدم والجن؟ فيه قولان، ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليباً. وقال ابن جرير: وقد استعمل فيهم (رجال من الجن) فلا بدع في إطلاق الناس عليهم.

وقوله: ﴿من الجنة والناس﴾، هل هو تفصيل لقوله: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾ ثم بينهم فقال: ﴿من الجنة والناس﴾ وهذا يقوي القول الثاني. وقيل قوله: ﴿من الجنة والناس﴾ تفسير للذي يُوسوس في صدور الناس من شياطين الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ [الأنعام: ١١٢].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني لأحدث نفسي بالشيء لأن أخر من السماء أحب إلي من أن أتكلم به قال: فقال النبي ﷺ: «الله أكبر الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة». ورواه أبو داود والنسائي [وإسناده صحيح].

الفهرس